شرح
نواقض الإسلام

تأليف
خالد بن علي المرضي الغامدي

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغامدي، خالد علي المرضي

شرح نواقض الإسلام./ خالد علي المرضي الغامدي.- الباحة، ١٤٣١هـ.

١٨٤٠ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢ - ٦٢١٠ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الشرك بالله ٢- العقيدة الإسلامية أ. العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٣١/٩٠٣٩

رقم الإيداع: ١٤٣١/٩٠٣٩

ردمك: ٢ - ٦٢١٠ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح مقدمة النواقض والخاتمة
وفيها التعريف بباب الأسماء والأحكام وضوابط التكفير

وفيه حقيقة
(الإسلام / الإيمان / النواقض/ الكفر/ الردة / النفاق / التكفير / كشف الشبهات)

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا شرح نفيس وجمع مبارك لنواقض الإسلام ومبطلات الإيمان *، كتبته لما عمّت النواقض وطمّت والأهواء أعمت ، ودُعي صراحة للكفر ، ومنع التكفير وقامت الردة وانتشرت، بينما عطل حدها وتلاشى حكمها، ومع كل ذلك قل التبيين حتى لم يعد يسمع لأهل التوحيد إلا حسا ، والحمد لله على ماقدر وقضا أولاً وآخرا.

وهذا وقد كان أصل هذه النواقض دروساً ألقيتها في جامع ابن باز بتهامة في ستين مجلسا بعد الفجر من أول شهر صفر من عام ١٤٢٣هـ ، ولما فرغها الطلاب رأيت أن أهذبها وأجعلها في كتاب جامع لها فكان هذا الذي بين يديك وقد استدركت فيه ما فاتني من المسائل ، وأضفت ما حدث في هذا العقد من النوازل والشبهات مما لا يكاد يحصى والحمد لله على إعانته وتوفيقه وأسأله تعالى أن يكون موافقا لشرعه خالصا لوجهه .

وهذا الكتاب سيكون بإذن الله تعالى وتوفيقه جامعاً في تجلية النواقض مبيناً لحقيقتها مستوفياً الكلام فيها وكاشفاً تلبيس الملبسين والمفسدين حولها، وهاتكاً لستر المبطلين، وتقرير المعتقد في هذا الكتاب على مذهب أهل السنة وسط بين إفراط الخوارج وتفريط أهل التجهم والإرجاء ، فنسأله التوفيق والسداد والقبول .

---

* مما ينبغي لمن يريد طلب علم العقيدة ودراستها التنبه لأركانها الثلاث:

الأول : علم التوحيد والعقيدة القائم على الإيمان بالله وتوحيده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وعلى الاعتقاد التام الجازم بأركان الإيمان والإسلام .

الثاني : أن يتعلم المسلم ما ينقض هذه العقيدة ويبطلها ويفسدها وهي ما تعرف بنواقض الإسلام ومبطلات الإيمان ومحبطات الأعمال والردة والكفر.

الثالث : تنزيل أحكام العقيدة وأسمائها على المعينين وتطبيقها في الواقع وهذا ما يعرف بمباحث الأسماء والأحكام ومسائل التكفير وضوابطه، وأصله داخل في الكفر بالطاغوت والولاء والبراء والمعاداة والتكفير وهو لازم صحة العقيدة .

وقد اعتنينا في شرحنا هذا بتقرير قواعد أعل السنة في كل ناقض من نواقض الإسلام وذكر التفريعات والمسائل لتضبط أصول المعتقد ، وربما تعمدت تكرار المسألة بأكثر من صيغة وفي أكثر من موضع إذا رأيت الحاجة تدعو لذلك ، كما أني ذكرت الأمثلة والتطبيقات من الواقع الذي نعيشه وتتبعت النواقض المعاصرة النازلة في زماننا *، كما التزمت بنقض الشبهات في كل ناقض ، وكشف أباطيل علماء السوء من المرجئة وغيرهم ومن الخوارج والغلاة.

المنهج في الشرح والمباحث المدخلة فيه :

إدخال التعريف بالتوحيد والعبادة في الناقض الأول .

إدخال مسائل الشفاعة والوسائط ومسائل القبور في الناقض الثاني.

الكلام عن التكفير والكفر بالطاغوت والتعريف بملة إبراهيم في الثالث .

إدخال مسائل الحكم والقوانين والتشريع في الناقض الرابع.

إدخال مسائل الجحود والاستحلال والتكذيب في الخامس البغض.

إدخال مسائل السب والعقيدة في الصحابة في الناقض السادس .

إدخال الكهانة والتنجيم في السابع السحر .

إدخال مسائل الولاء والبراء في الناقض الثامن .

إدخال توحيد المتابعة ومبحث النبوات ومسائل الإسلام في التاسع .

إدخال مباحث الانقياد وكفر تارك جنس العمل في العاشر .

فائدة : الناقض الثالث له علاقة بالناقض الثامن والناقض الرابع له علاقة بالناقض الأول الشرك والناقض التاسع .

---

* ومن هذه النواقض النازلة في عصرنا : عبادة القبور ، تشريع القوانين الوضعية ، ووضع المحاكم التجارية والعسكرية والعمالية ، الانتخابات التشريعة والدستورية ، الحصانة الدبلماسية ، التحاكم للمحاكم الطاغوتية وعلى رأسها محكمة العدل الدولية ومواثيق الأمم المتحدة ، شرك الوطنية ، اللبرالية والعلمانية ، تولي الكفار ، مظاهرة الكفار على المسلمين ، التحالف العالمي لحرب الجهاد ، الاستهزاء بالله ﷻ والنبي ﷺ والشريعة في الصحف والإعلام ، الشك في كفر المشركين والتوقف في تكفير المرتدين وتجريم تكفير الكفار واليهود والنصارى ، الاعتراف بالأديان الكافرة كاليهودية والنصرانية، التقريب بين الأديان ، حرب الدين والص عن سبيل الله ، سجن الصالحين ، منع الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، التصريح لدور الزنا والربا ، السماح بإنشاء القنوات المشككة في الدين وتدعوا للشهوات والشبهات ، احترام شعائر الكفر ، السحر ، والتنجيم والكهانة ، الإعراض عن الدين والامتناع عن العمل بالشريعة والحكم بها ، وغير ذلك كثير جدا .

وقبل الشروع في شرح النواقض قدمت ببعض المقدمات في مكانة التكفير والمسائل المتعلقة بالكفر وضوابط التكفير والمسائل المتعلقة بالردة وأحكام المرتد وأحكام النفاق والمنافقين وقواعد الأسماء والأحكام وحقيقة الإيمان ومذهب الخوارج والمرجئة ، وجعلتها كالتمهيد بين يدي النواقض.

وسيكون دوران رحى المقدمة على المقاصد التالية :
التمهيد : وفيه أهمية الموضوع وأسباب شرح النواقض .
الكتاب الأول : الأسماء والأحكام .
الكتاب الثاني : حقيقة الإسلام والشرك.
الكتاب الثالث : حقيقة الإيمان ومذهب المرجئة والخوارج والرد عليهم.
الكتاب الرابع : التعريف بالنواقض والمكفرات والنواقض المعاصرة .
الكتاب الخامس : حقيقة الكفر وتعريفه وأنواعه .
ومعه أحكام الكافر والداخل في الإسلام.
الكتاب السادس : النفاق والمنافقين .
الكتاب السابع : حكم الردة والمرتد والاستتابة .
الكتاب الثامن : مسائل التكفير وضوابطه والعذر بالجهل وقيام الحجة.
الكتاب التاسع: الشبهات المتعلقة بالتكفير والأسماء والأحكام.
الكتاب العاشر : الفرق والأديان الكافرة والمبتدعة.

أخيرا يا أخا التوحيد اعلم ما يريده ربك ﷻ منك ، فالأمر جد خطير وليس بالهوان الذي ظنه البعض حتى أنزلوا التوحيد بأحقر مكان، وليعلم من أراد نجاة نفسه ورجا لقاء ربه أن عليه دراسة مسائل التوحيد وما ينقضه وما يستوجب الجنة وما يخلد في النار بالدليل والتعليل، وإلا فوالله لن يخسر الشخص إلا نفسه علم ذلك وتيقن به أو لا ، واعلم يا مريد النجاة أنك ستسأل وتحاسب وتقف بين يدي ربك وهو سائلك عن لا إله إلا الله وماذا عملت بها وعن ماذا أجبت المرسلين. فيا ويلك إن قدمت مفلس اليدين من الدين جاهلا بالتوحيد وما بعثت به المرسلين، وأنت تعلم علم اليقين أنه ليس لك إلا روحا واحدة هي التي ستوردها السعادة أو المهانة،

ولن تحتمل غير عقيدة واحدة فاجعلها لله لتكسب رضاه وانظر في مراد ربك نظر اليقظان فيما أمرك ربك به وفتش قلبك في من توالي ومن تعادي ومن تطيع ومن تعصي فلن يحاسب أحد عنك ولن يجيب ربك عن فعالك ومعتقدك أحد سواك، واعلم أن تعلمك التوحيد وما ينقضه أول الواجبات فهو مقدم على تعلم الوضوء والصلاة وقد بدء به في أركان الإسلام فإذا كانت الصلاة لها شروط وواجبات وأركان ونواقض فاعلم أن التوحيد الذي لا يصح الدين إلا به كذلك هو الآخر له أركان ونواقض ومبطلات، ولا تلتفت إلى سرّاق الدين ومحاربي الملة والبغاة المفسدين في تزويرهم وتلاعبهم وتلبيسهم ، فهم عن دنياهم ينافحون وأنتم للجنة خاسرون وما على الرسول إلا البلاغ المبين وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وسيحكم بين عبيده بحكمه وهو أسرع الحاسبين وهو على كل شيء شهيد والحمد لله رب العالمين.

واعلموا يا أهل التوحيد أن العاقبة للمتقين وأن جند الله هم الغالبون وأوليائه هم المنصورون في الدنيا ويوم الدين فتهنوا ولا تحنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، ولينظر من كان في قلبه شك إلى التاريخ من آدم وإبليس ثم نوح وقومه ثم الرسل من بعده ، وما حل بالمحاربين لدينه من الهوان والخزي وانكبات أعدائه إلى قيام الساعة وكيف رفع أوليائه وخلد ذكرهم.

أسأل الله تعالى بمحل لا إله إلا الله من نفسه تقدس ربنا أن ينفع بهذه الرسالة أمتنا المرحومة نفعا بالغا وأن يبوئها مكانة عظيمة وأن يدحر بها أعداء الملة، وينور بها قبورنا ويبيض بها وجوهنا ويغفر ذنوبنا ويجعلها جهاداً فيه تكافؤ جهاد السيوف الغامدة عن نصرة دينه، وأن يجعلها خالصة له وحجه لنا ومنجية من غضبه وعقابه وأن يرضى بها عنا ويدخر نفعها لنا ليوم المعاد يوم القدوم عليه والوقوف بين يديه ولا يجعل لأحد فيها شرك والله حسبي ونعم الوكيل ولا حول لي ولا قوة إلا بالله.

كتبها بديار غامد بالحجاز

أبو علي المرضي

الجمعة ٣/ ٤/ ١٤٣٦هـ

نص رسالة (نواقض الإسلام)

قال الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى [(١)]:

(بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم أن من أعظم نواقض الإسلام عشرة :

---

(١) ترجمة إمام الدعوة :

هو الإمام محمد بن عبدالوهاب بن سليمان بن علي التميمي. ولد بالعيينة عام ١١١٥هـ، ورحل لمكة والمدينة والعراق والأحساء لطلب العلم وقام بالدعوة للتوحيد في نجد وقد عرض دعوته على علماء الأمصار التي درس بها فأقره الكثير وخالفه البعض في التكفير للمشركين احتضن دعوته ابن معمر التميمي أمير العيينة ثم خرج منها بعد تهديد أمير الإحساء ابن عريعر إلى الدرعية وناصر دعوته الإمام محمد بن سعود العنزي أمير الدرعية عام ١١٥٧هـ وقام بالجهاد ونصرة التوحيد وحرب الشرك وأهله حتى توفي بها عام ١٢٠٦هـ . وقد مكن الله لابن سعود وأقام له دولته حين ناصر التوحيد.

وقد ناهض الشيخ محمد كثير من الأمراء وعلماء السوء فشوهوا دعوته وحاربوه بالفكر والتأليف وباللسان والأبدان وألبوا عليه القبائل إلا أنه لم تطعهم أكثر قبائل الجزيرة بل أذعنت لدعوة الإمام فضلاً من الله وحده، وقد وصل بهم الأمر لتأليب الدولة التركية عليهم لما أفلسوا من أهل الجزيرة، فقامت بحرب هذه الدولة السنية والدعوة التوحيدية الإبراهيمية المحمدية وأرسلت العساكر المصرية والتركية حتى أسقطت الدولة عام ١٢٣٣هـ، ولكن الدعوة لم تزل قائمة لتمكنها من أبناء الجزيرة فحملوها بعقولهم وأمنوا بها بقلوبهم وقاتلوا لأجلها فبقيت الحروب بين قبائل عسير والحجاز ونجد مع المصريين والأتراك حتى أخرجهم الله أذلة صاغرين والحمد لله رب العالمين . وكان من محاسن هذه الفترة انتشار الكتب النافعة المبينة للتوحيد الكاشفة للشبهات المعرية للأباطيل والبدع . وقد حمل دعوة الإمام بعده أبناءه وأحفاده وطلابه كما حملها علماء أذعنوا وأقروا بصحة ما دعا إليه الإمام وفي مقدمهم الصنعاني والشوكاني وغيرهم .

مؤلفاته :

١- كتاب التوحيد . ٢- كشف الشبهات وهذا الكتاب هو أنفس الكتب في باب الرد على القبورية المشركة.
٣- الأصول الثلاثة . ولا ينبغي لطالب علم إلا ويدرس هذه الرسائل الثلاث ويحفظها لأنه بينت لب الدين .
٤- القواعد الأربع وهي خلاصة كشف الشبهات . ٥- نواقض الإسلام . ٦- مسائل الجاهلية التي خالف فيها الرسول ﷺ أهل الجاهلية . ٧- مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد رد به على أخيه سليمان وهي من الرسائل النفيسة . ٨- أصول الإيمان . ٩- فضل الإسلام . ١٠- الرد على الرافضة . ١١- تلقين أصول العقيدة للعامة .
١٢- رسالة في توحيد العبادة . ١٣- رسالة في الطاغوت ١٤- تفسير كلمة التوحيد . ١٥- الأصل الجامع لعبادة الله وحده . ١٦- ثلاث مسائل في التوحيد ١٧- ست مواضع من السيرة ١٨- ثمان حالات في قوله تعالى : " فلا أعبد " ١٩- مسائل من قوله تعالى : " وأن المساجد " ٢٠- فوائد من سورة الفاتحة. ورسائل أخرى، كما أن له مختصر السيرة ومختصر زاد المعاد ومختصر الإنصاف والشرح ومختصر فتح الباري وجامع الأحاديث.

الأول: الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له، والدليل :
قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ النساء: ٤٨.،
ومنه الذبح لغير الله، كمن يذبح للجن أو القباب.
الثاني : من جعل بينه وبين الله وسائط، يدعوهم، ويسألهم الشفاعة ، كفر إجماعاً.
الثالث : من لم يُكفِّر المشركين، أوشك في كفرهم، أو صحح مذهبهم ، كفر إجماعاً.
الرابع : من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه ، كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه ، فهو كافر.
الخامس : من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ، ولو عمل به ، كفر إجماعاً،
والدليل: قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ محمد: ٩.
السادس:من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه كفر ، والدليل : قوله تعالى:
﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ التوبة: ٦٥ – ٦٦.
السابع : السحر ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل:
قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ البقرة: ١٠٢.
الثامن : مظاهرة المشركين ، ومعاونتهم على المسلمين ، والدليل :
قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ المائدة: ٥١.
التاسع:من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه إتباعه ﷺ، وأنه يسعه الخروج من شريعته ، كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى ﷺ ، فهو كافر.
العاشر:الإعراض عن دين الله ، لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل :قوله تعالى:
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ السجدة: ٢٢ .
ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف، إلاّ المكره ، وكلها من أعظم ما يكون خطراً ،ومن أكثر وقوعاً .
فينبغي للمسلم أن يحذرها ، ويخاف منها على نفسه ، نعوذ بالله من موجبات غضبه ، وأليم عقابه ، وصلى الله على نبينا محمد) . الدرر السنية ١٠/ ٩١.

قول المصنف رحمه الله تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم).

مسألة: في البسملة :

والبسملة أوردها المصنف رحمه الله في بداية مصنفه اقتداء بالكتاب العزيز ، وكذلك ما حصل من رسائل الرسول ﷺ للأقوام والملوك وغير ذلك فكان يبتدئ رسائله بقوله (بسم الله الرحمن الرحيم) وكذلك سليمان عليه السلام حين كتب الرسالة فقال تعالى عنه في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ النمل: ٣٠ ، ومن أدلة الابتداء بالبسملة ما جاء في الحديث : (كل أمرٍ ذي بال لا يبتدأ ببسم الله فهو أقطع أو أبتر) وهذا الحديث في سنده مقال ولكن السنة تبقى في فعل الرسول ﷺ .

وأما معنى البسلمة في قوله (بسم الله الرحمن الرحيم) :

الباء هنا في (بسم) للابتداء، والاستعانة والتبرك ، أي أتبرك وابتدئ مستعينا .

و(اسم) هنا حذفت الهمزة منها للتخفيف، والاسم مشتق من السمو وهو العلو ، وقيل مشتق من السمة وهي العلامة والصفة ، وكلاهما صحيح في إطلاقه لله ﷻ ، فأسماء الله صفات له أي علامات وأوصاف ، وأيضاً سامية في قدرها ومكانها ، فهي لله ﷻ في قدر عال ، فصفاته عليا وأسماؤه حسنى ﷻ.

لفظ الجلالة (الله) اسم مشتق وليس بلفظ جامد وأصله مشتق من الإله على الصحيح، بعد أن حذفت الهمزة وأدغمت اللامين فصارت الله، والإله اسم فاعل بمعنى مفعول مشتق من أله إذا تأله وعبد فهو مألوه معبود وليس هو العابد سبحانه مثل ما يقال في كتاب بمعنى مكتوب وإمام وفراش وغيرها من الألفاظ التي جاءت على هذه الصيغة، والله ذو الألوهية والعبودية على خلقه كما قال ابن عباس .

(الرحمن الرحيم) اسمان لله ﷻ اشتقا من صفة الرحمة، والرحمن من الأسماء الخاصة به سبحانه بخلاف الرحيم، والصحيح في الفرق بين الرحمن والرحيم أن الرحمن من صفات اللزوم والذات وأما الرحيم فهي من صفات الأفعال التي تأتي وتذهب ليست ملازمة له عز وجل فالرحمن إذا أبلغ .

مسألة: قال بعد ذلك (اعلم أن نواقض الإسلام) أتى بالأمر هنا لوجوب معرفة هذه الأمور ولزوم إتباعها ، ومعرفة ما فيها حتى تجتنب ، والعلم تعريفه هو : إدراك الشيء على حقيقته . وأيضاً من مسائل العلم هنا أن العلم قسمان : واجب محمود ومحرم مذموم ومن العلوم الواجب تعلمها علم التوحيد .

تنويه : سيأتي الكلام عن الحمدلة في الناقض الأول .

والصلاة على النبي ﷺ في التاسع إن شاء الله تعالى .

قال بعد ذلك : (نواقض الإسلام) وهذه الجملة مشتملة على مصطلحان :

الأول : لفظ النواقض .

وفي التعريف بها مسائل عدة ستأتي في المقصد الرابع من هذه المقدمة .

الثاني : لفظة الإسلام : سنذكرها هنا

وسيأتي تفصيل الكلام عن المسائل المتعلقة بالإسلام في الناقض التاسع وبيان حقيقة الإسلام والشريعة التي يجب اتباعها وعدم الخروج عنها .

التمهيد

وفيه أهمية هذا الموضوع وأسباب شرح النواقض ومواقف الناس منها

المسألة الأولى: أهمية دراسة النواقض والتكفير وأسباب الردة وأحكام المرتد :

تأتي من أوجه كثيرة منها :

أولاً : أن التوحيد والإسلام لا يمكن ضبطه إذا لم يعرف المسلم ما ينقضه ويبطله ويفسده . قال الملهم عمر الفاروق: لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية .

ثانياً: أن مسألة تكفير المرتدين والبراءة منهم ونفي انتسابهم للمسلمين أمر من أوجب الواجبات، بل ولا يسع الموحد إلا إخراجهم من الإسلام ومعاداتهم، وأصل التكفير داخل في عموم الكفر بالطاغوت ، كما أن تكفير من كفره الله به يصان الدين ويحفظ من يد المتلاعبين ويعرف على حقيقته ، وليعلم المسلم أن تكفير المرتدين ليس باعثه الحقد والعداوة الدنيوية أو وجود الظلم أو الفساد والفواحش فهذه الأمور أصلا لا تجيز التكفير وكما أنها لو وجدت الردة بدونها لما سقط حكم التكفير وإيجابه.

ثالثاً: كثرة من لا يعرف هذه النواقض، أو ربما عرفها معرفة مجردة عن معانيها.

والأكثرون حفظوا ألفاظها لكن ضيعوا معانيها وضوابطها، ولم يعرفوا مقصود السلف من ذكرها وتبيينها، فضلا عن إنزالها تطبيقاً في واقعهم لمن قارفها، كما هو هدي الصحابة ﷺ ومن بعدهم، وقد طمست كثير من معالم الدين بسبب الجهل بأحكام الردة ومعاملة المرتد ، وظهر بسبب ذلك التضييع إما مذهب الإرجاء أو الغلو والتكفير بما ليس بمكفر والوقوع في مذهب والخوارج.

رابعاً: خطورة هذا الباب، لما يترتب عليه من أحكام لا توجد في غيره، من الموالاة والمعاداة والقتال وهدر الدم وذهاب عصمته ومن الإمامة والصلاة والإرث والنكاح والخلود في جهنم والعياذ بالله، ومع كل هذه الأحكام والآثار إلا أننا نرى تدخل أصحاب البضاعة المزجاة بالكلام في هذا الباب غلوا أو جفوا، حتى ولج هذا الباب من لا يحسن ولا يفهم أصل الأصول بل ولا يفرق بين ما هو ركن في الدين وما هو ناقض له ولا بين المانع والمبطل للعبادة وبين الشرط المصحح لها، فأتوا بالعجائب والمتناقضات في النواقض والأقوال الباطلة في مبطلات الإيمان .

وهذا هو السبب الموجب على العلماء تدريس النواقض وشرحها وتبيينها للناس، وعلى كل موحد يريد النجاة من النار أن يقوم بدراسة ما يبطل دينه ويحذره.

أسأل الله ﷻ أن يبعد النواقض عنا ويرزقنا الفقه في الدين.

خامساً: انتشار النواقض مع ما يقابلها من قلة المبينين، مما يلزم العلماء الصدق في تبيين الحق وعدم السكوت أمام هذه الضلالات الطوام والنواقض العوام.

ومن هذه الكفريات التي انتشرت في عصرنا والله المستعان:

١- الشرك في العبادة بعبادة القبور والطواف بها والذبح لها ودعاء الأموات والاستغاثة بالأولياء من الملايين، وهذا بتحريض من علماء الكلام والصوفية اللئام.

٢- الحكم بغير ما أنزل الله وتشريع الأديان الشركية وسن القوانين الوضعية والتحاكم إلى المحاكم الطاغوتية ، والتشريعات الكفرية، وتنحية الحكم بالشريعة في السياسة والاقتصاد، وهذا الشرك الذي عم بلاد الإسلام وأصبح شرك العالم اليوم.

٣- عدم البراءة من المشركين وعداوتهم وتكفيرهم وتعطل العمل بأمره تعالى في قوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ الكافرون: ١ - ٢.

واستبدال ذلك بموالاة الكفار وتولي المرتدين تحت مسميات كافرة كالإخاء والسلام والتعايش والوسطية والوطنية والإنسانية والحوار والتقريب بين الأديان.

٤- مظاهرة الكفار على أهل الإسلام من الموحدين المؤمنين والمجاهدين .

٥- بغض الدين وحرب أهله .

٦- الاستهزاء بشعائر الدين والسخرية بأهله وتسخير الإعلام لذلك.

٧- السحر والكهانة والتنجيم وفتح القنوات التي يراها الملايين للدعوة إليه.

٨- الإعراض عن الدين والتولي عن طاعة الله ﷻ وترك العمل بعبادته والامتناع عن الانقياد له كما هو حال كفر العلمانية والليبرالية وغيرهم .

حتى أصبحنا نرى هذا يولد على الإيمان بالطاغوت وعدم الكفر به، وهذا على الشرك بين قوم يعبدون غير الله ويدعون الأموات، وذا على المحاكم الوضعية ويرى الكبير والصغير ذاهب إليها أفواجاً وأسراباً، وذا على التقاضي للحكم القبلي، وذاك يولد على موالاة الكفرة ومظاهرتهم، وآخر على تعظيم المرتدين ومدح ردتهم، وهذا على سب الله ورسوله أو الاستهزاء بشعائر دين الله أو بغض أهل الدين وحربهم .

فإذا رأى الناشئ كل ذلك الكفر وجد في قلبه شك في كونها ليست بكفر فيتوقف عن التكفير بل ربما يصل إلى درجة التصحيح لأنه ولد على وجود كثير من الشركيات والكفريات وعاشرها فلا يستنكرها قلبه ولا يظنها من المكفرات وبالتالي لا يكفر أصحابها بل ويحارب من يكفرهم فهذا أمر خطير وقع فيه الأكثرون .

سادساً: أننا ابتلينا في زماننا بالمرجئة الذين جعلوا التوحيد في معزل عن الناس، وقد كانت المرجئة الجهمية في عهد السلف أعداء لدعوة التوحيد واضحي الراية زمن الإمام أحمد وبعده الإمام بن تيمية وحتى زمن مؤلف رسالة النواقض الإمام محمد بن عبدالوهاب ، إلا أنهم في عصرنا هذا نجد أولئك المرجئة في صفنا ويدعون بدعوة التوحيد، ويزعمون معاداة أهل الإرجاء والتجهم، وهم في الحقيقة من أولئك الخصوم بل ومن غلاة المرجئة الجهمية الجدد، ومن أعظم من أحيا مذهب الجهمية، حتى لقد صار همهم الصد عن التوحيد وحرب أهله الصادقين المخلصين المجاهدين ولمزوهم بالخوارج والتكفيرين والإرهابيين والفئة الضالة وغير ذلك من العبارات المنبئة عما في قلوبهم البعيدة عن الإيمان، وكل ذلك لأن أولئك المجاهدين لم يرضوا أن تدنس راية التوحيد ، وأن تنزل كلمة الله العليا التوحيد عن محلها الذي وضعها الله ﷻ فيه .

ولو تأمل المتأمل ما يحصل في عصره من نواقض قد كثرت وانتشرت، لعلم أنه لزاماً عليه معرفة ربه الله ﷻ، وملة أبيه إبراهيم ﷺ وشريعة نبيه محمد ﷺ ويتبعها ويصبح ويمسي عليها، ويتخذ أولئك السلف من إبراهيم الخليل ﷺ ومن سار على منهجه أسوة حسنة، امتثالا لأمر الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ الممتحنة: ٤.

وإذا نظر العاقل إلى واقعنا لمس صدودا عن هذا كله، وهجراً لما أوجبه الله علينا في كتابه، وتعطيلا للحكم الشرعي في أصحاب النواقض، ومحاربة أحكام الردة والمرتد وإنزالها منازلها، حتى أصبح إطلاق التكفير على أرباب الكفر من أعسر ما يلاقيه أهل التوحيد، وصار مستغربا أن يقال ارتد فلان ، وفلان مات كافرا، وتبرع الكبير والصغير بالدفاع عن المرتد وصدرت أنواع الفتاوى في محاربة تكفير من كفره الله ، ويأمر بحكم الله فيه فقرت عيون المنافقين والزنادقة مع فتاوى أئمة الإرجاء .

وكل ذلك مما يسبب انتشارها وبقائها .

المسألة الثانية : أسباب الوقوع في النواقض والأخطاء في الأحكام المتعلقة بها :

١ – الجهل بحقيقة الدين وما أمر الله به وما نهى عنه، والجهل بمعنى العبادة والتوحيد والشرك وما هو التوحيد الذي يرضاه الله والعبادة التي هي حق خالص له وحده لا شريك له، والتي من نازعه فيها وعبد غيره والتجأ إليه فإنه يصير بذلك

كافرا مشركا وخارجا عن الإسلام إلى الكفر، وأن كثيرا من العباد والعلماء لا يعرف معنى (لا إله إلا الله) ولا يعلم بماذا أرسلت به الرسل ولا يعرف شرك الأولين فصار من المشركين الجاهلين قال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ الزمر: ٦٤ ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ الأعراف: ١٣٨ .

٢- عدم التكفير وتعطيل حد الردة وترك إقامة الجهاد ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ الحج: ٤٠.

٣- أن التوحيد والكفر بالطاغوت وتكفير المرتد صارت مجرد شعار ومصطلحات في بطون الكتب وحبر على ورق وهذا أمر لا يخفى على عاقل.

بل لقد صار عند كثير من المنتسبين للإسلام التوحيد شركا وفتنة والسنة بدعة والحق باطلا والإفساد صلاحا .

٤- عدم تطبيق أحكامها والعمل بالتوحيد حتى صار مجرد فن يدرس ، ومن يدرس علما لا يطبقه لا بد أن يجهله ويفقد الخبرة فيه ويأتي بما يخالف الإجماع، وتأمل رد ابن القيم على ابن حزم في قوله بالطواف عكسا وغيره : (رحمه الله لم يحج ولو حج لما قال بذلك) ، فتأمل هذا الباب من العلم وانظر بركة العمل بالعلم، وكان السلف لا يكتبون من العلم شيئا قبل العمل به، فهذا الإمام أحمد لم يكتب حديث الحجامة في مسنده حتى تحجم، وكانوا كما قال ابن مسعود : (إذا تعلموا شيئا لا يتجاوزونه لغيره حتى يعملون به فيتعلمون العلم والعمل معا) ، ونحن في زمن عطل العمل عن العلم، يدرّس التوحيد لكن في معزل عن التطبيق والعمل وإلا لو درس فقهاء زماننا العمل لما خرجت فتاواهم المشوهة للدين والمعوقة للجهاد.

٥- الإعلام الخبيث الذي نشر الردة،ومعه التعليم الضال الذي نشر الإرجاء.

٦- ترويج كثير من الحكام لكثير منها ودفاعهم عنها، بعد وقوعهم فيها.

٧- وجود الطغاة من علماء السوء المشركين الداعين للشرك والمزينين له عند العامة كما قال ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ القصص: ٤١.

فتجد كثيراً من العلماء يقع في الشرك مع العوام، ويحسنه ويدعوا الناس إليه، ويحارب من ينكره ويتهمه بالضلال وأنه من الخوارج ، ويصنف الكتب الداعية للشرك ودعاء الأموات والدعوة لتحكيم القوانين والتصويت على الدستور وموالاة المشركين ومحاربة الموحدين، ومنهم من يهون موضوع الشرك ومنهم من يعتذر لأصحابه وينكر على من يكفرهم ويكتفي بتخطئتهم ويهتم بالأمور الفرعية

والرقائق والقصص وينهى عن تبيين مسائل التوحيد، ومنهم من يقرر طريقة المرجئة ويسير على منهجهم وأصولهم ويزعم أن الإسلام مجرد نطق الشهادتين ولا يمكن أن يكفر أهله.

قال الشيخ عبد اللطيف في علماء السوء وموالاتهم المرتدين ودفاعهم عنهم : (هل حدث الشرك في الأرض إلا برأي أمثال هؤلاء المخالفين الذي يظهرون للناس في زي العلماء وملابس الصلحاء وهم من أبعد خلق الله عما جاءت به الرسل، بل هم جند محضرون للقباب ، فقد عقدوا الهدنة والمؤاخاة بينهم وأوهموهم أنهم إذا أتوا بلفظ الشهادتين واستقبلوا القبلة لا يضرهم مع ذلك شرك ولا تعطيل وأنهم مسلمون وهم خير أمة أخرجت للناس) الرسائل ٢/ ٥١٠.

٨- المرجئة الذين أنكروا التكفير وأغلقوا باب الردة وأرجعوا كل كفر للقلب وقد مرغوا الإسلام وأهانوا دين الله وجعلوا العزة لغيرة والرفعة لأعدائه .

٩- انتشار النواقض من غير نكير حتى لامسها كثير من الناس فاستساغوها، واعتبروها من الدين ، وخرجوا من دين الله أفواجا فصارت الردة ظاهرة.

المسألة الثالثة: كثير من المسلمين قد يقع في الردة والنفاق عند ظهور الفتن وغلبة الكفار فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

يقول ابن تيمية في ذلك : (وأكثرهم إذا ابتلوا بالمحن ينقص إيمانهم وينافق أكثرهم ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو ظاهرا، وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة،وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة، وهذا ما رأيناه ولم يعد يخفى لرائي ألبته) . الإيمان ٢٨١.

المسألة الخامسة : وجوب العمل بأحكام بالظاهر في أصحاب النواقض .

قال عمر ﷺ: (إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله، وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا منكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمّنّاه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء ، الله يحاسب سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنْه ولم نُصدّقه وإن قال إن سريرته حسنة) رواه البخاري .

فمن فعل ناقضا للإسلام يجب عليك تكفيره إن بلغته الحجة.

قال البربهاري:(إذا فعل شيئاً من ذلك وجب عليك أن تخرجه من الإسلام) .

السادسة : وجوب الخوف من الوقوع في النواقض وتأمل منهج الخليل ﷺ في خوفه من الوقوع في الشرك الذي أمنه الكثير من الجهال حتى وقعوا في شراكه.

المسألة الرابعة : التلاعب بالنواقض :

لا يحصى أولئك المتلاعبين بحقيقة التوحيد ومجرديه من ثوبه والخائضين فيه بالباطل والساعين إلى ما ينقضه، حتى صيروا النواقض دينا والتوحيد شركا [(١)].

تنبيه : ستأتي مسألة الأقوال في نواقض الإسلام .

المسألة السابعة : وجوب تعلم هذه المسائل على كل مسلم ومسلمة :

يجب على كل مسلم أن يتعلم هذه النواقض حتى يحذرها ، فتعلمها حصن من الوقوع فيها عن جهل وحتى يحذر التلبس بها . فيجب تعليم الناشئة هذه المسائل على عقيدة أهل السنة قبل أن يعلموا الوضوء والصلاة .

وهذا ما أمر به نبينا ﷺ : (وليكن أول ما تدعهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أجابوك لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات..) وقال : (هذا جبريل جاءكم ليعلمكم أمور دينكم) .

---

(١) أتت طائفة إرجائية على النواقض فحولتها من كونها نواقض إلى جعلها من صلب الدين وأصل التوحيد الواجب فعله . وجاءت طائفة جهمية أخرى فنقلوها من كونها أمورا كفرية إلى جعلها مجرد أمور محرمة فحسب لا يكفر المسلم بفعلها، ومنهم من اشترط فيها الكفر القلبي ، وإليك بيان ما أفسدوه من أحكام النواقض :

الناقض الأول والثاني : الشرك : قصروه على اعتقاد الربوبية في المعبود فأبطلوا معناه .

والناقض الثالث: قصروه على تكفير الكافر الأصلي دون المرتد، بل بلغ ببعضهم إنكار تكفير المعين، حتى الأصلي.

والناقض الرابع : قصروا الكفر في الحكم والتشريع على الاستحلال .

والناقض الخامس والسادس: اشترطوا في البغض أن يشمل جميع الدين وفي السب والاستهزاء قصد الكفر وتعمده، ومع ذلك لا يكفر المبغض إلا بعد قيام الحجة وعناده بعد ذلك .

والناقض السابع: جوّزوا تعلم السحر وفك السحر بالسحر .

والناقض الثامن: جعلوا كفر المتولي للكفار ومظاهرهم على المسلمين مشروطاً ببغض دين الإسلام وحب الكفر.

والناقض التاسع : أنكروا كفر من قال لا تلزم المتابعة للرسول ﷺ .

والناقض العاشر الإعراض : أنكروه من أصله وزعموا أن تكفير المعرض وتارك العمل مذهب الخوارج.

فيمكن عند هؤلاء المتجهمة وجود من يشرك بالله ويقع في النواقض مجتمعة ولا يعبد الله ألبتة ويكون مع ذلك مسلماً ، فما هو حقيقة الإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ ، وهل هو مجرد انتساب ودعوى.

وتأمل كيف بدأ بالتوحيد في التعليم قبل الصلاة، ليحذر من قول المفسدين في دين الله أن مسائل التوحيد والكفر بالطاغوت وتبيين نواقض الإسلام لا ينبغي أن تدرس إلا مؤخرا عند نضوج العقول وفي مقابلهم من يقول أن التوحيد معروف.

قال الإمام محمد : (أن فرض معرفة شهادة أن لا إله إلا الله قبل فرض الصلاة والصوم، فيجب على العبد أن يبحث عن معنى ذلك، أعظم من وجوب بحثه عن الصلاة، وتحريم الشرك والإيمان بالطاغوت أعظم من تحريم نكاح الأمهات، فأعظم مراتب الإيمان بالله: شهادة أن لا إله إلا الله) الدرر ٢/ ١٢١.

ثم إن في العلم بها والعمل بالأحكام المترتبة على فاعلها استقامة للحياة الدينية الواجبة من الولاء والبراء والجهاد والكفر بها وتكفير أهلها ومعاداتهم ، وكل هذا داخل في الكفر بالطاغوت لذلك ابتدأ الله تعالى بالأمر بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله، وفي هذا رد على من يقول إن الله أمر بالإيمان دون التعرض لأعداء الله ، وأن الله ما كلفنا معرفة الكفر ولا تكفير أهله وهذه من الكذب على الله ، والفرية في دينه .

المسألة الثامنة : خطورة التحذير من تبيين هذه النواقض والتنبيه عليها :

كثر أولئك الذين يحذرون من ذكر النواقض وتبيينها وإنزال الأحكام المتعلقة بها على الواقع وتهويل ذلك لدى العامة بدعوى أن هذا أمر خطير وفتنة عظيمة حتى انتشر قولهم : فتنة التكفير، ولم يكتفوا بذلك حتى لمزوا أهل التوحيد وأرباب البراءة من المرتدين وجهاد المشركين بالخوارج وأهل الضلال والإفساد .

والبعض منهم يحب الدين والعلماء والجهاد وأهله حتى إذا جاء تكفير من كفره الله من المرتدين أصم أذنه وتمعر وجهه وهذا ما يعانيه الموحد في كل زمان.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن كلام بعض مخالفيه في طريقته ودعوته: (يقولون كل هذا حق نشهد أنه دين الله ورسوله إلا التكفير والقتال .. ولو يترك أهل العارض التكفير والقتال كانوا على دين الله ورسوله .. وقال: أن التوحيد الذي أظهر هذا الرجل هو دين الله ورسوله ، وأن الذي أنكره هو الشرك ، ولكن لو يسلم من التكفير والقتال كان على حق) رسائله الشخصية رقم:(٣٨/ ٢٩/ ٣).

والحقيقة أن التكفير والبراءة من المشركين من أصل الدين ومن أجل العبادات وعليه مدار الملة الإبراهيمية والشريعة المحمدية الواجب اعتقادها وظهورها على اللسان والجوارح، وانظر إن كنت موحدا إلى قول الخليل عليه السلام : ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾، وقول الخليل الخاتم ﷺ : (وكفر بما يعبد من دون الله) .

والفتنة ليست في التكفير بل الفتنة كل الفتنة في ترك هذه العبادة التي يقوم عليها الولاء والبراء والكفر بالطاغوت ، أو في الغلو فيها كما هو منهج الخوارج .

لكن التورع الكاذب بمرجئة زماننا ما زال يحملهم على مطايا إبليسية لحرب التوحيد وتكفير مخالفيه حتى بلغ التورع والنهي عن التكفير ببعض فقهاء عصرنا ليصل بهم إلى عدم تكفير أعيان اليهود والنصارى بحجة أنهم جهال وأن الحجة ما قامت عليهم، فدخل هؤلاء المساكين في الردة من حيث لا يشعرون حيث لم يعلموا أن اعتقادهم هذا كفر بحد ذاته ، ومن نواقض الإسلام المجمع عليها ، فمن لم يكفر المشركين أوشك في كفرهم أو صحح مذهبهم أنه كافر مرتد عن دين الله ﷻ .

المسألة التاسعة : تسمية الموحدين بالخوارج سنة إرجائية جهمية متبعة :

إن تسمية الطائفة المنصورة أهل التوحيد والجهاد أهل السنة بالخوارج سنة إرجائية جهمية متبعة، قد رمي بها الإمام أحمد بن حنبل والإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم والإمام محمد بن عبد الوهاب وهاهم اليوم خصومنا يسمون الموحدين بالخوارج التكفيريين ، وسيأتي كلام أهل العلم في هذا الباب.

وقفة مع تناقض جهمية زماننا في شدتهم على المؤمنين الموحدين وذلتهم ورحمتهم بالمشركين والمرتدين والمنافقين.

وقفة : إدعاء السلفية والوهابية مجرد شعار عند كثير من فقهاء ودعاة زماننا .

قال الشيخ إسحاق: (سمعنا من فريق ممن يدعي العلم والدين وممن هو بزعمه مؤتم بالشيخ محمد بن عبد الوهاب ..) تكفير المعين.

وقفة: جمع مرجئة العصر بين المذاهب المتناقضة.

وقفة: حقيقة المرجئة وبيان حالهم وكشف حالهم . وسيأتي الكلام عنهم .

مسألة: صور الإرجاء ودرجات المرجئة في عصرنا . وسيأتي الكلام عنه.

المسألة العاشرة : حكم تكفير الأعيان ومكانته :

التكفير عبادة وهو من أصل الدين، وهو ملة إبراهيم عليه السلام وهو الكفر بالطاغوت وهو داخل الولاء والبراء ، وإنكاره بالكلية مما تفردت به جهمية زماننا.

كما أنها تفردت بالحكم بإسلام المشركين وعباد القبور والمشرعين .

وهذه البدعتين حتى الجهم والأشعري لم يقولا بها .

وسيأتي ذلك مع بيان حكم التكفير وأهميته وعلاقته بالدين والرد على منكره .

المسألة الحادية عشرة : شبهة رائجة لمنكري التكفير :

رأيت لأكثر الممتنعين عن تكفير المرتدين شبهة دائمة الترداد وهي قولهم : إن الله تعالى ما كلفنا بتكفير الناس ويعنون بهم المرتدين ولن يسألنا عنهم، وقد كذبوا على الله ﷻ وجهلوا بدينه ولم يقوموا بالتوحيد ، ومن قال ذلك يعد قد وقع في الردة.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: (من قال لا أتعرض للمشركين ولا أقول فيهم شيئاً لا تظن أن ذلك يحصل لك به الدخول في الإسلام) الدرر ٢/ ١٠٩.

وكفّر من لم يكفّر المرتد أو قال ما عليّ منهم وما كلفني الله بهم، وبين أنه كذب على الله وافترى ، فقد كلّف الله كل مسلم بغض الكفار وتكفيرهم. الدرر ٢/ ١١٩.

وقال سليمان بن عبدالله : (وإن كان يقول أقول غيرهم كفار ولا أقول هم كفار .. وحينئذ يسمى الكفر إسلاما والكفار مسلمين فهو كافر) الدرر ١/ ١٠ .

وقال الشيخان عبد الله وحسين: (فمن قال لا أعادي المشركين أو عاداهم ولم يكفّرهم أو قال لا أتعرض أهل لا إله إلا الله ولو فعلوا الكفر فهذا لا يكون مسلماً والله سبحانه وتعالى أوجب معاداة المشركين ومنابذتهم وتكفيرهم) الرسائل ١/ ٣٨.

قلت تأمل كلام هؤلاء الأعلام وهم يتكلمون عن المشركين وما يجب تجاههم هل تظن أنهم يتكلمون عن كفار أصليين كاليهود والنصارى كما يفهم مرجئة زماننا البله، إنهم يتكلمون عن أهل بلاده من مرتدي الجزيرة الواقعين في عبادة القبور وناصروا الدولة العثمانية وسيأتي كلام مزيد من كلامهم .

وجه تكفيرنا للمرتدين :

أنهم فعلوا النواقض وثبت ذلك عليهم بالبينة القطعية وسمع ردتهم الكثير فلم يعد ما وقعوا فيه من كفر خافيا على ذي بصيرة .

أن ما يفعلوه من نواقض الحجة عليهم فيه قائمة ولا يعذرون فيها، وقد أتوها قصداً وعمداً بل وحاربوا من أنكرها عليهم.

مع أن كثيراً منه مما يكفر فاعله بمجرد الفعل كالشرك وحرب الدين وتعطيل الشريعة والاستهزاء بدين الله وآياته.

واعلم أن تلفظ المرتد بالشهادتين وفعل الصلاة والصدقة والدعوة للدين لا ينفعه إذا ما قارنها فعل النواقض ويدل على هذا الأصل قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ الفرقان: ٢٣ ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ الزمر: ٦٥ .

مسألة : أهمية ملة إبراهيم ﷺ وأنها لا تقوم بغير معاداة الكفار وتكفيرهم :

اعلم أيها الموحد أن ملة إبراهيم ﷺ التي هي إخلاص العبادة لله والكفر بالطواغيت وبكل معبود سواه، وتكفير الكافرين والبراءة منهم ومعاداتهم أول الواجبات فلا يصح تأخيرها فضلا عن تركها ، ولا يغرك حال الأكثرين من المنتسبين للعلم الجاهلين بحقيقة التوحيد تضييعهم أصل الأصول وجهلهم به بل وحربهم لأهله الموحدين، فأئمتهم أحبار اليهود في حربهم إمام الموحدين محمد ﷺ.

واعلم أن نبينا ﷺ لو ترك ملة أبيه إبراهيم، لأكرمه العرب وقرّبوه ولما آذوه .

ولا تظن أن ملة إبراهيم والكفر بالطاغوت تتحقق بدراسة التوحيد ومعرفة أقسامه وأنواعه ونواقضه وشرح كتاب التوحيد معرفة نظرية فحسب دون التطبيق العملي المتمثل للولاء والبراء وإعلان الكفر بالطاعوت وتكفيره ومعاداته.

مسألة: الكفر بالطاغوت :

الطاغوت هو كل ما تجوّز به الحد من متبوع أو مطاع أو معبود.

أعظم صفاته:الإضلال والإفساد وصد الناس عن الدين وادعاء صفات الله.

ومن يقول لا إله إلا الله ولا يكفر بالطاغوت فهو كافر غير مسلم، لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، فلا يصح إلا به ولا يجتمع إيمان بالله و بالطاغوت قال ﷻ: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ البقرة: ٢٥٦.

حقيقة إظهار الدين الواجب وسيأتي مع هذه المسائل في الناقض الثالث .

ومن سنة الله وجود الطواغيت والتصارع بين أهل الحق وأهل الباطل .

ولهؤلاء الطواغيت أساليب في الصد عن التوحيد وإيقاع الناس في الردة .

وقفة عزيزة : انتشار الردة وكثرة أهل النفاق في زماننا والعياذ بالله:

تكثر الردة في بعض الأزمنة، حتى يخرج الناس من دين الله أفواجاً كما قال الصحابة وقد حصل ذلك في حوادث مضت ونال زماننا منها أوفر الحظ والنصيب.

قال أبو هريرة ﷺ : (والذي نفسي بيده إن الناس ليخرجون اليوم من دين الله أفواجا ، كما دخلوا فيه أفواجا) أخرجه ابن وضاح والحاكم وغيرهم .

وأخرج ابن بطة عن حذيفة ﷺ قال: (لو اهلك الله المنافقين لاستوحشتم في الطرق ولما وجدتم من تتابعون معه وما انتصفتم من عدوكم) ، وقال الحسن نحوه. وله: (يأتي على الناس زمان لو رميت بسهم يوم الجمعة لم يصب إلا كافرا أو منافقا).

وقال البربهاري : (واحذر أهل زمانك خاصة ، وانظر من تجالس وممن تسمع ومن تصحب فإن الخلق كأنهم في ردة إلا من عصمه الله منهم .. وكفروا من حيث لا يعلمون من وجوه شتى) شرح السنة ص: ١١٦ .

وقال يحي بن معين: (ما زلت أعيد الجمعة منذ أن أظهر القول بخلق القرآن) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة . ومثله عن أبي عبيد القاسم بن سلام .

وقال ابن تيمية عن حال المسلمين زمن الفتن والمحنة وارتداد كثير منهم: (ينافق أكثرهم ومنهم من يظهر الردة، وقد رأينا ما فيه عبرة) ٧/ ٢٨١ .

وقال:(كنا على مذهب الآباء نقول في الأصلين بقول أهل البدع) ٦/ ٢٥٦ .

وقال محمد بن عبد الوهاب: (لقد طلبت العلم وأنا لا أعرف معنى لا إله إلا الله ودين الإسلام قبل هذا الخير الذي من الله به) الدرر ١٠/ ٥١ .

فاحذر ممن يحذّر من بيان هذه المسائل ويزعم أن الناس يعرفونها.

الكتاب الأول

الأسماء والأحكام

المسألة الأولى : يتكون باب الأسماء والأحكام من جانبين :

١- حقيقة الإيمان ومسائله.

٢- أحكام التكفير والردة والحكم بإسلام المعين وكفره .

المسألة الثانية : معنى الاسم والحكم :

الأسماء: جمع اسم وهو إطلاق الاسم على المعين .

كأن يقال فلان مسلم ومؤمن أو كافر أو فاسق أو مشرك أو مبتدع وعاصي وظالم ومعاند وجاحد ومكذب ومعرض وطاغوت ويهودي ونحو ذلك.

الأحكام : أن يحكم بأحكام الكفر أو أحكام الإسلام على المعين.

المسألة الثالثة : أقسام الأحكام :

الأول: الأحكام والآثار الدنيوية :

أعظمها الولاء والبراء والمعاداة والنصرة، إذا كفرنا إنسانا عاديناه وإذا لم يكن والبناه .وعصمة الدم والمال وهدرها بالسبي والقتل وحق الولاية والطاعة والإمامة العظمى والإمامة في الصلاة وأحكام المناكحة والزواج والولاية على المرأة والأطفال وفي التزويج والإرث والحقوق والشهادة والصلاة على الميت والتغسيل له والدفن في مقابر المسلمين والجهاد والهجر وأحكام الديار هذه كلها آثار تترتب على التكفير .

قال ﷺ : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله " متفق عليه.

الثاني : الأحكام الأخروية :

دخول الجنة للمؤمن والعذاب في النار وخلود الكافر فيها .

ومن الأحكام الأخروية اللعن وحبوط العمل.

المسألة الرابعة : موضوع الأسماء والأحكام :

الإيمان والإسلام والشرك والكفر والنفاق والفسق وأحكام أهلها .

ويسمى بالوعد والوعيد والأسماء والأحكام ومسألة الإيمان .

قال ابن تيمية : (اعلم أن مسائل التكفير والتفسيق هي من مسائل الأسماء والأحكام التي يتعلق بها الوعد والوعيد في الدار الآخرة، وتتعلق بها الموالاة والمعاداة والقتل والعصمة وغير ذلك في الدنيا) الفتاوى ٤٦٨ .

وقال : (اسم مسلم ويهودي ونصراني ونحو ذلك من أسماء الدين .. كل حكم علق بأسماء الدين من إسلام وإيمان وكفر وردة وتهود وتنصر إنما يثبت لمن اتصف بالصفات الموجبة لذلك) ٣٥/ ٢٢٦ .

المسألة الخامسة : تاريخ الخلاف في الأسماء والأحكام :

هي أول مسألة حصل الخلاف فيها وحدثت فيها ، وهي تكفير الفاسق صاحب الكبيرة وتسميته كافرا عند الخوارج مؤمنا عند المرجئة .

وكان سبب خلافهم أنهم ما فهموا حقيقة الإيمان .

قال ابن تيمية: (أول بدعتهم تكلمهم في مسائل الأسماء والأحكام) ٣/ ١٨٣ .

وقال:(أول مسألة فرقت بين الأمة مسألة الفاسق الملي) الاستقامة ١/ ٤٣١ .

المسألة السادسة : أمور لها علاقة بالأسماء والأحكام :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الولاء والبراء، الكفر بالطاغوت، التكفير، ملة إبراهيم، الإمامة، أحكام السيف ، والهجرة، الديار، الجهاد، الحكم بما أنـزل الله ، ومسائل متعلقة بالعذر بالجهل وقيام الحجة . مسألة : أحكام المعاهد وأهل الذمة .

المسألة السابعة : العصمة والهدر .

أولاً : عواصم الدم:

١- الإسلام للمسلم.

٢- العهد والأمان للكافر.

فلا عصمة للدم إلا بأمان أو إيمان .

ثانياً : مهدرات الدم :

الكفر ، والردة ، والقتل قصاصا ، والحرابة ، والزنا للمحصن واللواط .

الثامنة : لا تلازم بين القتل والحكم الكفر .

فقد يقتل المسلم كالمحارب ويحرم قتل الكافر كالمعاهد .

التاسعة : الفرق بين القتل والقتال .

القتل للمعين ، والقتال لمن يكون له شوكة وطائفة ممتنعة .

المسألة العاشرة : لا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر والردة .

قال : (الردة عن الإسلام بأن يصير الرجل كافرا مشركا أو كتابيا) ٤/ ٢٥٧.

المسألة الحادية عشرة : المذاهب في باب الأسماء والأحكام أقسام الناس فيه:

الأول : مذهب الخوارج الوعيدية.

الثاني : مذهب المرجئة الوعدية .

الثالث: مذهب أهل السنة وسط بينهما.

وسيأتي بيان أقوالهم .

المسألة الثانية عشرة : بعض قواعد الأسماء والأحكام :

(١) : الأسماء التي جاء بها الشرع كالإيمان والكفر والنفاق الأصل حملها على الحقيقة الشرعية ، وإذا فسرها الشرع فلا حاجة للنظر في اللغة.

(٢) : الاسم يختلف مدلوله بالإفراد والاقتران . مثل الإسلام والإيمان .

(٣) : اجتماع شعب إيمان وشعب كفر وإيمان وشرك.

(٤) : تركب الإيمان من شعب .

(٥) : تعلق الظاهر بالباطن .

(٦) : لا يقبل الإسلام إلا بإيمان يصححه والعكس.

(٧) : أسماء الذم لا تتناول إلا من كان مقيما عليها .

كما قرر ذلك ابن تيمية في منهاج السنة٨/ ٢٨٦.

(٨) : المعاصي والكبائر من شعب الكفر. ١٥/ ٢٩٤ ، ٧/ ٣٥٥. وابن القيم .

(٩) : من لم يتكلم بالشهادتين فهو كافر بالإجماع .

(١٠) : من كان جاحداً أو قائما على كفر معين فالتلفظ بالشهادة لا تكفيه .

(١١) : النطق بالشهادتين لا تنفع إلا بأمرين : العمل بها وعدم نقضها

(١٢) : يفرق بين ما يدخل به المرء في الإسلام وما يحكم له باستمراره.

(١٣) : الأسماء والأحكام مرتبطة بالظاهر والباطن في الدنيا والآخرة.

(١٤) : مسائل الأسماء والأحكام الأصل فيها أنها تجري على الظاهر.

(١٥): الحكم على الناس وعذرهم إنما هو في أحكام الدنيا والظاهر، أما حكم الآخرة والباطن والعذر فيها فالأصل أنها من خصائص الله المطلع على السرائر.

المسألة الثالثة عشرة : الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى :

فلا يمكن أن يسمى الشخص مسلما وهو لم يأت بحقيقة الإسلام أو يسمى مؤمنا أو موحدا وهو لم يحقق الإيمان والتوحيد بل واقع في الشرك أو ترك العبادة.

قال ابن تيمية : (الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى ، فاسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل ، يمتنع ثبوت معناها دون معنى المصدر التي هي مشتقة منه) الفتاوى ١٢/ ٥١٢.

الرابعة عشرة : اختلاف الأسماء والأحكام قبل الحجة الرسالية وبعدها .

قال ابن تيمية: (وقد فرق الله بين ما قبل الرسالة وما بعدها في أسماء وأحكام، وجمع بينهما في أسماء وأحكام) الفتاوى ٢٠/ ٣٧.

وقال: (اسم الشرك يثبت قبل الرسالة لأنه يشرك بربه ويعدل به) ٢٠/ ٣٨ .

المسألة الخامسة عشرة : تبعض الأسماء والأحكام .

قال ابن تيمية: (الاسم الواحد ينفى ويثبت بحسب الأحكام المتعلقة بـه فـلا يجب إذا ثبت أو نفي في حكم أن يكون كذلك في سائر الأحكام) الفتاوى ٧/ ١٦٤ .

وقال: (والكفر المعذب عليه لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة) ٢/ ٧٨.

الكتاب الثاني : حقيقة الإسلام

الإسلام :

هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

فمرد دين الإسلام على الشهادتين، التي هي عبادة الله وحده وتوحيده بذلك، والانقياد لله تعالى، والكفر بالطاغوت والبراءة من الشرك وأهله ، والإيمان بالله وبصفاته وعلوه ، والإيمان برسوله ﷺ ومحبته وطاعته والتحاكم لشرعه ومتابعته .

وقد تضمن هذه المعاني: حديث سؤال الفتان في القبر: (من ربك الذي تعبده، ومن رسولك الذي تتبعه، ومادينك الذي انقدت به).

وأيضا حديث الجارية : (أين الله ، ومن أنا) تضمن هذه المعاني.

قاعدة : أجمعت الرسل على : الدعوة للإسلام والتوحيد وعبادة الله وحده والكفر بالطاغوت واجتناب الشرك والبراءة من المشركين وتكفيرهم.

والأدلة على ذلك كثيرة منها ما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦ .

﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ الزخرف: ٤٥ .

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الزمر: ٦٥ .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦ .

والإسلام لا يسمى إسلاما إلا بالتوحيد .

والإسلام لا يسمى إسلاما إلا بالعمل والانقياد والطاعة .

والإسلام لا يسمى إسلاما إلا بالكفر بالطاغوت .

والإسلام لا يسمى إسلاما إلا بإيمان يصححه .

والإسلام لا يسمى إسلاما مع نقضه والوقوع في الشرك .

فالإسلام والشرك نقيضان .

وأسلم بمعنى وحّد ولا يسمى إسلاما دون توحيد ، قال تعالى :﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ البقرة: ١٣١ ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ آل عمران: ٢٠ .

والواقع في الشرك جهلا كافر من جهتين :

الوقوع في الشرك .

الجهل بالله وعدم العلم بحقيقة الإسلام فليس بمؤمن بشيء .

مسألة : الحنيف هو تارك الشرك عن قصد وعلم :

مجرد ترك الشرك دون الكفر به والبراءة منه ومعاداة أهله لا ينفع، ولا يكفي بمفرده في الدخول في الإسلام فلا بد من ترك الشرك قصدا .

قال ابن كثير في تفسيره : (الحنيف هو المائل عن الشرك قصدا) .

والجهل بالإسلام وكلمة التوحيد يجعلها غير نافعة لصاحبها كما سيأتي.

واعلم أن الله تعالى يريد من عباده عبادته وطاعته وأنه تعالى ما خلقهم إلا لذلك ويحب أن يحمد ويعبد من غير حاجة لذلك ومع غناه المطلق عن عبادتنا .

ولمّا خلق الخلق أمرهم بعبادته والإسلام والانقياد والذل والخضوع له.

وكل الكائنات مسلمة لله وله أسلمت وبحمده سبحت.

وفي هذا رد على مرجئة زماننا الجاهلين بحقيقة الإسلام والشرك والحاكمين بإسلام هذين النوعين من الكفار.

الأول: الكافر المشرك عابد غير الله . والثاني: الكافر المستكبر تارك عبادة الله .

أولاً :حقيقة الإسلام تقوم على أصلين :

الأول: الانقياد لله والاستسلام له بالعمل والطاعة والعبادة بما شرعه رسوله.

وهذا يرادف الإثبات في كلمة التوحيد . وهذا تفسير الإسلام إذا جاء لازما.

وتارك العبادة والعمل كافر مستكبر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠ .

الثاني: إخلاص العبادة لله وترك الشرك. وبهذا يفسر الإسلام إذا تعدى.

وهذا يرادف النفي في كلمة التوحيد والكفر بالطاغوت ، وتاركه مشرك.

وهذان الأصلان دل المعنى اللغوي للفظ أسلم عليها أيضاً.

قال الإمام الطبري في تفسيره:

(الإسلام: إخلاص العبادة والتوحيد لله وخضوع القلب والجوارح له).

وقال أيضا : (الطاعة له وإقرار الألسن والقلوب له بالعبودية والذلة وانقيادها له بالطاعة فيما أمر ونهى وتذللها له بذلك من غير استكبار عليه ولا انحراف عنه دون إشراك غيره من خلقه في العبودية والألوهية).

وفي تفسير الألوسي قال علي بن أبي طالب ﷺ : (الإسلام هو التسليم، والتسليم اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل، وأن المؤمن من يعرف إيمانه في عمله والكافر يعرف بإنكاره).

وقال أبو العالية : (الإسلام الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وسائر الفرائض لهذا تبع).

وقال قتادة : (الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء به رسوله من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياؤه لا يقبل غيره ولا يجزي إلا به).

وقال البغوي : (أسلمت وجهي: انقدت لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي وخص الوجه لأنه أكرم الجوارح للإنسان فإذا خضع خضعت الجوارح).

وقال ابن قتيبة : (الإسلام هو الدخول في السلم أي الانقياد والمتابعة).

وقال المروزي : (هو خضوع لله بالطاعة) .

وقال القرطبي : (الإسلام في الشرع الانقياد بالأفعال الظاهرة الشرعية) .

قال ابن رجب: (الإسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده لله).

قال ابن تيمية: (**الإسلام يجمع معنيين** :

أحدهما : الانقياد والاستسلام فلا يكون مستكبرا .

والثاني : إخلاص ذلك وإفراده فلا يكون مشركا) . ٧/ ٦٣٥ . والصارم .

وقال في قاعدة التوسل : (**ودين الله الذي هو الإسلام مبني على أصلين** :

الأول : أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيء .

الثاني: أن يعبد الله بما شرعه على لسان رسوله ﷺ .

وهذان هما حقيقة قولنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

فالإله هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة وتعظيما ومحبة وخوفا ورجاء وإجلالا وإكراما ، والله ﷻ له الحق لا يشاركه فيه غيره) .

وقال ابن تيمية في التدمرية: (**فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده** :

فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً .

ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته .

والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر . والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده ، فهذا دين الإسلام الذي لايقبل الله غيره). الفتاوى ٣/ ٩١ .

وقال في التدمرية: (أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة) .

وقال : (إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه) ١٠/ ٤٩.

وقال : (وحقيقة الفرق أن الإسلام دين ، والدين مصدر دان يدين إذا خضع وذل ، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دونما سواه، فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يك مسلماً ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يك مسلما ، فالإسلام في الأصل من باب العمل عمل القلب والجوارح ، وأما الإيمان فأصله تصديقٌ وإقرارٌ ومعرفةٌ فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب، والأصل فيه التصديق والعمل تابع له . فلهذا فسَّر النبي ﷺ الإيمان بإيمان القلب وبخضوعه وفسر الإِسْلَامَ بِاسْتِسْلَام مخصوصٍ هو المباني الخمس، ولهذا قال النبي ﷺ : {الإسلامُ علانيةٌ والإيمانُ في القلب} فإن الأعمال الظاهرة يراها الناس وأما ما في القلب من تصديق وحب وهيبة فهذا باطن لكن له لوازم قد تدل عليه) ٧/ ٢٦٣ .

كما أن الإيمان بالنبي لا يصح إلا بركنين تصديقه والانقياد له والتزام شرعه.

وقال ابن القيم : (والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسوله واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم وإن لم يكن كافراً معانداً فهو كافر جاهل) طريق الهجرتين ٤٤٩.

وقال ابن كثير ﴿ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ : (أمَر الله المؤمنين أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره وقال ابن عباس أدخلوا في الطاعة).

وقال محمد بن عبدالوهاب: (الإسلام : هو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك وأهله) .

وقال محمد بن عبد الوهاب : (**وأصل الإسلام وقاعدته أمران** :

الأول: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والموالاة فيه وتكفير من تركه .

الثاني: الإنذار عن الشرك في عبادة الله والمعاداة فيه وتكفير من فعله).

وقال : (التوحيد يكون على القلب بالاعتقاد وبالحب والبغض ويكون على اللسان بالنطق وترك النطق بالكفر ويكون على الجوارح بفعل أركان الإسلام وترك الأفعال التي تكفّر فإذا اختل واحدٌ من هذه الثلاث كفر وارتد) .

وقال عبدالرحمن بن حسن : (الإسلام حقيقته أن يسلم العبد بقلبه وجوارحه لله تعالى و ينقاد له بالتوحيد والطاعة كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ وإحسان العمل لابد فيه من الإخلاص ومتابعة ما شرعه الله ورسوله) .

وقال:(أصل الإسلام أن ينقاد العبد لله بالقلب والأركان مذعناً له بالتوحيد).

ثانياً : تقرير الأصلين :

كفر المشرك عابد غير الله .

وكفر المستكبر تارك عبادة الله .

والرد على مرجئة زماننا الجهمية في حكمهم بإسلام هذين الكافرين .

الأصل الأول : الإسلام والشرك نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان :

ومعنى هذه القاعدة: أن الإسلام والشرك وصفان لا بد أن يوصف العبد بأحد منهما، وإذا وصف بأحدهما انتقض الوصف الآخر وزال عنه ، فإما أن يسمى الشخص مسلما أو مشركا ، ولا يوجد هناك اسم ثالث أو اسم مشترك بينهما، فلا يمكن أن يصح أن يقال فلان مسلم مشرك في آن واحد كما لا يقال مسلم نصراني، بل نقض المشرك لأصل الإسلام أشد من نقض النصراني، لأن الشرك نقضه لحقيقة الإسلام أشد من نقض النصرانية له .

فالمشرك لا يسمّى مسلما ولو كان يدّعي الإسلام ويصلي ويزكي، وأنه ما فعل الشرك إلا عن جهل ولا يعلم أن فعله ينقض الإسلام ، إذ كيف يصح عقلا وشرعا أن يقال فلان فعل كذا وهو لم يفعله بل نقضه وإنما ظن أنه فعله ؟!

وهو كمن يظن أن الوضوء غسل اليدين فقط، فهل إذا غسل يديه يقال عنه قد توضأ ، وهل جهله بصفة الوضوء حتى ترتب على هذا الجهل عدم الوضوء في الحقيقة يصح أن نقول له أنه متوضئ لأنه جاهل بحقيقة الوضوء ويظن أن فعْله هذا وضوء ؟!

وقل مثل ذلك في كل فعل لم يأت صاحبه به جهلاً منه بحقيقته ، فلا يصح عند جميع العقلاء أن يسمى به ويوصف بأنه أتى به وفعله ، إنما يقال يعذر في عدم المؤاخذة بتركه والعقوبة عليه إن كان لم تبلغه أي حجة .

كما يقال في من توضأ ثم خرج منه الريح وهو لا يعلم أن خروج الريح ناقض للوضوء ، فهل يصح أن يقال هذا بعد خروج الريح متوضئ وباق على الوضوء لأنه توضأ ولا يعلم أن خروج الريح ينقض وضوءه ، فكذلك يجب أن يقال من أسلم أو

كان من قبل مسلماً ثم نقض إسلامه بالشرك الأكبر وعبادة غير الله لم يعد مسلماً ألبته، وجهله لا يرفع اسم الكفر عنه وإنما يرفع العقوبة.

وإن كانت هذه المسائل من الأبجديات وبدهيات العقول إلا أننا أبتلينا في زماننا بأن أكثر الناس يجهلها فلذلك دندنا حولها ، ولو اطلع علينا أحد علماء السلف ونحن نبين هذه المسائل لربما اتهمنا في عقولنا ولكن عذره أنه لم ير ما رأينا ولم يبتل بأهل السفسطة منكري الحقائق فقالوا هذا مسلم لكن يدعوا الأموات ويستغيث بالمخلوق ويحكم بغير ما أنزل الله ويعبد غير الله ويشرك به ، لكن هو مسلم غير كافر لماذا وكيف صار مسلماً وهو مشرك ؟! قالوا لأنه ينتسب للإسلام ويقول لا إله إلا الله ويصلي وهو جاهل أن فعله شرك فصار معذوراً بجهله ويقول لا إله إلا الله.

وهل يصح أن يقال في شخصٍ إنه يعبد الله وهذا الشخص يظن أن الله الذي في السماء وبيده كل شيء هو عيسى ابن مريم أو أنه علي بن أبي طالب ، ولم يقل ذلك إلا لجهله ؟ وهل لو أنكر أحد من المسلمين وجود الله تعالى جهلاً وشكاً ؟ فهل هذا يبقى مسلماً لمجرد دعواه الإسلام ونطقه بالشهادتين مع جهله أن إنكاره لوجود الله يناقض الإسلام ، بل لو أنكر ما هو دون ذلك وهو إنكار وجود النبي محمد ﷺ أو البعث لكفر فكيف بإنكار التوحيد والوقوع في الشرك .

إن من قال يمكن أن يوجد مسلم مشرك كمن يقول يمكن أن يصح إسلام جاهل يقول أنا مؤمن بالله لكن الله في ظني أنه غير موجود وإنما هو شيء وهمي لا حقيقة له، ويبقى هذا القائل (أنا مسلم مع إنكاري وجود الله) مع ذلك عند هؤلاء مسلم مؤمن بالله لأنه جاهل ويدعي الإسلام .

وهذا القول (تسمية المشرك مسلماً) سببه الجهل بالإسلام ودعوة الرسل.

فالمسلم لا يمكن أن يكون مشركاً ، والمشرك لا يمكن أن يسمى مسلماً موحداً، فالشرك يناقض ويضاد وينافي الإسلام والتوحيد، ولا بد من وجود أحدهما، وإذا وجد أحدهما انتفى الآخر، فالناس إما مسلم موحد أو كافر مشرك ولا يوجد قسم ثالث، وفي هذا التقرير رد على أناس جهلوا حقيقة الإسلام، فسموا عباد القبور والمشرعين وغيرهم من المشركين مسلمين لأنهم يدّعون الإسلام وهم جهال بحقيقته، وقولهم هذا كفر بحد ذاته، والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به .

تنبيه : اجتماع الإيمان والشرك في شخص :

قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦ .

والإيمان والشرك هنا لهما معنيان :

١- المراد بالإيمان هنا توحيد الربوبية والإيمان بكون الله خالقاً ، والشرك هو الشرك في الألوهية فلا يقبل هذا الإيمان ولا يعتبر صحيحا.

٢- الإيمان هنا هو الإيمان الشرعي المقبول والشرك المقصود به الأصغر.

والآن إليك بعض أقوال العلماء في تبيين هذا الأصل الذي قررته لك آنفا :

وأن التوحيد أصل الإسلام وكيف يكون مسلما من لم يحقق الأصل .

قال ابن تيمية : (ولهذا كان كل من لم يعبد الله فلا بد أن يكون عابدا لغيره يعبد غيره فيكون مشركا وليس في بني آدم قسم ثالث بل إما موحد أو مشرك أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل والنصارى ومن أشبههم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام) الفتاوى ١٤/ ٢٨٤ ، ٢٨٢.

ومن جعل نوعا من المشركين مسلمين كعباد القبور والمشرعين الحاكمين فيلزمه أن يحكم بإسلام جميع أنواع المشركين، ولو كان الإسلام مجرد الانتساب للإسلام والاعتراف بالله تعالى والنطق بالشهادتين ، لكان مشركو الأمم السابقة مسلمين بذلك ، كما قال ربنا ﷻ عنهم: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ ﴾ الأعراف: ٧٠ ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ ﴾ غافر: ١٢.

وقال ابن تيمية : (فإن أهل الملل متفقون على أن الرسل جميعهم نهوا عن عبادة الأصنام وكفروا من يفعل ذلك وأن المؤمن لا يكون مؤمنا حتى يتبرأ من عبادة الأصنام وكل معبود سوى الله) . الفتاوى ٢/ ١٢٨.

وهل هناك فرق بين الأصنام والقبور أليست كلها أوثانا، فالقبر المعبود وثن يعبد كما قال النبي ﷺ : (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) أخرجه مالك وأحمد .

فمن يعبد القبور ويستغيث بها فهو كافر باتفاق جميع الرسل، بل من لم يكفره فهو كافر، ولا فرق بين من دعا من دون نبينا محمد ﷺ وعلي والحسين والبدوي وعبد قبورهم وبين من دعا اللات والعزى وودا وسواعا وعبد قبورهم، فكما لا فرق بين من يزن بالحرة ومن يزن بالأمة كليهما زانٍ، فكذلك هؤلاء المشركون جميعهم عبد غير الله (القبور والأوثان) وغلا في الصالحين، فمشركو قوم نوح عبدوا ودا وإخوانه، ومشركو النصارى عبدوا عيسى وأمه، ومشركو العرب عبدوا اللات والعزى، ومشركو هذه الأمة عبدوا النبي ﷺ وعلي والأولياء والبدوي وكل قبر

عبده، ووقعوا فيما أخبر النبي ﷺ به عنهم برجوع الوثنية في أمته متمثلة في هؤلاء القبوريين.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين: (طبقة المقلدين وجهال الكفار وأتباعهم .. وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار، وإن كانوا جهالا مقلدين ، إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع أنه لا يحكم لهؤلاء بالنار، وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من المسلمين ولا الصحابة، وهذا المقلد ليس بمسلم).

وقال فيه: (والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يك كافراً معانداً فهو كافر جاهل) طريق الهجرتين ٤٤٩.

وقال: (كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل) .

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن وابنه عبد اللطيف: (من فعل الشرك فقد ترك التوحيد فإنهما ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، فمتى وجد الشرك انتفى التوحيد) الدرر ٢/ ٢٠٤، المنهاج ص٦.

قال ابن تيمية : (فعلى العبد أن يعبد الله مخلصا له الدين ، لا يسقط هذا عنه بحال ، ولا يدخل الجنة إلا أهل التوحيد، فهذا حق الله على كل عبد من عباده ، فلا ينجو من عذاب الله إلا من أخلص لله دينه وعبادته ودعاه مخلصا له الدين ، ومن لم يشرك به ولم يعبده فهو معطل عن عبادته كفرعون وأمثاله فهو أسوء حالا من المشرك فلا بد من عبادة الله وحده وهذا واجب على كل أحد فلا يسقط عن أحد ألبته وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله دينا غيره ، ولكن لا يعذب أحد حتى يبعث إليه رسولا وكما أنه لا يعذبه فلا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ولا يدخلها مشرك ولا مستكبر عن عبادة ربه ، فمن لم تبلغه الدعوة في الدنيا امتحن في الآخرة) الفتاوى ١٤/ ٤٧٧ .

وفي كلامه فوائد :

أن المشرك كافر ولا يسمى مسلما ولا يدخل الجنة ولو كان جاهلا .

أن المشرك لم يأت بالإسلام ولم يحققه فلا يصح أن يسمى مسلما .

أنه لا يجتمع إسلام مع الشرك.

أن تارك العبادة والعمل كافر معطل لله .

أن المشرك إن كان جاهلا حقا فلن يدخل النار حتى يمتحن فإن ترك الشرك دخل الجنة فلا يدخل الجنة إلا مسلم وإن أصر على الشرك فيدخل النار والجنة لا يدخلها مشرك بحال.

وهناك نقولات أخرى من كلام العلماء في هذه المسألة ذكرناها في باب كفر المشرك وعدم عذره بجهله .

الأصل الثاني : لا يمكن أن يكون هناك إسلام وتوحيد مع عدم القيام بالعبادة والعمل والطاعة ، كما لا يكون ذلك مع الشرك.

وقد خالف في هذا الأصل المرجئة فزعموا أنه يتصور تحقق أصل الإسلام من شخص وهو لم يأت بجنس العمل ولا يطيع الله وإنما يكفي ليكون مسلما مجرد أن ينتسب للإسلام ويقول (لا إله إلا الله). وأنكروا كفر الإعراض والامتناع والإباء.

وظن هؤلاء الجهال دعاة السلفية أن التوحيد هو مجرد أن تترك الشرك بأن لا تعبد مخلوقا، ولو مع ذلك لم تعبد الله بالكلية، فيكون الرجل عندهم مسلم موحد إذا لم يشرك ولو لم يعبد الله ، والصحيح أن هذا وإن لم يكن مشركا فهو كافر، لأنه وإن كان لم يخالف في النفي والكفر بالطاغوت، لكنه خالف في الإثبات والعبادة وكفر بتركها، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر:٦٠.

وقد عرف النبي ﷺ الإسلام في حديث جبريل : (الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا) رواه مسلم .

وهذا يدل على أن العبادة والعمل مقصودة للشارع ومن لم يأت بها فليس بمسلم، حتى لو ترك الشرك ، كما أن من عبد الله ولكن يشرك به لا يعد مسلما .

وهل خلقنا الله إلا لعبادته: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ الذاريات ٥٦.

وقال في التدمرية: (وعبادته تتضمن كمال الذل له والحب له وذلك يتضمن كمال طاعته) .

وقال في العبودية:(العبادة هي الغاية المحبوبة المرضية له التي خلق الخلق لها).

قال ابن تيمية في التدمرية: (فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده ، فهذا دين الإسلام الذي لايقبل الله غيره). الفتاوى ٣/ ٩١ .

وقال عن حقيقة الإسلام: (فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يك مسلماً ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يك مسلما) . الفتاوى ٧/ ٢٦٣ .

وقال : (الرجل لو أقر بما يستحقه الرب من الصفات ونزهه عن كل ما ينزه عنه وأقر بأنه وحده الخالق ، لم يكن موحدا بل ولا مؤمنا حتى يشهد : أن لا إله إلا الله ، فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له ، والإله هو بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة) موافقة العقل النقل ١/ ١٣٣ طبعة حاشية المنهاج.

وقال : (الفلاسفة إذا ادعوا التوحيد فإنما توحيدهم بالقول لا بالعبادة والعمل ، والتوحيد الذي جاءت به الرسل لابد فيه من إخلاص الدين لله وعبادته وحده ، والتوحيد الذي يدعونه هو التعطيل تعطيل حقائق الأسماء والصفات ، وفيه من الكفر ما هو أعظم أسباب الإشراك ، ولو كان معهم التوحيد بالقول وهو أن يصفوا الله بصفاته ، لكان معهم التوحيد دون العمل ، وذلك لا يكفي بل لا بد من أنه يعبد الله وحده ويتخذه إلها دون ما سواه) الفتاوى ٩/ ٣٥ ومثله في ١٨/ ٥٨.

قال ابن تيمية : (الإيمان قول وعمل ، فالإيمان يتضمن إخباره وأوامره ، فيصدق القلب أخباره تصديقا يوجب حالا في القلب ، والتصديق هو نوع من العلم والقول ، وينقاد لأوامره ويستسلم، **وهذا الانقياد والاستسلام هو نوع من الإرادة والعمل**، ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين، التصديق والانقياد، فمن ترك الانقياد كان مستكبرا فصار من الكافرين وإن كان مصدقاً " الصارم ٩٦٧ .

فالتوحيد والإسلام أمران وركنان : أن يعبد الله وأن لا يعبد غيره وناقض الأول كافر والثاني مشرك .

وفي كل هذا إبطال لما زعمه الفرقتان المتناقضة:

الأولى : القبورية المشركة الصوفية ، من إمكانية اجتماع الإسلام والشرك دعاء الأموات والحكم بالطاغوت فيكون عندهم مسلم مشرك .

الثانية المرجئة :وعندهم إمكانية اجتماع مستسلم ممتنع ، ومنقاد معرض ومطيع عاص ، وهذا تناقض .

ثالثا :حقيقة الشرك وفاعله وأنه لا يعذر المشرك بجهله .

وقد قررته في موضعه في باب كفر المشرك وعدم إعذاره ، في كتاب التكفير

رابعا:حقيقة الشرك : وقد قررته في موضعه في شرح الناقض الأول وما بعده.

الكتاب الثالث
حقيقة الإيمان ونقض عقائد المرجئة المعاصرة والخوارج الجدد

المسألة الأولى : تعريف الإيمان :

في اللغة : من الأمن والطمأنينة ، ويأتي بمعنى الإقرار وبمعنى التصديق .

وفي الشرع : اعتقاد بالقلب وقول باللسان والعمل بالجوارح .

فالإيمان حقيقته: أن تعترف وتقر بأن الله رب ومعبود وموصوف بالكمال، وتوحده في ذلك لا تشرك معه أحداً وتعبده وحده وتهابه وتعظمه وتقوم بحقه في العبادة وتصدق أخباره وتلتزم بدينه وتنقاد لرسوله وتتابعه وتحب ذلك كله معتقدا ذلك بقلبك مقرا به بلسانك منقادا لكل ذلك بجوارحك .

والإيمان إقرار وتصديق يتبعه التزام وانقياد ، ولا يسمى الإيمان إيماننا إذا أنخرم أحد الركنين فلا يعتبر به بمجرد وجود التصديق والإقرار دون الانقياد .

وليس المقصود بالأمر بالشهادتين مجرد النطق بها من غير التزام بها وانقياد لها وعمل بمقتضاها، فهذه ليست شهادة فمن شروط الشهادة الالتزام بمضمونها.

قال ابن تيمية في الواسطية : (الدين والإيمان قول وعمل ، قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح) .

وسيأتي نقل إجماع السلف وأقوالهم على أن الإيمان قول وعمل.

تنبيه : تفسير الإيمان بالإقرار أقرب لمعناه من تفسيره بالتصديق:

لأن في الإقرار إنشاء الالتزام بخلاف التصديق المجرد ، وهناك فروق بين الإيمان والتصديق سنأتي عليها ، وقد قرر هذا المعنى ابن تيمية في كتاب الإيمان .

تنبيه:أخطأت المرجئة وغيرها في تفسير الإيمان بالتصديق،وسيأتي الرد عليها.

قاعدة: إذا عرف معنى الألفاظ من جهة النبي ﷺ وفسرها فلا يحتاج للغة .

ومن هذا الباب تفسير النبي ﷺ لاسم الإيمان والإسلام.

قال ابن تيمية : (مما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث، إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك الاستدلال بأقوال أهل اللغة) الفتاوى ٧/ ٢٨٦.

وقال: (من فسر القرآن والحديث على غير المعروف عند الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله ملحد في آياته محرف لكلامه ، وهذا فتح لباب الزندقة) ١٣/ ٢٤٣.

تنبيه : الأسماء التي جاء بها الشرع كالإيمان الأصل حملها على الحقيقة الشرعية.
فائدة : من أدخل من السلف في تعريف الإيمان وأركانه السنة :
فقصدهم توحيد المتابعة وأن يعبد الله بما شرعه الرسول ﷺ وعدم الابتداع .
قاعدة : ضد الإيمان: الكفر يكون بالاعتقاد والقول والعمل .
قال ابن تيمية : (المعروف في مقابل الإيمان لفظ الكفر ، يقال هو مؤمن أو كافر ، والكفر لا يختص بالتكذيب ، بل لو قال أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم،فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط) ٧/ ٢٩٢.
مسألة : إذا قلنا إن القول والعمل ركن في الإيمان والتكلم بالتوحيد والعمل به من شرط قبوله، فهو على الأصل أن الإيمان والتوحيد قول وعمل واعتقاد، والكفر الذي هو ضده يكون بالقول والعمل وليس مجرد الاعتقاد كما تزعم المرجئة .

المسألة الثانية : حقيقة الإيمان والإسلام :
أولاً : دين الله تعالى وخطابه قسمان:
الأول : خبر ، يحتاج لتصديق ، وضده التكذيب .
الثاني : طلب ، يحتاج لطاعة والتزام وانقياد ، وضده التولي .
والكفر يكون بنقض أحد هذين الأصلين : بالتكذيب ، وبالتولي.
والأول متعلق بالعلم والقول ، والثاني متعلق بالعمل.
وبهذا يعرف أن الإيمان قسمان : قول وعمل .
والكفر يكون بالقول والعمل ، وهو قسمان : تكذيب وتولي.
ومن الأدلة على ذلك : قوله تعالى :﴿ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ الليل: ١٦.
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ طه: ٤٨.
ودائما ما يقرن التكذيب بالتولي وجعل العقوبة مختصة بوجود أحدهما.
من التكذيب الجحود والنفاق والشك والجهل.
ومن التولي : الإعراض والاستكبار والامتناع والعناد.
وقوله تعالى :﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ القيامة: ٣١-٣٢.
وجعل مقابل التصديق التكذيب وفي مقابل الطاعة والصلاة التولي .

ومن معاني التولي الإباء والامتناع والإعراض، وجاء بالصلاة لأنها أصل الأعمال وأولها وأول أركان الإسلام العملية، وترك الصلاة من كفر التولي.

وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ الأنعام: ١١٥.

صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام .

ثانياً : مدار الكفر ومرده ومرجعه لبابين :

الأول : التكذيب والجحود ، المتعلق بالقلب والتصديق.

الثاني : الامتناع والإعراض والإباء ، المتعلق بالعمل والجوارح.

قال ابن تيمية: (فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكذبٌ له أو ممتنع عن الانقياد لربه، وكلاهما كفر صريح). الصارم ص ٩٦٩.

قال:(الكفر يكون بتكذيب الرسول أو الامتناع عن متابعته) الدرء ١/ ٢٤٢.

وقال : (من قال من الفقهاء لا يكفر إلا الجحد ، فالجحد عنده متناول للتكذيب بالإيمان ومتناول للامتناع عن الإقرار والالتزام) ٢٠/ ٩٨ .

قال ابن القيم: (الكفر وإن اختلفت شعبه فيجمعه خصلتان :

تكذيب الرسول في خبره ، وعدم الانقياد لأمره). أحكام أهل الذمة.

وقال:(العذاب يستحق بسببين:

أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها.

الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها) طريق الهجرتين.

قال ابن تيمية : (الإيمان قول وعمل ، فالإيمان يتضمن أخباره وأوامره ، فيصدق القلب أخباره تصديقا يوجب حالا في القلب ، والتصديق هو نوع من العلم والقول ، وينقاد لأوامره ويستسلم، **وهذا الانقياد والاستسلام هو نوع من الإرادة والعمل**، ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين، التصديق والانقياد) الصارم ٩٦٧.

المسألة الثالثة: أركان الإيمان:

الأول: قول القلب : وهو معرفته وعلمه وتصديقه.

الثاني: عمل القلب : وهو انقياده وخضوعه وذله ومحبته وإقراره وقبوله.

الثالث: قول اللسان : وهو إقراره ونطقه بالشهادتين.

الرابع: عمل الجوارح: من انقياد وطاعة واتباع وفعل الفرائض وترك النواهي.

فعمل الجوارح ركن في الإيمان وتاركه كافر عند السلف مؤمن عند المرجئة.

وقول القلب : من قبيل الإخبار والتصديق أو التكذيب .
وعمل القلب : من قبيل الحركة والفعل فهو إنشاء القصد والالتزام والإرادة والرغبة والمحبة والخوف والرضا والقبول والانقياد . ابن تيمية ٧/ ٥٣٥.
واليقين متعلق بقول القلب وعمله، وقد بينت ذلك في كتاب شرح الشروط.
قال ابن تيمية: (اليقين يراد به علم القلب وعمله ..) ١٦/ ٣٣٧ .
قال ابن القيم في الصلاة ٤٥ :
(حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل .
والقول قسمان :
قول القلب وهو الاعتقاد ، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام .
والعمل قسمان : عمل القلب وهو نيته وإخلاصه ، وعمل الجوارح) .

الأدلة على أركان الإيمان :

أولاً : الأدلة على إيمان القلب :

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ الحجرات: ١٤.
قال تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ المجادلة: ٢٢.

ثانياً : أدلة إيمان قول اللسان :

قال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ٨٤.
قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ٥٢.
قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٣٦.
قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ العنكبوت: ٢.
قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ المائدة: ٤١.
فالإيمان متعلق بقول اللسان وبعقيدة القلب وهي الأصل.

ثالثاً : أدلة إيمان الجوارح ودخول عملها في الإيمان :

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ البقرة: ١٤٣، والإيمان في الآية المقصود به الصلاة، فسماها الله إيمانا، مما يدل على دخول الصلاة والعمل في الإيمان واسمه.
قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ النور: ٤٧ ، فشرط صحة الإيمان القيام بالعمل والطاعة .
وقال: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ الحجرات: ١٤، فالآية نصت على أن الإيمان لن يحصل لهم إلا بعد العمل بالطاعة.

الرابعة : فصل : دخول العمل في الإيمان وعدم اعتباره بدونه وكفر تاركه:

أولاً : الأدلة على دخول عمل الجوارح في الإيمان :

قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ البقرة ١٤٣،والمقصود بالإيمان هنا الصلاة، وقد سماها الله إيمانا، مما يدل على دخول الصلاة والأعمال في ركن الإيمان واسمه.

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ البينة: ٥.

وقال:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ ﴾ الحجرات: ١٥.

وقال: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ النور: ٤٧، والآية جعلت شرط صحة الإيمان الطاعة وهي عمل الجوارح.

وقال: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ الحجرات: ١٤. وهذه الآية نصت على أن الإيمان لن يحصل لهم إلا بعد العمل بالطاعة.

وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣٢.

والله ﷻ كفّر تارك الطاعة التي هي فعل الأوامر وترك النواهي بالجوارح.

ومن الأدلة الآيات التي نفت الإيمان عمن لم يتحقق منه العمل الظاهر .

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥.

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١

﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ المائدة: ٨١

والله قال قبلها:﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ولفظ (ترى) يدل على الرؤية البصرية مما يدل على أن عملهم الذي نفى الإيمان متعلقا بالظاهر.

ومن الأدلة على دخول العمل في الإيمان وأن الجنة لا يدخلها أحد إلا بالعمل:

قوله تعالى:﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ السجدة: ١٩ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ الأحقاف: ١٤.

ومن الأدلة في السنة :

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لوفد عبد القيس : (آمركم بالإيمان بالله ، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة ...) متفق عليه.

وقال ﷺ :(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) رواه الجماعة.

والدلالة من منطوق الحديث على وجوب العمل وأن قول لا إله إلا الله لا تنفع إلا بعد المجيء به ظاهراً.

وقالﷺ :(العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر). رواه احمد والترمذي،فإذا كان تارك الصلاة يعد كافرا فكيف بمن ترك العمل بالدين كله.

وقال ﷺ : (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا ومن يأبى يا رسول الله قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري.

وقال النبي ﷺ : (الإيمان بضع وسبعون شعبة) متفق عليه . وذكر منها إماطة الأذى وهو عملي.

كما أن هناك أدلة بيناها في كتاب الانقياد وكفر الامتناع والإعراض.

ثانياً : إجماع السلف على كفر تارك العمل:

العمل الظاهر من العبادات والفرائض ومباني الإسلام تعتبر جزءاً من التوحيد والإيمان وركناً فيه يزول بزواله فتارك العمل كافر خارج من الإسلام والإيمان خلافاً للمرجئة.

أما زوال الإيمان فلأنه مركّب من قول وعمل فإذا زال العمل زال الإيمان.

وأما زوال الإسلام فلأنه قائم على الاستسلام بالطاعة والانقياد بالعمل، فإذا زال العمل زال الإسلام ولم يبق مع تارك العمل لا إيمان ولا إسلام .

فهذا العمل الذي هو ركن الإيمان هو حقيقة الإسلام كذلك، وهو شرط من شروط التوحيد ولا إله إلا الله وهو الانقياد، والانقياد هو الإذعان العملي بالجوارح، والامتثال الظاهر المترتب على الانقياد والقبول الباطن، وقد بين السلف ما قرره الشارع وجاء موضحاً في الكتاب والسنة وفهم الصحابة أن تارك العمل لا يعتبر مسلماً ولا مؤمناً بل من حكم بإسلام ذلك فهم يكفرونه.

روي عن علي بن أبي طالب وابن مسعود ﷺ:" **لا ينفع قول إلا بعمل ولا** عمل إلا بقول ولا قول وعمل إلا بنية ولا نية إلا بموافقة سنة ". أخرجه ابن بطه .

قال الحميدي: " وأخبرت أن قوماً يقولون إن من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموت أو يصلي مسندا ظهره مستدبرا القبلة حتى يموت، هو مؤمن ما لم يكن جاحداً إذا كان يقر بالفروض، فقلت هذا

الكفر بالله الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفعل المسلمين قال تعالى :﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ". أخرجه الخلال.

قال الإمام أحمد: " من قال هذا – الكلام السابق الذي ذكر للحميدي – فقد كفر بالله ورد على الله أمره وعلى الرسول ما جاء به ". أخرجه الخلال في السنة .

فإذا كان بعض السلف قد كفّروا من لم يكفر تارك العمل، وكفروا من يقول إن تارك العمل مسلم ولا يكفر بذلك إذا كان مقرا بها، فكيف لا يكفّرون من تقوم به هذه الصفة وهي ترك العمل فتأمل.

وقال الإمام سفيان بن عيينة :" والمرجئة أوجبوا الجنة لمن شهد أن لا إله إلا الله مصراً بقلبه على ترك الفرائض، **وسموا ترك الفرائض ذنباً بمنزلة ركوب المحارم**، وليس بسواء لأن ركوب المحارم من غير استحلال معصيته **وترك الفرائض متعمداً من غير جهل ولا عذر كفرا**، وبيان ذلك في أمر آدم وإبليس وعلماء اليهود ... وتركهم على معرفة من غير جحود فهو كفر " أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة.

ومثّل تارك الواجب بفعل إبليس واليهود، وأن كفر تارك العمل ولو مع إقراره بوجوبه ومعرفته وعدم جحوده أمر مجمع عليه بين أهل السنة، ولم يخالف فيه إلا المرجئة، فتأمل كلام مرجئة عصرنا ممن زعم أن تكفير تارك العمل محل خلاف بين أهل السنة لا يبدع المخالف فيه وليس خلاف بين مرجئ مبتدع وسني متبع .

– قال ابن رجب :" روي عن عطاء ونافع مولى ابن عمر أنهما سُئلا عمن قال **الصلاة فريضة ولا أصلي؟ فقالا هو كافر**، وكذا قال الإمام أحمد " . فتح الباري ١ / ٢١. وأخرج أثر عطاء عبد الله بن الإمام أحمد في السنة والخلال واللالكائي .

وقال الإمام أحمد: (من قال الزكاة من الله **ولا أؤديها**، والزكاة علي **ولا أزكي**، والصوم فرض **ولا أصوم** : يستتاب فإن تاب وإلا قتل) . أحكام الملل:٤٨٨.

بل جعل إسحاق بن راهويه هذا قول غلاة المرجئة فقال: " غلت المرجئة حتى صار من قولهم إن قوماً يقولون من ترك الصلوات المكتوبات وصوم رمضان والزكاة والحج **وعامة الفرائض من غير جحود** لها أنا لا نكفّره يرجأ أمره إلى الله بعد، إذ هو مقر فهؤلاء الذين لا شك فيهم" يعني المرجئة نقله عنه ابن رجب في الفتح.

ونقل عن المدني:" إن من قال ذلك يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه ".

وبمثل هذا قال التستري ووكيع ابن الجراح والترمذي والآجرى وابن بطه ومكحول وغيرهم من أئمة السلف .

وقال الأوزاعي " لا يستقيم الإيمان إلا بالقول ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل " .

قال الشافعي :" وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاث إلا بالآخر" رواه اللالكائي ونقله ابن تيمية عنه في الإيمان.

وقال ابن عيينه :" لا يكون قولا إلا بعمل " .

وبمثل ذلك قال الحسن البصري وسفيان الثوري والزهري والمروزي .

قال أبو ثور:" من قال أقر ولا أعمل لم نطلق عليه اسم الإيمان " . نقله ابن تيمية عنه في الإيمان.

قال الإمام التستري :" الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر ". رواه ابن بطه وذكره ابن تيمية في الإيمان .

قال المروزي في تعظيم الصلاة :" والإيمان أصله التصديق والإقرار ينتظر به حقائق الأداء لما أقر والتحقيق لما صدق، ومثل ذلك كمثل رجلين عليهما حق لرجل: فسأل أحدهما حقه فقال ليس لك عندي حق فأنكر وجحد .

وسأل الآخر حقه فقال نعم لك علي كذا، فليس إقراره بالذي يصل إليه بذلك حقه دون أن يوفيه وهو منتظر أن يحقق ما قال ويصدق إقراره بالوفاء. ولو اقر ثم لم يؤد حقه كان كمن جحده في المعنى، إذا استويا في الترك للأداء".

وقال الإمام الملطي في التنبيه والرد على المرجئة :" باب ذكر المرجئة . منهم من يقول: من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وحرم ما حرم الله وأحل ما أحل الله دخل الجنة إذا مات وإن زنى أو سرق وقتل وترك الصلاة والزكاة والصيام إذا كان مقراً بها يسوف بالتوبة لم يضره وقوعه في الكبائر وترك الفرائض وإن فعل ذلك استحلالاً كان كافراً بالله مشركاً ".

فتأمل كيف جعل عدم التكفير بترك العمل والانقياد من أصول مذهب المرجئة.

وقال الآجري في الشريعة :" فالأعمال بالجوارح تصديقاً للإيمان بالقلب واللسان، فمن لم يصدق الإيمان بجوارحه مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وأشباه هذه ورضي من نفسه بالمعرفة والقول لم يكن مؤمناً ولم تنفعه المعرفة والقول وكان تركه العمل تكذيباً منه لإيمانه وكان العمل بما ذكرنا تصديقاً منه لإيمانه ".

ثم ذكر أن ضد ذلك هو مذهب المرجئة الذين تلاعب بهم الشيطان وحذر من مقولتهم التي هي الإرجاء الخبيث فقال :"من قال غير هذا فهو مرجئ خبيث ".

– وقال ابن بطة في الإبانة : " الإيمان قول وعمل، وأن من صدق بالقول وترك العمل كان مكذباً وخارجاً من الإيمان، وأن الله لا يقبل قولا إلا بعمل ولا عملا إلا بقول ".

وقال :" وكل من تكلم بالإيمان وأظهر الإقرار بالتوحيد وأقر أنه مؤمن بجميع الفرائض غير أنه لا يضره تركها ولا يكون خارجاً من إيمانه إذا هو ترك العمل بها في وقتها... ومن أقر بذلك وقال بلسانه ثم تركه تهاوناً ومجونا أو معتقداً لرأي المرجئة ومتبعاً لمذهبهم فهو تارك الإيمان ليس في قلبه منه قليل ولا كثير وهو في جملة المنافقين ".

وقال أيضاً فيه :" فمن زعم أنه يقر بالفرائض ولا يؤديها ويعملها، وبتحريم الفواحش والمنكرات ولا ينزجر عنها ولا يتركها، وأنه مع ذلك مؤمن، فقد كذب بالكتاب وبما جاء به رسوله ومثله كمثل المنافقين الذين: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ فأكذبهم الله ورد عليهم قولهم وسماهم منافقين، على أن المنافقين أحسن حالاً من المرجئة لأن المنافقين جحدوا العمل وعملوه، والمرجئة أقروا بالعمل بقولهم وجحدوه بترك العمل به. فمن جحد شيئاً وأقر به بلسانه وعمله ببدنه أحسن حالاً ممن أقر بلسانه وأبى أن يعمله ببدنه فالمرجئة جاحدون لما هم به مقرون ومكذبون لما هم به مصدقون فهم أسوأ حالاً من المنافقين ".

فانظر كيف جعل رحمه الله كفر الإعراض والامتناع والإباء أشد من كفر النفاق والجحود والتكذيب وأعظم جرماً .

قال أبو طالب المكي في قوت القلوب ونقله عنه ابن تيمية في الإيمان: " فمثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى في المعنى والحكم فشهادة الرسول غير شهادة التوحيد فهما شيئان في الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى ، فهما كشيء واحد لا إيمان لمن لا إسلام له ولا إسلام لمن لا إيمان له إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصحح إسلامه ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه من حيث اشتراط الله سبحانه وتعالى للأعمال الصالحة الإيمان واشترط للإيمان الأعمال الصالحة فقال في تحقيق ذلك ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾ .

وقال في تحقيق الإيمان بالعمل ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ

ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴾ ومن كان ظاهره أعمال الإسلام لا يرجع إلى الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقاً ينقل عن الملة ومن كان عقده الإيمان بالغيب لا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفرا لا يثبت معه توحيد".

وقال أيضاً :" وقد اشترط الله تعالى للإيمان العمل الصالح ونفى النفع بالإيمان إلا بوجود العمل، كما شرط للإيمان الإسلام فكما لو عمل عبد بالصالحات كلها لم تنفعه إلا بالإيمان كذلك لو آمن لم ينفعه إلا بالأعمال " .

وقد ذكر الإجماع على هذا الأصل جمع من السلف وأن العمل ركن لا يقبل الإسلام ولا الإيمان والتوحيد إلا به، وأن ترك جنس العمل كفر، وقد اختلفت عباراتهم وكلها تدور على أصل واحد، فمن أقوالهم غير ما سبق : لا يصلح قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول إلا بعمل ، ولا ينفع الإيمان إلا بعمل، ولا يُجزئ الإيمان إلا بالعمل ، ولا يقبل الإيمان إلا بالعمل ، ولا إيمان إلا بعمل، وغيرها .

ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام وابن بطه والآجري واللالكائي وابن منده وغيرهم هذه الإجماعات عن أكثر من مائة وثلاثين إماماً من مختلف أقطار بلاد المسلمين في الحجاز واليمن والشام والعراق وخراسان والمشرق ومصر .

منهم : عطاء ومجاهد وعمرو بن دينار ونافع والزهري وربيعة ومالك وطاووس وعبدالرزاق ووهب بن منبه ومكحول والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وميمون بن مهران والأسود النخعي وسعيد بن جبير وربيع بن خثيم وعامر الشعبي وإبراهيم النخعي والأعمش وسفيان الثوري وسفيان بن عيينه والفضيل بن عياض وشريك وابن أبي ليلى ووكيع بن الجراح ومحمد بن سيرين وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وأبو عوانه ويحيى القطان والضحاك وابن المبارك والبخاري وغيرهم كثير جداً .

وانظر أقوالهم في الكتب التي خرجت كلام السلف في الإيمان كالسنة للخلال وعبد الله بن أحمد واعتقاد اللالكائي والشريعة للآجري.

وسيأتي كلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهم في كفر تارك العمل في مسألة تلازم البطن والظاهر .

الخامسة : حكم تارك مباني الإسلام الأربع وأركان الإسلام:
تارك التوحيد كافر إجماعا،وأما المباني الأربع ففيه تفصيل كما سنورده .
وترك الصلاة والزكاة من الشرك، والله سمى تاركها مشركا .كما في آية فصلت: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وحديث:(بين الرجل وبين الشرك).
قال ابن تيمية: (وأما الفرائض الأربع: إذا جحد وجوب شيء منها بعد بلوغ الحجة فهو كافر ... وأما مع الإقرار بالوجوب إذا ترك شيئاً من هذه الأركان الأربعة ففي التكفير أقوال للعلماء :
أحدها:أنه يكفر بترك واحد من الأربعة حتى الحج ، وإن كان في جواز تأخيره نزاع،فمتى عزم على تركه بالكلية كفر،وهذا قول طائفة من السلف كسعيد بن جبير.
الثاني : أنه لا يكفر بترك شيء من ذلك وهذا المشهور عن كثير من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي (قلت: وهو قول المرجئة ومن تأثر بهم).
الثالث : لا يكفر إلا بترك الصلاة ، وهو قول كثير من السلف .
الرابع : يكفر بتركها وترك الزكاة فقط . (كما دل عليه ظاهر القرآن في براءة، وحديث ابن عمر وغيره ولأنهما منتظمتان لحق الحق وحق الخلق كانتظام الشهادتين للربوبية والرسالة ، ولا بد لهما من غير جنسهما بخلاف الصيام والحج) .
الخامس : يكفر بتركها وترك الزكاة إذا قاتل الإمام عليها).
الإيمان الأوسط ٥٥٢ ونحوه في الإيمان ص٣٠٢ و٢٠/ ٩٦ .
قال ابن رجب: (ذهبت طائفة من السلف إلى كفر من ترك شيئا منها).
والصحيح: أن تارك الصلاة كافر مطلقا وقد أجمع الصحابة على كفر تاركها.
ومما يدل على كفر تارك الصلاة تهاوناً الأحاديث الصحيحة .
قال ﷺ: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) رواه الترمذي والنسائي وأحمد.
وحديث : (بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة) رواه مسلم.
فجعل ترك الصلاة من الشرك الذي لا يغفره الله، فهو من شرك التعطيل.
وقال عمر ﷺ : (لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة) رواه مالك.
وإجماع الصحابة الذي نقله السلف:
قال عبد الله بن شقيق: (لم يكن أصحاب النبي ﷺ يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة) . الترمذي .

وقال أيوب السختياني التابعي: (ترك الصلاة كفر لا يختلف فيه) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة.

قال حرب الكرماني في عقيدته: (القول بتكفير تارك الصلاة يوافق ما أجمع عليه أهل السنة من أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل).

فلا عبرة بعد هذا بمن خالف من العلماء فقد أخطأ. وبهذا يعلم أن ما نسب للشافعي من عدم تكفير تارك الصلاة تهاونا لا عبرة به ، ويجاب عنه بأنه لم يبلغه إجماع الصحابة ، وقد حصل لغيره من الأئمة في جهلهم بإجماع الصحابة فأفتوى بما يخالفه ، والشافعي يرى قول الصحابي حجة فضلا عن إجماعهم، ومنكر حجية إجماع الصحابة كافر إن علم به ، ثم إنه يقول بأن العمل ركن في الإيمان وتاركه كافر.

أما الزكاة والصيام والحج فتاركها على حالين :

الأول : من امتنع عنها مع إقراره بوجوبها فيكفر إجماعا.

١- الحج والصيام: من عزم على أن لايحج ولايصوم امتناعا فهو كافر إجماعاً.

قال ابن عباس: (من كفر: أي زعم أنه ليس بفرض عليه) . (ليس علي حج) .

أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم. وهذا هو حقيقة كفر الامتناع . فالعازم على عدم الحج والمصر على تركه وأن لا يحج، يعد ممتنعا كافرا، وهناك فرق بين من هذه حاله وبين العازم عليه لكن من دون مسارعة فسوف وتهاون فلا يرى أنه على الفور.

وسيأتي قول عمر في قتال تارك الحج الممتنع عنه .

وسئل الإمام أحمد: (من قال: أعلم أن الصوم فرض ولا أصوم ؟ فأملى علي: يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه) أحكام أهل الملل للخلال ص ٤٨٢ .

٢- وأما الزكاة فقد أجمع الصحابة على تكفير الممتنع عنها .

قال ابن مسعود:(ما تارك الزكاة بمسلم) رواه عبدالله في السنة والخلال .

قال الإمام أحمد: (من قال الزكاة علي ولا أزكي: يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه. ومن قال: الزكاة من الله تعالى ولا أؤديها . يستتاب فإن تاب وإلا قتل . ومن ترك الزكاة ليس بمسلم ، وقد قاتل أبو بكر أهل الردة على ترك الزكاة) .

(إذا منعوا الزكاة كما منعوا أبا بكر وقاتلوا عليها لم يصل عليهم . فإذا كان الرجل يمنع الزكاة من بخل أو تهاون لم يقاتل على المنع ويورث). الملل للخلال ٤٨٨ .

فبيّن أن منع الزكاة يعد كفراً إذا كان على نفس الصفة التي حصلت من المرتدين زمن أبي بكر وهي الإباء والامتناع، وليست لأجل القتال كما توهم البعض.

الثاني: المتهاون في الزكاة والصوم والحج من غير امتناع فمحل خلاف :
فالأكثر على عدم تكفير المتهاون في تركها .ويدل على عدم كفر تارك الزكاة مارواه مسلم: (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها ... وفي آخره ثم ينظر في سبيله إما الجنة وإما النار) .. ويحتمل أنه وارد في المقصر فيها دون تاركها بالكلية.
وكفّر طوائف من السلف تاركها مطلقا ولو كان تهاوننا وكسلا من غير امتناع أو عناد . منهم سعيد بن جبير والحسن .
ومما يدل على كفر تارك الفرائض ما روي عنه ﷺ : (من فعل هؤلاء ثم جاء رمضان فترك صيامه متعمدا لم يقبل الله منه الإيمان ولا الصلاة ولا الزكاة إلا بالصيام ، فمن فعل هؤلاء الأربع ثم تيسر له الحج فلم يحج لم يقبل منه الإيمان ولا الصلاة ولا الزكاة ولا الصيام إلا بالحج ، ولن يقبل الله شيئاً من الفرائض بعضها دون بعض) . أخرجه ابن بطة .
ويستدل من يكفر تارك الزكاة بآية التوبة: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ ﴾ ،وآية فصلت﴿ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ .
وحديث: (أمرت أن أقاتل الناس ... ويؤتوا الزكاة).
ويستدل على كفر تارك الحج بآية: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران: ٩٧.
وما روي عن النبي ﷺ أنه قال:(من أدرك حجة الإسلام ، فلم يحج، ولم يمنعه حاجة ظاهرة ولا إمام جائر ظالم ، ولا سجنٌ حابس حتى يموت على ذلك ، فليمت على أي حال شاء يهوديا أو نصرانيا) رواه الدارمي وغيره عن أبي أمامة وأبي هريرة.
وعن علي قال: قال ﷺ : (من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا ، وذلك بأن الله يقول (ولله على الناس... ومن كفر) .رواه الترمذي وغيره .
قال عمر ﷺ: (لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار، فلينظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين) .
قال:(لوأن الناس تركوا الحج لقاتلتهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة).
أخرجه سعيد بن منصور بسند صحيح والخلال في أحكام أهل الملل.
وأخرج عن ابن عمر قال : من ترك الحج لا يصلى عليه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر : من مات وهو موسر ولم يحج ، جاء يوم القيامة وبين عينيه مكتوب كافر .

قال الحسن وغيره: من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر . تفسير القرطبي .

فائدة : وجه تخصيص الصلاة والزكاة بقتال تاركها دون الصيام والحج :

لأنها ظاهرة ، أما الصيام فباطن، وأما الحج فمرة في العمر .

قال ابن تيمية : (وأما الصلاة والزكاة ، فلهما شأن ليس الفرائض ، ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهما ، لأنهما عبادتان بخلاف الصوم فإنه أمر باطن وهو مؤتمن عليه فهو من جنس الوضوء وغسل الجنابة ، أما الصلاة والزكاة فأمر ظاهر لا يمكن لإنسان بين المؤمنين أن يمتنع عن ذلك) ٧/ ٦٠٨.

المسألة السادسة : الترابط والتلازم بين الباطن والظاهر:

الباطن : هو ما في القلب من إيمان أو كفر ، فالباطن هو قول القلب وعمله.

الظاهر : هو ما يظهر للناس من قول اللسان وعمل الجوارح .

معنى التلازم : التلازم والترابط بمعنى واحد ، وهو من باب علاقة الملازمة والاقتضاء والتأثير والدليل ، والظاهر فرع عن الباطن ودليل عليه، فإذا كان الباطن فاسداً كان الظاهر فاسداً وإذا كان صالحا كان الآخر كذلك .

ويستحيل حصول الأثر بدون المؤثر والواجب دون موجبه واللازم بدون ملزومه والمدلول دون دليله ،فلابد من وجود الشيء مع لازمه.

وكل من الباطن والظاهر دليل على الآخر ولازم له ، بينهما علاقة مشتركة وكل يؤثر في الآخر ويدل عليه وإن كان الأصل هو ما في الباطن .

قال الشاعر:ومهما تكن عند أمريءٍ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فإن كان في القلب إيمان فلا بد من أثره على الجوارح ،كما أن كفر القلب مؤثر على الجوارح ، وصلاح وفساد أحدهما دليل على صلاح وفساد الآخر .

تنبيه: لا تخالف المرجئة في أن إيمان القلب يدعو لإيمان الظاهر والعمل، فهو يستدعيه لكن يقولون : إنه لا يستلزمه فقد يوجد بدونه .

قال ابن تيمية : (المرجئة لا تنازع في أن الإيمان الذي في القلب يدعو إلى فعل الطاعة والطاعة من ثمراته ونتائجه ، لكن تنازع هل يستلزم الطاعة) ٧/ ٥٠.

لزوم الظاهر للباطن والباطن للظاهر وتأثير كل منهما في الآخر :

يوجد علاقة عكسية في التلازم ما بين الباطن والظاهر وما بين أعمال الجوارح واعتقاد القلب في الإيمان والكفر ، فما يظهر على البدن من عمل هو دليل على ما في القلب، كما أن ما يقوم بالبدن من الأعمال له تأثير فيما في القلب ، فكل منهما يؤثر في الآخر لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له ، والفرع يستمد من أصله ، والأصل يثبت ويقوى بفرعه .

مثال : التشبه بالكفار في الظاهر يورث محبة لهم في الباطن ، والحب في الباطن يستدعي التشبه والتولي الظاهر.

قال ابن تيمية في الإيمان : (لما كانت الأقوال والأعمال الظاهرة مستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة كان يستدل بها عليها) الفتاوى ٧/ ٥٤٢ .

(الأقوال والأعمال الظاهرة نتيجة الأعمال الباطنة ولازمها) ٧/ ٥٥٢.

وقال : (وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة ، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله ، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير فيما في القلب ، فكل منهما يؤثر في الآخر لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له ، والفرع يستمد من أصله ، والأصل يثبت ويقوى بفرعه) الفتاوى ٧/ ٥٤١ .

أدلة التلازم :قال تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ آل عمران: ٣١.

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١.

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ المائدة: ٨١.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ إبراهيم: ٢٤.

﴿ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ التوبة: ١٧.

﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ الصافات: ١٠٥.

ومما يدل على التلازم من السنة:
قوله ﷺ : (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب) رواه البخاري .
وقوله ﷺ: (والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) متفق عليه.
وقال عمر ﷺ في رجل رآه يعبث في صلاته ويكثر الحركة: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه) .أخرجه عبد الرزاق والبهقي كما روي عن ابن المسيب.
قال الحسن: (إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني إنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل) . رواه ابن أبي شيبة كما هو عند سعيد بن منصور وابن عدي.

أقول أهل العلم في إثبات التلازم بين الباطن والظاهر :
قال الطبري:(فكان فعله ونكاح امرأة أبيه من أدل الدليل على تكذيبه الرسول ﷺ فيما أتاه به عن الله وجحوده آية محكمة .. لذلك أمر بقتله)تهذيب الآثار ٢/ ٤٨ .
تأمل كيف جعل الطبري العمل الظاهر دليل على التكذيب والاستحلال والجحود والبغض وأن هناك ما يسمى عند العلماء بالتكذيب والجحود العملي .
قال الشاطبي : (ومن هنا جعلت الأعمال الظاهرة في الشرع دليلا على ما في الباطن فإن كان الظاهر منخرما حكم على الباطن بذلك وهو أصل عام في الفقه وسائر أحكام العاديات والتجريبيات والأدلة على صحته كثيرة جداً وكفى بذلك عمدة أنه الحاكم بإيمان المؤمن وكفر الكافر) الموافقات١/ ٢٣٣.
وقال الفراء : (لم يكن كذب برد ظاهر ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيباً). من تفسير القرطبي للتولي. فالتكذيب قد يظهر في عمل ظاهر .
وقال حافظ الحكمي : (ومحال أن ينتفي انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب) معارج القبول ٢/ ٥٩٤.
قال ابن الهمام: (بعض الأفعال تقوم مقام الجحود) فيض الباري للكشميري.
وقال ابن القيم : (من أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية). الصلاة ٢٨ .
وقال فيه ص ٢٩ :" فالتصديق إنما يتم بأمرين: أحدهما اعتقاد الصدق والثاني محبة القلب وانقياده ... وهذا صريح في أن التصديق لا يصح إلا بالعمل ".

وقال فيه : (وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح، ولاسيما إذا كان ملزوما لعدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح، إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان فإن الإيمان ليس مجرد التصديق وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد) . الصلاة ص ٣٥.

قال ابن تيمية:" إن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب وإن إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع سواء جعل الظاهر من لوازم الإيمان أو جزء من الإيمان " . الفتاوى ٧/ ٦١٦ .

وقال في الإيمان : (لما كانت الأقوال والأعمال الظاهرة مستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة كان يستدل بها عليها) الفتاوى ٧/ ٥٤٢ .

وقال فيه:(هذه الأعمال لازمة لإيمان القلب فإذا انتفت لم يبق في القلب إيمان).

وفيه:(لايتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح).

وقال :" الإيمان الباطن يستلزم الإقرار الظاهر بل وغيره، وأن وجود الإيمان الباطن تصديقاً وحباً وانقياداً بدون الإقرار الظاهر ممتنع ".

وفيه:(أخطؤوا لامتناع قيام الإيمان بالقلب من غير حركة بدن) ٧/ ٥٥٦.

قال ابن تيمية: (ما يقوم بالقلب من تصديق وحب لله ورسوله لابد أن يظهر على الجوارح ، وكذلك بالعكس، ولهذا يستدل بانتفاء اللازم الظاهر على انتفاء الملزوم الباطن) الجواب الصحيح ٦/ ٤٨٧.

وقال : (لا يستقر شيء في القلب إلا ظهر موجبه ومقتضاه على البدن. وأما إذا لم يظهر إثر ذلك لابقول ولابفعل فإنه يدل على أنه ليس في القلب إيمان) ١٤/ ١٢١.

وقال قبله: (وزعم جهم ومن وافقه أن مجرد معرفة قلب وتصديقه يكون إيمانا يوجب الثواب يوم القيامة بلا قول ولا عمل ظاهر .) ١٤/ ١٢١ ، ١٠/ ٧٤٨.

وقال :" فدل على أنه لا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر، ولا إسلام ظاهر علانية إلا بإيمان سر وأن الإيمان والعمل قرينان لا ينفع أحدهما بدون صاحبه ". ٧/ ٣٣٥ .

وقال : (الظاهر والباطن متلازمان لا يكون الظاهر مستقيما إلا مع استقامة الباطن ، وإذا استقام الباطن فلا بد أن يستقيم الظاهر) ١٨/ ٢٧٢.

وقال : (فالسلف يقولون ترك الواجب دليل على انتفاء الإيمان الواجب من القلب، لكن قد يكون ذلك بزوال عمل القلب الذي هو حب الله ورسوله وخشية الله، ونحو ذلك لا يستلزم ألا يكون في القلب من التصديق شيء، وعند هؤلاء - الجهمية المرجئة - كل من نفى الشرع إيمانه دل على أنه ليس في قلبه شيء من التصديق أصلاً). الفتاوى ٧/ ١٤٨ .

وقال : (فلا يجوز أن يدعى أنه يكون في القلب إيمان ينافي الكفر بدون أمور ظاهرة لا قول ولا عمل) الفتاوى ٧/ ٦٤٥ .

وقال فيه : (وقد تبين أن الدين قول وعمل وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله بقلبه ولسانه ولم يؤد واجبا ظاهراً، فلا يكون الرجل مؤمنا مع عدم شيء من الواجبات .. ومن قال بحصول الإيمان الواجب بدون فعل تلك الواجبات فهذه بدعة الإرجاء التي أعظم السلف الكلام في أهلها) ٧/ ٦٢١ .

وقال : (ظن الظان أن ما في القلب من الإيمان المقبول يمكن تخلف القول الظاهر والعمل الظاهر عنه) ٧/ ٥٥٤ .

وقال : (أصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله، وهو إقرار القلب بالتصديق والحب والانقياد ، ولا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح) الفتاوى ٧/ ٦٤٤ ، وأيضا موجود في الفتاوى المصرية.

وقال: (فيمتنع أن يكون الرجل لا يفعل شيئاً مما أمر به ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات وهو مع ذلك مؤمن في الباطن بل لا يفعل ذلك إلا لعدم الإيمان الذي في قلبه) . الفتاوى ٧/ ٢١٨ .

وقال : (فمن قال : إنه يصدق الرسول ويحبه ويعظمه بقلبه ولم يتكلم قط بالإسلام ولا فعل شيئاً من واجباته بلا خوف فهذا لا يكون مؤمناً في الباطن وإنما هو كافر، وزعم جهم ومن وافقه أنه يكون مؤمناً في الباطن وأن مجرد معرفة القلب وتصديقه يكون إيماناً يوجب الثواب يوم القيامة بلا قول ولا عمل ظاهر وهذا باطل شرعاً وعقلاً وقد كفّر السلف كوكيع وأحمد من يقول بهذا القول) . ١٤/ ١٢٠ .

قال ابن تيمية في الإيمان : (لو أن قوماً قالوا للنبي ﷺ نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك ونقر بالشهادتين إلا أنا لا نطيعك في شيء مما أمرت به ونهيت عنه .. هل كان النبي ﷺ يقول لهم أنتم مؤمنون، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم : أنتم أكفر الناس بما جئت به ويضرب رقابهم إذا لم يتوبوا). ٧/ ٢٨٧ .

وقال: (إذا أفرد الإيمان أدخل فيه الأعمال الظاهرة ، لأنها لوازم ما في القلب ، لأنه متى ثبت الإيمان في القلب وجب حصول مقتضى ذلك ضرورة) .

وقال في الإيمان الأوسط :" فمن عرف ارتباط الظاهر بالباطن زالت عنه الشبهة في هذا الباب ، وعلم أن من قال من الفقهاء إنه إذا أقر بالوجوب وامتنع عن الفعل لا يقتل أو يقتل مع إسلامه ، فإنه دخلت عليه الشبهة التي دخلت على المرجئة والجهمية والتي دخلت على من جعل الإرادة الجازمة مع القدرة التامة لا يكون بها شيء من الفعل، ولهذا كان المتنعون من قتل هذا من الفقهاء بنوه على قولهم في مسألة الإيمان وأن الأعمال ليست من الإيمان وقد تقدم أن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب وأن إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع سواء جعل الظاهر من لوازم الإيمان أو جزءاً من الإيمان كما تقدم بيانه ".٧/ ٦١٦ ، ومثله٢٢٩ .

خلاف المرجئة في مسألة: الترابط والعلاقة التلازمية بين الباطن والظاهر:

تنكر المرجئة التلازم بين الباطن والظاهر وخالفوا العقل والشرع والأدلة الدالة على التلازم كما في الحديث المتفق عليه:«إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» . **ومن فروع قولهم هذا :**

١- تصورهم إيماناً كاملاً دون أن يوجد معه شيء من العمل الظاهر مطلقاً.

٢- إنه قد يوجد الكفر الظاهر البين مثل السجود لصنم وقتال المسلمين ونصرة الكفار عليهم بل وقتل النبي ﷺ وأصحابه ﷺ وسب الله ﷻ ورسوله ﷺ ورمي المصحف في المزابل، ومع هذا يكون صاحب هذه الأفعال مؤمناً باطناً ناج عند الله ومن أهل الجنة لأنه مصدق بقلبه وغير مستحل لها، ولا ترابط بين عمله وإيمان قلبه فقد توجد الردة والكفر الصريح الظاهر والتكلم بالكفر والقول بالتثليث وسب الله مجامعاً لحقيقة الإيمان.

٣- إن أي كفر ظاهر سماه الشارع كفراً وحكم بتكفير صاحبه فإنما هو كفر لانتفاء التصديق والعلم بالله من القلب، ولوجود الاستحلال والتكذيب والجحود، وليس لأن العمل كفر بحد ذاته فقتل النبي ﷺ أو سبه والاستهزاء به وبالدين ليس هو الكفر ذاته، وإنما علامة ودليل على كفر الباطن وهو عدم التصديق ومعرفة الله ﷻ فمن قتل النبي مثلاً فهو كافر لأنه غير مصدق به وليس لأن مجرد قتله كفر.

٤- إن من فقد شرط الانقياد والقبول لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فلم ينقد

ولم يقبل بل كان معانداً ممتنعاً عن الشريعة راداً ورافضاً لها وتاركاً للدخول والانقياد للدين، استلزم هذا عندهم أحد أمرين:

إما أن يكون مؤمناً لوجود التصديق معه في قلبه ولا يكون الانقياد شرطاً عندهم في الإيمان.

وإما أن يكون كافراً باطناً وظاهراً وهذا لأنه غير مصدق . لأن من لم ينقد للدين ويقبله فهو غير مصدق، وأن من رد الدين ورفضه واستكبر وامتنع فهو مكذب، فيكون التصديق مرادفاً للانقياد والقبول، ويكون الاستكبار والعناد والامتناع والترك والرد هي نفس معنى التكذيب والجحود والاستحلال، ويكون كل كفر في الدنيا هو كفر تكذيب وجحود واستحلال، فلا يفرقون بين كفر التكذيب وكفر العناد والاستكبار، ولا يفرقون بين شرط الصدق والتصديق وشرط الانقياد والقبول التي هي من شروط (لا إله إلا الله) ، فحقيقة شروطها السبعة راجعة لشرط التصديق أو هي بمعنى واحد، فلا يشترط غير التصديق وكل الشروط الباقية هي نفسه.

قال ابن تيمية في الإيمان: (وقالوا حيث حكم الشارع بكفر أحد بعمل أو قول فلكونه دليل على انتفاء ما في القلب) .

وقال أيضاً: (فهؤلاء القائلون بقول جهم والصالحي والأشعري قد صرحوا بأن سب الله ورسوله والتكلم بالتثليث ليس كفراً في الباطن ولكنه دليل في الظاهر على الكفر ويجوز مع هذا أن يكون هذا الساب الشاتم عارفاً بالله موحداً له مؤمناً به فإذا أقيمت عليهم الحجة بنص أو إجماع أن هذا كافر ظاهراً وباطناً ، قالوا هذا يقتضي أن ذلك مستلزم للتكذيب الباطن) الفتاوى ٧/ ٥٥٧ .

وقال ابن حزم : (وأما الأشعرية فقالوا : إن شتم من أظهر الإسلام لله تعالى ولرسوله ليس كفرا ، ثم خشوا مبادرة جميع أهل الإسلام لهم ، فقالوا : لكنه دليل على أن ما في قلبه كفرا) الفصل ٥/ ٧٥ .

وقال : (ونقول للجهمية والأشاعرة في قولهم جحد الله تعالى وشتمه إذا كان باللسان ليس كفرا لكنه دليل على أن في القلب كفرا ... فهي دعوى لأن الله تعالى قال: (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر) فنص تعالى على أن من الكلام ما هو كفر ... فنص تعالى على أن الاستهزاء بالله كفر مخرج من الإيمان ولم يقل : إني علمت أن في قلوبكم كفرا بل جعلهم كفاراً بنفس الاستهزاء ومن قال غير هذا فقد

قول الله ما لم يقل وكذب على الله) الفصل ٣/ ٢٥٩، ٢٤٤ .

وقال في آخر المحلى : (وأما سب الله تعالى ، فما على ظهر الأرض مسلم يخالف في أنه كفر مجرد إلا الجهمية والأشعرية وهما طائفتان لا يعتد بهما ، يصرحون بأن سب الله وإعلان الكفر ليس كفرا ، وقال بعضهم لكنه دليل على الكفر لا أنه كافر ، وهذا كفر مجرد لأنه خلاف إجماع الأمة) ١٢/ ٤٣٥ .

تنبيه: هذه الأقوال والضلالات واللوازم الفاسدة التي التزموها والتي سماها شيخ الإسلام فضائح تلزم الجهمية والأشاعرة والماتريدية دون باقي فرق المرجئة خصوصاً المرجئة الفقهاء، وقد كفر السلف القائلين بها، وهي من صميم مذهب المرجئة المعاصرة كما سنأتي على كلامهم إن شاء الله.

وهم بهذه الأقوال قد خالفوا إجماع المسلمين، ولأجل هذا كفّرهم أهل العلم بقولهم هذا، بل إنهم خالفوا حتى إجماع الملل كلها، فإن الكفار جميعاً يعلمون أن من لم يتبع النبي ﷺ ويُطِعْ أمره ويَنْقَدْ لما جاء به لا يسمى مؤمناً ولا يعد مسلماً ولو كان مصدقاً بقلبه، فإن أكثر الكفار لم يكونوا مكذبين وإنما جاحدين حسداً وكبراً وعناداً.

تنبيه: من أسباب ضلال المرجئة إنكارهم التلازم بين الباطن والظاهر:

قال ابن تيمية في الإيمان الأوسط : (فمن عرف ارتباط الظاهر بالباطن زالت عنه الشبهة في هذا الباب). الفتاوى ٧/ ٦١٦ ، ومثله٢٢٩.

وقال : (التلازم أمر ضروري ، ومن جهة ظن انتفاء التلازم غلط غالطون ... ومن عرف الملازمات التي بين الأمور الباطنة والظاهرة زالت عنه شبهات كثيرة) الفتاوى ٧/ ٦٤٦ .

المسألة السابعة : التركيب (الإيمان مركب من شعب) :

يدل له حديث:(الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وهذه المسألة أصل شبهة جميع الفرق ، ومن فروعها تلازم الظاهر والباطن.

فذهبت الخوارج والمرجئة إلى أن الإيمان أصله واحد لا يتركب ولا يتبعض ولا يتعدد ولا يتفاضل فإما أن يبقى كله أو يزول كله فليس مكونا من حقيقة مركبة.

ولأجل هذا الأصل أخرجت المرجئة الأعمال من الإيمان، فالرجل مؤمن ولو لم يعمل شيئاً، بينما كفرت الخوارج تارك شيء من الأعمال ، فهذه الشبهة أن الإيمان

شيء واحد لا يتركب سبب ضلال الفرق في الإيمان، سواءً فرق المرجئة الوعدية من الفقهاء والجهمية والأشاعرة والماتريدية أو الفرق الوعيدية وهي الخوارج والمعتزلة.

قال ابن تيمية في الإيمان الكبير: (قال أحمد: وأما من زعم أن الإيمان الإقرار فما يقول في المعرفة هل يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار وهل يحتاج أن يكون مصدقاً بما عرف فإن زعم أنه يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار فقد زعم أنه من شيئين وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقراً ومصدقاً بما عرف فهو من ثلاثة أشياء، وإن جحد وقال لايحتاج إلى المعرفة والتصديق فقد قال قولاً عظيماً ولا أحسب أحداً يدفع المعرفة والتصديق كذلك العمل مع هذه الأشياء. قلت: أحمد وأبو ثور وغيرهما من الأئمة عرفوا أصل قول المرجئة أن الإيمان لا يذهب بعضه ويبقى بعضه فلا يكون إلا شيئاً واحداً).

وقال في الأوسط: (أصل نزاع الفرق في الإيمان من الخوارج والمرجئة أنهم جعلوا الإيمان شيئاً واحداً، إذا زال بعضه زال جميعه، وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه).

الثامنة : الفرق بين قول أهل السنة والمرجئة في تلازم الظاهر مع كفر الباطن:

والتفريق بين قول أهل السنة عن بعض الكفريات العملية أنها لا تقع إلا مع ذهاب عمل القلب وأنها مستلزمة للكفر الاعتقادي وأن سبب الكفر فيها كفر الباطن ، وجعل هذه الأعمال الكفريّة والشركيات العملية من الكفر الاعتقادي، وبين مذهب المرجئة الذين لا يكفرون إلا المستحل . والفرق بين القولين ظاهر :

فالمرجئة لا يكفرون بالعمل وإنما بالاعتقاد فهذا العمل الكفري ليس كفرا عندهم إلا إذ قارنه كفر اعتقادي ، وهذا أمر لا يقطع به ولا يتحقق منه ، وبالتالي حكموا بإسلام فاعل الكفر، ولم يكفروا من كفره الله تعالى.

أما قول أهل السنة فالعمل كفر لكنه اعتقادي ، ويكفرون به بسبب ما ظهر من لوازمه ، وكون فساد الباطن هو سبب الكفر لا يعني عدم التكفير بالعمل الظاهر في التكفير وأنه كفر مستقل بمجرده، فهم لا يقولون أنه ليس بكفر إلا إذا حصل معه كفر اعتقاد وتكذيب كما تقوله المرجئة .

وبهذا يتبين أن مقصود السلف أن هذه الكفريات مستلزمة لكفر القلب ولابد أن يوجد معها خلل في القلب ، لا أنها ليست كفرا بذاتها ، وأن الكفر سببه مجرد ما في القلب من استحلالها .

قال ابن تيمية : (من سب الله طوعا بغير إكراه بل من تكلم بكلمات الكفر طائعا غير مكره ، ومن استهزأ بالله وآياته ورسوله فهو كافر باطنا وظاهرا وأن من قال إن مثل هذا قد يكون في الباطن مؤمنا بالله وإنما هو كافر في الظاهر فإنه قال قولا معلوم الفساد بالضرورة من الدين) الفتاوى ٧/ ٥٥٧.

وقال : (فهؤلاء القائلون بقول جهم والأشعري قد صرحوا بأن سب الله ورسوله والتكلم بالتثليث ليس كفراً في الباطن ولكنه دليل في الظاهر على الكفر ويجوز مع هذا أن يكون هذا الساب الشاتم عارفاً بالله موحداً له مؤمناً به، فإذا أقيمت عليهم الحجة بنص أو إجماع أن هذا كافر ظاهراً وباطناً ، قالوا هذا يقتضي أن ذلك مستلزم للتكذيب الباطن) الفتاوى ٧/ ٥٥٧.

وقال في الإيمان: (وقالوا حيث حكم الشارع بكفر أحد بعمل أو قول فلكونه دليل على انتفاء ما في القلب) .

التاسعة: أصل الإيمان وفروعه ولازمه وملزومه :

أصل الإيمان قول القلب الذي هو العلم والتصديق، وهو يستلزم عمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح من المحبة والانقياد وغيرها.

قال ابن تيمية : (الإيمان وإن كان أصله تصديق القلب، فذلك التصديق لا بد أن يوجب حالاً في القلب وعملا وذلك أمر لازم، فإذا لم تحصل هذه الحال والعمل لم ينفع ذلك التصديق ولم يغن شيئا ، وكان وجود التصديق كعدمه)الصارم٩٦٦.

وقال: (جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب وأن إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع) الفتاوى ٧/ ٦١٦ .

وقال : (كل ما أوجبه الله على العباد لا بد أن يجب على القلب ؛ فإنه الأصل، وإن وجب على غيره تبعا .. وإنما يقصد الطاعة القلب والامتثال القلب .. وأول المعصية منه هو العاصي وغيره تبع له) ١٤/ ١١٣ .

وقال : (اعتقاد القلب أصل قول اللسان وعمل القلب أصل لعمل الجوارح) ١٣/ ٢٣٤.

وقال : (فالإيمان لا بد فيه من هذين الأصلين التصديق بالحق والمحبة له ، فهذا أصل القول وهذا أصل العمل) ٧/ ٥٤١ .

تنبيه : معنى قول أهل السنة أصل الإيمان في القلب والعمل تبع وفرع له:

الأساس هو ما في القلب ، فلا يقوم شيء بدونه ، ولا يتصور وجود الإيمان وصحته قبل إيمان القلب، لا أنه يغني عن غيره ويكفي بمفرده، فإيمان القلب لايتحقق وجوده بدون العمل فهو من ركن الإيمان ، وكون العمل ليس فرعاً لايعني أنه لا يدخل في أصل الإيمان وحقيقته ، ولا أنه يمكن أن يستغنى عنه.

كما يقال أصل البيت وأساسه قواعده، لكن هل يمكن أن يسمى بيت بدون البنيان، وأصل الشجرة الجذر وهل يمكن أن تسمى شجرة دون ساقها وفروعها.

فأصل الشيء أمر وأركانه وحقائقه أمر آخر.

العاشرة :هل يوجد تصديق بدون انقياد،وهل ينفع وحده،وهل يسمى إيمانا ؟

التصديق إذا لم يوجد ملزومه من الحب والانقياد والطاعة، كان هذا التصديق والعلم غير نافع لا أنه غير موجود كما تقول المرجئة.

فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل واتباع لا ينفع صاحبه ، وأشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه ، ومن دعاء النبي ﷺ : (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع) رواه مسلم ، قاله ابن تيمية في الفتاوى ١٠/ ٢٧١ ، ٧/ ١٨٧ .

فالعلم والتصديق قد يوجدان بدون أثر له فلا يكون نافعا، ولا يعتبر إيمانا.

قال ابن تيمية : (ولا بد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيمانا البتة، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس) الفتاوى ٧/ ٣٠٧.

الحادية عشرة : مراتب الإيمان :

الأولى : أصل الإيمان :

ويسمى : مطلق الإيمان ، الإيمان المجمل الجازم ، المقبول ، الصحيح ، الثابت، النافع، الموجب للجنة، المنجي من النار، المنافي للكفر.

وهذه التسميات وردت في كلام السلف وفي كتب ابن تيمية .

وأصل الإيمان : التوحيد وترك الشرك والكفر بالطاغوت والانقياد وعدم التولي والامتناع وعبادة الله بإقامة الصلاة وبقية أركان الإسلام.

وهذا ركن يكفر من لم يأت به.

ومن أتى به ولم يأت بالواجب الزائد عن الأصل فيُعد مؤمناً ناقص الإيمان .
الثانية : الإيمان الواجب : وهذا يأثم تاركه لكن لا يكفر .
وهذا يكون بفعل الواجبات وترك المحرمات .
ومن تركه وخالفه بالتقصير في الفرائض وفعل المحرمات يعد فاسقا ، وسماه الله تعالى في الآية التي بينت مراتب الإيمان بالظالم لنفسه.
الثالثة : الإيمان الكامل المستحب الخالص:
وهذا يزيد عن الإيمان الواجب بفعل المستحبات وترك المكروهات .
ويدل على هذه المراتب قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ فاطر: ٣٢.

الثانية عشرة: زيادة الإيمان ونقصانه:
الإيمان يزيد وينقص في الشخص الواحد ، كما أنه يتفاضل الناس فيه .
بل حتى التصديق يزيد ويتفاضل الناس فيه .
وليس الإيمان أصله واحد لا يتفاضل ولا يزيد وينقص .
الأدلة على أن الإيمان يزيد وينقص:
قوله ﷻ: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ الفتح :٤ .
وقال النبي ﷺ: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) رواه أحمد وأبو داود.
وفي البخاري : (أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان) .
وفي الصحيحين:(الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها..) .
والعقل يدل على التزايد حتى في التصديق فالمؤمن قد يزيد تصديقه وقد يضعف حسب القرائن والمؤثرات، بل حتى في الأخبار نسبة التصديق فيها متفاوت بين الناس بل وفي الشخص الواحد من جهة، ومن جهة ثانية فإن التصديق مفصل فإن المؤمنين ليسوا في العلم بأمر الله وخبره وبما أخبر به الرسول ﷺ سواء.
أما عند المرجئة فالإيمان لا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل بل هو واحد متماثل، تبع لأصلهم أن الإيمان ليس مركباً من شعب بل هو التصديق والتصديق شيء واحد لا يتصور فيه الزيادة والنقص فإما أن يبقى كله أو يزول كله، فالإيمان الواجب على الناس واحد، وعندهم إيمان جبريل والأنبياء كإيمان أفجر الناس وأفسقهم .

وكذلك الخوارج تنكر زيادة الإيمان لأن أصله واحد .
ونسب لبعض أهل السنة أن الإيمان يزيد لكن لا ينقص ، وقولهم باطل.

الثالثة عشرة : الاستثناء في الإيمان :
أهل السنة يستثنون في الإيمان لعدة أسباب ، والاستثناء متعلق بالإيمان الكامل ، أما أصل الإيمان بالله وبرسوله وأصل الإسلام فهذا لا يدخله الاستثناء بل هو متيقن فيه، فيقول الشخص أنا مؤمن بمعنى مسلم ، أما إذا توهم قصد كمال الإيمان فلا بد أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله، أو أرجو أن أكون مؤمنا.
والمرجئة يحرمون الاستثناء في الإيمان .
أسباب الاستثناء في الإيمان عند السلف:
١- لأن الإيمان فعل جميع الأوامر وترك جميع المنهيات ولا يبلغ أحد الكمال ويخشى من التقصير فيستثنى لأجل ذلك.
٢- أنه يستثني نفيا للتزكية .
٣- أن الاستثناء متعلق بقبول الإيمان والعمل، ولا يدري أحد قبل منه أم لا .
٤- أن الاستثناء متعلق بعدم العلم بالخاتمة .

المسألة الرابعة عشرة: علاقة الإسلام بالإيمان:
الإسلام خصلة من الإيمان ، ولا يكون إسلام إلا بإيمان ولا إيمان إلا بإسلام.
والإيمان أفضل من الإسلام ، فكل مسلم مؤمن وليس كل مسلم مؤمنا .
يدل لهذا الأصل:
١- قول النبي ﷺ :لسعد لما قال فلان مؤمن، قال : (أو مسلم) متفق عليه.
٢- أنه لما سُئل النبي ﷺ أي الإسلام أفضل؟ قال: (الإيمان) رواه أحمد.
٣- قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ الحجرات:١٤.
وهؤلاء الأعراب ليسوا كفارا ولا منافقين بل مسلمين وضعيفي إيمان.
وقد قرر هذا ابن تيمية ، وكلامه في الفتاوى ٧/ ٣٤٤ .

قال ابن تيمية : (الذين قالوا من السلف : إنهم خرجوا من الإيمان إلى الإسلام لم يقولوا لم يبق معهم من الإيمان شيء) ٧/ ٢٤٠ .

وقال بعض العلماء أن الإسلام والإيمان شيء واحد ، والصحيح ما ذكرته.

ومن أدلة التفريق: قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ الزخرف:٦٩ ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ الحجرات: ١٤﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ الذاريات٣٦﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾الأحزاب٣٥

وقوله ﷺ : (الإسلام علانية والإيمان في القلب) رواه أحمد في المسند.

وقد ضعف الحديث ابن عدي وابن حبان لتفرد علي بن مسعدة عن قتادة.

وحديث جبريل في التفريق بين الإسلام والإيمان وغير ذلك .

قاعدة : الإسلام والإيمان إذا اجتمعا في اللفظ افترقا في المعنى ، وإذا افترقا في اللفظ اجتمعا في المعنى وفسر كل واحد منهما بالآخر .

فيفسر الإيمان بالأعمال الباطنة وأعمال القلوب وأقواله من تصديق وغيره.

ويفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة من قول اللسان وعمل الجوارح من الاستسلام والانقياد الظاهر مثل أركان الإسلام الخمسة الواردة في حديث جبريل عليه السلام، والإقرار بالشهادتين عمل ظاهر من أعمال الجوارح لأنه إقرار باللسان وانقياد لها بالطاعة والعمل والاتباع. وهذا الصحيح من كلام العلماء في الفرق بينهما.

ويدل لذلك حديث: (الإسلام علانية والإيمان في القلب) رواه أحمد.

قال ابن تيمية : (إذا قرن الإيمان بالإسلام ، فإن الإيمان في القلب والإسلام ظاهر) ٧/ ٥٥٣.

تنبيه : من قال من أهل العلم : الإسلام الكلمة فالمراد الذي يدخل العبد به في الإسلام هو الكلمة وهو قول الشهادتين، لا أن الإسلام الواجب هو الكلمة وحدها ولا أن العبد لا يؤاخذ بعدها بتركه الأعمال ومباني الإسلام .

مراتب الدين :الإسلام والإيمان والإحسان .

أعلاها الإحسان ثم الإيمان ثم الإسلام .وسميت مراتب لكونها ليست في منزلة واحدة بل بعضها أفضل من بعض . وقد وضح هذا الأمر حديث جبريل وقوله ﷻ:﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فاطر: ٣٢.

الإسلام يتبعض ويزيد وينقص . ومنه الكامل ومنه الواجب والمجزئ ومنه الناقص مع صحته فهو مثل الإيمان، ويصح الاستثناء منه إذا قصد كماله لا أصله.

الخامسة عشرة : لا يقبل الإسلام إلا بإيمان يصححه :

وهذه قاعدة مقررة لا يكون إسلام إلا بإيمان ولا يكون إيمان إلا بإسلام.

فلابد للإسلام حتى يكون عند الله مقبولاً من إيمان يصحح به إسلام ، وهو أصل الإيمان وليس الإيمان الكامل، كما أنه لابد للإيمان حتى يقبل من إسلام يصحح به إيمانه وليس الإسلام المطلق الكامل، وتقدم بيان ذلك.

ويدل لهذا الأصل الموجب لاجتماع الإيمان والإسلام قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ الزخرف: ٦٩ .

وحديث جبريل عند مسلم : ما الإسلام؟ وما الإيمان؟

وفي آخره : هذا جبريل جاء: يعلمكم أمور دينكم ، مما يدل على أنه لا بد من اجتماع الإسلام مع الإيمان ولا يكفي أحدهما عن الآخر .

قال ابن تيمية : (لا يكون إسلام إلا بإيمان ولا إيمان إلا بإسلام) ٧/ ٣٢٩.

قال المروزي : (لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه ، ولا يخلوا المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه ، من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة الإيمان واشترط للإيمان الأعمال الصالحة.

فقال في تحقيق ذلك : ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ طه: ٧٥، وقال في تحقيق الإيمان بالعمل: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ الأنبياء: ٩٤) . الفتاوى ٧/ ٣٣٣ .

السادسة عشرة : مرتكب الكبيرة فاسق:

مرتكب الكبائر: الفاسق الملّي:وسمي بملي نسبة إلى الملة لأنه لم يخرج منه.

اسم الفاسق عند أهل السنة : قال ابن تيمية: (مؤمن ناقص الإيمان ، مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ولا يطلق عليه اسم الإيمان المطلق) الفتاوى ٧/ ٥٢٥.

وقال: (الفاسق الملّي يجوز أن يقال مؤمن باعتبار وليس بمؤمن باعتبار) .

فهو مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ولا يطلقون عليه مؤمن بإطلاق دون تقييد. ولا يثبتون له الإيمان الكامل وإن كان معه أصل الإيمان.

وحكمه : أنه تحت المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له . لكن لابد أن يوجد من الفساق من يلحقه الوعيد ويدخل النار لكن يخرج منها إذا دخلها.

(أهل الكبائر يخرجون من النار، ولايحبط جميع الحسنات إلا الكفر) ١٠/ ٣٢١.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء: ٤٨ .
من الأدلة التي نفت اسم الإيمان عن مرتكب الكبيرة .
قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» رواه البخاري.
قال الإمام أحمد : (يخرج من الإيمان إلى الإسلام فالإيمان مقصور في الإسلام فإذا زنى خرج من الإيمان إلى الإسلام) أخرجه الخلال في السنة.
وحديث ارتفاع الإيمان عن الزاني فوقه كالظلة، معناه الإيمان الواجب وليس أصل الإيمان ، كما أنه مثل النائم الذي روحه معه وتخرج لكن قريبة منه.
وعند المرجئة : هو مؤمن كامل الإيمان، لا ينتفي اسم الإيمان عنه ولا يسلب .
وعند الخوارج : كافر ليس بمؤمن . وعند المعتزلة: هو في منزلة بين المنزلتين.

السابعة عشرة: من لم يتكلم بالشهادتين مع القدرة فهو كافر بالإجماع .
قال ابن تيمية في الإيمان :(الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين وهو كافر باطناً وظاهراً) الفتاوى ٧/ ٦٠٩ .
من أقوال الأشاعرة الباطلة : إن النطق بالشهادتين ليس شرطاً في الدخول في الإسلام والإيمان يكون بدونه،ومن لم ينطق بالشهادتين مع قدرته عليها إذا كان عارفاً مصدقاً عالماً بصدق الرسول مؤمناً في الباطن فهو من أهل الجنة .
مسألة : ولا يجزئ عن شهادة التوحيد شيء، ومن كان أعجمياً وجب تلقينه لفظها وتعليمه بلغته معناها، فالتلفظ بها ركن واجب .
لا حجة للمخالف بحديث: (من استقبل قبلتنا) في إسقاط وجوب التكلم بالشهادتين، لأن مقصود الحديث في ضابط المسلم لا ما يدخل به المرء في الإسلام.
وبهذا يتبين خطأ من قال: إن من صلى ولم يتكلم بالشهادتين عمدا يصير مسلماً كابن أبي العز وغيره ، حين قال في شرح الطحاوية : (فمن صلى ولم يتكلم بالشهادتين أو أتى بغيرها من خصائص الإسلام ولم يتكلم بهما هل يصير مسلما أم لا؟ والصحيح أنه يصير مسلماً بكل ماهو من خصائص الإسلام) ١٣٩ .

المسألة الثامنة عشرة : النطق بالشهادتين لا تنفع صاحبها إلا بأمرين :
١- العمل بمقتضاها والالتزام بها والانقياد لها والإتيان بشروطها وأركانها .
٢- عدم الإتيان بناقض يفسدهما ويبطل مدلولها ومعناها وحقيقتها .

مسألة : من كان جاحداً أو قائماً على كفر معين فالتلفظ بالشهادة لا تكفيه حتى يقلع عن كفره أو ما كان سبباً في خروجه من الإسلام به ويتبرأ منه .

وفي فتح المجيد وفتح الباري قال الحلبي :" لو قال الوثني لا إله إلا الله وكان يزعم أن الصنم يقربه إلى الله لم يكن مؤمناً حتى يتبرأ من عبادة الأصنام " .

التاسعة عشرة:الفرق بين ما يدخل به المرء في الإسلام وما يحكم له باستمراره:

فالدخول في الإسلام وحتى يحكم به ويصح أن يقال فلان مسلم، يكفي فيه النطق بالشهادتين، أما استمرار الإسلام والحكم على المعين بأنه مسلم فلا بد فيه من شرطين الالتزام وعدم الوقوع في ناقض .

العشرون:من كان كافراً وسيموت مؤمناً فهو حال كفره يعتبر كافراً وليس مؤمناً وكذلك من كان مؤمناً ولكن سيموت مرتداً كافراً يعتبر مؤمناً وليس بكافر.

وعند الأشاعرة العبرة بالموافاة فمن علم الله أنه سيموت على الإيمان فهو لا يزال مؤمناً ولياً لله حتى حال كفره، ومن علم أن سيبدل دينه ويكفر ويموت على الردة أنه كافر حال إيمانه ولا يعتبر بحاله وإنما العبرة بالمآل والموافاة وما يتوفى عليه الإنسان ويوافي العبد ربه من إيمان وكفر. ومن قبيح قولهم أن أبا سفيان حين قاتل النبي ﷺ وشج رأسه أنه في تلك الحالة كان محبوباً لله واللهُ راضٍ عنه وهو مؤمن.

وسبب قولهم هذا: راجع لفساد قولهم فيَ الصفات وتعطيلهم الصفات الاختيارية الفعلية فعندهم لا تتجدد الصفات ولا تحدث ولا تبعض فصفات الرضا والغضب والمحبة والبغض قديمة لا تتغير ولا تتبعض .

م (٢١) الكافر مأمور بالفرائض وفروع الإيمان والشريعة ومخاطب بذلك:

الصحيح أنه مأمور مخاطب بها ولكن لا تقبل منه إلا بعد أن يأتي بالأصل.

المسألة الثانية والعشرون : هل الإيمان مخلوق؟

هذه عبارة مجملة فالإيمان الذي هو فعل العبد وتصديقه وصلاته وقراءته للقرآن مخلوق وأما كلام الله وأمره فهي صفات الله ليست مخلوقة.

وهذه المسألة ترجع لمسألة لفظي بالقرآن هل هو مخلوق وهي من بدع أهل الكلام وألفاظهم المجملة التي تحتاج لاستفصال .

الثالثة والعشرون : فوائد ذكر أركان الإيمان الستة:

أولاً : سر ذكر الإيمان بالرسل والكتب والملائكة :

أنها وسائط بيننا وبين الله فهي مبلغة مراد الله وأمره،وتدخل في عموم ربوبيته.

ثانياً : جميع أركان الإيمان تعتبر من أفعال ربوبيته :

الإرسال للأنبياء والملائكة . الكتابة والوحي . البعث . القدر .

ثالثاً : الإيمان بهذه الأركان على قسمين : الإيمان المجمل والمفصل .

رابعاً : كلما زاد علم العبد بها وصدق زاد إيمانه وزادت رفعته عند الله.

والدليل: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ المجادلة: ١١.

فائدة :حديث : (الإيمان بضع وسبعون شعبة) متفق عليه :

دل على مسائل مهمة :

١- أن الإيمان مركب من شعب .

٢- أنه متفاضل ومنه الأعلى في المنزلة والأجر ومنه الأدنى.

٣- أن الإيمان قول واعتقاد وعمل والحديث مثّل للأنواع الثلاثة.

المسألة الرابعة والعشرون : اجتماع شعب إيمان وشعب كفر .

قد يجتمع في الشخص شعبة من الكفر الأصغر مع شعبة من الإيمان الصحيح، وشعبة من الإيمان مع الكفر الأكبر فيحصل تبعضهما وتركبها من حقائق .

والدليل : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦ .

عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) متفق عليه.

وهذا في النفاق الأصغر أما الأكبر فلا يجتمع مع الإيمان الصحيح.

قال ابن تيمية : (وقد يجتمع في العبد نفاق وإيمان وكفر وإيمان ... فبعض الناس يكون معه شعبة من الكفر ومعه إيمان أيضا ، وعلى هذا ورد عن النبي ﷺ تسمية كثير من الذنوب كفرا) الفتاوى ٧/ ٣٥٥ .

قال ابن القيم : (الكفر ذو أصل وشعب ، فكما أن شعب الإيمان إيمان فشعب الكفر كفر ، والمعاصي كلها من شعب الكفر) . الصلاة ٣٤ .

قال ابن القيم : (لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمنا ، وإن كان ما قام به إيمانا . ولا من قيام شعبة من شعب الكفر به أن يسمى كافراً ، وإن كان ما قام به كفرا . ولا ينفعه مما معه من إيمان إن كان المتروك شرطا في اعتبار الباقي) الصلاة ٤٠ .

المسألة الخامسة والعشرون: اجتماع الإيمان والشرك:

قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦ .

الإيمان والشرك هنا لهما معنيان : والآية فيها تأويلان للسلف :

الأول : المراد بالإيمان هنا توحيد الربوبية والإيمان بكون الله خالقا ، والشرك هو الشرك في الألوهية فلا يقبل هذا الإيمان ولا يعتبر به ولا يصح ولا يسمى إيمانا من حيث الإطلاق الشرعي، وذلك لعدم وجود التوحيد فيه واقتران الشرك به .

قال ابن عباس : (من إيمانهم إذا سئلوا من خلق السماء والأرض قالوا الله وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره ويسجدون للأنداد دونه).

وقال مجاهد : (إيمانهم قولهم الله خالقنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره).

الثاني : الإيمان هنا هو الأصلي والشرك المقصود به الأصغر . فيكون المراد بالإيمان في الآية هو الإيمان الشرعي المقبول والمقترن بتوحيد الربوبية الألوهية ويكون الشرك المقصود به في الآية الشرك الأصغر كالحلف بغير الله وكيسير الرياء وإسناد النعم لغير الله وشكر الناس على ما أنعم الله به عليهم.

المسألة السادسة والعشرون : أنواع الإسلام : حقيقي وحكمي :

الإسلام الحقيقي :

هو القائم بالمسلم المؤمن والذي يوافق باطنه ظاهره، ويدخل به صاحبه الجنة، وهو ضد الكفر ويعتبر مسلماً حقاً وحكماً ويترتب عليه أحكام الآخرة.

الإسلام الحكمي الاسمي:

وهو الذي نحكم على صاحبه وفاعله بالإسلام الظاهر دون الباطن، والذي تجري به أحكام الدنيا النكاح والميراث والجنائز الذبائح وعصمة الدم والمال وغيرها.

وهذا يثبت بالإقرار بالشهادتين أو إظهار شعائر الإسلام .

فمعنى حكمي : أي أن صاحبه قد أتى بها يحكم بإسلامه ونجري عليه أحكام الإسلام في الدنيا فهو الحكم على الظاهر، ولو لم يكن في الحقيقة مسلماً عند الله بل يكون مرتداً كافراً أو مشركاً أو منافقا، كما كان الحال مع المنافقين زمن النبي ﷺ.

ولا يعني حكمنا عليه بالإسلام أننا لا نكفره متى فعل مكفراً وظهر منه كفراً.

قال البربهاري : (وإذا لم يفعل شيئاً - من النواقض - فهو مؤمن مسلم بالاسم لا بالحقيقة).شرح السنة ٧٣ .

قال الثوري وابن المبارك : (الناس عندنا مؤمنون في المواريث والأحكام ولا ندري كيف هم عند الله) الإبانة الصغرى ص: ١٢٢ .

ويدل لهذا الأصل قوله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) متفق عليه.

وقوله تعالى : ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ التوبة: ٥.

فجملة : ﴿ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ (وحسابهم على الله) :

تدلان على الإسلام الحكمي، وأن الحقيقي هو ما يحاسب عليه الله بالجنة ويقبله، وإذا لم يقبله فإنه يبقى حكمنا على صاحبه بالإسلام لقوله التوحيد ويعصم دمه في الدنيا وأما في الآخرة فمصيره النار لكفره ونفاقه باطنا، كما يدل لهذا الأصل خبر الذي أسلم فقتله أسامة بن زيد .

وقوله : (إلا بحقها) : يدل على أن من فعل كفراً وأظهره أو علمنا به فإن قوله لكلمة التوحيد لا تعصم دمه، وكذا لو زنا وهومحصن أو قتل فإنه يقتل ويهدر دمه .

السابعة والعشرون: الأصل أن الحكم في الناس للظاهر:

يجب معاملة الناس بالظاهر في الإسلام والتكفير ، فمن أظهر الإسلام حكمنا بإسلامه ومن أظهر كفرا صريحاً كفرناه إلا إذا تيقنا من وجود مانع وعذر :

قال عمر ﷺ: (إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله، وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا منكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمّنّاه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء ، الله يحاسب سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نُصدّقه وإن قال إن سريرته حسنة) رواه البخاري .

الثامنة والعشرون : أقوال الفرق المبتدعة في الإيمان والأسماء والأحكام:

القول الأول: مذهب أهل السنة:

أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، وأن أعمال الجوارح ركن في الإيمان، والأعمال منها ما تركه كفر ومنها ما تركه ليس بكفر.

القول الثاني: مذهب الخوارج والمعتزلة:

الإيمان قول وعمل لكن كل عمل ركن في الإيمان ففعل جميع الطاعات وترك المحرمات ركن في الإيمان ومن ترك واجباً أو فعل محرماً زال إيمانه واستحق الخلود في النار. وأما في الدنيا فالخوارج يكفرونه ، والمعتزلة يقولون في منزلة بين المنزلتين .

القول الثالث: قول الكرامية: الإيمان عندهم قول اللسان دون قول القلب وعمله ودون عمل الجوارح، والكرامية قد انقرضت وزالت أقوالها في الإيمان.

القول الرابع: قول المرجئة ، وهم طائفتان :

مرجئة الفقهاء والحنفية : الإيمان عندهم قول القلب وتصديقه وعمل القلب من محبة وإقرار وقول اللسان وإقراره ، وأخرجوا عمل الجوارح من مسمى الإيمان.

الجهمية والأشعرية:الإيمان عندهم مجرد قول القلب : التصديق والمعرفة فقط. وأخرجوا عمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح.

وأخذ بقولهم الأشاعرة والماتريدية، كما أخذ به مرجئة العصر أدعياء السلفية .

وهناك طوائف من المرجئة انقرضت وسيأتي الكلام عنها .

تنبيه: وسطية أهل السنة في باب الإيمان والأسماء والأحكام بين الوعيدية من الخوارج والمعتزلة والوعدية وهي المرجئة من الفقهاء والجهمية والأشاعرة.

المسألة التاسعة والعشرون: نواقض الإيمان أصله وكماله خمسة أبواب :

الكفر ، الشرك ، النفاق ، البدعة ، الفسق .

المسألة الثلاثون : العصمة والهدر . لاعصمة للدم إلا بأمان أو إيمان .

أولاً : عواصم الدم: الإسلام للمسلم ، العهد والأمان للكافر.

ثانياً : مهدرات الدم : الردة ، القصاص، الحرابة ، الزنا للمحصن واللواط .

تنبيه : يتبع مبحث الإيمان مسائل الأسماء والأحكام ، وما يلحقها من أحكام التكفير وحكم الردة والمرتد ومسائل النفاق وحقيقة الإسلام والكفر والشرك.

وقد أفردت هذه الأبواب بكتب مستقلة والحمد لله على فضله.

الباب الثاني : المرجئة ونقض عقيدة الإرجاء

الفصل الأول : المرجئة القديمة

المسألة الأولى : تعريف المرجئة :

جمع مرجئ ، وهو الذي لا يجعل العمل من مسمى الإيمان، ويخرج منه العبادة الظاهرة البدنية ، كما أن الكفر لا يكون إلا بالقلب، ولا يتصور من الجوارح كفر .

الثانية : معنى المرجئة:

مأخوذ من الإرجاء ، وهو إخراج الأعمال عن الإيمان وجعلها شرط كمال.

الثالثة : سبب تسميته بالإرجاء :

من تأخير العمل عن اسم الإيمان .

أو من الرجاء وهو تغليب جانب الرجاء على جانب الخوف.

الرابعة : يقابل المرجئة بطوائفها الوعيدية من خوارج ومعتزلة.

الخامسة : متى حدث القول بالإرجاء :

حدثت فتنة الإرجاء بعد قول الخوارج فردوا بدعتهم ببدعة أخرى .

وكانت بعد فتنة ابن الأشعث سنة ٨٣ هـ .

قال قتادة:(إنما أحدث الإرجاء بعد هزيمة ابن الأشعث) الإبانة لابن بطة.

قال ابن القيم : (ثم حدثت بدعة الإرجاء بعد انقراض عصر الصحابة، فتكلم فيها كبار التابعين الذين أدركوها) تهذيب السنن .

قال ابن تيمية : (في أواخر عصر الصحابة حدثت بدعة القدرية والمرجئة فأنكر ذلك الصحابة والتابعون) منهاج السنة ٧/ ٢٣١.

وأما بدعة غلاة المرجئة الجهمية التي أسسها الجهم بن صوان المقتول ردة سنة ١٢٨هـ ، فقد حدثت بعد زمن التابعين ، وكفر السلف من قال بقوله في الإيمان.

السادسة : الأحاديث الواردة في المرجئة

قال النبي ﷺ : (صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب القدرية والمرجئة) رواه الترمذي وابن ماجة والطبري والطبراني في الأوسط والبخاري في تاريخه وغيرهم عن ابن عباس وابن عمر ومعاذ وجابر وأبي سعيد . بأسانيد تبلغ بالحديث درجة الحسن والله أعلم ، بينما ضعفه الأكثر كيحي بن معين وغيره .

وروي عنه ﷺ : (لعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبياً وأنا آخرهم).

أخرجه ابن أبي عاصم عن معاذ والطبري في تهذيب الآثار عن أبي أمامة وابن بطة في الإبانة عن أبي هريرة والآجري في الشريعة .

وروي عنه ﷺ : (صنفان من أمتي لا يردان الحوض القدرية والمرجئة) أخرجه ابن أبي عاصم وابن جرير في تهذيب الآثار وغيرهم .

وروي عنه ﷺ : (صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي المرجئة والقدرية) أخرجه ابن أبي عاصم وابن جرير في تهذيب الآثار واللالكائي وغيرهم .

وروي عند الطبراني في الأوسط : (لكل أمة مجوس ولكل أمة نصارى ولكل أمة يهود ، وإن مجوس أمتي القدرية ونصاراهم الحشوية ويهودهم المرجئة) .

وروي عنه ﷺ : (ما بعث الله نبياً إلا كان في أمته من بعده قدرية ومرجئة يشوشون عليه أمر أمته ، ألا وإن الله لعن القدرية والمرجئة) أخرجه ابن عدي .

السابعة : موقف السلف من المرجئة:

أولاً : المرجئة الفقهاء :

١- قال الزهري:(ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على أهله من الإرجاء) .
أخرجه الآجري في الشريعة وابن بطة في الإبانة.

٢- قال الأوزاعي : (كان يحي وقتادة يقولان ليس من الأهواء شيء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء) .أخرجه الآجري في الشريعة وابن بطة في الإبانة.

٣- قال سفيان قال إبراهيم : (تركت المرجئة الدين أرق من ثوب سابري) .
أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة واللالكائي في أصول الاعتقاد.

٤- قال إبراهيم النخعي : (أنا لفتنة المرجئة أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة) والأزارقة هم غلاة الخوارج . أخرجه الخلال في السنة وابن بطة .

٥- قال سعيد بن جبير : (المرجئة يهود القبلة) ، وقال عنهم الصابئة.
أخرجه عبدالله في السنة وابن بطة.

٦- قال شريك : (المرجئة أخبث قوم ، وحسبك بالرافضة خبثاً ولكن المرجئة يكذبون على الله تعالى) أخرجه عبد الله في السنة وغيره .

٧- قال ابن بطة :(أما المرجئة فعلى دين الملوك).الإبانة : ١٠٥ .

٨- قال النضر بن شميل: (الإرجاء دين يوافق أهواء الملوك، يصيبون به من دنياهم وينقصون به من دينهم)، قال المأمون صدقت. تاريخ ابن كثير ١٠/ ٢٧٦ .

ثانياً : كلام السلف في أبي حنيفة :

عقد عبد الله ابن الإمام أحمد في كتابه السنة باباً في الطعن في أبي حنيفة ، ومثله حرب الكرماني والخطيب وغيرهم. وسأسوق من كتاب السنة كلام السلف فيه.

قال عبد الله : سمعت أبي يقول عن عبد الرحمن بن مهدي : (من حسن علم الرجل أن ينظر في رأي أبي حنيفة) .

(يؤجر الرجل على بغض أبي حنيفة) الإمام أحمد بن حنبل.

(ما قول أبي حنيفة عندي والبعرة إلا سواء) أحمد.

(لا أعلمه إلا ينقض عرى الإسلام) الأوزاعي .

(ما ولد في الإسلام على هذه الأمة أشأم من أبي حنيفة) الأوزاعي وسفيان.

(أبو حنيفة غير ثقة ولا مأمون ، استُتيب مرتين) الثوري وابن عيينة.

(قدم أبو حنيفة فقال سفيان قوموا بنا لا يعدينا هذا بجربه) سفيان الثوري.

وقال : (ضرب الله ﷻ على قبر أبي حنيفة طاقا من نار) .

(لا ينبغي أن تسكن بلد يذكر فيه أبو حنيفة، أبو حنيفة ينقض السنن، هو من الداء العضال ، ما ولد في الإسلام أضر على الإسلام من أبي حنيفة) الإمام مالك .

(إنما يعرف أبو حنيفة بالخصومة في الإرجاء) حماد بن زيد.

(إن أبا حنيفة استقبل الآثار والسنن بردها برأيه) .

وكان عبد الله بن المبارك قد أخذ عن أبي حنيفة قبل علمه برأيه الفاسد في الإيمان والأخذ بالرأي، فلما علم محا رواياته وشطب اسمه من كتبه وقال:(اضربوا على حديث أبي حنيفة فإني قد خرجت على حديثه ورأيه) (ابتليت به).

(استقضاء فلان الجهمي أشد من خروج الدابة والدجال).

(ترك أبوحنيفة هذا الدين أرق من ثوب سابري) أيوب السختياني .

فهذا كلام أهل العلم ولم أجد إماما من السلف أثنى على أبي حنيفة .

قال ابن أبي داود : (الوقيعة في أبي حنيفة إجماع من العلماء ، وتكلم فيه أئمة الأفاق أيوب السختياني الثوري والليث والأوزاعي وابن المبارك) .

(وسأل ابن أبي داود أصحابه: ماتقولون في مسألة اتفق عليها مالك وأصحابه والشافعي وأصحابه والأوزاعي وأصحابه والثوري وأصحابه وأحمد بن حنبل وأصحابه ؟ فقالوا يا أبا بكر لا تكون مسألة أصح منها ، فقال هؤلاء كلهم اتفقوا في تضليل أبي حنيفة) . الضعفاء لابن عدي٧/ ١٠ ، تاريخ بغداد ١٥/ ٥٢٧ .

وقال سليمان بن حرب ليحي بن أكثم عن أبي حنيفة : (كان بزمانه أئمة ، فأخبرني برجل واحد حمد أمره ورأيه) المعرفة والتاريخ ٢/ ٧٩٤.

ومن دافع عن أبي حنيفة من جهال المتأخرين، وزعم أن الكلام فيه من كلام الأقران، فقد فسد ظنه بأئمة الإسلام وأساء أدبه مع السلف كلهم ، حيث أراد أن يدافع عن أبي حنيفة فقدح من حيث لا يدري بمن تكلم فيه من الأئمة وجهلهم.

قال المعلمي:(محاولة الكوثري في دفاعه عن أبي حنيفة الطعن في أئمة الإسلام كالثوري والفزازي والحميدي وأحمد والبخاري وغيرهم) التنكيل ١/ ٤٢٧.

وعد الخطيب البغدادي في تاريخه خمسة وثلاثين إماما تكلموا في أبي حنيفة.

وأنكر أن يكون أحداً أثنى عليه ، إلا ابن المبارك وقد رجع عن ذلك وذمه.

ثالثا: كلام السلف في الجهمية وحكم السلف بتكفيرهم:

قال الإمام أحمد : (الجهمية كفار) . أخرجه الخلال في السنة وابنه عبد الله .

وقال البربهاري في شرح السنة : (الجهمي كافر ليس من أهل القبلة) .

قال البخاري في من لا يكفر الجهمية : (وإني لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم) خلق أفعال العباد ٣٥.

قال الدارمي في الرد على الجهمية: (وأي فرق بين الجهمية وبينهم – أي المشركين – حتى نجبن عن قتلهم وإكفارهم) .

قال ابن بطة والبربهاري في بعض أعيانهم: (فإن هؤلاء كانوا على الردة).

ونقل الإجماع على كفرهم جماعة منهم اللالكائي ونقل قول أكثر من خمسمائة عالم صرحوا بكفر الجهمية بل وتكفيرهم من لم يكفر الجهمية.

قال اللالكائي: (فهؤلاء خمس مائة وخمسون نفساً أو أكثر من التابعين وأتباع التابعين والأئمة المرضيين ، على اختلاف الأعصار وفيهم نحو مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم وتدينوا بمذهبهم ، ولو اشتغلت بنقل أقوال المحدثين لبلغت أسمائهم ألوفاً كثيرة، لكني اختصرت .. لا ينكر عليهم منكر ومن أنكر قولهم استتابوه أو أمروا بقتله). ٤٩٣. وكلامهم في الباب أكثر من أن يحصر .

بل إن السلف كفروا من لم يكفر الجهمية ، كما نقلنا ذلك عنهم في مواضع.

والأشاعرة الذين أخذوا بقول الجهمية صرح كثير من العلماء بتكفير أعيانهم.

وقد نقلنا كلامهم في كتاب الرد على الأشاعرة.

وقد رد على المرجئة جماعة من العلماء بكتب مستقلة ، منهم :
١- الإمام أحمد .
٢- الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام.
٢- ابن أبي شيبة .
٣- ابن مندة الأصفهاني.
٤- العدني .
٥- أبو يعلى .
كما نقض السلف أقوالهم في كتبهم ، منهم :
١- عبدالله بن أحمد في السنة .
٢- الخلال في السنة.
٣- الآجري في الشريعة .
٤- ابن بطة في الإبانة .
٥- اللالكائي في الاعتقاد.
قال ابن القيم في النونية عن المرجئة :
وكذلك الإرجاء حين تقر بالـ معبود تصبح كامل الإيمان
فارم المصاحف في الحشوش وخرب البيت العتيق وجدّ في العصيان
واقتل إذا ما استطعت كل موحد وتمسحن بالقس والصلبان
هذا هو الإرجاء عند غلاتهم من كل جهمي أخي الشيطان
الثامنة : صفات المرجئة ومفاسدهم:
الكذب في دين الله .
نصرة الطواغيت وتهوين الكفر وجرائم الطواغيت.
إرضاء الملوك وموافقة أهوائهم.
تجريء الناس على الدين وترك التعظيم .
الدعوة لاحتقار الدين في قلوب الناس .
تسويغ المنكرات .
اللعب بالدين الزندقة .
وإليك شيئا من صفات المرجئة وما يميز منهج الإرجاء:
أولاً : الاستهانة بأمر الدين وفي هذا خطورة على الإسلام وأهله:

ابتلينا في هذا الزمان بالمرجئة الذين جعلوا التوحيد في معزل عن الناس.
قال سفيان قال إبراهيم : (تركت المرجئة الدين أرق من ثوب سابري) .
أخرجه عبد الله في السنة واللالكائي والآجري.
قال الزهري : (ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على أهله من الإرجاء) .
قال الأوزاعي : (كان يحي وقتادة يقولان ليس من الأهواء شيء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء) .أخرجه والأثر السابق الآجري في الشريعة.
وقال إبراهيم النخعي : (أنا لفتنة المرجئة أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة) والأزارقة هم غلاة الخوارج . أخرجه الخلال في السنة.

ثانياً: دفاعهم عن الملوك وموافقتهم لأهوائهم وتأييدهم كل كفر يظهرونه.

قال ابن بطة عن بعض السلف: (**أما المرجئة فعلى دين الملوك**) الإبانة ١٠٥ .
ولما سأل المأمون النضر بن شميل ماالإرجاء؟ فقال:(**دين يوافق أهواء الملوك،** يصيبون به من دنياهم وينقصون به من دينهم)، قال صدقت. تاريخ ابن كثير ١٠/ ٢٧٦.

ثالثاً : عداوة المرجئة أهل التوحيد ودفاعهم عن الطواغيت :

ومن عجيب ما رأيته في المرجئة على الدوام أنهم يقولون في كل كافر جلد محارب للدين ومرتكب الردة المغلظة وأصناف النواقض وأنواع الشرك أنه لم يستحل وهو معظم لله محب لرسوله وله أعمال صالحة وصدقات، وأن الحجة لم تقم عليه ، وإني لأقول في هؤلاء الجهلة : إنهم هم الذين يحتاجون لإقامة الحجة عليهم ويخشى عليهم من الردة في توقفهم في تكفير المشركين وتصحيح ما هم عليه من الكفر.

رابعاً : ادّعاء المرجئة مذهب السلف :

رأيت أهل الإرجاء في كل زمن يدعون الانتساب لمذهب السلف ومخالفة الجهمية وهم مناصرون لهم . وقد ذكر هذه الصفة عنهم جماعة من العلماء :
قال أبو نصر السجزي في رسالته لأهل زبيد ت٤٤٠: «اعلموا أرشدنا الله وإياكم أنه لم يكن خلاف بين الخلق على اختلاف نحلهم من أول الزمان إلى الوقت الذي ظهر فيه ابن كلاب والقلانسي والصالحي والأشعري وأقرانهم الذين يتظاهرون بالرد على المعتزلة وهم معهم بل أخس حالاً منهم في الباطن».
إن دعوى الأشاعرة أنهم ليسوا من الجهمية المرجئة وأن بينهما فرق يذكرني بما يشبه قولهم من دعوى بعض المرجئة المعاصرة من أدعياء السلفية والمنتسبين إلى أهل السنة والحديث أن قولهم لا يكفر إلا المستحل الجاحد مذهب أهل السنة وأنه ليس

مذهب المرجئة وأنهم يتبرءون من الإرجاء وأهله كما تتبرأ الأشاعرة من الجهمية وأتباعهم ، فالطائفتان في الحقيقة يتبرؤون من أنفسهم من حيث لا يشعرون وكل قوم بما لديهم فرحون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

قال ابن تيمية : (وكثير من المتأخرين لا يميزون بين مذهب السلف وأقوال المرجئة والجهمية لاختلاط هذا بهذا في كلام كثير منهم ممن هو في باطنه يرى رأى الجهمية والمرجئة في الإيمان وهو معظم للسلف وأهل الحديث فيظن أنه يجمع بينهما أو يجمع بين كلام أمثاله وكلام السلف). الفتاوى ٧/ ٣٦٤ ومثله ٧/ ٤٠٣.

كلام ابن تيمية عن مرجئة عصره يحكي مزاعم مرجئة عصرنا وزعمهم أنهم من السلفية ولمنهج السلف نقضوا وأنهم من أتباع أئمة التوحيد وللتوحيد هدموا .

قال إسحاق بن عبد الرحمن: (سمعنا من فريق ممن يدعي العلم والدين وممن هو بزعمه مؤتم بالشيخ محمد بن عبد الوهاب إن من أشرك لا يطلق عليه الكفر والشرك بعينه ... ولا تطلق على المشرك الكفر حتى تعرفه ... ويقول هؤلاء لمن يعبد القباب فعلك هذا شرك وليس هو بمشرك) تكفير المعين ٧ .

قلت ذكرني قول الشيخ إسحاق وهو يكذب بعض دعاة زمانه في زعمهم أنهم على منهج إمام الدعوة والطريقة السلفية ويرد على قولهم بعدم تكفيرهم من وقع في الردة والنواقض والقول بأنهم يكفرون الفعل ولا يكفرون فاعله وامتناعهم من تعيين من وقع في الشرك بالكفر ومن لا يكفر المشركين والمرتدين إلا بالعموم بأدعياء السلفية في وقتنا من الخلوف والجامية وغيرهم أنهم متبعون منهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهم من أعظم من يخالفه.

ونحن نقول في مرجئة زماننا ما قاله سلفنا في مرجئة زمانهم .

وقد خرج رد جيد للجنة الدائمة التي يقدسها السلفية الإرجائية والجامية الجهمية على إرجائهم التجهمي المعاصر كما حذرت اللجنة من كتبهم .

وفي هذا إظهار لغشهم وتدليسهم وتلبيسهم وتكذيب لدعاويهم وفضح لكذبهم ، ونقض ادعائهم السلفية ومذهب أهل السنة وكيف هم على منهج السلف وهم الذين أماتوه وأحيوا مذهب المرجئة الغلاة ودعوا لمنهج الجهمية الأولى.

فالسلفية التي هم عليها سلفية الجهمية فالجهم والأشعري هم أسلافهم، وليس أهل السنة والسلف الصالح لهم بسلف ، وإن تشدقهم بمنهج السلف كتشدق اليهود بإتباع ملة إبراهيم، فصدق فيهم قول السلف المرجئة يهود القبلة.

المسألة التاسعة : اجتماع المرجئة مع بعض الفرق :

قاعدة : دائما ما يقترن الإرجاء والجبر والتعطيل والشرك.

فكله هذه العقائد تدعوا للشرك وتهون الدين وتنافي تعظيم الرب تعالى.

أولاً : الجمع بين القدرية الجبرية والمرجئة :

العلة من الجمع بينهما في الآثار ، لأنهما سبب في الطعن في التوحيد .

قال ابن تيمية : (قرنت القدرية بالمرجئة ، لأن كلا من هاتين البدعتين تفسد الأمر والنهي والوعد والوعيد) الفتاوى ٨/ ١٠٥ ، ١٦/ ٢٤١.

ثانياً : اجتماع الصوفية القبورية مع المرجئة في أمرين :

١- أن الشرك في الربوبية وليس في العبادة والألوهية.

٢- أن الشرك في الاعتقاد دون العمل .

تنبيه : سبّب الإرجاء ظهور الشرك وتهوينه وعبادة القبور.

المسألة العاشرة : أنواع فرق المرجئة :

١- المرجئة الخالصة : وهي الفرق التي اقتصرت على بدعة الإرجاء فقط ولم تقل ببدعة غير الإرجاء، كاليونسية ، ومرجئة عصرنا أدعياء السلفية.

٢- فرق المرجئة التي جمعت بدعاً غير الإرجاء كالقدر والجبر والتعطيل.

المسألة الحادية عشرة : المرجئة افترقوا على طائفتين:

الطائفة الأولى: مرجئة الفقهاء والمحدثين.

ومن رؤوس المرجئة :

١- إبراهيم التيمي ت ٩٢.

٢- طلق بن حبيب .

٤- ذر بن عبد الله المرهبي الهمداني ت ١٠٠ .

٥- حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة ت ١٢٠ . وقيل أنه هو أول من قال به.

٦- أبو حنيفة ٨٠هـ - ١٥٠هـ .

ومنهم : سالم الأفطس ومحمد بن حازم وعمرو بن مرة وعمر بن ذر وعبد العزيز بن أبي رواد وابنه عبد المجيد وإبراهيم بن طهمان وشبابة بن سوار.

وكان قاعدة المرجئة الكوفة .

الطائفة الثانية: مرجئة المتكلمين وهم الجهمية والأشاعرة والماتريدية.

وهذا الذي استقر دعاة الإرجاء عليه ، وقد كفر السلف من قال بقولهم.

الثانية عشرة : فائدة نفيسة في حقيقة المرجئة والتفريق بينهم وبين الجهمية :

سُئل الإمام أحمد عن المرجئة ، وأنهم يقولون إذا عرف الرجل ربه بقلبه فهو مؤمن فقال : (المرجئة لا تقول هذا ، بل الجهمية تقول بهذا ، المرجئة تقول حتى يتكلم بلسانه وتعمل جوارحه والجهمية تقول إذا عرف ربه بقلبه وإن لم تعمل جوارحه وهذا كفر) . نقله عنه الخلال في السنة ٣/ ٥٧٠ .

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: (قالت المرجئة: الإقرار بما جاء من عند الله ﷻ يـُجزئ عن القول والعمل ، وقالت الجهمية: المعرفة بالقلب بما جاء من عند الله يُجزئ عن القول والعمل ، وهذا كفر). السنة ٣٩٩، فكفر الجهمية دون المرجئة .

قال وكيع: (الجهمية كفار ، وعلمتم كيف كفروا ، قالوا يكفيك المعرفة ، وهذا كفر ، والمرجئة يقولون الإيمان قول بلا فعل وهذا بدعة) خلق أفعال العباد ٣٤ .

قال الفضيل : (قال المرجئة: الإيمان قول بلا عمل . ويقول الجهمية : الإيمان المعرفة بلا قول ولا عمل .ويقول أهل السنة : الإيمان المعرفة والقول والعمل)

وقال : (الدين التصديق بالعمل . وقالت المرجئة : الصلاة والزكاة ليست من الإيمان ، ولو كان القول كما قالوا لم يقاتل أبو بكر أهل الردة) . السنة لعبد الله ٥٧٩ .

قال ابن تيمية : (التكلم بالكفر من غير إكراه كفر في نفس الأمر حتى عند المرجئة خلافا للجهمية) الأصفهانية ١٢٤ .

وقال : (قول جهم في الإيمان قول خارج عن إجماع المسلمين بل السلف كفروا من يقول بقوله) ٧/ ١٤١ .

وقال: (السلف لم يتنازعوا في عدم تكفير المرجئة والشيعة المفضلة) ٣/ ٣٥١.

تنبيه : السلف إذا قالوا المرجئة فإنما يقصدون الفقهاء وإذا أرادوا المتكلمين لم يقولوا المرجئة وإنما يقولون الجهمية فيقولون قالت المرجئة في الإيمان كذا .. وقالت الجهمية والأشعرية كذا .. مما يدل على أن المرجئة المتكلمين أشد ضلالاً وقولهم أعظم فساداً وخطورة ، ويلزمهم من اللوازم الفاسدة ما لا يلزم مرجئة الفقهاء، وقد كفر السلف الجهمية دون المرجئة ، وانظر دلالة على هذا كتب السلف كالإبانة لابن بطة وأصول اللالكائي والسنة للخلال والسنة لعبد الله والشريعة للآجري.

المسألة الثالثة عشرة : حقيقة الخلاف بين أهل السنة ومرجئة الفقهاء :

الخلاف معنوي وله ثمرة وليس لفظي كما ظن بعضهم .ومما يظهر فيه حقيقة الخلاف : تكفير تارك العمل .فعند أهل السنة كافر وعند المرجئة ليس بكافر.

الرابعة عشرة : أقوال الفرق المبتدعة في الإيمان والأسماء والأحكام:

تنبيه: وسطية أهل السنة في باب الإيمان والأسماء والأحكام بين الوعيدية من الخوارج والمعتزلة والوعدية وهي المرجئة من الفقهاء والجهمية والأشاعرة.

الأقوال في الإيمان:

ترجع الأقوال في الإيمان إلى تسعة وهي راجعة لأركان الإيمان الأربعة:

قول القلب وهو العلم والمعرفة والتصديق، وعمل القلب وهو إقراره ومحبته، وقول اللسان وهو إقراره ونطقه بالشهادتين، وعمل الجوارح وهو انقيادها.

القول الأول: مذهب أهل السنة:

أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، وأن أعمال الجوارح ركن في الإيمان، والأعمال منها ما تركه كفر ومنها ما تركه ليس بكفر.

القول الثاني: مذهب الخوارج والمعتزلة:

أن الإيمان قول وعمل ولكن كل أعمال الجوارح ركن في الإيمان ففعل جميع الطاعات وترك جميع المحرمات ركن في الإيمان ومن ترك واجباً أو فعل محرماً زال عنه الإيمان وكان من أهل النار هذا حكمه في الآخرة .

وأما في الدنيا فالخوارج يكفرونه ، والمعتزلة يقولون في منزلة بين المنزلتين .

وهذا القول لا يزال موجوداً في الزيدية والإباضية وهي موجودة في وقتنا.

القول الثالث: قول الكرامية:

الإيمان هو قول اللسان دون قول القلب وعمله ودون عمل الجوارح، والكرامية قد انقرضت وزالت أقوالها في الإيمان.

القول الرابع: قول المرجئة الفقهاء وأبي حنيفة :

أن الإيمان قول القلب وتصديقه وعمل القلب من محبة وإقرار وانقياد وقول اللسان وإقراره ، وأخرجوا عمل الجوارح من مسمى الإيمان ، وهذه الفرقة أقرب المذاهب إلى أهل السنة حيث أدخلوا في الإيمان قول اللسان وعمل القلب فصار متكوناً من ثلاثة أركان، لكن الخلاف معها حقيقي في كفر تارك العمل.

القول الخامس: قول آخر لبعض مرجئة الفقهاء وبعض الحنفية :

هو قول القلب واللسان فهو قول بلا عمل،وأخرجوا عمل القلب والجوارح.

والفرق بين القول هذا والسابق عمل القلب فأدخلته الأولى في الإيمان وأخرجته هذه فليس من الإيمان الذي في القلب إلا التصديق والمعرفة وأما الإقرار

والمحبة والخشية وغيرها من أعمال القلوب فهي خارجة عن مسمى الإيمان.

القول السادس: قول ينسب للغسانية، والأكثر لا ينسبه لأحد:

وهو أن الإيمان عندهم قول اللسان وعمل الجوارح دون قول القلب وعمله وهذا القول قد انقرض من يقول به إن كان قد وجدوا أصلاً.

القول السابع: قول أغلب فرق المرجئة القديمة من اليونسية وغيرهم:

الإيمان ما في القلب فقط من قول وعمل وأخرجوا قول اللسان وعمل الجوارح وأدخلوا قول القلب وعمل القلب ، وهذه الفرق لم يعد لها وجود.

القول الثامن: قول الجهمية:

أن الإيمان قول القلب وهو المعرفة فقط فمن عرف الله ورسوله فهو مؤمن.

وأخرجوا عمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح ولم يذكروا التصديق.

القول التاسع: قول الأشاعرة والماتريدية والصالحية:

الإيمان هو قول القلب : التصديق والمعرفة فقط.وأخرجوا عمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح. وسيأتي أن قولهم هو نفس قول جهم ولا يوجد هناك فرق.

تنبيه : تعد الأشاعرة والماتريدية من غلاة المرجئة فهم الجهمية إذ لا فرق بين قول جهم: الإيمان هو المعرفة وبين قولهم : إنه التصديق المجرد كما سيأتي .

فائدة : الأشاعرة والماتريدية قديما في باب الإيمان كانوا على ثلاثة أقوال:

منهم من قال بقول السلف، ومنهم من قال بمذهب المرجئة الفقهاء، ومنهم من قال بقول جهم والأشعري (المعرفة والتصديق) ، وهذا الذي استقروا عليه .

والفرق أن الجهمية قالوا هو المعرفة وهؤلاء قالوا التصديق. ثم اختلفت الأشاعرة أنفسهم على قولين هل يوجد فرق بين المعرفة والتصديق المجرد عن إقرار وانقياد؟ ثم هل يوجد بعد ذلك فرق بين الجهمية والأشاعرة في الإيمان؟ وسيأتي.

حقيقة مذهب الماتريدية : يخطئ الكثير فيجعل مذهب الماتريدية في الإيمان هو قول الحنفية الأوائل (مرجئة الفقهاء) والحق أن الماتريدية على مذهب الجهمية مثل الأشاعرة ولا عبرة بوجود بعض الماتريدية الذين اتبعوا مذهب إمامهم أبي حنيفة ، إذ المعتبر هو قول الجمهور الذي استقر عليه قول متأخريهم ويجب أن يفرق بين مذهب مرجئة الفقهاء ومنهج الماتريدية والأشاعرة الذين صاروا متكلمين جهمية .

وهذه المذاهب التسعة لا يوجد منها في وقتنا إلا مذاهب أهل السنة ومذهب الخوارج والمعتزلة ومذهب الجهمية الذي عليه الأشاعرة، وقالت به مرجئة العصر.

المسألة الخامسة عشرة : الفرق بين الأشاعرة والماتريدية وبين مرجئة الفقهاء:

الأول: مرجئة الفقهاء قالوا الإقرار باللسان بالشهادتين ركن في الإيمان ولا يصح الإيمان بدونه، بينما الأشاعرة والماتريدية أخرجوا قول اللسان من حقيقة الإيمان، ثم اختلفوا هل هو شرط كمال أو شرط صحة وجمهورهم على أنه شرط كمال لإجراء أحكام الدنيا فقط، فقد يكون الرجل مؤمناً ولو لم ينطق بالشهادتين وهو قادر على الإقرار بها، أما عند المرجئة وأهل السنة أن هذا يعتبر كافرا غير مؤمن.

الثاني: مرجئة الفقهاء أدخلوا أعمال القلوب في الإيمان وما يتضمنه القلب من الإيمان فلا يكون الإيمان بمجرد التصديق بل لابد أن يكون معه انقياد وإقرار ومحبة والتزام وتعظيم وقبول وإذعان وغير ذلك من أعمال القلوب. وعند الأشاعرة والماتريدية هذه كلها ليست من الإيمان وليست شرطاً له فالإيمان يحصل بدونها.

الثالث: سب الله ﷻ ونبيه ﷺ والاستهزاء به وحرب الدين والسجود للصنم صاحبها كافر باطن وظاهر عند مرجئة الفقهاء، وأما عند الأشاعرة والماتريدية فهي علامات على الكفر وليست بكفر مستقل ولا يكفر صاحبها إلا إذا استحل عمله وكذَّب وقارن أفعاله هذه عدمُ التصديق وإلا لكان مؤمناً باطناً ناج عند الله ومن أهل الجنة ولو حكمنا عليه بالكفر في الدنيا فهذا لإجراء الأحكام الدنيوية .

الرابع: مرجئة الفقهاء على مذهب أهل السنة في أبواب الاعتقاد الصفات وغيرها بينما الأشاعرة والماتريدية خالفوا في كثير من أبواب العقيدة أهل السنة.

تنبيه : اتفقت الأشاعرة ومرجئة الفقهاء : في عدم زيادة الإيمان ، وفي إخراج عمل الجوارح منه ، وفي تحريم الاستثناء ، وفي عدم تكفير الفاسق مع أهل السنة .

المسألة السادسة عشرة : الفرق بين الأشاعرة والجهمية:

التحقيق عدم التفريق بين مذهب الأشاعرة والجهمية فمذهبهما واحد، وأنه لا يوجد فرق بين معرفة الجهم وتصديق الأشعري ، وإليك البيان :

إعلم أن المعرفة هي التصديق ولا فرق بينهما، ونقصد بالتصديق ما يفسره الأشعري من التصديق المجرد عن انقياد وإقرار، أما التصديق بمعناه العام وهو المستلزم للانقياد والإقرار ففيه فرق بلا خلاف وهو الذي يقوله أهل السنة ومرجئة الفقهاء إذا قالوا الإيمان التصديق ، لكن المقصود هنا تصديق الأشعري الذي تصوره مثل تصوره للكسب والكلام النفسي .

فعند النظر والتحقيق لا يوجد فرق بين التصديق المجرد عن أي شيء وبين المعرفة فهل هناك فرق بين كوني أعرف النبي وبين كوني أصدقه ولا أتبعه.

فإن قيل فرق فقد يعرفه ولا يصدقه، قيل ما تقصد بتصديقه؟ هل هو الإتباع والانقياد والإقرار له فنعم، وهذا لا يقوله الأشعري، أو أن تصديقه يكون بدون أن يتبعه ويذعن له وينقاد ويقر برسالته وإنما مجرد أن يعرف صدقه، فهذا نفس المعرفة.

ثم المعرفة هل معناها أن يعرف باطناً أنه نبي؟ فهذا هو التصديق المجرد، أو أن المعرفة،أن يعرف شخصه دون أن يعرف وصفه أي يعرف أن هذا الرجل الذي أمامه يدعي أنه نبي ولا يدري أهو صادق أم كاذب، وفي هذه الحالة لا يعتبر أنه عرف نبوته وأنه نبي، وإنما غاية ما يقال أنه عرف أنه رجل يدعي النبوة ولا يقال أنه عرف أنه نبي فيكون جاهلاً وفاقداً للمعرفة التي اشترطها جهم، فيكون كافراً حتى عند جهم ولا يكون مؤمناً حتى يعرف أنه نبي، وإذا عرف أنه نبي ولم ينقد له ولم يذعن ويطِعْ أمره ويقر برسالته لم يسمَّ مصدقاً عند أهل السنة ومرجئة الفقهاء وأهل اللغة، ولا يُسمى مصدقاً إلا عند الأشعري، فيكون التصديق عنده بمعنى الإقرار والمعرفة.

وتفريقه بينهما من قبيل التخيلات، من جنس تخيله وجود كلام معنى نفسي وتخيله وجود ما يسمى بالكسب وتخيله وجود أحوال بين الفعل والصفة والوجود والعدم ونحو ذلك مما يتخيله الذهن ولا حقيقة له ولا وجود له في خارج الذهن.

وهذا القول الذي لا يفرق هو قول ابن تيمية وابن حزم ومحققي الأشاعرة.

أما من قال: إنه يوجد فرق بين المعرفة والتصديق المجرد عن انقياد وإقرار وأن التصديق شيء والمعرفة شيء آخر وأن التصديق يصح أن يسمى تصديقاً بدون انقياد وإقرار وهو بهذا يكون غير المعرفة والعلم، فهذا كلام بلا حجة وقول بلا برهان ودعوى بلا دليل، وكل يستطيع أن يتخيل في ذهنه تخيلات ثم يزعم وجودها ويفرق ويدعي أنه يفهم ما تخيله هو وحده ، ولذلك حاول التفتازاني في شرح المقاصد والغامدي في كتابه الإيمان عند المتكلمين، أن يوجدوا فروقاً لا حقيقة لها . ومنها :

أولاً : قالوا : أن التصديق أمر كسب والمعرفة تحصل بلا كسب.

وهذا باطل ويرد عليهم بأن التصديق قد يحصل بلا كسب كتصديق أبي جهل النبي، وتصديق إبليس، وهذا على تفسير التصديق بالمعنى الذي ذكروه، المتجرد عن انقياد وإقرار، كما أن المعرفة قد لا تحصل إلا بكسب من العبد فتبين فساد هذا الفرق.

ثانياً : التصديق يثاب عليه لأنه هو المأمور به بخلاف المعرفة فلم يؤمر بها.

ويرد عليهم بأن التصديق الذي أمرنا به هو التصديق المتضمن للإقرار والانقياد القلبي والعملي البدني وأما مجرد تصديق دون انقياد فلم يطلب من أحد مثل هذا بل المسلمون وحتى الكفار يعلمون أن مجرد التصديق لا يكفي إذا لم يقارنه انقياد واتباع وإقرار ، أَوَلَيْسَ الله قص علينا تصديق فرعون بقلبه بل وتيقنه وكذا اليهود بل وإبليس حين يخاطب الله مؤمناً به موحداً في قسمه عارفاً بأنبيائه مصدقاً بوعده واليوم الآخر فعنده التصديق الأشعري المجرد عن انقياد، وأن الكفار لم يكذبوا النبي وإنما يجحدون في الظاهر ، وبهذا يبطل هذا الفرق وبه يبطل أصل التفريق بين المعرفة والتصديق المجرد عن انقياد.

ثالثاً : أما إدعاء التفريق من جهة لوازم خارجة عن حقيقة الإيمان وهي ما نسب للجهمية من عدم أهمية العمل، وأنه لا يعاقب مؤمن على كبيرة وأنهم بذلك صاروا من الغلاة في الإرجاء والأشاعرة من المتوسطين فيه، فسيأتي رده قريبا.

والمقصود أن قول الأشعري وقول جهم لا فرق بينهما بل الأشعري هو الذي نصر قول جهم والصالحي في بعض كتبه فيصير حقيقة قول الجهمية الذين كفرهم السلف نفس قول الأشاعرة والماتريدية والذي يدعي بعضهم التفريق بينهما فيه.

قال الشهرستاني في نهاية الإقدام:«اختلف قول الأشعري في معنى التصديق فقال مرة هو المعرفة بوجود الصانع، وقال مرة هو قول في النفس يتضمن المعرفة».

وقال التفتازاني في شرح المقاصد: «وقد يجعل الإيمان اسماً للتصديق وهذا هو المشهور وقد يجعل اسماً للمعرفة وهو مذهب جهم بن صفوان والصالحي وقد يميل إليه الأشعري وستعرف فرقاً بين المعرفة والتصديق»، وذكر فرقاً لا يصح وسبق.

قال ابن تيمية في الإيمان الكبير يرد على الأشاعرة في دعواهم الفرق بين المعرفة والتصديق: «فإن الفرق بين معرفة القلب وبين مجرد التصديق الخالي عن الانقياد الذي يجعل قول القلب أمر دقيق . وأكثر العقلاء ينكرونه وبتقدير صحته لا يجب على كل أحد أن يوجب شيئين لا يتصور الفرق بينهما، وأكثر الناس لا يتصورون الفرق بين معرفة القلب وتصديقه ويقولون أن ما قاله ابن كلاب والأشعري من الفرق كلام باطل لا حقيقة له وكثير من أصحابه اعترف بعدم الفرق».

وقال ابن حزم في الفصل: «أقرب فرق المرجئة لأهل السنة من ذهب مذهب أبي حنيفة ، وأبعدهم أصحاب جهم والأشعري فإن جهم والأشعري يقولون أن الإيمان عقد بالقلب فقط وإن أظهر الكفر والتثليث بلسانه وعبد الصليب بلا تقيه».

تنبيه: ظن كثير من الجهال بحقيقة المذاهب وجود فرق بين مذهب الأشاعرة في الإيمان ومذهب الجهمية ، أن الجهمية من المرجئة الغالية والأشاعرة والماتريدية من المتوسطة ووجه كون الجهمية من الغالية أنهم يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب فلا يعاقب الله على ترك واجب ولا على فعل كبيرة ومحرم وأن العمل لا أهمية له وليس بواجب ولم يأمر الله به إلا لأجل اختبارنا هل نصدق به أوْ لا ولا يدخل النار أحد من أهل القبلة وغير ذلك مما يحكون عنهم مما لا يصح نسبته لمسلم بل ولا لكافر، وإنما نسبت هذه الأقوال إلى الجهمية لتهون بدعة المرجئة المتكلمين من الأشاعرة لأنهم هم الذين صنفوا في الفرق كالأشعري والبغدادي والشهرستاني والرازي.

قال ابن تيمية في الإيمان الأوسط: «وأما ما يذكر عن غلاة المرجئة أنهم قالوا لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد فلا نعرف قائلاً مشهوراً من المنتسبين للعلم يذكر عنه هذا القول».

وقال في الإيمان الكبير: «وإن قالوا أنه لا يضره ترك العمل فهذا كفر صريح وبعض الناس يحكي هذا عنهم وأنهم يقولون أن الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم أن يعملوها ولا يضرهم تركها وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد، لكن ما علمت معيناً حكي عنه هذا القول وإنما الناس يحكونه في الكتب ولا يعينون قائله وقد يكون قول من لا خلاق له فإن كثير من الفساق والمنافقين يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب أو مع التوحيد وبعض كلام الرادين على المرجئة وصفهم بهذا».

وبهذا التقرير يتبين أن الأشاعرة ما هي إلا امتداد للجهمية في قولهم بالإيمان وغيره، والأشعري أعظم من نصر قول جهم ونشره هو وأصحابه من بعده، وأن التفريق بين قول الأشاعرة والماتريدية والجهمية هو من ابتكار الأشاعرة ليهونوا باطلهم ويلبسوه على الناس من جهة وحتى يخرجوا أنفسهم من تكفير السلف لهم لأنهم دخلوا في عموم الجهمية ولا فرق بينهم . وبهذا البيان نخرج بأمور:

الأول: إنه لا فرق بين التصديق المجرد الذي يقول به الأشعري وبين المعرفة التي قال بها جهم ، بل الأشعري فسر تصديقه بالمعرفة، وهو أعظم من نصر مذهب الجهم ونشره، وإن كان قال بمذهب أهل السنة في قول له في بعض كتبه.

الثاني: مذهب الجهمية ومذهب الأشاعرة والماتريدية في الإيمان واحد لا فرق

بينهما لا من ناحية حقيقة الإيمان وأنه مجرد قول القلب ولا من ناحية أهمية العمل وما ينسب للجهمية مما لا يصح نسبته لهم وتقدم ذلك وإبطال التفريق من الجهتين.

الثالث: إن السلف رحمهم الله ومنهم وكيع وأحمد وغيرهما كفروا الجهمية لقولهم في الإيمان ولم يكفروا مرجئة الفقهاء وإن كان قد حذروا منهم ووصفوا قولهم بأنه أشد خطراً على الدين من قول غلاة الخوارج وأبعد عن قول أهل السنة من قول الخوارج، وإذا كان هذا كلامهم في محدثين وفقهاء قالوا بالإرجاء، فكيف بالمتكلمين من الجهمية والأشاعرة والماتريدية؟ وبهذا يتبين كفر الأشاعرة لقولهم في الإيمان.

الرابع: إن الأشاعرة والماتريدية «المرجئة المتكلمين» قد وقعوا في التناقض والكذب على الأئمة إذا ذكروا مذاهبهم فبعض الأشاعرة ينكرون أن يكون الإمام مالك والشافعي يقول في الإيمان أنه قول وعمل، فهذا الرازي في مناقب الأشعري يزعم أن الشافعي متناقض في حقيقة الإيمان وحاشاه رحمه الله ، فهو ممن رد على مرجئة الفقهاء فضلاً عن الجهمية ، ومثل ذلك بعض متأخري الحنفية من الماتريدية يزعمون أن مذهبهم هو مذهب أبي حنيفة كذباً مع الفرق الشاسع بينهما فأبو حنيفة من مرجئة الفقهاء وهم من مرجئة الجهمية المتكلمة.

وأكثر الأشاعرة يقرون ويعرفون الفرق بينهم وبين مذهب السلف وأهل الحديث ومنهم مالك والشافعي وأحمد وأنهم (أي الأشاعرة) على مذهب جهم .

الخامس: ومن هذا كله يجب أن يسمى الأشاعرة والماتريدية بالمرجئة الجهمية ، وأن يصنفون من غلاة المرجئة وأن مذهبهم مذهب فلسفي منطقي كلامي وهو بعيد عن المرجئة الفقهاء والمحدثين، بل وحتى متقدمي الأشاعرة والحنفية الماتريدية من أهل الحديث والفقه يتبرؤون من الأشاعرة الجهمية ، وإن كانوا مشتركين في أصل البدعة إلا أن المتكلمين الجهمية قد وقع الكلام في تكفيرهم والتشنيع عليهم دون مرجئة الفقهاء ومن قال بقولهم من الأشاعرة والماتريدية.

قال شيخ الإسلام في الإيمان الأوسط: «وقول جهم ومن وافقه أن الإيمان مجرد العلم والتصديق وهو بذلك وحده مستحق الثواب والسعادة يشبه قول من قال من الفلاسفة أن سعادة الإنسان مجرد أن يعلم الوجود على ما هو عليه، كما أن قول الجهمية وهؤلاء الفلاسفة في مسائل الأسماء والصفات ، ومسائل الجبر والقدر متقاربان وكذلك في مسائل الإيمان».

وقال في الإيمان الكبير: «وأبو الحسن الأشعري نصر قول جهم في الإيمان وهو

دائم ينصر في المسائل المتنازع فيها بين أهل الحديث وغيرهم قول أهل الحديث ولكن لم يكن خبيراً بمأخذهم فينصره على ما يراه هو من الأصول التي تلقاها عن غيرهم فيقع في ذلك من التناقض ما ينكره هؤلاء وهؤلاء كما فعل في مسألة الإيمان ونصر فيه قول جهم فيظن أن ما ذكره هو قول أهل السنة وهو قول لم يقله أحد من أئمة السنة بل قد كفَّر وكيع وأحمد بن حنبل وغيرهما من كان يقول بقول جهم في الإيمان الذي نصره أبو الحسن وهو عندهم شر من قول المرجئة ولهذا صار من يعظم الشافعي من الزيدية والمعتزلة يطعن في كثير ممن ينتسب إليه يقولون الشافعي لم يكن فيلسوف ولا مرجئاً وهؤلاء فلاسفة أشعرية مرجئة وغرضهم ذم الإرجاء».

وقال في الإيمان الكبير: «وقول المعتزلة والخوارج والكرامية في اسم الإيمان والإسلام أقرب إلى قول السلف من قول الجهمية».

وقال أيضاً في موضع آخر من الكتاب: «فالكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل والإيمان شيء واحد وهو العلم أو تكذيب القلب وتصديقه فإنهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو هو، وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل في الإيمان فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة ، وقد كفَّر السلف كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيد وغيرهم من يقول بهذا القول وقالوا إبليس كافر بنص القرآن وإنما كفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم لا بكونه كذب خبراً وكذلك فرعون وقومه قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ النمل:١٤، ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ الإسراء:١٠٢ ، فدل على أن فرعون كان عالماً».

المسألة السابعة عشرة : حقيقة قول المرجئة في الإيمان وتعريفه وأركانه ومحله:

الإيمان عندهم ليس له إلا ركن واحد وهو قول القلب وهو مجرد التصديق وينكرون بقية أركان الإيمان الثلاثة إقرار اللسان، عمل القلب، عمل الجوارح.

ويجعلون التصديق منحصر في القلب ولا يكون بالعمل، والعمل والإقرار خارج عن الإيمان، فالمؤمن من كان مصدقاً بقلبه فقط.

فعند أهل السنة عمل الجوارح ركن في الإيمان وتارك العمل كافر فاقد شرط

الانقياد الذي هو أحد شروط (لا إله إلا الله)، بينما هو عند المرجئة مؤمن ، لأن المؤمن عندهم من تحقق فيه تصديق القلب، ومن يكفر فلأجل الجحود والتكذيب.

فالكفر عندهم التكذيب والجحود والاستحلال ، فلا يعتبر الرجل كافراً حتى يكون مكذباً جاحدا، ونفوا أنواع الكفر الأخرى خصوصا العملية.

وقولهم في غاية البطلان ويرده الشرع والعقل ؛ فإن من المعلوم أن إبليس كان مصدقاً بأمر الله وعارفاً به وإنما جاء كفره من جهة الامتناع عن الانقياد للأمر فأبا أن يطيع الله تعالى ولم يكن جاحدا ومكذبا، وفرعون كان مصدقاً بقلبه ولكن كفره كان جحوداً وعناداً، كما أخبر تعالى عنه: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾ النمل:١٤، ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الإسراء:١٠٢، وكذلك كان كفار العرب كما قال تعالى عنهم: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام:٣٣.

وأبو طالب لم يكن مكذباً للنبي ﷺ وإنما كفره حصل من جهة عدم انقياده، وصرح في شعره أن دين محمد خير أديان البرية، وإنما رغب عنه كرهاً لمخالفة قومه.

وكذلك اليهود كانوا مصدقين النبي بقلوبهم ولكن لم ينقادوا ويقبلوا أمره .

الثامنة عشرة : مذهب المخالفين في الإيمان في التركيب والتلازم :

أولاً : التركيب في الإيمان وكونه مركباً من شعب وأعمال وأقوال:

المرجئة تنفي أن يكون الإيمان مركباً من أشياء متعددة فهو شيء واحد .

وعندهم الأعمال ليست جزءاً من الإيمان ولا ركناً فيه ولا تدخل في حقيقته وإنما هي واجبة وهي شرط لإجراء أحكام الدنيا عليه، والعبد مؤمن بالتصديق ولو لم يوجد العمل لأن الأعمال شرط كمال وليست شرطاً لصحة الإيمان.

وهذه المسألة هي أصل شبهة جميع فرق الإرجاء، ومن فروعها عدم التلازم بين الظاهر والباطن، وعدم اجتماع إيمان مع شعبة كفر ونفاق .

ثانياً : الترابط والعلاقة التلازمية بين الباطن والظاهر:

تنكر المرجئة التلازم بين الباطن والظاهر وخالفوا العقل والشرع والأدلة الدالة على التلازم وقدمنا قولهم .

تنبيه : قول أهل السنة بالتلازم لا يدفع التكفير لمن وقع في الكفر الظاهر استقلالا عندهم أما المرجئة فلا يكفرون بالعمل الظاهر.

التاسعة عشرة: أسباب ضلال المرجئة في الإيمان وإخراج الأعمال منه:

١- إنكار التلازم بين الباطن والظاهر:

قال ابن تيمية في الإيمان الأوسط: (فمن عرف ارتباط الظاهر بالباطن زالت عنه الشبهة في هذا الباب). الفتاوى: ٧/ ٦١٦، ومثله٢٢٩.

وقال: (التلازم أمر ضروري، ومن جهة ظن انتفاء التلازم غلط غالطون ... ومن عرف الملازمات التي بين الأمور الباطنة والظاهرة زالت عنه شبهات كثيرة). الفتاوى ٧/ ٦٤٦.

٢- إنكار حقيقة التركيب:

ظنهم أن الإيمان أصله واحد لا يتركب ولا يتبعض ولا يتعدد ولا يتفاضل، فلو كان الإيمان مركباً من قول وعمل واعتقاد أو من تصديق وانقياد وإقرار ومحبة وغير ذلك لزال الإيمان كله بزوال بعض أجزائه وأركانه، فهو إما أن يبقى كله أو يزول كله فليس مكونا من حقيقة مركبة.

وهذه المسألة أصل شبهة جميع الفرق، ومن فروعها تلازم الظاهر والباطن.

قال ابن تيمية في الأوسط: «وأصل نزاع هذه الفرق في الإيمان من الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم أنهم جعلوا الإيمان شيئاً واحداً، إذا زال بعضه زال جميعه، وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه، فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه كما قال النبي ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان»».

وقال: «وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة ... قالوا فإذا كان الإيمان مركباً من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة، لزم زواله بزوال بعضها فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان وهذا قول الخوارج والمعتزلة قالوا ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمناً بما فيه من الإيمان، كافرا بما فيه من الكفر فيقوم به كفر وإيمان وادَّعَوا أن هذا خلاف الإجماع».

والإمام أحمد وغيره كان يعرف أصل قول المرجئة في الإيمان وشبهتهم وهي نفي التركيب، ولهذا يقول الإمام أحمد كما نقل عنه ذلك الخلال في السنة و ذكر ذلك ابن تيمية في الإيمان الكبير؛ قال الإمام أحمد: «وأما من زعم أن الإيمان الإقرار فما يقول في المعرفة هل يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار وهل يحتاج أن يكون مصدقاً بما عرف فإن زعم أنه يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار فقد زعم أنه من شيئين وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقراً ومصدقاً بما عرف فهو من ثلاثة أشياء، وإن جحد وقال لا

يحتاج إلى المعرفة والتصديق فقد قال قـولاً عظـيماً ولا أحـسب أحـداً يـدفع المعرفـة والتصديق وكذلك العمل مع هذه الأشياء».

قال ابن تيمية بعد هذا النقل: « أحمد وأبو ثور وغيرهما مـن الأئمـة كـانوا قـد عرفوا أصل قول المرجئة وهو أن الإيمان لا يذهب بعضه ويبقى بعضه فلا يكـون إلا شيئاً واحداً ولهذا قالت الجهمية: إنه شيء واحد في القلب والكراميـة شيء واحـد في اللسان كل ذلك فراراً من تبعض الإيمان وتعدده ، فلهذا صاروا يناظرونهم بـما يـدل على أنه ليس شيئاً واحداً كما قلتم». انتهى كلامه رحمه الله من كتاب الإيمان الكبير.

الفصل الثاني المرجئة المعاصرة

المبحث الأول : التعريف بالمرجئة المعاصرة.

المسألة الأولى : تعريف المرجئة المعاصرة

هم الذين ابتدعوا القول بالإرجاء في زماننا من أهل السنة وأحيوا مذهب المرجئة الغلاة والجهمية الأولى ، وجعلوا كل كفرٍ وناقض للإسلام مجرد معصية، وجعلوا كل ركن في الدين يكفر تاركه من الكمال الذي لا يضر تركه.

الثانية :حقيقة مذهبهم :

١- العمل شرط كمال وليس بركن ولا يكفر تارك العمل بالكلية.

٢- الكفر لا يكون إلا بالجحود والتكذيب فقط.

تنبيه : الجحود والاستحلال والبغض مرده عند المرجئة في النهاية للتكذيب .

المسألة الثالثة :حكم المرجئة المعاصرة :

اتفق مرجئة عصرنا على اتباع مذهب الجهمية والأخذ بقول جهم في الإيمان، وقد قدمنا الكلام عن تكفير السلف للجهم والجهمية ومن أخذ بقولهم.

كما أن لبعضهم أقوالاً كفرية يكفر بها قائلها ، وسنأتي بها.

الرابعة: الخلاف مع المرجئة المعاصرة حقيقي وله ثمرات كثيرة ، كما سيأتي.

الخامسة : فرق المرجئة المعاصرة :

الأولى : الجهمية من الأشاعرة والماتريدية.

وهؤلاء امتداد لمن سبقهم وهم على مذهب إمامهم ويتبنى عقيدة الأشاعرة الأزهر وغيره .

الثانية : القائلون بالإرجاء من المنتسبين لأهل السنة من أدعياء السلفية.

وهي المقصودة بالمعاصرة ، لأنها نشأت في عصرنا ولم تعرف من قبل.

السادسة : المراد بالمرجئة المعاصرة :

أدعياء السلفية من الألبانية والجامية والمداخلة، ومن تأثر بهم .

السابعة : أسماؤها :

مرجئة العصر ، المرجئة المعاصرة ، أهل التجهم المعاصر.

كما يسمون بالخلوف، وأدعياء السلفية ، وسيأتي علة تسميتهم بذلك.

وتسميتهم بذلك أفضل من تسميتهم بالألبانيين والمدخليين والجاميين ، وذلك لكثرة من قال بها من غير هؤلاء، ولأن هذه فرق فرعية تجمعها بدعتهم الجهمية في الإرجاء، والسلف لم يسموا مرجئة الفقهاء بالحنفية لأنه قال بها غيرهم.

الثامنه : مؤسسها : الألباني ، وتبعه المدخلي وغيره.

وسيأتي الكلام عن هؤلاء والفرق المتبعة لهم والتعريف برؤوسهم .

التاسعة : رؤوس ودعاة المرجئة المعاصر :

ربيع بن هادي المدخلي .

عبد العزيز الريس .

خالد العنبري .

علي حسن حلبي

عدنان عبد القادر.

مراد شكري .

ياسر برهامي.

العاشرة : أول من قال بالإرجاء المعاصر:

أول من قال بالإرجاء من المعاصرين الألباني .

وقال به غيره وقد خرج كلامهم في وقت متقارب ، وقد لا يعرف أولهم .

ثم قعّدوا لعقيدتهم الجهمية الإرجائية وصنفوا فيها الكتب.

الحادية عشرة : كتب المرجئة :

ضبط الضوابط ، حقيقة مذهب السلف في الإيمان لأحمد بن صالح الزهراني .

وقد تراجع الزهراني عفا الله عنا وعنه ه عن مذهبه وكتب مقالة:(ثم تدبرت).

إحكام التقرير في إحكام التكفير لمراد شكري.

الحكم بغير ما أنزل الله ، لخالد العنبري .

هزيمة الفكر التكفيري ، للعنبري.

التحذير من فتنة التكفير ، لعلي حسن حلبي

صيحة نذير ، للحلبي .

حقيقة الإيمان بين غلو الخوارج وتفريط المرجئة ، لعدنان عبد القادر.

الإلمام بشرح نواقض الإسلام ، لعبد العزيز الريس .

الألباني إماماً ، الريس .

مقالات ربيع المدخلي .
نقد كتاب ظاهرة الإرجاء ، لياسر برهامي. وهناك رد آخر على ظاهرة الإرجاء لعمر النعيمي ، ورد آخر للحلبي، وكل الكتب الثلاثة الجهمية هزيلة في ردها.
وقد حذّرت لجنة الإفتاء من هذه الكتب ، انظر كتاب (التحذير من الإرجاء).

المسألة الثانية عشرة : أسباب ظهور الإرجاء المعاصر :
١- ظهور الحكام المرتدين .
وقد سبق أن قال السلف عن الإرجاء : (دين يوافق أهواء الملوك).
٢- انتشار شرك الحكم بغير ما أنزل الله.
٣- التظاهر بالدين والغيرة.
٤- رد البدعة ببدعة أخرى، وقد حاولوا رد بدعة الخوارج الغلاة.
٥- الهزيمة العسكرية تنتج هزيمة عقدية .
وكذلك من أنكر على الطواغيت فعذب وفتن، فمالوا إلى الإرجاء لأنه أسلم.
ويذكرنا هذا بسبب خروج المرجئة الأولى كانت بعد ظهور الخوارج وفتنة ابن الأشعث ومن معه ممن أنكر فساد الحجاج وعبد الملك بن مروان .
فحصل لهم هزيمة نفسية وعقائدية أنتجت مذهب الإرجاء كما قال السلف .
٦- الزندقة : فالإرجاء يدعوا الزنادقة إليه، والمرجئة ورائها الزندقة :
قال ابن عقيل: (ما أشبه أن يكون واضع الإرجاء زنديقا) تلبيس إبليس ٨٤.
٧- تبني علماء لها .
أخرج اللالكائي عن جماعة من السلف : (لم يزل في الناس بقية حتى دخل عمرو بن مرة في الإرجاء فتهافت الناس فيه) .
ومثل ذلك الألباني لما قال بالإرجاء ودعا له تابعه كثير من الجهال.
ومن أعظم الفتن دخول العلماء في البدع ووقوع الزلل منهم، فيتبعهم الناس.

المسألة الثالثة عشرة : تاريخ الافتراق المعاصر :
بعد سقوط الدولة العثمانية وانتشار الاستعمار لبلاد المسلمين وتولي أذنابه على بلاد المسلمين ، حيث كانت البلاد الإسلامية وأهلها يراد لها التغريب عن دينها وخلخلة عقيدتها السلفية، فأدخل الرفض والتصوف والتجهم والإرجاء، من

أعدائها. ثم أدخلت القومية والوطنية ثم العلمانية بطرقها ونحيت الشريعة والولاء الديني وعداوة الكفار، وحصل إغراء المسلمين بالشهوات والحضارة والمال والنساء وإثارة الشبهات بالغزو الفكري، وإفساد تعليمهم وإعلامهم وإظهار الفساد للمجتمعات فأفسدوا الرجال والنساء بهاتين الوسيلتين (الإعلام والتعليم)، فأفسدت البيوت وقلدوا الكفرة وفي المدارس أفسد النشء فربي على الطرق الغربية وابتعثوهم لبلدان الكفار لإفسادهم .

وكل ذلك جاء على يد الحكام الطواغيت أذناب الاستعمار مما حمل، بعض الشباب من أهل الدين بالخروج وقاموا بجهاد الطواغيت فانكسروا وفتن كثير من أهل الدين وقتلوا فحصل لبعضهم فكر الغلو والخوارج، فأخرج في المقابل مذهب الإرجاء .

وكان للإرجاء مراحل من سنة ١٣٨٠هـ حتى سنة ١٤١٠، فظهر الإرجاء مقعدا له وممنهج وصار له اتباع كثر ، إلا أن أهل السنة بادروه بالرد والتضليل والحمد لله على فضله علينا.

وقد ظهر الإرجاء في العقود الأخيرة بيد جماعات مبتدعة:

الخلوف والإخوانية.

الرابعة عشرة : تكذيب ادّعاء المرجئة في زماننا السلفية :

إن ادّعاء المرجئة في زماننا السلفية وكذبهم في تلبسهم بلباس السلف، يكذبه حقيقة ما هم عليه من الدين، ونحن نقول في مرجئة زماننا ما قاله سلفنا في مرجئة زمانهم ، وقد جئنا بأقوالهم في الكلام عن المرجئة القديمة .

هذا ومن الجميل أن يخرج ردود جيدة على إرجائهم التجهمي المعاصر من اللجنة الدائمة التي يقدسها السلفية الإرجائية والجامية الجهمية.

وقد جمع الردود كتيّب أصدرته عالم الفوائد باسم (التحذير من الإرجاء).

وفي هذا إظهار لغشهم وتدليسهم وتلبيسهم وتكذيب لدعاويهم وفضح لكذبهم ، ونقض ادعائهم السلفية ومذهب أهل السنة، وكيف هم على منهج السلف وهم الذين أماتوه وأحيوا مذهب المرجئة الغلاة ودعوا لمنهج الجهمية الأولى.

فالسلفية التي هم عليها في الحقيقة هي سلفية الجهمية، فالجهم والأشعري هم أسلافهم، وليس أهل السنة والسلف لهم بسلف، وإن تشدقهم بمنهج السلف كتشدق اليهود بإتباع ملة إبراهيم ، وقد صدق فيهم قول السلف المرجئة يهود القبلة.

الخامسة عشرة : جمع المرجئة حرب الدين مع الإرجاء :

لم يكتف المرجئة بقولهم في الإيمان وعدم تكفير من كفره الله تعالى من المرتدين حتى زادوا على ذلك : مظاهرة المرتدين وإعانتهم على الموحدين ، وحرب أهل التوحيد وتسميتهم خوارج بسبب ما هم عليه من التوحيد والكفر بالطاغوت.

السادسة عشرة : تناقض كثير من المرجئة المعاصرة:

وهذا في جمعهم بين عقيدة الخوارج والمرجئة معاً . وإليك بيان وجه ذلك .

فمن مفارقاتهم المتناقضة أنهم جمعوا بين مذهب الجهمية والكرامية والخوارج:

وبيان ذلك :أنه إذا صدر الكفر ممن يوالونه عذروه ولم يكفروه بل لم يعدوا فعله كفرا أصلا ، فهو إن قال كفراً بواحاً قالوا: لم يستحل وقلبه مصدق بالله فهو مؤمن ، وقالوا فيه بمذهب المرجئة الجهمية الغلاة .

وإذا أظهر تكذيبه وفعل ما يُقطع باستحلاله وبان صريح كفره حتى لم يعد خافياً أنه كفر بقلبه، بل حتى ولو قال أنا كافر وأكذب بالدين والرسول، قالوا: لكنه قال (لا إله إلا الله) وقائلها لا بد أن يدخل الجنة ويحكم بإسلامه ولا يكفر.

فقالوا بمذهب الكرامية وزيادة ، لأن الكرامية وإن كانت تجعل الإيمان في مجرد القول لكنها تكفر من صرح بكفره.

فحكم مرجئة زماننا بإسلام من أجمعت كل الفرق على كفره، ووقعوا في المتناقضات التي لم تكن لأحد قبلهم، وكل هذا تمشياً مع أربابهم من دون الله .

ثم مع هذا كله فإنهم وقعوا في مذهب الخوارج حين كفروا أهل التوحيد والعلماء المجاهدين لأجل تكفيرهم من أظهر الردة من عباد القبور والمشرعين.

فالعجيب من أهل الإرجاء إنكارهم على أهل التوحيد ولمزهم، بل وصل بهم الأمر إلى أن كفروهم وحكموا بوجوب قتلهم. وكان الأولى بهم بدل إنكارهم على أهل التوحيد الإنكار على المشركين وأهل الردة والاستهزاء والسخرية والنفاق .

وصدق فيهم ابن القيم حين قال :

من ليّ بمثل الخوارج قد كفّروا ... بالذنب تأويلاً بلا إحسان

وخصومنا قد كفرونا بالذي ... هو غاية التوحيد والإيمان

المبحث الثاني : عقيدة المرجئة المعاصرة

أولاً : المقولات التي قالها بعض مرجئة عصرنا وتفردوا بها ، وهي مما يكفر بها قائلها، ويجب أن نكفر من علمناه يقول بها.

ثانياً : موقف المرجئة من بعض أبواب العقيدة :

موقفهم من التوحيد والكفر بالطاغوت والولاء والبراء

موقفهم من التكفير

موقفهم المخزي من الجهاد وأهله

موقفهم من النواقض وتلاعبهم بها.

موقفهم من أنواع الكفر.

ثالثاً : موقفهم من الموحدين ، موقفهم من المرتدين ، موقفهم من الحكام .

الأولى: أقوال مرجئة العصر في الإرجاء والتي تفردوا بها ولم يقلها أحد قبلهم:

١- إنكارهم التكفير وهذا مما تفردت به جهمية زماننا ، والتكفير عبادة وهو من أصل الدين ، وهو من ملة إبراهيم ﷺ وهي الكفر بالطاغوت ومن الولاء والبراء ، وإنكاره إنكار لهذه الأبواب كلها والتي لا يصح الدين إلا بها ، بينما مرجئة العصر جعلوه فتنة وسموا من يكفّر المرتدين خارجيا.

٢- أن مرجئة العصر تفردت بالحكم بإسلام المشركين من عباد القبور والمشرعين لمجرد انتسابهم للإسلام مع كونهم نقضوه من أصله.

٣- إنكارهم الولاء والبراء العملي وجعلوه فقط حب الإسلام وبغض الكفر، وجعلوا معاداة الكفار من التخلف والظلم والإسلام منه بريء.

٤- دعوا صراحة لمظاهرة المرتدين والحكام المشركين على الموحدين .

٥- الإعانة الصريحة للكفار على المسلمين، فأيدوا الحملة الصليبية الأمريكية باسم الحرب على الإرهاب ضد المجاهدين القاعدة وبعدها داعش وجعلوها حربا عادلة تستحق النصرة ، والمجاهدين مجرمين وخوارج بل وكفار يستحقون الحرب والإبادة ، وفتاواهم في ذلك أكثر من أن تحصى، وفيها الردة من عدة جهات.

٦- جعلوا تشريع القوانين معصية وليست كفر ، ومنهم من سوغها.

٧- استحل كثير منهم الدمقراطية والتصويت على الدساتير الشركية.

٨- دعا كثير منهم للوطنية .
٩- جوز كثير منهم الحوار والتقريب بين الأديان .
١٠- دعوا للحرية والوسطية والتسامح والتعايش.
١١- دعوا للتقريب مع الرافضة ولم يكفروهم بل أنكروا على من يكفرهم وقالوا إخواننا الشيعة كما فعله رؤوس الإخوان.
١٢- أنكروا الجهاد وحاربوه وقالوا ليس هذا بزمن جهاد .
وجعلوا أهل التوحيد والجهاد من الخوارج ، بل كفرهم بعضهم.
١٣- زعموا أنه لا يكفر قائل (لا إله إلا الله) مهما عمل .
١٤- تلاعبوا بالنواقض.
١٥- أنكر بعضهم تكفير اليهود والنصارى ، وبعضهم لم يحكم بكفر أعيانهم.
١٦- قالوا بالعذر بالجهل مطلقا فعذروا كل مشرك ومرتد كافر محارب للدين بحجة الجهل، ومنهم من عذر حتى الكفار الأصليين فلم يكفرهم لأنهم جهال.
١٧- أن دعاء الأموات وعبادة القبور ليست بكفر إلا إذا اعتقد فاعلها الربوبية في الميت ، فأنكروا شرك الألوهية ، وقد قال ذلك حاتم الشريف والقرني رئيس قسم العقيدة في جامعة أم القرى.
وهذه الفضائح مما اختصت به مرجئة عصرنا ، فإنه حتى الجهمية والأشعرية لم تقل بها ، وهي كفر بذاتها والعياذ بالله .
وهذه البدع المنكرة وإن لم يلتزمها كل المرجئة المعاصرة إلا أنه قد قررها كثير من مرجئة العصر في كتبهم ومحاضراتهم ، ولم نتقولها عليهم ، ولولا خشية الإطالة لسقت في كل بدعة من قال بها من المعاصرين منهم.
هذا علاوة على قولهم في الإيمان الذي اتفقوا عليه واتبعوا فيه المرجئة الغلاة، وكذا إخراج العمل من الإيمان فلا يستلزمه ولا يكفر تاركه ولا يوجد كفر عملي .

المسألة الثانية : قول مرجئة عصرنا في نواقض الإسلام وتلاعبهم بها.
تلاعب المرجئة بحقيقة النواقض حتى جردوا التوحيد من ثوبه فخاضوا فيه بالباطل وسعوا إلى ما ينقضه، فصيروا النواقض دينا والتوحيد شركا.
فأتت طائفة إرجائية على النواقض فحولتها من كونها نواقض إلى جعلها من صلب الدين وأصل التوحيد الواجب فعله .

فجعلوا الشرك وعبادة القبور تعظيما لله ولرسوله، ونسبة التصرف في الكون للأولياء كرامة وعبادتهم توسلا مأمور بابتغائه، وإثبات الصفات شركا وتعطيلها توحيدا، ومعاداة الكفار ظلما وجهاد المرتدين وتكفيرهم كفرا، والإيمان بالطاغوت والتعايش معه والتقريب معه والاعتراف بالكفر والأديان الكافرة سماحة إسلامية، والسحر علما، والتنجيم وادعاء علم الغيب فراسة، ومظاهرة الكفار مصلحة، وتنحية الشريعة وتبديلها بالحكم بالقوانين الكفرية حضارة .

وغير ذلك كثير مما لا يخفى وجوده ويعسر حصره .

وجاءت طائفة جهمية أخرى فنقلوها من كونها أمورا كفرية إلى جعلها مجرد أمور محرمة فحسب لا يكفر المسلم بفعلها، ومنهم من اشترط فيها الكفر القلبي، فأنكروا على سبيل التمثيل لا الحصر شرك الطاعة وشرك الحكم والتحاكم وكفر الإعراض وكفر الجهل والمظاهرة ودعاء الأموات وموالاة الكفار والاستهزاء وحرب الدين والاستحلال العملي ، واشترطت حتى تكون هذه النواقض كفرا أن يقارن ذلك الاعتقاد والجحود القلبي.

فبدأ المرجئة بالشرك فقصره على اعتقاد الربوبية في المعبود فأبطلوا الناقض الأول والثاني معا .

ثم جاؤوا على الناقض الثالث فقصروه على تكفير الكافر الأصلي دون المرتد، بل بلغ ببعض هؤلاء العابثين أن قصروا التكفير على العموم وأنكروا تكفير المعين حتى أعيان اليهود والنصارى لم يكفروهم .

وأتوا على الناقض الرابع فقصروا الكفر في الحكم والتشريع على الاستحلال .

ثم هل تظن أن الناقض الخامس والسادس سلم من عبثهم لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة فقد اشترطوا في البغض أن يشمل جميع الدين وفي السب والاستهزاء قصد الكفر وتعمده ومع ذلك لا يكفر المبغض إلا بعد قيام الحجة وعناده بعد ذلك وهذا أمر لا يمكن التوصل إليه لكون القلب مسرا به .

ثم أتوا على الناقض السابع فجوزوا تعلم السحر وفك السحر بالسحر .

ثم أتوا على الناقض الثامن وجعلوا كفر المتولي للكفار ومظاهرهم على المسلمين مشروطاً ببغض دين الإسلام وحب دين الكفار .

ثم أتوا على الناقض التاسع فأنكروا كفر من قال لا تلزم المتابعة للرسول ﷺ .

وأما الناقض العاشر الذي هو الإعراض فأنكروه من أصله وزعموا أن تكفير المعرض عن العمل بالدين والمتولي والممتنع عن الانقياد بدعة وهابية، وتكفير تارك جنس العمل بدعة تيمية وطنطنة فلسفية لا فائدة منها، إلا أن يستحل ويجحد .

فيمكن عند هؤلاء المتجهمة أن يوجد مسلم ولا يعبد الله ألبتة ولا يسجد لله سجدة ، فما هو الإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ هل هو مجرد انتساب ودعوى.

ولولا خشية الإطالة لسقت هنا مخالفات القوم في كل ناقض لتعلم ما وصلوا إليه وتحذر من جانبهم، إلا أنه في كل ناقض سنأتي من كلامهم ما يندي الجبين ويشيب له مفارق صغار البنين.

هذا وأظنك بعد ذلك عرفت كيف حولوا التوحيد شركا والإسلام كفرا، وعلمت السر في وجوب الرد على المرجئة الجهمية وتبيين التوحيد والإسلام وما ينقضه، ومجاهدة المخالف بالحجة والبرهان، وتيقن لك أن فضح أئمة الإرجاء وتبيين خبث معتقدهم للأمة من أهم الواجبات ومن الجرح والتعديل الذي يحفظ به دين الله ولا يسع أهل العلم السكوت عنه .

وإذا أردت الوقوف على بعض فضائحهم فانظر في كتاب الإلمام بشرح نواقض الإسلام لصاحبه الريس ، وهو ريسا لكن في البدعة الجهمية ، وإن الأولى أن يُسمى كتاب هذا الدعي الإلزام بتجويز نواقض الإسلام، فلم يفهم راعيه النواقض فضلا عن دعواه الإلمام بها، ومن أين جاء لهذا الغمر الإلمام وهو لا يفرق بين الناقض والشرط والركن ولا يميز بين الشرك والتوحيد.

الثالثة : درجات المرجئة المعاصرة في التكفير وأقوالهم في نواقض الإسلام:

الدرجة الأولى: الذين يجوزون كل ناقض من نواقض الإسلام إرضاء للناس وطلبا للدنيا والمنصب ، فيزعمون أن فيه مصلحة أو عدل ، وقد سمعنا كثيرا منهم قالوا مظاهرة الكفار في حربهم الصليبية على الإسلام كحلف الفضول الذي فعله النبي ﷺ ، وهؤلاء كفار بلا شك ولا يجوز التوقف فيهم ولا عذرهم بالتأويل.

الثانية : قالوا إن نواقض الإسلام ليست كفراً أصلاً وإنما معصية ولا تكون كفراً إلا إذا قارنها بغض الإسلام وجحوده أو استحلالها وحب الكفر، وقد أجمع السلف على تكفير الجهمية لقولهم هذا في الإيمان ، بخلاف المرجئة فالسلف يبدعونهم ولا يكفرونهم ، وقد نقلنا كلامهم هذا .

ومن قال بهذا القول من أهل السنة فإنه يكفر إذا أقيمت الحجة عليه.

الثالثة: الذين قالوا لا يوجد أقوال أو أعمال مكفرة ، بل مرد ذلك كله إلى الاعتقاد ، فيخالف في كون العمل كفريا ، وإذا كانت كفر فلأنها دليل على كفر الباطن فيكفّرون بها ، لكن مناط الكفر ليس عمل الجوارح الظاهر وإنما كفر القلب.

وهؤلاء يبدعون ولا يكفرون .

الرابعة : الذين يقرون بوجود أقوال وأعمال مكفرة ، ولكن لا يوجد عندهم كفار ، فيخالفون في التطبيق أو لا يجعلون هذه الصورة الكفرية من الناقض .

الخامسة : منهم من حارب التكفير حتى بلغ به الطريق الإرجائي إلى عدم تكفير أعيان اليهود والنصارى بحجة أنهم جهال وما قامت عليهم الحجة .

السادسة: منهم من يرد كل ناقض عند التمثيل لليهود والكفار الأصليين ولا يمثل بمرتد واحد وكأن النواقض خاصة بالكفار وليست متعلقة بردة المسلم .

السابعة: من يقول بكفر الناقض ويوافق في المعتقد ولكن لا يكفر فاعله :

إما بدعوى أنه غير ملزم بالتكفير ، أو يظن أن المنتسب للإسلام لا يكفّر ، أو يكفّر بالعموم دون الأعيان ، أو يكفر الفعل دون الفاعل، أو يتوقف لاعتقاد وجود مانع في المرتد من جهل أو تأويل أو إكراه، أو لم يتبين له حال فاعل الكفر وهل فعله.

الرابعة : مذهب المرجئة المعاصرة في أنواع الكفر : (التكذيب والجحود والإعراض والتولي والامتناع والإباء والجهل والبغض والاستهزاء والسب) :

١- أن الكفر عندهم مجرد التكذيب والجحود .

٢- أن التكذيب والجحود والرد لا يكون إلا في القلب ولا يكون في عمل الجوارح واللسان والعمل الظاهر ، وينكرون الجحود العملي والتكذيب العملي كما ينكرون التصديق العملي.

٣- أن كل كفر فهو لعدم التصديق وسببه وجود التكذيب والجحود وإذا لم يوجد التكذيب والجحود فصاحب الكفر في الدنيا ناج يوم القيامة من أهل الجنة.

٤- قالوا أن البغض والكره يرجع للتكذيب فلا يبغض إلا مكذب، وأما المصدق فلا يمكن أن يبغض ، ولم يفرقوا بين البغض والتكذيب.

٥- البغض كله باطني ولا تظهر آثاره في الظاهر فلا يوجد بغض عملي .

٦- أنهم ينكرون كفر الإعراض والتولي والامتناع والإباء والاستكبار .

٧- ينكرون كفر الجهل، فلا يكون الكفر إلا عن عناد وعلم وقصد الكفر.

٨- لا يكفّرون بالسب والاستهزاء ، وساب الله تعالى ورسوله ودينه لا يكون كافراً إلا إذا استحل بقلبه وأن مجرد السب باللسان ليس بكفر في ذاته .

تنبيه : قصر المرجئة الكفر على الاعتقاد وهو بمعنى قصر الكفر على التكـذيب أو قصره على الاستحلال والجحود ، فكلها بمعنى واحد عند التحقيق.

تنبيه : الجحود والاستحلال مرده عند المرجئة في النهاية للتكذيب .

تنبيه : من المرجئة من كفّر بالبغض وبعضهم رده للاستحلال والتكذيب.

الخامسة : موقف جهمية زماننا من الموحدين :

تراهم أعزة على المؤمنين الموحدين أذلة عـلى المشركين والمرتـدين والمنـافقين، خوارج مكفرون لأهل التوحيد مرجئة غلاة مع المرتدين والمشركين ، فناقضوا قـول ربنا ﷻ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح: ٢٩، فليـسوا مـع محمد ﷺ والذين معه ولن يكونوا معهم، بل هم مع أعدائه لأنهم أشداء على المـؤمنين رحماء مع الكفار.

وإن هؤلاء التقاة المتـورعين هـم في الحقيقـة المميتـين للـدين أعـداء التوحيـد الصادين عن الجهاد ضد الكافرين ، وإلا فأين هم من الإنكار عـلى أهـل الاسـتهزاء والسخرية والنفاق والردة، بدل إنكارهم على أهل التوحيد وتكفير مـن حـارب الله جهارا نهارا وصد عن سبيله بدل تكفير من جاهـدهم ، لكـنهم قلبـوا وجـه المجـن وانقلبوا على أهل التوحيد، فبدل أن يكفّروا المرتدين كفّروا الموحدين وما قاله الشيخ عبدالرحمن وابنه ومن معه من أئمة دعوة التوحيد وقـبلهم ابـن القـيم قـد رأينـاه في زماننا وقد واجهتنا به مرجئة عصرنا أفراخ الجهمية الأولى .

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن : (وقد فرض الله تعـالى الـبراءة مـن الـشرك والمشركين، والكفر بهم وعـداوتهم، وبغـضهم وجهـادهم،﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ ، فوالوهم وأعانوهم وظاهروهم واستنـصروا بهـم عـلى المؤمنين، وأبغضوا المؤمنين وسبوهم مـن أجـل ذلـك، وكـل هـذه الأمـور تنـاقض الإسلام، كما دل عليه الكتاب والسنة... وعند هؤلاء وأمثالهم - قلت: وأفـراخهم من مرجئة عصرنا - أنهم على الدين الذي كانوا عليه لم يفارقوه) الدرر ٨/ ١٩٠.

ألا ترى أنه قد دعا جهمية زماننا إلى الحـوار مـع كـل كفّـار عنيـد وأمـا أهـل التوحيد فليس لهم إلا الأغلال والحديد والألسن الحداد، وادعوا الوسطية والسماحة

الإسلامية والتعايش طلباً للعيش مع كل صليبي خبيث ولم يتحملوا أن يسمعوا من علماء أهل الحديث ، فيا لله ما أعظم حلم الله !

السادسة : موقفهم من المرتدين :

المرجئة على الدوام يقولون في كل كافر جلد محارب للدين ومرتكب الردة المغلظة وأصناف النواقض وجميع صور الشرك :

١- إنه يقول (لا إله إلا الله) ويصلي .

٢- لم يستحل ولم يكذب ولم يجحد .

٣- إنه معظم لله محب لرسوله .

٤- له أعمال صالحة وصدقات.

٥- أن الحجة لم تقم عليه.

وإني لأقول في هؤلاء الجهلة : إنهم هم الذين يحتاجون لإقامة الحجة عليهم ويخشى عليهم الردة لتوقفهم في تكفير المشركين وتصحيح ما هم عليه من الكفر.

السابعة : موقفهم المخزي من الجهاد وقعودهم عنه بل وصدهم عن سبيله، وحرب هؤلاء الخلوف الخوالف لأهله ، وتقدم .

الثامنة : موقف المرجئة المعاصرة من التكفير ودرجاتهم فيه ومن نواقض الإسلام وتلاعبهم بها ومن أنواع الكفر ، وتقدم .

المبحث الثالث : الفرق بين المرجئة المعاصرة وبين المرجئة القديمة الأولى

حقيقة قول المرجئة المعاصرة وكونهم من المرجئة الغلاة الجهمية :

١- أن مرجئة عصرنا ابتدعوا أقوالا في الإرجاء لم يقل بها ولا حتى الجهم وغلاة المرجئة ، وذكرنا لهم بضعة عشر مقولة كفرناهم بها لم يسبقوا لها.

٢- أنهم لم يكفروا بنواقض الإسلام التي أجمع الناس على كفر فاعلها كما بيّنا.

٣- الكفر عندهم مرده فقط للتكذيب والجحود.

٤- أن التكلم بالكفر وسب الرب سبحانه ليس كفرا عندهم .

هل المرجئة المعاصرة على مذهب الجهمية أو مرجئة الفقهاء ؟

مرجئة زماننا الجدد (أدعياء السلفية) يعتبرون على مذهب الجهمية فقد أخذوا بقول جهم بل وزادوا عليه في البدعة ولا يعتبرون على مذهب مرجئة الفقهاء مطلقاً.

وإليك البيان :

أولاً : مذهب مرجئة الفقهاء في نواقض الإسلام أنها كفر لأنها دليل على كفر الباطن فيكفّرون بها ، لكن مناط الكفر فيها ليس عمل الجوارح الظاهر وإنما لما يتعلق بها من كفر القلب.

أما مذهب مرجئة عصرنا الذين هم على مذهب الجهمية غلاة المرجئة الذين كفرهم السلف : فهم لا يكفرون بها أصلا حيث قالوا إنها ليست كفرا وإنما معصية، ولا تكون كفرا إلا إذا قارنها بغض الإسلام وجحوده أو استحلالها وحب الكفر، وهؤلاء أجمع السلف على تكفيرهم لقولهم هذا في الإيمان بخلاف المرجئة يبدعون ولا يكفرون ، ومن قال بقولهم هذا من أهل السنة فإنه يكفر إذا أقيمت الحجة عليه.

بل إن من مرجئة عصرنا من زاد في الكفر ، فقد رأيناهم يجوزون كل ناقض إرضاء للناس وطلبا للدنيا والمنصب ، فيزعمون أن فيه مصلحةً أو عدلاً ، وهؤلاء كفار بلا شك ولا يجوز التوقف فيهم ولا عذرهم بالتأويل.

ثانياً : أن التكلم بالكفر وسب الله تعالى ورسوله ﷺ والاستهزاء بهما وحرب الدين والسجود للصنم صاحبها كافر عند مرجئة الفقهاء وهو مذهب أهل السنة.

وأما عند المرجئة المعاصرة أفراخ الجهمية فهي ليست بكفر مستقل ولا يكفر صاحبها إلا إذا استحل عمله وكذّب وقارن أفعاله الشنيعة هذه عدمُ التصديق في قلبه وإلا لكان مؤمناً باطناً ناج عند الله ومن أهل الجنة ولو حكمنا عليه بالكفر في الدنيا فهذا فقط لإجراء الأحكام الدنيوية ولا يستلزم كفره في الباطن، فلم يجعلوا

الكفر إلا التكذيب فقط وأن أي فعل ظاهره الكفر مثل سب الله إما أن يكون صاحبه بفعله مكذب بالله ورسوله فيكون كافراً أو غير مكذب فيكون مؤمناً غير كافر ولو حكم بكفره في الدنيا ظاهراً. ولا يوجد كفر عملي وقولي مستقل .

وقد كفر السلف من يقول بهذا القول وهو قول الجهم الذي كفره السلف:

قال ابن تيمية : (التكلم بالكفر من غير إكراه كفر في نفس الأمر حتى المرجئة خلافا للجهمية) الأصفهانية ١٢٤ .

وقال : (قول جهم في الإيمان قول خارج عن إجماع المسلمين بل السلف كفروا من يقول بقوله) ٧/ ١٤١ .

وبهذا التحقيق يتبين العلاقة بين مذاهب المرجئة المعاصرة والمرجئة الأولى .

وأنه لا يوجد من أخذ منهم بقول مرجئة الفقهاء بل كلهم أخذ بقول الجهمية.

وقد سبق أن بينا الفرق بين قول الأشاعرة والماتريدية وقول مرجئة الفقهاء وأنه لا يوجد فرق بين قول الأشاعرة وقول الجهمية (الجهم وأتباعه).

وهنا بينا عدم الفرق بين المرجئة المعاصرين ومرجئة الجهمية ، بينما هناك فرق بين المرجئة المعاصرة والمرجئة الفقهاء .

كما قررنا أن السلف كفروا غلاة المرجئة الجهمية ومن قال بقولهم من الأشاعرة دون المرجئة،وقررنا وقوع الأشاعرة في الكفر لقولهم في الإيمان.

كما يلحق تكفير السلف من قال بقول الجهمية والأشاعرة في الإيمان من مرجئة عصرنا الغلاة ، فمن قال بهذا القول فيلحق بالجهمية في الحكم .

وعليه فقد أحيا أدعياء السلفية الجدد مذهب أسلافهم الجهمية الأولى.

تنبيه : سيقول بعض أصحابنا أما يكفي أن يسمون بالمرجئة دون الجهمية ؟

والسبب واضح أن السلف كفروا من قال بقول الجهمية ولم يكفروا من قال بقول المرجئة ، وفرقوا بين المذهبين في الاسم والحكم .

ومرجئة عصرنا قالوا بمذهب الجهمية الكافرة وزيادة كما قررناه ونقلنا عنهم، ولم يقولوا بمذهب مرجئة الفقهاء الذين لم يكفرهم السلف فتنبه.

وإن من لا يحسن أن يفرق بين المرجئة والجهمية هو كمن لا يعرف الفرق بين المشرك والمبتدع وبين التوسل البدعي والاستغاثة الكفرية.

أما من استنكر حكمنا هذا على مرجئة زماننا بالتجهم الكفري :

فهو إما أن يكون سببه الجهل بحقيقة مذهبهم ومذهب الجهمية والمرجئة فعليه أن يبحث حتى يتبين له قبل أن يستنكر، أو أنه مبتلى بذهاب التوحيد وموت الدين في قلبه، فهو مثل من استنكر الحكم على مشركي زماننا من المنتسبين للإسلام بالشرك الكفري مع اعترافه بأنهم فعلوا نفس مافعله مشركوا العرب ، ولكن تهيّب من العمل بأحكام التوحيد وإنزال الكفر بالطاغوت منزلته .

فائدة لطيفة : في الفرق بين المرجئة الأولى والمعاصرة :

كانت المرجئة في زمن ابن تيمية وبعده محمد بن عبدالوهاب أعداء لدعوة التوحيد واضحي الراية، إلا أنهم في عصرنا هذا نجد أولئك المرجئة في صفنا ويدعون بدعوة التوحيد ويتلبسون بلباس السلفية ، ويزعمون معاداة أهل الإرجاء والتجهم، وهم في الحقيقة من أولئك الخصوم بل ومن غلاة المرجئة الجهمية، وقد صار همهم الصد عن التوحيد وحرب أهله ، وقد ابتلينا في هذا الزمان بالمرجئة الذين جعلوا التوحيد في معزل عن الناس وصدوا الناس عنه وحاربوه.

تنبيه : قول مرجئة العصر الإيمان قول وعمل لكن العمل شرط كمال متناقض:

لأنه إذا كان العمل ركن فيزول الشيء بزوال ركنه ويكفر تاركه ، فإما أن يكون الشيء ركن أو شرط كمال ، لكن مرجئة أدعياء السلفية أرادوا المراوغة والتلاعب بالألفاظ فتنبه.

المبحث الرابع : فرق المرجئة المعاصرة وطوائفها المبتدعة:
١- الألبانيون .
٢- الخلوف أدعياء السلفية (الجامية والمداخلة).
٣- الإخوان والسلفية السرورية.
٤- علماء السوء والسلفية السلولية.

قاعدة : جماعة الإخوان ، والسرورية الحزبية ، وجماعة التكفير والهجرة ، وأدعياء السلفية والجامية والمداخلة والألبانية ، والتبليغ ، والدعويين (القصّاص) ، كلهم من الفرق الاثنتين وسبعين فرقة ، ولا يعدون من أهل السنة *.

الفرقة الأولى : الألبانية :
الألبانية : أتباع الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ت١٤٢٠هـ ، عفا الله عنه.
وهو من غلاة المرجئة، ومن أقواله الجهمية التي لم نتقولها عليه :
قال : (لا كفر إلا كفر الاعتقاد، لا يوجد كفر بمجرد العمل) .
وقال: (من يعمل عمل الكفار لكن لا يعتقد عقائد الكفار لا يكفر) .
وقال: (الإيمان قول وعمل واعتقاد ، لكن العمل شرط كمال) .

---

* تنبيهات :

١- أن الكلام في أهل البدع وتحذير الأمة منهم ومن أقوالهم من أقرب القرب، وقد بين السلف أهميته لأن به يحفظ الدين ، ويحذر من الوقوع في الكفر والبدعة وليس هذا من البدع كما توهم بعض الجهال، وقد نقلنا كلام السلف وردهم على هذه الشبهة في كتاب الانقياد.

٢- ليس كل من قال من أهل السنة بقول للمبتدعة ينسب إليهم ، بل قد يقال فيه إرجاء أو فيه غلو أو قال بقول الخوارج ، ونحوه ولا يحكم بأنه مرجئ أوجهمي أو خارجي إلا إذا ثبت التزامه بمذهبهم يقينا.

٣- يجب على المسلم مراقبة الله والتحرز من النيل من أعراض إخوانه المسلمين فلا يلمز أحدا ببدعة وهو بريء منها ، ولا يقول أحدا ما لم يقله ، وليحذر من اتباع الهوى في التصنيف فكل من يخالفه إما إخواني أو جامي أو مرجئ أو خارجي، وليعلم أن عاقبة الظلم وخيمة في الدنيا ويوم العرض بين يدي الحكم العدل .

وقال: (من قال العمل ركن فهو من الخوارج) .
وقال: (السلف فرقوا بين الإيمان والعمل ، وجعلوا العمل شرط كمال ، ولم يجعلوه شرط صحة كما هو مذهب الخوارج) .
(من كفر دون قصد الكفر لا يحكم بكفره ، ومن الغلو قولهم من فعل فعل الكفار فهو كافر ، ودليلهم الدعوى الباطلة التي لا أصل لها الإيمان يستلزم العمل).
وقال: (إبليس كافر لأنه لم يؤمن أي لم يصدق) .
وقال : (لا فرق بين الإيمان والتصديق) .
وقال : (ساب الله ليس بكافر حتى يستحل لكن هو عاص وقليل تربية).
وهذه الأقوال التي لم ننقولها على الألباني بل هي في كتبه وأشرطته وقد جمع بعضها عبد اللطيف باشميل في شريط (عقيدة الشيخ الألباني في الإيمان، بصوت الألباني نفسه، واسمع كلامه في شريط الكفر كفران ومنهج الخوارج ولقاء العنبري .
وقال : (إن تكفير الموحد بعمل يصدر منه غير جائز حتى يتبين منه أنه جاحد) حكم تارك الصلاة ٦١.
وبعد ثبوت هذه الأقوال عنه لا يصح أن يقال الألباني فيه إرجاء بل هو مرجئ غالٍ، فهو من غلاة المرجئة الجهمية في الإيمان .
وقد يظن الجهّال المتعصبون أني أجحفت في الألباني وظلمته بهذا الحكم، وأقول لهؤلاء على رسلكم واقرأوا كلام السلف في أبي حنيفة وقد ذكرت طرفا منه ، وقارنوا بين ما قالوه فيه وما قلته هنا ، مع العلم أن أبا حنيفة أعلى شأناً من الألباني بلا خلاف ، وبدعة الألباني وقوله في الإرجاء أخبث من قول أبي حنيفة بلا شك، لكن لما ابتعد الناس عن السلف وتركوا منهجهم هان عليهم دين الله ولم يغضبوا لله وميعوا الولاء والبراء والتعامل مع أهل البدع .
وقد تابع الشيخ الألباني على مذهبه أدعياء السلفية (الخلوف) وغيرهم .
وهم كثير من الجامية والمداخلة من خلوف المدينة وخلوف اليمن ودماج وخلوف الأردن وخلوف مصر والإسكندرية وخلوف ليبيا والمغرب.

عقيدة الألباني :

١- الإيمان هو التصديق :
قال : (لا فرق بين الإيمان والتصديق) .

٢- كفر إبليس يرجع إلى التكذيب وعدم التصديق :
قال: (إبليس كافر لأنه لم يؤمن أي لم يصدق) .

٣- المسلم لا يكفر إذا عمل بعمل الكفار:
قال: (من يعمل عمل الكفار لكن لا يعتقد عقائد الكفار لا يكفر) .
قال: (ومن الغلو قولهم من فَعَل فِعْل الكفار فهو كافر).

٤- لا كفر إلا كفر الاعتقاد :
قال : (لا كفر إلا كفر الاعتقاد) (من لا يعتقد عقائد الكفار لا يكفر) .

٥- لا يكفر إلا الجاحد :
قال :(إن تكفير الموحد بعمل يصدر منه غير جائز حتى يتبين منه أنه جاحد).

٦- لا يوجد عنده كفر عملي :
قال:(لايوجد كفر بمجرد العمل) (تكفير الموحد بعمل يصدر منه غير جائز).

٧- العمل شرط كمال :
قال: (الإيمان قول وعمل واعتقاد ، لكن العمل شرط كمال) .

٨- جعل قول السلف من مذهب الخوارج :
قال: (من قال العمل ركن فهو من الخوارج) .
قال: (السلف لم يجعلوه العمل شرط صحة كما هو مذهب الخوارج) .

٩- كذبه على السلف وجنايته عليهم:
قال: (السلف فرقوا بين الإيمان والعمل ، وجعلوا العمل شرط كمال).

١٠- لا يكفر إلا قاصد الكفر:
قال : (من كفر دون قصد الكفر لا يحكم بكفره).

١١- إنكاره التلازم بين الباطن والظاهر :
قال : (ودليلهم الدعوى الباطلة التي لا أصل لها الإيمان يستلزم العمل).

١٢- لا يكفر الساب إلا إذا استحل :
قال : (ساب الله ليس بكافر حتى يستحل لكن هو عاص وقليل تربية).

فهذه اثنتا عشرة مخالفة ، وجميعها أقوال إرجائية جهمية .

وقد بينّا في باب مسائل الإيمان أن هذه هي عقائد الجهمية ، ونقلنا كلام أهل العلم عنها في ثنايا الكتاب.

تنبيه : لم نستوعب كل أقوال الألباني وإنما أشهرها.

وممن تابع الألباني في عقيدته الجهمي الصغير علي حسن عبد الحميد حلبي.

يقول هذا الحلبي الجهمي : (من ثبت له حكم الإسلام بالإيمان الجازم إنما يخرج عنه بالجحود له أو التكذيب به أما إذا كان شاكا أو معاندا أو معرضا أو منافقا فإنه أصلا ليس بمؤمن) .

وهذه هي عقيدة الجهم بعينها.

الفرقة الثانية : الخلوف (الجامية والمداخلة) :

اتباع محمد أمان الجامي الإثيوبي ، وربيع بن هادي المدخلي .

وقد ظهرت هذه الفرقة في المدينة عام ١٤١١، وقد تأثرت من قبل بحركة الألباني حين كان بالمدينة عام ١٣٨١هـ ، وبقيت على منهجه حتى خرج جهيمان عام ١٤٠٠وكان كثير منهم معه ، ثم تغير فكرهم للدعوة للطاعة لكن لم تظهر إلا بعد حرب الخليج والإنكار على من أفتى بالاستعانة بالكفار، وتزعمها أمان الجامي وربيع المدخلي وكان من رؤوس الإخوان فانقلب عليهم ، وكان المقصود من حركتهم مواجهة كل من ينكر على الحكام أو يخرج عليهم ، بل إنهم جابهوا حتى من يرى شرعية الحكومات إذا أنكر المنكرات الظاهرة، لأنه يوغر القلوب على الولاة.

وقد نال هجومهم السلفيين والمجاهدين والمحتسبين وجماعة الإخوان .

واتبعهم في المنهج صالح الفوزان ومقبل الوادعي والنجمي وعبيد الجابري.

وقد أظهرت هذه الفرقة الإرجائية المبتدعة أربع بدع :

١- بدعة في الإمامة، بصرف الطاعة المطلقة لولي الأمر ، والدفاع عنه.

حتى دافعوا عن القذافي وقد كفّره ابن باز ، وعن بشار النصيري الباطني .

٢- بدعة الولاية ، فوالوا في رموزهم وحكامهم وعادوا ، وهذه بدعة الولاية التي بدع السلف أهلها كما اتخذوا أحبارهم أربابا.

٣- إنكار الجهاد ، فقالوا ليس هذا زمن جهاد، وأن لا جهاد إلا بولي الأمر .

بل وحاربوا الجهاد وسموا الموحدين المجاهدين بالخوارج بل وكفروهم .

٤- بدعة الإرجاء في الإيمان ، ولم يلتزمها جميعهم.

وجه تسميتهم بالخلوف والخلفية :

نسبة للخلف وتبرئة للسلف الذين التصقوا بهم زورا ، لما تسموا زوراً وبهتاناً بالسلفية والسلف منهم براء كان الأولى تسميتهم بالخلفية وأدعياء السلفية المرجئة.

فتسموا بالسلفية والصحيح وجوبا أن يسموا بالخلوف والخلفية .

كما نسميهم بالخوالف أيضا لقعودهم عن الجهاد وحربهم له.

فائدة : نقد أمثال هؤلاء الشيخ إسحاق فيمن ادعى أنه على منهج إمام الدعوة وهو يخالفه، وقد أتينا بقوله قريباً .

حقيقة : صارت الجامية فرقاً وأحزاباً وكل حزب بما لديهم فرحون .

المدخلية أتباع ربيع والحدادية أتباع محمود الحداد وأتباع أبو الحسن المأربي واتباع فلاح الحربي وفوزي البحريني واتباع الريس وغيرهم.

وصاروا يكتوون بنار التبديع والتكفير التي أشعلوها والحمد لله على العافية.

مواطن الخلوف الجامية: خلوف المدينة وخلوف دماج باليمن وخلوف الأردن وخلوف مصر والإسكندرية وخلوف ليبيا والمغرب.

رؤوس الجامية : أبو الحسن المأربي ، فلاح الحربي ، يحي الحجوري ، عبيد الجابري ، أحمد النجمي، محمد زيد المدخلي، علي الحلبي ، المغراوي ، الريس ، العبيلان ، محمود الحداد ، فوزي البحريني ، والسناني ، وكثير من آل الشيخ .

وقد رجع كثير منهم للحق بسبب تناقضهم وانكشاف حقيقة سلفيتهم التي نشأت فيها الفرقة .

وقد ظهر تناقض الخلوف مؤخراً في موقفين :

الأول: عند ظهور الإخوان على الحكم في بعض البلدان ، فمع معاداتهم للإخوانية عارض أصلهم طاعة ولي الأمر مهما ارتكب من ردة، وقد حكموا بتحريم الخروج على القذافي وبشار الأسد النصيري .

لكن سرعان ما تناقضوا وأمروا بالخروج على مرسي مع أنه أحسن حالا من حسني ولم يلتزموا قاعدتهم طاعة ولي الأمر ولله عاقبة الأمور، وأضحكوا الناس على سذاجتهم البلهاء وذلك لأن عداءَهم لجماعة الإخوان ليس لأجل التوحيد ولا لما عندهم من الشرك والبدع ، وليعلم العاقل أن النهي عن الخروج المقصود به عند هؤلاء : خروج المجاهدين الموحدين على الحكام الطواغيت المرتدين ، فهو خاص بهم ولا يقاس على غيرهم وهذه طريقة أهل الأهواء والبدع .

الثاني: حين حاصر الروافض دماج باليمن فأمر رؤوسهم بالجهاد دون النظر في إذن ولي الأمر وهم من قبل حاربوه في العراق حين استولى الصليبيين على بلاد المسلمين، بل حكم بعضهم بفسق من يقاتل اليهود والنصارى.

لكن سرعان ما ظهر فساد مذهبهم وتناقضهم وكذبهم في حادثة دماج حين دخلها الرافضة الحوثيين فسلموا بلاد أهل السنة للرافضة وتركوا جهادهم لأنهم ليسوا بالرجال ولا هم بأهل للجهاد وخرجوا منها أذلة وهم صاغرون وهذه عقوبة كل مبتدع مفتري، وكل من يتعمد ترك الجهاد أن يذله الله .

قال أيوب السختياني وأبو قلابة في قوله تعالى: (سينالهم غضب من ربهم وذلة): (هذا جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله) أخرجه اللالكائي.

تنبيه : الجامية وأدعياء السلفية قسمان :

الأول : من قال العمل شرط كمال وبعدم كفر تاركه، ومنهم ربيع والريس .

الثاني : من قال العمل ركن في الإيمان ويكفر تاركه ، لكن إرجاءه من جهة التطبيق فأنكر تكفير المرتدين والحكّام المشرعين للقوانين ومتولين الكفار حتى أنكروا تكفير القذافي وتكفير حاكم سوريا النصيري بشار الأسد .

وأبرز هؤلاء صالح الفوزان الذي يعد أكبر أدعياء السلفية ورأس الجامية ، وقد سمعته في شريط ينكر على من كفّر الأسد، وفي شرحه للنواقض جعل مظاهرة الكفار ليست كفرا إلا إذا قارنها الاستحلال والحب للكفر والبغض للإسلام وهذا التفريق من أقوال المرجئة المعاصرة ، وله مخالفات أخرى جمعتها في رسالة، والله جعل الكفر في التولي راجع لعمل الظاهر وهؤلاء ردوه للبغض لأنه لايمكن أن يرى وبالتالي لا يكفر المتولي والمظاهر وهذا منتهى قصدهم الدفاع عن المرتدين.

وقال أحدهم في كتاب له في الإيمان يرد على الجامية الذين أخرجوا العمل من الإيمان: (من الحكام من يكون كافراً في الباطن ولكن يعامل معاملة المسلمين).

فانظر كيف حصر هذا الجامي وبعّض بقوله: (من هؤلاء من يكون) وكأنه لا يرى منهم تعطيل الشريعة فمن هو الذي حكم بها ولم يشرّع القوانين من هؤلاء الذين استثناهم، ثم قال هذا الجامي المحترق في الإرجاء (لكن يعامل معاملة المسلمين) وهذا مع كفرهم ، فما فائدة التوحيد وتكفير تارك العمل الذي أنكره على بني جنسه من الخلوف لتعرف أنهم إن اختلفوا في التقعيد يتفقون في التمثيل، وهدفهم في حرب أهل التوحيد والدفاع عن الطواغيت واحد .

الفرقة الثالثة : حزب الإخوان :

أسس هذه الفرقة حسن البنا وقد تأثر بالأفغاني ومحمد عبده .

وهو قبوري صوفي حصافي (أجاز أن يقال يا رسول الله أغثني) وفتواه هذه في جريدة الإخوان صفر سنة ١٣٥٢ ، كما ويرى التقريب مع الرافضة وهذا ديدن الصوفية لأن القبورية تجمعهما . كما أنه يدعو للدمقراطية. وله أقوال مخالفة كثيرة .

وحزب الإخوان لا يريدون التوحيد وإنما يريدون جمع الكلمة تحت شعار جماعتهم الخبيثة وحزبهم الشيطاني على حساب كلمة التوحيد والانقياد لله ﷻ والعمل بشريعته والولاء والبراء في الدين.

ويقولون ليس هذا وقت بيان التوحيد لابد من جمع الكلمة حتى مع الرافضة دون النظر للتوحيد،وليس هذا وقت المطالبة بالشريعة ولا بد أن يحكم بها تدرجا .

ولتعلم ما عند رؤوس هذه الطائفة من الشرك الأكبر تعال وانظر إلى قادتها:

فهذه حماس توالي الروافض وتدخل تحتها وترفع شعار الوطنية الفلسطينية وتطمس الهوية الإسلامية وتصرح بعدم الحكم بالشريعة .ولم نتهمها بما لم تقله .

فهذا أحمد يوسف يقول في كتابه (الإخوان المسلمون والثورة الإيرانية في فكر الإمامين البنا والخميني) : (الشيعة عز هذا الزمان ، وما العيب أن تكون شيعياً) .

ومشعل قائدهم يصرح في لقاء معه بأن حكومته لن تحكم بالشريعة .

ومرسي الآخر يقول: (قطع يد السارق هذه ما هي الشريعة)، وأنكر الفرق بين النصرانية والإسلام . قال إسحاق بن راهوية:(أجمع العلماء أن على من دفع شيئا أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٢٢٦.

وحركة النهضة وزعيمها الغنوشي يدعو إلى الحرية السياسية والأخوة الوطنية ونبذ التفريق العقدي والولاء والبراء في الدين . كما في كتابه الحريات في الإسلام .

وفي فتاوى اللجنة الدائمة: (إن من لم يفرق بين اليهود والنصارى وسائر الكفرة وبين المسلمين إلا بالوطن، وجعل أحكامهم واحدة فهو كافر)١/ ١٤٥.

والجيش الحر ومعهم الجبهات الإخوانية الإرجائية وعلى رأسها زهران علوش وعدنان العرعور وغيرهم ينادون بقتال قومي ويصرحون بعدم وجوب الحكم بالشريعة ويدعون لحرب المجاهدين ويجوزون التحالف مع الكفار لقتالهم .

وأوردت هذا عنهم حتى يتبين لأهل التوحيد حقيقة شعاراتهم الزائفة ودعاواهم الكاذبة وليُعلم أن إلههم المعبود هو طاغوت المصلحة .

جماعة الإخوان قسمان :

الإخوان التقليديون : وهم الذين عرفوا بعد ذلك بالسرورية نسبة لمحمد سرور زين العابدين ومن السرية في العمل وأظهروا السلفية والجهاد وإنكار المنكرات والتقرب من أهل العلم والتوحيد .

الإخوان المطوّرون : وهم الإخوان الأولون ورأوا أنه لا مانع من ترك التدين الظاهر حتى وافقوا العصرانية ودعاة الحرية وذلك ليجلبوا الساسة إليهم ولكي يقبل عامة الناس على قسمهم الآخر الذي يصب في نفس فكر الجماعة الأم .

طائفة السرورية : وهؤلاء يرجعون في جماعة الإخوان.

وهم يظهرون السلفية ويدّعون التوحيد والغيرة على الدين والدعوة إلى الله، وهم أخبث الفرق المحاربة للدين والتوحيد والجهاد والكفر بالطاغوت .

وأبرز ما يميزهم:

١- حرب أهل الجهاد ومن يقوم بالتوحيد والكفر بالطاغوت، والطعن في الجهاد وإسقاط رموزه، وتشويه سمعة المجاهدين ولمزهم بالغلو والتكفير .

وقد اتخذوا من حرب المجاهدين الموحدين دينا بعد الحملة الصليبية الأمريكية على الإرهاب والجهاد، وقد افتضح أمرهم حين أعلن المجاهدون في العراق الدولة الإسلامية وسعوا بلا توقف في إفشالها ودعموا الحزب الإسلامي ثم الجيش الإسلامي حتى شكلوا الصحوات لحرب المنهج السلفي، حتى تعاونوا مع الكفار لتحقيق غايتهم، بينما هم في المقابل يناصرون المرتدين ويفضلون حكم الطاغوت على حكم أهل التوحيد، لأنهم علموا أن هذا المنهج سيعيق وصولهم للحكم باسم الدعوة والمصلحة والصحوة ومشروع الخلافة الإسلامية المزعوم ، فأظهرهم الله لأهل التوحيد بفضله ومنته وميز بين الطيب والخبيث وتمايزت الصفوف ، وانكشفوا للمجاهدين وعلماء التوحيد بعد سنين طويلة من مصاحبتهم.

٢- تمييع التوحيد وتجويز الكفر لأجل المصلحة ، والدعوة للدمقراطية، ومناصرة الإخوان والمطالبة بالسكوت عن شرك الإخوان الصريح، وتأييدهم على شرك التشريع والتصويت على شرك دستور.

وقد حالفت السرورية الإخوان وناصرتها بعد قيام ما أسموه بالربيع العربي والمظاهرات وحصول حكم الإخوان على بعض البلدان ضد أهل التوحيد، وظهر

وجه الوفاق بينهما حتى قال زعيمهم بعد موافقته للتصويت على دستور مرسي المشرك: (الإخوان نخالفهم ولا نعاديهم)، فأبطلوا التوحيد والولاء والبراء وصدوا عن الجهاد وأقصوا الشريعة وامتنعوا عنها وصرحوا بتركها ودعوا للدمقراطية، وهم بالأمس كانوا ينادون ويطلبون الخروج على الحكام لأنهم لا يحكمون بالشريعة . فلما صار الأمر لهم تركوا الحكم بما أنزل الله . فظهر الأمر ثانية لأهل التوحيد بحقيقتهم فزادت البراءة منهم وظهر تمايز الصفوف أكثر فلله الحمد على ذلك .

وقد ذكّرنا حالهم هذا بحال السلفية البريطانية في ادعاء التوحيد.

وظن كثير من الناس أن هؤلاء تغيروا وهم لم يشعروا أن هذا منهجهم من الأساس إنما استغلوا سذاجة الهمل وترك الولاء والبراء المأمور به معهم .

دخول هذه الفرقة (الإخوان والسرورية) في المرجئة المعاصرة من جهتين.

الأول: أن كثيرا منهم يخرج العمل من الإيمان ، فهو من المرجئة حقيقة.

الثاني : مناصرة المرتدين ، وعدم تكفيرهم ، وتجويز بعض الكفريات ، وحرب التوحيد وأهله، وغيرها مما يلزم منه تثبيت عقيدة الإرجاء.

تنبيه : الإخوان والسرورية قسمان :

الأول : من قال العمل شرط كمال ولا يكفر تاركه ولا يوجد كفر عملي .

الثاني : من قال العمل ركن في الإيمان ويكفر تاركه ، لكن إرجائه من جهة التطبيق فأنكر تكفير المرتدين والحكّام المشرعين بل ناصرهم .

الرابعة : السلفية التقليدية والسلولية من المستهينين بالكفر المجوزين للنكر:

ويدخل مع هؤلاء :

علماء السوء الغاشون المتلاعبون بالدين والفتوى ولصوص النصوص.

والمقلدون من المتعصبين والأتباع الضالين وأهل الأهواء.

وشيوخ الإعلام عباد الشهوة والشهرة والمنصب وطلّاب المال الشرف .

وأكثر من يسمون بالدعاة ، وهم القُصّاص الذين جاءت الأخبار بذمهم .

والعصرانيون.

تنبيه : بعض الفرق والمذاهب التي انخرطت المرجئة فيها وأيدتها أو خرجت تحت مضلة الإرجاء ، ومنها : الديمقراطية العلمانية اللبرالية ودعاة التقريب والحوار والوسطية والحرية والتسامح ودعاة الإنسانية والوطنية والقومية .

وقد تكلمنا عن هؤلاء في كتابنا الانقياد للشريعة والعمل بالدين.

المبحث الخامس : أدلة المرجئة وشبهاتهم النقلية والعقلية

الشبهة الأولى: إن الإيمان في اللغة التصديق .

ويدل له قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ يوسف:١٧.

*** ويرد عليهم في زعمهم أن الإيمان هو مجرد التصديق من ستة أوجه:**

الأول: لا يسلم أن أهل اللغة نقلوا أو أجمعوا على أن الإيمانَ التصديقُ فإجماعهم يحتاج لإثبات من كلام أئمة اللغة الأوائل .

الثاني: إن لفظ التصديق لا يرادف الإيمان لا لفظاً ولا معنىً ومن ذلك:

١- إن التصديق يتعدى بنفسه دون الإيمان فيقال صدقته ولا يقال آمنته بمعنى صدقته وإنما آمن له.

٢- التصديق يستعمل في كل خبر مشهود أو غائب أما الإيمان فلا يستعمل إلا في الأمور الغائبة غير المشاهدة، فمن قال السماء فوقنا يقال له: صدقت ولا يقال له آمنا لك وآمنا بكلامك وبك ، ولكن يقال صدقنا كلامك .

٣- الإيمان مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة وهو قريب من الإقرار لأن كليهما يتضمن إخباراً مع إنشاء الالتزام والانقياد بخلاف التصديق.

٤- إن التصديق خاص بمجرد الأخبار وأما الإيمان فيستعمل في الأخبار وغيرها كالأحكام.

٥- إن الإيمان يستعمل ويختص بالله سبحانه وأما التصديق فبما جاء عن الله فيقال آمنا بالله وصدقنا رسله وكلماته وكتبه ولا يقال صدقنا الله أو صدقنا بالله ومن ذلك الدعاء: «اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك».

٦- إن الإيمان يقابله الكفر وهذا في نصوص لا تحصى وأما التصديق فيقابله التكذيب والكفر أعم من التكذيب.

الثالث: إن التصديق يكون بالعمل كما يكون بالقلب ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ الصافات١٠٥ ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا ﴾ الفتح ٢٧، وقوله ﷺ: «والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» متفق عليه، وقوله في الإيمان: «ما وقر في القلب وصدقه العمل» أخرجه سعيد بن منصور وابن عدي في الضعفاء.

قال سعيد بن جبير : (الإيمان هو التصديق ... والتصديق أن يعمل العبد بما صدق به من القرآن) تعظيم قدر الصلاة للمروزي ٢/ ٥٦٦ .

الرابع: يقال وإن كان الإيمان التصديق فإنه تصديق مخصوص كما يقال في الصلاة في اللغة هي الدعاء وفي الشرع دعاء مخصوص ومثله الحج قصد مخصوص وهكذا الإيمان ليس التصديق بكل شيء وإنما بشيء مخصوص على وجه الخصوص، فيكون الإيمان في كلام الشارع أخص من الإيمان في اللغة، وقد فسر الله الإيمان وقيده ولا يطلق بدون تفسير، فالشارع يستعمل الإيمان إما مقيداً أو مطلقاً ولكنه مفسر.

الخامس: إن الإيمان وإن كان هو التصديق فالتصديق التام يستلزم الواجب من عمل القلب والجوارح فهي لوازم للإيمان وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم.

السادس: إن التصديق متفاوت ومتبعض ومتعدد ومتفاضل، ويكون مجملاً ومفصلاً وكاملاً وناقصاً ومتيقناً فيه ومشكوكاً فيه وهذا معلوم حتى بالحس.

وقد ذكر هذه الأوجه ابن تيمية في كتابه الإيمان الأوسط.

الشبهة الثانية : إن الله عطف الأعمال على الإيمان في مثل قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الشعراء:٢٢٧ والعطف يقتضي المغايرة .

والجواب عنها: أن هذا من عطف الخاص على العام مثل ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ البقرة: ٢٣٨.

الشبهة الثالثة : إن الله خاطب الناس بلفظ الإيمان قبل إيجاب العمل .

والجواب: أن العمل قبل إيجابه ليس من الإيمان، وأما بعد إيجابه فيصير من الإيمان والإيمان تكامل بعد نزول الوحي.

الشبهة الرابعة : إن من أسلم ثم مات قبل أن يعمل مات مؤمناً وهذا دليل على عدم دخول الأعمال في الإيمان .

والجواب: أن العمل لم يجب في حقه بعد فلم يدخل في الإيمان، ولو أدرك العمل وامتنع عنه لما كان مؤمناً ، فهو يسلم مع العزم على الانقياد والطاعة والعمل.

الشبهة الخامسة: لو كان العمل من الإيمان لزال الإيمان بزوال بعضه وهذا قول الخوارج . وهذا قالوه لأجل شبهتهم التي هي نفي التركيب في الإيمان .

الشبهة السادسة: قولهم إن الإيمان في القلب واستدلوا لشبهتهم : بمثل قوله تعالى :﴿ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ المجادلة:٢٢، ﴿ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ المائدة:٤١.

والجواب عليها: أن غاية هذه الأدلة تثبت وجود الإيمان في القلب وأنه الأصل ولا دليل فيها على خروج العمل من الإيمان.

الشبهة السابعة: إن دخول الأعمال في اسم الإيمان مجاز .
وهذه دعوى بدون دليل والمجاز باطل من أصله.
الشبهة الثامنة : استدلال المرجئة ببعض الأحاديث ومنها:
قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» رواه الطبراني بسند ضعيف.
وحديث البطاقة عند أحمد والترمذي. وحديث الجارية عند مسلم.
وما جاء في حديث الجهنميين في الصحيحين وفيه: «بغير عمل عملوه ولا خير قدموه» ، وعند مسلم زيادة ليست في البخاري:«لم يعملوا خيراً قط».
وحديث حذيفة في اندراس الإسلام آخر الزمان ، عند ابن ماجه والحاكم.
والحديث المتفق عليه: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان».
وإليك الإجابة عن الأحاديث التي يستدل بها المرجئة لمذهبهم :
الأول: إن ما جاء في الحديث: «لم يعملوا خيراً قط» جرياً على ما تعارفت عليه العرب واستعملته في كلامها من نفي الاسم عن الشيء لنقصه عن الكمال والتمام لا لانتفائه نهائياً وهذا جواب ابن خزيمة.
الثاني : إنه يوجد خير عنده وعمل صالح أثبته الحديث وغيره ومنها عدم احتراق مواضع السجود، وإنظار المعسرين في الرجل الذي حوسب فلم يوجد له خير وكان يتجاوز وينظر المعسر، والخوف من الله وخشيته عند من أمر بنيه بإحراقه.
الثالث: إن حديث : «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» قيد في روايات بألفاظ مثل : مخلصاً من قبله موقناً وغيرها، مما يجمع الشروط فيها.
الرابع: إنه يلزم من استدلال المرجئة بالحديث وأخذهم بظاهر اللفظ والقول بالعموم في نفي عمل الخير مطلقاً أنهم لم يقولوا حتى لا إله إلا الله بل ولم يصدقوا ويؤمنوا، لأن هذه الأمور داخلة في عموم الخير الذي يفعله الإنسان وإن استثنوا التصديق وخصصوه لزمهم استثناء جنس الأعمال والانقياد وتخصيصها لوجود الأدلة على إثباته، كيف وبعض الروايات أثبتت وجود عمل ظاهر كما تقدم.
الخامس: أن الحديث في فئة معينة وهم الجهلة والبوادي وحديثو الإسلام.
السادس: أو إن هذا الحديث كان في أول الوحي وفترة من الزمن وقبل أن تفرض الفرائض وتستقر الشرائع وتشرع الأعمال، وهذا قول الزهري وابن المسيب ولا يصح أن يقال إن الحديث نسخ لأنه لا نسخ في الأخبار.
السابع: إنهم قالوا لا إله إلا الله عند موتهم بقصد التوبة، كما قال البخاري.

الثامن: إن قول لا إله إلا الله والتصديق يدخل الجنة مع توفر الشروط ووجود اللوازم ومنها الانقياد والالتزام والقبول وهذا مثل قوله ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة» فليس على إطلاقه وإنما مع قيد توفر الشروط والأسباب وانتفاء الموانع وهذا جواب المنذري وابن رجب في كتابه التوحيد.

التاسع: إن قول لا إله إلا الله يدخل الجنة وينفع مع الإخلاص التام فكل مسلم معه هذه البطاقة «لا إله إلا الله» ولكن ليس كل من معه البطاقة معه الإخلاص ويدل على ذلك وجود من معه «لا إله إلا الله» ويدخل النار، ويدخل هذا الوجه في السابق.

العاشر: إن الحديث في فعل السيئات وكثرتها لا ترك الحسنات والفرائض وجنس الأعمال.

الحادي عشر: إن قول أهل الجنة في الجهنميين من غير عمل عملوه ولا خير قدموه حسب علمهم وليس بياناً للحقيقة، فلهم عمل ولكن أهل الجنة لا يعلمون به فحكموا عليهم بالظاهر وما رأوه من ظاهر حالهم.

الثاني عشر: على فرض استقامة استدلال المرجئة بالحديث وضعف هذه الأوجه فإنه من قبيل المتشابه الذي نرده للمحكم والمحكمات من النصوص والأدلة توجب العمل وتحكم بكفر من ترك جنسه وكفر من لم ينقد ويذعن ويطيع للدين.

هذه أهم الأوجه التي ترد على استدلال المرجئة بالحديث وتجيب عنه وتنقض فهمهم له وتوجه الحديث مع بقية النصوص، وإن كان في بعضها ضعف، وقد أعرضت عن بعض الأوجه التي ذكرت من شُرَّاح الأحاديث لضعفها، كما أعرضت عن الإجابة عن الأحاديث من حيث السند وترجيح الروايات التي ليس فيها بعض الألفاظ المجملة مثل: «من قال لا إله إلا الله» دون التقييد لها باليقين والإخلاص والصدق، وَ«لم يعملوا خيراً قط» .

وهناك أقوال للمرجئة يصوغها البعض على هيئة الأدلة، وعند التحقيق هي أقوال عارية عن الدليل وهي متفرعة عن دليلهم نفي التركيب والتلازم، ومنها:

١- عدم اجتماع الإيمان مع نفاق وشعبة كفر.

٢- كل كفر فلأجل انتفاء التصديق من القلب.

٣- الإيمان متماثل ولا يتفاضل.

٤- الإيمان يتحقق ويكون كاملاً مع عدم العمل بل ومع وجود الكفر العملي.

الباب الثالث الخوارج

الفصل الأول : الخوارج القديمة

المسألة الأولى : تعريف الخوارج:

الخوارج هم فرقة من الفرق الإسلامية التي تكفر بالكبائر، وترى الخروج على أئمة العدل من المسلمين وتخرج عن أهل الحق وجماعة المسلمين وتكفيرهم.

سبب تسميتهم بالخوارج :

سموا بذلك لخروجهم على علي ﷺ خاصة، وخروجهم على جماعة المسلمين.

تنبيه : هناك فرق بين الخوارج والبغاة ومن يخرج على أئمة الجور فالأول مبتدع والثاني مخطئ والثالث رأي لبعض أهل السنة.

الثانية : الأحاديث الواردة في الخوارج :

١- عن علي ﷺ قال: قال ﷺ: (يأتي في آخر الزمان : قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة) متفق عليه .

٢- وقال الرسول ﷺ عنهم : (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان). متفق عليه ، كما في بعض ألفاظ حديث أبي سعيد الآتي .

٣- وقال ﷺ عنهم : (شر الخلق والخليقة) رواه مسلم من حديث أبي ذر.

٤- وقال ﷺ عنهم : (شر قتلى تحت أديم السماء) كما عند الطبراني .

٥- عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وأعمالكم مع أعمالهم، يقرؤون القرآن ولا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، تنظر في النصل فلا ترى شيئا، ثم تنظر في القدح فلا ترى شيئا، ثم تنظر في الريش فلا ترى شيئا، وتتمارى في الفوق) . متفق عليه. وروي الحديث بطرق وألفاظ عدة .

٦- عن أبي سعيد قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما إذ أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال يا رسول الله اعدل، فقال : ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل، فقال عمر : يا رسول الله

ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال : دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس).

قال أبو سعيد الخدري : فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺالذي نعته . متفق عليه .

٧- وقال النبي ﷺ : (تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق). وهذا الحديث صحت بعض أسانيده.

٨- عن أنس بن مالك قال : (كان في عهد رسول الله ﷺ رجل يعجبنا تعبده واجتهاده، فذكرناه لرسول اللهﷺ باسمه فلم يعرفه، ووصفناه بصفته فلم يعرفه، فبينما نحن نذكره إذ طلع الرجل قلنا : هاهو ذا، قال : إنكم لتخبروني عن رجل، إن على وجهه سعفة من الشيطان، فأقبل حتى وقف عليهم ولم يسلم، فقال له رسول اللهﷺ : أنشدتك بالله هل قلت حين وقفت على المجلس : ما في القوم أحد أفضل مني أو أخير مني ؟ قال : اللهم نعم، ثم دخل يصلي، فقال رسول اللهﷺ : من يقتل الرجل ؟ فقال أبو بكر : أنا، فدخل فوجده قائما يصلي فقال : سبحان الله أقتل رجلا يصلي وقد نهى رسول اللهﷺ عن قتل المصلين، فخرج فقال رسول اللهﷺ : ما فعلت ؟ قال : كرهت أن أقتله وهو يصلي، وقد نهيت عن قتل المصلين . قال رسول اللهﷺ : من يقتل الرجل ؟ قال عمر : أنا، فدخل فوجده واضعا وجهه فقال عمر : أبو بكر أفضل مني، فخرج فقال رسول اللهﷺ : مه ؟ قال : وجدته واضعا وجهه فكرهت أن أقتله . فقال : من يقتل الرجل ؟ فقال علي : أنا، قال : أنت إن أدركته . قال : فدخل علي فوجده قد خرج، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : مه ؟ قال : وجدته قد خرج . قال : لو قتل ما اختلف في أمتي رجلان، كان أولهم وآخرهم . رواه أبو يعلى والبزار وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الدلائل وغيرهم بأسانيد ضعيفة.

٩- عن عبد الله بن أبي أوفى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الخوارج هم كلاب النار) رواه أحمد وغيره ، وفيه نكارة وسنده منقطع وروي موقوفا.

الثالثة : زمن خروج الخوارج :

زمن خروجهم كان وقت فرقة المسلمين واختلاف علي ومعاوية رضي الله عنهما وما حدث بينهما من قتال في معركة صفين ، وقد ورد الحديث في مسلم قال النبي ﷺ: (تمرق مارقة عند فُرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق) .

وذلك لما رفع جيش معاوية المصاحف ودعوا إلى التحكيم ،فاغتر الخوارج بتلك الدعوة، وحَمَلوا علي على قبولها فقالوا له: أجب إلى كتاب الله ، إلا أن الخوارج انقلبوا ، وأعلنوا البراءة من التحكيم، ورأوه وكفرا، ففارقوا الجماعة رأيا وجسدا، فانحاز اثنا عشر ألفا منهم إلى حروراء من قرى الكوفة، فأرسل إليهم عليٌّ ابن عباس ، فحاورهم ابن عباس، في (التحكيم ، والهدنة ، ومحو علي اسمه من الخلافة) وأجابهم ابن عباس بأن التحكيم جاء في القرآن في شقاق الزوجين وفي الصيد والهدنة فعلها الرسول ﷺ في الحديبية ومحا النبي ﷺ اسمه من وثيقة الصلح، فلجوا في خصامه، فلما جاء علي أجابهم على ما نقموا عليه من أمر الحكمين، وكان مما اعترضوا عليه قولهم: خَبِّرْنا : أتَراهُ عَدْلاً تَحكيمَ الرجالِ في الدماء ؟ فقال لهم علي: إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن ، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال . قالوا : فخَبِّرْنا عن الأجل لم جعلته بينكم ؟ قال : ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ، ولعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة، لكن الخوارج لم يقتنعوا ثم انحازوا إلى النهروان ، وهي بين بغداد وواسط، وبايعوا عبدالله بن وهب الراسبي إماما لهم، وقتلوا عبدالله بن خباب بن الأرت، وبقروا بطن جاريته، فطالبهم علي بقتلته فأبوا عليه وقالوا كلنا قَتَلَهُ، وكلنا مستحلٌ دماءكم ودماءهم، فوعظهم وأنّبهم ونصح لهم، فأبوا إلا المناجزة والقتال، فقاتلهم بمن معه حتى أفناهم فلم يبق منهم إلا سبعة فيما قيل، تفرقوا في البلاد، ومنهم نبتت بذرة الخوارج مرة أخرى. وقد بقيت الخوارج إلى يومنا. هذا وقد قتل ابن ملجم الخارجي عليا ﷺ.

الرابعة : نشأة عقيدة الخوارج:

لم يكن للخوارج عند ظهورهم عقائد عرفوا بها فارقوا بها أهل السنة، فقد كانت مفارقتهم للمسلمين متعلقة باعتراضهم على مسألة التحكيم، وقد توسع الخوارج في بدعهم ولم يقفوا بها عند حد، حتى كفَّر بعضهم بعضا.

فالخوارج لم يبدأ بهم الضلال إلا حينما عارضوا النص بالآراء القاصرة، وأقاموا من أهوائهم حكما على تصرفات الشارع، فجاء اعتراض ذي الخويصرة

التميمي على النبي ﷺ في قسمته، وقوله له : " اعدل فإنك لم تعدل " ، وكان أول بدعة فكرية اعتنقها الخوارج ، وسار على نهجها من جاء بعده من الحرورية والأزارقة والنجدات والإباضية والعجاردة والثعالبة والصفرية والبهيسية وغيرهم.
وفي عصرنا ظهرت فرق حديثة للخوارج وأقاويل لهم مبتدعة.

الخامسة : صفات الخوارج في الأحاديث :
١- أنهم حرب على المسلمين ويستبيحون قتلهم وسِلْمٌ على الكافرين: (يقتلون أهل الإسلام ويَدَعُون أهل الأوثان) متفق عليه .
٢- قراءة القرآن دون فهمه: (يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم) متفق عليه.
٣- العبادة والزهد : (يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم) متفق عليه .
٤- الغلو في الدين .
٥- يفرقون المسلمين ويشقون عصاهم .
٦- الجهل بالدين
٧- يحسنون القول ويسيئون العمل.
٨- التحليق : (سيماهم التحليق) البخاري
٩- الصِغَر والسفاهة:(حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام) متفق عليه.
١٠- شجاعتهم وتهورهم واندفاعهم وطيشهم .
١١- أنهم شر الخلق : (شر الخلق والخلقية) كما عند مسلم
١٢- أن قتلاهم (شر قتلى تحت أديم السماء) كما عند الطبراني .
١٣- الخروج من الدين:(يمرقون من الدين) الصحيحين.
١٤- دخول النار : (كلاب النار) كما عند أحمد .

السادسة : عقائد الخوارج وأفكارهم :
١- الخروج على أئمة العدل إذا خالفوا منهجهم وفهمهم للدين.
٢- تكفير أصحاب الكبائر.
٤- تجويز الإمامة العظمى في غير القرشي، فكل من ينصبونه ويقيم العدل فهو الإمام، سواء أكان عبدا أم حرا، عجميا أم عربيا. وذهبت طائفة منهم وهم النجدات إلى عدم حاجة الناس إلى إمام، وإنما على الناس أن يتناصفوا فيما بينهم.

ومما نسب للخوارج الأولى وكفرهم العلماء بها :

١- البراءة من الخليفتين الراشدين عثمان وعلي رضي الله عنهما.

٢- إسقاط حد الرجم عن الزاني، وإسقاط حد القذف عن قذف المحصنين.

٣- إنكار بعضهم سورة يوسف، وهو من أقبح أقوالهم وأشنعها، وهذا القول ينسب إلى العجاردة منهم، حيث قالوا لا يجوز أن تكون قصة العشق من القرآن.

٤- القول بوجوب قضاء الصلاة على الحائض، فخالفوا النص والإجماع .

ومما ذهبت إليه الخوارج المتأخرة والإباضية :

إنكار العلو ، وبقية صفات الله ، ورؤية الله ، والقول بخلق القرآن .

فصاروا على مذهب المعتزلة ، إضافة لتكفير الفاسق الملي .

وهناك أقوال للخوارج الجدد سنأتي بها.

السابعة: كيفية التعامل مع الخوارج ومنهج علي ﷺ معهم :

أولا : الحوار : وقد بدأ أمير المؤمنين علي ﷺ مع الخوارج به ، فبعث عبد الله بن عباس لمحاورتهم والنظر فيما أخذوا عليه، حيث ذكروا ثلاث خصال ناظرهم فيها عبد الله بن عباس، فرجع منهم ألفان وبقي الآخرون فقتلوا في معركة النهروان.

وهذا ما فعله عمر بن عبد العزيز معهم ، فلما فعلوا ما يوجب قتالهم قاتلهم .

ثانيا : دعوتهم إلى كف أذاهم عن المسلمين إن تمسكوا بعقيدتهم :

قال لهم علي ﷺ بعد أن أظهر الخوارج العناد وعدم قبول الحق: (إلا أن لكم عندي ثلاث خلال ما كنتم معنا : لن نمنعكم مساجد الله، ولا نمنعكم فيئا ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا) رواه البيهقي وابن أبي شيبة .

والحكمة في ذلك محاولة دمج الخوارج في الأمة مع ضمان كف أذاهم عن المسلمين وتسرب عقيدتهم ، لأن هذا قد يزيل اللبس عنهم فيرجعوا عن آرائهم.

وهذه المعاملة ما التزموا جماعة المسلمين ولم يعتدوا .

ثالثا: القتال : وهذا إذا امتدت أيديهم إلى حرمات المسلمين فيجب دفعهم وكف أذاهم عن المسلمين، وهذا ما فعله علي ﷺ حين قتل الخوارج عبدالله بن خباب بن الأرت وبقروا بطن جاريته، فطالبهم بقتلته فأبوا، وقالوا كلنا قتله وكلنا مستحل دماءكم ودماءهم، فسل عليهم السيف حتى أبادهم في وقعة النهروان.

وقد فرح علي ﷺ بقتال الخوارج فرحا شديدا لما سمع من أمر النبي ﷺ بقتالهم ومدح من قاتلهم، بل وعزمه إن هو أدركهم على قتلهم كقتل عاد.

الفصل الثاني : الخوارج المعاصرة والجدد

المسألة الأولى : أقسام الخوارج المعاصرون اليوم : ثلاثة طوائف:

الأولى : الخوارج القديمة : من يكفر بفعل المحرم وترك أي عمل .

وهم اليوم الإباضية في عمان وليبيا والجزائر ومعتزلة اليمن الزيدية .

وهؤلاء أتباع الخوارج الأولى وعقائدهم هي نفسها، وتقدم الكلام عنهم .

الثانية : الذين سموا أهل التوحيد خوارج لِما معهم من التوحيد.

الثالثة: من خرج على المسلمين وكفّرهم غلواً وجهلاً ، وكفّر باللوازم وكفّر بالتسلسل وبما يسوغ الاختلاف فيه ، وأتوا ببدع لم يسبقوا إليها ، وهم الخوارج الجدد لأنهم ابتدعوا طرق في التكفير وبدع في الكفر لم يسبقوا إليها.

وسنأتي على هاتين الفرقتين .

الثانية : سبب ظهور الخوارج الجدد وتاريخهم :

يوجد من أخذ بهذا الفكر نفاقا لحرب الدين ممن أنشأهم الحكام المرتدون لحرب الجهاد وكانوا ضباطاً في استخبارات المرتدين ودخلوا في صفوف المجاهدين في أفغانستان وغيرها.

وقد تأثر بهم بعض السطحيين الجهال من المجاهدين والسلفيين ، وهم دعاة السلفية من الجامية والمداخلة القتاتين.

كما يوجد من أخذ بفكر الخوارج وغلا في الدين ديانة ، نتيجة ظهور المرتدين وحربهم للمسلمين بيد علماء السوء المنافقين ، وغيرها من الأسباب.

وقد فرخت هذه العقيدة في ساحات القتال وكان بعضهم يترك القتال ويشتغل بتكفير المجاهدين فصدق فيهم الحديث : (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان) متفق عليه .

كما ترعرعت وتعرعرت هذه العقيدة في سجون الطواغيت ، حتى آذى هؤلاء الموحدين ، كما آذى أولئك المجاهدين .

الثالثة : وإليك الكلام عن الخوارج المعاصرة اليوم ثلاثة طوائف:

الأولى: الذين سموا أهل التوحيد خوارج.

الثانية: الخوارج الجدد الغلاة الذين كفروا المسلمين غلواً وجهلاً .

الثالثة: الخوارج القديمة : وتقدم الكلام عنهم .

الطائفة الأولى : الخوارج الذين سموا أهل التوحيد خوارج وكفروهم.

وهم الذين كفروا من قام بالتوحيد لِما معه من التوحيد .

وهذه الفرقة قديمة ومعاصرة وكل يوم يتجدد شعارها وتغير ثوبها ، فبالأمس كان خصامنا (نحن أهل السنة) معها في تكفير عباد القبور .

وقد شكا ابن القيم منهم :

من ليّ بمثل الخوارج قد كفّروا ... بالذنب تأويلاً بلا إحسان

وخصومنا قد كفرونا بالذي ... هو غاية التوحيد والإيمان

واليوم خصامنا معها في تكفير المشرعين وموالين اليهود والنصارى والحكام بغير ما أنزل الله والمشركين المرتدين من عباد الدستور وعبيدهم من علماء القصور.

فأولئك كان اسمها الصوفية وهؤلاء تسموا بالسلفية.

وهم على درجتين :

١- من قال عن المجاهدين الموحدين بأنهم خوارج .

٢- من زاد على تبديعهم إلى تكفيرهم.

ووجه تبديعهم لأهل التوحيد وتكفيرهم علتين:

الأولى : لأننا لا نعظم الأنبياء والأولياء ولا نحبهم ، كما زعم خصومنا.

وقصدهم بالتعظيم عبادة الأولياء ودعاء الأموات من دون الله .

الثانية : لأننا استحللنا دماء المسلمين ، ويقصدون المشركين والمرتدين من الروافض وعباد القبور وعباد طاغوت الدستور ومن يتولى الصليبيين.

والعلة الأولى للصوفية والثانية لدعاة السلفية .

وهؤلاء الخلوف دعاة السلفية وعلماء السلاطين شابهوا من سبقهم من علماء الصوفية والدولة العثمانية وعلماء المأمون الذين طالبوا بقتل أهل السنة.

وقد قام بهذه العقيدة أربع طوائف :

الأولى : الصوفية القبورية .

الثانية: علماء السوء وفقهاء السلطان من أصحاب المعالي والهيئات الشرعية واللجان الرسمية الدينية الحكومية مكفري من كفّر الحكّام المتحاكمين للطاغوت.

الثالثة : الخلوف (الجامية والمداخلة) ، وتسموا زوراً بالسلفية وهم اتباع محمد أمان الجامي وربيع بن هادي المدخلي ، وقد أُنشئت هذه الجماعة لحرب أهل التوحيد.

الرابعة : كثير من السروية ، الذين قام مذهبهم على حرب الجهاد وأهله .

والكلام عن الخلوف والسرورية فصلته في عقيدة المرجئة المعاصرة.
ووجه تناقضهم وجمعهم بين عقيدة الخوارج والمرجئة في وقت واحد.

حكم هذه الطائفة الخارجية :

كل من يسمي أهل التوحيد بالخوارج لأنهم يكفرون المشركين المرتدين فهو كافر بلا خلاف ، لأنه رمى دين الرسول ﷺ بأنه باطل .

هذا في من بدعهم وضللهم أما من كفرهم فهو أشد كفرا ونفاقا .

قال الشيخ عبد الله بن محمد عن مكفر الموحدين: (فمن أنكر ذلك وأبغضه وسبه وسب أهله وسماهم بالخوارج فهو الكافر حقا الذي يجب قتاله) الدرر ١٨١ .

قال الشيخ عبد اللطيف : (فمن كفّر المسلمين أهل التوحيد أو فتنهم بالقتال والتعذيب فهو من شر أصناف الكفار) الدرر ١٢/ ٢٦٢.

مسألة : تسمية الموحدين بالخوارج سنة إرجائية جهمية متبعة :

إن تسمية الطائفة المنصورة أهل التوحيد والجهاد أهل السنة بالخوارج سنة جهمية خارجية متبعة، قد رمي بها إمام أهل السنة أحمد بن حنبل والإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم والإمام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه وهاهم اليوم خصومنا في زماننا يسمون الموحدين بالخوارج التكفيريين ، وأسوق لك من كلام العلماء ما عساه أن يكون سلوة لك زمن الغربة.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: (فإن الذي نكفر: الذي يشهد أن التوحيد دين الله ثم بعد هذا يكفر أهل التوحيد، ويسميهم الخوارج . وقد ذكر ابن عبد الهادي في مناقب شيخ الإسلام لما ذكر المحنة التي نالته بسبب الجواب في شد الرحل، فالجواب الذي كفروه بسببه ذكر أن كلامه في هذا الكتاب أبلغ منه، فالعجب إذا كان هذا الكتاب عندك والعلماء في زمن الشيخ كفروه بكلام دونه فكيف بالمويس وأمثاله لا يكفروننا بمحض التوحيد ؟

وذكر ابن القيم في النونية ما يصدق هذا الكلام لما قالوا له إنك مثل الخوارج رد عليهم بقوله :

من ليّ بمثل خوارج قد كفرّوا … بالذنب تأويلاً بلا إحسان
ولهم نصوص قصروا في فهمها … فأتوا من التقصير في العرفان
وخصومنا قد كفرونا بالذي … هو غاية التوحيد والإيمان).

قال الشيخ عبد اللطيف : (فمن كفّر المسلمين أهل التوحيد أو فتنهم بالقتال والتعذيب فهو من شر أصناف الكفار) الدرر ١٢/ ٢٦٢.

قال الشيخ عبد الله بن محمد : (فمن أنكر ذلك وأبغضه وسبه وسب أهله وسماهم بالخوارج فهو الكافر حقا الذي يجب قتاله حتى يكون الدين كله لله بإجماع المسلمين كلهم) الدرر ١٨١ .

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (فصار من هؤلاء المشركين من يكفّر أهل التوحيد بمحض الإخلاص والتجريد وإنكارهم على أهل الشرك والتنديد فلهذا قالوا أنتم خوارج مبتدعه وكفرتم أمة محمد كما أشار ابن القيم إلى مثل هذه الحال في زمانه بقوله : وخصومنا قد كفرونا بالذي هو غاية التوحيد والإيمان

وهذا الرجل قد أخذ بطريقة من يُكفر بتجريد التوحيد ، فإذا قُلنا :لا يُعبد إلاّ الله ولا يُدعى إلاّ هو ،ولا يُرجى سواه ولا يُتوكل إلاّ عليه ،ونحو ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلُح إلاّ لله، وأن من توجه بها لغير الله فهو كافر مشرك،قال ابتدعتم وكفرتم أمة مُحمد ، أنتم خوارج ، أنتم مبتدعة) الدرر ١١/ ٤٤٨.

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن : (وقد غلط كثير من هذه الأعصار وظنوا أن من كفّر من تلفظ بالشهادتين فهو من الخوارج وليس كذلك بل التلفظ بالشهادتين لا يكون مانعا من التكفير ..) الدرر ١٢/ ٢٦٣.

قلت ما أشبه الليلة بالبارحة بليالي ابن حنبل وابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب وعلماء أهل السنة في كل زمان مع أعدائهم أولياء الطاغوت .

فالعجيب من أهل الإرجاء إنكارهم على أهل العلم تكفير من أظهر السب والسخرية بالدين وجعلهم من يكفّر عباد القبور والمشرعين للقوانين والحاكمين بها والموالين للكفار المظاهرين لهم من الخوارج الذين تستباحُ دماؤهم ويجب تكفيرهم.

حال الخوارج أدعياء السلفية والتوحيد:

قال تعالى عن أهل الشرك: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ الزمر: ٤٥.

ومن تأمل حال المشركين في كل زمان ومكان وجد هذه الصفة المطردة تجمعهم ، فكم من عباد القبور من يزهدون في المساجد وتضيق صدورهم فيها ويستبشرون بالمشاهد والقبور، وكم من المجدين للطواغيت ومحاكم الكفر والإلحاد والشرك والذين يعتبرونها من سلّم الرقي والنجابة والحضارة بينما تضيق

صدورهم بأحكام الشريعة ، وكم من أولئك الموالين للكفرة والملاحدة يفرحون برؤيتهم ويصاحبونهم ويصدقون في مصادقتهم ومحبتهم والتودد لهم وإذا رأوا أهل التوحيد والسنة والجهاد قامت قيامتهم وظهرت عليهم آيات الكفر بهم وصرحوا بعداوتهم ولمزهم وهمزهم والشماتة بهم وسلقوهم بألسنة حداد.

فهم أعزة على المؤمنين الموحدين أذلة على المشركين والمرتدين والمنافقين، فهم خوارج مكفرون لأهل التوحيد مرجئة غلاة مع المرتدين والمشركين، حتى جعل بعضهم من يكفّر عباد القبور والمشرعين للقوانين والحاكمين بها والموالين للكفار والمظاهرين لهم من الخوارج الذين تستباحُ دماؤهم ويجب تكفيرهم، فقلبوا وجه المجن وانقلبوا على أهل التوحيد ، فبدل أن يكفّروا المرتدين كفّروا الموحدين .

فهؤلاء رحمك الله خصوم التوحيد وأهله في كل زمان فما أعداء إمام الدعوة محمد بن عبدالوهاب وقبله شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ورميهم من أرباب الرفض والتصوف بأنهم خوارج تكفيريون عن مرجئة زماننا عنهم ومنهم ببعيد.

الطائفة الثانية : الخوارج الجدد :

وهم من خرج على المسلمين وكفّرهم غلواً وجهلاً ، ويكفر باللوازم وكفّر بالتسلسل وبما يسوغ الاختلاف فيه ، وأتوا ببدع لم يسبقوا إليها .

وهذه الطائفة نشأ كثير منها في الأصل في سجون الطواغيت ، فكان منها جماعة التكفير والهجرة التي أسسها شكري مصطفى وقتل سنة ١٣٩٨ في مصر.

كما ظهر أصحاب هذا الفكر في ساحات الجهاد وكان بعضهم يترك قتال الكفار ويشتغل بتكفير المجاهدين فصدق فيهم الحديث : (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان) متفق عليه . وقد نال أذاهم الموحدين والمجاهدين.

بعض عقائدها الجديدة :

١- التساهل في التكفير ، والتسرع فيه والجرأة عليه .
٢- الأصل في الناس الكفر .
٣- الشعب المحكوم بحاكم مرتد كفار كلهم .
٤- تكفير كل من لا يكفر أعيان المرتدين بإطلاق .
٥- تكفير من لا يبايع جماعتهم.
٦- تكفير كل من قاتل المجاهدين، وعدم التفريق بين المرتدين والبغاة.

٧- عدم اعتبار موانع التكفير والعذر بالجهل في المسائل الخفية.
٨- التكفير دون النظر في ضوابط التكفير .
٩- عدم التفريق بين التكفير المطلق وتكفير المعين .
١٠- التكفير بالشبهة دون التثبت من وقوع المعين في الكفر.
١١- تعميم التكفير لبعض الجماعات من دون ظهور مناط الكفر في جميعهم.
١٢- التكفير بلوازم الأقوال من غير النظر في مناط التكفير.
١٣- التكفير بالتسلسل.
١٤- تكفير الساكت عن المرتدين بدعوى الرضا بكفرهم .
١٥- تكفير المخالف في المسائل الخلافية .
١٦- التكفير بما ليس بمكفر .
١٧- تكفير من لا يهاجر .
١٨- التكفير بكل صور موالاة الكفار دون تفريق .
١٩- تكفير أولاد المرتدين بإطلاق.
٢٠- تكفير العامل في الحكومات المرتدة مطلقاً.
٢١- إذا كانت الدار دار كفر أو ردة فمن فيها من المسلمين يعتبرون كفارا.

وقد بينا هذه المخالفات في كتاب ضوابط التكفير.

تنبيه : يحتج بعض من يقول أن بلاد المسلمين أهلها كفار لأن ديارهم صارت دار كفر ، بتكفير أئمة الدعوة للأتراك وأن ديارهم ديار الشرك .

والجواب: أن تكفير العلماء للدولة التركية تكفير لحكامها وعساكرهم وليس للشعب والمجتمع التركي، وكون الديار ديار شرك لوجود القبور فيها وعبادتها لا يعني تكفير كل من في الدار من المسلمين .

تنبيه: ليس كل من قال ببعض أقوال الخوارج من المجاهدين يحكم عليه بأنه من الخوارج ، لكن يقال فيه غلو وفيه شيء من مذهب الخوارج.

تحذير : يحاول جهمية زماننا وعلماء السوء أن يخلطوا بين هؤلاء الخوارج الغلاة الذين غلو في تكفير الناس الذين كفروا بالكبائر وكفروا باللوازم وبالتسلسل وبالعموم وجعلوا الأصل في أهل الإسلام الكفر، ولم يبقوا إلا من هو مبايع لهم وتحت دائرتهم ، وبين الموحدين الذين يكفرون ويقاتلون المرتدين لأنهم وقعوا في الكفر وقامت عليهم الحجة وانتفى المانع عنهم.

وجعلوا من يحمل فكر الخوارج والغلو الذين يظهرون التوحيد والكفر بالطاغوت وتكفير المشركين والمرتدين، فجعلوا التوحيد كفراً ليلبسوا على الجهال .

وخلطوا عمدا بين هذا المذهب الرديء وبين مذهب أهل التوحيد مع وجود الفرق بين المذهبين وعدم التلازم بينهما، وهذا ليس ضاراً ولا مثبطا لأهل التوحيد.

ومنهجنا منهج أهل السنة والجماعة وهو فعل الذي أمرنا الله ﷻ به وهو التكفير المبني على التبيين والتثبت فإذا تبينا وتثبتنا وبانت لنا الأدلة وتحققت البراهين وقامت الحجة وزالت الشبهة وتوفرت الشروط وانتفت الموانع وجب علينا التكفير ولا يجوز لنا خلاف ذلك .

ونخالف ما عليه مرجئة العصر المخذلون ومن سايرهم من علماء السوء، حيث زينوا الكفر والردة ولم يكفروا الأعيان مطلقاً وأغلقوا باب أحكام المرتد والتكفير، مع أن هؤلاء يرون الكفر البواح ظاهراً ومع ذلك لا يكتفون بالسكوت عن المرتدين وإنما يدافعون عنهم وينكرون على من يكفرهم، بل صار من يكفّر المرتد عندهم قد ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام في نظرهم وصار عندهم المعيار أن من يتكلم في المرتدين المشركين فهو تكفيري خارجي ويلمزونه كما لمز من سبقهم .

مسألة : حكم تكفير الخوارج: اختلف أهل السنة فيهم على قولين :

الأول : من لم يكفرهم .

وهذا الثابت عن علي ﷺ عندما سئل عن تكفيرهم فقال: من الكفر فروا .

ولا شك أن كلامه عن الخوارج الذين اقتصروا على تكفير الفاسق تأولاً .

الثاني : من قال بكفرهم ، وممن كفرهم الطبري والبخاري .

قال ابن تيمية : (فإن الأمة متفقون على ذم الخوارج وتضليلهم ، وإنما تنازعوا في تكفيرهم على قولين مشهورين) الفتاوى ٢٨/ ٥١٨.

والتحقيق فيهم : أن الخوارج على قسمين :

الأول : من يكفر أصحاب الكبائر ويخرج على أئمة المسلمين بالشبهة .

فهذا لا يقال بكفره ، على الصحيح.

الثاني : من ذهب منهم إلى أقوال كفرية وهي :

١- تكفير الصحابة ، فلا شك في كفر هؤلاء لأنهم كذبوا الله تعالى.

٢- من أنكر الصفات والعلو والرؤية كالإباضية، وهؤلاء كفار أيضا .

٣- من يكفر أهل التوحيد لأجل ما معهم من التوحيد والكفر بالطاغوت.

الكتاب الرابع : التعريف بالنواقض

المسألة الأولى : اسم الرسالة :

يسمي العلماء هذه الرسالة بنواقض الإسلام، مع أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يكتبها كمصنف مستقل ، بل جعلها رسالة مختصرة لتحفظ والله أعلم .

المسألة الثانية: أهمية الرسالة :

أولاً : أنها من أضبط وأبدع وأشهر الرسائل المصنفة في المكفرات الموقعة في الردة ، مع سهولتها واختصارها .

ثانياً : شمولها على نواقض الإسلام القولية ، والعملية ، والاعتقادية ، كما هو مذهب السلف في الإيمان والتكفير .

ثالثاً : أن الكلام فيها داخل في قضية (الكفر بالطاغوت) الذي يُعتبر ركن كلمة التوحيد العروة الوثقى وشرطها ، والتي أمرنا الله بالتمسك بها فقال ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ البقرة: ٢٥٦ .

رابعاً : أنها من الشر الذي يجب معرفته من أجل الحذر منه واجتنابه ، كما قال حذيفة بن اليمان ﷺ : (كنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه) متفق عليه.

المسألة الثالثة: تعريف النواقض :

النواقض جمع ناقض ، اسم فاعل ، ويجمع على فواعل .

والناقض في اللغة هو من الفعل نقَضَ، ومعناه الإفساد للشيء بعد تمامه ، وحل المعقود وفك ما أبرم من عقد ، وهدم ما بني .

ومن ذلك قالوا : نقضت الحبل والغزل أي حللته وفككته وأفسدت عقدته قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ النحل: ٩٢ وكذلك الهدم للشيء بعد استقراره ، تقول : نقضت الجدار أي هدمته وفككته قال تعالى :﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ الكهف: ٧٧، وانتقاض الوضوء إذا فسد .

لماذا سميت بالنواقض ؟

لأنها تنقض وتفسد وتحل وتهدم وتفك الإسلام والتوحيد والعقيدة.

النواقض في مقابل لفظ العقيدة :

وسميت عقيدة لأن القلب يعقد عليها ، و إذا وقع الإنسان في ناقض انفك هذا المعتقد وانهدم الإيمان والإسلام وهذا الاعتقاد من قلب الإنسان .

تعريف النواقض في الاصطلاح الشرعي :

كل قول أو عمل إذا وقع فيه المسلم فسد إسلامه وبطل أصل الإيمان الذي معه، وينتقل الإنسان من الإسلام إلى الكفر ويصير مرتدا كافرا، حلال الدم والمال.

والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله . وسيأتي الكلام عن الإسلام .

فائدة ذكر المصنف لفظة النواقض :

ليكون وقعها أعظم في النفوس، لأن عامة العلماء اصطلحوا على أن النواقض متعلقة بمفسدات الوضوء ومبطلاته ومثله الصلاة والصيام والحج، أما في الاعتقاد فيسمون مفسداته ومبطلاته بالرِدّة ، فأحب المصنف استخدام لفظة النواقض مكان الردّة لترهيب الناس من الوقوع فيها، والحذر منها .

المسألة الرابعة : أسماء النواقض :

١- تسمى بالنواقض .

٢- الردة وقد أسماها الله ﷻ بذلك في قوله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ ﴾ محمد ٢٥.

٣- المخرجات أي ما يخرج من الملة ومن الدين .

وجاء في الأدلة الشرعية أنه مُخرج من الدّين .

٤- تبديل الدين قال ﷺ:" من بدل دينه فاقتلوه " رواه البخاري.

٥- الكفر والتكفير.

٦- المكفرات .

٧- المبطلات : ﴿ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ محمد: ٣٣.

٨- المفسدات .

٩- المحبطات ومحبطات الأعمال: ﴿ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الزمر: ٦٥.

١٠- الظلم الأكبر : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ لقمان: ١٣.

١١- الفسق الأكبر: ﴿ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ التوبة: ٨٤.

المسألة الخامسة : محل دراسة النواقض :

تبحث النواقض في فنين من فنون الشريعة :

الأول : في أبواب الاعتقاد :

فيما يتعلق بالإيمان والتكفير وحقيقة الإسلام والكفر والتوحيد والشرك ، ومن أبواب العقيدة المتعلقة بالنواقض وأحكامها ما يسمى في اصطلاح أهل العلم باب الأسماء والأحكام والمكفرات ومبطلات الإيمان.

الثاني : في الفقه في أبواب المرتد :

في كتاب الحدود والجنايات تحت باب الردة وأحكام المرتد .

المسألة السادسة : متعلق النواقض :

علق النواقض بالإسلام (نواقض الإسلام)، لأنها تجعل صاحبها غير مسلم.

كما يصح أن تعلق نواقض للإسلام بالإيمان والدين والملة ، وكل المصطلحات الشرعية التي تدل على هذا المعنى .

فنواقض الإسلام يعبر عنها بنواقض الإيمان فهما في المعنى سواء .

والقاعدة في ذلك: أن الإسلام والإيمان إذا افترقا في اللفظ اجتمعا في المعنى، وإذا اجتمعا في اللفظ افترقا في المعنى، فيفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة اللازمة للأعمال الباطنة التي يفسر بها الإيمان وهذا عند افتراق المعاني .

مسألة : عبارة نواقض الإسلام أصح وأدل من عبارة نواقض التوحيد .

تعليق النواقض بالتوحيد وقصرها عليه، بأن يقال نواقض التوحيد فيه قصور، لأن هذا لا يدل على اجتماع النواقض لأن من النواقض ما يتعلق بالرسالة والملائكة وغيرها وهي خارجة عن التوحيد فالتعبير بنواقض الإسلام أدل وأكمل.

ولو قيل أن مرد النواقض لخلل في التوحيد فإنكار الملائكة أو بغضهم أو تكفير الصحابة سببه عدم التوحيد أو أنه يلزم منه عدم الإتيان بالتوحيد فيدخل في نقض التوحيد من باب اللزوم والاقتضاء لا من باب المطابقة، لكان صحيحا، ويكون الموحد بمعنى المسلم .

قاعدة : دراسة النواقض متعلقة بالمسلمين المرتدين وليس بالكفار الأصليين.

المسألة السابعة : عدد نواقض الإسلام:

هل النواقض عددها عشرة فقط ، وهل المصنف قصد الحصر فيها :

الاحتمال الأول : أن النواقض تزيد عن العشرة بكثير، كما يذكرها الفقهاء في كتب الفقه في باب المرتد وما يذكرها أهل العلم في أبواب الإيمان .

وهذا رأي القاضي عياض وابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن رجب.

قال ابن القيم: (ومحبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تحصر، وليس الشأن في العمل، وإنما الشأن في حفظ العمل ممّا يفسده ويحبطه) . الوابل الصيب ١٦.

والشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يُرد حصر النواقض بهذا العدد لأمرين :

الأول : أنه قال من أعظم وهذا يدل على التبعيض، أي أنها جزءٌ من كل .

الثاني : أنه صرح أنها أكثر من مائة فقال : (ففيهم من نواقض الإسلام أكثر من مائة ناقض). تاريخ نجد ٢٦٥ .

فائدة : سبب اقتصار الشيخ محمد رحمه الله على هذه العشرة لأمور منها :

أولاً: لأن الإجماع مناطٌ بها ، والعلماء متفقون عليها، وإن كان في الحقيقة هنالك نواقض أجمع العلماء عليها لم يذكرها الشيخ.

ثانياً: لكثرة هذه النواقض وانتشارها وظهورها ولأنها مشهورة في زمانه .

ثالثاً : أنها ظاهرة فلا يعذر أحد في فعلها فيكفر فاعلها بمجرد فعلها.

رابعاً : أنها تعتبر من أصول المكفرات وأعظم نواقض التوحيد والإيمان والإسلام وأكثر النواقض الخارجة عن هذه العشر ترجع إلى هذه النواقض. فهي جنس منضبط يدخل فيها غيرها وراجعٌ إليها ، وداخلٌ فيها كل النواقض .

الاحتمال الثاني : وهو الذي ظهر لي بعد النظر في النواقض وشرحها وتقصيها أن جميع النواقض على كثرتها ترجع لهذه العشر ، ولم أجد ناقضا ولا كفرا ذكره العلماء أو حدث في هذه الأزمان إلا وهو يعود لا محالة لهذه العشر، وقد بينت ذلك في شرحي لها وسأذكر في هذه المقدمة الأمثلة على ذلك.

والإمام محمد لم يقصد مجرد التمثيل للنواقض كما وهم البعض وإنما أراد منها ضوابط وقواعد وأصول النواقض التي تعود فيها جميع النواقض.

وإن في جمع النواقض بهذه الطريقة دليل على سعة علمه رحمه الله، وقد استوقفني قوة فهمه ودقة استنباطه، وليس هذا بمستغرب فمن نظر في المواضع التي يستنبطها والاستدلالات التي يوردها على التوحيد عرف ذلك وبان له الأمر جليا وكل ذلك ظاهر في مصنفاته، وخذ مثلا تعريفه للإسلام الذي لم يُعرّف تعريفاً أدق من تعريفه، وإن رسائله كالأصول الثلاثة وكشف الشبهات وكتاب التوحيد وبقية كتبه كلها شاهدة على حسن التأليف وجودة الصناعة وعذوبة الترتيب والسرد وقوة الجمع وإن أكثر كتبه وحيدة في بابها وما كل هذا إلا لنصرته لتوحيد الله والله أعلم.

المسألة الثامنة : أقسام المخالفات للإسلام والدين .

الأول: مخالفات الكمال: وهي لا تزيل أصل الدين ولا يكفر صاحبها.

تسمى هذه المخالفة بالمعصية والذنب والفسق، وتكون كبائر وصغائر ، ومنها الشرك والكفر الأصغر ، وهذه تقدح في كمال الإيمان، ولا تنقضه إلا عند الخوارج .

الثاني: مخالفات الأصل: وهي تنقض أصل الإيمان وتبطله وتزيله من أساسه.

وهذه تسمى بالنواقض والردة والكفر والشرك والنفاق والفسق الأكبر.

تنبيه: النواقض والردة من باب الكفر الأكبر ولا تكون من الكفر الأصغر.

أبواب الكفر وأسماء شعبه : ذكرها ابن القيم في المدراج .

المحرم الكفر الشرك الظلم الفسق العدوان الإثم البغي المعصية البدعة المنكر الجرم النفاق الكبائر الفجور الفواحش الخطيئة الضلال الذنب الفجور الإفساد .

التاسعة: قاعدة : عدم اجتماع الشروط مع النواقض:

لا تجتمع شروط التوحيد مع نواقضه، كما لا يجتمع الكفر والإسلام والتوحيد والشرك، فلا توحيد لمن يوالي الكفار ولا توحيد لمن يعبد القبور ويستغيث بالأموات ولا توحيد لمن يشرع القوانين ولا توحيد لمن يتحاكم ويطيع المشركين، ولاتوحيد لمن يهزأ بالنبي ﷺ أو ما جاء به أو يبغض الدين وأهله ولا توحيد لمن لم ينقد للشريعة.

فهذه النواقض ترجع للإخلال بأركان التوحيد ، أو تخالف شرطاً من شروطه ، فإذا فقد شرط أو بطل ركن فإن هذا يعتبر في ذاته ناقضاً .

فالنواقض من قبيل الموانع ضد الشروط.

العاشرة: رجوع نواقض الإسلام إلى الإخلال بشروط كلمة التوحيد:

كل كفر في العالمين وجميع نواقض الإسلام الحاصلة من المرتدين ترجع إلى انعدام شروط التوحيد أو بعضها. وإليك بيان ذلك:

١- الشرك بالله ودعاء غير الله ناقض لشروط لا إله إلا الله جميعها.

٢- التحاكم للطاغوت والحكم بغير ما أنزل الله واعتقاد أن هديه ﷺ ناقص وأنه يسعنا الخروج عن شريعته، ينقض شرط القبول والإخلاص والانقياد والمحبة.

٣- الإعراض عن الدين ينقض شرط الانقياد والقبول .

٤- بغض الدين والرسول ﷺ أو شيء مما جاء به ينقض شرط المحبة والقبول.

٥- الاستهزاء بالدين ينقض شرط الانقياد له.

٦- عدم تكفير المشركين ينقض شرط العلم والإخلاص واليقين وغيرها .
٧- مظاهرة الكفار وموالاتهم ينقض شرط الانقياد والمحبة.
٨- السحر ينقض شرط العلم والصدق والإخلاص وغيرها.

وكل ناقض وردة وكفر فإنه راجع إلى نقض شروط لا إله إلا الله جميعها أو واحد منها، ولهذا كانت دراسة شروط لا إله إلا الله ومعرفتها والعمل بها تقي من الوقوع في الكفر والردة وحصن منيع منها، وأي كفر إنما كان حصوله بعد نقض هذه الشروط أو شيء منها.

المسألة الحادية عشرة: الكفر المتعلق بكل شرط :

كل شرط يتعلق بنقضه نوع من أنواع الكفر، إما الجحود والتكذيب أو الشك أو الترك أو الامتناع أو الإعراض أو الجهل، كما سيأتي .

المسألة الثانية عشرة: رجوع النواقض لأقسام الكفر :

الكفر ينقسم إلى أقسام باعتبارات سنأتي بها في الباب القادم .

المسألة الثالثة عشرة: أقسام نواقض الإسلام :

أولاً : نواقض قوليّة : راجعة إلى قول اللسان : كسب الدين ودعاء الخلق.
ثانياً : نواقض عمليّة : كالتشريع ، والذبح للخلق وتولي الكفار .
ثالثاً : نواقض اعتقاديّة : كإنكار الربوبية وبغض الدين وجحده والشك فيه.
هذه أصول وأقسام للنواقض قولية وعملية واعتقادية .

الرابعة عشرة : أقسامها باعتبار رجوعها إلى أنواع التوحيد وأنواع الدين :

١- نواقض توحيد الربوبية : كإنكار ربوبية الله أو اعتقاد وجود خالق معه.
٢- نواقض الأسماء والصفات : كتعطيل الله ﷻ من صفاته ، أو تمثيله بخلقه.
٣- نواقض توحيد الألوهية : كالذبح لغير الله ، دعاء غير الله .
٤- نواقض توحيد المتابعة كالتولي عن طاعة النبي ﷺ والخروج عن شريعته.
٥- نواقض الإسلام كالإعراض وعدم التحاكم للشريعة.
٦- نواقض الإيمان كإنكار شيء من الدين والرسل والملائكة والبعث .

قاعدة: رجوع النواقض للشهادتين ومردها لعدم تعظيم الله تعالى .

المسألة الخامسة عشر ة: أنواعها خاص وعام :

بعض النواقض تكون خاصة بطائفة، فمنها ما يخص الرافضة أو الحكام والقضاة وبعضها عامة لا تختص بأحد دون أحد ، وليست خاصة بطائفة معينة بل قد يقع فيها أي مسلم والعياذ بالله .

المسألة السادسة عشرة : حكم من وقع في واحدةٍ من هذه العشر :

من وقع في ناقض واحد كمن وقع في النواقض كلها ، حيث يعتبر كافراً مرتداً، ولا يُشترط اجتماع جميع النواقض حتى يحكم بكفر فاعلها المرتد .

قال إسحاق بن راهويه : (وقد أجمع العلماء أن من دفع شيئاً أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر) نقله عنه ابن عبدالبر في التمهيد .

قال البربهاري في شرح السنة: (ولا يخرج أحد من أهل القبلة من الإسلام حتى يرد آية من كتاب الله عز وجل أو يرد شيئاً من أثار الرسول ﷺ فإذا فعل شيئاً من ذلك فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام) .

فالوقوع في واحد من النواقض كالوقوع فيها جميعا من حيث التكفير .

المسألة السابعة عشرة: الوقوع في أحد هذه النواقض على أمرين :

الأول: فردي : كما حصل لعبد الله بن أبي السرح ، أو جبلة بن الأيهم .

الثاني: جماعي : كما حصل لمانعي الزكاة ، أو لأتباع المتنبئين كالقاديانية.

وأخطر ما تكون الردة إذا صارت عامة عالمية ، ولها شوكة، وانقسم الناس لفسطاط كفر وإيمان كما حصل من ردة من معظم قبائل العرب بعد موت النبي ﷺ .

وكما حصلت الردة في زماننا بعد الغزو الصليبي لبلاد الإسلام.

الثامنة عشرة : أنواع النواقض من ناحية ما يحتاج لقيام حجة واستتابة :

الأول: النواقض التي يقتل صاحبها مطلقاً ولا يستتاب كسب الله ورسوله.

الثاني: ما لا يحتاج لقيام حجة في التكفير لا القتل فيحتاج استتابة وهو الشرك.

الثالث: النواقض التي تحتاج لقيام حجة في التكفير والقتل كتأويل الصفات.

المسألة التاسعة عشرة : انتشار النواقض المعاصرة :

عبادة القبور والحكم بغير ما أنزل الله وتولي الكفار ومظاهرتهم وعدم تكفير الكفار والاستهزاء بالدين وحرب أهله.

فائدة : تجدد صور الكفر في زماننا وتنوع أشكاله وخروجه بلبس كثيرة .

وهذا من كيد الشيطان وتلبيس إبليس .

أقسام النواقض المعاصرة : وهي على قسمين :
١- قسم قديم ولا يزال موجوداً كالسحر والشرك .
٢- قسم حادث كالدعوة لتقارب الأديان والحلف لحرب الجهاد.

المسألة العشرون : حبوط العمل مع النواقض :

التلفظ بالشهادتين وفعل الصلاة والصدقة والدعوة لا تنفع صاحبها إذا قارنها شيء من النواقض .ويدل لهذا الأصل قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ الفرقان: ٢٣ ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الزمر: ٦٥.

ومن شرط حبوط العمل عند أكثر أهل العلم الموت على الردة ، مستدلين بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ البقرة: ٢١٧، وقوله: ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ البقرة: ١٦١.

والكافر والمرتد إن ماتوا على الكفر وكانت لهم أعمال حسنة وصالحة فإن الله يجازيهم عليها في الدنيا والله أعلم ، أما لو أسلم فيثاب عليها كما دل لذلك قوله ﷺ : (أسلمت على ما أسلفت من الخير) متفق عليه .

مسألة : الآثار المترتبة على فعل النواقض ستأتي في باب أحكام المرتد .

الحادية والعشرون : أمثلة لنواقض تدخل في عموم النواقض العشرة :

التكذيب والجحود يدخل في الناقض الخامس البغض .
إلحاق كفر الرد والجحود والإنكار والتكذيب والعداوة بناقض البغض .
حرب الدين وأهله داخل في الناقض الخامس البغض .
المسرة بانخفاض الإسلام والكراهية لانتصار دين الإسلام داخل في البغض.
الاعتراض على الدين ومعارضته داخل في كفر الرد والبغض.
إنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة يدخل في كفر الرد في البغض .
سب الله والرسول والدين في السادس الاستهزاء .
سب الصحابة داخل في البغض والاستهزاء.
الطعن في النبوة الاستهزاء.
إهانة المصحف ورميه في القاذورات داخل في البغض .
الطعن في الملائكة أو إنكارهم والتكذيب بهم داخل في البغض .
الاستحلال داخل في الرابع شرك التشريع والحكم وفي الخامس البغض .

إنكار البعث داخل في الناقض الأول الشرك والتكذيب ويدخل في البغض.
القول بأن القرآن محرف داخل في الشرك وفي الرد وهو داخل في البغض.
تعطيل الصفات وإنكار العلو داخل في الشرك وفي الرد.
ادعاء علم الغيب داخل في الشرك .
ادعاء النبوة أو القول بأن النبوة مكتسبة داخل في كفر الرد وفي الشرك .
تناسخ الأرواح داخل في الشرك وفي التكذيب .
الدعوة للقومية والوطنية داخل في الشرك وفي الثامن موالاة الكفار .
موالاة الكفار وموافقتهم داخل في الثامن المظاهرة .
ومحبة نصرة الكفار وظهورهم على المسلمين داخل في البغض والمظاهرة.
الشك والتردد بين التصديق والتكذيب ولا يصلح الإيمان إلا بتصديق جازم ، ومن ذلك الشك في حرف من القرآن ، والشك في نبوة نبي ، والشك في وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك، يدخل في الثالث والخامس وفي الشرك.
الاستكبار على الله وشرعه وعدم الاعتراف بما جاء به الرسول ، أو عدم الخضوع لطاعة الله كبرًا وترك العمل والانقياد داخل في الإعراض الناقض العاشر.
القول بقدم العالم الحلول والاتحاد والوحدة داخل في الشرك .
الخوف من الجن والرهبة منهم في ما لا يقدر عليه إلا الله داخل في الشرك.
اعتقاد بأن للكون أربع أقطاب يتصرفون فيه . وأن أرواح الأولياء الصالحين تتصرف في العباد وأحوالهم وأنهم يملكون للخلق نفعًا وضرًا داخل في الشرك .

المسألة الثانية والعشرون: بعض الكفريات تحتوي على أكثر من ناقض :
بعض المكفرات تشتمل صنوف من النواقض وألوان من الكفر فقد يكون الناقض الواحد والعمل المعين يشمل أكثر من ناقض.
كالتقريب بين الأديان والسحر والدعوة للقومية والوطنية.والاستحلال والشك في أمر من الدين .
المسألة الثالثة والعشرون:الصور المعاصرة للنواقض . ستأتي في محلها.

مسألة : الأقوال في نواقض الإسلام :

الأول: مذهب المرجئة: قالوا إنها كفر لأنها دليل على كفر الباطن فيكفّرون بها ، لكن مناط الكفر فيها ليس عمل الجوارح الظاهر وإنما لما يتعلق بها من كفر القلب.

الثاني: مذهب الجهمية غلاة المرجئة ومن وافقهم من المرجئة المعاصرة:

قالوا إنها ليست كفرا وإنما معصية ولا تكون كفرا إلا إذا قارنها بغض الإسلام وجحوده أو استحلالها وحب الكفر، وهؤلاء كفار وقد أجمع السلف على تكفيرهم لقولهم هذا في الإيمان بخلاف المرجئة يبدعون ولا يكفرون .

تنبيه : من قال بهذا القول من أهل السنة فإن كان الشرك ودعاء الأموات فإنه يكفر مطلقا وإن كان مظاهرة الكفار أو ترك جنس العمل فنقول أن قوله كفر لكن لا نكفره إلا بعد إقامة الحجة عليه وزوال الشبهة.

الثالث : قول علماء السوء : يجوزون كل ناقض إرضاء للناس وطلبا للدنيا والمنصب ، فيزعمون أن فيه مصلحة أو عدل ، وهؤلاء كفار بلا شك ولا يجوز التوقف فيهم ولا عذرهم بالتأويل.

الرابع : من يقول بكفر الناقض ولكن لا يكفر فاعله :

إما بدعوى أنه غير ملزم بالتكفير ، أو يظن أن المنتسب للإسلام لا يكفّر ، أو يكفّر بالعموم دون الأعيان ، أو يكفر الفعل دون الفاعل، أو يتوقف لاعتقاد وجود مانع في المرتد من جهل أو تأويل أو إكراه، أو لم يتبين له حال فاعل الكفر وهل فعله.

والكلام في هؤلاء فيه تفصيل ، ويختلف الحكم فيهم فمنهم من يكفر ومنهم من لا يكفر ، كما هو مبين في شرحنا للناقض الثالث .

الكتاب الخامس : حقيقة الكفر

المسألة الأولى : تعريف الكفر :

الكفر في اللغة : له معنيان :

١- الستر والتغطية .

ومنه قول لبيد في معلقته : (في ليلة كفر النجوم غمامها).أي غطاها وسترها .

٢- الجحود والإنكار ، وإن كان يرجع للأول، فالجحد ستر للحق .

والكفر سمي كفرا لأنه يستر الإيمان ويغطيه .

ومن معاني الكفر عدم الشكر وإنكار الجميل ، ويرجع للمعنى السابق.

والكفر اصطلاحا : عدم الإيمان .

قال ابن تيمية : (الكفر عدم الإيمان بالله ورسوله ، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب بل شك وريب أو إعراض) .الفتاوى ١٢/ ٣٣٥ .

قال ابن تيمية : (الكفر عدم الإيمان ، سواء اعتقد نقيضه وتكلم به أو لم يعتقد شيئا ولم يتكلم) الفتاوى ٢٠/ ٨٦ .

ضد الكفر الإسلام والإيمان ، كما أن الشرك ضد التوحيد وهو من الكفر.

فائدة : لابد من معرفة المصطلحات الشرعية وما يقابلها والفرق بينها ، ليعرف المسلم حقيقة دينه كتعريف الإيمان والكفر والإسلام والتوحيد والشرك وكتعريف القبول والإقرار والالتزام والانقياد وكالفرق بين الصدق واليقين والإخلاص وقد بيناها في كتاب شرح شروط لا إله إلا الله وغيره.

المسألة الثانية : حقيقة أنواع الكفر وما يقابلها :

الكفر يقابل الإيمان ، والشرك يقابل التوحيد والإخلاص ، والتكذيب يقابل التصديق ، والشك والريب يقابل اليقين ، والنفاق والكذب يقابل الصدق ، والبغض والكره يقابل المحبة ، والجهل يقابل العلم ، والرد يقابل القبول ، والاستحلال والجحود يقابل الإقرار ، والإنكار يقابل الاعتراف، والامتناع يقابل الالتزام، والاستكبار يقابل الإذعان، والإباء يقابل الامتثال، والعمل يقابل الترك، والتولي والإعراض يقابل الإقبال والاستجابة،والطاعة تقابل المعصية،والاستخفاف والسخرية تقابل التعظيم، والاعتراض يقابل التسليم، والعناد يقابل الانقياد .

المسألة الثالثة : تفاوت درجات الكفر :

لما كان الكفر درجات كانت النار دركات فأشد الكفار كفرا وعذابا المنافقون ومن يصد عن عبادة الله ودينه، ثم المعاندون المستكبرون، ثم المعرضون، ثم الجهال .

قال ابن القيم في طريق الهجرتين: (طبقة رؤساء الكفر وأئمته ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الإيمان والدخول في دينه رغبة ورهبة فهؤلاء عذابهم مضاعف عذاب الكفر وعذاب صد الناس قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ النحل:٨٨،وهؤلاء في مقابل دعاة الهدى، ولا ريب أن الكفر يتفاوت فكفر أغلظ من كفر كما أن الإيمان يتفاوت .

وغلظ الكفر من ثلاثة أوجه:المعطلة والدهرية والكفر عناداً والسعي في إطفاء نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل إليه قدرتهم فهؤلاء أشد الكفار عذاباً بحسب تغلظ كفرهم وهل يستوي في النار عذاب أبي طالب وأبي لهب وأبي جهل) بتصرف.

المسألة الرابعة : حالات الكفر : أي كفر له حالتان :

كفر عناد وتعمد وبغض عن علم للحق مع رده.

وكفر جهل وتأول فيرد الحق جهلا أو لا يرده لكن لا يعلمه.

المسألة الخامسة : مدار الكفر ومرده ومرجعه لبابين :

الأول : التكذيب والجحود ، المتعلق بالقلب والتصديق.

الثاني : الامتناع والإعراض والإباء ، المتعلق بالعمل والجوارح.

قال ابن تيمية: (فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكذبٌ له أو ممتنع عن الانقياد لربه، وكلاهما كفر صريح). الصارم ص ٩٦٩.

قال:(الكفر يكون بتكذيب الرسول أو الامتناع عن متابعته) الدرء ١/ ٢٤٢.

وقال : (من قال من الفقهاء لا يكفر إلا الجحد فالجحد عنده متناول للتكذيب بالإيمان ومتناول للامتناع عن الإقرار والالتزام) ٢٠/ ٩٨ .

قال ابن القيم: (الكفر وإن اختلفت شعبه فيجمعه خصلتان :

تكذيب الرسول في خبره ، وعدم الانقياد لأمره). أحكام أهل الذمة.

وقال:(العذاب يستحق بسببين: أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها. الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها) طريق الهجرتين.

قال ابن تيمية : (والتصديق نوع من العلم والقول، **والانقياد نوع من الإرادة والعمل**، ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين، التصديق والانقياد) الصارم ٩٦٧.

المسألة السادسة : الكفر يكون على حالتين :
عدم اعتقاد الإيمان دون وجود ضد ونقيض .
اعتقاد ما يناقض الإيمان أو الإخلال والطعن فيه. وتقدم قول ابن تيمية.
المسألة السابعة : أقسام فاعلي الكفر :
كافر أصلي . كافر مرتد . منافق يظهر الإسلام ويبطن الكفر .
والتكفير يكون للكافر الأصلي ، ويكون للمسلم إذا ارتد وفعل كفرا ، ويكون للمنافق إذا أظهر كفره وبان أمره .
وينقسم الكفار إلى نوعين :
مشركون وثنيون ، وأهل كتاب وهم اليهود والنصارى .
والكفار منهم: محاربون : أهل حرب . ومعاهدون أهل عهد.
وأهل العهد ثلاثة : الذمي ، المهادن ، المستأمن .
الثامنة : قاعدة : رجوع كل كفر إلى الإخلال بشروط كلمة التوحيد:
جميع نواقض الإسلام ترجع إلى انعدام شروط التوحيد أو بعضها.
التاسعة : عدم اجتماع الشروط مع النواقض .
فالناقض من قبيل الموانع وهي ضد الشروط.
وتقدم علاقة الشروط بالنواقض في باب النواقض .
المسألة العاشرة : الكفر المتعلق بكل شرط :
كل شرط يتعلق بمخالفته ونقضه كفر معين، وفي تركه يحصل نوع من أنواع الكفر، إما الجحود والتكذيب أو الشك أو الترك أو الامتناع أو الإعراض أو الجهل.
شرط العلم: يقابله كفر الجهل وكفر التكذيب.
شرط اليقين: يقابله كفر الشك والريب.
شرط الصدق: يقابله كفر النفاق.
شرط الإخلاص: يقابله كفر الشرك والإيمان بالطاغوت وتولي الكافرين.
شرط المحبة: يقابله كفر البغض والكره وشرك المحبة.
شرط القبول: يقابله كفر الرد والتكذيب والجحود والاستحلال والإنكار.
شرط الانقياد: يقابله كفر الإعراض والتولي والإباء والاستكبار والامتناع.
المسألة الحادية عشرة حكم الكفر ومتعلقات:
الأول: الكفر المشروع : وهو الكفر بالطاغوت .

الثاني: الكفر الممنوع : وهو الكفر بالله وبرسله وبدينه وبالبعث وبكتابه.

المسألة الثانية عشرة: من يكفر بالكفر : كل كفر موجود يكفر به طوائف :

الأول: فاعله : وهذا أول من يكفر بذلك من فعل كفراً أو شركاً فإننا نكفره.

الثاني : الراضي والمقر به ومحبه كافر ولو لم يفعله فمن رضي به ولم يكرهه كفر .

الثالث : الحريص على الشرك والكفر ومن يريد فعله لكن عجز عنه .

الرابع: الداعي إليه ومحسنه والساعي في نشره .

الخامس : المدافع عنه وعن أهله وحارسه والملزم به ومن كان تحت ولايته.

السادس: المستحل له : من استحل كفراً واعتقد جوازه أو لم يره كفرا فهو كافر ولو لم يعمله وحتى لو كرهه.

السابع : المصحح للكفر وهو داخل في المستحل .

الثامن : مادحه ومحسنه ومن يثني عليه .

التاسع : المتوقف امتناعا من تكفير فاعل الكفر .

فهؤلاء كلهم يكفرون بالكفر والشرك حتى وإن لم يفعلوه .

وقد جاءت الأدلة بإثبات كفر أصحاب هذه الأسباب والأفعال.

مسألة (١٣): العازم على الكفر يكفر وإن لم يأت به ويفعله .

مسألة (١٤): الراضي بالكفر كافر .

مسألة (١٥): حاكي قول الكفر لا يكفر إلا أن يستسيغه ويرضاه أو يتندر به.

مسألة (١٦): لازم المذهب والقول ليس بقول ولو كان لازمه الكفر الصريح .

انظر تقرير ابن تيمية لهذه المسألة، في الفتاوى ٢٠/ ٢١٧، ٥/ ٣٠٦.

مسألة (١٧):كل شرط لصحة الإيمان تركه كفر وكل كفر تركه شرط للإيمان.

مسألة (١٨): لا يزيل الكفر إلا الدخول في الإسلام والإيمان الصحيح بالله .

مسألة (١٩): الكفر يكون بالقول والعمل والاعتقاد :

كما أن الإيمان قول وفعل واعتقاد فكذلك الكفر يكون بأحد هذه الثلاثة .

١- الكفر العملي : كالتشريع ، والذبح لغير الله ، وتولي الكفار.

ومن أدلته : ﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ التوبة: ١٧.

٢- الكفر القولي : كسب الله ﷻ ، والاستهزاء بدينه ، ودعاء غير الله .

دليله: ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ التوبة: ٧٤ ﴿ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ ﴿ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ ﴾ النساء: ١٤٠.

٣- الكفر الاعتقادي : كإنكار وجود الله والبعث وتكذيب الرسول ﷺ وكبغض الدين والجحود الفرائض والشك في شيء من أمور الدين ونحو ذلك.

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ ﴾ المائدة: ٤١ ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ ﴾ النحل: ٢٢ ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا ﴾ النحل: ١٠٦.

مسألة (٢٠) قاعدة : من جعل الكفر العملي المجمع عليه خلافيا أو أنه كفر أصغر أو أنه ليس بكفر إلا إذا قارنه الاستحلال ، كمن قال أن دعاء غير الله أو تشريع القوانين أو مظاهرة الكفار شرك أصغر ومجرد معصية ، فهو كافر.

مسألة (٢١): يخطئ الكثير حين يقول لا يعد الكفر كفرا إلا بعد الشروط، والصحيح أن ذلك في التكفير فمن فعل كفرا عن جهل أو خطأ أو إكراه فإنه يقال فلان فعل الكفر وليس شرطا أن يكون كافرا وأن نكفره، أما أن يقال فلان ما فعل الكفر لأنه لم يقصد الكفر لكونه مخطئاً أو جاهلاً أو مكرهاً فهذا باطل بلا ريب .

المسألة الثانية والعشرون : الكفر الأصغر :

وردت أدلة في الكفر الأصغر والتكفير بالمعاصي وإطلاق اسم الكفر عليها .

كحديث : (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) (كفرٌ بالله تبرؤٌ من نسب) .

مسألة (٢٣): خطأ البعض في إطلاق الكفر العملي وقصره على الأصغر فقط :

والحق أن الكفر العملي منه ما هو كفر أكبر بذاته كدعاء الأموات والتشريع والسجود للوثن وإهانة المصحف وسب الله ورسوله ودينه .

ومنه الأصغر كتعليق التمائم والحلف بغير الله .

كما أن الكفر الاعتقادي منه ما هو أصغر كيسير الرياء .

المسألة الرابعة والعشرون : أسباب الكفر :

الجهل، التأويل، العناد، الكبر، البغض والعداوة، طاعة الكبراء، اتباع الهوى، الشبهات، الخوف من ضياع المصالح، والحرص على الدنيا ومتاعها، اتباع الشهوات.

مسائل متعلقة بالكفر مبحوثة في باب التكفير وفي باب حقيقة الإيمان:

مسألة : الظاهر فرع عن الباطن ودليل عليه وكون كل منهما يؤثر في الآخر ويدل عليه ، وتلازم الظاهر والباطن وخلاف المرجئة في هذا .

مسألة : التفريق بين قول السلف عن بعض الكفريات العملية لا تقع إلا مع كفر القلب واستلزامها كفر الاعتقاد، وقول المرجئة الذين لا يكفرون إلا المستحل.

مسألة : الحكم في التكفير يكون للظاهر لا الباطن .

مسألة : قد يحكم على كافر بالإسلام بالخطأ ، وقد يكفر مسلم بالردة بالخطأ .
مسألة : الإسلام الحكمي والحقيقي .
مسألة : اجتماع شعب إيمان وشعب كفر .
مسألة : تبعض الإيمان والكفر وتركبه من حقائق ومخالفة المرجئة لنا في ذلك .
مسألة : اجتماع الإيمان والشرك.
مسألة : الإسلام الصريح لا يزيله إلا الكفر الصريح اليقيني.
مسألة : الكفر ذو شعب .
مسألة : المعاصي والكفر الأصغر من شعب الكفر.
قاله ابن تيمية وابن القيم .
مسألة : حالات جواز إظهار الكفر وفعله ظاهرا.
مسألة : الأقوال في الكفر ونواقض الإسلام .

مبحث : أحكام الكافر في الدنيا والآخرة وأحكام الداخل في الإسلام

للكافر أحكام كثيرة فيما يتعلق بقتاله وقتله وأمانه ومعاهدته وحربه ومعاداته وبيوعه ومعاملاته وجناياته وإقامة الحدود عليه ومعاهداته ونكاحه وطلاقه وأولاده وتحاكمه إلينا وجنازته ودفنه ، وما يقر عليه وما لا يقر عليه .
وأيضا هناك أحكام متعلقة بالكافر الداخل في الإسلام.
وهناك أحكام تخص بعض أنواع الكفار كالمعاهد والذمي والكتابي .
وهذه المسائل والأحكام مبثوثة في كتب الفقه.
مسألة : الكافر إذا أسلم بعد أسره لا يقتل ويجوز أن يسترق.
تنبيه: من شك أن حكم الكافر في الآخرة الخلود في النار فهو كافر .
ولا يدخل في هذه القاعدة :
الكافر الذي يمتحن يوم القيامة فإذا أسلم دخل الجنة وإن كفر دخل النار .
مسألة وقع الخلاف بين أهل السنة في فناء النار.والشهادة على المعين بالنار .
مسألة : أطفال الكفار ومجانينهم :
في الدنيا : تجرى عليهم أحكام الكفار في الإرث والصلاة والمقابر .
في الآخرة : اختلف في حكم أطفال الكفار يوم القيامة على أقوال ، ذكرها ابن القيم في أحكام أهل الذمة وطريق الهجرتين .

فصل : أنواع الكفر

المسألة الأولى: الكفر ينقسم إلى أقسام بعدة اعتبارات :

الاعتبار الأول : كفر عملي، وكفر قولي، وكفر اعتقادي .
الاعتبار الثاني : وكفر وردة مغلظة ، وكفر وردة مجردة .
الاعتبار الثالث : كفر كلي ، وكفر جزئي في باب من الدين.
الاعتبار الرابع : كفر أصلي ، وكفر طارئ وهو الردة .
الاعتبار الخامس : كفر ظاهر حكمي ، وكفر باطن حقيقي .
الاعتبار السادس : كفر اسم وكفر حكم وهو الكفر المعذب عليه.
السابع : كفر ثبوتي فعلي كالشرك، وكفر سلبي من باب التروك كترك العمل.
الثامن : كفر أكبر ، وكفر أصغر . والنواقض والردة كلها من الكفر الأكبر .
الاعتبار التاسع : كفر علم وعناد وتعمد وقصد ، وكفر جهل وتأول وتقليد.
الاعتبار العاشر : كفر تكذيب وجحود ، وكفر إباء وامتناع وإعراض.
الاعتبار الحادي عشر : كفر راجع للإيمان، وكفر راجع للإسلام .
الثاني عشر : كفر في الألوهية وفي الربوبية وفي الصفات وفي المتابعة للرسول.
الاعتبار الثالث عشر : كفر شرك وتمثيل، وكفر كبر وتعطيل وعدم عبادة.
الاعتبار الرابع عشر : باعتبار صفة الكفر : كفر التكذيب، وكفر الجحود، وكفر الإعراض، وكفر الشك، وكفر العناد والاستكبار والامتناع، وكفر النفاق .

هذه أنواع للكفر من حيث صفته فقد يأتي الناقض الكفري على أحد هذه الأحوال ، فيكون إما إعراضاً وإما تكذيباً ، وإما جحوداً ، وإما شكاً ، وإما نفاقاً .

المسألة الثانية : أنواع الكفر :

لا يخرج وصف الكفر وسببه عن أحد ستة أقسام :

الأول : كفر الرد والتكذيب : ومنه الجحود والإنكار والاستحلال والبغض .
الثاني : كفر الامتناع والإباء والاستكبار والعناد والصدود .
الثالث : كفر الإعراض والتولي .
الرابع : كفر الشك والريب . وعدم اليقين .
الخامس : كفر النفاق . فيظهر الإيمان والتصديق والمحبة ويبطن عكسها.
السادس: كفر الجهل والتقليد وعدم العلم ، وقد يدخل في عموم الإعراض.

وهذه الأنواع الستة أكثرها من الكفر القلبي ومنها ما هو من الكفر العملي.

فائدة: تعلق كفر العناد بالإباء وكفر الجهل بالإعراض وكفر الاعتراض بالرد.
فالكفار منهم المكذّب والجاحد والمعاند والمستكبر والمعرض والجاهل، فمن كذب لجهله فكفره كفر جهل، ومن كذب عنادا فكفره كفر عناد وإباء.
قال الإمام ابن القيم في المدارج : (الكفر الأكبر خمسة أنواع : كفر تكذيب وكفر استكبار وإباء مع التصديق وكفر إعراض وكفر شك وكفر نفاق .
الأول : كفر التكذيب : فهو اعتقاد كذب الرسل وهذا القسم قليل في الكفار فإن الله تعالى أيد رسله وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما قام به الحجة وأزال به المعذرة ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ النمل: ١٤ ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام: ٣٣ ، وإن سمي هذا الجحود تكذيبا فصحيح، إذ هو تكذيب باللسان .
الثاني: كفر الإباء والاستكبار : فنحو كفر إبليس فإنه لم يجحد أمرا ولا قابله بالإنكار وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار ﴿ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٣٤ ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ ﴾ الحجر: ٣٣، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول وأنه جاء بالحق من عند الله ولم ينقد له إباءً واستكبارا وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما حكا الله عن فرعون وقومه ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ المؤمنون: ٤٧ وقول الأمم لرسلهم ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ إبراهيم: ١٠، وهو كفر اليهود ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ البقرة: ٨٩ ويدخل هذا في الجحود ، وهو كفر أبي طالب فإنه صدقه ولم يشك في صدقه ولكن أخذته الحمية وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم ويشهد عليهم بالكفر .
الثالث: كفر الإعراض : فإنه يعرض بسمعه عن الرسول لا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغي إلى ما جاء به البتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ : " والله لا أكلمك إن كنت صادقا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك وأن كنت كاذبا فأنت أحقر من أن أكلمك ".
الرابع : كفر الشك : فإنه لا يجزم بصدقه ولا يكذبه بل يشك في أمره، وهذا لايستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق أو يصير مكذبا.
الخامس: كفر النفاق : أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي بقلبه على التكذيب).

ولم يذكر ابن القيم في كلامه هنا كفر الجهل وذكره في أماكن أخرى.

المسألة الثالثة : كفر الجهل وإنكار المرجئة له :

ومن الكفر المجمع عليه كفر الجهل وهو يأتي في مقابل كفر الجحود والعناد .

وكفر الجهل قد يكون بسبب الإعراض فيدخل في كفر الإعراض ، وقد يكون بسبب عدم معرفة الحق ووجود الحجة فيكون كفرا مستقلا ، وله علاقة بالتكذيب.

وقال ابن القيم في طريق الهجرتين : (العذاب يستحق بسببين:

أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها .

الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها .

فالأول كفر إعراض والثاني كفر عناد .

وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل) .

والمرجئة تنكر كفر الجهل وكفر الامتناع والتولي والإباء العملي والإعراض واقتصروا على كفر التكذيب والعناد والكفر القلبي ولا تعترف بغيره .

قال ابن القيم: (المبتدعة الذين حكموا بنجاة الكفرة وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار - المقلدين والجهلة - وإن كانوا جهالاً مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، كما يحكى عن بعض أهل البدع أنه لا يحكم لهؤلاء بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا لم يقل به أحد من أئمة المسلمين) طريق الهجرتين ٤٤٨ .

قال محمد بن إبراهيم: (لو كان فهم الحجة شرطا لما كان الكفر إلا قسما واحدا وهو كفر الجحود بل الكفر أنواع من الجهل وغيره) شرح كشف الشبهات ١٠١ .

تنبيه: الكلام عن أنواع الكفر بينته في كتاب شروط التوحيد وسنأتي به هنا.

الأول :كفر الرد والجحود وسنأتي عليه في الناقض الخامس المتعلق بالبغض .

الثاني : كفر الإعراض والتولي . سيأتي في الناقض العاشر .

الثالث : كفر الامتناع والإباء والاستكبار والعناد. سيأتي في الناقض العاشر .

الرابع : كفر النفاق وسنذكره قريبا هنا .

الخامس : كفر الشك والريب وعدم اليقين سيأتي في الناقض الثالث .

السادس: كفر الجهل سيأتي في العاشر وفي الأول في المشرك الجاهل بالتوحيد.

السابع : كفر البغض والكره : وسيأتي في ناقض البغض .

تنبيه : الاعتراض داخل في الرد ، وكفر العناد داخل في الإباء .

الرابعة : الفروق بين أنواع الكفر وأنواعها ، وبحثه موجود في النواقض.
كالفرق بين الرد والإباء والامتناع، وبين الرد والإعراض، وبين البغض والرد، وبين الرد والعناد وبين العناد والإباء وبين الإعراض والاعتراض، وبين الامتناع والاستكبار والإباء والترك والإعراض والتولي، وبين الإعراض والشك ، والفرق بين التكذيب والجحود والاستحلال والإنكار، ودخول الاستحلال في الشرك، ، وبين التكذيب والكفر، وبين تكذيب الله والكذب على الله، وبيان تسمية كفر الرد التكذيب، والفرق بين الصدق والتصديق وما يقابلهما ، وأن كفر الجحود ضد كفر النفاق، وكفر الجهل وأنواعه وحكم إعراض المكذب أو تكذيب المعرض، وكفر الاستحلال والجحود والبغض العملي .

الخامسة : قاعدة: التفريق بين صفة الكفر وبين حقيقته وسببه ونوعه :
يوجد فرق حين نقول الكفر المتعلق بفقدان الشرط والكفر المتعلق بالإخلال به فصفة الكفر تتعلق بفقدان الشرط مثل كفر الجحود عند فقد القبول وكفر الإعراض والامتناع عند فقدان شرط الانقياد وكفر النفاق عند فقدان شرط الصدق والإخلاص وكفر الشك عند فقدان شرط اليقين وكفر الجهل عند فقد شرط العلم .

أما سبب الكفر ونوعه وحقيقته فتتعلق بالإخلال بنوع وفرد من الشرط مثل كفر الحكم بغير ما أنزل الله أو الشرك بالله أو كفر تولي الكفار أو السحر أو عدم تكفير الكفار وغيرها فسببه عدم القبول أو عدم الانقياد أو عدم المحبة وهكذا.

فيمكن أن يقال كفر الجحود والإعراض والتكذيب والشك والنفاق أجناس يندرج تحتها أنواع وأفراد وأوصاف، وكل كفر لا بد أن تكون صفته على أحد هذه الصفات والأنواع الست.

تنبيه : الإعراض كما أنه سبب للكفر ووصف له ، هو أيضا كفر في نفسه.

المسألة السادسة : علاقة الشرك بأنواع الكفر :
الكفر له ستة أنواع وهذه الأنواع في الحقيقة صفات لحال الكفر، فالكفر إما أن يكون إعراض أو عناد واستكبار وإباء وامتناع أو شك أو نفاق أو رد وتكذيب وجحود أو ردة عن الدين . والشرك يكون بأحد هذه الأنواع فقد يكون صفته وسببه الإعراض أو العناد والإباء أو الشك أو التكذيب والجحود أو النفاق .

الفرق بين الكفر والشرك:اختلف العلماء في الفرق بينهما: فقيل معناهما واحد، وقيل الكفر أعم من الشرك فالكفر خصال كثيرة منه الشرك ومنه عدم عبادة الله .

الكتاب السادس : حقيقة النفاق وأحكام المنافق

المسألة الأولى : أنواع الكفر المتعلق بترك الصدق والكذب في التوحيد:

١- **التكذيب** : ضد التصديق وهو متعلق بالقبول وضده التكذيب متعلق بكفر الرد وسيأتي الكلام عن الرد ، وعلاقته بشرط القبول أظهر من علاقته بشرط الصدق وتقدم أن المقصود بهذا الشرط الصدق وليس التصديق .

٢- **النفاق** : وهو الذي يقابل الصدق ويتعلق حصوله بترك شرط الصدق الذي هو من شروط لا إله إلا الله .

المسألة الثانية : تعريف النفاق :

أصله في اللغة من النفق وله معنيان:

نفاذ الشيء وانتهاؤه ومنه نفقت البضاعة .

خفاء الشيء وإخفاؤه وتعميته ومنه النفق سرب في الأرض خافيا وجحر له مدخل من جهة ومخرج من أخرى ، وسمي المنافق بذلك لكونه يسر الكفر ويخفيه.

والنفاق في الشرع : هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر . فالمنافق يظهر الصدق والإيمان والتصديق والإقرار والالتزام والمحبة واليقين ويبطن عكس ذلك .

قال ابن القيم: (يظهر إيمانه بالله وهو في الباطن منسلخ من ذلك مكذب به)

كما يطلق على إخفاء خلاف ما يظهر ، وهو في الشر خاصة، ومن ذلك كان الغدر والكذب والخيانة من النفاق ، أما إخفاء العمل الصالح أو إخفاء الإسلام للمكره فلا يسمى نفاقاً .

المسألة الثالثة : أدلة النفاق :

أولاً : الأدلة من كتاب الله تعالى :

١- الآيات التي ذكرت صفات المنافقين وحكمهم : قال تعالى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ التوبة: ١٠١

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الأحزاب: ١٢

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ الأنفال: ٤٩

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ التوبة: ٦٤

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ التوبة: ٦٧

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ التوبة: ١٠٧

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ١٤٢

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ النساء: ١٤٥

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ التوبة: ٦٨

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الحديد: ١٣

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ العنكبوت: ١١

﴿ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ الأحزاب: ٢٤

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ الفتح: ٦

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ المنافقون: ٧

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ المنافقون: ٨

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ آل عمران: ١٦٧

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ محمد: ٢٩

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ محمد: ٢٠

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ المائدة: ٥٢

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ النور: ٥٠

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ الأحزاب: ٣٢

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ التوبة: ٤٩

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ التوبة٥٨

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ التوبة: ٦١

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ التوبة: ٧٥

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ محمد: ١٦

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ ﴾ المجادلة: ١٤

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ التوبة

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ﴾ التوبة: ١٢٧

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ التوبة٩٣

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ التوبة: ٤٥

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ التوبة: ٨

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ التوبة: ٩٧

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾ النساء: ١٣٨ - ١٣٩

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ البقرة: ٨

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ البقرة: ١١ .

٢- الآيات التي ذكر فيها أحكام التعامل معه المنافقين : قال تعالى :

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٦٠ - ٦٢

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ التوبة: ٧٣

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ الأحزاب: ١

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ الأحزاب: ٤٨

﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ النساء: ٨٨

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ التوبة: ٨٠

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ التوبة: ٨٤

﴿ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ التوبة: ٩٥

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ التوبة: ٩٦

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ المنافقون: ١

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٤٠

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ المائدة: ٤١

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾ النساء: ٦٣

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ آل عمران: ١٥٦

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ التوبة: ٤٣

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ التوبة: ٨٥

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ التوبة: ٧٤

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٦٦ ﴾ التوبة: ٦٥ - ٦٦ .

ثانيا : الأحاديث التي جاء فيها الكلام عن النفاق :

١- قال النبي ﷺ لعمر في قتل المنافقين : (أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) متفق عليه.

٢- قال ابن مسعود سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا تقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة منافقوها) أخرجه البزار والطبراني والأصفهاني في صفة النفاق ورواه من قول الحسن الفريابي في صفة النفاق والداني في الفتن.

٤- عن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يأتي على الناس زمان يستخفي المؤمن فيهم ، كما يستخفي المنافق فيكم اليوم) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين والأصفهاني في صفة النفاق .

٥- قال ﷺ : (أكثر منافقي أمتي قراؤها) . أخرجه أحمد وابن المبارك في الزهد والبخاري في أفعال العباد وابن وضاح في البدع وغيرهم.

٦- عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصا يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن أن يصلي عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر وأخذ بثوب رسول الله ﷺ ، فقال يا رسول أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه، فقال إنما خيرني الله تعالى فقال : (استغفر لهم أولا تستغفر لهم) إلى قوله (سبعين مرة) وسأزيد على السبعين ، قال إنه منافق ، فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) فما صلى رسول الله ﷺ على منافق حتى قبضه الله تعالى) البخاري.

٧- عن جابر جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن لي جارا منافقا يصنع كذا وكذا ويقول كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ : يقول لا إله إلا الله ؟ قال نعم ، قال : عن قتل أولئك نهيت) أخرجه مالك مرسلا وأحمد وابن حبان والبيهقي في الشعب والأصفهاني في صفة النفاق .

٨- إخراج النبي ﷺ المنافقين من المسجد في الجمعة وتعيينهم بأسمائهم :

قال ابن مسعود ﷺ خطبنا رسول الله ﷺ فذكر في خطبته ما شاء الله تعالى ، ثم قال : (إن منكم منافقين فمن سميت فليقم ، ثم قال : قم يا فلان قم يا فلان حتى عد ستة وثلاثين) أخرجه أحمد والطبراني والبخاري في التاريخ والأصفهاني في صفة النفاق والطبري في تفسيره وغيرهم بروايات عدة وله شواهد.

٩- عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) متفق عليه.

١٠- قال النبي ﷺ حين ذكر رجل المنافقين لما سمع النبي ﷺ يذكر غفران الذنوب في رمضان : (إن المنافق كافر وليس للكافر في هذا شيء) أخرجه البيهقي في الشعب والأصفهاني في صفة النفاق .

١١- عن ابن عمر قال : كنت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ جاءه حرملة بن زيد الأنصاري فجلس بين يدي رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله الإيمان هاهنا ، وأشار بيده إلى لسانه والنفاق هاهنا، ووضع يده على صدره ، ولا نذكر الله إلا قليلا، فسكت رسول الله ﷺ ، وردد ذلك حرملة فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان حرملة

فقال: اللهم اجعل له لسانا صادقا وقلبا شاكرا وارزقه حبي وحب من يحبني وصير أمره إلى خير . فقال له حرملة : يا رسول الله إن لي إخوانا منافقين كنت فيهم رأسا، أفلا أدلك عليهم ؟ فقال رسول الله ﷺ من جاءنا كما جئتنا استغفرنا له ، ومن أصر على ذلك فالله أولى به ، ولا نخرق على أحد سترا) أخرجه الطبراني وسنده ضعيف.

١٢- قال حذيفة ﷺ : (إنما كان النفاق على عهد النبي ﷺ ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان) رواه البخاري .

١٣- وقال ﷺ : (إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي ﷺ كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون) رواه البخاري .

١٤- قال أبو مليكة : (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه) رواه البخاري .

١٥- وقال الحسن : (ما خاف النفاق إلا مؤمن وما أمنه إلا منافق) أخرجه البخاري . وقال : من يأمنه بعد عمر.

١٦- سئل عمر حذيفة : ناشدتك الله هل سماني رسول الله مع القوم ؟ فقال لا ولا أزكي بعدك أحدا .

وإن مما يحزن المسلم حال كثير من المسلمين عند ظهور الفتن وعلو الكفار وما يحصل لكثير منهم لهم من الردة العامة والنفاق الأكبر المخرج من الإسلام ، وذلك لما أمنوا النفاق ولم يخافوا عقوبته.

المسألة الرابعة : أقسام النفاق :

١- النفاق الأكبر المخرج من الإسلام .

٢- النفاق الأصغر الذي لا يخرج عن الإسلام، كالكذب والخيانة والغدر.

ويسمى النفاق الأكبر نفاق القلب والنفاق الاعتقادي .

ويسمى النفاق الأصغر نفاق الجوارح والنفاق العملي .

وإن كان نفاق الاعتقاد تتعلق آثاره وعلاماته بالجوارح، لكن أصله في القلب، كما أن نفاق العمل يتعلق بالقلب من حيث إبطان المعصية والشر .

قال ابن تيمية : (فمن النفاق ما هو أكبر يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار كنفاق ا بن أبي وغيره بأن يبطن تكذيب الرسول أو جحود بعض ما جاء به أو بغضه أو عدم اعتقاد وجوب إتباعه أو المسرة بانخفاض دينه أو المساءة بظهور دينه).

المسألة الخامسة : ضابط النفاق الأكبر :

١- إبطان التكذيب (لله أو لرسوله أو لدينه) .

٢- البغض (لله أو لرسوله أو لدينه) .

٣- الفرح بظهور الكفر، وانخفاض الإسلام .

السادسة : ضابط النفاق الأصغر :

التظاهر بالخير والرياء ، وإضمار الشر والمعصية .

لكن لا بد من وجود التصديق والمحبة والانقياد للدين حتى لا يصير أكبر.

قال ابن تيمية : (النفاق يطلق على النفاق الأكبر الذي هو إضمار الكفر، وعلى النفاق الأصغر الذي هو اختلاف السر والعلانية في الواجبات) الفتاوى ١١/ ١٤٠.

السابعة : وجه كون الكذب والخيانة وإخلاف الوعد من النفاق :

لأنها تقوم على إخفاء الشر ، وخلاف ما يظهر صاحبها.

المسألة الثامنة : مكان النفاق في القلب :

قال تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ التوبة: ٧٧.

وقال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ آل عمران: ١٦٧ .

ولذلك وصف الله المنافقين بأن في قلوبهم مرض .

وقول حرملة للنبي ﷺ : النفاق هاهنا، ووضع يده على صدره.

المسألة التاسعة : أصل النفاق في القلب وتظهر آثاره على الجوارح :

قال ابن تيمية في الصارم : (الإيمان والنفاق أصله في القلب، وإنما يظهر من القول والفعل فرع له ودليل عليه) الصارم ٧٦.

المسألة العاشرة : تلازم الظاهر والباطن في النفاق :

قال ابن تيمية في الصارم : (فإذا ظهر من الرجل شيء من ذلك ترتب الحكم عليه، فلما أخبر سبحانه أن الذين يلمزون النبي ﷺ والذين يؤذونه من المنافقين ثبت أن ذلك دليل على النفاق وفرع له ومعلوم إنه إذا حل فرع الشيء ودليله حصل أصل المدلول عليه فثبت أنه حيث ما وجد ذلك كان صاحبه منافقاً سواء كان منافقاً قبل هذا القول أو حدث له النفاق بهذا القول) الصارم ٧٦.

المسألة الحادية عشرة : قيام النفاق على الكذب :

أساس النفاق التكذيب والكذب ضد التصديق والصدق وحب المدح.

قال ابن القيم في المدارج : (زرع النفاق ينبت على ساقين الكذب والرياء).

المسألة الثانية عشرة : أقسام الناس : مؤمن وكافر ومنافق .

المسألة الثالثة عشرة : أقسام الكفار :

كافر أصلي . كافر مرتد . ومنافق يظهر الإسلام ويبطن الكفر .

والكفار إما أهل حرب وإما أهل عهد، وأهل العهد ثلاثة أصناف أهل الذمة وأهل هدنة وأهل أمان، ويتناولهم العهد والذمة .

والكافر قسمان : مشرك وأهل كتاب .

والمشرك قسمان : أصلي ومرتد .

المسألة الرابعة عشرة : الفرق بين النفاق وبين الكفر والشرك والردة :

اختلف أهل العلم في الفرق بين الكفر والشرك : فقيل معناهما واحد، وقيل الكفر أعم من الشرك فالكفر خصال كثير منه الشرك ومنه عدم عبادة الله .

وأما النفاق فيكون شركا وكفرا ، حيث يبطن صاحبه الكفر أو اليهودية والنصرانية أو الشرك أو أي ناقضٍ من نواقض الإسلام .

المرتد من يسبق له إسلام صحيح .

أما النفاق فقد يكون مرتدا وقد يكون كافرا أصليا .

المسألة الخامسة عشرة : أنواع المنافقين:

المنافق الأصلي : الذي نفاقه أصلي حصل له منذ إظهاره الدخول في الإسلام .

المنافق المرتد : وهو النفاق الطارئ ، الحادث للمسلم والحاصل منه بفعل ناشئ كالشك والريب أو البغض أو الاستهزاء .

السادسة عشرة : ما يقابل ويضاد كفر النفاق :

١- المخلص: إذا أخفى العمل الصالح .

٢- المكره : إذا أخفى الإسلام خوفا من بأس الكفار .

٣- إظهار الكفر لمصلحة ضرورية معتبرة عند من قال به ، كما فعل محمد ابن مسلمة مع كعب ابن الأشرف وعبدالله بن أنيس مع خالد الهذلي .

٤- كفر الجحود: فالجاحد مصدق وعالم في الباطن جاحد في الظاهر والمنافق مكذب وكافر في الباطن مظهر للإيمان .

المسألة السابعة عشرة : حالات المنافق وأسباب النفاق:

١- أن يكون سبب كفره ونفاقه وتكذيبه في الباطن عن عدم اقتناع فلم يتبين له صحة الدين أو أنه حصل له الريب والشك والشبهة عنده.

٢- أن يكون كفره عن بغض أو حسد أو عدم قبول أو غير ذلك ، فيعلم أن الدين حق والرسول صادق فيصدق في باطنه لكن لا يحب ولا يؤمن ولا ينقاد .

٣- أن يكون كفره بسبب حب الدنيا والطمع في المصالح وطلب الشهوات.

مثال : الجاسوس العميل لمصلحة الكفار محارب المجاهدين في السر ، هو منافق مع أنه قد يتصور حصول هذا العمل من شخص يحب الإسلام ولا يبغضه، كما هو الحال بكثير من العاملين في الاستخبارات الأمريكية الصليبية واليهودية والمتعاونين معهم ممن لا يعلم بهم أحد من المسلمين ، وهم لا يعلمون أن عملهم هذا مخرج لهم من الملة، لكن متى ما علم به وجب قتله ويعتبر كافرا مرتدا.

المسألة الثامنة عشرة : هل بالضرورة أن يعلم المنافق بنفاقه :

منهم من يعلم بنفاقه وكفره ، وهذا هو الأكثر وهو الأصل في المنافق.

ومنهم من لا يعلم بأنه منافق كافر .وقد كان من المنافقين في عهد الرسول ﷺ ممن لا يعلم بنفاقه ، وهذا كمن حصل له نفاق طارئ لم يكن موجودا من الأصل، كما هو الحال ببعض الذين جالسوا المستهزئين في غزوة تبوك حكم بكفرهم ونفاقهم مع عدم علمهم قبل نزول الوحي ، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ التوبة: ٧٧، ولأجل هذا كان الصحابة ﷺ يخافون على أنفسهم منه نعوذ بالله من النفاق وأسبابه وأهله .

التاسعة عشرة : المسلم قد يحدث له النفاق الأكبر عند ظهور الفتن والكفار:

يقول ابن تيمية في ذلك : (عامة الناس معهم إيمان مجمل وليسوا كفارا ولا منافقين ، وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على هذا الإسلام الذي يثابون عليه ولم يكونوا من المؤمنين حقا، وأكثرهم إذا ابتلوا بالمحن ينافق أكثرهم ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو ظاهرا). الفتاوى الإيمان ٢٨١ .

وقال فيه : (وفي الجملة ففي الأخبار عمن نافق بعد إيمانه كثير .. كما حصل مع الذين ارتدوا حين حولت القبلة، وكذا لما انهزم المسلمون بأحد فمنهم من جدد نفاقه ومنهم من أحدث نفاقا ولم يكن قد نافق من قبل) .وقال : (وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين في الباطن ، إذا لم يكن لهم داع إلى النفاق) ٧/ ١٧٧ .

المسألة العشرون : اجتماع النفاق والإيمان :

النفاق الأصغر يجتمع مع الإيمان، ويدل له الحديث الوارد في النفاق الأصغر.

عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) متفق عليه.

أما النفاق الأكبر فلا يجتمع مع الإيمان الصحيح.

قال ابن تيمية : (وقد يجتمع في العبد نفاق وإيمان وكفر وإيمان ... فبعض الناس يكون معه شعبة من الكفر ومعه إيمان أيضا ، وعلى هذا ورد عن النبي ﷺ تسمية كثير من الذنوب كفرا) الفتاوى ٧/ ٣٥٥ .

المسألة الحادية والعشرون : وجوب الخوف من النفاق وعدم الأمن منه :

عن عمران بن حصين مرفوعا : (إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان) رواه الطبراني .

قال أبو مليكة : (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه) رواه البخاري .

وقال الحسن : (ما خاف النفاق إلا مؤمن وما أمنه إلا منافق) أخرجه البخاري ، وقال : من يأمنه بعد عمر، ويقصد بذلك جين سأل عمر حذيفة ناشدتك الله هل سماني رسول الله مع القوم ؟ فقال لا ولا أزكي بعدك أحدا) .

الثانية والعشرون : بعض نواقض الإسلام العملية التي من قبيل النفاق :

١- السخرية والاستهزاء بشيء من الدين .

٢- الشك والريب .

٣- تولي الكافرين ومحبتهم.

٤- التجسس للكفار ومناصرتهم .

٥- بغض شيء مما جاء به الرسول ﷺ .

٦- حرب أهل التوحيد ومناصرة أعدائهم .

٧- السعي في إهانة المسلمين والفرح بظهور الكفار عليهم.

٨- الإعراض عن الدين والامتناع عن الطاعة وترك العبادة.

٩- الطعن في أحكام الشريعة ولمزها والسعي في تنحية الحكم بها.

المسألة الثالثة والعشرون: علاقة النفاق بالعمل الكفري :

١- النفاق يكون سبب العمل الكفري : كحرب الدين من المنافقين.

٢- العمل الكفري سبب النفاق ، فهو الذي أحدثه ولم يكن يوجد نفاق قبله.

فبعض الأعمال من فعلها صار من المنافقين وهو لا يشعر.
كما قال تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ التوبة: ٧٧.
قال ابن تيمية في الصارم : (فثبت أنه حيث ما وجد ذلك كان صاحبه منافقاً سواء كان منافقاً قبل هذا القول أو حدث له النفاق بهذا القول) الصارم ٧٦.
مثال : الاستهزاء بالدين قد يكون الحامل له وجود النفاق في القلب ، وقد لا يكون موجود أصلاً وإنما حدث النفاق بعد الاستهزاء.
وكذا الريب والشك والتردد من كفر النفاق وصفة المنافقين ، فقد يكون سبب حصول النفاق ووجوده . والعكس صحيح فقد يكون النفاق هو الذي أوجده.
وكذا بغض الدين قد يكون سبب حصول النفاق وأساس وجوده . والعكس صحيح فقد يكون النفاق هو الذي أوجد البغض .
وكذلك الإعراض والتولي من أعمال النفاق ، والإعراض يصدر من المنافق الأصلي ويصدر من المسلم فيصير منافقا مرتدا.

المسألة الرابعة والعشرون: علاقة النفاق بأنواع الكفر :

الشك، والبغض، والإعراض، كلها تسبب النفاق والنفاق يسبب وجودها .
كفر الجحود ضد كفر النفاق : فالجاحد مصدق في الباطن مكذب في الظاهر، والمنافق مكذب في الباطن مظهر الإيمان في الظاهر.
النفاق منه ما يرجع لكفر القول ولتكذيب ، ومنه ما يرجع لكفر العمل والبغض وعدم الطاعة ، ومرد النفاق: للتكذيب والبغض .
ونفاق العمل : منه نفاق محض ومن عنده نفاق وإيمان .

المسألة الخامسة والعشرون : عدم علم النبي ﷺ بكل المنافقين :

والدليل قوله ﷻ: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ التوبة: ١٠١.
قال ابن تيمية في الصارم: (لكن الله تعالى لم يعلم نبيه بكل من يظهر نفاقه).

المسألة السادسة والعشرون : وجود النفاق في الأمم السابقة:

والدليل قوله تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ الأحزاب: ٦٠ – ٦٢.

المسألة السابعة والعشرون : بقاء النفاق في هذه الأمة إلى قيام الساعة :

ومن الأدلة على ذلك :

أن المدينة آخر الزمان إذا جاءها الدجال تنتفض فيخرج من فيها من المنافقين .

وكذلك أخبر النبي ﷺ أن الناس يكونون آخر الزمان على فسطاطين فسطاط إيمان لا نفاق فيه وفسطاط نفاق لا إيمان فيه .

المسألة الثامنة والعشرون : إنكار المرجئة للنفاق :

قال الثوري : (خلاف ما بيننا وبيننا وبين المرجئة ثلاث : وذكر منها : نحن نقول : النفاق ، وهم يقولون لا نفاق) أخرجه الفريابي في صفة النفاق .

تنبيه: معنى قول حذيفة : (إنما كان النفاق على عهد النبي ﷺ ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان). هو أن حكم المنافق وعدم قتله كان خاصاً بزمن النبي ﷺ وأما بعده فيأخذ حكم المرتد إذا ظهر كفره ونفاقه ، وليس إنكار وجود المنافقين .

المسألة التاسعة والعشرون : قد يكثر أهل النفاق والردة في بعض الأزمنة.

أخرج ابن بطة عن حذيفة ﷺ قال: (لو اهلك الله المنافقين لاستوحشتم في الطرق ولما وجدتم من تتابعون معه وما انتصفتم من عدوكم) ، وقال الحسن نحوه.

وله: (يأتي على الناس زمان لو رميت بسهم يوم الجمعة لم يصب إلا كافرا أو منافقا).

وقال أبو هريرة ﷺ : (والذي نفسي بيده إن الناس ليخرجون اليوم من دين الله أفواجا ، كما دخلوا فيه أفواجا) أخرجه ابن وضاح والحاكم وغيرهم .

وقال يحي بن معين: (ما زلت أعيد الجمعة منذ أن أظهر القول بخلق القرآن) أخرجه عنه عبدالله بن أحمد في السنة . ومثله عن أبي عبيد القاسم بن سلام .

قال البربهاري : (واحذر أهل زمانك خاصة ، وانظر من تجالس وممن تسمع ومن تصحب فإن الخلق كأنهم في ردة إلا من عصمه الله منهم .. وكفروا من حيث لا يعلمون من وجوه شتى) شرح السنة ص: ١١٦ .

يقول ابن تيمية: (وأكثرهم إذا ابتلوا بالمحن التي يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم وينافق أكثرهم ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو ظاهرا، وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة) الإيمان ٢٨١ .

خطر النفاق :

قال ابن القيم في المدارج: (كاد القرآن يكون كله في شأنهم) .

فصل : أحكام المنافق

المسألة الثلاثون : حكم المنافق :

المنافق كافر وليس بمؤمن ، ولا يجتمع النفاق والإيمان .

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٨٤.

وقال تعالى في الآية الأخرى عن سبب ترك الصلاة والاستغفار وهو الكفر: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ التوبة: ٨٠ ﴿ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ التوبة: ١٢٥.

وقال النبي ﷺ حين ذكر رجل المنافقين لما سمع النبي ﷺ يذكر غفران الذنوب في رمضان : (إن المنافق كافر وليس للكافر في هذا شيء) أخرجه البيهقي في الشعب والأصفهاني في صفة النفاق .

الكرامية : تسمي المنافق مؤمنا في الدنيا وفي الآخرة كافر معذب .

وأهل السنة لا تسمي المنافق مؤمنا .

حكم المنافق في الآخرة: المنافق في الدرك الأسفل من النار .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ النساء: ١٤٥.

وقال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ التوبة: ٦٨.

قاعدة : لا يزيل الكفر إلا الدخول في الإسلام باطنا وظاهرا .

ويزيل النفاق الصدق والحب والانقياد والتعظيم .

المسألة الحادية والثلاثون : أحكام التعامل مع المنافقين :

الأولى: إذا لم يُعلم بحاله تجرى عليه أحكام الإسلام مثله مثل المسلمين .

الثانية: فإذا عُلم نفاقه وتبين لبعض الناس أمره، فيصير مرتداً كافراً يجب قتله، وإن كان لهم شوكة قوتلوا، ولا يصير منافقا بل إما كافراً أصلياً إذا كان مدعيا الدخول في الإسلام ومرتداً إذا كان من أهل الإسلام ونشأ عليه.

الثالثة: أما إذا شك في نفاقه ولم يتيقن ، فالأصل عدمه فيجرى عليه أحكام الإسلام . فيصلى عليه ويورث ويزوج .

المسألة الثانية والثلاثون : مجالسة المنافقين :

لا تجوز مجالسة من عرف نفاقه واستهزائه بالله ، وقد يوقع مُجالِسه في الردة عافانا الله منها، كما حكم الله بالردة على من يجالسهم .

قال تعالى : ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً ﴾ التوبة: ٦٦ .

قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٤٠.

المسألة الثالثة والثلاثون : حكم الصلاة على المنافق :

المنافق إذا ثبت نفاقه صار بذلك مرتدا كافرا ، ولا تجوز الصلاة عليه ولا يدفن مع المسلمين ولا يورث .

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٨٤.

الرابعة والثلاثون: وجوب قتل المنافق : يدل على وجوب قتله أدلة منها :

١- قوله ﷻ : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ الأحزاب: ٦٠ - ٦٢. والإغراء والتقتيل للمنافقين.

٢- قوله سبحانه في سورة التوبة والتحريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

٣- قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ التوبة: ٥٢. ومعنى: (أو بأيدينا) : القتل .

٤- قوله تعالى : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ التوبة: ١٠١.

والعذاب الأول سيكون بالقتل على يد المؤمنين .

٥- وقوله ﷻ: ﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ التوبة: ٧٤ .

والعذاب الدنيوي يكون بالقتل بيد المسلمين.

٥- قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ النساء: ٨٨ ، أي اختلفتم في قتالهم .

٦- إقرار النبي ﷺ عمر وغيره حين قال : (دعني أضرب عنق هذا المنافق).

قال ابن تيمية في الصارم : (فدل على أن ضرب عنق المنافق من غير استتابه مشروع إذ لم ينكر النبي ﷺ على عمر استحلال ضرب عنق المنافق) . وقال : (ففي هذه الأحاديث دلالة على أن قتل المنافق كان جائزا إذ لولا ذلك لأنكر النبي ﷺ على من استأذنه في قتل المنافق). وقتل عمر مريد التحاكم إلى الطاغوت ولم ينكر عليه.

الخامسة والثلاثون : الجواب عن عدم قتل الرسول ﷺ المنافقين :

١- أنهم لم يعرفوا بأعيانهم وكفرهم لم يظهر، كما أنه لم يثبت عليهم بيّنه ، فعامتهم لم يكن ما يتكلمون به من الكفر مما يثبت عليهم بالبينة، بل كانوا يظهرون الإسلام ، ونفاقهم تارة يعرف بالكلمة يسمعها منهم الرجل فينقلها للنبي ﷺ فيحلفون بالله أنهم ما قالوها .

٢- من انفضح وعُرف أظهر التوبة ، فمن لم يقم عليه حد الردة منهم فلكونه تاب ولم يتبين للنبي ﷺ كذبه من صدقه في التوبة.

٣- أن النهي عن قتل المنافقين كان أول الهجرة ووقت ضعف الإسلام ولم يأذن الله فيه ، ثم نسخ الإعراض والصفح عنهم وأن يدع أذاهم إلى القتل والغلظة ، وقد قتل النبي ﷺ من ظهر منه النفاق والردة .

٤- وقال البعض إن عدم قتلهم ومعاملتهم بهذه المعاملة خاص بالرسول ﷺ لمصلحة وهي حتى لا يقال محمد يقتل أصحابه وقد زالت هذه العلة بعد ظهور الإسلام أو بموت النبي ﷺ ، أما نحن فمتى ما أظهر المنافق الكفر عاملناه كالمرتد .

قال حذيفة ﷺ : (إنما كان النفاق على عهد النبي ﷺ ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان) رواه البخاري . واختار هذا القول ابن القيم.

كما أن للنبي ﷺ أن يعفو عن المنافق ومن سبه وليس ذلك لأحد بعده.

ثم إن الصحابة عصمهم الله من أن يفسد المنافقون دينهم بخلاف من بعدهم.

قال ابن تيمية : (فإن قيل فلم لم يقتلهم النبي ﷺ مع علمه بنفاقهم .

قلنا إنما ذلك لوجهين :

أحدهما : أن عامتهم لم يكن ما يتكلمون به من الكفر مما يثبت عليهم بالبينة، بل كانوا يظهرون الإسلام ، ونفاقهم تارة يعرف بالكلمة يسمعها منهم الرجل فينقلها للنبي ﷺ فيحلفون بالله أنهم ما قالوها ...

الثاني : أنه كان يخاف أن يتولد من قتلهم من الفساد أكثر مما في استبقائهم ، وقد بين ذلك حيث قال : (لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) وقال :(إذا ترعد له أنوف كثيرة بيثرب)) الصارم المسلول ٦٧٣ .

قال ابن حزم في المحلى في كتاب الردة في رده على من أنكر قتل المرتد والمنافق إذا بان كفره: (قال قوم: إن رسول الله ﷺ قد عرف المنافقين وعرف أنهم مرتدون كفروا بعد إسلامهم .. قالوا : فصح أن لا قتل على مرتد ، ولو كان عليه قتل لأنفذ ذلك الرسول ﷺ على المنافقين المرتدين . ونحن ذاكرون كل آية تعلق بها متعلق في أن الرسول ﷺ عرف المنافقين بأعيانهم ، ومبينون أنهم قسمان :

قسم لم يعرفهم قط عليه السلام .

وقسم افتضحوا فعرفهم فلاذوا بالتوبة ، ولم يعرفهم أنهم كاذبون أو صادقون في توبتهم ، فإذا بينا هذا بطل قول من احتج بأمر المنافقين في أنه لا قتل على مرتد) .

قال ابن حزم في المحلى في كتاب الردة في من جوّر النبي ﷺ وقال له اتق الله واعدل وهذه قسمة ما أريد بها وجه الله: (أن الله تعالى لم يكن أمر بعد بقتل من ارتد فلذلك لم يقتله الرسول ﷺ ولذلك نهى عن قتله ، ثم أمره الله تعالى بعد ذلك بقتل من ارتد عن دينه فنسخ تحريم قتلهم .. فثبت ما قلناه من أن قتل من ارتد كان حراما ولذلك نهى عليه السلام عنه ولم يأذن به لا لعمر ولا لخالد) .

بل إن ابن حزم كفر من أنكر حد قتل المرتد والمنافق إذا ظهر كفره ولم يتب.

قال ابن حزم في المحلى في كتاب الردة في تكفير من زعم أن النبي ﷺ لم يقتل المرتد : (ومن ظن أن رسول الله ﷺ لا يقتل من وجب عليه القتل من أصحابه فقد كفر وحل دمه وماله لنسبته إلى رسول الله الباطل ومخالفة الله تعالى ... من الكفر الصريح: أن يعتقد أو يظن أن يعطل إقامة الحق الواجب في قتل المرتد على كافر يدري أنه ارتد ، ثم لا يقنع بهذا حتى يصلي عليه ويستغفر له وهو يدري أنه كافر) .

وقال : (ومن الباطل أن يكون الرسول ﷺ يعلم أن فلانا بعينه منافقٌ متصل النفاق ثم لا يجاهده فيعصي ربه تعالى ويخالف أمره ، ومن اعتقد هذا فهو كافر ، لأنه نسب الاستهانة بأمر الله تعالى إلى رسوله ﷺ) .

وقال مكفرا منكر قتل المرتد والمنافق إذا بان كفره: (لم يبعد عن الكفر لأنه يكذب الله تعالى ويخبر أنه تعالى بدل سنة التي قد أخبر أنه لا يبدلها) .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (أما استدلالك بترك النبي ﷺ تكفير المنافقين وقتلهم ، فقد عرفه الخاص والعام ببدهية العقل أنهم لو يظهرون كلمة واحدة أو فعلا واحدا من عبادة الأوثان أو مسبة التوحيد الذي جاء به أنهم يقتلون أشر قتلة) المؤلفات ١/ ٢١٨ .

قال الإمام مالك : (النفاق في عهد الرسول ﷺ هو الزندقة في زماننا ، فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة) من تفسير القرطبي .

المسألة السادسة والثلاثون : توبة المنافق :
فقد يتوب المنافق ويسلم بعد كفره في ما بينه وبين الله في الباطن.
ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ النساء .
فقد يحصل العفو عن المنافقين إن تاب كما قال تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ الأحزاب: ٢٤ ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً ﴾ التوبة: ٦٦ .
أما في الظاهر فهذا محل خلاف بين أهل العلم في قبول توبته إن علم به وقدر عليه قبل التوبة . واستدل من قال بعدم قبول توبة المنافق بقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ آل عمران: ٩٠ .
واختلف تفسير أهل العلم ومعنى عدم قبول التوبة، هل عدم القبول باطن أو ظاهر . وهل هو مشروط بالموت على الكفر . أو أن هناك حالات لا تقبل التوبة فيها كمن تكررت ردته.

السابعة والثلاثون: آية :﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ البقرة: ٢٥٦ ، وآية : ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ الأحزاب: ٤٨ ، وآية : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾ المائدة: ١٣ . منسوخة بآيات القتل والسيف.
فائدة : قول عبد الله بن أبي بن سلول :
بعضه كان قبل إظهار إسلامه وبعضه أظهر توبته بعد ثبوت كلامه ، ثم إنه كان وقت النهي عن قتلهم وقبل الأمر بقتلهم ، ثم إنه ترك قتله لعلة وهي حتى لا يقال محمد يقتل أصحابه وحتى لا تأخذ بعض قومه الحمية.

المسألة الثامنة والثلاثون : الزنديق هو بمعنى المنافق :
قال ابن تيمية في الإيمان الأوسط : (لما كثرت الأعاجم تكلموا بلفظ الزنديق وشاعت في لسان الفقهاء وتكلم الناس في الزنديق هل تقبل له توبة والمقصود هنا أن الزنديق في العرف هو المنافق الذي كان في عهد النبي ﷺ وهو أن يظهر الإسلام

ويبطن غيره سواء أبطن دين من الأديان كدين اليهود والنصارى أو غيرهم أو كان معطلا جاحدا للصانع والمعاد والأعمال الصالحة والامتناع) .

وقال : (فأما الزنديق الذي تكلم الفقهاء في قبول توبته ، فالمراد به عندهم المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر) بغية المرتاد ٣٣٨ .

قال ابن القيم في طريق الهجرتين ٤٠٢ : (طبقة الزنادقة وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسوله وهؤلاء المنافقون وهم في الدرك الأسفل من النار).

ومن فرق الزنادقة عند السلف المنتسبة للإسلام الباطنية والقرامطة والجهمية وغلاة القدرية ، ومن اعترض على القدر من الشعراء والأدباء والدهرية والملاحدة والحلولية والاتحادية وأصحاب وحدة الوجود وغلاة الصوفية القبورية.

وكان أكثرهم من الفرس من أتباع المانوية والثنوية وجاءت بعدهم الرافضة.

فائدة : التقية عند الرافضة من النفاق والزندقة ، ولأجلها لا تقبل توبتهم بعد القدرة عليهم .

المسألة التاسعة والثلاثون : أبرز أعمال وصفات المنافقين :

١- موالاة الكفار ومظاهرتهم.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ الحشر: ١١

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ النساء: ١٣٨ - ١٣٩

٢- التشكيك في الدين ، وإثارة الشبهات والطعن فيه وحرب أهله .

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الأحزاب: ١٢

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ الأنفال: ٤٩

﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ المدثر: ٣١

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة: ١٠٧

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ البقرة: ١٤٢

٣- الاستخفاف بالله ﷻ وبرسوله والاستهزاء بالدين والسخرية بأهله.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ التوبة: ٦٤

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ التوبة: ٦١

٤- نشر المنكرات والإفساد ومحبة إشاعة الفاحشة والرذيلة.

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ التوبة: ٦٧

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ البقرة: ١١

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ١٩

٥- الإعراض عن الدين والامتناع عن الشريعة وعدم قبولها :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١ ﴿ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ التوبة: ٧٦

٧- حرب الجهاد وأهله وبغضه .

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ﴾ النساء: ٧٧ ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ آل عمران: ١٦٧ .

٨- عبادة الدنيا والتعلق بالمظاهر والانغماس في الشهوات.

قال تعالى : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ البقرة: ٢٠٠.

المسألة الأربعون: علامات النفاق :

للنفاق علامات تميزه ذكرها الله تعالى في كتابه وبيّنها لرسوله ﷺ كذلك ذكر شيئاً منها الرسول ﷺ وبينها لأمته، وهذه الصفات تفضح أهله لأن الأصل أنهم مستترون حاذرون دائمو الريب والحذر والخوف والشك، ويحذرون أن تنزل فيهم سورة تبين أعمالهم النفاقية وما يخفون من الاعتقاد .

فائدة : وصف الله المنافقين بأن في قلوبهم مرض .

والمرض هو الشك والحيرة والشبه والشهوات وبغض أحكام الشريعة وأهلها.

الكتاب السابع : حقيقة الردة وحكم المرتد

المسألة الأولى : تعريف الردة :

لغة : الرجوع والتحول .

ولفظ ارتد وارتداد ويرتدد بمعنى واحد.

وشرعا : الكفر بعد الإسلام ، ووقوع المسلم في الكفر .

والمرتد هو : المسلم الذي يقع في ناقض من نواقض الإسلام ويكفر بعد إسلامه، سواء علم بردته أو لا .

المسألة الثانية : أسماء الردة:

وصف صاحب الردة في النصوص الشرعية: بالمرتد والكافر والمارق والمفارق والمحارب والتارك للدين وكفر بعد إسلامه وكفر بعد إيمانه .

المسألة الثالثة : الفرق بين الكفر والتكفير والردة :

الردة فعل الكفر من المسلم ، والحكم بالردة مرادف للتكفير.

فالتكفير هو أن يحكم على من وقع في الكفر والردة بأنه كافر .

والردة خاصة بالمسلم، بينما الكفر منه ما هو أصلي ومنه الطارئ من المسلم وهي الردة . فالتكفير هو الحكم بردة المعين أو الكافر الأصلي.

والكفر سبب الردة والتكفير، وقد يوجد الكفر دون الحكم بالردة والتكفير وذلك إذا وجد مانع أو تخلف شرط كمن فعل الكفر جهلا أو إكراها .

المسألة الرابعة : أدلة الردة في الكتاب والسنة والإجماع .

أولاً : أدلة الكتاب :

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ البقرة: ٢١٧. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ المائدة: ٥٤.

قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ آل عمران: ٩٠.

قال ﷻ: ﴿ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٠٠.

قال تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ التوبة: ٦٦.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ التوبة: ٧٤.

قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ النحل: ١٠٦.

قال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ النور: ٥٥.
قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ محمد: ٢٥ .
قال: ﴿ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ﴾ البقرة: ١٠٩ .
قال تعالى: ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ آل عمران: ١٤٤ .
قال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ التوبة: ٥.
ومن الأدلة على قتل المرتد عموم الآيات الآمرة بقتل الكفار:
كقوله تعالى: ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ البقرة: ١٩١، النساء: ٩١ .
وقال في قتل المنافقين: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ النساء: ٨٩.
وقال: ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ الفتح: ١٦ ، قال السلف أنها في مرتدي بني حنيفة.
ثانياً: أدلتها في السنة :
١- عن ابن عباس قال: قال ﷺ: (من بدل دينه فاقتلوه) رواه البخاري .
وعند الإمام مالك في الموطأ: (من غير دينه فاقتلوه) .
قال مالك في الموطأ: (ومعناه أنه من خرج من الإسلام إلى غيره مثل الزنادقة وأشباههم فإن أولئك إذا ظهر عليهم قتلوا ولم يستتابوا لأنه لا تعرف توبتهم) .
٢- عن معاذ رضي الله عنه أنه لما قدم اليمن وجد أبا موسى رضي الله عنه أوثق رجلا ارتد ورجع لليهودية فقال: (لا أجلس حتى يقتل قضاء الله ورسوله) فأمر به فقتل. رواه أحمد.
٣- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة) رواه البخاري ومسلم واللفظ له. بطرق عن عثمان وعائشة وابن عباس بعدة ألفاظ وروايات .
وفي روايات أخرى: (المارق من الدين التارك الإسلام) . (ارتداد بعد إسلام) . (ارتد بعد إسلامه). (رجل كفر بعد إسلام) . (يكفر بعد إسلامه) . (يكفر بعد إيمانه) . (رجل يخرج من الإسلام يحارب الله عز وجل ورسوله) .
فوصف صاحب الردة : بالمرتد والمارق والمفارق والكافر والمحارب والتارك للدين والإسلام والإيمان .
٤- ومن أدلة الردة في السنة الفعلية : قتله ﷺ لأناس ارتدوا كالعرنيين والناكح امرأة أبيه وابن خطل وأمره بقتل عبد الله ابن أبي السرح والعنسي.
وهذا أصلان في وجود النواقض ، وحصول الردة .

ثالثاً : عمل الصحابة وإجماعهم على تكفير المرتدين وقتلهم المتنبئين ومانعي الزكاة عملا بقول الرسول ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس) . والحديث متفق عليه.

وقد صرحوا أن العرب كفروا وارتدوا كما جاءت النصوص عنهم وليس أنه مجرد رجوع عن الحق كما قال البعض، كما أنهم بدءوا المرتدين القتال لا العكس وأنهم دافعوا وقاتلوا لما بدأ المرتدون القتال والأحاديث في الباب صريحة ،فمنها :

عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب . قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله) .

فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه.

فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق. متفق عليه.

وعند النسائي من حديث أنس : (ارتدت العرب) .

وعند ابن خزيمة : (ارتد عامة العرب) .

ولما قدم وفد بزاخة من أسد وغطفان إلى أبي بكر يسألونه الصلح ودفع الزكاة إليه . خيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية أو السلم المخزية ، فقالوا الحرب المجلية عرفناها فما المخزية . قال لهم أبو بكرﷺ : (تؤخذ منكم الحلقة والكراع وتتركون أقواما يتبعون أذناب الإبل حتى يُري الله خليفة نبيه والمؤمنين أمراً يعذرونكم به ، وأن نغنم ما أصبنا منكم وتردون علينا ما أصبتم منا ، وحتى تشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، وتدون قتلانا ولا ندي قتلاكم) . رواه البخاري مختصرا .

فلم يقبل أبو بكر منهم الزكاة ويعطيهم الأمان حتى أقروا له بذلك وأنهم كفروا بعد إسلامهم وأنهم ارتدوا وكانوا كفاراً بمنع الزكاة وأن قتلاهم في النار .

وفي هذا رد لمن زعم أن من قاتلهم أبو بكر كانوا على حالين طائفة مرتدة وطائفة بغاة وهم مانعي الزكاة ، ولم ينقل خلاف أحد من الصحابة إلا خلاف عمر في الدية فدل على إجماعهم على كفرهم .

وروي أن عمر قال لأبي بكر: (إن العرب قد ارتدت على أعقابها كفارا كما علمت ، وأنت تريد أن تنفذ جيش أسامة، فلو حبسته لقويت به على من ارتد من هؤلاء العرب) الردة للواقدي ص:٨٤ .

وقالت عائشة : (لما قبض رسول الله ﷺ : ارتدت العرب قاطبة واشرأب النفاق) .

وقال خالد ﷺ لمالك بن نويرة حين قال:(أتقتلني وأنا مسلم أصلي القبلة). قال له خالد : (لو كنت مسلما لما منعت الزكاة ، ولا أمرت قومك بمنعها ، والله لما قمت من مقامك حتى أقتلك ، برجوعك عن دين الإسلام وجفلك إبل الصدقة وأمرك لقومك بحبس ما يجب عليهم من زكاة أموالهم) . الردة للواقدي ص:١٦٢ .

وقد قرر هذا الأصل أهل العلم من السلف ومن بعدهم :

قال أبو عبيد بن سلام : (فلو أنهم ممتنعون من الزكاة عند الإقرار وأعطوه ذلك بالألسنة وأقاموا الصلاة غير أنهم ممتنعون من الزكاة كان ذلك مزيلا لما قبله وناقضا للإقرار والصلاة،كما كان إيتاء الصلاة قبل ذلك ناقضا لما تقدم من الإقرار.

والمصدق لهذا جهاد أبي بكر الصديق بالمهاجرين والأنصار على منع العرب الزكاة كجهاد رسول الله ﷺ أهل الشرك سواء لا فرق بينها في سفك الدماء وسبي الذرية واغتنام المال ، **فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين لها.**) الإيمان ١٧ .

كلام الإمام أحمد في إثبات تكفير الصحابة الممتنعين عن الزكاة :

قال الخلال: (أخبرني الميموني قال: قلت يا أبا عبد الله: من منع الزكاة يقاتل ؟ قال قد قاتلهم أبو بكر ﷺ . قلت : فيورث ويصلى عليه ؟ قال : إذا منعوا الزكاة كما منعوا أبا بكر وقاتلوا عليها لم يورثوا ولم يصل عليهم . فإذا كان الرجل يمنع الزكاة يعني من بخل أو تهاون لم يقاتل أو يحارب على المنع يورث ويصلى عليه حتى يكون يدفع عنها بالخروج والقتال كما فعل أولئك بأبي بكر فيكون حينئذ يحاربون على منعها ولا يورث ولا يصلى). أحكام أهل الملل للخلال ٤٨٨ .

قال ابن تيمية : (وقد اتفق الصحابة والأئمة بعدهم على قتال مانعي الزكاة وإن كانوا يصلون الخمس ويصومون رمضان وهؤلاء لم يكن لهم شبهة سائغة فلهذا كانوا مرتدين وهم يقاتلون على منعها وإن أقروا بالوجوب) الفتاوى ٢٨/ ٥٤٨ .

وقال: (الصحابة لم يقولوا هل أنت مقر بوجوبها أو جاحد) الدرر ٨/ ١٣١ .

رابعاً : كما دل على كفر المرتد وقتله شرع من قبلنا :

كما أن قتل المرتد مما جاء في الشرائع السابقة ، وثبت في دين أهل الكتاب.

خامساً : دليل الإجماع :

إجماع الصحابة ﷺ على تكفير المرتد وقتله وقاموا بقتال المرتدين مدعي النبوة ومانعي الزكاة من دون خلاف بينهم، وخبرهم في الصحيحين.

أجمع العلماء على أن فاعل الردة والنواقض يقتل واختلفوا في إيجاب استتابته .

وقد جاء جميع الفقهاء والمحدثين بباب الردة في كتبهم.

قال النووي في شرحه لمسلم : (وقد أجمعوا على قتل المرتد واختلفوا في استتابته هل هي واجبة أو مستحبة ، وفي قدرها وفي قبول توبته ، وفي من له الحق في أن يقيمها، وفي أن المرأة كالرجل أم لا فالجمهور على أنها تقتل وعند أبي حنيفة تسجن وعند الحسن وقتادة تسترق وروي عن علي) .

المسألة الخامسة : حكم منكر الردة والتكفير وحد الردة .

أولاً : منكر الردة وتكفير المرتد كافر واقع في ناقض من نواقض الإسلام.

لأنه نقض حقيقة الإسلام ولم يأت بالتوحيد القائم على الكفر بالطاغوت.

قال عبدالله أبا بطين: (فمن قال: إن من أتى بالشهادتين وصلى لا يجوز تكفيره وإن عبد غير الله فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر لأن قائل هذا القول مكذب لله ولرسوله وإجماع المسلمين) . الدرر ١٠ / ٢٥٠ والرسائل ١/ ٦٦٠.

وقال الملطي ت ٣٧٧هـ: (وجميع أهل القبلة لا اختلاف بينهم: أن من شك في كافر فهو كافر، لأن الشاك في الكفر لا إيمان له، لأنه لا يعرف كفرا من إيمان ، فليس بين الأمة كلها خلاف أن الشاك في الكافر كافر) التنبيه والرد ص:٥٤.

قال الإمام ابن تيمية : (من قال إن من تكلم بالشهادتين ولم يؤد الفرائض ولم يجتنب المحارم يدخل الجنة ، ولا يعذب أحدا منهم بالنار ، فهو كافر مرتد يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل) الفتاوى ٣٥/ ١٠٦.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب في نواقض الإسلام: (من لم يُكفِّر المشركين، أوشك في كفرهم، أو صحح مذهبهم، كفر إجماعا) .

ثانياً : حكم منكر حد الردة وقتل المرتد :

يكفر إذا قامت عليه الحجة وزالت الشبهة إذا كان المنكر متأولاً مخطئا .

ويكفر مطلقاً إذا كان منافقاً زنديقاً علمانياً قصده الطعن في الدين فيقتل لردته.

قال ابن حزم في المحلى في كتاب الردة في تكفير من زعم أن النبي ﷺ لم يقتل المرتد : (ومن ظن أن رسول الله ﷺ لا يقتل من وجب عليه القتل من أصحابه فقد كفر وحل دمه وماله لنسبته إلى رسول الله الباطل ومخالفة الله تعالى ... من الكفر الصريح: أن يعتقد أو يظن أن يعطل إقامة الحق الواجب في قتل المرتد على كافر يدري أنه ارتد ، ثم لا يقنع بهذا حتى يصلي عليه ويستغفر له وهو يدري أنه كافر) .

المسألة السادسة : تاريخ الردة العامة الجماعية وبعض أحداثها في الأمة:

أعظم الردة خطرا إذا كانت جماعية فيكون الكفر عاما والردة عالمية، فينقسم الناس لفسطاطين، وكان للمرتدين شوكة وقوة ومنعة ، ومن وقائع هذا الباب.

١- ردة العرب بعد موت النبي ﷺ زمن الصحابة ﷺ وكان لهم شوكة ومنعة.

قال عمر: (إن العرب قد ارتدت على أعقابها كفارا) .

قالت عائشة : (ارتدت العرب قاطبة واشرأب النفاق) .

قال أنس : (ارتدت العرب) .

قال أبو هريرة: (وكفر من كفر من العرب). وقال : (ارتد عامة العرب) .

وقال : (يخرج الناس اليوم من دين الله أفواجا كما دخلوا أفواجا) .

وتقدم تخريج أحاديثهم.

قال ابن كثير وابن هشام عن ابن إسحاق:(ارتدت أسد وغطفان في نجد وعلى رأسهم طليحة بن خويلد الأسدي مدعي النبوة، وبنو حنيفة باليمامة وعلى رأسهم مسيلمة، وارتدت تميم مع سجاح بنت الحارث التميمية وادعت النبوة وتبعها قومها وتزوجها مسيلمة، وارتدت فزازة بقيادة عيينة بن حصن، وارتدت قبائل ربيعة وبكر بن وائل في البحرين وعلى رأسهم المنذر بن النعمان، وكندة وحضرموت وعلى رأسها الأشعث بن قيس الكندي، ومذحج ومنهم عنس ومراد باليمن وعلى رأسها الأسود العنسي وقتل قبل وفاة النبي ﷺ، وارتدت طوائف من سليم وطوائف من قضاعة).

٢- ظهرت ردة دولية لما قامت للرافضة والقرامطة دولاً في العالم، فحكموا أغلب ديار الإسلام الحجاز واليمن والبحرين ونجد ومصر والمغرب وفارس وأجزاء من الشام والعراق، وبقوا قرونا متعاقبة يحكمون المسلمين، حتى كفر خلق كثير من أهل السنة لموافقتهم لهم ومناصرتهم، وترفض خلق لا يحصيهم إلا الله، وصارت مصر وغيرها ديار كفر أكثر من مأتي عام كما قال ابن تيمية وغيره .

قال الداودي عن خطباء الجمع المنتسبين لأهل السنة في الدولة الفاطمية المتولين للرافضة : (خطيبهم الذي يخطب لهم ويدعو لهم يوم الجمعة كافر يقتل ولا يستتاب وتحرم عليه زوجته وأحكامه كلها أحكام الكفر ومن صلى خلفه خوفا أعاد ثم لا يقيم إذ أمكنه الخروج من بلدهم ولا عذر له بكثرة عيال وغيره) . ونقل عنه ابن التين بوجوب الخروج على الحاكم إذا بدل الشريعة وكفر كما في فتح ابن حجر .

وقال أبو شامة: (قال الإمام أبو القاسم الشاسي: لو وفق ملوك الإسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو الباطنية الملاعين فإنهم من شر أعداء الإسلام وقد خرج من حد المنافقين إلى حد المجاهرين لما ظهر في ممالك الإسلام من كفرها وفسادها وتعين على الكافة فرض جهادها وضرر هؤلاء أشد على الإسلام وأهله من ضرر الكفار إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية..) مختصر الروضتين ١٥٨ .

وقال ابن تيمية عن الدولة العبيدية الفاطمية وحكامها : (فإن القاهرة بقي ولاة أمورها نحو مائتي سنة على غير شريعة الإسلام .. واتفق طوائف المسلمين علماؤهم وملوكهم وعامتهم من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة وغيرهم على أنهم خارجين عن شريعة الإسلام وأن قتالهم كان جائزا) . الفتاوى ٢٨/ ٦٣٥ .

٣- قامت ردة وثنية على يد الصوفية القبورية والروافض المشركة.

وصدق فيهم ما أخبر به النبي ﷺ من حديث ثوبان : (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان) رواه مسلم.

وفيه عن عائشة مرفوعاً:(لايذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى).

قال ابن تيمية :(وكان ظهور المشاهد وانتشارها وتعظيمها حين ضعفت خلافة بني العباس وتفرقت الأمة وكثر فيهم الزنادقة وفشت كلمة البدع من أواخر المائة الثالثة فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر) الفتاوى ٢٧/ ٤٦٥ .

وقال:(أن بني بويه الذين كانوا على عقيدة الرافضة ظهر في دولتهم بناء المشهد على قبر علي المزعوم بالنجف ولا يزال يعبد ويدعى ويطاف به) رأس الحسين ١٦٨ .

٤- وقع كثير من المسلمين في الردة حين غزو التتار والصليبيين لديارهم.

يقول ابن تيمية: (ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو ظاهرا، وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة،وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبره) وهذا ما رأيناه ولم يعد يخفى لرائي ألبته . الإيمان ٢٨١.

٥- ارتداد المسلمين الباقين بالأندلس ولم يهاجروا لما استولى النصارى عليها.

وقد كتب فيهم أبو العباس الونشريسي ت٩١٤ رسالة أسنى المتاجر في حكم من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر قال فيها:(لا تجد في تحريم هذه الإقامة وهذه الموالاة الكفرانية مخالفا من أهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز .. ومن خالف الآن في ذلك أو رام الخلاف من المقيمين معهم والراكنين إليهم فجوز هذه الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين) المعيار المعرب ٢/ ١٢٣ .

وقال أبوالعباس بن زكري ت٨٩٩ عن قبائل مغربية امتزجت مع النصارى وتولوهم: (ما وصف به القوم المذكورون يوجب قتلهم كالكفار) النوازل ١/ ٤١٩ .

٦- ظهور الردة بعد زمن الاستعمار تحت مسمى العلمانية والدمقراطية واللبرالية فانتشر شرك الحكم والتشريع والتحاكم لقوانين الكفار وموالاتهم .

قال محمد بن إبراهيم: (البلد الذي يحكم بالقانون ليس دار إسلام وتجب الهجرة منه عند القدرة) الفتاوى ٦/ ١٨٨ .

قال حمود التويجري : (ومن أعظم المكفرات ما ابتلي به كثيرون من اطّراح الأحكام الشرعية والاعتياض عنها بحكم الطاغوت من القوانين والأنظمة الافرنجية،وآل الأمر بكثير منهم إلى الردة والخروج من الإسلام بالكلية)الإيضاح ٢٨.

قال ابن باز في رسالته نقد القومية العربية: (وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة) .

وقال أحمد شاكر عن حال المسلمين في هذا العصر في القرن الرابع عشر: (إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس كفر بواح لا خفاء فيه ولا عذر لأحد ممن ينسب إلى الإسلام كائنا من كان في العمل بها) . العمدة ٤/ ١٧٣ .

وقال احمد شاكر : (وما كنت يوما بالاحمق فأظن أن الحكومات في البلاد الإسلامية ستستجيب لحكم الإسلام فتقطع العلاقات السياسية مع الانجليز ... ولكن أريد أن أعرفهم بعواقب هذه الردة ...) كلمة حق ٨٧ .

٧- وفي أيامنا دخل الكثير في الردة من باب ناقض المظاهرة من أوسع أبوابها .

وذلك في مظاهرة القوات الأمريكية في حملتها الصليبية على المسلمين في حربها في العراق وأفغانستان ، فارتد بمظاهرتهم خلائق لا يحصيهم إلا الله، فحصلت الردة بعد الغزو الصليبي لبلاد الإسلام وأسموها الحملة على الإرهاب، فاستساغها كثير ممن لا خلاق له من المتنسبين للإسلام حتى جمع السقف الواحد المؤمن والمرتد.

قال حمود بن عقلا الشعيبي : (أما مظاهرة الكفار على المسلمين ومعاونتهم عليهم فهي كفر ناقل عن ملة الإسلام عند كل من يعتد بقوله من علماء الأمة قديماً وحديثاً ، - ثم أورد نقولات من كلام أهل العلم - وبناء على هذا فإن من ظاهر دول الكفر على المسلمين وأعانهم عليهم كأمريكا وزميلاتها في الكفر يكون كافراً مرتداً عن الإسلام بأي شكل كانت مظاهرتهم وإعانتهم ، لأن هذه الحملة المسعورة التي ما فتئ يدعو إليها المجرم بوش وزميله في الكفر والإجرام رئيس وزراء بريطانيا بلير والتي يزعمان فيها أنهما يحاربان الإرهاب هي حملة صليبية كسابقاتها من الحملات الصليبية ضد الإسلام والمسلمين فيما مضى من التاريخ) .

٩- كذلك هناك حوادث في قتل مرتدين زمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم.
قتل علي الرافضة الذين ألهوه .
قتل الجعد والجهم ومعبد وغيلان .
قتل الحلاج والسمهودي الزنادقة في خلافة العباسيين .

المسألة السابعة : الحكمة من إقامة حد الردة :

١- حفظ الدين .
٢- تعظيم الرب ﷻ وتعظيم دينه، وعدم الاستهانة بدينة.
٣- ردع أهل النفاق وضعاف الإيمان من الوقوع في الردة والاستهانة بالدين .
٤- إرجاع المرتد لحظيرة الإسلام إشفاقا عليه من الموت على الكفر.

الثامنة : الردة حد من الحدود :

ذهب أكثر العلماء إلى أن الردة حد من الحدود، وبعضهم لم يجعلها حدا مع إيجاب القتل فيها : فالحدود سبع وكلها راجعة للضرورات الخمس وهي :

١- القصاص في النفس وما دونها من الجروح ، لحفظ النفس.
٢- حد الزنا وما في حكمه من اللواط ، لحفظ النسب والنسل .
٣- حد القذف ، لحماية العرض .
٤- حد السرقة ، لحفظ المال .
٥- حد شرب المسكر ، لحفظ العقل .
٦- حد الحرابة لحفظ النفس والمال .
٧- حد الردة ، لحفظ الدين .

المسألة التاسعة: أقسام الكفر :

الأول : كافر أصلي .

الثاني : كافر مرتد.

فالكفر له حالان أصلي وردة.

المسألة العاشرة: المرتد أشد كفرا من الكافر الأصلي .

قال ابن تيمية : (فقد استقرت السُنة بأن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي) . الفتاوى ٢٨/ ٥٣٤ .

الحادية عشرة: متى يصير المرتد كافر أصليا :

من ولد من أبوين مرتدين فلا يقال عنه مرتد بل كافر أصلي وليس لنطقهم بالشهادتين فائدة ولا ينفعهم الانتساب للإسلام ، وقد حققنا هذه المسألة في موضعها، وبهذا يتبين أن الروافض كفار أصليون وليسوا بمرتدين.

المسألة الثانية عشرة: الفرق بين الكافر والمرتد :

الكافر يجوز أمانه وإعطاؤه الأمان والعهد والذمة ، فلا يجوز قتله حينئذ .

وهناك أحكام تخص الكتابي كالذمة ودفع الجزية .

أما المرتد فلا بد من قتله ولا يجوز أمانه ومعاهدته فليس له إلا التوبة والرجوع لدينه أو القتل .

المسألة الثالثة عشرة : أنواع الردة :

الردة تكون قوليه وعملية واعتقادية .

١- مثال الردة بالاعتقاد : بغض الدين أو الشك في البعث والحساب.

٢- مثال الردة بالقول : سب الدين ، ودعاء المخلوق .

٣- مثال الردة بالعمل : الذبح للجن والطواف بالقبور وتولي الكفار.

والعملية نوعان :

فعل: كالسجود للمخلوق وحرب أهل الدين والسحر.

وترك : كترك الصلاة وترك الحكم بالشريعة .

المسألة الرابعة عشرة : حالات الردة:

الأولى : ردة كلية :

وهي انتقال كلي عن الإسلام والرجوع عنه وتركه بالكلية .

كمن يترك الإسلام إلى النصرانية .

الثانية : ردة جزئية :
وتكون بفعل ناقض من نواقض الإسلام أو ترك ركن من أركانه.
والجهلة بالدين يظنون أن الردة والكفر فقط القسم الأول دون الثاني .
قال إسحاق بن راهويه : (وقد أجمع العلماء أن من دفع شيئاً أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر) نقله عنه ابن عبدالبر في التمهيد .
قال البربهاري في شرح السنة: (لا يخرج أحد من أهل القبلة من الإسلام حتى يرد آية من كتاب الله ﷻ أو يرد شيئاً من آثار الرسول ﷺ) .

المسألة الخامسة عشرة: ضلال الجهال حول حقيقة الردة وضابطها :

ضل من زعم أن المرتد هو فقط الذي يعزم على الكفر ويريده ويترك الإسلام بالكلية عمدا ، وهذا باطل فتارك الصلاة كافر والممتنع عن الزكاة كالذين كفرهم الصحابة كانوا يصلون ولم يريدوا ترك الإسلام ولم يظنوا أن عملهم يوقع في الردة .

المسألة السادسة عشرة : درجات الردة :

الأولى : الردة المغلظة .
الثانية : الردة المجردة.

المسألة السابعة عشرة: هل يوجد ردة كبرى وصغرى ؟

الردة ليس فيها ردة صغرى وردة دون ردة ، بل كلها كبرى مخرجة من الملة.
وهذا بخلاف الكفر والشرك والنفاق فمنها الأكبر والأصغر ، أما الردة فكلها من الكفر الأكبر .
ولكن فيها ردة مغلظة وردة مجردة وكلها مخرجة من الإسلام .

المسألة الثامنة عشرة : ضابط الردة المغلظة والمجردة:

المغلظة هي التي يقارنها قتال أو طعن في الدين أو حرب لأهله أو سخرية بهم أو إفساد في الأرض أو دعوة للكفر أو نشر له أو دفاع عنه أو صد عن سبيل الله وتشويه دينه أو تلبيس الحق بالباطل أو سب لله ورسوله ودينه، ويعد صاحب هذا الفعل من أئمة الكفر.
من أدلة الكفر المغلظ : قوله تعالى :﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ التوبة: ١٢ .

وجعل بعض العلماء تكرار الردة المجردة ونقض التوبة منها من الردة المغلظة التي لا يستتاب صاحبها مستدلين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ النساء: ١٣٧.

المسألة التاسعة عشرة: شروط اعتبار حكم الردة على المعين:

١- التكليف، بأن يكون فاعل الكفر بالغا عاقلا مختارا، فلا يكون مجنونا أو سكرانا أو طفلا أو مكرها.

٢- أن يكون الفعل كفرا صريحا غير محتمل ولا مشتبه، فلا يكون الفعل حمال أوجه يحتمل الكفر وغيره.

٣- أن يثبت بيقين وقوع المرتد المعين في هذا العمل الكفري.

٤- أن لا يوجد مانع يمنع من تكفيره.

فلا يكون صاحبه متأولاً أو جاهلاً بالحكم أو مخطئاً.

ولا يشترط أن يقصد الكفر وينوي الردة كما توهم البعض، فيكفر ولو لم يعلم أنه يكفر بهذا الفعل كما حصل من قصة المستهزئين في معركة تبوك حيث لم يكونوا يعلمون أن كلامهم كفر.

وقد بينا هذه الشروط في باب موانع التكفير وضوابطه وشروطه، ورددنا على من زعم اشتراط أن يقصد المرتد الكفر وينوي الردة ليحكم بتكفيره، وكذا من عذر المشرك بجهله وتأوله.

المسألة العشرون: من يقيم حد الردة:

الحدود يقيمها الإمام أو نائبه كالقاضي، فإن لم يكن ثمة إمام أو أن الحاكم لا يحكم بالشرع أقامها علماء البلد كما رجم الإمام محمد المرأة الزانية.

وقد حققنا في كتاب الانقياد كلام أهل العلم في إقامة الحدود خصوصا الردة لآحاد الرعية إذا ثبتت على المعين وخشي فوات إقامتها.

المسألة الحادية والعشرون: بم تثبت الردة:

١- الإقرار من المرتد نفسه بوقوعه في الردة.

٢- شهادة رجلين عدلين.

فإن أنكر فعند البعض لا يحكم عليه بها.

قال الشافعي في الأم: (من قيل أنه لا يصلي فأنكر صدق) إلا أنه يطالب بإقراره بما أنكر احتياطا ونطقه بالشهادتين.

٣- الاستفاضة بكلام مسموع أو مرئي أو مكتوب أو منقول عن ناقل ثقة.

المسألة الثانية والعشرون : حكم المرتد في الدنيا والآخرة :

المرتد كافر يجب قتله إذا لم يتب ويرجع إلى الإسلام، وتجري عليه أحكام الكفار فلا يحب ولا يوالى ولا يرث ولا يورث ولا يزوج وتسقط كل ولاياته ولا تؤكل ذبيحته ولا يؤم الناس ولا تصح الصلاة خلفه، ولا يصلى عليه إذا مات ولا يغسل ولا يقبر في مقابر المسلمين . وكل ما عمله من بر وخير وطاعة فيحبط .

المسألة الثالثة والعشرون : وجوب القيام بحكم الله في المرتدين :

أولاً بتكفيرهم وقتلهم بعد الاستتابة .

قال البربهاري في شرح السنة: (فإذا فعل - أي المرتد - شيئاً من ذلك فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام) .

ثانيا: مواجهة الردة بالجهاد بالعلم والقلم واللسان وبالتكفير وبيان وجه الردة وخطورتها وبالبدن والسنان بالقتال للمرتدين .

الرابعة والعشرون : كيفية توبة المرتد إذا أراد الرجوع للدين وشروط قبولها:

١- التوبة الصادقة .

٢- النطق بالشهادتين .

٣- إقراره بردته السابقة وتوبته منها صراحة .

٤- أن لا تكون ردته مغلظة وعمله مما لا تقبل فيه التوبة .

وعند بعض العلماء الغسل، وإعادة حجه على قول .

المسألة الخامسة والعشرون : آثار الردة :

الآثار المترتبة على التكفير والكفر والردة كثيرة وهي تنقسم إلى قسمين : دنيوية وأخروية .

الأول: الأحكام والآثار الدنيوية :

أعظمها الولاء والبراء والمعاداة، عصمة الدم والمال وهدرها، حق الولاية والطاعة والإمامة العظمى والإمامة في الصلاة وأحكام المناكحة والإرث والصلاة عليه والتغسيل والدفن والجهاد وأحكام الديار هذه كلها آثار تترتب على التكفير .

الثاني : الآثار الأخروية :

العذاب في النار والخلود فيها وحبوط الأعمال.

المسألة السادسة والعشرون : لا تلازم بين القتل والتكفير :

فقد يقتل من ليس بكافر كالمحارب والقاتل .
وقد يحرم قتل الكافر كالمعاهد والذمي والمرتد قبل استتابته على الصحيح.
المسألة السابعة والعشرون : أحكام المرتد الفقهية :
أولاً : نكاحه :
يبطل نكاح المرتد، وعلى زوجته أن تمتنع منه، وإن رضيت بكفره فهي مرتدة مثله، وقد قتل عبد الله بن الزبير زوجة المختار الثقفي لما امتنعت من تكفير زوجها.
ثانياً : ولد المرتد : تكفيره واسترقاقه :
- لا يكفر ولد المرتد بردة والده .
- لا يسترق إلا إذا ولد بعد ردة أبويه معا فيحكم بكفره ويسترق.
ثالثاً : أمواله: هل المرتد يملك ماله؟
أموال المرتد تغنم على الصحيح .
والدليل أخذ مال المرتد الذي نكح امرأة أبيه وكما فعل الصحابة مع المرتدين .
والأموال التي أخذت منه وقت ردته وغنمت منه لا ترجع إليه .
وقيل ترجع أمواله إليه إن أسلم.
رابعاً : إرثه وتوريثه : المرتد لا يرث ولا يورّث مطلقاً.
فلو ارتد مسلم فإنه لا يرث ولو مات فلا يرثه ولده .
كما لو أسلم رجل ورجع لدينه فإنه لا يرث والده الكافر ولا يورثه.
عملاً بعموم قوله ﷺ : (لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم) رواه البخاري. وقوله :(لا يتوارث أهل ملتين شتى) رواه أحمد وأبو داود.
وما انحرم منه من الميراث لا يعاد له فلو مات ولده أو والده وهو مرتد لحظة موته سقط ميراثه منه ولو تاب بعد موته بيوم واحد أو بساعة لما جاز له أن يرثه .
خامساً : معاملاته المالية وعقوده : كبيعه ووكالاته وهباته.
اختلف أهل العلم هل تصح أم لا أم أنها موقوفة بتوبته.
سادساً : ولايته على ولده ونكاح بناته تسقط .
سابعاً : إمامته باطلة ، ومن صلى خلفه فيعيد علم بردته أم لا.
وإذا لم يجد المسلم في الجمعة إلا إماما مرتدا فإنه يصلي خلفه ويعيد .
قال الإمام أحمد : (من قال ذلك لا يصلى خلفه الجمعة ولا غيرها ، إلا أنا لا ندع إتيانها ، فإن صلى خلفه أعاد) السنة والإبانة .

قال البربهاري في شرح السنة : (إن كان إمامك يوم الجمعة جهميا وهو سلطان فصل خلفه وأعد صلاتك) .

وكان يحي بن معين يعيد صلاة الجمعة أربعين سنة وذلك حين ظهور الجهمية علي يد المأمون .

ثامناً : ولايته وبيعته إن كان حاكما تبطل .

تاسعاً : عقد الصلح مع المرتد :

يجوز إن كان له شوكة ولم يستطع المسلمون دفع شره .

عاشراً :جنايات المرتد :

– لو قتل وسرق وزنا وهو مرتد ثم تاب أخذ بكل جناياته على الصحيح .

– يضمن المرتد ما أتلفه قبل إسلامه وبعده. انظر أحكام أهل الملل للخلال .

إحدى عشرة : الجناية على المرتد :

– لو جنى مسلم على المرتد فلا يقتص منه، لكن يعزر المسلم.

– لو قذف المرتد أحد فلا يحد وقيل يحد إذا ترتب عليه حق للغير.

– لو قتل المرتد فدمه هدر وليس لأوليائه طلب القصاص والدية .

– من أتلف مال المرتد فإنه يضمنه لأنه مملوك له أو لبيت مال المسلمين.

اثنا عشرة : تعزيره بعد إسلامه :

يجوز تعزير المرتد إذا تاب ورجع للإسلام عقوبة على ردته وردع لغيره.

ثلاث عشرة : لو تاب المرتد ورجع لدينه وأسلم مرة أخرى هل يلزمه إعادة حجه أم لا ؟ قولان للسلف في ذلك والأحوط أن يعيده .

أربع عشرة : سبي ولد المرتد ونسائه محل خلاف بين أهل العلم وستأتي.

خمس عشرة : المرتد لا يسبى ولا يجوز أن تؤخذ منه فدية أو جزية بل يقتل أو يسلم، كالوثني.﴿ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ ﴾ الفتح: ١٦.

المسألة الثامنة والعشرون : ردة المجنون :

المجنون لا يتصور منه ردة فلو فعل كفرا لا نكفره لأنه غير مؤاخذ .

والدليل : حديث (رفع القلم عن ثلاثة) ، فالمجنون والطفل لا يعتبر منه ناقض ولا يحكم بردته لو قال كفرا أو فعله لذهاب الأهلية وهي العقل والبلوغ .

المسألة التاسعة والعشرون : جنون المرتد :

إذا جن المرتد وحصل له جنون بعد ردته فلا يزول عنه حكم الردة والتكفير .

المسألة الثلاثون : حكم المرأة المرتدة :

المرأة تقتل كالرجل لعموم حديث (من بدل دينه فاقتلوه) .

وأما نهي النبي ﷺ عن قتل النساء، فالمقصود الكافرة الأصلية لا المرتدة .

كما يدل على وجوب قتلها مارواه البيهقي والدارقطني : أن أبا بكر استتاب امرأة يقال لها أم قرفة كفرت بعد إسلامها فلم تتب فقتلها .

وكذا أمر النبي ﷺ بقتل الجاريتين اللتين كانتا تغنيان بهجوه يوم فتح مكة .

قال الإمام أحمد كما في أحكام أهل الملل للخلال : (إذا ارتدت استتيبت فإن تابت وإلا قتلت، ومن الناس من يحتج بنهي النبي ﷺ عن قتل النساء وذاك غير ذا ليس هو في ذا في شيء) .

قال ابن قدامة في المغني : (أما نهي النبي ﷺ عن قتل المرأة فالمراد بها الأصلية).

المسألة الحادية والثلاثون : سبي نساء المرتدين وذراريهم :

الصحيح أن المرأة المرتدة تقتل ولا تسبى إلا إن كانت تحت طائفة مقاتلة ممتنعة فتسبى ولا تقتل، إذ يفرق بين حكم المرتد المعين والطائفة المرتدة الممتنعة ذات الدار والشوكة، في سبي الذرية والاستتابة وغيرها من أحكام . وإليك كلام أهل العلم :

قال أبو يوسف في كتاب الخراج ص ٦٧ في فصل الحكم في المرتدين إذا حاربوا ومنعوا الدار : (ولو أن المرتدين منعوا الدار سبي نساؤهم وذراريهم وأجبروا على الإسلام كما سبى أبو بكر ﷺ ذراري من ارتد من العرب من بني حنيفة وغيرهم ، وكما سبى علي بن أبي طالب ﷺ بني ناجيه موافقة لأبي بكر، ولا يوضع عليهم الخراج ، وإن أسلموا قبل القتال وقبل أن يظهر عليهم حقنوا دماءهم وأموالهم وامتنعوا من السبي ، وان ظهر عليهم فأسلموا حقنوا الدماء ومضى فيهم حكم السباء على الصبيان والنساء وأما الرجال فأحرار لا يسترقون ... وليس على الرجال من أهل الردة ولا من عبدة الأوثان سبي ولا جزية إنما هو القتل أو الإسلام وكل من كان عليه القتل أو الإسلام فظهر الإمام على دارهم سبى الذراري وقتل الرجال وقسمت الغنيمة ، وإن ترك الإمام السباء والأموال فهو في سعة) .

قال أبو يعلى: (فإن انحازوا في دار ينفردون بها عن المسلمين حتى صاروا ممتنعين نحو بلد القرمطي وجب قتالهم على الردة ويقاتلون قتال أهل الحرب مقبلين ومدبرين ولا يجوز أن يسترق رجالهم، وتغنم أموالهم وتسبى ذراريهم الذين حدثوا بعد الردة) الأحكام السلطانية ص:٥٢.

قال ابن قدامة: (ومتى ارتد أهل بلد وجرت فيه أحكامهم ، صاروا دار حرب في اغتنام أموالهم وسبي ذراريهم الحادثين بعد الردة، وعلى الإمام قتالهم، فإن أبا بكر الصديق ﷺ قاتل أهل الردة بجماعة الصحابة، ولأن الله تعالى قد أمر بقتال الكفار في مواضع من كتابه، وهؤلاء أحقهم بالقتال لأن تركهم ربما أغرى أمثالهم بالتشبه بهم والارتداد معهم فيكثر الضرر بهم، وإذا قاتلهم قتل من قدر عليه، ويتبع مدبرهم ويجهز على جريحهم وتغنم أموالهم وبهذا قال الشافعي). المغني ١٠/ ٩٠.

قال ابن تيمية : (النصيرية مرتدون من أسوء الناس ردة تقتل مقاتلتهم وتغنم أموالهم ، وسبي الذرية فيه نزاع وأكثر العلماء على السبي وهذا الذي دلت عليه سيرة الصديق في قتال المرتدين) . الفتاوى ٢٨/ ٥٥٣ .

وقال أيضا عنهم: (تسبى نساؤهم فإنهم زنادقة مرتدون، لا تقبل توبتهم بل يقتلون أينما ثقفوا) ٣٥/ ١٦٢ .

قلت : وهذا هو الصحيح والصحابة لم يفرقوا بين من ولد قبل الردة ومن ولد بعدها في الاسترقاق.

والأصل في سبي نساء المرتدين المحاربين فعل أبي بكر ﷺ بنساء المرتدين وسبيه لهن ولا عبرة بمن زعم خلاف ذلك .

كما سبا علي ﷺ نساء بني ناجية لما ارتدوا. أخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي.

عليه فلا يسلّم لابن قدامة قوله: (الرق لا يجري على المرتد رجلاً كان أو امرأة وسواء لحق بدار الحرب أو أقام بدار الإسلام.وقال أبو حنيفة إذا لحقت المرتدة بدار الحرب جاز استرقاقها ، لأن أبا بكر سبى بني حنيفة واسترق نساءهم .

ولنا قول النبي ﷺ : (من بدل دينه فاقتلوه) ، ولأنه لا يجوز إقراره على كفره فلم يجز استرقاقه كالرجل، ولم يثبت أن الذين سباهم أبو بكر كانوا أسلموا ولا ثبت لهم حكم الردة ، فإن قيل فقد روي عن علي أن المرتدة تسبى ، قلنا هذا الحديث ضعيف ضعفه أحمد) المغني:١٠/ ٨٩.

فكلام ابن قدامه هنا لا يوافق على جميعه فهناك فرق بين المرتدة المعينة ونساء الطائفة المرتدة الممتنعة المقاتلة وهو ما نقلناه عنه آنفا، والقول الذي نسبه لأبي حنيفة هو الصواب وهو الموافق لعمل الصحابة .

أما قول ابن القيم: (أن خلاف عمر لأبي بكر أشهر من أن يذكر كخلافه في سبي أهل الردة فسباهم أبو بكر وخالفه عمر وبلغ خلافه إلى أن ردهن حرائر إلى

أهلهن إلا من ولدت لسيدها منهن، ونقض حكمه، ومن جملتهن خولة بنت إياس الحنفية أم محمد بن علي) إعلام الموقعين ٢/ ١٦٥.

فهذا على رأي بعض العلماء ممن يرى أن الصحابة اختلفوا في سبي نساء المرتدين لكن الصحيح أنهم اتفقوا على جوازه ولم ينفرد أبو بكر بذلك فقد ثبت أن علياً استرق نساء بني ناجية حين ارتدوا، أما رد عمر السبايا فهو لا يدل على أنه لا يراه وهذا ما ذهب إليه ابن تيمية حيث قال في منهاج السنة ٦/ ٣٤٩: (ولكن من الناس من يقول: سبا أبو بكر نساءهم وذراريهم، وعمر أعاد ذلك عليهم . وهذا إذا وقع ليس فيه بيان اختلافهما، فإنه قد يكون عمر كان موافقا على جواز سبيهم، لكن رد إليهم سبيهم، كما رد النبي ﷺ على هوازن سبيهم بعد أن قسمه بين المسلمين).

عليه فلولاة الأمر الرأي في ذلك فيجوز لهم فعله إذا رأوا المصلحة فيه.

المسألة الثانية والثلاثون : ردة الحاكم :

قال النووي في شرحه لمسلم قال القاضي عياض : (أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل . وقال : فلو طرأ عليه الكفر، خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عدل فإن لم يقع إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر ، فإن تحققوا العجز لم يجب القيام وليهاجر المسلم عن أرضه إلى غيرها ويفر بدينه) .

وقال ابن حجر: (ومن عجز وجبت عليه الهجرة) فتح الباري ١٣/ ١٢٣.

وقال صديق حسن : (إذا كفر الخليفة حل قتاله بل وجب ، لأنه فاتت مصلحة نصبه بل يخاف مفسدته على القوم فصار قتاله من الجهاد) الإمامة ١٢٤.

وخرج أحمد بن نصر الخزاعي على المأمون لما أرتد وأخذ بقول الجهمية فقتله، فأثنى أحمد عليه بقوله: (رحمه الله ما أسخاه لقد جاد بنفسه له) ابن كثير ١٠/ ٣٠٣ .

وردة الحاكم ردة لعسكره وجنوده المناصرين لردته والمثبتين للكفر المدافعين عنه ، دون بقية رعيته المحكومين إلا أن يظهروا الرضا بكفره، وأنصار المرتدين وأعوانهم لايشترط في تكفيرهم قيام الحجة في حَقِّهم لكونهم ممتنعين بشَوْكَةِ الحاكم المرتد وسلطانه، والمُمتنع بشوكة وقوة وكذا من لحق بدار الحرب حكمهم غير حكم المقدور عليه ممن يكون في قدرة المسلمين ويمكن إقامة حكم الله فيه ، عليه فجنود الكفرة حكمهم كحكم رؤوسهم ، لاشتراكهم في الكفر والإفسَاد ولأنهم سبب

تثبيت حكم الكافر، وهم أعوانه في الكفر وأنصاره في حرب الدين، والله ﷻ عامل جنود فرعون نفس معاملته فأهلكه وجنوده.

وقد قاتل الصحابة ﷺ جيوش المرتدين ومن كان تحت رؤوسهم وجندياً لهم.

المسألة الثالثة والثلاثون : حكم المرتد الذي له شوكة والطائفة الممتنعة :

يفرق بين حكم المرتد المعين والطائفة المرتدة الممتنعة ذات الدار والشوكة، في سبي الذرية والاستتابة وغيرها من أحكام . وإليك كلام أهل العلم :

قال أبو يوسف في كتاب الخراج ص ٦٧ في فصل الحكم في المرتدين إذا حاربوا ومنعوا الدار : (ولو أن المرتدين منعوا الدار سبي نساؤهم وذراريهم وأجبروا على الإسلام كما سبى أبو بكر ﷺ ذراري من ارتد من العرب من بني حنيفة وغيرهم ، وكما سبى علي بن أبي طالب ﷺ بني ناجيه موافقة لأبي بكر، ولا يوضع عليهم الخراج ، وإن أسلموا قبل القتال وقبل أن يظهر عليهم حقنوا دماءهم وأموالهم وامتنعوا من السبي ، وان ظهر عليهم فأسلموا حقنوا الدماء ومضى فيهم حكم السباء على الصبيان والنساء وأما الرجال فأحرار لا يسترقون) .

قال أبو يعلى: (فإن انحازوا في دار ينفردون بها عن المسلمين حتى صاروا ممتنعين وجب قتالهم على الردة ويقاتلون قتال أهل الحرب مقبلين ومدبرين ولا يجوز أن يسترق رجالهم، وتغنم أموالهم وتسبى ذراريهم الذين حدثوا بعد الردة) الأحكام السلطانية ص:٥٢.

قال ابن قدامة في المغني: (ومتى ارتد أهل بلد وجرت فيه أحكامهم ، صاروا دار حرب في اغتنام أموالهم وسبي ذراريهم الحادثين بعد الردة، وعلى الإمام قتالهم) .

ولنا رسالة في حقيقة الطائفة الممتنعة وأحكامها وبيان كفرها ووجوب قتالها.

المسألة الرابعة والثلاثون : حقيقة الاستتابة لمن وقع في الكفر ووجوبها :

تعريف الاستتابة :

هي أن يطلب ممن وقع في الكفر التوبة ويبين له أنه سيقتل إن لم يرجع ويتب .

حكمها : اختلف أهل العلم في حكم الاستتابة :

فذهب الجمهور لوجوب استتابة المرتد فإن تاب وإلا قتل .

وذهب إلى الاستحباب وعدم الوجوب جماعة .

وأنكر عمر على أبي موسى الأشعري تركه الاستتابة.

قال عمر : (هلا حبستموه ثلاثا وأطعمتموه كل يوم رغيفا واستتبتموه لعله يتوب) رواه مالك وعبد الرزاق والبيهقي.

وقد استتاب ابن مسعود ﷺ قوما ارتدوا . رواه أحمد .

وثبتت الاستتابة عن عثمان وعلي ومعاذ وغيرهم من الصحابة.

كما يستدل لها: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ التوبة: ٥.

قال النووي في شرحه لمسلم : (وقد أجمعوا على قتل المرتد واختلفوا في استتابته هل هي واجبة أو مستحبة ، وفي قدرها وفي قبول توبته) .

المسألة الخامسة والثلاثون : المرتد الذي يقتل ولا يستتاب :

الضابط : كل من كانت ردته مغلظة .

كساب الله ﷻ والرسول ﷺ .ومثله الزنديق والساحر ومظاهر الكفار .

فهذه المكفرات يكفر فاعلها ويقتل مطلقا دون استتابة.

ويدل لهذا فعل الرسول ﷺ مع بعض المرتدين وفعل الصحابة كذلك قتلوا وكفروا دون استتابة لبعض المرتدين دون نكير وذلك لكون ردتهم مغلظة .

قال الإمام أحمد : (الزنديق لا يستتاب) أحكام أهل الملل للخلال ٤٥٩ .

قال ابن تيمية : (ويفرق في المرتد بين الردة المجردة فيقتل إلا أن يتوب وبين الردة المغلظة فيقتل بلا استتابه) الفتاوى ٢٠/ ١٠٣ والصارم .

السادسة والثلاثون : أنواع النواقض من ناحية ما يحتاج لقيام حجة واستتابة :

الأول: النواقض التي يقتل صاحبها مطلقا ولا يستتاب ومنها :

سب الله ورسوله والساحر وصاحب الردة المغلظة إذا قدر عليه قبل التوبة .

الثاني: النواقض التي لا تحتاج لقيام حجة في التكفير لكن لا يقتل فاعلها إلا بعد الاستتابة . وهي الشرك والجهل بالله.

الثالث: النواقض التي تحتاج لقيام حجة في التكفير والقتل كإنكار بعض الصفات أو بعض الملائكة أو بعض المحرمات .

السابعة والثلاثون :هل التكفير أو الردة تكون قبل الاستتابة أو بعدها :

الاستتابة نوعان :

الأولى: استتابة متعلقة بالقتل، وهذه تكون بعد التكفير والحكم بالردة.

فالمرتد والواقع في الكفر الصريح يكفّر ثم يستتاب فالاستتابة تأتي بعد التكفير، وهذا في مسائل الشرك وعبادة غير الله ونحوها .

قال عبدالله أبا بطين مفتي نجد عن مذهب الفقهاء في المرتد : (فمن ارتد عن الإسلام قتل بعد الاستتابة ، فحكموا بردته قبل الحكم باستتابته فالاستتابة بعد الحكم بالردة والاستتابة إنما تكون لمعين) الدرر ١٠/ ٤٠٢ .

الثانية: استتابة متعلقة بالتكفير وهي التي تكون قبل التكفير فيستتاب فإن تاب وإلا كفّر وقتل معا، وهذا يكون في حق حديث العهد بالكفر والجاهل إذا كان في المسائل الخفية غير أصل الدين . كالصفات وجحد الواجب واستحلال المحرم .

قال ابن تيمية في الذين استتابهم عمر في شرب الخمر: (يستتابون وتقوم عليهم الحجة فإن أصروا كفروا حينئذ، ولا يحكم بكفرهم قبل ذلك كما لم يحكم الصحابة بكفر قدامة بن مضعون) الفتاوى ٧/ ٦١٠ .

وقال: (فإن من نشأ ببادية أو كان حديث عهد وفعل شيئا من المحرمات غير عالم بتحريمها لم يأثم ولم يحد وإن لم يستند في استحلاله لدليل) رفع الملام٥٦.

وقال ابن فرحون في تبصرة الحكام : (وأجمع أهل العلم أن المسلم إذا ارتد أنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل) .

النوع الثالث من المكفرات، ما يكفر فاعلها ويقتل مطلقا دون استتابة وتقدم.

مسألة :حكم إقامة الحدود وقتل المرتد من آحاد الرعية إذا عطلها الحاكم :

يجب تكفير المرتد والمنافق إذا أظهر كفره، خصوصاً المستهزئ بالدين والرسول ﷺ فإن هذا أمر واجب على كل مسلم لأن ذلك من التوحيد .

أما إقامة حد الردة عليه فتكون بعد استتابته، ولكن لا يقيم الحدود إلا إمام المسلمين أو نائبه كالقاضي ونحوه .أما إن عطلها الحاكم جاز لآحاد الرعية إقامتها.

الجواب عن شبهة (أن الحدود لا يقيمها إلا الإمام أو نائبه) :

قال ابن تيمية مجيباً عن هذه الشبهة:(وجوابه من وجوه :

أحدها : أن السيد له أن يقيم الحد على عبده بدليل قوله ﷺ :" أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم " رواه أبو داود وغيره وقوله :" إن زنت أمة أحدكم فليجلدها " رواه البخاري، ولا أعلم خلافاً بين الفقهاء أن له أن يقيم عليه الحد .

الثاني: أن هذا وإن كان حداً فهو قتل حربي أيضاً فصار بمنزلة قتل حربي تحتم قتله وهذا يجوز قتله لكل أحد وعلى هذا يحمل قول ابن عمر في الراهب الذي قيل له إنه يسب النبي ﷺ فقال لو سمعته لقتلته .

الثالث: أن مثل هذا قد وقع على عهد رسول الله ﷺ مثل المنافق الذي قتله عمر بدون إذن النبي ﷺ لما لم يرض بحكمه فنزل القرآن بإقراره ومثله بنت مروان التي قتلها ذلك الرجل حتى سماه ﷺ ناصراً لله ورسوله) الصارم المسلول ص٥١٩.

وانظر إلى كلام ابن تيمية أيضا في جواز قيام الرعية ببعض شؤون السياسة مستدلا بفعل الصحابة وأنها لا تختص بالأمير (وإن قلتم ليست مشروعة لنا فهذه مخالفة للسنة ، ثم قولهم سياسة فهم يساسون بشريعة الإسلام) الفتاوى ٢٠/ ٣٩١ .

قيام بعض الصحابة ببعض الحدود :

قتل عمر ﷺ للذي طلب حكمه بعد حكم الرسول ﷺ .

قتل جندب بن كعب الغامدي ﷺ الساحر في مجلس الوليد زمن عثمان ﷺ .

قول ابن عمر ﷺ لما مر براهب وقيل أنه يسب النبي ﷺ : لو سمعته لقتلته وأصلت السيف عليه فأنكر الراهب . رواه الخلال في أحكام أهل الملل .

وقوله أيضا لما أخبر بساحر أين جنادبة الأزد لا يقتلونه يشير إلى جندب الغامدي الذي قتل الساحر.

قتل حفصة للساحرة .

قتل الأعمى جاريته اليهودية لما سبت الرسول ﷺ وأهدر الرسول ﷺ دمها .

أراد ابن عمر قتال الخوارج وحث الناس دون إذن الإمام رواه ابن ابي شيبة.

وغيرها من الحوادث الكثيرة من أصحاب الرسول ﷺ في قتل المرتدين .

كما أنها حصلت محاولة قتل رؤوس المبتدعة من أئمة أهل العلم :

قال يزيد بن هارون ٢٠٦هـ : (لقد حرضت أهل بغداد على قتل المريسي جهدي غير مرة) . خلق أفعال العباد للبخاري ٤٤ والرد على الجهمية ٢٠٥.

قال أبو بكر بن خلاد الباهلي : كنت عند سفيان بن عيينة ، إذ أقبل بشر المريسي فتكلم بذاك الكلام الردي فقال ابن عيينة : اقتلوه . تاريخ بغداد ٧/ ٦٥ .

وفي هذه النصوص عن سلفنا مسألة متقررة عندهم وهي أن المرتد البينة ردته والظاهر إفساده يجوز قتله من أفراد الرعية إذا كانوا من أهل العلم والبصيرة إذا لم يقم الحاكم حد الردة عليه ، خلافاً لما توهمه الكثير من زعمهم أنه لا يجوز إقامتها مطلقاً وأن ذلك من الإفتئات.

فصل : الشبهات في باب الردة وقتل المرتد

الشبهة الأولى: الاستدلال بآية : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ البقرة: ٢٥٦ ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ يونس: ٩٩ ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ الكهف: ٢٩ .

أولاً : أن هذه الآيات منسوخة بآيات القتال كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ التوبة: ٥ ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ ﴾ الفتح: ١٦.

ثانياً : أن هذه الآيات خاصة بأهل الكتاب مع دفع الجزية، والآية في الكافر الأصلي أما المرتد فيجبر على الرجوع لدينه فلا إكراه وإنما إعادة له وكف لغيره .

ثالثاً : أن الآيات في سياق التهديد والوعيد كما قال ابن عباس عند الطبري.

رابعا: أن المرتد بردته طعن في الدين فاستوجب القتل حدا وعقوبة وهو بفعله قد ثار على الدين وقدح فيه وأثار الشبهة حوله وأظهر أنه لا يصلح التدين به والبقاء عليه وغيره خير منه فحكم الردة ليس من الإكراه.

خامسا: أن حكم الردة ثابت في النصوص القطعية كما تقدم .

الثانية : زعمهم أنه جاء الاعتراف بدين الكفار في آية : ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾.

والجواب أن سورة الكافرون اقتضت البراءة من الكفار وليس معنى لكم دينكم إقرارهم على كفرهم كما أنها لا تقبل النسخ أصلا لأن معاداة الكفار والبراءة منهم من أصول الدين التي اتفقت عليها جميع الرسل وأن هذا المقصود من الآية.

قال ابن تيمية : (وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين ولا أهل الكتاب كما يظنه بعض الملحدين ، ولا أنه نهى عن جهادكم وجعلوها منسوخة بل فيها براءته من دينهم وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ) الجواب الصحيح ٢/ ٣٠.

قال ابن القيم : (تشمل هذه السورة النفي المحض فإنها سورة براءة من الشرك ومقصودها الأعظم البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة، وهذه مسألة شريفة من أهم المسائل وقد غلط خلائق وظنوا أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم أو أنها مخصوصة بمن يقر على دينه وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض ، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص بل هي محكمة بل ويستحيل دخول النسخ فيها فإن أحكام التوحيد التي انقضت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبدا بل لم يزل الرسول ﷺ في أول الأمر أشد على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه

وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة وإن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدا فإنه دين باطل) البدائع ١/ ٣٨.

الثالثة: زعمهم أن الردة ترك الإسلام بالكلية .

أن الردة تكون بفعل وقول واحد كما حصل من الذين قالوا كلمة في غزوة تبوك وكفروا بها وهم من الصحابة المجاهدين ، وقد قرر أهل العلم نواقض وأفعال الردة ونصوا على أن المسلم يكفر بفعل واحدة منها.

كذالك يبطل قولهم أن الرسول ﷺ قتل الذي نكح امرأة أبيه مرتدا لأجل فعل واحد وهو زواج امرأة محرمة عليه.

الرابعة: الردة هي الرجوع وليست الكفر بعد الإيمان.

تقدم الرد على هذه في الأدلة المصرحة بكفر المرتد .

الشبهة الخامسة: القتل خاص بالمرتد المحارب لحديث (التارك لدينه).

أولاً : ليس الحديث خاص بالمحارب بل الحرب صفة زائدة.

ثانياً : ثم أن أدلة قتل المرتد ليست هذا الحديث فقط.

ثالثاً : أن الصحابة ﷺ كفروا مانعي الزكاة قبل قتالهم، وفي الصحيحين قولهم: (لمّا مات النبي ﷺ وارتدت العرب قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس). وبهذا يتبين خطأ من قال الصحابة لم يكفّروا المرتدين إلا بعد القتال.

السادسة: الرسول ﷺ لم يفعل حد الردة .

وهذا باطل بل ثبتت السنة الفعلية به ، وذكرنا من قتله النبي ﷺ لردته.

السابعة: الرسول ﷺ لم يقتل المنافقين .

والجواب عنها في كتاب النفاق وأحكام المنافقين.

الثامنة: لم يقم الرسول ﷺ حد الردة على الذين قالوا : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ ﴾ آل عمران: ٧٢ .

الجواب: أن الآية ليست في المرتدين وإنما هي في كفار تظاهروا بالإسلام وليست في مسلم كفر .

التاسعة: قالوا: إن شروط صلح الحديبية والذي جاء فيه (أنه من جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه) فلو كان المرتد يقتل لما كان الرسول ﷺ ليتركه .

الجواب:أن هذا في أهل الحرب، ولحوق المرتد بأهل الحرب وهذا له أحكام.

ومما يبطل هذا الاستدلال إهدار النبي ﷺ لدم بعض من ارتد، كعبد الله ابن أبي السرح وابن خطل لما ارتد وصار إلى قريش بمكة.

الشبهة العاشرة : استدلالهم بقصة الأعرابي الذي بايع الرسول ﷺ على الإسلام فأصاب الأعرابي وعك بالمدينة فجاء إلى الرسول فقال: يا رسول الله أقلني بيعتي فأبى، ثم جاءه فقال أقلني بيعتي فأبى، فخرج الإعرابي فقال ﷺ : (المدينة كالكير تنفى خبثها وينصع طيبها) رواه البخاري .

الجواب: أن البيعة التي طلب الأعرابي إقالته منها بيعة الهجرة وليس أن يترك الإسلام ، وهل يعقل أن يساوم النبي ﷺ في ترك دينه ويتركه ويعده مسلما مع إرادته ترك الإسلام .

وما يدل على أن المقصود بالبيعة على الإسلام هنا البيعة على الهجرة ما جاء عند الإمام أحمد في مسنده عن جابر أنه قال: جاء إلى رسول الله ﷺ رجل من الإعراب فأسلم فبايعه على الهجرة فلم يلبث أن حم فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أقلني فقال: لا، ثم أتاه فقال: أقلني فقال: لا أقيلك، ثم أتاه فقال أقلني فقال: لا، ففر فقال النبي ﷺ (المدينة كالكير تنفى خبثها وينصع طيبها).

وبهذا تحمل اللفظة التي في البخاري على اللفظ الذي عند أحمد ويفسره .

الحادية عشرة : استدلالهم بقول عمر ﷺ في نفر من بني بكر بن وائل ارتدوا ولحقوا بالكفار : (كنت عارضا عليهم الباب الذي خرجوا منه أن يدخلوا فيه فإن فعلوا ذلك قبلت منهم وإلا استودعتهم السجن) رواه الصنعاني والبيهقي .

الجواب: إن قول عمر ﷺ في هؤلاء ليس فيما استدلوا به فهو متعلق بالمرتد المحارب، وللمرتد المحارب غير المقدور عليه أحكام مختلفة.

ثم إنه ليس في قول عمر ﷺ عدم قتل المرتد بل الثابت عنه قتل المرتد ويدل له: رسالته لابن مسعود، لما أخذ قوما ارتدوا عن الإسلام من أهل العراق، فكتب فيهم إلى عمر فكتب إليه: (أن اعرض عليهم دين الحق وشهادة أن لا اله إلا الله، فإن قبلوها فخل عنهم، وإن لم يقبلوها فاقتلهم، فقبلها بعضهم فتركه، ولم يقبلها بعضهم فقتله)رواه عبدالرزاق الصنعاني في مصنفه.

ولما كتب عمرو بن العاص إلى عمر أن رجلا يبدل بالكفر بعد الإيمان فكتب إليه عمر بن الخطاب (استتبه فإن تاب قبل منه وإلا ضربت عنقه).رواه الصنعاني .

وروى الإمام مالك في موطئه والشافعي في مسنده والبيهقي في سننه (أنه قدم على عمر بن الخطاب رجل من قبل أبي موسى الأشعري؛ فسأله عن الناس فأخبره؛ ثم قال عمر: هل كان فيكم مغربه خبر فقال: نعم رجل كفر بعد إسلامه قال: فما فعلتم به؟ قال: قربناه فضربنا عنقه؛ فقال: عمر أفلا حبستموه ثلاثا وأطعمتموه كل يوم رغيفا واستتبتموه لعله يتوب؛ ويراجع أمر الله؟ ثم قال عمر: اللهم أني لم احضر ولم أرضَ إذ بلغني). وهذه الرواية تبين لك رأي عمر في المرتد أنه يستتاب ثلاثا ومن بعدها يقام عليه الحد إن لم يتب.

الثانية عشرة: اعتراضهم على الإجماع على قتل المرتد بما ورد من خلاف إبراهيم النخعي والثوري، قال إبراهيم في المرتد: يستتاب أبدا. وقال سفيان هذا الذي نأخذ به. أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق .

الجواب: أنه لا عبرة بمخالفة أحد ما دام الأمر ثابتا في السنة وانعقد عليه إجماع الصحابة.

ثم إن الثابت عن إبراهيم خلاف ذلك فقد بوب البخاري في الصحيح: (باب حكم المرتد والمرتدة وقال ابن عمر والزهري وإبراهيم: تقتل المرتدة).

كما أن هناك روايات فسرت أبدا في الرد على من قصر الاستتابة على بعض الحالات وليست في ترك القتل: (يستتاب المرتد كلما ارتد) ، (يستتاب المرتد كان أصله مسلماً أو مشركاً أسلم ثم ارتد).

الشبهة الثالثة عشرة: قولهم : إن تخيير المرتد بين الإسلام أو القتل ليرجع إلى الإسلام هو إيمان مكره ومجبر ومضطر تحت تهديد السيف ولا يصح إيمان المكره.

الجواب: أن هذه معارضة للسنة بالعقل. ثم إن هذا من الإكراه بحق كما بين ذلك العلماء ، كما أن في ذلك منع من إظهار الكفر ورد لغيره .

ثم ماذا سيقولون بقول النبي ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) متفق عليه . أليس هذا إكراه وإذا كان هذا في الكافر الأصلي وأنه لن يعصم دمه إلا الدخول في الإسلام فقتال المرتد حتى يرجع لدينه أولى.

انتهت شبهات القوم مما وقفت عليه منها ، وهي على قسمين منها ما فيه إنكار للردة وتكفير المرتد والناس أحرار ولا إكراه في الدين، ومنها ما تنكر حد الردة فقط وقتل المرتد دون تكفيره.

الكتاب الثامن : التكفير

حقيقته ومسائله وأحكامه وضوابطه

الفصل الأول : حقيقة التكفير

تنبيه : يرجع مبحث التكفير لباب الأسماء والأحكام .

المسألة الأولى : تعريف التكفير :

إلحاق اسم الكفر بفاعل الكفر وتسميته كافرا مرتدا، وإيقاع الحكم على من قام بالمكفر والناقض.

المسألة الثانية : الفرق بين الكفر والتكفير والردة :

الردة فعل الكفر من المسلم .

والتكفير هو إن يحكم على من وقع في الكفر والردة بأنه كافر .

والردة خاصة بالمسلم، بينما الكفر منه ما هو أصلي ومنه الطارئ من المسلم وهي الردة .

فالتكفير هو الحكم بردة المعين أو الكافر الأصلي.

والحكم بالردة مرادف للتكفير.

والكفر سبب الردة والتكفير.

كما أنه قد يوجد الكفر دون الحكم بالردة والتكفير ، وذلك إذا وجد مانع أو تخلف شرط كفعل الكفر جهلا أو إكراها .

والردة والنواقض لا تكون صغرى بخلاف الكفر .

المسألة الثالثة : الكفر ضد الإسلام وضد التكفير الحكم بالإسلام .

المسألة الرابعة : ألفاظ التكفير:

هناك فرق بين قولنا فلان وقع في الكفر وبين قولنا هو كافر فالتكفير الثاني.

وقولنا فلان وقع في الردة غير قولنا وقع في الكفر أو تلبس بناقض وارتكب مكفرا، فالأول تكفير والثاني ليس تكفيراً له وإنما هو تكفير بالعموم ومطلق .

فقولنا فلان وقع في الردة وفلان مرتد هما بمعنى واحد .

الخامسة: الأدلة على وجوب تكفير المشركين وعلى كفر من لم يكفر المشركين :

١- قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ الكافرون: ١.

٢- قال تعالى: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ الممتحنة: ٤.

٣- قال ﷻ: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾.

٤- الأدلة التي نصت على وجوب إعلان التكفير والشهادة عليه، وأن الله أوجب البراءة من المشركين ومن معبوداتهم وشركهم .

٥- الأدلة الحاكمة بكفر الكفار وتكفيرهم فلا يجوز ترك حكم الله .

٦- الأدلة الحاكمة ببطلان كل دين غير الإسلام وكفر أتباعه.

٧- الأدلة على كفر المرتد وتكفيره .

٨- الأدلة الناهية عن ترك تكفير الكفار ومعاداتهم .

وقد فصلنا القول في هذه الأدلة وغيرها في شرحنا للناقض الثالث للإسلام.

المسألة السادسة : أركان التكفير :

١- فعل كفر .

٢- فاعل الكفر وهو كافر .

٣- المكفر الحاكم بالكفر.

٤- التكفير إلحاق الحكم .

المسألة السابعة : هل الله يكفر ورسوله ؟

نعم ، والدليل : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ المائدة: ١٧. فالله تعالى يكفّر من يخالف دينه وأمره.

المسألة الثامنة : آلات التكفير:

التكفير يكون بالباطن وبالظاهر يكون بالقلب واللسان والجوارح .

المسألة التاسعة : التكفير يكون بالباطن وبالظاهر :

تكفير الباطن يكون بالقلب .

آلة التكفير الباطن هي قول القلب وعمل القلب .

فيكون قول القلب بأن يكذب دين المشركين .

ويكون عمل القلب بأن يبغض المشرك ويعتقد كفره ولا يقره بما هو عليه .

والتكفير الظاهر يكون بالقول بإبدائه قولاً باللسان وبالجوارح بالمعاداة والجهاد.

المسألة العاشرة : أصناف وأحوال من لم يكفر:

المعتقد بقلبه عدم التكفير . المصرح بلسانه . الممتنع بجوارحه عن التكفير.

المسألة الحادية عشرة: متعلقات التكفير:

يتعلق التكفير بالفعل والفاعل والمفعول وهذه أقسام المكفرين .

والمسلم لابد أن يكفّر الفعل وفاعله والمفعول، ويتبرأ من كل هذه الثلاثة، فيكفر بالكفر وبفاعله وبالمفعول الذي فعل له الكفر ويتبرأ من جميعها . فيقال السجود لغير الله كفر والساجد كافر والمسجود له كافر،ومثله تكفير الحكم الشركي والمتحاكم إليه والحاكم به والمحكمة، فنكفّر الفعل الكفري الشركي كدعاء المخلوق والسجود له والتحاكم للطاغوت وتولي الكفار، ونكفر المشرك الذي فعل الكفر، ونكفر المفعول الذي فعل له الكفر كالوثن والصنم والطاغوت المعبود والمتحاكم له.

فالله تعالى أوجب علينا البراءة من المشركين وتكفيرهم، والبراءة لا تكون إلا بالتكفير، فالمسلم لا يكون مسلماً حتى يكفر بالأصنام وبعبادتها ويكفّر عابديها ، أيضاً يكفر بالمحكمة ويكفر بالتحاكم إليها ويكفّر من يتحاكم إليها.

فالبراءة شاملة للفعل والفاعل والمفعول ، والتكفير الذي هو فرد من أفراد البراءة يكون كذلك للفعل والفاعل والمفعول .

والبراءة من المعبودات والشرك لا تصح إلا براءة من عابديها وتكفيرهم. ويدل لذلك قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾.

قاعدة : البراءة من المشركين وتكفيرهم أهم من البراءة من معبوداتهم :

يقول الشيخ حمد بن عتيق في سبيل النجاة : (قدّم الله تعالى البراءة من المشركين العابدين غير الله، على البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله لأنه أهم.. فكم من إنسان لا يقع منه الشرك ولكنه لا يعادي أهله فلا يكون مسلماً).

المسألة الثانية عشرة : أنواع التكفير باعتبارات :

١- تكفير فعل وفاعل ومفعول .
٢- تكفير معين وتكفير عموم مطلق .
٣- تكفير المرتد وتكفير الكافر الأصلي .
٤- تكفير مجمع عليه وتكفير مختلف فيه .
٥- تكفير كافر مشتبه فيه وتكفير كافر واضح الكفر ظاهر بين .
٦- تكفير كافر أصلي وتكفير كافر مرتد .

٧- تكفير اسم ووصف وتكفير قتل وقتال وتعذيب .
٨- تكفير دنيوي حكمي للظاهر وتكفير أخروي حقيقي للباطن .

المسألة الثالثة عشرة: خطوات التكفير :

أولا : النظر في الفعل المكفر بأن يكون ثابت بالنص الصريح غير المحتمل .
ثانيا : النظر في فاعله بأن يثبت تلبسه بالفعل المكفر .
ثالثا : النظر في توفر شروط التكفير وانتفاء موانعه .
رابعا : الحكم بالتكفير وذلك بالحكم عليه بالردة وتسميته مرتدا كافرا .
خامسا : القيام باستتابته إذا لم تكن ردته مغلظة .
سادسا:القيام بأثر الحكم واستيفاء العقوبة وذلك بإقامة حد الردة وهو القتل.
حيث يأتي السبب ثم الشرط وعدم المانع ثم الحكم ثم آثار الحكم .

المسألة الرابعة عشرة : حكم التكفير وحكم تاركه :

التكفير عبادة من أجل العبادات، وعليه قوام التوحيد، فدين لا تكفير فيه لا يعتبر دينا فضلا أن يكون توحيدا، لأن التوحيد ما جمع بين النفي والبراءة والكفر بالطاغوت مع الإثبات ، والنفي والتكفير هو أساس الكفر بالطاغوت ومبدؤه .

فمن ترك التكفير بحيث لا يكفر من كفره الله من المشركين والكافرين والمرتدين فهو غير كافر بالطاغوت وغير موحد لله ولا مؤمن به بل كافر غير مسلم .

المسألة الخامسة عشرة : أحكام التكفير وحالاته:

الأول : التكفير الواجب : الذي هو ركن يكفر تاركه إذا كان متعمدا، وهو تكفير الكافر المستبين كفره ، ومن نواقض الإسلام الشك في تكفير الكافر، ولا عذر لأحد في تركه، والتكفير لمن كفره الله مما يجب على كل مسلم وليس الأمر مستحباً أو مباحاً كما يظن البعض .

الثاني : التكفير الكفري : كتكفير الصحابة وتكفير الموحدين لأجل التوحيد.
الثالث: التكفير المحرم : وهو تكفير المسلم بالشبهة.
ولا يكون التكفير مستحباً أو مكروهاً أو مباحاً .

تنبيه : كلمة (فتنة التكفير) من عبارات المرجئة المبتدعة .

فائدة : وجوب مواجهة الكفر بالتكفير وبالجهاد بالعلم والقلم واللسان.

المسألة السادسة عشرة : أقسام التكفير :

التكفير المشروع : تكفير من كفره الله من الكفار والمشركين والمرتدين .

والممنوع : هو تكفير المسلم والكفر بالدين .
السابعة عشرة: عقيدة التكفير ترجع لأبوب في العقيدة والتوحيد :
الأول : التوحيد والشرك. فمن لم يكفر فقد نقض التوحيد ووقع في الشرك.
الثاني :الكفر بالطاغوت .فمن لم يكفر الكفار فما كفر بالطاغوت .
الثالث: الولاء والبراء، فالتكفير داخل في عموم البراءة من الكفار ومعاداتهم.
الرابع : أبواب التكفير وأحكام المرتد ومسائل الأسماء والأحكام.
الخامس : كفر الامتناع والإباء وكفر الإعراض وكفر الشك.
السادس : نواقض الإسلام وعدم التكفير هو الثالث من نواقض الإسلام.
المسألة الثامنة عشرة : علاقات التكفير بأمور الدين :
للتكفير علاقة بأمور الدين فهو داخل في حقيقة الإسلام والإيمان كما يدخل في التوحيد والعبادة والشهادتين والكفر بالطاغوت .
تنبيه : دخول التكفير في الكفر بالطاغوت: ويظن كثير من الجهال أن الكفر بالطاغوت والبراءة من الكفار لا تدل على التكفير وأنه خارج عنها ، والكفر في آية (كفرنا بكم) وحديث (كفر بما يعبد): يشمل الكفر بالعبادة الشركية وتكفير المشرك.
التاسعة عشرة: أوجه كفر من لم يكفر المشركين وسبب كون الشاك كافراً .
الأول : أنه مكذب لله تعالى .
الثاني : أنه نقض حقيقة الإسلام ولم يأتي بإسلام صحيح مقبول .
الثالث : أنه أبطل توحيده ونقض الشهادتين وهدم أركانها وشروطها .
الرابع : أنه يعتبر واقع في الشرك .
الخامس: أنه لم يكفر بالطاغوت بل آمن به وكفر بعقيدة الولاء والبراء .
المسألة العشرون : أهمية تكفير الكفار ومكانته:
وتظهر منزلة التكفير من الدين من بضعة عشر وجها ، ذكرناها في شرحنا للناقض الثالث. وذكرنا الحكمة من إيجاب التكفير ومفاسد تركه وأسباب تركه.
وبينا أنه لا يعذر الإنسان بإعراضه عن التكفير وتركه .
وذكرناحالات ترك التكفير ودرجاته وأحواله ، وعدم التفريق بين تارك تكفير المعين وتارك تكفير الفعل وتارك تكفير عموم الكفار.

المسألة الحادية والعشرون : مقتضيات التكفير :

١- الجهاد وقتل وقتال الكفار المحاربين وهذا من الكفر بالطاغوت، قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ البقرة: ١٩٣ ، والفتنة الشرك والكفر.

٢- الولاء والبراء . فيجب أن يقوم المسلم بمعاداة الكفار وبغضهم والتبرؤ منهم وممن يعبدونهم ، والتحذير منهم ودعوة الناس إلى الكفر بهم، وترك موالاتهم .

٣- الهجرة من دار الكفرة وعدم الإقامة عندهم ولا السفر إليهم، وهجرهم ومجانبتهم واعتزالهم ومفارقتهم وعدم مخالطتهم.

٤- وجوب إظهار الدين وحقيقته قائم على تكفير المرتدين .

مسألة : الآثار المترتبة على التكفير والكفر ، وبينت هذه المسألة في باب الردة .

مسألة : هل التكفير أو الحكم بالردة تكون قبل الاستتابة أو بعدها.

مسألة : لا تلازم بين القتل والتكفير ، وقد بينت هذه المسائل في باب الردة .

قاعدة : مسائل التكفير مردها إلى الله ورسوله لا إلى العلماء ، وكلامهم يستأنس به ويحتج له لا به .

المسألة الثانية والعشرون : من له حق الحكم بالتكفير :

كل من لديه علم بمسألة فله أن يحكم فيها حتى لو كان من العامة ، وذلك مثل الذي يعلم أن من يدعو الأموات كافراً أو من يترك الصلاة كافراً ثم يرى من لا يصلي فله أن يكفره، ومثل الذي يسمع من يستهزئ بالدين أو يضع نعله على المصحف عمدا ونحو ذلك .

وقال عبدالله أبو بطين : (وما سألت عنه من حكم تعيين إنسان بعينه بالكفر إذا ارتكب شيئا من المكفرات؟ فإن من ارتكب شيئا من هذا النوع وحسنه فهذا لا شك في كفره ولا بأس بمن تحققت منه أشياء من ذلك أن تقول كفر فلان بهذا الفعل - دون اشتراط حكم قاضي وعالم راسخ وإقامة حجة - وكلام العلماء في تكفير المعين كثير وأعظم أنواع هذا الشرك عبادة غير الله وهو كفر بإجماع المسلمين، ولا مانع من تكفير من اتصف بذلك لأن من زنا قيل فلان زان) الرسائل ١/ ٦٥٧ .

أما إقامة حد الردة على من كفر فهذا من صلاحيات إمام المسلمين وولاتهم.

المسألة الثالثة والعشرون : هل التكفير خاص بالعلماء :
لم يفرق الكثير بين المسائل الظاهرة كدعس المصحف عمدا واختيارا وسب الله والدين والسجود للقبور ودعاء الأموات ونحوها وبين المسائل الخفية والكفر المشتبه حمّال الأوجه وهذه لا يعرفها إلا أهل الاجتهاد، فجعلوها قسماً واحدا .
فمنهم من خصه بالعالم مطلقا حتى الأول وقد رد أبا بطين على هذه الشبهة .
ومنهم من جعل التكفير في أي مسألة لأي أحد من العوام مطلقا فصارت فتنة بذلك ووقوع في الغلو وتكفير بما ليس بمكفر .
المسألة الرابعة والعشرون : حكم التقليد في التكفير والإيمان .
يجوز تقليد من عرف بالعلم والدين في تكفير معين ، والأولى أن يعرف المقلد الفعل المكفر ودليله ،لأن التكفير لا يكون إلا بفعل مكفر ودليل على كونه كفرا .
الخامسة والعشرون : الاختلاف في التكفير : قد يحصل الخلاف بين العلماء في تكفير معين وقد بينت المسألة في شرح الناقض الثالث.
السادسة والعشرون:خطورة الخطأ والمسارعة والغلو وتكفير المسلم بلابرهان:
لا يجوز التكفير للمسلمين بالأهواء والظنون بدون حجة ، فيجب الحذر من الغلو فيه ومن تكفير المسلم ويجب الاحتياط والتبين والتثبت .
وفي ذلك قال ﷺ : (من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما) .
السابعة والعشرون : التكفير الأصل أنه متعلق بأحكام الدنيا في الظاهر.
فمن أحكامه المترتبة على الظاهر المعاداة والقتل والصلاة والإرث.
وقد يتيقن العلم بحكم الباطن، فيعرف أن هذا الكافر كافر باطنا وظاهرا.
المسألة الثامنة والعشرون : أطفال الكفار ومجانينهم كفار بالإجماع.
تنبيه: حكم الكافر في الآخرة الخلود في النار ومن ظن أن الكافر قد يدخل الجنة فهو كافر ، ويخرج من هذا الكافر الذي مات على الكفر ولم تقم عليه الحجة فإنه يمتحن يوم القيامة فإذا أسلم دخل الجنة وإن كفر دخل النار ، ويخرج الخلاف في مسألة الشهادة بالنار في الدنيا على الكافر المعين، ومسألة القول بفناء النار.

سيأتي مزيد لمسائل التكفير وبيان لها في شرح الناقض الثالث .
هناك مسائل للتكفير تتعلق بقواعده وضوابطه وشروطه وموانعه ستأتي.

مبحث : كلام أهل العلم في وجوب تكفير المعين (المسلم إذا ارتد)

قال الإمام البربهاري ت ٣٢٩ : (وإذا فعل شيئاً من ذلك – يعني النواقض – وجب عليك أن تخرجه من الإسلام) . شرح السنة ٧٣ .

قال البخاري ت ٢٥٦ في من لا يكفر الجهمية : (وإني لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم) خلق أفعال العباد ٣٥.

قال الدارمي: (وأي فرق بين الجهمية وبينهم – أي المشركين المكذبين بالقرآن القائلين أنه قول البشر – حتى نجبن عن قتلهم وإكفارهم). الرد على الجهمية.

وقال أبو داود لأحمد : من قال القرآن مخلوق أهو كافر ، قال: أقول هو كافر) .

قال عبدالله بن الإمام أحمد : (سألت أبي عن رجل قال لرجل يا ابن كذا وكذا أنت ومن خلقك؟ قال أبي هذا مرتد عن الإسلام قلت لأبي تضرب عنقه قال نعم تضرب عنقه) مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبدالله ٣/ ١٢٩١.

قال البقاعي في نظم الدرر: (فإنه لم يأت نبي إلا بتكفير المشركين) .

ويقول القاضي عياض في الشفاء : (من أتى بالشهادتين وصلى وصام وعبد غير الله فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر مكذب لله ولرسوله بإجماع الذي لا يشك فيه من له أدنى نظر في كلام العلماء).

قال الإمام الملطي ت ٣٧٧هـ في الشاك في كفر الكافر : (وجميع أهل القبلة لا اختلاف بينهم : أن من شك في كافر فهو كافر، لأن الشاك في الكفر لا إيمان له ، لأنه لا يعرف كفرا من إيمان ، فليس بين الأمة كلها المعتزلة فمن دونهم خلاف أن الشاك في الكافر كافر) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص:٥٤.

وقال البربهاري : (الجهمي كافر ليس من أهل القبلة) .وقال في بعض أعيان المعتزلة كالمريسي وابن أبي دؤاد والعلاف:(فإن هؤلاء كانوا على الردة) شرح السنة.

وكفر الشافعي حفص الفرد.

قال أبو بكر بن عياش المقرئ ت ١٩٤ في الجهمي : (كافر ومن لم يكفر الكافر فهو كافر) أخرجه اللالكائي برقم ٤١٢ .

قال ابن بطة : (من قال كلام الله مخلوق فهو كافر حلال الدم ومن شك في كفره ووقف في تكفيره فهو كافر) الإبانة ١٢٩.

وقال الإمام سفيان بن عيينة ت ١٩٨ : (من قال القرآن كلام الله ﷻ هو مخلوق فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر).

قال سلمة بن شبيب النيسابوري ت ٢٤٧ محدث أهل مكة لما سئل عن الحلواني حين قال لا أكفر من وقف في القرآن ، (يرمى في الحش ، من لم يشهد بكفر الكافر فهو كافر) . أخرجه الخطيب في تاريخه وابن حجر في التهذيب.

قال أبو زرعة الرازي ت٢٦٤ : (من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر بالله كفراً ينقل عن الملة ومن شك في كفره ممن يفهم فهو كافر) . أخرجه اللالكائي ٣٢١ .

وقال أبو حاتم الرازي ت٢٧٧ بهذه الفتوى ، أنظر عقيدته عند اللالكائي.

ويقول الإمام محمد بن سحنون: (أجمع العلماء على أن شاتم الرسول ﷺ كافر وحكمه عند الأئمة القتل ، ومن شك في كفره كفر) الصارم المسلول ٢/ ١٥.

وقال ابن المقري اليماني فيمن لا يكفر غلاة الصوفية: (من شك في كفر اليهود والنصارى وطائفة ابن عربي كفر) نقله عنه البقاعي في تكفير بن عربي ٣٤ .

قال أبو الوفاء بن عقيل: (إذا أردت أن تعرف محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى ازدحامهم في أبواب المساجد ولا في ضجيجهم بلبيك ولكن انظر إلى مواطأتهم لأعداء الشريعة) نقله ابن مفلح في الآداب الشرعية، والدرر ٨/ ٢٩٩.

وقال الإمام ابن تيمية : (فهذا كله كفر باطنا وظاهرا بإجماع كل مسلم ، ومن شك في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر ، كمن شك في كفر اليهود والنصارى والمشركين) الفتاوى ٢/ ٣٦٨ .

وقال عن الدروز الرافضة: (كفر هؤلاء لا يختلف فيه المسلمون، بل من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم) الفتاوى ٣٥/ ١٦٢ .

وقال: (من قال إن من تكلم بالشهادتين ولم يؤد الفرائض ولم يجتنب المحارم يدخل الجنة ، ولا يعذب أحدا منهم بالنار ، فهو كافر مرتد يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل) الفتاوى ٣٥/ ١٠٦.

يقول العلامة ابن القيم في إغاثة اللهفان: (وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله) .

قال ابن حزم في المحلى في كتاب الردة في تكفير من زعم أن النبي ﷺ لم يقتل المرتد : (ومن ظن أن رسول الله ﷺ لا يقتل من وجب عليه القتل من أصحابه فقد كفر وحل دمه وماله لنسبته إلى رسول الله الباطل ومخالفة الله تعالى ... من الكفر الصريح: أن يعتقد أو يظن أن يعطل إقامة الحق الواجب في قتل المرتد على كافر يدري أنه ارتد ، ثم لا يقنع بهذا حتى يصلي عليه ويستغفر له وهو يدري أنه كافر) .

قال الشيخ عبد الله أبا بطين: (فمن قال: إن من أتى بالشهادتين وصلى لا يجوز تكفيره وإن عبد غير الله فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر لأن قائل هـذا القـول مكذب لله ولرسوله) . مجموعة الرسائل ١/ ٦٦٠.

قال الإمام محمد بـن عبـد الوهـاب في نـواقض الإسـلام: (مـن لم يُـكـفِّـر المشركين، أوشك في كفرهم، أو صحح مذهبهم، كفر إجماعا).

وقال أيضا: (لو ذهبنا نعدد من كفره العلماء مع إدعائه الإسلام وأفتوا بردتـه وقتله لطال الكلام...وهل قال واحد من العلماء في هذه المكفرات وأسباب الردة إن هؤلاء يكفر أنواعهم ولا يكفر أعيانهم) الدرر ١٠/ ٦٣.

وقال (لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء وتكفيرهم) . ١٠/ ٥٣ .

وقال: (اعلم أن الأدلة على تكفير المسلم الصالح إذا أشرك بالله أو صـار مـع المشركين على الموحدين ولم يشرك، أكثر من أن تحصى). الرسائل ص٤٢.

وقال في الدرر ٢/ ٢٢ : (أصل دين الإسلام وقاعدته أمران :

١- الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والموالاة فيه وتكفير من تركه .

٢- الإنذار عن الشرك في عبادة الله والمعاداة فيه وتكفير من فعله) .

وقال: (من قال: أنا لا أتعرض السادة والقباب ، فهذا كاذب في قول لا إله إلا الله ولم يؤمن بالله ولم يكفر بالطاغوت) الرسائل ٤/ ٣٣ .

وفي الدرر١٠/ ١٤٠:(من قال لا أعاديهم أو لم يكفّرهم فهذا لايكون مسلماً).

وقال سليمان بن عبد الله:(لا أقول هم كفار فهذا حكم منه بإسلامهم وحينئذ يسمى الكفر إسلاما ويسمى الكفار مسلمين فهو كافر) الدرر ٨/ ١٦٠.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (لو عرف العبد معنى لا إلـه إلا الله لعـرف أن من شك أو تردد في كفر من أشرك أنه لم يكفر بالطاغوت). الدرر١١ / ٥٢٣.

وقال: (لا بد من تكفيرهم وهذا مقتضى لا إله إلا الله كلمة الإخـلاص، فـلا يتم معناها إلا بتكفير من جعل لله شريكاً) الدرر٢/ ٢٠٥.

وقبله قال: (فلا يكون المرء موحدا إلا بنفي الشرك والبراءة منه وتكفير من فعله).

وقال: (التكفير من معنى لا إله إلا الله مطابقة). الدرر١١ / ٥٢٣.

وقال الشيخ عبد اللطيف: (لا يُتصور أن أحداً يعرف التوحيد ويعمل به ولا يعادي المشركين ومن لم يعادهم لا يقال له عرف التوحيد وعمل به) الدرر ٨/ ٣٥٩.

وقال في المصباح: (والجهاد للمرتدين وتكفيرهم داخل في مسمى الإسلام).

مبحث : أمثلة لتكفير المعين والمرتد

أمر النبي ﷺ بقتل بعض الذين كانوا من أصحابه لما ارتدوا.

وكذا ما قام به الصحابة بعد موت النبي ﷺ من تكفير بعض قبائل العرب والحكم بردتها لما منعت الزكاة وتسمية حروبهم بقتال المرتدين .

وقتل الصحابة لكثير من الذين ارتدوا ومن ذلك قتل ابن الزبير زوجة أحد المرتدين لما ادعى النبوة ولم تكفره وهي من بنات الصحابة .

ما اشتهر عن السلف من تكفيرهم للجهمية والقدرية والمرجئة ورؤوسهم كالجهم والجعد وبشر المريسي وابن أبي دؤاد وغيلان ومعبد وغيرهم .

تكفير العلماء غلاة الباطنية والصوفية كابن سينا القرمطي وابن عربي وابن الفارض والتلمساني وابن سبعين والفارابي والحلاج وغيرهم .

تكفير الإمام أحمد للمأمون كما ذكره الخلال في السنة ٥/ ٩٥. وفتواه وغيره بارتداد بابك الخرمي لما خرج وحارب المسلمين وهو بأرض المشركين كما في الفروع.

كلام السلف في تكفير الحجاج في الإيمان لابن سلام والسنة لعبدالله ابن احمد وتاريخ ابن كثير ومن ذلك . قال النخعي : (كفى بالرجل عمى عن أمر الحجاج) وقال سعيد بن جبير : (ما خرجت على الحجاج حتى كفر) وقال مجاهد : (تسألني عن الشيخ الكافر) وقال الشعبي : (الحجاج مؤمن بالجبت والطاغوت كافر بالله) وقال طاووس : (عجبا لإخواننا من أهل العراق يسمون الحجاج مؤمنا) .

تكفير ابن عقيل وغيره عباد القبور .

تكفير جميع علماء الملة من جميع الأقطار للدولة الفاطمية وحكامها العبيديين وقبلهم القرامطة وقد بين ذلك أبوشامة في الروضتين وغيره وابن الجوزي ألف النصر على مصر.ولما استولوا على المغرب ومصر أفتى العلماء بردة من ظاهرهم.

تكفير ابن تيمية وابن كثير وغيرهم لجيش التتار مع دخولهم في الإسلام .

ما أفتى به علماء المغرب المالكية من ردة المعتمد بن عباد حاكم أشبيلية بالأندلس لما استعان بالإفرنج ضد المسلمين كما في الاستقصاء.

ومثله لما استعان محمد بن عبد الله السعدي ملك مراكش بملك البرتغال ضد عمه أبي مروان المعتصم بالله في عام ٩٨٠، أفتى العلماء بارتداده كما في الاستقصاء .

كذلك فتوى العلماء بعزل وقتل الملك المغيث عمر بن العادل صاحب الكرك لما قام بمكاتبة هولاكو والتتار على أن يأخذ لهم مصر كما في البداية والنهاية .

ولما أعانت قبائل الجزائر الفرنسيين ضد المسلمين ، أفتى التسولي بكفرهم .
ولما اعتدى الفرنسيون والبريطانيون على المسلمين في مصر وغيرها ، أفتى الشيخ أحمد شاكر بكفر من أعان هؤلاء بأي إعانة.
تكفير أئمة الدعوة للدولة التركية حين حاربت التوحيد وأمرت الشرك وناهضت الدعوة. يقول الشيخ عبدالله بن عبداللطيف حين سئل عن الدولة التركية ومن جرها على المسلمين واختار ولايتها:(من لم يعرف كفر الدولة ولم يفرق بينهم وبين البغاة من المسلمين لم يعرف معنى لا إله إلا الله فإن أعتقد مع ذلك أن الدولة مسلمون فهو أشد ، وهذا هو الشك في كفر من كفر بالله وأشرك به، ومن جرهم وأعانهم على المسلمين بأي إعانه فهي ردة صريحة) الدرر ١٠/ ٤٢٩.
وقال الشيخ سليمان بن سحمان : (وهو تحت ولاية الدولة العثمانية الذين لا يخفى كفرهم) الجيوش الربانية ١٠٨ . وللشيخ رسالة في تكفير الدولة العثمانية .
وكفر الشيخ المعلمي اليماني الدولة التركية كما في تاريخ اللوامع للعمودي.
وقد أفتى علماء الجزيرة بردة من أعان الجيوش التركية ، فألف في إثبات كفرهم الشيخ سليمان الدلائل وحمد بن عتيق سبيل النجاة، هذا حكم أولئك الأئمة الأعلام في العساكر التابعين للدولة التي يتباكى عليها وعلى أيامها أكثر مسلمي هذا الزمان.. بل وتكفير من والاها وأحبها أو أحب ظهورها. فماذا تراه يكون قولهم في عبيد الياسق العصري؟ وبماذا كانوا سيحكمون على من أظهر الولاء لهم وأقسم على الإخلاص لهم أو على احترام قوانينهم خوفاً من ضياع الدنيا ومتاعها ؟
تكفير العلماء للحكام المشرعين والحاكمين بالقوانين الوضعية والمتولين للكفار بل والحكم على بلدانهم بأنها بلاد كفر تجب الهجرة منها كما هي فتوى محمد بن ابراهيم وأحمد شاكر وابن باز وسنأتي عليها في الناقض الرابع .
ولما كثر الشيوعيون والاشتراكيون في بلاد المسلمين ، وأعانهم بعض المنتسبين للإسلام ، أفتى الشيخ عبد العزيز بن باز وغيره بكفر من أعانهم .
ولما قامت الحرب الصليبية على الأفغان والعراق أفتى العلماء بردة من يعينهم.
فتوى العلماء المعاصرين بتكفير سليمان رشدي ونجيب محفوظ ونزار قباني والقذافي. فتوى علماء السودان بردة محمود طه وقتله ردة عام ١٤٠٥ وغيرهم.
تكفير القذافي في بيان هيئة كبار العلماء: (أنه بإنكاره لسنة رسول الله ﷺ واستهزائه بالحج وبعض التعاليم الإسلامية يعتبر بذلك كافراً). دورة ١٩/ ١٤٠٢.

وتكفير العلماء من ناصر وأيد الحملات الصليبية التي غزت بلاد المسلمين .

وما نقم على الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلا تكفيره لعباد القبور وقتالهم.

قال في رسالته الثالثة من رسائله الشخصية : (إذا كانوا أكثر من عشرين سنة يقرون ليلا ونهاراً سراً وجهاراً أن التوحيد الذي أظهر هذا الرجل هو دين الله ورسوله لكن الناس لا يطيعوننا ، وأن الذي أنكره هو الشرك وهو صادق في إنكاره ، ولكن لو يسلم من التكفير والقتال كان على حق) .

وقال في رسالته التاسعة والعشرين : (وعرفتم أنهم يقولون لو يترك أهل العارض التكفير والقتال كانوا على دين الله ورسوله) .

وقال في رسالته الثامنة والثلاثين : (ولكنهم يجادلونكم اليوم بشبهة واحدة فاصغوا لجوابها ، وذلك أنهم يقولون كل هذا حق نشهد أنه دين الله ورسوله إلا التكفير والقتال، والعجب ممن يخفى عليه جواب هذا إذا أقروا أن هذا دين الله ورسوله كيف لا يكفر من أنكره وقتل من أمر به وحبسهم ؟ كيف لا يكفر من أمر بحبسهم ؟ كيف لا يكفر من جاء إلى أهل الشرك يحثهم على لزوم دينهم وتزيينه لهم ويحثهم على قتل الموحدين وأخذ مالهم ؟ كيف لا يكفر وهو يشهد أن الذي يحث عليه أن الرسول ﷺ أنكره ؟ ونهى عنه وسماه الشرك بالله ويشهد أن الذي يبغضه ويبغض أهله ويأمر المشركين بقتلهم هو دين الله ورسوله . واعلموا أن الأدلة على تكفير المسلم الصالح إذا أشرك بالله ، أو صار مع المشركين على الموحدين ولو لم يشرك أكثر من أن تحصر من كلام الله وكلام رسوله وكلام أهل العلم كلهم) .

مبحث : الشهادة بالنار على المعينين والتوقف في ذلك :

هذه مسألة خلافية بين أهل السنة هل يشهد على المعين بالنار إذا كفر أو لا ؟

فمن أهل العلم من قال لا يشهد على المعين بالنار إلا بنص .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن من ثبت كفره وكفر فإنه يشهد له بالنار .

وهذا الصحيح ويدل لذلك عموم الأدلة بدخول الكفار النار .

حديث :" أيما مررت بقبر كافر فبشره بالنار " وهو في الشهادة على المعين.

وحديث: (**فقل : أرسلني إليك محمد ، فأبشرك بما يسوؤك ، تجر على وجهك وبطنك في النار**). رواه الطبراني والحاكم وعبدالله في الزوائد والسنة، وفيه مجاهيل .

وستأتي هذه المسألة في شرح الناقض الثالث.

تنبيه: من قال: الكافر قد يرحمه الله ويدخله الجنة فهو كافر، وهذه مسألة ثانية.

الفصل الثاني : ضوابط التكفير

المسألة الأولى : ضابط التكفير وقاعدته:

هو النظر في الشرط والسبب والمانع .

فيكفر كل من وقع في مكفر إذا توفرت الشروط وانتفت الموانع .

هذه قاعدة التكفير، ومدار تكفير المعين على هذه القاعدة.

فكل من وقع في كفر المقصود به ذلك المعين فإنه يكفر إذا توفرت الشروط وقامت الحجة عليه وانتفت الموانع فهنا يجب تكفيره ومن شك في كفره فإنه كافر .

وقد بين ابن تيمية هذه القاعدة برسالة أسماها قاعدة التكفير.

قال ابن تيمية : (لكن تكفير الواحد المعين منهم والحكم بتخليده في النار موقوف على ثبوت شروط التكفير وانتفاء موانعه) الفتاوى ٢٨ / ٥٠٠ .

المسألة الثانية : الشروط والموانع متعلقة بالتكفير وليست بالكفر:

يخطئ الكثير حين يقول لا يعد الكفر كفرا إلا بعد الشروط، والصحيح أن ذلك في التكفير فمن فعل كفرا عن جهل أو خطأ أو إكراه فإنه يقال فلان فعل الكفر وليس شرطا أن يكون كافرا وأن نكفره، أما أن يقال فلان ما فعل الكفر لكونه مخطئاً أو جاهلاً أو مكرهاً فهذا خطأ بلا ريب .

فليس من شرط الكفر قصده وتعمده والعلم به فقد يقول الشخص كلمة الكفر ولا يكفر لجهله وخطئه كمن قال:(اللهم أنت عبدي وأنا ربك)أخطأ من شدة الفرح فيقال هذه العبارة كفر والرجل فعل كفرا من باب الخطأ وقال كلمة يكفر بها لو قصدها فكون ما قاله كفر باب وتكفيره باب آخر، ولا يصح أن يقال لم يقل كفرا.

المسألة الثالثة : ضوابط التكفير تقوم على اعتبار ثلاثة أحكام وضعية :

أولاً : السبب : وهو سبب التكفير : وهو الوقوع في الكفر.

ثانياً : الشرط : وهو ثبوت وقوع المكلف في المكفر من غير عذر.

ثالثاً : المانع : وهو ما يمنع إنزال الحكم عل المكلف .

رابعاً : الحكم : هو التكفير .

ويعتريه من أحكام التكليف إثنان: الوجوب والحرمة فقط ، فلا يكون مباحا أو مكروها أو مستحبا.

ويعتريه من أحكام الوضع اثنان : الصحة والفساد.

فتكفير المعين إما أن يكون واجبا أو محرما ، وإما أن يكون صحيحا أو فاسدا.

المسألة الرابعة : تعريف المانع :
هو ما يمنع وجوده وجود حكم التكفير.
المسألة الخامسة : أقسام موانع التكفير :
١- موانع شرعية معتبرة شرعا .
٢- موانع مخترعة وضعها المرجئة .
المسألة السادسة : مرد الموانع للعجز .
هذه الموانع راجعة إلى ضابط واحد وهو العجز عن إدراك الحق والوصول إليه وكلها راجعة إلى هذا الضابط .
قال ابن تيمية : (إن العذر لا يكون عذرا إلا مع العجز عن إزالته وإلا فمتى أمكن الإنسان معرفة الحق فقصر فيه لم يكن معذورا) رفع الملام ١١٤ .
المسألة السابعة: ضابط الموانع والأعذار الشرعية :
هي التي اعتبرها الشرع فلا عبرة بعذر لا دليل من الشرع على اعتباره، فيخرج أعذار أهل الإرجاء وعراقيل المعذّرون.
الثامنة : عوارض الأهلية عند الأصوليين :
يدخل فيها موانع الحكم بالتكفير في باب الردة والعقيدة ، فهي بمعنى واحد .
فائدة : المانع والعذر بمعنى واحد .
المسألة التاسعة : محبة الله تعالى قطع العذر وإقامة الحجة على عباده :
قال ﷻ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ النساء١٦٥.
العاشرة قاعدة: آية البقرة أصل في رفع الحرج والأعذار الشرعية عن الأمة.
قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ البقرة: ٢٨٦.

الحادية عشرة : وسطية أهل السنة في الضوابط:
مذهبهم وسط بين عراقيل المرجئة وتسرع المتلاعبين الجهال وغلو الخوارج .
فهم وسط في باب الأسماء والأحكام بين الوعيدية والوعدية.

الثانية عشرة : منكر الشروط والموانع داخل في عموم مذهب الخوارج .

المسألة الثالثة عشرة : هل يكفر الواقع في ناقض مطلقا أم بعد قيام حجة والنظر في الموانع والشروط ؟

فيه تفصيل.

فبعض النواقض إذا فعلها المكلف العاقل من غير إكراه يكفر بها ولا ينظر إلى جهله وتأوله وإقامة الحجة كالشرك وسب الله تعالى.

ومنها ما لا يكفر فيها حتى يتحقق من وجود الشروط وانتفاء الموانع ولا يكفر إلا بعد إقامة الحجة وهذا في المسائل الخفية والتي فيها شبهة.

وفرق بين مانع ذهاب العقل والخطأ والإكراه وبين مانع الجهل ، فبعضها مانع في كل ناقض وبعضها مانع في ناقض دون ناقض، كالجهل غير معتبر في أصل الدين.

المسألة الرابعة عشرة : الإسلام الصريح لا يزيله إلا الكفر الصريح ومن شُك في حاله هل هو مرتد أولا فالأصل عدمه .

قال ابن تيمية : (وليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين وإن اخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة ، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك ، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وزوال الشبهة) الفتاوى ١٢/ ٤٦٦ .

المسألة الخامسة عشرة : الفرق بين الحكم بإسلام الشخص والحكم بكفره :

والفرق بين الحكم بثبوت الإسلام والحكم ببقائه وبين بقاء حكمه وزواله :

والفرق بين الدخول في الإسلام والخروج منه .

يشترط الحكم بالإسلام التلفظ بالشهادتين وإظهار الالتزام بها وعدم نقضها وأن لا يأتي بناقض له .

ومجرد ما ينطق الكافر بالشهادتين قاصدا قولها وعارفا بمعناها فإنه يحكم بإسلامه ويُكف عنه ولا يقتل لحديث أسامة: (أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله).

أما في التكفير فبمجرد ما يظهر المسلم كفرا ، فإننا لا نعتبر بهذا النطق لأنه نقض نطقه فمن أظهر شركاً وكفرا فلا نقول : أنه قال لا إله إلا الله فلا تنفع قائلها إذا وقع في شرك أو كفر أو أتى بناقض لها أو أخل بشرط من شروطها .

المسألة السادسة عشرة : أنواع الإسلام : حقيقي وحكمي :

الإسلام الحقيقي :

هو القائم بالمسلم المؤمن والذي يوافق باطنه ظاهره، ويدخل به صاحبه الجنة، وهو ضد الكفر ويعتبر مسلماً حقاً وحكماً ويترتب عليه أحكام الآخرة.

الإسلام الحكمي الاسمي: وهو الذي نحكم على صاحبه وفاعله بالإسلام الظاهر دون الباطن، والذي تجري به أحكام الدنيا النكاح والميراث والجنائز الذبائح وعصمة الدم والمال وغيرها. وهذا يثبت بالإقرار بالشهادتين أو إظهار شعائر الإسلام . فمعنى حكمي : أي أن صاحبه قد أتى بما يحكم بإسلامه ونجري عليه أحكام الإسلام في الدنيا فهو الحكم على الظاهر .

المسألة السابعة عشرة: الفرق بين التكفير الحكمي والحقيقي والظاهر والباطن والدنيوي والأخروي وحكمنا وحكم الباري ﷻ :

الأصل أن الحكم بالتكفير إنما يكون على الظاهر، لأن الباطن في الغالب لا يُعرف ولايطلع عليه، فحكمه إلى الله ﷻ في معظم أنواع الكفر، ومنها ما يكون الحكم فيها على الظاهر والباطن معاً وذلك إذا تيقن بمعرفة ما في الباطن.

قال ابن تيمية في الصارم : (إن سب الله أو رسوله كفر ظاهرا وباطنا) .

قاعدة : يجب معاملة الناس بالظاهر في التكفير ، فمن أظهر كفرا صريحاً كفرناه إلا إذا تيقنا من وجود مانع وعذر :

قال عمر ﷺ: (إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله، وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا منكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمّنّاه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء ، الله يحاسب سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنْه ولم نُصدّقه وإن قال إن سريرته حسنة) رواه البخاري .

الثامنة عشرة : الخطأ في الحكم على الكافر بالإسلام والحكم بتكفير المسلم .

قد يكفّر مسلم على ظاهره ونحكم بردته ويكون عنده عذر ومانع لم نعلم به فيعذر عند الله ، كما نحكم بكفر أهل الفترات ومجانين المشركين وأطفال المشركين وهم يوم القيامة عند الله ﷻ معذورون ، ويمتحنون .

وكذلك العكس قد نحكم بإسلام إنسان وهو عند الله كافر كما يحكم على المنافق أو من في باطنه كفر وشرك لا نعلمه فحكمنا على الظاهر .

فالله لم يتعبدنا بالتنقيب عن بواطن الخلق والتحري عنهم وإنما تعبدنا بـالحكم على الظواهر، فمن أظهر الإسلام قبلناه ومن أظهر ناقضا كفرناه بالضوابط المعتبرة .

ومما يدل على هذا الأصل قوله ﷺ لأسامة حين قتل الرجل الـذي قـال لا إلـه إلا الله وقال إنما قالها خوفا من السيف : (أفلا شققت عن قلبه) رواه مسلم .

قال ابن تيمية : (الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان الباطن الذي يكون صاحبه مـن أهـل الـسعادة في الآخـرة .. الإيـمان الـذي علقت به أحكام الدنيا هو الإيمان الظاهر وهو الإسلام) ٧/ ١٣٨ .

قال ابن تيمية في حكـم أولاد الكفـار : (ومنـشأ الاشـتباه في المسألة اشـتباه أحكام الكفر في الدنيا بأحكامه في الآخرة) الدرء ٨ / ٤٣٢ .

وقال الطحاوي في عقيدته عن أهل القبلة : (ولا نشهد عليهم بكفر ولا نفـاق مالم يظهر منهم شيء من ذلك ونذر سرائرهم إلى الله).

قال الشارح : (لأنا أمرنا بالحكم على الظاهر).

ومن هنا جاءت القاعدة الحكم على الظاهر ما لم يتيقن خلافه .

التاسعة عشرة : حكم لعن الكافر المعين :

إن كان مات على الكفر جاز وإن كان لا يزال حيا فمحل خلاف بين العلماء.

قال ابن تيمية : (لعنة المعين فإن علم أنه مات كافرا جازت لعنته) ٦/ ٥١١ .

لعن الرسول ﷺ في قنوته أبا سفيان وصفوان والحارث بن هـشام ، وأنـزل الله عليه ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ آل عمران: ١٢٨ ، ثـم أسلموا . رواه أحمد والترمذي .

العشرون : قاعدة : التكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين:

المقصود بتكفير المعين هو زيد من الناس والمقـصود بـالمطلق تكفـير الأفعـال يقال أن من قال كذا فهو كافر من استحل محرما فهو كافر، وتكفير الفعل كالتحـاكم للطاغوت كفر ومظاهرة الكفار كفر هذا يسمى التكفير بالعموم أو التكفير المطلق .

فالمعين مثل ابن عربي الذي كفره العلماء وابن سينا والفـارابي وابـن الفـارض والجعد والجهم ومعبد وغيلان هذا كله في المعينين الذين كفروا بيقين .

قال ابن تيمية : (إطلاق القول بتكفير من يقول كذا حق لكـن يجـب التفريـق بين الإطلاق والتعيين) الفتاوى ٣/ ٢٣٠ .

فائدة: يطلق التكفير المطلق على حالتين : يقصد به ما يقابل تكفير المعين .

كما يقصد به ما هو في مقابل الحكم المقيد بشرط، كالقول في الذهاب للسحر مقيد بالتصديق له (فصدقه بما يقول فقد كفر). والمطلق الذي ليس له قيد .

والدليل على هذه القاعدة : الإنكار على من لعن مدمن الخمر عند البخاري من حديث عمر ، مع أنه ﷺ لعن شارب الخمر كما عند أبي داود .

قال ابن تيمية : (فنهى عن لعن هذا المعين وهو مدمن خمر ، لأنه يحب الله ورسوله ، وقد لعن شارب الخمر على العموم) ١٢/ ٤٨٤ .

وعليه فهناك فرق بين إطلاق التكفير وبين تكفير المعين أو كفر النوع وكفر العين، فالكفر العام لا يلزم منه تكفير المعين .

قال ابن تيمية : (القول قد يكون كفر فيطلق القول بتكفير صاحبه ويقال من قال كذا فهو كافر لكن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة) الفتاوى ٣/ ٢٣٠ .

وقال : (والتكفير والوعيد واللعن المطلق لا يستلزم تكفير المعين أو لعنه الذي قام به ما يمنع لحوقه فالحكم على المعين مشروط بثبوت شروط وانتفاء موانع فيجب التفريق بين الاطلاق والتعيين) ١٠/ ٣٢٩ – ٢٣/ ٤١ .

وقال: (التكفير العام كالوعيد العام ، يجب القول بإطلاقه وعمومه ، وأما الحكم على المعين بأنه كافر أو مشهود له بالنار فهذا يقف على الدليل المعين ، فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه وانتفاء موانعه) الفتاوى ١٢/ ٤٩٨ .

قال ابن تيمية : (كلما رأوهم قالوا من قال كذا فهو كافر ، اعتقد المستمع أن هذا اللفظ شامل لكل من قاله ، ولم يتدبروا أن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين وأن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين) الفتاوى ١٢/ ٤٨٧ .

قال ابن تيمية : (لكن تكفير الواحد المعين منهم والحكم بتخليده في النار موقوف على ثبوت شروط التكفير وانتفاء موانعه) الفتاوى ٢٨ / ٥٠٠ .

قال محمد بن عبد الوهاب : (مسألة تكفير المعين مسألة معروفة ، إذا قال قولاً يكون القول به كفرا ، فيقال من قال بهذا القول فهو كافر ولكن الشخص المعين إذا قال ذلك لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها) الدرر ٨/ ٢٤٤.

وقال : (السلف كفروا النوع وأما العين فإذا عرف الحق وخالف كُفّر بعينه وإلا لم يكفر) الدرر ٨/ ٧٦ .

المسألة الحادية والعشرون : شروط التكفير :

الأول : أن يكون هذا العمل كفرا مخرجا من الملة بالدليل القطعي .

الثاني: أن يثبت وقوع هذا المسلم في فعل هذا الكفر، ويكون ظاهراً لا يحتمل إلا الكفر ، فإذا كان الفعل يحتمل الكفر وغيره لم يكفّر حتى يستفصل ويتبين.

الثالث : أن يكون فاعل الكفر كامل الأهلية بأن يكون عاقلا بالغا مختارا غير مكره ، وهو المؤاخذ في الشرع ، فيخرج بهذا الشرط من كان مرفوعا عنه قلم التكليف كالطفل والمجنون .

الرابع : انتفاء الموانع ، وهي أربعة : الإكراه ، والجهل ، والتأويل ، والخطأ .

فلا يقوم بالمعين مانع من تكفيره إما عدم التكليف والأهلية كجنون أو صغر أو بعدم قيام الحجة أو بوجود الموانع . فلا بد أن تكون الحجة قامت عليه وتوفرت فيه الشروط والأسباب وانتفت الموانع والأعذار الشرعية.

فالمرتد الذي نكفره هو المكلف العاقل البالغ إذا فعل الكفر الصريح البيّن، وكان مختارا غير مكره عالما غير جاهل عامدا لا ساهيا ولا مخطئا لا أنه متعمد الكفر وإنما متعمد الفعل .

المسألة الثانية والعشرون : العذر بالجهل :

أولاً : المقصود بالعذر بالجهل :

١- أن يعذر الواقع في الكفر فلا يكفر إلا بعد إقامة الحجة وزوال عارض الجهل ، وهذا القسم يخص بعض النواقض وليس كلها فلا تشمل الشرك.

٢- أن يعذر الواقع في الكفر في القتل فلا يقتل إلا بعد استتابته وإقامة الحجة عليه فيكون الجهل مانعا من قتله.

٣- أن يعذر في العذاب يوم القيامة حتى يرسل له رسول .

ثانياً : أنواع الجهل : منحيث المسألة المجهولة واختلاف الأحكام فيها .

فيختلف حكم الجاهل في التوحيد وأصل الدين وحقيقة الإسلام عن الجاهل في المسائل الفرعية الخفية كاستحلال المحرم وجحد الواجب، فمن جهل بهذا فلا يكون مسلما ولو كان جاهلا .

ثالثاً : الجاهل بأصل الدين يعذر في أمور ولا يعذر في أمور .

فلا يعذر في تسميته كافرا مشركا ولا يعتبر مسلما ولا من عداد المسلمين.

قال ابن القيم : (والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم وإن لم يكن كافراً معانداً فهو كافر جاهل) طريق الهجرتين ٤٤٩ .

ويعذر في القتل فلا يقتل إلا بعد إقامة الحجة وزوال عارض الجهل .

كما يعذر الجاهل الغير متمكن من العلم في العذاب في الآخرة.

رابعاً : العذاب في الآخرة لا يكون إلا بعد قيام الحجة الرسالية : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ الإسراء: ١٥ .

المسألة الثالثة والعشرون : بعض التنبيهات حول مسألة العذر بالجهل :

تقسيم المسائل من حيث العذر فيها بالجهل إلى خفية وظاهرة وأصول وفروع ومعلوم بالضرورة أمر يصعب ضبطه ويعوزه الدليل ولابن تيمية كلام حول هذا .

وإن كان لا ينكر أصله .

وهذا الكلام في عذر الجاهل لا يدخل فيه المشرك وما في حكمه، فالشرك لا يعذر فيه الجاهل ويسمى مشركا ولو كان جاهلا وقد قررنا الأدلة والنقولات في بيان ذلك ، فالشرك يكفر فاعله مطلقا بمجرد فعله إلا المكره عليه .

ومما يلحق بالشرك في عدم العذر السب والاستهزاء ، والجهل بالله من إنكار علوا الله أو نسبة الولد لله .

المسألة الرابعة والعشرون : مبحث حقيقة إقامة الحجة :

تعريف الحجة هي: الدليل والعلم والبرهان .

انواع الحجج : حجة رسالية، وحجة عقلية تعرف بالفطرة والعقل .

علاقة قيام الحجة والعذر بالجهل بالتكفير : تعتبر من الموانع والشروط.

تقوم الحجة بالقران والبيان والدعوة والجهاد .

قيامها وبلوغها بمعنى واحد . وفهمها له معنيان سيأتي .

اختلاف قيام الحجة من شخص لآخر بين وبلد وبلد وما بين ناقض وناقض ومن مسألة وأخرى.

قيام الحجة فيما ما يخفى دليله وحكمه يختلف عما هو ظاهر حكمه ولا يخفى .

ليس كل جاهل نعذره فلا نكفره، وليست كل النواقض تحتاج لقيام حجة.

ولا عبرة بإقامتها على المعرض أو المعاند والمكذب .

قيام الحجة وبلوغ الدعوة لرئيس الكفار في الجهاد يعتبر قياما لجنوده.

هناك أسماء وأحكام وآثارها متعلقة بقيام الحجة فلا تقال إلا بعدها وهناك أسماء وأحكام لا ترتبط بقيام الحجة.

فالقتل لا بد من قيام الحجة أما الإرث وغيره فلا علاقة لها بإقامة الحجة .

المسألة الخامسة والعشرون : الفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة : وبلوغها :

قيام الحجة : المقصود بها بلوغ الدليل من كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ.

فهم الحجة:المقصود به الاقتناع بالدليل وهذا ليس من شروط التكفير، وليس المقصود بالفهم فهم معنى الدليل فهذا من قيام الحجة الذي هو شرط في التكفير.

فالفهم على قسمين :

١- فهم المعنى: وهذا يرجع إلى قيام الحجة وهذا لابد منه.

٢- فهم الاقتناع : وهذا يسمى فهم الحجة وهو راجع إلى التوفيق من الله ﷻ والإعانة والإلهام وهذا ليس شرطاً في التكفير.

وقد قاتل النبي ﷺ الكفار وليس كلهم فهم الحجة وعلم برسالته .

مثال :لو قيل لمشرك أنت تقول الشفاعة يا محمد وهذا شرك فلو قال: ما هو الدليل؟ فقيل: الدليل﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٣. فعرف معناها أنها في دعاء غير الله فهنا قامت عليه الحجة . فلو قال : ما اقتنعت والناس كلهم يقولون هذا الكلام فهذا لا يعتبر به فيقتل بعد ذلك إن أصر.

قال محمد بن عبد الوهاب : (فإن حجة الله هي القرآن فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجة ولكن أصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة وفهم الحجة ، فإن أكثر الكفار لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم) الرسائل الشخصية ٢٤٤ .

وقال عبداللطيف في المصباح: (أي عالم اشترط في قيام الحجة معرفة علم المخاطب بالحق وإنما يشترط فهم المراد للمتكلم والمقصود من الخطاب لا أنه حق) .

وقال إسحاق:(لايذكرون التعريف في مسائل الأصول إنما في المسائل الخفية).

السادسة والعشرون : لا يكفر المسلم إذا وقع في مكفر إلا بعد إقامة الحجة وزوال الشبهة والجهل ، وقد جاء العذر بالجهل في كلام السلف :

قال الثوري : (ركوب المحارم من غير استحلال معصية ، وترك الفرائض متعمدا من غير جهل ولا عذر هو كفر) السنة عبد الله بن أحمد ٧٤٥ .

وفي كلامه مسائل مفيدة:

كفر المستحل للذنوب دون فاعلها.

كفر تارك الفرائض بخلاف فاعل المحرمات .
قاعدة العذر بالجهل .
قال الشافعي في من أنكر الصفات : (فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر ، فأما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل ، ولا نكفر بالجهل بها أحداً إلا بعد إنتهاء الخبر إليه بها) نقله عنه ابن القيم في اجتماع الجيوش ١٦٥ .
قال ابن حزم : (فصح أنه لا يكفر أحد حتى يبلغه أمر النبي ﷺ فمن لم يؤمن به فهو كافر ... فإن بلغه وصح عنده فإن خالفه مجتهدا فيما يتبين له وجه الحق في ذلك فهو مخطئ معذور مأجور مرة واحدة) الفصل٣/ ٢ ٣٠ .
قال ابن تيمية : (ليس كل من تكلم بالكفر يكفر حتى تقوم عليه الحجة المثبتة لكفره فإذا قامت عليه كفر حينئذ) الفتاوى ٥/ ٣٠٦.
قال ابن تيمية : (فهذه المقالات هي كفر لكن ثبوت التكفير في حق الشخص المعين موقوف على قيام الحجة التي يكفر تاركها ، وإن إطلق القول بتكفير من يقول ذلك ، فهو مثل إطلاق القول بنصوص الوعيد مع ثبوت حكم الوعيد في حق الشخص المعين موقوف على ثبوت شروطه وانتفاء موانعه ، ولهذا أطلق الأئمة القول بالتكفير مع أنهم لم يحكموا في عين كل قائل بحكم الكفار) بغية المرتاد ٣٥٣ .
يقول بن تيمية : (ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم عليه الحجة كما تقدم كمن جحد وجوب الصلاة والزكاة واستحل الخمر والزنا وتأول فإن ظهور تلك الأحكام بين المسلمين أعظم من ظهور هذه فإذا كان المتأول المخطيء في تلك لا يحكم بكفره إلا بعد البيان له وإستتابته ، كما فعل الصحابة في الطائفة الذين استحلوا الخمر ففي غير ذلك أولى وأحرى) الفتاوى ٧ / ٦١٩.
قال ابن تيمية : (من أنكر ما ثبت بالتواتر والإجماع فهو كافر بعد قيام الحجة عليه) الاستغاثة ٢١١.
قال ابن تيمية : (من أثبت لغير الله مالا يكون إلا لله فهو أيضا كافر إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها) الاستغاثة ٢١٤.
تنبيه : العذر بالجهل لا يتعلق بأصل الدين والوقوع في الشرك .
فالمشرك كافر لا يدخل في عداد المسلمين ولا يعذر بجهله ولا يسمى مسلما ولو كان حديث عهد بكفر أو نشأ ببادية بعيدة ولا يقيد تكفيره بإقامة الحجة.
وسيأتي تحقيق ذلك والأدلة عليه .

مبحث : موانع التكفير

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسالته نواقض الإسلام:
(ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره).
تنبيه : ذكر الشيخ مانعين باطلين : الهزل وعدم القصد والجد ، والخوف.
وسنذكر غيرها مما ابتدعه مرجئة عصرنا والمجادلون عن المشركين.
بعد أن نذكر موانع التكفير.

المسألة السابعة والعشرون : موانع التكفير وأعذاره:
موانع التكفير : الجهل والخطأ والإكراه .
المانع الأول : الإكراه : وسيأتي .
المانع الثاني : الخطأ : ضد العمد والقصد:
قال تعالى :﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ البقرة: ٢٨٦.
كالذي قال : (اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح) فلم يكفر .
قال ابن تيمية : (وأما التكفير فالصواب أن من اجتهد من أمة محمد ﷺ وقصد الحق فأخطأ لم يكفر ، ومن تبين له ما جاء به الرسول ﷺ فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فهو كافر ، ومن اتبع هواه وقصر في طلب الحق وتكلم بلا علم فهو عاص) الفتاوى ١٢ / ١٨٠.
وقال ابن تيمية : (وأجمع الصحابة وسائر أئمة المسلمين على أنه ليس كل من قال قولا أخطأ فيه أنه يكفر بذلك ، وإن كان قوله مخالفا للسنة ، فتكفير كل مخطئ خلاف الإجماع) الفتاوى ٧ / ٦٨٥ .
المانع الثالث : الجهل : كجهل بعض الصحابة في بعض المحرمات .
تنبيه : الجهل له سببان :
١- التفريط والإعراض .
٢- عدم بلوغ الحجة ووجود العلم.
والمقصود بالعذر المانع من إلحاق حكم التكفير الثاني لا الأول.
قال الثوري : (ركوب المحارم من غير استحلال معصية ، وترك الفرائض متعمدا من غير جهل ولا عذر هو كفر) السنة عبد الله بن أحمد ٧٤٥ .

قال الشافعي في من أنكر الصفات : (فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر ، فأما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل ، ولا نكفر بالجهل بها أحداً إلا بعد إنتهاء الخبر إليه بها) نقله عنه ابن القيم في اجتماع الجيوش ١٦٥ .

قال ابن حزم : (فصح أنه لا يكفر أحد حتى يبلغه أمر النبي ﷺ فمن لم يؤمن به فهو كافر ... فإن بلغه وصح عنده فإن خالفه مجتهدا فيما يتبين له وجه الحق في ذلك فهو مخطئ معذور مأجور مرة واحدة) الفصل٣/ ٣٠٢ .

قال ابن تيمية : (ليس كل من تكلم بالكفر يكفر حتى تقوم عليه الحجة المثبتة لكفره فإذا قامت عليه كفر حينئذ) الفتاوى ٥/ ٣٠٦.

فائدة : التأويل داخل في الجهل ، ومثله التلبيس .

التأويل: كمن أول الصفات، وكذا عثمان لما تأول في شرب الخمر .

المانع الرابع: انعدام الأهلية وهي العقل والبلوغ أو ذهابها بعد وجودها.

فالمجنون والطفل لايعتبر منهم ناقض ولا يحكم بردتهم لو قالوا كفرا وفعلوه.

المسألة الثامنة والعشرون : حقيقة الإكراه وشروطه :

أولاً : تعريف الإكراه : هو إلزام الغير بما لا يريده .

ثانياً : الدليل على مانع الإكراه:

قوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ النحل: ١٠٦.

وقوله: ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ ﴾ آل عمران: ٢٨ .

ثالثاً : شروط اعتبار الإكراه وضوابطه :

١- أن يكون القلب مطمئنا بالإيمان وكارهاً للكفر .

٢- أن يكون الإكراه حقيقياً ومعتبرا شرعا ، فيكون واقعا أو متيقنا من حصوله بأن يكون المُكرِه قادراً على تحقيق ما أوعد به . والمُكره عاجزاً عن الخلاص .

قال ابن عتيق:(تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره عليه، فإن أحمد نص إن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب وقيد) .

٣- ألا يترتب على الإكراه ضرر بالدين فيفعل المكره ما يضر بالمسلمين .

رابعاً: الإكراه قصره بعض العلماء على القول دون الفعل ، والصحيح أن الإكراه على الفعل يعتبر عذرا إلا أن يكون فيه ضرر بالإسلام وأهله فيحرم مطلقا.

قال ابن عباس: التقية التكلم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان .

وقال أبو العالية: التقية باللسان وليس بالعمل .
وقال الطبري : (إلا أن تتقوا منهم تقاة فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم ، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل).
خامساً: إكراه القلب لا يتصور وقوعه لأنه لا يتسلط عليه.
سادساً : حذرنا الله نفسه بعد عذره للمتقي الكفار ليؤصل التوحيد والخوف من الله وحده . قال تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ آل عمران: ٢٨
كما أنه لم يعذر الخائف من غيره:﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران١٧٥ .
سابعاً : ما هو أفضل الصبر أم الإكراه والتقية ؟
روي عن النبي ﷺ أنه وصّى طائفة من أصحابه فقال : (لا تشركوا بالله شيئاً وإن قُطعتم وحُرّقتم) رواه ابن ماجه بسند ضعيف.
قال الإمام أحمد: (إذا أجاب العالم تقية،والجاهل بجهل فمتى يتبيّن الحق).
من محنة الإمام للمقدسي .
قال ابن كثير بتفسيره:(الأفضل أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله).
وقال ابن رجب في فتح الباري : (الأفضل الصبر وعدم التقّية وأجمعوا على أن من أكره على الكفر واختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة).
قال الجصاص: (أن خبيباً أفضل من عمّار عند النبي ﷺ والمسلمين ، لأن في ترك إعطاء التقية إعزازا للدِّين وغيظاً للمشركين ، فهو بمنزلة من قاتل حتى قتل) .
قال أحمد شاكر في تعليقه على المسند : (التقية إنما تجوز للمستضعفين الذين يخشون أن لا يثبتوا على الحق ،والذين ليسوا بموضع القدوة للناس فهؤلاء يجوز لهم أن يأخذوا بالرخصة ، أما أولو العزم من الأئمة الهداة فإنهم يأخذون بالعزيمة).
ثامناً : الإكراه خاص بهذه الأمة . بدليل:
(كان الرجل قبلكم يوضع المنشار على مفرق رأسه لا يرده ذلك عن دينه) .
وحديث : (إن الله تجاوز عن أمتي ما استكرهوا عليه) ابن ماجة والحاكم.
وحديث طارق بن شهاب: (ودخل النار رجل في ذباب)رواه أحمد.
وهذا الرجل إما أنه كان مكرها حقا لكن لم يكن مرخصاً له إذا وجد الإكراه، أو أنه آمن بالطاغوت ورضي بقلبه الذبح للصنم ، فكفر وكان من أهل النار.
تاسعاً : حقيقة الاستضعاف في هذه الآية :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ٩٧.

والاستضعاف لم يكن عذرا لأمرين:

١- لأنهم كانوا سببا فيه.

٢- ولأنه كان متعلقا بفعل المظاهرة التي لا يعذر فيها المكره.

المسألة التاسعة والعشرون: حالات جواز إظهار الكفر وفعله ظاهرا:

١- الإكراه.

٢- فعل الكفر لأجل المصلحة الجهادية كقتل طاغوت عدو للدين كما فعل محمد ابن مسلمة مع كعب ابن الأشرف وعبد الله بن أنيس مع خالد الهذلي.

وهذا العذر جوزه بعض أهل العلم كابن تيمية، والذي يظهر لي عدم جوازه، وهؤلاء النفر رخص لهم النبي ﷺ، وهذا خاص به وليس ذلك لأحد غيره.

٣- الاضطرار لأخذ الحق عند البعض، والصحيح أنه لا يجوز كما سيأتي.

المسألة الثلاثون: ما ليس من الموانع:

١- التقليد ليس من موانع التكفير.

٢- النطق بالشهادتين والصلاة وإقامة بعض شعائر الدين.

٣- التفريط الذي تسبب في إكراه أو جهل كالمقيم عند الكفار اختيارا ثم أكره على كفر معين كما حصل لبعض من قتل يوم بدر، لا يمنع تكفيرهم.

٤- عدم الاقتناع بالدليل وعدم فهم الحجة وأن يظن أنه مهتدي.

٥- عدم القدرة على قتل المرتد وجهاده إن كان له شوكة لا يمنع تكفيره.

٦- كثرة الواقعين في الردة، وهذا لا يجوّز الإحجام عن تكفير المرتدين فانظر لهدي الصحابة لما ارتدت العرب لم يثنهم ذلك عن تكفيرهم بل وقتالهم.

٧- ترك التكفير لأجل المصلحة الدعوية، فهذا ليس من موانعه.

٨- كون فاعل الكفر من العلماء المعتبرين فقد كفر بلعام الذي آتاه الله آياته. وارتد ابن أبي السرح وهو صحابي وأهدر النبي ﷺ دمه وكان عالما كاتبا للوحي.

٩- من موانع التكفير في من سب الدين عند المرجئة والألباني: قلة التربية. وهذا العذر والمانع بدعة تفرد بها الألباني في هذا العصر.

١٠- الغضب، جعلته المرجئة عذرا لصاحبه ومانعا من التكفير.

وقد يكون الغضب الواصل إلى الإغلاق حتى لا يعلم صاحبه ما يقول عذراً.

الحادية والثلاثون : قصد الكفر ليس شرطا في التكفير بل يكون بدونه :

والرد على شبهة اشتراط قصد الكفر ومن زعم اشتراط أن يقصد المرتد الكفر وينوي الردة ليحكم بتكفيره:

أهل السنة يشترطون أن يكون قاصدا للقول والفعل فلا تخرج منه الكلمة والفعل عن طريق الخطأ كالذي قال أنت عبدي وأنا ربك، أما المرجئة فيزعمون أن فاعل الكفر لا يكفر إلا إذا قصد الكفر وتعمده، فيشترطون أن يكون قاصدا للكفر من ذلك القول والفعل . وأهل السنة لا يشترطون ذلك إلا إذا كان الكفر مشتبها ويحتمل عدة أوجه منه ما هو كفر ومنه ما ليس كذلك .

ومما يدل على كفر فاعل الكفر ولو لم يقصد الكفر:

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ التوبة: ٦٥ - ٦٦.

وقوله تعالى : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ الحجرات: ٢.

وقوله ﷻ : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ الكهف: ١٠٤ .

قال الطبري في تفسير آية الكهف: (وهذا من أدل الدلائل على خطأ من زعم أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانيته) .

وقال ابن تيمية : (وقوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ ، فاعترفوا واعتذروا، ولهذا قيل ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ ، فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفرا بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به فإنهم لم يعتقدوا جوازه) الفتاوى٧/ ٢٧٢ .

قال ابن تيمية : (وبالجملة من قال أو فعل ما هو كُفر كَفر بذلك وإن لم يقصد أن يكون كافراً، إذ لا يقصد الكفر أحد إلا ما شاء الله) . الصارم ١٧٧ .

وقال فيه أيضا:(فإن قيل: فقد قال تعالى:﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ النحل١٠٦ ، قيل وهذا موافق لأولها، فإنه من كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدراً، وإلا ناقض أول الآية آخرها، ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره وذلك يكون بلا

إكراه، لم يستثن المكره فقط، بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره ، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعاً فقد شرح بها صدراً وهي كفر).

وقال:(أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل كنا نخوض ونلعب، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام ولو كان الإيمان في قلبه منعه من أن يتكلم بهذا الكلام).

وقال : (ومعلوم أنه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط لأن ذلك لا يكره الرجل عليه... وقال تعالى في حق المستهزئين: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ التوبة: ٦٦ ، فبين أنهم كفار بالقول مع أنهم لم يعتقدوا صحته).

وقال ابن تيمية : (المسلم إذا عنى معنى صحيحاً في حق الله تعالى أو الرسول ﷺ ولم يكن خبيرا بدلالة الألفاظ فأطلق لفظا يظنه دالا على ذلك المعنى وكان دالا على غيره أنه لا يكفر ، ومن كفره كان أحق بالكفر) الاستغاثة ٣٤١.

وقال محمد بن عبد الوهاب في أنه لا يشترط في تكفير المرتد علمه بأن ما عمله ينقض الدين : (إذا نطق بكلمة الكفر ولم يعلم معناها صريح واضح أنه يكون نطق بها لا يعرف معناه وأما كونه لا يعرف أنها تكفره فيكفي فيه قوله : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم ﴾ ، فهم يعتذرون من النبي ﷺ ظانين أنها لا تكفرهم) تاريخ نجد ٤٥٢ .

قال سليمان بن عبد الله في التيسير : (والإنسان قد يكفر بالمقالة الكافرة وإن كان عند نفسه لم يأت بمكفر) .

قال عبدالله أبابطين: (من تكلم بكلام كفر مازحاً أو هازلاً ، وأما من تكلم بكلمة لا يعلم أنها كفر يعرّف فإن رجع فإنه لا يحكم بكفره) الرسائل ٤/ ٣٧٥ .

قال ابن حجر الهيتمي الإعلام بقواطع الإسلام : (قال بعض الحنفية : اعلم أن من تلفظ الكفر يكفر وإن لم يعتقد أنه لفظ الكفر ولا يعذر بالجهل) ٣١٨ .

وقال فيه : (نقل البغوي عن الأصوليين أن من نطق بكلمة الردة وزعم أنه أظمر تورية كفر ظاهرا وباطنا وأقرهم على ذلك) . ١٩٤ .

فائدة : قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة: ١٠٤.

هناك فرق بين من قصد الرعونه فمن قصد هذا المعنى فهو من الكافرين كما نصت الآية ، ومن كان لا يقصدها فهو من المؤمنين.

تنبيه : القصد له معنيان :

١- القصد الذي هو ضده الهزل والمزح ، وكذا الاعتقاد أن هذه الكلمة لا تصل إلى الكفر مع علمه أنها محرمة.

فهذا القصد لا يغير حكم الكلمة وأنها تكفر صاحبها .

ودليل هذا المعنى آية الاستهزاء بالدين ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾.

٢- قصد الفعل الذي هو ضد الخطأ والسهو أو عدم العلم بالمعنى اللغوي للفظ فهذا لا يكفر، والأصل فيه آية البقرة : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ .

ومن هذا قول الرجل الذي وجد راحلته اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح فلم يؤاخذ بخطئه، ومنه نهي الصحابة عن قول راعنا للنبي ﷺ ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ فنهوا ولم يكفروا لأنهم قصدوا معنى المراعاة وليس الرعونة

فمن قال كلمة عرف معناها وقصد معناها لكن لم يقصد الكفر فهو كافر بقولها ، كما هو الحال بالذين قالوا ما رأينا مثل قرائنا ، فهم قد أرادوا الفعل الذي هو السخرية ولم يريدوا الكفر ولا قصدوه ولهذا قالوا(إنما كنا نخوض ونلعب) لكنهم كفروا بها ولم يكونوا يظنون أنها تكفرهم إذا كان قصدهم اللعب والمزاح لا الكفر.

أما من قال كلمة كفرية من غير أن يقصد معناها فلا يكفر، كما هو الحال بمن قال لله ﷻ أنت عبدي، وكقول الصحابة للنبي ﷺ راعنا.

فهناك فرق بين قصد المعنى وقصد الكفر ، فالأول شرط في التكفير والثاني ليس شرطا في التكفير وقد خلط المرجئة بين القصدين.

الثانية والثلاثون:حكم المضطر إلى فعل الكفر كالتحاكم إلى حكم الطاغوت :

من لا يجد إلا حكم الطاغوت كالذي يعيش في دول لا تحكم إلا بالقوانين ولا يمكنه إيجاد حاكم بالشرع ملزم، ولا يستطيع استيفاء حقه أو دفع الأذى عنه أو كف شر معتد عليه إلا عن طريق هذه المحاكم فتحاكم لها وهو غير راض بها فما حكمه ؟

اختلف أهل العلم في هذه المسألة على قولين :

الأول : من قال بحرمة عمله لأن التحاكم للمحاكم الطاغوتية كفر بذاته ولا يبيح فعل الكفر شيء غير الإكراه كما نصت الآية ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ

بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ النحل: ١٠٦. وهذا القول هو الصواب، فالرخصة نصت على المكره دون المضطر والضرورات مبيحة للمحرم الذي دون الكفر فالكفر لا يبيحه غير الإكراه.

القول الثاني: أن هذا التحاكم يعتبر جائزا وغير محرم:

ودليلهم: أن من هذه حاله فهو مضطر والمضطر ضرورة بالغة يلحق بالمكره في الحكم فالضرورات تبيح المحرمات وتقدر بقدرها فإذا وصلت الضرورة لدرجة الإكراه المعتبر شرعا صار لها حكمه وإن لم تكن الضرورة بالغة حرم عليه التحاكم، فالله أباح للمضطر ما لم يبح لغيره ﴿ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ الأنعام: ١١٩.

كما أن مناط الكفر في التحاكم أمورا جاءت في النصوص وهي إرادة التحاكم والمضطر غير مريد للتحاكم، وأن كفره متعلق بالإعراض عن حكم الله إذا دعي له وهذا لم يجد من يحكم له بحكم الله حتى يقال عنه تولى وأعرض فلا يتصور الإعراض إلا مع وجود حكم الله، كذلك هو في تحاكمه للطاغوت كافر به ليس منشرح الصدر به فيكون في حكم المكره الذي رخص له.

كما استدلوا بحديث الحجاج بن علاط السلمي عند أحمد: في نيله من النبي ﷺ أمام قريش وذلك لأخذ حقه وماله منهم وتجويز الرسول ﷺ له ذلك، فقالوا أن انتزاع الحق وإرجاع المال يلحق بالإكراه في الترخص بفعل الكفر كما رخص لعمار.

وقد يجاب عنه: بأن ذلك خاص بالرسول ﷺ فهو الذي أذن له وهو استأذن قبل أن يفعل مما يدل على أن الأصل في هذا العمل المنع. ثم أنه ليس في قول الحجاج سب وقدح وفعل للشرك، وإنما إخبار كاذب بهزيمة الرسول ﷺ وتعريض وتورية.

ثم اختلف أصحاب القول الثاني: أيهما الأولى للأفراد عند الضرورة أن يتحاكموا للقوانين أو يتركوا التحاكم مع ضياع حقوقهم وذهاب أموالهم للكفار؟

على قولين وأكثرهم أوجبوا تقديم مصلحة التوحيد وترك التحاكم للطواغيت وإعلان الكفر به وإظهاره وتعظيم مفسدة الوقوع في الشرك على غيرها.

ومنشأ الخلاف في أصل هذه المسألة هو حقيقة الضرورة:

هل الإضطرار يلحق بالإكراه في الحكم ويقاس عليه أم لا؟ وما هو ضابط الإكراه المعتبر به شرعاً فمنهم من خصه بالتعذيب وذهاب النفس أو بعض البدن وأذيته كالضرب، ومنهم من أدخل في السجن أو أخذ المال.

تنبيه : مع قولنا بتحريم التحاكم للمضطر فقد وجد من قال بكفره مطلقا ونحن لا نقول بذلك بل نقول بخطأ من حكم على المتحاكم المضطر بالكفر ولم يعذره بالتأويل ، كما وأخطأ من حكم على المكفر بأنه على مذهب الخوارج.

نازلة : أباح البعض توكيل محامي يدافع عن المسلمين المسجونين عند الكفار مع تحاكمهم للمحاكم الطاغوتية، وهذا قول باطل لأن المصلحة لا تجوز فعل الكفر.

المسألة الثالثة والثلاثون : عدم اعتبار الخوف عذرا ومانعا:

المقصود به الخوف على شيء من الدنيا كالمال أو الجاه أو المنصب أو الوطن أو النفس ، أو غير ذلك، فهذا لا عذر له ، وخوفه لا يبيح له الوقوع في الكفر .

ومن الأدلة على عدم اعتبار الخوف عذرا بل وعدّ الخائف من غير الله مشركاً وكافرا بالخوف من غير الله ، فيكون مرتكبا لكفرين:

الكفر الذي فعله لخوفه من المخلوقين، والثاني خوفه من غير الله :

قال تعالى : ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ التوبة: ١٣.

قال: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ النساء: ٧٧ .

وقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران١٧٥

وقال: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ المائدة: ٥٢

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ القصص: ٥٧ .

وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ العنكبوت: ١٠.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ المائدة: ٤٤.

وقال: ﴿ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ النساء: ٧٧.

وقال : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الزمر: ٣٦ .

وقالﷺ: (إن الله يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذا رأيت المنكر ألا تغيره ، فيقول يا رب خشيت الناس، فيقول: إياي كنت أحق أن تخشى) أحمد وابن ماجه .

قال محمد بن عبدالوهاب في كشف الشبهات: (فإذا تحقق أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب ، وتبين لك أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفاً من نقص مال أو جاه ، أو مدارة لأحد أعظم

ممن تكلم بكلمة يمزح بها ... فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من اكره مع كون قلبه مطمئنا بالإيمان وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه سوا فعله خوفا أو مداراة أو مشحة بوطنه أو أهله وماله أو فعله على وجه المزاح أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره).

قال ابن تيمية : (فإنه سبحانه استثنى المكره من الكفار ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره لأن الإكراه على ذلك ممتنع ، فعلم أن التكلم بالكفر كفر إلا في حال الإكراه). الفتاوى ٧/ ٥٥٧ .

وقال سليمان في كتابه الدلائل : (ولم يفرق تعالى بين الخائف وغيره بل اخبر تعالى أن الذين في قلوبهم مرض يفعلون ذلك خوفا من الدوائر وكذلك حال هؤلاء المرتدين خافوا من الدوائر فزال ما في قلوبهم من الإيمان بوعد الله الصادق بالنصر لأهل التوحيد فبادروا وسارعوا إلى الشرك خوفا من أن تصيبهم دائرة) .

وقال فيه : (فان قالوا خفنا قيل لهم كذبتم وأيضا فما جعل الله الخوف عذرا في إتباع ما يسخطه واجتناب ما يرضيه وكثير من أهل الباطل إنما يتركون الحق خوفا من زوال دنياهم وإلا فهم يعرفون الحق ويعتقدونه ولم يكونوا بذلك مسلمين) .

وقال فيه عن التقية : (فكيف بمن اتخذهم أولياء من دون المؤمنين من غير عذر إلا استحباب الدنيا على الآخرة والخوف من المشركين فما جعل الله الخوف منهم عذرا بل قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾) .

ثم إن ما يتعذر به المخالف من الخوف ودعوى الإكراه ليس بعذر لأمور:

الأول : أن حقيقة ما تعلق بهم هو الخوف والذعر والهلع. وقد نهى الله عنه عباده بقوله تعالى :﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥، فمن خاف الكفار فليس بمؤمن بنص الآية ، فإذا كان خوف الكفار شركا ، فمن باب أولى أن لا يكون عذرا ، بل جعل الله تعالى خوف الكفار وخشيتهم من أكبر علامات المنافقين كما في قوله :﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ .

الثاني : إن الخوف والإكراه الذي يدعيه هؤلاء المرجئة هو حفاظهم على دنياهم والشح بالوطن والمال والأهل وهذه لم تكن يوماً عذراً مبيحاً لفعل الكفر.

الثالث : أنهم يفعلون الكفر بسبب استحبابهم للحياة الدنيا هذا إذا لم يكن عن محبة للكفر نفسه.

الرابعة والثلاثون : عدم اعتبار الهزل عذرا :

المازح ضد الجاد ، الهازل ضد العامد .

ليس من موانع التكفير الهزل والمزح واللعب فليس من شرط الكفر العمد والجدّ وقصده ، فلا يُعذر الإنسان إن قال أو عمل ناقضاً من نواقض الإسلام هازلاً أو جاداً، وعلى ذلك أهل السنة والجماعة لأن الدين لم يُجعل للهزل ، ولأن الهازل بالدين مستخف به غير معظم له وهذا يناقض الإيمان.

قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ التوبة: ٦٥ - ٦٦ .

الخامسة والثلاثون: غلو المرجئة في الصد عن التكفير والكفر بالطاغوت:

اخترعت المرجئة في باب موانع التكفير موانعاً ليست شرعية ولم يجعلها الله تعالى أعذارا مقبولة أسوة بمن سبقهم من المنافقين المعذّرين ، فعندهم مبدأ تكثير الأعذار للمرتدين وابتداع شروط ليست من شروط التكفير .

فتوقف حكم المرتد في واقعهم وأغلقوا بابه، حتى لم يعد هناك معنى لذكر باب الردة وأحكام المرتد في كتب العلماء عند المرجئة، فكل من وقع في الكفر لا يكفرونه ويكثرون الاعتذار له ويشترطون استحلال القلب في كل المكفرات والكفر عندهم لا يعرف من الظاهر ولا يكون في الجوارح، وهذا سببه عدم فهم التوحيد ومعنى لا إله إلا الله ولا معرفة حقيقة الإيمان الذي هو قول وعمل وضده الكفر الذي هو الآخر يكون بالقول والعمل .

قال حمد بن عتيق : (وأمّا ما يعتقده كثير من الناس عذراً، فإنه من تزيين الشيطان وتسويله وذلك أن بعضهم إذا خوّفه أولياء الشيطان خوفاً لا حقيقة له ظنّ أنه يجوز له إظهار الموافقة للمشركين والانقياد لهم.).

ويقول ابن عتيق : (فمن قال الكفر أو فعله أو رضي به مختاراً كفر وإن كان مع ذلك يبغض بقلبه وبهذا قال علماء السنة والحديث وذكروا ذلك في كتبهم فقالوا إن المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه إما نطقاً وإما فعلا وإما اعتقاداً وقرروا أن من قال الكفر كفر وإن لم يعتقده ولم يعمل به إذا لم يكن مكرهاً . وكذلك إذا فعل الكفر كفر، وإن لم يعتقده ولا نطق به وكذلك إذا شرح بالكفر صدره أي فتحه ووسعه وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به) .

المسألة السادسة والثلاثون : الأخطاء في باب التكفير :

ظهر الضلال فيما يتعلق بحقيقة الإيمان وباب الأسماء والأحكام والمسائل المتعلقة به من أبواب التكفير ومن العذر بالجهل ، وقيام الحجة في الأمة من قديم، ففي هذا الباب افترقت الخوارج والمرجئة . ومن ذلك :

١- التكفير دون النظر في الأهلية وفي شروط التكفير وموانعه .

٢- ترك التكفير مطلقا ، ووضع العراقيل وابتداع الشروط والموانع .

٣- التورع من التكفير الواجب الداخل في الكفر بالطاغوت .

٤- التكفير بنصوص الوعيد مثل : (لا يؤمن أحدكم) (ليس منا) .

٥- منهم من ينزلها بالكفار الأصليين دون المرتدين.

التكفير بما ليس بمكفر : كمن يكفر بمجرد الإقامة عند الكفار .

٦- اشتراط قصد الكفر في التكفير.

٧- التكفير بالتسلسل.

٨- التكفير باللازم والمآل .

المسألة السابعة والثلاثون : أقسام المخالفين :

من يخالف في الكفر نفسه فلا يعده كفرا. كمن يقول دعاء الأموات، وتشريع القوانين، وإنكار علو الله وكلامه وتولي الكفار والإعراض عن الدين ليس بكفر.

وهؤلاء تكلمنا عنهم في مذاهب الناس في النواقض والكفر في باب النواقض وذكرنا الأقوال المخالفة في نواقض الإسلام.

من لا يخالف في الكفر وإنما في التكفير.وهم المعنيون هنا .

لطائف مهمة

حال من كتب في التكفير والمكفرات : معظم الذين كتبوا في باب التكفير ومسألة العذر بالجهل لم يعرفوا مذهب أهل السنة في باب الإيمان فقالوا بقول الجهمية ، فوقعوا في التناقض والحيرة ولم يضبطوا مسائله.

محاربة التكفير : صارت محاربة تكفير المرتدين سمة في زماننا ، حتى كتبوا في شبهات الخوارج ولا يوجد من كتب عن شبهات تارك التكفير إلا ما ندر.

بل تجاوز الأمر بهم حتى جعلوا منهج أهل التوحيد مذهب الخوارج وقد نقضنا شبهاتهم وعرينا باطلهم وكشفنا سترهم في كتاب كشف الشبهات ولله الحمد.

هذا وقد شكا العلماء من محاربي التكفير من قديم الزمان .

قال البخاري في من لا يكفر الجهمية : (وإني لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم) خلق أفعال العباد ٣٥.

قال الدارمي: (وأي فرق بين الجهمية وبينهم - أي المشركين المكذبين بالقرآن القائلين أنه قول البشر- حتى نجبن عن قتلهم وإكفارهم). الرد على الجهمية.

وقال محمد بن عبدالوهاب في رسالته الثالثة من رسائله الشخصية في قول علماء زمانه عنه : (لو يسلم من التكفير والقتال كان على حق) .

وقال أحمد شاكر : (وما كنت يوماً بالأحمق فأظن أن الحكومات ستستجيب لحكم الإسلام... ولكن أريد أن أعرفهم بعواقب هذه الردة ...) كلمة حق ٨٧ .

كما جهّل الشيخ سليمان من ترك تكفير أصحاب شرك الدعاء في التيسير وموالين الكفار في الدلائل .

فصل : عدم عذر المشرك

المسألة الأولى: عدم العذر بالجهل في أصل الدين ووجوب تكفير المشرك:

حقيقة مسألة : هل يعذر المسلم إذا وقع في الشرك وهو جاهل أنه شرك.

أولاً : النواقض والمكفرات على قسمين :

الأول: ما يعذر فيه الجاهل ولا يكفر حتى تقوم الحجة عليه مثل إنكار صفة من صفات الله عن جهل واستحلال ما حرم الله وإنكار فريضة ونحو ذلك .

الثاني: مالا يعذر فيه الجاهل وهو الشرك بالله وما في حكمه وهو محل البحث.

والعذر يطلق على ثلاثة أمور:

١- العذر في العذاب يوم القيامة وهذا إذا لم يفرط في طلب العلم .

وهذا يسمى بكفر التعذيب وهو لابد فيه من قيام الحجة على المعذب .

فالمشرك الجاهل لا يعذب يوم القيامة .

والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ الإسراء: ١٥ .

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ النساء: ١٦٥ .

﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ الملك: ٨ - ٩ .

فالمشرك لا يعذب إلا بعد بلوغ الحجة لكن لا يسمى مسلما بل كافرا .

٢- العذر في القتال في الدنيا ، وهذا أيضاً يعذر الواقع في الشرك فيه على الصحيح فلا يقاتل ولا يقام عليه حد الردة إلا إذا قامت عليه الحجة وبلغته الدعوة .

فالمشرك لا يقتل ولا يقاتل إلا بعد قيام الحجة لكن يسمى كافرا وليس مسلما.

٣- العذر في تكفير الواقع في الشرك وإجراء اسم الكفر "التكفير" وأحكام الكفر من التناكح والإرث والصلاة عليه وهذا المراد بالمسألة هنا .

وحكم الله ورسوله أن الواقع في الشرك يحكم بكفره، ويسمى مشركاً كافراً بمجرد فعل الشرك ولا يعذر بجهله ولا ينفع إدعاء صاحبه الإسلام والإيمان وتلفظه بالشهادتين وصلاته وعباداته ، وهذا محل إجماع .

أما من قال : إن من وقع في الشرك وهو جاهل ممن ينتسب للإسلام يبقى على إسلامه ويسمّى مسلما فلا يكفّر إلا بعد قيام الحجة عليه وبلوغ الدعوة فقوله باطل ويعد مكذبا لله غير كافر بالطاغوت ، إلا أننا لا نكفر هذا العاذر إلا بعد قيام الحجة عليه لوجود الشبهة معه.

ولنا بحث في مسألة تكفير عاذر المشرك بجهله.

الثانية : الأدلة على كفر الجاهل المشرك وعدم عذره ووجوب تسميته كافرا :

وإليك عشرة براهين شرعية عقلية قاطعة تقضي بكفر المشرك وعدم عذره .

أولاً : أن الله تعالى سمى فاعل الشرك مشركا كافرا وحكم عليه بالخلود في النار وحرم عليه دخول الجنة، وأكثر ما يقال فيه أنه لا يدخل النار إذا لم يسمع بالحق وتبلغه الحجة الرسالية ، أما أن جهله يقضي بإدخاله الجنة أو تسميته مسلما لنطقه بالشهادتين وادعائه اتباع الرسل وملة إبراهيم مع كونه متلبساً بالشرك وقائماً بعبادة غير الله فهذا لا يقوله مسلم عرف دين الله وما بعثت به الرسل.

ومن الأدلة على هذا الأصل :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ البينة: ٦ .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ التوبة: ٦ .

فسماه الله ﷻ مشركا مع أنه جاهل لا يعلم ولم يسمع شيئا من كلام الله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء: ٤٨ .

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة: ١١٣ .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٦١ .

قال ﷻ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ التوبة: ٣١

فكفرهم الله مع كونهم جهالاً بدليل قول عدي بن حاتم ما عبدناهم.

قال الشيخ أبا بطين تعليقا على هذا الحديث (ذمهم الله وسماهم مشركين مع كونهم لم يعلموا أن فعلهم هذا عبادة لهم فلم يُعذروا بالجهل) الدرر ١٠/ ٣٩٣ .

ثانياً : أن الله تعالى أخبر عن طوائف كثيرة من الكفار بأنهم جهال:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ الكهف: ١٠٤ .

قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ البينة: ١ . فسماهم الله تعالى مشركين قبل أن تأتيهم البينة .

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الزخرف: ٣٧.

وقال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الأعراف: ٣٠.

وقال تعالى: ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ المجادلة: ١٨ .

وقال تعالى: ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ الغاشية: ٣-٤ .

وقال تعالى عن المشركين: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ الأنبياء: ٢٤.
وقال تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الحجرات: ٢.
وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ التوبة: ٦٥.
فكفروا من حيث لا يعلمون ولم يعلموا أن ما قالوه مزحا ولعبا مكفر لهم.
وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ الأعراف: ١٧٢ والآية صريحة في تكفير الجاهل الغافل المقلد وعدم عذره.
قال النبي ﷺ لصاحب التميمة: (لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً) . أحمد.
قال الإمام محمد في كتاب التوحيد: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، أنه لم يعذر بالجهالة.

ومن الأدلة على كفر الجاهل المشرك وعدم عذره أيضا:

ثالثاً: أن الكفر قسمان: كفر عن علم وجحود وعناد، وكفر عن جهل وإعراض وتأول، ومن اشترط في تكفير المشرك العلم وفهم الحجة والاقتناع بالدليل فقد خالف النصوص المثبتة كفر الجاهل بالله ودينه ودخوله النار.
قال محمد بن إبراهيم: (لو كان فهم الحجة شرطا لما كان الكفر إلا قسما واحدا وهو كفر الجحود بل الكفر أنواع من الجهل وغيره) شرح كشف الشبهات ١٠١.

رابعاً: أن الله ﷻ سمّى أهل الفترة وأهل الجاهلية مشركين مع جهلهم، ومع اعتقادهم أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام وأن ما يفعلونه من الشرك مجرد بدعة حسنة.

خامساً: أن ما يفعله القبوريون الوثنيون المنتسبون للإسلام فهو مثل ما يفعله أولئك فكلاهما جاهل ويدعي أولئك الانتساب لدين إبراهيم وهؤلاء الانتساب لدين محمد، وإنما الفرق أن أولئك عرب صرحاء يعرفون معنى العبادة والشرك في الألوهية وهؤلاء جهال بالشرع واللغة يقعون في الشرك ولا يعلمون أنه شرك ولا يسمونه شركاً وجهلهم لا يمنع تكفيرهم وتغييرهم الاسم لا يغير الحقيقة والحكم.
وعليه فالآيات النازلة في المشركين الذين نزل القرآن بكفرهم زمن بعثة الرسول ﷺ تنطبق عليهم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومن زعم أن لهؤلاء حكماً يخالف حكم أولئك لأنهم من الناطقين بالشهادتين المنتسب للإسلام فقد خرق الإجماع وعطل العمل بالقرآن، ويلزمه بأن يحكم بإسلام من تنصر من

المسلمين ودخل في دين النصرانية ما دام جاهلا ويدعي الانتساب للإسلام مع النصرانية، كما حكم بإسلام من دخل في دين القبوريين الوثنيين المشركين من الجهلة.

قال عبدالرحمن بن حسن: (أما قول أن الآيات التي نزلت بحكم المشركين الأولين فلا تتناول من فعل فعلهم فهذا كفر عظيم ويلزم منه أن الحدود المذكورة في القرآن والسنة كانت لأناس وانقرضوا وبطل حكم القرآن) الدرر ٤١٨.

سادساً : أن الشرك من الأوصاف التي يسمى فاعلها بمجرد فعلها كالزنا والقتل وسيأتي كلام ابن تيمية وابن القيم.

سابعاً : أن من يعذر المشرك ويسميه حنيفا مسلما يلزمه أن يسمى أهل الفترة من مشركي الجاهلية حنفاء مسلمين ، كما قدمنا بيانه.

ثامناً: أن من سمى المشرك الجاهل مسلما فيلزمه الحكم بإسلام كل جاهل :

ومن ذلك : لو أن نصرانيا أراد الإسلام ونطق بالشهادتين وبعد إسلامه قال الله هو عيسى أو ابن الله ومحمد رسوله ولا يعلم أن هذا يبطل الشهادتين، أو أسلم نصراني ويظن أن عيسى هو الله ، وهو حديث عهد ، فهل يوجد من سيحكم على هذا بأنه مسلم أو دخل في الإسلام ؟ أم سيقال هذا كافر أو لازال كافرا .

ومثله من أسلم على دين غلاة الباطنية والدروز ممن يقول عليا هو الله ونطق بالشهادتين .

ومثله من يقول الشهادتين ويعتقد أن المعبود حقا الذي يدعا هو الولي .

أو لو أنكر المسلم وجود الله عن جهل أو التبس عليه شبهات الشيوعية .

أو أسلم وأنكر نبوة محمد ﷺ عن جهل وقال لا يوجد هناك شيء اسمه نبي ورسول وقالها عن جهل فهل يا ترى سيحكم هؤلاء بإسلامه لكونه مسلماً من أبوين مسلمين أو لأجل نطقه بالشهادتين من دون أن يعرف أدنى معنى لها .

فإن حكم بإسلام هؤلاء كان بنفسه واقعاً في كفر بذاته ويستتاب منه، وإن حكم بكفر هؤلاء مع نطقهم بالشهادتين قلنا كذلك يجب أن يقال في من فعل الشرك عن جهل لا بد من الحكم بكفره لكن لا يقتل حتى يستتاب وتقوم عليه الحجة.

تاسعاً: أن الملل الكافرة قسمان :

أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى واختلف في المجوس والصابئة .

مشركون عباد أوثان من الأصنام والقبور والمحاكم كلها أوثان معبودة يكفر من صرف العبادة لها ولو كان جاهلا ولو أنه من المنتسبين للإسلام ، فلا فرق .

وكما لا يقال مسلم نصراني، فكذلك لا يقال مسلم مشرك ، لا يجتمعان ألبته، فمن عبد غير الله لا يكون مسلما، ولا يكون مسلماً حتى يترك الشرك بالكلية.

كما يقال في المسلم الجاهل إذا تنصر يكفر بمجرد دخوله في النصرانية، ولو ظن مع ذلك أنه يمكن الجمع بينها، فيدخل في النصرانية مع بقائه على الإسلام، فهذا يكفّر مطلقا ولا ينظر في الشروط والموانع وإقامة الحجة قبل تكفيره ، فكذا يقال ذلك في من أشرك ودخل في دين المشركين وعبد الأوثان والقبور ودعا الأموات وتحاكم إلى الطاغوت وحكم به مع ظنه البقاء على الإسلام .

وتكفير المشرك محل إجماع ومن زعم أنها مسألة خلافية فهو كافر، واختلف في تكفير من عذره بجهله وسماه مسلما ، ومن فرق بين الأصلي والمرتد المشرك والمتنصر المنتسب للإسلام فقد خالف الإجماع وعطل النصوص ووقع في ناقض كما تقدم.

عاشراً: أن قول كلمة التوحيد لا تنفع إلا بالعلم بمعناها والعمل بمقتضاها وعدم نقضها ، كما أن الصلاة لا تنفع إذا أخل بشروطها وأركانها أو فعل ناقضاً لها .

المسألة الثالثة : حقيقة الإسلام والشرك ، وتقدم .

الرابعة: كلام العلماء في من جهل التوحيد وأشرك جاهلا أنه كافر غير مسلم:

١- قال المروزي (٢٩٤هـ): (إنما يكفر من جحد الفرائض لتكذيبه خبر الله ، ولو لم يأت خبر أو جاء الخبر ولم يسمع بالخبر من المسلمين لم يكن بجهل الفرائض كافرا، والجهل بالله في كل حال كفر قبل الخبر وبعده) نقله عنه ابن تيمية ٧/ ٣٢٥ .

فتأمل كيف فرق بين الجهل بالله والتوحيد وأصل الإسلام وبين الجهل بالفرائض ، فيعذر الثاني بجهله دون الأول .

٢- قال ابن منده (ت:٣٩٥هـ) : (ذكر الدليل على أن المجتهد المخطئ في معرفة الله ﷻ ووحدانيته كالمعاند) التوحيد ٢٦١ .

٣- قال ابن هبيرة : (من المسلمين من يخرج من المسلمين من غير أن يقصد الخروج منه ، ومن غير أن يختار دينا على دين الإسلام) فتح الباري ١٢/ ٣٠١.

٤- قال ابن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ) : (القول في المعاني التي تدرك حقائق المعلومات من أمور الدين ، وما يسع الجهل به منه وما لا يسع ذلك فيه ، وما يعذر بالخطأ فيه المجتهد الطالب وما لا يعذر بذلك فيه) .ثم قال : (والآخر منهما

غير معذور بالخطأ فيه ومكفر بالجهل به الجاهل ... **فأما الذي لا يجوز الجهل به من دين الله فتوحيد الله تعالى ذكره والعلم بأسمائه وصفاته وعدله**) التبصير ص١١٢ .

وقال في تفسير ﴿وَمَايَشْعُرُونَ﴾ البقرة: (الآية من أوضح الدليل على تكذيب الله قول الزاعمين أن الله لا يعذب من عباده إلا من كفر به عنادا بعد علمه بوحدانيته وبعد تقرر صحة ما عاند ربه تعالى عليه من توحيده والإقرار بكتبه ورسله عنده).

وقال ابن جرير في تفسير آية: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأعراف: ٣٠: (وهذا من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحدا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عنادا منه لربه لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه هاد وفريق الهدى فرق **وقد فرق الله بين أسمائها وأحكامها في هذه الآية**).

وقال في تفسير آية :﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف: ١٠٤: (وإن زعم هؤلاء أنهم يتعبدون الله ويتقربون إليه ومع هذا كله كفّرهم وسماهم بأسماء الكفرة وجعل لهم أحكامهم في الآخرة ، ولازمه أنه لم يعذرهم على جهلهم وظنهم أنهم على حسن من العمل صالح ... فجهلهم غير مقبول لوجوب طلب الهدى ... وهذا من أدل الدلالة على خطأ من زعم أنه لا يكفر أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر) .

٥- قال اللالكائي: (باب سياق ما يدل من كتاب الله ﷻ وما روي عن رسول الله ﷺ على أن وجوب معرفة الله تعالى وصفاته بالسمع لا بالعقل قال وكذلك وجوب معرفة الرسل بالسمع ،وقال وهذا مذهب أهل السنة والجماعة). ٢/ ٢١٦.

٦- قال البربهاري: (وكفروا من حيث لا يعلمون من وجوه شتى) السنة٩٠.

٧- قال ابن تيمية : (**وقد فرق الله بين ما قبل الرسالة وما بعدها في أسماء وأحكام وجمع بينها في أسماء وأحكام**) الفتاوى ٢٠/ ٣٧ .

وقال: (**ومعرفة حدود الأسماء واجبة ، لاسيما حدود ما أنزل الله على رسوله**).

وقال ابن تيمية: (**اسم الشرك يثبت قبل الرسالة فإنه يشرك بربه ويعدل به ويجعل معه آلهة أخرى ويجعل له أندادا قبل الرسول**) الفتاوى ٢٠/ ٣٨.

وقال:(**والكفر المعذب عليه لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة**) الفتاوى ٢/ ٧٨.

ويفهم من كلامه وجود كفر آخر كما صرح في النقل السابق فالكفر والشرك منه المتعلق بالاسم ولحوق التكفير ومنه كفر التعذيب ومنه تكفير القتال والقتل .

وقال : (الاسم الواحد ينفى ويثبت بحسب الأحكام المتعلقة به فلا يجب إذا ثبت أو نفي في حكم أن يكون كذلك في سائر الأحكام) ٧/ ١٦٤ .

قال ابن تيمية: (هذه الأمور لا يشك من عرف الإسلام أنها من الشرك .. وإن أصحابها إن كانوا معذورين بالجهل وأن الحجة لم تقم عليهم كما يعذر من لم يبعث إليه رسول ، كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وإلا كانوا مستحقين من عقوبة الدنيا ما يستحقه أمثالهم من المشركين ، والذين يؤمنون بالرسول ﷺ إذا تبين له حقيقة ما جاء به الرسول وتبين له أنه مشرك، فإنه يتوب إلى الله ويجدد إسلامه، فيسلم إسلاما يتوب فيه من هذا الشرك) قاعدة عظيمة ٧٤ ، ١٥٢ .

فانظر كيف سماهم مشركين ولم يحكم بإسلامهم بل لا بد أن يجددوا إسلامهم، فبهذا يعرف مقصود التكفير المنفي عنده هو الكفر المعذب عليه لا اسم الكفر المناقض للإسلام لأنه لا يجتمع الإسلام مع الشرك كما قرره في مواضع كثر.

كما نقلنا له كلاماً نفيساً في الفتاوى ١٤/ ٤٧٧ ، بين فيه أن المشرك كافر ولا يسمى مسلما ولا يدخل الجنة ولو كان جاهلا ، وأن المشرك لم يأت بالإسلام ولم يحققه فلا يصح أن يسمى مسلما ، ولا يجتمع إسلام مع الشرك.

وقال : (فمن عبده وعبد معه إلها آخر لم يكن مسلماً) الفتاوى ٧/ ٢٦٣ .

وقال مكفرا دعاة الصوفية المشركة المتأولين ومكفرا من يتبعهم من الجهال : (قالوا : نحن نتوّب الناس . فقلت مماذا تتوبونهم ؟ قالوا : من قطع الطريق والسرقة ونحو ذلك ، فقلت حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم ، فإنهم كانوا فساقا يعتقدون تحريم ماهم عليه ، فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام) الفتاوى ١١/ ٤٧٢.

وقال : (لا يكفّر العلماء من استحل شيئا من المحرمات لقرب عهده بالإسلام أو لنشأته ببادية بعيدة ، فإن حكم الكفر لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة) ٢٨/ ٥٠١.

فانظر كيف فرق بين اسم الكفر وحكمه ، وخص العذر بالجهل في استحلال المحرم وجحد الواجب لا التوحيد .

قال ابن تيمية : (ولهذا كان كل من لم يعبد الله فلا بد أن يكون عابدا لغيره يعبد غيره فيكون مشركا وليس في بني آدم قسم ثالث بل إما موحد أو مشرك أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل والنصارى ومن أشبههم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام) الفتاوى ١٤/ ٢٨٢ .

قال ابن تيمية : (كذلك من دعا غير الله وحج إلى غير الله هو أيضًا مشرك، والذي فعله كفر، لكن قد لا يكون عالمًا بأن هذا شرك محرم . كما أن كثيرًا من الناس دخلوا في الإسلام من التتار وغيرهم وعندهم أصنام لهم صغار من لبد وغيره وهم يتقربون إليها ويعظمونها ولا يعلمون أن ذلك محرم في دين الإسلام، ويتقربون إلى النار أيضًا ولا يعلمون أن ذلك محرم ، فكثير من أنواع الشرك قد يخفى على بعض من دخل في الإسلام ولا يعلم أنه شرك، فهذا ضال وعمله الذي أشرك فيه باطل، لكن لا يستحق العقوبة حتى تقوم عليه الحجة) الإخنائية ص: ٢٠٦.

فانظر كيف سماه مشركا مع جهله ، ونفى عنه العقوبة دون اسم الشرك.

وقال : (ولولا بعد عهد الناس بأول الإسلام ونقص العلم وظهور الجهل واشتباه الأمر على كثير من الناس لكان هؤلاء المشركون والآمرون بالشرك مما يظهر كفرهم وضلالهم أعظم مما يظهر ضلال الخوارج والرافضة) . الإخنائية ٢١٢ .

وقال : (الذين يأمرون بالحج إلى القبور ودعاء الموتى هم مشركون من جنس عباد الأوثان) الإخنائية ٤٦٥ .

وقال : (وكذلك في وقتنا خلق كثير من المتسبين إلى الإسلام ممن أشرك ببعض من يعظمه من الأحياء والأموات من المشايخ وغيرهم فيدعوه ويستغيث به في حياته وبعد مماته فيراه قد أتاه وكلمه وقضى حاجته وإنما هو شيطان تمثل على صورته ليغوي هذا المشرك) الفتاوى ١٠/ ٥٩٣ ، ١٩/ ٤٧ .

وقال لمن استغاث به وسمّاه مشركا : (ويقع لأهل الشرك من المتسبين إلى الإسلام الذين يستغيثون بالموتى والغائبين يتصور لهم الشيطان في صورة المستغاث ، وبينت لمن استغاث بي أن ذلك شيطانا ولم أكن أنا ، فقيل لم لا يكون ملكا ؟ فقلت الملك لايغيث المشرك وأنت استغثت بي فأشركت) ١٩/ ٤٧ وقاعدة عظيمة ١٦٥ .

وقال : (ومن سأل ذلك مخلوقا كائنا من كان فهو مشرك بربه من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والتماثيل التي يصورنها على صورهم ومن جنس دعاء النصارى للمسيح وأمه) الفتاوى ٢٧/ ٦٧.

وكلامه في تسمية عباد القبور ودعاة الأموات مشركين كثير في كتبه .

٨- قال ابن القيم : (والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسوله واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يك

كافراً معانداً فهو كافر جاهل ، وعدم عنادهم لايخرجهم عن كونهم كفاراً) طريق الهجرتين ٤٤٩ .

وقال فيه : (كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل) .

قال ابن القيم مبيننا كفر التعذيب لا يطلق ولا ينفى أحكام الكفر دون اسمه في أحكام أهل الذمة : (هؤلاء أي أهل الفترة والمجانين لا يحكم لهم بكفر ولا إيمان ، فإن الكفر هو جحود ما جاء به الرسول فشرط تحققه بلوغ الرسالة .. فلما لم يكن هؤلاء في الدنيا كفارا ولا مؤمنين كان لهم في الآخرة حكم آخر غير حكم الفريقين .

فإن قيل : فأنتم تحكمون لهم بأحكام الكفار في الدنيا من التوارث والولاية والمناكحة قيل : إنما نحكم لهم بذلك في أحكام الدنيا لا في الثواب والعقاب.

الثاني : سلمنا أنهم كفار لكن انتفاء العذاب عنهم لانتفاء شرطه وهو قيام الحجة عليهم فإن الله لا يعذب إلا من قامت عليه الحجة) أهل الذمة ٢/ ١١١ .

فانظر كيف نص ابن القيم على أن هناك كفرين الكفر المعذب عليه ويسمى كفر التعذيب وكفر الاسم.

وقال في طريق الهجرتين الطبقة السابعة عشر : (طبقة المقلدين وجهال الكفار وأتباعهم الذين هم معهم يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على أسوة بهم ومع هذا فهم مسالمون لأهل الإسلام غير محاربين كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم .. وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالا مقلدين وأئمتهم إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع أنه لايحكم لهؤلاء بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من المسلمين ولا الصحابة، وهذا المقلد ليس بمسلم وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف وهو بمنزلة الأطفال والمجانين).

وقال فيه : (فإن قيل فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى قيل لا عذر لهذا وأمثاله من الضلّال الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ ولو ظن أنه مهتد فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى فإذا ضل فإنما أتى من تفريطه وإعراضه، وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها فذاك له حكم آخر والوعيد في القرآن يتناول الأول وأما الثاني فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه).

وقال فيه : (الفرق بين مقلد تمكن من العلم فأعرض عنه ومقلد لم يتمكن من ذلك فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب لا عذر له).

وقال ابن القيم في تعليقه على آية الميثاق (وهذا يقتضي أن نفس العقل الذي به يعرفون التوحيد حجة في بطلان الشرك لا يحتاجون في ذلك إلى رسول ، وهذا لايناقض (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال فكون ذلك فاحشة وإثما وبغيا بمنزلة كون الشرك شركا ،فهو شرك في نفسه قبل النهي وبعده فمن قال إن الفاحشة والقبائح والآثام إنما صارت كذلك بعد النهي فهو بمنزلة من يقول الشرك إنما صار شركا بعد النهي وليس شركا قبل ذلك ومعلوم أن هذا مكابرة صريحة للعقل والفطرة) مدارج السالكين ١/ ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠.

٩- قال ابن أبي العز: (فلو أقر رجل بتوحيد الربوبية ، الذي يقر به هؤلاء النظار ويفنى فيه كثير من أهل التصوف ويجعلونه غاية السالكين ، وهو مع ذلك لم يعبد الله وحده ويتبرأ من عبادة ما سواه كان مشركا من جنس أمثاله من المشركين) شرح الطحاوية ١٥٠.

١٠- قال النووي في شرح مسلم : (أما دخول المشرك النار فهو على عمومه ، فيدخلها ، ويُخلد فيها ، ولا فرق فيه بين الكتابي وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ، ولا بين من خالف مِلة الإسلام وبين من أنتسب إليها ثم حُكم بكفره).

١١- قال الصنعاني في تطهير الاعتقاد: (أفيصير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور كالذين يعتقدون في الأصنام : قلت نعم قد حصل فيهم ما حصل في أولئك وساووهم في ذلك بل زادوا عليهم في الاعتقاد والانقياد والاستعباد .

فإن قلت هؤلاء القبوريون يقولون نحن لا نشرك بالله والالتجاء إلى الأولياء ليس شركاً ، قلت هذا جهل منهم بمعنى الشرك، فإن هذا الذي يفعلونه هو عين الشرك وما كان يفعله الأولون .

فإن قلت هم جاهلون أنهم مشركون بما يفعلونه .

قلت : قد صرح الفقهاء في باب الردة أن من تكلم بكلمة الكفر يكفر وإن لم يقصد معناها وهذا دال على أنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام ولا ماهية التوحيد فصاروا حينئذ كفاراً كفراً أصلياً، فإن الله تعالى قد فرض على عباده إفراده بالعبادة وإخلاصها ومن نادى الله ثم نادى معه غيره فقد أشرك .) . انتهى كلامه رحمه الله .

١٢- قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (فجنس هؤلاء المشركين نحكم بأنهم مشركون ونرى كفرهم إذا قامت عليهم الحجة) الدرر ١/ ٤٣٤ .

فانظر كيف سماهم مشركين فهل يصح أن يقال مسلمين مشركين، مما يدل على أنه يقصد بالتكفير حكمه المتعلق بالقتال والتعذيب وليس اسمه.

(الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه قد يقولها وهو جاهل فلا يعذر).

وقال في التوحيد في باب لابس الحلقة وأنه لايفلح: (إنه لم يعذر بالجهالة).

وقال : (فمن عبد الله ليلا ونهارا ثم دعا نبيا أو ليا عند قبره فقد اتخذ إلهين إثنين ولم يشهد أن لا إله إلا الله ، لأن الإله هو المدعو ، كما يفعل المشركون اليوم عند قبر الزبير وعبد القادر وغيرهم) . الدرر ١٠/ ٧١. فصرح أنه اتخذ إلهين ولم يتشهد.

فهل يمكن أن يكون هذا مسلما لأنه جاهل في حكم الشيخ وغيره من العلماء.

وقال : (وأنت ترى المشركين من أهل زماننا ولعل بعضهم يدعي العلم وفيه زهد وعبادة ، إذا مسه الضر قام يستغيث بغير الله) المؤلفات العقيدة ٣٦٣.

وقال :(من مات من أهل الشرك قبل بلوغ هذه الدعوة فالذي يحكم عليه إذا كان معروفا بفعل الشرك ومات عليه فهذا ظاهره أنه مات على الكفر فلا يُدعى له وأما حقيقة أمره فإلى الله فإن قامت عليه الحجة وعاند فهذا كافر في الظاهر والباطن وإن لم تقم عليه الحجة فأمره إلى الله) الدرر ١٠/ ١٤٢ ، ومثله جاء عن أبنائه.

وقال : (فإذا عرفت أن جُهال الكُفار يعرفون ذلك ، فالعجب ممن يدعي الإسلام ، وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جُهال الكفار،بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها، من غير اعتقاد القلب، بشيء من المعاني الدرر ١/ ٧٠ .

١٣- قال أئمة الدعوة: (إذ كان يعمل بالكفر والشرك لجهله وعدم من ينبهه ، لا نحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة ، ولكن لانحكم بأنه مسلم) الدرر ١/ ١٣٦ .

وقال أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحمد بن ناصر آل معمر : (إذا كان يعمل بالكفر والشرك لجهله أو عدم من ينبهه لا نحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة ولكن لا نحكم بأنه مسلم) الدرر١٠/ ١٣٦ .

وإن كان كلامهم في التكفير المعذب عليه وهذا مصطلح لابن تيمية وأئمة الدعوة إلا أنه لا يعني كلامهم أنهم ليسوا بمشركين بل يجزم بكفرهم ويلحقهم اسم الكفر دون حكم القتل والعذاب ، فتنبه ولا تظن أن كلامهم عدم تسميتهم كفار.

وقال عبد الرحمن بن حسن وابنه عبد اللطيف: (من فعل الشرك فقد ترك التوحيد فإنهما ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فمتى وجد الشرك انتفى التوحيد) الدرر الدرر ٢/ ٢٠٤، المنهاج ص٦.

وقال: (أجمع العلماء أن المرء لا يكون مسلما إلا بالتجرد من الشرك والبراءة منه وممن فعله) الدرر ١١/ ٥٤٥، ٥٣٦.

فكيف يكون مسلما لأنه جاهل وهو مشرك.

فلا يمكن أن يكون أحد مسلم مشرك لآبد من أحدهما.

وقال: (والعلماء ذكروا باب حكم المرتد ولم يقل أحد منهم أنه إذا قال أو فعل كفرا وهو لا يعلم أنه يضاد الشهادتين أنه لا يكفر بجهله) الدرر ١١/ ٤٧٨.

وقال عبداللطيف: (فيمن يظن أن كلام أهل العلم وتقييدهم بقيام الحجة ينفي اسم الكفر والشرك وقال إن عدم قيام الحجة لا يغير الأسماء الشرعية بل يسمى ما سماه الشرع كفرا أو شركا باسمه ولا ينفيه عنه وإن لم يعاقب فاعلها إذا لم تقم عليه الحجة) المنهاج ٣١٦.

وقال: (كم هلك بسبب قصور العلم وعدم معرفة الحدود والحقائق من أمة وكم وقع بذلك من غلط وريب وغمة مثال ذلك الإسلام والشرك نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان والجهل بالحقيقتين أو أحدهما أوقع كثيرا من الناس بالشرك وعبادة الصالحين لعدم معرفة الحقائق وتصورها) منهاج التأسيس ص١٢.

وقال إسحاق في تكفير المعين: (كيف يجعل النهي عن تكفير المسلمين متناولا لمن يدعو الصالحين ويستغيث بهم ويصرف لهم العبادة وهذا باطل بالنصوص والإجماع).

وقال سليمان بن عبد الله في شرحه لكتاب التوحيد: (ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق بشهادة أن لا إله إلاَّ الله محمداً رسول الله، ولم يعرف معنى الإله ولا معنى الرسول، وصلى وصام وحج ولا يدري ما ذاك إلاَّ أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل الشرك، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه).

وقال أيضا في التيسير: (من تكلم بهذه الكلمة عارفاً لمعناها عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً، كما دل عليه قوله: {فاعلم أنه لا إله إلاَّ الله} وقوله: {إلاَّ من شهد بالحق وهم يعلمون} أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع. فتباً لمن كان أبو جهل وغيره أعلم منه بلا إله إلاَّ الله).

وقال عبد الله أبا بطين في الانتصار : (وقد ذكر العلماء من أهل كل مذهب أشياء كثيرة لا يمكن حصرها من الأقوال والأفعال والاعتقادات أنه يكفر صاحبها ولم يقيدوا ذلك بالمعاند فالمدعي أن مرتكب الكفر متأولا أو مجتهدا أو مخطئا أو مقلدا أو جاهلا معذور مخالفا للكتاب والسنة والإجماع بلا شك).

وقال فيه: (جزم ابن تيمية بتكفير من فعل الشرك ولم يستثن الجاهل).

وقال : (كل من فعل اليوم ذلك عند المشاهد فهو مشرك كافر بدلالة الكتاب والسنة والإجماع، ونحن نعلم أن من فعل ذلك ممن ينتسب إلى الإسلام أنه لم يوقعهم في ذلك إلا الجهل، فلو علموا أن ذلك من الشرك لم يقدموا عليه، فكفرهم جميع العلماء ولم يعذروهم بالجهل، كما يقول بعض الضالين أن هؤلاء معذورون لأنهم جهال) الدرر ١٠/ ٤٠٥.

وقال أيضا (تقدم كلام ابن عقيل في جزمه بكفر الذين وصفهم بالجهل فيما ارتكبوه من الغلو في القبور نقله عنه ابن القيم مستحسنا له)الدرر ١٠/ ٣٩٤.

قال ابن باز : (من عُرف بدعاء الأموات والاستغاثة بهم والنذر لهم ونحو ذلك من أنواع العبادة فهو مشرك كافر لا تجوز مناكحته ولا دخوله المسجد الحرام ولا معاملته معاملة المسلمين ولو ادعى الجهل .. ولا يلتفت إلى كونهم جهالا بل يجب أن يعاملوا معاملة الكفار حتى يتوبوا) تحفة الإخوان ٣٧ .

الخامسة : الجواب عن الأدلة والأقوال المخالفة ما يحتج به المخالفون :

النوع الأول : ما يستدل به من أدلة .

فسيأتي نقض استدلالهم بها في كشف الشبهات . إن شاء الله تعالى .

النوع الثاني : من كلام للعلماء :

أولاً : الإمام ابن تيمية :

أ- قوله في كتابه الاستغاثة: (ولكن لغلبة الجهل لم يمكن تكفيرهم حتى يبين لهم) .

توجيه قول ابن تيمية :

١ - أن كلامه في كفر التعذيب والقتال وليس في الاسم والوصف ، بدليل أنه قال : (الكفر المعذب عليه لا يكون إلا بعد الرسالة) ٢/ ٢٨.

٢- أنه قال لم يمكن تكفيرهم ، وهذا منه عدم حكم بالتكفير، لكن لا يفهم منه الحكم بإسلامهم ، قاله أبا بطين .

ب- حكمه بإسلام الروافض .

١- أنه قصد من ليس عنده منهم بدع مكفرة ولا بالمشركين ، ولهذا قال غلاة الرافضة مما يعني أنه تكلم عن روافض في زمنه لم يكن عندهم شرك.

٢- ويحتمل أن يكون هذا قول له ورجع عنه .

٣- أن له كلاما صريحا في تكفير الرافضة بل وتكفير من لم يكفرهم ذكرناه.

٤- أن له كلاما صريحا في تكفير المشركين ، وقد ذكرناه في النقول قريباً.

وإليك بعض كلامه :

قال ابن تيمية: (اسم الشرك يثبت قبل الرسالة) الفتاوى ٢٠/ ٣٨.

وقال:(والكفر المعذب عليه لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة) الفتاوى ٢/ ٧٨.

ويفهم من كلامه وجود كفر آخر كما صرح في النقل السابق فالكفر والشرك منه المتعلق بالاسم ولحوق التكفير ومنه كفر التعذيب ومنه تكفير القتال والقتل .

وقال: (هذه الأمور لا يشك من عرف الإسلام أنها من الشرك..وإن أصحابها إن كانوا معذورين بالجهل والحجة لم تقم عليهم كما يعذر من لم يبعث إليه رسول، وإلا كانوا مستحقين من عقوبة الدنيا ما يستحقه أمثالهم من المشركين، والذين يؤمنون بالرسول ﷺ إذا تبين له حقيقة ما جاء به وتبين له أنه مشرك، فإنه يتوب ويجدد إسلامه، فيسلم إسلاما يتوب فيه من هذا الشرك) قاعدة عظيمة ٧٤ ، ١٥٢ .

فانظر كيف سماهم مشركين ولم يحكم بإسلامهم بل لا بد أن يجددوا إسلامهم، فبهذا يعرف مقصود التكفير المنفي عنده هو الكفر المعذب عليه لا اسم الكفر المناقض للإسلام لأنه لا يجتمع الإسلام مع الشرك كما قرر ه في مواضع كثر.

قال ابن تيمية : (كذلك من دعا غير الله هو أيضًا مشرك، والذي فعله كفر، لكن قد لا يكون عالمًا بأن هذا شرك محرم .. لكن لا يستحق العقوبة حتى تقوم عليه الحجة) الإخنائية ٢٠٦.

فانظر كيف سماه مشركا مع جهله ، ونفى عنه العقوبة دون اسم الشرك.

وقال : (ولولا بعد عهد الناس بأول الإسلام ونقص العلم وظهور الجهل واشتباه الأمر على كثير من الناس لكان هؤلاء المشركون والآمرون بالشرك مما يظهر كفرهم وضلالهم أعظم مما يظهر ضلال الخوارج والرافضة) . الإخنائية ٢١٢ .

ثانياً : الإمام محمد بن عبد الوهاب :

قال: (وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبر عبد القادر والبدوي لأجل جهلهم وعدم من ينبههم) ١/ ١٠٤ .

وقال (إنما نكفر من أشرك بالله بعدما نبين له الحجة على بطلان الشرك) الرسائل ٦٠ .

ومثله الشيخ عبداللطيف قال : (من فعل ذلك الشرك ممن يأتي بالشهادتين يحكم عليه بعد بلوغ الحجة بالكفر والردة) مصباح الظلام .الجواب عنه :

والجواب أنه قصدهم التكفير المعذب عليه لا اسم الكفر والشرك ، وكلام الشيخ وطلابه في عدم تكفير المشركين الجهال هو تكفير التعذيب والقتال وليس فيه الحكم بإسلامهم ، وكلامه هنا صريح في التوقف في أمرهم المتعلق بعذابهم ولم يحكم بإسلامهم، فأين ما أخذه الجهال بالحكم بإسلام المشركين محتجين بالكلام السابق.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (فجنس هؤلاء المشركين نحكم بأنهم مشركون ونرى كفرهم إذا قامت عليهم الحجة) الدرر ١/ ٤٣٤ .

فانظر كيف سماهم مشركين فهل يصح أن يقال مسلمين مشركين، مما يدل على أنه يقصد بالتكفير حكمه المتعلق بالقتال والتعذيب وليس اسمه.

وذهب الشيخ عبد الرحمن بن حسن إلى أن ذلك كان في بداية الدعوة لمصلحة.

وفي جواب الشيخ إسحاق في تكفير المعين قال: توقفه كان لأمر ، وكيف يترك قوله في جميع المواضع مع دليل الكتاب والسنة ويقبل في موضع واحد.

وقال بعضهم أن قوله ذلك كان أول الدعوة ثم رجع عن قوله .

وقال أئمة الدعوة : (وأما قوله إنه لا يكفر من عبد قبة الكواز ونحوه ولايكفر الوثني حتى يدعوه وتبلغه الحجة فيقال نعم فإن الشيخ لم يكفر الناس ابتداء إلا بعد قيام الحجة والدعوة لأنهم إذ ذاك زمن فترة وعدم علم بآثار الرسالة ولذلك قال لجهلهم وعدم من ينبههم فأما إذا قامت الحجة فلا مانع من تكفيرهم وإن لم يفهموه) ١٠/ ٤٣٤.

وفي كلام أئمة الدعوة وجوابهم عن هذه الجملة من كلا م الشيخ محمد دليل على أن المستقر عندهم عدم عذر المشرك.

السادسة : عباد القبور الناشئين على الشرك كفار كفراً أصليا وليسو مرتدين:

من ولد من أبوين واقعين في الشرك ونشأ على الشرك لا يعرف غيره وهو من أهل الإسلام ويقول الشهادتين ويصوم ويصلي هل يعتبر هذا مرتداً أو كافراً أصلياً على قول من لا يعذر بالجهل في الشرك على قولين :

مسألة صفة كفر الرافضة وحالهم ، وهل نعتبرهم كفارا أصليين أو مرتدين ؟

فنقول أن المسألة خلافية بين أهل السنة ، وهي تخرّج على أولاد المرتدين ومن ولد على الردة ، على أن هذه الطوائف الحكم فيهم أظهر وأولى لكونهم صاروا أصحاب ديانة مستقلة من قرون ولأنهم لم يكونوا في زمن القرون المفضلة فالرافضة والقرامطة ظهروا في أواخر القرن الثالث.

فالقول الأول: أنهم كفار أصليون لأن من ولد من أبوين مشركين ونشأ على الشرك يعتبر كافراً كفراً أصلياً ولا يعتبر مرتدا ، لأن المرتد هو من يسبق له إسلام صحيح وهذا لم يسبق له إسلام بل نشأ على الكفر منذ ولادته لا يعرف غيره ولا يعرف الإسلام وما دلت عليه لا إله إلا الله .

وهذا الذي عليه المحققون من أهل العلم وهو المنصوص عن الإمام أحمد خلافا للشافعي.

قال ابن قدامة : (أولاد المرتدين إن كانوا ولدوا قبل الردة فإنه محكوم بإسلامهم تبعا لآبائهم ولا يتبعونهم في الردة فلا يجوز استرقاقهم ، وإن كفروا فهم مرتدون، وأما من حدث بعد الردة فهو محكوم بكفره، لأنه ولد بين أبوين كافرين ، ويجوز استرقاقه لأنه ليس بمرتد نص عليه أحمد، ويحتمل أن لا يجوز استرقاقهم لأن آباءهم لا يجوز استرقاقهم ولأنهم لا يقرون على الجزية فلا يقرون بالاسترقاق، وهذا مذهب الشافعي، وقال أبو حنيفة إن ولدوا بدار الإسلام لم يجز استرقاقهم وإن ولدوا في دار الحرب جاز استرقاقهم . ولنا أنهم لم يثبت لهم حكم الإسلام فجاز استرقاقهم). المغني ١٠/ ٨٩ .

فعلى كلام ابن قدامة هذا تعتبر الرافضة وعامة عباد القبور وغيرهم من الطوائف الكافرة– على مذهب الإمام أحمد– كفارا أصليين وليسوا بمرتدين وهم أولى بهذا الحكم من ولد المرتد.

كما أن هذا القول هو رأي الإمام الصنعاني في قوله في كتابه تطهير الاعتقاد: (فصاروا حينئذ كفارا كفراً أصلياً) .

وقد نصر قول الإمام الصنعاني الشيخ عبدالله أبابطين مفتي نجد في تعليقه على كلام الصنعاني هذا حين سئل عن مراده .

فقال الشيخ أبا بطين : (وقوله أي الصنعاني: فصاروا كفاراً كفراً أصلياً : يعني أنهم نشؤوا على ذلك فليس حكمهم كالمرتدين الذين كانوا مسلمين ثم صدرت منهم هذه الأمور الشركية) مجموعة الرسائل ٤/ ٣٧٥ .

كما أن هذا أيضاً قول الشيخ حمد بن معمر التميمي قاضي مكة والمتوفى بها سنة ١٢٢٥هـ حين سئل هل كفار زماننا هم مرتدون أم حكمهم حكم عباد الأوثان فقال : (أما من دخل في دين الإسلام ثم ارتد فهؤلاء مرتدون وأما من لم يدخل في دين الإسلام بل أدركته الدعوة وهو على كفره كعبدة الأوثان فحكمه حكم الكافر الأصلي، لأنا لا نقول الأصل إسلامهم والكفر طارئ عليهم بل نقول هم الكفار الأصليون وهم الذين نشؤوا بين الكفار وأدركوا آباءهم على الشرك بالله فهم كآبائهم) الدرر ١٠/ ٣٣٥ .

وقال أيضاً: (فإنه لا يمكن أن نحكم على كفار زماننا بما حكم به الفقهاء في المرتد أنه لا يرث ولا يورث وأن ماله لبيت المال ، لأنه يلزم أن جميع أموال الكفار اليوم لبيت المال، أما إذا حكمنا فيهم بحكم الكفار الأصليين لم يلزم شيء من ذلك بل يتوارثون فمن أسلم على شيء فهو له).

القول الثاني : أنهم مرتدون ولا يعتبرون من الكفار الأصليين، لأنهم ينتسبون لأهل الإسلام وينطقون بالشهادتين .

وأظهر من قال بهذا ابن تيمية ونسبه ابن قدامة للإمام الشافعي كما تقدم في سياق القول الأول.

قال ابن تيمية: (النصيرية مرتدون...لايجوز أن يقروا بين المسلمين لا بجزية ولا بذمة لأنهم مرتدون من شر المرتدين) الفتاوى ٢٨/ ٤٧٥-٥٥٣.

وقال: (جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين...هؤلاء كفار باتفاق المسلمين لا يقرون بالجزية فإنهم مرتدون عن دين الإسلام) ٣٥/ ١٥٨-١٦٢.

أما قول بعض السلف كطلحة بن مصرف وأحمد بن يونس: (الرافضة أهل ردة) كما خرج ابن بطة واللالكائي، فالرافضة في زمانهم كالجهمية لايتبعهم أبناؤهم على مذهبهم غالباً كما أنهم ليسوا كهؤلاء في عبادة القبور.

كما أن ممن قال بهذا القول الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ بل وزعم أن القول الأول أنهم كفار أصليون ليس إلا قول الصنعاني ولم يقل به غيره.

فقال في مصباح الظلام: (تكلم الناس في بلاد المشركين الذين يعبدون الأنبياء والصالحين كغلاة القبوريين فهؤلاء تكلم الناس في كفرهم وشركهم والمعروف المتفق عليه عند أهل العلم أن من فعل ذلك ممن يأتي بالشهادتين يحكم عليه بعد بلوغ الحجة بالكفر والردة ولم يجعلوه كافراً أصلياً وما رأيت ذلك لأحد سوى محمد بن إسماعيل في رسالته تجريد التوحيد المسمى بتطهير الاعتقاد) مصباح الظلام ٢٢.

وتقدم في سياق القول الأول أن الذي يقول بذلك كثير، وبهذا يتبين معك خطأ الشيخ عبداللطيف في جعله القول بردتهم محل اتفاق وأنه لم يخالف إلا الصنعاني والذي لم يوافقه أحد على قوله ، حيث وافقه ونصر قوله قاضي مكة ومفتي نجد في زمانها وغيرهم ممن سبقهم لهذا القول .

وللخلاف في هذه المسألة ثمرات تظهر في : حكم إقرارهم على دينهم وفي الاستتابة وقبول توبتهم والتوريث وأخذ الجزية وغنيمة أموالهم وسبي ذراريهم وغيرها مما هو مبحوث في محله في التفريق بين أحكام المرتدين والكفار الأصليين ، وبعض هذه المسائل خلافية.

مبحث : أهل الفترة :

الفترة في اللغة الضعف والسكون والهدوء .

اصطلاحا: المدة والزمن الذي يكون بين نبيين لم يرسل إليه الأول ولم يدرك الثاني ولم تبلغه دعوة التوحيد ولم يعلم بها ، وقيل هي خاصة بما كان بعد عيسى .

قال تعالى:﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ المائدة: ١٩.

يلحق بأهل الفترة مجانين الكفار ومن في حكمهم وأطفالهم على قول .

وكل من لم تبلغه الدعوة ولم يتمكن من معرفتها .

وأحكام هؤلاء في الدنيا حكم الكفار في عدم توليهم وفي الصلاة والإرث والنكاح بخلاف القتال ، وفي الآخرة الصحيح أنهم يمتحنون يوم القيامة .

والدليل : عن الأسود بن سريع ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : (أربعة يمتحنون يوم القيامة ، فذكر الأصم والأحمق والهرم ورجل مات في فترة) .

قال ابن القيم: (يشد بعضها بعضا وصحح الحفاظ بعضها ، صحح البيهقي وعبد الحق حديث الأسود وأبي هريرة ورواها أئمة الإسلام) أهل الذمة ٢/ ٦٥٠ .

وقال الشيخ إسحاق: (أهل الفترة الذين لم تبلغهم الرسالة وماتوا في الجاهلية لا يسمون مسلمين بالإجماع ولا يستغفر لهم وإنما اختلف العلماء في تعذيبهم) .

لا يعارض امتحان أهل الفترة بدخول النار بتكليف ما لا يطاق كما قيل، وهو يشبه النار التي مع الدجال وكأمر بني إسرائيل أن يقتل بعضهم بعضا .

كما لا يعارض بكون الآخرة دار جزاء لا دار تكليف، لأن هذا يكون قبل الجزاء ودخول الجنة ثم هو من جنس الأمر بالسجود لله تعالى .

بعض ما استدل به من قال بعذاب أهل الفترة :

عن أنس ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي ؟ قال : في النار ، فلما قفى الرجل دعاه ، فقال :إن أبي وأباك في النار. رواه مسلم.

عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله ، إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : (لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين) رواه مسلم.

قال النبي ﷺ: (رأيت عمرو بن عامر الخُزاعي يجرُ قصبه في النار) رواه مسلم.

جاء في قدوم وفد بني المنتفق على رسول ﷺ : (فقلت : يا رسول الله ، هل لأحد مما مضى من خير في جاهليتهم ؟ فقال رجل من عرض قريش : والله إن أباك

المنتفق لفي النار ، قال : فكأنه وقع حر بين جلد وجهي ولحمه مما قال لأبي على رؤوس الناس ، فهممت أن أقول : وأبوك يا رسول الله ؟ ثم إذا الأخرى أجمل ، فقلت : يا رسول الله وأهلك ؟ قال : وأهلي ، لعمر الله حيث ما أتيت على قبر عامري أو قرشي أو دوسي ، قل : أرسلني إليك محمد ، فأبشر بما يسوؤك ، تجر على وجهك وبطنك في النار ، قال : قلت : يا رسول الله ، وما فعل بهم ذلك وقد كانوا على عمل لا يحسنون إلا إياه ، وكانوا يحسبون أنهم مصلحون ، فقال ﷺ ، ذلك بأن الله بعث في آخر كل سبع أمم نبياً ، فمن عصى نبيه كان من الضالين ، ومن أطاع نبيه كان من المهتدين) صححه ابن القيم في الزاد وغيره والصحيح أن في سنده مجاهيل.

وهذه الأحاديث لا تعارض حديث الامتحان لاحتمال أنها في قوم بلغتهم الحجة والله أعلم.

الكتاب التاسع :كشف الشبهات

شبهات في العذر بالجهل اثنتي عشرة شبهة.
شبهات في التكفير ثلاث وعشرون شبهة.
شبهات في الردة وقتل المرتد والنفاق وتقدمت.
شبهات في الشرك ستأتي في الناقض الأول والثاني.
شبهات في الحكم في الناقض الرابع.
شبهات بقية النواقض في محلها:
البغض، والاستهزاء، والسحر، والمظاهرة، والتولي، والإعراض.

قاعدة : حال أرباب الشبهات المجادلين عن المشركين :

قد رأينا في معظم شبهات المجادلين عن المشركين أنها تقوم على الطعن في الدين والتجرؤ على الله تعالى ورمي أنبياء الله كإبراهيم عليه السلام، ويوسف عليه السلام، والحواريين، والصحابة رضي الله عنهم، معاذ وعائشة، بالشرك المبين ثم يعتذرون عنهم بالجهل المُشين .

قالوا إبراهيم قال للكوكب هذا ربي ولم يعرف ربه.
ويوسف حكم بحكم الطاغوت لملك مصر.
والصحابة وقعوا في الشرك.

فنسبوا إليهم الكفر والجهل كل ذلك لأجل التعصب للرأي ، وجدالا عن المشركين وهذا مما يدل على عمى القلب، وانطماس البصيرة واتباع الهوى ، والعياذ بالله.

وهؤلاء القوم اتخذوا أئمة التوحيد مثالاً للجهل بالله، ورميهم بالكفر ثم يتهموهم بعد ذلك بالجهل ، وهم أولى بهذه الأفعال القبيحة الكفر بالله والجهل به.

أن ما يفعله طلاب الشبهات إنما هو سبيل أهل البدع في كل حين وهو انتزاع نص من الشريعة ومحاولة فهمه بعيداً عن النصوص الأخرى والتي توضحه.

نقض شبهات العذر بالجهل

الشبهة الأولى :استدلالهم بقوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء: ١٥.
هذا الدليل في مسألة العذاب وعلى عدم عذاب قوم إلا بعد إرسال رسول إليهم ، والكلام فيمن نقض التوحيد وتكفير من أشرك وتسميتهم كفاراً ومشركين كما سمّاهم الله تعالى مع نفى العذاب عنهم كما سمى أهل الفترة مشركين .

فالناس قبل البعثة وإقامة الحجة معذورون في أحكام وغير معذورين في أحكام أخرى معذورون أنهم لا يعذبون في الدنيا والآخرة ، حتى تقام عليهم الحجة الرسالية ، وهذا من رحمة الله وفضله . وغير معذورين في اقترافهم الشرك وما ينبني عليه من أحكام كعدم الصلاة عليهم ولا دفنهم في مقابر المسلمين ، وكعدم القيام على قبورهم والاستغفار لهم ، وحرمة أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم.

قال ابن القيم : (بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير الإسلام فهو كافر، وأن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول ، هذا في الجملة ، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه ، هذا في أحكام الثواب والعقاب ، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر ، فأطفال الكفار ومجانينهم كفر في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم) طريق الهجرتين.

قال ابن تيمية : (فلا ينجون من عذاب الله إلا من أخلص لله دينه وعبادته ودعاه مخلصا له الدين . فلا بد من عبادة الله وحده وهو واجب على كل أحد ، فلا يسقط عن أحد البتة ، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله دينا سواه . ولكن لا يعذب الله أحدا حتى يبعث إليه رسولا ، وكما أنه لا يعذبه ، فلا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة مؤمنة ولا يدخلها مشرك ولا مستكبر عن عبادة ربه ، فمن لم تبلغه الدعوة في الدنيا أُمتحن في الآخرة)١٤/ ٤٧٧ .

قال الشنقيطي في تفسير الآية: (ظاهر الآية أن الله لا يعذب أحداً لا في الدنيا ولا في الآخرة حتى يبعث إليه رسولاً ينذره ويحذره ، فمن يعصي ذلك الرسول ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار ، وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن كل من مات على الكفر فهو في النار.

والتحقيق في هذه المسألة هو أنهم معذورون بالفترة في الدنيا وأن الله يمتحنهم يوم القيامة بنار يأمرهم باقتحامها ، فمن اقتحمها دخل الجنة ، وهو الذي كان

يصدّق الرسل لو جاءته في الدنيا . ومن امتنع دخل النار وعُذّب فيها وهو الذي كان يُكذّب الرسل لو جاءته ، لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل .

يقول ابن تيمية (وقد فرق الله بين ما قبل الرسالة وما بعدها في أسماء وأحكام، وجمع بينهما في أسماء وأحكام ...فاسم المشرك ثبت قبل الرسالة ، فإنه يشرك بربه ، ويعدل به ، ويجعل معه آلهة أخرى ، ويجعل له أنداداً قبل الرسول ، ويثبت أن هذه الأسماء مقدم عليها ، وكذلك اسم الجهل والجاهلية ، يقال جاهلية وجاهلاً قبل مجيء الرسول ، وأما التعذيب فلا الفتاوى ٢٠/ ٣٧ .

قال الشيخ إسحاق في تكفير المعين : (بل أهل الفترة الذين لم تبلغهم الرسالة والقرآن وماتوا على الجاهلية لا يسمون مسلمين بالإجماع ، ولا يستغفر لهم ، وإنما اختلف أهل العلم في تعذيبهم) .

الثانية : استدلالهم بحديث الأربعة المحتجين يوم القيامة :

عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال : (أربعة يحتجون يوم القيامة ؛ رجل أصم لا يسمع ، ورجل هرم ، ورجل أحمق ، ورجل مات في الفترة ، أما الأصم فيقول : يا رب لقد جاء الإسلام وأنا ما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول : رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر ، وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الإسلام وما أعقل ، وأما الذي في الفترة فيقول : رب ما أتاني من رسول ، فيأخذوا مواثيقهم ليُطيعنه ، فيُرسل إليهم رسولاً أن أدخلوا النار ، فو الذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً) . وفي رواية : (يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلاً ، وبالهالك في الفترة ، وبالهالك صغيراً) . رواه أحمد والبزار بسند صحيح .

وهذا الاستدلال يلحق بالذي قبله ، وهو بيان على أن هذا الحديث يدور على مدار الآخرة ، وعلى مقام التعذيب ، وليس على حكم التكفير في الدنيا .

والذي مات في الفترة ، والأصم ، والمجنون ، وأطفال المشركين حكمهم في الدنيا أنهم بإجماع العلماء كفار غير مسلمين، ومن حكم بإسلامهم وقع في الردة .

الشبهة الثالثة : استدلالهم بالرجل الذي قال لبنيه حرقوني وأنه جهل قدرة الله:

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (قال رجل لم يعمل خيراً قط لأهلـه إذا مات ، فأحرقوه ثم ذروا نصفه في البر ونصفه في البحر ، فـو الله لـئن قـدر الله عليـه ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين ، فلما مات فعلوا به كما أمرهم ، فأمر الله البر فجمع ما فيه ، وأمر البحر فجمع ما فيه ، ثم قال : لِمَ فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يا رب وأنت أعلم ، فغفر له) متفق عليه.

قالوا : فهذا الرجل كان جاهلاً بقدرة الله والمعاد فعذر بجهله.

أولاً: أن هذا الحديث ليس في ترك التوحيد وفعـل الـشرك الـذي هـو أصـل الدين ، فالرجل كان مسلما موحدا ولم يك مشركا بل ومن أهل الخشية والمعرفة بالله.

ويدل لذلك ما أخرجه الإمام أحمد ، عن الحسن وابن سـيرين عـن أبي هريـرة عن النبي ﷺ ، قال : (كان رجل ممن قـبلكم لم يعمـل خـيراً قـط إلا التوحيـد ، فلـما احتضر قال لأهلهِ ؛ أُنظروا إذا أنا متُ أن يحرقوه حتى يدعوه حمماً ثـم أطحنـوه ، ثـم أذروه في يوم ريح ، فلما مات فعلوا ذلك به فإذا هو في قبضة الله – عز وجل – ، :" يا ابن آدم ما حملك على ما فعلت ، قال : أي ربي من مخافتـك ، قـال فغفـر لـهُ بهـا ، ولم يعمل خيراً قط إلا التوحيد) .

قال الشيخ عبد الله أبا بطين في الانتـصار للموحـدين: (واحـتج بعـض مـن يُجادل عن المشركين بقصة الذي أوصى أهله أن يحرقوه بعد موتـه ، عـلى أن مرتكـب الكفر جاهلاً لا يكفر ، ولا يكفر إلا المعاند) .

ثانياً : أن الرجل لم يكن شاكا في قدرة الله تعالى ، والدليل على أنـه كـان مؤمنـاً بقدرة الله وعلى البعث الرواية التي في مسلم : (وإن الله يقدر على أن يعذبني).

ثالثاً : أن قول الرجل (لئن قدر الله علي) له تأويلان :

أحدهما : أن معناه لئن قَدَرَ علي العذاب و قضاه.

أي لئن كان سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كـل ذي جـرم عـلى إجرامـه ، ليعذبني الله على إجرامي وذنوبي ، عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين غيري .

والثاني : أن قدر هنا بمعنى لئن ضيق علي ، كما في قول الله تعـالى عـن يـونس: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ الأنبياء: ٨٧ ، وقوله: ﴿ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ ﴾ الفجر: ١٦ .

رابعاً : أن الرجل كان مؤمناً بقدرة الله في الجملة والدليل قوله كما عند مسلم : (وإن الله يقدر على أن يعذبني). وإنما جهله وقع على بعض أفـراد القـدرة وجزئياتهـا

فالمسألة في صورة دقيقة . فهذا الرجل جهل بعض أفراد الصفة فهو مستيقن بأن الله متصف بالقدرة التامة ، ولكن القدرة إنما هي في الممكنات لا في الممتنعات ، وكان يظن أن جمع الرماد المتفرق نصفه في البر ونصفه في البحر ممتنع :فلم يجعل ذلك نقصاً ، فأخذ بقدر ما عنده من العلم ولم يعد كافراً .

والجهل في مثل هذه الصورة لا يطعن في توحيد الله لذلك جاءت الرواية :(لم يعمل خيراً قط إلا التوحيد) . وهذا بخلاف من شك في أصل قدرة الله ، فهذا طعن في التوحيد ، إذ كيف يكون الإله عاجزاً أو جاهلاً أو ميتاً فهذا ناقض للتوحيد.

والجهل ببعض الصفات ليس جهلاً بالذات إلا أن تكون هذه الصفة لا تتصور الذات بدونها ويكون مفهوم التأله قائماً عليها .

خامساً : هذا الرجل جهل صفة من صفات الله تعالى، وقد اختلف العلماء في تكفير جاهل بعض الصفات وممن كفر جاهل الصفة الطبري. ومن لم يكفره قال الجهل بالصفات لا يعد جهلاً بالموصفات .

قال ابن تيمية: (الجهل ببعض الصفات هل يكون جهلاً بالموصوف أم لا ؟ على القولين والصحيح الذي عليه الجمهور ، أنه لا يستلزم الجهل بالموصوف).

وعلى كل فالمسألة ليست في الشرك ونقض التوحيد.

سادساً : أن الرجل على فرض أن قوله : (لئن قدر الله) (فلعلي أَضِلُّ الله) كما في بعض روايات الحديث على ظاهره شك في قدرة الله ، أنه قال ذلك من غير ضبط لكلامه ولا قاصد لحقيقة معناه ومعتقداً له ، بل قاله في حالة غلب عليه فيها الدهش والخوف وشدة الجزع بحيث ذهب تيقظه وتدبر ما يقوله فصار في معنى الغافل والناسي ، وهذه الحالة لا يؤاخذ فيها ، وهو نظير الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الذي قال لله تعالى ما قال ومثله الرجل الذي دخله الفرح فقال:أنت عبدي وأنا ربك ، فلم يكفروا بذلك الدهش والغلبة والسهو ، فهذا أخطأ من شدة الفرح والثاني من غلبة الاستغراب والفزع والثالث من شدة الخوف.

سابعاً: أن قوله هذا من أساليب العرب وبديع استعمالها مزج الشك باليقين، كقوله:﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ سبأ: ٢٤، فصورته صورة شك والمراد به اليقين .

الشبهة الرابعة :استدلالهم بحديث سجود معاذ ﷺ للنبي ﷺ :

عن معاذ بن جبل ﷺ أنه لما قدم على نبي الله ﷺ من الشام سجد للنبي ﷺ ، فقال : ما هذا يا معاذ ، فقال : إني أتيت الشام فرأيت النصارى يسجدون لأساقفهم وقسيسيهم ورهبانهم وبطارقتهم ، ورأيت اليهود يسجدون لأحبارهم وفقهائهم وعلمائهم ، فقلت : لأي شيء تصنعون هذا أو تفعلون هذا ، قالوا : " هذه تحية الأنبياء ، قلت : فنحن أحق بأن نصنع بنبينا ﷺ فقال النبي ﷺ: (إنهم كذبوا على أنبيائهم كما حرفوا كتابهم ، لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه) . أخرجه ابن ماجة البزار.

قالوا : هذا معاذ بن جبل قد سجد للنبي ﷺ جهلاً منه بأن السجود لغير الله كفر ، ومع هذا لم يكفره النبي ﷺ.

الحديث خرجه أحمد والترمذي وابن ماجه بلفظ : (لو كنت أمراً لأحد أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها).

ولم يذكروا في روايتهم سجود معاذ للنبي ﷺ ، فهذه الزيادة ضعيفة انفرد بها أزهر بن مروان عن القاسم الشيباني عن عبد الله بن أبي أوفى ، وأزهر هذا هو أزهر بن مروان الرقاشي وهو ليس بالثقة ، والقاسم هذا هو القاسم بن عوف الشيباني البكري الكوفي وهو ضعيف متفق على ضعفه وتركوا حديثه .

وأبو داود خرج قصة السجود عن قيس بن سعد قال: أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فقلت رسول الله أحق أن يسجد له ، قال : فأتيت النبي ﷺ ، فقلت : إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك، قال: أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له ؟ قلت: لا ، قال: فلا تفعلوا . وإسناد هذه الرواية لا يقل ضعفاً عن سابقه فقد تفرد بها شَريك بن عبد الله القاضي ، ضعفه كثير من المحدثين ، فسقط دليلهم من حيث الأصل والمبدأ .

وعليه فحديث سجود معاذ لا يثبت لا سندا ولا متنا ، وهو ضعيف .

ثم إن معاذاً لم يذهب للشام في حياة النبي ﷺ.

ثم كيف يصح أن معاذا ﷺ الذي قال فيه النبي ﷺ أعلم الأمة بالحلال والحرام يجهل الشرك الذي هو أعظم المحرمات وأن سجود التحية منسوخ في شريعتنا.

وقال بعض أهل العلم : لو فرضنا صحة الحديث جدلاً لما صلحت لهم فيه حُجةً أبداً ، فإن سجود معاذ ﷺ كان على وجه التحية والسلام والتوقير والإكرام

وليس على وجه العبادة والتدين، وهذاكان مباحاً في الشرائع السابقة كالسجود لآدم والسجود ليوسف ، إلى أن نسخ في شريعتنا ، ومن المعلوم أن السجود لغير الله على وجه العبادة لم يكن مباحاً في أية شريعة فكل الأنبياء نهوا عن ذلك .

قال ابن كثير في تفسيره: (كانت الطاعة لله والسجدة لآدم أكرمه الله أن أسجد له ملائكته تحية وإكراماً) وقال:(كان السجود سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من آدم إلى عيسى فحرم هذا في هذه الملة).

وقولهم هنا في هذه المسألة بهذا الحكم ليس من باب العذر بالجهل في الشرك، وإنما هذا من باب المسائل الخفية التي تحتمل الشرك وغيره .

وذهب هؤلاء إلى أن الأصل في السجود أنه من الشرك ومثله الوقوف والانحناء إذا كان لتعظيم المخلوق والذل له فهذا يعتبر من الشرك في العبادة ، أما إن كان للتحية أو من باب التشبه دون قصد العبادة والتعظيم فلا يعتبر شركا كما يفعله بعض المسلمين في الملاعب والمسرحيات عند مقابلة الجمهور وفي الألعاب القتالية ونحو ذلك ، فيرون عذر فاعل ذلك لجهله وتأويله على ظنهم صحة حديث معاذ، وقال هؤلاء هذا الحديث إن صح فالسجود ليس من باب العبادة وإنما التحية .

وعندي أن هذا التوجيه مردود وغير مقبول ولا يلتفت إليه لما تقدم تقريره، فالسجود لغير الله كفر مطلقا بمجرد فعله ولا يعذر بجهله وتأوله أن السجود بقصد التحية . وحديث معاذ لا يصح.

قال ابن القيم :(ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ، فإنه شرك من الساجد والمسجود له، والعجب أنهم يقولون ليس هذا سجود، وإنما وضع الرأس قدام الشيخ احتراما وتواضعا، فيقال لهؤلاء : ولو سميتموه ما سميتموه فحقيقة السجود وضع الرأس لمن يسجد له، وكذلك السجود للصنم وللشمس وللنجم وللحجر كله وضع الرأس قدامه .ومن أنواعه ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة وهذا سجود) المدارج ١/ ٣٤٤ .

الشبهة الخامسة : حديث ذات أنواط : عن أبي واقد الليثي ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط . فمررنا بسدرة ، فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ : (الله أكبر إنها السنن قلتم والذي بنفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ الأعراف: ١٣٨). أخرج أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم .

قالوا: فهؤلاء الصحابة أرادوا الشرك ولم يكفرهم النبي ﷺ وعذرهم بالجهل.

والجواب : أن ما طلبوه حديثو العهد بالإسلام من الرسول ﷺ من الشرك الأصغر وليس من الشرك الأكبر، حيث أرادوا التبرك والطلب بالمخلوق لا منه وهذا من الشرك الأصغر الذي لا يكفر فاعله وهو من قبيل التشاؤم ولبس التمائم وقولهم مطرنا بنوء كذا أي :بسبب الكوكب .

ثم إنهم طلبوا مجرد المشابهة للكفار، حيث أرادوا منه أن يجعل لهم شجرة ينوطون بها السلاح ، ويستمدون بها وليس منها وهناك فرق بين الطلب من المخلوق وبين الطلب به ، ولذلك سألوا النبي ﷺ ، ذلك فقالوا :" أجعل لنا ذات أنواط "، أي شجرة يعلقون بها سلاحهم لتنزل بها البركة من الله تعالى، فصاروا مثل بني إسرائيل في طلب مشابهة المشركين لكنهم في الشرك الأكبر ، وهؤلاء الصحابة طلبوا مشابهة المشركين في الشرك الأصغر ، أو أن طلبهم هذا قد يؤول إلى الشرك الأكبر مع طول الزمان لأن البدع بريد الشرك الأكبر.

قال الشاطبي : (قوله :" فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط فقال ﷺ: قلتم كما قالت بنو إسرائيل: اجعل لنا إلهاً "، فإن اتخاذ ذات أنواط يُشبه اتخاذ الآلهة من دون الله لا إنه هو نفسه فلذلك لا يلزم الاعتبار بالمنصوص عليه ما لم ينص عليه مثلهُ من كل وجه). الاعتصام ٢ / ٢٤٦ .

فجعل قولهم من باب المشابهة ، لا أنه نفس الفعل ، ولو أنه كان نفس الفعل لما شك في كفرهم بذلك القول أو غيره ، وإنما المشابهة هنا بدعة لا تقتضي التكفير.

وقال ابن تيمية: (فأنكر النبي ﷺ ، مجرد مشابهتهم الكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين عليها سلاحهم ، فكيف بما هو أطمُّ من ذلك من مشابهتهم المشركين، أو هو الشرك بعينه) الاقتضاء ص٣١٤ .

فتأمل كيف جعل فعلهم بدعة غير مكفرة لا أنها شرك جهلوه وعذروا فيه.

السادسة: قول عائشة: (مهما يكتم الناس يعلمه الله، قال: نعم) رواه أحمد.

قالوا : إن عائشة كانت جاهلة بعلم الله ، ومع هذا لم يكفرها الرسول ﷺ .

أولا : كيف جهلت عائشة أبسط معاني العقيدة التي يعلمها أطفال المسلمين بل والمشركين ، فضلا عن صحابية وزوجة النبي ﷺ ، وهي من التي نشأة وتربيت في بيت النبوة منذ الصغر حيثُ كان ينـزل في بيتها القرآن ، وآياته تقرر عقيدة الإسلام ،كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ طه: ٧ ، كيف غاب عليها ذلك وهي أعلم نساء الأمة بالله ﷻ وبدينه كما قال الزهري وغيره ، بينما هؤلاء يرونها أجهل الناس بالله .

ثانياً : الجواب أن معنى قولها رضي الله عنها بلا شك (مهما يكتم الناس يعلمه الله) هو استفهام تقرير لعلم الله تعالى وليس سؤال جهل وشك.

السادسة : استدلالهم بقوله ﷻ عن الخليل الطَّيِّلاً : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ الأنعام: ٧٦. قالوا: هذا إبراهيم كان جاهلاً بصفات الله ومع ذلك لم يكفر.

فإن صح لهم هذا الاستدلال فإن إبراهيم ليس جاهلاً بصفات الله فقط بل لا يعلم عن خليله شيء فهو جاهل بوجوده ، أفيظن هؤلاء المرتدون بقولهم بهذا أنهم هم العارفون فيما يجوز في حق الله ومالا يجوز ،وإن خليل الله يجهلها ، وليس مجرد أنهم أعلم من الله به ، أيصح هذا القول فيمن قال الله عنه ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ الأنعام: ٨٣. ومن قال فيه رسولنا : (نحن أولى بالشك من إبراهيم) ؟!

لكن خليل الله الطَّيِّلاً إنما قال ذلك موبخاً لقومه كما قال لهم ذلك في أكبر أصنامهم ، فسخر منهم وأراهم ضعف عقولهم في تعظيمهم لهذه الأجرام المدبرة المتنقلة وفي الأصنام الغير ناطقة، ومعاذ الله أن يكون أشرك قط أو شك في ربه.

أما من قال إن إبراهيم فعل ذلك قبل البلوغ والتكليف وقبل النبوة ، والكفر يجوز في حق الأنبياء قبل بعثتهم فقول باطل، لكن من قال بهذا لم يقل إن إبراهيم قال ذلك وعذر ولم يكفر، لأن قول إبراهيم لو كان على ظاهره فلا يجتمع مع الإسلام، بل يكون كافراً كفر جهل وليس مسلما معذورا بجهله إذ لا يقول بهذا أحد.

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ البقرة: ٢٦٠.

فليس في الآية دليل على شكه في القدرة ،وإنما طلب الكيفية في إحياء الموتى فقط ليزيد إيمانه، وهو القائل بلى آمنت، ومحال أن يجهل رسولٌ صفات مرسله ﷻ.

قال ابن حزم في الفصل: (فمن ظن أن النبي ﷺ شك في قدرة ربه ﷻ على إحياء الموتى فقد كفر).

الشبهة الثامنة: استدلالهم بقوله تعالى عن الحواريين: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ المائدة: ١١٢.

فالحواريون قالوا: هل يستطع ربك، فأنكروا قدرة الله ولم يكفروا لجهلهم.

والجواب أولاً يقال: هل يعقل أن يجهل الحواريون الذين طلب الله تعالى منا أن نقتدي بهم في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ الصف: ١٤، وهم مع ذلك غير عالمين بقدرة الله ﷻ التي يعلمها عوام الناس وكفارهم.

وإني لأقول ليس بعيدا أن يصل بهؤلاء الفهم إلى أن يزعموا أن من الحواريين من كان يقول إن الله هو المسيح ومع ذلك لم يكفروا لجهلهم وأن الذين كفرهم الله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾، أناس أصروا وعاندوا.

ثانيا: ثم إن هذه الآية فيها قراءتان:

الأولى: (هل تستطيع ربك) بالتاء والنصب. وهي قراءة علي وعائشة وابن عباس ومعاذ والكسائي، وقد قرأ بها الرسول ﷺ مراراً كما أخبر بذلك معاذ.

ومعناها: هل تستطيع أن تسأل ربك؟

الثانية: (هل يستطيع ربك)، بالياء والرفع وهي القراءة المثبتة في المصحف.

ولا يحمل معناها الشك في القدرة ونفي الاستطاعة، وإنما تلطف في السؤال، وأدب مع الله تعالى، وهو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي ويتكلم؟ وقد علمت أنه يستطيع. فالمعني: هل يفعل ذلك؟ وهل يجيبني إلى ذلك، والحواريون قد كانوا عالمين باستطاعة الله لذلك علم دلالة وخبر، فأرادوا علم معاينة ويقين.

الشبهة التاسعة: حديث حذيفة في دروس الإسلام آخر الزمان

عن حذيفة بن اليمان ﷺ مرفوعاً: يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله ﷻ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها، فقال له صلة: وما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نُسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثاً، كل ذلك يعرض عنه حُذيفة ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلة تنجيهم من النار). رواه الحاكم وابن ماجه.

أولاً: هذا الحديث موقوف على حذيفة .

ثانيا: ثم إن الحديث لا حجة فيه للمعتذرين عن المشركين وتأثير عارض الجهل على أصل الدين، فجهلهم بفروع الشريعة والفرائض وليس بالتوحيد وبينهما فرق كما قررناه .

قال الطبري: (القول في المعاني التي تدرك حقائق المعلومات من أمور الدين ، وما يسع الجهل به منه وما لا يسع ذلك فيه ، وما يعذر بالخطأ فيه المجتهد الطالب وما لا يعذر بذلك فيه ... والآخر منهما غير معذور بالخطأ فيه ومكفر بالجهل به الجاهل ... **فأما الذي لا يجوز الجهل به من دين الله فتوحيد الله تعالى ذكره والعلم بأسمائه وصفاته وعدله**) التبصير في معالم الدين ص١١٢ .

قال ابن منده: (ذكر الدليل على أن المجتهد المخطئ في معرفة الله ﷻ ووحدانيته كالمعاند) التوحيد ٢٦١ .

قال المروزي : (وإنما يكفر من جحد الفرائض لتكذيبه خبر الله ، ولو لم يأت خبر أو جاء الخبر ولم يسمع بالخبر من المسلمين لم يكن بجهل الفرائض كافرا، والجهل بالله في كل حال كفر قبل الخبر وبعده) نقله عنه ابن تيمية ٧/ ٣٢٥ .

وهؤلاء قالوا (لا إله إلا الله) علما وتصديقا بها وعملا بمقتضاها وتركا لما ينقضها فنفعهم قولهم لها ، ولو كانوا متلبسين بالشرك وعبادة غير الله لما نفعهم قولها.

الشبهة العاشرة : الاستدلال بحديث الربيع بن مسعود وفيه أن جارية كانت تُنشد : وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال لها النبي ﷺ : (لا تقولي هذا وأرجعي إلى ما كنت تقولين). رواه البخاري.

قالوا :فمع قولها ما هو كفر ، إلا أن النبي ﷺ ،لم يكفرها وعذرها بجهلها .

والجواب من وجهين :

الأول :عدم ثبوت شرط التكليف في الجارية لأنها غير بالغة.

فيبطل الاحتجاج بالحديث ، حتى يثبت لنا من حيث الأصل أن هذه الجارية كانت امرأة بالغة مكلفة شرعاً بأحكام الدين لثبوت الاحتمال في الحادثة .

الثاني :أن هذه الجارية لم تنطق بما هو كفر مجرد ، فكون النبي ﷺ ، يعلم ما في غدِ ، فهذا حق بما يطلعهُ الله عليه .

قال ﷻ: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ الجن.

وبدليل إخبارِهِ ﷺ على أحداث تقع في المستقبل بعده ، والأدلة في ذلك مستفيضة ، وإنما كره ﷺ ، أن تطلق الجارية علم النبي بالغيب ، وذلك لحماية جناب التوحيد ، ومن باب سد الذرائع .

الحادية عشر : استدلالهم بحادثة الجارية التي زنت بدرهمين من مرعوش .
قالوا :فهذه الجارية كانت جاهلة أن الزنا حرام وعُذرت ولم يقم عليها الحد.
والجواب: أن هذه الحادثة في الفروع وليست في أصل الدين وهناك فرق بينهما، فحديث العهد بالإسلام إذا جهل حكم الزنا لا خلاف أنه معذور .
عليه فليس في دليلهم أن الواقع في الشرك جهلا يعذر ولا يكفر ولا يقال عنه أنه مُشرك حتى تقوم عليه الحجة .

الثانية عشر: قول الصحابة:(قوموا نستغيث بالرسول ﷺ من هذا المنافق) الطبراني. فالصحابة طلبوا الاستغاثة منه، ومع ذلك لم يكفرهم وعذرهم بجهلهم .
الجواب : أن هذا الاستدلال هو بعينه استدلال عباد القبور على تجويز الاستغاثة من الأموات وطلبها منهم ولا عجب أن يصفوا الصحابة بالجهل للتوحيد، وهو سبيل كل مجادل عن المشركين.
مع أن من البدهي أن هذه من الاستغاثة الجائزة ، لثبوت شرطيها وهي حياته ﷺ ، فلم يطلبوها منه بعد موته ، واستطاعته لذلك فلم يطلبوا منه ما لا يستطيع فعله بما يختص بالله سبحانه وتعالى .
قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (كره النبي ﷺ أن يستعمل هذا اللفظ في حقه، وإن كان مما يقدر عليه في حياته، حماية لجناب التوحيد وسداً لذرائع الشرك).

مبحث : شبهات متعلقة بالتكفير ومن يجادل عن المرتدين

الشبهة الأولى: الاستدلال بآية : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ البقرة: ٢٥٦ ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ يونس: ٩٩ ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ الكهف: ٢٩ .

أولاً : أن هذه الآيات منسوخة بآيات القتال كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ التوبة: ٥ ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ ﴾ الفتح: ١٦.

ثانياً : أن هذه الآيات خاصة بأهل الكتاب مع دفع الجزية، والآية في الكافر الأصلي أما المرتد فيجبر على الرجوع لدينه فلا إكراه وإنما إعادة له وكف لغيره .

ثالثاً : أن الآيات في سياق التهديد والإنكار والبراءة لا الإقرار .

رابعاً: أن المرتد بردته طعن في الدين فاستوجب القتل حدا وعقوبة وهو بفعله قد ثار على الدين وقدح فيه وأثار الشبهة حوله وأظهر أنه لا يصلح التدين به والبقاء عليه وغيره خير منه فحكم الردة ليس من الإكراه.

خامساً: أن حكم الردة ثابت في النصوص القطعية كما تقدم .

الشبهة الثانية : زعمهم أنه جاء الاعتراف بدين الكفار وعدم تكفيرهم في آية : ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾.

والجواب أن سورة الكافرون اقتضت البراءة من الكفار وليس معنى لكم دينكم إقرارهم على كفرهم كما أنها لا تقبل النسخ أصلا لأن معاداة الكفار وإظهار البراءة من أصول الدين التي اتفقت عليها جميع الرسل وأن المقصود منها.

قال ابن تيمية : (وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين ولا أهل الكتاب كما يظنه بعض الملحدين ، ولا أنه نهى عن جهادكم وجعلوها منسوخة بل فيها براءته من دينهم وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ). الجواب الصحيح ٢/ ٣٠ .

قال ابن القيم : (تشمل هذه السورة النفي المحض فإنها سورة براءة من الشرك ومقصودها الأعظم البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة، وهذه مسألة شريفة من أهم المسائل وقد غلط خلائق وظنوا أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم أو أنها مخصوصة بمن يقر على دينه وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض ، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص بل هي محكمة بل ويستحيل دخول النسخ

فيها فإن أحكام التوحيد التي انقضت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه، ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبدا بل لم يزل الرسول ﷺ في أول الأمر أشد على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة وإن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدا فإنه دين باطل) البدائع ١/ ٣٨.

الشبهة الثالثة: نقر بالتوحيد دون التكفير وليس التكفير من التوحيد:

أن هذا لا يقوله أحد يعرف الإسلام ودعوة الرسل ، ومن أنكر التكفير فهو كافر ومكذب لله وناقض لعقيدة الكفر بالطاغوت.فالتكفير من أصل دين الإسلام وقد أمر الله تعالى به كما في قوله تعالى: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ الممتحنة: ٤ ، وأمر الله به رسوله ﷺ في قوله ﷻ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ الكافرون: ١، كما أنه من الكفر بالطاغوت الذي من أعظم معانيه البراءة من المرتدين وتكفيرهم .

ومن أنكر التكفير ووجوبه فقد كفر كما قررنا بالأدلة وإجماع أهل السنة بكفر من لم يكفر الكفار المرتد منهم والأصلي .

قال البقاعي في نظم الدرر: (فإنه لم يأت نبي إلا بتكفير المشركين) .

ويقول القاضي عياض في الشفاء : (من أتى بالشهادتين وصلى وصام وعبد غير الله فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر مكذب لله ولرسوله).

قال الإمام الملطي: (وجميع أهل القبلة لا اختلاف بينهم : أن من شك في كافر فهو كافر، لأن الشاك في الكفر لا إيمان له ، لأنه لا يعرف كفرا من إيمان) التنبيه ٥٤ .

قال عبد الله أبا بطين: (فمن قال: إن من أتى بالشهادتين وصلى لا يجوز تكفيره وإن عبد غير الله فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر لأن قائل هذا القول مكذب لله ولرسوله) . مجموعة الرسائل ١/ ٦٦٠.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (من قال: أنا لا أتعرض السادة والقباب ، فهذا كاذب في قول لا إله إلا الله لم يؤمن بالله ولم يكفر بالطاغوت)الرسائل ٤/ ٣٣.

وقال:(من لم يُكفِّر المشركين أوشك في كفرهم كفر إجماعا).

(لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء وتكفيرهم) . ١٠/ ٥٣ .

وقال سليمان بن عبد الله:(لا أقول هم كفار فهذا حكم منه بإسلامهم وحينئذ يسمى الكفر إسلاما ويسمى الكفار مسلمين فهو كافر) الدرر ٨/ ١٦٠.

وقال عبد الرحمن بن حسن: (لا بد من تكفيرهم وهذا مقتضى لا إله إلا الله كلمة الإخلاص، فلا يتم معناها إلا بتكفير من جعل لله شريكاً) الدرر٢/ ٢٠٥.

وقال: (التكفير من معنى لا إله إلا الله مطابقة). الدرر١١ / ٥٢٣.

وقال الشيخ عبد اللطيف: (لا يُتصور أن أحداً يعرف التوحيد ويعمل به ولا يعادي المشركين ومن لم يعادهم لا يقال له عرف التوحيد وعمل به) الدرر ٨/ ٣٥٩.

وقال في المصباح: (والجهاد للمرتدين وتكفيرهم داخل في مسمى الإسلام).

كما أن التكفير من التوحيد ومنكر التوحيد كافر فصار القائل محجوجاً.

قال الإمام في رسالته الثامنة والثلاثين : (ولكنهم يجادلونكم اليوم بشبهة واحدة فاصغوا لجوابها ، وذلك أنهم يقولون كل هذا حق نشهد أنه دين الله ورسوله إلا التكفير والقتال ، والعجب ممن يخفى عليه جواب هذا إذا أقروا أن هذا دين الله ورسوله كيف لا يكفر من أنكره وقتل من أمر به وحبسهم ؟).

الشبهة الرابعة: أن الله لم يأمرنا بتكفير المسلمين ولم يكلفنا البحث عن الناس:

أن هذا كذب وافتراء على الله ، فالله سبحانه قسم الخلق إلى مسلم وكافر كما قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ التغابن: ٢، والمرتد ليس بمسلم فيجب تكفيره كما أمرنا الله بقوله ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

والله جعل بين الفريقين عبادة عظيمة يغفل عنها كثير من الناس وهي عبادة البراءة من المشركين وهذه لا تكون إلا بعد معرفتهم وبيان كفرهم وتكفيرهم .

قال الشيخ محمد : (وأنت يا من منَّ الله عليه بالإسلام، وعرف أن ما من إله إلا الله، لا تظن أنك إذا قلت: هذا هو الحق، وأنا تارك ما سواه، لكن لا أتعرض للمشركين ولا أقول فيهم شيئاً، لا تظن أن ذلك يحصل لك به الدخول في الإسلام، بل لابدَّ من بغضهم وبغض من يحبهم ومسبتهم ومعاداتهم) الدرر ٢ / ١٠٩.

قال بعض أئمة الدعوة عن المرتدين :(من قال لا أعاديهم أو لم يكفّرهم فهذا لايكون مسلماً). وفي الدرر١٠/ ١٤٠.

قال عبد الرحمن بن حسن: (لو عرف العبد معنى لا إله إلا الله لعرف أن من شك أو تردد في كفر من أشرك أنه لم يكفر بالطاغوت). الدرر١١ / ٥٢٣.

الشبهة الخامسة : أن هؤلاء المرتدين يقولون (لا إله إلا الله) :
أولاً : أن قول (لا إله إلا الله) لا تنفع قائلها إلا بشرطين العمل بمقتضاها ولوازمها وعدم الإتيان بناقض ينقضها ومتى اختل أحد الشرطين لم يعتبر بها .
ثانياً: أن الكفر بالطاغوت فرض ولا يكفي عنه قول (لا إله إلا الله) والصلاة.
ثالثاً : أن الإيمان وضده الكفر يكون بالقول والعمل والاعتقاد.
رابعاً: أنه كما أن للوضوء نواقض وللصلاة مبطلات ، فكذا للإسلام نواقض وللإيمان مبطلات . وكم كفّر أهل العلم من الأفراد والطوائف مع أنهم يقولون (لا إله إلا الله) ويصلون ولم يعتبر ذلك مانعاً لهم من التكفير لعملهم ناقضاً للإسلام .

السادسة : احتجاجهم بحديث أسامة : (أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله):
وهو خارج عن مسألتنا فكلامنا في مسلم وقع في كفر وردة فيجب تكفيره ، والحديث في كافر نطق بالشهادتين فيجب أن يحكم بإسلامه ولا يكفر ولا يقتل.

السابعة : التفريق بين الكفار الأصليين والمرتدين المنتسبين للإسلام، ومن يقول هذه الآيات نازلة في المشركين وأنتم تنزلونها في المسلمين :
أن هذا القول فيه تعطيل للقرآن والعمل به ومخالف للإجماع ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالتفريق بين تكفير الكفار الأصليين وتكفير المرتدين المنتسبين للإسلام مع فعلهم نفس فعل الكفار باطل ولا يصح ففاعل الكفر يكفر.
قال ابن تيمية في تشنيعه على من يقول ذلك : (ذم الكفار لا يدخل فيه إلا كفار قريش ونحو ذلك لا يقوله مسلم ولا عاقل) ١٦/ ١٤٨ .
قال محمد بن عبد الوهاب: (فتكفير هؤلاء المرتدين موجود في القرآن، فإن جادل منافق بكون الآية نزلت في الكفار فنقول له هل قال أحد من العلماء أن هذه الآيات لا تعم من عمل بها من المسلمين) .
قال عبدالرحمن أبا بطين: (أما قول أن الآيات التي نزلت بحكم المشركين الأولين فلا تتناول من فعل فعلهم فهذا كفر عظيم ويلزم منه أن الحدود المذكورة في القرآن والسنة كانت لأناس وانقرضوا وبطل حكم القرآن) الدرر ١٠/ ٤١٨.

الثامنة: أنهم يصلون ويقيمون الصلاة ولهم أعمال صالحة وفيهم دين وخير .

والجواب أن الوقوع في الشرك والكفر يحبط الصلاة والعمل ولا ينفع صاحبه العمل صالح، وأي عمل لا يقبل إلا بعد توفر التوحيد في العبد وانتفاء ضده .

كما في حديث عائشة في ابن جدعان وكان له أعمال صالحة، فقال فيه النبيﷺ : (لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : ربي اغفر لي خطيئتي يوم الدّين) رواه مسلم.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الزمر: ٦٥.

وقال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ الفرقان: ٢٣.

ومعلوم أن المقصود العمل الصالح.

وأما ما جاء عن الصحابة أنهم لا يرون عملاً تركه كفر غير الصلاة.

وحديث أم سلمة أن النبي ﷺ قال: (ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برئ ومن أنكر سلم ، ولكن من رضي وتابع (قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال: (لا ما صلّوا) ، وفي رواية : (**ما أقاموا فيكم الصلاة**) رواه مسلم.

فهذا في أهل القبلة الموحدين ممن لم يلبس إيمانه بكفر وشرك ولم يقع في الردة .

وأما الحديث فهو في الخروج على أئمة الجور والظلم، وليس المرتدين .

وذكر الصلاة هاهنا إشارة إلى إقامة الدين والتوحيد، بدليل ما تقدم من أن الصلاة لاتغني مع نقض أصل التوحيد والوقوع في ناقض من نواقض الإسلام.

قال النووي: (وأما قوله: " لا ما صلوا" ففيه معنى ما سبق أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم والفسق ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الإسلام) .

والعلماء أجمعوا على وجوب تكفير وقتال الدولة الفاطمية العبيدية في مصر مع أنها تقيم الصلاة والجمع وأنشأت الجامع الأزهر ، ومع ذلك كفر العلماء حتى من خطب لهم من أهل السنة في الجوامع وأوجبوا الهجرة والجهاد .

وقال عنهم أبو شامة: " قال الإمام أبو القاسم الشاسي لو وفق ملوك الإسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو الباطنية الملاعين فإنهم من شر أعداء الإسلام وقد خرج من حد المنافقين إلى حد المجاهرين لما ظهر في ممالك الإسلام من كفرها وفسادها وتعين على الكافة فرض جهادها وضرر هؤلاء أشد على الإسلام وأهله من ضرر الكفار إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية..) مختصر الروضتين ١٥٨ .

وقال الداودي عن خطباء الجمع المنتسبين لأهل السنة في الدولة الفاطمية : (خطيبهم الذي يخطب لهم ويدعو لهم يوم الجمعة كافر يقتل ولا يستتاب وتحرم عليه

زوجته وأحكامه كلها أحكام الكفر ومن صلى خلفه خوفا أعاد ثم لا يقيم إذ أمكنه الخروج من بلدهم ولا عذر له بكثرة عيال وغيره) . ونقل عنه ابن التين بوجوب الخروج على الحاكم إذا بدل الشريعة وكفر كما في فتح ابن حجر .

كما أن الصحابة كفروا مانعي الزكاة وقاتلوهم قتال ردة وتكفير مع أنهم يصلون وما جحدوا الزكاة كما قال أبو عبيد القاسم بن سلام وابن تيمية .

وقتالهم وتكفيرهم أجمعوا عليه وحديثهم مخرج في الصحيحين وغيرها.

ثم إنه لم يقل أحد من العلماء أن دماء المسلمين معصومة بالصلاة وحدها، مع فعلهم لنواقض الإسلام وتحاكمهم للطاغوت .

التاسعة : قولهم نترك التكفير خوفا من الفتنة وذهاب المصلحة الدعوية.

فالتكفير لا فائدة منه بل يسبب وقوع الفتنة ، ويعارض المصلحة الدعوية ، ونحن في ضعف وخوف ، والتكفير يزيدهم عناداً ويصد الناس عن التوحيد وأهله.

أولا: أن التكفير من أصل الدين ومن الكفر بالطاغوت الذي لا يعارضه ويسقطه مثل هذه المزاعم لو فرضنا صحتها .

ثانياً : يقال أن أعظم المصالح التوحيد والكفر بالطاغوت وما يستلزمه من البراءة من المرتدين وتكفيرهم وأعظم المفاسد ترك التكفير الذي هو من الشرك والإيمان بالطاغوت ، فالكفر بالطاغوت والتكفير والجهاد فيه مصلحة حقيقة وزوال الكفر والفتنة، لذلك أمر الله تعالى بالتكفير والقتال.

ثالثاً : من أنكر وجوب التكفير فقد كفر كما قررنا بالأدلة وإجماع أهل السنة بكفر من لم يكفر الكفار المرتد منهم والأصلي ، ومن لم ينكر ذلك وإنما أنكر إظهار التكفير وإعلانه مع اعترافه بتكفير القلب وزعم أن المصلحة ليست في إظهاره ، فيرد عليه بأن قوله مخالف لملة إبراهيم التي جاءت في قوله تعالى ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ الممتحنة: ٤ ، وما أمر الله تعالى به رسوله ﷺ في قوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ الكافرون: ١. ومن زعم أن الحكمة والمصلحة والخير خلاف ذلك فقد نسب لله سبحانه فعل مالا مصلحة فيه بل المصلحة في خلافه .

واعلم أن من الطواغيت في عصرنا دعوى المصلحة المزعومة التي في مقابل النصوص وتنقض مقاصد الشريعة التي أجاز دعاتها بها وا بها كل كفر وتركوا بها كل ركن، وهي مثل طاغوت المجاز والتأويل كما قال ابن القيم في كتابه الصواعق.

رابعاً : ثم يقال الفتنة التي قصدوا نفيها هي عين ما أمر الله به وجعل الفتنة في خلافه ، فالفتنة عند الله إقرار الكفر وعدم جهاد أهله والسعي في إزالته وبقائه أشد من القتل، وعند عباد الدنيا من المرجئة الفتنة في مجرد القتل وذهاب الأمن ولو كان على بقاء الكفر .

والدليل قوله تعالى:﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٧.

وقوله:﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ البقرة: ١٩١.

وقوله: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ البقرة: ١٩٣.

والفتنة في هذه الآيات كلها المقصود بها عن السلف كلهم الكفر والشرك وبقاء الطواغيت لا يكفر بها ويترك الكافر لا يقاتل ولا يكفّر .

فالقتل والحرب أشد منه بقاء الفتنة التي هي الكفر وليس معنى الفتنة القتل والفرقة والحرب فيصير المعنى على تفسيرهم للآية القتل أشد من القتل.

فأي الفريقين أحق بالأمن وأقرب للهدى والحق وأبعد عن الفتنة.

ثم إن شبهة ترك التوحيد والجهاد ومعاداة الكفرة خوفا من ذهاب الأمن كذبها الله تعالى بقوله: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ القصص: ٥٧، وقوله:﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران١٧٥.

الشبهة العاشرة : التكفير من منهج الخوارج :

التكفير ورد الأمر به في القرآن والسنة ومن أنكر التكفير فهو كافر كما قررناه .

وهناك فرق بين منهج أهل التوحيد في تكفير المرتدين وقتالهم، وبين منهج الخوارج الذين يكفرون بالذنوب ويخرجون على أئمة المسلمين.

وهؤلاء المرجئة يريدون أن يلبسوا الحق بالباطل ويصدوا عن التوحيد والكفر بالطاغوت ويصفوا الموحدين بالخوارج لتنفير الناس عنهم.

ومن سمى الموحدين الذين يكفرون المشركين خوارج فهو كافر .

قال الشيخ عبد الله بن محمد:(من أنكر ذلك وأبغضه وسبه وسب أهله وسماهم بالخوارج فهو الكافر الذي يجب قتاله حتى يكون الدين لله) الدرر ١٨١.

وقال عبد اللطيف : (فمن كفّر المسلمين أهل التوحيد أو فتنهم بالقتال والتعذيب فهو من شر أصناف الكفار) الدرر ١٢/ ٢٦٢.

قال محمد بن عبد الوهاب: (فإن الذي نكفر: الذي يشهد أن التوحيد دين الله ثم بعد هذا يكفر أهل التوحيد، ويسميهم الخوارج . وابن تيمية كفروه بسبب جوابه في شد الرحل فكيف بالمويس وأمثاله لا يكفروننا بمحض التوحيد ؟

وذكر ابن القيم في النونية ما يصدق هذا الكلام لما قالوا له إنك مثل الخوارج :

من ليّ بمثل خوارج قد كفرّوا   بالذنب تأويلاً بلا إحسان
ولهم نصوص قصروا في فهمها   فأتوا من التقصير في العرفان
وخصومنا قد كفرونا بالذي   هو غاية التوحيد والإيمان).

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (فصار من هؤلاء المشركين من يكفّر أهل التوحيد بمحض الإخلاص والتجريد وإنكارهم على أهل الشرك والتنديد فلهذا قالوا أنتم خوارج مبتدعه وكفرتم أمة محمد كما أشار ابن القيم إلى مثل هذه الحال في زمانه بقوله : وخصومنا قد كفرونا بالذي هو غاية التوحيد والإيمان

وهذا الرجل قد أخذ بطريقة من يُكفر بتجريد التوحيد ، فإذا قُلنا :لا يُعبد إلاَّ الله ولا يُدعى إلاَّ هو ،ولا يُرجى سواه ولا يُتوكل إلاَّ عليه ،ونحو ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلُح إلاَّ لله، وأن من توجه بها لغير الله فهو كافر مشرك،قال ابتدعتم وكفرتم أمة مُحمد ، أنتم خوارج ، أنتم مبتدعة) الدرر ١١/ ٤٤٨ .

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن : (وقد غلط كثير من هذه الأعصار وظنوا أن من كفّر من تلفظ بالشهادتين فهو من الخوارج وليس كذلك بل التلفظ بالشهادتين لا يكون مانعا من التكفير) الدرر ١٢/ ٢٦٣.

الحادية عشرة: أن تكفير من لا يكفر يفضي إلى التسلسل وقول الخوارج.

أن تكفير من ينكر تكفير الكافر ثابت بالنصوص ، كما أنه ورد التعبير به عند السلف وليس هو من مذهب الخوارج ، فعدم تكفير من كفره الله يعد من نواقض الإسلام المجمع عليها ، لأنه يقوم على تصحيح الكفر وعلى الإيمان بالطاغوت .

أما إنه يفضي إلى مذهب الخوارج والخوارج يستخدمونه ، فهذه الشبهة تطال أصل التكفير أيضا فالخوارج يستخدمونه وقد يفضي للغلو .

الشبهة الثانية عشرة : التورع من التكفير والاستدلال بحديث: (من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما) وفي رواية فإن كانت كما قال وإلا حارت عليه:

الجواب أن هذا الحديث في تكفير المسلم لأخيه المسلم وليس في الكلام عن المسلم إذا وقع في النواقض وكفر وارتد فهو خارج عن محل الحكم .

ومع ذلك فهو عند أهل العلم في المتعمد والمستحل لتكفير المسلم وليس في المجتهد . أو أنه محمول على الكفر الأصغر .

الشبهة الثالثة عشرة : ما رأيتهم يفعلون الكفر والشرك والردة :

قال الإمام : (فإن قال : ما رأيناهم فعلوا قلنا : وأنت أيضاً ما رأيت فرعون ولا هامان كفروا، ولا رأيت أبا جهل وأبا لهب ، ولا رأيت ظلم الحجاج ، ولا رأيت الذين ضربوا الإمام أحمد ، وأنت تشهد بهذا كله فإن قال : هذا متواتر ، قلنا : وكُفْرُ هؤلاء وادّعاؤهم الربوبية متواتر عند الخاص والعام والرجال والنساء ، وهم الآن يعبدون ويدعون الناس إلى ذلك) تاريخ نجد ٤٢٠ .

الرابعة عشرة: كفر الفعل دون فاعله ويصح إطلاق التكفير دون تعيين:

هذا القول لم يقل به أحد من السلف، وفيه إبطال لعقيدة الكفر بالطاغوت ولو كان الكفر فيه يتعلق بالفعل والشرك والمعبود الجهاد دون فاعله لفسدت حقيقة الكفر بالطاغوت ولما كان له فائدة ، وهذا مخالف لدين النبي ﷺ والذي ما عودي إلا بعد تكفيره الكفار والبراءة منهم بعد أن قال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ ، كما أمره تعالى.

قال الإمام : (وهل قال واحد من العلماء في هذه المكفرات وأسباب الردة إن هؤلاء يكفر أنواعهم ولا يكفر أعيانهم) الدرر ١٠/ ٦٣.

الخامسة عشرة : أن بعض العلماء لم يكفر هؤلاء المرتدين.

أما إن قصدوا علماء المشركين والمرتدين فهم منهم ويكفرون معهم .

وأما من لم يكن منهم وخالف فليس بمعصوم والعصمة ليست لأحد وليس بحجة والحجة إنما هي في الكتاب والسنة، وقد يكون لم يطلع على كفرهم .

وقول ابن تيمية: (أنا أعظم الناس نهيا أن ينسب معين إلى تكفير) .

فهو في المسلم إذا اشتبه أمره لا في من تحققت ردته وظهر كفره.

السادسة عشرة :لا يكفر إلا حاكم وعالم راسخ فهو خاص بالإمام:
وهذا قول مبتدع لا أصل له مخالف لأمر الله، فكل من رأى كفرا صريحا كالاستغاثة بالأموات يجب عليه أن يكفر من وقع فيه إلا أن تكون المسألة خفية لا يعرفها إلا أهل علم والكفر مشتبه وحمّال أوجه .
قال البربهاري في شرح السنة : (إذا فعل شيئاً من ذلك أي المكفرات وجب عليك أن تخرجه من الإسلام) .
قال عبدالله أبو بطين : (وما سألت عنه من حكم تعيين إنسان بعينه بالكفر إذا ارتكب شيئا من المكفرات؟ فإن من ارتكب شيئا من هذا النوع وحسنه فهذا لا شك في كفره ولا بأس بمن تحققت منه أشياء من ذلك أن تقول كفر فلان بهذا الفعل - دون اشتراط حكم قاضي وعالم راسخ وإقامة حجة - وكلام العلماء في تكفير المعين كثير وأعظم أنواع هذا الشرك عبادة غير الله وهو كفر بإجماع المسلمين، ولا مانع من تكفير من اتصف بذلك لأن من زنا قيل فلان زان) الرسائل ١/ ٦٥٧.
أما إقامة حد الردة على من كفر فهذا من صلاحيات إمام المسلمين وولاتهم.

الشبهة السابعة عشرة : الكلام في تكفير الحاكم يدعو إلى الفتن والخروج.
أن الحاكم لا يجوز الخروج عليه إلا إذا وقع في الكفر البواح فيجب تكفيره وقتاله بنص الحديث : (إلا أن ترو كفرا بواحا) .
أما حديث: (ما أقاموا فيكم الصلاة) في مسلم، وحديث : (من مات وليس في عنقه بيعة) والأحاديث التي في وجوب الطاعة وعدم الخروج على الولاة، كلها في الحكام المسلمين بما فيهم أئمة الجور والظلم، ولا يدخل فيهم الحكام المرتدون .
قال القاضي عياض: (فلو طرأ على الخليفة كفر وتغيير للشرع خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل ، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم خلع الكافر) شرح النووي ١٢/ ٢٢٩ .
يقول ابن باز في رسالته نقد القومية العربية: (وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة).

الثامنة عشرة : السلف لم يكفروا المأمون ولا الحجاج ولم يخرجوا عليهم .

وهذا ليس بصحيح . فالمأمون كفره الإمام أحمد وغيره من السلف ومن ظن غير ذلك كابن تيمية فقد أخطأ ، كيف والسلف أجمعوا على كفر الجهمية وهو من رؤوسهم ، ولنا في تحقيق ذلك بحث يؤكد كلام السلف على كفره مع اختلافهم في الخروج عليه وممن خرج عليه وقتل الإمام ابن نصر الخزاعي * .

---

* وتحقيق القول في كفر المأمون من عدة أوجه :

الأول : في حقيقة المأمون :

اعلم أن المأمون هو من دعا لمذهب الجهمية – الذي حوى عدة نواقض وكفريات كما هي مبينة في كتب السلف قاطبة – فهو الذي نشر التجهم والتعطيل بالسيف وصد الناس عن دين الله ، فكيف يصح أن يُحكم بإسلام المأمون بينما يحكم بكفر ابن أبي دؤاد والمريسي مع اجتماعهم في البدعة والردة وتفرد المأمون عنهم بحمل الناس عليها زيادة على تفانيه في الدعوة للردة وتزيينها للناس مدة حكمه.

حتى قال ابن معين ما زلت أعيد الجمعة منذ أن أظهر المأمون قوله ، وكان أبو عبيد القاسم بن سلام لا يرى جواز الصلاة خلف إمام يعينه المأمون ، وكلامهم في السنة لعبدالله بن أحمد.

الثاني : أن الإمام أحمد وغيره من أئمة السلف أجمعوا على كفر الجهمية وصرحوا بتكفير أعيان الجهمية وعدم صحة إمامتهم ولا الصلاة خلفهم ولا أكل ذبائحهم ولا مناكحتهم والمأمون رأسهم.

١- قال أحمد : (الجهمية كفار) . أخرجه الخلال في السنة ٢١٣٧ . وابنه عبد الله في السنة ٥٣٥ .

٢- وقال : (من قال إن الله لا يرى في الآخرة ، فقد كَفَر عليه لعنة الله) الشريعة ٥٧٧.

٣- قال البربهاري في شرح السنة : (الجهمي كافر ليس من أهل القبلة) .

ونقل الإجماع على كفرهم جماعة منهم اللالكائي ونقل قول أكثر من خمسمائة عالم صرحوا بكفر الجهمية بل وتكفيرهم من لم يكفر الجهمية.

٤- قال اللالكائي: (فهؤلاء خمس مائة وخمسون نفساً أو أكثر من التابعين وأتباع التابعين والأئمة المرضيين ، على اختلاف الأعصار وفيهم نحو مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم وتدينوا بمذهبهم ، ولو اشتغلت بنقل أقوال المحدثين لبلغت أسمائهم ألوفاً كثيرة، لكني اختصرت .. لا ينكر عليهم منكر ومن أنكر قولهم استتابوه أو أمروا بقتله). ٤٩٣.

٥- قال البخاري في من لا يكفر الجهمية:(وإني لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم) أفعال العباد ٣٥.

٦- قال الدارمي في الرد على الجهمية: (وأي فرق بين الجهمية وبينهم – أي المشركين المكذبين بالقرآن والقائلين أنه قول البشر المخلوق – حتى نجبن عن قتلهم وإكفارهم) .

٧- وقال أحمد لأحد مناظريه لما قال علم الله مخلوق : (يا كافر كفرت) الحلية ٩/ ١٩٧.

٨- وكفّر الشافعي حفص الفرد .

٩- قال ابن بطة في بعض أعيان المعتزلة المريسي وابن أبي دؤاد والعلاف وغيرهم : (فإن هؤلاء كانوا على الردة) شرح السنة ص ١١٧.

وكلامهم في الباب أكثر من أن يحصر .

ونقلنا في ردنا على الأشاعرة أقوال أهل العلم من السلف والخلف في تكفير الجهمية والأشاعرة بأعيانهم.

ومن قال يكفر الجهمية بالعموم دون أعيانهم فلا نخرج المعين من الملة مطلقا فقول باطل :

- قال البربهاري شرح السنة: (ولا يخرج أحد من أهل القبلة حتى يرد آية من كتاب الله أو يرد شيئاً من آثار الرسول ﷺ أو يذبح لغير الله أو يصلي لغير الله وإذا فعل شيئاً من ذلك وجب عليك أن تخرجه من الإسلام).

الثالث : بل إن السلف رحمهم الله كفروا من لم يكفر الجهمية :

١- قال أبو حاتم وأبو زرعة في عقيدتها عند اللالكائي ٣٢١ : (من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر بالله كفر ينقل عن الملة ومن شك في كفره ممن يفهم فهو كافر).

٢- قال ابن بطة : (من قال كلام الله مخلوق فهو كافر حلال الدم ومن شك في كفره ووقف في تكفيره فهو كافر) الإبانة ١٢٩.

الرابع : أنه لم يثبت عن الإمام أحمد أنه لم يكفر المأمون أو حكم بإسلامه بل النصوص المنقولة عنه تثبت التكفير لا عدمه ومن زعم خلاف ذلك فليأت بنقل صريح عنه أنه لم يكفر المأمون أو استثنى تكفيره من الجهمية ، كيف وهو رأس الجهمية.

الخامس : أن له روايات تثبت تكفيره وأنه عدو لله وليس بمأمون ، ومنها :

١- قال أحمد: (وأي بلاء كان أكبر من الذي أحدث عدو الله وعدو الإسلام من إماتة السنة) يعني الذي أحدثه المأمون ومن بعده قبل المتوكل. الأحكام السلطانية ص:٢٠ .

٢- وكان أحمد إذا ذكر المأمون يقول : (كان لا مأمون) . الأحكام السلطانية أبو يعلى ص:٢٠ .

٣- ولما قال السلطان ولي المرأة التي لا ولي لها قيل له: تقول السلطان ونحن على ما ترى اليوم ، فقال : أنا لا أقول على ما نرى إنما قلت السلطان. الأحكام السلطانية .

٤- وقال حنبل في ولاية الواثق: (اجتمع فقهاء بغداد إلى أبي عبد الله وقالوا هذا أمر قد تفاقم وفشا ، نشاورك في أنا لسنا نرضا بإمرته ولا سلطانه فقال عليكم النكرة بقلوبكم ولا تنزعوا يدا من طاعة ولا تشقوا عصا المسلمين) . الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص:٢٠ .

٥- وقال : (من دعا إلى بدعة فلا تجيبوه وإن قدرتم على خلعه فافعلوا) طبقات الحنابلة ٢/ ٣٠٥ .

٦- كما ثبت تكفير الإمام أحمد للمأمون عند الخلال في السنة ٥/ ٩٥: (قيل للإمام أحمد إنهم مروا بطرطوس بقبر رجل فقال أهل طرطوس : الكافر لا رحمه الله ، فقال أبو عبد الله : نعم فلا رحمه الله هذا الذي أسس هذا وجاء بهذا) والمقصود به المأمون فهو الذي قبر بطرطوس وهو الذي أسس مذهب الجهمية وجاء بالقول بخلق القرآن.

٧- وقال عن المأمون : (قاتله الله الخبيث عمد إلى كتاب الله فغيره . يعني كتب بدل السميع البصير اللطيف الخبير) . طبقات الحنابلة ١/ ٣٨٦.

وأما الحجاج فكفره سعيد بن جبير وخرج عليه. قال ابن حجر في التهذيب : (وكفّره جماعة منهم سعيد بن جبير والنخعي ومجاهد وعاصم والشعبي وغيرهم) . وقال عياض:(قيامهم على الحجاج ليس للفسق بل لما غير من الشرع وأظهر الكفر).

السادس : أن الإمام أحمد بن نصر الخزاعي عزم على الخروج على المأمون وكفّره وحرض أهل بغداد واستعدوا للخروج ، لكن المأمون قتله.

وقال فيه أحمد : (رحمه الله ما أسخاه لقد جاد بنفسه له) . تاريخ ابن كثير ١٠/ ٣٠٣ .

السابع : يحتمل عدم تكلمه بتكفير المأمون لو قلنا به أنه كان في أول الأمر في عدم تكفير الجهمية بما فيهم المأمون ثم رجع إلى تكفيرهم وتكفيره، كما صرح بذلك .

قال احمد عن الجهمية : (كنت لا أكفرهم حتى قرأت آيات من القران). طبقات الحنابلة ٢/ ٥٥٣ .

الثامن : أما من خالف واحتج بكلام الإمام ابن تيمية وغيره فيقال له:

أولاً : إن هذا من فهم ابن تيمية رحمه الله وقوله كما لا يخفى لمتأمل ليس موافقا للحقيقة وليس هو بالصواب، وما ذهب عفا الله عنه إليه من كون السلف لم يكفروا الجهمية بأعيانهم غلط بيّن ، وإن كان كلامه في بعض طوائف الجهمية وأعيانهم.

وهذه أقاويل السلف وكتبهم بين أيدينا فما الحامل لتركها مع صراحتها والأخذ بفهم ابن تيمية رحمه الله لها بعد أن فسرها بما يخالف ظواهرها، ثم نقول لمن يتعصب لا بن تيمية محبتنا لابن تيمية وكونه من أئمة أهل السنة لا تجوّز متابعته على خطئه والتعصب له حتى نصل به إلى درجة العصمة فهو ليس بمعصوم وكل يؤخذ من قوله ويرد عليه متى ما خالف الحق، وهذا مما يعلم من عقيدة أهل السنة أن لا عصمة ولا غلو في شخص خلافا لمن يدعي ذلك قولا ويخالفه عملا.

ثانياً : إن كل ما في الأمر من حجج للمخالفين ما نقل عن أحمد أنه نهى عن الخروج ، وهذا لا يلزم منه عدم التكفير ولا يدل عليه ولا يفهم منه.

فالخروج له شرطان وجود الكفر البواح والقدرة ، فمن أنكر الخروج كان للثاني لا الأول .

ثم كأن الإمام أحمد لم ير الخروج وإظهار تكفير المأمون لِما قد يترتب على ذلك من فتنة تلحق أهل السنة لا قدرة لهم بدفعها والله أعلم .

أما ما قيل في دعوته للسلطان وهو جهمي مرتد .

فليس فيه مستمسك لأن الدعاء للكافر بالهداية مما لا خلاف في جوازه كما في الحديث : (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) .

ثالثاً : إن هناك روايات منقولة عن أحمد فيها التصريح بكفر المأمون أوردناها قريبا.

التاسعة عشرة: تكفير الفعل لا يلزم منه تكفير المعين فهناك شروط وموانع.
ويزعمون أن هؤلاء المرتدين معذورون فلا يكفرون فهم جاهلون متأولون والحجة ما قامت عليهم أو أنهم مكرهون.

والجواب: أن ضوابط التكفير لا اختلاف فيها لكن الكلام فيمن تحققت فيه الشروط وانتفت الموانع من المرتدين المظهرين للردة والمدافعين عن الكفر المحاربين للتوحيد والواقعين في الشرك والحجة عليهم قائمة ومع ذلك نجد من يمتنع عن تكفيرهم بل ويجادل عنهم ويدافع بل وينكر على من كفرهم ، فيدخل من باب الترقيع والجدال بالباطل والذب عن الكفر والصد عن التوحيد وإعذار المرتدين وليس قصده بغية الحق، وليتهم يعذرون الموحدين إن كانوا يرونهم مخطئين كما عذروا المشركين وتلطفوا معهم كما تلطفوا مع أولئك .

وهؤلاء المجادلين عن المشركين وقعوا في ترك تكفير المشركين والبراءة منهم بل وتصحيح مذهبهم وما هم فيه من ردة فوقعوا هم في الكفر بسبب التفريط والإعراض ودعوى التورع وخشية الوقوع في أعراض الناس.

الشبهة العشرون: زعمهم أن هؤلاء المرتدين معذورون ببعض الأعذار ومنها:
أنهم ما قصدوا الكفر .
أنهم فعلوا الكفر خوفا من الكفار.
أنهم مضطرون إلى فعل الكفر.
ذكرنا الرد على هذه الشبه في موانع التكفير . وسنذكرها اختصارا هنا.

الحادية والعشرون : هؤلاء المرتدون ما قصدوا الكفر ولا تعمدوه ولا نووه:
فاعل الكفر عند المرجئة لا يكفر إلا إذا قصد الكفر وتعمده، وأهل السنة لا يشترطون في تكفير المعين أن يكون قاصدا للكفر ، كما بينا ذلك في موانع التكفير.

وذكرنا الأدلة على هذا الأصل : ومنها : قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ التوبة: ٦٥، ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الحجرات: ٢.

قال الطبري في تفسير آية الكهف: (وهذا من أدل الدلائل على خطأ من زعم أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانيته) .

وقال ابن تيمية : (قوله ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ ، فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفرا بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر، وأنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به فإنهم لم يعتقدوا جوازه) الفتاوى٧/ ٢٧٢ .

قال ابن تيمية : (وبالجملة من قال أو فعل ما هو كُفْر كَفَر بذلك وإن لم يقصد أن يكون كافراً، إذ لا يقصد الكفر أحد إلا ما شاء الله) . الصارم ١٧٧ .

وقال محمد بن عبد الوهاب: (وأما كونه لا يعرف أنها تكفره فيكفي فيه قوله : ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم ﴾ ، فهم يعتذرون ظانين أنها لا تكفرهم) تاريخ نجد ٤٥٢ .

قال سليمان بن عبد الله في التيسير : (والإنسان قد يكفر بالمقالة الكافرة وإن كان عند نفسه لم يأت بمكفر) .

الثانية والعشرون : أن المرتدين ما فعلوا الكفر إلا بسبب الخوف من الكفار:

الخوف على الدنيا لا يعتبر عذرا يبيح الوقوع في الكفر والخائف مرتكبا لكفرين الكفر الذي فعله لخوفه من المخلوقين، والثاني شرك الخوف من غير الله :

قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾ المائدة: ٤٤.

وقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ آل عمران١٧٥.

وقال عن تارك القتال :﴿ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ التوبة: ١٣.

قال:﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ ﴾ النساء: ٧٧ .

وقال:﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ ﴾ المائدة: ٥٢

وقال تعالى :﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ﴾ القصص: ٥٧ .

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ العنكبوت: ١٠.

قال محمد بن عبدالوهاب في كشف الشبهات: (لم يعذر الله من هؤلاء إلا من اكره، وأما غيره فقد كفر بعد إيمانه سوا فعله خوفا ومداراة أومشحة بوطنه وأهله).

قال ابن تيمية : (فإنه سبحانه استثنى المكره من الكفار ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره لأن الإكراه على ذلك ممتنع ، فعلم أن التكلم بالكفر كفر إلا في حال الإكراه). الفتاوى ٧/ ٥٥٧ .

وقال سليمان في الدلائل : (ولم يفرق تعالى بين الخائف وغيره بل أخبر أن الذين في قلوبهم مرض يفعلون ذلك خوفا من الدوائر وكذلك حال هؤلاء المرتدين خافوا فزال ما في قلوبهم من الإيمان) .وقال: (فان قالوا خفنا قيل لهم كذبتم وأيضا فما جعل الله الخوف عذرا وكثير إنما يتركون الحق خوفا من زوال دنياهم) .

الشبهة الثالثة والعشرون : القول بأن عمرﷺ زمن خلافته رجع عن قوله الأول بكفر مانعي الزكاة ورد عليهم السبايا والأموال :

الجواب أنه لا وجه للإشكال من أصله لأن عمر لم يصح عنه أنه قال بعدم كفر مانعي الزكاة وأنه رجع عن تكفيرهم حاشاه لأن المسألة ليست خلافية بل أجمعوا عليها، وإنما الثابت عنه أنه رد السبي على المرتدين بعد توبتهم وحسن إسلامهم وقد أرجع الرسول ﷺ على هوازن سبيهم، وتكفير مانع الزكاة والحكم بردته باب وسبي ذريته وماله شيء آخر .

قال ابن تيمية في دفع هذه الشبهة : (هذا من الكذب الذي لا يخفى فإن مانعي الزكاة اتفق أبو بكر وعمر على قتالهم بعد أن راجعه عمر وكذلك سائر الصحابة، وأقر أولئك بالزكاة بعد امتناعهم منها، ولم تسب لهم ذرية ولا حبس منهم أحد ولا كان بالمدينة حبس على عهدهم ... ولكن من الناس من يقول سبى أبو بكر نساءهم وذراريهم وعمر أعاد ذلك عليهم، وهذا إذا وقع فليس فيه بيان اختلافهما، فإنه قد يكون عمر كان موافقا على جواز سبيهم لكن رد إليهم سبيهم كما رد الرسول ﷺ على هوازن سبيهم بعد أن قسمه بين المسلمين .. وأهل الردة كان قد اتفق أبو بكر وعمر وسائر الصحابة على أنهم لا يمكنون من ركوب الخيل ولا حمل السلاح بل يتركون يتبعون أذناب البقر حتى يُري الله خليفة رسوله حسن إسلامهم فلما تبين لعمر حسن إسلامهم رد ذلك إليهم لأنه جائز) منهاج السنة ٦/ ٣٤٧ .

الكتاب العاشر : الملل والنحل والمذاهب والفرق

الفصل الأول : الأديان :

الكفار قسمان :

الأول : أهل كتاب وهم اليهود والنصارى .

وأدخل البعض معهم :

المجوس الصابئة قبل أن تحرف كما حرف اليهود والنصارى أديانهم.

الثاني : مشركون أصحاب أديان وضعية ومنهم .

المجوس : عبدة النار في فارس .

الصابئة: عبدة الكواكب الفلاسفة في العراق.

الهندوس :

في الهند يعبدون البقرة ويعبدون كل شيء ، وعندهم التعبد والرهبنة والصوم وعدم الزواج والتعري والانقطاع والتجرد من الدنيا والتقشف، ومن عقائدهم : تناسخ الأرواح وعقيدة الاتحاد بالإله البرهاما.

البوذية :

وهي فرع من الهندوسية لكن تنكر عبادة البقرة والطبقية ، إلههم صنم بوذا ويحجون له ، توجد في بورما وتايلاند وسيلان والتبت واليابان وكوريا والصين .

السيخ : من الهندوس ، عقيدتهم الإيمان برب واحد خالق وإنكار عبادة الأصنام .

عباد الشيطان : دين جديد أحدثه الكفار قريبا يعبد أصحابه الشيطان .

الفصل الثاني : الفرق والمذاهب المنتسبة للإسلام :
قاعدة : أصول الفرق خمسة :
المعطلة الجهمية ، القدرية ، الخوارج ، المرجئة ، الروافض .
الجهمية ليست من أصول الفرق ليسوا من أهل القبلة . الإبانة ابن بطة .
قال ابن القيم : (الخوارج مقالتهم حدثت زمن النبي ﷺ ، وبدعة القدر أدركت آخر عصر الصحابة فأنكرها من كان حيا منهم ثم حدثت بدعة الإرجاء بعد انقراض عصر الصحابة فتكلم فيها كبار التابعين ، ثم حدثت بدعة التجهم بعد عصر التابعين) تهذيب السنن ١٢/ ٢٩٨ .
المعطلة : الذين يعطلون الله عن صفاته وتوحيده .
ومن فرقهم : الجهمية والمعتزلة والأشاعرة .
الخوارج : الذين يكفرون المسلم بالكبائر .
المرجئة : الذين يخرجون العمل من الإيمان ولا يكفرون إلا بالتكذيب .
القدرية : ينكرون القدر وأسسها سنسوية أو سوسن النصراني. وهم فرقتان:
القدرية الغلاة : ينكرون العلم وكفرهم الصحابة .
وهم أتباع:معبد الجهني قتل٨٠ هـ وغيلان الدمشقي ١٠٥هـ .
المتوسطة :وهم المعتزلة الذين ينكرون المشيئة والخلق، أتباع واصل وعمرو.
الجبرية : قالوا بالجبر في القدر ، فالعبد مجبور على فعله، وأنكروا حكمة الله والتعليل والأسباب ، وهم أتباع الجهم قتل ١٢٨ والجعد بن درهم قتل ١١٨هـ .

وأصول البدع أربع :
الصفات : بين المعطلة والممثلة .
الإيمان : بين الخوارج والمرجئة .
القدر : بين القدرية والجبرية .
الصحابة : بين الروافض والنواصب والصوفية .
الجهمية : أتباع الجهم بن صفوان المقتول ردة عام ١٢٨هـ .
بدع الجهمية : ولهم بدع أشهرها .
١- إنكار أسماء الله وصفاته.
٢- الإيمان مجرد المعرفة والتصديق.

٣- القول بالجبر في القدر ، فالعبد مجبور على فعله.
٤- القول بفناء الجنة .

المعتزلة القدرية :

أتباع واصل بن عطاء ت ١٣١هـ ، وعمرو بن عبيد ت ١٤٣هـ .

قالوا بإنكار الصفات ، وإنكار القدر وخلق أفعال العباد ، وتكفير الفاسق في الآخرة وتخليده في النار وكونه في منزلة بين المنزلتين، وقالوا بالتحسين العقلي وحكمه على الشرع، وأنكروا الرؤية والشفاعة وبعض الغيبيات كالحوض والميزان وعذاب القبر والدجال والسحر وغيرها .

وهذه الأصول الخمسة : التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين وإنفاذ الوعيد والأمر بالمعروف . والتوحيد عندهم إنكار الصفات والعدل إنكار القدر .

الأشاعرة وشيوخهم الكلابية :

أتباع أبي الحسن الأشعري ت ٣٢٤هـ .

١- ينكرون الصفات إلا العلم الإرادة القدرة الحياة الكلام السمع البصر.
٢- الإيمان عندهم مجرد التصديق .
٣- في القدر يقولون بالجبر، فالعبد مجبور على فعله وقالوا بالكسب .
٤- لهم بدع في النبوات وتقديم العقل وبدع أخرى.
٥- أخذ متأخروهم بالتصوف وعبدوا القبور.

الماتريدية :

أتباع أبي منصور الماتريدي ت ٣٣٣هـ .

هم على مذهب الأشاعرة إلا في باب القدر فهم على مذهب أهل السنة.

الكرامية المشبهة :

يقولون إن صفات الله مثل صفات خلقه ، والإيمان مجرد قول اللسان.

الزيدية :

من الشيعة : يفضلون علياً على أبي بكر ويقولون هو أولى بالخلافة منه ، ويطعنون في معاوية، لكن لا يكفرون الصحابة.

وبقية مذهبهم هو مذهب المعتزلة القدرية .

النواصب :

ينصبون العداء لعلي وآل البيت ، وكان يوجد في بعض حكام بني أمية.

الصوفية :

يعبدون القبور ويستغيثون بالأموات .

وأكثرهم على مذهب الأشاعرة والماتريدية .

غلاة الصوفية :

١- الحلولية : قالوا : إن الله تعالى حل في الأولياء.

٢- الاتحادية : قالوا : إن الله تعالى اتحد مع جسد الأولياء .

٣- الوجودية : القائلين بوحدة الوجود : وأن كل شيء في الوجود هو الله.

٤- البريولية وغيرهم ممن ينسب للنبي ﷺ والأولياء صفات الربوبية .

وأخذوا هذه العقائد من النصارى القائلين بالتثليث.

الرافضة لعنهم الله :

أسسها عبدالله بن سبأ اليهودي يعبدون الأموات والقبور، وهم أول من أدخل الشرك في الأمة ، ويطعنون في النبي ﷺ وفي عرضه وأن جبريل أخطأ نزل بالوحي عليه وكان لعلي ، وقالوا بتحريف القرآن ، وقالوا بكفر الصحابة وسبوهم وعلى رأسهم أبي بكر وعمر ، وأنكروا الصفات وطعنوا في الرب تعالى وقالوا بالبدء والرجعة وغيرها من البدع المكفرة. والرافضة أكفر الفرق ومن لم يكفرهم فهو كافر.

الباطنية : غلاة الرافضة :

الإسماعيلية ، النصيرية ، الدروز .

ومن بدعهم أن القرآن والشريعة لها باطن وظاهر ، ويقولون بتناسخ الأرواح، وأن علي هو الإله .

الفلاسفة :

قالوا بأربع كفريات :

١- أنكروا أسماء الله وصفاته.

٢- العالم قديم مع الله وليس بمخلوق.

٣- أنكروا المعاد والبعث ، لأن العالم لا يفنى ولا يبيد.

٤- أنكروا النبوات وأنها ليست اصطفاء وإنما تحصل بالاكتساب.

وقد كفروا بأقوالهم الأربعة هذه ، ولهم غيرها.

وهم قسمان: الطبائعيون والإلهيون ، ومن الفلاسفة الفارابي وابن الفارض والتلمساني وابن سينا والطوسي وابن رشد وغيرهم.

الفصل الثالث : الأفكار والمذاهب المعاصرة :

الاستشراق : جماعة من الكفار أظهروا الإسلام ودرسوه ليطعنوا فيه .

الاستغراب : جماعة من المسلمين تأثرت بالغرب وقلدتهم في كل شيء .

الإلحاد : دين كفري يقوم على إنكار وجود الله .

الشيوعية : وهم من الملاحدة الذين ينكرون وجود الرب. ومنهم: الماركسية ، الرأس مالية ، الحرية ، الإباحية ، الوجودية . وتقوم على الاشتراك في كل شيء فليس هناك خصوصية لأحد حتى الزوجة، وكل شيء مباح.

الوجودية : تعني الإنسان موجود ليفعل ما يشاء والإباحية المطلقة نشأت بعد الحرب العالمية الثانية .

العلمانية : مذهب كفري يقوم بعزل الدين عن السياسة والاقتصاد وجعله عبادة لا تخرج عن المسجد.

الشعوبية : فكر يقوم على بغض العرب وإنكار الانتساب للقبائل .

الحداثة : تقوم على محاربة العربية ومبادئ الإسلام.

العصرانية : مذهب يقوم على تفسير القرآن والدين على مايوافق ملذات العصر وشهوات أهله.

القرآنيون : مذهب يقوم على إنكار السنة النبوية .

الماسونية : حركة سرية أسستها الصهيونية اليهودية لحرب الإسلام ونشر الكفر والفسق.

اللبرالية : مذهب يقوم على الحرية وعدم تقييد الناس بأوامر الشرع ونواهيه.

الدمقراطية : مذهب يقوم على حكم الناس بما يريده الشعب وإنكار العمل بحكم الله في الأرض.

الوطنية : مذهب يقوم على تقديس الوطن وجعل خصائص وأحكام لأهله.

القومية : مذهب يقوم على موالاة القوم والجنس ومعاداة غيرهم .

القاديانية البابية البهائية :

البابية : أتباع الميرزا علي محمد الباب الشيرازي ولد في شيراز وفي سنة ١٢٦٠هـ أعلن عن دعوته. فأدعى أنه الإمام المنتظر وبعد ذلك ادعى النبوة ثم تعداها الى ادعاء الربوبية عن طريق حلول روح الإله فيه، وألغى الباب الصلوات الخمس .

البهائية أتباع البهاء ميرزا حسين، زعم البهاء أولا أن الباب بشر به وأن عيسى و موسى ومحمدا إنما جاءوا ليبشروا بمجيئه ، وظهور الله فيه . ناسخ لديانة شيخه ميرزا على محمد الباب ، أوجب الباب ان يتوجهوا الى البيت الذي ولد فيه بشيراز ، وان يحجوا اليه بينما يقول البهاء في (الأقدس) : إذا أردتم الصلاة ولوا وجوهكم شطري الأقدس الذي جعله الله مطاف الملأ الأعلى يعني قصره في عكا .

القاديانية : المؤسس لها الميرزا غلام أحمد القادياني .

تتفق البابية والبهائية والقاديانية على نسخ شريعة الإسلام ، وادعاء النبوة وإنكار الحشر ، كما اتفقوا وإباحة المحرمات وأسقطوا كثيرا من التكاليف وعلى نسخ الجهاد ومحبة الكفار وطاعتهم ، ومن هنا يتضح هدفهم الخبيث وهو ، القضاء على الإسلام وإذلال المسلمين وإخضاعهم للكافرين ، وهؤلاء الثلاثة من الرافضة.

ومن المذاهب المعاصرة المبتدعة :

جماعة التكفير والهجرة.

حزب الإخوان.

السرورية .

أدعياء السلفية من الخلوف والجامية.

جماعة التبليغ .

القصاصون من الدعاة والتربويين وشيوخ الإعلام.

الناقض الأول

الشرك بالله

قال المصنف :

(الناقض الأول: الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له، والدليل :

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء: ٤٨،

ومنه الذبح لغير الله،كمن يذبح للجن أو القباب) .

الباب الأول
تعريف الشرك وحقيقته ومعناه

المسألة الأولى: تعريف الشرك لغة :
الشرك بكسر الشين المعجمة وسكون الراء المهملة.
وهو الضم والخلط والاقتران. وجمعه أشراك .
وهو ضد الفرد والوتر والوحدانية والتفرد والتوحيد .
قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة الشرك يدور في اللغة على أصلين :
الأول: الاقتران وعدم الانفراد ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ طه: ٣٢.
ويطلق هذا الأصل على معاني :
المخالطة والمصاحبة والمشاركة والنصيب والحظ والحصة والتسوية .
الثاني: الامتداد والاستقامة ويطلق على معاني :
الشِرَاك وهو سير النعال والشَرَك وهي شبكة الصيد وحبائل الصياد .
كما يأتي في اللغة على معاني وهي داخلة في الأصلين السابقين منها :
١- العدل وتسوية الشيء بغيره: ومنه ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ أي لا تعدل به وتسويه بغيره، وهذه التسوية والعدول هي حقيقة حال المشركين ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ الأنعام: ١ ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الشعراء: ٩٨.
٢- الاشتراك في الشيء بين اثنين ومنه قوله ﷺ : (المسلمون شركاء في ثلاثة الماء والكلأ والنار) رواه أحمد وأبو داود.
٣- الحصة والنصيب والحظ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ سبأ: ٢٢
وقوله ﷺ : (من أعتق شركاً له في عبد) متفق عليه.
٤- الخلط والضم والمصاحبة والمشاركة ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ .
ومنه الاشتراك في الأرض المال والخلطة في الأنعام والبيوت المشروكة .
٥- القسمة بين الأفراد : ومنه حكم عمر ﷺ : " فأشرك بين الإخوة " أي قسم المال بينهم بالتساوي وشركة اللحم وهو توزيعها وقسمتها .
٦- المصاهرة، وفي اللسان:(رغبنا بشركتكم) مشاركتكم في النسب والصهر.
٧- الكفر ، قال الجوهري:الشرك الكفر لأنه التغطية فيدخل في عموم الخلط.

فائدة : علاقة معنى الشرك الشرعي بالمعاني اللغوية :
هناك ترابط بين هذه المعاني اللغوية وبين الشرك في الشرع الذي هو عبادة غير الله ﷻ، فالمشرك عدل عن عبادة الله تعالى إلى عبادة غيره، وسوى غير الله ﷻ به تعالى، وقسم عبادته بين الخالق ﷻ والمخلوق، وصاحب بين الرب ﷻ والعبد وضم العبادتين وخلط بينهما، وصرف للمخلوق حصة ونصيباً وحظاً من عبادته .

الثانية: الفرق بين عبارة (عبادة غير الله) وعبارة (الشرك) :
الشرك أعم من عبارة عبادة غير الله، لأن الشرك منه ما هو متعلق بعبادة غير الله وهو ما يسمى بشرك الألوهية والعبادة ومنه ما هو شرك في ذات الرب ﷻ إما بتعطيله عن ربوبيته وصفاته ، أو بتمثيله بخلقه ونسبة النقص له ، أو بتمثيل خلقه به وإعطائهم بعض صفات الله ، أو نسبة شيء من أفعال الربوبية لهم .
عليه فعبارة عبادة غير الله أخص من عبارة الشرك وداخلة فيه دون العكس .
فائدة : الفرق بين الشرك بالله والشرك مع الله :
حرف الباء يفيد الالتصاق ومع يفيد المعية والمصاحبة .
فيكون الشرك بالله متعلق بذات الله وربوبيته وصفاته.
والشرك معه متعلق بالعبد وعبادته وألوهيته وجعل إله معبود مع الله.

الثالثة : تعلقات الشرك وتعدياته .
١- يتعدى الشرك بنفسه : قال تعالى: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ إبراهيم: ٢٢ ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الأنعام: ١٩ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ الأعراف: ١٩١ ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ الأنعام: ٢٣ ﴿أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ الأعراف: ١٧٣ .
٢- يتعدى بالباء :
قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ الحج: ٣١ ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ النحل: ٥٤ ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ الكهف ١١٠ ﴿تُشْرِكَ بِى﴾ لقمان ١٥ ﴿أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ آل عمران: ١٥١ .
ومعناها : الإلصاق أي يلصقون مع الله غيره في خصائصه وحقوقه. وبمعنى الظرفية والمصاحبة والعوض .
٣- يتعدى بمع : ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الإسراء: ٢٢ ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ المؤمنون: ١١٧ ويقال: يشركون مع الله غيره في العبادة. ومعناها المصاحبة .

٤ - يتعدى بفي:

﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ ﴾ الكهف: ٢٦ ويقال: يشركون في عبادة الله.

وهي بمعنى الظرفية والمصاحبة ومع وبمعنى الباء والإلصاق .

ولا يصح لغة أن يقال أشرك في الله ، وإنما أشرك في عبادة الله.

٥ - ويتعدى باللام : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ الرعد: ٣٣ ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ الأنعام: ١٠٠. واللام بمعنى الاختصاص والاستحقاق أي جعلوا مستحقا ومختصا بالألوهية مع الله ، وبمعنى مع أي جعلوا مع الله غيره.

٦ - وأما معنى : يعبدون من دون الله ، تشركون من دونه ، من دونه آلهة.

فمعنى (من دون): أي متجاوزين الله إلى عبادة غيره، إما بترك عبادة الله بالكلية ، لأنها لا تصلح ولا تصح عبادته مع الشرك ، أو بمعنى عدم الاكتفاء بعبادة الله وحده وطلب ما يقرب إليه وينفع معه .

ولها معنى آخر : وهو الدونيّة أي أن هذه المعبودات دون الله وليست في منزلته تقدس وتعالى.

وعليه فيصح أن يقال لغة:

أشرك مع الله / أشرك بالله / أشرك بعبادة الله/ أشرك في عبادة الله / جعل شريكا لله/ عبد غير الله / عبد من دون الله / عبد مع الله / جعل مع الله شريكا.

وكلها بمعنىً متقارب إن لم يكن معناها واحد.

الرابعة : مصطلحات في باب الشرك :

١ - المعبود يسمى : الإله والرب والولي والشفيع والمقرب والند والوثن والصنم والتمثال والشريك والشركاء .

٢ - وعبادته تكون بما يسمى: الاتخاذ والإلحاق والابتغاء والجعل . فالتوجه والقصد والطلب والجعل والابتغاء الاتخاذ والإسلام والإرادة بمعنى العبادة.

وقد جاءت هذه العبارات في اللغة ووردت في الشرع بمعنى صرف العبادة.

٣ - والشرك في العبادة عبر عنه بعدة ألفاظ منها :

التنديد - العدول - التسوية - الأمثال - الكفء .

وسيأتي الكلام عن هذه الحقائق الثلاث مفصلا إن شاء الله تعالى .

الخامسة : تعريف الشرك في الاصطلاح الشرعي:
اتفق العلماء على معناه واختلفت عبارتهم في تعريفه ومن تعريفاتهم له:
التعريف الأول: صرف العبادة لغير الله من دعاءٍ وذبحٍ ونذرٍ ورجاءٍ وتوكلٍ.
التعريف الثاني: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله .
وهذا التعريف أشمل من السابق، لأنه يدخل فيه الشرك في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، بينما التعريف الأول مختص بالشرك في الألوهية والعبادة، فلا يدخل فيه الشرك في الربوبية ولا شرك الأسماء والصفات .
التعريف الثالث: تشبيه المخلوق بالخالق ، وتشبيه الخالق بالمخلوق .
قال ابن القيم : حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به .
وهذا التعريف يدخل في عموم الثاني، لأن التشبيه هو بمعنى التسوية، وإثبات ما يختص به الله ويستحقه وحدة لغيره.
والأفضل أن يقال في تعريف الشرك : أنه منازعة الله تعالى في خصائصه .
المنازعة تشمل التمثيل والتعطيل ويدخل فيها معنى التسوية وصرف العبادة.
وخصائصه متعلقة بالربوبية والألوهية .
فيكون الشرك في هذين القسمين الخاصين بالله تعالى، بأحد طريقين :
إما بإنكارها وتعطيل الله منها ، أو بإثباتها ونسبتها لغير الله من المخلوقين .

السادسة : قاعدة في ضبط تعريف الشرك:
خصائص الله تعالى وحقوقه التي يتعلق بها الشرك قسمان :
الأول : أفعاله وأوصافه .
الثاني : ألوهيته وعبوديته.
وعلى هذا فالشرك ينقسم بالرجوع إلى منازعة الله تعالى ما يخصه إلى:
شرك في الربوبية ، وشرك في الألوهية ، وشرك في الأسماء والصفات .
وهذه الثلاث هي خصائص الله ﷻ التي يجب أن يوحد بها ولا يشرك فيها.
ضابط الشرك :
الشرك يضبط بأنه : صرف ما هو حق خاص بالله ﷻ لغير الله.
فالمشرك يقع في تسوية الله بغيره في خصائصه ، وخصائصه ﷻ على قسمين :
القسم الأول : خصائص متعلقة بالربوبية :

وهي المتعلقة بذاته تعالى من أفعاله وصفاته ومرجعها للكمال المطلق الذي تفرد الله به . وأعظم الأمور المتعلقة بالربوبية التي يحصل فيها الشرك :

الأول: الخلق والرزق والقدرة التامة والتدبير والتصرف .

الثاني: العلم الكامل الشامل والغيبي .

الثالث: البعث والحساب .

الرابع: الإرسال .

الخامس:القدر .

القسم الثاني : خصائص متعلقة بالألوهية :

أعظم خصائص الله استحقاقه الألوهية والعبودية، فهو المعبود وحده، واستحق الله العبادة دونما سواه لأجل الكمال الذي تفرد به وحده ﷻ في ربوبيته.

ذلك أن الكامل لابد أن يعبد ولا يعطل عن العبادة، والناقص المتجرد عن الكمال لا يستحق أن يعبد بل هو في حاجة لتكميل نقصه بالالتجاء والعبادة .

السابعة : قواعد الشرك وضوابطه :

١- كل ما كان فيه تشبيه للمخلوق بالخالق فيما اختص به تعالى ويستحقه وحده،ومن ذلك إثبات فعل من أفعال الربوبية وصفة من صفات الإلهية للمخلوق.

٢- كل ما كان فيه تشبيه للخالق بالمخلوق .

٣- تعطيل الله عن ربوبيته وعبادته وكماله وحقوقه وخواصه وأفعاله وأوصافه. أو وصفه ﷻ بالنقائص ، أو الطعن في أمره ودينه ورسله وكتبه.

٤- صرف العبادة لغير الله .

٥- اتخاذ الوسائط والشفعاء بقصد التقريب إلى الله واعتقاد احتياجه لها .

٦- التذلل المطلق مع الخضوع والتعظيم والانقياد والقصد والتوجه والتعلق.

٧- كل ما سماه الله تعالى شركا .

٨- الإيمان بالطاغوت وعدم البراءة منه .

٩- السحر والكهانة والعرافة والتنجيم .

الثامنة: الشرك يدور على أصلين:

١- التعطيل . تعطيل الله عن كماله ووحدانيته وعبادته .

٢- التشبيه والتشبه .

الشرك مرده إلى صفتين :١- عبادة غير الله .٢- التشبيه بين الرب وبين الخلق.

التاسعة: ما لا يدخل في الشرك ويجوز إثباته للمخلوق :

ما كان من فعل العبد وداخل تحت قدرته وصفته فإنه يثبت للعبد، وليس نسبته له بشرك، لأنه ليس مما يختص به الله ﷻ. فالمخلوق يدعى ويرجى فيما يقدر عليه ويستعان به ويستعاذ به ويستغاث به فيما هو داخل تحت مقدوره، وكذلك الخوف الطبيعي من المخلوق كالخوف من السلطان الجائر والسبع وإن كان ترك طلب المخلوق مطلقا وخوفه أولى وأكمل، وكذلك شكر المخلوق ومدحه وتعظيم من يستحق التوقير . كل ذلك من التصرف الجائز وليس من الشرك.

تنبيه : تناقض الأشاعرة:

حيث تقول أن إثبات أي تأثير للأسباب أو حقيقة لفعل العبد وقدرته يعتبر شركاً في الربوبية، وهذا القول سببه مذهبهم الفاسد في القدر وقولهم فيه بالجبر .

ثم هم يتناقضون ويثبتون للأولياء بعد موتهم القدرة ويجوزون دعاءهم من دون الله ولا يجعلون ذلك شركاً ، وهو الشرك الأكبر بعينه، وهذا من تناقضاتهم .

العاشرة: الشرك له إطلاقان ومعنيان :

الأول إطلاق خاص: عبادة غير الله تعالى فيقصد به الشرك في الألوهية .

الثاني إطلاق عام : كل كفر يسمى شركاً وكل كافر يسمى مشركاً .

الحادية عشرة: العلاقة والفرق بين الكفر والشرك :

اختلف أهل العلم في الفرق بين الكفر والشرك، والعلاقة بينهما على أقوال :

القول الأول : أنهما بمعنىً واحد فكل كفر شرك والعكس .

فالشرك الأكبر كفر أكبر والشرك الأصغر كفر أصغر والعكس صحيح فالكفر الأكبر شرك أكبر والأصغر أصغر .

وهذا قول الشافعي والجوهري، وقول من لم يفرق بين الإيمان والإسلام.

القول الثاني : أن الكفر أعم من الشرك .

فالكفر خصالٌ كثيرة منه الشرك ومنه تكذيب الأنبياء وإنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة كالمعاد أو الملائكة وجحد الواجب واستحلال المحرم وعدم الحكم بالشريعة والامتناع عنها أو حرب الدين أو الاستهزاء بالله أو بالدين أو بغضه وبغض الرسول ، وغير ذلك من ألوان الكفر وخصاله والتي ليست بشرك .

وبهذا قال العسكري في فروقه وغيره .

والتحقيق في هذا على ما ترجح لدي أن لفظ الكفر والشرك من الألفاظ التي تجتمع في المعنى وتنفرد، فإذا افترقا في اللفظ فإنه يفسر كل واحدٍ منهما بما يفسر به الآخر . أما إذا اجتمعت في اللفظ فإنه يكون لكل واحدٍ منهما معنى يخصه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ البينة: ٦ فكفار أهل الكتاب ليسوا مشركين من عباد الأوثان إذ كفرهم من جهة تكذيب الرسالة فيصير المقصود بالشرك عبادة غير الله والكفر يكون بحسبه .

ومن هنا يتبين ويتحقق أن الشرك له إطلاقان :

إطلاق خاص : وهو عبادة غير الله وهذا الغالب .

إطلاق عام : وهو نفس معنى الكفر .

تنبيه سيأتي الكلام عن الشرك الأصغر والكفر الأصغر والعلاقة بينهما .

الثانية عشر: وجه كون كل كفر يعتبر شركاً :

١ - لأن الكافر معطل لله عن حقه وهذا أحد نوعي الشرك .

٢ - كما أنه مهما كان كفره فإنه في حقيقته قد شبه ربه بالمخلوق، الذي يُكفَر به ويكذّب خبره ويجحد أمره ويستحل نهيه ويستهان بمقامه ولا يعظم شأنه فجعل أخبار ربه مكذبة وأوامره مجحودة ونواهيه ومحارمه مستباحة، فلم يعظم الله ولم يقدره حق قدره، وهذا التشبيه والتمثيل بين الرب والمخلوق الذي قام بقلب الكافر هو حقيقة كفره فكان بذلك مشركاً مشبهاً واقع في شرك التمثيل والتعطيل معاً .

الثالثة عشرة: الشرك ضد التوحيد :

الشرك ضد الوحدانية والإشراك ينافي الإفراد والتوحيد فالشرك من الجمع والتثنية والتشريك والخلط والضم نقيض التوحيد.

والشرك يكون بأحد طريقين : إما بنفي ما أثبته الله لنفسه، أو بإثبات ما نفاه.

وفي اللغة الشرك من الجمع والتثنية ضد الإفراد وضد التوحيد . ومن أسماء الله ﷻ الواحد الفرد الأحد ، وهو الله ﷻ، لا ثاني له ، ولا شريك ، ولا مثيل .

التوحيد مصدر وحد، وهو أن تجعل الشيء واحداً، وتوحد قصدك. ويعبر عنه بالإفراد والتجريد والإخلاص . والتوحيد له ركنان هما الإثبات والنفي، فلا يسمى الشيء مفرداً أو إفراداً أو توحيداً إلا إذا قام على ركنين هما الإثبات مع النفي .

الأول النفي والإنكار: وهو الموجود في: (لا إله). الثاني الإثبات في: (إلا الله).

وهذان الركنان ذكرا في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ البقرة: ٢٥٦ .

فالكفر بالطاغوت هو معنى (لا إله) ، والإيمان بالله هو معنى (إلا الله) .

وهذان هما ركنا التوحيد نفي العبادة وكل ما يختص به الرب ﷻ عن المخلوق، ونفي الإلوهية عما سواه ﷻ والكفر بها وخلع الأنداد والمعبودات والآلهة، والركن الثاني إثبات العبادة وكل ما هو خاص بالله ﷻ لله وحده .

تنبيه: الشرك هو ضد التوحيد: وليس التشبيه ووجه ذلك :

أن التشبيه داخل في الشرك ، والشرك قسمان التعطيل والتشبيه ، بتعطيل الله من ربوبيته وألوهيته، أو إثباتها لغيره، وكلاهما يناقض التوحيد .

فائدة : هل التوحيد والشرك من المتناقضات أو المتضادات :

الضدان لا يجتمعان لكن قد يرتفعان، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان فلا بد من وجود أحدهما.

وإذا قلنا أن الشرك بمعنى الكفر فهو نقيض التوحيد .

وإذا خصصنا الشرك بعبادة غير الله فهو ضد الشرك وليس نقيضه، لأنه بهذا المعنى قد يتصور ارتفاعهما في حق الكافر فلا يقوم بالعبادة مطلقا لايوحد ولايشرك.

الرابعة عشرة: اجتماع التوحيد والإيمان مع الشرك :

وتوجيه قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦ .

الإيمان والشرك هنا لهما معنيان : والآية فيها تأويلان للسلف :

الأول : الإيمان بالربوبية والشرك في الألوهية .

أن المراد بالإيمان هنا توحيد الربوبية والإيمان بكون الله خالقاً وحده ، والشرك هو الشرك في الألوهية فلا يقبل هذا الإيمان ولا يعتبر به ولا يصح ولا يسمى إيمانا من حيث الإطلاق الشرعي وهو الإيمان المعتبر والمدخل للجنة ، وذلك لعدم وجود التوحيد فيه واقتران الشرك به .

قال ابن عباس : (من إيمانهم إذا سئلوا من خلق السماء والأرض قالوا الله وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره ويسجدون للأنداد دونه).

وقال مجاهد : (إيمانهم قولهم الله خالقنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره).

الثاني : الإيمان هنا هو الأصلي والشرك المقصود به الأصغر الذي لا يزيل أصل الإيمان والإسلام .

فيكون المراد بالإيمان في الآية هو الإيمان الشرعي المقبول والمنجي من النار والمقترن بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ويكون الشرك المقصود به في الآية الشرك الأصغر كالحلف بغير الله وكيسير الرياء وشكر الناس على ما أنعم الله به عليهم وعدم الرضا بالقدر المتعلق بالمصائب ونحو ذلك .

والقاعدة :

الشرك الأصغر لا ينافي أصل التوحيد ولا ينقضه وإنما ينقص كماله الواجب.

أما الشرك الأكبر فلا يجتمع وجوده مع وجود الإيمان الشرعي وأصل التوحيد المنجي من النار .

وقول الله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٢.

ومعنى ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فيقال فيها مثلما يقال في قوله ﴿ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ :

١- تعلمون ربوبية الله وتؤمنون بها وتشركون به الأنداد في الألوهية .

٢- تعلمون استحقاق الله للعبادة ثم تشركون الشرك الأصغر تنديدا.

الخامسة عشرة : يشهد المشرك بالتوحيد في حالات :

١- يشهد بنوع من التوحيد وهو الربوبية في الجملة.

٢- قد يوحد المشرك في حال الشدة والخوف ويشرك في الرخاء والأمن.

٣- وقد يأتي بتوحيد في بعض العبادات، فقد تجد شخصا يشرك في جانب ويوحد في جانب، فقد يوحد في جانب الحكم بما أنزل الله فيحكم بالشريعة ولكن يدعو غير الله ﷻ أو يكون العكس .

السادسة عشرة : علاقة الشرك بالمسميات الشرعية :

أولاً: العلاقة بين الشرك والإلحاد :

الكلام في هذا مثل الكلام في الفرق بين الشرك والكفر .

فالشرك له إطلاقان عام وخاص :

فالشرك بالإطلاق العام يدخل فيه الإلحاد .

والشرك بالإطلاق الخاص الذي هو عبادة غير الله، لا يعتبر الملحد والجاحد ومنكر وجود الرب مشركاً، لأن المشرك من عبد الله وعبد غيره ولم يسم مشركا إلا لأنه أشرك مع الله وقسم العبادة بين معبودين وجعلها مشروكة بينهم، بينما الملحد لا يعترف بعبادة الله ولا بوجوده أصلا فلا يصدق عليه اسم الشرك وإنما الكفر .

والإلحاد بمعناه الخاص هو إنكار وجود الله أو عبادته، فيصير الإلحاد يطلق على من ينكر الربوبية من الدهريين والوجوديين والشيوعين .

أما الإلحاد بمعناه العام فإنه يطلق على كل كفر ومن ذلك عبادة غير الله أو تعطيل صفاته أو التشبيه ونحوه فهو أعم من الشرك بمعناه الخاص .

والشرك بمعناه العام مرادف للإلحاد بمعناه العام فكل شرك إلحاد وكل إلحاد شرك كما يقال ذلك في الكفر .

فيكون بهذا المعنى الملحد والجاحد ومنكر وجود الله ومدعي الربوبية والألوهية من أهل الشرك، ويسمى المستكبر عن عبادة الله ومدّعى الربوبية أو الألوهية مشركا لكونه أشرك نفسه مع الله ﷺ وعطل الرب عما يستحقه.

قال ابن تيمية: (كل مستكبر فهو مشرك، وتسمية هذا شركا نظير من امتنع مع استكباره عن إخلاص الدين لله فهو مستكبر عن لا إله إلا الله مشرك، والمستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل فيكون المستكبر مشركا ، ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكبارا عن عبادة الله وكان مشركا ، وكلما كان الرجل أعظم استكبارا عن عبادة الله كان أعظم إشراكا بالله لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب المقصود فيكون مشركا بما استعبده من ذلك) .الفتاوى ١٠/ ١٩٧ - ٧/ ٦٢٩.

ثانيا : علاقة الشرك بالتشبيه والتمثيل :

الشرك قائم على التشبيه من جهتين :

الأولى: تشبيه الخالق بالمخلوق بجعله محتاجاً لواسطة تشفع عنده مثل ملوك الأرض، وأيضاً تشبيه بالمخلوق بنسبة الولد له ووصفه بالنقائص وغير ذلك .

الثانية: تشبيه المخلوق بالخالق، وهذا هو الغالب، فيشبه المخلوق بالخالق فيعطي صفات الألوهية والربوبية ، فالمخلوق عند المشرك يغيث من دعاه ويعلم الغيب ويدبر الخلق وينفع ويضر ويحلل ويحرم ويشرع ويحكم.

ذكر ابن القيم في الجواب الكافي اشتمال الشرك على التشبيه فهو تشبيه المخلوق بالخالق في خصائص الألوهية والكمال المطلق الذي لا نقص فيه وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها لله وحده من التعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستغفار وغاية الحب مع غاية الذل .

كل ذلك يجب عقلاً وفطرة وشرعاً لله وحده .

ثالثا : علاقة الشرك بالتعطيل :

التعطيل يقابل التشبيه، والتشبيه يرادف الشرك، والتعطيل يرادف الكفر، فهو عدم عبادة الله وتعطيله عما يستحق.

لكن يوجد في التعطيل شرك وتشبيه من جهة أخرى ، وبيانه :

أن التعطيل فيه تمثيل لله بالمعدوم والناقص والمعطل عن الكمال .

ومن جهة أخرى فالمعطل عطّل حق التوحيد .

فالمعطل مشرك، لأن التعطيل مرده وحقيقته قائم على تمثيل الخالق بالمخلوق في العجز والنقص وعدم الكمال .

كما أن المشرك معطّل لله لأنه عطل الله تعالى عن حقه في التوحيد والعبادة وإثبات الربوبية والكمال له حده .

والشرك نوعان : شرك تعطيل وجحود وإنكار وشرك تمثيل وتنديد .

قال ابن القيم في الجواب الكافي : (شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون إذ قال وما رب العالمين، والشرك والتعطيل متلازمان فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك، لكن لا يستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقرا بالخالق سبحانه وبصفاته ولكن عطل حق التوحيد ، وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل) ص١٥٣ .

وسيأتي الكلام عن شرك التمثيل وشرك التعطيل في أقسام الشرك إن شاء الله.

رابعا: علاقة الشرك بالجحود :

الجحود يكون بإنكار وجود الرب أو ربوبيته أو ألوهيته أو دينه وشرعه وأمره ونهيه أو أخباره أو قدره أو رسله .

والكلام في العلاقة بينهما كالكلام في العلاقة بينه وبين الإلحاد .
علاقته بكفر الاستكبار والإباء والامتناع عن عبادة الله ونقلنا كلام ابن تيمية.
خامسا: علاقة الشرك بالفسق والظلم :
الشرك فسق لأن الفسق خروج عن طاعة الله وهذا المعنى متحقق في المشرك .
كما أن الشرك ظلم لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والشرك كذلك .
والفسق والظلم ينقسمان إلى أكبر وأصغر .
فالفسق والظلم الأكبران هما الشرك: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لقمان: ١٣.
سادسا : علاقة الشرك بالنواقض :
الشرك أحد نواقض الإسلام وله ارتباط بأكثر النواقض .
فناقض الحكم والهدي والخروج عن الشريعة داخلة في الشرك شرك التشريع والطاعة والحكم، وناقض موالاة الكفار ومظاهرتهم وعدم تكفيرهم داخل في شرك المحبة والموالاة، وناقض السحر فيه شرك من جهتين عبادة الجن وإدعاء علم الغيب.
فالشرك داخل في سبعة من النواقض العشرة فلم يبق إلا ناقض البغض للدين والاستهزاء والإعراض فهي خارجه عن الشرك بمعناه الخاص ، داخله في الشرك بمعناه وإطلاقه العام .
سابعا : علاقة الشرك بشروط لا إله إلا الله :
شروط لا إله إلا الله تنافي الشرك :
فالمشرك نقض شرط العلم فجهل .
ونقض شرط المحبة فأبغض التوحيد وأحب معبوداته من دون الله.
والصدق حيث كذب المشرك في نفسه وأكذب ربه وزعم أن الله أراد الشرك.
وشرط اليقين حيث أن المشرك شاك في التوحيد مشكّك في ربه .
وشرط القبول حيث رد التوحيد ولم يقبله .
والانقياد حيث امتنع عن الإذعان والتسليم لربه فأشرك وعبد غيره وانقاد له.
وشرط الإخلاص حين أشرك ولم يخلص في عبادته لله .
وهذا الشرط والسابق ظاهر الزوال والإبطال في الشرك أكثر من غيره .
فتبين بذلك أن الشرك هادم للشروط السبعة جميعها.
ثامنا: علاقة الشرك بالكفر بالطاغوت :

الشرك حقيقته كفر بالله وإيمان بالطاغوت، فالتوحيد والإيمان والعروة الوثقى والإخلاص تقوم حقيقتها على ركنين: الإيمان بالله وعبادته والكفر بعبادة كل معبود سواه، وكل معبود من الخلق فهو طاغوت إن كان راضيا بعبادته، وعبادته طغيان يجب التبرؤ منه والكفر به .

تاسعا :علاقة الشرك بأنواع الكفر :

الكفر له خمسة أنواع وهذه الأنواع في الحقيقة هي صفات لحال الكفر .

فالكفر إما أن يكون إعراضاً أو عناداً واستكباراً وإباءً وامتناعاً أو شكاً أو نفاقاً أو تكذيباً ورداً وجحوداً أو ردةً عن الدين .

والشرك يكون بأحد هذه الأنواع فقد يكون صفته وسببه الإعراض أو العناد والإباء أو الشك أو التكذيب والجحود أو النفاق ويكون أصليا أو ردة عن الدين .

عاشرا : علاقة الشرك بالإسلام والإيمان والتوحيد والشهادتين :

الشرك ضد التوحيد والشهادتين فلا يجتمعان وسيأتي بيانه .

والشرك ينقض الإسلام والتسليم والانقياد .

والشرك ينقض الإيمان فيصير صاحبه كافراً .

السابعة عشرة : تعلقات التوحيد والشرك :

١- يتعلق التوحيد والشرك بالله .فيقال توحيد الله والشرك بالله .

٢- ويتعلقان بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات .

فيقال توحيد الألوهية وشرك الألوهية ومثله الربوبية .

٣- ويتعلقان بالعبادة . فيقال توحيد العبادة لله والشرك في العبادة .

٤- ويتعلقان بالإسلام . فيقال توحيد الإسلام لله .

وجاء الأمر بالتوحيد في الإسلام في قوله: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ .

٥- ويتعلقان بالدين . فيقال توحيد الدين ﴿ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ والشرك في الدين.

٦- ويتعلقان بالشريعة ويأتي الشرك في التشريع ﴿ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾.

٧- ويتعلقان بالرسول . فيقال توحيد الرسول بالمتابعة وشرك المتابعة.

٨- ويتعلقان بالإيمان . فيقال توحيد الإيمان بالله.﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾.

٩- ويتعلق التوحيد والشرك بالانقياد والطاعة .

ويتعلق التوحيد والشرك بالحكم والمحبة والدعاء والخلق والأمر والتدبير وبقية أفعال وأفراد الألوهية والربوبية والصفات .

الثامنة عشرة: توحيد الإيمان والدين والشرك فيهما والإيمان بهما :

دخول التوحيد والشرك في الدين :

أخبرنا الله ﷻ أن الدين له وحده وأمرنا بتوحيد الدين لله وأن نجعله خالصا له فلا ندين لغيره ولا نمتثل ونلتزم بأي دين غير دين الإسلام :

قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ الزمر: ٣ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ البينة: ٥ ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ الزمر: ١٤ ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤ .

وأمر ﷻ بالقتال حتى يكون الدين كله لله ولا يكون فيه شركا : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ الأنفال: ٣٩ والفتنة هنا الشرك .

قال الطبري: ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ : (حتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله) .

وأنكر ﷻ على من جعل لله شريكا يشرع الأحكام ويسن الدين ويحلل ويحرم: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١ ﴿ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ الأنعام: ١٣٧ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ .

وذكر ﷻ الأديان الكفرية الشركية في قوله ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ﴾ آل عمران: ٢ .

فائدة: الدين يضاف إلى الله وإلى العبد : والدليل قوله ﷻ فيهما :

﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ النساء: ١٤٦ . ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ آل عمران: ٨٣ .

قال ابن تيمية:(الدين مصدر والمصدر يضاف للفاعل والمفعول،يقال دان فلان فلانا إذا عبده وأطاعه، كما يقال دانه إذا أذله، فالعبد يدين لله أي يعبده ويطيعه، فإذا أضيف للعبد فلأنه العابد المطيع، وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع). ١٥٨/١٥ .

المسألة التاسعة عشرة: توحيد الإيمان والشرك فيه والإيمان بالتوحيد وبالشرك:

لا بد من الإيمان بتوحيد الله ، وأن يكون الإيمان بذاته قائماً بالتوحيد ، فلا يشرك في إيمانه ، فكما أن التوحيد يكون بالإيمان ، فكذلك العكس الإيمان يكون بالتوحيد ، وهذا هو الإيمان بالتوحيد والتوحيد بالإيمان .

فكما يجب الإيمان بالتوحيد لابد من التوحيد في الإيمان .

ودليل دخول التوحيد في الإيمان وأن الإيمان يكون بالتوحيد :

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ .

ودليل حصول الإيمان بالشرك: ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ﴾ ﴿ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ وهو الكفر والشرك .

وهذه الآيات تثبت الحالتين :

الشرك في الإيمان والإيمان بالشرك . والكفر بالإيمان والإيمان بالكفر.

والتوحيد في الإيمان والإيمان بالتوحيد.

فالإيمان يدخله التوحيد والشرك كالعبادة .

والإيمان يكون مشروعا ويكون ممنوعا كما أن الكفر يكون ممنوعا ومشروعا.

فالإيمان المشروع هو الإيمان بالله وحده وبرسوله وبما أمر وباليوم الآخر.

والإيمان الممنوع هو الإيمان بالكفر والشرك والإيمان بالطاغوت والإيمان بالمعبودات الباطلة: ﴿ يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ﴾ ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ ﴿ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾.

والكفر الممنوع يتعلق بالله ورسوله ودينه:

الكفر بالله وبرسوله: ﴿ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ ﴿ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ .

والكفر بالإيمان وبالتوحيد: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ ﴿ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ﴾.

والكفر المشروع يتعلق بالشرك وبالطاغوت :

﴿ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ ﴿ يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ ﴾ .

وفي قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ . دلالة على إثبات الإيمان بالتوحيد والكفر بالشرك .

وقوله ﷻ: ﴿ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ﴾ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

تدل هذه الآيات على عكس الأولى إثبات الإيمان بالشرك والكفر بالتوحيد .

فائدة : الإيمان والدين يتعلق بالله وهو ما أمر به ويتعلق بالعبد فيكون منه المشروع وهو ما كان عن الله وباطل مذموم وهو ما كان من العبد وخالف به الحق :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ ﴿ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ ﴾ .

فالإيمان الصحيح ما كان عن الله وكان بالله وحده وكان مستصحباً العمل.

والقاعدة أن الشرك يتعلق بالله ﷻ وبما يخصه من : ربوبية الله وألوهيته وعبادته وطاعته وحكمه وشريعته ودينه وقدره ورسالاته والإيمان به والإسلام له .

العشرون : فائدة لغوية:

هل يصح أن يقال الشرك في التوحيد والشرك في توحيد الربوبية والشرك في توحيد الألوهية، أو يقال الشرك في الألوهية والشرك في الربوبية ؟ .

العبارة الصحيحة : أن يقال الشرك في الألوهية والشرك في الربوبية، ولا يقال الشرك في التوحيد والشرك في توحيد الربوبية والشرك في توحيد الألوهية .

وعلة ذلك : أن التوحيد يقابل الشرك ولا يجتمعان، فالتوحيد لا يتعلق به الشرك وإنما يتعلق بالعبادة والألوهية والربوبية، أما من وحّد وأتى بالتوحيد فلا يقال أشرك في توحيده وإنما أشرك في عبادته .

الحادية والعشرون : أسماء الشرك والألفاظ التي تطلق عليه :

التنديد – العدول – التسوية – الأمثال – الكفؤ .

أولاً : التنديد:

هو بمعنى الشرك والند هو الشريك والمثيل ومنه: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ البقرة:٢٢ أي شركاء تعبدونهم من دون الله وتجعلونهم أنداد لله تعبد وتساوونها به ﷻ.

أقوال المفسرين من السلف في معنى الند :

قال ابن عباس الأنداد: الأشباه والند الشبيه .

وقال ابن مسعود: الأكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله .

وقال مجاهد الأنداد: العدلاء .

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: الأنداد الآلهة والشفعاء.

وقال الطبري الند: العدل والمثل .

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: (أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده) وفي رواية (أجعلتني لله عدلا؟ قل ما شاء الله وحده) رواه أحمد .

فائدة : التفريق بين الشرك والند في حديث أبي بكر عند أبي يعلى :

الشرك : أعطاني الله وفلان .

الند : لولا فلان لقتلني فلان .

وإن كان ظاهرهما واحداً ، إلا أن بينهما فرقاً لطيفاً :

وهو أن الشرك ذكر الرب ومعه غيره مشروكا معه لولا الله وفلان، أما الند فيذكر المخلوق وحده دون الله لكن في فعل ليس من مقدوره لولا فلان لكان كذا.

فائدة قوله : (كفر أو أشرك) دليل على عدم التفريق بينهما ، وتقدم.

(عدلا) و(ندا) بمعنى واحد وتقدم .

ثانياً : التسوية:

يسمى الشرك تسويةً، لأن المشرك سوّى بين الخالق والمخلوق يقول تعالى حاكيا كلام المشركين: ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء:٩٧ -٩٨.

والتسوية هنا حصلت بعبادة الأوثان، ولم يسووا بين الرب وبين هذه الآلهة الباطلة من كل وجه أو في الربوبية والخلق كما يزعم مشركوا زماننا من عباد القبور والأولياء وإنما كانت التسوية في دعائهم ومحبتهم مع الله ﷻ.

ثالثاً : العدول :

يسمى الشرك عدولاً، لأن فاعله عدَل عن الرب ﷻ وترك عبادته إلى عبادة غيره وعدل بينهما أي ساوى بينهما واتخذ المشرك إلها يعبده غير ربه ﷻ قال تعالى : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ النمل ٦٠ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ الأنعام: ١.

وقد جاء التعبير بالعدل تارة وبالشرك تارة وبالند تارة :عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: (أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده) وفي رواية (أجعلتني لله عدلا؟ قل ما شاء الله وحده) رواه أحمد .

وقد جاء التعبير بالعدل تارة وبالشرك تارة مما يدل على أن العدول عن عبادة الله هو بمعنى الشرك، كما جاء في سورة النمل:

آية الشرك: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

آية العدول:﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ .

وللعدول معنيان :

الأول: العدول عن الشيء أي تركه : ترك عبادة الله إلى عباده غيره .

يعدل عن ربه أي يترك عبادته ويميل إلى عبادة غيره.

الثاني: العدول بالشيء وهو التسوية : تسوية غير الله بالله .

فيعدل بربه أي يساوي المخلوق به .

والأول هو شرك التعطيل والثاني هو شرك التمثيل .

رابعاً : الأمثال:

وذلك بجعل معبودات مع الله تكون مثله تعالى عن ذلك قال سبحانه : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ٧٤ أي تمثلوه بخلقه وتمثلوا خلقه به.

وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الشورى: ١١ .

خامساً : الكفؤ :

من عبد غير الله فقد جعل معبوده كفؤاً لله، والله ﷻ أنكر أن يكون له مثيل وشبيه وكفؤ ، قال سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ الإخلاص: ٤ .

سادساً : الإلحاد :

الشرك أحد درجات الإلحاد كما أن الإلحاد داخل في الشرك وبينهما ترابط والله توعد الملحدين بقوله ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٠ .

والإلحاد أنواع كثيرة كلها داخلة في الشرك على التحقيق كما سيأتي.

الثانية والعشرون : التوجه والقصد والإرادة والطلب والجعل والاتخاذ بمعنى العبادة :

جاءت اطلاقات في لغة العرب ووردت في الشرع بمعنى الشرك وصرف العبادة لغير الله منها :

التوجه والقصد والطلب والجعل والابتغاء والاتخاذ والإلحاق والإسلام والإرادة وأيضاً التنديد، العدول، التسوية، الأمثال، الكفؤ :

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الأنعام: ٧٩ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ الروم: ٤٣ ﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٢٧٢ ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ البقرة: ١١٢ ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ الروم: ٣٨ ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ الأنعام: ٥٢ ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ق: ٢٦ ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الإسراء ٢٢ ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ البقرة: ٢٢ ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ النحل: ٥١ ﴿ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ الزمر: ٤٣ ﴿ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ الزمر: ٣ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ التوبة: ٣١.

فائدة : هذه صفات في العابد وفعل له ، وليست من أفعال المعبود .

فالعابد هو المتخِذ والمبتغي والجاعل والمعبود هو المتخَذ والمبتغى والمجعول .

فائدة : عبارة الإلحاق والاتخاذ والجعل والابتغاء تؤكد أن هذه المعبودات الباطلة ليست متصفة بالإلهية في ذاتها وإنما بجعل المشركين وإلحاقهم ، فالإله الحق مستحق للعبادة بالذات لما اتصف به من صفات الربوبية وليس بجعل جاعل .

مصطلح الاتخاذ :

اتخاذ الله معبودا وحده،واتخاذ شركاء والشفعاء والوسائط والآلهة والأرباب.
﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً ﴾ ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾ ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ﴾ ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ﴿ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي ﴾ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا ﴾ ﴿ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾.

مصطلح الجعل : جعل الآلهة إله واحد وجعل إلهاً مع الله .
﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾

مصطلح الإلحاق: ﴿ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ﴾

مصطلح الابتغاء : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾ ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾.

وقفة مع الآيات :

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ سبأ: ٢٧

قل للمشركين أروني خلق ورزق وربوبية معبوداتكم وإجابتهم لدعائكم وأفعالهم التي استحقوا لأجلها أن يعبدوا وتصرف لهم العبادة وتجعلوهم أندادا لله .

ألحقتم : أي ألحقتم المعبودات بالله .

والحق أن الأمر ليس كما زعموا ، فليس لله شريك في العبادة.

وقد أمرهم الله في آية الرعد ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أن يسموا معبوداتهم بأسمائها التي يعرف بها حقيقتها وأنها جمادات لا تنفع وأنها مؤنثة .

الثالثة والعشرون : أسماء المعبودات وأنواعها وصورها :

الرب :

يطلق ويراد به الإله المعبود ويطلق ويراد به الخالق . ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء: ٩٢ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ البقرة: ٢١.

كما يطلق على المعبودات الباطلة أربابا ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا ﴾ ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ ﴾ يوسف: ٣٩.

الإله : ومعناه المعبود:

﴿ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ الزخرف: ٤٥ ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ التوبة: ٣١ ﴿ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ الأعراف: ٥٩.

كما يطلق على المعبودات الباطلة آلهة ﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي ﴾.

المعبود والمدعو: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ غافر: ٦٦.

الشفعاء : تطلق على المعبودات المخلوقة الباطلة :

﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ الأنعام: ٩٤ ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ ﴾ الأعراف: ٥٣ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ ﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ الزمر: ٤٣ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ الروم: ١٣.

الشريك والشركاء: تطلق على المعبودات الباطلة التي تعبد مع الله:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ الرعد: ٣٣ ﴿ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ سبأ: ٢٧ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ ﴾ القلم: ٤١ ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الأنعام ١٣٦ ﴿ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ الكهف: ٥٢.

الوسائط المقربة : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ﴾ الأحقاف: ٢٨.

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣.

الأصنام: أكثر ما تطلق على المعبودات الجامدة وهي غالباً رموز لبشر صالحين . ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ الأنعام: ٧٤ ﴿ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ الأعراف: ١٣٨ ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: ٣٥ ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ الشعراء: ٧١.

تنبيه: حقيقة الصنم :

قال ابن القيم : (وضع الصنم إنما كان في الأصل على شكل معبود غائب، فجعلوا الصنم على شكله وصورته ليكون نائبا منابه، وقائما مقامه وإلا فمن المعلوم أن عاقلا لا ينحت خشبة أو حجرا بيده ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٢٠ .

وقال الرازي في تفسيره (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) : (أنهم وضعوا هذه

الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله تعالى، ونظيره في هذه الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله) .

الأوثان: وكل معبود يسمى وثنا .

قال النبي ﷺ: (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد) . رواه مالك وأحمد.

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا ﴾ العنكبوت: ١٧ ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ العنكبوت: ٢٥ ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ الحج: ٣٠ .

الفرق بين الوثن والصنم : قال الطبري في تفسيره أنهما بمعنىً واحد .

وذكر الكلبي في كتاب الأصنام في التفريق بينها سبعة أقوال كلها ضعيفة .

وأصحها: الصنم: ما له صورة ، والوثن: ما ليس له صورة كالقبور والشجر.

التماثيل : تطلق على الصور المجسمة ومنها الأنصاب وهي الأحجار التي يعكف عليها المشركون، وتطلق على الصور غير المجسمة .

﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ الأنبياء: ٥٢ .

قال النبي ﷺ : (لا تدعْ تمثالاً إلا سويته) رواه مسلم.

مسألة : من الآلهة المعبودة الباطلة :

١- الأشجار والأحجار.

٢- الأنبياء والأولياء من الأحياء والأموات .

٣- الجن .

٤- الملائكة .

٥- الشيطان ونشأت فرقة معاصرة تصرح بعبادته.

٦- العلماء والأحبار والرهبان في التشريع والطاعة.

٧- الملوك والرؤساء.

٨- القبور والصور.

٩- الحيوانات كالبقر في الهندوس وعند السامريين .

١٠- الكواكب .

١١- الشمس والقمر.

١٢- النار عند المجوس .

١٥- عبادة الهوى والمال.

١٧- الفروج يقول عباده في الهند أنت المعبود منك خرجنا وإليك نعود .

فائدة : حقيقة اللات :

سميت بذلك إما اشتقاقا من اسم الإله والعزى من العزيز .

أو سميت اللاتّ بالتشديد لأنها صفة من لت السويق .

قال ابن عباس: اللات كان رجلا يلت السويق فلما مات عكفوا على قبره. رواه البخاري .

وذكر الفاكهي عن ابن عباس: أن اللات لما مات قال عمرو بن لحي: إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدوها وبنو عليها بيتا وصنما .

وعبدت الصخرة التي على قبره وعظمت تبعا لا قصدا فالعبادة أرادوا بها صاحب القبر الرجل الصالح، والصخرة والتمثال والصنم رمز له . فتأمل فعل المشركين مع هذا الوثن وقارن بينه وبين ما يفعله مشركوا زماننا من بناء القباب على قبور الصالحين والعكوف عندها ودعائها وجعلها ملاذا عند الشدائد .

الرابعة والعشرون : مصطلح الشركاء:

مسألة :معنى شركاء ولماذا سمي المعبود شريكا: لأن العبد وضع مع الله شريكا له يعبد مثله ويرجى ويدعى فيشركه مع الله في خصائص الله .

فائدة: تطلق الشركاء وتضاف للعابد والمعبود :

أمثلة إضافة الشركاء لله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ﴾.

أمثلة إضافة الشركاء للعابدين المشركين : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم ﴾ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ ﴾ ﴿ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾.

مسألة: وجه اختلاف الضمائر (شركاء شركائي شركائكم شركائهم شركائنا).

أولاً : معنى ﴿ شُرَكَآئِكُم ﴾ ، ولـمَ قال شركائكم في مواضع؟:

١- لأنها شركاء العابد المشرك في الشفاعة ، فهي تشفع معه وتشفعه ، فهي شركاء في طلب الشفاعة عند الله والتقريب عنده .

٢- لأنها شركاء المشرك في الخلق والعبودية، وجميعهم حاجتهم إلى الله الخالق .

ثانياً : معنى ﴿ شُرَكَآءِىَ ﴾ ، أضاف الله تعالى الشُّرَكَاءَ إِلَى نفسه لعدة أوجه :

١- حكاية لإضافتهم، والإضافة تكون بأدنى ملابسة .

٢- ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم .
٣- شُرَكَائِي فِي زَعْمِكُمْ واعتقادكم أيها المشركون. وذلك أنَّ المشركين كانوا يعبدون الأصنام على أنَّهم شركاء الله في العبادة وشفعاءهم عنده تقربهم إليه.
ويقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ الذين زعمتم في الدنيا أنهم شركائي فما لهم لا ينقذونكم من العذاب. وقال ابن عباس {كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ}: تخالفون فيهم. وقيل معناه: تحاربون وتعادون المؤمنين في شأنهم.

الخامسة والعشرون : الشيطان هو الإله الحقيقي للمشركين:

من عبد غير الله ﷻ ودعاه سواء دعا ملكا أو نبيا أو وليا صالحا أو كوكبا أو شجرا أو حجرا أو نارا أو نجما أو الشمس والقمر أو غير ذلك، فقد عبد الشيطان على الحقيقة ووقعت له وصارت إليه، لأن هذا الشرك من أمر الشيطان ووسوسته فمن أطاعه فقد عبده وإن ادعى أنه يعبد الملك، ولذلك تنكر الملائكة هذه الدعوة حين تسأل عن المشركين هل عبدوكم فينكرون ويتبرؤون،: يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ سبأ: ٤٠ - ٤١ .

﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ يعني آمنوا بالجن وبعبادتهم للجن، فالإيمان هنا بمعنى العبادة فآمنوا أي صرفوا العبادة للجن فصاروا عباداً لهم

وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ۝ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ الفرقان: ١٧ - ١٩.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني المعبود والعابد الآلهة الباطلة والمتعبدين العباد الظلمة الذين صرفوا العبادة لغير الله ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ ، آمنوا بالجن يعني عبدوا الجن، فالإيمان هنا بمعنى العبادة فآمنوا أي صرفوا العبادة للجن فصاروا عباداً لهم قال تعالى : ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ۝ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ النساء: ١١٧ - ١١٨.

فالقاعدة أن من عبد ودعا غير الله فقد عبد الشيطان من جهتين :

الأولى: أنه أطاع أمره حين أمره بالعبادة والشرك فصار عابداً له حين أطاعه ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١.

الجهة الثانية: أنه المشرك يظن أنه يعبد الملك أو الكوكب أو النجم أو الشجر أو الشمس ويسجد لهم ونحو ذلك ويخاطبهم وهو في الحقيقة يخاطب الجن والجن يخاطبونه، ولذلك من عبد الشمس وسجد لها فهو في الحقيقة سجد للشيطان وفي الحديث: (أن الشمس تغرب بين قرني الشيطان) فيتمثل للغروب حتى يسجد له، فمن سجد للشمس فهو في الحقيقة وقع سجوده للشيطان، والشمس بريئة من هذا الشرك وتتبرأ يوم القيامة من هؤلاء المشركين وكذا الملائكة ويقولون بل كانوا بالجن مؤمنين يعبدونهم ويصرفون الدعاء لهم ونحن براء من هذا الشرك.

السادسة والعشرون: درجات الشرك ومخالفات التوحيد:

١- إنكار وجود الله سبحانه بالكلية كما هو مذهب الشيوعية والدهرية وفرعون منكر وجود الله ومدعي الربوبية.

٢- إنكار ربوبية الله ﷻ مع الإيمان بوجود هومن غير إنكار وجوده وهذا مذهب الفلاسفة الذين يقولون الله علة المعلول لا يصدر عنه شيء ولا يفعل ولا يخلق ولا يتصف بفعل أو صفة وإنما الخلق كله قديم حدث بحدوث الله فهو وجد بالعلة الأولى والعقل والفلك الأول.

٣- الإيمان بربوبية الله لكن من دون توحيده ﷻ فيها، وهؤلاء لا يوحدون الله في الربوبية وإن كانوا يثبتونها له، فيقولون الله خالق رازق مدبر مالك، ولكن يوجد غيره من المخلوقين ممن له صفة الربوبية فيخلق ويدبر، وهذا مذهب المجوس القائلين للعالم خالقان وكذا القدرية الذين يقولون العبد يخلق فعله وكذا الصوفية الغلاة القائلين أن الأولياء يعلمون الغيب ويتصرفون في الخلق ويدبرون الكون ويملكون الجنة والنار وكذا النصارى أصحاب التثليث وكذا حال النمرود الذي ادعى الربوبية لنفسه وجعل من نفسه ندا لله يخلق ويحيي ويميت مع الله.

٤- من يؤمن بتوحيد الربوبية لله ولكن يقع في الشرك في بعض أفرادها كالشرك في التشريع والحكم أو يحصل منه ما يقدح فيها أو ينقص كمالها، ومن ذلك الشرك الأصغر في الربوبية بتعليق التمائم والرقى والتبرك الممنوع بل كل من عصى

الله من أهل التوحيد فقد قدح في كمال الربوبية ولم يعظم الله ولم يقدره حق قدره كذلك من يعطل الله من صفات كماله أو يمثله أو يقع في الشرك في الألوهية .

٥- من يثبت توحيد الربوبية لله ﷻ ويؤمن به لكن ينكر الألوهية فلا يعبده فيعرض عن الطاعة ويمتنع عن العمل، أو يقول الله لا يعبد وليس في حاجة للعبادة ولا فائدة من عبادته والله لم يأمر بها وهذا قول طوائف من الفلاسفة والملاحدة .

٦- من يثبت الألوهية لله ولكن لا يوحد الله فيها فيشرك غيره مع الله وهذا دين معظم المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون معه آلهة أخرى .

٧- من يؤمن بتوحيد الألوهية ويثبته لله وحده لكن يقع فيما يقدح في كماله أو يخالف في بعض أفراده ومن هؤلاء أصحاب الشرك الأصغر .

السابعة والعشرون : لماذا كان الشرك أعظم الذنوب :

لأن الشرك حقيقته تمثيل الرب الكريم بالمخلوق الحقير، وكذلك تمثيل المخلوق الذليل بالله العزيز القهار، وجعلهما بمنزلة واحدة، فأي كفر وذنب بعد هذا الكفر، وبيان ذلك من وجهين :

أولاً : أن المشرك يسلب الرب ﷻ صفاته العلى من علم وإحاطة وإدراك ورحمة وكرم وقدرة، وينسب ضدها له سبحانه من الجهل والعجز والبخل تعالى الله عن ذلك، لأن حقيقة الشرك يستلزم أن الله لا يرحم إلا بالوسائط والشفعاء ولا يعلم بأحوال عباده إلا بهؤلاء الشركاء ولا يقدر إلا بهم.

ثانياً : ثم بعد وقوع المشرك في تنقيص الله وسوء ظنه به وعدم تقديره، وتشبيه الرب بملوك الأرض أهل الجهل والعجز والحقارة والذلة والمسكنة فلا يقدرون على شيء ولا يحيطون بشيء علماً.

فانظر كيف يقع المشرك في ضد ذلك ويعكس الآية، فيعظم المخلوق ويرفعه عن درجته ومكانته اللائقة به والتي تناسب نقصه وضعفه وجهله وعجزه وذلته وفقره وقلة رحمته، ويرفعه إلى درجة الإله الخالق والرب العظيم القادر ويجعله بمنزلة لا تليق بأحد سوى ملك الملوك وعلام الغيوب القاهر العزيز.

فهل هناك ذنبٌ أعظم من تسوية رب الأرباب بالمخلوق من تراب وتنقيص الله ﷻ العزيز العليم وتعظيم المخلوق الفقير الذليل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وأي تنقيص للرب ﷻ وسوء ظن به وعدم تقديره وتعظيمه بعد هذا كله.

وللإمام ابن القيم كلام نفيس حول هذه المسألة نسوقه بطوله يقول رحمه الله:

(إن الله ﷻ أرسل رسله وأنزل كتبه وخلق السموات والأرض ليعرف ويعبد ويوحد ويكون الدين كله لله والطاعة كلها لله وحده والدعوة له كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات: ٥٦ وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ الطلاق: ١٢ وقال: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ المائدة: ٩٧

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر وتشريع الشرائع والدين أن يعرف بأسمائه وصفاته ويعبد وحده لا يشرك به، وأن يقوم الناس بالقسط وهو العدل ومن أعظم القسط التوحيد وهو رأس العدل وأعدل العدل وقوامه، والشرك ظلم عظيم وأظلم الظلم، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات . فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي .

فالشرك لما كان منافيا لهذا المقصود كان من أكبر الكبائر على الإطلاق وحرم الله الجنة على كل مشرك وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيدا لهم لما تركوا القيام بعبوديته، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملا أو يقبل فيه شفاعة أو يستجيب له في الآخرة دعوة أو يقيل له عثرة فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه ندا وذلك غاية الجهل به وغاية الظلم منه وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه . وقعت مسألة وهي :

أن المشرك إنما كان قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية وإنما قصد تعظيمه، وقال إنما أعبد الوسائط لتقربني إليه وتدلني وتدخلني عليه، فهو المقصود وهذه وسائل وشفعاء . فلم كان هذا القدر موجبا لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلدا في النار وموجبا لسفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم ؟

وهل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالوسائط والشفعاء، فيكون تحريم ذلك إنما استفيد من الشرع، أم أن ذلك قبيح في العقول والفطر ويمتنع أن تأتي به شريعة ويقره دين وعقل ؟

فتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين والعالمين بالله والجاهلين به وأهل الجنة وأهل النار .

ثم بدأ رحمه الله في الجواب وذكر أقسام الشرك وأنواعه ثم قال :

حقيقة الشرك هو تشبيه بالخالق والتشبيه للمخلوق به هذا هو التشبيه في الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله، فعكس الأمر من نكس الله قلبه وعميت عين بصيرته وأركسه بكسبه فجعل التوحيد تشبيها تعظيما وطاعة، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، ومن علق ذلك بالمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه فضلا عن غيره ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا شبيها لمن له الأمر كله وأزمة الأمور كلها بيده ومرجعها إليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع . فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات .

ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، من التعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك عقلا وشرعا وفطرة لا يكون إلا لله وحده، ويمنع أن يكون لغيره . فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل ولا ند له وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة .

ومن خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونها : غاية الحب مع غاية الذل، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه في خالص حقه، وهذا قبحه مستقر في كل العقول والفطر ولكن الشياطين غيرت فطر أكثر الخلق وأفسدتها واجتالتهم عنها .

إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به . ومنها التوكل والتوبة . هذا في جانب التشبيه .

أما جانب التشبه به : فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفا ورجاء والتجاء واستعانة، فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وألوهيته وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان ويذله غاية الذل ويجعله تحت أقدام خلقه . وفي الصحيح قال ﷺ : (يقول الله ﷻ العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدا منهما عذبته) . وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذابا يوم القيامة لتشبهه بالله تعالى في مجرد الصنعة، فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والإلهية ؟!

وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده كملك الأملاك وحاكم الحكام .

إذا تبين هذا فهاهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس وظن به ما يناقض أسماءه وصفاته ولهذا توعد الله الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ الفتح: ٦ ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ فصلت: ٢٣ ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الصافات: ٨٥ - ٨٧ ، أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وما ظننتم به حتى عبدتم غيره وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره ؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم وهو على كل شيء قدير وأنه غني عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه وأنه قائم بالقسط على خلقه وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلى معين والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم ويعينهم على قضاء حوائجهم وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم، فأما القادر على كل شيء الغني بذاته عن كل شيء العالم بكل شيء الرحمن

الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن السوء وقبح ذلك مستقر في العقول السليمة فوق كل قبح .

ويوضح هذا أن العابد معظم لمعبوده متأله له خاضع ذليل لـه، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال والتألـه والخضوع والذل وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما وأن هذا الشريك عبده ومملوكه، وإذا كنتم أيها البشر تأنفون أن يشارككم مملوكوكم في أرزاقكم وأملاككم فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري ولا تصلح لسواي ؟

فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري ولا عظمني حق تعظيمي ولا أفردني بما أنا منفرد به وحدي دون خلقي . فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحج: ٧٣ - ٧٤ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الزمر: ٦٧ . فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شي من ذلك ألبته بل هو أعجز شيء وأضعفه فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

وكذلك ما قدر الله حق قدره من قال إنه لم يرسل إلى خلقه رسولا ولا أنزل كتابا وترك خلقه سدى وأهملهم وخلقهم عبثا، وما قدره من نفى أسمائه وصفاته وحرفها، وما قدره من قال أنه يعاقب العبد على ما لا يفعله ويجوز أن يعاقب المطيع وأنه يجبر العبد على فعله، ولم يقدره من جعل له صاحبة وولدا، وما قدره من قال أنه لا ينصر دينه وأوليائه ويرفع أعداء رسوله وأتباعه، وماقدره من زعم أنه لا يحيي الموتى ولا يبعث من في القبور، ولم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ونهيه فارتكبه وحقه فضيعه وذكره فأهمله واستخف بنظره إليه ومراقبته له واطلاعه عليه يعظم نظر المخلوق ويستحي من الناس ولا يستحي من الله ويخشى الناس ولا يخشى الله وإذا بذل ماله بذل له مالا يستحي أن يهبه لمخلوق .

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله تعالى وأنه لا يغفره بغير التوبة وأنه يوجب الخلود في العذاب وأن تحريمه ليس لمجرد أن الله نهى عنه وإنما العقل والفطرة تستقبحه وتنكره فالله تعالى خلق الخلق وأنزل الكتاب وأمر وشرع لتكون العبادة والطاعة له وحده والشرك والكبر ينافيان ذلك ولذلك حرم الله عليهما الجنة) انتهى كلامه رحمه الله وهو من الحجة والبيان والبرهان كما ترى نسأل الله أن يرزقنا رضوانه ويميتنا على التوحيد ويجنبنا وبنينا أن نعبد الأصنام . الجواب الكافي ١٥٠-١٦٩ .

الثامنة والعشرون : لماذا استحق الله تعالى العبادة دونما سواه ؟:

أوجه استحقاق الله للعبادة ووجوب توحيده بها:

الأول: لكمال صفاته وجلاله تقدس ربنا، فالله ﷻ يعبد لكماله من جميع الوجوه، ومن هذا الكمال أنه متصرف قادر خالق عالم بكل شيء، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ الزخرف: ٨١ أي أنه لو كان للرحمن ولد كما زعم المشركون لصحت عبادة هذا الولد، لأنه لو كان لله تعالى ولد لكسب صفات والده من صفات الكمال، فاستحق العبادة، ولما كان هذا مستحيل، فالولد منتفي عن الله انتفت العبادة عن غير الله وكذلك ليس لله شريك في العبادة لعدم وجود الكمال في غيره ، عليه فلا يمكن أن يعبد إلا الكامل والكامل لابد أن يعبد، ولا كامل مطلقاً إلا الله فيجب أن تكون العبادة له وحده ﷻ.

الثاني: لجماله ﷻ فله الجمال المطلق من جميع الوجوه، والذي لا يتصف بالجمال المطلق لا يمكن أن يعبد .

الثالث : لإنعامه ﷻ على خلقه وتفضله على عباده ولعظيم نعمته على خلقه فكل خير منه سبحانه ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ النحل: ٥٣ ، فهو المنعم وحده ولهذا استحق مع إنعامه المحبة والعبادة ويدعى ويجار إليه وحده ، فمن أنعم عليك أحببته، وأي نعمة أعظم من نعمة الذي هداك وأوجدك وفطرك وعافاك وأعطاك كل ما سألت .

الرابع : لأنه ﷻ النافع الضار وحده ، فهو القادر أن ينفع ويضر والمتفرد وحده بذلك فيعبد لكمال علمه وقدرته فهو القادر على كل شيء والنفع والضر بيده لا يصل العجز إليه بوجه من الوجوه، وغيره لا يمكن أن ينفع أو يضر ، إلا بأمر الله

وقدرته تعالى قال ﷺ: " واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ".

قال تعالى مبينا هذا الأصل أن النفع والضر بيده وحده وأن المعبودات لا تملكه : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ الفرقان: ٥٥ ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ الأنبياء: ٦٦ ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ الأنعام: ٧١ ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ الحج: ١٢ ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ الشعراء: ٧٣ ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ الإسراء: ٥٦ ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ طه: ٨٩ ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ الشعراء: ٧٢ - ٧٣ ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يس: ٧٤ - ٧٥.

ولنقف مع بعض الآيات الشاهدة بالتوحيد واستحقاقه ﷻ العبادة وحده وبطلان عبادة ما سواه فهل في شيء من هذه الآلهة والمعبودات الباطلة من يرزقكم وينجيكم من كل شيء ويكشف الضر ويعصمكم ويكلؤكم ويمنعكم من الله، ومن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ومع هذا كله فالمشركون الذين بعثت فيهم الرسل مقرون بهذا الأصل، كما أخبر تعالى أن هذه الآلهة لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا فكيف تملكه لغيرها وكيف يعبد شركاء مع الله هل تخلق كما يخلق الله فحصلت الشبهة لعبادها.

قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ: ٢٤ ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يونس: ٣١ ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الأنعام: ٦٣ ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ الأحزاب: ١٧ ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ الأنبياء: ٤٢ - ٤٣ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ المؤمنون: ٨٦ - ٨٩ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا

ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ الرعد: ١٦.

الخامس: ولكمال غناه ﷻ وفقر كل مخلوق إليه فلا غنى لأحد عنه فهو الغني الحميد والصمد الكريم المجيد.

السادس: لكمال رحمته بخلقه ولطفه بهم ولعلمه بما يحتاجونه وما ينفعهم، ولا يمكن أن توجد هذه الصفة ولا ما سبقها من الصفات في أي مخلوق ولا في أي معبود سوى الله ﷻ. ألا تراه سبحانه استنكر على من اتخذ الشفعاء عنده والوسائط المقربة إليه بأنه يرحم ويقدر ويعلم بدونها وأن لازم اتخاذها أنه تعالى لا يعلم إلا بها وأن هذه الآلهة المعبودة والشفعاء تنبئه بما لا يعلم في أرضه وسمائه فقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يونس: ١٨ وأخبر سبحانه أن هذه الصفات الناقصة في الحقيقة موجودة في هذه المعبودات والشفعاء البطلة ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ الزمر: ٤٣ ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ يس: ٢٣ ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ يونس: ١٠٦ - ١٠٧.

لذلك كله استحق ربنا أن يحب ويجل ويعظم ويرجى ويهاب ويخاف منه ومن كانت هذه صفاته وهذا حاله وجب أن يدعى وحده ويُلتجأ إليه ويتوكل عليه دون غيره سبحانه. واستحق الله تعالى العبادة دونها سواه والإفراد بالألوهية والتوحيد، لأمور لا توجد في غيره ﷻ ومن لم تكن فيه هذه الصفات فإنه لايستحق أن يعبد.

التاسعة والعشرون: أدلة أن المعبود لابد أن يكون خالقا:

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ فاطر: ٤٠ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ الأحقاف: ٤ ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ الفرقان: ٣ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ

ضُرِّهِۦٓ ﴾ الزمر: ٣٨ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ الحج: ٧٣ ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الرعد: ١٦ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ الأنعام: ١٠٢ ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فاطر: ٣ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ غافر: ٦٢ ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ الطور: ٣٥ ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ الواقعة: ٥٩ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ الصافات: ١٢.

قال ابن القيم :(فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقا فاعلا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر) مختصر الصواعق ٧٢ .

الثلاثون : حاجة العبد للعبادة :

كما أن الله ﷻ يستحق العبادة لأجل الكمال الذي تفرد به، لأن الكامل لابد أن يعبد ولا يعطل عن العبادة، فإن الناقص المتجرد عن الكمال لا يستحق أن يعبد بل هو في حاجة للعبادة لتكميل نقصه عند غيره ، ويكون بحثه بالالتجاء والطلب والإرادة وهذه هي العبادة، وكل من خلقه الله ﷻ فهو عبد لله بالمعنى العام ولو كان مشركاً أو صنماً أو يدعى من غير الله فهو محتاج إلى الله ﷻ ومضطر لعبادته .

فالألوهية التي هي العبودية تتعلق بالعبد فلا بد للمخلوق من ألوهية وعبودية لغيره فهي صفة من صفاته التي لا تنفك عنه وفعلاً من أفعاله إذا قام بها وتأله وتعبد، والمخلوق فطر على العبودية لله، وهذا مقتضى الفطرة والأصل، أو يعبد غيره ويعدل عن عبادة ربه ويشرك وهذا الظلم العظيم الذي لا يغفره الله .

فلا بد للمخلوق من عبادة إما لله وإما لغيره وهل سمي جميع الخلق عبيد الله إلا لذلك، وهذا إبليس أول من ترك عبادة الله والانقياد لأمره فعبد غيره وأطاع هواه وشهوته وصيره الله خادما لفسقة بني عدوه آدم.

ولذلك كانت العبودية على قسمين :

عبودية عامة : يشترك فيها كل من خلقه الله ﷻ .

عبودية خاصة : بالمؤمنين الذين عبدوا الله ووحدوه ولم يشركوا به.

الحادية والثلاثون: أسباب العبادة الشركية التي نفاها الله ﷻ :

قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون عباد الأوثان الملك والشراكة والمظاهرة والمعاونة والشفاعة ، وقد بينها الله تعالى في آية سبأ في قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾.

فالمشرك إما أن يظن أن هناك مالكاً غير الله سبحانه وأنه يوجد من يملك شيئاً خارجاً عن ملك الله .

أو يظن أن الله إنما تتم قدرته بقدرة الشريك ، فالكون بينه وبين غيره شراكة فيكون مالكا مع الله.

أو يظن أن الله ﷻ يحتاج لمن يدبر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو معين.

وإما أن يظن أنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة، ولا يرحم حتى يسترحمه الشافع والواسطة وكذا لا يسمع ولا يكفي وحده .

أو يظن أن لأحد حق عليه فيقسم عليه بحق ذلك المخلوق ويتوسل إليه به.

وكل هذه الأمور فيها تنقص للربوبية وهضم لحقها . ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه من قلب المشرك بسبب قسمة ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به فيضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة .

فالشرك ملزوم تنقيص الرب سبحانه والتنقيص سمة كل مشرك.

قال ابن القيم في المدارج: (وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع ، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع إما مالكاً لما يريده عابدة منه ، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك ، فإن لم يكن شريكاً للمالك كان معيناً له وظهيراً فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده، فنفي سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً متنقلاً من الأعلى إلى الأدنى، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك ، وهي الشفاعة بإذنه فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً وتجريداً للتوحيد وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها ، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ولكن أكثر الناس لا يشعر) . انتهى كلامه رحمه الله .

وقد جعل بعض أهل العلم هذه الأسباب أنواعاً للشرك .

١- شرك الاستقلال والاحتياز بأن يملك ملكاً استقلالياً يجوز به .

٢- شرك الشياعة والمشاركة والقسمة، بأن يكون له نصيب يشارك الله فيه .
٣- شرك التدبير والظهير .
٤- شرك الشفاعة ، لأن الشفاعة لم يثبتها الله إلا بشروط هي إذنه ورضاه .
٥- شرك الأسباب .

الثانية والثلاثون : تمتع المشرك بشركه :

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾ الأنعام: ١٢٨

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ إبراهيم: ٣٠

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ الزمر: ٨

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم ﴾ التوبة: ٦٩

﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ٥٥.

الثالثة والثلاثون: انقطاع الأسباب والمودة والصلة بين العابد ومعبوده ، وتحول الود لبغض والولاء لبراء وعداء :

قال تعالى :﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ البقرة: ١٦٦ .

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ فاطر: ١٤ .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ العنكبوت: ٢٥.

﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ الأنعام: ٩.

الرابعة والثلاثون: موقف الصوفية والقبورية والمرجئة من الشرك:

أخطأت القبورية والصوفية والمرجئة والمتكلمة في حقيقة الشرك من جانبين:

أولاً : جانب التوحيد :

ذهبت فيه الصوفية بجميع طوائفها ، والقبورية – عباد القبور – وجميع الفرق الكلامية من الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة وغيرهم إلى أن التوحيد هو توحيد الربوبية، وفسروا توحيد الألوهية بأنه القدرة على الاختراع ، لأن الإله عندهم اسم فاعل بمعنى خالق قادر، مشتق من الآلة أي القادر على الاختراع ومنه سميت الآلات بذلك، وقالوا لا إله إلا الله أي لا خالق إلا الله، ولذلك ليس عندهم شرك في العبادة فعبادة غير الله وطلب الشفاعة من الصالحين والاستغاثة بالأموات والأولياء عندهم ليست شركاً إنما توسلا .

وهذا الذي ذكروه خالفوا فيه دين الله تعالى وما بعثت به جميع الرسل القائلة لقومها ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ ، بل وإن وما قالوه خالفوا فيه حتى العقل واللغة، وذلك أن العرب أهل اللغة والمعرفة كانوا يعلمون أن معنى لا إله إلا الله نفي العبادة عما سوى الله ﷻ ، ولم يكونوا يقصدون أن معنى لا إله إلا الله نفي الخالقية والمالكية والرازقية والتدبير عن غير الله تعالى ، فلقد كان أبو جهل وأبو لهب وجميع الكفار والمشركين مقرين بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر ، وإنما لم يسلموا للرسول ﷺ أن يتركوا عبادة غير الله من دعاء ونذر وخوف ومحبة ورجاء، واستنكروا ترك الاستغاثة بالصالحين وطلب الشفاعة منهم، كعيسى ﷺ والملائكة واللات الذي كان رجل صالح يتصدق على الناس ويطعم الحجاج ونحوهم، وقالوا كيف تجعل الآلهة التي ندعوها ونستغيث بها ونتوسط بها وتقربنا إلى الله وتشفع لنا عنده إلهاً واحداً، فندعوا الله وحده، والدليل على إقرارهم بربوبية الله وأنه النافع الضار وحده قوله وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ لقمان: ٢٥ ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ ﴾ الزمر: ٣٨ ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ الزخرف: ٩ ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ الزخرف: ٨٧ .

والدليل على أن عبادتهم كانت فقط في طلب الشفاعة من الأولياء والصالحين ودعائهم وهذا القدر يجعلها آلهة لهم ومعبودات مع الله قوله ﷻ عنهم: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ .

فهذا الجانب الذي عطله المتكلمون والصوفية والقبورية وهو جانب التوحيد بل وبدعوا من يفرق بين الألوهية والربوبية، حتى قال الدجوي عالم الأزهر : إن هذا من بدع ابن تيمية وفي الحقيقة أن تقسيم التوحيد إلى توحيد ألوهية وربوبية وأسماء وصفات هو مستقرأ من النصوص ومأخوذ من الأدلة، هذا هو الجانب الأول .

ثانياً : جانب الإيمان :

خالف المتكلمون والصوفية في باب الإيمان، لأن هؤلاء الصوفية والمتكلمة معظمهم من المرجئة، والمرجئة في باب الإيمان هم الذين يخرجون الأعمال الظاهرة والباطنة من الإيمان، وأن الإيمان مجرد التصديق أو المعرفة أو قول لا إله إلا الله فقط مع التصديق المجرد عن عمل القلب، كما أن الكفر فقط كفر القلب وليس للجوارح كفر مستقل بذاته، فعندهم أي شرك يحصل ظاهراً ليس بكفر إذا لم يقارن ذلك الكفر كفر القلب والباطن .

فمثلاً : الحكم بغير ما أنزل الله يشترطون فيه الاستحلال .

ودعاء غير الله ﷻ يشترطون أن يعتقد الكفر بقلبه ويستحل وأن يعتقد في هذا الذي يدعوه من دون الله بعض خصائص الربوبية .أما مجرد دعائه ظاهراً فليس بشرك عندهم .

على ذلك فعبادة غير الله بالذبح للمخلوقين والاستغاثة بالأموات ودعائهم ليس من الشرك في دين هؤلاء المشركين المعاصرين لأنه افتقد شرطين عندهم :

الشرط الأول : أنه خارج عن توحيد الربوبية .

الشرط الثاني : أنه خارج عن الأعمال الباطنة .

والرد عليهم بأن يقال : بأنه يلزمهم أن مشركي العرب وكفار مكة وغيرهم كانوا على الدين وعلى الإسلام لأنهم مقرون بالربوبية وكانوا مصدقين بمحمد ﷺ ويعلمون أنه على الحق، وأنهم لا يكذبونه ولكن يجحدون .

واعلم أنه إذا اجتمع هذين الجانبين، مخالفتهم في التوحيد بإنكار توحيد الألوهية والعبادة، ومخالفتهم في الإيمان بإنكار كفر الظاهر، حصل منهم تدنيس للدين وإذلال لأهله وانتشار للكفر شعروا بذلك أم لا ، لأن كل كفر ظاهر يرونه لا يكفرون صاحبه ولا يقيمون حد الردة عليه، لأنه لم يستحل ومن جهة أخرى أن الكفر في الربوبية فقط، يسبب تجويزاً له وتأييداً لأهله.

خلاصة موقف الصوفية والمتكلمين من توحيد الألوهية لرب العالمين :

أنهم أنكروه وأخرجوه من الإيمان، لأن الألوهية عمل والعمل عندهم خارج عن الإيمان وليس من الإيمان .

إضافة على أنهم فسروا الألوهية بالربوبية .

تنبيه : عقدت فصلاً موسعاً في كتاب نقض عقائد الأشاعرة عن موقف الصوفية والمتكلمين والأشاعرة من توحيد العبادة والشرك فيه .

الخامسة والثلاثون : تلازم الشرك مع تعطيل الصفات والإرجاء والجبر .

فهذه الأبواب الثلاثة سببت ظهور الشرك.

السادسة والثلاثون: وجوب تعلم الشرك ومسائله ومعانيه وأوصافه وأسبابه :

يجب على كل مسلم أن يعرف التوحيد الذي أمرنا الله به، ويعرف الشرك الذي ينقضه ويسعى حثيثا في تعلم كل ذلك، وهذا حصن للمؤمن إذا تعلم هذا الأمر فيجتنبه ألا ترى أن بعض الصحابة ﷺ حين جهل حقيقة الشرك والتوحيد وكانوا حديثي عهد بكفر طلبوا التعلق بالأنواط فأنكر عليهم الرسول ﷺ لعدم معرفتهم بالشرك كما ينبغي، وعدي بن حاتم جهل أن طاعة المشرعين والتحاكم لمن يحكم بغير ما أنزل الله عبادة شركية كفرية .

وينبغي للمسلم أن يسأل عن الشر لمعرفته ثم اجتنابه .

هذا وقد كثر في المعاصرين الجهل بحقيقة الشرك، لمّا لم يفهموا ما هو الشرك الذي حرمه الله تعالى والذي لا يغفره، وكثرت عندهم الشبه حول الشرك وحقيقته والسبب في عدم مغفرة الله تعالى لصاحبه.

ومما يؤكد وجوب العلم بحقيقة الشرك وشدة خطورته:

١- سرعة رجوعه .

٢- خفاؤه .

٣- تنوع الوسائل الداعية له والذرائع المفضية إليه.

٤- كثرة صوره .

قال ابن مسعود ﷺ : (الشرك بضع وسبعين بابا) أخرجه البزار .

السابعة والثلاثون: تغيير الأسماء لا يغير الحقائق والمسمى والحكم :

هذه القاعدة نقصد بها مشركي زماننا الذين يقعون في الشرك الصريح ويسمونه بغير اسمه ، فيدعون غير الله ﷻ ويستشفعون بالمخلوقين ويدعونهم أو يتحاكمون إليهم ولا يسمون هذا شركاً .

فيسمون دعاء الأموات والاستغاثة بالآلهة الباطلة توسلاً أو ندبة أو نداءاً ويسمون الإله المعبود المدعو سيداً وولياً فهذه الأسماء الباطلة لا تغير الحقائق .

وطائفة من مشركي عصرنا تسمي شرك التشريع والتحليل والتحريم والحكم بغير ما أنزل الله نظاماً أو تنظيماً إدارياً ونحو ذلك .

ويتحاكمون للطاغوت ويشرعون ويحللون ويحرمون ويسمون ذلك انتخابا وتصويتا ونحو ذلك .

وكل ذلك لا يغير الحقيقة التي وضع الحكم لأجلها فتسمى هذه المعبودات آلهة ويسمى الفعل شركاً ويكفر صاحبه .

قال ابن تيمية : (ولهذا كان من أتباع المتكلمين من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها كما يدعو الله تعالى ويصوم لها وينسك لها ويتقرب إليها، ثم يقول إن هذا ليس بشرك، وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي، أما إذا جعلتها سببا وواسطة لم أكن مشركا) درء التعارض ١/ ٢٢٧ .

قال ابن القيم : (ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ فإنه شرك من الساجد والمسجود له، والعجيب أنهم يقولون ليس هذا بسجود وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احتراما وتواضعا) المدارج ١/ ٣٤٤ .

فصل : حقيقة التوحيد والربوبية والألوهية والعبادة

لضبط حقيقة الشرك لا بد من معرفة ضده وهو كلمة التوحيد :
المسألة الأولى: تعريف التوحيد في اللغة : التوحيد مصدر وحّد يوحد توحيداً.
ومعناه الإفراد والتميز والاختصاص وما لا ثاني له ولا مثيل .
ومن الألفاظ المرادفة للتوحيد : **الإخلاص والتجريد والإفراد .**
والتوحيد في اللغة لا يطلق إلا على ما يقوم على الحصر (النفي والإثبات) ، فلا يسمى الشيء إفراداً أو توحيداً إلا إذا قام على ركنين هما الإثبات مع النفي .
م (٢) : التوحيد على وزن تفعيل وهي صيغة تستعمل للنسبة لا للجعل :
أي نسبة الوحدانية واستحقاق العبادة والربوبية لله الواحد الأحد ، وتجعل المعبود واحدا فلا تجعل نداً مع الله وتنسب الشريك له . بمعنى أنك تجعل العبادة لله وحده لا أنك جعلت الله مستحقا للتوحيد لأن الله الذي جعل لنفسه ذلك فهذا من لوازم ذاته .ومثله التصديق والتكذيب فهو نسبة الصدق والكذب للمتكلم ممن سمعه ، لا أنك جعلت المتكلم صادقا أو كاذبا فالمتكلم الذي يجعل نفسه كذلك.
م (٣) : نسبة التوحيد تكون بالاعتقاد والعمل ، وذلك بجعل المعبود واحداً اعتقاداً وعملاً، وضده الشرك يكون بالاعتقاد والعمل وذلك بإشراك آلهة مع الله.
م (٤) : التوحيد والشرك صفة العبد وفعله:
التوحيد صفة للعبد وهي نسبة الوحدانية وجعلها لله وحده ، والشرك ضد ذلك بجعل شريكاً مع الله ونسبة استحقاق العبادة لأكثر من واحد ، أما صفة الله فهي الوحدانية ، والتوحيد ليس صفة لله وإنما صفة للعبد وفعل له.
فائدة : الجعل أثبتته النصوص للعبد : والجعل يتعلق بالتوحيد والشرك :
جعل التوحيد: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ .والجعل الشركي: (يجعل لله نداً) البخاري .
م (٥) : تعريف التوحيد الاصطلاحي :
التوحيد شرعا : هو إفراد الله ﷻ بكل ما يستحقه وما يخصه .
والذي يستحقه ﷻ ويجب أن يوحد فيه ، وحقه الذي يختص به ثلاثة أمور :
الأول: العبادة من التعظيم والمحبة والذل له والخضوع والطاعة والالتجاء.
الثاني: الربوبية والأفعال الخاصة به كالخلق والرزق والتدبير والإماتة.
الثالث: إثبات صفات الكمال لله والذي تفرد به، وتنزيهه عن النقص .

م (٦) : أساس التوحيد :

التوحيد العلمي (الربوبية) : أساسه قائم على إثبات الكمال لله .

التوحيد العملي (الألوهية) : أساسه قائم على تعظيم الله والذل له وحبه والخوف منه والتوجه لله وتجريد القصد والطلب والتعلق لله وتطويع الجوارح لله.

م (٧) : تفسير النبي ﷺ لشهادة التوحيد :

قال الرسول ﷺ في أركان الإسلام في الصحيحين: (بُني الإسلام على خمس :

ثم عبر ﷺ بعدة عبارات دالة على التوحيد كلها مترادفة وبمعنى واحد :

الأولى : (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ...).

الثانية : (على أن يوحد الله). كما في رواية.

الثالثة : (على أن يُعبد الله ويكفر بما دونه) . كما في رواية.

الرابعة : (إيمان بالله ورسوله) . كما في رواية.

ففسر ﷺ هنا وفي حديث معاذ وجبريل وغيرها التوحيد بالشهادتين وعبادة الله وحده وترك الشرك والكفر بالطاغوت وبالإخلاص وبالإيمان وبالإسلام.

وقد سمى الله التوحيد والعبادة إيماناً وإسلاماً ، كما فسر الإسلام والإيمان بالتوحيد والشهادتين والإخلاص وعبادة الله وترك الشرك والكفر بالطاغوت.

ففسر الإسلام بالإيمان وبالتوحيد ، وفسر الإيمان بالإسلام وبالتوحيد .

م (٨) : المصطلحات المفسرة والمرادفة للتوحيد .

الشهادتان ، الإيمان ، الإسلام ، العبادة ، الكفر بالطاغوت ، الإخلاص .

م (٩): ورود التوحيد في النصوص :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾البقرة ١٦٣ ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

ومن أسماء الله تعالى : الواحد ، الفرد ، الأحد.

ومعناه :أنه هو وحده ﷻ إله واحد لا ثاني له ، ولا شريك، ولا مثيل .

وجاء التصريح بلفظ التوحيد في السنة من ذلك:

قول الرسول ﷺ لعمرو ﷺ : (أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك) رواه أحمد وصححه الألباني .

وحديث جابرﷺ في مسلم: (فأهل بالتوحيد لبيك اللهم لبيك).

وعند أبي داود من حديثه:قرأ فيهما بالتوحيد وبـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

فسورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تسمى سورة الإخلاص وسورة التوحيد .

م (١٠) : الفرق بين الربوبية وتوحيد الربوبية والألوهية وتوحيد الألوهية :
الربوبية والألوهية صفات لله، والتوحيد والشرك فيها صفات للعبد .
والفرق بين العبادة وتوحيد العبادة : أن العبادة هي القربة والطاعة وفعل العبادة. والتوحيد أن لا تصرف هذه القربة والعبادة لغير الله ﷻ.
م (١١): فائدة لغوية: لا يصح أن يقال الشرك في التوحيد والشرك في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، والصحيح قولنا الشرك في الألوهية والشرك في الربوبية .
وعلة ذلك : أن التوحيد يقابل الشرك ولا يجتمعان، فالتوحيد لا يتعلق به الشرك وإنما يتعلق بالعبادة والألوهية والربوبية، أما من وحد وأتى بالتوحيد فلا يقال أشرك في توحيده وإنما أشرك في عبادته ، لكن يصح أن يقال الكفر بالتوحيد .
م (١٢) : فضل التوحيد ومكانته وأهميته وثمراته :
التوحيد أعظم ما أمر الله به، ولا يدخل الإسلام إلا به ولا يعصم الدم والمال إلا هو ولا يدخل أحد الجنة وينجو من النار إلا بتحقيقه ولا تقبل العبادات إلا به.
م (١٣): وجوب تعلم مسائل التوحيد وحقيقة الشرك وأسبابه :
يجب على كل مسلم أن يعرف التوحيد الذي أمرنا الله به، ويعرف الشرك الذي ينقضه ويسعى حثيثا في تعلم كل ذلك، وهذا حصن للمؤمن فإذا علم بالشرك اجتنبه، ألا ترى أن بعض الصحابة ﷺ حين جهلوا حقيقة الشرك وكانوا حديثي عهد بكفر طلبوا التعلق بالأنواط ومثلهم عدي في شرك الطاعة وذلك لعدم معرفتهم بحقيقة الشرك، فأنكر عليهم ﷺ، ولذا ينبغي للمسلم معرفة الشر ليتقيه.
هذا وقد كثر في المعاصرين الجهل بحقيقة الشرك، فلم يفهموا ما هو الشرك الذي حرمه الله تعالى والذي لا يغفره، وكثرت عندهم الشبهات في الشرك وحقيقته والسبب في عدم مغفرة الله تعالى لصاحبه ، فظنوا أن دعاء الأموات واتخاذ الوسائط وطلب الشفاعة ليس بشرك،وظن آخرون أن الحكم بالقوانين والتشريع ليس شركا.
م (١٤): أركان التوحيد :
التوحيد قائم على ركنين النفي والإثبات : وهما ركنا شهادة أن لا إله إلا الله .
الركن الأول : النفي والإنكار: وهو الموجود في (لا إله) .
وهو نفي استحقاق العبادة عن كل ما سوى الله ﷻ والكفر بعبادة من دونه، والخلوص من الشرك والبراءة منه ومن أهله، وخلع الأنداد والمعبودات والآلهة ، وأيضا نفي الربوبية والكمال والتعظيم عن كل مخلوق .

الركن الثاني الإثبات : وهو الموجود في : إلا الله .
إثبات العبادة والدين والألوهية والربوبية والكمال لله وحده دونها سواه.
وليعلم أن ذلك مشتق من أصل اللغة فالتوحيد في أصل اللغة لا يطلق إلا على مصطلح يقوم على النفي والإثبات ومثله الإفراد والوتر وأسلوب الحصر .
فالتوحيد له ركنان هما الإثبات والنفي، فلا يسمى الشيء مفرداً أو إفراداً أو توحيداً أو تجريدا أو إخلاصا إلا إذا قام على ركنين هما الإثبات مع النفي .
م (١٥): أركان التوحيد من حيث محله وآلته:
الركن الأول : قول القلب وذلك بمعرفة الله ﷻ وتصديقه .
الركن الثاني : عمل القلب وذلك يتحقق بالإقرار بوحدانية الله ﷻ وإفراده بجميع أنواع العبادات القلبية كمحبته ومهابته والذل له والخضوع له وتعظيمه .
الركن الثالث : قول اللسان ويكون بالنطق بالتوحيد وذكر الله وسؤاله .
الركن الرابع : عمل الجوارح، ويتحقق بالقيام له ﷻ بالتوحيد بالبدن .
م (١٦) : أقسام التوحيد :
ينقسم التوحيد إلى أقسام باعتبارات ، ومثله الشرك الذي هو ضد التوحيد :
التقسيم الأول : ينقسم باعتبار آلاته وأركانه إلى عملي واعتقادي وقولي .
١- التوحيد القولي اللساني :
قول لاإله إلا الله ودعاء الله وتسبيحه والحلف به والإقرار بتوحيد الربوبية له.
٢- التوحيد الاعتقادي الباطني القلبي : (قولي وعملي)
الاعتقادي القولي المتعلق بقول القلب : التصديق والمعرفة بالله واليقين بالله .
الاعتقادي العملي المتعلق بعمل القلب: كالمحبة والخوف والتوكل والتعظيم.
٣- التوحيد العملي الظاهر المتعلق بالجوارح: كالقيام والسجود والذبح .
ويلاحظ أن هذا التقسيم راجع لأفعال العباد .
التقسيم الثاني: أقسامه باعتبار نوعه وجنسه :
١- توحيد الألوهية ٢- توحيد الربوبية ٣- توحيد الأسماء والصفات .
والبعض يسمي الثاني والثالث بالتوحيد العلمي الخبري أو المعرفة والإثبات .
ويقصد بالعلمي الخبري المتعلق بالعلم والخبر وبالمعرفة معرفة الرب ﷻ وبالإثبات إثبات أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله .
والبعض يضيف على الأنواع الثلاثة توحيد المتابعة وتوحيد الحاكمية.

وفصلنا القول في ذلك في كتابنا حقيقة عقيدة التوحيد .

التقسيم الثالث : أقسامه باعتبار من يقوم به ويتعلق به .

توحيد متعلق بالله وهو الخاص بصفاته تعالى وأفعاله ووحدانيته القائمة به .

توحيد متعلق بأفعال المخلوق وهو أن يعبد الله وحده .

فلا يقوم في قلبه وجوارحه تعظيم وذل وخضوع لغير مولاه المنعم عليه وربه المتفضل عليه والمحسن إليه والقادر على نفعه وضره والقائم على مصالحه .

التقسيم الرابع : وينقسم باعتبار من يتصف به :

١- توحيد المرسِل:وهو الله ﷻ ، وتوحيده يكون في ألوهيته وذلك بعبادته وحده، وفي ربوبيته وأفعاله وأسمائه وصفاته،وهذا مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله.

٢- توحيد المرسَل: وهو الرسول ﷺ : ويسمى توحيد المتابعة .

وذلك بإتباع الرسول ﷺ وطاعته وتحكيمه وتقديم أمره وتصديقه ومحبته، وهذا مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله .

التقسيم الخامس: ينقسم باعتبار أهميته إلى توحيد كمال وتوحيد أصل .

م (١٧) : وجه انحصار التوحيد في ثلاثة أنواع : أن ما يختص به الله وحده ويعتبر حقاً له لا يشاركه أحد فيه وصفة لازمة له ، لا يخرج عن ثلاثة أمور :

الأول : تفرده بالربوبية فلا رب للعالمين إلا هو ولا خالق ولا مالك ولا مدبر ولا رازق غيره ﷻ وهذا أحد الأمور التي استحق أن يوحد سبحانه فيها .

الثاني : تفرده بالألوهية وكونه وحده المستحق للعبادة دونما سواه، فلا يشاركه أحد في هذا الحق، ، لأن استحقاق العبادة لا تكون إلا لمن له الكمال .

الثالث : تفرده بصفات الحسن والكمال والجمال والجلال، فله وحده الأسماء الحسنى الدالة على الصفات العليا لايشاركه أحد وغيره، مخلوق ضعيف فقير محتاج.

م (١٨) : تقسيم التوحيد أمر استقرائي دلت عليه النصوص:

كما قررنا أن لفظ التوحيد مصطلح شرعي ، فكذلك أقسامه هي الأخرى شرعية سلفية ليست بدعية خلفية كما يقول المبتدعة، وليست من مخترعات ابن تيمية كما يزعمون بل وردت هذه الأقسام عند السلف في القرون المفضلة وسيأتي كلامهم.

أولاً : دل على أصل هذا التقسيم القرآن والسنة .

ومن الآيات الجامعة لأنواع التوحيد والدالة على التقسيم :

الأولى: سورة الفاتحة فيها تقرير لأقسام التوحيد قال تعالى:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

الثانية: قوله في سورة الناس: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾.

الثالثة: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ مريم .

الجملة الأولى: دلّت على توحيد الربوبية وهي التي وردت في: قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

الجملة الثانية: دلّت على توحيد الألوهية والعبادة وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾.

الجملة الثالثة دلّت على توحيد الأسماء والصفات وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾.

ثانياً: ورود تقسيم التوحيد في كلام السلف وأهل العلم:

كما أنه قد ورد لغة تقسيم التوحيد على لسان السلف وكلامهم ومن ذلك .

قال أبو حنيفة في الفقه الأبسط : (والله يدعى من أعلى لا من أسفل لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء) .

وروى ابن مندة في كتابة التوحيد عن القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة قوله :(إنما دل الله ﷻ خلقه بخلقه ليعرفوا أن لهم رباً يعبدوه ويطيعوه ويوحدوه).

قال أبو جعفر الطحاوي (ت:٣١١) في عقيدته :(نقول في توحيد الله : إن الله واحد لا شريك له ولا شيء مثله ولا شيء يعجزه ولا إله غيره) .

قال ابن بطه (ت:٣٩٧) في الإبانة:(الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده ثلاثة أشياء: أن يعتقد ربانيته، أن يعتقد وحدانيته، أن يعتقده موصوفاً بالصفات).

قال ابن حبان بالروضة:(الحمد لله المنفرد بوحدانية الألوهية المتعزز بعظمة الربوبية)

قال ابن كثير عند آية ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم ﴾ : (احتج على المشركين باعترافهم بوحدانية ربوبيته على وحدانية ألوهيته) .

وقال المقريزي الشافعي في كتابه التوحيد : (ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون بل اقروا به ..وإنما أنكروا توحيد الألوهية).

وقال ابن أبي العز شارح الطحاوية : (التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع: أحدها: الصفات، الثاني: توحيد الربوبية، الثالث: توحيد الألوهية وهو استحقاقه أن يعبد).

وقال الصنعاني في تطهير الاعتقاد : (الحمد لله الذي لا يقبل توحيد الربوبية من العباد حتى يفردوه بتوحيد العبادة كل الإفراد).

فهذه بعض النقولات والنصوص الصريحة في أنواع التوحيد الثلاثة الصفات والربوبية والألوهية ، من علماء الأمة من القرون المفضلة ومن بعدهم من جميع المذاهب وفي هذا رد على من شكك في تقسيمنا للتوحيد وزعم ابتداعنا له .

م (١٩): التوحيد أصل وكمال :

مطلق التوحيد أصله. المصحح للإيمان والإسلام: وهذا المعتبر بدخول الجنة والمنجي من النار والفاصل بين المسلم والكافر وهو مقتضى الشهادتين والإيمان بالله.

كمال التوحيد المطلق : وهذا يتفاضل الناس فيه وتاركه يعتبر موحداً لا كافراً وهو على درجات منه الواجب الذي يعاقب مخالِفُه مع بقاء الإسلام ومنه المستحب.

م (٢٠) : قوادح التوحيد ونواقضه :

القسم الأول:ماينقض التوحيد من أصلة ويزيله بالكلية، وهو الشرك الأكبر.

الثاني: ماينقصه ويقدح في كماله لكن لا يبطله وهو الشرك الأصغر والمعاصي.

والقاعدة:أن الشرك الأكبر لايجتمع وجوده مع وجود الإيمان وأصل التوحيد. أما الأصغر فلا ينافي أصل التوحيد ولا ينقضه وإنما ينقص كماله الواجب .

م (٢١) : ما يضاد التوحيد : الشرك ينقض التوحيد، ويكون بأحد طريقين : إما بنفي ما أثبته الله تعالى لنفسه ، أو بإثبات ما نفاه الله. وسيأتي بحث الشرك.

م (٢٢) : تعلقات التوحيد والشرك :

١- يتعلق التوحيد بالله ، فيقال توحيد الله والشرك بالله .

٢- ويتعلق بالالوهية والربوبية والأسماء والصفات .

فيقال توحيد الألوهية وشرك الألوهية ومثله الربوبية .

٣- ويتعلق بالعبادة ، فيقال توحيد العبادة لله والشرك في العبادة .

٤- ويتعلق بالإسلام ، فيقال توحيد الإسلام لله .

وجاء الأمر بالتوحيد في الإسلام في قوله: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ .

٥- ويتعلق بالدين ، فيقال توحيد الدين لله ﴿ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ .

٦- ويتعلق بالشريعة ويأتي الشرك في التشريع ﴿ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾.

٧- ويتعلق بالرسول . فيقال توحيد الرسول بالمتابعة كما سيأتي في فصله.

٨- ويتعلق بالإيمان . فيقال توحيد الإيمان بالله.﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾.

٩- ويتعلق التوحيد والشرك بالانقياد والطاعة .

ويتعلق التوحيد بالحكم والمحبة والدعاء والخلق والأمر والتدبير وبقية أفعال وأفراد الألوهية والربوبية والصفات .

م (٢٣) : الحنيف هو من أتى بالتوحيد و ترك الشرك عن قصدٍ وعلم:

مجرد ترك الشرك من غير قصد وتعمد تركه لا يكفي بمفرده في الدخول في الإسلام، فلا بد من ترك الشرك قصدا ومن الكفر به والبراءة منه ومعاداة أهله.

قال ابن كثير في تفسير ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ : (الحنيف هو المائل عن الشرك قصدا ، أي تاركاً له عن بصيرة) . وقال(المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد) .(ومقبل على الحق بكليته لا يصده عنه صاد ولا يرده راد) .

فمن ترك الشرك وفاقاً وعادة من غير قصد فهذا لا يصدق عليه أنه اتبع ملة إبراهيم الذي صرح بالكفر بالطاغوت وصدع بتكفير أهله عالما عامدا .

م (٢٤) : لا تنفع لا إله إلا الله إلا العالم بمعناها العامل بمقتضاها :

قال الشيخ سليمان في التيسير شرح التوحيد : (ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق بشهادة أن لا إله إلاّ الله محمداً رسول الله، ولم يعرف معنى الإله ولا معنى الرسول ، وصلى وصام وحج ولا يدري ما ذاك إلاّ أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل شيئاً من الشرك ، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه).

وقال أيضا فيه: (أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع . فتباً لمن كان أبو جهل وغيره أعلم منه بلا إله إلاّ الله) .

م (٢٥) : لا يقوم التوحيد إلا بالكفر بالطاغوت :

الكفر بالطاغوت أحد ركني لا إله إلا الله ، وقد دلت عليه كلمة التوحيد.

ووجه ذلك أن التوحيد له ركنان :

الأول : عبادة الله . الثاني : الكفر بالطاغوت والبراءة منه .

وسيأتي الكلام عن الكفر بالطاغوت في شرح الناقض الثالث.

م (٢٦) : التوحيد هو حقيقة لا إله إلا الله :

شهادة أن لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد وهي نفس قولنا التوحيد .

لأن لا إله إلا الله دلت على التوحيد لكونها قائمة على الحصر، الذي هو النفي والإثبات وهذا هو التوحيد، فلا يسمى الأمر توحيداً إلا إذا كان فيه أسلوب الحصر النفي والإثبات، نفي الألوهية والعبادة عن كل من سوى الله ﷻ ، وإثباتها لله وحده لا شريك له وحصرها عليه .

هذا وقد دلت كلمة التوحيد لا إله إلا الله على توحيد الألوهية بالمطابقة وعلى توحيد الربوبية والصفات بالتضمن والملازمة .

م (٢٧): الأصل التوحيد والشرك طارئ في الخليقة :

خلق الله ﷻ الخلق على عبادته وطاعته وتوحيده فكان الناس أمة واحدة على التوحيد قبل أن يختلفوا ويدخلهم الشرك ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ يونس: ١٩ ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ البقرة: ٢١٣ .

وفي الحديث القدسي قال الله ﷻ : (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا) رواه مسلم.

م (٢٨) : تعريف المخالفين للتوحيد:

الفرق الضالة تفسر التوحيد بما تعتقد من باطل :

التوحيد عند الاتحادية والحلولية وأهل الوحدة:أن يكون الله عين كل موجود.

التوحيد عند المعطلة الجهمية بفرقها من معتزلة وأشاعرة: إنكار صفات الله.

والتوحيد عند القدرية : إنكار قدر الله وخلق أفعال العباد .

والتوحيد عند الجبرية : إنكار أن يكون للمخلوق تأثير وللأسباب حقيقة.

التوحيد عند المرجئة : مجرد ما في القلب من اعتقاد الربوبية في الله .

التوحيد عند الصوفية والقبورية والرافضة : هو اعتقاد أن الله هو الخالق. والشرك في اعتقاد أن يكون المخلوق خالق له التأثير والاستقلال من دون الله.

هذا تعريف التوحيد وحقيقته عند المبتدعة، فالشرك عندهم توحيد والتوحيد شرك وقد بينا ذلك في شرح النواقض ، كما زعموا أن النبي ﷺ لم يفسر التوحيد.

تنبيه : مما أجمعت عليه الطوائف الصد عن التوحيد وحرب أهله ومعاداتهم .

م (٢٩) : اجتماع التوحيد والإيمان مع الشرك :

توجيه قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦ .

الإيمان والشرك هنا لهما معنيان ، والآية فيها تأويلان للسلف :

الأول : المراد بالإيمان هنا توحيد الربوبية والإيمان بكون الله خالقا ، والشرك هو الشرك في الألوهية فلا يقبل هذا الإيمان ولا يعتبر به ولا يصح ولا يسمى إيمانا من حيث الإطلاق الشرعي، وذلك لعدم وجود التوحيد فيه واقتران الشرك به .

قال ابن عباس : (من إيمانهم إذا سئلوا من خلق السماء والأرض قالوا الله وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره ويسجدون للأنداد دونه).

وقال مجاهد : (إيمانهم قولهم الله خالقنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره).

الثاني : الإيمان هنا هو الأصلي والشرك المقصود به الأصغر ، فيكون المراد بالإيمان في الآية هو الإيمان الشرعي المقبول والمقترن بتوحيد الربوبية والألوهية، ويكون الشرك المقصود به في الآية الشرك الأصغر كالحلف بغير الله وكيسير الرياء وإسناد النعم لغير الله وشكر الناس على ما أنعم الله به عليهم.

م (٣٠) : يشهد المشرك بالتوحيد في حالات :

١- يشهد بنوع من التوحيد وهو الربوبية في الجملة.

٢- قد يوحد المشرك في حال الشدة والخوف ويشرك في الرخاء والأمن.

٣- التوحيد في بعض العبادات، فقد تجد شخصا يشرك في جانب ويوحد في جانب ، فيوحد في الحكم ولكن يدعو غير الله ﷻ أو يكون العكس .

مبحث : تـوحـيـد الربوبية

المسألة الأولى: تعريف الربوبية :

الربوبية: أصلها مأخوذ من اسم الرب .

وهي مشتقة من الفعل رَبَّ يرب ، والياء والتاء في الربوبية للنسبة .

والمراد بالربوبية: الاتصاف بصفات الخلق والملك والتدبير، وأفعال الرب التي لا تنبغي لغير الله ﷻ. ولا تصلح لمربوب مخلوق مملوك مدبَر .

م (٢) : معنى توحيد الربوبية:

إثبات الربوبية لله وحده الخالق . ونفي الربوبية وأفعالها عن الخلق .

فيعتقد الموحد بالربوبية أنه لا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا مالك غير الله .

م (٣) : معنى توحيد الأسماء والصفات :

إثبات أسماء الله وصفاته لله التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله .

ونفي ما نفاه الله عن نفسه . وعدم إثبات شيء من صفات الكمال للخلق .

م (٤) : معنى الرب :

قال الأزهري في تهذيبه: قال ابن الأنباري : الرب يطلق على ثلاثة معاني :

(١- المالك . ٢- السيد المطاع . ٣- المصلح).

وعلى ما تقدم فالربوبية لا تخرج عن ثلاثة معاني : **(الملك، الأمر، التدبير) :**

الأول : المالك .

الثاني : الآمر المشرع الحاكم والسيد المطاع سان الدين والمحلل والمحرم.

الثالث : المدبّر الخالق المصلح المربّـي الراعي القائم على غيره والمتصرف فيه .

م (٥) : أسماء توحيد الربوبية :

١- توحيد أفعال الرب . لأن الربوبية حقيقتها أفعال الله وصفاته .

٢- التوحيد الاعتقادي لأن محله الاعتقاد في مقابل العملي الذي هو الألوهية.

٣- التوحيد العلمي القائم على العلم بالله وأفعاله وصفاته .

٤- توحيد المعرفة والإثبات لأنه متعلق بمعرفة الله وإثبات الكمال في صفاته .

٥- التوحيد الخبري : القائم على الخبر والسمع .

٦- توحيد الوسيلة أي الوسيلة إلى توحيد الألوهية الذي هو توحيد الغاية.

م (٦) : أفعال الربوبية والأمثلة لها : الخلق ، التدبير والتصرف في الأمر، الملك ، النفع والضر ، الإحياء والإماتة ، البعث والحساب ، علم الغيب ، التصوير

والإبراء، الرزق والنصر والإنعام والإغناء والمعافاة والإطعام وإنزال المطر، القضاء والقدر والهداية والإضلال، الأمر والنهي والحكم والتشريع والتحليل والتحريم وغير ذلك من أفعال الله ﷻ التي لا يحصيها ولا يعلمها إلا هو، والتي مردها لصفة التدبير التي ترجع فيها معظم أفعال الرب ﷻ .

م (٧) : ما تتضمنه الربوبية والأمور الداخلة في وجوب توحيد الربوبية:

أولاً : وجود الله ﷻ وكمال حياته وقيوميته .

ثانيا: أفعاله من الخلق والتدبير أو الإعداد والإمداد والإعدام وملكه لهم .

ثالثاً : أسماؤه وصفاته وكماله وجلاله وجماله وتفرده بالكمال وحده .

رابعاً : قضاؤه وقدره ، ويرجع هو ومراتبه الأربع في الربوبية.

فقضاء الله وقدره هو فعل الله فهو حكم الله وتقديره وإرادته وخلقه وهذه أفعال راجعة للربوبية القائمة بالله ﷻ ، كما أن مراتب القدر الأربع والتي هي : (العلم ، الكتابة ، المشيئة ، الخلق) هي صفات الله وأفعاله الراجعة للربوبية .

خامساً : شرعه وأمره وحكمه .

يدخل الحكم بما أنزل الله وامتثال أمره والعمل بشرعه في الإيمان بالربوبية، وهذا الأمر لا يخفى، لأن الحكم والأمر وتشريع الدين وسن الشرائع من أخص صفات الله، وجعل الله ﷻ الأمر له وحده وتفرد بالحكم، وجعل من ينازعه في هذه الصفة كافراً مكذباً بربوبية الله مشركاً فيها ، وقد دلت عليه نصوص كثيرة جداً.

فقال سبحانه : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤ فلا يأمر ولا يشرع ولا يحكم إلا من يخلق وكان رباً معبودا ، وأخبر تعالى أن الحكم له وحده لا يشترك معه أحد فيه ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ ، بل وأخبر الله ﷻ أن من عمل بحكم غيره فقد عبده وصيره إلهاً ورباً له ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠ ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا ﴾ آل عمران٦٤ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ ، فانظر كيف سمى الله تعالى الحاكم والمشرّع ومن يسن الدين والقوانين المحللة والمحرمة ربا وليس مجرد إلها وذلك لأنه نازع الله في أعظم خصائصه وادعى بصنيعه هذا الربوبية وجعل نفسه ربا من دون الله يجب أن يطاع ويتحاكم له، وقد فسر الرسول ﷺ لعدي بن حاتم كيف اتخذوهم أربابا وذلك بطاعتهم في التشريع والتحليل والتحريم .

سادساً : إرساله الرسل من الملائكة والأنبياء وإنزال الكتب .

من ربوبية الله وأفعاله المقدسة: إرساله الرسل من الملائكة ومن الناس ليعلقوا الخلق بربهم ويبصرونهم بمراد خالقهم، فإرسال الرسول وبعثة الأنبياء من أفعال الله ومن مقتضيات ربوبيته ولوازم حكمته، وهذا أمر دل عليه العقل والفطرة والشرع .

وذم الله ﷻ من أنكر بعثة الرسل وأخبر أن ذلك في الحقيقة قدح في ربوبيته كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ الأنعام: ٩١.

سابعاً : الإماتة والبعث والحساب :

وإماتته لخلقه ثم بعثه لهم وإحياؤهم بعد إماتتهم والنشور وحسابهم وإثابتهم وإدخالهم الجنة وعقابهم بالنار. من أعظم أفعال الربوبية المتفرد بها لجلاله وعظمته .

ومعرفة الكفار بالله لم تنفعهم، وصار إنكارهم البعث والرسالة كفرا وتكذيبا استحقوا به النار، لأن تكذيبهم بالبعث والرسل كفر وطعن في الربوبية .

هذه أركان الربوبية السبعة والتي لا يصح إيمان العبد إلا بإيمانه الحق بها.

ثامناً : الألوهية صفة من صفات الربوبية .

وبيان ذلك أن الألوهية معناها استحقاق العبادة، فأحقية العبادة من لوازم الربوبية وصفاتها، فالرب لابد أن يعبد والألوهية لا تنبغي إلا للرب الخالق القادر .

م (٨): آثار الإيمان بتوحيد الربوبية ولوازمه:

الإيمان بتوحيد الربوبية حقاً والرضا به يحمل صاحبه على الكمال في عبادة الله وحده وتوحيده في الألوهية وطاعته وتقدير الله حق قدره وتعظيمه والفرار من معاصيه والخوف من سخطه وعقابه، واللجوء إليه والانكسار بين يديه والافتقار له، والإيمان الحق بالقضاء والقدر، وموالاة أولياء الله ومعاداة أعداء الله، والحكم بما أنزل الله والتحاكم لشرعه ومتابعة رسوله ﷺ .

م (٩) : توحيد الربوبية لا يدخل وحده في الإسلام وليس الغاية :

توحيد الربوبية على علو مكانته وعظيم قدره وكونه حق ولا ينجو العبد بدونه ولا يصح إيمانه إذا انتفى، إلا أنه مع ذلك من أتى به وحده لا يكفي ليعتبر مسلما، وليس هو الغاية التي بعثت بها الرسل، إذ الغاية هي عبادة الله وحده وتوحيده ﷻ في الألوهية والعبادة، أما الإيمان بتوحيد الربوبية فإن المشركين كانوا مقرين بأصله ومع ذلك لم ينفعهم هذا الإيمان لما وقعوا في شرك العبادة والألوهية .

م (١٠) : أنواع الربوبية :

١- الربوبية العامة لجميع الخلق :

وهي المتضمنة لخلقهم ورزقهم وهدايتهم ، وهي ربوبية القدر والقهر.
٢- الربوبية الخاصة بالمؤمنين :
وهي توفيق الله لهم وإعانتهم على طاعته. وهي ربوبية الشرع والدين والأمر.
م (١١) : محل الإيمان بالربوبية ونوع آلته:
الإيمان بالربوبية كله من قبيل الاعتقادي وليس منه عملي ، بخلاف الألوهية .
أما الشرك في الربوبية فمنه الاعتقادي ومنه العملي المتعلق بالجوارح مثل التشريع والحكم بغير ما أنزل الله والتصوير وتعليق الحلقة والتمائم والتشاؤم وسب الدهر والريح والجزع والتسخط على القدر .
م (١٢) : أنواع المخالفات والقوادح والشرك في الربوبية:
١- إنكار وجود الرب ﷻ. وقد حصل من الشواذ كالفلاسفة الملاحدة .
٢- إنكار ربوبية الله وكونه خالقا رازقا وذلك بتعطيله عن أفعاله .
٣- إثبات ربوبية الله من غير توحيد. فيعترف بربوبية الله ولكن يقع في الشرك في أفرادها فيثبت الربوبية للمخلوقين، كما عند غلاة الصوفية الذين يثبتون للأولياء والرسل علم الغيب والنفع والضر والقدرة على كل شيء.
٤- القدح في بعض أفعال الله مثل سب الدهر أو الريح أو التشاؤم أو تنقص خلق الله أو الاعتراض على قدر الله والجزع به وعدم الرضا بالقضاء والقدر .
٥- ترك الحكم بشرع الله وأمره وحكمه والتشريع والتحليل والتحريم .
٦- تشبيه الله تعالى بخلقه ونسبة النقائص له ﷻ، مثل نسبة الولد إليه .
٧- عدم تعظيم الله وتقديره حق قدره.
٨- السحر والتنجيم وادعاء علم الغيب فيها .
٩- إنكار القدرية خلق أفعال العباد وإنكار الجبرية الأسباب .
١٠- إنكار صفات الله وتعطيلها وإنكار معناها بالتحريف والتفويض والتأويل كما هو مذهب الجهمية أو بتمثيلها بصفات الخلق .
١١- من يكون شركه في الربوبية من جهة اللزوم فمن أشرك في الألوهية فقد استلزم شركه فيها الشرك في الربوبية والقدح في ربوبية الله .
م (١٣) : مرد نقض توحيد الربوبية إلى ثلاثة أنواع :
الأول : إنكار ربوبية الله وتعطيل الرب منها ومن أفعاله وهذا شرك التعطيل .

الثاني : إثبات الربوبية الخاصة بالله لغيره وعدم توحيده بالربوبية وتمثيل المخلوق بالخالق في الربوبية ، وهذا شرك التمثيل .

الثالث : القدح في أفعال الرب كسب الريح والدهر أو التسخط على القدر .

م (١٤) :هل يوجد شرك عملي وأصغر في الربوبية ؟نعم ومن أمثلة ذلك :

١- تعليق التمائم .

٢- سب الدهر وسب الريح .

٣- الجزع والتسخط على القدر .

٤- قول: ما شاء الله وشئت ولولا الله وأنت .

٥- التطير والتشاؤم.

٦- نسبة المطر للكواكب والنوء والنجوم والفصول كالربيع نسبة سبب.

٧- التبرك المبتدع بآثار الصالحين .

٨- التصوير .

٩- الحكم بغير ما أنزل الله في القضية الواحدة، والتحاكم شرك في الألوهية.

١٠- شرك الأسباب ، والقاعدة: أن من جعل ما ليس بسببٍ سبباً وتعلق به ما لم يعتقد فيه التأثير فقد وقع في شرك الأسباب .

كل هذه شركيات عملية متعلقة بالربوبية وهي من الشرك الأصغر .

م (١٥) : التشاؤم والتطير والتبرك وتعليق التمائم : من قبيل شرك الأسباب .

أولاً : هي شرك في الربوبية : ويكون على درجتين حسب معتقد صاحبها :

١- فإن اعتقد فيها مجرد السببية في حصول الحوادث وردها فهو شرك أصغر .

٢- وإن اعتقد فيها التأثير بذاتها أو أن الله ﷻ جعل فيها التأثير والقدرة على الدفع والنفع فهذا شرك أكبر.

ثانياً : وتكون شركاً في الألوهية :

ذلك إن خاف هذه الأمور ورجاها وتعلق بها وأحبها فقد أشرك في الألوهية.

م (١٦) : هل وجد من أقر بتوحيد الألوهية ومع ذلك وقع في شرك الربوبية :

نعم ويوجد ذلك في طوائف :

١- القدرية : القائلون أن العبد يخلق فعله وليس الله بخالق للكفر والشر .

٢- أصحاب التمائم :ممن يلبسها ويعتقد فيها أنها سبب لدفع العين وهذا شرك في الربوبية وإن كان أصغر وإن اعتقد فيها التأثير بنفسها فهو شرك أكبر .

٣- المتبركون التبرك الممنوع بالآثار المبتدعة، والمعتقدون البركة والنفع فيها .
٤- القادح في أفعال الرب كسب الريح والدهر ، والتسخط على القدر .
٥- من أثبت أفعال الرب ﷻ للمخلوق سواءً من باب السبب أو التأثير.

م (١٧) : إقرار المشركين بتوحيد الربوبية في الجملة.

كان المشركون العرب وغيرهم مقرين بربوبية الله وأنه الخالق الرازق المدبر المالك وهذا لاخلاف فيه، وإنما الكلام في توحيدهم بالربوبية هل حصل لهم تحقيقه.

والتحقيق في ذلك: أنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية في الأصل والجملة والأساس يدل لذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ الزخرف: ٨٧.

فكان إقرارهم بالله وبربوبيته أمر ثابت بل وحتى ألوهيته أقروا بها لكن خالفوا في توحيد الله بالألوهية فهم لا يقرون به ولا يوحدون الله في العبادة فكانوا يعبدون الله ويعبدون غيره ويريدون أن يعبدوا الله وحده وإنما يريدون الشرك كما في قولهم ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ﴾ الأعراف: ٧٠ ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ .

لكن هذا التوحيد منهم لم يكن كاملا ولا صحيحاً، فإيمانهم مختلط بالشرك كما أخبر عنهم تعالى في قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦.

أما عدم صحته: فلأن من لازم التوحيد في الربوبية التوحيد في الألوهية، فمن أشرك في الألوهية فليس إلا لغلط في الربوبية وقدح فيها، وإلا لو كان حقاً مؤمناً بربه الكريم لما أشرك في عبادته وما اغتر بعبادة الآلهة الباطلة.

وأما عدم كماله فلوجود شرك في بعض أفراد الربوبية :

ومن ذلك قول المشركين ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ هود: ٥٤ ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يس: ٧٤ وتلبيتهم: (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك) وثبت أنهم كانوا يستغفرون بعدها.

فحصل منهم الشرك بنسبة شيء من التصرف والنفع والضر بعض الأحيان لآلهتهم وأنها تعتري أعداءها بسوء وطلبوا منها النصر وأثبتوا للآلهة نوع ملك .

وهذا القدر هو من الشرك في الربوبية، فهم وإن كانوا قد أقروا و اعترفوا أن الربوبية الحقة المطلقة لله وحده لكن اعتقدوا أنه يوجد لغيره بعض خصائصها.

ومن الأدلة الدالة على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية لله:

قول الله ﷻ عن المشركين وإقرارهم بتوحيد الربوبية لله :

﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾لقمان: ٢٥.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ المؤمنون: ٣٨.

وأخبر عنهم اعترافهم أن الله يستحق أن يعبد لكن نازعوا في توحيده بالعبادة: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ الأعراف: ٧٠ .

وأخبر عن اعترافهم بالشرك: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام: ١٤٨ .

كما أخبر عن إيمانهم به ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾يوسف١٠٦.

إقرارهم أن المدبر النافع الضار هو الله وإخلاصهم حال الشدة: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾الأنعام٦٣.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ العنكبوت: ٦٥.

ومن الأدلة على اعتراف مشركي العرب بتفرد الرب بالنفع والضر :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ .

لكن إقرارهم بتوحيد الربوبية لا يعني عدم وجود بعض المخالفات في توحيدهم بالربوبية والقوادح في تفاصيله منها :

١- اعتقاد بعضهم شيئاً من النفع والضر في الآلهة ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ هود: ٥٤.

٢- إنكار الرسالة والإرسال وهو من ربوبية الله .

٣- إنكار البعث وهو من أفعال الربوبية .

٤- التحليل والتحريم والتشريع والحكم بغير ما أنزل الله .

٥- عدم التزامهم بلازم الربوبية الذي هو توحيد الألوهية وعبادة الله وحده .

٦- اعتقادهم أن السحرة والكهان والمنجمين يعلمون الغيب.

٧- تشبيه الله ﷻ بخلقه وتنقصه مثل نسبة الولد إليه أو النوم والتعب.

٨- وقوعهم في سب الله عدوا بغير علم .

٩- التشاؤم والتطير ولبس الحلقة والتمائم والرقى واعتقاد تأثيرها ونفعها والاستقسام بالأزلام والتبرك بالأشجار والأحجار والاستمطار بالنوء .

قال ابن تيمية : (توحيد الربوبية وهذا لم ينازع في أصله أحد من بني آدم وإنما نازعوا في تفاصيله).

وقال في الدرء:(كثير من الطوائف قصر فيه مع إثباته لأصله).

مبحث : توحيد الألوهية

المسألة الأولى : اشتقاق الألوهية :
الألوهية والإلهية أصلها منتزع من الإله، وهي مشتقة من الفعل ألَه بمعنى عبد، والياء والتاء في الألوهية هي للنسبة أي نسبة الإلهية والعبادة لمستحقها .
والمراد بتوحيد الألوهية : هو إفراد الله بالعبادة المتعلقة بأفعال العباد.
وتقدم تعريف التوحيد .
المسألة (٢) : معنى الإله وصيغته واشتقاقه:
إله على وزن فِعَال بمعنى مفعول فهو إله بمعنى مألوه وهو المعبود .
وصيغة فعال التي بمعنى مفعول في اللغة لها أمثلة كثيرة منها :
كتاب بمعنى مكتوب وإمام بمعنى مأموم وفراش بمعنى مفروش.
والإله كذلك معناه المعبود ووجه ذلك : أن الإله معبود متأله وليس هو الفاعل العابد، فالإله ليس هو الذي يقوم بالعبادة ويفعلها ويصرفها وإنما تصرف له وتفعل له فهو معبود مألوه والمخلوق هو الآله العابد فاعل للعبادة .
فالإله مشتق من فعل ألَهَ بفتح اللام على وزن فَعَلَ كفتح، يأله إلاهة وتألها وألوهية ، وهو بمعنى عبد يعبد عبادة وتعبداً. وتأله تعبد وألوهية عبودية وألَهَ عَبَدَ ويأله يعبد وإلاهة عبادة، والمتأله المتعبد والآلِه هو العابد والمألوه المعبود.
ويدل لهذا المعنى : شعر رؤبة بن العجاج :
(لله در الغانيات المدهي سبحن واسترجعن من تألهي) أي من تعبدي .
وقراءة ابن عباس:(ويذرك وإلاهتك) أي يترك عبادتك وكان فرعون يُعبد .
وكل معبود يسمى إلـهاً سواء عُبِد بحق وعدل وهو الله وحده لا شريك له، أو عُبِد بظلم وهذا كل معبود سوى الله إذ عبادته تعتبر باطلة وظالمة ، وقد سمى الله المعبودات الباطلة آلـهة كالهوى والأصنام.
قال ابن عباس ﷺ : **(الله : ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين)** الطبري.
قال الطبري: فالإله هو المعبود وهو الله سبحانه، وهو على وزن فِعَال بمعنى مفعول مثل كتاب بمعنى مكتوب .
م (٣) : **الألوهية والعبادة بمعنى واحد وهي من المترادفات :** وألَهَ وعَبَدَ لفظان مترادفان، ففعل العبادة هو نفسه فعل الألوهية اللذان هما التعبد والتأله .

فحقيقة الألوهية كل عبادة أمر الله بها ويثيب فاعلها .

م (٤) : الإله اسم جنس لكل ما يعبد :

قال الزمخشري في الكشاف : (الإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس يقع على كل معبود بحق أو باطل ثم على المعبود بحق) .

وقد سمى الله ﷻ المعبودات آلهة وكل ما عبد إله في آيات كثيرة .

م (٥) : أسماء توحيد الألوهية :

١- توحيد الألوهية والإلهية.

٢- توحيد العبادة: والألوهية هي العبودية التي أمر الله بها ولا تنبغي إلا له.

٣- توحيد العباد : لكونه متعلق بأفعال العباد المخلوقين وتعبدهم .

٤- توحيد الإرادة والقصد والنية والطلب: لأنه متعلق بإرادة العبد وتوجهه.

٥- التوحيد الطلبي القصدي : لأنه قائم على طلب العبد وقصده ربه.

٦- توحيد العمل والفعل أو التوحيد العملي الفعلي: لأنه متعلق بأعمال العبد.

٧- توحيد الشرع والأمر والنهي : لكونه متعلقاً بأمر الله للعباد وتشريعه.

٨- توحيد الغاية: الغاية التي من أجله خلقنا ويقابل توحيد الوسيلة الربوبية.

م (٦) : الأقوال في اشتقاق اسم الإله :

١- الإله مشتق من (وِلَاه) وألَه ووله لجأ والتجأ واعتمد عليه وتضرع إليه .

٢- أنه مشتق من (وَلَاه) من ولِه ألِه ولاه وتولها و الوله التولع والاشتياق.

٣- الإله مشتق من(أَلِـهْتُ) إلى كذا إذا سكنت إليه ، فالقلوب تسكن إليه

٤- أنه مشتق من (لاه) يلوه ، إذا احتجب واستتر .

٥- أنه مشتق من (لاه) يليه إذا ارتفع.

٦- أنه مشتق من (وله) ألِه وهو التحير.

وهذه المعاني بعضها صحيح وداخل في عموم العبادة ، إلا أنها قاصرة في الدلالة على المعنى .

٧- أنه مشتق من (ألَهَ) آله أي قادر على الاختراع ومنه سميت الآلات بذلك، وجعل أصحاب هذا القول الإله بمعنى الفاعل لا المفعول وفسروا الألوهية بالقدرة والخلق والاختراع والربوبية، فالإله هو القادر وهو الرب، وهذا قول مبتدع لا تدل عليه النصوص ولا جاءت به اللغة وهذا القول والفهم أوقعهم في الشرك .

وهذا معنى الألوهية عند المتكلمين والصوفية القبورية . والعبادة عندهم لا تسمى عبادة إلا مع اعتقاد النفع والضر في المعبود وإعطائه بعض صفات الربوبية.

قال ابن تيمية: (الإله هو المألوه أي المستحق أن يؤله أي يعبد ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله، وقد غلط طائفة من أهل الكلام فظنوا أن الإله بمعنى الفاعل وجعلوا الألهية هي القدرة على الاختراع والربوبية) الفتاوى ١٣/ ٢٠٣ و٣/ ١٠١ .

أيضا لا يعتبرون الدعاء من العبادة فالعبادة عندهم فقط السجود والصلاة .

م (٧) : أنواع الألهة :

١- الإله الحق وهو الله ﷻ فهو المعبود وحده بحق .

وهذا حقيقة معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله : أي لا معبود بحق إلا الله فالنفي واقع على العبادة الحقة وعلى المعبود بحق وعلى الإله المستحق للعبادة، والإثبات بهذه الصفة لا يكون الا الله وحده المستحق للعبادة وليس نفي وجود المعبود ، فالآلهة غير الله موجودة وكثيرة ومثبتة غير منفية لكن المنفي استحقاقها العبادة، إذ أن عبادتها باطلة ولا تستحق أن تعبد .

٢- الآلهة الباطلة الظالمة وهي كل ما عبد من دون الله، ومن هذه المعبودات الموجودة الباطلة: الملائكة والأنبياء والأولياء والأموات والملوك والعلماء والجن والشمس والقمر والنجوم والنار والأصنام والأوثان والأشجار والصور والهوى والدنيا. وقد سمى الله كل ما يعبد إلهاً.﴿ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً ﴾ ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾.

واتصفت الآلهة بالبطلان لأن عبادتها وقعت بدون حق، ومعنى (بدون حق) أي أنها لا تستحق العبادة ولا تنبغي لها، فلا يعبد إلا من يخلق وينفع ويضر وحده .

وكونها آلهة (ظالمة باطلة) لأنها ما اتصفت عبادتها بالعدل كما هو الحال في عبادة ربنا ﷻ الذي تمت كلمته صدقاً وعدلاً وقامت بتوحيده السموات والأرض .

م (٨) : الألوهية صفة من صفات الربوبية :

الألوهية هي صفة من صفات الله ﷻ وحق من حقوقه، فاستحقاق العبادة لله هي من مفردات الربوبية وخصائصها . وبيان ذلك أن الألوهية معناها استحقاق العبادة، ومعلوم أنه لا يستحق أحد العبادة غير الرب الخالق، فأحقية العبادة هي من لوازم الربوبية وصفاتها ومعانيها، فالرب لابد أن يعبد ويطلب ويرجى لكونه القادر على كل شيء، والعكس بالعكس العبادة والألوهية لا تنبغي إلا لمن قدر على النفع والضر والخلق ولا توجد هذه الصفة في أحد غير الله تعالى .

م (٩) : الألوهية صفة للرب وللعبد:

أولاً : الألوهية المتعلقة بالرب : ويقصد بها استحقاق العبادة.

وهي صفة مشتقة من الإله وذلك بكون الله ﷻ مستحق للعبادة وهو المعبود .

ثانياً : ألوهية العبد : وتطلق على فعل العبادة ويقصد بها الفعل نفسه :

فتتعلق الألوهية التي هي العبودية بالعبد من حيث كونه عابدا، فلا بد للمخلوق من ألوهية وعبودية لغيره فهي صفة من صفاته التي لا تنفك عنه .

م (١٠) : قاعدة : تحقيق توحيد الألوهية يحصل بأمرين :

الأول: عبادة الله وحده بما شرع لنا رسوله .

الثاني: البراءة من عبادة غيره والكفر بالطاغوت .

ولا يكفي أحدهما عن الآخر ، ومن تركهما أو أحدهما فهو كافر .

م (١١) : أركان الألوهية وآلاتها :

تتكون الألوهية من أربعة أركان تقوم عليها ولا تتم وتصح إلا بها.

الركن الأول : قول القلب وذلك بمعرفة الله ﷻ وتصديقه .

الركن الثاني : عمل القلب وذلك يتحقق بالإقرار بوحدانية الله ﷻ وإفراده بجميع أنواع العبادة ومحبته ورجائه والخوف منه والخضوع له وتعظيمه والرضا به.

الركن الثالث : قول اللسان ويكون بالنطق بالتوحيد (الشهادتين) وذكره ﷻ وبالثناء عليه وحمده وشكره ودعائه والاستعانة به وسؤاله وطلبه وحده لاشريك له.

الرابع : عمل الجوارح، ويتحقق بالقيام لله والصلاة والسجود والذبح .

فتوحيد الألوهية منه الاعتقادي ومنه القولي ومنه العملي الفعلي .

م (١٢): لا يستقيم توحيد الألوهية إلا بإثبات الصفات لله ﷻ :

من اختل توحيده في الصفات وأخل بنسبة الكمال لله وقع في الشرك في الألوهية لزاماً ، ولا يتم توحيد الألوهية إلا بتوحيد الأسماء والصفات وإثباتها لله على الحقيقة كما جاء في النصوص وعدم تعطيلها . ومن وقع في شرك الأسماء والصفات لا بد له من حصول الخلل في الألوهية، وهذه القاعدة منضبطة لا تنخرم.

م (١٣) : دخول الولاء والبراء في الألوهية :

لا يتم توحيد الألوهية إلا بالولاء لأهلها ومعاداة الكافرين بها المشركين ، ومما يدخل في مسمى العبادة الحب والبغض، والموالاة والمعاداة كما دلت آية إبراهيم عليه السلام

﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ .

م (١٤) : دخول الحكم في توحيد الألوهية :

جعل الله الحكم بما أنزل والتحاكم إلى أمره وشرعه وحكمه عبادة يحبها الله ويأمر بها ويجب أن يوحده العبد فيها فلا يحكم إلا بحكم الله ولا يتحاكم إلا إليه، فكل ذلك يدخل في مسمى العبادة. قال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠ ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ .

م (١٥) : حاجة الناس إلى توحيد الألوهية :

كما أن العباد في حاجة إلى ربوبية الله فهم في حاجة إلى ألوهيته وعبوديته والتعلق به، ومن لم يفهم هذا الأصل لم يفهم إياك نعبد وإياك نستعين فالأولى نعبد مردها للألوهية ونستعين مردها للربوبية، فنحن في حاجة إلى ربوبية الله وإلى ألوهيته، فالخلق مضطرون مفتقرون إلى اللجوء إلى ربوبية خالقهم وعبادة إلههم .

م (١٦) : أهمية توحيد الألوهية :

هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ولأجلها أرسلت الرسل وقامت السموات والأرض ويدل لهذا الأصل العظيم قوله ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦ ، فلأجل توحيد الألوهية خلق الله الإنس والجن والملائكة، ولأجله بعثت الرسل وأنزلت الكتب، وهو دعوة جميع الرسل قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦.

ولأجل التوحيد شرع الجهاد وجردت السيوف وأريقت الدماء وقام الرسل بذلك ولا يعتبر المرء مسلما إلا به ولا يدخل الجنة إلا بتحقيقه .

وبالتوحيد قامت السموات والأرض فهو العدل وما يخالفه هو الظلم قال سبحانه ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ الأنعام: ١١٥ . وبلا إله إلا الله التي هي التوحيد قام الخلق وكل شيء .

وقد دل على توحيد الألوهية الفطرة والعقل قبل نزول الشرع، وقد وهم وأخطأ من ظن أن الفطرة دالة على توحيد الربوبية فقط دون الألوهية .

وصلاح البشر بل جميع الخلق بتوحيد الألوهية فلا غنى لهم عنه فكما أن الناس محتاجون لربوبية الله فهم أشد حاجة إلى عبادته وألوهيته .

قال ابن تيمية : (التوحيد جماع كل خير والشرك جماع كل شر) .

ولا يمكن أن يجتمع شمل الأمة إلا بالتوحيد والجهاد عليه .

توحيد الألوهية أول واجب على العبد وآخر واجب لا يدخل أحد الإسلام إلا به ولا يدخل الجنة وينجو من النار إلا بتحقيقه وهو الذي يعصم الدم أو يهدره.

وأجمع العلماء أن أول ما يدعى إليه الكافر كلمة التوحيد وبها يدخل في الدين.

م (١٧) : أكثر المشركين وقع شركهم في توحيد الألوهية .

معظم المشركين الذين أرسلت لهم الرسل كان دينهم الشرك في الألوهية باتخاذ الوسائط والشفعاء التي يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده وهذه حقيقة الألوهية التي يفعلونها والآلهة التي سماها الله ﷻ آلهة ليست لهؤلاء المشركين إلا مجرد شافعة يدعونها ويطلبون منها أن تقربهم إلى الله وتشفع لهم وتستغفر لهم وتستنصر لهم وتطلب الرزق لهم، لا أنهم اعتقدوا أنها تخلق وترزق وتملك وتنفع وتضر بذاتها فقد كانوا مقرين بتوحيد الربوبية كما قدمنا عنهم ، وأن حقيقة شركهم كان في طلب الشفاعة من الأولياء : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ الزمر: ٣ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ يونس: ١٨، وهذه الوسائط والشفعاء كانت في الغالب من الأولياء، فعيسى وأمه وود وسواع ويغوث واللات كانوا رجالا صالحين اتخذهم المشركون شفعاء لهم عند الله وآلهة يعبدونهم بدعائهم من دون الله.

بل كان المشركون معترفين بألوهية الله وكانوا يعبدونه ويدعونه ويصلون له ويحجون لكن النزاع كان معهم في إفراده ﷻ بالألوهية وأن يوحدوه في العبادة ويعبدوه وحده كما قال ﷻ عنهم ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ﴾ الأعراف: ٧٠، فهذه الآية أثبتت أنهم كانوا يعبدون الله ﷻ لكن لم يكونوا يريدون أن يعبدوا الله وحده وإنما يعبدونه ويعبدون معه آلهة أخرى بل فوق هذا كانوا يخلصون له العبادة والدعاء وقت الشدة ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ العنكبوت: ٦٥، ومع ذلك لم تنفعهم هذه العقيدة ولا أدخلهم الله بها في الإسلام .

وفي هذا رد على المتكلمين والقبورية الذين ظنوا أن الاعتراف بتوحيد الربوبية يدخل في الإسلام وأن الشرك هو في الربوبية فقط .

مبحث : العلاقة بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية

المسألة الأولى: الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية :

١- أن الربوبية متعلقة بأفعال الرب ﷻ كالخلق والإحياء فهي فعله وصفته .
والألوهية متعلقة بأفعال المخلوق كالخوف والسجود فهي فعل العبد وصفته.
٢- أن توحيد الألوهية متضمن للربوبية .
وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية وليس متضمنا له.
٣- أن توحيد الربوبية متعلق بالاعتقاد والقول .
وتوحيد الألوهية متعلق بالعمل عمل القلب والجوارح مع الاعتقاد.
٤- أن الربوبية توحيدها معرفة وإثبات . والألوهية توحيدها إرادة وطلب.
٥- أن الربوبية متعلقة بالأمور الكونية القدرية كالخلق والتدبير .
والألوهية متعلقة بالشرع والأمر والنهي والمحبة والرضا .
٦- أن الربوبية مشتقة من اسم الرب وهو السيد المربي المتصرف .
والألوهية مشتقة من اسم الإله وهو المعبود .
٧- أن توحيد الربوبية متضمن الإيمان بأن الله رب كل شيء وخالقه .
وتوحيد الألوهية متضمن الإيمان بعبادة الله وحده لا شريك له ونبذ ما سواه .
٨- أن توحيد الربوبية أقر به المشركون غالباً . وأنكروا توحيد الألوهية.
٩- أن الربوبية دليل على الألوهية والألوهية مدلول للربوبية .
١٠- أن توحيد الربوبية لا يدخل من آمن به فقط في الإسلام .
والإيمان بتوحيد الألوهية يدخل الإسلام لأنه يتضمن غالبا توحيد الربوبية.
١١- أن الألوهية والربوبية من الألفاظ التي إذا اجتمعت في اللفظ افترقت في المعنى وإذا افترقت اجتمعت .

المسألة (٢) : الرد على من زعم أن الألوهية والربوبية متحدة المعنى :

١- أن لفظ الإله غير لفظ الرب، حيث يختلفان في اللفظ والمعنى بإجماع أهل اللغة وأهل التفسير والشرع.
٢- أن الله جمع بين الاسمين (الرب والإله) في كتابه في سورة الفلق وآية مريم وغيرها وعطف بينهما والعطف يقتضي المغايرة .
٣- لو صحت دعواهم أن الألوهية والربوبية معناهما واحد، لكان من قال لا رب إلا الله داخل بذلك في الإسلام ومعلوم أنه لا يدخل الإسلام إلا بلا إله إلا الله.

٤- أن كفار الأمم التي بعثت فيها الرسل كانوا يعلمون أن الرب الخالق هو الله وحده بل ويستحق أن يعبد لكن نازعوا في أنه وحده المستحق للعبادة .

المسألة (٣) : الألوهية والربوبية من الألفاظ المتداخلة عند الاقتران:

أي أنهما إذا اجتمعا في اللفظ واقترنا في جملة واحدة افترقا في المعنى وفسر كل واحد بأشهر معانيه وما يخصه، فالألوهية بالعبادة والربوبية بالخلق والملك والتدبير .

وإذا افترقا في اللفظ اتحدا في المعنى وفسر كل لفظ بالآخر.

فهي مثل الإسلام والإيمان والفقير والمسكين .

قال ابن تيمية: (وإن كانت الإلهية تتضمن الربوبية والربوبية تستلزم الألوهية فإن أحدهما يتضمن الآخر عند الانفراد ولا يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران) . الفتاوى ١٠/ ٢٨٣.

أولاً : اجتماع الألوهية والربوبية والإله والرب :

قال تعالى :﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ الناس: ١-٣ .

وقوله:﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الرعد:٣٠، فجمع ﷻ بين لفظ الرب الدال على الربوبية والخلق والتدبير ولفظ الإله الدال على الألوهية واستحقاق العبادة مما يدل على افتراقهما في المعنى وإن لكل لفظ معنى يخصه .

ثانياً : ذكر الرب والربوبية ودخول الألوهية فيه :

قال ﷻ:﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ أي معبودكم .

ثالثاً : ذكر الألوهية ودخول الربوبية فيه :

قوله:﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء: ٢٥ فالآية دالة على الألوهية ويدخل فيها الربوبية فمعنى الآية لا معبود بحق إلا أنا ولا خالق قادر مدبر مالك إلا أنا .

م (٤) : أوجه دخول توحيد الربوبية في توحيد الألوهية :

١- أن الألوهية تستلزم الربوبية، فالمعبود يلزم أن يكون رباً كاملاً مالكاً مدبراً بيده النفع والضر وإليه يرجع الأمر وله صفات الكمال والجلال .

والمستحق للعبادة من له هذه الصفات والتي مردها للربوبية.

٢- أن الإيمان بربوبية الله وتوحيده بها من العبادة والألوهية التي تقربنا إليه، فإثبات الربوبية لله وحده عبادة من العبادات، وهذه من مقتضيات الألوهية.

٣- أن الله تعالى يجب أن يوصف بالكمال وأن يوحد في الربوبية، فالله ﷻ أمر بذلك ورضيه وأحبه وهذه المعاني كلها من الألوهية والعبادة القائمة بالعبد.

٤- أن الله ﷻ جعل الدخول في الدين بقول كلمة لا إله إلا الله، فلو لم تكن هذه الكلمة دالة على توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية معا، لأتى بعبارة أخرى.
٥- اسم (الله) دال على الألوهية بالمطابقة وعلى ربوبيته بالتضمن والملازمة .
٦- أن من وحد الله في الألوهية والعبادة فلابد أن يكون موحداً لله في ربوبيته ومؤمناً بذلك وهذا يدل عليه العقل أن الألوهية متضمنة للربوبية .

م (٥) : أوجه دخول توحيد الألوهية في توحيد الربوبية :

١- أن الربوبية تستلزم الألوهية، فالرب لابد أن يكون إلهاً، ومن كان كاملاً مالكاً للنفع والضر والتدبير والخلق فلابد أن يُعبد، ويستحق العبادة .
٢- أن توحيد الألوهية معناه استحقاق العبادة لله ﷻ، ومعلوم أن هذه الصفة التي هي استحقاق من صفات الكمال المتعلقة بالربوبية.
٣- أن من صفات الله ﷻ الملازمة للربوبية الحب والرضا ، ومما يحبه الله ويرضاه أن يوحد في الألوهية .
٤- أن الألوهية من مقتضيات الفطرة والربوبية ، فلا يصل العبد المربوب المخلوق لربه وخالقه إلا بالعبادة والألوهية ولا يصلح العبد إلا بذلك، وكما أن العبد محتاج للربوبية من الله فهو محتاج حاجة أولوية للألوهية.

م (٦) : تلازم الربوبية والألوهية :

قال محمد بن عبد الوهاب: (لا يغلط في الإلهية إلا من لم يعط الربوبية حقها) .

قال الألوسي العراقي في تفسيره : (ولا أرى أحداً ممن – يدعو غير الله – إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب أو الميت المغيب يعلم الغيب أو يسمع النداء ويقدر بالذات أو بالغير على جلب الخير ودفع الأذى وإلا لما دعاه).

قال الحكمي في المعارج : (وبقية المشركين يقرون بالربوبية باطناً وظاهراً كما صرح بذلك القرآن مع أن الشرك في الربوبية لازم لهم من جهة إشراكهم في الإلهية، إذ أنواع التوحيد متلازمة لا ينفك نوع منها عن الآخر وهكذا أضدادها، فمن ضاد نوعاً من أنواع التوحيد بشيء من الشرك فقد أشرك في الباقي، مثال ذلك في هذا الزمان عباد القبور إذا قال أحدهم للمقبور أغثني ونحو ذلك يناديه من بعيد فدعاؤه إياه عبادة صرفها لمخلوق وهذا شرك في الألوهية، وسؤاله إياه تلك الحاجة من جلب خير أو دفع ضر أو رد غائب و شفاء مريض ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله معتقداً أنه قادر على ذلك فهذا شرك في الربوبية) .

مبحث : العبادة

المسألة الأولى : تعريف العبادة في اللغة :
العبادة مشتقة من عبد يعبد عبادة وعبودية وتعبد ومتعبد ومستعبد .
ومعناها : الذل والخضوع والطاعة والاستسلام والانقياد والإذعان والتدين.
فالعبادة هي الطاعة والذل والخضوع على وجه التعظيم .
العبادة قد ترادف لفظ الطاعة والإسلام والألوهية والدين والشريعة .
م (٢) : **تطلق العبادة على :** ١- أمر الله ودينه . ٢- فعل العبد لذلك الأمر.
م (٣) : **معنى العبادة في الشرع : عُرِّفت بعدة تعاريف ، أضبطها ثلاثة:**
الأول: كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .
الثاني: فعل ما أمر الله به امتثالاً وترك ما نهى عنه على وجه الطاعة والامتثال .
الثالث: كمال الذل والخضوع مع كمال المحبة. كما عرفه ابن القيم في النونية:

وعبادة الرحمن غاية حبه * مع ذل عابده هما قطبان
ليس العبادة غير توحيد المحبـــة مع خضوع القلب والأركان

م (٤) : **قيام العبادة والألوهية على ثلاثة أمور :**
١- تعظيم الله ﷻ وإجلاله والمهابة منه وخوفه. ٢- غاية المحبة لله ﷻ.
٣- غاية الذل لله ﷻ والخضوع له ومهابته والانكسار له واللجوء إليه .
م (٥): **كل العبادات مبناها على الذل والتعظيم :** أي عبادة لو تأملتها لوجدتها تقوم على الذل والخضوع، ووجد الغاية منها إخضاع العبد لربه والتذلل والانكسار له والتجائه إليه وتعظيمه.فما خلقنا إلا لنعبده ونذل له ونعظمه، ونتقرب إليه.
م (٦): **أسماء المعبود بحق أو باطل :** الرب ، الإله ، المعبود ، المدعو ، الشفعاء الشريك ، الشركاء ، الوسائط المقربة ، الأصنام ، الأوثان ، التماثيل.
م (٧) : من عبد غير الله ﷻ ودعاه، فقد عبد الشيطان على الحقيقة، لأن هذا الشرك من أمر الشيطان فمن أطاعه فقد عبده كما قال تعالى ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ النساء: ١١٨ ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾.
م (٨) : جاءت اطلاقات في لغة العرب ووردت في الشرع بمعنى صرف العبادة منها : التوجه والقصد والطلب والجعل والابتغاء والاتخاذ والإرادة .

م (٩) : أنواع العبودية :

١- العبودية العامة: ويشترك فيها كل الخلق المؤمن والكافر، وهذه عبودية الربوبية، يدل لها قوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ مريم:٩٣.

٢- العبودية الخاصة : وهي المتعلقة بالمؤمنين وهي عبادة الألوهية ويدل لها قوله تعالى ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ الفرقان: ٦٣.

فالعبودية بنوعيها مثل الربوبية العامة والخاصة والإسلام العام والخاص .

م (١٠) : أقسام العبادات :

منها القلبية والقولية والعملية. ومنها الفعلية والتركية.ومنها البدنية والمالية.

ومنها المشروعة وهي الموافقة لأمر الرسول ﷺ وهديه .

ومنها المبتدعة وهي التي لم يأمر الله ﷻ بها أو جاء الأمر بخلافها .

ومنها الشركية : هي التي يعبد بها غير الله ﷻ.

م (١١) : شروط صحة العبادة :

١- الإخلاص لله ﷻ والتوحيد وهذا مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ البينة: ٥. ولا تقبل العبادة إلا بالتوحيد .

٢- المتابعة لرسوله ﷺ وهذا مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ الحشر: ٧.

ودليل الشرطين: ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ١١٠ .

م (١٢) : قيام العبادة والألوهية على ثلاثة أصول :

١- عبادة الله وحده ، ويتحقق بعدم الكفر.

٢- عبادته بما شرعه لنا رسوله و بمتابعة رسوله ، ويتحقق بعدم البدعة.

٣- الكفر بعبادة ما سواه ، ويتحقق هذا الأصل بعدم الشرك والبراءة منه.

م (١٣) : أطراف العبادة :

لا تتم العبادة إلا بقيام المحبة والخوف والرجاء، وقد أثنى الله ﷻ على من جمع بينها، قال تعالى: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ الأنبياء ٩٠ ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الأعراف ٥٦ ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الإسراء ٥٧ ﴿ يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ الزمر: ٩.

م (١٤) : علاقة العبادة بالمسميات الشرعية :

أولا: الفرق بين الطاعة والعبادة :

١- أن العبادة لا تكون إلا لله أما الطاعة فتكون لله ولغيره مثل طاعة الزوج والوالدين وأولي الأمر . فالطاعة تصرف للمخلوق أما العبادة فلا تصرف إلا لله . فيقال طاعة الله وطاعة الوالدين ولا يقال عبادتهم. فالله تفرد بالعبادة دون الطاعة .

قال ابن تيمية : (باب الطاعة والتصديق ينقسم إلى مشروع في حق البشر وغير مشروع، وأما العبادة والتأله فلا حق فيها للبشر بحال) الفتاوى ١/ ٩٨.

٢- كل طاعة لله هي عبادة لا العكس لأن الطاعة هي تنفيذ أمر وموافقته وامتثاله، والعبادة أعم فقد يكون سببها فعل مأمور به وامتثال أمر وقد تكون مجردة.

قال ابن تيمية في شرح العمدة في كتاب الصيام : (الطاعة موافقة الأمر وهذا يكون بما هو في الأصل عبادة كالصلاة وما كان في الأصل غير عبادة وإنما يصير عبادة بالنية كالمباحات الأكل والنوم بخلاف العبادة فإنها التذلل للإله كذلك فما لم يؤمر به من العبادات وإنما رغب فيه هو عبادة وإن لم يكن طاعة) .

٣- العبادة لابد أن يقارنها الذل والخضوع والمحبة والمعرفة بخلاف الطاعة.

قال ابن تيمية: (الطاعة هي الفعل الواقع على حسب ما أراده صاحب الأمر، أما العبادة فهي المتضمنة لغاية الذل والخضوع مع غاية الحب فمن خضع لشخص مع بغضه له لم يكن عابدا له وكذا إذا أحبه ولم يخضع له). الفتاوى ١٠/ ١٥٣.

٤- العبادة يلزم منها طاعة من يعبد . قال سليمان في التيسير: (تفسير العبادة بالطاعة من التفسير باللازم، فإن لازم العبادة أن يكون العابد مطيعا لمن عبده بها).

٥- الشرك يكون في الطاعة وفي العبادة ، وشرك العبادة أشمل وكله شرك أكبر. أما طاعة المخلوق في معصية الله فمنها طاعة معصية ومنها طاعة شركية كفرية.

ثانيا : علاقة العبادة بالإسلام :

لما قلنا : إن الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة .

كان الإسلام هو بمعنى الانقياد وهو بذلك يدخل في عموم العبادة،فلا يوجد شيء من الإسلام إلا وهو داخل فيها كما أن العبادة الشرعية داخلة في الإسلام .

قال ابن كثير في التفسير: (وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور وذلك هو حقيقة دين الإسلام لأن معنى الإسلام الاستسلام لله تعالى المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع).

رابعا: علاقة العبادة بالتوحيد:

التوحيد صفة وحال للعبادة فالعبادة إذا لم تصرف إلا لله فهي كما يقال التوحيد والإخلاص يدخل في العبادة وأفضل العبادات . فالعبادة أعم من التوحيد فكل من وحد الله فقد عبده وليس كل من عبد الله موحدا فقد يعبد الله ويعبد غيره .

سادسا: علاقة العبادة بالدين :

الدين أصله من الانقياد والذل وما يتدين به المرء ويلتزم به ، فهو قريب من معنى الإسلام ويدخل في عموم العبادة كما قاله ابن تيمية في العبودية.

وقد يكون الدين على غير وجه التعبد فيقال مثلاً الدمقراطية دين الغرب فهو بمعنى المنهج والطريقة وليس من باب التعبد .

والدين كالعبادة منه الحق وهو دين الإسلام والباطل كدين المشركين .

م (١٥) : تارك العبادة والألوهية كافر :

العبادة منها ما تركه كفر كالصلاة والتوحيد ومنها ما تركه محرم كالواجبات ومنها ما تركه لا يعاقب عليه كالمستحبات .

ومن ترك العبادة بالكلية فهو كافر: قال تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر: ٦٠ . وداخرين أي صاغرين، وكان الجزاء هنا من جنس العمل، حين استكبر ولم يذل ويخضع لله عاقبه بالإذلال. وتارك العبادة وقع في كفر الإعراض، وكفر الإباء والامتناع، وافتقد صاحبه شرط الانقياد .

وخالف في هذا الأصل المرجئة فجعلوا تارك الأعمال مؤمنا مسلما .

م (١٦) : حاجة الإنسان للعبادة وكونه مفطوراً على التعبد والتدين:

عبادة الله فوق كل ضرورة ولابد للمخلوق من العبادة ومن لم يعبد الله عبد غيره لا محالة . وحاجة الخلق لعبادة الله أعظم من حاجتهم لربوبية ربهم لهم .

م (١٧) : شمولية العبادة وجهل الناس بحقيقتها :

كما أن النسك والشعائر التعبدية لله وحده، فكذلك الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها بل وحتى المهات يجب أن يكون لله ، إلا أنه مع تضليل العلمانية المنافقة والصوفية والمرجئة أدى إلى تشويه الدين وانحسار مفاهيمه الشرعية، ومنها العبادة، حيث حصروها في أداء المناسك والشعائر التعبدية التي ساحتها المساجد. وأخرجوا التشريع والحكم والطاعة والتحاكم والولاء والبراء .

أما عند المتكلمين والصوفية القبورية: فلا يسمون العبادة عبادة إلا مع اعتقاد النفع والضر في المعبود واعتقاد الربوبية فيه أو إعطائه بعض صفات الربوبية .

أيضا لا يعتبرون الدعاء والاستغاثة من العبادة فالعبادة في السجود والصلاة.

م (١٨) : لماذا استحق الله تعالى العبادة دونما سواه ؟

الأول: لكماله المطلق من جميع الوجوه بلا نقص، ومن هذا الكمال أنه متصرف قادر خالق عالم بكل شيء، وكماله في قدرته وغناه وعلمه وقيامه على كل شيء، وجماله الكريم وإنعامه على خلقه ورحمته بهم ومحبته لأوليائه. وهذا يستوجب أمرين: أن الكامل يستحق أن يعبد وتجب له العبادة ، وأن المعبود لابد أن يكون كاملاً وإلا فعبادته باطلة لا فائدة منها .

الثاني: لجماله ﷻ فله الجمال المطلق من جميع الوجوه.

الثالث: لإنعامه ﷻ على خلقه وتفضله على عباده ولعظيم نعمته على خلقه فكل خير منه ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ النحل: ٥٣ ، فهو المنعم وحده ولهذا استحق المحبة والعبادة وأن يدعى ويلجأ إليه وحده.

الرابع: لأنه ﷻ النافع الضار وحده ، فهو القادر أن ينفع ويضر والمتفرد وحده بذلك . قال تعالى مبينا هذا الأصل أن النفع والضر بيده وحده وأن المعبودات لا تملكه : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ الفرقان: ٥٥.

الخامس: لكمال غناه ﷻ وفقر كل مخلوق إليه فلا غنى لأحد عنه فهو الغني الحميد والصمد الكريم المجيد .

السادس: لكمال رحمته بخلقه ولعلمه بما يحتاجونه وما ينفعهم، قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ يونس: ١٨ .

السابع : استحق ربنا ﷻ أن يُعبد لأنه وحده الخالق وغيره لا يخلق فمن يخلق يجب أن يُعبد ومن لا يخلق لا يستحق أن يُعبد .

ولا يمكن أن توجد هذه الصفات في أي مخلوق.

م(١٩) قاعدة:الكامل يستحق العبادة وتجب له، والمعبود لابد أن يكون كاملاً:

الأول : أن الكامل يستحق أن يعبد وتجب له العبادة. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ الزخرف: ٨١ أي أنه لو كان للرحمن ولد كما زعم المشركون لصحت عبادة هذا الولد، لأنه لو كان لله تعالى ولد لكسب

صفات والده من صفات الكمال، فاستحق العبادة، ولمّا كان هذا مستحيلا، فالولد منتفٍ عن الله ، انتفت العبادة عن غير الله .

الثاني : أن المعبود لابد أن يكون كاملاً وإلا فعبادته باطلة لا فائدة منها بل فيها الضرر كما أخبر تعالى في سورة الحج في قوله: ﴿ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾

وهذا حق دل عليه العقل والشرع أن من يُدعى ويُسأل لا بد أن تكون له القدرة على إجابة من دعاه ورجاه ويملك نفعه ودفع الضر عنه وإلا كانت دعوته وعبادته خسارة ، ولا يصح أن يكون لله شريك في العبادة لعدم وجود الكمال فيه .

فالنتيجة أنه لا كامل غير الله ﷻ وبالتالي فلا يستحق العبادة أحد سواه، لأنه لا يمكن أن يعبد إلا الكامل والكامل لابد أن يعبد، ولا كامل مطلقاً إلا الله فيجب أن تكون العبادة له وحده ، وقد قرر سبحانه في كتابه هذا الأصل وأفحم به أهل الشرك في آيات كثيرة، فلا يستوي الكامل والضعيف ومن يخلق ومن لا يخلق .

م(٢٠):من يخلق لابد أن يُعبد ومن لا يخلق لا يحق أن يُعبد والله الخالق وحده:

ومن أدلة أن المعبود لابد أن يكون خالقا ، قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ الأحقاف: ٤ ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ الفرقان: ٣ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ الزمر: ٣٨ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ الحج: ٧٣ ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الرعد: ١٦ ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ الأنعام: ١٠٢. ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤ ﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾.

قال ابن القيم :(فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقا فاعلا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر) مختصر الصواعق ٧٢ ، وتقدم كلام ابن كثير .

م (٢١) : أسباب العبادة الشركية التي نفاها الله ﷻ :

قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون عباد الأوثان (الملك والشراكة والمظاهرة والمعاونة والشفاعة) ، وقد بينها الله تعالى في آية سبأ في قوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾.

م (٢٢) : طرق عبادة المخلوق وطلب شفاعته :

الطريق الأول: طريق العوام:وهم من يطلب من معبوده أن يشفع له عند الله .

الثاني : طريق الفلاسفة: ممن يعتقد أن المعبود يحصل النفع منه بمجرد القرب منه ببركة الفيض من الإله، بحسب يقين عابدها وتعلقه كالشعاع المنعكس في المرآة.

م (٢٣) : مفاسد عبادة غير الله :

١- أن فيها التجاءً وتوجهاً وافتقارا لغير الله .

٢- أن فيها إهانة العبد لنفسه حين يترك عبادة الله إلى عبادة مخلوق مثله.

٣- تضييع لمعنى العبودية لله التي هي أشرف صفات العبد وأعلى مقاماته .

٤- أن فيه هضماً لحق الربوبية وإبطالاً لمقتضياتها وترك تعظيم الرب وتقديره .

٥- نسبة الألوهية للمخلوق ووصفه بالربوبية والكمال واستحقاق للعبادة .

٦- تنقص جناب الربوبية وذلك بترك عبادته لأن غيره أنفع وأقدر وأجوب.

٧- أن فيها شكاية الرب الرحيم على المخلوق .

٨- أن فيه إساءة الظن بالله وعدم تقديره.

٩- أن فيه تشبيه الخالق بالمخلوق وذلك باعتقاد أنه محتاج لواسطة تشفع عنده، كما أن فيه تشبيه المخلوق بالخالق وذلك بإعطائه صفات الألوهية وأنه يدعى.

١٠- أن دعاء وعبادة غير الله من الشرك المخرج عن الإسلام والكفر البواح .

١١- تفويت الخير من الله والثواب وإجابة المطلوب .

١٢- خسران رضا الله تعالى والجنة وإيجاب سخطه والنار.

١٣- أن من دَعا غير الله فقد عظم وخضع وذل وانكسر وافتقر لمخلوق مثله.

١٤- من دعا غير الله فإنه لم يعط الله حقه في اسمه الرحيم والعليم والقدير .

١٥- أن اعتقاد أن الشرك أمر الله به غاية في الافتراء والكذب على الله ﷻ .

١٦- أن في دعاء الأولياء والصالحين وطلب الشفاعة منهم عدوان عليهم .

١٧- بطلان وفساد وضياع عبادتهم ودعائهم وتشفعهم.

م (٢٤) : العبادات مبناها على التوقيف لا الابتداع :

البدعة هي ما أحدثه الناس مما لا أصل له في الشريعة .

وفي البدع طعن في الله ورسوله ودينه حيث يلزم منه أن الدين والشريعة ليست بكاملة ولم يشرع الله ما يصلح لهم والله ﷻ يقول:﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾.

وقال ﷺ : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) رواه البخاري .

وقال ابن مسعود ﷺ: (الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة) .
وليس في الإسلام بدعة حسنة.
ومن أمثلة البدع: الاحتفال بالمولد النبوي والعيد الوطني وصلاة الرغائب والصلاة والصدقة عند القبور والبناء عليها وزخرفة المساجد وغير ذلك .

م (٢٥): أقسام العبادات :

القسم الأول : العبادات القولية :

١- الدعاء والتوسل والاستغاثة وطلب الشفاعة. وهذا عند كل المشركين .
٢- المدح والشكر والثناء والحمد والتمجيد والتعظيم والذكر والتسبيح .

القسم الثاني : العبادات البدنية التقرب بالأعمال والتنسك بالجوارح:

الصلاة والقيام والركوع والسجود والاعتكاف والمجاورة والحج والطواف والذبح والنذر والصيام والتقبيل والتمسح والتبرك وتجريد اللباس وحلق الشعر.

القسم الثالث : العبادات القلبية : الإخلاص والنية والإرادة ، والمحبة ، والخوف، والرجاء ، والتوكل ، والتوبة والإنابة واللجوء، والخضوع والتعظيم .

مبحث : شهادة أن لا إلــه إلا الله

المسألة الأولى : حقيقة الشهادة ومراتبها :

الأولى : علم الشاهد بها ومعرفته لها واعتقاد صحة ما شهد به وثبوتها عنده .

الثانية : تكلم الشاهد بذلك ونطقه بها .

الثالثة : أن يعلّم الشاهد غيره ما شهد به ويخبره به ويبينه له .

الرابعة : أن يلتزم بمضمونها ويلزم غيره بما شهد به ويأمره بها ويحكم بها.

فشهادة الله ﷻ لنفسه بالوحدانية تضمنت هذه المراتب الأربعة علمه بذلك سبحانه وتعالى وتكلمه به وإعلامه وإخباره وبيانه لخلقه وأمرهم وإلزامهم به .

وكذا شهادة المسلم بالتوحيد لا بد أن تقوم على هذه المراتب الأربع كما هو مقرر عند أهل السنة واللغة . ذكره ابن القيم وابن أبي العز.

المسألة (٢) : دخول الشهادتين في الإسلام والإيمان :

تدخل لا إله إلا الله في ركن الإيمان بالله القائم على الجانب الاعتقادي الباطن.

وتدخل في الإسلام القائم على الجانب العملي الظاهر والعمل بالتوحيد.

م (٣) : معنى كلمة لا إله إلا الله :

معناها لا معبود بحق إلا الله، هذا معنى هذه الكلمة ودلالتها، ومضمونها، لا معبود بحق إلا الله وأن كل معبود غير الله ﷻ فهو معبود باطل وعبادته شرك وكفر، لأن الإله معناه المعبود والألوهية هي العبادة ونفى الله أن يكون هناك معبوداً يستحق العبادة غيره تعالى وأن الآلهة والمعبودات التي يعبدها المشركون كلها باطلة فاسدة .

م (٤): الأصل في تفسيرنا كلمة التوحيد بأحقية العبادة ومصدر قولنا (بحق):

أولاً : أنواع الآلهة :

١- الإله الحق وهو الله ﷻ فهو المعبود وحده بحق .

وهذا حقيقة معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله : أي لا معبود بحق إلا الله فالنفي واقع على العبادة الحقّة وعلى المعبود بحق وعلى الإله المستحق للعبادة، والإثبات بهذه الصفة لا يكون إلا لله وحده المستحق للعبادة وليس النفي نفي وجود المعبودات، فالآلهة غير الله موجودة وكثيرة ومثبتة غير منفية، لكن المنفي استحقاقها للعبادة، إذ أن عبادتها باطلة فلا تستحق أن تعبد ، مما يستوجب نفيها مع الكفر بها.

٢- الآلهة الباطلة الظالمة وهي كل ما عبد من دون الله ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

ثانياً : وجه الاتصاف بالحق والباطل .

اتصفت الآلهة بالبطلان لأن عبادتها وقعت بدون حق، ومعنى (بدون حق) أي أنها لا تستحق العبادة ولا تنبغي لها، فلا يعبد إلا من يخلق وينفع ويضر وحده .

وكونها آلهة (ظالمة باطلة) لأنها ما اتصفت عبادتها بالعدل كما هو الحال في عبادة ربنا ﷻ الذي تمت كلمته صدقاً وعدلاً وقامت بتوحيده السموات والأرض .

ثالثاً : من أين جاءت تسمية الآلهة بالحق والباطل ؟

الأدلة على التسمية بالحق والباطل وبيان ورودها في الشرع :

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ لقمان: ٣٠ .

وقال: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم ﴾ الرعد: ١٤ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ لقمان: ٣٠ ﴿ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ الحج: ٦٢.

م (٥) : أركان لا إله إلا الله : لها ركنان : النفي والإثبات :

الركن الأول : النفي في [لا إله] : نفي الألوهية والعبادة (الكفر بالطاغوت):

المقصود به نفي كل إله ومعبود عبد في هذه الدنيا، فلا تنبغي العبادات لأي إله اتخذه الناس معبودا لهم إلا لله تعالى وحده ، والنفي في (لا إله) ليس متعلقاً بالوجود والماهية والكونية وإنما النفي متعلق بالأحقية والاستحقاق، أي أن الله تعالى لا ينفي وجود آلهة تعبد وإنما ينفي وجود آلهة تستحق العبادة.

الركن الثاني : الإثبات [إلا الله] إثبات الألوهية لله (الإيمان بالله وحده):

المقصود بهذا الركن إثبات الألوهية والعبادة بجميع صورها وأفرادها وأركانها لله وحده المعبود بحق لا شريك له، والقيام بواجبه سبحانه من عبادته وحكمه، والانقياد لأمره، ومحبته وولايته وعدم الاستكبار والاستنكاف عن عبادته.

م (٦) : ورد في النصوص التعبير عن النفي (لا إله) والإثبات (إلا الله) في كلمة التوحيد بعدة صيغ تحمل نفس المعنى، والأمران بمجموعهما يمثلان التوحيد:

١- لا إله / إلا الله . ٢- تعبد الله / ولا تشرك به شيئا .

٣- الإخلاص لله وحده وعبادته / لا يشرك به شيئا .

٤- يؤمن بالله/ يكفر بالطاغوت ٥- لا إله إلا الله/ وكفر بما يعبد من دون الله.

٦- يوحدوا الله .٧- عبادة الله .٨- إيمان بالله .٩- يخلصوا لله .

١٠- شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .١١- إيمان بالله ورسوله.

١٢- الولاء والبراء : وهو ما جاء في آية إبراهيم التي أوردها المؤلف .

م (٧) : شهادة أن لا إله إلا الله ينقضها أمران :
الأول: ترك عبادة الله أو نفي جنس منها عن الله أو نفي استحقاقها لله.
الثاني: إثبات استحقاق أي نوع من أنواع العبادة لأي مخلوق .
فالأول هو الكافر والثاني هو المشرك ، وكل قول أو اعتقاد أو تصرف وعمل يتضمن أحد هذين الأمرين يدخل صاحبه في الردة .

م (٨) : لا تنفع لا إله إلا الله إلا العالم بمعناها العامل بمقتضاها .
ولا بد في قبول كلمة التوحيد من ترك الشرك قصدا . وتقدم الكلام .

م (٩) : مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله :
قولها باللسان والعمل بمقتضاها والالتزام بما دلت عليه من عبادة الله وحده وطاعته والانقياد لشرعه والتسليم لرسوله والكفر بعبادة كل ما سواه وعدم صرف شيء من العبادات لغير الله والبراءة من المشركين والكفار ومعبوداتهم وكفرهم .
فائدة : شهادة التوحيد أعظم شهادة في الوجود وقد شهد بها الرب ﷻ .

م (١٠) : متى تنفع كلمة لا إله إلا الله صاحبها : إذا أتى بثلاثة أمور :
الأول : العمل بأركانها : الإيمان بالله والكفر بالطاغوت وترك الشرك قصدا.
الثاني : الإتيان بشروطها السبعة، وستأتي .
الثالث : عدم الإخلال بها ولا الإتيان بناقض من نواقضها . وهي :
الشرك - اتخاذ الوسائط والشفعاء - بغض الله أو رسوله أو دينه أو شيء مما جاء به - الاستهزاء بشيء من الدين - الحكم بغير ما أنزل الله باعتقاد أن هدي غير الرسول أفضل من هديه وحكمه والعمل بغير الشريعة - من ظن أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ- السحر - مظاهرة الكفار على المسلمين - عدم تكفير المشركين أو الشك في كفرهم - الإعراض عن الدين وعدم تعلّمه والعمل به .
وهذه القاعدة تخص المسلم، أما الكافر فيدخل الإسلام بمجرد قولها فإذا قالها طولب بشروطها وأركانها وأن لا ينقضها فإن التزم وإلا اعتبر كافراً.

م (١١) : كلمة التوحيد قول واعتقاد وعمل : تقوم على ثلاثة أركان:
الأول : قولها باللسان والنطق بها .
الثاني : اعتقاد معناها بالقلب بتصديقها ومحبتها وقبولها واليقين بها .
الثالث : العمل بها والالتزام بمقتضاها وأركانها وعدم ارتكاب ما ينقضها.

م (١٢) : شروط كلمة التوحيد : (لا إله إلا الله) :

أحدها : العلم المنافي للجهل . الثاني : اليقين المنافي للشك . الثالث : الصدق المنافي للكذب والنفاق. الرابع : الإخلاص المنافي للشرك .الخامس : المحبة المنافية للبغض .السادس : القبول المنافي للرد .السابع : الانقياد المنافي للترك والإعراض والتولي العملي . وقد بينت المسائل المتعلقة بهذه الشروط في كتاب مستقل .

م (١٣) : هل لفظ الجلالة (الله) مشتق أو جامد:

القول الأول : أن اسم الجلالة (الله) مشتقاً من الإله المعبود، وهذا ما يفهم من كلام ابن عباس قال :" **الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين** " رواه الطبري.

الثاني : أن اسم الجلالة (الله) علم على الذات فهو لفظ جامد وليس مشتق .

م (١٤) : دلالات لا إله إلا الله على الدين :

تدل كلمة التوحيد على التوحيد مطابقة .

وتدل على الإيمان بالله والربوبية والصفات والولاء والبراء تضمناً .

وتدل على بقية أركان الإيمان الخمسة وأركان الإسلام الأربعة الباقية ملازمة.

والمقصود أن لا إله إلا الله تدل على الدين كله بأحد الدلالات الثلاث .

م (١٥) : قيام كلمة لا إله إلا الله وأفعال الألوهية على ثلاثة مقامات :

الأول : النسك والتعبد : ويقوم هذا القسم على أغلب العبادات الباطنة من المحبة والخوف والرجاء والتوكل وغيرها والظاهرة من الدعاء والصلاة والصيام والسجود والذبح والحج والنذر والحمد والذكر ويدل لهذا الأصل أدلة منها : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ ﴾ الأنعام: ١٦٢.

الثاني : الحكم والشرع والدين والطاعة : ويقوم هذا المقام على الحكم بما أنزل الله ﷻ والتحاكم إلى شرعه ورفض ما سواه وطاعة الله ورسوله، وهذا المقام يدخل فيه شهادة أن محمدا رسول الله والتوحيد في متابعته والتسليم لحكمه، ومما يدل على وجوب التوحيد في الحكم والأمر والتشريع والطاعة والتحاكم: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ يوسف: ٤٠ ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠ ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ التوبة: ٣١ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾.

الثالث : الولاية : ويقوم هذا المقام على الولاء والبراء في الله بموالاة الله ورسوله ودينه وأوليائه ومعاداة أعدائه والبراءة منهم ومن دينهم ومعبوداتهم،ومما يدل على وجوب التوحيد في الولاء:﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ المائدة: ٥٥.

فصل : القبورية (شرك القبور)

المسألة الأولى : تعريف القبورية :

القبورية نسبة للقبر، وهذا مصطلح يطلق على عبادة القبور والغلو فيها وتعظيمها وجعلها أوثاناً تعبد من دون الله وصرف العبادة لها.

والقبورية كما أنها تطلق على الأفعال الشركية ، كذلك تطلق على أصحاب هذه الأفعال ، مثل ما يقال في اللغة الطهور فعل الطهارة والماء المتطهر به .

والقبوري : يطلق على من اتصف بهذه الصفة (القبورية).

وذلك إذا وقع في الشرك بالقبور وعبدها من دون الله ﷻ.

غلاة القبورية : هم من يشرك في الربوبية ويعتقد أن للقبور القدرة الكاملة والتدبير.

الثانية : أسماء أصحاب هذا الدين والمذهب :

عبّاد القبور - القبورية - القبوريون - المقابرية - مشركو القبور .

الثالثة : القبورية دين : القبورية دين المشركين بالقبر العابدين له، الذين اتخذوه إلهاً ومعبوداً ووثناً يصرف له كل العبادات من دون الله تعالى، وكل عبادة عُبِد الله بها فقد عبد بها القبوريون القبر.

فائدة : القبورية داخلة في الوثنية :

ودليل ذلك قوله ﷺ: (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) مالك وأحمد.

الرابعة : المقارنة بين دين الله وتوحيده ﷻ وبين دين القبورية :

القبورية دين يضاد دين الله ﷻ ويضاد الملة الحنيفية الإبراهيمية القائمة على توحيد الله بالربوبية والألوهية وينقض الشريعة والسنة المحمدية ، فالقبورية دين قائم على الشرك ويضاد التوحيد وينقضه من أصله من جميع الوجوه .

الخامسة : الفرق بين القبورية وعبادة غير الله والشرك:

عبادة غير الله تكون على أوجه متنوعة ولمعبودات مختلفة كلها داخل في الشرك الذي منه القبورية والوثنية ، فعبادة غير الله تشمل عبادة القبور والأوثان والأصنام وعبادة النيران والثيران والكواكب والشمس والقمر والأموات من غير الذهاب لقبورهم، كما تشمل الحكم بغير ما أنزل الله والتحاكم إلى الحكام الطواغيت.

وقد جعل البعض كل عبادة من دون الله قبورية فجعل عبادة الصالحين عن طريق الأصنام قبورية، مع أنها ليست عبادة لذات القبر، بل وجعلوا عبادة قوم

موسى للعجل من القبورية، وعندي أن هذا فيه نظر والصحيح ما ذكرته من كون القبورية نوع من أنواع الشرك ووجه من أوجه عبادة غير الله تعالى والله أعلم .

كما أن القبورية منها المتعلق بالألوهية والعبادة أي عبادة القبور من دون الله، ومنها ما هو متعلق بإثبات الربوبية لها.

فالقبورية متعلقة بالشرك في الألوهية ، ومتعلقة بالشرك في الربوبية .

والشرك كما ذكرنا أعم من قولنا عبادة غير الله :

لأن الشرك منه ما هو متعلق بعبادة غير الله وهو ما يسمى بشرك الألوهية والعبادة، ومنه ما هو شرك في ذات الرب ﷻ إما بتعطيله عن ربوبيته وصفاته أو بتمثيله بخلقه ونسبة النقص له أو بتمثيل خلقه به وإعطائهم بعض صفات الله أو نسبة شيء من أفعال الربوبية لهم .

عليه فعبارة عبادة غير الله أخص من عبارة الشرك وداخلة فيه دون العكس.

والقبورية نوع من أنواع الشرك، وبينها وبين شرك العبادة عموم وخصوص.

السادسة: القبورية نصف الشرك : يمكن تقسيم الشرك إلى قسمين :

الأول : شرك الأموات والقبور :

وذلك بالشرك فيها من ناحية الألوهية بعبادتها ودعائها والاستغاثة بها .

وكذا إشراكها في الربوبية وذلك بإعطائها صفات وخصائص الرب كالقدرة المطلقة على النفع والضر والتصرف في الكون وتدبير الخلق وعلم الغيب .

الثاني : شرك الأحياء والقصور والدستور :

وذلك بطاعة العلماء والأمراء والطواغيت في تحليل الحرام وتحريم الحلال وتقديم أمرهم على أمر الله والتحاكم إلى من يحكم بغير ما أنزل الله ويسن القوانين ويشرع الدين الذي لم يأذن به الله .

وهذا الشرك حاصل في الألوهية بالطاعة والتحاكم لغير الله .

وفي الربوبية بتشريع الدين والتحليل والتحريم والحكم بغير ما أنزل الله .

يعد شرك الدعاء وعبادة الموتى نصف الشرك من جهتين:

١- نصف الشرك من جهة كونه مقابلا لشرك التشريع والحكم والدستور .

٢- نصف الشرك من جهة كونه مقابلا لشرك الفلاسفة وعباد الكواكب.

قال ابن تيمية : (الشرك في بني آدم أكثره على أصلين :

أولها : تعظيم قبور الصالحين وتصوير تماثيلهم للتبرك بها ، وهذا أول الأسباب التي بها ابتدع الآدميون وهو شرك قوم نوح .والثاني: عبادة الكوكب) .

الرد على المنطقيين ٢٨٥ ، قاعدة التوسل والفتاوى ١٧/ ٤٦٠.

السابعة : طرق ومراتب وأوجه عبادة البشر:

١- عبادة الأحياء بدعائهم وتعظيمهم وإثبات الربوبية والألوهية لهم أو التحاكم إليهم وطاعتهم .

٢- عبادة الأموات ودعاؤهم من دون الذهاب لقبورهم والوقوف عندها ولا جعل الأوثان والتماثيل لهم، وإنما تكون عبادتهم باستحضارهم في القلب كمن يعبد الرسول ﷺ وعيسى عليه السلام والحسين.

٣- عبادة الأموات بعد وضع الأصنام والتماثيل لهم وتصويرهم، من دون الذهاب لقبورهم.

٤- عبادة الأموات عند القبور وهذا بدعة في هذه الأمة أول من فعلها الرافضة لعنهم الله في آخر القرن الرابع الهجري في عهد الدولة البويهية والفاطمية والقرامطة ولم يسبقهم أحد إليها، ثم انتشرت في هذه الأمة المحمدية في الصوفية خاصة، وتسموا بعد ذلك بعباد القبور أو القبورية .

الثامنة : دعاء الأموات أصل شرك العالم :

مخاطبة الأموات وسؤال حوائجهم هو أصل شرك العالم وعند الأمم جميعاً، وزادت هذه الأمة بعبادة الأموات عند قبورهم .

قال ابن القيم في المدارج: « طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة وهي أصل شرك العالم وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد ، وهؤلاء أعداء الرسل والتوحيد ».

قال ابن كثير في تاريخه: (أصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور وأصحابها وقد أمر النبي ﷺ بتسوية القبور وطمسها وعدم المغالاة في البشر) ١٠/ ٢٦٢ .

قال ابن القيم : (وضع الصنم إنما كان في الأصل على شكل معبود غائب، فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته ليكون نائبا منابه، وقائما مقامه وإلا فمن المعلوم أن عاقلا لا ينحت خشبة أو حجرا بيده ثم يعتقد أنه إلهه) الإغاثة ٢/ ٢٢٠ .

قال ابن تيمية :(أصل الشرك في بني آدم كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين، فإنهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم، فهذا أول شرك كان في بني آدم وكان في قوم نوح) المجموع ٦/ ٢٥٥ .

التاسعة : القبورية واقعة لشيئين:

عبّاد القبور يصرفون عبادتهم لمعبودين اثنين :

١- القبر ذاته ، بترابه وحجارته، وكم من قبر يعبد وليس فيه إلا كافر ملحد وربما حيوان، بل وعرفت قبور عبدت وليس فيها ميت أصلا ، ومن ذلك قبر الحسين في ثلاثة بلدان كل منهم يدعي أن هذا القبر المعبود هو قبر الحسين.

٢- المقبور فيه ، وهو المقصود بالمخاطبة والمناجاة والدعاء .

العاشرة : أن عبادة صاحب القبر عند قبره يعتبر عبادة للقبرويصير القبر وثناً :

ودليل ذلك قول الرسول ﷺ: (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) مالك وأحمد.

الحادية عشرة : يطلق على عابد صاحب القبر أنه عابد للقبر :

ووجه: أن الميت لا يسمع من يدعوه ولا يبصره ولا يقدر على إجابة الداعي، فهو في الحقيقة بمنزلة الجماد والتراب والأرض فالذي يعبد صاحب القبر عند القبر ويخاطبه في الحقيقة هو يخاطب التراب والأرض ولا يخاطب صاحبه لأن صاحبه لا يعلم به ولا يراه ولا يسمعه كما أخبر ﷻ ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ فاطر: ٢٢ .

الثانية عشرة: دعاء القبر يجعله وثناً ومعبوداً وإلهاً :

القبر الذي يُعبد ويُدعى صاحبه ويُطاف به يصير القبر بذلك وثناً، والدليل على أنه يسمى وثناً قول النبي ﷺ:(اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) رواه مالك وأحمد.

فأي قبر يُدعى صاحبه ويطافُ به ويذبح له فإن هذا القبر يسمى وثناً ولو كان قبر ولي أو نبي .

الثالثة عشرة : حماية الله تعالى لقبر الرسول ﷺ فلا يعبد قبره:

لا شك في أن الرسول ﷺ يُعْبَد من دون الله، وذلك حين يدعى من دون الله ويشرك به ويعتقد أنه ينفع ويضر ويملك كل شيء، ولكن نفس قبره لم يعبد، لأنه لا يمكن الوصول إليه وقد أحيط بجدار وضعه عمر بن عبدالعزيز حين جدد بناء المسجد وأدخل الحجرات فيه، وكان قبل ذلك في الحجرة كي لا يبرز للناس، وهذا حفظ من الله تعالى له فلا يستطيع أحد عبادة القبر، ومن ادعى أنه يطوف بقبره أو يسجد له فنقول له أنت كمن يطوف بالمسجد أو يسجد للمسجد أو جهة المدينة أو الجزيرة العربية هل يعد هذا طائف بالقبر وساجد له ؟ هذا لا يعد طائفاً بالقبر ولا ساجدا له عند جميع العقلاء، فمنع الله كل مشرك به من الوصول إلى قبر رسوله فلا

يصل إليه من يريد أن يعبده وبذلك انتفت عبادة قبره واستجاب ربه دعاءه حين قال ﷺ : (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) رواه مالك وأحمد ، فتأمل ذلك .

الرابعة عشرة : القبورية شركهم في الألوهية والربوبية :

الأول : من يقع منهم في شرك الألوهية :

وذلك بصرف العبادة للقبور من دعاء وذبح وسجود للميت والقبور.

الثاني : من يقع من عباد القبور في شرك الربوبية :

وذلك بنسبة التصرف في الخلق والرزق وتدبير الأمور وملك النفع والضر وعلم الغيب لغير الله من الأموات، وأن الأموات من الأولياء المقبورين يفعلون كل ما يفعله الله بدون استثناء وأن الله وكلهم بكل شيء وأذن لهم في كل أمر، وكثير من القبورية وقعوا في هذه الدرجة ويسمى أصحاب هذا القسم بغلاة القبورية .

حتى قال كفارهم : (لا يدق مسمار إلا بعد أن يأذن صاحب القبر البدوي) .

الخامسة عشرة: القبورية متعلقة بشرك التعطيل وشرك في التمثيل :

أما كونها من شرك تعطيل: فلأن فيها تعطيل الله من عبادته ومعاملته وكماله وتوحيده ووصفه بأنه لايرحم إلا بهؤلاء، ولايعلم ولا يقدر إلابتوصيل الوسائط المقربة عنده لمطلوبات داعيها وعابديها ، كما أخبر تعالى عنهم في سورة يونس .

وأما كونها داخلة في شرك تمثيل :

فلأن فيها تمثيل الخالق بالمخلوق، الذي يحتاج لواسطة، فلا يقدر ولايعلم ولا يرحم إلا بالواسطة، والمشفوع عنده يرجوها ويخاف من رد شفاعتها فلا إذن له فيها.

وتمثيل الميت بالرب المعبود ﷻ وأن هذا المخلوق يستحق أن يعبد ويدعى .

السادسة عشرة : درجات مخالفات وبدع القبورية : بدع القبور على قسمين :

الأولى : الكفرية المخرجة من حظيرة الإسلام ،كالذبح لها والطواف بها ودعائها والسجود لها .

الثانية : البدعية المحرمة وما هي شرك أصغر وبدعة غير مكفرة ، لكنها وسيلة للكفر الأكبر ، كالبناء على القبور ووضع القباب والأنوار عليها.

السابعة عشرة: العبادات التي يصرفها المشركون للقبور :

١- الدعاء ، دعاء القبر وصاحبه من دون الله وهذا أعظم العبادات وأكثرها .

٢- السجود للقبر والركوع له والقيام له والصلاة له .

٣- إرادته وقصده والتوجه إليه والخشوع عنده والخضوع والتذلل له .

٤- الاستغاثة بها وسؤالها والتوجه لها والافتقار والمسكنة والإخبات .
٥- الذبح للقبر.
٦- النذر للقبر والتصدق له .
٧- الخوف من القبر وصاحبه والرهبة منه وخشيته.
٨- رجاء القبر والرغبة إليه.
٩- التوكل على القبر .
١٠- محبة القبر والمحبة فيه والبغض فيه والموالاة والمعاداة لأجله .
١١- التوبة إليه .
١٢- تعظيمه وإجلاله وعدم رفع الصوت عنده .
١٣- ذكره وحمده وشكره وتسبيحه وتهليله .

حتى قال بعض القبورية: لا يحصل شيء إلا بإذن صاحب هذا القبر ولا يستحق العبادة غيره وعبادته عبادة لله، وقول أحدهم مخاطباً صاحب القبر وقد مات ابنه : أما الله فرأيت ما فعل ولم يبق لي إلا أنت فأنا في حسبك.

فلازم قولهم لا إله إلا هذا الميت ، ولا يستحق العبادة أحد سواه.

١٤- الحج للقبر وجعله منسكاً وسموه بحج المشاهد مضاهاة لحج المشاعر.
١٥- الطواف به .
١٦- الاعتكاف عنده ومجاورته والإقامة عنده .
١٧- التبرك بالقبر والتمسح به وتقبيله وتمريغ الوجه بترابه والأخذ منه.
١٨- حلق الرأس والتقصير عنده .
١٩- لبس نوع من الملابس مثل لباس الإحرام عند زيارة القبر.
٢٠- الطهارة عند زيارة القبور .
٢١- جعل أرض القبور كالحرم لا يصاد فيها ولا يقطع شجر حولها .
٢٢- الإقسام بها والاقتراع عندها والاستقسام بها وعندها .
٢٣- إخراج الصدقات وتوزيعها عندها .
٢٤- البناء على القبور ووضع القباب عليها ورفعها.
٢٥- تزيينها وتعطيرها وتبخيرها .
٢٦- وضع الأنوار والسرج والكهرباء عليها.
٢٧- تلبيسها وكسوتها وإسبال الستر عليها .

٢٨- بناء المساجد عليها .
٢٩- التبرك بالصلاة عندها.
٣٠- قصد دعاء الله عندها .
٣١- مداومة زيارتها وجعلها عيداً مكانياً وزمانياً.
٣٢- الحلف بها .
٣٣- اعتقاد أنها تعلم الغيب وتسمع وتبصر كل شيء .
٣٤- اعتقاد أنها تنفع وتضر وتملك النفع والضر والخير والشر.
٣٥- اعتقاد أنها تدبر الأرض والسماء وتتصرف في الخلق .
٣٦- اعتقاد أن الرب منحهم خزائن رحمته ومقاليد حكمه وأمره ونهيه.

والقاعدة : أن كل شرك وقع في الأرض فالقبوريون فعلوه مع القبور .
وأن كل عبادة أمر الله تعالى أن يعُبد بها فقد عبد بها القبوريون القبر.

الثامنة عشرة: مراتب البدعة عند القبور :

١- دعاء الأموات وهذا شرك وكفر .
٢- أن يتوسل بهم وهذا بدعة .
٣- أن يظن أن الدعاء عند قبورهم مستجاب ، وهذا أيضا بدعة.

التاسعة عشرة: درجات ومراحل تشريع وقوع الشرك وتسويغه :

١- ما زال الشيطان يوحي إلى الجهال ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين وأن الدعاء عندها مستجاب .
٢- ثم ينقلهم الشيطان من هذه المرتبة إلى الدعاء بهم والتوسل والإقسام بهم.
٣- ثم ينقلهم إلى دعائهم وعبادتهم وسؤالهم الشفاعة .
وجعل القبور وثناً يعلق عليه القناديل والستور ويذبح عندها .
٤- ثم ينقلهم إلى دعاء الناس إلى عبادتهم واتخاذه عيداً ومنسكاً .
٥- ثم ينقلهم إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل الرتب ومنزلتهم .

العشرون: نشأة عبادة الأموات :

عبادة الأموات هو أول شرك وقع على الأرض، في زمن نوح حين عبد قومه وداً وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ودعوهم من دون الله وجعلوا التماثيل والأصنام لكل واحد منهم فعبدوا تلك الأصنام التي يعتقدون أنها صور أولئك الصالحين .

وفي كل الأمم حصلت عبادة الأموات حتى عند اليهود والنصارى، بل واتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وهم أول من أحدث هذه البدعة ولم تفعل قبلهم فكانوا يبنون المسجد على قبور الصالحين ويصلون في تلك المساجد ويتبركون بها فاتبعتهم هذه الأمة وفعلوا مثل ما فعل هؤلاء مع تحذير الرسول لهم ونهيه عن اتباعهم(لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) متفق عليه.

إلا أن أولئك كانوا يبنون على القبور مساجد ولا يدعون القبور وهؤلاء غلوا في الشرك وعبدوا تلك القبور فزادوا في الكفر . ولم يثبت والله أعلم أن من سبق عبدوا القبور مثل هذه الأمة .

الحادية والعشرون:عبادة القبور بدعة رافضية لم تحصل إلا في هذه الأمة:

لم يكن فيمن سبق من يعبد القبور بل كانوا يعبدون الأحجار والأشجار والأصنام والأوثان وهي عبارة عن صور ورموز غالباً لرجال صالحين قد ماتوا مثل أصنام قوم نوح وأصنام العرب كاللات وغيرها ولم يكن أحد منهم يذهب للقبر ذاته ويسجد له ويدعوه ويذبح له كما يفعل مشركوا هذه الأمة عباد القبور، بل كانوا إذا مات فيهم العبد الصالح صوروا له صورة وجعلوا له تمثالا فيتذكرونه ويعبدون الله إذا رأوه فإذا مضت عليهم أزمنة وأجيال عبدوا الصنم الذي هو صورة للميت.

كذلك أهل الكتاب كانوا يبنون المساجد على القبور ليتبركوا بها ويدعوا الله عندها ويعتقدون أن الصلاة عند القبر أفضل وأقرب لله وأعظم للأجر، ولم يبنوا المساجد على القبور ليعبدوا القبور ذاتها من دون الله كما يفعله مشركوا هذه الأمة. وبهذا يتبين أن القبورية ملة معاصرة ووليدة في هذه الأمة لم تحصل في أمة من قبل.

تنبيه : الفرق بين عبادة الأموات التي وقعت فيها الأمم وبين عبادة القبور :

لا يعارض قولنا ببدعية عبادة القبور وكونه من بدع الرافضة مع ما ذكرنا من عبادة الصالحين في قوم نوح واللات وهو رجل صالح وغيرهم ولا عبادة النصارى لعيسى واليهود لعزير، وذلك لأن المشركين السابقين عبدوا نفس الأموات، إما في تخيلاتهم بدون الذهاب لقبورهم أو بجعل تماثيل تمثلهم وأصنام تصورهم فيعبدوا تلك الأصنام والتماثيل، لكن لم يحصل منهم أنهم ذهبوا للقبر ذاته ليعبدوه كما يفعله القبورية من الرافضة والصوفية في هذه الأمة والله أعلم .

الثانية والعشرون: طوائف القبورية :

الأولى : الرافضة وبعض الزيدية . الثانية : الصوفية .

ولا يوجد قبورية عند المسلمين إلا في هاتين الطائفتين، كما أنه لا يوجد رافضي ولا صوفي إلا وهو قبوري يدعو غير الله ويستغيث بالأولياء والأموات .

قال ابن تيمية في الفتاوى ١/ ٦٧ : (والغلو في الأمة وقع في طائفتين :

طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء وأهل البيت الألوهية .

وطائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء والصالحين).

الثالثة والعشرون: نشأة القبورية في أمة محمد ﷺ :

الذي أحدث بدعة عبادة القبور هم الرافضة عليهم لعائن الله، وهم الذين أدخلوا الشرك في هذه الأمة بعد مضي القرون الثلاثة المفضلة بعد قيام دولتهم، دولة القرامطة في البحرين واليمن والعبيدية الباطنية في المغرب ومصر والبويهية في إيران والعراق وبقية الدول الرافضية، وبعد قيامهم نشروا ما سموه بالمشاهد التي هي القبور وبنوا القباب عليها ودعوا المسلمين لعبادتها، ونشروا ذلك وبعد سقوطهم قامت على إثرهم دول تأثرت بهم فأتت بالصوفية القبورية والعياذ بالله .

قال ابن تيمية : (وكان ظهور المشاهد وانتشارها وتعظيمها حين ضعفت خلافة بني العباس وتفرقت الأمة وكثر فيهم الزنادقة وفشت كلمة البدع وذلك من دولة المقتدر في أواخر المائة الثالثة فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة) الفتاوى ٢٧/ ٤٦٥ .

وقال (كما أن بني بويه الرافضة ظهر في دولتهم بناء المشهد على قبر علي ﷺ المزعوم بناحية النجف ولا يزال يعبد ويدعى ويطاف به) رأس الحسين ١٦٨ .

ومن أعظم الدول المتأخرة التي نشرت القبورية وتأثرت بالرافضة الدولة العثمانية ودولة المماليك قبلها وهم الذين بنوا القبة على قبر الرسول ﷺ سنة٦٧٨ .

الرابعة والعشرون: المقارنة بين سنة الرسولﷺ وحال القبورية مع القبور :

المقارنة بين دين الله وتوحيده وسنة الرسول ﷺ وهديه في القبور وما أمر به وشرعه وهدي أصحابه وعمل أهل التوحيد من أئمة هذه الأمة من السلف والخلف في المساجد والقبور وبين ما عليه عباد القبور وبيان سنتهم وحقيقة ديانتهم ، وبيان أن هدي القبورية وسنتهم وطريقتهم يناقض ويضاد هدي النبي ﷺ وأتباعه، فالقبوريون وقعوا في كل ما نهى الله ورسوله عنه وتركوا كل ما أمروا به وخالفوا كل ذلك فشتان بين المنهجين والطريقتين . وإليك ملخصه :

١- فالرسول ﷺ نهى عن الصلاة إلى القبور وهؤلاء يصلون عندها .

٢- ونهي عن اتخاذها مساجد وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيت الله ، ويعظمون المشاهد الشركية ويهجرون المساجد والشعائر الدينية.
٣- ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل.
٤- ونهى أن تتخذ عيداً وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ويجتمعون عندها أياماً كاجتماعهم للعيد .
٥- ونهي عن تجصيصها وأن يبنى عليها وهؤلاء يبنونها بالآجر والجص والأحجار بل ويلبسونها الحرير حتى يضاهون بها الكعبة .
٦- ونهى أن يزاد عليها غير ترابها وهؤلاء يزيدون التراب والأحجار.
٧- وأمر بتسويتها وهؤلاء يرفعونها ويبنون عليها القباب والبيوت والمباني.
٨- ونهى عن الكتابة عليها وهؤلاء يكتبون عليها الأسماء والرقاع والدعاء وينحتون الألواح ويكتبون عليها.

فانظر إلى هذا التباين بين ما أمر الله وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه.

فهدي القبورية قائم على عبادة القبور بكل عبادة أمر الله بصرفها له ، منها:

١- تعظيم القبور وتفضيلها على المساجد وإهانة المساجد وتعطيلها وهجرها.
٢- النذر لها.
٣- الاعتكاف والعكوف عند القبور والخضوع والخشوع والبكاء عندها
٤- تعليق الستور واتخاذ السدنة لها .
٥- البناء على القبور وتجصيصها .
٦- وضع السرج والطيب عليها .
٧- فعل الصدقة عندها وإجراء الأوقاف عليها .
٨- الذبح لهم .
٩- زيارتها لأجل الصلاة عندها .
١٠- الطواف بها وتقبيلها وتعفير الوجه عليها .
١١- دعاء أصحابها من دون الله والاستغاثة بهم وسؤالهم .
١٢- حجها وقصدها وتسميته أعمالهم مناسك حج المشاهد .
١٣- حلق رؤوسهم عندها .

الخامسة والعشرون : حال عباد القبور ومنهجهم وسنتهم :

قال ابن القيم : (فلو رأيت هؤلاء المتخذين للقبور عيدا وقد نزلوا عن الدواب إذا رأوها من مكان بعيد فوضعوا لها الجباه وقبلوا الأرض وكشفوا الرؤوس وارتفعت أصواتهم بالضجيج وتباكوا حتى يسمع لهم النشيج ورأوا أنهم أربوا في الربح على الحجيج فاستغاثوا بمن لا يبديء ولا يعيد ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين وتراهم حول القبر ركعا سجدا يبتغون فضلا من الميت ورضوانا، وقد ملؤوا أكفهم خيبة وخسران، فلغير الله بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات، ويطلب من الميت من الحاجات ويسأل من تفريج الكربات، ثم انثنوا حول القبر طائفين تشبيها لهم بالبيت الحرام، ثم أخذوا بالتقبيل والاستلام كما يفعل للحجر الأسود، ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود والتي لم تعفر بين يدي الله في السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر والتقصير والحلق وقربوا لذلك الوثن القرابين وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضا وإذا رجعوا سألهم المخلفون أن يبيعوه ثوب حجة القبر، ولم نستقص جميع بدعهم إذ هي فوق الخيال ولا تخطر ببال وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح ومن بعدهم ...) إغاثة اللهفان ١/ ٢٢٠ .

السادسة والعشرون : منهج السلف مع القبور والرد على شبهة القبورية :

لم يكن السلف يلتفتون للقبور ولا يظهرونها أو يعتنون بها، وأعظم دليل على ذلك : الجهل بمواقع قبور الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم في أنحاء الأرض وهذا يدلنا على مخالفة منهج القبورية لدين المسلمين من الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين والأئمة والقرون المفضلة، فهؤلاء على منهج المجوس والفرس الرافضة الزنادقة .

ومما يزيد الأمر برهاناً قبر دانيال زمن الفاروق عمر لما وجدوه في أرض تستر حين فتحوها أخفوا القبر حتى لا يتعلق الناس به ويدعونه ويتبركون به ويستغيثون به كما يفعله القبورية في زماننا، والخبر ذكره الطبري في تاريخه وابن كثير وغيرهم .

كذلك مما يزيد الأمر بيانا وظهوراً منهج الصحابة مع قبر الرسول ﷺ فلم يكونوا يزورونه إلا ما ثبت من فعل ابن عمر أنه يسلم عليه فقط وعلى صاحبه ولا يقف للدعاء ولم يثبت لا عنه ولا عن غيره مع كثرة ما نزل بهم، أنهم وقفوا عند قبره أو دعوه أو استغاثوا به وسألوه ورجوه، بل ولا حتى ذهبوا لقبره ووقفوا عنده أو سألوا الله عنده فضلا عن أن يكونوا سألوه واستغاثوا به، مما يدل على انقطاع عمله

ﷺ وانتقاله من الحياة إلى الموت ومن ذلك قول أبي بكر ﷺ (من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات) رواه البخاري ، وأن حياته البرزخية في قبره لا ترفع عنه حكم الموت والانقطاع عن هذه الحياة الدنيا المعهودة، وتلك الحياة لا يعلم حقيقتها وكيفيتها إلا الله وتختلف عن هذه الحياة .

وأما ما ورد من بعض الخصائص والاستثناءات كسماعه من يسلم عليه ويرد عليه السلام وأنه يبلغ السلام فهو لا يعلم ذلك من تلقاء نفسه، وكذلك عرض أعمال أمته عليه واستغفاره لهم، فالأعمال تعرض عليه لا أنه يعلمها من نفسه، وهذا دليل على انقطاعه عن الحياة وأن استغفاره لا دليل فيه على جواز دعائه وطلب المغفرة منه، وإنما تطلب من الله مثل شفاعته يوم القيامة تطلب من الله، وأن من دعاه من دون الله وسأله فهو مثل من يسأل ويعبد اللات وعيسى ومثل الذين سألوا ودا وسواعا ويغوث وبقية الآلهة والأصنام التي ما عبدوها إلا لتقربهم إلى الله زلفى ولتشفع لهم .كما في صريح الآيتين ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ وغيرها. والمشركون زمن الرسل كانوا يعلمون أن الأصنام لا تملك النفع والضر ولا تخلق ولا ترزق فهم يعلمون أن ذلك لا يقدر عليه إلا الله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ الزمر: ٣٨ وقررهم الله ذلك: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ النمل: ٦٢ وغير ذلك .

فلا حجة ولا برهان ولا مستمسك مع القبورية في فعلهم الشرك، ولا شك ولا ريب في كونهم كفاراً خارجين من ملة الإسلام، ولو ادعوا الإسلام وانتسبوا إليه وصلوا وصاموا أو انتسبوا للعلم والعلماء، فهم كفار مشركون بدعائهم الأموات من دون الله وطلب الشفاعة من الرسول ﷺ بعد موته ، ولا يجوز أن يعذروا بالجهل، فتأمل تفلح واسأل الله الهداية والثبات .

السابعة والعشرون : طرق عبادة القبور وطلب شفاعتها :

الطريق الأول: طريق العوام، وهم من يطلب من القبر وصاحب القبر أن يشفع له عند الله ويقربه عنده ويتوسط له ويتقبل منه حسناته ، وهذا حال معظم المشركين من عباد القبور وغيرهم .

الطريق الثاني : طريق الفلاسفة، ممن يعتقد أن القبر والصنم يحصل النفع منه والشفاعة بمجرد التقرب إليه والقرب منه، فالولي والقبر تنزل فيه بركة الله والفيض

من الإله، والأرواح تفيض على من زارها لطلب الشفاعة والإغاثة والنفع منها وذلك بحسب يقين وتعلق الزائر وفنائه في المزور واستعداد نفسه لتقبل ذلك الفيض وهي بدورها تتلقى من الإله الأعظم وأن ذلك مثل الشعاع الذي ينعكس في المرآة من نور الشمس إذا وقع على جسم صقيل كالمرآة والماء ونحوه .

وسيأتي بيان ذلك عند الكلام عن مبحث الوسائط .

الثامنة والعشرون : زيارة القبور قسمان :

الأولى زيارة شرعية ، وهي التي يكون المقصود منها :

١- الاتعاظ والاعتبار وتذكر الآخرة وحصول الأجر بذلك .

٢- الدعاء للميت .

الثانية: زيارة بدعية شركية، وهي الزيارة لأجل الصلاة عند القبور والطواف بها والدعاء عندها والتبرك بها ودعائها والاستغاثة والتوسل بها .

التاسعة والعشرون : الفرق بين زيارة الموحدين للقبور وزيارة المشركين :

قال ابن القيم: (فصل في الفرق بين زيارة الموحدين للقبور وزيارة المشركين :

زيارة الموحدين فمقصودها ثلاثة أشياء :

تذكر الآخرة والاعتبار والاتعاظ والإحسان إلى الميت بالدعاء له وإحسان الزائر إلى نفسه بإتباع السنة .

والزيارة الشركية فأصلها مأخوذ عن عبّاد الأصنام .

قالوا الميت المعظّم الذي لروحه قرب ومنزلة ومزية عند الله، لا تزال تأتيه الألطاف من الله تعالى وتفيض على روحه الخيرات فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح المزار، قالوا فتمام الزيارة على هذا الوجه أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه وقصده للميت، وبهذا السر عبدت الكواكب واتخذت الأصنام المجسدة لها، وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعيادا وتعليق الستور عليها وإسراجها وبناء المساجد عليها، وهذا الذي نهى الرسولﷺ عنه وحذر منه وأراد إبعاد أمته عنه، وهذه هي الشفاعة الشركية التي بعثت الرسل بالنهي عنها وتكفير فاعلها، والقران مملوء بالرد على أهلها وإبطال مذهبهم كقوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ الزمر: ٤٣) إغاثة اللهفان ٢٤٦.

الثلاثون: مفاسد اتخاذ القبور أعياداً ومفاسد فعلهم :

١- أن ذلك أعظم وسيلة لحصول الشرك والوقوع فيه وعبادة القبور .

٢- مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد عليها .
٣- مشابهة عباد الأصنام .
٤- الدخول في لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها والسرج .
٥- محادة الله ومناقضة شرعه.ومخالفة أمر الرسول وهديه .
٦- إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون عندها.
٧- عمارة المشاهد وخراب المساجد.
٨- تعظيم ما لم يأمر الله بتعظيمه حتى يحصل الإفتتان بذلك ، ومن هذا الباب الصلاة عندها والتبرك بها وبترابها وتقبيلها واستلامها . والبناء عليها وتجصيصها وإسراجها ورفعها بالقباب والسفر إليها.
٩- إماتة السنة وإحياء البدع .
١٠- أن الذي فعلوه نقيض المقصود من زيارة القبور من تذكر الآخرة والدعاء للمزور لا أن يطلب المزور ويدعى ويرجى ويشرك مع الله في العبادة .
١١- الشرك الأكبر الذي يفعل عندها الذي منه :
١- دعاؤها من دون الله والاستغاثة بها وطلب الواسطة الشفاعة منها.
٢- العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها .
٣- النذر لها.
٤- الحج لها والطواف بها والحلق والتقصير عندها والذبح لها .
٥- اعتقادهم أن كشف البلاء والنصر ونزول الغيث يكون بها .
وغير ذلك من السنن الشركية الكفرية والمفاسد، وكل أفعال هؤلاء القبورية المشركة والصوفية الرجسة النجسة مفاسد.
من كلام الإمام ابن القيم من كتابه إغاثة اللهفان ونوصي بالرجوع إليه .
الحادية والثلاثون: وسائل الشرك :
الذرائع التي سدها الشارع والتي تفضي إلى الشرك قسمان :
الأولى : عامة كالتصوير والغلو في الألفاظ .
الثانية : خاصة بالقبور .
قال ابن القيم : (غالب شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور) .
زاد المعاد ٤/ ٤٥٨ ، وإغاثة اللهفان ١/ ١٤٥ .
قال ابن تيمية:(الشرك في بني آدم أكثره على أصلين:

أولها : تعظيم قبور الصالحين وتصوير تماثيلهم للتبرك بها ، وهذا أول الأسباب التي بها ابتدع الآدميون وهو شرك قوم نوح .

والثاني: عبادة الكوكب) الرد على المنطقيين ٢٨٥ .

الثانية والثلاثون : العلة من النهي عن تعظيم القبور واتخاذها مساجد :

قال ابن تيمية: (وهذه العلة تعظيم القبور وابتداء النهي عن زيارتها والبناء عليها والصلاة عندها التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ القبور مساجد ، هي التي أوقعت كثيراً من الناس إما في الشرك الأكبر (كدعاء الأموات والذبح لهم ونحوه) أو فيما دونه من الشرك، فإن الشرك بقبر الرجل أكثر من الشرك بالشجر والحجر ولهذا تجد عباد القبور يعبدون القبور ويتضرعون عندها ويخضعون بما لايفعلون مثله في بيوت الله). اقتضاء الصراط المستقيم ٦٧٤ ونقله ابن القيم في الإغاثة ٢٠٣ .

وقفه : في حديث الرسول ﷺ : (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) رواه مسلم عن جندب.

قلت : بأبي هو وأمي كيف لو رأى عباد القبور ومتخذيها مساجد فيصلون عندها بل ويطوفون بها ويعكفون عليها وينذرون لها ويذبحون لها ومع هذا يزعمون أن هذا دين الله تعالى وشرع محمد ﷺ وأمره ومن تعظيمه ومن لم يفعل فعلهم فليس بسنته مهتدي ولا لدينه مقتفي ولا له ولأوليائه محب فيا لله ما أشد الغربة .

فائدة : تعظيم القبورية للقبور أشد من تعظيم المساجد وحبهم لها أشد من حبهم لله وخوفهم منها أشد من خوف الله.

الثالثة والثلاثون : أسباب ضلال القبورية المشركة :

١- جهلهم بحقيقة التوحيد وما ينقضه وينقصه من الشرك والبدع .

٢- وضع طواغيتهم أحاديث مكذوبة عن الرسول ﷺ في عبادة القبور .

كالحديث المكذوب :(إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور) .

وحديث: (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه) .

٣- اختراعهم حكايات سامجة كاذبة عن أهل تلك القبور ومنامات أمثال أن فلانا استغاث بالقبر في شدة فخلصه وأغاثه . وأكثرها من تزيين الشيطان وتلبيسه .

فائدة : كثرة عباد القبور والمشركين من أمة محمد مما جعلهم يستدلون بالكثرة على صحة فعلهم وشرعيته وأنهم السواد الأعظم والأمة لا تجمع على ضلالة .

والجواب : أن الكثرة ليست صفة مدح بل ذمها الله في مواضع كثيرة منها :

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ يوسف: ١٠٣ ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الأنعام: ٢٥ ﴿ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ ﴾ التوبة: ١١٦ ﴿ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنۡهُمۡ ﴾ البقرة: ٢٤٩ وغير ذلك من المواضع .

الرابعة والثلاثون : سبب عبادة القبور :

اعتقاد أن أصحاب القبور من الأولياء، وغلوهم في الصالحين، وأنهم أقرب لله من الأحياء وأفضل، وأنهم يشفعون عنده ويقربون إليه ويستجيب الله لهم ويقبل واسطتهم وشفاعتهم وأنهم يسمعون كل شيء ويقدرون على كل شيء ويملكون جلب النفع ودفع الضر، والله أعطاهم كل ذلك كل كرامة لهم .

وشبهتهم هذه هي عين شبهة المشركين في جميع الأمم كما قال الله تعالى عنهم :

١- ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ .

٢- ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ .

الخامسة والثلاثون : أدلة القبورية المشركة في تجويز شركهم :

١- المعجزات والكرامات .

٢- رؤيا المنامات.

٣- الحكايات والقصص والروايات الساذجة.

٤- القياس وقد قيل ما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

السادسة والثلاثون : تناقضات وإلزامات القبورية :

١- اعتراف القبورية أن سؤال الموتي الحاجات وهم لا يقدرون على أن يفعلوا ذلك ولا أن يفعلوا شيئاً حقيقة وإنما يريدون منهم الشفاعة والوسيلة والواسطة .

وأن العبارات الموهمة تحمل على المجاز لأن من يفعلها مسلم موحد .

٢- أن زعمكم أن الأنبياء أحياء باطل لأن الملائكة والجن أحياء ويكفر من يدعوهم وأيضاً فالحياة لهؤلاء الأنبياء برزخية وليست كحياتنا ثم لا تجوز ولا تستلزم دعاءهم وسؤالهم .

٣- أن دعاء الأموات لم ينقل عن الرسول ﷺ ولم يؤثر فعله عن أحد من الصحابة ﷺ ولا عن أحد من السلف مع نزول الشدائد بهم .

٤- موافقة القبورية للمسلمين أن من اعتقد ظاهر كلامه في دعاء الأموات واعتقد أن لهم تأثيراً وفعلاً وأثراً مؤثراً حقيقياً كافر بالإجماع ، ثم بعد ذلك نفوا

حصول هذه العقيدة ودافعوا عن القبورية، ودعواهم هذه قائمة على الاستيقان بأنه لا أحد من هؤلاء القبورية يعتقد فيمن يدعوه، فإذا بطل هذا الزعم وذلك الاستيقان وقام الدليل على خلافه سقط هذا الدفاع، ونحن إذا سألنا هؤلاء المدافعين عن القبورية ما دليلكم على أنهم لا يشركون في الربوبية ويعتقدون للأموات التأثير والاستقلال؟ قالوا: إنهم مسلمون والمسلم لا يعتقد ذلك ولو قاله فنحن نؤول كلامه ونحمله على المجاز، فبذلك أغلقوا باب الردة ولا يوجد كفر على مذهبهم هذا حتى لو أنكر المسلم وجود الله لقلنا أنت لست بكافر لأن كلامك يحمل على المجاز، ومع هذا كله فقبورية هذه الأزمان يعتقدون التأثير والنفع والضر وعلم الغيب والتدبير والتصرف والملك والخلق ويسمون الأولياء أهل التصريف والمدد والأقطاب، ثم لو دعوهم مع اعتقاد أنهم لا ينفعون لكان هذا جنوناً وفقدانا للعقل ونقصا فيه، ثم أخيراً أين تورع علماء القبورية من عدم تكفير فاعل الشرك إلى تكفير الدعاة للتوحيد (لأنه لا يعظم الرسول والأولياء) وتكفير من يثبت علو الله واستوائه لأنه مجسم، فهلا أجروا عليهم قاعدتهم هذه وطردوا كلامهم في المجاز .

٥- إذا كان مقصود القبورية من دعاء الأموات وجود الجاه لهم وقربهم من الله فهلا دعوا الأحياء من أهل الصلاح وطلبوا منهم الدعاء لهم كما فعل الصحابة مع الرسول ﷺ أوليس الحي أقدر من الميت والميت عاجز قد انقطع عمله فلا يملك لنفسه شيئاً فضلاً عن غيره؟

السابعة والثلاثون :سماع الميت كلام الحي وسلامه :

ما ورد من سماع الميت للحي خاص بأمور ورد النص بها وهي :

١- بلوغه الدعاء له والصدقة وانتفاعه به .

٢- سماعه لقرع النعال عند الانتهاء من دفنه ومغادرة القبر .

٣- سماعه سلام الزائر له ولا يسمع غير السلام من كلامه .

ولم يثبت أن أحدا سمع الكلام والدعاء والمخاطبة إلا أصحاب قليب بدر حين خاطبهم الرسول ﷺ وهذا من معجزاته وخاصة به ﷺ وخاصة بأصحاب القليب من قتلى بدر المشركين في تلك الساعة وليست عامة لكل ميت في زمانه أنه كان يعلم بكلام الرسول وأنه يسمع كلامه ودعاءه والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ فاطر: ٢٢ واستنكار عمر لفعله يدل على أن تلك الحالة خاصة ومستثناه والحمد لله رب العالمين الذي يسمع من يشاء ويهدي إليه من يريد .

وكل هذا لا دليل فيه على جواز دعاء الميت وطلب الشفاعة منه، وإنما تطلب من الله ويدعى وحده

الثامنة والثلاثون : مخالفة القبورية للفطرة والعقل :

حصل انتكاس في فطرة ودين القبورية المشركة ووقعت مناقضة منهم للشرع والعقل من عدة جهات:

الأول : أنهم طلبوا الشفاعة التي لا تنال إلا بالتوحيد وأرادوا حصولها بما هو أعظم سببا لمنعها وحرمانها وما يمنعها وهو الشرك ، والشفاعة سببها التوحيد .

قال الرسول ﷺ :(أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه) رواه البخاري .

فلا تحصل وتتحقق إلا به والشرك يبطلها والمشركون أرادوا حصولها بما يناقض التوحيد من الشرك فأشركوا لتحصل لهم الشفاعة وطلبوا الشفاعة بالشرك .

الثاني : أنهم دعوا وعبدوا من هو محتاج ومن يدعو الله ويحتاج إلى أن يدعى له لا أن يدعى ويرجى له لا أن يرجى ويخاف منه لا أن يخاف﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ الإسراء: ٥٧، ورجوا نفع من انقطع عمله لنفسه فضلاً عن غيره وطلبوا الشفاعة ممن هو في حاجة إليها، ودعوا الأموات بدل أن يدعو لهم .

الثالث: أن زيارة القبور والموتى لنفع الأموات والدعاء لهم واتعاظ الزائر فعكس القبورية المشركون هذا المعنى والحكمة من زيارتهم فزاروهم ليدعونهم من دون الله، وأرادوا الانتفاع منهم لا نفعهم .

فالميت إذا مات انقطع عمله كما نص الحديث ودل العقل والفطرة، ولهذا استحبت زيارته للدعاء له ونفعه، فبدل القبوريون قولاً غير الذي قيل لهم، فزاروا القبور ليدعوها لا ليدعوا لأصحابها ولينتفع الزائر لا المزار، ثم زاد جهلهم وانتكاس فطرتهم باعتقاد أن الميت لا ينقطع عمله، بل والزعم أنه في حال أنفع وأكمل وأقدر وأقرب من حال حياته، فالرجل الصالح عندهم وقت حياته لا يلتفتون إليه بل ويهينونه فإذا مات عكفوا على قبره وسألوه ودعوه وطلبوا منه أن يدعوا لهم ويشفع لهم .

الباب الثاني: أدلة تحريم الشرك وكفر فاعله

المسألة الأولى: الأدلة العامة:

أولا: الدليل من القرآن على تحريم الشرك وكفر فاعله:

وقد تنوعت أساليب القرآن في إبطال الشرك بالحجج العقلية.

١- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء: ٤٨

وهذا من أصرح الأدلة على أن الشرك أعظم ذنب ومن شناعته أن الله لا يغفره.

٢- قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ النساء: ٣٦.

٣- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ الزمر: ٦٥.

٤- قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام: ٨٨.

٥- قال تعالى: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ المائدة: ٧٢.

٦- قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ التوبة: ٣١.

٧- وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء: ٢٥.

٨- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦.

٩- وقال تعالى عن قول نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم عليهم السلام لأقوامهم: ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾.

١٠- قال ﷻ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ المائدة: ٧٢.

١١- قال تعالى: ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لقمان: ١٣.

١٢- قال تعالى: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ الحج: ٣١.

١٣- قال: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ يونس: ١٠٥.

١٤- قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠.

١٥ - قال: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ الحج: ٢٦.

١٦ - قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ التوبة: ١١٣.

١٧ - قال تعالى: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ التوبة: ٥.

١٨ - قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ التوبة: ٢٨.

١٩ - قال: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ الأنعام ١٥١.

٢٠ - قال تعالى: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة: ١.

٢١ - قال تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٢.

٢٢ - قال ﷻ: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ الذاريات: ٥١.

ثانياً: الدليل من السنة على تحريم الشرك وكفر فاعله:

١ - قال النبي ﷺ: (من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار " رواه البخاري.

٢ - قال النبي ﷺ: (اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله).

٣ - قال النبي ﷺ: (أكبر الكبائر الإشراك بالله). رواه البخاري.

٤ - عن أبي بكر ﷺ أن النبي ﷺ لما قال: (الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل) قال قلنا يارسول الله وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله أو دعي مع الله؟ قال: (ثكلتك أمك ياصديق الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل إلا أخبرك بقول يذهب صغاره وكباره - صغيره وكبيره -) قلت بلى يا رسول الله قال: (تقول كل يوم ثلاث مرات: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئا وأنا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلم، والشرك أن تقول أعطاني الله وفلان، والند أن يقول الإنسان لولا فلان قتلني فلان) رواه أبو يعلى.

وفي الحديث فوائد:

أن الشرك منه أكبر وأصغر بهذا الحديث وغيره.

أن ضابط الشرك وأساسه عبادة غير الله ودعاء غيره.

خفاء الشرك وخطورته.

أن للشرك كفارة.

أنه فرّق بين الشرك والند مع أن ظاهرهما واحد، إلا أن بينهما فرقاً لطيفاً، وهو أن الشرك يذكر الرب ومعه غيره مشروكاً معه، أما الند فيذكر المخلوق وحده دون الله في فعل ليس من مقدوره.

المسألة الثانية: أساليب القرآن في إبطال الشرك بالحجج العقلية :

١- تنزيه الله نفسه عن الصاحبة والولد .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ المؤمنون: ٩١.

٢- تنزيه الله عن الشريك والولي والنصير والظهير والمالك المشارك معه والشفيع ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ الإسراء: ١١١ ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ سبأ: ٢٢.

٣- إبطال ألوهية غير الله :

فأبطل ألوهية الملائكة والجن والأنبياء وعيسى والصالحين والأوثان وكل معبود سواه ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ الزخرف: ١٥ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ الأنعام: ٢٢ ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الأنعام: ١٠٠ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ سبأ: ٤٠-٤٢ ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٧٢ ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ آل عمران: ٧٩.

٤- بيان عجز ما يعبد من دون الله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يونس: ١٨ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ النحل: ٧٣ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الأعراف: ١٩٤ ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ فاطر: ١٣-١٤

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝ ﴾ الأحقاف: ٥-٦ ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ الأنبياء: ٤٣ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الزمر: ٣٨ ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ النحل: ٢٠-٢١ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الروم: ٤٠ ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ النحل: ٢٧ ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ الرعد: ١٦.

٥- تفرد الله بصفات الكمال والنفع والضر :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ البقرة: ٢٥٥ ﴿ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ مريم: ٦٥ ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ سبأ: ٢٧ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ النمل: ٦٢ ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل: ١٧ .

٦- الاستدلال بالآيات الكونية وبالربوبية وأنه تعالى خالق كل شيء :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ العنكبوت: ٦١ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ الزخرف: ٨٧ ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ النمل: ٦٠ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ الحج: ٦١-٦٢.

٧- الاستدلال على توحيده وإبطال الشرك بنعمه المتوالية :

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ النحل: ٥١ - ٥٤ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ البقرة: ٢١ - ٢٢ .

٨- تسفيه المشركين وبيان حقيقة معبوداتهم :

﴿ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ الأنبياء: ٦٦ - ٦٧ ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾ الرعد: ١٤ ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ يونس: ٣٤ ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ العنكبوت: ٤١ .

٩- ضرب الأمثال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ الحج: ٧٣ ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ الروم: ٢٨ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ النحل: ٧٥ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ﴾ الزمر: ٢٩ .

١٠- الاستدلال بانتكاس الفطرة والنكران والكفران :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ الزمر: ٨ .

١١- الاستدلال بحال المشركين وسوء عاقبتهم :

﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ

أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ﴾ الأعراف: ٣٧ ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ النحل: ٨٦ .

١٢- أن معبودات المشركين وآلهتهم هي عابدة لله تخافه وترجوه .

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء: ٥٧.

١٣- تبرؤ الآلهة من عابديها وكفرها بهم :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ فاطر: ١٤.

ومن الطرق أيضاً التي جاء بها القرآن لرد الشرك :

١- إلزام المشركين باعترافهم بتوحيد الربوبية وأنه وحده المتفرد بالخلق والملك والتدبير والنفع والضر.

٢- دليل الإخلاص حال الخوف .

٣- تفرد الله بالكمال والخلق والتدبير والملك .

٤- مطالبة المشركين بالدليل على فعلهم وحجة لشركهم .

٥- تبيين حال الآلهة المعبودة وظهور عجز المعبودات ونفي القدرة عنها وتجريدها من الربوبية .

٦- إثبات العجز لكل الآلهة الباطلة والنقص لها ومن ذلك :

- نفي الخلق عنهم .
- نفي الملك عنهم والشراكة مع الله وأنهم لا يملكون شيئا .
- نفي الشفاعة عن المعبودات وبيان أن الشفاعة ملك لله وحده .
- نفي السمع والكلام والحركة عن آلهتهم من أصنام والأولياء الأموات.
- إخباره عن حاجتها لغيرها وللطعام .
- بيان أنها ميتة غير حية . وبيان أفولها وغيابها .
- أنها لا تنصر نفسها ولا تدافع عن عابديها ولا تحمي أحدا.
- نفي الرزق وأنها لا تستطيع أن ترزق أحدا . نفي قدرتها على النصرة.
- نفي النفع ودفع الضر. نفي الهداية .و إخباره أنها ترد النار .

٧- تمثيل الآلهة بالعبيد :

٨- وقوع العداوة بين العابد ومعبوده في الآخرة وانقطاع أسباب المودة بينهما.

٩- أمره تعالى بعبادة الله حده وترك عبادة غيره والكفر بالشرك .
١٠- بيانه لمفاسد الشرك وخطره وأضراره وقبحه وضلال أصحابه .
١١- حكمه ﷻ بتكفير المشرك وتوعده بالنار والعقوبة والهلاك .
١٢- أنه إذا كان تسمية هذه المعبودات الباطلة بأسماء الرب الحق باطلا فإعطاؤها المسمى أشد بطلانا وهذا من باب الإلزام، ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ الرعد: ٣٣ أي بالحي القيوم الخالق المميت. ابن تيمية فتاوى ١٥/ ١٩٦ .
١٣- دليل ضرب الأمثال لبيان عجز الآلهة الباطلة كالعبد والشجرة الطيبة والخبيثة والخلق وسلب الذباب وضعف المعبودات واحتياجها وخوفها الله .

مسألة : الأدلة الخاصة على توحد الله بالغيب والنفع والضر:

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ النمل: ٦٥ ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٦ ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ يونس: ٢٠ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فاطر: ٣٨ ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ هود: ١٢٣ ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ الأنعام: ٥٩ ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٨ ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ الطلاق: ١ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ الأعراف: ١٨٧ ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ التوبة: ١٠١ ﴿ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ الأحقاف: ٩ ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ الأنعام: ٥٠.

وما أخبر به ﷻعن الرسل: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ المائدة ١٠٩ ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ النمل ٢٢ ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ الحجر: ٦٢ ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ الكهف: ٦٨ ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ المائدة: ١١٦ . وأخبر عن الملائكة والجن: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ البقرة: ٣٢ ﴿ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ سبأ: ١٤.

تنبيه : سنذكر في ناقض شرك الدعاء الأدلة على نفي صحة عبادة النبي ﷺ والاستغاثة به وأنه ﷺ لا يعلم الغيب وأنه لا يملك نفعا ولا ضرا .

مسألة: الأدلة على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية لله واعترافهم بالله:

قال الله ﷻ حاكياً منهج المشركين وإقرارهم بتوحيد الربوبية لله وكونه خالقهم ورازقهم وأنه عزيز حكيم في مواضع منها قوله ﷻ:

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ المؤمنون: ٨٤-٨٩.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ العنكبوت: ٦١ - ٦٣.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾لقمان: ٢٥ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾الزمر: ٣٨﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ الزخرف: ٩﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾الزخرف: ٨٧.

والآيات التي فيها إيمانهم بالله مع إنكارهم أن تكون الرسالة من البشر:

قال ﷻ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ الأنعام: ٩١.

﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ يس١٥

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ المؤمنون: ٣٨

﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ المؤمنون ٢٤.

الآيات التي تحكي اعتراف المشركين بالشرك وأنهم كانوا مقرين بعبادة الله مخالفين في توحيده وإفراده وأنه كانت لهم صلاة وحج وعبادات كثيرة لله.

﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام: ١٤٨ ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ﴾ الزخرف ٢٠

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ الأعراف: ٢٨ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ النحل: ٣٥.

الآيات التي تثبت أن كفار الأمم التي بعثت فيها الرسل كانوا يعلمون أن الرب الخالق هو الله وحده بل ويستحق أن يعبد لكن نازعوا في توحيده بالعبادة:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ﴾ الأعراف: ٧٠ ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ الأعراف: ٧٥ ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ النمل: ٤٩ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ المؤمنون: ٢٤ ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ ﴾ ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

كما أخبر عن إيمانهم به ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف١٠٦.

كذلك تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك).

إقرارهم أن المالك المدبر النافع الضار هو الله وحده كما أخبر ﷻ: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ الأنعام ٦٣. ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يونس: ٣١.

ما ذكره ﷻ وهو يبين بسؤال الحجة والتقرير هذا الأصل أن النفع والضر بيده وحده وأن شركاءهم المعبودة لا تملكه ولا تكشف الضر ولا تستطيع نصركم:

﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ الأنبياء: ٦٦ ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ الشعراء: ٧٣ ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ البقرة: ٢١ ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ الأنعام: ١٠٢ ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ فاطر: ١٣ - ١٤ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾.

وغيرها من الآيات التي يسأل فيها المشركون سؤال تقرير وإنكار الشرك وتقريرهم على أنه النافع وحد، والآيات التي فيها ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾. والآيات التي فيها أسئلة تقريرية واستنكارية مثل: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ في سورة النمل وغيرها.

الآيات التي فيها أن الكفار يعبدون الله ويدعونه ولكن يدعون معه غيره:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ٤١ ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ العنكبوت: ٦٥ ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ ﴾ يوسف: ٣٩ ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ الزمر: ٣ ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ ص: ٥ ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ الأنفال: ٣٢ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ الزمر٤٥ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ يونس: ١٨.

ففي هذه الآيات دلالة صريحة على أن المشركين مقرون بأن الله هو المالك للنفع والضر وبيده الخير والشر وأن الآلهة إنما تشفع عند الله وتقرب فقط، وأن عبادتهم لها كانت في مجرد طلب الشفاعة منها ودعائها مع الله أو من دونه.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الزمر: ٣٦.

قوله ﷺ لحصين كم تعبد؟ قال سبعا في الأرض وواحد في السماء ، فقال ﷺ : (فإذا أصابك الضر من تدعو) ، قال: الذي في السماء . رواه الترمذي وابن خزيمة .

مسألة : دليل العقل على قبح الشرك وكفر فاعله ومخالفته للفطرة :

دل العقل دلالة يعلمها كل عقل سوي وتوافقه الفطرة على وجوب عبادة الله وحده وتحريم الشرك فالعقل يوجب أن يكون المعبود مالكا للنفع والضر وانه لاشك في الله فاطر السموات والأرض، ثم هل يوجد بالعقل خالق مع الله ينفع معه ويضر ويغني ويفقر ويرزق ويحيي ويميت ، إن أغبى الحمقى وأحمق الأغبياء والتي وصلت دناءة عقولهم إلى أن يعبدوا الحجر الأصم والعجل الحيوان المأكول وصنم من التمر الذي إذا جاعوا أكلوه ليعلموا أن الذي يملك النفع والضر هو الله ﷻ وحده وأعظم دلالة على ذلك خطاب الله تعالى للكفار بأن جميع الآلهة والمعبودات التي صرفوا لها عبادتهم هم يعتقدون أنها لا تنفع وإنما تشفع .

كما أن العقل السليم من آفات الانتكاس ليستقبح غاية الاستقباح ويأنف أن يترك عبادة من خلقه ورباه بالنعم والأرزاق وينصرف لعبادة مخلوق مثله يفنى ويزول ويغيب ويجهل ويخاف وهو مفتقر لغيره لا يملك شيئا .

فأي فطرة لا ترد ذلك وتنفر منه وأي عقل لا يستقبح ذلك ويحتقره إلا عقل أعمى تغلف بالصمم وقلب لا يعي ولا يفهم صاحبه أدنى من الأنعام وأضل.

قال ابن القيم : (قال تعالى: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ ولم يقل إلهكم، والرب هو السيد المالك والمنعم والمربي والمصلح، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها - كما يقر بذلك المشركون - فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له) . بدائع التفسير ١/ ٢٨٨.

وقال : (قال تعالى حاكيا عن صاحب يس أنه قال لقومه محتجا عليهم بما تقره به فطرهم وعقولهم ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ ، فتأمل هذا الخطاب كيف تجد تحته أشرف معنى وأجله، وهو أن كونه سبحانه فاطرا لعباده

يقتضي عبادتهم له وأن من كان مفطورا مخلوقا فحقيق أن يعبد فاطره وخالقه ولاسيما إذا كان مرده إليه ومبدؤه منه ومصيره إليه وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته ثم احتج عليهم بما تقر به عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره وأنه أقبح شيء في العقل وأنكره) بدائع التفسير ٣/ ٤٧٨.

وقال: (وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل عقلا أن يشرع الله عبادة غيره أبدا وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السموات والأرض فقبح عبادة غير الله قد استقر في الفطر والعقول وإن لم يرد بالنهي عنه شرع بل العقل يدل على أنه أقبح القبيح على الإطلاق ومن المحال أن يشرعه الله) مفتاح دار السعادة ١/ ٣٢٨.

وقال: (فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق الرب وإلهيته وتوحيده وظن به ظن السوء وهذا يستحيل أن يشرعه لعبادة ويمتنع في العقول والفطر جوازه وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح) الجواب الكافي ٣٣٢.

فائدة : دلل الله ﷻ على المشركين في كتابه بقبح الشرك بدلالات عقلية متنوعة مخاطبا في ذلك كله عقولهم : من ذلك دليل الخلق والملك وأنه الخالق وحده وأن ما من نعمه إلا وهي منه سبحانه وغيره مما يعبده المشركون لا يخلقون ولا يرزقون ولا ينزلون مطرا ولا من السماء رزقا ولا يدبرون ولا يهدون ولا يجيبون مضطرا ولا يكشفون كربا، ولا تفعل هذه المعبودات الباطلة الزائفة من ذلك من شيء .

كما استدل عليهم بحقيقة كل معبود غيره من الأصنام والأموات وغير ذلك من المعبودات أنها ناقصة ضعيفة لا تملك لأنفسها شيئا فضلا عن أن تملكه لغيرها ممن يعبدها ويدعوها ويطلبها ويسألها، وأنها لا تتكلم ولا تسمع ولا تبصر، وأنها عاجزة وضرها أقرب من نفعها لا تدفع ضر سينزل ولا تكشفه بعد حصوله ووقوعه وأنها غافلة لاتسمع ولاتجيب ولا تستجيب ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ الأعراف: ١٩٤ .

وأن الشفاعة ملك له لا تطلب من غيره لأنه سبحانه ليس بينه وبين خلقه من يرد دعوتهم فلا تصل إليه أو أنه يجهل بما يحتاجونه منه تعالى ولا أنه لا يقدر على نفعهم إلا بوسائط ومعينين ومظاهرين وشركاء كما هو حال عبيده من ملوك الدنيا تعالى الله عما يقوله المشركون والحمد لله رب العالمين القائل ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ سبأ.

الباب الثالث تاريخ الشرك

المسألة الأولى : الأصل في الخلق التوحيد والشرك طارئ :

خلق الله الخلق على توحيده وفطرهم على عبادته والإيمان التام به، ثم حصل العصيان من الجن بسفك الدماء والإفساد في الأرض، ثم حصل كفر الإباء من إبليس وعصيان أمر الله تعالى بعدم السجود لآدم، ثم بأمر الناس بالشرك، وأول عصيان حصل من آدم الأكل من الشجرة والوقوع في النهي، ثم أذنب ابنه قابيل بقتل أخيه هابيل وحسده وهو أول ذنب حصل على الأرض من البشر .

إلا أن الشرك لم يحصل إلا بعد عشرة قرون وأجيال من ذرية آدم وذلك في قوم نوح . فأول شرك حصل على هذه الأرض كان من قوم نوح بعد أن لبث الناس على التوحيد بعد آدم عشرة قرون ومضى من ذريته عشرة أجيال ثم بعدها فعلوا الشرك .

يدل لذلك ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام) رواه الحاكم والطبري.

ومما يدل على أن الأصل في الناس التوحيد:

١ - قوله تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ البقرة: ٢١٣.

٢ - قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ يونس: ١٩.

٣ - قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة: ٣٠.

٤ - قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ الأعراف: ١٧٢ .

٥ - قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم: ٣٠.

٦ - قال الله ﷻ : " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا " حديث قدسي رواه مسلم .

٧- قال الرسول ﷺ : " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " رواه البخاري .

الثانية: ضلال من زعم أن الأصل في المخلوق الشرك والتوحيد هو الطارئ :

وقد قال أصحاب هذا المبدأ الإلحادي الفاسد أن العقيدة تطورت والدين نما ونشأ وتكون مع التاريخ والحضارة وأهل هذا القول من الفلاسفة الدهريين ومنكري ربوبية الله وأنه الخالق وله الأمر وحده . وقد قال بأقوال هؤلاء الملاحدة بعض الجهال من كتاب المسلمين ، كعباس محمود العقاد في كتابه (الله جل جلاله) والخطيب في كتابه (قضية الألوهية) وصاحب كتاب (التوحيد في تطوره التاريخي) .

ومما يبطل قولهم : أن الله أول ما خلق آدم كلمه وعلمه أسماء كل شيء وكان نبياً مكلماً .

الثالثة: أول من وقع في الشرك من المخلوقين إبليس لعنه الله :

وذلك حين دعا لعبادة نفسه واستكبر عن لا إله إلا الله وطاعة ربه حين أمره الله بالسجود لآدم فأبى، وإلا فقبل ذلك كان هو والجن من أهل التوحيد وكانت ذنوبهم في سفك الدماء والإفساد دون الشرك والله أعلم .

أما في بني آدم فأول من وقع في الشرك قوم نوح كما سيأتي .

فائدة: ما ذكره الكلبي في كتاب الأصنام من كون الشرك أول وقوعه في أبناء قابيل لا يصح ومخالف لما ذكرناه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

المسألة الرابعة : بطلان نسبة الشرك إلى آدم وحواء :

ذهب بعض أهل العلم من المفسرين إلى أن آدم وحواء عليهم السلام وقعوا في الشرك مستدلين بقول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٩ – ١٩٠.

وقالوا : إن المقصود بها آدم وحواء واستدلوا لذلك بحديث سمرة بن جندب ﷺ أن النبي ﷺ قال : " لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبدالحارث فإنه يعيش فسمته عبدالحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره " رواه أحمد والحاكم بسند معلول .

ثم إنهم فسروا الشرك هنا بأنه كان في التسمية لا في العبادة .

والجواب عن هذا القول وما استدلوا له :

١- أن الصحيح أن آدم وحواء لم يقعوا في الشرك ، وأن الذي وقع فيه هم الذرية وبنو آدم وليس آدم .
٢- أن الشرك لم يقع في البشر إلا بعد مضي عشرة قرون على الذرية وانقضاء عشرة أجيال من بني آدم .
٣- أن مصدر هذا القول والتفسير من أهل الكتاب .
٤- أن أول أولاد آدم قابيل وهابيل ولم يثبت أنه مات لهم أحد إلا ما حصل من قتل قابيل لهابيل .
٥- أما الحديث فهو ضعيف فيه عمر بن إبراهيم البصري وهو لا يحتج بحديثه ثم أنه روي موقوفا على سمرة .
٦- ثم لو افترضنا صحتها فهي في الشرك الأصغر في شرك التسمية والألفاظ، ويؤخذ منها الحذر من الشرك لسرعة حصوله وإمكانية وقوعه .

المسألة الخامسة : بداية حصول الشرك في بني آدم وتاريخه :
١- أول شرك حصل على هذه الأرض كان من قوم نوح بعد أن لبث الناس على التوحيد بعد آدم عشرة قرون ومضى من ذريته عشرة أجيال ثم بعدها فعلوا الشرك .
يدل لذلك ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام " رواه الحاكم .
قال ابن تيمية :(والشرك في بني آدم أكثره عن أصلين :
أولها : تعظيم قبور الصالحين وتصوير تماثيلهم للتبرك بها وهذا أول الأسباب التي بها ابتدع الآدميون وهو شرك قوم نوح .
والسبب الثاني : عبادة الكواكب وهو شرك قوم إبراهيم) الفتاوى ١٧/ ٤٦٠ الرد على المنطقيين ٢٨٥.
سبب حصول الشرك : التصوير والغلو في الصالحين :
بيان ذلك : " أن وداً وسواعا ويغوث ويعوق ونسراً كانوا رجالاً صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبدت " رواه البخاري .

وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية : " كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم " .

فهذا يدلنا على كيفية حصول الشرك ومراحله .

أولاً : موت خمسة رجال صالحين .

ثانياً : قام الناس بتصويرهم ليتذكروهم ويعبدوا الله إذا رأوهم .

ثالثاً : بعد أن هلك الجيل المصور وجاء الجيل الذين بعده سوّل لهم الشيطان أن آباءهم الذين كانوا قبلهم كانوا يعبدون هذه الصور والتماثيل والنصب فعبدوها فأرسل إليهم نوح عليه السلام يدعوهم ولبث ألف سنة إلا خمسين، فما آمن معه إلا قليل فأهلك الله الكفار بالطوفان وأبقى الله المؤمنين الموحدين .

٢- أول من نقض التوحيد وفعل الشرك بعد هلاك قوم نوح بالطوفان، عاد قوم هود بالأحقاف خلفاء قوم نوح في الأرض ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ الأعراف: ٦٩ ، وكانوا مقرين بالربوبية وشركهم في الألوهية وكانت أسماء معبوداتهم صدا وصمود والهباء، وإن كان بعض أهل العلم فهم من قولهم : ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فصلت: ١٥ أنه كان عندهم نوع شرك في الربوبية، وقد دعاهم هود إلى عبادة الله مما يدل على اعترافهم بالربوبية ومما يدل على اعترافهم بتوحيد الربوبية قولهم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ الأعراف: ٧٠ فهم لا ينازعون في ربوبية الله وفي ألوهيته وأنه يستحق أن يعبد وإنما كان خلافهم في كون الله هو وحده الذي يعبد ولا يعبد غيره فأنكروا توحيده بالألوهية. فلما كذبوا وعاندوا أهلكهم الله بالريح .

ثم بقي الناس على التوحيد حتى وقع قوم ثمود في الشرك بعد عاد وكان شرك قوم عاد أول شرك بعد الطوفان.

٣- ثم أول شرك بعد هلاك عاد وقع كان في ثمود قوم صالح بالحجر وكان شركهم في الألوهية دون الربوبية وقال لهم نبيهم صالح ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ الأعراف: ٧٣ هود: ٦١ ، وهذا يدل على إقرارهم بالربوبية وابتدعوا التطير. فأرسل الله لهم صالح فكذبوا فأهلكهم الله بالصيحة كان قوم عاد وثمود من العرب البائدة في الجزيرة .

٤- ثم بعد هلاك ثمود وبقاء الناس على التوحيد مدة جاءت قرون كثيرة وأقوام من العرب وغيرهم ورجع الشرك ووقع فيه جميع أقوام الأرض وكانت هناك أقوام ورسل لم يقصصهم الله علينا وأخبر أنها قرون طويلة بين صالح وإبراهيم، حتى جاء إبراهيم الخليل عليه السلام وبعث في قومه بالعراق ، ولم يكن على وجه الأرض مؤمن موحد غيره فكان أهل الأرض في زمانه كلهم على الشرك وأُرسل إلى السومريين والكلدانيين ، وكان شركهم في عبادة الكواكب واعتقاد الربوبية فيها، فشركهم من جنس شرك الفلاسفة حيث كانوا صابئة وهم أول من أشرك في الربوبية والله أعلم ، كما حصل لإبراهيم جدال مع ملك العراق النمرود في إدعائه الربوبية ولم يذكر أن الله أهلك قوم إبراهيم ولم يؤمن له إلا زوجته سارة ولوط ابن أخيه، فهاجر لمصر ثم للشام .

٥- بعث لوط في قوم سدوم في الأردن، وكانوا مع شركهم أهل لواط وذهب ابن تيمية أنهم كانوا موحدين وأن كفرهم من جهة الامتناع عن الشريعة وعدم الانقياد للدين واستحلال الحرام والجحود قال : (وقوم لوط ذكر عنهم استحلال الفاحشة ولم يذكروا بالتوحيد بخلاف سائر الأمم وهذا يدل على أنهم ليسوا بمشركين) النبوات ٥٧ وله فيهم قول ثاني، إلا أن الأظهر أنهم كانوا أيضا مشركين، ومكذبين بالرسالة، ويدل لذلك أن الأرض كانت كلها على الشرك .

انظر البداية والنهاية .

٦- لما أنزل إبراهيم ابنه إسماعيل مكة وبنا البيت ودعا جرهم للتوحيد آمنوا وطردوا العمالقة وكانوا على الشرك من حول مكة، وبقي التوحيد في العرب وفي الجزيرة العربية أزمنة طويلة حتى غير دين إبراهيم والملة الحنيفية عمرو بن لحي الخزاعي وجاء بالأصنام من الشام إلى مكة فعبدت وأطاعوه وهو أول من سيب السوائب وشرع وحكم بغير ما أنزل الله، ورجع الشرك في العرب والجزيرة العربية مرة أخرى قال الرسول ﷺ : " رأيت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبته في النار وكان أول من سيب السوائب " رواه البخاري، وعند أحمد " وغيّر دين إبراهيم " وعنده : " إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان " .

بقي الناس على الشرك في الجزيرة العربية حتى بعث الرسول صلى الله عليه وسلم فرجع العرب للتوحيد وأسلموا وتركوا الشرك .

كما حصل الشرك في قوم سبأ باليمن وعبدوا الشمس وسجدوا لها ثم دعاهم سليمان للتوحيد وأسلموا على يديه وآمنوا .

أيضاً وقع الشرك وتكذيب الرسل في سبأ فسلط الله عليهم سيل العرم ومزقهم الله في الأرض.

٧- أُرسل يوسف في أهل مصر وكانوا مشركين في الألوهية وقيل كانوا عباد بقر، وكانوا مشركين في الحكم والتشريع، ولذلك نص عليه لما كان لهم الملك والحكم ودعاهم للتوحيد فقال: ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ يوسف.

٨- أرسل الله شعيب في قومه أهل مدْين وهم أصحاب الأيكة، فدعاهم للتوحيد وعبادة الله وحدة ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ الأعراف: ٨٥ ، هود: ٨٤ ، وكانوا مع شركهم وعبادة شجرة الأيك يطففون المكيال ويقطعون الطريق ويفسدون بالحرابة، فخلطوا الشرك بكفر الامتناع عن الشرع وعدم الالتزام بأمر الله ﴿ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا ﴾ هود: ٨٧ .فكفروا به فأهلكهم الله بالصيحة وكثير ما يأتي ذكرهم بعد ذكر قوم لوط لكونهم أقرب الأقوام منهم زمناً .

ثم بعد ذلك حصل الشرك في أقوام ذكر الله لنا منها .

٩- أصحاب الرس والبئر : واختلف كثيراً فيهم وفي ديارهم فقيل أنهم اسم لثمود وقيل لقوم شعيب وقيل هم قوم ياسين وقيل قوم قتلوا نبيهم بالبئر وقيل قوم بالشام وقيل باليمامة وقيل بأذربيجان وقيل أنهم أصحاب الأخدود بنجران وقيل أنهم أصحاب حنظلة بن صفوان باليمن وأهلكوا بالجوع والعطش ، وكان شركهم في الألوهية ولم يذكر عنهم تفاصيل .

١٠- قوم يونس ابن متّى بنينوى بالعراق : وكان قومه يعبدون الأصنام فلما كذبوه خرج غاضباً فالتقمه الحوت فخاف قومه العذاب فآمنوا فوقاهم الله العذاب ورد الله إليهم يونس فيما قيل . وقد قيل أنهم من نسل بنيامين بن يعقوب وقيل غيره.

١١- قوم إلياس (إلياسين) وكانوا بالشام ببعلبك وكانوا يعبدون صنماً يقال له بعل وقيل أنه تمثال امرأة، فكذبوا نبيهم إلياس قال تعالى عنهم : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَٰلِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ

﴿ٱلْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ الصافات: ١٢٣ - ١٢٧ ، ومن سياق الآيات يتبين أنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية مخالفين في الألوهية فكانت الأسئلة إنكارية وتقريرية .

وإلياس ليس إدريس كما قيل لأن إدريس قبل نوح وكان الناس على التوحيد، والصحيح والله أعلم أنه من ذرية هارون من بني إسرائيل، وأنه ابن عم اليسع.

١٢- أصحاب القرية قوم ياسين : بعث لهم ثلاثة أنبياء فكذبوا فأخذوا بالصيحة وكانوا يعبدون الأصنام وكانوا أهل أنطاكية بالشام فيما قيل .

١٣- قوم تبع الحمْيَري باليمن كذبوا الرسل.

١٤- قوم سبأ كانوا يعبدون الشمس وآمنوا على يد سليمان عليه السلام عام ٩٥٠ قبل ميلاد عيسى عليه السلام.

١٥- الأزد ملوك سبأ بمأرب وقد وقعوا في الشرك وتكذيب الرسل قال وهب بن منبه بعث الله لهم ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم وكفروا نعمة الله فسلط الله عليهم سيل العرم وانهيار سد مأرب فمزقهم الله في الأرض وذلك قبل الميلاد فكان منهم خزاعة قوم عمر بن لحي الخزاعي الذين ملكوا مكة وانتزعوا أمر البيت والحرم من جرهم وأدخلوا الشرك فيها، ومنهم الأوس والخزرج بالمدينة وكانوا يعبدون صنم يقال له نائلة، ومنهم دوس بالسراة وكانوا يعبدون صنم ذي الخلصة .

والله أعلم بزمانهم هل كانوا قبل سليمان وقبل موسى أم بعدهم ، وقد ذكرت القرائن الدالة على الاحتمالين في كتاب التاريخ .

١٦- أقوام موسى التي دعاهم للتوحيد :

١- الفراعنة قوم فرعون بمصر وكان يدعي الربوبية فكان يقول: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ النازعات: ٢٤ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ الشعراء: ٢٩ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ القصص: ٣٨ ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ الأعراف: ١٢٧ وعلى قراءة (إلاهتك) أي عبادتك، وقيل أنه كان يعبد أصناما كما دل عليه قول ويذرك وآلهتك .

وكان إنكار فرعون للربوبية فوق الشرك أي أنه لم يكن يشرك مع الله في الربوبية ويعترف لله بالربوبية ولكن لا يوحده فيها بل كان ينكر الربوبية ووجود الله من الأصل ومع ذلك كان إنكاره وجحوده في الظاهر دون الباطن حيث كان موقن مقر بالله تعالى يدل لذلك قوله عز وجل : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾

النمل: ١٤ وقول موسى لـه : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ الإسراء: ١٠٢ ، ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الأعراف: ١٣٤ .

وقولـه حـين أدركـه الغـرق ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ يونس: ٩٠.

٢- السامريون عباد البقر كانوا مشركين في الألوهية دون الربوبية وقد مر بهم موسى حين خرج من مصر وطلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة لما رأوا السامريين، ثم دعا السامري بني إسرائيل لعبادة العجل لما خرج موسى لميقات ربه فعبدوه وأشركوا ثم تابوا منه .

٣- بنو إسرائيل : وهؤلاء لم يكونوا عباد أوثان بل كانوا أهل توحيد في الأصل حتى حصل الشرك منهم في جوانب .

والأنبياء الذين قص الله لنا خبرهم كأيوب وإسحاق ذو الكفل وداود وسليمان وزكريا ويحيى فكانوا يرسلون لأهل التوحيد ولذلك هم ليسوا برسل .

فائدة: انقسم أهل الكتاب اليهود والنصارى قبل بعثة الرسول ﷺ إلى قسمين:

١- أهل توحيد مسلمين موحدين .

٢- مشركون .

وهم اليهود الذين قالوا إن عزيرا ابن الله، والذين عبدوا العجل وقالوا اجعل لنا إلها ، والنصارى القائلين بالتثليث وأن المسيح ابن الله أو أنه هو الله أو ثالث ثلاثة وعبدوه واستغاثوا به واتخذوه إلها من دون الله .

شرك النصارى : قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ المائدة: ٧٢ ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ المائدة: ٧٣ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ التوبة: ٣٠ ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ المائدة: ١١٦.

وأول من أدخل الشرك في دين النصارى بولس اليهودي وكان قسطنطين بعده هو الذي أدخل النصرانية في الروم وألزمهم بالتثليث الشركي، وكانت الروم قبل ذلك على الشرك مثل الإغريق والفرس.

وافترقت بنو إسرائيل في عيسى ثلاث فرق : منهم كفر به وأراد قتله وهم اليهود ، ومنهم من غلا فيه وعبده من دون الله وهم أهل التثليث، ومنهم من آمن به ووحد الله وهم أهل التوحيد أمثال النجاشي وغيره .

وكان لهم لون من الشرك في الحكم والتشريع والطاعة بتحليل الحرام وتحريم الحلال : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ التوبة: ٣١ .

كذلك كان عندهم شرك في الصفات ، وتعطيلهم الله عن كماله ، وتمثيلهم له بخلقه، كقولهم: إن الله فقير، ويده مغلولة، وأنه لما خلق العالم تعب واستراح، وإن له صاحبة وولدا ،وإنه حل في عيسى واتحد معه بجسد واحد، وأيضاً تحريفهم التوراة ، وقتلهم الأنبياء ، لعنهم الله.

المسألة السادسة : وقوع الشرك في أمة محمد ﷺ :

أول من أظهر الشرك وفعله في أمة محمد هم الرافضة لعنهم الله وذلك بعد مضي القرون الثلاثة المفضلة وقد أظهروا الشرك وأمروا به ودعوا إليه حين أقاموا دولة القرامطة في البحرين واليمن ودولة البويهيين في إيران والعراق ودولة العبيديين في المغرب ومصر فحكموا المسلمين في زمن متقارب ونشروا الشرك وغلوا في القبور وبنوا عليها القباب وسموها المشاهد والله المستعان.

ثم تأثر بهم الكثير وسار على طريقهم الصوفية والمتكلمون حتى عم الشرك .

قال ابن تيمية :(وكان ظهور المشاهد وانتشارها وتعظيمها حين ضعفت خلافة بني العباس وتفرقت الأمة وكثر فيهم الزنادقة وفشت كلمة البدع وذلك من دولة المقتدر في أواخر المائة الثالثة فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر) الفتاوى ٢٧/ ٤٦٥ .

وقال (كما أن بني بويه الذين كانوا على عقيدة الرافضة ظهر في دولتهم بناء المشهد على قبر علي ﷺ المزعوم بناحية النجف ولا يزال يعبد ويدعى ويطاف به) رأس الحسين ١٦٨ .

وقد قيض الله علماء ينكرون عليهم من أمثال ابن عقيل وابن وضاح والطحاوي والطرطوشي وأبو شامه والشاطبي وابن عبد البر والقصاب الكرجي والعمراني وابن تيمية وابن القيم وابن عبدالهادي وابن كثير والذهبي وابن رجب وابن أبي العز الحنفي والمقريزي وابن الوزير والبركوي والحلبي الحنفي والصنعاني والشوكاني ، وهكذا العلماء في كتب الفقه في جميع المذاهب يذكرون في كتب الفقه في باب الردة والمرتد الشرك وكفر فاعله حتى قام الإمام محمد بن عبدالوهاب بدعوته فجدد الله به الدين وأحيا به السنة وأطفأ به الشرك والبدعة، إلا أنه بقي للشرك أهله الذين ينافحون فيه ويدافعون عنه ويقاتلون في سبيله ويكتبون الرسائل والمؤلفات الداعية للكفر والشرك فلم تسكن شوكتهم ولم تستأصل شأفتهم، فوجودهم لا يزال في كل زمان ومكان مما يوجب على أهل العلم مجابهتهم وفضحهم وتتبع شبهاتهم ودعوة العامة للتوحيد والتحذير من الشرك الذي من وقع فيه فليس من عداد المسلمين وماله دار إلا جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً أليماً .

السابعة : بعض الصور القديمة للشرك في الأمة :

ظهرت بعض صنوف الشرك في الصفات والربوبية قبل الشرك في العبادة ومن ذلك ما فعلته :

١- غلاة الرافضة أتباع عبدالله بن سبأ حين ألهوا علياً فحرقهم .
٢- القدرية الأولى أنكروا القدر وعلم الله بالأمور في آخر عصر الصحابة.
٣- الجهمية حين عطلوا الله عن صفاته وأسمائه .
٤- القبورية من الصوفية والرافضة عباد القبور .
٥- المشرعون والحاكمون بغير ما أنزل الله .

الثامنة : أدلة رجوع الشرك في أمة محمد ﷺ:

١- حديث ثوبان وفيه أن الرسول ﷺ قال : " ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان " رواه مسلم.

٢- وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً : " لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة " .

وقد وقع ذلك وأزيل هذا الصنم عام ١٢٣٠هـ .

٣- وعند مسلم من حديث عائشة مرفوعاً : " لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى " . وقيل أن القبر الذي كان ينسب لابن عباس في الطائف أنه قبر اللات وكان أهل الطائف قبل الدعوة السلفية يعبدونه ويسألونه حوائجهم ويطوفون به وعليه يتوكلون .

٤- وفي الصحيحين عن أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ".

فما وجد شرك وحصل كفر في الأمم السابقة إلا وسيحصل في هذه الأمة وسيقع لا محالة .

التاسعة : إبطال شبهة من يقول الشرك لن يرجع في هذه الأمة ولن يقع في جزيرة العرب ويستدل بحديث :" يئس الشيطان أن يعبد في جزيرة العرب " .

سنأتي عليه في كتابنا كشف الشبهات، وملخص الرد أن الشيطان لا يعلم الغيب ويأسه من رجوع الشرك لما رأى الدين ظاهرا والتوحيد قائماً فظن أنه لن يرجع مرة أخرى ، والذي أخبرنا بيأسه هو الذي أخبرنا برجوع الشرك وهو النبي عليه الصلاة والسلام .

المسألة العاشرة : كل شرك وقعت فيه الأمم السابقة وقع في هذه الأمة :

كل شرك وقع فيه الأولون منذ أن خلق الله الخلق ستقع فيه هذه الأمة لعموم حديث : " لتتبعن سنن من كان قبلكم " متفق عليه.

فالشرك الذي حصل في عصر نوح عليه السلام وبعده في قوم عاد وثمود وقوم إبراهيم عباد الكواكب وقوم شعيب وقوم لوط وأصحاب الرس وقوم تبع واليهود والنصارى ومشركي العرب وغيرهم من الأمم، كل ما وقع فيه هؤلاء من شرك وضلال فإنه وقع مثله في هذه الأمة أو سيقع لا محالة ودليل ذلك قوله ﷺ: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) متفق عليه، يعني حتى لو دخلوا المكان الذي فيه ضرر عليكم لدخلتموه.

ويذكر البعض فائدة من الحديث وهي أن في جحر الضب لا يخلو من آفات وعقارب ، وشبه الرسول ﷺ مشابهتهم حتى فيما يضر بدخول جحر الضب، والمعنى أنه لو دخلوا محلا للآفة والظلام والخطورة لا تبعتموهم، وقد رأينا مصداق ما أخبر به النبي ﷺ من هذه الأمة ، فقد وقع التشبه بالكفار والعمل بعملهم وتتبع سننهم والتشبه بهم وتتبع طرقهم في الشرك ، ومشابهتهم في المظهر العام والشكل الخارجي والهيئة والملبس، وفي الأعياد وإحيائها، ولذلك كثرت الأعياد القومية والوطنية وإحياء الذكرى والاستقلال والميلاد وهذه من عند النصارى وكذلك النيروز والمهرجانات التي جاءت من عند المجوس ، ونحو ذلك من البدع التي وقع فيها المسلمون وقد يكون التشبه بهم في عباداتهم من غير أن يشعر المتشبه الأبله أنها من العبادة كما هو الحال مثلاً في السلام والتحية كالتحايا العسكرية وذكر رقم ثلاثة فرضاً في بعض التدريبات الرياضية والكشافية والعسكرية والتي تشير إلى عقيدة التثليث ومن ذلك الوقوف تعظيماً للشعارات القومية والوطنية والأعلام، ويقع الناس في هذا الشرك وهم لا يشعرون جهلا وتشبها، وللشيخ حمود التويجري كلام نفيس حول هذه البدع والمنكرات المحدثة المستوردة في كتابه الإيضاح والتبيين.

وهذا كله فضلا عن عبادة غير الله عز وجل الواضحة الصريحة، فكما أن أقواما قالوا أن عيسى ابن الله ففي هذه الأمة من قال أن علياً ابن الله، ومن ادّعى النبوة في الأمم السابقة فقد وجد في هذه الأمة من ادعاها، ومن أنكر وجود الخالق عز وجل من السابقين فإنه وجد في هذه الأمة من فلاسفة الإسلام والشيوعية وغيرهم من أنكر وجود الله سبحانه، ومن سب الله ورسله في الأمم السابقة فإنه وجد في هذه الأمة من يفعل مثل ذلك، ومن عبد الأوثان والصالحين والقبور في الأمم السابقة فكذلك وجد في هذه الأمة من يفعل ذلك، ومن استباح الحرام وحرم الحلال وشرع من الدين ما لم يأذن به الله وحكم بغير ما أنزل الله في الأمم السابقة فإنه وجد في هذه الأمة من يفعله، ومن عظم وأطاع واتخذ المخلوق ربا من دون الله من السابقين فكذلك وجد في هذه الأمة من يفعله، وهكذا كل مخالفة وقعت في الأمم السابقة وكل كفر وشرك حصل منهم فإنه وقع مثله إذا لم يكن أعظم منه في هذه الأمة أو أنه سيقع ولا محالة .

المسألة الحادية عشرة : أهمية دراسة أحوال المشركين السابقين :

ذكر العلماء رحمهم الله مناهج المشركين وأحوالهم لكي يحذر من كفرهم ويخالف طريقهم، فهذا ابن تيمية رحمه الله كتب اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، وهذا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله كتب مسائل الجاهلية التي خالف الرسول ﷺ فيها أهل الجاهلية، وهذا أيضا منهج كثير من أهل التاريخ حيث كانوا يكتبون عن طريق المشركين كما هي طريقة الطبري وابن كثير والألوسي في بلوغ الأرب، وهذا يوقف العاقل على معرفة حقيقة الشرك وكيفية وقوعه وكيف راج ووجه مشابهة المشركين المعاصرين في زماننا بالمشركين الأولين .

فائدة : أقسام فترات الشرك :

الفترة الأولى: الشرك في الأمم السابقة: ابتداء بالمشركين في قوم نوح وانتهاء بالمشركين في عهد عيسى عليهم السلام قبل بعثة الرسول ﷺ.

الفترة الثانية : فترة المشركين العرب الذين بعث فيهم الرسول ﷺ .

الفترة الثالثة : الشرك في أمة محمد ﷺ ورجوعه في المسلمين كما أخبر ﷺ .

وله مراحل :

الأولى : زمن خروج الفرق الضالة الجهمية والقدرية والفلاسفة والزنادقة .

الثانية : بعد ظهور الرافضة والصوفية المتبعين للمجوس والنصارى في تعظيم القبور والأموات وعبادتهم والاستغاثة بهم .

الثالثة : يمكن أن يقال أنها فترة ما كان في زمن الشيخ محمد مؤلف النواقض والرسائل التي في التوحيد .

الرابعة : فترتنا المعاصرة هذه التي انتشر فيها الشرك في الحكم بالقوانين وموالاة المشركين ، إضافة للشرك في عبادة القبور.

ووجه جعلنا زماننا هذا مرحلة رابعة وتفريقنا بينها وبين التي كانت في زمن الشيخ محمد لوجهين:

الأول : لوجود الشرك في التشريع والتحليل والتحريم وتحكيم غير ما أنزل الله وتنحية الشريعة وانتشار هذا الشرك وحدوثه في زماننا ، وكذا ظهور موالاة الكفار ومظاهرتهم وحرب الدين وأهله بصور لم تكن من قبل .

الثاني : أن هذا الشرك والكفر حصل بتأييد كثير ممن ينتسب للدين والعلم بل وممن يدعي أنه على منهج الشيخ محمد بن عبدالوهاب وطريقته وهذا سر تخصيصنا .

وهنا نكتة لطيفة :
كل مرحلة تكفّر المرحلة التي تسبقها وتنكر أن تكون على منهاجها :
فقد كان كفار العرب ومنهم قريش يدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام وأنهم من أبنائه، وأن ما يفعلونه مع معبوداتهم لا يعدو أن يكون بدعة حسنة، ولا يخالف دين الله ولا ينقض ملة إبراهيم وطريقته، وأنهم ليسوا كحال مشركي الأمم السالفة المكذبة لرسلها ، بينما هم واقعون في مخالفة ملة إبراهيم ناقضون لها .
والمشركون المنتسبون للإسلام من هذه الأمة ، هم يظنون أنهم على دين الله وملة إبراهيم وشريعة محمد ﷺ ، وأنهم ليسوا على منهج كفار العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ ، مع أن أولئك مثل هؤلاء في الطريقة والدعوى .
والمشركون في زماننا من الذين يدعون انتسابهم للشيخ محمد رحمه الله وأنهم على طريقته في محاربة الشرك، وأنهم ليسوا على منهج القبورية والصوفية والرافضة والجهمية والمرجئة الذين حاربوا إمام الدعوة وصدوا الناس عن دعوته، مع أن أولئك مثل هؤلاء في الطريقة والدعوى، وهم في الحقيقة وقعوا في الإرجاء بل والشرك والردة ، بل هم من أعظم دعاة الشرك والمنافحين عنه والمدافعين عن طواغيته وأعظم الصادين عما يناقضه ويعارضه، فلم يفقهوا دعوة الإمام محمد وقبلها دين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم أو أنهم علموها وتعمدوا محاربتها .
وقد جمعت بفضل الله الصور المعاصرة والأمثلة الحادثة في زماننا في الشرك والنواقض في رسالة مستقلة تبصيرا للناس وتحذيرا لهم من الوقوع فيها أو الاغترار بشبهات المخالفين والمغرر بهم .
فتأمل هداك الله هذا الباب العظيم واحذر من الوقوع في حبائل الشرك والكفر والنفاق ودخول دار الشرك والردة من أوسع مصاريعها وأبوابها .

المسألة الثانية عشرة : شرك المتأخرين أشد وأعظم من شرك الأولين :
وذلك لأمور منها :
١ - أن المشركين الأولين كانوا يدعون الله عز وجل مخلصين له الدين ويوحدونه وذلك في حال الخوف فيلتجئون إلى الله وفي حال الرخاء يدعون غير الله عز وجل فقال الله تعالى عنهم : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥ ، أما المتأخرون فإنهم لا تشتد دعوتهم لغير

الله إلا في حالة الخوف فهؤلاء لا يستغيثون بغير الله ولا تأتي عندهم التضرعات والاستغاثات والنذور ونحوها إلا إذا جاءت الشدائد.

وكما نجد أن بعض الحكام والعامة يلتجئون إلى الغرب والشرق في وقت الشدائد ولا يلتجئون إلى الله عز وجل ليس مجرد وقت الرخاء ؟ وإنما في وقت الشدائد رأينا ذلك جلياً في حرب العراق الكويت ، حتى قال بعض المشركين إذا جاءنا بوش فناموا في الحوش ، كما لجؤوا إلى أمريكا والتمسوا رضاها وتتبعوا أفعالها وسننها وذلك في حملتها على ما أسمته بالإرهاب، وهذا من أشنع أنواع الشرك الذي وقع فيه هؤلاء المتأخرون!

٢- أن الأولين يدعون أقواماً صالحين ، فاللات رجل صالح وود وسواع رجال صالحون، وأما المتأخرون فيدعون صالحين وغيرهم ، أمثال ابن عربي الكافر، والبدوي رجل رافضي خبيث كما حقق صاحب كتاب (السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة).

٣- أن مشركي زماننا وقعوا في الشرك في الربوبية مع الشرك في الألوهية فزعموا أن الأولياء يخلقون ويرزقون ويملكون ويدبرون ويتصرفون ويعلمون الغيب أما الأولون فكانوا مقرين بتوحيد الربوبية كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ الزخرف: ٨٧.

٤- وأيضاً من تعظيم شرك المتأخرين على شرك الأولين انتشار التشريع بصفة لم تكن عند الأولين ، وهذا أيضاً من شناعة شرك المتأخرين أنه بعث لهم خير الرسل وأنزل لهم خير الكتب وفيهم دعاة الخير ومع ذلك وقعوا في الشرك، وهذا دليل على أنهم أخبث وأشد شركاً .

٥- أن مشركي العرب كانوا يعلمون معنى لا إله إلا الله والمتأخرون لا يعلمون معناها .

٦- أن الأولين لا ينكرون علو الله ولا صفاته وفي المتأخرين كثير ممن ينكر صفات الرب وعلوه .

٧- وجود من ينكر الله تعالى من مشركي زماننا .

٨- وجد في مشركي زماننا من يعبد الشيطان .

٩- من المشركين المتأخرين يقول أن كل شيء هو الله وأنه حل في كل مكان .

١٠- وجد منهم من يمثل الله بخلقه والخلق بالله سبحانه .

مثال على غلو المتأخرين ووقوعهم في الشرك الأكبر في الألوهية والربوبية :
قصيدة البردة للبوصيري (يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك) التي يتغنى بها الصوفية في المولد النبوي.
بيان بالكفر الذي تضمنته هذه القصيدة الكفرية :
١- زعم هذا المشرك أنه ليس له ملاذ عند حلول الحوادث إلا النبي ﷺ .
٢- أنه ناداه ودعاه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه.
٣- طلب الشفاعة من الرسول ﷺ كما كان يطلبها المشركون من آلهتهم ولم يطلبها من الله الذي لا يملكها غيره . كما أخبر أن لن يضيق جاه الرسول الله ﷺ به.
٤- زعم أن له عند الله ورسوله ذمة ، لكون اسمه محمد .
٥- صرح هذا المشرك بشركه في زعمه أنه إن لم يكن الرسول ﷺ في المعاد آخذاً بيده فسيهلك وهذا ليس مجرد طلب الشفاعة وإنما اعتقد أن الرسول ﷺ ينقذ بنفسه.
٦- اعتقاده أن ما في اللوح المحفوظ من الغيب قد علمه الرسول ﷺ .
٧- زعم أن الدنيا والآخرة ما خلقت إلا بجود الرسول ﷺ .
إذا أردت أن تطلع على المزيد من كلام هؤلاء أو تتعرف على دعاة الشرك من المتتسبين لأهل العلم أو من له كتاب فيه الدعاية للشرك أو ترويج وسائله أو من كان فيه بعض بدع القبورية أو تأثر بهم فهنا أذكرهم لك. وليسوا على درجة واحدة وسأذكر لك من هؤلاء معرضاً عن العامة .
وغير ذلك كثير مما صدر من هذا الكافر المشرك الزنديق من الشرك الأكبر وإثبات خصائص الربوبية والألوهية مما ليست إلا لله سبحانه وتعالى للنبي ﷺوالعياذ بالله .

المسألة الثالثة عشرة : دعاة الشرك من المنتسبين للإسلام من هذه الأمة :
البويهيون الرافضة والقرامطة فهم أول من نشر الشرك .
ومن أقدم أئمة الصوفية القبورية:مكي بن طالب ، القشيري ٤٦٥هـ ، الغزالي ٥٠٥هـ ، الكلاعي ٦٣٤هـ ، الصرصري ٦٥٦هـ ، القوني ٦٧٢هـ ، أبو نعمان .
ومن أئمة القبورية المشركة في القرن الثامن:
المنبجي ٧١٩هـ ، القشاشي ٧٣٠هـ ، وابن الحاج صاحب المدخل ٧٣٧هـ ، والإخنائي ٧٥٠هـ ، وتقي الدين السبكي ٧٥٦هـ صاحب شفاء السقام وابنه

السبكي الأصولي، واليافعي صاحب روض الرياحين ٧٦٨هـ، وابن بطوطة ٧٧٩هـ، والتفتازاني ٧٩٢هـ، والبكري.

وفي القرن التاسع: أبو حفص المصري ٨٠٤هـ، والجيلي صاحب كتاب الإنسان الكامل ٨٠٥هـ، والجرجاني ٨١٨هـ، والحسيني ٨٢٩هـ، و الأبي ٨٢٨هـ، والبرعي ٨٣٠هـ، والمقري ٨٤٧هـ، ومحمد سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات ٨٧٠هـ، والسنوسي ٨٩٥هـ، وأبو العباس السرجي ٨٩٣هـ، زروق ٨٩٩هـ، وعبد الرحمن الجامي ٨٩٨هـ.

ومن القرن العاشر: السيوطي ٩١١هـ له تنوير الحلل وحياة الأنبياء، وللسيوطي كلام صريح في تجويز الشرك منثور في كتابه الحاوي في الفتاوى، كالاستغاثة بالأموات ووجود الأبدال الذين يتصرفون في الكون وغير ذلك من الكلام الذي نجزم فيه بكفر السيوطي وردته والعياذ بالله، فهو من أئمة الشرك وليس من أئمة الإسلام، ولا يجوز أن يترحم عليه وعلى أمثاله من المشركين. ومنهم القسطلاني ٩٢٣هـ صاحب إرشاد الساري شرح البخاري له المواهب اللدنية، ولهذا المشرك كلام أقر فيه الشرك الأكبر ودعا إليه، والبوصيري ٩٦٤هـ صاحب البردة، وابن حجر الهيثمي ٩٧٤هـ، والشعراني صاحب طبقات الصوفية.

القرن الحادي عشر: عبد الرؤوف المناوي ١٠٣١هـ صاحب فيض القدير، وأحمد السرهندي ١٠٣٤هـ مؤسس الطريقة المجددية، وابن عاشر الأشعري صاحب المرشد المعين النظم المشهور ١٠٤٠هـ، وأبو المواهب ١٠٣٧هـ، وعبد الحق الدهلوي ١٠٥٢هـ، وشهاب الدين الخفاجي صاحب الحاشية على تفسير البيضاوي ١٠٦٩هـ، وابن شاه جهان الجرجاني ١٠٧٠هـ، وأحمد المصري الحموي صاحب نفشان القرب الشركي ١٠٩٨ هـ ومحمد معصوم السرهندي ١٠٩٩هـ.

ومن القرن الثاني عشر:

محمد أمين المجي ١١١١هـ، والزرقاني ١١٢٢هـ شارح الموطأ له شرح مواهب القسطلاني، وإسماعيل البروسوي ١١٣٧هـ، وعبد الغني النابلسي ١١٤٣هـ، والسلجماني المغربي ١١٥٥هـ، والقباني ١١٥٧هـ، وابن عفالق ١١٦٤هـ، وابن عدوان ١١٧٩هـ، وسليمان بن سحيم قاضي الرياض ١١٨١هـ في عصر إمام الدعوة ابن عيسى المويس ١١٧٥هـ، والصائغ ١١٨٣هـ، والعتيقي ١١٨٩هـ، ومحمد سليمان الكردي ١١٩٤هـ، وعبد الله بن عبد اللطيف الأحسائي.

ومن القرن الثالث عشر:

الزبيدي صاحب شرح إحياء علوم الدين وتاج العروس ١٢٠٥هـ، والمحجوب الميرغني ١٢٠٧هـ، وابن فيروز ١٢١٦هـ، وعمر القاسم محجوب التونسي ١٢٢٢هـ، وأحمد جمال الدين التونسي، والكوكباني ١٢٢٤هـ، وابن عجيبة الفاسي ١٢٢٤ هـ، ومحمد عبد المجيد كيران ١٢٢٥هـ، وضيف الله الجعلي الفضلي ١٢٢٤ هـ، وابن داود الزبيري ١٢٢٥ هـ، والقاضي ثناء الله البابي صاحب الرد على الوهابية ١٢٢٧هـ، وعلوي الحداد ١٢٣٢هـ، ومحمد الأمير شارح الجوهرة ١٢٣٢هـ، والصاوي صاحب الحاشية على تفسير الجلالين ١٢٤١هـ، خالد بن أحمد ١٢٤٢هـ، ابن سلوم ١٢٤٦هـ، أبو الفداء إسماعيل التميمي ١٢٤٨هـ، ابن عابدين صاحب حاشية رد المختار مفتي الحنفية ١٢٥٢هـ، وبلفقيه العلوي الحضرمي ١٢٦٦هـ، ومحسن الحسني ١٢٦٦هـ، ويف أحمد البرايوني ١١٧٤هـ، وعثمان بن سند الوائلي ١٢٥٠هـ، وأحمد بن سعيد السرهندي النقشبندي ١٢٧٧ هـ، وحسن الشطي ١٢٧٤ هـ، والخاني ١٢٧٩ هـ، وعثمان بن منصور النجدي ١٢٨٢ هـ، الردين، مؤسس الديوبندية ، داوود بن جرجيس العراقي ١٢٩٩ هـ صاحب كتاب صلح الإخوان ومن أهل التلبس والعداء على أهل التوحيد وقد رد عليه كثيرون.

ومن القرن الرابع عشر:

محمد الهمداني ١٣٠٣ هـ، وأحمد زيني دحلان مفتي الشافعية في مكة وإمام القبورية له كتاب الدرر السنية وقد رد عليه السنهوسي بكتابة صيانة الإنسان، بخش ١٣٠٩ هـ، والكمشخانوي ١٣١١هـ، وحلواني مدني ١٣١٦ هـ، امتداد إله الهندي المكي الديوبندي صاحب كتاب الشمائل الإمدادية ١٣١٧هـ، وإبراهيم السمنودي ١٣٢٦هـ، ومحمد أمين الكردي الأربلي ١٣٣٢هـ، وحيد الزمان الحيدر ابادي ١٣٣٨هـ، ومختار أحمد باشا المؤيد ١٣٤٠هـ، وأحمد رضا خان الأفغاني البريلوي ١٣٤٠هـ إمام ومؤسس طائفة البريلوية من أكبر طوائف المشركين في هذا العصر وأشدها غلوا، وخوجه محمد حسن المجددي ١٣٤٦هـ، وخليل بن أحمد السهارنفوري ١٣٤٦هـ، صاحب كتاب بذل المجهود شرح سنن أبي داوود من كتبه الشركية المهند على المفند، ويوسف الدجوي الأزهري ١٣٦٥هـ له مقالات شركية ومحاربة للتوحيد، ويوسف النبهاني الأشعري الحنفي في كتابه غاية الأماني في الرد على النبهاني، وجميل صدقي أفندي الزهاوي ١٣٥٤هـ، ومحمد أنور الكشميري

١٣٥٢هـ من أهل الحديث لكنه قبوري ، محمد عطا الكسم ١٣٥٧هـ، ومحمد بخيت المطيعي الأزهري الأصولي ١٣٥٢هـ، وديدار علي ١٣٥٤هـ، وأشرف علي التهانوي ، وحكيم الأمة الديوبندي ١٣٦٢ هـ له أمداد المشتاق والأرواح الثلاثة ، ونعيم الدين البريلوي ١٣٧٦هـ، ومصطفى أبو سيف الحمامي ١٣٦٨هـ، وشبير العثماني محدث وفيه قبورية صاحب كتاب فتح الملهم على مسلم ١٣٦٩هـ، محمد زاهد الكوثري الماتريدي ١٣٧٠هـ أشد أهل عصره عداء للتوحيد وأهله وتاريخ هذا المشرك الهالك لا يخفى، وسلامة القضاعي الهندي ١٣٧٦هـ، وحسين أحمد المدني ١٣٧٧هـ صاحب الشهاب الثاقب وهو من أعظم الكتب الداعية للشرك، ومناظر أحسن الكيلاني ١٣٧٥هـ، ومحمد مظهر الله الفاروقي ١٣٨٦هـ، وأحمد خيري الحنفي ١٣٨٧هـ، والغورغوشتوي ١٣٨٨هـ، وأحمد يارخان البريلوي القبوري ١٣٩١هـ، وكفاية الله بن أمان الله، وحمد الله الداجوي، وأرشد القادري، ومحمد الصديقي البركاتي، وعبد الله الغماري وأخوه، وعزيز الحسن السجاعي، وياسين السنهوتي، ومحمد عبد الحكيم شرف ، ومحمد عبد الحامد القادري البريوني، ومختار باشا العظمي، وأبو الفيض المنوفي، وسعيد الرحمن الشراهي، ومالك داوود المالي، وموسى محمد علي عبد النبي الكوكب، وعبد الغفور الأفغاني البشاوري، وعبد الغيور، ومحمد شفيع الأوكاروي، ومحمد على الغروي، ومحمد الحامد صاحب ردود وأباطيل، والنوري الديرشوي، ومحمود حسن الجنجهوري، وأبو الخير نور الله دين الباكستاني، وعبد الرؤوف العراقي، وحسين حلمي، محمد عبد الرحمن الفاروقي، والسلهتلي، صاحب زاده الدمشقي، وصبغة الله المجددي، وأحمد سعي الكاظمي، وظاهر شاه المدني، وعبد الحكم شرف، وكاظم على رسى، ومحمد بهاء الحق الهندي، وعبد القادر الاسكندراني، ومحمد توفيق سوقية، ومحمد أحمد نو، ومحمد الطاهر يوسف صاحب رسالة قوة الدفاع، وحسنين مخلوف الأزهري، وعبد الحليم محمود شيخ الأزهر، ومحمد متولي الشعرواي المفسر، ومنصور عربي، ومحمد مصطفى ، وإبراهيم الرواوي، وحلمي أيشق صاحب مكتبة الحقيقة في تركيا وموزع الكتب الشركية.

ثم اعلم أن دعاة القبورية لم ينتهوا إلى هذا الحد ففي أيامنا هذه ومع انتشار العلم وقيام الحجة ومع تسلط الأعداء علينا مما يجعل المفترض رجوعهم إلى الحق

وترك الشرك وعبادة القبور ونبذ الافتراق إلا أن الواقع غير ذلك فكل يوم يبرز لهؤلاء القبورية إمام يدعو للشرك ومن هؤلاء المعاصرين والذي بلينا بهم :

فمن رؤوس القبورية المشرك محمد علوي مالكي المكي الأشعري والمعتبر من أكبر دعاة الشرك في هذا العصر وقد ألف في الشرك كتباً أشهرها مفاهيم يجب أن تصحح والذخائر المحمدية وقد هلك في ١٤٢٥هـ وله أتباع ينشرون كتبه من الصوفية الهالكة أمثال عبد الكريم مراد القروني ألف كتاب التحذير من الاغترار، ويوسف هاشم الرفاعي صاحب كتاب الرد المحكم وانتصروا للمالكي.

المشرك علوي السقاف الأشعري أحد كبار دعاة الشرك وله كتاب الإغاثة .

أيضاً من رؤوس القبورية عبد الله الحبشي المشرك الضال الأشعري صاحب كتاب الدليل القويم وصريح البيان والمقالات السنية وله دعوة في لبنان .

المجهول صاحب كتاب براءة الأشعريين والمنسوب لأبي حامد مرزوق.

كذلك من رؤوس الضلال مفتي مصر القبوري المشرك علي جمعة .

والمشرك الهالك مفتي سوريا رمضان البوطي .

وعلي الجفري وحاتم الشريف، وغيرهم كثير لا كثرهم الله .

فهؤلاء جملة من دعاة الشرك والقبورية ممن كتب في تأييد الشرك والدعوة إليه أو تحسين وسائله، وهم في ازدياد وما ذكر منهم إلا القليل ولم أذكر إلا من له تأليف وكتاب له رواج في الدعوة للقبورية والله المستعان.

وقد أكثرت من ذكر وتتبع المتأخرين خاصة منهم لمخالطتهم كثيراً من الناس ووجود مؤلفاتهم وقيام دعوتهم بين العامة، فحرصت على ذكرهم ليتم الحذر منهم ومن كتبهم والاستغناء عما فيه فائدة منها بتأليف غيرهم إن أمكن.

مسألة : إبطال ما نسب للصنعاني من كون الشرك من الكفر العملي كما وجد في بعض النسخ لكتاب تطهير الاعتقاد زيادة لا تصح ولا تليق بل وتناقض ما سبق تقريره وهي زيادة مكذوبة، ومن المعلوم عند أهل العلم أن الإمام الصنعاني قد أتهم بأنه رجع عن مذهبه، إلا أن الحق الذي لا مرية فيه أن ما نسب للصنعاني لا يصح عنه ألبته وما قيل فيه وعنه كله مكذوب عليه للتشكيك في دعوة التوحيد والنيل من أئمتها وقد أنبرى للدفاع عن الإمام الصنعاني كثير من العلماء ومن بينهم الشيخ سليمان بن سحمان في كتابة تبرئة الإمامين .

الباب الرابع
التحذير من الشرك وخطورته وآثاره وأسباب وقوعه

المبحث الأول : أسباب وقوع الشرك وبقائه :

أولاً : الأسباب العامة الرئيسة :

١ - الجهل بحقيقة الدين وما أمر الله به وما نهى عنه، والجهل بمعنى العبادة والتوحيد والشرك وما هو التوحيد الذي يرضاه الله والعبادة التي هي حق خالص له وحده لا شريك له، والتي من نازعه فيها وعبد غيره فإنه يصير بذلك كافراً مشركاً وخارجاً من الإسلام إلى الكفر قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَٰهِلُونَ ﴾ الزمر: ٦٤ ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ الأعراف: ١٣٨.

ومن أعظم المصائب أن كثيراً من العباد والعلماء لا يعرفون معنى لا إله إلا الله ولم يفهموا التوحيد ولا شرك الأولين ولا لم أرسلت به الرسل .

٢ - سوء الظن بالله عز وجل وعدم تقديره سبحانه ولا معرفة صفاته العلية، فالمشرك يقيس ربه الغني بالمخلوق الضعيف الذي يحتاج لواسطة تقرب إليه وتشفع عنده وذلك لجهله وعجزه وعدم رحمته فتطلب الواسطة عنده، ليعلم بوزرائه وأعوانه وشركائه ويرحم بهم ويقدر بهم، فأين ذلك من الله سبحانه العالم بكل شيء والذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وهو مع خلقه أينما كانوا ، وهو يعلم السر وأخفى ، وهو القادر على كل شيء والمالك وحده للنفع والضر وغيره لا يضر ولا ينفع ، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وهو الراحم بخلقه المتكفل بأرزاقهم الغني الحميد الصمد الذي يصمد الخلق إليه ويسألونه حوائجهم وهم الفقراء إليه والله وحده هو الغني الحميد .

وصدق الله تعالى حين وصف حال المشركين في سوء ظنهم بالله بقوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ الفتح: ٦ ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَٰسِرِينَ ﴾ فصلت: ٢٣ ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴾ الصافات: ٨٥ – ٨٧

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ص: ٢٧

﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ آل عمران: ١٥٤

وقال تعالى: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ الحج ٧٤ ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ نوح: ١٣.

هذا هو الشرك وهذا حال صاحبه أساء ظنه بربه وعدم تقديره حق قدره وتشبيهه بخلقه فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

٣- الغلو في الصالحين وفي المخلوقات فترفع عن مرتبتها ومنزلتها ويشبه المخلوق بالرب تبارك وتعالى ويعطى صفات الألوهية والربوبية ويطلب منه جلب النفع ودفع الضر وكشف الكرب ويتبرك به ويلجأ إليه ويتوكل عليه ويعظم ويحب ويرجى ويخضع له عابدوه ويذلون له .

ولذلك كان أول شرك وقع في هذه الأرض شرك قوم نوح ، وكان سببه الغلو في الصالحين وطلب الشفاعة منهم والتقرب بهم إلى الله .

ثانياً: الأسباب الفرعية الخاصة :

وهي داخلة في جملة الأسباب الثلاثة السابقة فمنها:

١- اتباع الهوى والشهوات واستمتاع المشرك بشركه واستمتاع الجن بالأنس والعكس، وتقديم مصالح الدنيا وحظوظ النفس .

٢- الكبر والعناد والإباء والاستكبار .

٣- التقليد وتحكيم العادات واتباع المألوف وعدم النظر في الدليل .

٤- انتشار البدع ورواسب الأديان الكافرة والوثنية .

٥- عدم التدبر والاعتبار والنظر في الحجج العقلية والنقلية والفطرية.

٦- انتشار وسائل الشرك مع عدم إنكارها وإزالتها .

٧- مشابهة اليهود والنصارى والمجوس وتناقل وتلاقح الثقافات الكافرة وحوار الحضارات الملحدة.

٨- قياس المخلوق بالخالق والخالق بالمخلوق .

٩- وجود الطغاة من الحكام وعلماء السوء المشركين الداعين للشرك والمزينين له عند العامة ، فتجد كثيراً من العلماء يقع في الشرك مع العوام ويحسنه ويدعو الناس إليه ويحارب من ينكره ويتهمه بالضلال وأنه من الخوارج ولا يعظم الرسول ولا يحب الأولياء ويصنف الكتب الداعية للشرك ودعاء الأموات وموالاة المشركين ومحاربة الموحدين ، ومنهم من يهون موضوع الشرك ويعتذر كثيرا لأصحابه وينكر على من يكفرهم، ويهتم بالأمور الفرعية ولا يبين مسائل التوحيد .

ومنهم من يقرر طريقة المرجئة ويسير على منهجهم وأصولهم ويزعم أن الإسلام مجرد نطق الشهادتين ولا يمكن أن يكفر أهله .

١٠- وجود الرافضة والصوفية دعاة الشرك وأرباب دين القبورية .

١١- تمسك الإنسان بما يعتقد فيه النفع والضر والنحس والسعد .

١٢- قلة الإنكار وعدم بيان الدين والتوحيد من العلماء والدعاة والتقصير في ذلك، وترك تكفير المشركين وقتالهم، بحجة أنهم مسلمون أو جهال وإيراد الشبهة الإبليسية أن التوحيد معروف والدين عرفناه والشرك لا يوجد من يفعله .

١٣- الروايات الكاذبة والأحاديث والأخبار المختلقة الموضوعة المكذوبة والمنامات الفاسدة والحكايات الكاسدة، التي هي من وضع القبورية بوحي إبليس .

١٤- وسوسة الشيطان لعباد الأوثان وكلامه ومخاطبته لعباد الأوثان على أنها هي المتحدثة، كذلك الأحوال الإبليسية والخوارق الشيطانية والسحر الذي تلاعب الشيطان وأولياءه به على المشركين .

١٥- رعاية الآثار وتعظيمها.

١٦- الجهل باللغة العربية والمراد بالإله والرب والعبادة وعدم التفريق بينها.

١٧- عدم امتثال أمر الشارع بسد الذرائع المفضية للشرك .

١٨- تعظيم القبور والبناء عليها وإسراجها والصلاة عندها والتبرك بها .

١٩- الجبر والإرجاء من أسباب حصول الشرك وانتشاره بل وتسويغه للناس، وقد بينت علاقة هذين الأصلين الفاسدين بالشرك ومناقضة التوحيد في كتابي التوحيد .

المبحث الثاني : أضرار الشرك وأخطاره ومفاسده :

١- أن الله تعالى لا يغفره : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء: ٤٨.

٢- أنه يحبط جميع الأعمال : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الزمر: ٦٥.

٣- أن المشرك محرم عليه الجنة ومأواه النار خالداً فيها : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ المائدة: ٧٢ .

٤- أن الشرك مسبب لضيق العيش والوحشة وضيق الصدر : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ طه: ١٢٤ .

٥- ذهاب الرزق والبركة التي سببها التوحيد: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ هود: ٥٢.

٦- التفرق والاختلاف والعداء فالتوحيد يجمع الناس على الألفة والمحبة ربهم واحد ومعبودهم واحد ومطاعهم ومتبوعهم واحد وطريقهم واحد فلا تنازع ولا عداء وهذا بخلاف الشرك .

٧- استباحة المال والدم : ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ التوبة: ٥، وقال النبي ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) متفق عليه.

٨- أن فاعله يكفر بمجرد فعله ولا يعذر بجهله وتأويله، وهذا بخلاف غيره.

٩- الشرك فيه انتكاس للفطرة.

١٠- فيه هوان وإذلال لفاعله حيث ترك عبادة الله فعبد المخلوق الضعيف .

١١- الشرك مورد للأوهام والوساوس والمخاوف وذهاب الأمن ، فالمشرك متعلق بكل شيء ليدفع ضره وينفعه .

١٢- الشرك سبب لهلاك الشعوب وذهاب خيراتها وتسليط الأعداء عليها .

١٣- شدة خفائه ، قال النبي ﷺ :(الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفا) رواه أبو يعلى وسند ضعيف.

١٤- سرعة رجوعه للناس إليه ولذلك استعاذ منه إبراهيم في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: ٣٥.

١٥- فيه ضياع التوحيد ودين الله وأمره .

١٦- فيه شكوى الله الرحيم الودود على خلقه وهذا حال من يدعو غير الله.
١٧- الشرك قائم على سوء الظن بالله واعتقاد أنه لا يرحم ولا يعلم ولا يفعل إلا بمحرك له واسطة عنده .
١٨- فيه تعطيل الله تعالى عن كماله المقدس .
١٩- فيه تشبيه الخالق بالمخلوق وأنه محتاج لواسطة تشفع عنده وكذا تشبيه المخلوق بالخالق عز وجل .
٢٠- أنه الظلم العظيم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: ١٣.
٢١- ذهاب خير الدنيا والآخرة فدعوة غير الله وعبادته باطلة وهي هباء لا نفع فيها بل الضرر كله منها .
٢٢- كذلك كثرة الشبهات حوله من الدعاة إليه ومن وحي إبليس وتلبسيه .

مسألة: عبادة غير الله عز وجل أشد من إنكار الرسالة :

وعلّة ذلك أن إنكار الرسالة أو سب الرسول ﷺ فيه اعتداء على حق الرسول.
أما من دعا غير الله تعالى وعبده فقد اعتدى على حق الله عز وجل، وحق الله تعالى أعظم من حق الرسول .
وإن كان حق الرسول داخل في حق الله ﷻ لكن لا يصل إلى درجة الشرك .
فمن سب الرسول ﷺ فقد أساء للرسول ولمرسله ولكن لا يصل إلى درجة الشرك فالشرك أعظم ذنبا والعبادة أعظم حقوق الله لذلك القدح فيها أشد وأنكى .

مسألة : قبح الشرك مما تعلمه العقول الصحيحة والفطر السليمة :

الشرك حقيقته يقوم على سوء الظن بالله، وأنه لا يعلم أو لا يسمع إلا بإعلام غيره وطلبه منه، وهذا فيه نفي لعلم الله وسمعه وقدرته، أو أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يسترحمه ويستعطفه عليهم، وفي هذا إساءة ظن وطعن في الرب وفي صفاته، وسوء الظن من أعظم الذنوب وهي سمة لكل مشرك ، كما تقدم.
فمن اتخذ واسطة وشفيع عند الله من ولي أو نبي فقد ظن بربه أقبح الظن، وجعله مثل ملوك الدنيا المحتاجين إلى الوسائط وذلك لعجزهم وضعفهم وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين فأما من هو عالم بكل شيء ولا يشغله سمع عن سمع وسبقت رحمته غضبه وكتب على نفسه الرحمة فما تصنع الوسائط عنده.

مسألة : خوف الأنبياء من الوقوع في الشرك :

فهذا الخليل عليه السلام إمام الموحدين دعا الله بقولـه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: ٣٥.

وهذا رسول الله ﷺ كان يتعوذ من الشرك ويأمر به كما في قوله ﷺ : " اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك "رواه أحمد .

مسألة : المشرك إنما قصد تعظيم جناب الله تعالى :

حيث يظن أن الله تعالى لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية فعبد هذه الوسائط والشفعاء التي زعم أنها تقربة إلى الله .فوقع في نقيض قصده وفعل أعظم ما يسخط ربه ويغضبه وما فيه استهانة به وسوء ظن به فاستحق أن يخلد به في ناره وأوجب بفعله هذا سفك دمه واستباحة ماله. وتقدم .

مسألة: الشرك يحبط العمل حتى ولو عمل صالحاً .

الله لا يقبل عمل المفسدين ، ولما كان الشرك ضد التوحيد ، والله عز وجل لا يقبل إلا العبادة المجردة له والألوهية الكاملة له فمن أله الله وعبده ولكن لم يترك عبادة غيره ولم يكفر بعبادة غيره فلا يسمى موحداً ويبطل عمله في غيره من الأعمال فمن شروط قبول العبادة والعمل الصالح:

١- أن يعبد الله عز وجل وحده . ٢- أن يكفر بعبادة كل من سوى الله.

مسألة : كفارة الشرك الأصغر:

لما قال الرسول ﷺ أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل قالوا وكيف نتقيه يارسول الله قال قولوا : (اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه) رواه أحمد وفي سنده ضعف.

الباب الخامس : وسائل الشرك وذرائعه وأبوابه

المسألة الأولى : معنى الذرائع والوسائل:

الوسائل هي بمعنى الذرائع .

والذريعة ما كان طريقا وسببا يتوصل بها لحصول غاية.

ومن معانيها : ما كان مباحا في أصله لكن يفضي لأمر محرم.

أيضاً : ما كان طريقا إلى المقاصد من المصالح والمفاسد .

فائدة : باب الذرائع ضد رعاية المصالح .

فائدة : علاقتها بالأسباب . باب الأسباب يدخل في باب ذرائع الشرك .

م (٢): منهج الشارع مع الوسائل والغايات والمقاصد :

الشارع إذا حرم شيئاً حرم الطرق الموصلة إليه والوسائل المفضية إليه .

ومن هذا الباب كان من مقاصد الشريعة وأبواب الدين سد الذرائع ، فالأفعال إذا كانت مباحة لكن قد تفضي إلى محذور وجب سدها ودفعها وإغلاقها .

م (٣) : معنى: (لايستجرينكم الشيطان) أبو داود، (لا يستهوينكم) النسائي.

هذه خطواته التي يتدرج بها ويتبعها المفتون أخبرنا الله عنها وحذرنا منها بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ ، وهي من الذرائع والوسائل والطرق والأبواب المفضية للشرك والموقعة في حمى التوحيد وجنابه ، والشارع صان كل ذلك وحماه وحفظه وحسم كل ما يخالف ذلك وسده وأغلقه.

م (٤) : الفرق بين الحماية للتوحيد وسد طرق الشرك :

أن سد الطرق والوسائل من الحماية .

م (٥) : فتح الذرائع :

كترك النبي ﷺ قتل المنافقين ، وتحريق أموال الكفار وإتلافها ، والسفر للكفار، وإقامتهم عندنا للمصلحة ، وكفعل الكفر مكرها.

م (٦) : علاقة وسائل الشرك بالشرك الأصغر :

١- أغلب وسائل الشرك إذا لم يكن جميعها فيها نوع شرك حتى التقليد والتصوير والتعظيم والكبر والتوسل .

٢- لكن يوجد وسائل للشرك الأكبر وليست من باب الشرك الأصغر ، مثل: الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها والصلاة في المقبرة من غير قصد التبرك .

٣- ولا يوجد شرك أصغر إلا وهو وسيلة من وسائل الشرك الأكبر .

م (٧) : أقسام الوسائل:
١- مقصودة بذاتها ، كمن تشبه بالكفار قصدا وتقصد الصلاة في المقبرة.
٢- ألا يقصد فاعلها موافقة المحرم ، كمن لبس مثل لبس الكفار وشابههم من غير أن يقصد ، أو صلى في المقبرة وفاقا لا تعمدا .
م (٨) : أبواب الوسائل:
١- وسائل متعلقة بالألوهية ، كالصلاة عند القبور والبناء عليها.
٢- وسائل متعلقة بالربوبية والصفات ، كالإقسام على الله والاستشفاع به.
٣- وسائل متعلقة بالولاء والبراء، كالتشبه بالكفار وهو من ذرائع الكفر.
٤- وسائل متعلقة بالقدر ، كالصبر وكعدم قول (لو) اعتراضا على القدر.
ووسائل تتعلق ببقية أبواب العقيدة والإيمان والغيبيات والأسماء والأحكام.
م (٩) : مقاصد التوحيد التي جاء الشرع بالوسائل لحمايتها :
١- تحقيق العبودية لله وإخلاص العبادة لله والبعد عن الشرك .
٢- تعظيم الرب ﷻ والبعد عما ينافي تعظيمه ، واحترام جناب الربوبية.
٣- إثبات الكمال لله ﷻ، وعدم تعطيله عن كماله.
٤- عدم القدح في أفعال الله وسبها، ونفي النقص عنه وتبرئته من العيب .
٥- تنزيه الله عن التمثيل مع خلقه فلا يعطى صفات الخلق ولا الخلق صفاته.
٦- عدم الغلو في الخلق وإعطائهم صفات الخالق وربوبيته والتأثير .
٧- إثبات صفات الله لهم ، نسبة الحوادث للخلق والتأثير لهم.
٨- الرضا عن الله وعما جاء عنه وعن أقداره وعدم التسخط على أقداره .
٩- التأدب مع الله في الألفاظ والبعد عن الألفاظ الموهمة .
١٠- حفظ وسائل حماية التوحيد، وسد ذرائع الشرك وطرقه.
١١- البعد عن مشابهة المشركين.
م (١٠) : هل يوجد وسائل قلبية اعتقادية :
في الغالب أن وسائل القلب لا تستقل بل يتبعها قول أو فعل .
م (١١):القاعدة:أن كل الوسائل متعلقة بالقلب وقد تفضي للعقيدة الفاسدة.
م (١٢) : حكم ما لو لم توجد عقيدة القلب في فعل الذريعة:
الحكم يبقى على أصله بالتحريم وسد الذريعة كحسم مادة التشبه.
م (١٣) : بعض الوسائل تكون قولية وعملية . كالتسخط والتشاؤم .

م (١٤) : أسباب وقوع الشرك وبقائه :

١- الجهل بحقيقة الدين وما أمر الله به وما نهى عنه، والجهل بمعنى العبادة والتوحيد والشرك وما هو التوحيد الذي يرضاه الله والعبادة التي هي حق خالص له وحده لا شريك له، والتي من نازعه فيها وعبد غيره فإنه يصير بذلك كافراً مشركاً.

٢- سوء الظن بالله ﷻ وعدم تقديره سبحانه ولا معرفة صفاته العلية، فالمشرك يقيس ربه الغني بالمخلوق الضعيف الذي يحتاج لواسطة تقرب إليه وتشفع عنده وذلك لجهله وعجزه وعدم رحمته فتطلب الواسطة عنده، بالله سبحانه العالم بكل شيء والقادر على كل شيء والمالك وحده للنفع والضر وغيره.

٣- الغلو في الصالحين فترفع عن مرتبتها ومنزلتها ويشبه المخلوق بالرب تبارك وتعالى ويعطى صفات الألوهية والربوبية.

م (١٥) : الجامع في تحريم وسائل الشرك :

١- أن تقوم على تعلق القلب بغير الله واللجوء والتوجه إلى غيره .

٢- أنها ذرائع وأسباب ودواعي ووسائل لحصول الشرك ووقوعه .

٣- أن فيها تعظيم المخلوق والغلو فيه .

٤- أن فيها تنقص الرب ﷻ والقدح في أفعاله.

م (١٦) : ألفاظ فيها تجرؤ على الرب وعدم تعظيمه ونقص لكمال التوحيد:

١- السلام على الله ﷻ .

٢- التألي على الله ﷻ .

٣- الاستشفاع بالله ، بأن تجعل الله ﷻ واسطة لك عند خلقه .

٤- الاستثناء في الدعاء : كقول: اللهم اغفر لي إن شئت .

٥- الإقسام على الله ﷻ والتدخّل في أفعاله .

٦- لا يقول : عبدي وأمتي .

٧- رد من سأل بالله ﷻ.

٨- لا يسأل بوجه الله ﷻ إلا الجنة .

٩- قول : (لو) وقول: (لولا).

١٠- الظن السيئ بالله تعالى .

١٢- الوفاء بذمة الله ﷻ وعدم إخفارها .

١٣- دعاء الله ﷻ ببعض الألفاظ السيئة كقول : الله يظلم فلان أو الله يـؤذي فلان أو يخون الله من يخوننا أو الله يخدمني في فلان ، فهذه كلها تنبئ عـن سـوء أدب مع الله عز وجل ومما يجب أن ينزه ربنا عنه، فالله لا يظلم ولا يخون سبحانه .

١٠- قول: (لولا الله وفلان) ، وقول: (ما شاء الله وشاء فلان) .

١١- سب أفعال الله تعالى.

فهذه الأمور داخلة في تعظيم الله وتوحيده وتتعلق بالشرك الأصـغر ووسـائل الشرك .

م (١٧) : من حماية الشرع جناب التوحيد وسد وسائل الشرك :

١- بيانه لأضرار الشرك وخطره ومفاسده .

٢- خوف الأنبياء من الوقوع في الشرك :

فهذا الخليل عليه السلام إمام الموحدين دعا الله بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: ٣٥.

٣- سد ذرائع الشرك .

وإذا كان الله ورسوله حرموا هـذه الوسـائل حتـى لا تفـضي للـشرك وحمايـة جناب التوحيد ، فمن المستحيل شرعاً وفطرة وعقلا أن يأتي في هذه الشريعة المطهرة الكاملة إباحة دعاء الموتى والغائبين والاستغاثة بهم في الملمات والمهمات.

٤- إزالة آثار الشرك وبقايا الأصنام :

ومن ذلك أمر الرسول ﷺ للصحابة ﷺ بهـدم الـلات والعـزى وذي الخلـصة وغيرها ، وهدم يوم فتح مكة ثلاثمائة وستين صنماً كانت على الكعبة وحولها .

م (١٨) : فائدة : تتنوع وسائل الشرك لنوعين :

وسائل متعلقة بالقبور وخاصة بالأموات ووسائل عامة .

م (١٩) : قاعدة :

وجوب تغيير الألفاظ الموهمة التي قد تكون وسيلة وذريعة للشرك.

م (٢٠) : عدد وسائل الشرك :

الذرائع التي سدها الشرع حسب استقراء النصوص وصلت إلى خمسين ذريعة شركية ووسيلة .

م (٢١) : أنواع الذرائع الشركية: وعددها خمسون ذريعة بعد الاستقراء:

أولاً : وسائل قولية لفظية:

١- الاطراء والمدح .
٢- التسوية اللفظية.
٣- التوسل .
٤- الاستسقاء بالأنواء .
٥- إسناد الحوادث لغير الله ونسبة الحوادث للدهر. وقول (لولا) .
٦- الحلف بغير الله .
٧- التشبه بالمشركين.
٨- نسبة النعم لغير الله وشكر الخلق عليها .
٩- ترك الدعاء والشكر.
١٠- الاستشفاع بالله .
١١- الإقسام على الله ، والتألي عليه.
١٢- كثرة الحلف وامتهانه.
١٣- السلام على الله .
١٤- تعليق الدعاء بالمشيئة كقول اللهم اغفر لي إن شئت .
١٥- اخفار ذمة الله ونكث عهده.
١٦- التسخّط على القدر بالقول والعمل وقول (لو).
١٧- انتقاص الرب ﷻ وانتقاص صفاته وأفعاله .
١٨- سب أفعال الله كالدهر والريح .
١٩- تشبيه الرب بخلقه والخلق بربهم، جحد الأسماء والصفات وتعطيلها، احترامها، والتسمي بقاضي القضاة .
٢٠- التعبيد لغير الله وشرك التسمية .
٢١- الألقاب المعظمة للمخلوق أو فيها مشابهة لما يختص به الرب.

ثانياً : وسائل عملية بدنية :

١- الغلو والتعظيم في : الأحياء والأموات والقبور والمواضع والآثار.
٢- تقصد مواضع بالعبادة أو أماكن الشرك التي يعبد فيها غيره .
٣- البناء على القبور واتخاذها مساجد وإنارتها والصلاة فيها .

٤- التصوير .
٥- التقليد .
٦- التبرك .
٧- التمائم .
٨- التشاؤم .
٩- الذهاب للسحرة .
١٠- ترك الواجب خشية الناس .
١١- القيام للمخلوق .
١٢- رعاية الآثار وتعظيمها .
١٣- الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها .

ثالثاً : وسائل قلبية اعتقادية :

١- الأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله.
٢- التبرك.
٣- التشاؤم .
٤- الغلو في الخلق.
٥- الجزع وعدم الصبر ، تسخط على أقدار الله وأفعاله وربوبيته .
٧- الرياء وإرادة الدنيا.
٨- سوء الظن بالله .
٩- اعتقاد استحقاق النعم ، وأن للمخلوق حقاً على ربه.
١٠ الكبر والفخر والعجب والطعن في الناس وأنسابهم.
١١- تقدير الله وتعظيمه .
١٢- الاعتماد على الأسباب بالكلية.
١٣- الخوف من المخلوق والتوكل عليه وترجيّه.
١٤- عبادة الدنيا والتعلق بها .
١٥- الاستغناء عن الله .

وكل هذه الأبواب تدخل في الشرك الأصغر كما تعتبر من حماية النبي ﷺ التوحيد وسد طرق الشرك.

مباحث متعلقة بوسائل الشرك

الفصل الأول : الإخلاص وشرك الإرادة والنية والقصد والابتغاء
الثاني : الرياء .
الثالث : كفر النعم وشرك المدح والشكر والثناء.
الرابع : التوسل.
الخامس : الصبر على الأقدار والرضا بها وعدم الجزع منها والاحتجاج به .
الفصل السادس : الحكم بغير ما أنزل الله الذي يعد من الشرك الأصغر .

وسيأتي الكلام عنها .

الفصل السابع : الغلو

م (١) : تعريف الغلو :
مشتق من الفعل غلا ، وهو مجاوزة الحد .
ومن الألفاظ المقاربة له :
التنطع والإطراء والتشدد والتطرف .
م (٢) : أقسام الغلو وآلاته :
١- غلو قلبي: مثل التعظيم والإفراط في الخوف من المخلوق أو محبته.
٢- غلو قولي لفظي : مثل المبالغة في المدح .
٣- غلو عملي : مثل القيام للقاعد ورمي الجمار بحجارة كبيرة.
٤- غلو اعتقادي منهجي: كغلو الخوارج والمرجئة والقدرية والمعطلة .
م (٣) : أنواع المغلو فيهم وصور الغلو وأمثلته :
البشر: ومنهم الرسل والصالحين والملوك والأموات . الملائكة . الجن .
الجمادات من الآثار والمشاهد والبقاع والأمكنة ، ، والأوثان . والأسباب .
القبور بتعظيمها والبناء عليها وإسراجها وتنويرها وكسوتها.
م (٥) : حكم الغلو ودرجاته :
غلو كفري مخرج من الدين كغلو النصارى في عيسى وغلو الرافضة في آل البيت وغلو الصوفية في النبي ﷺ والأولياء وصرف العبادة لهم .
غلو معصية ويدخل في الشرك الأصغر ويعتبر وسيلة للشرك ، كالغلو في المدح والقيام للخلق.
م (٦) : الأدلة على تحريم الغلو:
١- قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ النساء: ١٧١ .
٢- قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴾ نوح: ٢٣:
(هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا،ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت) رواه البخاري.

٣- قال ابن القيم: (قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم) إغاثة اللهفان ١/ ٢٠٣.

٤- عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله) متفق عليه.

٥- عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : (إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو) رواه أحمد وغيره.

٦- عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: (هلك المتنطعون) قالها ثلاثا . رواه مسلم.

وهناك أدلة أخرى في باب الغلو منها :

١- قال تعالى :﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ص:٨٦.

٢- قال تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ الحج: ٧٨.

٣- قال النبي ﷺ : (عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل حتى تملوا) متفق عليه.

٤- قال النبي ﷺ : (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة) رواه البخاري.

٥- عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : (إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا) رواه البخاري .

٦- عن أنس مرفوعاً : (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا) متفق عليه .

٧- أنكر النبي ﷺ على من ترك النكاح والفطر والأكل والنوم تنسكا .

كما نهى النبي ﷺ عن الغلو في أحد من الخلق :

٨- فقال ﷺ : (إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب) رواه مسلم عن المقداد.

٩- لما أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ قال: (ويلك قطعت عنق صاحبك) متفق عليه.

م (٧) : علاقة الغلو بالشرك ونقض التوحيد:

الغلو من أعظم أسباب الوقوع في الشرك وترك التوحيد .

والغلو متعلق بأبواب كثيرة مثل: (الغلو في الصالحين تعضيم المواضع والقبور التصوير والتمائم والتبرك) والجامع فيها تعظيم غير الله .

تنبيه : أعظم أسباب الغلو : الجهل بحقيقة الدين .

م (٨) :التطرف هو أطراف الغلو بين الإثبات والنفي والإفراط والتفريط :

١- فأطراف الغلو في الرسل يكون بين من يكذب بهم أو يسخر من سننهم أو يبغض ما جاءوا به ويحارب دينهم ، وبين من يرفعهم لدرجة الربوبية والإلهية كصرف العبادة لهم أو أنهم يتصرفون في الكون أو أنهم أبناء الله .

٢- الغلو في صفات الله بين المعطلة الجهمية والممثلة بين تكييفها وتمثيلها بصفات الخلق ، وبين إنكارها وجحدها وتعطيلها وتأويلها.

٣- الغلو في القدر إثباتا ونفيا ، بين القدرية والجبرية.

٤- الغلو في الصحابة وآل البيت بين الروافض والنواصب ، وبين من يعبدهم ومن يطعن فيهم ويسبهم.

٥- الغلو في التكفير والأسماء والأحكام والإيمان بين الخوارج والمرجئة، بين التكفير بالمعاصي وبلازم القول والتسلسل وشعوب المسلمين ، وبين ترك تكفير من كفره الله من المشركين والمرتدين أو قصر الكفر بالاعتقاد والاستحلال .

٦- الغلو في الأسباب بين إثبات استقلالها بإيجاد المسبب وتأثيرها والاعتماد عليها ، وبين إنكارها والإعراض عن الأخذ بها.

٧- الغلو في العلماء بين تقليدهم ونسبة العصمة لهم وعدم رد خطئهم ، وبين من يقدح فيهم ولا يقدرهم ويعرف لهم حقهم.

٨- الغلو بين الخوف والرجاء وبين الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله.

٩- الغلو في الولاء والبراء بين من يوالي الكفار وبين من يظلمهم أو يحرم التعامل معهم.

م (٩) : أسباب النهي عن الغلو ومفاسده:

١- لأنه من أسباب الشرك وذرائعه وطرقه وليس هو السبب الوحيد.

٢- الغلو مناقض لوسطية الإسلام وسماحته ويسره .

فائدة: الغلو سبب لترك الدين مع أن مقصود صاحبه التمسك بالدين وحبه:

فالغلو في النبي ﷺ مثلا قد يؤدي إلى عبادته من دون الله فيترك الغالي الإسلام وينقض توحيده ويقع في الشرك .

م (١٠) : تنبيه : من آثار الغلو التقليد والتبعية المطلقة وتقديم أقوال الرجال على النصوص وتعظيم الأشخاص وطاعة المخلوق في معصية الخالق:

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾ الزخرف: ٢٣.

قال ابن عباس ﷺ : (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول قال الله ورسوله وتقولون قال أبو بكر وعمر) رواه أحمد .

قال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

م (١١) : مناقضة القبورية لما جاء من الشرع في أبواب الغلو والقبور :

العجيب من علماء المشركين قراءتهم الأحاديث الناهية عن الغلو والبناء على القبور وسبب شرك قوم نوح ومع ذلك اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، وزين لهم الشيطان أن البناء على القبور والعكوف عليها من محبة الصالحين وأن الدعاء عندها أرجى في الإجابة من الدعاء في المسجد الحرام.

م (١٢) : فائدة : أول شرك حدث في الأرض كان سببه شبهة الصالحين والغلو فيهم وفي تعظيم قبورهم، أول من أظهر الشرك وفعله في أمة محمد هم الرافضة لعنهم الله وسبب وقوعهم في الشرك الغلو في الصالحين وتعظيم قبورهم .

م (١٣) : سبب حصول الشرك : الغلو في الصالحين والتصوير: وبيان ذلك :

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴾ نوح: ٢٣ قال: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم، عبدت) رواه البخاري.

وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية : (كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم) .

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

فهذا يدلنا على كيفية حصول الشرك ومراحله .

أولاً : موت خمسة رجال صالحين .

ثانياً : قام الناس بتصويرهم ليتذكروهم ويعبدوا الله إذا رأوهم .

ثالثاً : بعد أن هلك الجيل المصور وجاء الجيل الذين بعده سوّل لهم الشيطان أن آباءهم الذين كانوا قبلهم كانوا يعبدون هذه الصور والتماثيل والنصب فعبدوها فأرسل إليهم نوح عليه السلام يدعوهم ولبث ألف سنة إلا خمسين، فما آمن معه إلا قليل فأهلك الله الكفار بالطوفان وأبقى الله المؤمنين الموحدين .

ثم رجعت عبادتهم في العرب في الجزيرة بعد إبراهيم بعد أن بقوا أزمنة طويلة على التوحيد حتى غير دين إبراهيم والملة الحنيفية عمرو بن لحي الخزاعي وجاء بالأصنام من الشام أو جدة إلى مكة فعبدت وأطاعوه، ورجع الشرك في العرب والجزيرة العربية مرة أخرى.

قال الرسول ﷺ : (رأيت عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبته في النار وكان أول من سيب السوائب) رواه البخاري، وعند أحمد " وغيّر دين إبراهيم " وعنده : " إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان " .

روى الفاكهي عن ابن الكلبي قال: كان لعمرو بن لحي رئي من الجن ، فأتاه فقال : ائت جدة تجد بها أصناما معدة ، ثم أوردها تهامة ولا تهب وادع العرب إلى عبادتها تجب ، فأتى عمرو ساحل جدة فوجد بها وداً وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ، وهي الأصنام التي عبدت على عهد نوح ثم إن الطوفان طرحها هناك فسفى عليها الرمل، فاستثارها عمرو وخرج بها لتهامة وحضر الموسم ودعا إلى عبادتها فأجيب.

وبقي الناس على الشرك في الجزيرة العربية حتى بعث الرسول ﷺ .

وهذا يدل على خطورة الشرك وسرعة حصوله وصعوبة ذهابه.

لكل ذلك جاءت النصوص متظافرة في النهي عن كل ذريعة قد تؤدي إلى الشرك وتقدح في التوحيد ، ولو كان سببها خاف لكثير من الناس.

م (١٤) الغلو في الرسول ﷺ وفي الأنبياء والأولياء والصالحين في المتأخرين :

نهى النبي ﷺ عن الغلو فيه وإطرائه ورفعه فوق منزلته والمبالغة في مدحه .

قال ﷺ : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله) متفق عليه .

عن عبد الله بن الشخير ﷺ قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: (السيد الله تبارك وتعالى). قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: (قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان) رواه أبو داود.

وعن أنس ﷺ ، أن ناساً قالوا: يا رسول الله: يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال ﷺ: (يا أيها الناس، قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد، عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ) رواه النسائي.

ولما قالت الجواري: وفينا رسول الله يعلم ما في غد. قالﷺ : (لا يعلم ما في غد إلا الله) رواه البخاري وابن ماجة .

وقال ﷺ : (إنه لا يستغاث بي) قاله لما قال بعض الصحابة: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من المنافق الذي كان يؤذيهم. رواه الطبراني وحسن إسناده الهيثمي .

وعند أحمد في مسنده:(إنه لا يقام لي ولكن يقام لله) وضعّف إسناده ابن مفلح.

وقال أنس: لما شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته، فقال: (كيف يفلح قوم شَجُّوا نبيهم) ؟ نزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ آل عمران: ١٢٨ متفق عليه.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٤ قال: (يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً) متفق عليه.

هذه النصوص وغيرها تدل على عبودية الرسول ﷺ لله، وأنه بشر ليس له شيء من خصائص الله تعالى ، وأنه لا يجوز الغلو فيه ورفعه إلى درجة الألوهية.

إلا أنه ومع هذا كله فقد وصل الغلو في الرسول ﷺ عند الصوفية إلى الكفر البواح فنقضوا أوامره وخالفوا شرعه. ومن هذا ما قال البوصيري المشرك :

دع ما ادعته النصارى في نبيهم * واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

ومن صور غلو المشركين في النبي محمد ﷺ :

١- زعمهم أنه يعلم الغيب .

٢- أنه ﷺ يتصرف في الكون وأن خزائن السموات والأرض بيده .

٣- أنه يجيب من دعاه ويكشف الكرب ويغفر ويرزق ويعافي وينصر .

٤- أنه يستغاث به ويدعى من دون الله .

٥- أنه حي في قبره كحياتنا الدنيا .

٦- أنه خلق من نور .

م(١٥):مثال لغلو المتأخرين ووقوعهم في الشرك الأكبر في الألوهية والربوبية:

بيان بالكفر الذي تضمنته قصيدة البردة الكفرية للبوصيري (يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك) التي يتغنى بها الصوفية في المولد النبوي:

١- زعم هذا المشرك أنه ليس له ملاذ عند حلول الحوادث إلا النبي ﷺ .

٢- أنه ناداه ودعاه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه.

٣- طلب الشفاعة من الرسول ﷺ كما كان يطلبها المشركون من آلهتهم ولم يطلبها من الله الذي لا يملكها غيره ، كما أخبر أنه لن يضيق جاه الرسول الله ﷺ به.

٤- زعم أن له عند الله ورسوله ذمة لكون اسمه محمد .

٥- صرح هذا المشرك بشركه في زعمه أنه إن لم يكن الرسول ﷺ في المعاد آخذاً بيده فسيهلك وهذا ليس مجرد طلب للشفاعة وإنما اعتقد أن الرسول ﷺ ينقذ بنفسه.

٦- اعتقاده أن ما في اللوح المحفوظ من الغيب قد علمه الرسول ﷺ .

٧- زعم أن الدنيا والآخرة ما خلقت إلا بجود الرسول ﷺ .

وغيرها كثير مما صدر من هذا المشرك من إثبات خصائص الربوبية للنبي ﷺ .

م (١٦) : الأبواب المتعلقة بالغلو :

الغلو في المدح والفخر والذم ، والغلو في القوميات والعصبيات الحزبية، التبرك، التطير، الأعياد، الأسباب، الشرك بالمخلوق بدعائه وطاعته والقيام له.

وجه كون الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والكبر من الشرك الأصغر :

لأن فيها تكبرا على الخلق وتعالياً وتعاظماً وعُجْباً وهذا منافٍ للعبودية من الذل لله والتواضع ، كما أن فيه طعن في خلق الله ، كما أن فيها منازعة الله صفته الكبر.

الدعوة للقوميات والعصبيات الحزبية والقبلية والوطنية من وسائل الشرك.

القيام عند الجالس والقيام للملوك نهينا عنه لما فيه من الغلو وتعظيم المخلوق:
لحديث:(من أحب أن يمتثل له الناس وقوفاً ...). رواه أحمد والترمذي .
وقال أنس ﷺ : (لم يكن شخص أحب إليهم من النبي ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك) رواه أبو داوود.

م (١٧):المنافقون رموا المتدينين بالغلو والتشدد وسموا الموحدين بالخوارج:
إن تسمية الطائفة المنصورة أهل التوحيد والجهاد أهل السنة بالخوارج سنة إرجائية جهمية متبعة، قد رمي بها شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والإمام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه وهاهم اليوم خصوم التوحيد في زماننا يسمون الموحدين بالخوارج التكفيريين الغلاة المتشددين الضالين.
قال ابن القيم في من رماه وابن تيمية ودعاة التوحيد وأهل السنة بالخوارج:

من لي بمثل الخوارج قد كفّروا ... بالذنب تأويلاً بلا إحسان
ولهم نصوص قصروا في فهمها ... فأتوا من التقصير في العرفان
وخصومنا قد كفرونا بالذي ... هو غاية التوحيد والإيمان

قال عبد الرحمن بن حسن: (فصار من هؤلاء المشركين من يكفّر أهل التوحيد بمحض الإخلاص وإنكارهم على أهل الشرك والتنديد فلهذا قالوا أنتم خوارج مبتدعة وكفرتم أمة محمد كما أشار ابن القيم إليهم في زمانه) الدرر ١١/ ٤٤٨.
قال عبد اللطيف بن عبد الرحمن : (وقد غلط الكثير وظنوا أن من كفّر من تلفظ بالشهادتين فهو من الخوارج..) الدرر ١٢/ ٢٦٣.

الفصل الثامن : الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله

المسألة الأولى: تعريفها :

أولا: الأمن : هو طمأنينة القلب وعدم الخوف .

ثانيا : اليأس والقنوط : قطع الأمل وعدم الرجاء . واليأس أشد من القنوط .
وقيل اليأس استبعاد زوال المكروه والقنوط استبعاد حصول المطلوب .

الثانية : الأمن واليأس ضدان .

الثالثة: تعلقات اليأس والأمن :

أولا تعلقات اليأس : يتعلق بالرحمة وروح الله ، ويتعلق بعدم رجائه.
وروح الله رحمته وترويحه وتفريجه .

ثانيا: تعلقات الأمن : يتعلق بمكر الله ، ويتعلق بعدم خوفه .
مكر الله : هو استدراج الله عباده العصاة وعقوبتهم من حيث لا يشعرون .

الرابعة أدلتها : أولاً : دليل اليأس والقنوط :

قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يوسف: ٨٧.
وقال: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ الحجر: ٥٦ .
وقال: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ الزمر: ٥٣.

ثانياً : دليل الأمن :قال ﷻ: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ النحل: ٤٥ ، ثم ذكر عبادة الخوف بعد آيات الأمن.
وقال ﷻ: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الأعراف: ٩٩.
وقال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ يوسف: ١٠٧ .

وهناك أدلة جمعت بين الأمن واليأس معا :
قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ يونس: ٧-٨ .

حديث ابن عباس يرفعه : الكبائر:(الشرك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله) رواه البزار وابن أبي حاتم في تفسير.
ونحوه أثر ابن مسعود عند عبد الرازق وزاد: والقنوط من رحمة الله.

الخامسة: ما يضاد الرجاء :

يضاد الرجاء القنوط واليأس، ويقابل الرجاء اليأس والقنوط ، فإذا كان رجاء الله عبادة واجبة يأثم تاركها،فإن ضدها الذي هو اليأس من رحمة الله يعتبر أمراً محرماً وقد يكون كفرا عند مقارنته ترك الرجاء بالكلية، لذلك لا يجوز اليأس من رحمة الله.

السادسة: ما يقابل الخوف ويضاده :

يقابل الخوف الأمن، فإذا كان الخوف من الله عبادة واجبة يأثم تاركها، فإن ضدها الذي هو الأمن من مكر الله يعتبر أمراً محرماً، بل وقد يكون كفرا عند مقارنته ترك الخوف بالكلية، لذلك لا يجوز الأمن من مكر الله وعقابه سبحانه .

وأما الرجاء فحالة تخالط الخوف ولا تعارضه أو تناقضه .

قال المقدسي في منهاج القاصدين : (الخوف ليس ضد الرجاء بل رفيق له) .

السابعة: الغلو في الرجاء يسبب الأمن من مكر الله :

إذا غلا العبد في الرجاء مع إقامته على المعصية ويصر عليها ودون أن يعمل صالحاً ويكف عن حرام، فقد وقع في الأمن فيصير آمنا من مكر الله وعذابه .

الثامنة: الغلو في الخوف يسبب اليأس من رحمة الله :

إذا غلا العبد في الخوف ولم يرج رحمة الله ، فقد يقع في القنوط واليأس ويصير يائسا من رحمة الله قانطا من كرمه .

التاسعة: العبادة التي افتقدها القانط والآمن :

القانط ترك عبادة الرجاء : فهو لم يعبد الله بالرجاء .

والآمن ترك عبادة الخوف : فهو لم يعبد الله بالخوف منه .

العاشرة: حكم اليأس والأمن :

الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله واليأس من روحه، ينافيان التوحيد.

ويتدرج صاحبهما بين القدح في أصل التوحيد والوقوع في الكفر والشرك الأكبر، أو نقص كماله والوقوع في الشرك الأصغر والمعصية.

الآمن واليائس دائر بين الكفر والعصيان بين القدح في أصل التوحيد وكماله.

اليأس والقنوط يكون كفرا وضلالا، وهو متعلق بأمور الدين وأمور الدنيا .

ويكون باستبعاد حصول المراد كما في قصة يعقوب ونهيه عن اليأس من لقاء ابنه وإبراهيم في عدم قنوطه من الولد.

الحادية عشرة: ترك الخوف أو الرجاء مطلقاً من الكفر ومن نواقض الإسلام :

الخوف عبادة لله يجب أن تصرف له، والذي لا يوجد عنده مطلق الخوف وأصله وجنسه، أي أنه لا يخاف من الله بالكلية ولا يخشى عقابه مطلقاً، فهذا كافر والعياذ بالله، وهذا بخلاف من قصّر في الخوف من الله وأمن الله ورجاه لكمال رحمته وأفرط على نفسه حتى أَمِن من عقابه، فهو وإن كان لم يأت بالخوف الواجب فضلا عن المطلق والكامل إلا أنه يوجد عنده أصل الخوف، وهو مع هذا عاصٍ في فعله متوعد بالعقوبة، وفي الأثر (من أمنني في الدنيا خوفته في الآخرة) أخرجه أبو نعيم.

وكذا الرجاء عبادة لله يجب أن تصرف له، والذي لا يوجد عنده مطلق الرجاء وأصله وجنسه، أي أنه لا يرجو الله بالكلية ولا يرغب إليه ولا يطمع في ثوابه مطلقاً، فهذا كافر والعياذ بالله، وهذا بخلاف من قصّر في الرجاء من الله لكثرة ذنوبه، إلا أنه يوجد عنده أصل الرجاء، فهو عاصٍ في فعله متوعد بالعقوبة .

الثانية عشرة: وجوب الجمع بين الخوف والرجاء :

ينبغي للمؤمن أن يجمع بين عبادة الخوف وعبادة الرجاء ولا يغلب أحدهما .

وقد أمر الله ﷻ بالجمع بين الخوف منه ورجائه وأثنى على من جمع بينهما في مواضع من كتابه ، قال تعالى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ الإسراء: ٥٧ ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ الأنبياء: ٩٠ ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ الزمر: ٩ ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الأعراف: ٥٦ ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ السجدة: ١٦ .

قال الإمام أحمد : (ينبغي للمؤمن أن يكون خوفه ورجاؤه واحدا، فأيهما غلب هلك صاحبه) الآداب لابن مفلح .

قال ابن تيمية : (الخشية متضمنة للرجاء ، ولولا ذلك لكانت قنوطا ، كما أن الرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان أمنا) الفتاوى ٧/ ٢١.

قال الطحاوي في عقيدته : (والأمن واليأس ينقلان عن ملة الإسلام) .

الثالثة عشرة: أسباب الأمن واليأس :

١- الجهل بالله وبصفاته وأنه شديد العقاب وهو أيضا غفور رحيم .

٢- عدم القيام بالعبادة الواجبة من الخوف والرجاء ، وترك الجمع بينهما.

٣- عدم تعظيم الله وتقديره حق قدره وسوء الظن به.

٤- الإعراض عن الدين والغفلة عن حقوق الله تعالى.

٥- العجب بالنفس والغرور في الأمن ، وكثرة الذنوب في اليأس.

الرابعة عشرة: علة كون القنوط من الشرك ووجه منافاته للتوحيد :

١- أن القانط شبّه الرب الرحيم بالمخلوق الذي لا يرحم .

٢- أن القانط قدح في رحمة الله وكرمه وعفوه وطعن في قدرته .

٣- أن القانط اليائس لم يأت بعبادة الرجاء الواجبة التي قد يكفر تاركها.

٤- أن القانط أساء ظنه بربه ، وقدح في كمال صفاته.

الخامسة عشرة: علة كون الأمن من الشرك ووجه منافاته للتوحيد :

١- أن الآمن شبّه الرب الرحيم بالمخلوق الذي لا يخاف .

٢- أن الآمن قدح في عظمة الله وأساء ظنه بربه وقدح في كمال صفاته.

٣- أن الآمن لم يأت بعبادة الخوف الواجبة والتي قد يكفر تاركها.

٤- أن الآمن استخف بربه وشك في كونه شديد العقاب.

السادسة عشرة : علاقة الأمن والقنوط بالوعيدية والوعدية :

الوعيدية من خوارج وغيرهم : يغلبون الخوف وعندهم اليأس .

الوعدية من المرجئة وغيرهم : يغلبون الرجاء وعندهم الأمن .

الفصل التاسع : الأسباب

م (١) : العقيدة الصحيحة في الأسباب :

١- لا يجعل الشيء سببا إلا بعلم، ، فلا بد من أن تكون الأسباب أسبابا حقيقية شرعا أو قدرا وعادة ، كمن ظن أن النذر سبب لدفع البلاء وليس كذلك ولا يأتي بخير كما في الخبر .

٢- لا يتخذ شيئاً من الأعمال الدينية سببا، إلا أن تكون مشروعة والعبادات مبناها على التوقيف، فلا يدعو غير الله وإن ظن أنه سبب في حصول المقصود أو بعض غرضه ولا يذهب لساحر وكاهن وعراف وإن كان عندهم شيء كما يريده .

٣- اعتقاد أن السبب له تأثير حقيقي لكن لا يستقل بحصول المطلوب بل لابد معه من توفر الشروط وانتفاء الموانع .

٤- عدم الاعتماد عليه بالكلية والتوكل عليها ورجاؤها وخوفها فإن هذا من الشرك، بل يعتمد على الله ويتوكل عليه .

٥- إرجاعها إلى الله فهو الخالق لها الموجد المسبب.

٦- اعتقاد أنها بقضاء الله تعالى وقدره، وقدرته ومشيئته فالله قدرها وهي داخلة في القدر.

٧- يعمل بها ولا يهملها أو يتركها.

م (٢) : الأسباب قسمان :

١- أسباب دينية شرعية . كالاستشفاء بالرقى والقرآن .

٢- أسباب دنيوية عقلية . كالاستشفاء بالعسل والكي .

م (٣) : شروط الأخذ بالسبب والعمل به :

١- أن يكون السبب مأذونا فيه فلا يكون محرما .

٢- أن يكون سببا حقيقياً وليس وهميا .

٣- أن لا يعتمد عليه اعتمادا كليا بحيث لا يلتفت إلى مسببه ومقدره وجاعل التأثير فيه والخالق المدبر له .

م (٤) :حقيقة الشرك في الأسباب :
يكون بالاعتماد عليها والاطمئنان إليها والتوكل عليها والثقة بها ، فيرجوها العبد ويخافها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود فهو معرض عن المسبب لها، ويجعل نظره والتفاته مقصورا عليها . قاله ابن القيم في مدارج السالكين ٣/ ٤٠٠ .
م (٥) : منشأ الخلاف في الأسباب والمسببات:
هل إثبات الأسباب ينافي القدر وكونها من خلق الله كما تزعمه الجبرية، وهل إرجاعها إلى خلق الله فيه تناقض أو ظلم أو إنكار لأفعال العباد كما تزعمه القدرية .
القول الاول : مذهب الجبرية والأشاعرة : المنكرون لحقيقة الأسباب وتأثيرها ويجعلون هذا الإنكار من التوحيد، وإثبات تأثير الأسباب عندهم كفر وشرك. ويقولون:الأسباب مجرد علامات يحصل الشيء عندها لا بها وسبب قولهم هذا : أنهم ظنوا أن في إثبات الأسباب قدحاً في صفة الخلق، فلو كانت الأسباب مؤثرة في المسببات لكانت هي الموجِدة بذاتها، ولخرجت عن إيجاد الله وخلقه وإرادته، ولصار هناك موجودات لها خالق غير الله، ومن أجل ذلك أنكروا حقيقة تأثير الأسباب، وسلبوا العبد من الإرادة وأن يكون مؤثراً في أفعاله . فخالفوا بمذهبهم هذا العقل والشرع، وأنكروا ما خلقه الله من القوى والقدرة المؤثرة في الأفعال فالنار عندهم لا تحرق، بل المحرق هو الله، والإحراق وقع عند وجود النار لا بها .
القول الثاني : مذهب القدرية المعتزلة : الغلاة في إثبات الأسباب :
غلوا في إثبات تأثير الأسباب حتى جعلوها المؤثرة بذاتها من دون الله، والسبب هو المستقل في إيجاد المسبب، وبهذا القول أثبتوا مخلوقات ليست من خلق الله، فأشركوا في توحيد الربوبية فأثبتوا خالقاً غير الله، وبذلك شابهوا المجوس المثبتين خالقين لهذا العالم، ومن فروع مذهبهم أن العبد مسبب لفعله وإرادته ويخلق أفعاله من دون الله والله لا يخلق المعاصي وأفعال عباده حتى لا يكون ظالما لهم.
والمعتزلة بهذا القول شابهوا الفلاسفة الغلاة في إثبات الأسباب، حين قالوا السبب موجد المسبب، والله علة المعلول وسبب المسببات، فانبنى على قولهم إنكار الصفات والقدر وإنكار المعاد والقول بقدم العالم، فكفروا بإجماع المسلمين . ومثلهم القائلين الطبيعة أوجدت نفسها بطريقة الأسباب .
القول الثالث : مذهب أهل السنة :

يثبتون الأسباب وحقيقتها، وأن لها تأثيراً في المسبب ولها وجود وقوة، ولكن كل هذه ليست بذاتها ولكن بما أودعه الله فيها، فالله تعالى خالق السبب والمسبب .

قال ابن القيم: (ليس إسقاط الأسباب من التوحيد ، والقول بإسقاطها هو توحيد الجبرية ... والالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، والإعراض عنها قدح في الشرع ... **فالشرك أن يعتمد عليها ويطمئن إليها ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود فهو معرض عن المسبب لها.)** بتصرف مدارج السالكين ٣/ ٤٩٥ .

قاعدة : شرك الأسباب وإسناد الحوادث لغير الله .

باب يدخل فيه معظم صور الشرك الأصغر.

إما بجعل ما ليس بسبب سببا ، أو بالغلو في السبب والاعتماد عليه .

ومن الأبواب المتعلقة بالأسباب :

التمائم ، الرقى ، التبرك ، التطير ، الاستسقاء بالأنواء.

الفصل العاشر: التمـائم

المسألة الأولى: تعريفها :
هي ما يعلقه الشخص على نفسه وما يُعلق على الصبيان والدواب ويوضـع في البيوت ونحو ذلك .
ويقصد من يضع التميمة:أنها ترد العين والمكروهات وكيد الشياطين وأذيتهم أو رفع البلاء بعد حصوله أو دفعه ومنعه قبل نزوله أو لجلب الخير والسعادة.
سميت تمائم : لأن العرب كانوا يعتقدون فيها تمام الدواء والشفاء .
م (٢): أقسام المعلقات :
١- رقى وتعاويذ وآيات من القرآن، وتسمى غالبا: الحجب والتحصين.
٢- الخيوط والخرز والقلائد والشعر والريش والجلود والوتر والـسن والحبـة السوداء وقرن الدابة والنحاس. ومن هذا النوع :
الدبلة: مقصود لابسها تحبيب الزوجين لبعض وهذا شرك وتشبه بالكفار.
الحلقة من صفر: سوارة من نحاس تلبس على اليد، ومثلها سوارة الروماتيزم.
م (٣) : مواضع تعليقها :
تعلـق في الجـسد عـلى الرقبـة أو اليـد أو الوسـط أوتوضـع في الحـزام ودكـة السراويل والأكمام. كما تعلق على رقاب الدواب ، وفي السيارات والبيوت .
م (٤) : أسماؤها :
التميمة والعزيمة والتولة والودعة والحرز والحجب والجامع .
التولة: شيء يصنعونه قيل من السحر يزعمون أنه يحبب المرأة لزوجها.
م (٥) : أدلة تحريم تعليق التمائم ولبس الحلقة والخيط :
١- قال الرسول ﷺ : (من تعلق تميمة فقد أشرك) رواه أحمد . والحـديث ورد في رجل أمسك النبي ﷺ عن مبايعته لأن عليه تميمة فلم يبايعه إلا بعد أن قطعها.
٢- قال: الرسول ﷺ: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) رواه أحمد وأبو داود.
٣- عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه مرفوعاً: (من تعلق تميمـة فـلا أتـم الله لـه، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له) رواه أحمد.
معنى فلا أتم الله له ولا ودع الله له :

هذا دعاء عليه بأن لا تتم أموره وأن لا يكون في دعة وسكون ولا خفف الله عنه ما يخافه . كما أنه يحتمل الإخبار بأن أموره لن تتم ولن يزول خوفه .

٤- عن عمران بن حصين ﷺ أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر فقال: (ما هذه)؟ قال: من الواهنة فقال ﷺ : (أما إنها لا تزيدك إلا وهناً، انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً) وفي رواية :(وكلت إليها) رواه أحمد والنسائي والحاكم.

ومعنى لا تزيدك إلا وهنا :

إما أن يكون لها تأثير في الوهن حقيقة، وهذا من باب العقوبة كما أن بعض الأمراض عقوبة لبعض المعاصي .

أو أن يكون المعنى بالوهن الكفر والشرك والضلال والبعد عن الله، فالمعنى لا تزيد التمائم صاحبها إلا شركا ،وهذا مثل فزادوهم رهقا .

أو أن معناه : زيادة الشكوك والأوهام والقلق والخوف وضعف القلب.

٥- عن أبي بشير ﷺ أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت. متفق عليه .

٦- عن عبد الله بن عكيم مرفوعا:(من تعلق شيئا وُكل إليه) أحمد والترمذي.

٧- عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ : (يا رويفع! لعل الحياة تطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمداً بريء منه). رواه أبو داود والنسائي أحمد.

٨- عن حذيفة ﷺ أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف:١٠٦ ، رواه ابن أبي حاتم .

وقال سعيد بن جبير: (من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة) رواه وكيع.

٩- قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ الزمر: ٣٨.

وهذا دليل على أن التمائم لا تدفع ضراً ولا تكشفه بعد نزوله ولا تجلب نفعاً.

واستدل العلماء بالآية على إبطال التمائم ، والسلف كانوا يستدلون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على الأصغر كما فعل حذيفة ﷺ في الدليل السابق .

م (٦) : حقيقة وأنواع تعليق التمائم ونزعها :

يكون التعليق بالجوارح، وذلك في ذات التعليق .

وتكون بالقلب، وذلك باعتقاد نفعها فيتعلق الشخص بها.
كما أن نزعها ونبذها وقطعها يكون : باليد وباللسان بإنكارها ، وبالقلب وذلك بأن ينزعها وينبذها من قلبه ويقطع عقيدته فيها .

م (٧) : وجه دخول التمائم في الشرك وعلة تحريمها :

١- أن فيها تعلقاً بغير الله تعالى، وقيامها على الاعتماد على المخلوق.
٢- منافاتها التوكل على الله. ﴿ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الزمر: ٣٨.
٣- أن فيها نسبة التأثير لمخلوقات وجمادات لا أثر لها .
٤- جعل ما ليس بسبب سببا.
٥- فيها اعتقاد النفع ودفع الضر في غير الله .

م (٨) : متى تكون التمائم شركاً أكبر : تكون شركاً أكبر في حالتين :

الأولى : إن كان في التميمة شرك أكبر كدعاء غير الله أو كانت صليبا .
الثانية : إن اعتقد أنها تؤثر بذاتها وتستقل بالنفع ودفع البلاء من دون الله، فهذا شرك أكبر وهو متعلق بالربوبية .
أما إن اعتقد أنها سبب للسلامة من العين والجن فهذا من الشرك الأصغر شرك الأسباب .

م (٩) : التمائم والرقى على قسمين :

١- منها ما هو شرك أصغر : وهو الأكثر ، إذا علقها ، واعتقد أن النفع والضر بيد الله عز وجل ، وأن هذه مجرد أسباب نافعة وهذا شرك أصغر .
٢- منها ما هو شرك أكبر : إذا جعل هذه التمائم والرقى تؤثر بذاتها ، وأنها هي المؤثرة بذاتها، فهذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل .
ومثلها مثل التطير والتشاؤم .

م (١٠) : نوعية الشرك في التمائم :

١- الشرك في لبس التمائم متعلق بالقلب والجوارح .
فالقلب من حيث الاعتقاد، والجوارح من حيث اللبس .
٢- متعلق بالشرك في الألوهية والربوبية وسيأتي.

م (١١) : حكم تعليق التمائم من القرآن :
إذا كانت التمائم المعلقة من القرآن، فرخص فيها بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيها، ويجعلها من المنهي عنه، منهم ابن مسعود ﷺ.
قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن رواه وكيع وابن أبي شيبة.
ومما يدل على تحريم تعليق التمائم من القران :
١- عموم النهي الوارد في التمائم .
٢- أن نفع القرآن في تلاوته والعمل به، لا في تعليقه على الحيطان والرقاب.
٣- أن تعليق شيء من القرآن والمصحف لو كان مشروعا لبينه الرسول ﷺ لأمته ولفعله الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، كيف وقد نهوا عنه .
٤- أن في تعليق هذا النوع ذريعة لتعليق غيره من التمائم الشركية .
٥- أن تعليق القرآن يفضي إلى امتهانه .
٦- أن في التعليق إعراضاً عن العمل المشروع من قراءة المعوذات ونحوها.
تنبيه : تعليق أكثر الناس لآيات من القرآن إما أن يكون للزينة أو طلبا للبركة وكلاهما محرم وامتهان لكتاب الله.
م (١٢) : علاقة التمائم بالأسباب :
التمائم ليست من الأسباب المشروعة، ولا فائدة فيها أصلا من حيث العقل والعادة، فإثباتها من باب الشرك في الأسباب فضلا عن الشرك فيها المتعلق بالربوبية.
ثم لو فرضنا وجود نفع فيها فإنها غير شرعية مثل الفائدة التي في الخمر .
م (١٣) : القلائد على الدواب والميداليات والمسابح في السيارات:
إن كانت لرد العين كان تعليقها من الشرك .
وإن كانت للعلامة أو الزينة ونحوها فليس هذا من الشرك، إلا أن الأولى تركها سدا للذريعة ومنعا للتشبه.
م (١٤) : وضع القلائد والتمائم لصرف العين إليها وللفت الانتباه :
البعض يضع قلادة جميلة على الدابة لتلهي الناظر عن الدابة ولكي ينشغل بها عن الدابة وتنصرف العين لها لكي تسلم له دابته، كذلك البعض يعلق قلائد أو ريش نعام على السيارات الكبار حتى تنصرف عين الناظر إلى الريش لا إلى السيارة، والمعلق لا يقصد دفع العين وإنما ليصرف الانتباه إليها ولا يعتقد أنها تدفع الضر،

وهذا مثل من يحلق رأس الصبي ولا يجمله بل ويتعمد إبقاء القذر عليه تحاشيا عليه من العين .

ومن كانت هذه نيته ففعله ليس بشرك ولكن فيه طعن في التوكل وابتداع في العمل وينبغي له ترك ذلك سدا لذريعة التمائم ومنعا من باب التشبه بالمشركين .

م (١٥) : عقد اللحية وتقليدها لأربعة مقاصد :

الكبر ، التشبه بالكفار رد العين العبث وكلها محرمة لورود النهي في ذلك.

م (١٦) : شبهات في الباب:

١- حديث : (احرثوا فإن الحرث مبارك وأكثروا فيه من الجماجم) :

رواه أبوداود في المراسيل . والجواب عنه :

١- أن الحديث ضعيف لايحتج به ولم يرو للاحتجاج وإنما لبيان العلة.

٢- التمائم لايمكن أن يأمر بها الشرع لأنها مصادمة للتوحيد بل إنه نهى عنها.

٣- أن معنى الجماجم البذر، وقيل خشبة الحرث كالتماثيل يضعها المزارعون لدفع الطير، وليست لدفع العين.

٢- قوله عثمان في الصبي (دسموا نونته).

ليس ما فعله من التعليق المحرم ، لأن حقيقته إزالة ما في الصبي من جمال الذي تقع العين عليه.

م (١٧): القاعدة : في باب التمائم والتبرك والرقى والتشاؤم :

أولاً : هذه الأفعال من قبيل شرك الأسباب .

ثانياً : دخول هذه الأفعال في شركي الألوهية والربوبية :

١- وجه كونها شركا في الألوهية : أنها منافية للتوكل وفيها تعلق بغير الله ولجوء وقصد وتوجه وإرادة للمخلوق وتوكل عليه.

٢- وجه دخولها في شرك الربوبية :

أن فيها اعتقاد التأثير وأنها تنفع وتضر ولها تصرف وتدبير في الكون .

ثالثاً : هذه الأفعال تكون من الشرك الأكبر ومن الشرك الأصغر .

رابعاً : هذه الأفعال تكون بالقلب واللسان والجوارح .

الفصل الحادي عشر: الرقى الشركية

المسألة الأولى: تعريف الرقية :

الرقية هي العوذة ، والعوذ هو الالتجاء والاعتصام والتحصين .

وسميت بذلك لأنه يعتصم بها . كما تسمى عزائم .

وهي الدعاء بطلب الشفاء، أو الذكر الذي يحصن صاحبه ويقيه مما يهمه .

قال ابن تيمية : الرقى بمعنى التعويذ، والاسترقاء طلب الرقية، وهي من أنواع الدعاء.

م (٢) : وجود الرقية قبل الإسلام :

كانت الرقية معروفة قبل الإسلام يدل ذلك قوله تعالى:﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ القيامة: ٢٧، كذلك قصة ضماد بن ثعلبة الأزدي ﷺ في صحيح مسلم ، وكان راقيا، وأراد أن يرقي الرسول ﷺ لما سمع سفهاء مكة يقولون إنه مجنون.

قال ﷺ :(اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك) مسلم.

م (٣) : الرقية من أبواب الرخص وليست عزيمة :

الأصل ترك الرقية لأن لها علاقة بالشرك إلا أن الرسول ﷺ رخص للناس فيها بشروط يدل لهذا قول أنس ﷺ : (رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحُمَة والنملة) رواه مسلم. والحمة السم، والنملة قروح تخرج بالجنب .

وعن جابر ﷺ قال : نهى رسول الله ﷺ عن الرقى فجاء آل عمرو بن حزم إلى الرسول ﷺ فقالوا يارسول الله إنه كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب وإنك نهيت عن الرقى . قال فعرضوها عليه .

فقال:(ما أرى بها بأسا من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه). رواه مسلم.

قال القرطبي في المفهم في شرح صحيح مسلم : (دلت الأحاديث على أن الأصل في الرقى كان ممنوعا كما هو واضح من قوله نهى رسول الله ﷺ عن الرقى، والنهي عن الرقى كان مطلقا لأنهم كانوا يرقون في الجاهلية برقى هي شرك وبما لا يفهم ويعتقدون أنها تؤثر بذاتها ثم إنهم لما أسلموا وزال ذلك عنهم نهاهم النبي ﷺ عن ذلك عموما ليكون أبلغ في المنع وأسد للذريعة، ثم إنهم لما سألوه وأخبروه أنهم ينتفعون بذلك رخص لهم في بعض ذلك وقال : اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك).

م (٤) : دخول الرقية في الشرك وعلاقتها بأبواب التوحيد:
يدل لذلك قوله ﷺ: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) رواه أحمد وأبو داود.
م (٥) : أوجه دخول الرقية في الشرك :
١- لما في الرقى من التعلق بغير الله والاعتماد والتوكل عليه.
٢- فيها اعتقاد النفع والضر والتأثير بذاتها .
٣- ربما كان فيها استعاذة بالمخلوق من جن وغيرهم .
٤- ربما كان فيها ادّعاء علم الغيب .
م (٦) : أقسام الرقية :
١- رقية مشروعة جائزة .
٢- رقية ممنوعة : ولها أنواع:
منها المحرمة والبدعية، ومنها الشركية الكفرية .
م (٧) : شروط جواز الرقى :
١- أن تكون باللغة العربية ومن الكتاب أو السنة.
٢- أن تخلو من الشرك والذهاب للسحرة والكهان .
٣- أن لا يعتقد أنها تؤثر بذاتها وأنها تستقل بالنفع والضر أو أن النفع من الراقي .
م (٨) : الرقى توقيفية :
فلا يستحدث شيء فيها بل يرقى بما ورد في الكتاب والسنة.
تنبيه: الحديث الوارد عند الطبراني في رقية الحمة وهي: شجة قرينة ملحة بحر قفطا ، وقوله ﷺ فيها:(لا بأس بها هي مواثيق أخذها سليمان بن داود على الهوام) وفي رواية مواثيق الجن . فهو ضعيف ولا يصح الاحتجاج به.
من الرقى البدعية : ما يسميه بعض العامة رقية ذات السموم والحية، وهو مشتمل على استغاثات شركية .
م (٩) : طرق الرقية الواردة في السنة:
١- النفث مع القراءة وقبلها وبعدها، وتصح الرقية بلا نفث والنفث أفضل.
٢- خلط الريق مع التراب، فينفث في الأصبع ثم يوضع بالتراب ويمسح به المريض.
٣- وضع اليد على موضع الوجع أو يمسح بعد القراءة مع النفث .

٤- أن يقرأ في الماء أو الزيت أو ماء فيه سدر وينفث فيه فيشربه المريض ويتمسح به ويغتسل به .

٥- اغتسال المعيون من غسل العائن . وقول : . وقول : بارك الله ، أو ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

٦- كتابة آيات في ورق ووضعها في الماء وشربها، وثبت ذلك عن ابن عباس، رواه عنه ابن أبي شيبة . وأجازه الإمام أحمد وابن تيمية .

م (١٠) : ما تستعمل له الرقية :

الأمراض العضوية الحسية واللدغ والعين والسحر والصرع والمس .

وتكون قبل الداء تحصنا منه أو وقاية من العين، وتكون بعده.

وأما ما ورد من تخصيصها بالعين كحديث : (لا رقية إلا من عين أوحُـمَة)، رواه البخاري ، فإن معناه: لا رقية أولى وأنفع .

م (١١) : أجاز البعض رقية أهل الكتاب أما الكهان فلا تجوز رقيتهم مطلقا .

م (١٢) : ترك الاسترقاء من كمال التوحيد :

يدل لذلك حديث السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب وفي وصفهم أنهم لا يسترقون أي لا يطلبون من أحد أن يرقيهم توكلا على الله، أما الرقية فليست كذلك .

وهناك فرق بين الرقية وبين الاسترقاء الذي هو طلبها والتعلق بالراقي.

م (١٣) : حكم التداوي :

الأصل فيه الإباحة، ويدل لذلك قوله ﷺ : (يا عباد الله تداووا ولا تتداووا بحرام) رواه أحمد.

إلا أن ترك طلب الدواء والسعي في التداوي أكمل .

يدل لذلك قوله ﷺ في وصف السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة من غير حساب : (ولا يسترقون) والتداوي يقاس على الاسترقاء .

كذلك قصة المرأة التي كانت تصرع وتتكشف على عهد رسول الله ﷺ فاشتكت له ﷺ وطلبت أن يدعو لها بالشفاء، فقال لها :(إن شئت دعوت لك وإن شئتِ صبرتِ ولك الجنة) ، فقالت أصبر رواه البخاري.

فائدة : لا يدخل في ترك التداوي : الجراحات وانتقاش الشوك وتجبير الكسور وما في نحوه .

والضابط فيما يترك فيه التداوي : هو في الأمراض الباطنة التي تخفى علتها وعلاجها ، وذلك لاحتمال وجود التعلق بالسبب فيها .

م (١٤) : أدلة دخول الجني في بدن الإنسان وتلبسه به وصرعه له :

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ البقرة: ٢٧٥.

وجاءت امرأة للنبي ﷺ ومعها صبي به لمم ، فقال النبي ﷺ : (اخرج عدو الله أنا رسول الله) فبرىء الصبي . رواه أحمد .

م (١٥) : علاقة الرقى بالتمائم :

كل منهما يقصد منه رد الشر من عين وغيرها. الرقية قد تعلق فتصير تميمة .

م (١٦) : وصية: مما يجدر الاعتناء به لمن سلك طريق الرقية احتساب الأجر في نفع الناس وتعليقهم بالله تعالى . وأن يتعلم الراقي ما يتعلق بأحكام الرقية وآدابها وطرقها ووسائل السحر والحسد والعين والتشاؤم والأمراض النفسية والعضوية .

وأن لا ينقطع للرقية إذ ليس ذلك من هدي السلف .

الفصل الثاني عشر: التبرّك

المسألة الأولى : تعريفه :

أصله من الفعل برك الدال على الثبوت والبقاء، ومنه بروك الجمال وبركة الماء، كما يدل على النماء والزيادة والعلو، وعلى السعادة وعلى اليمن ضد الشؤم .

وتبارك الله : تقدس وتعالى وتعاظم وكثر خيره .

وهذه اللفظة لا تطلق إلا لله تعالى.

والتبريك الدعاء بالبركة . والتبرك طلب البركة .

وللتبرك أصل في الشرع ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران: ٩٦ ﴿ مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾ المؤمنون: ٢٩ ﴿ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ ق: ٩ ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا ﴾ مريم: ٣١ ﴿ بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الأعراف: ٩٦ ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ الإسراء: ١ .ومنه (اللهم بارك على محمد وآل محمد).

م (٢) : عقيدة أهل السنة في التبرك :

نعتقد أن البركة من الله تعالى، وقد جعلها سبحانه في بعض مخلوقاته، فلا تطلب البركة إلا منه أو مما جعله الله سببا لنيل البركة، ولا نثبت البركة في شيء إلا بدليل من الشرع.

م (٣) : أقسام التبرك : تبرك مشروع . تبرك ممنوع .

م (٤) : مقاصد التبرك:

الأولى : أن يقصد نفع نفسه وحصول البركة فيه.

الثانية : أن يقصد التقرب إلى الله بذلك، لظنهم أنه يحبه.

م (٥) : أنواع وصور الأمور المباركة :

١- القرآن كلام الله تعالى جعله الله مباركا : وتبركنا به يكون عن طريق قراءته والعمل به والرقية والاستشفاء به، أما تقبيله والتمسح به فبدعة .

٢- الرسل وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ :

وكيفية تبركنا به يكون بمحبته والإيمان به وإتباعه وطاعته وطلب الدعاء منه وقت حياته لا بعد موته فذلك شرك أكبر والعياذ بالله .

كما أنه يتبرك بجسده وريقه وشعره وعرقه في حياته وبعد موته حين كانت آثاره باقية قبل فنائها وفقدانها .

تنبيه: من ادّعى بقاء شيء من آثار النبي ﷺ في زمننا، فهو كاذب ويجب تعزيره.

٣- الصالحون : بمحبتهم وموالاتهم ودعائهم للناس وانتفاع الناس بعلمهم وانتفاع آبائهم بهم بعد موتهم .أما التبرك بآثارهم وأجسادهم فأمر مبتدع ولا يجوز .

٤- الكعبة : جعلها الله مباركة فتحصل البركة باتخاذها قبلة للصلاة والدعاء عندها والطواف بها لله وتعظيمها وتنظيفها وتقبيل الحجر الأسود واستلام ركنها اليماني طاعة لله وليس لا أن اليد تنال البركة بهذه المماسة .

وليس من التبرك بها التمسح بحيطانها وتقبيلها كما يفعله بعض الجهلة والمبتدعة أو اعتقاد أن الصلاة والطواف يكون لها وأنها تنفع بمجرد تقبيلها ولمسها .

تنبيه : قال عمر ﷺ : (والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك) متفق عليه ، فالحجر الأسود تقبيله عبادة لا أن في ذاته بركة والبركة في العبادة المتعلقة بمسحه لا بالمسح نفسه .

٥- المساجد الثلاثة وغيرها : من مواطن البركة وفيها تنزل البركات، وذلك بسبب الصلاة وذكر الله فيها والاعتكاف بها واجتماع المسلمين بها والسعي في بنائها وعمارتها. وليس معنى التبرك بها التمسح بها وتقبيلها وأخذ ترابها وفرشها طلبا للبركة فإن هذا من صنيع الجهال بالدين والمبتدعة الضالين .

٦- بعض الأمكنة كعرفة ومنى والحرم والمدينة، جعل الله هذه البقاع مباركة فيستحب الدعاء فيها، ومن البركة فيها تأمين ساكنها والبركة في ثمارها وصاع المدينة ومطعومها وتمرها ، وليست البركة في التمسح بهذه المواضع أو أخذ شيء من ترابها .

كذلك دعاؤه ﷺ بالبركة للمسلمين في الشام واليمن .

٧- شهر رمضان : جعله الله مباركا وذلك لما فيه من الصيام والقيام وتكاثر العبادات ومضاعفة الحسنات .

٨- بعض الأزمان جعل الله فيه بركة : من ذلك ليلة القدر وعشر ذي الحجة ووقت السحر والفجر للعبادة والبكور في الأعمال كما روى صخر بن وداعة الغامدي ﷺ قال: قال النبي ﷺ : (بورك لأمتي في بكورها) رواه الترمذي .

٩- التبرك بماء زمزم بشربه والتشافي به .

١٠- التبرك بماء المطر في الشرب منه والسقي منه .

١١- التبرك بوجبة السحور للصائم .

١٢- البركة ببعض الأطعمة كالعسل واللبن والتمر والزيتون .

١٣- البركة في الغنم والخيل .

١٤- التبارك بذكر الله وعبادته وطاعته .

م (٦) : التبرك الممنوع :

١- التبرك بالآثار النبوية، فلا يشرع التبرك بقبر الرسول ﷺ ولا التمسح بترابه لو أمكن ذلك ولا بموضع مولده إن صح تعيينه ولا بغار حراء ولا بالقبور ولا بالأماكن التي مر ﷺ بها أو صلى فيها غير ما دلت السنة عليه كمسجد قباء.

٢- التبرك بآثار الصالحين .

٣- التبرك بالقبور .

٤- التمسح بجدران الكعبة وفرش المسجد الحرام وتراب الحرم .

٥- التبرك بشجر أو حجر ونحوها .

م (٧) : أقسام الأشياء المباركة :

منها المباركة حسيا ومنها المباركة معنويا .

منها المباركة دنيويا ومنها المباركة دينيا وأخرويا .

م (٨) : وجود بركة في الشيء لا يقتضي التبرك به وطلب البركة منه .

التبرك بما فيه بركة منضبط بالشرع وفعل السلف في القرون المفضلة، لا بما يزعمه الجهلة ويفعله أهل التصوف والخرافة من فتح باب البدعة على مصراعيه، فطالما تمرغوا بالمخلفات وعفروا أنوفهم بالأتربة وتقلبوا على الأضرحة كل ذلك طلبا منهم للبركة.

م (٩) : علاقة التبرك بالشرك وأيهما الأصل المؤثر في إيجاد صاحبه :

التبرك قد يكون سببه وجود الشرك أصلا .والعكس فقد يكون الشرك إنما حصل من المشرك قاصدا نيل البركة ، فيكون وجود الشرك سببه طلب التبرك .

م (١٠) : علاقة التبرك الممنوع بالشرك ووجه مخالفته للتوحيد :

١- فيه تعلق بغير الله ﷻ واعتماد عليه وتوكل عليه . وهذا شرك في الألوهية.

٢- أن فيه اعتقاد النفع والضر بالمخلوق . وهذا شرك في الربوبية .

٣- نسبة السببية لما ليس بسبب .

م (١١) : حالات كون التبرك شركا أكبر :

الحالة الأولى : إن اعتقد أن في المخلوق البركة استقلالا وأن النفع وكشف الضر يحصل من المتبارك به من دون الله.

الثانية: إن طلب البركة بطريق شركي كدعاء الأموات والطواف بالقبور .

م (١٢) : أسباب التبرك الممنوع :

١- الجهل بالدين، والتقليد. كما في حديث : (ونحن حدثاء عهد بكفر) .

٢- الغلو في الصالحين وقد قال الرسول ﷺ : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) متفق عليه.

٣- تعظيم الآثار ورعايتها . كما عظمت ذات أنواط .

٤- التشبه بالكفار . كما قالوا: ﴿ اَجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ الأعراف: ١٣٨ .

م (١٣) : آثار التبرك الممنوع :

١- أنه من أعظم الوسائل المؤدية للشرك والطرق المفضية إليه .

٢- الوقوع في الشرك وعبادة غير الله تعالى .

٣- إضاعة السنن والإعراض عنها ومزاحمة سنة الرسول ﷺ .

٤- فعل المنكرات واقتراف المعاصي في كل مكان يحصل التبرك عنده .

م (١٤) : أدلة التبرك المنوع :

قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ النجم: ١٩. يستدل بعض العلماء بالآيات على التبرك لأن اللات وغيرها ما عبدت إلا طلبا للبركة وقد أكذب الله ظنهم ورد زعمهم ، وأن هذا سببه الجهل والظن الكاذب والهوى .

فائدة : حقيقة اللات : قيل سميت اللاتّ بالتشديد من لت السويق، وكان رجلاً صالحاً يطعم الناس وقيل من الإله كما أن العزى من العزيز. قال ابن عباس: اللات كان رجلا يلت السويق فلما مات عكفوا على قبره. رواه البخاري .

ذكر الفاكهي عن ابن عباس: أن اللات لما مات قال عمرو بن لحي: إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدوها وبنو عليها بيتا وصنما ، وعبدت الصخرة التي على قبره وعظمت تبعا لا قصدا فالعبادة أرادوا بها صاحب القبر الصالح، والصنم رمزه. فتأمل فعلهم وقارنه مع فعل مشركي زماننا من بناء القباب على قبور الصالحين.

عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: (الله أكبر! إنها السنن، قلتم ـ والذي نفسي بيده ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اَجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ الأعراف: ١٣٨ (لتركبن سنن من كان قبلكم). رواه الترمذي .

ومعنى اجعل لنا ذات أنواط : أي شجرة نوط ونعلق عليها أسلحتنا، لتتبارك الأسلحة، ونعكف حولها، وظنوا أن هذا أمر محبوب لله فقصدوا التقرب إليه بذلك .

م (١٥) : أقوال أهل العلم في التبرك :

قال الشيخ سليمان في التيسير شرح كتاب التوحيد: فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم والطواف بقبورهم وتقبيلها وتقبيل اعتابها وجدرانها والتمسح بها والعكوف عندها وجعل السدنة والحجاب لها ؟

قال الإمام الطرطوشي المالكي في كتاب البدع: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها .

قال أبو شامة الشافعي في البدع والحوادث : ومما عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاكي أنه رأى مناما بها أحدا ممن شهر بالصلاح والولاية ويحافظون على ذلك مع تضييعهم الفرائض .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان : (فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت، ويقولون هذا الحجر وهذه الشجرة تقبل النذر أي تقبل العبادة من دون الله فإن النذر عبادة) .

م (١٦) : شبهة التبرك بآثار الصالحين :

استحب بعض المتأخرين التبرك بآثار الصالحين كالريق والعرق والشعر وسؤرهم ولباسهم ونحو ذلك، ويقيسون الصالحين بالنبي ﷺ في مشروعية التبرك بآثاره، وهذا باطل ونرد عليهم بما يلي :

١- أنه لا توجد مساواة ولا تماثل بين النبي ﷺ وغيره في الفضل والبركة، بل لا توجد أصلا حتى المقاربة في ذلك .

٢- أن معرفة الصلاح أمر لا يمكن القطع به لأن الصلاح لا يتحقق إلا بصلاح القلب وهذا أمر لا نطلع عليه وإن كان لنا الظاهر والظن الحسن.

٣- أن الصالح لا تؤمن له الخاتمة السيئة فلا يكون أهلا للتبرك بآثاره .

٤- أن فعل التبرك بغير النبي ﷺ لايؤمن أن يفتن ويعجب بنفسه .

٥- أن التبرك بغير النبي ﷺ لم يفعله أحد من الصحابة ولا التابعين فهل تبركوا بالصديق وعمر وعثمان وعلي وغيرهم وهل وقع في القرون المفضلة من تبرك بأئمة التابعين كابن المسيب والحسن وغيرهم ، وهذا الجواب هو العمدة في الباب.

فائدة : التبرك ضد التشاؤم.

تنبيه : التبرك عبادة لأن الإنسان لا يفعله إلا لأجل الحصول على الأجر والخير من الله، ولوجود التعلق فيه والرجاء ، وهذه من العبادة.

الفصل الثالث عشر : التطير والتشاؤم

م (١) : تعريفه :

الشُّؤْم بضم الشين وسكون الواو، ويصح في الواو الهمز والتسهيل بدون همزة فتصير الشوْم . والمشأمة الميسرة، والشام بلاد الشمال في مقابل اليمن وجهة الجنوب .

والشوم: هو الشر ضد اليُمن والبركة والخير .

التشاؤم: توقع حصول ما يكره ويخاف عاقبته، عند رؤية أو سماع أمر معين .

أو هو التشاؤم بالمكروه (وما يكرهه الإنسان) من مسموع أو مرئي أو معلوم أو زمان أو مكان .

التَطّيْر : هو التشاؤم بالطير . وحقيقته محاولة معرفة الخير أو الشر المتوقع حصوله في المستقبل بدلالة الطير. وأصل التسمية: مأخوذة من الطير،لأن مشركي الجاهلية كانوا يستعملون الطيور في هذا الباب.

م (٢) : كيفيته: أن المشركين إذا أرادوا فعل أمر كالسفر والحرب والزواج أو غير ذلك، يقومون بتنفير الطير وزجره ليطير، فإذا طار جهة اليمين فرحوا وتفاءلوا وأقدموا على الفعل الذي كانوا يريدونه ، وإذا طار الطير جهة اليسار تشاءموا وأحجموا عن العمل وردهم ذلك عما يريدون .وقد يكون التطير من غير زجر للطير وإنما ترقب له فإذا جاء الطائر من جهة يمين الشخص متجها لليسار تشاءم وسموا الطائر البارح، وإذا طار جهة يمين الإنسان وكانت يمين الطائر جهتنا تفاءل وسموه السانح، والذي يأتي من الخلف للأمام يسمونه القعيد والذي يأتي من الأمام يسمى النطيح، وسمي السانح لأن الفرصة سانحة لصيده أو الأمر سانح في فعله.

م (٣) : الفرق بين الطيرة والتطير :
التطير هو الظن السيئ الذي في القلب .
والطيرة هي الفعل المترتب على الظن السيئ . قاله العز بن عبدالسلام .
م (٤) : أسماء التشاؤم : التطير العيافة الزجر.
والعيافة : من التعيف وهو الكره ومنه عاف الطعام.
هي زجر الطير فتأتي بمعنى التطير.
وتطلق على الحدس والظن والتوقع . والاستدلال على حصول الحوادث بما يشابهها من حوادث مضت والربط فيها بالمناسبة اللطيفة والخفية .
وتطلق على معرفة الأثر والنسب .مثل القيافة .
م (٥) : هي من علوم العرب المشهورة :
وقد عرفت بالعيافة قبيلة أسد ولِـهْب الأزدية . وقد قيل فيهم :

تيممت لِـهْبا أبتغي العلم عندهم   وقد رد علم العائفين إلى لهب
فما أعيف اللِهْبي لا رد دره   وأزجره للطير لا عز نصره

فائدة : وجود التطير في الأمم السابقة : في ثمود وفي قوم فرعون وغيرهم .
م (٦) : الفرق بين الفراسة والتطير :
الفراسة أمر يقذفه الله في قلب عبده يبصر به ويتوقعه فيكون حقا أو الاستدلال ببعض المقدمات والقياس عليها من باب الاستنباط والحدس .
أما التطير فهو اعتقاد في القلب متعلق بأمور ليست لها صلة به ومن ثم نسبة ذلك الحادث من خير وشر إليه .
م (٧) : أدلتها :
١- قال تعالى:﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ ﴾ يس: ١٨-١٩.
٢- قال:﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴾ النمل: ٤٧.
٣- قال تعالى:﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ الأعراف: ١٣١.
٤- قال تعالى:﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٧٨ .

٥- عن أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال: (لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر) أخرجاه. زاد مسلم: (ولا نوء، ولا غول).

٦- وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل) قالوا: وما الفأل؟ قال: (الكلمة الطيبة) متفق عليه.

٧- عن عروة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: (أحسنها الفأل، ولا ترد مسلما، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك) رواه أبو داود.

٨- وعن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل) ، رواه أبو داود، والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود. وفي رواية :(من الشرك).

٩- عن عبد الله بن عمرو بن العاص: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك. قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك) رواه أحمد .

١٠- عن أم كرز قالت سمعت النبي ﷺ يقول: (أقروا الطير على مكناتها). رواه أبو داود . أي: لا تزجروها واتركوها في محلها، فإنها لا تضر ولا تنفع .

١١- عن أنس ﷺ مرفوعا :(لا طيرة والطيرة على من تطير) رواه ابن حبان.

١٢- وعن الفضل بن عباس رضي الله عنهما قال يارسول الله تطيرت، قال ﷺ: (إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك) رواه أحمد.

١٣- عن معاوية بن الحكم السلمي حين سأل الرسول ﷺ عن رجال يتطيرون فقال له : (ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم) رواه مسلم .

١٤- قال ﷺ : (العيافة والطيرة والطرق من الجبت) رواه أحمد وأبو داود .

١٥- حديث فضالة:(من ردته طيرته عن شيء فقد قارف الإشراك) السنة.

١٦- وجاء في وصف السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة من غير حساب : (ولا يتطيرون) متفق عليه.

١٧- عن عمران بن حصين ﷺ مرفوعا : (ليس منا من تطير أو تطير له) رواه الطبراني والبزار .

١٨- قال عكرمة : كنا جلوسا عند ابن عباس رضي الله عنهما فمر طائر يصيح فقال رجل خير خير، فقال ابن عباس: لا خير ولا شر .

١٩- قال طاووس لرجل قال مثل ذلك: وأي خير عند هذا .

م (٨) : ما يكون عليه التشاؤم :

١- التشاؤم ببعض الناس فيقولون فلان رجل شؤم .
٢- الحيوانات كالغراب والبومة والقرد والحرباء، ويسميها العوام مكروهة.
٣- النباتات .
٤- العلل والأمراض، كالتشاؤم من الرجل الأعور وذميم الخلقة.
٥- البلدان والبقاع والأراضي فيقال هذا مكان شر ومصائب .
٦- الأيام والشهور ، كالأربعاء وشوال وصفر.
٧- الحركات والهيئات والتصرفات والحوادث والكلمات والأخبار .

م (٩) : طرق التطير في الجاهلية :

١- زجر الطير .
٢- قراءة الكف .
٣- التشاؤم بالأبراج والنجم ونسبة النحس والسعد إليها أو اعتقاده فيها.

م (١٠) : ضابط الطيرة والتشاؤم المحرم الشركي :

ما ترتب عليها عمل وأثر كأن ترد صاحبها أو تمضيه، وأن يعمل المتشائم بمقتضى ما توهمه ، وقد جاء الحديث بضابط الطيرة وهي: ما أمضاك أو ردك .

ويصير العامل بالطيرة بين الشرك الأكبر والأصغر وشرك الألوهية والربوبية.

أما ما يحصل من تطير وتشاؤم وكره في القلب من غير أن يترتب عليه عمل واعتقاد نفع وضر وتأثير، فهذا لا يدخل في الطيرة الشركية وإن كان تركه أولى .

تنبيه : ليس الكره الحسي ككره السفر أو كره بلد معين من التشاؤم.

م (١١) : خطورة الطيرة :في الطيرة خطورة على المتطير من جهتين :

الأولى: من جهة الدين : التطير يخلخل العقيدة ويفسد التوكل والعبادة.

الثانية: من جهة الدنيا: التطير يضعف القلب ويوهن العزيمة ويثنيها، ويجعل صاحبها يعيش الهموم والشكوك والوهم والقلق، حتى يحسب كل صيحة عليه .

فائدة : الطيرة تتضاعف ويستفحل أمرها ويستشري شرها إذا أذعن لها الشخص وأصغى للوساوس واسترسل فيها .

م (١٢) : الطيرة قد تكون فطرية من غير تعمد ولا قصد :

إلا أن المؤمن الموحد لا يلتفت إليها ، بل يعتمد على ربه، ويقاوم الطيرة بالتوكل على الله حتى تذهب،كما في حديث ابن مسعود .

م (١٣) : حالات الناس مع الطيرة :

الأول: من لا يلتفت إليها ولا يتشاءم أصلا ولا يقوم في قلبه أدنى أثر لما يتطير الناس به ويتشاءمون منه وما ذاك إلا لكمال يقينه بالله وبقدره وعظم توكله على ربه .

الثاني: من قد يحصل في قلبه شيء من التشاؤم والطيرة، إلا أنه لا يلتفت لما يخطر في قلبه ولا يؤثر في فعله وعمله، ويجاهد الوساوس والشكوك والتوهمات بالإيمان والتوكل ، وهذا لا يضره ما حصل له ولا يؤاخذ به .

الثالث: من يسترسل في طيرته وتشاؤمه وتوهماته وشكوكه ووساوسه، حتى يحصل له الهموم والحزن والخوف ويكون دائم التربص والتوقع، ولا يسعى في ردها ومكافحتها ومجاهدة نفسه كحال السابق حتى تتضاعف فيه وتستفحل، وهذا ينقص إيمانه بقدر طيرته فإذا ترتب على تطيره فعل أو ترك كان من القسم التالي .

الرابع: من ترده الطيرة والتشاؤم ويفعل أو يترك عند حصولها وتتغير أفعاله عند وجودها، فإذا رأى ما يتشاءم منه ترك ما بيده من فعل .

فإذا رأى مثلا حيواناً كالقرود وطيراً كالبوم والغربان وهو يريد السفر ترك السفر وأجّله، وإذا دخل عليه رجل مريض أو أعور أغلق دكانه وترك بيعه .

ومن هذه صفته يكون آثما ومرتكبا للشرك الأصغر .

الخامس: من يزيد على سابقه بالخوف مما تطير منه ويعتقد أن هذه المخلوقات لها تأثير حقيقي وتصرف في الكون ولها أثر فيما سيستقبله من العمل ويؤمن بوجود التأثير لهذه الأمور المتطير فيها في الحوادث .

وصاحب هذه الصفة والعقيدة كافر مشرك شركا أكبر والعياذ بالله .

م (١٤): أمثلة معاصرة للطيرة :

قول العامة : خير ياطير، وقولهم: يا الله صباح خير، بنسبة الخير والشر للطير وللصباح، ومثله قولهم: لا يخبرني الطير.

من إذا رأى حيوانات كالقرود البوم والغراب وهو يريد السفر ترك السفر.

من يتشاءم إذا دخل عليه رجل مريض أو أعور أغلق دكانه وترك بيعه .

من يسمي شهر صفر صفر الخير، فداوى البدعة في التشاؤم ببدعة أخرى .

من يفتح المصحف فأي آية وقع نظره عليها تفاءل بها أو تشاءم حسب موضوعها .

ومن ذلك تشاؤم الأمريكان بيوم الثلاثاء الأسود بعد ضربات الحادي عشر من سبتمبر.

م (١٥) : أدلة دخول الطيرة في الشرك:

قال النبي ﷺ :(الطيرة شرك). وفي رواية:(من الشرك) أبو داود والترمذي.

قال النبي ﷺ: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) رواه احمد.

م (١٦) : وجه كون التطير والتشاؤم من الشرك وعلاقتها بالتوحيد:

أولاً: أن فيها اعتمادا على غير الله، وتعلقا بغيره، وهذا من الشرك في الألوهية .

ثانياً : أن فيها اعتقاد وجود النفع والضر والتدبير والتصرف والتأثير في غير الله في الطير والمتشائم به أو أن له علاقة سببية بذلك . وهذا من الشرك في الربوبية .

قال البغوي: (جعل الطيرة من الشرك، لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعا أو يدفع عنهم ضرا إذا عملوا بموجبه، فكأنهم أشركوا مع الله) من التيسر.

ثالثاً : أن فيه تخرصاً بعلم الغيب .

م (١٧) : متى تكون الطيرة شركا أكبر ومتى تكون شركا أصغر :

إن اعتقد المتشائم في طيرته وشؤمه أنها تفعل بذاتها وتستقل في حصول النفع والضر ولها تأثيرا حقيقيا، أو وصل خوفه منها إلى خوف السر فهذا شرك أكبر .

إن اعتقد أنها مجرد أسباب ، أو علامات ودلائل لحصول الشيء فشرك أصغر.

م (١٨) : وجه دخول التطير في السحر:

ورد في الحديث:(العيافة والطيرة والطرق من الجبت) والجبت هو السحر .

ليست الطيرة من السحر في الحقيقة، لكن وجه إدخال التطير في السحر لما بينها من تشابه في ادعاء علم الغيب بطريقة خفيّة ونسبة التأثير للمخلوق والتعلق بغير الله، وهذا مثل إدخال البيان والنميمة في السحر لمشابهتها له في بعض الأوجه .

م (١٩) : أوجه تحريم الطيرة :

١- أن فيها نسبة التأثير والتدبير والتصرف في الكون لغير الله تعالى .

٢- إثبات النفع والضر والقدرة وتعليق الحوادث ونسبة الخير والشر بها.

٣- إدعاء علم الغيب، ومحاولة كشفه من خلالها .

٤- سوء الظن بالله تعالى.

٥- تعلق القلب بغير الله وقصده ولجوئه إليه والاعتماد على المخلوق ورجائه .
٦- منافاتها للتوكل الواجب والاعتماد على غير الله.
٧- الخوف من المخلوق ومهابته وخشيته.
٨- ما فيها من الأوهام والخرافات وإضعاف القلوب وتشتيت الأمة.

م (٢٠) : كفارة الطيرة :

أولا : الدعاء الذي يقال قبل حصول التطير وعند وقوع مقدمات الطيرة فيكون دافعاً لها وواقياً من حصولها وهو : (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك). وقد ذكرت الطيرة عند ﷺ فقال: (إذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات...). رواه أبو داود

ثانيا : دعاء كفارة التطير : وهو الدعاء الذي يقال إذا حصل من المسلم تطير ووقع في التشاؤم :(اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك) .

يدل له ما جاء عن ابن عمرو وابن عباس: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: (أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك) رواه الإمام أحمد.

م (٢١) : مما يذهب الطيرة بالكلية :

١- التوكل على الله وصدق الالتجاء إليه، ويدل لذلك قوله ﷺ: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل) رواه أبو داود والترمذي.
٢- حسن الظن بالله والتفاؤل.
٣- البعد عن أسباب الشر ، والإعراض عنها. ٤- الإيمان بالقدر .

م (٢٢) : بدائل الطيرة :التوكل ، العمل بالأسباب، الاستشارة ، الاستخارة .
وقد جاء في الشرع الحث عليها، وهي لا تنافي التوكل وتعتبر من الأسباب الشرعية وليست من الأسباب البدعية المحرمة كالتطير .

م (٢٣) : التطير في العقيدة وليس في المتطير به :

التشاؤم والتطير إنما هو في نفس المتطير والمتشائم وما تكنه نفسه وتعتقده، وليس في ذات ما تطير به شيء من ذلك ، إذ لا أثر له في الشر والخير.

يدل له قوله ﷺ: (ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم). رواه مسلم .

م (٢٤) : الجمع بين قوله ﷺ :(لاعدوى) وقوله:(فمن أعدى الأول):

أن النفي واقع على العقيدة لا على الوجود، فهو على ما كانت العرب تعتقده من وجود التأثير في هذه الأمور، وأما الإثبات فواقع على أصل وجودها، فالعدوى موجودة أثبتها حديث:(فر من المجذوم فرارك من الأسد) البخاري،وحديث:(لا يورد ممرض على مصح) مسلم، والنفي متعلق بما يعتقد من استقلالها في التأثير. ومثل ذلك الحديث المتفق عليه في النهي عن دخول أرض فيها طاعون ووباء ولا الخروج منها، ومثل ذلك الغول التي هي الجن على صور الوحوش موجدة بقدر الله.

م (٢٥) : حديث الشؤم في ثلاثة :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول : (إنما الشؤم في ثلاثة في الفرس والمرأة والدار) رواه البخاري ومسلم .

وقال ﷺ : (لا عدوى ولا طيرة والشؤم في ثلاث في المرأة والدار والدابة) رواه البخاري ومسلم .

وعن أنس رضي الله عنه قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول إنا نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وأموالنا ثم تحولنا عنها إلى أخرى فقلت فيها الأموال وقل عددنا ، فقال رسول ﷺ : (ارحلوا عنها وذروها وهي ذميمة) رواه ابوداود .

ومعناه: أن التشاؤم قد يحصل في هذه الأشياء لما قد يوجد فيها من شر وسوء.

وسُئل الإمام مالك عن هذا الحديث ، فقال: كم من دار سكنها قوم فهلكوا ثم سكنها آخرون فهلكوا . أخرجه أبو داود .

وليس في الحديث ما يدل على جواز التطير والطيرة، لأنه ليس فيه تجويز اعتقاد التأثير، وإنما إثبات ما فيها من شر محسوس ينفر الإنسان فيه .

وذهب بعض أهل العلم إلى إن هذا الحديث مستثنى من أحاديث النهي عن الطيرة والتطير.

قال ابن رجب : (أن هذه الثلاث أسباب يقدر الله تعالى بها الشؤم واليمن، ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو دابة أن يسأل الله تعالى من خيرها وخير ما جبلت عليه ويستعيذ به من شرها وشر ما جبلت عليه) لطائف المعارف ١٥٧.

م (٢٦) : أخطر التطير ما كان بالله وبدينه وبالتوحيد وأوليائه .

أخطر التطير ما كان بالله تعالى وبدينه وبالصالحين وأهل الدين من العلماء أو المحتسبين أو الدعاة أو المجاهدين . وقد سمعنا من يصرح بالتشاؤم بهؤلاء، كمن

يقول: ما رأينا الخير من جماعة صلوا ويقصد المحتسبين، أو يقول: ما جاءتنا المصائب وتسلط الكفار إلا بسبب المجاهدين. وما فرق الأمة إلا التوحيد أو الجهاد .

وهذا التشاؤم يدخل في نواقض الإسلام في ناقض البغض والكره .

ومن هذا الباب تشاؤم الكفار بالرسل كما في قولهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ يس: ١٨ وكتشاؤم قريش برسولنا ﷺ وقولهم : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ النساء: ٧٨، وكتشاؤم المشركين بالتوحيد : ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ الزمر: ٤٥.

م (٢٧) : شبهات :

تغيير الرسول ﷺ أسماء بعض أصحابه .

حديث:(لا طيرة والطيرة على من تطير) رواه ابن حبان.

قد يظن البعض أنها مجوزة للتطير وليس الأمر كذلك .

فإن تغيير الأسماء واختيار الاسم الحسن في القيام له ببعض أعماله كحلب اللقحة ومن يسوق الإبل بالاسم، هو من باب التفاؤل ومحبة الأسماء الحسنة والاستبشار بها وكراهية الأسماء القبيحة ونفوره منها كل ذلك من حسن الظن بالله ولم تؤثر في شيء من أفعاله ﷺ فلم ترده عن أمر كان يريد أن يفعله .

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة في محاولة تغيير اسم أبي سعيد المسيب من حزن إلى سهل ورفضه فما زالت الحزونة فيهم : (قد يظن من لا يمعن النظر أن الذي نزل بهم هو من جهة اسمهم ويصحح بذلك أمر الطيرة، ولو كان الأمر كما ظنوه لوجب أن ينزل بجميع من تسمى باسمهم من أول الدهر، وأما نزول الحزونة بهم فعقوبة لعدم استجابتهم للرسول ﷺ ، والرسول ﷺ استحب تغيير الأسماء المكروهة لنقلهم عن مذاهب آبائهم واعتقاداتهم الفاسدة وتطيرهم الشركي).

أما حديث :(لا طيرة والطيرة على من تطير) فعلى ضعفه فإن معناه الطيرة على من تطير أي إثم الطيرة على من تطير .

قال ابن عبد البر : (لو كان معناه كما ظننت لكان هذا الحديث ينفي بعضه بعضا، لأن قوله لا طيرة نفي لها، لكن معناه إثم الطيرة على من تطير بعد علمه بنهي الرسول ﷺ عن الطيرة) . التمهيد ٩/ ٢٨٤.

م (٢٨) : الفأل :

هو الكلمة الطيبة والاستبشار والتيامن والتوقع بحصول ما يسر .

مثاله أن يكون شخص مريض فيسمع من ينادي يا سالم فيتفاءل أو يعمل له شخص اسمه ناجح فيقول إن شاء الله إن العمل سينجح .

وكان الرسول يحب الفأل ويعجبه قال ﷺ : (ويعجبني الفأل) متفق عليه.

والفأل من الطيرة ويدل لذلك قوله ﷺ : (أحسنها الفأل) رواه أبو داود.

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة : (أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة، وهو خيرها فأبطل الطيرة، ونفى عن الفأل مذهب الطيرة من تأثير أو فعل أو شرك ويخلص الفأل منها) .

م (٢٩) : الفرق بين الطيرة والفأل :

الطيرة فيها سوء ظن بالله وقطع للرجاء وقنوط من الخير ويأس من رحمة الله.

والفأل فيه حسن ظن بالله وتوكل عليه ورجاء له .

كما أن الفأل تقوية للعزيمة وليس هو المؤثر في الفعل أو الدافع له فليس فيه تعلق بغير الله وهذا بخلاف الطيرة .

قال الحليمي:(وإنما كان يعجبه الفأل، لأن التشاؤم سوء ظن بالله بغير سبب محقق والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال) .

م (٣٠) : مما له علاقة بالباب الاستقسام بالأزلام :

الاستقسام بالأزلام وهي أواني وأقداح يكتب على بعضها أمضي أو أمرني ربي ويكتب على الآخر لا أمضي أو نهاني ربي فيرمي بحجر فإذا وقع على الذي فيه الأمر بالإمضاء يمضي وإلا لم يمض ، ومثلها ما يسمى بالحظ واعرف حظك، تشبه التطير لوجود نسبة السببية لغير محلها وجعل ما ليس بسبب سببا.

وكل ذلك فيه قدح في التوحيد وتعلق بغير الله وادّعاء علم الغيب .

وفي بعض من يفعل ذلك اعتقاد التأثير في هذه الأمور وأن لها تصرفاً وتدبيراً في الخلق وحوادث المستقبل ، ولا شك أن هذا شرك في الربوبية .

ومثل ذلك ما يشيعه بعض العوام الخرافيين من ربط بعض الأمور بأسباب باطلة ، كقولهم: إذا صرت الأذن فمعناه أن شخصا تكلم فيك، وإذا حك الإنسان يده اليمنى فسينال مالاً، وإذا رمشت عينه فسيحصل كذا ، وإذا طار الدبور فسيأتي مطرا ، وأمثال ذلك كثير من الشركيات في باب الأسباب .

الفصل الرابع عشر : الاستسقاء بالأنواء

موضوعه: حكم الاستسقاء بالأنواء ونسبة المطر للنجوم، وكيفية دخوله في الشرك ومنافاته للتوحيد .

علاقتها بالتوحيد:

لأن الاستسقاء بالأنواء ونسبة المطر للنجوم فيه تعلق بغير الله واعتقاد النفع فيه والتأثير وهذا مما يقدح في التوحيد كما سيأتي .

وهذه المسألة متعلقة بذرائع الشرك والشرك الأصغر في الأسباب ، منها :الرقى ، التمائم، التبرك ، التطير ، الغلو. وله تعلق بباب شرك الألفاظ ، وبباب نسبة النعم لغير الله ، وباب نسبة الحوادث للمخلوق .

كما تتعلق بأبواب السحر والتنجيم لوجود مناسبة بينها.

و الاستسقاء بالأنواء متعلق بالنجوم وداخل في باب التنجيم.

الأدلة على المسألة:

١- قول الله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ الواقعة: ٨٢.

٢- عن أبي مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺقال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة) . وقال: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) رواه مسلم.

٣- عن زيد بن خالد ﷺ قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب) متفق عليه .

٤- حديث ابن عباس، وفيه: قال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات :﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ الواقعة: ٧٥ - ٨٢. متفق عليه.

م (١) : معنى الاستسقاء بالأنواء والنجوم:
النوء: هو غياب نجم وظهور غيره مكانه . والاستسقاء: طلب السقيا والمطر.
والمعنى: نسبة نزول المطر للأنواء وطلبه منها . فهما معنيان للاستسقاء بالنوء.
م (٢) : فائدة : جاءت الأحاديث بألفاظ (إيمان بالنجوم) (التصديق بالنجوم) (الاستسقاء بالنجوم) . معنى التصديق والإيمان واحد وهو: أن يصدق ويؤمن أن لها تأثيراً أو سبباً في السقي والمطر.
فائدة : تعلق الاستسقاء بالنوء والنجم ، والنوء والنجم هما بمعنى واحد.
م (٣) : حقيقة المسألة نسبة المطر للكواكب والشتاء :
نسبة الأحوال والحوادث للكواكب ومحاولة إيجاد مناسبة حاضرة أو مستقبلية وعلاقة سببية، فإن قارنه دعوى التأثير أو معرفة الغيب كان أشنع شركا .
قال النبي ﷺ حين نزل الشهاب ما كنتم تقولون فيه، قالوا موت عظيم . فأخبر أنه لا ارتباط له بها يصير وليس له علاقة وإنما هو لرمي مسترقي السمع،رواه مسلم.
م (٤) : معنى الرزق والتكذيب: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ :
التكذيب يكون بالقلب واللسان والجوارح، وهو ما يعرف بالتكذيب العملي.
الرزق : المطر وغيره .
م (٥) : حالات التكذيب بالرزق الواردة في الآية : للتكذيب ثلاث حالات:
١- نسبة المطر للنوء والنجم .
٢- أي أنكم جعلتم شكر نعمة الرسول والقرآن أنكم تكذبون به .
٣- أن المعنى أن يشكر الناس على أرزاق الله ونعمه وينسب الفضل لهم.
م (٦) : وجه الإيمان والكفر في: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر).
الإيمان نوعان أصل باعتقاد الربوبية لله وأنه هو الذي خلق النعم وتفضل بها وقدرها وكمال بشكره عليها ، والكفر أكبر باعتقاد خالق مؤثر لها ، وأصغر بشكر المخلوق عليها أو إسنادها لسببها ونسيان مسببها أو اعتقاد السببية فيها.
م (٧) أقسام وألوان وأوجه الاستسقاء بالنجوم :
١- أن يزعم معرفة الغيب عن طريق النجوم ووقت نزول المطر بالأنواء وحركة النجوم ، وهذا شرك أكبر لما فيه من ادّعاء العلم الغيبي .

٢- أن يعتقد العبد أن النجم هو الذي أنزل المطر وأنه مدبر ومتصرف وله تأثير، إما بذاته من دون الله أو بما جعله الله فيه من القدرة على التأثير، وهذا شرك أكبر في الربوبية لاعتقاد التأثير والخلق والقدرة والربوبية في غير الله .

٣- أن يعتقد أن النجم له علاقة سببية ورابطة ودلالة على نزول المطر فخروج نجم كذا في وقت كذا سبب لنزول المطر وهذا شرك أصغر .

٤- نسبة المطر للنجم من باب الظرفية والوقت :

كأن يستدل بالنجم على نزول المطر دون نسبة المطر إليه، كقولهم فصل الشتاء يكثر فيه المطر وطلوع الشولة المسماة بالربيع والمربعانيه عندنا دليل قرب شدة البرد.

وطلوع الثريا وهي التي نسميها الوسمية والوسم علامة ودليل على قرب المطر غالبا دون تعليق الأمر به لا استقلالا ولا سببا وأنها يكون للظرفية .

٥- دعاء النجوم ومخاطبة الكواكب وعبادتها ، فيكون قصد المستقي بالنوء طلب المطر من النجم والنوء أغثنا يا نوء كذا ، وهذا شرك في الألوهية .

م (٨) : **فوائد النجوم**: زينة للسماء ، علامات يهتدى بها ، رجوم للشياطين.

م (٩): **متعلقات الأنواء ومنازل القمر وظروف الزمان ومشتقاته :**

كره قتادة وابن عيينة تعلم منازل القمر وأوقات النجوم كما تقدم والصحيح جوازه لقوله تعالى : ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ يونس: ٥.

منازل القمر: المنزلة المكان الذي ينزل فيه ويخرج منه ويسير فيه من السماء فشبه بالمنزل للقمر . والمنزلة تشمل نجم أو عدة نجوم وينزل القمر كل ليلة في حذاء أحد النجوم والتي تسمى منزلته وللقمر ثمان وعشرون منزلة في الشهر. وهي:

القلب والشولة وهي التي نسميها الربيع والمربعانيه، والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد السماك والفرع المقدم والفرع المؤخر والرش والشرطين والبطين والثريا وهي الوسم والدبران والهقعه والهنعه والذراع والنثره والطرفة والجبهة والزبده والصرفة والعواء والسماك والغفر والزباني والإكليل .

وظروف الزمان : الوقت، الحين، الدهر، اليوم، السنة، الشهر، وغيرها.

السنة : وهي مدار الشمس في الأبراج وهي نوعان شمسية وقمرية هلالية.

والشهر : سمي شهرا من كونه يشهر ويعرف بالهلال أو البرج وهو نوعان.

والسنة أربعة فصول كل فصل يتكون من عدة بروج وتعرف بالنجوم.

والبروج : مجموعة من النجوم :وهي الجدي والدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس .

والنجوم تنقسم إلى سيارة وهي التسعة وثابتة كالثريا.

م (١٠) : النسيء :

هو التأخير ومعناه أن يؤخر الشهر ويغير مكانه وقد أخذته العرب من اليهود بعد أن كانت تسير على الأهلة قامت بمساواة الأشهر والسنة القمرية بالشمسية لمصالحهم فجعلت الحج يقع في أعدل الفصول لتتم مصالحهم التجارية الاقتصادية، وكانوا يؤخرون الأشهر الحرم ليقاتلون متى يشاؤون فكان هذا من تغيير ملة إبراهيم ومن الكفر ولما جاء الإسلام حرم ذلك وحين حج الرسول ﷺ كان حجه في وقت الحج ووافق أشهر الحج وهذا معنى استدارة الزمان الذي أخبر به.

م (١١) : وجوب العمل بالأهلة والتاريخ الهجري :

يجب العمل بالأشهر القمرية لأن عليها مدار الأحكام الشرعية الحج وصيام رمضان وفي السنة الهجرية تذكير بعزة المسلمين، ويحرم العمل بالسنة الميلادية والأشهر الشمسية الأفرنجية لما في ذلك من تضييع لمبادئ الشريعة والتشبه بالكفار.

واليوم عند المسلمين يبدأ من غروب الشمس فالمساء قبل النهار وعند أهل الفلك يبدأ من طلوع الشمس فيكون قبل الليل وعند أهل التنجيم يبدأ من الزوال.

ويوجد لكل أمة الهند والقبط والفرس واليهود والآشوري والمقدوني وغيرهم. أسماء للشهور والأيام ، وكثير منها مسماة بأسماء الآلهة كما تقدم .

وعند العرب للشهور والبروج معاني وقد غيرت العرب أسماء الشهور بعد أن قامت بالنسيء ومحاولة جعل الأشهر القمرية موافقة للأبراج والأشهر الشمسية .

فليتنبه أهل التوحيد لمداخل الشرك التي سدها الشرع في باب الأنواء والكواكب والقبور وغيرها وليسلكوا السبيل في حماية جناب التوحيد .

الفصل الخامس عشر : وسائل الشرك التي في باب السحر

حكم الذهاب للسحرة والكهنة : له حالات وأقسام :

ومن أدلة الوعيد المتعلقة بإتيان السحرة والكهان وتصديقهم :

حديث أبي موسى ﷺ مرفوعا : (ثلاثة لا يدخلون الجنة مدمن خمر وقاطع الرحم ومصدق بالسحر) رواه أحمد وابن حبان .

وحديث: (أخاف على أمتي ثلاث) وعد منها (التصديق بالنجوم) و(إيمان بالنجوم) رواه أحمد وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن عساكر.

وحديث: (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ).

الأول : إن طلب منهم سحراً له فطلبوا منه أن يكفر ويشرك كأن يذبح ولا يسمي أو يسب الدين أو يهين آيات القرآن كأن يكتبها بالدم ونحو ذلك .

الثاني : من يأتيهم ليسألهم عن أمر غيبي مصدقا لهم، وهذا معنى يصدقهم أي يصدقهم في ادعاء الغيب ويعتقد أنهم يعلمون الغيب مع الله أو أن الله أعلمهم بالغيب ودلهم على أسبابه فهو كافر خارج من الإسلام لا شك فيه.

والدليل على ذلك ما رواه أحمد والحاكم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : (من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد).

ولأنه مكذبٌ بالقرآن: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ النمل: ٦٥.

الثالث : إن أتاهم وسألهم مع عدم تصديقهم في ادعاء الغيب ومعرفته كذبهم وحقيقة حالهم، مثل من يأتيهم ليسألهم عما ضيعه أو من سحره مع علمه بكفرهم وأن الغيب لله، فهذا فعل محرما دون الكفر، وعقابه أن صلاته لا تقبل أربعين ليلة .

والدليل حديث: (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) مسلم.

الثالث: من سألهم ليبين كذبهم أو يفضحهم ويبين تلبيسهم وعجزهم فهذا مشروع وقد فعله النبي ﷺ لابن صياد حين سأله عن الدخان، والحديث متفق عليه.

قاعدة : متى يعتبر الذهاب للساحر وطلب السحر منه كفرا:

لا يعتبر مناطا للكفر إلا مع وجود أحد أمرين :

الأول : تصديقه في ادعائه علم الغيب والقدرة الكاملة .

الثاني : لو فعل مكفراً كالذبح للجن وإهانة المصحف وسب الدين.

فائدة : الحكمة من تحريم إتيان السحرة والكهنة وحضور مجالسهم ونواديهم:

لأن ذلك قد يكون مدعاة إلى تصديقهم والتأثر بهم وهذا كفر بذاته، لأن فيه إثبات علم الغيب للمخلوق، وكذلك في الذهاب لهم ترويج لباطلهم ودعاية لهم ونشر للكفر وتغرير بالعوام والجهلة فيصدقونهم ويذهبون لهم .

فائدة : صورة معاصرة للمسألة :

ويدخل في هذا الحكم والوعيد المتعلق بإتيان السحرة والكهان وتصديقهم، من يجري مقابلات تلفزيونية أو صحفية مع السحرة والكهنة والعرافين ، ومن ينظر إليهم في الإعلام معجبا ومستحسنا وراضيا بخروجهم .

مبحث : النشرة

م (١) : **تعريف النشرة :** تطلق من حيث الأصل على فك السحر وحله .

م (٢) : **النشرة نوعان :** فك السحر برقية مباحة ، وفك السحر بسحر مثله .

ويطلق البعض النشرة على علاج السحر وفكه بسحر مثله فقط.

م (٣) : **حكم النشرة التي هي استخدام السحر لفك السحر :**

محرمة بل وكفر لأنها سحر والسحر كفر ولم يستثن الله ﷻ منه شيئاً .

والأدلة على تحريم فك السحر بالسحر :

١- عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النُّشرة؟ فقال (هي من عمل الشيطان) رواه أحمد بسند جيد أبو داود.

٢- حديث:(اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقي ما لم يكن فيه شرك). مسلم. والنشرة سحر والسحر من عمل الشيطان وفيه شرك ولابد، فكان تحريمها متعينا.

٣- أن القول بإباحة سؤال السحرة وطلب علاجهم للسحر بالسحر فيه إقرار السحر وإبقاء للساحر وعدم قتله والرضا بفعله واللجوء إليه عند الحاجة، وفي هذا من أصناف الكفر ما لا يخفى .

٤- أن السحر لا خير فيه أبداً ولا نفعع منه مطلقاً كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ البقرة: ١٠٢ ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ طه: ٦٩.

٥- أما ما يستدل به المخالف في إباحة النشرة :

* من سؤال عائشة رضي الله عنها للرسول ﷺ حين سحر . يا رسول الله هلا تنشرت ؟ فقال النبي ﷺ : (أما الله فقد شفاني) رواه الشيخان.

* وقول سعيد بن المسيب لما سأله رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر؟ قال : (لا بأس إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه ومن استطاع أن ينفع أخاه فليفعل) رواه البخاري .

* وقول الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر، محمول على علاج المسحور بالرقى المباحة وليس السحر كما توهمه البعض وقد بين مراد ابن المسيب ابن القيم وغيره .

وهل يعقل أن يبيح الرسول ﷺ الذهاب للسحرة وهو الذي أمر بقتلهم وأخبر بكفرهم ودل أمته على كل خير وهل في الذهاب للسحرة من خير .

وهل يظن بابن المسيب والحسن تجويز الذهاب للسحرة كما فهم البعض حين جهلوا مقصود السلف من النشرة ومعناها في لغة العرب وإطلاقات الشرع .

قال ابن القيم في زاد المعاد: (النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان. وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة. فهذا جائز).

م (٤) : أقسام المتعالجين بالسحر وأحكامهم :

الأول:أن يتعالج وهو راضٍ بالسحر مصدقٌ للساحر، فهذا كفر أكبر لما تقدم.

الثاني : أن يتعالج وهو ليس راضٍ بالسحر ولا مصدقاً للساحر، ولكن يأمره الساحر أن يذبح للجن ، فهذا يكفر لذبحه لغير الله .

الثالث : أن يتعالج ولا يرضى بالسحر ولا يصدق الساحر، ولا يفعل ما يأمره به الساحر من الشرك أو غيره ، ولكن يدفع مبلغاً فقط ليقوم الساحر بحل السحر عن طريق الاستعانة بالجن والشياطين ، فهذا اختلف فيه العلماء على أقوال :

الأول:أنه جائز، لأن الضرورات تبيح المحذورات ، وهو رأي بعض الحنابلة.

القول الثاني : أنه كفر مطلقا .

الثالث: أنه محرم سدا لذريعة الكفر ، وهذا رأي جمهور العلماء وهو الصحيح.

أعمال فيه نوع سحر :

الشعوذة : (بالواو والباء) : الشعوذة ليست سحراً في الحقيقة وإنما هي من باب الخداع وخفة اليد وسرعة الحركة والاستعانة بالمواد الكيميائية والعناصر التي لها خصائص خافية على الناس ويكثر هذا فيما يسمى بالألعاب البهلوانية وهي الكيمياء قديما فالكيمياء في القدم كانت تطلق على مثل ذلك ومثلها النيرنجات .

التنويم المغناطيسي : هو من أحد الطرق الدجلية التي تمارس في زماننا ويقوم بها أناس يدعون ما يدعيه السحرة من القدرات وقد يكون فعلهم فيه استعانة بالشياطين . ومما يقارن التنويم محاولة مخاطبة النائم وسؤاله والحديث معه بعد نومه وغالبا ما يكون ذلك بطريق الشعوذة أو الاستعانة بالشياطين والسحر .

الألعاب البهلوانية والسيرك :

ومن أمثلتها رمي السكين على بطن شخص وطعنه وضرب رأس الغير بالسيف وإخراج النار من الفم وابتلاع الجمر والمشي من شاهق على حبل دقيق وغير ذلك، وهي تدور بين السحر الحقيقي والشعوذة وما كان مبنياً على التدرب وقوة الجسد فيأتي البهلواني وصاحب السيرك أمام الناس مظهراً مهارته وقدرته على ما لا يقدر عليه غيره في الغالب ، وما يقوم به هؤلاء إن كان سحرا حقيقيا فهم كفار وإن كان من غير سحر وإنما شعوذة فهم ليسوا كفاراً إلا أنه يجب منعهم بل وتعزيرهم تعزيراً بالغاً لكف شرهم وردعاً لغيرهم وسداً للذريعة، وإن مما ينبغي للمحتسب على هؤلاء أن لا ينظر إلى ادعاء هؤلاء أن أفعالهم ليست إلا مجرد خداع وشعوذة وليست بسحر ، فإن هذا أمر أغلبه غير معلوم التفريق فيه عندنا .

الروحية الحديثة وعقيدة تحضير الأرواح :

يدعي أصحابه أنهم يستطيعون إحضار أرواح الموتى بوسائل يدعونها ومن ثم يسألونها ويخاطبونها ويأمرونها ويطلبون منها ما يريدون ويدعون أن فعلهم هذا ليس سحراً ولا فيه استعانة بالشياطين ولا حضور لها . وكل هذا من الكذب فلا يمكن لشخص تحضير روح الميت، والحقيقة أن الذي يخاطبهم الشياطين ويستدرجون عقولهم البلهاء ومن ينخدع بأفكارهم البسيطة الساذجة .

وهذا المذهب مذهب كفري حوى كفريات ويشبه عقيدة تناسخ الأرواح .

مبحث : التنجيم

م (١) : تعريف التنجيم :

التنجيم على وزن تفعيل، نسبة للنجم والكواكب .

أو هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية .

م (٢) : أقسام علم التنجيم :

الأول : علم الأسباب والتسيير : وهو الاستدلال على الجهات وأوقات الزرع بالنجوم وسيرها وخروجها وهذا جائز .

الثاني : علم التأثير والأحكام : وهو الاستدلال على أمور الغيب بالنظر في النجوم واعتقاد أن للنجوم أحكاماً وتأثيراً فيما يحدث في الأرض ، وهذا كفر أكبر .

م (٣) : علم الحساب :

وهو استخراج وقت الكسوف ودخول الشهر والهلال والولادة ونحو ذلك بالنجوم وحسابها وهذا علم كرهه السلف ولا يعتمد عليه في الشرع .

قال الرسول ﷺ : نحن أمة أمية لا نقرأ ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا. (صوموا لرؤيته) أي الهلال ونهى عن الاعتماد على الحساب في مثل هذا .

م (٣) : تعلم علم الفلك :

كره قتادة وابن عيينة تعلم منازل القمر وأوقات النجوم وذلك سداً للذريعة والدخول في تعلم القسم المحرم منه وهو علم التأثير فيكفر متعلمه ، بينما رخص فيه بعض السلف ، وسنعرف بمنازل القمر في باب الاستسقاء بالأنواء.

م (٤) : أوجه كفر المنجم والكفريات التي في التنجيم:

الأول : الاستعانة بالشياطين والشرك بهم وعبادتهم، وهذا شرك في الألوهية .

الثاني:اعتقاد أن للنجوم تأثيراً في حوادث الأرض وخلقا وقدرة ونفعا وضرا. فينسب السعود والنحوس لها وهذا شرك التأثير والتدبير والقدرة والخلق.

الثالث: إدعاء علم الغيب عن طريق النظر للنجوم وهذا شرك في الربوبية. فيدعي معرفة الغيب عن طريقها وهذا شرك العلم وهذا شرك ربوبية .

الرابع:مخاطبة النجوم ودعاؤها والخوف منها وعبادتها، وذا شرك في الألوهية.

الخامس : جعل علاقة سببية ورابطة بين ما يحصل في الأرض من حوادث وربطها بطلوع الأنواء وغيابها وحركة الأفلاك ، من دون أن يعتقد فيها الخلق والتأثير ، وهذا شرك أصغر وما سبق من الأوجه الأربع فكله شرك أكبر.

م (٥) : فوائد خلق النجوم :

الأول: زينة للسماء وتدبر خلق الله.

الثاني: رجوم للشياطين ، ودليل هاتين الحكمتين قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ الملك: ٥.

الثالث: علامات يهتدي بها الناس ويعرفون الجهات وأوقات الحرث.

ودليل هذه الحكمة قوله تعالى : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ النحل: ١٦ .

ومن ادعى في النجوم فائدة غير ذلك فقد تعدى وكذب ، قاله قتادة.

ومن ذلك ما يدعيه أصحاب الهيئة وأرباب التنجيم من أن النجوم فيها دلائل وعلامات وإشارات وروابط للتنبؤ عن المستقبل وهو من الكذب الصريح .

الفصل السادس عشر: التصوير والصور

م (١) تعريف التصوير :
التصوير من الفعل صوّر وهو بمعنى التقدير والخلق .
م (٢) : حكم التصوير :
التصوير يعتبر محرما ومن كبائر الذنوب .
ويكون كفرا في حالتين :
الأولى: إذا استحل المصور فعله فيخشى عليه من الردة وما أكثر هؤلاء.
الثانية: إذا قصد المشابهة والمضاهاة.
م (٣) : وجه دخول التصوير في الشرك الأصغر العملي:
١- لأن فيه تشبها بالله في أخص صفاته وهي الخلق .
٢- أن فيه تعظيم المخلوق والغلو فيه.
٣- كما يدخل فيه من ناحية كونه وسيلة للشرك الأكبر وعبادة غير الله .
م (٤) : التصوير يعتبر من الشرك في الربوبية .
لأن فيه مشابهة لخلق الله الذي هو من أفعال ربوبيته .
والمصور من أسماء الله التي تفرد بها .
والتصوير من أفعال الله وصفاته .
والتصوير أحد مراتب الخلق الثلاث ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ .
ولذلك سمى الله تعالى التصوير خلقا : (يخلق كخلقي).
فائدة : الأفعال التي فيها مشابهة ومضاهاة: التصوير ، التشريع ، الكبر .
م (٥) : الأدلة الصحيحة الصريحة الدالة على حرمة التصوير :
١- ما جاء عند البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى : (**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذره أو ليخلقوا حبه أو ليخلقوا شعيره**) رواه البخاري ومسلم .
ومعلوم أن الخلق هنا التصوير إذ أن الإنسان لا يخلق حقيقة وإنما خلقه الذي أنكره الله هو التصوير وليقف المسلم عند أمر الله وليعلم هذا الحديث ويعمل به وليحاسب نفسه ويدع التعلل بالشبهة والتلاعب بدين الله .
٢- عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (**أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله**) رواه البخاري ومسلم .

٣- عن عبد الله ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **(أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون)** رواه مسلم .

٤- عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **(الذين يصنعون الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم)** متفق عليه .

٥- لمّا جاء رجل إلى ابن عباس ، فقال : إني رجل أصوّر هذه الصور فأفتني فيها، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفسا فتعذبه في جهنم)** . ثم قال له : إن كنت لابد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفس فيه . رواه مسلم.

٦- وعنه أيضاً مرفوعاً **(من صوّر صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ)** رواه البخاري ومسلم .

فليحذر كل الحذر المصورون بالكاميرات والجوالات والرسامون ومعلقو الصور من عموم هذا الحديث وليحاسبوا أنفسهم ويقفوا عند حدود الله ولا ينتهكوا محارم الله .

٧- عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي ﷺ: **ألا ابعثك على ما بعثني عليه** رسول الله ﷺ :**(أن لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته)** رواه مسلم. وفي لفظ : (تمثالا) بدل القبر.

وهنا نكره في سياق النهي وهي من دلالات العموم فلا تدع صوره إلا وتطمسها وتزيلها بيدك بأمر رسول الله ﷺ غير ناظر لمخالفة غيره أو غضب وأمر المخلوق، وفي قوله طمستها والتفريق بينه وبين الشيء البارز دليل أن الصورة ليس لها ظل ، ويؤيد ذلك حديث عائشة الذي سيأتي في الصور التي كانت على الوسادة.

٨- قال ﷺ :**(لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة)** رواه البخاري .

٩- عن عائشة قالت قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت على بابي درنوكاً – أي ستر له خمل – فيه الخيل ذوات الأجنحة فأمرني فنزعته . متفق عليه.

وفي رواية:سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل، فلما رآه هتكه وتلون وجهه .

١٠- وعنها أنها اشترت نمرقة – وسادة – فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب ولم يدخل فعرفت في وجهه الكراهة ، فقالت : يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله فماذا أذنبت فقال رسول الله ﷺ : ما بال هذه النمرقة . فقالت اشتريتها لك

تقعد عليها وتوسدها فقال رسول الله ﷺ: (**إن أصحاب هذه الصور يعذبون ويقال لهم أحيوا ما خلقتم**) رواه البخاري ومسلم .

م (٦) : أوجه الحكم بتحريم التصوير وعلة النهي عنه وعلاقته بالتوحيد:

١- مشابهة لخلق الله ومضاهاة لصنعه وفعله كما في حديث أبي هريرة وعائشة.

٢- أنه وسيلة عظمى للوقوع في الشرك إذ أن أول شرك وقع على هذه الأرض حصل في قوم نوح وكان سببه التصوير كما جاء عن ابن عباس في ذلك .

٣- فيه تعظيم غير الله والتعظيم من خصائصه عز وجل الذي لا يستحقه أحد سواه ولا يكون إلا له .

٤- التشبه بالكفرة الفجار في شنيع أفعالهم وقبيح تصرفاتهم خصوصاً اليهود والنصارى بتعليق صور علمائهم ورؤسائهم كما جاء في حديث أم سلمة .

٥- تنقص الرب ﷻ في محاولة التشبه به وترك الأدب معه وتعظيمه.

وغير ذلك من العلل القاضية بتحريم التصوير .

تنبيه : هذه العلل منها ما يرجع للربوبية وهو المشابهة ومنها ما يعود لنقض توحيد الألوهية وهو التعظيم وذريعة الشرك .

أدلة تحريم التصوير جاءت بصيغ العموم من غير تخصيص :

الملاحظ في أدلة تحريم التصوير الناهية عنه أنها جاءت عامة بدون استثناء مما يقطع بتحريم التصوير سواء كان التصوير للذكرى أو الدعوة أو التعليم أو التعليق أو غير ذلك وسواءً كانت الصور مرسومة باليد أو بآلة حديثة للتصوير بالفيديو أو بالنت أو بالجوالات أو كانت تمثالاً مجسماً، كل هذا داخل في عموم الصور المحرمة المشتملة على علل التحريم التي جاءت بها النصوص وبينها أهل العلم .

م (٨) : عمومات في تحريم التصوير :

أولاً : الصور غير التمثال ومن أدلة ذلك حديث لاتدع صورة ولا قبراً ولا تمثالاً ففرق بينهما في اللفظ ، وفي الإزالة ، فإزالة الصورة بالطمس ، والتمثال والقبر بالتسوية ، مما يبين أن الصورة ليس لها جسم.

ثانياً: تحريم التصوير يشمل ما كان باليد أو بآلة .

ونقول لمن خالف كما أن القتل يشمل ما كان باليد أو بآلة فكذا التصوير .

ثم يقال الرسول ﷺ نهى عن التصوير وحذر المصور ، فما هي اسم هـذه التـي خرجت من الآلة وماذا يسمى فعله ، فهل سيكون جوابهم أنها ليست صورة وفعلها لا يدعى تصويرا ، مما يدل على مخالفتهم للحقيقة الشرعية واللغوية والعرفية.

ثالثاً : التصوير يشمل ماكان له ظل ومجسم ومالم يكن كذلك .

تنبيه : المقصود بالتصوير ماله روح كما جاء في الأحاديث وما يفهم من حديث (يؤمر أن ينفخ فيه الروح) وتفسير ابن عباس ، والبعض عمم ولم يستثن.

م (٩) : عقوبات المصور :

١- أنه أشد الناس عذاباً يوم القيامة .

٢- أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسا يعذب بها المصور في جهنم.

٣- أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

م (١٠) : الأمر بطمس الصور ومخالفة الناس للأمر:

ومن العجب في زماننا تنافس كثير مـن المفتـونين بتعليـق الـصور وإظهارهـا وتعظيمها بدل إنزالها وطمسها وإهانتها. وفي هذا أعظم المعاندة للشرع والعياذ بالله.

م (١١) الرد على من زعم أن تحريم التصوير مسألة خلافية :

ظهر بعض من ينتسب للعلـم والـدين في زماننـا بفتـوى باطلـة وهـي إباحـة التصوير بالآلات الحديثة وانساق خلف فتاواهم كثير من الجهال .

وزعم كثير من المفتونين أن المسألة خلافية ، وهيهات ، أن يـساوى قـول مـن أدلته قال الله وقال رسوله وأدلته في الصحيحين بلعنة المصور وشدة عذابه وبين مـن دليله قول فلان وفلان ، وأدلة فلان وفلان أن هذا ليس بتصوير وإنما هو حبس ظـل وهو مثل المرآة ونحو ذلك من ساقط القول وفاسد الفهم نعوذ بـالله مـن الـضلال ، ولما تجرأ من تجرأ بفتواه في هذه المسألة انبرى لرد فريتهم ابن باز والتويجري وعبدالله بن حميد وغيرهم وانظر ما أدت إليه فتواهم من فساد في الدين ونشر للشرك وتعظيم الخلق بتعليق صورهم ، فماذا ستكون حجتهم عند الله وقد بلغتهم نصوص الوعيد.

م (١٢) : رجوع شبهات مـجيزي التصوير لأربع :

ليس لها جسم، ليست باليد وإنما بالآلة، ليس فيها مضاهاة،الفتاوى المخالفة .

وكلها لا تناهض عموم الأدلة الصريحة الصحيحة المحرمة للتصوير.

م (١٣) : تعليق الصور وتعظيمها :

مما يزيد الأمر شناعة تعليق الصور وتعظيم أصحابها وكأنهم آلهة معبودة معظمة من دون الله تعالى فقبحا لها.

وقد جمع هؤلاء بين فتنة التصوير وتعظيم المخلوق والغلو فيه.

اللهم إنا نبرأ إليك مما يفعله هؤلاء ومن جوز لهم ونعتذر إليك من ضعفنا ونشكو إليك قلة حيلتنا وهواننا على الناس.

م (١٤) : فائدة: العلة بين الجمع بين القبر والتصوير في حديث أبي الهياج وحديث: (بنوا على قبره مسجدا وصوروا على قبره التصاوير) ظاهرة وهي أن كلتيهما من وسائل وقوع الشرك .

م (١٥) : تنبيه : وضع خط على رقبة الصورة لا يغني عن طمسها .

م (١٦) : قاعدة : المنهيات تحرم ولو لم يقصد فاعلها العلة التي حرمتها .

ومن أمثلة القاعدة تحريم التصوير ولو لم يقصد المضاهاة والتشبه بالكفار في الزي الظاهر ولو لم يقصد المتشبه مشابهتهم .

م (١٧): عدم دخول الملائكة البيوت التي فيها صور ودخول الشياطين بدلها.

م (١٨) : انتشار التصوير في زماننا :

إن من الأمور التي ابتلينا بها في هذا الزمان ما نراه من كثرة التصاوير المحرمة التي حذر الله ورسوله من فعلها أيما تحذير وأوعد بالنار فاعلها والراضي بها والعياذ بالله . وقد انتشرت من قبل عن طريق الكمرات ثم فشت عن طريق الجوالات فوقع الكثير فيما هو أشد من التصوير ألا وهو استحلال التصوير، وهذا مصاب عظيم في الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله . والسبب في كثرة انتشارها المفرط هو قلة الإنكار الذي أخذ على أهل العلم وعدم تبيين الحق وإظهاره للناس طمعاً أو خوفاً أو ابتغاء رضا المخلوقين وطاعة في معصية الخالق.

ومن وسائل انتشار الصور والتصوير كثرته في الملابس والفرش والكتب والمجلات والألعاب والمواد التجارية والمعلبات الغذائية والفلوس والبطاقات.

ومن الفتن تصوير المحاضرات ومعارك الجهاد والأخبار وغير ذلك.

م (١٩) : وقوع الكثير في استحلاله

والعجيب أنه صار كثير يدافع عنها ويجادل ويشكك في تحريمها ووجوب المسارعة إلى طمسها كما أمر المصطفى عليه الصلاة والسلام فجعل من نفسه حارساً لمعاصي الله منتهكاً لحدوده مرضياً للناس بسخط الله . والكثير الأكثر من ماتت

الغيرة في قلبه على دين الله فنزل الإنكار مع كثرة السكوت من الإنكار باليد أو اللسان إلى ترك الإنكار بالقلب فصار الإنسان يرى الصورة تلو الأخرى وربما في أقدس البقاع في بيوت الله ولا ينكر بقلبه ولا يتمعر وجهه غضباً لله ولو حصل في ماله أو عرضه أدنى تعدي لبان أثر الغضب في وجهه وتصرفه أما إذا كان التعدي على دين الله فلا يقيم لذلك وزناً همه دنياه وشهواته .

م (٢٠) : خطورة التصوير فهل من مدكر :

فهذه الأحاديث والعلل ذكرناها وبيناها تذكيراً للناس وهي علامة فارقة بين المؤمن المستجيب لأمر الله وبين المخادع لله المرتاب في دينه فمن لم يستجب لكلام الله ورسوله فلا خير فيه ولن يستجيب لكلام غيره والأشد ظلماً وفساداً أن يقدم قول المخلوق وأمره على أمر ربه،وليعلم أن من لم يستطع أن ينكر هذا المنكر بيده فلا أقل من أن ينكره بلسانه وإن عجز أو ادعى العجز فليحذر من فعله أو انطماس نور قلبه بعدم إنكاره فضلا عن استباحته وتبريره. فلينكر ولو بقلبه وليعتقد بطلان هذه الصور والتماثيل وليحذر أن يتشرب قلبه هذه المعصية ويستسيغها فيهلك ، فمن عصى الله وهو معترف خائف أهون ممن استهان بمعصيته ورضي بها واستحلها .

وتيقن يا عبد الله أن الله سبحانه سيسألك لا محالة ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ القصص: ٦٥ - ٦٦. فستعلم حينئذ ما كنت فيه من الحق أو ضده من الانقياد لله وحده الذي جاءك عن رسوله والأوامر التي جاءت بها شريعته ودينه أو الانقياد لغيره وستعمى عليك الأنباء حينئذ وستذهب الحجج الباطلة . فما عساك أن تقول إن قال لك ﷻ أمرك رسولي بطمس الصور ونهاك عن التصوير وأخبرك بلعنتي للمصور وأنت لم تجبه ولم تأتمر بل صورت ما لا تحصيه من الصور ولم تنته فما ذا أجبتم المرسلين ؟ فهل تظن عندها يا قليل التذكر أنك ستقول أنت لم تحرم علينا إلا ما كان باليد ولم يحرم علينا رسولك التصوير بالكاميرات والجوالات ، أو أنك ستقول له هذا حبس ظل ، أو أنك ستقول هذه من زينة الله التي أخرجتها لنا ، أو ستقول أجازها لي الشيخ الفلاني وتقدمه على رسولك، أو ستقول أمرني بها ولي أمري وأطعنا سادتنا وكبراءنا ، أم ماذا عساك أن تجيب به وماذا سيكون جوابك له وأنت موقوف بين يديه وهو يخاطبك بلا ترجمان ولا واسطة ؟ ألا فأعد لكل فعل تفعله وقولاً تقوله حجة بين يدي ربك ! وأعدّ للسؤال جواباً وللجواب صواباً .

الفصل السابع عشر : عبادة الله في مواضع الشرك ومظانه

تحريم عبادة الله في أماكن الشرك ومظانه:

وقد جاء النهي عن الذبح في الأماكن التي يذبح فيها لغير الله تعالى، أو مظنة لأن يكون الذبح والعبادة لغيره كالذبح لله عند القبور والصلاة عندها .

ومثل ذلك النهي عن الصلاة في المقبرة وإلى القبر، حتى لا يكون ذلك وسيلة لعبادة القبر والصلاة له، كما نُهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها وزوالها حتى لا يتشبه المسلم بعبادها وسدا لذريعة عبادتها.

ومثل ذلك دخول الأماكن التي يقام فيها الأعياد الوثنية والشرك والمنكرات.

م (١) : أمثلة للمسألة:

١- عبادة الله بالصلاة والذبح وغيرها في معابد الوثنيين .

٢- عبادة الله في المقابر.

٣- الصلاة إلى صورة وتمثال والسجود بين يدي الرجل .

٤- الصلاة في الكنائس .

٥- تتبع آثار الأنبياء والصالحين وتقصد مواضع معينة بعبادة الله فيها، كحراء وأحد والمساجد السبعة والطور ، ومن هذا الباب قطع عمر شجرة بيعة الرضوان.

٦- عبادة الله في الأوقات التي يعبد فيها المشركون أوثانهم كالصلاة عند طلوع الشمس وغروبها.

٧- الصلاة إلى النار وإلى حجر وعمود إلا إذا تجانب عنه والصلاة إلى صورة والصلاة إلى وجه إنسان لما في ذلك من ذرائع الشرك .

م (٣) : أدلة تحريم عبادة الله في أماكن الشرك ومظانه:

١- قال الله تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ التوبة: ١٠٨.

والآية نزلت في مسجد الضرار وقصته: أن أبا عامر الفاسق كان راهبا مطاعا في الجاهلية فلما هاجر النبي ﷺ للمدينة كفر به فسماه الفاسق ، ثم ذهب للشام يؤلب الروم عليه وكتب لبعض قومه المنافقين أن يبنوا مسجدا ليتم لهم الاجتماع فيه بقصد تفريق المؤمنين وحرب الدين وليكون مأوى لكل عدو ماكر، وطلبوا من النبي ﷺ أن يصلي فيه وكان على سفر لتبوك ووعدهم إذا رجع إلا أن الوحي نزل فيه فأمر بهدمه.

٢- عن ثابت بن الضحاك ﷺ قال: نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟ قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم) رواه أبو داود.

٣- عن عائشة أن أم سلمة ذكرت للنبي ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة ومافيها من الصور، فقال:(أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور؛ أولئك شرار الخلق عند الله) متفق عليه.

٤- قالت عائشة: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها فقال:(لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا. متفق عليه. وعن أبي هريرة:(قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) .

٥- عن جندب البجلي قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد؛ ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك) رواه مسلم.

٦- عن ابن مسعود مرفوعا:(إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد) رواه البخاري معلقا وأحمد بسند جيد.

٧- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) رواه أبو داود.

٨- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: (اللهم لا تجعل قبري وثنا، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) رواه أحمد وغيره بسند صحيح.

٩- قال ابن عباس: (لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) . رواه أحمد وأصحاب السنن.

١٠- عن أبي مرثد الغنوي أن النبي ﷺ قال: (لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها) رواه مسلم .

١١- قال ﷺ: (لا تصلوا إلى قبر ولا تصلوا على قبر) رواه الطبراني.

١٢- عن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال : (الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام) رواه أحمد وأصحاب السنن ، أعله الترمذي وصححه ابن حزم.

١٣- قال عبدالله بن عمرو: نهى ﷺ عن الصلاة في المقبرة . رواه ابن حبان.

١٤- عن أنس : (أن النبي ﷺ نهى أن يصلى بين القبور) .
١٥- لما رأى عمر أنساً يصلي عند قبر قال منكرا:القبر القبر. رواه البخاري.

م (٤) : علة تحريم عبادة الله في أماكن يعبد فيها غيره أو في المقابر :

١- أن في ذلك أعظم ذريعة لوقوع الشرك .
فمن رأى من يذبح ويصلي في المواضع الشركية أو المقبرة ، فقد يظن الجاهل أن الذبح والصلاة للوثن وللقبر أو أنها للموضع طلبا للبركة.
٢- التشبه بالمشركين.
٣- تعظيم غير الله من المخلوقات من البقاع والأماكن والأموات.
٤- معاندة الله بتعظيم ما نهي عنه ومضاهاة شرعه بتعظيم ما لم يعظم الله .
٥- إحياء سنن الجاهلية ولذا قال ﷺ له:(في قلبك من الجاهلية شيء) البيهقي.

م(٥):حرمة دخول أماكن الشرك والمنكرات والمحل الذي نزل فيه غضب الله.

مثل أماكن المعذبين كديار ثمود .
وأيضا المجالس التي يظهر فيها الاستهزاء بالله وآياته.
ودور الربا وبيوت البغايا والدعارة ومحلات الفجور والغناء والسينما ومجامع السحرة والكهان والمنجمين والمحافل البدعية والمهرجانات الوثنية وأعياد المشركين.
والبرلمانات والمجالس التشريعية التي يكفر فيها بالله .
يدل لذلك الأصل قوله تعالى: ﴿ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ النساء: ١٤٠ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ الأنعام: ٦٨.
ومن هذا الباب أيضا : قول النبي ﷺ: (هذا مكان حضرنا فيه الشيطان) فلما تجاوزه صلى . رواه مسلم.
ونهى النبي ﷺ عن دخول مدائن صالح بقوله: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا إن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم ما أصابهم). متفق عليه.

م (٦) : حالات العبادة في المواضع الشركية:

١- يتعبد الله في الموضع قصدا له بعينه ، فيعتقد في هذا الموطن البركة أو أنه أقرب وأحب إلى الله ، وهذا يحرم ويعتبر من الشرك الأصغر.
٢- أن يعبد الله فيها وفاقا من غير قصد، وهذه الحالة تحرم وإن كانت أقل درجة من السابقة في الخطورة والإثم.

م (٧) : أقسام الأماكن المقصودة بالعبادة :

١- أن يعبد الله في مواطن الشرك ومعابد الوثنيين .

٢- ما كان فيه مظنة لعبادة غير الله ويخشى أن يعظم إذا عبد فيه ، كالمقبرة.

م (٨) : طرق تعظيم المواضع :

الطريق الأول : الوثن .

أن يكون مقرا للشرك وموضعا للمعبودات أو ما هو مظنة للشرك كالقبور.

الطريق الثاني : العيد .

أن يكون الموضع معظماً ويعتقد فيه البركة فيعتاد قصده وزيارته.

وهذان الطريقان هما مقاصد الباب الذي منه نهي عن الذبح والصلاة كما في حديث النحر في بوانة وأحاديث النهي عن الصلاة في المقبرة.

وهذا سر لطيف في ذكر النبي ﷺ الوثن والعيد ووجه الفرق بينهما.

م (٩): بقاء حكم تحريم النسك في مواطن الشرك (وثن،عيد) ولو بعد زوالها.

م (١٠) : تنبيه : علة النهي عن الصلاة في المقبرة :

لكون الصلاة فيها مظنة لعبادة غير الله وذريعة لوقوع الشرك فيها ، وليس لأجل أنها نجسة كما قال بعض الفقهاء.

م (١١) : علة عدم إبراز قبر النبي ﷺ :

لكي لا يتخذ قبره مسجدا وعيدا كما كانت تفعل اليهود والنصارى من اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، وقد جاء التنصيص على هذه العلة في قول عائشة : (يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا) .

م (١٢) : كل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدا، وكل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا، كما قال ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا).

م (١٣) : الجاهلية نوعان : زمانية وحالية .

م (١٤) : تحريم الوفاء بالنذر في مواطن الشرك:

إذا كان في البقعة شرك ومحل لوثن أو عيد واعتباره نذر معصية ، بنص الحديث (لا وفاء في نذر معصية).

م (١٥) : الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم وأوثانهم، ولو لم يقصده.

معنى العيد وضابطه سيأتي في مبحث الأعياد .

م (١٦) : الرافضة أول من أحدث الشرك وعبادة القبور وبنى عليها المساجد.

م (١٧) : فائدة : لمح النبي ﷺ في خطبته قبل موته لفرقتين:
في حديثه يتبين الرد على الطائفتين الرافضة المبغضين لأبي بكر والصحابة والواقعين في الشرك والجهمية المعطلين للصفات ومنها المحبة والخلة.

م (١٨) : درجات الصلاة في المقبرة وعند القبر :
١- إن قصد القبر بالعبادة فهذا شرك أكبر .
٢- إن قصد الله بالعبادة لكن ظن أن المقبرة مباركة والأجر فيها أعظم.
فهذا شرك أصغر وبدعة منكرة محرمة.
٣- إن صلى في القبر وفاقا من غير قصد ، ففعله مكروه وصلاته باطلة.

م (١٩) : بطلان الصلاة في المقبرة :
من صلى الفريضة في المقبرة فصلاته فيها باطلة وتجب عليه إعادتها ، لأنه جاء النهي عن الصلاة في المقابر والنهي يقتضي الفساد .

م (٢٠) : تسمية القبر وثناً وطاغوتا : القبر إذا عُبد سمي وثناً بنص الحديث ويعتبر طاغوتا ، أما صاحبه الميت فيه إن كان صالحا فلا يسمى طاغوتا كما سميت صنم اللات طاغوتا دون الذي نسبت له الرجل الصالح .

م (٢١) : تنبيه : كل الأحاديث المتعلقة بزيارة قبر النبي ﷺ باطلة ولا تصح .
وقد فند ردها ابن عبد الهادي في الصارم المنكي في الرد على السبكي .

م (٢٢) : حكم الصلاة في الكنائس ودخولها :
الأصل في دخول معابدهم المنع إلا بشرطين: الحاجة وخلوها من المحذور .
ويدل لذلك قول عمر ﷺ : (لا تدخلوا على المشركين في معابدهم فإن السخطة تنزل عليهم) رواه البيهقي . وقد صلى عمر ﷺ في كنيسة بيت المقدس.
وذهب بعض أهل العلم من الشافعية وغيرهم إلى تحريم دخولها مطلقا.

م (٢٣) : يدخل في هذا الباب النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها:
لأنها تطلع وتغرب بين قرني شيطان فيسجد لها الكفار فنهانا الرسول ﷺ عن الصلاة في هذا الوقت كما روى مسلم ، وذلك قطعا لمادة التشبه بالكفار وعباد الشمس، ولسد باب الشرك حيث قد يظن الجهال أن الصلاة للشمس .

م (٢٤) : تعلق أبواب (الغلو، المواضع الشركية، القبور) بموضوع التبرك:
التبرك بما لم يشرعه الله : كالتبرك بالأحجار والأشجار والمواضع وآثار الصالحين وتراب الحرم، والآثار والأماكن التي مر عليها الرسول ﷺ .

الفصل الثامن عشر: حكم رعاية الآثار وتعظيمها

الآثار : المقصود بها مخلفات الأمم السابقة والمواقع التي تعلق بها تواريخ قديمة كالبنايات والجبال والقبور.

ورعايتها تعني الاهتمام والعناية بها ولفت الناس لها وجعلها مزارا .

وهذه دعوة إلحادية جديدة، مصدرها الوثنية بثوب جديد، وهدفها إحياء الشرك وتقديس الوثنية ونشرها، فأقاموا المتاحف لحفظ هذه الخرافات والشركيات .

وإذا كان الرسول ﷺ كسّر الأصنام وأمر بإتلافها وحرم بيعها كما في الحديث المتفق عليه، فإن هؤلاء ينهون عن ذلك ويجرّمون من يفعله، وما فعله عباد الأصنام في زماننا من أدعياء الإسلام من أذناب الغرب الوثني حين قامت طالبان بهدم أوثان بوذا بأفغانستان عنا ببعيد، حتى أرسلوا لجنة تضم من علماء المسلمين لثنيهم عن هدمها فأي جهل بالتوحيد بعد هذا وأي كفر بملة إبراهيم الهادم للأصنام فوق هذا، وإن من أعظم أهداف هذه الدعوة الجاهلية نشر الشرك والخرافات، وتمزيق وحدة المسلمين وهدم باب الولاء والبراء وإحياء القوميات والدعوات الشركية الجاهلية .

ونهى النبي ﷺ عن دخول مدائن صالح في الحجر:

وقال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا إن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم ما أصابهم) ثم زجر فأسرع حتى خلفها . متفق عليه.

ومن نظر في حال دعاة القبورية الجدد في بلاد التوحيد مع مدائن صالح وغار حراء ومطالباهم الحثيثة بإحيائها وجلب السياحة الشركية لها، عرف ما يحيكه لنا أعداء الإسلام وشدة مكرهم وخفاء حيلهم ودسهم للإسلام وأهله وعدم فتورهم.

مبحث : ما فعله الصحابة بعد موت الرسول ﷺ من سد ذرائع الشرك وإغلاق أبوابه وقطع السبل المفضية إليه في باب المواضع الشركية :

١- ما فعله الفاروق عمر ﷺ من قطع الشجرة التي حصلت بيعة الرضوان عندها لما رأى بعض المسلمين يتعمد قصدها والذهاب لها .

وقد أخرج فعله هذا سعيد بن منصور في سننه وابن سعد في الطبقات.

٢- دفنه ﷺ للجذع الذي كان يخطب الرسول ﷺ عنده.

٣- نهيه ﷺ عن تتبع آثار الرسول ﷺ .ومن ذلك ما أخرجه عبد الرزاق وغيره عن عمر ﷺ قال: (إنما أهلك من كان قبلكم إتخاذهم آثار أنبيائهم بيعا).

٤- ما أفتى به ابن عمر قزعة بن يحيى لما أراد الذهاب للطور فقال له لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد دع عنك الطور لا تأته) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات.

٥- إنكار أبي بصرة الغفاري على أبي هريرة لما زار الطور فقال له: لا تشد الرحال الحديث، ولم يكن الحديث قد بلغ أبا هريرة ثم رواه بعد ذلك عنه وأقر به . روى فعل أبي بصرة أحمد والبزار والطبراني .

٤- إخفاء الصحابة ﷺ لقبر دانيال في عهد عمر لما فتحوا تستر. أخرجه ابن إسحاق في المغازي عن أبي العالية، وذكر الخبر ابن كثير في تاريخه ٢/ ٤٠.

قال ابن القيم : (ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله) . إغاثة اللهفان ١/ ٢٢٢.

٥- إنكار الحسن بن الحسن وعلي بن الحسين أبناء علي بن أبي طالب على الرجل الذي زار قبر الرسول ﷺ.

فعن علي بن الحسين: أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: (لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم). رواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى والبخاري في تاريخه والضياء المقدسي في المختارة وغيرهم.

وروى سعيد بن منصور في سننه عن عبد العزيز بن محمد عن سهيل بن أبي سهيل قال : رآني الحسن بن الحسن بن علي عند القبر ، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى ، فقال: هلم إلى العشاء ، فقلت: لا أريده ، فقال: ما لي رأيتك عند القبر ، فقلت: سلمت على النبي ﷺ ، فقال : إذا دخلت المسجد فسلم، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: (لا تتخذوا قبري عيداً، ولاتتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ما أنت ومن بالأندلس إلا سواءٌ .

٦- عدم إظهار التابعين لقبور الصحابة وهي متفرقة في البلدان أيام الفتوحات، وإن جهلنا بقبورهم أعظم دليل على عدم التفات المسلمين من السلف

لقبور الصالحين. وأن وضع القباب والمشاهد والبناء والكتابة عليها ورفعها ليس إلا من دين القبورية المشركين من الصوفية والروافض بعد القرون المفضلة.

٧- إنكار الإمام مالك رحمه الله على من يزور البيوت والمساجد النبوية ويتبرك بآثار النبي ﷺ.وقد ثبت تركه التحديث عن عطاء الخرساني لما كان يمسك بالمنبر الذي كان يخطب عليه الرسول ﷺ وذلك قبل إزالته كما ذكر ذلك القاضي عياض في الشفاء وغيره ، وكذلك أنكر الإمام أحمد هذا الفعل، مما يدل على أن الأمر كان مسلما عند الصحابة والتابعين والقرون المفضلة وأنهم كانوا ينكرون على من يظهر مثل هذه الأفعال لجهل أو تأويل.

وكان الإمام مالك من أشد العلماء نهيا عن الوقوف عند قبر الرسول ﷺ ومثله الإمام أحمد كما هو مروي عنهم .

تنبيه : إذا كان الوثن أو الشيء المتبرك به شجرة سدر :

فتقطع ولا تدخل في النهي عن قطع السدر ولعن قاطعها ، على أن الأحاديث في النهي عن قطع السدر لا يصح فيها شي.

مبحث : الرد على من استنكر هدم الآثار النبوية وإزالتها وادّعى أن الصحابة كانوا يزورون البيوت والمساجد ويتبركون بآثار النبي ﷺ.

و يجاب عن هذا بما يلي :

١- هذا من الكذب على الصحابة رضوان الله عليهم حيث عملوا على إخفاء كل ما فيه ذريعة لشرك وسدوا باب كل وسيلة مفضية إليه ومن ذلك إزالتهم الشجرة التي حصلت بيعة الرضوان عندها وكذا الجذع الذي كان يخطب الرسول ﷺ عنده كذلك نهيهم عن هذا . ومن ذلك ما أخرجه عبد الرزاق وغيره من قول عمر ﷺ: (إنما أهلك من كان قبلكم اتخاذهم آثار أنبيائهم بيعا).

٢- أن التبرك بالرسول ﷺ أمر ثابت ولكن بشعره وعرقه وريقه ونحو ذلك، أما أنهم كان يتبركون بالجلوس في أماكن جلوسه ويتمرغون بالتراب الذي يمر عليه ويتمسحون بالفرش التي يجلس عليها أو يزورون البيوت التي دخلها أو الأماكن التي صلى بها كما هو فعل هؤلاء فإن هذا كله لم يحصل منهم وهو من الافتراء عليهم، كما أنه لم يثبت سنية الصلاة في مسجد غير الثلاثة ومسجد قباء ومن زعم غير ذلك فعليه بالدليل وأنّى لهم ذلك .

٣- أن ما ثبت من فعل ابن عمر حيث كان يتحرى الصلاة في المواضع التي صلى فيها الرسول ﷺ فإذا صادفت طريقه مر بها لا أنه يتعمد الذهاب لها استقلالا، ومع هذا أنكر عليه والده عمر ونهاه عن هذا الفعل بمشهد من الصحابة . وعمر أفقه من ابنه وقد أُمرنا بالاستنان بهدي عمر فهو الملهم وصاحب السنة المتبعة .

٤- ما ثبت من إنكار السلف لهذا الفعل ومن ذلك إنكار الإمام مالك لمن يفعل ذلك بل قد ثبت تركه التحديث عن عطاء الخرساني لما كان يمسك بالمنبر الذي كان يخطب عليه الرسول ﷺ وذلك قبل إزالته كما ذكر ذلك عنه القاضي عياض في الشفاء وغيره ، وكذلك أنكر الإمام أحمد هذا الفعل مما يدل على أن الأمر كان مسلما عند الصحابة والتابعين والقرون المفضلة وأنهم كانوا ينكرون على من يظهر مثل هذه الأفعال لجهل أو تأويل.

٥- ثم مع هذا كله لم يعد هناك شيء ثابت من عهد الرسول ﷺ بل كله ذهب وفني وتحول ولم يعد يعرف شيء منه، وبذلك ينقطع دابر عباد الأحجار والأشجار والمتمرغين على التراب من الرافضة والصوفية ورثة المجوس.

إذا تقرر ذلك فأي الفريقين أحق بالاتباع الصوفية ومن أراد مماشاتهم وإرضاءهم ومتابعتهم في بدعهم ومن هو على شاكلتهم أو الخليفة الراشد عمر ومن معه من الصحابة والتابعين والقرون المفضلة.

مبحث: الرد على من جوز السفر إلى القبور وشد الرحال إليها :

زعم البعض أن حديث أبي هريرة وأبي سعيد أن النبي ﷺ قال : (**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد**) متفق عليه . لا يفهم منه تحريم السفر لزيارة القبور.

وقالوا : أول من فهم ذلك من الحديث هو ابن تيمية.

والجواب عن هذه الشبهة من أوجه :

١- أن تحريم شد الرحال للقبور والاستدلال عليه بالحديث السابق ليس من ابتداع ابن تيمية ولا أنه أول من فهم هذا الفهم من الحديث كما زعم البعض بل هو فهم السلف وهو الذي كان عليه عمل الصحابة ومما يدل لذلك: ما أفتى به ابن عمر قزعة بن يحيى لما أراد الذهاب للطور قال :(لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد دع عنك الطور لا تأته) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات. كذلك ما رواه أحمد والبزار والطبراني من إنكار أبي بصرة الغفاري على أبي هريرة لما زار الطور فقال له: لا تشد الرحال الحديث، ولم يكن الحديث قد بلغ أبا هريرة ثم رواه بعد ذلك عنه وأقر به . كذلك أيضا إخفاء الصحابة لقبر دانيال في عهد عمر، وكذلك عدم إظهار التابعين لقبور الصحابة المتفرقة في البلدان أيام الفتوحات.

٢- أن مالك من أشد العلماء نهيا عن هذا ومثله أحمد كما هو مروي عنهم .

٣- أن علماء بغداد أيدوا فتوى ابن تيمية وأرسلوا للسلطان الناصر قلوون بأن ما قاله في تحريم شد الرحال للقبور هو الحق الذي لاشك فيه كما في الفتاوى .

٤- أن مما يؤكد تحريم السفر للقبور أن الاستثناء في الحديث مفرغ، بدأ بنفي وحذف المستثنى منه وهذا من صيغ العموم فالرحال لا تشد لا لمسجد ولا لغيره من البقاع ، ولم تخص المساجد في النهي عن الشد فلم يقل: (لا تشد الرحال لمساجد إلا لثلاثة) كما هو فهمهم الذي خالفوا به فهم الصحابة لا فهم ابن تيمية وحده.

٥- وأما دعواهم أن الرسول ﷺ قد زار قبر أمه فهذا تدليس منهم وتعامي عن الحق وتقليد للغير، ذلك أن الكلام عن شد الرحال والسفر للقبور وليس زيارتها، ومن المعلوم أن الرسول ﷺ لم يسافر لقبر أمه وإنما مر عليه وهو في طريقه في السفر فزيارة قبرها كان منه تبعا لا استقلالا .

٦- أما معارضة الحديث بالسفر لطلب العلم وصلة الرحم فإن هذا لاوجه له لأن الكلام يدور حول زيارة البقاع والأراضي والأماكن التي يحصل الغلو عندها.

شبهات في الباب:

١ – الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ الكهف: ٢١.

الجواب: الذين بنوا المسجد لم يذكروا من باب الإقرار لفعلهم ولا المدح لهم بل أخبر الله تعالى عن فعلهم القبيح الغير موافق لدين الله ، ويصدق ذلك ما أخبر به النبي ﷺ عنهم من أنهم يبنون على القبور ويتخذون على قبور أنبيائهم مساجد ، وليس هذا من شرع من قبلنا كما توهم البعض. يدل لذلك ما جاء في الصحيحين:

قال ﷺ:(أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور؛ أولئك شرار الخلق عند الله) .

وقال ﷺ :(لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

٢– أن مسجد الخيف بمنى بني على قبر سبعين نبيا :

الصحيح الذي روي عن ابن عمر وأبي هريرة أنه صلى فيه سبعون لا أنه قبروا فيه وكيف جاز أن تداس قبورهم لو صح ذلك ، ثم إنه لم يثبت أن أحدا من الأنبياء عاش ومات بمكة غير إسماعيل .

أما أثر ابن عباس عند الدارقطني في أن الملائكة دفنت آدم في مسجد الخيف فباطل سندا ومتنا ، ففي سنده عبدالرحمن بن مالك متروك كما قال الدارقطني، ومنهج الدارقطني كما هو معروف عند المحدثين أنه لا يورد كثيرا من الأحاديث للاحتجاج بها كما فهم الجهال وإنما لبيان علتها ومنها هذا الحديث ، كما أن فيه ابن هرمز وهو ضعيف. وهو مع هذا مخالف للصحاح من لعنة فاعل ذلك .أيضا فلم يكن هناك مسجد في منى وإنما بني بعد ذلك بأزمان بعد ذهاب المعالم والتقادم .

٣– بناء المسجد النبوي على قبور المشركين بعد نبشها :

الجواب: أن هذا دليل على أصل المسألة فالنبي ﷺ لم يبن مسجده إلا بعد أن نبشت القبور فلم يبن المسجد عليها مع أنها قبور محتقرة وغير معظمة.

٤– أمر النبي ﷺ أن يبنى مسجد الطائف مكان طاغوت اللات .

الجواب: أن هناك فرق بين المقصدين ، فبناء المسجد مكان الشرك القصد منه لإزالة أثره وصورته من الموضع ليزول تعلقه من النفوس ، أما من يبني مسجداً أو يتعبد في معابد الوثنيين مع بقاء معبوداتهم أو قبورهم أو آثار شركهم فهذا هو المحذور ولو لم يقصد العابد هذه الأوثان وكذا لو زالت آثارها مع بقاء ذكراها وأطلالها لم تغير فالنهي يبقى على أصله سدا لذريعة الشرك.

٥- المسجد النبوي فيه قبر الرسول ﷺ :

الجواب : أن مسجد النبي ﷺ بني قبل وجود القبر ، والقبر بعد ذلك كان خارج المسجد في بيته ، ثم أدخل الوليد بن عبد الملك لا جزاه الله خيرا في توسعة المسجد دون إقرار أهل العلم بل ثبت إنكار سعيد بن المسيب له وأبان وغيرهم والواجب إرجاع بناء المسجد من جهة القبر كما كان زمن الصحابة .

٦- صلاة الصحابة في الكنيسة ودخولهم معابد أهل الكتاب.

هذا الفعل يجوز من باب الحاجة بشرط خلوها من المحاذير .

قال البخاري : (كان ابن عباس يصلي في بيعة إلا بيعة فيها تماثيل).

قال عمر لما دعاه النصارى للطعام في الكنيسة:(لاندخل كنائسكم من الصور التي فيها) رواه عبد الرزاق. وقال لعلي:(امض بالناس فليتغدوا ودخلوا الكنيسة).

والأصل في دخول معابدهم المنع إلا بشرطين: الحاجة وخلوها من المحذور .

ويدل لذلك قول عمر ﷺ : (لا تدخلوا على المشركين في معابدهم فإن السخطة تنزل عليهم) رواه البيهقي .

وذهب بعض أهل العلم من الشافعية وغيرهم إلى تحريم دخولها مطلقا.

الفصل التاسع عشر : بدع القبور المحرمة

١- اتخاذ القبور مساجد:

ذكرت الأدلة الناهية عنها في باب عبادة الله في المواضع الشركية.

منها:(لعنة الله على اليهود والنصارى،اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) أخرجاه.

٢- الصلاة في المقبرة والصلاة إلى قبر:

والنهي عام يشمل إن قصد المصلي البركة أولم يقصد ، وإن قصد البركة فهو أشنع وهي عين المحادة لله ورسوله ومخالفة دينه، وقد ذكرت بضعة عشر دليلا،منها:

قال النبي ﷺ: (لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها) رواه مسلم .

٣- الدعاء عند القبور وعبادة الله عندها أو التبرك بها:

ويدل لذلك الأحاديث الواردة في المسألة الأولى ومنها :

قوله ﷺ: (لا تصلوا إلى قبر ولا تصلوا على قبر) رواه الطبراني.

٤- اتخاذ القبور أعياداً ، وخصوصاً قبر النبي ﷺ:

قال الرسول ﷺ: (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) رواه مالك وغيره مرسلا عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار. ورواه البزار في مسنده موصولا عن أبي سعيد الخدري بسند صحيح.

وله شاهد عند أحمد وغيره بسند صحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ : (اللهم لا تجعل قبري وثنا، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) .

وقال النبي ﷺ : (لا تجعلوا بيوتكم قبورا ولا تجعلوا قبري عيدا وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) رواه أحمد وأبو داود .

٥- البناء على القبور ورفعها:

والنهي عن هذه البدعة المنكرة يشمل : بناء المسجد عليها، رفعها، والزيادة على ترابها، أو تجصيصها، أو وضع القباب عليها ، وكل هذا داخل في البناء عليها:

عن جابر قال ﷺ : (نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه) رواه مسلم . وزاد أبو داود: (أو يكتب عليها) .

٦- ترك هدم القباب والمشاهد والمساجد المبنية على القبور، والقبور المشرفة المرتفعة عن الأرض، وهذا الترك محرما فكيف بمن يفعل هذه القباب والتشييد.

قال علي لأبي الهياج الأسدي : (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ : ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) رواه مسلم .

٧- السفر للقبور وشد الرحال إليها وإعمال المطي فيها.

قال ﷺ: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) متفق عليه .

وقد استدلوا به على تحريم السفر للقبور .

وقال النبي ﷺ : (لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد) رواه مالك والنسائي.

وقال : (لا ينبغي للمطي أن تشد رحالها إلى مسجد يبتغي فيه الصلاة) الحديث رواه أحمد.

كما أنكر أبو بصرة على أبي هريرة زيارته جبل الطور بهذا الحديث ، رواه أحمد والبزار والطبراني .

٨- الكتابة عليها :

روى أبو داود: (نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر أو يكتب عليها) .

٩- إسراج القبور وتنويرها :

قال ابن عباس: (لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) . رواه أحمد وأصحاب السنن.

والعلة من تحريم البناء على القبور وإسراجها حتى لا تعظم ثم تعبد.

١٠- زيارة النساء للقبور:

قال ابن عباس كما في المسند والسنن: (لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور).

فائدة: العلة من تحريم زيارة النساء للقبور :

قيل لضعفهن وجزعهن وعدم صبرهن .

والأظهر عندي والله أعلم أنه لتعظيم النساء المشاهد والقبور وسرعة الشرك في النساء ومما يدل لذلك ما جاء في الصحيحين من قوله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة) ، ومن شاهد نساء الروافض والصوفية رأى ذلك جلياً مما يؤكد شدة تعلقهن بالقبور.

تنبيه: مسألة الصلاة في القبور واتخاذها مساجد وما يتعلق بها من مسائل، منها:

أدلة تحريم الصلاة في المقابر وبناء المساجد عليها وعلة النهي عن الصلاة في المقبرة ، علة عدم إبراز قبر النبي ﷺ ، تسمية القبر وثناً إذا عُبد، وأن كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا، درجات الصلاة في المقبرة ، وبطلان الصلاة فيها وبطلان الأحاديث المتعلقة بزيارة قبر النبي ﷺ، والشبهات المتعلقة بالمسألة .كل ذلك تقدم.

المبحث الثاني : القبورية وشرك القبور وقد أفردتها بمبحث سابق.

الفصل العشرون : الأعياد

م (١) : تعريفه : العيد اسم لما يعود من الاجتماع على وجه معتاد عائد إما بعود السنة أو الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك . قاله ابن تيمية في الاقتضاء

م (٢) : العيد يجمع أموراً وضوابطا:

١- يوم عائد . ٢- واجتماع فيه . ٣- أعمال تتبع من العادات والعبادات .

م (٣) : ينقسم العيد إلى :

١- زماني كعيد المولد والوطني.

٢- مكاني كاتخاذ بعض القبور عيدا وتعظيم الأوطان والأمكنة.

م (٤) : دخول العيد في الشرع والدين والعبادة :

العيد من الشرع والدين الذي شرعه الله وأمر به ومن خصائص العبادات، ولا يجوز تشريع الأعياد وابتداعها وذلك من تشريع دين لم يأذن به الله .

م (٥) : المخالفة في الأعياد يكون على ثلاثة أوجه:

١- ابتداع عيد لم يشرعه الله وتشريعه للناس .

٢- مشاركة الكفار في أعيادهم :

وذلك بحضورها والأكل معهم فيها وتهنئتهم بها وتعطيل الأيام من العمل فيها واللعب فيها والهدايا لهم وقبولها منهم وإعانتهم على إقامتها وإظهار الفرح .

٣- ابتداع أعمال غير مشروعة في الأعياد الشرعية .

م (٦) : من مفاسد الأعياد المبتدعة :

١- أنها من التشريع الشركي فهي داخلة في عموم الشرك .

٢- مضاهاة الأعياد الشرعية التي أمر الله بها ومحادة الله ومناقضة شرعه.

٣- الصد عن شعائر دينهم والقيام بما يجب في الأعياد وتعطيل ما شرعت له.

٤- التشبه بالكفار.

٥- إماتة السنن وإحياء البدع.

م (٧) : أمثلة لأعياد بدعية :عيد الميلاد، النيروز، المهرجانات، رأس السنة، الأولمبيات، عيد الحب، والأم، والأيام الدولية: كيوم الصحة والطفل والتعليم وأسبوع الشجرة والمرور وهكذا .إحياء المولد النبوي والهجرة والإسراء .

الأعياد الوطنية وأيام الثورة والاستقلال والاعتلاء على الحكم وغيرها.

وهي محرمة سواء سميت بالعيد أو اليوم أو الاحتفال أو الفرح أو غير ذلك .

الفصل الحادي والعشرون : سب أفعال الرب ﷻ الدهر والريح

م (١) : علاقته بالتوحيد : تحريم سب الدهر والريح لأنه سب لفاعلها وهو الرب ﷻ . ويعتبر هذا الباب من الأبواب المتعلقة بالتأدب مع الله ﷻ وتعظيمه والوسائل التي تحفظ جناب التوحيد وتسد ذرائع الشرك وتغلق أبوابه.

م (٢) : تعريف الدهر وسبه :

هو الزمان الذي هو الساعات والأيام والليالي والشهور والسنين.

والدهر ليس من أسماء الله ﷻ كما توهم البعض.

ومعنى أنا الدهر أي مالكه ومدبره كما فسره بتقليب الليل والنهار وتصريفها .

والسب هو الذم والشتم والقدح واللمز.

وله أمثلة لا تكاد تحصر على ألسنة العوام والشعراء الذين يندبون زمانهم.

فيقولون : زمن غدّار ودهر أقشر وزمن أسود وسنة سوء وساعة شر.

والحق أن يقال فيهم: نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا.

م (٣) : العلل من تحريم سب الدهر والريح :

١- أن في السب قدحاً في باب التوحيد من عدة أوجه :

٢- عدم الرضا بالله وبأفعاله وأقداره .

٣- عدم تعظيم الله تعالى والقدح في أفعاله وتنقص تصرفاته .

٤- فيه إيهام بنسبة الحوادث للخلق وتأثيرهم من دون الله.

م (٤) : علة النهي عن سب الدهر والريح وعموم أفعال الله:

١- أن في سبه سباً لمصرفه وخالقه وفاعله المدبر له .

٢- كذلك يوهم ما تعتقده الدهرية من نسبة التدبير إلى غير الله، وأنه الفاعل والمؤثر، ومثله سب الريح ففيه سب لخالقها ومرسلها .

٣- أيضا فيه تسخط على أقدار الله وأفعاله وربوبيته .

وهذه الأمور تدخل في الشرك الأصغر .

م (٥) : سب الدهر يتعلق بالقدح في توحيد الربوبية والألوهية:

أولاً : وجه دخوله في الشرك في الربوبية : إذا اعتقد أن للدهر تأثيراً وتدبيراً فيه، وأنه الفاعل والمؤثر، ومثله اعتقاد أن الريح مدبرة وتؤثر من دون الله تعالى .

ثانياً: وجه دخوله في شرك الألوهية:التسخط على أقدار الله وعدم الرضا بالله.

م (٦) : السب يقع على أحد ثلاثة أوجه :
١- أنه ظرف الأقدار المكروهة التي حصلت فيه، فهذا محرم للعلل الثلاث.
٢- السب على أن له دخلاً وسبباً وأثراً، وهذا شرك ويدخل في النوعين :
فإن اعتقد السببية فشرك أصغر وإن اعتقد الاستقلال في التأثير فشرك أكبر.
٣- إخبار محض ووصف لا يقصد منه السب وهذا لا يدخل في المنهي .
كمثل ﴿ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ فصلت: ١٦ ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ القمر: ٨ ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ يوسف: ٤٨ ﴿ يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ القمر: ١٩ ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ هود: ٧٧ ونحو ذلك.
م (٧) : مفاسد السب :
١- سب من ليس أهلاً للسب ومن هو خلق مسخر منقاد لأمر الله.
٢- السب متضمن للشرك ، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع.
٣- السب إنما يقع على من فعل هذه الأفعال. استنبط ذلك ابن القيم .
م (٨) : دليل النهي عن سب الدهر :
قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ الجاثية: ٢٤ .
قال النبي ﷺ : (قال تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر أقلب الليل والنهار) رواه البخاري. وفي مسلم: (لا تسبوا الدهر،فإن الله هو الدهر) .
ودليل النهي عن سب الريح :
عن أبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تسبوا الريح) صححه الترمذي.
وقال ﷺ : (لا تلعنوا الريح ، فإنها مأمورة ، وإنه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه) رواه أبو داود والترمذي.
تنبيه : معنى الروح والنفس : هو من باب التنفيس والتفريج .
قال ﷺ : (الريح من روح الله) رواه أحمد وأبو داود.
وقال ﷺ (لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن) أخرجه الحاكم .
تنبيه: ما يقال عند هبوب الريح ورؤية ما يكره منها :
عن أبي بن كعب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به) صححه الترمذي.
وعند الحاكم والطبراني من دعاء النبي ﷺ : (اللهم لقاحا لا عقيما) .
ومنه : (اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا) .

م (٩) : فائدة : العبد يؤذي الله ﷻ ولكن لا يبلغ أحدٌ ضر الله :
لكن الأذية لا تبلغ إلى الضرر ، وهناك فرق بينهما.
فالله تعالى يؤذيه المخلوق ولا يضره.والأذى ما خف أمره وضعف أثره من الشر والمكروه . فالأذية من الخلق للرب نثبتها في حق الله ﷻ كما أخبر تعالى عن نفسه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الأحزاب: ٥٧ .
وفي الحديث الصحيح : (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر) رواه البخاري.
قال تعالى في سورتي آل عمران والقتال : ﴿ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ .
وفي الحديث يقول الله : (يا عبادي لن تبلغوا ضري فتضروني) .
وقال تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ آل عمران: ١١١ .
وفيما يؤثر عن النبيﷺ (القر بؤس والحر أذى) .
وجه الأذية لأن السب يقع على الله وأفعاله ومن صرفه وخلقه وفعله ودبره .
م (١٠) : ساب الدهر والريح ساب لله، ولو لم يقصده السب بقلبه.
فإن قصد السب لله حقيقة كان كفرا محضا .
م (١١) : حكم سب آيات الله ومخلوقاته والاستهزاء بها :
إن قصد بالسب نفس مخلوقات الله وآياته المخلوقة كالريح والشمس فقد وقع في أمر محرم ويدخل في النهي الوارد في الحديث.أما إن قصد بالسب خالقها وفاعلها فهذا كفر محض ، أو سب آيات الله الشرعية فكفر .
ولا يدخل في السب المنهي الاستهزاء بالكفار وآلهتم وسبهم فهذا مشروع.
م (١٢) : المقصود في الآية المتعلقة بسب الدهر ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ طائفتان :
مشركو العرب : الذين ينكرون البعث ، ويزعمون أن الدهور وطول السنين هي المهلكة وليس بعد الحياة الدنيا حياة.
الفلاسفة : وهم مذهبان :
الإلهيون الذين يقرون بالخالق لكن ينكرون البعث ويقولون بقدم العالم.
الطبعيون المنكرون الخالق والبعث معا ، ويزعمون أن الطبيعة خلقت نفسها.
تنبيه : البعث دلت عليه أدلة الشرع والعقل والحس.

م (١٣) : تنبيه : يخشى على من يسب الدهر والريح من لعنة الله :
لأنه يؤذي الله والله يقول ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الأحزاب: ٥٧ .

وفي الحديث قال ﷺ : (لا تلعنوا الريح ، فإنها مأمورة ، وإنه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه) رواه أبو داود والترمذي.

م (١٤) : **حقيقة سب الريح** :الكلام في سب الريح كالكلام عن سب الدهر . والريح مأمورة ومن ضعف العقل والحمق سبها . وفي سبها سب لمدبرها .

م (١٥) : **سب الريح كفر في حالتين** :

إن اعتقد أنها مستقلة في التأثير وليست مدبرة مربوبة.

إن قصد بالسب خالقها ومدبرها ومرسلها فسب الله لذلك.

م(١٦) كراهة الريح لايدخل في النهي للحديث (إذا رأيتم منها ما تكرهون).

تنبيه : الريح فيها خير كسوق المطر واللقاح. وشر كالباردة والجافة والعقيم .

م (١٧) : **من هذا الباب النهي عن سب الحمى**:

قال ﷺ : (لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم) رواه مسلم .

م (١٨): ينبغي التربي والتعود على تطهير اللسان من سيء القول والسباب .

الفصل الثاني والعشرون : الحلف

مقاصد مبحث الحلف: عدم الشرك في الحلف ، والصدق فيه ، والرضا ممن يحلف له وحفظ اليمين وعدم الإكثار منه ، والتأدب مع الله ﷻ وتعظيم الله حال الحلف من الحالف ومن المحلوف له وهذا من الوسائل التي تحفظ جناب التوحيد.

م (١) : تعريف الحلف :
هو: تأكيد الكلام بصيغة الجزم وأداة القسم مقترناً باسم من أسماء الله أو صفة من صفاته ، وهي الباء والواو والتاء ، وكذا لفظ أحلف وأقسم .
ويسمى : اليمين والقسم والحلف والإيلاء .
واليمين ثلاثة أنواع: منعقدة ، لغو غير مقصوده ، غموس.
م (٢) قاعدة : يجوز الحلف بصفات الله مثل : وعهد الله ، ودين الله .
م(٣) : الحلف بالأمانة : لا يجوز .
جاء في الحديث : (من حلف بالأمانة فليس منا) رواه أحمد وأبو داود.
تنبيه : قول العامة في وجهي وأنا في وجهك وأدخل عليك وأطلبك .
ليس من الحلف وإنما هو من الاستعانة والمحالفة والحماية.
م (٤) : حلف الله بالمخلوقات هذا لله فله أن يقسم بما شاء من خلقه وليس لخلقه أن يقسموا إلا به.
م (٥) : الأدلة على تحريم الحلف بغير الله وبيان أنه من الشرك :
قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٢.
وفسر ابن عباس الأنداد في الآية: بالحلف بغير الله ونحوه. رواه ابن أبي حاتم.
١- عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) رواه أبو داود والترمذي وأحمد والحاكم.
٢- قال النبي ﷺ :(ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) رواه البخاري ومسلم .
تنبيه : النهي عن الحلف بالآباء ليس له مفهوم ، فالحلف بغير الله يحرم مطلقا بالآباء أو بغيرهم.

٣- عن قتيلة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: (ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء ثم شئت) رواه النسائي وأحمد والحاكم.

٤- عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال:(لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق ،ومن حلف له بالله فليرض،ومن لم يرض فليس من الله)رواه ابن ماجه بسند حسن.

م (٦) الجواب عن حديث: (أفلح وأبيه)، وحديث أبي هريرة عند مسلم (نعم وأبيك) فهي لفظة منكرة غير محفوظة ، ثم يقال في الجواب عنها أوجه:

الأول: أن هذه اللفظة ليست للحلف، وإنما تجري على الألسنة من غير قصد القسم ومثلها العبارات التي تجري مجرى الدعاء من غير قصده كثكلتك أمك .

الثاني: أن الواو ليس للحلف وإنما للعطف والمعنى أفلح وأفلح أبيه ، لأن فلاح الابن فلاح لأبيه غالبا .

الثالث : أن هذا الحلف كان منه ﷺ قبل النهي عنه، ويدل لذلك حديث قتيلة السابق، عليه فالحلف بالآباء منسوخ .

م (٧) : أحوال الحلف بغير الله :

١- يكون شركاً أكبر إذا اعتقد أن المحلوف به مساوٍ لله تعالى، وحصل في قلبه التعظيم وقارنه الذل للمخلوق المحلوف به والمهابة والخوف منه، ويعد هذا الصنيع شركا أكبر لكون الحالف صرف خصيصة من خصائص الألوهية والربوبية للمخلوق ، كما هو حال القبورية الذين جعلوا جهد أيمانهم الحلف بالشيوخ والأولياء، فإذا طلب من أحدهم الحلف بالله وهو كاذب حلف فإذا طلب منه الحلف بالولي والميت توقف خوفا وإجلالا .

٢- يكون شركاً أصغر : وهذا إذا كان مجرد لفظ من غير قصد التعظيم والتذلل كما جرى على ألسنة البعض الحلف بالأمانة والشرف والنبي وحياة الأب .

فكون شرك الألفاظ من الشرك الأصغر مرجعها ومدارها على القصد والاعتقاد .

م (٨) : خطأ بعض الفقهاء في قولهم إنه يطلب من الخصم أن يحلف بغير الله:

وذلك إذا عرف عنه أنه لا يحلف به كاذبا . ومثل ذلك قول بعضهم يطلب من الحالف أن يحلف عند مكان معظم وذكر بعضهم القبر وصخرة بيت المقدس وهذا من الجهل والبعد عن مقاصد الشريعة .

قال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقا. رواه الطبراني والصنعاني وابن أبي شيبة والطبري .

وذلك لأن الحلف بغير الله شرك ، وأما الكذب فهو كبيرة وليس بشرك، والشرك أعظم ذنب عصي الله به ولذلك لا يغفره الله تعالى .

م (٩) : كفارة الحلف بغير الله :

أن يقول الحالف لا إله إلا الله ، ويستغفر ، ويدل لذلك : (من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله) ، وفي رواية فليستغفر . متفق عليه

م (١٠) : الوعيد في من لم يقنع بالحلف بالله :

لأن عدم القنوع باليمين فيه عدم تعظيم الله وينافي الأدب معه وكمال توحيده.

ولكن إذا كان الحالف معروفاً بالكذب فلا يشمله الحكم بوجوب الرضا.

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض. ومن لم يرض فليس من الله) . رواه ابن ماجه.

تنبيه: إذا كان الحالف معروفاً بالكذب فلا يشمله الحكم بوجوب الرضا بيمينه ، ويدل لهذا أحاديث منها حديث حويصة ومحيصة وقولهم للرسول ﷺ كيف نرضى يا رسول الله بأيمان اليهود) متفق عليه ، ولم ينكر عليهم .

فائدة : قول عيسى ﷺ في الرجل الذي رآه يسرق فحلف أنه ما سرق : (آمنت بالله وكذبت عيني) متفق عليه .

قيل الرجل لم يسرق في الحقيقة وربما يكون قد أخذ ما له حقٌّ فيه .

والصواب أنه كان سارقا وصدق عيسى يمينه تعظيما ومهابة واحتراما لله ﷻ.

م (١١) : وجوب حفظ اليمين والنهي عن عدمه وعن كثرة الحلف :

والعلة في كل ذلك لما فيه من منافاة تعظيم الله .

قال الله تعالى: ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ المائدة: ٨٩ ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ البقرة: ٢٢٤ ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ القلم: ١٠.

م (١٢) : الحفظ يكون بأمور :

١- الحلف بالله وحده وعدم الحلف بغير الله تعالى .

٢- عدم الحلف بالله أصلا إلا للحاجة .

٣- عدم الإكثار من الحلف .
٤- عدم استعمال الحلف في الأمور الحقيرة والدنيوية .
٥- عدم استعمالها في البيوع ، وهذا محرم ووردت الأحاديث المحرمة له.
٦- الوفاء بما حلف عليه وعدم الحنث إلا للمصلحة.
٧- القيام بالكفارة إن حنث في حلفه .
٨- عدم الكذب ، والكذب في اليمين عمدا يسمى الغموس لأنها تغمس في الإثم والعقوبة ، ويستثنى من حلف كاذبا لدفع ضرر لا يستحقه وهو مكره .
وكل هذه الصور تنافي حفظ اليمين ، وتنافي تعظيم الرب وكمال التوحيد .

م (١٣): يحرم استعمال اليمين في البيوع ، وقد وردت الأحاديث بذلك:

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب) متفق عليه.

عن سلمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه) رواه الطبراني بسند صحيح.

م (١٤): لا تطلب اليمين ممن عرف بعدم احترامها والكذب فيها تعظيما لله.

عن ابن مسعود ﷺ قال ﷺ: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته)رواه البخاري.

عن عمران ﷺ : (ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون) رواه البخاري.

قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار.

م (١٥) : الكفارة واجبة في اليمين المنعقدة لا أيمان اللغو :

قال تعالى :﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ المائدة: ٨٩ .

م (١٦) : يدخل في هذا الباب وجوب إجابة من سأل بالله، وهذا من لوازم تعظيم الله ، ولهذا بحث مستقل في بابه .

الفصل الثالث والعشرون : التسوية اللفظية وشرك الألفاظ

أمثلة المسألة : كقول: ما شاء الله وشئت ، مالي إلا الله وأنت ، توكلت على الله وعليك ، من الله والوقت، أعوذ بالله وبك.

حقيقة قول: (ما شاء الله وشئت) أن فيه قدح في التوحيد وشيء من الشرك ، لما فيها من التعلق بغير الله والتوكل على الخلق ، ونسبة الحوادث للخلق ، ولما فيها من نسبة شيء من التدبير والتأثير لغير الله، وهي داخلة في عموم شرك الأسباب .

م (١) : معنى المشيئة من الفعل شاء يشاء بمعنى أراد.

م (٢) حقيقة الشرك في قول ما شاء الله وشئت، ولولا الله وفلان لصار كذا:

شرك لأن فيها نسبة شيء من التدبير والتأثير والحوادث لغير الله .

إن اعتقد أنه يساوي الله في التدبير والمشيئة وأن هذه الأمور تؤثر وتدبر فهذا شرك أكبر ، وإن لم يعتقد ذلك واعتقد أن الله وتعالى فوق كل شيء لكن اعتمد على السبب وساواه بالمسبب فهذا شرك أصغر.

تنبيه : هذه اللفظة تقدح في توحيدي الألوهية والربوبية:

شرك ربوبي باعتقاده وجود مدبر مريد مع الله، وألوهية بتوكله على المخلوق.

تنبيه: كره إبراهيم النخعي قول: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك.

الاستعاذة كالاستغاثة لا تطلب إلا من الله إلا ما كان تحت قدرة المخلوق.

م (٣) : فعل المشيئة يوصف بها الرب ﷻ والعبد:﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

ومشيئة الله أحد مراتب القدر الأربع .

والعبد له مشيئة حقيقية لكنها داخلة تحت مشيئة الله ولا تحصل إلا بقدر الله.

ومشيئة الله تنكرها القدرية وتزعم أن الله لم يقدر ويشأ ويخلق أفعال العباد .

ومشيئة العبد تنكرها الجبرية .

م (٤) : الأدلة المحرمة لقول: ما شاء الله وشئت :

١- عن حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان) رواه أبو داود بسند صحيح.

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: (أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده) .

وفي رواية (أجعلتني لله عدلا؟ قل ما شاء الله وحده) رواه أحمد .

٣- عن قتيلة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: (ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء ثم شئت) رواه النسائي وأحمد والحاكم.

٤- حديث الطفيل الزهراني أخي عائشة لأمها:(فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده) رواه ابن ماجه. وفي الحديث مسائل:

١- معرفة اليهود بالشرك الأصغر، مع مكابرتهم للحق وامتناعهم عن اتباعه.

٢- حكم العبارة بينته الرؤيا وهي من الوحي وقد شرع بها أحكام كالأذان.

٣- هذه العبارة ليست من الشرك الأكبر لأنها لو كانت منه لما أخر إنكارها .

٤- معنى (يمنعني كذا) :المانع له ﷺ هو الحياء ، كما جاء مصرحا به في رواية .

٥- تنبيه : هناك حِكمٌ كثيرة في كون هذه اللفظة المنكرة لم ينكرها إلا اليهود.

م (٥) : الفرق بين الواو وثم في (ما شاء الله ثم شئت / ولولا الله ثم فلان) :

أن ثم تقتضي التعقيب والتراخي والواو تقتضي التسوية والتشريك .

وأكملها قول ما شاء الله وحده .

وما شاء الله ثم شاء فلان تجوز.

أما ما شاء الله وشاء فلان فلا تجوز.

التسوية إن كانت في اعتقاد الاستقلال بالفعل والشراكة في القدرة والتأثير فهذا شرك أكبر، وإن كانت التسوية في اللفظ فقط ومجرد السبب فهذا من الأصغر.

م (٦) : المقارنة بين هذه اللفظة وبعض ألفاظ القبورية المشركة :

إذا كان هذا قوله ﷺ أجعلتني لله ندا؟ فيمن قال ما شاء الله وشئت، فماذا سيقول فيمن قال: يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك وأبياته البقية في قصيدته.

قال ابن القيم في الجواب الكافي: (ومن الشرك به سبحانه الشرك به في اللفظ، كقول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئت، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: (ما شاء الله وشئت. فقال: أجعلتني لله نداً، قل ما شاء الله وحده)أحمد. وهذا مع أن الله أثبت للعبد مشيئة كقوله: (لمن شاء منكم أن يستقيم) ، فكيف من يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا من حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، ويقول: والله وحياة فلان، أو: يقول: نذراً لله ولفلان، وأنا تائب لله ولفلان، وأرجو

الله وفلاناً، ونحو ذلك؟ فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: (ما شاء الله وشئت)، أيها أفحش؟ يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبيﷺ لقائل تلك الكلمة.

وأنه إذا كان قد جعله نداً لله بها، فهذا قد جعل من لا يداني رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء، بل: لعله أن يكون من أعدائه؛ نداً لرب العالمين).

م (٧) : الجمع بين النهي عن قول هذه الألفاظ وبعض العبارات المشروعة :

أولاً : الجمع بينها وبين قوله تعالى: ﴿ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ التوبة: ٧٤، ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ الأحزاب: ٣٧.

١- أن هذا من كلام الله وله تعالى أن يخبر بما شاء .

٢- أن إثبات ذلك مقيد والرسول ﷺ سبب في هذه الأمور، فقد أنعم على زيد بالعتق والناس بالصدقة، والله المنعم حقيقة وهو المغني والعالم حقيقة .

٣- أن النهي عن هذه الألفاظ من باب سد الذريعة ولتحقيق تعظيم الله تعالى وإفراده بالتصرف والمشيئة والكمال والنفع والضر والقدرة والخلق والتأثير .

ثانياً : الجمع بينها وبين قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ النور: ٥٢.

أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى .

ثالثاً : الجمع بينها وبين حديث: (إن الله ورسوله حرم) متفق عليه .

أن تحريم الرسول ﷺ هو بتحريم الله ﷻ فليس الرسول ﷺ مشرّعاً للدين استقلالا وإنما هو مبلغ عن الله دينه وشرعه.

أما إنكار الرسول ﷺ على الخطيب الذي قال : (ومن يعصهما فقد غوى) فقال له : (بئس الخطيب أنت) رواه مسلم.

فلأن الخطيب كان قادرا على الإتيان بالاسم الظاهر، ثم أراد أن ينبه المسلمين للتأدب مع الربوبية وعدم الغلو فيه وقرنه بالله في المنزلة مما قد يفهم منه تسويته بالله .

رابعاً : الجمع بينها وبين قول عائشة: (أتوب إلى الله ورسوله) رواه البخاري.

أن التوبة بمعنى الرجوع اللغوي ويكثر هذا على ألسنة الناس، أو أن التوبة للرسول توبة لله مثل الطاعة وليست العبادة والأول أقرب.

ويؤيد ذلك قول الأعرابي اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال ﷺ : (عرف الحق لأهله) رواه أحمد.

ومثلما سبق قول الصحابة زمن حياة الرسول ﷺ : (الله ورسوله أعلم) .

الفصل الرابع والعشرون : قول : (لو / لولا)

م (١) : علاقة لو بالتوحيد: لو تقدح في التوحيد ويظهر ذلك من ملحظين :

الأول : أن قول لو تقوم على التسخط على القدر والجزع والتحسر والندم.

والتوحيد لا يتم إلا بالرضا بالله وبالقدر والاستسلام لله في كل شيء وعدم التسخط على أفعاله وأقداره.

الملحظ الثاني : أن قول لو فيه التفات للسبب وإيهام استقلاله بحصول المطلوب، وفي هذا نسبة الحوادث لغير الله وتعلق بالأسباب وتسوية الخالق بالمخلوق في الفعل والسبب والتأثير، وفي هذا أيضا منافاة للتوكل الذي تقوم عليه العبادة .

من هنا يتبين مخالفة هذه الكلمة للتوحيد وفتحها لباب الشرك ، وعليه فهي داخلة في الشرك الأصغر ويعد من الوسائل التي قد توصل إلى الشرك الأكبر.

م (٢) : الأدلة الواردة في لولا ولو :

١-قال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

قال ابن عباس في تفسير الآية : (الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل . وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص. ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت. وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلانا ؛ هذا كله به شرك) رواه ابن أبي حاتم.

٢- قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ آل عمران: ١٥٤ .

٣- حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول ﷺ قال: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان) رواه مسلم.

م (٣) : وقفات مع الحديث :

١- حال العبد مع الأمر المراد :

قبل وقوعه عليه بما يلي: الحرص على ما ينفعه في دينه ودنياه ، الاستعانة بالله والتوكل على الله ، القيام به وعدم العجز والتواكل والتفريط في الأسباب.

بعد وقوع المراد إن حصل ما يريد من خير يشكر الله .

وإذا لم يحصل يتسلى بالصبر ويتعزى بالقدر ويقول ما ورد في الحديث .

٢- أقسام الناس عند المصائب :

جازع متسخط ، يقول : لو أنني فعلت كذا لكان كذا وكذا .
صابر يقول : قَدَر الله وما شاء فعل . والدال بالتخفيف ويصح فيها التشديد.
٣- **فائدة :** عمل الشيطان الذي تفتحه لو : الوسوسة والتسخط والحزن .
م (٤) : قاعدة:حقيقة الشرك في قول لو ولولا :
١- أن قول (لو) تقوم على التسخط على القدر والجزع والتحسر والندم.
والتوحيد لا يتم إلا بالرضا بالله وبالقدر والاستسلام لله في كل شيء وعدم التسخط على أفعاله وأقداره.
٢- أن قول (لولا) شرك لأن فيها نسبة شيء من التدبير والتأثير لغير الله.
وهي داخلة في باب شرك الأسباب والاعتماد عليها ونسبة الحوادث للخلق.
والقاعدة في هذه الألفاظ معروفة متى تكون من الشرك الأصغر أو الأكبر.
يزيد لفظ (لولا الله وفلان) أن فيه التسوية في اللفظ الموهم التسوية في التأثير.
م (٦) : وجه كون (لو) قادحة في كمال التوحيد :
١- أنه ينافي كمال التوكل الذي تقوم عليه العبادة .
٢- أن فيه تسخطاً على القدر وعدم الرضا عن الله وأقداره.
٣- نسبة الحوادث لغير الله وتعلق بالأسباب.
٤- تسوية الخالق بالمخلوق في الفعل .
م (٧) : حالات قول (لو) :
١- إذا كان لتمني الخير فهو جائز ومنه قوله ﷺ : (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لسقت الهدي) . وقول لوط : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ هود: ٨٠.
٢- أن تكون للجزع والتسخط والاعتراض على القدر أو تمني الشر ، فهذا محرم وهو الذي ورد النهي عنه . (وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا).
٣- إن كان لبيان سبب حقيقي في الأمر فلا بأس : كقول النبي ﷺ عن أبي طالب : (لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار) .
م (٨) : الفرق بين لو ولولا :
لو : المقصود منها الاعتراض على القدر وعدم الرضا ، مثال : لو سافر ما قتل.
لولا : المقصود منها هنا نسبة الحوادث للمخلوق والاعتماد على السبب.
مثال : لولا كذا أو لولا الله وفلان لما صار كذا ، وهذا شرك تسوية في اللفظ
م(٩) فائدة : لفظ (ليت) قد تكون مثل لو في الدلالة فتأخذ نفس الحكم .

الفصل الخامس والعشرون : الظن بالله تعالى، وأحكام الظن الحسن والسيئ.

م (١) : تعريف الظن وحقيقته وأنواعه:

الظن هو التوقع والعلم بالشيء على غير حقيقته غالبا وهو أنواع :

١- ظن صحيح صادق وظن باطل كاذب آثم.

٢- ظن حسن وضده الظن السيئ .

م (٢) : ارتباط مسألة الظن بالله بثلاثة أبواب من العقيدة :

١- باب الأسماء والصفات.

٢- باب العبادة وتوحيد الألوهية والرجاء والتوكل.

٣- باب القدر .

م (٣) : صوره : أنواع الظن السيئ بالله لا تحصر فمنها :

ظن الكثير أن الله لن ينصر دينه وأولياءه وسيخذلهم ويظهر الكفار عليهم، وأن الله يخيب من دعاه ورجاه وتوكل عليه، ظن العبد أن الله لن يرحمه ولن يعاقبه إذا أساء ، الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله، ظن الجهال أنه يمكن مغالبة القدر وأن الشخص لو فعل كذا لما وقع المقدور ، ما يقع في نفس الكثير أن هذا الأمر الذي قدره الله وأراد وقوعه لا حكمة فيه أو فيه شر، أو أن فيه ظلماً على العباد، الاعتراض على القدر، أن الله لم يقدر الأمور، اعتقاد أن الله يساوي المسلم بالكافر والطائع بالعاصي، إنكار الحساب والثواب والعقاب، إنكار صفات الله وتحريفها ، الشرك .

تنبيه: ليس من الظن السيئ خشية الله والخوف من عدم قبول العمل.

تنبيه : الشرك بالله بأنواعه من أعظم أنواع إساءة الظن بالله تعالى ومن أبرزها جعل الوسائط بين الله وبين خلقه تشبيها له بملوك الدنيا الذين لا يرحمون ولا يعلمون ولا يقدرون إلا بالوسطاء عندهم .

م (٤) : خطورة الظن وطرق السلامة منه :

يقع أكثر الناس في الظن السيء وهم بين مقل ومكثر ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه. والواجب أن لا يظن العبد بربه الذي كل خير منه تعالى ، وليظن بنفسه التي هي مأوى كل سوء .

م (٥) : مرجع الظن بالله إلى معرفة صفاته والعلم الصحيح به .

وسبب الظن السيئ : إنكار صفات الله تعالى وتحريفها والجهل بها.

م (٦): علة تحريم سوء الظن بالله ووجه دخوله في الشرك الأصغر:

أن في حسن الظن بالله تعظيما لله تعالى ومعرفته حق المعرفة، وضد ذلك الذي هو سوء الظن بالله يعد تنقصا لله تعالى، وجهلاً بصفاته الحسنى، وتشبيهاً له بخلقه، واعتراضاً على قدره، وإساءة أدب معه فهو بذلك يعتبر من قوادح التوحيد .

م : (٧) : أدلة المسألة :

١- قوله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ آل عمران: ١٥٤.

والآية جاءت في سياق قصة معركة أحد وما قاله المنافقون فيها.

٢- قوله تعالى: ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ ﴾ الفتح: ٦.

وهي في المنافقين والمشركين، وفيه دلالة على ارتباط الظن بالشرك والنفاق.

٣- قال ابن القيم في الآية الأولى في زاد المعاد عند كلامه عن معركة أحد :

(فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته. ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله. وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح. وإنما كان هذا الظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق . فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله، وليستغفره من ظنه بربه).

تنبيه: رد ابن القيم الظن السيئ عند المنافقين والجهال في الآية لثلاثة أسباب:

١- أن الله لن ينصر دينه ورسوله وأنه سيضمحل أمره ويعلو أعداؤه.

٢- أن هذا الأمر لم يكن بقدر الله وكان يمكن دفعه.

٣- أنه مخالف للحكمة .

أدلة الظن الحسن:

١- قال الله ﷻ: (أنا عند ظن عبدي بي فليظن عبدي بي ما شاء)البخاري.

٢- قال ﷺ : (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن ظنه بالله ﷻ) رواه مسلم .

٣- في الحديث: (حسن الظن بالله من حسن العبادة) رواه الترمذي والحاكم.

الفصل السادس والعشرون : الألفاظ الشركية

وتحته اثنا عشر مبحثا:

أولاً: الإلحاد في أسماء الله تعالى : أنواعه وصوره:
١- تعطيل الله من أسمائه وصفاته .
٢- تمثيل الله بخلقه ، ومن ذلك تسمية الله ﷻ بأسماء المخلوقين.
٣- تمثيل المخلوق بالرب ، ومن ذلك تسمية المخلوق ببعض أسماء الله .
ومن أعظم ذلك إلحادا تسمية الأصنام والآلهة الباطلة بأسماء الله تعالى.
٤- تسمية الله بما لم يسم به نفسه ، أو بما لا يليق كالأب والواجب والصانع.
٥- تحريف معاني أسمائه وصفاته وتأويلها.
٦- ادعاء أن معانيها مجهولة ولا تعرف وتفويض معانيها.
٧- تكييف صفات الله .
٨- وصفه سبحانه بالنقائص كالنوم والتعب والولد .
٩- ادعاء أنها جامدة غير مشتقة، أو أنها مخلوقة .
وكل هذه الصور داخلة في حقيقة الشرك.
قال قتادة : يلحدون يشركون . أخرجه ابن أبي حاتم .
والإلحاد منه ما هو مناف لأصل التوحيد ، ومنه ما هو مناف لكماله .

ثانياً : التسمي بأسماء الله والتشبه بها ووجوب احترامها :
عن أبي شريح أنه كان يكنى أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: (إن الله هو الحكم، وإليه الحكم. فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين. فقال: ما أحسن هذا فما لك من الولد؟ قال شريح ومسلم وعبد الله. قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح. قال: فأنت أبو شريح) رواه أبو داود وغيره.
م (١) : العلة من النهي عن التشبه بأسماء الله تعالى وتغيير الأسماء المشابهة :
العلة في ذلك ظاهرة : ويمكن إرجاعها لقاعدتين :
الأولى : أن في ذلك من تعظيم المخلوق وتشبيهه بالرب ﷻ وهذا قد يؤدي إلى الشرك بالمخلوق وعبادته وهذا ينقض التوحيد من أصله.

الثانية : لما يلزم منه القدح في عظمة الله وجعل المخلوق بمنزلة الخالق وأنه ليس بأرفع وأعظم من خلقه .

م (٢) : ما يدخل في باب احترام أسماء الله :

١- أن لا يسمى المخلوق بأسماء الله تعالى .

٢- أن لا يسمى الله ﷻ بأسماء الخلق .

٣- أن لا يسمى المخلوق باسم يشعر بصفة اختص الله بها كملك الملوك .

٤- أن لا يعبد العبد لغير الله في الاسم كعبد الرسول والمسيح.

٤- أن لا ينكر شيئاً من أسماء الله وصفاته ولا تحرف معانيها .

م (٣) : احترام أسماء الله وما يخالف ذلك له درجتان :

الأولى : ما هو ركن في التوحيد ويعتبر من أصله الذي يكفر من نقضه .

مثل تسمية الأصنام بالعزى ونحوها وكتسمية القبورية الغلاة بعض الأولياء الأموات بمالك الأمور وخازن السماء ونحوها ، فهذا شرك أكبر .

الثانية : ما هو من كمال التوحيد الذي يعتبر من قدح فيه واقعاً في الشرك الأصغر ، ومثاله ما جاء في حديث الباب .

م (٤) : الاحترام يكون بالقلب واللسان والجوارح .

ومن صور احترام أسماء الله تعالى:

أن لا ترمى إذا كانت مكتوبة في أوراق في الزبل ولا تدعس بالقدم .

وأن لا تصغر أسماء الله تعالى ، كأن يقال في قاهر قويهر .

وأيضا لا يصغر ما عبد بأسمائه كأن يقال في عبد الرحمن رحيّم ودحيّم ودحمان وعزوز تصغير عبد العزيز ونحو ذلك مما هو شائع في ألسنة العامة .

م (٥) : تنبيه بليغ : إذا كان الرسول ﷺ غير كنية أبي الحكم لما فيها من منازعة الله صفته الحكم من حيث الاسم مع عدم حكمه بغير ما أنزل الله فكيف الحال بمن نازع الله هذه الصفة من أصلها من مشركي زماننا فادّعى لنفسه الحكم والتشريع والتحليل والتحريم ، وهذا كفر أكبر بواح بلا خلاف .

م (٦) : لم لم يغير الرسول ﷺ اسم حكيم بن حزام والحكم الغفاري ؟

والجواب : أن هذه أعلام محضة لم يقصد فيها الصفة التي هي الحكم .

ومن هذا الباب أيضاً جواز إطلاق كلمة الأخ الكريم والعزيز مالم يقصد مشابهة اسم الله تعالى.

ثالثاً: التسمي بملك الملوك وقاضي القضاة :

دليل تحريم هذه العبارة :

حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إن أخنع اسم عند الله رجل تسمَّى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله) متفق عليه.

وفي رواية: أغيظ ، وفيه إثبات صفة الغيظ لله ﷻ على الحقيقة .

ومعنى أخنع : أوضع وأحقر وأخس وأسوأ وأخبث.

العلة من التحريم :

أن التسمي بقاضي القضاة ونحوه فيه قدح في التوحيد محرم من جهتين:

الأولى: تنقص عظمة الله من ناحية تشبيه المخلوق بالخالق في الاسم والمكانة.

الثانية: فيه تعظيم المخلوق مما قد يؤدي إلى الشرك به فصار وسيلة له.

هذا الباب فيه مشابهة : لباب التعبيد لغير الله ، وباب قول ربي وعبدي ، وباب احترام أسماء الله، وباب من جحد شيئا من الأسماء وغيرها.

مسألة : ومثل هذه التسمية المنكرة : إطلاق لقب ملك القلوب والإنسانية وصاحب الجلالة وصاحب الفخامة ، ومثل ذلك أيضاً : شيخ الإسلام وقاضي القضاة والمفتي الأكبر وحجة الإسلام.

رابعاً : التعبيد لغير الله وشرك التسمية .

م (١):حكم التعبيد لغير الله وأقسامه :

أولاً : يعتبر محرما ومن الشرك الأصغر إذا قصد به مجرد التسمية.

ثانياً : يكون شركا أكبر إذا كان المقصود منه العبادة.

ويظهر هذا المعتقد كثيرا فيمن يسمي بعبد علي وعبد النبي.

م (٢) : الجواب عن قول الرسول ﷺ أنا ابن عبد المطلب :

١- أنه من باب الإخبار وليس الإقرار .

٢- أن عبد المطلب اسمه شيبة الحمد ، وسمي بعبد المطلب لأنه دخل مكة مع أخيه المطلب وكان غلاما أسمر اللون فظنت قريش أنه عبد له فقالوا عبد المطلب فاستسمى بذلك، فيكون (عبد) هنا بمعنى رقيق وليس تعبيد العبادة فالرسول ﷺ غير من كان اسمه عبد شمس لما كان في التسمية معنى العبادة .

م (٣) :التحقيق فيما نسب لآدم من وقوعه في الشرك بتسمية ابنه بعبد الحارث:
اعلم أن أهل العلم قد اختلفوا في وقوع آدم في الشرك وثبوت ما نسب إليه مع إجماعهم أن المقصود به الشرك الأصغر وليس الأكبر .

فذهب جماعة من السلف إلى أن آدم وحواء وقعا في الشرك مستدلين بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٩ - ١٩٠ .

وقالوا : إن المقصود بها آدم وحواء واستدلوا لذلك :

بحديث سمرة بن جندب ﷺ أن النبي ﷺ قال : (لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبدالحارث فإنه يعيش فسمته عبدالحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره) رواه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم.

وقوله ﷺ : (خدعهما مرتين) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير.

ثم إنهم فسروا الشرك هنا بأنه كان في التسمية لا في العبادة .

لكن الصحيح أن آدم وحواء لم يقعا في الشرك ، وأن الذي وقع فيه هم المشركون من الذرية وبنو آدم وليس آدم ، كما قال الحسن البصري وغيره ونصره ابن القيم وابن كثير وغيرهم ، وأن معنى الآية: أنه لما أتى آدم وحواء صالحا كفر به بعد ذلك كثير من ذريتهما، وأسند فعل الذرية إلى آدم وحواء لأنهما أصل لذريتهما .

قال الحسن: (كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم) أخرجه الطبري.

قال ابن القيم: (النفس الواحدة وزوجها آدم وحواء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما،ولايلتفت إلى غير ذلك أن آدم وحواء كان لايعيش لهما ولد فأتاهما إبليس فقال: إن أحببتم أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث ففعلا، فإن الله اجتباه وهداه لم يكن ليشرك به بعد ذلك) روضة المحبين ٢٨٩.

خامساً : قول : السلام على الله .

م (١) : حكم قول : (السلام على الله) :

يحرم قول هذه العبارة ، ولا يزال بعض العامة بعد الصلاة يقول اللهم أنت السلام وعليك السلام ، والواجب أن يقال ومنك السلام بدل عليك السلام .

م (٢) : دليل تحريم هذه العبارة : عن ابن مسعود ﷺ قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ : (لا تقولوا السلام على الله ؛ فإن الله هو السلام) رواه البخاري .

م (٣) : وجه دخول هذه العبارة في شرك الألفاظ الأصغر :

أن قول السلام على الله يقدح في التوحيد ويدخل في الشرك من جهتين :

١- أنه يلزم منه أن الله تعالى محتاج لمن يسلمه وأنه غير سالم من النقص.

٢- وأن الله سبحانه محتاج لمن يدعو له وهذا يخالف كونه يُدعا ولا يدعا له.

وفي هذا قدح في الرب ﷻ ومناقضة لتعظيمه، وتشبيه له بالمخلوق الناقص.

م (٤) : علة نهى النبي ﷺ الصحابة عن قول هذه العبارة: بيّن ﷺ علة النهي وهي أن الله هو السلام ولا يسلّم أحد دونه، فهو المسلم لخلقه السالم من كل نقص، وأما الخلق محتاجون للسلام فمن الذي يسلم الله وهو السلام السالم المسلم سبحانه .

م (٥) : معنى السلام :السلام له معنيان :

ثبوتي: أي المسلم لغيره من النقص، وسلبي من السلامة من النقص والعيب.

م (٦) : الفرق بين التحية والسلام: يقال التحيات لله ولا يقال السلام لله وعلى الله . لأن التحيات تأتي بمعنى الثناء وبمعنى السلام، فتضاف لله بالمعنى الأول.

سادساً : تعليق الدعاء بالمشيئة ، مثل قول:اللهم اغفر لي إن شئت.

م (١) : حكم قول : (اللهم اغفر لي إن شئت) :

يحرم قول هذه العبارة في الدعاء الديني والدنيوي، ومع ورود النهي عنها إلا أنه لا يزال كثير من الناس يعلق دعاءه بالمشيئة ،كقولهم: الله يعافيك إن شاء الله.

وهذا الحكم يتأكد تحريمه وقد يصل إلى الشرك الأكبر ما لو تحققت العلل في قلب من يقولها ، أنه مستغن عن الله أو أن الله له مكره أو صعب عليه ولا يقدر عليه.

م (٢) : دليل تحريم هذه: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له).ولمسلم: (وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه) رواه البخاري.

١- نهي النبي ﷺ عن هذه العبارة كما جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري.

٢- قال ﷺ : (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل) رواه الترمذي.

م (٣) : وجه دخول هذه العبارة في شرك الألفاظ الأصغر وعلاقتها بالتوحيد:
أن هذه العبارة فيها تعليق الدعاء بالمشيئة، وهذا يقدح في التوحيد من جهات: إيهام الإكراه والعجز في حق الله والاستغناء عنه، وهذه لوازم فيها سوء أدب معه.
كما أن هذا الباب الاستثناء في الدعاء يتعلق بتوحيدي الربوبية والألوهية :
دخوله في شرك الألوهية أنه ينافي الافتقار لله والتذلل والخضوع وغيرها من المعاني التي تقوم عليها العبودية وهذا من حيث الاستغناء عن الله وعدم الرغبة.
ودخوله في شرك الربوبية : أن فيه قدحاً في الرب ﷻ ومناقضة لتعظيمه، وتشبيهاً له بالمخلوق الناقص ، وهذا المعنى من حيث توهم الإكراه والعجز في الله.
م (٤) : ذكر النبي ﷺ ثلاث علل في وجه تحريم قول هذه العبارة:
أن تعليق الدعاء على المشيئة محرم لكونه قادحاً في التوحيد من ثلاث جهات :
الأول : أنه قد يفهم منه أن أحداً يكره الله عز وجل والله ليس له مكره .
وهذه العلة نص عليها النبيﷺ بقوله: (فإن الله لا مكره له).
الثاني: أنه قد يلزم منه أن هذا الأمر عظيم أو صعب على الله .
وهذه العلة نص عليها النبيﷺ بقوله: (فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه).
الثالث: أنه يفهم منه أن الإنسان غني عن عطاء الله وليس في حاجة لدعاء الله تعالى ، فإن تحقق المدعو به أو لم يتحقق فالأمر بالنسبة للداعي سواء .
وهذه العلة نص عليها النبيﷺ بقوله: (ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة) .
م (٥): فائدة: ليس من تعليق الدعاء المنهي عنه ما قصد به البركة لا التعليق ، كما في حديث (طهور لا بأس إن شاء الله) ، وحديث (وثبت الأجر إن شاء الله) ، وحديث دعاء الاستخارة.
م (٦): قاعدة: أحكام الشريعة معللة وليست مجرد تعبدية فالله تعالى إذا نهى عن شيء كان ذلك لحكمة قد نعلم بعضها ونجهل بعضها ، ومن هذا الأصل نهيه ﷺ عن الاستثناء في الدعاء حيث قرن بين الحكم وحكمته فبين العلة في النهي.

سابعاً : النهي عن التعبيد لغير الله تعالى وقول عبدي وربي .
فيه مشابهة لباب شرك التسمية.
م (١) : حكم قول : (عبدي وربي) : يكره قولها، وتكون هذه العبارة محرمة وتصل إلى الشرك الأكبر ما لو قصد حقيقة العبودية والربوبية وليس الرق والسيادة.

تنبيه : توجد هذه العبارة في من يوصفون بالمشرعين والجهات المشرعة .

م (٢) : **دليل تحريم هذه العبارة** : عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضيء ربك؛ وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي) متفق عليه .

م (٣) : **وجه دخول هذه العبارة في شرك الألفاظ الأصغر وعلة تحريمها:**

أن هذه العبارة توهم المشاركة في الربوبية وتشبيه المخلوق بالله تعالى .

وأيضاً وجود من يستحق العبادة من دون الله .

م (٤) : **الفرق بين السيد والرب :**

أن الرب إذا عرّف لا يطلق على الله تعالى.

م (٥) : **فقه البدائل** :أمر النبي ﷺ أن يقول لفظ سيدي ومولاي بدل ربي وفتاي وفتاتي بدل عبدي وأمتي ، فعلمهم العبارة السليمة من شوائب الشرك.

م (٧) : **الجمع بين الحديث وما جاء في خلاف ذلك من الأدلة:**

ليس من هذا الباب قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ التوبة: ٣١. لأنهم شابهوا الرب في صفة التشريع فيقال فيها ما يقال في الآلهة.

أما قوله تعالى : ﴿ اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ يوسف: ٤٢، فقيل إنه من شرع من قبلنا كما أبيح لهم السجود لبعضهم للتحية ونحن نهينا عن هذه اللفظة .

وقيل إن النهي للتنزيه والكراهة لا التحريم وهذه الآية لبيان الجواز كما يقال رب الدار والناقة .وقيل النهي إذا قصد فيه الغلو والمشابهة.

وأخطأ من قال إذا قصد بهذه الألفاظ الإخبار فيجوز إذ النهي للعموم.

ثامناً: إجابة من سألنا بالله وعدم رد طلبه.

وصيغة السؤال بالله : أسألك بالله ، بالله عليك .

معنى إعاذة من استعاذ بالله ، لها صيغتان : أن يقال لك :

أعوذ بالله منك ومن شرك ، أو أسألك بالله أن تعيذني وتكفيني شرك.

وتشبه: مسألة وجوب الاقتناع بالحلف ، والنهي عن إعطاء ذمة الله ، وعدم السؤال بوجهه ، وعدم الاستشفاع به ، وعدم الإقسام عليه.

م (١) : **حكم إجابة أو رد من سأل بالله :**

يجب إجابة من سأل بالله وعدم رد طلبه إن لم يكن في الطلب ضرر أو حرام.

م (٢) : دليل المسألة :عن ابن عمر قال: قال ﷺ :(من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) رواه أبو داود والنسائي.

وجه الحث على المكافأة : لينتفي الذل للمخلوق الذي استعبدك بإحسانه.

م (٣) : وجه دخول هذه المسألة في شرك الألفاظ الأصغر وعلاقتها بالتوحيد :

أن في إجابة من سأل بالله وعدم رد طلبه تعظيما لله تعالى ، وضد ذلك فيه تنقص لله تعالى وينافي الأدب والاحترام ، فمن رد من سأل بالله فهو في الحقيقة لم يعظم الله المسئول به والمتوسل به، فصار بذلك متنقص لله لا المخلوق السائل، وفي ذلك نوع تشبيه لله بخلقه ونسبة النقص له بكونه يرد كما يرد المخلوق ولا يجاب.

م (٤) : هل في صيغة السؤال بالله كفارة: إن قصد السائل اليمين ففيه الكفارة على الحالف إذا لم يجبه المحلوف عليه ويعتبر حانثا،وإن قصد مجرد السؤال فلا كفارة.

تاسعاً : تحريم السؤال بوجه الله .

م (١) : أوجه السؤال بوجه الله : له صيغتان :

١ – أن يسأل الله بوجهه أمور الدنيا فلا يجوز أن يسأل بوجهه غير الأمور العظيمة كالجنة ورضا الله.

٢ – أن يسأل الناس بوجه الله ، كأن يقول: وجه الله عليك تفعل كذا ، أو أسألك بوجه الله أن تفعل كذا.

تنبيه : تخصيص الجنة، يدخل فيه ما هو وسيلة لها كرضا الله وعدم غضبه .

م (٢) : حكم السؤال بوجه الله :

وهذا الحكم يتأكد تحريمه وقد يصل إلى الشرك الأكبر ما لو تحققت العلل في قلب من يقولها ، أنه مستغن عن الله أو أن الله له مكره أو صعب عليه ولا يقدر عليه.

م (٣) : دليل تحريم العبارة : عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة) رواه أبو داود ومدار الإسناد على سليمان بن معاذ وهو ضعيف.

وأخرج الطبراني بإسناد حسن: (ملعون من يسأل بوجه الله ، وملعون من سئل بوجه الله ثم يمنع سائله ما لم يسأل هجرا) .

م (٤) : علة تحريمها : أن السؤال بوجه الله الأمور الحقيرة إبتذال وامتهان، وهذا يخالف مبدأ تعظيم الرب تعالى وإجلاله وبالتالي يعد قادحا في كمال التوحيد.

عاشراً: النهي عن إعطاء ذمة الله ووجوب الوفاء بها لمن أعطاها .

م (١) : حكم جعل ذمة الله للناس :

يكره إعطاء ذمة الله عند العهود .

ويحرم الحنث فيها وخفرها وعدم الوفاء بها .

عبارة أعطيك عهد الله ، لك عهد الله ، وبيني وبينك عهد الله ، ونحوها .

الذي يترجح لي تحريمها لظاهر هذا الحديث والله أعلم .

م (٢) : أدلة المسألة :

١- قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ النحل: ٩١.

٢- حديث بريدة عند مسلم: (فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ؛ فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه) .

لهذه المسألة جانبان :

الأول : حفظ ذمة الله ورسوله وعدم إعطائها أحداً.

الثاني : الوفاء بذمة الله وعهده إذا جعلها الشخص للناس.

م (٣) : وجه دخول هذه العبارة في شرك الألفاظ الأصغر :

أن حفظ ذمة الله ﷻمن تعظيم الله تعالى وإجلاله واحترامه وعدم تنقصه. وفي خفرها منافاة لذلك ونوع تشبيه للخالق بالمخلوق في خفر الذمة وهوانها . فالنهي جاء حسما لمادة التشريك وذريعة التشبيه وباب الانتقاص .

م (٤) : علة تحريم قول هذه العبارة:

١- تعظيم الله وعدم انتقاصه ، وقد نص النبي ﷺ على هذه العلة بقوله : إنكم إن تخفروا ذممكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه.

٢- من جهة أخرى في نقض ذمة الله صدٌ عن دين الله وتشويهٌ لصورته.

م (٥) : فقه البدائل :

أمر النبي ﷺ أن يعطى المحالف ذمته بدل أن يعطِ ذمة الله تعالى .

م (٦) : أعظم العهود والحقوق عند الله التوحيد .

وعهد الله على عباده : عبادته وعهدهم عنده أن يدخلهم الجنة .

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ البقـــرة: ٤٠ ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ المائدة: ١٢.

م (٧) : لا يقال هذه ذمة رسوله بعد موته لأمرين لعلة الحديث ولكونه انقطعت حياته وعهده وحلفه.

م (٨) : الفرق بين حكم الله وحكم العلماء:

وهل علة (لا يدري أيوافق حكم الله أم لا) باقية أو انتهت باستقرار الأحكام واكتمال الشريعة، قولان لأهل العلم في المسألة، والصحيح أنه يفرق بين الأحكام القطعية والمسائل الخلافية الاجتهادية فيجزم بأن ذلك حكم الله في الأول لا الثاني.

فيقال: حكم الله في الزنا أنه محرم ، ولا يقال مثلاً : حكم الله فيكم وجوب أن تقتلوا ، حيث لا يدري هل هذا حكم الله أم لا .

الحادي عشر: الاقسام على الله تعالى والتحكم في أفعاله.

ومعناه: أن يحلف العبد أن الله يفعل كذا وكذا .

الاقسام على الله نوعان :

الأول : محرم : وهو أن يكون حلفه وإقسامه على الله من قبيل التدخل في خصائص الله والتحكم في أفعاله، كأن يقول:والله لا يغفر الله لفلان ولا يهدي فلانا.

دليل المسألة : عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله : (من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك) . رواه مسلم.

والقائل رجل عابد. قال أبو هريرة: (تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته).

والتألي والإيلاء : هو بمعنى الحلف واليمين والقسم.

الثاني : جائز: وهو أن يحلف العبد على ربه من باب حسن الظن به وقوة رجائه ، من غير تحكم في أفعاله وشؤونه وكأنه وصي على ربه أو تدخل في خصائص الله أو اعتراض على ما يخالف صفاته ومن ذلك سلب الله من الرحمة والمغفرة .

ومن أمثلة هذا القسم : أن يقول التائب الراجي ربه أقسم عليك إلا تغفر لي وتعفو عني ، أو يقول : والله لتنزلن الغيث على عبادك بكرمك.

ويدل لهذا القسم : قول النبي ﷺ في أنس بن النضر حين قال : والله لا تكسر ثنية الربيع : (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره) متفق عليه .

وعند مسلم :(رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره).

تنبيه : ليس من هذا الباب الحكم على الكفار بعدم المغفرة ، تقول الله لا يغفر للكفار ، أو الحكم على كافر ميت بأنه من أهل النار ، كما جاء في الحديث .

علاقته بالتوحيد ومكانته وسبب إيراده:

١- أن هذه العبارة توهم المشاركة في الربوبية وتشبيه المخلوق بالله تعالى .

٢- تنقص الرب من حيث توهم من يتحكم في تصرفاته ويتدخل في أموره.

الثاني عشر: الاستشفاع بالله على خلقه .

م (١) : دليل هذه العبارة : عن جبير بن مطعم ﷺ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نهكت الأنفس وجاع العيال وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، **فإنا نستشفع بالله عليك**، وبك على الله . فقال النبي ﷺ : (سبحان الله سبحان الله! فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: ويحك أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، **إنه لا يستشفع بالله على أحد**) رواه أبو داود .

م (٢) **علاقته بالتوحيد**: هذه العبارة فيها قدح في التوحيد من جهتين:

١- فيها تنقص الرب ﷻ ، وأنه يطلب من خلقه ويرجوهم وكأنهم أعلى منه.

٢- أن فيها رفع المخلوق، كما يوهم المشاركة في الربوبية وتشبيه المخلوق بالله.

وجه دخولها في شرك الألفاظ الأصغر :لما فيها من تشبيه المخلوق بالرب.

م (٣) : **حقيقة الاستشفاع بالله على خلقه :**

الله لا يشفع لمخلوق عند مخلوق فهو رب الجميع ومالكهم، والله إذا أراد أن يعفو المخلوق عن ظالمه عرض له من الثواب ما يجعله يعفو وليست هذه شفاعة، وقد غضب النبي ﷺ لما قال له الرجل نستشفع بالله عليك ومثلها الإقسام على الله.

م (٤) : **حكم جعل الله واسطة عند خلقه وشفيعاً للداعي عند الله :**

(الشفاعة يا الله ، وشفاعتك يا الله سقت لك الله ، والله واسطتي عندك) .

وهذا يحتمل أحد أمرين :

الأول: إن قصد أن الله هو الشافع والمتوسط عند خلقه وأنه كالواسطة يتوسط له عند المخلوق من ملك وغيره، فهذا قد استشفع بالله وقد نزل الله تعالى عن منزلته، وقال قولا عظيما واعتقد اعتقادا فاسدا وارتكب أمراً محرماً ووقع في سوء الأدب مع الله، فإن الله ﷻأعظم شأنا من أن يشفع عند أحد فالكل خلقه وعبيده، وقد غضب الرسول ﷺ على الرجل الذي قال:(نستشفع بالله عليك) وأنكر عليه هذا اللفظ .

الثاني: إن قصد التوكل وأن الأمر كله لله عز وجل ، فهذا يجوز ولكن هذا اللفظ الأولى تركه، لوجود الإيهام فيه والقاعدة (أن أي لفظ يوهم فإن الله أمرنا بتركه) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ البقرة: ١٠٤ فهذا يدل على أن الإنسان يجب أن يتقيد بالألفاظ الشرعية التي لا إيهام فيها .

م (٥) : هل الرب عز وجل يشفع :

في الحديث المتفق عليه يقول تعالى: (فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين). **وفي رواية عند البخاري (وبقيت شفاعتي)** .فالله ﷻ يرحم ويغفر ويتوب ويعفو وأما الشفاعة فهي عنده وملك له فيشفع عنده بأمره وإذنه ولا يشفع عند أحد تبارك وتعالى .

لكن قد يقال في هذه الرواية بتصور شفاعة الله عند نفسه وهي من جنس ماورد في الدعاء الذي رواه مسلم : (اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك) ، (برحمتك أستغيث).

قال ابن القيم:(الشفاعة لمن له الملك فهو الذي يشفع لنفسه عند نفسه ليرحم، فيأذن لمن يشاء أن يشفع فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له) الإغاثة ٢٤٦.

م (٦) : الفرق بين الاستشفاع والسؤال بالله :

أن السؤال لا يلزم منه نزول مرتبة المسؤول وأنه أدنى ، خلافا للاستشفاع.

الباب السادس
أحكام الشرك والمشرك

المسألة الأولى : حكم الشرك :

الشرك الأكبر كفر مخرج من الإسلام ويبيح دم صاحبه ويخلده في نار جهنم ولذلك أدلة كثيره منها .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء: ٤٨ .

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ المائدة: ٧٢.

وقال تعالى : ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ التوبة: ٥ .

وقال الرسول ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا وأن محمد رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها).متفق عليه.

فالمشرك سواء كان كافراً صليا أو مرتدا يجب قتله ويستحل ماله حتى يقول هذه الكلمة ويعمل بمقتضاها ولا يأتي بما ينافيها .

أما الشرك الأصغر فلا يخرج صاحبه من الإسلام ولا يخلد صاحبه في النار .

المسألة الثانية : أقسام المشرك :

مشرك أصلي ومشرك كان مسلماً فارتد بشركه .

المسألة الثالثة : أحكام المشرك الفقهية :

هناك أحكام تشمل الكافر الأصلي والمرتد وأحكام أخرى تخص أحدهما .

مثل التوارث والمناكحة والتعامل والبيع واستعمال أوانيهم وملابسهم والقول بنجاستهم والاستعانة بهم ولهذه المسألة رسالة مستقلة .

المسألة الرابعة : قتل المشرك واستحلال دمه وماله :

لا يجوز قتل المشرك إلا بعد إقامة الحجة عليه وبلوغه الدعوة واستتابته قبل قتله وإن كان في قوم مشركين لهم شوكة ومنعة فيجب إبلاغ الدعوة لهم وإبلاغ رئيسهم يكفي عن إبلاغ أفرادهم.

المسألة الخامسة : حكم الجاهل بالتوحيد والواقع في الشرك وهل يعذر :

الجاهل بالتوحيد لا يعتبر مؤمنا به ولا مقرا أو آتٍ به ، إذ الجاهل بالشيء لا يسمى مقراً به وشاهداً عليه، وعلى هذا فمن يجهل معنى لا إله إلا الله وهو يقولها ولا

يعلم أنها تُبطِل الشرك ودعاء غير الله والحكم بغير ما أنزل فإنه لا يعتبر مسلماً بل كافراً مشركاً .

ومن وقع في الشرك الأكبر عن جهل وعدم بلوغ الحجة :

فحكمه في الدنيا أنه كافر ويجري عليه أحكام الكفر من حيث الاسم ولحوق التكفير به والنكاح والميراث والصلاة عليه والإتمام به، أما قتاله وقتله فإن هذا لابد فيه من قيام الحجة والاستتابة .

أما في الآخرة فإن الله تعالى من كمال عدله أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة كما قال سبحانه :﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ الإسراء: ١٥. فيكون معذورا إن لم يفرط ، وحكمه حكم أهل الفترات ومجانين الكفار يبعث لهم رسول يوم القيامة من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه وأبى كان كافرا ودخل النار .

وقد أخطأ كثير من أهل العلم في هذه المسألة وحكموا بإسلام جهّال المشركين وعبّاد القبور والمشرّعين لكونهم ينطقون بالشهادتين وجعلوا جهلهم وتأويلهم مانعاً من تكفيرهم .

المسألة السادسة : هل من ولد على الشرك ممن ينتسب للإسلام ويعتبر مرتداً أو كافر أصلي والمسألتان جاءت في المقدمة .

مسألة: واقع الجهل عند المتأخرين :

كفار زماننا أشد شركاً من مشركي الجاهلية وأجهل منهم وأبعد عن معرفة لا إله إلا الله، وأبو جهل وأبو لهب أعلم بهذه الكلمة من أكثر علماء زماننا من أهل الشرك .

مسألة : يجب بغض المشرك وتكفيره ومعاداته :

وهذا الأمر لا خيار فيه وهو من أعظم مقتضيات كلمة التوحيد ولا يقبل إسلام ودين بدونه.

تنبيه : لهذا الفصل أحكام جاء بسطها في مقدمة النواقض في باب التكفير .

الباب السابع
أنواع الشرك وأقسامه

التمهيد :

المسألة الأولى: أنواع الشرك وأقسامه :

الشرك ينقسم إلى أقسام باعتبارات :

الاعتبار الأول : باعتبار موضوعه وحقيقته ونوعه :

ينقسم إلى شرك في الألوهية كالاستغاثة بالأموات والسجود للمخلوق.

وشرك في الربوبية كنسبة الخلق لغير الله وادّعاء علم الغيب .

الاعتبار الثاني : باعتبار خطره :

ينقسم إلى شرك أكبر كالذبح لغير الله ، وشرك أصغر كالحلف بغير الله .

الاعتبار الثالث : باعتبار ظهوره وخفائه :

ينقسم إلى شرك ظاهر كالسجود للمخلوق ، وشرك باطن كالخوف من المخلوق ، وشرك خفي وهو الرياء .

الفرق بين الشرك الخفي والباطن .

الخفي قيل هو الذي لا يعلمه الشخص ولا يشعر به .

والأظهر أنه خفي لأنه مصروفاً لله تعالى من حيث الأصل، وهو خاص بالرياء . والشرك الباطن هو ما كان متعلقاً بالقلب ومصروفا من أصله لغير الله كالخوف من غير الله . وسيأتي .

الاعتبار الرابع : باعتبار الآلة :

ينقسم إلى شرك فعلي كالسجود والذبح وشرك قولي كالدعاء وشرك اعتقادي قلبي كالخوف والمحبة .

الاعتبار الخامس: باعتبار كيفيته :

ينقسم إلى شرك تعطيل ونفي وسلب وإنكار كإنكار صفات الله وعدم عبادته.

وشرك تنديد وتمثيل وإيجاب وإثبات كإثبات علم الغيب للمخلوق.

وكل منهما ينقسم لكلي وجزئي.

*** كما يتنوع إلى أنواع أخرى بحسب صفته وهو داخل فيما سبق ، فمن ذلك:**

- تنوعه إلى شرك الدعوة وشرك المحبة وشرك الإرادة وشرك الطاعة.

- وشرك متعلق بالأحياء وشرك متعلق بالأموات .
- وشرك القبور والقصور ، والأول هو شرك الدعاء والثاني هو شرك الحكم .
- وشرك عناد وجهل وإعراض وجهل وتكذيب .
- وشرك استقلال وشراكة وشفاعة .

والاعتبارات الخمسة الأولى أقسام والباقية من قبيل الأمثلة لا التقسيم.

المسألة الثانية : طرق أخرى في تقسيم الشرك :

١- يمكن أن يقال الشرك لا يخرج عن أربعة أقسام :

الأول : إنكار ألوهية الله وتعطيل الله عنها:

إما بالكلية أو إنكار بعضها كالتحاكم والطاعة أو الدعاء أو الخوف وغيرها.

الثاني : إنكار ربوبية الله وأسمائه وصفاته وأفعاله :

إما بالكلية أو نوع منها كالعلم أو القدرة أو الخلق أو البعث أو الإرسال.

الثالث : إثبات الربوبية لغير الله من المخلوقين :

إما إثباتها بالكلية للخلق أو إثبات نوع منها للمخلوق كعلم الغيب أو القدرة أو التشريع.

الرابع إثبات الألوهية والعبادة لغير الله تعالى :

إما بالكلية أو فرد منها كالحكم والدعاء وتمثيل المخلوق بالله في استحقاقه لها .

والأول والثاني يصطلح بعض أهل العلم على تسميته بالكفر، وهما من شرك التعطيل والثالث والرابع من شرك التمثيل والتنديد .

٢- أقسام الشرك بطريقة أخرى : كما أن الشرك لا يخرج عن ستة أنواع :

١- شرك إخلاص وإرادة ونية وقصد وتوجه وتوكل ورجاء وتعظيم .

٢- شرك وسائط وشفعاء ودعاء .

٣- شرك تنسك بالقيام والسجود والطواف يدخل في السابق .

٤- شرك ولاية ومحبة وهو داخل في الأول.

٥- شرك في الحكم والطاعة والانقياد والتشريع

٦- شرك الربوبية : بتعطيل الله عنها كإنكار الصفات، أو اعتقاد وجود مخلوق يستحق شيئاً من أفعال الربوبية وإثباتها له كعلم الغيب والقدرة وهو شرك التمثيل .

٣- يتنوع الشرك من حيث متعلقاته :
يتنوع إلى: شرك في ربوبية الله وشرك في ألوهيته وعبادته وطاعته وحكمه وشريعته ودينه وقدره ورسالاته والإيمان به والإسلام له .
وتقدم الكلام عن متعلقات الشرك .
٤- يتنوع الشرك من حيث حقيقته :
شرك التمثيل : وهو نوعان :
تمثيل في الربوبية والصفات وتمثيل في العبادة والألوهية .
ويكون بطريقين : تمثيل الله بالمخلوق وتمثيل المخلوق بالله في النوعين .
شرك التعطيل : وهو نوعان :
تعطيل صفات الله وربوبيته وتعطيل عبادة الله وألوهيته:
قال ابن تيمية : (ومن لم يشرك به ولم يعبده فهو معطل عن عبادته كفرعون وأمثاله فهو أسوء حالا من المشرك فلا بد من عبادة الله وحده .. فلا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ولا يدخلها مشرك ولا مستكبر عن عبادة ربه) الفتاوى ١٤/ ٤٧٧ .
وقال: (الفلاسفة إذا ادعوا التوحيد فإنما توحيدهم بالقول لا بالعبادة والعمل، والتوحيد الذي جاءت به الرسل لابد فيه من إخلاص الدين لله وعبادته وحده ، والتوحيد الذي يدعونه هو التعطيل تعطيل حقائق الأسماء والصفات ، وفيه من الكفر ما هو أعظم أسباب الإشراك ، ولو كان معهم التوحيد بالقول وهو أن يصفوا الله بصفاته ، لكان معهم التوحيد دون العمل ، وذلك لا يكفي بل لا بد من أنه يعبد الله وحده ويتخذ إلها دون ما سواه) الفتاوى ٩/ ٣٥ ومثله في ١٨/ ٥٨.

المسألة الثالثة : أقوال العلماء في تقسيم الشرك :
قال ابن تيمية :(الشرك نوعان : شرك في ربوبيته، وشرك في الألوهية بأن يدعو مع الله غيره أو يقصده بغير ذلك من أنواع العبادة) اقتضاء الصراط ٣٥٧.
قال ابن القيم : (الشرك شركان :
الأول : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله - وهذا شرك الربوبية - .
الثاني : وشرك في عبادته ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله - وهذا شرك الألوهية - .

و الشرك الأول – المتعلق بالربوبية نوعان : – شرك تعطيل وجحود وإنكار وشرك تمثيل وتنديد – :

أحدهما : شرك التعطيل :

وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون حين قال وما رب العالمين والشرك والتعطيل متلازمان فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك، لكن لا يستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقرا بالخالق سبحانه وبصفاته ولكن عطل حق التوحيد ، وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل .

وهو ثلاثة أقسام :

١- تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه .

٢- وتعطيل الصانع عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه .

٣- وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد .

ومن هذا شرك طائفة أهل الوحدة الوجود، والقائلين بقدم العالم وأبديته، ومن عطل أسماء الرب وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة .

النوع الثاني : شرك من جعل مع الله إله آخر ولم يعطل أسماءه وأوصافه وربوبيته –وهو شرك التمثيل والتنديد – .

ومن هذا شرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة فجعلوا المسيح إلهاً وأمه إلها، وكشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة، والقدرية القائلين العبد يخلق فعله، والنمرود الذي حاج إبراهيم فجعل نفسه ندا لله، ومن جعل الكواكب أرباباً مدبرة للعالم كما هو مذهب الصابئة .

الشرك الثاني : فهو الشرك في العبادة والألوهية فهو أسهل من الأول وأخف فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لاإله إلا الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع إلا الله وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، ولكن لا يخلص الله في معاملته وعبوديته .

وهذا الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر ، ومن الأكبر :

الشرك في المحبة والسجود والطواف والحلق والتقبيل والتوكل والإنابة والنذر والدعاء والتسوية بين الله وخلقه فيها وفي التأله والخضوع والتذلل، وكل ذلك محض حق الله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل) . الجواب الكافي ١٥٢ .

المسألة الرابعة: حقيقة أنواع الشرك التي يذكرها العلماء في الشرك الأكبر :

١- شرك المحبة

٣- شرك الطاعة

٢- شرك الدعوة

٤- شرك الإرادة .

شرك المحبة : دليله قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥.

وشرك الدعوة : دليله قول الله سبحانه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥.

وشرك الطاعة : دليله قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١.

وشرك الإرادة : دليله قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ هود: ١٥ .

مسألة : هل هذه الأنواع الأربعة للحصر أم هي للتمثيل ؟

الصحيح أن هذه الأربعة للتمثيل ، وليست للحصر ، فأنواع الشرك كثيرة بالنسبة للعبادات ، فالمحبة عبادة ، والدعاء عبادة والطاعة عبادة ، والإرادة عبادة ، وهذه ليست وحدها العبادات ، وإنما هي بعضها وأمثلة لها .

وأكثر الشرك راجع إلى هذه الأنواع الأربعة وأكثر المشركين يقعون فيها ، إما حباً لغير الله، أو دعاءً لغير الله ، أو طاعةً لغير الله ، أو أرادة غير الله ، لكن ليست هذه فقط هي الشرك بل هنالك أنواع أخرى للشرك منها :

شرك الخوف ودليله قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران١٧٥.

وشرك التوكل ودليله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٢٣.

وشرك الحكم ودليله: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠.

فهذه عبادات يوجد فيها شرك فالخوف من غير الله شرك والحكم بغير ما أنزل الله شرك . فلو قلنا مع شرك الخوف وشرك المحبة وشرك الدعوة شرك الخوف وشرك الإنابة وشرك الإستعانة وشرك التوكل لكان هذا صحيحاً .

وذكر العلماء لهذه الأنواع هو من باب أن كل شرك يسمونه باسمه وليس من باب التقسيم وإنما من باب التمثيل .

المسألة الخامسة : قد يكون الفعل الواحد داخلاً في شرك الربوبية والألوهية :
بعض الأنواع والأمثلة تدخل في أكثر من قسم :
فتكون شركا في الربوبية وشركا في الألوهية . كما أن منها ما يكون شركا في الاعتقاد والقول والعمل . وتكون أكبر وأصغر . ومن أمثال ذلك:
١- السجود للمخلوق فإنه شرك من الساجد شرك في الألوهية وشرك من المسجود له شرك في الربوبية إذا رضي بالسجود له.
٢- الحكم من الحاكم شرك في الربوبية ومن المتحاكم شرك في الألوهية .
٣- التشاؤم والتطير والتبرك وتعليق التمائم : من قبيل شرك الأسباب .
فيجتمع فيها الشرك الأكبر والأصغر والربوبية والألوهية .
فإن اعتقد فيها مجرد السببية في حصول الحوادث وردها فهو شرك أصغر .
وإن اعتقد فيها التأثير بذاتها أو أن الله ﷻ جعل فيها التأثير والقدرة على الدفع والنفع فهذا شرك أكبر.
وإن خاف هذه الأشياء ورجاها أو تعلق بها وأحبها فهذا أشرك في الألوهية .
والتبرك عبادة لأن الإنسان لا يفعله إلا لأجل الحصول على الأجر ، والخير من الله، ولوجود التعلق فيه والرجاء وهذه من العبادة.
٤- التطير والتشاؤم يكون شركا في الربوبية والألوهية.
كما أنه يكون شركا في الاعتقاد والقول والعمل . ويكون أكبر وأصغر.
٥-الرياء شرك في الألوهية طلب المدح من المخلوق ومراقبته وقصده ، كما أنه يتعلق بالربوبية ، ويكون قلبياً وعملياً .

فصل : الشرك الأصغر

م (١) : أقسام الشرك إلى أكبر وأصغر :
ينقسم الشرك من ناحية خطره وعظمه إلى أكبر وأصغر .
الشرك الأكبر هو الذي لا يغفره الله ويخرج عن الملة . ومن أمثلته: السجود لغير الله والذبح والنذر لغير الله ، والخوف من المخلوق والتوكل عليه فيما لا يقدر عليه المخلوق، دعاء غير الله والاستغاثة بالميت وطلب الشفاعة منه والتشريع .
والشرك الأصغر ما دون ذلك .
م (٢): تعريف الشرك الأصغر وحقيقته :
اختلف أهل العلم في تعريفه وضبطه على أقوال :
القول الأول : أنه ليس له تعريف، وإنما يعرف بالأمثلة .
الثاني: له تعريف وضابط يعرف به ، إلا أنه لا يوجد تعريف إلا وعليه انتقاد.
ومن أضبط ما عرف به الشرك الأصغر بأنه :
كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه وجاء النص بتسميته شركا، ولا يصل إلى الشرك الأكبر .
فمن قال : الشرك الأصغر كل وسيلة للشرك الأكبر، قد يعترض عليه بأن هناك وسائل للشرك الأكبر ليست من الشرك كالصلاة عند القبور.
ومنهم من قال : كل شيء سماه الله تعالى شركاً ولم يصل إلى الشرك الأكبر أو لم يخرج من الملة، وقد يعترض عليه بوجود أمثلة للشرك لم يرد ذكرها في النصوص.
م (٣) : ضوابطه : يمكن أن يعرف الشرك الأصغر بعدة ضوابط أو ببعضها :
١- كل ما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه .
٢- ما نهى عنه الشرع وسمّاه شركا من غير إخراج صاحبه من الملة .
٣- كل ما كان من قبيل التعلق بالأسباب والاعتماد عليها ونسبة الحوادث لغير الله ، أو تسبيب ما ليس بسبب . ومعظم الشرك الأصغر من باب الأسباب.
٤- كل ما ينافي كمال التوحيد ويقدح فيه وهو من جنس الإشراك ، فيخرج بهذا القيد المعاصي والكبائر .
٥- كل ما كان من قبيل الألفاظ وهيئة العمل من غير أن يقارنها اعتقاد .

٦- كل ما فيه تعلق القلب بغير الله واللجوء والتوجه إلى غيره، لكن لا يصل إلى رتبة العبادة ولا يتضمن عبادة للمخلوق .

٧- الذرائع والأسباب والدواعي والوسائل لحصول الشرك ووقوعه .

٨- ما جاء منكراً غير معرف فهو أصغر وما جاء معرفاً بأل فهو الأكبر .

م (٤) :قاعدة : وجه كون الشرك الأصغر شركا :

لأن فيه نوع شرك وذلك بإعطاء المخلوق بعض صفات الرب تعالى وخصائصه.

فائدة : معظم أنواع الشرك الأصغر من باب الأسباب .

م (٥) : قاعدة : وجه كون الشرك الأصغر شركا أصغر وليس بأكبر:

لأنه ليس فيه رفع للمخلوق إلى درجة الألوهية وليس فيه عبادة.

م (٦) : يوجد شرك أصغر لم ينص على أنه شرك وإنما يعرف بالقياس .

مثال : كالشرك الأصغر في المحبة وفي الخوف.

م (٧) : العلاقة بين وسائل الشرك والشرك الأصغر:

أغلب وسائل الشرك إن لم يكن جميعها فيها نوع شرك حتى التقليد والتصوير والتعظيم والكبر والتوسل ، لكن قد يوجد وسائل للشرك الأكبر وليست من باب الشرك الأصغر . مثل : الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها والصلاة في المقبرة من غير قصد التبرك .

لكن لا يوجد شرك أصغر إلا وهو وسيلة من وسائل الشرك الأكبر .

م (٨): تتنوع وسائل الشرك لنوعين خاصة بالقبور والأموات ووسائل عامة .

م (٩) : وجوب تغيير الألفاظ الموهمة والتي قد تكون وسيلة وذريعة للشرك.

م (١٠) : يسمي بعض أهل العلم الشرك الأصغر شرك الألفاظ :

وهذه التسمية يؤخذ عليها وجود شرك متعلق بالقلب وليس من الألفاظ كما أن بعض الألفاظ من الشرك الأكبر كدعاء غير الله . وقد يكون مرجع هذا المصطلح للمرجئة الذين لا يكفرون إلا بالجحود والاستحلال وكفر القلب .

م (١١) : ورود تسمية الشرك بالأصغر وبالخفي في الشرع :

قال الرسول ﷺ : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا وما الشرك الأصغر قال : (الرياء) رواه أحمد.

وقال الرسول ﷺ : (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال) قلنا : بلى يارسول الله ، قال : (الشرك الخفي ، أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل) رواه أحمد وابن ماجه.

م (١٢) : الفرق بين الشرك الخفي والباطن:

فائدة : البعض ضبط الخفي بما لا يعلمه الشخص ومن ذلك جاء التعوذ والاستغفار منه ، كما في الحديث (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم).

والأظهر أنه خفي من ناحية كونه مصروفاً لله تعالى من حيث الأصل، فالمرائي صلاته صلاها لله وليست لمن يرائي له ولكن زينها وحسنها له . ولو أنه لم يُنشئ الصلاة إلا للمخلوق لكان شركا أكبر .

أما الشرك الباطن القلبي فمن مثل الخوف والتوكل والمحبة وبقية العبادات القلبية فهي شرك مستقل ظاهر وليس خفياً ، لأنها صرفت للمخلوق من دون الله فالخوف حاصل من المخلوق وهذا بخلاف الصلاة والسجود والحج والصدقة وغيرها من العبادات التي يدخلها الرياء فسجود المرائي وصلاته وحجه أصلها لله .

م (١٣) : مصطلح الشرك الخفي للرياء .

تسمية النبي ﷺ الرياء بالشرك الأصغر والشرك الخفي وسماه شرك السرائر:
لكن لا يدل على أن الشرك الخفي لا يكون منه شرك أكبر وأن الرياء لا يصل إلى الشرك الأكبر.

ويدخل البعض في الشرك الخفي أنواعا كثيرة غير الرياء ويزعم أن الرسول ﷺ فسّر الشرك الخفي ببعض أفراده فيدخل في الشرك الخفي شرك الخوف والتوكل وأعمال أخرى، وهذا خطأ فهناك فرق بين الشرك الخفي والشرك الباطن كما تقدم.

م (١٤) : الفرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر :

١- أن الشرك الأكبر لا يغفره الله إجماعاً أما الشرك الأصغر فمحل خلاف .
٢- أن الشرك الأكبر يخرج من الملة والشرك الأصغر لا يخرج من الملة .
٣- أن الشرك الأكبر يحبط الأعمال والشرك الأصغر لا يحبط الأعمال .
٤- أن الشرك الأكبر يبيح الدم والمال والعرض وأما الشرك الأصغر فلا .
٥- تجري على صاحب الشرك الأصغر أحكام الإسلام وتجري على صاحب الشرك الأكبر أحكام الكفر والكافرين .

م (١٥) : سر وضابط الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر :

١- أن الأكبر فيه عبادة لغير الله والعمل من أصله مصروف لغير الله، بينما الأصغر فاعله عابد لله ولكن عنده نوع توجه لغيره تعالى وأما العمل نفسه فهو لله.

٢- أن الأكبر مبني على الخضوع والذل لغير الله .

٣- أن الأكبر مبني على تعظيم المخلوق .

٤- يجتمع الشرك الأصغر مع الإيمان والإسلام بخلاف الشرك الأكبر .

٥- في الأكبر اعتقاد النفع والضر وإسناد الحوادث لغير الله فإذا وجد ذلك الاعتقاد في الأسباب كالتمائم والتطير ونحوها حولها إلى شرك أكبر.

م (١٦) : تحول الشرك الأصغر إلى أكبر:

قد يصير الشرك الأصغر شركا أكبر وذلك إذا قارنه الاعتقاد .

كأن يخرج من دائرة السببية إلى دائرة التأثير والاستقلال بالنفع والضر.

وذلك مثلاً في تعليق التمائم وقول (ما شاء الله وشاء فلان ولولا فلان).

م (١٧) : اختلف العلماء في الشرك الأصغر هل يغفره الله تعالى أو لا يغفره .

فمن أهل العلم من ذهب إلى أن الشرك الأصغر لا يغفره الله تعالى للآية التي في سورة النساء : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ .

وقالوا : في هذه الآية عموم ، فهي عامة للشرك الأصغر والأكبر ودلت الآية على العموم لأنها نكرة في سياق النفي .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الشرك الأصغر يغفره الله ﷻ .

وقال غيرهم: إن الشرك الأصغر لا يغفره الله ﷻ، لكن عدم مغفرة الله تعالى لا يستلزم دخول النار ولا يستلزم الخروج من الملة ، فقد يعذب الله ﷻ المشرك شركاً أصغر بأمراض أو نحوها في الدنيا أو بالعذاب في القبر أو يوم القيامة ، دون أن يدخل النار ، وقد يدخل النار ولكن لا يخلد فيها .

قال ابن تيمية : (إن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر لعموم الآية) .

وقال : (الشرك لا يغفر منه شيء لا أكبر ولا أصغر ، على مقتضى القرآن ، وإن كان صاحب الشرك الأصغر يموت مسلماً ، لكن شركه لا يغفر له بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة) . الاستغاثة ١٤٦ .

م (١٨) : الشرك الأصغر أعظم من الكبائر التي ليست بشرك .

قال ابن مسعود ﷺ : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أحلف بغيره صادقا .

م (١٩) : علة خوف الرسول ﷺ من الشرك الأصغر :
لأن فاعله يفعله ولا يهتم له ولا يخشى من عواقبه فيستهين بـه حتـى يوصـله للشرك الأكبر من حيث لا يشعر ، فتنتشر ذرائع الشرك ومسوغاته والناس في غفلة .
م (٢٠) : الشرك الأصغر في العبادات:
هل يوجد عبـادة صـغرى ، وحقيقـة عبـادة الـدنيا والـدينار ، وهـل الـشرك الأصغر فيه عبادة لغير الله ، ومثلها ألوهية اتخاذ الهوى إلها .
العبادة حق لله وخاصة به لا تصرف لغيره .
كما في حديث معاذ : (حق الله على العبيد).
والعبادة هي التذلل والخضوع والمحبة والتعلق والإرادة والتعظيم.
ومن تذللت له حبا وتعلقا فقد عبدته.
ولذلك من تعلق بهواه وخضع له وأحب ما يهوى فقد صار عبـدا لـه ، ومـن أراد الدنيا والمال وعظمها وأحبها وقدمها وتعلق بها وأرادها فقد عبدها.
فمن تعلق قلبه بالدنيا حتـى تـصير همـه ويـضيع بـسببها الواجبـات ويفعـل المحرمات ويوالي فيها ويعادي ويرضى بسببها ويسخط، فهذا يقال عنه عبد الدنيا .
وهذا هو حقيقة عبادة الدنيا والمقصود بقول الرسول ﷺ : (تعس عبـد الـدنيا إن أعطي منها رضي وإن منع منها سخط) رواه البخاري. تسمية الإنسان المسلم عبد الدنيا والدينار والمال ، وذلك أنه لما كانت الـدنيا هـي مقـصود الـشخص ومطلوبـه الذي عمل له وصارت نيته مقصورة عليه يغضب ويرضى لها صار بذلك عبدا لها .
كما جاء تفسير ذلك في نص الحديث: بأنه إن أعطى رضي، وإن لم يعط سخط.
قال ابن رجب في فتح الباري عن حديث تعس عبد الدينار:(فدل على أن كل من أحب شيئا وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله وعادى لأجلـه فهـو عبده وذلك الشيء معبوده وإلهه).
وعبودية الدنيا هذه فيها نوع من معاني العبادة ، لا أصل العبادة التي يكفر من صرفها لغير الله. وليس المقصود بالعبودية هنا العبادة الكلية الكـبرى الحقيقيـة التـي يكفر من صرفها لغير الله وإنما الصغرى والتي تدخل في الشرك الأصـغر، وسـميت عبادة وجعلت منها لوجود بعض معاني العبادة فيها .
ومثلها العبادات الصغرى الشرك الأصغر في عبادة المحبة والخوف.
م (٢١) : قاعدة : شرك الأسباب وإسناد الحوادث لغير الله .

باب يدخل فيه معظم صور الشرك الأصغر.
إما بجعل ما ليس بسبب سببا، أو بالغلو في السبب والاعتماد عليه .
قاعدة:حقيقة الشرك في قول ما شاء الله وشئت، ولولا كذا لصار كذا، ومطرنا بالربيع، وفي تعليق التمائم، والرقى، والتبرك الممنوع، والتطير ، والتوسل البدعي.
شرك لأن فيها نسبة شيء من التدبير والتأثير لغير الله . فإن اعتقد فيها الاستقلال في التدبير والمشيئة فأكبر، وإن جعلها مجرد سبب فشرك أصغر.
فائدة سيأتي وجه كون العجب والكبر والفخر والطعن في الأنساب والجزع من القدر من الشرك الأصغر .
م (٢٢) : كفارة الشرك الأصغر: لما قال الرسول ﷺ أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل قالوا وكيف نتقيه يارسول الله قال قولوا : (اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه) رواه أحمد بسند ضعف.
م (٢٣) : حمى الرسول ﷺ جناب التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك:
ترك الألفاظ الموهمة والمحتملة وصيانة اللسان عنها والتي قد تفضي للشرك.

م (٢٤) : أقسام الشرك الأصغر :
ينقسم الشرك الأصغر إلى : شرك خفي وظاهر.
وينقسم الظاهر إلى : اعتقادي قلبي ، وقولي ، وعملي متعلق بالجوارح.
وينقسم إلى شرك أصغر متعلق بالربوبية ومتعلق بالألوهية .
القسم الأول: شرك أصغر خفي وهو الرياء .
القسم الثاني: شرك أصغر ظاهر وهو نوعان:
النوع الأول: في الربوبية وفي الأسماء والصفات، ويكون في ثلاثة أمور:
الاعتقاد: كمن يعتقد في أمرٍ أنه سبب في دفع ضر وجلب نفع وهو ليس سبباً كأن يظن التميمة تدفع العين أو يعتقد أن النجم سبب للمطر وكالتشاؤم.
أو يسمي المخلوق بشيء من أسماء الله .
الأعمال: تعليق التمائم ، والتصوير، والتطير.
الأقوال: ماشاء الله وشئت ولولا كذا لصار كذا، من ينسب المطر للنجم.
النوع الثاني: في الألوهية، ويكون في ثلاثة أمور:
الاعتقاد القلبي: كخوف المخلوق أو التعلق به . كخوف الحيوان المتشائم منه .

الأعمال: كأن يتمسح بجسده طلباً للبركة، مثل التمسح بجدران الكعبة ، أو يذهب إلى القبور لقصد الدعاء عندها لأجل ما يريده ويظنه من تحصيل بركتها .

الأقوال: كالحلف بغير الله، ومدح الناس وشكرهم على ما آتاك الله .

م (٢٥) : بعض الأفعال تدخل في أكثر من قسم : فتكون شركا في الربوبية وشركا في الألوهية . وشركا في الاعتقاد والقول والعمل . وتكون أكبر وأصغر . كالتشاؤم والتبرك يكون بالقلب واللسان والجوارح ، وشركا في الربوبية والألوهية.

م (٢٦) : أمثلة على الشرك الأصغر :

١- الرياء .

٢- السمعة .

٣- العجب .

٤- إرادة الدنيا بعمل الآخرة .

٥- الكبر ، ويدخل فيه الفخر .

٦- الحلف بغير الله ، (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) رواه الترمذي .

٧- التسوية في اللفظ ، كقول : لولا الله وفلان وقول ما شاء الله وشئت ، وفيه الحديث : (إنكم تشركون،تقولون ماشاء الله وشئت) أحمد.

٨- قول (لولا) : لولا الكلب لسرق البيت .

٩- تعليق الحوادث بغير الله وإسناد الأمور للأسباب والاعتماد عليها بالكلية. وتحت هذا الباب جملة من الأمثلة .

١٠- لبس الحلقة والخيط والتمائم ، (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) أحمد .

١١- التشاؤم والطيرة والتطير ، (الطيرة شرك) رواه أحمد وأبو داود .

١٢- عبادة الدنيا والمال والمنصب ، (تعس عبد الدينار) البخاري .

١٣- طاعة المخلوق في معصية الخالق .

١٤- التسمي بالحكم وقاضي القضاة وملك الملوك .

١٥- التعبيد لغير الله .

١٦- التسخط على القدر ، وهذا باب يدخل تحته أمثلة كثيرة .

١٧- نسبة المطر للنجم والأجواء، مطرنا بنوء وبالنجم الفلاني بسبب الشتاء.

١٨- الاستشفاع بالله على خلقه .

١٩- التصوير .
٢٠- تعظيم المخلوق والمبالغة فيه.
٢١- التعلق بالمخلوق .
٢٢- التبرك .
٢٣- الطعن في النسب .
٢٤- الفخر بالأحساب .
٢٥- الجزع والتسخط على القدر وعدم الصبر.
٢٦- قول (لو) .
٢٧- سب أفعال الله .
٢٨- سب الدهر .
٢٩- سب الريح .
٣٠- القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله .
٣١- الأمن من مكر الله .
٣٢- تسمية المخلوق بأسماء الله ووصف الله تعالى ببعض صفات خلقه .
٣٣- تعليق الدعاء بالمشيئة إذا قصد المعنى المحذور .
٣٤- شكر الناس على نعم الله .
٣٤- الشرك الأصغر في العبادات القلبية .
٣٥- الشرك الأصغر في المحبة .
٣٦- الخوف الأصغر .
٣٧- التوكل الأصغر .
٣٨- ترجي المخلوق .
٣٩- القيام للمخلوق تعظيما له .
٤٠- الحكم بغير ما أنزل الله في قضية معينة للهوى من غير استحلال .
٤١- تعظيم القبور ، ومن ذلك إسراجها والبناء عليها .
٤٢- الذبح والصلاة في أماكن عبادات الكفار .
٤٣- رعاية الآثار وتعظيمها .
٤٤- التوسل .
فهذه بضعة وأربعون فعلا شركيا من باب الشرك الأصغر.

فصل

القسم الأول : الشرك في الربوبية (التعطيل – التمثيل) :

المسألة الأولى : ينقسم الشرك في الربوبية إلى :

١- شرك تعطيل .

وصفته : أن يعطل الله من أفعاله وصفاته وكماله وتنفى عنه ربوبيته .

٢- شرك تمثيل وتنديد .

وصفته : أن يمثل الله بخلقه فيعطى صفة العبد .

أو يمثل الخلق بالله فيعطى المخلوق صفات الرب وأفعال الربوبية والألوهية .

وقد بين هذا التقسيم ابن القيم في البدائع .

المسألة الثانية : تقسيم آخر للشرك في الربوبية :

كما يمكن تقسيم الشرك في الربوبية حسب الصفة والفعل والنوع الذي تعلق به إما بتعطيلها أو التمثيل فيها :

فيقال الشرك في قدرة الله :وتحته صور وأنواع

منها ما هو داخل في شرك التعطيل ومنها ما يدخل في شرك التمثيل:

١- إنكار قدرة الله بالكلية . أو إنكار شيء من قدرة الله كإنكار القدرية أن يكون الله يقدر على أعمال بني ادم وإضلالهم .

٢- إثبات القدرة الكاملة التامة للمخلوق وتمثيل المخلوق بالخالق .

٣- تمثيل الخالق بالمخلوق في عدم القدرة ونسبة العجز إليه وهذا النوع مرده للتعطيل .

ومثله الشرك في صفة علم الله تمثيلا أو تعطيلا .

وكذا الشرك في بقية صفاته العلية وأفعال الربوبية الكريمة .

لأن التعطيل مرده وحقيقته قائم على تمثيل الخالق بالمخلوق في العجز والنقص وعدم الكمال .

المسألة الثالثة : يكون الشرك في الربوبية في ثلاثة أمور:

١- الاعتقاد: كاعتقاد أن هناك من يخلق أو يحيي ويميت أو يتصرف في الكون.

٢- الأعمال: كتعليق التمائم ولبس الحلقة ونحوها، واعتقاد أنها بذاتها محصلة للمقصود.

٣- الأقوال: كسب الرب وسب أفعاله كالريح وتمثيله بخلقه ، وإنكار الخالق عز وجل، وكالقول بوحدة الوجود وبقدم العالم.

قاعدة : الإيمان بالربوبية كله من قبيل الاعتقادي ، وليس منه عملي والعمل متعلق بالألوهية .

أما الشرك في الربوبية فمنه الاعتقادي ومنه العملي المتعلق بالجوارح مثل التشريع والحكم بغير ما أنزل الله والتصوير وتعليق الحلقة والتمائم والتشاؤم وسب الدهر والريح والجزع والتسخط على القدر .

المسألة الرابعة : الشرك في الربوبية منه الأكبر وهو الأصل ومنه الأصغر مثل تعليق التمائم وقول ما شاء الله وشئت ولولا الله وأنت .

النوع الأول : شرك التعطيل وتحته صور وأصناف :

التعطيل مأخوذ من العطل وهو الخلو والتفريغ والترك وهو بمعنى النفي والجحود والسلب والإنكار .

ويأتي في مقابل التمثيل والتنديد .

وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : تعطيل ربوبية الله تعالى : وله أربعة أنواع :

منها ما هو تعطيل كلي ومنها ما هو تعطيل جزئي وهو الثالث والرابع:

١- إنكار وجود الله تعالى .

٢- إنكار ربوبيته .

٣- إنكار بعض أفعال ربوبيته كالعلم والقدرة والحكم والإرسال والبعث .

٤- تعطيل حق التوحيد في ربوبيته .

الثاني : تعطيل الرب عن كمال صفاته وأسمائه إما جميعها أو بعضها إما بإنكارها أو تحريف معناها ويتزعم هذا الشرك الجهمية المعطلة.

الثالث : تعطيل الله ﷻ عن معاملته وعبادته بعدم عبادته سبحانه و إسقاط العبادة والفرائض أو تعطيل حق التوحيد والإعراض عنه .

وقد سمى الله تعالى ذلك شركا بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فصلت: ٦-٧ . فجعل الله ترك الزكاة من الشرك ومثل الزكاة بقية العبادات والأعمال .

ومما يدخل في هذا النوع كفر الإعراض والامتناع وترك العمل والعبادة.

صور وأنواع شرك التعطيل :

١ - أعظمها إنكار الباري ﷻ والقول بعدم وجوده تقدس سبحانه وتعالى .

وممن يقول بذلك الشيوعية الماركسية ويوجد كثير من المسلمين ممن ينتسب إلى هذا المذهب الإلحادي بل ويعتبر الشيوعية شعاراً له .

كذلك يقول به الوجودية : الذين لا يؤمنون إلا بما هو مشاهد حاضر وينكرون كل غيبي ومن ذلك إنكارهم الرب تبارك وتعالى .

ومن هذا الصنف شرك فرعون حين قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ النازعات: ٢٤ ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ الشعراء ٢٣ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ القصص: ٣٨ .

الفرق بين شرك فرعون وشرك النمرود الذي حاجه إبراهيم :

فرعون أنكر وجود الله تعالى وربوبيته .

وأما النمرود فلم ينكر ربوبية الله وإنما أثبت لنفسه ربوبية لنفسه من دون أن ينكر ربوبية الله فجعل نفسه نداً لله وربا معه وهو القائل: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ البقرة ٢٥٨، فلم يقل ربك لا يحيي ولا يميت، ولم يقل: أنا ربكم الأعلى ، وما علمت لكم من إله غيري ، وما رب العالمين ، وإنما قال: أنا أحيي مع الله وأميت مثله .

٢ - القول بأن الطبيعة هي التي خلقت نفسها وأن هذا العالم وهذا الكون وجد صدفة . وقال بهذا النوع من الشرك :

الفلاسفة الطبعيون والدهريون الذين قال الله عنهم : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ الجاثية: ٢٤.

والقوميون والوطنيون القائلون : أن القومية والوطنية لها تأثير وخلق في نفوس أصحابها وتألف بينهم .

٣- القول أن الدنيا ليس لها بداية أو القول بقدم العالم وأزلية المادة :

ويوجد هذا الشرك عند : الفلاسفة الملاحدة ومن تأثر بهم من الفيزيائيين أصحاب قانون المادة الذي يقول : أن المادة لا تفنى ولا تبيد ولا تستحدث من العدم تعالى الله عن ذلك فأنكروا كونها مخلوقة حادثة وأنكروا كونها فانية وزائلة وهالكة وكذبوا بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الرحمن: ٢٦.

ومن جنس قول هؤلاء ما يقوله علماء الأرض والجولوجيا ، والأحياء من أن عمر الأرض يقدر بملايين السنين تخرصاً ما لهم بذلك من علم والأرض لا يصل

عمرها لذلك فخلقت هذه العوالم بما فيها آدم في ستة أيام ومقدار اليوم ألف سنة ثم من آدم إلى نوح عشرة قرون كما ورد في حديث ابن عباس ثم من نوح إلى إبراهيم إلى محمد ﷺ جاءت مدته في التوراة والإنجيل بسبعة الألف سنة أو حوله والله أعلم .

٤- من يقول أن للعالم خالقان : ومن هؤلاء المجوس والمانوية والثانوية القائلين بإلهين إله النور وإله الظلمة والخير والشر .

٥- القول بأن العالم ينشأ ويرتقي ويتطور وأنه لا يوجد شيء خلق من العدم .

ويدخل في هذا الشرك شرك الدارونية القائلون بنظرية داروون أن الإنسان كان أصله قرداً، وهذا القول كفر بقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ النساء: ١، كما أن هذا القول فيه إنكار لكون الله الخالق الباري المبدع وقد ألزمهم الله بقوله : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ الطور: ٣٥ قيل من غير رب وقيل من غير مادة وقيل من غير حساب .

٦- إنكار أسماء الله وصفاته وأفعال ربوبيته وأن الله تعالى ليس له صفة، كما تقوله الجهمية المعطلة وأتباعهم المعتزلة والأشاعرة والماتريدية .

٧- القول بالحلول والإتحاد ووحدة الوجود :

وهذا الشرك داخل في تعطيل الله وإنكار وجوده في الحقيقة لكونه عطل الرب عن وجوده وكماله وصفاته وعلوه فضلا عن توحيده ، كما أن لهذا الشرك علاقة بشرك التمثيل لأن الحلول فيه تمثيل الله بخلقه حيث جعلوه حالاً بهم .

ومعنى الاتحاد : أي أن الرب اتحد مع خلقه في جسد واحد.

ومعنى الحلول : أن الرب حل في خلقه وسكن في أجسادهم تعالى الله .

ومعنى وحدة الوجود : أن الوجود واحد ، فكل شيء هو الله وكل موجود هو الرب ، لا فرق بين عبد ورب ولا خالق ولا مخلوق.

وقد قال بهذا الكفر النصارى حين قالوا الرب حل في المسيح واتحد معه .

كذلك تقول به غلاة الصوفية والرافضة أن الله حال في علي والأولياء .

والقاديانية القائلة أن الله حل في إمامهم .

والباطنية والجهمية القائلون أن الله في كل مكان .

والبريولية القائلون أن الرسول خلق من نور الله وغيرهم كثير .

٨- إنكار علو الله تعالى على خلقه واستوائه على عرشه .كما تقوله الجهمية المعطلة والمعتزلة والأشاعرة .

٩- إنكار علم الله وهم طائفتان :

الأولى: الفلاسفة: يقولون الله يعلم بالكليات ولا يعلم بالجزئيات والخفيات .

الثانية: القدرية: أتباع معبد وغيلان ، يقولون الله لا يعلم بالشيء إلا إذا وقع، وعلم الله أُنُف حادث مستأنف ويسبقه جهل تعالى الله عن كفرهم.

١٠- إنكار القدر من القدرية مجوس هذه الأمة :

القائلون أن الله تعالى لا يقدّر الشرور ولا يخلق فعل العبد وإنما العبد هو الذي يخلق فعله وكفره ومعصيته، فعطلوا الله من كونه يخلق أفعال عباده .

١١- القول بأن الله كان معطلاً عن الخلق والربوبية والفعل قبل أن يخلق العرش والقلم والسموات والأرض .

وقد قال بذلك المتكلمون القائلون بامتناع تسلسل أفعال الرب وصفاته وقدمها وأن الله اتصف بالصفات والأفعال بعد أن لم يكن متصفاً بها .

١٢- إنكار الرسالة وتكذيب الرسل والقول بعدم ختم النبوة بمحمد ﷺ .

وفي هذا تعطيل للرب عن صفة من صفاته وفعل من أعظم أفعاله ألا وهو الإرسال وبعثة الرسل والتي هي من خصائص ربوبيته وكمال ذاته المقدسة .

وقال بذلك كل مكذب بالرسل من المشركين واليهود والنصارى .

وفي هذه الأمة من مدعي النبوة ومصدقيهم أمثال الفلاسفة والباطنية القائلين النبوة مكتسبة وليست اصطفاء، وأن الولي خير من النبي ، والقاديانية والبابية والبهائية الذين يعتقدون نبوة إمامهم .

ومثل ذلك من ينكر الملائكة أو يفسرهم بالأرواح .

١٣- إنكار البعث والحساب لأن البعث والحساب من أفعال الرب ومن لوازم ربوبيته فمن أنكر البعث فقد عطل الله عز وجل عن بعض ربوبيته .

وقد قال بهذا جميع الأمم المكذبة لرسلهم والفلاسفة المكذبة بعودة الأجسام وكونها تعاد مرة أخرى .

١٤- إنكار دين الله سبحانه وشريعته وأمره ونهيه وفي ذلك تعطيل لربوبية الرب سبحانه الذي له الخلق والأمر وحده .

وقد وقع في هذا الشرك طوائف:

من زعم أن شريعة محمد ﷺ نسخت بشريعته كما تقوله القاديانية والبهائية والبابية والقرامطة .

ومنهم من قال الدين لا يرتبط بالحياة وهم العلمانيون .

ومنهم من يقول بسقوط التكاليف عن الخاصة كما يقوله الصوفية .

ومن يقول دين الله له باطن لا يفهمه إلا الخاصة كما يقوله الباطنية .

ومن يقول الناس أحرار في كل ما يذرون وليسوا بعبيد للدين ولا للشرع كما يقوله اللبراليون والحداثيون .

ومنهم يقول أن الدين له فهم في عصرنا غير فهم السلف وأن الإسلام العصري يوائم الحياة كما يقوله العصرانيون .

ومن يقول أن العمل يجب بالقرآن دون السنة كما يقوله القرآنيون المكذبون بالسنة المحمدية .

ومن يقع في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله كما يحصل من العلماء والأمراء .

ومن أشد أنواعه ما وقع فيه مشركوا زماننا من تعطيل العمل بشرع الله وسن القوانين الوضعية التي تضاهي شرع الله ودينه وأمره .

١٥- من ينكر الكتب ويكذب بها وهذا داخل في الشرك بتعطيل الله عن شرعه ودينه ورسالته .

١٦- القول بتناسخ الأرواح وأن الأرواح أزلية ليست بمحدثة ولا مخلوقة .

وفي ذلك تعطيل للرب من كونه خالقها وربها ومحدثها وقال بذلك الفلاسفة والهندوس والباطنية .

١٧- من ينكر قدرة الله أو يشكك فيها أو ينسب لله العجز وأنه لا يتصرف في خلقه ولا يدبر الأمور .

١٨- عبادة غير الله وتعطيل الله عن العبادة بصرف ما يستحقه تعالى ويختص به لغير سبحانه .

وهذا الشرك في العبادة لازمة الشرك في الربوبية من جهتين تعطيل الرب عن حقه في العبادة وتمثيل المخلوق بالخالق وإعطائه صفات الربوبية .

١٩- شرك التمثيل إذ التمثيل في الحقيقة تعطيل الله تعالى عن كماله .

النوع الثاني: شرك التمثيل والتنديد :

أولاً : تشبيه المخلوق بالخالق :

وله أصناف كثير وصور :

أولا:اعتقاد وجود إله مع الله يخلق ويرزق ويستحق أن يعبد من دون الله .

وهذا الشرك عند طوائف منها:

١- المجوس والثانوية والمانوية القائلون بالأصلين النور والظلمة وإله الخير وإله الشر .

٢- النصارى القائلين بالتثليث وأن الله ثالث ثلاثة عيسى وأمه والأب وهو الله - تعالى الله عن قولهم - ، وعندهم عيسى إما أنه إله مستقل أو أنه ابن الله وهو نفس الإله، وأتوا بها يسمونه بالأقانيم والحلول والإتحاد .

٣- غلاة الصوفية والرافضة في اعتقادهم في أئمتهم .

ثانيا: القول بأن الله لم يباشر الخلق وإنها الذي باشر الخلق والفعل هو المخلوق .

وهذا الشرك يوجد عند طوائف :

١- الفلاسفة القائلون أن الله علة المعلول، وأن العوالم خلقت مع الله والله علتها، وأن الله خلق العقل الأول والأول خلق الثاني وهكذا والعقل يشمل الأفلاك وكل العوالم حتى يأتي العقل والفلك السابع .

٢- كما يوجد هذا الشرك عند الباطنية وغلاة الصوفية والرافضة وغيرهم، القائلون أن الذي تولى الخلق والأمر والتدبير والتصريف هو المخلوق الولي أو الإمام أو الرسولﷺ ، فالله يريد وهذا الولي والإمام ينفذ أمر الله وإرادته، وأن الذي يحي ويميت ويباشر الإحياء والإماتة هو هؤلاء، وكما يقول النصارى في عيسى والصوفية في الرسول ﷺ والأولياء والرافضة في علي أنهم هم من يقوم بحساب الناس يوم القيامة .

فعند هؤلاء أن الله جعل للأولياء كل فعل يفعله، فبأيديهم خزائن السموات والأرض وعندهم مقاليد الأمور، ونفع الخلق وضرهم ومصالحهم وأرزاقهم لا تجري إلا من تحت يد هؤلاء وأمر الله الناس أن يسألوهم حوائجهم ومطالبهم من الأولياء فهم مثل الوزراء والشفعاء والأعوان لله، تعالى عما يقوله الكافرون، وماذا بقي لله عند هؤلاء الكفرة .

ثالثا: إعطاء المخلوق صفة القدرة الشاملة الكاملة على كل شيء :

وذلك أن يقصد المشرك شرك التمثيل في الربوبية أن المخلوق له حق التصرف في الكون وتدبير الأمور، والقدرة على النفع والضر وإجابة الدعاء وسماع النداء وإغاثة المكروب وكشف الضر وإجابة المضطر، بل والقدرة على الخلق والإيجاد والإحياء والإماتة والإعدام والرزق والإمداد والقدرة على إنزال المطر وشفاء المريض والهداية والتوفيق والحفظ من الهلاك والدمار والإنجاء من عذاب القبر وعذاب النار وإدخال الجنة وغفران الذنوب، والقدرة على كل ما يفعله الرب، وإعطاء المخلوق كل صفة من صفات الربوبية الخاصة بالله .

بل ومن هؤلاء من يعتقد وجود من تغلب قدرته قدرة الله .

وهذا الصنف من الشرك هو قريب من الصنف السابق، ويوجد عند طوائف:

١- الرافضة والباطنية الذين يصفون علي وآل البيت بالقدرة على كل شيء .

٢- الصوفية ومنهم البريلولية في اعتقادهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم وعموم الأولياء يقدرون على كل شيء .

٣- البابية والبهائية والقاديانية .

٤- أصحاب مذهب الروحية الحديثة ، فالأرواح عندهم تحل كل معضلة وتعلم الغيب.

٥- المنجمون يعتقدون أن الكواكب والنجوم لها تأثير في الحوادث الأرضية .

٦- السحرة والكهان والعرافون يعتقدون أنهم هم أو الشياطين يقدرون على مالا يقدر عليه إلا الله وأن بيدهم النفع والضر والتأثير والإماتة وعلم الغيب .

ومثلهم في الشرك والكفر من يعتقد من العوام فيهم هذه الصفة .

٧- العوام الذين يعتقدون النفع والضر والخير والشر والتأثير في :

أ- الرقي والتمائم بذاتها .

ب- في التطير والتشاؤم والعيافة .

ج- في الشيء الذي يتبرك به، حيث يعتقد المتبرك وطالب البركة من العين المتبرك بها الخير والنفع والنماء والتأثير والقدرة على حصول ما لا يقدر عليه إلا الله ونسبة ذلك للعين المتبرك بها .

د- الاستقسام بالأزلام .

هـ- الاستسقاء بالأنواء وأن للنجوم أسبابا في نزول المطر .

فان اعتقدوا أن فيها قدرة تؤثر بذاتها فهذ شرك أكبر ويتعلق بالربوبية.
وان اعتقدوا ان الله جعلها أسبابا فهذا شرك اصغر .
نسبة المطر للكواكب والشتاء : نسبة الأحوال والحوادث للكواكب ومحاولة إيجاد مناسبة حاضرة أو مستقبلية وعلامة سببية، فإن قارنه دعوى التأثير أو معرفة الغيب كان أشنع شركا . وقال الرسولﷺ حين نزل الشهاب ما كنتم تقولون فيه قالوا موت عظيم فأخبرهم ﷺ أنه لا ارتباط له بما يحدث وليس له أي علاقة وإنما هو لرمي الشياطين الكهنة .

رابعا: إعطاء المخلوق صفة علم الغيب :
فعند أصحاب هذا الشرك المخلوق سواء كان نبياً أو وليا أو ساحراً أو شيطاناً أو غيرهم يعلم الغيب، وأن الولي يعلم ما كان وما سيكون ويعلم ما في اللوح المحفوظ بل وما في اللوح ليس إلا جزء من علمه، كما يقول البوصيري في الرسولﷺ وأنه يعلم مكنون الضمائر وأنه حاضر ناظر في كل مكان يسمع ويعلم كل شيء ومن يناديه ، وأنه يعلم مفاتح الغيب الخمسة فيعلم ما في الأرحام وما يكسب غدا ومتى الموت وأين يكون ومتى تكون الساعة .
وهذا الشرك يوجد عند طوائف من المشركين منهم :
١- الرافضة والباطنية في أئمتهم وآل البيت .
٢- غلاة الصوفية في الرسول ﷺ وفي الأولياء والصالحين .
٣- السحرة والكهان والمنجمون والعرافون الذين يدّعون معرفة الغيب.
٤- العوام ممن يعتقد أن السحرة والشياطين يعلمون الغيب .
الشرك في الأفلاك : باعتقاد قدرتها على التصرف في الكون وتأثيرها في حوادث والوقائع التي تحصل في الأرض من جهة ومن جهة أخرى باعتقاد علم الغيب من طريقها والاستدلال بحركاتها على ما سيصير في المستقبل .
ومن هذا الشرك ما يفعله أصحاب الأبراج في المجلات والصحف المعاصرة .
والكلام عن السحر والتنجيم بسطته في الناقض السابع من نواقض الإسلام .

خامسا: إعطاء المخلوق صفة التشريع والتحليل والتحريم والأمر والنهي :
وقد يجهل كثير من المسلمين أن ذلك من الشرك الأكبر بل من الشرك في الربوبية والألوهية معاً وسيأتي الكلام عنه مفصلا في شرح الناقض الرابع.
ويوجد هذا الشرك عند طوائف :
- القانونيون والمشرعون وهم من يسن القوانين ويشرع الأنظمة الآمرة والناهية، حيث جعل من نفسه رباً يحلل ويحرم ويشرع ما لم يأذن به الله من الدين وهذه توجد عند القضاة والحكام والأمراء الحاكمين بغير ما أنزل الله، وعند علماء السوء المحللين والمحرمين بأهوائهم.
- أرباب التقليد والتعصب للعلماء والمذاهب وتقديمها على الشرع والوحي .
- الرافضة والصوفية حين يقلدون أئمتهم ويطيعونهم في تشريعاتهم وإباحة المحرمات وإسقاط التكاليف .

سادسا: الشرك في النبوة والإرسال : ويوجد هذا الشرك عند طوائف :
١- من يقول أن النبوة مكتسبة ويمكن تحصيلها كما هو مذهب الفلاسفة .
٢- من يدعي النبوة ومن يشرك في توحيد المتابعة بأن لا يعتقد أن الرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء أو أن الله ﷻ لم يأمر بتصديقه واتباع شرعه وامتثال أوامره ومحبته .
وهذا عند طوائف كثيرة كالقاديانية والباطنية والإسماعيلية ، وغيرهم .
ومنه قول علي بن الفضل الإسماعيلي: فإن نبي بني هاشم ولّى وهذا نبي بني يعرب .
فهؤلاء أشركوا في توحيد المتابعة وادعوا أن هنالك نبي بعد الرسول ﷺ، وأشركوا في فعل الله الإرسال وكفروا به.

سابعا: شرك غلاة الصوفية في الرسول ﷺ خاصة وفي الأولياء عامة.
فقالوا أنهم خزانة السر وموضع نفوذ الأمر فلا ينفذ الأمر إلا منه ولا ينقل خير إلا عنه كما يقول ذلك القسطلاني والزرقاني في شرح المواهب اللدنية .
وبمثل ذلك وأعظم ما قاله البريوني في كتبه الاستمداد والإمداد وبركات أمدادية:" إن كنت تريد شيء ما فاطلبه من محمد ﷺ فجميع أمور الدنيا والآخرة في اختياره وهو الذي يملك كلمة كن فيكون ولا يخرج شيء من الخزائن الإلهية إلا على

يديه وأن الله يستأذنه ويسعى في رضاه وهو دافع البلاء والمرض والفقر وهو مالكنا ومولانا ويعلم الغيب " إلى آخر كلامه الشنيع وكفره البواح لعنه الله .

ومثلهم البرعي في ديوانه يخاطب الرسول بمثل ذلك ويقول أنه عبده .

وكذا النبهاني في شواهد الحق ، والبوصيري في بردته ، وغيرهم كثير .

ويقولون أن النبي ﷺ خلق من نور الله والمخلوقات مستمدة من نوره وأنه أول المخلوقات وأنه مالك الأراضين والناس والخلائق والجنة والنار ويوم الدين وهو المحيي المميت المعطي المانع غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب .

وعندهم أيضاً أن الرب يطلب رضا محمد .

فأي كفر أشد من هذا وأي شرك بعد هذا .

وبمثل ذلك قالت الصوفية في الأولياء .

ومن ذلك قولهم: ما يدق في العالم وتد ولا مسمار إلا بإذن البدوي .

ولذا ابتدعوا القطب والوتد والنجباء والأبدال والأوتاد والنقباء .

وإذا قيل لهم هذا الكفر البواح فأي توحيد بعد ذلك للرب، قالوا : الله هو الذي أقدرهم وأعطاهم وهم لا يفعلون ذلك استقلالاً .

ثامنا: الشرك في القدر .

من الأمور والأفعال التي اختص الله بها القضاء والقدر فلا يجوز أن يشرك فيه مع الله غيره لا بتعطيل الله عنه ولا بتمثيله بخلقه فيه أو نسبة القدر للخلق .

وقد وجد من المشركين من يصرفه لغير الله ﷻ ، فيعتقد أن هنالك مقدّر خالق مع الله أو مدبر أو مريد أو خالق أو عالم بكل شيء .

كما هو حال القدرية النفاة للقدر .

والصوفية الغلاة الذين يقولون أن الله لا يقدر شيئا إلا بعد استئذان محمد ﷺ.

تاسعا: القدرية مجوس هذه الأمة :

يقولون أن العبد يخلق فعل نفسه والله لا يخلقه ، فهو مماثل للرب في صفة الخلق ، فعطلوا الرب من صفة الخلق والقدر ونفوه عن الله ، وأثبتوه للمخلوق ومثلوا العبد بالخالق حين أثبتوا له صفة الخلق والإرادة والقدر .

عاشرا: التصوير : يعتبر شركا أصغر في الربوبية ، لأن فيه مضاهاة لخلق الله وصنعه وتمثل بالخالق ، وهذا شرك في التمثيل .

الحادي عشر : الكبر والاستكبار يعتبر شركا في الربوبية .

ثانياً : تمثيل الخالق بالمخلوق :

ولهذا القسم أمثلة كثيرة منها :

١- تمثيل اليهود لعنهم الله الرب بالخلق في قولهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ المائدة: ٦٤ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ آل عمران: ١٨١ .

٢- قول النصارى الله له صاحبة وهي مريم وله ولد وهو عيسى .

٣- نسبة الولد إليه كقول اليهود عزير ابن الله وكقول النصارى المسيح ابن الله وكقول المشركين الملائكة بنات الله .

٤- القبوريون والمشركون ، قالوا: الله يحتاج لواسطة تشفع لنا عنده مثل ملوك الدنيا من المخلوقين .

٥- قول القاديانية أخزاهم الله أن الله ينام ويصحو ويصوم ويصلي .

٦- الممثلة الذين يمثلون الله بخلقه ويجعلون صفاته كصفات خلقه .

تنبيه : المعطلة الجهمية تسمي أهل السنة المجسمة المشبهة ، لأنهم يثبتون الصفات الواردة عن الله تعالى .

٧- المتكلمون الذين يصفون الله بصفات لم يصف نفسه بها .

٨- الحداثيون لا ينزهون الله عن وصف ولا فعل .

فصل
القسم الثاني : الشرك في الألوهية :

المسألة الأولى : ينقسم الشرك في الألوهية إلى أنواع بحسب آلته إلى :
اعتقادي وعملي وقولي :
النوع الأول : شرك الاعتقاد وعمل القلب وهو أصناف :
شرك الإخلاص والنية والإرادة ، شرك المحبة ، شرك الخوف ، شرك الرجاء ، شرك التوكل ، شرك الإنابة واللجوء والخضوع والتعظيم ، شرك الطاعة والحكم .
الثاني : شرك الأعمال والتقرب والتنسك بالجوارح . ومنها:
الصلاة والقيام والركوع والسجود والاعتكاف والمجاورة والحج والطواف والذبح والنذر والصيام والتقبيل والتمسح والتبرك وتجريد اللباس وحلق الشعر.
الثالث : شرك الأقوال :وهو نوعان :
شرك الدعاء. شرك المدح والشكر والثناء والحمد والتمجيد والتعظيم.

المسألة الثانية: يمكن أن يقال في تقسيم الشرك في الألوهية كما قيل في الربوبية :
شرك تعطيل وشرك تمثيل . فيعطل الله عن ألوهيته ويمثل فيها .
وكل منهما ينقسم إلى كلي وجزئي .
أولاً : شرك التعطيل في الألوهية :
وذلك بأن لا يؤلّه الله ولا يُعبد فيعطل عن ألوهيته .
وهذا التعطيل إما بالكلية فلا يعبد الله ألبته ، أو يعطل في باب منها كالتحاكم فلا يتحاكم إلى الله ويعطل شرعه ودينه فلا يعمل المشرك المعطل بما أنزل الله.
ثانياً : شرك التمثيل في الألوهية :
وذلك بأن يمثل المخلوق بالرب فيُجعل إلها مع الله بالباطل .
وهذا التمثيل إما أن يكون بالكلية كما يفعله بعض الصوفية المشركة والرافضة مع أوليائهم فيمثلونهم بالله ويصرفون لهم جميع أنواع العبادة ويعتقدون أن هؤلاء الأولياء يستحقون كل صفات وأفعال الألوهية .
أو يكون التمثيل في باب من أبواب الألوهية كالدعاء وطلب الشفاعة ، أو في الحكم والطاعة .

فقد وجد من يوحد الله في التحاكم ويشرك ويمثل المخلوق بالخالق في الدعاء والوسائط وطلب الشفاعة ، كما يوجد من يوحد الله في الدعاء والنسك . ويشرك ويمثل المخلوق بالخالق في التحاكم والطاعة .
أو في باب من أبواب الألوهية .

المسألة الثالثة : بعض العبادات تشمل أصنافاً وتدخل في أكثر من نوع.
فالصلاة فيها اعتقاد وقول وعمل ومثلها الحج .
والتعظيم يكون باعتقاد القلب ويحصل بالقول بالذكر وبالجوارح كالقيام .
والنذر عبادة بدنية وتتعلق بالقول وبالاعتقاد .
والحلف عبادة قولية داخلة في الذكر والتعظيم .
والأصل هي عبادات القلب من التعظيم والخضوع والعبادات مردها إليها.

المسألة الرابعة : العبادات التي لا تكون إلا من الشرك الأكبر :
كالركوع والسجود والدعاء والنذر .وهناك أفعال تكون عبادة وشركاً أكبر، وتكون أفعال تدخل في الشرك الأصغر: كالخوف والمحبة .

المسألة الخامسة: العبادات يمكن حصرها في أجناس :
١- جنس الإخلاص : الابتغاء النية الإرادة القصد .
٢- جنس الخوف : الخشية الرهبة الوجل الهيبة الإشفاق الحذر التقوى
٣- جنس الرجاء: الرغبة الأمل الطمع حسن الظن .
٤- جنس التوكل: الحسب الاستكفاء التفويض الاعتماد التسليم الثقة.
٥- جنس المحبة .
٦- جنس الذكر : الشكر والثناء والمدح والحمد والتسبيح والتقديس والتنزيه والاستغفار والتحية والحلف .
٧- جنس الدعاء : الاستعانة والاستغاثة والاستعاذة والصلاة .
٨- جنس التعظيم : التوقير والتقدير والإجلال .
٩- جنس التذلل:الخضوع، الإخبات، السكينة، الخشوع، الخنوع، الاستكانة، التضرع، التواضع، الاستخذاء، الخنوع، التقوى، السكون، الاطمئنان، الصبر .

١٠- جنس الطاعة والانقياد: الانقياد والإذعان والامتثال والالتزام والطاعة والإسلام والاستسلام والتسليم والاتباع والانصياع والتدين والعمل والاستقامة والاستجابة والأخذ بالشيء والمسابقة والمسارعة والتنافس في الخير.

١١- جنس التوبة والرجوع إليه واللجوء له والإقبال عليه: التوبة الإنابة الإوابة الإواهة.

١٢- جنس الحفظ : الأنس به وحفظه ومراقبته والانقطاع عما يشغل عنه والتبتل له وترك الشيء لأجله والورع والزهد والاستقامة والإحسان.

١٣- جنس الصبر واليقين والرضا.

١٤- جنس الحكم والدين: الحكم والتحاكم والطاعة التشريع والتحليل والتحريم وسن الدين.

١٥- جنس التنسك : القيام والركوع والسجود والصلاة والاعتكاف والمجاورة والطواف والتقبيل والتمسح والتبرك والذبح والنذر والتجرد من الملابس وحلق الشعر والصيام .

فهذه أجناس العبادات التي ترجع فيها جميع العبادات القولية والقلبية والعملية. وبينها تلازم وتداخل .

الصنف الأول : الإخلاص وشرك الإرادة والنية والقصد والابتغاء :

م (١):الإخلاص عبادة قلبية،وهو عبادة الله ﷻ وحده. ضده الشرك والرياء.
م (٢) :**المراد بالإخلاص والنية:**
قصد الله وحده بالعمل وإرادة وجهه بالعبادة . وأن لا يقع العبد في الشرك.
قد يعبر عن الإخلاص بالابتغاء أو النية أو الإرادة أو القصد .
وقد جاءت النصوص معبرة بهذه الألفاظ .
والإخلاص والتوحيد والإفراد بمعنى واحد ومترادف.
م (٣) : **اطلاقات الإخلاص ومعانيه:**
المعنى الخاص: وهو المتعلق بالإرادة والنية وبعض أفراد العبادة والطاعة، ويكون بهذا الاعتبار والإطلاق والمعنى جزء من التوحيد، ويصير المقصود به ما يقابل الرياء والسمعة والعجب وإرادة الدنيا .
المعنى العام: وهو مرادف للتوحيد ويتعلق بأصل الإيمان ويكون مقابلا بهذا جميع أنواع الشرك والكفر وهو المقصود في آية: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ الزمر: ٢.
م (٤) : **معنى النية:** النية هي العزم والقصد والإرادة والبغية .
م (٥) : **استعمالات النية :** للنية استعمالان :
١- تمييز العبادة بعضها عن بعض كصلاة الظهر عن العصر والنفل عن الفرض والعبادة عن العادة والعمل الجبلي الطبعي كالصوم والتخسيس والرجيم .
٢- تمييز العبادة عن الشرك وإرادة الله والإخلاص له وإرادة غيره .
م (٦): الإحسان يتناول الإخلاص وغيره لا مجرد الإخلاص فالإحسان أعم.
م (٧) : **دليل الإخلاص والشرك المتعلق به :**
قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ هود: ١٥ - ١٦. وآية هود هذه أصل في هذا الشرك .
﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠.
﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ آل عمران: ١٥٢ .
وقال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ الإسراء: ١٨.

وقوله : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴾ البقرة: ٢٠٠.

وقوله تعالى : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ النساء: ١٤٢ .

وقوله : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ البينة: ٥ .

وقوله ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ الشورى: ٢٠.

وفي السنة : عن عمر ﷺ مرفوعا (إنما الأعمال بالنيات) رواه البخاري.

عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا (قال الله ﷻ:أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي غيري تركته وشركه)رواه مسلم. معنى تركته وشركه : أي لم أقبله.

وفي رواية عند ابن ماجه : (فأنا منه بريء وهو للذي أشرك) .

وقال ﷺ : (إن الله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغي به وجهه) رواه النسائي .

وقال ﷺ :(أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر الرياء) رواه أحمد .

حديث الضحاك بن قيس يرفعه :(إن الله ﷻ يقول :(أنا خير شريك ، فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكي) ، يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله ﷻ فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ، ولا تقولوا هذا لله والرحم فإنها للرحم وليس لله منه شيء، ولا تقولوا : هذا لله ولوجوهكم ، فإنه لوجوهكم وليس لله منه شيء). رواه البزار والبيهقي .

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطى رضي وإن لم يعط سخط؛ تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع) رواه البخاري.

م (٨) :حكم الإخلاص ومنزلته ومكانته:

الإخلاص ركن الدين القويم ولا يقبل عمل ولا عبادة بدونه كما جاءت الأدلة بذلك .وهو الغاية التي من أجلها خلق الخلق وبعثت الرسل والعبادة لا تقبل ولا ينظر فيها إلا إذا كانت خالصة لله وقام بها التوحيد ومالت وحنفت عن الشرك .

والدليل قوله تعالى :﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ البينة: ٥

وقال: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦ .

ولهذا كان السلف رحمهم الله يعتنون بالإخلاص ويجاهدون أنفسهم عليه.

يقول سفيان الثوري: (ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي لأنها تنقلب عليّ).

وقال الإمام أحمد : (أمر النية شديد) .

وقال القشيري : (أعز شيء في الدنيا الإخلاص) .

وقال ابن القيم في الفوائد: (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس) .

م (٩) : مراتب الإخلاص وأقسامه إلى أصل وكمال :

الإخلاص له مراتب يتفاوت الناس فيه، والإخلاص في نفسه يزيد وينقص في المؤمن يزيد إلى درجة الكمال وينقص إلى درجة الأصل الواجب، والناس يتفاضلون فيه على القاعدة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه، والإخلاص من الإيمان.

ومن زال من قلبه أصل الإخلاص فهو إما كافر مشرك أو منافق كمن زال عنه أصل الإيمان، أما من زال كمال الإخلاص عنه فهو مسلم وقد يكون عاصيا.

فالإخلاص مثله مثل بقية أعمال القلوب وشروط التوحيد من المحبة واليقين والصدق وغيرها له مرتبتان :

الأولى: أصل الإخلاص: وهو المتعلق بأصل الدين، وهذا لابد منه في الشهادتين، وإلا كان صاحبها كافراً مشركاً أو منافقاً .

والثانية: كمال الإخلاص :

وهذه المرتبة أصحابها بين من أتى بالإخلاص الواجب والمستحب، ومن أتى بالواجب وترك المستحب، ومن عنده أصل الإخلاص دون الواجب والكمال وهو من ترك شيئاً من الواجب وفرط في عمل معين في بعض أفراد العبادات وشاب إخلاصه شوائب وهذا كحال بعض أهل الرياء .

ومن الأمثلة : من يطمع في ما بأيدي الناس أو يلتفت لهم أو يتطلع للمدح ويهمه الذم ويتكدر منه أو في قلبه شيء من مهابة الناس والخوف منهم، وكذا المجاهد في سبيل الله وفي قلبه التفات للمغنم .

قال ابن تيمية : (وكلما حقق العبد الإخلاص في قول لا إله إلا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه) الفتاوى١/ ٢٦٠.

وقال ابن تيمية : (النوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر كما في حديث البطاقة.... فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص) منهاج السنة ٦/ ٢١٨.

م (١٠) : القوادح في الإخلاص:

الأولى : قوادح تقدح في أصل الإخلاص وتنقضه وتزيله بالكلية وتبطله وتفسده من أساسه وهي الشرك الأكبر وهذا حال المشركين والكفار والمنافقين.

الثانية : قوادح كمالية: تنقص كمال الإخلاص إلا أنها لا تزيله ولا تبطله وإنما تنقص منه وتقدح فيه، ولا يشترط في من نقص إخلاصه أن يكون واقعاً في الشرك الأصغر والعصيان، بل صاحب النقص في الكمال دائر بين المقتصد والظالم لنفسه .

والقوادح المنقصة له إما أن يكون صاحبها قصر في الواجب منها وأنقص منه ويعتبر صاحبه مسلما عاصيا فاسقا، مثل الشرك الأصغر كيسير الرياء.

أو أنه يأتي بما يقدح فيه من الأفعال التي تستلزم معارضة كمال الإخلاص .

م (١١) : أمور لا تنافي الإخلاص :

١- الاجتهاد في الطاعة إذا رأى الصالحين لكونهم يعينوه على الخير بالاقتداء.

٢- فعل العمل الصالح والإخبار به إذا قصد صاحبه أن يقتدي به ويسن سنة حسنة فليس من الرياء .

٣- كتمان الذنوب وعدم الجهر بها وسترها وكره إطلاع الناس عليها .

٤- فرح العامل بثناء الناس ومدحهم فيما لو اطلعوا على العمل من غير أن يتعمد العامل إظهار عمله أو يسعى لينال المدح .

وفي الحديث عن عمر ﷺ مرفوعا : (من سرته حسناته وساءته سيئاته فذلك المؤمن) رواه الترمذي وأحمد .

وقال النبي ﷺ عن ذلك : (تلك عاجل بشرى المؤمن) رواه مسلم .

ولا ينافي ذلك قول النبي ﷺ لجندب الغامدي ﷺ لما قال : إني أعمل العمل لله فإذا اطلع عليه سرني، فقال ﷺ : (إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شورك فيه) ، وعن ابن عباس ﷺ قال: (كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام او تصدق فذكر بخير أرتاح له فنزلت فيه الآية ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾) وتقدم تخريجه.

لأن هذا والله أعلم إذا كان ذلك الملحظ قبل العمل .

٥- إرادة شيء من الدنيا مع قصد الله في العمل، كالذي يحج ويتاجر، وكمن يجاهد طاعة لله ويرجو تحصيل الغنيمة، وكذا الصوم والإنفاق والصدقة للدواء والاستشفاء وإن كان أجرهم لا يعدل من كان عملهم كله لله وخالصاً لوجهه . وهذا من أحد أوجه زيادة الإخلاص وكماله .

عن عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إن الغزاة إذا غنموا غنيمة تعجلوا ثلثي أجرهم ، فإن لم يغنموا شيئا تم لهم أجرهم) رواه مسلم .

عن أبي هريرة ﷺ أن رجلا قال للنبي ﷺ : رجل يريد الجهاد وهو يريد عرض من الدنيا ، فقال ﷺ : (لا أجر له) رواه أبو داود.

وهناك فرق بين من كانت نية الدنيا مخالطة له من أول مرة بحيث تكون هي الباعث له على العمل أو من جملة البواعث ، وبين من كانت نيته خالصة لله من أول الأمر ثم عرض له من أمور الدنيا وهو لم يقصده ويبالي به حصل له أو لا.

م (١٢) : تحول العادات لعبادات بالنية والعكس :

كما أن أعمال الآخرة قد يراد بها الدنيا كذلك العكس أعمال الدنيا قد يريد بها المسلم الآخرة فيثاب عليها، فأهل الإخلاص الكمّل يحتسبون أفعالهم الجبلّية ويرجون من الله الكريم أن يثيبهم عليها لكونهم ينوون بها الاستعانة على العبادات ، وهذا شأن عباد الله المخلصين . ومن ذلك احتساب الأكلة والنومة للتقوى على العبادة واللقمة توضع في فم الزوجة والولد وفي بضع أحدكم صدقة .

ويأتي هؤلاء الكرام في مقابل من حول عباداته إلى عادات خاوية عن روح التعبد والتأله لله وحسن النية . والأسوأ حالا وحضا منهم من يلتمس بعباداته حظوظ الدنيا أو المدح والسمعة والرياء والعجب.

م (١٣) : محل الإخلاص وأركانه :

الإخلاص أصل محله وقراره : القلب والنية .

ويكون كذلك متعلقا باللسان والجوارح .

م (١٤) : لوازم الإخلاص: للإخلاص لوازم عدة من أعظمها:

الصدق والمحبة والقبول والانقياد والتوكل والتعلق بالله والتخلص من حظ النفس والإحسان للناس والخوف من الله ورجائه والتوبة .

أيضا مراقبة الله وحفظه ، وفي الحديث: (احفظ الله يحفظك).

م (١٥) : ما يضاد الإخلاص ويقابله وينقضه :
١- الشرك عموما وعبادة غير الله تعالى
٢- النفاق.
٣- شرك النية والإرادة والقصد.
٤- شرك الرياء والسمعة والعجب.
٥- صرف الإخلاص لغير الله
٧- يدخل في إرادة الدنيا من يفعل المعصية للناس وهو داخل في شرك الطاعة كمن يحلق لحيته للوظيفة .
٨- أدخل البعض في شرك الإرادة والنية كل كفر. وقد أخذ هذا الفهم من تفسير أنس بن مالك وغيره لآية : (من كان يريد الحياة الدنيا) .
٩- إتباع الهوى والحسد.
١٠- التعلق بالدنيا والحرص عليها وتقديمها على مراد الله وأوامره .
١١- من يعمل العمل الصالح ولا يقصد به ثوابه في الآخرة إنما يريد أن يجازيه به في الدنيا من حفظ المال والعيال، وهذا ليس له في الآخرة من نصيب كما قال ابن عباس .

م (١٦) : ثمرات الإخلاص:
وللإخلاص ثمرات كثيرة ومحاسن عليّة ومنازل نفيسة ومجالات عديدة وصفات وخصائص، تذكر في كتب الرقائق وليس هذا مقام ذكرها .

م (١٧) : عبارة تدخل في شرك الإخلاص :
يوجد من يصرف الإخلاص ويوقعه لغير الله فيقول : لك يا فلان خالص شكري أو خالص تحياتي أو خالص رجائي أو لكم رجائي الخالص وهذا لا يكون إلا لله ﷻ، فليس مجرد صرف الشرك لغيره وإنما جعلوا الإخلاص لغير الله ﷻ ليس مجرد أنه رجا غير الله أو حمد غير الله إنما جعل الإخلاص في ذلك لغير الله ﷻ.

م (١٨) : ضابط الإرادة الشركية (شرك الإرادة) :
١- إرادة الشيء كالناس والدنيا مع الخضوع والتذلل والرغبة وخوف فواته.
٢- تقديم الهوى والدنيا على مراد الله ومحبته وطاعته.
كمحبة المال وجمعه من كل وجه والبخل به والانشغال به عن عبادة الله.

وهذا المقصود بقول الرسول ﷺ : (تعس عبد الدنيا إن أعطي منها رضي وإن منع منها سخط) رواه البخاري.

٣- إرادة ما يكرهه الله من المعاصي .

إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

م (١٩) : حقيقة عبادة الدنيا :

المقصود بقول الرسول ﷺ : (تعس عبد الدنيا إن أعطي منها رضي وإن منع منها سخط) رواه البخاري. وفيه تسمية الإنسان المسلم عبد الدنيا والدينار والمال .

عبودية الدنيا هذه فيها نوع من معاني العبادة ، لا أن أصل العبادة التي يكفر من صرفها لغير الله.

وذلك أنه لما كانت الدنيا هي مقصود الشخص ومطلوبه الذي عمل له وصارت نيته مقصورة عليه يغضب ويرضى لها صار بذلك عبدا لها .

كما جاء تفسير ذلك في نص الحديث: بأنه إن أعطى رضي، وإن لم يعط سخط.

قال ابن رجب في فتح الباري عن حديث تعس عبد الدينار:(فدل على أن كل من أحب شيئا وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله وعادى لأجله فهو عبده وذلك الشيء معبوده وإلهه).

ليس المقصود من الباب عدم حب المال ومباحات الدنيا وإنما المقصود أن تكون هي المقصودة والمرادة في قلب العبد.

قال ابن القيم في عدة الصابرين: (ما حكم من يريد الدنيا والآخرة ؟ إن الله علق السعادة بإرادة الآخرة والشقاوة بإرادة الدنيا، فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبها ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماع الطاعة والمعصية والإيمان والشرك في العبد ، ولا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله فإن الإيمان بالله يستلزم إرادة رحمة الله بأعماله، وحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان).

مبحث الرياء

م (١) : المراد بهذا الشرك شرك الإخلاص والرياء والإرادة:

أن يعمل العبد عملاً مما يراد به وجه الله والدار الآخرة والعبادة لا يريد الله به وإنما الدنيا وما في أيدي الناس أو مدحهم .

م (٢) : أقسام الشرك المتعلق بالإخلاص والإرادة والنية :

١ - أن يقصد الإنسان بعمله وعبادته الدنيا وزينتها من مال ومتاع ومنصب .

وهذا شرك الإرادة والأصل فيه قوله:﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ .

٢ - أن يقصد الإنسان بعمله الرياء والسمعة وثناء الناس ومدحهم وهو داخل في القسم الأول .

م (٣) : حقيقة الرياء : عبادة النفس وطاعتها.

م (٤) : تعريف الرياء والسمعة :

مشتق من الرؤية وهو: أن يعمل الإنسان ليراه الناس أو يعمل شيئاً ليسمعه الناس فيحمد عليه ويثنى عليه ويمدح.

م (٥) : يلحق بالرياء السمعة: من يعمل العمل ليسمعه الناس أو يحدث به قاصدا غير الله، قال ﷺ : (من سَمَّعَ سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به) متفق عليه.

م (٦) : الفرق بين شرك إرادة الدنيا وشرك الرياء :

أن هذا يريد المدح وذلك يريد الدنيا كمن يصلي أو يطلق لحيته ليقبل في وظيفة أو طلبا لمنصب أو مصلحة وهذا من الشرك في الإخلاص بل إخلاصه لغير الله ﷻ.

وأخطأ من جعل شرك إرادة الدنيا شركا أكبر مطلقا والرياء أصغر مطلقا .

م (٧) : أدلة الرياء :

قال تعالى : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ النساء: ١٤٢ .

وقال:﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠.

وهذه الآية نزلت في الصحابي جندب بن زهير الغامدي ﷺ .

عن أبي هريرة مرفوعا: (قال تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه) رواه مسلم.

عن أبي سعيد الخدري مرفوعا: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) رواه أحمد.

وقال ﷺ : (من سَمَّعَ سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به) البخاري ومسلم.

وقال ﷺ : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: (الرياء، يقول الله ﷻ إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً)أحمد.

وقال: النبي ﷺ: (يا أيها الناس! إياكم وشركَ السرائر) قالوا: يا رسول الله! وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر)رواه ابن خزيمة والبيهقي.

عن أبي يعلى بن شداد عن أبيه قال: (كنا نعد الرياء في زمن النبي ﷺ الشرك الأصغر) رواه الحاكم والبيهقي.

م (٨) : حالات هذا الشرك :

١- أن يكون شركاً أكبر وصورته أن يدخل في الإسلام لحقن دمه كالمنافقين أو يكون معظم عمله وغالبه رياءً أو يرائي ويريد الدنيا بالأعمال التي تركها كفر كالصلاة المفروضة أو الغنيمة والمصلحة أو يتظاهر بالصلاح لمدح الناس أو يتعلم العلم ويجاهد ويتصدق لمدح الناس رياءً أو يصلي لأجل مجاراة الناس والحياء منهم أو الخوف منهم أو لأجل الوظيفة كالإمام للمسجد أو طلباً للتزكية ليطلب معها ما عند الناس أو يكون أصل عبادته وعمله لأجل الدنيا أو عظيم الرياء بأن يكون الغالب على فعله ، وهذا رياء المنافقين .

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء: ١٤٢.

٢- أن يكون شركاً اصغر : وهو يسير الرياء أو أن يعمل عبادة خاصة لأجل حاجة دنيوية كمن يحسن صلاته لينال من الدنيا أو طالبا المدح أو يتصدق بصدقة معينة لأجل مصلحة دنيوية لا يريد ما عند الله أو لأجل المدح والسمعة والرياء ، أو أن يكون العمل أصله لله ثم يدخله الرياء أو حاجة دنيوية يطلبها وهذا العمل محبط لا يقبله الله ويأثم فاعله لكن لا يخرج فاعله من الإسلام، أو يصلي في المسجد ليثنى عليه أنه من أهل المساجد مع أنه سيصلي في بيته لو لم يقصد المدح فالمدح والرياء متعلق بالصلاة جماعة وليس لأصل الصلاة أو يتباهى بعلمه في مسألة ليرى الناس

أنه عالم بها وكذلك من يحافظ على الإمامة والأذان لأجل الوظيفة والدنيا فهو داخل في عموم الآية إرادة الدنيا .

م (٩) : هل الرياء شرك أكبر أم أنه شرك أصغر :
هو من الشرك الأصغر ومن الشرك الخفي كما نص الحديث .
وبعض أهل العلم كابن القيم وغيره يفرق بين كثير الرياء ويسير الرياء فكثير الرياء شرك أكبر وقليل الرياء شرك أصغر، وقالوا : إن كثير الرياء هو شرك المنافقين .

م (١٠) : حالات الرياء :
الأول : إن كان العمل الصالح من أصله كان للرياء فهذا شرك ولا يقبله الله .
الثاني : الرياء الطارئ : إذا خالط العبادة وهو على قسمين :
فإن جاهده المرء ودفعه فله أجر وإن تركه واسترسل حبطت عبادته .
الثالث : لو طرأ الرياء بعد العمل :فمن أهل العلم من قال بحبوطه ومنهم من قال لا يحبطه لأنه لم يخالط عمله وإنما كان بعد العمل، والصحيح أنه إن لم يكن له فيه يد ولا سبب فلا يحبط إما إن كان هو الذي أعلم الناس بعمله فيحبط .

م (١١) : الرياء الخفي: بعض الأمور من القوادح الخفية في الإخلاص :
١- ترك العمل الصالح خوفاً من الرياء، لا ينبغي وهو من مداخل الشيطان . وعده الفضيل وغيره من السلف من الرياء .
٢- كذلك من الرياء الخفي ذم النفس والقدح فيها أمام الناس، ليقال لفاعل ذلك إنه متواضع. ومن جنس هذا ما يفعله الملامية الصوفية تفعل ما يلامون عليه.
٣- من الرياء الخفي ما يوجد عند بعض أهل العبادة والزهد والعلم من محبة أن يقدموا ويعظموا ويبدؤوا بالسلام، ويرون أنهم أفضل الناس وأن لهم حق لما قاموا به من عبادات وهذا الفعل في الحقيقة من الرياء والعجب وعبادة النفس.
م (١٢) : وسائل علاج الرياء :
١- معرفة عظمة الله تعالى .
٢- معرفة حقيقة المخلوقين الذين يتلمس رضاهم ومدحهم وما هم عليه .
٣- استشعار خطورة الرياء وشناعة عقوبته .

٤- مجاهدة النفس والاستعانة بالدعاء .
٥- الحذر من أسبابه والبعد عن دواعيه .
٦- كتمان العمل وإخفائه .
٧- معرفة قبح الرياء في الغير فانظر للمرائي وقبحه لتعلم قبحه بك إن فعلته.
٨- احتقار النفس ولومها كلما طلبت مدحا وثناء .
٩- المداومة على قول كفارته دائما .

م (١٣) : خطورة الرياء والحكمة من كونه أخوف شيء على الأمة:

الرياء خطره عظيم وهو أخوف شيء خافه النبي ﷺ على أمته وأخبر أنه أشد من الدجال وهو من أكثر ما يدخل النار وأن أول من تسعر بهم النار الثلاثة النفر العالم والمجاهد والمتصدق لأجل الرياء ، ووجه ذلك أنه يخفى مع تعلقه بالأعمال الصالحة وبالصالحين بخلاف الشرك الأكبر فمعروف والناس يحذرونه.

فلأجل أنه متعلق بالصالحين مع شدة خفائه كان مخيفا للمخلصين .

تنبيه : هناك مسائل متعلقة بهذا الباب (الرياء) بينتها في مبحث الإخلاص والشرك المتعلق به .

الصنف الثاني: شرك المحبة :

المسألة الأولى: تعريف المحبة :
المحبة اسم للحب ضد البغض والكره .
المسألة الثانية: المراد بالمحبة شرعا :
المقصود بالمحبة التي هي ركن في التوحيد وهي من شروط لا إله إلا الله أن يحب كلمة التوحيد والناهية عن الشرك ويحب ما تقتضيه وتستلزمه، وذلك بمحبة توحيد الله وعبادته والكفر بالطاغوت والبراءة من كل شرك، ومحبة ذلك والتقرب إلى الله به، والرغبة الحقيقية الجادة في كل ذلك .
كما أن المحبة لكلمة التوحيد تعني المحبة للمتصف بها وهو الواحد الأحد صاحب الربوبية والمستحق للألوهية.
وكذلك محبة أهلها وأوليائها الموحدين، ومحبة من أرسل بها وهو رسول رب العالمين، ومحبة الدين الذي جاء به والشرع الذي ألزم به وهو الإسلام، والرضا بهذه المقامات الثلاث، ويلزم من حبها الإتيان بلوازمها من الانقياد وكره كل ما يناقضها من الأقوال والأعمال والاعتقادات والأعيان وبغض جميع الطواغيت المتبوعة والمطاعة والمعبودة، فيجب كره الشرك وبغض أهله والآلهة المعبودة .
بهذا يكون الشخص قد أحب لا إله إلا الله حباً صادقاً .
فائدة: محبة لا إله إلا الله قائمة على أصلين:
الأول: محبة الله وتوحيده وعدم بغضه، أو بغض ما يحبه الله أو محبة ما يبغضه .
الثاني: توحيد الله في المحبة وعدم الشرك مع الله في المحبة .
المسألة الثالثة: أدلة المحبة :
١- قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥.
٢- وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة: ٥٤.
٣- ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ آل عمران: ٣١.

٤- قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ التوبة: ٢٤ .

فقرن بين التوحيد ومحبة الله ولازمه الذي هو الانقياد والجهاد .

٥- وقال عن المشركين : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء:٩٨ والتسوية في المحبة كما قال أهل التفسير .

٦- وقال عنهم : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ الأنعام: ١ والعدول بالمحبة والتعظيم .

٧- وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ الزمر: ٢٢.

٨- وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ التوبة: ١٢٤.

ومن الأدلة على اشتراط المحبة للتوحيد: أن انتفاءها من لوازمه حصول ضدها من البغض والكراهية للتوحيد، وهذا كفر أكبر .

٩- قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ محمد:٩.

١٠- وقال : ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ الزخرف: ٧٨.

ومن السنة :

١- عن أبي رزين العقيليﷺ أنه قال يا رسول الله ما الإيمان فقال: " أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما " رواه أحمد .

٢- قال النبي ﷺ : " والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه " رواه أحمد .

٣- وقال ﷺ :" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين " رواه الشيخان .

٤- وقال ﷺ : " ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار " رواه البخاري ومسلم .

ومن دلالات الحديث أن كره الكفر ومحبة التوحيد من الإيمان .

٥- قال الرسول ﷺ : " أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله والموالاة في الله والمعاداة في الله " . رواه أحمد .

٦- وقال ﷺ :" من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان " رواه أبو داود .

٧- وقال ﷺ:" أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله " رواه الترمذي .

٨- وفي الدعاء النبوي :" اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك " رواه أحمد .

٩- وفي خطبة النبي ﷺ عند ابن إسحاق " أحبوا الله من كل قلوبكم ".

١٠- ما أخرجه البخاري وفيه :" ذلك منافق لا يحب الله ورسوله ".

المسألة الرابعة: أقوال أهل العلم في شرك المحبة :

قال ابن تيمية في التحفة العراقية : " محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق به أصل كل قول، فالعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظّم ولا يذل له لا يكون معبوداً والمُعَظَّم الذي لا يُحب لا يكون معبوداً ".

قال ابن رجب في فتح الباري : " فعلامة تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة كل مخلوق، أنه إذا تعارض طاعة الرسول ﷺ في أوامره وداع آخر يدعوا إلى غيرها من هذه الأشياء المحبوبة، فإذا قدم المرء طاعة الرسول وامتثال أوامره على ذلك الداعي كان ذلك دليلا على صحة محبته للرسول ﷺ ، وإن قدم على طاعته وامتثال أوامره شيئا من الأشياء المحبوبة طبعا دلّ على عدم إتيانه بالإيمان التام الواجب عليه ".

وقال عن حديث تعس عبد الدينار:" فدل على أن كل من أحب شيئا وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله وعادى لأجله فهو عبده وذلك الشيء معبوده وإلهه ".

المسألة الخامسة : علاقة المحبة ببقية العبادات :

المحبة تستلزم جميع العبادات والعبادات بدونها غير مقبولة .

المسألة السادسة : مراتب المحبة وانقسامها إلى أصل وكمال :

المحبة كغيرها من العبادات التي تزيد وتنقص ويتفاوت الناس فيها، كما أن منها ما هو أصل ومنها ما هو من الكمال.

فأما أصل المحبة ومحبة أهل التوحيد فهذا وجوده شرط في صحة التوحيد وفاقده كافر خارج من الإسلام.

أما كمال المحبة والمحبة التامة المستلزمة لكمال الرضا واليقين فأهل التوحيد متفاوتون في تحقيقها بين :

١- من يأتي بالواجب والمستحب ويسابق بالخير.

٢- من يقتصد فيقتصر على الواجب فحسب .

٣- ومن يظلم نفسه ، ولهذا حالتان :

إما أن يقصر في الواجب منها وينقص منه.

أو أنه يأتي بما يقدح فيه من الأفعال التي تستلزم معارضة المحبة .

وهذه القوادح التي تنقص من درجة المحبة الواجبة كثيرة إلا أنها لا تخرج من الإسلام لوجود أصل المحبة مع حصول الإثم المستوجب للعقاب .

المسألة السابعة : أقسام الناس في محبة التوحيد :

١- من يحب التوحيد وأهله ويبغض الكفر وأهله. وهؤلاء هم أهل التوحيد فحسب .

٢- من يحب الشرك ويبغض التوحيد. وهؤلاء هم المشركون .

٣- من لا يحب التوحيد ولا يبغضه ، وهؤلاء هم الكافرون كفر إعراض وشك وتولي وامتناع .

٤- من يحب التوحيد ويبغض أهله. والمتصف بهذا كافر وليس بمسلم وحبه دعوى كاذبة .

٥- من يبغض الشرك ويحب أهله. وهذا الصنف كالسابق.

ولا يوجد من يحب التوحيد ويحب الشرك معا، لأنهما متناقضان .

المسألة الثامنة : أقسام المحبة :

١- المحبة الطبعية العادية الفطرية:

كمحبة الوالد والولد والمال. وهذه المحبة لا تستلزم التعظيم والتذلل والطاعة المستقلة والخضوع التعبدي، أما التذلل للوالد وخفض الجناح له وتوقيره فهذا من تعظيم الله وتعظيم أمره لكونه الآمر به ثم هو ليس من التعظيم الكامل والخالص .

٢- المحبة التعبدية :

وهي محبة الله المتصفة بالتذلل والخضوع واللجوء والرغبة والرهبة والخوف والرجاء وهذه الخاصة بالله ولا تجوز لغيره ولا تصرف إلا له .

٣- المحبة اللزومية :

وهي المحبة في الله ولله، وهي التي تلزم بالمحبة التعبدية وتكون لأجلها، وهي محبة ما يحبه الله من الطاعات والخير، والمحبة في الله ولله وذلك بمحبة أولياء الله وعباده المؤمنين من الرسل والملائكة والصالحين، وهذه هي محبة الولاء والبراء ولا يتم الإسلام إلا بها وهي أوثق عرى الإيمان .

٤-المحبة الشركية :

وهي محبة الأنداد والمحبة التعبدية لغير الله أو المحبة مع الله كما يفعله المشركون مع معبوداتهم .

٥- المحبة المحرمة :

وهي محبة ما لا يحبه الله من الكفر والفسوق والعصيان ومتابعة الهوى، أو محبة الكفار أو مجاملتهم ومن أمر الله ببغضهم أو الغلو في محبة الدنيا والمال .

وهذه المحبة درجات منها الكفر الناقل عن الملة ومنها ما هو معصية دون الكفر .

فحكم الأولى أنها مباحة والثانية والثالثة واجبة والرابعة كفر والخامسة محرمة وليست بمشروعة .

المسألة التاسعة: أقسام المحبة من حيث اختصاصها بالله :

١- المحبة العامة المشتركة بين الله وعباده وأنواعها أربعة :

طبيعية - رحمة وإشفاق - إجلال وتقدير - أنس وألفة .

٢- المحبة التعبدية الخاصة وهي التي لا تكون ولا تصرف وتصلح إلا لله وهي:

محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والانقياد والتعظيم وكمال الطاعة والإذعان .

المسألة العاشرة: أقسام المحبة المتعلقة بالله تعالى:

١- محبة الله ولا تكفي وحدها.

٢- محبة ما يحب الله.

٣- الحب لله وهي من لوازم محبة الله .

ولا يدخل الإنسان الإسلام إلا بهذه الثلاث .

٤- محبة مع الله وهذه المحبة الشركية الكفرية المحرمة .

المسألة الحادية عشرة: المحبة المثبتة والمنفية :

المحبة المثبتة: هي محبة الله ولله وفي الله، وكذا المحبة الطبيعية .

المحبة المنفية: هي المحبة الشركية التي مع الله، وكذا المحبة المحرمة.

المسألة الثانية عشر ة: المحبة النافعة والضارة:

المحبة النافعة: هي محبة الله ومحبة ما يحبه الله .

المحبة الضارة: هي المحبة الشركية التي هي المحبة مع الله ومحبة ما يكرهه الله ومحبة ما يقطع محبته عن محبة الله، وهي ضارة في الدنيا وتنقلب يوم القيامة لعداوة .

المسألة الثالثة عشرة: ما تتضمنه المحبة الواجبة لكلمة التوحيد ويدخل فيها:

١- محبة الله عز وجل.

٢- محبة ألوهية الله وربوبيته وأفعاله وصفاته. ومحبة توحيده فيها .

٣- محبة أوامر الله وشرعه ودينه وفرائضه.

٤- محبة الإسلام وامتثاله والعبادة والطاعة.

٥- محبة الرسول ﷺ واتباعه وطاعته .

٦- محبة ما يحبه الله وبغض ما يبغضه .

٧- محبة أولياء الله وبغض أعدائه .

المسألة الرابعة عشرة: لوازم محبة الله :

١- طاعة الله وتوحيده وترك الشرك، وعبادته وحده والذل له وامتثال أمره وابتغاء فضله وطلب رضوانه وقصده ورجاؤه واللجوء له والرغبة إليه والخوف منه.

قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

٢- محبة ما يحبه الله من الأفعال والأعيان والذوات وذلك بمحبة دينه والإسلام والتوحيد ومحبة الرسول ﷺ وعباد الله المؤمنين، وبغض ما يبغضه من أعدائه وكره الكفر والشرك .

٣- اتباع الرسول ﷺ والتسليم له، والانقياد له وقبول دينه، فمن لم ينقد للدين ويلتزم بالشريعة ويمتثل للأمر ويعمل بالتوحيد والفرائض ومباني الإسلام فمحبته كاذبة قال تعالى مبيناً هذه القاعدة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾.

٤- الولاء والبراء وذلك بموالاة المؤمنين ومناصرتهم ومحبة الخير لهم والنصح لهم، ومعاداة الكفار والبراءة منهم وبغضهم وجهادهم، وقد وصف الله الذين يحبهم ويحبونه بالأعزة على الكافرين والأذلة للمؤمنين، وأن معاداة الكفار وجهادهم مما يبتغى بها محبة الله ورضوانه .

هذه الأمور الأربع هي لوازم محبة الله التعبدية، ومن رفضها أو خالفها فهو سائر بين الكفر والمعصية بحسبه ولا تنفع محبة من دون الإتيان بها .

قال ابن تيمية: "فكل من ادعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب" ٨/٣٦٠.

وقال ابن القيم في المدارج :" وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب النهي، فعند الاتباع تثبت حقيقة العبودية والمحبة فانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم فيستحيل إذا ثبوت محبتهم لله بدون المتابعة لرسوله ﷺ" .

وقال :" دل على أن متابعة الرسول ﷺ هي حب الله ورسوله وطاعة أمره " .

قال ابن رجب في فتح الباري : " فعلامة تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة كل مخلوق، أنه إذا تعارض طاعة الرسول ﷺ في أوامره وداع آخر يدعوا إلى غيرها من هذه الأشياء المحبوبة، فإذا قدم المرء طاعة الرسول وامتثال أوامره على ذلك الداعي كان ذلك دليل على صحة محبته للرسول ﷺ ، وإن قدم على طاعته وامتثال أوامره شيئا من الأشياء المحبوبة طبعا دل على عدم إتيانه بالإيمان التام الواجب عليه ".

وقال ابن كثير: " وهذه الآية فاتبعوني حاكمة على كل من أدعى محبة الله وليس على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله " .

وقال ابن رجب في التوحيد :" محبة الله إذا استغرق بها القلب واستولت عليه لم تنبعث الجوارح إلا إلى مراضي الرب ".

وقال عن تعس عبد الدينار:" فدل على أن كل من أحب شيئا وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله وعادى لأجله فهو عبده وذلك الشيء معبوده وإلهه ".

المسألة الخامسة عشرة: محبة الله من حيث الأصل هي فطرية في كل الخلق، لكن لا يؤجر العبد على محبته لربه إذا لم تكن المحبة التعبدية القائمة على التذلل والانقياد والطاعة والتعظيم والخضوع .

السادسة عشرة: مما يدخل في شرط المحبة الكفر بالطاغوت وتكفير المرتدين:

قال إمام الدعوة السلفية :" ومن زعم أن الله لم يتعبدنا بتكفير المرتدين ولن يسألنا عنهم ولا عن تكفير من وقع في الشرك من أهل لا إله إلا الله فقد أعظم على الله الفرية " بتصرف من الدرر وللشيخ رسالة نفيسة في الباب هي مفيد المستفيد .

والكلام عن الكفر بالطاغوت ذكرته في مواضع.

السابعة عشرة: المحبة من صفات الله :

فالله عز وجل يحب ويحب ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ المائدة: ٥٤ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة: ٢٢٢.

الثامنة عشرة: حكم المحبة ومنزلتها وأهميتها ودخولها في العبادة والإسلام :

جميع العبادات تقوم على المحبة، ولذلك أمر الله بها وأثنى على من اتصف بها وهي أحد ركني العبادة التي هي التذلل والمحبة، وهي أعظم محركات القلوب مع الخوف والرجاء . ولذلك كان أصل الشرك بالله الإشراك مع الله في المحبة .

قال ابن تيمية في التحفة العراقية : " محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، فالعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته ".

وقال ابن القيم في المدارج :" لو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها بل هي حقيقة الإخلاص بل هي نفس الإسلام فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة، فمن لا محبة له لا إسلام له البتة بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله فإن الإله هو الذي يألهه العباد حبا وذلا وخوفا ورجاء وتعظيما وطاعة له وأصل التأله التعبد والتعبد آخر مراتب الحب فالمحبة حقيقة العبودية " .

من كلام ابن القيم السالف يستفاد مسألة وهي علاقة المحبة بالألوهية والعبادة والإسلام والدين ومكانتها ومنزلتها فيه .

ومحبة الله لها أهمية وحاجة الناس إليها أشد من حاجتهم لكل شيء ومن الماء للظمآن.

وإن مما يُظهر أهمية المحبة أنها على اعتبار كونها شرط لكلمة التوحيد إلا أنها فوق ذلك هي من معاني العبادة التي هي كمال الذل مع المحبة، بل هي أحد معاني الإله الذي هو المحبوب .

المسألة التاسعة عشرة: نواقض المحبة والقوادح فيها :

١- بغض الله ورسوله ﷺ بالقلب أو بالسب أو السخرية بأمرهم أو العمل المستلزم وجود البغض .
٢- المحبة الشركية بمحبة غير الله كمحبة الله .
٣- محبة ما يبغضه الله من المنهيات.
٤- محبة أعداء الله وموالاتهم.
٥- بغض ما أحبه الله وشرعه، أو ما جاء عنهم .
٦- معاداة أولياء الله .
٧- تقديم الهوى على ما يحبه الله وأمر به .
٨- عدم الإتيان بلوازم المحبة من الانقياد واتباع الرسول ﷺ وامتثال أمره .

وهذه القوادح على درجات منها الكفر الناقل عن الملة ومنها ما هو معصية دون الكفر .

المسألة العشرون : حكم تارك عبادة الحب :

المحبة لله عبادة وتاركها بالكلية كافر ليس بمسلم .

المسألة الحادية والعشرون: أمور لا تناقض المحبة:

استثقال التكاليف ليس مناقض للمحبة ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٦ . وإن كان تركه أكمل.

المحبة العادية الطبيعية كمحبة الوالد والولد والأهل والمال ما لم يقدمه صاحبه على محاب الله.

المسألة الثانية والعشرون: ضابط محبة العبودية :

هي المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة وإيثاره على غيره، فمن صرف هذه المحبة لغير الله كان مشركاً في العبادة .

قال ابن تيمية في التحفة العراقية : " العبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته فالمحبوب الذي لا يعظّم ولا يذلّ له لا يكون معبوداً والمُعظّم الـذي لا يحب لا يكون معبوداً ".

قال ابن القيم في المدارج : " فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعـة لكـمال محبته مع الخضوع له والانقياد لأوامره فأصل العبادة محبة الله بل إفـراده بالمحبـة وأن يكون الحب كله لله فلا يحب معه سواه وإنما يحب لأجله وفيه " .

المسألة الثالثة والعشرون: علامات محبة الله :

١- طاعة الرسول ﷺ ومتابعته والانقياد له .

٢- تقديم محبة الله ورسوله ﷺ على كل شيء وتقديم محاب الله على الهوى .

٣- إيثار الله ورسوله في حال حصول الاختيار .

٤- بغض ما يبغضه الله وإن مال إليه هواه .

٥- الصبر على البلاء ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ محمد: ٣١.

٦- موالاة أولياء الله ومعاداة الكافرين .

٧- ذكر الله دائما وتعلق القلب به والأنس به، والرضا به والتسليم له ولأمره.

٨- الإتيان بلوازمها وتقدم ذكرها.

المسألة الرابعة والعشرون: محبة المشركين لله :

المشركون يحبون الله ولكن يشركون في المحبة فيحبون الأنداد والأوثان كحب الله ومع الله بدليل آية ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾.

ولذلك كانت محبة الله لا تنفع صـاحبها إلا بالإتيـان بلوازمهـا مـن التوحيـد والولاء والبراء وإتباع الرسول وطاعة الله ومحبة ذلك .

معنى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥ فيها قولان :

١- أشد حبا لله من حب المشركين لله عز وجل .

٢- أشد حبا لله من حب المشركين لأندادهم وآلهتهم .

المسألة الخامسة والعشرون : أسباب محبة الله :

يستحق ربنا تعالى أن يحب لكماله سبحانه ولجماله ولنعمه على خلقه .

قال ابن تيمية في التحفة:" أصل المحبة هو معرفة الله تعالى وله أصلان :

أحدهما: وهو الذي يقال له محبة العامة لأجل إحسانه إلى عباده، وقـد فطـرت وجبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها.

الأصل الثاني: محبته لما هو له أهل، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وما من وجه من الوجوه التي يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه، وهو محبة الخاصة " .

قال ابن تيمية : " لا يجوز أن يحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته والرب تعالى هو الذي يجب أن يحب لنفسه وهذا من معاني إلهيته " الفتاوى ١٠/٢٦٧ .

المسألة السادسة والعشرون: الأسباب الجالبة لمحبة الله :

معرفته والتفكر في أسمائه وصفاته وكماله وقراءة كلامه وكثرة ذكره والانكسار لله تعالى والتقرب إلى الله بالنوافل وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين وهذه محلها كتب الرقائق .

المسألة السابعة والعشرون : شرك المحبة:

الأصل في هذا النوع من الشرك قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥.

وحقيقتها : أن يحب غير الله مثل محبة الله، أو محبة المعبودات والطواغيت المتبوعة والمطاعة من دون الله تعالى، أو محبة أعداء الله وتوليهم .

المسألة الثامنة والعشرون : ضابط المحبة الشركية :

١- محبة المخلوق المتضمنة الخضوع والتذلل له واللجوء إليه والانكسار بين يديه والرغبة والرهبة والخوف منه والرجاء والتوكل عليه .

٢- تقديم الهوى ومحبة الدنيا على محبة الله وطاعته، كمحبة المال وجمعه من كل وجه والبخل به والانشغال به عن طاعة الله وعبادته بتحصيله، وهذا المقصود بقول الرسول ﷺ :" تعس عبد الدنيا إن أعطي منها رضي وإن منع منها سخط " .

قال ابن رجب في فتح الباري : " فعلامة تقديم محبة الرسول على محبة كل مخلوق، أنه إذا تعارض طاعة الرسول ﷺ في أوامره وداع آخر يدعوا إلى غيرها من هذه الأشياء المحبوبة، فإذا قدم المرء طاعة الرسول وامتثال أوامره على ذلك الداعي كان ذلك دليل على صحة محبته للرسول ﷺ ، وإن قدم على طاعته وامتثال أوامره شيئا من الأشياء المحبوبة طبعا دل على عدم إتيانه بالإيمان التام الواجب عليه ".

وقال عن حديث تعس عبد الدينار:" فدل على أن كل من أحب شيئا وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه ووالى لأجله وعادى لأجله فهو عبده وذلك الشيء معبوده وإلهه ".

٣- محبة ما يكرهه الله من المعاصي ومن الكفار وهذا الشرك في الولاء والبراء.

المسألة التاسعة: أنواع الشرك في المحبة :

منه ما هو شرك أكبر ومنه ما هو شرك أصغر حسب معتقد صاحبه ونوع حبه.

المسألة الثلاثون: تعلق شرك المحبة بالشرك في الربوبية :

وقد وقعت فيه طائفتان :

المعطلة الجهمية وذلك بإنكار صفة محبة الله بكونه لا يُحَب ولا يُحِب أحداً .

الجبرية والحلولية وأصحاب الوحدة وقولهم بأن الله يحب الكفر والمعاصي.

المسألة الحادية والثلاثون : معنى المساواة والعدول :

حقيقة المساواة والعدول التي ذكرها الله في قوله عن المشركين: ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ٩٨ وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ الأنعام: ١ هي تسوية المشركين بين ربهم ومعبوداتهم الباطلة في المحبة، كما قاله بعض السلف .

المسألة الثانية والثلاثون : ضابط المحبة المباحة الدنيوية الطبعية :

١- أن لا تشغل عن طاعة الله وما يحبه .

٢- وأن لا تدعو إلى معصية الله .

٣- وألا يلازمها الذل والخضوع للمخلوق .

فإذا وجد أحد هذه الأمور كانت المحبة محرمة وشركية .

الثالثة والثلاثون: كل محبة ليست لله تكون سبباً للعداوة وتنقلب إلى البغض:

يدل لذلك قوله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الزخرف:٦٧ وقوله : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ البقرة: ١٦٦ وهي المودة كما قال ابن عباس . وهي في بغض المشركين لآلهتهم والعكس وزوال المحبة ، ومثلها قوله : ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ يونس: ٢٨.

المسألة الرابعة والثلاثون : المحبة البدعية الصوفية :

من المحبة المحرمة محبة الصوفية بطرقهم التي ابتدعوها في حب الله وإتيانهم بالعشق والسكر ونحوه، وكذلك الغلو في محبة الرسول ﷺ وإعطائه صفات الألوهية أو الربوبية .

المسألة الخامسة والثلاثون : الطوائف التي وقعت في شرك المحبة .

١- الرافضة والصوفية المشركة أفراخ المشركين الأولين في الأمم السابقة .

ومن ذلك قول التيجاني:"من أكبر الشروط الجامعة بين الشيخ ومريده هو أن لا يشارك في محبته غيره ولا في تعظيمه ولا في الاستمداد منه ولا في الانقطاع إليه " .

وقال الشعراني في طبقات الصوفية:إذا أراد الله أن يعرف عبداً بولي من أوليائه طوى عنه بشريته وأشهده على وجه الخصوصية فيه فيعتقده ويحبه أشد المحبة.

٢- عبّاد الدنيا والشهوات والهوى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ الفرقان: ٤٣ .

وهذا النوع من الشرك من قبيل الأصغر وقد يصل بصاحبه للكفر والشرك الأكبر، ويدخل في شرك الإرادة .

٣- المتولين للكفار :

فإن من كان موالياً لغير الله وأوليائه فقد أشرك مع الله غيره في المحبة

قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ آل عمران: ٢٨ .

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ المائدة: ٥١ ومن آثار ومعاني موالاة الكفار محبتهم أو مناصرتهم والدعوة إليهم وموافقتهم والإقامة عندهم .

٤- الجهمية المعطلة القائلين أن الله لا يُحب أحداً ولا يُحِبه أحد .

المسألة السادسة والثلاثون : حال أدعياء التوحيد من أصحاب المحبة المكذوبة :

أهل التوحيد يحبون لا إله إلا الله قولاً وعملاً وأهل الشرك يشمئزون من التوحيد ويحبون الشرك، ودعواهم لمحبة الله وتوحيده وعبادته دعوى مزعومة وهي كاذبة ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ الزمر: ٤٥ .

صدق الله العظيم ومن أصدق من الله قيلا . والله من تأمل حال مشركي زمانه في كل زمان ومكان وجد هذه الصفة المطردة تجمعهم ، فكم من عباد القبور من يزهدون في المساجد وتضيق صدورهم فيها ويستبشرون بالمشاهد والقبور، وكم من الممجدين للطواغيت ومحاكم الكفر والإلحاد والشرك والذين يعتبرونها من سلّم الرقي والنجابة والحضارة بينما تضيق صدورهم بأحكام الشريعة ، وكم أولئك

الموالين للكفرة والملاحدة يفرحون برؤيتهم ويصاحبونهم ويصدقون في مصادقتهم ومحبتهم والتودد لهم وإذا رأوا أهل التوحيد والسنة والجهاد قامت قيامتهم وظهرت عليهم آيات الكفر بهم وصرحوا بعداوتهم ولمزهم وهمزهم والشماتة بهم وسلقوهم بألسنة وأقلام وسلاسل حداد وكم من أرباب الإرجاء من يعتذر للشرك وأهله.

فهم أعزة على المؤمنين الموحدين أذلة على المشركين والمرتدين والمنافقين، فهم خوارج مكفرون لأهل التوحيد مرجئة غلاة مع المرتدين والمشركين ، حتى جعل بعضهم من يكفّر عباد القبور والمشرعين للقوانين والحاكمين بها والموالين للكفار والمظاهرين لهم من الخوارج الذين تستباحُ دماءهم ويجب تكفيرهم، فقلبوا وجه المجن وانقلبوا على أهل التوحيد فبدل أن يكفّروا المرتدين كفّروا الموحدين .

فهؤلاء رحمك الله خصوم التوحيد وأهله في كل زمان فما أعداء إمام الدعوة محمد بن عبدالوهاب ورميه من أرباب الرفض والتصوف بأنه خارجي تكفيري عن مرجئة زماننا عنهم ومنهم ببعيد ، والحمد لله الذي أرانا نفاقهم وعورهم وعرفنا كفرهم في لحن أقوالهم، وإنا على هذه النعمة لربنا ومعبودنا من الشاكرين ولفضلها من الموقنين والحمد لله رب العالمين.

المسألة السابعة والثلاثون: من أعظم لوازم ومقتضيات محبة الله الولاء والبراء:

دلت كلمة التوحيد على الموالاة والمعاداة بالدلالات الثلاث المطابقة والتضمن والتلازم، وقد بينا ذلك في كتابنا قواعد الولاء .

المسألة الثامنة والثلاثون: قيام الولاء والبراء على ركنين :

الولاء يقوم على ركنين :١/ المحبة ٢/ النصرة وهي الموالاة الفعلية الظاهرة .

البراء يقوم على ركنين : ١/ البغض الباطن ٢/ المعاداة الفعلية الظاهرة .

قاعدة :

١- أن من تجب محبته تجب موالاته ونصرته ومن يجب بغضه يجب معاداته .

٢- ومن تجب محبته يحرم بغضه ومعاداته ومن يجب بغضه يحرم موالاته.

المسألة التاسعة: البراءة من الشرك وأهله ومعاداتهم من أعظم لوازم المحبة :

أن الإسلام بدون البراءة من المشركين لا يقبل، والتوحيد بدون الكفر بالطاغوت لا يقبل، وهذا هو حقيقة لا إله إلا الله، عبادة الله والبراءة من عبادة غيره.

المسألة الأربعون: الفرق بين الخوف والمحبة :

قال ابن القيم الوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة .

الخوف داخل في شرط الانقياد وليس بشرط مستقل ولا يماثل المحبة كما توهم البعض ووجه ذلك :

أن محبة الله تكون لذاته، والحب سببه الكمال، وذاته لها الكمال المطلق .

أما الخوف من الله فسببه توقع المكروه، وهذا إنما يكون في الأفعال والمفعولات ، وبهذا يعلم بطلان قول من زعم أنه تعالى يخاف لا لعله ولا لسبب ، وهؤلاء عندهم الخوف يتعلق بنفس الذات،من غير النظر إلى فعل العبد،وهذا من قلة نصيبهم من المعرفة بالله وأفعاله وحكمه، ومن هذا قول عمر ﷺ :" لا يرجونّ أحدٌ إلا ربه ولا يخافنّ إلا ذنبه " فجعل الرجاء متعلقاً بالرب سبحانه وتعالى.

أفاده ابن القيم في طريق الهجرتين .

وقال ابن تيمية :" الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله، ولذلك يزول الخوف عن أهل الجنة فهم لا خوف عليهم، فالخوف ليس مقصوداً لذاته وإنما لغيره" .

وهذا كله بخلاف المحبة فهي مقصودة لذاتها، ولا تزول بدخول الجنة بل تزيد، وهذا وجه كون المحبة من شروط كلمة الإخلاص فهي أصل بذاتها ومقام يدخل فيه الإيمان بالله .

ولأن رحمته من لوازم ذاته وهي سبقت غضبه، وأما الخوف فمتعلق بالذنب فهو سبب المخافة، فلو قدر عدم وجود الذنب بالكلية لم تكن هناك مخافة.

فإن قيل فما وجه خوف الملائكة والنبي ﷺ؟

قيل الخوف على حسب القرب من الله، وكلما كان العبد أقرب إلى الله كان خوفه منه أشد لأنه يطالب بما لا يطالب به غيره ويجب عليه من رعايته تلك المنزلة وحقوقها، كذلك التقصير من لوازم الخلق ولن يقوم أحد بحق العبودية على الكمال، لذلك استوجب حصول الخوف .

الصنف الثالث : شرك عبادة الخوف :

م (١) : تعريف الخوف وحقيقته :

الخوف صفة قلبية وفعل متعلق بأفعال القلب وتظهر آثاره على الجوارح .

وحقيقته ما حمل صاحبه على المراقبة ومنعه من الوقوع فيما يغضب الله

الخوف من الله عبادة أمر الله تعالى بها وأحبها وأثنى على المتصفين بها .

ومن صرفها لغير الله فقد أشرك ، فالخوف من المخلوق من الشرك.

وقد دل على هذا الأصل أدلة كثيرة تأتي في المسألة الثانية.

م (٢) : أسماء الخوف ومعانيه :

الخوف – الخشية – الرهبة – الوجل – الفزع – الذعر – الرعب – الفرق.

ومن معانيه ولوازمه :

الهول الهيبة الإشفاق الحذر النخب الجبن التروع الوجيب الخرعة والتقوى .

ذكرها الرماني في الألفاظ المترادفة وابن مالك في الألفاظ المختلفة وغيرهم.

وأكملها التقوى ثم الخشية والرهبة .

لأن التقوى ترك المعاصي خوفاً من الله فهي من آثار الخوف ومعانيه .

م (٣) : الفروق بينها .

أولا: الفرق بين الخوف والخشية :

١ – الخوف خوف من الأثر ، والخشية خوف من المؤثر .

﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ الرعد: ٢١.

٢ – الخشية خوف وزيادة إذ فيها العلم بالمخاف منه والحذر منه وتعظيمه وطاعته ، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ فاطر: ٢٨.

ثانيا: الفرق بين الخوف والرهبة :

١ – أن الرهبة تثمر عملاً واحتياطاً ، وأما الخوف فقد يثمر وقد لا يثمر .

٢ – أن الرهبة مدة أثرها طويل والخوف مدة أثره قصير .

م (٤) : أدلة عبادة الخوف :

١ – قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥.

٢ – وقال : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ الزمر: ٣٦ ذم حال المشركين الخائفين من معبوداتهم والمخوفين بها.

٣- وقال: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ النحل: ٥١ ، وهذا من صيغ الحصر الدالة على توحيد عبادة الخوف لله وحده.

٤- وقال : ﴿ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ الأحزاب: ٣٩ .

٥- وقال: ﴿ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ ﴾ النساء: ٧٧.

٦- وقال: ﴿ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾ المائدة: ٤٤ .

٧- وقال: ﴿ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ التوبة: ١٨.

٨- ﴿ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ الأنبياء: ٩٠.

٩- وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴾ المؤمنون: ٥٧.

١٠- وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ الحج: ٣٥.

أثنى على من اتصف بالخوف منه والخشية وهذا يدل على أنها عبادة .

١١- وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ العنكبوت: ١٠.

١٢- عن أبي سعيد ﷺ مرفوعا: (إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله. إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره).

١٣- عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: (من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس؛ ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس) رواه ابن حبان في صحيحه.

م (٥) : أنواع الخوف :

١- الخوف التعبدي التألهي: هو الخوف من الله ومن عقابه، فلا يخشى غيره، وإذا ذكر الله ﷻ وجل القلب منه، وأشفق من عقابه وغضبه، وخاف من مخالفة أمره والوقوع في نهيه . وهذا الخوف يقوم معه الخضوع للرب والذل له ورجاؤه .

٢- الخوف الشركي (خوف السر) : وهو صرف الخوف التعبدي لغير الله، بأن يخاف من المخلوق في أمر لا يقدر عليه إلا الله، أو يتوقع أن المخاف منه يستطيع إنزال الضرر الذي لا يقدر على فعله إلا الله، وأن المخلوق يقدر على أن يصيب الناس بما يشاء، كما هو حال المشركين مع آلهتهم .

٣- الخوف المحرم : وهو ترك أمر الله وطاعته أو فعل معصيته مخافةً من المخلوقين وهو داخل في الشرك الأصغر . كأن يترك الجهاد أو البراءة من المشركين أو النهي عن المنكر وقول كلمة الحق خوفا من الناس أو مهابة لهم أو طلبا لرضاهم.

قال تعالى في من هذه حاله : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ المائدة: ٥٢ ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ القصص: ٥٧ ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ النساء: ٧٧ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ العنكبوت: ١٠ ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ النساء: ١٣٩ .

قال ﷺ :(من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط عليه واسخط عليه الناس). الترمذي .

قالﷺ : (إن الله يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذا رأيت المنكر ألا تغيره ، فيقول يا رب خشيت الناس، فيقول: إياي كنت أحق أن تخشى) أحمد وابن ماجه .

٤- الخوف الطبعي الجِبِلّي : كالخوف من السبع والعدو والنار والطاغوت الظالم ومنها قوله تعالى عن موسى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ القصص: ١٨ .

م (٦) : ينقسم الشرك في الخوف إلى أكبر وأصغر :

الشرك الأكبر في الخوف : خوف التألة والعبادة وهو الخوف من المخلوق أن يضره ويفعل للخائف منه ما لا قدرة له به .

والشرك الأصغر في الخوف: كأن يترك المسلم الإنكار مهابة الناس وخشيتهم أو يفعل المنكر خوفاً منهم من غير أن يوجد الإكراه الحقيقي .

م (٧) : ضابط الخوف الشركي : هو أن يخاف من المخلوق أن يوقع به شيئاً لا يقدر عليه إلا الله، أو يخاف سرا من المخلوق أكثر من خوفه من الله .

م (٨) : شرك الخوف متعلق بالألوهية وقد يدخل في الربوبية ويستلزمه:

ووجه ذلك أن الخوف عبادة لأن الله أمر به وأحبه وأثاب فاعله، فهو متعلق بأفعال العباد وتألهم، عليه فمن صرفه لغير الله كان مشركاً في ألوهيته لا في ربوبيته، ولكن قد يتعلق في قلب الخائف من المخلوق أن المخاف منه يقدر على كل شيء ويتصرف في الخلق بما يشاء فيقع في الشرك في الربوبية من هذا الوجه وليس من أجل الخوف من غير الله وإنما من أجل اعتقاد الربوبية في المخلوق، ومثل ذلك شرك المحبة وشرك الرجاء وشرك الدعاء والرجاء والخشوع، وكل عبادة هي في أصلها متعلقة

بالألوهية وقد تدخل في الشرك في الربوبية من جهة ما يقارنها ويلازمها ويخالطها من اعتقاد الربوبية في المخلوق لا أن حصول شرك الربوبية في ذاتها ومضمونها.

م (٩) : أحكام الخوف من المخلوق وأقسامه:

١- الخوف الجائز : ويكون في الأمور الظاهرة والأسباب العادية.

٢- الشرك الأصغر المحرم : وهو الخوف من المخلوق في كل شيء . كذلك أن يخاف من المخلوق فيترك فعل الواجب والإنكار خوفا منه .

٣- الشرك الأكبر : وهو أن يخاف المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله .

فتأمل هذه القاعدة فهي نافعة في الفرق بين شرك الألوهية وشرك الربوبية .

م (١٠) : درجات الخوف التعبدي :

١- مطلق الخوف وأصله : وهذا ركن في الدين يجب الإتيان به وتاركه كافر .

٢- الخوف الواجب : وهو أن يخاف عقوبة الله على تقصيره وما اقترفه، وأن يحمله خوفه من الله على التوبة وترك المعاصي.

٣- الخوف المطلق الكامل: وهذا من مكملات الدين والناس متفاوتون فيه كسابقه، وهذا القسم مستحب، وهو يبلغ بالكمال إلى أن يراقب الله في كل أموره ويترك المشتبهات ويتورع ويقطع خوفه من المخلوقين.

م (١١) : ترك الخوف مطلقاً من الكفر بالله ونواقض الإسلام :

الخوف عبادة لله يجب أن تصرف له، والذي لا يوجد عنده مطلق الخوف وأصله وجنسه، أي أنه لا يخاف من الله بالكلية ولا يخشى عقابه مطلقاً، فهذا كافر والعياذ بالله، وهذا بخلاف من قصّر في الخوف من الله وأمن الله ورجاه لكمال رحمته وأفرط على نفسه حتى أمِن من عقابه، فهو وإن كان لم يأت بالخوف الواجب فضلا عن المطلق والكامل إلا أنه يوجد عنده أصل الخوف، وهو مع هذا عاصٍ في فعله متوعد بالعقوبة، وفي الأثر (من أمنني في الدنيا خوفته في الآخرة) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس.

م (١٢) : تعلقات الخوف : الخوف من الله ومن صفاته وأفعاله فيخاف من غضبه وسخطه وعقوبته ،والخوف من مفعولاته وآثار غضبه كالخوف من النار .

م (١٣) : لماذا يجب الخوف من الله : لأمرين ، وكل أمر متعلق بجانب :

الأول : متعلق بالمخلوق : وذلك لحصول التقصير من العبد في حق الله، وهذا التقصير قد يستوجب العقوبة من الله، لذلك يجب أن نخاف .

الثاني : متعلق بالرب : وذلك لعظمة الله وكماله وقوته وشدة عذابه وأخذه .

م (١٤) : **علاقة الخوف ببقية العبادات :**

للخوف علاقة بالذل والخضوع والطاعة واللجوء والرغبة والرهبة والرجاء والاستغاثة والإنابة وغيرها، ولذلك من وقع في شرك الخوف لابد وأن يصاحب شرك الخوف شرك الطاعة غالباً للخائف منه أو شرك الدعاء والاستغاثة به ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ الجن: ٦ أي خوفاً وكفراً ، فهم لمّا خافوهم دعوهم واستغاثوا بهم، كذلك يعبد الخائف شريكه ومعبوده بعبادة الخضوع والانكسار والخشوع والذل واللجوء والرغبة والرجاء فيشرك في كل هذه العبادات غالباً ويصرفها لغير الله تبعا للخوف .

م (١٥) : **علاقة الخوف بالرجاء :**

ينبغي للمؤمن أن يجمع في قلبه بين عبادة الخوف من الله وعقابه، وعبادة الرجاء فيرجو الله ويرجو ثوابه، ويتقلب بينهما، فبالخوف يكف عن المحارم، وبالرجاء يقبل على الطاعات ،فلا يطغى الخوف على الرجاء حتى لا يصاب باليأس من رحمة الله ، ولا يطغى الرجاء على الخوف فيصاب بالأمن من مكر الله، إلا عند اقتراب الموت فإنه مما ينبغي له أن يغلب جانب الرجاء ويحسن ظنه بربه .

أدلة اجتماع عبادة الخوف والرجاء:﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ الأنبياء: ٩٠ ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الإسراء: ٥٧ ﴿ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ الزمر: ٩ ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الأعراف: ٥٦ ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ السجدة: ١٦ .

م (١٦) : **ما يقابل الخوف** : يقابل الخوف الأمن.

وأما الرجاء فحاله تخالط الخوف ولا تعارضه أو تناقضه .

م (١٧) : **ما يؤدي إليه الغلو في الخوف من الله :**

الغلو في الخوف قد يؤدي بالعبد إلى اليأس من روح الله والقنوط من رحمته .

م (١٨) : **اليأس والقنوط يتعلق بعبادة الخوف والرجاء .**

م (١٩) : **العلاقة بين الإكراه والخوف :**

ظن بعض المتأثرين بالإرجاء أن الخوف من الأعداء والمشركين يجوّز موالاتهم ويبيح مظاهرتهم على المسلمين ويسقط فريضة الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستدلوا بآية الإكراه والتقية والحق أن الإكراه غير الخوف .

فالإكراه صورته أن يقع في يد العدو ويغلب على ظنه أنه سينكل به وهو لا يقدر على جهادهم لكونه تحت قهرهم وسلطانهم فيجوز له أن يجاملهم ويترك إظهار معاداتهم والإنكار عليهم لا أن يناصرهم على المسلمين فهذا لا يجوز بحال إنما الذي رخص لنا هو التلفظ وإظهار الموافقة .

م (٢٠) : آثار الخوف من الله ولوازمه :

مهابة الله والإشفاق من عذابه والحذر من غضبه ومراقبة الله وترك عصيانه والإقبال على طاعته والوجل من عدم قبول الطاعة ، فالحذر والمهابة والإشفاق ليست عين الخوف وذاته ونفسه وإنما من آثاره، ومن ادعى الخوف مع ركوب المحارم وعدم الإقلاع فخوفه مجرد دعوى كاذبة.

م (٢١) : الفرق المخالفة فيه :

١- الوعدية من المرجئة والصوفية : الذين لا يأتون بالخوف كما يجب .

٢- الوعيدية من الخوارج : ممن يغلب جانب الخوف على الرجاء .

٣- القانطون من رحمة الله اليائسون منه : لغلوهم في الخوف من الله.

٤- الآمنون من مكر الله : لعدم خوفهم من الله تعالى .

م (٢٢) : صور الشرك في الخوف والطوائف الواقعة في شرك الخوف:

عبّاد الأصنام والأوثان، والقبورية عباد القبور، والصوفية عباد الأولياء، والرافضة عباد آل البيت .

السحرة عباد الشياطين .

المنافقون العلمانيون والليبراليون المستغربون من عباد الغرب والصليبيين .

العوام في خوفهم من الجن والشياطين وخوفهم من السحرة أو السلاطين .

عباد الدنيا والهوى في خوفهم من الطواغيت والكفار فتولوهم ولم يعادوهم.

مبحث : التقوى :

التقوى من آثار الخوف ولوازمه .

وهي ما تحمل على العمل ومراقبة الله والاستعداد للقائه .

والتقوى تتعلق بالله وبأفعاله ومفعولاته :

قال تعالى :﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ البقرة: ٤٨ ﴿ وَاتَّقُواْ النَّارَ ﴾ آل عمران: ١٣١ ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ ﴾ آل عمران: ٢٠٠.

الصنف الرابع : عبادة : التوكل

م (١) : تعريف التوكل وحقيقته :

التوكل هو الاعتماد والالتجاء والاستكفاء والوثوق .

والتوكل على الله يكون بالاعتماد على الله تعالى وتفويض الأمر إليه، وعدم الالتفات لغيره ولا اللجوء لأحد سواه، والاستغناء به تعالى عن غيره في قضاء الحوائج، والثقة به، والاستعانة به، والاستسلام له، والتعلق به، والطمأنينة به، والسكون إليه، والرضا بقضائه، وقطع علائق القلب بغير الله .

م (٢) : أسماء التوكل والألفاظ المقاربة له في المعنى :

الحسب : ودليله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ الأنفال: ٦٤.

والتحسب من معاني التوكل، ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ والمعنى أكتفي بالله وأتوكل عليه. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ والمعنى فهو كافيه.

فالمتوكل على الله يكفيه كل شيء وهو حسيبه.

الاستكفاء: ودليله قوله تعالى: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ ﴾ الزمر: ٣٦.

التفويض : ودليله قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ غافر: ٤٤.

والفرق بين التوكل والتفويض :

أن التوكل يكون بعد وقوع السبب، والتفويض يكون قبله وبعده فهو أوسع.

وقيل : التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض .

الاعتماد : وهو من معاني التوكل .

التسليم والثقة : وهما من آثار التوكل .

م (٣) : مكانة التوكل ومنزلته من الإيمان والدين والعبادة :

التوكل عبادة تقوم عليه كثير من العبادات، والتوكل من أعلى درجات العبودية ، وبه يحصّل المسلم كثيرا من أصناف العبادة كالخضوع والذل والمحبة والرغبة واللجوء والاطمئنان والإخبات والثقة بالله والسكون إليه .

ولا يتحقق وجود التوكل إلا في خواص الموحدين، والمخلصين الكمّل .

م (٤) : مكان التوكل ومحله :

التوكل من أعمال القلوب وهو الصحيح ، بينما جعله البعض من أقوال القلب الداخلة في المعرفة والعلم والإدراك والصدق . وتتعلق لوازمه وآثاره بالجوارح .

م (٥) : وجه كون التوكل عبادة يجب التوحيد فيها:

لأن الله تعالى أمر بالتوكل قال تعالى : ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾ هود: ١٢٣.

بل وجعل حصوله شرطا لصحة الإيمان كما نصت الآية : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ المائدة: ٢٣، فمفهوم الآية أن من لم يتوكل على الله ليس بمؤمن وأن من لم يوحد الله في توكله فليس بمؤمن. كما أثنى عليه وأحب أهله المتصفين به ووعدهم بالثواب، لذلك كان التوكل عبادة يجب صرفها لله ومن الشرك أن تصرف لغيره .

م (٦) : توحيد التوكل : قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ ﴾ هذه الجملة من أساليب الحصر الدالة على التوحيد، ومعناها توكلوا على الله ووحدوه بالتوكل ولا تتوكلوا على غيره ، وهذا يوجب على العبد توحيد التوكل لله . وتأمل كيف أعقب كلمة التوحيد بتوحيد التوكل وهو من التأكيد وباب عطف الخاص على العام،﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾التوبة: ١٢٩﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ التغابن: ١٣.

م (٧) : أدلة التوكل :

قال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ المائدة: ٢٣.

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ التغابن: ١٣.

قال تعالى : ﴿ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾ التوبة: ١٢٩ .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ الطلاق: ٣.

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ العنكبوت: ٥٩ .

قال تعالى : ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾ هود: ١٢٣.

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال: ٢ .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الأنفال: ٦٤ .

قال النبي ﷺ : (لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بِطانا) رواه أحمد وابن ماجة .

(من سره أن يكون أقوى الناس إيمانا فليتوكل على الله)رواه الحاكم وأبو يعلى.

قال ابن عباس: ﴿ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ آل عمران: ١٧٣ . رواه البخاري.

م (٨) : الجمع بين العبادة والتوكل :
جمع الله سبحانه بين العبادة والتوكل في مواضع كثيرة .
قال تعالى : ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾ هود: ١٢٣ .
﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا ﴾ الممتحنة: ٤ والإنابة من العبادة .
﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ مريم: ٦٥.
﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ والصبر من العبادة.
﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥ والاستعانة على العبادة من معاني التوكل .
م (٩) : أقسام التوكل :
١- التوكل التعبدي الألوهي : وهو التوكل على الله في جميع الأمور وتفويض الأمر إليه والاعتماد عليه وخشيته والطمع فيما عنده ورجاؤه .
٢- التوكل الشركي وهو تفويض الأمر للمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله والاعتماد على المخلوق في كل شيء أو الالتجاء للأموات وغيرهم في دفع الضر .
٣- التوكل المحرم : وهو التوكل على المخلوق فيما يقدر عليه والالتجاء إليه والاعتماد عليه والالتفات للأسباب والارتياح لها والاعتماد والاتكال عليها .
ومن أمثلته : الاعتماد على المخلوق في معاشه، كالاعتماد على الوظيفة وعبادتها من دون الله واعتقاد أن الرزق والفضل منها وأن تركها ذهاب للرزق، ومثل ذلك الاعتماد على الدواء في العلاج والشفاء والالتجاء إليه، ومثل ذلك الخوف من العدو وعدم القيام بجهاد الكفار وخشية بأسهم، وهذا كله من الشرك الأصغر والخفي.
٤- التوكل الطبيعي الجائز : وهو إنابة المخلوق في فعل أمر معين كالبيع والصدقة، وهذا ما يسميه الفقهاء بالوكيل الشرعي ويبحث في باب الوكالة .

م (١٠) : علاقته التوكل بالتوحيد ودخوله في توحيد الربوبية والألوهية :
أما دخول التوكل في الألوهية فلأن التوكل التجاء من العبد لربه وخضوع له وتعلق به وهذا هو التأله والعبادة .
وأما علاقته ودخوله في توحيد الربوبية فهو من باب الاستلزام لأن المتوكل أقر واعتقد بأن ربه هو الوكيل والحسيب والكافي والمتصرف المدبر وحده والقادر على كل شيء والنافع الضار، وكل هذه من معاني الربوبية ، فالمتوكل وحّد ربه في

ربوبيته ولم يشرك معه أحدا. كما أن التوكل فيه اعتراف بكثير من أسماء الله وأفعاله وصفاته من القدرة والرحمة والرزق.

م (١١) : درجات التوكل :

١- مطلق التوكل وأصله : وهذا ركن في الدين يجب الإتيان به وتاركه كافر ليس بمسلم . وترك التوكل بالكلية كفر مخرج من الملة .

٢- التوكل الواجب : وفاقد هذا يعتبر من عصاة الموحدين، فإذا تعلق الإنسان بالأسباب واعتمد عليها بالكلية وأعرض عن ربه، كان تاركا الواجب .

٣- التوكل المطلق الكامل: وهذا من مكملات الدين والناس متفاوتون فيه كسابقه، وهذا القسم مستحب، وهو يبلغ بالكمال إلى أن يتوكل العبد على ربه في كل شيء حتى لا يرجو ولا يخاف أحداً لكمال توكله ولجوئه لربه ويقطع علائقه بغير الله.

م (١٢) : تارك التوكل على الله بالكلية كافر :

قال تعالى :﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٢٣، فمفهوم الآية أن من لم يتوكل على الله ليس بمؤمن وهي مثل عبادة الخوف والرجاء تاركها بالكلية كافر .

م (١٣) : أحكام التوكل على المخلوق وأقسامه :

١- التوكل الشركي الأصغر : وهو التعلق بالمخلوق في الأمور الظاهرة والأسباب العادية كمن يتوكل على السلطان فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى، أو يعتمد على الوظيفة أو الواسطة في تحصيل مراده والاعتماد على الأسباب في كل شيء من دون التفات لربه وتوكل عليه .

٢- التوكل الشركي الأكبر : وهو أن يتوكل على المخلوق بالكلية ولا يتوكل على الله مطلقا، أو يتوكل على المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مصالحهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة .

٣- الجائز:هو ما ليس قائماً على الاعتماد القلبي،كالتوكيل وفعل ما يقدر عليه.

م (١٤): ضابط التوكل الشركي :

١- أن يتوكل على المخلوق بالكلية ويلتفت إليه ويتعلق به مطلقا ، وغالباً ما يقارن توكله على المخلوق الذل له والخشوع والخضوع واللجوء إليه ، وفي المقابل يعرض عن الله فلا يتوكل عليه في شيء مطلقا .

٢- أن يتوكل على المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله وهذا شرك أكبر .

م (١٥) : صور الشرك في التوكل :

يوجد هذا الشرك عند من يدعو غير الله ويرفع له حوائجه ويطلبه قضاءها، فمن يدعو الأولياء والأموات هو في الحقيقة مفوض أمره إليهم ومتوكل عليهم ومسلم حاله لهم ومعتقد أن بيدهم قضاء حاجاته ونفعه وإلا لما قام بدعائهم.

والقاعدة أن الشرك في الألوهية متداخل متلازم مترابط متضمن لبعضه .

م (١٦) : لماذا يجب التوكل على الله : لأمرين:

الأول: متعلق بالرب : وذلك لكونه العالم بكل شيء والأمور مرجعها إليه وتدبير الخلق مرده له وهو القادر على الضر والنفع بيده وليس غافلاً عن خلقه.

وقد جاءت هذه العلة في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ هود: ١٢٣.

الثاني: بالمخلوق : وذلك لضعفه وحاجته لربه في تحصيل النفع ودفع الضر .

م (١٧): ما يضاد التوكل والقوادح فيه :

- التعلق بالأسباب والاعتماد عليها والإلتفات لها والمبالغة في الإطمئنان لها.
- التطير والتشاؤم، فكل متطير متشائم قد وقع في قوادح التوكل.
- تعليق التمائم والحجب ولبس الخيط والحلقة .
- الإسترقاء وهو طلب الرقية والسعي لتحصيلها ، ويدخل في ذلك المبالغة في السعي لطلب الدواء واللهث خلف الأطباء والإعراض عن التعلق بالله .
- الذهاب للسحرة والكهان والعرافين والمنجمين .
- التبرك بذوات الصالحين وآثارهم والتبرك بالقبور والأشجار والأحجار .
- دعاء غير الله وسؤال المخلوقين والاستغاثة بهم .
- المبالغة في سؤال الناس والإلحاح عليهم وإنزال الحاجات بهم وخشيتهم والطمع بما في أيديهم والحرص على رضاهم ورفع الحاجات إليهم واللجوء لهم.
- سوء الظن بالله وعدم إحسان الظن به والثقة به وبوعده وترك رجائه .

م (١٨): تعلقات التوكل:

التوكل لا يكون إلا على الله كالدعاء لا يكون للصفات فلا تدعى صفاته ولا يتوكل عليها ،خلافا للخوف والرجاء فترجى صفاته.

م (١٩) :لا يوجد غلو في التوكل كما يكون في الخوف وإنما تدرج في الكمال.

فلا يقال الغلو في التوكل يؤدي إلى ترك الأخذ بالأسباب مثلاً كما يقال في الخوف الغلو فيه يؤدي إلى القنوط من رحمة الله .

م (٢٠) : الأخذ بالأسباب الشرعية لا ينافي التوكل :

الأخذ بالأسباب الشرعية والعرفية مثل الاستشفاء بالقرآن وبالعسل وبالدواء والاستعداد للسفر، وحفظ المال من السرقة بالإحراز، ونحو ذلك كله من التوكل وترك ذلك من التواكل والعجز وليس من التوكل في شيء.

أما الأسباب الشركية البدعية التي لم يجعلها الله ولا رسوله من الأسباب فهي من الشرك، مثل تعليق التمائم والصلاة عند القبور ونحو ذلك من وسائل الشرك .

م (٢١) : الفرق بين التوكل والتواكل:

التوكل الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه مع الأخذ بالأسباب من دون تعلق واعتماد عليها، والتواكل والاتكال هو ترك الأخذ بالأسباب والعمل بها .

قال العلماء الأخذ بالأسباب من الدين .وترك العمل بها من ضعف العقل.

الاعتماد على السبب بالكلية والتوكل عليها والمبالغة في اللجوء لها من الشرك.

وفي الحديث الصحيح قال الرسول ﷺ : (اعقلها وتوكل) رواه الترمذي.

وقال عمر ﷺ لليمنيين الذين حجوا بلا متاع توكلا ، فقال لهم:(بل أنتم المتكلون)أخرجه ابن أبي الدنيا .

م (٢٢) : مفاسد سؤال الناس والاتكال عليهم :

١- الافتقار إلى غير الله وهذا من الشرك .

٢- إيذاء المسؤول وهذا من ظلم الخلق .

٣- الذلة لغير الله وهذا من ظلم النفس .

م (٢٣) : التوكل الحقيقي يقوم على ترك سؤال الناس مطلقا وعدم طلبهم:

وقد ورد النهي عن كثرة السؤال، والمنع من سؤال المخلوقين ما يقدرون عليه سدا لذريعة سؤالهم مالا يقدرون عليه ولكي لا يتعلق العبد بغير ربه أو يرجوه، وقد جاء في الحديث :" وكره لكم ثلاث ... وكثرة السؤال " متفق عليه.

وفي حديث ابن عباس :" وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله " رواه الترمذي.

وحديث ترك الاسترقاء، وكره حذيفة وابن مسعود أن يطلب منهم الدعاء .

ومن تأمل هديه ﷺ ومبايعته لصحابته على أن لا يسألوا الناس شيئا، حتى إن أحدهم إذا سقط سوطه لم يطلبه من أحد علم حرصه ﷺ على تحقيق التوحيد في أمته.

م (٢٤) : شروط صحة التوكل :

للتوكل شروط ودرجات فهو مركب من أمور لا يتم إلا بها وهي :

معرفة الرب بصفاته، وإثبات الأسباب والمسببات، ورسوخ القلب في مقام التوحيد، واعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه له، وحسن الظن به ﷻ، واستسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته، والتفويض، والرضا وهو ثمرة التوكل . ذكرها ابن القيم في المدارج .

م (٢٥) : آثار التوكل ولوازمه وفوائده:

١- الاعتماد على الله .

٢- ترك الطمع فيما بأيد الناس .

٣- عدم الخوف من الخلق ولا رجائهم ولا التعلق بهم.

٤- الإيمان بقضاء الله وقدره .

٥- راحة البال وسكينة القلب .

م (٢٦) : الفرق المخالفة في التوكل :

المشركون : الذي يتوكلون على غير الله تعالى كالأولياء والمعبودات .

القدرية المعتزلة : اعتمدوا على الأسباب وتوكلوا عليها ولجئوا إليها وظنوا أنها الخالقة المستقلة بالإيجاد .

الجبرية من الأشاعرة والصوفية وغيرهم : ألغوا العمل بالأسباب وظنوا أنها قادحة في التوحيد معارضة للدين .

الصنف الخامس : شرك الرجاء :

المسالة الأولى : أدلته :

قال تعـالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ الأحزاب: ٢١.

وقال: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠.

وقال : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ﴾ العنكبوت: ٥.

وذم الله ﷻ من لا يرجوه وتوعده بالنار في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ يونس: ٧-٨ .

وأمر الله ﷻ أن يوحد في الرغبة والرجاء في قوله: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ الشرح: ٨ .

وأثنى الله تعالى على من جمع بين الخوف منه ورجائـه، وأمـر بـالجمع بيـنهما في مواضع من كتابه: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الإسراء: ٥٧.

تنبيه : عبادة الطمع داخلة في الرغبة والرجاء وحسن الظن بالله ، قـال تعـالى : ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ الشعراء: ٨٢ .

ويكون الطمع متعلقا بدخول الجنة ومغفرة الذنوب .

الثانية : أسماء الرجاء والألفاظ المقاربة له في المعنى :

الرغبة والأمل والتوقع والأمنية والبُغْية والطمع وحسن الظن .

الثالثة : الرجاء عبادة :

الرجاء عبادة أمر الله بها وحث عليها وأثنى على مـن يتـصف بهـا وذم تاركهـا وتوعده بالنار، فهي عبادة يحبها الله ويجب أن لا تصرف إلا له فلا يرجى غيره .

الرابعة : تعلقات الرجاء :

١- رجاء الله تعالى .

٢- رجاء لقائه سبحانه.

٣- رجاء ثوابه وفضله .

٤- رجاء رحمته ولطفه وكرمه وجميل صفاته تعالى.

٥- رجاء اليوم الآخر.

فالرجاء متعلق بهذه الأحوال والصفات ، وقد جاءت النصوص بها جميعا.

الخامسة : شروط اعتبار الرجاء عبادة :

١- محبة ما يرجوه وتعلقه به

٢- الخوف من فوات ما يرجو والحذر من عدم تحققه .

٣- سعيه في تحصيل المرجو .

٤- تعظيم المرجو منه والذل له .

فإذا تخلف أحد هذه الشروط صار أمنية وليس رجاء تعبدي .

ذكر ذلك ابن القيم في الجواب الكافي ٤٢ .

السادسة : تارك الرجاء :

من لا يرجو الله بالكلية فهو كافر خارج عن الملة ، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ يونس: ٧-٨ .

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يوسف: ٨٧.

أما من كان عنده أصل الرجاء ولكن قصّر فيه فهو موحد عاصي .

السابعة : درجات الرجاء :

١- مطلق الرجاء وأصله :

وهذا ركن في الدين يجب الإتيان به وتاركه كافر ليس بمسلم .

٢- الرجاء الواجب : وهو أن يرجو رحمة الله في الآخرة وثوابه وأن يغفر له ويرحمه ويدخله جناته ويجره من عذابه وغضبه، ويرجو كل ما لا يقدر عليه، وفاقد هذا يعتبر من عصاة الموحدين، فإذا توكل الإنسان على عمله ولم يرج رحمة الله ويطمع في فضله واغتر بعمله، كان تاركا للرجاء الواجب .

٣- الرجاء المطلق الكامل: وهذا من مكملات الدين والناس متفاوتون فيه كسابقه، وهذا القسم مستحب، وهو يبلغ بالكمال إلى أن يرجو العبد ربه كل شيء حتى لا يرجو أحداً مطلقاً لكمال توكله ولشدة لجوئه إلى ربه، فهو يرجو ربه كل شيء من أمور الدنيا والآخرة، ويقطع علائقه بغير الله نسأل الله من فضله.

ومن الدعاء المستحب : اللهم إن رحمتك أرجى عندي من عملي وعفوك أوسع من ذنوبي .

الثامنة : أقسام الرجاء :

١- الرجاء التعبدي التألهي : وهو أن يرجو العبد الله وحده، ويرجو رحمته وثوابه ويتعلق بربه، ويدعوه رهبة منه ورغبة فيما عنده ورجاء فيه . وله درجات .

٢- الرجاء الشركي (السر): وهو أن يرجو المخلوق في تحصيل ما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يرجو مخلوقاً أن يشفع له عند الله أو أن يغفر له أو يعافيه أو يرزقه أو يمنحه الولد، ومن فعل ذلك واعتقده فقد أشرك الشرك الأكبر .

وغالباً ما يقارن الرجاء الشركي الذل للمخلوق والتضرع والخضوع له واللجوء والانكسار والرغبة إليه .

٣- الرجاء الطبيعي الجائز : وذلك أن يرجو من المخلوق فعْل ما يقدر عليه، كأن يرجو أن يوفق الطبيب في علاجه وأن يكتب على يديه شفاءه أو يرجو من شخص أن يحقق رغبته في عمل أو حصول على مراده، ومع ذلك فترك رجائه أكمل توحيداً وهذا من الكمال المطلق المستحب .

٤- الرجاء المحرم وله صور :

- أن يرجو الله أمراً لا يليق ، كأن يرجو الله أن يجعله في مرتبة الأنبياء أو أن ييسر له المحرم ويعينه عليه.

- أن يتعلق قلبه بالمخلوقين مطلقاً في كل أموره وينصرف عن الله ورجائه.

- أن يرجو ثواب الله وجنته من غير أن يعد لذلك عملا صالحا ومع إسرافه في المعاصي.

التاسعة : تعلقات الرجاء بأمور الآخرة والدنيا :

١- الرجاء يتعلق بأمور الدين والآخرة من غفران الذنب ودخول الجنة وقبول الطاعات والتوبة . وهذا الأصل .

٢- يتعلق الرجاء بأمر الدنيا فيرجو الله أن يرزقه ويعافيه ويصلح حاله وعياله وماله وأن يبارك له في كل شيء ويهب له كل خير ويصرف عنه كل سوء وشر.

العاشرة : ما يضاد الرجاء :

يضاد الرجاء القنوط واليأس .

فالقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله ينافيان التوحيد . ويتدرج صاحبها بين القدح في أصل التوحيد أو نقص كماله والوقوع في الكفر والمعصية.

وعلة كون القنوط من الشرك ووجه منافاته للتوحيد :

١- أن القانط شبّه الرب الرحيم بالمخلوق الذي لا يرحم .

٢- أن القانط قدح في رحمة الله وكرمه وعفوه وقدرته .

٣- أن القانط اليائس لم يأت بعبادة الرجاء الواجبة والتي قد يكفر تاركها.

وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يوسف: ٨٧.

وقال : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ الحجر: ٥٦ . وقال : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ الزمر: ٥٣.

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ يونس: ٧-٨ .

واليأس والقنوط متعلقة بأمور الدين ويتعلق بأمور الدنيا كما في قصة يعقوب ونهيه عن اليأس من لقاء ابنه وإبراهيم في عدم قنوطه من الولد.

الحادية عشرة : الغلو في الرجاء يسبب الأمن من مكر الله :

إذا غلا الإنسان في الرجاء دون أن يعمل صالحاً ويكف عن حراماً فهو آمن من مكر الله وعذابه، وهذا مثل السابق القانط واليأس، لأن القانط لم يعبد الله بالرجاء والآمن لم يعبد الله بالخوف منه .

وتقدم أن الذي يأمن من مكر الله ولا يخاف منه أنه دائر بين الكفر والعصيان وبين القدح في أصل التوحيد وكماله، قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الأعراف: ٩٩.

الثانية عشرة : الجمع بين الخوف والرجاء :

ينبغي للمؤمن أن يجمع بين عبادة الخوف وعبادة الرجاء ولا يغلب أحدهما .

وقد أمر الله ﷻ بالجمع بين الخوف منه ورجائه وأثنى على من جمع بينهما في مواضع من كتابه ، قال تعالى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الإسراء: ٥٧ ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ الأنبياء: ٩٠ ﴿ يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ الزمر: ٩ ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الأعراف: ٥٦ ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ السجدة: ١٦ .

الثالثة عشرة: ارتباط الرجاء بالعبادات :

الرجاء يقترن غالباً بالتوكل على الله والطمع في رحمته والرغبة إليه واللجوء له والخشوع والخضوع والإقبال والانكسار والذل والدعاء والخوف والحذر من فوات ما يرجوه، ولذلك كان من يرجو غير الله من المخلوقين عابداً له لكونه خاضعاً له متذللاً له راغباً إليه مقبلاً عليه، وهذا هو الحال الأغلب للراجي الذي ترجى غيره .

فيكون الراجي بهذا الترجي التعبدي اتخذ المخلوق الذي يرجوه إلهاً من دون الله فإن كان هذه الحاجة التي يرغب فيها لا يقدر عليها إلا الله كان ذلك من الشرك الأكبر، وإلا كان من الشرك الأصغر، وإذا كان من الأمور الظاهرة والأسباب العادية فليس من الشرك وإن كان تركه أولى .

الرابعة عشرة : آثار الرجاء ولوازمه :

١- الإقبال على الله والرغبة إليه والخضوع والتذلل له والتوكل عليه .

٢- فعل الطاعات وترك المحرمات .

٣- عدم القنوط من رحمة الله واليأس من روحه .

٤- ترك الأمن من مكر الله ومن عقابه .

٥- كثرة الدعاء والإلحاح فيه .

الخامسة عشرة: أسباب رجاء الله :

يستحق ربنا أن يرجى لكماله ولسعة رحمته وعظم نعمته وجميل صفاته.

السادسة عشرة : أحكام رجاء المخلوق وأقسامه :

١- الترجي الجائز: وهو رجاء المخلوق في الأمور الظاهرة والأسباب العادية.

٢- الشرك الأصغر: وهو المبالغة والغلو في رجاء المخلوق والتعلق بالمخلوق في كل شيء والتقصير في التعلق بالله ورجائه وعدم الالتفات إليه كما يجب.

٣- الشرك الأكبر: وهو أن يرجو المخلوق ما لا يقدر عليه إلا الله ، أو لا يرجو الله مطلقا.

٤- المحرم: وهو أن يرجو المخلوق فعل المحرم وأن يعينه الله على الإثم.

السابعة عشرة: علاقة الرجاء الشركي التألهي بالربوبية :

الرجاء عبادة وصرفه لغير الله شرك في الألوهية، ولكن قد يستلزم الشرك في الربوبية وذلك لوجود العلاقة التلازمية بينهما كما هو مقرر في موضعه.

كما أنه قد يقوم بالمشرك الراجي ترجي المخلوق فعل أمر لا يقدر عليه إلا الله، ويكون برجائه الشركي هذا واقع في شرك الربوبية، وذلك حين اعتقد في المخلوق القدرة على كل شيء، وهذه صفات الربوبية وليس شرك الربوبية في نفس الرجاء.

الثامنة عشرة: ضابط الرجاء الشركي :

١- أن يلتفت ويتعلق بالمخلوق في كل شيء ويعرض عن الله بالكلية فلا يرجو من الله شيئاً .

٢- أن يرجو المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله ، كإنزال المطر وغفران الذنوب وهذا شرك أكبر .

٣- إذا قارن رجاءه من المخلوق الذل للمخلوق والخضوع له واللجوء إليه والتوكل عليه ودعائه والرغبة إليه .

التاسعة عشرة: الفرق بين الرجاء والتمني :

الرجاء هو الذي يخالطه عمل وحرص وحذر .

والتمني هو تعليق الآمال على الهوى دون العمل .

وفي الحديث: " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت،والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني". رواه الترمذي وابن ماجة.

فلا يصح الرجاء إلا مع العمل الصالح وإلا كان تمنيا ، ولهذا قال البعض: الرجاء اعمله ولا تستعمله، أي لا تعصي وتترك الطاعة بحامل الرجاء .

الفرق بين حسن الظن والغرور :

أن حسن الظن ما حمل صاحبه على العمل وحثه عليه وساقه إليه وزجره عن المعصية مع العمل بالأسباب . وإن لم يصاحبه تلك الحالة بل دعا للبطالة والتفريط والانهماك في المعصية فهو الغرور . ذكره ابن القيم في الجواب الكافي ص ٤٢ .

العشرون : صور الشرك في الرجاء والطوائف الواقعة فيه :

المشركون عامة يرجون آلهتهم ومعبوداتهم أن تجلب لهم النفع وتدفع عنهم الضر ويأملون منهم كل شيء .

وهذا يوجد في الرافضة والصوفية والقبورية وهذا حالهم مع الأموات والأولياء . وقد صرحوا بذلك فانظر إلى قول الشعراني عن أحد شيوخه :

" ولقد قصدته في حاجة ورجوته فرأيته خرج من قبره وقال لي اصبر " .

وقال الدسوقي لطلابه : " إن صح عهدك معي فأنا منك قريب وفي سمعك وطرفك وجميع حواسك " .

فانظر كيف جعلوا المخلوق الضعيف يرجى ويرغب إليه في فعل ما لا يقدر عليه إلا الله.

كذلك يوجد هذا الصنف من الشرك عند : السحرة والعلمانية وطلّاب الرقية الشركية والتمائم والتبرك الممنوع .

الصنف السادس : شرك الإنابة واللجوء والخضوع والتعظيم :

المسألة الأولى : أقسام هذه العبادات :
تنقسم العبادات القلبية التي من جنس اللجوء إليه والتذلل لله إلى أقسام:
١- التعظيم والتوقير والتقدير والإجلال . ويدخل فيه حفظه ومراقبته .
٢- الذل والخضوع . ومما يدخل في هذا الجنس :
الذل لله، الخضوع له، الإخبات له، السكينة، الخشوع له، الخنوع، الاستكانة، التضرع، التواضع، الاستخذاء، الخنوع، التقوى، السكون، الاطمئنان، الصبر .
ومما يستلزمه هذا المعنى : الانقياد والإذعان والامتثال والالتزام والطاعة والإسلام والاستسلام والتسليم والاتباع والانصياع والتدين والعمل والاستقامة والاستجابة والأخذ بالشيء. والأصل أن هذا الجنس من العبادات العملية .
قال ابن تيمية : (والدين يتضمن معنى الخضوع والذل) ١٠/ ١٥٣ .
أيضا يستلزم : ذكر الله والأنس به وحفظه ومراقبته والانقطاع عما يشغل عنه وترك الشيء لأجله والورع والزهد .
٣- التوبة والرجوع إليه واللجوء .ومما يدخل في هذا الجنس :
التوبة، الإنابة، الإوابة، الإواهة، الرجوع والإقبال عليه، وما في هذا المعنى.
الإنابة تزيد عن التوبة أن فيها إقبال وعمل بعد التوبة فهي أكمل .
والإنابة ضربان: إنابة لربوبية الله وهذه يشترك فيها كل الخلق ويدل لها:﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ الروم: ٣٣، وإنابة ألوهية:دليلها:﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ الزمر: ٥٤ ،وهذه هي المتعلقة بالمؤمنين بألوهية الله وعبادته.
ومن العبادات القلبية المستلزمة للتوبة والإقبال على الله عز وجل :
الرغبة والرهبة والتضرع والإنقطاع له والتبتل له والتورع له وترك أشياء من أجله وإرضائه والطمع فيما عنده وذكره والأنس به والصبر على شرعه وقدره.
فائدة : العبادات محصورة في أجناس وقد ذكرت ذلك في مقدمة هذا الفصل.
الثانية : الفروق بين هذه العبادات :
التفريق بين الخضوع والخشوع والإخبات ، وبين الإوابة والإواهة والتوبة .
والتفريق بين الخوف والخشية والرهبة والتقوى . وغير ذلك .
وقد اعتنى بها أصحاب كتب الرقائق كابن القيم في مدارج السالكين .

الثالثة : الأدلة عليها :

القسم الأول: التعظيم والإجلال والأدب مع الله ﷻ.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الحج: ٣٠ ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ الأنعام: ٩١ ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ نوح: ١٣ ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ الفتح: ٩ ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ الرحمن: ٧٨.

القسم الثاني : الخضوع والذل:

الخشوع: ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ الأنبياء: ٩٠.

الإخبات: ﴿ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ هود: ٢٣.

الطمأنينة: ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الرعد: ٢٨.

القنوت: ﴿ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ البقرة: ٢٣٨ .

التضرع الاستكانة والسكينة: ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ المؤمنون: ٧٦.

الخضوع: ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ الشعراء: ٤ .

العنا: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ ﴾.

الدخور: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾.

التواضع لله ولأوليائه : قال ﷺ : (من تواضع لله رفعه) .

الاستقامة: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ هود: ١١٢.

الاستجابة : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ آل عمران: ١٧٢

القسم الثالث: التوبة :

التوبة : ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ النور: ٣١.

الإنابة : ﴿ وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الزمر: ١٧ ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ ﴾ الروم: ٣١.

الإوابة : ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ ق: ٣٢.

الإواهة : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ هود: ٧٥.

التقوى: ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ البقرة: ٢٠٣ .

الرابعة : درجات هذه العبادات وأقسام أحكامها:

منها الأصل الذي لا يقبل الإسلام إلا به ويكفر تاركه .

ومنها الواجب ومنها الكمال الذي يستحب ولا يأثم من لم يأت به .

فتارك أي عبادة من هذه العبادات بالكلية كفر أكبر .

فتارك التوبة بالكلية أو تارك الخضوع والتذلل بالكلية أو تارك التعظيم بالكلية فهو كافر ما لم يأت بالركن منه وأصل كل عبادة أوجبها الله ﷻ على عباده .

الخامسة : مدار العبودية على هذا القسم من العبادات :

هذه العبادات هي أصل كل عبادة وهي تتعلق بجميع العبادات بلا استثناء القولية والعملية والقلبية ، حيث لا توجد عبادة افترضها الله علينا إلا وهي مرتبطة بالتذلل والتعظيم والتوبة والرجوع واللجوء والإقبال .

فتنبه لهذا الأصل العظيم واستمسك به ما حييت تفلح وتعرف السر في الأوامر والنواهي ومدار رحى العبودية وعلة كل كفر .

السادسة : ما يضاد هذه العبادات :

الكبر والإعراض والتولي والامتناع .

الكبر والاستكبار يعتبر شركا في الربوبية .

السابعة : الجامع لهذه العبادات :

الذل والخضوع والتعظيم والالتجاء لله تعالى .

الثامنة : لماذا استحق الله هذه العبادات التذلل والتعظيم واللجوء التوبة :

لكماله وعظمته وقدرته ورحمته وعقابه .

التاسعة : أحكام الذل للمخلوق والخضوع له:

كل ذلك من الشرك والعياذ بالله، ولا يدخل في ذلك التذلل العادي الغير تعبدي كتوقير الوالدين وخفض الجناح لهما وكذا توقير العلماء وكبار السن .

العاشرة : التوبة والالتجاء لا تصلح إلا لله ولا تنبغي لغيره :

وعلة ذلك : لأنها تنشأ من الذل والخضوع والمحبة .

﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ النور: ٣١ .

وحين قال الأسير للرسول ﷺ : (اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب لمحمد)، فقال النبي ﷺ : (عرف الحق لأهله) رواه أحمد .

تنبيه : معنى قول عائشة : (أتوب إلى الله ورسوله) رواه البخاري :

أن هذه ليست من العبادة وإنما التوبة للرسول توبة إلى الله كما أن طاعته طاعة لله والانقياد له انقياد لله والاستجابة له استجابة لله .

وأيضا هي من التوبة اللغوية بمعنى الرجوع وليست العبادة .

الحادية عشرة : حكم تارك هذه العبادات بالكلية :

الذل لله والخضوع له وتعظيمه والتوبة إليه عبادة لله يجب أن تصرف له، والذي لا يوجد عنده شيء من أصل هذه العبادات من مطلق التذلل والتعظيم والالتجاء، أي أنه لا يتذلل لله مطلقا ولا يخضع له بالكلية أو لا يعظمه أصلا أو لا يتوب إليه أو لا يلتجئ إليه بالكلية ولا يلتفت إليه مطلقاً، فهذا كافر والعياذ بالله .

وهذا بخلاف من قصّر في التذلل لله وتعظيمه لله أو توبته ولجوئه لربه وفرط، فهو وإن كان لم يأت بالواجب فضلا عن المطلق والكامل إلا أنه يوجد عنده الأصل، وهو مع هذا عاصٍ في فعله متوعد بالعقوبة .

الثانية عشرة : ينقسم الشرك في هذه العبادات إلى أكبر وأصغر :

الأصل أن صرف هذه العبادات لغير الله سبحانه من الشرك الأكبر .

وقد تكون من الشرك الأصغر ، كأن يترك المسلم بعض ما يجب عليه تعظيما ومهابة للناس أو يفعل بعض المنكرات من باب التذلل لهم أو يعظم من لا يستحق التعظيم رغبة في دنياه واتباعا لهواه .

الثالثة عشرة : دخول هذه العبادات في شرك الربوبية :

شرك الخضوع والتذلل والتعظيم والتوبة متعلق بالألوهية وقد يدخل في شرك الربوبية ويستلزمه ، ووجه ذلك :

أن هذه عبادات أمر الله بها وأحبها وأثاب فاعلها، فهي متعلقة بأفعال العباد وتألههم، عليه فمن صرفها لغير الله كان مشركاً في ألوهيته لا في ربوبيته من حيث الأصل، ولكن قد يتعلق في قلب المعظم والمتذلل للمخلوق والمقبل عليه الملتجئ إليه أن هذا المخلوق الذي عظمه وخضع له يقدر على كل شيء ويتصرف في الخلق بما يشاء فيقع في الشرك في الربوبية من هذا الوجه، وليس من أجل ذات العبادة، وإنما من أجل اعتقاد الربوبية في المخلوق، ومثل ذلك شرك المحبة وشرك الخوف وشرك الدعاء والرجاء والخشوع وكل عباده هي في أصلها متعلقة بالألوهية وقد تدخل في الشرك في الربوبية من جهة ما يقارنها ويلازمها ويخالطها من اعتقاد الربوبية في المخلوق وليس أن حصول الربوبية في ذاتها ومضمونها، فتأمل هذه القاعدة فهي نافعة في الفرق بين شرك الألوهية وشرك الربوبية .

الرابعة عشرة : آثار هذه العبادات وما تستلزمه :

تقوى الله والخوف منه وخشيته ومهابته .

طاعة الله وترك معصيته.

الإقبال على الله .

محبة الله تعالى والسعي في مرضاته .

مسألة : الذل بدون المحبة لا يعتبر عبادة كذلك المحبة من دون تعظيم وخضوع ليس بعبادة، وهذا من أهم شروط هذه العبادات .

الخامسة عشرة : الطوائف الواقعة في هذا الشرك :

المشركون عموما من القبورية والصوفية والرافضة .

الحاكمون بشرائع الطاغوت المعظمون لشرعه الخاضعون له .

عباد السلاطين والأمراء من الأتباع والأجناد وعباد الدنيا والمبالغون في تعظيم أسيادهم والخضوع لهم والقيام لهم والوقوف بين يديهم والإقبال إليهم .

تنبيه : من العبادات القلبية المتعلقة بهذه العبادات :

الصبر ، والرضا ، واليقين، والشكر.

تنبيه : العبادات المتعلقة بأصل التذلل والطاعة والانقياد :

الانقياد والإذعان والامتثال والالتزام والطاعة والإسلام والاستسلام والتسليم والاتباع والانصياع والتدين والعمل والاستقامة والاستجابة والأخذ بالشيء والمسابقة والمسارعة والتنافس في الخير.

وهي متعلقة بالجوارح مع القلب ،وسيأتي الكلام عنها والشرك المتعلق بها ، إن شاء الله في الناقض الرابع والعاشر .

الصنف السابع : شرك الطاعة والحكم:

وهذا الشرك الأصل أنه متعلق بالألوهية، لأنه قائم بأفعال العباد . ويدخل في الشرك في الربوبية .

ويدخل هذا الصنف في الشرك الاعتقادي القلبي، كما أنه يتعلق بشرك القول، ويتعلق بعمل الجوارح وهو الأصل.

شرك الحكم يشمل :

١- شرك التشريع والتحليل والتحريم وسن الدين .

٢- شرك الحكم بغير ما أنزل الله .

٣- شرك الطاعة والتحاكم .

وسنفرد الكلام عنه إن شاء الله تعالى في باب مستقل في ناقض الحكم وهو الناقض الرابع من نواقض الإسلام. وسيأتي ذكره في هذه الرسالة.

فائدة : وجه تخصيص هذا الشرك بالذكر :

خصص الإمام محمد بن عبد الوهاب شرك الحكم بالناقض الرابع كما خصص شرك الدعاء بالناقض الثاني .

فتخصيص شرك الدعاء وشرك الحكم مع أنه داخل في عموم الشرك :

١- لانتشاره في كثير من الناس .

٢- لكثرة الجهل به ومن يعتقد أنهما ليست من العبادة ولا يدخلها الشرك .

٣- يزيد شرك الحكم بدخوله في جميع أنواع الشرك .

مسألة : شرك الحكم يدخل في جميع أنواع الشرك :

أولاً: يدخل في شرك الربوبية والأسماء والصفات :لأن الحكم والأمر من أفعال الله الخاصة به . ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ الأنعام: ٦٢. ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ الأعراف: ٥٤ .

ولذلك سمى الله تعالى من حكم وشرع وحل وحرم رباً في قوله ﷻ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ .

ثانياً: يدخل في شرك الألوهية: لأن الحكم والتحاكم والطاعة هي أفعال العباد وهي من الأعمال التي يحبها الله وداخلة في التذلل والخضوع والتعظيم والانقياد ويجب أن لا تكون إلا لله ، قال تعالى:﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ النساء: ٦٠ ، وسما الله الحكم والتحاكم عبادة، قال ﷻ:﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ

﴿إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يوسف: ٤٠ ، وجعل التحاكم لغيره وطاعته شركـا، قـال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ الكهف: ٢٦ ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ الأنعام: ١٢١.

وعلى ذلك فمن حكـم وشرّع فقـد أشرك في الربوبيـة ومـن تحـاكم إلى ذلـك المشرع وأطاعه واتبعه وانقاد له فقد أشرك في الألوهية .

وبعض العلماء يجعل شرك الحكم بغير مـا أنـزل الله داخـلا في شرك الطاعـة ، وهذا ليس على إطلاقه، فشرك الحكم أعم مـن شرك الطاعـة لأنـه يكـون شركـاً في الطاعة والتحاكم وشركاً أيضاً فيما يتعلق بالتشريع والحكم والتحليل والتحريم .

ثالثاً: يدخل في شرك التعطيل:

لأن الحاكم المشرك عطل الله عن العمل بشرعه وحكمه .

رابعا: يدخل في شرك التمثيل:

لأن الحاكم المشرك مثل حكم المخلوق وأمره بحكم الله.

خامسا: كـما أن فيـه طعـن في الله ﷻ وطعـن في رسـوله ﷺ وطعـن في الـدين والشريعة . لأجل كل هذا اعتبر الحاكم بغير ما أنزل الله والمتحاكم إليه من الكـافرين وليس من المؤمنين بنص القرآن كما في قوله تعالى :

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ النساء: ٦٥ .

﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المائدة: ٤٣ .

القسم الثاني : شرك التقرب والتنسك بالجوارح :

المسألة الأولى : المقصود بعبادات التنسك :
الصلاة والقيام والركوع والسجود والاعتكاف والمجاورة والطواف والتقبيل والتمسح والتبرك والذبح والنذر والتجرد من الملابس وحلق الشعر والصيام .
كل هذه الأمور والأفعال عبادات يحبها الله تعالى ويرضاها وكلها مقربة إليه وفيها صفة التعظيم للرب والخضوع من العبد ولذلك أمر الله بها وأثنى على المتصفين بها وذم من صرفها لغير الله وحكم بكفره وشركه .
معنى النسك : هو التعبد وأكثر ما يطلق على الذبح والحج .
المسألة الثانية : الجامع لهذه العبادات : الخضوع والتذلل والتعظيم .
الثالثة : كل عبادة أمر الله أن يعبد بها فعلها المشركون مع آلهتهم ومعبوداتهم:
ومن ذلك الاعتكاف والمجاورة والطواف والتجرد من اللباس وحلق الرأس والإحرام والحج للمشاهد والقبور والصدقة والنذر والذبح لمعبوداتهم والقيام لها والركوع والسجود لها، بل وحتى الصيام والإمساك عن المباحات والتبتل وترك الطعام والنكاح كلها تحصل عند المشاهد لأجل المعبودات .
وقد رأينا عباد القبور اليوم يفعلون ذلك كله للغير الله تعالى.
المسألة الرابعة : النهي عن عبادة الله في أماكن الشرك ومظانه:
ومن ذلك جاء النهي عن الذبح في الأماكن التي يذبح فيها لغير الله تعالى، أو مظنة لأن يكون الذبح والعبادة لغيره كالذبح لله عند القبور والصلاة عندها .
يدل لذلك ما جاء عن ثابت بن الضحاك ، قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأله النبي ﷺ فقال: (هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد)؟ قالوا: لا. قال: (فهل كان فيها عيد من أعيادهم)؟ قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: (أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم) رواه أبو داود.
ومثل ذلك النهي عن الصلاة في المقبرة وإلى القبر، حتى لا يكون ذلك وسيلة لعبادة القبر والصلاة له، كما نُهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها وزوالها حتى لا يتشبه المسلم بعبادها وسدا لذريعة عبادتها .
ومثل ذلك الاجتماع في الأماكن التي يقام فيها الأعياد الوثنية كأعياد الوطن والثورات كالساحات الشعبية .

المسألة الخامسة :

الذبح والنذر والسجود والركوع من الشرك الأكبر ولا تكون من الأصغر .

المسألة السادسة : العبادات الخاصة :

الطواف لا يشرع لغير الكعبة ، والتقبيل لا يشرع لغير الحجر الأسود، وكذا استلام الركن اليماني من غير تقبيل، وإلصاق الصدر بالملتزم ولا يتمسح به ولا يشرع التمسح بجدران الكعبة وتقبيلها ولا تقبيل المصحف وكل ذلك تعبدا وامتثالا وليس للتبرك بذوات هذه الأشياء كما أن السجود لله وليس لذات الكعبة .

قال ابن تيمية : (والتمسح بالقبر وتقبيله وتمريغ الخد عليه من أنواع الشرك) . الفتاوى ٢٧/ ٩١ .

كذلك حلق الرأس والتجرد من الثياب وكشف الرأس لا تشرع لغير الحاج. وحلق الرأس تنسكاً وقصداً لله ﷻ ولا يجوز لغيره، والمشركون يحلقون رؤوسهم لمعبوداتهم نسكا ويكشفون رؤوسهم قصدا وتعظيما لها وتذللا لها، وهذا شرك أكبر .

قال ابن القيم في المدارج : (ومن أنواع الشرك حلق الرأس والتوبة للشيخ) .

المسألة السابعة : دخولها في الشرك الربوبي :

شرك التنسك بأنواعه متعلق بالألوهية وقد يدخل في شرك الربوبية ويستلزمه:

ووجه ذلك أن هذه عبادات، الله أمر بها وأحبها وأثاب فاعلها، فهي متعلقة بأفعال العباد وتألههم وخضوعهم له، وعليه فمن صرفها لغير الله كان مشركاً في ألوهيته لا في ربوبيته، ولكن قد يتعلق في قلب القائم لغير الله والمنحني والساجد والمعتكف والطائف والذابح للمخلوق والمقبل عليه الملتجئ إليه أن هذا المخلوق الذي عظمه وخضع له وصرف له أحد هذه العبادات أنه يقدر على كل شيء ويتصرف في الخلق بما يشاء فيقع في الشرك في الربوبية من هذا الوجه، وليس من أجل ذات العبادة، وإنما من أجل اعتقاد الربوبية في المخلوق .

ومثل ذلك يقال في بقية أنواع الشرك شرك المحبة والخوف والرجاء والدعاء وغيرها، وكل عبادة هي في أصلها متعلقة بالألوهية وقد تدخل في الشرك في الربوبية من جهة ما يقارنها ويلازمها ويخالطها من اعتقاد الربوبية في المخلوق وليس حصول الربوبية في ذاتها ومضمونها.

المسألة الثامنة : حكم ترك العبادات البدنية بالكلية :

من ترك العبادات بالكلية بحيث لا يقوم بأي عبادة بدنية مطلقا فهذا كافر خارج من ملة الإسلام التي تقوم على الاستسلام والانقياد والتذلل لله تعالى .

قال ابن القيم في الصلاة : (من أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية).

وقال فيه : (إذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح). إلى آخر كلامه .

قال ابن تيمية في الإيمان الأوسط عن المرجئة : (أخطؤوا أيضاً لامتناع قيام الإيمان بالقلب من غير حركة بدن) .

وقال أيضا في الإيمان : (لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح).

وقال في شرح العمدة :(فإذا خلا العبد عن العمل بالكلية لم يكن مؤمناً) .

المسألة التاسعة : ارتباطها بالعبادات القلبية :

العبادات البدنية لها علاقة وثيقة بأعمال القلوب وعباداته من المحبة والخضوع والتعظيم والخشية والرهبة والرغبة والرجاء وغيرها .

المسألة العاشرة : أصناف هذه العبادات وأدلتها:

العبادة الأولى : السجود والركوع والانحناء:

الأدلة عليها: قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ الحج: ١٨.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ الرعد: ١٥ .

فأخبر ﷻ عن سجود كل المخلوقات له وتسبيحها له وإن كنا لا نفقه كيفيته .

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ١١٢.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ الحج ٧٧.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ البقرة: ٤٣ .

﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ فصلت: ٣٧.

﴿ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ النمل: ٢٤ .

فأمر تعالى بتوحيده بالسجود فلا يسجد إلا لله تعالى .

وقال ﷺ : " أمرت أن أسجد على سبعة أعظم " .

وقال ﷺ " لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله " رواه الترمذي وأحمد .

وقال ﷺ : " لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر .. وفي رواية لأحد ولو صلح لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها " رواه أحمد .

وعن أنس ﷺ قال رجل: يا رسول الله الرجل يلقى أخاه أو صديقه أينحني له قال: " لا " رواه الترمذي.

قال ابن القيم :(ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ، فإنه شرك من الساجد والمسجود له، والعجب أنهم يقولون ليس هذا سجود، وإنما وضع الرأس قدام الشيخ احتراما وتواضعا، فيقال لهؤلاء : ولو سميتموه ما سميتموه فحقيقة السجود وضع الرأس لمن يسجد له، وكذلك السجود للصنم وللشمس وللنجم وللحجر كله وضع الرأس قدامه .

ومن أنواعه ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة وهذا سجود في اللغة كقوله ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ البقرة: ٥٨) المدارج ١/ ٣٤٤ .

تنبيه : نوع الشرك في السجود للمخلوق : هو شرك من الساجد شرك في الألوهية، وشرك من المسجود له شرك في الربوبية إذا رضي بالسجود له.

قال أبو علي عفا الله عنه : ومن الصور المعاصرة في هذا الشرك :
ما يفعله من يخرج للقاء الجمهور في المسارح والتماثيل فينحني لهم، وكذا الركوع في بعض الألعاب القتالية، وكذا عند التقابل، أو السلام على المعظمين.
مسألة : نسخ سجود التحية :
كان في شرع من قبلنا جواز سجود التحية من دون تعظيم وعبادة، كما سجد يعقوب ﷺ وأبناؤه ليوسف ﷺ وكسجود الملائكة لآدم وقد نسخ ذلك وصار السجود لله تعالى ولا يسجد لغيره ألبتة .

العبادة الثانية : القيام :
الأدلة عليه :
قال ﷻ: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ البقرة: ٢٣٨.
وقال ﷺ : " صل قائماً " رواه البخاري .
وقال ﷺ :" من أحب أن يتمثل له الناس وقوفاً بين يديه فليتبوأ مقعده من النار " رواه أحمد وأبو داود والترمذي.
وقال أنس ﷺ : " لم يكن شخص أحب إليهم من النبي ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك " رواه أبو داوود .
مسألة : القيام الجائز للمخلوق :
يجوز أن يقام للمسافر إذا قدم من سفر وكذا المسلم المصافح الواقف إذا أراد مصافحة الجالس إذا لم يقارنه تعظيم وخضوع له، ويدل لذلك .
حديث " قوموا لسيدكم" يعني به سعد بن معاذ ، رواه البخاري.
وكقيام الرسول ﷺ لابنته فاطمة إذا دخلت عليه . رواه الترمذي وأبو داوود .

العبادة الثالثة : الاعتكاف والمجاورة:
تعريفه :
هو في اللغة: اللزوم والإقامة .
واصطلاحا: لزوم موضع معين أو المجاورة عنده بقصد التقرب إلى الله .
وهي عبادة لا تصح في غير المساجد .

حالاته :

الأولى : من اعتكف عند قبر أو بقعة معينة طالبا البركة والنفع أو ثواب الله كان مبتدعا واقعا في الشرك الأصغر .

الثانية : أما إن قصد المعتكف عند القبر التقرب لنفس الميت بهذا الاعتكاف والمجاورة لينال من خيره وبركته وشفاعته عند الله فإن هذا شرك أكبر والعياذ بالله .

الأدلة عليه :

فقال تعالى في عبادة الاعتكاف :

﴿ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ البقرة: ١٨٧ ﴿ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ البقرة: ١٢٥.

وقال تعالى في شرك الاعتكاف : ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ الأنبياء: ٥٢ ﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ ﴾ طه: ٩١ ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ الشعراء: ٧١ ﴿ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ الأعراف: ١٣٨.

وقال ﷺ : (لا تتخذوا قبري عيدا) رواه أحمد وأبو داود .

وقال ﷺ : (لعنة الله على اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) متفق عليه.

العبادة الرابعة :: الصيام :

عبادة الصيام : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ البقرة: ١٨٣ .

والمشركون يصرفونه لمعبوداتهم ، فيصومون لها وقد ظن البعض أن الصيام لا يمارسه المشركون ولا يتصور وقوعه إلا لله ، والحق أن كل عبادة أمر الله أن يعبد بها قد فعلها المشركون مع آلهتهم ومعبوداتهم ، ومن ذلك الحج والطواف واللباس والحلق والاعتكاف والصيام والإمساك والتبتل وترك الطعام والنكاح كلها تحصل عند المشاهد لأجل المعبودات ، وقد رأينا عباد القبور اليوم يفعلون ذلك كله .

قال ابن تيمية:(يدعو الشمس كما يدعو الله ويصوم لها وينسك لها ويتقرب إليها) درء التعارض ١/ ٢٢٧ .

قال ابن القيم في المدارج : (ومن أنواع الشرك حلق الرأس والتوبة للشيخ) .

العبادة الخامسة : الحج :

الحج قصد البيت ، ويقوم على الإحرام والامتناع عن بعض الأعمال وهي المحذورات ، وعلى التجرد من اللباس وكشف الرأس وحلق الشعر والطواف والسعي والنحر والحلق والمبيت والوقوف والإقامة بالمشاعر في أيام معدودة.

وهو مشروع في أوقات معينة وأماكن مخصصة .

قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ آل عمران: ٩٧ ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ البقرة: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ ١٩٦ ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ البقرة: ١٩٨ .

وقد صرفه المشركون القبورية للقبور وسموها المشاهد وجعلوا لها حجا .

قال ابن القيم : (وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجا ووضعوا لها مناسك، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابا سماه مناسك حج المشاهد، مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ودخول في دين عباد الأصنام) إغاثة اللهفان ١/ ١٧١ .

العبادة السادسة الطواف:

تعريفه وحقيقته وخاصيته: هو عبادة أمر الله بها لا تفعل إلا عند الكعبة ومن طاف بغير الكعبة قاصدا للتعبد والطاعة فهو كافر مشرك .

الأدلة عليه :

قال تعالى : ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ البقرة: ١٢٥.

﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ الحج: ٢٩ .

قال عمر رضي الله عنه :(والله إني أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك) رواه البخاري .

وأنكر الزبير بن العوام رضي الله عنه على رجل تمسح بالمقام، وقال: (لم تؤمر بهذا) أخرجه ابن أبي شيبة .

وأنكر ابن عباس على معاوية لما مسح وقبل الركنين الشاميين من الكعبة.

حالات الطواف :

الأولى :الطواف إذا كان بالقبر ويقصد الطائف التقرب إلى الله فهذا حصل فيه الخلاف فقيل بدعة، وهو كمثل من يصلي لله عند القبر، وقد يصل للشرك الأكبر، ويرى ابن تيمية وغيره أنها ردة مطلقا حتى لو قصد الله بالطواف ولم يقصد صاحب القبر وهذا الصحيح، وقد يعلل لذلك: أن الصلاة مشروعة في أصلها في كل مكان أما الطواف فلا يشرع لغير الكعبة .

الثانية : إذا كان يريد بالطواف أنه للميت متقربا به إليه قاصدا له فهذا شرك أكبر ، وهو مثل من يسجد للقبر ويدعوه ويقصده ويرجوه ويرغب إليه .

أقوال أهل العلم فيه :

قال ابن تيمية: (من اتخذ الصخرة قبلة يصلي إليها فهو كافر مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل - مع أنها كانت قبلة لكن نسخ ذلك - **فكيف بمن يتخذها مكانا يطاف به كما يطاف بالكعبة** ... وكذلك من قصد أن يسوق غنما وبقرا ليذبحها هناك ويعتقد أن الأضحية فيها أفضل وأن يحلق فيها شعره في العيد أو أن يسافر إليها ليتعرف بها عشية عرفة فهذه الأمور التي يُشبه بها الكعبة بيت المقدس في الوقوف والطواف والذبح والحلق من البدع والضلالات ... **ومن فعل شيئا من ذلك معتقدا أن هذا قربة إلى الله فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل**).

الرسائل الكبرى ٢/ ٦١. الفتاوى ١٧/ ٤٨٢ و ٢٧/ ٧٩ و ٢٦/ ٩٢،،١٢١ .

قال ابن القيم :" كل حديث في الصخرة فهو كذاب مفترى ... وأرفع شيء في الصخرة أنها كانت قبلة لليهود وهي في المكان كيوم السبت في الزمان أبدل الله بها هذه الأمة المحمدية الكعبة البيت الحرام " المنار المنيف ٨٨ .

قال ابن باز: (وأما الطواف بقبر النبي ﷺ فهذا لا يجوز، وإذا طاف بقصد التقرب إليه فهذا شرك بالله ﷻ،فالطواف عبادة لحول الكعبة لا تصلح إلا لله وحده، فمن طاف بقبر النبي ﷺ أو قبر غيره يتقرب إليهم بالطواف صار مشركا بالله، وإن ظن أنه طاعة لله وفعله من أجله يتقرب به إليه صار بدعة) فتاوى الحج ١٨٢ .

العبادة السابعة: الذبح:

م (١) : تعريفه : هو إسالة الدم .

م (٢) : الذبح عبادة فيها ضوابط العبادة :

الذبح أمر الله به وأحبه ورضيه.

وهذا ضابط العبادة فهي : كل ما أمر الله به وأحبه.

والله ﷻ يحب أن يذبح له من البهائم والكفار وهو من خير العبادات .

م (٣) : وجود حقيقة العبودية في الذبح :

تقوم عبادة الذبح على الذل والتعظيم لمن ذبح له كما أن المقصود منها الاستعانة والإرادة والقصد ممن يذبح له . وهذه الحقائق توجد في الذبح وهي روح العبادة ولهذا كان الذبح من أعظم العبادات وأحبها لله.

والذبح للجن سببه رجاء تحقيق مطلوب أو الخوف منهم ودفع شرهم .

فجمع الذابح بين عبادة الذبح والخوف والرجاء وغيرها.

م (٤) : شرك الذبح : هو إسالة الدم لغير الله .

تنبيه : لا يشترط في المذبوح أن يكون مأكول اللحم.

م (٥) : الأدلة عليه :

الأدلة قسمان:أدلة على العبادة عموما والذبح منها ، وأدلة خاصة بهذه العبادة:

١- قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٢. والنسك هو الذبح .

٢- قال تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ الكوثر: ٢.

٣- قال تعالى في شرك الذبح :﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ المائدة: ٣.

٤- قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ الأنعام: ١٢١.

٥- عن علي رضي الله عنه قال :قال النبي ﷺ :(لعن الله من ذبح لغير الله) رواه مسلم .

٦- عن طارق بن شهاب: أن النبي ﷺ قال : (دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب) قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: (مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما قرب قال: ليس عندي شيء أقرب قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله ﷻ، فضربوا عنقه فدخل الجنة) رواه أحمد.

م (٦) : **عبودية ذبح البشر** : من أفضل العبادات عند الله قتل الكفار تقربا إلى الله ﷻ وجهادا في سبيله، بل يؤجر مع القاتل من صنع السلاح للقاتل ومن باعه .

قال الجبار ﷻ في عبودية ذبح البشر وكونه شرعها وأمرنا بها في حق الكفار :

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ التوبة: ٥.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الأنفال: ٦٧.

وأمر به قوم موسى: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ البقرة: ٥٤.

كما أمر الله بـه إبراهيم: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ الصافات: ١٠٢.

وقال النبي ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله) متفق عليه .

م (٧) : **أقسام الذبح** :

١- ذبح العبادة لله تعالى: كالأضاحي والصدقة وقتل الكفار المحاربين.

٢- ذبح العادة: وهو الذبح الذي يكون للحم أو الولائم أو إكرام الضيف .

٣- الذبح الشركي: ماكان لغير الله كالذبح للأوثان والقبر والجن والمعظمين.

م (٨) : **أنواع الذبح لغير الله** :

١- أن يذكر غير اسم الله عليه فيقول مثلا: باسم الجن .

٢- أن يقصد بالذبيحة غير الله ولو ذكر اسم الله عليها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ المائدة: ٣. يشمل النوعين جميعا.

م (٩) : لا يجوز الأكل من الذبائح التي تذبح لغير الله وتعد أخبث من الميتة ، فيحرم الأكل منها كما أمر الله ﷻ بقوله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ المائدة: ٣ .

ولا يعتبر الآكل منها مشركا لكن يعتبر عاصيا ولا يكفر إلا إذا استحل .

تنبيه: الأطعمة التي عند الأضرحة والأوثان ونذرت للقبور غير الذبائح، مثل العسل والسمن لا تأخذ حكم الذبائح فيجوز أكلها ويغنمها المسلم ويتصدق بها.

م (١٠) : **الذبح لغير الله لا يكون إلا من الشرك الأكبر ولا يكون أصغر** :

وقد أخطأ الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله في شرحه التيسير على كتاب التوحيد حين جعل بعض صور الذبح من الشرك الأصغر.

العبادة الثامنة : النذر :

م (١) : تعريفه : هو الإيجاب والإلزام، وهو أن يوجب العبد على نفسه أمرا من العبادة المستحبة لله بقوله: لله علي أن أذبح أو أتصدق أو أزور فلان .

م (٢) : النذر عبادة فيها ضوابط العبادة :

أمر الله به وأحبه ورضيه.

وهذا ضابط العبادة فهي : كل ما أمر الله به وأحبه.

م (٣) : وجود حقيقة العبودية في النذر :

تقوم عبادة النذر على الذل والتعظيم لمن نذر له كما أن المقصود منها الاستعانة والإرادة والقصد ممن يذبح له . وهذه الحقائق توجد في النذر وهي روح العبادة .

م (٤) : شرك النذر : هو النذر لغير الله .

م (٥) : الأدلة عليه :

الأدلة قسمان:أدلة على العبادة عموما والذبح منها ، وأدلة خاصة بهذه العبادة:

قال تعالى في عبودية النذر خاصة والوفاء به:

١- ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾ البقرة: ٢٧٠ .

٢- ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ الإنسان: ٧ .

٣- ﴿ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ الحج: ٢٩.

٤- قال النبي ﷺ : (من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) رواه البخاري ومسلم.

م (٦) : شروط النذر: أن يكون النذر في عبادة مشروعة وإلا كان بدعة .

م (٧) :حكم النذر :

النذر لا يستحب ابتداءً ، ويجب الوفاء به ، ويكره ما كان من باب المجازاة والمعاوضة .

م (٨): أقسام النذر :

١- نذر الطاعة لله تعالى والنذر المباح سواء كان معلقا أو مطلقا .

٢- نذر المعصية وهذا لا يجوز الوفاء به وفيه الكفارة .

٣- النذر الشركي وهو أن ينذر لمخلوق ، كيقول للولي علي نذر إن صار كذا.

م (٩): مما يدخل في النذر الصدقة له وأن يتقرب إليه بالمال .

ويوجد من يتصدق للميت ويتقرب إليه .

ومن البدع المحرمة والوسائل المفضية للشرك توزيع الصدقات عند القبور بل ووضع صناديق لذلك عندها وجعل الأوقاف لها وكل ذلك محرم .

م (١٠) : النذر لغير الله لا يكون إلا من الشرك الأكبر ولا يكون أصغر :

وقد أخطأ الشيخ سليمان بن حمدان رحمه الله في شرحه الدر النضيد على كتاب التوحيد حين جعل النذر من الشرك الأصغر مثل الحلف .

وغاب عنه سر الفرق بينهما الذي هو التعظيم والتذلل المقارن للنذر واعتقاد القدرة على جلب النفع ودفع الضر وهذا بخلاف الحلف ، ولو قارن الحلف من التعظيم مثلما يقارن النذر عادة لصار الحلف بهذه الصورة شركا أكبر .

م (١١): الفرق بين الحلف والنذر وسر كون النذر من الشرك الأكبر :

١- أن الناذر لم ينذر لغير الله إلا لاعتقاده في المنذور له أنه يضر وينفع ويعطي ويمنع إما بطبعه أو بقوة سببه فيه ويجلب الخير ويدفع الشر ولذلك ينذرون لمعبوداتهم وقت الشدائد . توضيح الخلاق ٣٨٢.

٢- أن النذر يقارن التعظيم والتذلل للمنذور له ، بخلاف الحلف فقد يقارنه هذه العقيدة فيكون الحلف شركا أكبر كالنذر ، وقد لا يقارنه وهو الغالب فيكون شركاً أصغر من باب شرك الألفاظ .

م (١٣): إن من المصائب وجود علماء السوء المجوزين للشرك، ومن ذلك ما طلع به علينا مفتي مصر علي جمعة في تجويزه النذر للمخلوق والأموات، وزعمه أن المقصود من النذر للميت جعل الثواب له وأن ذلك من باب الصدقة للميت، وقد خالف بفتواه الفاسدة الباطلة هذه إجماع العلماء. ولكن هذا يؤكد أن دعاة الشرك لا يزالون يقاتلون في سبيل الطاغوت ويتفانون في شركهم .

م (١٢) : أقوال أهل العلم فيه :

قال ابن تيمية : (وأما النذر للموتى من الأنبياء والمشايخ أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم فهو نذر شرك ومعصية) الفتاوى ١١/ ٥٠٤. وقال : (وإذا كان الحالف بغير الله قد أشرك فكيف بالناذر لغير الله والنذر أعظم من الحلف) ، (اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله لا لنبي ولا لغيره وأن هذا شرك لا يوفى به) الفتاوى ١/ ٨١- ٢٨٦ ، (فمن نذر لغير الله فهو مشرك كمن صام لغير الله وسجد لغير الله ومن حج إلى قبر من القبور فهو مشرك) منهاج السنة ٢/ ٤٤٠.

قال الصنعاني: (النذر بالمال على الميت ونحوه والنحر على القبر والتوسل به وطلب الحاجات منه هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثنا وصنما وفعله القبوريون لما يسمونه وليا وقبرا ومشهدا والأسماء لا أثر لها) تطهير الاعتقاد ١٩.

وأفتى علماء الحنفية بكفر أصحاب النذور الشركية .

قال قاسم بن قطلوبغا وتبعه ابن نجيم في البحر الرائق والرملي في الفتاوى الخيرية وعمر بن نجيم في النهر الفائض والحصكفي في الدر المختار وابن عابدين في رد المحتار وغيرهم: «وأما النذر الذي ينذره أكثر العوام، فيأتي في بعض قبور الصالحين ويقول يا سيدي فلان إن قضيت حاجتي أو عوفي مريضي فلك من الذهب كذا .. فهذا النذر باطل لوجوه: منها أنه نذر لمخلوق والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة والعبادة لا تكون للمخلوق. ومنها إن ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى واعتقاده ذلك كفر».

وزاد الحصكفي في درء المختار: «وقد ابتلي الناس بذلك ولا سيما في هذه الأعصار».قال ابن عابدين: «ولا سيما في مولد السيد أحمد البدوي».

قال صديق خان :" هذه النذور الواقعة من عباد القبور تقربا بها إليهم ليقضوا لهم حوائجهم أو ليشفعوا لهم شرك في العبادة بلا ريب " الدين الخالص ٢/ ٢٦١.

قال العجلي :(النذر عبادة فإذا صرفت العبادة لغير الله كان شركا) .

تحقيق التجريد ١/ ١٦٨.

مبحث : عبادات أخرى حصل الشرك فيها:

١- الإمساك عن بعض الأفعال والمباحات تعبدا .

٢- والتبتل وترك الطعام والنكاح توجها وقصدا للمعبودات الشركية .

٣- عبادة الصدقة : ﴿ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ الرعد: ٢٢.

تكون لله ويفعلها المشركون مع آلهتهم فيتصدقون لها ويتقربون بالصدقة لها .

٤- عبادة التبرك بما شرعه الله :

قال تعالى: ﴿ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ فصلت: ٤٤ .

والتبرك يكون بما شرعه الله ويفعلها المشركون مع آلهتهم فيتبركون بها .

٥- عبادة الجهاد والقتال والهجرة والأمر بالمعروف والدعوة:

قال تعالى: ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ ﴾ الحج: ٧٨ ﴿ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ ﴾ الأنفال: ٧٥.

﴿ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ الحج: ٤١ ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ النحل: ١٢٥

﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ العصر: ٣.

والجهاد عبادة لله، بينما يصرفها المشركون لغيره، فنراهم يقاتلون في سبيل آلهتهم، ويأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ويتواصون بالكفر ويدعون إلى سبيل الشيطان .

كما أخبر تعالى عنهم بذلك في مثل قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ ﴾ النساء: ٧٦

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ الأنعام: ٢٦

﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ التوبة: ٦٧

﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ ص: ٦

﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ الفرقان: ٤٢

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ فصلت: ٢٦

وغيرها من الآيات الدالة على صرف العبادة لغير الله .

٦- الإحسان والعدل وصلة الرحم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ النحل: ٩٠ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ الرعد: ٢١.

٧- عبادة الصبر :

م (١) : تعريف الصبر :

الصبر هو الكف والحبس ، أي حبس النفس عن الجزع .

سمى الله الصبر إيمانا كما في آية باب الصبر على المصيبة، كما فسره علقمة.

م (٢) : وجه دخولها في التوحيد :

الصبر عبادة يحبها الله وأمر بها ، والصبر يكون على دين الله والرضا به وفعل أوامره وترك نواهيه ، والصبر على أقدار الله وعدم الجزع منها والتسخط عليها .

ويدخل الصبر في الإيمان بالقضاء والقدر.

م (٣) : أنواع الصبر :

١- الصبر على الشرع بامتثاله والرضا به :

ويكون على فعل الطاعات والأوامر وترك المحرمات والنواهي .

٢- الصبر على القضاء ، وعدم الجزع منه والتسخط عليه .

م (٤) : دليل الصبر:

قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ الأنفال: ٤٦.

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ التغابن: ١١ .

م (٥) : يكون الصبر لغير الله فيقع فيه الشرك:

قال تعالى عن الكفار: ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ﴾ ص: ٦.

﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ الفرقان: ٤٢.

م (٦) : آلات الصبر وضده الجزع: يكون بالقلب واللسان والأفعال .

م (٧) : مراتب الصبر على الأقدار :

الإيمان بها ، الصبر عليها ، الرضا بها ، الشكر عليها .

م (٨) : درجات التعامل مع القدر إذا كانت مصيبة :

الإيمان بأنها من عند الله وهذا ركن واجب.

ثم الصبر وعدم الجزع وهذا واجب .

ثم يأتي الرضا، واختلف العلماء فيه والصحيح أنه مستحب .

ثم الشكر وهذا مستحب وهو الكمال .

م (٩) : الفرح والحزن لا علاقة لهما بالتعامل مع القدر :

فالحزن على المصيبة يجوز إذا لم يقارنه سخط كحزن النبي ﷺ لفراق إبراهيم.

م (١٠) : علاقة المسألة بالصبر والرضا على الشر :

وهل في قدر الله شر، والتفريق بين القدر الذي هو فعل الله والمقدور المفعول المخلوق كالمعاصي .

م (١١) : مسوغات الاحتجاج بالقدر:

١- عند المصائب التي تحل بالإنسان، مثل الأمراض والفقر وغيرها .

٢- الذنب إذا تاب منه الإنسان، فيحتج بالقدر ولا يجوز أن يلام التائب.

والاحتجاج بالقدر ينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته.

ويضر الاحتجاج بالقدر فيه إذا كان على الذنب حال فعله كما فعل المشركون.

٨- عبادة الرضا:

م (١) : الرضا أكمل من الصبر ، إلا أنه يدخل في الصبر .

م (٢) : دليل عبادة الرضا: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ البينة: ٨.

م (٣) : الرضا يكون بالله وبقدره وبرسوله ودينه.

و الرضا بالقدر يشمل الرضا بالقدر والمقدَّر والمقدور .

والرضا بالقدر ومحبته : متعلق بأفعال الله أما المفعولات ففيه تفصيل .

قال ابن القيم:(فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط المقضي حين يكون بالعصيان).

فهذه المسألة تتعلق بفعل العبد من ناحية وبفعل الرب من ناحية أخرى.

٩- عبادة اليقين : ﴿ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ٢٤.

١٠- عبادة التصديق: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ القيامة: ٣١.

١١- عبادة الصدق: ﴿ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡ ﴾ الأحزاب: ٨.

١٢- عبادة المراقبة والإحسان والحفظ والإخلاص.

(أن تعبد الله كأنك تراه) رواه مسلم (احفظ الله يحفظك) رواه مسلم .

ومن الشرك فيه ما يقع فيه البعض : ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ ﴾ النساء: ١٠٨.

١٣- عبادة الحلم .

١٤- الحياء .

المسألة الحادية عشر : صور الشرك في هذا الصنف :

١- سجود المشركين للأوثان ومن ذلك سجود الرافضة والصوفية للقبور .

٢- ركوع الكفار وانحناء بعضهم لبعض عند التحية والمقابلة .

٣- قيام الناس على رؤوس الجبابرة وهم جلوس تعظيماً لهم وتقديساً .

٤- الوقوف للبرلمان والمحاكم الوضعية في حالة كون الواقف منحنيا أو مطأطأ الرأس تعظيماً وتبجيلا.

٥- الوقوف للموتى .

٦- الوقوف للأعلام والشعارات الوثنية ومن ذلك تحية العلم والسلام الوطني والذي يطلب له الوقوف له من دون حركة وإرسال اليدان ، والنظر للعلم كل ذلك من التعظيم لغير الله والتقديس الشركي المحرم.

٧- الذبح للأوثان والقبور والأولياء .

٨- الذبح للجن خوفاً منهم أو رجاءهم أو ليقضوا المطالب والحوائج .

٩- الذبح عند عتبة البيت قبل نزوله والسكن فيه لاكتفاء شرور الجن .

١٠- ذبح السحرة ومن يذهب إليهم للشياطين .

١١- الذبح عند قدوم المعظم .

١٢- حلق الرأس وكشف الرأس عند القبور تنسكاً وقصداً لغير الله كما تفعله الصوفية والمشركون، فيحلقون رؤوسهم عند زيارة القبر .

كما في منسك عبد القادر الجيلاني . وفيه: (إذا زرت قبره وأنهيت الطواف به ودعاءه وقلت ما قلت من دعاء فاحلق رأسك) .

يشبهونه بالكعبة المشرفة عظمها الله وشرفها والحج إليها، قاتل الله أصحاب هذه البدع والشرك.

١٣- كذا ما يفعله العسكر من حلق الرأس وكشف الرأس داخل في العبادة الشركية .

١٤- زيارة القبر والطواف به وقصده والحج إليه . وقد سموا القبر حجا وجعلوه منسكا وصرحوا بذلك، كما في منسك عبدالقادر الجيلاني .

١٥- ما يفعله من يخرج للقاء الجمهور في المسارح والتماثيل فينحني لهم، وكذا الركوع في بعض الألعاب القتالية، وكذا عند التقابل، أو السلام على المعظمين.

تنبيه : لو سجد المسلم للمخلوق كقبر وشيخ تعظيما لـه أعتبر بمجرد ذلك السجود كافرا مشركا ولا يعذر بجهله وتأويله ، ومثله لو دعا الأموات وشرع القوانين.

ولو ادعى أن فعله السجود والدعاء ليس بسجود وليس بعبادة .

قال ابن القيم :(ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ، فإنه شرك من الساجد والمسجود له، والعجب أنهم يقولون ليس هذا سجود، وإنما وضع الرأس قدام الشيخ احتراما وتواضعا، فيقال لهؤلاء : ولو سميتموه ما سميتموه فحقيقة السجود وضع الرأس لمن يسجد له، وكذلك السجود للصنم وللشمس وللنجم وللحجر كله وضع الرأس قدامه .ومن أنواعه ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة وهذا سجود) المدارج ١/ ٣٤٤ .

عن قيس بن سعد قال : أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فقلت رسول الله أحق أن يسجد له ، قال : فأتيت النبي ﷺ ، فقلت : إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم ، فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك، قال: أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له ؟ قلت: لا ، قال: فلا تفعلوا . رواه أبو داود

مسألة : عدم ثبوت سجود معاذ للنبي ﷺ :

عن معاذ ﷺ أنه لما قدم من الشام سجد للنبي ﷺ قال : ما هذا يا معاذ قال أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك ، فقال رسول الله ﷺ فلا تفعلوا ، فإني لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) رواه ابن ماجة وغيره .

وحديث سجود معاذ لا يثبت لا سندا ولا متنا ، لأن مداره على القاسم بن عوف الشيباني وهو ضعيف ، ثم إن معاذاً لم يذهب للشام في حياة النبي ﷺ.

كيف ومعاذ ﷺ الذي قال النبي ﷺ عنه أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام ، يجهل الشرك الذي هو أعظم المحرمات ، وأن سجود التحية منسوخ في شريعة محمد ﷺ .

وعلى ذلك فمن سجد لمخلوق فهو كافر مشرك بمجرد السجود ولا يعذر بجهله وتأوله أن السجود بقصد التحية .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأصل في السجود أنه من الشرك ومثله الوقوف والانحناء إذا كان لتعظيم المخلوق والذل له فهذا يعتبر من الشرك في العبادة ، أما إن كان للتحية أو من باب التشبه دون قصد العبادة والتعظيم فلا يعتبر

شركا كما يفعله بعض المسلمين في الملاعب والمسرحيات من الممثلين والرياضيين عند مقابلة الجمهور وفي الألعاب القتالية ونحو ذلك ، فيرون عذر فاعل ذلك لجهله وتأويله على ظنهم صحة حديث معاذ، وقال هؤلاء هذا الحديث إن صح فالسجود ليس من باب العبادة وإنما التحية ، كيف ومعاذ ﷺ أعلم الأمة بالحلال والحرام ، ولما كان سجوده خارجا عن الشرك في العبادة ، لم يعتبر فعله شركا كما أن تأويله هذا يعتبر عذرا ومنع من تكفيره ، وبيّن النبي ﷺ أن السجود لا يكون إلا لله.

قلت وعندي أن هذا التوجيه مردود وغير مقبول ولا يلتفت إليه لما تقدم تقريره ، فالسجود لغير الله كفر مطلقا بمجرد فعله وحديث معاذ لا يصح، أما الوقوف والانحناء فقد يقال فيه بالتفريق.

مع أن قولهم هنا في هذه المسألة بهذا الحكم ليس من باب العذر بالجهل في الشرك، وإنما هذا من باب المسائل الخفية التي تحتمل الشرك وغيره ، ويمثلون لهذا الأصل بأمثلة كثيرة. وهي في العمل الواحد الذي قد يكون عبادة أو غيرها فلا بد فيه من الاستفصال عن قصد فاعله قبل الحكم عليه . مثالها :

القيام والانحناء يقصد به التعظيم والذل التي من العبادة ، ويقصد به التحية ومشابهة الكفار دون قصد العبادة.

الدعاء يكون للطلب والقصد وهذا عبادة شركية، ويقصد به الندبة والتوجع.

لبس الصليب بقصد الرضا به ولبسه وفاقا دون قصد لبسه كمن اشترى لباسا فوجد فيه علم الصليب وبقي على لبسه لها.

الطواف يقصد به التقرب للقبر ويقصد به التقرب لله بهذا العمل البدعي .

ومثله الصلاة في المقبرة يقصد به الصلاة للميت أو الصلاة لله لا للقبر مع الظن أن الصلاة فيها فيه مضاعفة للأجر وطلباً للبركة .

ومثله الذبح للمقبور والذبح لله عند القبور .

فالأول في هذه الأعمال يعد شركا أكبر .

وأما الثاني فبدعة وليست بشرك وكفر ، فلا بد من الاستفصال.

ومثل ذلك عندهم التحاكم للقوانين الوضعية والحكم بها كفر مطلقا لا يعذر الجاهل فيها والتصويت والانتخابات في الدستور بقصد إقرار الشريعة بالطريقة الشركية الانتخابية فالعمل شرك وكفر لكن تأوله وظهور الشبهة وخفاء المسألة منع كثير من أهل العلم من تكفير فاعله .

القسم الثالث : شرك الأقوال :

وهو نوعان :

الصنف الأول : الدعاء :

دعاء غير الله بطلب المخلوق أمراً لا يقدر عليه، وسؤاله والاستغاثة به والاستعاذة به وطلب الشفاعة منه والتوسل إليه.

قال النبي ﷺ : (الدعاء هو العبادة) أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد .

وهذا لأهميته سنفرد له باباً مستقلاً ، وهو الناقض الثاني من نواقض الإسلام .

الصنف الثاني :شرك المدح والشكر والثناء والحمد :

المسألة الأولى : حقيقة هذا النوع من الشرك : يقوم على أصلين :

الأول : عدم شكر الله وإنكار نعمه وفضله ويدخل هذا في الكفر .

الثاني : شكر المخلوق ومدحه والثناء عليه ونسبة الإنعام والفضل إليه ويدخل هذا في الشرك .

الثانية: الألفاظ المرادفة في الباب : الثناء والشكر والمدح والحمد والذكر والتسبيح والتقديس والتنزيه والتحية والاستغفار والحلف .

الثالثة : خطورة هذا الشرك وغفلة البعض عنه وإعراضهم عن تبيينه :

هذا الشرك يعرض الكثير عن ذكره ولم أر من أفرده ببيان مع انتشاره وخفائه وتنوعه وكثرته وكون كثير من الناس يقع فيه من غير أن يشعروا.

الرابعة : أدلة هذه العبادة ودخول الشرك فيها:

الأدلة التي أوجبت هذه العبادة كثيرة منها: قال تعالى :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ البقرة: ١٥٢

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ طه: ١٣٠

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ نوح: ١٠.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الفاتحة: ٢

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الصافات: ١٨٠

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ النور: ٣٦

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ آل عمران: ١٩١

أدلة دخول الشرك في الثناء:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ البقرة: ١١٤

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ الزمر: ٤٥

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ الصافات: ٣٥

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ النحل: ٨٣

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ الواقعة: ٨٢

﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٢

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦

﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ البقرة: ٢٠٠

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ النجم: ٣٢ .

قال النبي ﷺ : (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم) متفق عليه.

وفي الحديث قوله ﷺ : (قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب) متفق عليه .

وعن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ : (إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره) أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان.

الخامسة : حكم الشكر والحمد والثناء ودرجاته:

يجب أن نعبد الله بهذا الجنس من العبادة التي هي الحمد والشكر والثناء والمدح والتحية وبقية العبادات التي تعتبر من هذا الباب .

كما يجب الإخلاص فيها بأن يوحد الرب سبحانه بها ويفرد باستحقاقها .

وهذه العبادات كغيرها تقوم على درجتين :

الأولى: مطلق الحمد والشكر وجنسه وهذا ركن وهو من الأصل الذي لا يعتبر العبد مسلما ما لم يأت به ويكفر تاركه.

الثانية : الحمد المطلق وهو من الكمال المستحب الذي يتفاوت الناس فيه .

السادسة : علاقة الشكر ببقية العبادات :

هناك علاقة تربط الشكر والذكر مع كل العبادات وكل منها يدخل في الآخر، فالشكر والذكر والحمد تكون بالقلب والقول والعمل فهي ترادف العبادة فمن عمل طاعة فقد ذكر وشكر بالفعل فتكون هذه أعم من الثناء والحمد باللسان فقط.

كما أن الشكر يقوم غالبا على الخضوع والتعظيم والحب والرجاء والتوكل.

السابعة : حقيقة عبادة الشكر وكيفية تحقيقه :

الشكر مبني على خمس قواعد لا يتحقق إلا بها كما قال ابن القيم :

١- خضوع الشاكر للمشكور .

٢- حبه له .

٣- اعترافه بنعمته .

٤- ثناؤه عليه بها .

٥- ألا يستعملها فيما يكره .

وقال: أصل الشكر الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع والذل والمحبة .

تنبيه : الشكر والتوحيد متلازمان وقد قرن الله تعالى بينهما في مواضع ، وضد ذلك كفران النعم يلازم الشرك ، ولابن تيمية كلام جميل في هذه العلاقة .

راجعها في الفتاوى ٨/ ٣٣ .

الثامنة : لماذا يحمد ربنا تبارك وتعالى ويستحق الشكر وحده ؟

لكماله ولإنعامه وفضله وجماله سبحانه ولربوبيته وألوهيته . ولكونه المنعم ابتداء من غير استحقاق ومن غير أن يكون للعبد في الإنعام حول أو قوة .

التاسعة : شرك المدح والثناء والشكر والإنعام يدخل في جميع أنواع الشرك :

أولاً : يكون شركا في الربوبية ويكون شركا في الألوهية :

يتعلق بالربوبية ، وذلك إذا نسب الإنعام إلى المخلوق .

ويتعلق بالألوهية إذا شكر الناس وتعلق بهم وذل لهم وعظمهم ورجاهم وتوكل عليهم في حصول النعم .

ثانياً : يكون من الشرك الأصغر ويكون من الشرك الأكبر :

إذا اعتقد أن إيجاد النعم يكون من الخلق استقلالاً ، فهذا من الشرك الأكبر.

إذا نسب النعم إلى الخلق من باب الأسباب ، فهذا من الشرك الأصغر.

ثالثاً : يكون المدح شركا في التعطيل وشركا في التمثيل :
فيدخل في شرك التعطيل، إذا عطل الله من فعل الإنعام وعطله من أن يشكره.
ويدخل في شرك التمثيل، عندما ينسب الإنعام للمخلوق ويشكره عليها.
رابعاً : يكون شركا اعتقاديا وقوليا وعمليا.
فشرك المدح والثناء والإنعام والإنكار يحصل بالقلب واللسان والجوارح .
خامساً : ويكون كفرا وشركا :
يكون كفرا إذا لم يشكر الله وأنكر نعمته وفضله .
ويكون شركا إذا شكر المخلوق ومدحه ونسب الإنعام والفضل إليه .
تنبيه : لا يدخل في هذا الباب قول الرسول ﷺ:(هل تنصرون إلا بضعفائكم).
تنبيه: نسبة النعم للآلهة والأموات والأولياء وزعم أن ذلك من باب الكرامات فإن هذا لا يكون إلا من الشرك الأكبر ويتعلق بالربوبية والألوهية معاً.
تنبيه : قول: لولا فلان لما حصل لنا هذا الخير والفضل، شرك من جهتين :
فيه نسبة الإنعام والخير للخلق ويختلف الحكم بين اعتقاد السببية فيه والتأثير.
كما أن فيه أيضاً الاعتماد والتوكل على غير الله وشكره والثناء عليه.
فائدة جميلة : يحسن أن تنسب النعم والخير إلى الله والشرور إلى أسبابها من باب التأدب مع الله مع اعتقاد أن الله خلقها وقدرها .
وقد أشار الله لهذا الأدب في مثل قوله تعالى:﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .
فائدة : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.
المعرفة ضد الجهل وضد الإنكار ، والإنكار يطلق على : إنكار القلب وهو الجهل وعلى إنكار اللسان مع اعتراف القلب وهو الجحود .
وفي قوله : (وأكثرهم الكافرون) يدخل في جميع أنواع الكفر .
قيل في تفسيرها: قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي ، أو لولا فلان لم يكن كذا، أو هذا بشفاعة آلهتنا.
قال ابن القيم عن الأقوال الثلاثة السابقة في شفاء العليل : (لما أضافوا النعمة إلى غير الله ، فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها لغيره ، فالذي قال:إنما كان هذا لآبائنا ورثناه، جاحدا لنعمة الله عليه غير معترف بها مع أن الإنعام بالإرث أبلغ ، وأما قول : لولا فلان فيتضمن قطع النعمة إلى من لولاه لم تكن وإضافتها إلى من لا يملك

لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، وغايتها أن تكون سببا لا يستقل بالإيجاد ومع ذلك جعله سببا من نعم الله . وأما قول بشفاعة الآلهة فيتضمن الشرك مع إضافة النعم ، والشفاعة بإذنه من نعمه فهو المنعم بها وبقبولها . فمن المنعم في الحقيقة سواه وما بكم من نعمة فمن الله) بتصرف.

قال ابن تيمية في الأدلة على شرك من يضيف إنعامه إلى غيره : وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به ، مستدلا بحديث الاستسقاء بالأنواء ونسبة المطر لها في الصحيحين.

العاشرة : أقسام شرك الثناء والمدح:

الشرك الأكبر : ومن ذلك ذكر المشركين لآلهتهم المعبودة والمطاعة والمتبعة، وتعظيمها وتسبيحها وتنزيهها ونسبة الخير إليها والفضل منها وحمدها ومدحها وطلب استغفارها والغضب على من يتنقصها والغيرة عليها .

الشرك الأصغر : كالمبالغة والتفاني في الثناء على المخلوق وإطرائه ، وحمد الناس على رزق الله .

قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ النجم: ٣٢ .

قال ﷺ : (إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب) رواه مسلم .

وقوله ﷺ لمادح بين يديه : (قطعت عنق صاحبك) رواه أبو داود.

وقوله ﷺ : (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم) متفق عليه.

الحادية عشرة : حالات وأقسام مدح المخلوق والثناء عليه :

أولا : المدح الشركي : وضابطه: أن يمدح المخلوق على أفعال الله ونعمه أو إذا قارن المدح التعظيم والخضوع والتذلل المطلق .

ثانيا : المدح والشكر الجائز :

وهو ما كان من قبيل العادة والعرف من دون إطراء أو غلو، وستأتي أدلته .

ثالثا : المدح المحرم :

وهو مدح من لا يستحق المدح ، ومدح الانسان نفسه وبما ليس فيه .

﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ آل عمران: ١٨٨ .

وقال النبي ﷺ : (لا تقولوا للمنافق سيد فإنكم إن قلتم ذلك أغضبتم ربكم) رواه الحاكم.

أو نسبة النعمة إليه والالتفات له والمبالغة، وتقدمت أدلته.

م (١٢) : يجوز نسبة النعمة للخلق من باب الإخبار، وباب كونه سببا للفعل، ومن باب الاعتراف بالفضل لأهله ومدحه من دون مبالغة فيه ونسيان المنعم حقا.
يدل لذلك قوله ﷺ : (من لم يشكر الناس لا يشكر الله) رواه الترمذي.
وقوله ﷺ : (من صنع لكم معروفا فكافئوه) رواه أبو داود.
وقوله ﷺ في أبي طالب:(لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار) متفق عليه.
وثناء الله على عباده كما في قوله:﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ص: ٤٤ .
وقوله ﷺ : (نعم الرجل عبدالله) رواه البخاري.
م (١٣) : أوجه إنكار النعمة وصور كفرانها :الواردة في سورة النعم (النحل):
قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾.
١- نسبة الإنعام والفضل لغير الله تعالى.تكذيبا بقوله تعالى :
﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ النحل: ٥٣ ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ النحل: ١٨.
٢- شكر الخلق على نعم الله .
مصداقا لحديث: إن من ضعف اليقين أن تحمد الناس على ما رزقك الله .
٣- أن يعتقد العبد أنه مستحق للنعمة وأن له حق فيها . كما أخبر تعالى:
﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ فصلت: ٥٠
٤- عدم القيام بشكر الله باللسان والقلب والجوارح ، أو قلة الشكر.
كما أخبر تعالى:﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ سبأ: ١٣.
٥- استخدام نعم الله تعالى في معاصي الله . كما أخبر تعالى :
﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ الواقعة: ٨٢.
٦- احتقار النعم وازدراؤها وإهانتها، ومن ذلك: رمي النعم والطعام في الزبل، والصيد بغير قصد الأكل، وهذه انتشرت في زماننا ولا حول ولا قوة إلا بالله.
قال النبي ﷺ : (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) رواه مسلم .
تنبيه : أكثر الناس في نعم الله في طرفي نقيض :
منهم من أنكر نعم الله وجحدها وأظهر الفقر وبخل بالمال فتراه دائم الشكاية عديم الشكر والاعتراف لله بالجميل بحجة التواضع أو خوف العين والحسد أو خوف أن يطلبه الناس العون ، ومنهم من يبذخ ويبطر ويسرف ويدعي أن هذا من الاعتراف بالنعمة والتحدث بها .

وقد ذم الله الحالين في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ .

الرابعة عشرة : آلات الشكر والمدح والثناء وضد ذلك من الكفران :

١- يكون بالقلب : وذلك باعتقاد أن الله هو الموجد للنعم والخالق والمتفضل والاعتراف له بالفضل ، وعدم اعتقاد استحقاق النعم أو أن المنعم أحد من الخلق.

٢- يكون بالقول : بالثناء على الله وشكره باللسان وعدم نسبتها لغيره.

٣- يكون بالعمل: وذلك باستخدامها فيما يرضيه وعدم الاستعانة بها على المعاصي، واستعمال الجوارح في طاعة الله فالعبادات البدنية كلها داخلة في الثناء.

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ الضحى: ١١ ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ سبأ: ١٣.

الخامسة عشرة : الفرق بين الحمد والشكر والمدح والثناء :

١- الحمد يكون باللسان فقط ويكون مقابل نعمة كالإنعام ويكون في غير مقابلة نعمة كالحمد على الشجاعة وكحمد الرب تعالى على عدم اتخاذ الولد.

الحمد يتضمن الثناء مع العلم بما يثنى به وإن انعدم العلم كان مدحا لا حمدا.

كما أن المدح يكون في الأعمال الظاهرة .

وإن كان الإخبار عن المحاسن مصحوبا بالحب والإجلال والرضا والإرادة فحمد وإن تجرد عن المحبة ولم تقارنه هذه الحالة فمدح.

كما أن الحمد إذا عرف بأل كان خاصا بالله لا يطلق على غيره تعالى إما ملكا أو استحقاقا والرب تعالى يمدح عباده الصالحين ويثني عليهم ولا يحمدهم لأن الحمد ليس إلا لمن علم بمحاسنه وكماله وهذا معدوم في غيره تعالى.

٢- الشكر يكون باللسان والعمل ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ سبأ: ١٣.

ولا يكون إلا في مقابل نعمة ، وأيضاً ما للعبد فيه اختيار كالكرم .

٣- المدح يكون فيما يقابل نعمة وفيما ليس كذلك ، وفيما للعبد فيه اختيار وما ليس كذلك كالجمال ، ويكون باللسان فقط .

٤- الثناء أعم من ذلك كله فيشمل كل ما سبق إضافة على أنه يكون الثناء بالشر كما يكون الثناء بالخير ومنه حديث : (فمرت جنازة فأثنوا عليها شرا) رواه البخاري ، والثناء أخص من حيث يطلق على تكرار المحامد .

وإذا كان الإخبار عن المحاسن المتعلقة بأوصاف العظمة والجلال فالمجد وإن كانت أوصاف جمال وإحسان فحمد .

وهذا بين من حديث الفاتحة وقول ربنا تقدس وتعالى حمدني عبدي ومجدني وأثنى علي .

مستقى الفروق من كلام الإمام ابن القيم في البدائع ٢/ ٩٥ وغيره.

فائدة : التحيات لله ﷻ :

وهذه خاصة به فلا تصرف لغير الله يدل لذلك حديث التشهد:(التحيات لله) ، وأما ما يقال ويجري على بعض الألسنة وهو لا يجوز كقولهم لبعضهم: لك خالص شكري أو لكم خالص تحياتي، ونحو ذلك مما يسمع كثيراً.

فائدة : الحلف له تعلق بالحمد والثناء .

السادسة عشرة : السب والذم ضد المدح يكون عبادة :

سب الكفار والمشركين وذمهم وإهانتهم وعيب آلهتهم، من أعظم العبادات ، كما أمر الله تعالى في قوله : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ التوبة: ٢٩

﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ النمل: ٣٧

﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ التوبة: ١٢٠

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح: ٢٩ .

وكل هذا يدخل ضمن البراءة من الكفار ومعاداتهم والكفر بالطاغوت، وهذه هي ملة إبراهيم .

وأما النهي عن سب آلهة المشركين فهذه حالة مخصوصة وليست عامة، والكلام عن ذلك مبين في شرح الناقض الثالث من شرح النواقض.

السابعة عشرة : صور الشرك في ذلك وأمثلة :

- يكثر ذلك في المشركين من الصوفية والرافضة في تقديس أوليائهم وتنزيههم ورفعهم عن مرتبة المخلوق إلى درجة الخالق .
- نسبة الإنعام للخلق وشكرهم على رزق الله.
- مدح الله تعالى بالطرق الصوفية والأذكار البدعية كقولهم (هو هو) .
- مدح العظماء والرؤساء وإطرائهم والإكثار من ذكرهم وافتتاح المحافل بذكرهم وحمدهم والثناء عليهم والمبالغة في مدحهم .

بل إن مما ابتدع في زماننا هذا ما يسمى بافتتاح المساجد إذا انتهوا من تشييدها، ثم الأدهى من ذلك مرارة وأعجب نكارة ترك ما بنيت لأجله من إقامة ذكر الله

وتمجيده فيها، إلى إحلال الشرك بتمجيد غير الله فيها ، فالمساجد التي قال ربنا ﷻ عنها ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ النور: ٣٦ - ٣٧ ، إذ بنا نراها اليوم يذكر فيها غير اسمه تعالى، وذلك بالثناء المزري والمفرط من أشباه الرجال في مدح بانيها أو مدح أسيادهم وأربابهم، وكأن هؤلاء يريدون أن يعبدوا من دون الله ويكونوا آلهة معه حين طلبوا المدح والتعظيم والرياء، وكم نسمع من هؤلاء الذين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وألسنتهم تلهج بالثناء الكاذب لفلان بن فلان وآل فلان، ومن التسبيح بحمد المخلوقين وإرجاع الفضل لهم .

والأخبث من ذلك أن تتخذ المساجد منارا لحرب دين الله والسعي في تبديله والصد عن سبيله والكذب عليه وإطفاء نوره وحرب الجهاد وأهله ، وليعلم هؤلاء أنهم متوعدون بأشد العقوبة كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾ البقرة: ١١٤ .

ألا فليتأمل هؤلاء وأتباعهم من الجهال هذه الآية: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ التوبة: ١٩ وليعلم هؤلاء أنها نزلت في أمثالهم .

فهل يظن هؤلاء أن المقصود بالآية أن يمنع من ذكر الله أن لا يقال فيها المحاضرات والندوات إنما المقصود أنه لا يقال فيها الكفر بالطاغوت ومعاداة الكفار ونصرة الجهاد .

أو ليس كفار العرب كانوا يقولون بتوحيد الربوبية إذا سألوا عمن خلقهم ويصلون لله في المسجد الحرام .

نعوذ بالله من الضلال ونسأله الهداية وتحقيق التوحيد ، والحمد لله على ما أخذ والحمد لله على ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى.

انتهى الكلام عن أنواع الشرك .

وهنالك أيضاً أعمال وعبادات شركية تتعلق بالأعمال من قبيل الأسباب:
كالتشاؤم، الرقى، التبرك، تعليق التمائم ، التوسل، التنجيم والاستسقاء بالأنواء.
وقد تقدم الكلام عنها في باب الوسائل .

الصور المعاصرة في الشرك:

يظن كثير من أبناء عصرنا في هذا الزمان أن الشرك طويت صفحاته وانتهى وجوده وخفي ذكره، وهذا القول ليس سببه إلا الشرك نفسه والجهل بحقيقته، حيث أصبح كثير من الدعاة للإسلام لا يعرفون ما هو الإسلام وما الذي ينقضه وما هو الشرك، وما ذكرناه في هذا الباب من ألوان الشرك عند المسلمين ليدلل على أن الشرك ضرب بأطنابه بلاد المسلمين وحل في ساحات قلوبهم وقر في قرارهم، بل وابتدعوا أصنافا وأنواعا من الشرك الذي لم تعهده الأمم المشركة التي بعثت فيها رسل الله ، وإليك بعض هذه الصورة الحديثة والشركيات المعاصرة :

١- شرك غلاة الصوفية الذين يزعمون أن الأولياء يقدرون على كل شيء ويعلمون كل شيء فيتصرفون في الكون ويدبرون الخلق ويعلمون الغيب وقدمنا كلامهم وشركهم الأعظم في الربوبية ،حتى ابتدعوا الأوتاد والأقطاب والغوث وهم رجال صالحون وكّلهم الله بالتصرف في خلقه وخزائنه .

٢- شرك القبورية بدعاء الأموات والاستغاثة بهم وطلب الشفاعة من الرسول ﷺ ، ويكفيك ان تعلم أن قبر البدوي في مصر يطوف به سنويا أكثر من أربعة ملايين. كما يقوم هؤلاء بالذبح للقبور وسؤالها والنذر لها والطواف بها.

٣- شرك الحاكمية وتشريع القوانين القائمة على تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل وجحد ما أوجب الله وفرض، وإنشاء المحاكم الوضعية لها والكليات لدراستها والوقوع في التحاكم لها وطاعة أربابها فحصل فيها شرك الحكم وشرك التشريع والدين والتحليل والتحريم وشرك التحاكم وشرك الطاعة .

٤- التحاكم إلى قوانين المحكمة الدولية وإقرارها واستباحة الشريعة الدولية .

٥- التحاكم إلى العادات القبلية والسلوم والأعراف .

٦- شرك الشيوعية وإنكار الرب ﷻ .

٧- شرك الفلاسفة والطبيعة القائلون بقدم العالم وأن الدنيا ليس لها بداية، ويوجد هذا الشرك عند كثير من الجيولوجيين الذين يقولون إن الأرض حصل فيها كذا قبل ملايين السنين، وعند الفيزيائيين أصحاب قانون المادة: (أن المادة لا تفنى ولا تبيد ولا تستحدث من العدم) مع العلم أن هذا القانون الإلحادي الكفري يدرس ولا يزال في مدارسنا وجامعاتنا . وكذا شرك التطور والنشوء وأن العالم يرتقي ومن ذلك نظرية دارون القائل أن الإنسان كان أصله قردا .

٨- الشرك العلماني والليبرالي الذي ينكر شريعة الله ويحارب الانقياد للدين ويدعوا للحرية وعدم الانقياد لله وإبعاد الدين عن حياة الناس وشؤونهم السياسية والاقتصادية والدبلوماسية والعالمية .

٩- شرك القومية والوطنية .

١٠- شرك الطوائف المدّعية للنبوة أو المكذبة بها .

١١- شرك الروحية الحديثة وتناسخ الأرواح، وأن الأرواح لها قدرة خارقة وتصرف في المستقبل .

١٢- شرك التعطيل الجهمي وإنكار صفات الله تعالى ، كما هو عند الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة الزيدية .

١٣- الخوف من الجن ودعاءها بالمناذير، واعتقاد أن عندها القدرة المطلقة.

١٤- خوف السر ، بخوف الناس من دون الله في إيقاع أمر لا يقدر عليه إلا الله. وكذا التوكل عليهم في الرزق والشفاء والمستقبل .

١٥- شرك السحرة والكهنة والمنجمين، ومن ذلك شرك الأبراج واعرف حظك الموجود في مجلاتنا وصحفنا .

١٦- علم الأسرار والحروف والاعتقاد فيها وهي شرك وخرافة لا حقيقة له.

١٧- نسبة المطر للكواكب والشتاء، ونسبة الأحوال والحوادث للكواكب ومحاولة إيجاد مناسبة وعلاقة سببية، وربما قارنه دعوى التأثير أو معرفة الغيب كان أشنع شركا.

١٨ – الإنكار العالمي على هدم أصنام بوذا بل وإرسال بعثة إسلامية بطلب اليونسكو لمنع إزالة الشرك وتحريم هدم هذه الأصنام لأنها تراث وآثار يجب رعايتها وحمايتها.

١٩- سجود الرافضة والصوفية للقبور .

٢٠- ركوع الكفار وانحناء بعضهم لبعض عند التحية والمقابلة .

٢١- قيام الناس على رؤوس الجبابرة وهم جلوس تعظيماً لهم وتقديساً .

٢٢- الوقوف للبرلمان والمحاكم الوضعية في حالة كون الواقف منحنيا .

٢٣- الوقوف للأعلام والشعارات الوثنية ومن ذلك تحية العلم والسلام الوطني والذي يطلب له الوقوف له من دون حركة وإرسال اليدين ، والنظر للعلم كل ذلك من التعظيم لغير الله والتقديس الشركي المحرم.

٢٤- ما يفعله من يخرج للقاء الجمهور في المسارح والتماثيل فينحني لهم، وكذا الركوع في بعض الألعاب القتالية، وكذا عند التقابل، أو السلام على المعظمين.

٢٥- الذبح لغير الله كالذبح للأوثان والقبور والأولياء ، والذبح للجن خوفاً منهم أو رجاؤهم أو ليقضوا المطالب والحوائج ، والذبح عند عتبة البيت قبل نزوله والسكن فيه لاكتفاء شرور الجن ، وذبح السحرة ومن يذهب إليهم للشياطين.

٢٦- الطواف بالقبور.

٢٧- مدح بناة المساجد والمسئولين وإطراؤهم وتعظيمهم وترك حمد الله والثناء عليه.

٢٨- التشاؤم والاعتقاد في الطيور والحيوانات .

٢٩- التشاؤم بأهل الدين والموحدين والمجاهدين .

٣٠- تعليق التمائم .

٣١- التبرك بالأحجار والتراب والآثار والصالحين وتعليق التمائم لرد العين .

٣٢- التبرك بآثار الصالحين وبجدران الكعبة والمسجد النبوي .

وغير ذلك مما لا يمكن حصره من الصور المعاصرة في الشرك نعوذ بالله منه.

الناقض الثاني

شرك الدعاء والوسائط والشفعاء

قال المصنف رحمه الله :

(الناقض الثاني : من جعل بينه وبين الله وسائط، يدعوهم، ويتوكل عليهم ، ويسألهم الشفاعة ، كفر إجماعاً) .

المسألة الأولى : تعريف الدعاء :

هو النداء والطلب والسؤال.

ويكون الطلب بياء النداء غالباً أو بما يقوم مقامها .

ومصادر الدعاء : دعا / دَعْو / دعوة / دعوى / دِعَاوة / دِعَاية / داعية .

والدعاء في المصطلح الشرعي: هو التضرع إلى الله والافتقار إليه بطلب تحقيق المطلوب أو دفع المكروه ، بصيغة السؤال أو الخبر .

والمراد بدعاء الله أن يقول الداعي مثلاً : يا الله اغفر لي وعافني ويا رحمن أرحمني ويا رزاق أرزقني فيطلب الله ويسأله حاجته ومراده من أمور الدنيا والآخرة.

والمراد بدعاء غير الله: أن يدعو الداعي المخلوق الميت الغير قادر، كأن يقول : يا محمد اشفع لي ويا عيسى استغفر لنا ويا اللات استنصري لنا واطلبي الله لنا النصر والغفران ويا سيدي الحسين أو البدوي أفعل كذا وكذا .

وبهذا الفعل يكون الداعي مشركاً بالله في الدعاء والعبادة كافرا بالله غير مسلم.

المسألة الثانية: صيغ الدعاء :

الأصل أن الدعاء أسلوب إنشائي من أساليب الطلب، وقد يأتي بأسلوب خبري .

ويأتي الدعاء على عدة صيغ وهي :

١- صيغة فعل الأمر (إفعل) : وهي عمدة صيغ الدعاء، وقد وردت في نحو مائة وأربعين موضعا في القرآن، ومن أمثلتها: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا ﴾ ص: ٣٥.

٢- صيغة النهي (لا تفعل) : ومن أمثلتها: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ الأنبياء: ٨٩.

٣- لام الأمر والفعل المضارع (ليفعل): مثاله: ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ الزخرف: ٧٧.

٤- المصدر النائب عن الفعل ، منها: غفرانك، سلاما، بعدا، ويل، سحقا، تعسا، وجع . ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المؤمنون: ٤١ ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ البقرة: ٢٨٥ ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ محمد: ٨ . ومثل ذلك اسم فعل الأمر

٥- صيغة الخبر : ومن أمثلته: ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ يوسف: ٩٢ ﴿ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ ﴾ النور: ٩، غفر الله له، لعنة الله عليه، لا مرحبا بكم، أعوذ بالله .

ومنه :دعاء أيوب ، وذلك بالإخبار عن حاله وضعفه.

تعلقات الدعاء :

دعاء الله بالله لله في الله إلى الله ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ الأنعام: ٤١

المسألة الثالثة : إطلاقات الدعاء :

تطلق لفظة الدعاء في اللغة وترد على معاني :

١- الطلب والسؤال والنداء ،وهو الأصل ويدخل فيه: التقريب والشفاعة.

٢- العبادة والتوحيد الإيمان : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ الفرقان: ٧٧.

٣- النسب والجعل: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ الأحزاب: ٥ ﴿ دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ مريم: ٩١.

٤- الحث والحض : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ يونس: ٢٥.

٥- الرفعة والمكانة ومن ذلك النفع والاستجابة ﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ ﴾ غافر: ٤٣ .

٦- التداعي والتساقط والدفع : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ الطور: ١٣ ﴿ يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ الماعون: ٢ وحديث (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم).

ومن معانيه أيضاً وإطلاقاته الثناء والتمني والزعم والادعاء الندبة والتوجع.

وكل هذه المعاني فيها المعنى الأساس الذي هو الطلب .

المسألة الرابعة : أسماؤه ومرادفاته :

للدعاء ألفاظ مقاربة لمعناه وصفات ومسميات في اللغة وفي الشرع دالة عليه وداخلة في عموم الدعاء وهي:

اللفظ الأول : العبادة :

العبادة تفسر بالدعاء . والدعاء على قسمين : دعاء مسألة ودعاء عبادة :

دعاء المسألة هو الطلب مثل أن يقول الإنسان : اللهم اغفر لي وارزقني .

ودعاء العبادة ، وذلك أن كل عبادة دعاء وفي الحديث :" الدعاء هو العبادة " رواه احمد والترمذي والحاكم وغيرهم .

ووجه ذلك : أن الصلاة والصوم والركوع والسجود وبقية العبادات أدعية، فمن صلى وصام كأنه يدعو الله ويقول: يارب عبدتك لتغفر لي وتدخلني جنتك.

والدعاء والعبادة من الألفاظ الوجهية، ويقال فيها ما يقال في الإيمان والإسلام والربوبية والألوهية والفقير والمسكين .

فالدعاء والعبادة إذا اجتمعت في الألفاظ افترقت في المعاني وإذا افترقت اجتمعت في معانيها، فإذا افترقت لفظا اجتمعت وصارت العبادة بمعنى الدعاء والدعاء بمعنى العبادة وهذا جاء في آيات كثيرة، وإذا اجتمعت افترقت فالدعاء السؤال والطلب والعبادة تفسر بطاعة الله وامتثال الأوامر واجتناب النواهي .

اللفظ الثاني : الذكر :

الذكر أشمل من دعاء المسألة لأن الذكر يشمل الدعاء والثناء والتسبيح كما أنه يكون بالقلب والقول وعمليا بالفعل والدعاء يكون باللسان فيكون الذكر أعم من الدعاء، وإذا فسر الدعاء بمعناه العام المرادف للعبادة كان أعم من الذكر .

اللفظ الثالث : الصلاة :

من الألفاظ المقاربة للدعاء الصلاة فهي بمعنى الدعاء بالرحمة والثناء، ومن ذلك ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ التوبة: ١٠٣ .

والدعاء أشمل من الصلاة لأن الدعاء يكون بالرحمة وبالثناء وبغير ذلك .

اللفظ الرابع : الاستعانة :

الاستعانة طلب العون، والسين للطلب، والاستعانة بمعنى دعاء المسألة.

اللفظ الخامس : الاستعاذة :

الاستعاذة طلب العوذ واللجوء إلى الله ﷻ ، والإلتجاء إلى الله بدفع كل شر، وضدها اللواذة، والاستعاذة نوع من الدعاء المطلق فكل استعاذة دعاء لا العكس.

اللفظ السادس : اللواذة :

اللياذة واللواذة قيل بمعنى العوذ ، وقيل هي الالتجاء بجلب النفع والخير، فتكون مقابلة للاستعاذة التي هي الالتجاء بدفع شر، والدعاء يشمل العوذ واللوذ.

اللفظ السابع : الاستغاثة :

وهي طلب الغوث والتخلص من الشدة والكرب، والدعاء أعم من الاستغاثة مطلقاً فكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة .

اللفظ الثامن : الاستجارة :

وهي طلب الجوار والمنعة والحماية فتدخل في الدعاء،ودليلها: ﴿ لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ الجن: ٢٢ ﴿ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ المؤمنون: ٨٨.

اللفظ التاسع : الاستغفار :

وهو طلب المغفرة، والمغفرة مشتقة من الغفر وهو التغطية والستر، وسمي استغفاراً لأنه يطلب من الله أن يغطي ذنوبه ويسترها ويمحوها ويعفو عنها وإزالة عقوبتها، والاستغفار داخل في عموم الدعاء.

اللفظ العاشر : الشفاعة :

وهي الوساطة والطلب والدعاء للغير بدفع ضر أو جلب نفع . وتدخل في الدعاء ، والشفاعة دعاء للغير، والدعاء أعم لأنه دعاء للنفس وللغير .

اللفظ الحادي عشر : السؤال :

سأل إذا طلب ودعا فالسائل هو الداعي والطالب، والسؤال هو بمعنى دعاء المسألة . ومنه حديث النزول في الصحيحين : (من يدعوني فاستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له).

اللفظ الثاني عشر : النداء :

النداء هو الدعاء والسؤال، قال تعالى : ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ مريم: ٣.

والنداء غالبا يكون بصوت رفيع والدعاء عام سواء كان رفيعاً أو سراً فالدعاء أعم من النداء والنداء داخل في عموم الدعاء .

اللفظ الثالث عشر : المناجاة :

المناجاة الدعاء بصوت منخفض وتقابل النداء غالباً، وقد تكون المناجاة حديثا بين اثنين من غير دعاء .

اللفظ الرابع عشر : الجؤار :

جأر إلى الله إذا رفع صوته مع تضرع واستغاثة ودليله: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ النحل: ٥٣ والدعاء أعم من الجؤار، لأنه قد يكون بدون تضرع واستغاثة .

اللفظ الخامس عشر : الابتهال :

وهو صفة في الاجتهاد والإخلاص إذا قارنه المبالغة في التضرع، مثل الجؤار.

اللفظ السادس عشر: السلام :

وهو طلب السلامة من الآفات .

هذه الألفاظ السؤال والطلب والمناجاة والاستعانة والاستغاثة والاستعاذة والاستجارة والشفاعة داخلة في عموم الدعاء، وشرك الدعاء يشمل هذه الأنواع والصفات سواء كان باستغاثة أو بشفاعة أو بدعاء أو بنداء أو بابتهال أو بغير ذلك .

المسألة الخامسة : دخول الدعاء في العبادة :

الدعاء من أعظم مقامات العبادة وأهمها .

وقد سمى الله تعالى الدعاء عبادة في مواضع من كتابه كما في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠.

بل إن الرسول ﷺ جعل العبادات مبناها على الدعاء حين قال: (الدعاء هو العبادة) رواه احمد والترمذي .

وجاء بأسلوب الحصر في الحديث لأن الدعاء يدخل في جميع العبادات وكذا العكس فالعبادات داخلة فيه . فكأنه لا عبادة غير الدعاء .

فالعبادات قائمة عليه وهو أصل مقصودها فمن صلى وصام وزكى وحج فما فعل ذلك إلا تقربا إلى الله ولسان حاله يقول: يارب صليت وصمت وعبدتك لتغفر لي وهذه حقيقة الدعاء، ومن أجل هذا تسمى أي عبادة بدعاء العبادة، فالدعاء منقسم إلى دعاء عبادة ودعاء مسألة.

وكذلك دعاء المسألة يقوم على جميع العبادات وتوجد فيه، فالدعاء قائم على الخضوع والتذلل والخشوع والافتقار والالتجاء وإعلان الحاجة والفقر والضعف والمسكنة للمدعو كما أنه متضمن للرجاء والخوف والمحبة والتوكل والرغبة والرهبة.

فداعي الله لاجئ إليه خاشعاً خاضعاً متذللاً له مفتقراً إليه ومعظماً له خائفاً منه راجياً له متوكل عليه محباً له .

ومن دعا غير الله فلا بد أن تقوم به هذه الصفات والأحوال ويكون بذلك عابدا للمدعو مشركا به مؤلهاً له مع الله.

السادسة: أوجه ودلالات كون الدعاء عبادة وأن دعاء غير الله شرك :

١ – ما جاء في القرآن من النهي عن دعاء غير الله تعالى بأساليب كثيرة ومتنوعة وأن الدعاء عبادة، والعبادة لا تصرف لغير الله، وأن دعاء غير الله شرك، وفاعله كافر خاسر ظالم وأنه غير مستفيد شيئاً، وأن النافع هو الله، وأن المشركين مقرون بتفرد الله بالخلق والملك والتدبير، وأن عبادتهم لآلهتهم ليست إلا مجرد دعائهم وطلب شفاعتهم عند الله، وأنهم يخلصون دعاءهم لله إذا نزلت بهم شدة

وكرب، وأن دعوة الله هي الحق وما سواها هي الباطل، وأن كل مدعو غير الله جاهل غافل لا يقدر على شيء وليس له من الأمر شيء، وأن الله غني عن الوسائط والشفعاء، وأن الشفاعة ملك لله .

وأوجه الاستدلال من الآيات المتعلقة بالدعاء أكثر من أن تحصر، وكل من تدبر من أهل التوحيد فيها لابد وأن يفتح عليه.

٢- ما جاء في السنة من وجوب إخلاص الدعاء لله وترك دعاء غيره فيما يجوز ومن باب أولى ما لا يجوز وما لا يقدر عليه أحد، كقوله ﷺ : (أنه لا يستغاث بي) رواه الطبراني، وقوله ﷺ : (إذا سألت فاسأل الله) الترمذي، وغضب الله ممن لا يدعوه عن أبي هريرة (من لم يدع الله يغضب عليه) أحمد والترمذي، وفي لفظ : (من لم يسأل الله يغضب عليه) الترمذي ، وحديث: (كره لكم كثرة السؤال) متفق عليه.

وسد الرسول ﷺ وسائل الشرك والذرائع المفضية إليه .

٣- أن حقيقة شرك المشركين وعبادتهم للأوثان إنما كانت في اتخاذ الشفعاء عند الله لتقربهم إلى الله، فظنوا أنه بشفاعتهم يندفع الضر والعقاب وبتوسطهم وتقريبهم يجلب النفع والثواب، وكان هؤلاء المشركون يعبدون الله مع عبادة غيره وكانوا أهل نسك وصلاة وحج وصدقة وإطعام للحجيج والفقراء، ولم تقبل أعمالهم لحصول الشرك منهم في الدعاء وكانوا مقرين بأن الله هو الرب سبحانه بل كانوا يوحدونه في الخلق والملك والرزق والتدبير والنفع والضر فعندهم توحيد الربوبية ، وإنما كان شركهم ومخالفتهم في توحيد الألوهية والعبادة بدعاء غير الله.

٤- أن الله تعالى سمّى الدعاء عبادة وجعل دعاء غيره عبادة له.

كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ مريم: ٤٨ - ٤٩ وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ الأحقاف: ٥ - ٦ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠ وقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الأنعام: ٥٦ ، فانظر كيف سمّت الآيات الدعاء عبادة وجعلت دعاء المشركين للأموات والأصنام عبادة لهم .

وأيضاً الرسول ﷺ سماه عبادة بل وحصر العبادة في الدعاء في قوله ﷺ: (الدعاء هو العبادة) رواه احمد والترمذي فكأنه لا عبادة إلا الدعاء.

٥- سمّى الله المدعو معبودا، في قوله ﴿ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الأنعام: ٥٦ وكما في قوله تعالى في سورة مريم عن إبراهيم: ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ ﴾ وقوله بعد ذلك: ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ ﴾.

٦- سمى الله تعالى المدعو ومن تطلب منه الشفاعة إلها، كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ هود: ١٠١ ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ يس: ٢٣ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الفرقان: ٦٨ ﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ القصص: ٨٨ ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ المؤمنون: ١١٧.

٧- جعل الله تعالى دعاء غيره شركا، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾ الجن: ٢٠، وقوله: ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ ﴾ فاطر: ١٤ ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥ أي يشركون في الدعاء.

٨- أن الله ﷻ سمى الداعي لغيره كافرا: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ المؤمنون: ١١٧.

كما حكم الرسول ﷺ بكفر من يدعو غير الله وأخبر أنه من أهل النار "من مات وهو يدعو غير الله دخل النار" متفق عليه.

٩- أن الله تعالى سمى الدعاء دينا وأمر بالإخلاص فيه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥ ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ غافر: ١٤.

١٠- أن الله أمر به وأحبه كما في قوله: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً ﴾ الأعراف: ٥٥. وما أمر الله به فهو عباده.

١١- أن الله توعد تارك الدعاء بالنار كما في قوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠.

١٢- أن الله تعالى أمر رسوله أن يعلم الناس وجوب توحيده في الدعاء ولايشركون فيه كما في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾ الجن: ٢٠.

١٣- أن الله نهى عن دعاء غيره، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٣ ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ القصص: ٨٨ ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الأنعام: ٥٦.

١٤- اختص الله به وحصر الدعاء الحق به ودعاء غيره باطل ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ الرعد: ١٤ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ الحج: ٦٢.

١٥- أن الله ﷻ أخبر أن الصلاة والشفاعة ملك له وأمرنا بالإخلاص فيهما والدعاء يشملهما: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٢ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ الزمر: ٤٣ - ٤٤ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ الزخرف: ٨٦.

١٦- أن الأصل في دعاء المخلوق التحريم. وأنه إذا كان دعاء المخلوق ما يقدر عليه مكروها والأولى تركه كما جاءت به السنة فكيف بدعائه فيما لا يقدر عليه.

والرسول ﷺ نهى عن سؤاله وفضل من لا يسأله شيئا، وبايع بعض أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئا.

١٧- أن الدعاء يشتمل على جميع أنواع العبادات من المحبة والخوف والمهابة والرهبة والرغبة والطمع والرجاء والخشوع والذل والانكسار والإخبات والإنابة والتوبة والتضرع واللجوء والتعلق والتوكل والاعتماد والذكر والتعظيم وغير ذلك.

١٨- أن الداعي لا بد وأن يكون راغبا متذللا لمن يدعوه خاضعا له متعلقا به متوكلا عليه معظما له وهذه عين العبادة.

١٩- أن في دعاء غير الله سوء ظن بالرب الرحيم وعدم تقدير له وهضم لمقام الربوبية وظلم عظيم، كما يلزم منه أن الله لا يرحم ولا يقدر ولا يعلم إلا بالوساطة.

٢٠- أن الله حكم بأن أشد الناس ظلما وضلالا وكفرا من يدعو غيره: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ الأحقاف: ٥.

٢١- أن الله نفى إجابة المدعوين وسماعهم وأثبت غفلتهم وجهلهم كما في الآية السابقة، كما أثبت في آيات أخرى صفات المدعوين وأنها قائمة على النقص.

المسألة السابعة: علاقة الدعاء بموضوع الشرك وأنواعه :

وجه كون الدعاء شركا :

١- أن فيه طلب ما لا يقدر عليه إلا الله.

٢- ما فيه من اللجوء لغير الله والخضوع والتذلل والتعظيم والذل والافتقار .

بما أن الدعاء عبادة يحبها الله وأمر بها والشرك أصلا متعلق بالعبادة، عليه فالدعاء يدخله الشرك ويجب أن يوحد الله به كما يوحد ببقية أفراد العبادات، ولذلك من دعا المخلوق فقد صرف له شيئاً من العبادة ويكون بدعائه هذا واقعاً في الشرك كافرا خارجا من الملة .

وشرك الدعاء أحد أنواع الشرك، وهو داخل في شرك الألوهية والعبادة.

وهو من نوع شرك الأقوال .

علاقة شرك الدعاء بأنواع الشرك ودخوله فيها :

يدخل في شرك الألوهية من باب المطابقة والتضمن، فهو متعلق بأفعال العباد وتألههم وعبادتهم.

يدخل في شرك الربوبية والأسماء والصفات من باب اللزوم ، وسيأتي وجهه.

يدخل في شرك التعطيل لأن الداعي عطل الله عما يستحقه من العبادة والدعاء حين صرف العبادة للمخلوق وترك الخالق وعدل عنه.

يدخل في شرك التمثيل من جهتين :

أولا: لكون الداعي شبه المخلوق بالخالق فدعاه ورجاه .

ثانيا: ولأن الداعي شبه الخالق بالمخلوق في كونه محتاجاً لواسطة تشفع عنده مثل ملوك الدنيا من البشر .

قاعدة : دعاء غير الله شرك في الألوهية مستلزم للشرك في الربوبية :

الدعاء شرك في الألوهية لأنه عبادة وتوجه وقصد ومتعلق بأفعال العباد .

وشرك أيضا في الربوبية من جهتين :

الأولى : من جهة اللزوم وما يقتضيه دعاء المخلوق من إعطاء المخلوق المدعو بعض خصائص الربوبية وأفعال الرب ، وذلك باعتقاد النفع والضر في المدعو والقدرة على ما لا يقدر عليه إلا الله ، فدعاء الأموات ومن هو غائب يستلزم أنهم يعلمون الغيب ويسمعون كلام من يدعوهم ويقدرون على كل ما طلبه الداعي منهم وإلا لما دعاهم هؤلاء المشركون .

الثانية : من جهة ما قد يحصل فيه من شرك في الربوبية، فالأصل أن الدعاء من العبادة التي يريدها الله ﷻ وصرف أي عبادة لغير الله شرك في الألوهية، فتوحيد العبادة أن يصرف العبادة لله وحده والشرك فيها بأن تصرف العبادة لغير الله ﷻ، عليه فدعاء غير الله شرك في الألوهية، إلا أنه إذا دُعي غير الله ﷻ فيما لا يقدر عليه غير الله من أفعال الرب المختصة به كان شركاً في الربوبية، كأن يقول يا محمد يا نبي الله أنزل المطر وأغثنا وارزقنا وعافنا وانصرنا وأعطنا ولداً ومددا ونحو ذلك، فهذا شرك في الربوبية حيث أدخل في دعائه أموراً من خصائص الربوبية والتي لا يقدر عليها غير الله ، واعتقد أن المدعو متصف بها قادر عليها.

قال الألوسي :" ولا أرى أحدا ممن يقول يا سيدي فلان أغثني إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب أو الميت المغيب يعلم الغيب أو يسمع النداء ويقدر بالذات أو بالغير على جلب الخير ودفع الأذى وإلا لما دعاه " روح المعاني ٦/ ١٢٨.

وقال السهسواني في صيانة الإنسان :" نداء الميت والغائب يقتضي اعتقاد علم الغيب لذلك الميت والغائب " وبنحوه قال الدهلوي في تقوية الإيمان.

قال الحكمي في معارج القبول بعد بيانه لتلازم أنواع التوحيد وعدم انفكاكها عن بعض وأن من أشرك في أحدها لازم أن يكون مشركا في الآخر : " فدعاؤه إياه عبادة صرفها له من دون الله لأن الدعاء مخ العبادة فهذا شرك في الإلهية، وسؤاله إياه تلك الحاجة من جلب خير أو دفع ضر أو رد غائب أو شفاء مريض أو نحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله معتقدا أنه قادر على ذلك هذا شرك في الربوبية حيث اعتقد أنه متصرف مع الله في ملكوته، ثم إنه لم يدعه هذا الدعاء إلا مع اعتقاده أنه يسمعه على البعد والقرب في أي وقت ومكان ويصرحون بذلك وهذا شرك في الأسماء والصفات، فاستلزم هذا الشرك في الإلهية الشرك في الربوبية والصفات " .

قال الرازي في تفسير آية ﴿ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾: (وضعوا الأصنام على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك يكونون لهم شفعاء عند الله تعالى . ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء عند الله) .

المسألة الثامنة: مكانة الدعاء :

مما يدل على أهمية الدعاء ومكانته أمور ، منها :

١- أنه يشتمل على جميع العبادات فهو مخ العبادة بل هو العبادة، فهو أعظم المقامات وأجل العبادات .

٢- محبة الله له وغضبه ﷻ على من لا يدعوه ويعرض عنه .

٣- فيه اللجوء والتقرب والخضوع والذل والافتقار .

٤- أن تاركه بالكلية كافر مستكبر بنص القرآن .

٥- الدعاء فيه التذلل لله مع التعظيم والإجلال .

والقاعدة: أن كل فعل مبناه على الذل والتعظيم والمحبة فهو عبادة صرفه لغير الله من الشرك . ومن ذلك الدعاء والشفاعة والذبح والنذر فهذه لا تكون إلا مع إجلال وتعظيم ولذلك صرفها لغير الله كفر وشرك أكبر.

قال الحليمي : (والدعاء من جملة التخشع والتذلل، لأن كل من سأل ودعا فقد أظهر الحاجة والفاقة لمن يدعوه ويسأله فكان ذلك في العبد نظير العبادات التي يتقرب بها إلى الله عز اسمه ولذلك قال : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠، فأبان أن الدعاء عبادة والخائف فيما وصفنا كالراجي لأنه إذا خاف خشع وذل لمن يخافه وتضرع إليه وطلب التجاوز عنه) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٥١٧ .

وقال الرازي في تفسيره : (الدعاء أهم مقامات العبودية).

المسألة التاسعة: أهمية بيان شرك الدعاء والكلام فيه وخطورته:

وضح الله سبحانه هذا النوع من الشرك في كتابه في آيات كثيرة وحذر منه أيما تحذير لكثرة من يقع فيه وقد بينه العلماء في مصنفاتهم وحذروا منه وكشفوا حقيقته وردوا زيف المتلبسين به ومن هؤلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب في النواقض وكشف الشبهات وغيرها .

فائدة : لماذا أفرد المؤلف شرك الدعاء مع كونه داخل في عموم الشرك :

أفرد الإمام محمد بن عبد الوهاب شرك الدعاء في النواقض وخصه من بين أنواع الشرك مع كونه داخل في الشرك والشرك ذكره في الناقض الأول لأمرين :

الأول : كثرة من يفعله وفشوه بين الأمم ولذلك لا يوجد أمة مشركة إلا وهي تدعو غير الله من قوم نوح إلى زماننا هذا .

الثاني : كثرة الشبهات المثارة حوله والتلبيس فيه مما جعل العلماء يخصوه بالبيان والإيضاح وكشف الشبهات المتعلقة به .

فائدة: يعد شرك الدعاء وعبادة الموتى نصف الشرك وأصله وأكثره رواجا:
١- نصف الشرك من جهة كونه مقابلا لشرك الفلاسفة وعباد الكواكب.
٢- نصف الشرك من جهة كونه مقابلا لشرك التشريع والحكم والدستور .
قال ابن تيمية : (الشرك في بني آدم أكثره على أصلين : أولها : تعظيم قبور الصالحين وتصوير تماثيلهم للتبرك بها ، وهذا أول الأسباب التي بها ابتدع الآدميون وهو شرك قوم نوح .والثاني: عبادة الكوكب) المنطقيين ٢٨٥ ، الفتاوى ١٧/ ٤٦٠ .

تنبيه : تغيير اسم شرك الدعاء عند مشركي زماننا :
يسمي مشركو زماننا شرك الدعاء التوسل بالأولياء وتعظيمهم وغير ذلك .
ويسمون الإله المدعو ولياً وسيداً .
وكل هذا لا يغير حكمه وكونه كفرا مخرجا من الملة .

فائدة : الفرق بين عبدة القبور وأولئك المشركين الأولين :
أن الأولين هم أصحاب اللغة بالسليقة ، ولهذا عندهم كل ما يتوجه به للمخلوق بطلب أو خوف ورجاء وتوكل مما ليس من الأسباب العادية المشتركة بين الناس والتي لا يقدر عليها إلا الله ، فهو يدخل في مسمى العبادة .
والمتأخرون لما علموا أن العبادة لا تكون إلا لله سموا عبادة الأولياء توسلاً ، وسمو من توجه إليه وسيلة وشفيعاً ووليا كما كان يسميه المشركون الأولون وإنما خالفوهم في تسميته إلهاً وتسمية وساطته عبادة وهي تسمية لغوية صحيحة في اللغة ، فالخلاف بينهما لغوي محض ، فحال عباد القبور أنهم يقولون كلمة التوحيد مجردا عن العمل بمقتضاها لكونهم لم يفهموا معناها، فهم يعتقدون أن للأولياء تأثيراً غيبيا ويسند إليهم التصرف في الكون إما بالذات وإما بالشفاعة أو الكرامة عند الله ، ولذلك يدعونهم مع الله، فدعاؤهم شرك في الألوهية وعقيدتهم شرك في الربوبية.

المسألة العاشرة: وجوب توحيد الله بالدعاء وإفراده به :
إذا كان الدعاء بهذه المنزلة والمكانة والمرتبة من الدين، وجب أن يوحّد الله به وألا يدعى غيره ولا يسأل أحد سواه، ومن دعا غير الله كان مشركاً ناقضاً للتوحيد خارجاً من الملة .
والناس في عبادة الله والاستعانة أربعة أقسام:
منهم من يعبد الله ويستعينه ومنهم من لا يعبد الله ولا يستعينه ومنهم من يعبد الله ويستعين بغيره ومنهم من يدعو الله ويستعين به ولكن لا يعبده .

المسألة الحادية عشرة: أدلة الدعاء وشرك الدعاء :

الأدلة من الكتاب والسنة والعقل والإجماع على كفر من دعا غير الله :

تنوعت أساليب القرآن الكريم في التحذير من دعاء غير الله ﷻ وتنوعت البراهين والأدلة على قبح هذا الشرك وجاء النهي عنه في كتاب الله تعالى بأساليب متنوعة وطرق كثيرة، وإليك بيانها.

أولاً: آيات نهى الله تعالى فيها عن دعاء غيره ، مخاطباً فيها نبيه محمداً ﷺ .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يونس: ١٠٦ .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٣ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ القصص: ٨٨ .

ولو تأمل العاقل هذه الآيات ووقف معها لوجد فيها من الفوائد والعبر الواضحة أن دعاء غير الله لا نفع فيه ولا فائدة، وأن الهالك لا يمكن أن يكون مستحقاً للدعاء ولا يدعى ولا يستفاد منه والذي لاينفع ولا يضر ليس أهلا للدعاء فلا يدعى إلا من ينفع ويضر وإذا حذر الله ﷻ رسوله ﷺ من الدعاء فغيره من باب أولى، وجعل الله ﷻ الدعاء هنا دعاء عبادة والمدعو معبوداً .

٢- آيات وجه الله ﷻ فيها النهي عن دعاء غير الله تعالى إلى جميع الناس منها: قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ الجن: ١٨.

والمساجد جمع مسجد وهو ما يسجد عليه سواء من الأرض أم جبهة أو نحو ذلك .

٣- آيات أمر الله ﷻ فيها عباده بإخلاص الدعاء له وحده . منها :

وقوله تعالى : ﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ الأعراف: ٢٩.

قوله تعالى : ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الأعراف: ٥٦.

وقال تعالى : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ الأعراف: ٥٥.

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ الإسراء: ١١٠.

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠.

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ غافر: ٦٥.

وقـال تعـالى :﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٠.

وقوله تعالى :﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٢ والصلاة هنا هي الدعاء .

٤- آيات تصف من يدعو غير الله تعالى بأخس صورة وتمثل هلاكه بما يبين قبح دعاء غير الله تعالى .

قال تعالى في ذلك :﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ٧١ .

وقال:﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾النساء: ١١٧.

وقال تعالى :﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ الرعد: ١٤.

وقال:﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ فصلت: ٤٨ .

وقـال تعـالى :﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ العنكبوت: ٤١ - ٤٢ .

٥- آيات تبين عجز المدعوين من دون الله تعالى وعدم استحقاقهم للدعاء وعدم أهليتهم له لأنه ليس لهم الصفات التي ينبغي أن تكون للذي يستحق أن يتوجه له بالدعاء . ومن هذه الأدلة :

وقال تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ النحل: ٢٠ .

وقال تعالى :﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ الشعراء: ٧٢ - ٧٣ .

وقال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ فاطر: ١٣ - ١٤ .

وقـال تعـالى :﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ الأحقاف: ٥ .

وقـال تعـالى :﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ النحل: ٢٠ - ٢٢.

وقال: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ سبأ: ٢٢ - ٢٣.

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ الحج: ٧٣.

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ الأعراف: ١٩٧.

٦- آيات يبين الله تعالى فيها عجز من يدعى من غير الله .

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ الزمر: ٣٨.

وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ الإسراء: ٥٦.

وقال تعالى : ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ يس: ٢٣.

٧- آيات توضح أن المدعوين أنفسهم كالملائكة والرسل يلتجئون إلى الله ﷻ ويتقربون إليه أفليس الأولى أن يلتجئ من يدعوهم إلى من لجؤوا إليه وهو الله ﷻ.

قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء: ٥٧.

وقوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٧٢.

٨- آيات وصف الدعاء غير الله ﷻ بأنه شرك أو كفر أو وصف الداعي بأنهم مشركون أو كافرون وفي ذلك أعظم تحذير وأبلغ إنذار .

٩- آيات توضح أن دعاء غير الله تعالى ضلال وضرر .

يقول تعالى : ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾ الحج: ١٢ - ١٣.

١٠- آيات تصف المؤمنين بإخلاص الدعاء لله تعالى .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ الفرقان: ٦٨.

وقوله تعالى: ﴿ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ الكهف: ١٤.

١١- آيات تبين غياب المدعوين عن الداعي عند نزول الشدائد.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ الإسراء: ٦٧.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾ فصلت: ٤٨.

قال تعالى: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ الأعراف: ٣٧.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ غافر: ٧٣ - ٧٤.

قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ هود: ١٠١.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥.

١٢- آيات تتوعد من يدعو غير الله تعالى بالعذاب الأليم وسماهم كافرين.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المؤمنون: ١١٧.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٣.

أيضا من الأدلة والدلالات:

١٣- الآيات التي أمرتنا بدعاء الله تعالى.

١٤- آيات سمت عبادة ودعاء غير الله شركا.

١٥- آيات تنهى عن دعاء غير الله.

١٦- آيات نصت على أن جميع الرسل دعوا للتوحيد ودعاء الله وحده.

١٧- آيات أخبرت أن الشرك وما فعله المشركين ليس إلا دعاء غير الله وطلب الشفعاء واتخاذ الوسائط.

وغير ذلك من الأساليب التي جاءت بها الآيات وبدلالات قاطعة وردت في التحذير من دعاء غير الله تعالى.

وكل هذا يؤكد أن هذا الشرك قد أوضحه الله تعالى إيضاحاً وافياً كافياً لا يحتاج معه إلى إجابة عن شبهة بعد هذه الآيات فبلوغها كاف في إقامة الحجة، ولو لم يكن من هذه الآيات إلا آية واحدة تدل على كفر من يدعو غير الله لكانت كافية فكيف إذا تعددت الأدلة وأوجه الاستدلال والأساليب في ذلك والدلائل مما يدل على أن الله تعالى هو المستحق أن يدعى وحده لا شريك له وأن يكفر بما دونه.

الأدلة من السنة :

قال النبي ﷺ : (من مات وهو يدعو لله ندا دخل النار) رواه الشيخان .

وعندما سئل النبي ﷺ أي الذنب أكبر قال : (أن تدعو لله ندا وهو خلقك) متفق عليه.

وقال ﷺ : (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) رواه الترمذي وأحمد.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يخطب ويقول: (إن الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾) أخرجه الترمذي وأحمد والنسائي في الكبرى والحاكم .

قال النبي ﷺ : (الدعاء هو العبادة) أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد .

أما حديث:(الدعاء مخ العبادة) عند الترمذي ففي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف .

وقفات مع هدايات بعض الآيات والدلالات فيها على كفر من دعا غير الله.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ فاطر: ١٣ - ١٤.

دلت على أمور :

الأول : أن الآية صريحة في دعاء المسألة فالمدعو لا يملك شيء وإن قل وأنهم لا يسمعون دعاءهم ولو سمعوا ما استجابوا .

الثاني : أن المدعوين يكفرون وينكرون ويتبرءون ممن دعاهم فيكون زيادة وبال على أهل الشرك .

الثالث : أن الله ﷻ سمى دعاءهم لغير الله شركا .

قولـه تعـالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ القصص: ٨٨.

تدل على أن كل مدعو يكون إلها، والإلهية حق لله لا يصلح منها شيء لغيره ولهذا قال لا إله إلا هو .

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ الأحقاف: ٥ .

تضمنت دلالات على حقيقة دعاء غير الله وصفات الداعي والمدعو :

١- حكم الله على من دعا غيره بغاية الضلالة.

٢- أن المدعو لا يستجيب له.

٣- أنه غافل.

٤- أنه المدعو يعادي الداعي يوم القيامة.

٥- ويكفر بعبادته.

قولـه تعـالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ يونس: ١٨ .

١- أن شرك المشركين كان في طلب الشفاعة من غير الله ودعاء المخلوق .

٢- أن الله ﷻ حرم المشركين من الشفاعة لما طلبوها من غيره، وأخبر أن حصولها مستحيل في حقهم بسبب طلبها في الدنيا من غيره ممن لا يقدر عليها .

٣- أنه يلزم من سؤال الوسائط الشفاعة نفي العلم عن الله ونفي الرحمة عنه ونفي القدرة عنه، فتعالى الله عما يقوله المشركون علوا كبيراً.

٤- أن فعلهم الذي هو طلب الشفاعة يعتبر عبادة وحكم الله بأنه من الشرك.

قولـه تعـالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ سبأ: ٢٢ - ٢٣.

نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفي أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونا لله ولم يبق إلا الشفاعة فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ورضي عنه وهو من جاء بالتوحيد ولم يدع غير الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ الإسراء: ٥٦ - ٥٧ .

وقد نزلت هذه الآيات في من يدعو المسيح وعزيز والملائكة كما قاله طائفة من السلف وأئمة التفسير خلافاً لزعم القبورية في تفسيرهم للوسيلة بالتوسل لله تعالى بذوات الأولياء والأنبياء وطلب شفاعتهم :

ومن هذه الآية وتفسير السلف يرد على القبورية :

١- أنه قال سبحانه : (زعمتم) مما يدل على أن عبادتهم ودعاءهم مزعومة باطلة وليست عبادة بحق .

٢- أنه أخبر أنهم لا يملكون كشف الضر ولا تحويله عنهم ، فهم ضعاف محتاجون إلى من تحتاجون إليه، فإذا كانوا لا يملكون لأنفسهم النفع وكشف الضر فكيف يملكونه لغيرهم .

٣- أن هؤلاء المدعوين من الصالحين والأولياء يبتغون ما يبتغيه المشرك بهم ويبتغون القرب من الله والوسيلة إليه والتسابق إليه ورجاءه والخوف منه .

٤- أن هؤلاء المدعوين لا يأمنون عقاب الله ولا يقطعون برحمته، بل هم دائرون بين الخوف والرجاء مع صلاحهم فمن دعاهم هكذا الأولى به .

٥- أن الله أمرهم بدعاء الذين زعموا هو من باب السخرية وتحقير عقولهم .

٦- بينت الآية أن شرك المشركين ودينهم هو اتخاذ الوسائط والشفعاء وليس اعتقاد الربوبية في غير الله، كما بينت أن الوسيلة ليست هي الشرك والوسائط الشافعة كما ظنوا، فإن وسيلتهم وسيلة لإبعادهم عن الله ولعنهم لا تقريبهم .

مسألة: من أدلة نفي الاستغاثة بالنبي ﷺ :

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٨ .

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ يونس: ٤٩ .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ الجن: ٢١ .

قوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ الزمر: ٤٣ - ٤٤ .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ القصص: ٥٦.

قوله تعالى: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ التوبة: ٨٠.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ الزمر: ١٩ .

قوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ الزخرف: ٤٠.

وقوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ آل عمران: ١٢٨ .

﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ الطلاق: ١

قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ الأعراف: ١٨٧ .

قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ التوبة: ١٠١ .

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ الأحقاف: ٩.

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ الأنعام: ٥٠.

وآيات عامة سبقت وآيات عامة تبين أنه لا تملك نفس لنفس شيئا وأنه لا كاشف للضر إلا هو، وأنه لا يملك الشفاعة أحد ولا تغني شفاعته شيئا.

وقوله ﷺ : " إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله " رواه الترمذي.

وقوله ﷺ: " اجعلتني لله ندا " لما قيل له ما شاء الله وشئت رواه أحمد.

وقوله ﷺ لابنته ولقريش : "لا أغني عنكم من الله شيئا" رواه مسلم.

وحين قال الأسير للرسول ﷺ : (اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب لمحمد)، فقال النبي ﷺ : (عرف الحق لأهله) رواه أحمد .

وقول عائشة : (أتوب إلى الله ورسوله) رواه البخاري .

عرض الاعمال عليه وإبلاغه السلام فلا يعلمها بنفسه

قصة الإفك وحرص النبي ﷺ على معرفة الحق .

قال ﷺ :" والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي " رواه البخاري .

وقال ﷺ عن الساعة :" ما المسئول عنها بأعلم من السائل " رواه مسلم.

قال ﷺ " استأذنت ربي أن استغفر لأمي فلم يأذن لي " رواه مسلم.

قال ﷺ : " إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله " رواه الطبراني .

قوله ﷺ:" إنما أنا بشر وإنه يأتي الخصم ولعل بعضكم أبلغ من بعض فأحسبه أنه صدق فأقضي له " رواه البخاري

وفي الحديث تقول الملائكة للنبي ﷺ عند الحوض : " لا تدري ماذا أحدثوا بعدك " رواه البخاري .

وقالت عائشة :" من حدث أنه يعلم الغيب فقد كفر " رواه البخاري .

فائدة لطيفة من حديث : (إن لله ملائكة سياحين يبلغوني من أمتي السلام) رواه أحمد والنسائي .فيه رد على القبورية الذين يزعمون أن الرسول ﷺ يُدعى لأنه حي يسمع، فلو كان كذلك لما احتاج لمن يبلغه ويعلمه ولسمع السلام بذاته مباشرة.

فائدة من حديث : (اسألوا لي الفضيلة) :

فيه دليل على تحريم دعائه إذ كيف يدعى من يطلب أن يدعى له .

ومن الأدلة في هذا الباب: أن دعاء الميت والغائب لم يأمر الله به ولا رسول ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة والأئمة ولا استغاث أحد من الصحابة بالرسول ﷺ بعد موته ومما يدل لذلك قصة عمر باستسقائه بدعاء العباس.

ومن الأدلة : أن دعاء الموتى والتوسل بهم إن كان أفضل كما تزعم القبورية فكيف يخفي على القرون الثلاثة المفضلة ويظفر به الخلوف .

قاعدة : أعظم ما يرد على المتأخرين المشركين أن الصحابة ﷺ لم يسألوا الرسول ﷺ بعد موته ولم يقف أحد منهم عند قبره يسأله مع ما نزل بهم من الشدائد والكروب والأهوال والخطوب ، بل والثابت ضد ذلك كما فعل عمر من الاستسقاء بدعاء العباس ولم يسأل الرسول ﷺ بل أثبت أن هذا أنقطع بعد موته ولم يستنكر ذلك أحد من الصحابة .

فائدة: المراد بالدين الذي أمرنا الله بالإخلاص فيه في آيات كثيرة هو الدعاء.

دليل العقل:

أن العقل والشرع يحكمان ببطلان دعاء غير الله ﷻ، فالمدعو لابد أن يكون قادرا على إيصال النفع لمن يدعوه ويكشف الضر عنه، وقد خاطب الله تعالى عقول الناس بذلك وبين سبحانه أن هؤلاء المدعوين الذين جعلوا شركاء لله في الدعاء لا يملكون أسباب استحقاق العبادة والتوجه لهم بالدعاء والقصد والإرادة، كما أن اتخاذ الوسائط ودعاءها وسؤالها الشفاعة ينافي إسلام القلب والوجه لله وحده.

عليه فالعقل حاكم ببطلان دعاء غير الله ﷻ وأن من دعا غير الله فدعاؤه باطل ولا فائدة فيه وقد ظلم نفسه، ومن أشرك فقد خالف العقل والفطرة والشرع.

الإجماع على كفر من دعا غير الله :

وممن نقل الإجماع ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١/ ١٢٨ .

وابن القيم والحجاوي والبهوتي في كشاف القناع والمرداوي في الإنصاف والصنعاني في تطهير الاعتقاد والشوكاني والرستمي من الحنفية .

وقال الخطابي في معالم السنن : (كان الإمام أحمد يستدل بقوله أعوذ بكلمات الله على أن القرآن غير مخلوق لأن المخلوق لا يستعاذ به) .

وبمثل ذلك قال البخاري في خلق أفعال العباد، والخلال في السنة، وابن خزيمة في التوحيد .

المسألة الثانية عشرة : كلام أهل العلم في شرك الدعاء :

١- قال ابن تيمية في الوصية الكبرى: «فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يدعوه من دون الله مثل أن يقول يا سيدي فلان أغثني أو أجرني أو أنت حسبي أو أنا في حسبك فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل» الفتاوى [٣/ ٣٩٥].

وقال رحمه الله: «فإن المسلمين متفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام أن العبد لا يجوز أن يعبد ولا يدعو ولا يستغيث ولا يتوكل إلا على الله وأن من عبد ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً أو دعاه أو استغاث به فهو مشرك فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول يا جبريل أو يا إبراهيم أو يا رسول الله اغفر لي وارحمني وارزقني أو انصرني أو أغثني أو أجرني من عدوي أو نحو ذلك بل كل هذا من خصائص الألوهية» الفتاوى ٣/ ٢٧٢.

وقال: «وجماع الأمر أن الشرك نوعان : شرك في ربوبيته بأن يجعل لغيره معه تدبير، وشرك في ألوهيته بأن يدعو غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة» الاقتضاء ص٣٥٦.

٢- وقال ابن القيم رحمه الله: «ومن أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة وهي أصل شرك العالم فإن الميت محتاج لمن يدعو له فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة واستقضاء الحوائج والاستغاثة وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد ، وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان وما أكثر المستجيبين لهم» مدارج السالكين [١/ ٣٤٦] .

وقال في زاد المعاد: «فأبى المشركون إلا دعاء الميت والإشراك به ...» ١/ ٢٥٧ .

٣- وقال أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي ت ٥١٣هـ: «إن من يعظم ويخاطب القبور ويخاطب الموتى بقضاء الحوائج ويقول يا مولاي ويا سيدي افعل لي كذا فهو كافر بهذه الأوضاع ومن دعا ميتاً وطلب قضاء الحوائج منه فهو كافر». وكلامه هذا نقل من كتاب حكم الله الواحد الصمد في حكم الطلب من الميت المدد .

وقال: (لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم...وهم عندي كفار بهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور، وخطاب الموتى بالحوائج وكتب الرقاع فيها يا مولي افعل بي كذا وكذا وأخذ ترابها تبركا وإفاضة الطيب على القبور وشد الرحال إليها وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى)ونقله عنه ابن القيم في إغاثة اللهفان ١/ ٢٢١.

٤- وقال ابن عبد الهادي في الصارم المنكي في الرد على السبكي: «إن المبالغة في تعظيم الرسول ﷺ بالحج إلى قبره والسجود له والطواف به واعتقاد أنه يعلم الغيب وأنه يعطي ويمنع ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع وأنه يقضي حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين وأنه يشفع فيمن شاء ويدخل الجنة من شاء فهذه المبالغة مبالغة في الشرك وانسلاخ من ذمة الدين» ص٣٥١.

٥- وقال ابن رجب في رسالته كلمة الإخلاص: «إن قول العبد لا إله إلا الله يقتضي أن لا إله غير الله والإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاء وتوكلاً عليه وسؤال منه ودعاء له ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه .. وهذا كله من فروع الشرك» كلمة الإخلاص ص٢٣.

٦- وقال الحجاوي في الإقناع مع شرح البهوتي كشاف القناع: «من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم كفر إجماعاً لأن ذلك كفعل عابدي الأصنام»الإقناع [٦/ ١٦٨].

٧- وقال محمد بن عبد الوهاب: «الناقض الثاني من نواقض الإسلام: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم كفر إجماع».

وقال في كتاب التوحيد: «باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره».

٨- وقال عبد الرحمن بن حسن: «فإذا عرفت بصحيح المعقول وصريح المنقول أن الدعاء عبادة وأن مدلوله السؤال والطلب فمن صرف شيئاً من العبادة لغير الله فقد أشرك مع الله غيره في عبادته كائناً من كان» الرد على ابن جرجيس ص٣٤.

ومن أقوال علماء الشافعية في هذا الباب:

٩- قال الإمام ابن خزيمة في التوحيد : (هل سمعتم عالما يجيز أن يقول الداعي أعوذ بالكعبة من شر ما خلق الله؟ هذا لايقوله ولا يجيز القول به مسلم يعرف دين الله، محال أن يستعيذ مسلم بخلق من خلق الله).

١٠- قال المقريزي (ت٨٤٥هـ) في كتابه تجريد التوحيد وهو من أنفس الكتب في بيان التوحيد قال رحمه الله: «وشرك الأمم كله نوعان شرك في الألوهية وشرك في الربوبية فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الشرك وهو شرك عبادة الأصنام وعبادة الملائكة وعبادة الجن وعبادة المشايخ والصالحين الأحياء

والأموات الذين قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده وينالنا قربهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة» تجريد التوحيد ص١٤٨ .

١١- وقال الحليمي : (الدعاء في الجملة من جملة التخشع والتذلل، لأن كل من سأل ودعا فقد أظهر الحاجة واعترف بالذلة والفقر والفاقة لمن يدعوه ويسأله، فكان ذلك نظير العبادات التي يتقرب بها إلى الله فالدعاء عبادة، والخائف كالراجي، لأنه إذا خاف خشع وذل لمن يخافه وتضرع إليه في طلب التجاوز عنه ... ولا ينبغي أن يكون الرجاء إلا لله فهو المنفرد بالملك والدين ولا يملك أحد من دونه نفعا ولا ضرا ..) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٥١٧ .

١٢- وقال أحمد بن حجر البوطامي الشافعي في كتابه تطهير الجنان: «أي لا ينذروا لغير الله ولا يطوفوا بغير البيت العتيق فلا يجوز النذر للأولياء ولا الصالحين ولا الطواف بقبورهم كما يفعله الجاهلون بقبر الجيلاني والحسين والبدوي والدسوقي وغيرهم فإن هذا شرك لا مراء فيه ...»

وقد فند رحمه الله شبهات القبورية ورد عليها في كتابه العقائد السلفية.

١٣- وقال الحافظ أبو شامة ٦٦٥ في كتابه الباعث على إنكار البدع والحوادث: «وبهذه الطرق وأمثالها - طرق الصوفية - كان مبادئ ظهور الكفر من عبادة الأصنام وغيرها». وقال : (ومما عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاكي أنه رأى مناما بها أحدا ممن شهر بالصلاح والولاية ويحافظون على ذلك مع تضييعهم الفرائض) .

وذكر رحمه الله جملة من شركيات أهل عصره.

١٤- وقال البيهقي رحمه الله في الأسماء والصفات: «ولا يصح أن يستعيذ بمخلوق من مخلوق».

١٥- وقال الإمام البغوي في شرح السنة: «ولم يكن النبي يستعيذ بمخلوق من مخلوق».

١٦- وقال الحافظ ابن حجر عن القرآن في فتح الباري: «لو كان مخلوقا لم يستعذ بها إذ لا استعاذة بمخلوق».

١٧- وقال الخطابي رحمه الله فيما نقله عنه السويدي الشافعي في العقد الثمين: «لا يستعاذ بغير الله أو صفاته .. والاستعاذة بالمخلوق شرك مناف لتوحيد الخالق لما فيه من تعطيل معاملته تعالى الواجبة له على عبيده».

١٨- وقال الذهبي رحمه الله فيما يفعل عند قبر نفيسة بنت الحسين في سير أعلام النبلاء: «ولجهلة المصريين فيها اعتقاد يتجاوز الوصف ولا يجوز مما فيه من الشرك ويسجدون لها ويلتمسون منها المغفرة وكان ذلك من دسائس دعاة العبيدية».

١٩- وقال النووي في شرحه لمسلم: «إنما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به فربما أدى ذلك إلى الكفر».

٢٠- وقال الرافعي في شرح منهاج النووي: «وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ فإن قصد الناذر تعظيم البقعة أو المشهد أو من دفن فيها فهذا النذر باطل غير منعقد».

٢١- وقال الشهرستاني الأشعري في الملل والنحل: «وطلبهم الحوائج منها إثبات الإلهية لها».

٢٢- وقال الرازي الأشعري في تفسيره: «اعلم أن الكفار أوردوا سؤالاً فقالوا نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين فنحن نعبدهم لأجل أن يصيروا أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الزمر:٤٣]. وتقرير الجواب: أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أو من أولئك العلماء الزهاد، والأول باطل لأن هذه الجمادات لا تملك شيئاً ولا تعقل. والثاني باطل لأن يوم القيامة لا يملك أحد شيئاً ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله فيكون الشفيع في الحقيقة هو الذي يأذن في تلك الشفاعة فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره» تفسير الرازي ٢٦/ ٢٨٥.

وقال أيضاً مقارناً بين شرك الأولين والقبورية والصوفية: «ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقادهم أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون لهم شفعاء عند الله»تفسير الرازي [١٧/ ٥٩].

وقال الرازي في تفسيره : (الدعاء أهم مقامات العبودية) .

وقال الرازي في تفسيره (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) : (أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله تعالى، ونظيره في هذه الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم إذا عظموا

قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله).

٢٣- وقال التفتازاني الشافعي الحنفي في شرح المقاصد: «شرك المشركين يقع إذا مات منهم من هو كامل المرتبة عند الله اتخذوا تمثالاً على صورته وعظموه تشفعاً إلى الله وتوسلاً ».

٢٤- وقال الجرجاني في شرحه على المواقف في الجزء الثامن: «والوثنية فإنهم لا يقولون بوجود إلهين ولا يصفون الأوثان بصفات الإلهية وإن أطلقوا عليها اسم الإله بل اتخذوها على أنها تماثيل الأنبياء والزهاد واشتغلوا بتعظيمها على وجه العبادة توصلاً بها إلى ما هو إله حقيقة».

ومن أقوال علماء المالكية:

٢٥- قال القاضي عياض في الشفاء : (كان الإمام مالك يكره الوقوف عند قبر النبي ﷺ للدعاء له أو الدعاء عنده كما كره لأهل المدينة التردد على قبره للسلام عليه كما كره أن يقال زرنا قبره ﷺ).

وقال : (كل مقالة صرحت بنفي الربوبية والوحدانية أو عبادة غير الله أو مع الله فهي كفر).

٢٦- قال القرافي في الفروق : (فينبغي للسائل أن يحذر هذه الأدعية لما تؤدي من سخط الديانة والخلود في النيران وحبوط الأعمال واستباحة الأرواح والأموال).

٢٧- قال ابن العربي في إحكام القرآن: «وأما من ادَّعى علم الكسب في مستقبل العمر فهو كافر».

٢٨- قال الإمام الطرطوشي المالكي ٥٢٠ : (فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها) .

٢٩- قال الإمام ابن عبد البر في التمهيد: «يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء الصالحين مساجد».

وقال: «لا يجوز الحلف بغير الله عز وجل وهذا أمر مجمع عليه».

٣٠- وقال الميلي رحمه الله في رسالته مظاهر الشرك: «وإذا قيل للناس إن هؤلاء الضرائح والمزارات من الأوثان قالوا إنكم تسبون الصالحين ..».

وقال: «إن الرزية كل الرزية .. وذلك ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص في أهل القبور وفي المعروفين بالصلاح من الأحياء من أنهم يقدرون على ما

لا يقدر عليه إلا الله فصاروا يدعونهم تارة مع الله وتارة استقلالاً .. ».

٣١- وقال ابن عاشور في التحرير: «أكبر الاعتداء الشرك إذ هو اعتداء على المستحق المطلق العظيم لأن من حقه أن يفرد بالعبادة اعتقاداً وعملاً وقولاً».

٣٢- وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: «الذين كفروا في هذا الموضع هم كل من عبد شيئاً سوى الله قال قتادة هم أهل الشرك خاصة».

ومن أقوال علماء الحنفية المنكرين للشرك :

٣٣- ما جاء في الفتاوى البزازية : (من قال أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر) ودعاء غير الله يستلزم اعتقاد ذلك .

٣٤- وفي الفتاوى الهندية وأصله منقول من كتاب مجموع النوازل : (والذي شاع في زماننا وكثير من نساء المسلمين يفعلنه هو أنهن في وقت طلوع الجدري للأطفال يفعلن صورة باسم ذلك الجدري ويعبدنها ويطلبن منها شفاء الأولاد ويعتقدن أن ذلك الحجر يشفي الأطفال فتلك النساء يصرن كافرات بهذا الفعل وبهذا الاعتقاد وبرضا أزواجهم بهذا الفعل يصيرون كفارا).

٣٥- قال قاسم بن قطلوبغا ٨٧٩هـ وتبعه ابن نجيم في البحر الرائق والرملي في الفتاوى الخيرية وعمر بن نجيم في النهر الفائض والحصكفي ١٠٨٨هـ في الدر المختار وابن عابدين في رد المحتار وغيرهم: «وأما النذر الذي ينذره أكثر العوام، فيأتي في بعض قبور الصالحين ويقول يا سيدي فلان إن قضيت حاجتي أو عوفي مريضي فلك من الذهب كذا .. فهذا النذر باطل لوجوه: منها أنه نذر لمخلوق والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عباده والعبادة لا تكون للمخلوق. ومنها إن ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى واعتقاده ذلك كفر».

٣٦- وزاد الحصكفي في درء المختار: «وقد ابتلي الناس بذلك ولا سيما في هذه الإعصار».

٣٧- قال ابن عابدين: «ولا سيما في مولد السيد أحمد البدوي».

٣٨- قال العلامة الخجندي في كتابه النفيس حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد وهو كتاب نافع وحجة على المشركين الحنفية الماتريدية وغيرهم: «إن من أعظم مكائد الشيطان على ابن آدم قديماً وحديثاً إدخال الشرك فيهم في قالب تعظيم الصالحين وتوقيرهم بتغيير اسمه بالتوسل والتشفع ونحوه فالمشرك مشرك شاء أم أبا ومن الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره .. ».

٣٩- وقال الألوسي في غاية الأماني: «وكذلك الغلو في بعض المشايخ بل الغلو في علي بن أبي طالب والمسيح ، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول يا سيدي فلان انصرني أو أغثني أو ارزقني أو أجرني أو أنا في حسبك ونحو هذه الأقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل».

٤٠- قال العيني في عدة القاري: «من ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس مفاتيح الغيب فقد كفر بالقرآن العظيم».

٤١- وقال العلامة السهسواني في كتابه الجليل صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان: «فقد اعتقدوا في الأموات ما اعتقده أهل الأصنام في أصنامهم بل هؤلاء القبوريون قد وصلوا إلى حد في اعتقادهم في الأموات لم يبلغه المشركون في اعتقادهم في أصنامهم..».

٤٢- وقال الإمام محمد البركوي ٩٨١ في كتاب زيارة القبور ، وأحمد الرومي ١٠٤٢هـ في مجالس الأبرار وسبحان بخش الهندي في خزينة الأسرار وإبراهيم السورتي في نفائس الأزهار والمظفري في مصباح المؤمنين وغيرهم: «فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بشجر وحجر ولهذا نجد كثيراً من الناس عند القبور يتضرعون ويخشون ويخضعونه ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلها في مساجد الله ومنهم من يسجد لها .. ».

٤٣- وقال صنع الله الحلبي الحنفي ١١٢٠هـ في كتابه سيف الله: «هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات (القبورية) يدعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم ويستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهم تكشف المهمات فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات .... ».

٤٤- وقال ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية حول ما سبق: «وهذا مفرق بين زنادقة القوم الصوفية القبورية وأهل الاستقامة».

٤٥- وقال الإمام ولي الله الدهلوي (١١٧٦هـ) في الفوز الكبير: «وإن كنت متوقفاً في تصوير حال المشركين وعقائدهم وأعمالهم فأنظر إلى حال القوم والجهلة من أهل الزمان كيف يظنون الولاية وماذا يخيل إليهم منها ويذهبون إلى القبور والآثار ويرتكبون أنواعاً من الشرك ... ».

وقال في الحجة البالغة : (ومنها أنهم كانوا يستعينون بغير الله في حوائجهم

ويتلون أسماءهم رجاء بركتهم فأوجب الله أن يقولوا في صلاتهم إياك نتعبد وإياك نستعين).

٤٦- وقال الإمام المجاهد إسماعيل الدهلوي (١٢٤٦هـ) في كتابه النفيس تقوية الإيمان وتبعه أبو الحسن الندوي: «اعلم أن الشرك قد شاع في الناس في هذا الزمان وانتشر ومن المشاهد اليوم أن كثيراً من الناس يستعينون بالمشايخ والحاصل أنه ما سلك عباد الأوثان في الهند طريقاً مع آلهتهم إلا وسلكه الأدعياء من المسلمين مع الأنبياء والأولياء ... ».

٤٧- وقال الشيخ الغلام شيخ القرآن في جواهر القرآن: «يندرج فيهم كل من أقر بالله تعالى وخالقيته مثلاً وكان مرتكباً ما يعد شركاً كيفما كان ، ومن أولئك عباد القبور الناذرون لها المعتقدون للنفع والضر ممن الله تعالى أعلم بحاله فيها وهم اليوم أكثر من الدود».

٤٨- وقال الشيخ محمد طاهر الفتني ٩٨٧هـ : (فإن منهم من قصد بزيارة قبور الأنبياء والصالحين أن يصلي ويدعو عندها ويسألهم الحوائج وهذا لا يجوز عند أحد من علماء المسلمين، فإن العبادة وطلب الحوائج والاستعانة حق لله وحده) مجمع بحار الأنوار ٢/ ٤٤٤.

ومن العلماء المنكرين للشرك أيضاً:

٤٩- الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني في كتابه تطهير الاعتقاد حيث قال: «إن من اعتقد في شجر أو حجر أو قبر أو ملك أو جني أو حي أو ميت أنه ينفع أو يضر أو أنه يقرب إلى الله أو يشفع عنده في حاجة من حوائج الدنيا فإنه قد أشرك مع الله غيره واعتقد ما لا يحل اعتقاده كما اعتقده المشركون في الأوثان ... ».

٥٠- وقال الإمام الشوكاني في كتابه الدر النضيد: «من اعتقد في ميت من الأموات أو حي أنه يضره أو ينفعه أو ناداه أو استغاث به .. وأن الدعاء نوع من العبادة وأن الشرك هو دعاء غير الله ...».

٥١- وقال الشيخ حسين بن مهدي النعمي ١١٧٨هـ في كتابه معارج الألباب: «إن دعاء المخلوق وقصده بذلك من متفاحش الظلم ومتبالغ الشرك ومنازعة في خاص حق الله».

٥٢- وقال الشيخ محمد صديق خان القنوجي في الدين الخالص: «فالدعاء هو التوحيد فمن دعا غير الله فقد أشرك ودعاء غيره شرك لا شك فيه».

وقال: «فمن استغاث بغيره في الشدائد ودعا غيره فقد كفر».

٥٣- وقال الشيخ عبد الله أبو بطين في الانتصار لحزب الله: «ومن العجب قول بعض من ينسب إلى علم ودين أن طلبهم من المقبورين والغائبين ليس دعاءً لهم بل نداء أفلا يستحي هذا القائل .. وقد سمي الدعاء نداء: إذ نادى ربه نداء خفياً».

وقال: «الاستغاثة بالنبي صدرت من كثير من المتأخرين ممن يشار إليهم بالعلم وقد صنف رجل يقال له البكري كتاباً في الاستغاثة ورد عليه ابن تيمية قال الشيخ ابن تيمية: "وقد طاف البكري على علماء مصر فلم يوافقه منهم أحد وطاف عليهم بجوابي الذي كتبته وطلب منهم معارضة فلم يعارضه أحد منهم مع أن عندهم بعض التعصب مالا يخفى ..» مجموع الرسائل [٢/ ٢٤٢].

٥٤- وقال الشيخ محمد بن ناصر الحازمي التهامي ١٢٨٣ في إيقاظ الوسنان: «فإذا رددنا ما تنازعنا فيه وقلنا بتحريم دعوة غير الله والاستغاثة به وجدنا القرآن ينادي بالنهي عن دعوة غير الله ... ».

٥٥- وقال العلامة الحسن بن خالد الحازمي وزير دولة الشريف حمود وأمير عسير الذي قتلته القوات المصرية والتركية القبورية الداعية للشرك في غزواتها لعسير سنة ١٢٣٤هـ : (من هنا تعلم أن من قصد غير الله بشيء من العبادة فقد ناقض كلمة لا إله إلا الله لعبادته لغيره وإن سماه بيا سماه فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه لا لاسمه ولفظه فمن سجد لمخلوق وقال هذا ليس بسجود له بل هذا خضوع وتقبيل للأرض بالجبهة للإكرام لم يخرج بهذه اللفظة عن كونها سجودا لغير الله ولو سماه بيا سماه وكذلك من تقرب بالذبح لمخلوق من جني أو آدمي أو دعاه أو استعان به أو تقرب إليه فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة بل سماه استخداما...) وكلامه هذا في كتابه قوت القلوب في توحيد علام الغيوب .

٥٦- وقال الشيخ حمد بن معمر: «من دعا ميتاً أو غائباً فقال يا سيدي فلان أغثني واكشف عن شدتي ونحو ذلك فهو كافر مشرك يستتاب فإن تاب وإلا قتل وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء» مجموع الرسائل [٤/ ٥٩٦] .

٥٧- ما اجتمع عليه العلماء في مكة وهم جملة من علماء الحجاز ونجد منهم القليعي مفتي الحنفية والمغربي مفتي المالكية وكتبوا رسالة البيان المفيد فيما اتفق عليه علماء مكة ونجد من عقائد التوحيد قالوا : « أن من قال يارسول الله أو يا عبد القادر أو غيرهم من المخلوقين طالبا بذلك دفع شر وجلب خير من كل ما لا يقدر عليه إلا

الله من شفاء المريض والنصر على العدو والحفظ من المكروه أنه مشرك الشرك الأكبر وإن كان يعتقد أن الفاعل المؤثر في تصريف الكون هو الله وحده لكنه قصد المخلوقين بالدعاء مستشفعا بهم ومتقربا لهم لقضاء حاجته من الله بسرهم وشفاعتهم له فيها أيام البرزخ... ».

٥٨- ورحم الله المنفلوطي حين تحسر على حال الأمة وما آلت إليه يقول رحمه الله في كتابه النظرات : «أي قلب يستطيع أن يستقر فلا يطير جزعاً حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر من المشركين إشراكاً بالله وأوسعهم دائرة في تعدد الإلهة وكثرة المعبودات .. ».

المسألة الثالثة عشرة: الشرك عند القبورية والصوفية:

أخرج عباد القبور أكثر أنواع العبادة من العبادة، وأنها لا تكون عبادة إلا مع اعتقاد الربوبية في المعبود فأنكروا أن يكون الدعاء والنذر والذبح وغيرها عبادات. فالشرك عندهم هو اعتقاد النفع والضر والتأثير في غير الله من الخلق . وبمعنى أوضح الشرك هو اعتقاد الربوبية لغير الله ونسبتها للمخلوق.

وإليك النقولات عنهم في ذلك:

قال أحمد زيني دحلان الصوفي الأشعري في الدرر السنية معرفاً الشرك: «فالذي يقدح في التوحيد هو اعتقاد التأثير لغير الله واعتقاد الألوهية واستحقاق العبادة لغير الله، وأما مجرد النداء من غير اعتقاد شيء من ذلك فلا ضرر فيه».

وقال محمد عبده الماتريدي في رسالته التوحيد: «فالإشراك اعتقاد أن لغير الله أثر فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين كالاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية ...».

وقال يوسف الدجوي الأزهري: «فقولهم أن التوحيد ينقسم إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية تقسيم غير معروف لأحد قبل ابن تيمية وما كان الرسول يقول لأحد دخل في الإسلام هناك توحيدان، ولا معنى لهذا التقسيم فإن الإله الحق هو الرب الحق .. ولا معنى لأن نعبد من لا نعتقد فيه أنه رب ينفع ويضر».

ثم جاء بعد ذلك بكلام يزعم فيه أن المشركين منكرون لتوحيد الربوبية ويرد على ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب تقسيم التوحيد زاعماً أن هذه من بدعهم.

ولم يعلم هذا وأمثاله من الجهال أن الربوبية والألوهية من الألفاظ التي تجتمع في المعنى وتفترق حسب اقترانها في اللفظ مثل المسكين والفقير ومثل الإيمان مع الإسلام والقضاء والقدر والإثم مع العدوان ومثل هذه المترادفات النسبية كثير .

وقال السمهودي في كتابه وفاء الوفاء بأخبار المصطفى: «اعلم أن الاستغاثة والتشفع بالنبي ﷺ وبجاهه وبركته من فعل الأنبياء وسائر السلف الصالح».

وقال ابن الحاج في المدخل: «ويستغيث بهم ويطلب حوائجه منهم».

ويقول: «فمن استغاث به أو طلب حوائجه منه فلا يرد ولا يخيب».

وقال محمد علوي مالكي الأشعري الصوفي القبوري في كتابه الشركي مفاهيم يجب أن تصحح: «إنه لا يكفر المستغيث إلا إذا اعتقد الخلق والإيجاد لغير الله».

ولا أطيل بكثرة النقولات الداعية للشرك الصريح والتي تحصر الشرك في الربوبية وتنكر وجود توحيد الألوهية من أئمة الضلال مما يندى له الجبين وتدمع له عين العليم على ما وصلت إليه أمة محمد ﷺ.

وبعد أن قررت عقيدتهم في حقيقة الشرك وقبله التوحيد والعبادة أريد أن أصور لك يا مبتغي الحق كيف وقع هؤلاء الصوفية الأشعرية والماتريدية وغيرهم في التناقض والشرك حتى في الربوبية فماذا سيقول عنهم هؤلاء القبوريين أمثال المالكي والنبهاني ودحلان وغيرهم؟

فبينما يصرحون أن الشرك في اعتقاد النفع والضر في المدعو وأن مجرد الدعاء ليس بشرك نجد أن من أتباع الأشاعرة والماتريدية من الصوفية القبورية من اعتقد النفع والضر في غير الله من الأموات الذين يدعونهم من دون الله، بل وصل بهم الغلو إلى اعتقاد أن هؤلاء الأولياء يتصرفون في الكون ويعلمون الغيب وهذا ما سأنقله عنهم من كلامهم بدون تصرف، وإني لأعلم أن صدرك سيضيق ويتحسر على واقع الأمة ولكن يعلم الله أني ما سطرت هذه السطور إلا نصحاً للأمة ونداء صادقاً لهؤلاء المنتسبين للإسلام وعلى رأسهم الأشعرية والماتريدية الذين يعتبرون السواد الأعظم في وقتنا والذين حرفوا الدين عن واقعه وفشت فيهم البدع والشركيات وعبادة غير الله نداءً لهم بالرجوع للدين والخوف من الله وإبراءً للذمة ومعذرةً إلى ربهم ولعلهم يرجعون وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن هذه الشركيات أعظمها وأقدمها قصيدة البوصيري والتي في مطلعها:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وقال الآخر:

يا رسول الإله إني ضعيف ... فاشفني أنت مقصد للشفاء

يا رسول الإله إن لم تغثني ... فإلى من ترى يكون التجائي

وقال الآخر يخاطب الرسول ﷺ:

يا ملاذي يا منائي يا معاذي يا مقصدي يا رجائي

يا نصيري يا عمدتي يا مجبري يا خفيري يا عدتي يا شفائي

وهذه الاستغاثات الشركية واعتقاد أن الرسول ﷺ يشفي ويعافي ويغني ويعلم الغيب ذكرها النبهاني في كتابه الشركي شواهد من الحق.

وقال النبهاني فيه: «إن المسلمين من أهل السنة والجماعة وهم جمهور الأمة المحمدية يعتقدون فيه ﷺ أنه يعلم الغيب ويعطي ويمنع ويقضي حوائج السائلين، ويفرج كربات المكروبين وأنه يشفع فيمن يشاء ويدخل الجنة من يشاء».

وقال القسطلاني الأشعري القبوري صاحب إرشاد الساري شرح صحيح البخاري في كتابه المواهب اللدنية: «فهو خزانة السر وموضع نفوذ الأمر فلا ينفذ أمر إلا منه ولا ينقل خير إلا عنه».

نعوذ بالله من هذا الكلام الخبيث، ولقد صدق محمود شكري الألوسي الحنفي في القسطلاني حيث قال فيه كما في غاية الأحكام: «كان القسطلاني من غلاة القبورية يثبت الواسطة الشركية قياساً لله عز وجل على ملوك الدنيا». كما تابع القسطلاني في بدعته الزرقاني صاحب شرح الموطأ في شرح المواهب.

وانظر لديوان الرحيم البرعي فإنه مليء بالشرك الأكبر حتى في الربوبية قال:

يا من يجود على الوجود بأنعم ... خضر تعم عموم صوب الصيب

يا عون من في الخافقين وغيثهم ... وربيعهم في كل عام مجدب

وبمثل هذه الأبيات قال جعفر صادق الميرغني مؤسس الطريقة الختمية.

وقال البريلوي الماتريدي في الاستمداد: «إن مفتاح الكون كلها في يد الرسول ﷺ وهو مالك الكل وهو الذي يملك كلمة كن».

وقال في الاستمداد أيضاً: «إن الرسول هو المبري من السقم والألم وهو

المحيي وهو الرافع للمعضلات والنافع للخلق وهو الحافظ الناصر ودافع البلاء».

وقال في الفتاوى الرضية: «إن الرسول متصرف في الأرض والسماء».

وقال القاضي الباني بتي الديوبندي الماتريدي: «إنه قد ينكشف على بعض الأولياء في بعض الأحيان اللوح المحفوظ فينظرون فيه القضاء المبرم والمعلق».

وقال حسين أحمد الماتريدي في الشهاب الثاقب: «إن الوهابية الخبيثة تستقبح قراءة قصيدة البردة ويجعلونها من الشرك كقول البوصيري يا أكرم الخلق ... ».

هذه أقوالهم الكفرية ومذاهبهم الشركية وكلماتهم المخزية والمخجلة، وما ذكرته من أمثلة ونقول عنهم فيه الكفاية وزيادة وفيه الدليل على وقوع كثير من الأشاعرة والماتريدية خصوصاً المتأخرين منهم ممن تلوث بالصوفية وأرائها الشركية في أصناف الشرك من دعاء الأموات والاستغاثة بهم والنذر لهم والذبح لهم والسجود لهم وللأوثان التي عند قبورهم والطواف بها واعتقاد النفع والضر فيهم بل وأعظم من ذلك القول بأن هؤلاء الأولياء والأموات يعلمون الغيب ويطلعون على اللوح المحفوظ ، ويتصرفون في الكون بل ويعافون ويرزقون ويحيون ويميتون نعوذ بالله من الكفر والضلال وقد قدمنا شيئاً من ذلك ونقلنا من كلامهم ومن كتبهم ولم نفترِ عليهم ولولا خوف الإطالة والسأم من كلام لا يقوله حتى مشركي العرب ولا اليهود والنصارى لسقنا المزيد من النقولات والكلام مما يحزن الغيور على الدين والله وحده المستعان وعليه التكلان[1].

---

(١) اعلم أن دعاة القبورية لم ينتهوا إلى هذا الحد ولا يحصرهم بلد أو زمان فمع أيامنا هذه ومع انتشار العلم والحق وقيام الحجة وتسلط الأعداء علينا مما يجعل المفترض رجوع من ضل إلى الحق والاجتماع وترك الشرك والافتراق وعبادة القبور إلا أن المشاهد والواقع غير ذلك فكل يوم يبرز لهؤلاء القبورية إمام يدعو إلى الضلال وأسأل الله لنا ولهؤلاء الهداية والصواب .

وإذا أردت أن تطلع على المزيد من كلام هؤلاء أو تتعرف على دعاة الشرك من المتنسبين لأهل العلم أو من له كتاب فيه الدعاية للشرك أو ترويج وسائله أو من كان فيه بعض بدع القبورية أو تأثر بهم فقد ذكرتهم في كتابي موقف المتكلمين والصوفية من توحيد الألوهية وكتاب نقض عقائد الأشاعرة والماتريدية .اعلم أن دعاة القبورية لم ينتهوا إلى هذا الحد ولا يحصرهم بلد أو زمان فمع أيامنا هذه ومع انتشار العلم والحق وقيام الحجة وتسلط الأعداء علينا مما يجعل المفترض رجوع من ضل إلى الحق والاجتماع وترك الشرك والافتراق وعبادة القبور إلا أن المشاهد والواقع غير ذلك فكل يوم يبرز لهؤلاء القبورية إمام يدعو إلى الضلال وأسأل الله لنا ولهؤلاء الهداية والصواب.

المسألة الرابعة عشرة: علاقة الربوبية والصفات بالدعاء وإثباتها به :

من دعا الله فقد أثبت له ربوبيته ووجوده وتصرفه في خلقه وقدرته الكاملة ومشيئته النافذة في كل شيء وأقر بعلوه وقهره وملكوته وقربه وعلمه بكل شيء ورحمته بخلقه ولطفه بهم ورزقه لهم وكرمه وجوده وقدرته عليهم وغناه عنهم وفقرهم وحاجتهم إليه، وإحاطته بهم وسماعه لهم ونظره إليهم وقيوميته عليهم وغير ذلك من صفات الجلال والجمال والكمال والعظمة .

وعليه فإن الدعاء من لوازمه ومقتضيات معناه :

أن يكون المدعو متصفاً بصفات الكمال والجلال والجمال والعظمة وأن يكون الداعي متصف بالإجلال والتعظيم لمدعوه وبالذل والفقر والخضوع له.

فالدعاء يجب لكل من يتصف بالكمال، فالكامل يجب أن يدعى ويرجى، ومن يدعى لابد وأن تكون فيه هذه الصفات الكاملة، ولما علم بالعقل والفطرة أنه لايوجد كامل غير الله لزم ذلك أن لا يعبد غيره ولا يدعى أحد سواه.

وأن من دعا غير الله فقد وقع في ذنبين:

الأول أنه عظم وعبد من لايستحق العبادة فرفع المخلوق لدرجة خالقه وشبه المخلوق بالخالق وأعطاه صفات الربوبية ودان له بالربوبية.

والثاني أنه انتقص الرب ﷻ وشبهه بخلقه في الضعف والنقص، فصار بذلك ظالم لنفسه بتذليلها وإخضاعها وإهانتها لمخلوق مثله مع تنقصه لخالقه.

ولهذا كان الدعاء أشرف العبادات وأعظم الطاعات المقربة إلى الله تعالى، وكان دعاء غير الله أعظم الظلم وأخبث الذنوب وأكبر الكبائر .

المسألة الخامسة عشرة: تضمن الدعاء لمعظم العبادات القلبية :

١- الخضوع والتذلل والخشوع والتضرع والافتقار والمسكنة والإطراح والإنكسار والابتهال والتواضع.

٢- الرجاء والرغبة فيما عند المدعو والطمع بتحقيق سؤاله وإجابته .

٣- تعظيم المدعو وإجلاله ومهابته وذكره .

٤- الخشية والخوف والرهبة من الحرمان وعدم الإجابة وإعراض المدعو عنه.

٥- الالتجاء إلى المدعو وقصده والتوجه إليه.

٦- محبة المدعو وتعلق الداعي به .

٧- التوكل على المدعو، والبراءة من الحول والقوة إلا به .

فائدة : علاقة التوكل بالدعاء :

أدرج المصنف الإمام محمد بن عبدالوهاب في النواقض التوكل ضمن هذا الناقض الذي هو الثاني شرك الدعاء مع أن التوكل عبادة قلبية يرجع إلى عمل القلب وهو داخل في الناقض الأول ناقض الشرك، وذلك في قوله رحمه الله :" من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ، ويتوكل عليهم ".

والحكمة من إيراد التوكل في الدعاء :

أولا: أن الدعاء سببه التوكل وهو منبي عليه وثمرة له، فغالباً من يدعو الله فهو متوكل عليه ومن لا يدعو الله تجده غير متوكل عليه .

ثانيا: أن التوكل ملازم للدعاء دائما فمن لا دعاء عنده لا توكل له ومن لا توكل له لا دعاء عنده ولو دعا اللسان من دون حضور القلب لما نفع .

وعليه فمن يدعو غير الله فهو لابد وأن يكون متوكل عليه ، فالدعاء والتوكل متلازمان سلباً وإيجاباً، فالداعي جامع بين السؤال والتوكل على المدعو في تحقيق المراد، والدعاء سببه التوكل فهو مبني عليه .

المسألة السادسة عشرة: خصائص الدعاء :

١- شموله لمعظم العبادات القلبية، وحضور القلب عند وتعلقه به.

٢- محبة الله له وأمره به وحثه عليه.

٣- أن فيه إثبات لربوبية المدعو وصفات الكمال وعز الربوبية .

٤- أن فيه تعظيم وإجلال من الداعي للمدعو .

٥- أن فيه افتقار وذل وانكسار وخضوع من الداعي وذل العبودية .

٦- عظم نفعه للداعي والمدعو له .

٧- أن تركه من الكبر الذي يكفر به صاحبه، وعقوبته تكون بإذلاله يوم القيامة وإدخاله في النار صاغرا كما أخبر ﷻ .

٨- كفر من صرفه لغير الله . فمن دعا غير الله في ما لا يقدر عليه إلا الله فهو كافر مشرك خارج من الإسلام .

٩- كراهية سؤال الناس مطلقاً حتى في الذي يقدرون عليه وذلك من كمال التوحيد .

١٠- أن الدعاء من الأسباب الشرعية التي يتحقق بها حصول المراد .

١١- أنه لا يعارض التوكل بل يقوم عليه، وليس من التوكل ترك الدعاء، كما تزعمه بعض الصوفية، ثم تناقضوا حين دعوا الأموات وتوكلوا عليهم.

١٢- أن الدعاء ووقوع الإجابة لا يعارض القدر والرضا به فهو من القدر وليس بخارج عنه .

١٣- أن الله يستجيب لمن دعاه فقد استجاب للكفار وإبليس حين دعوه وهذا لكمال كرمه وفضله وجوده .

١٤- أن الله لا يعبأ بمن لا يدعوه، ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ الفرقان: ٧٧ .

١٥- غضبه على المعرض عنه .

١٦- عدم تقيده بزمان أو مكان .

١٧- سهولته ويسره وعدم الكلفة والمشقة فيه.

١٨- أنه يقوي القلب ويعلقه بالله ويطرد عنه الخوف والهم وينمي التوكل والرجاء .

المسألة السابعة عشرة: آداب الدعاء وشروط قبوله :

للدعاء آداب كثيرة تحقيقها من كمال التوحيد من ذلك .

حضور القلب، الإلحاح في المسألة، الإخلاص، عدم الاستعجال، التوبة، التوسل بالأسماء الحسنى، الثناء على الله، رفع اليدين، استقبال القبلة، الطهارة، الصلاة على الرسول ﷺ، عدم الاعتداء في الدعاء أو الدعاء بالأثم وقطيعة الرحم، عدم التلبس بالحرام .

وكل هذه الآداب ليس هنا محلها فبحثها محله بكتب الرقائق والآداب .

المسألة الثامنة عشرة: تسمية الدعاء ديناً والمدعو إلهاً :

سمى الله تعالى الدعاء دينا وأمرنا بالإخلاص فيه قال تعالى:﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ غافر: ٦٥ ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥.

وهذا الدين قسمان :

دين حق قيم وهو دعاء الله وحده .

ودين باطل وهو دعاء غير الله ومن ذلك تسمية دعاء غير الله والشرك به ديناً .

كما سمى الله سبحانه المدعو إلهاً ومعبوداً كما تقدم .

المسألة التاسعة عشرة: أقسام الدعاء :

ينقسم الدعاء إلى : دعاء مسألة ودعاء عبادة .

قال تعالى : ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ غافر: ٦٠ .

قيل: أعبدوني أثيبكم ، وقيل: أسألوني استجيب لكم، والمعنيان صحيحان .

كما يكون الدعاء على هيئة ثناء وتوحيد وتعبد كدعاء الله بأسمائه وصفاته كدعاء يونس: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء: ٨٧.

ويكون بذكر الحاجة مباشرة مجردا عن ثناء على الله وذكر وتوحيد.

- وينقسم إلى دعاء بطلب حضوض الآخرة، ودعاء بطلب حضوض الدنيا .

- وينقسم إلى دعاء واجب وهو دعاء الله، ودعاء شركي وهو دعاء غير الله في ما لا يقدر عليه إلا الله ، ودعاء جائز .

- وينقسم إلى دعاء عبادة وهو المتضمن التذلل والخضوع والتعظيم، ودعاء العادة وهو دعاء المخلوق فيما يقدر عليه من دون تذلل ولا تعظيم وهذا جائز.

- وينقسم إلى دعاء بصيغة إنشائية طلبية ودعاء بصيغة خبرية.

- وينقسم إلى دعاء بالمقال ودعاء بالحال

- وينقسم إلى دعاء باللسان ودعاء بالقلب .

فمن الناس من يدعو بلسانه وقلبه، ومنهم من يدعو بلسانه فقط وأما قلبه فمنشغل بغير الدعاء، ومنهم من يدعو بقلبه وحاله دون لسانه، وأكمل الحالات الأولى.

- وينقسم إلى دعاء رغبة وجلب خير ودعاء رهبة ودفع ضر .

- وينقسم إلى دعاء بالصريح وطلب بالتلميح كدعاء أيوب ﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ الأنبياء: ٨٣ ، فبيّن حاله وضعفه وأثنى على الله بسعة رحمته ولم يصرح منه بالطلب كقول: اللهم عافني .

ومثله يونس في دعائه بيّن حاله وصفة ربه وأثنى عليه .

المسألة العشرون: أحكام الدعاء :

١ - الدعاء التعبدي الواجب: وهذا ركن في الدين يجب فيه التوحيد وتارك الدعاء بالكلية كافر ، فدعاء الله واجب يأثم من يعرض عنه ولا ينظر الله للعبد ولا يعبأ به إذا ترك دعاءه، وتارك الدعاء داخل في الإلحاد ، ومن الدعاء الواجب دعاء الصلاة في التشهد وغيره.

٢- الدعاء المحرم: وهو دعاء الله بالإثم وقطيعة الرحم .
٣- الدعاء المباح: وهو الدعاء بمصالح الدنيا، ودعاء المخلوق في أمر يقدر عليه .
٤- الدعاء البدعي: وهو دعاء الله بالتوسل المبتدع أو قصد دعاء الله في مكان مخصوص لم يثبت به النص أو يدعى فيه غيره أو دعاء الله بألفاظ مبتدعه.
٥- الدعاء الشركي الكفري: وهو دعاء المخلوق في أمر لا يقدر عليه إلا الله .

المسألة الحادية والعشرون: تارك دعاء الله :

دعاء الله تعالى واجب ، ويغضب الله ممن يترك دعائه كما صح بذلك الحديث ، عن أبي هريرة مرفوعاً : (من لم يدع الله يغضب عليه) أحمد والترمذي .
وفي لفظ : (من لم يسأل الله يغضب عليه) الترمذي وغيره.
ومن ترك دعاء الله بالكلية فهو كافر غير مسلم، لأن تاركه تارك للعبادة خارج عنها مستكبر معرض عن طاعة ربه، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠ .
وقال النبي ﷺ في عبدالله بن جدعان أنه في النار لأنه ما قال: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين .
وقال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٠.

المسألة الثانية والعشرون: ضابط الدعاء الشركي وأقسامه :

يكون بدعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، وهو قسمان :
الأول : الطلب من الميت أو الغائب ودعائه وسؤاله.
الثاني : الطلب من الحي في ما لا يقدر عليه إلا الله كأفعال الربوبية إنزال المطر والرزق والعافية.

المسألة الثالثة والعشرون: شروط جواز دعاء المخلوق :

١- أن يكون المخلوق حياً حاضراً يسمع .
٢- أن يكون قادراً على ما طُلب منه فلا يكون خارجاً عن قدرة الخلق .

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ القصص: ١٥.

فإذا طلب من المخلوق حال موته أو غيابه أو سأله الشفاعة عند الله كل ذلك أمور غير مقدور عليها بالنسبة للمخلوق المدعو، كذا لو طلب من حي أمر لا يقدر عليه كان ذلك من الشرك .

فائدة : طلب الشفاعة من الرسول ﷺ يوم القيامة هو من جنس سؤاله أن يستسقي حال حياته .

الرابعة والعشرون: كراهية السلف أن يطلب منهم الدعاء :

ومن ذلك كراهية حذيفة وأنس وغيرهم طلب الدعاء منهم .

قال ابن رجب : (وقد كان عمر وغيره من الصحابة والتابعين يكرهون أن يطلب منهم الدعاء ، ويقولون: أنبياء نحن؟ فدل على أن هذه المنزلة لا تنبغي إلا للأنبياء وكذلك التبرك بالآثار) الحكم الجديرة ٤٦ .

وإذا كان هذا في حياتهم فكيف بالسؤال الشركي المحرم بعد موتهم .

فائدة : الرسول ﷺ طلب من أمته أن تدعو له وكذا طلب سليمان من ملئه الإتيان بعرش ملكة سبأ من باب الأمر وليس السؤال والحاجة، وهذا من باب أمرهم وليس سؤالهم والافتقار إليهم وإنما الله أمره بذلك، والمشركون عكسوا الأمر فطلبوا من الرسول مالا يملكه في حياته فضلاً عن بعد موته .

قاعدة : أمر الله رسوله أن يدعو للمؤمنين ويستغفر لهم ولم يأمر العباد أن يدعونه من دون الله ولا يسألونه شيئاً بل كره لهم كثرة السؤال ونهاهم عنه وحذرهم منه وأمرهم بالتوجه له تعالى كما في قوله ﷺ : (وإذا سألت فسأل الله) وإذا كان هذا في السؤال المباح فكيف بالسؤال الشركي المحرم والطلب فيما لا يقدر عليه إلا الله .

المسألة الخامسة والعشرون: ترك سؤال الناس مطلقاً من كمال التوحيد:

ترك سؤال الناس هو الأصل والموافق للفطرة، لأن كل مخلوق حاجته عند ربه الذي خلقه وهو العالم بما يصلح له ويحتاجه وهو القادر وحده على تحقيق حوائجه، وهذه الصفة غير موجودة في أي مخلوق كان، لذا وجب أن يسأل كل عبد ربه كل حوائجه وأن يترك سؤال المخلوقين مطلقا، وهذا يحمل المرء على التعلق بالله في كل

شؤونه وأن يكون اعتماده وتوكله عليه وافتقاره إليه، وهذا ما يريده ربنا منا وهو الذي خلقنا لأجله ألا وهو تحقيق عبادته .

ومما يدل على كراهة سؤال الناس وأن الأصل فيه التحريم :

وصية الرسول ﷺ لابن عباس : (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) رواه الترمذي .

كما أنه بايع ﷺ بعض أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً ، حتى إن الواحد منهم يسقط سوطه وهو على راحلته فلا يقول لمن بالأرض ناولني إياه وإنما ينزل بنفسه ليأخذ سوطه .

وهذا في حديث عوف بن مالك : لما بايعه أسر له ألا تسألوا الناس شيئا . قال الرواي : كان إذا سقط سوط أحدهم لا يقول لأحد من الناس اعطني سوطي. رواه مسلم .

وقول الرسول ﷺ: (إن الله كره لكم ثلاثاً) وعدّ منها كثرة السؤال متفق عليه.

فمن كمال التوحيد أن لا يسأل العبد الناس شيئاً.

حديث ثوبان : من يتكفل لي بشيء وأكفل له الجنة قال ثوبان : أنا قال لا تسأل الناس شيئا .

وقال النبي ﷺ : (من سألنا أعطيناه ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا) رواه أحمد.

وقال النبي ﷺ : (ولا يسترقون) متفق عليه.

وقال النبي ﷺ : (لا تزال المسألة بأحدهم حتى يأتي ليس في وجهه مزعة لحم) متفق عليه .

وقال ﷺ : (لا تحل المسألة إلا لذي غرم مفظع أو دم موجع أو فقر مدقع) رواه أبو داود والنسائي والترمذي .

ونحوه عند حديث : إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة ، وفيه من أصابته جائحه بدل الدم.

فبدل مشركو زماننا قولاً غير الذي قيل لهم حيث طلبوا وسألوا الناس أحياء وأمواتا كل شيء، ثم زعموا أن سؤال الناس أكرم وأفضل وأحب إلى الله وأن ذلك من تعظيم دينه وتوقير أوليائه .

المسألة السادسة والعشرون: صور الدعاء البدعي المحرم :

١- تحري دعاء الله عند القبور وأماكن الشرك .

٢- التوسل إلى الله بذات المخلوق أو الجاه أو الحق .

٣- الأحزاب والأوراد الصوفية المبتدعة .

٤- الدعاء بالإثم وقطيعة الرحم .

المسألة السابعة والعشرون: صور الشرك في دعاء غير الله ﷻ :

١- دعاء الأموات من الأولياء والأنبياء ، كقول النصارى: يا عيسى اشفع لنا عند الله، وكقول مشركي هذه الأمة: يا نبي الله اشفع لنا عند الله، والشفاعة يا محمد أو أغثني يا رسول الله، ومثله دعاء أصحاب القبور .

وكل هذا شرك في الألوهية ويلزم منه الشرك في الربوبية .

٢- يا نبي الله أغفر لي وارزقني وأنزل المطر وانصرنا على الأعداء ، وهذا شرك في الربوبية صريح .

٣- يا نبي الله أدع الله لي واستغفر لي عند الله ، وهذا شرك أكبر في الألوهية .

٤- يا الله ويا محمد أعطنا ، وهذا أيضاً شرك أكبر .

٥- دعاء الجن والملائكة فيقول يا جن أفعلوا وأتركوا ويا ملائكة السماء أرفعي فلان واخسفي بفلان ، وهذا أيضاً شرك أكبر .

٦- دعاء الإنسان الحي الغائب الذي ليس بحاضر مما يقدر على فعله لو كان حاضراً وهذا شرك أكبر كقول يا فلان أنقذني من الغرق .

٧- دعاء الحي الحاضر فيما لا يقدر عليه كأن يقال: يا فلان أنزل المطر ونلتمس منك الرزق ورد الموت عنا.

المسألة الثامنة والعشرون : المخالفات في باب الدعاء :

١- دعاء غير الله .

٢- الإعراض عن دعاء الله .

٣- اعتقاد أن الدعاء لا ينفع ولا يضر وأن مخالف للقدر والرضا والتوكل وأنه ليس بسبب شرعي ومن هؤلاء الصوفية والمعتزلة .

٤- الدعاء البدعي والمحرم ، وذكرنا صوره .

المسألة التاسعة والعشرون: الحكمة من إجابة دعاء المشرك عند القبر :

قد يأتي المشرك ويدعو صاحب القبر فتستجاب لـه دعوتـه وهـذه الاسـتجابة ليست إلا لحكم منها :

١- ابتلاء من الله وامتحان حيث يستجيب الله لهذا الداعي لغيره ابتلاءً.

٢- قد يكون الله ﷻ استجاب دعاء هذا المشرك لأنه وجد في قلبه التجـاء مـع دعاءه الشركي فقد يدعو الله دعاء فيه إلحاح والتجاء وصدق واضـطرار فيـستجيب الله دعاءه، كما قـال تعـالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥.

٣- أن رحمة الله ومقتضى قيوميتـه أن يعطـي خلقـه مـسلمهم ومـشركهم مـا يحتاجون إليه .

٤- أنه قد تأتي الشياطين فيوقعون ما يريده الداعي فيتوهم أن ذلك حصل من فعل ذلك الولي، وبسبب ذلك القبر، بـل قـد يتـسبب الجان في عـدم حـصول أمـر كالحمل مثلا ثم يسولوا لهذا المشرك أن يدعوا وليا من الأولياء فإذا دعاه تركوا المنـع فيحصل الحمل فيظن المشرك أن ذلك بسبب استجابة دعاء الولي .

كذلك تكلم الشيطان على لسان الأصنام والأموات لفتنة المشركين، وهذا من التزيين والاستمتاع الذي أخبر الله تعالى به عنهم .

إلا أن مع هذا كله لا يحصل للمشرك من تحقيق ما دعاه غير الأمور الحقيرة أما الأمور العظيمة فلا تقضى ألبته.

الثلاثون: دعاء غير الله أصل شرك العالم ودين جميع المشركين:

كل الأمم وقعت في شرك الدعاء ومخاطبة غير الله مـن المخلـوقين واسـتعاذوا بهم، سواء كان المدعو من الأموات وهذا الأصل أو من الملائكة أو الجن أو النـار أو الكواكب والنجوم والشمس والقمر أو الأشـجار والأحجـار والأصـنام والأوثـان والتماثيل أو صور لهؤلاء.

فائدة : دين المشركين وملتهم هو الشرك بالله بوضع الوسائط بيـنهم وبـين الله لتشفع لهم بزعمهم .

قال ابن القيم في المدارج: (ومن أنواع الشرك : طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم وهذا أصل شرك العالم فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عمن استغاث به وسأله قضاء حاجته) .

الحادية والثلاثون: لماذا حصل الشرك في الدعاء، ولماذا دعا المشركون غير الله؟

قياس المشركين الرب ﷻ على ملوك الدنيا في الشفاعة .

وذلك أن كل شرك حصل من الأولين والآخرين بدعاء غير الله تعالى لأنهم قاسوا الملك الجبار سبحانه وتعالى بملوك الأرض، فظنوا أنه كما أن للملوك الأرض حجاباً ووسائط وشفعاء يوصلون لهؤلاء الملوك دعاءهم وشفاعتهم وطلباتهم وحوائجهم لأنفسهم، فكذلك الله ﷻ مثل الملوك المخلوقين، فصاروا يتخذون بينهم وبين الله ﷻ وسيطاً يقربهم إلى الله ويشفع لهم فيما يريدون، وهذا في الحقيقة هو ظن سيء بالله ﷻ وافتراء على الله الكذب وقدح في الله وعدم تقديره، إذ كيف يشبه مالك الملك ﷻ مالك الرقاب بعبيده المخلوقين من تراب ويشبه من له الغنى المطلق بالفقير المسكين المحتاج .

ثم إن ملوك الأرض محتاجون لشفاعة الشافعين وذلك لجهلهم وعدم معرفتهم وإحاطتهم بما هو تحتهم ولعجزهم وعدم قدرتهم على تصريف أمور ممالكهم بأنفسهم ، أما الملك الحق ﷻ فليس بمحتاج لذلك، فهو لا يغيب عن علمه شيء وليس له مكره فيما يعطي ويؤتي، وهذا بعكس هؤلاء الملوك فإنه يشفع عندهم الشافع ويدعون من غير أن يستأذنوا، فيوصلوا إليهم طلباتهم ويعرفوا ماذا يريدون لعدم علمهم ولجهلهم ولعدم قدرتهم ولعدم إطلاعهم على من خلفهم، وهذا لا يكون في الله ﷻ بل هو تعالى يطلب منه مباشرة .

الثانية والثلاثون:لماذا كان دعاء غير الله أعظم الذنوب:

الحكمة في ذلك لأن فيه مساواة بين الخالق والمخلوق ، حيث يضع المشرك ربه ﷻ الملك الحق بمنزلة الملك البشري المخلوق الفقير المحتاج الجاهل بمن خلفه، فشبه الله سبحانه مالك الملك بملوك الأرض الذين يخفى عليهم الشيء الكثير ويخفى عليهم ما دونهم ويجهلونه . وتقدمت هذه المسألة في الناقض الأول .

المسألة الثالثة والثلاثون: مفاسد دعاء غير الله وما فيه من قبائح :

١- أن فيها التجاء وتوجه وافتقار لغير الله .

٢- أن فيها إهانة العبد لنفسه حين يترك عبادة الله إلى عبادة مخلوق مثله.

٣- تضييع لمعنى العبودية لله التي هي أشرف صفات العبد وأعلى مقاماته .

٤- أن فيه هضم لحق الربوبية وإبطال لمقتضياتها وترك تعظيم الرب وسؤاله .

٥- نسبة الألوهية للمخلوق ووصفه بالربوبية والكمال واستحقاق للعبادة .

٦- تنقص جناب الربوبية وذلك بترك عبادته لأن غيره أنفع وأقدر وأجوب.

٧- أن فيها شكاية الرب الرحيم على المخلوق، وكأن حال الداعي يقول تركنا دعاء الله لعدم فائدته ولجئنا إلى من يرحمنا ويقدر على كشف ضرنا ويعلم بحالنا.

٨- أن فيه إساءة الظن بالله وعدم تقديره.

٩- أن فيه تشبيه الخالق بالمخلوق وذلك باعتقاد أنه محتاج لواسطة تشفع عنده، كما أن فيه تشبيه المخلوق بالخالق وذلك بأعطائه صفات الألوهية وأنه يدعى.

١٠- أن دعاء وعبادة غير الله من الشرك المخرج عن الإسلام والكفر البواح .

١١- تفويت الخير من الله والثواب وإجابة المطلوب .

١٢- خسران رضا الله تعالى والجنة وإيجاب سخطه والنار.

١٣- أن من دَعا غير الله فقد عظم وخضع وذل وأنكسر وافتقر لمخلوق مثله، لأن الداعي يقبل على مدعوه بقلبه ووجه رغبة إليه ورهبة منه ورجاء له.

١٤- من دعا غير الله ﷻ فإنه لم يعط الله تعالى حقه في اسمه الرحيم والعليم والقدير ولم يعط هذه الأسماء حقها .

١٥- أن دعاء غير الله تعالى واعتقاد أن هذا مما أمر الله به وشرعه في غاية الافتراء والكذب على الله ﷻ وهو من أشنع الظلم والعدوان والافتراء على الله ﷻ . وعدم تقدير الله سبحانه وفيه سوء أدب مع الله ﷻ وغير ذلك من اللوازم الشنيعة.

١٦- أن في دعاء الأولياء والصالحين وطلب الشفاعة منهم عدوان عليهم فمن دعا الرسول ﷺ أو غيره فقد اعتدى عليه وهذا عدوان وظلم للمدعو، ولذلك كل مدعو يتبرأ من المشركين به، فهذا عيسى يتبرأ من عباده ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ المائدة: ١١٧، والملائكة تتبرأ من عابديها ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ سبأ: ٤٠ - ٤١.

الرابعة والثلاثون: بطلان وفساد وضياع كل عبادة ودعوة سوى دعوة الله:

وصف الله ﷻ المعبودين المدعوين من دون الله وعابديهم الداعين لهم وحال الدعاء بصفات تنبئ عن بطلان وخسارة أعمالهم وأنهم خسروا الدنيا والآخرة ولم يستفيدوا شيئاً لا استجيب لدعائهم ولم يسلموا من الكفر والشرك .

فأثبت الله ﷻ بطلان وضياع دعائهم وتشفعهم، وأن ضرره أقرب من نفعه، وبين أوجه الضر فيها وهي كثيرة . كما وصف حال المعبود المدعو بأنه لا يستجيب ولا يسمع ولا يملك شيئاً وأنه مخلوق وأنه غافل أو ميت، ووصفهم الله بأنه ليس لهم إذن في الشفاعة وليس لهم ملك ولا مشاركة ولا إعانة، وأنهم لا ينفعون ولا يضرون ولا يغيرون ما قدره الله وأنهم يصيرون أعداء لهم يوم القيامة ويتبرؤون من عبادتهم، كما وصف الله ﷻ الداعي بالخاسر الغير مستفيد والضائع الهالك، وهذه الصفات تجعل دعاء غير الله في بطلان وخسارة وضياع فيجب تركه عقلا وشرعا .

المسألة الخامسة والثلاثون: الفرق بين الطلب من الخالق والطلب من المخلوق:

١- أن صلاح الإنسان وحاجته وفرحه وسعادته في لا إله إلا الله، فهي كلمة التوحيد ودعوة الحق، وبالتوجه لله وحده تحصل اللذة والسكون والاطمئنان بذكره، وليس في الكائنات ما يشبع هذه الغريزة في العبد حتى ولو وجد نوع من اللذة والمودة في التعلق بغير الله فهو مفسدة لصاحبه قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء: ٢٢ ففساد الآلهة والمعبودات الباطلة الظالمة من جهة الألوهية والربوبية معاً. وصلاح الإنسان بربه وتلذذه باتصاله به وحاجته وفقره لربه دائمة لا تنقطع بخلاف المخلوق فربما يتلذذ ويستصلح بالقرب منه تارة ويتأذى منه تارة أخرى ولهذا قال الخليل ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ الأنعام: ٧٦.

٢- أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا هدى ولا ضلال ولا نصر ولا خذلان بل ربه هو الذي خلقه ورزقه فإذا مسه ضر لم يكشفه غيره ولا ينفعه المخلوق ولا يضره إلا بإذن الله وهذا الوجه أظهر من السابق ولهذا خوطب الناس به في القرآن أكثر من السابق وجعل هذا طريقاً لذلك . وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به ودعاءه دون غيره ومحبة الله وعبادته .

٣- أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه كالتضرر بالطعام إذا زاد عن قدره وكذا من أحب شيئا لغير الله فإن مضرته أكثر من منفعته ويوم القيامة يتعادى

الأخلاء، وحزن العبد إذا فاته ما يحب مضرة له فصارت المخلوقات وبالاً عليه إلا الله وهذا يحقق معنى حديث (الدنيا ملعونة).

٤- أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من المخلوق نفسه فما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب ظنه فيه ولا استنصر بالمخلوق إلا خذله ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ مريم: ٨١ - ٨٢ ، وهذا بخلاف عبادة الله والاستعانة به فإن فيها غاية النفع بالعبد وصلاحه وكفايته فمن توكل على الله واستعان به كفاه .

٥- أن إحسان الرب لعبده لكمال كرمه ورحمته وليس للرب مصلحة في ذلك ونفع له تعالى، وهذا بخلاف المخلوق فإنه لا ينفع أحدا ولا يحبه إلا لرجاء نفع من الله أو من ذلك المخلوق ومن تدبر ذلك منعه أن يرجو المخلوق أو يطلب منه شيئاً .

٦- أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجتهم بك وإن كان ذلك ضرر عليك فإن صاحب الحاجة لا يطلب إلا قضاء حاجته .

٧- أنه إذا أصابك مضرة فالخلق لا يقدرون على دفعها إلا بإذن الله، ولا يقصدون دفعها إلا لغرض لهم في ذلك، فلو حاول الخلق أن ينفعوك أو يضروك لم يفعلوا ذلك إلا بأمر قد كتبه الله عليك وبإذن الله، فلا تعلق بهم رجاءك وخوفك .

جماع ما سبق أنك إذا كنت غير عالم بمصلحتك ولا قادر عليها ولا مريد لها كما ينبغي، فغيرك من الناس أولى أن لا يكون عالماً ولا قادراً ولا مريداً وأن تكون أجهل بحال غيرك وأعجز عن نفعه، والله سبحانه وحده هو العالم القادر المتفضل بإنعامه وعطائه ولذلك جاء دعاء الاستخارة . وكل مخلوق لا يتحرك إلا بإرادته ولابد له من مراد يريده ولا يحصل المراد إلا بأسباب . فالعبد مجبول على قصد الشيء وإرادته والاستعانة بكل ما يحصل مراده .

فصل : حقيقة الشفاعة وشرك الشفعاء

المسألة الأولى : تعريف الشفاعة :

الشفع ضد الوتر والفرد، بمعنى الزوج والاقتران والجمع والضم والطلب .
والاستشفاع : طلب الشفاعة . سميت شفاعة لمشاركة الطالب بعد أن كان وحده.

وفي الاصطلاح : طلب الخير للغير والسؤال في التجاوز عن الذنوب .

أو هو التوسط للغير بجلب نفع أو دفع ضر .

المسألة الثانية: أدلة الشفاعة :

أدلة الشفاعة من كتاب الله الكريم :

وقد ورد موضوع الشفاعة في أربعٍ وعشرين آية .

أولاً : أدلة شروط الشفاعة :

١ - قال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٥٥.

٢ - قال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ النجم: ٢٦.

٣ - قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ طه: ١٠٩.

٤ - قال تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ الأنبياء: ٢٨.

٥ - قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ سبأ: ٢٣.

٦ - قال ﷻ: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ يونس: ٣.

ثانياً : أدلة الشفاعة المنفية :

٧ - قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ الأنعام: ٥١.

٨ - قال تعالى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ غافر: ١٨.

٩ - قال: ﴿ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ البقرة: ٢٥٤.

١٠ - قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة: ١٢٣.

١١ - قال تعالى: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ السجدة: ٤.

١٢ - قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ المدثر: ٤٨.

١٣ - قال تعالى: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ الأعراف: ٥٣.

ثالثاً:نفي الشفعاء وبطلان شفاعتهم وإثبات الشفاعة لله وأنها ملك لله وحده:

١٤- قال تعالى:﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ الزمر: ٤٤.

١٥- قال:﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ الروم: ١٣.

١٦- قال تعالى:﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ يس: ٢٣.

١٧- قال تعالى:﴿ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴾ مريم: ٨٧، فالشفاعة لا يملكها أحد سوى الله ﷻ ولاتحصل إلا لأهل التوحيد وهو العهد المقصود في الآية، وحصولها لهم لا يلزم ولا يدل على أن لهم ملكاً فيها.

١٨- قال تعالى:﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ الزمر: ٤٣، وهذا سؤال استنكار يفيد نفي الشفاعة وأن الشفعاء الذين اتخذهم المشركون لا يملكونها.

١٩- قال:﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ الزخرف: ٨٦، وهذا استثناء منقطع يفيد أن الشفاعة لا يملكها أحد، ولا ينافي ذلك إذنه فيها للبعض فإن شفاعتهم من غير أن يملكوها وإنها بعد أذن الله، فيكون المستثنى بقوله إلا من شهد بالحق حصول الشفاعة لا ملكها، وهذا ما رجحه ابن تيمية، وقيل الاستثناء متصل ومعناها لا يملك أحد الشفاعة وينالها لا الشافع ولا المشفوع له إلا من يشهد بالحق الذي هو التوحيد ،والأول هو الصحيح.

انظر الفتاوى ١٤/ ٤٠٩.

ويتبين من الآيات السابقة أن الله ﷻ لما أخبر أن الشفاعة ملك لله وحده وكان المشركون يريدون الشفاعة من غيره عاملهم الله ﷻ بنقيض قصدهم من جميع الوجوه فحرموا الشفاعة لأن طريقها الوحيد هو التوحيد والإيمان الحق بلا إله إلا الله قولاً وعملاً.

أدلة الشفاعة من السنة المطهرة:

١- عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قلت يا رسول الله : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ: (لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه) رواه البخاري.

٢- حديث الشفاعة الطويل المتفق عليه عن أبي هريرة وفيه قال ﷺ : (فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي أمتي) ، وفي رواية : (فيأتونني ، فأستأذن على ربي فيؤذن لي ، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله فيقول لي) .

وفي بعض ألفاظ حديث الشفاعة بسند ضعيف : (فأقول يارب وعدتني الشفاعة) .

٣- حديث أبي سعيد الخدري الطويل في شفاعة الشافعين في أهل النار وفيه: (فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين) متفق عليه .

٤- وعنه في مسلم : (أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل) .

٥- عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ... وأول شافع وأول مشفع) رواه مسلم .

٦- عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ : (لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً) رواه مسلم .

٧- حديث عوف بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة ، فهي نائلة من مات لا يشرك بالله شيئاً) رواه الترمذي .

٨- عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) رواه أبو داود والترمذي .

٩- حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وفيه قال ﷺ : (من سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة) رواه مسلم .

١٠- قال النبي ﷺ: (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا) وقال : (يا فاطمة بنت رسول الله سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً) رواه مسلم.

١١- حديث جابر ﷺ قال رسول الله ﷺ : (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي) ومنها : (وأعطيت الشفاعة) رواه البخاري ومسلم.

المسألة الثالثة : كلام أهل العلم في الشفاعة الشركية :

قال ابن تيمية : (الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة فليس توليهم والاستشفاع بهم هو الذي يوجب أن يشفعوا، فليس أحد ممن يُدعى يملك الشفاعة ولكن من شهد بالحق وهو يعلم، فإن الله يشفع فيه، فالذي تنال به الشفاعة الشهادة بالحق وهي التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله، فلا تنال بتولي غير الله ولا دعاؤه فمن والى أحداً ودعاه وقرب له القرابين ليشفع له لم يغن ذلك عنه من الله شيئاً وكان من أبعد الناس عن شفاعته وشفاعة غيره ، فإن الشفاعة إنما تكون لأهل التوحيد ومن تولى أحداً من دون الله فهو مشرك . فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين ليشفعوا لهم ودعوهم من دون الله كانت عبادتهم إياهم ودعاؤهم وإشراكهم بربهم الذي به طلبوا شفاعتهم به حرموا شفاعتهم وعوقبوا بنقيض قصدهم لأنهم أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً) بتصرف الفتاوى ١٤/ ٤١٢ .

وقال القرطبي في تفسيره لآية سبأ (ولا تنفع الشفاعة): (الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام ، إلا أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة).

قال الرازي في تفسيره ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ : (أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله تعالى، ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله) .

قال ابن القيم في النونية :

وله الشفاعة كلها وهو الذي ... في ذاك يأذن للشفيع الداني
لمن ارتضى ممن يوحده ولم ... يشرك كما قد جاء في القرآن

ولابن القيم كلام نفيس متناثر في باب الشفاعة في إغاثة اللهفان ومدارج السالكين والجواب الكافي سنورده في مواضعه .

المسألة الرابعة: أركان الشفاعة :

١- الشفاعة : وهي الفعل نفسه والطلب الذي يقوم به الشافع.

٢- الشافع (الشفيع والمشفّع) وهو الطالب والمتوسط .

٣- المشفوع له : وهو صاحب الذنب وطالب الشفاعة المنتفع بها .

٤- المشفوع عنده وإليه: وهو المتصرف في الأمر والمالك للعقوبة والعفو عنها والحاكم بالتوبة والقابل للشفاعة .

٥- المشفوع فيه : وهو الذنب الذي استحق فاعله عليه العقوبة، أو الطاعة وعمل الخير الذي يرجو أن يثاب عليه وتقبل منه .

المسألة الخامسة: مذاهب الفرق في الشفاعة :

الناس فيها طرفان ووسط على ثلاثة أقوال :

القول الأول: إن الشفاعة جميعها منفية إلا النزر القليل اليسير ؛ فنفوا الشفاعة للعصاة يوم القيامة فالرسول ﷺ لا يشفع في العصاة فمن عصى الله ﷻ فهو خالد مخلد في النار لا يخرج منها ولا يشفع فيه شافع، وهذا قول الخوارج والمعتزلة والزيدية وغيرهم ممن ذهب إلى مذهب الوعيدية فهؤلاء غلوا في إنكارها .

القول الثاني: من غلا في إثباتها وجعل الشفاعة مطلقة في الدنيا وفي الآخرة، فأثبت الشفاعة لمحمد ﷺ في الدنيا وأثبت الشفاعة لغيره من الأولياء من غير أن يأذن الله ومن دون أن يرضى ؟

وهذا مذهب الصوفية والرافضة والقبورية.

الثالث: وهو قول من توسط بين هؤلاء ، وهم أهل السنة والتوحيد الذين لم ينفوا الشفاعة بالكلية ، ولم يثبتوها بالكلية بل توسطوا فيها فأثبتوها بشروط وإذا انتفت الشروط انتفت الشفاعة ، فقالوا : الشفاعة تثبت بإذن الله ورضاه يوم القيامة.

المسألة السادسة: أقسام الشفاعة : باعتبارات :

١- تنقسم الشفاعة إلى شفاعة لجلب خير وشفاعة لدفع شر .

فالأولى في قبول الحسنات والتقريب ، ومن أنواع الشفاعة الصحيحة المتعلقة بها الشفاعة في دخول الجنة ورفعة الدرجات فيها .

ويدل لهذا القسم قوله تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣.

والثانية في تكفير السيئات والتجاوز عن الذنوب وهي المعنى الأخص للشفاعة ، ومن أنواعها الشفاعة في الخروج من النار أو عدم دخولها .

ويدل لهذا القسم قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨.

٢- كما تنقسم الشفاعة إلى شفاعة مثبتة وشفاعة منفية .

٣- شفاعة في الدنيا وشفاعة في الآخرة .

٤- الشفاعة عند الله والشفاعة عند الناس .

وتنقسم الشفاعة إلى :

١- شفاعة مخلوق عند مخلوق : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ النساء: ٨٥ . وقال ﷺ: (اشفعوا تؤجروا) رواه مسلم .

٢- شفاعة الخالق عند المخلوق وهذه غير موجودة وأنكر الرسول ﷺ على من أثبتها واعتقد وجودها.

٣- شفاعة المخلوق عند الخالق وهي قسمان مثبتة ومنفية .

ولها أنواع من جهة طلبها :

١- أن تطلب من الله وهذا جائز ، اللهم شفع رسولك فينا .

٢- أن تطلب من الرسول ﷺ زمن حياته وهذا جائز وقد ثبت ذلك عن أنس.

٣- أن تطلب من الرسول ﷺ بعد موته وهذا الكفر الأكبر .

٤- أن تطلب من الرسول ﷺ يوم القيامة وهذا جائز إن رضي الله ﷻ، وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس يطلبون من الرسل الشفاعة في الموقف وأن ناساً من أمته من العصاة من مانعي الزكاة يسألونه الشفاعة يوم القيامة فلا يغني عنهم شيئا.

السابعة : الشفاعة المثبتة والمنفية :

الشفاعة المثبتة : تطلب من الله ﷻ بإذنه ورضاه وهي خاصة لأهل التوحيد.

الشفاعة المنفية : وهي التي تطلب من غير الله أو تطلب من الله لكن بدون إذنه ورضاه ، وقد ذكرها الله ﷻ في آيات في مثل قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ البقرة: ٢٥٤.

الثامنة : ضابط الشفاعات التي نفاها الله ﷻ وأقسامها :

أن تطلب الوسائط المخلوقة وتدعى من دون الله لتقرب الداعي إلى الله وتشفع له عنده سبحانه في جلب نفع أو دفع ضر . ومن ذلك ما يفعله عباد القبور المشركون من طلب الأموات أن يشفعوا لهم ويتقربون بهم إلى الله تعالى.

والشفاعة المنفية المحرمة لها قسمان :

القسم الأول: الشفاعة الشركية أن تطلب من غير الله ﷻ.

القسم الثاني: أن تطلب من الله ﷻ لكن بغير إذنه ولا رضاه ، يعني لا يتوفر فيها شروط الشفاعة .

ومن صور الشفاعة المحرمة : الدعاء للمشرك والكافر ، ومن هذا الباب نهى الله نوحاً عن الدعاء لابنه وإبراهيم لأبيه ومحمدا ﷺ من الدعاء لأمه وعمه ولأبي ابن سلول .

المسألة التاسعة : الشفاعة في الدنيا بين الناس :

الشفاعات بين الخلق في الدنيا الأصل فيها قوله تعالى : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ النساء: ٨٥.

ويقول الرسول ﷺ: (اشفعوا تؤجروا ويقض الله على لسان نبيه ما أحب) رواه مسلم .

وتحرم الشفاعة في الحدود إذا بلغت السلطان يدل لذلك حديث عائشة في البخاري في المرأة المخزومية التي سرقت فشفع فيها أسامة فقال النبي ﷺ : (أتشفع في حد من حدود الله) .

المسألة العاشرة : أنواع الشفاعة المثبتة عند الله يوم القيامة :

١- الشفاعة العظمى لأهل الموقف لفصل القضاء وهي التي يقوم بها سيد ولد آدم محمد ﷺ ، وهي المقام المحمود .

٢- الشفاعة في استفتاح باب الجنة لأهلها وهي خاصة بالرسول ﷺ أيضاً .

كما صح في الحديث الذي عند مسلم : (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستشفع، فيقول الخازن: من أنت فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك) .

٣- الشفاعة في تخفيف العذاب وهذه خاصة بالرسول ﷺ وفي عمه أبي طالب فقط. ويدل لها ما جاء في الصحيحين عن العباس أنه قال : يارسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: نعم، هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار) وقال فيه لعله تنفعه شفاعتي فيجعل في ضحضاح يغلي منه دماغه) ، وفي مسلم أنه أهون أهل النار عذابا.

٤- الشفاعة في أقوام من الموحدين من أهل الكبائر ممن دخلوا النار أن يخرجوا منها لحديث : (شفاعتي في أهل الكبائر من أمتي) رواه أبو داود والترمذي.

٥- الشفاعة في أقوام استحقوا النار أن لا يدخلوها .

وهذا النوع ورد فيه بعض الأحاديث الضعيفة .

قال ابن القيم في تهذيب السنن : (هذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه) ٧/ ١٣٤ .

وقد أثبت هذا النوع ابن تيمية وغيره، انظر الفتاوى ٣/ ١٤٧ .

٦- الشفاعة في دخول الجنة بلا حساب ، كما شفع الرسول ﷺ في عكاشة بدعائه له أن يكون منهم حتى صار منهم ، وحديثه في الصحيحين.

٧- الشفاعة في رفع درجات أقوام من أهل الجنة .

ويدل له قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ الطور: ٢١ .

ودعاء الرسول ﷺ لأبي سلمة أن يرفع درجته في المهديين، والحديث في مسلم، وكدعائه لأبي عامر أن يرفعه يوم القيامة على كثير من الخلق، كما في الصحيحين.

والشفاعات الأربعة الأخيرة عامة وليست خاصة بالرسول ﷺ بل يقوم بها المؤمنون والملائكة .

٨- الشفاعة في أهل الأعراف ومن تساوت حسناته وسيئاته .

واستدل ابن حجر في الفتح لهذا النوع بحديث عند الطبراني : (الظالم لنفسه وأهل الأعراف يدخلونها بشفاعة النبي ﷺ) ، والحديث ضعيف .

المسألة الحادية عشرة : شروط الشفاعة :

الشفاعة لا تقبل عند الله، وتصير داخلة في الإيمان والتوحيد إلا بشرطين :

١ – الشرط الأول : الإذن من الله تعالى للشافع ودليله قوله تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ البقرة: ٢٥٥.

٢ – الشرط الثاني : رضا الله تعالى عن الشافع وعن المشفوع له ودليله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ النجم: ٢٦.

وهذه الآية جمعت بين الشرطين الإذن والرضا .

فالشفاعة لا تتم إلا بإذن من الله ﷻ ، وهذا الإذن راجع إلى الله وإلى ربوبيته وفعله فإذا أذن وشاء أن يشفع أحد عنده شفع ولا يأتي بهذه الشفاعة إلا من أذن الله له ولا يشفع لأحد إلا إذا كان موحداً، فأسعد الناس بالشفاعة هو الموحد وهو من قال : لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه ، كما في حديث أبي هريرة ، فالشفاعة يوم القيامة بأنواعها كلها يوجد فيها شرط (الإذن من الله والرضا) ، الشفاعة الكبرى العظمى شفاعة الرسول ﷺ به في أهل الموقف والشفاعة في دخول الجنة وفتح باب الجنة للناس وشفاعة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب، والشفاعات الأخرى كالشفاعة في رفع الدرجات في الجنة وفي ناس يدخلون النار أن يخرجوا منها وناس كتب عليهم دخول النار ألا يدخلوها وأقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم أن يغفر الله لهم وغير ذلك من أنواع الشفاعات يوم القيامة لا تخرج كلها عن إذن الله ورضاه .

المسألة الثانية عشرة : الإذن في الشفاعة متعلق بالشرع والقدر :

١ – **الإذن القدري** : مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ البقرة: ١٠٢ والأذن هنا كوني قدري وليس بشرعي .

٢ – **الإذن الشرعي** : ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ الأحزاب: ٤٦ ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ الشورى: ٢١ وهذا إذن شرعي.

وقوله تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ البقرة: ٢٥٥.

والإذن هنا شرعي وقدري أي أنه لا أحد يشفع عنده قدراً وكوناً ولم يأذن به لأنه لم يشأه ويقدره، كما أنه لم يأمر به ولا أباحه ولا شرعه ديناً.

فائدة : الرضا لا يكون إلا شرعي مثل المحبة .

أقوال الناس في الإذن :

١ – أهل التوحيد قالوا الشفاعة لا تكون إلا بأذن الله القدري والشرعي معاً ومن يشفع بدون إذنه كما هو حال المشركين فإن الله لم يأذن في هذه الشفاعة شرعاً أي

لم يبحها ولم يقدرها ويريدها قدراً ولم يخلقها فكأنها لم تحصل ولم تكن فهي منفية كالمعدومة .

٢- المشركون والصوفية : قالوا: إن الشفعاء يشفعون بالأذن القدري وإن لم يأذن لهم شرعاً فيها ولم يبحها ويجوزها، فالله لم يردها شرعاً ولكن أرادها قدراً .

٣- من قال: إن الشفاعة الشركية أذن الله فيها قدراً وشرعاً ومن ردت شفاعته فالله لم يأذن فيها لا شرعاً ولا كوناً وهؤلاء هم الجبرية .

٤- من قال: الله لم يأذن في الشفاعة قدراً لأنه لم يخلقها ولا يخلق أفعال العباد وهذا قول القدرية منكري الشفاعة .

٥- من يقول الله لم يأذن في الشفاعة لا قدراً ولا شرعاً والشفعاء يشفعون عنده بغير إذن قدري ولا شرعي ويقول ذلك كثير من النصارى المكذبين بالقدر .

فإن قيل: يوجد شفعاء شفعوا عند الله بدون أذنه الشرعي، وهو خالق لفعلهم فيكون ويلزم بذلك أنه أذن لهم قدراً مثل شفاعة إبراهيم في أبيه ونوح في ابنه ومحمد ﷺ في ابن سلول .

وأنتم تقولون: إن الأذن في الشفاعة يعم النوعين فإنه لو أراد الأذن القدري فقط لكان كل شفاعة داخلة في ذلك كما يدخل كل كفر في إذن الله القدري لكونه قدرها ، ولم يكن هناك فرق بين الشفاعة التي ما تكون بإذنه والشفاعة التي لا تكون بأذنه فكلها حاصلة بقدر الله .

وإن أراد الأذن الشرعي فقط للزم قول القدرية السابق .

وهؤلاء الأنبياء شفعوا بدون إذن الله الشرعي مما يدل على أن شفاعتهم حصلت بأذن الله كوناً وقدراً .

والجواب : الشفاعة مقصودها قبول المشفوع إليه شفاعة الشافع وعفوه عن المشفوع له وهذه الشفاعة التامة وهي التي لا تكون إلا بأذنه . أما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته كانت كعدمها وكان على صاحبها التوبة والاستغفار كما قال نوح : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ هود: ٤٧ عليه فشفاعة من ذكرتم لم يقدرها فهي في حكم المعدوم .

ولابن تيمية كلام في المسألة في الحسنة والسيئة وقاعدة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والشرك ودقائق التفسير.

الثالثة عشرة : الفرق بين الشفاعة عند الخالق والشفاعة عند المخلوقين :

الأول : أن الشفاعة عند الله ﷻ لا تحصل إلا بإذنه ورضاه وما هذا إلا لكماله.

أما الشفاعات عند المخلوقين فقد تحصل الشفاعة بدون إذنهم ولا رضاهم .

وهذا عمدة الفروق ومرجعها حيث ترد كل الفروق الباقية إليه .

فالله ﷻ لا يقبل شافع عنده إلا بإذنه، وهذا من تمام ملكه، ويقبل الشفاعة من غير رجاء لأحد أو خوف من أحد، وهذا بعكس غيره فيشفعون للناس فيقبل ملوك الأرض شفاعة الشفعاء إما رغبة في خير لهم أو رهبة أو خوف، وهذا دليل على نقصهم وضعفهم، فكيف تسوى بعد ذلك الشفاعتان شفاعة الله وشفاعة المخلوق، فتطلب من الله الشفاعة كما تطلب من ملوك الأرض، وما هذا إلا من عظم الظلم .

الثاني: البشر والملوك محتاجون للشفاعة إما لجهلهم برعاياهم أو لعجزهم وعدم قدرتهم بتدبير أمورهم أو لقسوتهم فيحتاجون من يسترحمهم ويستعطفهم .

أما الرب ﷻ فليس محتاجاً إلى أحد وكل الخلائق يصمدون إليه بحوائجهم .

الثالث : قد يكره المخلوق على الشفاعة وتحصل بدون رضاه واختياره وذلك لقوة الشافع ومهابة الملك له أو لمحبته له أو غير ذلك.

أما الرب ﷻ فلا يخاف من أحد ولا يرجو ما عند أحد وهو العلي الكبير ويرجع هذا للفرق الأول .

الرابع: أن الشفاعة والشافع والمشفوع له كل ذلك ملكاً لله تعالى، أما المشفوع عنده من ملوك الدنيا فليست الشفاعة ملك لهم ولا أيضا الشافع بل هم شركاء فيها ليست ملكاً لأحد منهم .

الخامس : أن الشفاعة عند المخلوق مؤثرة والشافع مؤثر وآمر فيها وله تأثير في تحصيلها، بخلاف الشفاعة عند الخالق ﷻ فالشافع ليس آمراً ولا مؤثراً فيها وإنما هو مأمور من الله بالشفاعة عبداً عنده وهو مجرد سبب .

قال ابن القيم: (الفرق بين الشفاعتين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور والخالق والمخلوق، وسر الفرق بين الشفاعتين أن شفاعة المخلوق للمخلوق وسؤاله للمشفوع عنده لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده لا خلقا ولا أمرا ولا إذنا بل هو سبب محرك له من خارج كسائر الأسباب وقد تكون الشفاعة مع كراهية المشفوع عنده وعدم رضاه عنها ويقبلها كرها. فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم فإن قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم. وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه فانه ما لم

يخلق شفاعة الشافع ويأذن له فيها ويرضى لم يمكن أن توجد، والشافع لا يشفع عنده لا لحاجة الرب إليه ولا رهبة منه ولا رغبة فيما لديه وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره فهو مأمور بالشفاعة فالرب هو الذي يحرك الشفيع) بتصرف الإغاثة ٢٤٦.

السادس : أن الله سبحانه وتر والمخلوق شفع .

فالشافع كأنه آمر وفاعل ومؤثر مع المشفوع عنده، أي أن له تأثير في الطلب والأمر، فكأن الشافع جزء من المشفوع عنده والمشفوع له ويمثل مكانهما، فالشافع يشفع المشفوع عنده والمطلوب منه وينضم معه في أمره وكأنه مشارك له في الحكم والعفو، كما أنه يشفع المشفوع له .

بخلاف الرب عز وجل فهو وتر وهو وحده الحاكم الآمر لم يشفعه أحد، ولم يشاركه الشافع في الحكم، وهذا الفرق بين الشفاعة عند الله والشفاعة عند البشر .

من اجتهاد ابن تيمية رحمه الله وأخذه من المعنى اللغوي وسنذكر هذا الفرق بشيء من البيان والإيضاح .

قال ابن تيمية: (الشفيع (الشافع) كما أنه شافع للطالب شفاعته في الطلب (أي طالب الشفاعة وهو المشفوع له) ، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه، فبشفاعته صار المشفوع إليه فاعلاً للمطلوب ، فقد شفع الطالب والمطلوب (وهما المشفوع له الذي طالب منه الشفاعة،والمشفوع عنده المطلوبة منه الشفاعة) والله تعالى وتر لا يشفعه أحد فلا يشفع أحد إلا بإذنه ، فالأمر كله إليه وحده فلا شريك له بوجه) الفتاوى ١٤/ ٣٨١ .

توضيح هذا الفرق :

أن الشافع بمنزلة المشفوع له والمشفوع عنده(الملك) معا، داعماً لهما شفعهما واقترن بهما بشفاعته .

وذلك أن الفعل والطلب والأمر المشفوع فيه حصل بتأثيره، ووقع بتأثير مشترك من الشافع والمشفوع عنده، وليس بأمر المشفوع عنده وحده، فلولا الشافع لما كان المشفوع عنده، فاعلاً للمطلوب والمشفوع فيه، ولما حصلت الشفاعة ولا حصل ووقع المطلوب والأمر المراد تحصيله، إلا بفعل وتأثير مشترك بين أثنين: الشافع والمشفوع عنده .

وهذا لا يمكن أن يقال في حق الله تعالى فهو الفاعل وحده ولا تحصل الشفاعة إلا بأمره وأذنه ورضاه وحده، والشافع عنده إنما هو مجرد سبب .

أما الشافع عند المخلوق فله تأثير واشتراك في الفعل، فالفعل لم يحصل ولم يتم المطلوب إلا بتأثيره ، فهو في الحقيقة فاعل للمطلوب، فبشفاعته حصل المطلوب حقيقة، لأن فعل الشفاعة حصل بفعل اثنين الشافع والمشفوع عنده، وهو أحدهما .

فالشافع عند البشر شفاعته مقترنة بالطالب والمطلوب، مؤثرة في الفعل المطلوب ، فكأن الشافع جزء من المشفوع له وأحد المشفوع لهم أي أنه مشفوع له كذلك هو جزء من المشفوع عنده والمطلوب منه الشفاعة فهو بذلك أحد الفاعلين .

وعليه فالشافع شافع للطالب الذي هو المشفوع له في طلبه، وشافع أي فاعل مؤثر في المطلوب منه الذي هو المشفوع عنده (من ملك أو غيره) فهذا معنى كون المخلوق شفع، أما الله عز وجل فهو وتر لا يمكن أن يكون الشافع فاعلاً معه أو مؤثراً وإنما مجرد سبب .

المسألة الرابعة عشرة : أسباب احتياج ملوك الدنيا للشفاعة في الدنيا :

١- لجهلهم بأمور مملكتهم وعدم علمهم بحال المشفوع له ومصلحته .

٢- عجزهم وعدم قدرتهم على نفع الناس إلا بالشفاعة فلا يستطيعون القيام بأمور مملكتهم لوحدهم فيحتاجون للمعين .

٣- لقسوتهم وعدم رحمتهم فيحتاجون من يستعطفهم ويرغبهم ويبين لهم المصلحة في الشفاعة .

٤- لأمر خارج عنهم ومن ذلك مثلاً خوفهم ومهابتهم للشافع أو المشفوع له أو مكانة الشافع وجاهه أو لمحبتهم له وطاعتهم له أو لرغبتهم إليه ورجائهم له واحتياجهم إلى هؤلاء الشفعاء لتدبير أمورهم وتحقيق مصالحهم .

أما الرب ﷻ وتقدس فليس فيه شيء من ذلك ومن أثبت الشفعاء عنده فقد استلزم ذلك إثبات هذه الصفات بالرب وكان فاعلها وطالب الشفاعة من المخلوقين عند الله من أعظم المشركين والقادحين في كمال الرب ولذلك قال ﷻ بعد أن زعم المشركون أن الأولياء والمعبودات تشفع لهم عند الله: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يونس: ١٨ ، فإثبات الشفاعة تستلزم إثبات النقص والجهل لله .

المسألة الخامسة عشرة : الشفعاء عند الله ﷻ يوم القيامة :

١- الملائكة .

٢- الرسل والأنبياء .

٣- المؤمنون .

لحديث : (فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين) متفق عليه .

٤- الشهداء حيث صح عند أبي داود وغيره : (يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته) .

٥- شفاعة أولاد المؤمنين ممن مات قبل البلوغ كما جاء في صحيح البخاري وغيره : (ما من الناس مسلم يموت له ثلاثة من الولد) .

٦- شفاعة كلام الله القرآن لأصحابه ، قال النبي ﷺ : (إقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابة) رواه مسلم من حديث أبي أمامة.

٧- شفاعة الصيام لأهله ، لحديث : (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام : أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعني فيه ، فيشفعان) أخرجه أحمد والحاكم عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً.

المسألة السادسة عشرة: هل الرب عز وجل يشفع :

في الحديث المتفق عليه يقول تعالى: (فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين).

وفي رواية عند البخاري (وبقيت شفاعتي) .

فالله عز وجل يرحم ويغفر ويتوب ويعفو وأما الشفاعة فهي عنده وملك له فيشفع عنده بأمره وإذنه ولا يشفع عند أحد تبارك وتعالى .

لكن قد يقال في هذه الرواية يتصور شفاعة الله عند نفسه وهي من جنس ماورد في الدعاء الذي رواه مسلم : (اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك) ، (برحمتك أستغيث).

قال ابن القيم:(الشفاعة لمن له الملك فهو الذي يشفع لنفسه عند نفسه ليرحم ، فيأذن لمن يشاء أن يشفع فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له) الإغاثة ٢٤٦.

المسألة السابعة عشرة : الاستشفاع بالله على خلقه :

الله لا يشفع لمخلوق عند مخلوق فهو رب الجميع ومالكهم، والله إذا أراد أن يعفوالمخلوق مظلوم عن ظالمه، عرض له من الثواب ما يجعله يعفو وليست هذه شفاعة، وقد غضب الرسول ﷺ لما قال له الرجل نستشفع بالله عليك ، وجاء الكلام عنها في الوسائط . ومثلها الإقسام على الله .

المسألة الثامنة عشرة : أسباب الحصول على الشفاعة :

١- التوحيد لحديث أبي هريرة في البخاري : (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه).

٢- قراءة القرآن .

٣- الصيام .

٤- سؤال الله الوسيلة للرسول ﷺ والدعاء بما ورد بعد الآذان .

٥- سكن المدينة والصبر عليها والموت بها ، فعن أبي سعيد يرفعه : (لا يصبر أحد على لأوائها فيموت بها إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة) رواه مسلم.

٦- كثرة الصلاة على الرسول ﷺ.

٧- صلاة أربعين رجل على الميت أو ثلاثة صفوف.

٨- كثرة السجود .

وقد وردت الأحاديث في هذه الأسباب وتقدمت .

تنبيه : بطلان فضل زيارة قبر الرسول ﷺ وضعف الأحاديث الواردة فيها .

أورد أهل البدع أحاديث تحض على زيارة قبره ﷺ وأنها موجبة لشفاعته والصحيح أنها كلها موضوعة أو ضعيفة.

المسألة التاسعة عشرة : موانع حصول الشفاعة يوم القيامة :

١- الكفر والشرك، ومن الكفر طلب الشفاعة من الأموات والرسول ﷺ بعد موته ولذلك لم تقبل شفاعة إبراهيم في أبيه ونوح في ابنه ومحمد في أمه وعمه .

٢- اللعن وفي الحديث : (إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة) رواه مسلم .

٣- المرجئة والقدرية من أهل البدع : لحديث أنس (صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة المرجئة والقدرية) رواه الترمذي وفي سنده ضعف .

٤- غش العرب: (من غش العرب لم يدخل في شفاعتي) رواه الترمذي .
٥- الإمام الظالم الغشوم الغاش لرعيته : (رجلان لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة إمام غشوم عسوف، وآخر غال في الدين مارق عنه) رواه ابن أبي شيبة .
٦- المكذب بالشفاعة لقول أنس ﷺ : (من كذب بالشفاعة فليس له فيها نصيب) أخرجه الآجري في الشريعة وسعيد بن منصور.

المسألة العشرون: السر في حرمان المرجئ والقدري من الشفاعة يوم القيامة :

أما القدري فلكونه يكذب بالشفاعة في أهل الكبائر لأنه يرى أنهم كفار مخلدون في النار بالكبائر التي اقترفوها فاستحق أن لا يكون له نصيب من الشفاعة لكونه مكذب بها كما قال أنس ﷺ.

أما المرجيء : فلأنه ترك العمل وأخرجه من الإيمان واستخف بالأوامر والشريعة وضعف في قلبه تعظيم الدين والانقياد والاستسلام وطمع في الشفاعة دون أن يأتي بأسبابها فكان عقابه من جنس عمله أن يمنع من هذا الفضل العظيم الذي لم يعمل له عملاً ولا استعد له بسبب شرعي صحيح والله تعالى أعلم .

الحادية والعشرون: المشركون الذين طلبوا الشفاعة من الأموات اتكلوا عجزا:

أرادوا ترك الأعمال وطمعوا في ثواب بلا عمل صالح، فلجئوا إلى الشفاعة .

الثانية والعشرون : الشفاعة ملك لله تعالى ولا ينافي ذلك الإذن بها :

ومعنى أنها ملك لله تعالى أي خاصة به وله وحده، فهو المالك لها لا يشاركه أحد فيها ، وليس لأحد أن يشفع للخلق عنده إبتداءاً من دون استئذانه تعالى.

ومما يدل على أن الشفاعة لا يملكها غير الله قوله ﷻ : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ الزمر: ٤٤، ﴿ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ مريم: ٨٧، ﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ الزخرف: ٨٦، ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ الزمر: ٤٣.

فالخلق لا يملكون الشفاعة وهذه عقيدة أهل التوحيد في الشفاعة أنها ملك لله وحده لا يملكها أحد ولا يتصرف فيها غيره ، وليس لأحد أن يشفع عنده إلا بعد إذنه ورضاه مما يدل على أن الشافع مأذون له في الشفاعة وليس بمالك لها واللام في قوله ﴿ لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ للملك والاستحقاق فهي ملك لله وحق له وحده .

وأما قوله: ﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ فإن هذا استثناء منقطع يفيد أن الشفاعة لا يملكها أحد ، ولا ينافي ذلك إذنه فيها

للبعض فإن شفاعتهم من غير أن يملكوها وإنها بعد أذن الله، فيكون المستثنى بقوله إلا من شهد بالحق حصول الشفاعة لا ملكها ، وهذا ما رجحه ابن تيمية كما تقدم.

قال ابن تيمية : (فأما إذا أذن لـه في أن يشفع لم يكن مستقلا بالشفاعة بل يكون مطيعاً له أي تابعا له في الشفاعة) الفتاوى ١/١١٨ .

قال ابن القيم: (فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض فهو الذي يشفع لنفسه عند نفسه ليرحم عبده، فيأذن لمن يشاء أن يشفع فيه فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾، فأخبر أنه ليس للعبد شفيع من دونه، والشفاعة بأذنه ليست شفاعة من دونه ولا الشافع شفيع من دونه بل شفيع بأمره وإذنه ... الشفاعة كلها له وحده وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بأذنه فإنه ليس بشريك بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم لبعض) الإغاثة: ٢٤٦ .

وشفاعة الرسول ﷺ يوم القيامة عند الله فإنها لا تكون إلا بإذن الله له ابتداء ولا يشفع أي شافع الرسول وغيره ابتداءاً، ولذلك لا يشفع الرسول ﷺ حتى يسجد ويحمد الله، ثم يقول الله وتعالى له يا محمد ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع، فالله تعالى أمره بالشفاعة ابتداءا ثم هو يقول أمتي فيشفع لنا نسأل الله من فضله.

فتأمل هذا فهو رأس التوحيد فلم يقل الرب لمحمد ﷺ ماذا تريد ويقول أريد الشفاعة، بل الله الذي يأمره بأن يشفع فهذا معنى كون الشفاعة ملك لله وتحت إذنه لمن شاء أن يشفع إذا رضي عنه وعن المشفوع، وقد لا يرضى فلا تقبل الشفاعة .

ومما يدل أن الله الذي يأمره بأن يشفع وأن يشفع في خلق معينين حديث أبي سعيد الخدري في مسلم : (حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم) .

وحديث أنس في الشفاعة في مسلم : (اشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي، ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة) .

وحديث: (ربي قوم من أمتي قد أمرت بهم إلى النار، قال فيقول:انطلق فأخرج من شاء الله أن تخرج) وفي سنده إسماعيل بن عبيد تُكلم فيه ووثقه الدارقطني .

ولو أراد الرسول ﷺ الشفاعة وطلب من الله أن يشفع لأحد فإنه لن يفعل ذلك إلا إذا أذن الله له ، ألا ترى أن الله ﷻ قد رد شفاعة الرسول ﷺ حين شفع ودعا لابن سلول حين صلى عليه يوم مات، كذلك لم يؤذن له في الاستغفار لأمه، وكذا إبراهيم في أبيه ونوح في ابنه، بل لامهم الله على شفاعتهم، وكل هذا يقطع بأن الشفاعة ملك لله، وإذا كان هذا حال أفضل الخلق فكيف بغيرهم ومن دونهم،

وكيف بعد هذا يقول من يقول من مشركي هذه الأمة أن الرسول ﷺ يشفع ويملك الشفاعة والله أعطاه مطلق الشفاعة ابتداءً فنطلبها منه مباشرة .

ومن الأدلة الدالة على أن الشفاعة تكون بأمر الله ولا ينالها إلا من شاء الله وأن أفضل الخلق وأعلاهم منزلة وأعظمهم مكانة عند الله قد ردت شفاعتهم في مواضع:

قوله ﷺ: (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا) (يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً) رواه مسلم.

وقوله ﷺ: (لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك) . رواه البخاري ومسلم .

وقول الله تعالى له مخبرا بأنه لن يقبل شفاعته وناهيا له عن الشفاعة :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ التوبة: ٨٠.

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ المنافقون: ٦.

ولما أراد الرسول ﷺ أن يستغفر لأبي طالب نهاه الله ونزلت عليه الآيات في سورة التوبة وقال له تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ التوبة: ١١٣

وقال ﷺ : (استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي) رواه مسلم.

كما لام الله نوحا لما أراد أن يشفع في ابنه وعاتبه : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ هود: ٤٦ - ٤٧ .

كما أنكر على إبراهيم لما أراد أن يشفع لأبيه ويستغفر له: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ التوبة: ١١٤

بل إنه لا يقبل شفاعته فيه حين يشفع فيه يوم القيامة: فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم : يارب أنت وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله عز وجل: إني حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال انظر ما تحت رجليك، فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار) . رواه البخاري .

المسألة الثالثة والعشرون : شفاعة الرسول يوم القيامة عند الله :

شفاعة النبي يوم القيامة عند الله ﷻ لا تكون إلا بإذن الله له ابتداء ولا يشفع أحد عنده ابتداء، ولذلك لا يشفع الرسولﷺ حتى يسجد ويحمد الله، ثم يقول الله له يا محمد اشفع تشفع، فالله ﷻ أمره بالشفاعة ابتداء، فلم يقل الرب لمحمد ﷺ ماذا تريد ويقول أريد الشفاعة، بل الله الذي يأمره بأن يشفع فهذا معنى كون الشفاعة ملك لله وبإذنه كما تقدم.

المسألة الرابعة والعشرون : باب الشفاعة من أجلها أرسلت الرسل :

الرسل بعثت لتوحيد العبادة لله وأن الشفاعة كلها ملك لله ولتقول الرسل للمشركين ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ الزمر: ٤٤ ومن أجل ذلك حصلت العداوة وجرد السيف، والمشركون جعلوا الشفاعة شرك بين الله وبين آلهتهم فتعلقوا بالشفاعة وكانوا يقولون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ يونس: ١٨ . فأثبتوا الشفاعة لمعبوداتهم ودعوها وسألوها أن تشفع لهم عند الله، فكان طلب الشفاعة شركا لأن التشفع والدعاء من العبادة التي لا تصرف إلا لله، ولذلك صاروا بطلب الشفاعة من المخلوق وسؤاله عبيداً لغير الله وواقعين في الشرك فاستباح الرسول ﷺ دماءهم.

وتأمل حين ألقي الشيطان في قراءة الرسولﷺ (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) وهو يقرأ في سورة النجم، سجد كفار قريش معه آخر السورة، وظنوا أن الرسول وافقهم في دينهم .

كل هذا يدل على أن أصل الخلاف هو في باب الشفاعة، وأنها سبب ضلال جميع الأمم المشركة، وحجة وذريعة كل مشرك، وأن قول كفار قريش للرسولﷺ أعبد آلهتنا سنه نعبد إلهك سنه أرادوا من ذلك، أن معبوداتهم تسأل الشفاعة تارة ويدعى ويسأل الله وحده تارة فأنزل الله على رسوله سورة الكافرون، وأخبرهم أن مجرد دعاء غير الله وطلب الشفاعة من المخلوق واتخاذ الوسائط المقربة عند الله هو الشرك الأكبر المخرج من الإسلام، وأن هذا دين الله الذي يقوم على دعاء وعبادة الله وحده، وأن دين المشركين الذي يقوم على دعاء المخلوق وطلب الشفاعة منه يخالف دين الله من أصله وأنها لا يجتمعان وأن لكل دينه، المؤمن له ملة التوحيد والمشرك الكافر له الشرك وطلب الشفعاء ودعاؤهم مع الله ولا يجتمع التوحيد والشرك .

قال ابن القيم: (وهذه هي الشفاعة الشركية التي بعثت الرسل بالنهي عنها وتكفير فاعلها، والقرآن مملوء بالرد على أهلها وإبطال مذهبهم: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ الزمر: ٤٣. فأخبر أن الشفاعة لمن له الملك فهو الذي يشفع لنفسه عند نفسه، فيأذن لمن يشاء أن يشفع فيه فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له. ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ السجدة: ٤ .فأخبر أنه ليس للعبد شفيع من دونه، والشفاعة بأذنه ليست شفاعة من دونه ولا الشافع شفيع من دونه بل شفيع بأمره وإذنه) إغاثة اللهفان ٢٤٦.

المسألة الخامسة والعشرون: ضابط الشفاعة الشركية:

هي الشفاعة التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله. ومن أوضح صورها ما يطلبه المشركون من الأموات الأنبياء والصالحين والمقبورين والملائكة.

السادسة والعشرون:من يطلب شفاعة المخلوق جمع بين قياسين باطلين:

الأمر الأول: قياس الله تعالى بخلقه وتمثيل الخالق بالمخلوق، حيث جعل هذا المشرك ربه سبحانه محتاجا للشافع مثل ملوك الدنيا.

الأمر الثاني: قياس المخلوق بالخالق ﷻ وتشبيه له، وذلك بجعله يدعى مع الله تعالى وأنه يشفع ويملك الشفاعة ويقدر أن ينفع ويكشف الضر مثل الرب.

المسألة السابعة والعشرون: شرك الدعاء والشفاعة اجتمع عليه كل مشرك:

دعاء غير الله ﷻ وطلب الشفاعة هو القدر الذي يجمع كل المشركين في الدعاء وهو مناط التشابه بينهم من أولهم إلى آخرهم هو إرادة الشفاعة، من الآلهة عند الله فكل من دعا غير الله ﷻ إنما أراد أن تشفع له هذه الآلهة وتقربه إلى الله ﷻ.

كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣.

قال ابن القيم: « ومن أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة وهي أصل شرك العالم فإن الميت محتاج لمن يدعو له فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة واستقضاء الحوائج وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد، وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان وما أكثر المستجيبين لهم». مدارج السالكين ١/ ٣٤٦ .

المسألة الثامنة والعشرون : الشفاعة أحد أسباب الشرك الاربع :

فالمشرك إنما أشرك مع الله غيره ممن يرجو حصول منفعة فيه، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة وسبب من أربع خصال .

١- أما أن يكون مالكاً للمطلوب .

٢- أو شريكاً للمالك .

٣- أو معيناً وظهيراً له.

٤- أو شفيعاً.

هذه الأسباب الأربعة نفاها الله ﷻ عن كل معبود بالتدرج وأثبت الشفاعة بشرطها وهو التوحيد مع الأذن وذلك في آية سورة سبأ:

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

قال ابن القيم : (وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع ، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع إما مالكاً لما يريده عابده منه ، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك ، فإن لم يكن شريكاً للمالك كان معيناً له وظهيراً فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً متنقلاً من الأعلى إلى الأدنى ، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك ، وهي الشفاعة بإذنه فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً وتجريداً للتوحيد وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها ، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ولكن أكثر الناس لا يشعر) مدارج السالكين ١/ ٣٤٣ .

المسألة التاسعة والعشرون: كفر من اعتقد جواز الشفاعة ولو لم يطلبها .

الثلاثون : سبب الشرك عدم التفريق بين الشفاعة عند الخالق وعند المخلوق:

أعظم سبب أوقع المشركين في دعاء غير الله ﷻ هو سوء الظن بالله سبحانه وعدم تقديره وعدم معرفة صفاته التي وصف الله تعالى بها نفسه وبيّنها لخلقه .

وعدم تفريقهم بين الخالق والمخلوق في هذا الباب العظيم، ومرجع ذلك كله إلى اعتقاد أنه محتاج لمن يشفع عنده مثل ملوك الدنيا.

وبيانه: أن في إدخال الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه كما هو عند المخلوقين تمثيل شنيع وتشبيه باطل، حيث مثّل الخالق بالمخلوق فالواسطة لا تكون إلا لمحتاج لها والله تعالى ليس في حاجة لها كما هو حال ملوك الأرض، ثم في إثبات الوسائط نفي لرحمة الله فكأن الله تعالى لا يرحم إلا بالواسطة فهو تعالى عن ذلك محتاج لمن يستعطفه ويسترحمه على خلقه وهذا أعظم الظلم، يسلب الرحيم من رحمته والذي هو أرحم الراحمين والذي وسعت رحمته كل شيء، ولذلك من نفى رحمة الله بهذا الأسلوب استحق ألا يرحم ويطرد ولا يكتب في رحمة الله ﷻ، كما أن في إثبات الشفعاء عند الله وكونها تملك الشفاعة لمن دعاها فيه تمثيل وتسوية لمن خلق من التراب برب الأرباب ﷻ وللعبد الفقير العاجز الضعيف بالملك تعالى مالك الرقاب ومن له الصفات والأفعال، وهذا تناقض من المشرك وتنقص منه لربه وعدوان على مقامه وسوء ظن بخالقه ﷻ شاء أم أبى علم ذلك أو لم يعلم.

فالمشرك مثل الخالق بالمخلوق وما علم معنى الشفاعة، وما فقه كيف يسيء لربه حين يطلب الشفاعة من غيره، يطلب الشفاعة من ملك و نبي أو نحو ذلك فيجعل الله عز وجل كأنه يقول : يا رب لم نطلبك وإنما نطلب غيرك لأنك لا تعلم بحالنا، وإنما الذي يعلم بحالنا هم الوسطاء، وأنت بعيد عنا لا تعلم حالنا، ولا يوجد منك الرحمة الكافية التي نستعطفك بها وإنما نستعطف الأولياء الذين قربوا منك فيستعطفونك، وهذا هو الكفر البواح والعياذ بالله والشرك الأعظم . وهذا السر في كون طلب الشفاعة من غير الله ﷻ أعظم الشرك والكفر .

ولا ينفع هذا المشرك بعد كل ذلك أن يدّعى أنه ما وضع الوسائط إلا تعظيماً لله تعالى وتأوله وظنه هذا بربه وجهله بحقيقة عمله، فلا عبرة به فليس كل مدع محقا ولا كل مجتهد مصيبا ولا كل كافر عالما عنيدا .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان ص:٢٤٦ : (الفرق بين الشفاعتين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور والخالق والمخلوق والغني والفقير والذي لا حاجة له بأحد والمحتاج من كل وجه إلى غيره، فنفى شفاعة الشريك وأثبت شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه وربه حتى يأذن له، فمن أثبت شفاعة الشركاء الشركية وأشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظنا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله فهو من أجهل الناس بحق الرب وما يجب له تعالى، فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم فإن قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم

وأنصارهم ولولاهم لما انبسط ملكهم على الناس فلحاجتهم إليهم يحتاجون لقبول شفاعتهم ولو لم يأذنوا أو يرضوا عن الشافع والمشفوع له لأنهم يخافون إن ردوا شفاعتهم أن تنقص طاعتهم ويذهبوا لغيرهم.

وسر الفرق بين الشفاعتين أن شفاعة المخلوق للمخلوق وسؤاله للمشفوع عنده لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده لا خلقا ولا أمرا ولا إذنا بل هو سبب محرك له من خارج كسائر الأسباب وقد تكون الشفاعة مع كراهية المشفوع عنده وعدم رضاه عنها ويقبلها كرها... وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه فانه ما لم يخلق شفاعة الشافع ويأذن له فيها ويحبها منه ويرضى عن الشافع لم يمكن أن توجد، والشافع لا يشفع عنده لا لحاجة الرب إليه ولا رهبة منه ولا رغبة فيما لديه وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له فهو مأمور بالشفاعة فالرب هو الذي يحرك الشفيع من ملك ورسول ونبي وغيرهم . ومن وفقه الله لفهم هذا الموضع ومعرفته تبين له حقيقة التوحيد والشرك والفرق بين ما أثبته الله من الشفاعة وبين ما نفاه) .

الحادية والثلاثون: طلب الشفاعة من المخلوق سبب حرمانها وعدم حصولها :

وبيان ذلك أن الشفاعة لا ينالها أحد إلا بالتوحيد ، وطلبها من غير الله وسؤال المخلوق الشفاعة شرك في الدعاء والعبادة والشرك يحرم صاحبه الشفاعة .

وبهذا يُعلم أن المشركين بدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، حين طلبوا الشفاعة بما هو سبب لمنعها وهو الشرك ودعاء غير الله .

ولذلك الشفاعة التي أثبتها المشركون لأوثانهم صرح القرآن ببطلانها ونفيها ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٥٥.

ومصداق ذلك قول الرسولﷺ: (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه) رواه البخاري .

فتجريد التوحيد أعظم الأسباب التي تنال بها الشفاعة، وقد عكس المشركون ذلك فجعلوا الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب بكون الشفاعة قائمة على الإذن والرضا ولا يرضى إلا التوحيد وبهذا بطل مراد أهل الشرك .

قال ابن القيم : (تأمل هذا الحديث كيف جعل الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد ، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم ، فقلب النبي ما في زعمهم الكاذب ...) .
إغاثة اللهفان ١/ ٢٣٨ ، ومدارج السالكين ١/ ٣٤١ .

وقال ابن تيمية : (الملائكة وغيرهم لا يملكون الشفاعة فليس توليهم والاستشفاع بهم هو الذي يوجب أن يشفعوا ... فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين ليشفعوا لهم ودعوهم من دون الله كانت عبادتهم إياهم ودعاؤهم وإشراكهم بربهم الذي به طلبوا شفاعتهم به حرموا شفاعتهم وعوقبوا بنقيض قصدهم لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) الفتاوى ١٤/ ٤١٢ .

ولو تأمل هؤلاء الجهال ما هم عليه من سيرة الكفار الأولين الذين عبدوا ودا وسواعا واللات والعزى وعيسى وأمه وغيرهم من المشركين الذين كان أصل قولهم: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣. كما أخبرنا تعالى عنهم، ومع ذلك جاء مشركو أمة محمد بمثل ما قاله أولئك فقالوا: ما نعبد محمداً إلا ليقربنا إلى الله ، ونحن ندعوه ونشركه مع الله في الدعاء ليشفع لنا عند الله، فلو أن لهم عقلاً لعلموا أنهم يسعون في أن يحرموا شفاعة الرسول ﷺ وجنات الخلد ورضوان الرحمن لكفوا عن شركهم وتبريرهم إياه.

أما وإنه سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وحينها يوقنون أن سؤالهم الشفاعة من محمد ﷺ بعد موته هو الذي سيحرمهم نيلها وسيخلدهم ذلك في نار جهنم إن ماتوا على ذلك الشرك العظيم ويقول الله لهم : ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ الأنعام: ٩٤ بل ويكفرون بهم ويتبرؤون منهم ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ الروم: ١٣، وذلك لأنهم لم يرتدعوا في الدنيا من طلب الشفاعة والله يقول لهم : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ الزمر: ٤٣ وأن هذه الشفاعة لا تغني من الله شيئاً والرسل أقاموا الحجة وأنزل القرآن ليحذر الناس من عبادة غيره ودعاء المخلوق كائنا من كان وأن الدعاء لله وحده لا يصرف لغيره، فمن آمن بعد كل هذا فله الجنة ومن أشرك فالنار موعده ولا يعذر بتأوله وجهله، نعوذ بالله من الشرك والضلال والخذلان .

المسألة الثانية والثلاثون : حالات طلب الشفاعة من الرسول والصالحين :

١- إن كان زمن حياته بسؤاله الدعاء له في الدنيا أو أن يشفع له يوم القيامة فهذا جائز وقد فعله الصحابة مع الرسول ﷺ، لكن لا تتم وتحصل إلا إذا أذن الله بها.

٢- إن كان طلب الشفاعة من الرسول ﷺ بعد موته ، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ﷻ وسيأتي إن شاء الله .

٣- إن كان طلب الشفاعة حاصل يوم القيامة فهذا جائز لأن الدعاء حاصل بأسبابه الشرعية وذلك بطلب الحي الحاضر القادر وقد ثبت أن الناس يطلبون من الرسل الشفاعة حتى يشفع لهم الرسول ﷺ في الموقف .

المسألة الثالثة والثلاثون: حكم طلب الشفاعة من الحي :

قول البعض للمجاهد لا تنسنا من الشفاعة أو اشفع لنا إن قبلت ، بدعة ليس لها أصل ولا يقاس هذا بطلب الصحابة لها من النبي ﷺ ، وأخطأ من حكم بأنها من الشرك الأكبر بحجة أن الشفاعة ملك لله لا تطلب إلا منه ، لأن الصحابة طلبوا من الرسول ﷺ الدعاء والاستغفار وهو من الشفاعة وجاء عند الترمذي أن أنس طلب الشفاعة من الرسول ، فكون الشفاعة ملك لله لا يعني أنه لا تطلب من الحي كما في سؤال أهل الموقف الرسل أن يشفعوا لهم وقد يأذن الله فيها وقد لا يأذن.

ومما هو مقرر عند أهل السنة أنه يجوز طلب الرسول ﷺ حال حياته ما يقدر عليه وأن يدعوا الله لهم ويستغفر لهم ومن ذلك أن يشفع لهم في الآخرة وقد طلبه الصحابة بصيغ متنوعة فعكاشة في السبعين وربيعة بالمرافقة وغير ذلك ومع ذلك فالرسول ﷺ لا يملكها فهو يطلبها من الله فيعطيه أو يمنعه وقد دعا لأشخاص فأجيب ولآخرين ومنع ، ولم يجزم لبعضهم باستجابة دعوته لهم أو حصول شفاعته لهم، وذهب بعض أهل العلم إلى أن ذلك خاص بالرسول ﷺ .

ومن أصرح ما دل على هذه المسألة ما رواه الترمذي عن أنس ﷺ أنه قال : سألت رسول الله أن يشفع لي يوم القيامة فقال : (أنا فاعل) .

قال أبوعيسى الترمذي: هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه.

وما جاء عند الإمام أحمد عن زياد مولى بني مخزوم عن خادم للنبي ﷺ رجل أو امرأة قال: كان النبي ﷺ مما يقول للخادم :ألك حاجة ، قال حتى كان ذات يوم

فقال: يا رسول الله حاجتي ، فقال : وما حاجتك ؟ قال: حاجتي أن تشفع لي يوم القيامة، قال: ومن دلك على هذا؟ قال ربي ، قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود.

قول الصحابة للرسول ﷺ استغفر لنا وطلبهم الدعاء منه : من ذلك :

حديث أبي موسى الأشعري في الصحيحين في طلب أبي عامر أن يستغفر له الرسول ﷺ بقوله : قل له يستغفر لي ، فقال الرسول ﷺ : اللهم اغفر لعبيد أبي عامر . فقال أبو موسى ولي يا رسول الله فاستغفر .

حديث عكاشة في السبعين ألف وقوله للرسول ﷺ : (ادع الله أن يجعلني منهم) فقال : (اللهم اجعله منهم) رواه الشيخان . فشفع الرسول ﷺ في عكاشة بدعائه له أن يكون منهم حتى صار منهم.

حديث ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه ، فقال: لي سل ، فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة ، قال : أو غير ذلك ؟ قلت: هو ذاك ، قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود) رواه مسلم .

وقال ﷺ : (ما من ميت تصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه) رواه مسلم وفي حديث آخر شفعهم الله فيه .

المسألة الرابعة والثلاثون: الشفاعة يدخلها التوحيد والشرك :

يجب أن نوحد الله بالشفاعة ونوحد الله في طلبها منه وحده لأنها ملك لله ، ولأن الدعاء عبادة لا يجوز أن تصرف إلا لله .

والشفاعة يدخلها الشرك .

وبذلك يصح أن يقال : توحيد الشفاعة وشرك الشفاعة والشفاعة الشركية .

المسألة الخامسة والثلاثون: الشفاعة شرك من جهتين :

١ - فيها دعاء غير الله .

٢ - فيها مشاركة الله في الشفاعة ومنازعته في أمر ملك له ولذلك سمّى الله ﷻ الشفعاء بالشركاء، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ ﴾ الروم: ١٣.

المسألة السادسة والثلاثون: الاستغاثة أعم من الشفاعة :

وبيانه أنه إذا كان المدعو شفيعا كانت شفاعة وإن كان مستقلا لم تكن شفاعة .

فقول المشرك : يا محمد أغثنا فهذه استغاثة وليست بشفاعة .

أما قوله: يا محمد اشفع لي عند الله يغيثني أو يقول استغث لنا، فهذه الشفاعة.

فالشفاعة ما جعل فيها الداعي واسطة بينه وبين الله تقرب له وتشفع عنده .

المسألة السابعة والثلاثون : شبهات في باب الشفاعة :

طلب حصول الشفاعة من أعظم الذرائع التي سببت الشرك ، وهي من أكثر الشبه تعلق بها المشركون ، المتقدمون منهم والمتأخرون فيما يتعلق بعلة وقوعهم في الشرك التباسهم في موضوع الشفاعة ، وعدم تفريقهم بين الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية وعدم تفريقهم بين التوحيد والشرك الذي حرمه الله ﷻ ولا يغفر لصاحبه .

ومن الشبهات الفرعية المتعلقة بهذا الباب :

١- أن الله أعطى الرسول ﷺ الشفاعة في الموقف وشفاعته مقبولة مطلقاً فيجوز أن نطلبها منه .

٢- أن الرسول ﷺ حي في قبره فنسأله الشفاعة بعد موته وهو في قبره .

٣- أن الكفر والشرك عبادة الشفعاء واتخاذها معبودة وآلهة وليست في دعائها وفي طلب الشفاعة منها.

وسيأتي الرد على الشبهات .

نختم باب الشفاعة بكلام نفيس للإمام ابن القيم في إغاثة اللهفان ص:٢٤٦ .

قال رحمه الله: (فصل في الفرق بين زيارة الموحدين للقبور وزيارة المشركين :

زيارة الموحدين فمقصودها ثلاثة أشياء : تذكر الآخرة والاعتبار والاتعاظ ، والإحسان إلى الميت بالدعاء له ، وإحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة .

والزيارة الشركية فأصلها مأخوذ عن عبّاد الأصنام . قالوا: الميت المعظّم الذي لروحه قرب ومنزلة ومزية عند الله، لا تزال تأتيه الألطاف من الله تعالى وتفيض على روحه الخيرات، فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر، قالوا: فتمام الزيارة على هذا الوجه أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه وقصده للميت، وبهذا السر عبدت الكواكب واتخذت الأصنام المجسدة لها، وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعيادا وتعليق الستور عليها وإسراجها وبناء المساجد عليها، وهذا الذي نهى الرسول ﷺ عنه وحذر منه وأراد إبعاد أمته عنه، وهذه هي الشفاعة الشركية التي بعثت الرسل بالنهي عنها وتكفير فاعلها، والقران مملوء بالرد على أهلها وإبطال مذهبهم :﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ الزمر: ٤٣. فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض فهو الذي يشفع لنفسه عند نفسه ليرحم عبده، فيأذن لمن يشاء أن يشفع فيه

فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هـي لـه. ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ السجدة: ٤ .
فأخبر أنه ليس للعبد شفيع من دونه، والشفاعة بإذنه ليست شفاعة مـن دونـه ولا الشافع شفيع من دونه بل شفيع بأمره وإذنه.

والفرق بين الشفاعتين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور والخالق والمخلوق، فنفى شفاعة الشريك وأثبت شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يـدي مالكه وربه حتى يأذن له، فمن أثبت شفاعة الـشركاء الـشركية وأشرك بهـم المـشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظنا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا لـه عنـد الله فهـو من أجهل الناس بحق الرب وما يجب له تعالى، فإن هـذا ممتنـع وتـشبيه الـرب عـلى الملوك والكبراء حيث يتخذون من خواصهم من يشفع عنـدهم في الحـوائج، وبهـذا القياس عبدت الأصنام واتخذ المشركون من دون الله الـشفيع والـولي، والفـرق بـين الشفاعتين هو الفرق بين الرب والعبد والخالق والمخلوق والغني والفقير والـذي لا حاجة له بأحد والمحتاج مـن كـل وجـه إلى غـيره، فالـشفعاء عنـد المخلـوقين هـم شركاؤهم فإن قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم وأنـصارهم ولـولاهم لمـا انبـسطت أيديهم وملكهم على الناس فلحاجتهم إليهم يحتاجون لقبول شفاعتهم ولو لم يـأذنوا أو يرضوا عـن الـشافع والمـشفوع لـه لأنهـم يخـافون إن ردوا شـفاعتهم أن تـنقص طاعتهم لهم ويـذهبون لغـيرهم وهـذا خلافـا للـرب المالـك الغنـي القـاهر وحـده سبحانه، وهذه الشفاعة التي نفاها الله وهي الشفاعة الشركية .

وسر الفرق بين الشفاعتين أن شفاعة المخلوق للمخلـوق وسـؤاله للمـشفوع عنده لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده لا خلقا ولا أمرا ولا إذنا بل هو سبب محـرك لـه من الخارج كسائر الأسباب وقد تكون الشفاعة مـع كراهيـة المـشفوع عنـده وعـدم رضاه عنها ويقبلها كرها... وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع ويأذن له فيها ويحبها منـه ويـرضى عـن الـشافع لم يمكـن أن توجـد، والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه ولا رهبة منه ولا رغبة فيما لديه وإنما يـشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له فهو مأمور بالشفاعة فالرب هو الذي يحرك الشفيع من ملك ورسول ونبي وغيرهم ... ومن وفقه الله لفهم هذا الموضع ومعرفته تبين له حقيقة التوحيد والشرك والفرق بين ما أثبتـه الله تعـالى مـن الـشفاعة وبـين مـا نفـاه وأبطله) .

مبحث :قول الشفاعة يا محمد أو اشفع لي يامحمد

هذه اللفظة توجد عند بعض العامة، ويظنون أن الرسول ﷺ لما كانت له الشفاعة يوم القيامة وأن الله أعطاه إياها أن ذلك مجوزا لأن تطلب منه في الدنيا ويسألونها منه وهو ميت . وهذا باطل فإن قول الشفاعة يا محمد أو أشفع يا محمد شرك أكبر مخرج من الملة والعياذ بالله وبيان ذلك يأتي من أوجه :

الأول : أن الشفاعة يا محمد داخلة في عموم دعاء غير الله، في قولهم: يا محمد المشتملة على يا النداء، والتي تعني دعاء المسألة، والدعاء عبادة لا تصرف إلا لله.

الثاني : أن طلب الشفاعة من غير الله واتخاذ الوسائط هو شرك جميع الأمم :

فإن قول هؤلاء الشفاعة يا محمد مثلها مثل ما يفعله مشركوا النصارى الذين اتخذوا عيسى وأمه إلهين من دون الله في قولهم اشفع لنا يا عيسى عند الله، ويا ملائكة الله اشفعي لنا ومثل ما كانت تفعله العرب من الشرك في قولهم يا اللات والعزى اشفعي لنا عند الله وكما كان يستشفع قوم نوح بآلهتهم بود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا ويطلبون منها الشفاعة: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ﴾ .

الثالث : أنها دعاء لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله وطلب الشفاعة من غيره فالشفاعة ليست من مقدور أحد وليست ملك لأحد غير الله وهذا شرك أكبر .

الرابع : أنها دعاء للنبي ﷺ بعد موته فتدخل في طلب ما لا يقدر عليه إلا الله، وإن من الأمور المجمع عليها كفر من دعا الأموات وخاطبهم وناداهم وسألهم.

الخامس : أن الشفاعة ملك لله وحده فليس لأحد أن يطلبها من غيره.

السادس : أن الشفاعة التي للرسول ﷺ مقيدة وليست مطلقة، قيدها الله عز وجل بإذنه وبرضاه ويوم القيامة وهو حاضر حي ليس بميت وليس له في الدنيا الشفاعة. ويوم القيامة لا يشفع الرسول ﷺ للناس إلا بعد أن يأذن الله ويأمره بها.

مبحث : حقيقة الواسطة وشرك الوسائط

المسألة الأولى : تعريف الواسطة في اللغة .
قال ابن فارس الواو والسين والطاء تدل على العدل والنصف .
وتوسط الشيء صار بين طرفيه والرجل أوسط قومه أي أرفعهم محلاً، والواسطة الوسيلة والسبب والشيء الذي يتم به الانتقال لطرف آخر ويقرب إليه .
الثانية : أسماء الواسطة والألفاظ المرادفة لها : الشفاعة ، الزلفى ، التقرب والمقرب والتقريب ، الوسيلة ، الدعاء ، المنزلة ، السبب ، القبلة .
الثالثة: المراد بالواسطة : كل ما يتقرب به العبد إلى الله ويتوصل به إليه.
والتوسط هو ابتغاء الواسطة إلى الله أي الاجتهاد في فعل ما يقرب إليه .
قال ابن القيم في المدارج : (وبالجملة فتجعل الرسول شيخك ومعلمك ومربيك ومؤدبك وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ ، كما تسقط الوسائل بينك وبين المرسل في العبودية ، ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره ونهية ورسالته إليك وهذان التجريدان هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله).
وقال المقريزي في تجريد التوحيد : (التوحيد حقيقته أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الإلتفات إلى الأسباب والوسائط فلا ترى الخير والشر إلا منه تعالى وهذا المقام يثمر التوكل وترك الشكاية، والرضا عن الله والتسليم له).
وقال ابن تيمية في الاستغاثة : (الوسيلة بين العباد وبين ربهم ﷻ الإيمان بالرسل وطاعتهم).
وقال الألوسي : (ليس لنا وسيلة إلى الله إلا الدعاء المبني على أصول الذل والافتقار والثناء فهو الوسيلة التي أمرنا الله بالتوسل به).
الرابعة: المراد بالواسطة عند المشركين :
بالغ المبتدعة والمشركون في اعتقاد الوسائط والغلو فيها حتى اختلقوا حديثاً مكذوباً وضعوه على الرسول ﷺ : (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه) .
فتعلقوا بالأحجار والأشجار والقبور والأوثان وسألوها كل شيء وطلبوا منها دفع الضر وجلب النفع ورجوها في حصول الخير ودفع الشر فتعلقوا بالأموات والأولياء في قبورهم وعبدوهم من دون الله بدعوى التقريب والشفاعة عند الله وهذا حال جميع المشركين .

الخامسة: أقسام الواسطة بين الله وبين خلقه عند أهل السنة:

١- واسطة التبليغ والرسالة : وهي الواسطة التي من الله إلى عباده .

وهي الواسطة التي تبلغ وحي الله للناس من الملائكة الرسل والأنبياء فهم الواسطة بيننا وبين ربنا تبارك وتعالى .

٢- واسطة العبادة والوسيلة والقربة من العباد إلى الله .

وهي الواسطة التي تقرب إلى الله وتنجي من عذابه وتدخل جنته وهي المقصودة بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ المائدة: ٣٥، وهي فعل الطاعات وترك المحرمات وهي التي تقرب إلى الله وبها نتوسل عنده ونتوسط بها لديه .

كذلك من هذا القسم الشفاعة يوم القيامة لأهل التوحيد بإذن الله ورضاه ولا تكون هذه في الدنيا .

٣- الواسطة الشركية :

وهي أن يجعل بين الله تعالى وبين خلقه ما يقربهم إليه زلفى ويشفع لهم عنده من المخلوقين، فيتوسل بها العبد إلى الله بدعاء الله بها وهذا التوسل البدعي أو بدعائها من دون الله وطلبها أن تقرب داعيها إلى الله وتشفع له عنده، وهذا هو الشرك الأكبر والكفر البواح .

السادسة: أقسام الواسطة والوسيلة المحرمة :

١- الواسطة البدعية : وهي دعاء الله بوسيلة محرمة .

مثل قولهم: اللهم إني أسألك بحق نبيك أو جاهه أو بذاته.

وهذا توسل بدعي باطل محرم لكنه ليس بشرك أكبر.

٢- الواسطة الكفرية الشركية : وتكون بدعاء المخلوق من دون الله والتوجه إليه بأن يقربه إلى الله ويشفع له عنده وسؤاله وطلبه ذلك .

وهذه عبادة للمخلوق من دون الله لأن الدعاء عبادة لا تصرف إلا لله كما تقدم ولا تسمى وسيلة إلا عند الصوفية والرافضة .

السابعة : من كفر الرافضة والصوفية في واسطة التبليغ :

أنهم زعموا أن الوحي لم ينقطع بموت الرسول ﷺ بل هو مستمر على الأئمة والأولياء وأن الله يرسل الملائكة إليهم بل ويخاطبهم الله ويلهمهم ويكشف لهم الحقائق .

الثامنة : أقسام الواسطة الشركية وطرق المشركين فيها :

١- طريقة مشركي العرب ومعظم الأمم : الطلب والسؤال :

دعاء الوسائط والآلهة وطلب الشفاعة منهم .

٢- طريقة الفلاسفة والصابئة وعباد الكواكب: الإفاضة :

حيث يرون أن الكواكب العلوية الروحانية هي الواسطة بين الله وبين خلقه، وقالوا الواحد لا يصدر عنه إلا واحد فأثبتوا العقول العشرة واسطة بينه وبين العالم الجسماني، وطريقتهم في شفاعة الآلهة وواسطتهم بدون سؤال وطلب صريح، وإنما بالتوجه والالتجاء فيفيض لهم بركة الإله والواسطة .

فالشفاعة والواسطة عند هؤلاء :

إذا توجه المستشفع إلى من يعظمه فإنه يتصل بذلك المعظم المستشفع به فإذا فاض على ذلك ما يفيض من جهة الرب فاض على المستشفع من جهة شفيعه، ويقولون: نحن إذا توجهنا إلى هؤلاء بالدعاء لهم وسؤالهم والعبادة لهم فاض علينا ما يفيض منهم وفاض عليهم ما يفيض من جهة الله تعالى .

ويقولون: إن الله عام الفيض وإذا لم يحصل فيضه لأحد فذلك للمانع أو عدم استعداده بنفسه لقبول الفيض لكن صالح لأن ينالها بواسطة مثل شعاع الشمس تشع بضيائها فمن تعرض لها ناله شعاعها ومن استتر بظل ونحو لم يناله مباشرة وبنفسه ولكن يمكن أن يناله شعاعها بطريق الواسطة كالمرآة تعكس الشعاع على المستظل وكلما كانت أجلى كان الانعكاس أشد، قالوا وأرواح الأنبياء لشدة صفائها كانت واسطة تعكس أشعة الفيوض الربانية إلى الخلائق في عموم البركات والخيرات كما كانوا وسائط في إبلاغ الشرائع والأحكام . أنظر تفسير الرازي ٣/ ٧٥ .

وقالوا للعالم صانع منزه عن صفات الحدثان، والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه وهم الروحانيات المطهرون المقدسون عن المواد الجسمانية والقوى الجسدية والحركات المكانية والتغيرات الزمانية جبلوا على الطهارة والتقديس، فنحن نتقرب إليهم ونتوكل عليهم، وهم آلهتنا وأربابنا وشفعاؤنا عند الله، وهو رب الأرباب وإله الألهة، ثم يحاولون أن يصلوا لشفاعتهم بالرياضات وترك الطعام والسحر والعزائم والشهوات . أنظر كتاب الملل والنحل للشهرستاني .

وظنوا أن الشفاعة تشفع لتعلق الشفيع بالمشفوع وإن لم يكن هناك دعاء من الشفيع، وشبهوا ذلك بشعاع الشمس الذي يظهر في المرآة والمرآة تطرح شعاعها على الحائط والأجسام فالشفاعة عبارة عندهم عن نور يشرق من الإله على جوهر النبوة وينتشر منها لكل جوهر استحكمت مناسبته مع جوهر النبوة لشدة المحبة والمواظبة على السنن . من كلام الغزالي في المضنون .

وقال ابن تيمية : (وللناس في الشفاعة أنواع في الضلال فكثير منهم يظن أن الشفاعة هي سبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له فمن كان أكثر صلاة على النبي وأحسن ظناً وتعظيماً كان أحق بالشفاعة).

تنبيه : سبب قول الفلاسفة هذا في الشفاعة: أن الله ليس بفاعل مختار يحدث الحوادث بمشيئته واختياره، بل هؤلاء قالوا الله أوجد العالم بذاته فهو علة العلل .

قال ابن تيمية عن أقسام الوسائط وأنواع إجابتها عند أهل الشرك :

(فالمشركون من الفلاسفة القائلين بقدم العالم هم أعظم شركاً وما يدعونه من الشفاعة لآلهتهم أعظم كفراً من مشركي العرب، فإنهم لا يقولون: إن الشفيع يسأل الله والله يجيب دعوته كما يقوله المشركون الذين يقولون إن الله خالق بقدرته ومشيئته فإن هؤلاء عندهم أنه لا يعلم الجزئيات ولا يحدث شيئاً بمشيئته وقدرته وإنما العالم فاض عنه فيقولون: إذا توجه الداعي إلى من يدعوه كتوجهه للموتى والقبور أو الأرواح العالية فإنه يفيض عليهم ما يفيض ذلك المعظم الذي دعاه واستغاث به وخضع له من غير فعل من ذلك الشفيع ولا سؤال منه لله تعالى، كما يفيض شعاع الشمس على ما يقابلها من الأجسام الصقيلة كالمرآة وغيرها، ثم ينعكس الشعاع من المرآة إلى الجسم الآخر حائط أو غيره - فعباد القبور - مقصودهم بها طلب الحوائج من الميت والغائب إما بطلبها منه أو يطلب منه أن يطلبها من الله وإما أن يقسم على الله به وهؤلاء يقولون: إن ذلك المدعو يطلب تلك الحاجة من الله أو أن الله يقضيها بمشيئته واختياره للإقسام على الله بذلك المخلوق، أما أولئك الفلاسفة فيقولون: بل نفس التوجه إلى هذه الأرواح يوجب أن يفيض منها على المتوجه لها كما يفيض الشعاع من الشمس من غير أن تقصد هي قضاء حاجة أحد (حاجة من توجه إليها) ومن غير أن يكون الله يعلم بشيء من ذلك على أصلهم فتبين أن شرك هؤلاء واتخاذ الشفعاء الذين يشركون بهم أشد من مشركي العرب). الرد على المنطقيين ٥٣٥.

التاسعة: إجماع الكفار على طلب الوسائط والشفعاء وهذا دين جميع المشركين:

ذكر الله حقيقة دينهم في أصلين من كتابه :

الأول: في قولـه تعـالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ .

والثاني: في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ﴾ الأحقاف: ٢٨ .

وسمى الله فعلهم عبادة في الآية الأولى المتعلقة بالوسائط المقربة بقولـه تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ الزمر: ٣ .

وسمى الله فعلهم عبادة في الآيـة الثانيـة المتعلقـة بالـشفعاء بقولـه تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ .

العاشرة: عمدة مشركي زماننا في الواسطة :

يستدل مشركو زماننا على كفرهم وطلبهم الوسائط بقولـه تعـالى : ﴿ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ المائدة: ٣٥ وقولـه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء: ٥٧ .

ويزعمون أن الوسيلة هي الوسائط من الأوليـاء والأمـوات ونحـوهم وهـي التي تشفع لهم عند الله تعالى .

ولا حجة في الآيتين على ما ذهبوا إليه من الكفر وتجويز الشرك، والجواب عن قولهم الفاسد واستدلالهم الباطل :

أن معنى هذه الآيات المرجع فيه لقول السلف وأئمة التفسير :

فمعنى الوسيلة عندهم في الآية الأولى: هي الطاعة وعبادة الله وليس الشركاء والآلهة ودعاء الأموات والأولياء كما يزعمون .

وفي الثانية: أن من يشرك به من الملائكة وعيسى والأولياء هم أنفسهم يبتغون الوسيلة والقربة إلى الله فهم يرجون رحمة الله ويخافون عذابه فأنتم أيها المشركون أولى بأن تخافوا الله فاعبدوا الله وحده واتركوا عبادة هؤلاء الصالحين .

قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء: ٥٦ – ٥٧.

فهؤلاء المدعوين من أمثال عيسى والملائكة هم أنفسهم يريدون ما عند الله ويبتغون الله بفعل الوسيلة المشروعة بالأعمال الصالحة ويخافون عذابه وهذا ملزم لمن يعبدهم أن يعبد من يعبدون الذي بيده النفع والضر .

وقد نفى الله ﷻ قبول الشفاعة عنده إلا بإذنه ورضاه : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ سبأ: ٢٢ - ٢٣.

قال ابن تيمية في الواسطة بين الحق والخلق : (من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه، كالحجاب الذين بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم، فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا السؤال الملك ، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل وهؤلاء مشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أنداداً).

الحادية عشرة : الشفاعة في الآخرة هي من الوسائط الشرعية :

الشفاعة في الآخرة هي من الوسائط الشرعية وهذا بخلاف طلب الشفاعة في الدنيا من الأولياء والأموات والنبي ﷺ بعد موته فإن هذه من الوسائط الباطلة والشفاعة المنفية المنكرة الشركية، وذلك لأنها طلب من المخلوق أمر لا يقدر عليه ولا يملكه ولم يأذن الله في ذلك ويرضاه ، وهذه الحجة الباطلة حجة كل مشرك طلب الشفاعة من الآلهة﴿ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾.

الثانية عشرة : سبب وجود الوسائط الشركية القياس الفاسد :

قاس المشركون الرب ﷻ ملك الملوك بملوك الدنيا، فإنهم لما كانوا محتاجين للواسطة وما ذاك إلا لجهلهم أو عجزهم أو لعدم رحمتهم، علاوة عليه فإن الشفاعة تحصل عندهم من غير إذنهم ولا رضاهم إما لخوف أو لتحصيل مصلحة في دنياهم وحفاظا على ملكهم في الدنيا لزم أن يكون عندهم الوسائط والشفعاء، أما الله تعالى فهو منزه عن ذلك كله، فكيف يجعلون الله تقدس وتعاظم مثل هؤلاء الخلق المساكين .

الثالثة عشرة : أنواع الشرك في الوسائط :

١- وسائط تأله تعطى صفات الألوهية:

وذلك بدعائها وسؤالها الشفاعة عند الله فيشرك بها في الألوهية .

٢- وسائط تعطى صفات الربوبية وأفعال الرب تعالى:

وذلك بسؤالها مع اعتقاد أنها تملك النفع والضر وأن لها التصرف والقدرة الكاملة مطلقاً واستقلالها بذلك فيشرك بها في الربوبية .

الرابعة عشرة : إسقاط الوسائط :

غلاة المشركين والقبورية يسقطون الواسطة فيجعلونها رباً وإلهاً يدعى مباشرة واستقلالاً من دون الله، فلا يقولون لها اشفعي لنا عند الله ليغفر لنا واسأليه أن يرزقنا إنما يطلبونها ويسألونها أن ترزقهم هي وتغفر لهم من دون الله، وهذا شرك في الربوبية وهو أعظم من مجرد الشرك في الألوهية، فهؤلاء يقولون لها اغفري لنا وانصرينا وارزقينا ولا يقولون لها كما يقوله عامة أهل الشرك: اطلبي الله أن يرزقنا وينصرنا أو استنصري الله لنا بل يطلبونها استقلالا .

الخامسة عشرة: الغلو في الواسطة :

غلا كثير من القبورية المشركة فرفعوا الواسطة من كونها تشفع عند الله لنيل النفع ودفع الضر إلى كونها بذاتها تنفع وتضر وبيدها الخير والشر .

السادسة عشرة: باب الوسائط له ارتباط بالشفاعة والتوسل وشرك الدعاء:

لأن شرك الدعاء قائم على الوسائط، ولذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : (الناقض الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة).

السابعة عشرة: تعلق القبورية بالأسباب وغلوهم فيها، وابتداعهم وسائط يزعمون أنها مقربة كالدعاء في المقابر والصلاة عندها أو دعائها والاستغاثة بها .

الثامنة عشرة: جعل الله واسطة عند خلقه وشفيعاً للداعي عند الله :

يقول البعض (الشفاعة يا الله - أو يا الله اشفع لنا عند فلان أو الولي واسطتي الله عز وجل وشفاعتي بالله عز وجل) ، **وهذا يحتمل أمرين اثنين:**

الأول: إن قصد الشافع أن الله هو الشافع والمتوسط عند خلقه أو أنه كالواسطة يتوسط له عند المخلوق من ملك وغيره فهذا قد استشفع بالله وقد نزل الله تعالى عن منزلته، وقال قولا عظيما واعتقد اعتقادا فاسدا وارتكب أمراً محرماً ووقع في سوء الأدب مع الله، فإن الله تعالى أعظم شأنا من أن يشفع عند أحد فالكل خلقه

وعبيده، وقد غضب الرسول ﷺ على الرجل الذي قال:(نستشفع بالله عليك) وأنكر عليه هذا اللفظ .

فعن جبير بن مطعم ؓ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله، فقال النبي ﷺ : (سبحان الله! سبحان الله!) فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال النبي ﷺ: (ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه) رواه أبو داود.

الثاني: إن قصد التوكل وأن الأمر كله لله عز وجل ، فهذا يجوز ولكن هذا اللفظ الأولى تركه، لوجود الإيهام فيه والقاعدة (أن أي لفظ يوهم فإن الله أمرنا بتركه) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ البقرة: ١٠٤ فهذا يدل على أن الإنسان يجب أن يتقيد بالألفاظ الشرعية التي لا إيهام فيها .

التاسعة عشرة: أنواع الوسائط :

١ - ما كان من جهة القرب والتقرب والتزلف وهي المطلوبة في جلب النفع والخير : ﴿ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ الزمر: ٣.

٢ - ما كان من جهة التشفع وهي المطلوبة لكشف الكرب ودفع الضر :﴿ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ . وسمى الله فعلهم عبادة في الآيتين كما تقدم .

وتنقسم أيضا إلى :

١ - واسطة من الله إلى الخلق: بالرسل والأنبياء والملائكة وهي المبلغة أمر الله.

٢ - واسطة من المخلوق إلى الله وهي أنوع :

مشروعة : وهي الأعمال الصالحة .

باطلة : وهي اتخاذ الأنداد والشفعاء والوسائط .وهذا من أعظم أنواع الشرك الذي كفر بها المشركين .

العشرون : أسباب الوسائط عند البشر وملوك الدنيا:

١ - الجهل وعدم العلم: إما لإخبار الملوك من أحوال الناس وأمور دولهم بما لا يعرفونه والله يعلم كل شيء ومن قال غير ذلك كفر .

٢ - العجز وعدم القدرة: أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعيته ودفع أعدائه إلا بأعوان يعينونه فلابد له من أنصار وأعوان، والله له القدرة التامة فلا يحتاج إلى ظهير ولا ولي من الذل، وكل ما في الوجود أسباب وهو الخالق الملك المدبر وحده.

٣- الجور وعدم الرحمة: أن يكون الملك ليس مريداً لنفع رعيته والإحسان إليهم ورحمتهم إلا بمحرك، فإذا خاطب الملك من ينصحه أو له جاه ومكانه عند الملك أو الملك يهابه ويخاف منه أو يرجوه، فيقبل شفاعته .

وتتحرك إرادة الملك ورحمته لقضاء حوائج رعيته وإن كان ذلك قد يحصل من غير إذنه ولا رضاه .

والرب ﷻ ليس بحاجة ولا يرجو أحداً ولا يهاب وهو الرحيم سبحانه الغني الحميد فلا يشفع أحد عنده إلا من بعد إذنه ورضاه والشفاعة كلها ملك له سبحانه وتعالى بل إن الرسول ﷺ في الموقف لا يشفع ابتداءاً وإنما يأمره الله بالشفاعة حين يقول الله ﷻ له: (ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع) متفق عليه.

الحادية والعشرون: من أثبت الوسائط والشفعاء عند الله فيلزمه أحد أمور :

١- أن يكون الله لا يعلم بأحوال خلقه وحوائجهم .

٢- أن يكون عاجزاً عن نفع خلقه غير قادر إلا بالشفعاء .

٣- أو أن الرب يرجو أحداً من خلقه ويخافه .

٤- أن يكون هناك من يكره الله على خلاف مراده .

٥- أن الله لا يرحم إلا باستعطافه .

والله سبحانه بين بطلان هذه وأنها تلزم من اتخذ الشفعاء كما قال : ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يونس: ١٨ ردا على مزاعم المشركين في قولهم ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

الثانية والعشرون : شبهات أهل الوسائط الشركية :

هي نفس الشبهات في شرك الدعاء وطلب الشفاعة : ومنها:

الأولى: منع المشركين والقبورية العصاة والمذنبين من التوجه إلى الله مباشرة لكونهم بعيدين عن الله والله لا يحبهم لتقذرهم بالمعاصي ولبعدهم عنه فلا بد لهم من البحث عن واسطة سالمة من الذنوب لها مكانة عند الله قريبة منه، فتشفع لهم عنده .

الثانية: قياس القبورية الواسطة الشركية في العبادة على الواسطة في التبليغ .

الثالثة: زعم القبورية أن اتخاذ الوسائط ودعاءها هو من تعظيم الأولياء بل ومن تعظيم الله وتعظيم شرعه ودينه .

وقالوا: المراد بالوسيلة ليس التقرب إلى الله بالطاعة وإنما الوسائط الشركية.

وسيأتي الرد عليها في باب كشف الشبهات .

مبحث: طلب الدعاء من الميت (عبارة: يا نبي الله أو يا ولي الله ادع الله لي)

صورة المسألة : أن يقول قائل لميت عند قبره أو بعيدا عنه يا فلان: ادع الله لي.
سواءً كان الميت نبينا محمد ﷺ أو غيره .

وهذه المسألة خصصناها بالذكر لوجود شبهة فيها عند بعض جهال المتأخرين الذين قالوا: إن هذه اللفظة أو هذا الدعاء ليس من دعاء غير الله ﷻ وأن هذا ليس شركا أكبر وإنما من باب الشرك الأصغر أو أنه من الدعاء المحرم .

سبب قول هؤلاء : كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه التوسل والوسيلة لم يفهموا معناه : قال رحمه الله : (الثانية: أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين ادع الله لي أو ادع لنا ربك أو اسأله لنا كما تقول النصارى لمريم وغيرها فهذا أيضاً غير جائز وأنه من البدع) .

ففهموا أن في قوله: (فهذا غير جائز ومن البدع) ، أن هذا دليلا على أنه ليس شركاً أكبر لأنه لو كان شركا أكبر ما قال (بدعة) .

والحقيقة : أن قول: يا نبي الله ادع الله لي هو من الشرك الأكبر وليس من الشرك الأصغر، وهي مثل أن يقول الإنسان: يا رسول الله اشفع لي وأغثني.

وردنا على قولهم الفاسد من أوجه كثيرة:

الأول : أنهم لم يأتوا على هذا القول العظيم الفاسد بدليل من كتاب الله ﷻ ولا من سنة رسوله ﷺ ولا ببيان واضح من أهل العلم، بل النصوص الصريحة الصحيحة تدل على أن دعاء غير الله تعالى مطلقاً شرك أكبر مخرج من الملة وقد ذكرنا ذلك في شرح الناقض الثاني ولم نفرق بين صفة وصفة، بل إن قولهم يخالف الأدلة المحرمة لدعاء غير الله ﷻ .

الوجه الثاني : أن قول ابن تيمية رحمه الله (بدعة) لا يعني أنه ليس بشرك أكبر فالأصل أن كل شرك بدعة ، لأن التوحيد هو الأصل وهو السنة المتبعة وهو دين الله تعالى وهو الذي نزل به آدم وأتى به نوح عليهم السلام، والشرك كان دخيلاً على الناس فهو بدعة من هذا الباب .

الوجه الثالث : أن في كلام ابن تيمية رحمه الله رداً على من فهم هذا الفهم حيث قال : (كما تقول النصارى لمريم وغيرها) .

وهل ما تقوله النصارى لمريم من الشرك الأكبر أم من الشرك الأصغر ؟!

فإن قالوا : إنه من الشرك الأصغر، فهذا من غاية البطلان إذ أن كفرهم وشركهم متفق على أنه شرك أكبر كدعائهم لمريم وغيرها .

وإن قالوا: شرك أكبر فمعنى ذلك أنه شرك على لسان ابن تيمية، وقوله أن هذا من البدع لا يعني أنه ليس بشرك أكبر وهذا هو الحق والصواب أن في قوله: (إنه غير جائز وأنه من البدع) أنه لا يخرج من كونه شركاً أكبر ولا يعني أنه أصغر ولا يفهم من الكلام غير ذلك.

الوجه الرابع : أن لابن تيمية نقلا آخر يبين فيه خطأ ما توهمه هؤلاء حيث يقول: (وأن إثبات وسائط بين الله وبين خلقه كالحجاب الذين بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك حوائج الناس بسبب قربهم منهم والناس يسألونهم أدبا منهم أن يباشروا سؤال الملك أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم للملك لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج فمن أثبتهم للوسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك) مجموع الفتاوى ١/ ١٢٨.

ووجه الشاهد في قوله :(فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله) كأن يقول يا فلان اسأل الله لي وادع الله لي، وفي هذا دلالة على أن دعاء الخلق وسؤالهم بقول: (يا فلان ادع الله لي) أنه شرك أكبر .

الوجه الخامس : أن من قال : يا ولي الله أدع الله لي فقد أشرك، لأن الميت لا يقدر على الإجابة، ودعاء الأموات مطلقا شرك أكبر ولا يكون شركا أصغر، لأنه دعاء من لا يقدر على شيء ، وهذا من باب الشرك الأكبر.

السادس : أنه لا فرق بين قول القائل(ادع الله لي) وبين أن يقول: (اشفع لي) :

فكلاهما فيه اتخاذ واسطة للشفاعة وطلب الدعاء وسؤال للميت ما لا يقدر عليه، فهي بمعنىً واحد، وأما قولهم: إنه ليس بدعاء، فإنه يقال: ما معنى (ياء) النداء في قول: (يا ولي الله اشفع لي) و(ياولي الله ادع الله لي) ونحو ذلك .

الوجه السابع : أن اعتقاد أصحاب هذا القول أنه لا يكفر قائل هذه العبارة حتى يقارن قوله الاعتقاد في المدعو، هو عين قول الصوفية القائلة أن لا نعتقد فيهم النفع والضر وإنما ندعوهم لأجل الشفاعة والتقرب .

الوجه الثامن : أننا نقول: ما الفرق بين دعاء الجن والملائكة ودعاء غير الله ﷻ وقولهم يا نبي الله ادع لي ؟ فما الفرق بين أن يقول : يا جن افعلي لنا وأعيذينا، وبين أن تقول : يا ولي الله ادع الله لي أو يا ملك ادع الله لي فكلاهما بمعنى واحد بل دعاء الميت أشد كفراً وأظهر شركا ولذلك من قال : إن دعاء الملك أو الجن في قوله يا جن ويا ملائكة ليس شركاً فقد خالف الكتاب والسنة فكيف بدعاء الميت بأن يقال يا ولي وقد مات فهو شرك بالإجماع .

الوجه التاسع : أن هذا يخالف ما ثبت وما تقرر عند أئمة الدين وأجمعوا عليه أن دعاء غير الله ﷻ من باب الشرك الأكبر، ومن ذلك قياس دعاء الأموات بدعاء الملائكة ومن أقوال أهل العلم :

قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين: (ومن أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم وهذا أصل شرك العالم فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عمن استغاث به وسأله قضاء حاجته وأن يشفع له إلى الله فيها).

والشاهد: (سأله أن يشفع له إلى الله) فهو بمعنى أن يقول : يا نبي الله ادع لي .

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: (إن جاز التعلق بالأموات، جاز أن يستظهر العبد بالحفظة والملائكة الذين هم لا يفارقونهم بيقين، وهذا لا يقوله مسلم أصلاً، بل لو فعله أحد لكان شركاً بالله، فإذا لم يجز ذلك في حق الملائكة الحاضرين فإنه لا يجوز في حق أرواح أموات قد فارقت أجسادها) مجموع الرسائل٤/ ٣٨٥ .

قال الشيخ عبد اللطيف يبين حقيقة هذه اللفظة : (في أن قول القائل يا فلان الميت ادع الله لي بالهداية مثل قول يا فلان الميت نجني أو نحو من ذلك، فإن في سؤال الميت مما لا يملك ولا يقدر عليه الأموات فلا يقدرون عليه فقد أشرك بالله ﷻ) مصباح الظلام ص: ٢٥٨ .

وقال: (وأما تخصيص الشرك في هداية القلوب وشفاء المريض وإنبات النبات وطلب الدنيا ونحو من ذلك ، فإن ذلك من جهله ؛ فإن الأسباب العادية التي لا يستطيع الإنسان في حياته تنقطع بموته كما في الحديث :" إذا مات ابن آدم انقطع عمله .." وبذلك تصير طلبتهم في حكم فيما لا يستطيع في حياته ...وقد تقدم القول يا والي المسيح اشفع لنا عند الله شرك).

والشاهد في قوله (أن تشفع بالدعاء)، فالطلب بالدعاء داخل فيها يسمى طلب الشفاعة، ومن قال: يانبي الله ادع الله أن تشفع لي، هو مثل أن يقول: اشفع لنا.

فلا فرق بين قول: يا نبي الله ادع الله لي ، وبين قول: يا نبي الله اشفع لي .

فقول: ادع الله لي هو طلب الشفاعة في الحقيقة لا فرق، واللفظان بابهما واحد ولا فرق بينهما .

وعليه فعبارة (يا فلان ادع الله لي) والمدعو ميتا ، تعتبر كفرا ناقلا عن الملة ومن شك في كونها شركا أكبر فهو كافر، ومن حكم بأنها ليست بكفر فإنه يحكم بكفره ولا يعذر بجهله لأنه يعد ممن صحح الكفر وشك فيه . ألا فليتنبه لهذا القول الخطير وليرعوي من يفتي بأن هذه العبارة ليست بكفر وعليه أن يتأمل الأدلة.

مبحث : دعاء الصفات :

أمثلة : يا رحمة الله ويا لطف الله ويا غوث الله ويا عناية الله .

وهذا دعاء غير الله ﷻ وهو من الشرك، لأن الصفات لا تستقل بالدعاء فلا يمكن أن يدعى لطف الله إنما يدعى اللطيف الخبير ، فيقال : يا لطيف يا رحيم ولايجوز أن يقال: يا لطف الله ويا رحمة الله .

فلا يجوز أن تدعى الصفة، لأنها لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا تستقل بالدعاء، لأنها غير مستقلة بالوجود أصلا .

قال ابن تيمية: (أما دعاء صفاته وكلماته فكفر باتفاق المسلمين ، فهل يقول مسلم : يا كلام الله اغفر لي أو يا علم الله أو يا قدرة الله ويا عزة الله ويا عظمة الله ونحو ذلك) . الاستغاثة ص:١١٤ .

قلت ولو أراد الداعي لرحمة الله ولطفه الله ﷻ لما كان شركا ولكانت عبارة موهمة ينبغي تركها سدا للذريعة .

تنبيه : قول النبي ﷺ : (برحمتك استغيث) و (أعوذ بعزتك وقدرتك) :

ليس من دعاء الصفات وإنما هو استغاثة واستعاذة بالله المتصف بصفة الرحمة والعزة والقدرة وغيرها ، فالله المدعو وليس الصفة ، ففرق بين أن تقول يا رحمة الله ويا قدرة الله ، وبين أن تقول : يا الله أسألك برحمتك وعزتك وكرمك وعفوك ، وهذا من أنواع التوسل وهو سؤال الله ودعائه بأسمائه وصفاته .

مبحث : دعاء الجن (المناذير)

المسألة الأولى:تعريفها :

هي دعاء الجن، والاستغاثة بهم، والطلب منهم وسؤالهم إيقاع الضرر بالمدعو عليه.

وتسمى عند العامة بالمناذير ،لأن المدعو عليه ينذر للجن ويجعل من حض الجن ونصيبهم، ومنه قول أم مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ آل عمران: ٣٥.

المسألة الثانية: أمثلتها :

خذيه يا شياطين، ويا جن انفري به، ويا بقعا صوعيه وروعيه ويا سبعة ويا حسن ويا أهل الحدة ويا أم الصبيان، وكسروك وعصروك ونفخوك ، وامتصوه وطيروه، وعدوا ودخلوا وحشوا ودبوا، وأعموه واقتلوا، واحضروا، وافعلوا واتركوا . آهو لكم ومعناه تملكوا عليه واستعبدوه .

ونحو ذلك من الألفاظ التي فشت في بعض العامة .

تنبيه : لو قال الله يجعل الشيطان يأخذه ويجعل بقعا تصوعه لما كان من الشرك لأنه دعا الله، لكنها من التعدي في الدعاء .

المسألة الثالثة : حقيقة المناذير ووجه الكفر فيها وكيفية دعاء الجن:

المناذير هي في الحقيقة دعاء للجن واستغاثة بهم واستعاذة بهم من دون الله، فهي في العموم داخلة في دعاء المخلوق من دون الله، ودعاء غير الله شرك، فالمناذير إذا تدخل ضمن شرك الدعاء .

وحقيقة شرك الدعاء :

أن يطلب الإنسان من المخلوق أمرا لا يقدر عليه إلا الله ويتوجه للمخلوق ويذل ويخضع له.

كأن يقول ياولي الله أغنني أو يارسول الله استغفر لي واشفع لي وقربني من الله، ويا ملائكة الرحمن ويا عيسى وأمه ويا اللات ويا مناة ويا ود وسواع اشفعوا لي عند الله، ويامللك الجن أعذني واكفني شر جنودك أو انتقم لي من فلان أو أنزل به ضررا، ومثل ذلك خذوه يا جن ومصوه وانفروا به وانثروا دمه.

وهذا هو حقيقة شرك جميع الأمم من الأولين والآخرين كما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يونس: ١٨ وقوله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ الزمر: ٣ وقوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ الجن: ٦ .

فالله ﷻ أمرنا أن ندعوه ولا ندع غيره وأوجب علينا أن نوحده في دعائه ولا نشرك أحد معه في الدعاء وغيره من العبادات قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٠ قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٣ ، وأمرنا أن نستعيذ به ولا نستعيذ بغيره كما في قوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فصلت: ٣٦ وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾.

فالواجب أن نقول يا الله انفعنا وادفع الضر عنا واكفنا وأغثنا، لا أن نقول خذيه ياشياطين وانفري به وأهلكيه وادخلي من جوفه ، إن هذا كله من شرك الدعوة ودعاء للجن من دون الله وتعليق للقلب بها واعتقاد نفعها وضرها وقدرتها على كل شيء وكل هذا من الشرك الأكبر .

كما أخبرنا سبحانه أن الجن يعبدها كثير من الإنس، وأن عبادتها حصل بطاعتها وبدعائها من دون الله والاستعاذة والاستغاثة بها والخوف منها كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ .

على ما تقدم فعبارة خذيه ياشياطين وانفري به ونحوها من العبارات هي داخلة في الاستعاذة برجال من الجن فهي من باب شرك الدعاء الذي يكفر قائله .

المسألة الرابعة : عبادة الجن والشرك بهم تقوم على أمرين:

الأول: طاعتهم في الكفر والشرك والعصيان وعبادة غير الله :

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ

ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إبراهيم: ٢٢ .

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ .

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الأعراف: ١٦ - ١٨

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ الأنعام: ١٣٧ فأطاعوهم .

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ مريم: ٤٤

وقال: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يس: ٦٠

وقال: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ المجادلة: ١٩

وقال: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ الأنعام:١٢٨

وقال: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف٢٧

وقال: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الإسراء: ٦٤.

الثاني: دعائهم ومخاطبتهم والاستعاذة بهم ورجائهم والخوف منهم :

قال ﷻ: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ الجن: ٦ .

وقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥

وقال: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ النساء: ١١٧.

المسألة الخامسة : أدلة كفر من دعا الجن وعبدهم :

أولا: الأدلة العامة على شرك الدعاء وكفر فاعله :

سواء كان المدعو رسولا ونبيا أو من الملائكة أو وليا أو شيطانا وجنيا أو كوكبا أو صنما أو غير ذلك .ومن تلك الأدلة :

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الزمر: ٣٨ وقال ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المؤمنون: ١١٧ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٣

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ الأحقاف: ٥ وقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٠.

وقال ﷺ : (من مات وهو يدعو غير الله دخل النار) متفق عليه.

ثانيا: الأدلة الخاصة التي نصت على كفر من دعا الجن واستعاذ بهم وعبدهم .

قال ﷻ: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ الجن: ٦.

وقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥

وقال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ مريم: ٤٤

وقال: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يس: ٦٠

وقال: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ سبأ: ٤١

وقال: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾

وقال: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الأنعام: ١٠٠

وقال: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ الأنعام:١٢٨

وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ الأنعام: ١١٢.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ .

المسألة السادسة : أقوال أهل العلم في كفر من دعا الجن :

قال ابن مسعود ﷺ :" كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم "رواه البخاري .

فائدة : تسمية الجن ناسا .

قال الكلبي في كتابه الأصنام : " بني مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن وفيهم نزلت ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الأعراف: ١٩٤ ".

قال أهل التفسير عند قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ الأنعام:١٢٨:" استمتاع الجن بالإنس طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به من الكفر والمعاصي . واستمتاع الإنس بالجن أنهم أعانوهم على معصية الله والشرك به، وقضاء حوائجهم واستخدامهم بالسحر وغيره " .

قال ابن كثير في تفسيره :

قال الحسن :"وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس ".

وقال ابن جريج :" كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول أعوذ بكبير هذا الوادي فذلك استمتاعهم ".

قال ابن جرير في تفسيره : كان الرجل إذا أمسى بقفر قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه ".

قال كعب : يحفظونه من أمر الله لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم لتخطفتكم الجن وملائكة العذاب من أمر الله ".

وفي تفسير القرطبي :" زادوهم رهقا قال سعيد بن جبير كفرا . ولا يخفى أن الاستعاذة بالجن من دون الاستعاذة بالله كفر وشرك ".

وفي جواب اللجنة الدائمة للإفتاء رقم ٤٣٣ وتاريخ ٢٠/ ٤/ ١٣٩٣هـ في سؤال عن حكم المناذير دعاء الجن والشياطين على شخص ما ليعملوا به عملا مكروها كأن يقال خذوه أذهبوا به انفروا به .

أجاب أهل العلم برئاسة الشيخ عبد العزيز بن باز :" فاستعانة الإنسي بالجني في إنزال ضرر بغيره واستعاذته به في حفظه من شر من يخاف شره كله شرك، ومن كان هذا شأنه فلا صلاة له ولا صيام ، ومن عرف عنه ذلك لا يصلى عليه إذا مات ولا يدفن في مقابر المسلمين ".

المسألة السابعة : أوجه الكفر في المناذير وأسباب كونها من الشرك الأكبر المخرج من الملة : وأنواع الشرك فيها :

الأمر الأول : شرك الربوبية والقادرية :

أن فيها اعتقاد وجود من يملك النفع والضر من دون الله عز وجل فالناذر يعتقد في الجن أنها تنفع وتضر مع الله تعالى وإلا ما كان ليسألهم، فهو يعتقد أنها تستطيع القتل والإماتة والأخذ والإخفاء والتطيير والتملك وغير ذلك من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، والتي من أثبتها لغير الله وطلبها من غيره كان مشركا، ومما لاشك فيه أن من يقول خذيه ياجن وأميتيه لابد وأن يكون معتقدا أن الشياطين والجن قادة وأنها تنفع وتضر من دون الله عز وجل وهذا شرك أكبر وهو متعلق بالربوبية . قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الروم: ٤٠ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي

ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ الرعد: ١٦.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ الزمر: ٤٣ ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ يونس: ٣٤.

الأمر الثاني : شرك الدعوة (الدعاء) :

أن المناذير تقوم على دعاء غير الله عز وجل، وقد بين الله تعالى في كتابه العزيز أن دعاء المخلوق وسؤاله أمرا لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر مخرج من الملة كما في قوله: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المؤمنون: ١١٧وقوله: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٣ وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ الأحقاف: ٥ وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٠، والله تعالى أخبر أن المدعوين لا يملكون شيئا وليس بيدهم نفعا ولا ضرا وأن من يدعوهم فقد اتخذهم آلهة ومعبودات، فالله تعالى سمى المدعو إلها ومعبودا ونفى أن يكون بيد أي مدعو غيره نفع أو ضر في آيات كثيرة قدمنا بعضها،وأخبر أنه بهذا العمل يصير واقعا في الشرك الأكبر الذي هو دعاء غير الله كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يونس: ١٨ وقال: ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الجاثية:١٠ وقال: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ الأحقاف: ٢٨ وقال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ الزمر: ٣ وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الزمر: ٣٨ وقال: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥، وإذا كان الجن غير قادرين ألبته على إجابة من يدعوهم وينذر لهم، ولا يستطيعون تحقيق ما يطلبه الناس منهم كغيرهم

ممن يدعى مع الله كما أخبر عنهم بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ ﴾ فاطر:١٤ وقال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ يس: ٢٣ ، فكيف ومن يدعوهم ويسألهم يطلب منهم أمور لا يقدر عليها إلا الله من الأفعال المتعلقة بالربوبية مثل الإماتة والإعدام ونحو ذلك ثم هم مع ذلك غائبين.

ثم إن في دعاء الجن كفر أكبر لأن فيه تعطيل لدعاء الله عز وجل وعدول عنه بغيره ومساواة له بخلقه.

ثم إن من يدعو الجن ويستعيذ بهم وينذر لهم فإنه لم يفعل ذلك إلا لأنه يعتقد أن الجن تنفع وتضر لذلك يخافون منهم ولأجل هذا الله عز وجل كفر الذين يدعون الجن ويستعيذون بهم: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ﴾ الجن: ٦ أي كفراً وخوفاً .

وفي قوله عز وجل : ﴿ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ سبأ: ٤١ وقوله: ﴿ وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴾ النساء: ١١٧، دليل على أن عبادة الجن موجودة وكانت عبادتهم بدعائهم لغير الله عز وجل، على ما قررنا فإن فمجرد دعاء الجن بقول: يا جن افعلوا واتركوا شرك أكبر .

الأمر الثالث : شرك الخوف :

أن من دعا الجن فقد وقع في شرك آخر وهو شرك الخوف . والخوف من الجن هو خوف محرم وشرك مخرج من الملة إذا كان كالخوف من الله ، داخل في خوف السر وهو الخوف من المخلوقين والجن فيما لا يقدر عليه إلا الله في الإماتة والأخذ ونحو ذلك والخوف يحصل من قائلها وممن قيلت له . ودليل ذلك أن هذه العبارات إذا قيلت للمدعو عليه خذوه فإنه يخاف ويرتعد، والله حكم بكفر من يخاف الجن ونفى عنه الإيمان قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥، وإن من يدعو الجن ويستعيذ بهم ويتنذر لهم فإنه لم يفعل ذلك إلا لأنه يعتقد أن الجن تنفع وتضر ويخاف منها، ولذلك الله عز وجل كفر الذين يدعون الجن ويستعيذون بهم : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ﴾ الجن: ٦ أي كفراً وخوفاً .

الأمر الرابع : شرك المالكية :

في بعض عبارات المناذير اعتقاد أن الجن تملك في البشر وأن لها استقلالاً في الملك مثل قولهم : هوَ لكم أو فلان لكم وللشياطين ونحو ذلك.

المسألة الثامنة: الشبهات التي تثار حول المناذير :

الأولى : أن دعاء غير الله عز وجل لا يكون شركا إلا مع اعتقاد الربوبية والاستقلال بالنفع والضر ودعاؤنا للجن لا نعتقد فيهم أنهم يخلقون ويرزقون ويحيون ويميتون.

والرد على هذه الشبه من أوجه :

أن هذه الشبهة هي شبهة كل مشرك وهي قولهم لا نعتقد الخالقية والرازقية والمالكية في من ندعوه ولا أنه ينفع أو يضر من دون الله، وهذه شبهة باطلة فكفر من دعا غير الله عز وجل ليس شرطاً أن يعتقد فيه النفع والضر، كما قال الله تعالى عن المشركين الكفار وعن حقيقة شركهم :

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ وقال تعالى: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ ، فمجرد قصد التقريب أو طلب النفع أو دفع الضر شرك أكبر، وليس شرطا أن يكون الإنسان المشرك يعتقد أن هذا المدعو له استقلالية في الربوبية فإن هذا شرك في الربوبية وهذا شرك في الألوهية .

وقد كان الكفار معترفين بالربوبية مقرين بها كما قال عز وجل عنهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ الزخرف: ٨٧ وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ لقمان: ٢٥.

ثانياً : أن الله ﷻ كفر من دعا الجن واستعاذ بهم كما بينا مع أنهم لا يعتقدون إلا مثل ما يعتقده هؤلاء كما في قوله: ﴿ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ سبأ: ٤١، فهذا دليل على أن عبادة الجن موجودة، وكانت عبادتهم بدعائهم لغير الله عز وجل كما في قوله: ﴿ وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ النساء: ١١٧.

فكيف يقال بعد هذا أن دعاءهم ليس بشرك .

إن مجرد دعاء الجن بقول القائل: (يا جن افعلوا واتركوا) شرك أكبر لأنه مثل لو دعا الذي بجانبه من الملائكة من الحفظة قال : يا ملك رقيب ، أفعل لي واترك لي هذا من الشرك الأكبر فضلا عن دعاء الجن .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن:" إن جاز التعلق بالأموات، جاز أن يستظهر العبد بالحفظة والملائكة الذين هم لا يفارقونهم بيقين، وهذا لا يقوله مسلم أصلاً، بل لو فعله أحد لكان شركاً بالله، فإذا لم يجز ذلك في حق الملائكة الحاضرين فإنه لا يجوز في حق أرواح أموات قد فارقت أجسادها " . مجموع الرسائل٤/ ٣٨٥ .

ثالثاً : عموم الآيات الناهية عن دعاء غير الله .

والله تعالى اثبت أن مجرد دعاء المخلوقين شرك وكفر مخرج من ملة الإسلام سواء كان المدعو من الملائكة أو الرسول ﷺ أو عيسى عليه السلام أو الصالحين والأولياء أو الأصنام أو الجن والشياطين . ولا يقول أحد أن من دعا هؤلاء أنه يشترط في تكفيره أن يعتقد فيهم الربوبية وأنهم يخلقون ويرزقون . بل دعاء غير الله من الشرك ومعلوم أن مجرد الدعاء والاستعانة والاستغاثة والاستعاذة والدعاء والطلب والسؤال بدخول ياء النداء للمنادى (يا جن افعلوا واتركوا ويا شياطين ويا بقعاء ونحو ذلك فهذا دعاء لغير الله عز وجل ويسمى ذلك عبادة فمن دعا شيئا فقد عبده ويعتبر شرك بذاته . وقد ذكرنا الأدلة في ذلك .

ومما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء٢١٣ وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ الأحقاف: ٥ وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٠ وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ الجن: ٦ .

الثانية : أن الجن دعاؤهم هنا ليس دعاء لغير الله عز وجل فيما لا يقدر عليه إلا الله لأن الجن هنا حاضرون والحاضر يجوز دعاؤه .

والرد على ذلك من أوجه :

أولاً : أن الجن لا يسلم بأنهم حاضرون بل هم غائبون عن الناس والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ﴾ الأحقاف: ٢٩ وقوله: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ الجن: ١٠ فلم تكن جميع الجن لتعلم بما يصير في الأرض فقد أخبرت عن أنفسها بجهلها وعدم علمها بمبعث الرسول ولا ما كان سببا في منعهم من استراق السمع، كما أخبر سبحانه عن جهلهم وإبطال ما يعتقده المشركون بهم من

كونهم حاضرين ويعلمون الغيب ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ سبأ:١٤ .

وقال﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾المؤمنون:٩٨.

فهم غائبون بأمر الله تعالى محجوبون عن البشر لا يصلون إلى الناس .

ثانيا : ثم إن الله تعالى قد كفر الذين كانوا يدعون الجن ويستعينون بهم كما في قوله جل ذكره:﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ النساء: ١١٧. وقوله:﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يس: ٦٠ وقوله:﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ سبأ: ٤١ وقوله:﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ الجن: ٦ والجن لو قلنا بأنهم حاضرون لكانت الاستعاذة هنا استعاذة جائزة : أعذنا يا ملك الجن ممن تحتك، ولما كفرهم الله عز وجل في قوله: ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أي كفراً وأيضاً من معاني الرهق هنا : الخوف والشدة .

الشبهة الثالثة : أن الجن قادرون على إيقاع ما يطلب منهم وعلى فعل هذه الأمور.

والرد عليها من أوجه :

الأول : أن الجن في حكم الغائب والغائب غير قادر ولو كان في حضوره قادراً فإن غيابه دليل على عدم القدرة، ومن شروط جواز دعاء المخلوق أن يكون حاضراً قادراً سامعاً حيا فمن دعا غائباً فقد أشرك .

الثاني : أن الجن غير قادرين على بني آدم فالملائكة والجن لا تقدر أن تعمل للإنسان شيئا إلا بأمر الله، والله عز وجل منعهم من الإنس وحفظ الإنس من شرهم فلا يستطيعون الوصول إلى الأنس إلا بطريق الإنس أنفسهم بالاستعاذة بهم ودعائهم كما ذكر الله تعالى ذلك في سورة الجن وكما قال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ الرعد: ١١ وأمر الله كما فسر ابن عباس ﷺ : اختطاف الجن وخسفهم وأذيتهم فالله تعالى حافظ للبشر من الجن فهذا دليل على أنهم غير قادرين ومنعهم الله عز وجل ومنعهم دليل على عدم قدرتهم .

ومن الأدلة على أن الجن غير قادرة وأن الله حفظ السماء من استماعهم وأنهم لا يعلمون الغيب وأنهم مستخدمين قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ سبأ: ١٤﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ الرحمن: ٣٣ ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ الحجر: ١٧ ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فصلت: ٣٦ ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ المجادلة: ١٠ وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ النحل ٩٨.

وفي هذه الآيات الأمر بالاستعاذة بالله وحده من الشيطان، وإثبات أن الشياطين ليس لها قدرة ولا سلطان على بني آدم لا من جهة القدرة ولا من جهة الحجة، وأن سلطانهم وتسلطهم إنما هو بالإغواء والتزيين والوسوسة ونقلهم إلى الكفر وأز الكفار الذين يتولونهم ويشركون به، فيتسلط الشيطان والجن بهذه الأمور على الكفار الذين يشركون بهم ويطيعونهم ويدعونهم ويوالونهم . قاله ابن القيم في الإغاثة ١١٦/١ .

الثالث : أن الله عز وجل حكم بالعموم على عدم قدرة المدعو من دون الله كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الأعراف: ١٩٤ والآية نزلت في قوم كانوا يعبدون الجن ويدعونهم من دون الله، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ يونس: ١٠٦ وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ فاطر: ١٤، فهذا دليل على العموم فكل مدعو لا ينفع ولا يضر بل دعاؤه شرك وخسارة وضرر سواء كان جنا أو ملكا أو غيره .

الشبهة الرابعة : أن المناذير من شرك الألفاظ الداخلة في الشرك الأصغر :

ويرد على هذه الشبهة بما قررناه في المسألة الثالثة والسابعة.

الشبهة الخامسة : قولهم : أن الخوف من الجن خوف طبيعي .

والجواب: أن الخوف الطبيعي هو الخوف من القادر على إيقاع الضرر كسبع نحو ذلك وهذا ليس طبيعياً بل هو خوف محرم وشرك من جهات .

أنه خوف سر مع حفظ الله عز وجل للبشر فهذا خائف خوفا سرياً .

وضابط خوف السر هو الخوف من الغائبين أو من الأولياء أو من القبور وهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً .

أيضاً هو خوف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله كالإماتة وغيرها وهذا لا يقدر عليه إلا الله عز وجل وقد منعهم الله عز وجل من ذلك.

السادسة : آيات وأحاديث قد تشكل على المخالف :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ المؤمنون:٩٨ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ مريم: ٨٣ ﴿ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ البقرة: ٢٧٥ ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ آل عمران: ٣٦ ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ الأنفال: ١١ ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ ص: ٤١ ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ المجادلة: ١٩ ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ الشعراء: ٢٢١ ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ الأعراف: ٢٠١ وقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ الحجر: ٤٢.

وحديث " نعوذ بالله من همزه ونفخه ونفثه " رواه أبو داود.

نفخه الكبر ونفثه السحر وقيل الشعر. وهمزه الموتة وهي الجنون والخنق والصرع والمس وقيل جميع ما يصيب بني آدم منهم قاله ابن القيم في إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/ ١٦٣.

وقوله ﷺ :"وأعوذ بك أن أغتال من تحتي " وهو الخسف قاله وكيع .

حديث :" أعينوا ياعباد الله " رواه الطبراني وهو ضعيف لا حجة فيه.

وهذه النصوص لاحجة فيه على أن للجن قدرة على الإنس حتى يصح الطلب منهم والاستعاذة منهم :

فأما حضورهم فمعناه قربهم ودنوهم في شؤون العبد .

وأما الهمز والأز والتخبط والتسلط : فكلها من جنس واحد ومعناها الوسوسة والإغواء والإغراء والإضلال والتزيين .

وأما السلطان فإنما هو بالإغواء والتزيين والوسوسة فليس للشياطين سلطان إلا بذلك وطاعتهم .

أما قوله : ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ ﴾ النمل: ٣٨. فإن هذا ليس دعاء واستغاثة واستعاذة من سليمان وإنما أمر منه للجن وهو تحت أمره ومملكته وسلطانه.

عليه فالجن لا تقدر إلا على الوساوس والإغراء والتزيين والصد ولا يستطيعون غير ذلك ولهذا يقول إبليس وهو في جهنم ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ إبراهيم: ٢٢ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ سبأ: ٢٠ حين أقسم الله بأن يضل البشر فوقع الذي كان يظنه ويتوقعه وإلا فليس له سلطان على أحد إلا ماكان من الوساوس والدعوة للشر ومما يدخل في ذلك صرع الجن وتخبطه للإنس ووسوسته وتزيينه وأذيته والأز الذي هو التسليط بالإغواء عن طاعة الله ورجز الشياطين وهمزها هو الدفع بالإغواء والوسوسة وحضورهم أن يكونون مع العبد في شيء من أموره .

فليس لهم قدرة على شيء أصلا فلا وجه للخوف منهم فضلا عن دعائهم والاستعاذة بهم.

المسألة التاسعة: خطورة المناذير وحكم قائلها :

إن من علم حقيقة هذه المناذير وقصد معناها وهذا الأصل في معظم من يقولها فهو كافر مشرك خارجا من الملة مباح المال والدم لا تؤكل ذبيحته ولا يصلى عليه ولا يرث ولا يورث .

المسألة العاشرة: قولها من غير قصد لمعناها :

هذا وإن كان لا يكفر قائلها ولا يعتبر واقع في الشرك إلا أن الواجب ترك هذه العبارة والإنكار على قائلها وتبيين خطورتها وان من علم حقيقتها وقصد معناها وهذا الأصل في معظم من يقولها فهو كافر مشرك خارجا من الإسلام .

المسألة الحادية عشر: كل ما ذكرناه من المسائل في كفر من يدعو الجن يدخل فيه من يدعو الملائكة، كما يقول بعض العوام يا ملائكة السماء شلي فلان واخبطي به.

فصل: التوسل

أولاً : تعريفه :

من الوسيلة وهي التقرب، وما يوصل للمراد ويقرب للمقصود.
والمقصود به : التقرب إلى الله بأمر من الأمور وفعل ما يقرب إليه تعالى.
وبمعناه الخاص: هو دعاء الله ﷻ بوسيلة يضعها الداعي .

ثانياً : أقسام التوسل :

ينقسم التوسل إلى : توسل مشروع ، وتوسل ممنوع .

١- القسم الأول : التوسل المشروع : وهو أنواع :

الأول: التوسل بأسماء الله وصفاته ﷻ.

كأن يقول الداعي: اللهم إني أتوسل إليك برحمتك أن ترحمني أو اللهم يا رحمن ارحمنا، اللهم يا جبار عليك بالكفار أو أجبر كسرنا .

ودليله قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ الأعراف: ١٨٠، يعني توسلوا بها، وهذا هو التوسل بأسماء الله وصفاته .

الثاني: التوسل بالأعمال الصالحة :

كأن يقول العبد مثلاً: اللهم إني أتوسل إليك بمحبتي لرسولك ﷺ أو بإيماني به أو أتوسل إليك بجهادي أو أتوسل إليك بعملي الصالح الفلاني .

ودليل هذا النوع حديث الثلاثة النفر من بني إسرائيل الذين انطبقت عليهم الصخرة فتوسل أحدهم بعفته عن الزنا خوفا من الله والثاني توسل ببره بوالديه والثالث توسل إلى الله بوفائه بالأمانة. فهؤلاء توسلوا بعمل صالح .

الثالث: التوسل بدعاء الصالحين :

دليله : ما فعله عمر مع العباس، وقول عمر: (اللهم إنا كنا نتوسل بنبيك ، وإنا نتوسل بعم نبيك) فكان يقول : قم يا عباس ، ادع الله أن يغيثنا وهذا توسل بدعاء الصالحين رواه البخاري.

الرابع: التوسل بالاعتراف بالذنب :

كقول موسى ﷺ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ ﴾ القصص: ١٦ .
اعترف بذنبه وطلب مغفرة ربه ﷻ فغفر الله له .

الخامس: التوسل بإظهار الضعف والمرض:

كما قال أيوب عليه السلام: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ الأنبياء: ٨٣ .

وكقول يونس عليه السلام: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء: ٨٧ .

وكأن يقول الإنسان : يا رب أتوسل إليك بضعفي ومرضي أن تشفيني وتعافيني وتغفر لي ونحو ذلك .

القسم الثاني : التوسل المحرم الممنوع : وله أنواع :

الأول: التوسل بالذات .

مثل قولهم : اللهم إني أتوسل إليك بذات نبيك محمد أو بذات عبدك الصالح فلان أو بذات الولي الفلاني ، فهو لا يتوسل بدعائه فلا يقول : ادع الله لي يا فلان وهو حي، ولكن يقول أتوسل إليك يا الله بذات عبدك فلان .

الثاني: التوسل بالجاه والمكانة :

فيقول : اللهم إني أتوسل إليك بمكانة نبيك محمد ﷺ عندك أو بجاه نبيك صلى الله عليه وسلم أو بجاه فلان . وهذا أيضاً توسل ممنوع وهو لا يجوز لأمور :

١- لأن مكانة وجاه النبي ﷺ أو غيره لا تنفع أحداً إلا صاحبها.

٢- ثم في غير الأنبياء والملائكة لا يعلم للعبد منزلة عند الله غير فقد يتوسل إنسان برجل ولا يعلم هل هو من المقبولين عند الله أو لا، فيقول: اللهم إني أتوسل إليك بجاه فلان وقد لا يكون له جاه عند الله ﷻ أصلا.

الثالث : التوسل بحق السائلين :

فيقول الداعي: اللهم إني أتوسل إليك بحق نبيك أو بحق فلان الصالح الولي الصالح أو بحق السائلين أو نحو ذلك وورد فيها حديث وهو ضعيف: (اللهم أسألك بحق ممشاي أو بحق السائلين) ولا يصح الاحتجاج به .

ومما يرد هذا النوع من التوسل:

١- أنه ليس على الله ﷻ حق واجب فلا يجوز أن يظن العبد أن على الله حق فالله تعالى لا حق عليه وإنما يفعل ما يشاء تفضلاً منه .

٢- ثم لو قدرنا أن للرسول ﷺ حق على الله تعالى، فما العلاقة بين حق الرسول عند الله وبيننا؟ هذا حق للرسول فما علاقتنا به .

٣- ثم إن فيه إقسام على الله سبحانه وهذا من الأمور المحرمة .

تنبيه: حقيقته الحق في حديث معاذ ومعنى (حق العباد على الله) :

هو حق الذي هو من باب التكرم لا أنه من باب الجزاء والاستحقاق.

تنبيه : السؤال قد يكون من الإقسام على الله ويكون توسلا :

قال ابن تيمية في التوسل: (قول القائل ، أسألك بكذا نوعان ، فالباء تكون للقسم وتكون للسؤال ، فالأول القسم بالمخلوقات لا يجوز على المخلوقات فكيف بالخالق ، وأما الثاني وهو السؤال بالمعظم كالسؤال بحق الأنبياء) .

مسألة : التوسل يدخل في باب الشرك الأصغر وذرائع الشرك.

وقد خالف في هذه التوسلات المبتدعة كثير من المتأخرين وجوزها .

مسألة الفرق بين التوسل والتبرك :

التوسل دعاء الله بالوسيلة المقربة وأما التبرك فهو طلب البركة العينية من الذات التي يظن أن فيها بركة ونفع في ذاتها .

مسألة : الفرق بين التوسل والاستغاثة والشفاعة:

أن التوسل دعاء الله ﷻ والتوجه إليه متوسلاً بالغير (المخلوق) ، لا أن يدعى نفس المخلوق ويتوجه إليه ويستغاث به فإن هذا شرك أكبر.

أما الاستغاثة والشفاعة فهي دعاء غير الله تعالى .

فالتوسل أن يقول : اللهم إني أسألك بحق نبيك أو بذات نبيك أو بجاه نبيك أن تغفر لي، وهذا دعاء لله فهنا المتوسل دعا الله ﷻ وما دعا غيره ، وهو توسل ممنوع، ولكن لا يصل إلى الكفر الأكبر وإنما هو من الشرك الأصغر .

أما المستغيث والمستشفع فقد دعا غير الله ووقع في الشرك الأكبر، فبدل أن يقول : يا الله، يقول : يا محمد أو يا نبي الله إشفع لي وأغثني فهنا دعا غير الله ﷻ أو اشفع لي عند الله، وهذا دعاء لغير الله، وهذه استغاثة وليست توسلا، فكيف يسوى بين هذين الأمرين دعاء الله ﷻ ودعاء غيره، فدعاء غير الله شرك أكبر وأما دعاء الله لكن بطريقة مبتدعة خاطئة فلا تعد أن تكون من الأمور المحرمة أو الشرك الأصغر.

تنبيه: تسمية مشركي زماننا الاستغاثة بالأموات ودعائهم من دون الله توسلاً:

يسمي مشركو عصرنا من القبورية والصوفية والرافضة استغاثتهم بالأموات ودعاءهم إياهم من دون الله توسلاً، وإذا قلنا لهم إن هذا من الشرك الأكبر، قالوا: إن هذا من باب التوسل الذي فعله الصحابة وأمر الله بها ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ المائدة: ٣٥ وهو من تعظيم الأولياء والصالحين، والحق أن الوسيلة هنا هي فعل الطاعات وترك المحرمات وليس طلب الشفعاء والشرك بالمخلوق.

وقد نقض شبهتهم في عدم التفريق بين التوسل والاستغاثة ابن تيمية.

قال ابن تيمية: (ولم يقل أحد أن التوسل بنبي هو استغاثة به بل العامة الذين يتوسلون في أدعيتهم بأمور، يعلمون أنهم لا يستغيثون بهذه الأمور، فإن المستغيث بالنبي طالب منه وسائل له، والمتوسل به لا يدعى ولا يطلب منه ولا يسأل وإنما يطلب به، وكل أحد يفرق بين المدعو والمدعو به الفتاوى ١/ ١٠٥.

وقال في رده على البكري: (وقوله: من توسل إلى الله بنبيه أو استغاث به، سواء كان بلفظ الاستغاثة أو التوسل، فهذا القول لم يقل به أحد، والفرق واضح بين السؤال بالشخص والاستغاثة به) الاستغاثة ١٨٢ .

وقال: (ظن أن التوسل كالاستغاثة وليس كذلك، فإنه يقال استغاثه واستغاث به، فالمستغاث به المسؤول، وأما المتوسل به فهو الذي يتسبب به إلى المسؤول) الاستغاثة ٤٩٨ .

مبحث : الاستجابة والإجابة

معنى الاستجابة : هي إجابة الدعاء والسؤال والإجابة والاستجابة بمعنى واحد والفاعل منها مجيب .

والمجيب من أسماء الله تعالى، ومن أفعال الله تعالى وصفاته الإجابة فهي داخلة في الربوبية، والذين يُدعون ويُسألون لا يستطيعون الإجابة فلا يستطيعها ولا يملكها إلا الله ﷻ فلذلك وجبت دعوته وحرم دعاء غيره .

والاستجابة داخلة تحت فعل التدبير، والتدبير يشمل الاستطاعة والقدرة وغيرها والله ﷻ اختص بذلك لكماله.

وهاهنا ضابط لكون دعاء غير الله ﷻ شرك أن المدعو لا يستطيع الاستجابة.

لأنه من شروط جواز دعاء غير الله ﷻ والاستعانة به كونه مستطيع للإجابة واستطاعة الإجابة هنا تحصل بثلاثة شروط هي :

١- القدرة على فعل ما طلب منه .

٢- الحياة فلا يكون ميتاً.

٣- أن يكون المدعو حاضراً سامعاً فلا يكون غائباً .

وهذه الشروط راجعة جميعها للإجابة والقدرة عليها ومن دعا شخصاً في أمر لا يستطيع الإجابة فيه فقد وقع في الشرك كمن يطلب ويسأل غائباً أو ميتاً أو حاضراً ولكن لا يستطيع إيقاع الإجابة كطلب المطر منه وطلب الرزق ونحو ذلك .

وعلى ذلك فالقاعدة (أن الدعاء والسؤال من توحيد الألوهية وأفعال العباد، والإجابة من توحيد الربوبية وأفعال المعبود) .

وعليه فمن ملك واختص بالربوبية استحق الألوهية، فالإجابة والقدرة والتصرف بيد الرب الخالق، وعليه يجب أن يكون الدعاء والعبادة لا تصرف لغيره عز وجل، فهو المستحق لها، والله عز وجل نفى الاستجابة عن كل ما سواه قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ الأحقاف: ٥ ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ الرعد: ١٤.

فنفي الاستجابة هنا دل على أنهم لا يستحقون الدعاء، والمشركون الأولون والآخرون منهم من أشرك في الألوهية ودعا غير الله ﷻ ومنهم من أشرك في الألوهية وفي الربوبية معا، فاعتقد أن غير الله تعالى يملك الإجابة باستقلالية فيملك

إنزال المطر ويملك المغفرة ويملك التصرف وهذا الشرك في الألوهية وفي الربوبية مع الله ﷻ، حيث اعتقد جواز دعاء غير الله وهذا شرك في الألوهية، واعتقد حصول الإجابة من غير الله وأن المدعو المخلوق قادر على استجابة الدعاء وتحقيقه، كإنزال المطر والمغفرة والشفاعة وغير ذلك وهذا من الشرك في الربوبية، فالإجابة من أفعال الله ﷻ والدعاء من أفعال المخلوقين التي لا تصرف إلا لله وحده لا شريك له .

والاستجابة من الله ﷻ قسمان :

أ- استجابة دعاء المسألة . ب) استجابة دعاء العبادة.

وصفة استجابة دعاء المسألة بإعطاء الداعي والطالب سؤاله وطلبه.

وصفة استجابة دعاء العبادة بالثواب والإثابة على دعائه .

وفي قوله ﷻ: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ غافر: ٦٠، تحقيق الأمرين : اسألوني أعطكم وأيضاً اعبدوني أثيبكم.

مسألة : الاستجابة تحصل بأمور منها :

١- تحقيق طلب الداعي وإعطاؤه سؤاله وتسمى هذه إجابة خاصة.

٢- يصرف عنه من البلاء والسوء بقدر ما دعا وطلب من الله تعالى .

٣- إثابة الداعي يوم القيامة فينال الحسنات بدل تحقيق مطلوبه في الدنيا.

فمن دعا الله ﷻ لا بد له من أحد ثلاثة أمور:

إما أن يعطيه الله سؤله وإما أن يصرف عنه من السوء وإما أن يثيبه في الآخرة.

وتأكيدا لذلك تأمل ما ورد في حديث النزول في الصحيحين: (من يدعوني فاستجيب له، من يسألني فأعطيه). فغاير بين الإعطاء والإجابة والدعاء والسؤال.

مسألة: لماذا لا يجيب الله تعالى دعاء من طلبه والله وعد أنه يجيب الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ غافر: ٦٠مع أنه يلاحظ أنه يدعا أحيانا فلا يجيب في بعض الأمور ودعاه بعض الأنبياء وما أجابهم كنوح ؑ لابنه ؟

والجواب عن هذه من أوجه :

الوجه الأول: أن الإجابة أشمل من مجرد حصول المدعو به فالإجابة لها صور، وهي الثلاثة السابقة، فإعطاء الله ﷻ السائل أحد صور الإجابة، فالإجابة أشمل وأعم من مجرد الإعطاء، ولذلك ينبغي التفريق بين إعطاء السائل سؤاله وبين إجابة الدعاء فإذا دعا الإنسان الله ﷻ ، فقد يستجيب الله له ولكن ليس شرطاً أن يعطيه سؤله وإنما يعطيه أمراً آخر إما في الدنيا وإما في الآخرة .

الوجه الثاني: أن الإجابة لها شروط وموانع فإذا توفرت الشروط وانتفت الموانع حصلت الإجابة وإلا امتنعت الإجابة، فمن دعا الله ﷻ بإثم أو بقطيعة رحم أو دعا الله ﷻ مع أكله الحرام فإن هذا يمنع من الاستجابة، فلابد من توفر الشروط من إخلاص وإخبات لله تعالى وغيرها من الشروط ولابد من انتفاء الموانع .

الثالث: في الجمع بين وعد الله ﷻ بالإجابة وعدم حصولها لبعض من دعاه:

أن إعطاء الله ﷻ العبد سؤاله لا يعني أنه خير للعبد فقد تكون الحكمة والخير في عدم إجابة دعوته وقد يجيب الله دعوة من يدعوه وفي ذلك أعظم ضرر للداعي .

وتأمل الرب ﷻ لما أعطى بعض الكفرة ما دعوا الله تعالى به وأجاب دعاءهم وكان ذلك شرا عليهم، كما أجاب إبليس في إمهاله إلى يوم الدين ليزيد الله عليه في العقوبة وعلى غيره ممن يتبعه .

مسألة : الإجابة للداعي ليست خاصة بالمؤمن :

قد يعط الله ﷻ الفاسق والكافر كما أعطى تعالى إبليس ، فاستجاب دعاءه لما سأله بقوله: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ الأعراف: ١٤ فقال تعالى له: ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ الأعراف: ١٥ ، فانظر كيف استجاب الله دعاءه، وما ذاك إلا لأن الإجابة من توحيد الربوبية الشامل لكل العباد ، المؤمن والكافر وتوحيد الربوبية عام للعباد جميعاً كما أن العبودية تنقسم إلى قسمين :

أ- عبودية عامة متعلقة بالربوبية ، والعبودية العامة يدخل فيها الكافر.

ب- عبودية خاصة متعلقة بالألوهية للمؤمنين .

وعلى ذلك فإن الاستجابة من أفعال الرب ﷻ ومن توحيد الربوبية التي هي شاملة لكل عبيده .

كشف الأكاذيب والشبهات الداعية للشرك

هذه الشبهات متعلقة بالشرك في الناقض الأول والناقض الثاني

وهي قسمان :

القسم الأول : الشبهات العقلية : وهي سبع وثلاثون شبهة .

القسم الثاني : الشبهات النقلية ومجموعها سبعون شبة نقلية :

القسم الأول : الشبهات المشركين العقلية : وهي سبع وثلاثون شبهة .

الشبهة الأولى : قولهم : نحن لا نشرك بالله ولا نعبد إلا الله. الجواب :
أولاً: يقال ما هو الشرك الذي حرمه الله وكفّر فاعله، وما العبادة التي أوجبها الله على خلقه ، والتي لا يجوز أن تصرف إلا لله ومن صرفها لغيره فهو مشرك.
ثم يبيّن له بالأدلة حقيقة الشرك ، وأنه صرف العبادة لغير الله ، ثم يبيّن له أن الدعاء عبادة ومثله بقية العبادات ، وأن الدعاء لا يطلب إلا من الله تعالى ، وأن من دعا وطلب غير الله فهو مشرك .
وبهذا يتبين أن مجرد الطلب من الولي الميت شرك أكبر، وهو شرك في الألوهية، ولو كان لا يعتقد فيه أنه ينفع أو يضر ، أمَّا إن اعتقد أنه ينفع أو يضر ، فقد جمع بين شركين ، شرك في الألوهية وشرك في الربوبية.
ثانياً : أن يبيّن له أن فعله واعتقاده هذا ، مثل اعتقاد المشركين الذين قاتلهم الرسول ﷺ وكفَّرهم ، حيث كانوا يطلبون من الله بواسطة الشفعاء مع أنهم كانوا لا يعتقدون أنهم ينفعون أو يضرون، فهم يعتقدون أن النافع والضار هو الله تعالى.
ويدل عليه قوله تعالى عن شرك المشركين وحقيقة عبادتهم لآلهتهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ الزمر: ٣ ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ يونس: ١٨.
أي ما نعبدهم إلا بقصد واحد ، وهو مجرد طلب التشفع والتقريب لا أنهم يعتقدون في من يدعونهم أنهم ينفعون أو يضرون ، فتأمل كيف كان الطلب من الصالحين الشفاعة والتقريب عند الله عبادة لغير الله يكفر فاعلها.
قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كشف الشبهات : (وسِرُّ المسألة أنه إذا قال : أنا لا أشرك بالله ، فقل له : وما الشرك بالله ؟ فسره لي ؟ فإن قال هو عبادة الأصنام ، فقل : وما معنى عبادة الأصنام فسرها لي؟ فإن قال : أنا لا أعبد إلا الله وحده ، فقل : ما معنى عبادة الله وحده فسرها لي؟ فإن فسرها بما بيّنه القرآن فهو المطلوب ، وإن لم يعرفه فكيف يدّعي شيئاً وهو لا يعرفه، وإن فسّر ذلك بغير معناه، بيَّنْتَ له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وأنه هو الذي يفعلونه في هذا الزمان بعينه ، وأن عبادة الله وحده لا شريك له هي التي ينكرون علينا ويصيحون فيه ، كما صاح إخوانهم، حيث قالوا ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا ﴾) .

الثانية : زعمهم أن الدعاء ليس عبادة ، وأن العبادة إنما هي السجود والصلاة:
الجواب أن يقال :

١- حقيقة العبادة في اللغة والشرع هي الخضوع والذل ، وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

فدخل بهذا التعريف جميع العبادات والتي تجمع صفة الخضوع والذل لله ومحبة الله لها وأن الله أمر بها ، ومن العبادات التي تجمع كل هذا الدعاء إذ فيه الذل والخضوع والله أمر به وهو سبحانه يحبه ونهى عن دعاء غيره .

٢- أن الله تعالى سمّى الدعاء عبادة في مواضع من كتابه كما في قوله ﷻ: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠.

٣- أنه تعالى جعل من يدعو غيره مشركاً، كما في قوله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٠.

٤- أن الرسول ﷺ جعل العبادات مبناها على الدعاء حين قال: (الدعاء هو العبادة) رواه احمد والترمذي عن النعمان بن بشير.

٥- أن آيـــة: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ فاطر: ١٤ وأمثالها صريحة في دعاء المسألة وشرك الدعاء من أوجه:
من حيث أن المدعو لا يسمع دعاء الداعي ولا يقدر على إجابته وتحقيق طلبه.
ومن حيث أن الله سمى دعائهم لغيره شركا وفاعله مشركا .

الثالثة: أن الدعاء الشركي ليس هو النداء والطلب ، وإنما حقيقة العبادة:
وقالوا : ليس كل نداء دعاء عبادة ، ولو كان كذلك لكان نداء الأحياء والحيوان والجماد شركا، فدل أن نداء الأموات كذلك ليس من الدعاء الشركي.

الجواب :

أولاً : أن هذا من الجهل باللغة وبالقرآن، حيث أن النداء والدعاء مترادفان .
والله تعالى جعل النداء والطلب والسؤال دعاءً ، وسمى النداء دعاءً.
ويدل على ذلك قوله تعالى :﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ مريم: ٣.
ونداؤه هو الدعاء كما بينته الآية الأخرى:﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ آل عمران: ٣٨.
فالنداء داخل في عموم الدعاء والنداء غالبا يكون بصوت رفيع.

والسؤال هو بمعنى الدعاء والطلب ، ومنه حديث النزول في الصحيحين : (من يدعوني فاستجيب له، من يسألني فأعطيه).

ونداء نوح عبر عنه بالدعاء: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ ﴾ الأنبياء: ٧٦ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ القمر: ١٠.

ونداء يونس :﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ الأنبياء: ٨٣.

وقال الرسول ﷺ عن نداء ذا النون : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء: ٨٧، (دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه) .

ثانياً : أن يبين لهم حقيقة العبادة وأن الطلب والنداء الذي هو الدعاء من أعظم معاني العبادة ، وليست العبادة اعتقاد الربوبية في المدعو كما توهم المشركون.

ثالثاً : أن نداء الميت والجماد والحي والغائب لا يكون شركا إلا بشرطين :

الأول : أن يكون النداء حقيقاً يقصد منه الطلب وليس حكمياً ولا مجازياً كالندبة وغيرها .

الثاني : أن يطلب من المنادى ما لا يقدر عليه إلا الله من جلب النفع ودفع الضر ، والميت والغائب لا يقدر على شيء.

وبهذا يتبين أن الدعاء هو النداء والطلب ، وهو قسمان : عادي وعبادي :

ودعاء العادة ما يطلبه الناس من بعض مما يقدرون عليه بالأسباب المعتادة.

ودعاء العبادة هو طلب ما وراء الأسباب مما لا يقدر عليه إلا الله .

رابعاً : يقال لمن زعم أن طلب الدعاء من الأموات عند قبورهم ليس شركاً : ما حكم طلب الدعاء من الملائكة الحفظة الملازمين لنا ، بقول : يا ملائكة اشفعي لي عند الله وادعي الله لي ؟ فإن قال : ليس شركا فقد خالف القرآن في تكفير من عبد الملائكة ودعاهم، وإن قال هو شرك فيلزمه أن يقول دعاء الميت أولى أن يكون شركاً.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : (لو جاز التعلق بالأموات لجاز أن يستظهر العبد بالحفظة من الملائكة الذين هم لا يفارقونه بيقين ، وهذا لا يقوله مسلم أصلاً ، بل لو فعله أحد لكان مشركاً بالله ، فإذا لم يجز ذلك في حق الملائكة الحاضرين فإنه لا يجوز في حق أرواح أموات قد فارقت أجسادها) .

الرابعة: المشرك من يعبد الأصنام ، وكيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام ؟

أولاً : أن من عبد غير الله فهو مشرك سواءً عبد صالحا أو فاسدا حيا أو ميتا بشرا أو ملكا أو جمادا لا فرق.

ثانياً : أن أكثر المشركين إنما كانت عبادتهم للصالحين .فقوم نوح عبدوا ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ، وهؤلاء رجال صالحين عظمهم قومهم وغلوا فيهم حتى عبدوهم بطلب الشفاعة منهم ، كما قال ابن عباس في تفسير الآية. واللات الذي عبدته العرب كان رجلاً صالحاً يلت السويق للحجاج ، فلما مات عكفوا على قبره وجعلوه وثنا . وعيسى عليه السلام عُبِدَ وهو نبيٌّ، ومن عبده واتخذه إلها فقد كفر .

قال تعالى عن النصارى الذين عبدوا عيسى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ المائدة: ١١٦ .

وقال تعالى عن شرك النصارى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ المائدة: ٧٥ - ٧٦ .

فكان شرك النصارى في عيسى عبادته واتخاذه إلها إنما هو بدعائه من دون الله، وطلب الشفاعة منهم وليس باعتقاد أنه رب يخلق مع الله ، بدليل أن الله تعالى قررهم على أن النفع لا يملكه إلا الله وهم مقرون بذلك لا يخالفون .

والملائكة عبدها المشركون ، وأخبر الله أنها تتبرأ من عابديها يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ سبا: ٤٠ .

ثالثاً: أن الأصنام إنما هي تماثيل لمن يعبدونهم فهي بمثابة القبر المعبود، فالأصنام ما صورت ووضعت في الأصل وعبدت إلا باعتبار من هي على صورته وتمثاله من الأنبياء والصالحين ليكون نائباً منابة ، ومن ذلك اللات وود وسواع ، ولم يكن مقصود المشركين عبادة ذات الحجر والشجر إذا عقولهم تأبى ذلك وتمنعه، ثم الواقع دل على ذلك كما في حديث ابن عباس في بداية الشرك واتخاذ الآلهة في قوم نوح ، وإلا فلا يوجد عاقل ينحت حجارة وخشبة بيده ثم يعتقد أنها إلهه ومعبوده ، ومن أسباب عبادتها أيضاً أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم .

رابعا : أن القبر إذا عبد صار صنما ووثنا ،كما قال النبي ﷺ : (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد) . أخرجه مالك وأحمد.

الخامسة : قولهم : إن المشركين لم يكفروا بدعاء الملائكة والأنبياء ، وإنَّما كفروا لّما قالوا : الملائكة بنات الله وعيسى ابن الله ، ونحن لم نقل عن الأولياء ذلك.

الجواب :

أن من قال عيسى ابن الله والملائكة بنات الله هم بعض المشركين لا جميعهم ، وهذا القول أن الملائكة بنات الله والأنبياء أبناء الله كفر مستقل ، وكما أن الله تعالى كفر من قال هذا القول فيهم فقد كفر أيضاً من طلب منهم الشفاعة مع اعتقاده أن النفع والضر والربوبية ليست لهؤلاء الشفعاء الصالحين عيسى والملائكة وغيرهم ، والله أخبر في آيات كثيرة أنه كفّر المشركين لأنهم دعوا اللات والعزى ومناة والجن وغيرهم وعبدوهم بدعائهم من دون الله لا لأنهم قالوا أن اللات والجن أبناء الله .

الشبهة السادسة : أن عباد القبور لا يعتقدون أن الأولياء أرباب وآلهة .

قالوا : إن المشركين جعلوا الأصنام آلهة وأربابا واعتقدوا أن تلك الآلهة تستحق العبادة ، وأما المسلمون ما اعتقدوا إلا إلهاً واحداً فعندهم الأنبياء والأولياء لا يستحقون العبادة ولم يتخذوهم آلهة مثل المشركين وإنما توسلوا إلى الله بهم.

الجواب :

١- أن ما فعله مشركو العرب هو نفس ما فعله هؤلاء سواء بسواء وهو طلب الشفاء بقصد أن تقربهم إلى الله زلفى ، فشرك الأولين ليس إلا طلب الشفاعة والتقرب .

٢- أن ما يفعله مشركو زماننا لأصحاب القبور من الدعاء والالتجاء والخضوع هو عين العبادة، وإنكارهم أن هذه الأفعال من العبادة مكابرة منهم للعقل ومخالف للشرع واللغة، وتسميتهم لهذه العبادات توسلاً وتبركاً تغيير للأسماء، وتغيير الاسم لا يغير الحكم والحقيقة والمسمى.

٣- أن كلام هؤلاء الجهلة منشأة شدة جهلهم بمعنى العبادة ، لأن كل ما فعله المشركون قبل البعثة من شرك فعله مشركو زماننا من دعاء وذبح ومحبة وتعظيم ورجاء والتجاء فصرفوا لمعبوداتهم أصناف العبادات واعتقدوا فيهم النفع بالبركة والتقريب إلى الله والشفاعة عنده .

٤- أن المشركين الأولين كانوا يعتقدون أنهم مسلمون على ملة إبراهيم وأن فعلهم الشرك ليس إلا بدعة حسنة ولكن لعلمهم باللغة عرفوا أن فعلهم هذا عبادة

وأن من يدعونه يسمى إلها، وهؤلاء لما جهلوا اللغة والشرع وقعوا في الشرك ولم يعرفوا ذلك لعدم علمهم بمعنى العبادة والإله والشرك في اللغة والشرع.

السابعة: أن من أقر بالربوبية فقد أقر بالألوهية فالرب هو بمعنى الإله لافرق.

والجواب:

أولاً: أن معنى كلمة (الرب) غير معنى (الإله) .

وإذا أطلق على الإله اسم الرب ، فالمقصود به الألوهية لا الربوبية.

ثانياً: أن المشركين اعترفوا بربهم وأنه الخالق الرازق المدبر، وأنكروا أن يكون وحده الإله المعبود ، وزعموا أن معه آلهة أخرى تعبد لكن ليس معه رب يخلق.

الشبهة الثامنة : تفسيرهم لتوحيد الألوهية بالربوبية والخلق واعتقاد وجود الله، وفسروا الإله بالخالق والقادر على الاختراع:

وهذه أعظم جناية حصلت من مشركي زماننا حين حرفوا تفسير التوحيد وحقيقة الشرك ، وهذا السبب الذي أوقع المشركين في الشرك ، وهو الجهل بحقيقة التوحيد وبما يحبه الله، فظنوا أن اتخاذ الوسائط وشفعاء من الدين الذي أمر الله به.

ومعظم المشركين الذين أرسلت لهم الرسل كان دينهم الشرك في الألوهية والعبادة باتخاذ الوسائط والشفعاء التي يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده، فظنوا أن اتخاذ الوسائط لتشفع لهم عنده من الدين الذي أمر الله به وأحبه وشبهوا الله تعالى بملوك الأرض المحتاجين للشفاعة، ولأجل ذلك حارب المشركون الرسل، كما حارب أفراخهم من مشركي زماننا أئمة التوحيد.

وهذه حقيقة الألوهية والعبادة التي صرفها المشركون لغير الله.

والآلهة التي سماها الله ﷻ آلهة لم يكن المشركون يريدون منها إلا الشفاعة فيدعونها ويطلبون منها أن تقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده وتستغفر لهم وتطلب من الله الرزق لهم وتستنصر لهم، لا أنهم اعتقدوا أنها تخلق وترزق وتملك النفع والضر بذاتها وتستقل بالفعل ، حيث كانوا مقرين بتوحيد الربوبية كما قدمنا عنهم ، وأن حقيقة شركهم كان في طلب الشفاعة من الأولياء : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨، وهذه

الوسائط والشفعاء كانت في الغالب من الأولياء واتخذهم المشركون شفعاء لهم عند الله، فاتخذوا عيسى وأمه إلاهين ، وود وسواع ويغوث كانوا رجالا صالحين، واللات كان رجلا صالحا يخدم الحجاج .

بل كان المشركون معترفين بألوهية الله وكانوا يعبدونه ويدعونه ويصلون له ويحجون لكن نزاعهم في إفراده ﷻ بالألوهية وأن يوحدوه في العبادة ويعبدونه وحده كما قال تعالى عنهم: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ ﴾ الأعراف: ٧٠ ، فهذه الآية أثبتت أنهم كانوا يعبدون الله ﷻ لكن امتنعوا أن يعبدوا الله وحده وإنما يعبدونه ويعبدون معه آلهة أخرى ، بل كانوا يخلصون لله العبادة والدعاء وقت الشدة ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ العنكبوت: ٦٥، ومع ذلك لم تنفعهم هذه العقيدة ولا أدخلهم الله بها في الإسلام .

وفي هذا التقرير رد على المتكلمين والصوفية القبورية الذين ظنوا أن الاعتراف بتوحيد الربوبية يدخل في الإسلام وأن الشرك هو فيه فقط.

التاسعة : زعمهم أن آلهة المشركين سميت آلهة باعتبار زعم من عبدها .

الجواب: هذا تكذيب لكلام الله فالله سماها آلهة بمجرد قصدها ، فكل معبود فهو إله.

العاشرة : زعم بعض المتكلمين ومنهم الرازي : أن الله إله من الأزل ولم يكن معبودا إلا بعد الخلق ، مما يدل على أن معنى الإله هو الخالق وليس المعبود .

والجواب : أن قولهم منشأه خلافهم في صفات الأفعال وعدم حدوثها وتجددها وأنه ﷻ ما زال يفعل ،وهذه مسألة التسلسل وأزلية أفعال الرب التي يخالف فيها المتكلمون . ثم إن هذا المعنى يوجد في الخلق على تقريرهم هذا ، فالله تسمى بالخالق قبل أن يخلقهم ، فيلزمهم ما فروا منه في نفي هذا الاسم والصفة عنه.

الحادية عشرة : أن العبادة وجبت بأمره فلو لم يأمر بها لم يكن معبودا .

وهذا القول وقع منهم بسبب جهلهم بحقيقة العبادة فإن العبادة هي الذل والخضوع وكل مخلوق مفطور على الذل والخضوع بالشرع أو بالقهر طوعا أو كرها .

الثانية عشرة : زعم القبورية أن شركهم من باب الشرك الأصغر :

الجواب : أن الذي كفّر من دعا غير الله هو الله، وسمّاه كافراً مشركاً، وحكم عليه في آيات كثيرة بالخلود في النار لوقوعه في الشرك الأكبر لا الأصغر.

الثالثة عشرة : زعمهم أن شرك الدعاء مثل شرك الحلف وقول لولا فلان لكان كذا وما شاء الله وفلان ومثل الطيرة وتعليق التمائم وغيرها من الشرك الأصغر:

أن هذا القياس والتشبيه باطل لأن هناك فارق بينها وبين الدعاء من أوجه :

١- أي مشابهة بين من وحد الله تعالى وعبده ولم يشرك معه أحداً وأنزل حاجاته بالله واستغاث به، لكنه حلف بغير الله يميناً لم يقصد بها تعظيم المحلوف به، ولم يسأله ولم يستغيث به ، وبين من استغاث بغير الله ولجأ إلى المخلوق وسأله تفريج الكرب وكشف الشدائد وجلب الفوائد ، فإن هذا صرف لب العبادة ومخها وخالصها لغير الله وأشرك معه غيره في أجل العبادات وهو الدعاء.

٢- أن الله تعالى أمر بدعائه والدعاء محبوب إليه ويحب من يدعوه ويغضب على من لا يدعوه ويسأله ، أما الحلف فلم يأمرنا الله به بل أمرنا بحفظه والحفظ أن لا نحلف ونهي عن الحنث فيه والحلف لغير مصلحة ليس مشروعاً .

٣- أن الداعي راغب راهب فالعبد يدعو رغباً ورهباً ويتوكل على من يدعوه في حصول مطلوبه ودفع مرهوبه ، فمن سأل غير الله فقد أشرك مع الله في الرغبة والرهبة والرجاء والتوكل ، فإن هذه من لوازم الدعاء ، فمن استغاث بغير الله فهو راغب إليه في حصول مطلوبه راج له متوكل عليه، وهذه هي حقيقة العبادة التي لا تصلح إلا لله، وهذا معنى لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب محبة ورجاء وخوفاً وتوكلاً وذلاً وخشوع وهذا بخلاف الحلف.

٤- أن الدعاء مقترن بالتعظيم لمن يدعوه ومثله النذر وهذا بخلاف الحلف فإنه لا يقارنه التعظيم غالباً ولذلك فالنذر مثل الدعاء شرك أكبر مع أنه مقارب للحلف في الصيغة والذي جعل حكمه يخالف الحلف اقترانه بالتعظيم، ولهذا لو وجد مع الحلف تعظيم المحلوف والتوكل عليه لكان شركا أكبر ، وكذا التمائم والطيرة لو قارنها الاعتقاد السابق لكانت من الشرك الأكبر.

قال ابن القيم : (وأما الشرك الأصغر فكثير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله ونحو مالي إلا الله وأنت ومتوكل على الله وعليك و لولا أنت لم يكن كذا وقد يكون هذا شركاً أكبر يحسب حال قائله ومقصده).

٥- أن المستغيث طالب سائل لاجئ خاضع لمن يدعوه والحلف ليس كذلك .

٦- أن دعاء غير الله والاستغاثة بالمخلوق لم تبح في أي شريعة بل الرسل مجمعون على كفر فاعله أما الحلف فكان الصحابة يحلفون بالكعبة وآبائهم أول الأمر

ولم ينهوا عنه إلا بعد فترة وجاء النهي بعد ألم يكن وهذا من أعظم الأدلة على الفرق وكون الدعاء كفراً أكبر .

٧- أن الذي يدعو غير الله في مهماته وكشف كرباته فهو راد على الله كلامه ومكذب بآياته ، فإن الله تعالى أخبر أنه لا يشفع أحد عنده إلا بأذنه، وأن الشفاعة كلها له وهذا المشرك يزعم أن الميت يشفع له، وأخبر سبحانه أن الأولياء لا يملكون كشف الضر ولا تحويله وأنهم لا يملكون نفعاً ولا ضرا ولا يسمعون ولايستجيبون، وهذا زعم خلاف هذا ورد على الله قوله فكيف يقال أن هذا مثل الحالف .

٨- ومما يزيد الأمر بياناً وأن بينهما فرق فالأول كفر أكبر والثاني معصية أن نهي الرسول ﷺ عن دعاء غير الله أشد من نهيه عن الحلف بغير الله .

٩- أن العلماء قسموا الشرك إلى أكبر وأصغر ، وجعلوا دعاء الأموات واتخاذ الوسائط من الأكبر ، فأدرجوه في كتب الفقه في باب المرتد ، بينما الحلف بغير الله جعلوه من الأصغر وأدرجوه في باب الأيمان والنذور .

وإن زعم معترض أن الحلف والدعاء من باب قول اللسان وأنهما كفر أصغر فيقال ما قولك في سب الله ورسوله أوليس قول باللسان ومع ذلك هو كفر أكبر .

الشبهة الرابعة عشرة : زعموا أن الشرك في اعتقاد الربوبية والاستقلال وأن يكون قصد من يدعو الصالحين أنهم أرباب، أما من يدعو غير الله وهو يعتقد أن الله وحده هو الفاعل المؤثر ولا تأثير ولا خلق وإيجاد ولا نفع وضر إلا لله فليس هذا بمشرك ، وزعموا أن شرك الأولين إنما هو في تسوية معبوداتهم بالله في الربوبية.

وقالوا : نحن نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر ولا ينفع إلا الله وحده ، وأن محمداً ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلاً عن الأولياء ، ولكن نحن مذنبون والصالحون لهم جاه عند الله ، ونطلب من الله بهم ونقصدهم ونرجو من الله شفاعتهم وأن الأولياء الذين يُدعون إنما هم مجرد أسباب وشفعاء ووسائل مقربة لله، وأن الله يفعل لأجلهم لا أنهم الفاعلون استقلالاً من دون الله، وليس هذا بشرك .

وهذه شبهة جميع مشركي زماننا وأجمع القبورية عليها ، وممن قال بها زيني دحلان وداود بن جرجيس وعلوي المالكي والجفري وغيرهم ، كما قال بها حاتم العوني في مقاله العبادة بوابة التوحيد والمسعري في كتاب التوحيد وغيرهم.

والرد عليهم من عدة أوجه :

١- أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته ومحبته والخضوع له وتعظيم، والدعاء أعظم مقامات العبودية ، وأي فائدة من العبادة إذا صرف الدعاء والقصد والتوجه لغير الله ، لأجل ذلك أمر الله عباده بدعائه ومسألته والاستغاثة به وإنزال حاجاتهم به وقصده وحده كما في قوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ البقرة: ١٨٦ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ النمل: ٦٢.

وأصل الإسلام وقاعدته هو عبادة الله وحده لا شريك له وإفراده بالقصد والطلب وأن طلب الشفاعة والاستغاثة من الأموات شرك ينقض الإسلام .

٢- أن هذا هو بعينه شرك المشركين الأولين، فإنهم لم يكونوا يعتقدون تأثير ولا خلق ولا إيجاد ولا نفع من غير الله فهو المتفرد بالخلق والملك والتدبير والرزق والنصر ، وإنما كان شركهم في التشفع والتقرب إلى الله بطلب الأولياء والأنبياء ، وهو نفس ما يدعوا إليه علماء القبورية ، فأهل الشرك في كل أمة ما قصدوا من معبوداتهم وآلهتهم التي يعبدونها مع الله إلا التسبب والتشفع ولم ينسبوا الاستقلال والتصرف لأحد من دون الله ، فدين الكفار مجرد اتخاذ الوسائط والشفعاء المقربة لله ولم يكونوا يعتقدون أنها تخلق وترزق وتنصر وتنفع وتضر بذاتها من دون الله.

ويدل عليه قوله تعالى عن شرك المشركين وحقيقة عبادتهم لآلهتهم:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ الزمر: ٣ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ يونس: ١٨.

٣- أن الأسباب لا ننكرها ونعتقد أن لها تأثيرا حقيقيا ، وأنها لا تخرج عن خلق الله تعالى وقدرته ، خلافا لما يعتقده الجبرية والأشاعرة .

٤- أن بعض الأسباب محرمة كالقتل والزنا وغيرها مع كونها أسبابا لنيل الأغراض الفاسدة.

٥- أن دعاء الأموات والغائبين ليس بسبب لا شرعا ولا عقلا لما يقصده المشرك وحصول مطلوبه ، بل هو سبب لنقض قصده ، ففعله الذي يريد به الشفاعة هو الذي حرمه الشفاعة وخلده في النار وأوقع الضرر به لأن الشفاعة لا تنال إلا بالتوحيد وهؤلاء أشركوا ونقضوا التوحيد .

قال تعالى : ﴿ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ الحج: ١٣.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ الأحقاف: ٥.

٦- أن الله سبحانه أبطل زعم المشركين، فالأموات والمدعوين لا يملكون لأنفسهم شيئا فضلا عن غيرهم وهم لا يسمعون ولا يجيبون.

قال تعالى مفنداً شبهاتهم: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ فاطر: ١٤، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ سبأ: ٢٢ - ٢٣، وملك مثقال ذره هو ما يسمى بالاستقلال، وماهم فيه من شرك هو التسبب، وآيات سبأ هذه قطعت حجج المشركين فيما نسبوه لآلهتهم المعبودة المدعوة من الاستقلال والتسبب والشفاعة.

٧- أن معتقدهم هذا هو عين الشرك، وقولهم هو بعينه قول المشركين السابقين في ظنهم أن دعاء الصالحين سبب لحصول الشفاعة والقرب من الله .

٨- أن المشركين قبل البعثة كانوا مقرين بربوبية الله وأنه الخالق الرازق المدبر المالك، ووحدوا الله بالخلق وملك النفع، كما في قوله تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾لقمان: ٢٥، ومع ذلك سماهم مشركين، لأن توحيد الربوبية واعتقاد الفاعلية والخلق والتأثير لله تعالى لا يكفي وحده، ولا يعتبر صاحبه مسلماً بمجرده ما لم يخلص عبادته ودعائه لله وحده .

فإقرار المشركين بالله وبربوبيته أمر ثابت بل وأقروا له بالألوهية لكن خالفوا في توحيد الله بها، فكانوا يعبدون الله ويعبدون غيره فيشركون ولا يوحدون الله بالعبادة، كما في قوله عنهم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ الأعراف: ٧٠ ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ فأخبر عنهم اعترافهم أن الله يستحق أن يعبد لكن نازعوا في توحيده بالعبادة.

وأخبر عن اعترافهم بالشرك: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام: ١٤٨ .

كما أخبر عن إيمانهم به ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾يوسف١٠٦.

قال ابن عباس : (من إيمانهم إذا سئلوا من خلق السماء والأرض قالوا الله وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره ويسجدون للأنداد دونه) أخرجه الطبري.

ومن الأدلة الدالة على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية لله واعترافهم بتفرد الرب بالنفع والضر وإقرارهم أن المدبر النافع الضار هو الله وحده قوله تعالى عنهم:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الأنعام ٦٣، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾، ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾.

ومن الأدلة عل إقراره توحيدهم وإخلاصهم حال الشدة، قال تعالى عنهم: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ العنكبوت: ٦٥.

وكان المشركون يقولون في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكنه وما ملك)، مما يدل على إقرارهم بأن ألهتهم ومعبوداتهم وشركائهم مملوكة لله تحت تصرفه، كما أنه ثبت أنهم كانوا يستغفرون بعد قولهم هذا.

وهل يوجد مشرك على ظهر الأرض يعتقد أن مدعوه يخلق من دون الله.

٩- أن ما كان عند بعض المشركين قبل البعثة من الشرك في الربوبية وكون إيمانهم مختلطا بالشرك كما أخبر عنهم تعالى في قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦، هو في عدم التزامهم بلازم التوحيد في الربوبية وهو توحيد العبادة، لأن من أشرك في الألوهية فليس إلا لغلط في الربوبية وقدح فيها، وأيضا وجد شرك في بعض أفراد الربوبية عندهم، ومن ذلك قولهم: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ هود: ٥٤ ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يس: ٧٤، فهم وإن كانوا أقروا و اعترفوا أن الربوبية الحقة المطلقة لله وحده، لكن حصل من بعضهم الشرك بنسبة بعض النفع والضر أحيانا لآلهتهم وأنها تعتري أعدائها بسوء وطلبوا منها النصر، وهذا القدر من الشرك في الربوبية.

فإننا نقول: إن هذا المعتقد يوجد نفسه عند عباد القبور اليوم وأكثر، فهم لو لم يعتقدوا أن الأولياء بعد موتهم ينفعون ويضرون لما دعوهم وطلبوهم واستغاثوا بهم، بل كفر كثير منهم من قال أن الأموات لا ينفعون ولا يغيثون من دعاهم.

١٠- ثم إن كثيرا من مشركي زماننا من الصوفية وعباد القبور اعتقدوا التدبير والتصرف فيمن يدعونهم، ولهذا نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم من الاستغاثة بهم ورفع الحوائج لهم والتضرع والالتجاء والخضوع لهم، بل إنهم اعتقدوا في الأولياء الربوبية وأنهم يدبرون وأنهم ليسوا مجرد أسباب وشفعاء، وأنهم يعلمون الغيب ويقدرون على كل شيء يقدر الله عليه لأن الله أقدرهم كرامة من الله

لهم، فعندهم أن الأموات يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله، حتى قال بعضهم لما نزلت به مصيبة أما الله فترى ما صنع ولم يبقى لي سواك فأنا في حسبك يخاطب الميت، ومع كل هذا لم نر علماء القبورية يكفرونهم ، بل رأيناهم يدافعون عنهم .

١١- أن جعلهم الشرك في مجرد اعتقاد الربوبية في المخلوق ورد الشرك لاعتقاد القلب يلزم منه أن لا يكون هناك أقوال وأعمال شركية بذاتها ، بما في ذلك سب الله ورسوله وإهانة المصحف والسجود للصنم ، وأن لا يحكم على أحد بالردة مهما عمل ما لم يعرف باطنه وهذا مذهب الجهمية الذين كفرهم السلف .

١٢- أن على قول هؤلاء فالمشركون زمن النبي ﷺ يعتبرون مسلمين وليسوا مشركين .

١٣- أن قولهم يقوم على إنكار توحيد العبادة الذي بعثت به الرسل وخاصمتهم أقوامهم عليه كما أخبر الله عنهم قوله : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ ﴾ الأعراف: ٧٠ .

كما أن قولهم قائم على الإيمان بتعدد الآلهة وإنكار أن يكون الإله المعبود واحدا، كمن قال الله تعالى فيهم في سورة ص: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا ﴾.

١٤- أن من جوز دعاء غير الله فقد لمز الله تعالى وأساء ظنه بربه ونسب لله تعالى الجهل وعدم العلم والعجز وعدم القدرة وعدم الرحمة .

الشبهة الخامسة عشرة : يقولون : إن هناك فرقاً بيننا وبين المشركين، فالمشركون يريدون من الأصنام فيقولون : يا أصنام أُرزقينا أعطينا اكشفي كربتنا ، فالطلب مستمد من الأصنام مباشرة بدون واسطة ، أمَّا نحن فلا نطلب من الأولياء مباشرة إنَّما هم واسطة ، فلا نقول : يا رسول الله أو يا ولي الله اكشف كربتي، بل نقول : أدعو الله لنا بكشف الكربة ، أو اشفع لنا عند الله، فهم مجرد واسطة فقط فكيف تجعلون من طلب من غير الله كمن طلب من الله لكن بواسطة الصالحين .

الجواب :

أولاً: أن هذا قول المشركين سواء بسواء وصنيع هؤلاء مثل صنيعهم ، فهم يدعون آلهتهم ويطلبون منها الشفاعة والواسطة فيقولون لها: اشفعي لنا عند الله.

فالطلب بالوسائط والشفعاء هو عين شرك الأولين كما قال تعالى عنهم :﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣.

والآية جاءت بأسلوب الحصر، وهو أسلوب (ما) ، و (إلاّ) ، أي ما نعبدهم إلاّ لغاية واحدة فقط ليس لها ثاني ، وهي التقرب وطلب الشفاعة لا لأنهم أرباب .

ثانياً : ثم إن مشركي زماننا طلبوا من الأموات مباشرة .

ومع أن العبارتين شرك أكبر ، سواء قال : يا رسول الله اكشف كربتي، أو قال: يا رسول الله ادعُ الله لي أن يكشف كربتي، أو اشفع لي عند الله أن يكشف كربتي، فكلاهما شرك أكبر إلاّ أن الأولى أعظم شركاً لأن فيها بالإضافة إلى الشرك في الألوهية الشرك في الربوبية ، لأنه يعتقد أن المدعو ينفع ويضر.

الشبهة السادسة عشرة : أن الأموات والأولياء يملكون التدبير في الخلق والتصرف في الكون فضلا من الله ، فيجوز أن يعطي الله أولياءه القدرة على ذلك فيجعلهم الله متصرفين مدبرين بأذنه ويستجاب دعائهم وتقبل شفاعتهم وينفذ لهم تصرفهم والمتصرف في الحقيقة هو الله والآيات التي نفت عن النبي النفع والضر والقدرة فالمراد نفي الاستقلالية في ذلك بأن يكون مستقل من دون الله وله المالكية والاستقلالية والقدرة الذاتية من غير الله .

الجواب من أوجه :

١- الآيات المتضافرة العامة على أن الله وحده هو المتفرد بالملك والخلق والتدبير والرزق ، وأن ذلك أعظم ما يستحقه سبحانه وأعظم صفاته وأعظم ما يستحق به العبادة ، وأن الله ﷻ أمر بأن يفرد بالعبادة وذلك لكونه المتصرف المدبر وحده وأن غيره لا يملك شيئاً ولا يخلق ولا يرزق وليس له من التدبير شيء .

٢- أن أفعال الرب وخصائص ربوبيته لا يمكن أن تضاف للعبد لا حقيقتاً ولا مجازاً ، لا استقلالاً ولا تسبباً ولا تبعاً .

٣- أن الله نفى أسباب التعلق بغيره من الخلق لأن هؤلاء المدعوين المعبودين آلهة باطله لأنها لا تملك أي نوع من التدبير والتصرف في الخلق، بل هي مخلوقة ضعيفة مدبرة مرزوقة مملوكة لله فلا تستطيع أن تخلق ولا ترزق ولا تدبر فنفى الله عنها التدبير، ونفى عبادتهم لانتفاء التدبير وهؤلاء أثبتوا لها التدبير وكذبوا الله تعالى.

٤- أن الله أخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم لا يملكون شيئاً ولا يعلمون ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ، وأن كل هذا خاص بالله ﷻ، فإذا كان هذا حال الخلق والأولياء مع أنفسهم فلغيرهم أولى ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن

يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ الأنعام: ١٧ ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ ﴾ الأعراف: ١٨٨.

٥- أن زعمهم باطل وهذا أمر لا يليق بالله سبحانه أن يجعل رزق العباد عند غيره بحيث يصير ذلك الغير هو مقصودهم الذي يرغبون إليه ويسألونه حوائجهم، والله تعالى لم يملك خلقه من الوجود إلا أقل القليل من الدنيا واحتفظ بملك كل شيء من السموات والأرض والجنة والنار.

٦- أن الأسباب والأفعال التي أثبتها الله لخلقه وأولياءه أمور تليق بخلقتهم وضعفهم وهي حقيقة وليست صورية كما يقوله الجبرية ومع ذلك فهي أفعال لا تستلزم التدبير منهم والتصرف في الخلق .

٧- أن ما أعطيه الرسل والأولياء من الكرامات والمعجزات ليست من عند أنفسهم بل هي من الله ومع ذلك لا يمكن أن تصل إلى صفات الألوهية وخصائص الربوبية، وما أعطوه لا يدل على تدبيرهم للخلق وعلمهم الغيب وعلى أنهم يعبدون.

٨- أن قولهم هذا في غاية الكفر وتجويز الشرك في الربوبية حيث يقال لهم ماذا تركتم لله وما الأمر الذي يختص به الله تعالى عندكم ، وما الفعل الذي أفرد نفسه به إذا كان خلقه مثله يخلقون ويدبرون ويرزقون ويملكون كل شيء ويعلمون الغيب ويتصرفون في خزائن السموات والأرض .

الشبهة السابعة عشرة: قولهم : إن الله تعالى قد ينزل المقربين منزلة نفسه .

ويستدلون لذلك بقوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ الأنفال: ١٧ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ الفتح: ١٠، وقول النبي ﷺ : (إنه لا يستغاث بي).

والجواب من عدة أوجه :

١- أن قولهم هذا من الكذب على الله وشرك به ، ولم يقل بهذا الكفر البواح إلا طائفتين :

الأولى : الحلولية والاتحادية وأصحاب وحدة الوجود، القائلون إن كل شي هو الله وكل فعل إنما هو فعل الله .

الثانية : الجهمية الجبرية الذين ينكرون أن يكون للأسباب أي تأثير حقيقي ، وينكرون حقيقة أفعال العباد وقدرتهم ، ويقولون أن الفاعل في الحقيقة إنما هو الله تعالى ، ولا يفرقون بين الفعل والمفعول .

وهو نفس قول الجبرية المشركة : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام:١٤٨.

قال ابن تيمية:(الذين يصفون الله ببعض المخلوقات صنفان: صنف غلطوا في الصفات وصنف غلطوا في القدر، فالأول الجهمية والثاني الجبرية) الاستغاثة ٣٤١.

٢- أن حقيقة قولهم أنه لا مزية لأحد من الخلق على أحد بما فيهم الرسل ولا فضيلة وتشريف لمن قربه الله، فهم لم يفعلوا وإنما الله الفاعل فهم إنما هم مجرد صورة.

٣- أنه يلزم منه أن لا يذم أحد ، لأن الفعل إنما هو فعل الله ، وأن من كفر من الخلق وسرق فإنما هو الله الذي كفر وسرق في الحقيقة تعالى الله عما يقوله المشركون.

٤- أن في قولهم هذا تمثيل للرب تعالى بعبيده .

٥- أن معنى آية (وما رميت إذ رميت) : أي ما أصبت وأوصلت الحذف لما حذفت ورميت وإنما الله الذي أوصله وأصاب به وأثخن به .

٦- لو كان المعنى أن الله الذي رمى في الحقيقة ، فيلزم أن يقال ما أكلت وإنما الله الذي أكل وما نمت وإنما الله الذي نام تعالى الله عن ذلك كله.

٧- أن في الآية رد عليهم ، حيث لم ينزل أحدا منزلة نفسه ، فأثبت لنفسه رميا يخصه وأثبت لرسوله رميا يخصه .

٨- أن معنى الآية الثانية من بايع الرسول ومد يده له فإنما هو مبايع لله وملتزم بدينه لا أن الله هو الذي مد يده للمبايع، وهي كآية: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ النساء: ٨٠.

٩- من لوازم فهمهم أن من بايع الكفار على الرسول ﷺ فإنما هو مبايع لله ، وبهذا لا يفرق بين الصحابة والكفار ولا ميزة للمؤمنين على الكافرين.

١٠- ثم لو كان الأمر كذلك لما أمر النبي ونهى وذم ومدح وقاتل الكفار ، ولما اعترض على القدر وأقر الكفار على كفرهم وما أقام الحدود لأنها بقدر الله والله خلقها فلا يذم ولا ينكر على أصحابها .

١١- بل ويلزم من كلامهم أن من سجد للصنم فإنما سجد لله .

١٢- أنهم بهذه العقيدة وقعوا في الشرك في الربوبية بما لم يقع فيه كفار الأمم السابقة، ومن هذا اعتقدوا أن المخلوق يتصرف في الكون ويحيي ويميت من باب السبب والكرامة والمجاز والله هو الفاعل في الحقيقة .

١٣- وأما قولهم : أن من كان غايته شهود الربوبية وتحقيقها وفني في كمال التوحيد رد الأشياء إلى الله ونسبها . فإنه هو بعينه ما أقر به المشركون الأولون فإنه قد قام بهم شهود الربوبية ووحدوا الله بها وردوا الأشياء لله .

١٤- وقولهم: إن معنى لا يستغاث بالنبي ﷺ إنما هو على وجه التأثير والقدرة لا السبب . فمردود لأن الرسول ﷺ وغيره حال الحياة يقدر حقيقة ولأفعاله تأثير ، والسبب له تأثير حقيقي ، وأما سؤال المخلوق ما لا يقدر عليه وما نفاه الله عن خلقه فليس من الأسباب ولا يثبت للمخلوق لا حقيقة ولا مجازا.

١٥- ثم إن الصديق والصحابة أعلم بالله من أن يظنوا أن غير الله يخلق ويستقل بالتصرف والتأثير من دون الله حتى يحتاجوا أن يعلمهم هذا الأصل.

١٦- ثم إن الحديث حجة عليهم إذ فيه النهي عن إنزال الحوائج بغير الله وسؤال الخلق والاستغاثة بهم وترك سؤاله تعالى.

١٧- وأما قولهم: إن الرسول ﷺ نفى الاستغاثة عن نفسه لإثبات إفراد الله بالقدرة والتوحيد ، وأن من زعم أن الرسل ليسوا أسبابا ولا يستغاث بهم فقد تنقصهم . فالرد عليهم بما سبق ونقول أيضاً :

١- إن نفي خصائص الألوهية عن المخلوق ليس فيه تنقص لهم ، بل التنقص أن يرفعوا فوق منزلتهم كما عند القبورية ، والمشرك أعظم من آذى الرسل.

٢- أن القبورية جعلوا الصالحين مع الله تعالى بمنزلة الوكيل مع موكله ، وهذا في غاية التنقص لله تعالى .

٣- أن جواب النبي ﷺ ليس فيه تخصيص بل صرح بالعموم ، فلا يدعى إلا الله، وهذا النفي من البلاغة لأنه من طريق الأولى ، فإذا كان النبي لا يدعى ولا يغيث فغيره من باب أولى .

٤- أما نسبت القبورية لأهل السنة أن الرسول ﷺ لا ينفع مطلقا ، وهذا ليس قول أهل السنة ، فهم يفرقون بين موته وبين حياته ، فحال حياته ﷺ يغيث فيما يقدر عليه وينفع بإذن الله .

وقد توسع ابن تيمية في نقض هذه الشبهة في رده على البكري في الاستغاثة.

الشبهة الثامنة عشرة : الكرامة ، وجعلهم الشرك من باب الكرامات.

أن للأولياء كرامات والله أعطاهم الشفاعة وإجابة من يدعوهم ويتوسط بهم، ودعاء الصالحين من باب الكرامة لهم، فالله خص أولياءه بكرامات منها أنهم يشفعون عنده لمنزلتهم عنده فيجوز لعوام الناس أن يطلبوا منهم ويدعوهم ويسألوهم ما لا يقدر عليه إلا الله وأن هذا ثابت للأولياء بعد موتهم، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ فصلت: ٣١.

والجواب :

١- أن الكرامة منشأها من الله تعالى ، فالله هو الذي قدّرها وخلقها بقدرته، وليس للولي فيها فعل وإرادة، وإذا كان الأمر كذلك وجب دعاء من خلق الكرامة ووهبها وقدرها لا دعاء المخلوق المحتاج الضعيف، فالله هو القادر وحده على إجابة من دعاه وإغاثة المكروب .

٢- أن الكرامة للعبد لا تجوّز دعائه وعبادته ورفعه إلى درجة الإله والغلو فيه، فدعاء غير الله من الشرك الأكبر ودلت على ذلك جميع الشرائع السماوية .

٣- أن الكرامة لا تصل إلى مرتبة الألوهية ، ولا توصل لدرجة أن يتخذ إلهاً يدعى من دون الله ويستغاث به وينفع ويضر ويجيب دعوة الداعي، ولا تصل إلى درجة القدرة على التصرف في الكون والتدبير وجلب النفع ودفع الضر والشر عن أحد واستحقاق العبادة وملك الشفاعة فلا تبلغ الكرامة إلى ذلك، فإن هذا لا تصل إليها مرتبة المخلوق مهما بلغ من الولاية والكرامة .

ومن قال من الغالين : إن لله عبادا لو سألوه أن لا يقيم القيامة لما أقامها ، فهو كذاب ، فإن محمدا أفضل الخلق عند الله سأل الله أمورا ورد في بعض مسائله ، كدعائه للمنافقين ، وأن لا يجعل بأس أمته بينهم .

٤- أن المشركين بعيسى ومن يدعو الملائكة واللات والعزى ومن عبد وآلهة قوم نوح ليس إلا لهذه الشبهة وهو أنهم أولياء وأقوام صالحين وأصحاب جاه عند الله ولهم كرامات فجاز دعائهم من دون الله وطلب الشفاعة منهم ، ومع هذا كفرهم الله ، فانظر كيف جوز مشركي زماننا ما حرمه الله وكفر فاعله .

قال تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الشورى: ٩ .

وهذه الشبهة من أعظم شبهات الصوفية القبورية الرافضة وكل مشرك زعم وجود مكانة للمدعو ورفعة قدره فيشفع ويقرب ومما يجاب عن هذه الشبة .

٥- أن ما حصل للرسل أعظم من ذلك كما كان عيسى يخلق من الطين طيراً بإذن الله ويحيى الموتى بإذن الله ومع ذلك كله نهى الله عن دعائه وأنكر على من قصده في حاجته وملماته وأخبر أن فاعل ذلك كافر مشرك .

فقال سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ المائدة: ١١٦.

٦- أن الكرامة ليست من لوازم المنزلة وعلو الدرجة فقد مشى قوم فوق البحر ومات عطشاً من هو أفضل منهم وأقوى إيماناً .

٧- أننا نقر بكرامات الأولياء والصالحين ، وأن لهم مقاماً عند الله، ولكن لا يعني هذا عبادتهم ، فالكرامات شيء وجعلهم آلهة شيء آخر ، والأولياء يجب حبهم واتباعهم والإقرار بكرامتهم، ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلال .

ودين اللهِّ وسط بين طرفين ، وهدى بين ضلالتين ، وحق بين باطلين ، فإذا عرفت: أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد في الأولياء والكرامات هو الشرك الذي أنزل فيه القرآن ، وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه .

الشبهة التاسعة عشرة : المجاز : قالوا: إن ما يفعله بعض العوام من طلبهم من الصالحين أشياء لا تطلب إلا من الله، فهذه الألفاظ الموهمة محمولة على المجاز العقلي، والقرينة عليه أن هذه الألفاظ تصدر من مسلم ولو استفسرت منهم بينوا معتقدهم وأن الله هو الفاعل المستقل بالإيجاد، فهذا يبطل قول ما نعي الاستغاثة بالصالحين .

والجواب عن هذه الشبهة من عدة أوجه :

١- أن زعم علماء القبورية أن عباد القبور موحدون أمر غير صحيح وما في قلوبهم يخالف ألسنتهم ، فما تكنه قلوبهم من الاعتقاد فيمن يدعونهم أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله أمر ظاهر نطقت به ألسنتهم وأفعالهم فصاروا لا يطمئنون إلا بذكر آلهتهم الميتة وإذ ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم ، ولا يخشعون ولا يخضعون ولا يذلون وينكرون إلا عند القبور والمشاهد.

٢- أن تلك الألفاظ الكفرية الشركية دالة دلالة مطابقة على اعتقاد التأثير من غير الله والشرك في الربوبية ودعوى الإيهام دعوى كاذبة مثل دعوى المجاز .

٣- أنه حتى مع اعتقاد كون النفع والضر والتأثير والخلق والإيجاد لله وحده ، لكن مع حصول دعاء الميت من دون الله لا يخرج صاحبه عن كونه مشركاً كافراً، وهذا هو دين المشركين الأولين في دعاء غير الله واتخاذ المدعوين وسائط تقرب إلى الله زلفى وشفعاء عند الله ، مع اعتقادهم أن الله هو الخالق المتفرد بالنفع والضر .

٤- أنه يلزم على قولهم هذا أن لا يكون المشركون الذين أخبر الله بشركهم مشركين، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق الرازق الضار النافع سبحانه ، وأنهم صرحوا إنما كانوا يعبدون الأصنام والأوثان لتقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عند الله ، فيصير فعلهم هذا محمول على المجاز كذلك ، والاعتقاد المذكور قرينه على أن أفعالهم ليست بعبادة للأوثان وليس بشرك بالله ولا أن المراد بالعبادة معناه الحقيقي بل المراد هو المعنى المجازي.

٥- أنه دعواهم الإيهام والمجاز في هذا الكفر وأنه ليس بكفر يغلق باب الردة والتكفير واستحالة وجود كفر وردة ، فمن سيسب الله ورسوله كان سبه الصريح موهماً ويحمل على المجاز العقلي لأنه مسلم موحد ويقول لا إله إلا الله وهكذا يجري دليلهم على كل كفر على وجه الأرض .

٦- أنه يلزم من قولهم أن مناط الإسناد المجازي اعتبار التسبب والكسب ، أن لا يكون العبد حقيقة مؤمناً ولا كافراً ولا مصلياً ولا زانياً ، فيبطل الجزاء والحساب والشرائع والجنة والنار ، فتسند الأفعال كلها لله ، فالمصلي في الحقيقة هو الله والعبد فعل مجازاً والله الفاعل حقيقة ، وكذلك الإيمان والركوع والسرقة والكفر وغير ذلك تعالى الله عن قولهم .

٧- أن قولكم أن الشرك من أفعال العوام تلبيس فمن أيد العوام وزين لهم إلا أمثال هؤلاء من دعاة وعلماء الشرك وأرباب الكفر الدعاة إلى أبواب جهنم .

٨- أنه هذا القول مصدره من الجبرية المشركة الجهمية ، وقولهم الفاسد في إنكار حقيقة الأفعال وقدرة العبد وأن العبد لا يفعل وإنما الله هو الفاعل حقيقة.

٩- أن بدعة المجاز الذي عطلت الجهمية به توحيد الأسماء والصفات بالأمس عطلت به الصوفية والرافضة ومشركي زماننا توحيد الألوهية اليوم .

١٠- أن ما ذكروه من أفعال منسوبة للأولياء كالخلق والرزق والتدبير هي من أفعال الله تعالى وليست من جنس أفعال البشر ، ولا تضاف إليهم أصلاً لا حقيقة ولا مجازاً ولا سببا ولا تأثيرا.

العشرون: الشرك هو طلب ما لا يقدر عليه إلا الله ولم يعطه أحداً من خلقه.

الجواب :

١- أن العبرة في الجواز بسؤال من يقدر ، أما سؤال من لا يقدر فهو شرك سواء كان ميتاً أو حيا عاجزا أو غائبا .

٢- أن التفريق بين الحي والميت يدل عليه العقل، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ فاطر: ٢٢ ، وقول الرسول ﷺ : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله).

٣- أن الميت والغائب لا يقدر على شيء فسؤاله داخل في طلب ما لا يقدر عليه إلا الله ، وإلا فمعلوم أن الميت لا يسمع ولا يستجيب ولا يملك لنفسه شيئاً فضلاً عن غيره فكيف يسأل ، ولو لم يكن سائله وداعيه يعتقد أنه يسمع ويعلم الغيب ويشاهد وكأنه حاضر وأنه مطلع على من يلجأ إليه كاشف لضره ونحو ذلك لما سأله أصلاً ، ووجود هذا الاعتقاد في الداعي يخرجه من ملة الإسلام ويوقعه في الشرك الأكبر الصراح والكفر البواح .

٤- أن من دعا العاجز فقد أعطاه صفة الألوهية والعبودية ، وجعله مقصوده الذي يرجى ويعبد ويتوجه إليه ، وجعله إلهاً يقدر على كل شيء .

٥- أن الجائز في دعاء المخلوق والاستعانة به إنما هو في الأسباب الظاهرة العادية والأمور الحسية، وما سوى ذلك فهو من الشرك ولو طلب من الحي ، وأما الميت فحركته منقطعة وليس له سبب ولا تأثير ولا قوة له .

٦- أن الطلب ممن يقدر ليس دعاء عبادة فلا يدخل في الشرك.

٧- أن الله تعالى كره لنا كثرة السؤال كما جاء به الخبر الصحيح، ونبينا ﷺ أمرنا بإفراد الله بالدعاء والسؤال والاستعانة بقوله : (إذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) ، وبايع الرسول ﷺ جماعة من الصحابة على ألا يسألوا الناس شيئاً .

٨- أن الشفاعة وغيرها لا يقدر على إعطائها إلا الله فهي مملوكة لله ﷻ فلا تطلب إلا منه كما أخبر سبحانه .

٩- أن مشركي زماننا وصل بهم الأمر إلى سؤال الأولياء ما اختص به الرب من طلب العافية والنصر والولد والرزق والمطر وغير ذلك من الشرك في الربوبية .

١٠- أن دعاء المشركين للأصنام ليس بشرك ما دام أنهم لم يقولوا أنها أرباب.

الحادية والعشرون: عدم التفريق بين التوسل والاستغاثة :

وقالوا : إن من يطلب من الأولياء إنما هو طالب من الله :

وقد ضلت القبورية بهذا القول من أوجه:

١- جعلوا التوسل والاستغاثة معناهما واحد وسموا الاستغاثة توسلاً ، ولم يفرقوا بين دعائه والدعاء به .

قال ابن تيمية : (ولم يقل أحد أن التوسل بنبي هو استغاثة به بل العامة الذين يتوسلون في أدعيتهم بأمور ، يعلمون أنهم لا يستغيثون بهذه الأمور ، فإن المستغيث بالنبي طالب منه وسائل له ، والمتوسل به لا يدعى ولا يطلب منه ولا يسأل وإنما يطلب به ، وكل أحد يفرق بين المدعو والمدعو به الفتاوى ١/ ١٠٥.

وقال في رده على البكري: (وقوله : من توسل إلى الله بنبيه أو استغاث به ، سواء كان بلفظ الاستغاثة أو التوسل ، فهذا القول لم يقل به أحد ، والفرق واضح بين السؤال بالشخص والاستغاثة به) الاستغاثة ١٨٢ .

وقال: (ظن أن التوسل كالاستغاثة وليس كذلك ، فإنه يقال استغاثه واستغاث به ، فالمستغاث به المسؤول ، وأما المتوسل به فهو الذي يتسبب به إلى المسؤول) الاستغاثة ٤٩٨ .

٢- ظنوا أن توسل الصحابة بالنبي ﷺ في حياته كان توسل بذاته لا بدعائه.

٣- سووا بين حياة النبي ﷺ وموته وكذا الأولياء، فأجازوا دعاء الأموات.

٤- أنهم توسلوا بدعائه من دون الله بعد موته ، وجعلوا هذا الاستغاثة الشركية من جنس التوسل المشروع بدعائه لنا حال حياته .

٥- أنهم جعلوا الصالحين والأولياء أسبابا في التصرف في الكون ويفعلون جميع أفعال الرب تعالى .

٦- جوزوا بل وأوجبوا وحثوا على طلب الأموات مالا يقدر عليه إلا الله.

الثانية والعشرون : أن علم الغيب لا ينفى عن الخلق مطلقاً فيجوز أن يحصل لهم مستفاداً من الله ، والله يطلعهم عليه كرامة منه لهم كما حصل لعمر مع سارية.

والجواب :

١- أن علم الغيب من خصائص الله تعالى ومن كمال ربوبيته وقد أثنى على نفسه بتفرده بعلم الغيب دون خلقه بأدلة كثيرة جداً.

٢- أن الله نفى عن رسوله محمد أن يكون يعلم الغيب وكذا الرسول نفى ذلك عن نفسه، وهو أشرف الخلق وخيرهم وأبلغهم منزلة وأعلاهم درجة عند الله، فغيره من باب أولى :﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ الأنعام: ٥٠﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ النمل: ٦٥.

٣- أن ما علمه الله خلقه وأطلعهم عليه أمر يسير وقليل جداً وجزئي ولا يذكر مع علم الله.

٤- أن الغيب إذا أخبر الله به بعض خلقه وأنبياءه لم يعد من علم الغيب المطلق وإنما الغيب النسبي وعلم الشهادة فتبقى الآيات على عمومها .

الشبهة الثالثة والعشرون : زعمهم أن النبي ﷺ يتصرف يوم القيامة كتصرفه في الدنيا وأنه يخرج من النار وينقذ من الشدة وأن الله يقول له : (انطلق فأخرج من في قلبه كذا وكذا من إيمان).

ويحتجون بأنا إذا قلنا أن للحي الحاضر قدرة في الدنيا على التصرف بالفعل بنفسه أنه يلزمنا أن نثبت ذلك في الآخرة وأنه يقدر على مثل ذلك كما هو في حال الحياة لأنه حي حاضر وله قدرة وكما كان في الدنيا من إرواءه الألوف ويشبعهم بقليل الأكل ورميه الكفار بكف من تراب فيعميهم . والجواب أن نقول:

١- عجبا من هذا التمويه فهل فعل الرسول ﷺ الشفاعة والإخراج من النار بنفسه أو بأمر الله وإذنه، فالله سبحانه هو الذي أكرمه بهذه الشفاعة وهو ﷺ عبد مأمور لا يشفع إلا بإذن الله ورضاه .

٢- أن الرسول ﷺ لا يستطيع أن ينقذ أحداً كما قال عن نفسه : (أنقذوا أنفسكم من النار لا أغني عنكم من الله شيئاً) فليس له إلا الشفاعة ولا تكون إلا بإذن الله ورضاه وهبته .

٣- أنه مع ذلك قد ردت شفاعة الرسول ﷺ ودعائه في عمه وأمه وفي أبي بن سلول ، وقبله نوح في ولده وإبراهيم في أبيه.

٤- أن يوم القيامة لا يقاس على الدنيا فليس لأحد أن يفعل ما كان يفعله في الدنيا بل ولا يتكلم إلا بإذن الله فكيف بالشفاعة ويأبى الجهال المشركون إلا القياس الفاسد بين الحالين .

٥- أن شفاعة النبي ﷺ خاصة بأهل التوحيد ولا تنال إلا بالتوحيد لا بالشرك ودعاء غير الله، فيجب إفراد الله بالعبادة فنحن ندعو ربنا أن يشفّع الرسول ﷺ فينا ولا نطلب منه حال موته لأن هذا من الشرك ولا في الآخرة إلا بإذن الله ورضاه.

٦- أن أمر الله للشفعاء بالإخراج من النار لا يختص بنبينا محمد ﷺ بل هو عام للمؤمنين .

الشبهة الرابعة والعشرون: قولهم: النبي ﷺ يعلم الغيب ويقدر على كل شيء.

وهذا القول من الغلو الذي حذر نبينا ﷺ أمته منه بقوله : (لا تطردني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد) رواه مسلم .

وقد وصل بالقبورية الحال إلى أن رفعوا الرسول ﷺ إلى درجة الإله المعبود بل والرب الخالق وقال بعضهم الرسول لم يمت وهو مخلوق من نور وأقوال كثير تعارض أنه من البشر .

وقد جاءت آيات وأحاديث تنفي القدرة المطلقة وعلم الغيب عن النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف: ١٨٨ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ الأنعام: ٥٠ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فصلت: ٦، والنبي ﷺ يقال له: (لا تدري ما أحدثوا بعدك) مما يدل على عدم علمه الغيب .

والرسول ﷺ الذي هو أشرف الخلق وأكرمهم عند الله تأمل حاله مع نفسه وربه فكان يستغيث الله ويطلب منه المدد والنصر على الأعداء ، فأمدهم بالملائكة ولم ينصرهم بروح الرسول ﷺ ونفى عن نفسه القدرة وعلم الغيب وأنه لا يملك نفعاً ولا ضراً ، وأخبره الله أنه ليس له من الأمر شيء .

بل إن الرسول ﷺ ضُرب وأدمي وشج رأسه وكسرت رباعيته ووضع سلا الجزور عليه وقتلوا أصحابه وحزن على مقتل عمه وما صار له من حادثة الإفك ، كل ذلك حصل وما كان يملك قوة باطنة ولا علاقة وسببا خاصا غير المدافعة والجهاد والدعاء، ولم يملك لنفسه شيئاً فكيف يملك لغيره ، فإذا كان هذا حال خير من خلق الله فكيف بمن دونه، ولكن ليس بعد هذا الحق إلا الضلال .

الخامسة والعشرون : استدلالهم بطلب الصحابة من الرسول ﷺ أن يدعو لهم في حياته ، وكان يدعو لهم من غير إذن الله ، فكذلك يطلب الدعاء منه بعد موته.

الجواب أن هذه مغالطة منهم وتمويه وإفساد ، وإليك بيان ذلك :

١- أن حكم الحي غير حكم الميت ، ومن المقرر أن دعاء الحي والطلب منه ما يقدر عليه جائز وليس بشرك أما دعاء الميت فشرك .

٢- أن الدنيا دار عمل وينقطع العمل بموت الإنسان وتحوله عن دار الدنيا فلا يصلح الإنسان نفسه فضلا عن العمل لغيره .

٣- أن الدعاء والشفاعة متوقفة على الإذن من الله ، والدعاء الذي كان من الرسول ﷺ كان بإذن الله سبحانه ، أما ترى أن الله ﷻ منع نبيه من الدعاء للمنافقين والمشركين ممن لم يرض عنهم ونهاه عن الاستغفار لأمه ، مما يدل على أن شفاعة الرسول ودعائه خاصة لأهل التوحيد بإذن الله ورضاه .

٤- أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يدعو للمؤمنين ويستغفر لهم ويشفع لهم ، ولم يأمر العباد أن يدعونه من دون الله ولا يسألونه شيئاً بل نهاهم .

الشبهة السادسة والعشرون : أن الأموات يسمعون دعاء الأحياء بأدلة منها : سماع كفار قليب بدر ، وسماع الميت قرع النعال والسلام على الموتى .

ونفي سماع الموتى المقصود الكفار لعدم انتفاعهم فهم كالعمي.

الجواب :

١- أن الأصل أن الأموات فارقتهم الحياة وما ثبت لهم من حياة فهي حياة برزخية تختلف عن الحياة الدنيوية فلا تماثل بينهما لذا لا تقاس عليها .

٢- أن الله نفي عن الأموات السماع ، فالأصل عدم سماع الموتى إلا ما خصه الدليل .

٣- أن السماع لا يستلزم الإجابة، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾، فالسماع المثبت للميت هو سماع مجرد عن الإجابة والمنفي عنهم هو الاستماع والإجابة .

٤- أن سماع الأموات من علم الغيب الذي لا تدركه عقولنا ومثله إجلاس المقبور وتوسيع القبر مما يدل على عدم إحاطتنا وإدراكنا الكيفية .

٥- أن السماع ليس عاما لكل الكلام وإنما لكلام مخصوص ببعض الأمور : كسماع الميت قرع نعال مشيعوه إذا دفنوه ، وسماع الميت سلام من يسلم عليه في بعض الآثار ، فالميت لا يسمع أي كلام وإنما كلام مخصوص ، فالسماع المثبت لهم مقيد بأحوال مقيدة ومحددة ، وليس بمطلق فلا يسمعوا عموم كلام البشر .

وسماع كفار قريش الذين بالقليب أمر خاص بالرسول ﷺ ومعجزة له .

ويدل لذلك إنكار عمر مخاطبتهم مما يدل على أن الأمر مستقر ومسلم .

٦- أن الرسول ﷺ يسمع من يسلم عليه إذا سلم عليه عند قبره ، أما البعيد فلا يسمعه بل يبلغه الملك السلام فيقول له فلان يصلي عليك ويسلم، كما ثبت في الأحاديث ، فيفرق بين القريب والبعيد .

قال ابن تيمية: (فهذه النصوص تدل على أنه يسمع سلام القريب ويبلغ سلام البعيد) الاستغاثة ١٠٧ .

٧- أن سماع الموتى النبي ﷺ وغيره للكلام لا يدل على جواز دعائهم والاستغاثة بهم، وقد دلت الأدلة العقلية والشرعية والنصوص المحكمة على كفر من دعا غير الله .

٨- أن الكفار ثبت أنهم كذلك يسمعون ويعلمون أحياناً بمن يزورهم فهل يجوّز هؤلاء دعائهم.

٩- أن الميت قد انقطع عمله لنفسه فلغيره من باب أولى .

١٠- أن ودا واللات وغيرهم أقوام ميتين وذكر الله أن دعائهم شرك وكفر.

الشبهة السابعة والعشرون : استدلالهم بعرض الأعمال على الرسول ﷺ واستغفاره لهم وعرض أعمال الأحياء على أقاربهم من الموتى . والجواب :

١- أن عرض الأعمال على الرسول ﷺ دليل على عدم علمه بها ، وإنما تعرض عليه والله يبلغه ، فهو لا يعلمها من تلقاء نفسه.

٢- أن الله تعالى هو الذي يأذن له أن يدعوا لأمته ، فليس الدعاء من قبيل نفسه ولا من فعله الذي يطلب منه .

٣- أنه لا يعرض عليه كل شيء وإنما الأعمال .

٤- أن عرض العمل ليس فيه ما يجوز الدعاء والطلب ولا يبحه، فما علاقة عرض الأعمال على الرسول واستغفاره بطلب الدعاء والاستغاثة به فهذا شرك .

٥- أن الملائكة كذلك تستغفر للمؤمنين ومع ذلـك لا يجوز أن يـسألها ومـن دعاها فقد كفر إجماعا ، والأدلة على كفر من دعا غير الله كثيرة .

تنبيه : الحديث الذي في عرض أعمال الأحياء على الأموات واستغفارهم لهم . ضعيف لا يصح .

الشبهة الثامنـة والعـشرون : حيـاة الرسـول ﷺ في قـبره ، والأنبيـاء أحيـاء في قبورهم فيجوز دعائهم.

١- أن حياة النبي ﷺ في قبره وحياة الشهداء ليست كالحياة الدنيوية بـل حيـاة برزخية لا نعلم كيفيتها وهي من الأمر الغيبي الذي لا ندركه.

٢- أن الله تعالى أثبت لرسوله ﷺ الموت في آيات منها : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ الزمر: ٣٠ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ آل عمران: ١٤٤ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ الأنبياء: ٣٥.

٣- ومما يدل على موت الرسول ﷺ وخروج روحه مـن بدنـه قولـه بـأبي هـو وأمي: (ما من مسلم يسلم على إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه الـسلام) ، وفي هذا دليل على أن روحه ليست في جسده دائماً .

٤- أن موت الرسـول ﷺ أمـر مـستقر عنـد الـصحابة ﷺ يـدل عليـه قـولهم للرسول ﷺ كيف تعرض الصلاة عليك وقد أرمت أي بليت ، فأجابهم (أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء) ولم يقل أني حي في قبري .

٥- ومما يدل على موت الرسول ﷺ قول أبي بكر ﷺ : (أما الموتة التي كتبـت لك فقد ذقتها أو متها ولن يجمع الله لك موتتين) رواه البخاري.

٦- أنه لم يرد حديث صحيح أنه ﷺ حي في قبره وإنما قـال :إن الله حـرم عـلى الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء. وإن كان النبي أفضل من الشهداء والله قال فيهم ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٩.

٧- لو سلّمنا أنه حي فإنه يستلزم أن يسأل ويستفتى كما كان يسأل في حياته.

٨- أنه لم يثبت أن أحدا من الصحابة ولا التابعين جاء لقبر الرسول ﷺ ونـاداه وخاطبه وسأله ، أو زعم أنه حي في قبره يسمع الكـلام ، وأهـل القـرون المفـضلة لم يفعلوا شيئا من ذلك ولم يستغيثوا به مع عظم الشدائد والكروب التي نزلت بهم .

وإنما ثبت أنه يبلغ السلام وليس كل كلام يسمعه كذلك عرض الأعمال عليه لا أنه يعلم من نفسه ثم إذا عرضت عليه لا يدل العرض على تجويز أن يدعى.

٩- أن هذا الأمر ليس خاصا بالرسول الله ﷺ بل هو ثابت لكل مسلم.

فقد أخرج ابن عبدالبر في الاستذكار وصححه وكذا الأشبيلي: (ما من رجل يمر بقبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام).

١٠- أن الله قال عن الشهداء (يُرزَقون) بالمبني للمجهول ولم يقل يَرزُقون فهم مرزوقين لا رازقين فليتمس النفع والضر والرزق والخير من الخالق الرازق المتصرف وليدع من يملك لا المخلوق الذي يحتاج للرزق والنفع من الله .

١١- أن حياتهم في القبور لا تدل على جواز طلب الدعاء منهم ، فالذي أخبر بحياتهم هو الذي أخبر بكفر من دعاهم بعد موتهم .

الشبهة التاسعة والعشرون : يقولون كيف ينكر نسبة الإنقاذ من النار بالفعل إلى الرسول ﷺ وتنسب إلى قريش.

الجواب :

أن الإنقاذ المنفي غير المثبت فالمنفي عن الرسول ﷺ من جنس قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ الزمر: ١٩ ، ومعناه أن من كفر وكان شقياً لن تنقذه من النار ، ولن تنفعه وتغني عنه شيئا ولن تهدي من أضل الله ولا من أحببت ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ القصص: ٥٦. والمثبت للمخلوق هو أن ينقذ نفسه من النار بالإيمان وإتباع ما جاء به الرسول ﷺ.

وقالوا : قول الرسول ﷺ لأقاربه (لا أغني عنكم من الله شيئاً) رواه مسلم، هو في من لم يؤمن به وإلا فهو شافع لمن يؤمن به ، وأما الإغناء فقد أغنى أمته ومن ذلك التخفيف عليهم في الشرائع وكذا الاستغفار لهم .

الجواب : أن الرسول ﷺ لا يغني عن أحد شيئاً وليس له إلا الدعوة والبيان والتبليغ والشفاعة بإذن الله، والمشرك والمبدل لدينه لا ينفعه قربه من الرسول ﷺ، وتخفيف الشريعة من الله تعالى والرسول ليس إلا مبلغ وشافع بإذن الله ، وأما استغفاره ودعائه فواقع برحمة الله وأمره وإذنه ولا ينفع ذلك ما لم يرض الله ﷻ عن المدعو له المشفوع فيه ، وقد رد الله دعاء رسوله ولم يقبله في المنافقين .

الشبهة الثلاثون : الشفاعة :

أن النبي ﷺ أعطي الشفاعة ، ونحن نطلبها ممن أعطاه الله ، والله ملك الرسول والمؤمنين الشفاعة، ونحن مذنبون وفي حاجة الشفعاء ، والصالحون لهم جاه عند الله ومنزلة قريبة منه، والله أعطاهم الشفاعة ، ومن يدعو الرسول ويطلب الشفاعة منه إنما قصد الشفاعة مستحضراً يوم القيامة حين يشفع في أمته.

الجواب :

١- أن الله نهى نبيه ﷺ أن يدعوا أحدا من دونه، ووجه الخطاب إليه بالنهي تعظيماً للمنهي وتحذير لأمته في مواضع منها .

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ غافر: ٦٦ ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء: ٥٦ - ٥٧ ، وقد نزلت هذه الآية في من يدعو الملائكة والمسيح وأمه وعزير .

٢- أنه لم يثبت عن أحد من الصحابة أو التابعين أنه ذهب لقبر الرسول ﷺ وقال اشفع لي ونحوه ، ولا سألوه شيئا ولا استغاثوا به . كيف وهو القائل: لا تتخذوا قبري عيدا ، وقال: اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد. رواه أحمد وأبو داود.

٣- أن الرسول ﷺ قد مات وانقطع عن الدنيا وغاب عن الناس .

٤- أن الرسول ﷺ علمنا كل خير ولو كان في الاستشفاع به خيرا وينفع كما تفعله الصوفية المشركة لدلنا عليه ولما نهانا عنه.

٥- أن الإجماع الصحيح هو ما ذكره العلماء كابن تيمية قال : من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم كفر إجماعاً.

٦- أن الذي أخبر أن الشفاعة أعطاها لرسوله هو الذي نهى عن دعاء غير الله وأن الداعي لغيره مشرك كافر ، فالله تعالى أعطاه الشفاعة ، ونهاك عن طلبها منه، فقال : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ الجن: ١٨ فإذا كنت تدعو الله أن يُشَفِّع نبيه فيك فأطعه في توحيده بالدعاء كما في قوله : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

٧- أن الله تعالى قد وكل الملائكة بالموت والحياة والنفخ في الروح وإنزال المطر فهل يجوز عند هؤلاء الجهال دعائهم من دون الله أيضاً، فنقول: يا ميكائيل أنزل المطر وأغثنا ويا ملك الموت أمت فلان لأن الله قد جعل ذلك له بأمره، وقد أجمع الناس على تحريم دعاء الملائكة وكفر الطالب منهم وعابدهم المستغيث بهم.

٨- أن الشفاعة ليست مُلكاً للرسول ﷺ وإن كان أُعطيها ، ولو كانت مُلكاً للرسول لما احتاج يوم القيامة أن يستأذن من الله ، فالمالك لا يستأذن فيما هو ملك له، ومما يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ الزمر: ٤٤ أي مُلكاً واستحقاقاً لله وحده.

فشفاعة الرسول ﷺ هي تحت ملك الله لأنها لا تحصل إلا بأذن الله له ورضاه عمن سيشفع فيه، ألا ترى أن الله ﷻ لم يقبل شفاعة النبي ﷺ في المنافقين ولم يأذن له بالصلاة والدعاء لهم ولأمه وعمه والشفاعة لهم فهل هذا إلا لكونها ملك لله تعالى فتطلب الشفاعة منه وحده لا من غيره .

٩- أن الشفاعة ملك لله وحده: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا ﴾ وقد نفاها الله عن كل خلقه فلا يملكها أحد سواه، وأما إثبات الشفاعة للمخلوق فهو مقيد بإذن الله ورضاه وليست مطلقة، كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴾ طه: ١٠٩، وهذا الإذن والرضا هو التوحيد كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ الزخرف: ٨٦، وهو العهد المقصود في الآية ﴿ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴾ مريم: ٨٧.

١٠- أن هذه هي الشفاعة الشركية المنفية التي ظنها المشركون حاصلة بدعاء الأنبياء والصالحين الأولين ، والله سبحانه كفّر من قال: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٨ ، وذلك حين طلبوا الشفاعة من الأنبياء والصالحين ، وكان منهم من يدعو عيسى ويطلب شفاعته وهو رسول الله وصاحب شفاعة عنده كما أخبر المصطفى من شفاعة الملائكة والأنبياء والصالحين بأمره وإذنه .

لكن لما طلبت الشفاعة من غيره وبدون أذنه ورضاه وترك دعائه واللجوء إليه والتضرع بين يده إلى طلب المخلوق وسؤاله والذل والتضرع له كان هذا من أعظم الشرك في العبادة حرم صاحبها مراده منها وطرد من رحمة ربه وعوقب بالخلود في جهنم وبئس المصير ، فإن أسعد الناس بشفاعة الرسول ﷺ هم أهل التوحيد والإخلاص، كما قال النبي ﷺ ومن سأل الشفاعة من النبي ﷺ بعد موته فهو مشرك محروم من شفاعته والعياذ بالله ، أفلا يعقل هؤلاء بعد كل هذه الآيات والنذر ويعلموا أنهم هم الخاسرون وقد أوبقوا نفسهم في ظلمات الشرك والكفر .

١١- يقال له إن كنت تريد أن يشفع لك الرسول ﷺ فقل : يا الله شفِّع في نبيك ، ولا توجه الخطاب للرسول ﷺ فتقول : يا رسول الله اشفع لي.

١٢- أن يقال إن الشفاعة ثبتت للأطفال فهل يصح أن يطلبها منهم ، أو يقول لا أطلبها منهم ، لأنها إنما تكون في الآخرة وهم لا يملكونها ، وهنا يلزمهم أن يقولوا مثل ذلك في شفاعة الرسول ﷺ أيضا .

١٣- أن قولهم: الرسول ﷺ يملك الشفاعة لأنه شهد بالحق كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ الزخرف: ٨٦.

فجوابه أن الاستثناء واقع على الشافعين أو المشفوع لهم أنه لا يشفع لأحد إلا من شهد بالحق وهو من أذن الله له ورضي عنه ممن أتى بالتوحيد.

والآية داخلة في عموم الآيات الأخرى الدالة على أن الشفاعة ملك لله وأنه لايشفع أحد عنده إلا بعد أن يأذن الله له ويرضى عنه ، ومن شروط الإذن والرضا التوحيد الذي هو الشهادة الحق ، والملك هنا المراد به حصول ذلك ووقوعه وتمكينهم منه وهذا مقيد بالأذن والرضا.

١٤- أن قولهم : إن الرسول ﷺ يملك الشفاعة ويتصرف فيها لقوله عن عمه أبي طالب: (وجدته في من النار فأخرجته إلى ضحضاح من النار) .

هي من جنس شبهة غلاة القبورية القائلين: إن الله أعطى أولياءه التصرف والتدبير ووكل ذلك إليهم فهم يفعلون ما يفعله الرب من التدبير والملك والخلق والرزق بأمر الله وليس استقلالاً ، نعوذ بالله من الكفر وأهله .

١٥- قولهم : إن معنى الملك للشفاعة الاستقلال ، فباطل لأن الشفاعة ملك لله لا يملكها أحد ، والنفي للشفاعة عن غير الله جاء مطلق للاستقلال وغيره ، ثم لو فرضنا أن المقصود نفي الاستقلال فإنه يثبت بذلك عدم النفع والفائدة لأن إرادة الشفاعة من الشافع دون تمكنه منها وفعله لها لا فائدة منه للمشفوع له فبهذا يرجع للأصل وهو طلبها من الله تعالى وحده.

١٦- ظن القبورية الجاهلون أن الشفاعة التي نفاها القرآن يلزم من نفيها نفي الكرامة ، فيزعمون أن في نفي الشفاعة المنفية بنص القرآن وفي النهي عن دعاء الصالحين والأنبياء وقصدهم واللجوء إليهم وطلب الشفاعة منهم والاستغاثة بهم من دون الله تنقص لهم وإبطال لفضلهم وكرامتهم ، وما علم هؤلاء الجهلة أن الكرامة كل الكرامة في عبودية الله والخضوع له وتحقيق التوحيد، وهذا نبينا ﷺ الذي هو أخشى الخلق لله وصفه ربه تعالى بصفة العبودية في أشرف المواضع في مقام الدعوة والرسالة والإسراء والمعراج .

الحادية والثلاثون : أن طلب الشفاعة من الرسول ﷺ طلب منه شيئا أعطيه ويقدر عليه. وهو كسؤال عيسى خلق الطير الذي أعطيه فلا يكون طالبهم مشركاً.
والجواب :
١- أن طلب مثل هذا لا يجوز مطلقاً لا من عيسى ولا من غيره لا في حياته ولا بعد رفعه ولا بعد موته، لأن الله لم يبعث الرسل إلا بالتوحيد وهو حين يبرئ الأعمى ويخلق من الطين كهيئة الطير ليس إلا بإذن الله وأمره ،ومن يرد عليه بصره يعلم أن المشافي هو الله تعالى وما عيسى إلا سبب .
٢- أن الطلب من عيسى ومن محمد عليهم الصلاة والسلام كفر بالإجماع لأنه من دعا غير الله وهذا من أحد أنواع شرك النصارى الذي كفروا به بنص القرآن .
٣- أن هذا الذي أعطيه عيسى هو من باب المعجزات التي أجراها الله للأنبياء لتؤمن أقوامهم ، ولم يأذن الله للمؤمنين أن يطلبوا النفع والضر ولا المعجزات وإنما تحصل هذه بأمر الله .
٤- أنا لو سلمنا جواز طلب إحياء الطير والمعافاة من عيسى حال حياته فإن هذا يكون من جنس طلب الدعاء منه والتوسل به وإظهار المعجزات على يديه ومن جنس ذلك طلب الصحابة الدعاء من الرسول ﷺ في حياته مما هو من خوارق العادة مع علمهم أن الرسول مجرد سبب وداعي لله وشافع لهم بأذن الله وفاعل للشيء بأمره وهذا ينقطع بعد موته فلا يجوز دعاء الرسول والطلب منه وسؤله شيئاً بعد موته مهما كان وإن كان من مقدروه قبل موته.

الشبهة الثانية والثلاثون : أن الدعاء عند القبور مجرب لقضاء الحاجات .
أولاً : أن الله ورسوله لم يشرعوا الدعاء عند القبور.
كما أن الدعاء عند القبور لم يفعله الصحابة ولا التابعون.
قال ابن تيمية : (من تأمل كتب الآثار ، وعرف حال السلف تيقن قطعاً أن القوم ما كانوا يستغيثون عند القبور ، ولا يتحرون الدعاء عندها أصلاً ، بل كانوا ينهون عن ذلك من كان يفعله من جهالهم) الاقتضاء ٢/ ٦٨١ .
الثاني : أنه قد يستجيب الله لبعض هؤلاء وهم يدعون عند القبر من باب الفتنة والامتحان ، كما أن الشياطين تخاطب المشركين عند الأصنام والقبور فتنة لهم.

الثالث: أن الله سبحانه قد يستجيب لهم لما يقع في نفس الداعي من الضراعة والمسكنة لله تعالى ، لا أن هذا بسبب من القبر ولا المقبور فإنه ميت لا ينفع نفسه فضلاً عن غيره .

قال ابن تيمية : (إما أن تكون قضيت بغير دعائه ، وإما أن تكون قضيت بدعائه ، فإن كان الأول فلا كلام ، وإن كان الثاني فيكون قد اجتهد في الدعاء اجتهاداً لو اجتهده في غير تلك البقعة ، أو عند الصليب لقضيت حاجته،فالسبب هو اجتهاده في الدعاء لا خصوص القبر) الفتاوى ٢٧/ ١٧٥ .

الثالثة والثلاثون: أن زيارة القبور تعظيم لأصحابها، وتعظيم النبي ﷺ واجب.

الجواب من أوجه :

١- أنه يلزم من هذا أن زيارة قبره واجبة وأن تركها محرم أو كفر وهذا لم يقل به أحد .

٢- أن الخوارج كفروا الأمة بمخالفة أمره ومعصيته وهؤلاء جعلوا طاعته وإتباع أمره في تجريد التوحيد كفراً وتنقصاً فصاروا أخس من الخوارج.

٣- أن زيارة قبره لو كانت تعظيماً لكانت فرضاً عينية على كل أحد ولكان أولى الناس بهذا الفعل الصحابة ولما أضاعوا هذا فرض .

٤- أنه إذا كانت زيارة قبره واجبة كانت الهجرة إلى القبر أكد من الهجرة إليه في حياته لكونها انقطعت بعد الفتح .

٥- أنه يلزمهم تجويز السجود لقبره لأن هذا من تعظيمه عندكم مع أن الرسول ﷺ بين أن السجود ليس من تعظيمه مما يدل على أن تعظيمه ليس مما تحدده عقول هؤلاء وإنما مرجعه للشرع .

٦- أن من قال بعدم وجوب زيارة قبره ولا استحبابها لا يقدح في تعظيمه للرسول ﷺ وهو مثل من قال لا يصلى عليه عند الذبح.

٧- أن القول بأن زيارة قبره من تعظيمه يلزم أن يكون قبره منسكاً يحج إليه ويقصد ويتخذ عيداً وهذا مخالفة لشرعه وأمره وهديه.

٨- أن تعظيم الرسول ﷺ إنما هو في إتباع شرعه وأمره وترك نهيه والاقتداء به ومحبته وعدم التقديم بين يديه ولا معارضة أمره وقوله .

٩- أن هذا التعظيم الذي قصده عباد القبور، هو بعينه السبب الذي لأجله نهى الرسول ﷺ عن أن يتخذ قبره عيداً وحرم لأجله اتخاذ القبور مساجد والبناء عليها وإسراجها حتى لا يعظم أهلها ويغالى فيهم ثم يعبدون من دون الله كما حصل في الأقوام السابقة قبل هذه الأمة ، وما حذر منه ﷺ ونهى عنه وخاف وقوعه حصل ووقع بفعل هؤلاء الغلاة الجهال .

١٠- أن هذا الذي يفعله عباد القبور ليس من تعظيم الأولياء والأنبياء في شيء، وإنما هو من الغلو والإطراء المحرم والمنهي عنه، والذي مؤداه التنقص وعدم التعظيم الحقيقي للرسل والأولياء فإن تعظيمهم ليس إلا في محبتهم والدعاء لهم والصلاة على الرسول ﷺ وتعظيم شرعه وعدم مخالفة أمره وانتهاك نهيه.

وبهذا يتبين جهل القبورية وفرط حمقهم حين ظنوا أن زيارة قبر الميت هو من باب الإكرام والتعظيم له وأن أحق الناس بالإكرام نبينا محمد ﷺ ، وهم بذلك خالفوا هديه وأمره وهدي أصحابه حيث كانوا تاركين لزيارة قبره فكم سافروا ورحلوا وقدموا ولم يثبت عن أحدهم وقوفهم عند قبره إلا ابن عمر، كما أنهم كانوا يدخلون على عائشة للفتيا والسلام ولم يثبت عن أحدهم زيارة لقبره أو حث عليها .

وهذا من أعظم ما من الله به على رسوله وأمته استجابة دعوته فلم يتخذ قبره وثناً يعبد ، حيث دفن في بيته فلا يقدر أحد أن يصلي إليه ولا يطوف بقبره ولا يبني عليه، بل إن زيارة قبر الرسول ﷺ بعد بناء الجدار في عهد الوليد غير متصور، لأنه لن يصل أحد للقبر وإنما للجدار فهو مثل لو وقف خارج المسجد وترك جدارين بينه وبين القبر جدار الحجرة وجدار المسجد .

الشبهة الرابعة والثلاثون : الآيات نزلت في الكفار .

قالوا : كيف تنزلون الآيات التي نزلت في المشركين على من قال لا إله إلا الله من المسلمين، وهذه آيات نزلت في حق الكفار فأين المناسبة بين المسلم والكافر ، والخوارج هم الذين حملوا آيات الكفار على المسلمين .

والجواب عن قولهم الفاسد هذا من عدة أوجه :

١- لا يسلم أن الآيات نزلت في المشركين بل خوطب بها الرسول ﷺ والمؤمنون ، ومن ذلك ما قاله الله تعالى لنبيه في عدة مواضع : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، وقوله له: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾

الزمر: ٦٥، فنهاه أن يكون من المشركين وأن يشرك وأن يدعو مع الله إلها آخر، لأنه إذا فعل فعلهم وأشرك كفر وحاشاه ، وأمته في هذا الحكم من باب أولى.

٢- أن أهل التوحيد لم ينزلوا الآيات في المسلمين وإنما في من أشرك وعمل مثل عمل مشركي العرب فكان بشركه من المشركين .

٣- أنها لو نزلت في المشركين أو قوم معينين فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٤- أنه يقال ما قولكم في من يسب ويقول الله سبحانه فقير تعالى الله عن ذلك ويسخر بالأنبياء ويقول أن رسولنا كان ساحر وكاهن ، ما تقولون فيه هل ستنزلون فيه الآيات النازلة على الرسول في كفار زمانه أم تكون تلك الآيات خاصة وهؤلاء مسلمون لأنهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ويصلون ويصومون .

٥- أن هذا القول فيه تعطيل للقرآن والعمل به ومخالف للإجماع .

وعلى قولهم يلزم أن الآيات التي نزلت في اليهود والنصارى ومشركي العرب لا تنطبق على من قال مثل قولهم، ولا يعمل بمقتضاها ، فإذا استدل بآية: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤، قالوا: هذه نزلت في اليهود فلا تطبقها على الحكّام المسلمين، وإذا استدل بآيات تكفير من صد عن سبيل الله وفتن المؤمنين، قالوا هذه آيات نزلت في الكفار فلا تنزلها فيمن يفعل فعلهم من المسلمين، وإن استدل بأن الجهل ليس عذرا في الشرك ففاعله يكفر ولو كان جاهلا بآيات تكفير الجهال قبل البعثة، قالوا: هذه الآيات نزلت في الكفار الأصليين ، وهكذا .

وقولهم هذا لم يقل أحد به ، والعبرة ليست بالاسم وإنّما بالعمل والحكم.

والقبورية الذين نكفرهم فعلوا مثل فعل كفار العرب وأشركوا في العبادة.

٦- أن التفريق بين تكفير الكفار الأصليين وتكفير المرتدين المنتسبين للإسلام مع فعلهم نفس فعل الكفار باطل ولا يصح ففاعل الكفر يكفر.

٧- أن مما يبطل قولهم هذا ما جاء التصريح به في الأدلة في هذه المسألة:

كما قال تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ النساء: ٨٩ ، أي إذا فعلتم فعلهم الذي ودوا أن تفعلوه كنتم في حكمهم ولو كنتم من أهل القبلة .

وعن ابن عمر مرفوعا : (من تشبه بقوم فهو منهم) رواه أبو داود وأحمد .

وعن أبي سعيد مرفوعا : (لتتبعن سنن من كان قبلكم) متفق عليه .

وعن حذيفة ﷺ أنه رأى رجلاً بيده خيط فقطعه ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف:١٠٦ . رواه ابن أبي حاتم .

مع أن هذه الآية نزلت في المشركين ، ونزّلها حذيفة على مسلم.

وقال ابن تيمية فيمن جعل الآيات النازلة خاصة لمن نزلت بسببه ولا يشمل النوع: (فلا يقول مسلم أن آية الظهار لم يدخل فيها إلا أوس بن الصامت وآية اللعان لم يدخل فيها إلا عاصم بن عدي وأن ذم الكفار لم يدخل فيه إلا كفار قريش ونحو ذلك مما لا يقوله مسلم ولا عاقل) الفتاوى ١٦/ ١٤٨.

وقال أبا بطين : (أما قول من يقول أن الآيات التي نزلت بحكم المشركين الأولين فلا تتناول من فعل فعلهم فهذا كفر عظيم ، قال ويلزم منه أن الحدود المذكورة في القرآن والسنة لأناس كانوا وانقرضوا ؟ فلا يُحد الزاني اليوم ولا تقطع يد السارق وبطل حكم القرآن) الدرر ١٠/ ٤١٨ .

الشبهة الخامسة والثلاثون : إن الذين نزل فيهم القرآن لا يقولون لا إله إلا الله، ويكذبون الرسول ﷺ والقرآن ، وينكرون البعث ، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ونُصدّق بالقرآن والبعث ، ونصلي ، فكيف تجعلوننا مثل أولئك ؟

والجواب: أولاً: لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدّق الرسول ﷺ في شيء ، وكذّبه في شيء ، أنه كافر لم يدخل في الإسلام ، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه ، كمن أقرّ بالتوحيد ، وجحد وجوب الصلاة ، أو الزكاة ، أو الصوم، أو الحج، والله ﷻ قد صرّح في كتابه : أن من آمن ببعض وكفر ببعض، فهو الكافر حقاً ، زالت هذه الشبهة .

ومعلوم : أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ ، وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج ، والإنسان إذا جحد شيئاً من هذه الأمور كفر، ولو عمل بكل ما جاء به الرسول ﷺ، فإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم يكفر من باب أولى .

ثانياً : أن أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا مانعي الزكاة وكفروهم وسموهم بالمرتدين والكفار كما في الصحيحين، مع أنهم قد أسلموا مع النبي ﷺ ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويصلون .

كما أن تكفير السلف من ارتد أكثر من أن يحصى.

ولو كان الأولون لم يكفروا ، إلا لأنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول ﷺ والقرآن ، وإنكار البعث ، فما معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب : (باب حكم المرتد) ، وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه ؟ وذكروا أنواعاً كثيرة، كل نوع منها يكفِّر ويُحِلُّ دم الرجل وماله.

ثالثاً : أن الذين قال الله فيهم : ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ التوبة: ٧٤ ، كفَّرهم بكلمة ، مع كونهم في زمن الرسول ﷺ ويجاهدون معه ويصلون .

وكذلك الذين قال الله فيهم: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ التوبة: ٦٦ .

فهؤلاء الذين صرَّح الله أنهم كفروا بعد إيمانهم وهم مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، قالوا كلمةً ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح، ولم يعلموا أنها تكفرهم.

رابعاً : أن عمل مشركي زماننا هو نفس عمل المشركين السابقين الذين بعثت إليهم الرسل واستباحة دمائهم .

خامساً : قولهم : تكفِّرون المسلمين وهم يشهدون أن لا إله إلا الله ، ويصلون ويصومون .

فجوابه أن من قال : لا إله إلا الله وصلى لا ينفعه ذلك إلا بعد العمل بها وعدم نقضها، وهذه شبهة تكفير من قال : لا إله إلا الله .

الشبهة السادسة والثلاثون : عدم وقوع الشرك في أمة محمد ﷺ .

والاستدلال بحديث : (يأس الشيطان) .

أحدهما : أن النبي ﷺ لم يخبر بعدم وقوع الشرك في أمته ، بل أخبر بخلاف ذلك ، فأخبر بوقوعه ظاهراً في أمته ومنها :

قوله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة) رواه البخاري ومسلم .

وقوله ﷺ : (لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللاّت والعزى) رواه مسلم .

الثاني : أن الواقع المشاهد في حياة المسلمين من حصول الكفر والشرك ومنه :

١- ارتداد العرب بعد موت النبي ﷺ .

٢- ظهور الفرق الكافرة مع انتسابها للإسلام ، وقد أجمع العلماء على كفرهم، كالرافضة والدروز والنصيرية والقرامطة والباطنية والقاديانية والبهائية وغيرها .

الثالث : أن معنى يأس الشيطان يرجع للشيطان لما رأى ظهور الدين فيأس من رجوع الشرك وظن أن الشرك لن يرجع ويأس من الموحدين وهولا يعلم الغيب ولا يعلم بأن الشرك سيرجع مرة أخرى ، مع أن يأسه مقيد بالمصلين الموحدين وبجزيرة العرب .

السابعة والثلاثون : زعمهم أن كثيرا من العلماء استغاثوا بالأموات وفعل بحضرتهم ولم ينكروه .

الجواب من أوجه :

١- أن الحجة في كلام الله ورسوله.

٢- أن العلماء قد أنكروا الشرك ووسائله.

٣- أن الصحابة كان منهجهم بيّن في قطع وسائل الشرك ومن ذلك قطعهم الشجرة التي حصل عندها بيعة الرضوان ، وإخفاء قبر دانيال لما فتحوا تستر ، وعدم بنائهم على القبور وهدمهم القباب أمر لا يخفى، ومما يؤكد ذلك الجهل بمواضع قبورهم.

٤- أن من ينسب للعلم وفعل هذه الأمور فليس بحجة وهو مشرك جاهل ولو كان معه شيء من الفقه واللغة والجدل ، وهو داخل في عموم حديث الافتراق والفرق :(كلها في النار إلا واحدة) رواه الترمذي.

٥- أن الشرك وعبادة القبور ما حصل إلا في عهد البويهيين الرافضة ، وكانوا بعد القرن الثالث ومضي القرون المفضلة .

القسم الثاني : شبهات المشركين النقلية*:

استدلالاتهم بالنصوص والآثار والنقولات والحكايات:
ومجموعها سبعون شبة نقلية :
أربع وعشرون آية وأربعون أثرا وستة نقولات.
أنواع حجج المشركين :
١- إما حديث مكذوب مختلق موضوع أو ضعيف في غاية الضعف .
٢- أو منامات شيطانية .
٣- أو حكايات صبيان .
٤- أو آية وحديث حرفوا معناها .

* فائدة من الكتب التي ردت على القبورية :

الصارم المنكي لابن عبدالهادي ، وقد رد على السبكي القبوري في كتابه شفاء السقام في زيارة قبر خير الأنام الذي رد به على ابن تيمية ودعا إلى الشرك صراحة. والأحاديث التي أوردها السبكي وغيره في زيارة قبر الرسول ﷺ كلها لا حجة فيها وهي دائرة بين الضعف والوضع .

وأكمل الصارم المنكي الجداوي بكتابه: الكشف المبدي في تمويه السبكي .

الاستغاثة لابن تيمية .

التوصل إلى حقيقة التوسل لمحمد نسيب الرفاعي.

كشف الشبهات محمد بن عبد الوهاب .

صيانة الإنسان في الرد على دحلان للسهسواني.

شبهات المسغيثين بغير الله لابن عيسى.

منهاج التأسيس لعبد الله أبا بطين.

كتب عبد اللطيف آل الشيخ منها : تحفة الطالب، منهاج التأسيس والمصباح.

كتب سليمان بن سحمان .

أولاً : استدلالات المشركين من القرآن وبيان بطلان احتجاجهم بالآيات :

الدليل الأول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ المائدة: ٣٥.

قالوا : الوسيلة كل ما يتقرب به إلى الله من الأفعال والذوات ، ومنها دعاء الصالحين ، ومن زعم أنها الطاعة فقط كان هذا تكرار لأن الطاعة من تقوى الله .

الجواب :

أن الوسيلة المقصود بها هنا الأعمال الصالحة والقربة إلى الله وطاعته كما فسر ذلك الأئمة وأهل التفسير .

وليس تفسيرها بالاستشفاع والتوسل بالصالحين كما زعمته القبورية ، فإن هذا لم يقل به أحد من السلف ، وليس لهم على قولهم هذا مستند لا من كتاب ولا سنة ولا من فهم سلف الأئمة .

وأما زعمهم أن هذا تكرار فالجواب :

١- أن التقوى إذا اجتمعت مع الوسيلة والطاعة والبر كانت التقوى في ترك الحرام والطاعة والبر والوسيلة في فعل الواجب .

ومثاله حديث دعاء السفر : (اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى)

٢- أن التكرار لو سلمنا به فإنه يكون للتأكيد، كآيات كثيرة في هذا الباب .

الدليل الثاني : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء: ٥٧.

قالت القبورية : إن معنى الآية أن هؤلاء الذين تعبدونهم أيها المشركون هم يتوسلون إلى الله بمن هو أقرب ليشفع لهم فكيف تجعلونهم أرباباً . والجواب :

أولاً : أن هذه الآية نزلت فيما من يدعو قوماً صالحين أمثال الملائكة وعيسى وأمه وعزير وغيرهم ، كما قال ذلك طائفة من السلف منهم ابن عباس ومجاهد .

ومعنى الآية أن هؤلاء الذين تعبدونهم أيها المشركون وتدعونهم من دون الله، هم أنفسهم يعبدون الله ويتقربون إليه ويخافون عذابه ويرجون رحمته فهم محتاجون لله راغبون إليه ، فإن كان عندكم عقل تميزون به فطلبوا الإله الذي يطلبونه والذي هو ربكم جميعاً .

ثانياً: أن تفسير القبورية للآية إنما هو اختراع منهم ولم يقل بقولهم أحد من أهل العلم من سلف الأمة وأئمة التفسير .

ثالثاً : أن تفسيرهم هذا مع ذلك تكذبه الآيات في كفر من طلب الوسائط والشفعاء التي تقرب إلى الله وأن المشركين الأولين كان هذا شركهم.

ومما يبطل تفسير القبورية للآية:

١- أن الله ﷻ قال في الآية التي قبلها: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ ﴾ الإسراء:٥٦، وهذا يدل على أن عبادتهم ودعائهم مزعومة باطلة وليست عبادة بحق .

٢- أنه قال في نفس الآية: ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ الإسراء:٥٦. فهؤلاء الذين تدعونهم ضعاف في حقيقة أمرهم، وهم محتاجون إلى من تحتاجون إليه ، ولا يملكون لأنفسهم النفع وكشف الضر، فكيف يملكونه لغيرهم .

٣- أن هؤلاء المدعوين من الصالحين والأولياء يبتغون ما يبتغيه المشرك بهم الذي ساواهم برب العالمين من القرب من الله والوسيلة إليه والتسابق إلى القرب منه ورجائه والخوف منه .

٤- أن هؤلاء المدعوين لا يأمنون عقاب الله ولا يقطعون برحمته بل هم دائرون بين الخوف من الله والرجاء منه مع صلاحهم فمن دعاهم الأولى أن يكون هذه حاله مع الله .

٥- أن أمر الله لهم بدعاء الذين زعموا هو من باب السخرية وتحقير عقولهم .

٦- أن الآيات الكثيرة تبين أن شرك المشركين ودينهم الذي يدينون به هو اتخاذ الوسائط والشفعاء ، ولم يكن في اعتقاد أن الآلهة أرباباً بل مجرد وسائط تقرب إلى الله وتشفع لهم عنده وهم مع ذلك مقرون بالربوبية .

الدليل الثالث : استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ النساء:٦٤، ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ آل عمران:١٥٩ ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ محمد:١٩.

والجواب عن هذه الآيات أن هذا خاص بحياته دون مماته، ويدل لذلك فهم الصحابة ﷺ حيث لم يذهبوا لقبره بعد موته طلباً لاستغفاره لهم، ولم يفهم أحد من السلف والخلف إلا المجيء إليه في حياته، والآية نزلت في المنافقين هي وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ المنافقون: ٥، فكانوا يعرضون، أما الصحابة فكان إذا أذنب أحدهم يأتي للنبي ﷺ ويطلب منه أن يدعو له ويستغفر له، أما بعد موته فلم يكن أحد منهم يأتي لقبره ويقول يا رسول الله فعلت كذا فاستغفر لي مع حصول الذنوب منهم لأنهم غير معصومين ﷺ، ولم ينقل ذلك

عنهم ولا عن أحد من التابعين والقرون المفضلة، وإنما هذا ديدن المشركين بعدهم، ولو كانت هذه طاعة لكان خير القرون عظلوها وعصوا الله ووفق لها هؤلاء الغلاة.

ثم أنه لو كان الذهاب لقبره مشروع لحث أمته على فعله، ثم لو كان قبره يزار بعد الذنب لكان عيداً للمذنبين وهو القائل ﷺ:(لا تتخذوا قبري عيداً) رواه أحمد.

الدليل الرابع: ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ القصص: ١٥، **فنسب الله الاستغاثة إليه.**

وأما نفي الرسول ﷺ بقوله : (إنه لا يستغاث بي) ، فمراده نفي الاستغاثة على الحقيقة لا تكون إلا لله وأما نسبتها للمخلوق مجازاً فجائز . الجواب :

أن الاستغاثة بالمخلوق على قسمين :

١- الاستغاثة بالمخلوق في أمر يقدر عليه وهو حي حاضر قادر ، فهذه جائزة كما في الآية المذكورة هنا، وتنسب الاستغاثة للمخلوق حقيقة لا مجازا .

٢- الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه، وهذه شرك أكبر ولا وتنسب الاستغاثة هذه للمخلوق لا على وجه الحقيقة ولا المجاز ، ومن طلب هذا النوع طلب من أحد الرسول وغيره فهو كافر مشرك .

أما نفي الرسول ﷺ الإغاثة عن نفسه ، فلكي يعلم أمته التعلق بالله وكمال التوحيد ، ويسد باب طلبه واستغاثته فيما لا يقدر عليه .

الدليل الخامس: قوله تعالى عن عيسى: ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ آل عمران: ٤٥، **وقوله عن موسى:**﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ الأحزاب:٦٩، **ذا جاه لا يسأل شيئاً إلا أعطاك.**

الجواب: أن كون المخلوق وجيهاً عند الله وله مكانه عنده لا يجوز ذلك دعائه من دون الله ، وأن حجة القبورية هذه هي نفس حجة المشركين الأولين في طلبهم الشفعاء والوسائط المقربة لله .

الدليل السادس : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ سبأ: ٢٢.

قالوا : الآية نزلت في المشركين لما استغاثوا بالنبي ﷺ وكشف الله عنهم ببركته ودعوته لما نزل بهم قحط شديد . والجواب :

١- أن الآية نزلت في المشركين ، فإنهم سألوا النبي ﷺ أن يدعو الله لهم كما كان أصحابه يأتونه ليدعو لهم وهذا الفعل جائز لأنه طلب الدعاء من حي حاضر قادر ولا خلاف في جوازه .

٢- وأما الاستدلال بها على دعاء الميت والغائب والعاجز فيما لا يقدر عليه إلا الله فإن الآية لا تدل على ذلك ولم تنزل في ذلك .

٣- أن تسمية طلب الدعاء من الحي استغاثة أمر باطل لأنه ليس بمغيث وإنما هو وسيلة ، ومن قال أن الداعي مغيث فقد خالف الشرع واللغة والاصطلاح.

وقد سبق الرد على القبورية في تسميتهم التوسل استغاثة.

الدليل السابع : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الأنفال: ٣٣ .

وقد ذكر المفسرون أن الله لن يعذبهم وفي أصلابهم من سيستغفر.

الجواب :

أولاً : أن الآية نزلت في المشركين الذين يستغفرون ، ومن ذلك قولهم غفرانك بعد تلبيتهم، واستغفار بعضهم بعد أن دعوا بالدعاء الوارد منهم :﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الأنفال: ٣٢ .

وقيل ما كان الله ليعذبهم وفيهم مؤمنون يستغفرون الله من المستضعفين .

ثانياً : أن الآية لا حجة فيها للقبورية حتى على تفسيرهم الذي أتوا به ، فإنه لا دليل فيها على أن الذات الفاضلة تدعى وتسأل ويستغاث بها .

الدليل الثامن : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ الحج: ٤٠ .

أي لولا أن يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالطائع عن العاصي ، ولا شك أن المؤمن لا يدعو للكافر بل لأجل ذات المؤمن بين ظهراني الكفار يرحمهم الله بسببه .

الجواب :

١- أن الآية ليس معناها ما ذهبت القبورية إليه بل معناها في الجهاد ، فلولا قيام المؤمنين بالجهاد ودفعهم الكفار لهدمت المساجد وقضي على الدين وأهل .

٢- أن الصالحين والأنبياء إنما ينتفع بهم في دفع البلاء المؤمن، أما المكذبين فقد نزل بهم العقوبات كما هو حال الأمم المكذبة، بل قد يهلك الصالحين إذا كثر الخبث .

٣- أن هذا الانتفاع ليس على إطلاقه ولم يكن دائماً فكم من نبي قتل، وكم حصل للصحابة من قتل وتعذيب، بل النبي ﷺ ضرب ورمي وكسرت رباعيته، أوليس هو القائل : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ الأعراف: ١٨٨.

التاسـع : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الفتح: ٢٥.

قالوا : ذكر المفسرون أن الله تعالى نهى عن قتل الكفار لوجود مؤمنين بينهم ولولا ذلك لعذبوا فكانت بركة وجود ذواتهم حافظة للكفار .

الجواب :

١- أن هذا التفسير من الملحدين في آيات الله المحرفين لها ، فالآية ما سيقت للنهي وإنما لبيان حكم قدري في منع المؤمنين دخول مكة بقتال عام الحديبية، فلم يمكنهم الله من دخولها لكي لا يطئوا من بمكة من المستضعفين فتصيب المؤمنين المقاتلين معرة وهي الكفارة في قتلهم أو مسبة الكفارة وعيبهم وشمتهم بالمسلمين .

٢- أنه ليس في الآية ما ذهب إليه القبورية من إباحة الشرك وأن المؤمنين يجوز دعاؤهم مع الله ويستغاث بهم ويسألون فيما لا يقدر عليه إلا الله .

العاشر : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ٣٧.

قالوا : هذه الكلمات هي توسله بمحمد ﷺ وسؤاله الله بحقه .

الجواب :

١- أن الكلمات هي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ الأعراف: ٢٣ كما ذكر ذلك أئمة التفسير .

٢- أن حديث توسل آدم بمحمد حديث موضوع لا يصح .

٣- أنه لو فرض صحة الحديث فلا حجة فيه للقبورية لأنه في باب التوسل وهو دعاء الله وحده بالنبي، وليس في الاستغاثة بالمخلوق من دون الله ودعاء غير الله، فهناك فرق بين التوسل الذي هو دعاء الله وبين الاستغاثة التي هي دعاء غير الله فالثانية كفر وشرك ، وهي المقصودة بالاستدلال.

الحادي عشر : ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ البقرة: ٨٩ .

قالوا : ذكر المفسرون أن اليهود كانوا إذا حاربوا المشركين قالوا : (اللهم بحرمة هذا النبي إلا نصرتنا) فينصرون .

الجواب :

١- أن هذه الآية اعتراها من تحريف القبورية ما اعترى نظائرها وكذبهم على أهل التفسير لا يخفى، إلا إن قصد بالمفسرين شيخ القبورية ومفسري دين الشرك والإلحاد لإتباعهم .

والآية معناها وسبب نزولها أن اليهود كانوا يقولون للأوس والخزرج وبقية المشركين إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وأرم فلما بعث النبي ﷺ كفروا به حسداً من أنفسهم .

٢- أن تفسيرهم هذا حتى لو صح فلا حجة فيه لمسلك القبورية لأنه في باب التوسل وهو لا يخرج عن كونه دعاء لله وطلب منه وليس دعاء للمخلوق وسؤاله من دون الله وقد بينا مراراً الفرق بين التوسل والاستغاثة .

الثانية عشر : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ الشورى: ٢٦:

قالوا : أي أن الله يجيب الذين أمنوا إذا دعوه ويشفعهم في إخوانهم .

والجواب : أن تفسير الآية بذلك لا دليل فيه على أن الناس يجوز أن يسألوا الذين آمنوا الشفاعة ويطلبوا منهم ويستغيثوا بهم ويدعوهم من دون الله لا في حياتهم فضلاً عن بعد موتهم .

الثالث عشر: استدلالهم بقوله ﷺ : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ الأحزاب: ٦ ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١٢٨ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

فظنوا أن هذه الآيات تجوز الإلتجاء بالرسول ﷺ .

فالجواب عن هذه الآيات : أنه ليس معناها ما دعا إليه عباد القبور من تجويز الشرك الذي هو الالتجاء إلى غير الله وعبادته، إذ الآيات معناها ظاهر كما قرره أهل التفسير من السلف فالرسول ﷺ أولى بالطاعة والمحبة ، وكذا قضاءه دين المؤمن إذا مات فهو وليه ﷺ .

الرابع عشر: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ يوسف: ٢٤.

على أن أرواح الصالحين تدعى وتدبر ، وأن البغوي والمفسرين قالوا : رأي يعقوب عاضاً على أنامله يقول إياك وإياها فلم يفعل.

وجوابنا: أن هذا التفسير على أنه لا يصح إلا أنه مع ذلك لا مستمسك فيه ولا دلالة على مقصود القبورية ، إذ ليس فيه استغاثة بالمخلوق العاجز الغائب.

الدليل الخامس عشر : احتجاجهم بآية : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ المائدة: ٢.

على أن الله أثبت الإعانة والتعاون بين الخلق .

والجواب : أن هذه الإعانة خاصة بما يقدر عليه الخلق وفي الخير ، وليست استعانة في ما لا يقدر عليه إلا الله .

السادس عشر : استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ يوسف: ٣٩ ، استدلوا بها على أن شرك الأولين كان في الربوبية والخلق.

والجواب :

أولاً : أن هذا الاستدلال والتفسير للآية لم يقل به أحد من السلف ، واعلم أن سبب جهلهم بمراد الله تعالى من كلامه عدم أخذهم بالسنة وآثار السلف .

ثانياً : أن الربوبية في الآيات لها معنيان:

١- أن المقصود بالربوبية هنا الطاعة والاتباع والتحاكم، ومن المعلوم أن الأمر والحكم والتشريع من أفعال الربوبية وخصائصها.

ومما يدل لهذا : تفسير النبي ﷺ معنى الربوبية والعبادة لعدي بن حاتم لما قال ما عبدناهم ، فقال أليسوا يحلون ما حرم الله فتحلونه ، قال بلى ، قال تلك عبادتهم .

٢- أن المقصود بالربوبية هنا العبادة والألوهية، والإله يعبر عن بالرب، ومن المعلوم أن اللفظين يفسر كل منهما بالآخر عند الافتراق، مثل الإسلام والإيمان.

ومما يؤكد ذلك أن أهل الكتاب لم يكونوا مشركين في الربوبية .

السابع عشر : استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ الفرقان: ٦٠ : على أن شرك الأولين كان في الربوبية .

والجواب: أن مقصودهم إنكار اسم الرحمن وليس إنكار الله تعالى وربوبيته ، والآيات في اعتراف المشركين بالربوبية كثيرة جدا ، ومما يدل على أن إنكارهم للاسم فقط ، قصة سهيل بن عمرو في صلح الحديبية كما في البخاري لما قال: (اكتب باسمك اللهم) منكرا بسم الله الرحمن الرحيم.

الثامن عشر : استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الأنعام: ١٠٨ : على أن كفر الأولين كان في إنكار الربوبية .

والجواب: على أن السب أنه ليس من جميعهم وليس صريحا وأنه من باب العناد ، إلا أنه مع ذلك لا ينافي الإقرار بالربوبية .

التاسع عشر : استدلالهم بقوله: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ هود: ٥٤ ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يس: ٧٤، على أن الشرك كان في الربوبية:

وجوابنا : أن إقرار المشركين بتوحيد الربوبية لا يعني عدم وجود مخالفات للمشركين في الربوبية ، ولو التزموا بتوحيد الربوبية لما أشركوا في الألوهية أصلاً.

ومشركو زماننا وقعوا فيما هو أكبر من ذلك من الشرك في الأموات واعتقاد النفع والضر فيهم وإلا لما دعوهم من دون وسألوهم قضاء حوائجهم .

الدليل العشرون : استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ الجاثية: ٢٤ :

احتجوا بالآية على أن شرك الأولين كان في إنكار الربوبية .

والجواب: أن هذا الكفر ليس عند جميعهم وقد كان بعضهم يؤمن بالبعث، والآيات في اعتراف المشركين بتوحيد الربوبية كثيرة جدا ، وإنكار البعث لا يلزم منه إنكار الربوبية وإن كان يقدح فيها ، كما أن إنكار الرسالة لا ينافي إنكار الربوبية وإن كان يقدح فيه .

الحادي والعشرون: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ٩٨:

استدلوا بها على أن شرك الأولين كان في الربوبية. والجواب من أوجه:

١- أن المرجع في تفسير الآية للصحابة ، وقد فسر ابن عباس وغيره التسوية في الحب والطاعة .

٢- أن التسوية الشركية التي ساوى فيها المشرك الله سبحانه بمعبوداته كان في الطاعة والحب وليست التسوية في الربوبية وليس في كل الأوجه .

والمقصود بالتسوية هنا مثل العدول في الآية الثانية والأنداد في الأخرى .

وقد مثل الصحابة للعدول واتخاذ الأنداد بالشرك الأكبر والشرك الأصغر كالحلف .

٣- أن المشركين كانوا مقرين بربوبية الله ولا يساوون آلهتهم بالله في الربوبية ، وأدلة ذلك كثيرة كقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ لقمان: ٢٥.

الثاني والعشرون : الاستدلال بآية: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ الكهف: ٢١.

الجواب: أن الله لم يذكر الذين بنوا المسجد من باب الإقرار لفعلهم ومدحهم بل أخبر تعالى عن فعلهم القبيح الغير موافق لدين الله ، ويصدق ذلك ما أخبر به النبي ﷺ عنهم من أنهم يبنون على القبور ويتخذون على قبور أنبيائهم مساجد ، وليس هذا من شرع من قبلنا كما توهم البعض، يدل لذلك ما جاء في الصحيحين: قال ﷺ:(أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنو على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور؛ أولئك شرار الخلق عند الله) .

وقال ﷺ :(لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

الدليل الثالث والعشرون : استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ النازعات:٥. على دعاء الصالحين وطلب الحوائج منهم وذكروا عن البيضاوي أنها أرواح الموتى .

الجواب :

البيضاوي ليس من السلف وأئمة التفسير بل هو من الأشاعرة الجهمية.

ثم أنه ساق أقوالاً في المقصود بالمدبرات منها أنها الملائكة والنجوم وأنفس الغزاة وخيولهم وغير ذلك وعلى لازم قولهم وطرد دليلهم أن كل ما ذكر يدعى مع الله فتدعى النجوم وخيل الغزاة .

وقد كذب داود بن جرجيس العراقي على ابن القيم في الروح وابن تيمية في الفرقان فيما نسبه إليهم من أن أرواح الموتى تدبر وأنه يجوزون دعاء الأموات .

الرابع والعشرون: استدلالهم بطلب سليمان من آصف ما لا يقدر عليه إلا الله.

الرد :

١- أن سليمان آمر وليس بسائل وطالب ،وفرق بين الأمر والطلب والمسألة .

٢- أن هذا من باب الدعاء الجائز لأن سليمان إذا قلنا أنه طلب فقد طلب من حي حاضر قادر ممن فيه مظنة القدرة من جنوده من الجن ومن رعيته الصالحين بدعائهم وتضرعهم لله فسؤاله ليس من باب الدعاء الشركي .

٣- أن هذا من جنس الأسباب العادية فهو من باب طلب الدعاء ممن يعرف بالصلاح فطلب منه ما يختص به من الدعاء وليس المطلوب منه ما يختص بالله .

٤- أن آصف توسل إلى الله بتوحيده وإلهيته واسمه الأعظم ودعا الله فهو ليس فاعل لذلك أصلاً وإنما دعا الله وطلب من الله فاستجاب دعائه .

ثانياً : أدلة المشركين من الأحاديث والآثار وأفعال الصحابة .

الأحاديث والآثار المروية في دعاء غير الله موضوعة سنداً وهي أيضا باطلة متناً حيث أن دعاء غير الله ينافي عبودية الله ، والأدلة على كفر فاعله كثيرة جدا.

دليلهم الأول: (إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا بأهل القبور) .

وهو حديث مكذوب موضوع باتفاق ، كما قاله ابن تيمية في التوسل ١٥٢، والاستغاثة ٣٠٢، وابن القيم في المنار المنيف ١٣٩، والسخاوي في المقاصد الحسنة والعجلوني في تمييز الطيب من الخبيث ، وقال ابن حجر عنه : لا أصل له .

الثاني : (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه) .

وهذا الحديث أيضا باطل وموضوع على النبي ﷺ باتفاق العلماء .

وقد حكا اتفاقهم ابن تيمية في الاقتضاء (٢/ ٦٧٧) .

الثالث:(إذا كانت لكم إلى الله حاجة فسلوه بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم)

وهو حديث موضوع مكذوب، كما قال ابن تيمية في الاستغاثة ١٣٠ وغيره.

الرابع : احتجاج القبورية بحديث الرجل الضرير في توسله بالرسول ﷺ .

عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ ويحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة إني توجهت به إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي اللهم فشفعه فيّ).

رواه الترمذي وغيره ، وقال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من رواية أبي جعفر وهو غير الخطمي .

قالوا فلو كان دعاء غير الله شركا لم يعلم النبي ﷺ الأعمى هذا الدعاء الذي فيه نداء غير الله.

والجواب عنه من أوجه :

أولاً : أن الحديث ضعيف فيه أبو جعفر الرازي المضعف وليس الخطمي الموثق كما ظن البعض.

ثانياً : ثم هو لا حجة فيه على الشرك لأنه توسل بدعاء الرسول ﷺ بقوله ادع الله لي ، لا أنه دعاء الرسول من دون الله ، بل ليس توسل بذات الرسول ولا إقسام به فضلا عن أن يكون استغاثة به ودعاء له وسؤاله من دون الله.

ثالثاً : أن هذا التوسل خاص بزمن حياة الرسول ﷺ وأما بعد وفاته فلم يفعله أحد من الصحابة ولا التابعين وإنما أبتدعه هؤلاء القبورية، ومن أعظم ما يدل لذلك قول عمر ﷺ : (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ثم يأمر العباس أن يدعو للمسلمين) ، فعدول عمر عن طلب الدعاء من الرسول ﷺ بعد موته أمر ظاهر ومجمع عليه بين الصحابة لعلمهم أن هذا من الشرك خلافاً لهؤلاء البله الحمق المشركين .

وعليه فالتوسل بالرسول ﷺ إنما يكون بالإيمان به أو بطلب دعائه وهذا إنما كان جائزا في حياته ، أما بعد موته فهو من الشرك .

رابعاً : أن هذه حادثة خاصة بهذا الرجل فلم يفعلها كل عميان الصحابة .

خامساً : أن قوله : (يا محمد إني أتوجه..) لم تثبت في أكثر الروايات وبتقدير ثبوتها لا تدل على جواز دعاء غير الله لأن هذا خطاب لحاضر معين يراه ويسمع كلامه ولا إنكار في ذلك فإن الحي يطلب منه الدعاء كما يطلب منه ما يقدر عليه فأين هذا من دعاء الغائب والميت.

وبهذا يتبين أن استدلال عباد القبور بالحديث في غير محل النزاع والكلام إنما هو في سؤال الغائب أو سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله أما أن تأتي شخصا تخاطبه فتسأله أن يدعو لك فلا إنكار في ذلك ، وأين طلب الأعمى من النبي ﷺ أن يدعو له من دعاء الأموات والسجود لهم ولقبورهم والتوكل عليهم والالتجاء إليهم في الشدائد والنذر والذبح لهم ومخاطبتهم وسؤالهم حوائجهم ، فليس في حديث الأعمى شيء غير أنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له ويشفع له فهو توسل بدعائه وشفاعته حال حياته ، ولهذا قال في آخره اللهم فشفعه فيّ فعلم أنه شفع له. وفي رواية أنه طلب من النبي أن يدعو له فدل الحديث على أنه شفع له بدعائه وأنه أمره أن يدعو الله ويسأله قبول شفاعته فهذا من أعظم الأدلة أن دعاء غير الله شرك لأن النبي ﷺ أمره أن يسأل قبول شفاعته فدل على أن النبي ﷺ لا يدعى وأنه لا يقدر على شفائه إلا بدعاء الله له ، فأين هذا من تلك الطوام التي يفعلها مشركو زماننا.

الحديث الخامس : عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا إليه ذلك. فقال له عثمان بن حنيف: أئت الميضأة فتوضأ ثم أئت

المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك ليقضي لي حاجتي) رواه الطبراني.

الجواب :

أولاً : أن الحديث ضعيف ، فيه طاهر بن عيسى مجهول لا يعرف بالعدالة، كما أن في سنده أبا سعيد المكي أشد جهالة من الأول ،كما أن فيه روح بن صلاح.

ثانياً : أنه لم يفعل هذا الفعل أحد من الصحابة ولم يثبت عن أحد منهم أن توسل بالرسول ﷺ بعد موته ولو ثبت لنقل إلينا .

ثالثاً : ثم إن هذا الحديث على فرض ثبوته فليس فيه دليل على دعاء الميت وغاية ما فيه أنه توسل بالرسول ﷺ وتوجه به في دعائه، فأين هذا من دعاء الميت فإن التوجه بالمخلوق سؤال به لا سؤال منه، والكلام إنما هو في سؤال المخلوق نفسه ودعائه والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله وكل أحد يفرق بين سؤال المخلوق وبين السؤال به ، فالسائل به قد أخلص الدعاء لله، وهذا بخلاف سؤال المخلوق مالا يقدر عليه إلا الله فإنه جعله شريكا لله في عبادة الدعاء.

الحديث السادس : عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد يا عباد الله احبسوا، فإن لله ﷻ في الأرض حاضرا سيحبسه عليكم) رواه أبو يعلى وابن السني في عمل اليوم والليلة وهو في الجامع الصغير.

الجواب :

أولاً : هذا الحديث ساقط سندا ولا حجة فيه متنا ، فالحديث ضعيف مداره على معروف بن حسان وهو أبو معاذ السمرقندي، قال فيه ابن عدي منكر الحديث .

الثاني : أنه على اعتبار صحته فلا حجة فيه، لأنه من قبيل دعاء الحاضر الحي القادر وليس من دعاء الغائب وما لا يقدر عليه إلا الله ،كما قال: فإن لله في الأرض حاضرا سيحبسه عليكم ، وهؤلاء ملائكة موكلون بإجابة الداعي في هذه المسألة .

السابع: خطاب الرسول ﷺ في التشهد والسلام : (السلام عليك أيها النبي) .

الجواب :

أولاً : أن هذا لا يدل على أنه ﷺ مثل الحاضر في الخطاب ، بل الصحابة اختلفوا في إبقاء ضمير المخاطب بعد موته ، ومن ذلك ما رواه عبد الرزاق وغيره عن ابن جريج عن عطاء : (أن الصحابة ﷺ كانوا يقولون والنبي ﷺ السلام عليك أيها النبي فلما مات قالوا السلام على النبي) وإسناده جديد .

ثانياً : أن هذا الخطاب علمه النبي ﷺ الحاضرين من الصحابة أولاً ثم أبقي على حاله ، وأمثال هذا في الشرع كثير من ذلك الرمل في الطواف مع زوال علته ، وقال عمر فيه : شيء صنعه النبي ﷺ فلا نحب أن نتركه .

ثالثاً : أن من فوائد الخطاب بضمير الحاضر استحضار القلب فيخاطب المشهود بالقلب .

الحديث الثامن: احتجاج القبورية بحديث : (السلام عليكم أهل الديار) فخاطبهم مخاطبة الحاضر ، فظنوا أن في هذا دليل على جواز دعاء الأموات .

وجوابنا : أن هذا السلام ليس فيه دعاء وسؤالهم والطلب منهم والاستغاثة بهم ، وإنما هو دعاء لهم ،كمن يقول للميت أو الغائب الله يغفر لك .

التاسع: حديث توسل آدم عليه السلام بنبينا محمد ﷺ . ولفظه: (لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي) رواه البيهقي والحاكم والطبراني .

والجواب عنه :

أولاً : أن الحديث موضوع.

ثانياً : ثم إن غاية ما فيه التوسل إلى الله ودعاؤه تعالى بحق محمد وليس فيه دعاء محمد ﷺ من دون الله بل المدعو هو الله ﷻ وليس الرسول ﷺ .

ثالثاً : أنه لو كان في هذا الأمر خير أو أنه مشروع في أصله لحث الرسول ﷺ أمته عليه ، وكانت أمته أولى بالتوسل بنبيها من آدم ﷺ.

رابعاً : أما قرن اسمه تعالى مع اسم محمد ﷺ في مواضع من الآيات ، فإنه لا دليل فيها على جواز التوسل به فضلاً عن دعائه من دون الله .

العاشر:(اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي)رواه ابن ماجه.

الجواب :

١- الحديث ضعيف في سنده عطية العوفي .

٢- ثم إنه لا يوجد حق لأحد على الله .

٣- أنه لو فرض صحته فإنه في التوسل وليس في الدعاء والاستغاثة فهذا دعاء الله ومحل النزاع في دعاء المخلوق.

الحادي عشر : (اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها بحق نبيك).

والجواب : أن الحديث ضعيف فيه روح بن صلاح ضعفه ابن عدي .

ثم هو في التوسل وليس في الاستغاثة ودعاء المخلوق من دون الله ﷻ.

الثاني عشر : أن الرسول ﷺ أمر عمر أن يطلب من أويس القرني أن يدعو له ، فقالوا : قصد الصالحين ليس بشرك .

والجواب : أن هذا خارج عن محل النزاع ، فكونك تطلب من الرجل الصالح حال حياته أن يدعو لك هذا ليس بشرك ولا بأس به ، وإنا الشرك أن تقصد الميت والغائب فتدعوه وترفع حاجتك إليه وتسأله وترجوه وتتوكل عليه من دون الله .

الثالث عشر : استدلالهم بحديث : (وأنا آخذ بحجزكم) :

والجواب :

١- أن الحديث في تعليم النبي ﷺ أمته وحرصه عليهم .

٢- ثم إن هذا الحديث دليل عليهم لا لهم فمخالفيه يدخلون النار من غير رغبته ولا يستطيع ردهم وهدايتهم وإنقاذهم من النار.

الرابع عشر : احتجاجهم بحديث : (لولاك ما خلقت الدنيا .. والجنة ولولاك ما خلقت النار) رواه الديلمي وابن عساكر .

والجواب:

١- أن هذا الحديث موضوع .

٢- ثم أن الله قد أعلمنا عن حكمة خلق المخلوقات في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦.

الخامس عشر : أن آدم وقع في الشرك الأصغر بتسمية ابنه عبد الحارث:

اعلم أن قد اختلفوا في وقوع آدم في الشرك وثبوت ما نسب إليه مع إجماعهم أن المقصود بالشرك.

ذهب بعض العلماء إلى أن آدم وحواء وقعوا في الشرك مستدلين بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الأعراف: ١٩٠.

وقالوا : إن المقصود بها آدم وحواء وفسروا الشرك هنا بأنه كان في التسمية لا في العبادة وفي الشرك الأصغر وليس الأكبر. واستدلوا لذلك :

بحديث سمرة بن جندب ﷺ أن النبي ﷺ قال : (لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبدالحارث فإنه يعيش فسمته عبدالحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره) رواه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم.

الجواب: أن آدم وحواء لم يقعوا في الشرك ، وأن الذي وقع فيه هم المشركون من الذرية وبنو آدم وليس آدم ، كما قال الحسن البصري وغيره ونصره ابن القيم

وابن كثير وغيرهم ، وأن معنى الآية: أنه لما أتى آدم وحواء صالحا كفر به بعد ذلك كثير من ذرتيهما، وأسند فعل الذرية إلى آدم وحواء لأنهما أصل لذريتهما .

قال الحسن: (كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم) أخرجه الطبري.

قال ابن القيم: (النفس الواحدة وزوجها آدم وحواء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما، ولا يلتفت إلى غير ذلك أن آدم وحواء كان لا يعيش لهما ولد فأتاهما إبليس فقال: إن أحببتم أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث ففعلا، فإن الله اجتباه وهداه لم يكن ليشرك به بعد ذلك) روضة المحبين ٢٨٩.

السادس عشر: استغاثة هاجر ،وذلك لما سمعت صوت جبريل ، فقالت : أغث إن كان عندك غوث.

والجواب : أن هذا من باب الاستغاثة بالحي القادر كما قدمنا .

السابع عشر: استسقاء عمر بالعباس :

الجواب :

١- أن هذا الحديث حجة لأهل التوحيد على عباد القبور لأن الاستسقاء كان بدعاء العباس لا بذاته ، وقبله أيضا بدعاء الرسول ﷺ وكان خاصا في حياته .

٢- أن كلام هؤلاء القبورية صحيح لو ثبت استسقاء الصحابة بالرسول ﷺ بعد موته ولو مرة ، ولأنه لم يفعله أحد من الصحابة ثبت بطلان حجة القبورية وحار الدليل عليهم.

الثامن عشر: خطاب حسان بن ثابت بعد موته وكما خاطبه الصديق .

وزعموا أن دعائهم الأموات والنبي ﷺ من جنس هذه الخطابات والنداءات .

الجواب : أن خطاب حسان هو من باب الوجد والأسف والحزن والندب على فراقه وليس من باب الطلب منه ودعائه حقيقة فهل قال أحدهم أعطنا وأغثنا أم أن هذا من جنس الخطاب الذي في السلام عليه والتشهد والسلام على أهل القبور .

وهو بخلاف خطاب القبورية للرسول ﷺ كالبوصري وأمثاله فهو خطاب سائل داع لائذ راج متوكل.

التاسع عشر: قول فاطمة : يا أبتاه أجاب رب دعاه .

والجواب : أن الياء هذه للندبة وليست للنداء والطلب من المنادى ، وهو مثل قول الرسول ﷺ في ابنه إبراهيم: (وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون) فهل الرسول ﷺ قصد دعاء ابنه وسؤاله، ومن أمثاله نداء الجبال والأرض والأطلال .

العشرون : احتجاجهم بنداء بعض الصحابة : (يا محمد) :

حديث بلال بن الحارث قال: (يا رسول الله استسق لأمتك).

رواه سيف بن عمرو الضبي في الفتوح وهو ضعيف متهم بالزندقة .

وأن بلال بن الحارث : لما ذبح شاه هزيلة عام الرمادة نادى وامحمداه .

وأن خبيبا لما أرادوا قتله قال : يا محمد .

الجواب :

١- أن هذه الأخبار لا تصح بل هي من الكذب .

٢- ثم لو صحت فإنها ليست من باب دعاء المسألة وطلب قضاء الحجة ، وإنما هو من الندب الذي يقصد به التوجع لفراق الحبيب ونحوه ، فهو ليس من باب الدعاء في شيء كمن ينادي أماه وأبتاه إذا ضاق الأمر به وليس قصده دعائهم وإنما الندب والتوجع والإشفاق على النفس .

ومثلها قول صفية أن صح : ألا يا رسول الله كنت رجاءنا .

فهو من المرثي والمتوجع وليس نداء ودعاء وطلب وهذا معلوم في اللغة .

الحادي والعشرون: ما ذكره سيف في فتوحه من قول الصديق : أذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك .

١- الخبر ضعيف لا يحتج به ، وسيف بن عمرو التميمي صاحب الفتوح راوي القصة ضعيف ، قال عنه أبو حاتم سيف متروك .

٢- أن كلام الصديق ﷺ رواه جمع من أهل العلم ، وكلامه محفوظ وليس فيه هذا الكلام .

٣- أن هذا النداء يستحيل أن يقوله الصدّيق الإمام الموحد ولا يتصور أن يقوله من دونه فضلا عنه .

٤- مما يدل على بطلان هذه العبارة ما نسب من قول الصديق بعدها اللهم أبلغ نبيك عنا فعلنا ، وفي العبارة من الركاكة ما ينزه عنها الصديق ، ثم إن فيها تعارض فإذا سأل الله أن يبلغ نبيه عنهم فكيف يقول بعدها أذكرنا عند ربك وقد طلب من الله إبلاغ نبيه وهو يخاطبه أن يذكره، وهذا مما يدل على كذب هذه الحاكية والعبارة .

الثاني والعشرون: أن شعار الصحابة في الحروب (يا محمد) .

الجواب : أن هذا إن صح كسابقه إذ ليس من باب النداء والدعاء والسؤال والطلب ، وإنما كلمة تقال ليتعارف بها المسلمون فتكون شعاراً لهم .

ولم يقصد الصحابة بها الاستغاثة بالرسول كما فهمته العقول الفاسدة المشركة.

الثالث والعشرون: حديث ابن عمر وابن عباس في الإنسان إذا خدرت رجله فلينادي أحب الناس إليه فقالوا يا محمد فذهب الخدر .

والجواب أنه هذا الأثر لا يصح .

ثم لو صح فإنه ليس من باب الدعاء ، وإنما هو أمر نفسي فالإنسان إذا ذكر من يحبه فإنه ينشط القلب فيتحرك الدم في العروق فيزول خدر العضو فهو من باب المحسوسات وليس هذا من باب الدعاء والسؤال.

الرابع والعشرون: احتجاجهم بقصة خازن عمر مالك الدار لما أصاب الناس قحط زمن عمر فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال يا رسول الله استسق لأمتك فجاءه في النوم وأمره أن يستسقون ، رواه ابن أبي شيبه .

والجواب عن هذا الحديث :

أولاً : أن الحديث ضعيف لا يصح الاستدلال به .

ثانياً: أن هذا الرجل مجهول وليس بمعروف ولا هو من الصحابة .

ثالثاً: أن هذه القصة حصلت في المنام وليست في اليقظة فلا حجة في المنامات.

رابعاً : أن هذه القصة لو فرضنا صحتها وأنها حصلت في اليقظة فإنها حاصلة بدون أمر الرسول ﷺ ولا فعلها أحد من الصحابة ، وإنما الذي فعلها رجل مجهول وليس بصحابي ، بل ولم يعلم بفعله الصحابة فضلاً عن أن يكونوا أقروه ، كيف وقد حذروا من الشرك وقاتلوا فاعله ، والحجة في الكتاب والسنة وهدي الصحابة.

خامساً : أن في هذه القصة رد عليهم من ناحية أن الرسول ﷺ لم يقره على طلبه بل بين له الطريق الصواب وهو طلب الدعاء من الحي وذلك بالذهاب لعمر وحثه على الاستسقاء .

الخامس والعشرون : ما روي عن علي أن أعرابيا قدم بعدما دفن الرسول ﷺ بثلاثة أيام فرمي نفسه على القبر وقرأ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ النساء: ٦٤ فنودي من القبر أن قد غفر لك .

والجواب : أن هذا الخبر مختلق موضوع ، وقد قال عنه ابن عبدالهادي سنده ظلمات بعضها فوق بعض، ولو صحت فمن فعلها ليس بحجة في شرع الله أصلاً.

ومثلها قصة الأعرابي ورؤيا العتبي ، وهي باطلة لا تصح ولا حجة فيها حتى لو صحت.

السادس والعشرون: ما روي عن أنس: أن رجلا أتى إلى قبر النبي ﷺ عام الرمادة فقال : يارسول الله ،هلكت الأمة فادع الله لنا ، فرأى النبي ﷺ في المنام وقال: ائت عمر فقل عليك بالكيس ومره أن يستسقي بالناس واستسقى عمر فسقي الناس. رواه البيهقي.

والجواب أن هذه القصة باطلة ، وهي من رجل مجهول لا حجة فيه ولا يقر على عمله ، والرسول ﷺ أمره بدعاء الله وحده وطلب الاستسقاء من الله ، وفي هذا رد على هذا الرجل وعلى من احتج بعمله ، والمقرر أن دعاء الرسول وطلب الدعاء منه من الشرك .

السابع والعشرون: لما قحط أهل المدينة شكوا لعائشة فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوة إلى السماء، لا يكون بينه وبين السماء سقف، ففعلوا فمطروا.

الجواب عن هذه القصة :

أولاً : أن هذا من الكذب المختلق ويدل لذلك أن القبر كان في حجرة عائشة ولم يحصل فيها هدم وبناء أو أفتح سقف وقت حياتها فعلم بذلك كذب القصة .

ثانياً: أن الفتحة التي وضعت في السقف كانت في خلافة الوليد بن عبدالملك.

ثالثاً : أن الحكمة منها لينزل النازل لكنس الحجرة ولينزل المطر الذي هو من أثار رحمة الله على القبر كما ذكره من ذكره من أهل العلم .

فانظر كيف جمع الله لهؤلاء القبورية الجهل بالتوحيد والبلادة في التاريخ والكذب على أهل العلم .

رابعاً : ثم مع هذا كله لو أن ما قالوه صحيحاً وثابتا عن عائشة فإنه لا دليل فيه على ما ذهب إليه القبوريون من جواز دعاء غير الله والاستغاثة بالرسول ﷺ .

الثامن والعشرون : قصة دانيال في تستر وكان نبياً والذي كان أهل تستر يستسقون به فلما فتح الصحابة ﷺ بلادهم أخذوا جسده وحفروا ثلاثة عشر قبراً ثم دفنوه ليعمونه على الناس .

فقالوا فعلوا ذلك لوجوب الدفن ولكي لا يمتهن حرمة جسده أهل تستر .

الجواب : أن هذه القصة من الأدلة التي تؤيد ما عليه أهل التوحيد فإن قدوتهم الصحابة ﷺ، فانظر كيف أخفوا قبره لما كان الناس يعتقدون فيه ولكي لا يعود الناس للشرك به أخفوا قبره سداً للذريعة وإغلاق وسائل الشرك،

ولو أنهم فعلوا ذلك لأجل الدفن ولكي لا يمتهن جسده كما تقول القبورية لأما حفرا قبورا كبيرة وأخفوا قبره ، فهلا فعلت القبورية مثل سلف الأئمة المقتدى بهم مع القبور بدل القباب والبناء عليها والتضرع والانكسار عندها ؟

التاسع والعشرون : رؤية بلال للرسول ﷺ في المنام وهو يقول له: ألا تزورنا ، فقصد المدينة وأتى قبر الرسول ﷺ وبكى ومرغ وجهه على القبر .

الجواب :

أن هذا الأثر لا يصح عن بلال، كما قال ابن عبدالهادي في الصارم المنكي.

ولو صح فلا حجة فيه لمن يدعو غير الله ويستغيث بالأموات .

الثلاثون : أن مروان أقبل فوجد رجلاً واضعاً جبهته على القبر ، فقال أتدري ما تضع فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب الأنصاري فقال جئت رسول الله ﷺ ولم آت الحجر سمعته النبي ﷺ يقول : لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ولكن أبكوا على الدين إذا وليه غير أهله ، رواه أحمد والحاكم.

الجواب :

١- أن هذا الخبر لا يصح سنده وحجة في متنه .

٢- ثم لو صح فهو مخالف لما عليه الصحابة ﷺ،ولهذا استنكر فعله من رآه ، مما يدل على أن الصحابة لم يكونوا يزوروا قبره ﷺ لامتثال أمره حين قال (لا تتخذوا قبري عيداً) ولم ينقل زيارته إلا من ابن عمر دون غيره كما هو معلوم ، ومما يؤيد ذلك استنكار الحسن بن الحسن وعلي بن الحسين ابني علي بن أبي طالب على الرجل الذي رأوه واقفا عند قبر الرسول ﷺ واستدلوا له بالحديث السابق.

٣- أن فعل أبي أيوب ﷺ لو صح فهو من باب زيارة قبره ﷺ والتوجع من حال المسلمين وذلك وقت ولاية مروان ابن الحكم وكان فيه ما فيه، وليس في فعله أي مستمسك لما تفعله القبورية فلا دعاء ولا التجاء ولا تضرع ولا نداء للرسول وإنما زيارة ومجيء لقبر الرسول وسلام عليه وتأثر وتذكر ما كانوا فيه من الدين مع الرسول ﷺ وحزن لفراقه ، وهذا أمر معلوم عند زيارة القبور وزيارة من يحبه الزائر .

الحادي والثلاثون : أن مسجد الخيف بمنى بُني على قبر سبعين نبيا :

الصحيح الذي روي عن ابن عمر وأبي هريرة أنه صلى فيه سبعون لا أنهم قبروا فيه، ولم يثبت أن أحدا من الأنبياء عاش ومات بمكة غير إسماعيل ، ثم كيف جاز أن تداس قبورهم لو صح ذلك.

الثاني والثلاثون : أثر ابن عباس عند الدارقطني في أن الملائكة دفنت آدم في مسجد الخيف .

وهو باطل سندا ومتنا ، ففي سنده عبدالرحمن بن مالك متروك كما قال الدارقطني، كما أن فيه ابن هرمز وهو ضعيف.

ومنهج الدارقطني كما هو معروف عند المحدثين أنه لا يورد كثيرا من الأحاديث للاحتجاج بها كما فهم الجهال وإنما لبيان علتها ومنها هذا الحديث .

وهذا الحديث مخالف للأحاديث الصحاح من لعنة الله باني المساجد على القبور، أيضا فلم يكن هناك مسجد في منى وإنما بني بعد ذلك بأزمان بعد ذهاب المعالم والتقادم .

الثالث والثلاثون : بناء المسجد النبوي على قبور المشركين بعد نبشها :

الجواب: أن هذا دليل على أصل المسألة فالنبي ﷺ لم يبن مسجده إلا بعد أن نبشت القبور فلم يبن المسجد عليها مع أنها قبور محتقرة وغير معظمة.

الرابع والثلاثون : أمر النبي ﷺ أن يبنى مسجد الطائف مكان طاغوت اللات .

الجواب: أن هناك فرق بين المقصدين ، فبناء المسجد مكان الشرك القصد منه إزالة أثره وصورته من الموضع ليزول تعلقه من النفوس ، أما الذي يبني مسجدا أو يتعبد في معابد الوثنيين مع بقاء معبوداتهم أو قبورهم أو آثار شركهم فهذا هو المحذور ولو لم يقصد العابد هذه الأوثان وكذا لو زالت آثارها مع بقاء ذكراها وأطلالها لم تغير فالنهي يبقى على أصله سدا لذريعة الشرك.

الخامس والثلاثون : المسجد النبوي فيه قبر الرسول ﷺ :

الجواب : أن مسجد النبي ﷺ بني قبل وجود القبر ، والقبر كان خارج المسجد في بيته ، ثم أدخله الوليد بن عبد الملك لا جزاه الله خيرا في توسعة المسجد دون إقرار أهل العلم بل ثبت إنكار سعيد بن المسيب له وأبان وغيرهم والواجب إرجاع بناء المسجد من جهة القبر كما كان زمن الصحابة .

السادس والثلاثون : تحريف بعض القبورية نهي الرسول ﷺ عن أن يتخذ قبره عيداً إلى أن معناه الأمر بملازمة قبره وعدم الانقطاع عنه .

ويكفي في رد هذا التحريف فهم الصحابة والتابعين في عدم زيارتهم لقبر النبي ﷺ أصلاً ، بل وردهم على من أكثر من زيارة قبره ﷺ كما ثبت عن الحسن بن الحسن وعلي بن الحسين واستدلالهم بهذا الحديث : (لا تتخذوا قبري عيدا).

السابع والثلاثون: صلاة عائشة في الحجرة بعد أن دفن فيها النبي ﷺ .

أنه كان بين القبر وبينها حائط كما ذكر ذلك ابن سعد في الطبقات وغيره.

الثامن والثلاثون: استدلالهم برؤيا الأرواح بعد الموت عند النصر .

الجواب : أن هذه من الحكايات الصوفية والتخيلات الشيطانية ولو صحت وافترضنا حصولها كما ذكر ابن القيم في الروح من رؤية روح النبي عند القتال فإن رؤية مثل هذا لا يدل على جواز دعاءهم من دون الله ولا على أن النصر من غير الله.

التاسع والثلاثون: استدلالهم بحديث أسماء بنت أبي بكر في جبة الرسول ﷺ وغسلها للمرضى ليستشفون بها .

والجواب أن التبرك بجسد الرسول ﷺ وشعره وعرفه وريقه وما مسه عرقة من ثيابه يجوز التبرك به ، لإذن الشارع به وفعل الصحابة له وهذا خاص به وليس لأحد أن يتبرك بغيره ، ثم إن التبرك بذلك ليس فيه دعاء له من دون الله وتوكل على المخلوق وتعلق به كتعلق عباد القبور بالقبور وعبادتها واعتقاد النفع والضر فيها.

الأربعون : كانت بردة النبي ﷺ عند كعب بن زهير يتبرك بها .

الجواب : أن هذا كسابقه فهو من باب التبرك بآثار النبي ﷺ وهو جائز ولا علاقة له بباب الدعاء والاستغاثة بالنبي ﷺ بعد موته وطلب الدعاء منه .

الحادي والأربعون : مسح الركن والحجر والملزم .

الجواب : أن مسحها ليس للتبرك ولعبادتها والتوسل بها وإنما إقتداء ومتابعة للرسول ﷺ كما قال عمر .

ثالثاً : الحكايات والنقولات عن العلماء :

احتجاج الصوفية القبورية بحكايات ومنامات يريدون أن يجوزوا بها الشرك كقولهم : إن فلانا استغاث بالميت الفلاني فأغاثه ، وقولهم: إن المشايخ رأوا أشخاص يتصوفون في قبورهم ، وقولهم : جاء شخص لقبر الرسول ﷺ يسأله فقضى حاجته ، وغيره هذا من الكلام الذي لم يعد يستغرب من غلاة الصوفية المشركة .

الإجابة عن حكاياتهم وقصصهم التي يرويها القبورية لتسويغ الشرك :

١- أنها ليست من أدلة الإسلام ، فلا نتعب أنفسنا بتتبع ردها ما دامت ليست من الكتاب والسنة ، والعمدة في كتاب الله وصحيح الأحاديث ، وقد جاءت بالنهي عن دعاء غير الله وتضافرت الأدلة بذلك ، ولو افترضنا وجود دليل موهم أو مشكل فهو من باب المتشابه الذي يرد للمحكم .

٢- أن الأدلة والنصوص مخالفة لهم . فلا يلتفت الموحد لمثل هذا الدجل وليكن عمدته آية وحديث صح عن الصادق المصدوق، وكل ما جاء عن الله ورسوله فيه أعظم الدلالة على كفر من أشرك مع الله بدعاء الأموات، فالله تعالى أمرا بعبادة الله وحده وحذرا من الشرك ودعاء الأنبياء والملائكة والصالحين، وهؤلاء لا يريدون إلا مخالفة أمر الله ورسوله والوقوع في الشرك فأي حجة في فعلهم ، ثم لو استجاب الله دعاء من يشرك فهذا لعموم رحمته وفتنة للكافر وإملاء من الله له وليس هذا دليل على كونه على الحق، والذي يراه عباد القبور شياطين تزيدهم ضلالاً وفتنة.

ويستحيل أن يأمر الرسول أمته بعبادة غير الله وسؤال غيره والالتجاء لسواه أفلم يبعث لإقامة التوحيد وتعليق الناس برب العالمين: ﴿ مَاكَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٧٩ - ٨٠ ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ الزخرف: ٤٥.

أوليس هو القائل: (من مات وهو يدعو الله نداً دخل النار) متفق عليه ، وقال (إذا سألت فاسأل الله) رواه الترمذي ، فكيف بعد هذا يأمر أمته بدعاء غير الله .

والتوحيد الذي هو أعظم ما أمر الله به دلت الأصول عليه وتقرر بيانه بالنصوص بما لا يدع مجالاً للنظر في مثل هذه السخافات ومقارنة كلام الواحد الجبار بهذيان هؤلاء المشركين الحمق الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا .

٣- أن الحكايات أكثرها غير صحيحة بل مكذوبة على أصحابها .
٤- ما صح منها فهي أخبار لا حجة فيها ولا حجة في غير الوحي، فقائلها ليس بمعصوم أصلا ولا حجة بقوله وفعله مردود عليه ، وهي من تلبيس الشيطان على المشركين وتزيينه كما أخبر وتعالى،.
٥- أن العقل يكذب أكثر هذه الحكايات .
٦- أن فعلهم شابه فعل اليهود والنصارى .
٧- لو فتح باب الحكايات لادّعى كل بما يشاء وشرع في الدين العجاب .
ومما زورته القبورية على العلماء :
١- قول مالك للمنصور عن النبي ﷺ : (إنه وسيلتك ووسيلة أبيك آدم) .
وهذا الخبر مكذوب على الإمام مالك ، وكل من يعرف مذهبه من إنكاره على من يكثر الذهاب للقبر والوقوف عنده يتيقن من بطلان هذا القول عنه .
٢- قول الشافعي : الدعاء عند قبر الكاظم ترياق مجرب.
وهذا كذب على الشافعي ، ثم هو دعاء عند القبر وليس دعاء صاحب القبر .
٣- قول بشر بن الحارث الحافي في معروف : من كانت له إلى الله حاجة فليأت قبره وليدع فإنه يستجاب له، وقيل عنه : قبر معروف الترياق المجدب .
وهي من الأقوال المكذوبة على بشر .
٤- أن بعض التابعين لما أسرهم الكفار نادوا يا محمد ،ذكره السيوطي في شرحه الصدور وابن الجوزي في عيون الحكايات .
وهذه من عرض الحكايات المكذوبة ولا أساس لها من الصحة.
٥- ما ذكره ابن الجوزي في كتابه الوفاء أن المقري كان جائعاً فذهب لقبر الرسول ﷺ فقال الجوع الجوع . ولا حجة فيها كما قررنا.
٦- زيارة الروم لقبر أبي أيوب واستسقائهم به .
وهذا لا حجة فيها ، بل هو مما يبين للناس انتشار الشرك .
٧- زعم داود بن جرجيس أن ابن تيمية لا يكفر من دعا غير الله . وقد كذب على الشيخ ، وقد تتبع نقولاته وردها عبدالرحمن بن حسن في منهاج التأسيس.
قال ابن تيمية في تكفير من دعا غير الله : (من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم كفر إجماعاً).

الناقض الثالث

عدم التكفير

قال المصنف رحمه الله :
(الثالث: من لم يُكفِّر المشركين، أوشك في كفرهم، أو صحح مذهبهم ، كفر إجماعاً).

المسألة الأولى : المراد بهذا الناقض :

عدم إلحاق اسم الكفر بالكافر وترك تكفيره ، وذلك بالتوقف في أمره أو الشك في كفره أو تصحيح مذهبه .

وله حالتان :

الأولى : إما أن يكون بعدم تسمية الكافر الأصلي كافرا .

الثانية : أو بعدم تكفير المسلم إذا وقع في الردة وارتكب مكفرا وناقضا للإسلام ومبطلا للإيمان، بدعوى التورع عن تكفيره وأن الله لم يكلفنا الحكم على الناس ولن يسألنا عن عدم تكفير أو غيرها من الشبه.

والكلام فيه متعلق بأصلين :

الأول: التكفير وجوبه وأهميته وكونه ركنا في التوحيد لا يصح الإسلام إلا به.

الثاني : كفر تارك التكفير وأن تاركه غير موحد ولا مسلم، وأن الممتنع من تكفير أعيان الكفار والمشركين سواء كانوا من الأصليين أو من المرتدين يعد مؤمنا بالطاغوت كافرا بالله وبهذا يكون قد وقع في أعظم نواقض الإسلام ولو لم يفعل الشرك بنفسه أو ردة معينة فترك تكفير المشرك والمرتد كفر وردة .

وسيكون الكلام عن هذين الأصلين من حيث الحكم والأدلة والنقولات من كلام أهل العلم مترابط وتقريرهما يكون معا . وهنا سنبين أحكام ترك التكفير الذي يعد أحد النواقض العشرة ووجه كون ناقضا حالات المسألة وصورها وأقسامها.

أما أحكام التكفير وضوابطه وشروطه وقواعده والغلو فيه ومتى يكون فتنة فهذا له محل آخر وقد قدمنا ذلك عند الكلام عن مقدمة شرحنا للنواقض .

المسألة الثانية : حكم التكفير وحكم تاركه :

التكفير عبادة من أجل العبادات إذ عليه قوام التوحيد فدين لا تكفير فيه لا يعتبر دينا فضلا أن يكون توحيدا، لأن التوحيد ما جمع بين النفي والبراءة والكفر مع الإثبات والنفي والتكفير هو أساس الكفر بالطاغوت ومبدؤه ، فمن ترك التكفير بحيث لا يكفر من كفره الله من الكافرين والمرتدين فهو غير كافر بالطاغوت وإنما مؤمن به، وبالتالي هو غير موحد لله ولا مؤمن بالله وليس بمسلم بل كافر.

مسألة : هل التكفير ركن في التوحيد أم شرط لازم فيه :

التكفير من أعظم معاني الكفر بالطاغوت ومن أهم مبادئ البراءة من المشركين التي تعد قاعدة الكفر بالطاغوت، ولا يعتبر العبد كافرا بالطاغوت من غير

تكفير ، والكفر بالطاغوت أحد ركني التوحيد وبهذا فلا يسمى التوحيد بذلك إلا إذا قارنه التكفير لمن أشرك ونقض التوحيد ، عليه فأصل التكفير ركن في الدين تاركه كافر غير مسلم ولا يعذر بجهله ، أما من أخطأ في بعض صور التكفير وفروعه وتنزيلاته وتطبيقاته فلم يكفّر بعض أعيان المرتدين تأولاً منه وليس تعمدا لتركه وامتناعا من القيام بالتوحيد والكفر بالطاغوت فهذا لا يعد كافرا .

قاعدة أقسام التكفير :

التكفير المشروع : تكفير من كفره الله من الكفار والمشركين سواء كانوا كفار أصليين أو مسلمين مرتدين .

والممنوع : هو تكفير المسلم والكفر بالدين .

تنبيه : تعريف التكفير وضوابطه جاء الكلام عنه مفصلاً في مقدمة النواقض.

المسألة الثالثة : خطورة هذا الناقض :

هذا الناقض من أخطر النواقض على المسلم المؤمن الموحد من ناحية وقوع كثير من الناس فيه من حيث لا يشعر، ومن حيث التباسه وإنزاله على الواقع خصوصا مع كثرة أسباب الكفر وفشو الردة، وكثرة من يقع فيه ومن الأمثلة لذلك:

هذا يولد على الشرك بين قوم يطوفون بالقبور ويدعون غير الله ﷻ ويستغيثون بالأموات وبالأولياء ، ويذبحون لغير الله .

وهذا يولد على التحاكم للمحاكم الطاغوتية وتشريع القوانين الوضعية، وهذا على موالاة الكفار وهذا على حرب بعض بشعائر الدين أو الاستهزاء بها .

فيوجد في قلبه شك في أن هذا الشرك ليس بالكفر فيذهب من قلبه التكفير بل ربما يصل إلى درجة التصحيح لأنه ولد على وجود كثير من الشركيات والكفريات وعاشرها فلا يستنكرها قلبه ولا يكفر بلسانه أصحاب هذه الكفريات فلا يظن أن هذا من الكفريات فهذا أمر خطير يقع فيه كثير من الناس ، مما يوجب البيان.

وإلا فإن الصحابة ﷺ لما وقع المرتدون في الردة عن التوحيد والدين كفروهم وقاتلوهم لعلمهم بالتوحيد وقربهم من الرسول ﷺ.

ومن ناحية عدم فهم الأبواب التي تؤدي إلى الكفر وما هو من قواعد أهل السنة في هذا الباب وما هو من تلبيسات أهل التجهم والإرجاء أو من مبالغات الخوارج وضوابطهم المارقة عن الدين، فجاء أهل الجهل بمذهب أهل السنة ليضعوا للناس ضوابط للتكفير واتخذوا قواعد ليست من الشرع فدخلوا في أحد المذهبين .

المسألة الرابعة : مبحث تكفير المعين :

وإليك كلام بعض أهل العلم في تكفيرهم لمعينين :

كفّر الإمام أحمد الذي قال له علم الله مخلوق ، فقال له كفرت بالله ياكافر.

وكفر الإمام أحمد المأمون كما عند الخلال في السنة . وقد حققنا مسألة تكفيره.

وقد كفر بعض السلف الحجاج كالشعبي وأورد قوله ابن عبيد وابن أبي شيبة.

وقال أبو داود لأحمد : من قال القرآن مخلوق أهو كافر ، قال: أقول هو كافر) .

وكفر الشافعي حفص الفرد.

وقال البربهاري في أعيان المعتزلة المريسي وابن أبي دؤاد والعلاف وغيرهم : (فإن هؤلاء كانوا على الردة) شرح السنة ص ١١٧ . ومثله ابن بطة في الإبانة.

قال عبدالرحمن بن حسن : (وذكر شيخ الإسلام أن الرازي صنف السر المكتوم في عبادة النجوم فصار مرتدا إلا أن يكون قد تاب ....) الدرر١١/ ٤٥٢ .

وكفر أهل العلم علماء الشرك كالحلاج وابن عربي والبوصيري والبكري وزيني دحلان مفتي مكة وابن سحيم قاضي الرياض وغيرهم كثير.

كما أنا نكفر كل من ثبت عنه الدعوة للشرك كالسبكي والسيوطي .

قال سليمان بن سحمان عن السبكي والرملي المنسوب له جواز الاستغاثة بالأولياء : (فهذا الرجل الشهاب الرملي إن كان من المعروفين بالعلم لأني لا أعرف حاله فهو من جنس السبكي وأضرابه الغالين الذين يصنفون في إباحة الشرك زاعمين أن ذلك من تعظيم الرسول ثم لو كان الرملي من أهل العلم .. هذا يوجب كفره وارتداده) . الصواعق المرسلة ٢٦٠ .

قاعدة: لم يزل أهل التوحيد يكفرون المرتدين وطوائف المشركين في كل زمان:

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (لو ذهبنا نعدد من كفره العلماء مع إدعائه الإسلام وأفتوا بردته وقتله لطال الكلام، ومن ذلك بني عبيد ملوك مصر وطائفتهم وهم يدعون أنهم من أهل البيت ويصلون الجمعة ونصبوا القضاة والمفتين وأجمع العلماء على كفرهم وردتهم وقتالهم وأن بلادهم بلاد حرب يجب قتالهم ...وهل قال واحد من العلماء في هذه المكفرات وأسباب الردة إن هؤلاء يكفر أنواعهم ولا يكفر أعيانهم) الدرر ١٠/ ٦٣ .

وقال عبدالله أبا بطين : (وما سألت عنه من حكم تعيين إنسان بعينه بالكفر إذا ارتكب شيئا من المكفرات؟ فإن من ارتكب شيئا من هذا النوع فهذا لا شك في كفره

ولا بأس بمن تحققت منه أشياء من ذلك أن تقول كفر فلان بهذا الفعل - دون اشتراط حكم قاضي وإقامة حجة - ... وكلام العلماء في تكفير المعين كثير، ولا مانع من تكفير من اتصف بذلك لأن من زنا قيل فلان زان) الرسائل ١/ ٦٥٧.

وقال الشيخ ابن باز وعفيفي وابن قعود : (من ثبت كفره وجب اعتقاد كفره والحكم عليه به وإقامة ولي الأمر عليه حد الردة إن لم يتب ومن لم يكفره فهو كافر إلا أن تكون له شبهة في ذلك فلا بد من كشفها) فتاوى اللجنة ٢/ ٩٣ .

قال الشيخ عبدالرحمن بن قاسم: (وهكذا في كل عصر من أهل العلم طائفة قائمة بشرع الله تكفر من كفره الله ورسوله وقام الدليل على كفره لا يتعالون عن ذلك بل يرونه من واجبات الدين ويدون أنه والجهاد عليه ركن لا يتم الإسلام بدونه) الصارم المسلول ص٢٩.

قاعدة جليلة : من فعل ناقضا للإسلام وجب عليك تكفيره إن بلغته الحجة.

قال الإمام البربهاري : (وإذا فعل شيئاً من ذلك - يعني النواقض - وجب عليك أن تخرجه من الإسلام) . شرح السنة ٧٣ .

مسألة : تكفير المشركين والمرتدين والتصريح بعداوتهم والطعن فيهم وفي المبتدعة من أجل العبادات ، وقد نص السلف على أنها لا تترك حتى حال الصيام والحج فليس تركها من الورع. انظر الإبانة الصغرى ١٠٤ .

فائدة : شكوى العلماء من المقلدين الجهلة في إنكارهم تكفير المرتدين :

قال البخاري في من لا يكفر الجهمية : (وإني لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم) خلق أفعال العباد ٣٥.

قال الدارمي: (وأي فرق بين الجهمية وبينهم - أي المشركين المكذبين بالقرآن القائلين أنه قول البشر- حتى نجبن عن قتلهم وإكفارهم). الرد على الجهمية.

وقال محمد بن عبدالوهاب في رسالته الثالثة من رسائله الشخصية في قول علماء زمانه عنه : (لو يسلم من التكفير والقتال كان على حق) .

وقال احمد شاكر : (وما كنت يوما بالاحمق فأظن أن الحكومات في البلاد الإسلامية ستستجيب لحكم الإسلام فتقطع العلاقات السياسية مع الانجليز ... ولكن أريد أن أعرفهم بعواقب هذه الردة ...) كلمة حق ٨٧ .

كما جهّل الشيخ سليمان من ترك تكفير أصحاب شرك الدعاء في التيسير وموالين الكفار في الدلائل .

ومن أقوال أهل العلم أيضا في مكانة التكفير وكفر تاركه:

قال البقاعي في نظم الدرر: (فإنه لم يأت نبي إلا بتكفير المشركين) .

قال أبو الوفاء بن عقيل: (إذا أردت أن تعرف محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى ازدحامهم في أبواب المساجد ولا في ضجيجهم بلبيك ولكن انظر إلى مواطأتهم لأعداء الشريعة) نقله ابن مفلح في الآداب الشرعية، والدرر ٨/ ٢٩٩.

قال العلامة ابن القيم في إغاثة اللهفان: (وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله) .

قال محمد بن عبد الوهاب في رسالته الثالثة من رسائله الشخصية : (إذا كانوا أكثر من عشرين سنة يقرون ليلا ونهاراً سراً وجهاراً أن التوحيد الذي أظهر هذا الرجل هو دين الله ورسوله .. ولكن لو يسلم من التكفير والقتال كان على حق) .

وقال في رسالته التاسعة والعشرين : (وعرفتم أنهم يقولون لو يترك أهل العارض التكفير والقتال كانوا على دين الله ورسوله) .

وقال أبا بطين : (ويقال لمن قال من أتى بالشهادتين لا يتصور كفره فما معنى الباب الذي يذكره الفقهاء في أبواب الفقه حكم المرتد والمرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه بكلام أو اعتقاد أو شك وهو قبل ذلك يتلفظ بالشهادتين ويصلي ويصوم فإذا أتى بشيء مما ذكروه صار مرتداً مع كونه يتكلم بالشهادتين ويصلي ويصوم ولا يمنعه تكلمه بالشهادتين وصلاته وصومه عن الحكم عليه بالردة) الدرر ١٠/ ٢٥٠.

وقال عبد اللطيف: (وأما إن كان المكفر لأحد من هذه الأمة يستند في تكفيره إلى نص ورأى كفرا بواحا كالشرك فالمكفر مصيب مأجور) الدرر ١٢/ ٢٦١.

وقال: (وأهل العلم لا يختلفون في أن من صدر منه قول أو فعل يقتضي كفره أنه يحكم عليه وإن كان ممن يقر بالشهادتين وإنما يكف عن الكافر الأصلي إذا أتى بها ولم يتبين منه خلافها ومناقضتها) مجموعة الرسائل ٣/ ٢٢٥.

وقال : (وقد غلط كثير وظنوا أن من كفّر من تلفظ بالشهادتين فهو من الخوارج ، بل التلفظ بالشهادتين لا يكون مانعا من التكفير ..) الدرر ١٢/ ٢٦٣.

يقول الشيخ حمد بن عتيق: (فأمر الله رسوله أن يقول للكفار: دينكم الذي أنتم عليه أنا بريء منه وديني الذي أنا عليه أنتم براء منه، والمراد التصريح لهم بأنهم على الكفر، وأنه بريء منهم ومن دينهم، فعلى من كان متبعاً للنبي أن يقول ذلك، ولا يكون مظهراً لدينه إلا بذلك، ولهذا لما علم الصحابة بذلك، وآذاهم المشركون،

أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ولو وجد لهم رخصة في السكوت عن المشركين لما أمرهم بالهجرة إلى بلد الغربة). سبيل النجاة ٦٧.

وقال سليمان بن سحمان:

نعم لو صدقت الله فيما زعمته ... لعاديت من بالله ويحك يكفر
وواليت أهل الحق سراً وجهرة ... ولما تهاجيهم وللكفر تنصر
فما كل من قد قال ما قلت مسلم ... ولكن بأشراط هنالك تذكر
مباينة الكفار في كل موطن ... بذا جاءنا النص الصحيح المقرر
وتكفيرهم جهراً وتسفيه رأيهم ... وتضليلهم فيما أتوه وأظهروا
وتصدع بالتوحيد بين ظهورهم ... وتدعوهمو سراً لذاك وتجهر
فهذا هو الدين الحنيفي والهدى ... وملة إبراهيم لو كنت تشعر

المسألة الخامسة : أدلة هذا الناقض : الأدلة على وجوب تكفير المشركين وعلى كفر من لم يكفر المشركين :

دلت عليه أدلة من الكتاب والسنة والإجماع:

أولا أدلة الكتاب :

الدليل الأول : قال تعالى ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ البقرة: ٢٥٦.

وأعظم مقتضيات الكفر بالطاغوت تكفير الكافر والبراءة منه ومعاداته. ومفهوم الآية أن من لم يكفر بالطاغوت فإنه غير مستمسك بالعروة الوثقى التي هي لا إله إلا الله ولا أتى بالإسلام والدين والملة فيكون كافرا والعياذ بالله .

الدليل الثاني : قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ الممتحنة: ٤.

والشاهد : ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ ، فالكفر هنا شامل للتكفير والبراءة والعداوة وقد صرح بهما في نص الآية .

الدليل الثالث : قال تعالى :﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ الكافرون: ١.

فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يخاطب المشركين والكفار بلفظ الكفار من قومه قريش وغيرهم فلابد من مخاطبة الكافر والمشرك بهذا الاسم وبالتالي لابد من الحكم بتكفيره لأن في تسميته بالكفار وندائه بذلك حكم عليه بالتكفير .

الدليل الرابع : الآيات التي نصت على وجوب إعلان التكفير والشهادة عليه، وأن الله كفر الكفار والأدلة الموجبة البراءة من المشركين ومن معبوداتهم وشركهم ، والتي من أعظم معاني البراءة التكفير .

قال تعالى:﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة: ١.

﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ التوبة: ٣. ﴿ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٩.

﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ هود: ٥٤.

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ آل عمران: ٦٧ ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل: ١٢٠.

فائدة : وجه كونه لم يقل: وما كان مشركا ، وإنما قال: وما كان من المشركين:

لأن في (من المشركين) معنيان: التوحيد وترك الشرك، والثاني الولاء والبراء والكفر بالطاغوت والبراءة من المشركين. فالعبارة فيها معنىً زائد على (ما كان مشركا): وهو أنه لم يك مع المشركين ولا مخالطا لهم بل مجتنبهم ومعتزلهم وكافر بهم ومكفر لهم كما وصفه الله في آيات أخرى، وفي هذا دلالة على وجوب تكفير الكفار.

الدليل الخامس :الآيات الحاكمة بكفرهم وتكفيرهم فلا يجوز ترك حكم الله .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ البينة: ٦.

ومن هنا بيانية وليست تبعيضية ، يعني أن كل أهل الكتاب والمشركين كفار .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ التوبة: ١١٣.

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ التوبة: ٨٤.

الدليل السادس: الآيات الحاكمة ببطلان كل دين غير الإسلام وكفر أتباعه.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران: ٨٥.

وكل من ليس بمسلم فهو كافر، ولا يجتمع إسلام وكفر وتوحيد وشرك، فإذا وجد أحدهما انتفى الآخر، فهما نقيضان ولابد من وجود أحدهما، ومن لم يكفر فقد حكم بإسلام الكفار وبالتالي يكون دينه مقبولا عند الله فكذب بالآية وكفر بها .

السابع: الآيات الدالة على كفر المرتد وحقيقة الردة وأنها في بعض الدين .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢١٧.

﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ التوبة: ٦٦.

﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ التوبة: ٧٤.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ آل عمران: ٩٠.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ آل عمران: ٩١.

الدليل الثامن : الأدلة الناهية عن ترك تكفير الكفار ومعاداتهم .

قال تعالى : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ القلم: ٩.

قال تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ الكافرون: ٦.

﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يونس: ٤١ .

ومن السنة :

الحديث: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه) رواه مسلم .

قال إمام الدعوة : (فقوله وكفر بما يعبد تأكيد للنفي، فلا يكون معصوم الدم إلا بذلك فلو شك أو تردد لم يعصم دمه) .

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) رواه مسلم .

وقال النبي ﷺ : (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله) رواه أبو داود، وقال الذهبي إسناده مظلم .

وقوله ﷺ : (لا يقبل الله من مشرك أشرك بعدما أسلم عملاً حتى يفارق المشركين إلى المسلمين) رواه الإمام أحمد في المسند وابن ماجه .

وقوله ﷺ : (أنا برئ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين) رواه أبو داود .

ثالثا الإجماع :

اتفقت دعوة الرسل على تكفير الكفار . قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦ .

قال البقاعي في النظم : (فإنه لم يأت نبي إلا بتكفير المشركين) .

وقد نقل الإجماع على كفر من لم يكفر المشركين جماعة من العلماء سيأتي كلامهم في المسألة القادمة .

المسألة السادسة : النقولات من كلام أهل العلم فيما يتعلق بهذا الناقض :

قال الإمام الملطي ت ٣٧٧هـ في الشاك في كفر الكافر : (وجميع أهل القبلة لا اختلاف بينهم : أن من شك في كافر فهو كافر، لأن الشاك في الكفر لا إيمان له ، لأنه لا يعرف كفرا من إيمان ، فليس بين الأمة كلها المعتزلة فمن دونهم خلاف أن الشاك في الكافر كافر) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص:٥٤ .

وقال الإمام سفيان بن عيينة : (من قال القرآن كلام الله ﷻ هو مخلوق فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر).

قال أبو بكر بن عياش المقرئ ت ١٩٤ في الجهمي : (كافر ومن لم يكفر الكافر فهو كافر) أخرجه اللالكائي برقم ٤١٢ .

قال سلمة بن شبيب النيسابوري ت ٢٤٧ محدث أهل مكة لما سئل عن الحلواني حين قال لا أكفر من وقف في القرآن ، (يرمى في الحش ، من لم يشهد بكفر الكافر فهو كافر) . أخرجه الخطيب في تاريخه وابن حجر في التهذيب.

قال الإمام ابن بطة : (من قال كلام الله مخلوق فهو كافر حلال الدم ومن شك في كفره ووقف في تكفيره فهو كافر) الإبانة ١٢٩ .

قال أبو حاتم وأبو زرعة في عقيدتهما: (من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر بالله كفر ينقل عن الملة ومن شك في كفره ممن يفهم فهو كافر) . اللالكائي ٣٢١ .

ويقول الإمام محمد بن سحنون: (أجمع العلماء على أن شاتم الرسول ﷺ كافر وحكمه عند الأئمة القتل ، ومن شك في كفره كفر) نقله عنه ابن تيمية في الصارم المسلول ٢/ ١٥. وعبد الله بن محمد في الكلمات النافعات.

وقال ابن المقري اليماني فيمن لا يكفر غلاة الصوفية: (من شك في كفر اليهود والنصارى وطائفة ابن عربي كفر) نقله عنه البقاعي في تكفير بن عربي ٣٤ .

ويقول القاضي عياض في الشفاء : (من أتى بالشهادتين وصلى وصام وعبد غير الله فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر مكذب لله ولرسوله بإجماع الذي لا يشك فيه من له أدنى نظر في كلام العلماء) .

وقال الإمام ابن تيمية : (من سب الصحابة أو واحداً منهم واقترن بسببه أن عليا إله أو نبي أو أن جبريل غلط فلا شك في كفره هذا بل لا شك في كفر من توقف في تكفيره). الصارم ٣ / ١١٠٨.

وقال ابن تيمية أيضاً: (كفر هؤلاء الدروز والنصيرية لا يختلف فيه المسلمون، بل من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم) الفتاوى ٣٥/ ١٦١ * .

وقال : (وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد الرسول ﷺ إلا نفرا قليلا لا يبلغون بضعة عشر أو أنهم فسقوا عامتهم ، فهذا لا ريب أيضا في كفره فإنه مكذب لما نصه القرآن من الرضا عنهم والثناء عليهم ، بل من يشك في كفر مثل هذا فإن كفره متعين ، فإن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب كفار) . الصارم ١١٠٨ .

وقال: (فهذا كله كفر باطنا وظاهرا بإجماع كل مسلم ، ومن شك في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر ، كمن شك في كفر اليهود والنصارى والمشركين) الفتاوى ٢/ ٣٦٨ .

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: (من قال: أنا لا أعبد إلا الله ، وأنا لا أتعرض السادة والقباب على القبور وأمثال ذلك ، فهذا كاذب في قول لا إله إلا الله ولم يؤمن بالله ولم يكفر بالطاغوت) مجموعة الرسائل ٤ / ٣٣ والدرر ٢/ ١٢١ .

وقال عمن جادل عن طواغيت الخرج الذين سوغوا الشرك : (أو مدح الطواغيت أو جادل عنهم خرج عن الإسلام ولو كان صائما قائما) الدرر ١٠/ ٥٥ .

وقال في من توقف في تكفير المشركين لأن الحجة لم تقم عليه ومع ذلك لم يكفرهم وإن كان أثبت أن ما هم عليه من توقف من الكفر : (ما ذكرتم من قول الشيخ كل من جحد كذا وكذا وقامت عليه الحجة وأنكم شاكون في هؤلاء الطواغيت وأتباعهم هل قامت عليهم الحجة ، فهذا من العجب كيف تشكون وقد أوضحته لكم مرارا ، فإن الذي لم تقم عليه الحجة هو الذي حديث عهد بالإسلام والذي نشأ ببادية بعيدة أو يكون ذلك في مسألة خفية ، وأما أصول الدين فإن حجة الله هي القرآن فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجة ولكن أصل الإشكال أنكم لم

---

* تنبيه : ما سقته من النقولات السابقة عن أهل العلم يتبين أن قاعدة : (من لم يكفر الكافر فهو كافر) ليست من بدع محمد بن عبد الوهاب ومخترعاته كما يزعم أهل الإرجاء في عصرنا بل نطق بها السلف قبله، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر من سقت قوله لك هنا ، سفيان بن عيينة ت ١٩٨، أبو بكر بن عياش المقرئ ت ١٩٤ ، الإمام أحمد ، الإمام البخاري، سلمة بن شبيب النيسابوري ت ٢٤٧ ، أبو زرعة الرازي ت٢٦٤ ، أبو حاتم الرازي ت٢٧٧ ، الدارمي، الإمام الملطي ، البربهاري ، ابن بطة ، محمد بن سحنون المالكي ، اللالكائي ، الآجري .

ومن المتأخرين أيضا : ابن تيمية وابن القيم والقاضي عياض والبقاعي وابن المقري اليماني وغيرهم كثير .

تفرقوا بين قيام الحجة وفهم الحجة ، فإن أكثر الكفار لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم ... إذا علمتم ذلك فإن هذا الذي أنتم فيه كفر) . الدرر ٨/ ٩٠ .

وقال في رسالته الثامنة والثلاثين : (ولكنهم يجادلونكم اليوم بشبهة واحدة فاصغوا لجوابها ، وذلك أنهم يقولون كل هذا حق نشهد أنه دين الله ورسوله إلا التكفير والقتال ، والعجب ممن يخفى عليه جواب هذا إذا أقروا أن هذا دين الله ورسوله كيف لا يكفر من أنكره وقتل من أمر به وحبسهم ؟ كيف لا يكفر من أمر بحبسهم ؟ كيف لا يكفر من جاء إلى أهل الشرك يحثهم على لزوم دينهم وتزيينه لهم ويحثهم على قتل الموحدين وأخذ مالهم ؟ كيف لا يكفر وهو يشهد أن الذي يحث عليه أن الرسول ﷺ أنكره ؟ ونهى عنه وسماه الشرك بالله ويشهد أن الذي يبغضه ويبغض أهله ويأمر المشركين بقتلهم هو دين الله ورسوله . واعلموا أن الأدلة على تكفير المسلم الصالح إذا أشرك بالله ، أو صار مع المشركين على الموحدين ولو لم يشرك أكثر من أن تحصر من كلام الله وكلام رسوله وكلام أهل العلم كلهم).

وقال في مختصر السيرة : (قصة المختار بن أبي عبيد الثقفي وهو رجل من التابعين مصاهر لعبد الله بن عمر مظهر للصلاح .. لكن في آخر أمره زعم أنه يوحى إليه فسير له عبدالله بن الزبير جيشا فهزموا جيشه وقتلوه وكانت تحته امرأة أبوها أحد الصحابة فدعاها مصعب إلى تكفيره فأبت فكتب إلى أخيه عبدالله يستفتيه فيها فكتب إليه إن لم تبرأ منه فاقتلها فامتنعت فقتلها مصعب .. فإذا كان الصحابة قتلوا المرأة التي هي من بنات الصحابة وذلك لما امتنعت من تكفير زوجها فكيف بمن لم يكفر البدو مع إقراره بحالهم فكيف بمن زعم أنهم من أهل الإسلام ومن كفرهم هو الكافر) ٣٤ .

وقال في ستة مواضع من السيرة: (وما أحسن ما قال واحد من البوادي لما قدم علينا وسمع شيئا من الإسلام قال : أشهد أننا كفار يعني البدوي نفسه وأهل البادية وأن المطوع الذي يسمينا أهل إسلام أنه كافر) .

تنبيه : قد يستنكر بعض الجهال تكفير العلماء للبدو من غير علمه بسبب تكفيرهم، فكان البدو على ما يفعلونه من الذبح للجن وعبادة القبور معطلين للشرائع، فلا يصلون لا فرادى ولا جماعات ويتحاكمون إلى السلوم والأعراف المخالفة لأحكام الشريعة وغير ذلك وقد كتب الشوكاني رسالة في إثبات تكفيرهم .

وقال أيضاً محمد بن عبد الوهاب: (فهؤلاء الطواغيت الذين يعتقد الناس فيهم من أهل الخرج وغيرهم كلهم كفار مرتدون عن الإسلام ومن جادل عنهم أو أنكر على من كفرهم أو زعم أن فعلهم هذا لو كان باطلا فلا يخرجهم من الإسلام فأقل أحواله أنه فاسق لا يصلى خلفه) الدرر ١٠/ ٥٢ .

قلت تأمل كيف يتكلم عن أهل بلده وليس عن كفار مفترضين أو طواغيت يتخيلهم كما هو حال أكثر المدعين للتوحيد في زماننا فوضعوا فجوة عميقة بين التنظير ودراسة التوحيد وبين تطبيقه والعمل به .

وقال: (من شكّ في كفرهم فهو كافر ، فكيف إذا مدحهم وأثنى عليهم ؟ فكيف إذا ضمَّ إلى ذلك مدح طريقتهم مثل ما يفعله ناسٌ من الظالمين في الرياض : يمدحون طريقتهم ويمدحونهم ويذمون دِّين الإسلام ويسبُّونه وأهله ، ويسمُّونهم السبابة ، ومنهم من ينصر مذهب ابن عربي وابن الفارض ويَدْعُون إليه .. وإن ذكر جواباً آخر يريد أن يجمع بين كتابه وبين عدم تكفير هؤلاء فهو كمن يريد أن يجمع بين المجوسية والإسلام ، فإن قال : ما رأيناهم فعلوا قلنا : وأنت أيضاً ما رأيت فرعون ولا هامان كفروا، ولا رأيت أبا جهل وأبا لهب ، ولا رأيت ظلم الحجاج ، ولا رأيت الذين ضربوا الإمام أحمد ، وأنت تشهد بهذا كله فإن قال : هذا متواتر ، قلنا : وكُفْرُ هؤلاء وادِّعاؤهم الربوبية متواتر عند الخاص والعام والرجال والنساء ، وهم الآن يعبدون ويدعون الناس إلى ذلك) تاريخ نجد ٤٢٠ .

وقال : (فلا يكون المرء موحدا إلا بنفي الشرك والبراءة منه وتكفير من فعله ... وقد سمى الله تعالى أهل الشرك بالكفر فلا بد من تكفيرهم هذا مقتضى لا إله إلا الله فلا يتم معناها إلا بتكفير من جعل لله شريكا في عبادته كما في الحديث الصحيح " من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه " فقوله وكفر بما يعبد تأكيد للنفي، فلا يكون معصوم الدم إلا بذلك فلو شك أو تردد لم يعصم دمه) مجموعة التوحيد ٣٤.

وقال : (وأنت يا من منّ الله عليه بالإسلام وعرفت أن ما من إله إلا الله، لا تظن أنك إذا قلت هذا هو الحق وأنا تارك ما سواه لكن لا أتعرض للمشركين ولا أقول فيهم شيئاً لا تظن أن ذلك يحصل لك به الدخول في الإسلام، بل لابد من بغضهم وبغض من يحبهم ومسبتهم ومعاداتهم كما قال أبوك إبراهيم :﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟

بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ ﴾ ولو يقول رجل أنا أتبع النبي وهو على الحق لكن لا أتعرضا للات والعزى ولا أتعرض أباجهل وأمثاله ما عليّ منهم لم يصح إسلامه) الدرر ٢/ ١٠٩.

وقال بعده : (وأما مجادلة بعض المشركين بأن هؤلاء الطواغيت ما أمروا بهذا) ، سمى من لم يكفر مشركا .

وقال : (ومعنى الكفر بالطاغوت : أن تبرأ من كل ما يُعتقد فيه غير الله ، من جني ، أو إنسي أو شجر أو حجر أو غير ذلك ، وتشهد عليه بالكفر والضلال ، وتبغضه ولو كان أباك أو أخاك) الرسائل ٤/ ٣٣ ، الدرر ٢/ ١٢١.

وقال : (فالله الله يا إخواني تمسّكوا بأصل دينكم، وأوّله وأُسّه ورأسه، شهادة أن لا إله إلا الله، واعرفوا معناها وأحِبّوها، وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم، ولو كانوا بعيدين منكم نسباً واكفروا بالطواغيت وعادوهم وأبغضوهم، وأبغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفّرهم أو قال ما عليّ منهم أو قال ما كلفني الله بهم، فقد كذب هذا على الله وافترى إثماً مبيناً، فقد كلّف الله كل مسلم ببغض الكفار، وافترض عليه عداوتهم، وتكفيرهم والبراءة منهم، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم، فالله الله تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئاً)الدرر ١١٩/٢.

وقال: (إن الإنسان لا يستقيم له دين ولا إسلام ولو وحّد الله وترك الشرك، إلا بعداوة المشركين ، والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء) الدرر ٨/ ١١٣.

وقال: (لا بد للمسلم من التصريح بأنه من هذه الطائفة المؤمنة، حتى يقويها وتقوى به ويفزع الطواغيت، الذين لا يبلغون الغاية في العداوة حتى يصرح لهم أنه من هذه الطائفة المحاربة لهم) من مجموعة التوحيد.

وقال: (بل لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء ـ أي الطواغيت المعبودون من دون الله ـ وتكفيرهم ، كما قال تعالى : فمن يكفُر بالطاغُوت ويُؤمِن بالله فقَد استمسك بالعُروة الوثقى) . الدرر ١٠/ ٥٣ .

وقال في المخالفين في التوحيد:(ومن الناس من عبد الله وعمل بالتوحيد ولم ينكر الشرك ولم يعاد أهله ومنهم من عاداهم ولم يكفرهم) الدرر ٢/ ٢٢.

وقال : (أصل دين الإسلام وقاعدته أمران :

١- الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والتحريض على ذلك والموالاة فيه وتكفير من تركه .

٢- الإنذار عن الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له والتغليظ في ذلك والمعاداة فيه وتكفير من فعله) الدرر ٢/ ٢٢.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (ووسم تعالى أهل الشرك بالكفر فيما لا يحصى من الآيات ، فلا بد من تكفيرهم أيضا، وهذا مقتضى لا إله إلا الله كلمة الإخلاص،فلا يتم معناها إلا بتكفير من جعل لله شريكاً في عبادته) الدرر٢/ ٢٠٥.

وقال : (يجب على ولي الأمر أن يقدم على -جهاد وقتل- من نسب إليه طعن وقدح في شيء من دين الله أو تشبيه على المسلمين في عقائدهم ودينهم مثل من ينهى عن تكفير المشركين لأنهم يدّعون الإسلام ويتكلمون بالشهادتين) الرسائل ٢/ ٧.

وقال: (لو عرف العبد معنى لا إله إلا الله لعرف أن من شك ، أو تردد في كفر من أشرك مع الله غيره أنه لم يكفر بالطاغوت). الدرر ١١ / ٥٢٣.

وقال : (فلا يتم لأهل التوحيد توحيدهم إلا باعتزال أهل الشرك وعداوتهم وتكفيرهم) الدرر١١/ ٤٣٤.

وقال : (فصار من هؤلاء المشركين من يكفّر أهل التوحيد بمحض الإخلاص والتجريد وإنكارهم على أهل الشرك والتنديد فلهذا قالوا أنتم خوارج مبتدعه ، كما أشار ابن القيم إلى مثل هذه الحال في زمانه بقوله :

من لي بشبهة خوارج قد كفروا بالذنب تأويلا بلا إحسان

وخصومنا قد كفرونا بالذي هو غاية التوحيد والإيمان) الدرر ١١/ ٤٤٨.

وقال الشيخ عبدالله أبا بطين مفتي نجد : (لقد أجمع المسلمون على كفر من لم يكفر اليهود والنصارى أو شك في كفرهم) الدرر ١٢/ ٦٩.

وقال في رده على من زعم أن من تكلم بالشهادتين لا يجوز تكفيره: (فقائل هذا القول لابد أن يتناقض ولا يمكن طرد قوله في مثل من أنكر البعث أو شك فيه مع إتيانه بالشهادتين أو أنكر نبوة أحد من الأنبياء فلا أظنه يتوقف في كفر هؤلاء وأمثالهم إلا أن يكابر ويعاند) الدرر ١٠/ ٢٥٠ والرسائل ١/ ٦٥٨.

وقال : (ومن العجب أن بعض الناس إذا سمع من يتكلم في معناها نفيا وإثباتا عاب ذلك وقال لسنا مكلفين بالناس والقول فيهم فيقال له بل أنت مكلف بمعرفة التوحيد وضده هو الشرك) الانتصار لحزب الله الموحدين ١٦ .

وقال: (فمن قال: إن من أتى بالشهادتين وصلى لا يجوز تكفيره وإن عبد غير الله فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر لأن قائل هذا القول مكذب لله ولرسوله وإجماع المسلمين) . الدرر ١٠ / ٢٥٠ ومجموعة الرسائل ١/ ٦٦٠ .

ويقول بعض أئمة الدعوة : (فمن لم يكفر المشركين ... فهو كافر مثلهم وإن كان يكره دينهم ويبغضه ويحب الإسلام والمسلمين فإن الذي لا يكفر المشركين غير مصدق بالقرآن) الدرر ٩/ ٢٩١ .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: (من كان شاكا في كفرهم أو جاهلاً بكفرهم بينت له الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله على كفرهم فإن شك بعد ذلك أو تردد فإنه كافر بإجماع العلماء على أن من شك في كفر الكافر فهو كافر) الدرر ٨/ ١٦٠.

وقال (وإن كان يقول أقول غيرهم كفار ولا أقول هم كفار فهذا حكم منه بإسلامهم إذ لا واسطة بين الكفر والإسلام فإن لم يكونوا كفاراً فهم مسلمون وحينئذ يسمى الكفر إسلاما ويسمى الكفار مسلمين فهو كافر) الدرر ٨/ ١٦٠.

وقال: (فإن جادل مجادل بأن عبادة القباب ودعاء الأموات مع الله ليس بشرك أو أن أهلها ليسوا مشركين بان أمره واتضح عناده وكفره) .

وقال جماعة من أئمة الدعوة (لا تصح إمامة من لا يكفر الجهمية والقبورية أو يشك في تكفيرهم) الدرر ١٠/ ٤٣٦.

وقال الشيخ عبد الله بن محمد في الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة:(إن الإسلام لا يستقيم إلا بمعاداة المشركين فإن لم يعادهم فهو منهم وإن لم يفعله) .

وقال الشيخ عبد الله وأخوه حسين ابنا الإمام محمد بن عبد الوهاب : (فمن قال لا أعادي المشركين أو عاداهم ولم يكفّرهم أو قال لا أتعرض أهل لا إله إلا الله ولو فعلوا الكفر والشرك وعادوا دين الله أو ارتدوا و قال لا أتعرض للقباب فهذا لا يكون مسلماً والله سبحانه وتعالى أوجب معاداة المشركين ومنابذتهم وتكفيرهم) الدرر ١٠/ ١٤٠ ومجموعة الرسائل النجدية ١/ ٣٨.

وقال بعض أئمة الدعوة : (مما يوجب الجهاد لمن اتصف به عدم تكفير المشركين أو الشك في كفرهم فإن ذلك من نواقض الإسلام فمن اتصف به فقد كفر وحل دمه وماله ووجب قتاله حتى يكفر المشركين) . الدرر ٩/ ٢٩١ .

وقالوا : (فمن لم يكفر المشركين من الدولة التركية وعباد القبور كأهل مكة وغيرهم ممن عبد الصالحين وعدل عن توحيد الله إلى الشرك وبدل سنة رسوله ﷺ

بالبدع فهو كافر مثلهم ، وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين فإن الذي لا يكفر المشركين مكذب بالقرآن فإنه قد كفر المشركين وأمر بتكفيرهم وعداوتهم وقتالهم، قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نواقض الإسلام: الثالث من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم،وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : من دعا علي بن أبي طالب فقد كفر ومن شك في كفره فقد كفر) الدرر ٩/ ٢٩١.

وقال الشيخ عبداللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ :(لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء أي الطواغيت وتكفيرهم كما قال تعالى ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾).

وقال : (لا يُتصور أن أحداً يعرف التوحيد ويعمل به ولا يعادي المشركين ومن لم يعادهم لا يقال له عرف التوحيد وعمل به) الدرر ٨/ ٣٥٩.

وقال في مصباح الظلام : (والجهاد للمارقين والمرتدين وتكفيرهم داخل في مسمى الإسلام).

قال الشيخ محمد بن عبداللطيف في فاعل الأمور الشركية وفي من لم يكفره :(فهو كافر وهو أكفر خلق الله وأضلهم ومن شك في كفره بعد قيام الحجة عليهم فهو كافر) .

قال الشيخ عبدالله بن عبداللطيف حين سئل عن الدولة التركية ومن جرها على المسلمين واختار ولايتها : (من لم يعرف كفر الدولة ولم يفرق بينهم وبين البغاة من المسلمين لم يعرف معنى لا إله إلا الله فإن أعتقد مع ذلك أن الدولة مسلمون فهو أشد أعظم وهذا هو الشك في كفر من كفر بالله وأشرك به، ومن جرهم وأعانهم على المسلمين بأي إعانه فهي ردة صريحة) الدرر ١٠/ ٤٢٩ .

وهذا حين حاربت التوحيد وأمرت الشرك وناهضت الدعوة السلفية.

قلت تأمل كلام هؤلاء الفحول الأعلام وهم يتكلمون عن المشركين والكفار وما يجب تجاههم هل تظن أنهم يتكلمون عن اليهود والنصارى أو كفار أصليين كما يفهم مرجئة زماننا البله إنه يتكلم عن مرتدي الجزيرة الواقعين في عبادة القبور ومناصري الدولة العثمانية ، وفي هذه النقول رد على أقوام تلبسوا بالسلفية وهي منهم براء، فأرادوا إسلاماً لا معاداة ولا تكفير فيه، وسعوا في توحيد لا كفر بالطاغوت فيه، فدعوا إلى دين لا حقيقة له ومذهب إرجائي لا فائدة فيه.

المسألة السابعة : الحكمة من إيجاب تكفير المشرك:

أوجب الله علينا تكفير المشركين لحكم كثيرة ومقاصد عظيمة منها:

أولا: القيام بدين الله، لأن التكفير من حقيقة الدين وجاءت جميع الشرائع به ولا يعتبر الإسلام بدونه ، فبالتكفير يحصل التوحيد ويتحقق الكفر بالطاغوت .

ثانيا : التعبد لله بهذه الشريعة ففي إقامة عبادة التكفير تحصل أعظم العبادات وأجلها وأحبها إلى ربنا ﷻ فبه يقوم الولاء والبراء والحب في الله والبغض في الله، وبه تتم معادات أعداء الله والبراءة منهم وهذا لا يحصل إلا بالتكفير، وبه تحصل فريضة الجهاد، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الجهاد والتوحيد لأنه لا يقوم أحدهما بدون الآخر، وهذا ما جرت عليه سنة نبينا محمد ﷺ وهي الطريقة السلفية التي امتثلها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وخالفه فيها علماء الشرك في زمانه إلى يومنا .

ثالثا : أن التكفير يعرّف الناس حقيقة التوحيد والدين، فإذا كفر العالم رجلا معين تساءل الناس عن السبب، فإذا عرفوا السبب سعوا في معرفة وجه نقضه للتوحيد وحقيقة هذا المكفر المناقض للتوحيد، فبهذا يعرفون دين الله وما يناقضه.

رابعا : أن فيه تقوية للموحدين وحرب للمرتدين .

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: (لا بد للمسلم من التصريح بأنه من هذه الطائفة المؤمنة، حتى يقويها وتقوى به ويفزع الطواغيت، الذين لا يبلغون الغاية في العداوة حتى يصرح لهم أنه من هذه الطائفة المحاربة لهم) من مجموعة التوحيد.

خامسا: أن فيه صلاح الحياة فبه تستقيم الأمور على ما وضعها الله تعالى ويقام العدل وحصول بالجهاد والموالاة وما في هذا المعنى.

سادسا:أن التكفير يحفظ من الوقوع في الردة والكفر وفي إقامة حد الردة سبب لصد الناس عنها وذلك مثل القصاص الذي جعل سببا لحفظ الحياة والنفوس.

فإذا كفر المرتد كان ذلك سببا لرجوعه للدين وردعاً لغيره من الوقوع في العمل الكفري فالناس يجتنبونه ويفرون من موجبه وما يسببه، فمعرفة ما يناقض التوحيد من أعظم أسباب التمسك بالتوحيد والإسلام .

ولذا كل ردة يحارب أهلها ويكفرون ويقاتلون فإن كفرهم يزول وكل كفر يترك أصحابه لايكفرون ولايقاتلون فإنه يبقى دهور ما بقي القعود، قال ﷻ: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ الحج: ٤٠ ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ الأنفال: ٣٩.

ومن الأدلة على ذلك: قتال الصحابة ﷺ للمتنعين عن الزكاة بعد تكفيرهم وتسمية قتالهم بحروب المرتدين، حتى زالت ردة العرب واستؤصلت من جذورها.

وانظر إلى الجعد بن درهم لما كفر وقتل ردة اضمحل مذهب الجعدية. وحين ترك بشر المريسي وابن أبي دؤاد ومكنوا ورفعوا انتشر مذهب التجهم والاعتزال.

وكذلك لما قتل معبد الجهني وغيلان زالت بدعة إنكار القدر، وحين ترك عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ولم يقتلوا كان مذهبهم القدري باق إلى يومنا .

كذلك التتار زالوا بالكلية وأمحى ياسقهم الكفري، بينما الياسق العصري والقوانين الوضعية الكفرية التي يحكم بها لا تزال تعجعج في المحاكم الطاغوتية.

والدولة الفاطمية استمر كفرها قرونا لما ترك جهادها بينما زال القرامطة بعد قتال المسلمين لهم في البحرين واليمن ، وكل ذلك بسبب القيام بالقتال والتكفير.

والقبورية والصوفية عباد القبور حين تركوا ولم يكفروا ويقتلوا بقي دين الشرك ورجعت الوثنية لهذه الأمة على يد هؤلاء المشركين قروناً طويلة ، حتى قيض الله لها الإمام محمد بن عبد الوهاب فقام بتكفير هؤلاء المشركين وقتالهم ولم يرده إنكار علماء زمانه من دعاة الشرك حتى زال هذا المذهب الخبيث بالكلية من الجزيرة والبلدان التي قام فيها أهل التوحيد بالجهاد ضد الصوفية القبورية ولم يعد لها باقية .

فلو أن كل كفر قتل صاحبه أو كفر لما انتشر كفر بين المسلمين ولقضي عليه .

وهذا الواقع يشهد له فحين هجر تكفير المشركين والمتولين للكفار والمظاهرين لهم والمشرعين والحاكمين بغير ما أنزل الله وقتلهم وجهادهم ماذا كانت النتيجة ؟

دخول كثير من الناس في الردة أفواجاً وصارت تزداد من غير إنكار ولقد صدق راوية الإسلام وصاحب رسول الله أبو هريرة ﷺ حين قال: (الناس يخرجون من دين الله أفواجا كما دخلوه أفواج) أخرج كلامه ابن وضاح وغيره .

المسألة الثامنة: مفاسد ترك التكفير :

الوقوع في الردة . انتشار الكفر . اختلاط الإسلام بالكفر .

المسألة التاسعة : أسباب الوقوع في هذا الناقض :

اتباع الهوى .الجهل بحقيقة الدين . الظن السيء بالله . الإعراض عن الدين وترك العمل بالتوحيد . موالاة الكفار .كثرة علماء السوء . الإعلام الخبيث .دعاة الإلحاد والأفكار المصادمة لعقيدة الكفر بالطاغوت والبراءة من الكفار .الخوف على المصالح واستحباب الحياة الدنيا .التورع والخوف من تكفير المسلم .

المسألة العاشرة : أهمية تكفير الكفار والمشركين والمرتدين ومكانته :

ويظهر ذلك من بضعة عشر وجها :

١- أن التكفير داخل في كلمة التوحيد التي لا يدخل أحد الجنة وينجو من النار إلا بعد تحقيقها والإتيان بها قولا وعملا ، وقد دلت كلمة التوحيد على وجوب التكفير بالدلالات الثلاثة بالمطابقة والتضمن واللزوم، وقامت شروط كلمة التوحيد وأركانها على التكفير كما أنها أوجبته واستلزمته، عليه فمن لم يكفر الكافر فهو لم يأت بلا إله إلا الله . بل إنه نقض ركنيها خصوصا النفي، وأفسد شروطها خصوصا الإخلاص والمحبة واليقين والانقياد .

٢- أن الإسلام مشتمل على التكفير وقائم عليه، فمن لا يكفر من كفره الله فهو غير مسلم، وهو ناقض لأركان الإسلام الثلاثة: الاستسلام بالتوحيد والانقياد بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله .

٣- أن التكفير من لوازم الإيمان وداخل في حقيقته وأركانه وله علاقة به.

٤- أن التكفير مقترن بتوحيد المتابعة والإيمان بالرسول ﷺ والدخول في دينه، وشهادة أن محمدا رسول الله لا تتحقق إلا بعد تحقيقه، فإن أول ما بعث به النبي ﷺ هجر الرجز والأوثان وتكفير عابديها والتبرؤ منهم .

٥- أن التكفير قامت عليه دعوة الرسل،فهو من مقتضيات الكفر بالطاغوت، قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦.

٦- التكفير عبادة من أجل العبادات وأعظم القربات التي أمر الله بها وأحبها ورضيها، فالله تعالى أمر به وأحبه وكفّر تاركه وجعل كلمة التوحيد مشتملة عليه .

٧- أن التكفير قائم عليه كل دين ، فدين لا تكفير فيه ليس بدين أصلا .

٨- أن التكفير أحد أفراد توحيد الألوهية وقد دل عليه بالمطابقة والضمنية ودل توحيد الربوبية والأسماء والصفات على التكفير من باب التلازم .

٩- أن التكفير هو ركن النفي في التوحيد فيه فلا يتحقق التوحيد بدونه ألبته .

١٠- أن ملة إبراهيم عليه السلام قائمة عليه فمن تركه وأعرض عنه فيعتبر راغباً عن ملته، ومن كانت هذه حاله فهو من السفهاء بنص الآية﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ البقرة: ١٣٠، فالتكفير هو من ملة إبراهيم التي تعبدنا الله بها وافترض علينا امتثالها والتأسي بأبينا إبراهيم فيها، وملته قامت على قوله لقومه:﴿كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾.

١١- أن التكفير من أعظم معاني الكفر بالطاغوت فأصوله تقوم عليه.

١٢- أن التكفير من أعظم حقائق الولاء والبراء وأصدق ما يثبته ويحققه .

١٣- أن التكفير دلت عليه كلمة الإخلاص وفطرة الإسلام ودين نبينا ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين، فمن يعش وهو لا يكفر من كفره الله فإنه يصبح ويمسي على غير فطرة الإسلام وعلى غير كلمة الإخلاص وعلى غير دين نبينا محمد ﷺ وعلى غير ملة إبراهيم نسأل الله السلامة والعافية .

هذه الأوجه وغيرها، كل واحد منها كفيل بالدلالة القاطعة على وجوب تكفير المشركين وعظم منزلته من الدين، وكلها دالة على كفر من توقف أو شك في كفر الكافر أصليا كان أو مرتدا ، فتنبه واحرص على الاستمساك بالدين قبل الممات على الهلاك عياذا بالله من الخذلان والخسران .

المسألة الحادية عشرة : علاقات التكفير وهذا الناقض بأمور الدين :

١- علاقته بالإسلام :

للتكفير علاقة بالإسلام ووجه ذلك : أن الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، فهذه الأركان من نقض شيئاً منها فلا يسمى صاحبها مسلماً .

ومعلوم أن البراءة تقوم على ثلاثة أمور البغض والعداوة والتكفير ، وقد جمعت هذه المعاني الثلاثة كما جاءت مبينة في ملة إبراهيم في آية : ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ ﴾.

وعلى ذلك فمن لم يكفر المشركين فقد انتقض عنده ركن الإسلام الأعظم وبالتالي فلا إسلام معه .

كما أن تكفير المشركين يستلزمه ركني الإسلام الآخرين فالتكفير طاعة يجب أن ينقاد لله بها ، كما أن الاستسلام بالتوحيد يتضمن التكفير، وتركه ينافي التوحيد.

وبهذا يتبين أن مقامات الإسلام الثلاثة (الاستسلام بالتوحيد، والانقياد بالطاعة، والبراءة من الشرك) لا توجد إلا مع وجود تكفير المشركين.

كما يقال : إن حقيقة الإسلام تقوم على أصلين :

الأول: الانقياد لله والاستسلام له بالعمل والطاعة والعبادة.

وهذا يرادف الإثبات في كلمة التوحيد ، وتارك جنس العمل كافر مستكبر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠ .

الثاني: إخلاص العبادة لله وحده وترك الشرك .
وهذا يرادف النفي في كلمة التوحيد والكفر بالطاغوت ، وتاركه مشرك.
قال الإمام محمد بن عبد الوهاب : (أصل دين الإسلام وقاعدته أمران :
١- الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والتحريض على ذلك والموالاة فيه وتكفير من تركه .
٢- الإنذار عن الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له والتغليظ في ذلك والمعاداة فيه وتكفير من فعله) الدرر ٢/ ٢٢ .

ومن كل هذا جاءت القاعدة: (لا صحة للإسلام مع عدم تكفير المشركين) .

وقال الشيخ محمد: (بل لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء وتكفيرهم) الدرر ١٠/ ٥٣ .

وقال بعض أئمة الدعوة : (فمن قال لا أعادي المشركين أو عاداهم ولم يكفّرهم .. فهذا لا يكون مسلماً) الدرر ١٠/ ١٤٠ الرسائل ١/ ٣٨.

وقال الشيخ عبداللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ في مصباح الظلام : (والجهاد للمارقين والمرتدين وتكفيرهم داخل في مسمى الإسلام).

٢- علاقة تكفير المشركين بالعبادة .

قدمنا أن التكفير من العبادات التي أمر الله بها وأحبها ورضيها وكفّر تاركها .

٣- علاقة التكفير بالإيمان :

التكفير من لوازم الإيمان وداخل في حقيقته وأركانه.

٤- علاقته تكفير الكفار بالإيمان بالرسول ﷺ ، وشهادة أن محمدا رسول الله ، وتوحيد المتابعة.

وتقدم .

٥- علاقة تكفير المشركين بالتوحيد وكلمة التوحيد والشهادة لا إله إلا الله :

وبيان ذلك أن التوحيد يقوم على ركنين هما النفي والإثبات وهذه الأركان دلت عليها كلمة لا إله إلا الله، ومعلوم أن ركن النفي الذي هو (لا إله) يقتضي إنكار الألوهية عما سوى الله والكفر بالطاغوت ، والكفر بالطاغوت يقوم على أمور من أعظمها تكفير الطواغيت الذين هم الكفار والمشركون.

وقد أوجبت كلمة التوحيد التكفير بجميع الدلالات، وقامت أركانها عليه ودلت عليه بالمطابقة، كما أن شروط كلمة التوحيد متضمنة للتكفير ومستلزمه له .

وقد دل على هذا الأصل أدلة منها :

قوله تعالى:﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ .

والعروة الوثقى هي كلمة التوحيد ، فلا يعتبر الشخص مستمسكا بالعروة الوثقى التي هي (لا إله إلا الله) مع عدم كفره بالطاغوت ، ومن أعظم معاني الكفر بالطاغوت تكفيره المشركين .

قول الخليل مقرا بلا إله إلا الله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ الزخرف: ٢٦ - ٢٧ ،فهنا عبر في النفي بالبراءة والتكفير .

ومثلها قوله: ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ الممتحنة: ٤.

وقال ﷺ :(من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه).

فقوله وكفر بما يعبد تأكيد للنفي، والكفر هنا يشمل الكفر بالعبادة الشركية وتكفير المشرك .

عليه فمن لم يكفر الكافر فهو لم يأت بحقيقة لا إله إلا الله ولم يكفر بالطاغوت، حيث نقض ركنيها خصوصا النفي، وأفسد جميع شروطها الإخلاص والمحبة واليقين والعلم والصدق والقبول والانقياد .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (لا بد من تكفيرهم وهذا مقتضى لا إله إلا الله كلمة الإخلاص، فلا يتم معناها إلا بتكفير من جعل لله شريكاً) الدرر٢/ ٢٠٥.

وقبله قال: (فلا يكون المرء موحدا إلا بنفي الشرك والبراءة منه وتكفير من فعله).

وقال: (التكفير من معنى لا إله إلا الله مطابقة) الدرر ١١ / ٥٢٣.

وقال الشيخ عبد اللطيف: (لا يُتصور أن أحداً يعرف التوحيد ويعمل به ولا يعادي المشركين ومن لم يعادهم لا يقال له عرف التوحيد وعمل به) الدرر ٨/ ٣٥٩.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: (من قال: أنا لا أعبد إلا الله ، وأنا لا أتعرض السادة والقباب على القبور وأمثال ذلك ، فهذا كاذب في قول لا إله إلا الله ولم يؤمن بالله ولم يكفر بالطاغوت) مجموعة الرسائل ٤ / ٣٣ والدرر ٢/ ١٢١.

٦- علاقة تكفير المشركين بالكفر بالطاغوت :

الكفر بالطاغوت يشمل الكفر بالأوثان والكفر بعبادتها وتكفير عبّادها ، والطواغيت المقصود بها في كلام الله ورسوله المعبودات من أحياء وجمادات كذلك

يقصد بها الكفار والمشركين أيضا ، والكفر بهم المقصود بـه الـبراءة مـنهم وبغـضهم ومعاداتهم وتكفيرهم ، ولا يعتبر الكفر بالطاغوت إلا بالتكفير للكفار والطواغيت .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (لو عرف العبد معنى لا إلـه إلا الله لعـرف أن من شك أو تردد في كفر من أشرك أنه لم يكفر بالطاغوت). الدرر ١١ / ٥٢٣.

٧- علاقة تكفير المشركين بالولاء والبراء :

إن مقتضى الولاء والبراء محبة الله تعالى وبغـض أعـداء الله ﷻ والـبراءة مـنهم ومعاداتهم وتكفيرهم ، ولا يمكـن أن يـسمى الإنـسان مـسلماً إلا إذا والى الله ووالى أولياءه، ولا يصح هذا الولاء إلا بمعاداة أعداء الله ﷻ والـبراءة مـنهم وتكفـيرهم، فلذلك أمر الله تعالى به رسوله ﷺ في قوله:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ،ومدح خليلـه حين قال لقومه:﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، فلا يجوز أن يغيب التكفير عن المسلم ولا أن يغير هـذا المصطلح إلى إطلاقات أخرى، كتسمية الكافر بالآخر والغير والمخالف، فيخرج من تكفير المشركين إلى التوقف فيهم أو الشك والتردد فيهم أو تصحيح مذهبهم .

عليه فلا موالاة لله ولا معاداة إلا بالتكفير ولا يصح الولاء والبراء إلا به.

٨- علاقة تكفير المشركين بالشرك :

ترك التكفير يدخل في الشرك لأنه يناقض التوحيد وينافي الكفر بالطاغوت.

يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان: (وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله) .

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن وجوب تكفير المشركين وأن تركه مـن الشرك : (تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئاً)الدرر ٢/ ١١٩.

وسمّى الذي لا يكفر الطواغيت ويجادل عنهم مشركا الدرر ٢/ ١٠٩.

وقال : (لا يكون المرء موحدا إلا بنفي الشرك والبراءة منه وتكفير من فعله).

وقال الشيخ عبد الله أبا بطين في من أنكر التكفير: (بل أنـت مكلـف بمعرفـة التوحيد وضده هو الشرك) الانتصار لحزب الله الموحدين ١٦ .

الثانية عشرة: دخول التكفير في الكفر بالطاغوت:

يظن كثير من الجهال أن الكفر بالطاغوت لا تدل عـلى التكفـير والـبراءة مـن الكفار وأنه خارج عنها،وأعظم ما يرد هذا التوهم ما نصت عليه الآية:﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ والحديث الصحيح (وكفر بما يعبد) ، ومن معنى الكفر في الدليلين : التكفير.

فالكفر هنا يشمل في اللغة والشرع: الكفر بالعبادة الشركية ، وتكفير المشرك .
بل البراءة من الكافر وتكفيره قد تكون أهم من البراءة من معبوده ومن كفره.
قال محمد بن عبدالوهاب : (من قال: أنا لا أتعرض السادة والقباب ، فهذا كاذب في قول لا إله إلا الله ولم يؤمن بالله ولم يكفر بالطاغوت) الرسائل ٤/ ٣٣ .
وقال : (ومعنى الكفر بالطاغوت أن تتبرأ من كل ما يعتقد فيه غير الله وتشهد عليه بالكفر والضلال وتبغضه ولو كان أباك أو أخاك) الرسائل ٤/ ٣٣.
وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (لو عرف العبد معنى لا إله إلا الله لعرف أن من شك أو تردد في كفر من أشرك أنه لم يكفر بالطاغوت). الدرر ١١ / ٥٢٣.

الثالثة عشرة: التكفير وهذا الناقض يرجع لأبوب في العقيدة والتوحيد :
الأول : التوحيد والشرك. فمن لم يكفر فقد نقض التوحيد ووقع في الشرك.
الثاني :الكفر بالطاغوت . فمن لم يكفر فما كفر بالطاغوت .
الثالث: الولاء والبراء. فالتكفير داخل في عموم البراءة من الكفار ومعاداتهم.
الرابع : أبواب التكفير وأحكام المرتد ومسائل الأسماء والأحكام.
الخامس : كفر الامتناع والإباء وكفر الإعراض وكفر الشك.

الرابعة عشرة: أوجه كفر من لم يكفر المشركين وسبب كون الشاك كافراً :
الأول : أنه مكذب لله ﷻ :
فمن لم يكفر الكفار فقد وقع في تكذيب الرب ونقض إيمانه بالله وتصديقه وطاعته، ورد أمره عليه وكذب بقوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران: ٨٥. ومن صحح دين الكفار أو لم يكفرهم فقد اعتقد وجود دين مقبول عند الله تعالى غير دين الإسلام ومعلوم أنه ما ثم إلا الإسلام أو الكفر ، لأنه كل من ليس بمسلم فهو كافر ولا يجتمع إسلام وكفر وتوحيد وشرك في عبد فإذا وجد أحدهما انتفى الآخر فهما نقيضان لولا بد من وجود أحدهما ، ومن لم يكفر الكفار فلا شك أنه حاكم بإسلامهم وبالتالي يكون دينهم مقبولا عند الله فكذب بالآية وكفر بها .
فما جعله الله ﷻ كفراً وأمر بتكفير فاعله لم يجعله الذي لم يكفر الكفار كذلك.

فإذا حكم الله على شيء أنه كفر وكفّر فاعله وجب علينا الإيمان بذلك والعمل به ومن شك في ذلك فإنه مكذب لله ﷻ، فإذا حكم الله تعالى بكفر اليهود والنصارى ومن يتولاهم مثلا، أو حكم بكفر من دعا غير الله أو أشرك في حكمه وجاء بتشريع شركي، ثم أتى شخص وشك في هذا الأمر وقال: إنه ليس بكفر وإنما هو كفر دون كفر أو نحو ذلك فإن هذا من الشك الذي يعد كفرا ويكون مكذباً لله كافراً به .

قال أبا بطين : (فمن قال: إن من أتى بالشهادتين وصلى لا يجوز تكفيره وإن عبد غير الله فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر لأن قائل هذا القول مكذب لله ولرسوله وإجماع المسلمين) . الدرر ١٠ / ٢٥٠ ومجموعة الرسائل ١/ ٦٦٠ .

وقال بعضهم: (من لم يكفر المشركين ... فهو كافر مثلهم وإن كان يكره دينهم ويحب الإسلام فإن الذي لا يكفر المشركين غير مصدق بالقرآن) الدرر ٩/ ٢٩١ .

وقال القاضي عياض في الشفاء : (من أتى بالشهادتين وصلى وصام وعبد غير الله فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر مكذب لله ولرسوله).

الثاني : أنه نقض حقيقة الإسلام ولم يأتي بإسلام صحيح مقبول لأن من قواعد الإسلام العظام وحقائقه البراءة من المشركين وتكفيرهم فلا صحة للإسلام مع عدم تكفير المشركين. وقدمنا تبيين هذا الأصل عند الكلام عن علاقات التكفير.

قال العلماء في من قال لا أكفر المشركين ولا أتعرض للمسلم إذا وقع في الشرك ولا أكفره: (فهذا لا يكون مسلماً) الدرر ١٠/ ١٤٠ .

قال الشيخ: (لا يصح الإسلام إلا بالبراءة منهم وتكفيرهم) الدرر ١٠/ ٥٣ .

وقال عبداللطيف في المصباح: أن تكفير المرتدين داخل في مسمى الإسلام .

الثالث : أنه أبطل توحيده ووقع في الشرك، وقدمنا أن التوحيد لا يتصور وجوده بدون تكفير الكفار ومعاداتهم ولا يسمى توحيدا أصلا إذا افتقد التكفير ، كما قدمنا أن ترك التكفير داخل في الشرك وفي الإيمان بالطاغوت.

وقال الشيخ عبد اللطيف: (لا يُتصور أن أحداً يعرف التوحيد ويعمل به ولا يعادي المشركين ومن لم يعادهم لا يقال له عرف التوحيد وعمل به) الدرر ٨/ ٣٥٩.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (فلا يكون المرء موحدا إلا بنفي الشرك والبراءة منه وتكفير من فعله). الدرر٢/ ٢٠٥.

الرابع : أن تارك التكفير ومنكره انتقضت عنده الشهادتين وهدم أركانها وشروطها، كما تقدم تقريره ، لأن من قال لا إله إلا الله فلازمه أن يوالي أصحابها

ويعادي أعداءها ويكفرهم، وهذا النفي الذي هو من أركانها وهو الكفر بالطاغوت فمن لم يكفر المشركين فما والى وما عادى أعداءه وما كفر بالطاغوت وما حقق النفي والبراءة والتجرد والخلوص من الشرك وأهله والذي دلت عليه لفظة (لا إله) المتضمنة نفي العبادة عما سوى الله والكفر بالطاغوت والكفر والشرك وتكفير أهله.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (لا بد من تكفيرهم وهذا مقتضى لا إله إلا الله كلمة الإخلاص، فلا يتم معناها إلا بتكفير من جعل لله شريكاً) الدرر٢/ ٢٠٥ .

وقال: (التكفير من معنى لا إله إلا الله مطابقة). الدرر١١ / ٥٢٣ .

قال الإمام محمد: (من قال: أنا لا أتعرض السادة والقباب ، فهذا كاذب في قول لا إله إلا الله ولم يؤمن بالله ولم يكفر بالطاغوت) الرسائل ٤/ ٣٣ .

الخامس : أنه وقع في الإيمان بالطاغوت وما كفر بالطاغوت كما تقدم:

قال الشيخ محمد في من لا يكفر إنه: (لم يكفر بالطاغوت) الرسائل ٤/ ٣٣ .

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (لو عرف العبد معنى لا إله إلا الله لعرف أن من شك أو تردد في كفر من أشرك أنه لم يكفر بالطاغوت). الدرر١١ / ٥٢٣.

السادس : أنه كفر بعقيدة الولاء والبراء ونقضها:

لأن أعظم حقائق الولاء والبراء تكفير الكفار ومعاداتهم.

قال ابن تيمية : (تحقيق التوحيد يقتضي أن لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يوالي ولا يعادي إلا لله وأن يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه) المجموع ٨/ ٣٣٧ .

فمن ترك تكفير المشركين فإنه باللزوم قد صحح دينهم وحكم بإسلامهم وأنهم من أولياء الله تعالى، وبالتالي يصير موالياً لهم معادياً لله ﷻ بأفعاله وإن ادعى أنه يحب الله تعالى غير كافر بالطاغوت ولا بنفي الألوهية عمن سوى الله ﷻ .

السابع : أنه واقع في كفر الشك والريب .

حيث نقض اليقين الذي هو من شرط قبول التوحيد والإسلام، ومن حصل في قلبه شك في شيء من أمور الدين فقد خرج من الدين .

فتارك التكفير لم يحقق اليقين الذي هو أحد شروط شهادة لا إله إلا الله، وذلك بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً وكفر من نقضها، فإن الإيمان لا يغني فيه إلاّ اليقين وإذا دخله الشك والظن فقد انتقض يقينه .

فالريب والشك والظن مناقض للإيمان والتصديق وهو من صفات الكفار وأسباب كفرهم .

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ الجاثية: ٣٢. فكانوا بهذا الظن وعدم اليقين كفارا .
وقال فيهم : ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ إبراهيم: ٩ - ١٠.
قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ الحجرات: ١٥.
وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٠٤.

الثامن : أنه واقع في كفر الإنكار والرد .
أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة ورده ، وإذا كان التكفير ركن في التوحيد ومن الكفر بالطاغوت فإن من رده وأنكره فهو كافر بلا خلاف وهو أشد كفرا ممن أنكر وجوب الصلاة والزكاة وتحريم الزنا والربا وأنكر البعث . لأن إنكار شيء من أمور التوحيد أعظم من إنكار غيره .
التاسع : كما أن من لم يكفر يعتبر قد جمع جملة من النواقض الكفرية منها أنه معرض عن الانقياد للرسول ﷺ ومتول عن طاعته وحكمه في الكفار وهديه في البراءة منهم وتكفيرهم وكافر بملة إبراهيم الله.
عليه فالإسلام بدون تكفير المشركين لا يكون مقبولاً، والتوحيد بدون الكفر بالطاغوت وتكفير المشركين لا يقبل، وهذا هو حقيقة لا إله إلا الله، عبادة الله والبراءة من عبادة غيره .

المسألة الخامسة عشرة: علاقة هذا الناقض ببقية النواقض :
الأصل أن عدم التكفير ناقض مستقل من نواقض الإسلام وذكرنا أوجه كونه ناقضا من حيث نقض التوحيد والكفر بالطاغوت والإسلام وتكذيب الله.
وله علاقة بنواقض أخرى كالشرك والمظاهرة والإعراض والبغض والحكم .
ويزيد هذا الناقض غلظة إذا حورب وأبغض ورمي أهله بأنهم خوارج.
كما يزيد هذا الناقض كفرا إذا كان له قانون يحميه وتشريع يعاقب من يكفّر.
فيصيره إلى ثلاثة نواقض عدم التكفير والبغض وشرك التشريع والحكم .

السادسة عشرة : من أنكر هذا الناقض وجحد وجوده فهو كافر بإجماع:

من أنكر تكفير المشركين المنتسبين للإسلام بالكلية، أو حكم بإسلام الكفار مطلقا لنطقهم بالشهادتين، أو قال باجتماع الإسلام والشرك الأكبر في عبد، أو أنكر أن يكون شيئٌ من نواقض الإسلام الظاهرة كفراً كأن يقول دعاء الأموات ليس بشرك، فهذا كافر مطلقاً لأنه لم يأت بحقيقة الإسلام والكفر بالطاغوت ، ومن هذه حاله لا يعذر بجهله ، والأدلة على هذا الأصل كثيرة وتقدمت .

وإذا كان من لم يكفر المشركين ليس عنده من الإسلام شيء ولا يعد محققا لشهادة التوحيد ولا كافرا بالطاغوت كما تقدم بيانه، فما بالك بحكم من أنكر حكم التكفير للمشركين والمرتدين ، إنه أشد كفرا ولا يعذر بجهله .

وهذا الإنكار والجحد والإعراض والرد والشك لأصل التكفير يقوم على شبهه المرجئة كقولهم : ما كلفنا الله بتكفير المشركين المرتدين ولن يسألنا عن الناس ، أو يقول هذا العمل كفر ولا أكفر فاعله، أو التكفير خطير، أو من خصائص الحكام.

وقد رد عليها الإمام محمد بن عبدالوهاب يقول في بعض رسائله الشخصية: (واكفروا بالطواغيت وعادوهم وأبغضوهم وأبغضوا من أحبهم وجادل عنهم أو لم يكفرهم وقال ما علي منهم أو قال : ما كلفني الله بهم فقد كذب على الله وافترى فقد كلفه الله بهم وفرض عليه الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا إخوانهم وأولادهم) .

فانظر كيف كذّب الشيخ رحمه الله من قال: أن الله ما كلفني بتكفير المشركين المرتدين بل الله ﷻ كلفنا وأمرنا أن نكفر المشركين والمرتدين .

وهل عودي الرسول ﷺ إلا لأنه سفه أحلام المشركين وقاتلهم وكفرهم .

ومن أقوال العلماء في كفر تارك التكفير ومنكره :

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: (من قال: أنا لا أعبد إلا الله ، وأنا لا أتعرض السادة والقباب على القبور وأمثال ذلك ، فهذا كاذب في قول لا إله إلا الله ولم يؤمن بالله ولم يكفر بالطاغوت) مجموعة الرسائل ٤ / ٣٣ والدرر ٢/ ١٢١.

وقال الشيخ عبد الله بن محمد وأخوه حسين : (فمن قال لا أعادي المشركين أو عاداهم ولم يكفّرهم أو قال لا أتعرض أهل لا إله إلا الله ولو فعلوا الكفر والشرك وعادو دين الله أو ارتدوا وقال لا أتعرض للقباب فهذا لا يكون مسلماً والله سبحانه وتعالى أوجب معاداة المشركين ومنابذتهم وتكفيرهم) الدرر ١٠/ ١٤٠ .

وقال الشيخ عبد الله أبا بطين : (ومن العجب أن بعض الناس إذا سمع من يتكلم في معناها نفيا وإثباتا عاب ذلك وقال لسنا مكلفين بالناس والقول فيهم فيقال له بل أنت مكلف بمعرفة التوحيد وضده هو الشرك) الانتصار ١٦ .

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله:(وإن كان يقول أقول غيرهم كفار ولا أقول هم كفار فهذا حكم منه بإسلامهم إذ لا واسطة بين الكفر والإسلام فإن لم يكونوا كفاراً فهم مسلمون وحينئذ يسمى الكفر إسلاما ويسمى الكفار مسلمين فهو كافر) الدرر ٨/ ١٦٠.

هذا حكم من أنكر تكفير المشركين .

أما حكم من أنكر الناقض الثالث (تكفير من لم يكفر المشركين) :

فكفره حاصل من عدة أوجه:

١- أنه نقض عقيدة الكفر بالطاغوت، ولم يحقق التوحيد الذي منه التكفير.

٢- أنه أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة .

٣- أنه أنكر ناقضا من نواقض الإسلام ولم يجعله كفرا وهذا مذهب الجهمية الذين كفرهم السلف لقولهم في الإيمان ومن فروعه إنكار النواقض عدى التكذيب.

قال الشيخ عبد الله أبا بطين: (فمن قال: إن من أتى بالشهادتين وصلى لا يجوز تكفيره وإن عبد غير الله فهو كافر ومن شك في كفره فهو كافر لأن قائل هذا القول مكذب لله ولرسوله) مجموعة الرسائل ١/ ٦٦٠.

قال ابن تيمية : (من قال إن من تكلم بالشهادتين ولم يؤد الفرائض ولم يجتنب المحارم يدخل الجنة ، ولا يعذب أحدا منهم بالنار ، فهو كافر مرتد) ٣٥/ ١٠٦.

كفر من جعل تكفير المشركين والمرتدين من مذهب الخوارج :

قال الشيخ عبد الله بن محمد : (فمن أنكر ذلك وأبغضه وسب أهله وسماهم بالخوارج فهو الكافر الذي يجب قتاله حتى يكون الدين كله لله بإجماع) الدرر ١٨١ .

قال الشيخ عبد اللطيف : (فمن كفّر المسلمين أهل التوحيد أو فتنهم بالقتال والتعذيب فهو من شر أصناف الكفار) الدرر ١٢/ ٢٦٢.

وقال عبدالرحمن بن حسن في الدرر ١١/ ٤٤٨: (فصار من هؤلاء المشركين من يكفّر أهل التوحيد بمحض الإخلاص وإنكارهم على أهل الشرك فلهذا قالوا أنتم خوارج كما أشار ابن القيم إلى مثل هذه الحال في زمانه بقوله :

من لي بشبه خوارج قد كفروا بالذنب تأويلا بلا إحسان
وخصومنا قد كفرونا بالذي هو غاية التوحيد والإيمان).

قلت ما أشبه الليلة بالبارحة بليالي أئمة الدعوة وابن القيم وابن تيمية وليالي أهل السنة في كل زمان مع أعدائهم أولياء الطاغوت حيث تراهم أعزة على المؤمنين الموحدين أذلة على المشركين والمرتدين والمنافقين، فهم خوارج مكفرون لأهل التوحيد مرجئة غلاة مع المرتدين والمشركين. فانظر كيف جعلوا من يكفّر عباد القبور والمشرعين للقوانين والحاكمين بها والموالين للكفار والمظاهرين لهم من الخوارج الذين تستباحُ دماؤهم ويجب تكفيرهم، فقلبوا وجه المجن وانقلبوا على أهل التوحيد فبدل أن يكفّروا المرتدين كفّروا الموحدين وما قاله الشيخ عبدالرحمن وابنه ومن معه من أئمة دعوة التوحيد وقبلهم ابن القيم قد رأيناه في زماننا وما واجهته بنا مرجئة عصرنا أفراخ الجهمية الأولى .

مأخذ : (فتنة التكفير) عبارة إرجائية بدعية :

ظهرت في زمان الإرجاء عبارات مخالفة للمعتقد الصحيح، ومن ذلك قول أولياء الردة وأهلها فتنة التكفير وهذه عبارة كاذبة خاطئة، فالتكفير عبادة وليست فتنة، وإنما الفتنة كل الفتنة في ترك هذه العبادة، وقد صرح ربنا في نص كتابة أن الشرك وترك التكفير من الفتنة التي هي أشد من القتل وعباد الدنيا وعلماء الأمن والراحة جعلوا القتل والجهاد وتكفير المشركين من الفتنة المضلة ولم يفرقوا بين الغلو في التكفير ومنهج الخوارج وبين الكفر بالطاغوت القائم على تكفير المشركين .

ومن عبارتهم الفاسدة إتيانهم بمسمى التكفيريين وهي تسمية قصدوا بها أهل التوحيد الذين يكفرون المرتدين، وأرادوا من ورائها محاربة تكفير المشركين والكفر بالطاغوت وصد الناس عن التوحيد .

تنبيه: تكفير المشرك المرتد محل إجماع لا خلاف فيه ومن زعم الخلاف فيه فهو كافر ومن عذره بجهله وسماه مسلما فهو ضال جاهل واختلف في تكفيره .

لأنه لا يمكن أن يجتمع الإسلام والشرك الأكبر في عبد ألبته، فمن عبد غير الله ﷻ لا يكون مسلما، فلا يتصور إسلام بدون عبادة الله ولا يقال لشخص إنه مسلم وهو يعبد غير الله، ولا يكون مسلما موحدا حتى يترك الشرك بالكلية.

فكما لا يقال مسلم نصراني فكذلك لا يقال مسلم مشرك .

وكما يقال في من تنصر يكفر بمجرد دخوله في النصرانية ولو ظن أنه يمكن الجمع بينها فيدخل فيها مع بقائه على الإسلام ولا ينظر في الشروط والموانع وإقامة الحجة قبل تكفيره، فكذا يقال ذلك في من عبد القبور ودعا الأموات وحكم بغير ما أنزل الله وتحاكم إلى الطاغوت ودخل في دين المشركين مع ظنه البقاء على الإسلام.

قال الشيخ عبد اللطيف: (من فعل الشرك فقد ترك التوحيد فإنهما ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان) منهاج التأسيس ص٦.

تنبيه: ينقسم الكفّار إلى أصليين مرتدين ولا فرق في الحكم بينهم ولا نفرق في هذا الناقض بين من شك في كفر المشرك الأصلي وبين من شك في كفر المرتد.

وبعض الذين ما فقهوا معنى لا إله إلا الله يظن أن هذا الحكم في هذا الناقض خاص بالكفار الأصليين وأن الله ﷻ ما أمرنا بأن نكفر المشركين المرتدين ولم يكلفنا الله بتكفيرهم، وهذا كذب على الله وافتراء.

عليه فمن شك في كفر المشرك أصليا كان أو مرتدا فإنه يكفر ويخرج من الملة.

المسألة السابعة عشرة: حالات تاركي التكفير ودرجاتهم:

الحالة الأولى: من يقول دعاء الأموات ليس بكفر، أو تشريع القوانين والتحاكم لها ليس بكفر، أو تولي الكفار ليس بكفر، أو الاعتراف بدين النصرانية واليهودية أو الدخول فيها ليس بكفر، فلا يجعل الفعل الشركي الكفري كفرا.

الحالة الثانية: من يقول إن هذه الأعمال كفر، لكن لا أكفر من وقع فيها أو إن فعله وحاله يدل على ذلك فهو لا يكفر من يفعل الشرك ونواقض الإسلام ويمسك عن تكفير عموم الكفار، فيرى أن من قال لا إله إلا الله لا يكفر مطلقاً.

الحالة الثالثة: أن يكفر الفعل والفاعل بالعموم دون الأعيان فيقول مثلاً عباد القبور كفار أو وقعوا في الكفر لكن لا أكفر أعيانهم ويعتذر للمعين وترك تكفيره.

وأشدهم كفرا الأول الذي أنكر الكفر وتكفير الفعل ولم يجعله كفرا، ثم الثاني الذي أنكر مبدأ التكفير بالكلية، ثم الثالث الذي أنكر تكفير المعين.

قاعدة: من جعل الكفر المجمع عليه خلافيا أو من الكفر الأصغر أو أنها لا تكون كفرا إلا إذا قارنها الاستحلال فهو كافر، كمن قال ذلك في دعاء القبور أو تشريع القوانين أو تولي الكفار ومظاهرتهم أو الامتناع عن تكفير من كفره الله من المرتدين أو الاستهزاء بالدين أو بغضه أو السحر أو غيرها من نواقض الإسلام.

الثامنة عشرة : أصناف وأحوال من لم يكفر:

الأول : المعتقد بقلبه عدم التكفير أو الشاك .

الثاني : المصرح بقوله والممتنع بجوارحه عن تكفير الكفار ومعاداتهم .

الثالث: المجادل عنهم والمدافع ومن ينكر على من يكفر.

التاسعة عشرة : الأقوال في نواقض الإسلام :

الأول : مذهب المرجئة: يجعلونها كفرا لأنها دليل على كفر الباطن فيكفّرون بها ، لكن مناط الكفر فيها ليس عمل الجوارح الظاهر وإنما لما يتعلق بها من كفر القلب.

الثاني: مذهب الجهمية غلاة المرجئة ومن وافقهم من علماء السوء:

قالوا إنها ليست كفرا وإنما معصية ولا تكون كفرا إلا إذا قارنها بغض الإسلام وجحوده أو استحلالها وحب الكفر،وهؤلاء كفار وأجمع السلف على تكفير الجهمية لقولهم هذا في الإيمان بخلاف المرجئة يبدعون ولا يكفرون ، وذكرنا أقوالهم.

تنبيه : من قال بقول الجهمية هذا من أهل السنة فإن كان الشرك ودعاء الأموات فإنه يكفر مطلقا وإن كان مظاهرة الكفار أو ترك جنس العمل فقوله كفر بلا خلاف لكن لا نكفره إلا بعد إقامة الحجة عليه وزوال الشبهة.

الثالث : قول علماء السوء :

يجوزون كل ناقض إرضاء للناس وطلبا للدنيا، فيزعمون أن فيه مصلحة أو عدل ، وهؤلاء كفار بلا شك ولا يجوز التوقف فيهم ولا عذرهم بالتأويل.

الرابع : من يقول بكفر الناقض ولكن لا يكفر فاعله :

إما بدعوى أنه غير ملزم بالتكفير ، أو يظن أن المنتسب للإسلام لا يكفّر ، أو يكفّر بالعموم دون الأعيان ، أو يكفر الفعل دون الفاعل، أو يتوقف لاعتقاد وجود مانع في المرتد من جهل أو تأويل أو إكراه، أو لم يتبين له حال فاعل الكفر وهل فعله.

والكلام في هؤلاء فيه تفصيل ، ويختلف الحكم فيهم فمنهم من يكفر ومنهم من لا يكفر ، كما هو مبين في مسائل الباب .

المسألة العشرون : أسباب عدم التكفير:

الأول : من يرى أن الفعل غير مكفر : وهذا كفر مطلقاً وهو أشد من الفاعل:

كأن يظن أن دعاء الأموات ليست عبادة شركية إلا إذا اعتقد فيهم الربوبية، أو أن شرك التشريع ليس من الشرك الذي يكفر فاعله إلا إذا استحله وفضله، أو أن

تولي الكفار ومظاهرتهم لا تكون كفرا إلا إذا والاهم لدينهم وأبغض الإسلام وأحب الكفر ، أو أن إنكار العلو وصفات الله ليس بكفر أو سب الدين ليس كفرا أو السحر ليس بكفر مع علمه بحقيقة السحر وأنها لا تكون إلا بعد الشرك بالجن .

الثاني : من لا يخالف في الكفر وإنما في التكفير وهم أصناف وحكمهم يختلف:

١- فمنهم من يظن أنه غير ملزم بالتكفير ، فلا يقوم بالتوحيد الواجب.

٢- أو يظن أن المسلم إذا وقع في الكفر لا يكفّر لأنه ينطق بالشهادتين ويصلي.

٣- أو أنه يكفّر بالعموم دون الأعيان .

٤- أو أنه يكفر الفعل دون الفاعل.

فيقول عباد القبور كفار أو فعلهم كفر ويمتنع من تكفير المعين منهم .

٥- أن يقول هناك شروط للتكفير وموانع ولا بد من قيام الحجة وزوال الشبهة، فيعذرهم بالجهل ولا يكفرهم .

٦- أن لا يتبين له حال الفاعل وأنه عمل الكفر أو أن ما فعله يحتمل الأمرين.

تنبيه : حكم العاذر بالجهل والمتوقف عن التكفير لشبهة :

هذا الصنف لا يكفّر ولا يقال عنه إنه غير كافر بالطاغوت، وهذا الحكم من حيث الأصل ، وهو في المجتهد المخطئ ، أما المفرط والمتلاعب فقد يكفر ولا يعذر.

المسألة الحادية والعشرون : شروط تكفير من لم يكفر المرتد :

الشرط الأول : أن يكون الكفر مجمعا عليه بين أهل السنة.

ويخرج بهذا الشرط الكفر المختلف فيه بين أهل السنة والذي حصل الخلاف في تكفير فاعله بينهم ، ومن أمثلة هذا الباب كفر تارك الحج والصيام والزكاة، ومتأول بعض الصفات فهذه وغيرها محل خلاف هل يكفر من وقع فيها أو لا يكفر، فيقال من توقف أو شك في كفر هؤلاء فإنه لا يكفر، لأنه شك في أمر مختلف فيه .

تنبيه : قولنا المختلف فيه بين أهل السنة : يخرج خلاف من لا يعتد بقوله ولا يعتبر بخلافه كمن خالف في دعاء غير الله أو إنكار علو الله تعالى أو شرك التشريع وسن القوانين وجعلها من الكفر الأصغر من المرجئة ومن تابعهم من الجهال وكذا من جعل مظاهرة الكفار معصية وليست بكفر فلا ينظر في قوله ، وخلافهم لا يجعل هذه الكفريات من الكفر المختلف فيه .

الشرط الثاني : أن يكون الواقع في الكفر من المشتهرين بالردة والذين تبين حالهم لأهل العلم ومن الذين انتفت عنهم موانع التكفير .

فإذا كان الإنسان قد اشتهر عنه الكفر وتبين للناس وعلموا حاله مبغضا لدين الله ساخرا بشعائره محارباً أولياءه متوليا أعداءه مشرعاً للقوانين فإن التوقف في تكفير مثل هذا من الكفر الداخل في هذا الناقض ، ولو قال إنسان أنا ما تبين لي وما رأيته يكفر فيقال له ليس شرطاً أن ترى كل إنسان وقع في الكفر كما قدمنا .

الشرط الثالث : قيام الحجة على من لم يكفر أو شك أو توقف في كفر الكافر :

فإن الذي يشك في كفر الكافر لابد من إقامة الحجة عليه .

فلا بد من أن تبين لتارك التكفير أمرين :

الأول: أن يبين له حقيقة الكفر الذي وقع فيه هذا الكافر الذي ترك تكفيره ، فتثبت له أن هذا المعين وقع في الكفر البواح وأنه لا عذر له ولا مانع من تكفيره .

الثاني : أن يبين له أن التكفير واجب لا يجوز تركه، وأنه من التوحيد وأصل الدين ومن حقيقة الكفر بالطاغوت الذي لا يصير المسلم مسلما إلا به .

قال أبو حاتم وأبو زرعة في ضبط وتقييد تكفير من لم يكفر: (من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر ومن شك في كفره ممن يفهم فهو كافر) . اللالكائي ٣٢١ .

وكذا قال ابن تيمية: (فهذا كله كفر، ومن شك في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر) الفتاوى ٢/ ٣٦٨ .

فإذا رأيت من يتوقف في كفر مرتد معين فإنك تقيم الحجة عليه في هذين الأمرين فإذا أزلت الشبهة عنه حقيقة وبينت له ثم امتنع من تكفيره من غير شبهة أو تأويل معتبر عند العلماء، فهذا يصير كافرا واقعا في هذا الناقض والعياذ بالله، وكثير من الذين كفرهم أهل العلم كانوا على هذه الصفة وهي الامتناع من تكفير المشركين عباد القبور ، وجعلوهم من أصناف المشركين الذين نقضوا التوحيد وخالفوه.

عليه فمن لم يكفر الكافر فهو كافر بشروط ، فهذه القاعدة مقيدة بشروط وليست مطلقة، والشرط الأول متعلق بذات الكفر ، والشرط الثاني متعلق بالكافر الذي وقع في الشرك والشرط الثالث متعلق بالشاك، فإذا نظرنا إلى هذه الشروط وقد توفرت فهنا نقول : أن من توقف في كفر المرتد المعين أو وقع له الشك فيه ، فيعد ممن لم يكفّر المشركين والمرتدين ويحقق الكفر بالطاغوت فيكفر بذلك ويخرج من الملة .

الثانية والعشرون : إقامة الحجة على من شك وتوقف في كفر الكافر :

من شك في كفر الكافر أو توقف فيه عن لبس وشبهة ونحو ذلك فإنه يجب أن تقام عليه الحجة قبل تكفيره خصوصاً فيما يخفى دليله وذلك بإتباع خطوات .

أولا : يبين له أن هذا العمل كفر بالدليل، فإن لم يسلم وكان الأمر بيّناً واضحاً فهو كافر، ويعتبر بذلك مجيزا للكفر راضيا به ويعد كافرا كفاعله ولو لم يفعل الكفر، أما إن كانت المسألة مشتبهة وبقيت عنده الشبهة فلا يكفّر.

تنبيه : لا يدخل الشرك وعبادة غير الله في هذا التفصيل فمجرد الشك في كفر الشرك يعتبر كفرا ، وإنما الكلام عن المسائل التي قد يحصل فيها اشتباه كمن يظن أن مظاهرة الكفار لا تكون كفرا إلا إذا كانت للدين وترك جنس العمل لا يكون كفرا .

ثانياً : أن يبيّن له وجوب تكفير من وقع في مكفر .

ثالثاً : فإن أقر بذلك، بيّن لهذا المتوقف أن هذا المعين فعل الكفر وثبت وقوعه في المكفر ، وليس عنده عذر ولا شبهة معه والحجة عليه قائمة مما يوجب تكفيره.

فإن كانت لهذا المتوقف شبهة أزيلت عنه وذلك بإثبات وقوع المعين في الكفر الصريح ثم إثبات انتفاء الموانع عنه وإثبات توافر الشروط والأسباب في حقه .

فإن قال مثلا عن هذا الإنسان الواقع في الردة لعله جاهل أو لعله مكره أو لعله ما قامت عليه الحجة ونحو ذلك بين له أنه ليس بجاهل ولا مكره ويؤتى بالدليل على عدم جهله وإكراهه وانتفاء الموانع عنه .

فإن أبى هذا المتوقف والشاك من تكفيره بعد ذلك لعدم الاقتناع أو لعدم وجود الإجماع على تكفيره أو التورع البارد أو خوف الفتنة محاولة تلمس عذر لا وجه له وهو يعلم حقيقة الأمر أو إثارة الشبهات أو غير ذلك مما يعتبر من الفرار من إنزال حكم التكفير الذي أمرنا الله به في محله والهرب من الكفر بالطاغوت، فهذا بعد ذلك يكفر لأنه شك في كفر الكافر .

المسألة الثالثة والعشرون : الفرق بين الخلاف في الكفر والتكفير :

المخالف في الكفر المجمع عليه يعد كفراً .

وأما المخالف في التكفير فقد يكون كافرا أو مبتدعا أو معذورا .

قاعدة : التفريق بين الواقع في الشرك وبين المتوقف في كفره :

فالأول كافر مطلقا ولا يجوز التوقف في تكفيره .

والثاني لا يكفّر مطلقا بل يعذر في بعض الحالات لوجود شبهة فلا نكفره إلا بعد قيام الحجة وزوال الشبهة، وكوننا لا نكفر من لم يكفر المعين، لا يعني أنه ليس بمخطئ بل يعد واقعاً في ناقض من حيث الأصل .

فكون من عذرهم وحكم بإسلامهم واقع في ناقض لا خلاف في ذلك ، لكن تكفيرهم يكون بعد زوال الشبهة عنهم ، وإليك كلام أهل العلم في تقرير ذلك:

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رسالته لمن توقف في تكفير الطواغيت المشركين لأن الحجة لم تقم عليه ومع ذلك لم يكفرهم وإن كان أثبت أن ما هم عليه من توقف من الكفر : (وأنكم شاكون في هؤلاء الطواغيت وأتباعهم هل قامت عليهم الحجة ، فهذا من العجب كيف تشكون وقد أوضحته لكم مرارا... إذا علمتم ذلك فإن هذا الذي أنتم فيه كفر ... فإن كان معكم بعض الإشكال فارغبوا إلى الله أن يزيله عنكم والسلام) الرسائل الشخصية ٢٤٤ .

وقال: (فهؤلاء الطواغيت الذين يعتقد الناس فيهم من أهل الخرج وغيرهم كلهم كفار مرتدون عن الإسلام ومن جادل عنهم أو أنكر على من كفرهم أو زعم أن فعلهم هذا لو كان باطلا فلا يخرجهم من الإسلام فأقل أحواله أنه فاسق لا يصلى خلفه ، بل لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء وتكفيرهم) الدرر ١٠/ ٥٢.

وتأمل فالشيخ لم يجزم بكفر من عذر المشركين مع تقريره للأصل وهو أن من لم يكفّر فهو لم يأت بحقيقة الإسلام ، ومما هو مقرر من عقيدة أهل السنة أن للتكفير موانع وشروط إذا تعلق به شبهة فيلحق بالمسائل الخفية.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: (من كان شاكا في كفرهم أو جاهلاً بكفرهم بينت له الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله على كفرهم فإن شك بعد ذلك أو تردد فإنه كافر بإجماع العلماء على أن من شك في كفر الكافر فهو كافر) الدرر ٨/ ١٦٠.

قال ابن عتيق : (وأما هذا الذي ألقى هذه الشبهة إليكم فيجب تعريفه وإقامة الحجة عليه فإن اعترف بالحق وبطلان ما عليه أهل البدع من الاتحادية فهو المطلوب، وإن لم يفعل وجب هجرة إن لم يتيسر قتله) . الدرر ٣/ ٣٥٧ .

قال الشيخ محمد بن عبد اللطيف : (ومن شك في كفره فلا بد من إقامة الحجة عليه وبيان أن هذا كفر وشرك .. فإن أقيمت الحجة عليه وأصر فلا شك في كفره) .

قال الشيخ ابن سحمان: (الإخوان كانوا على طريق مستقيم فكفروا من كفره الله وهجروا من السلام من لم يكفرهم ... يبرؤون إلى الله من تكفير هؤلاء الذابين

والمجادلين... ويقولون إنما الكلام في الجهمية وعباد القبور ويقولون لم يصدر منا على من جادل عنهم إلا الإنكار عليهم وهجرهم) كشف الشبهتين٥٠/ ٦٩ .

وقال الشيوخ ابن باز وعفيفي وابن قعود وابن غديان: (لا يجوز لطائفة الموحدين الذين يعتقدون كفر عباد القبور أن يكفروا إخوانهم الموحدين الذين توقفوا في كفرهم حتى تقوم عليهم الحجة لأن توقفهم عن تكفيرهم له شبهة وهي اعتقاد أنه لا بد من إقامة الحجة على القبوريين قبل تكفيرهم وهذا بخلاف من لا شبهة له في كفره كاليهود والنصارى وأشباههم فهؤلاء لا شبهة في كفرهم ولا في كفر من لم يكفرهم) فتاوى اللجنة ٢/ ٩٣.

قال الشيخ سليمان بن سحمان في كشف الأوهام : (ثم لو قدر أن أحدا من العلماء توقف عن القول بكفر أحد من هؤلاء الجهال المقلدين لعباد القبور ، أمكن أن نعتذر عنه لأنه مخطئ معذور ... وأما تكفيره أعني المخطئ الغالط فهو من الكذب والإلزام الباطل، فإنه لم يكفر أحد من العلماء أحد إذا توقف في كفر أحد بسبب من الأسباب التي يعذر بها العالم إذا أخطأ ولم يقم عنده دليل على كفر من قام به هذا الوصف ، بل إذا بين له ثم بعد ذلك عاند وكابر وأصر) .

عليه فمن لم يكفر الكافر والواقع في الشرك عن عدم تبين إما لوجود الشبهة أو احتمال وجود الموانع وعدم توفر الشروط ، وليس هرباً من الحكم بالتوحيد ولا إعراضاً عن تنزيل أحكامه والتزامه وتطبيق الكفر بالطاغوت وتكفير المشركين، ففي هذه الحالة لا يبدع فضلا عن أن يكفر ولا يعد ممن توقف وشك في كفر المشركين .

ومن كفّر هذا النوع قبل إقامة الحجة عليه فهو مخطئ ولا يقال أنه من الخوارج لأنه كفره بمكفر، ومن كفره لأنه رأى الحجة عليه قد قامت فله وجه.

المسألة الرابعة والعشرون : اختلاف الناس في تكفير المعين :

قد يوجد من يقع في أمر كفري ومع ذلك يختلف أهل العلم في تكفيره :

فالمكفر يقول : ليس بجاهل وليس بمكره فينفي عنه الموانع ويرى فيه اجتماع الشروط وأن الحجة فيه قامت وأنه مقيم ببلاد الإسلام وأن القرآن بلغه ونحو ذلك .

بينما الذي لا يكفره يقول : لم يتحقق منه الوقوع في صورة الكفر أو ما قامت الحجة عليه والمسألة خفية أو يوجد مانع من تكفيره ونحو ذلك فيتوقف فيه .

ولذلك لا يستغرب أن يختلف الناس في كفر معين فاختلف السلف مثلا في كفر الحجاج ، ولم يكفر أو يبدع المختلفون بعضهم .

كما اختلفوا في كثير من الأعيان والمعنيين وهذه مسائل مشهورة معروفة، فلا يسارع الإنسان في تكفير كل من لم يكفر المرتد لعدم تبين الحق له، بحجة أنه شك في كفر المشركين ويتناسى الشروط والموانع .

قال ابن تيمية : (وسبب هذا التنازع تعارض الأدلة فإنهم يرون أدلة توجب إلحاق أحكام الكفر بهم ثم إنهم يرون من الأعيان الذين قالوا تلك المقالات من قام به من الإيمان ما يمتنع أن يكون كافرا) الفتاوى ١٢/ ٤٨٧ .

وعلى ذلك يقال : مسائل التكفير العذر بالجهل وقيام الحجة وموانع التكفير وشروطه هذه من المسائل الاجتهادية وأحكام التطبيقات لا من التأصيل، فقد يكون الخلاف فيها معتبر وحاصل بين أهل السنة .

فائدة : كونك تكفر المشركين والمرتدين وغيرهم فأنت على الحق، ومن توقف في تكفيرهم فقد يكون منعته شهوة أو شبهة، فأحمد الله الذي هداك للحق وعافاك .

المسألة الخامسة والعشرون : هل يعذر الإنسان بإعراضه عن التكفير :

من رأى الكفر الصريح وبلغه كلام أهل العلم في تكفير معين أو طائفة ، ومع ذلك لا يكفّرهم ولا يعاديهم من غير شبهة ، كمن يعيش بين الرافضة* أو البهائية أو من يسب الدين ويحارب أهله ويرى الكفر الصريح منهم ثم يمتنع عن تكفّيرهم بدعوى أنهم جهّال ولم تقم الحجة عليهم، فإن هذا يعتبر واقعاً في هذا الناقض، وقد كفر أئمة الدعوة من اتصف بذلك ولم يعذروه وتقدم كلامهم، وكفر الصحابة من امتنع عن تكفير المرتدين وألزموا من أراد التوبة أن يشهد أن قتلاهم في النار.

وإنما الذي يصح أن يعذر في تركه للتكفير هو من لم يظهر له الكفر ولم يتبين له ردة ذلك المعين، أو يرى أن هناك مانعا حقيقيا من تكفيره، أو أن كفره في أمور خفية.

* كما هو حال بعض المعلمين الذين يدرسون أبناء الروافض في مدارسهم في القطيف والأحساء والمدينة ونجران ومع ذلك لا يكفرهم ويعذرهم بالجهل ويقول الحجة ما قامت عليهم مع كونهم يدرسونهم التوحيد كل يوم لعدة سنوات ويرى ما هم عليه من الشرك الصريح ومع ذلك يحكم بإسلامهم ، ويخشى على هؤلاء من الردة .

تنبيه : لا يلزم البحث عن حال المعين وعقيدة كل شخص بل يعمل بالأصل وهو تكفير الكافر وسلامة المسلم من المكفرات، فمن قال: (لا إله إلا الله) وادعى الإسلام حكمنا بإسلامه حتى يظهر لنا كفر منه فإذا ظهر كفره واشتهر عنه كفرناه، ومتى ما سمع المسلم بوجود الكفر أو شك في تحققه فإن هذا يجب في حقه البحث وتطبيق الحكم على هذا المعين عملا بالتوحيد والولاء والبراء والكفر بالطاغوت.

وخالف في ذلك :

الخوارج المعاصرة الذين يقولون أن الأصل في الناس اليوم الكفر .

والمشركون الجهمية القائلون لا يلزمنا الحكم على الناس لم نتعبد بالتكفير .

السادسة والعشرون : بيان أنواع الكفار والمقصود بالمشركين في هذا الناقض:

أهل الملل قسمان :

١- أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى واختلف في المجوس والصابئة .

٢- مشركون عباد أوثان ، يكفر من صرف العبادة لها ولو كان جاهلا ولو أنه من المنتسبين للإسلام ، فلا فرق .

المقصود بالمشركين في هذا الناقض :

الأول : المشركون أو الكفار الأصليون ، كاليهودي والنصراني والمجوسي والهندوسي والبوذي وغيرهم، فهذا من لم يكفره أو شك في كفره بعينه فهو كافر .

فمن قال: إن اليهود أو النصارى مسلمون لأن الله سماهم مسلمين، أو لا أعلم هل هم كفار أم لا، وهل هم من أهل النار أم لا ؟ أو إن رحمة الله قد تشملهم، أو أكفرهم بالعموم وأفعالهم ولا أكفّر أعيانهم، كما لو قال في يهودي أو نصراني ليس بكافر بعينه ، أو إنه قد يكون من أهل الجنة، أو إن دينه صحيح، وإنه صاحب دين سماوي، فهذا كافر لا ريب فيه ، ويعد مؤمناً بالطاغوت كافراً بالله مكذباً لله ﷻ ولرسوله ﷺ وللقرآن، وقد حكى أهل العلم الإجماع على كفره .

الثاني : المرتدون عن الإسلام بقول أو عمل أو اعتقاد ، وهم على أقسام :

القسم الأول : المرتد الذي وقع في كفر مجمع عليه والواضح ردّته :

كمن ادّعى النبوة أو تنصر أو ادّعى التشريع أو دعا الأموات واستغاث بالقبور أو شرع القوانين أو تحاكم إليها أو تولى الكفار وظاهرهم وأعانهم على أهل التوحيد أو سب الله واستهزاء بدينه أو حارب أهله .

ولا يختلف الحكم بين من قال هذه الأمور والأفعال ليست بكفر وبين أن يقر بأنها كفر لكن يمتنع عن تكفير فاعلها مطلقا . فكلاهما كافر واقع في هذا الناقض .

فمن شك في كفر مسيلمة أو القرامطة العبيديين أو الجهم أو ابن عربي أو الحلاج أو القادياني مدعي النبوة أو بشار الأسد أو غيرهم ممن أشتهر كفرهم ، فمجرد ما يعرف ماذا قال هؤلاء من الكفر فهنا إذا توقف فإنه يكفر إذا كان عالما بأقواله لأنه يعتبر شكا في أقوال وأعمال كفرية .

القسم الثاني : الذي وقع في كفر حصل اختلاف فيه : كتارك الصلاة كسلاً، أو تارك الزكاة تهاوناً وكذا تارك الصيام والحج، ومتأول بعض الصفات كأعيان الأشاعرة . فمن لم يكفر هذا فليس بكافر ، لورود الخلاف ووجود الشبهة.

القسم الثالث : المرتد المختلف في تكفيره بين أهل العلم، واشتبه حاله على بعضهم فلم يتحقق فيه هل قامت الحجة عليه أو لم تقم أو هل قام به مانع أو لا فهذا من شك في كفره فإنه لا يكفر ولو كان كافرا في الحقيقة .

إذن المقصود هنا الكفر والشرك المجمع عليه والمتبين حال صاحبه .

مما سبق تقريره يتبين لك أمورا :

الأول : أن قاعدة كفر من لم يكفر الكافر تشمل الكافر الأصلي والمرتد، فمن شك في كفر عباد القبور أو المشرعين ومنكر البعث كمن يشك في كفر اليهود والنصارى، وإن كانت الشبهة في حق من لم يكفر المرتد أظهر فقد يتعلق به لبس وشبهة وكونه يدعي الإسلام وينطق بالشهادتين وأنه متأول أو جاهل، لأجل ذلك كان لابد من إقامة الحجة على من لم يكفر المرتد المشرك وزوال الشبهة قبل تكفيره.

الثاني: أن المرتد الكافر ينقسم من ناحية وضوح كفرهم وعدمه إلى قسمين :

١- مرتد متبين حاله ومشتهر كفره وفعله مستفيض للناس وردته واضحة ، فإن هذا يجب تكفيره ومن توقف في تكفيره وهو عالم بكفره البواح فإنه يكفر .

٢- مرتد ملتبس أمره وخاف على الناس كفره ، إما لعدم ثبوت الكفر عليه ، أو لوجود الجهل بحاله وواقعه، أو لأنه لم يشتهر ويستفض كفره أو لم يظهر أو لم يتبين أو أنه ما عرف كفره إلا البعض أو لاحتمال قيام مانع به من إكراه أو جهل .

والحكم في الأول ليس كالحكم في الثاني، ومن شك في تكفير إنسان ظهر كفره وعداوته لدين الله، ليس كحكم من وقع في الشك في تكفير من لم يتبين أمره ولم

يعرف حاله أو التبس فإن هذا من لم يكفره لا يعد شاكاً في كفر المشركين أو متوقفاً، مع العلم أن مسألة ظهور الكفر وخفائه أمر نسبي ويصعب ضبطه .

هنا شبهة: لو قال إنسان في من ظهرت ردته: أنا ما تبين لي وما رأيته يكفر فيقال له وأنت ما رأيت فرعون ومسيلمة لكن قد اشتهر كفرهم وجاء الدليل به

تنبيه: الكفار الذين لا شك فيهم ويكفر المتوقف فيهم إذا كان عالماً بكفرهم المذاهب الكافرة كالجهمية والقبورية والرافضة والإسماعيلية والنصيرية والقاديانية والعلمانية واللبرالية والشيوعية، ، فهؤلاء من لم يكفرهم وهو عالم بمذهبهم فهو كافر، ونقلنا كلام السلف في تكفير من لم يكفر الجهمية ممن يعلم مذهبهم.

فمن علمت أنه ممن يدين بأحد المذاهب السابقة وأنت تعرف كفرها فإنه يجب عليك تكفيره، وتكفر إن شككت في كفره مع علمك بأنه من أتباع هذه المذاهب الكافرة وأنت عالم بما فيها من الكفر وتعتبر ممن وقع في هذا الناقض .

أمثلة توضح القواعد والضوابط السابقة :

الأول : أصناف من لا يكفر الرافضة وعوامهم وأحوالهم :

إما أنه لا يعلم حالهم وكفرهم، وهذا معذور ولا يكفر بل يبين له.

أو يعذرهم بالجهل ويرى أنهم مسلمون لقولهم لا إله إلا الله، وهذا وقع في ناقض من لم يكفر الكافر ، لكن لا يكفر إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة عنه.

أو يعلم أنهم مشركون لكن يمتنع من تكفيرهم تفريطا ، وهذا يكفر.

أو ينكر أن ما فعلوه كفرا، وهذا أشد كفرا من السابق .

الثاني : حكم من ترك تكفير الجهمية ومن قال بقولهم من الأشاعرة والمعتزلة.

السلف أجمعوا على تكفيرهم، ومن لم يكفر قولهم كأن يقول إنكار العلو ليس بكفر فهذا كافر، أما من أقر بأن قولهم كفر لكن لم يكفرهم وعذرهم بالتأويل فهو مخطئ .

الثالث: تكفير المنافقين والزنادقة وأهل الأفكار الخافية على الناس :

يجب تكفير المنافق متى ما علم نفاقه، والمنافق يعامل ظاهرياً بأحكام الإسلام وإذا أظهر كفره كان مرتدا وتجري عليه أحكام المرتد .ومثل هؤلاء المنافقين في الحكم الزنادقة وأصحاب الأفكار والمذاهب الهدامة كالعلمانية وغيرها .

السابعة والعشرون : الطوائف الواقعة في هذا الناقض (من لا يكفر الكفار) :

ذكر الإمام ثلاث طوائف وأصناف وقعت في ناقض ترك التكفير :

الأولى : المتوقفة : وهي التي عناهم بقوله (من لم يكفر المشركين) :

فيتوقف عن تكفير المرتدين ويسكت عنهم وهذا الحال يحصل من أصحاب التورع البارد ويقولون التكفير فتنة وهو خطير لأن من قال لأخيه (يا كافر) حارت عليه والله ما أمرنا بالتكفير، وكأن يقول أنا أعرف أن هذا الشخص وقع في الكفر ولا أشك ولكني أتوقف لأن الله يمكن أن يغفر له أو يسلم قبل أن يموت، ويبقي اسم الإسلام عليه، جاهلا أنه لا يسع مسلما السكوت عن تكفير من يرى منه الكفر وظن أن هذه الأعذار تعذره وتمنع تكفيره .

الثانية : المشككة والشاكة : وهي التي عناهم بقوله (أو شك في كفرهم):

فيشك في كون هذا الأمر كفراً أو أن هذا الرجل الواقع في الكفر والردة كافر مشرك ، كمن يشك في كفر من يدعو غير الله أو يحكم بغير ما أنزل الله .

الطائفة الثالثة : المصححة : وهي التي عناهم بقوله (أو صحح مذهبهم) :

وهو الذي يصحح الكفر ويزينه ويصحح ما عليه الكفار ويقر المشركين والمرتدين على كفرهم ويمدحهم، كمن يقول الاستغاثة بالرسول ﷺ بعد موته جائزة أو تشريع القوانين ليست بكفر ، وهؤلاء أشد كفراً ممن يتوقف ومن يشك ، وهم أبعد الأصناف الثلاثة عن دين الله وعن التوحيد.

تنبيه : يدخل في تصحيح الكفر والشرك ومذاهبه من يدعوا إلى المبادئ والأفكار الهدامة الكافرة وينشرها، كمن يصحح اللبرالية أو العلمانية أو الشيوعية ويقول جيدة وصالحة لعصرنا ،كما يدخل فيهم المادح والمناصر لهم والمزين لباطلهم والمجادل عنهم ، فهؤلاء كلهم داخل في من لم يكفر المشركين والمصححين لمذهبهم .

وكل هذه الأصناف خطيرة وعظيمة ومناقضة للتمسك بالعروة الوثقى ومبدأ الكفر بالطاغوت ومبطلة لعقيدة الولاء والبراء ، وهي وإن كانت كلها كفر إلا أنها تتفاوت فأغلظها مذهب المصححة الذين يصححون شيئاً مما عليه الكفار، لأن خلافهم في الكفر وليس مجرد التكفير .

وربما يُزادون على كفرهم تكفير أهل الإسلام بمحض التوحيد والإيمان، وبغض التوحيد ومحاربته ومظاهرة المرتدين على أتباعه، وهذا موجود في مشركي هذه الأمة في زماننا الذين جمعوا بين مذهبي الخوارج والمرجئة، فلا يكفرون المرتدين

والقبورية والمشرّعين لكن تراهم يكفرون الوهابيين والموحدين والمجاهـدين الـذين يجاهدون المرتدين ويكفرونهم أو يسمونهم بالخوارج.

الثامنة والعشرون : الفرق بين الوسوسة وبين الشك والريب:

الشك عدم الإيمان أما الوسوسة فخاطر يهجم عـلى القلـب مـن غـير اختيـار والعبد يكرهه ويعلم بطلانه فلا يصل إلى الـشك إلا إذا استرسـل صـاحبه وتركـه ، والشك لا يحصل في قلب المسلم بخلاف الوسوسة .

فالشك يجعله يتوقف فيقول في من ثبت كفره هـذا المعـين لـيس بكـافر، بيـنما الوسوسة من الشيطان تكون في قلب الإنسان ويدفعها ويكرهها، فيكـره أن يحـصل في قلبه وسوسة في تكفير المعين، أما إذا رضيها واطمـأن قلبـه بهـا وترتـب عليهـا أن يتوقف فإن هذا شك والشك هنا كفر في ذاته يخرج صاحبه من الملة.

المسألة التاسعة والعشرون: الفرق بين المخطئ المتأول وبين الشاك :

الشاك في تكفير الكافرين هارب من التوحيد وإنزاله مكانه وفـارٌ مـن الكفـر بالطاغوت ومن معاداة أعداء الله وتكفـيرهم ومحـاربتهم وأن يجعـل كلمـة الله هـي العليا، وهو واقع في ناقض يخرجه من الملة .

بينما المخطئ والمتأول على خلاف ذلك، فليس تركه للتكفير هروبا مـن الكفـر بالطاغوت أو تفريطاً أو إعراضاً عن البراءة من المـشركين وإنـزال أحكـام التوحيـد منزلها أو شكا في التوحيد وما ينقضه أو إرضاءً للمرتـدين إذ لا يخـالف في شيء مـن هذا، وإنما حصل له عدم التكفير بسبب التباس حصل له أو اعتقاده عـدم اسـتكمال الشروط في المعين أو وجود مانع في هذا المعين ، وهذا نخطئه في تأوله وما أوصله إليه اجتهاده ولا نكفره .

المسألة الثلاثون : الفرق بين التكفير وإظهاره والتصريح :

هناك فرق بين التكفير وعداوة الكفار وبين إظهار وإشهار التكفير والتصريح به ، فمن ترك أصل التكفير فهو كافر ، أما من ترك إظهار التكفـير بحيـث لا يـشهره ولا يصرح به بل يكتمه ويخفيه فليس بكافر ، وقد يكون عاص إن لم يعذر بالإكراه.

المسألة الحادية والثلاثون : درجات التكفير:

التكفير منه الأصل الذي يكفر من نقضه ، ومنه الكمال الواجب الذي ينقص التوحيد من غير أن ينقضه .

فهو بذلك مثل التوحيد والكفر بالطاغوت .

الثانية والثلاثون: علاقة مدح الكافر وتقليده وموالاته بناقض عدم التكفير:

أولاً : موالاة الكفار :

التكفير داخل في باب الولاء والبراء ، والموالاة ليست داخلة في هذا الناقض ترك تكفير الكفار، والموالاة للكفار منها ما هو كفر ومنها ما هو معصية.

ثانياً : مدح الكفار:

مادح الكفار على قسمين :

١ – إن مدح فيهم أمراً دنيويا كالشجاعة والكرم كأن يقال حاتم كريم وعنتر شجاع وهذا الكافر لا يخلف مواعيده ونحو ذلك فهذا أمر لا يعتبر محرما فضلا عن أن يكون كفرا ما لم يصل إلى محبة الكافر وتعظيمه .

٢ – إن مدحهم في دين وشرك كأن يقول أفضل طريقة في السياسة الدمقراطية واللبرالية وفي التجارة الرأسمالية أو الاشتراكية ، أو الإسلام ما وسع جانبا في هذا الباب لأن الاقتصاد في هذا الزمان لم يكن مثله في زمن الرسول ﷺ فهذا المدح كفر ويخرج من الملة لأنه صحح طريقة المشركين بمدحه هذا .

ثالثاً : التقليد والتشبه بالكفار :

فلو قلد مسلم كافراً في أمر دنيوي كلبس معين فإنه ارتكب أمراً محرماً.

وإن قلده في أمر من أمور دينهم كلبس القساوسة أو الصليب فإن هذا كفر ، لأن هذا التقليد يستلزم تصحيح ما هم عليه من كفر وشرك .

الثالثة والثلاثون: أقسام الناس في التكفير وفي هذا الناقض (من لا يكفر):

الطائفة الأولى : الغلاة والخوارج الوعيدية :

الذين غلو في التكفير وتكفير من شك في الكفر مطلقا وكفروا بالتسلسل وكفروا باللوازم وبالعموم، وجعلوا الأصل في المسلمين الكفر وكفروا كل من في ديار الإسلام، ولم يبقوا إلا من هو مبايع لهم وتحت دائرتهم .

قال الملطي عن مذهب المعتزلة البغدادية الخوارج: (ثم زاد معتزلة بغداد على معتزلة البصرة : أن الشاك في الشاك والشاك في الشاك إلى الأبد إلى مالا نهاية كلهم كفار وسبيلهم سبيل الشاك الأول .

وقال معتزلة البصرة : الشاك الأول كافر لأنه شك في الكفر والشاك الثاني الذي هو الشاك في الشاك ليس بكافر بل هو فاسق ، لأنه لم يشك في الكفر وإنما في الشاك هل يكفر بشكه أم لا ؟ وقولهم أحسن من أهل بغداد) التنبيه والرد ص٥٤ .

ويحاول أهل الإرجاء في زماننا أن يلبسوا ويخلطوا بين هذا المذهب الرديء وبين مذهب أهل التوحيد ممن يكفر المرتدين ويقاتلهم مع وجود الفرق الظاهر وعدم التلازم بين المذهبين، وهذا ليس ضاراً ولا مثبطا لأهل التوحيد وقد رمي أهل التوحيد بالتهم وسماهم خصومهم بالخوارج.

تنبيه : يوجد جهال كفروا بالتسلسل ويجعلونه من هذا الناقض فقولوا : من لم يكفر الذي لا يكفر الذي لم يكفر فهو كافر، وذكرنا قول الملطي فيهم.

الطائفة الثانية : المرجئة الوعدية المفرطون : وهم مرجئة العصر المخذلون ومن سايرهم من علماء السوء، حيث زينوا الكفر والردة ولم يكفروا الأعيان مطلقاً وأغلقوا باب أحكام المرتد وأبواب التكفير، مع أن هؤلاء المرجئة يرون الكفر البواح ظاهراً من عباد القبور والمشرعين للقوانين والمستحلين لما حرم الله والمستهزئين بالدين المحاربين له والمتولين للكافرين ومع ذلك لا يكتفون بالسكوت عنهم وإنما ينكرون على من يكفرهم ويسمونه تكفيري خارجي ويلمزونه بالصفات القبيحة، بل صار من يكفر المرتد عندهم مرتكبا ناقضاً من نواقض الإسلام في نظرهم فكفروا من يقوم بالتوحيد وجعلوا الشرك إسلاما والتوحيد كفرا.

الطائفة الثالثة : أهل السنة والاتباع : وقد قررنا مذهبهم وبينا أصولهم في باب التكفير ، وهم وسط بين الخوارج والمرجئة .

الرابعة والثلاثون كل كفر موجود يكفر به طوائف :

الأول: فاعله : وهذا أول من يكفر بذلك من فعل كفراً أو شركاً فإننا نكفره.

الثاني : الراضي بالكفر ولو لم يفعله فمن رضي به ولم يكرهه فقد كفر

الثالث : الحريص على الشرك والكفر ومن يريد فعله لكن عجز عنه .

الرابع: الداعي إليه ومحسنه والساعي في نشره ، ومثله المقر به ومحبه..

الخامس : المدافع عنه وحارسه والملزم به ومن يحمي أهله .
السادس: من استحل كفراً وجوّزه أو لم يره كفرا فهو كافر ولو لم يعمله.
السابع : المصحح للكفر والمتوقف فيه وهو داخل في المستحل .
الثامن : مادحه ومحسنه ومن يثني عليه .
التاسع : المتوقف في كفر الكافر والشاك في تكفيره وهذا الناقض هنا.
فهؤلاء كلهم يكفرون بالكفر والشرك حتى وإن لم يفعلوه .

الخامسة والثلاثون : المخالفون في التكفير : والطوائف المخالفة فيه:

١- دعاة الوسطية :

وقصد أصحاب الوسطية إنكار عقيدة الولاء والبراء وباب الجهاد وتكفير المرتد . وحقيقة هذه الدعوة تقوم على موالاة الكفار ومظاهرتهم وموافقتهم واللين معهم والرحمة بهم وترك جهادهم والغلظة عليهم ومنع تكفير المشركين والمرتدين.

٢- دعاة حوار الأديان :

والمقصود منه الالتقاء والاجتماع والموافقة والمسالمة وترك الاختلاف والبعد عن الأمور المخالفة والمعاداة ، وقاعدتهم : (المداهنة لإخفاء المعاداة والمنافرة واستبدال المخالفة بالموافقة والمباعدة بالمقاربة).

٣- دعاة الوطنية والقومية والإنسانية ، ومن ذلك قولهم الأخوة الوطنية وأخي المواطن ، فالمواطن لا يكفر ولو كان رافضيا .

٤- دعاة التعايش السلمي ونبذ العداء والكره والتسامح والإخاء .

٥- دعاة الحرية والليبرالية وحرية الكفر .

٦- منكروا التكفير ومحاربوه .

٧- من يكفر الفعل دون الفاعل ، وينكر تكفير المعين .

٨- دعاة الحوار الوطني.

٩- دعاة الحزبية والقومية الوطنية.

١٠- الخوارج الذين كفروا المسلمين .المرجئة الذين لم يكفروا المشركين .

١١- علماء السوء الذين لايكفرون المرتدين طمعا في الدنيا وخوفا من زوالها.

المسألة السادسة والثلاثون : الشهادة بالنار على المعينين والتوقف في ذلك :

هذه مسألة خلافية بين أهل السنة هل يشهد على المعين بالنار إذا كفر أو لا ؟ .

فمن أهل العلم من قال لا يشهد على المعين بالنار إلا بنص كما جاء النص في أبي لهب وأبي جهل وعمر بن لحي وغيرهم .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن من ثبت كفره وكفر فإنه يشهد له بالنار .

وهذا الصحيح ويدل لذلك عموم الأدلة بدخول الكفار النار .

وحديث : (أيما مررت بقبر كافر فبشره بالنار) وهو من مراسيل الزهري.

وفي حديث أخر: (**فقل : أرسلني إليك محمد ، فأبشرك بما يسوؤك ، تجر على وجهك وبطنك في النار**) رواه الطبراني والحاكم وعبدالله بن أحمد في زوائد المسند والسنة وغيرهم ، وفي سنده ضعف لأن فيه مجاهيل.

قال ابن القيم : (قوله : (حيثما مررت بقبر كافر) : هذا إرسال تقريع وتوبيخ لا تبليغ أمر ونهي، وفيه دليل على سماع أصحاب القبور كلام الأحياء وخطابهم لهم، ودليل على أن من مات مشركا فهو في النار ، وإن مات قبل البعثة لأن المشركين كانوا قد غيروا الحنيفية دين إبراهيم واستبدلوا به الشرك وارتكبوه وليس معهم حجة من الله به) زاد المعاد ٣/ ٦٨٥ .

وعلى ذلك فإن من شك في هذا الكافر هل هو من أهل النار أولا فإنا هنا نقول ليس هذا الشك من الأمور المحرمة فضلا عن أن يكون من الأمور الكفرية لأنها مسألة خلافية بين أهل السنة فيفرق بين التكفير والتعذيب، فالشك في التكفير هذا من النواقض بينما الشك في التعذيب هذا محل خلاف بين أهل السنة .

المسألة السابعة والثلاثون : صور معاصرة لهذا الناقض :

١- الدعوة لوحدة الأديان والتقريب ولقاء الحضارات .

٢- التقريب بين الأديان.

٣- ما يدعو إليه عباد الطاغوت من التعايش السلمي والإخاء العالمي .

٤- الدعوة للقومية والوطنية ، وعدم تكفير المواطن والقومي والتآخي لأجل الوطن المسلم والنصراني والدرزي والقبوري .

٥- الإرجاء الخبيث المحارب لتكفير المرتدين والمشركين وتبرير كفرهم . وتصنيف الكتب الداعية لهذا المذهب ومحاربة أهل التوحيد ورميهم بالخوارج .

٦- تقديس الإعلام والصحف للكفار والمحاربين وأعداء الله وتمجيدهم .

٧- تحسين الأفكار الهدامة والأحزاب الكافرة ومدحها .

٨- الدعوة للحرية والليبرالية والدمقراطية .

٩- مدح الكفر والأفكار الكافرة .

١٠- تقديس أنظمة الكفر وتقديس شعارات الكفرة .

١١- احترام الآثار الكفرية الشركية ورعاية الآثار كما حصل مع أصنام بوذا .

١٢- عدم تكفير عباد القبور والحاكمين بغير ما أنزل الله .

١٣- الدخول في البرلمانات والتشريع وإقرار المحاكم الوضعية .

١٤- مباركة الحرب على الإرهاب.

١٥- قولهم عن التكفير فتنة وإقامة المؤتمرات والحملات لمحاربته وإنكاره .

١٦- تسمية الكافر باسم بلده وبالآخر والغير امتناعا من تسميته بالكافر.

مبحث : شبهات متعلقة بالتكفير وبهذا الناقض

شبهة : أن تكفير من لا يكفر يفضي إلى التسلسل وقول الخوارج.

أن تكفير منكر تكفير الكافر ثابت بالنصوص ونقضه من الحكم بصحة الكفر والإيمان بالطاغوت ، وقد ورد التعبير به عند السلف وليس من مذهب الخوارج ومن أنكره فهو كافر وهو كمن أنكر التوحيد .

أما أنه يفضي إلى مذهب الخوارج والخوارج يستخدمونه ، فهذه الشبهة تطال أصل التكفير أيضا فالخوارج يستخدمونه وقد يفضي للغلو .

وهناك شبهات عامة في باب التكفير، ذكرناها في مقدمة النواقض وأحكام التكفير والردة ، وهي :

أنهم مسلمون ويقولون لا إله إلا الله ويصلون.والاحتجاج بحديث أسامة .

المرتد فيه دين وخير .

أنهم جاهلون متأولون أو مكرهون فهم معذورون .

الحجة ما قامت عليهم .

ما قصدوا الكفر .

الله أقرهم: لكم دينكم، لا إكراه في الدين.

أن الله تعالى لم يأمرنا به ولم يكلفنا البحث عن الناس .

الخوف من الفتنة .

أن التكفير يعارض المصلحة الدعوية .

أنه لا فائدة منه .

التورع البارد وحديث من قال لأخيه يا كافر .

لا يكفر إلا حاكم وعالم راسخ .

العلماء لم يكفروا.

لم ترهم يكفرون.

تكفير عموم وفعل لا أعيان .

كفر الفعل دون فاعله .

لو كفرنا لن يبق أحد تكفير شعوب.

التكفير يزيدهم عناداً ويصد الناس عن التوحيد وأهله .

نحن في ضعف وخوف.

التكفير من منهج الخوارج.
شبهات خاصة بالحاكم :
حديث : (من مات وليس في عنقه بيعة) .
ما أقاموا فيكم الصلاة.
وجوب الطاعة وعدم الخروج على الولاة.
نقر بالتوحيد دون التكفير وليس التكفير من التوحيد.
ما رأيتهم يفعلون الكفر والشرك والردة .
التفريق بين الكفار الأصليين والمرتدين، ومن يقول الآيات نازلة في المشركين.
وهذه الشبه أتينا على الرد عليها في ضوابط التكفير في مقدمة النواقض.

أخيرا : وصية لأهل التوحيد بخصوص هذا الناقض :

أن يتوسطوا في قاعدة هذا الناقض فلا يأخذهم الحرص على التوحيد والكفر بالطاغوت إلى التسرع في تنزيل الأحكام فيقعوا في الغلو ومذهب الخوارج وهم لا يشعرون . كما لا يحملهم الورع فيدخلهم في التفريط ومذهب المرجئة.

وليردوا ما أشكل عليهم لأهل العلم فالمسائل الشائكة التي تحتمل الأوجه وتكثر الشبهات حولها ليست كالظاهرة فلا يخوضوا في كل أمر وليتوقف من أشكل عليه حكم فقد توقف في التكفير أئمة لم يتبين لهم الحق ، ولا يرجعوا على بعضهم بالتبديع والتكفير في مسائل يسوغ فيها الاجتهاد .

وليعلموا أن ما يعيشون فيه من زمن ظهر فيه تلبيس علماء الشرك وحرب التوحيد وفتنة أهل كفيل بإيجاب إقامة الحجة وتحتم العذر ومراعاة كثرة الشبهات.

وليعلموا أن هناك فرق بين الامتناع عن التكفير بالكلية والمتوقف في بعض الأعيان لوجود شبهة .

وليعلموا أن التكفير مثل التوحيد والكفر بالطاغوت منه الأصل الذي يكفر من نقضه ومنه الكمال الواجب الذي ينقص التوحيد من غير أن ينقضه .

وليعلموا أن هناك فرق بين التكفير وعداوة الكفار وبين إظهار المعاداة والتصريح بالتكفير وإشهاره فيكفر تارك الأصل دون تارك الإظهار .

كل هذه القواعد والضوابط في باب الأسماء والأحكام ينبغي لهم مراعاتها دوما قبل إنزال أحكام التكفير .

مبحث بطلان النظرية الكفرية
وحدة الأديان والتقريب والحوار بينها ولقاء الحضارات

المسألة الأولى : المراد بها وحقيقتها :

وحدة الأديان يعني اجتماع دين الإسلام وغيره من أديان الكفر كاليهودية والنصرانية وغيرها ودمجها وجعلها ديناً واحداً وإلغاء العقائد المختلف فيها .

التقريب يعني الاعتراف بالآخر واعتقاد صحة دينه وإيمانه واحترامه واحترام شعائره وعقائده، والاجتماع على العقائد المتفق عليها وإبراز أوجه التشابه والتوافق وعدم الإنكار فيما يحصل فيه اختلاف، والقول بصحة جميع المعتقدات ولكل ما يعتقد وكأنها وجهات نظر للمخلوقين وليست ديانة من رب العالمين الخالق وحده .

الحوار الذي يريده الدعاة إليه هو محاولة الوصول إلى رأي واحد ومعتقد يرضي الجميع بعد التعرف على الآخر وتجنب العداوات ومحاولة إلغاء الإنكار والبراءة من الأخر وعدم إبقاء العداوة إن بقي الخلاف .

الثانية : درجاتها :

١- التقريب بين الأديان بالتلفيق وترك الأمور الخلافية وعدم الإنكار فيها .

٢- اعتقاد صحة جميع الأديان ، والاعتراف بها وعدم تكفيرها .

٣- توحيد الأديان وإلغاء العقائد المختلف فيها وجعلها دينا واحدا .

تنبيه : لا فرق بين عبارة الحوار التي يقصدونها وعبارة التقارب .

الثالثة : حقيقة الحوار الذي يدعون إليه والفرق بينه وبين المجادلة المشروعة :

المجادلة المشروعة التي أمر الله تعالى بها تقوم على تبين ضلال الخصم وبطلان ما هو عليه والتصريح بكفره والقيام بدعوته للحق .

أما التقريب والحوار الذي ينادون به ويقصدونه فيقوم على الاعتراف بالكافر وعدم تكفيره، وإلغاء الخلاف، والسكوت عن الباطل الذي عند الخصم، والتقريب بين الكفر والإسلام،وجعل دين الله وجهات نظر تقبل المساومة والتنازل، ومحاولة إظهار الأمور المتفق عليها وعدم الإنكار على ما حصل فيه الخلاف من الكفر والشرك الأكبر واستباحة الفواحش وغيرها فضلا عن المعاداة لأجله .

ألم تر وتسمع بمؤتمراتهم الداعية للحوار والمنادية به والتي في حقيقتها مؤامرات على الإسلام تكفر بدين الله ، فهل سمعت فيها ممن دخلها من المنتسبين للإسلام من يصرح بما أمره الله تعالى أن يقوله لهم بقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤.

وبما قاله رسوله ﷺ لهم: (أدعوكم بدعاية الإسلام ، اسلموا تسلموا) ، أو يقول(أنقذوا أنفسكم من النار) ،أو يقول: (أشهدوا بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) ويتلو عليهم قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ ، وكل هذه من العبارات الحسنة والتي ليس فيها تعنيف وشدة عليهم وهي المقصودة بالمجادلة بالحسنى لا كما فهمه منها العلماء الطواغيت وأتباعهم الجهال من الاعتراف بغير الإسلام وإقرارهم على كفرهم، فحوارهم القائم على تسامحهم كما سمعنا من أفواههم الخبيثة ليس فيه إلا التصريح وليس التلميح أنكم إخواننا وأشقاؤنا وابقوا على دينكم نحن متفقون على كثير من المحاسن ونخدم الإنسانية وهدفنا واحد ونعبد ربا واحدا – وقالوه حتى للهندوسي عابد البقر الذي بينهم وكلهم بقر بل هم أضل – نتعايش بسلام ومحبة ووئام ...

وكل هذا فيه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الرابعة : التقريب والتعايش مع الآخر وحوار الأديان ولقاء الحضارات والعولمة كلها بمعنى واحد يجمعها :

عدم تكفير الكافر، والاتفاق على محاربة من يعادي الكفار ويتبرأ منهم، والسعي إلى التسوية بين المؤمن مع الكافر، وإلغاء كل الفروق بينهما، وإنكار الأحكام التي يختص بها كل جنس والتي أوجبها الله في تعاملنا مع الكفار .

وكلها تكفر بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران: ٨٥ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩، وقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، وقوله: ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ الممتحنة: ٤.

الخامسة : تأريخ هذه الحادثة الكفرية :

تاريخها زمن الرسول ﷺ :

أولا في مكة : وجدت بوادر لهذه الفكرة الكاذبة الخاطئة منذ أن أشرق نور الإسلام فقد حاول المشركون أن يجتمعوا مع الرسول ﷺ إما تحت دين واحد أو أن يعترف كل منهما بالآخر فيصير الشرك والتوحيد والكفر والإيمان دينين مقبولين لا ينكر على أيهما أخذ به الشخص .

فقالوا له: نعبد إلهك وتعبد إلهنا، أو لا يتعرض لمعبودك ولا تتعرض يا محمد لمعبوداتنا ، وأنزل الله في حوارهم هذا قرآن يتلى، قال تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ القلم: ٩ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ الكافرون: ٦ ﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ يونس: ٤١ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ الكافرون: ٢ .

ثانيا في المدينة :

ما كان يسعى له المشركون في مكة قالته اليهود وسعوا إليه ، فحاولوا أن يجمعوا اليهودية مع الإسلام وأن يجعلوهما دينا واحد، إلا أن رسولنا بادرهم بالتكفير والشهادة على دينهم بالبطلان والفساد وعدم القبول ، فقال ﷺ : (والله لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا دخل النار) وقال: (لعنة الله على اليهود والنصارى) وقال: (لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي)، كما أمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ آل عمران: ٩٨ ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ آل عمران: ٩٩ ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ المائدة: ٥٩ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ آل عمران: ٦٧.

وقال ﷻ مخبرا عن كفرهم: ﴿ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ٤٦ .

وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ البينة: ٦،

ومن هنا بيانية وليست تبعيضية ولو قلنا أنها تبعيضية لكانت كذلك حتى في المشركين، فيكون من المشركين كفار ومسلمون وهذا لا يقوله عاقل فضلا عن عالم .

والآيات النازلة في تكفير اليهود والنصارى ولعنهم وعدم قبول دينهم كثيرة.

وقد أمرنا سبحانه أن نخبرهم أن السبيل الوحيد إلى الاجتماع موجود في الشهادتين عبادة الله وحده وترك الشرك والإيمان بجميع الرسل وعلى رأسهم خاتمهم رسولنا محمد ﷺ والمسارعة في اتباعه.

ومع ذلك فقد أخبر سبحانه في آيات كثيرة أنهم سيبقون على العداوة والكفر وصد الناس عن الدين الحق والتلبيس عليهم ومقاتلة المسلمين حتى يردوهم عن دينهم وأنهم لن يرضوا علينا أبدا إلى قيام الساعة.

قال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ البقرة: ١٢٠ ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾ البقرة: ٢١٧ ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ البقرة: ١٠٩ ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ الممتحنة: ٢. وغيرها من الآيات التي قطعت الطريق على المنافقين المسارعين فيهم الذين يتولونهم ويحبونهم وأن جهودهم لن تبوء إلا بالفشل، ولم تبق لجاهل أو مجادل شبهة والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

تاريخها بعد موت الرسول ﷺ :

سعى لها طوائف كالحلولية والاتحادية وأرباب وحدة الوجود وبعدهم جاءت الماسونية والعصرانية والقومية وكان وراءها في الغالب اليهود والنصارى .

وفي زماننا هذا سعوا لها بقوة فأقاموا لها المؤتمرات والندوات واللقاءات وسموا مؤتمراتهم الكفرية الطاغوتية بالتعايش والتقارب والحوار ولقاء الحضارات والإخاء والتسامح وقبول الآخر والحوار الوطني وحوار الأديان .

وأتوا بها أسموه أصحاب الأديان السماوية والإبراهيمية، وطبعوا القرآن والتوراة والإنجيل في كتاب واحد، وبنوا مسجدا وكنيسة وديرا تحت سقف واحد وأتوا بالصلاة الإبراهيمية التي تجمع المسلم واليهودي والنصراني .

قلت في الحقيقة هم جمعوا بين المشرك الكافر وبينهم وصلوا به لا بالمسلم لأن من فعل مثل ذلك فهو كافر مرتد كائن من كان غير معذور بجهله أو تأويله، بل إن من شك في كفره فهو كافر مثله بعد قيام الحجة ونصب الأدلة عليه .

السادسة : أهدافها وغاياتها وحقيقة ما تقوم عليه :

١- إبطال وجوب إتباع الإسلام وأنه وحده الدين الحق وكفر من لم يتبعه.

٢- إنكار ركنية شهادة أن محمدا رسول الله وأن من لم يؤمن به لا يعد كافرا وليس عدوا للمسلمين .

٣- صرف الناس عن التوحيد والتمسك بالإسلام الحق .

٤- إيقاع الناس في الردة عن دينهم وحملهم على الكفر وترك الدين والوقوع فيما ينقضه .

٥- التشكيك في الثوابت العقدية والمسلمات وقواعد الدين .

٦- تلبيس الحق بالباطل وتفسير الدين بغير حقيقته عن طريق تحريفه والتشويش على مبادئ الإسلام وعرضه بصورة مشوهة .

٧- تسمية اليهود والنصارى إخواننا، ومحاولة كسب مودتهم ورضاهم واحترامهم ومحاولة ابتغاء العزة عندهم.

٨- جعل اليهود والنصارى مسلمين وأهل دين سماوي وأتباع الملة الإبراهيمية ، مع أن الله ﷻ حكم بكفر أهل الكتاب ، وأنهم تركوا دين أنبياءهم وأنهم خالفوا الإسلام دين جميع الرسل وتولوا عنه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، كما أكذبهم في اتباع إبراهيم عليه السلام ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ آل عمران: ٦٧، فليس إبراهيم منهم ولا هم منه.

٩- إلغاء تسمية الكفار بذلك، والاكتفاء بتسميتهم بالآخر والغير ونحوه.

١٠- محاربة عقيدة الولاء و البراء ومعاداة الكفار وبغضهم .

١١- الدعوة للروابط المسقطة لمبدأ الولاء والبراء كالإنسانية والوطنية والقومية ، وإلغاء الروابط الدينية والأخوة الإيمانية .

١٢- صد المسلمين عن التكفير عدم تكفير الكفار والحكم بإسلامهم أو على الأقل عدم الحكم عليهم بالكفر .

١٣- الاتفاق على محاربة التكفير ومبدأ معاداة الكفار وتكفيرهم، وذلك باسم الدعوة للحرية الدينية والتعبير عن الرأي والليبرالية وقبول المخالف والوسطية والعولمة ولقاء الحضارات وحوار الثقافات[١] والتعايش السلمي والسلام.

١٤- التسوية بين المؤمن والكافر والتكذيب بحكم الله في قوله ﷻ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ القلم: ٣٥ .

١٥- إزالة الخلاف العقدي، وإسقاط الفوارق الأساسية فيما بين تلك الديانات، وذلك من أجل توحيد هذه الملل المختلفة على أساس الاعتراف بعقائدهم وصحتها، وقد يطلقون على هذه الوحدة المزعومة بين الديانات الثلاث (الإسلام والنصرانية واليهودية) ما يسمى بالديانة الإبراهيمية، أو الديانة العالمية.

١٦- إيقاف الدعوة للإسلام والوقوف دون انتشارها، وهل سمعت من دعاة الحوار والتقريب في مؤتمراتهم الباطلة من يدعو لكلمة سواء بيننا وبينهم ألا نعبد إلا الله ودعوة هؤلاء الكفار ولو بنصف كلمة إلى الإسلام فضلا عن التصريح بأنه هو الدين الحق وما سواه فباطل، إنهم أحقر من أن يصلوا لمثل هذه المبادئ، وليكفهم أن يبقوا تبعاً لأعداء الله ويسعوا لإرضائهم ولو كان رضاهم يتطلب غضب الله ﷻ.

١٧- محاربة الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام والتثبيط عن إعداد العدة والإرهاب لهم كما فرض الله في قوله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الأنفال: ٦٠ ، وإلغاء أحكام أهل الذمة والتعيب من تشريع الله في دفع الجزية عن يد وهم صاغرون كما أمر الله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ التوبة: ٢٩.

---

[١] أصحاب هذه العبارة والعقيدة جعلوا الكفر بالله ثقافة والشرك به حضارة حتى جرّم مرتدوا زماننا طالبان لما قامت بهدم أصنام بوذا الداعية للشرك والكفر بالله وعدوا ذلك من هدم الحضارة ومصادرة الثقافة، ولم يتكلموا بنصف كلمة حين قتل عباد الصليب النساء والأطفال وقصفوا ديار المسلمين بل وفتحوا لهم بلادهم وقلوبهم وناصروهم وظاهروهم في وقت إنكار كثير من الكفار هذه الحرب وتجريمها، كما أنهم لم يتكلموا بنصف كلمة حين طعن النصارى واليهود بزعامة الدنمرك في حبيب هذه الأمة المرحومة رسول رب العالمين الطاهر المصطفى في وقت ثارت ثائرتهم حين مست كرامتهم وأعلنوا المعاداة لمن سبهم أو طعن في أفعالهم.

تنبيه : تكذيب الواقع للبله من دعاة التقريب :

فلا يزال المتمنطقون بالحوار والتقارب يحاور من ينسب لله تعالى القبائح ويصر على إنكار نبوة محمد ﷺ بل ويطعنون فيه ويسخرون به في كل موطن ، ويكفرون بالله ويقولون ثالث ثلاثة وينسبون له الولد ويقولون يده مغلولة وفقير.

إضافة لحرب الكفار للمسلمين التي لا تزال ولن تزال وعداوتهم لنا .

والعجيب من أدعياء هذا الحوار يدعون إليه مع مزامنة الحرب الصليبية على المسلمين ، ويسعون للحوار والتقريب مع من لا يعرف غير لغة القتل وحواره سب وشتم ، فأين الحوار مع من فعالهم ظاهره للعالم من تقتيل أطفال المسلمين ونسائهم وشيوخهم وحرق بلادهم ،ويا ليت هؤلاء العبيد دعاة التنديد أعداء التوحيد رأفوا بمن خالفهم لا أنهم حاربوه ولمزوه بالعنف والشدة ، ويدعون الحوار والوسطية .

السابعة: بطلان دين اليهود والنصارى بعد بعثة محمد ﷺ من جهات:

أولاً : أن الله ما أمر أهل كتاب اليهود والنصارى ولا غيرهم إلا بالإسلام، وهو عبادة الله وحده وترك الشرك واتباع الرسل وطاعتهم وعدم التفريق بينهم كما أخبر الله تعالى في آيات كثيرة من كتابه ومنها ماجاء في سورة البينة .

والله ﷻ أمرنا أن ندعو أهل الكتاب إلى هذه الكلمة السواء (الإسلام) الذي هو دين جميع الرسل: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤، ومن رد شيئا من ذلك فهو كافر غير مسلم بنص الآية.

ومع كل هذا فأهل الكتاب كفروا ولحقوا بالمشركين وخرجوا من الإسلام ودين الرسل،وكفروا بدينهم وارتدوا عنه وكان حالهم كحال من ارتد من المسلمين.

وبهذا يتبين أن اليهودية والنصرانية مسميات مبتدعة ، فالله لم يرض إلاّ الإسلام ، كما قرر ذلك كتاب ربنا وسنة رسولنا وصحابته الطاهرين.

عن سلمان الفارسي ﷺ: (قلت: يا رسول الله ما تقول في دين النصارى؟ فقال رسول الله ﷺ: لا خير فيهم ولا في دينهم). رواه الحاكم وقال الذهبي جيد الإسناد .

وقال أنس ﷺ:(رغبت اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم ، وابتدعوا اليهودية والنصرانية وليست من الله ، وتركوا ملة إبراهيم:الإسلام) أخرجه الطبري.

ومن زعم من المسلمين كالقرضاوي وغيره بعد كل هذا صحة ما عليه اليهود والنصارى أو أنهم إخواننا أو أنهم الآن على دين سماوي صحيح الله ارتضاه وأنهم على شريعة موسى وعيسى فهو كافر مرتد مكذب لهذه الآيات.

ثانيا : أن دينهم حرفوه ودخل التحريف في كتابهم.

ثالثاً : أن دينهم منسوخ ولا يجوز العمل بها نسخ الله حكمه.

رابعاً: أنهم كفروا بدينهم لأن من دينهم الإيمان بكل الرسل ، وجميع الرسل أرسلهم رب العالمين ومن كفر بواحد منهم فهو كافر بالله وبالرسل جميعا ، كما قال الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الشعراء: ١٠٥ ، وهم لم يرسل إليهم غير نوح وتكذيبهم تكذيب للرسل جميع .

خامساً :كذبوا رسولهم ولم يعملوا بكتابهم قبل أن يكذبوا رسولنا وكتابنا ، ووجه ذلك : أنه جاء التنصيص في كتبهم باتباع محمد ﷺ ووصتهم رسلهم بذلك إن أدركوه، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ الصف: ٦.

فكفرهم برسول الله محمد ﷺ وامتناعهم من متابعته وطاعته ، فيه كفر قبل ذلك برسول الله عيسى ﷺ ورسول الله موسى ﷺ وعدم امتثال أمرهم بالإيمان بمحمد ﷺ ، وإذا كان عيسى عليه السلام لا يحكم ولا يعمل بشريعته وإنما يعمل بشريعتنا التي بعث بها محمد ﷺ لأنها نسخت شريعته ، فكيف بمن يزعم أنه تبع لعيسى ، وإذا كان موسى عليه السلام لو كان حيا ما وسعه إلا إتباع محمد ﷺ كما قال الصادق المصدوق ، وكما قال قبل ذلك ربنا في إيجاب اتباع محمد لمن أدركه من النبيين في سورة آل عمران: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

الثامنة : أوجه الكفر في دعوة التقارب والأصول التي تنقضها :

١- أنها تهدم ركن الإيمان بالله ﷻ وتكفر به وتنقض التوحيد من أصله .

٢- أنها تنقض الإيمان بالرسل والكتب واتباعها

٣- أنها تهدم عقيدة الولاء والبراء من أصله فتوالي أعداء الله .

٤- أن فيها الإيمان بالطاغوت وعدم الكفر به ونقض مبدأ الكفر بالطاغوت القائم على تكفير الكفار ومعاداتهم والتي لا يقبل الدين إلا به .

٥- عدم تكفير منكر الرسالة والمكذب بأن محمدا رسول الله ومن لم يتبعه وتكذّب بقوله: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الأعراف: ١٥٨.

٦- فيها تكذيب الرب ﷻ في تكفيره لأهل الكتاب ورد لحكمه بعداوة غير المسلمين وتكفيرهم ورفض أمره بتكفيرهم: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾..

٧- أنها تكفر بإبراهيم ﷺ الذي ما كان إلا مسلما وترغب عن اتباع ملته.

٨- أنها تكفر بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران: ٨٥ ، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩ . فمن جوز التقارب والحوار فقد سوغ اتباع غير الإسلام واعتقد وجود من يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ .

٩- أن هذه الدعوة فيها طعن في القرآن الذي نص على كفرهم، وتكذيب لآياته التي تقرر بأن دين الإسلام الكامل ، والناسخ لما سبقه من ديانات اعتراها التحريف والتبديل ، وكفر ومن لم يسلم، كما تكفر بأن محمد ﷺ بعث للثقلين كافة .

١٠- أن فيها نقض لكثير من أحكام الشريعة وإنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة، كاستحلال موالاة الكفار ، وعدم تكفيرهم ، وإلغاء الجهاد في سبيل الله.

التاسعة : دخول هذه الدعوة في معظم نواقض الإسلام :

١- أنها تدخل في الناقض الأول من نواقض الإسلام الشرك حيث أن في هذه الدعوة الخبيثة إقرار للشرك والكفر .

٢- أنها تدخل في الناقض الثالث عدم تكفير الكفار وتصحيح مذهبهم.

٣- أنها تدخل في الناقض الرابع ورفض هدي الرسول ﷺ في التعامل مع الكفار من المشركين وأهل الكتاب من العداوة والتكفير .

٤- أنها تدخل في الناقض الخامس بغض شيء مما جاء به الرسول ومما جاء به تكفير الكفار وإظهار عداوتهم والكفر بالطاغوت ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح: ٢٩ .

٥- أنها تدخل في الناقض السادس الاستهزاء والسب والسخرية بشعائر الدين وهذا في غاية الوضوح لمن نظر فيما تقوم عليه مؤتمراتهم ومؤامراتهم .

٦- أنها تدخل في الناقض الثامن مظاهرة الكفار على المسلمين وحرب أهل الجهاد والتوحيد.

٧- أنها تدخل في الناقض العاشر الإعراض عن الدين وعدم العمل به وترك العمل بالكفر بالطاغوت الذي هو ركن التوحيد الذي لا يصح الإسلام إلا به .

وبهذا يتبين لك أن هذه الدعوة الطاغوتية الكفرية تدخل في جميع نواقض الإسلام ولا يتصور وجود جاهل بكفر مرتكبها، وبذلك فكل من يدعو لها أو يقر بها فهو داخل في الردة من أوسع أبوابها .

فيجب على كل مسلم الكفر بهذه النظرية وتكفير من ينادي بها ويدعوا إليها .

وفي جواب اللجنة الدائمة للإفتاء رقم (١٩٤٠٢) برئاسة الشيخ عبد العزيز بن باز عن هذه الدعوة قال المشايخ : (ومن أصول الإسلام أنه يجب اعتقاد كفر كل من لم يدخل في الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم وتسميته كافرا وأنه عدو لله ورسوله والمؤمنين وأنه من أهل النار ... فمن لم يكفر اليهود والنصارى فهو كافر طردا لقاعدة الشريعة من لم يكفر الكافر فهو كافر، وأمام هذه الأصول فإن الدعوة إلى وحدة الأديان والتقارب بينها وصهرها في قالب واحد، دعوة خبيثة ماكرة والغرض منها خلط الحق بالباطل، وهدم الإسلام، وتقويض دعائمه وجر أهله إلى ردة شاملة ... وإن من آثار هذه الدعوة إلغاء الفوارق بين الإسلام والكفر الحق والباطل والمعروف والمنكر وكسر حاجز النفرة بين المسلمين والكافرين، فلا ولاء ولا براء ولا جهاد ولا قتال لإعلاء كلمة الله، والله يقول:﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ التوبة: ٢٩... إن الدعوة إلى وحدة الأديان إن صدرت من من مسلم، فهي تعتبر ردة صريحة عن دين الإسلام ، لأنها تصطدم مع أصول الاعتقاد فترضى بالكفر وتبطل صدق القرآن ونسخه لجميع ما قبله من الكتب وتبطل نسخ الإسلام لجميع ما قبله من الشرائع والأديان) .

نكته لطيفة : معرفة الكفار بكفر مبتغي التقريب والحوار الكفري وخروجه من الإسلام بمجرد دعوته للحوار الذي يزعمونه والتقارب الذي يريدونه، لأنهم يعلمون أن الإسلام لا يصح إلا بالتوحيد والكفر بالطاغوت والكفر بكل دين لم يأذن به الله ولم يقره ويشرعه، ومن اعترف بدين غير دين الإسلام الذي بعث به نبينا محمد ﷺ وجوز ترك الأخذ بالإسلام فهو كافر .

والكفار لا يهمهم أن يدخل المسلم في النصرانية واليهودية بقدر ما يريدونه من تخلي المسلم عن دينه، وصدق الله تعالى حين قال ذلك عنهم : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ البقرة: ١٠٩.

لكن لما كانت الدعوة إلى وحدة الأديان كفراً بواحاً، وردّة ظاهرة، يدركها العوام فضلا عن العلماء ، حرص أعداء الدين على ترويجها بلباس النصح وإيجاد ذرائع كاذبة ووسائل مقنعة للوصول إلى مآربهم في هذه القضية ، كضرورة التعايش بالحسنى والطمأنينة والسعادة للإنسانية والإخاء والحرية والمساواة والبر والإحسان والتعايش بين الأديان ، والحوار فيما بينها ، ورد العدوان على الأديان السماوية واحترام الرسل ومواجهة الإلحاد ونبذ التعصب الديني والدعوة للحق ، وأقاموا مؤتمرات ولقاءات يوحون لبعضهم فيها بالكفر وتقرير هذه النظرية الكفرية .

العاشرة : شبهات لدعاة الحوار والتقريب:

الشبهة الأولى : زعمهم أن اليهود والنصارى مسلمون وقد سماهم الله بذلك :

والجواب: أن الإسلام له معنيان، إطلاق عام وهو بمعنى التوحيد واتباع الرسل ومعلوم أن أهل الكتاب زمن أنبيائهم كانوا على التوحيد ولم يقعوا في الشرك فسماهم الله مسلمين لذلك، أما بعد مبعث النبي من آمن بمحمد ﷺ واتبعه منهم فهو باق على الإسلام ومن لم يتبعه فيعد كافر بالله وبرسوله الذي يدعي اتباعه لأنه أمره بالإيمان بمحمد ﷺ وطاعته ، فكان كافرا حتى بدينه مرتد عن الإسلام .

كما أن للإسلام معنى خاص وهو شريعة محمد ﷺ ومن لم يتبعها فهو كافر .

وقد أبطل الله ﷻ هذه الشبهة بقوله :﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤.

وردها نبيه ﷺ بقوله:(والذي نفسي بيده لايسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) رواه مسلم .

شبهة : من تلبيس إبليس على بعض دعاة الحوار والتقريب وحيه إليهم أن فيه وسيلة للدعوة إلى الله وتحبيب الكفار للإسلام وإبراز سماحته وتحسين صورته لدى الغرب كما أنه وسيلة للتعارف والتعايش والسلام وعمارة الأرض ودفع شر الكفار والحروب والصدام كما وأن فيه مقاومة للإلحاد والشيوعية .

أولاً أنها مجرد دعوى لا صحة لها فإن هذه الدعوات ما زادت الكفار إلا ثباتا على كفرهم وللإسلام وأهله حربا ومعادة ، وزادت المسلمين تشكيكا في معتقداتهم.

ثم يقال هب أن في مثل هذه الدعوات مصالح حقيقية فالقاعدة أن أعظم مصلحة التوحيد وأعظم مفسدة وفتنة الكفر بالله والشرك به والإيمان بالطاغوت وأن ما خالفها فلا ينظر فيه ، فلا يوجد مصلحة فوق العمل بالتوحيد والكفر بالطاغوت وتكفير الكفار ومعاداتهم والبراءة منهم كما أمر الله ولا يوجد ما يسوغ ترك هذه الأصول التي يكفر تاركها، وأي مفسدة وفتنة أكبر من تلبس الحق بالباطل والإيمان بالكفر، وأي دعوة تقبل بعد ذهاب العقيدة وإلى ماذا سيدعون أصلا .

وبهذا يتبين أن دعاواهم ليست إلا شبهات بل وظلمات يدخل الكفر من أبوابها ويحصل الإيمان بالطاغوت من خلالها، ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

مبحث كفر الشك

المسألة الأولى : الكفر المتعلق بزوال شرط اليقين وأسمائه :
هو ما يسميه أهل العلم بكفر الشك والريب والظن.
المسألة الثانية : تعريف الشك شرعاً والمراد به :
الشك هو التردد بين شيئين كالذي لا يجزم بصدق الرسول ﷺ ولا يكذبه.
هو حصول الشك في الشهادتين أو أي أمر من أمور الدين .
فالمراد بالشك في لا إله إلا الله هو أن لا يعتقد قائلها صحة معناها اعتقادا جازما ، فلا يعقد قلبه عليها ويطمئن بها، بل يحصل في قلبه التردد والتذبذب والشك فيها وفيما تدل عليه من حقيقتها ومقتضاها .
أو الشك في رسالة محمد ﷺ ، أو في شيء مما جاء به.
كذلك الشك في عدم بطلان جميع الأديان وكفر أتباعها والتوقف في كفر المشركين وبطلان مذهبهم، وأنه يمكن الاجتماع بين الإسلام وملل الكفر من اليهودية والنصرانية وغيرها فمن كان كذلك فقد ارتد بذلك الوصف عن إسلامه .
فإذا لم يتحقق اليقين وينتفي الشك والريب بعدم حصول التردد والتذبذب في الإيمان، فإنه لا إيمان ولا صحة للتوحيد، ولا تقبل لا إله إلا الله من قائلها.
وقد عرف ابن القيم كفر الشك في المدارج بقوله :" أما كفر الشك فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه بل يشك في أمره وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة فلا يسمعها ولا يلتفت إليها وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك ".
المسألة الثالثة : متعلق الشك وما يكون عليه :
الشك يطرأ على أصول الدين المجمع عليها وعلى الفرعيات وعليه فمنه ما هو كفر ومنه ما هو دون ذلك .
والكفر منه ما يلي :
١- الشك في وجود الله تعالى، ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .
٢- الشك في وجوب توحيده في ربوبيته وألوهيته وكونه المستحق وحده للعبادة وفي تفرد الله بالكمال المطلق أو يشك في تنزهه سبحانه من كل عيب ونقص .
٣- الشك بقضاء الله وقدره ولا يعلم أن إيمانه لا ينفعه إذا لم يوقن بالقدر .

٤- الشك في نبوة محمد ﷺ أو الشك في وجوب اتباعه وطاعته ومحبته .
٥- الشك في وجود الملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين.
٦- الشك في القرآن أو وجوب العمل به.
٧- الشك في صحة دين الإسلام وأنه ناسخ لما سبقه من الأديان السماوية.
٨- الشك في اليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار.
٩- الشك فيما أخبر الله عنه أو أمر به، وعدم الإيقان بصدقه وفضله وأنه حق.
١٠- أن يشك فلا يتيقن بالكفر بالطواغيت المعبودة والمطاعة والمحكمة ، أو يشك في كفر الملل غير ملة الإسلام أو يشك في كفر المشركين واليهود والنصارى وغيرهم من الكفار، ويشك في وجوب معاداتهم والبراءة منهم .

المسألة الرابعة : الشك لا يستمر إلا مع الإعراض وإذا انعدم الإعراض فلا بد أن يحصل الإيمان أو كفر التكذيب والعناد .

قال ابن القيم في المدارج :" وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة فلا يسمعها ولا يلتفت إليها وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك ".

الفرق بين كفر الإعراض وكفر الشك :

قال ابن تيمية: (وليس كل كافر مكذباً بل قد يكون مرتاباً إن كان ناظراً فيه أو معرضاً عنه بعد أن لم يكن ناظراً فيه)الفتاوى ٢/ ٧٩.

المسألة الخامسة: وجه كون الشك كفرا :

والشك ينافي الشهادة بالتوحيد لأن الشهادة قائمة على العلم واليقين وإلا لم تكن شهادة كما قال سبحانه :﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ الزخرف: ٨٦ .

المسألة السادسة: الفرق بين الشك والوسوسة :

أن الشك عدم الإيمان أما الوسوسة فخاطر يهجم على القلب من غير اختيار العبد يكرهه ويعلم بطلانه فلا يصل إلى الشك إلا إذا استرسل صاحبه وتركه .

المسألة السابعة: الفرق بين الريب والشك :

قال ابن تيمية في الإيمان :" أن الريب يكون في علم القلب وفي عمل القلب بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم فهو أعم من الشك ".

وقال :" الريب المنافي لليقين يكون ريباً في العلم وريباً في طمأنينة القلب " .

المسألة الثامنة: أدلة كفر الشك :

١ - قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ الحجرات: ١٥.

فاشترط سبحانه لصحة الإيمان والتوحيد عدم الريب وذلك بتحقق اليقين، وجعل الجهاد من لوازم اليقين .

٢ - وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فيه ﴾ البقرة: ٢-٤. فجعل سبحانه اليقين شرطا للإيمان الحق الصحيح.

٣- وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال: ٢.

فقصر صفة الإيمان على أهل اليقين.

٤- وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ التوبة: ٤٥. فجعل تعالى الشك والتردد والارتياب وعدم اليقين من النفاق الأكبر والذي يكفر صاحبه.

٥- وقال عن الكفار :﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ الجاثية: ٣٢. فكانوا بهذا الظن وعدم اليقين كفارا .

٦- وقال فيهم : ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ إبراهيم: ٩-١٠.

٧- وقال عنهم : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ١٢. فانظر كيف فهم هؤلاء الكفرة أن قِوام الدين والسلامة والنجاة على اليقين وهو مناط ذلك كله.

٨- كما قال عنهم في مواضع﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ ق: ٢٥ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾ سبأ: ٥٤ ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ سبأ: ٢١ ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ﴾ ص: ٨ ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ الدخان: ٩.

قال قتاده شاكين في وحدانية الله. فتأمل كيف جعل سبحانه مناط تكفيرهم في الشك والريب في التوحيد .

٩- وقال تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ١٠٤.

١٠- وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ يونس: ٣٦ .

١١- وقال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ النجم: ٢٨ .

١٢- وقال: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ النجم: ٢٣.

١٣- وقال عن المنافقين: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ النساء: ١٤٣.

ومن السنة :

١- عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال :" أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة " رواه مسلم .

٢- وقال ﷺ :" ثلاثة لا تسأل عنهم: رجل ينازع الله إزاره وإزاره العز، ورجل في شك من الله، والقنوط من رحمة الله " رواه أحمد وابن حبان .

٣- وقال ﷺ :" أفضل الأعمال عند الله :" إيمان لا شك فيه وغزو لا غلول فيه وحج مبرور " رواه الإمام أحمد .

٤- قال ﷺ : " إن الله بعلمه وقسطه جعل الروح والفرج في الرضا واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط " .

٥- وفي حديث جواب المنافق للملكين وعدم يقينه: " سمعت الناس يقولون قولا فقلت مثله " وفي رواية: " لا أدري كنت أقول ما يقول الناس " . متفق عليه .

المسألة التاسعة: أقوال أهل العلم في الشك :

قال سليمان بن سحمان في الضياء الشارق :" وقد دل القرآن على أن الشك في أصول الدين كفر والشك هو التردد بين شيئين كالذي لا يجزم بصدق الرسول ﷺ ولا يكذبه ولا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه ".

قال ابن تيمية في الإيمان :" الريب المنافي لليقين يكون ريبا في العلم وريباً في طمأنينة القلب ".

وقال :" اسم اليقين والريب والشك ونحوها يتناول علم القلب وعمله وتصديقه وعدم تصديقه وسكينته وعدم سكينته ليست هذه الأمور مجرد العلم فقط" .

وقال:" فلا يكون الرجل مؤمنا ظاهرا حتى يظهر أصل الإيمان وهو شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله، ولا يكون مؤمنا باطنا حتى يقر بقلبه بذلك فينتفي عنه الشك ظاهرا وباطنا مع وجود العمل الصالح "الفتاوى ٢٠/ ٨٦ .

وقال ملا علي القاري: " مستيقنا بها قلبه أي بمضمون هذه الكلمة منشرحاً بها صدره غير شاك ومتردد في التوحيد "المرقاة ١/ ١١٤.

وقال ابن القيم في المدارج :" ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورا وإشراقاً وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم، وامتلأ محبة لله وخوفا منه ورضا به وشكرا له وتوكلا عليه وإنابة إليه فهو مادة جمْع المقامات والحامل لها ".

قال ابن حزم عن الجبائي وطائفته القائلين أول واجب على المكلف الشك : " فلا أقبح من قول هؤلاء أنه لا يصح الإيمان إلا بالكفر والتصديق بالجحد " .

المسألة العاشرة : هل يساور إيمان المسلم ويقينه شك :

اليقين المتعلق بأصل الإيمان لا يقبل الشك ولا يجتمعان في قلب العبد .

أما اليقين المتعلق بكمال الإيمان ودرجاته فقد يوجد عند المسلم نوع شك في شيء منها.

المسألة الحادية عشرة: الشك في كفر المشركين .

ومن كفر الشك الذي يكفر به صاحبه الشك في كفر المشركين والمرتدين أو التوقف في تكفيرهم، والزعم أن الله لم يتعبدنا بتكفير المرتد فإن من زعم ذلك فقد كفر ونقص شرط اليقين . قال الإمام محمد في النواقض :" الناقض الثالث من لم يكفر المشركين أوشك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر إجماعا ".

وقد فصلنا الكلام في هذه المسألة .

المسألة الثانية عشرة: علاقة الشك بالنفاق :

والريب من كفر النفاق وصفة المنافقين .

قال تعالى عن المنافقين : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ التوبة: ٤٥ .

فصل ملة إبراهيم
أهميتها وأنها لا تقوم بغير معاداة الكفار وتكفيرهم

التعريف بملة إبراهيم :

هي عبادة الله ﷻ وترك الشرك قصدا والكفر بالطاغوت ، وعلى رأسها البراءة من المشركين وعداوتهم وتكفيرهم ، ولما جرد عبادته وولايته لله وحده استحق أن يختصه الله تعالى بالخلة فضلاً من الله عليه، وجعله إمام الحنفاء الموحدين.

وأخص صفات ملة إبراهيم التي هجرها وأماتها مرجئة زماننا:

إظهار البراءة من الكفار ومعبوداتهم، وإعلان الكفر بهم وبآلهتهم وشرائعهم الشركية وتكفيرهم ،و إبداء العداوة والبغضاء لهم حتى يرجعوا إلى التوحيد.

وقد أثنى الله ﷻ على إبراهيم ﷺ لقيامه بها وأمرنا أن نتأسى بملته .

قال تعالى مبينا هـذه الملـة : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ الحج: ٧٨.

وقال: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ الممتحنة: ٤.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ٧٥ - ٧٧.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴾ الزخرف: ٢٦.

وقال تعالى: ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ مريم: ٤٨ .

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ النحل: ١٢٠.

وجعل تعالى من يرغب عنها سفيها : ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ البقرة: ١٣٠.

قال ابن القيم في الجواب الكافي : (لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى: عن إمام الحنفاء إنه قال لقومه : ﴿ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ٧٧ فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة فإنه لا ولاء إلا لله ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢٨ ﴾

الزخرف ، أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة لا إله إلا الله وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة).

واعلم أن عداوة الكفار لأهل التوحيد متأصلة ودائمة لاتنفك بين أهل الشرك وأهل التوحيد .

كما قال ورقة بن نوفل للنبيﷺ : (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي) رواه البخاري .

وهذا أيضا كان مقرراً في نفوس الصحابة ﷺ عندما بايعوا النبي ﷺ فقد قال أسعد بن زرارة للأنصار لما بايعوا الرسول ﷺ على النصرة : (رويداً يا أهل يثرب، إن إخراجه اليوم مفارقة للعرب كافة، أو قتل خياركم وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله) رواه الإمام أحمد والبيهقي .

بل والكفار يعلمونه وصرحوا به ولم يكن خافيا عن أحد قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ القصص: ٥٧ ، وهذا ما قاله أبو لهب حين عارض دعوة الرسول .

فمعاداة أهل الحق للباطل وأهله قديمة منذ خلق الثقلين: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ الأعراف: ٢٤ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الفرقان: ٣١.

وكانت دعوة الرسل قائمة على الكفر بالطاغوت وتكفير المشركين ومعاداتهم وبراءة ظاهرة من أقوامهم ولم يكن عندهم مداهنة ومجاملة ومجالسة ومخالطة وإكرام وتقدير وتقديم لأهل الشرك والكفر أو الرضا عن الباطل أو الالتقاء معه .

وهكذا كان خاتم الأنبياء والمرسلين الذي جاء في وصفه عند البخاري أنه (فرق بين الناس) ، وقد امتثل أمر الله تعالى باتباع ملة إبراهيم ، فما سكت عن الشرك وأهله ولا داهنهم بل كان في مكة على قلة اتباعه واستضعافهم يعلن براءته من الكفار ومن دينهم ومن معبوداتهم الباطلة ويسفهها ويتبرء من الشرك ويصرح بكفر أهله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ، بل ما كان النبي ﷺ رغم إيواء عمه وحمايته له ودفاعه عنه وحرصه على هدايته ليصلي عليه يوم أن مات بل نهاه الله تعالى عن مجرد الاستغفار له، وعندما جاءه علي ﷺ فقال له: إن عمك الشيخ الضال

قد مات فمن يواريه، غير أن يقول له: "اذهب فواره" رواه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما، وتحمل هو وأصحابه ما نالهم من أذى على ذلك.

فلا يظن ظان أن ملة إبراهيم هذه تتحقق في زماننا هذا بدراسة التوحيد، ومعرفة أقسامه وأنواعه الثلاثة ونواقضه معرفة نظرية وحسب والاكتفاء بفتح الجامعات والكليات المدارس والمعاهد لتدريسه نظريا وتحضير رسائل الدكتوراه في تحقيق التوحيد أو شروح كتاب التوحيد دون الخروج إلى الواقع العملي متمثلاً بالولاء والبراء والحب والبغض والمعاداة والهجران في الله والسكوت عن أهل الباطل وعدم إعلان العداوة وإظهار البراءة من باطلهم .

ولهؤلاء نقول: لو أن ملة إبراهيم كانت هكذا لما ألقاه قومه من أجلها في النار، لأن هذا كله لا يضرهم، ولا يؤثر فيهم .

وكذلك رسول الله ﷺ لو أنه سكت في بادىء الأمر عن تسفيه أحلام قريش والتعرض لآلهتهم وطواغيتهم وعيبها والبراءة منهم ومن دينهم ومعبوداتهم، لأكرموه وقرّبوه ولما آذوه أشد الأذى وحاولوا قتله ولما احتاج إلى هجرة وتعب ولجلس هو وأصحابه في ديارهم وأوطانهم آمنين.

إن قضية موالاة أهل دين الله ومعاداة الكافرين وتكفيرهم أول ما فُرضت على المسلمين قبل فرض الصلاة والزكاة والصوم والحج، ومن أجلها لا لغيرها حصل العذاب والأذى والابتلاء. ألا ترى أنه ﷺ مكث أربعين سنة يتحنث ويعبد الله ولا يعبد الأوثان ومثله بقايا الحنيفية وأهل الكتاب ولم يكن أحد يتعرض له ، ولما جاء بالبراءة والعداوة والتكفير أظهر الكفار جميع أصناف الأذى وأشد العداوات .

واعلم أن ملة إبراهيم القائمة على الكفر بالطواغيت ومعاداة الكفار وتكفيرهم أول واجب على المسلم وهي من إخلاص العبادة لله وحده والكفر بكل معبود سواه ولا يصح أن تؤخر أو تؤجل بل لا يبدأ إلا بها وهذا هو مقتضى لا إله إلا الله، وقد يظن بعض الجهال أن ملة إبراهيم آخر مرحلة في الدعوة فلا يبدأ بالكفر بالطاغوت، ولكي يتبين لك الحق تدبر القرآن المكي الذي ما كانت تتنزل منه آية إلا وفيها تسفيه آلهتهم والكفر بطواغيتهم وتكفير المشركين وتعلن البراءة منهم .

وهي لا تعارض اللين والحكمة في الدعوة، وانظر لمنهج الرسول كان من أول يوم في الدعوة مظهرا الكفر بالطاغوت مع لينه وحسن خلقه فلا تعارض بين الأمرين وانظر ماذا قال لعمرو وهو في حال الاستضعاف بعثت بكسر الأوثان وصلة

الأرحام ما قال بعثت بدين التسامح والإخاء وصلة الرحم ولم يسكت لحظة من عيب الشرك والكفر ودعوة الكفار للإسلام وتبيين ما هم عليه من الكفر والضلال وتأمل في كثير من دعاة اليوم لا ينطقوا بكلمة من ذلك وظنوا أن الدعوة بالحكمة والحسنى تستلزم أو حتى تجوز ترك الصدع بالكفر بالطاغوت .

وأغلب الناس يتعذر بمصلحة الدعوة وبخوف الفتنة وأي فتنة أعظم من الشرك والإيمان بالطاغوت وكتمان التوحيد والتلبيس على الناس في دينهم، وأي مصلحة أعظم من إقامة ملة إبراهيم وإظهار الموالاة لدين الله والمعاداة للطواغيت، وإذا لم يبتل المسلمون لأجل ذلك وإذا لم تقدم التضحيات في سبيله فلأي شيء إذاً يكون البلاء .

فائدة : نصت آية الممتحنة المبينة ملة إبراهيم الولاء والبراء ومعاداة الكفار وتكفيرهم من بضعة عشر وجها :

قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ .

وإليك بعض التأملات والوقفات مع هذه الآية العظيمة التي بين الله تعالى فيها لكل موحد متبع غير مبتدع حقيقة الملة الإبراهيمية التي أمرنا باتباعها .

أولاً : أن هذه هي الملة الإبراهيمية التي هي ملّة خليله ومولاه والتي وصفها بالحسنى وسفه ربنا تعالى مخالفها .

أن في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ دلالة على الاجتماع على الحق ، وفيها دليل على الموالاة القائمة على الاتباع والتأسي والموافقة .

وفي قوله: ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ﴾ دلالة على التناصر والتحالف والتوالي فيما بينهم .

وفي قوله: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ ﴾.

بيان لحقيقة (عقيدة البراء) في كلمة: ﴿ بُرَآءُ ﴾ ، وأنها تقوم على ثلاثة أصول :

الأول: البغض لهم، والثاني: إظهار العداوة لهم والجهاد والقتال، والثالث: تكفيرهم والكفر بهم . وبدأ بالأخير لتعلق النزاع والخلاف فيه.

فالبغض قليل من يخالف فيه من المرجئة والعداوة أكثر وتكفير المرتدين أكثر.

وتأمل قوله: ﴿ وَبَدَا ﴾، الذي يفيد البدوّ وهو غاية الظهور والوضوح ، كما يفيد الابتداء فلا يدخل أحد الإسلام إلا مع البدء بمعادة الكفار وهذا لا يقبل التأخير.

وقوله: ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ تدل على المفاعلة من الطرفين وأنها حاصلة من الجانبين، وأنه لا بد من اجتماع الموالاة مع المعاداة.

ثم تأمل كيف جمع بين العداوة والبغضاء ﴿ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ ﴾، وتقديم العداوة التي مكانها الجوارح الظاهرة على البغضاء التي مكانها القلب، دليل على وجوب اجتماع الظاهر والباطن ، فلابد من إظهار العداوة والبراءة منهم بدون لبس، ولا يكفي إضمار البغض لهم في القلب ونحن مسالمون لهم ظاهرا .

ثم تأمل تقديم البراءة من العابدين وشركهم قبل المعبودين في قوله﴿ بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ، وما ذلك إلا للأهمية، فإن البراءة من العابد وشركه يقتضي البراءة من المعبودين دون العكس، والبراءة من المعبودين لا يستلزم البراءة من عابديهم وما يشركون، فلا تكفي عداوة الكفار دون الطواغيت المعبودة والمتبعة والأسياد المطاعة، كما لا تكفي هي أيضاً دون عداوة أهلها ومتبعيها، وكم من جاهل يظن أن البراء متعلق بالكفر دون فاعله وأن معاداة الكفار ليست مشروعة وإنما المشروع هو فقط بغض الكفر وتركه دون التعرض لأصحابه لأن الله سيتولاهم .

ثم تأمل قوله:﴿ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ ، مما يدل على استمرار العداوة وأبديتها وأننا لا نقطع عداوتنا للكفار وتكفيرهم إلا إذا آمنوا وأقاموا التوحيد ، وجاء بحرف (حتى) مع كلمة (أبدا) دلالة على الاستغراق التام لتأكيد هذه الغاية وهي بقاء الفعل (العداوة) ما بقي سببه (الكفر).

ثم تأمل قوله:﴿ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ ، كيف أكد على التوحيد في كلمة وحده وأنه السبب الوحيد للتولي، وأنه لا يكفي مجرد الإيمان بالله دون توحيد ودون الموالاة والمعاداة فيه فتأمل واعلم ثم اعمل. فالموالاة سببها الإيمان بالله وتوحيده .

وأما استثناء الاستغفار لأبيه في قوله ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ ، فنحن غير مأمورين بالاقتداء به .

مع أن هذا مجرد دعاء له بالمغفرة وكان قبل تبين حال والده ولما تبين له أن كافر عدو لله وكل كافر فهو عدو لله تبرأ منه ولم يستثنه من العداوة والتكفير والبغضاء .

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ التوبة: ١١٤.

وفي هذا رد على من زعم تجويز المحبة الطبيعية للوالد والولد الكافرين .

وفي آخر الآية أكد على التوحيد معلقاً أمره بالله ورد كل شيء إلى الله تعالى.

وهذا في قوله: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

واعلم يا أيها الموحد أن هذه هي ملة إبراهيم التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ البقرة: ١٣٠، وهذه هي الأسوة الحسنة التي أمرنا الله ﷻ بالاقتداء بها.

شبهة : أن ملة إبراهيم منسوخة في حقنا أو أنها لا يبدأ بها :

ويستدلون على ذلك بالأصنام التي كانت حول الكعبة والتي لم يكسرها الرسول ﷺ بزعمهم طوال مكوثه في مكة عهد الاستضعاف .

ويرد عليهم من أوجه :

أولاً: أنه حطم الأصنام حقيقة وحساً كما فعل إبراهيم، فقد صح عن النبي ﷺ أنه فعل شيئاً منه حينما تمكن من ذلك وقدر عليه في غفلة من كفار قريش قبل الهجرة وقبل الفتح في مكة زمن الاستضعاف، كما روى الإمام أحمد وأبو يعلى والبزار بإسناد حسن عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: "انطلقت أنا والنبي ﷺحتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ اجلس وصعد على منكبي فذهبت لأنهض به فرأى مني ضعفاً فنزل وجلس لي نبي الله ﷺ وقال: اصعد على منكبي، قال فصعدت على منكبيه، قال فنهض بي قال فإنه يخيل إلي أني لو شئت لنلت أفق السماء حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس فجعلت أزاوله عن يمينه وشماله وبين يديه ومن خلفه، حتى إذا استمكنت منه قال لي رسول الله ﷺ: اقذف به فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق حتى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس" وبوّب له الهيثمي في مجمع الزوائد: (باب تكسيره ﷺ الأصنام) وذكر رواية "كان على الكعبة أصنام فذهبت أحمل رسول الله ﷺ فلم أستطع فحملني فجعلت أقطعها" وفي رواية زاد " فلم يوضع عليها بعد، يعني شيئاً من تلك الأصنام" قال: ورجال الجميع ثقات.. وذكره أبو جعفر الطبري . تهذيب الآثار ص٢٣٦ .

ثانيا : إنه ﷺ كسر الأصنام بعد أن أضفره الله على المشركين ولم يستبق صنما ولا وثنا ولا قبرا إلا وأرسل في إزالته، بل إنه لم يأذن في إبقاء اللات وامتنع من تركها ولو شهرا حين طلبت ثقيف منه ذلك ورفض طلبهم .

ثالثا :حصرهم ملة إبراهيم في تكسير الأصنام، مع أن تكسير الأصنام جزء منها، وهذا الذي صدهم عن فهم حقيقتها ومعرفتها .

رابعا : أنه ﷺ كان متبعاً إبراهيم آخذاً بملته مقتد بهديه فما داهن ﷺ الكفار لحظة واحدة وما سكت عن باطلهم أو عن آلهتهم، بل كان همه وشغله الشاغل طوال حياته قبل الهجرة وبعدها وكان أول ما دعا إليه اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ويدل لهذه الحقيقة أدلة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ الأنبياء: ٣٦ ، ولقد صدق فيه وصف الملائكة كما في صحيح البخاري: "أنه فرّق بين الناس" .

وعن عروة بن الزبير عن عبد الله ابن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط سفّه أحلامنا وشتم آبائنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا، قال: فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي، حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فلما أن مر بهم، غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، فمر بهم الثانية، فغمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فقال: "تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح" فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاه قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشداً، فوالله ما كنت جهولاً، قال: فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد، اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه! فبينما هم في ذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به، يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: نعم، أنا الذي أقول كذا، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه، قال: وقام أبو بكر الصديق ﷺ ، دونه يقول وهو يبكي: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟". ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً بلغت منه قط". رواه أحمد.

فتأمل حال النبي ﷺ مع كفار زمانه وعداوته الظاهرة لهم، وبراءة صريحة، وليس كأوضاع أهل زماننا الشاذة من ركون المنتسبين للتوحيد والدين لأهل الباطل حتى داهنوهم وجاملوهم وجلسوهم بل وآزروهم وناصروهم ولم تعد القضية قضية عداوة ولا براءة، بل تعاون وتكاتف لصالح الوطن والأمن .

مسألة: الجمع بين عيبه ﷺ آلهتهم ودينهم وبين قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الأنعام: ١٠٨:

أن عيب الآلهة الباطلة وتسفيهها والحطّ من قدرها وإظهار عداوتها وبغضها والبراءة منها والكفر بها ليس لمسلم أن يتركه حتى ولو ترتب على مثله أن يسب الكافر الله أو يعادي الدين ، فليس للمسلم أن يترك لأجله ما أوجب الله عليه من الصدع بالتوحيد وإظهار الدين . وهذا وإن سمّاه البعض سباً فإنه ليس سباً مجرداً وإنما أصل المقصود به بيان التوحيد للناس وذلك بإبطال ألوهية هذه الأرباب المتفرقة المزعومة والكفر بها وبيان زيفها للخلق .

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في المواضع الستة المستنبطة من السيرة : (أن النبي ﷺ لما صرح بسب دينهم وتجهيل علمائهم فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة وقالوا: سفه أحلامنا وعاب ديننا وشتم آلهتنا، ومعلوم أنه ﷺ لم يشتم عيسى وأمه ولا الملائكة ولا الصالحين ولكن لما ذكر انهم لا يدعون ولا ينفعون ولا يضرون جعلوا ذلك شتماً) .

مبحث : حقيقة إظهار الدين الواجب :

اعلم أن إظهار الدين أمر واجب على كل مسلم وهو يطلق على أمرين :

الأول : إظهار أن الشخص مسلم أو القيام بالعبادات والصلوات وهذا لا يكفي بمجرده كما توهم البعض.

الثاني : إظهار لوازم الإسلام، من الولاء والبراء ومعاداة الكفار وتكفير المشركين والكفر بالطاغوت وهي المقصودة هنا .

يقول الشيخ حمد بن عتيق في سبيل النجاة والفكاك: (إن كثيراً من الناس قد يظن أنه إذا قدر على أن يتلفظ بالشهادتين وأن يصلي الصلوات الخمس، ولا يرد عن المسجد فقد أظهر دينه وإن كان مع ذلك بين المشركين أو في أماكن المرتدين، وقد غلطوا في ذلك أقبح الغلط . واعلم أن الكفر له أنواع وأقسام بتعدد المكفرات وكل طائفة من طوائف الكفر قد اشتهر عندها نوع منه، ولا يكون المسلم مظهراً لدينه حتى يخالف كل طائفة بما اشتهر عندها ويصرح لها بعداوته، والبراءة منه).

ويقول: (إظهار الدين: تكفيرهم وعيب دينهم والطعن عليهم والبراءة منهم ، وليس فعل الصلوات فقط إظهاراً للدين). من جزء الجهاد ص١٩٦.

قال إسحاق بن عبد الرحمن:(زعم أن إظهار الدين هو عدم منعهم من يتعبد ويدرس دعوى باطلة.لأن الصلاة والتدريس موجود في بلدانهم).الدرر الجهاد١٤١

وقال : (ولو سلمنا أن إظهار الدين هو أداء الواجبات ، فإن أوجب الواجبات التوحيد وما تضمنه من مباينة المعتقد ... لأنه لا يمنع أحد من فعل العبادات الخاصة في أكثر البلاد ...) الدرر ١٢/ ٤١٢ .

ويقول محمد بن عبد اللطيف: (يظن الجهلة من أنه إذا تركه الكفار وخلوا بينه وبين أن يصلي أنه يصير مظهراً لدينه هذا غلط فاحش) . الدرر ٨/ ٢٠٧.

قال الأول: يظنون أن الدين لبيك في الفلا * وفعل صلاة والسكوت عن الملا

ويقول الشيخ سليمان بن سحمان :

إظهار هذا الدين تصريح لهم   بالكفر إذْ هم معشر كفار
وعداوة تبدو وبغض ظاهر   يا للعقول أما لكم أفكار

وهنا نكتة لطيفة وفائدة نفيسة في مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه أنظر أيها الموحد ماذا كان يقول في سورة غافر ومع ذلك يوصف بكتم الإيمان، فأين هذا ممن يسارع في الذين ارتدوا وكفروا وتبرع بإسماع الكفار ما يحبون ويظهر موافقتهم ويرضيهم بالنطق بالكفر البواح ويعينهم بيده من غير إكراه، فلم يكتف بالسكوت عن الحق بل جاوزه إلى التكلم بالباطل يبتغي متاع الدنيا والسعة في العيش ثم يتعلل بالإكراه .

فصل الكفر بالطاغوت

المسألة الأولى : تعريف الطاغوت :

أولاً : معنى الطاغوت لغةً : الطاغوت: على وزن فعلوت، وهو أحد الأوزان الدالة على المبالغة ، مثل جبروت وملكوت.

ولفظ الطاغوت مشتق من الفعل : طغى يطغى طغْيا ويطغو طغيانا، إذا جاوز القَدْرَ وتعدى حده في العصيان وارتفعَ وغَلا في الكفر. ومنه طغى الماء والبحر كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ أي تجاوز حده وزادت أمواجه، وكل شيء جاوز القَدْرَ فقد طغى. وكل من جاوز حدَّه في العصيان فهو طاغ .

وسُمّي الطاغوت طاغوتاً لأنه طغى وتجاوز الحد في الكفر .

أما في الاصطلاح : له تعريفات أضبطها اثنان :

الأول : الطاغوت هو كل ما تجوّز به الحد من متبوع أو مطاع أو معبود .

الثاني : كل ما عُبد من دون الله وهو راضٍ بذلك ، ولو في باب من العبادة .

١- فمن يُعبد من جهة الحب والموالاة والمعاداة فهو طاغوت .

٢- ومن يُعبد من جهة الطاعة والاتباع والتحاكم والتشريع فهو طاغوت .

٣- ومن يُعبد من جهة الدعاء والخشية والنذر والنسك فهو طاغوت .

٤- ومن يُعبد من جهة الإقرار له بخصائص الإلهية أو بعضها فهو طاغوت.

ويدخل في هذا التعريف كل من أمر بكفر أو قرره .

فائدة : تفريق بعض السلف بين الجبت والطاغوت :

فالجبت فعل الطاغوت من شرك وسحر والطاغوت المعبود والساحر.

المسألة الثانية : صيغة الطاغوت :

والطاغوت صيغة تستخدم وتطلق على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث .

قال الواحدي : قال أهل اللغة: الطاغوت كل ما عُبد من دون الله ، يكون واحداً وجمعاً ويُذكّر ويُؤنّث ، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠ .فهذا في الواحد . وقال تعالى في الجمع : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ البقرة: ٢٥٧.

وقال في المؤنث: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ الزمر: ١٧.

وجمع الطاغوت : طواغيت، وطواغي وفي الحديث : (لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطوغي) وفي رواية: (ولا بالطواغيت)، فالطواغي جمع طاغية، وهي ما كانوا يعبدونه من الأصنام وغيرها ، ومنه : (هذه طاغية دَوْس وخثعَم) أي صنمهم ومعبودهم، ويجوز أن يكون أراد بالطواغي من طغى في الكفر وجاوز الحدَّ، وهم عظماؤهم وكبراؤهم . انظر لسان العرب .

المسألة الثالثة: الفرق بين الكفر والطاغوت :

ليس كل كافر طاغوتاً وليس كل كفر يعتبر بواحا فالكفر منه المجرد والمغلظ والكافر منه العادي ومنهم الطاغوت ومنهم دون ذلك .

ولذلك فالطاغوت هو ما زاد عن الحد في الكفر .

كما أنه يطلق اسم الطاغوت أحيانا على من ليس بكافر، ويراد منه معناه اللغوي وهو مجاوزة الحد والتعدي كإطلاقات بعض السلف على أئمة الجور كالحجاج وغيره، فإنهم أطلقوا عليه اسم الطاغوت ووصفوه بالطغيان .

الرابعة: ليس كل معبود يسمى طاغوت :

الطاغوت يكون حيا وجمادا ، والمعبود إذا كان حي وكانت عبادته برضاه فهو طاغوت وإلا فلا ، فالملائكة وعيسى ليسوا طواغيت ولا يسمون طواغيت.

وقد وهم البعض حين قال أنهم جعلوا طواغيت بعبادة المشركين لهم كما قال الرسول ﷺ : (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد) رواه مالك وأحمد .

فيصير الطاغوت في عبادة الناس لا في ذوات المعبودين وهذا التوجيه بعيد، فالوثن في ذات القبر وترابه وليس صاحبه، ثم هناك فرق بين الطاغوت والوثن .

ثم إن العبادة في الحقيقة وقعت للشيطان فهو إله ومعبود كل مشرك في الحقيقة قال ﷻ: ﴿ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ﴾ سبأ: ٤١ ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ النساء: ١١٧.

المسألة الخامسة : مرادفات الكفر بالطاغوت :

جاءت عبارات شرعية مرادفة للكفر بالطاغوت،منها:

التوحيد ، لا إله إلا الله ، النهي عن الشرك ، الكفر بما يعبد من دون الله، الإخلاص ، عبادة الله وحده ، الإيمان بالله وحده .

والتوحيد مرادف الكفر بالطاغوت:

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في الفتح: (التوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله) .

المسألة السادسة : أقوال أهل العلم في تعريف الطاغوت :

قال الإمام مالك : (الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله) تفسير ابن كثير .

قال ابن جرير الطبري في تفسيره : (الطاغوت كل ذي طغيان على الله ، فيعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده وإما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو كائناً ما كان من شيء، وأرى أصل الطاغوت، الطغووت من قول القائل : طغا فلان يطغو، إذا عدا قدره فتجاوز حده) وقال فيه : (الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله أو طاعة أو خضوع له).

قال ابن تيمية : (الطاغوت فعلوت من الطغيان، والطغيان مجاوزة الحد وهو الظلم والبغي. فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارها لذلك طاغوت، ولهذا سمى النبي ﷺ الأصنام طواغيت في الحديث الصحيح: (ويتبع من يعبد الطواغيت الطواغيت) والمطاع في معصية الله، والمطاع في اتباع غير الهدى ودين الحق سواء كان مقبولا خبره المخالف لكتاب الله، أو مطاعا أمره المخالف لأمر الله هو طاغوت، ولهذا سمى من تحوكم إليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوت، وسمي فرعون وعاد طغاة) . الفتاوى ٢٨/ ٢٠٠ .

وقال: (ما عُظم بالباطل من دون الله تعالى) بيان تلبس الجهمية (١/ ٤٥٠).

قال ابن القيم : (الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله ، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى طاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته) . إعلام الموقعين ١/ ٥٠ .

قال محمد بن عبد الوهاب : (الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله).

قال النووي في شرح مسلم : (قال الليث وأبو عبيدة والكسائي وأهل اللغة : الطاغوت كل ما عبد من دون الله تعالى) .

قال ابن الأثير: (ما تجاوز به العبد حدّه في الكفر) النهاية ٣٥٤.

قال القرطبي في تفسيره: الطاغوت الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال.

قال عبد الله أبابطين : (الطاغوت يشمل كل معبود من دون الله، وكل رأس في الضلال يدعو إلى الباطل ويحسنه، ويشمل كل من نصبه الناس للحكم بينهم بأحكام الجاهلية المضادة لحكم الله ورسوله، ويشمل الكاهن والساحر وسدنة الأوثان الداعين إلى عبادة المقبورين وغيرهم، بما يكذبون من الحكايات المضلة للجهال.. وأصل هذه الأنواع كله وأعظمها : الشيطان، فهو الطاغوت الأكبر). الدرر ٢/ ١٠٣.

قال الشنقيطي في تفسيره : (التحقيق أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت والحظ الأكبر من ذلك للشيطان) .

السابعة : أدلة الكفر بالطاغوت : وردت في ثمانية مواضع من كتاب الله ﷻ :
قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ الزمر: ١٧ .
﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ البقرة: ٢٥٦.
﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦.
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ النساء: ٥١.
﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ المائدة: ٦٠.
﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ البقرة: ٢٥٧.
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ النساء٦٠.
﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء: ٧٦.

الآيات الثمانية بينت سبعة أحكام في التعامل مع الطاغوت: وجوب الكفر به، واجتنابه ، وكفر من آمن به ، أو عبده ، أو تحاكم إليه ، أو تولاه ، أو قاتل في سبيله .

وورد التحذير من الطغيان وذم الطغاة وتوعدهم بالعقوبة في آيات عدة منها:
﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ هود: ١١٢ ﴿ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ الطور ٣٢ ﴿ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ المائدة ٦٨ ﴿ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴾ النبأ: ٢٢ ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ النازعات: ١٧ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ الشمس: ١١.

ومن الأدلة على الكفر بالطاغوت في السنة :

١- عن أبي هريرة قال: قال ﷺ : (يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الأمة) رواه البخاري .

والحديث يدل على عدم تسمية الشمس والقمر طواغيت مع كونها معبودات ولعل وجه ذلك أنها آية من آيات الله الدالة على ألوهية الله وعبدت بدون رضاها، وإن جاز أن تسمى طواغيت كان عطف الطواغيت عليها عطف العام على الخاص .

٢- عن عبدالرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ : (لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم) . رواه مسلم وفي رواية عند احمد (ولا بالطواغيت) .

٣- وقال النبي ﷺ للذي سأله عن نذره بالنحر ببوانة : (هل كان بها وثن أم طاغية فقال لا قال أوف بنذرك) رواه أحمد .

٤- أن النبي ﷺ أمر عثمان بن أبي العاص أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طواغيتهم . وهو محل مسجد ابن عباس اليوم . رواه أبو داود .

٥- امتناع الرسول ﷺ وعدم إذنه لوفد ثقيف استبقاء اللات وأن يبقيه لهم شهرا واحدا . قال ابن القيم معلقا على هذا الحكم : (لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها يوما واحدا فإنها شعائر الشرك) الزاد ٢/ ٢٠٠.

٦- وقال جابر : كانت الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها في جهينة واحد وفي أسلم واحد وفي كل حي واحد كهان ينزل عليهم الشيطان .

٧- وقال عمر : الجبت السحر والطاغوت الشيطان .

٨- وقالت عائشة عن آية السعي بين الصفا والمروة : أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية .

وكل ما سبق من الآثار في صحيح البخاري .

وقال سعيد بن المسيب: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا تحلب والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم ، والفرع أول النتاج كانوا يذبحونه لطواغيتهم .

٩- قال علي بن أبي طالب ﷺ: (انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ اجلس وصعد على منكبي فذهبت لأنهض به فرأى مني ضعفاً فنزل وجلس لي نبي الله ﷺ وقال: اصعد على منكبي. قال فصعدت على منكبيه، قال فنهض بي قال فإنه يخيل إلي أني لو شئت لنلت أفق السماء حتى صعدت على البيت

وعليه تمثال صفر أو نحاس فجعلت أزاوله عن يمينه وشماله وبين يديه ومن خلفه، حتى إذا استمكنت منه قال لي رسول الله ﷺ: اقذف به فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق حتى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس) . رواه الإمام أحمد وأبو يعلى والبزار بإسناد حسن .

وبوّب له الهيثمي في مجمع الزوائد: (باب تكسيره ﷺ الأصنام) وذكر رواية : (كان على الكعبة أصنام فذهبت أحمل رسول الله ﷺ فلم أستطع فحملني فجعلت أقطعها) وفي رواية زاد :(فلم يوضع عليها بعد، يعني شيئاً من تلك الأصنام) .

قال الهيثمي ورجال الجميع ثقات وذكره الطبري في تهذيب الآثار ص٢٣٦ .

١٠- قوله ﷺ لعمرو بن عبسة: (أرسلني بكسر الأوثان) رواه مسلم .

ومن فقه هذا الحديث أن الكفر بالطاغوت لا يؤخر.

١١- دخل الرسول ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل) رواه البخاري .

فكسر الأصنام بعد أن أظفره الله على المشركين ولم يستبق صنما ولا وثنا ولا قبرا إلا وأرسل في إزالته وبعث البعوث بهدم الأصنام ، بل إنه لم يأذن في إبقاء اللات وامتنع من تركها ولو شهرا حين طلبت ثقيف منه ذلك ورفض طلبهم واقتدى بإبراهيم في تكسيره للأصنام .

١٢- فعل الرسول ﷺ :

حيث كان النبي ﷺ متبعاً إبراهيم آخذاً بملته مقتد بهديه فما داهن ﷺ الكفار لحظة واحدة وما سكت عن باطلهم أو عن آلهتهم، بل كان همه وشغله الشاغل طوال حياته قبل الهجرة وبعدها، وكان أول ما دعا إليه اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، ويدل لهذه الحقيقة أدلة منها قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٦. ولقد صدق فيه وصف الملائكة كما في البخاري: (أنه فرّق بين الناس) .

١٣- أن الجهاد شرع من باب الكفر بالطاغوت ، قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ الأنفال: ٣٩.

١٤- قوله ﷺ : (من لقي الدجال فليتفل في وجهه) رواه أبو داود .

وهذا من صور الكفر بالطاغوت .

١٥- قطع عمر ﷺ لشجرة بيعة الرضوان سداً لوسائل الشرك.

١٦- وعن عروة أنه سأل عبد الله بن عمرو : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط سفّه أحلامنا وشتم آبائنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا، قال: فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفاً بالبيت فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى فمر بهم الثانية فغمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: (تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح) فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه وصاه قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم انصرف راشداً، فوالله ما كنت جهولاً، قال: فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد، اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ، فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به، يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: نعم، أنا الذي أقول كذا، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه، قال: وقام أبو بكر الصديق ﷺ ، دونه يقول وهو يبكي: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله). ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً بلغت منه قط. رواه أحمد.

المسألة الثامنة: أقوال أهل العلم في المسألة :

قال محمد بن عبد الوهاب: (لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء ـ أي الطواغيت المعبودون من دون الله ـ وتكفيرهم) الدرر ١٠/ ٥٣.

وقال:(أول ما فرض الله على ابن آدم الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، والدليل ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾).الدرر ١/ ١٦١.

وقال في كتاب التوحيد : (وهذا من أعظم ما يُبين معنى لا إله إلا الله ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يُضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله ، فإن شك أو تردد لم يُحرم دمه) .

وقال فيه: (المسألة الكبيرة : أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت) .

قال ابن القيم: (لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوما واحدا فإنها شعائر الشرك والكفر وهي أعظم المنكرات فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة ألبته، وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانا وطواغيت تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها وكثير منها بمنزلة اللات والعزى أو أعظم شركا عندها وبها) زاد المعاد ٢/ ٢٠٠.

وقال: (فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته) نقله عنه سليمان بن عبدالله تيسير العزيز ٣٣ .

وقال سليمان بن عبد الله: (لأن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله أن لا يُعبد إلا الله وأن لا يعتقد النفع والضر إلا في الله ، وأن يُكفر بما يُعبد من دون الله ويتبرأ منها ومن عابِديها) التيسير ١٥٢.

وقال عبد الرحمن بن حسن:(التوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله ، والكفر بالطاغوت ركن التوحيد كما في آية البقرة، والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه) فتح المجيد ٣٩٣ .

وقال : (التحاكم إلى الطاغوت إيمان به) .

وقال :(دلت الآية على أنه لا يكون العبد مستمسكاً بلا إله إلا الله إلا إذا كفر بالطاغوت ، وهي العروة الوثقى التي لا انفصام لها ، ومن لم يعتقد هذا فليس بمسلم ، لأنه لم يتمسك بلا إله إلا الله ، فتدبر واعتقد ما يُنجيك من عذاب الله وهو تحقيق معنى لا إله إلا الله نفياً وإثباتاً) الدرر ١١ / ٢٦٣.

وقال ابن سحمان: (فبيّن تعالى أن المُستمسك بالعروة الوثقى هو الذي يكفر بالطاغوت ، وقدم الكفر به على الإيمان بالله ، لأنه قد يدعي المدعي أنه يؤمن بالله وهو لا يجتنب الطاغوت وتكون دعواه كاذبة ، وأخبر أن جميع المرسلين قد بُعِثوا باجتناب الطاغوت ، فمن لم يجتنبه فهو مخالف لجميع المرسلين) الدرر ١٠/ ٥٠٢.

وقال بعده :(والمراد من اجتناب الطاغوت : بغضه وعداوته بالقلب وسبه وتقبيحه باللسان وإزالته باليد عند القدرة ومُفارقته ، فمن ادعى اجتناب الطاغوت ولم يفعل ذلك فما صدق) .

المسألة التاسعة: الكفر بالطاغوت أول ما فرض الله والرسل أجمعت عليه :

أول ما افترض الله على عباده الكفر بالطاغوت ، وإليه دعا جميع الرسل وقد أجمعت الرسل على أن الدين لا يقبل إلا به، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦ .

العاشرة: حكم الكفر بالطاغوت وكونه شرطاً لصحة التوحيد والإيمان ولا يعتبر الإسلام إلا به وهو أول ما فرض الله:

يعتبر الكفر بالطاغوت الركن الأعظم في التوحيد إذ التوحيد لا يسمى توحيداً إذا لم يقم على النفي وهو الكفر بالطاغوت، وإذا كان التوحيد لا يتحقق بدونه فإن الدين لا يصح والإسلام لا يقبل إلا به، وقد دلت النصوص على هذا الأصل وحكا أهل العلم الإجماع عليه ، فالكفر بالطاغوت والنفي والإثبات في التوحيد تكون مقترنة ولا تنفك عن بعض، ولا يتصور تعاقب زمني بينها بل تكون في وقت واحد فهي متلازمة، فلا تكون عبادة لله إلا بالكفر بعبادة غيره وكل أمر بالعبادة لله فالمقصود بها التوحيد . (لا إله إلا الله)

قال ﷻ: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾البقرة٢٥٦

والعروة الوثقى: كلمة التوحيد والإيمان والإسلام، ومفهوم الآية من لم يكفر بالطاغوت، لا يكون مستمسكا بالعروة الوثقى وآتيا بالتوحيد، فهو كافر غير مسلم.

وعليه فمن لم يكفر بالطاغوت يكون كافراً مشركاً ، ووجه ذلك أن الكفر بالطاغوت ركن في التوحيد لا يقبل ولا يصح إلا به ، فالتوحيد يقوم على عبادة الله مع الكفر بالشرك، ومن لم يعبد الله فهو كافر ومن لم يكفر بعبادة ما سواه فهو مشرك.

الحادية عشرة: حكم من يقول (لا إله إلا الله) لكنه لم يكفر بالطواغيت :

من يقول : (لا إله إلا الله) لكنه لا يكفر بالطاغوت فهو كافر غير مسلم .

مسألة : هل يصح أن يؤمن العبد بالله مع عدم كفر بالطاغوت ؟

والجواب : أنه قد يجتمع عدم الكفر بالطاغوت مع الإيمان بربوبية الله ، كما يجتمع الشرك مع الإيمان بربوبية الله ، ويصدق فيه قوله ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦، كما قال السلف في تفسيرها، أما الإيمان الصحيح بالله والتوحيد الحقيقي فلا يكون إلا بالإيمان بتوحيد الألوهية والربوبية معاً .وأما حديث: (من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه

على الله) رواه مسلم . فهذا العطف للتأكيد لا المغايرة، لأن الكفر بما يعبد من دون الله من معاني كلمة التوحيد.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (فقوله : وكفر بما يعبد من دون الله تأكيد للنفي، فلا يكون معصوم الدم والمال إلا بذلك، فلو شك أو تردد لم يعصم دمه وماله. واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمنا بالله إلا بالكفر بالطاغوت، والدليل قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾، الرشد دين محمد ﷺ، والغي دين أبي جهل، والعروة الوثقى شهادة لا إله إلا الله، وهي متضمنة للنفي والإثبات، تنفي جميع أنواع العبادة عن غير الله، وتثبت جميع أنواع العبادة كلها لله وحده لا شريك له). مجموعة التوحيد .

وقال : (دين النبي ﷺ التوحيد، وهو معرفة لا إله إلا الله محمد رسول الله، والعمل بمقتضاها، فإن قيل: كل الناس يقولونها، قيل: منهم من يقولها ويحسب أن معناها لا يخلق إلا الله ولا يرزق إلا الله وأشباه ذلك، ومنهم لا يفهم معناها، ومنهم من لا يعمل بمقتضاها،ومنهم من لا يعقل حقيقتها، وأعجب من ذلك من عرفها من وجه، وعاداها وأهلها من وجه، وأعجب منه من أحبها وانتسب إلى أهلها ولم يفرق بين أوليائها وأعدائها، يا سبحان الله العظيم! أتكون طائفتان مختلفتان في دين واحد وكلهم على الحق؟ كلا والله، فماذا بعد الحق إلا الضلال). الرسائل الشخصية ١٨٢ .

الثانية عشرة: لا يجتمع إيمان بالله مع إيمان بالطاغوت وعدم الكفر به:

لا يجتمع إيمان بالله مع إيمان بالطاغوت، ولا عبادة الله مع عبادة الطاغوت ولا التوحيد مع الشرك فما ثم إلا عبادة الله أو عبادة الطاغوت ، فإذا آمن بأحدهما كفر بالآخر، لأن الرب ﷻ هو الإله الحق يجب الإيمان به، ومن الإيمان به أن يكفر بكل إله سواه، ومن آمن بإله غيره واعترف بالطاغوت وآمن به فقد كفر بالله لا محالة ، بل ولو لم يؤمن بالطاغوت لكن ترك الكفر به فإنه يعتبر كافر بالله غير مؤمن به .

قال ابن تيمية : (فأما من ترك عبادته بما أمر به واتبع هواه فهو لا يعبد الله وإنما يعبد الشيطان ويعبد الطاغوت) الفتاوى ١٦/ ٥٦٥ .

قال الشيخ عبد اللطيف: (من فعل الشرك فقد ترك التوحيد فإنهما ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان) منهاج التأسيس ص٦.

قاعدة: الكفر بالطاغوت يقابل الإيمان بالله وعبادته :

أثبت ﷻ وجود المؤمن بالطاغوت بقوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ النساء ٥١، والمؤمن ضد الكافر فمن آمن بالطاغوت فإنه لم يكفر به ومن كفر به فإنه لم يؤمن به .

المسألة الثالثة عشرة : موقع الكفر بالطاغوت من لا إله إلا الله :

أولا : علاقة الكفر بالطاغوت بأركان لا إله إلا الله :

الكفر بالطاغوت هو أحد ركني لا إله إلا الله وهو ركن النفي فيها، فهو يقابل النفي (لا إله) في لا إله إلا الله : فلا إله هي بمعنى الكفر بالطاغوت، والكفر بالطاغوت هو أحد ركني التوحيد وهو ركن النفي فيه والمتضمن (لا إله) الذي معناه نفي الألوهية بجميع أفرادها وخصائصها من الحكم والتنسك والتقرب والدعاء والتشريع والمحبة والموالاة وغيرها عن كل أحد سوى الله ﷻ .

ثانيا : دخول الكفر بالطاغوت ضمناً في شروط لا إله إلا الله وعلاقته بها :

الأولى : من جهة المحبة لله وبغض الطاغوت وعداوته .

الثانية : من جهة الإخلاص القائم على التوحيد ونفي الألوهية الباطلة.

الثالثة : من جهة الانقياد .

وضده يعتبر من نواقض (لا إله إلا الله) الهادم لأركانها وشروطها .

ثالثا : علاقة الكفر بالطاغوت بالنواقض :

- يتعلق بالشرك عموما من جهة عبادة الطاغوت وإقراره وهذا من الشرك .
- يتعلق بناقض عدم تكفير المشركين وتصحيح مذهبهم فإن من لم يكفر المشركين يعتبر غير كافر بالطاغوت .
- يتعلق بموالاة الكفار ومظاهرتهم إذ أن هذا من أعظم صور الإيمان بالطاغوت وعدم الكفر به والبراءة منه .

وعموما فعدم الكفر بالطاغوت من نواقض (لا إله إلا الله) .

المسألة الرابعة عشرة: أهمية الكفر بالطاغوت ومنزلته من الدين والإيمان :

اعلم أن الكفر بالطاغوت الركن الأعظم في التوحيد إذ التوحيد لا يسمى توحيداً إذا لم يقم على النفي وهو الكفر بالطاغوت، وإذا كان التوحيد لا يتحقق بدونه، فإن الدين لا يصح ولا يقبل الإسلام إلا به ، وقد نص العلماء على هذا الأصل وحكوا الإجماع عليه .

قال سبحانه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ .
والعروة الوثقى هي شهادة (لا إله إلا الله) ، ومفهوم الآية أن من لا يكفر بالطاغوت لا يعتبر مستمسك بلا إله إلا الله ولا هو ممتثل لها .

وهذه حقيقة ملة إبراهيم، فهي قائمة على الكفر بالطاغوت، وعلى إبداء العداوة والبغضاء وإظهارها، والله جعلها الطريق الوحيد لأهل الإيمان، فمن رغب عنها فليس إلا كافر سفيه.

فالكفر بالطواغيت يعد أصل الأصول، وأعظم ركن في الإسلام، وقد جاءت به الرسل جميعاً، وهو إفراد الله تعالى وحده بالعبادة في جميع مجالاتها وتفرعاتها، فلا يصح الإيمان ولا يُقبل عمل بدون ذلك، وهو أول ما يجب ، وهو الغاية التي من أجلها خُلقت الخلائق وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وعليه فطرت الخلائق ، وبه يُعقد الولاء والبراء، وفي سبيله شُرع الجهاد وجردت السيوف وأهدرت الدماء، به تحصل النجاة في الدنيا والآخرة، ولا يُعصم الدم إلا بعد الكفر بكل معبود سوى الله أيا كان نوع المعبود وصفته وحاله، ونوع العبادة التي تصرف له .

ومن الأدلة المبينة لهذا الأصل ما قاله ربنا تقدس وتعالى في مواضع من كتابه:
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات: ٥٦ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل: ٣٦ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ التوبة: ٣١ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ البينة: ٥ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الروم: ٣٠ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء: ٢٥.

فمسألة التوحيد والكفر بالطاغوت، كانت الغاية العظمى للرسل حتى استغرقت كل وقتهم، لا يصرفهم عنها صارف أو شاغل، لا مساومة فيها، وليس عندهم فيها أنصاف الحلول، ولأجلها أمروا بسل السيوف وتجهيز الجيوش، وبذل النفوس، فلا بد مِن أن تحسم، مَن المعبود بحق الطواغيت أم الله الواحد القهار؟.

فاحذر أيها المسلم يا من تطلب النجاة في الآخرة أن تفرط فيه فتركن إلى الطواغيت، أو تُشغل عنه إلى ما هو دونه قبل أن تستوفيه حقه ، ولا يغرنك اشتغال القوم بالدعوة والتصدر للفتيا والتدريس مع جهلهم بمدلول الإسلام وحقيقة الشرك، ومعنى (لا إله إلا الله) ، فزهدهم في هذا العلم جرهم إلى الإشراك بالله، وصار سعي أكثر الدعاة لا فائدة فيه، ومخالفا لمنهج الأنبياء والله المستعان .

وقد عملت شياطين الإنس والجن على صرف الناس عن التوحيد الخالص، حيث تأمرهم بعبادة غير الله ﷻ وتزين لهم اتخاذ الأولياء والشركاء والأنداد في دعاء غير الله والتحاكم إلى شرع غيره ، كما جاء في الحديث القدسي عند مسلم .

مسألة : الحكمة من كون أول ما افترض الله على عباده الكفر بالطاغوت :

لأجل تحقيق الغاية من الخلق وهي القيام لله بالعبودية الحقة وإفراده بها.

المسألة الخامسة عشرة : علة تقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله :

جاءت آيات بتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله كقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ ﴾ البقرة: ٢٥٦ وجاءت آيات أخرى بتقديم الإيمان على الكفر بالطاغوت كقوله تعالى : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦ .

والكفر بالطاغوت مقدم على الإيمان بالله وهو بأن يكفر بكل إله سوى الله ﷻ ثم يبدأ بإثبات الألوهية لله ﷻ، وهذا مقتضى (لا إله إلا الله) والبدء بالنفي قبل الإثبات من وسائل الحصر. وقدم الله ﷻ الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله لأهميته وحتى لا يظن أحد أنه سيدخل في الدين أو يقبل منه إيمانه وإسلامه وهو لم يحقق الكفر بالطاغوت، كما هو من باب التحلية بعد التخلية، إذ قبل التوحيد لابد من إزالة الشرك والتطهر من شوائبه وأدرانه .

فتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ﷻ له فوائد ودلالات عظيمة منها:

أولاً: عدم الاستهانة بمبدأ الكفر بالطاغوت، وبيان أنه أصل يبنى عليه غيره.

ثانياً: أنه لا بد من أن يسبق الإيمان الكفر بالطاغوت، ولو قُدم الإيمان على الكفر بالطاغوت فإن الإيمان لا ينفع صاحبه في شيء إلا بعد الكفر بالطاغوت والتخلي عن الشرك.

ثالثا: أن الإيمان بالله وحده والإيمان بالطاغوت لا يمكن اجتماعهما في قلب واحد، فالإيمان بأحدهما يستلزم انتفاء الآخر، وفي الحديث: (لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب واحد) صححه الألباني ، فإما إيمان بالله وكفر بالطاغوت، وإما إيمان بالطاغوت وكفر بالله تعالى .

المسألة السادسة عشرة : ضوابط الطاغوت وصفاته :

١ – من ادّعى صفة من صفات الله الخاصة به سبحانه .

كالعبادة والألوهية أو الربوبية أو علم الغيب أو العلم الشامل أو التشريع والحكم أو القدرة التامة أو النفع والضر أو الكمال.

وليس كل كفر ولا كل كافر طاغوت ، فالطاغوت هو ما زاد عن الحد في الكفر والظلم وطغى وتجبر.

٢- كل من هو رأس في الضلال يدعو للباطل ونشر الظلم والفساد .

٣- من يعبّد الناس لغير الله ، كالساحر ودعاة الشرك .

المسألة السابعة عشرة: أخص صفات الطاغوت ثلاثة :

١- من يدعي صفة من صفات الله ﷻ كالعلم الشامل والسابق والغيبي والقدرة المطلقة والحكم والتشريع والأمر والطاعة والاتباع والمحبة .

٢- الإضلال والإفساد وصد الناس عن الدين .

٣- من ينفي صفات الله ﷻ عنه ويجرد الحق من صفاته .

تنبيه: قد يتصور حصول الجهل ببعض أفراد الطاغوت وبعض صور الكفر به لذلك كان لزاما عليك أن تعرف صفاته وضوابطه .

المسألة الثامنة عشرة : أقسام الطاغوت : الطاغوت ثلاثة أقسام :

١- طاغوت العبادة : ويدخل فيه كل ما عُبد من دون الله ، فإن كان من الأحياء الملائكة أو الإنس أو الجن فلا بدّ من رضاه حتى يُسمى طاغوتا ، وإن كان من الجمادات أو الحيوانات فلا يشترط رضاه ويسمى طاغوتا مطلقا .

٢- طاغوت الاتباع : ويدخل فيه الكهان والسحرة وعلماء الضلالة وعبّاد الغواية الذين يُتبعون فيما يقولون، ويحيدون عن شرع الله ﷻ .

٣- طاغوت الطاعة : ويدخل فيه الحكام والأمراء والرؤساء الذين يحكمون بغير ما أنزل الله وينحون شريعة الله ودينه ويتحاكم الناس لهم ، ويحرمون ما أحل الله أو يحلون ما حرم الله سبحانه فيطيعهم المشركون بهم.

فكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت، وكل ما أطيع من دونه فهو طاغوت، وكل ما اتبع من دون الله فهو طاغوت.

قال ابن سحمان : (الطاغوت ثلاثة أنواع : طاغوت حكم وطاغوت عبادة وطاغوت طاعة ومتابعة) . الدرر ١٠/ ٥٠٢ .

قال ابن القيم: (هو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع).

وعلى هذا التعريف فالطاغوت ثلاثة أقسام :

١- المعبود : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ الزمر١٧ ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ المائدة: ٦٠.

٢- المتبوع: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾ البقرة: ٢٥٧ ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٧٦ ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٥١.

٣- المطاع والمتحاكم إليه : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ .

المسألة التاسعة عشرة: رؤوس الطواغيت :

قال محمد بن عبد الوهاب : الطواغيت كثيرة ورؤوسها خمس :

الأول : الشيطان لعنه الله .

الثاني : الحاكم الجائر المشرّع والمغير لأحكام الله تعالى ، والدليل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠.

الثالث : الذي يحكم بغير ما أنزل الله ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤.

الرابع : الذي يدعي علم الغيب .

الخامس : الذي يعبد من دون الله وهو راض .

وهذا النوع على قسمين :

١- الداعي الملزم : وهو من يدعو الناس لعبادة نفسه .

٢- الراضي : من يرضى بعبادته وإن كان لا يدعو الناس لها.

فقد جعل إمام الدعوة رؤوسها خمسة وهي :

الشيطان والمشرع والحاكم بغير ما أنزل الله ومدعي علم الغيب ومدعي الألوهية الداعي لعبادة نفسه أو من يرضى بذلك .

وجعل اثنين منها في الحكم والتشريع مما يدل على خطورته.

المسألة العشرون : بعض صور الطواغيت التي تُعبد من دون الله تعالى:

١- الشيطان :

إبليس اللعين ، الذي أقسم وقطع على نفسه أن يفتن العباد عن عبادة الله تعالى إلى عبادة ما سواه.

فإن قيل : الطاغوت هو الذي يُعبد ، فأين تكمن عبادة الناس للشيطان؟

قيل: إن عبادته تأتي من جهة أن الشرك إنما حصل بطاعته واتباعه على الكفر والشرك، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ يس: ٦٠ .

كما أن المعبود لكل مشرك هو الشيطان في الحقيقة كما أخبر سبحانه عن الملائكة الذين عبدوا في قوله: ﴿ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ سبأ: ٤١.

٢- كل ما يعبد من دون الله ﷻ:

اعلم أن الطواغيت التي تعبد من دون الله في هذا الزمان قد تعددت واختلفت أنواعها وأشكالها، وهي أكثر من أن تحصر ، وكل ما عبد من دون الله ولو في باب من أبواب العبادة وهو راض بذلك فهو طاغوت .

٣- المطاع لذاته من دون الله تعالى:

من يظن أنه مستحق للطاعة المطلقة، وعبادته من جهة طاعته من غير تعقيب أو رد سواء كان موافقا للحق أم لا وإذا كان الله سمّى المطيع مشركا كافرا كما في قوله :﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ فكيف بالـمُطاع نفسه إنه أشد كفرا، ولأجل تجاوز حده ورفع نفسه عن مرتبة البشر المخلوقة القائمة على العبودية إلى درجة الرب الذي له وحده الخلق والأمر والطاعة المطلقة له لهذا استحق أن يسمى بالطاغوت .

٤- المحبوب لذاته من دون الله تعالى :

المحبوب لذاته من دون الله معبود من جهة عقد الولاء والبراء لأجله ، فيُحب فيه ويُبغض فيه، ويُوالى فيه ويُعادى فيه . ومن كان كذلك فهو طاغوت، وقد جُعل منه نداً لله تعالى فيما يجب له سبحانه من الموالاة والمحبة .

وقد تختلف صوره، فقد يكون شخصاً أو وطناً أو مالاً، أو حزباً أو غير ذلك، والقاعدة أن كل من عُقد فيه الولاء والبراء من دون الله يسمى طاغوتاً.

٥- المشرع من دون الله ﷻ:

من جعل نفسه ربا وإلها ندا لله يسن الدين ويضع الشرائع ويحلل ويحرم ويأمر وينهى مضاهيا بذلك صفة الأمر وتشريع الدين الذي تفرد الرب ﷻ به، قال تعالى:

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤ ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ الزمر: ٣ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١ ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ الأنفال: ٣٩ .

والمشرع ادّعى أخص صفات الله ﷻ لذا سماه الله ﷻ رباً وطاغوتا كما في قوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١. ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ آل عمران: ٦٤.

٦- الحاكم بغير ما أنزل الله تعالى :

الحاكم بغير ما أنزل الله الذي قدم شرع الطاغوت على شرع الله وحسنه للناس، واعرض عن حكم الله وصد الناس عنه، واستبدله بحكم الجاهلية. قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠.

وإذا كان الله كفر المتحاكم لغير الله كما في آية ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ وجعل من يطيع الآمر مشركاً كما في آية ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ ، فما هو حكم الله ﷻ في المشرع والحاكم ؟!

ويزيد كفر الحاكم إذا كان كارها لشرع الله أو أنه حارب وعادى شرع الله أو قام بحماية قوانين الكفر والقتال دونها.

٧- المضل والمفسد :

الصد عن سبيل الله وحرب دينه وأذية أوليائه والدعوة للكفر والفسق والضلال والسعي في نشر الفساد وإشاعة الفواحش وتلبيس الحق بالباطل .

وهذه صفة يتصف بها كثير من شياطين الإنس الذين جندوا أنفسهم أنصاراً للشرك والكفر والضلال. كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ البقرة: ٢١٧ فالإضلال والإفساد من أخص صفات الطاغوت .

٨- الساحر :

هو طاغوت لأمرين : لكونه يصرف الناس عن عبادة الله ويعبّدهم للشيطان، ويأمرهم بالشرك ، إضافة لادعائه علم الغيب والقدرة الكاملة على التأثير ، فينزل الضر فيمن يشاء، ويرفع الضر عمن يشاء، وهذه من أخص صفات الله ﷻ.

٩- الكاهن : وهو الذي يتكهن ويدّعي علم الغيب، أخص صفات الله ﷻ .

١٠- الهوى : يكون الهوى طاغوتا ومعبودا إذا كان هو الفيصل في الفعل والترك والحاكم على الشرع والمقدم على طاعة الله تعالى ومحبته.

وهناك طواغيت فرعية تعتبر داخلة في فروع ما سبق من الطواغيت :

القومية والوطنية:

القومية تقوم على الكفر بما يوجبه الإسلام من إقامة الموالاة والمؤاخاة على أساس الدين كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ الحجرات: ١٠ .فهم إخوة وأولياء وإن اختلفت قومياتهم وديارهم، والتمايز ليس بغير الدين وبالتقوى كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ الحجرات: ١٣.

وجعلوا لها أحكاما وحقوقا لهذا كانت طاغوتا ومعبودا من دون الله يُعقد الولاء والبراء فيه وتقوم الأحكام والحقوق على أساسه، حتى إن عابديه جعلوا له أحكاماً محل أحكام الشريعة، فجاءوا بما أسموه بالوحدة الوطنية وأخي المواطن وابتدعوا للوطن عيداً يضاهئون به عيد المسلمين، وعادوا وسالموا وقاتلوا في سبيله، وهذا قتال في سبيل الطاغوت كما أخبر ﷻ عنهم، وتبرعوا في سبيله وماتوا في سبيله ويقولون للميت فيه شهيد الوطن، وغير ذلك مما لا يجوز فعله لغير الله .

وهؤلاء يقال : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ التوبة: ٢٤ .

فوالوا في المساكن والطين ولم يوالوا في المناسك والدين.

وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة: (إن من لم يفرق بين اليهود والنصارى وسائر الكفرة وبين المسلمين إلا بالوطن، وجعل أحكامهم واحدة فهو كافر)١/ ١٤٥.

الإنسانية :

والإنسانية تعني : أن الناس كلهم سواسية في الحقوق والواجبات، وإن اختلفت انتماءاتهم الدينية والعقدية، فيستوي فيها أتقى الناس مع أكفر الناس .

وعندما تصبح الإنسانية شعاراً يعقد عليها الولاء والبراء، وتقدم في سبيله الأرواح ويُعلن لها الحرب والسلم، ووصل بعباد الإنسانية أنهم يتحرجون من تسمية الكافر ونداءه بقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وسموه بالآخر والغير والمخالف ، فالإنسانية بهذه الصورة تعتبر طاغوتا يعبد من دون الله .

وهؤلاء يقال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ القلم: ٣٥﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ ص: ٢٨.

والله ﷻ وإن كان حرّم ظلم الكافر إلا أنه نهانا عن توليه ومساواته بالمسلم في الأحكام فجعل ديته نصف دية المسلم أو ربعها، ولا يقتل المسلم بالكافر دون العكس، ولم يعطه حق الإرث والشفعة وغيرها بينما خص المسلم بحقوق لا يشاركه الكافر فيها، ومن ذلك قوله ﷺ : (حق المسلم على المسلم ست) .

ومع ذلك فالإنسانية لا حقيقة لها فإن عداوة الكفار للمسلمين قائم ولن يتغير : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٧ ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ البقرة: ١٢٠ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ آل عمران: ١١٩.

العصبية القبلية :حيث يعقد التناصر والولاء والمحبة على أساس الانتماء إلى القبيلة بغض النظر عن الدين وسلامة الاعتقاد .

وفي جميعها (الوطنية القومية القبلية) يقال ما قاله الرسول ﷺ :

(ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية) رواه النسائي. وقوله ﷺ : (فادعوا بدعوى الله التي سماكم : المسلمين المؤمنين عباد الله) رواه النسائي.

ومن تأمل النصوص علم جهل كثير من دعاة القبْيَلة والمفتخرين بها فالنبي ﷺ مثلاً قال: حب الأنصار من الإيمان ، ولم يقل حب الأوس والخزرج من الإيمان لوجود المؤمن فيهم والكافر بخلاف الأنصار الذين هم من الأوس والخزرج .

وقد قال ﷺ : (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) رواه أحمد.

العلمانية :

وجه كونها طاغوتا أن فيها منازعة الله في حكمه والتمرد على شرعه، والامتناع عن العمل بدينه ومدح تحكيم القوانين الوضعية. فليس للدين دخل في السياسة والاقتصاد والمواثيق الدولية وقالوا كما قال الكفار الأولون ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ﴾ هود: ٨٧.

اللبرالية : وتقوم على الحرية وفك رباط العبودية لله وعدم الدخول في الانقياد للشريعة والالتزام بالدين، لاحكما ولاامتثالا، فأنف دعاتها من الانقياد لرب العالمين وانسلخوا من لباس الطاعة، فاللبرالية بهذا الاعتبار من أعظم أبواب الطاغوت .

الديمقراطية : وجه كونها طاغوتا أنها تنازع الله صفة الحكم والتشريع ، وأصحابها يقاتلون في سبيلها ويتظاهرون من أجل تحقيقها.

المجالس النيابية التشريعية :

كون هذه المجالس بأعضائها طاغوتـا، فهـو مـن جهـة الإقـرار لهـا بخاصـية التشريع وطاعتها واتباعها في ذلك .

الأحزاب :

وما أكثرها في زماننا وهي تضاهي حزب الله ، وكلها تقوم على تضييع الأخوة في الدين وتحارب الـدعوة للتوحيـد والجهـاد فيـه ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ الروم: ٣٢، ومن أكثرها انتشارا اليوم حزب الإخوان فقد عمت وأعمت نعوذ بالله منها ومن دعاتها وجعلنا من دعاة التوحيد .

ويكون الحزب طاغوتا من دون الله من جهتين :

الأول : عندما تطاع الأحزاب لذاتها، ويقبل كل ما يصدر عن الحزب وتجب طاعته مطلقا ولو كانت مخالفة للحق .

الثاني : عندما يُعقد الولاء والبراء في الحزب، فيُعطى الـولاء والـود والنـصرة من ينتمي إلى الحزب ما لا يعطاه من هو خارج عنه .

وبعد : فهذه بعض طواغيت زمانك فاحذرها وتجنبها واكفر بها وحـذِّر منهـا واعلم أنه قد عدل أكثر الناس عـن عبـادة الله إلى عبـادة هـذه الطواغيـت وطاعتهـا واتباعها والتحاكم إليها وعقد الموالاة والمعاداة لأجلها وتركوا الـدخول في ديـن الله وحزبه إلى الدخول في دين الطاغوت وحزبه والله المستعان ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ المائدة: ٥٦ .

قال ابن القيم : (فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معهـا رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطـاغوت وعـن طاعتـه ومتابعـة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته) نقله عنه صاحب كتاب تيسير العزيز ٣٣ .

المسألة الحادية والعشرون : أنواع الطاغوت :

١- الجـماد وغـير العاقـل : والتـي لا توصـف بكفـر ولا إيـمان كالأحجـار والأشجار والدواب والنار، مثل الأصنام والبقر وكل ما صد عـن ديـن الله ولـذلك سميت اللات وذو الخلصة طواغيت .

٢- الأحياء العواقل : من الناس والشياطين كالـسحرة ومـدعي الألوهيـة أو علم الغيب أو الحكام المشرعين أو من المفسدين كرؤوس المبتدعة وعلماء السوء .

٣- الأمور المعنوية : فيسمى كل ما صد عن دين الله وعبادته طاغوتاً، مثل طاغوت الهوى، وجعل ابن القيم المجاز طاغوتاً والتأويل طاغوتاً، ومثلها في زماننا طاغوت المصلحة والدمقراطية، حيث قُدمت على التوحيد والكفر بالطواغيت.

الثانية والعشرون : الكفر بالطاغوت لا بد أن يأتي به المسلم عن قصد :

لو أن شخصا عبد الله ولكن لم يتبرأ من عبادة ما سواه ، فهذا لا يعتبر من أهل التوحيد ولا آمن بالله وحده بل هو مشرك مؤمن بالطاغوت كافر بالله، لأن الله ﷻ أمرنا بالكفر بالطاغوت ، ولا بد في قبول كلمة التوحيد والكفر بالطاغوت من ترك الشرك قصدا ، وهذا هو الحنيف الذي أثنى الله عليه. وبينا هذه القاعدة في مواضع .

الثالثة والعشرون : صفة الكفر بالطاغوت وحقيقته وكيفيته وبم يحصل:

يحصل الكفر بالطاغوت بستره وتغطيته وعدم تعظيمه ورفعه وإظهاره، وبإنكاره وجحده وببيان حقيقته وهوانه وفضحه، وبعصيانه ومعاندته والامتناع عن طاعته، وبالبراءة منه وبغضه وتكفيره.

فلابد من نفي ما ادعاه هذا الطاغوت لنفسه، وسلب خصائص الإله عنه، وحتى تكون مؤمنا بالله كافرا بالطاغوت لابد أن تستمثل هذه الأفعال في قلبك وجوارحك، فتعصيه إذا أمرك، وتظهر مخالفته فلا تتابعه، وتكفر بحكمه ولا تمتثله، وإذا ادعى صفة من صفات الله كعلم الغيب أو التشريع والحكم أو العبادة، فأنت واجب عليك أن تنفيها عنه وتنكرها، وتظهر كذبه، وتشهد بكفره، وتعتقد بطلان عبادته وحكمه وطاعته، وتكفر بعبادة غير الله ﷻ ، وتتركها وتبغضها، وتكفّر أهلها وتعاديهم، وكذلك تكفر بمتابعة أحد غير رسوله، وتكفر بحكم من سواه .

وقد بين الإمام محمد كيفية الكفر بالطاغوت وصفته في خمسة أمور :

الأول : اعتقاد بطلان عبادتها والكفر بها والحكم عليها بالكفر والشهادة عليهم بذلك والبراءة منها .

الثاني : تركها واجتنابها .

الثالث : بغضها .

الرابع : تكفير أهلها وعابديها .

الخامس : معاداتهم، ويدخل فيها : إزالة الطواغيت والتصدي لها ومقاومتها والقضاء عليها، والتحذير منها، وجهاد أتباعها.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: (فأما صفة الكفر بالطاغوت : فأن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها وتبغضها وتُكفر أهلها وتُعاديهم، وأما معنى الإيمان بالله فأن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون ما سواه ، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله ، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتُحب أهل الإخلاص وتواليهم وتبغض أهل الشرك وتُعاديهم ، وهذه : ملة إبراهيم التي سفه نفسه من رغب عنها، وهذه: هي الأسوة التي أخبر الله بها في قوله ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾) الدرر ١/ ١٦١ .

وقال أيضاً : (ومعنى الكفر بالطاغوت أن تبرأ من كل ما يعتقد فيه غير الله ، من جني أو انسي أو شجر أو حجر أو غير ذلك ، وتشهد عليه بالكفر والضلال وتبغضه ولو كان أباك أو أخاك ، فأما من قال أنا لا أعبد إلا الله ، وأنا لا أتعرض السادة والقباب على القبور وأمثال ذلك ، فهذا كاذب في قول لا إله إلا الله ولم يؤمن بالله ولم يكفر بالطاغوت) مجموعة الرسائل والمسائل ٤/ ٣٣ .

فيا أيها الموحد إذا علمت أنه يجب عليك الكفر بالطاغوت، وأن إيمان المرء لا يصح إلا بعد الكفر به، يتعين عليك أن تعرف صفة الكفر بالطاغوت لتقوم به في حياتك، وحتى لا يكون كفرك به مجرد دعوى أو زعماً باللسان من دون عمل، لا تظهر آثاره على الجوارح وفي واقع الحياة .

فائدة : ليس المراد كسر الأصنام المجسدة وترك الأصنام في القلب بل المراد كسرها من القلب أولا . قاله ابن القيم في روضة المحبين .

المسألة الرابعة والعشرون: مقتضيات الكفر بالطاغوت ولوازمه :

١- الجهاد والقتال وقتل كل طاغوت :

وهذا من أعظم معاني الكفر بالطاغوت وما شرع الجهاد إلا لهذا الأصل قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ الأنفال: ٣٩، والفتنة هي الشرك والكفر ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ التوبة: ١٢ وأئمة الكفر هم الطواغيت.وقال ﷻ: ﴿

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ التوبة: ١٤ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ التوبة: ١٢٣ ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ الحج: ٤٠ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ النساء: ٧٦ ومن قاتل مع الطاغوت وناصره وأيده ووافقه ضد الموحدين لم يحقق أصل الدين وهو اجتنابه وأصبح من أولياء الطاغوت.

٢- الولاء والبراء: فمن الكفر بالطاغوت معاداتهم وبغضهم والتبرؤ منهم وممن يعبدهم. قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾. وتأمل قوله (بدا) الذي يفيد غاية الظهور والوضوح، وتقديم العداوة التي مكانها الجوارح الظاهرة على البغضاء الذي مكانه القلب، وهذا يدل على أهمية إظهار العداوة والبراءة منهم إظهارا لا لبس فيه ولا غموض، إذ لا يكفي إضمار البغضاء لهم في القلب ثم نحن في الظاهر مسالمون لهم متوددون.

ثم تأمل تقديم البراءة من العابدين وشركهم قبل المعبودين، وما ذلك إلا للأهمية، فإن البراءة من العابد وشركه يقتضي البراءة من المعبودين دون العكس.

وقال ﷻ عن إبراهيم ﷺ: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، فهذه هي الأسوة التي أمرنا بالاقتداء بها، وهي ملة إبراهيم التي لا يرغب عنها إلا سفيه: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾.

٣- الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام وعدم الإقامة عندهم ولا السفر إليهم، وهجرهم ومجانبتهم واعتزالهم ومفارقتهم وعدم مخالطتهم.

ومن معاني الكفر بالطاغوت مجانبته واعتزاله كما أمر الله تعالى، ويلزم من اعتزال عبادة الطاغوت اعتزال عابديه فإنه لا يتحقق الإيمان إلا باعتزال عابديه، واعتزالهم بعدم نصرتهم وموالاتهم والوقوف معهم فهذا لا يتم الإسلام إلا به لذا كل من وقف مع الطاغوت ونصره ودخل في طاعته وأقر بولايته وأعانه على الموحدين فهو كافر سواء كان ينتسب للعلم أو كان عاميا.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦. ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ الزمر: ١٧.

وقال عن إبراهيم: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ مريم: ٤٩ فتأمل ما وهبه الله إياه من النبيين ببركة اعتزاله للطواغيت.

٤- تكفير الطواغيت والمرتدين والمشركين .

قال ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وقال تعالى مادحا خليله في تكفيره لقومه: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ فلا بد من مخاطبتهم باسم الكفر وتكفيرهم.

٥- التحذير منها ودعوة الناس إلى الكفر بها .

٦- تكسير الطواغيت وهدمها وإزالتها وقد كسر الرسول ﷺ الأصنام، ولم يستبقِ طاغوتاً لا حياً ولا جماداً، فأمر بهدم الأصنام والطواغيت وقتل طواغيت الكفر وأئمته وأمر بهدم القباب وقطع التمائم وكل هذا من الكفر بالطاغوت .

وهذا من لوازم الكفر بالطاغوت ومقتضياته ومما يتضمنه الكفر به أيضاً .

٧- الإغلاظ عليهم :

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ التوبة: ١٢٣ ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح: ٢٩.

٨- انتفاء موالاتهم أو موادتهم، أو الركون إليهم، أو التحالف معهم وهذه من أعظم لوازم الكفر بالطواغيت : قال تعالى:﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ الكهف: ١٠٢ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ النساء: ١٤٤ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ المائدة: ٥١ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ الممتحنة: ١ ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ المجادلة: ٢٢ ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ هود: ١١٣.

وقال ابن مسعود (جاهد الكفار والمنافقين): بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وليلقه بوجه مكفهر أي عابس متغير من الغيظ والبغض.أوثق عرى الإيمان لسليمان بن عبد الله .

وهذا هو هدي الرسول ﷺ ومنهجه في التعامل مع الطاغوت .

المسألة الخامسة والعشرون : أركان الكفر بالطاغوت وآلاته :

كما أن الإيمان قول وعمل كذلك الكفر بنوعيه المشروع والممنوع قول وعمل.

فالإيمان المشروع هو الإيمان بالله وبقدره وملائكته ورسله وكتبه والبعث .

والكفر الممنوع: الكفر بالله وبرسله وكل ما أمر الله أن نؤمن به .
والإيمان الممنوع: الإيمان بالطاغوت . والكفر المشروع: هو الكفر بالطاغوت .
على هذا فالكفر بالطاغوت يكون : بالقول والاعتقاد والعمل :
أولا : الكفر بالطاغوت المتعلق بقول اللسان وهذا يكون : بالتصريح بكفره والتحذير منه وبشتمه وسبه وتكفيره وتبيين ضلاله وكفره ودعوة الناس للكفر به وتنفير الناس عنه وتعليم الناس ذلك ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ .
ثانيا : والمتعلق بالقلب والاعتقاد وهذا يكون : ببغضه وكرهه وتمني زواله.
ثالثا : الكفر بالطاغوت المتعلق بالعمل والجوارح وهذا يحصل :
بمجانبته ومفارقته واعتزاله واجتنابه وعداوته وعدم الإقامة معه في مجالسه بل والهجرة من عنده، وجهاده بالبيان والبنان واللسان والسنان والأبدان وبالقلم واليد والسعي في إزالته والقضاء عليه وإهانته وتبيين فقره وعوره، فبهذا كله تتحقق صفة الاجتناب الواردة في وصف المؤمنين﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ الزمر: ١٧ .
قال سليمان بن سحمان: (المراد من اجتناب الطاغوت هو بغضه وعداوته بالقلب، وسبه وتقبيحه باللسان، وإزالته باليد عند القدرة ومُفارقته، فمن ادعى اجتناب الطاغوت ولم يفعل ذلك فما صدق) الدرر ١٠/ ٥٠٢.
فينقسم الكفر بالطاغوت إلى ثلاثة أقسام : بالقلب وباللسان وبالجوارح.

المسألة السادسة والعشرون: الكفر بالطاغوت أصل وكمال :
وتارك الكفر بالطاغوت على درجتين:
الأولى : تارك الأصل وهذا كافر .
الثانية : تارك الكمال وهو عاصٍ .
ويكون الكمال بالمبالغة في اعتزال الطاغوت ، والتفاني في عداوته ومجانبته قدر الاستطاعة ، مع تحمل الأذى في ذلك.

المسألة السابعة والعشرون : الفرق بين الإيمان بالطاغوت وعبادته :
عبادة الطاغوت تتضمن الإيمان به شاملة له، فمن عَبَدَ الطاغوت فقد آمن به ولابد، أما المؤمن به فليس بالضرورة أن يكون عابد له، فقد يقر به دون أن يعبده .

المسألة الثامنة والعشرون : الفرق بين الإيمان بالطاغوت وعدم الكفر به :

عدم الكفر بالطاغوت يشمل الإيمان به وترك الكفر به من غير إيمان ، كمن لا يكفّره، أو لا يتبرأ منه أو لا يتعرض له أو لا يبغضه أو لا يعاديه وهؤلاء لم يكفروا بالطاغوت وليس بالضرورة أن يكونوا مؤمنين به ، لكن يصدق عليهم مسمى الإيمان بالطاغوت من باب اللزوم، فمجرد ترك عداوة الطاغوت والكفر به يستلزم أن يكون صاحبه مؤمناً به .

المسألة التاسعة والعشرون : المخالفون في الكفر بالطاغوت :

١- المؤمن بالطاغوت ، والمصدق به ، والمقر به ، المعتقد فيه .

٢- العابد للطاغوت .

وتقدم على الفرق بين الإيمان بالطاغوت وعبادته وعدم الكفر به.

٣- المخالط للطاغوت غير المعادي له ولا المجانب والمجابه المفاصل له.

٤- المدافع عن الطاغوت والمقاتل عنه .

فيجب تكفير المدافع عن الطاغوت ، ومن يقدسه ويثني عليه ويسوغ كفره، كحال علماء الطواغيت السوء وعبّاد الطاغوت ودعاة المصلحة الطاغوتية وطاغوت الهوى ومرجئة زماننا من أعداء ملة إبراهيم والمجادلين عن الشرك المجوزين للكفر.

٥- المحارب لمن يكفر بالطاغوت مع اعترافه بأن هذا طاغوت، ولكن ينهى عن معاداته وتكفيره والكفر به وهذا من الكفر الصراح وهذا أخطر الأنواع وأشدها ضرراً على التوحيد وذلك لتلبيسه على الناس كما بين ذلك أئمة الدعوة .

قال محمد بن عبد الوهاب : (دين النبي ﷺ التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله، والعمل بمقتضاها، فإن قيل: كل الناس يقولونها، قيل: منهم من يقولها ويحسب أن معناها لا يخلق إلا الله ولا يرزق إلا الله وأشباه ذلك، ومنهم لا يفهم معناها، ومنهم من لايعمل بمقتضاها،ومنهم من لايعقل حقيقتها، وأعجب من ذلك من عرفها من وجه وعاداها وأهلها من وجه، وأعجب منه من أحبها وانتسب إلى أهلها ولم يفرق بين أوليائها وأعدائها،يا سبحان الله العظيم أتكون طائفتان مختلفتان في دين واحد وكلهم على الحق؟ كلا والله»). الرسائل الشخصية ١٨٢ .

٦- المنكرون لعقيدة الكفر بالطاغوت وتكفير المرتدين، القائلون كذباً وزوراً: إن الله لم يتعبدنا بتكفير الناس ، وقد فندنا هذه الشبهة في شرح النواقض .

٧- من يبسط لهم في الموالاة والتودد، ويركن إليهم، ويذود عنهم، ويتوسع في التأويل لهم، وينصرهم على من عاداهم من أهل التوحيد، ثم هو بعد ذلك يحسب أنه يكفر بالطواغيت، فهذا لا يكون مؤمنا بالله كافرا بالطاغوت .

٨- من يصور الكفر بالطواغيت ومعاداتهم وبغضهم والخروج عليهم على أنه فتنة يجب اجتنابها، ثم يتكلف لوي النصوص الشرعية التي قيلت في المسلمين وأئمة المسلمين ليحملها على طواغيت اجتمعت فيهم جميع خصال الكفر والنفاق .

وهؤلاء يظنون أنهم يفرون من الفتنة بزعمهم، لكنهم وقعوا فيها ودخلوها من أوسع أبوابها وحووها من جميع أطرافها علموا بذلك أم جهلوا ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

٩- من يقصر الكفر بالطاغوت على القلب دون العمل والباطن دون الظاهر.

١٠- من يحصر شهادة التوحيد في دائرة النطق أو القول، ويصور للناس أن من ينطق بشهادة أن لا إله إلا الله، هو كاف لدخوله الجنة والحكم عليه بالإيمان مهما كان منه من عمل، وهذا من ضلالات مشايخ الإرجاء وتلبيساتهم على الناس .

١١- من جرد الدين والعبادة عن حقيقتها وجعلها مجرد شعائر تعبدية، وأخرج منها الحكم بالشريعة والتحاكم لها ومعاداة الكفار وغيرها، وقد بين الرسول ﷺ هذا الخطأ في معتقد عدي بن حاتم وكذا بينه أبو بكر للصحابة في قتال المرتدين .

الثلاثون : علاقة الكفر بالطاغوت بتكفير المشركين ودخوله فيه:

الكفر بالطاغوت يشمل الكفر بالأوثان والكفر بعبادتها وتكفير عبّادها ، والطواغيت المقصود بها في كلام الله ورسوله المعبودات من أحياء وجمادات كذلك يقصد بها الكفار والمشركين أيضا ، والكفر بهم المقصود به البراءة منهم وبغضهم ومعاداتهم وتكفيرهم ، ولا يعتبر الكفر بالطاغوت إلا بالتكفير للكفار والطواغيت .

وقد أمرنا ربنا ﷻ بالتكفير في قوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وقال تعالى مادحا خليله إبراهيم ؑ في تكفيره لقومه: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ فلا بد من مخاطبتهم باسم الكفر وتكفيرهم ، والكفر هنا في آية (كفرنا بكم) وحديث (كفر بما يعبد) يشمل الكفر بالعبادة الشركية وتكفير المشرك ، وبهذا يتبين وجه دخول التكفير في الكفر

بالطاغوت، خلافا لما يظنه بعض الجهلة من أن الكفر بالطاغوت والبراءة من الكفار لا تدل على التكفير وأنه خارج عنها.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (لو عرف العبد معنى لا إله إلا الله لعرف أن من شك أو تردد في كفر من أشرك أنه لم يكفر بالطاغوت). الدرر ١١ / ٥٢٣.

المسألة الحادية والثلاثونن: سنة الله في وجود الطواغيت والحق والباطل :

ما من نبي إلا وقد ابتلاه الله تعالى بالطواغيت يقارعهم ويجاهدهم ويبطل شركهم وكفرهم، ولتمايز بجهادهم النفوس فيُعرف المجاهد الصابر من المنافق الكاذب المتخاذل، كما قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾ العنكبوت: ٢ ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ آل عمران: ١٧٩ ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ محمد: ٣١ ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ البقرة: ٢١٤ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ يوسف ١١٠ ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ الأنعام: ٣٤ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ ﴾ العنكبوت: ١٠.

فيا أهل التوحيد لابد أن يكون لكم طواغيت تبتلون بهم، وتظهرون الحق والتوحيد من خلال مقارعتهم ومجاهدتهم اقتداء بالأنبياء .

المسألة الثانية والثلاثونن : أساليب الطغاة وطرقهم الطاغوتية في تمييع التوحيد والكفر بالطاغوت والولاء والبراء وملة إبراهيم :

إن المشركين إذا ذكر الله وحده وخُص بالعبادة دون غيره، اشمأزت قلوبهم، وكرهوا ذلك، فالتوحيد يؤذيهم ويغيظهم، ووجوههم تكفهر، وقلوبهم تشمئز وتتغير على الموحدين، ولا شيء يسرهم كالإشراك بالله تعالى، ولهذا نراهم كما أخبرنا الله ﷻ عنهم من المواصلة دون سأم أو ملل في حرب الدين الحق وصد الناس عنه، كما أخبر تعالى عنهم: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ ﴾ البقرة: ٢١٧ ، ولهذا يجب على من عنده عقل أن يحذر من طاعتهم واتباعهم حتى لا يقع في الردة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٠٠.

وهم أساليب كثيرة ينشرونها يصدون بها عن سبيله معروفة لمن تأملها ، أخبرنا الله ﷻ عنها ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ الأعراف ٤٥.

فمن صور وأساليب صدهم عن الدين وحربهم له : رفع شعار الإنسانية بالتسوية بين المسلم والكافر، والوطنية بجعل أحكاما لها محل أحكام الشريعة، فجاؤوا بالوحدة الوطنية وجاهدوا وتبرعوا وعادوا ووالوا وسالموا وماتوا واستشهدوا في سبيل الوطن وابتدعوا له عيداً يحتفلون به، ومثل ذلك القومية والعلمانية والليبرالية والعصرانية والوسطية والتغريب والتعصب المذهبي والتقليد والتعايش السلمي والإخاء والعولمة والحرية ووحدة الأديان والتقريب بينها، والحوار بين المسلم وغيره من المشركين والمرتدين والكفار، ولقاء الحضارات وغيرها ، وترويج هذه بين المسلمين من أعظم غايات الكفار لأن في كل ذلك صرف للمسلمين عن دينهم وعقيدتهم ،وعن الولاء والبراء في الله الذي يقوم على والدين، واستبداله بولاءات جاهلية باطلة لا تقدر على القيام بجهاد الكفار ودفع شرهم. كذلك من الطواغيت التي وضعت لصرف المسلمين عن التوحيد :المحاكم الوضعية القانونية والتشريعات الكفرية ، الأعراف، كذلك الدمقراطية ويتعلل دعاتها كذباً أنهم لايستطيعون الحكم بالشريعة، أو أنهم سيحكمون بها بالتدريج كأن الوحي يتنزل عليهم، وليعلم هؤلاء ومن يبرر لهم أن مجرد ترك الحكم بالشريعة ردة صريحة لا شك فيها .

الناقض الرابع

شرك الحكم

قال المصنف رحمه الله :

(الرابع : من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه ، كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه ، فهو كافر).

الفصل الأول: التعريف بالحكم ومسائله ومكانته وما ينقضه

المسألة الأولى : مسمى هذا الناقض والمراد به :
يسمى هذا الناقض بناقض الحكم ، والشرك فيه .
وهو متعلق بترك حكم الله والإعراض عنه ، والحكم بغيره والامتناع عن الحكم بالشريعة والتحاكم إليها واستبدالها بالحكم بغير ما أنزل الله .
وهذا الناقض يشمل ناقض الهدي وناقض الحكم والتشريع :
فالأول : متعلق بحكم الله ﷻ .
بأن يعرض عن شريعة الله ﷻ والتحاكم إلى دينه وأمره وشرعه فلا يحكم بالشريعة ولا يتحاكم إليها ولا يحكم بها.
والثاني: متعلق بهدي النبي ﷺ وطريقته وسنته وأوامره وأحكامه : بأن لا يتبع هديه ولا ينقاد لأمره أو يعتقد أن هدي غير الرسول ﷺ أحسن وأكمل من هديه ﷺ .
فالأول ينقض توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته والذي يقوم على شهادة أن لا إله إلا الله .
والثاني ينقض توحيد المتابعة القائم على شهادة أن محمدا رسول الله .
ويدخل في هذين الناقضين أصناف كثيرة منهم المشركون شرك الطاعة وشرك التشريع وشرك الحكم ومن يفضل حكم الطواغيت على حكم الشريعة ويعتقد أنها أحسن وأكمل والمشرع وأرباب القوانين والمحلل لما حرم الله ومن يلزم الناس بالقوانين الوضعية ومن ينحي شريعة الله والملتزم بغير شريعة الله والحاكم بغيرها والمتحاكم إلى غيرها وغيرهم من أصناف الخارجين عن الملة في هذا الناقض.
وهذا الناقض يشتمل على كفر اعتقادي وكفر عملي ، وصفة هذا الناقض :
١- أن يعتقد أن حكم الله وحكم رسوله وهديه لا يصلح أو يوجد ما هو أفضل منه وأكمل، ويستحل ترك العمل بها.
٢- أن يعرض عن اتباع حكم الله ورسوله وهديه ويمتنع عن الانقياد له ، فيترك حكم الله ويحكم بغيره .
٣- أن يشرّع للناس أحكاما مصادمة لما جاء عن الله ورسوله أو يغيرها أو يلزم الناس بتركها .
فائدة : معنى ما أنزل الله: هو الشريعة ودين الإسلام والقرآن والسنة.

وجاءت تسميته في القرآن : باتباع الحق واتباع المنزل والحكم بالعدل والحكم بما أنزل الله وحكم الله وطاعة الله ورسوله .

فائدة : الحكم بغير ما أنزل الله يسمى: الحكم بالطاغوت وحكم الطاغوت.

حكم الطاغوت: هو حكم غير الله، ويكون بالحكم بغير ما أنزل الله ، والتحاكم لغير حكم الله، والطاغوت هو الحاكم به .

الفرق بين ترك الحكم بما أنزل الله والحكم بغير ما أنزل الله :

الحكم بغير ما نزل الله يعد من قبيل شرك التمثيل .

أما ترك الحكم فيعد من شرك التعطيل ومن كفر الإعراض.

إلا أن تارك الحكم بالشرع مؤداه الحكم بغير الشرع، فإن من لا يقيم حد السرقة مثلا يصدق عليه أنه حاكم في السرقة بعدم العقاب وحكم بأنها ليست جريمة أو أن القطع ليس بعقوبة فتعطيله للعقوبة يعد حكما في ذاته .

المسألة الثانية : أنواع الشرك في هذا الناقض ناقض الحكم :

الأول : شرك التشريع والتحليل والتحريم وسن الدين، وهو أشنعها.

الثاني : شرك الحكم .

الثالث : شرك الطاعة والانقياد والتحاكم .

وذلك بطاعة الحكام في معصية الله واتباع المشرعين والمحللين لما حرم الله والانقياد لغير الله والتحاكم للطاغوت .

الرابع: شرك المتابعة والهدي والطريقة بإتباع غير الرسول. ويدخل في الثالث.

تنبيه الهدي والسنة والطريقة والحكم والأمر والشرع صفة متعلقة بالرسول ، بينما الاتباع والمتابعة متعلقة بالمرسل إليهم .

وسيأتي الكلام عن هذا النوع تحت الكلام عن الناقض التاسع (الذي يظن أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ) .

والأول ناقض لتوحيد الربوبية ، والثاني ناقض لتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات كلها ، والثالث ناقض لتوحيد الألوهية ، والرابع ناقض لتوحيد الرسول الذي هو توحيد المتابعة ، وسيأتي تفصيل ذلك .

وقد قدمنا الكلام عن الربوبية والألوهية والأسماء والصفات والمتابعة عند كلامنا عن الشرك (الناقض الأول).

المسألة الثالثة : تعريفه:

أولا: تعريف الهدي :

هو الطريقة والسنة المتبعة التي كان عليها الرسول ﷺ .

ويدخل في هدي النبي ﷺ جميع دينه ، ويشمل أموراً هي :

أولاً : أمره ونهيه .

ثانياً : أخباره .

ثالثاً : أخلاقه وشمائله .

رابعاً : سيرته .

خامساً : جهاده .

سادساً : حكمه .

فإذا قيل : هدي الرسول ﷺ فالمقصود به : أمره ونهيه وأخباره وعباداته وأخباره التي يخبر بها الصادقة المصدقة وأخلاقه وجهاده وأسفاره، وتعامله مع الناس ومع أهله ومع عدوه ومع أهل الذمة والكفار، وقضائه بين الناس ومعاملاته من بيوع ونكاح وإقامة الحدود ، فهذه كلها داخلة في عموم هديه ﷺ .

وفي الحقيقة الهدي يدخل فيه جميع الدين وجميع المبادئ والأخلاق وجميع الأخبار والأحكام اعتقادية وعملية وقولية .

مسألة : علاقة الهدي بالإيمان بنبوة الرسول ﷺ :

يدخل في شهادة أن محمداً رسول الله وتوحيد المتابعة والانقياد والتسليم له، ومن ترك هدي الرسول ﷺ آخذاً بهدي غيره أو فضل هدي غيره على هديه ﷺ فقد نقض توحيد المتابعة وتوحيد الرسول ونقض شهادته وأبطلها، فمن مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله ، متابعته وطاعته والانقياد له .

ثانيا: تعريف الحكم في اللغة :

قال ابن فارس : مادة الحاء والكاف والميم (حكم) أصلها من المنع، فكل اشتقاق يوجد فيه هذه الأحرف الثلاثة دل على المنع، فالحاكم يمنع الظلم والحكم فيه منعة للظلم والحكيم الذي يضع الأمور حتى تمنع وقوع ما يخالف الحكمة من ظلم أو غواية ونحو ذلك .

والحكم في الأصل هو : الفصل والقضاء ، إذا فصل في الشيء.

ومنه قول حسان :

ونحكم بالقوافي من هجانا ** ونضرب حين تختلط الدماء

وقول الآخر :

بني حنيفة أحكموا سفهاءكم ** إني أخاف عليكم أن أغضبا

فالحكم هو المنع والفصل والقضاء .

وورد الحكم في كتاب الله عز وجل على أوجه ومعان متعددة .

جاء بمعنى : الموعظة ، والفهم ، والعلم ، والنبوة ، والحكمة ، وحسن التأويل، والشريعة ، والشعائر ، والإتقان.

كل هذه المعاني وردت في القرآن الكريم مفسرة للحكم .

مسألة : الحكم من صفات الله ﷻ وأفعاله المتعلقة به .

وقد ورد وصف الله تعالى بالحكم وتسميته بهذه الصفه بثلاث صيغ :

فورد تسميته تعالى بالحَكَم والحاكم والحكيم، وهي من أسمائه ﷻ .

١- فورد الحكم في موضع واحد من كتاب الله في قوله ﷻ :

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ الأنعام: ١١٤ .

وقال النبي ﷺ لأبي شريح: (إن الله هو الحكم، وإليه الحكم) رواه أبو داود.

٢- الحاكم بصيغة الجمع، ورد في خمس آيات في كتاب الله ﷻ .

منها قوله تعالى :﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ التين: ٨ ﴿ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ الأعراف: ٨٧.

٣- الحكيم ، ورد في أربعة وتسعين موضعاً من كتابه .

منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنعام: ٨٣ .

ثالثا : الفروق بين الهدي والحكم :

الأول : أن الهدي أعم من الحكم، لأن الهدي يشمل أفعال الرسول ﷺ وأقواله وأوامره ونواهيه وأخباره وشمائله وأخلاقه وجهاده وسيرته وتعامله وتقريراته وحكمه، فالحكم داخل في عموم الهدي .

الثاني : أن الكفر والشرك في الهدي أغلبه راجع إلى الاعتقاد، وأما الحكم فغالب الكفر والشرك فيه متعلق بالعمل، وإن كان الكفر في الحكم قد يتعلق بالاعتقاد، ويكون الكفر في الهدي متعلقا بالعمل وإتباع غير هدي الرسول ﷺ .

الثالث : أن الحكم أغلبه يرجع للتوحيد المتعلق بالرب ﷻ وهو توحيد المرسِل سواء كان متعلقا بألوهيته ودينه وشرعه أو بربوبيته أو أسمائه وصفاته، وأما الهدي فهو متعلق بتوحيد المتابعة الراجع لتوحيد الرسول في الإتباع والطاعة والانقياد .

الرابع : أن الهدي خاص بالرسول ﷺ، أما الحكم فهو متعلق بالله ﷻ وبرسوله فيقال حكم الله وحكم رسوله ، وحكم الرسول من حكم الله ويرجع إليه .

والله ﷻ يوصف بالحكم لا بالهدي ، والرسول ﷺ يوصف بالحكم والهدي.

مسألة : دخول حكم الرسول ﷺ في حكم الله.

قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ النساء: ١٠٥. ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ النساء: ٨٠، ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ التغابن: ١٢، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ الحج: ٤٩ ،﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ النحل: ٣٥.

رابعا : تعريف الشريعة :

الشريعة لغة : هي الطريقة والأمر والدين والحكم والمنهج.

وهي اسم لكل ما جاء عن الله ﷻ ورسوله ﷺ من الأخبار والأحكام في الأمر والنهي والعقائد وما يتعلق بأحكام الدين عموماً ، والشريعة بذلك من عند الله ﷻ فهي أمره وفعله فيوصف الله بأنه شرع للناس وأقرهم بما يصلح لهم .

المسألة الرابعة : مصطلح الحاكمية :

اصطلح بعض العلماء على التسمية بـ (توحيد الحكم) أو (توحيد الحاكمية) وناقضه شرك الحاكمية وجعلوا من أنواع الشرك شرك الحاكمية .

وتوحيد الحاكمية وهو توحيد الحكم والشرع والدين والأمر ، وهو المتعلق بحكم الله وشرعه ودينه وهدي رسوله وهو في الحقيقة ليس قسماً مستقلا لا يدخل في أنواع التوحيد وإنما هو داخل فيها، وسبب التنصيص عليه وتخصيصه وإفراده بنوع مستقل يرجع لأسباب عدة منها :

١- أنه داخل في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات وليس كغيره كتوحيد الدعاء والخوف وتوحيد الخالقية داخل في قسم واحد من التوحيد فقط بل هو داخل فيها جميعاً فهو توحيد ذا شعب .

فأما وجه دخوله في توحيد الأسماء والصفات :

فلأن من أسماء الله ﷻ الحكم والحكيم والحاكم ومن صفاته الحكم .

وأما دخوله في توحيد الربوبية :

فلأن الحكم وسن الدين والتشريع والتحليل والتحريم والأمر من أفعال ربوبيته ﷻ وأخص صفاته ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤.

وقد سمى ﷻ الحاكم والمشرع والمحلل رباً كما في قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ التوبة: ٣١ ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ٦٤ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١.

وأما دخوله في الألوهية :

فلأن التحاكم إلى أمره ﷻ وشرعه وحكمه عبادة يحبها الله ويأمر بها ويجب أن يوحده العبد فيها فيتحاكم إلى الله ﷻ ولا يتحاكم إلى الطاغوت .

ومن الأدلة على ذلك : أن الله تعالى سمى الحكم عبادة وأن الحكم لله وحده ولا يشاركه أحد فيه وكفّر المتحاكم إلى غيره : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠ ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠ ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠ ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ المائدة: ٤٧ .

كذلك من يطيع الحاكم بغير ما أنزل والمشرّع هو مشرك في الألوهية المتعلقة بأفعال العباد ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١.

٢- كثرة الشرك فيه ، كيف لا وقد كثر الشرك فيه وانتشر انتشاراً لم يكن في عصر من العصور ولا في زمن من الأزمان ، وأعظم شرك في زماننا يرجع لشرك الدعاء وشرك الحكم .

ومن منهج أهل السنة أنهم يفردون بعض الأنواع والأفعال ببيان مستقل إذا كثُر الشرك فيه ، مثل إفرادهم شرك الدعوة لما كثر شرك الدعاء وكذا شرك الطاعة والإرادة والمحبة ، ولا يعني أنه لا يوجد غيرها ولكن لكثرة المخالفة فيها أفردت

بالبيان ، ومن ذلك إطلاق ابن تيمية وغيره توحيد السؤال والطلب والتوكل وتوحيد الخالقية والمالكية ، فعلى هذا يصح أن يقال توحيد الحكم وشرك الحكم.

٣- أن توحيد الحاكمية مثل لو قلنا توحيد الخالقية والمالكية والقادرية لله تعالى وكذا توحيد الدعاء والمحبة والخوف والإرادة والسجود والذبح لله وحده .

وإذا كان العلماء وضعوا شرك الدعوة مستقلاً وهو خاص بالألوهية فالحكم أولى بأن يستقل بالنوعية ولا يعني أنا جعلنا توحيد الحاكمية قسماً مستقلاً فلا يدخل في الألوهية والربوبية بل هو داخل في الألوهية والربوبية .

٤- أن الحكم له علاقة وطيدة بجميع مبادئ الدين أصوله وفروعه فله علاقة بالتوحيد وأنواعه وناقض التوحيد وهو الشرك ؛ كما أن له علاقة بالإيمان حقيقته وحدوده وأركانه وله علاقة بضده الذي هو الكفر ، كما أن له علاقة بالإسلام أيضاً في حدة وحقيقته وأركانه وله علاقة بالشهادتين ومقتضياتها وأركانها وشروطها فلا يخلو باب من أبواب الدين إلا وللحكم مناسبة معه .

٥- أن شرك الحكم يدخل في جميع أبواب الكفر والشرك . فيدخل في شرك الربوبية والألوهية والصفات وشرك المتابعة، ويكون شركاً في الأقوال والأعمال والاعتقاد . ويكون شركاً أكبر وأصغر، ويكون شركا بالتعطيل وبالتمثيل، كما أنه يدخل في كفر الإعراض والامتناع والتولي والإباء وبقية أنواع الكفر المعروفة التكذيب والجحود والشك. كما أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر بالله وبأنبيائه وبملائكته وبكتبه وبرسله وكفر بالشهادتين وأركانها ومقتضياتها وشروطها. وفيه طعن في الله ﷻ وفي رسوله ﷺ وطعن في الدين والشريعة وفي الصحابة والعلماء.

وعليه فالعلماء لم يغفلوه بل ذكروه، فلا هم تناسوه ولا نحن ابتدعناه أو غالينا فيه كما يظن البعض، وإنما نصّينا عليه لبيان أهميته لا أنه قسم منفصل عن بقية أقسام التوحيد فتنبه، عليه فمن بدّع إطلاق هذه اللفظة وغالى في إنكارها فقد أخطأ.

ومع ذلك فلا مشاحة في الاصطلاح ما دام المعتقد والمقصود والمعنى واحدا .

لكن مما ينبغي أن يعلم أن إفراد الحكم لا يعني أنه خارج عن أقسام التوحيد الثلاثة وأنه قسم رابع كما يذكر البعض بل هو داخل في أقسام التوحيد الثلاثة ولا يخرج عنها فليس قسماً رابعاً ، فإذا قسمنا التوحيد فلا نقول أن أقسام التوحيد توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات وتوحيد الحاكمية لأن الحاكمية تدخل في الألوهية وتدخل في الربوبية وتدخل في الأسماء والصفات فالتوحيد ثلاثة أقسام .

فإفراده لا يعني إنكار أنواع التوحيد الأخرى ولا تجاهلها أو أنه ليس داخلا فيها . وهو من جنس ذكر الخاص بعد العام الداخل فيه كما في قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ البقرة: ٢٣٨ . ومعلوم أن الصلاة الوسطى من الصلوات لكن أفردت لأهميتها. ومثل ذلك يقال في توحيد الحاكمية والدعاء.

وبهذا البيان يظهر خطأ من أعترض على تخصيص هذا النوع .

والعجيب في من يشرح كتاب التوحيد ونواقض الإسلام ويركز على شرك الدعاء والقبور وتناسي شرك الحكم والتشريع وفي مقابلهم الذي يغالي في إثبات توحيد الحكم ويتناسى الشرك الذي يقع فيه القبورية بأصنافهم وأجناسهم بدعاء غير الله تعالى، وغير ذلك من أنواع الشرك ، فلا ينبغي أن يترك العلماء نوعاً من أنواع الشرك إلا ويبينوه للناس ويفصلوه وينصوا عليه بالبيان والدليل من كتاب الله ﷻ حتى يهجر ويرجع الناس إلى التوحيد وإلى ملة إبراهيم ، وقد جمع الإمام محمد بن عبد الوهاب بين النوعين (شرك الدعاء ، وشرك الحكم) في كتابيه التوحيد ورسالة النواقض وغيرها.

المسألة الخامسة : الحكم بغير ما أنزل الله يعتبر ديناً وشرعاً :

الدين يطلق على الالتزام والطاعة والانقياد والخضوع وعلى ما يتدين به العبد.

وسمى دينا لأنه يدان به ويلتزم به ويتدين به ويستسلم له وينقاد به، ولذلك المشركون في الحكم يدينون المخالفين في أحكامهم وتشريعاتهم ويلتزمون بتشريعاتهم وينادون بهذه الشرعيات.

قال ابن تيمية : (والدين هو الطاعة، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله، وجب القتال حتى يكون كله لله) . الفتاوى ٢٨/ ٥٤٤.

قال الإمام الطبري: (يكون الدين لله: حتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره) .

مسألة : الدين والشرع على قسمين :

الدين الحق من عند الله وهو دين الإسلام

الدين الباطل الوضعي ويسمى دينا وشرعاً لكنه دين باطل وطاغوت جاهلي.

ويدل لهذا الأصل أن الدين قسمان قوله ﷻ: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ الكافرون: ٦،

ولا يقال لكم إسلامكم ولي إسلامي، أما الإسلام فمصطلح خاص بدين الله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾ آل عمران: ٨٥ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩ أي الدين المقبول.

مسألة: المراد بالدين في كثير من الآيات هو الحكم والتشريع :

إن أخص ما يدخل في مسمى الدين ومعناه : الحكم والقضاء والتشريع والعرف، وكذلك الطاعة والاتباع والانقياد والخضوع والذل لسلطة عليا قاهرة.

فمن يدخل في طاعة الله تعالى، وينقاد إلى حكمه وشرعه، ويتبع ما أنزل على نبيه ﷺ فهو داخل في دين الله الإسلام، وهو عابد له سبحانه وتعالى.

ومن يعرض عن طاعة الله تعالى وعن حكمه وشرعه، ويطيع غيره ويحتكم إلى حكم غيره وشرع غيره ولو في جزئية من جزئيات حياته فهو داخل في دينه، وعابد له من دون الله، ولو زعم بلسانه أن دينه الإسلام وأنه من المسلمين.

وعليه فهذه القوانين الوضعية السائدة والحاكمة في أمصار المسلمين، هي دين وإن لم يسمها أهلها بذلك، ومن دخل فيها أو تابع الطغاة عليها، أو رضي بها فهو في غير دين الله وهو في دين الطاغوت وإن زعم الإسلام وتسمى بأسماء المسلمين ، ثم إن كل منهاج أو نظام أو دستور أو قانون لا يقوم على أساس الإسلام والطاعة لله ﷻ، والمتابعة لرسوله ﷺ ، فهو دين باطل وطاغوت يتعين البراءة منه والكفر به.

المسألة السادسة : أركان الحكم :

للحكم أربعة أركان :

الأول : الحكم ، وهو الفعل، وهو عين الأمر والنهي .

الثاني الحاكم ، وهو الفاعل للحكم ، وهو من يقوم بإصدار الحكم سواء كان الواضع الأصلي ويسمى السّان والمشرع أو كل من يحكم به كالقاضي والحاكم .

الثالث : المتحاكم والمحكوم عليه الحكم، وهو الذي يقع الحكم عليه .

الرابع : المتحاكم به المحكوم به، وهو الشرع الذي يحكم به أو يتحاكم به سواء كان حقا (وهو حكم الله وشرعه) أو باطلاً (وهو حكم الجاهلية والطاغوت).

الخامس : المتحاكم فيه وهي المحكمة أو المجلس الذي يحصل فيه الحكم .

السادس : المحكوم فيه وهي القضية التي سيحكم فيها .

المسألة السابعة : أقسام الحكم :

يتقسم الحكم إلى قدري وشرعي :

الأول : الحكم القدري : الذي يرجع للربوبية ويتعلق بأفعال الله وكونه وقدره ﷻ ومن الأدلة عليه : ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ الرعد: ٤١ ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ الحج: ٦٩.

الثاني : الحكم الشرعي الأمري : الراجع إلى ألوهيته ودينه، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ الممتحنة: ١٠ ﴿ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ المائدة: ٤٣ ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الشورى: ١٠.

وقد ورد في بعض الآيات اجتماع النوعين القدري والشرعي مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ حكمه القدري الكوني المتعلق بالربوبية، وحكمه الأمري الشرعي المتعلق بالألوهية .

المسألة الثامنة : دليل كمال هديه ﷺ .

إن كمال شريعة الرسول ﷺ وحسن هديه وأفضليته وخيريته وحسن سيرته وفضل طريقته مما لا يشك فيه عاقل بل هو مما أجمع عليه البشر قاطبة . وإذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام أتوا بأكمل الطرق والشرائع وأن أفضل الطرق والمناهج ما أتت به الأنبياء لكونها من عند اللطيف الخبير سبحانه، لذا وجب اتباعها والعمل بشرائعها والرضا بها ، فإذا كان هذا فيها فكيف بشريعة أفضل الخلق وخاتم الرسل الذي أخبر وهو الصادق أن خير الهدي هديه وأكمل الشرائع شريعته .

والأدلة الدالة على هذا الأصل أكثر من أن تحصى منها :

قوله ﷻ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣. فجعل الشرع والدين وإرسال الرسول وتبليغنا هديه نعمة تامة كاملة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران: ٨٥. ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ١١٠ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ النساء: ١٢٥ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا ﴾ المائدة: ٥٠ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فصلت: ٣٣.

ما جاء في خطبته ﷺ يقول : (وأن خير الهدي هدي محمد ﷺ) رواه مسلم.

وقول الرسول ﷺ لعمر ﷺ عندما رآه حاملاً ورقة من التوراة: (لو كان موسى ابن عمران حيا ما وسعه إلا أن يتبعني) رواه أحمد والنسائي .

وهذا فيه دليل على كمال هديه ﷺ . فإذا كان موسى عليه السلام الذي كلمه الله ﷻ لا يسعه إلا العمل بشريعة الرسول ﷺ واعتقاد كمال شرعه فكيف بغيره ؟

وعيسى عليه السلام لا يحكم إلا بشرع محمد ﷺ عندما ينزل في آخر الزمان .

وهذا كله فيه دليل على كمال هديه وأفضليته .

ومن فضّل هدي غير الرسول ﷺ فهو كافر بدليل قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ النساء: ٥١.

وأدلة كمال هديه ﷺ وكون أكمل الهدي هديه وأن إرساله وهديه نعمة كاملة ولا يستغنى عنها أكثر من أن تحصى .

بل إن كمال هدي الرسول ﷺ وحسنه وأفضليته وخيريته مما أجمع عليه البشر قاطبة حتى المشركون قد علموا كمال خلقه ﷺ وحسن سيرته وفضل طريقته ، ولذلك قال أبو طالب : ولقد علمت بأن دين محمد * من خير أديان البرية دينا

وكانت قريش تسمي الرسول ﷺ الصادق الأمين وهذا يدل على كمال هديه .

فكيف بأقوام بعده يعتقدون أن طرق الصوفية خير من طريقة الرسول ﷺ وهدي الشيوخ خير من هدي الرسول ﷺ وأنه لا يجب اتباع طريقة الرسول ﷺ الذي رسمه للأمة بينما طريق الشيخ يكفر المريد إن خالفه ، وأن الطرق التي ابتدعها المبتدعة في العبادة أو الدعوة أو الجهاد خير من طريقته .

وكيف للمستغربين والمتفرنجين في زماننا من المعجبين بالكفار يفضلون طريقة أوليائهم من الغرب وأنظمته ومبادئه أو الأحكام التي يطبقها الغرب الكافر أو الدمقراطية أكمل وأفضل من أحكام الرسول ﷺ ومن الشريعة، أو من يقول : طريق الرسول ﷺ لا يصلح في هذا العصر، أو من يتأول ويقول : طريق الرسول ﷺ هذا هو الطريق الذي نحن عليه وهو يخالف طريق الرسول ﷺ في الحقيقة.

فائدة لطيفة : تفضيل هديه ﷺ مما اتفق عليه الناس، حتى الكفار والمشركون.

ولذلك العلمانيون الذين يفضلون هدي الغرب على هدي الرسول ﷺ أشد كفراً من قريش ، لأن كفار قريش قد اعترفت بأنه هو الصادق الأمين وفضلت حكمه في مواضع كثيرة وعلمت رجاحة عقله وكمال هديه وحسن أخلاقه ﷺ .

المسألة التاسعة: خصائص حكم الله تعالى وشريعته:

أنه من عند الله ﷻ وواضعه هو الرب تعالى، الذي له وحده استحقاق الأمر والنهي قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الأعراف: ٥٤ فمن ملك الخلق ملك الأمر.

فالحكم صادر من لدن الحكيم اللطيف الخبير العالم بخلقه وما يناسبهم فهو المدبر لكل شيء والمصلح له ومن تدبيره أنه السيد المطاع وحده وهو المالك لخلقه والمتصرف في ملكه بما يشاء.

أن حكم الله ثابت لا يتغير ولا يختلف ولا يتبدل بتبدل الأزمان، فهو صالح لجميع العصور وشامل وعام وكامل وفيه الوفاء والكفاية والعدالة والراحة والطمأنينة للمتحاكمين به كيف لا وهو من عند اللطيف الخبير ﷻ الذي يعلم ما يصلح لعباده.

كذلك وفاء الشريعة ويسرها وقيامها بالغرض المطلوب وملائمتها للنفس البشرية وانعقادها على كل ما فيه مصلحة للبشر وضرورياتهم.

ومن ذلك أنها جاءت بالضروريات الخمس التي لا يستغن عنه البشر وحفظتها لهم:

ففي جانب الدين أوجبت تعلم الدين وحفظه ونهت عن موالاة الكفار والوقوع في نواقض الإسلام وأمرت بقتل من ارتد عن دينه.

وفي جانب النفس شرعت القصاص والديات وحد الحرابة وأباحت التداوي لحفظ النفس وحرمت كل ضار.

وفي جانب العقل حرمت الخمر وأوجبت الحد فيه.

وفي جانب حفظ النسب والعرض حرمت الزنا والقذف وأوجبت الحد فيها وأوجبت العدة للنساء.

وفي جانب المال حرمت الظلم والربا والسرقة والغش وأكل أموال الناس بالباطل وشرعت حد السرقة وأمرت بكتابة العقود وفرضت الزكاة وأباحت البيوع فجاءت بكل ما يحفظ المال وينميه بالحلال.

وهذه الأمور والمصالح هل يجدها العاقل في قوانين الكفر ونظمه.

المسألة العاشرة: مقاصد الحكم ، ولماذا أنزل الله حكمه بين الناس ؟

أولاً : لتحقيق العبودية والذل والخضوع لله وحده، وذلك أن الحكم من العبادة التي أمرنا الله ﷻ بها والحكم أيضاً إذا تم فالناس في عباده لله ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠.

وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ الزمر: ٢.

بل وجعل الله التحاكم والحكم بغير شرعه عبادة لغير الله وسماه الله تعالى جاهلية قال تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ الزمر: ٦٤ ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠ .

فمن ترك التحاكم لله ورسوله فهو غير منقاد لله ولا خاضع له ، بل كافر بعبادته متمرد على ربه وخالقه مستوجب لغضب الله وناره .

قال ابن تيمية :(وحقيقة الشريعة:إتباع الرسل والدخول تحت طاعتهم، كما أن الخروج عنها خروج عن طاعة الرسل، وطاعة الرسل هي دين الله الذي أمر بالقتال عليه) الفتاوى (١٩/ ٣٠٧).

ثانياً : إقامة الدين في الأرض والدليل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ التوبة: ٣٣ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ المائدة: ٦٨ ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ ص: ٢٦.

ثالثاً : حاجة الناس الملحة لها إذ فيها صلاح الدنيا والآخرة وإقامة الضروريات الخمس والحاجيات والتحسينيات للعباد وما يصلح لهم لأنه جاء من عند من يعلم بما يصلح لخلقه وما يحتاجون إليه، والحكم بغير ما أنزل الله من أعظم الإفساد وترك الحكم بها زعماً للإصلاح ديدن المنافقين :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة: ١١ - ١٢.

رابعاً : به يحصل الاستخلاف في الأرض والتمكين والأمن والاستقرار والنصر والفتح لهم والعز والشرف والبركة .

خامساً : أن فيه رحمة بالناس فجعل الله حكمه في الأرض رحمةً بنا فهو العالم بما يصلح لنا وما نحتاج إليه .

سادسا : أن فيه إظهار المنافقين وإخراج ما في قلوبهم من مرض، وتمييز للخبيث من الطيب ، ولذلك قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ محمد: ٢٩ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ المائدة: ٤١ ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٢٧ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١.

والحمد لله الذي جعل الحكم بالشرع وطلبه علامة لإظهار الذين في قلوبهم مرض وتمحيصاً للمؤمنين ورفعة لهم بوجود المنافقين وجهادهم .

المسألة الحادية عشرة: أضرار ترك الحكم بالشريعة :

نزول الويلات والمصائب والفساد والخوف والجوع والعداوة وتسلط الكفار.

المسألة الثانية عشرة: واجبنا تجاه حكم الله ﷻ القدري والشرعي :

١- توحيد الله في الحكم فنثبته لله تعالى وننفيه عما سواه وإفراد الحكم له.

٢- الإيمان بحكم الله ﷻ .

٣- تصديق حكم الله ﷻ .

٤- الرضا بحكم الله ﷻ .

٥- محبة حكم الله ﷻ .

٦- قبول حكم الله ﷻ .

٧- الانقياد والالتزام والإذعان والتسليم لحكم الله ﷻ .

٨- العمل بحكمه ﷻ .

فائدة : واجبنا تجاه حكم الله ﷻ قسمان :

أ- واجب اعتقادي .

ب- واجب عملي .

وترجع هذه الواجبات إلى حقيقة الإيمان وإلى شروط وأركان (لا إله إلا الله).

المسألة الثالثة عشرة : قيام الإيمان بالحكم بما أنزل الله على ركنين :

الركن الأول : الاعتقادي الباطن :

ويكون بإثبات الحكم لله ﷻ والإيمان به وإفراده بـه وتـصديقه ومحبتـه وعـدم معارضته وتكذيب كل حكم يخالف حكمه ورفضه واعتباره مـن الطـاغوت الـذي أمرنا بالكفر به والبراءة منه ومن أهله .

الركن الثاني : العملي الظاهر :

ويكون بقبول حكم الله ﷻ والانقياد له ومتابعته والالتزام به وعـدم الامتنـاع منه أو الإعراض والتولي عنه .

ومن هنا يتبين أنه لا يقوم بالعبد إيمان حتى يؤمن بحكم الله باطنا وظاهرا .

فلا يتم الإيمان بحكم الله إلا بهذين الـركنين . يـصدق بحكـم الله ويحبـه، ثـم ينقاد له ويتبعه ويلتزم به، وهذان الركنان راجعان إلى شروط لا إله إلا الله وأركانها .

وبهذا يتبين أن الحكم فيه توحيد وإيمان عملي بالقبول والانقياد وتوحيد وإيمان اعتقادي بالتصديق والمحبة، وكذلك الكفر في الحكـم يكـون بالاعتقـاد والعمـل .

وهذا البيان لتأصيل المسألة في الحكم وكفر المتحاكم والحاكم بغير ما أنزل الله .

الرابعة عشرة : تحريم الاسم الذي فيه مشاركة ومشابهة في صفة الحكم لله:

كل ما يشعر بمشاركة الله عز وجل في صفة الحكم واسمه فهو محرم .

وقد جاء النهي عن التسمي بملك الملوك وقاضي القضاة كما في الحديث المتفق عليه في حديث أبي هريرة ﷺ .

كما يدل لهذا قصة أبي شريح الكندي لما وفد مع قومـه إلى النبـي ﷺ فـسمعهم يكنونه بأبي الحكم فدعاه فقال: (إن الله هو الحكم وإليه الحكم)، فلـم تكنيـت بـأبي الحكم، قال: لا ، ولكن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فـرضي كـلا الفريقين، قال: ما أحسن هذا، فمالك من الولد؟ قلت: لي شريح وعبدالله ومسلم بنو هاني، قال: فمن أكبرهم قلت شريح، قال: أنت أبو شريح) رواه أبوداود والنسائي.

فإذا كان هذا الاسم محرما ويجب إنكاره فكيف الحكم في من ينازع الله ﷻ فيه بالفعل بالتشريع والحكم والتحاكم والله المستعان .

الخامسة عشرة :علة توحيد الله بالحكم وأوجه دخول الحكم في التوحيد:
أولاً : لأن الحكم من ربوبية الله وأفعال الرب، والحكم صفة اختص الله بها .
ثانياً : لأن الحكم من العبادة التي استحقها الله فلا يصرفها العبد إلا له.
لأجل هذين الأمرين وجب أن يفرد الله بالحكم ويوحد فيه، ونهانا عن الشرك في الحكم وأمرنا بالتوحيد فيه، وجاء بصيغة الحصر النفي والإثبات تأكيدا لذلك.
وكذلك الحكم والتحاكم هي من الله إلهية وربوبية، ومن العباد عبودية وطاعة وخضوع وتعظيم وتوحيد، فالغاية العظمى من قضية التحاكم إلى شرع الله هي تحقيق عبودية العباد لله تعالى في هذا الجانب ، ومن أشرك في الحكم والتشريع فقد أشرك نفسه في الربوبية ومن أشرك في الطاعة والتحاكم فقد أشرك في توحيد الألوهية ووقع في عبادة المخلوق وذلك بطاعته واتباعه والتحاكم إليه وتعظيمه والخضوع والتذلل له .

المسألة السادسة عشرة : علاقة الحكم بما أنزل الله بالدين والتوحيد والعقيدة :

الحكم بما أنزل الله له رابطة قوية بجميع مبادئ الدين أصوله وفروعه فله علاقة وطيدة بالتوحيد وأنواعه وناقض التوحيد وهو الشرك، كما أن له علاقة بالإيمان حقيقته وحدوده وأركانه، وله علاقة بضده وهو الكفر، وله علاقة بالإسلام في حدة وحقيقته وأركانه، وله علاقة بالشهادتين ومقتضياتها وأركانها وشروطها ، فلا يخلو باب من أبواب الدين إلا وللحكم مناسبة معه وإليك بيان ذلك مفصلاً .

أولاً : علاقة الحكم بما أنزل الله بالتوحيد :

التوحيد معناه الإفراد ضد الشرك ، ولا يسمى الشيء توحيدا إلا إذا اجتمع فيه نفي وإثبات، وهو حقيقة لا إله إلا الله هو إفراد الله بكل ما يستحقه وما يخصه.

والذي يستحقه الله ويجب أن يفرد به العبادة من التعظيم والخضوع والطاعة والمحبة والحكم بما أنزل والتحاكم إليه، والربوبية وكمال الصفات.

فالتوحيد: إفراد الله بالألوهية (عبادته) والربوبية والأسماء والصفات .

فنثبت لله وحده هذه الخصائص الثلاث وننفيها عن كل أحد سواه .

ومعنى التوحيد في الحكم على ذلك أن يفرد الله ﷻ بالحكم والتشريع والتحاكم فنوحد الله ﷻ في الحكم كما نوحده في بقية أفراد وأنواع التوحيد ، فنثبته له وحده وننفيه عن كل أحد سواه كما أخبر تعالى وأمر.

فكما نوحده في أفعاله من خلق ورزق وإحياء وإماتة فكذلك نفرده تعالى بالحكم لأن الحكم والأمر والتشريع والتحليل والتحريم من أفعاله تعالى .

وكما نفرده في صفاته ولا نمثله بخلقه فكذا نوحده في الحكم فهو من صفاته.

وكما نفرد الله ﷻ ونوحده في الألوهية التي هي عبادته من دعاء ومحبة وخوف وسجود بأن لا نعبد إلا الله تقدس سبحانه ولا نتوجه ونقصد غيره ولا نخشى ولا ندعو أحداً سواه كذلك لا نتحاكم إلا إليه ولا نطيع أحداً سواه ، لأن التحاكم إليه عبادة من العبادات التي أمرنا أن نوحد الله بها وأن لا نتحاكم لغيره وأن ننفي ونتبرأ ونكفر بحكم الطاغوت ، وكل حكم خارج عن حكمه فهو حكم الطاغوت .

والذي يجب على كل مسلم أن يحكم بما أنزل الله وأن يفرد الله تعالى في الحكم لأنه من أفعال الرب ﷻ ويفرد الله بالحكم لأنه من صفاته وأسمائه تعالى ويفرد الله ﷻ بالتحاكم لأنه من العبادة التي لا تصرف إلا له.

خلاصة اعتبارات دخول الحكم في التوحيد :

١- أن الحكم صفة لله وحده لا يشابهه أحد فيها ولا تثبت لغيره ولا يشاركه أحد في فعله والاتصاف بها بنص القرآن قال تعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يوسف: ٤٠.

٢- أن الحكم عبادة يجب إفراد الله بها قال تعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يوسف: ٤٠ ، الحكم والتحاكم هي من الله إلهية وربوبية، ومن العباد عبودية وطاعة وخضوع وتعظيم وتوحيد، فالغاية العظمى من قضية التحاكم إلى شرع الله هي تحقيق عبودية العباد لله تعالى في هذا الجانب.

٣- أن الحكم يدخله الشرك كما في آية: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ الكهف: ٢٦ .

٤- أن غير حكم الله طاغوتا يجب نفيه والتبرؤ منه .قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ الأنعام: ١١٤ ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا ﴾ المائدة: ٥٠ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠.

٥- قيام الحكم على النفي والإثبات قال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ الأنعام: ٦٢ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يوسف: ٤٠.

ومن هذا كله يتبين أن الحكم يوصف بالتوحيد والشرك ويدخل فيهما وأن فرد من أفراد الألوهية والربوبية وداخل ضمن كلمة التوحيد .

ثانياً : علاقة الحكم بتوحيد الربوبية :

الربوبية هي أفعال الله تعالى ومن أفعال الله أنه يحكم ويشرع ويحلل ويحرم ويأمر وينهي ويسن الدين ، فالذي يشرّع ويحكم يسمى رباً، وقد سمى الله الذي يحكم من المخلوقين ويشرع ويحرم ويحلل ويطاع ربا وليس مجرد إلها معبودا في قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ فسمى الله ﷻ الأحبار والرهبان أرباباً لأنهم يشرعون ويحرمون ويحللون ويحكمون وهذه من صفات الربوبية ومن أثبتها لغير الله فقد جعله ربا له وخصه بصفات الرب وأثبت له أفعال الربوبية .

ويقول ﷻ : ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ آل عمران: ٦٤ ، أي أننا نحن وأهل الكتاب لا يطيع بعضنا بعضا ويجعل بعضنا بعضا أرباباً في حكم وتشريع أمر ونهي وتحليل وتحريم .

ولا شك أن ربوبية المخلوق باطلة كما أن ألوهيته باطلة فسمى الله من عُبد واتخذ ربا وإلها رباً وإلها وليس لكونه مستحقا لهذه الصفات وإنما لكونه اتصف بها ، ومن المقرر أن الإله والرب إما أن يكون بحق وهو الله وحده أو باطل وهو ما سوى الله ﷻ.

وحيث أنه لا رب إلا الله ولا خالق إلا الله ولا إله بحق إلا الله استلزم ذلك أن لا يكون هناك حاكم ولا مشرع وآمر إلا الله.

وهذه النتيجة اللزومية أوضحها الرب بقوله : (ألا له الخلق والأمر)

فلا يستحق الحكم والأمر إلا من يستطيع أن يخلق فالذي له الخلق له وحده الأمر كما قرر ذلك ربنا في محكم كتابه.

فكما أنه لا خالق إلا الله فكذلك لا آمر ولا مشرع ولا حاكم إلا هو فمن له الخلق له الأمر وحده سبحانه وتعالى .

ولذلك الأصل قال الله ﷻ : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦.

وأخبر أن الحكم ليس إلا له وحده ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ الأنعام: ٥٧ ، يوسف: ٤٠ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ الأنعام: ٦٢ ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ القصص: ٧٠ .

فكما أنه الخالق لنا فليس لنا آمر غيره ولا يصلح لنا أمر مخلوق مثلنا، ولا يعلم بمصالح الخلق إلا من خلقهم فلذلك تفرد بالأمر وحده وأمرنا أن نفرده بالأمر ونرجع الحكم إليه فإليه يرجع الأمر كله، ومن تقحم هذا الأمر وأراد أن يشارك ربه في الأمر وينافسه في الحكم ويضاهيه في التشريع فقد أوقع نفسه في أعظم الهوان واستحق أعظم العقوبة وسنأتي على كلام الشنقيطي وغيره في أن هؤلاء الحكام المشرعون الكفرة الفجرة ليس لهم من صفات من يستحق الأمر والتشريع والحكم .

وبهذا يتبين أن الحكم من أفعال الله ﷻ وأن المشرع والحاكم يسمى رب، فإما أن يكون رباً بحق وهو الله ﷻ ، وإما يكون رباً باطلاً وطاغوتا كافرا وهو المشرع المخلوق ، وبهذا يتبين أن المشرعين والحاكمين بغير ما أنزل الله مشركون في الربوبية .

ثالثاً : علاقة الحكم بالأسماء والصفات :

علاقة الحكم بصفات الله ﷻ تظهر من جهات :

أولاً : الحكَم والحاكم الحكيم من أسماء الله ﷻ المشتقة من صفة الحكم . وهي من أسماءه التي تسمى بها ﷻ ، والحكم والتشريع والأمر والنهي والتحليل والتحريم من صفات الله تعالى وأفعاله التي اتصف بها ووصف نفسه بها .

ثانياً : أن الحكم يستلزم وجوده صفاتاً أخرى لله تعالى، فهو متعلق بها مرتبط بها ودل عليها ، ومن هذه الصفات العلم فالحكم يستلزم علم الحاكم وأنه عليم، وأيضاً يستلزم صفة القدرة والغنى والقيومية وأنه لطيف خبير، وصفات أخرى لا بد أن توجد بوجود الحكم ، فمن حكم وشرع كان فيه هذه الصفات ومن وجدت فيه هذه الصفات استحق الحكم ، وهذه الصفات لا يتصف بها غير الله ﷻ .

فبين الحكم وبقية الصفات تلازم ودلالة الملازمة بينهما واضحة، وقد قرن الله عز وجل بين الحكم وغيره من الصفات في آيات كثيرة كالخبير واللطيف.

على هذا فعلاقة الحكم بصفات الله ﷻ علاقة مطابقة وتضمن وملازمة.

ثالثاً : أن الحكم يرجع إلى أفعال الربوبية ، ويعتبر ثلث أفعالها، فالربوبية مدارها على ثلاثة أفعال: التدبير ومنه الخلق ، الملك ، الأمر والتشريع والحكم .

على أن التشريع مرتبط بالتدبير والملك والخلق، فهو من إفراد التدبير والتصرف في الملكوت والخلق ثم من مقتضى الملك الحكم والتشريع .

رابعا : أن الحكم من صفات الرب التي تفرد بها ولا يشاركه أحد فيها كما قال الله ﷻ ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦.﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ يوسف: ٤٠، فأفرد نفسه بالحكم .

فليس هنالك حاكم مع الله ﷻ ولا حكم كحكم الله قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠ فالحكم خاص به سبحانه وهو من صفاته، فمن ادعى انه يحكم فقد أشرك في الصفات ومن جعل لنفسه الحكم والتشريع فقد جعل نفسه حاكماً مع الله سبحانه، ومثل نفسه بالله تعالى في صفاته. وكفر بقوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ الشورى: ١١﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ .

عليه فالحكم من صفات الله ﷻ وأفعاله الخاصة به التي لا تطلق على أحد سواه، فكما أن صفة الخلق والرزق والإحياء خاصة به فكذلك الحكم له وحده، فهذا هو الشرك في صفة الحكم وعلى ذلك فالمشرعون والحاكمون بغير ما أنزل الله وأصحاب القوانين الوضعية مشركون في باب الأسماء والصفات .

خامسا : أن من حكم بغير ما أنزل الله فقد كفر باسم الله تعالى الحكم وضاهاه في تفرده بهذه الصفة العظيمة.

رابعاً : علاقته بتوحيد الألوهية :

الألوهية هي العبودية ولذلك يسمى هذا التوحيد توحيد العبادة والعباد يعني أفعال العباد التي يفعلها العباد لله ﷻ .والحكم والتحاكم الذي يفعله العباد يعتبر من العبادات الداخلة في الألوهية التي يجب أن نوحده بها ، فكما أنـه لا يُـدعا إلا الله ﷻ ولا يسجد إلا له فكذلك لا يتحاكم إلا إليه فالتحاكم عبادة يفرد الله ﷻ بها .

ونبين العلاقة بينهما من أوجه :

الأول : أن الله ﷻ جعل الحكم بما أنزل من العبادة وسماها تعبـدا ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يوسف: ٤٠ .

الثاني : أن الحكم يحبه الله ﷻ وأمر به ورضيه ، وهذه حقيقة العبادة .

الثالث : أن الله جعل الحكم بغير ما أنزل والتحاكم إلى ما سواه من الشرك .

فلا يجوز التحاكم إلا إلى شرع الله ﷻ.

والتحاكم إلى غير الله ﷻ شرك ، فمن ذهب إلى محكمة وضعية قانونية لا تحكم بما أنزل الله وتحاكم إليها فهو مشرك في ألوهيتـه ، والحـاكم فيهـا مـشرك في الربوبيـة والألوهية معا . وبينا دلالات ذلك في موضعه .

والدليل على ذلك قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ النساء: ٦٠ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يوسف: ٤٠ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التوبة: ٣١ ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ الشورى: ٢١ وغير ذلك .

خامساً : علاقة الحكم بما أنزل الله بالعبادة :

الحكم بما أنزل الله من أعظم مقتضيات العبودية والانقياد والإذعان لله تعالى.

والحكم يحبه الله ﷻ وأمر به ورضيه وما أمر الله به فهو داخل في عموم العبادة وما يحبه الله فهو عبادة فالعبادة اسم جامع لكـل مـا يحبـه الله ويرضـاه مـن الأقـوال والأعمال ، والتحاكم لشريعته من العبادات التي يحبها الله ويرضـاها ، كـما يوجـد في التحاكم تذلل للمتحاكم إليه وخضوع له .

فالحكم عبادة أمرنا الله أن نفرده بها قال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠ ، كما أن المقصود بالعبادة في بعض الآيات هو الطاعة ، فحقيقة عبادة الشيطان الطاعة والحكم والتشريع .﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ مريم: ٤٤ ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ يس: ٦٠.

قال السلف في حقيقة العبادة في اتخاذ العلماء أربابا : أنهم لم يسجدوا لهم وإنما أطاعوهم وتحاكموا لهم.

والإشراك بالله في حكمه والإشراك به في عبادته بمعنى واحد، فالذي يتبع نظاما وتشريعا كالذي يعبد الصنم ويسجد للوثن فكلاهما مشرك.

فمن خضع لله سبحانه وأطاعه وتحاكم إلى وحيه فهو العابد لله ومن خضع لغيره وتحاكم إلى غير شرعه فقد عبد الطاغوت وانقاد له.

فكما لا يسجد العبد إلا لله ولا يعبد مخلوقا فكذلك لا يرضخ ولا يخضع وينقاد إلا لحكم الحكيم العليم دون حكم المخلوق.

سادساً : علاقة الحكم بشهادة أن لا إله إلا الله وبأركانها وشروطها :

الحكم داخل في التوحيد وفي أصل شهادة أن لا إله إلا الله تضمنا والتزاماً فهو يجري عليه ما يجري على أصلها وأركانها وشروطها .

و (لا إله إلا الله) تعني لا معبود بحق إلا الله، فلا نعبد أحدا سواه، ومن العبادة الدعاء والمحبة والحكم والتحاكم والطاعة، فلا يدعى إلا الله ولا يراد إلا الله ولا يحب إلا الله ولا يحكم إلا الله ولا يتحاكم إلا إلى الله ، وعليه فمن الشرك المتعلق بهذه العبادات شرك الطاعة وشرك الحكم .

وجاء التعبير عن لا إله إلا الله بالحكم في قوله ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠، بمعنى لا إله إلا الله النفي وإثبات لا حكم إلا لله ولا حاكم إلا الله ولا متحاكم إليه إلا الله .

فيجب على كل مسلم حتى يكون مؤمنا موحدا أن ينفي الحكم عما سوى الله تعالى ويثبته لله وحده ، وأن يقبل شرع الله ودينه ويرفض شرع ما سوى الله ودينه. فالحكم مثله مثل جميع العبادات لا يقبل إلا أن يفرد الله وحده به .

فلا يقبل الله من عبده عبادته إلا إذا وحد الله بها وكفر بعبادة غير الله، فمن حكم بالشريعة وهو لا يكفر بأحكام غير الله كالقوانين الوضعية لا يعد مسلما .

كذلك لو جعل شرك الحكم والتشريع معصية لا يكفر إلا إذا جحد واستحل ، وهو مثل من يجعل عبادة القبور والأموات معصية لا يكفر فاعلها إلا إذا جحد الربوبية .

وقد أمرنا الله أن نكفر بحكم الطاغوت، ومن لم يكفر بحكم الطاغوت فإنه لا يقبل منه إسلامه ويصير كمن يقول أنا أؤمن بالله وأؤمن بغيره وأعبد الله وأعبد غيره، فلا تقبل الألوهية إلا بكفر العبد بألوهية كل ما سوى الله تعالى وهذا معنى الكفر بالطاغوت، وكفار العرب وغيرهم أنكروا على الرسول ﷺ أن يعبدوا الله وحده، فكانوا يعبدون الله ويعبدون غيره ويؤمنون بالله مع الوقوع في الشرك، وكانوا يحكمون بما أنزل الله ويحكمون بغير ما أنزل الله فلم ينفعهم إيمانهم بالله وعبادتهم له مع وقوع الشرك منهم واستباح الرسول ﷺ دمائهم.

فمن ترك حكماً من أحكام الشريعة فهو مثل من ترك الشريعة كلها ولو كان في أدنى مسألة ومن أخذ مسألة واحدة من حكم غير الله ﷻ فقد كفر بالله العظيم قال تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ البقرة: ٨٥. ومن كفر ببعض الكتاب فقد كفر بالكتاب كله فكل حكم سوى حكم الله فهو باطل وجاهلي، فيجب أن نرفض كل ما سوى شرع الله ونؤمن بأنه لا حكم إلا لله، وهذا معنى الانقياد لـ(لا إله إلا الله) والإذعان والاستسلام لها وقبولها .

سابعاً : دخول حكم الله في أركان كلمة التوحيد النفي والإثبات :

بما أن الحكم داخل في الربوبية والألوهية فهو قائم على ركني التوحيد النفي والإثبات .

فلا بد أولاً يثبت المسلم الحكم لله وحده ويؤمن به ويقبله وينقاد ويعمل به .

ثم ينفي الحكم عن كل ما سوى الله ويكفر بحكم الطاغوت ويرفضه .

ومن أدلة تفرد الله ﷻ بالحكم: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف ٢٦ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ الأنعام: ٦٢ ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ الأنعام: ١١٤.

فمن حكم بغير ما أنزل الله فقد أشرك في الربوبية ومن تحاكم إلى هذا الطاغوت فقد أشرك في الألوهية .

ويشترط للمسلم حتى يكون مؤمناً قيامه بإثبات الحكم لله ﷻ ونفي الحكم عما سواه وقبول حكم الله ﷻ ورد حكم غيره والانقياد لحكم الله ﷻ والامتناع وترك حكم غيره والرضا بحكم الله ﷻ ورفض حكم غيره ومحبة حكم الله ﷻ

وبغض حكم غيره فلا يصير الإنسان مسلماً إلا بتوفر هذين الركنين، وهذا شرط قبول الإسلام بل ولا يسمى الإسلام إسلاما إلا بتمام هذين الركنين :

أولاً: قبول حكم الله ﷻ والانقياد له ومحبته والعلم به وتصديقه والالتزام به .

ثانياً : رفض وترك كل حكم لم يصدر عن الله وعدم متابعته والكفر به والامتناع عنه وبغض أهله وتكفيرهم، ولا ينفعه حكمه بالشرع حتى يكفر بحكم الطاغوت وإلا سيصبح الإنسان مؤمناً بحكم الجاهلية راضياً بها مبتغياً لها ويصبح في إيمانه زاعماً مدعياً وهذا حكم الله فيه بنص القرآن .

والقاعدة [لا يجتمع قبولان وانقيادان لأمرين متناقضين في قلب مطلقاً] ، فشرط الانقياد لشرع الله تعالى وحكمه ترك كل ما سوى حكم الله ﷻ ، ولا يجتمع حكم الله وحكم الطاغوت في قلب مؤمن مطلقاً.

والناس في هذا على قسمين :

إما قابل لحكم الله مؤمن به كافر بحكم الطاغوت وحكم ما سوى الله .

وإما مؤمن بحكم الطاغوت متحاكم إليه حاكم به فهو كافر بحكم الله .

ومن لم يجمع بين الحكم بما أنزل الله مع الكفر بحكم غيره فقد آمن بالطاغوت ولم يوحد الله .

ثامناً : علاقة الحكم بشروط لا إله إلا الله :

وهي العلم اليقين الصدق الإخلاص المحبة القبول الانقياد .

من لم يحكم بما أنزل الله فقد جهل بمقتضى كلمة التوحيد ولم يعلمها حقا وأنها تستوجب العمل بالشريعة والحكم بها .

والذي يحكم بغير ما أنزل الله ليس عنده يقين بل شك في حكم الله والله تعالى يقول ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠ .

والذي يحكم بغير ما أنزل الله ما صدق في قول لا إله إلا الله فهو كاذب .

والذي لا يحكم بما أنزل الله ويحكم بغيره لم يخلص في حكمه بل وقع في الشرك، وبالتالي لم يخلص في لا إله إلا الله.

والذي يحكم بغير ما أنزل الله لا يحب الله ولا شرعه ولا يحب لا إله إلا الله.

ومن المحال أن يحب الإنسان ربه ويشرك به في عبادته وحكمه ولا يتبع أمره.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ آل عمران: ٣١ .

ومن شروطها القبول المنافي للرد فلابد للمسلم أنه يقبل لا إله إلا الله ويقبل كل ما فيها ومن ذلك الحكم بشرع الله ، فمن رد حكم الله ولم يقبله فإنه لا يعتبر قد أتى بشرط القبول.

والذي لا يحكم بما أنزل الله فقد انتقض عنده شرط الانقياد فهو لم ينقد للا إله إلا الله ، ومن معاني الانقياد أن ننقاد لشرع الله .

والانقياد منافي للترك والامتناع فيلزمنا أن ننقاد ونذعن ونلتزم بشرع الله ﷻ ومن نواقض الانقياد أن نمتنع ونترك شرع الله أو نعرض ونتولى عنه.

إذن : فالحكم له علاقة بشروط لا إله إلا الله ، فمن لم يحكم بما أنزل الله فإنه لم تتوفر فيه شروط لا إله إلا الله فهو كافر بذلك والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠ ، فإرادتهم التحاكم إلى غير شرع الله ورد حكم الله ﷻ وقبول حكم غيره جعلهم كفار كاذبين بدعواهم الإيمان .

تاسعاً : علاقة الحكم بالكفر بالطاغوت :

من أركان لا إله إلا الله الكفر بالطاغوت ، ومن الكفر الطاغوت : الكفر بكل حكم مخالف لحكم الله من القوانين الوضعية وغيرها والبراءة منها ورفض التحاكم إليها وتكفير أهلها ومعاداتهم .

والكفر بالطاغوت أمر الله ﷻ به خصوصا الطاغوت الحاكم المعبود المطاع ، والدليل على أن الحكم بغير ما أنزل الله من الطاغوت الذي يجب الكفر به وتكفير أهله قوله ﷻ: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠.

ومن لم يكفر بالطاغوت فما تحقق في قلبه لا إله إلا الله كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ البقرة: ٢٥٦ .

ولا يصير الإنسان من أهل لا إله إلا الله حتى يكفر بالطاغوت ومن معاني الطاغوت الحكم بغير ما أنزل الله، ومن الطواغيت الحاكم المغير لحدود الله والواجب أن نكفرهم ومن لم يكفر بهم فليس بمستمسك بلا إله إلا الله .

وأما من قال أنا أؤمن بالله وأحكم بشرعه إلا أني لا أكفر بحكم ما سواه ولا أكفر الحاكمين بغير ما أنزل الله ولا المشرعين للقوانين الوضعية وأصحابها وأربابها والمشركين في الحكم ولا أتبرأ من المحاكم وحكامها وواضعيها، فهذا ما كفر

بالطاغوت وما أفرد الله ووحد الله في الحكم وهو كمن يقول أنا أدعو الله ولا أدعو غيره ولا أسجد وأذبح لغيره لكن لا أكفر من سجد ودعا غيره، فلا ينفعه ذلك .

ولا يمكن أن يجتمع في قلب المؤمن الموحد إيمان بحكم الله تعالى مع عدم الكفر بحكم ما سواه ، فمن قال : لا أتعرض لأحكام القوانين الوضعية ولا أكفر بها ولا أكفّر أصحابها لا يمكن أن يكون هذا في قلب مؤمن ولا يكون صاحبها مسلما ألبته، حيث لا يقبل الله تعالى من مؤمن إيماناً به حتى يكفر بحكم الطاغوت الجاهلي كما أخبر سبحانه بقوله : ﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠.

وإذا فقه الإنسان علاقة الحكم بمقتضى لا إله إلا الله وأركانها وشروطها فقه المسألة وفقه جهل المتأخرين في وجوب توحيد الحكم .

عليه فيجب الكفر بحكم الطاغوت، وهذا مقتضى شهادة التوحيد، ولا يصح الإسلام بدونه ، ويكفر من لم يكفر بحكم الطاغوت أو يحضر حكمه ومحكمته .

قال الشيخ عبد اللطيف عن الذنوب المكفرة : (ويلحق بالقسم الأول حضور المجالس المشتملة على رد أحكام الله وأحكام رسوله والحكم بقانون الإفرنج والنصارى) مجموعة الرسائل ٣/ ٥٧ .

فائدة : الحنيف هو من أتى بالتوحيد و ترك الشرك عن قصد وعلم:

مجرد ترك شرك الحكم من غير قصد وتعمد لا يكفي بمفرده في الدخول في الإسلام، فلا بد من ترك الشرك قصدا ومن الكفر به والبراءة منه ومعاداة أهله، فلا يصدق على من ترك الشرك في الحكم وغيره عادة من غير قصد أنه اتبع ملة إبراهيم الذي صرح بالكفر بالطاغوت وصدع بتكفير أهله .

قال ابن كثير في تفسير ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾: (الحنيف هو المائل عن الشرك قصدا ، أي تاركاً له عن بصيرة) ، وقال: (المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد) .

تنبيه : لا تنفع لا إله إلا الله إلا العالم بمعناها العامل بمقتضاها :

كثير ممن يدعى أنه مسلم ويقول لا إله إلا الله جاهلا بها فلا تقبل منه فيقول : لا أعلم أن الحكم أمرنا الله به فهو لا يعلم معنى لا إله إلا الله فمن معاني لا إله إلا الله أن لا يحكم إلا بما أنزل الله وأن الحكم من العبادة التي لا تصرف إلا لله فكما أنه لا يدعى إلا الله ولا يسجد إلا له فكذلك لا يحكم المسلم إلا بما أنزل الله ولا يتحاكم إلا إلى شرع الله عز وجل ، ويؤمن بأنه لا حاكم إلا الله .

قال الشيخ سليمان في التيسير شرح التوحيد : (ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق بشهادة أن لا إله إلاَّ الله محمداً رسول الله، ولم يعرف معنى الإله ولا معنى الرسول ، وصلى وصام وحج ولا يدري ما ذاك إلاَّ أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل شيء من الشرك ، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه).

وقال أيضا فيه: (أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع ، فتباً لمن كان أبو جهل وغيره أعلم منه بلا إله إلاَّ الله) .

فمن ترك الشرك مثل عبادة الرسول ﷺ ودعاء الأموات لكن لم يكفر بها وكان تركه لها تركاً مجرداً لم يعتبر بذلك من أهل الإسلام أو لو أن شخصاً حكم بما أنزل الله ولكن لم يكفر بحكم ما سواه وترك التحاكم للقوانين الوضعية الشركية الطاغوتية لكن لم يكفر بكفر الطاغوت قصدا كما أمر الله ﷻ فإن فهذا لا يعتبر من أهل التوحيد ولا آمن بالله وحده بل هو مشرك، فتنبه إن كان للتوحيد شأن عندك .

فائدة : تعلق الحكم بغير ما أنزل الله بموالاة الكفار :الحكم بغير ما أنزل الله مرتبط بموالاة الكفار وطاعتهم وإرضائهم والركون إليهم، وهذا أعظم ما يهدف له الكفار إبعادهم عن العمل بالشريعة والاحتكام لها ، ولذلك من اللطائف في سورة المائدة أن الله ﷻ أعقب آيات الحكم بآيات الولاء والبراء ثم آية حقيقة الردة.

عاشراً : علاقة الحكم بما أنزل الله بشهادة أن محمداً رسول الله :

شهادة أن محمداً رسول الله من مقتضياتها تحكيم الرسول ﷺ والرضا بحكمه ولا يتم الإيمان بالرسول إلا بذلك .

ومقتضى شهادة أن محمداً رسول الله طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وألا يعبد الله إلا بما شرع .

ويسمى العلماء مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله بتوحيد الرسول أو توحيد المتابعة للرسول ﷺ ومن حكم بغير ما أنزل الله فإنه لم يصدق الرسول ﷺ في إخباره بكفر الذين حكموا بغير ما أنزل الله ولم يطع الرسول ﷺ في أمره حيث أمر أن نحكم بما أنزل الله ولم يجتنب ما نهى عنه الرسول ﷺ ، ومما نهى عنه الرسول ﷺ الحكم بغير ما أنزل الله فإذا كان الرسول نهى عمر أن ينظر إلى التوراة ويأخذ منها شيئاً فكيف بالقوانين الوضعية . كما أنه لم يعبد الله بما شرع فمن شرع غير شريعة الله ﷻ وحكم

بغير ما أنزل الله ﷻ فقد وضع شرعا غير شرع الرسول ﷺ ولم يعبد الله بها شرعه رسوله ﷺ ولم يتبعه في دينه الذي أمرنا الله به .

وعلى ذلك فالحكم بغير ما أنزل الله ناقض لمقتضيات الإيمان بشهادة أن محمداً رسول الله الأربع جميعها، ومبطل للحكمة التي من أجلها بعثت الرسل .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران: ٣١ .

واتباع الرسول ﷺ يكون في حكمه وأمره ونهيه .

قال ﷻ: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣٢.

قال سبحانه في الحكم خاصة ومقتضى توحيد المتابعة:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ النساء: ٦٥ ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ الأحزاب: ٣٦ .

إحدى عشرة : علاقة الحكم بما أنزل الله بالإسلام :

علاقة الحكم بالإسلام من جهتين :

من جهة حده وحقيقته القائمة على التسليم والعمل ، ومن جهة أركانه .

فالإسلام هو الاستسلام لله ﷻ بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله ، والذي لا يحكم بما أنزل الله فقد نقض هذه الأركان الثلاثة ، فهو لم يستسلم بالتوحيد ولم ينقد لله بالطاعة ولم يتبرأ من المشركين وشركهم في الحكم.

والله ﷻ نفى عمن ترك الحكم حقيقة الإسلام القائم على العمل بأوامر الله ومنها الحكم وقائم على التسليم في قوله:﴿ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ ، والتسليم داخل في جنس الاستسلام والإسلام فلا يكون العبد مسلما حتى يحكم بالشرع .

فائدة : الحكم بغير ما أنزل الله ناقض للشريعة والدين : من حكم بغير ما أنزل الله فقد عطل الشريعة ولم يؤمن بها وكذب بها وانتقصها واستخف بها، فما جاء الدين وما أنزلت هذه الشريعة إلا للعمل بها والأخذ بها.

اثنا عشرة : علاقة الحكم بما أنزل الله بالإيمان ، من جهتين :

الأولى : من جهة حقيقته وأصله :

الإيمان هو التصديق والانقياد الظاهر والباطن فهو قول وعمل واعتقاد، وهذه الأركان متلازمة مترابطة فيما بينها، فمن ادعى الإيمان وجب عليه أن يصدق بكل ما جاء عن الله ﷻ ، ومما جاء عن الله الحكم ثم إذا صدق بقلبه لا يكفيه فلابد من الانقياد لهذا التصديق وقبوله والعمل به والتسليم لهذا التصديق فلابد من أخذ شرع الله وأمره ونهيه وتحليله وتحريمه وحكمه أن يصدقه ثم يعمل به ، ولا يعرض عنه أو يتحاكم إلى غير شرعه، ومن لم يحكم ويحتكم ويتحاكم بالشريعة فهو غير مؤمن بنص القرآن بل ولا بد من كمال الرضا والتسليم لحكم الله، كما قال ﷻ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ ، ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ النساء: ٥٩ ، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١ ، فهؤلاء الذين سماهم الله تعالى بالمؤمنين ومن لم يكن فيه هذه الصفة وهي قبول حكم الله ﷻ والسمع والطاعة له والإقبال عليه فإنه غير مؤمن.

الثانية : علاقته بأركان الإيمان :

فالحكم بما أنزل الله له علاقة بجميع أركان الإيمان الستة :

فله علاقة بالإيمان بالله تعالى :

وقد بيناه في علاقته بالتوحيد فمن الإيمان بالله ﷻ أن تؤمن بحكمه لأنه من ربوبيته وأفعاله وصفاته ﷻ وتؤمن بالتحاكم إليه لأنه من ألوهيته وعبادته .

وله علاقة بالإيمان بالرسل :

لأن الله ﷻ أرسلهم ليعلموا الناس أمره ونهيه ويتحاكموا إليهم ويطاعون.

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ النساء: ٦٤.

وقال : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ ص: ٢٦.

ولابد من تحكيم الرسول ﷺ والرضا والتسليم لحكمه قال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ

بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٣٦ .

ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد كفر بالأنبياء الذين أرسلهم الله ﷻ وأنزل الكتب معهم ليحكم الناس بها .

وعلاقته بالإيمان بالكتب :

لأن الكتب ما أنزلت إلا لأجل العمل بها والحكم بها والتحاكم إليها.

قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ اللَّهُ ﴾ النساء: ١٠٥ ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ النحل: ٦٤ ﴿ اتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ الأعراف: ٣ ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ المائدة: ٤٨ ، والآيات الدالة على أن الكتب أنزلت للحكم بها وفيها الحكم ووجوب جعلها محلا للتحاكم وأخذ الحلال والحرام منها لأنها منزلة من الله ﷻ صادرة عنه وهذه الحكمة من إنزالها كثيرة .

وإذا كان هذا الأمر في الإنجيل والتوراة ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ المائدة: ٤٧ ، فالقرآن الذي أنزله الله تعالى مهيمناً على الكتب السابقة وحاكماً عليها من باب أولى أن يحكم به.

علاقة الحكم بالإيمان بالملائكة : الملائكة هم الذي تشرفوا بإنزال الوحي وإبلاغه وترك الحكم بما انزل الله كفر بهم وتكذيب لهم ومن كذب الرسالة فقد كذب المرسل وهو النبي ﷺوكذب الذي جاء إلى النبي ﷺ وهو جبريل عليه السلام.

علاقة الحكم بالإيمان بالقضاء والقدر : الذي لا يحكم بما أنزل الله فهو غير مؤمن بقضاء الله وقدره فلا يصح الإيمان بالقضاء والقدر حتى يسلم ويرضى .

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ .

علاقة الحكم بالإيمان باليوم الآخر :

قرن الله الإيمان بالشرع مع الإيمان باليوم الآخر في نصوص كثيرة فمن لم يؤمن بحكم الله ويكفر بغيره فحقيقته أنه غير مؤمن بهوالوعيد المترتب على الكفر بالحكم .

عليه فمن أعرض عن حكم الله ولم يحكم بما أنزل الله فهو ليس بمؤمن لأنه نقض أصل الإيمان وأساسه ورأسه وحده وحقيقته ونقض أركان الإيمان الستة وهذا

حكم الله ﷻ كما في الآيات: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥ ، ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ النساء: ٥٩ ، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ النور: ٥١، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ﴾ الأحزاب: ٣٦.

ثلاث عشرة : تعلق الحكم بالشرك والكفر :

لما كان الحكم بما أنزل الله من التوحيد ، فإن الحكم بغير ما أنزل الله يعتبر من الشرك في الألوهية وفي الربوبية ، فالحاكم مشرك في الربوبية والمتحاكم الذي يتحاكم لهذا الحاكم والمشرع أشرك في الألوهية لأن التحاكم والطاعة من أفعال العباد والحكم من أفعال الرب تعالى ، وعلى ذلك فالحاكم بغير ما أنزل الله يشمل الشرك في الألوهية والشرك في الربوبية فإذا دخل الشرك في هذين البابين دل على أنه أعظم من الشرك الذي هو خاص بباب معين كالذبح لغير الله ونحو ذلك .

ومن الأدلة على دخول الحكم في الشرك :

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠.

وإذا كانت طاعة المشركين المشرعين الحاكمين بغير ما أنزل الله شركاً والتحاكم له ومتابعته كفرا فكيف بحال الحاكم أو المشرع ؟

ويمكن القول أن شرك الحكم له جانبان :

جانب الحكم ، وهذا متعلق بالربوبية لأنه من أفعال الرب .

جانب التحاكم ، وهذا متعلق بالألوهية لأنه من أفعال الألوهية والعبادة .

وقدمنا وجه دخول الحكم في الربوبية وفي الألوهية.

من شرع فقد أشرك في الربوبية ومن تحاكم إلى ذلك المشرع وصدقه في تشريعه ورضي تبديله وذهب إليه وأطاعه في تبديله فقد أشرك في الألوهية . شركاً في الطاعة وشركاً في الحكم وكليهما من الشرك في الألوهية .

ومن يجعل شرك الحكم بغير ما أنزل الله داخل في شرك الطاعة فهذا ليس على إطلاقه فشرك الحكم أعم من شرك الطاعة لأنه يكون شركاً في الطاعة والتحاكم وشركاً أيضاً فيما يتعلق بالتشريع والحكم والتحليل والتحريم .

ويدخل شرك الحكم في شرك المتابعة حين يحكم بغير ما أمر به الرسول ﷺ.

ويكون الحكم شركا بالتعطيل وبالتمثيل:

لأن الحاكم بغير ما أنزل الله عطل الله عن العمل بشرعه وحكمه وربوبيته.

كما أنه مثل نفسه وحكم المخلوق وشرعه وأمره وطاعته بالرب الجبار الذي تفرد بالأمر والحكم والمستحق للطاعة وحد.

فائدة : تعلق الحكم بغير ما أنزل الله بكفر الإعراض والامتناع:

الحاكم بغير ما أنزل الله والمتحاكم إليه واقعون في كفر الإعراض والتولي والصدود والامتناع والترك والإباء، والإعراض ناقض من نواقض الإسلام فمن حكم بغير ما أنزل الله فقد أعرض عن دين الله ﷻ.

قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ المائدة: ٤٣ ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ النور: ٤٧ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١ ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ النور: ٤٨ .

فائدة : تعلق الحكم بغير ما أنزل الله بالنفاق : سمى الله ﷻ الذي يعرض عن حكم الله منافقا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١ .

هذه علاقة الحكم بالتوحيد والشهادتين شروطها وأركانها ، وبالإيمان وأركانه وحقيقته وبالإسلام وأركانه وحقيقته، وبالشرك والكفر وأنواعه وعلاقته .

وهنالك تعلقات جزئية للحكم داخلة فيما ذكرناه ولو أردنا التوسع في ذلك لطال بنا المقام ولكن هذه خلاصة تبين أهمية الحكم وأن له علاقات قوية بالإيمان والإسلام والتوحيد وأمور الدين .

فإذا كانت هذه الأمور لها علاقة بالحكم فمن لم يحكم بما أنزل الله فقد نقض هذه الأمور كلها فلا يبقى معه شيء من الإيمان فهو زاعم للإيمان مكذب لله ﷻ، وفي المسألة التالية سنذكر وجه كون الحكم بغير ما أنزل الله ناقض من نواقض الإسلام .

المسألة السابعة عشرة : في أوجه كون الحكم بغير ما أنـزل الله والتحـاكم لغـير شرع الله والتشريع ناقضاً من نواقض الإسلام .

بينا علاقة الحكم بما أنزل الله بمسائل الدين وحقائقه الظـاهرة والباطنـة فـإذا زال الحكم بما أنزل الله وتركه الإنسان ونقضه فقد نقض هذه الأمور.

ومن أوجه كفر الحاكم بغير ما أنزل الله :

أولاً : الحكم بغير ما أنزل الله ناقض لأركان لا إله إلا الله .
ثانياً : الحكم بغير ما أنزل الله مبطل لشروط لا إله إلا الله .
ثالثاً:الحكم الطاغوتي مبطل لشهادة أن محمداً رسول الله وتوحيد المتابعة.
رابعاً : الحكم بغير ما أنزل الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفر.
خامساً: الحكم بغير ما أنزل الله منافي لحقيقة للإسلام .
سادساً: الحكم بغير ما أنزل الله ناقض لحقيقة الإيمان وأركانه .
سابعاً : الحكم بغير ما أنزل الله ناقض لحقيقة العبادة .
ثامناً : الحكم بغير ما أنزل الله ناقض للشريعة والدين .
تاسعاً : الحاكم بغير ما أنزل الله والمشرع ممثل (واقع في شرك التمثيل) .
عاشراً : أن المشرع متطاول على ربوبية الله عز وجل واقع في شرك التعطيل .
الحادي عشر: الحاكم بغير ما أنزل واقع في كفر الإعراض .
الثاني عشر : الحكم بغير ما أنزل الله فيه قدح في الله وفي رسله ودينه وكتبه.
وتقدم تفصيل ذلك في المسألة السابقة.

المسألة الثامنة عشرة : شرك الحكم يدخل في جميع أقسام الشرك وأنواع الكفر :

أنواع الشرك والكفر في الحكم :

إن مما يزيد موضوع الحكم أهمية دخول جميع أنواع الكفر والشرك فيه :
فشرك الحكم يكون شركا في الألوهيـة ويكـون شركـاً في الربوبيـة وشركـا في الأسماء والصفات ، فيدخل في شرك الربوبية والألوهية والصفات .
ويكون شركاً في الأقوال وشركاً في الأعمال وشركاً في الاعتقاد .
ويكون الحكم شركاً أكبر وشركاً أصغر .
كذلك يكون الحكم شركاً في المتابعة .

ويكون شركاً بالتعطيل وبالتمثيل، لأن الحاكم بغير ما أنزل الله عطل الله عن الحكم بشرعه، ومثل حكم المخلوق وشرعه وأمره بحكم الله تعالى.

كما أنه يدخل في كفر الإعراض والامتناع والتولي .

ويكون الكفر في الحكم في أنواع الكفر المعروفة (التكذيب ، والجحود ، والإعراض ، والامتناع ، والإباء والاستكبار ، والشك ، والنفاق فقد يكون الكفر في الحكم بتكذيبه أو جحوده أو الإعراض عنه أو والإباء والاستكبار أو الشك فيه .

والحكم بغير ما أنزل الله كفر بالله وبأنبيائه وبملائكته وبكتبه وبرسله وكفر بشروط لا إله إلا الله وأركانها ومقتضياتها .

كما أن فيه طعن في الله ﷻ وطعن في رسوله ﷺ وفي الصحابة وعلماء الأمة المحمدية وطعن في الدين والشريعة .

كذلك أن ناقض شرك الحكم له علاقة بالنواقض العشرة كلها .

فالقاعدة في الحكم بغير ما أنزل الله أن جميع أنواع الشرك والكفر تدخل فيه .

وهذا يدلنا على خطورة هذا الشرك في نفسه وخطورته على الدين مما يوجب على أهل العلم التحذير منه والدعوة للتوحيد نسأل الله أن يهدي ضال المسلمين وحكامهم للعمل بشرعه وتوحيده في حكمه وتعظيم أمره .

المسألة التاسعة عشرة : توحيد الحكم أو أنواع التوحيد والشرك في الحكم :

الحكم من الأمور التي يجتمع فيها أنواع التوحيد فقل أن يوجد ذلك في صفة مثل الحكم فيوجد في الحكم توحيد الربوبية والألوهية وتوحيد الأسماء والصفات ومتعلق بتوحيد المتابعة ، كما يوجد منه التوحيد العملي والتوحيد الاعتقادي ويتعلق بأنواع التوحيد الثلاثة مطابقة والتزاماً وتضمنا ويدخل في لا إله إلا الله بجميع أنواع الدلالات ، لذلك اصطلح بعض العلماء تسمية (توحيد الحكم) أو (توحيد الحاكمية) وناقضه شرك الحاكمية .

المسألة العشرون : الكفر والشرك العملي في الحكم :

معلوم أن الكفر والشرك منه ما هو اعتقادي ومنه ما هو عملي ومنه ما هو قولي، وهذه أقسام الكفر وجهاته وآلاته، فكما أن الإيمان قول وعمل واعتقاد فالكفر قول وعمل واعتقاد ، وسنأتي بالأدلة على الكفر العملي في الحكم والرد على المرجئة.

وخصصنا الكفر العملي لمخالفته المرجئة في ذلك، حيث جعلوا الحكم بغير ما أنزل الله وبقية أنواع الكفر لا تكون كفراً إلا بشرط الاستحلال والجحود وإذا لم يوجد الاستحلال والجحود فليس هناك كفر عندهم ، فالكفر في الحكم فقط إذا اقترن بالاعتقاد وأما مجرد العمل فليس بكفر وهذه الشبهة الباطلة والقول الإرجائي المبتدع باطل ومردود وإن انتشر في هذا العصر .

ومن الأمثلة على الكفر والشرك العملي في الحكم بغير ما أنزل الله :

التشريع ووضع القوانين وسنها وتشريعاتها.

تبديل الشريعة وجلب القوانين والإلزام بها .

الحكم بغير ما أنزل الله .

التحاكم إلى غير شريعة الله.

التحليل والتحريم .

الاستحلال العملي وهو الفعل الذي يستلزم استحلال القلب .

التزام هدي غير الرسول ﷺ والإعراض عن هدي الرسول ﷺ والصد عنه .

الامتناع عن الحكم بالشرع والتولي والإعراض عنه والتزام الحكم بغيره.

الحادية والعشرون:هل يمكن أن يوجد في حكم الطاغوت شيء من حكم الله؟

نقول قد يوجد موافقة في أحكام الطواغيت لبعض حكم الله تعالى وهذا لا يعني أنها من حكم الله وهذا مثل ما يقال أن اليهود يوافقونا في الإيمان بالله وتحريم بعض المحرمات ومع ذلك لا يسمون بذلك مؤمنين ولا يعتبرون مسلمين .

والقاعدة في هذا الباب أنه لا يتم الإيمان بالله وبحكمه إلا بالكفر بحكم ما سوى الله تعالى وإنكار أصل القضية وهي الحكم بغير ما أنزل الله . فالله ﷻ غيور أن يشرك معه أحد في عبادته وأفعاله ودينه وشرعه وأمره وحكمه وبقية خصائصه ﷻ.

فيجب رد الحكم بغير ما أنزل الله وعدم المثول أمامه ولا امتثاله ولا قبوله ولا الاستجابة له بل الواجب سبه والقدح فيه وتنقيصه وإنكاره والبراءة منه والكفر به وتكفير أهله .

فالحكم كغيره من أفراد الألوهية والربوبية كالولاء والعبادة والدعاء والكلام في القاعدة واحد، إذ لا يجتمع التوحيد والشرك مطلقاً ولو وجد في إنسان إيمان فإن الشرك والكفر ينقضه ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦ .

فالحكم لابد فيه من الإفراد والتوحيد وذلك بالنفي والإثبات نفي الحكم عما سوى الله تعالى وهذا هو الكفر بالطاغوت والإيمان بحكم الله وإثباته لله وحده وقبوله وعدم قبول غيره ، وهذا السر في دخول الحكم في (لا إله إلا الله) .

وتقدم أيضاً الكلام عن علاقة الحكم بالكفر بالطاغوت .

المسألة الثانية والعشرون : الطاغوت في الحكم :

يعد الحكم المخالف لحكم الله طاغوتا ، والحاكم به طاغوتا ،والمحكمة التي تحكم به طاغوتية وقد جعل البعض رؤوس الطاغوت خمسة إثنان منهما في الحكم.

المسألة الثالثة والعشرون : علاقة هذا الناقض بالنواقض العشرة الباقية :

شرك الحكم هو الناقض الرابع ، وله علاقة بغيره النواقض من جهتين :

١- الجهة الأولى : جهة صريحة :

وهي أن الحكم بغير ما أنزل الله له علاقة بالناقض الأول لأن الشرك في الحكم بغير ما أنزل الله من الشرك .

وله علاقة صريحة بالناقض التاسع لأنه خروج عن شريعة الله .

وله علاقة بالناقض العاشر الإعراض لأنه إعراض عن شريعة الله ﷻ.

٢- الجهة الثانية : علاقة ضمنية استلزامية :

له علاقة بناقض الاستهزاء ، فمن حكم بغير ما أنزل الله فقد استهزأ بحكم الله تعالى ولمزه وسبه .

وله علاقة بناقض البغض ، من حكم بغير ما أنزل الله فلازمه أنه قد أبغض حكم الله ﷻ وأحب حكم غيره .

وله علاقة بناقض المظاهرة وتولي الكفار مظاهرة أعداء الله على الموحدين .

وله علاقة بعدم تكفير المشركين والشك في كفرهم .

وبهذا يتبين أن ناقض شرك الحكم له علاقة بمعظم النواقض.

الرابعة والعشرون : صفات من يستحق الحكم وسن الدين والتشريع والأمر:

لا خلاف بين المسلمين قاطبة أن الحكم والتشريع والتحليل والتحريم والأمر والنهي وسن الدين خاص بالله تعالى لا يشاركه فيه أحد، وأن الله تعالى هو وحده الذي يحكم عباده فيأمرهم وينهاهم وعلى العباد أن يطيعوه وينقادوا لشرعه، ويثابوا

بهذه الطاعة ويعاقبوا بمعصيته، فالحكم خاص بالله عز وجل ولا يجوز إلا له بإجماع الأمة ، ومن خالف هذا الإجماع من المسلمين فقد كفر، ومن زعم أن لغير الله ﷻ حق الحكم والتشريع والتحليل والتحريم والأمر فقد كفر إجماعاً، وهذا المبدأ يجب أن يعلمه كل مسلم ويعتقده ولن يدخل الجنة أحد إلا بعد إيمانه بهذا الأصل .

وحتى يقطع الله الحجة على المشركين ذكر سبحانه العلة التي استوجب لأجلها اختصاصه وتفرده بهذا الأمر وبين سبحانه في مواضع كثيرة من كتابه صفات من يستحق أن يشرّع ويسن الدين ويحلل ويحرم ويأمر وينهى ويحكم ويقضي وأنها لا يمكن أن توجد إلا في الخالق وحده الذي خلق فسوى وقدر فهدى والذي يعلم وحده بما يصلح لخلقه وعبيده وما ينفعهم وما يضرهم وما يحصل الخير لهم وما يدفع الشر عنهم وأن هذه الصفات العظيمة لا يوجد منها شيء في المخلوقين ألبته فهي من خصائص الرب تبارك وتعالى التي لا يشاركه فيها أحد ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الأعراف: ٥٤ .فمن يخلق وله الخلق استحق أن يأمر وينهى ويشرّع ويحكم.

قال الشيخ ابن باز : (ولهذا كان من مقتضى رحمته وحكمته أن يكون التحاكم بين العباد بشرعه ووحيه لأنه سبحانه المنزه عما يصيب البشر وهو الحكيم العليم اللطيف الخبير يعلم أحوال العباد وما يصلح لهم في حاضرهم ومستقبلهم ومن تمام رحمته أنه تولى الفصل بينهم في المنازعات والمخاصمات وشؤون الحياة ليتحقق لهم العدل والسعادة بل الرضا والاطمئنان وذلك أن العبد إذا علم أن الحكم الصادر في قضية يخاصم فيها حكم الله الخالق العليم الخبير قبل ورضي وسلم حتى لو كان الحكم خلاف ما يهوى ويريد بخلاف إذا علم أن الحكم صادر من أناس بشر مثله لهم أهوائهم وشهواتهم فإنه لا يرضى ويستمر في المطالبة والمخاصمة ..) .

وأفضل من تكلم في هذا الباب وبين صفات من يستحق صفة الحكم والتشريع للناس الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان يقول فيه: (اعلم أن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة صفات من يستحق أن يكون الحكم له فعلى كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة التي سنوضحها الآن ويقابلها مع صفات البشر المشرعين للقوانين الوضعية فينظر هل تنطبق عليه صفات من له التشريع سبحان الله وتعالى عن ذلك فإذا كانت تنطبق عليهم ولتكن فليتبع تشريعهم وإن ظهر يقيناً أنهم أحقر وأخس وأذل وأصغر من ذلك فليقف بهم عند حدهم ولا

يجاوز بهم إلى مقام الربوبية سبحانه وتعالى أن يكون له شريك في عبادته أو حكمه أو ملكه ، فمن استحق الربوبية استحق الألوهية والربوبية مستلزمة للألوهية).

وقال : (فهل في الكفرة الفجرة المشرعين للنظم الشيطانية من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذي تفوض إليه الأمور ويتوكل عليه ...).

الخامسة والعشرون : أوصاف تارك الحكم بما أنزل الله والمتحاكم إليه:

ذكر الله ﷻ أوصاف الذين تجرءوا على هذه المقام المتعلق بجناب الربوبية حين جعلوا لأنفسهم التشريع وأحقية الحكم بغير ما أنزل الله . فوصفهم الله عز وجل بصفات كثيرة منها :

الوصف الأول : الكفر : قال تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤ .

الوصف الثاني : الظلم : قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ المائدة: ٤٥ .

الوصف الثالث : الفسق : قال ﷻ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ المائدة: ٤٧ .

الوصف الرابع : عدم الإيمان والحكم عليهم به :

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥ ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٤٣ ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ النور: ٤٧ ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ النساء: ٥٩ ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ النور: ٥١.

الوصف الخامس : أنهم متحاكمون إلى الطاغوت غير كافرين به :

قال ﷻ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠.

الوصف السادس : اتباع الهوى والعدول عن الحق .

قال تعالى ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ المائدة: ٤٨ .

الوصف السابع : ابتغاء حكم الجاهلية :

قال ﷻ : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠ .

فمن لم يرد حكم الله ﷻ فقد أراد حكم الجاهلية .

الوصف الثامن : النفاق : قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١.

الوصف التاسع : مرض القلب والشك والارتياب وسوء الظن بالله .

قال ﷻ: ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ النور: ٥٠.

الوصف العاشر : الشرك :

قال ﷻ: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ .

الوصف الحادي عشر : تقليد الكفار والمشركين :

قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ البقرة: ١٧٠.

الثاني عشر: الإعراض .

قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ النور: ٤٨ .

فهذه أوصاف لمن يتركون الحكم بكتابه وسنة رسوله ﷺ أو يتحاكمون لغيره .

المسألة السادسة والعشرون : أنواع الانحراف في حكم الله تعالى :

أولاً : تحريف حكم الله تعالى .

والتحريف على نوعين :

تحريف نصي لفظي، كفعل اليهود: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ المائدة ٤١.

تحريف معنوي ويكون بتفسير النص بغير معناه وهذا أخطر من الأول، فترى محرفوا هذه الأمة وقد لعبوا بدين الله وفسروه بغير معناه ، وخذ لذلك مثلا تفسيرهم لصفات الله وللجهاد والولاء والبراء.

ثانياً : التبعيض والتفريق : كالذين يحكمون بالشريعة في المنازعات الأسرية ويعرضون عن حكمها في السياسة والتجارة والاقتصاد والعلاقات الدولية.

قال تعالى :﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ البقرة: ٨٥.

ثالثاً : هجر حكم الله ﷻ وترك الحكم بكتابه وسنة رسوله .

قال ﷻ : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ الفرقان: ٣٠.

وأعظم هجر للقرآن بعدم الإيمان به والتحاكم إليه.

قال ابن القيم في الفوائد : ومن هجر القرآن هجر تحكيمه والتحاكم إليه .

المسألة السابعة والعشرون : الطوائف الواقعة في الحكم بغير ما أنزل الله :

الذين وقعوا في شرك الحكم طوائف كثيرة في هذه الأمة منهم :

الطائفة الأولى : الأمراء والحكام :

وهؤلاء شركهم في الحكم والتشريع حيث يشرعون ويبدلون شرع الله وحكمه ويجلبون حكم غيره لبلدانهم بين المسلمين ويكثر فيهم شرك التشريع والحكم بتشريعات غيرهم وجلبها وإلزام الناس بها .

الثانية : الرؤساء :

الذين يأمرون من تحت سلطتهم بمعاصي الله ويطاعون في معصية الله وهذا غير القسم الأول الذي يكون في الأمراء والملوك فهذا يشمل ما دون الأمراء من أهل الولايات والمناصب الذين لا يشرعون وإنما يأمرون بمعاصي الله تعالى أو ينفذون تشريعات من فوقهم ويأمرون من تحتهم بها فيطيعهم المرؤوسون في معاصي الله .

الثالثة : شيوخ وعرفاء القبائل وحكام البادية :

وهؤلاء يحكمون في منازعاتهم بغير ما أنزل الله، فيحكمون بما يسمونه السلوم والعادات وأحكام القبيلة وشرع الرفاقة وسواليف البادية والمذهب والعرف والفريض، معرضين بذلك عن حكم الله، وهم بذلك كفار خارجون عن الملة ، فيكفر بأحكامهم الحاكم بها والمشرع لها والراضي والقابل لها والمتحاكم إليها .

الرابعة : العلماء والأحبار:

حين يقومون بتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله فيطاعون ويتبعون، فالملوك يشرعون وهؤلاء يحللون ويحرمون.

الخامسة : الفقهاء المقلدون والرهبان :

وهؤلاء المتعصبون والأتباع الضالون والمقلدة العميان .حيث أوجبوا تقليد العالم والإمام ويسمون اتباعهم فقهاً وتمذهباً ونحو ذلك .

ويسمون عبادة العالم فقه الإمام فلان، ويأخذون منه جميع أقواله ولا يردون شيئاً منها ويتعصبون له ويجمعون أقواله في كتاب كامل ويسمون فقه الإمام فلان ويؤخذ كلامه على أنه نص شرعي لا يقبل الرد والمراجعة وهذا داخل في عبادة العلماء واتخاذهم أربابا من دون الله ، ومن ذلك ما قاله أحد الفقهاء المتقدمين : (أي نص يخالف قول إمامنا أبي حنيفة فهو إما منسوخ يعني بنص آخر أو محمول على

وجه فهمه الإمام) . وهذا من التعصب الأعمى إذ لابد لكل عالم من زلة فمن أخذ عنه يأخذ الحق ويدع الباطل والعالم مجتهد مغفور له في خطئه .

وقد أورد الإمام محمد في التوحيد تحت باب (اتخاذ العلماء والأمراء أرباباً من دون الله) وعد من ذلك اتباع العلماء والتعصب لهم بما يسمى (الفقه والعلم) حتى يقال هذا علم فلان وفقه فلان . ومن مسائل الجاهلية التي عدها الشيخ التقليد فهي من الأمور الجاهلية ، كلما أنكر عليهم وعورضوا أدعوا التقليد وهذا واقع في هذه الأمة بل في بعض الأخيار وطلاب العلم .

ولابن القيم رحمه الله كلام نفيس في إعلام الموقعين حول ذم التقليد وشبه المقلد بالبهيمة التي تساق إما لحتفها أو لعلفها.

وكذا جعل ابن تيمية التقليد كالأكل من الجيفة لا يكون إلا للضرورة .

والفرق بين هذه الطائفة والطائفة السابقة (العلماء) أن العلماء يحرمون ما أحل الله ويحللون ما حرم الله وأما هؤلاء فهم لا يصلون إلى درجة تحليل الحرام أو تحريم الحلال وإنما قد يصلون لذلك بتأويل أو تعصب أو تقليد وليس تعمداً كالسابق .

السادسة : الصوفية : وهؤلاء دخلوا في شرك الحكم من جميع أبوابه .

أولاً : عندهم الشرك في الحكم والتشريع حيث حللوا واستحلوا بعض المحرمات واسقطوا بعض الواجبات والتكاليف وبدلوا وحكموا وتحاكموا .

ثانياً : عندهم شرك في الهدي فشرع الصوفية شرائع باطلة ليست من دين الله أسموها طرقاً بدعية ليس فيه الاقتداء بالرسول ﷺ ولا الأخذ بهديه . بل ويعتقد كثير منهم أن طريقته أو طريقة شيخه أو الطريقة الفلانية أفضل من طريقة الرسول ﷺ وهديه .

ثالثا : عندهم شرك التحاكم والطاعة فأتباع المتصوفة يطيعون أوليائهم في تشريعاتهم ويصدقونهم في مزاعمهم ويتحاكمون إليهم ويتبعونهم .

فالصوفية أخطر الفرق على الأمة الإسلامية فهم الذين يفعلون الشرك مع القبور وفي الحكم ويزينونه ويدعون إليه صراحة ويسمونه بغير اسمه .

والصوفية أكبر الفرق المشركة والقبورية الكافرة ولا أعلم في هذا الزمان صوفيا إلا وهو مشرك يجوز دعاء الأموات والاستغاثة بأصحاب القبور .

السابعة : الرافضة لعنهم الله وغلاتهم الباطنية :

حيث أحلوا بعض المحرمات وشرعوا في دين الله ﷻ واتبعوا أئمتهم . وغلاة الرافضة مع غلاة الصوفية الذين يسمون (الباطنية) زعموا أن الإسلام له ظاهر وباطن وقاموا بتبديل الشرائع وأن الخاصة لا يلزمهم اتباع شرع محمد ﷺ .

الثامنة : العلمانية وفصل الدين عن الدولة:

وهؤلاء جعلوا حكم الله في معزل عن الناس، زاعمون أن حكم الله في العبادة المجردة الذاتية وفي المساجد أما خارج المساجد فلا دخل لله في ذلك تعالى الله عما يقولون، وأن العبادة قاصرة على الصلاة والتنسك وليس لها ارتباط بالحكم، فالاقتصاد والسياسة يحكمها أهلها. وأول ظهور لهم في بلاد الإسلام كان في تركيا على يد الطاغوت الهالك مصطفى كمال أتاتورك ملأ الله قبره نارا حين أعلن أن دولته علمانية تفصل الدين عن السياسة والحكم .

التاسعة : الديمقراطية :

حيث جعلوا التشريع والحكم لغير الله ﷻ فجعلوه للعامة والشعب أو المجلس الممثل للشعب كمجلس الأمة والنيابة والبرلمانات والمجالس التشريعية ومجلس النواب، وزعموا أن الشعب يحكم الشعب ولا يحكمهم شرع الله فجعلوا الشعب هم أرباب أنفسهم لا سلطة لأحد عليهم فما أحلوه فهو حلال وما حرموه فهو حرام فالخمر إن حرموه فحرموه بأمرهم لا بأمر الله وبشرعهم لا بشرع الله .

والديمقراطية التي عمت بلاد المسلمين من أخبث الدعوات بل أخبث من العلمانية لأن العلمانية واضحة الراية أما الديمقراطية فهي دعوة للحرية وإلى المصالح وغير ذلك وينساق تحتها كثير من الجهلة وربما بعض المتسمين بالدعاة والإصلاحيين الذين هم في حقيقة الأمر من الطغاة.

العاشرة: اللبرالية :

الذين يزعمون ويريدون الحرية المطلقة للعباد لا يحكمهم شرع ولا دين فالإنسان يفعل ما يريد فكفروا بأوامر الله وأحكامه، فلا يذعنون لحكم الشريعة بل يفكون رباط العبودية والناس أحرار فيما يفعلون .

الحادية عشرة: القوميون :

الشرك عندهم في جعلهم القومية مقدمة على الدين، وهؤلاء لابد أن يتصادم حكمهم وتشريعهم مع حكم الله، فالقومي أيا كانت ديانته له أحكام تخصه من ولاء وبراء ومعاداة وجهاد وحقوق سواء كان مسلما أو نصرانياً أو يهودياً أو ملحدا .

الثانية عشرة : الوطنيون :

وشرك الحكم عند هذه الطائفة الوثنية الحكم بالوطنية، فالوطن للجميع وجعلوا الوطن وثنا يقصد وإلهاً يعبد وعزلوا به أحكام الشرع، وعملوا بأحكام الوطن وأعرافه وتقاليده ومصالحه ، وجعلوا عادات الوطن والمواطنين حاكمة على حكم الله ﷻ ودينه وشرعه .

الثالثة عشرة : القضاة في المحاكم الوضعية وغيرها :

الذين يحكمون بغير ما أنزل الله سواء كانوا في محاكم وضعية قانونية أو في محاكم شرعية لكن لا يلتزمون الحكم بالشريعة في بعض القضايا كالرجم مثلاً.

الرابعة عشرة : المصلحون والمحكمون :

يكون شركهم فيما يزعمونه صلحاً وتحكيماً إذا صادم الشريعة، فربما أصلحوا بين متخاصمين وحكموا بغير حكم الله ﷻ وعارضوا حكم الله تعالى، وجعلوا لأنفسهم التحكيم والصلح حقاً مطلقا حتى لو أحل حراماً وحرم حلالاً.

والأصل أن التحكيم والإصلاح جائز ما لم تسقط به أحكام الله وتشريعاته قال ﷺ : (الصلح خير إلا صلحا أحل حراما) رواه الترمذي.

الخامسة عشرة : العصرانية :

حيث أبطلوا مدلولات أحكام الله وزعموا أن الدين يتجدد وأن الفتوى تتغير بتغير الأحوال والأزمان حسب المصلحة التي توافق أهوائهم البهيمية، وطالبوا بإعادة فهم النصوص وتفسيرها بما يوافق هذه الأزمنة والعصور، فيقولون مثلا الزنا حرام ولكن الزنا لا يدخل فيه ما جر نفعا واقتصادا وجلب السياح وكان برضى المرأة ومثله الربا .

السادسة عشرة : الإنسانية :

فحكموا بالأخوة الإنسانية وألغوا حكم الله في الكفار وعداوتهم وجهادهم .

السابعة عشر : السحرة والمنجمون يحكمون بما يخالف حكم الله وشركهم في الحكم في الألوهية والربوبية، فنازعوا الله تعالى في الحكم ويحكمون رجماً بالغيب .

وهنالك طوائف أخرى كالطبائعية والوجودية والشيوعية والحداثية وغيرها ممن يشركون في الحكم بغير ما أنزل الله .

المسألة الثامنة والعشرون: الطوائف الضالة في الحكم بغير ما انزل الله :

ضلت في الحكم بغير ما أنزل الله طائفتان .

الخوارج : ومن فروعهم في الباب :

١- كفروا الحاكم بغير ما أنزل الله مطلقاً ولو كان في مسألة واحدة . بل ولو كان عن تأويل وجهل .

٢- كفروا المتحاكمين لغير شرع الله مطلقا .

٣- كفروا المحكومين في البلاد التي يحكمها القانون، وهؤلاء من الخوارج المعاصرين الجدد حيث كفروا الشعوب الإسلامية في بلاد المسلمين .

المرجئة :

وهؤلاء أخبث من الخوارج حيث مرغوا دين الله ﷻ وجعلوه كما قال سفيان كالثوب السابري لا يستر عورة ولا يقي حراً، بل صرح كثير من السلف أنهم أخطر من الأزارقة غلاة الخوارج لأن الخوارج أفسدوا الأبدان وهؤلاء أفسدوا الأديان .

فالكفر عندهم ما عقد القلب عليه وأظهره اللسان، فالكفر في الحكم بغير ما أنزل الله في الجحود والاستحلال والتكذيب فقط.

وأما التشريع والحكم بغير ما أنزل الله فليس بشرك في ذاته عندهم ، وليس كفر بمجرده .

وهذه من أخبث الفرق في الإيمان على تفاوت بينهم وقد انتشرت في زماننا مع شرك الحكم ووقوع الكثير من النواقض .

المسألة التاسعة والعشرون : من يكفر بالحكم بغير ما أنزل الله :

المادح للحكم الشركي ، والراضي به ، ، والمجوز له والمفضل والحارس له، والمحب له ، والداعي له ، والمبغض لحكم الله ﷻ .

المسألة الثلاثون: دواعي ترك الحكم والإعراض عنه :

١- كراهية ما أنزل الله كما ورد في سورة القتال .

٢- موالاة الكفار والسعي لإرضاء وتوليهم والركون إليهم وطاعتهم وموافقتهم والتشبه بهم وتعظيمهم والإعجاب بسنتهم وطريقتهم .

٣- الاستكبار عن الحق والامتناع والإباء .

٤- اتباع الهوى .

٥- اتباع الشهوات.
٦- تقديم المصالح الشخصية والحاجات الدنيوية وإيثار الدنيا وملذاتها .
٧- الظلم والفسق، فالظالم كالسارق غالبا لا يريدون قيام حكم الله.

الحادية والثلاثون : أسباب انتشار هذا الناقض والإعراض عن حكم الله:
الجهل بحكم الله تعالى وعدم العلم بالله تعالى وصفاته وتعظيمه .
الإعراض عن دين الله ﷻ وعدم الانقياد والقبول له .
معاندة حكم الله ﷻ وتكذيب شرعه والاستكبار عليه .
بغض حكم الله ﷻ وكراهية ما أنزل الله .
اتباع الهوى .
سوء الظن بالله ﷻ .
التقليد .
الركون إلى الدنيا ومحبتها، والظن بأن المال والاقتصاد يكثر بحكم الطاغوت .
السعي لإرضاء الكفار وتوليهم .
تولي أذناب الاستعمار على بلاد المسلمين.
ترك الإنكار والتبيين الذي أخذه الله ﷻ على أهل العلم . وعدم جهاده .
﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ ﴾ الحج: ٤٠
﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ البقرة: ٢٥١.
وجود علماء أفتوا بجواز هذه التشريعات الكفرية أو هونوها للناس .
انتشار المرجئة الذين لا يكفرون بشرك الحكم والدعاء .

المسألة: الثانية والثلاثون : فوائد وتنبيهات ومسائل متفرقة في باب الحكم :

فائدة : الحكم بما أنزل الله فيه صلاح المجتمع وأمنه وحياته وخيره، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الأنفال: ٢٤.

فشريعة الله ﷻ والحكم بما أنزل الله فيه الحياة ، وضد ذلك فيه موت القلب وفساد المجتمع وضياع الأمة، ولذلك قال تعالى للمنافقين الذين ظنوا أن الصلاح في قوانينهم الوضعية ، وأحكامهم البدعية : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ البقرة: ١١ - ١٢.

والإفساد يكون بالكفر والشرك والمعاصي والحكم بغير ما أنزل الله ، فالحكم بغير ما أنزل الله هو من الإفساد في الأرض .

فائدة : ينبغي أن يعلم أن الله ﷻ وضع شريعته لنتحاكم إليها :

وهذا من رحمته وكمال فضله علينا ، لأن ذلك فيه إقامة العدل بين الناس والقيام بحاجاتهم وهو العالم بما يصلح لخلقه، ومن رحمته أنه لم يدعنا لعقول قاصرة وأفكار متناقضة كما هو شاهد في أحكام وتشريعات الخلق والبشر فالله له كمال الخلق والملك والتدبير والتشريع .

فائدة : غيرة الله ﷻ وغضبه على من حاد الله ورسوله وعاند شرعه وناقضه وضاهاه، ومن شرع فقد نسب النقص إلى الشريعة ووقع في ذم وسب واضعها.

فائدة : خطورة قصر الحكم على بعض القضايا المعينة :

كالمنازعات أو العبادات أو نحو ذلك، فالشريعة عامة لكل شيء والحكم بها يجب أن يكون في كل ما يتعلق بالعباد في صغير أمورهم وكبيرها .

فائدة لطيفة : الحكم بغير شرع الله من أعظم أهداف وغايات الكفار لأن فيه إضعاف المسلمين والسيطرة على ثرواتهم ومصادرة حرياتهم ومشاركتهم في خواص حقوقهم أيضا إبعادهم عن الدين ونشر القومية والوطنية الممزقة للأمة وكذا ترويج الفواحش وإباحة المحرمات وتسويغ المنكرات وتبسيطها وتسهيلها والدعوة لها وحمايتها وجعلها من النظام وهذا لا يمكن للكفار غرسه إلا بمثل هذه القوانين وإبعادهم عن الحكم بالشريعة والأخذ عن علمائها.

وأي بلد إسلامي يحكمه أهله بالشريعة تجد الكفار يسارعون لحربه ، وخذ مثلا لذلك الصومال ومالي وطالبان.

فائدة : أعظم ما يجب على الحاكم والسلطان إقامة حكم الله وحكم الرعية بالشريعة ومتى ما ترك الحاكم ذلك سقطت طاعته ولم يكن إماما شرعيا بل كافرا مرتدا ووجب على المسلمين عزله ولو بالخروج والقتال .

فائدة : لما كان مجتمع الشرك يقوم على الرجوع للطواغيت للتلقي عنهم وأخذ تشريعاتهم كان منهج الرسل رد الناس لأمر الله وحكمه وعبادته .

فائدة : التقليد من وسائل الوقوع في شرك التشريع، ولذلك مما ينبغي أن يتنبه له القضاة هو العمل بالشريعة وعدم الأخذ بالتقليد المذهبي .

فائدة : العدول في شرك الحكم:

يسمى الشرك عدولاً، لأن فاعله عدَل عن الرب ﷻ وترك عبادته إلى عبادة غيره وعدل بينهما أي ساوى بينهما واتخذ المشرك إلها يعبده غير ربه ﷻ قال تعالى : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ ﴾ النمل ٦٠ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ الأنعام: ١.

وللعدول معنيان :

الأول: العدول عن الشيء أي تركه : ترك عبادة الله وحكمه إلى عباده وحكم غيره . فيعدل عن ربه أي يترك عبادته وحكمه ويميل إلى عبادة غيره وحكم غيره.

الثاني: العدول بالشيء وهو التسوية : فيساوي حكم الله بحكم المخلوق.

والأول هو شرك التعطيل والثاني هو شرك التمثيل .

قاعدة : تحكيم الشريعة واجب على الفور :

الحكم بالشريعة ركن في التوحيد والبراءة من الحكم بغيرها من دمقراطية وأحكام بشرية وقوانين وضعية والكفر بها ركن الدين الأعظم وهو من حقيقة الكفر بالطاغوت الذي يجب أن يكون ملازماً للمسلم حتى يموت ولابد أن يكون مقصوداً، ونبذها وتركها ردة بمجرد فَعله كما قررناه بالأدلة وكلام أهل العلم .

ومع هذا كله إلا أننا نرى في هذه الأيام من ينتسبون للإسلام ويتسمون بالحركات الإسلامية وهم يصرحون بما يناقض الإسلام من أصله وذلك بأنهم سيحكمون بالدمقراطية ولن يحكموا بالشريعة وأنهم سيحكمون بقانون بلادهم ، ويتعللون بأنهم لايستطيعون الحكم بالشريعة، أو أنهم سيحكمون بها بالتدريج كأن الوحي يتنزل عليهم ، وليعلم هؤلاء ومن يبرر لهم أن مجرد ترك الحكم بالشريعة ردة صريحة لا شك فيها ، وأن ما ابتدعوه من الأعذار لا تبرر لهم هذا الشرك الأكبر ولا تدفع عنهم حكم الردة .

الفصل الثاني : أدلة وجوب الحكم بما أنزل الله وكفر تاركه

ورد تقرير وجوب إفراد الله تعالى بالحكم ونفي الحكم عن غيره ﷻ، والأمر بالحكم بما أنزل الله وشرع وإيجابه وأنه من التوحيد، وأن من حكم بغير ما أنزل الله فهو من المشركين الكافرين المرتدين . في آيات كثيرة من القرآن بدلالات متنوعة .

فمن ذلك :

أولاً : أدلة وجوب الحكم بالشريعة وكفر تاركها إجمالاً :

قال تعالى في بيان هذا الأصل : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ الأحزاب: ٣٦

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١

﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران ٦٤

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠ .

﴿ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٤٣ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤

﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ الأنعام: ٦٢

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ الأنعام: ٥٧، ويقص قرأت بالمعجمة يقض الحق من القضاء والفصل والحكم.

﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ ، وقرأ ابن عامر ولا تشرك ،والحاكم مشرك بنص الآية.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ الأنعام: ١١٤.

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ المائدة: ٤٩

﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ المائدة: ٤٨

﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ الرعد: ٤١

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ النساء: ١٠٥

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الشورى: ١٠

الموضع الأول : الآيات في سورة المائدة : من آية : (٤١) ، إلى آية : (٥٠) .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ المائدة: ٤١.

وهذه الآيات نزلت في اليهود والمنافقين في تركهم الحكم بما أنزل الله في رجم الزاني ، وهو من معاني المسارعة في الكفر ، وإذا كان ترك العمل بحد الرجم إلى الجلد وغيره يعد من الكفر مع اعتراف هؤلاء أن الزنا جريمة تستحق العقوبة ، فكيف بمن لا يجعل الزنا جريمة أصلاً ولا يستحق العقوبة إذا كان مصرحا به ولجلب السياح وبرضى المرآة كما هو في تشريعات الحكام الكفرة في بلاد المسلمين .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ المائدة: ٤٢

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٤٣

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ المائدة: ٤٤

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ المائدة: ٤٧.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ المائدة: ٤٥.

فتأمل ما في هذه الآيات من الدلائل على أيجاب العمل بشريعة الله والحكم بما أنزله الله في كتبه منها وكفر تارك الحكم بشريعة الله التي أنزلها الله وأمر بها في كتبه المنزلة ، فمن ذلك:

أن الله ﷻ جعل ترك العمل بحكمه من المسارعة في الكفر وليس مجرد الكفر.

أنه أمر رسوله وغيره إن أراد أن يحكم أن يحكم بالقسط وهو الشرع.

أن أهل الكتاب ما دام أنهم أعرضوا عن التوراة ، فسيعرضون عن القرآن من باب أولى ويحرفونه من باب أولى إن استطاعوا ، وإذا كان ترك الحكم بالتوراة منافيا للإيمان فكيف بترك حكم القرآن .

أنه جعل مجرد التولي عن حكم الله كفرا مخرجا من الإيمان ، فكيف إذا جاء معه تبديل حكم الله وتشريع ما يخالفه.

أخبر الله ﷻ أنه ما أنزل التوراة والإنجيل والقرآن إلا للعمل بها والحكم بما أنزله فيها من أحكام الشريعة ، وأنه كتب فيها دينه وأوجب على الناس العمل به .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ المائدة: ٤٨، بينت الآية والتي بعدها أن القرآن أنزله الله للحكم به وجعله حاوياً لشريعته ، وأمر رسوله والمؤمنين أن يحكموا به ، وأن لا يتركوه ويتبعوا أهواء اليهود والنصارى ، وحذرنا الله من أن يفتننا الكفار عن الحكم بشريعة الله ولو في بعض الأحكام ، فنتولاهم ونطيعهم ونسارع فيهم فنقع في الردة كما بين الله في الآيات التي ساقها بعد آيات الحكم، وهذه الآية كأنها أنزلت في أهل زماننا من المنافقين والمرتدين الذين تركوا العمل بكتاب الله والحكم بها أنزل وأتبعوا أحكام الكفار وأخذوا بالشرعية الدولية ومحاكم الأمم المتحدة وأي ردة بعد هذه.

ومثل هذه الآية في الفوائد الآية الأخرى في قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ المائدة: ٤٩.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠.

بيان محكم أنه لا أكمل من حكم الله ﷻ فأين عقول هؤلاء الكفرة الفجرة المسارعين في الكفر من الحكام المبتغين لحكم الجاهلية ويزعمون أنه أفضل وأكمل وأنسب للعصر، فلو رأيتهم وهم ينادون في محافلهم بشريعة الأمم المتحدة والقرارات الدولية ومحكمة العدل الدولية ، ثم بعد ذلك تجد من يبرر لهم ويحكم بإسلامهم من إخوانهم المنافقين ويتولونهم ويظاهرونهم على أهل التوحيد.

وقال تعالى في حقيقة الحاكم بغير ما أنزل الله في الآيات الثلاث :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤.
﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ المائدة: ٤٥.
﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ المائدة: ٤٧.

وقد ذكرت الآيات صفات من لم يحكم بما أنزل الله وأنه كافر فاسق ظالم، وليس كافرا فقط، والكافر إذا وصف بالظلم والفسق كان كفره أشنع وأخبث.

وهذه الآيات من سورة المائدة من أصرح الأدلة على وجوب الحكم بما أنزل الله، وكفر الحاكم بغير ما أنزل الله ﷻ، وتحتها فوائد وأحكام ووقفات سنأتي عليها.

مبحث : الفوائد والوقفات المتعلقة بآيات الحكم الواردة في سورة المائدة :

الأولى : الروايات الواردة في أسباب نزول آيات الحكم من سورة المائدة :

الأولى : أنها نزلت في اليهود الذين عطلوا حد الرجم وبدلوه.

الثانية : وردت بسبب اختلاف الدية والقصاص بين بني النضير وبني قريظة :

١- عن البراء بن عازب ﷺ قال : مر اليهود على النبي ﷺ بيهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم، فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم، قالوا: نعم، فدعا رجلا من علمائهم، قال : أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك أنشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم ، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا نجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال النبي ﷺ اللهم أني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه ، فأمر به فرجم فأنزل الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ المائدة: ٤١ الآيات، وفي قوله جل ذكره: ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾ أي أن اليهود قالوا ائتوا محمدا ﷺ فإن أمركم بالجلد والتحميم فخذوا بحكمه وإن حكم بالرجم وأفتى به فاحذروه ولا تأخذوا به . رواه مسلم.

٢- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن اليهود جاءوا إلى الرسول الله ﷺ فذكروا لهم أن رجل منهم وامرأة زنيا، فقال لهم الرسول ﷺ ما تجدون في التوراة في شأن الزنا ؟ فقالوا نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له ابن سلام: ارفع يدك فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم قالوا: صدق يا محمد،

فيها آية الرجم، فأمر بها الرسول ﷺ فرجما فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة . متفق عليه.

٣- عن أبي هريرة ﷺ قال : زنا رجل من اليهود بامرأة ، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإن بعث في التخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلنا واحتججنا بها عند الله ﷻ ، قال : فأتوا النبي ﷺ وهو جالس في أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ! ما تقول في رجل وامرأة منهم زنيا فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت المدارس فقام على الباب فقال : أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنا إذا أحصن ؟ فقالوا : يحمم ويجبب ويجلد ، والتجبيب أن يحمل الزانيين على حمار وتقابل أقفيتهما ويطاف بهما ، قال فسكت شاب منهم فلما رآه النبي ﷺ سكت ألظ به النشدة ، فقال : اللهم إن أنشدتنا فإنا نجد في التوراة الرجم، فقال النبي ﷺ : فما أول ما ترخصتم أول أمر الله ، قال : زنا ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ، ثم زنا رجل من أسرة من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه وقالوا : لا نرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك وترجمه ، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم فقال النبي ﷺ : فإني أحكم بما في التوراة فأمر بهما فرجما .

وحُكْم الرسول ﷺ بالتوراة خاص ويعتبر من الحكم بشرع الله ﷻ وأمره فلا يجوز أن يأتي إنسان ويحكم بالتوراة ويحتج بهذا الحكم الخاص .

كما بين ذلك ابن كثير رحمه الله فهذا أمر من الله ﷻ أمره أن يحكم بالتوراة في هذا الموضع . رواه الإمام أحمد وأبو داود .

٤- قال ابن عباس رضي الله عنهما : (أنزل الله في الطائفتين من اليهود وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا أو اصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم الرسول ﷺ المدينة . فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حيين قط دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية ؟ إنا إنما أعطيناكم هذا ضيما منكم لنا وفرقا منكم، فأما إذا قدم محمد فلا نعطيكم ذلك فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا أن يجعلوا الرسول ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضيما منا وقهر لهم ، فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه، إن

أعطى ماتريدون حكمتموه وإن لم يعطيكم حذرتم فلم تحكموه ،فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناسا من المنافقين ليخبروا لهم رأي الرسول ﷺ . فلما جاءوا الرسول ﷺ أخبر الله رسوله بأمرهم وأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ الآيات . رواه أحمد والنسائي .

وقيل إذا كان القتيل من العزيزة فرضوا لهم الدية فتلوه قصاصا، وإذا كان القتيل من الذليلة والقاتل من العزيزة فرضوا لهم الدية، وأبو عليهم القصاص .

وقال بعض المفسرين أن نفراً من اليهود ساوموا الرسول ﷺ في أن يتبعوه.

وقيل نزلت في عبدالله بن صوريا اليهودي حين ارتد بعد إسلامه .

وقيل نزلت في المنافقين ، وأسباب النزول في هذه الآيات كثيرة .

الوقفة الثانية : مناط الكفر في فعل اليهود :

في قول اليهود في الروايات :

(تعالوا نجتمع على شيء) (اصطلحنا) (فتكاتمنا) (وبدلنا).

هذه العبارات تدل على مناط الكفر الذي فعلوه :

وهو أنهم اجتمعوا وجعلوا واصطلحوا وبدلوا وتكاتموا وحرفوا وامتنعوا واتفقوا على تغيير شرع الله ﷻ في حكم رجم الزاني مع أنهم يعلمون بأن هذا ليس من شرع الله ولم يفضلوه على شرع الله وإنما فعلوا ذلك لمصلحتهم .

فكفرهم متعلق بالحكم بغير ما أنزل الله وتبديل حكم الله وتعطيله والتشريع المخالف لشرع الله وليس الجحود لحكم الله وتكذيبه واستحلال غيره كما تزعم المرجئة .

الوقفة الثالثة : الجمع بين (الكافرون الظالمون الفاسقون) الواردة في الآيات :

قيل أن الأوصاف الثلاثة تتناول الكفرين الأكبر والأصغر.

وقيل الكافرون الكفر الأكبر والفاسقون والظالمون الكفر الأصغر.

وقيل الكافرون في أهل الإسلام والظالمون اليهود والفاسقون النصارى.

وقيل أن الأوصاف الثلاثة واردة في موصوف واحد وهو الكفر الأكبر وأن الكافر الظالم والفاسق أشد من الكافر الغير ظالم، ويكون الظالم أشد من الكافر وهو المرتكب للكفر البواح والردة المغلظة والكفار على درجات حسب شناعة كفرهم ، وهذا القول هو الصحيح ، فالكفر والظلم والفسق يكون من الأكبر ، لأن الفسق والظلم يطلق في القرآن على الكفر الأكبر غالبا، فالحكم متعلق بالعهد الذهني.

قال ابن باز في رسالته نقد القومية : (وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة) .

وقال: (فالذين يتحاكمون إلى شريعة غير شريعة الله لا شك أنهم يخرجون بذلك عن دائرة الإسلام ويكونون بذلك كفارا ظالمين فاسقين) الفتاوى١/ ٢٧٥ .

وقال الشنقيطي : (من لم يحكم بما أنزل الله معارضة للرسل وإبطالا لأحكام الله فظلمه وفسقه وكفره كلها مخرجة من الملة) الأضواء ٢/ ١٠٤ .

الرابعة: المقصود بقوله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

١- قال الشعبي: (الكافرون) قصد بها أهل الإسلام و(الظالمون) اليهود و(الفاسقون) النصارى .

وهذا ما رجحه العلامة الشنقيطي يقول في تفسيره : (الظاهر المتبادر من سياق الآيات أن آية (فأولئك هم الكافرون) نازلة في المسلمين لأنه تعالى قال قبلها مخاطبا مسلمي هذه الأمة فلا تخشوا الناس، والظالمون في اليهود لأنه قال قبلها وكتبنا عليهم فيها أي في التوراة، والفاسقون في النصارى لأنه قال قبلها وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله) أضواء البيان ٢/ ٩٢.

٢- وقال البراء: أنها في الكفار، في اليهود والنصارى وأهل الشرك خاصة .

٣- الصحيح أنها ليست خاصة بأهل الكتاب بل عامة في كل من فعل مثلهم فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال حذيفة : (نعم الأخوة لكم بنوا إسرائيل إن كانت لكم كل حلوة ولهم كل مرة ولتسلكن طريقهم قدى الشراك) أخرجه الطبري والحاكم .

٣- وقال الكناني : أنها واقعة على ترك جميع ما أنزل الله لا على بعضه فكل من لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق .

٤- وقيل أن المقصود بها من رد حكم الله عمدا لا من خفي عليه حكم الله فأخطا أو تأول، ذكره البغوي .

٥- وقيل هي في الكفر الأكبر مطلقا فتبديل حكم الله والتشريع المخالف لشرع الله كفر أكبر ولا يكون أصغر .

٦- وقيل من جحد ما أنزل الله فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم فهو فاسق ظالم .

وهذا القول على أنه متعلق القضية العينية وليس الحكم العام إلا أنه مع ذلك مردود فإن الجحد كفر والحكم كفر آخر.

قال ابن القيم : (ومنهم من تأول آية ومن لم يحكم على ترك الحكم جاحدا له، وهو قول عكرمة، وهو تأويل مرجوح فإن جحوده كفر سواء حكم به أو لم يحكم) المدارج ٢/ ٣٣٦ .

٧- وقال ابن عباس كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق .

وهذا القول على أن المقصود به الحكم في القضية العينية وليس الحكم العام الملزم والتشريع والقانون أو الالتزام به حتى يصير ديدنا للحاكم، فهو مع ذلك ضعيف السند في ثبوته عن ابن عباس نظر.

وقد أرادت المرجئة الجهمية في وقتنا أن ترفع رأسها بهذا الأثر مستدلة به على كون الحكم كفر أصغر مطلقا فتجعل الأثر يحمل على كل حكم القضية العينية أو التشريع المقنن والحكم العام واقتصرت في الكفر بالاستحلال .

وقد بين أهل العلم هذه المسألة وصرحوا بتلبيس المرجئة وروغانهم وأبطلوا مزاعمهم وكشفوا شبهاتهم كما سيأتي من صريح كلامهم في باب النقولات .

قال الشيخ أحمد شاكر : (وهذه الآثار عن ابن عباس - كفر دون كفر - مما يلعب به المضلون في عصرنا هذا من المتسبين للعلم ومن غيرهم من الجراءة على الله حيث يجعلونها عذراً في إباحة القوانين الوثنية التي ضربت بلاد المسلمين).

قال محمد بن إبراهيم : (وأما الذي قيل فيه كفر دون كفر إذا حاكم إلى غير الله مع اعتقاد أنه عاص وأن حكم الله هو الحق فهذا الذي يصدر منه المرة ونحوها ، أما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضيع فهو كفر وإن قالوا أخطأنا وحكم الشرع أعدل) الفتاوى١٢/ ٢٨٠ .

وقال في رسالته تحكيم القوانين : (القسم الثاني من قسمي كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وهو الذي لا يخرج من الملة - والذي قال فيه ابن عباس كفر دون كفر- وذلك أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى) .

وقال ابن تيمية : (وهذا إذا حكم في قضية معينة لشخص وأما إذا حكم حكماً عاماً في دين المسلمين ...) الفتاوى ٣٥/ ٣٨٨ .

وقال ابن القيم : (إن اعتقد وجوب الحكم في هذه الواقعة وعدل عنه عصيانا مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر) مدارج السالكين ١/ ٣٣٦ .

والتحقيق : أنه لا تعارض بين هذه الأقوال وأن هذه الآيات في الحكم بغير ما أنزل الله وإن كانت نازلة في اليهود إلا أنها عامة في كل من فعل مثلهم وعطل حكم الله أو بدله فإن المقرر في الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ولا يقول عالم أن حكمها في اليهود ولا تشمل المسلمين إذا فعلوا مثلهم ولو قيل بهذا الأصل الفاسد لعطلت كل النصوص الواردة في الكفار السابقين كالنهي عن التحايل ولعن بني إسرائيل لأجل تركهم التناهي عن المنكر، ثم مع ذلك فالآيات التي في كفر الحاكم والمتحاكم وردت في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى غير هذه.

تنبيه: ضلال من زعم أن اليهود ما كفروا في الآية إلا لأجل تكذيبهم النبي ﷺ وعدم إيمانهم به وليس لأجل تعطيلهم حكم الله تعالى، وهذا باطل فالله ﷻ رتب الحكم بالتكفير على مجرد حصول الحكم بغير ما أنزل الله وتعطيل حكم الله. وفي هذا القول العضيل تعطيل لكثير من أحكام الله تعالى وإبطال لمدلولات النصوص وإنكار أن يكون الكفر له شعب كثيرة قد يجتمع بعضها فيصير الكفر مغلظ .

والحكم بغير ما أنزل الله متى ما كان منهجا دائما للحاكم أو قانونا ثابتا فهذا كفر بالإجماع لأنه رفض للشريعة ويعد من كفر الإباء والإعراض .

والحكم منه ما هو من الكفر الأكبر وهذا هو الأصل ومنه ما هو كفر أصغر وضابطه أن يكون في قضية عينية وواقعة مرة ونحوها ولا يقارنه استحلال وجحود ولا يكون حكما عاما ومنهجا ثابتا أو قانون دائما فإن كل هذا من الكفر الأكبر ولو لم يستحل الحاكم وسيأتي مزيد بيان لذلك .

ولا عبرة بقول الخوارج التي جعلت الحكم كفر أكبر مطلقا ولا بقول المرجئة التي جعلته كفر أصغر مطلقا إلا إذا قارنه التكذيب والجحود والاستحلال .

فائدة لطيفة : تناسب سياق الآيات في سورة المائدة فيها إعجاز عجيب فكأنها نزلت في طواغيت زماننا الواقعين فيما حذرت الآيات منه شرك الحكم وتولي الكفار والمسارعة إليهم ومظاهرتهم على المسلمين والوقوع في بغض الدين وحرب أهله وحصول الردة منهم وهذه الأمور مترابطة وغالبا ما يجر بعضها لبعض .

حيث تكلمت الآيات عن كفر الحكم وتبديله وتشريع القوانين المغيرة لحدود الله وشرعه ثم تكلمت عن مولاة اليهود والنصارى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ المائدة: ٥١ .

ثم بينت حال المنافقين والمرتدين المسارعين إلى النصارى وطاعتهم وحرب الجهاد بدعوى الخوف من الكفار وأن يصاب منهم بدائرة ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ المائدة: ٥٢.

ثم بينت خطورة من يفعل ذلك وحكمت بردته وحذرت من الردة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ المائدة: ٥٤ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ المائدة: ٥١.

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ المائدة: ٥٢.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ المائدة: ٥٤.

الموضع الثاني : الآيات من سورة النساء من آية (٥٩) إلى آية (٦٥) :

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء: ٥٩.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ النساء: ٦٠

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٦٤

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ .

وهذا الموطن في سورة النساء من آية (٥٩) إلى آية (٦٥)، وموطن آخر في سورة المائدة من أصرح الآيات في كفر المتحاكم إلى غير شرع الله .

وقد دلت هذه الآيات على فرضية توحيد الحكم من أوجه كثيرة:

الأول: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ .

فعند التنازع يجب الرد إلى الله تعالى والرسول ﷺ وجعل ذلك شرطا للإيمان ، فمن لم يرده أي الحكم إلى الله والرسول فليس بمؤمن.

الوجه الثاني: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا ﴾

أن الله تعالى سماهم (زاعمين) يعني يكذبون في دعواهم الإيمان فليسوا بمؤمنين لأنهم يريدون أن يتحاكموا إلى غيره ، ثم إن الله تعالى سمى حكم غيره والحكم به طاغوتاً ، وأوجب الكفر به، وكفّر المؤمن به والمتحاكم إليه .

وقد نزلت هذه الآية كما في بعض الآثار في قتل عمر بن الخطاب ﷺ الرجل المنافق الذي تحاكم إليه وكان يريد التحاكم إلى قبيلة جهينة وقيل لعلماء اليهود وقيل غير ذلك وأسباب النزول في هذه الآية كثيرة جداً .

الوجه الثالث : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ .

فحكم الله تعالى بنفاقهم ، فمن صد وأعرض عن شرع الله ولم يمتثل ولم يستمع لمن ينادى ويطالب بشرع الله تعالى فيعرض فهذا منافق ؛ ولذلك الحكومات التي تطالبها شعوبها بالتحاكم إلى شريعة الله ، وهم يعرضون ويفضلون الأحكام القانونية والقوانين الوضعية ومحاكم العدل الدولية فهم منافقون مرتدون بالنص.

الوجه الرابع : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

هذه الحكمة من إرسال الرسل فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا في شرائعهم .

الوجه الخامس : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

فنفى الله عنهم الإيمان وأقسم بنفسه وبذاته على أن الذي لا يتحاكم بل الذي يتحاكم وفي نفسه حرج من الرضا ليس بمؤمن بل الذي لا يسلّم ويوجد في قلبه الحرج ليس بمؤمن ، فنفى عنهم الإيمان وأقسم الله تأكيداً لذلك حتى يحصل منهم تحكيم الرسول ﷺ وشرعه وفوق هذا التحكيم أنهم لا يجدون في أنفسهم حرجاً أي ضيقاً مما قضى الله ورسوله في شرعه ، ويسلموا فوق ذلك تسليماً .

وقد وردت أسباب النزول في هذه الآيات بروايات متعددة .

يقول الطبري : (أنه كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فكان المنافق يدعو إلى حكم اليهود لأنه يعلم أنهم يقبلون الرشوة وكان اليهودي

يدعو إلى المسلمين لأنه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهن من جهينة فأنزل الله ﷻ هذه الآية) .

وورد أنها نزلت في رجلين اختصما فقال أحدهما نترافع إلى النبي ﷺ وقال الآخر إلى كعب بن الأشرف ثم ترافعا إلى عمر ﷺ فذكر أحدهما القصة فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله .

قال الشيخ سليمان في التيسير : (وهذه القصة مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولا يغني عن الإسناد ولها طرق كثيرة ولا يضرها ضعف إسنادها).

ومن الأدلة في باب الحكم أيضاً:

قوله تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ البقرة: ٨٥.

وقوله تعالى ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ البقرة: ٦٣.

وفي هذه الآية وجوب الأخذ بما آتانا الله ﷻ وأنزله علينا والأخذ بمعنى الإيمان والعمل وما آتى الله خلقه شيئا إلا ليعملوا به وخطاب الله لأقوام سابقين خطاب لنا فيما يتعلق بالأخذ بأمره ، وأمرنا أن يكون أخذنا لحكمه بقوة لا بضعف.

قال ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥.

قال الطبري : الأنداد في هذا الموضع هم أسيادهم الذين يطيعونهم في معصية الله .

قال تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ البقرة: ٢٥٦.

قال ابن كثير : يشمل كل شيء كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها ، والاستنصار بها.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩.

وهذا من صيغ الحصر فلا دين عند الله يقبل غير الإسلام ، وهناك أديان غير الإسلام كلها باطلة كالأديان الوضعية ، ومنها القوانين التي يضعها الناس والتشريعات والأعراف كلها من الأديان التي يدينون بها .

وتسمى ديناً بنص الآية . قال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ آل عمران: ٢٣.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣١ – ٣٢.

وسماهم الله تعالى كافرين في توليهم عن حكمه حتى مع كونهم لا يعتقدون حل أعمالهم ولم يفضلوها على حكم الله.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤.

فالذي يتخذ إنساناً يتحاكم إليه ويحكم بأمره وشرعه اعتبره الله رباً له، وجعله خارجا بذلك من الإسلام، وبهذا فمن اعترف بالمحاكم القانونية والدولية فقد اتخذها ربا وأشرك في الربوبية.

قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ المائدة: ٦٦.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ المائدة: ٦٨.

وإذا كان هذا المعنى نزل في أهل الكتاب فكيف بالمسلمين الذين أنزل القرآن عليهم، فهم من باب أولى في هذا الحكم.

قال تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ المائدة: ١٠٣ - ١٠٤.

قال الشاطبي رحمه الله حول هذه الآية في الاعتصام: (لقد ثبت للكفار بدع كجعلهم لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا .. حتى صار التشريع ديدنا لهم وتغيير ملة إبراهيم سهلا عليهم).

وقال: (من البدع ما هو كفر صراح بواح كبدعة الجاهلية التي نبه عليها القرآن ...).

وقال: (إن المبتدع نزّل نفسه منزلة المضاهي، لأن الشارع وضع الشرائع وألزم الخلق الجري على سننها، وصار هو المتفرد بذلك لأنه حكم بين الخلق فيما

كانوا فيه يختلفون وإلا لو كان التشريع من مدركات الخلق لم ينزل الشرائع ولم يبق الخلاف بين الناس ، واحتيج إلى إرسال الرسل وبعثهم وهذا الذي يشرع في دين الله قد صير نفسه نظيراً مظاهراً لشرع الله حيث شرع مع الشارع وفتح للاختلاف باباً ورد قصد الشارع في الانفراد بالتشريع وكفر بذلك) .

وكلامه نفيس وفي غاية الأهمية في هذا الباب حيث بين أن تحريم الحلال وإباحة المحرمات كفر لمن سنه ولمن اتبعه وأن هذا من أعظم البدع .

قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ الأنعام: ٦٢ ، فخص نفسه بالحكم .

قال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ﴾ الأنعام: ٥٧ .

وهذه الآية والسابقة من أصرح الأدلة في اختصاص الله جل وعلا بالحكم وتوحيده به وأن حكم ما سواه من الكفر والشرك .

وقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ الأنعام: ١١٤ .

فهنا الكفار اليهود والنصارى يعلمون أن الكتاب من عند الله ﷻ ومع ذلك كفرهم الله، ومثلهم مثل هؤلاء الذين يشرعون ويقولون : نعلم أن شريعة الله من عند الله ، وهذه القوانين ليست شريعة الله وما استحللناها وأن شرع الله أفضل ولو قالوا هذا فإنهم يكفرون بفعلهم لأنهم ابتغوا غير شرع الله ﷻ وأعرضوا عن شرعه وهذا مناط التكفير كما سنورد ذلك بنقولات أهل العلم.

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ .

وهذا الذي يسميه العلماء شرك الطاعة فمن أطاع المشرع فهو كافر وخارج عن الملة فكيف بالمشرع إن كفره من باب أولى .

قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الأنعام: ١٤٨ .

فالذين حرموا ما أحل الله ﷻ كذبوا الله تعالى، وقد سماهم الله ﷻ مشركين مشرعين مشركين بتحليلهم ما حرم الله .

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾. إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ .

هذه الآيات وردت في إفراد الله ﷻ وتوحيده في الحكم والدين والأمر والشرع والعبادة والتحاكم .

قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعراف: ٢ - ٣ .

وهذه الآية دلت على النهي عن شرك الاتباع والطاعة وشرك التولي والولاية .

قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ التوبة: ٢٩ فيجب قتال هؤلاء الذي لا يحرمون ما حرم الله من الزنا والخمر والربا ، يجب قتالهم حتى يرجعوا إلى دين الله ويدينوا به.

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩ .

وهذه الآية نزلت في أهل الطائف لما دخلوا في الإسلام والتزموا الصلاة لكن امتنعوا من ترك الربا فبين الله أنهم محاربون له ولرسوله وسيقاتلهم المسلمون .

قال ابن تيمية : (وقد اتفق علماء المسلمين على أن الطائفة الممتنعة إذا امتنعت عن بعض الواجبات .. أو عن ترك تحريم الفواحش واستحلال الأنفس والأموال بغير حق أو الربا أو الجهاد للكفار أو ضربهم الجزية على أهل الكتاب ونحو ذلك من شرائع الإسلام فإنهم يقاتلون عليها حتى يكون الدين كله لله) .

قال ابن خويز منداد: (ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالا لكانوا مرتدين والحكم فيهم كالحكم في أهل الردة) تفسير القرطبي ٣/ ٣٦٤ .

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ التوبة: ٣٧ .

فالنسيء الذي هو تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر الذي كان يفعلونه في الجاهلية فيحرمون ويشرعون على أهوائهم ، اعتبره الله ﷻ زيادة في الكفر .

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ يونس: ٥٩.

يقول أرجعتم الحلال والحرام إلى أهواءكم وليس إلى شريعة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ .

وقد فسر النبي ﷺ الآية لعدي بن حاتم ﷺ ، وهذه الآية بينت شرك التشريع من الأحبار، وشرك الطاعة من أتباعهم الذين اتخذوهم أرباباً فالذي شرّع رباً أشرك في الربوبية والذي تحاكم إليه أشرك في الألوهية كما بينا ذلك مفصلاً في موضعه.

قال تعالى:﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠ .

وهذه الآية في سورة يوسف من أصرح الآيات على إفراد الله عز وجل وتفرده بالحكم بصيغة الحصر فالحكم ليس إلا لله ﷻ ثم جعل الحكم من العبادة ، فدل على أن الحكم من العبادة وأن إفراد الله به يعتبر من أنواع التوحيد بنص الآية وأما الحكم بغير ما أنزل الله فهو من الشرك وخروج عن دينه القيم إلى دين باطل ،وقد بينت علاقة الحكم بالتوحيد وأقسامه والشرك.

قال تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ .

وهذه الآية في سورة الكهف من أصرح الأدلة وأقواها في هذا الباب .

قال تعالى :﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ الرعد: ٣١.

قال تعالى :﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ الروم: ٤ .

قال تعالى :﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ الرعد: ٤١ .

قال تعالى :﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ الممتحنة: ١٠ .

قال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ المائدة: ١.

قال تعالى :﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ يونس: ١٠٩ .

وهذه الأدلة دالة على كمال حكمه ﷻ.

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ الرعد: ٣٧.

الآيات في سورة النور من آية ٤٦ إلى آية ٥٤ .

قال ﷻ : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ النور: ٤٦.

وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ النور: ٤٧-٤٨ .

فنفى الله ﷻ عنهم أصل الإيمان حين تولوا عن شرع الله ﷻ والتولي عن حكم الله مناط من مناطات الكفر في الحكم كما سنبين ذلك .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ النور: ٥١.

وهذه من الآيات الدالة على وجوب التحاكم إلى شريعته وكفر من تحاكم إلى غير شرعه وأعرض وتولى ، وفيها دليل على استحقاق الله ﷻ الحكم دون ما سواه حيث أن له الخلق والأمر له ، ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ فمن له الخلق الذي يخلق هو الذي يستحق أن يأمر ويحكم فهو أعلم بخلقه .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٣٦ .

فإذا كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال وكفر وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال وخطأ، وهذا الفرق بين المناط الكفري ومجرد المعصية في أوامر الله ﷻ ، فالكفر متعلق بالامتناع والرد وعدم القبول والالتزام وسنبين ذلك إن شاء الله تعالى في مسألة مستقلة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الشورى: ١٠.

قال ﷻ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١.

فالذين شرعوا الله سماهم شركاء، لماشرّعوا في الدين ما لم يأذن به الله، فهم مشركون مدعون الربوبية لأن الحكم من خصائص الربوبية وأفعال الرب ﷻ.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الجاثية: ١٨، والآيات بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾.

قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ الحجرات: ١.

أي لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكم به الله ﷻ ، وإذا كان التقديم مخالفاً لحكم الله وأمره فكيف بمن يحكم ويشرّع ويتحاكم إلى غير حكم الله استقلالاً ويعاند حكمه؟

قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ٦٣، وأي مخالفة أعظم من الحكم بغير ما أنزله الله على رسوله من الشريعة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ البقرة: ١١.

والحكم بغير ما أنزل الله من أعظم الإفساد في الأرض ، والعجيب أن المنافقين في زماننا يزعمون في التزامهم ترك حكم الله وتتبعهم أحكام الكفار وتحاكمهم للطواغيت الإصلاح في الأرض.

ومن الآيات التي بينت شرك التشريع :

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ الأنعام: ١٣٦ .

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ ﴾ الأنعام: ١٠٠.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ .

قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١.

قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ المائدة: ١٠٣ .

قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ .

والآيات المتعلقة بالحكم في كتاب الله ﷻ كثيرة لمن أراد تتبعها ، والنظر فيها وفي كلام المفسرين والسلف حولها يهم من أراد معرفة توحيد الله ﷻ في حكمه ووجوب إخلاص الحكم له وكفر من أشرك فيه، ووجوب اتباع هدي رسوله والأخذ بحكمه، ومعرفة حال المخالفين فيه وحقيقة كفرهم ، والرد على مرجئة عصرنا الذين يهونون شرك الحكم ويزينون لأربابه فعله، ويحكمون بإسلامهم، وافتروا على الله أعظم الفرية ، ولو أنا وقفنا مع كل آية لطال بنا المقام ولكن ذكرنا مقتطفات من الآيات وبعض الوقفات وكلها تستحق أن تشرح ويبين معناها ووجهة مخالفة المشركين في عصرنا لها ، لكن ما ذكرته فيه كفايه لمن أنار الله قلبه .

أوجه الدلالات من الآيات وتنوعها في مسألة الحكم بالشريعة التي أنزلها الله:

١- آيات جاء فيها الأمر بالحكم وأنه فرض مكتوب.

٢- آيات بينت وجوب التوحيد في الحكم وعدم الشرك فيه ، وأن الله ﷻ أفرد نفسه بالحكم وأخبر أنه لا حاكم إلا هو وأن الحكم له ولا حكم لغيره. وأنه لا يستحق الحكم أحد سواه وأن صفات الحاكم خاصة به تعالى.

٣- آيات أخبرت أن الحكم من الإيمان وأنه ينتفي بانتفاء الحكم .

٤- آيات حكمت بكفر من حكم بغير ما أنزل الله .

٥- آيات مدحت حكم الله تعالى ومجدته ورغبت فيه .

٦- الإنكار على من ترك التحاكم للشريعة وتكفير المتولي والمعرض عن حكمها والتعجب من ادعائه الإيمان .

٧- آيات نصت على أن من أطاع الحاكم والمشرع فهو مشرك .

٨- آيات ذمت حكم غير الله تعالى وسمته طاغوتا وجاهلي .

٩- آيات بينت أن حكم الله هو الصالح للناس والقائم بمصالحهم .

١٠- آيات أخبرت أن الله أنزل الكتاب والشرائع وأرسل الرسل لطاعته والانقياد له وحده والحكم بما أنزل واتباعه .

١١- آيات فيها الوعيد الشديد لمن خالف حكم الله ووصفته بأقبح الصفات.

١٢- آيات مدحت المتحاكمين والمسارعين لحكمه وأثنت عليهم .

ومن أدلة السنة في باب الحكم :

١- عن عَديّ بن حاتم قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي، اطرح هذا الوثن من عنقك، فطرحته ، وانتهيت إليه وهو يقرأ : ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، قال قلت: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم ، فقال النبي ﷺ : " أليس كانوا يحلون لكم الحرام فتستحلونه ، ويحرمون الحلال فتحرمونه ؟ " ، قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم .

رواه الترمذي والطبراني والبيهقي والطبري وغيرهم .

كلهم من طريق عبد السلام بن حرب عن غطيف بن أعين عن مصعب بن سعد عن عدي به.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث. أهـ.

ويروى نحو هذا عن حذيفة ﷺ موقوفا.

وفي لفظ : يأمرونهم فيأتمرون وينهونهم فينتهون

قال الطبراني في تفسيره : اتبعوهم وتركوا أوامر الله .

٢- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ : (رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار ، وكان أول من سيّب السوائب) متفق عليه.

وفي رواية (وهو كافر ؛ إنه أول من غَيّر دين إبراهيم، وبحر البحيرة ، وسيّب السائبة ، وحمى الحامي) . رواه الطبري في تفسيره.

وفي رواية : (أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان) .

٣- عن أبي شريح هاني بن يزيد الكندي لما وفد مع قومه إلى النبي ﷺ فسمعهم يكنونه بأبي الحكم فدعاه فقال: (إن الله هو الحكم وإليه الحكم) ، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين. فقال: ما أحسن هذا فما لك من الولد؟ قال شريح ومسلم وعبد الله. قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح. قال: فأنت أبو شريح. رواه أبو داود وغيره.

فإذا كان هذا الاسم محرم ويجب إنكاره فكيف الحكم فيمن ينازع الله تعالى فيه بالفعل بالتشريع والحكم والتحاكم والله المستعان .

٤- عن البراء بن عازب ﷺ قال : (مر بي عمي الحارث بن عمرو ومعه لواء قد عقده له رسول الله ﷺ قال فسألته قال بعثني الرسول أن أضرب عنق رجل تزوج امرأة أبيه) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

قال الطبري : (فكان فعله ونكاح امرأة أبيه من أدل الدليل على تكذيبه الرسول ﷺ فيما أتاه به عن الله وجحوده آية محكمة في تنزيله.. لذلك أمر الرسول ﷺ بقتله وضرب عنقه، لأن ذلك كان سنته في المرتد عن الإسلام) تهذيب الآثار٢/ ٤٨ .

قال الفراء : (لم يكن كذب برد ظاهر ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيباً) . من تفسير القرطبي للتولي.

قلت تأمل الحديث مع ما قرره ابن جرير وكيف جعل العمل الظاهر من الرجل دليل على التكذيب والجحود والاستحلال والبغض وأن هناك ما يسمى عند العلماء بالتكذيب العملي والجحود العملي والاستحلال العملي والبغض العملي، فالتكذيب قد يظهر في عمل ظاهر .

قال ابن تيمية : (كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر. سواء اعتقد كذبه، أو استكبر عن الإيمان به، أو أعرض عنه اتباعا لما يهواه، أو ارتاب فيما جاء به، فكل مكذب بما جاء فهو كافر) الدرء ١/ ٥٦ .

وقال : (إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند ...فإن معاندته له ومحاداته تنافي هذا التصديق ...) الصارم ٥٢١ .

والتكذيب في لغة السلف يتناول الجحود والامتناع .

وقال :(من أطلق من الفقهاء أنه لا يكفر إلا من يجحد وجوبها فيكون الجحد عنده متناول للتكذيب بالإيمان ومتناول للامتناع عن الإقرار والالتزام) ٢٠/ ٩٨ .

هذا وقد بين السلف الأمر وأوضحوه وفرقوا بين المسألتين وجعلوا تارك جنس العمل والمعرض والممتنع عن الدين الذي لم ينقد ولم يلتزم الالتزام الظاهر كافر خارج عن الملة ولم يجعلوه بمنزلة فاعل المحرمات والكبائر والمقصر في الواجبات مع أدائها في الأصل .

وهذا الأصل الذي قرره أهل السنة من وجود التصديق العملي والتكذيب العملي والذي دلت عليه النصوص كقوله قد صدقت الرؤيا وحديث والفرج يصدق ذلك تخالفنا فيه المرجئة وتزعم أن الكفر لا يكون إلا بالجحود والاستحلال والتكذيب وأن هذه الأمور لا تكون إلا قلبية باطنية خفية لا تظهر على الجوارح وقد رد على فريتهم الكاذبة أهل السنة من السلف والخلف .

قلت: قارن بين فعل الرجل في نكاحه امرأة أبيه وتكفير النبي ﷺ له، وما قاله الطبري فيه ، وبين ما يحصل في هذه العصور من مشركي زماننا ومشرعي القوانين الوثنية الشركية والأنظمة الحاكمة الطاغوتية التي جوزت الربا والزنا ومقدماته ومنحت التراخيص لترويج تلك الفواحش كالسينما والرقص والتعري والزنا والخمور والغناء والدشوش والبنوك الربوية وقامت على رعايتها وحمايتها ، كما سوغت موالاة الكفار ومظاهرتهم على المسلمين ومنع تكفيرهم ومعاداتهم.

ولذلك أفتى بعض العلماء أن من أعطى التصاريح التجارية للأمور المحرمة أنه مستحل لها مرتد، وسنأتي على فتاوى بعضهم ومنهم محمد بن إبراهيم وغيره .

قال الشيخ حمد بن عتيق : (أن البلد إذا ظهر فيها الشرك وأعلنت فيه المحرمات وعطلت فيه معالم الدين أنها تكون بلاد كفر تغنم أموال أهلها وتستباح دماؤهم وقد زاد أهل هذه البلد بإظهار المسبة لله ولدينه ووضعوا قوانين ينفذونها في الرعية مخالفة للكتاب والسنة وقد علمت أن هذه كافية وحدها في إخراج من أتى بها من الإسلام) الدرر السنية ٩/ ٢٥٧ .

الفصل الثالث : النقولات عن أهل العلم في شرك الحكم وردة تارك الحكم

قال إسحاق بن راهوية : (أجمع العلماء على أن من دفع شيئا أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٢٢٦.

قال أبو البختري : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ : (أما أنهم لم يصلوا لهم ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكن أمروهم ، فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية) أخرجه الطبري وفي فتاوى ابن تيمية ٧/ ٦٧ .

قال السدي : (﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤ : من تركه عمدا وجار وهو يعلم، فهو من الكافرين) أخرجه الطبري.

قال الإمام الشافعي : (الذي يجتهد ويشرع على قواعد خارجة عن قواعد الإسلام لا يكون مجتهدا ولا يكون مسلما إذا قصد إلى وضع ما يراه من الأحكام وافقت الإسلام أو خالفته) .من كتاب كلمة حق لأحمد شاكر.

قال الطبري في تفسيره : (إن جحود حكم الله تعالى هو اعتراض على شرع الله تعالى ، وتكذيب لنصوص الوحيين ، وقد أجمع العلماء على تكفير من أنكر حكماً معلوماً من الدّين بالضرورة) ٦ / ١٤٩.

قال ابن خويز منداد: (ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالا لكانوا مرتدين والحكم فيهم كالحكم في أهل الردة) نقله عنه القرطبي في تفسيره ٣/ ٣٦٤ .

قال ابن حزم في إحكام الأحكام : (من حكم بحكم الإنجيل مما لم يأت بالنص عليه وحي في شريعة الإسلام فإنه كافر مشرك خارج عن الإسلام) .

وقال عن آية إنما النسيء : (وبحكم اللغة التي نزل بها القرآن إن الزيادة في الشيء لا تكون ألبته إلا منه لا من غيره فصح أن النسيء كفر وهو عمل من الأعمال وهو تحليل ما حرم الله) الفصل٣/ ٢٤٥.

قال ابن حزم :(لما كان اليهود والنصارى يحرمون ما حرم أحبارهم ورهبانهم، ويحلون ما أحلوا كانت هذه ربوبيةً صحيحة ، وعبادة صحيحة وقد دانوا بها ، وسمّى الله تعالى هذا العمل اتخاذ أرباب من دون الله وعبادة ،وهذا هو الشرك بلا خلاف) الفصل ٣ / ٢٦٦.

قال القاضي عياض : (فلو طرأ على الخليفة كفر وتغيير للشرع خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام وخلع الكافر) شرح النووي على مسلم ١٢/ ٢٢٩ .

وقال الداودي عن خطباء الجمع المنتسبين لأهل السنة في الدولة الفاطمية : (خطيبهم الذي يخطب لهم ويدعو لهم يوم الجمعة كافر يقتل ولا يستتاب وتحرم عليه زوجته وأحكامه كلها أحكام الكفر ومن صلى خلفه خوفا أعاد ثم لا يقيم إذ أمكنه الخروج من بلدهم ولا عذر له بكثرة عيال وغيره) . ونقل عنه ابن التين بوجوب الخروج على الحاكم إذا بدل الشريعة وكفر كما في فتح ابن حجر .

وقال عنهم أبو شامة: (قال الإمام أبو القاسم الشاشي: لو وفق ملوك الإسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو الباطنية الملاعين فإنهم من شر أعداء الإسلام وقد خرجوا من حد المنافقين إلى حد المجاهرين لما ظهر في ممالك الإسلام من كفرها وفسادها وتعين على الكافة فرض جهادها وضرر هؤلاء أشد على الإسلام وأهله من ضرر الكفار إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية..) مختصر الروضتين ١٥٨ .

وقال عنهم الرعيني المالكي في كتابه إجماع علماء القيروان : (أن حال بني عبيد حال المرتدين والزنادقة ولا يعذر أحد بالإكراه على الدخول في مذهبهم بخلاف سائر أنواع الكفر لأنه أقام بعد علمه بكفرهم فلا يجوز له ذلك إلا أن يختار القتل دون أن يدخل في الكفر وعلى هذا الرأي كان أصحاب سحنون يفتون المسلمين) .

وقال عنهم الكبراني : (يختار القتل ولا يعذر أحد بالدخول في دعوتهم، ولا يعذر أحد بالخوف بعد إقامته لأن المقام في موضع يطلب من أهله تعطيل الشرائع لا يجوز) .

قال الجويني : (من يتخذ سنن الأكاسرة والملوك المنقرضين عمدة الدين ومن تشبث بهذا فقد انسل من ربقة الدين) الغياث ٢٢١ .

قال الجصاص عند آية: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ : (وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع من

التسليم، وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم) أحكام القرآن ٣ / ١٨١ .

قال البغوي في تفسيره : (فإن قيل أنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان قلنا معناه أنهم أطاعوهم في المعصية واستحلوا ما أحلوا وحرموا ما حرموا فاتخذوهم كالأرباب) .

وقال أبو يعلى في المعتمد:(ومن اعتقد تحليل ما حرّم الله بالنص الصريح من الله ، أو من رسوله، أو أجمع المسلمون على تحريمه فهو كافر .. ومن فعل ذلك فهو كافر بإجماع المسلمين) ص (٢٧١) .

قال الإمام ابن تيمية: (فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق الخروج عنه ولا يخرج عنه إلا كافر) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٦٢ .

وقال أيضاً : (ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهي الذي بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى) الفتاوى ٨/ ١٠٦ .

فانظر كيف حكم على الذين أسقطوا الأمر والنهي بالكفر باتفاق المسلمين بل حتى اليهود والنصاري، وهذا ينطبق في الحكام الذين عطلوا حدود الله عز وجل وأسقطوا الحكم بعقوبة الزنا وغيره وخرجوا عن الشرع واستبدلوه بغيره فلم يحكموا به في المعاملات والاقتصاد وغيره، ولم يخالف في كفرهم وينقض هذا الإجماع غير المرجئة ، حيث لم يكفروا الحكام الذين أسقطوا الأمر والنهي والدين وخرجوا على شراع الله ﷻ وأحكامه.

وقال: (.. وهذا إذا حكم في قضية معينة لشخص وأما إذا حكم حكماً عاماً في دين المسلمين فيجعل الحق باطلاً والباطل حقاً والمعروف منكراً والمنكر معروفاً والسنة بدعة والبدعة سنة ونهى عما أمر الله به ورسوله وأمر بما نهوا عنه فهذا لون آخر يحكم فيه رب العالمين) [الفتاوى ٣٥/ ٣٨٨] وانظر كيف جعل الحكم في أمر عام بين المسلمين أمر عظيم ولم يجعله كالحكم في القضية المعينة التي هي من الكفر الأصغر ثم تأتي المرجئة ويجعلون الحكمين في معنى واحد وحكم واحد .

وقال : (كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها حتى يلتزموا شرائع الله وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء) الفتاوى ٢٨/ ٥٠٢ .

وقال فيه : (اتفق الصحابة والأئمة بعدهم على قتال مانعي الزكاة وإن كانوا يصلون الخمس ويصومون رمضان ، وهؤلاء لم يكن لهم شبهة سائغة فلهذا كانوا مرتدين وهم يقاتلون على منعها وإن أقروا بالوجوب) الفتاوى ٢٨/ ٥٤٨.

وله أيضاً في رسالته هذه كلام في تكفير التتار المشرعين ووجوب قتالهم .

وقال : (مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم الالتزام بشرائعه ليس بمسقط للقتال فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب) وقد نقل هذا الشيخ عبدالله في كتابه [كلمات نافعة].

وقال : (والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحلال أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا بالاتفاق) الفتاوى٣/ ٢٦٧.

وقال : (بين سبحانه أن من دعي إلى التحاكم إلى كتاب الله ورسوله فصد كان منافقا وليس بمؤمن، فالنفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم لغيره) الصارم٣٣.

وقال : (ومتى ترك العالم ما علمه من كتاب الله وسنة رسوله واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله كان مرتدا كافرا) الفتاوى ٣٥/ ٣٧٢.

وقال : (فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن، وأما من كان ملتزما لحكم الله ورسوله باطنا وظاهرا لكن عصى واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة ... ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر ... وحكام المسلمين يحكمون في الأمور المعينة ولا يحكمون في الأمور الكلية) منهاج السنة ٥/ ١٣٠ .

وقال عن الدولة العبيدية الفاطمية وحكامها : (فإن القاهرة بقي ولاة أمورها نحو مائتي سنة على غير شريعة الإسلام .. واتفق طوائف المسلمين علماؤهم وملوكهم وعامتهم من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة وغيرهم على أنهم خارجون عن شريعة الإسلام وأن قتالهم كان جائزا) . الفتاوى ٢٨/ ٦٣٥.

قال ابن تيمية: (وعامة الأمراء إنما أحدثوا أنواعا من السياسات الجائرة من أخذ أموال لا يجوز أخذها وعقوبات على الجرائم لاتجوز لأنهم فرطوا في المشروع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا فلو قبضوا مايسوغ قبضه ووضعوه حيث يسوغ وضعه طالبين بذلك إقامة دين الله لا رياسة أنفسهم وأقاموا الحدود على الشريف والوضيع والقريب والبعيد لما احتاجوا للمكوس ...) الاقتضاء ٢/ ١٠٤.

قال ابن تيمية: (معلومٌ بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين أن من سوّغ إتباع غير دين الإسلام أو إتباع غير شريعة محمد ﷺ فهو كافر) الفتاوى ٢٨ / ٥٢٤.

قال ابن تيمية: (إن الإيمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة ، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة هو من أعظم أصول الإيمان،وقواعد الدّين والجاحدُ له كافرٌ بالاتفاق) الفتاوى ١٢ / ٤٩٧.

وقال ابن تيمية :(وحقيقة الشريعة:إتباع الرسل والدخول تحت طاعتهم، كما أن الخروج عنها خروج عن طاعة الرسل، وطاعة الرسل هي دين الله الذي أمر بالقتال عليه) الفتاوى (١٩ / ٣٠٧ – ٣١٠).

قال ابن القيم: (لمّا أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما ، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فسادٌ في فطرهم، وظلمةٌ في قلوبهم، وكدرٌ في أفهامهم، ومحقٌ في عقولهم ، وعمتهم هذه الأمور ..) الفوائد (٤٢) والصواعق ٣/ ٨٦١ .

قال ابن القيم في أحكام أهل الذمة : (أن من التزم ما جاءت به التوراة والإنجيل ولم يتبع القرآن فإنه كافر) . فانظر كيف جعل الملتزم بما جاءت به التوراة ولم يتبع حكم الله كافراً فكيف بمن التزم القوانين الوضعية التي صدرت من زبالات أفكار الغرب المشركين الذين خرجوا عن دينهم وشرعوا شرائع شتى باطلة .

يقول ابن القيم: (من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى كان من المنافقين).

ويقول : (فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع ومتبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم فساد في الأرض ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع والدعوة له لا لغيره والطاعة والإتباع لرسوله ليس إلا).

وقال : (ومنهم من تأول آية ومن لم يحكم على ترك الحكم جاحدا له، وهو قول عكرمة وهو تأويل مرجوح، فإن جحوده كفر سواء حكم به أو لم يحكم) المدارج ٢/ ٣٣٦ .

قلت وهذا رد صريح على جهمية العصر ومرجئته القائلين لا يكفر الحاكم إلا إذا جحد واستحل مع أن كلام عكرمه لا يحمل على المشرعين .

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره عند آية : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾: (ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر

وعاد إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة من ملكهم جنكيزخان، الذي وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظرة وهواه فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير) .

فتأمل كيف اعتبر الحكم بالياسق كفراً وأنه الذي يحكم به كافر يجب قتاله ثم تأمل هل تجد فارقا بين ياسق جنكيز خان وبين ياسق القوانين الوضعية النافذة في أمصار كثير من المسلمين ؟ التي يصر على تنفيذها وتطبيقها طواغيت الحكم .

وقال الإمام ابن كثير في تاريخه: (فمن ترك الشرع المحكم المنزل وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه (أي على شرع الله) من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين) البداية والنهاية ١٣/ ١١٩ .

وقال الشيخ المحدث أحمد شاكر رحمه الله معلقاً على كلام ابن كثير في التتار: (أفرأيت هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير لذلك القانون الوضعي الذي صنعه عدو الإسلام جنكيزخان ألستم ترون أنه يصف حال المسلمين في هذا العصر في القرن الرابع عشر...) . عمدة التفسير ٤/ ١٧٣ .

وقال أيضاً فيه : (إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس هي كفر بواح لا خفاء فيه ولا عذر لأحد ممن ينسب إلى الإسلام كائنا من كان في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها ، ألا فليحذر امرؤ نفسه وكل حسيب نفسه، ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين وليبلغوا ما أمروا بتبليغه) .

قال الفوزان في الإرشاد:(ومثل القانون الذي ذكره ابن كثير القوانين الوضعية التي جعلت اليوم في كثير من الدول والدليل على كفر من فعل ذلك آيات كثيرة) .

وللشوكاني رسالة [الدواء العاجل في دفع العدو الصائل] وقد تكلم حول كفر من ترك التحاكم إلى الشريعة من الخارجين عن أحكام الدولة الإسلامية ورضي بأحكام الأعراف أو القبائل ونحوها في الديار اليمنية وكفر هؤلاء وحكم بكفرهم .

قال عبدالرحمن بن حسن: (فظهر بهذا أن الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحله الله وأطاعه في معصية الله واتبعه في ما لم يأذن به الله فقد اتخذه ربا ومعبودا وجعل لله شريكا) .

وقال : (من الأمور التي لا يصلح الإسلام إلا بها العمل بشرائعه وأحكامه وبالقيام بذلك يقوم الدين وتستقيم الأعمال) .

وقال: (طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله) .

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله (الطاعة هي العبادة ويجب اختصاص الخالق سبحانه بها ولا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً فمن أطاع مخلوقاً في التحليل والتحريم غير رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله فهو مشرك) .

قال حمد بن عتيق : (ومثل هؤلاء التتار ما وقع فيه عامة البوادي ومن شابههم من تحكيم عادات الآباء وما وضعه أوائلهم من الموضوعات الملعونة التي يسمونها شرع الرفاقة يقدمونها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع لحكم الله ورسوله) سبيل النجاة والفكاك ٨٣ .

ويقول عبداللطيف بن عبدالرحمن : (من تحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله فهو كافر قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾) الدرر السنية .

وقال سليمان بن سحمان : (التحاكم إلى الطاغوت كفر وذكر الله في كتابه أن الفتنة أكبر من القتل والفتنة هي الكفر والشرك، فلو اقتتلت البادية والحاضرة حتى يذهبوا لكان أهون من أن ينصبوا في الأرض طاغوتا يحكم بخلاف شريعة الإسلام التي بعث الله بها رسوله ﷺ) الدرر ٥/ ٥١٠ .

وقال حمود التويجري : (ومن أعظم المكفرات شرا وأسوأها ما ابتلي به كثيرون من اطّراح الأحكام الشرعية والاعتياض عنها بحكم الطاغوت من القوانين والأنظمة الافرنجية ... وآل الأمر بكثير منهم إلى الردة والخروج من دين الإسلام بالكلية) الإيضاح والتبيين ٢٨ .

وقال عبدالرحمن بن سعدي: (كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين ولا يستقيم البناء إلا بهما فالرد إليهما شرط في الإيمان فلهذا قال تعالى ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة بل مؤمن بالطاغوت) .

وقال الألوسي : (ولا شك في كفر من يستحسن القانون ويقول هو أرفق وأصلح للأمة فلا ينبغي التوقف في تكفيره) روح المعني ٢٨/ ٢٠ .

وقال البليهي : (الحكم بالقوانين الوضعية المخالفة للشريعة إلحاد وكفر وإفساد وظلم للعباد وهو حكم بحكم مخلوق لمخلوق وأحكام طاغوتية ومن فرق بين الأحوال الشخصية والعامة والخاصة فهو ملحد زنديق كافر) السلسبيل ٢/ ٣٨٤ .

وقال القاضي ابن غنيم في البرهان والدليل في كفر من حكم بغير التنزيل : (الذين يرضون بتحكيم القوانين بدلا عن الحكم بما أنزل الله ويريدون سواه فهؤلاء حكمهم الكفر مثل حكامهم) .

وأما كلام الشيخ محمد بن إبراهيم فكثير في الباب وله رسالته [تحكيم القوانين] وله كلام مهم في تقريراته وفتاواه .

وقال محمد بن إبراهيم: (البلد الذي يحكم بالقانون ليس دار إسلام وتجب الهجرة منه عند القدرة) الفتاوى ٦/ ١٨٨.

قال : (تحكيم شرع الله وحده شقيق عبادة الله وحده دون ما سواه إذ مضمون الشهادتين أن يكون الله وحده هو المعبود وحده لا شريك له وأن يكون رسوله ﷺ هو المتبع المحكم ما جاء به فقط ولا جردت سيوف الجهاد إلا من أجل ذلك والقيام به فعلاً وتركاً وتحكيماً عند النزاع) .

ويقول رحمه الله : (وخضوع الناس ورضوخهم لحكم ربهم خضوع ورضوخ لحكم من خلقهم تعالى ليعبدوه فكما لا يسجد الخلق إلا لله ولا يعبدون إلا إياه ولا يعبدون المخلوق فكذلك يجب أن لا يرضخوا ولا يخضعوا أو ينقادوا إلا لحكم الحكيم العليم الحميد الرؤوف الرحيم دون حكم المخلوق الظلوم الجهول) .

ويقول : (اعتبار شيء من القوانين للحكم بها ولو في أقل القليل لا شك أنه عدم رضا بحكم الله ورسوله ونسبة حكم الله ورسوله إلى النقص وعدم الكفاية في حل النزاع وإيصال الحقوق إلى أربابها وحكم القوانين إلى الكمال وكفاية الناس في حل مشاكلهم واعتقاد هذا كفر ناقل عن الملة).

ويقول أيضاً : إن الحكم بغير شريعة الإسلام بين الناس معناه الكفر والخروج عن الإسلام .

ويقول رحمه الله : (فإن أحكام الجاهلية اسم عام لجميع الأحكام الخارجة عن الكتاب والسنة فكما لا يقر أحد على عبادة غير الله فكذلك لا يقر على الحكم بغير ما أنزل الله بغير ما جاء به الرسول ﷺ) .

ويقول في رسالته القيمة [تحكيم القوانين] في بدايتها : (إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين في الحكم به بين العالمين)

ويقول : (فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي ﷺ مع الإيمان في قلب عبد أصلاً بل أحدهما ينافي الآخر) .

ويقول في هذه الرسالة حين يعد أقسام الحكم المخرج من الملة : (الخامس وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة لشرع الله مكابرة لأحكامه ومشاقه لله ولرسوله ومضاهاة للمحاكم الشرعية إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأهيلاً وتفريعاً وتشكيلاً ، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع ومستندات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله فإن لهذه المحاكم مراجع هي (القانون الملفق من شرائع شتى ، وقوانين كثيرة) كالقانون الفرنسي والأمريكي والبريطاني وغيرها من القوانين ومن مذهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك .

فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب من أحكام ذلك القانون وتلزمهم به وتقربهم به وتحتمهم عليه فأي كفر فوق هذا الكفر وأي مناقضة لشهادة أن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة ؟!) إلى آخر كلامه في هذا القسم .

ويقول : (إذا قال من حكم القانون : أنا اعتقد أنه باطل فهذا لا أثر له بل هو عزل للشرع كما لو قال أحد : أنا أعبد الأصنام وأعتقد أنها باطلة) ، وهذا نص صريح أنه لا يشترط في تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله (المشرع) الاستحلال) .

وقال : (الذي قيل فيه كفر دون كفر إذا حاكم إلى غير الله مع اعتقاد أنه عاص وأن حكم الله هو الحق فهذا الذي يصدر منه المرة ونحوها أما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضيع فهو كفر وإن قالوا أخطأنا وحكم الشرع أعدل) .

وهذا رد صريح على الذين حرفوا وبدلوا كلامه من المرجئة المتأخرة .

وله كلام كثير في مراسلاته ، وفتاواه في إنكار المحاكم القانونية والمحكمة التجارية والغرفة التجارية ونظام العمل والعمال .

وفي رسالة لمحمد بن إبراهيم وعبدالله بن حميد وعبدالعزيز بن باز وغيرهم : (إن من أقبح السيئات وأعظم المنكرات التحاكم إلى غير شريعة الله من القوانين الوضعية والنظم البشرية وعادات الأسلاف والأجواد التي وقع فيها الكثير من الناس اليوم وارتضوها بدلاً من شريعة الله التي بعث الله بها رسوله محمداً ﷺ ولا ريب أن ذلك من أعظم النفاق ومن أكبر شعائر الكفر والظلم والفسوق) .

وقالوا : (لقد حكم الرب حكماً صريحاً على من حكم بغير شريعته بأنه كافر وظالم وفاسق ومتخلق بأخلاق المنافقين وأهل الجاهلية) .

وقال عن الغرفة التجارية : (مصادمة لما بعث الله به رسوله من الشرع الذي وحده المتعين للحكم بين الناس) ١٢/ ٢٥٠

ثم في رسالة بعدها بأربع صفحات أخرى يطالب بإلغائها.

وقال عن نظام العمل : (فالنظام المشار إليه قانوني وغير شرعي ولا يجوز إقراره أو تأييد ما بني عليه مطلقا) الفتاوى ١٢/ ٢٦٤.

وقال عبدالله بن حميد: (من أصدر تشريعاً عاماً ملزماً للناس يتعارض مع حكم الله فهذا يخرج من الملة كافر) في كتابه أهمية الجهاد .

وله رسالته نقض فيها نظام العمل والعمال يقول في مقدمتها : (نظام العمل والعمال طالما كنت أسمع عنه وما فيه من الأحكام الباطلة المخالفة للشريعة الكاملة ... ولما قرأته وجدته أعظم مما كنت أسمع ...) الدرر السنية ١٦/ ٢٣٣.

وقال أحمد شاكر :(أفيجوز مع هذا في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس من تشريعات أوروبا الوثنية الملحدة بل تشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون لا يبالي واضعه وافق شرعه الإسلام أم خالفها ..) .

ويقول في تعليقه على الطحاوية : (وهذا – أي الكفر الأكبر – مثل ما ابتلى به الذين درسوا القوانين الأوروبية من رجال الأمم الإسلامية ونسائها أيضاً الذين أشربوا في قلوبهم حبها والشغف بها والذب عنها وحكموا بها وأذعنوا لها بما ربوا من تربية أساسها صنع المبشرين الهدامة أعداء الإسلام ومنهم من يصرح ومنهم من يتوارى ويكادون يكونون سواء) .

ويقول معلقاً على كلام ابن عباس : (وهذه الآثار عن ابن عباس وغيره (يعني في قوله : كفر دون كفر) مما يلعب به المضلون في عصرنا هذا من المتنسبين للعلم ومن غيرهم من الجراءة على الله حيث يجعلونها عذراً أو إباحة للقوانين الوثنية الموضوعة التي ضربت بلاد الإسلام). عمدة التفسير (٤/ ١٥٦).

وللشيخ أحمد شاكر وأخيه الشيخ محمود تعليقات جيدة على كلام أهل العلم في باب الحكم بغير ما أنزل الله .

ويقول الشيخ محمد حامد الفقي في تعليقه على كتاب فتح المجيد : (الذي يستخلص من كلام السلف أن الطاغوت كلما صرف العبد وصده عن عبادة الله وإخلاص الدين والطاعة لله ورسوله ، ويدخل في ذلك بلا شك الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم بها في الدماء والفروج والأموال وليبطل بها شرائع الله من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميها بنفوذها ومنفذيها والقوانين نفسها طواغيت وواضعوها ومروجوها طواغيت) .

وقال فيه: (ومثل هذا وأشر منه من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال ويقدمها على ما علم من كتاب وسنة رسوله ﷺ فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله ولا ينفعه أي اسم تسمى به ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام ونحوها) .

وقال الشنقيطي في أضواء البيان : (والعجب ممن يحكم غير تشريع الله ثم يدعي الإسلام كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ ﴾).

وقال: (وبهذه النصوص التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله على ألسنة رسله، إنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم) أضواءالبيان٤ / ٨٣ . ٧/ ١٦٢-٥٨٤-٦١٤ .

تأمل كيف اعتبر مجرد إتباع القوانين الوضعية كفرا وشركا مخرجا من الملة فكيف بواضعها !وقد أشبع تفسيره كلاماً في الحكم وكفر الحاكم بغير ما أنزل الله .

وقال : (من لم يحكم بما أنزل الله معارضة للرسل وإبطالا لأحكام الله فظلمه وفسقه وكفره كلها مخرج من الملة) الأضواء ٢/ ١٠٤ .

وقال: (أن من اتبع الشياطين في تحليل الميتة أنه مشرك ، وهذا الشرك مخرج من الملة بإجماع المسلمين) الأضواء ٣/ ٤٣٩ .

وقال في قوله ﴿ لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ : (ما عبدوه بسجود ولا ركوع وإنما عبدوه باتباع نظام وتشريع وقانون ، شرع لهم أمورا غير ما شرع الله لهم فاتبعوه وتركوا ما شرع الله ، فعبدوه بذلك واتخذوه ربا كما بين النبي ﷺ لعدي بن حاتم) العذب النمير ٥/ ٤٤٣ .

وقال في تفسيره المسجل في مواضع من سورة الأنعام والأعراف عند قوله ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ وقوله: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ : (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون والشرك هنا شرك في الربوبية لأن الرب هو الذي يحلل ويحرم ومن اتبع تحليل غيره فقد جعله ربا وهذا الشرك شرك طاعة ونظام وقانون وتحليل وتحريم وأمر ونهي وقد سمى الله الذين يطاعون شركاء كما في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾).

وهو شرك أكبر مخرج من الملة بإجماع المسلمين وهؤلاء المشركون المتبعون لقانون الشيطان هم الذين يوبخهم الله على رؤوس الأشهاد ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ وليست العبادة أنهم سجدوا لهم وصلوا لهم وإنما اتبعوا ما شرع لهم من وحي الشيطان وأخذوا بنظامه وقانونه في تحليل ما حرم وقد بين ذلك الرسول ﷺ لعدي بن حاتم ﷺ ... فكما أنه يجب إفراده في عبادته يجب إفراده في حكمه، والله كما يتنزه عن الولد والشريك والمعبود يتنزه عن أن يكون معه حاكما، فالحكم لا يكون إلا للعلي الكبير ... ثم كيف يدعي الإيمان من يتحاكم إلى غير شرع الله وإذ كان عباد الأصنام إذا غيروا تشريع الله وخالفوا شرعه كان ذلك كفرا جديدا زائدا على الكفر الأول كما صرح في صورة التوبة ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ ، وإذا كان هذا في الكفار عباد الأصنام فكيف بمن يدعي الإسلام ويترك تشريع الله ويتحاكم لغيره ... وهؤلاء المشرعون الذين يتمردون على نظام السماء وينقلبون على الحكم السماوي ويريدون أن تكون لهم السلطة العليا ويحاولون أن يجعلوا لأنفسهم خصوصية الله وربوبيته لو جاء أحد يريد قلب الحكم عليهم ويحكم بغير ما شرعوا لقتلوه شر قتله مع أن ذلك الخروج واجب حتمي على المسلمين المحكومين بتشريع هؤلاء الكفرة الفجرة، بل وتراهم يأنفون أن يخالفهم أحد ويرون أن حكمهم أحسن من حكم الله وأنهم يقدرون أن ينزلوا مثلما أنزل الله)

وقال أيضا : (الإشراك بالله في حكمه والإشراك به في عبادته كلها بمعنى واحد ولا فرق بينهما ألبته، فالذي يتبع نظاما وتشريعا غير تشريع الله كالذي يعبد الصنم وسيجد للوثن وكلاهما مشرك بالله) .

وقال عبدالعزيز بن باز في وجوب تحكيم شرع الله: (فمن خضع لله سبحانه وأطاعه وتحاكم إلى وحيه فهو العابد لله ومن خضع لغيره وتحاكم إلى غير شرعه فقد عبد الطاغوت وانقاد له) .

يقول ابن باز في رسالته نقد القومية : (وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة) .

وقال: (ولا إيمان لمن اعتقد أن أحكام الناس وآرائهم خير من حكم الله ورسوله أو تماثلها وتشابهها أو تركها وأحل محلها الأحكام الوضعية والأنظمة البشرية ، وإن كان معتقداً أحكام الله خير وأكمل وأعدل) فانظر كيف جعل مجرد ترك أحكام الله ﷻ واستبدالها كفراً مخرجاً من الملة ولو ادعى صاحب هذا العمل أن حكم الله أفضل وخير وأكمل ولم يستحل عمله وفي هذا رد على المرجئة العصر.

وقال : (فالذين يتحاكمون إلى شريعة غير شريعة الله لا شك أنهم يخرجون بذلك عن دائرة الإسلام ويكونون بذلك كفار ظالمين فاسقين) الفتاوى١/ ٢٧٥ .

وقال عبدالرزاق عفيفي : (من كان منتسبا للإسلام عالما بأحكامه ثم وضع للناس أحكاما وهيأ لهم نظما ليعملوا بها ويتحاكموا إليها وهو يعلم أنها تخالف أحكام الإسلام فهو كافر خارج من ملة الإسلام ، وكذا الحكم فيمن أمر بتشكيل لجنة أو لجان لذلك، ومن أمر الناس بالتحاكم إلى تلك النظم والقوانين أو حملهم على التحاكم إليها ومن أطاعهم في التحاكم باختياره فجميع هؤلاء شركاء في الإعراض عن حكم الله، لكن بعضهم يضع تشريعا يضاهي به تشريع الإسلام وبعضهم بالأمر بتطبيقه أو حمل الأمة على العمل به أو ولي الحكم به بين الناس أو نفذ الحكم به، وبعضهم بطاعته الولاة والرضا بما شرعوا فكلهم اتبع هواه وكانوا شركاء في الإلحاد والكفر ولا ينفعهم علمهم بشرع الله واعتقادهم ما فيه مع إعراضهم عنه وتجافيهم لأحكامه) الحكم بغير ما أنزل الله ٦٤ .

وقال ابن عثيمين في القول المفيد شرح كتاب التوحيد في باب ما جاء في طاعة العلماء والأمراء : (أما بالنسبة لمن وضع قوانينا تشريعية مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين فهو كافر لأنه لم

يرغب في هذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله) .

ويقول: (إن الحكم بما أنزل الله من توحيد الربوبية لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته وكمال ملكه وتصرفه ولهذا سمى الله تعالى المتبوعين في غير ما أنزل الله أرباباً لمتبعيهم) .

ويقول : (من يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية لتكون منهاجاً يسير الناس عليه فإنهم لم يضعوا تلك التشريعات المخالفة للشريعة الإسلامية إلا وهم يعتقدون أنها أفضل وأنفع للخلق، إذ أن المعلوم بالضرورة العقلية والجبلة الفطرية أن الإنسان لا يعدل عن منهاج إلى منهاج يخالفه إلا وهو يعتقد فضل ما عدل إليه ونقص ما عدل عنه) المجموع الثمين ١/ ٣٦.

وفيه جواب لسؤال عن الفرق بين المسألة المعينة والتشريع العام قال : (نعم هناك فرق فإن المسائل التي تعتبر تشريعا عاما لا يتأتى فيها التقسيم السابق وإنما هي من القسم الأول فقط) .

وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة : (من يؤثر الحكم بالقوانين الوضعية على الحكم بما أنزل الله فهذا كافر وإن نطق بالشهادتين وصلى وصام) .

وصدر عنها أيضاً: (إذا كانت الحكومة تحكم بغير ما أنزل الله فالحكومة غير إسلامية لا يجوز للمسلم أن يتحاكم إلى حكومة غير إسلامية ..) . ابن باز وعفيفي وبن قعود.

وطبعت رسالة جيدة في فتاوى ورسائل اللجنة في الرد على المرجئة والرد على بعض الجهال ممن أخذ بمذهب الإرجاء في أبواب الإيمان خصوصاً في الحكم بغير ما أنزل الله ومنهم الحلبي والعنبري وغيرهما ، ومحقق بها كلام الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في كفر المشرع والحاكم بغير ما أنزل الله .

الفصل الرابع : تاريخ الضلال والشرك في الحكم بما أنزل الله

الأصل أن الناس كانوا لا يحكمون إلا بشرع الله ﷻ ولا يتحاكمون إلا إلى دينه وأوامره منذ أن خلق الله هذه البسيطة وأنزل فيها آدم عليه السلام فقد كان عاملاً بحكم الله ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ البقرة: ٢١٣ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) ، أخرجه الطبري في تفسيره والحاكم في مستدركه.

فالأصل أن الناس كانوا على التوحيد في العبادة والحكم مؤمنين بالله ﷻ متحاكمين إلى شرعه ثم بدأ الضلال حين بدأ الشرك في عصر نوح عليه السلام هذا بداية الشرك والحكم بغير ما أنزل الله وتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله .

وهنا وقفة : في مخالفة العلمانيين وأرباب القوانين الوضعية في تاريخ البشر والحكم، وتابعوا فكر أسيادهم من الغرب الذين ينكرون نزول الشرائع للحكم بها فالمعروف عند الغرب في تاريخهم أن التاريخ يبتدئ بالقرون القديمة وهو ما يسمونه بالحجرية ثم بالوسطى ثم القرون المتأخرة ويصورون الناس على أنهم كانوا على صفة العرى والتعري والجهل والتخلف وفي الغابات وهم قد صدقوا في تاريخهم على أنفسهم وحالهم وحال المكذبين بالرسل، وفي تعميمهم هذه الصفة إنكار لتاريخ خلق البشر منذ أن خلق الله آدم وعلمه أسماء كل شيء وإنزال الوحي عليه.

مرحلة التشريع الباطل الشركي الضال:

المرحلة الأولى : البدائية : وهي عبارة عن أعراف لم تكن مكتوبة ولا مقيدة كالتحاكم إلى الكهان وإلى شيوخ القبائل والحكماء ونحو ذلك وغالب هؤلاء ممن لم تشرق عليهم شمس النبوة أو أنهم وصلهم دعوة الأنبياء فأعرضوا عنها .

المرحلة الثانية : التقييدية : التي فيها كتابة قوانين : ومنها :

١ - قانون (حمورابي الآشوري من ملوك بابل: وقانونه الذي كتبه في قرابة ثلاثمائة مادة ،يعتبر أقدم القوانين التي وصلتنا ، في قرابة ألف وسبعمائة قبل الميلاد.

وقد عظم قانونه المشركون وعباد القانون الوضعي الكفري .

٢- قانون (مانو) في الهند ، وهو عبارة عن أكثر من ألفي بيت من الشعر ، تتكلم عن علاقات الناس وبعض التشريعات المتعلقة بالفصل بين الناس والتعامل معهم . وهذا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

٣- قانون (بورخيس) المصري في مصر قبل الميلاد بسبعمائة عام تقريبا.

٤- قانون (أثينا) وسببه ظلم الأشراف للطبقة الوضيعة قبل الميلاد .

٥- القانون (الروماني) في أوروبا وهو منسوب لمدينة روما وقد كانت روما تحكم بالعادات والتقاليد حتى جاء قانون ما يسمى بـ (الألواح الأثنى عشر) قبل الميلاد وبعد توسع هذه الدولة الرومانية وسيطرتها على بقاع كثيرة في أوروبا واستيلائهم على بيزنطية (القسطنطينية)، جاء بعد ذلك رجل من ملوك الروم (جويستينيان) عام ٥٢٧ م ، وقبل مبعث الرسول ﷺ .

وهذا القانون مرجعه لكثير من القساوسة النصارى لأن جويستينيان دخل في النصرانية كما كان عليه الإمبراطورية قبله، لأن النصرانية دخلت في الروم مؤخراً وأخذ ملوكهم بعقيدة التثليث والشرك ولم يختاروا التوحيد .

٦- قانون (العرب في الجاهلية) لم يكن عند الجاهلية قوانين مكتوبة ، وإنما كانوا يتحاكمون بالعرف القبلي والتقاليد والكهان وبعض مما بقي من ملة إبراهيم عليه السلام وكان عندهم بعض التشريعات الكفرية كالنسيء والوصيلة والطواف بالبيت عراة وإباحة الميتة والنكاح والسفاح الجاهلي.

٧- قانون أوروبا والغرب الكافر الحاضر والمعاصر .

كان القانون الكنسي والراجع إلى الكنيسة سائداً عندهم وكان مأخوذا من القانون الروماني وما شرعه الرهبان في أوروبا ، فكان الربا محرماً في أوروبا وفي الديانات النصرانية واليهودية وكانوا يحكمون بالدين المحرف وبعض القوانين الرومانية التي وضعها الملوك حتى جاءت الثورة الفرنسية العلمانية عام ١٧٨٩م ما يقارب ١٢٠٤هـ . ثم وضعوا مبادئ وحقوق للشعب والناس يتعارفون ويتحاكمون إليها، وبقوا حتى جاء نابليون بونابرت سنة ١٢١٣ فوضع قانوناً في فرنسا يتحاكم إليه الناس، فأعجبت به دول أوروبا وعظموا هذا الرجل كما عظم التتار جنكيز خان، ولم يمض وقت حتى ووضعت الدول الأوروبية قوانين متحذية بفرنسا وقانونها ولم يتخلف في ذلك إلا بريطانيا فقد كانت تحكم بما يسمى حكم

الأعراف والسوابق، والجميع تأثر بالقانون السابق الذي ذكرناه القانون الروماني وشرع الرهبان وبعض الشريعة الإسلامية وأخذوا بعض قوانينهم من أحكام الإسلام استفادوها من المسلمين حين كانوا يحكمون الأندلس ، وكل هذه القوانين ظالمة جائرة لا تفي بالحاجة وكل فترة تغير هذه القوانين وتبدل لأن الذي وضعها ليس له صبغة التشريع فكانوا يستعينون بفقه المسلمين وحكمهم .

وقد ذكرنا هذا في أوروبا لأن له علاقة ببداية الاستعمار وبداية ذهاب بعثات إلى أوروبا واخذ ما عندها من ثقافات .

تاريخ التشريع الشركي عند المسلمين :

كان المسلمون يحكمون بالشرع، وربما حكم بعض الأمراء في بعض أحكام الشريعة ظلماً وفسقاً في قضايا معينة ويسمون هذا الخروج (سياسة) وهي سياسات جائرة وقد ألمح لذلك شيخ الإسلام في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم، إلا أن الحكم كان للشريعة فلم يكونوا مشرعين مشركين كما حصل في عصرنا الحاضر المتأخر .

وأقدم ضلال في تاريخ المسلمين في الحكم والهدي فإنه يعد عند غلاة الصوفية والرافضة الذين خرجوا عن الشريعة وأحلوا بعض المحرمات وأسقطوا التكاليف وسموا ذلك بالكشف واليقين وفضلوا طرق مشايخهم وطرق الحكماء على طريقة الرسول ﷺ . وهؤلاء قد كفروا بفعلهم هذا بإجماع العلماء .

كذالك ما حصل على يد الباطنية القرامطة حين أقاموا لهم دول في البحرين واليمن والمغرب ومصر وقد قام كثير من الحكام والأمراء والعلماء بجهادها .

أما في الحكم فلم يعرف الناس خروجا عن الشريعة خروجا واضحا إلا ما فعله التتار حين شرعوا قوانين تخالف الشريعة حكموا بها الناس وأسموا قانونهم بالياسق، وهي حادثة غريبة فريدة في القرن السابع الهجري.

والتتار من المغول من الترك، وقد قدموا من شرق آسيا استولوا على الهند والسند وعلى أجزاء من الصين وأوساط آسيا وما وراء النهر ثم جاءوا على العراق واجتاح هولاكو وهو من أحفاد جنكيزخان العراق ودخلوها في عام (٦٥٦هـ) واستولوا عليها وحكموا الناس بما يسمى (الياسق) وقد وضع هذا القانون ملكهم (جنكيز خان) وهذا الرجل يعظمه المغول والتتار وبالغوا فيه .

وقد ذكر قصة التتار وقانونهم الياسق ابن كثير في البداية والنهاية والمقريزي في كتابه الخطط، وكان هذا القانون الياسق في مجلدين يحملان على بعير ويتحاكمون إليه، وكان مصدره مجموع من شرائع شتى يهودية ونصرانية والشريعة الإسلامية وأحكام أخرى اجتهدها من نفسه. ومن أمثلة هذا القانون قولهم : إن من أكل طعام قوم دون إذنهم فإنه يقتل ومن ورد على قوم ولم يضيفوه فإنهم يقتلون ومن ذبح بطريقة المسلمين فإنه يذبح كما ذبحت البهيمة وغير ذلك من القوانين.

ولما اعتنق ابن هولاكو الدين الإسلامي ولكن بقي يحكم بالياسق وكذا بعده قازان، كما أسلم أيضا كثير من جنود التتار، فكفرهم العلماء ولم يحكموا بإسلام أحمد هولاكو ولا قازان ولا جنودهم وأوجبوا قتالهم، ومنهم ابن تيمية وابن كثير وابن القيم وابن الأثير والمقريزي وغيرهم .

وقد كفر العلماء التتار ومنهم ابن تيمية وله الفتوى المعروفة فيهم .

كما كفرهم ابن كثير في تاريخه وتفسيره عند قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ المائدة: ٥٠ ، ونقل الإجماع على كفرهم وكفر من ترك الشريعة وتحاكم لغير شرع الله.

والعجيب أن المسلمين غير الرافضة لم يخضعوا لهذا القانون ولم يتأثروا به بل دافعوا التتار وقاتلوهم ثم بعد قتالهم وإزالتهم لم يأخذ أحد منهم بشيء من هذا القانون بخلاف ما حصل في عصرنا حين دخل الاستعمار ديار المسلمين فما خرج إلا وفرخ أذناب له يحكمون المسلمين بقوانينهم العفنة المشركة الكافرة .

القانون الوضعي المعاصر عند المسلمين وكيف بدأ التشريع الشركي؟

ذكرنا آنفاً أنه لم يأخذ المسلمون تشريعاً وقانوناً منذ بعثة رسول الله ﷺ إلى عصرنا إلا في عهد التتار وقد قاتلهم الناس وكفروهم وأخرجوهم من بلاد الإسلام، ولذلك ينبغي أن يعرف هذا التاريخ ليتبين كلام أهل العلم حين يتكلموا في الحكم بغير ما أنزل الله فإنهم يقصدون به الحكم في قضايا عينية كما فعله حكام بني أمية وبني العباس من ظلم أو جور، إذ لم يكن في عهد السلف مشرعين ولم يكن حصل بعد خروج عن الشريعة كما حصل في زماننا من الوقوع في التشريع والتحليل والتحريم وشرك الحكم والطاعة وسن القوانين المخالفة للشريعة.

أولاً : الدولة العثمانية :

أشهر من حكم بالقوانين من حكام الدولة العثمانية (سليمان) الذي يسمى (بالقانوني) ٩٢٦-٩٧٤هـ الذي أعجب بقوانين أوربا وابتدع ما يسمى بتقنين الشريعة وجعلها في شكل قوالب ومواد محدده وحكم بغير شريعة الله واستبدلها بوضع القوانين وسمى القانوني لذلك .

هذا وقد صارت القوانين في آخر الدولة العثمانية محل أخذ ورد يأتي سلطان فيضع ويأتي آخر فيزيلها ويأتي الثاني فيغير فيها ويبدل .

فبدأوا بالجيش ثم أمور إدارية ثم البرلمانات ثم قوانين في الميدان التجاري . وظهر من يدعي الإصلاح ويريد محاكاة أوروبا والغرب وتسمى هؤلاء بالمتنورين فوضعوا قوانينا سموها التنظيمات حتى لا يخالفوا ويخرج العلماء عليهم .

وأول تقنين عندهم مستمد من القانون الجنائي الفرنسي وضعه السلطان عبدالمجيد بن محمود في عام (١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م) هذا القانون (إنه لا عقوبة إلا بنص) وفي هذا القانون إلغاء (للتعزير) الذي وضع الشارع ثم عدل بعد ذلك في قوانين أخرى وزيد فيه أمور كثيرة وهذا أول قانون حكم به في بلاد الإسلام .

ثم بدأت بعده قوانين فجاء بعد عشر سنين عام (١٨٥٠م) قانون التجارة، وقوانين أخرى ثم وضعت مثل أوروبا البرلمانات والدستور في عهد عبدالحميد عام (١٨٠٩م) . ولا زالت الدولة التركية على ذلك حتى سقطت عام (١٣٤٣هـ) وأعلنت الجمهورية العلمانية وألغيت الخلافة والمحاكم الشرعية وحرموا اللغة العربية والحجاب وصرح كمال أتاتورك بأن دين تركيا هو الدين العلماني .

وبهذا نعلم أن الدولة التركية دخلها الشرك من جهة الحكم بغير ما أنزل الله في كثير من القوانين، وقبل ذلك من جهة شرك العبادة وإقرارها الصوفية القبورية وقامت بمحاربة دعوة التوحيد التي دعا إليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب فلم تستحق الريادة والقيادة ، خلافاً لمن يتباكى عليها.

ثانياً : التحاكم لأحكام القبائل الأعراف :

وقد فشا هذا الكفر والشرك في كثير من قبائل العرب والبادية في اليمن وبعض البلدان العربية التي القبلية فيها قوية في الصعيد وبدو الشام والعراق وصحراء أفريقيا وغيرهم .

قال حمد بن عتيق : (ومثل هؤلاء التتار ما وقع فيه عامة البوادي ومن شابههم من تحكيم عادات الآباء وما وضعه أوائلهم من الموضوعات الملعونة التي يسمونها شرع الرفاقة يقدمونها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع لحكم الله ورسوله) سبيل النجاة والفكاك ٨٣ .

وللشوكاني رسالة [الدواء العاجل في دفع العدو الصائل] وقد تكلم حول كفر من ترك التحاكم إلى الشريعة من الخارجين عن أحكام الدولة الإسلامية ورضي بأحكام الأعراف أو القبائل ونحوها في الديار اليمنية وكفر هؤلاء وحكم بكفرهم .

ثالثاً : تحاكم كثير من المسلمين والحكومات إلى الطاغوت ومحاكم الكفار:

أعظمها: التحاكم لهيئة الأمم المتحدة والاعتراف بمواثيقها والإيمان بشرعيتها.

مع ما في هذه الهيئة من مواثيق وقوانين ومواد مخالفة للشريعة ومصادمة لدين رب العالمين ، من أعظمها المادة (٩٢) الجهاز القضائي للأمم المتحدة والدول الأعضاء فيها (محكمة العدل الدولية)، ولا يشك مسلم أنها تحكم بحكم الطاغوت لا بأحكام الشريعة الإسلامية ، وهذا يجعل المتحاكم إليها كافرا مرتدا عن إسلامه .

كما أن مواثيقها تقوم على إلغاء مبدأ الولاء والبراء واستبداله بالتعايش السلمي والسماح بالحرية الكفرية ونشر الإلحاد، كما تقوم على تكذيب نبينا محمد ﷺ وعدم إيجاب اتباعه وعدم معاقبة وتجريم من يقدح فيه وإبطال الشريعة الإسلامية والحكم بها في كثير من القضايا كالجهاد والجزية والرق والدخول تحت سيادة الكفار وأمرهم ، وليست مجرد عهد مع الكفار كما يزعم الكذابون، والحق أن هذه تشريعات قانونية وضعية وليست مجرد أحلاف وعهود أمان وسلم والدليل تسميتهم لها بالشرعية الدولية ومناداتهم بالاحتكام إليها مع ما فيها من قوانين تخالف دين الله ولا عبرة بصلح وعهد يحلل حراما ويشرع قانونا مصادما للشرع المنزل ، والعجيب ممن يسوغ التحاكم لهذه الهيئة ويجيزه بشبهة حلف الفضول والإكراه . والجواب أن حلف الفضول قبل الإسلام ونزول حكم الله ، ثم إنه يقوم على نصرة المظلوم وليس على تشريع دين يحلل أمر حرمه الله أو يحرم ما أحله الله . وأما دعوى الإكراه فكذب فهناك دول كافرة أوربية وغيرها لم ترض بمواثيقها وتعترف بها وتدخل تحتها تحتكم لها . وصرح كثير منهم أن حقوق الإنسان في هذه الهيئة تصب في مصلحة اليهود.

رابعاً : تشريع القوانين الوضعية في الدول والحكومات الإسلامية :

وإليك كلام بعض العلماء الذين عاصروا هذا الشرك وكفروا الحكام والدول الواقعة في تشريع القوانين وتنحية الشريعة والاعتراف بشرعية الأمم المتحدة والتحاكم لمحكمتها .

قال ابن كثير في تاريخه: (فمن ترك الشرع المحكم المنزل وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر بإجماع المسلمين فكيف بمن تحاكم إلى الياسا) ١٣/ ١١٩ .

وقال الشيخ أحمد شاكر معلقاً على كلام ابن كثير: (أفرأيت هذا الوصف من ابن كثير لذلك القانون الوضعي .. أنه يصف حال المسلمين في هذا العصر في القرن الرابع عشر... إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس هي كفر بواح لا خفاء فيه ولا عذر لأحد ممن ينسب إلى الإسلام كائنا من كان في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها ، ألا فليحذر امرؤ نفسه وكل حسيب نفسه، ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين وليبلغوا ما أمروا بتبليغه) عمدة التفسير ٤/ ١٧٣ .

قال محمد بن إبراهيم: (البلد الذي يحكم بالقانون ليس دار إسلام وتجب الهجرة منه عند القدرة) الفتاوى ٦/ ١٨٨ .

يقول ابن باز في رسالته نقد القومية : (وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة) .

وقال أحمد شاكر :(أفيجوز مع هذا في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس من تشريعات أوروبا الوثنية الملحدة ..) .

وقدمنا كلام أهل العلم مفصلا في ذلك في النقولات بما يغني عن إعادته هنا.

تاريخ القوانين الوضعية في الدول الإسلامية : وإليك شيئاً من ذلك :

أولاً : مصر :

حاول (نابليون) حين اجتاح مصر تغيير الشريعة فلم يستطع، وقد كانت المحاكم الشرعية تحكم الناس إلى سنة (١٨٥٦م) في عهد سعيد الخديوي حفيد محمد علي باشا الألباني، فوضع ما يسمى (المجالس القضائية المحلية) وقبله جده محمد علي باشا فوضع هذه المحاكم المحلية وضايق بها وقلص الحكم وعمل المحاكم الشرعية وفي سنة (١٨٨٠م) تألفت لجنة لوضع لائحة (للمحاكم النظامية) وأغلب

الذين كانوا في هذه اللجنة من الصليبيين النصارى وافتتح توفيق الخديوي المحاكم الجديدة في عام (١٨٨٣م) وقد صدرت إلى التاريخ هذا ست قوانين هي (المدني والتجاري والتجارة البحرية والمرافعات في العقوبات والقانون الجنائي) وأبيح الربا في هذه القوانين ثم وضع الدستور المصري في عام (١٩٢٣م) وفي عام (١٩٤٩م) ألغيت المحاكم لوضع قانون مدني للمحاكم الأهلية على يد الدكتور عبدالرزاق السنهوري الرجل الذي جنى هو وأمثاله على دين الله ﷻ وقد عجت بكتبه المكتبات، وهو الذي شرح القانون الوسيط المصري ووضع هذا الخبيث المشرك قوانين كثيرة في دول عدة في أفريقيا وفي العراق .

وبعد قيام الانقلاب الجمهوري الذي أسقط العهد الملكي الخديوي عام (١٩٥٥م) ألغيت المحاكم الشرعية وأبقيت محاكم القوانين الوضعية .

وهذه طرق أعداء الله ومحاربتهم لدين الله فبدأ وبالتنظيم واللوائح ثم بوضع محاكم تحكم وتنازع المحكمة الشرعية خصيصتها ثم بوضع محاكم وضعية معترف بها وتحاكموا إليها ثم نزعوا المحاكم الشرعية صلاحيتها ثم ألغوها بالكلية ووضعوا الحكم كله والتشريع للمحاكم القانونية الوضعية .

ثانياً : الكويت : دخلتهم القوانين حين أصدر عام ١٣٨٢هـ ووضع قانونهم المكون من ١٨٣ مادة الذي أصدره عبدالله سالم الصباح وفيه السلطة التشريعية يتولاها الأمير ومجلس الأمة وفي المادة ١٩٥ كل شخص متزوج رجلا كان أو امرأة اتصل جنسيا بغير زوجه وهو راض وضبط متلبسا بالجريمة يعاقب بسجن لا يتجاوز خمس سنوات أو غرامة ، وتسقط العقوبة عن المرأة إذا تنازل زوجها فانظر في هذه الحقارة الكفرية وتأمل .

ثالثاً : في العراق : حكم بالشرع وبالمجلة العدلية التي وضعتها الدولة العثمانية حتى سنة (١٩٥٣م) وأول من سعى لتغيير الشريعة وزير العدل العراقي (محمد زكي) في عام (١٩٣٣م) وفي عام (١٩٣٦م) وفد إلى العراق أساتذة القانون فوضعوا بزعامة (السنهوري) فأخذ ينظم لهم القوانين، ولا زال في تغيير حتى وضعوا لهم القانون العراقي المعترف به في دولتهم (١٩٥٣م) .

رابعاً : في لبنان : في لبنان كذلك كان اعتمادهم على القوانين رسمياً عام (١٩٢٩م) حين كانوا تحت الانتداب الفرنسي وفي عام (١٩٣٠م) صدر القانون الملكي وعام (١٩٣٤م) قانون الموجبات والعقود وتتالت القوانين .

خامساً : في سورياً : أراد المستعمرون الفرنسيون تنحية أحكام الشريعة كما حصل في لبنان إلا أن أهل الدين جاهدوهم، ولما قامت الحكومات الوطنية بعد جلاء فرنسا استطاعت تغيير الشريعة وأول قانون وضع عام (١٩٤٧م) (قانون البينات) حتى حصل الانقلاب في عهد حسني الزعيم، ووضع القانون والتشريع المعترف به في سوريا وألغو الشريعة عام (١٩٤٩م) .

سادساً : في الأردن : بعد الحرب العالمية الثانية صارت الأردن تحت الانتداب البريطاني وأقدم التغييرات كانت عام (١٩٥١م) حيث صدر (قانون العقوبات وأصل المحاكمات) وقد اقتبس من القانون اللبناني والقانون السوري، وظلت مجلة الأحكام في الأردن يحكم بها حتى سنة (١٩٧٦م) حيث صدر القانون المدني وغيرت أحكام الشريعة، وإن كان وجد فيه بعض الأحكام المأخوذة من الشريعة إلا أن العبرة أنهم وضعوا لأنفسهم حق التشريع .

سابعاً : ليبيا : وضع قانون (قانون العقوبات) في عام (١٩٤٧م) .

ثامناً : السودان : وضع قانون العقوبات عام (١٨٩٩م) .

تاسعاً : في الهند وباكستان : كان العمل بالشريعة حتى احتلتها بريطانيا حيث وضع القوانين حين تأسست باكستان عام (١٩٤٧م) حيث ارتبطت برابطة بريطانية واعترفت بأحكام بريطانيا ، ولما أستطاع المسلمون في سوات إجبار باكستان على أن يحكموا بالشريعة قامت قائمة الغرب الكافر وأنكر أشد الإنكار واعتبره من الرجعية والإرهاب فهل بعد هذا الأمر يحتاج الناس لدليل يبين كيف أن القوانين ما سمح لها الغرب وعبيدهم إلا لما فيها من إبعاد الناس عن الدين وإباحة المحرمات والفواحش وترويج المنكرت وسرقة أموال المسلمين وإبقاء المسلمين على التبعية للكفار .

عاشرا : اليمن : كان الحكم بالشريعة فيها حتى عام ١٣٨٢هـ حين انقلب الجمهوريون على دولة الزيدية وكان آخرهم الإمام أحمد حميد الدين يحكم بالشريعة.

وقل مثل ذلك في بقية الدول العربية عمان والإمارات وقطر .

وفي بلادنا حين غزتها القوانين وظهر الاحتكام لها ومنها قانون المحكمة التجارية في ١٥/ ١/ ١٣٥٠هـ ، ونظام العمل والعمال في ٦/ ٩/ ١٣٨٩هـ ، وقانون المرافعات، وقانون هيئة فض النزاع وغيرها، بادر العلماء بالإنكار ، ومن ذلك :

ما قاله الشيخ محمد بن إبراهيم في بداية رسالته [تحكيم القوانين]التي ألفها في هذا الشأن : (إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين في الحكم به بين العالمين).

وقال عن نظام العمل : (فالنظام المشار إليه قانوني غير شرعي ولا يجوز إقراره أو تأييد ما بني عليه مطلقا) الفتاوى ١٢/ ٢٦٤.

وقال عن الغرفة التجارية : (مصادمة لما بعث الله به رسوله من الشرع الذي وحده المتعين للحكم بين الناس) ١٢/ ٢٥٠ . وفي رسالة بعدها يطالب بإلغائها.

قال عبد الله بن حميد في رسالته التي نقض فيها نظام العمل والعمال: (نظام العمل والعمال طالما كنت أسمع عنه وما فيه من الأحكام الباطلة المخالفة للشريعة الكاملة ... ولما قرأته وجدته أعظم مما كنت أسمع ...) الدرر السنية ١٦/ ٢٣٣.

وقال في هذا الشأن : (من أصدر تشريعاً عاماً ملزماً للناس يتعارض مع حكم الله فهذا يخرج من الملة كافر) في كتابه أهمية الجهاد .

والعجيب ممن يفتخر بمثل هذه المخالفات :

قال الدكتور عبد المجيد المغربي في كتابه تحت حركة التدوين والتشريع في المملكة : (فغير هذا الوضع بعد قيام الدولة السعودية وظهور الثروات الطبيعية ، مما دعا إلى الإصلاح والتغيير ... لهذه الأسباب كان لا بد من مواجهة الحياة الجديدة بسن تشريعات تلائم الحاجات المستجدة ، فصارت التشريعات في أصول المحاكمات والقوانين التجارية والجزئية وتشريعات العمل والعمال والضرائب وغيرها..) .

ومثله في كتاب أصول الأحكام ومبادئ الأنظمة لعبد العزيز النعيم .

ومثله في كتاب التشريعات في الدول العربية لمحمصاني .

وانظر للاستزادة :

فتاوى محمد بن إبراهيم الجزء الثاني عشر .

الدرر السنية الجزء السادس عشر.

الفصل الخامس: مناطات الكفر في الحكم بغير ما أنزل الله

وفيه أربع مناطات :

الأول : الجاحد لحكم الله ﷻ والمستحل لحكم الطاغوت ، وهذا مرتكب لكفر التكذيب والجحود .

الثاني : المشرع والمبدل والجالب للقوانين والملزم بها والمحلل والمحرم بغير سلطان من الله ﷻ ، وهذا مرتكب لشرك التشريع والحكم .

الثالث : الحاكم بغير ما أنزل الله تعالى وتارك حكم الله المعرض عن حكمه والممتنع عن الشريعة والملتزم حكم الطاغوت، وهذا ارتكب ما يسمى بشرك الحكم.

الرابع : المتحاكم والمطيع والمنفذ والمتبع والمحكوم بغير شرع الله ﷻ ، وهذا ارتكب صاحبه ما يسمى بشرك الطاعة والإتباع والتحاكم .

فعندنا أربع مناطات مكفرة :

الجحود وشرك التشريع وشرك الحكم وشرك الطاعة والتحاكم، وكل مناط يشمل صورا وأسباباً للكفر .

والأول كفره اعتقادي والبقية كفرهم عملي ، وكل الأقسام الأربعة كفر مخرج من الملة ، إلا في حالتين سنبينها في مسألة قادمة .

المناط الأول أو الحالة الأولى: الجحود والاستحلال :

الصورة الأولى : من يجحد حكم الله وينكره ويكذب به ويجحد أن يكون هنالك حكماً لله يلزم إتباعه وهذا يسمى المكذب أو الجاحد والمعطل .

الصورة الثانية : المجوز والمستحل وهو من ينكر وجوب حكم الله ﷻ وشرعه، كأن يقول لا يجب علي أن أحكم بما أنزل الله أو لا يجب الحكم بالشريعة ويجوز الحكم بالقانون أو بما يخالف الشريعة وهذا يسمى المجوز والمستحل .

الفرق بين الأول (الجاحد) والثاني (المستحل):

أن الأول ينكر وجود حكم الله ﷻ فهو مكذب بوجود أصل الحكم .

أما الثاني فمعترف بحكم الله ﷻ منكر لوجوبه يقول هنالك حكم الله لكن لا يجب علينا إتباعه ولا يجب التزامه فاستحل حكم الطاغوت وجوّزه.

أن الجحود متعلق بالوجود والواجب والاستحلال متعلق بالمحرم .

فالجاحد ينكر وجوب حكم الله والمستحل ينكر حرمة التحاكم بالطاغوت .

الصورة الثالثة : المفضل وهو من يفضل حكم غير الله على حكم الله تعالى .

الصورة الرابعة : الممثل والمساوي وهو من يقول : حكم الله مثل حكم غيره وشرع الله وشرع غيره سواء لا فرق في الفضل بينهما فهما في الحكم والفضل سواء .

الصورة الخامسة : المعترف والمقر والقابل بحكم الطاغوت، فمن أقر بحكم الطاغوت واعترف به وقبله فهو كافر كفر اعتقاد .

السادسة : الراضي بحكم الطاغوت ومريده، فمن ابتغى أحكام الطواغيت ورضيها فهو كافر : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ ﴾.

وحكم الطاغوت : هو كل حكم غير حكم الله ﷻ وبغير ما أنزل الله.

السابعة : الشك في حكم الله ﷻ سواء شك في فضله أو شك في وجوبه .

الصورة الثامنة : المستخف بحكم الله ﷻ المستهزئ به .

التاسعة: من يفرح بحكم الطاغوت ويسر بوجود القوانين ويفرح أذا شاهدها أو حكم بها أو تحاكم لها ويشمئز من الحكم بالشريعة ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ الزمر: ٤٥.

الصورة العاشرة: المبغض الكاره لحكم الله ﷻ وقد نص الله ﷻ على تكفيره وردته بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ محمد: ٩ .

الصورة الحادية عشرة: سب حكم الله ولمزه والقدح فيه والاعتراض عليه، ومن ذلك القول بأن الحكم بالشريعة لا يناسب هذا العصر وأن حكم الله لم يعد يصلح في هذه العصور فهذا جاحد مكذب وهو كافر كفر اعتقاد .

الصورة الثانية عشرة: محاربة حكم الله وصد الناس عنه .

الصورة الثالثة عشرة: المصحح وهو من صحح حكم الطاغوت أو توقف فيه فهو كافر كفر اعتقاد .

الصورة الرابعة عشرة: الإيمان بحكم الطاغوت وعدم الكفر به، فمن لم يكفر بالحكم بغير ما أنزل الله ويرفضه ويتمرد عليه ويرده ولا يذعن له ولا يطيعه ولا يستجيب له بل يكفر به ويحاربه ويكفّر أهله لم يكن كافر بالطاغوت الذي أمرنا أن نكفر به ومن ثم لا يعتبر أنه أتى بلا إله إلا الله، ولو أن شخصا حكم بما أنزل الله وفضله وأوجبه ولكن لم يكفر بحكم الطاغوت ولم يكفر بكل حكم مغاير لحكم الله ولم يكفر بالأنظمة والقوانين الوضعية الطاغوتية وأصحابها أو صحح مذهبهم أو شك أو توقف في كفر هذه الطواغيت فهذا أيضاً كفر ناقل عن الملة .

الصورة الخامسة عشرة: المحب لحكم الطاغوت الفرح به.

الصورة السادسة عشرة: المادح لحكم الطاغوت المثني عليه المعظم له، كأن يمتدح القانون ويثني عليه ويعظمه ، ومن صور تعظيمه القيام عند تلاوة الحكم أو دخول المحكمة الوضعية بانحناء أو الحلف بالدستور فهذا كله كفر اعتقادي .

الصورة السابعة عشرة : الداعي لحكم الطاغوت وإلى تحكيم القانون وأنه مناسب للعصر وأنه أولى من حكم الله لأنه لم يعد يصلح في عصرنا .

وأصحاب هذه الصور كفار إجماعاً وقد قام بهم ناقضان:

ناقض الحكم بغير ما أنزل الله إن وجد .

ناقض الجحود والاستحلال وهذا كفر مستقل ولو لم يحكم بغير ما أنزل الله .

فالجاحد أو المبغض لحكم الله كافر حتى ولو حكم بما أنزل الله وكذلك المستحل والمجوز للتحاكم للطاغوت كافر ولو لم يحكم به ، وهذه الصورة مما يوافق عليها المرجئة لأنه متعلق بالاعتقاد وهم يكفرون بالاعتقاد وخالفوا في غيره .

تنبيه: من يعمل على نشر الحكم بغير ما أنزل الله أو يقوم بسن القوانين وتأييدها ونشرها وجلبها إلى بلاد المسلمين والحكم بها وإلزام الناس بالتحاكم إليها أو يفتح وينشأ الكليات لدراسة القانون دعوة إليها واستحسان لها .

وهذا القسم مختلف فيه هل جحوده واستحلاله قلبي فيدخل في هذا القسم أم جحوده عملي فيدخل في القسم الثاني الذي هو المشرع ؟

على قولين لأهل العلم والصحيح أنه من الكفر العملي المستلزم لكفر المعتقـد. وقد ذكرنا هذه الصور لوجود بعض أهل العلم من يجعل التشريع مـن قـسم الكفـر الاعتقادي، على خلاف سنأتي على ذكره إن شاء الله تعالى ، مع أن أهل العلم يجمعون على كفر من عمل ذلك سواء رأوه مستحلا بفعل ذلك أو رأوه غير مستحل .

المناط الثاني : التشريع والمشرع :

وهو الجهة والمناط المكفر به هنا هو التشريع والتحليل والتحريم، وشرك التشريع كفر عملي مخرج من الإسلام وقولنا عملي أي يكون بأعمال الجوارح لا علاقة له بالقلب، فمن شرع فقد كفر ولا ينظر إلى اعتقاده واستحلاله، فإن استحل أصبح كفراً عملياً واعتقادياً وإن فضل تشريعه على حكم الله أو قال أن هذا هو حكم الله فكفره أعظم، فمن فعل التشريع مع عدم استحلاله وتفضيله فكفره كفر عملي ناقل عن الملة مثله مثل ساب الله تعالى والمستهزئ بآيات الله أو الساجد للصنم، فهذه كفريات عملية لا ينظر فيها إلى جانب الاعتقاد ولم يخالف إلا المرجئة .

وتحت هذا القسم وقفات :

الأولى : تعريف التشريع :

التشريع في اللغة مشتق من الفعل شَرَع ، ومن معانيه : بيّن ووضّح وأظهر ورفع وابتدأ وأورد وأنفذ وأنشأ وسن . فشرع الله لنا الدين أي بين وألزم ووضح وأمر وأوجب وسن وفرض، والدين ما يتدين به العبد ويلتزمه وينقاد له .

وتطلق الشريعة على الطريق والسبيل الظاهر والطريقة والعادة والنهج والمذهب . فلا يسمى الأمر شريعة إلا إذا كان ظاهرا بيننا ومنهجا متبعا .

والتشريع هو : إنشاء الحكم والإلزام به وإيجابه، وسن الشرع والدين والأوامر والنواهي والحلال والحرام ، وجعل الأمر والشيء منهجا متبعا ووضع الطريقة الظاهرة لتصير مذهبا وعادة .

وشريعة الله طريقته ومنهجه الذي أراده من عباده وسنها لهم .

والشريعة والدين والإسلام والفرائض والواجبات مترادفة المعنى.

وقوله: ﴿ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١: أي أن هؤلاء المشركين المشرعين وضعوا طريقة لأتباعهم واستقلوا بمنهج مصادم لدين الله وابتدعوا مذهبا لم يأذن الله لهم به وسنوا للناس دينا وأمرا ونهيا وواجبات ومحرمات ألزموا بها الرعاع واستقلوا بالأمر ونازعوا دين الله وضاهوا شريعته .

والتشريع بمعنى التحليل والتحريم وسن الدين، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ يونس: ٥٩ ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ

بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ الأنعام: ١٣٦ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ الرعد: ٣٣ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ الزخرف: ١٥، فالجعل هنا بمعنى التشريع.

ويعبر عنه في لغة مشركي الزمان بالسلطة التشريعية العليا الآمرة والسيادة الحاكمة المهيمنة والقوانين الوضعية.

وهو وضع شرعٍ يضاهى به شرع الله وحكم يخالف حكم الله ويعارضه ودين غير دين الله يلتزم الناسُ به يحلل فيه ما حرم الله ويحرم ما أحل ويحمل الناس عليه .

وسمي تشريعاً وديناً لأنه صار للناس شرعاً يدينون به .

من ينحي الشريعة وحكم الله أو بعض شرعه ولو في مسألة واحدة، ويستبدله بشرائع وقوانين أخرى مضاهية لحكم الله من صنع البشر أو بدين منسوخ أو بعرف يحلل بها ما حرم الله ويحرم ما أحل الله ويقدم العمل بها على شرع الله تعالى يجعل هذه الشرائع والقوانين المستبدلة قانوناً ملزما للبلاد والعباد فهذا كفر بالإجماع .

الثانية : أمثلة للتشريع :

من أمثلة هذا المناط في هذا الناقض :

١- ما قامت به اليهود من تشريع لحد الزنا بالتحميم والتجبيب والجلد وتعطيل الرجم ، حين تكاتموا واصطلحوا واجتمعوا على تبديل حكم الله ﷻ كما في أسباب نزول سورة المائدة ونزل القرآن الكريم بتكفيرهم وتكفير من عمل بهذا العمل ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤.

٢- ما قام به مشركوا العرب بزعامة عمرو بن لحي الخزاعي من تشريع للسوائب والبحيرة والوصيلة .

٣- ما قام به مشركوا العرب من إباحة الميتة وزعمهم أنها ذبيحة الله وحاجوا الرسول ﷺ بذلك فأنزل الله ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١.

٤- ما فعلته قريش من تشريع قانون النسيء الذي فيه تأخير أشهر الحرم .

٥- ما فعلته ثقيف حين أسلمت من امتناعها عن تحريم الربا وكاد الرسول ﷺ أن يحاربهم ، وفيهم نزلت الآيات في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾.

٧- ما قام به التتار ومليكهم جنكيز خان حيث وضعوا قانون الياسق وحكموا به بين الناس، وقد كفر العلماء التتار لذلك ومنهم ابن تيمية وابن كثير ونقل في تاريخه وتفسيره الإجماع على كفر العامل بذلك .

٨- ما ابتلينا به مما انتشر في عصورنا هذه من الحكم بالقوانين الوضعية والدساتير الغربية تحكيمها والعمل بها، أمثال القانون الفرنسي والمصري والقانون التجاري والجوي والبحري والمدني والجنائي .

٩- وضع لجان تشريعية تحلل للناس ما حرم الله وتدعوا للحرام وتسن القوانين المغايرة لحكم الله ﷻ ،ومن الأمثلة على ذلك : أن شرع الله ﷻ أن يرجم الزاني المحصن وشرع هؤلاء المشرعين أنه يسجن أو يعفى عنه إذا كان برضى المرأة، والسماح بالخمور في الفنادق السياحية، وأن الأجير يستحق الأجرة إذا مرض ولم يعمل وتلزم المحكمة مستأجره بتسليمه راتبه، وأن من يقترض من بنك يلزم في المحكمة التجارية بسداد الربا ولا ينظر في حكم الله ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾. ونحو ذلك من التشريعات الشركية .

الثالثة : بدعة هذا الكفر في هذه الأمة والعالم الإسلامي المعاصر:

فهذا النوع من الشرك والكفر أول ما عرف في القرن السابع في عهد التتار وكانت حادثة فريدة وانبرى العلماء لبيانها وقام المسلمون بجهاد التتار وتكفيرهم.

ثم انتشر في عصرنا هذا الشرك والكفر القائم على القوانين الوضعية والتشريعات الشركية ودخلت مع المستعمرين ديار المسلمين، فأقرها كثير منهم واستساغوها واستحسنوها ودرسوها أبناءهم ، نعوذ بالله من الردة وأهلها.

الرابعة : موقف العلماء من شرك التشريع حين وقوعه :

انبرى العلماء الجهابذة لجهاد هذا الشرك الصراح والكفر البواح وتكفير أصحابه الذين عاصرو بدايته أول ما حصل في هذه الأمة وكان من أبرزهم :

العلامة محمد بن إبراهيم رحمه الله في رسالته تحكيم القوانين وفتاواه ورسائله التي حارب فيها هذا الشرك حتى أنه قرر في رسائله وفتاواه أن الدولة التي يوجد بها قانون ويحكم فيها بقانون واحد أنها دار كفر يجب الهجرة منها .

العلامة المحدث أحمد شاكر رحمه الله وأخوه محمود شاكر ، كما في تعليقاتهم عل الكتب كتفسير ابن كثير وتفسير الطبري وشرح الطحاوية والمسند وغيرها ، وللشيخ أحمد كتب نفيسة وهي: حكم الجاهلية وكتاب كلمة حق.

العلامة محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان وغيره وقد كفر المشرعين.

الشيخ عبدالله بن حميد رحمه الله ومن كلامه في رسالته أهمية الجهاد: (ومن أصدر تشريعاً عاما ملزماً للناس يتعارض مع حكم الله فهو كافر خارج من الملة..) كما أن له رسالة في نقد نظام العمل والعمال والبراءة منه وطبعت بالدرر السنية .

ومن والعلماء الذين عاصروا هذا الشرك وأنكروه غير من سبق :

الشيخ محمد حامد الفقي .

الشيخ عبد الرحمن بن قاسم.

الشيخ عبدالعزيز بن باز في رسالته وجوب تحكيم الشرع ونقد القومية.

الشيخ حمود التويجري .

الشيخ عبدالرزاق عفيفي له رسالة الحكم . وغيرهم كثير.

الخامسة : خلاف المرجئة الشنيع في عدم اعتبارهم التشريع ناقضاً :

خالفت المرجئة الإجماع ومذهب أهل السنة وأقوال العلماء وعارضوا كتاب الله ﷻ وصحيح الأحاديث في كفر من حكم وشرع في دين الله وحملوا ظلما وزوراً قول ابن عباس رضي الله عنهما في حكام بني أمية: (كفر دون كفر) في تفسير آية المائدة على المشرع المحلل والمحرم .

واعتمدوا على كلام الألباني عفا الله عنه الذي عرف بالإرجاء في أبواب الإيمان والتكفير فلا يكفر بجنس العمل ولا يكفر بالأعمال الظاهرة .

وقد ظهر رد جيد للجنة الدائمة عليهم وبينت إرجائهم .

السادسة : أدلة كفر هذا المناط :

الله ﷻ حرم على خلقه مهما بلغوا أن يحللوا ويحرموا ويشرعوا بل حتى الرسل ليس لهم أن يشرعوا ويحكموا من عند أنفسهم فليسوا غير مبلغين عن الله شرعه وأمره ولا يحكمون إلا بما أراهم الله ﷻ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ النساء: ١٠٥، لأن هذه الصفة التي هي الحكم والتشريع والأمر من أخص خصائص الرب ﷻ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤، فالتشريع والحكم محظورة على الخلق، والله تعالى لم يأذن للناس أن يشرعوا ويسنوا الدين ﴿ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١ ، فهم أحقر من ذلك وهذه مرتبة لا يبلغها إلا من له الخلق والتدبير والملك والربوبية والألوهية .

ويدل لذلك أدلة كثيرة جداً منها :

قولــه تعــالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١، وسماهم الله ﷻ شركاء معه يشرعون .

قولـه تعـالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ يونس: ٥٩ .

قال تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١. فسماهم أربابا لأن شركهم متعلق بالربوبية وهو أشد من الشرك في الألوهية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤.

قوله تعالى : ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ يوسف: ٣٩ .

قولــه تعــالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ الأنعام: ١٣٧.

قولــه تعــالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ التوبة: ٣٧ .

تنبيه لطيف : جعل الله ﷻ تحليل ما حرم الله زيادة في الكفر ، فإذا كان الحكم بتأجيل حرمه شهور هو زيادة في الكفر فكذلك كل تشريع وحكم بغير مـا أنـزل الله ولو في مسألة واحدة هو زيادة في الكفر، فكيف بمن يزيد على ذلك بتبديل شرائع الله عز وجل كلها وينحي الحكم بالشريعة الإسلامية .

ومن كانت أحكامه الشركية وتشريعاته العفنة وقوانينه الكفريـة قائمـة عـلى إباحة الخمر في الأماكن السياحية وعدم مؤاخذة الزاني إذا حصل برضى المرأة وتجويز الربا وحمايته والإلزام بسداده وغيرها من الأحكام الإلحادية أليست أولى بـأن تكـون من الزيادة في الكفر والردة المغلظة لا أن تكون من الكفر الأصغر الذي دون الكفـر، فالله تعالى حكم على المشرع الحاكم بأنه زاد في الكفر ومرجئة زماننا حكموا عليه بأنه كفر دون كفر وليس زيادة في الكفر فقاتلهم الله أنى يؤفكون .

قــال تعــالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ ، فـإذا سمى الله مطيع المشرع مشركاً فكيف بالمشرع نفسه إن كفره أعظم وأولى بالتكفير من غيره.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ النساء: ٦٠. وتأمل وجه الكفر في هذه الآية من أوجه:

أولاً: أن الله تعالى كفّر المتحاكمين وأكذبهم في زعمهم للإيمان ﴿ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا ﴾، فكيف بالحاكم الذي يتحاكم إليه؟

ثانياً: أن الله ﷻ سمى المتحاكم إليه طاغوتاً ﴿ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾.

ثالثاً: أن الله أمرنا بالكفر بالطاغوت والبراءة منه: ﴿ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾، فكل تشريع وقانون وحاكم بهذا القانون يجب تكفيره والكفر بحكمه بنص الآية.

ومن الآيات المبينة لشرك التشريع وكفر فاعله: قوله تعالى:

﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ يونس: ٥٩

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ التوبة: ٢٩

﴿ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ﴾ الأنعام: ١٤٠

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ النحل: ١١٦ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ التحريم: ١

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ الأعراف: ٢٨

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ المائدة: ١٠٣

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ الأعراف: ٣٢

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ المائدة: ٢

﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴾ الأنعام: ١٣٨

ومن الأدلة أيضا الآيات التي أثبتت اختصاص الله ﷻ بالحكم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ الأنعام: ٦٢ ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠ .

وغير ذلك من الآيات التي تقدم بيان جزء منها في مسألة سابقة في كفر الحاكم بغير ما أنزل الله والمشرع للتحليل والتحريم.

من أدلة شرك التشريع:

حديث عَديّ بن حاتم لما قال للنبي ﷺ حين سمعه وهو يقرأ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، إنا لسنا نعبدهم ، فقال النبي ﷺ : " أَلَيْسَ كَانُوا يُحِلُّونَ لَكُمُ الحَرَامَ فَتَسْتَحِلُّونَهُ ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْكُمُ الحَلالَ فَتُحَرِّمُونَهُ ؟ " ، قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم . رواه الترمذي والطبراني والبيهقي والطبري.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ : (رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار ، وكان أول من سيّب السوائب) متفق عليه.

وفي رواية (وهو كافر ؛ إنه أول من غَيّر دين إبراهيم، وبحر البحيرة ، وسيّب السائبة ، وحمى الحامي) . أخرجه الطبري في تفسيره.

السابعة : الجهات المتعلقة بالتشريع :

الأولى : المشرع المحلل والمحرم الواضع للتشريع وسان القانون .

وهو المقصود هنا فمن جعل لنفسه حق التشريع واستشرف هذه الصفة الخاصة بالله (الحكم والتشريع) وشارك الرب ﷻ فيها، فهو كافر خارج عن الملة .

الثانية : الحاكم بغير ما أنزل الله الذي يحكم بالقوانين الوضعية .

الثالثة : المبدل والمنحي والملزم والجالب :

فمن بدل الشريعة بالقوانين الوضعية ونحى أحكام الله وتشريعاته لأجل القوانين أو ألزم الناس بأحكام القوانين أو جلبها إلى بلاد المسلمين وأدخلها، فهذا وقع في كفر ناقل عن الملة، وهذه الجهة لها علاقة بالمشرع من حيث أن المبدل والمنحي بدل وشارك في التبديل مع المشرع وله علاقة أيضاً بالمناط الثالث الذي هو الحكم فهو في منزلة الذي يحكم وإن كان من يباشر التشريع اشد شركاً ، والملزم أشد كفراً من حيث صد الناس عن دين الله تعالى .

الثامنة : حالات وصور التشريع التي يكفر بها فاعلها :

الصورة الأولى : المشرع والسان والواضع والمحلل المحرم وهو من يباشر التشريع وهو اشد الناس شركاً وكفرا.

الصورة الثانية : المبدل والمنحي .

الصورة الثالثة : الجالب لها وهو الذي يجلبها لبلاد المسلمين، فيجلب هذه القوانين والتشريعات الشركية الكفرية.

الصورة الرابعة : الملزم بها وهو من يلزم الناس بها .

الصورة الخامسة : الداعي لها كمن يفتح الكليات لتدريس القوانين ، وينشر الكتب في ذلك ويدرسها ويقوم بشرحها ونشرها .

الصورة السادسة : المستشار القانوني ومثله المحامي ، إذا تعلق عملهم بالاعتراف بالقانون الوضعي .

الصورة السابعة : المحسّن لها ومن يسعى لتحسينها ويثني عليها ومن يفضل القوانين الوضعية والتشريعات ويستحلها ويرضى بها.

الصورة الثامنة : الملتزم بحكم الطاغوت الحاكم به من قضاة أو حكام ، وهذا متعلق بالقسم الثالث وسنأتي عليه.

الصورة التاسعة : من يتحاكم إلى التشريع ما لم يكن مكرهاً مضطراً .

والعبرة أن كل من يشارك في التشريع بوضعه أو بإقراره أو بنشره أو مدحه أو العمل به أو غير ذلك، فإنه يكفر ويخرج من الملة وقد يكون كفره عملياً وقد يدخل مع ذلك في الكفر الاعتقادي كالذي يمدح حكم الطاغوت ويستحله ويفضله.

التاسعة : صفة المشرع :

المشرّع قد يكون فرداً حاكماً أو قاضياً وقد يكون جماعة وقد يكون التشريع لهيئة أو لجنة أو منظمة أو محكمة أو مجلس تشريعي .

ومن يجعل لنفسه حق التشريع والحكم ويستشرف هذه الصفة ويشارك الله فيها فهو كافر غليظ الكفر سواء كان المشرّع سلطانا ورئيسا وأميرا أو حاكما أو قاضيا أو عالما كالمحلل والمحرم أو عريفا وفريضا قبلياً أو أنه عضوا في لجنة تشريعية كالمجالس النيابية والبرلمانية والمجالس الشعبية ومجلس الأمة وغير ذلك .

العاشرة : أن المشرع يكفر مطلقاً بكل حال :

سواء عُمِل بقانونه أو لم يعمل بقانونه بل حتى ولو لم يشرع فمجرد ما يرى أنه المشرع في هذا المحل أو أنه صاحب السلطة التشريعية أو ممن له حق التشريع أو أنه ضمن مجلس النواب التشريعي أو البرلمان التشريعي أو له حق إصدار القانون والتشريع والاقتراح في ذلك ونقضه أو أن له حق السيادة التشريعية، فهو كافر إجماعاً فمن فعل هذا العمل واتصف به أو ادّعى لنفسه الحق في الحكم والتشريع فهو كافر .

الحادية عشرة : أقسام المشرعين :

الأول : من يشرع ويقول : أن هذا الشرع الذي وضعه هو حكم الله أو أن الله أمر بهذا وينسبه إلى الله تعالى . كما هو حال بعض مشركين الجاهلية في قولهم الكاذب: ﴿ وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ الأعراف: ٢٨، وهذا كفره كفر التكذيب وهذا يندر وجوده .

الثاني : من يشرع ويقول : هذا من عندي وليس من عند الله : وله حالتان :

الحالة الأولى : إن قال : ما جئت به أفضل من شرع الله تعالى أو مساو أو يجوز أن أشرع والعمل به وهذا حال أكثر الحكام كما نراهم يمدحون تشريعاتهم ودساتيرهم ويعظمونها ويقسمون بها ويثنون عليها .

الحالة الثانية : إن قال : شرع الله أفضل ولا يستحل ما قام به من تشريع ويقول أن ما قمت به من تشريع ومن الحكم بغير ما نزل الله فإن ذلك محرم ، وأن ما جئت به وشرعته ليس بأفضل ولا أصلح من حكم الله في هذا العصر و يدّعي هذا المشرع أنه ما فعل ذلك إلا مكرها أو ضرورة أو إرضاء للشعب أو خوفا من الكفار.

وهذه الحالة لو تصورنا وجودها فإنها تعتبر من الكفر المخرج من الملة وهي كفر بذاتها لأن صاحبها استشرف خاصية التشريع وضاهى الرب في أخص أوصافه وحكم بغير ما أنزل الله ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤.

وقد ذكر الله ﷻ كفر المشرّع مطلقاً سواء استحل أو لم يستحل، وعدم تكفير هذا الجنس هو تعطيل لأحكام الله واستهزاء بدينه ومخالف للإجماع وشك في التوحيد وتصحيح للشرك ودين الكفار وتجويز لهذا الكفر وعدم تكفير للمشركين وتصحيح لمذهبهم أعاذنا الله من كل ذلك .

الوقفة الثانية عشرة : التشريع الكلي والجزئي :

المشرع والمبدل والجالب للقوانين الوضعية يعتبر فعله كفراً مطلقاً سواء كان تبديله وتشريعه في كل الشريعة أو في جزء منها كالمعاملات أو أنه متعلق بحكم واحد فقط ومسألة واحدة يضع لها قانونا عاما متبعاً .

فمن وضع قانوناً واحداً يحكم به ويلزم به في مسألة واحدة فإنه كافر إجماعاً، فلو شرع حاكم للناس وألزمهم بأن من استدان رباً فإنه يجب عليه سداده فإنه يكفر بالإجماع، ولو كان موافقاً لحكم الشريعة في كل أحكامه، فإنه بمجرد هذا القانون يخرج من الملة، فكيف إذا جمع قوانين أخرى فكلما أتى بشرع عذب به وزاد كفره والدليل قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ التوبة: ٣٧ ، فهم كفار قبل ذلك

ولكن تشريعهم النسيء في أشهر الله الحرم زاد في كفرهم وهذا الذي عليه أهل العلم من أهل السنة .

الثالثة عشرة : العلاقة بين التشريع والقانون :

التشريع والقانون بمعنى متقارب وسنذكر المسائل المتعلقة بالقانون في مبحث مستقل إن شاء الله تعالى .

الرابعة عشرة : العلاقة بين التحليل والتحريم والتشريع :

التشريع أعم من التحليل والتحريم فالتشريع غالبا يطلق على ما جمع بين أمرين الأول التحليل والتحريم والثاني الحكم به والإلزام وجعله دينا وشرعا متبع .

وإن كان التحليل والتحريم يعتبر تشريعاً من حيث الأصل، إلا أن الإلزام والحكم به كفر آخر وهو أشد كفراً وأغلظ وأعظم، ويسمى في الغالب قانوناً فمن أفتى بحل الربا ليزيد اقتصاد الحكومة مثلاً أو الزنا في فنادق السياحة فإنه يعد مشرعا محللا كافراً ومن ألزم الناس بهذا الحكم ووضع قانوناً فيه فيعتبر مشرعاً وهو أشد كفراً لوقوعه بالتشريع والإلزام والحكم .

وغالبا التحليل والتحريم يقوم به العلماء والفقهاء ، بينما التشريع يقوم به الحكام والأمراء ويكون ممن له سلطة .

الخامسة عشرة : الفرق بين التشريع والتنظيم الإداري :

التنظيم الإداري لا يعد تشريعاً فقد وضع عمر ﷺ ديوان الجند ووضعت دواوين متعلقة بالمظالم والزكاة والعمال ونحو ذلك .

وقد خالف في التنظيم الإداري طائفتان : الأولى عدوه من التشريع مطلقاً دون تفصيل، والأخرى أدخلوا فيه التشريع وتحليل ما حرم الله باسم التنظيم.

وسنأتي بالضابط في الفرق بين الأمرين ومرد ذلك لوجود التحليل والتحريم.

السادسة عشرة : الفرق بين المشرع والمبدل والجالب والمنحي والحاكم :

المشرع هو الذي يباشر التحليل والتحريم ويعد مبدلاً جالباً .

والمبدل أو الجالب هو من يعمل بهذا التشريع أو يلزم به أو يدعو إليه ويعتبر مشرعاً في الجملة ولو لم يكن هو الذي وضع هذا التشريع.

كذلك كل مشرع يعتبر حاكماً بغير ما أنزل الله وليس كل حاكم بغير ما أنزل الله يعتبر مشرعاً فقد يحكم الحاكم بغير ما أنزل الله بشرع وقانون غيره، فلا يعتبر

مشرعاً ، كالحاكم والقاضي في المحاكم الوضعية الذي يحكم بالقانون الوضعي فهذا لا يعد مشرعاً وإنما حاكماً بالتشريع والقانون الشركي .

وهذا التفريق يفهم منه أن المشرع أشد كفراً وأغلظ ردة من الحاكم والجالب والمبدل ، ولا يفهم منه كما يفهم المرجئة أن المبدل والجالب والحاكم ليسوا بكفار مشركين لأن مناط الكفر عندهم هو التشريع وليس الحكم بذلك التشريع .

السابعة عشرة : أوجه الكفر في الحكم والتشريع كثيرة :

منها أنه نقض صاحبه التوحيد ووقع في الشرك في شرك الربوبية والألوهية وشرك التعطيل والتمثيل ، ونقض الشهادتين أركانها وشروطها ومقتضياتها ، ونقض صاحبه حقيقته الإيمان وأركانه ، ونقض حقيقة الإسلام ، ووقع في الإعراض عن دين الله والإباء والامتناع عن الانقياد له، وانتقاص حكم الله.

وغير ذلك كما تقدم في مسألة سابقة ، فكل وجه ذكرناه من أوجه كفر الحاكم بغير ما أنزل الله ففي المشرع ظهوره أوضح وأولى من غيره .

الثامنة عشرة: حكم المشرع ونوع شرك التشريع:

المشرّع واقع في كفر وشرك التشريع الذي هو أشنع أنواع الشرك والكفر لأن التشريع من خصائص الربوبية ولذلك من وقع فيه فقد أشرك في ربوبية الله تعالى مع شركه في ألوهيته ومن هذا الوجه سماه الله تعالى رباً وسماه طاغوتاً لأنه تجاوز الحد في الكفر والشرك وشارك الله في فعله ورد عليه قوله : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ .

وإذا كان الله تعالى كفّر المتحاكم والمطيع في قوله: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠. فما بالك بالحاكم والمشرّع ؟

أيضاً المشرع يكفر مطلقاً حتى ولو فضل شرع الله ، وحرّم عمله واعتقد كذب نفسه، وحتى لو لم يشرع إلا في مسألة واحدة ولو ادّعى مع ذلك الإكراه فإن هذا لا يعتبر مانعا من كفره وإخراجه من الملّة فيجب تكفيره سواء كان حاكماً أو عضواً أو مشرعاً مستقلاً أو مشاركاً في التشريع فالحكم فيهم سواء .

قال ابن تيمية: (والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحلال أو بدّل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا بالاتفاق) الفتاوى٣/ ٢٦٧.

المناط الثالث : الحاكم والحكم بغير ما أنزل الله :

الوقفة الأولى : مناط التكفير في هذه القسم :

هو التزام الحكم بغير ما أنزل الله .

الوقفة الثانية : تعريفه :

هو من يقوم بشرك الحكم فيباشر الحكم بغير ما أنزل الله ، ملتزماً ذلك ، معرضاً عن حكم الله متولياً عنه وتاركاً له ورادا له، منقاداً ملتزما بحكم الطاغوت.

فالمذعن المستسلم الملتزم بحكم الطاغوت، والرافض والمعرض والممتنع عن حكم الشريعة، كافر بلا خلاف ، أما من يحكم في بعض القضايا بغير ما أنزل الله فسيأتي الكلام عنه .

فهو واقع في كفرين :

الإعراض عن حكم الله ، والشرك في حكمه وعدم الكفر بحكم الطاغوت .

الوقفة الثالثة : أدلة كفر صاحب هذه الحالة الحاكم :

أولا : الآيات التي فيها في إثبات اختصاصه بالحكم : منها

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يوسف: ٤٠، والحكم من العبادة التي لا تصرف إلا لله .

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ الأنعام: ٦٢

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ الأعراف: ٥٤، فمن له الخلق له وحده الحكم والأمر.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ الأنعام: ١١٤.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ المائدة: ٥٠

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ الأنعام: ٥٧، ويقص قرأت بالمعجمة يقض الحق من القضاء والفصل والحكم.

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ الكهف: ٢٦ ، وقرأ ابن عامر ولا تشرك ،والحاكم مشرك بنص الآية.

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ الرعد: ٤١

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ المائدة: ٤٨

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ النساء: ١٠٥

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الشورى: ١٠

ثانيا: الآيات التي نفت الإيمان عمن حكم بغير شرع الله وحكمت بكفره:

قال تعالى في بيان هذا الأصل:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ الأحزاب: ٣٦

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠. وإذا كفّر الله ﷻ المتحاكم فكفر الحاكم من باب أولى كما سمى الله الحاكم طاغوتاً وأوجب الله علينا الكفر به.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١

﴿ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٤٣ .

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المائدة: ٤٧ .

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ النساء: ٥٩

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ المائدة: ٤٩

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ النساء: ١٠٥

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الشورى: ١٠

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ النور: ٤٨

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١

﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران ٦٤

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١.

وغير ذلك من الأدلة التي ذكرناها في بداية هذا الناقض .

الوقفة الرابعة : الفرق بين الحكم بالقانون والحكم بالهوى :

لا فرق في الحاكم بين أن يحكم بقانون أو أن يحكم بالعرف والعادة أو يحكم بسلوم القبائل والعشائر ومذاهبها وعاداتها أو من يحكم بمجرد هواه دون اتباع قانون معين، فمجرد ما يترك حكم الله تعالى معرضاً عنه غير منقاد له ولا ملتزم به فهذا بذاته يعتبر كفراً ، وإن كان الحكم يتفاوت في غلظة الكفر فالحاكم بالقانون أشد كفراً ممن يحكم بمجرد هواه لأن الحاكم بالقانون ارتكب كفرين :

الأول : الإعراض عن حكم الله تعالى والوقوع في شرك الحكم وهذا يستوي فيه هو ومن حكم بهواه .

الثاني : الإيمان بالطاغوت وهو القانون والاعتراف به . ومن هذا الوجه صار الحاكم بالقانون أشد كفراً من الحاكم بمجرد هواه الملتزم به وكليهما كفرهم كفر أكبر مخرج من الملة وإن لم يستحلوا هذا العمل .

الوقفة الخامسة : المقصود بالحاكم :

هو من يباشر الحكم أو يقوم به سواء كان فرداً كقاض أو حاكم، أو كان جماعة يحكمون كقضاة في محكمة أو هيئة حاكمة أو لجنة أو مجلس يعقد للحكم، وكل من يباشر الحكم بغير ما أنزل الله ويقوم به أو يشارك فيه أو يرض به فهو داخل تحت قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤.

الوقفة السادسة : الحكم الشركي كفر سواء كان في محكمة وضعية قانونية أو خارجها :

لا فرق في الحكم بغير ما أنزل الله بين أن يحكم الحاكم به في محكمة شرعية أو محكمة وضعية قانونية أو يحكم به خارج نطاق المحاكم أو يكون مستشارا قانونيا أو يكون حكماً مرتضى من طرفين أو مصلحاً أو حاكماً في قبيلة عارفاً بسلومها وعاداتها، لا فرق بين هؤلاء في الحكم لأن مناط التكفير هو الحكم بغير ما أنزل الله، وليس أصل الحكم خاصاً بالعمل في محكمة وضعية قانونية، وإن كان مجرد العمل بمحكمة قانونية وضعية يعد كفراً لأن لازم ذاك الانقياد والاتباع لما يصدر منها والرضا بوجودها، فعلة التكفير متعلقة بالحكم بغير ما أنزل الله، وعليه لا فرق لو حكم بغير

ما أنزل الله بين أن يحكم بذلك في محكمة شرعية أو يحكم في محكمة قانونية وضعية أو يحكم خارج المحكمة أو يحكم بالقانون أو يحكم بمجرد هواه بها أنه التزم بحكم غير حكم الله تعالى تاركاً لحكم الله غير قابل له ملتزم به ولا منقاد بـه ولا متبـع لـه فهـذا بحد ذاته كفر وردة .

الوقفة السابعة : أمثلة للحاكم بغير ما أنزل الله :

من يحكم في المحاكم الوضعية من قضاة القانون .

الذين يحكم في مجالس القبائل بين الخصوم ويسمى بالفريض والعارف بالمذهب، وربما سموا حكمهم صلحاً وتحكيماً ويحكمون بحكم لا يوافق حكم الله ﷻ كأن يقتل بالشريف شريفاً سواء كان قاتلاً أو غير قاتل وكقولهم في سوق المال قتل رجال .

القاضي الذي في محكمة شرعية ولا يحكم في السارق بقطع اليد مطلقا ولا يلتزم بحكم الله في هذا الحكم فتراه إما أن يحكم بالسجن أو الجلد دائما أو لا يحكم بالرجم مطلقا مع ثبوته عنده وكأنه مخير في إمضاء حد الرجم وتركه ونحو ذلك وهذا بخلاف من يترك حكم الله في قضية عينية واحدة عن هوى وظلم كما سيأتي .

وهؤلاء كفار بإجماع العلماء حتى لو علم فاعله أن حكمه يخالف الشرع ولم يستحل ذلك فإن استحله كان كفره اعتقادي راجع للقسم الأول .

الوقفة الثامنة : الفرق بين المشرع والحاكم والمبدل والملزم :

القاعدة : أن كل مشرع يعتبر مبدلا وحاكماً بغير ما أنزل الله وليس كل حاكم بغير ما أنزل الله يعتبر مشرعاً كالقضاة الذين يعملون في المحاكم الوضعية فهؤلاء حكام بغير ما أنزل الله وهم وإن كانوا في الكفر والردة سواء إلا أن الذي وضع هذه التشريعات والقوانين الذي هو المشرع هو أشد كفراً من الحاكم لأنه وقع في ناقض الحكم وناقض التشريع شرك الحكم وشرك التشريع .

أيضاً أن كل مبدل ومنحي للشريعة وملزم بالقانون يعد حاكماً بغير ما أنزل الله وكذا الحاكم له شيء من التبديل لشرع الله ﷻ .

وإن كان المبدل وجالب القوانين الملزمة والمبدل بها الشريعة له سلطة وتبديله أعم وأشمل والحاكم أخص وقائم بالمحكومين .

الوقفة التاسعة : علة تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله :

وهو داخل في عموم سبب كون الحكم بغير ما أنزل الله ناقضاً من نواقض الإسلام وقد ذكرناها في مسألة سبقت .

وخلاصة القول : أن الحاكم بغير ما أنزل الله علة تكفيره ترجع في جهات :

الأولى : أن الحاكم واقع في كفر الإعراض والتولي والإباء والامتناع والاستكبار والصدود، وأعظم الإعراض كفرا ما كان إعراضا عن عبادة الله والحكم بشريعته والتحاكم إليه من أعظم مقتضيات عبادته التي من تولى عنها فهو كافر الكفر الأكبر .

العلة الثانية : أن الحاكم ترك حكم الله والالتزام به والانقياد لشرعه وقبول أمره وأعرض عن دين الله ، فلم تتوفر فيه شروط (لا إله إلا الله) ومن شروطها: الانقياد والقبول، والذي يحكم بغير ما أنزل الله فهو غير منقاد فيعتبر كافرا بها كفراً عملياً ولذلك قال تعالى :﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥.

العلة الثالثة : أن الحاكم واقع في الشرك بالله في الحكم الدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠، والحكم من العبادة التي لا تصرف إلا لله.

فالحاكم مشرك في الحكم وقد سماه الله عز وجل طاغوتاً ورباً وإلهاً ، وإذا كان الله ﷻ قد كفّر المتحاكم إلى الحاكم بغير ما أنزل الله والمطيع الذي أطاعه في تشريعه وحكمه وتبديله وتحليله وتحريمه :﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠. فإن الحاكم والمطاع من باب أولى أن يكفر وتجري عليه حكم الردة وكفره أولى .

العلة الرابعة : أن الحاكم واقع في عدم طاعة الله ورسوله ومتابعة الرسول ﷺ ومن لم يتابع الرسول ﷺ ويطيعه فهو كافر ناقض لشهادة أن محمداً رسول الله والدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ الأحزاب: ٣٦﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١.فليس لمؤمن خيار في الأخذ بحكم الله عز وجل فإما أن يقبله ويأخذ به ويتابع الرسول ﷺ وإما أن يكون غير مؤمن بنص الآية.

الوقفة العاشرة : سمى الله الحاكم المشرك طاغوتا ومشركا وجاهلي:

أن الحكم بغير ما أنزل الله يعتبر من الجاهلية ويوصف بها قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ المائدة: ٥٠ فما ثم إلا حكم الله أو حكم الجاهلية والطاغوت ولا قسم ثالث والحاكم بغير ما أنزل الله حاكم جاهلي ويعتبر طاغوتاً بنص القرآن : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠.

وقد عد محمد بن عبدالوهاب الحاكم المشرع أحد رؤوس الطواغيت الخمسة، والطاغوت يطلق على الحاكم المشرك وعلى حكمه وعلى المحكمة التي يحكم فيها .

الحادية عشرة : كفّر الله المتحاكم وفي هذا دليل على كفر الحاكم من باب أولى :

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ .

وقوله في المنافقين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١ وغير ذلك من الآيات التي جعلت المتحاكم إلى غير شرع الله كافر والإعراض عن حكم الله تعالى حكماً وتحاكماً كفر وردة وهو من نواقض الإسلام، والمعرض عن التحاكم لشرع الله كافر فكيف إذا بالحكام نفسه المعرض عن حكم الله .

الوقفة الثانية عشرة : أصناف الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله :

الصنف الأول : الجاحد لحكم الله تعالى وجحود حكم الله تعالى يكون بأمور، إما أن يجحد بلسانه وبقلبه أو يجحد بلسانه دون قلبه وهذا حال اليهود أو أن يجحد بالقلب فقط مع إظهار الإقرار وإدعائه وهذا حال المنافقين أو أن يجحد بالعمل دون اللسان وهذا يسمى الاستحلال العملي ومن صورة الممتنع عن الشريعة وكالذي يضع المحاكم الوضعية والكليات القانونية ويدافع عنها وينشرها ويستميت في إظهارها وقمع المخالفين لها .

وهذه درجات الجحد، وقد ذكرنا الجحود والاستحلال في المناط الأول من مناطات التكفير ويدخل فيه المستخف والمستهزئ ونحو ذلك .

الصنف الثاني : الحاكم المشرع وهو الذي يشرع ويحكم بتشريعه ويضع القوانين ويسنها للناس، وهو كافر مطلقاً ولو لم يضع إلا قانوناً واحداً كأن يقول :

من سرق لا تقطع يده أو من استدان رباً فيلزمه السداد، وهـذا الصنف ذكرنـاه في القسم الثاني من حالات الكفر في الحكم ومناطاته .

الصنف الثالث : المبدل والمنحي للشريعة والملزم بالقوانين الوضعية والتشريعات الكفرية ومن يجلبها إلى بلاد المسلمين وهذاالصنف أيضاً داخل في عموم القسم الثاني وهو المشرع.

الصنف الرابع : القاضي والحاكم بغير ما أنزل الله من غير أن يشرع أو يجحد وهذا له أقسام وأحكام .

القسم الأول : من يحكم بقانون أو بالعادات أو بأعراف القبائل ويلتزمها وهذا كافر خارج من الملة .

القسم الثاني : من يلتزم الحكم بغير ما أنزل الله ديدنه ذلك، وهو الأصل عنده أن يحكم بغير ما أنزل الله ولا يحكم بما أنزل الله ولا يتبع ما أنزل الله ولا ينقاد لأحكام الله وإنما يحكم بهواه متبعاً وملتزماً بما يمليه رأيه وعقله.

كمن لا يحكم بما أنزل الله في كل الأحكام أو بعضها كأن لا يحكم بالشريعة مطلقاً في معاملات البنوك أو رجم الزاني المحصن وقتل اللوطي أو لا يحكم في حد السرقة بالقطع مثلاً لا يقطع يد السارق مطلقاً كلما جاءه سارق إما أن يجلده أو يسجنه أو يتركه ولا يلتزم بحكم الشريعة في القطع.

ومن هذه حاله فهو كافر مطلقاً خارج عن الملة لأنه معرض عن حكم الله ممتنع عنه غير منقاد به ولا قابل له، ولا يشترط في تكفيره أن يستحل الحكم بغير ما أنزل الله. ولم يخالف في تكفيره إلا المرجئة واشترطوا في تكفيره الاستحلال وجعلوه مثل من يقضي في مسألة واحدة والأدهى من ذلك أنهم زادوا في إرجائهم المستخبث حتى ذهبوا إلى أن المشرع لا يكفر إلا إذا استحل ولهم في ذلك شبهات سنوردها ونرد عليها إن شاء الله تعالى .

القسم الثالث : من يحكم بما أنزل الله تارة ويحكم بغير ما أنزل الله تارة أخرى ولكن الأكثر أن يحكم بغير ما أنزل الله وأكثر أحواله أنه يعرض عن حكم الله تعالى وهذا وقع فيه خلاف بين أهل العلم فمن أهل العلم من كفره واعتبره غير ملتزم بالشريعة مستحلا بعمله ومن أهل العلم من أعده مع قسم رابع سيأتي .

القسم الرابع : من يحكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله متعمدا وليس مخطأ ولا مستحلا، فيتعمد ترك حكم الله بشهوة أو ظلم أو ابتغاء رشوة أو هوى أو غير ذلك، ولا يكون حكمه عاماً وتشريعاً ملزما للناس ، ولا يكون ملتزماً هذه الصفة.

ومثاله : أن يأتيه السارق بينه وبين القاضي قرابة أو عطف عليه فلا يقطع يده ولا يحكم عليه بحد السرقة ويقول ما ثبت لدى أنه سرق وما توفرت شروط السرقة أو نحو ذلك، وفي بقية أحوال هذا الحاكم أنه يحكم بما أنزل الله ولكن في هذه القضية بعينها وليست كل قضية سرقة وإنما يحكم في قضايا قليلة ومعينة بغير ما أنزل لا أنه يلتزم الحكم بغير ما أنزل الله وإنما ملتزم بما أنزل الله وفي بعض القضايا يخرج عن الحكم بما أنزل الله ويحكم بهواه ، فمن هذه صفته لا يعد كفره كفراً مخرجاً من الملة وإنما كفراً أصغر (كفر دون كفر) كما روي عن ابن عباس في بعض حكام بني أمية.

تنبيه: قال بتكفير هذا النوع من الحكام بعض أهل العلم حين وكفروا صاحب هذه الحال وأدرجوه مع الذي يلتزم الحكم بغير ما أنزل الله ، كما قال به الخوارج .

كما أنه ينسب هذا الرأي إلى زيد ﷺ وابن مسعود ﷺ عندما سئل عن الرشوة، فقال :(هي السحت) فقيل له : في الحكم ذلك؟ قال: (ذلك الكفر، ثم تلا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. رواه ابن منصور والصنعاني والطبراني.

وكلامهم قد يحمل على الاستحلال أو أنه على الأصغر أو أنه رأي لهم .

هذا وسنأتي بالأدلة وكلام أهل العلم على أن الحاكم في قضية معينة لا يكفر، وأما المكثر فالحكم بتكفيره مسألة اجتهادية اختلف فيها أهل العلم .

وعلى ذلك فالقاعدة هنا التفريق بين أن يحكم بغير ما أنزل الله مطلقاً ممتنعاً عن حكم الله ﷻ كلما جاءه سارق لا يحكم فيه بالقطع وكلما جاءه زان حصن لا يرجمه وبين من كان الأصل فيه أنه يحكم بما أنزل الله ولكن حكم بغير ما أنزل الله في بعض القضايا بهوى ونحوه، فكفر هذا كفر أصغر وفعله من الكبائر إلا أنه لا يخرج من الملة، ولا يكفر هذا إلا إذا استحل أو حكم بقانون قصدا مقرا به، أو كان حكمه في مسائل التوحيد مخالفة مسائل التوحيد . كما سيأتي في شروط تكفيره .

القسم الخامس : وهو من يحكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله مستحلا لعمله وهذا يكفر بالاستحلال والجحود .

أو تكون القضية المعينة كفر بذاتها وناقضة لأصل التوحيد، كمن يحكم بإقرار الشرك وإبقاء القبور والطواف بها، أو يجيز نشر مجلة فيها سب لله وسخرية برسوله

واستخفاف بدينه، أو يحكم بقانون قصدا مقرا به وإيمانا منه بالطاغوت، وهذا كافر مطلقاً لأن كفره من جهة نقضه للتوحيد وليس بمجرد أنه حكم في قضية معينة .

وسنأتي على شروط عدم تكفير الحاكم في القضايا المعينة في مسألة مستقلة إن شاء الله تعالى .

تنبيه : لا يدخل المشرع في التقسيم السابق في الحاكم وأصنافه وكونه لا يخرج من الملة في بعض الصور :

فالتقسيم السابق لا يشمل المشرع، فالمشرع وكذلك المبدل والملزم كفار مطلقاً ولا فرق أن يشرع في قانون واحد أو أن يشرع في قوانين متعددة والتفريق خاص بالحاكم .

الوقفة الثالثة عشرة : أحوال الحكام :

الأول : الذي يحكم بما أنزل الله وهذا له أجران .

الثاني : من يحكم بما أنزل الله ولكن حكم بغير ما أنزل الله عن طريق الخطأ غير متعمد الحكم بغير ما أنزل الله وليس بمفرط أو جاهل ، وهذا مخطئ وله أجر على اجتهاده معذور في خطأه .

الثالث: من يحكم بغير ما أنزل الله متعمدا،وهذا بينا حالاته في الوقفة السابقة.

الوقفة الرابعة عشرة : المكثر من الحكم بغير ما أنزل الله :

من كان الأصل فيه الحكم بما أنزل الله، لكن يكثر مخالفة شرع الله في الحكم، فهذا وقع الخلاف فيه بين العلماء وسبب الخلاف فيه هو الاختلاف في تحقيق شروط لا إله إلا الله في هذا الحاكم هل توفر فيه شرط الانقياد والقبول أم لم تتحقق فيه ؟

فمن قال : أنها وجدت وأنه منقاد ومذعن وملتزم وقابل وأن الحكم بغير ما أنزل الله كالإكثار من الزنا ونحو ذلك أعده مسلما .

ومن أهل العلم من قال : هذا وقع في جنس الحكم والحكم منه ما هو كفر أكبر ومنه ما هو كفر أصغر وعدم الالتزام بالحكم بما أنزل الله يلحق بالكفر الأكبر لأنه غير منقاد ولا قابل لحكم الله تعالى .

ومن ذلك اختلاف السلف في الحجاج لما أكثر الحكم بالقتل وغير من الشرع، وممن قال بكفره من السلف الشعبي وسعيد بن جبير وتوقف فيه آخرون .

قال القاضي عياض : (حجة الجمهور أن قيامهم على الحجاج ليس لمجرد الفسق، بل لما غير من الشرع وأظهر الكفر) شرح مسلم في حديث إلا أن تروا كفرا.

المناط الرابع والحالة الرابعة : التحاكم والطاعة والإتباع :

وتحت هذا القسم وقفات مبينه لهذا القسم وهـذه الحالـة والوجـه مـن مناط التكفير في الحكم .

الوقفة الأولى : مناط الكفر في هذه الحالة التحاكم والطاعة :

التحاكم إلى غير ما أنزل الله وطاعـة المحللـين والمحـرمين ومتابعـة المـشرعين واتباع حكم الطاغوت والدخول فيه اختيـارا ، والمتحـاكم والمطيـع والمتبـع كفـرهم متعلق بالتحاكم والطاعة ، وهو مـا يـسميه العلـماء : شرك الطاعـة وشرك التحـاكم وشرك الانقياد وشرك الاتباع.

وشرك التحاكم راجع إلى شرك الحكم وكفر الإعراض وكفره وارد من جهـة التحـاكم للمـشرعين الطواغيـت الحـاكمين بغـير مـا أنـزل الله وإتبـاعهم، وطاعـة المشرعين والحاكمين والمحللين والمحرمين واتباعهم .

قال ابن تيمية: (النفاق يثبت ويـزول الإيـمان بمجـرد الإعـراض عـن حكـم الرسول وإرادة التحاكم لغيره) الصارم٣٣.

الوقفة الثانية : الفرق بين الحكم والتحاكم والتشريع من جهات أهمها :

الفرق بين هذه الحالة والحالات السابقة.

الأولى : أن الحاكم هو الذي يقوم بإصدار الحكم بغير ما أنـزل الله والمتحـاكم هو المحكوم عليه والمتبع والمذعن والمطيع لذلك الحاكم ، فالمتحاكم ليس حـاكماً ولا مشرعاً .

الثانية : أن التحاكم والطاعة والإتباع الشرك فيهـا شرك في الألوهيـة، وشرك الطاعة والتحاكم والإتباع والانقياد نوع من أنواع شرك الألوهية .

وأما التشريع والحكم شركهما في الربوبية .

فالحاكم شركه في الربوبية والمتحاكم شركه في الألوهية .

الثالثة : أن شرك الطاعة أو التحاكم أو الاتباع أو المحكوم بغير ما أنزل الله فيه ما هو كفر أكبر وفيه ما هو كفر أصغر وكذا الحالة الثالثة وهي الحاكم بغـير مـا أنـزل الله فيه كفر أكبر وكفر أصغر أما الحالة الثانية وهي التشريع فلا تكون إلا كفـراً أكـبر ولا تأتي كفراً أصغر ولا يمكن أن يكون المشرع أو المبدل أو الجالب للقـوانين كفـره كفراً أصغر .

الرابعة : أن التشريع والحكم والتحاكم كلها من الشرك العملي وقد يدخل فيها شرك الاعتقاد إذا قارن الجحود لحكم الله والتحاكم له والاستحلال لحكم غيره والتحاكم له أما إذا لم يصاحبه فيبقى على الكفر العملي .

الوقفة الثالثة : تشتمل هذه الحالة على نوعين ومناطين :

المناط الأول : التحاكم إلى غير ما أنزل الله .

ودليل هذا النوع قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ .

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥.

المناط الثاني : طاعة المشرع والحاكم والمحلل والمحرم وإتباعه .

ودليل هذا النوع قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ .

وقوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ مع ما جاء من قصة عدي بن حاتم ﷺ .

هذان قسمان لهذه الحالة (التحاكم) وهي داخلة في عموم الإتباع والاتخاذ والطاعة والتحاكم .

الوقفة الرابعة : أدلة كفر أصحاب هذا المناط:

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ .

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥.

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ .

وقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١.

﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ آل عمران ٦٤ .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ الأحزاب: ٣٦.

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١.

﴿ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٤٣ .

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الشورى: ١٠

﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ النساء: ٥٩ .

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ النور: ٤٨

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ النساء: ١٠٥.

ومن أدلته الآيات التي في حقيقة عبادة الشيطان وأنها الطاعة والحكم والتشريع . منها : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ مريم: ٤٤

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ يس: ٦٠.

ومن أدلته ما جاء في سبب نزول آية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ ، وهي قصة عمر ﷺ مع الرجل الذي ترك وتولى وأعرض عن حكم الرسول ﷺ وأقبل إلى حكم عمر بعد أن حكم الرسول ﷺ وأبو بكر فيه ، فقتله عمر لأنه ترك وأعرض عن حكم الرسول ﷺ وأراد التحاكم إلى غيره، وهذا الرجل لم يكن مفضلاً لحكم الطاغوت وكان يعلم أن حكم الرسول ﷺ أفضل ولكن منعه إرادته أخذ شيء من المال والغلبة في الدعوة وانتصاره على خصمه فترك حكم الله ﷻ إلى حكم الطاغوت فنزل القرآن الكريم بتكذيبه وتكفيره، وتقدم .

وغير ذلك من الأدلة الدالة على وجوب التحاكم إلى ما أنزل الله وكفر المتحاكم إلى غير ما أنزل الله، فمن تحاكم أو اتبع واتخذ حاكماً يحكم له بغير ما أنزل الله أو يطيعه في غير ما أنزل الله وفي التحليل والتحريم فقد وقع في كفر يوجب الخروج من الملة ويبيح المال والدم .

الوقفة الخامسة : المحاماة : يدخل في هذا المناط الكفري ما يسميه الناس بالمحاماة وهي من مخلفات القوانين الوضعية، فالمحامي نائب عن موكله في المرافعات وهي على قسمين سيأتي الكلام عنها والجائزة منه ما كانت بمثابة الوكالة الشرعية ولم تسقط حكم الشرع ولم تقم على القوانين الوضعية .

الوقفة السادسة: شروط تكفير المتحاكم إلى الطاغوت :

يشترط في تكفير المتحاكم إلى الطاغوت وجود ثلاثة أمور :

الأول : أن يعدل ويتولى ويعرض عن التحاكم إلى حكم الله وشرعه مع وجود حكم الله تعالى وإمكانه مستبدلاً له بالتحاكم إلى غير حكم الله تعالى من الشرائع والقوانين الوضعية الكفرية الشركية الطاغوتية.

الثاني : أن يتحاكم إلى الطاغوت وليس مكرها، فإذا تحاكم من غير ضرورة تبيح له هذا الكفر ولو لم يجد غيره كان كافرا.

وهذا والذي قبله كفرهم كفر عملي ، فبمجرد ما يعرض عن التحاكم لحكم الله تعالى ويتولى عنه إلى التحاكم للطاغوت مع إمكانية وجود حكم الله أو لا يكون مكرهاً في تحاكمه ، فهذا يعتبر خارجاً عن الملة .

الثالث : أن يرضى بحكم الطاغوت ويريده ويطلبه أو يستحسنه ويرغب فيه وهذا يكفر مطلقاً حتى ولو لم يتحاكم إلى الطاغوت وهذا كفره اعتقادي .

فإذا لم يوجد هذه الأمور والشروط أو أحدها فلا يكفر المتحاكم .

الوقفة السابعة: حكم المضطر إلى التحاكم إلى حكم الطاغوت :

وصورته : من لا يجد إلا حكم الطاغوت كالذي يعيش في دول لا تحكم إلا بالقوانين ولا يمكنه إيجاد حاكم بالشرع ولا يستطيع استيفاء حقه أو دفع الأذى عنه أو كف شر معتد عليه إلا عن طريق هذه المحاكم الوضعية فتحاكم لها وهو غير راض بها فما حكمه ؟

اختلف أهل العلم في هذه المسألة على قولين :

الأول : من قال بحرمة عمله لأن التحاكم للمحاكم الطاغوتية كفر بذاته ولا يبيح فعل الكفر شيء غير الإكراه كما نصت الآية ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ النحل: ١٠٦.

وهذا القول عندي هو الصواب فالرخصة نصت على المكره دون المضطر والضرورات مبيحة للمحرمات التي دون الكفر أما الكفر فلا يبيحه غير الإكراه والله أعلم، لكن الضرورة إذا وصلت لدرجة الإكراه المعتبر شرعا صار لها حكمه.

القول الثاني : أن هذا التحاكم يعتبر جائزا وغير محرم :

ودليلهم: أن من هذه حاله فهو مضطر والمضطر ضرورة بالغة يلحق بالمكره في الحكم فالضرورات تبيح المحرمات وهي تقدر بقدرها فإذا كانت الضرورة بالغة جاز له وإن لم تكن كذلك حرم عليه التحاكم فالله أباح للمضطر ما لم يبح لغيره: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ الأنعام: ١١٩، كما أن مناط الكفر في التحاكم أمور جاءت في النصوص وهي إرادة التحاكم والمضطر غير مريد للتحاكم ، وأن كفره متعلق بالإعراض عن حكم الله إذا دعي له وهذا لم يجد من يحكم له بحكم الله حتى يقال عنه متولي ومعرض فلا يتصور الحكم إلا مع وجود حكم الله، كذلك هو في تحاكمه للطاغوت كافر به ليس منشرح الصدر به فيكون في حكم المكره الذي رخص له .

كما استدلوا بحديث الحجاج بن علاط السلمي عند أحمد : في نيله من النبي ﷺ أمام قريش وذلك لأخذ حقه وماله منهم وتجويز الرسول ﷺ له ذلك ، فقالوا أن انتزاع الحق وإرجاع المال يلحق بالإكراه في الترخص بفعل الكفر كما رخص لعمار.

وقد يجاب عنه : بأن ذلك خاص بالرسول ﷺ فهو الذي أذن له وهو استأذن قبل أن يفعل مما يدل على أن الأصل في هذا العمل المنع .

ثم إنه ليس في قول الحجاج سب وقدح وإنما موه عليهم بذكر أخبار كاذبة بهزيمة الرسول ﷺ وتعريض وتورية .

ثم اختلف أصحاب القول الثاني: أيهما الأولى للأفراد عند الضرورة لأخذ حقوقهم أن يتحاكموا إلى القوانين في المحاكم الوضعية أو يتركوا التحاكم إلى هذه المحاكم حتى ولو ضاعت حقوقهم المادية أو المالية وذهبت أموالهم للكفار؟

على قولين وأكثرهم أوجبوا تقديم مصلحة التوحيد وتعظيم مفسدة الوقوع في الشرك على غيرها فالأولى عدم التحاكم بلا شك، لأن ترك التحاكم للطواغيت وإعلان الكفر بها وإظهاره أولى من أخذه الحقوق مع تضييع الكفر بالطاغوت.

ومنشأ الخلاف في أصل هذه المسألة هو حقيقة الضرورة :

هل الاضطرار يلحق بالإكراه في الحكم ويقاس عليه أم لا ؟ وما هو ضابط الإكراه المعتبر به شرعاً ؟

تنبيه : اختلف أهل العلم في ضابط الإكراه .

فمنهم من خصه بالتعذيب وذهاب النفس أو بعض البدن وأذيته كالضرب، ومنهم من أدخل في السجن أو أخذ المال .

تنبيه : مع قولنا بتحريم التحاكم للمضطر فقد وجد من قال بكفره مطلقا ونحن لا نقول بذلك بل نقول بخطأ من حكم على المتحاكم المضطر بالكفر ولم يعذره بالتأويل ، كما وأخطأ من حكم على المكفر بأنه على مذهب الخوارج، فنقول مخطئ ولا نقول خارجي.

على ما تقدم تقريره نقول : من يجد المحاكم الشرعية أو حاكماً شرعياً ثم يعرض عنه ويقول أعلم أن حكم الله أفضل ، فهذا لا يقبل منه ويعتبر كافرا خارجاً من الملة لأنه معرض ومتول عن الشرع ، أو أنه لم يجد محاكم شرعية لكن تحاكم إلى حكم الطاغوت في أمر تافه من غير ضرورة فهو كافر ، والأشد منه كفراً من رضي بالمحاكم الطاغوتية واستحسن حكمها واعتقد أفضلية التحاكم إلى القوانين

الوضعية فهذا زيادة في الكفر وكفره كفر اعتقادي ولو لم يتحاكم، وإن كان مجرد وجود التحاكم إلى المحاكم الوضعية كفر عملي يخرج من الملة بمجرده .

نازلة: أباح البعض توكيل المحامي للمحاماة عن المسلمين المسجونين عند الكفار مع تحاكمهم للمحاكم الطاغوتية، وهذا قول باطل لأن المصلحة لا تجوز فعل الكفر.

الوقفة الثامنة : أقسام المتحاكمين إلى غير ما أنزل الله :

الأول : من يتحاكم إلى غير حكم الله تعالى وهو مريد لذلك الحكم راضياً به مختاراً له محباً له فهذا يكفر وإن لم يتحاكم له فمجرد إرادته ورضاه واختياره ومحبته، ومن قبيل هذا القسم من يقول: لا يصلح التحاكم في قضايا المعاملات أو السياسات أو خلافات الدول للمحاكم الشرعية .

الثاني : من يعرض أو يترك التحاكم إلى شرع الله ﷻ مع إمكانية التحاكم أو مع وجود المحاكم الشرعية أو وإمكانية إيجاد حكم الله ويتحاكم إلى حكم غير الله ﷻ وهذا يكفر ويخرج من الملة .

فهذا الكفر العملي في التحاكم : وضابطه التولي والإعراض والترك ورد حكم الله ﷻ والصد عنه وعدم الانقياد له وقبوله والإذعان له والالتزام به .

ومناط تكفيره الإعراض عن شرع الله ﷻ والتولي عن حكم الله ورسوله .

الثالث : من يتحاكم إلى المحاكم الوضعية مكرهاً لا يجد غيرها ولا يرضى بحكمها فلا يتوفر فيه شروط التكفير .

الوقفة التاسعة: أمثلة التحاكم الشركي الكفري للطاغوت :

تحاكم كثير من الناس للمحاكم القانونية الوضعية الغير شرعية كالمحاكم التجارية والمدنية والعمالية .

التحاكم إلى السلوم والقبائل ويوجد هذا الشرك عند كثير من القبائل والأعراب حتى قالوا (كسر الخشوم ولا كسر السلوم) أي: القتل وذهاب الرقاب ولا ذهاب أحكام القبائل والتحاكم إليها والحاكم بالقانون القبلي سواء كان شيخ القبيلة أو ما يسمونه بالعارف والعريفة أو الفريض ويحكم بين المتخاصمين في الدماء والحدود والجنايات والمعاملات وغير ذلك فالحاكم الذي سوغ لنفسه أن يحكم بغير ما أنزل الله بأنظمة القبائل وعاداتها خارج عن الملة كافر والذي يتحاكم إلى القبائل أيضاً خارج عن الملة.

الوقفة العاشرة: مذاهب الناس في المتحاكم :

الأول : وهو من غلا في تكفير المتحاكمين حتى وصل به الأمر إلى تكفير الشعوب الإسلامية لوجود محاكم وضعية يتحاكم إليها كمحاكم مدنية وقانونية وأهلية وتجارية وعمالية وغير ذلك وكفروا كل من هو مقيم في البلاد التي تحكم بالقوانين الوضعية، إلا إن انتمى إلى حزبهم وجماعتهم وبايعهم وأعلن أنه يكفر المخالف وهذه القول يوجد عند جماعة التكفير والهجرة التي أسسها في مصر مصطفى شكري وهذه الجماعة ومن تابعها صارت على منهج الخوارج .

كذلك يوجد ممن غلا في هذا الباب من أهل العلم فكفر كل من يتحاكم إلى المحاكم الوضعية مضطرا وهو كافر بها لكن لا يجد غيرها لأخذ حقه .

الثاني : وهو من لم يكفر المتحاكم مطلقاً إلا إن استحل واعتقد أن حكم الله لا يصلح وأن حكم غير الله هو الأفضل والأكمل وهذا ينتشر في المذهب الإرجائي الخبيث الذي عم أفكار كثير من المسلمين وأفسدها وزعموا أن الحاكم بغير ما أنزل الله فضلاً عن المتحاكم مؤمن لا يكفر بمجرد هذا العمل ما دام أنه لم يستحل .

الثالث : وهو المتوسط وهو من يكفر المتحاكم إذا وجد فيه أحد أمرين ذكرناهما إما الإعراض عن حكم الله ﷻ والتولي عنه ، وإما رضاه بوجود هذه المحاكم الوضعية وإقراره لها واعترافه بها وإرادته حكمها وهذا يكفر ولو لم يتحاكم إلى هذه المحاكم .

مسألة : الرد على من جعل مناط الكفر في التحاكم متعلق بالإرادة وخاص بالاعتقاد ومحلها في الباطن :

ليس شرطاً في تكفير المتحاكم أن يفضل حكم الطاغوت فإنه بمجرد ما يعرض يعتبر قد كفر بنص الآية: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ .

وقد تعسف بعض المرجئة وحمل الإرادة هنا على التفضيل والاستحلال الاعتقادي ، وقال بعض أهل العلم أن من ترك حكم الله إلى غيره مع وجوده فقد فضل حكم غير الله عز وجل تفضيلاً عملياً ولو لم يعترف بلسانه، والله كفر كما في الآيات بمجرد الطاعة والإتباع والاتخاذ والتحاكم دون اقتران الاعتقاد وهذا من الكفر العملي ما نصت عليه الآيات : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ .﴿

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ . ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١. ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥.

قال ابن تيمية: (النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم لغيره) الصارم٣٣.

قال الشنقيطي: (كل من اتبع تشريعاً غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم ﷺ فاتباعه لذلك التشريع المخالف كفر مخرج من الملة) أضواء البيان ٣/ ٤٣٩ .

قالت اللجنة في جوبها رقم ٨٠٠٨ وفيه ردها على من جعل مناط التكفر في التحاكم متعلق بالإرادة ومحلها في الباطن ولا يمكن الاطلاع على ذلك ومعرفة : (المراد بالإرادة في قوله ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ ما صاحبه فعل أو قرائن وأمارات تدل على القصد والإرادة بدليل ما جاء في الآية التي بعد هذه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١ ، ويدل على ذلك سبب النزول الذي ذكره ابن كثير وغيره في تفسير هذه الآية، وكذلك المتابعة دليل الرضا، وبذلك يزول الإشكال القائل إن الإرادة أمر باطن فلا يحكم على المريد إلا بعلمها منه وهو غير حاصل) .

قال ابن القيم في تفسير آية ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ : (نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقه وجله، جليّه وخفيّه، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافيا لم يأمر بالرد إليه، إذا من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع. ومنها أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ ، هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته. ومنها أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان، ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه، ولا سيما أن التلازم بين هذين الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر. ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه). إعلام الموقعين (١/ ٤٩) .

الخلاصة : أن التحاكم إلى غير شرع الله تعالى كفر عملي لا يشترط معه الجحود أو الاستحلال أو التفضيل لحكم الله ﷻ .

الوقفة الحادية عشرة : طاعة المبدلين المحللين والمحرمين :

مناط الكفر في شرك الطاعة القبول والاتباع وليس الاستحلال والجحود لأنها كفر بحد ذاته ولو لم يحكم .

أخطأ الكثير ممن خاض في غمار هذه المسألة ووقع في شباك شبهاتها القاتلة وارعوا لقول المرجئة الأفاكة، حين قالوا أن شرك الطاعة لا يكون شركا إلا بالاعتقاد والاستحلال، وأن من وقع في شرك التحاكم وطاعة المشرعين المحللين المحرمين لا يكفر بمجرد طاعتهم واتباعه لهم ما لم يقارن فعله جحود واستحلال .

وقولهم الباطل نرده من أوجه ومنه وحده نستمد العون :

١ - أن مناط الكفر في هذا الشرك ما صرح به سبحانه في كتابه في قوله : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ التوبة: ٣١ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ محمد: ٣.

وهي مجرد الاتخاذ والطاعة والاتباع وكما فسرها الرسول ﷺ لعدي بن حاتم فرتب الشرك على مجرد طاعة أولياء الشيطان في تشريعهم وليس في ذلك الاستحلال والجحود، وفي قصرها على الجانب الاعتقادي عدول عن مناط التكفير .

تحقيق ضابط شرك الطاعة والاتباع والاتخاذ والتحليل :

عن عَديّ بن حاتم قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي، اطرح هذا الوثن من عنقك، فطرحته ، وانتهيت إليه وهو يقرأ : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قال قلت: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم ، فقال النبي ﷺ : " أَلَيْسَ كَانُوا يُحِلُّونَ لَكُمُ الْحَرامَ فَتَسْتَحِلُّونَهُ ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْكُمُ الْحَلالَ فَتُحَرِّمُونَهُ ؟ " ، قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم .

رواه الترمذي والطبراني والبيهقي والطبري وغيرهم . كلهم من طريق عبد السلام بن حرب عن غطيف بن أعين عن مصعب بن سعد عن عدي به. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث. ويروى نحو عن حذيفة ﷺ موقوفا.

وقد وردت عدة ألفاظ للحديث تفسر بعضها منها :(اتبعوهم ، أطاعوهم ، حللتموه ، فتحلونه ، وفي لفظ : ،يأمرونهم فيأتمرون وينهونهم فينتهون).

قال الطبراني في تفسيره : اتبعوهم وتركوا أوامر الله .

وقال حذيفة وابن عباس اتبعوهم فيما حللوا وحرموا خرجه الطبري عنهم .

وفي الآية : (اتخذوا ، وأطعتموهم).

وهي تبين حقيقة شرك الطاعة والاستحلال الذي وقع من الأتباع وأن حقيقته تقوم على الاتباع والقبول الظاهر وليس استحلال القلب الباطن.

قال ابن كثير : (قوله ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك كقوله ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ ، وقد روى الترمذي في تفسيرها حديث عدي..) .

وقال الشنقيطي : (كل من اتبع تشريعا غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم فاتباعه لذلك التشريع كفر بواح مخرج من الملة) الأضواء ٣/ ٤٣٩.

وقال : (وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله، إنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم) الأضواء ٤ / ٨٣ ، ٧/ ١٦٢-٥٨٤-٦١٤.

قال ابن تيمية: (معلومٌ بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق المسلمين أن من سوّغ إتباع غير دين الإسلام أو إتباع غير شريعة محمد ﷺ فهو كافر) ٢٨ / ٥٢٤.

وقال : (بين سبحانه أن من دعي إلى التحاكم إلى كتاب الله ورسوله فصد كان منافقا وليس بمؤمن، فالنفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم لغيره) الصارم٣٣.

وقال : (ومتى ترك العالم ما علمه من كتاب الله وسنة رسوله واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله كان مرتدا كافرا) الفتاوى ٣٥/ ٣٧٢.

وقال ابن القيم: (من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى كان من المنافقين).

٢- أن الكفر والشرك كما يكون بالاعتقاد يكون بالعمل ولم يخالف في ذلك سوى المرجئة فجعلوا مناط شرك الطاعة والتحاكم والاتباع هو الاستحلال، وقصر شرك الطاعة والاتباع على الاستحلال دخول صريح في مذهب المرجئة .

٣- أن الاستحلال والجحود واعتقاد ذلك كفر بمجردها ولو لم يحصل شرك التشريع والحكم وشرك الطاعة والتحاكم، ولو لم يطع المشرع.

٤- أن الكفر نوعان: نوع جحود وتكذيب ونوع كفر عملي متعلق بالإباء والاستكبار والامتناع والتولي والصدود والترك والإعراض ، والآيات التي في هذا

النوع من الكفر والتي مناط الكفر فيها عملي قائم على الصد والتولي والإعراض والامتناع والإباء كثيرة جدا ذكرتها في كفر الإعراض والامتناع .

تنبيه : المقصود من كلام ابن تيمية في شرك الطاعة وحقيقة معناه:

قال ابن تيمية: (هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله على وجهين :

الأول : أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعوهم على التبديل فيعتقد تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل هذا كفر سماه الله شركاً وقد جعله الله شركاً .

الثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحرام وتحريم الحلال ثابتاً لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعله المسلم في المعاصي وهؤلاء يأخذون حكم العصاة). الإيمان ص:٧٠ .

كلام ابن تيمية هذا قد يظن المرجئة أن في حجة لهم وليس كذلك لوجوه منها:

١- أن كلامه رحمه الله معناه القبول والمتابعة في التبديل .

٢- أنا نحمله على ذلك لوجود النقولات الكثير الصريحة عنه المدللة على ذلك وقد سقنا بعضها في مسألة كلام أهل العلم في شرك الحكم .

أنه ابن تيمية في التدمرية أدخل قبول الشرع ورفض ما سواه في التوحيد العملي ، فلو كانت الطاعة في التحريم مقيدة بالاعتقاد دون العمل ومجرد نسبة الصدق إلى المخبر دون الانقياد والإذعان للحكم لذكره في الأول توحيد الاعتقاد .

٣- ولو فرضنا أنه قصد الاعتقاد والاستحلال فحسب وحاشاه رحمه الله أن يقول بما يفهم منه مذهب المرجئة، لكان مردودا عليه ومخطأ فيما قاله وكل يؤخذ من قوله ويرد عليه والكمال لله وحده والعصمة لرسوله ﷺ .

٤- أن الاستحلال والجحود ليس خاصا بالقلب وتكذيب اللسان بل يتعداه فيشمل الاستحلال العملي الفعلي، فليس شرطاً أن يصرح بلسانه ويقول : أنا قبلت ورضيت فمجرد ما ينقاد ويذعن ويتبع ويطيع أو يوجد علامة على قبوله فإنه يعتبر قد كفر وخرج من الملة.

الوقفة الثانية عشرة : أوجه كفر المتحاكم إلى غير شرع الله:

وأعظم ما ينقض دين المتحاكم افتقاده أركان وشروط لا إله إلا الله خصوصا الانقياد والقبول والكفر بالطاغوت .

ومن تحاكم إلى الطاغوت أو تحاكم إلى المحاكم الشركية والوضعية فهو لم يكفر بالطاغوت، وإذا انقاد لها وقبل حكمها فقد نقض شروط (لا إله إلا الله) ولم يأت بشرط الانقياد وينقد لله، لأن من انقاد لحكم الطاغوت فإنه لم ينقد لحكم الله ﷻ ومن انقاد إلى حكم الله تعالى استلزم منه ألا ينقاد لحكم غيره وألا يرضى بحكم غيره ويكفر بحكم غيره، لأن لا إله إلا الله نفي وإثبات يؤمن بالله ويكفر بالطاغوت ينقاد لحكم الله ويترك حكم الطاغوت ويمتنع عن حكمه ويقبل حكم الله ويرد حكم غيره ويحب حكم الله ويبغض حكم الطاغوت، ولا يجتمع في قلب العبد قبول وإيمان وانقياد لله وللطاغوت معاً، وهذا مقتضى لا إله إلا الله النفي والإثبات.

وقد بينا في مسألة سابقة أوجه الكفر المتعلقة بالحكم بغير ما أنزل الله والتحاكم إليه.

فائدة: يوجد في شرك الطاعة والتحاكم تعظيم المخلوق والتذلل له ومحبته.

لأجل ذلك كان الحكم من العبادة لوجود التذلل والخضوع والتعظيم في المتحاكم للحاكم الطاغوت.

الثالثة عشرة: الحكم بغير ما أنزل الله والتحاكم من قبيل الكفر العملي:

الأصل في كفر المتحاكم متعلق بعمل الجوارح، فإن أضاف إلى ذلك رضاه بحكم غير الله تعالى أو تجويزه فإنه يصير كفره اعتقادي ولو لم يتحاكم.

ومناط التكفير فيه هو إعراضه عن حكم الله ﷻ وعدم انقياده للشريعة من جهة، ومن جهة أخرى وقوعه في شرك التحاكم والطاعة، وكلاهما كفر عملي.

قاعدة: كفر الإعراض عن الشريعة والامتناع عن تحكيمها كفر بمجرده ولو لم يستحل ويجحد ولو لم يشرع أو يحكم بالقانون، لأن مناط الكفر متعلق بالإعراض والامتناع وعدم الالتزام والانقياد.

فالحكم بغير ما أنزل الله إذا كان منهجا ثابتا للحاكم أو قانونا دائما فهذا كفر بالإجماع لأنه رفض للشريعة ويعد من كفر الإباء والإعراض.

قال ابن تيمية: (النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم لغيره) الصارم٣٣.

قال ابن تيمية: (فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن، وأما من كان ملتزما لحكم الله ورسوله باطنا وظاهرا لكن عصى

واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة ... ومن لم يلتـزم حكـم الله ورسـوله فهـو كافر ... وحكام المسلمين يحكمون في الأمور المعينة ولا يحكمون في الأمور الكليـة) منهاج السنة ٥/ ١٣٠ .

قال ابن القيم في أحكام أهـل الذمـة : (أن مـن التـزم ماجـاءت بـه التـوراة والإنجيل ولم يتبع القرآن فإنه كافر) . فانظر كيف جعل الملتزم بما جاءت به التـوراة ولم يتبع حكم الله كافراً فكيف بمن التزم القوانين الوضعية التي صدرت من زبالات أفكار الغرب المشركين الذين خرجوا عن دينهم وشرعوا شرائع شتى باطلة .

وقال ابن القيم: (ومنهم من تأول آية ومن لم يحكم على ترك الحكم جاحدا له وهو قول عكرمة وهو تأويل مرجوح فأن جحوده كفر سواء حكم بـه أو لم يحكـم) المدارج ٢/ ٣٣٦ .

هذه حالات وأوجه ومناطات الكفر في الحكم بغير ما أنزل الله ثمان حالات راجعة إلى المناطات الأربعة التي ذكرناها .

الحالة الأولى : الكفر الاعتقادي وهذا ينقض القول القلبي وتصديقه وعمله القلبي أو إقراره وحبه ونحو ذلك .

الحالة الثانية : وهو التشريع والتبديل والتحليل والتحريم وتحتها نوعان :

أ- الأول : السان أو الواضع (واضع القوانين وسانها) .

ب- الثاني : الملزم والجالب والمغير والمنحي لأحكام الله سبحانه والمستبدل بها حكم الطاغوت أو القوانين الوضعية أو من يلزم بالأحكام القانونية والشرائع الباطلة ويجلبها للمسلمين أو يدعو إليها وينشرها .

الحالة الثالثة : الحاكم الذي يحكم بغير ما أنزل الله ﷻ ويلتزم بذلك، ويمتنع عن حكم الله تعالى ويتركه ويعرض عنه فلا يذعن ولا ينقاد لأحكام الشريعة ولا يقبلها، وهذا هو الحاكم وهو غير المشرع، ومناط الكفر فيه متعلق بالحكم .

الحالة الرابعة : المتحاكم والمطيع : وينقسم إلى قسمين ومناطين :

أ- المتحاكم إلى الحاكم بغير ما أنزل الله أو إلى المحاكم الوضعية مع وجود غيرها فيعرض عن حكم الله إلى حكم الطاغوت .

ب- المطيع : من يطيع المحلل والمحرم في التبديل .

فهذه أربعة أقسام في حالات ومناطات الكفر الأكبر وعند التفصيل ثمان :

١/ كفر الجحود والاستحلال ٢/ شرك التشريع والتحليل والتحريم ٣/ كفر التبديل والتغيير والتنحية والإلزام ٤/ شرك الحكم والحاكم ٥/ شرك التحاكم ٦/ شرك الطاعة ٧/ شرك المتابعة والهدي ٨/ كفر الإعراض.

الأول : كفر الجحود والاستحلال .

الثاني : كفر وشرك التشريع الذي يفعله المشرع .

الثالث : التبديل والتغيير والتنحية والإلزام والدعوة للحكم بغير ما أنزل الله.

الرابع : الحكم بغير ما أنزل الله الذي يباشره الحاكم بغير ما أنزل الله.

الخامس : التحاكم إلى الطاغوت الذي يباشره المتحاكم إلى غير ما أنزل الله .

السادس : طاعة من يحلل ويحرم، فالذي يطيع المشركين المشرعين المحللين لما حرم الله المحرمين لما أحل وأوجب .

السابع : شرك الاتباع ونقض توحيد المتابعة بترك هدي الرسول ﷺ وطريقته وسنته وحكمه وطاعته في أمره واتباع غيره وأخذ هدي غيره وطريقته.

وهذا الكفر فيه مناطات الكفر الأربع الحكم والتحاكم والتشريع والجحود .

الثامن : الإعراض عن حكم الله لا يحكم به ولا يتحاكم إليه وهو داخل في المناط الثالث والرابع معا الحاكم والمتحاكم .

والإعراض عن دين الله يكون بعدم تعلمه والعمل به وبترك الحكم بالشريعة والتولي عن طاعة الرسول، وقد بينا كفر الإعراض وحقيقته وأدلته وأوجه الكفر فيه في الناقض العاشر من نواقض الإسلام .

والأصل في الحاكم بغير ما أنزل الله والمتحاكم إليه أنه وقع في بابين من الكفر:

الأول: الإعراض عن حكم الله ﷻ وعن عبادته بالحكم بأمره. وهذا نقض الركن الأول من ركني التوحيد وهو عبادة الله وحده والإيمان به وبألوهيته.

والثاني: الشرك في الحكم والإيمان بالطاغوت وعدم الكفر به وقد فصلنا الكلام عنه، وهذا نقض الركن الثاني الذي هو نفي الألوهية عما سوى الله والكفر بالطواغيت المعبودة والمطاعة والحاكمة والمتحاكم إليها .

مع بيان أن الحالة الأولى والثانية لا يكون كفرهم إلا أكبر مطلقاً . والحالة الثالثة والرابعة وهو الحاكم والمتحاكم فيكون كفرهم أكبر وهو الغالب ويكون في بعض الحالات كفرهم أصغر .

ونوع الكفر في الحالات الأربعة السابقة متعلقة بالكفر العملي والاعتقادي .

فالأول كفره اعتقادي وهو الجاحد المستحل والمكذب والمبغض .

وأما الحالات الباقية الثانية والثالثة والرابعة فكفرهم عملي، فالمشرع والحاكم بغير ما أنزل الله والمتحاكم إليهم ومطيعهم كفرهم عملي .

أولاً : الحالات الإعتقادية التي يكون الحكم فيها كفر اعتقادي :

المجوزة ، الجاحدة ، المفضلة ، المبغضة . وتقدمت .

ثانياً : الحالات العملية:

التشريع ، الحكم ، التحاكم ، الطاعة .

وفي تقسيمنا هذا رد على المرجئة الذين قصروا التكفير في الحكم بغير ما أنزل الله على الاعتقاد والاستحلال والجحود .

مبحث : كفر وشرك الانقياد وحكم الانقياد للمخلوق

وتحته وقفات :

الأولى : الكفر في الانقياد شامل لبابين :

الأول : عدم الانقياد لله تعالى ، وهذا هو كفر الإعراض والتولي والترك والإباء والامتناع وتعطيل عبادته.وسيأتي الكلام عنه في الفصل الأخير .

الثاني : الانقياد لغير الله من المخلوقين ، وهذا هو شرك الطاعة والإتباع والتحاكم والاتخاذ والانقياد . وهو المقصود هنا بالبيان.

الثانية : انقسام حقيقة الانقياد إلى تعبدي وعادي :

الأول: الانقياد التعبدي :

وهو المتعلق بالعبادة ، وهو الذي يقوم على الذل والخضوع والتعظيم .

وهذا خاص بالله ﷻ، وصرفه لغير الله شرك، فهو من العبادات التي يجب أن نفرد الله بها، فيجب توحيد الله في الانقياد التعبدي .

الثاني: الانقياد العادي الطبعي:

وهو طاعة المخلوق لمخلوق مثله عادة كالوالد والزوج والأمير .

الثالثة : أقسام الانقياد للمخلوق:

١- الانقياد الواجب :

وهو الانقياد للرسول ﷺ باتباع ما جاء به والأخذ بشرعه وأمره ، وهو في منتهاه وحقيقته انقياد لله .

ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الحشر: ٧. وقوله: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ النور: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ النساء: ٨٠. وقوله ﷺ :"من أطاعني فقد أطاع الله" .

قال ابن القيم في عدة الصابرين : (وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهراً وباطناً) وتقدم كلام أهل العلم عن الانقياد للرسول ﷺ.

٢- الانقياد المباح:

وهو طاعة المخلوق والانقياد لأمره إذا كان في المباح.

٣- الانقياد الشركي :

وهو صرف الانقياد التعبدي لغير الله، وذلك بالانقياد للمخلوق وطاعة أمره مطلقاً مع التذلل له وتعظيمه والغلو فيه، أو بطاعة المخلوق في معصية الله واتباعه في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، ويسمى هذا شرك الطاعة.

قال سبحانه: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ .

وقال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ الأعراف: ٣ .

ومن أنواع الطواغيت : المتبوع والمطاع من دون الله .

الرابعة : مناط الكفر في شرك الانقياد المتحاكم والطائع والمتبع :

متعلق بالتحاكم والطاعة والانقياد والاتخاذ وهو ما يسميه العلماء: شرك الطاعة ومنهم من يسميه شرك الإتباع وشرك الانقياد وشرك التحاكم.

والكلام عن شرك الطاعة والتحاكم موسع في كتابي الشرك والنواقض .

الخامسة : أنواع الانقياد الشركي :

الأول : التحاكم إلى غير ما أنزل الله، والدخول في حكم الطاغوت المحكوم به، وشرك التحاكم راجع إلى شرك الحكم، ودليله قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ وقوله:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء:٦٥.

الثاني : طاعة المشرع والآمر والحاكم والمحلل والمحرم واتباعه واتخاذه محللاً ومحرماً ومشرعاً، ودليل هذا قوله تعالى :﴿ ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ . مع ما جاء من قصة عدي بن حاتم ﷺ في هذه الآية .وقوله: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١.

ومما يدخل في هذا النوع طاعة المخلوقين في معصية الخالق .

السادسة : الفرق بين الحاكم والمتحاكم :

الحاكم هو الذي يقوم بإصدار الحكم بغير ما أنزل الله .

والمتحاكم هو المحكوم عليه والمتبع والمذعن والمطيع لذلك الحاكم .

كما أن الحاكم شركه في الربوبية والمتحاكم شركه في الألوهية .

السابعة : في شروط تكفير المتحاكم إلى الطاغوت :

الأول : أن يعدل عن حكم الله تعالى مختاراً مقبلاً على غيره ويعرض عن التحاكم إلى شرع الله ويتولى عن طاعته والعمل بدينه، وهذا كفر عملي.

الثاني : أن يرضى ويستحسن حكم الطاغوت ويفضله ويريده ويطلبه وهذا يكفر مطلقاً حتى ولو لم يتحاكم إلى الطاغوت وهذا كفره اعتقادي .

الثامنة : أدلة كفر شرك الانقياد :

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١.

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١.

وقال: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾التوبة٣١.

وقال تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠ .

جاء في أسباب نزولها أن عمر ﷺ قتل الرجل الذي ترك وأعرض عن حكم رسول الله ﷺ وأقبل إلى حكم عمر بعد أن احتكم عند الرسول ﷺ وأبي بكر .

وقال تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠ .

وقال: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ الأعراف: ٣.

وقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ الشورى ٢١.

وقال: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ آل عمران: ٦٤.

وقال: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ البقرة: ١٩٣، قال الطبري تكون الطاعة والعبادة لله .

وغير ذلك من الأدلة الدالة على وجوب الانقياد لحكم الله ورسوله والتحاكم إلى ما أنزل الله وكفر من انقاد لغيره وتحاكم إلى غير ما أنزل الله أو اتبع واتخذ حاكماً يحكم له بغير ما شرع الله أو يطيعه في التحليل والتحريم .

التاسعة: أقوال أهل العلم في شرك الانقياد :

قال ابن تيمية :" وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك وأتباع القضاة والعامة المتبعة لهؤلاء، يشركون شرك الطاعة، فتجد هؤلاء المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه والحرام ما حرمه والحلال ما أحله والدين ما شرعه إما ديناً وأما دنيا، ثم يُخوِّف من امتنع من هذا الشرك وهو لا يخاف أنه أشرك به شيئاً في طاعته بغير سلطان من الله" الفتاوى ٩٨/١ .

ويقول الشيخ سليمان بن عبدالله (الطاعة هي العبادة ويجب اختصاص الخالق سبحانه بها ولا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً فمن أطاع مخلوقاً في التحليل والتحريم غير رسول الله ﷺ المبلغ عن الله فهو مشرك) .

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: (من الأمور التي لا يصلح الإسلام إلا بها العمل بشرائعه وأحكامه، وبالقيام بذلك يقوم الدين) .

وقال الشنقيطي في أضواء البيان : (والعجب ممن يحكم غير تشريع الله ثم يدعي الإسلام كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾).

وقال الشيخ عبدالعزيز بن باز في وجوب تحكيم شرع الله: (فمن خضع لله سبحانه وأطاعه وتحاكم إلى وحيه فهو العابد لله ومن خضع لغيره وتحاكم إلى غير شرعه فقد عبد الطاغوت وانقاد له) .

وقال في نقد القومية : (وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة) .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : (تحكيم شرع الله وحده شقيق عبادة الله وحده دون ما سواه، إذ مضمون الشهادتين أن يكون الله وحده هو المعبود وأن يكون رسوله ﷺ هو المتبع المحكم) . ويقول: (وخضوع الناس ورضوخهم لحكم ربهم خضوع ورضوخ لحكم من خلقهم تعالى ليعبدوه فكما لا يسجد الخلق إلا لله ولا يعبدون إلا إياه ولا يعبدون المخلوق فكذلك يجب أن لا يرضخوا ولا يخضعوا أو ينقادوا إلا لحكم الحكيم العليم دون حكم المخلوق الظلوم الجهول) .

العاشرة : الفطرة دلت على قبح الانقياد لغير الرب تعالى :

الانقياد للخالق موافق للفطرة والعقل، بينما الانقياد للمخلوق فيه انتكاس للفطرة.

الحادية عشرة: تاريخ أول مخالفة في الانقياد :

أول من تمرد على الانقياد وخرج عليه هو إبليس لعنه الله حين امتنع عن الانقياد وأبى السجود . فاستكبر وأراد أن يكون من العالين وأن يعز نفسه، وتكبر على أمر الله وشرعه وأبى أن ينقاد لله . وأبلس من العبودية وفسق عن أمر ربه وتمرد فأذاقه الله الذل والهوان والصغار والطرد، فكان لغيره عبرة .

الثانية عشرة : من يكفر بالامتناع عن الانقياد وبشرك الانقياد :

من يتكبر على الانقياد ويبغضه ومن يستحل تركه ويدعو للامتناع عنه، وكذا المستحل الانقياد لغير الله والمجوز له والراضي به والمفضل له ومن يدعو إليه ويمدحه .

الثالثة عشرة : تارك الانقياد واقع في جميع أنواع الشرك :

١- شرك الربوبية وذلك بالكبر على الله والتمرد والإباء عن التدين له وقبول شرعه والإعراض عن إلوهيته والتولي عن حكمه .

٢- شرك الإلهية وذلك بالانقياد لغيره، والانقياد داخل في الألوهية .

٣- شرك التعطيل والجحود وذلك بتعطيل الله عن ما يجب له من الانقياد والدين والعبودية .

٤- شرك التمثيل وذلك بجعل أمر الله وشرعه وحكمه مثل أمر الله في الانقياد له .

٥- كما أن الانقياد منه ما هو من الشرك الأكبر وهذا الأصل، ومنه ما هو من الشرك الأصغر .

كما أن فيه كفر الامتناع والإعراض والتولي والإباء والاستكبار .

الرابعة عشرة: أوجه الكفر في كفر الانقياد وعلاقته ببقية النواقض:

أولا : أنه يناقض الشهادتين والإسلام والإيمان والتوحيد، وسيأتي بيان أوجه الكفر في تخلفه أو الشرك فيه عند الكلام عن كفر الامتناع والإعراض.

ثانيا : أن الكفر في الانقياد فيه استلزام لبقية أنواع الكفر ونواقض الإسلام من التكذيب والجحود والبغض العملي والاستهزاء .

الخامسة عشرة: مفاسد وأضرار ترك الانقياد أو الشرك فيه:

١- الكفر والخلود في النار .

٢- الفساد في الأرض وقيام العداوة والظلم .

٣- نزول الويلات والمصائب والهموم المتوالية.

٤- حصول الخوف والجوع والفقر والتعاسة في الحياة والمعيشة الضنك.

٥- تسلط الكفار .

وغير ذلك من المفاسد التي لا يحصيها إلا الله .

السادسة عشرة: ترك الانقياد لله يوجب الذل والانقياد لغيره :

من أعرض عن الانقياد لله وأبى التشرف بعبوديته والذل له عوقب وابتلي بالانقياد لغيره والذل لمخلوق مثله .

قال ابن تيمية: (لما كان أصل دين اليهود الكبر عاقبهم الله بالذلة والمسكنة .. ذلك أن المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل فيكون المستكبر مشركا) الفتاوى ٧/ ٦٢٩.

وقال ابن القيم : (واعتبر ذلك بحال إبليس فإنه امتنع من السجود لآدم فرارا أن يخضع له ويذل، فصيره الله أذل الأذلين.. كذلك كل من امتنع أن يذل لله لابد أن يذل لمن لا يسوى) الإغاثة ٢/ ٢٠٨.

واعتبر بحال من استكبر عن الانقياد كيف يدخل جهنم داخرا وهو الذليل المهان: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

السابعة عشرة:الفرق بين شرك الطاعة وترك الطاعة والإعراض والامتناع:

الأول شرك وهو ناقض لركن النفي في كلمة التوحيد .

والثاني ما يسمى بالكفر وهو ناقض لركن الإثبات في كلمة التوحيد .

فالأول عبادة غير الله معه والثاني ترك عبادة الله .

الثامنة عشرة : الفرق بين الطاعة والعبادة : ذكرناها في باب الشرك :

التاسعة عشرة :قاعدة : الانقياد والقبول والالتزام قسمان :

انقياد تام كامل وانقياد أصل :

فأصل الانقياد والقبول من لم يوجد عنده فلا يعد مسلما والذي لا يحكم بما أنزل لا يوجد عنده هذا الأصل .

أما كمال الانقياد فتاركه عاصيا لكن ليس بكافر ويكون بفعل الأوامر وترك النواهي والتحاكم لشرع الله في كل صغيرة وكبيرة والحكم بما أنزل الله مطلقا .

فالذي يعمل المعاصي أو يحكم في قضية معينة هذا نقص عنده كمال الانقياد والالتزام والإذعان لحكم الله . بينما الالتزام بالحكم بغير ما نزل الله والتشريع ينقضان أصل الانقياد لله ويزيلان القبول والإذعان بالكلية من قلب المسلم .

والخوارج كفروا أصحاب الحالين ، والمرجئة لم يكفروهما وأهل السنة كفروا الثاني دون الأول .

الفصل السادس : الشرك الأصغر الذي لا يخرج من الملة في الحكم

الحالات التي يكون فيها الحكم بغير ما أنزل الله من الكفر الأصغر :
وهي ثلاث حالات : في الحكم والتحاكم والطاعة .
الحالة الأولى : الحكم والحاكم :
متى يكون الحاكم الذي يباشر الحكم بغير ما أنزل الله كفره كفراً أصغر لا يخرج من الملة ؟ .
وبيان ذلك في الوقفات التالية :
الأولى : الأصل في الحكم بغير ما أنزل الله أنه كفر أكبر، إلا في الحالة التي سنذكرها ، ولا يدخل فيه المشرع والمبدل والجالب والملزم فهؤلاء كفرهم أكبر مطلقاً قولاً واحداً، وأما الحاكم ففيه تفصيل .
الثانية : ضابط الحكم الذي لا يخرج من الملة وصفة الحاكم به :
وهو أن يحكم متعمدا بغير ما أنزل الله في قضية معينة ، وواقعة عينية لشخص معين وحادثة مفردة بداعي الشبهة أو الشهوة أو الهوى أو الظلم، وليس ديدنه ذلك فليس ملتزما الحكم بغير ما أنزل الله وإنما هي حالات قليلة وقضايا معينة .
مثال ذلك : أن يحكم الحاكم على قريب له سرق بغير حد السرقة (القطع) وإنما يحكم عليه بجلد أو سجن أو نحو ذلك متعمداً هذا الحكم وليس بمخطئ ويعلم أنه مخالف لحكم الله وليس بجاهل أو حكم لقريب أو لمن يرشيه بأن الأرض له وهي ليست له .
فمن حكم بغير ما أنزل الله مخطئاً أو متأولاً مجتهد وكان من أهل العلم وليس من أهل الجهل الذي يحكم بجهله فله أجر واحد بنص الحديث .
الوقفة الثالثة : وجه التفريق في الحكم بغير ما أنزل الله بين الحاكم في قضية واحدة وبين من لا يلتزم الحكم بما أنزل الله :
فمن حكم في قضية واحدة بغير ما أنزل الله مع التزامه بشرع الله ﷻ فهذا يعد مسلماً وكفره كفر أصغر، وفعله من جنس المعاصي، وأما من التزم الحكم بغير ما أنزل الله في جميع القضايا أو أغلبها أو فيما لا يوافق هواه، سواء حكم بقانون أو عادة أو عرف أو بهواه أو بغير ذلك فهذا كفره كفر أكبر مخرج من الملة .

وأما إذا كان الحكم بغير ما أنزل الله منهجا ثابتا للحاكم أو قانونا دائما فهذا كفر بالإجماع لأنه رفض للشريعة ويعد من كفر الإباء والإعراض .

ووجه التفريق بين الحالين : أن الملتزم بحكم غير الله نقض شرط الانقياد لكلمة التوحيد والالتزام بالدين والإذعان لأوامر الله .

والانقياد والقبول التي هي من شروط لا إله إلا الله ، ومن أعظم نواقضها الإعراض عن دين الله والامتناع عن طاعته تعالى والتمرد على أمره .

وذلك لأن من الانقياد لـ(لا إله إلا الله) الحكم بما أنزل الله والانقياد لحكم الله لأن الحكم داخل في عبادة الله التي يجب إفراده بها فمن حكم بغير ما أنزل الله فإنه غير موحد ومن لم ينقد لحكم الله فإنه يعد غير منقاد لكلمة التوحيد ومن لم يذعن للشريعة ويحكم بها فإنه ما أذعن لله تعالى وما التزم واستسلم لأمره ودينه وشرعه، وبتالي يعد ممتنعاً عن طاعة الله معرضاً عن دينه متوليا عن رسوله منصداً تاركاً لدينه راداً لشريعته وكل هذا من الكفر الأكبر .

وهذا بخلاف من يحكم بما أنزل الله إلا فيما ندر من القضايا العينية ومال عن حكم الله ﷻ عن هوى فهذا لم ينتقض عنده الالتزام والانقياد لـ(لا إله إلا الله) فهو عاص مثله مثل أصحاب الكبائر الذي يزني ويسرق ، فهو حين حكم على السارق بغير ما أنزل الله بأن يسجن أو غير ذلك لم يلتزم هذا الحكم وإنما كانت في بعض القضايا، فهو في الأصل منقاد لـلا إله إلا الله منصاع لها، ملتزم بحكم الله مذعن لدينه، وهذا السر في التفريق بين الملتزم حكم غير الله وبين من حكم في قضية واحدة بغير ما أنزل الله مع ثبوت أصل الانقياد للشريعة والالتزام بحكم الله .

ومن ضبط هذا عرف حقيقة المسألة وانكشفت عنه شبهة المرجئة والخوارج.

وقدمنا شيئا من كلام أهل العلم في تحقيق مناط الكفر في الحكم، ومنه:

قال ابن تيمية: (فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن، وأما من كان ملتزما لحكم الله ورسوله باطنا وظاهرا لكن عصى واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة ... ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر ... وحكام المسلمين يحكمون في الأمور المعينة ولا يحكمون في الأمور الكلية) منهاج السنة ٥/ ١٣٠ .

قال ابن القيم في أحكام أهل الذمة : (أن من التزم ماجاءت به التوراة والإنجيل ولم يتبع القرآن فإنه كافر) .

تنبيه : المشرع لا يمكن أن يقسم إلى مشرع في مسألة ومشرع في جميع المسائل . فلو شرع المشرع في أدنى مسألة فإنه يخرج من الملة بها لأنه حلل وحرم .

الوقفة الرابعة : النقولات التي تبين ما ذكرنا في أن الحاكم قد يكون كفره كفراً أصغر وإن كان الأصل أن كفره كفر أكبر :

ما رواه الحاكم في المستدرك وأخرجه الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤ حين سئل عن حكام بني أمية ، أنهم يحكمون في بعض أحكامهم عن عمد بغير ما أنزل الله عن هوى أو ظلم أو نحو ذلك قال [كفر دون كفر] وقال: [ليس بالكفر الذي تذهبون إليه] وقال : [ليس بالكفر بالله وملائكته] .

مما يدل على أن الحكم قد يكون من الكفر الأصغر وليس كله من الكفر الأصغر ، وهذا الأثر عن ابن عباس ﷺ اختلف فيه ما بين مصحح له وراد له مضعف والصحيح ضعفه، ومع فرض صحته فهو في الحالة التي ذكرنها هنا وليست في جميع حالات الحكم بغير ما أنزل الله كما قررناه آنفا.

وأما كلام أهل العمل في ذلك:

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في الإيمان : (من حكم بغير ما أنزل الله وهو على ملة الإسلام كان بذلك الحكم كأهل الجاهلية) .

ويفهم من كلامه التفريق بين الملتزم بملة أهل الإسلام في الحكم وغيره فلا يكفر من حكم بغير ما أنزل الله في بعض القضايا .

قال ابن تيمية: (فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن، وأما من كان ملتزما لحكم الله ورسوله باطنا وظاهرا لكن عصى واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة ... ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر ... وحكام المسلمين يحكمون في الأمور المعينة ولا يحكمون في الأمور الكلية) منهاج السنة ٥/ ١٣٠ .

وقال: (.. وهذا إذا حكم في قضية معينة لشخص وأما إذا حكم حكماً عاماً في دين المسلمين فيجعل الحق باطلاً والباطل حقاً والمعروف منكراً والمنكر معروفاً والسنة بدعة والبدعة سنة ونهى عما أمر الله به ورسوله وأمر بما نهوا عنه فهذا لون آخر يحكم فيه رب العالمين) الفتاوى ٣٥/ ٣٨٨ .

وانظر كيف جعل الحكم في أمر عام بين المسلمين أمراً عظيماً ولم يجعله كالحكم في القضية المعينة التي هي من الكفر الأصغر ثم تأتي المرجئة ويجعلون الحكمين في معنى واحد وحكم واحد .

يقول ابن القيم رحمه الله في المدارج : (الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين الأصغر والأكبر حسب حال الحاكم ، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً مع اعترافه أنه مستحق للعقوبة كان كفراً أصغر).

ويقول ابن أبي العز رحمه الله في شرحه للطحاوية : (وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعلمه في هذه الواقعة وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهو عاص ويسمى كافراً كفراً مجازياً ، أو كفراً أصغر) .

وتأمل قولهم : (في هذه الواقعة والقضية) واقعة وقضية معينة ومرة واحدة ونحوها .. ولا يكون هذا ديدنه أنه يحكم بغير ما أنزل الله حتى مع الاعتقاد فالعبرة بالالتزام هل هو ملتزم حكم الله قابل له منقاد له مسلم له أم لا ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم في رسالته [تحكيم القوانين] مبينا الكفر الأصغر في الحكم: (القسم الثاني من قسمي كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وهو الذي لا يخرج من الملة – والذي قال فيه ابن عباس كفر دون كفر – وذلك أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى) .

وقال: (وأما الذي قيل فيه كفر دون كفر إذا حاكم إلى غير الله مع اعتقاد أنه عاص وأن حكم الله هو الحق فهذا الذي يصدر منه المرة ونحوها ، أما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضيع فهو كفر وإن قالوا أخطأنا وحكم الشرع أعدل) الفتاوى١٢/ ٢٨٠ .

هذه النقولات عن أهل العلم تبين أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر أكبر ، إلا إن كان في واقعة معينة قضية مفرده وليست في جميع القضايا، والوقائع والأحكام .

الوقفة الخامسة : شروط كون الحكم بغير ما أنزل الله من الكفر الأصغر .

حتى يكون الحاكم بغير ما أنزل الله في عداد المسلمين وأن كفره كفر أصغر لابد من توفر شروط في ذلك .

الشرط الأول : أن لا يكون الحاكم بغير ما أنزل الله حكمه عاما ملزما للناس، لأن هذا يدخل في التبديل والتشريع والقوانين الوضعية، وهذا المشرع أو من كان حكمه عام ملزم كفره كفر أكبر مطلقاً .

الشرط الثاني : أن يكون الأصل في حكم هذا الحاكم الحكم بالشرع والسيادة عنده لشرع الله ، فلا يكون هذا الحاكم ديدنه الحكم بغير ما أنزل الله والالتزام به معرضاً عن حكم الله راداً وتاركاً له، فهذا ممتنعا عن الشريعة معرضا عن دين الله . كحال من يحكم بسلوم القبائل وعادات وسواليف البادية أو يحكم بالقانون أو يحكم بهواه مخالفاً شرع الله وهذا من وجدت فيه فهذا يكفر كفراً أكبر .

وعلى ذلك يخرج بهذا الشرط الذي يحكم في القضية الواحدة العينية، ولا تتجاوز أن يكون عادة له ، ودينا له ، أن يحكم بغير ما أنزل الله .

الشرط الثالث : أن لا يكون الحكم الذي حكم به في القضية المعينة والواقعة الواحدة مما ينقض التوحيد ، ويقر الشرك والكفر فلو حكم قاض في مسألة واحدة مقر فيها الشرك فإن هذا يعتبر كفره كفراً أكبر وردة .

مثاله : أن يحكم الحاكم على صنم يعبد بعدم إزالته أو يؤيد بقاء مشهد وقبر يطاف به ويدعى ويذبح له ويتقدم له النذور، أو يسمح لقناة أو مجلة فيها سب الله ورسوله والاستهزاء بالدين وأهله ويقرها ويأذن بنشرها أو يسمح للسحرة بإقامة عروضهم ويدعوا الناس للنظر إليها أو يمنع من تكفير الكفار والمشركين والمرتدين ويعاقب عليه ونحو ذلك، فحكم هذا في الحقيقة حكم بالشرك وإقرار له فهو مشرك راضٍ به حاكم به فيخرج من الملة ، بخلاف من حكم في القضايا التي ليست من نواقض الإسلام، كأن يحكم على شخصٍ زنا بغير حد الزنا أو على سارق بغير القطع أو يحكم ظلماً بأن هذا ملك فلان وليس له ونحو ذلك.

الشرط الرابع : أن لا يستحل الحاكم فعله، بل يرى أنه مخطئ آثم مستحق للعقوبة في هذه القضية المعينة ويرى مع ذلك وجوب حكم الله وأنه أفضل من حكم غيره وأنه مخاطب بحكم الله ﷻ ، وأن ما قام به من حكم بغير ما أنزل الله ذنب يستحق عليه العقوبة ، فلا يستحل عمله .

واشتراط الاستحلال هنا ليس كاشتراط المرجئة فإن المرجئة توسعوا في اشتراط الاستحلال فأدخلوا الممتنع عن الشريعة الملتزم بأحكام الطاغوت بل وحتى

المشرع والمحلل والمحرم اشترطوا فيه أن يستحل عمله ويصرح للناس أنني ما فعلت ذلك إلا كفراً بالله ﷻ .

الشرط الخامس : أن لا يكون حكمه في هذي القضية المعينة أو الواقعة العينية أو الواحدة المفردة بقانون أو عادة قبلية أو حكم البوادي قاصداً لها متعمداً الحكم بالقانون ولم يكن حكمه مصادفة لقانون ولا موافقة لقانون .

ومثال هذا : أن يكون قاضٍ في محكمة شرعية مثلاً يحكم بما أنزل الله وجاءه رجل كافر قد سرق ونحو ذلك فيقول : ما القانون في بلدك الذي يحكم به في السارق فقال له يغرم بكذا، فيغرمه فهذا حكم بالقانون فيخرج من الملة لاعترافه بحكم الطاغوت ورضاه به وعدم كفره به أما لو غرم هذا السارق من غير أن يقصد متابعة لقانون ولا اعترافاً ولا إقراراً به فهذا يكون حكمه أنه مسلم وكفره أصغر.

فهذه خمسة شروط متعلقة بالحكم بغير ما أنزل الله في القضية الواحدة المعينة فإذا تخلفت الشروط الخمسة أو واحد منها انتقل كفر الحاكم هنا إلى كفر أكبر .

وإن كان الكفر الأصغر أشد من الزنا لأن الله سماه كفراً والذنب الذي يسمى كفراً أشد عقوبة من الذنب الذي لا يسمى كفراً كالزنى والسرقة ونحوهما فهو مع أن كفره كفر أصغر إلا أنه مرتكب أمراً عظيماً أشد من الكبائر .

تنبيه : المكثر من الحكم بغير ما أنزل الله تقدم الكلام فيه.

الوقفة السادسة : الشبهات في هذه الحالة :

الأولى: من عد الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً مطلقاً ولو مع توفر هذه الشروط الخمس . وقالوا : أن الحكم سماه الله ﷻ كفراً بالنص، فأي حكم بغير ما أنزل الله ولو في قضية واحدة يعتبر كفراً مخرجاً من الملة .

واعتمدوا قول ابن مسعود في الرشوة في الحكم مع أنه قد يحمل قوله على الكفر الأصغر أو أن هذا قول له ﷺ وخالفه ابن عباس وغيره .

ومن هذا الباب كفر الخوارج حكام بني أمية وكان نقاش ابن عباس ﷺ وأبي مجلز معهم فحمله المرجئة على المشرعين والحاكمين بغير ما أنزل الله عن التزام لحكم الطاغوت والهوى.

الثانية : شبهة المرجئة: (أن الحاكم بغير ما أنزل الله لا يكفر إلا أن يستحل) .

وأجروا هذا الشرط على جميع قضايا الحكم سواء كان حاكماً أو متحاكماً أو مشرعاً أو مبدلاً ، ولم يكفروا إلا بالقسم الأول الذي ذكرناه في جهات التكفير وهو الاستحلال والجحود ، فقالوا : من استحل الحكم بغير ما أنزل الله أو جحد حكم الله ﷻ فهو كافر ، وأما المشرع وأصحاب القوانين الوضعية فهؤلاء لا يكفرونهم ما لم يستحلوا ويظهروا جحودهم واستحلالهم وكفرهم .

قال ابن القيم: (ومنهم من تأول آية ومن لم يحكم على ترك الحكم جاحدا له وهو قول عكرمة وهو تأويل مرجوح فأن جحوده كفر سواء حكم به أو لم يحكم) المدارج ٢/ ٣٣٦ .

قلت وهذا رد صريح على جهمية العصر ومرجئته القائلين لا يكفر الحاكم إلا إذا جحد واستحل مع أن كلام عكرمه لا يحمل على المشرعين .

وشبهة هذه الطائفة قول ابن عباس رضي الله عنهما في من حكم في قضية عينية بغير ما أنزل الله : (أنه كفر دون كفر) ويستدلون بقوله على شبهتهم .

قال الشيخ أحمد شاكر معلقاً على كلام ابن عباس : (وهذه الآثار عن ابن عباس مما يلعب به المضلون في عصرنا هذا من المتسبين للعلم ومن غيرهم من الجراءة على الله حيث يجعلونها عذراً في إباحة القوانين الوثنية الموضوعة التي ضربت بلاد المسلمين).

وسنأتي على شبه القوم والرد عليها إن شاء الله تعالى في موضعه .

الحالة الثانية : التحاكم :

المتحاكم إلى غير ما أنزل الله كالمحاكم الوضعية أو أحكام القبائل وعاداتها أو غيرها، فهذا الأصل في تحاكمه أنه كفر ويكفر بهذا التحاكم كما قلنا في الحاكم، ولكن يوجد بعض الحالات لا يكفر المتحاكم فيها، وضابطها أن يتحاكم إلى غير حكم الله ﷻ مضطراً مكرهاً، فلا يجد غير هذه المحاكم ومع تحاكمه لا يرضى بذلك .

فلا بد من أن يجتمع في المتحاكم شرطان ويتعلق به أمران وهما :

الشرط الأول : أن لا يجد غير هذه المحاكم الوضعية ولا يتمكن من التحاكم للشريعة فيكون حكم الشرع متعطلاً منعدماً، وهو مكرها في التحاكم إليه كارها لها كافرا بها .

الشرط الثاني : أن لا يكون مع تحاكمه هذا مستحلاً للتحاكم لغير شرع الله مجوزا لحكم الطاغوت راضياً به منشرح الصدر بذلك، فيفرح بها ويمدحها ويفضل هذه المحاكم ويثنى عليها لكونه أخذ حقه بها فمن كانت هذه حالته فهو كافر كفراً أكبر (أي من رضي واستحل ومدح هذه المحاكم وفرح بأحكامها والتحاكم إليها فهذا كفره كفر أكبر) .

عليه فمن تخلف فيه هذان الشرطان أو أحدهما فإن تحاكمه يعد تحاكماً كفرياً من قبيل الكفر الأكبر مشرك في الألوهية شرك الطاعة والتحاكم .

الحالة الثالثة : الطاعة :

طاعة المخلوق فيما يأمر به من معصية للخالق :

وهذا يكثر جداً في عصرنا في عبيد الدنيا والمناصب، كمن يطيع الرؤساء وينفذ الأوامر . ومن يأخذ الضرائب على الناس أو يعلق الصور أو يعصي الله طاعة لأمر غيره، فهذا كفره أصغر لا يكفر بطاعته لأنها معاصي دون الكفر ثم هو متأول بأن هذا الأمر جائز أو أن ولي الأمر تجب طاعته مطلقاً والإثم على الآمر لا المنفذ .

الفصل السابع : القوانين الوضعية التشريعية والتحليل والتحريم

وتحت هذه الفصل بعض الوقفات والمسائل الفرعية :

الوقفة الأولى : تعريف القانون في اللغة وهل القانون كلمة عربية؟:

اختلف أهل اللغة في ذلك على رأيين :

الأول من يرى أن كلمة قانون لفظة دخيلة، مأخوذة من اليونانية وقيل من اللاتينية وقيل غير ذلك، وهذا رأي ابن منظور وابن سيده .

الثاني أنها كلمة أصيلة عربية مرجعها التقنين، وهذا الأظهر عندي .

يقال: قنن إذا ضبط وقاس وقعد وحدد .

قال صاحب القاموس : قنن إذا قاس الشيء وكل شيء يحدد ويقاس ويضبط ويقعد يسمى تقنينا وقانوناً .

الوقفة الثانية : تعريف القانون اصطلاحا :

مجموعة قواعد تحكم الناس وسلوكهم وعاداتهم وإخضاع كل فرد لها، ومن رفض الانقياد لها يجبر عليها ويعاقب على مخالفتها، فهي قواعد إلزامية .

الوقفة الثالثة : معنى كلمة وضعية :

سميت القوانين بالوضعية لأنها من وضع البشر، وضعوها بين الناس ليتحاكموا إليها، وليست من وضع الرب ﷻ وتشريعه، وسميت وضعية في مقابل الشرائع السماوية .

الوقفة الرابعة : حقيقة هذا المسمى في القرآن وفي مصطلح العلماء :

القانون جاء في الشرع في كتاب الله تعالى وفي مصطلح أهل العلم بتسميته: (التشريع والتحليل والتحريم) وشرك التشريع والتبديل، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١ ﴿ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا ﴾ التوبة: ٣٧ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ الفتح: ١٥. وسماهم الله ﷻ شركاء ومشركين ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ الأنعام: ١٣٧ ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١. ولذلك اصطلح العلماء على تسميته بشرك التشريع وشرك الحكم وشرك الطاعة وكفر التبديل

والامتناع والإعراض والتولي عن الشريعة، وشرك التحليل والتحريم والأمر وكفر الاستحلال والجحود.

والتشريع: تقدم تعريفه عند الكلام عن مناط كفر التشريع.

الوقفة الخامسة: مناط الكفر في القانون:

التشريع والتحليل والتحريم بغير سلطان من الله والتبديل لأحكام الله تعالى وشرائعه، وحكم الناس بذلك وإلزامهم بها، وهذه الأمور من أخص خصائص الله ﷻ، فالتشريع والحكم والتحليل والتحريم شرك في الربوبية وفي الألوهية كذلك.

قال ابن تيمية: (والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحلال أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا بالاتفاق) الفتاوى٣/ ٢٦٧.

الوقفة السادسة: أوجه الكفر في القانون:

أوجه الكفر في القانون كثيرة جداً وقد سبق أن ذكرناها في أوجه الكفر في الحكم بغير ما أنزل الله وفي التشريع.

ويقال في من شرع قانوناً:

أنه قد نسب العيب للشريعة ولمزها واستهزأ بالدين واستخف به، وكذلك قدح في من شرع الشريعة وسان الدين والآمر الذي هو الله تعالى وكذا الذي جاء بها وهو الرسول ﷺ والذي نقلها وهم الصحابة وأئمة الدين.

فمن وضع قانوناً فقد استهزأ بالله ﷻ وبآياته.

الوقفة السابعة: كل تشريع وقانون كفر بذاته وكلما زاد قانون زاد معه الكفر:

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ التوبة: ٣٧.

قال ابن حزم: (وبحكم اللغة التي نزل بها القرآن إن الزيادة في الشيء لا تكون ألبته إلا منه لا من غيره فصح أن النسيء كفر وهو عمل من الأعمال وهو تحليل ما حرم الله) الفصل٣/ ٢٤٥.

فالنسيء هو قانون شرّعه المشركون مخالف لشرع الله يقوم على تأخير الأشهر الحرم فزادوا به في الكفر، فالمشركون لما شرعوا النسيء وهو قانون تشريعي زاد ذلك في كفرهم، ولم يكن هو السبب الوحيد في كفرهم وتكفيرهم بل لهم كفريات أخرى والتشريع للقانون النسيء زاد ذلك في كفرهم، وحتى لو لم يعملوا إلا إياه لكانوا بذلك كفاراً.

والتشريع مثل التصوير، فكما أن المصور يعذب بكل صورة صورها فكذا المشرع يعذب بكل قانون وضعه وألزم به، لأنها يشتركان في مضاهاة ومماثلة الله ﷻ في أمره وخلقه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ الأعراف: ٥٤ وقد وقع المشرع والمصور في شرك الربوبية والصد عن سبيل الله فاستحقوا زيادة العقوبة لزيادتهم في الكفر والطغيان ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ النحل: ٨٨.

والعجيب أن مشركي زماننا من المشرعين القانونيين يفتخرون بكثرة القوانين والمواد التي وضعوها ليضاهوا بها شريعة الله ﷻ، فتجد البعض منهم يقول: وضعت دستوراً وقانوناً يشمل ألفي مادة أو ألفي إلزاما أو ألفي قاعدة أو ألفي قانوناً أو نحو ذلك، ولم يعلم هؤلاء المساكين الحقراء أنهم معذبون بكل قانون وضعوه وأنه يزيدهم في الكفر ولا يدل على أن من وضع قانوناً واحداً لا يكفر فإن من وضع قانوناً واحداً كمن وضع ألف قانون فهم في الكفر سواء من ناحية الخروج من الملة أما من ناحية زيادة العذاب والتعذيب وشناعة الكفر فإنه كلما زاد التشريع والقوانين كلما زاد معهما الكفر.

الوقفة الثامنة: التشريع والتقنين والتبديل لا فرق فيه بين أن يشمل الشريعة كلها أو يكون متعلقا بجزء منها:

فمن استبدل الشريعة منحياً لها واضعاً قانوناً يضاد كل حكم من أحكامها لا يختلف حكمه عن من وضع قانونا واحداً استبدل به شريعة من شرائع الله ﷻ أو حكماً من أحكامها، ولو كان جزئياً ولو في أدنى مسألة مجمع عليها ما دام أنه أمر ووضع قانوناً يحرم حلالاً أو يحلل حراماً أو يسقط واجبا أو يلغي شعيرة، فإن هذا قد خرج من الملة، لتبديله شرع الله تعالى، وقد حكم سبحانه على قريش في النسيء بأنهم زادوا في الكفر والشرك بسبب هذا القانون، مع أن عندهم كثير من شريعة إبراهيم يعملون بها، عليه فلا يشترط في تكفير القانونيين والحكام المشرعين أن يستبدلوا الشريعة بكاملها، بل مجرد ما يشرع أو يضع قانوناً يتحاكم إليه فهذا يعتبر سبباً من أسباب الكفر والخروج من الملة ومن وضع تشريعاً وقانوناً وحكماً ألزم فيه، ولو كان حكماً واحداً فهو بذلك كافر خارج من الملة ولو أنه مع ذلك حكم في بقية أحكامه بالدين والشرع.

الوقفة التاسعة : القانون الذي هو من شرك التشريع يعتبر من الكفر العملي :

فمن شرع ووضع قانوناً فكفره كفر عمل مخرج من الملة وقولنا : (كفر عملي) أي كفر ظاهر بوجود العمل فمجرد ما يظهر التشريع فإنا نكفره بعمله ولا يشترط مع ذلك انعقاد القلب على الاستحلال أو الاستخفاف أو الاستهزاء أو التفضيل أو حصول كفر القول خلافاً المرجئة .

وإن كان هناك من يرى أن من وضع قانوناً فهو مستحل له معتقد جوازه .

الوقفة العاشرة : احتواء القانون أو التشريع على ألوان من الكفر والشرك :

قد يحتوي القانون على كفر آخر وإن كان هو كفر بذاته، فقد يشرع الحاكم أو العالم قانوناً يقر فيه ألوان الشرك كدعاء القبور أو الطواف بها وحماية ذلك أو يشرع قانوناً بمنع عداوة المشركين والكفار، وهذا موجود في أغالب القوانين الوضعية وهو كفر مغلظ لأنه يبطل شعيرة من شعائر الإسلام وشرائعه .

كذلك قد يقترن بالقانون كفر آخر كتفضيله على الشريعة أو استحلاله، أو الزعم أنه من عند الله تعالى ، وهذا أشد خطورة وكفراً، ومعنى كونه أشد كفراً وأغلظ لا يدل على أن ما دونه ليس بكفر وإنما يدل على أن هذا الذي فيه صفة الزيادة في الكفر أن صاحبه أشد كفراً في دين الله ﷻ إذ الكفر ليس بسواء . فمن وضع مجموعة من القوانين أشد كفراً ممن وضع قانوناً واحداً وكذا من وضع قانوناً وألزم به الناس أعظم كفراً ممن وضع تشريعا غير ملزم ومن وضع قانوناً وزعم أنه من عند الله ﷻ أشد ممن أقر بأنه من عند نفسه، وإن كان جميعهم خارج عن الملة .

الوقفة الحادية عشرة : الاستدلال للقانون :

من المنكرات التي يقع فيها بعض الجهلة محاولة الاستدلال للقانون من الشريعة ومحاولة استخراج ما يؤيد ذلك القانون من مذاهب الفقهاء والعلماء والأقوال الشاذة .

والأصل أن وضع القانون كفر مخرج من الملة فأصل مبدأ التحليل والتحريم والتشريع هو كفر وشرك أكبر، فلا ينظر بعد ذلك إلى وجود موافقة للشريعة في بعض فروعه وأحكامه ، فبمجرد ما يعطى صاحب القانون خصيصة التشريع والحكم ومضاهاة شرع الله ﷻ فإنه يخرج بذلك من الملة .

الثانية عشرة : الدعوة لأسلمة القوانين :

وهي المطالبة بإبقاء القوانين مع تغيير ما يخالف الإسلام منها لتوافق الشريعة .

وهي دعوة شنيعة وفيها الاعتراف بأصل القوانين وتجويز التشريع الشركي .

الثالثة عشرة : تقنين الشريعة :

المطالبة بأن تصاغ أحكام الشريعة على شكل مواد وتكون مثل هيئة القوانين ولا يكون للقاضي اجتهاد وترجيح، وهي دعوة فاسدة وفيها كثير من المحذورات .

وهي مثل الدعوة للعصرانية وتجديد الدين وتطوير الفقه وإعادة فهم النص وغيرها من الدعوات العلمانية .

الوقفة الرابعة عشرة : حكم الدخول في المجالس التشريعية :

إذا تبين لك هذا الأصل علمت خطأ بعض المتسبين للعلم الذين يجوزون الدخول في البرلمانات ومجالس النيابة القائمة على شرك الحكم والتشريع والتحليل والتحريم حتى يقول بعض دعاة الجهل منهم إن الخمر حرمناه للأغلبية في تشريعنا ونحو ذلك، فهم لم يحرموه لأن الله ﷻ حرمه وإنما حرموه لأجل أن القانون حرمه، فهم حرموه ديناً من عند أنفسهم لا لكونه دينا من عند الله متبعاً وشرعاً ملزماً .

وكل ذلك باسم الإصلاح ويدعون وجود المصلحة ولم يعلم هؤلاء الجهلة أن أعظم المصالح هي إقامة التوحيد وأعظم المفاسد الوقوع في الشرك وأنت كما ترى كيف وقع هؤلاء في الشرك من أوسع أبوابه بل ويسعون إلى تهوينه وتجويزه والله المستعان ، وسيأتي مزيد بيان للمسألة .

الوقفة الخامسة عشرة : أنه لا يختلف الحكم في واضع القانون سواء كان فرداً معيناً أو جماعة أو مجالس لجنة أو هيئة أو أفراداً في محكمة :

الحكم في المشرع واحد وهو تكفيره مطلقا لوضعه القانون، سواء كان الواضع للقانون الحاكم المشرع أو لجنة عمومية، ولو كان فيها رجل ساكت أو لم يشرع معهم فمجرد وجوده في هذا فهو مقر بهذا القانون ويعد مشرعاً مشركاً بالله تعالى، فمن عمل في مجالس تشريعية كالبرلمانات والمجالس النيابية ومجلس الشعب والأمة ونحو ذلك فهو كافر خارج من الملة ولو ادعى الإصلاح وأنه يريد محاولة موافقة الشريعة ونحو ذلك .

الوقفة السادسة عشرة : تاريخ القانون :

ذكرنا في فصل تاريخ شرك الحكم مراحل وجود القوانين وأقدم القوانين.

والقانون في الأمة الإسلامية لم يكن معروفاً في عهد ماضٍ وإن كان معناه موجوداً كما كان عند التتار والقرامطة والعبيديين الباطنية، ولكن لم تكن تسمى

بالقوانين الوضعية كما هو في وقتنا فهذا الاصطلاح اصطلاح متأخر، لما تعلق الحكام بالغرب وتشبهوا بهم واتبعوهم ، وإلا كان يسمى عند العلماء بالتشريع والحكم بغير ما أنزل الله وشرك التشريع وشرك الحكم وشرك الطاعة.

الوقفة السابعة عشرة : خصائص وصفات وشروط القانون :

الأول : أن يكون عاماً فهو يحكم في العموم كل من فعل كذا صار حكمه كذا.

الثاني : أن يكون ملزماً، فلا يوجد في القوانين أمر غير ملزم أو شيء يستحب فعله وإنما يلزم ويجب أو يباح أو يمنع وكل قانون يعتبر ملزماً وإذا لم يكن ملزماً فلا يعد قانوناً ومع أن قولنا : (ملزم) أي يلزم من وقع فيه وتحاكم إليه ولا يقصد بمعنى ملزم أنه لا يوجد إلا هو .

الشرط الثالث : أن يكون من جهة وسلطة عليا وأما إذا لم يكن كذالك فليس بقانون .

فلا يعد الحكم والأمر به قانونا حتى يتوفر فيه هذه الشروط الثلاثة.

تنبيه : الصفات والشروط التي وضعها القانونيون في القانون موجوده في الشريعة :

الشريعة فيها صفة الإلزام وكذلك صفة العموم . وهي صادرة من فهي من سلطة عليا وصاحبها هو الله ﷻ فهو الآمر وحده لا شريك له وهو الأحق بالتشريع والأمر والنهي وهو المستقل بالسيادة في ذلك ولا سلطة أعلى من سلطته تعالى فهو الملك والسيد المطلق المستحق للربوبية والألوهية ، كذلك الشريعة تملك قصر الناس والله ﷻ يملك قصر الناس على شرعه ومعاقبتهم إذا خالفوه، وأيضاً من صفات الشريعة أنها دائمة وعامة لكل الأزمان والأحوال والأماكن .

ووجود هذه الصفات التي وضعوها في القانون في الشريعة لمن أعظم الدلالات على وجوب العمل بها والتحاكم إليها .

الوقفة الثامنة عشرة : مراحل تشريع القانون :

يأتي التشريع عند عبيد القانون والدستور على مراحل، اقتراح القانون والتشريع ثم التصويت عليه ثم المصادقة عليه ثم إصداره ثم نشره .

الوقفة التاسعة عشرة : بداية منازعة الله ﷻ حقه في التشريع :

أول منازعة في حق الله ﷻ في التشريع هي منازعة العلماء بتحليلهم الحرام وتحريمهم الحلال .

المرحلة الثانية : منازعة الحكام والأمراء فوضعوا القوانين والشرائع المحللة والمحرمة من أنفسهم .

المرحلة الثالثة : العلمانيون حيث شاركوا الحكام والعلماء صفة التشريع ووقعوا معهم في هذا الشرك وأوجدوا ما يسمى بمجالس التشريع والبرلمانات ومجالس النيابة ومجلس الشعب والأمة والديمقراطية والليبرالية ونحو ذلك .

الوقفة العشرون : القانون يكفر به أصناف :

الأول : واضع القانون وسانه ومشرعه ومخترعه .

الثاني : المبدل والمنحي به الشريعة وجالبه للمسلمين والملزم به .

الثالث : الحاكم به .

الرابع : المتحاكم إليه .

الخامس : مستحله والراضي به.

السادس : من يحميه أو يدعوا إليه أو يحسنه للناس .

وقد ذكرناهم في مناطات التكفير .

الوقفة الحادية والعشرون : حقيقة أوصاف القانون :

١- القوانين في الحقيقة عاجزة عن إيصال المضمون والخير للناس، ولذا فإن الله عز وجل حين يشرع شريعة فإن في تشريعه صلاح للناس لأنه خلقهم وهو العالم بما يصلح لهم وهو الخالق ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤، فمن خلق يأمر وهو الخبير اللطيف العليم الرحيم وغيره ذلك من الصفات التي لا توجد في غيره . وأما تشريع من سواه فهو إفساد وضلال .

قال عالم القانون جورج هوايت : (إن السبيل الوحيد للوصول إلى معايير متفق عليه للقانون هو الاعتراف بالوحي السماوي قانونا) وجوب تطبيق الشريعة لوحيد خان.

٢- أنها إفساد في الأرض : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ البقرة: ١١ ومن معاني الإفساد هنا الحكم بغير ما أنزل الله والشرك في الحكم وغيره وتبديل الشرائع .

٣- أنها متناقضة ودائمة التبديل والتغيير ، ولهذا أوجدوا ما يسمى بالتصويت عليها وحق الاعتراض عليها، وهذا لا يوجد مطلقاً في الشريعة فليس فيها تناقض

ألبته، فما أوجبه الله ﷻ أو حرمه فهو إلى الأبد وأما النسخ فهو لمصلحة اقتضاها الحال وزالت بانقضاء الوحي وموت الرسول ﷺ .

٤- أنها أحكام جاهلية باطلة يجب الكفر بها.

٥- أن واضعوها طواغيت وأرباب ظالمة وآلهة باطلة ، فيجب التبرؤ منهم وبغضهم وتكفيرهم .

الوقفة الثانية والعشرون : مفاسد القانون :

مفاسده أكثر من أن تحصى فهي التي نشرت الفواحش واستباحت المحرمات ونشرت الكفر والإلحاد، ومزقت المسلمين وأضعفتهم وحاربت الدين والتوحيد وألغت الجهاد وإنكار المنكرات ومكنت لأعداء الله عز وجل وأوجبت موالاتهم وطاعتهم وغير ذلك مما يعسر حصره .

الوقفة الثالثة والعشرون : آثار حكم القانون :

من شرّع قانونا أو حكم به أو تحاكم إليه ترتب على ذلك آثار منها :

١- خروج مشرعه والحاكم به والمتحاكم إليه من الملة .

قال الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن : (من تحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله فهو كافر) الدرر السنية .

وقال الشيخ عبدالله بن حميد: (من أصدر تشريعاً عاماً ملزماً للناس يتعارض مع حكم الله فهذا يخرج من الملة كافر) أهمية الجهاد .

٢- تصيير البلد التي يحكمها القانون بلاد كفر .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم: (البلدة التي تحكم بالقانون ليست دار إسلام وتجب الهجرة منها عند القدرة) الفتاوى ج١٢ .

٣- تصير الدولة التي لا تحتكم بشرع الله والحكومة الحاكمة بغير الشريعة كافرة.

وقال الشيخ عبدالعزيز بن باز: (وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة) نقد القومية .

وفي جواب اللجنة الدائمة: (إذا كانت الحكومة تحكم بغير ما أنزل الله فالحكومة غير إسلامية لايجوز للمسلم أن يتحاكم إلى حكومة غير إسلامية).

٤- كفر من لم يكفر به ويتبرأ منه .

الوقفة الرابعة والعشرون : لا يمكن اجتماع الشريعة مع القانون مطلقاً :

الحكم بالشريعة من صميم التوحيد وتشريع القانون أو الحكم به من الشرك ولا يجتمع التوحيد والشرك ولا يتلاقيان أبداً بل يتعارضان، كما أنه لا يمكن الإيمان بهما جميعاً فالقانون طاغوت يجب الكفر به ولا إيمان لمن لا يكفر به، ولا يعتبر المسلم قابلا للشرع حتى يرفض غيره، ومن ادعى أنه يقبل غير الشرع من القوانين ، فإنه يعد بذلك غير مؤمن بالشريعة ولا قابلا لها فقبوله لدين الله وإيمانه به يستلزم رفضه لما سواها وكفره بالقوانين ، وعليه فالقانون لا يجتمع مع الشريعة لا في الحكم والتحاكم ولا في الإيمان بهما فلا يعتبر من حكم بالقانون أنه حاكم بالشريعة ولا يعتبر أنه مؤمن بالله من لم يكفر بالقانون وأهله .

الوقفة الخامسة والعشرون : مصادر القانون عند القانونيين :

أولاً : التشريع الناتج من السلطة العليا الصادر من الرئيس أو من لجنة ونحوها فهذا أول مصدر من مصادر القانون .

ثانياً : الأعراف والعادات فأكثر ما تكون القوانين الوضعية أعراف وعادات .

ثالثاً : العمل بالأديان إذا وجدت كالشريعة الإسلامية واليهودية والنصرانية والمجوسية .

رابعاً : القضاء والأحكام السابقة ويكثر في القانون الإنجليزي حكمهم بالسوابق .

خامساً : قوانين بلدان أخرى .

سادساً : المبادئ العامة : كمبادئ العدالة والتنظيم والمصالح ونحو ذلك .

الوقفة السادسة والعشرون : أنواع السلطات في القانون :

السلطات في نظر القانونيين ثلاث :

السلطة التشريعية التي تشرع القوانين وتسن الدين وتحلل وتحرم .

السلطة القضائية التي تقضي بهذه القوانين في المحاكم الوضعية .

السلطة التنفيذية التي تنفذ أحكام هذا القانون والقضاء بها كالشرط ونحوها.

وكل أصحاب هذه السلطات العاملة بالقانون خارجون من الملة .

السابعة والعشرون : في تسمية القانون والتشريع بأسماء حتى تغير في الحقيقة :

قد تسمى القوانين بأسماء أخرى كاللجان واللوائح والأنظمة والقرارات والمواثيق والسياسة والعادات والمذاهب والسلوم أو نحو ذلك .

وهذا التغيير في الاسم لا يغير المسمى فلو سمى التشريع الشركي والقانون المصادم لشرع الله بالنظام أو القرار والميثاق أو غيرها من التسميات، فإن هذا لا يغير حكمه بأنه قانون تشريعي يخرج صاحبه من الملة، مناط الكفر فيها هو التشريع وهو تشريع أمر يخالف أمر الله ﷻ بتحليل الحرام أو تحريم الحلال .

الوقفة الثامنة والعشرون : تحقيق المناط في كفر اليهود الذين نزلت فيهم آية الحكم في المائدة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤ .

جاءت في أسباب النزول روايات عدة، وفيها قول اليهود لعنهم الله : اصطلحنا واجتمعنا ، وبدلنا وتكاتمنا وغير ذلك .

ومناط تكفيرهم هو التبديل والتشريع الذي فعلوه واصطلحوا عليه واجتمعوا وتكاتموا على تغيير حكم الله ﷻ في الرجم إلى الجلد، وهذا علة كفرهم في التوراة، فمن بدل حكم الله وغيره فهو كافر بالاتفاق غير مسلم ، وذلك لأنه لم يستسلم لله ﷻ لكونه لن ينقد لأحكام الله وشرعه حتى ولو قال إن حكم الله أكمل وأفضل وإنني مخطئ فهذا لا ينفعه مقابل تبديل حكم الله ﷻ وتشريعه دينا يخالف دين الله تعالى .

قال ابن تيمية: (والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحلال أو بدّل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا بالاتفاق) الفتاوى٣/ ٢٦٧ .

الوقفة التاسعة والعشرون : القانون يعتبر ديناً :

ووجه ذلك أن الدين هو ما يتدين به الإنسان ويلتزمه ويستسلم له وبه ينقاد، ولا شك أن القانون فيه هذه الصفة، ومن شرع ووضع قانوناً وحكم به فقد التزم بذلك القانون ودان به فهو دين ولكن دين باطل وهو شرع ولكن شرع شركي وهو حكم ولكن حكم جاهلي وقد سماه الله دينا كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١ .

الوقفة الثلاثون : وجود أنواع الطاغوت الثلاثة في القانون والتشريع:

١- طاغوت العبادة ٢- طاغوت الإتباع ٣- طاغوت الطاعة

المشرّع وراعي القانون سوغ لنفسه أن يعبد مع الله ويتبع ويطاع، وقد سما الله القانون والمشرع له طاغوتا كما أخبر سبحانه، والعجيب أنه توجد في شرك الحكم والتشريع جميع صفات الطواغيت وتتحقق فيه الطاغوتية بأقسامها وإليك بيان ذلك بدليله :

فالقانون معبود من دون الله لذا كان داخلا في طاغوت العبادة قال تعالى مبينا هذا الأصل : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠ ، فجعل الحكم عبادة يحصل بها كمال الذل والخضوع وتعظيمه لذلك لا ينبغي أن تصرف إلا لله ﷻ وتجويز صرفها لغير الله تعالى يعتبر داخلا في الطاغوتية وإذا سوغ المشرّع لنفسه هذه الصفة وشرع كان طاغوتاً .

كذلك الحكم بالقانون واتباعه داخل في طاغوت الإتباع ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ التوبة: ٣١ ، واتخاذهم إتباعهم .

كما أن طاعة المشرع والتحاكم لشرعه وقانونه داخل في طاغوت الطاعة ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ .

فانظر كيف يوجد في القانون والتشريع جميع أنواع الطاغوت الثلاثة .

لأجل هذا كان شرك الحكم من أعظم صور الطغيان ، واستحق أن يسمى الحاكم المشرك طاغوتاً يجب الكفر به : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠.

وهنا لفتة لطيفة تدل على فقه إمام الدعوة أنه لما جعل رؤوس الطواغيت خمسة جعل أثنين من رؤوس الطاغوت متعلقة بالحكم .

الوقفة الحادية والثلاثون : كل ما يؤدي إلى نشر القوانين والعمل بها يعد داخلا في هذا الناقض :

يحرم إنشاء الكليات لتدريس القانون، كما يحرم طبع ونشر الكتب التي تدعو إلى القوانين وترويجها ومدحها وتحسينها والدعاية إليها .

فكل هذه من الأمور المحرمة وهي وسيلة من وسائل الشرك التي قد تؤدي بصاحبها إلى الكفر الأكبر .

ولمحمد بن إبراهيم فتوى بإيجاب إخراج كتب القانون من المكتبات إتلافها .

الوقفة الثانية والثلاثون : الياسق :

الياسق كلمة مغولية تركية تترية وجاء ضبطها بياسا وياسق وياسه وسياسة ويساق ويسق وغير ذلك، والياسق هو قانون وتشريع التتار الذي وضعه وابتدعه جنكيزخان.

والتتار قبيلة مغولية تركية وهم الذين اجتاحوا بلاد المسلمين ودخلوا بغداد واسقطوا الخلافة عام (٦٥٦هـ) .

والذي وضع هذا القانون ملك التتار جنكيزخان وقد حكم به بنوه من بعده حتى الذين ادعوا الإسلام كأحمد بن هولاكو وقازان .

وكان مصدره من الأحكام الإسلامية وأحكام من التوراة والإنجيل وأحكام من هواه .

وأصل هذا القانون كان أنظمة عسكرية للجند ثم صار كتاباً في جزأين يحكم به بين الناس .

وقد كفر العلماء من يحكم به من الحكام الذين أدعوا الإسلام وأوجبوا على المسلمين قتالهم وعدم قبول الإسلام منهم وذلك لعدم التزامهم بالشريعة.

ومن ذلك فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في التتار، وكذلك فتوى ابن كثير رحمه الله في تفسيره وكلامه في تاريخه عنهم وأيضا المقريزي وابن الأثير .

الوقفة الثالثة والثلاثون : مع المرتد الدكتور عبدالرزاق السنهوري :

هذا الرجل والعياذ بالله من أعظم المفسدين في الأرض الذين استشرفوا خاصية التشريع، وقد كان له أثر كبير في نشر القوانين بل ووضعها للدول العربية كالعراق، وله شرح للقانون المصري يقع في مجلدات وله كتب في القوانين ومقارناتها بالشريعة ككتاب الالتزام بالحق في الشريعة والقانون، وقد هلك وبقي مما كتبت يداه من تشريعات يعمل بها في كثير من أنحاء العالم الإسلامي نسأل الله العافية .

فالرجل وقع في شرك التشريع وضاهى الله عز وجل في فعله حيث شرع وحكم بغير ما أنزل الله عز وجل وجعل من نفسه رباً يأمر العباد وينهاهم بما يراه صالحاً ، فارتد بهذا عن دينه والعياذ بالله وتجاوز حده وأصبح طاغوتاً ونازع الله تعالى في أخص صفاته في الأمر والنهي والتحليل والتحريم والتشريع ، وكذب بقوله ﷻ : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ .

وقد رد عليه علماء عصره ومصره في شركه واحتقاره الشريعة وإعراضه عنها وبينوا عوره وضلاله وظلمه منهم السيد عبدالله علي بن الحسين شيخ علماء الأزهر والشيخ عبدالوهاب طلعت .

الوقفة الرابعة والثلاثون : علاقة القانون بالحكم :

أن القانون داخل في الحكم بغير ما أنزل الله .

أن كل مشرع وكل قانوني حاكم بغير ما أنزل الله وليس كل حاكم بغير ما أنزل الله يعتبر مشرعاً أو قانونياً .

وقد يحكم قاض بغير ما أنزل الله ملتزماً هواه أو عادة أو عرفاً أو يلتزم قانوناً فلا يكون هو الذي وضع القانون وشرعه فيكون حاكما بغير ما أنزل الله لكن لا يكون مشرعا ولا صاحب قانون ، مع كون الحالين ردة مخرجه من الإسلام.

الوقفة الخامسة والثلاثون : العلاقة بين القانون والتشريع :

التشريع على قسمين :

القسم الأول : تشريع بحق وهو من صفات الله ﷻ وخصائصه التي تفرد بها فهو المشرع لخلقه وعباده .

القسم الثاني : تشريع باطل بظلم وشرك وهو الذي يقوم به المشركون من المخلوقين وهذا ما يسمونه بالقوانين الوضعية فهو من أفعال البشر ولا يوصف الله عز وجل بذلك ولا يوصف بأنه يضع القوانين، وإنما يوصف بأنه يشرع ويسن الدين ويأمر وينهى ويحلل ويحرم.

الوقفة السادسة والثلاثون : علاقة القانون بالتحليل والتحريم والفرق بينهما :

التحليل والتحريم : هو أن يحلل ما حرم الله أو يحرم ما أحله الله .

وجاء في القرآن الكريم أنواع التحريم ودلالاته على أصناف من أهمها :

١- التحريم الحقيقي الذي يقوم به الكفار الراجع للتشريع والحكم كالنسيء والسوائب ونحو ذلك .

٢- مجرد الترك قد يسمى تحريماً .

٣- ترك الشيء رهبانية وتديناً وتعبداً، وهذا من البدع كما فعلته النصارى واتبعتهم الصوفية في ذلك فيحرمون على أنفسهم ما أحل الله تعبداً ورهبانية فيحرمون بعض أنواع اللباس والفرش والشرب والمساكن ونحو ذلك لا يزهدون فيها وإنما لا يقولون بجوازها وإنما يقولون بحرمتها .

٤- الترك بنذر أو يمين : كما فعل الرسول ﷺ حين حرم على نفسه العسل .
تنبيه : تحريم يعقوب عليه السلام على نفسه .
اختلف أهل العلم في الجواب على ذلك :
فقيل : هذا من الاحتياط والتورع في بعض المشتبهات .
وقيل : هذا من شريعة يعقوب عليه السلام التي نسخها الله ﷻ ، وقد جاءت النصوص بالنهي عن مثل ذلك ومنه إنكار الله على رسوله ﷺ حين حرم على نفسه العسل الذي أحله الله ، وإنكار النبي ﷺ على الذين حرموا على أنفسهم المباحات.
الفرق بين التحليل والتحريم وبين القوانين والتشريع :
بينهما عموم وخصوص :
الأول : التحليل والتحريم الأصل أنه لا إلزام فيه فقد يحلل العالم حراماً ولا يلزم بتحليله ولا يملك السلطة على ذلك .
وأما القانون فيجمع مع التحليل والتحريم إلزام الناس به وتعميمه بجعله عاما على الناس وبذلك يصير قانوناً .
الثاني : ليس كل قانون فيه تحليل وتحريم ، كالقوانين التي تحوي مشقة وظلما وجورا .
ويشترك المحلل والمحرم مع المشرع وأصحاب القوانين في الوقوع في الشرك والامتناع عن الشريعة وعدم الانقياد لها وعدم قبولها فيكفرون من هذا الوجه .
وقدمنا العلاقة بين التحليل والتحريم والتشريع .
تنبيه : للتشريع علاقة بكفر الاستحلال وقد تكلمت عنه في شرح النواقض في ناقض البغض والرد.
الوقفة السابعة والثلاثون : الفرق بين القانون والتشريع والتنظيم الإداري :
الأحكام على قسمين :
أ- أحكام تشريعية قانونية : تحلل حراماً وتحرم حلالاً وهذه من خصائص الله عز وجل فمن فعله فهو كافر خارج من الملة .
ب- أحكام تنظيمية إدارية : توضع لمصلحة عامة ومنفعة الناس وضبطهم كنظام الجند أو ديوان الجند الذي وضعه عمر ﷺ .
فالتنظيم الإداري لا يعد تشريعاً فقد وضع عمر ﷺ ديوان الجند ووضعت دواوين متعلقة بالمظالم والزكاة والعمال ونحو ذلك .

وللشنقيطي في أضواء البيان ٣/ ٢٦٠ كلام جيد في المسألة.

وقد خالف في التنظيم الإداري طائفتان :

الأولى : حرموا كل ما يصدره الحاكم من أمر ونهي وعدوه من التشريع وكفروا به . سواء كان الحكم مخالفاً لأمر الله محللاً حراماً أو محرماً حلالاً، أو كان غير ذلك من الأوامر التي فيها خير للعباد وتقتضيها المصلحة وفيها منفعة للمسلمين مع عدم مخالفتها للشريعة .

الثانية : غالوا في فهم التنظيم الإداري فأدخلوا فيه التشريع والحكم بغير ما أنزل الله ، فجعلوا الربا والقوانين التجارية والمدنية وإسقاط الحدود وعدم إقامتها من قبيل التنظيم، وجوزوا كل كفر واستحلوا شرك التشريع وجوزوا للحاكم الحكم بغير ما أنزل الله في كل ما فيه مصلحة أو منفعة له وجعلوه من باب التنظيم الإداري.

والضابط في الفرق بين الأمرين :

أن التشريع هو كل حكم فيه مخالفة لدين الله ومصادمة لحكمه بتحليل حرام أو تحريم حلال أو إسقاط واجب أما التنظيم الإداري فلا يحلل حراماً ولا يحرم حلالاً ولا يلغي أمرا، ولا يكون فيه أمراً مخالفاً للشريعة .

وقل مثل ذلك في الفرق بين الدمقراطية والشورى .

الوقفة الثامنة والثلاثون: علاقة القوانين بالمصلحة :

يتعلل بعض المسوغين للقوانين الوضعية بالمصلحة المرسلة وقد توسع فيه البعض فأدخلوا في شرع الله تعالى ما ليس منه بدعوى المصالح المرسلة أو الاستحسان أو القياس، والمصالح على قسمين : مصالح معتبرة ومصالح غير معتبرة.

والمصالح المعتبرة : هي ما جاءت الشريعة بها أو لا تعارض الشريعة بل توافق أصول الشريعة وما سوى ذلك فمصالح غير معتبرة لا يجوز العمل بها وأما القوانين فليست من باب المصالح بل هي من باب تحليل الحرام وتحريم الحلال .

والمصلحة متى جعلت في مقابل الدليل وقدمت عليه كانت بذلك داخلة في التشريع المحذور والتحليل والتحريم والتشهي في الدين .

كما أن للتحسين العقلي عند المعتزلة علاقة بالقانون وشرك التشريع وقد تؤدي مبالغاتهم في التحسين إلى تسويغ التشريع .

الوقفة التاسعة والثلاثون : الفرق بين القانون والمعصية :

يظن البعض أن القوانين الوضعية والتشريع من قبيل المعاصي، والحق أن القانون والتشريع من الكفر الأكبر وليس مجرد معصية، والفرق بين القانون والمعصية من وجهين :

الأول : ليس في المعصية مضاهاة ومشابهة لخصائص الله ﷻ وليس في المعصية شرك بخلاف التشريع، الذي فيه الشرك في الربوبية والألوهية .

الثاني : أن العاصي عنده الالتزام بالشريعة بخلاف المشرع فليس عنده الالتزام والانقياد للشريعة ولا قبولها فالعاصي عنده أصل الالتزام وخالف في كمال الالتزام بخلاف المشرع فليس عنده أصل الالتزام بالشرع فنقض الأصل والعاصي نقض كمال الانقياد .

الوقفة الأربعون : علاقة القانون بالبدعة والفرق بينهما :

البدعة على قسمين : بدعة كبرى مكفرة بدعة صغرى غير مكفرة .

أعظم بدعة على الإطلاق بدعة الشرك في عبادة الله وربوبيته والذي منه شرك التشريع ومنه سن القوانين الوضعية والحكم بغير ما أنزل الله . فالقوانين الوضعية من البدع الكبرى المكفرة، والمشرع أعظم مبتدع .

والفرق بين مجرد البدعة التي لا تخرج من الملة وبين التشريع :

أن البدعة الصغرى هي ما وضع على مضاهاة الشرع ولكن على مقتضى الدليل مع الانتساب للشريعة . وما فعل المبتدع ذلك إلا هواه وإتباع المتشابه فهو كالعاصي عنده أصل الالتزام والانقياد للشريعة وخالف بدعوى الدليل والتأويل والقياس والهوى وإتباع المتشابه ونحو ذلك .

وهذا بخلاف المشرع الذي يضاهي صراحة فعل الله ﷻ ويشرع ما يناقض دينه ويبتدع حكماً يحلل ما حرم الله ويحرم ما أحله .

الخلاصة : التشريع كفر ناقل عن الملة ولو كان في جزئية واحدة ولا يعتبر التشريع هنا كالبدعة أو المعصية أو التنظيم الإداري أو المصلحة .

تنبيه : ينبغي أن يعلم أن المعاصي سبيل إلى البدع وأن البدع سبيل إلى التشريع. وللشاطبي رحمه الله كلام بديع في ذلك طالعه في كتابه الاعتصام.

الحادية والأربعون : المشرعون في زماننا أشد كفراً من المشركين السابقين :

وخذ مثال لذلك تجريم اليهود للزنا وخلافهم إنما هو في العقوبة ، وهؤلاء لا يجرمونه أصلا .

الثانية والأربعون : الحاكم بالقانون أشد كفراً ممن يحكم بهواه المجرد :

فعندنا حاكمان يحكمان بغير ما أنزل الله، أحدهما يحكم بمجرد هواه والآخر يحكم بالقانون الوضعي، فكلاهما كافر خارجان عن الملة إلا أن الحاكم بالقانون أشد كفراً ، لمضاهاة شرع الله ﷻ وتفضيله لغير شرعه .

ثم يقال : أن الحكم في القضية العينية بغير ما أنزل الله لا يكفر إذا حكم بهواه بينما يكفر إن حكم بالقانون فيها .

الوقفة الثالثة والأربعون : هل المشرّع يعتبر مستحلا جاحدا :

هذه المسألة مختلف فيها بين أهل العلم : مع إجماعهم على كفر المشرع :

فمن أهل العلم من يرى أن التشريع كفر بذاته ولا يشترط معه الاستحلال، فقد لا يكون المشرعّ مستحل ولا يستحل بقلبه عمله .

ومنهم من يرى أن المشرّع مستحلا استحلالاً عمليا، وأن استحلاله استحلال عملي وليس قلبياً، أي أن عمله هذا يدل على الاستحلال القلبي وهو ما يسمى (كفر الامتناع وعدم الانقياد لشرع الله).

وقال بعضهم: المشرع وجد معه قرينة الاستحلال ، فلو لم يعتقد أن حكم غير الله ﷻ أفضل لما ترك حكم الله، ومن هؤلاء الشيخ محمد بن إبراهيم في وضعه التشريع في كتابه في (رسالة تحكيم القوانين) وضع التشريع من أقسام الكفر الاعتقادي، والشيخ محمد بن عثيمين.

ومنهم من يرى أن المشرع مستحل استحلالاً قلبياً . وجعلوا التشريع من جنس كفر الاستحلال وجعلوا المشرع من المستحلين بمجرد وضعه للقانون.

فمثال التشريع : يجوز ويباح الزنا إذا كان برضا المرأة أو في مواطن السياح، وهذا بعينه هو الاستحلال القلبي الكفري .

وهذا القول الذي يعد المشرع مستحلا فيه رد على المرجئة لأن المشرع مستحل مطلقاً، وهم لا يكفرون المشرع إلا أن يستحل ولا يكفرون إلا بالاعتقاد .

ثم نقول : انه حتى على فرض عدم استحلال المشرع لا اعتقاداً ولا عملاً فإن التشريع كفر عملي، فهو مثل السجود للصنم وسب الله والاستهزاء والسخرية بدين الله ﷻ فهؤلاء كفرهم كفر عملي ولو لم يعتقدوا جواز أفعالهم .

لأن الإيمان عند أهل السنة قول وعمل وكذلك الكفر قول وعمل، فهم يكفرون بالعمل كما يكفرون بالاعتقاد .

من ذلك تكفير الساجد للصنم استحل أو لم يستحل أو الذي يضع المصحف في الزبل أو يسب الله ورسوله ودينه يكفر سواء استحل أو لم يستحل والمشرع مثلهم يكفر استحل عمله وفضله على شرع الله أو لم يستحله ويفضله .

وعليه نقول أن المشرع يكفر على أحد ثلاثة أوجه وفي كل هذا رد على المرجئة :

أنه مستحل بقلبه كما ذهب لذلك البعض .

أن التشريع من الاستحلال العملي .

أن التشريع كفر بمجرد فعله وحصوله استحل المشرع أو لم يستحل .

ومثل المشرع الحاكم والمتحاكم كلهم يكفرون بشركهم في الحكم.

الوقفة الرابعة والأربعون : البرلمانات والمجالس التشريعية :

من أعظم محاضن شرك التشريع والقوانين الوضعية ما يسمى بالمجالس التشريعية المتمثلة في البرلمان ومجالس النيابة ومجلس الأمة ومجلس الشعب ونحوها . وهذه المجالس لا يجوز دخولها حتى ولو كان قصد الداخل فيها الإصلاح وظن وجود المصلحة فيها فإنما عمله عين الإفساد، وقد ضل من جوز الدخول في هذه البرلمانات بقصد تغيير الأحكام المخالفة للشريعة ولم يفقه علة المسألة .

ووقع صاحبه في عدة نواقض :

الأول: الشرك بالله في الحكم .

الثاني : الإعراض عن الدين والامتناع عن العمل به والانقياد للشرع.

الثالث : عدم تكفير المشركين وتصحيح مذهبهم .

الرابع: حضور مجالس المستهزئين والقعود مع من يكفر بآيات الله .

الخامس : الخروج عن الشريعة .

لأن أصل الحكم فيها قائم على التشريع والوسيلة التي يراد الوصول بها إلى الغاية وسيلة كفرية فلا تبرر الغاية .

والدخول في المجالس التشريعية لا يجوز من جهات :

الأولى : عدم النفع فيها والواقع يشهد بذلك .

الثانية : أنهم اتخذوا وسيلة محرمة كفرية لأمر واجب وهو الحكم بالشريعة .

الثالثة : أنه حتى لو حكم القانون في مسألة بحكم الشرع، كأن يحرم الخمر ويمنع بيعه وشربه بالقانون الصادر من المجلس فإنما تحريمه بتحريم هؤلاء لا بتحريم الله ﷻ والحكم فيه بحكمهم لا بحكم الله، فحكمه في هذا القانون وافق

حكم الله ﷻ لا تعمداً وقصداً ولذا يوجد في القوانين الأوربية ما يوافق الأحكام الشرعية هذا لا يمنع من كفر القانون، لأن مجرد وضع القانون واستشراف خاصية التشريع يعد كفراً ناقلاً من الملة، فليتنبه لذلك وليتفطن الموحد لهذه الخدعة الإبليسية وليتق الله من يسوغ الدخول في هذه الأوجه الكفرية الشركية .

الخامسة والأربعون: حكم دخول البرلمانات والمجالس التشريعية والقسم بها:

من الكفر البواح دخول البرلمانات والمجالس التشريعية ، ولو ادعى صاحبها الإصلاح ، ويزيد الأمر غلظة في الكفر إذا قارنها القسم على احترام الدستور والقانون والقسم به ، فيصير شركا مركب وظلمات بعضها فوق بعض .

لأن فيها تول عن حكم الله وحكم بغير ما أنزل وتحليل لما حرم واستهزاء بشرع الله وأمره والطعن في الدين والانقياد والاستسلام التام لغير الله تعالى .

بل ويكفر من يرشح وينتخب هؤلاء الكفرة المتسمين بالمشرعين إذا كان عالما بأنهم يحللون ويحرمون ، ومن باب أولى من يجوز لهم هذا الشرك .

الوقفة السادسة والأربعون : الدستور وسيادته من كفريات القوانين :

الدستور هو الحكم الأساسي للدولة المتعلق بالرئيس وحكومته ونظام حكمه . وهو يعتبر أعلى درجات القوانين مكانة لأنه متعلق بأصل الأحكام وطريقتها ونظامها وصفة قانونها وطريقة الحكم والسياسة في البلد والدولة عند القانونين.

أما السيادة فهي الجهة الآمرة للدولة والسلطة العليا التي لا سلطة فوقها ولا ترضخ لأمر أحد والتي لها حق التشريع والأمر والنهي .

والسيادة قد تكون خاصة للمعين كرئيس البلد وقد يشترك فيها معه أعضاء كالمجلس التشريعي أو البرلمان أو مجلس الشعب أو مجلس الأمة ونحوهم.

والسيادة في أغلب الدول الإسلامية وضعت للقوانين الوضعية بعد أن كانت لله ولشرعه والله المستعان .

وهذا من أعظم الكفر والشرك لأن السيادة من خصائص الله ﷻ وهي من حقوقه تعالى فالسيد هو الله ﷻ ، فهو رب الخلق وهو آمرهم وهو سيدهم وحده لا شريك له ، فلا أمر فوق أمره ولا شرع أعظم من شرعه ولا حكم أوجب للاتباع من حكمه ومن وضع حكمه فوق حكم الله فهذا أشنع كفراً وأشد شركاً ونفاقاً وأغلظ ردة والعياذ بالله .

مبحث : الديمقراطية

الديمقراطية من أعظم أنواع شرك التشريع والحكم .
وتعريف الديمقراطية : تعني حكم الشعب بالشعب . وأن يجعل حق التشريع والحكم والتحليل والتحريم للناس والنواب عنهم المنتخبين في المجالس التشريعية .
ومنبعها جاء من العلمانية وكان أول خروجها في أوروبا بعد الثورة الفرنسية حين خرجوا على الكنيسة وأحكامها وتشريعات النصرانية، ثم انتقلت هذه العلمانية وهي فصل الدين عن الدنيا والسياسة وحكم الشعب بتشريعاتهم وآرائهم إلى المسلمين بعد ذلك على يد المستعمرين والمستشرقين ثم الذين ذهبوا في بعثات وكانوا أذناباً للمستعمرين، فحكموا بين المسلمين بالقوانين الوضعية المنتخبة من مجالس الشعب بزعمهم .
والديمقراطية أخذت الحظ الأوفر في شرك الحكم والتشريع بين الحكومات .
والديمقراطية تعتبر دينا باطلاً ومن دان بها وفرح بها فهو كافر خارج عن الملة.
ومثل الديمقراطية الاشتراكية والرأس مالية واللبرالية والتي تقوم على فك رباط العبودية واعطاء الناس الحرية المطلقة وعدم إلزامهم بالدين وحكمهم بالشريعة عليهم ولا إيجاب شيء عليهم من قبل ربهم الذي خلقهم وأمرهم .
مسألة : الفرق بين الشورى والدمقراطية :
أن الحكم في الشورى لله ﷻ فهو وحده الحاكم ، أما الحاكم والمشرع في الديمقراطية فهو المخلوق .
أن الديمقراطية فيها تحليل الحرام وتحريم الحلال ومصادمة الشريعة أما الشورى فهي في المسائل الاجتهادية وليس فيها تحليل وتحريم وليس فيها مخالفة للشرع .
أن المرجع في الدمقراطية تكون من السوقية والرعاع وليست في أهل الحل والعقد والرأي.
مفاسد الدمقراطية واللبرالية والعلمانية :
١ - أنها تؤله المخلوق وتعطي الحكم والتشريع غير الله ولا تعترف بأن الحاكمية لله وحده .

٢- أن فيها الإشراك بالله وتأليه الأغلبية .

٣- أنها تنحي الشريعة وتعارض حكم الله وتصد عن الدين الحق وتعطل أوامر الله من جهاد وحسبة ونهي عن المنكر ودعوة .وتلمزها وتتهما بالنقص .

٤- أنها تميع الولاء والبراء .

٥- الخضوع لغير الله من الدساتير الطاغوتية والعلمانية .

٦- تضييع الدين من المسلمين، والتخلي عن الدين والشرع، ومحاربة أهله. وخدمة لليهود والنصارى وتمكين لهم، والتأسي بهم .

٧- أنها تحمي كل كفر وتسمح بالردة والزندقة فضلا عن المحرمات والفواحش ويعيش في ظلها كل أنواع الكفرة فلهم الحرية في أن يكفروا ويسبوا الدين .

٨- أنها تعترف بأنظمة الكفر وقوانين الشرك وتدافع عنها بل وتساند الكفار في حربهم على المسلمين.

٩- الناس في دينهم سواء المسلم والكافر والذكر والأنثى فسووا بين من فرق الله بينهم في حكم الحال والمآل ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ القلم: ٣٥.

١٠- مساواة أصلح الناس وأعلمهم مع أفسد الناس وأجهلهم .

١١- أنها تسمح بتمكين الكفار وتوليتهم على المسلمين .

١٢- أنها تدعو لحرية الاعتقاد، ولو كان مؤداه إلى الارتداد عن الدين. وحرية التعبير ولو كان فيه الطعن بدين الله تعالى والتهكم به، حيث لا مقدس في نظر الديمقراطية ودعاتها فوق النقد والتعقيب أو السؤال والاعتراض عليه. والحرية الشخصية بمدلولها الإباحي البهيمي، فللمرء في ظل الديمقراطية أن يفعل ويمارس ما يشاء، ما لم يخالف ذلك قوانينهم الوضعية.

١٣- ومن إفرازات الديمقراطية، أن الشعب يحكم نفسه بنفسه، أي أن المشرع المطاع في نظر الديمقراطية هو الإنسان وليس الله.

فالمعبود المطاع في نظر الديمقراطية ودعاتها هو الإنسان وما يهواه، ومن غلو القوم في هذا الدين الجديد، أنهم يوالون ويعادون عليه، ويقاتلون ويسالمون عليه، فمن دخل فيه سالموه ووالوه، ومن أبى حاربوه وعادوه !

فالديمقراطية طاغوت تفرع منها طواغيت تعبد من دون الله، ومع ذلك فالناس يدخلون فيها كدين، ويحتكمون إليها والله المستعان .

حكم الشعب : عندما يكون الشعب مصدر التشريع، ويكون له الأمر والاختيار في من يحكم، والقانون الذي يطبق فالشعب في هذه الصورة طاغوت ومعبود من دون الله وندا لله تعالى في خاصية الحكم والتشريع، والنزول عند رغبته تقديم إرادة الشعب على إرادة الله وطاعته لذاته .

تنبيه: حكم الشعب ليس حكم الله وإن حكم بالإسلام من وجهين:وأصاب

أولهما : أن تطبيق شريعة الإسلام هو في الحقيقة نزول عند رغبة الشعب وإرادته، وليس انصياعا لأمر الله وإرادته، بدليل أن الشعب لو اختار فيما بعد الحكم بشريعة غير شريعة الإسلام، فإنها تُطبق وتحل محل شريعة الإسلام من غير إنكار أو اعتراض من أحد، لأن الجميع قد تعارفوا فيما بينهم على أن الحكم للشعب، وأن مرد الأمر له، فله أن يحكم ما يشاء بما يشاء .

الوجه الثاني أن قضية الحكم والتحاكم هي من الله إلهية وربوبية، ومن العباد عبودية وطاعة وتوحيد، فالغاية العظمى من قضية التحاكم إلى شرع الله هي تحقيق عبودية العباد لله تعالى في هذا الجانب، وهذا لا يتحقق إن كان المقصود طاعة الشعب ونزولا عند إرادته ورغبته، بل يتحقق العكس وهو عبادة الشعب من دون الله، لأن التحاكم في حقيقته يكون إلى الشعب وليس إلى الله كما تقدم .

ولا يكفي إذن أن يتخذ البشر لأنفسهم شرائع تشابه شريعة الله أو حتى شريعة الله نفسها بنصها إذا هم نسبوها لأنفسهم ووضعوا عليها شاراتهم ولم يردوها لله، ولم يطبقوها باسم الله إذعانا لسلطانه واعترافا بألوهيته وبتفرده بهذه الألوهية، التفرد الذي يحرر العباد من حق السلطان والحاكمية إلا تطبيقا لشريعة الله وتقريرا لسلطانه في الأرض .

العلمانية : تقوم على مبدأ فصل الدين عن الدولة والحياة، وأن ما لله لله ، وهو المساجد والكنائس والزوايا والمعابد. وما لقيصر لقيصر وهو كل ما تبقى من شؤون الحياة ومجالاتها العامة والخاصة ! وأن لقيصر حرية التدخل بخصوصيات الله تعالى إن اقتضت المصلحة العامة ذلك، وليس لله أن يتدخل بخصوصيات قيصر، وأي محاولة تكون بخلاف ذلك فهي سرعان ما تواجه بتهمة تسييس الدين، وإدخال الدين في السياسة أو العكس، وتهمة ترويج الأصولية والإرهاب.

قال تعالى في أمثالهم:﴿ فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ الأنعام: ١٣٦ ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ﴾ هود: ٨٧.

مبحث : مشركوا زماننا في الحكم والمشرعون أشد كفرا من مشرعي اليهود والنصارى ومشركوا العرب .

إذا كان الإمام محمد بن عبد الوهاب يقول أن مشركي زمانه من الصوفية القبورية والرافضة وغيرهم أشد كفرا وشركا من مشركي العرب في الجاهلية وقد صدق رحمه الله وبينا الأوجه في زيادة كفر المتأخرين وغلظة شركهم من عشرة أوجه عند الكلام عن الشرك في الباب الأول .

فإني أقول هنا أن المشرعين ومشركي الحكم في زماننا أشد كفرا من اليهود والنصارى الذين شرعوا وبدلوا حكم الله وشرعه وحرفوا كتابه، وإليك هذا البيان ثم قارن، فحكام زماننا المشركون وقعوا في شرك التشريع والتحليل والتحريم وشرك الحكم وشرك الطاعة والتحاكم بجميع صوره بل إن هؤلاء المشرعين وقعوا في تفضيل شريعتهم على هدي الرسول ﷺ بينما مشرعو قريش كانوا مقرين بفضله وكمال هديه حتى سموه الصادق الأمين .

مبحث : مقارنات :

الأولى: قارن بين تبديل اليهود الذين حرموا الزنا واعتبروه جريمة ولكن خالفوا في عقوبته وبدلوه من الرجم إلى الجلد، وبين تبديل مشرعي زماننا من الحكام المشركين الذين لم يجرموا الزنا أصلا بل أباحوه فلم يبدلوا ويخالفوا في العقوبة وإنما استطالوا على الجريمة بجعلها غنيمة في شريعتهم وخذ المادة ١٩٠ في أكثر القوانين لتعلم ذلك وأن الزنا لا يعد جريمة فضلا أن يكون له عقوبة إذا كان برضى الزانية ولا يعدونه جريمة إلا إذا كان اغتصابا ثم هم مع ذلك يعاقبون على الاغتصاب والزنا والحرابة بأهون العقوبات والمحاكم الاستئنافية قد تسقطها وقد تعاقب من لم يرض بذلك، فأي إباحة وتحليل للزنا فوق ذلك وهل وصل اليهود والنصارى ومشركو العرب إلى مثل هذا الكفر البواح وقل مثل ذلك في قوانينهم المبيحة للربا والملزمة بسداده في محاكمهم التجارية الطاغوتية الكفرية.

الثانية : قارن بين تحاكم بشير الذي قتله عمر ﷺ والتحاكم للأمم المتحدة والشرعية الدولية ومحكمتها العدلية الطاغوتية الكفرية المحاربة للإسلام وأهله وكذا التحاكم للمحاكم والقوانين الوضعية .

الثالثة: قارن بين غضب المصطفى ﷺ من عمر حين رأى بيده وريقات من التوراة التي أصلها منزل على موسى وبين المجلدات التي بيد المشركين من عبيد القانون والتي تشرح القوانين الوضعية الكفرية كالقانون الفرنسي والمصري وغيره وكيف تدرس ويفتح لتدريسها الكليات والمعاهد .

الرابعة: قارن بين قتل ناكح امرأة أبيه وبين من يصرحون لمحلات الدعارة والزنا والسينما وغيرها من المنكرات في زماننا.

عن البراء بن عازب ﷺ قال : مر بي عمي الحارث بن عمرو ومعه لواء قد عقده له رسول الله ﷺ قال فسألته قال بعثني الرسول أن أضرب عنق رجل تزوج أمرأة أبيه . رواه أحمد وغيره.

قال ابن جرير : (فكان فعله ونكاح أمرآة أبيه من أدل الدليل على تكذيبه الرسول ﷺ فيما أتاه به عن الله تعالى وجحوده آية محكمة في تنزيله .. لذلك أمر الرسول ﷺ بقتله وضرب عنقه، لأن ذلك كان سنته في المرتد عن الإسلام) تهذيب الآثار ٢/ ٤٨ .

قلت تأمل الحديث مع ما قرره ابن جرير وكيف جعل العمل الظاهر من الرجل دليل على التكذيب والجحود والاستحلال ، وأن هناك ما يسمى عند العلماء بالتكذيب العملي والجحود العملي والاستحلال العملي الظاهر فالتكذيب قد يظهر في عمل ظاهر .

وقارن بينه وبين ما يحصل في هذه العصور من مشركي زماننا ومشرعي القوانين الوثنية الشركية والأنظمة الحاكمة الطاغوتية التي جوزت الربا والزنا ومقدماته ومنحت التراخيص لترويج تلك الفواحش كالسينما والرقص والتعري والزنا والخمور والتسجيلات الغنائية والدشوش والبنوك الربوية وقامت على رعايتها وحمايتها وسوغت موالاة الكفار وحمايتهم ومظاهرتهم على المسلمين ومنع تكفيرهم ومعاداتهم وجهادهم باسم المصالح المشتركة والتعايش السلمي والأنظمة الدولية وقرارات الأمم المتحدة .

ولذلك أفتى من أفتى من أهل العلم ومنهم محمد بن إبراهيم وحمد بن عتيق وغيرهم أن من أعطى التصاريح التجارية للأمور المحرمة أنه مستحل لها كافر مرتد.

الخامسة: قارن بين إنكار الرسول ﷺ على أبي شريح في تكنيته بأبي الحكم وما يتسمى به مشرعو زماننا بالسلطة العليا التشريعية والسيادة.

السادسة: قارن بين إفساد المنافقين في الأرض وما أفسده أرباب القوانين الوضعية ويجمع الطائفتين إدعاؤهما الإصلاح .

السابعة: قارن بين عبادة الأحبار والرهبان واتخاذهم أربابا وبين عبادة العلماء والفقهاء في هذه الأمة .

الثامنة: قارن بين العلماء الذين كان لهم شرف الجهاد لهذا الشرك مثل محمد بن إبراهيم وأحمد شاكر والفقي والشنقيطي وغيرهم وبين علماء السوء الذين أباحوها وسعوا في نشرها بل ودرسوها وألفوا فيها كعبدالرزاق السنهوري وغيره .

التاسعة: قارن بين كفار العرب الذين حاربوا الرسول ﷺ وهم مع ذلك يقرون صراحة بكمال هديه وأنه الصادق الأمين ويرضون بحكمه ويفضلونه ، وبين من يفضل هدي الكفار وما عليه الغرب الكافر أو هدي شيوخ الطرق الصوفية مع دعواه الإسلام وحب الرسول ﷺ .

مسألة : صور معاصرة في شرك الحكم والناقض الرابع :

١- زعمهم أن الشريعة لا تناسب العصر ولا يصلح الحكم بها في الاقتصاد والعلاقات والمواثيق الدولية.

٢- جعل السيادات للحاكم والبرلمان والشعب .

٣- التحاكم إلى المحاكم القانونية.

٤- إحالة القضايا الاقتصادية للجهات المختصة بنوك ومحاكم تجارية .

٥- المناداة بالشرعية الدولية وحكم صناع القرار في العالم .

٦- التحاكم إلى محكمة العدل الدولية .

٧- الطاعة الشركية لقرارات الأمم المتحدة.

٨- مدح قوانين الغرب .

٩- الدمقراطية.

١٠- التصويت على الدستور.

١١- دخول البرلمانات والمجالس التشريعية.

١٢- الانتخابات.

١٣- ترك قطع يد السارق والرجم والتزامه.

١٤- الحكم القبلي وتعظيمه في قلوب العامة وهو من الشرك الأكبر وقد خفي خطره على كثير من العوام حتى صار بعض المتعصبين للقبلية يتفاخرون به.

١٥- في نظام العمل: دية المهندس تختلف عن العامل ، بينما لا يفرق بين مسلم والكافر. وغير ذلك كثير .

مبحث : مذهب المرجئة في شرك الحكم والتشريع والتحاكم والطاعة وكيف أنهم ردوا كفرها للتكذيب والجحود والاستحلال

١- خالفوا في التشريع: يشترطون في كفر المشرع أن ينسب التبديل في الحكم إلى الشريعة ويقول انه من عند الله فهو كفر . وهذا من مذهب المرجئة الخبيثة.

٢- خالفوا في الحكم: ويشترطون في تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله أن يستحل الحكم الشركي ويجحد حكم الله ﷻ .

٣- خالفوا في التحاكم: فجعلوا مناط الكفر في التحاكم متعلق بالإرادة وخاص بالاعتقاد ومحلها في الباطن .

٤- خالفوا في شرك الطاعة: فجعلوا مناط الكفر فيه هو الاستحلال والجحود وليس القبول والاتباع.

٥- من كفر الحاكم المشرك والمشرع جعلوه من الخوارج

وسبب أقوالهم :

١- الجهل بمناط التكفير في الحكم والشرك، والفرق بين المعصية والكفر .

٢- قولهم الفاسد في الإيمان وإخراج العمل منه ، فلا يكون ركنا فيه ولا يكفر أحد بمجرد ترك العمل ولا يوجد كفر عملي أكبر .

وصية : وجوب بيان حكم الله ﷻ في الحاكم المشرك :
أولاً : وجوب تكفير الحاكم الطاغوت المشرك والبراءة من شركه وحكمه والكفر به ، وعدم عذره بالجهل والتأويل .
ثانياً : قتل المتحاكم والحاكم بغير الشريعة، إحياءً للسنة العمرية والشريعة المحمدية والملة الإبراهيمية.
قال الشيخ سليمان بن سحمان :(وهكذا ينبغي أن يفعل بالمتحاكمين إلى الطاغوت فإذا كان الخليفة الراشد قد قتل هذا الرجل بمجرد طلبه التحاكم إلى الطاغوت فمن هذه عادته التي هو عليها ولا يرضى لنفسه وأمثاله سواها أحق وأولى أن يقتل لردته عن الإسلام وفساده في الأرض ... واعلم أنه ما دعا داع إلى حق إلا كان للشيطان شبهة عنده يصد بها الناس ومن ذلك أنه إذا قيل لأهل الطاغوت ارجعوا إلى حكم الله ورسوله واتركوا أحكام الطواغيت قالوا : إنا لا نفعل ذلك إلا خوفا من القتل ... والجواب أن الفساد في الأرض وقتل النفوس سببه إضاعة أوامر الله، ثم يقال إذا عرفت أن التحاكم إلى الطاغوت كفر فقد ذكر الله في كتابه أن الكفر أكبر وأشد من القتل ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ البقرة: ٢١٧، والفتنة هي الكفر فلو اقتتلت البادية والحاضرة حتى يذهبوا لكان أهون من أن ينصبوا في الأرض طاغوتا يحكم بخلاف شريعة الإسلام التي بعث بها رسوله، ثم يقال لو ذهبت دنياك كلها لما جاز لك المحاكمة إلى الطاغوت لأجلها) الدرر السنية ١٠/ ٥٠٢.

الفصل الثامن : كشف الشبهات حول الحكم بغير ما أنزل الله

أمور يتشبث بها الذين يروجون الحكم بغير ما أنزل الله: من قبيل الشبهات :
القسم الأول : عامة بالحكم بغير ما أنزل الله .
القسم الثاني : خاصة بالقوانين :

شبهات متعلقة بالتكفير خارجة عن موضوعنا .

ونبدأ بتقرير الجواب المجمل :
كل ما أورده دعاة الشرك والمجادلون عنهم من الشبهات ليس فيها حجة لدعاة الشرك بل هي كالسراب للعطشان ، فليس فيها تشريع للحلال والحرام ولا إقرار بالكفر ، والواجب رد المتشابهات وعدم تتبعها والأخذ بالمحكم في كفر الحاكم بغير ما أنزل الله ومشرع القوانين ومنحي الشريعة.

الشبهة الأولى : أصل دعوة الرسل هو التحذير من شرك الدعاء ، وهذا الكلام يهون من شأن شرك القبور :

قلت هذا قول من لا يعرف التوحيد وما بعثت به الرسل فكل الرسل دعوا إلى توحيد الله بالحكم وتوحيد الله بالدعاء وهكذا بقية العبادات والكفر بالطاغوت المتحاكم إليه وألا يشرك فيه مع الله أحد، ومن تدبر ما دعت إليه الرسل وجد دعوتهم شاملة لكل جوانب التوحيد والتحذير من كل أنواع الشرك ومنها شرك الحكم والطاعة والتشريع والدين ، ولم يقتصروا على شرك الدعاء فقط .

وتأمل في ذلك قوله تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ التوبة: ٣١. وهؤلاء ما كانوا يصلون لهم ، ولا ذكَر الله أنهم كانوا يصرفون لهم الدعاء من دونه ، فعن عدي بن حاتم أنه أتى النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ، فقال : ((أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه)) رواه الترمذي.

وسئل حذيفة ﷺ عن هذه الآية : أكانوا يصلون لهم ؟ قال : لا ، ولكنهم كانوا يحلون لهم ما حرم الله عليهم فيستحلونه ، ويحرمون عليهم ما أحل الله لهم فيحرمونه ؛ فصاروا بذلك أربابا .

وهذا يوسف ﷺ يبين للناس أن إفراد الله تعالى بالحكم كإفراده بالدعاء فقال جامعًا بين التوحيدين وأنهما يمثلان حقيقة الدين الذي جهله أكثر الناس: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يوسف: ٤٠.

وتأمل قول النبي ﷺ : (رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار ، وكان أول من سيب السوائب) متفق عليه.

وقال ﷺ عنه : (إنه أول من غَيّر دين إبراهيم) .

ففيه إشارة إلى شرك التشريع والطاعة بتحريم ما أحل الله من تسييب السوائب للمعبودات الباطلة، وقرن الرسول ﷺ بين تغييره دين إبراهيم وبين تبديله شرع الله تعالى ليبين أن حكمهما سواء ، وأن فعله هذا من جنس فعل اليهود والنصارى الذين حرموا ما أحل الله وبينه لعدي.

فبعد هذه الأدلة الصريحة في بيان أن شرك الطاعة كشرك الدعاء ، ليس لأحد أن يزعم أن دعوة الرسل قائمة على التحذير من شرك الدعاء فقط بل النهي عن الشرك بجميع صوره ومظاهره.

الثانية : قولهم : الحكم لا يدخل في العبادة والشرك .

الجواب أن هذا قول من لا يعرف الإسلام .والحكم مما اختص الله به ولا يشرك أحد فيه ، وهو من العبادة التي أمر الله بها والتي لاتصرف لغيره ، فيدخله التوحيد ويتعلق به الشرك، وكل هذا نص عليه القرآن.

الشبهة الثالثة : قولهم : إنه ليس للشريعة علاقة بالسياسة ، ولا يوجد في الشريعة حل في النوازل وفض لكل تنازع وهي قاصرة عن الحياة المعاصرة والثورة الصناعية والعولمة والحضارة والمصالح والعلاقات الدولية .

وهذا القول من أعظم الكفر والزندقة وتكذيب لله تعالى فيما أخبر في مثل قوله ﷻ: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الشورى: ١٠ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠ ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

قال ابن القيم في تفسير آية ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ : (نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقه وجله، جليّه وخفيّه، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافيا لم يأمر بالرد إليه، إذا من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع. ومنها أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ ، هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته. ومنها أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان، ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه، ولا سيما أن التلازم بين هذين الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر. ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه). إعلام الموقعين (١/ ٤٩) .

الشبهة الرابعة : قولهم: الحكم بغير ما أنزل الله مسألة خلافية ولا إجماع فيها:
أن كفر المشرّع والحاكم بغير ما أنزل الله والمتحاكم له مما أجمع عليه أهل السنة ومن نقل الإجماع الطبري وابن راهوية وابن حزم وابن تيمية وابن كثير وغيرهم .
قال إسحاق بن راهوية : (أجمع العلماء على أن من دفع شيئا أنزله الله وهو مع ذلك مقر بها أنزل الله أنه كافر) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٢٢٦ .
قال الطبري في تفسيره : (إن جحود حكم الله تعالى هو اعتراض على شرع الله تعالى ، وتكذيب لنصوص الوحيين ، وقد أجمع العلماء على تكفير من أنكر حكماً معلوماً من الدين بالضرورة) ٦ / ١٤٩ .
قال ابن تيمية : (والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحلال أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا بالاتفاق) الفتاوى٣/ ٢٦٧ .
قال ابن كثير في تاريخه: (فمن ترك الشرع المحكم المنزل وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه (أي على شرع الله) من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين) البداية والنهاية ١٣/ ١١٩ .
قال ابن حزم في إحكام الأحكام : (من حكم بحكم الإنجيل مما لم يأت بالنص عليه وحي في شريعة الإسلام فإنه كافر مشرك خارج عن الإسلام) .
وقال في الفصل عن طاعة المشرعين :(وهذا هو الشرك بلا خلاف) .
ولم يخالف في ذلك سوى المرجئة الضلال ، والمرجئة وغيرهم من أهل البدع لا يعتد بقولهم في الإجماع ولا عبرة بخلافهم له .
الخامسة : أن الحكم بغير ما أنزل الله من الكفر العملي الأصغر كالمعاصي.
والقائلون بذلك يجعلون الحكم معصية كسائر المعاصي لا يكفر مرتكبها ما لم يستحلها ، بل إن بعضهم يبالغ ويرمي المخالفين له بأنهم خوارج .
١- أن هؤلاء قد غاب عنهم الفرق بين الكفر والمعصية :
فظنوا أن القوانين الوضعية والتشريع من قبيل المعاصي لا الكفر ، لمذهبهم الفاسد في الإيمان وقولهم بالإرجاء والحق أن القانون والتشريع من الكفر الأكبر وليس مجرد معصية، والفرق بين القانون والمعصية من وجهين :
الأول : ليس في المعصية مضاهاة ومشابهة لخصائص الله ﷻ وليس في المعصية شرك بخلاف التشريع، الذي فيه الشرك في الربوبية والألوهية .

وهناك تلازم بين ربوبية الله وبين حقه في السيادة والتشريع فمن يخلق يأمر ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ، بل هو أحد معاني ربوبيته الثلاث (التدبير والملك والأمر)، فلا يثبت توحيد الربوبية إلا بإثبات حق التشريع والسيادة والأمر والنهي ، كما أنه لا يثبت توحيد الألوهية إلا بالتحاكم إلى شرع الله وقبوله والرضا به ظاهرًا وباطنًا .

الثاني : أن العاصي عنده الالتزام بالشريعة بخلاف المشرّع فليس عنده الالتزام والانقياد للشريعة ولا قبولها فالعاصي عنده أصل الالتزام وخالف في كمال الالتزام بخلاف المشرع فليس عنده أصل الالتزام بالشرع فنقض الأصل ، لهذا كفر.

٢- أن الله تعالى كفّر من يحكم ويشرّع ، بل كفر من دونهم ممن يتبعهم ويطيعهم في التحليل والتحريم ويتحاكم إليهم فقد اتخذهم ربًا وكفر بذلك ، إذ لا فرق بين شرك الطاعة وشرك الدعاء ، إلا في ذهن من لم يفهم التوحيد حق الفهم.

كما في قوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ التوبة: ٣١ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ .

وكيف يكون الشرك في الدعاء شركًا أكبر مخرجًا من الملة ، ولا يكون الشرك في التشريع كذلك ؟ وهل كان شرك إبليس إلا في رد أمر الله ؟ وهل كان كفر قوم لوط إلا في رد أمر الله وتكذيب رسله ؟ فما من موضع في القرآن ذكر فيه عن إبليس ولا قوم لوط أنهم صرفوا الدعاء لغير الله . فهذان النوعان من الشرك ، متجانسان حكمًا واحدًا في الكتاب والسنة، فكيف يُفصل بينهما دون أدنى أثارة من علم ؟

٣- أن السلف يقصدون بالكفر العملي إذا أطلقوه أمرين :

ما تعلق بالعمل فعلاً وكان يشترط معه الاستحلال كترك بعض الواجبات كالحج وفعل المعاصي كالزنا .

وما كان كفر بذاته لا يشترط معه الاستحلال كالتشريع وسب الله وحرب الدين ومظاهرة الكفار والسحر والسجود للقبور والاستهانة بالمصحف .

قال ابن القيم: (كفر العمل ينقسم إلى مايضاد الإيمان وما لايضاده، فالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبي وسبه يضاد الإيمان) الصلاة ٤٠٦ .

أيضاً أن الإيمان قول وعمل واعتقاد ولا يصح الإيمان إلا بالعمل وتاركه يكفر عند أهل السنة خلافا للمرجئة .

وقد كفر السلف تارك الصلاة وتارك النطق بالشهادتين مع القدرة بالإجماع، وهذا من الكفر العملي الأكبر ولا يخالف ويعده من الأصغر غير المرجئة .

الشبهة السادسة : لا يكفر الحاكم بغير ما أنزل الله إلاّ بالجحود أو الاستحلال.

١ - أن هؤلاء جهلوا مناط الكفر في الحكم ووجه كونه كفرا ، وهذا بأحد سببين إما لأخذهم بمنهج الإرجاء في عدم التكفير بالأعمال ، أو لجهلهم بحقيقة كفر الحكم وعدم تدبرهم الآيات التي بينت شناعة هذا العمل وكفر فاعله .

وقد بينت مناط الكفر في الحكم وأنه متعلق بالإعراض والامتناع منه والتولي عن العمل وتركه من غير جحود لحكم الله أو استحلال لحكم غيره مفصلا بكلام طويل يبين المسألة بالأدلة وكلام أهل العلم، فراجعة في ثنايا ناقض شرك الحكم * .

---

* نذكر هنا اختصارا بحثا حول تحقيق كون الحكم كفر عملي خلافاً للمرجئة :

أولاً : أدلة تعلق الكفر في الحكم بالعمل المجرد عن الاعتقاد :

قال تعالى :﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١ ، والطاعة متعلقة بالعمل والانقياد والسماع القبول.

قال ﷻ :﴿ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٤٣ . والتولي يكون بالعمل وترك الطاعة وليس الجحود .

قال تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١. والصدود أمر عملي .

قال تعالى :﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ النور: ٤٧ - ٤٨ . والتولي والإعراض متعلق بالعمل .

قال تعالى :﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٤٣ . ومعنى الآية أن هؤلاء اليهود كانوا مقرين بالتوراة، ولم يجحدوها كما جحدوا القرآن ومع ذلك كفروا بها من حيث عدم العمل بحكمها وتركوا العمل بها وتولوا عن حكمها ولم يتبعوها، ويؤكد المعنى ما قاله الله ﷻ لرسوله ﷺ وكيف يا رسولي تريد اليهود أن يحكموك ويحكموا القرآن وهو كتابك الذي أنزل لك ، فإذا كانوا لم يحكموا بالتوراة التي أنزلت عليهم وأقروا بها واتبعوها ولم ينكروها أو يجحدوها، فهل سيحكمونك ويتبعون حكمك مع تكذيبهم لك وجحودهم لنبوتك ولا يقرون بما أنزل عليك، وبهذا يتبين أن الكفر الحاصل من اليهود وغيرهم في شرك الحكم عملياً وليس اعتقادياً .

ومن الأدلة على كون الحكم متعلق بالعمل وتاركه والمشرك فيه كفرهم عمليا.

قوله تعالى :﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥ .والآية نفت الإيمان عن تارك التحاكم، والتحاكم وتركه أمور عملية.

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ والآية حكمت على تارك الحكم بالكفر.

وقوله تعالى :﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ يوسف: ٤٠ . والآية بينت أن الحكم عملي وليس اعتقادي وداخل في العبادة وهي عملية .

٢- أن أهل العلم صرحوا بكفر الحاكم متى ترك حكم الله وأعرض عنه وامتنع عن الانقياد له ولو كان مقرا غير جاحد ولا مستحل، ومن أقوالهم :

قال ابن كثير في تاريخه: (فمن ترك الشرع المحكم المنزل وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه) ١٣/ ١١٩.

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ المائدة: ٤٩. والآية بينت أن الحكم والتحاكم متعلقة بالعمل وضدها التولي متعلق بالعمل وليس بالاعتقاد ومعناه ترك الفرائض والطاعة ومنها التحاكم، فهو كفر عملي.

فهذه الأدلة تبين أن من ترك حكم الله وتولى عن التحاكم إليه فهو كافر بهذا ولا يشترط حتى نكفره أن يجحد حكم الله أو يستحل الحكم بغيره.

ثانياً : ما يدلل على أن التولي والإعراض أمر متعلق بالعمل :

قوله تعالى :﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ القيامة: ٣١ .

فانظر كيف جمع الله بين التولي والتكذيب مما يدل على اختلافهما ، بل جعل الله التولي في مقابل ترك الصلاة والتكذيب في مقابل التصديق.

وإليك كلام السلف في أن كفر التولي متعلق بعمل الجوارح وليس بالاعتقاد .

قال المروزي :(التولي ترك الفرائض).

قال ابن كثير : (كذب بقلبه وتولى بفعله).

وقال في آية:﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾: (فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول) .

قال ابن تيمية: (فصار الانقياد من تصديقه في خبره، فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكـذبٌ لـه أو ممتنع عن الانقياد لربه، وكلاهما كفر صريح). الصارم ص ٩٦٩.

وقال ابن تيمية في الإيمان الأوسط :(فعلم أن التولي ليس هو التكذيب بل هو التولي عن الطاعة فإن الناس عليهم أن يصدقوا الرسول فيما أخبر ويطيعوه فيما أمر وضد التصديق التكذيب وضد الطاعة التولي).

وقال في الصارم المسلول : (فبين سبحانه أن من تولى عن طاعة الرسول ﷺ وأعرض عن حكمه فهو من المنافقين وليس بمؤمن وأن المؤمن هو الذي يقول سمعنا وأطعنا، فإذا كان النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول ﷺ وإرادة التحاكم إلى غيره مع أنه ترك محض وقد يكون سببه قوة الشهوة فكيف بالنقض والسب).

وقال في الإيمان : (التولي في الطاعة والتكذيب في الإخبار) ٧/ ٥٩، ١٤٢ .

وقال فيه :(فنفى الإيمان عمن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقبول).

قال الجصاص: (في هذه الآية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم) أحكام القرآن ٣ / ١٨١.

قال إسحاق بن راهوية : (أجمع العلماء على أن من دفع شيئا أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٢٢٦ .

قال ابن القيم : (ومنهم من تأول آية ومن لم يحكم على ترك الحكم جاحدا لـه وهو قول عكرمة وهو تأويل مرجوح فأن جحوده كفر سواء حكم بـه أو لم يحكـم) المدارج ٢/ ٣٣٦ .

قلت وهذا رد صريح على جهمية العصر ومرجئته القائلين لا يكفر الحاكم إلا إذا جحد واستحل مع أن كلام عكرمه لا يحمل على المشرعين .

قال محمد بن إبراهيم: (لو قال من حكّم القانون : أنا أعتقد أنه باطـل ، فهـذا لا أثر له ، بل عزل للشرع كما لو قال أحد : أنا أعبد الأوثـان وأعتقـد أنهـا باطلـة). الفتاوى (٦/ ١٨٩).

قال الجـصاص عنـد آيـة: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ : (وفي هـذه الآية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ فهو خـارج مـن الإسلام سواء رده من جهـة الـشك فيـه أو مـن جهـة تـرك القبـول والامتنـاع مـن التسليم) أحكام القرآن ٣ / ١٨١ .

٣- أن الجحد والاستحلال مناطات مكفـرة مـستقلة ، ولـو لم يحـصل معهـا الحكم بغير ما أنزل الله ، و ليست هى مناطات التكفير الواردة في الآيات الدالة عـلى كفر الحاكم بغير ما أنزل الله والمتحاكم إليه ، فالحكم كفر عمـلي مـستقل ، والجحـود والاستحلال كفر اعتقادي، وكليهما كفر أكبر وليس بالضرورة اجتماعهما فقد يحكـم بالطاغوت ولا يجحد وقد يجحد حكم الله ويستحل الحكم بغيره مع عدم فعله ذلك، والجميع كافر، والآيات كلها في القسم الأول المتعلق بالكفر العمـلي الظـاهر القـائم بالحكم والتحاكم والطاعة ، وقدمت قول ابن القيم و الجصاص .

٤- أن قصر الكفر على الجحـود والاسـتحلال وإخـراج الكفـر العمـلي مـن حقيقة الكفر هو بعينه مذهب المرجئة ، ولم يفرقوا بـين المعـاصي يكفـر بهـا الخـوارج والنواقض والشرك الذي يكفر بها أهل السنة.

قال ابن تيمية: (قد تقرر من مذهب أهل السنة أنهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب ، ولا يخرجونه من الإسلام بعمل إذا كـان فعـلاً منهيـاً عنـه مثـل الزنـا والسرقة وشرب الخمر ، ما لم يتضمن ترك الإيمان) الفتاوى(٢٠/ ٩٠) .

قال محمد بن عبدالوهاب فيمن احتج بأن السلف لا يكفرون بالذنوب: (هذا حق ، ولكن ليس هذا ما نحن فيه ، وذلك أن الخوارج يكفرون من زنى أو من سرق ، بل كل كبيرة إذا فعلها المسلم كفر ، أما أهل السنة فمذهبهم أن المسلم لا يكفر إلا بالشرك ، ونحن ما كفرنا الطواغيت وأتباعهم إلا بالشرك ، وأنت رجل من أجهل الناس تظن أن من صلى وادعى أنه مسلم لا يكفر) المؤلفات (٧/ ٢٣٣).

٥- كيف يكون الشرك في الدعاء والذبح والسجود شركًا أكبر ولا يشترط معه الاستحلال ، ولا يكون الشرك في التشريع كذلك ؟

ثم ما نحن فيه الآن من هجر لأحكام الإسلام جملة هل ينتظر فيه تصريح بالاستحلال ؟ وهل يقول ذلك مسلم يعيش ذلك الواقع فضلاً عن كونه عالمًا ؟

فمن يفرض القوانين الوضعية الفرنسية أو الأمريكية على الشعوب الإسلامية، ويجعلها أصل الحكم في القضاء في الأموال والدماء وغيرها ، بل ويعاقب من يطالب بتطبيق الشريعة الربانية ، هل ننتظر منه بعد ذلك أن يعلن بلسانه أنه مستحل ؟ وهل بعد استحلاله هذا استحلال ؟

فإذا كان من الاستحلال اعتقاد حل الحكم بغير ما أنزل الله ، فكيف بمن يوجبه ويلزم به ، بل ويعاقب من تركه ؟ أوليس هذا قد تخطى مرحلة الاستحلال إلى ما هو أشد منه ؟

٦- أن القرآن قد نصّ على تكذيب إيمان من لم يكفر بالطاغوت وأراد التحاكم إليه ، فنحن نحكم ببطلان إيمان أمثال هؤلاء تصديقاً بحكم الله فيهم ، ونُكذب هذا المتحاكم للطاغوت ولو زعم الصدق والإيمان والتوفيق والإحسان ، ولو صرّح بأن الشريعة أفضل من دين الطاغوت ، وأقر بوجوب تحكيم الشرع .

قال ابن إبراهيم:(لو قال من حكّم القانون أنا أعتقد أنه باطل،فهذا لا أثر له).

قال ابن عثيمين: (ومن هؤلاء من يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية، لتكون منهاجاً يسير الناس عليه ، فإنهم لم يضعوا تلك التشريعات ، إلا وهم يعتقدون أنها لا أصلح وأنفع للمخلوق ، إذ من المعلوم بالضرورة العقلية ، والجبلّة الفطرية أن الإنسان لا يعدل عن منهاج إلى منهاج يخالفه إلاّ وهو يعتقد فضل ما عدل إليه ، ونقص ما عدل عنه). الفتاوى١/ ٣٦.

تنبيه : من يعتقد أنه لا يكفر المشرع إلا إذا استحل فهذا يعتبر ردة ويكفر قائله إذا قامت عليه الحجة لأنه يعد من الشك في كفر الكافر وتصحيح مذهبه .

الشبهة السابعة :أن الكفر في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤ هو كفر دون كفر ، كما ورد عن ابن عباس ﷺ .

ويرد على هذه الشبهة من عدة أوجه :

١- أن هذا الأثر ضعيف ولا يصح عن ابن عباس ﷺ .*

٢- أن قول ابن عباس رضي الله عنهما هذا إن صحّ ، فهو معارض بقول ابن مسعود ﷺ عندما سئل عن الرشوة ؟ فقال :(هي السحت) فقيل له : في الحكم ذلك؟ قال : (ذلك الكفر ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ . رواه سعيد بن منصور في السنن ، وعبدالرزاق في المصنف ، والطبراني

---

* روى هذا الأثر من طريق سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس أنه قال: " إنه ليس الكفر الذي تذهبون إليه، إنه ليس كفراً ينقل عن الملة ،كفر دون كفر" .

رواه سعيد بن منصور في السنن ،وابن بطة في الإبانة ، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة ، وابن عبدالبر في التمهيد،والحاكم في المستدرك كلهم من طريق هشام بن حجير المكي عن طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وهشام بن حجير ضعفه الأئمة الثقاة ولم يتابعه على هذه الرواية أحد .

قال الإمام أحمد بن حنبل في هشام : "ليس بالقوي"، وقال: مكي ضعيف الحديث . وضعفه يحيى بن سعيد القطان وضرب على حديثه . وضعفه علي بن المديني ، وذكره العقيلي وابن عدي في الضعفاء .وهشام صالحٌ في دينه ، لذا قال ابن شبرمة: ليس بمكة مثله. وقال ابن معين: صالح . فهذا في الدين أو العبادة، بدليل أن ابن معين نفسه قد قال فيه: "ضعيف جداً". وقال ابن حجر: "صدوق له أوهام". وقال ابن عيينة: " لم نأخذ منه إلا ما لم نجده عند غيره" اهـ. وهشام من أهل مكة وسفيان كان عالماً عارفاً بأهل مكة. ولهذا لم يرو له البخاري ومسلم إلا متابعة أو مقروناً مع غيره وكانت أحاديثه من الأحاديث المنتقدة على الصحيحين .

والخلاصة أنه عرف مما سبق أنه لا حجة لمن حاول تقوية هشام بالاحتجاج برواية البخاري ومسلم له. لأنهما لم يرويا له استقلالاً ولكن متابعة.. وهذا من الأدلة على تضعيفه إذا انفرد . ولم يوثق هشام بن حجير إلا بعض العلماء كابن حبان والعجلي وابن سعد وابن شاهين وهم مشهورون بالتساهل في التوثيق ، قال المعلمي: "توثيق العجلي وجدته بالاستقراء كتوثيق ابن حبان تماماً أو أوسع". الأنوار الكاشفة ص (٦٨) . فإذا كان هذا حال من وثقوه فإن رواياته لا تقوم بها حجة بتوثيقهم هذا ، فكيف وقد عارضهم وقال بتضعيفه الأئمة الجبال الرواسي كأحمد بن حنبل ويحيى بن معين ويحيى بن سعيد القطان وعلي بن المديني وغيرهم . وعليه فهشام بن حجير ضعيف لا تقوم به حجة استقلالاً وحده، وإن صلح في المتابعات كما عرفت ، والمحتجون به لم يوردوا له على رواية ابن عباس هذه متابع ، فيترجح ضعفها وعدم صحّة نسبتها إلى ابن عباس.

وزيادة على تفرد هشام فقد خالف غيره من الثقات فذكره عبد الله بن طاووس عن أبيه قال سئل ابن عباس عن قوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ قال (هي كفر) وفي لفظ (هو به كفر) وآخر(كفى به كُفْره) رواه عبد الرزاق في تفسيره والطبري وغيرهما بسند صحيح وهذا هو الثابت عن ابن عباس ، فقد أطلق اللفظ ولم يقيّده .

ولذلك كان طريق هشام بن حجير منكر من وجهين: تفرد هشام به ، ومخالفته من هو أوثق منه .

في المعجم الكبير ، وابن بطة في الإبانة كلهم من طريق مسروق عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وهو صحيح الإسناد ، فكيف أخذتم بقول صحابي دون الآخر .

٣- أنه ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الكفر في الآية هو الأكبر . فعن طاووس أنه سئل ابن عباس عن قوله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: (هي كفر) وفي لفظ (هو به كفر) وآخر(كفى به كُفْره) .

رواه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٩١) وابن جرير (٦/ ٢٥٦) وغيرهما بسند صحيح وهذا هو الثابت عن ابن عباس ، فقد أطلق اللفظ ولم يقيّده .

٤- أن الكفر إذا جاء معرفاً بالألف واللام في الكتاب والسنة فالمراد به الكفر الأكبر . وهي تنطبق على آية المائدة هذه ، التي ذكر فيها لفظ الكفر معرفاً .

وهذه قاعدة نفيسة قررها ابن تيمية في الاقتضاء : ١/ ٢٠٨ .

أيضا ما جاء في وصف الحكام بالفاسقين والظالمين، فهو من زيادة شناعة كفره، فإن الكافر الفاسق الظالم أخبث ممن هو كافر فقط.

٥- أن كلام ابن عباس في من يحكم في واقعة عينية وليس ذلك عن تشريع أو ديدن للحاكم فلا يكون ملتزما بالشرع ، ويؤكد ذلك قول أبي مجلز فيهم:(هو دينهم الذي يدينون به) ، وهناك فرق بين من يلزم الناس بتشريع عام مخالف لأحكام الله ، وبين من خالف في قضايا معينة قليلة لشهوة أو حظ دنيوي ، مع التزامه بالشريعة .

فالصورة الأولى كفر أكبر مخرج من الملة ، والصورة الثانية كفر دون كفر ، وعليه يحمل كلام ابن عباس وأبي مجلز في حكام بني أمية إذ كانوا يحكمون بالإسلام أصلاً وخالفوا في قضايا عينية ، ولا ينطبق قوله على شرك التشريع ووضع القوانين.

قال أحمد شاكر عن قول ابن عباس: (وهذه الآثار- عن ابن عباس وغيره - مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا ،من المنتسبين للعلم، ومن غيرهم من الجرّاء على الدين : يجعلونها عذراً أو إباحة للقوانين الوثنية الموضوعة ، التي ضربت على بلاد الإسلام) . عمدة التفسير (٤/ ١٥٦).

وقال محمد بن إبراهيم: (الذي قيل فيه كفر دون كفر إذا حاكم إلى غير الله مع اعتقاد أنه عاص وأن حكم الله هو الحق فهذا الذي يصدر منه المرة ونحوها أما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضيع فهو كفر وإن قالوا أخطأنا وحكم الشرع أعدل) .

وقال: (فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم

السنة والكتاب من أحكام ذلك القانون وتلزمهم به وتقربهم به وتحتمهم عليه فأي كفر فوق هذا الكفر وأي مناقضة لشهادة أن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة ؟!).

وقد قدمنا الأدلة والنقول عن أهل العلم في كفر أصحاب القوانين الوضعية .

٦- أن الله ﷻ حكم بأن التشريع زيادة في الكفر الكبر والمرجئة قالوا كفر دون كفر وهذا من المعاندة لأحكام الله ودينه .

والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ التوبة: ٣٧ .

قال ابن حزم : (وبحكم اللغة التي نزل بها القرآن إن الزيادة في الشيء لا تكون ألبته إلا منه لا من غيره فصح أن النسيء كفر وهو عمل من الأعمال وهو تحليل ما حرم الله) الفصل٣/ ٢٤٥.

والتشريع مثل التصوير، فكما أن المصور يعذب بكل صورة فكذا المشرع يكفر ويعذب بكل قانون وضعه وألزم به ، لأنهما يشتركان في مضاهاة ومماثلة الله ﷻ في أمره وخلقه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وقد وقع المشرع والمصور في شرك الربوبية والصد عن سبيل الله فاستحقوا زيادة العقوبة لزيادتهم في الكفر والطغيان ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ النحل: ٨٨ .

والعجيب أن مشركي زماننا من المشرعين القانونيين يفتخرون بكثرة القوانين والمواد التي وضعوها ليضاهوا بها شريعة الله ﷻ ، فتجد البعض منهم يقول : وضعت دستوراً وقانوناً يشمل ألفي مادة أو ألفي إلزاما أو ألفي قاعدة أو ألفي قانوناً أو نحو ذلك، ولم يعلم هؤلاء المساكين الحقراء أنهم معذبون بكل قانون وضعوه وأنه يزيدهم في الكفر ولا يدل على أن من وضع قانوناً واحداً لا يكفر فإن من وضع قانوناً واحداً كمن وضع ألف قانون فهم في الكفر سواء من ناحية الخروج من الملة أما من ناحية زيادة العذاب والتعذيب وشناعة الكفر فإنه كلما زاد التشريع والقوانين كلما زاد معهما الكفر .

٧- ثم إن كثيرًا من أصحاب هذه الشبهة يستندون إلى أثري ابن عباس وأبي مجلز في تأويل آية المائدة في الحكم بغير ما أنزل الله أنه كفر أصغر . مع أن كلامهم ظاهر أنه رد على الخوارج الذين أرادوا تكفير الحكمين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري ، مع علي ومعاوية ﭬ وحكام بني أمية وأمرائهم ، ونقول :

إن أصل الحكم في ذلك العصر عصر بني أمية الذين قصدهم ابن عباس وأبو مجلز هو الحكم بالإسلام مع المخالفة في قضايا بعينها في تحقيق المناط ، فقد خالفوا

فيها حكم الله مع اعترافهم أن حكم الله غير ذلك وأنهم آثمون مستحقون للإثم والعقاب . وأما في عصرنا فالكلام مختلف تماما فالكلام عن هؤلاء الطواغيت الذين تركوا حكم الإسلام وحكموا بقوانين الغرب الكافر ووضعوا لهم دساتير السيادة فيه لغير الله تعالى وحكمه .

وقد أجاب الشيخ محمود شاكر عن تلك الشبهة فقال: (فإن أهل الريب والفتن ممن تصدروا للكلام في زماننا هذا ، قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله ، وفي القضاء في الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه ، وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام . فلما وقف على هذين الخبرين ، اتخذهما رأيًا يرى به صواب الحكم بغير ما أنزل الله ، وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها ، والعامل عليها .

والناظر في هذين الخبرين لا محيص له عن معرفة السائل والمسئول ، فأبو مجلز لاحق السدوسي تابعي ثقة ، والذين سألوا أبا مجلز من الإباضية إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير بني أمية لأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه ، ولهذا حين سأله الخوارج أيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟ قال لهم في الخبر الأول : (هو دينهم الذي يدينون به، وبه يقولون وإليه يدعون فإن هم تركوا شيئًا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبًا)، وقال في الخبر الثاني: (إنهم يعملون ما يعملون ويعلمون أنه ذنب).

وإذن فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا ، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام ، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام ، بالاحتكام إلى حكم غير الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ، ورغبة عن دينه وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى ، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه .

والذي نحن فيه اليوم هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار حكم غير حكمه، وتعطيل لكل ما في شريعة الله ، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة ، وادعاء المحتجين بذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا ، ولِعِلَلٍ وأسباب انقضت فسقطت الأحكام كلها بانقضائها . فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز ، والنفر من الإباضية ؟

لو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز أنه ما أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة ، فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكماً وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها ، هذه واحدة، وأخرى أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها ، فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل ، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة ، وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية فهذا ذنب تناله التوبة وتلحقه المغفرة، وإما أن يكون حكم به متأولاً حكماً يخالفه به سائر العلماء فهذا حكمه حكم المتأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب والسنة، وأما أن يكون في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر ، جاحداً لحكم من أحكام الشريعة ، أو مؤثراً لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام ، فذلك لم يكن قط، فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه .

فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابهما ، وصرفهما إلى غير معناهما رغبة في نصرة سلطان أو احتيالاً على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده ، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد بحكم من أحكام الله : أن يستتاب ، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله ، ورضي بتبديل الأحكام فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهلهذا الدين). تفسير الطبري تحقيق أحمد شاكر : ١٠/ ٣٤٨.

٨- أن كلام ابن عباس ﷺ إن صح ، لا نصادم به كلام الله ورسوله ﷺ ، وفي مسألة من مسائل التوحيد الذي بعثت بها الرسل كافة وهي الكفر بالطاغوت، والكفر بأحكام الطواغيت المخالفة لحكم الله كما أمرنا الله ﷻ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠.

أو ليس ابن عباس رضي الله عنهما هو القائل رداً على من احتج عليه بقول أبي بكر وعمر ﷺ: (توشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول لكم قال رسول الله ، وتقولون قال أبو بكر وقال عمر) .

الثامنة : أن النبي ﷺ حكم بغير الشريعة ـ بالتوراة ـ فيجوز ذلك لأمته.

ويرد على هذه الشبهة من طريقين :

أحدهما : أن هذا القول مخالف للنصوص الدالة على أن النبي ﷺ لم يحكم إلا بشريعة الإسلام، وأن القرآن ناسخ لما قبله من الشرائع كقوله تعالى في سورة المائدة آية ٤٨ والآية التي بعدها : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ المائدة: ٤٨ - ٤٩.

وقال ﷺ :(لو كان موسى حياً ماوسعه إلا اتباعي) رواه أحمد.

فكيف يتبع النبي ﷺ كتاب موسى مع هذا ؟؟ .

قال ابن تيمية: (وهو ﷺ لم يحكم إلا بما أنزل الله عليه) الفتاوى ٤/ ١١١ .

وقال أيضاً: (وإذا كان من المعلوم بالكتاب والسنة والإجماع ، أن الحاكم بين اليهود والنصارى لايجوز أن يحكم بينهم إلا بما أنزل الله على محمد ﷺ ، سواء وافق ما بأيديهم من التوراة والإنجيل أو لم يوافقه) منهاج السنة النبوية (٥/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩).

بل إن من زعم أن الرسول ﷺ يحكم بالتوراة ويعمل بها وأن هذا جائز له ولأمته فهو كافر زنديق يستتاب فإن تاب من قوله وإلا قتل مرتدا.

قال ابن حزم: (إن من قال إن النبي ﷺ حكم بين اليهوديين اللذين زنيا بحكم التوراة المنسوخة فهو مرتد) الإحكام (٢/ ١٠٤).

الثاني : أن سبب هذه الشبهة ماورد في إحدى روايات حديث رجم اليهوديين اللذين زنيا، وفيها قال رسول الله ﷺ :(فإني أحكم بما في التوراة ،فأمر بهما فرُجما) رواه أحمد وأبو داود .

والجواب عن هذا الحديث من وجهين:

الأول : أن هذه الرواية ليست مما يحتج بها ،فقد ذكر الحافظ ابن حجر أن في سندها رجل مبهم، كما في فتح الباري (١٢/ ١٧٠ ـ ١٧١) .

الثاني: أنها إذا صحت هذه الرواية فإنه ينبغي فهمها على أساس ما ذكرنا من أن النبي ﷺ لم يحكم إلا بالإسلام، وينبغي رد المتشابه إلى هذا المحكم ، فيكون معنى قوله (فإني أحكم بما في التوراة) أي بمثل ما ورد فيها في حكم هذه المسألة، ولا يكون هذا متابعة منه للتوراة بل تصويباً لما ورد فيها في ذلك وأن هذا مما أنزله الله فيها ليس مما بدّلوه .

وهذا ما قرره ابن كثير في تفسيره٢/ ٥٩ : (فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة ، وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته ، لأنهم مأمورون بإتباع الشرع المحمدي لا محالة ، ولكن هذا بوحي خاص من الله ﷻ إليه بذلك وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطؤا على كتمانه) .

وبنحو هذا قال ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ١٧٠).

الشبهة التاسعة: أن النبي ﷺ حَرّم بعض الحلال وهو العسل :

والجواب عن هذه الشبهة: أن معنى تحريم الحلال يأتي على أوجه :

الأول : التحريم على وجه التشريع ، وهو الواقع من الكفار ، كالبحيرة والحام والسائبة والوصيلة والنسيء في الأشهر الحرم . فهذا تحريم على وجه الإلزام للنفس وللغير، وهذا هو التشريع المكفِّر المخالف لشرع الله .

الثاني : مجرد ترك الشيء لأن النفس تكرهه ، أو لا حاجة لها فيه ، ومنه ما جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ ترك أكل الضب .

الثالث: تحريم الشيء على النفس بنذرٍ أو يمين ، بأن ينذر لله ألا يفعل بعض المباح أو يحلف ألا يفعل ، كأن يقول: العسل علي حرام، أو لله علي أن لا آكل اللحم أو والله ما أتزوج، أو علي الحرام ما أنام على الفراش. وهذا النوع كان مشروعاً في شرع من قبلنا ، ومن هذا الباب تحريم يعقوب عليه السلام بعض الطعام.

ذكرها الشاطبي في الاعتصام (٢/ ٢٥٠) .

وهذه الأنواع من التحريم منها ما هو كفر ومنها ما ليس كذلك . والتحريم في الآيات التي استدل بها المبطل كان من باب التحريم بنذر أو يمين وليس على وجه التشريع ، ويدل لذلك أن الآية التي استدلوا بها في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ التحريم: ١.جاء بعدها ذكر كفارة اليمين .

فليس فيما استدلوا به حجة على إباحة التحريم والتحليل والتشريع، والذي لم يصف الله فاعله بغير الكفر ، كما في تحريم السائبة من الأنعام والنسيء في الأشهر.

الشبهة العاشرة: قولهم: لا يكفر الحاكم حتى ينسب تشريعه للدين:

١- أن مناط الكفر في تبديل شرع الله والحكم بغير ما أنزل الله وقد تضافرت الأدلة على هذا وأجمع العلماء عليه.

٢- أن الحكم بالكفر ليس قاصرًا على من نسب تشريعه للدين، فمن الآيات الواضحة في هذا الموضع قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ الأنعام: ٩٣، وقد جمع الله هنا بين الكفرين كفر التكذيب وكفر الاستكبار وهو أشد، والآية صريحة على أن من أوجب على الناس تشريعًا كتشريع الله تعالى فهو كافر وإن أقر أنه مخالف لشرع الله، بل إن هذا أشد كفرًا ممن يلزم الناس بتشريع وينسبه لدين الله تعالى؛ إذ كونه يستقل بتشريع نفسه ملزمًا للناس به مع إعلانه أنه مخالف لشرع الله دليل على كِبْرِه وَرَدِّهِ للأمر ومضاهاته شرع الله، بخلاف ما لو ابتدع تشريعًا ونسبه للشرع، فهو مستغل لحب الناس للشرع، مع عدم مجاهرته بالمخالفة؛ فإذا كان هذا كفرًا فما قبله أشد منه وأغلظ بلا شك.

٣- أن اليهود الذين نزلت فيهم آيات الحكم في المائدة وحكم الله بكفرهم ومسارعتهم للكفر كان كفرهم تبديل حكم الله في الرجم الذي أنزل عليهم في التوراة وحكمهم بغير ما أنزل الله لم ينسبوا الرجم لله يدل لذلك: أن النبي ﷺ قال لهم: (ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟)، قالوا: نفضحهم ويُجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم. فأَتوا بالتوراة فَنَشَروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما النبي ﷺ فرجما. متفق عليه.

والحديث دليل على أن اليهود بدلوا حكم الله المنزل في التوراة، مع إقرارهم بأن حكم الله بخلاف ما استبدلوه، ومع ذلك لم ينفعهم هذا الإقرار مع تبديل حكم الله تعالى، وأنزل الله تعالى حكمًا بكفرهم بل وصفهم بالمسارعة في الكفر.

الحادية عشرة : أن القوانين الوضعية فيها بعض أحكام الشريعة الإسلامية.

١- أن مناط الكفر في تبديل شرع الله والحكم بغير ما أنزل الله وقد تضافرت الأدلة على هذا وأجمع العلماء عليه، وهذه الأمر موجود في القوانين الوضعية .

فالأصل أن وضع القانون كفر مخرج من الملة فأصل مبدأ التحليل والتحريم والتشريع هو كفر وشرك أكبر، فلا ينظر بعد ذلك إلى وجود موافقة للشريعة في بعض فروعه وأحكامه ، فبمجرد ما يعطى صاحب القانون خصيصة التشريع والحكم ومضاهاة شرع الله ﷻ فإنه يخرج بذلك من الملة .

٢- أنه لا يتم الإيمان بالله وبحكمه إلا بالكفر بحكم ما سوى الله تعالى ، وهو حكم الطاغوت الذي أمرنا بالكفر به .

٣- أن فتوى العلماء في تكفير التتار كان لأجل قانونهم الوضعي (الياسق) مع أنه كان مشتملاً على بعض أحكام الشريعة الإسلامية ، كما قال ابن كثير وحكى الإجماع على كفر التتار ومن عمل بعملهم البداية والنهاية (١١/ ١١٩) .

الشبهة الثانية عشرة : لا يكفر المشرع والحاكم إلا إذا بدل الشريعة كلها .

١- أن المشركين الذين شرعوا وكفرهم الله بذلك وغيروا كان عندهم كثير من دين الرسل ولم يغيروا الشريعة كلها وإنما كفروا لوقوعهم في شرك التشريع والحكم . ومما يدل لذلك أن كفار العرب كان معهم كثير من دين إبراهيم ولم يغيروه كله ، ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١ .

٢- أن هذا لا يدرء عن الحاكم بغير ما أنزل الله مسمى الكفر ، وذلك لأن التكفير في قوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤ ترتب على تبديل حكم واحد من أحكام الله وهو رجم الزاني المحصن ،ولا يلزم تبديل جميع أحكام الدين حتى يلحقهم حكم التكفير.

مع أن القوانين الوضعية قد بدلت معظم أحكام الشريعة، وإذا كان الله تعالى قد حكم بالكفر على من بدّل حكماً واحداً من أحكامه ، فكيف بمن أسقط الحدود الشرعية جملة وأباح المحرمات القطعية ؟

٣- أن الله ﷻ كفر من أطاع المشرع في حكم واحد وهو أكل الميتة فكيف لو أطاعه في كل تشريعاته ثم كيف بالمشرع الذي شرع . ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

الأنعام: ١٢١. كذلك الله ﷻ كفر المتحاكم والحاكم والمعرض في حكم واحد ويدل كما ورد في أسباب النزول .

وهذا في طاعة المشركين في رد أمر واحد من أوامر الله تعالى ، فكيف بمن أطاعهم في استبدال الشرع كله أو معظمه بكلام البشر ؟

قال إسحاق بن راهوية : (أجمع العلماء على أن من دفع شيئا أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٢٢٦ .

قال ابن تيمية : (والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحلال أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا بالاتفاق) الفتاوى٣/ ٢٦٧.

٤- أن مناط الكفر في صفة التبديل والحكم سواء بدل وشرع حكما واحداً أو أكثر، و الله جعل تشريع قانون واحد كفر أكبر وزيادة في الكفر ومن ذلك تكفيره بمن شرع النسيء، ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ التوبة: ٣٧ .

فمن استبدل الشريعة منحياً لها واضعاً قانوناً يضاد كل حكم من أحكامها لا يختلف حكمه عن من وضع قانونا واحداً استبدل به شريعة من شرائع الله ﷻ أو حكماً من أحكامها، ولو كان جزئياً ولو في أدنى مسألة مجمع عليها ما دام أنه أمر ووضع قانوناً يحرم حلالاً أو يحلل حراماً أو يسقط واجبا أو يلغي شعيرة، فإن هذا قد خرج من الملة، لتبديله شرع الله تعالى، وقد حكم سبحانه على قريش في النسيء بأنهم زادوا في الكفر والشرك بسبب هذا القانون، مع أن عندهم كثيراً من شريعة إبراهيم يعملون بها، عليه فلا يشترط في تكفير القانونيين والحكام المشرعين أن يستبدلوا الشريعة بكاملها، بل مجرد ما يشرع أو يضع قانوناً يتحاكم إليه فهذا يعتبر سبباً من أسباب الكفر والخروج من الملة ومن وضع تشريعاً وقانوناً وحكماً ألزم فيه، ولو كان حكماً واحداً فهو بذلك كافر خارج من الملة ولو أنه مع ذلك حكم في بقية أحكامه بالدين والشرع .

الشبهة الثالثة عشرة :الشريعة مطبقة بالفعل في القانون وهي مصدر الدستور .

والجواب : أن هذا كذب صريح ومخالف للحقيقة فالقوانين المخالفة للشريعة لا تخفى ولا تحصى.

ثم إن الدساتير وإن نصت على أن مصدر الدساتير الشريعة فقد جعلت التشريع الذي هو من أخص صفات الرب ﷻ للمخلوق .

الرابعة عشرة : الذي يكفر بالقوانين واضعها لا من حكم بها وتحاكم إليها.

والجواب : أن مناط الكفر في الباب ليس واحد ، فسان القانون يكفر وكذا من حكم به أو ألزم الناس به أو تحاكم إليه وأعرض عن الشريعة.

ثم إنه يقال أكثر الكفار مقلدة لمن قبلهم وتبع لهم وليس هم من أحدث الكفر، ومن ذلك تكفير اليهود الذين بدلوا حد الرجم وكان الذي بدله من قبلهم وهم مضوا عليه وأيضاً التتار الذين كفرهم العلماء لعملهم بالياسق وهو قانون وضعه لهم جدهم جنكيز خان .

الشبهة الخامسة عشرة : أن آية الحكم نزلت في أهل الكتاب لا المسلمين .

وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤ .

١- أن هذا القول يلزم منه إبطال العمل بالقرآن ، فكل آية نزلت في الكفار يقال لا يعمم حكمها على المسلمين ممن فعل فعل الكفار ، ومن ذلك لا يستدل على من دعا القبور والأوثان من هذه الأمة لا يستدل عليه بالايات الناهية عن الشرك لأنها نزلت في مشركي الجاهلية ، وبالتالي فما الفائدة من نزول القرآن أليس للعمل به والتحذير من التشبه بالكفار والوقوع في مثل أفعالهم.

وعليه فيقال إن الآيات التي بينت حكم من يحكم بغير ما أنزل الله جاءت بلفظ العموم، وكما هو معلوم في علم الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ولفظ (مَنْ) من أقوى صيغ العموم .

٢- أن القائلين بأن الآية في أهل الكتاب لهم معارض من السلف قالوا أن هذه الآية نازلة في المسلمين، منهم حذيفة وابن مسعود وجابر ﷺ والنخعي والحسن والشعبي وابن أبي زائدة وابن شبرمة وهو ظاهر صنيع البخاري في صحيحه كما في الفتح ، فلماذا نأخذ بقول بعضهم دون غيرهم بلا حجة ؟

وقد اختار القول الثاني ابن القيم في مدارج السالكين والشنقيطي في أضواء البيان ، ومما يرجح أنها في المسلمين الآية قبلها خاطبت مسلمي هذه الأمة فالخطاب للمسلمين كما هو ظاهر متبادر من سياق الآية، أيضاً من تأمل أول هذه الآيات علم أنها نزلت في المنافقين الذين تابعوا أهل الكتاب على الحكم بغير ما أنزل الله ، فأنزل الله تعالى حكمًا بكفرهم بل وصفهم بالمسارعة في الكفر.

قال ابن كثير : (نزلت هذه الآيات في المسارعين في الكفر ، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله . وهؤلاء هم المنافقون).

٣- بل إن حذيفة ﷺ قد أنكر على من ظن اختصاص الآية ببني إسرائيل ، فقال : نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل إن كانت لكم كل حُلْوة ولهم كل مُرَّة ، ولتسلُكُنَّ طريقَهم قِدَى الشِّراك . (تفسير الطبري : ١٠ / ٣٤٨) .

وقال الحسن : نزلت في اليهود ، وهي علينا واجبةٌ .

وقال إبراهيم النخعي : نزلت في بني إسرائيل ، ورضي لكم بها .

٤- أن هذا ليس هو النص الوحيد الدال على كفر الحاكم بغير ما أنزل الله مطلقاً ، بل أنه قد دَلّ على كفره عدة نصوص كثيرة ، فإذا احتال زائغ لإبطال الاحتجاج بهذه الآية فماذا يصنع بغيرها من النصوص العديدة الدالة على كفر الحاكم بغير ما أنزل الله ؟

الشبهة السادسة عشرة : أن اليهود ما كفروا في الآية إلا لأجل تكذيبهم النبي ﷺ وعدم إيمانهم به وليس لأجل تعطيلهم حكم الله تعالى:

وهذا ضلال بين وقول باطل فالله ﷻ رتب الحكم بالتكفير على مجرد حصول الحكم بغير ما أنزل الله وتعطيل حكم الله. وفي هذا القول العضيل تعطيل لكثير من أحكام الله تعالى وإبطال لمدلولات النصوص وإنكار أن يكون الكفر له شعب كثيرة قد يجتمع بعضها فيصير الكفر مغلظ .

جاءت في أسباب النزول روايات عدة، وفيها قول اليهود لعنهم الله : اصطلحنا واجتمعنا ، وبدلنا وتكاتمنا وغير ذلك .

ومناط تكفيرهم هو التبديل والتشريع الذي فعلوه واصطلحوا عليه واجتمعوا وتكاتموا على تغيير حكم الله ﷻ في الرجم إلى الجلد، وهذا علة كفرهم في التوراة، فمن بدل حكم الله وغيره فهو كافر بالاتفاق غير مسلم ، وذلك لأنه لم يستسلم لله ﷻ لكونه لن ينقد لأحكام الله وشرعه حتى ولو قال إن حكم الله أكمل وأفضل وإنني مخطئ فهذا لا ينفعه مقابل تبديل حكم الله ﷻ وتشريعه دينا يخالف دين الله تعالى .

قال ابن تيمية: (والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحلال أو بدّل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا بالاتفاق) الفتاوى٣/ ٢٦٧.
ثم يقال تكفير الحاكم والمتحاكم دلت عليه آيات كثيرة وليست هذه فقط.

الشبهة السابعة عشرة : قولهم: أنتم تكفرون بإطلاق دون تفصيل:

الجواب : هذا من البهتان الذي أراد قائله جعل الخوارج وأهل التوحيد المجاهدين فيه في منزلة واحدة، والخلط والتلبيس من المرجئة مقصود لصد الناس عن التوحيد وعلمائه وأن يصرف توجه الناس عن العلماء الربانيين ووصفهم بالبدعة، فلقد أكثر العلماء في مصنفاتهم وبينوا أتم بيان وأحسنه في تقسيم الحكم بغير ما أنزل الله إلى كفر أكبر وكفر أصغر.

الشبهة الثامنة عشرة : أن الخوارج هم أول من دعا إلى توحيد الحاكمية :

١- أن هذا قول من لا يعرف الإسلام وما بعثت به الرسل، فكل الرسل دعوا إلى توحيد الله بالحكم والدعاء وبقية العبادات والكفر بالطاغوت المتحاكم إليه وألا يشرك فيه مع الله أحدا .

وأين هم من إنكار الرسول ﷺ على أبي شريح لما وفد إليه مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم ، فقال له: (إن الله هو الحكم ، فلم تكنى أبا الحكم ؟) ، وقال له: (فأنت أبو شريح) رواه أبو داود والنسائي .

فإذا كان هذا في مجرد المشابهة في الاسم فقط ؟ فكيف بمن يدعي هذا الحق لنفسه ؟ وكيف يقال أن هذا الكلام حادث بعد عهد النبي ﷺ.

٢- أن الخوارج عندما رفعوا شعار (إن الحكم إلا لله) هل أحد من أهل العلم على مختلف العصور أنكروا هذه الكلمة الدالة على إفراد الله بالحكم لئلا يُظن أنه من الخوارج ؟ وكيف ينكرونها وهي آية من كتاب الله تعالى ، لها معنى ومضمون ولوازم ؟ بل إن الذين أنكروا على الخوارج هذه الكلمة ، أنكروا عليهم سوء فهمهم لها وتطبيقهم لمضمونها ، وليس على مجرد رفعهم لها.

تنبيه: قول بعض الجهمية في زماننا أن الكلام في شرك الحكم من مخترعات سيد قطب فيقال: سبق سيد كثير من العلماء فصلوا المسألة تفصيلاً دقيقًا وبينوها أتم بيان ، ومنهم ابن تيمية وابن كثير وغيرهم . ثم تتابع العلماء المعاصرون كأحمد شاكر ومحمد بن إبراهيم على تأصيل ذلك وتوضيحه وكلامهم معروف ، فلم يكن سيد سابقًا لأحد في كلامه ، بل ما هو إلا رجل دعته غيرته إلى إنكار منكر عم البلاء به.

الشبهة التاسعة عشرة : أن قوله تعالى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥ نفي لكمال الإيمان لا لأصله .

١- أنه لا يسلم لهم ذلك فهذه الآية نفت الإيمان بالكلية عمن ترك الحكم وأعرض عنه ولو أقر به .

قال الجصاص في الآية: (في هذه الآية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم، وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم) أحكام القرآن ٣ / ١٨١ .

يقول ابن حزم عن هذه الآية : (فهذا هو النص الذي لا يحتمل تأويلاً ولا جاء نص يخرجه عن ظاهره أصلاً ، ولا جاء برهان بتخصيصه في بعض وجوه الإيمان) الفصل (٣/ ٢٩٣).

وقال ابن تيمية عند هذه الآية : (فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن) منهاج السنة (٥/ ١٣١).

يقول ابن كثير: (فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ، ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر).

كما يدل على هذا أيضاً سياق الآيات في السورة نفسها وقبل هذه الآية بقليل ، فإنها نافية لأصل الإيمان ومشترطة لحصوله وجود التحاكم والرد في الحكم لله .

وذكر الإيمان باليوم الآخر في الآية يقطع شبهة القول بكمال الإيمان لأنه شعبة من شعب الإيمان الرئيسة التي يزول بزوالها أصل الإيمان .

٢- أن هذه الآية ليست الوحيدة في القرآن الدالة على كفر الحاكم بغير ما أنزل الله ، فإذا فرضنا أن هذه الآية تدل على نفي كمال الإيمان ، فهناك آيات أخرى صريحة دلت على كفر الحاكم بغير ما أنزل الله والمشرّع ومن يتحاكم إليهم ويطيعهم .

ومن الآيات المفصلة لأصل المسألة آية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ ﴾ النساء: ٦٠ وإذا كان التحاكم إلى الطاغوت ، مناقضة للكفر بالطاغوت الذي افترضه الله على العباد وأمرهم به والذي هو من أصل دين الإسلام ، فكيف بالحاكم نفسه !

فنصّ القرآن العظيم على تكذيب إيمان من لم يكفر بالطاغوت وأراد التحاكم إليه ، فنحن نحكم ببطلان إيمان أمثال هؤلاء ظاهراً وباطناً أيضاً تصديقاً لله وإيماناً

بكلماته ، ونُكذب هذا المتحاكم للطاغوت ولو زعم الإيمان ولو صرّح بأن الشريعة أفضل من دين الطاغوت ، وأقر بوجوب تحكيم الشرع .

٣- أن نفي الإيمان ، أو الوعيد الأصل أنه لا يرد لأجل التقصير في كمال الإيمان، بل لا يكون إلا على انتقاض أصله، ولا يصرف عن هذا الأصل إلا بصارف شرعي، وأين الصارف لنفي كفر الحاكم والأدلة تضافرت على كفره.

إذا تقرر هذا فإن المعروف المقرر عند أهل العلم ، أن الأصل في الألفاظ حقيقتها وظاهرها ولا يصرف اللفظ عن معناه الحقيقي الظاهر إلى المجاز إلا بدليل واضح ، مع خلافهم أصلاً هل في القرآن مجازٌ أو لا !!

وإذا قلنا أن النفي ها هنا نفي لحقيقة الإيمان ، فهذا على الأصل ، والمخالف للأصل هو المطالب للصارف عنه !

الشبهة العشرون: عمل يوسف ﷺ عند ملك مصر وحكمه بغير ما أنزل الله:

الجواب: أن يوسف ﷺ أقام حكم الله وشرعه وهو القائل : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يوسف: ٤٠ ، وقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ .

أن يوسف قد كان ممكّن له في الأرض يحكم ويأمر فيطاع ولا آمر عليه ولا يطيع أحدا بل هو المطاع، بل قد قيل إن الملك أسلم على يديه واتبعه.

ثم يقال أوليس يوسف أخذ أخاه واسترقّه كما هو الحكم في شريعة يعقوب في السارق، ولو كان يعمل بدين الملك وشريعته لما أخذه، وهذا يدل على أنه لم يكن يحكم بشرع الملك بنص الآية ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ يوسف: ٧٦ .

ويوسف ﷺ لا يمكن أن يتحاكم إلى الطاغوت ، ومن زعم أنه تحاكم للطاغوت وشريعة لم ينزلها الله فقد نفى عنه العصمة واتهمه بالوقوع في الكفر، فيكون قائله قد كفر لوقوعه في سب الأنبياء وتنقصهم .

وهل يوسف ﷺ وقع فيما وقع فيه هؤلاء الكفرة من القسم على الدستور وعلى تعظيمه واحترامه وعدم مخالفته حاشاه . وهل أقر يوسف حكماً مخالفاً لحكم الله تعالى كما هو حال هؤلاء الزنادقة الضلال .

الحادية والعشرون: النبي ﷺ والصحابة في العهد المكي لم يحكموا بما أنزل الله .

الجواب : أن هذا من الفرية في الدين ، ومن قال به خرج من الإسلام فكيف يقال الرسول ﷺ لم يحكم بما أنزل الله، والحق أن الرسول ﷺ عمل بكل ما أنزل إليه وقبل أن تنزل الشرائع فليس الحكم بها بمتصور.

الثانية والعشرون: النجاشي ملك الحبشة كان يحكم بغير ما أنزل الله ولم يكفر:

أولاً أنه لا يوجد دليل صحيح على أن النجاشي حكم بغير ما أنزل الله ، فهذا ما لا يمكن إثباته إلا بخبر صحيح في هذه المسألة بعينها، وهو ما لا سبيل إليه .

ثم أن المسلمين المهاجرين إلى الحبشة لم تبلغهم بعض الشرائع التي أنزلت في غيبتهم عن النبي ﷺ ، وهذا هو الحال بالنسبة للنجاشي أيضاً ، والمسلم مكلف بما بلغه من الشرع وما لم يبلغه فهو غير مؤاخذ به ، ومن بلغته دعوة النبي ﷺ من الكفّار في دار الكفر ، فآمن به وعمل بما علمه من الدين وترك ماجهله لعجزه وعجزه ولم يستطع التعلم ولا معرفته فهو مسلم .

وكون النجاشي مات مسلماً فهذا دليل على أنه فعل ما يجب عليه بقدر ما بلغه من دين الإسلام سواء كان قد حكم أو لم يحكم بما أنزل الله . والتكليف منوط ببلوغ أحكام الشريعة مع القدرة ،فالنجاشي لم تبلغه وما بلغه عمل به .

ومما يؤيد ذلك أن النجاشي كان يخرج لهرقل خرجا فلما أسلم قال :لا والله لو سألني درهما ما أعطيته فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا ، قال هرقل : رجل رغب في دين فاختاره لنفسه ما أصنع به والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع. انظر زاد المعاد: ٣/ ٦٢ .

الثالثة والعشرون : عمر ﷺ ترك حد السرقة عام الرمادة ولم يحكم بما أنزل الله .

والجواب أن عمر ﷺ حكم بما أنزل الله فلم يقم حد السرقة لأنه لم تتوفر شروط السرقة ثم إن الحدود تدرأ بالشبهات ومنها السرقة وقت المجاعة لإنقاذ النفس وحرمة النفس أعظم من حرمة المال.

الشبهة الرابعة والعشرون : استحلال الخمر من بعض الصحابة.

الجواب أن هذا خارج عن محل النزاع فاستحلال الصحابة كان عن جهل وتأويل وليس عمداً ولو تعمدوا أو أصروا لكفرهم الصحابة وقتلهم عمر ردة.

الشبهة الخامسة والعشرون : النبي ﷺ لم يقم بعض الحدود .

كحد القذف في ابن سلول وحد الردة في المنافقين وفي من سبه.

قيل أنه أقامه على أبي بن سلول كما عند الطبراني عن سعيد بن جبير ، وقيل أنه لم يثبت منه القذف الصريح كما ثبت من غيره ، كما أن المنافقين لم يظهروا نفاقهم، وقيل تركه لمصلحة تألفا لقومه ولكي لا يقال محمد يقتل أصحابه، ومن هذا عدم إقامة الحد في دار الحرب حتى لا يهرب المحدود ويلحق بالكفار فيرتد . وقيل تركه لأنه منافق وأجل الله عقوبته في الآخرة وقيل أنه ترك النبي ﷺ حقه والقذف يجوز إسقاط المطالبة به وكذا ترك قتل من سبه لأنه من حقه الذي أقره الله عليه .

السادسة والعشرون: أن الصحابي بدّل حكم الله ولم يحكم النبي ﷺ بكفره.

والمقصود به ما جاء في قصة العسيف الذي زنا ، والحديث متفق عليه.

والجواب : أن هذا خارج عن محل النزاع فالكلام عن تارك حكم الله عالما عامدا معرضا عنه، أما هذا الصحابي فليس كذلك فهو لما بلغه أن حكم الله بخلاف رأيه أتى النبي ﷺ ليتثبت ورد الأمر إليه فلما تيقّن أنه حكم الله سلّم به وخضع له وعمل به ولم يعرض عنه ويتركه. فالحديث حجة عليهم لا لهم .

السابعة والعشرون : أن الرسول ﷺ ما كفر أنس بن النضر لما اعترض عليه .

أن أنس بن النضر لما تكلم في القصاص ، حين قال : لا والله لا تكسر سنها يا رسول الله . فقال النبي ﷺ: (يا أنس، كتاب الله القصاص) ، فرضي القوم وقبلوا الأرش ، فقال ﷺ: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره) متفق عليه.

والقصة لا حجة لهم فيها فأنس ﷺ لم يعترض على حكم الله وشرعه وحاشاه وإنما أراد رفع القصاص ودرءه عن أخته ، وأراد عدوهم من القصاص إلى الدية ، وكلاهما من شرع الله وهم مخيرون فيه .

ثم إن النبي ﷺ بين لأنس أن هذا شرع الله الذي يجب قبوله تقريراً لهذا الأصل الذي يعلمه كل الصحابة فاستجاب ولم يعارض.

الثامنة والعشرون : ما كفرهم الرسول ﷺ الذي قال له اعدل والأنصاري الذي قال لأنه ابن عمتك حكمت له .

الجواب : أن هذه حوادث أعيان لا تعارض بها المحكمات من النصوص والعموميات القطعية.

وهؤلاء قيل أن الرسول ﷺ كفرهم كما قال ابن تيمية في الصارم المسلول ص: ١٨٥ . وقيل لم يكفرهم كما قال ابن الوزير في إيثار الحق ص: ٣٩٩ .

ويحتمل أن فعلهم كان قبل نزول الآيات التي في الحكم بردة من أعرض عن الرسول ﷺ ورد حكمه ، أو أنهم تابوا من فعلهم ، ثم ليس فيها رد صريح لحكم الله ﷻ وإنما حصل لهم من الاستشكال والشبهة ما ظنوا به أن فعل الرسول ﷺ محض اجتهاد وليس بوحي ، والله تعالى أعلم.

الشبهة التاسعة والعشرون : الاحتجاج بحديث : (استفت قلبك) :

والجواب : أن معناه البعد عن المشتبهات وليس المراد مخالفة حكم الله .

الثلاثون: حديث:(فلا تنزلهم على حكم الله وأنزلهم على حكمهم).

الجواب : أن المراد من حديث بريدة عند مسلم هذا، إذا اجتهد الحاكم في الحكم مما ليس فيه نص وكان متعلقا بالصلح ، وهنا لا تقول هذا حكم الله لأنك لا تدري أصبت حكم الله أم لا ، كما نص الحديث، وهذا حجة في الباب فليس المقصود الحكم القطعي الذي جاء النص به فهذا لا يقال فيه: (لا تدري أصبت حكم الله) .

الشبهة الحادية والثلاثون : أن القانون والتشريع من قبيل البدعة:

والجواب: أن البدعة قسمان : بدعة كبرى مكفرة وبدعة صغرى غير مكفرة .

وأعظم بدعة على الإطلاق بدعة الشرك والذي منه شرك التشريع وسن القوانين الوضعية والحكم بغير ما أنزل الله . وهي من البدع الكبرى المكفرة.

والفرق بين مجرد البدعة التي لا تخرج من الملة وبين التشريع :

أن البدعة الصغرى هي ما وضع على مضاهاة الشرع ولكن على مقتضى الدليل مع الانتساب للشريعة . وما فعل المبتدع ذلك إلا هواه وإتباع المتشابه فهو كالعاصي عنده أصل الالتزام والانقياد للشريعة وخالف بدعوى الدليل والتأويل والقياس والهوى وإتباع المتشابه ونحو ذلك .

وهذا بخلاف المشرع الذي يضاهي صراحة فعل الله ﷻ ويشرع ما يناقض دينه ويبتدع حكماً يحلل ما حرم الله ويحرم ما أحله .

الشبهة الثانية والثلاثون : قياس تشريع القوانين على المصالح المرسلة أو الاستحسان أو القياس وخلاف الفقهاء في المسائل الاجتهادية:

والجواب : أن المصالح المعتبرة هي ما جاءت الشريعة بها أو لا تعارض الشريعة بل توافق أصول الشريعة وما سوى ذلك فمصالح غير معتبرة لا يجوز العمل بها وأما القوانين فليست من باب المصالح بل هي من باب تحليل الحرام .

والمصلحة والاستحسان والقياس والتحسين العقلي عند المعتزلة هذه الأمور متى جعلت في مقابل الدليل وقدمت عليه وعورضت الشريعة به وحلل بها الحرام وحرم الحلال كانت بذلك داخلة في التشريع والتحليل والتحريم الكفري .

ثم إن الفقهاء يعتمدون أدلة الشريعة وهؤلاء يعارضونها وهم لو خالفوا حكم الله فعن خطأ لا تعمد ترك حكم الله. فهو خارج عن محل النزاع .

الشبهة الثالثة والثلاثون :الحكم والقوانين من قبيل العهود والصلح .

العهد والصلح جائز ما لم يحتوي على مخالفة للشرع من تحليل محرم أو تحريم حلال ، فإذا كان كذلك فهو تشريع كفري .

وقد قرر النبي ﷺ هذا الأصل في العهود والشروط والمواثيق والصلح ، بقوله: (الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرّم حلالا أو أحل حراما، والمسلمون على شروطهم إلا شرطاً حرّم حلالا أو أحل حراما) رواه الترمذي وصححه.

الشبهة الرابعة والثلاثون : حلف الفضول .

والجواب أن حلف الفضول قبل الإسلام ونزول حكم الله ، ثم إنه يقوم على نصرة المظلوم وليس على تشريع دين يحلل أمراً حرمه الله أو يحرم ما أحله الله .

الشبهة الخامسة والثلاثون : أن الحكم والتشريع من قبيل التنظيم الإداري

وهذه الشبهة سببها الجهل بالضابط المفرق بين الأمرين :

فالتشريع هو كل حكم فيه مخالفة لدين الله ومصادمة لحكمه بتحليل حرام أو تحريم حلال أو إسقاط واجب أما التنظيم الإداري فلا يحلل حراماً ولا يحرم حلالاً ولا يلغي أمرا، ولا يكون فيه أمراً مخالفاً للشريعة .

وهؤلاء جعلوا الربا والقوانين التجارية والمدينة وإسقاط الحدود وعدم إقامتها من قبيل التنظيم . وجوزوا كل كفر واستحلوا شرك التشريع وجوزوا للحاكم الحكم بغير ما أنزل الله في كل ما فيه مصلحة أو منفعة له وجعلوه من باب التنظيم الإداري ، فكفروا بقولهم هذا.

الشبهة السادسة والثلاثون : أن الدمقراطية مثل الشورى:

الجواب أن هناك فرقاً بين الشورى والدمقراطية منها:

أن الحكم في الشورى لله ﷻ فهو الحاكم سبحانه أما الحاكم والمشرع في الدمقراطية فهو المخلوق المشرك.

أن الدمقراطية فيها تحليل ما حرم الله ومصادمة شريعة الله أما الشورى فهي في المسائل الاجتهادية وليس فيها تحليل وتحريم وليس فيها مخالفة للشرع .

أن المرجع في الدمقراطية تكون من السوقية والرعاع وليست في أهل الحل والعقد والرأي.

السابعة والثلاثون : أن مناط الكفر في التحاكم متعلق بالإرادة والرضا .

الجواب أنه ليس شرطاً في تكفير المتحاكم أن يفضل حكم الطاغوت، فبمجرد ما يعرض يعتبر قد كفر وليس شرطاً وجود الإرادة والرضا والاعتقاد والاستحلال.

وأما تعسف بعض المرجئة وحملهم الإرادة هنا على التفضيل والاستحلال الاعتقادي فمردود بنص الآية:﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ .وغيرها من الآيات وتفسير السلف لها .

فالله ﷻ كفر كما في الآيات بمجرد الطاعة والإتباع والاتخاذ والتحاكم دون اقتران الاعتقاد وهذا من الكفر العملي ما نصت عليه الآيات : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ .﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ .﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١. ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥.

قال ابن تيمية: (النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم لغيره) الصارم٣٣.

قال الشنقيطي: (كل من اتبع تشريعاً غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم فاتباعه لذلك التشريع المخالف كفر مخرج من الملة). أضواء البيان ٣/ ٤٣٩ .

قالت اللجنة في جوبها رقم ٨٠٠٨ وفيه ردها على من جعل مناط التكفر في التحاكم متعلق بالإرادة ومحلها في الباطن ولا يمكن الاطلاع على ذلك ومعرفة : (المراد بالإرادة في قوله ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ ما صاحبه فعل أو قرائن وأمارات تدل على القصد والإرادة بدليل ما جاء في الآية التي بعد هذه ﴿ وَإِذَا

﴿ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١ ، ويدل على ذلك سبب النزول الذي ذكره ابن كثير وغيره في تفسير هذه الآية، وكذلك المتابعة دليل الرضا، وبذلك يزول الإشكال القائل إن الإرادة أمر باطن فلا يحكم على المريد إلا بعلمها منه وهو غير حاصل) .

قال ابن القيم في تفسير آية ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ : (جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان، ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه، ولا سيما أن التلازم بين هذين الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر. ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه). إعلام الموقعين (١/ ٤٩) .

بل إن بعض أهل العلم جعل تارك حكم الله إلى غيره مع وجوده مفضلا لحكم غير الله ﷻ تفضيلاً عملياً ولو لم يعترف بلسانه .

الخلاصة : أن التحاكم إلى غير شرع الله تعالى كفر عملي لا يشترط معه الجحود أو الاستحلال أو التفضيل لحكم الله ﷻ .

الثامنة والثلاثون :جعل مناط الكفر في شرك الطاعة الاستحلال لا الاتباع :
الجواب قدمناه في أصل الكتاب ونسوقه في الحاشية * .

---

* ١- أن مناط الكفر في هذا الشرك ما صرح به سبحانه في كتابه في قوله : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ التوبة: ٣١ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ محمد: ٣.

وهي مجرد الاتخاذ والطاعة والاتباع والقبول وكما فسرها الرسول ﷺ لعدي بن حاتم فرتب الشرك على مجرد طاعة أولياء الشيطان في تشريعهم وليس في ذلك الاستحلال والجحود، وفي قصرها على الجانب الاعتقادي عدول عن مناط التكفير .

قال ابن كثير:﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (أي حيث عدلتم عن أمر الله وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه فهذا هو الشرك كقوله ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ ﴾).

وقال الشنقيطي : (كل من اتبع تشريعا غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم فاتباعه لذلك التشريع كفر بواح مخرج من الملة) الأضواء ٣/ ٤٣٩.

وقال : (الذين يتبعون القوانين مخالفة لما شرعه الله، إنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته مثلهم) أضواء البيان ٤ / ٨٣ ،٧/ ١٦٢.

قال ابن تيمية: (معلومٌ بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق المسلمين أن من سوّغ اتباع غير دين الإسلام أو إتباع غير شريعة محمد ﷺ فهو كافر) ٢٨ / ٥٢٤.

الشبهات المجوزة للدخول في المجالس التشريعية والانتخابات والتصويت:
الشبة التاسعة والثلاثون : أن من صوت غير مقر ولا راضٍ بالكفر :

وقال : (بين سبحانه أن من دعي إلى التحاكم إلى كتاب الله ورسوله فصد كان منافقا وليس بمؤمن، فالنفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم لغيره) الصارم٣٣.

وقال : (ومتى ترك العالم ما علمه من كتاب الله وسنة رسوله واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله كان مرتدا كافرا) الفتاوى ٣٥/ ٣٧٢.

وقال ابن القيم: (من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى كان من المنافقين).

٢- أن الكفر والشرك كما يكون بالاعتقاد يكون بالعمل ولم يخالف في ذلك سوى المرجئة فجعلوا مناط شرك الطاعة والتحاكم والاتباع هو الاستحلال، وقصر شرك الطاعة والاتباع على الاستحلال دخول صريح في مذهب المرجئة .

٣- أن الاستحلال والجحود واعتقاد ذلك كفر بمجردها ولو لم يحصل شرك التشريع والحكم وشرك الطاعة والتحاكم، ولو لم يطع المشرع.

٤- أن الكفر نوعان: نوع جحود وتكذيب ونوع كفر عملي متعلق بالإباء والاستكبار والامتناع والتولي والصدود والترك والإعراض ، والآيات التي في هذا النوع من الكفر والتي مناط الكفر فيها عملي قائم على الصد والتولي والإعراض والامتناع والإباء كثيرة جدا ذكرتها في كفر الإعراض والامتناع .

تنبيه : المقصود من كلام ابن تيمية في شرك الطاعة وحقيقة معناه:

قال ابن تيمية: (هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله على وجهين :

الأول : أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعوهم على التبديل فيعتقد تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل هذا كفر سماه الله شركاً وقد جعله الله شركاً .

الثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحرام وتحريم الحلال ثابتاً لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعله المسلم في المعاصي وهؤلاء يأخذون حكم العصاة). الإيمان ص:٧٠ .

قلت : كلام ابن تيمية هذا قد يظن بعض المرجئة أن في حجة لهم وليس كذلك لوجوه منها :

١- أن كلامه رحمه الله معناه القبول والمتابعة في التبديل .

٢- أنا نحمله على ذلك لوجود النقولات الكثير الصريحة المدللة على ذلك وقد سقنا بعضها في مسألة كلام أهل العلم في شرك الحكم.

٣- ولو فرضنا أنه قصد الاعتقاد والاستحلال فحسب وحاشاه رحمه الله أن يقول بما يفهم منه مذهب المرجئة، لكان مردودا عليه ومخطأ فيما قاله وكل يؤخذ من قوله ويرد عليه والكمال لله وحده العصمة لرسوله ﷺ .

٤- أن الاستحلال والجحود ليس خاصا بالقلب وتكذيب اللسان بل يتعداه فيشمل الاستحلال العملي الفعلي، فليس شرطاً أن يصرح بلسانه ويقول : أنا قبلت ورضيت فمجرد ما ينقاد ويذعن ويتبع ويطيع أو يوجد علامة على قبوله فإنه يعتبر قد كفر وخرج من الملة .

فالجواب عنها أن نقول : هذه دعوى مخالفة للحقيقة وواقع المصوت، وهي دعوى لا عبرة بها ، لأن تغيير اسم الشرك ودعوى عدم فعله لا يرفع حكم الكفر عمن باشره . وهو مثل من يسجد للمخلوق ويقول هذا ليس بسجود .

قال ابن القيم : (ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ فإنه شرك من الساجد والمسجود له، والعجيب أنهم يقولون ليس هذا بسجود وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احتراما وتواضعا، فيقال لهؤلاء لو سميتموه فحقيقة السجود وضع الرأس لمن يسجد له قدامه) المدارج ١/ ٣٤٤ .

قال ابن تيمية : (ولهذا كان من اتباع المتكلمين من يسجد للشمس ويدعوها كما يدعوا الله تعالى ويصوم لها وينسك لها ويتقرب إليها، ثم يقول إن هذا ليس بشرك، وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي، أما إذا جعلتها سببا وواسطة لم أكن مشركا) درء التعارض ١/ ٢٢٧ .

وهنا قاعدة متعلقة بمشركي زماننا وهي أن تغيير الأسماء لا يغير الحقائق والمسمى والحكم ، فمثلا يسمون دعاء الأموات والاستغاثة بهم توسلاً، وطائفة تسمي شرك التشريع والتحليل والتحريم والحكم بغير ما أنزل الله نظاماً وتصويتاً ونحو ذلك .

وكل ذلك لا يغير الحقيقة التي وضع الحكم لأجلها فتسمى هذه المعبودات آلهة ويسمى الفعل شركاً ويكفر صاحبه .

الشبهة الأربعون : دعوى المصلحة .

تقوم هذه الشبهة على أركان فاسدة ، وهي:

أن التصويت للدستور طريق للحكم بالشريعة .

وأن التصويت له من باب دفع شر الشرين واحتمال أخف الضررين .

أنه ليس أمام المسلمين إلا هذا أو ما هو أسوء منه .

شبهة الإكراه وعدم الرضا ، وحصول الفتنة في تركه .

والجواب وبالله التوفيق :

١- أن أعظم المصالح إقامة التوحيد وأعظم المفاسد الوقوع في الشرك.

٢- أن حصول القتل أشد من وقوع الفتنة التي هي الشرك : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ البقرة: ١٩١، والفتنة هنا هي الشرك كما فسرها السلف ، وهؤلاء جعلوا الفتنة هي القتل ولأجله جوزوا الشرك والسكوت

عن دفعه، بل ما شرع الله الجهاد وإزهاق الأرواح إلا لتطهير العباد من الشرك وحتى يكون الدين خالصا لله لا يشرك معه أحد من الطواغيت في العبادة ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ الأنفال ٣٩.

٣- أن في التصويت للدستور والانتخابات شراً متيقناً وهو الوقوع في الشرك وتسويغه وترك الكفر بالطاغوت ، بينما الشر الذي يدّعونه ليس إلا متوهم وهو من وساوس الشيطان وتخويفه ومواعيده ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ البقرة: ٢٦٨ ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥.

٤- أن الشر الذي ادعوه وخافوا من وقوعه حتى لو كان صحيحاً فهو لا يصل إلى الشر الذي دعوا إليه من إدخال الناس في الشرك وعدم الكفر بطاغوت الحكم .

٥- أن التصويت ليس طريقاً للحكم بالشريعة بل هو طريقا للتحاكم للطاغوت، بل هو طاغوت بكونه مدعياً للتشريع .

٦- لماذا لا يكون الدعوة إلى تحكيم الشريعة إن كنتم صادقين ، والمسلمون لا يريدون غيرها ، ومتى قام الدين لأحد بطريقكم الأعوج.

٧- أن هؤلاء القوم الذين سنوا هذه الطرق لا يريدون حكم الشريعة وإنما يريدون الدمقراطية الكافرة كما نقلنا عنهم .

٨- أن الحل في إقامة الشريعة يكون بالطرق الشرعية التي أمرنا بها من الدفع بالجهاد والقتال ليكون الدين والحكم والعبادة خالصة لله.

٩- القول أن هؤلاء مكرهون غير صحيح فهم مختارون ولا يوجد من أكرههم ، ومن قال الكفر وأقره من غير إكراه معتبر فهو كافر .

قال ابن تيمية: (إذا تكلم بالكفر من غير إكراه صح كفره ولم يصح إيمانه).

وهؤلاء تكلموا بالكفر وصرحوا به في قولهم نعم للدستور.

وأما القول أنهم غير راضين فغير صحيح، ولو سلمنا بصحته فإقرارهم بالتشريع وتكلمهم بالكفر كفر ولو كانوا غير راضين .

١٠- القول أنه لا يوجد إلا هؤلاء أو من هم أسوء، سبق رده وبيانه ببيان حقيقة الإخوان.

١١- أن ترك شيء من الدين بدعوى المصلحة شبهة إبليسية وقد حذر الله رسوله من ذلك : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا

لَٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ الإسراء: ٧٣ ، وإذا كان هذا في بعض الدين فكيف بـأعظم الأصـول وهو التوحيد وإخـلاص الحكـم والتشريع والـدين لله ، وإذا كـان هـؤلاء جـوزوا التشريع استقلالا من أول الأمر فكيف سيقيمون دولة إسلامية تطبـق شرع الله كـما يزعمون، وهل يظنون أن دين الله يقوم بالأماني والأوهام .

ثم إن المصلحة إذا لم تنضبط بالنصوص وأدلة الشرع فمردها للهوى وحينئـذٍ ليس فهم زيد أولى من فهم عبيد .

الشبهة الحادية والأربعون: العلماء ما بينوا باب الحكم ولا كفروا المشرّعين .

الجواب بل تكلموا وذكرنا طرفا من كلامهم في تكفير الحاكم بغير ما انزل الله والتصريح بردته، أما شيوخ الإرجاء وفقهاء السلاطين فليسوا عند أهل السنة بشيء.

وسأسوق لك جملة من كلام أهل العلم الذين صرحوا بردة الحـاكم وتكفـيره بعينه متى حكم بغير ما أنزل الله وأنه لايعذر بجهله ولا تأويله :

قال الإمام ابن كثير في تاريخه: (فمن ترك الـشرع المحكـم المنـزل وتحـاكم إلى غيره ... من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين) البداية والنهاية ١٣/ ١١٩.

قال أحمد شاكر في عمدة التفسير: (إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضـح وضوح الشمس هي كفر بواح لا خفاء فيه ولا عذر لأحد ممـن ينـسب إلى الإسـلام كائنا من كان في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها) .

قال احمد شاكر : (وما كنـت يومـا بـالاحمق فـأظن أن الحكومـات في الـبلاد الإسلامية ستستجيب لحكم الإسلام فتقطع العلاقـات الـسياسية مـع الانجليـز ... ولكن أريد أن أعرفهم بعواقب هذه الردة ...) كلمة حق ٨٧ .

وقال الألوسي : (ولا شك في كفر من يستحسن القـانون ويقـول هـو أرفـق وأصلح للأمة فلا ينبغي التوقف في تكفيره) روح المعني ٢٨/ ٢٠ .

قال التويجري : (اطّراح الأحكام الشرعية والاعتياض عنها بحكم الطاغوت من القوانين وآل الأمر بكثير منهم إلى الردة والخروج من الإسلام) الإيضاح ٢٨ .

وقال البليهي : (الحكم بالقوانين المخالفة للشريعة إلحاد وكفر ومن فرق بـين الأحوال الشخصية والعامة والخاصة فهو ملحد زنديق كافر) السلسبيل ٢/ ٣٨٤ .

وقال القاضي ابن غنيم في البرهان: (الذين يرضون بتحكيم القوانين بدلا عن الحكم بما أنزل الله ويريدون سواه فهؤلاء حكمهم الكفر مثل حكامهم) .

وقال محمد بن إبراهيم: (البلد الذي يحكم بالقانون ليس دار إسلام وتجب الهجرة منه عند القدرة) الفتاوى ٦/ ١٨٨ .

ويقول:(الحكم بغير شريعة الإسلام معناه الكفر والخروج عن الإسلام).

وقال : (الذي جعل قوانين بترتيب وتخضيع فهو كافر وإن قالوا أخطأنا وحكم الشرع أعدل) . وقال عن المحاكم القانونية :(فأي كفر فوق هذا الكفر) .

وقال محمد حامد الفقي في تعليقه على كتاب فتح المجيد: (من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال ويقدمها على ما علم من كتاب وسنة رسوله ﷺ فهو بلا شك كافر مرتد) .

وقال عبدالله بن حميد: (من أصدر تشريعاً عاماً ملزماً للناس يتعارض مع حكم الله فهذا يخرج من الملة كافر) في كتابه أهمية الجهاد .

وقال الشنقيطي: (الذين يتبعون القوانين الوضعية .. إنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه مثلهم) أضواءالبيان٤ / ٨٣ . ٧/ ١٦٢ .

وقال فيه: (والعجب ممن يحكم غير تشريع الله ثم يدعي الإسلام).

قال ابن باز: (وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة) . وقال : (فالذين يتحاكمون إلى شريعة غير شريعة الله لا شك أنهم يخرجون بذلك عن الإسلام ويكونون بذلك كفارا ظالمين فاسقين) .

وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة: (إذا كانت الحكومة تحكم بغير ما أنزل الله فالحكومة غير إسلامية لا يجوز للمسلم أن يتحاكم إلى حكومة غير إسلامية ..) .

شبهة :وجود علماء جوزوا للحكام فهم مقلدون جهال ولم تقم الحجة عليهم :

فنقول العبرة بالدليل وليس بقول فلان وفلان، والأدلة كلها نصت على كفر الحاكم بغير ما أنزل الله والمتحاكم إليه، وليس عند من أجاز التصويت للدستور وأباح الدخول في الانتخابات التشريعية آية واحدة من كتاب الله ، بل ولا حتى دليلاً واحداً من غيره من المعقول أو المنقول، فلا عبرة حينئذٍ بمن خالف كائناً من كان، فإن خلاف هؤلاء كخلاف علماء الكلام والصوفية في تجويز دعاء الأموات والاستغاثة بالقبور كما هو قول مفتي مكة زيني دحلان وقاضي الرياض زمن إمام الدعوة محمد بن عبد الوهاب ابن سحيم وقاضي فلسطين النبهاني وغيرهم، وهم علماء ومع ذلك لا عبرة بخلافهم بل وحكم العلماء بكفرهم لأنهم من دعاة الشرك.

الشبهة الثالثة والأربعون والأخيرة : وهي خمس شبهات متعلقة بالتكفير:

١ - الحكام بغير ما أنزل الله يقولون لا إله إلا الله . ولم ير منهم كفر بوح وهم يقيمون الصلاة ويتصدقون. والصحابة لا يرون عمل تركه كفر غير الصلاة .

أولاً : أن (لا إله إلا الله) لاتنفع قائلها حتى ويعمل بمقتضاها ، ولا ينقضها.

ثانياً: أن الكفر بالطاغوت فرض ولايكفي عنه قول (لا إله إلا الله) والصلاة .

ثالثاً : أن الإيمان وضده الكفر يكون بالقول والعمل والاعتقاد.

رابعاً: أنه كما أن للوضوء نواقض وللصلاة مبطلات ، فكذا للإسلام نواقض وللإيمان مبطلات . وكم كفّر أهل العلم من الأفراد والطوائف الذين يقولون (لا إله إلا الله) ويصلون ولم يعتبر ذلك مانعاً لهم من التكفير لعملهم ناقضاً للإسلام .

ولم يقل أحد من العلماء أن دماء المسلمين معصومة بالصلاة وحدها، مع فعلهم لنواقض الإسلام وتحاكمهم للطاغوت .

وأما ما جاء عن أم سلمة عند مسلم أن النبي ﷺ قال: (ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف بريء ومن أنكر سلم ، ولكن من رضي وتاب(قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال: (لا ما صلّوا) ، وفي رواية : (ما أقاموا فيكم الصلاة) .

فالحديث في الخروج على أئمة الجور والظلم، وليس المرتدين وذكر الصلاة هاهنا إشارة إلى إقامة الدين والتوحيد، بدليل ما تقدم من أن الصلاة لا تغني مع نقض أصل التوحيد شيئاً والوقوع في ناقض من نواقض "لا إله إلا الله".

قال النووي: (وأما قوله: " لا ما صلوا" ففيه معنى ما سبق أنه لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم والفسق ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الإسلام) .

٢- قولهم : بإمامة الحكام بغير ما أنزل الله ووجوب والطاعة.

أننا نؤمن بأن هذا في الأئمة المسلمين ولو كانوا فساقاً أما المرتد منهم ومن تولى بمقتضى الدساتير والقوانين الوضعية فهم ليسوا أئمة ولا ولاة أمور شرعيين ، مسلمين بل هم كفار ، أقيمت عليهم الحجة أو لم تُقم ، بل هم أنفسهم لا يقولون عن أنفسهم أنهم ولاة أمور شرعيون، وهل من بويع على القسم على احترام الدستور وسيادة القانون ، فهل يقول عاقل فضلاً عن عالم أن هذه بيعة ، بل وينسبها للشرع ؟

قال القاضي عياض : (فلو طرأ على الخليفة كفر وتغيير للشرع خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام

عادل، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام وخلع الكافر) شرح النووي على مسلم ١٢/ ٢٢٩ .

٣ - السلف لم يكفروا المأمون ولا الحجاج ولم يخرجوا عليهم .

وهذا ليس بصحيح . فالمأمون الصحيح أنهم كفروه ومن ظن غير ذلك كابن تيمية فقد أخطأ ، كيف والسلف أجمعوا على كفر الجهمية وهو من رؤوسهم ، ولنا في تحقيق ذلك بحث يؤكد كلام السلف وإجماعهم على كفره مع اختلافهم في الخروج عليه وممن خرج عليه وقتل الإمام ابن نصر الخزاعي .

وأما الحجاج فحصل الخلاف على كفره والخروج عليه وممن كفره وخرج عليه إمام التابعين سعيد بن جبير . قال ابن حجر عنه في التهذيب:(وكفّره جماعة منهم سعيد بن جبير والنخعي ومجاهد وعاصم بن أبي النجود والشعبي وغيرهم) .

هذا فضلاً عن اختلاف حال المأمون والحجاج عن الحكام المشرّعين.

٤ - الكلام في تكفير الحاكم يدعو إلى الفتن والخروج ومنهج الخوارج.

فرق بين منهج أهل التوحيد من تكفير المرتدين وقتالهم والخروج عليهم ، وبين منهج الخوارج الذين يكفرون بالذنوب ويخرجون على أئمة المسلمين .

وهؤلاء المرجئة يريدون أن يلبسوا الحق بالباطل ويصدوا عن التوحيد والكفر بالطاغوت ويصفون الموحدين بالخوارج لتنفير الناس عنهم .

٥ - التكفير للفعل لا يلزم منه تكفير للمعين فهناك شروط وموانع .

٦ - ومن ذلك قولهم: قد تلبس بالحكام موانع تمنع تكفيرهم ، منها :

الإكراه والخطأ غير العمد والضرورة والخوف والمصلحة والتأويل والتقليد.

والجواب : أن هذا كله من باب الترقيع والجدال بالباطل عن الطواغيت وإعذارهم وليس قصدهم بغية الحق وإنما ترقيع الكفر والذب عنه والصد عن التوحيد . وعلى أن الشرك لا يعذر فيه غير المكره ، فما ذكروه من موانع كلها كاذبة والعقل والواقع يشهد بكذبها ، وليتهم يعذرون الموحدين إن كانوا يرونهم مخطئين كما عذروا المشركين وتلطفوا معهم كما تلطفوا مع أولئك .

لكن صدق في هؤلاء الذين كفروا أهل التوحيد لعملهم بالتوحيد ابن القيم:

من لي بمثل خوارج قد كفّروا ... بالذنب تأويلاً بلا إحسان

وخصومنا قد كفرونا بالذي ... هو غاية التوحيد والإيمان

الناقض الخامس

البغض

قال المصنف رحمه الله :

(الخامس : من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ، ولو عمل به ، كفر إجماعاً، والدليل: قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ محمد: ٩).

يتكون هذا الناقض من قسمين :
الفصل الأول البغض والكره
الفصل الثاني : كفر الرد والجحود

ومما يدخل في هذا الناقض :
إنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة كفر ،
والجحود للواجب والاستحلال للمحرم.
إنكار الإجماع القطعي .
القول بتقديم العقل على النقل أحد نواقض الإسلام .

المسألة الأولى : تعريف البغض والكره :

البغض نقيض المحبة ، ورجل بغيض ومبغوض ليس محبوباً، وما أبغضني له وفيه وإليه أي أني أبغضه وفي الدعاء : نعم الله بك عينا وأبغض بعدوك عينا .

والتباغض والمباغضة على وزن تفاعل ومفاعلة وهي التي تكون من طرفين.

والكره : بفتح الكاف وضمها لغتان، وهو ضد الحب والرضا .

ويطلق الكره على الإباء والمشقة والكلفة ويطلق على الحرب الكريهة والكَرْه الجمل الشديد الذي يكره الانقياد قاله ابن فارس .

تعديات البغض والكره : تتعدى بنفسها وبالباء واللام ومن وفي .

مرادفات البغض :

الكره والغيظ والمقت والقلي والشنأ والشنآن والتجانب للشيء والقبح والحنق وهو التضايق والضيقة والغيظ والحقد والضغن والرغم والشحناء والضمر والوغر والوغم والوقر والنائرة والسخيمة والفرك وهو خاص بين الزوجين هكذا في المخصص والألفاظ المختلفة لابن مالك والمترادفة للكرماني .

وفي فقه اللغة للثعالبي: أول مراتب العداوة البغض ثم القلى فالشنآن فالمقت .

ومن معانيه وآثاره : الكيد الحقد المكر والسخط والزعل والغضب والعداء .

فائدة : دخول العداوة في البغض واستلزام كل منهما للآخر .

المسألة الثانية : أدلة البغض والكره :

قال تعالى في سورة محمد : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ ، فانظر كيف حكم الله ﷻ عليهم بالكفر لما كرهوا ما أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ وأحبط أعمالهم لردتهم.

وقال تعالى مبيناً سبب خلود الكفار في النار وهو كره دين الحق : ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ الزخرف: ٧٨ .

وقال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ محمد: ٢٦

فإذا كان من يطيع الكاره ولو في بعض الأمر كافر فكيف بالكاره نفسه.

وقال تعالى: ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ التوبة: ٨١، فجعل عقوبة كرههم للجهاد نار جهنم .

وقال تعالى مبينا سبب عدم قبول طاعتهم الكفر بالله وبدينه وكرهه: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ التوبة: ٥٤ .

وقال تعالى في الكفار والمشركين الذين كان سبب كفرهم كرههم الدين: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ الصف: ٩، التوبة: ٣٣ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ التوبة: ٣٢ ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ التوبة: ٤٨ ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ هود: ٢٨ ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ الأنفال: ٨ .

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ آل عمران.

والآيات دلت على الموضوع من جهات :

أن بغض أهل الدين من الكفر، وأن البغض منه الظاهر والباطن، وأن ما في الباطن لابد أن تظهر آثاره، وأن بغض الكفار ومعاداتهم من الدين الواجب، وأن الكفرة والمنافقين لا يحبون الدين وأهله ولو أحبهم المسلم ووالاهم، وأن من البغض الغيظ والحقد ومنه الفرح بمصيبة العدو والحزن والمساءة من الخير .

وقال عن أهل النفاق: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ محمد: ٢٩ .

وقال تعالى: ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ الممتحنة: ٤.

وفي الآية لفتة لطيفة وهي أن بغض الكفار للمسلمين دائم وأنه من أسباب كفرهم بغض الإسلام وأهله مع وقوعهم في الشرك .

وقال تعالى: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ الفتح: ٢٩ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ الشعراء: ٥٥ ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ﴾ الأحزاب: ٢٥.

فتأمل كيف جعل من علامات كفرهم وأسبابه ما في قلوبهم من الغيظ للمؤمنين ، كما أن الأصل وجود الغيظ المتفاعل والمتبادل بين أهل الكفر والإيمان .

وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥.

فجعل تعالى الرضا وانتفاء الكره شرطا في صحة الإيمان وقبول الدين .

وقال تعالى في تكفير من يحب الكفر ويسارع فيه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ المائدة: ٤١ ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ المائدة: ٦٢ ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ المائدة: ٥٢ ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ فصلت: ١٧

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ الزمر: ٤٥. فجعل كره التوحيد من صفات الكفار الذين لا يؤمنون.

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ الكوثر: ٣

وقال تعالى في كيد الكفار: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ الطور: ٤٢ ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ غافر: ٢٥ ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ الطارق: ١٥.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ التوبة: ٥٨.

﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ النمل: ٥٠ .

وقال سبحانه عن عداوة الكفار والمنافقين للمسلمين : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ الممتحنة: ٢ ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ الأحزاب: ١٩ ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ التوبة: ٥٢ .

وقال تعالى عن حرب الكفار للدين وصدهم عنه وأذية أهله وفتنتهم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ البروج: ١٠ ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٥٨ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ المجادلة: ٢٠ ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ الأعراف: ٤٥ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ محمد: ١ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ النحل: ٨٨. وهذا دليل على كفر من يحارب الدين وأن عذابه مضاعف ، والصد عن سبيل الله صورة من صوره كفر البغض.

ثانياً : أدلة السنة :

قال ﷺ : (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب) رواه البخاري .

وعند مسلم أن أبا سفيان قبل إسلامه أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر ﷺ أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم، فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : (يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ولئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك) ، فأتاهم فقال يا إخوتاه أغضبتكم قالوا لا يغفر الله لك يا أخي .

ثالثاً : الإجماع :

أجمع العلماء على أن المبغض لشيء مما جاء به الرسول ﷺ فهو كافر .

وقد نقل الإجماع جماعة من أهل العلم وسنأتي على بعضها في النقولات .

المسألة الثالثة : كلام العلماء في كفر البغض والكره :

قال الإمام ابن تيمية: (لأنه يعترف لله ورسوله بكل ما أخبر به ، ويصدق بكل ما يصدق به المؤمنون، لكنه يكره ذلك ويبغضه ويسخطه لعدم موافقته لمراده ومشتهاه، ويقول: أنا لا أقر بذلك ولا التزمه وأبغض هذا الحق وأنفر عنه، وتكفير هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام،والقرآن مملوء من تكفير مثل هذا النوع). الفتاوى ١٤/ ١٠٨ ومثله في الصارم المسلول .

وقال: (فمن النفاق ما هو أكبر يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار كنفاق عبدالله بن أبي وغيره بأن يظهر تكذيب الرسول أو جحود بعض ما جاء به أو بغضه أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه أو المسرة بانخفاض دينه أو المساءة بظهور دينه ، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله) ٢٨/ ٤٣٤ .

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب في رسالته نواقض الإسلام :(الناقض الخامس:من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كفر).

وقال: (فأما النفاق الاعتقادي فستة أنواع : تكذيب الرسول أو تكذيب بعض ما جاء به أو بغض الرسول أو بغض ما جاء به أو المسرة بانخفاض دين الرسول أو الكراهية بانتصار دين الرسول فهذه الأنواع الستة صاحبها من أهل الدرك الأسفل من النار).

وقال:(ولو أن رجلاً يقر بأن قبلة المسلمين الكعبة وقبلة النصارى مطلع الشمس ولكن يكره من يستقبل القبلة،ويحب من يستقبل الشمس، أتظنون هذا مسلماً) تاريخ نجد (٣١٦).

وقال مخاطباً سليمان بن سحيم : (أن المبغض لما جاء به الرسول كافرٌ بالإجماع، ولو عمل به ، وأنت مقرٌ أن هذا الذي أقول في التوحيد أمرُ الله ورسوله، والنساء والرجال يشهدون عليكم أنكم مبغضون لهذا الدين ، مجتهدون في تنفير الناس عنه ، والكذب والبهتان على أهله) تاريخ نجد.

وقال : (والتكفير بالاتفاق فيمن أبغض النهي عن الشرك وأبغض الأمر بمعاداة أهله ، ولو لم يتكلم وينصر ، فكيف إذا فعل ما فعل) .

وقال: (ولكن نكفر من أقر بدين الله ورسوله ثم عاداه وصد الناس عنه) .

وقال البهوتي في كشاف القناع: (قوله أو كان مبغضاً لما جاء به الرسول ولم يشرك بالله لكن أبغض السؤال عنه ودعوة الناس إليه كما هو حال من يدعي العلم ويقرر أنه دين الله ورسوله ويبغضونه أكثر من بغض دين اليهود والنصارى بل يعادون من التفت إليه ويحلون دمه وماله ويرمونه عند الحكام).

قلت إذا كان هذا في عصرهم فكيف بعلماء السوء في زماننا في تلبيسهم دين الله وصد الناس عنه وفتاويهم الموافقة لما يريده اليهود وأهل الصليب حتى صاروا يتبرعون بطبع كتبهم ونشر فتاواهم في البلدان التي يحتلونها .

وقال : (والتكفير بالإتفاق فيمن أبغض النهي عنه وأبغض الأمر بمعاداة أهله ولو لم يتكلم وينصر فكيف إذا فعل ما فعل).

وقال ابن بطه في الإبانة : (لو أن رجلاً آمن بجميع ما جاء به الرسل إلا شيئاً واحداً كان يرد ذلك الشيء كافر عند جميع العلماء).

المسألة الرابعة : أوجه الكفر في البغض والكره ووجه كونه ناقض للإسلام وبيان أن البغض كفر من جهات:

١- أن البغض يناقض الإسلام لأن الإسلام قائم على الاستسلام لله والانقياد، والبغض ينافي ذلك .

٢- أن البغض ينافي العبادة ، لأن مدارها على الذل والخضوع والمحبة، والبغض يناقض المحبة التي هي ركن العبادة.

٣- أن البغض ينافي الإيمان بالله تعالى ، لأنه قائم على التصديق والقبول والرضا والمحبة والإقرار والعمل والبغض ضد ذلك .

٤- أن البغض ينقض شهادة (أن محمداً رسول الله) لأن مقتضاها تصديق الرسول وطاعته وإتباعه ومحبته والبغض يناقض إتباعه وطاعته ومحبته .

٥- أنه يناقض شهادة (لا إله إلا الله) من حيث شروطها القائمة التي منها شرط المحبة ، كما يناقض البغض قبول الرضا بها والتسليم لها فضلاً عن الانقياد لها .

كما أن البغض ينقض أركان (لا إله إلا الله) حيث ينافي تعظيم الله والذل له والخضوع له والكفر بالطاغوت والولاء والبراء وسيأتي .

فصار البغض بذلك كفر ينقض جميع أصول الدين ، والبغض لا يقوم بقلب مسلم مستسلم لله موحد له منقاد لشرعه خاضع لعبادته مؤمن به طائع لرسوله .

المسألة الخامسة : علاقة كفر البغض بأمور الدين :

أولا :البغض ضد المحبة :

كما أن العبادة تقوم على المحبة فالعبادة غاية الحب مع غاية الذل ومن لا يحب الله وما جاء عن الله فلا يعتبر قد أتى بالعبادة ولا عبد الله تعالى .

والمحبة شرط من شروط (لا إله إلا الله)وهي تنافي البغض .

وبغض (لا إله إلا الله) يدخل فيها بغض الله ورسوله ودينه وأفعاله وأوليائه وهو ضد محبتها ومحبة مقتضاها وما تدل عليه.

فمن أبغض شيئا مما جاء به نبينا وحبيبنا محمد ﷺ عن حبيبنا وربنا المولى ﷻ، فقد نقض هذه المحبة الواجبة لله ولرسوله ولدينه والتي لا يقوم التوحيد إلا بها، فلا تجتمع محبة الله مع بغض ما جاء به رسوله ، فبغضه مكذب لوجود المحبة.

ثانيا : علاقة البغض بالانقياد والعمل :

قد يوجد بغض شيء من الدين مع الانقياد الظاهر وهذا لا ينفع صاحبه ويكون كفره اعتقادي، فمن أبغض الصلاة وصلى لم تنفعه صلاته، أو أبغض الصيام والزكاة وهو يزكي ويصوم لم ينفعه صيامه ولا زكاته وكان كافراً قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ التوبة: ٥٤ .

كما أن المحبة بدون انقياد وقبول ظاهر لا يعتبر بها ولا تقبل هذه المحبة ويكون صاحبها أحد أمرين : إما كاذبا في دعوى المحبة كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ آل عمران: ٣١، أو تكون محبة صحيحة إن تصورنا ذلك لكن غير مقبولة فلا تدخل صاحبها الجنة لأن المحبة لا تكفي بدون بقية الشروط والأركان والرسول ﷺ قال : (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) .

ثالثا : علاقة كفر البغض بشروط لا إله إلا الله :

كفر البغض ينقض شرط المحبة بالمطابقة .

وينقض شرط القبول والانقياد بالتضمن .

وينقض شرط اليقين والصدق والإخلاص بالتلازم ، أي أنه يلزم أن المبغض ليس بصادق في إسلامه بل من الكاذبين، ولذا كان البغض من صور كفر النفاق، كذلك يلزم أن لا يكون مخلصاً لأن المخلص هو الذي يحب الله وحده ولا يشرك في محبته أحداً أما من لم يحبه أو أشرك في حبه فهو غير مخلص لله فكيف بمن أبغضه إنه أبعد الناس عن الإخلاص . كذلك يلزم من البغض أن يكون شاكا غير موقن .

رابعا : علاقة كفر البغض بأركان لا إله إلا الله :

وبيان ذلك أن كلمة التوحيد لها ركنان نفي وإثبات .

والإثبات يقتضي عبادة الله وحده ومن أعظم العبادة محبة الله ورسوله ومحبة ما جاء عن الله ورسوله وقبوله والرضا به وعدم بغض ما جاء عنهم .

والنفي يقوم على بغض كل ما خالف أمر الله ورسوله وعلى بغض الطاغوت والكفر به، والمبغض نقض ركن النفي الذي هو الكفر بالطاغوت وبغضه، ومن أبغض الله ورسوله أو ما جاء عنهما فقد أحب ضده وهو الطاغوت ولم يكفر به .

إذا تقرر هذا الأصل فإن من أبغض شيئا مما جاء به الرسول ﷺ عن الله تعالى فإنه قد نقض الركنين معاً .

خامسا : علاقة البغض بالكفر بالطاغوت :

الكفر بالطاغوت يتضمن أن يبغض الطاغوت ويعاديه ، وبالتالي فمن لم يبغض الطاغوت فهو مؤمن بالطاغوت غير كافر به ، ومن لم يكفر به فليس بمستمسك بالتوحيد ولا هو من أهله ولا يقبل عند الله إسلامه وعبادته .

ومن وقع في كفر البغض وأبغض التوحيد أو شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ فإنه يعتبر كافراً بالله وليس بمؤمن بالله محب له، فيكون مؤمنا بالطاغوت كافرا بالله .

إذا الكفر قسمان :

١- ترك عبادة الله والإيمان به والاستكبار عنه، ومن هذا بغضه وعدم محبته .

٢- عبادة غير الله وعدم الكفر بالطاغوت ولا البراءة من الشرك .

والأول يسمى المستكبر الكافر والثاني يسمى المشرك.

وكفر البغض يدخل في الأول بالتضمن والمطابقة ، وفي الثاني باللزوم .

على هذا الأصل يقال: كما أن من مقتضيات شرط المحبة للا إله إلا الله الكفر بالطاغوت وبغضه ، فإن من كفر البغض الإيمان بالطاغوت .

فالمحبة والبغض ضدان إذا زال أحدهما حل محله صاحبه من حيث الأصل.

سادسا : علاقة البغض بالولاء والبراء :

الولاء يقوم على ركنين المحبة والنصرة والمحبة ضد البغض .

والبراء كذلك يقوم على ركنين البغض والعداوة .

إذا البغض من أفراد البراء وأبوابه .

والولاء والبراء ضدان :

فالتوحيد أن يصرف الولاء والمحبة لله ولدينه ولأوليائه المؤمنين ، والبراءة والبغض والعداء للمشركين والكافرين .

والكفر أن يصرف البراء والعداوة والبغض لله ولأوليائه المؤمنين، والولاء والمحبة للكفر والكافرين .

فبهذا تتبين علاقة البغض التعبدي والبغض الشركي الكفري (كفر البغض) بالولاء والبراء .

المسألة السادسة : أركان البغض :

١- بغض القلب : وهذا مقر البغض وأصل محله .

٢- بغض اللسان : ويكون بالسب وإظهار الكره. ودليله قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران: ١١٨ .

٣- بغض الجوارح : ويكون بأعمال الجوارح والأفعال الظاهرة ، والعداوة الظاهرة دليل على وجود أثر لما في القلب من البغض .

والأول باطني خفي والثاني والثالث ظاهر باد .

تنبيه: من يحارب أهل الدين ويفتن المؤمنين ويسجن العلماء والمجاهدين فهو عدو لله مبغض لله وليس في قلبه حب لله .

قال تعالى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ الممتحنة: ٢ ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ محمد: ٢٩.

وجعل تعالى فعل الكفار الذين صدوا عن دينه وحاربوا أهله شاهدا بكفرهم مكذبا دعواهم محبة الله وعمارة المساجد: ﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ التوبة: ١٧.

المسألة السابعة : قيام البغض والبراءة والعداوة على جانب باطن وظاهر :

الجانب الباطن القلب ويتعلق بكره القلب ومقته وغيظه .

الجانب الظاهر العملي ويتعلق بعمل الجوارح بالمعاداة .

ومثل ذلك المحبة والنصرة في الولاء .

المسألة الثامنة : البغض من أعمال القلوب :

الأصل أن البغض محله القلب ، إلا أنه تظهر آثاره ولوازمه على اللسان والجوارح ، وتسمى آثاره ولوازمه بالبغض العملي .

والدليل قوله ﷻ: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾.

وسيأتي بيان البغض العملي الظاهر ، ودلائل بغض القلب وما يدل عليه ويستلزمه ، والعلاقة التلازمية بين الظاهر والباطن ، وإنكار المرجئة لها .

المسألة التاسعة : كيف يُعرف المبغض لما جاء به الرسول ﷺ ويحكم عليه بالكفر وهو عمل قلبي باطن:

يُعرف المبغض لما أنزل الله على رسوله ﷺ بالقرائن الدالة على بغضه وبأعماله المستلزمة لوجود البغض ، وأهل العلم قد يحكمون بردة من ظهرت علامة بغضه للدين حتى ولو أنه يصرح بحب الدين وأهله وعدم بغضه .

قال محمد بن عبد الوهاب في ابن سحيم قاضي الرياض : (والناس يشهدون عليكم أنكم مبغضون لهذا الدين ، مجتهدون في تنفير الناس عنه) تاريخ نجد.

المسألة العاشرة : البغض العملي :

وهو ما يتعلق بالأفعال الظاهرة وأعمال الجوارح .

ضابط البغض العملي : كل عمل يدل على بغض القلب وكرهه أو يستلزمه .

فالبغض العملي هو العمل الذي يظهر منه وجود البغض في القلب ويدل عليه، مما يبديه الشخص في الظاهر وهو دليل ولازم لما في قلبه من البغض كما قال تعالى: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران: ١١٨ .

وهو من جنس الاستحلال العملي والجحود العملي ونحوه ،وهو من يعمل عملا يلزم منه أن صاحبه جاحداً ومستحلا .

صور وأمثلته ستأتي منها :

حرب الدين والصد عن سبيل الله .

السماح للكفار بنشر كفرهم والدعوة لدينهم .

مدح الكفر وتزيينه وتلبيسه بالحق وتعظيم أهله ومدحهم.

نشر الكفر والفواحش وكل ما يضلل الناس مع حمايتها وحماية أهلها .

التصريح لمحلات الدعارة والبنوك الربوية والمراقص والسينما والتسجيلات الغنائية ومحلات بيع آلات اللهو وغيرها .

تنفير الناس عن دين الله وما أمر الله به وافترضه على خلقه.

محاربة بعض شرائع الله كالجهاد أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن من يكفر بقوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ البقرة: ٢١٦ويحاربه ، كمن يحارب ويكفر بقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ البقرة: ١٨٣.

كما هو حال حكام زماننا ممن تراهم ينشرون الفساد ويظهرون المنكرات ويحاربون من ينكرها ، ويتولون الكفار ويظاهرونهم على المسلمين ويحاربون المجاهدين ويسجنونهم ، ويدعون مع ذلك الإسلام وحب رسول الإسلام.

قتال المؤمنين وفتنتهم وتعذيبهم وسجنهم ولمزهم وسلقهم بألسنة حداد واتهامهم وتشويه سمعتهم ومحاربتهم حتى يتركوا الدين .

الطعن في الدين وسب أهله ونشر الشبهات حوله والتشكيك في مبادئ الدين.

فإن هذه الأعمال الظاهرة لا تصدر من قلب محب لله ورسوله ودينه راضياً بهم وإنما تصدر من قلب كافر ومنافق قلبه مبغض لله ولرسوله ولدينه .

ولا يخالف في ذلك إلا المرجئة الذين ينكرون العلاقة التلازمية بين الباطن والظاهر كما هو معلوم من مذهبهم .

وسيأتي مزيد بيان ونقل لكلام أهل العلم في مبحث الاستحلال العملي .

المسألة الحادية عشرة: لوازم البغض وآثاره ومظاهره وما يدل عليه :

كما أن للمحبة الله ورسوله لوازم من اتباع المحبوب وطاعته والرضا به والانقياد له والدفاع عنه ومناصرته .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي ﴾ آل عمران: ٣١.

فكذلك البغض له لوازم كالمعاداة والمجاهدة والسب والبراءة والخصومة والتخلص والمجانبة ، فمن أبغض شيئاً عاداه وجاهده وتبرأ منه وحاربه وأظهر كرهه له ورده له ، كما أن البغض ملزوم لغيره، فالسب والحرب والعداوة والمجاهدة لوازم يلزم منها وجود البغض في القلب وتدل عليه ، ويدل لذلك :

قوله تعالى: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران: ١١٨.

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ محمد: ٢٩.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ الأنفال: ٣٤.

وقوله تعالى: ﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ التوبة: ١٧.

فمن لوازم البغض وآثاره :

١- العداوة والحرب والقتال .
٢- السب والشتم .
٣- الأذى .
٤- الحقد والحنق والغيظ .
٥- الصد والتحذير من المبغوض .
٦- الاستخفاف والاحتقار وعدم التعظيم ، فهذه غالبا مقارنة للبغض، وقد يوجد الاستخفاف بدون بغض والعكس وسيأتي الفرق بينها في ناقض الاستهزاء .
٧- عدم القبول والانقياد والرضا .
٨- الإنكار والجحود والاستحلال والتكذيب والرد.
٩- الإعراض عن الشيء والنفور منه .

المسألة الثانية عشرة : أقسام البغض :

الأول البغض المشروع والمحمود :

وهو بغض كل ما يبغضه الله ولا يرضاه : ومن ذلك :

١- الشيطان نعوذ بالله منه .
٢- الكفرة والمشركين.
٣- الكفر والمعاصي.
٤- المعبودات الباطلة.
٥- الطواغيت .
٦- كل ما يصد عن ذكر الله من الأفعال والأعيان .
الثاني : البغض المنهي عنه والمذموم ومنه :
١- بغض الرب ﷻ ، وهذا نادر ، لأن محبة الخالق فطر الخلق عليها ، فالكفار يحبون الله المحبة الطبيعية لكن يكرهون دينه ويحبون الطواغيت، قال ﷻ في حب الكفار لله: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥.
٢- بغض رسوله ﷺ وأنبيائه وملائكته .
٣- بغض دينه وشرعه وما جاء عن رسوله .
٤- بغض شيء من أوامره أو أخباره أو أفعاله أو صفاته أو قضائه وقدره.
٥- بغض أوليائه وأهل دينه المؤمنين .

المسألة الثالثة عشرة: أحكام البغض ودرجاته :
١- البغض الواجب التعبدي : وهو بغض الكفر وأهله وأعداء الله الكافرين.
وينقسم هذا النوع إلى قسمين :
الأول: ما تركه كفر وهو الكفر بالطاغوت وبغض الكفر وأهله .
قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ المجادلة: ٢٢ ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ الممتحنة: ٤ ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ الشعراء: ١٦٨ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ التوبة: ٧٣ ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة: ٥ ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ الفتح: ٢٩.
الثاني: ما تركه محرم ولكن لا يصل إلى الكفر .
كعدم بغض معصية من المعاصي كمحبة النظر للمحرم أو سماع الغناء .
٢- البغض الكفري والشركي :
وهو بغض الله ورسوله أو دينه أو شيء مما جاء به رسوله .
٣- البغض المحرم : ولا يصل إلى الكفر كالتباغض لأجل الدنيا .

٤- البغض الواجب اللزومي:وهو البغض لله وفي الله كبغض الفاسق لفسقه.
٥- البغض المكروه :
ككره القتال ﴿ وَهُوَكُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٦ وسيأتي تفصيل للمسألة هذه.
٦- البغض المباح : كبغض بعض الأمور الدنيوية .

المسألة الرابعة عشرة : البغض الكفري :

مناط الكفر في البغض : هو بغض كل ما جاء عن الله من الدين .
ومرده لمنافاة أصل المحبة لله ولدينه ورد ما جاء عنه وعدم قبوله والرضا به .
وله صور .
الأولى : بغض العبد ربه ﷻ وهذا الصورة نادرة كما تقدم.
الثانية : بغض التوحيد وعبادته .
الثالثة : بغض شيء من صفات المولى ﷻ أو أسمائه .
الرابعة : بغض أفعال الرب ﷻ وتصرفاته.
الخامسة : أن يبغض العبد قضاء الله وقدره وحكمه وحكمته وأفعاله ويعترض عليها ويتسخط على القدر وهو داخل في سابقه .

تنبيه: التفريق بين الرضا بأفعال الله ومفعولاته :

فأصل فعل الله نرضى به ولا نبغضه ونعلم أنه تعالى لا يقدر أمرا إلا لحكمة وخير يعلمه سبحانه فنسلّم به، أما المفعول والمخلوق فلا نرضى به بل نبغضه ويحرم محبته وذلك ببغض إبليس والكفر والمعاصي وأعداء الله ونحو ذلك .
السادسة : أن يبغض العبد حكم الله سبحانه أو يبغض التحاكم لشريعته فلا يحصل له التسليم والرضا والانقياد لحكمه .
السابعة : أن يبغض العبد شرع الله ودينه وأمره ونهيه فيحب ما حرمه الله ونهى عنه ويبغض ما أمر به وافترضه .
الثامنة : أن يبغض شيئا من الدين أو مما جابه الرسول ﷺ أو يبغض هديه وطريقته وصفته أو جهاده ونحوه .
التاسعة : أن يبغض أحد أنبياء الله ورسله .
العاشرة : أن يبغض ملائكة الله أو أحدهم كجبريل أو ملك الموت.
الحادية عشرة: أن يبغض البعث والحساب ولقاء الله وليس الخوف منها.

الثانية عشرة : أن يبغض الرسول ﷺ لذاته .
الثالثة عشرة : أن يبغض شيئا من أفعال الرسول ﷺ وهديه وشرعه ودينه .
الرابعة عشرة : أن يبغض الصحابة ﷺ من المهاجرين والأنصار أو يبغض أحدهم وبغض الصحابة كفر.
الخامسة عشرة : بغض أهل الإيمان والدين وخاصة العلماء والمجاهدين .
السادسة عشرة : بغض القرآن أو آية من آياته .
السابعة عشرة : بغض السنة والأحاديث وردها ومعارضتها بالعقل .
الثامنة عشرة : بغض شعيرة من شعائر الله كالصلاة أو الحج أو الصيام أو الزكاة أو الجهاد، وقد كفر الله تعالى كاره الجهاد والزكاة في قوله:﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ ﴾ التوبة: ٨١ ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ التوبة: ٥٤ ، كما أخبر النبي ﷺ أنه لا يدخل أحد الجنة بدونها كما في حديث بشير بن الخصاصة عند أحمد.
التاسعة عشرة: بغض مبدأ معاداة الكفار وتكفير المرتدين والكفر بالطاغوت.
العشرون : بغض العرب والعربية وهذا من النفاق.
فبغض أحد هذه الأمور كفر،وإذا فعلها المسلم كانت ردة منه والعياذ بالله.
مسألة : لو طلب كافر من مسلم أن يدله على الإسلام فقال له لا أنصحك به لكان كافرا من وجهين :لأنه رضي الكفر وأحبه وأبغض دين الله. ولأنه صد عن سبيل الله وحارب دينه.
مسألة : من قال لو شفع عندي رسول الله في فلان ما قبلت شفاعته كفر بذلك وفي هذا دليل على بغضه واستخفافه بالرسول ﷺ ، فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ١٩٩ .

الخامسة عشرة: حرب الدين والصد عنه وأذية أهله وفتنتهم من كفر البغض :
قال تعالى :﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ الأعراف: ٤٥ .
وهنا فائدة وهي ترتب الكفر على الصد عن سبيل الله وقد يحصل العكس.
وقال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ البروج: ١٠ ، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٥٨، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ المجادلة: ٢٠ .

وقال: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ النحل: ٨٨. وهذا دليل على كفر من يحارب الدين وأن عذابه مضاعف.

وسأذكر لك بعض الآيات في هذا الباب وتأمل ما جاءك فيها عن الله تعالى في حال من يصد عن سبيل الله ولا يريد أن يقام دين الله في أرضه وبين عباده ، وعقوبته وعقوبة من يتبعه ، كما أن فيها التحذير للمؤمنين من اتباع سبيل المجرمين والحذر من الوقوع في مكرهم وتصديق أكاذيبهم .

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الأنعام: ١١٦ ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ الإسراء: ٧٣ ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ القصص: ٨٧ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ النساء: ١١٣ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ النساء: ٤٤ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ النساء: ٥١ ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣٤ ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ الأعراف: ٨٦ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ الأنفال: ٣٦ ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ التوبة: ٩ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ التوبة: ٣٢ ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ إبراهيم: ٣ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لقمان: ٦ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾ البقرة: ١١٤ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الحج: ٢٥ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الزخرف: ٣٧ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ الأنفال: ٤٧ ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴾ العلق: ٩ - ١٠

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ المؤمنون: ٦٧ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ فصلت: ٢٦ ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ ق: ٢٤ - ٢٥ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ محمد: ١ ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ طه: ٦١ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الأنعام: ٢١ ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ العنكبوت: ١٣ ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ غافر: ٣٥ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ سبأ: ٣١ - ٣٣ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ فصلت: ٢٩ ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف: ٣٨.

المسألة السادسة عشرة : صور بغض الدين :

١- حرب الدين وتضييق مجاريه وعدم التمكين له والدعوة لانتشاره.

٢- الصد عن سبيل الله ومنع الناس من العمل به والدخول فيه والقيام به .

٣- السعي في إخفاء معالم الدين وشعائره وعدم إظهار شرائعه الظاهرة.

٤- ذم الدين وسبه وشتمه والقدح فيه والسخرية به أو بشيء منه .

٥- مدح الكفر وتزيينه والسماح للكفار بالحرية والظهور والدعوة لدينهم وتأييدهم ومدحهم وإعانتهم على كفرهم.

٦- محاربة أهل الدين والتربص بهم وأذيتهم وسبهم ولمزهم والإساءة إليهم .

٧- حرب الجهاد وأهله وتشويه سمعتهم وإلصاق التهم بهم والسعي الحثيث في إفشاله وصد الناس عنه والاستعاضة عنه بغيره .

٨- نشر كل ما يخالف الدين ويضاده ويهدمه ويقدح فيه وترويجه والدفاع عنه وعن أهله ومحبة إشاعة الفاحشة والكفر.

٩- كتمان الحق، ونشر الفتاوى المضللة .

١٠- لبس الحق بالباطل وهو من أخطر ما يواجه أهل الإسلام لأنه يصدر ممن يحسب على أهل الدين والعلم من علماء السوء المتشبهين بأحبار اليهود أصحاب الدسائس الذين أسلم بعضهم نفاقا ليتسنى له حرب الدين من الداخل ، وإذا كان الرسول ﷺ أخبر أن من هذه الأمة من سيتبع خطوات الشيطان وسنن اليهود والنصارى ، فقد صار محققا في زماننا فكم هم أولئك الذين درسوا الشريعة لحربها وإثارة الشبه عليها وإبداء التناقض فيها .

ومن الأمثلة المعاصرة للبغض الكفري :

كراهية الولاء والبراء لأنه يناقض الوحدة الوطنية التعايش السلمي العالمي والحوار بين الحضارات ويثير النعرات الدينية عند الشعوب ، أو كراهية الجهاد ، وأنه لا خير فيه أو هو عبث أو ظلم، أو أن الزكاة مغرم وضريبة، أو كره اللحى والملتحين أو كره التعدد في النكاح، ومن يقول فيه هضم وظلم للمرأة وأنه مخالف للحكمة والعدل فيسخط حكم الله ويبغضه ويقدح فيه كما يقوله كثير من النساء والرجال ممن طبع الله على قلوبهم النفاق فهذا العمل كفر وردة والعياذ بالله .

المسألة السابعة عشرة : نشر الفساد وحمايته قد يصل للردة ويدخل في البغض :

من يبني بنوك الربا أو دوراً للبغايا والسينما والخلاعة والرقص والغناء والشراب والقمار والميسر ويحميها ويدعوا إليها فإنه فاعل للكفر، وداخل في بغض الدين وقد يستوجب فعله أن يقتل ردة أو تعزيرا. ويزيد غلظة الكفر والردة إذا قارن فعله استصدار قانون ملزم لحماية ذلك لدخول هذا في التشريع وتحليل الحرام .

ولذلك أفتى من أفتى من أهل العلم أن من أعطى التصاريح التجارية للأمور المحرمة أنه مستحل لها كافر مرتد، وسنأتي على فتاوى بعضهم ومنهم محمد بن إبراهيم وغيره . حين قال يخشى أن يصل إلى الكفر وقد يكون كالقوانين لأنه إذن عمومي وإن لم يعتقد أنه حلال ١٢/ ١٩٠ والشيخ يكفر بوضع القانون المخالف للشرع كما هي رسالته تحكيم القوانين كما أفتى بعض أهل العلم بهدر دماء ملاك القنوات الإباحية الناشرة للعهر والخنا .

وقال الشيخ حمد بن عتيق : (أن البلد إذا ظهر فيها الشرك وأعلنت فيه المحرمات وعطلت فيه معالم الدين أنها تكون بلاد الكفر تغنم أموال أهلها وتستباح

دماؤهم وقد زاد أهل هذه البلد بإظهار المسبة لله ولدينه ووضعوا قوانين ينفذونها في الرعية مخالفة للكتاب والسنة وقد علمت أن هذه كافية وحدها في إخراج من أتى بها من الإسلام) الدرر ٩/ ٢٥٧ .

ومن هذا الكفر ما يحصل في هذه العصور من مشركي زماننا ومشرعي القوانين الوثنية الشركية والأنظمة الحاكمة الطاغوتية التي جوزت الربا والزنا ومقدماته وأصدرت قانونا بتجويز الزنا والخمر في فنادق السياحة وعدم منع ذلك ومنحت التراخيص لترويج تلك الفواحش كالسينما والرقص والتعري والزنا والخمور والتسجيلات الغنائية والدشوش والبنوك الربوية، وقامت على رعايتها وحمايتها وسوغت موالاة الكفار وحمايتهم ومظاهرتهم على المسلمين ومنع تكفيرهم ومعاداتهم وجهادهم باسم المصالح المشتركة والتعايش السلمي والأنظمة الدولية وقرارات الأمم المتحدة ، وكل هذا كفر بالإجماع.

المسألة الثامنة عشرة : ما يدخل في بغض الرسول ﷺ :

١- بغض ذات الرسول ﷺ.

٢- بغض ما جاء به الرسول ﷺ.

وأعظم ما جاء به الرسول القرآن والسُنّة، وهما مصدرا الدين.

٣- بغض أصحابه وأهل بيته أو أتباعه .

المسألة التاسعة عشرة : ما يشمله بغض الذي جاء به الرسول ﷺ :

١- بغض القرآن .

٢- بغض السنة من أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته وأخلاقه وأخباره.

٣- بغض الدين وشريعة الإسلام.

٤- بغض هديه وطريقته .

٥- بغض حكمه .

٦- بغض ما أجمعت الأمة عليه ، وما جاء عن الصحابة ﷺ واتفقوا عليه.

٧- بغض أصحابه وأتباعه .

المسألة العشرون : من البغض الكفري بغض السنة والأحاديث النبوية وردها:

قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ الحشر: ٧.

وقـــال تعـــالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ١١٥.

وقـــال تعـــالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ٦٣.

وعن أبي رافع قال ﷺ: (لا ألفين أحدكم متكئا على أريكة يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه)رواه الترمذي.

وقال ابن عمر : (من ترك السنة كفر) رواه ابن بطه في الإبانة .

الحادية والعشرون : بغض ما جاء به النبي لا يشترط معه بغض النبي ﷺ:

قد يكون المبغض لما جاء به الرسول ﷺ محبا للرسول ﷺ ، لكن مع ذلـك حبـه هذا لا ينفعه ولا يرفع حكم الردة عنه، إذ المحبة الصادقة تـستلزم محبـة مـا جـاء بـه وطاعته والانقياد له ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران: ٣١.

الثانية والعشرون : البغض لبعض ما جاء به الرسول كالبغض لكل ما جاء به:

وذلك لوجود أصل البغض والرد وعدم التسليم والرضا والإذعان والمحبة.

فالعلة من تكفير من أبغـض حكـماً واحـداً أو فرضـاً أو أمـراً واحـداً وجـود المعارضة والامتناع وأصل البغض والرد وعدم التسليم والقبول والانقياد والتي هي من شروط صحة الإسلام والدين .

وعليه فالكفر يلحقه ولو لم ينكر ويبغض ويرد إلا حكماً واحداً أو آية واحـدة أو حديثاً صحيحاً واحداً .

قال ابن بطه في الإبانة : (لو أن رجلاً آمن بجميع ما جاءت به الرسل إلا شيئاً واحداً كان برد ذلك الشيء كافراً عند جميع العلماء).

قال إسحاق بن راهويه : (وقد أجمع العلماء أن من دفع شيئاً أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر) .

وقال البربهاري في شرح السنة : (ولا يخرج أحد من أهل القبلة من الإسـلام حتى يرد آية من كتاب الله عز وجل أو يرد شيئاً من آثار الرسول ﷺ فإذا فعـل شـيئاً من ذلك فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام) . وقال: (لا يقبـل الله شـيئا مـن السنة في ترك البعض، ومن رد منها شيئا فقد رد السنة كلها، فعليك بالقبول).

المسألة الثالثة والعشرون : من البغض الكفري بغض الصحابة ﷺ :

من سب الصحابة وأبغضهم وكفرهم كلهم أو بعضهم كما تفعل الرافضة لعنها الله، فهو كافر يجب قتله ولا يستتاب .

وسيأتي الكلام عن حكم سب الصحابة في شرح الناقض القادم.

المسألة الرابعة والعشرون: بغض أهل الدين من البغض الكفري :

بغض أهل الدين أو بغض من أتصف بصفة من صفات الدين أو قام بشعيرة من شعائره كالعلماء الصادقين والمصلين أو الحجاج أو المجاهدين أو الملتحين والمقصرين ثيابهم ، فهو كافر لأنه مبغض لما معهم من الدين .

المسألة الخامسة والعشرون : الكره الطبعي الذي سببه المشقة :

الكراهة الطبيعية : الكره الذي يحصل للمسلم مما يناله من ثقل بعض التكاليف التي فيها كلفه ومشقة على النفس، وتعافه النفس وتنفر منه من حيث الطبع النفسي ككراهية القتل في الجهاد وإن كانت لا تصدر إلا مع ضعف الإيمان، فإن هذا ليس هو المقصود بالبغض الكفري والكره الاعتقادي . ومما يدل على هذا :

قول النبي ﷺ : (حُفّت الجنة بالمكاره) رواه مسلم عن أنس.

وما جاء في حديث عبادة : (بايعنا رسول الله على المنشط والمكره) متفق عليه.

كراهة الوضوء وقت البرد والحر الشديد كما أخبر النبي ﷺ: (إسباغ الوضوء على المكاره) رواه مسلم عن أبي هريرة.

وكذا قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٦ .

فإن هذا ليس كره لذات الشريعة والأمر الإلهي والحكم الرباني، فالمسلم لا يكره فرضية الجهاد ويعلم أنه خير ويقر بفضله ويسلم ويرض به، لكن طبيعته البشرية تنفر مما يؤذيها وتكره ما يشق عليها ، وهذا خارج عن مقدور الإنسان، لكن المؤمن لا يلتفت لهذا الكره الطبيعي فهو لا يبغض حكم الله وشرعه ودينه وما أمر به ولا يرد شيء من ذلك ولا يبغض نفس الأمر والشريعة .

ومثل ذلك المرأة المؤمنة بشرع الله المستسلمة للدين هي لا تكره أصل التشريع المجوز للتعدد ولا تبغضه ، وإنما بطبيعتها تكره أن يتزوج زوجها عليها وتتألم من واقع غيرتها وكرهها هنا أمر طبيعي لا يناقض الرضا والتسليم ، كما كرهت عائشة زواج الرسول ﷺ من صفية وجويرية رضي الله عنهن.

قال ابن القيم : (وليس من شرط الرضا ألا يحس بالألم والمكاره بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه ولهذا استشكال على البعض الرضا بالمكروه وطعنوا فيه وقالوا هذا ممتنع على الطبيعة وإنما هو الصبر وإلا فكيف يجتمع الرضا والكراهة وهما ضدان والصواب أنه لا تناقض بينهما وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضا ، كالمريض بشرب الدواء الكريه ورضا الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ ورضا المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح وغيرها). المدارج ٢/ ١٨٢ .

وقال البغوي في تفسيره: (وهو كره لكم ، أي شاق عليكم ، قال بعض أهل العلم : هذا الكره من حيث نفور الطبع عنه لما فيه من مؤونة المال ومشقة النفس وخطر الروح ، لا أنهم كرهوا أمر الله تعالى) .

وقال القرطبي في تفسيره : (إنما كان الجهاد كرهاً لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل،والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس ، فكانت كراهيتهم لذلك ،لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى).

أما إذا قارن هذا الكره بغض أمر الله لأنه لا يوافق الهوى وكره ذات الفريضة والشعيرة وتسخط عليها فإنه كفر.

المسألة السادسة والعشرون : الجمع بين قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٦ **وقوله : ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ ﴾** التوبة: ٨١:

الآية الأولى من باب كره الطبع ونزلت في المؤمنين .

والثانية من كره العمل والبغض الاعتقادي المترتب عليه عمل من رد وجزع وسخط ونزلت في المنافقين .

فكره هؤلاء المنافقين غير كره أولئك المؤمنين إذ كرههم ليس مجرد نفور ومشقة وكلفة وإنما هو أمر زائد ففيه كره لأمر الله وشرعه وتذمر وتسخط وبغض، فالمؤمن يخرج للجهاد وهو راضٍ صابر مستبشر بموعود الله وفضله مع ما في نفسه من المشقة والتألم الطبعي ، وأما المنافق فيخرج وهو كاره للجهاد جازع ليس راض بالخروج ولا مستسلم لأمر الله راد له غير قابل .

فالكاره كرهاً طبيعياً كخوف القتل أثناء المعركة ، أو التعدد بالنسبة للنساء فهذا معذورٌ فيه ، بشرط ألاّ يكره أو يبغض أصل الأمر المشروع على العبد كالجهاد أو التعدد أو نحوهما .

ثم إن في الآية نكتة لطيفة :

وهي أن المؤمن كره القتال لا الجهاد الذي فيه نصر الدين ورفعة التوحيد وأهله والقتال هو غير مألوف لما يترتب عليه من زهاق الروح وألم الجسد وتقطعه.

أما المنافق فيكره القتال والجهاد نفسه ، وهذا ظاهر في المنافقين وفي زماننا حالهم أظهر معه مع حربهم له وتنقصهم لأهله وطعنهم فيهم.

المسألة السابعة والعشرون : الفرق بين البغض والكره :

البغض مذموم مطلقاً ، أما الكره ففيه تفصيل ، فمنه الاعتقادي ومنه الطبعي.

المسألة الثامنة والعشرون : علاقة البغض بالعمل بما أبغضه :

لو أبغض العبد ما يعمل به فهو كافر مثله مثل لو جحده أو شك فيه فلو أبغض الصلاة أو جحدها كفر ولو عمل بها .

والناس في هذا الباب أربعة أصناف :

١- من يحب الشرع ويعمل به وهو المؤمن الموحد .

٢- من يحب الشرع ولا يعمل به فهذا كافر كفر امتناع وتول ، وكاذب في دعوى المحبة لاقتضائها العمل .

٣- من يبغض الشرع ولا يعمل به وهذا الكافر .

٤- من يبغض الشرع ويعمل به وهذا المنافق .

المسألة التاسعة والعشرون : علاقة البغض بأنواع الكفر والنواقض :

١- التكذيب الجحود الاستحلال : قد يكذب المكذب ويجحد الجاحد ولكن لا يبغض وقد يبغض ولا يكذب ولا يجحد ولا يستحل .

إلا أن هذه الأنواع من الكفر الجحود والاستحلال والتكذيب غالباً ما يقارنها البغض وتدل عليه ويكون سببها، وقد يكون العكس البغض هو الذي سبب هذه الأمور. والأصل دخول الجحود والتكذيب في عموم البغض .

٢- السب أصله من البغض وهو من أثاره كالعداء والبراءة .

٣- الاستهزاء والهزل والاستخفاف، قد تصاحب البغض وقد تنفك عنه .

٤- الإعراض والتولي والامتناع والإباء والاستكبار هذه الأمور من لوازم البغض ومستلزماته وليس من معانيه ومضامينه .

٥- الشرك وبغض التوحيد والاشمئزاز من عبادة الله وحده داخلة في عموم البغض فالمشرك مبغض للتوحيد كاره للدين .

٦- عدم بغض المشركين ومعاداتهم وتكفيرهم ، وهو ناقض للولاء والبراء والكفر بالطاغوت وتقدم علاقتها بالبغض.

٧- ترك الحكم بالشريعة وتنحيتها والاستعاضة عنها بالحكم بغير ما أنزل الله وتفضيل هدي البشر وحكمهم على حكم الله ورسوله وهذا يدخل في كفر البغض .

٨- مظاهرة الكفار وإعانتهم على المسلمين قد يكون معه بغض للإسلام وحب للكفر وقد يكون فعلها لمجرد المصلحة وهي كفر بذاتها وهي تستلزم البغض.

٩- محاربة الدين وأهله وهو من أثار كفر البغض ودلائله .

وبهذا يتبين أن كفر البغض له علاقة بأنواع الكفر والنواقض ، إما أن تكون داخله فيه أو مستلزمه له وتدل عليه إما بالتضمن أو التلازم .

المسألة الثلاثون : علاقة البغض بالسب والاستهزاء .

الاستهزاء والاستخفاف قد توجد بدون بغض والعكس .

المسألة الحادية والثلاثون : هل ترك العمل والانقياد للشريعة من البغض:

كفر الامتناع عن الشريعة والإعراض والإباء والتولي عن الدين وعدم الالتزام به والانقياد له ليس مرادف للبغض ولا هو من البغض، لكن قد يكون من سببه البغض وقد يكون سببه غير البغض كالشح بالمال والملك والدنيا ونحوه .

إلا أن عدم الانقياد قرينة ودليل مستلزم لعدم لمحبة ووجود ضدها وهو البغض، فلو كان العبد محباً للدين لانقاد له وعمل به، فلما لم يكن كذلك استلزم وجود بغض وعدم محبة فالدلالة عليه ليس من التضمن وإنما من التلازم والاستلزام، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران: ٣١.

المسألة الثانية والثلاثون: الفرق بين الكره والإكراه :

الكره صادر من العبد باختياره .

والإكراه هو إلزام الغير بفعل لا يحبه وهو من موانع التكفير .

المسألة الثالثة والثلاثون: علاقة الكره بالحب :

المحبة والبغض ضدان إذا زال أحدهما حل محله صاحبه من حيث الأصل.

وإذا انتفيا معا كان ذلك كفر الإعراض أو كفر الشك وهو الذي لا يحب ولا يبغض ولا يصدق ولا يكذب .

المسألة الرابعة والثلاثون : الكره أصل كل ترك :

المحبة أصل كل فعل ، والكره والبغض أصل كل ترك ، فلا يترك أحد فعل شيء وهو قادر عليه إلا لبغضه ، وهذا من خالص المحبة التي يجب أن تصرف لله وحده ، وكل ما أحبه فهو تابعٌ لمحبته سبحانه وتعالى .

قال ابن تيمية : (وأصل كل فعلٍ وحركةٍ في العالم من الحب والإرادة ، فهو أصل كل فعل ومبدؤه ، كما أن البغض والكراهية مانعٌ وصادٌ لكل ما انعقد بسببه ومادته، فهو أصل كل ترك). قاعدة المحبة ٧ .

المسألة الخامسة والثلاثون : أصناف المبغضين :

١- الكافر الأصلي فالأصل أنه يبغض الدين والرسول ويظهر بغضهم.

٢- المنافق الذي يظهر محبة الإسلام ويبطن الكفر ويخفي البغض، فيبغض الدين وأهله بسبب نفاقه .

٣- المرتد وهو من طرأ عليه كفر البغض من المسلمين سواء أظهره وصار مرتداً أو أخفاه وصار به منافقاً .

ونواقض الإسلام متعلقة بالمرتد وليست بالكافر الأصلي فكلامنا في الأمر الذي يصير به المسلم كافراً والمؤمن مرتداً فينقض إسلامه ويبطل إيمانه .

فائدة : هل كان أبو طالب مبغضا للدين :

أبو طالب كان محبا للنبي ﷺ ولدينه في الجملة، وإنما كان كارها لمخالفة قومه.

المسألة السادسة والثلاثون: الطوائف الواقعة في ناقض كفر البغض:

١- المنافقون الذين يظهرون سب الدين وأهله والاستخفاف بهم

٢- المعرضون عن حكم الشريعة والحاكمون بغير ما أنزل الله .

٣- الرافضة في بغضهم الصحابة وأهل السنة .

٤- الصوفية عبّاد القبور الذين يصرحون ببغض التوحيد وأهله .

٥- متولي الكفار ومظاهرهم على المسلمين .

٦- المشرك يبغض التوحيد ويشمئز منه كما أخبر الله عنه .

٧- العلمانية الذين أقصوا الدين عن الحياة وكرهوا تدخله في الاقتصاد والسياسة، ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ .

٨- المبتدعة الذين ردوا السنة والعمل بها

٩- العقلانية المتكلمة الذين قدموا العقل على النقل وردوا أحاديث الآحاد .

١٠- الليبرالية في عدم انقيادهم للشرع وكرههم قيود الشرع وعبودية الخلق .
١١- الشيوعية : في كرههم التدين .
١٢- العصرانية ممن يقولون إن ما جاء به الرسول ﷺ من الشرع لا يصلح لزماننا وعصرنا ، ويفسرونه على ما يتفق مع أهوائهم.
١٣- ناشروا الفساد من الكفر والفسق والمدافعون عنه والداعون له.
١٤- الإعلاميون عبر قنواتهم في التلفاز والصحف،ويكثر الكفر عندهم.

المسألة السابعة والثلاثون: شروط تكفير من أبغض شيء مما جاء به النبي ﷺ ، ومتى يحكم على المبغض بالكفر ؟

الأول : أن يكون ما أبغضه ثابتاً بالكتاب والسنة وأنه من دين الله .
الثاني : أن يكون المبغض عالماً أن ما أبغضه من دين الله ثابتاً عنده ومما جاء به الرسول وعن الله تعالى .
الثالث : أن يكون هذا الأمر الذي أبغضه مجمع عليه لا مختلف فيه .
الرابع : أن تدل القرائن والعرف على أنه مبغض .

المسألة الثامنة والثلاثون : ضعف تعلق موانع التكفير بالبغض :

البغض والسب لله تعالى ولرسوله ﷺ وللدين لا يتصور فيها جهل وهي مما لا يخفى حكمها ، إلا أنه قد يعتبر فيها ببعض الموانع في بعض الصور في الظاهر.
كالإكراه على سب الرسول ﷺ.
والمتأول في رد بعض الدين جاهلاً أنه جاء عن الرسول ﷺ أو متأولا فيه .

المسألة التاسعة والثلاثون : أسباب البغض الكفري :

١- الجهل .
٢- الكبر والاحتقار للغير .
٣- الحسد .
٤- الخوف على ذهاب المصالح والملك .
٥- مخالفة الهوى .
٦- الشهوة .

المسألة الأربعون : البغض من صفات المنافقين :

كثير من الآيات التي جاءت في كفر البغض نزلت في المنافقين، فالبغض من أعظم سمات أهل النفاق ومن أنواع النفاق بغض الرسول أو شيء مما جاء به، كما بيّن ذلك أهل العلم وأدرجوا هذا الفعل في النفاق الاعتقادي المخرج من الملة .

قال ابن تيمية :(فمن النفاق ما هو أكبر يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار كنفاق ابن أبي وغيره، بأن يظهر تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله، وهذا القدر كان موجوداً زمن الرسول ﷺ وما زال بعده، بل هو بعده أكثر منه على عهده) ٢٨/ ٤٣٤ .

وقال محمد بن عبد الوهاب:(النفاق الاعتقادي ستة أنواع : تكذيب الرسول أو تكذيب بعض ما جاء به أو بغض الرسول أو بغض ما جاء به أو المسرة بانخفاض دين الرسول أو الكراهية بانتصار دينه فهذه الأنواع الستة صاحبها من أهل النار).

المسألة الحادية والأربعون : علاقة البغض بالنفاق وأيها السبب في الآخر :

البغض قد يكون سببا لحصول النفاق وأساس وجوده .

والعكس صحيح فقد يكون النفاق هو الأساس وسبب حصول البغض .

كذلك الجهاد قد يكون بغضه سبب حصول النفاق وقد يكون العكس.

المسألة الثانية والأربعون: شرك المحبة :

مما يدخل في كفر البغض شرك المحبة ، وهي محبة الطاغوت وأعداء الله أو محبة غير الله كمحبة الله .

والأصل فيها قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥ ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ المجادلة: ٢٢ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ الممتحنة: ١ ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ المائدة: ٨١.

فالشرك في المحبة له علاقة بناقض البغض والشرك ، وقدمنا مسائل شرك المحبة في باب الشرك في الناقض الأول.

وقدمنا علاقة كفر البغض لله ورسوله بالإيمان بالطاغوت وحبه ، وعلاقة المحبة بالبغض .

المسألة الثالثة والأربعون : الكفريات التي تدخل في ناقض البغض:

١- كفر الرد والتكذيب والجحود والاستحلال :

الرد والجحود والإنكار والتكذيب يلحق بكفر البغض، وسيأتي الكلام عنها.
كما أن كفر الاستحلال له علاقة بشرك الحكم وقد بيناه في الناقض الرابع.

٢- إنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة وسيأتي مع كفر الرد.
ومثله تقديم العقل على النقل ، ومعارضة الشرع بالهوى وإثارة الشبهات .

٣- الطعن في النبوة والتكذيب بها وادعائها .
وهذا مما يدخل في كفر البغض وتوجد كثير من المسائل المتعلقة به في ناقض الشرك وناقض الاستهزاء وناقض الخروج عن شريعة محمد ﷺ.

٤- إنكار العلو والصفات له علاقة بناقض البغض كما يدخل في الشرك .

٥- كفر الولاء والبراء ومعاداة المؤمنين وموالاة الكفار له علاقة بكفر البغض وكذا عداوة الكفار لنا ، وستأتي مسائله في الناقض الثامن ناقض المظاهرة .

٦- ترك العمل والانقياد والامتناع والإعراض، له علاقة بناقض البغض وسنأتي على ما يتعلق به من المسائل في الناقض العاشر الإعراض .

٧- الحكم بالقوانين الوضعية ، وقد جعله بعض العلماء من كفر البغض الاعتقادي، لأنه دليل على بغض الشريعة وتفضيل القانون عليها .

٨- مظاهرة الأعداء عليه ، وقد جعل الطبري مظاهرة الكفار على المسلمين من كفر البغض، وسببه بغض دين الله تعالى ومحبة الكفر .

٩- موالاة الكفار فإنها لاتصدر إلا من قلب مبغض للدين .

١٠- نشر الكفر والفواحش .

١١- حرب الدين وأهله .

فهذه بعض الكفريات العملية التي سببها كفر البغض، كما تعتبر من البغض العملي ، وسيأتي مزيد تقرير لهذا النوع من الكفر في مبحث الاستحلال العملي .

الرابعة والأربعون : التفريق بين قول الخوارج وأهل السنة في البغض العملي:

الخوارج جعلوا فعل المعاصي والكبائر والإسراف على النفس والتقصير في الواجبات من الكفر لأن صاحبها مبغض للدين .

ويرد عليهم بقول النبي ﷺ في مدمن الخمر: (فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله) رواه البخاري .

المسألة الخامسة والأربعون : عقيدة المرجئة في ناقض كفر البغض :

١- عندهم البغض والكره يرجع للتكذيب فلا يبغض إلا مكذب، وأما المصدق فلا يمكن أن يبغض .

قال ابن تيمية : (ومنشأ هذه الشبهة أنهم روا أن الإيمان هو تصديق الرسول ورأوا أن اعتقاد صدقه لا ينافي السب بالذات، والأمة كفرت الساب لأن سبه دليل على أنه لم يعتقد أنه حرام واعتقاد حله تكذيب للرسول فكفر بهذا التكذيب لا بتلك الإهانة وإنما الإهانة دليل على التكذيب هذا مأخذ المرجئة ولهم آخر وهو أنه قد يقول بلسانه ما ليس في قلبه فإذا كان في قلبه التعظيم والتوقير للرسول لم يقدح إظهار خلاف ذلك بلسانه في الباطن كما لا ينفع المنافق إظهار خلاف ما في قلبه في الباطن) . الصارم المسلول ص ٩٦٥ ثم أجاب عن شبهاتهم الاثنتين من أوجه .

٢- لا يكفر من يسب الرسول ودينه إلا إذا استحل ولم يجعلوه كفر بذاته .

٣- البغض كله باطن ولا تظهر آثاره في الظاهر ولا يوجد منه بغض عملي .

٤- جعلوا البغض والعداوة شيئا واحدا ومثل ذلك الموالاة والنصرة فسروها بالمحبة، وبعضهم فرق بينها لكن لا يكفر إلا بالاعتقاد القلبي الحب والبغض، أما الموالاة الظاهرة للكفر والمعادة والمحاربة الظاهرة للدين فلا يكفرون بها.

٥- قد يتصور قتال النبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين والتربص بهم من محب لهم وهذا القول راجع لأصلهم الفاسد بعدم العلاقة التلازمية بين الباطن والظاهر .

وقد بينا تعلق وارتباط وتلازم الباطن والظاهر في المقدمة وردينا على مذهب المرجئة في ذلك . وسيأتي مزيد تفصيل في الاستحلال العملي .

الفصل الثاني : كفر الرد والجحود

المسألة الأولى : تعريف الرد :

أولاً : تعريف الرد :

إرجاع الشيء وصرفه، ورد عليه الشيء إذا لم يقبله ، فالقبول ضد الرد .

والردة الرجوع والتحول والانصراف من الإسلام إلى الكفر .

ومما يدخل في كفر الرد : التكذيب والجحود والاستحلال والإنكار والعناد والإباء والإعراض .

والقبول هو الأخذ بالشيء ولزومه والإقرار به والرضا به .

تنبيه : كفر الجهل يتعلق بالتكذيب وبالإعراض ويكون مستقلا عنهما.

تنبيه : كفر العناد يتعلق بالإباء وبالجحود .

ثانياً : التكذيب :

الكذب ضد الصدق ، وكذب بتشديد الذال وتخفيفها، ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ يوسف: ١١٠ ، ويتعدى بنفسه وبالباء فيقال كُذّب الرسول وكُذّب به .

ويطلق الكذب في اللغة على الخطأ.

والكذب هو في قول المتكلم وفعله .

والتكذيب يكون من السامع بنسبة الكذب للمخبر.

وكذبه وأكذبه وكذب بالشيء لم يصدق به ولم يؤمن به .

وكذب عليه نسب إليه كلاماً أو فعلاً لم يصح عنه .

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ ﴾ أي مكذوب منسوب ليس بصدق ولا صحيح.

قال ابن تيمية : (والتكذيب إخبار بكذب المخبر فقد يصدق الرجل الكاذب تارة وقد يكذب الرجل الصادق أخرى، فالتصديق والتكذيب نوعان من الخبر وهما خبر عن الخبر فالحقائق الثابتة في نفسها التي قد تعلم بدون خبر لا يكاد يستعمل فيها لفظ التصديق والتكذيب إن لم يقدر مخبر عنها، بخلاف الإيمان والإقرار والإنكار والجحود ونحو ذلك فإنه يتناول الحقائق والإخبار عن الحقائق أيضاً) .

والتكذيب ينافي أصل الإيمان .

وهو متعلق بالأخبار من حيث الأصل ، وقد يتعلق بالأوامر والأحكام ويكون امتناعا وإباءاً واستكبارا .

ثالثاً : الجحود :

الجحد والجحود : نقيض الإقرار .

بضم الجيم وفتحها وبإسكان الحاء وفتحتها وكسرها ويتعدى بنفسه وبالباء .

وكفر الجحود حقيقته: أن يعلم الحق بقلبه لكن لا يقر بـه ولا يعـترف بلسانه ولا ينقاد له بجوارحه ، ومن هذا المرأة المخزومية التي كانت تستعير المتاع فتجحده .

قال ابن فارس : (لا يكون الجحد إلا مع علم الجاحد بأنه صحيح).

وقال الجوهري : (هو الإنكار مع العلم ويطلق على قليل الخير).

وقال الراغب : (هو نفي ما في القلب إثباته وإثبات ما في القلب نفيه)

وقال ابن قتيبة في الغريب: (والجحد إنكارك بلسانك ما تستقينه نفسك) .

وقال الأزهري في تهذيب اللغة : (أن يعرف بقلبه ولا يقر بلسانه) .

وقال ابن القيم : (لا يكون الجحد إلا بعد الاعتراف بالقلب واللسان) البدائع ٤/١١٨.

رابعاً : الإنكار :

الإنكار ضد المعرفة، فالمعرفة والاعتراف تقابل النكرة، يقال أنكر الشيء إذا لم يقبله ولم يعترف به بلسانه .

والمعرفة إذا قابلت الجهل كانت من أقوال القلب كالعلم والصدق.

وإذا كانت في مقابل الإنكار فتكون بمعنى الإقرار وتـصير مـن فعـل القلـب وعمله وهذا رأي البخاري كما في صحيحه ، ومنهم من يجعلها من قول القلب .

والإنكار بمعنى الرد ضد القبول والاعتراف .

وضد الإقرار الجحد والإنكار.

الإقرار قريب من القبول يكون بالقلب واللسان ولازمه الالتزام والانقياد .

والمنكر : ضد المعروف ، وهو الشيء القبيح ، والإنكـار والاسـتنكار والنكـير والتنكر هو تغيير المنكر والنهي عنه وتقبيحه .

والإنكار يطلق على :

١- إنكار القلب وهو الجهل ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ .

٢- إنكار اللسان مع اعتراف القلب، وهو بهذا مثل الجحود والإنكار غالبا ما يقارن التكذيب والجهل . ومنه قوله تعالى:﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ .

الفرق بين الإنكار والجحود :

الإنكار أعم والجحود أخص مطلقاً :

١ - الإنكار يكون مع الجهل، ويكون مع العلم واليقين، والثاني المرادف للجحد، فلا يكون الجحود إلا مع اليقين والعلم ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ .

٢ - الإنكار يكون بالقلب واللسان، والجحود باللسان مع إقرار القلب.

٣ - الإنكار يكون للأمر الظاهر والخافي، أما الجحد فهو إنكار الشيء الظاهر ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام: ٣٣.

٤ - الإنكار قد يكون حقا إذا كان المنكر محقا والذي أنكره منكراً بالفعل.

قال ابن القيم في البدائع: (فعلى هذا لا يحسن استعمال الفقهاء لفظ الجحود في مطلق الإنكار في باب الدعاوى وغيرها لأن المنكر قد يكون محقاً فلا يسمى جاحداً).

خامساً : الاستحلال :

مأخوذ من الحلال وهو ضد الحرام ، والاستحلال هو تحليل الحرام واستباحة المحرم واعتقاد أن ما حرمه الله حلالاً وليس بحرام .

وله أوجه وطرق : إما باعتقاد أن الله أباحه ولم يحرمه، أو يعلم أن الله حرمه لكن لا يقر بالتحريم بل يستبيحه ويجوزه ويبيحه .

الفرق بين الجحود والاستحلال :

الاستحلال يكون في مقابل المحرمات ،والجحود في مقابل الواجبات . فالمستحل عدم الإقرار بالتحريم والجحود عدم الإقرار بالوجوب .

فائدة: الاعتقاد والاستحلال والجحود بمعنى واحد . وهو اعتقاد الجواز.

الفرق بين التكذيب والجحود :

أولاً : التكذيب يكون بالقلب وباللسان أو بأحدهما .

والجحود لا يكون إلا باللسان ظاهراً مع التصديق والإقرار باطناً في القلب قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام: ٣٣ ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ النمل: ١٤.

ثانياً أنه غالباً ما يقارن الجحود عناداً .

ثالثاً : أن التكذيب من أقوال القلب والجحود من أعمال القلب .

قال ابن تيمية في التسعينية : (فنفى عنهم التكذيب واثبت الجحود ، ومعلوم أن تكذيب اللسان لم يكن منتفياً عنهم فعلم أنه نفي عنهم تكذيب القلب ولو كان المكذب الجاحد مع علمه يقوم بقلبه خبر نفساني لكانوا مكذبين بقلوبهم فلما نفي عنهم تكذيب القلوب علم أن الجحود الذي هو ضرب من الكذب والتكذيب بالحق معلوم ليس هو كذباً في النفس ولا تكذيباً فيها) .

فائدة : يسمي البعض الجحود تكذيب الظاهر وتكذيب اللسان .

والإنكار هو بمعنى التكذيب والجحود والاستحلال فهو يشملها كلها .

فإن كان واجباً جحد وجوبه وإن كان محرما استحله وإن كان خبراً كذب به .

المسألة الثانية : أدلة :

أولاً : الرد :

ومن أدلة كفر من رد الحق ولم يقبله.

١- قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ الصافات: ٣٥-٣٦.

٢- وقال تعالى في سورة ص: ﴿ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾.

٣- وقال: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ الزخرف: ٢٤.

٤- وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ الفرقان: ٤ .

٥- وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ النساء: ١٥٠ - ١٥١.

٦- وقال تعالى : ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ الكهف: ٥٦.

ثانياً: الجحد :

١- قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام: ٣٣.

٢- قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ النمل: ١٤ .

٣- وقال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فصلت: ٢٨ .

٤- وقال سبحانه : ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الأحقاف: ٢٦ .

٥- قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ غافر: ٦٣.

ومن السنة :

١- عن علي ﷺ أن أبا جهل قال للنبي ﷺ : (إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به) فأنزل الله: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ رواه الترمذي .

٢- عن ابن مسعود ﷺ قال النبي ﷺ " فإن من جحد بحرف منه فكمن جحد به كله " رواه الترمذي .

٣- وعن ابن عباس يرفعه : "من جحد آية القرآن فقد حل ضرب عنقه " رواه ابن ماجه والطبراني .

٤- عن جابر ﷺ قال : خطبنا رسول الله ﷺ وفي الخطبة " أعلموا أن الله افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا فمن تركها في حياتي أو بعد موتي وله إمام عادل أو جائر استخفافاً بها أو جحود لها فلا جمع الله شمله ولا بارك في أمره ألا ولا صلاة له ولا زكاة له " رواه ابن ماجه.

٥- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً :" الزنديق إن هو جحد وقامت عليه البينة فإنه يقتل " رواه البيهقي .

ثالثاً : الاستحلال :

١- قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ النحل: ١١٦ .

٢- وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ التوبة: ٣٧ .

٣- وقال سبحانه :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ المائدة: ٢ ، أي لا تقعوا ولا تنتهكوا وتستحلوا .

٤- وقال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ الأنعام: ١٤٠ .

٤- وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف: ٢٨ .

٥- قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ المائدة: ١٠٣ .

٦- وقال: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١.

عن عدي بن حاتم قال أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال ياعدي اطرح هذا الوثن من عنقك فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾، قال قلت يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم فتحلونه قلت بلى قال فتلك عبادتهم رواه الترمذي وغيره.

رابعاً: الإنكار:

١- قال سبحانه: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ المؤمنون: ٦٩.

٢- قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ النحل: ٨٣.

٣- قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ الأنبياء: ٥٠.

٤- وقال تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ النحل: ٢٢.

٥- وقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ الرعد: ٣٦. وهذا في الإنكار الجزئي وهو كفر كالإنكار الكلي.

٦- وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ الحج: ٧٢.

وهذا دليل على أن الإنكار قد يكون عملي بالجوارح.

٧- وقال سبحانه: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ غافر: ٨١.

خامسا: التكذيب:

والآيات فيه كثيرة جداً.

١- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ الأنعام: ٣٤

٢- قال تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ القيامة: ٣٢

٣- قال تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ الليل: ٩.

٤- ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ الزمر: ٣٢

٥- قال تعالى: ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ ق: ١٤.

٦- قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ غافر: ٧٠.

٧- قال تعالى: ﴿ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ التوبة: ٩٠ .

سادسا : الاعتراض ويقابل التسليم :

ومن أدلته وأمثلته :

قال تعالى : ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾ الكهف: ٥٦.

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ الزخرف: ٢٤.

وقال: ﴿ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴾ سبأ: ٧ .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ ﴾ الأنعام: ٩٣ ، وهذا لعدم قبوله ما أنزل الله .

وقال تعالى :﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾ آل عمران: ٩٩ .

وقال تعالى :﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ ﴾ ص: ٤-٨. فردوا التوحيد ولم يقبلوه .

وقال تعالى :﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ ﴾ ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ ﴾ ﴿ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ ﴾ .

سابعا: الإعراض والتولي ويقابل العلم والحرص والطاعة :

قال تعالى : ﴿ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ التوبة: ٧٦.

وسيأتي الكلام عن الإعراض وأدلته في محله.

ثامناً : الإباء:

قال تعالى عمن أبى ولم يقبل:﴿ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ ﴾ التوبة: ٨ .

وقال تعالى :﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾ الإسراء: ٨٩ .

وقال تعالى :﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٣٤ .

وقال تعالى :﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ الحجر: ٣١ .

والإباء هنا هو الامتناع ويدل على الرد وعدم القبول أيضا .

المسألة الثالثة: أقوال العلماء في كفر الرد :

والرد عند السلف وأهل السنة يشمل الرد القلبي ويشمل الرد العملي الذي هو الامتناع والإباء والعناد .

قال الإمام أحمد : (ولا يخرج عن الإسلام شيء إلا الشرك بالله العظيم أو برد فريضة من فرائض الله عز وجل جاحداً بها) طبقات الحنابلة ١/ ٣٤٤.

قال إسحاق بن راهويه :" وقد أجمع العلماء أن من دفع شيئاً أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر " .

قال ابن بطة:" فكل من ترك شيئاً من الفرائض التي فرضها الله في كتابه أو أكدها رسول الله ﷺ في سننه على سبيل الجحود لها والتكذيب بها فهو كافر بيّن الكفر لا يشك في ذلك عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر " الإبانة ٢/ ٧٦٤.

قال ابن بطه في الإبانة الصغرى : " فمن أنكر الجن فهو كافر بالله جاحد بآياته مكذب بكتابه " .

قال ابن جرير : (فكان فعله ونكاح أمرأة أبيه من أدل الدليل على تكذيبه الرسول ﷺ فيما أتاه به عن الله تعالى وجحوده آية محكمة في تنزيله .. لذلك أمر الرسول ﷺ بقتله وضرب عنقه، لأن ذلك كان سنته في المرتد عن الإسلام) تهذيب الآثار ٢/ ٤٨ .

وقال ابن عبدالبر:" وقد أجمعوا على أن مستحل الخمر كافر راد على الله عز وجل خبره في كتابه مرتد يستتاب ".

وقال البربهاري في شرح السنة " ولا يخرج أحد من أهل القبلة من الإسلام حتى يرد آية من كتاب الله عز وجل أو يرد شيء من آثار الرسول ﷺ فإذا فعل شيئاً من ذلك فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام).

قال ابن الوزير في العواصم والقواصم :" لا خلاف في كفر من جحد ذلك المعلوم ضرورة للجميع وتستر باسم التأويل فيما لا يمكن تأويله كالملاحدة في تأويل جميع الأسماء الحسنى بل جميع القرآن والشرائع والمعاد الأخروي من البعث والقيامة والجنة والنار " .

قال ابن الوزير:" المتواتر نوعان ما علمه العامة مع الخاصة فيكفر جاحده، وما لا يعرف تواتره إلا الخاصة فلا يكفر مستحله " العواصم ٤/ ١٧٤.

قال ابن الوزير في إيثار الحق على الخلق :" وأعلم أن أصل الكفر هو التكذيب المتعمد لشيء من كتب الله تعالى المعلومة أو لأحد من رسله أو لشيء مما جاءوا بـه إذا كان ذلك الأمر المكذب به معلوماً بالضرورة من الدين " .

قال القاضي عياض في الشفاء " وكذلك من أنكر القرآن أو حرفاً منه أو غيّر شيئاً منه أو زاد فيه وكذلك من أنكر شيئاً مما نص فيه القرآن بعد علمه أنه من القرآن ولم يكن جاهلاً به ولا قريب عهد بالإسلام وكذلك من أنكر الجنة أو النار و البعث أو الحساب أو القيامة فهو كافر بإجماع " .

قال القاضي عياض :" وكذلك نقطع بتكفير كل من كذب وأنكر قاعدة من قواعد الشرع " . الشفاء ٢/ ١٠٧٣ .

وقال ابن قدامة في المغني :" وأما إذا كان الجاحد لها أي الصلاة ناشئاً في الأمصار بين أهل العلم فإنه يكفر بمجرد جحودها ".

وقال " ومن اعتقد حل شيء أجمع على تحريمه وظهر حكمه بين المسلمين وزالت الشبهة فيه للنصوص الواردة فيه كلحم الخنزير والزنا وأشباه هذا مما لا خلاف فيه كفر لما ذكرنا في تارك الصلاة " .

قال النووي في شرحه لمسلم :" إن من جحد ما يعلم من دين الإسلام ضرورة حكم بردته وكفره إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفى عليه فيعرف فإن استمر حكم بكفره " .

قال ابن تيمية : " والتحقيق أن الإجماع المعلوم يكفر مخالفه كما يكفر مخالف النص بتركه " الفتاوى ١٩/ ٢٧٠ .

قال ابن تيمية " ومن جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة كالفواحش والظلم والخمر والميسر والزنا وغير ذلك أو جحد حل بعض المباحات الظاهرة المتواترة كالخبز واللحم والنكاح فهو كافر مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل " مجموع الفتاوى ١١/ ٤٠٥ .

قال ابن تيمية : (فأما النفاق المحض الذي لا ريب في كفر صاحبه فأن لا يرى وجوب تصديق الرسول ﷺ ولا وجوب طاعته فيما أمر به وإن اعتقد مع ذلك أن الرسول عظيم القدر وأنه يجوز تصديقه وطاعته لكنه يقول إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كان المعبود واحداً وأن تحصيل النجاة والسعادة بمتابعة الرسول وبغير متابعته) .

وكلامه رحمه الله ينطق على حال اللبراليين والعلمانيين والعصرانيين حاملي ألوية النفاق في هذا الزمان.

قال ابن القيم:" وكفر الجحود نوعان : كفر مطلق عام وكفر مقيد خاص فالمطلق أن يجحد جملة ما أنزل الله وإرسال الرسول، والخاص المقيد أن يجحد فرضاً من فروض الإسلام و تحريم محرم من محرماته أو صفة وصف الله بها نفسه أو خبراً أخبر الله به عمداً أو تقديماً لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض " المدارج ١٠/ ٣٦٧ .

وقال ابن رجب في جامع العلوم:" قد يترك الرجل دينه ويفارق الجماعة وهو مقر بالشهادتين ويدعي الإسلام ، كما إذا جحد شيئاً من أركان الإسلام ".

وقال البهوتي في شرح الإقناع :" وإذا جحد البعث كفر لتكذيب للكتاب والسنة وإجماع الأمة ".

وقال الملا على القاري في شرح الفقه الأكبر " ومن جحد فرضاً مجمعا عليه كالصوم والصلاة والزكاة والغسل كفر وفي معناه من أنكر حرمة محرم مجمع على تحريمه كشرب الخمر والزنا والربا ".

وقال الشوكاني في الدواء العاجل :" وقد تقرر في القواعد الإسلامية أن منكر القطعي أو جاحده والعامل على خلافه تمرداً وعناداً أو استحلالاً أو استخفافاً كافر بالله وبالشريعة التي اختارها الله تعالى لعباده " .

وفي توحيد الخلاق المنسوب لسليمان بن عبدالله " وأما استحلال المحرمات المجمع على حرمتها أو بالعكس فهو كفر اعتقادي لأنه لا يجحد تحليل ما أحل الله ورسوله وتحريم ما حرم الله ورسوله إلا معاند للإسلام " .

قال سليمان بن سحمان في الضياء الشارق :" لا خلاف بين العلماء أن الإنسان إذا صدق الرسول ﷺ في شيء وكذبه في شي لم يدخل الإسلام كمن جحد فريضة أو واجباً ".

والملاحظ في كلام أهل العلم أن كفر الجحود والتكذيب والإنكار والاستحلال عندهم بمعنى واحد ويعبرون عنه بأي المصطلحات السابقة .

المسألة الرابعة : أوجه كفر الراد والمنكر والجاحد والمستحل :

١- أن في رده وجحده تكذيب لله تعالى، فمن رد وجحد فهو مكذب لله وناقض للإيمان القائم على التصديق والإقرار والقبول .

٢- أن هذا اعتراض على الله ﷻ ورد أمره عليه واستدراك عليه.

٣- أن فيه التنقيص والتجهيل والتخطئة لله ﷻ وإنكار حكمته تعالى.

٤- أن الرد والجحود يناقض شرط المحبة ويوجب ضدها وهو البغض .

٥- أنه يناقض أصل القبول والانقياد والرضا التي لا يصح الإيمان بدونها.

٤- أن فيه افتراء على الله وصاحبه من أظلم الناس قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الأنعام: ٢١ .

٥- أنه فيه رد حكم الله تعالى وإعراض عنه وامتناع وإباء وعدم انقياد لله.

٦- أن المستحل متعقب لله ومتنقص له ويرى الكمال والأفضلية في حكمه .

٧- أنه جعل نفسه ندا لله وشريكا ومشرعا وحاكما .

المسألة الخامسة : دخول الاستحلال في الشرك :

وجهه أن المحلل مشرع، يحلل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله ويجحد ما أوجبه، ومثل نفسه بالرب ﷻ في صفة الأمر والتشريع وسن الدين ، وقد سما الله فاعله مشرعاً ومشركاً وشريكا وكافراً ورباً وإلهاً ومعبوداً وطاغوتاً .

المسألة السادسة : دخول شرك التشريع والتحليل والتحريم في هذا الكفر :

من أنواع الكفر في شرك الحكم ما يسميه العلماء شرك التشريع بتحليل الحرام أو تحريم الحلال وهو الاستحلال وقد دل عليه قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ يونس: ٥٩، وهذا من الافتراء على الله وتشريع دين لم يأذن الله به ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١ ، وهذا يسمى في زماننا سن القوانين التشريعية الوضعية وهو من الكفر البواح.

وإذا كان الله تعالى كفر المطيع لهؤلاء والمتبع لهم والمتحاكم إليهم وسماه مشركاً بنص القرآن في مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١،ويسمى العلماء هذا النوع من الشرك بشرك الطاعة والتحاكم ، فكيف بما هو أعظم كفراً وأشد شركاً وهو من يحلل ويحرم ويشرع ما لم يأذن به الله ، فشرك المتحاكم والمطيع في الألوهية أما شرك هذا المشرع والحكام والمحلل فهو في الربوبية، ولذلك سماه الله طاغوتا لتجاوزه الحد قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ ،

وكذلك سماه الله رباً في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ ، قال الرسول ﷺ أليسوا يحرمون الحلال فتطيعونهم ويحللون الحرام فتطيعونهم قال عدي بلا قال تلك عبادتهم ، فجعل المطيع مشرك وعابد والحاكم المشرع المحلل معبوداً ورباً وإلها باطلا .

فائدة : جعل بعض أهل العلم تشريع القوانين من كفر الجحود والاستحلال وذلك أنه لا يترك الشريعة ويستبدلها بالقانون إلا مفضلا لحكم الطاغوت مستحلا له جاحدا للشريعة مبغضا للدين ، كما وأن في نفس التشريع استحلالا للحرام وجحدا للواجب .

المسألة السابعة : محل الرد :

الرد يكون بالقلب واللسان من حيث الأصل ، ويكون لازمه متعلق بالجوارح، فالعمل الظاهر من آثاره ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴾ نوح: ٧ ، وهذه من دلائل التكذيب والإباء والرد .

وهل يوجد رد عملي :

الرد العملي هو الامتناع والإباء والتولي والإعراض وهو المناقض للانقياد .

المسألة الثامنة : مبحث ما يسمى بالجحود العملي الاستحلال العملي :

وهو من يعمل عملاً يلزم منه أن صاحبه جاحد ومستحل ، وهو من جنس البغض العملي، كقولهم من سن القوانين وألزم الناس بها فهذا دليل على استحلاله .

وانقسم الناس في هذا الأصل بين سني وخارجي ومرجئ . فأهل السنة وسط بين الخوارج الذين يكفرون بآحاد الأعمال وبين المرجئة الذين لا يكفرون إلا بالتكذيب والجحود وكل كفر عندهم فلأجل التكذيب اعتقاد القلب.

ومما يدل عليه : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ الحج: ٧٢ .

وقوله تعالى : ﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ التوبة: ١٧

وقوله: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران: ١١٨ .

وقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ محمد: ٢٩.

وهذا أدلة على أن التكذيب والجحود والاستحلال قد تكون عملي بالجوارح .

كما يدل عليه ما جاء عن البراء بن عازب ﷺ قال : مر بي عمي الحارث بن عمرو ومعه لواء قد عقده له رسول الله ﷺ قال فسألته قال بعثني الرسول أن أضرب عنق رجل تزوج امرأة أبيه " رواه أحمد .

قال الإمام الطبري: (فكان فعله ونكاح امرأة أبيه من أدل الدليل على تكذيبه الرسول ﷺ فيما أتاه به عن الله تعالى وجحوده آية محكمة في تنزيله.. لذلك أمر الرسول ﷺ بقتله وضرب عنقه، لأن ذلك كان سنته في المرتد عن الإسلام) تهذيب الآثار ٢/ ٤٨ .

قال ابن الهمام: (بعض الأفعال تقوم مقام الجحود) فيض الباري للكشميري.

وقال حمد بن عتيق عن حديث قتل المتزوج بامرأة أبيه : (وهذا ظاهر في أن من ظهر منه استحلال محارم الله كفر وقتل ولا يشترط في ذلك انشراح صدره بالكفر وحكى الإجماع على ذلك كثير منهم ابن تيمية) . الدفاع عن أهل السنة ٢٧ .

وقال الفراء : (لم يكن كذب برد ظاهر ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيباً). من تفسير القرطبي للتولي. فالتكذيب قد يظهر في عمل ظاهر .

وقال الشاطبي : (ومن هنا جعلت الأعمال الظاهرة في الشرع دليلا على ما في الباطن فإن كان الظاهر منخرما حكم على الباطن بذلك وهو أصل عام في الفقه

وسائر أحكام العاديات والتجريبيات والأدلة على صحته كثيرة جداً وكفى بذلك عمدة أنه الحاكم بإيمان المؤمن وكفر الكافر) الموافقات١/ ٢٣٣.

وقال حافظ الحكمي : (ومحال أن ينتفي انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب) معارج القبول ٢/ ٥٩٤.

وقال ابن القيم : (من أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية). الصلاة ٢٨ .

قلت قارن بين ذلك وبين ما يحصل في هذه العصور من مشركي زماننا ومشرعي القوانين الوثنية الشركية التي جوزت الربا والزنا ومنحت التراخيص لترويج تلك الفواحش، وقد أفتى من أفتى من أهل العلم أن من أعطى التصاريح التجارية لبيع وإجارة الأمور المحرمة أنه مستحل لها كافر مرتد ، كما تقدم .

قلت ثم تأمل الحديث مع ما قرره ابن جرير وكيف جعل العمل الظاهر من الرجل دليل على التكذيب والجحود والاستحلال والبغض وأن هناك ما يسمى عند العلماء بالتكذيب العملي والجحود العملي والاستحلال العملي الظاهر والبغض العملي، فالتكذيب قد يظهر في عمل ظاهر .

قال الشيخ حمد بن عتيق : (أن البلد إذا ظهر فيها الشرك وأعلنت فيه المحرمات وعطلت فيه معالم الدين أنها تكون بلاد الكفر تغنم أموال أهلها وتستباح دماؤهم وقد زاد أهل هذه البلد بإظهار المسبة لله ولدينه ووضعوا قوانين ينفذونها في الرعية مخالفة للكتاب والسنة وقد علمت أن هذه كافية وحدها في إخراج من أتى بها من الإسلام) الدرر ٩/ ٢٥٧ .

قال ابن تيمية : (كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر. سواء اعتقد كذبه، أو استكبر عن الإيمان به، أو أعرض عنه اتباعا لما يهواه، أو ارتاب فيما جاء به، فكل مكذب بما جاء فهو كافر) الدرء ١/ ٥٦.

وقال : (إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند ...فإن معاندته له ومحاداته تنافي هذا التصديق ...) الصارم ٥٢١ .

وقال: (من أطلق من الفقهاء أنه لا يكفر إلا من يجحد وجوبها فيكون الجحد عنده متناول للتكذيب بالإيمان ومتناول للإمتناع عن الإقرار والالتزام) المجموع ٢٠/ ٩٨.

فالتكذيب والجحود في لغة السلف يتناول التكذيب والجحود ويتناول الامتناع والاعراض والتولي وهذا المسمى بالجحود والاستحلال العملي .

قال ابن تيمية في الإيمان الأوسط :" والمتولي هو العاصي الممتنع عن الطاعة ".

وقال :" إن العبد إذا فعل الذنب مع اعتقاد أن الله حرمه عليه ، واعتقاد انقياده لله فيما حرمه وأوجبه فهذا ليس بكافر، فأما إن اعتقد أن الله لم يحرمه، أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند، ولهذا قالوا من عصى الله مستكبراً كإبليس كفر بالاتفاق، ومن عصى مشتهياً لم يكفر عند أهل السنة والجماعة وإنما يكفره الخوارج، فإن العاصي المستكبر وإن كان مصدقاً بأن الله ربه فإن معاندته له ومحادته تنافي هذا التصديق وبيان هذا أن من فعل المحارم مستحلاً فهو كافر بالاتفاق فإنه ما آمن بالقرآن من استحل محارمه، وكذلك لو استحلها من غير فعل، والاستحلال اعتقاد أن الله لم يحرمها، وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرمها وهو يكون لخلل في الإيمان بالربوبية ولخلل في الإيمان بالرسالة ويكون جحداً محضاً غير مبني على مقدمة، وتارة يعلم أن الله حرمها ويعلم أن الرسول إنما حرم ما حرم الله ثم يمتنع عن التزام هذا التحريم ويعاند المحرم، فهذا أشد كفراً ممن قبله، وقد يكون هذا مع علمه أن من لم يلتزم هذا التحريم عاقبه الله وعذبه، ثم إن هذا الامتناع والإباء إما لخلل في اعتقاد حكمة الآمر وقدرته فيعود هذا إلى عدم التصديق بصفة من صفاته، وقد يكون مع العلم بجميع ما يصدق به تمرداً وإتباعاً لغرض النفس، وحقيقته كفر هذا لأنه يعترف لله ورسوله بكل ما أخبر به ويصدق بكل ما يصدق به المؤمنون لكنه يكره ذلك ويبغضه ويسخطه لعدم موافقته لمراده ومشتهاه، ويقول أنا لا اقر بذلك ولا ألتزمه وأبغض هذا الحق وأنفر عنه ، فهذا نوع غير النوع الأول وتكفير هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام والقرآن مملوء من تكفير مثل هذا النوع " الصارم المسلول ٥٢١ .

قال أيضا فيه :" كفر إبليس أنه سمع أمر الله له فلم يكذب رسولاً ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له واستكبر عن الطاعة فصار كافراً ".

قال ابن القيم في المدارج :" وأما كفر الإباء والاستكبار فنحو كفر إبليس فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، وهذا كفر من عرف صدق الرسول وأنه جاء بالحق من عند الله ولم ينقد له إباء واستكباراً وهو الغالب على كفر أعداء الرسل " .

هذا وقد بين السلف الأمر وأوضحوه وفرقوا بين المسألتين وجعلوا تارك العمل والمعرض والممتنع عن الدين الذي لم ينقد ولم يلتزم الالتزام الظاهر كافر خارج عن الملة ولم يجعلوه بمنزلة فاعل المحرمات والكبائر والمقصر في الواجبات مع أدائها في الأصل .

فكفر هؤلاء لعدم الانقياد الذي هو الامتناع والإباء ، وضابط كفر الاستكبار والإباء والامتناع راجع لترك العمل وعدم الانقياد والطاعة .

وهذا الأصل الذي قرره أهل السنة من وجود التصديق العملي والتكذيب العملي وأن التكذيب العملي والجحود والاستحلال العملي يقابل التصديق العملي والذي لا يعتبر التصديق معتبرا إذا لم يتم قد دلت عليه النصوص كقوله ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ الصافات: ١٠٥ وقوله تعالى ﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ التوبة: ، وحديث (والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) تخالفنا فيه المرجئة القديمة والمعاصرة أشد المخالفة وتزعم أن الكفر لا يكون إلا بالجحود والاستحلال والتكذيب وأن هذه الأمور لا تكون إلا قلبية باطنية خفية لا تظهر على الجوارح وقد رد على فريتهم الكاذبة أهل السنة منهم ابن منده وابن بطه والآجري وابن شيبة وبعدهم ابن تيمية في الإيمان .

ومثل ذلك البغض العملي وهو العمل الذي يظهر منه البغض ويدل عليه وما يبديه الشخص من دليل ولازم البغض ، كما قال تعالى ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران: ١١٨.

والمرجئة الشياطين المضلة تذهب إلى أن كل ذلك من كفر الاعتقاد :

فشرك الطاعة ليس عمليا وإنما اعتقادي ويكون بالاستحلال .

وكذلك كفر الإعراض والتولي والترك، وكفر الإباء والاستكبار والامتناع.

وكذا الشرك وتولي الكفار ومظاهرتهم.

كل هذه عندهم ليست كفرا في ذاتها وإنما تكون إذا قارنها الجحود والبغض .

مسألة : التفريق بين قول أهل السنة عن بعض الكفريات العملية لا تقع إلا مع ذهاب عمل القلب وأنها مستلزمة للكفر الاعتقادي أو لا تصدر إلا من مبغض، وبين قول المرجئة كل كفر فلأجل الجحود أو علامة عليه ولايكفرون إلا المستحل :

فقصد أهل السنة أنه هذه الكفريات مستلزمة لكفر القلب ولابد أن يوجد خلل في القلب، لا أنها ليست كفر بذاتها وأن الكفر سببه ما في القلب من استحلالها.

ولا يخالف في ذلك إلا المرجئة الذين ينكرون التلازم بين الباطن والظاهر .

المسألة التاسعة : أركان الرد :

الأول:الرد القلبي الباطن : والرد القلبي قسمان:

١- ما يتعلق بقول القلب: والذي هو التكذيب والجهل والإنكار القولي.

٢- ما يتعلق بعمل القلب: القائم على الجحود والاستحلال والإنكار العملي.

الثاني:الرد القولي الظاهر : وذلك بأن يتكلم بالرد ويجحد بلسانه .

الثالث: الرد العملي الظاهر بالجوارح .

المسألة العاشرة : أقسام الرد :

١- الرد القلبي .

٢- الرد القولي .

٣- الرد العملي الفعلي .

ومنه وضع الأصابع في الآذان واستغشاء الثياب حتى لا يسمع الحق أو يقبله.

ويسمى الرد القولي والقلبي الرد الصريح الحقيقي .

ويسمى الرد العملي الرد الحكمي، وهو ما يحكم على صاحبه بالرد من ناحية فعله وعمله لا من ناحية قوله .

وضابطه : هو من يعمل عملاً يلزم منه أن صاحبه جاحد مستحل مكذب .

وهو ما يسميه أهل العلم بالجحود العملي والاستحلال العملي والتكذيب العملي والبغض العملي . ويكون بعدم تحقيق مقتضى القبول والإتيان بلازمه.

ومنه الإعراض عن الدين والامتناع والتولي عنه والامتناع والإباء أو السخرية والاستخفاف بالدين والاستهزاء بحملته أو سبه .

المسألة الحادية عشرة : ما يكون فيه كفر الرد ومتعلقاته :

الرد بأنواعه من تكذيب وإنكار وجحود واستحلال متعلق بأمور منها :

١- الرد المتعلق بالله ﷻ بإنكار وجوده كما هو عند الملاحدة .

٢- تكذيب الله تعالى وتقدس وعدم تصديق أخباره .

٣- جحد أسمائه وصفاته وأفعاله وإنكارها .

٤- جحد أوامر الله وفرائضه واستحلال نواهيه ومحارمه .

٥- تكذيب الرسل عليهم السلام أو جحد نبوتهم وإنكار وجودهم .

٦- التكذيب بالملائكة أو الجن وإنكار وجودهم .

٧- إنكار الشريعة والتكذيب بالدين أو بشيء منه

٨- إنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة .
٩- التكذيب بيوم القيامة وإنكار الجنة والنار .
١٠- التكذيب بالقرآن أو جحد شيء منه وإنكاره .
١١- التكذيب بالسنة ورد شيء منها والأوامر أو الأخبار الغيبية.
١٢-الكذب على الله ورسوله ﷺ، فإن الكذب عليهما متضمن للرد وزيادة .
١٣- ادعاء النبوة والكذب في ذلك .
١٤- إنكار الإجماع القطعي .
١٥- جحد الواجبات واستحلال المحرمات .
١٦- التكذيب بآيات الله الكونية والشرعية .
١٧- التكذيب بالجن .

قال ابن بطة : (فمن أنكر أمر الجن وكون إبليس والشياطين والمردة وإغوائهم بني آدم فهو كافر بالله جاحد بآياته مكذب بكتابه) الإبانه ١٤١ .

المسألة الثانية عشرة : الرد والتكذيب بأنواعه يكون لأخبار الله وأوامره :

يكون الرد لأخبار الله ولأوامره وفرائضه.

ومثل ذلك الجحود يكون للصفات والغيبيات المخبر عنها ويكون للأوامر والتصديق، والقبول يكون للأخبار بتصديقها وللأوامر بامتثالها والانقياد لها.

المسألة الثالثة عشرة : التكذيب بآيات الله وردها تكذيب لله :

من كذب وجحد بالآيات والرسل والقرآن والشرع والدين ، فهو في الحقيقة تكذيب لمن أتى بها وأرسل بها وشرعها وأرسلها وهو الله تعالى.

المسألة الرابعة عشرة : أنواع كفر الرد :

القسم الأول الرد الكلي : بتكذيب الرسول ﷺ أو جحد رسالته أو ما جاء به أو إنكار الشريعة أو القرآن وجحدها بالكلية .

الثاني : الرد الجزئي والخاص : ويكون برد شيء من الشريعة أو أمر غيبي، كالجن والملائكة أو نبي من الأنبياء أو فريضة من الفرائض .

وكليهما يخرج من الملة بعد قيام الحجة والأول أشد كفراً .

قال ابن القيم: (وكفر الجحود نوعان : كفر مطلق عام وكفر مقيد خاص.

فالمطلق أن يجحد جملة ما أنزل الله وإرسال الرسول، والخاص المقيد أن يجحد فرضاً من فروض الإسلام و تحريم محرم من محرماته أو صفة أو خبراً أخبر الله به عمداً أو تقديماً لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض) المدارج ١٠/ ٣٦٧ .

المسألة الخامسة عشرة : الرد الكلي والجزئي سواء :

من رد شيئا من الدين فحكمه كحكم من كذب بالدين كله ومن كذب برسول واحد وأنكره فمثله مثل من كذب بالرسل جميعاً ومن كذب بآية واحدة وجحدها فهو كمن أنكر القرآن كله .

قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الشعراء: ١٢٣ ،مع أنهم لم يكذبوا إلا هودا ولكن يلزم من تكذيب هود تكذيب جميع الرسل لأن دينهم واحد .

فمن رد أمراً واحداً وكذب به وجحده فحكمه كحكم من كذب بالدين كله وهو بهذا الرد الجزئي يعتبر مرتدا ويجب تكفيره.

قال تعالى :﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾ البقرة: ٨٥ .

قال تعالى :﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ الرعد: ٣٦ . وهذا في الرد الجزئي.

قال ابن بطه في الإبانة : (لو أن رجلاً آمن بجميع ما جاءت به الرسل إلا شيئاً واحداً كان برد ذلك الشيء كافراً عند جميع العلماء).

قال إسحاق بن راهويه : (وقد أجمع العلماء أن من دفع شيئاً أنزله الله وهو مع ذلك مقر بها أنزل الله أنه كافر) نقله عنه ابن عبد البر في التمهيد.

وقال ابن عبدالبر: (وقد أجمعوا على أن مستحل الخمر كافر راد على الله عز وجل خبره في كتابه مرتد يستتاب).

وقال البربهاري في شرح السنة : (ولا يخرج أحد من أهل القبلة من الإسلام حتى يرد آية من كتاب الله عز وجل أو يرد شيئاً من آثار الرسول ﷺ فإذا فعل شيئاً من ذلك فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام) .

وقال: (لا يقبل الله شيئا من السنة في ترك البعض، ومن رد منها شيئا فقد رد السنة كلها، فعليك بالقبول).

قال القاضي عياض في الشفاء " وكذلك من أنكر القرآن أو حرفاً منه أو غيّر شيئاً منه أو زاد فيه وكذلك من أنكر شيئاً مما نص فيه القرآن بعد علمه أنه من القرآن

ولم يكن جاهلاً به ولا قريب عهد بالإسلام وكذلك من أنكر الجنة أو النار و البعث أو الحساب أو القيامة فهو كافر بإجماع " .

قال ابن القيم: (وكفر الجحود نوعان : كفر مطلق عام وكفر مقيد خاص.

فالمطلق أن يجحد جملة ما أنزل الله وإرسال الرسول، والخاص المقيد أن يجحد فرضاً من فروض الإسلام و تحريم محرم من محرماته أو صفة أو خبراً أخبر الله به عمداً أو تقديماً لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض) المدارج ١٠/ ٣٦٧ .

المسألة السادسة عشرة : الرد المجرد والمغلظ :

يكون الرد مجرداً ، وقد يوجد معه ما يجعله مغلّظاً .

فالكافر قد يكون فقط غير قابل للدين، وقد يقارن رده وعدم قبوله للدين أمر آخر، كالاعتراض عليه وتكذيبه وسبه وصد الناس عنه وحربه .

فيكون مع الرد عناد وإباء وتكذيب ومعارضة وعداوة، وقد يكون رد مجرد وإنكار وهذا كحال أبي طالب لم يقبل الحق والدين مع عدم حربه له بل ولا كرهه ومعاداته له خلافا لأبي لهب .

قال سبحانه عن حال أكثر المشركين :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ النمل: ١٤ ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام: ٣٣.

المسألة السابعة عشرة : أنواع الرد :

١- رد صريح بالتكذيب والجحود وعدم القبول .

٢- رد حكمي غير صريح، وذلك بعدم تحقيق مقتضى القبول والإتيان بلوازم القبول ، ومن ذالك ترك حكم الشريعة وبغض التوحيد وموالاة المشركين.

المسألة الثامنة عشرة : إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة :

ضابط المعلوم من الدين بالضرورة ما جمع قيدين :

الأول : أن يكون مجمعاً عليه .

الثاني : أن يكون ظاهراً ومتواتراً ليس بخافي ولا يسع أحد الجهل به ولا يخفى دليله .

والإنكار هو بمعنى التكذيب والجحد والاستحلال، فإن كان واجباً جحد وجوبه وإن كان محرما استحله وإن كان خبراً كذب به .

المسألة التاسعة عشرة: إنكار الإجماع القطعي كفر إذا علم به منكره :

فلا بد أن يكون ما أنكره أمراً ظاهراً معلوم من الدين بالضرورة لا يخفى مثل خفاء استحقاق بنت الابن السدس مع البنت الصلب ومثل تحريم الجمع بين المرأة وخالتها، فإن هذه وإن كانت مجمع عليها إلا أنها ليست مما يعلم من الدين بالضرورة.

قال ابن تيمية : (تنازع الناس في مخالف الإجماع هل يكفر، والتحقيق أن الإجماع المعلوم يكفر مخالفه كما يكفر مخالف النص) الفتاوى ١٩/ ٢٧٠.

وقال في نقد مراتب الإجماع : (فمن كفر مخالف الإجماع إنما يكفره إذا بلغه الإجماع المعلوم) .

العشرون: تقديم العقل على النقل داخل في هذا الكفر ومن هذا الناقض :

القول بوجود تعارض بين العقل والشرع وتقديم العقل على النقل يعتبر من نواقض الإسلام ، وهو داخل في الناقض الخامس ناقض البغض والرد والناقض الرابع المتعلق بالحكم والهدي وتفضيل عقول البشر عليه.

ومن قال يوجد تعارض بين العقل والنقل وأوجب تقديم العقل لأن النصوص المعارضة لا يقبلها العقل ، فقد تجرأ على الله الذي جاء الشرع من عنده وأساء أدبه معه.

وقد صدق هؤلاء عقولهم الكاسدة المشابهة لعقول عباد البقر التي لا تفهم النصوص ولا تسكن فيها أدلة الوحيين .

قال ابن تيمية: (ولا ريب أن من سلك هذا السبيل فإنه بعد قيام الحجة عليه كافر). الدرء ٥/ ٢٥٧- ٣٢٠ .

وقال بعده (القول بتقديم غير النصوص النبوية عليها من عقل أو كشف يوجب أن لا يستدل بكلام الله ورسوله ولا يصدق بشيء من أخبار الرسول، وذلك مستلزم عدم الإيمان بالله ورسوله وذلك متضمن الكفر والنفاق والزندقة والإلحاد).

المسألة الحادية والعشرون: تكفير السلف من أنكر الصفات :

صرح علماء الأمة بكفر جاحد الصفات ومنكر أسمائه وصفاته ومن ذلك من ينكر علو الله سبحانه ومن يكذب باستوائه على عرشه ومن ينكر كلامه أو يقول أنه مخلوق ومن ينكر رؤيته من الجهمية والمعتزلة والأشعرية.

قال نعيم بن حماد : (من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر) أخرجه اللكائي .

وقال الإمام أحمد: (من قال القرآن مخلوق فهو عندنا كافر) الشريعة والسنة.

وقال : (ومن قال إن الله عز وجل لا يرى في الآخرة فهو كافر) .

وقال ابن خزيمة : (من لم يقر بأن الله على عرشه استوى فوق سبع سماواته بائن من خلقه فهو كافر يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه) .

وقال الآجري في الشريعة : (من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر) .

وقال : (الجهمية عند العلماء كفار) . وذلك لإنكارهم الصفات .

وقال عثمان الدرامي: (نكفر الجهمية بكفر مشهور وهو تكذيبهم بنص الكتاب أخبر الله تبارك وتعالى أن القرآن كلامه وادعت الجهمية أنه خلقه وقال الله تبارك وتعالى بل يداه مبسوطتان وقال هؤلاء الجهمية ليس لله يد وما خلق آدم بيده وإنما يداه نعمتان ورزقاه فادعوا بين يدي الله أوحش مما ادعته اليهود قالت اليهود يد الله مغلولة وقال الجهمية يد الله مخلوقة لأن النعم والأرزاق مخلوقة). الرد على الجهمية ١٧٣.

وقال ابن قدامه في ذم التأويل : (جحود الاستواء كفر لأنه رد لخبر الله وكفر بكلامه) .

وقال ابن تيمية عن علو الله : (ولهذا كان السلف مطبقين على تكفير من أنكر ذلك لأنه عندهم معلوم بالإضطرار من الدين). الدرء ٧/ ٢٦ .

وقال : (والذي عليه جمهور السلف أن من جحد رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر).

وقال ابن القيم في النونية في تكفير الجهمية لإنكارهم العلو وغيره وأن خمسمائة عالم كفروا الجهمية وحكا ذلك الطبراني واللالكائي

ولقد تقلد كفرهم خمسين في عشر من العلماء في البلدان

المسألة الثانية والعشرون: مما يدخل في كفر التكذيب إدعاء النبوة أو إنكارها:

من أعظم التكذيب لله وأشد الكفر بعد الشرك وأشنع الجحود والرد إدعاء النبوة .

قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ الأنعام: ٩٣ .

وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ الأنعام: ٩١ .

ولا يفعله ويدعية إلا أكفر الناس بالله وأخبثهم نفسا وهو اشد كفراً من منكر الرسالة وجاحد النبوة والمكذب بالرسل لأن كل مدعي للنبوة يتضمن إدعاؤه تكذيب للرسل بل ويلزم من ادعائه التكذيب بهم .

ولذلك كان كفر المتنبئ داخلاً في كفر الرد والتكذيب والجحود .

فهو كاذب على الله ومكذب بشرعه ودينه ورسله، إذ لو لم يكن مكذباً به وبدينه لآمن برسله واتبعهم وأقر بكون النبوة ختمت بمحمد ﷺ .

ومن صدق مدعي النبوة فهو كافر مكذب مثله وهو مكذب بالقرآن ومكذب بقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الأحزاب: ٤٠

ومكذب بالرسول وشرعه وبقوله ﷺ : (لا نبي بعدي) رواه البخاري.

قال ابن تيمية: (ومن ادعى النبوة وهو كاذب فهو من أكفر الكفار وأظلم الظالمين وشر خلق الله) الجواب الصحيح ١/ ٣٠.

قال ابن قدامه في المغني : (من ادعى النبوة أو صدق من ادعاها فقد ارتد) .

وقال ابن أبي العز الحنفي : (إن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين) .

وقال القاضي عياض في الشفاء : (من ادعى نبوة أحد مع نبينا ﷺ أو بعده أو من ادعى النبوة لنفسه أو جوز اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلى مرتبتها وكذلك من ادعى منهم أنه يوحى إليه وإن لم يدع النبوة فهؤلاء كلهم كفار مكذبون للنبي ﷺ ، لأنه أخبر أن خاتم النبيين لا نبي بعده ، وأخبر الله تعالى أنه خاتم النبيين وأنه أرسل للناس كافة للناس وأجمعت الأمة على ذلك) بتصرف .

وقال ابن حزم في الدرة : (وأما من قال إن بعد محمد ﷺ نبياً غير عيسى ابن مريم فإنه لا يختلف اثنان في تكفيره) .

المسألة الثالثة والعشرون : كفر الجحود والاستحلال لا ينفع معه العمل :

لو عمل الجاحد بما أنكره أو ترك المستحل ما أنكر تحريمه فلا ينفعه ذلك ولا يرفع عنه حكم الكفر فلو صلى من يجحد الصلاة فلا تنفعه صلاته وهو كافر كما أنه مستحل الزنا كافر ولو لم يزن.

المسألة الرابعة والعشرون : عدم وجود كفر الرد لا يدل على إسلام صاحبه :

عدم وجود الرد من المرء لا يدل بوحده على إسلامه فقد يكون الإنسان مصدقا ومقرا ومعترفا أو أنه غير مكذب ولا جاحد ولا مستحل ولا منكر، وبالمعنى العام غير راد بقلبه ولسانه، لكن قد يكون مع ذلك كافرا ويكون كفره لأمر آخر وسبب غير الرد كالامتناع عن الانقياد والإباء والاستكبار والتولي عن الطاعة، لأن الكفر كما هو معلوم أنواع : فمنه الرد والامتناع والإعراض والشك والنفاق، ولا تلازم بينها فالمصدق لا يلزم من وجود تصديقه وإقراره الدخول في الإسلام لأن مجرد التصديق بالقلب واللسان إذا لم يقارنه التصديق العملي والذي من معانيه الانقياد والاستسلام العملي الظاهر لا يكفي في اعتبار الإسلام وقبوله ونفعه .

قال ابن القيم : (ومن تأمل ما في السيرة والأخبار الثابتة في شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام علم أن الإسلام أمر وراء ذلك وأنه ليس هو المعرفة فقط ولا المعرفة والإقرار فقط بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ظاهراً وباطناً) . زاد المعاد ٣٩٨/٣.

المسألة الخامسة والعشرون : حالات المخالفات في المحرم والواجب :

١- فاعل الكبائر فاسق عند أهل السنة كافر عند الخوارج .
٢- مستحل الكبائر والذنوب المجمع عليها كافر عند الجميع كالزنا والغيبة .
٣- تارك الواجب المعين فاسق عند أهل السنة كافر عند الخوارج .
٤- جاحد الواجبات ومنكرها كافر عند الجميع .
٥- تارك العمل بالكلية كافر عند أهل السنة مؤمن عند المرجئة .

المسألة السادسة والعشرون: شروط تكفير الجاحد والمستحل :

١- أن يكون جحد واجباً مجمعا عليه أو يستحل محرماً مجمعا عليه .
٢- أن يكون ما جحده أو استحله أمراً ظاهراً معلوم من الدين بالضرورة ، فلا يخفى على العامة مثل خفاء استحقاق بنت الابن السدس مع البنت الصلب ومثل تحريم الجمع بين المرأة وخالتها، فإن هذه وإن كانت مجمع عليها إلا أنها ليست مما يعلم من الدين بالضرورة .
٣- أن تقوم الحجة عليه ويزول عنه المانع من الجهل والشبهة والتأويل .

ومسألة العذر بالجهل والتأويل لها ضوابط ذكرتها في مقدمة النواقض.

المسألة السابعة والعشرون : دواعي الجحود والتكذيب وبواعثه :

١- الجهل .

٢- الحسد .

٣- البغض.

٤- الإعراض وعدم الحرص.

٤- الاستكبار واحتقار الغير .

٥- محبة الدنيا والشح بها والخوف على المصالح .

الثامنة والعشرون:حكم التكذيب والجحد، وتعلق الجهل والتأويل بكفر الرد:

قد ينكر المسلم أمراً من الدين لعدم ظهوره واتضاح دليله لـه أو عـدم بلوغـه نص فيه فينكر حكم وجوبه ومشروعيته أو ينكر تحريم أمر منهي عنه أما لجهـل منـه بعدم بلوغه الحجة والنص أو لتأويله نص الحديث .

وهذا لا يكفر حتى يبين له النص وتتضح الحجة ويزول الجهل والـشبهة فهـو لا يعتبر جاحداً للحكم في الحقيقة ، ومن هذا الباب قول الأئمـة إذا صـح الحـديث فهو مذهبي، وإذا عارض قولي قول رسول الله ﷺ فـاضربوا بقـولي عـرض الحـائط، وكل يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر .

قال ابن تيمية: (الإنسان قد يكون مكذباً ومنكراً لأمور لا يعلـم أن الرسـول أخبر بها وأمر بها ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكـر بـل قلبـه جـازم بأنـه لا يخبر إلا بصدق ولا يأمر إلا بحق ثم يسمع الآية أو الحديث أو يتدبر ذلك أو يفسر لـه معنـاه أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه فيصدق بما كان مكذباً به ويعرف ما كان منكراً له وهذا تصديق جديد وإيمان جديد يزداد به إيمانه). الإيمان ٧/ ٢٣٧ .

قال محمد بن إبراهيم : (الجاحد ثلاثة أقسام : قسم يجحد ما علم أن الرسـول جاء به وخالف ما هو معلوم بالضرورة من الدين فهذا كافر ولا يحتاج لتعريف مـا لم يكن حديث عهد بإسلام . وقسم يخفى دليله فهذا النوع يحتاج إلى قيام حجة . وقسم غامض وهنا لا يكفر ولو بعد قيام الحجة فلا بد من فهمهـا مثـل تأويـل الـصفات) الفتاوى ١٢/ ١٩٠ .

المسالة التاسعة والعشرون : الفرق بين تكذيب الله أو الكذب على الله :

تكذيب الله بأن لا يصدق خبره سبحانه أو يرد عليه أمره .

والكذب على الله بأن ينسب إليه ما لم يقله أو يشرع ما لم يأذن الله به .

وجاء الجمع بينهما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٨.

دخول الكذب في التكذيب:

يدل لذلك ما روي من حديث أبي القاسم عبدالله بن محمد البغوي ورواه أبو أحمد بن عدي في الكامل قال كان حي بن بني ليث من المدينة على ميلين وكان رجل قد خطب منهم في الجاهلية فلم يزوجوه فأتاهم عليه حلة فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كساني هذه الحلة وأمرني أن أحكم في دمائكم وأموالكم ثم نزل على تلك المرأة التي كان يحبها فأرسلوا إلى رسول الله فقال كذب عدو الله ثم أرسل رجلاً فقال إن وجدته فاقتله وإن وجدته ميتا فأحرقه في النار فانطلق فوجده قد لدغ فمات فحرق بالنار، فعند ذلك قال ﷺ: (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار). وإسناده على شرط الصحيح لا يعلم له علة. وله شاهد وفيه ثم قال لا تحرقه فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار.

قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول: (وللناس في هذا الحديث قولان:

أحدهما: الأخذ بظاهره في قتل من تعمد الكذب على رسول الله ومن هؤلاء من قال يكفر بذلك قاله جماعة.

ووجه ذلك أن الكذب عليه كذب على الله ولهذا قال النبي ﷺ: (إن كذباً علي ليس ككذب على أحدكم) فإن ما أمر به الرسول فقد أمر الله به يجب اتباعه كما يجب إتباع أمر الله فإن الكاذب عليه كالمكذب له.

يوضحه أن تكذيبه نوع من الكذب فإن مضمون تكذيبه الإخبار عن خبره أنه ليس بصدق وذلك إبطال لدين الله.

وأيضاً فإن الكاذب عليه يدخل في دينه ما ليس منه عمداً ويزعم أنه يجب على الأمة التصديق بذلك.

وهو أيضاً استهزاء واستخفاف به لأنه يزعم أنه أمر بأشياء ليست مما أمر به بل وقد لا يجوز الأمر بها وهذا نسبة له إلى السفه أو أنه يخبر بأشياء باطلة وهذا نسبة له إلى الكذب وهو كفر صريح.

وبالجملة فمن تعمد الكذب على الله فهو كالمتعمد لتكذيب الله وأسوأ حالاً فكذلك الكذب على رسوله كالتكذيب له.

واعلم أن هذا القول في غاية القوة.

فثبت أن الحديث نص في قتل الطاعن فإذا قتل من كذب عليه فسابه أولى بالقتل لأنه طاعن ويؤيد ذلك أنهم لو ظهر لهم طعن وسب لبادروا إلى الإنكار عليه لكن رابهم أمره فتوقفوا حتى استثبتوا ذلك من النبي ﷺ لما تعارض وجوب طاعة الرسول عظم ما أتاهم به هذا اللعين وإن كان هذا الرجل لم يقصد الطعن والإزراء وإنما تحصيل شهوته بالكذب عليه، إلا أن ذلك يلزم الطعن فيه ﷺ لأن من زعم أنه حلل المحرمات فقد انتقصه وعابه) .

الثلاثون : أنواع الكفر والفروق بينها :

أولاً : لا يخرج وصف الكفر وسببه عن أحد ستة أقسام :

الأول : كفر الرد والتكذيب :

ويندرج تحته الجحود والإنكار والاستحلال والتكذيب والبغض.

الثاني : كفر الامتناع والإباء والاستكبار والعناد والصدود.

الثالث : كفر الإعراض والتولي .

الرابع : كفر الشك والريب . وعدم اليقين .

الخامس : كفر النفاق . فيظهر الصدق والإيمان والتصديق والإقرار والالتزام والمحبة واليقين ويبطن عكس ذلك .

السادس : كفر الجهل .

مسألة : الفرق بين كفر الرد وكفر الإباء الامتناع:

الممتنع لا يكذب ولا يجحد ولا ينكر، وإنما هو مقر معترف مصدق ، ولكن يأبى أن ينقاد ويذعن ويلتزم ، فكفره من جهة العناد والكبر وترك العمل ، وليس من جهة الاعتقاد.

وأدخله البعض في كفر الرد من جهة أن الممتنع رد الحق ويسمى بالرد العملي وهو لم يرده بقلبه ولا بلسانه وإنما بعمله وهذا الذي تخالف فيه المرجئة وهو بذلك يعتبر قسم مستقل يقابل الجحود والتكذيب والإنكار فالممتنع الآبي ليس بجاحد ولا منكر ولا مكذب .

مسألة : الفرق بين كفر الرد وكفر الإعراض :

المعرض هو من لا يكذب ولا يصدق ولا يقر ولا يجحد ، فهو لم يقبل ولم يرد.

فيستوي المعرض والممتنع في ترك العمل لكن الممتنع تركه مع التصديق والإقرار والمعرض تركه إعراضا وعدم مبالاة فليس بمصدق ولا مكذب .

مسألة : الفرق بين كفر البغض والرد :

كفر البغض راجع لكفر الرد ، لكونه المبغض غير قابل ولا راض ولا محب، وهذا يدل على رده وعدم قبوله .

وليس كل رد فيه بغض، وإن كان يستلزمه .

مسألة كفر الجحود ضد كفر النفاق :

فالجاحد مصدق وعالم في الباطن جاحد في الظاهر ، والمنافق مكذب وكافر في الباطن مظهر للإيمان .

مسألة : كفر الاعتراض والمنازعة وعدم التسليم داخل في الإنكار والرد .

كمن يقول ليت الله ما شرع الصلاة أو لا فائدة من الصوم أو الحكمة من الحج ونحو ذلك من الاعتراض والمعارضة والطعن والمعاندة والطعن .

فائدة : تسمية كفر التكذيب كفر الجهل .

لأن المكذب جاهل كما أن الجاهل يكذب ما يجهله .

قال ابن تيمية في التسعينية : (يدخل في كفر التكذيب كفر الجهل إذ الجاهل مكذب) .

والمرجئة تنكر كفر الجهل ولا تثبت إلا كفر الجود والعناد وما كان عن علم كما قرر ذلك ابن القيم .

مسألة: أنواع كفر التكذيب :

الأول : أن يكون المكذب جاهلاً بصدق المخبر ولا يعلم صحته فيكون تكذيبه جهلاً ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ يونس: ٣٩ .

ويكون كفر التكذيب هذا هو كفر الجهل وعدم العلم بصدق الرسول وصحة دعواه، وهذا النوع من الكفر لا يعذر صاحبه لأنه ليس كل الكفار وأهل النار معاندون بل فيهم الجهال قال تعالى : ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأعراف: ٣٠ ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ المجادلة: ١٨ ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف: ١٠٤ ، فمن بلغته الدعوة وكذب لجهله بصدق الرسول ولم يقتنع فهو كافر من أهل النار والعياذ بالله .

الثاني : الذي يكذب بلسانه ظاهراً مع تيقنه بصدق الرسول باطناً ومعرفته للحق، وهذا هو كفر الجحود وهو غالباً ما يكون عناداً .

وعلى هذا يكون كفر التكذيب شاملا لكفر الجهل وكفر الجحود والعناد . ولذلك جاءت تسميتهم بالمعاندين .

مسألة : حالات الكفر : أي كفر له حالتان :

كفر عناد وتعمد .

وكفر جهل وتأول .

فائدة : قد يكون الجاحد والمكذب جاهلا وليس متعمدا للتكذيب فيكذب بقلبه ولسانه ويطلق عليه الجحود ، إلا أن الجاحد يطلق في الغالب على من كذب ظاهرا وهو مقر مصدق باطنا كما نصت الآية: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام: ٣٣ .

مسألة: كفر الجحود الأصل أنه لا يكون إلا بقصد وعناد وعلم للحق .

قال ابن القيم في المفتاح: (كفر جحود وعناد وقصد مخالفة الحق، وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في قومه من الكفار أو رياسة سلطانية).

وتقدم الكلام في ضابط كفر الجحود والفرق بينه وبين التكذيب والإنكار .

مسألة: دخول جميع أنواع كفر الرد في التكذيب :

كفر الجحود والاستحلال والإنكار تدخل في عموم كفر التكذيب لأن الجاحد مكذب في الظاهر ومثله المستحل والمنكر مكذبين في الظاهر .

قال ابن تيمية في التسعينية : (الجحود ضرب من الكذب والتكذيب ومما يدخل في كفر التكذيب كفر الجهل إذ الجاهل مكذب) .

مسالة : حقيقة التكذيب :

قال ابن تيمية : (والتكذيب إخبار بكذب المخبر فقد يصدق الرجل الكاذب تارة وقد يكذب الرجل الصادق أخرى فالتصديق والتكذيب نوعان من الخبر وهما خبر عن الخبر فالحقائق الثابتة في نفسها التي قد تعلم بدون خبر لا يكاد يستعمل فيها لفظ التصديق والتكذيب إن لم يقدر مخبر عنها، بخلاف الإيمان والإقرار والإنكار والجحود ونحو ذلك فإنه يتناول الحقائق والإخبار عن الحقائق أيضاً) .

وقال : (يوضح ذلك إن تكذيبه يعني النبي ﷺ نوع من الكذب فإن مضمون تكذيبه الإخبار عن خبره أن ليس بصدق وذلك إبطال لدين الله).

الفرق بين التكذيب والكفر :

قال ابن تيمية : (التكذيب أخص من الكفر فكل مكذب لما جاءت به الرسل فهو كافر وليس كل كافر مكذباً بل قد يكون مرتاباً إن كان ناظراً فيه أو معرضاً عن بعد أن لم يكن ناظراً فيه وقد يكون غافلاً عند لم يتصوره بحال لكن عقوبة هذا موقوفة على تبليغ المرسل إليه) .

المسألة الحادية والثلاثون : مذهب المرجئة في كفر الرد والتكذيب :

١- أن الكفر عندهم مجرد التكذيب والجحود .

٢- أن التكذيب والجحود لا يكون إلا في القلب ولا يكون في عمل الجوارح واللسان و العمل الظاهر .

٣- أن كل كفر فهو لعدم التصديق وسببه وجود التكذيب والجحود ، وإذا لم يوجد التكذيب والجحود فصاحب الكفر في الدنيا ناج يوم القيامة من أهل الجنة.

الناقض السادس

كفر الاستهزاء والسب

قال المصنف رحمه الله :

(السادس: من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

تمهيد : هذا هو الناقض السادس وهو من النواقض القولية والعملية.
ويسمّى ناقض الاستهزاء بالدين .
ومرده الاستهزاء بالله تعالى وما جاء عنه من الدين والآيات.
ويدخل فيه الاستهزاء بملائكته وكتبه ورسله والبعث والقدر والمؤمنين .
أسماؤه : الاستهزاء والسخرية والاستخفاف والهزل الاستهتار والتهكم والاحتقار والاستهانة والازدراء والاستصغار والهمز واللمز.

المسألة الأولى: تعريفه :

الاستهزاء من الفعل هزأ إذا سخر ، والهزء والهزؤ السخرية بضم الهاء وفتحها وتهزأ واستهزأ وهزأ إذ شتم وسخر وشمت.

ويتعدى بنفسه يقال هزءه، وبالباء هزأ به، وبمن هزأ منه .

والاستهزاء على وزن استفعال أي طلب الفعل الذي هو الهزء والسخرية.

والاستسخار و﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ طلب السخرية.

ومثله الاستخفاف من الخفة والاستهانة من أهان والاستحقار والاستهتار.

وجاء لفظة هزا لمعاني أخرى منها: الخفة والحركة والتحريك والكسر والموت.

السخرية :

من الفعل سَخِرَ يسخر سخرية ويستسخر مستسخر استسخاراً ومسخر.

والسخرية : هي ما دل على الاحتقار والتذلل والاستذلال، ومنه تسخير الله الدواب لبني آدم ، وسخرت منه وسخر به إذا هزأت به واحتقرته وأهنته وأذللته وتنقصته وعيبته .

والاستخفاف : من الخفة ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ الزخرف: ٥٤، وهو نسبة الخفة والنقص للغير وعدم إقامة الوزن﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ الكهف: ١٠٥، وكل ذلك من باب الانتقاص والاحتقار والاستهانة.

والهمز السخرية بالقول ، واللمز السخرية بالفعل والإشارة .

وقد جاء الاستهزاء والسخرية مترادفان في قوله تعالى : ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الأنعام: ١٠. وفي الحديث عند مسلم يقول العبد لربه : (أتسخر بي وأنت الملك) وفي رواية (أتستهزئ بي وأنت رب العالمين) .

فالاستهزاء والسخرية والاستخفاف بمعنى متقارب .

ومعناها في الاصطلاح:

وهو كل قول أو عمل دلّ على الاستهانة والازدراء والاحتقار والاستصغار وإظهار العيب والتنقص .

طرق وحالات الاستهزاء :

١- الاستهزاء إما أن يكون بإظهار عيب حقيقي.

٢- أو إلصاق عيب مفترى واختلاق نقص بهتانا وكذبا وهذا أشد.

وباعث الاستهزاء :

١- الاحتقار والازدراء والاستهانة والاستصغار . أو البغض والكره .

٢- إضحاك الغير على المستهزأ به من باب الهزل والتندر والمرح واللعب والمزح والتسلية والخوض والعبث ونحوه .

فهذه أربع مراتب للاستهزاء راجعة لبواعثه وحالاته وكلها كفر والعياذ بالله .

الفرق بين الاستهزاء والسخرية :

السخرية ما كانت على فعل سبق وحصل ممن يسخر منه والاستهزاء قد يكون ابتداء من غير أن يسبق من المستهزأ به فعل يكون سببا للاستهزاء من أجله . ذكره أبو هلال العسكري في الفروق .

الفرق بين المزح والاستهزاء :

أن المزاح لا يقارنه احتقار ولا يقتضي شماتة ولا استصغار واستهانة ولا اعتقاد ذلك وإنما يقتضي الاستئناس .

والفرق بين المزاح والهزل أن الهزل يقتضي التواضع من الهازل بخلاف المزح .

ما يضاد الاستهزاء والسخرية والهزل :

الهزل يقابل الجد والقصد والعمد .

أما السخرية والاستهزاء فهي من الألفاظ التي لا أضداد لها ، فليس من الألفاظ الضدية التي لها ضد كالبغض ضد المحبة والعلم ضد الجهل .

إلا أن من معاني ومقتضيات الاستهزاء الاحتقار والاستصغار والاستهانة والإذلال وهذه ضد التعظيم والإكبار والإكرام والتوقير والاحترام .

مسألة : الفرق بين السب والاستهزاء :

١- أن السب لا يكون إلا مقارناً للبغض غالبا ، وهذا بخلاف الاستهزاء فقد يكون المستهزء غير مبغض لمن يسخر به وإن كان يستدعيه ، بل قد يكون محبا له.

٢- أن الساب لا يكون إلا جاداً أما المستهزئ فيكون جاداً وهازلاً مازحاً .

٣- أن السب أشد كفراً وجرماً من الاستهزاء .

٤- قد يتجرد السب من السخرية وقد يكون بطريق السخرية وهو أشد.

٥- كل استهزاء فهو متضمن للسب والتعييب .

المسألة الثانية : أدلة الاستهزاء :

الأدلة العامة على شناعة الاستهزاء وكفر فاعله :

قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ التوبة: ٦٤ - ٦٦.

٢ - وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ الفرقان: ٤١ ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٦ ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ البقرة: ١٤ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الأنعام: ٥ ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الأنعام: ١٠ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الحجر: ١١ ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ المائدة: ٥٨ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ الكهف: ١٠٦ ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ الجاثية: ٣٥ ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ التوبة: ٧٩ ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ يونس: ٢٠ ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ هود: ١٢ ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ الفرقان: ٧ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ الفرقان: ٢١ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٥٧ - ٥٨ ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ البقرة: ٢١٢ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ الصافات: ١٢ ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ ص: ٦٢ - ٦٣ ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ الزمر: ٥٦ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ

﴾ الزخرف: ٤٧ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ المطففين: ٢٩ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَٰلِ الْبَعِيدِ ﴾ سبأ: ٧-٨ ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ الأنبياء: ٣ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ المجادلة: ٨ ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ الدخان: ٩ ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ الجاثية: ٩ ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ الحجر: ٩٥ ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هود: ٨.

مبحث : الأدلة على كفر المستهزئ والساب والشاتم ووجوب قتله

أولا : الأدلة من القرآن:

الأول : قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ التوبة: ٦٤ - ٦٦.

وهذا نص أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر صريح فدلت الآية أن كل من تنقص رسول الله جادا أو هازلاً فهو كافر .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ التوبة: ٦١ - ٦٣.

فعلم أن إيذاء رسول الله محادة لله ولرسوله ، لأن ذكر الإيذاء هو الذي اقتضى ذكر المحادة فيجب أن يكون داخلا فيه ، فيدل على أن الإيذاء والمحادة كفر ، لأنه أخبر أن له نار جهنم خالداً فيها، بل المحادة هي المعاداة وذلك كفر ومحاربة ، فيكون المؤذي لرسول الله كافراً عدوا لله ورسوله محاربا لله ورسوله .

وفي الحديث : أن رجلا كان يسب النبي ﷺ فقال : (من يكفيني عدوي) أخرجه عبدالرزاق.

الدليل الثالث : قوله سبحانه ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ التوبة: ٥٨ ، واللمز العيب والطعن .

وقال ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ ، فدل على أن كل من لمزه وآذاه كان من المنافقين فلما أخبر أن الذين يلمزون النبي ويؤذونه منهم ثبت أنه دليل على النفاق .

الدليل الرابع : قوله ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ .

فأقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه في الخصومات التي بينهم ثم لا يجدوا في نفوسهم ضيقا من حكه بل يسلموا تسليماً لحكمه ظاهراً وباطناً .

وقال قبل ذلك ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى الطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠ الآيات ، فبين أن من دُعي إلى التحاكم إلى كتاب الله وإلى رسوله فصد عن رسوله كان منافقاً كافرا ، مع قوله ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١ ، فمن تولى عن طاعة الرسول وأعرض عن حكمه فهو منافق وليس بمؤمن بل المؤمن من يقول: سمعنا وأطعنا .

وإذا ثبت النفاق بمجرد الإعراض عن حكم الرسول فكيف بالتنقص والسب ونحوه .

الدليل الخامس : قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ الأحزاب: ٥٧ ،فقرن أذاه بأذاه كما قرن طاعته بطاعته فمن آذاه فقد آذى الله وقد جاء ذلك منصوصاً عنه ومن آذى الله فهو كافر حلال الدم، وفرّق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين وهو من الكبائر وليس فوقه إلا الكفر .

السادس : قوله سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ الحجرات: ٢.

وإذ ثبت أن رفع الصوت والجهر به يخاف منه أن يكفر صاحبه ويحبط عمله وهو لا يشعر لأن فيه سوء أدب واستخفاف، فكيف بمن يسبه ويستخف به ويؤذيه مع قصده له وتعمده لذلك فهو كافر بطريق الأولى.

الدليل السابع : قوله سبحانه : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ٦٣، فأمر من يخالف أمره أن يحذر الفتنة وهي الردة والكفر لقوله ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ الأنفال: ٣٩.

قال الإمام أحمد : (الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلكه " وجعل يتلو هذه الآية ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال فأتعجب من قوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي فلان أو فلان قال ، فقال ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، تدري ما الفتنة الكفر فيدعون الحديث وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي).

وإذا كان المخالف لأمره قد حُذر من الكفر أو العذاب الأليم وإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما قد يقترن به من استخفاف بحقه كما فعل إبليس فكيف بمن عمل ما هو أعظم من ذلك من السب الانتقاص ونحوه .

الدليل الثامن : قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ الأحزاب: ٥٣ . فحرم على الأمة أن تنكح أزواجه من بعده لأنه يؤذيه وجعله عظيما عند الله ثم إن من نكح أزواجه أو سراريه فإن عقوبته القتل جزاء له بما انتهك من حرمته ، فالشاتم له أولى .

والدليل على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس أن رجلا كان يتهم بأم ولد النبي ﷺ فأمر عليا بأن يضرب عنقه فأتاه علي فإذا هو في ركي يتبرد فقال له أخرج تناول يده فأخرجه فإذا هو مجبوب ليس له ذكر فكف علي ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له إنه مجبوب ما له ذكر .

وكذلك لما تزوج رسول الله قيلة بنت قيس أخت الأشعث، ومات قبل أن يدخل بها وقبل أن تقدم عليه ، وقيل إنه خيرها بين أن يضرب عليها الحجاب وتكون من أمهات المؤمنين وبين أن يطلقها فتنكح من شاءت ، فاختارت النكاح فتزوجها عكرمة بعد رسول الله فبلغ أبا بكر فهم بقتلها حتى قال له عمر ما هي من أمهات المؤمنين فتركها . أخرجه الطبري في تفسيره .

التاسع : قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الأنعام: ١٠٨، وهذا خبرٌ من الله بأن من السب ماهو أعظم من شركهم، ولهذا نهى المؤمنين أن يسبوا المشركين حتى لا يسبوا الله ويستنقصوه سبحانه.

العاشر: قال: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ التوبة: ١٢ .

فجعل الطعن والسب في الدين من الكفر المبين .

الحادي عشر: قال تعالى : ﴿ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ الأنفال: ١٣ .

فجعل موجب ضرب الأعناق مشاقة الله ورسوله والاستهزاء بهما ،وسبهما أعظم المشاقة .

الثاني عشر : قال تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ المجادلة: ٢٢ .

فإذا كان من يواد المحاد ليس بمؤمن فكيف بالمحاد نفسه، وقيل سبب نزولها: أن أبا قحافة شتم النبي ﷺ فأراد أبو بكر قتله فثبت أن المحاد كافر حلال الدم.

ثانيا: السنة : ورد في الباب أحاديث منها :

الحديث الأول : عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : أنه قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب السنا ولا أجبن عند اللقاء يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى الرسول ليخبره فوجد القرآن قد سبقه فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق . قال ابن عمر كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسولا الله ﷺ وأن الحجارة تنكب رجليه وهو يقول إنما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله ﷺ : ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ ، ما يلتفت إليه وما يزيده عليه) .

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه بإسناد صحيح.

وعند ابن هشام أن الرسول ﷺ قال لعمار بن ياسر: (أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل بل قلتم كذا وكذا) ، فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه .

وقد جاء في أسباب نزول الآية إضافة على ما ذكر أن الرسول ﷺ قال : أحبسوا الركب .

قول بعضهم عن الرسول ﷺ : (هذا يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر) قالوه من باب التهكم والسخرية .

وقولهم : (أتحسبون قتال أو جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال) والقائل هو وديعة بن ثابت .

وحضر معه زيد بن وديعة ومخشي بن حمير وهو لم يتكلم وإنما كان حاضر مجلسهم وفيه نزلت ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ التوبة: ٦٦ ، وهو القائل لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه وقال يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي فسمي عبدالرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم مكانه فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر .

الحديث الثاني : عن علي أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه فخنقها رجل حتى ماتت فأبطل رسول الله دمها رواه أبو داود وهو حديث جيد .

وهذا صريح في جواز قتل من شتم النبي ﷺ ، وهو دليل على قتل الذمي وقتل المسلم والمسلمة إذا سبا بطريق الأولى .

الثالث : ما روى ابن عباس أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فأخذ المغول ووضعه في بطنها واتكأ عليه، فقتلها ، ثم ذكر ذلك للنبي ﷺ ،فأهدر دمها . رواه أبو داود والنسائي واستدل به أحمد .

وهذه القصة يمكن أن تكون هي الأولى فتكون يهودية وهو قول أبي يعلي وغيره ويمكن أن تكون هذه قضية أخرى .

قال الخطابي : (فيه أن ساب النبي ﷺ يقتل لأن السب ارتداد) .

وليس في الحديث دليل على أنها مسلمة، بل الظاهر أنها كافرة، فإن في الحديث أن سيدها كان ينهاها مرارا ،ولو كانت مرتدة لما جاز وطؤها وإبقاؤها مدة طويلة .

الرابع: قصة كعب بن الأشرف اليهودي قال فيها الرسول ﷺ: (من لكعب بن الأشراف فإنه قد آذى الله ورسوله) .

فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله، قال: نعم ، قال: فأذن لي أن أقول شيئاً ، فأذن له فأتاه فقال إن هذا الرجل قد أراد الصدقة وعنانا فلما سمعه كعب قال وأيضا والله لتملنه الحديث فقتلوه . متفق عليه .

وكان كعب قد هجا النبي ﷺ فندب رسول الله إلى قتله فأتى أصحاب كعب رسول فقالوا إنه قد اغتيل وهو سيدنا فقال رسول الله : (إنه لو قرّ كما قر غيره ممن

هوعلى مثل رأيه ما اغتيل ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان السيف) مغازي الواقدي .

وفيه أنه لما قال ابن يامين اليهودي في مجلس مروان أن كعب قتل غيلة غدرا وكان في المجلس محمد بن مسلمة ﷺ وكان قد كبر فقال مغضبا أيغدّر رسول الله ﷺ عندك والله ما قتلناه إلا بأمره ﷺ والله لا يجمعني بك سقف إلا المسجد وأنت يا ابن يامين والله لو قدرت عليك وفي يدي سيف إلا ضربت به رأسك) .

فذلت يهود وحذرت من يوم قتل كعب بن الأشرف . وكان كعب معاهداً فلما سب نقض عهده وقال فيه فإنه قد آذى الله ورسوله فكل من آذى الله ورسوله قتل والسب أذى لله ورسوله باتفاق المسلمين فيكون موجباً للقتل .

الخامس: عن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (من سب نبيا فاقتلوه ومن سب أصحابي فاجلدوه) رواه الخلال وأبوالقاسم الآجري والهروي.

وظاهره قتله من غير استتابة لكن فيه عبدالعزيز بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف قاله شيخ الإسلام .

السادس: عن أبي برزة قال : اغلظ رجل لأبي بكر الصديق فقلت أقتله فانتهرني، وقال : (ليس هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ) رواه النسائي وأبو داود .

وهذا الحديث يفيد أن من سبه ﷺ في الجملة أبيح قتله وهو عام في المسلم والكافر . وقد استدل به جماعات من العلماء على قتل ساب الرسول .

السابع: قصة العصماء بنت مروان الأوسية ما روي عن ابن عباس قال : هجت امرأة من خطمة من الأوس النبي ﷺ فقال من لي بها فقال رجل من قومها أنا يا رسول الله فنهض فقتلها فأخبر النبي ﷺ فقال: (لا ينتطح بها عنزان) ، وقال : (إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى عمير بن عدي) ، فندب الرسول ﷺ إلى قتل هذه المرأة التي سبته فالرجل من باب أولى .

وقصتها مبسوطة عند بعض أهل المغازي وكان الرجل عمير بن عدي فامتدحه حسان بأبيات . وكان قتلها بعد بدر وذكر هذه القصة أصحاب السير كابن سعد والعسكري وأبو عبيد في الأموال والواقدي وغيرهم وهي مشهورة وأنها قتلت لسبها النبي ﷺ.

الثامن : حديث أنس بن زنيم الديلي أنه هجا رسول الله ﷺ فسمعه غلام من خزاعة فشجه وكان قد ندر رسول الله دمه أي أهدره فلما بلغه ذلك جاء إلى رسول

الله ﷺ معتذراً ومدحه في قصيدة، فلما بلغ رسول الله قصيدته واعتذاره وكلمه فيه نوفل بن معاوية الديلي وشفع فيه وكان قد شجه بعض بني خزاعة فقال رسول الله " قد عفوت عنه " قال نوفل فداك أبي وأمي ثم قدم واعتذر عنه وقال إنهم قد كذبوا عليه . ذكره ابن إسحاق والواقدي وغيرهما .

قال ابن تيمية في الصارم المسلول : (فوجه الدلالة أن النبي ﷺ كان قد صالح قريشاً عشر سنين ودخل فيهم خزاعة وبنو بكر ثم إن هذا الرجل المعاهد هجا رسول الله على ما قيل عنه وشجه ذلك الرجل فلو لا أنهم علموا أن هجاء النبي ﷺ من المعاهد مما يوجب الانتقام منه لم يفعلوا ذلك . ثم إن النبي ﷺ هدر دمه لذلك وهذا نص في أن المعاهد الهاجي يباح دمه ثم إنه أسلم في شعره ولهذا عدوه من الصحابة وقوله "تعلم رسول الله " دليل على إسلامه ومع ذلك فأنكر أنه هجاه ورد شهادة الذين شهدوا عليه فإنهم أعداؤه وبينهم حروب وقتال فلو لم يكن ما فعله مبيحا لدمه لما احتاج إلى فعل شيء من ذلك ، ثم إنه بعد إسلامه واعتذاره وتكذيبه المخبرين ومدحه لرسول الله طلب العفو منه عن إهدار دمه والعفو إنما يكون مع جواز العقوبة على المذنب فعلم أنه كان له أن يعاقبه بعد مجيئه مسلماً معتذراً وإنما عفا عنه حلما وكرما مع أن العهد كان عهد هدنة ليس عهد جزية والهادن المقيم ببلده يظهر ببلده ما شاء فلا ينتقض عهده حتى يحارب فعلم أن الهجاء من جنس الحراب وأغلظ منه وأن الهاجي لا ذمة له).

التاسع : قصة ابن أبي سرح: وذلك أن يوم فتح مكة اختبأ عبدالله بن أبي سرح عند عثمان بن عفان فجاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ فقال : يا رسول الله بايع عبدالله فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى فبايعه بعد الثلاث ثم أقبل على أصحابه فقال : (أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله) فقالوا : ما ندري يا رسول الله ما في نفسك ألا أومأت إلينا بعينك فقال (إنه ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين) رواه أبو داود بسند صحيح والنسائي.

وكان قد نذر رسول الله دمه وكان أخا عثمان من الرضاعة فشفع له إلى رسول الله فتركه ، وكان ابن أبي سرح هذا قد أسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين، وكان يكتب لرسول الله الوحي، وكان لما رجع إلى المشركين يقول لهم: إني لأصرفه كيف شئت إنه ليأمرني أن أكتب له الشيء فأقول له كذا أو كذا فيقول : نعم ، وذلك أن الرسول ﷺ كان يقول: عليم حكيم، فيقول: أو أكتب عزيز حكيم ، فيقول له: نعم كلاهما سواء.

وقيل : إن فيه نزلت آية : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ الأنعام: ٩٣.

فوجه الدلالة أنه افترى على الرسول ﷺ بأنه كان يتمم له الوحي ويكتب ما يريد ويقره رسوله الله على ذلك وهذا نوع من أنواع السب .

فإباحة دم ابن أبي سرح بعد مجيئه تائباً مسلماً وقول رسول الله (هلا قتلتموه) ثم عفوه عنه بعد ذلك، دليل على أن النبي ﷺ كان له أن يقتله وأن يعفو عنه وهو دليل على أن له أن يقتل من سبه وإن تاب وعاد إلى الإسلام .

وصح أن ابن أبي سرح كان قد رجع إلى الإسلام قبل الفتح وقال لعثمان: (إن جرمي عظيم وقد جئت تائباً) ثم جاء به إلى النبي ﷺ بعد الفتح وهدوء الناس بعدما تاب، فأراد النبي ﷺ من المسلمين أن يقتلوه حينئذ وتربص زمانا ينتظر قتله ويظن أن بعضهم سيقتله وهذا أوضح دليل على جواز قتله بعد إسلامه .

وكذلك لما افترى عليه كاتب آخر مثل ذلك قصمه الله وعاقبه بأن أماته وكلما دفنوه تلفظه الأرض . والخبر رواه البخاري .

فهذا من أوضح الدلالة أن الله منتقم لرسوله ممن طعن عليه .

وأعلم أن افتراء ابن أبي سرح والكاتب الآخر النصراني على رسول الله ﷺ بأنه كان يتعلم منهما افتراء ظاهر ، فإن النبي ﷺ لا يكتبه إلا ما أنزله الله عليه ولا يأمره أن يثبت قرآناً إلا ما أوحاه الله ولا يتصرف به كيف شاء بل يتصرف كما يشاء الله تعالى *.

---

* تنبيه : اختلف أهل العلم هل كان رسول الله أقره على أن يكتب شيئاً غير ما ابتدأه النبي ﷺ بإكتابه وهل قال له شيئاً على أقوال :

الأول: أن النصراني وابن أبي سرح افتريا ذلك كله وأنه لم يصدر منه إقرار على كتابة غير ما قاله أصلا وإنما هما افتريا ذلك لينفروا الناس عنه.

الثاني : أن النبي ﷺ قال له شيئاً فيقول له ويملي عليه سميعاً بصيراً فيكتب سميعا عليما فيقول له دعه ونحو ذلك ، ويكون كل واحد من الحرفين قد نزل فيقول له أكتب كذا وإن شئت كذا فكل صواب وقد جاء مصرحا عن النبي ﷺ أنه قال أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف إن قلت عزيز حكيم أو غفور رحيم فهو كذلك ما لم تختم آية رحمة بعذاب أو آية عذاب برحمة .

العاشر : حديث القينتين لابن خطل اللتين كانتا تغنيان بهجاء النبي ﷺ ومولاة بني هاشم . فأمر رسول الله بقتلها فقتلت إحداهما وكمنت الأخرى حتى استؤمن لها . ذكره محمد بن عائذ وابن إسحاق والواقدي .

ووجه الدلالة : أن تعمد قتل المرأة لمجرد الكفر الأصلي لا يجوز بالإجماع وقد استفاضت بذلك السنة عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن قتل النساء والصبيان، فعلم أن أمره بقتل المرأتين وهما بدار حرب إنما كان لأجل الهجاء الذي كانتا تغنيان به، فمن هجاه وسبه وجب قتله بكل حال، فإذا تعين قتل المرأة وهي حربية بل وأمة ليست حرة ولم يقبل إسلامها، فإن الذمية والمسلمة المرتدة أولى بالقتل، كما أن المسلم أو المعاهد أولى من النساء .

الحديث الحادي عشر : ما روي في الصحيحين أنه ﷺ دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر فلما نزعه جاء رجل فقال ابن خطل متعلق بأستار الكعبة فقال :(اقتلوه) . وعند ابن حبان : فبقر بطنه أبو برزة وهو متعلق بأستار الكعبة .

فقتل ، وكان جرمه أن النبي ﷺ استعمله على الصدقة وأصحبه رجلا يخدمه فغضب على رفيقه لكونه لم يصنع له طعاماً فقتله، ثم خاف أن يقتل فارتد واستاق إبل الصدقة ، وأنه كان يهجو رسول الله ﷺ ويأمر جاريتيه تغنيان بذلك ، فله ثلاث جرائم مبيحة لدمه قتل النفس والردة والهجاء .

فليس قتله لأجل القصاص لأنه كان ينبغي أن يسلم إلى أولياء القتيل الذي قتله من خزاعة إما أن يقتلوه وإما أن يعفوا عنه أو يأخذوا الدية .

الثالث : أنه كان يقول للنبي ﷺ أكتب تعملون أو تفعلون فيقول له أكتب أي ذلك شئت، فيوفقه الله للصواب من ذلك فيكتب أحب الحرفين إلى الله إن كان كلاهما منزلاً أو يكتب ما أنزله الله فقط وكان هذا التخيير من النبي ﷺ توسعة في المنزل وثقة في الله بحفظ القرآن وعلما بأنه لا يكتب إلا ما أنزل وليس هذا بمنكر في كتاب تولى الله حفظه وضمن أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

الرابع : أنه ربما كان يسمع من النبي ﷺ الآية حتى لم يبق منها إلا كلمة أو كلمتان فيستدل بما قرأ منها على باقيها كما يفعله الفطن الذكي فيكتبه ثم يقرأه على النبي ﷺ فيقول:(كذلك أنزل)، كما اتفق قول عمر في قوله:﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ قال ابن تيمية: والقول الأول أشبه الأقوال.

ولم يقتل لمجرد الردة أيضاً لأنه المرتد يستتاب وإذا استنظر أنظر ، وهذا ابن خطل قد فر إلى البيت عائذاً به طالباً للأمان تاركاً للقتال ملقيا للسلاح ، وقد أمر النبي ﷺ بعد علمه بذلك بقتله ، وليس هذا سنة من يقتل لمجرد الردة فثبت أنه إنما كان لأجل الهجاء والسب والطعن في الدين .

الحديث الثاني عشر : أن النبي ﷺ أمر بقتل جماعة لأجل سبه وقتل جماعة لأجل ذلك مع كفه عمن هو بمنزلتهم في كونه كافراً حربياً فمن ذلك :

١- ما جاء عن ابن المسيب أن النبي ﷺ أمر يوم فتح مكة بقتل ابن الزبعرى .

٢- وذكر ابن إسحاق قال لما قدم رسول الله المدينة منصرفا عن الطائف كتب بجير بن زهير إلى أخي كعب بن زهير يخبره أن رسول الله قد قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه وأن من بقي من شعراء قريش ابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه فهرب ابن الزبعري إلى نجران ثم قدم على رسول الله مسلما وله أشعار حسنة في التوبة والاعتذار فأهدر دمه للسب مع أمانه لجميع أهل مكة إلا من كان جرمه مثله .

٣- ومن ذلك عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عم الرسول ﷺ قصته في هجائه للنبي مشهورة وكان أخاه من الرضاعة أرضعته حليمة فأهدر دمه لما أذاه وهجاه حتى جاء واعتذر وأسلم وجعل يتشفع بعمه العباس وبعلي وبكل أحد ثم دخل عليه وأنشده في إسلامه واعتذاره حتى رق له فقال : لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد

وفي رواية قال فطلبنا الدخول على رسول الله فأبى فكلمته أم سلمة زوجته لعبد الله بن أبي أمية وأبي سفيان بن الحارث فقال يا رسول الله صهرك وابن عمتك وابن عمك وأخوك وقد جاء الله بهما مسلمين لا يكونان أشقى الناس بك وقد عفوت عمن هو أعظم جرما منهما وأنت أحق الناس عفواً عن جرمه فقال هتك عرضي لا حاجة لي به فلما بلغ الخبر لأبي سفيان وكان معه ابنه فقال والله ليقبلن مني أو لأذهبن أنا وابني حتى نموت في البرية جوعا وعطشا وأنت أحلم الناس وأكرم الناس فرق رسول الله حينئذ فأذن ودخلا فأسلما وكان حسنى الإسلام قتل عبدالله ابن أبي أمية بالطائف ومات أبو سفيان بالمدينة في خلافة عمر .

فوجه الدلالة : أنه نذر دم أبي سفيان بن الحارث مع قرابته دون غيره من صناديد قريش الذين كانوا أشد تأثيراً بالقتال واليد والمال وليس له سبب سوى

السب والهجاء ثم جاء مسلماً وهو يعرض عنه وكان من شأنه أن يتألف الأباعد فكيف بعشيرته كل ذلك بسبب هتك عرضه كما فسره في الحديث .

٤- كذلك أمر يوم الفتح بقتل ستة سماهم : ابن أبي سرح وابن خطل والحويرث بن نقيد ومقيس بن صبابة وعكرمة بن أبي جهل وهبار بن الأسود .

وقتل علي الحويرث .

فمثل هذا مشهور عن هؤلاء وقد رواه الأئمة وأكثر ما فيه أنه مرسل والمرسل إذا روي من جهات مختلفة لاسيما ممن له عناية بهذا الأمر كان كالمسند بل بعض ما يشتهر عند أهل المغازي أقوى مما يروى بالإسناد الواحد .

٥- كذلك عقبة بن أبي معيط ضرب عنقه علي حين أسر يوم بدر ، فقال يا معشر قريش مالي أقتل من بينكم صبراً ، فقال الرسول ﷺ بكفرك وافترائك على رسول الله .

٦- كذلك النضر بن الحارث قتله عاصم بن ثابت الأنصاري لسبه لرسول الله ، ففي هذا بيان أن السب أوجب قتل هذين من بين أسارى بدر وأمر بقتل من كان يهجوه بعد الفتح من قريش وسائر العرب .

كذلك ما ذكره أصحاب السير منهم سعيد بن يحي الأموي في مغازيه أن جني سب وهجا فقتله عفريت من الجن كان قد أسلم فأخبر به رسول الله الناس .

٧- كذلك أبو رافع بن أبي الحقيق اليهودي وقصته مشهورة في الصحيح .

فكل هذه الأحاديث دالة على أن من كان يهجوه ويؤذيه فإنه يقتل ويحض ﷺ عليه الناس .

٨- قصة أبي عفك اليهودي ذكره أهل المغازي والسير وكان من شأنه هجاء النبي ﷺ حتى خرج إلى بدر وظفره الله بمن ظفره فحسده وهجاه وذم من اتبعه أعظم ما فيها قوله : فيسلبهم أمرهم راكب حراما حلالاً لشتى معا . قال سالم بن عمير: عليّ نذر أن أقتله فقتله .

قال ابن تيمية : (وقتل أبو عفك قديم قبل قتل ابن الأشرف وهذا فيه دلالة واضحة على أن المعاهد إذا أظهر السب ينتقض عهده ويقتل غيلة) الصارم ٢١٣ .

الثالث عشر: ما روي من حديث أبي القاسم عبدالله بن محمد البغوي ورواه أبو أحمد بن عدي في الكامل قال كان حي من بني ليث من المدينة على ميلين وكان رجل قد خطب منهم في الجاهلية فلم يزوجوه فأتاهم عليه حلة فقال إن رسول الله

ﷺ كساني هذه الحلة وأمرني أن أحكم في دمائكم وأموالكم ثم نزل على تلك المرأة التي كان يحبها فأرسلوا إلى رسول الله فقال كذب عدو الله ثم أرسل رجلاً فقال إن وجدته فاقتله وإن وجدته ميتا فأحرقه في النار فانطلق فوجده قد لدغ فمات فحرق بالنار، فعند ذلك قال ﷺ : (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) . وإسناده على شرط الصحيح لا يعلم له علة . وله شاهد وفيه ثم قال لا تحرقه فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار .

قال ابن تيمية : (وللناس في هذا الحديث قولان :

أحدهما : الأخذ بظاهره في قتل من تعمد الكذب على رسول الله ومن هؤلاء من قال يكفر بذلك قاله جماعة .

ووجه ذلك أن الكذب عليه كذب على الله ولهذا قال :" إن كذباً علي ليس ككذب على أحدكم " فإن ما أمر به الرسول فقد أمر الله به يجب اتباعه كما يجب إتباع أمر الله فإن الكاذب عليه كالمكذب له .

يوضحه أن تكذيبه نوع من الكذب فإن مضمون تكذيبه الإخبار عن خبره أنه ليس بصدق وذلك إبطال لدين الله .

وأيضاً فإن الكاذب عليه يدخل في دينه ما ليس منه عمداً ويزعم أنه يجب على الأمة التصديق بذلك .

وهو أيضاً استهزاء واستخفاف به لأنه يزعم أنه أمر بأشياء ليست مما أمر به بل وقد لا يجوز الأمر بها وهذا نسبة له إلى السفه أو أنه يخبر بأشياء باطلة وهذا نسبة له إلى الكذب وهو كفر صريح .

وبالجملة فمن تعمد الكذب على الله فهو كالمتعمد لتكذيب الله وأسوأ حالاً فكذلك الكذب على رسوله كالتكذيب له .

واعلم أن هذا القول في غاية القوة .

فثبت أن الحديث نص في قتل الطاعن فإذا قتل من كذب عليه فسابه أولى بالقتل لأنه طاعن ويؤيد ذلك أنهم لو ظهر لهم طعن وسب لبادروا إلى الإنكار عليه لكن رابهم أمره فتوقفوا حتى استثبتوا ذلك من النبي ﷺ لما تعارض وجوب طاعة الرسول عظم ما أتاهم به هذا اللعين وإن كان هذا الرجل لم يقصد الطعن والإزراء وإنما تحصيل شهوته بالكذب عليه، إلا أن ذلك يلزم الطعن فيه ﷺ لأن من زعم أنه حلل المحرمات فقد انتقصه وعابه) .

الرابع عشر : حديث الأعرابي الذي قال للنبي ﷺ لما أعطاه ما أحسنت ولا أجملت فأراد المسلمون قتله فقال لو قتلتموه لدخل النار .

فيدل على أن من آذاه إذا قتل دخل النار وذلك لكفره وجواز قتله ، وفي هذا الحديث أنه ﷺ عفا عنه لأنه كان له أن يعفو عمن آذاه .

الخامس عشر : قال سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه عن الشعبي لما افتتح رسول الله ﷺ مكة دعا بمال العزى فنثره بين يديه ثم دعا رجلا قد سماه فأعطاه منها ثم دعا أبا سفيان ابن حرب فأعطاه منها ثم دعا سعيد بن حريث فأعطاه ثم دعا رهطا من قريش فأعطاهم فجعل يعطي الرجل القطعة من الذهب فيها خمسون مثقالاً وسبعون ، فقام رجل فقال: إنك لبصير حيث تضع التبر، ثم قال الثانية فأعرض ﷺ عنه، ثم قام الثالثة فقال: إنك لتحكم وما نرى عدلاً ، فقال: (ويحك إذا لا يعدل أحد بعدي) ثم دعا رسول الله ﷺ أبا بكر فقال: (أذهب فاقتله) ، فذهب فلم يجده ، فقال : (لو قتلته لرجوت أن يكون أولهم وآخرهم) .

فهذا نص في قتل مثل هذا الطاعن على رسول الله ﷺ من غير استتابة .

وهذه قصة غير قصة غنائم حنين، ولا قصة الذهب الذي بعثه علي من اليمن.

وكان هدم العزى عقيب الفتح سنة ثمان ، وحنين بعد ذلك في ذي القعدة، وحديث علي في سنة عشر .

١٦- ومن ذلك قول الذي قال له حين قسم غنائم حنين إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق . والحديث في الصحيح.

ولم ينكر على عمر، وإنما منعه لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه كذا قاله ﷺ .

١٧- ومن ذلك قول عبدالله بن أبي ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ المنافقون:٨ ، فقال عمر : دعني أضرب عنقه ، فقال : (إذن ترعد له أنوف) وكان ذلك والإسلام ضعيفا فخاف أن ينفر الناس عن الإسلام . ولم ينكر على عمر.

١٨- وكذلك قوله ﷺ فيه : (من يعذرني في رجل بلغ أذاه في أهل بيتي) ، قال سعد بن معاذ أنا أعذرك إن كان من الأوس ضربت عنقه ولم ينكر عليه النبي ﷺ رواه مسلم .

وهذا يدل على أن قتل مؤذيه متقرر في الدين وعند الصحابة أجمعين .

١٩- وفي الصحيحين حديث الذي لمزه في قسمه الذهيبة التي أرسل بها علي وقال ﷺ (يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد).

فهذه الأحاديث كلها دليل على أن النبي ﷺ أمر بقتل طائفة هذا الرجل العائب عليه، وأخبر أن في قتلهم أجراً لمن قتلهم وقال هم شر قتلى تحت أديم السماء فرتب القتل على مروقهم من الدين، فعلم أنه الموجب لقتلهم لما غلوا فيه حتى مرقوا وليس لأجل قتالهم المسلمين، وكان هذا أولهم قد خرج في زمنه ﷺ فعاب قسمه .

فكل من عاب شيئاً من سنته فحكمه كحكمهم، فمن زعم أنه يجور في قسمه فهو مكذب له، ولا يجب إتباعه عنده، وهو مناقض لما تضمنته الرسالة من أمانته ووجوب طاعته وزوال الحرج عن النفس من قضائه بقوله وفعله، فإن الله قد أوجب طاعته والانقياد لحكمه وأنه لا يحيف على أحد، فمن طعن في هذا فقد طعن في صحة تبليغه وذلك طعن في الرسالة ، وهذا من أقبح الكفر وأشنعه .

٢٠- وعمر قتل الرجل الذي لم يرض بحكم النبي ﷺ ونزل القرآن بإقراره على ذلك وجرمه أسهل من جرم هذا .

٢١- عن أنس أن رجلا كان يتهم بأم ولد النبي ﷺ ، فأمر عليا بأن يضرب عنقه، فأتاه علي فإذا هو في ركى يتبرد، فقال: له أخرج وتناول يده فأخرجه، فإذا هو مجبوب ليس له ذكر، فكف علي ، ثم أتى النبي ﷺ فقال له: إنه مجبوب ما له ذكر . رواه مسلم .

٢٢- وكذلك لما تزوج رسول الله قيلة بنت قيس أخت الأشعث ومات قبل أن يدخل بها وقبل أن تقدم عليه وقيل إنه خيرها بين أن يضرب عليها الحجاب وتكون من أمهات المؤمنين وبين أن يطلقها فتنكح من شاءت فاختارت النكاح فتزوجها عكرمة بعد رسول الله ﷺ فبلغ أبا بكر فهم بقتلها حتى قال له عمر ما هي من أمهات المؤمنين فتركها . أخرجه الطبري في تفسيره .

٢٣- قال النبي ﷺ : (وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالاً يهوي بها في جهنم). رواه البخاري .

ثالثا إجماع الصحابة :

١- إجماع الصحابة أن قتل ساب النبي ﷺ والمستهزء به بهديه ودينه حد من الحدود وليس قتلا على مجرد الكفر والحرابة وأنه جناية زائدة على مجرد الكفر والمحاربة وهي تستوجب القتل لفاعله ولا يسقط القتل بحال ومما يدل على ذلك :

قول أبي بكر : (إن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود) وقال ذلك في المرأتين اللتين غنتا بشتم النبيﷺ ورفع المهاجر أمير اليمامة خبرهما له ، ونقل ذلك عنه من دون أي نكير من الصحابة . وذكر خبره سيف في كتاب الردة والطبري في تاريخه وغيرهم .

كما نقل نحوه عن عمرﷺ حين أتي له برجل سب النبي ﷺ فقتله ، وقال : (من سب الله أو سب أحد من الأنبياء فاقتلوه) رواه حرب في مسائله . الصارم ص٣٨١/ ص٥٤٠ .

٢- عن أبي برزة قال أغلظ رجل لأبي بكر الصديق ﷺ فقلت أقتله؟ فانتهرني وقال : (ليس هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ) رواه النسائي وأبو داود .

وهذا يفيد أن من سبه ﷺ في الجملة أبيح قتله وهو عام في المسلم والكافر . وقد صار دون إنكار من الصحابة فعد إجماعا .

٣- قول ابن عمر لما مر براهب وقيل أنه يسب النبي ﷺ : (لو سمعته لقتلته وأصلت السيف عليه فأنكر الراهب) . رواه الخلال في أحكام أهل الملل .

٤- قول عمر : (إنا لم نعطك العهد لتدخل علينا في ديننا، والذي نفسي بيده لأن عدت لأضربن الذي فيه عيناك) .

وذلك لما قاطع النبطي عمر حين قال ومن يضلل فلا هادي له فقال إن الله لا يضل أحدا . رواه حرب .

٥- قتل خالد المرأة التي سبت النبي ﷺ .

٦- توعد محمد بن مسلمة ابن يامين اليهودي بالقتل لما قال قتل كعب غدرا.

٧- قول ابن عباس في من قذف زوجات النبي ﷺ ليس له توبة . أخرجه الطبري وابن أبي حاتم في تفسيرهما .

الإجماع :

نقل الإجماع على كفر من استهزأ بالله ﷻ أو برسوله ﷺ أو بدينه أو سبهم :

إسحاق بن راهوية في التمهيد لابن عبد البر . ٤/ ٢٢٦.

قال محمد بن سحنون المالكي :" أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر وحكمه عند الأئمة القتل ومن شك في كفره وعذابه كفر " الصارم المسلول لابن تيمية . ٢/ ١٥.

قال القاضي عياض : (أن من استخف بالقرآن أو بالمصحف أو بشيء منه .. فهو كافر عند أهل العلم بالإجماع) الشفا ٢/ ٢٦٣ ، ٥٨٢ .

قال ابن المنذر:(أجمع أهل العلم على وجوب القتل على من سب النبي ﷺ).

قال ابن تيمية في الصارم : (الطاعن في الأنبياء كافر يجب قتله باتفاق العلماء).

قال ابن العربي في أحكام القرآن :" لا يخلوا أن يكون ما قالوه جداً أو هزلاً وهو كيفما كان كفر لا خلاف فيه ".

قال ابن حزم:" ولا خلاف في أن من نابذ جميع المسلمين وقاتلهم لإسلامهم فهو كافر ". الفصل ٣/ ٢٣٧. وفي المحلى ١٣/ ٤٩٨

المرداوي في الإنصاف . ١٠ / ٣٢٦.

قال الإمام محمد : (أيظن أن هؤلاء ليسوا كفاراً ؟ ولكن لا تستنكر الجهل الواضح لهذه المسائل لأجل غربتها ،ومن أحسن ما يكشف لك الإشكال ما قدمت لك بإجماع العلماء أن هذا أكثر في زمانهم) تاريخ نجد ٤٥٢ .

قال الشيخ سليمان: (أجمع العلماء على كفر من استهزأ بالله أو بكتابه ،أو برسوله، أو بدينه،ولو هازلاً لم يقصد الاستهزاء إجماعاً) التيسير ٦١٧ .

قال الشيخ حمد بن عتيق : (أعلم أن العلماء قد أجمعوا على أن من استهزأ بالله أو رسوله أو كتابه فهو كافر) الدرر ٤٢٨/ ١٠

فائدة : حقيقة مراجعة الصحابة للنبي ﷺ في بعض الأمور :

مثل قصة الأنصار في غنائم حنين فهي ليست من الاعتراض عليه وإنما ليتبين لهم وجهة ذلك فيزدادوا يقينا وعلما وبصيرة، أو لتكميل نظره من باب المشورة كفعل الحباب في منزل معركة بدر وقول سعد ابن معاذ في مصالحة النبي ﷺ غطفان على ثمار المدينة ، وكل هذا صريح في تفريقهم بين ما كان من باب الدين والحكم والقضاء والفتيا وما كان من أمور الرأي والدنيا والسياسة القابلة للمشورة

والمناقشة، أو أن تكون بعضها صدرت عن شهوة وعجلة لا شكا في الدين ويكون معصية كما قال سبحانه في كراهتهم للحل عام الحديبية وتابوا ومنهم عمر ، ومثله ما قاله الله عنهم ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ الأنفال: ٦ ، وكالذين رفعوا أصواتهم فوق صوته أذنبوا ذنبا ثم تابوا منه .

مسألة : أدلة انتقاض عهد الذمي إن سب النبي ﷺ ووجوب قتله:

١- قال تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ التوبة: ٢٩ ، وساب الرسول والدين ليس بصاغر فلا يقبل من العهد بل يجب قتله وإن كان معاهد أو ذميا نقض عهد وقتل .

٢- قال تعالى : ﴿ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ ﴾ التوبة: ٧ .

فنفى الله تعالى أن يكون للمشرك عهد إلا من عاهده الرسول والمؤمنين واستقام على العهد ، ومن المعلوم أن سب الرسول ﷺ والدين يناقض الاستقامة وهو من الطعن في الدين فينقض عهده ويهدر دمه . وقد أهدر الرسول ﷺ دماء رجال ونساء سبوه .

٣- قال تعالى : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ التوبة.

فدلت الآية أن الساب والمستهزئ ناكث في يمينه طاعن في الدين، وأن النكث والطعن يستوجب المقاتلة بل وسمي الطاعن إمام في الكفر وحث على قتاله .

٤- قال تعالى ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ ﴾ التوبة: ١٣ .

فجعل سبحانه همهم بإخراج الرسول من موجبات قتالهم وذلك لما فيه من الأذى فالسب أغلظ .

٥- قال تعالى : ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾ التوبة: ١٤ .

فأمر سبحانه بقتال الناكثين الطاعنين في الدين ووعدنا بالنصر عليهم وشفاء صدورنا لتأذينا من ذلك الطعن، وتدل الآية على أن الطاعن مستحق لذلك كله كما

أنه سبحانه جعل شفاء الصدور من الطاعنين مطلب في الشرع ولا يحصل إلا بقتل الساب لما في سبه من شدة الأذى وقد فعل الرسول ذلك مع الطاعنين في الدين والرسول الأمين .

٦- قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ التوبة: ٦٣ ، وأذية الرسول أعظم محادة لله ولرسوله وبدليل ذكر هذه الآية بعد قوله ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ ﴾ ، وقد قال سبحانه في المحادد أنه في الأذلين ولا يصح أن يكون ذليلاً وهو معصوم الدم.

٧- قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ الأحزاب: ٥٧ ، وقد قال الرسول ﷺ من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله وكان معاهدا.

٨- قتل المرأة اليهودية وأهدر الرسول ﷺ دمها، ولم يمنع كونها امرأة وكونها ذمية من قتلها لما سبت الرسول ﷺ .

٩- أن كعب بن الأشرف كان معاهدا مستأمنا وقتله الصحابة بأمر النبي ﷺ، مع كونه لعنه الله قد أمنهم على دمه وماله واعتقاده بقاء العهد وجاؤوه مجيء من قد آمنه ، وما منع ذلك من قتله لما آذى الرسول ﷺ، فدل على أن الاستهزاء بالرسول وسبه موجب للقتل لا يعصم منه أمان ولا عهد . الصارم ٥٢٢. ٧٦٨ .

١٠- أن الذمي إذا زنى بمسلمة وجب قتله وهذا حكم عمر ﷺ فإذا كان هذا في عرض مسلمة فكيف بعرض رسول الله ﷺ الذي يتعلق به حق لله وحق لرسوله وحق لكل مؤمن به، فهو أولى بالقتل وعدم قبول توبته لو تاب .

١١- أن الساب والمستهزئ محارب لله ومفسد وقد أمر الله تعالى بقتل المحارب والمفسد .

وهذه الاستدلالات السابقة من كتاب ابن تيمية في الصارم المسلول على من سب الرسول.

المسألة الثالثة : أقوال أهل العلم :

قال الإمام مالك : (من سب رسول الله ﷺ أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل مسلما كان أو كافرا ولا يستتاب) الشفاء ٢/ ٢١٦ .

وقال الإمام الشافعي :" من ذكر كتاب الله أو محمد رسول الله ﷺ أو دين الله بما لا ينبغي فقد نقض عهده وأحل دمه وبرئت منه ذمة الله وذمة رسوله " من مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٥٠٥ .

قال الإمام أحمد : (كل من شتم النبي ﷺ أو تنقصه مسلما كان أو كافرا فعليه القتل وأرى أن يقتل ولا يستتاب) رواه الخلال في أحكام أهل الملل .

قال عبدالله بن الإمام أحمد :" سألت أبي عن رجل قال لرجل يا ابن كذا وكذا أنت ومن خلقك؟ قال أبي هذا مرتد عن الإسلام قلت لأبي تضرب عنقه قال نعم تضرب عنقه " مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبدالله ٣/ ١٢٩١.

قال ابن بطه في الإبانة :" هذا يا أخواني الصديق الأكبر يتخوف على نفسه الزيغة إن هو خالف شيئاً من أمر نبيه ﷺ فماذا عسى أن يكون من زمان أضحى أهله يستهزءون بنبيهم وبأوامره ويتباهون بمخالفته ويسخرون بسنته نسأل الله عصمة من الزلل ونجاة من سوء العمل " .

قلت كيف للإمام ابن بطه وهو يتكلم عن أهل القرن الرابع لو رأى زماننا وما آل إليه حالنا والله المستعان .

وقال محمد بن سحنون المالكي :" أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر وحكمه عند الأئمة القتل ومن شك في كفره وعذابه كفر " .

قال أبو زرعة :" إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من الصحابة فأعلم أنه زنديق وذلك أن القرآن حق والرسول حق وما جاء به حق وما أدى إلينا ذلك كله إلا الصحابة فمن جرحهم فقد أراد إبطال الكتاب والسنة " .

قال ابن عبدالبر في الكافي :" ومن شتم الله تبارك وتعالى أو شتم رسوله ﷺ أو شتم نبياً من أنبياءه الله قتل إذا كان مظهر الإسلام بلا إستتابة " .

وقال ابن المنذر:(أجمع أهل العلم على وجوب القتل على من سب النبي ﷺ).

وفي تفسير القرطبي وغيره" روى أبو عروة قال كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك هذه الآية " محمد رسول الله والذين معه" حتى بلغ "يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار" فقال مالك من أصبح

من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية وقال لاحظ له من الفيء ".

(من استخف بالقرآن أو بالمسجد أو نحوه مما يعظم في الشرع كفره). الفتاوى التاتارخانية ٥/ ٤٦١ .

وفي شرح ألفاظ الكفر للرشيد: " إذا وصف الله بما لا يليق به أو سخر باسم من أسمائه أو بأمر من أوامره أو أنكر وعده أو عيد يكفر .... ومن لم يقر ببعض الأنبياء أو عاب نبياً بشيء أو لم يرض بسنة من سنن المرسلين كفر " .

وقال القاضي عياض في الشفاء : أعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف أو شيء منه أو سبهما أو جحده أو حرفا منه أو آية أو كذب به أو بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر أو أثبت ما نفاه أو نفي ما اثبته على علم منه بذلك أو شك في شيء من ذلك فهو كافر عند أهل العلم بإجماع ".

وقال القاضي عياض:(لا خلاف أن ساب الله من المسلمين كافر حلال الدم).

قال ابن العربي في أحكام القرآن :" لا يخلوا أن يكون ما قالوه جداً أو هزلاً وهو كيفما كان كفر لا خلاف فيه ".

قال ابن حزم:" ولا خلاف في أن من نابذ جميع المسلمين وقاتلهم لإسلامهم فهو كافر ". الفصل ٣/ ٢٣٧.

قال ابن كثير في تاريخه عن ابن الراوندي وكتبه الساخرة بالرسول والدين :" وقد أسند إليه حكايات من المسخرة والاستهتار والكفر والكبائر منها ما هو صحيح عنه ومنها ما هو مفتعل عليه ممن هو مثله وعلى طريقة ومسلكه في الكفر والتستر في المسخرة يخرجونها في قوالب مسخرة وقلوبهم مشحونه بالكفر والزندقة وهذا كثير موجود في من يدعي الإسلام وهو منافق يتمسخرون بالرسول ودينه وكتابه " .

وقال النووي :" والفعل المكفر ما تعمده استهزاء صرحياً بالدين أو جحوداً له كإلقاء مصحف بقاذورة ".

وقال الحجاوي في الإقناع :" أو سب الله أو رسوله أو استهزأ بالله أو كتبه أو رسله أو أتى بقول أو فعل صريح في الاستهزاء بالدين أو وجد منه امتهان القرآن أو طلب تناقضه أو إدعا أنه مختلف أو مختلق أو مقدور على مثله أو أسقط حرمته أو أنكر الإسلام أو الشهادتين أو أحدهما كفر ".

قال ابن تيمية في رده على البكري عن عباد القبور: (وذلك إن هؤلاء الضالين مستخفون بتوحيد الله يعظمون دعاء غيره من الأمور وإذا أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك استخفوا واستهزؤوا بالرسول قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الصافات: ٣٥).

وقال فيه :" فإن الاستهزاء بهذه الأمور الله وآياته ورسوله متلازم فإن من استهزأ بآيات الله تعالى التي جاء بها الرسول ﷺ فهو مستهزئ برسالته حقيقة ومن استهزأ بآيات الله ورسوله فهو مستهزئ به ".

وقال : " الإيمان بجميع النبيين فرض واجب ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم ومن سب نبياً فهو كافر يجب قتله باتفاق العلماء ". الصفدية ٢/ ٣١١ .

وقال في الصارم: (السب هو الكلام الذي يقصد به الانتقاص والاستخفاف وهو ما يفهم في عقول الناس على اختلاف اعتقاداتهم كاللعن والتقبيح ونحوه).

وقال في الصارم : (الطاعن في الأنبياء كافر يجب قتله باتفاق العلماء) .

وقال في الصارم : (الطعن في الأنبياء طعن في توحيد الله وأسمائه وصفاته وكلام ودينه وشرائعه).

وقال في الصارم : (فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله سبحانه وتعالى والرسالة لعبده ورسوله ثم لم يتبع هذا الاعتقاد موجبه من الإجلال والإكرام الذي هو حال في القلب يظهر أثره على الجوارح بل قارنه الاستخفاف والتسفيه والإزدراء بالقول أو بالفعل كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه وكان ذلك موجباً لفساد ذلك الاعتقاد ومزيلاً لما فيه من المنفعة والصلاح).

وقال فيه : (فالكلام والفعل المتضمن للاستخفاف والاستهانة مستلزم لعدم التصديق النافع ولعدم الانقياد والاستسلام فلذلك كان كافراً) .

وقال فيه: (إن سب الله أو سب رسوله كفر ظاهراً وباطناً سواء كان الساب يعتقد أن ذلك محرم أو كان مستحلاً أو كان ذاهلاً عن اعتقاده هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل خلافا ما يقوله الجهمية والمرجئة).

وقال فيه :" إن الساب مظهر للتنقص والاستخفاف والاستهزاء بالله منتهكاً لحرمته انتهاكاً يعلم هو من نفسه أنه منتهك مستهزئ وأنه قال عظيماً تكاد تنفطر السموات والأرض منه وأن ذلك أعظم من كل كفر وتمرد على رب العالمين " .

وقال فيه :" ألا ترى أن قريشا كانت تقر الرسول ﷺ على ما كان يقوله من التوحيد وعبادة الله وحده ولا يقرونه على عيب آلهتهم والطعن في دينهم وذم آبائهم ، وقد نهى الله المسلمين أن يسبوا الأوثان لئلا يسب المشركون الله مع كونهم لم يزالوا على الشرك فعلم أن محذور سب الله أغلظ من محذور الكفر به ومما يبين أن السب قدر زائد على الكفر قوله تعالى (ولا تسبوا) ومن المعلوم أنهم كانوا مشركين مكذبين معادين ثم نهى المسلمون أن يفعلوا ما يكون ذريعة إلى سبهم الله" .

وقال ابن تيمية في الصارم:" فثبت أن كل من لمز النبي ﷺ في حكمه أو قسمه فإنه يجب قتله كما أمر به في حياته وبعد موته وإنما عفا عن ذلك اللامز في حياته كما قد كان يعفو عمن يؤذيه من المنافقين " .

وقال فيه : (وقد استدل بقصة ابن خطل طائفة من الفقهاء على أن من سب النبي ﷺ من المسلمين يقتل وإن أسلم حداً).

وقال فيه:" إن سب النبي ﷺ تعلق به عدة حقوق حق الله سبحانه حيث كفر برسوله وعادى أفضل أوليائه ومن حيث طعن في كتابه ودينه فإن صحتها موقوفة على صحة الرسالة ومن حين طعن في ألوهيته والطعن في الرسول طعن في المرسل، وتعلق به حق المؤمنين فالسب له أعظم عندهم من سب أنفسهم ، وتعلق به حق رسول الله ﷺ فإن الإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه مما أن الوقيعة فيه تفسد على بعض الناس إيمانهم وتنفرهم منه ".

وقال ابن تيمية في الصارم في من طعن في الصحابة :" وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفراً قليلا لا يبلغون بضعة عشر نفساً أو أنهم فسقوا عامتهم فهذا لا ريب أيضاً في كفره لأنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضا عنهم والثناء عليهم بل من يشك في كفر هذا فإن كفره متعين وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ".

وفي فتاوى اللجنة:(من استهزأ ببعض المستحبات كالسواك والقميص الذي لا يتجاوز نصف الساق والقبض في الصلاة ونحوه ونحوها .. فحكمه أنه يبين له مشروعية ذلك فإن أصر على الاستهزاء بالسنن الثابتة كفر بذلك لأنه بذلك يكون منتقصاً للرسول ﷺ ولشرعه والتنقص بذلك كفر أكبر).

وقال محمد بن عبد الوهاب:" الاستهزاء بالدين كفر صريح " .

وقال ابن سعدي في تفسيره ومثله الرازي :" الاستهزاء بالله ورسوله كفر يخرج عن الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة " .

قال حافظ الحكمي في أعلام السنة :" اعلم أن هذه الأربع يعني السجود لصنم والإستهانة بالقرآن وسب الرسول والهزل بالدين وما شاكلها ليست من الكفر العملي إلا من جهة كونها واقعة بعمل الجوارح إذ لا تقع إلا مع ذهاب عمل القلب من نيته وإخلاصه ومحبته وانقياده فهي وإن كانت عملية إلا أنها مستلزمة للكفر الاعتقادي ولابد " .

وقال محمد بن إبراهيم :" الذين شأنهم الاستهزاء بأهل الدين هذا قد يصل إلى الكفر ... لا يكاد يصدر إلا من منافق " .

قال عبدالعزيز بن باز عن مقال نشر في صحيفة عربية :" وقد أفزع هذا المقال كل مسلم قرأه أو سمعه لما اشتمل عليه من الكفر الصريح والجرأة على الله سبحانه وتعالى وعلى رسوله ﷺ من مؤئول دولة تنتسب إلى الإسلام كان من المفروض أن يدافع عن دينه وعن كتاب ربه ورسوله محمد ﷺ " فتاوى ومقالات ١/ ٨٧ .

وقرر المجمع الفقهي في مكة : (أن سليمان رشدي بما أتى به من مفتريات وقذف شخصي للرسولﷺ مرتد عن الإسلام ويستحق أن يطبق عليه حكم المرتد المتزندق) .

المسألة الرابعة : أوجه كون الاستهزاء كفر :

١- أن الاستهزاء ينافي الدين ويهدم أصل الإيمان ووجه ذلك : أن الإيمان قائم على تعظيم الله وإجلاله ومحبته والذل له والخضوع لـه، والاستخفاف بـالله أو بـأمر يتعلق به تعالى كأوامره ونواهيه وأخباره ودينه وشرعه وثوابه وعقابه وقضائه وقدره وأفعاله وأوصافه وآياته ورسله وملائكته وأوليائه، ينافي ذلك التعظيم ، والتعظيم والاستخفاف نقيضان ولا يمكن أن يجتمعان في قلب واحد، ولذلك كان الاستهزاء والسب أعظم النواقض على الإطلاق وردة صاحبه مغلظة.

قال ابن تيمية : " فالسب إهانة واستخفاف، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستخف، فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة فإنه لا يكون فيه انقياد أو استسلام فلا يكون فيه إيمان وهذا بعينه كفر إبليس ". الصارم ٩٦٧.

٢- أن الاستهزاء يستدعي البغض ، وأما السب فمتضمن لـه مقارن لـه ، ومعلوم أن الدين والعبادة مقامها على محبة الله والذل له ، والبغض نقيض المحبة.

٣- أن الاستهزاء يناقض الإسلام والعبودية ، لأن قوامها على الإنقياد والتسليم والإذعان، وهل المستهزئ المستخف بالدين يعتبر منقاداً للشرع وأي انقياد له مع استخفافه .

قال في الصارم : (فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله سبحانه وتعالى والرسالة لعبده ورسوله ثم لم يتبع هذا الاعتقاد موجبه من الإجلال والإكرام الذي هو حال في القلب يظهر أثره على الجوارح بل قارنه الاستخفاف والتسفيه والإزدراء بالقول أو بالفعل كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه وكان ذلك موجباً لفساد ذلك الاعتقاد ومزيلاً لما فيه من المنفعة والصلاح).

٤- أن الاستهزاء يستلزم التكذيب وعدم اعتقاد نبوته فإن المصدق للنبي ﷺ حقاً يكون مصدقاً بقلبه ولسانه وعمله، والمستهزئ مكذب بعمله وإن كان قد يوجد معه أصل التصديق والقبول والرضا وأنه لا يعلم أن سخريته تناقض ذلك وتجعله مرتدا كافرا، والقاعدة أنه ليس كل كفر تكذيب بل يكون الكافر مصدقاً بقلبه ولسانه مكذب بعمله أو عمله يستلزم التكذيب .

وقال في الصارم : (فالكلام والفعل المتضمن للاستخفاف والاستهانة مستلزم لعدم التصديق النافع ولعدم الانقياد والاستسلام فلذلك كان كافراً) .

قال ابن تيمية : (أما سب النبي ﷺ فإنه ينافي اعتقاد نبوته ويستلزم البراءة منه والمعاداة له) .

قال الشيخ حافظ الحكمي في أعلام السنة :" أعلم أن هذه الأربع يعني السجود لصنم والإستهانة بالقرآن وسب الرسول والهزل بالدين وما شاكلها ليست من الكفر العملي إلا من جهة كونها واقعة بعمل الجوارح إذ لا تقع إلا مع ذهاب عمل القلب من نيته وإخلاصه ومحبته وانقياده فهي وإن كانت عملية إلا أنها مستلزمة للكفر الاعتقادي ولابد " .

وهذا الوجه متعلق بإرتباط الظاهر والباطن والذي تخالفنا فيه المرجئة وسبق تقريره في مواضع .

مسألة : السب أعظم كفرا من الاستهزاء لأنه يقارنه البغض وتعمد الإهانة.

المسألة الخامسة : هدم الاستهزاء لمقامات الدين :

المستهزئ بالله مستهزئ بدينه ورسوله وأوليائه من باب التضمن لأن الاستهزاء بالفاعل يتضمن الاستهزاء بفعله .

المستهزئ بشيء مما أمر الله به أو أحبه ورضيه يستلزم السخرية بالله .

فمن استهزأ بآيات الله أو رسوله أو دينه أو أوليائه أو ملائكته أو أخباره أو ثوابه وعقابه أو أوامره ونواهيه فإن ذلك يستلزم الاستهزاء بمن تتبعه وجاءت من عنده وهو الله ﷻ لأنها مضافة إليه موصوف بها فهو المرسل والمتولي والمشرع.

كما أن الاستهزاء بالرسول أو المؤمنين أو القرآن أو الشريعة أو الملائكة متلازمة .

فمن استهزأ بالمؤمنين فقد وقع استهزاؤه بالرسول ﷺ لأنهم من أتباعه والمؤمنين به فليس السخرية إلا لأجل هذه الصفة فيهم .

ومن استهزأ بالرسول فإنه ولابد مستهزئ بالمؤمنين بل ومؤذياً لهم مستخف بأتباعه ومحبيه .

ومن استهزأ بالقرآن وقع استهزاؤه بالرسول والمؤمنين والعكس صحيح .

قال ابن تيمية في رده على البكري : (فإن الاستهزاء بهذه الأمور الله وآياته ورسوله متلازمة فإن من استهزأ بآيات الله تعالى التي جاء بها الرسول ﷺ فهو مستهزئ برسالته حقيقة ومن استهزأ بآيات الله ورسوله فهو مستهزئ به) .

وقال في الصارم (الطعن في الأنبياء طعن في توحيد الله وأسمائه وصفاته وكلام ودينه وشرائعه).

المسألة السادسة : حقوق الله والأمة في سب الرسول ﷺ :

يتعلق بسب الرسول حق لله تعالى لأن سب الرسول ﷺ سب لمرسله ﷻ، كما أن فيه أذية لولية وحبيبه ، كما يتعلق به حق للرسول ﷺ وحق لأتباعه المؤمنين به وحق لأحبابه من الملائكة والإنس والجن .

قال ابن تيمية في الصارم :" إن سب النبي ﷺ تعلق به عدة حقوق حق الله سبحانه حيث كفر برسوله وعادى أفضل أوليائه ومن حيث طعن في كتابه ودينه فإن صحتها موقوفة على صحة الرسالة ومن حين طعن في ألوهيته والطعن في الرسول طعن في المرسل، وتعلق به حق المؤمنين فالسب له أعظم عندهم من سب أنفسهم ، وتعلق به حق رسول الله ﷺ فإن الإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه مما يعني أن الوقيعة فيه تفسد على بعض الناس إيمانهم وتنفرهم منه ".

ولذلك من يسبه أو يستخف بهديه وسنته يجب قتله ردة ولو تاب واسلم، ولا يسقط القتل عنه حتى لو تاب على الصحيح ، ولا يجوز لنا أن نستتيبه ونقبل توبته وأمره إلى الله يوم القيامة وهو تعالى أعلم بصحة توبته وقبولها في الباطن.

وقد أخطأ من قال فيمن سب الرسول ﷺ عليه بالاعتذار وهذا من الجهل فإن حق الرسول ﷺ لا يسقط بالاعتذار إذ لابد من القتل ولا يشف صدور المؤمنين غيره كما قرره شيخ الإسلام في الصارم .

المسألة السابعة : أسباب وبواعث الاستهزاء :

١ - الكره والبغض والحقد والحسد :

وهو من أعظم أسباب الاستهزاء والسب فلا يجد الباغض للدين وأهله والرسول وشرعه متنفس غير اللمز والهمز والاستهزاء والطعن والسخرية والسب إذا لم يقدر على القتال وإظهار التصريح بالعداوة وهذا حال أعداء الرسل من المنافقين وضعاف المشركين واليهود.

قال ابن عباس : (كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً إذ خصهم الله برسوله ﷺ، وكانوا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا فأنزل الله : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ

إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ البقرة: ١٠٩) أخرجه الطبري في تفسيره .

وقال ﷺ : (ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين) رواه ابن ماجه .

قال ابن تيمية : (ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة وإذا أثنى على شخص أزال ذلك عنه بما استطاع من تنقصه في قالب دين وصلاح أو في قالب حسد وفجور وقدح ليسقط ذلك عنه، ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسخر ولعب ليضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزأ به) .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ النساء: ٥٤ .

وقال تعالى :﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ ﴾ القلم: ٥١ .

٢- الكبر واحتقار الغير :

كما قال تعالى عن حال الكفار :﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ الأنعام: ٥٣

قال تعالى :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ الأحقاف: ١١ .

قال تعالى : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ هود: ٢٧.

قال سبحانه : ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ النحل: ٢٢ .

وهذا داء أهل العظمة ممن يأنفون الانقياد للشريعة والمثول للدين وإتباع الرسول الكريم ، وأول من حمل خسة هذا الكفر إبليس حين استكبر وأبى امتثال أمر الله واحتقر آدم واستصغره وأكبر نفسه وعظم ذاته، فعوقب من جنس ذنبه بالإهانة والطرد والخزي والتحقير نعوذ بالله من الضلال.

قال محمد بن عبدالوهاب :" أصل الحنيفية عبادة الله وحده لا شريك له وتجنب الشرك ،فإن كان الإنسان ما عبدالله فهو مستكبر مثل ما يقع من غالب البدو من التهزي بالوضوء والصلاة " .

قال القاسمي في تفسير عن الهمزة واللمزة :(رذيلتان مركبتان من الجهل والبغض بالكبر ، لأنهما يتضمنان الإيذاء وطلب الترفع على الناس وصاحبهما يريد أن يتفضل على الناس ولا يجد في نفسه فضيلة يترفع بها فينسب العيب والرذيلة إليهم ليظهر فضله عليهم ولا يشعر أن ذلك عين الرذيلة) .

٣- الشح بالدنيا وحب ملذاتها من الرياسة والملك والجاه والمال .

قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ الهمزة: ١ - ٢.

قال بعض أهل التفسير الذي حمله على الحط من أقدار الناس والسخرية جمع المال وحبه فتكبر بماله وحرص عليه فا ستخف بغيره .

وقال في المنافقين سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ التوبة: ٥٨.

كما كان هذا حال ملك كسرى الفارسي حين سخر بالنبي ﷺ وشتمه حرصاً منه على ملكه .

وكذلك حال بعض كفار العرب من بغاة السيادة والملك والمال، ويتجلى الأمر ظاهراً في أبي بن سلول حين عادى الرسول ﷺ وسبه واستهزأ به حين كان السبب في إعراض الناس عنه وعدم تنصيبه للملك .

٤- قلة الدين وضعف الإيمان وعدم الرغبة في الآخرة والأجر والإعراض عن العبادة ونسيان الوعيد الوارد في المستهزئ .

قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢، والاحتقار وعدم التعظيم والتوقير من أسبابه قلة الدين .

قال ابن تيمية عن المستهزئين في غزوة تبوك :" فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه حرم ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به فإنهم لم يعتقدوا جوازه " ٧/ ٢٧٣ .

قلت وهذا فيه بيان حال من استهزأ بالصحابة في غزوة تبوك أنهم على قسمين منافقون وأهل إيمان ضعيف لم يكونوا قد كفروا قبل هذا الاستهزاء .

٥- الجهل :

قال تعالى :﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ البقرة: ٦٧ .

وقال: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ المائدة: ٥٨ .

وقال:﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٣ .

قال النبي ﷺ لأبي ذر لما عيّر بلال: (إنك أمرؤا فيك جاهلية) رواه البخاري .

والجاهل له حالان :

١- أن لا يعلم أن هذا العمل من الاستهزاء والتنقص وليس في عادته وعرفه أن ما قاله يعد من الاستهزاء والسب المحرم وكان اللفظ محتملا للسب وعدمه مع إقراره والتزامه بما يجب لله ولدينه ورسوله من التعظيم والإجلال والتوقير، وهذا ليس بكفر لأنه غير قاصد للاستهزاء والهزل .

وقد مثل أهل العلم لذلك كالقاضي عياض في الشفاء وابن تيمية في الصارم .

٢- أن يعلم أن عمله من الاستهزاء ولكن لا يعلم أنه يكفر به لو قاله وعمله.

وهذا يكفر ويرتد ولا يعذر بجهله إلا عند المرجئة بل وعذروا الغاضب إذا سب الله ورسوله وجعلوا الغضب من موانع التكفير بدعة لم يسبقوا إليها .

٦- إضحاك الغير على المستهزأ به من باب الهزل والمرح واللعب والمزح والتسلية والترويح عن النفس والخوض والعبث أو للفت الناس إليه وجلب الأنظار إليه وليمدحوه.

وقد جاء الوعيد في ذلك في الحديث (ويل لمن يكذب ليضحك الناس) رواه الترمذي.

المسألة الثامنة : مجالات الاستهزاء ومحلاته ومواطنه :

١- القلب ، وذلك باستخفاف القلب وعدم تعظيمه وإجلاله .

٢- اللسان بالسخرية والسب.

٣- الفعل كما يقوم به أصحاب اللمز والسخرية ، ومنه التمثيل في المشاهد المرئية الساخرة بالدين .

٤- الإشارة باللسان والغمز بالعين ومد اللسان والشفاة :

قال تعالى : ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ المنافقون: ٥ ﴿ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ ﴾ نوح: ٧ ﴿ هَمَّازٍ ﴾ القلم: ١١ ﴿ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ الهمزة: ١.

٥- الكتابة والقلم ويكثر ذلك في الصحف .

٦- الرسوم والصور ومنها ما يسمى بالكركتير .

٧- التعريض : كوضع القرآن في دور البغايا وكتابة آية الزنا فيه ، وكقول باسم الله عند شرب الخمر .

المسألة التاسعة : أنواع الاستهزاء :

١- الاستهزاء الصريح : وهو الكلام الصريح في السخرية والذي يعرفه كل من يسمعه أنه استهزاء فلا يحتمل غيره ،أو الفعل الصريح كمد اللسان والشفه والإشارة باليد والغمز بالعين .

٢- الاستهزاء المحتمل : وهو ما يكون بالتعريض والتلميح ونحوه ، وهو محتمل للاستهزاء وغيره ، فلا يعرف أنه استهزاء إلا بقرينة أو إقرار أو بينة .

المسألة العاشرة: آلات الاستهزاء وأنواعه :

١- قولي باللسان وهو الغالب :

من يتكلم بسخرية واستنقاص لله ﷻ، أو رسوله ﷺ، أو بشيء من الدين.

كقول بعضهم أخزاهم الله : أن الرسول ﷺ شهواني ، أو أن بعض المكيفات لا يخشى معها الحر حتى في جهنم ، والعياذ بالله .

٢- عملي بفعل الجوارح : ويشمل الإشارة باليد والغمز بالعين ومد اللسان والشفة كما يشمل الكتابة ويشمل الرسم باليد ونحوه .

كمن يعمل عملاً فيه سخرية واستنقاص لله ﷻ، أو رسوله ﷺ، أو بشيء من الدين ، كعمل بعضهم الكاريكاتير رسوم يبين أن رجال الحسبة متطفلون ، أو عمل تمثيليات توضح أن العلماء أو المجاهدون دراويش أو لصوص أو مروجي مخدرات ، أو يغمز بعينه، أو يخرج لسانه عند تلاوة القرآن أو السنة، أو يغني بالقرآن على المعازف ، والعياذ بالله .

٣- ويكون بالقلب فيما يتعلق بالاستخفاف والاحتقار بالقلب ، ولا يعلم بذلك أحد، أما الاستهزاء فظاهر وهو من عمل الجوارح وسببها فساد القلب.

أقسام محاربة الدين وأذية أهله ومحاربتهم:

محاربة باليد بالقتال، ومحاربة باللسان بالسب والاسنهزاء وهي أشد وأنكى من محاربته بالقتال.

قال ابن تيمية : (ولذلك كان النبي ﷺ يقتل من كان يحاربه باللسان مع استبقائه بعض من حاربه باليد .. وما يفسده اللسان من الأديان أضعاف ما تفسده اليد) الصارم ٧٣٥ .

المسألة الحادية عشرة : محل الاستهزاء :

الاستهزاء من النواقض الظاهرة التي محلها الجوارح، وليست من الاعتقادية ، فالحكم فيها مناط بالقول أو العمل .

وإن كان الساخر ما استهزأ إلا وفي قلبه مرض الكفر والنفاق ، فهذا حكم على الظاهر لاستلزامه الباطن ، وهذه قاعدة معروفة عند أهل السنة .

قال ابن تيمية: (الإيمان والنفاق أصله في القلب ، وإنما الذي يظهر من القول والفعل فرعٌ له ، ودليل عليه ، فإذا ظهر من الرجل شيء من ذلك ترتب الحكم عليه ، فلما أخبر سبحانه أن الذين يلمزون النبي ﷺ والذين يؤذونه من المنافقين ثبت أن

ذلك دليلٌ على النفاق ، وفرعٌ له ، ومعلومٌ أنه إذا حصل فرعُ الشيء ودليله حصل أصله المدلول عليه ، فثبت أنه حيثما وجد ذلك كان صاحبه منافقاً، سواءً كان منافقاً قبل هذا القول،أو حدث له النفاق بهذا القول). الصارم ١/ ٧٦.

وقال المؤلف:(فالقول الصريح في الاستهزاء بالدين مثل ما قدمت لك ، وأما الفعل: فمثل مدّ الشفة، وإخراج اللسان ورمز العين، مما يفعله كثيرٌ من الناس عندما يؤمر بالصلاة والزكاة، فكيف بالتوحيد). تاريخ نجد ٤٥٢ ، الدرر١٠ / ١٢٥ .

المسألة الثانية عشرة : مرجع الاستهزاء والسب للعرف وكيفية معرفته:

السب ليس له حدٌ في الشرع، وإنما مرده إلى عرف الناس وعقولهم .

قال ابن تيمية: (والاسم إذا لم يكن له حدٌ في اللغة ولا في الشرع، فإنه يُرجع في حده إلى العرف، فما عده أهل العرف سباً وانتقاصاً أو عيباً أو طعناً ونحو ذلك فهو من السب فما كان في العرف سباً للنبي ﷺ فهو الذي يجب أن ينزل عليه كلام الصحابة والعلماء، وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال والاصطلاحات والعادات وكيفية الكلام ونحوه وما أشتبه فيه الأمر ألحق بنظيره) الصارم ٩٩٢.

وقال كذلك: (وإنما جماع ذلك أنّ ما يعرف الناس أنه سبٌّ فهو سبٌّ ، وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال والاصطلاحات والعادات وكيفية الكلام ونحو ذلك) الصارم المسلول ١٠١٢ .

أنواع السب :

السب نوعان :

١- خبر وهو كل ما عده الناس شتما وسبا فإنه يجب به القتل .

٢- دعاء مثل أن يقول القائل لعنه الله وقبحه وأخزاه ولا رحمه ولا رضي عنه ولا صلى عليه فهذا إذا صدر من مسل مقتل وإذا أظهر الذمي قتل. الصارم ١٠٠٥ .

المسألة الثالثة عشرة : الاستهزاء المشروع:

الاستهزاء بالطواغيت والسخرية بأهل الكفر وآلهتهم وبالكفر الذي يعملونه وسبهم وشتمهم وليعلم أن فعل ذلك من تعظيم الله وهو أمر مستحب ومشروع وواجب عند القدرة عليه، على أن يكون على الأفعال لا ذواتهم وخلقتهم فالكافر لا يسب في خلقته كقصره وعوره وعرجه فإن هذه أفعال الله وخلقته .

ومما يدل على هذا الأصل :

سخرية الرسول ﷺ بالآلهة وشتمها وسبها وتكسيرها.

وسخرية الرسل بقومهم المشركين : كما قال تعالى عن نوح : ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ هود: ٣٨ .

وكقول الرسول ﷺ للحبر السمين فأنت حبر سمين من التحقير .

وقوله للناس:(اهجوا قريش فإنه أشد عليهم من رشق النبال) رواه مسلم.

وأمره لحسان أن يهجو قريش وقال له : (اهجهم وروح القدس معك) .

وأمر الرسول ﷺ أن يقال للمفتخر: (عض هن أبيك) .

وكقول أبو بكر لأحد المشركين : امصص بضر اللات .

وكقول خالد للات: كفرانك لا سبحانك .

وكوضع بعض الصحابة العذرة على الأصنام .

كما أن الله ﷻ يسخر بالكفار ويستهزئ بهم كما وصف نفسه بذلك في قوله تعالى: ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ التوبة: ٧٩ ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ البقرة: ١٥ .

ويوم القيامة يحصل الاستهزاء بهؤلاء الساخرين كما قال سبحانه: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ الدخان: ٤٩ وقوله: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ المؤمنون: ١٠٨، وقوله تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ المطففين: ٣٤ جزاء وفاقا .

ومن صور الاستهزاء المشروع : ما يفعله الله ﷻ بالمنافقين حين يطفئ نورهم على جسر جهنم ويضرب بينهم وبين المؤمنين بسور .

وقال الرسول ﷺ : (إن المستهزئين بالناس ليفتح لأحدهم بابا في جهنم، فيقال هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال هلم فلا يأتيه من اليأس) جزاء استهزائه . رواه البيهقي في الشعب.

المسألة الرابعة عشرة : مفاسد الاستهزاء :

١- ظهور النفاق .

٢- حصول الردة .

٣- زعزعة الإيمان من صدور ضعاف الدين .

٤- ضياع هيبة الدين .

٥- التنفير من الرسول ﷺ وتقليل مهابته وإجلاله وتوقيره ومحبته .

٦- التنفير من الإسلام والصد عنه .

٧- فتح باب للجهال وضعاف العقول باستباحة حمى الدين والاستهانة به.

الخامسة عشرة : خطورة هذا الناقض وضرورة محاسبة النفس وتفتيشها منه:

ليحذر كل مسلم يرجو لقاء ربه ويخشى عذابه من هذا الناقض، والذي وقع فيه الكثير ولم يسلم منه مع دواعيه إلا من عصمه الله ووفقه وهداه وليفتش الحريص قلبه ويجدد إيمانه من الخلق والدرن، وليعلم أن دخول النفاق والشرك على العبد أسرع من دبيب النمل، وليتفطن المسلم لما حذر منه الرسول ﷺ من الشرك ووسائله والنفاق ومظاهره ، وليعلم أن سلفنا الصالح كانوا من أشد الناس خشية من النفاق.

يقول أبو مليكة : (أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم كان يخشى على نفسه النفاق) .

وليعلم المسلم أن كلمة ربما يقولها من سخط الله يستحق بها النار ويحبط عمله ويخلد بها في جهنم ويخرج بها من الإسلام وهو لا يشعر ولا يظن أنها تبلغ ما بلغت .

ولو تأمل العاقل حال أولئك الذين نزلت فيهم آيات تكفير المستهزئين وكونهم مسلمين أو بعضهم على الصحيح وكانوا خارجين في أفضل القرب يريدون مرضاة الله والجنة بالجهاد باذلين أنفسهم ولم يقعدوا بالمدينة مع المنافقين والمشقة بلغت ذروتها حتى سميت غزوة بتبوك بالعسرة هذا فضلا عن صلاتهم وإنفاقهم في سبيل الله ومع ذلك كلمة قالوها من باب الهزل لم يظنوا أنها تبلغ بهم ما بلغت وتخرجهم من الملة، كما قدمنا من كلام مخشي وهو أحدهم، ومع ذلك كفروا بل وأمر الله رسوله بأن يكفرهم ويقول لهم (قد كفرتم) ويغلظ عليهم ولا يقبل اعتذارهم واعترافهم بل يعرض عنهم كل هذا لأجل الكلمة التي قالوها مزحا : (ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء) و(أتظنون أن قتال بني الأصفر كقتال العرب كأنا بكم مقرنين في الحبال) ، كذلك ألم يحبط الله عمل الرجل الذي قال: (والله لا يغفر الله لفلان).

وبالله أيهما أشد جرماً هذه الكلمات أو الكلمات التي نسمعها من حين إلى آخر ممن ظاهره الإسلام والالتزام بالدين ممن في كلامه السخرية، ويقولها مازحا هازلا.

هذا فضلا عما يسمع من الكلام الذي لا يشك مسلم في ردة قائله والراضي به مما يتفوه به أولئك المنافقون في الإعلام سخرية ببعض شعائر الدين وأهله .

ورضي الله عن الصحابي حذيفة بن اليمان حين قال : (إن الكلمة كان يقولها الرجل على عهد رسول الله ﷺ يحسب بها من المنافقين ، وإنا نسمعها اليوم في مجالسكم أكثر من عشر مرات) أخرجه عبد الله في السنة .

إذا علمت أيها المسلم خطورة هذا الأمر وأن هذا الناقض الذي هو الاستهزاء والسب والبغض أعظم النواقض خطورة حتى أن الواقع فيه ممن لا تقبل توبته على الصحيح ، وعلمت سر خوف الصحابة من النفاق والخروج من الملة ، هذا مع سرعة الشرك لقلب العبد وجريان الشيطان في عروق الآدمي عرفت حقيقة الأمر، ولا أخال عاقل يبيع آخرته ويوبق نفسه لأجل ضحك ولهو ولعب وغفلة، وعليه أن يحذر كل الحذر من النفاق والاستهزاء بآيات الله تعالى والاعتراض على الشريعة والبغض والسب ودواعي ذلك ، وليفتش المؤمن قلبه من حين لآخر وليبك على خطيئه وليسعه بيته في زمان كهذا والله المستعان .

المسألة السادسة عشرة : السب يستلزم التكذيب والبغض :

الاستهزاء والسب مستلزم للتكذيب والبغض ويناقض محبة الله والذل له والانقياد والتسليم له، والمستهزئ مكذب بعمله حتى لو كان في قلبه شيء من التصديق والمحبة إلا أنها تصير بالاستهزاء كعدمها :

قال ابن تيمية في الصارم: (أما سب النبي ﷺ فإنه ينافي اعتقاد نبوته ويستلزم البراءة منه والمعاداة له). وقال: (فالكلام والفعل المتضمن للاستخفاف والاستهانة مستلزم لعدم التصديق النافع ولعدم الانقياد والاستسلام فلذلك كان كافراً) .

وقال:" فالسب إهانة واستخفاف، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستخف، فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة فإنه لا يكون فيه انقياد أو استسلام فلا يكون فيه إيمان وهذا بعينه كفر إبليس ". الصارم : ٩٦٧ . وقال فيه: (فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله سبحانه وتعالى والرسالة لعبده ورسوله ثم لم يتبع هذا الاعتقاد موجبه من الإجلال والإكرام الذي هو حال في القلب يظهر أثره على الجوارح بل قارنه الاستخفاف والتسفيه والازدراء بالقول أو بالفعل كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه وكان ذلك موجباً لفساد ذلك الاعتقاد ومزيلاً لما فيه من المنفعة والصلاح).

قال الشيخ حافظ الحكمي في أعلام السنة : (اعلم أن هذه الأربع يعني السجود لصنم والإستهانة بالقرآن وسب الرسول والهزل بالدين وما شاكلها ليست من الكفر العملي إلا من جهة كونها واقعة بعمل الجوارح إذ لا تقع إلا مع ذهاب عمل القلب من نيته وإخلاصه ومحبته وانقياده فهي وإن كانت عملية إلا أنها مستلزمة للكفر الاعتقادي ولابد " .

المسألة السابعة عشرة : أصناف المستهزئين :

المشركين – اليهود والنصارى – المنافقين – أهل الذمة – المحاربين – أهل الردة – المبتدعة .

أولاً : المشركين والكفار :

الاستهزاء والسخرية سمة في كل أمم الكفر والشرك والضلال ، فقد وقع فيها قوم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وكفار العرب وغيرهم.

ومن ذلك ما حكاه الله عن مكذبي الرسل في كتابه في آيات منها :

١ – قال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الأنعام: ١٠، الأنبياء: ٤١ .

٢ – وقال: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يس: ٣٠.

٣ – وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ الذاريات: ٥٢.

٤ – قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾ الأنعام: ١١٢، الفرقان: ٣١.

٥ – وقال أعداء الرسل: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ .

فهؤلاء قوم نوح سخروا منه : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ هود: ٣٨.

وقالت عاد لهود : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ الأعراف: ٦٦ ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ هود: ٥٤.

وقالت ثمود لصالح : ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ هود: ٦٢ .

وقال قوم لوط : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ النمل: ٥٦.

وقالت مدين لشعيب : ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ هود: ٩١ ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ هود.

وقال فرعون وقومه لموسى : ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ الزخرف: ٥٢ ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ غافر: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ٢٦ ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ الزخرف: ٤٩.

وقال كفار قريش لرسولنا محمد ﷺ : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ الفرقان: ٤١ .

ثانياً : اليهود والنصارى :

وقد كثر وعظم استهزائهم بخالقهم تبارك وتعالى وبرسل الله وبدينه :

١- قال الله تعالى عنهم : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٥٧.

٢- وقالوا لعنهم الله: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ المائدة: ٦٤ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ آل عمران: ١٨١ .

٣- وقال ﷻ عنهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣٠ .

وآيات أخرى كثيرة .

ثالثاً: المنافقين :

وهذا الصنف قد اشتهروا بالاستهزاء والسب أكثر من غيرهم وقد ذكر الله لنا من خبرهم في سورة التوبة والتي تسمى بالفاضحة لكونها فضحت أهل النفاق وفي سورة المنافقون وسورة محمد والأحزاب والبقرة وغيرها .

١- قال تعالى عنهم : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ البقرة: ١٤ .

٢- وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ التوبة: ٥٨ .

٣- وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ التوبة: ٦١.

رابعاً : المسلمون المرتدون وأهل البدع والفساق :

وفيهم نزلت ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ التوبة: ٦٥.

وسنأتي على صور من سخريتهم لأنهم هم المعنيون بالناقض .

المسألة الثامنة عشرة : الطوائف التي يوجد عندها الاستهزاء :

١- الكفار بجميع طوائفهم من اليهود والنصارى والمشركين والوثنيين .

٢- الرافضة أخزاهم الله في استهزائهم بالصحابة رضي الله عنهم .

٣- الصوفية القبورية المشركة في سخريتهم بالتوحيد وأهله .

٤- المبتدعة بطوائفها من المعطلة للصفات والقدرية والمرجئة والخوارج .

٥- القرآنيون من الطاعنين في السنة والرادين لحجتها .

٦- الوضّاعون للأحاديث .

٧- المتكلمون والعقلانيون الفلاسفة ممن يقدم الطرق العقلية والمنطق والمناهج الفلسفية على السنة .

٨- الموالون للكفار من الراكنين إليهم والمرتمين في أحضانهم والمعجبين بهم والمناصرين لهم بأقوالهم وأفعالهم .

٩- دعاة التقريب بين الأديان وحوار الحضارات الكافرة .

١٠- المشرعون والحاكمون بغير ما أنزل الله والدعاة للقوانين الوضعية، الزاعمون أن الشريعة لا توافق المصالح ولا تواكب الحضارة ولا تلائم هذا العصر.

١١- العلمانيون في سخريتهم بالشريعة والدين وزعمهم أنه مقتصر على المسجد والشعور القلبي ولا دخل له بالاقتصاد والسياسة.

١٢- اللبراليون : في حربهم لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، وقولهم الناس أحرار فيما يفعلون ولا سلطان عليهم غير الحرية وليس للدين حق في التسلط ووضع السياط على الظهور كما يقولون .

١٣- الحداثيون في استخفافهم باللغة العربية والدين .

١٤- الإعلاميون بطوائفهم وقد نالوا النصيب الأكبر في كفر الاستهزاء في التلفاز والمسرحيات والتمثيل والصحف والرسومات وغير ذلك .

١٥- أهل الطرائف والنكت والمغرمون بإضحاك الناس، إذا كانت الطرفة في باب من أبواب الدين والعياذ بالله، وهؤلاء هم المتفيهقون والمتشدقون والثرثارون، ومنهم الذي يكذب ليضحك القوم فويل له، ومنهم من يكذب فتبلغ كذبته الآفاق .

فائدة : من تأمل حال المستخفين والمستهزئين من المنافقين بشتى أسمائهم من علمانية ولبرالية وغيرها تجد فيهم : احتقار المجاهدين واستصغارهم واستنقاصهم بل وبغضهم مع الإعجاب بالكفار وتعظيمهم، وهذه الصفة فيهم من عهد النبي ﷺ وهم الذين قالوا في معركة تبوك محمد يهزم الروم استصغارا للمؤمنين وتفخيما للكفار ، ولا تزال هذه الصفة فيهم في زماننا هذا وإلى قيام الساعة .

المسألة التاسعة عشرة : علاقة الاستهزاء بالنفاق :

الاستهزاء من أكبر علامات المنافقين وأظهر سماتهم ، ولكن قد يكون المستهزئ مسلماً مؤمناً قبل استهزائه فيكون مرتداً لا منافقاً، أو قد يكون استهزاؤه سبباً لحصول النفاق فيه ، عليه فالنفاق سبب لوقوع الاستهزاء ، كما أن الاستهزاء يسبب حدوث النفاق فيورثه في القلب ويزرعه وينميه ويزيده .

المسألة العشرون : هل المستهزئون في غزوة تبوك الذين نزلت فيهم الآية كانوا مؤمنين أو منافقين :

قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ التوبة: ٦٥ - ٦٦.

القول الأول : أن الآية نزلت في أناس منافقين فكان ما أظهروه من كفر موجود أصله في قلوبهم وقال به بعض أهل العلم .

القول الثاني : أن الذين تكلموا في غزوة تبوك ونزلت فيهم آية لا تعتذروا قد كفرتم من المؤمنين في الأصل ولم يكن لديهم نفاق ولا علموا أن كلامهم الذي قالوه سيخرجهم من الإسلام ، ولا يمنع أن يكون معهم أفراد منافقين بدليل تفريق الآية بين طائفة المجرمين وطائفة المعفو عنهم بعد التوبة . وهذا القول هو الصحيح. ونصره ابن تيمية.

قال ابن تيمية ناصراً القول الثاني أنهم كانوا مسلمين وليسوا منافقين :

(وقول من يقول عن مثل هذه الآيات أنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر فلا يقال قد كفرتم بعد إيمانكم فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم وهم مع خواصهم ما زالوا هكذا بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل سورة تبين ما في قلوبهم من النفاق وتكلموا بالاستهزاء صاروا كافرين بعد إيمانهم ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين ، وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ التوبة: ٧٣ - ٧٤ .

فهنا قال (وكفروا بعد إسلامهم) فهذا الإسلام قد يكون من جنس إسلام الأعراب فيكون قوله (بعد إيمانكم) و(بعد إسلامهم) سواء، وقد يكونون مازالوا منافقين فلم يكن لهم حال كان معهم فيها من الإيمان شيء، لكونهم أظهروا الكفر والردة، ولهذا دعاهم إلى التوبة فقال : (فإن يتوبوا يك خيراً لهم وأن يتولوا) بعد التوبة عن التوبة (يعذبهم الله عذابا أليماً في الدنيا والآخرة) وهذا إنما هو لمن أظهر

الكفر فيجاهده الرسول بإقامة الحد والعقوبة ولهذا ذكر هنا في سياق قوله (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) .

وهؤلاء الصنف الذين كفروا بعد إسلامهم غير الذين كفروا بعد إيمانهم فإن هؤلاء حلفوا بالله ما قالوا وقد قالوا كلمة الكفر التي كفروا بها بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وهو يدل عل أنهم سعوا في ذلك فلم يصلوا إلى مقصودهم، فإنه لم يقل هموا بما لم يفعلوا لكن بما لم ينالوا فصدر منهم قول وفعل، وقوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ ، فاعترفوا واعتذروا ولهذا قيل ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ ،فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفرا بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به فإنهم لم يعتقدوا جوازه) الفتاوى٧/ ٢٧٢ .

المسألة الحادية والعشرون : أنواع الاستهزاء الكفري :

الأول: الاستهزاء بالرب ﷻ بذاته وصفاته وأفعاله وقدره :

كالاستهزاء برحمة الله تعالى وغضبه ومكره أو نزوله واستوائه أو الاستهزاء بخلقه ورزقه وتدبيره أو بغيرها من الصفات، أو بصفاته الذاتية ومن ذلك ما قاله لي أحد المعتزلة الزيدية في مناظرة معه في وضع الرب قدمه في النار كما عند البخاري فقال هذا المعتزلي ساخراً لو أن للرب قدم ووضعها في النار لاحترقت .

ومن هذا ما ابتليت به الأمة على يد الجهمية المعطلة من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية وأعظم ما قالوه إنكارهم علو الله واستوائه على عرشه .

وكذا من يقول بأن الله في كل مكان كما يقوله الإتحادية والحلولية والجهمية . ومن هو أشد كفراً منهم من يقول كل شيء موجود هو الله من أصحاب وحدة الوجود . ومن يقول العالم قديم ليس بمخلوق وإنما وجد بوجود الله وأنه علة عن المعلول الذي هو الله وينكرون أن يكون الله خالق تعالى عن ذلك .

الثاني :الاستهزاء بالتوحيد وذلك يظهر في عبادة غير الله :

وهذا أعظم ما يكون فيه الاستهزاء وذلك حين تصرف العبادة للمخلوق الضعيف ويعرض عن عبادة الله . قال تعالى عن هؤلاء : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ الزمر: ٤٥ ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ ﴾ الأعراف: ٧٠ ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾ ص: ٥ .

ومن أظهر صور هذا النوع ما يحصل عند القبور من أنواع الشرك في العبادة من السجود والقيام والطواف والذبح والنذر والدعاء والتضرع والخوف والرجاء لهذا الميت البالي.

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان: (الشرك هضم لحق الربوبية وتنقص لعظمة الألوهية وسوء ظن برب العالمين) .

وقال ابن تيمية : (فإذا كان دعاء الموتى مثل الأنبياء والصالحين يتضمن هذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله فأي الفريقين أحق بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله من كان يأمر بدعاء الموتى والاسغاثة بهم أو من كان يأمر بدعاء الله وحده لا شريك له كما أمرت الرسل) . الاستغاثة ٣٥٣.

الثالث : الاستهزاء بحكم الله والتحاكم للشريعة الإلهية كالاستهزاء بقطع يد السارق ورجم الزاني والسخرية بذلك .

ومن الاستهزاء بحكم الله القيام بالحكم بغير ما أنزل الله، وهذه البلية الأخرى والتي قصمت ظهر الأمة فصارت بلاد المسلمين تحكمها قوانين وضعية مشركة كافرة، فوقع الاستهزاء بالله وبدينه وشريعته ورسوله حين نحيت شريعته وأعرض عن حكمه وتولوا عن طاعته إلى تقنين وتشريع وتحليل وتحريم ما لم يأذن به الله فهؤلاء يشركون في التشريع والتحليل والتحريم ومن القوانين أو جلبها للمسلمين وإلزامهم بها وأولئك يشركون في التحاكم والطاعة والتعظيم والانقياد ولا حول ولا قوة إلا بالله ، بل ويصرح هؤلاء المستهزؤون أن الشريعة لا توافق المصالح ولا تواكب الحضارة ولا تلائم التطور ولا تصلح لهذا العصر.

وإن الحكم بغير ما أنزل الله لهو من أعظم دلائل السخرية بدين الله والاستخفاف بالشريعة والاستهزاء بمشرعها والمرسل بها والله المستعان .

الرابع : الاستهزاء بالقضاء والقدر والسخرية به وبأفعاله وحكمه وتقديره ومشيئته وخلقه وسبه والاعتراض عليه .

كقول بعضهم سخرية القدر، وكقول القدرية الجبرية ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ الأنعام: ١٤٨ وكاعتراض القدرية الإبليسية على القدر، كقولهم يخلق الوجه الحسن وينهانا عن النظر إليه، وكقول المعري : (يد بخمس مئين عسجد وديت . ما بالها قطعت في ربع دينار . تناقض ..).

ومن الاستهزاء بالقدر إنكاره، وإنكار دخول أعمال العباد في قدر الله وأن الله لم يخلقها، وإن إرادة المخلوق تغلبت على قدرة الله وإرادته حين وقع في المعصية، وفي المقابل من يقول المخلوق مجبور ليس له قدرة ولا إرادة والسبب ليس له تأثير .

الخامس : الاستهزاء بدين الله وشرعه وأمره ونهيه وفرائضه وتوحيده . وهذا بحر المستهزئين ومرتع المنافقين والمرتدين : ومن أمثلتها :

١- الاستهزاء بالصلاة : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ المائدة: ٥٨.

ومثل وقول بعض المرتدين في استهزائهم بالصلاة درسنا في الغرب رياضات خير من هذه الحركات .

٢- سخرية أهل الكبر والكفر بالسجود .

٣- السخرية بالطهارة والغسل والاستنجاء كاستهزاء قوم لوط بالطهارة : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ النمل:٥٦.

٤- سخريتهم بالصيام والزكاة .

٥- سخريتهم بالحج وبالشعائر كما كان من حج الجاهلية من الطواف عرايا ، وما ذكر عنهم ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ الأنفال: ٣٥.

ومن هذا الكفر الاستخفاف بالكعبة والطواف والسعي أو رمي الجمار وذبح الأضاحي ، وكقول أحد المرتدين إنها شعائر وثنية

٦- السخرية بأحكام الحدود كقطع يد السارق ورجم الزاني .

٧- سخرية المنافقين في زماننا بالجهاد وأهله، وقولهم أن فيه ظلم وكتمثيلهم المجاهدين بأقبح الصفات وبهيئات مزرية وأنهم وحوش دمويون لا رحمة معهم ولا عقل لهم، وقد رأى كفر هؤلاء المرتدين جميع من طالع الصحف في أيام حروب أسيادهم الصليبيين على المسلمين في العراق وأفغانستان.

٨- السخرية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه تدخل في حريات الناس وفي الخصوصيات وأنها شعيرة متخلفة تناقض التقدم والحضارة والحرية والديمقراطية والليبرالية والعلمانية والعولمة، ومن صور ذلك الاستهزاء الكفري

الغير متناهي ما تقوم به الصحف من حملات مسعورة بالقدح في الهيئات الآمرة بالمعروف والمطالبة الحثيثة بإغلاقها أو تهذيبها وثنيها وتحويلها للدعوة واللطف مع أهل العهر والدعارة والخمور والمفسدين في الأرض والمظهرين للمعاصي والمنكرات، وهذه الحملات السافلة جعلت بعض أعضائها المساكين ينثنون إلى مطالب هؤلاء الشهوانيين فترى مبادئ بعضهم قد هزت، وفي محاولة ساذجة لتحسين صورتهم الحسنة في أصلها يقوم بعض أفراد الهيئة بتوزيع الحلوى في أسواق يكثر فيها المخالفات الشريعة أو تنظيم مباريات للعبة الكفار الكرة، فأين الأمر بالمعروف والصدع بالحق وليرض من يرضى وليسخط من يسخط، وإن من أمثلة الاستهزاء بهذه الشعيرة العظيمة ما قامت به الثلة الرذيلة في برنامج طاش ما طاش وغيره من استخفاف بالمحتسبين وبشعائر الدين دون مراقبة ولا حياء ولا خوف من الله في وقت ضياع الرقيب والعقاب الرادع لأمثال هؤلاء ليرتدعوا ويرتدع بعقوبتهم غيرهم وحتى يكف هؤلاء السلق من أصناف الكفر والردة المخزية.

٩- السخرية بالحكم بالشريعة ووصم الدعاة إليه بطلاب الرجعية والتخلف وقتلة الاقتصاد والحضارة وأهل الكهوف ومن ذلك تصوير أحدهم دولة الطالبان لما قامت بالشريعة والتوحيد وهدم الأصنام والقباب والقبور بالرجال في كهوف عراة لا يستر عوراتهم إلا خرقة صغيرة .

١٠- من الاستهزاء بالدين من يقول بإباحة المحرمات وإسقاط التكاليف كما هو قول غلاة الصوفية والباطنية .

١١- من الاستهزاء بالدين من يقول : الإسلام والفرائض لها ظاهر وباطن للخاصة كما هو عند الباطنية .

١٢- من الاستهزاء بالدين من يزعم أنه لا يلزمه إتباع شريعة محمد ﷺ وأنه يسعه الخروج عن شريعته .

١٣- من الاستهزاء بالدين والاستخفاف بالشريعة ما تقوله المرجئة من إخراج الأعمال من الإيمان وإنكارهم وجود كفر عملي .

السادس: من يلمز الولاء والبراء ومعاداة الكافرين وجهادهم وبغضهم وعداوتهم والتبرؤ منهم وتكفيرهم وتكفير المرتدين.

السابع : الاستهزاء ببعض أبواب العقيدة الإسلامية كالمعاد والجنة والنار والبعث والحساب والنشور والحوض والميزان والصراط وعذاب القبر وفتنته

وسؤال الملكين والسخرية بذلك أو إنكاره كما تزعمه العقلانية والمعتزلة، ويكثر ذلك باستهزاء مزري من أهل الكفر النفاق والردة .

ومما حكاه الله تعالى عنهم في هذا الباب : قوله في سور عدة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ ص: ١٦.

وكسخرية أبي جهل بزبانية النار التسعة عشر. وكقول الساخرين جهنم طيبة وقت البرد أو الجنة ما نريدها إذا دخلها فلان أو كان فيها الشيء الفلاني والعياذ بالله.

الثامن : الاستهزاء بالأخبار الغيبية والثواب والعقاب كالحور أو طعام الجنة والنار وفرشهم ، كما لو قال لا أريد أن يغرس لي في الجنة، أو الزقوم فيه فوائد .

ومن ذلك ما قام به مرتد خبيث بإخراج مسلسل الحور العين يسخر فيه بالجهاد وما أعده الله لأهله من الحور العين .

التاسع : الاستهزاء بالملائكة والاستخفاف بملائكة العذاب أو إنكارهم.

العاشر : الاستهزاء بالأنبياء عليهم السلام خصوصا الرسول ﷺ ، كالاستهزاء بخلقته وصفاته وأخلاقه وهديه وأمره ونهيه وسيرته وسنته ، ومن يزعم وجود رسول بعده وأن النبوة لم تختم به، أو النبوة ليست اصطفاء من الله وإنما هي تتحصل بالكسب والتخيل ، ومن يقول أن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وكمن يتهم أحد والدي النبي ﷺ بالزنا ، فكل هؤلاء يكفرون ويجب قتلهم بلا استتابة .

ومن أمثلة الاستهزاء بنبينا ﷺ ما قام به رعاة البقر أهل الدنمرك الفجرة من السخرية التي آذت كل مؤمن والمصيبة ليست في السخرية من هؤلاء الكفار وإنما حين لا تقوم أمة محمد بواجبها في نصرة نبيها وجهاد أعدائه والأخذ بثأره وقتل منتقصيه والأعظم من ذلك التواطؤ مع المنافقين والمرتدين الذين اعتذروا لأولئك الكفار وسعوا في إيقاف مقاطعتهم.

الحادي عشر : الاستهزاء بالقرآن الكريم أو إهانته أو رميه في القاذورات أو إدعاء أنه ناقص أو محرف أو يجحد شيء منه أو يحرف معناه أو الغناء بالقرآن وضرب الدف مع تلاوته، ومن يحرف القرآن عن معناه ويفسره بالإشارات أو بهواه أو بتفسيرات عصرانية ومن يزعم القدرة على الإتيان بمثله ، كل ذلك كفر به وكفر بالله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الأنفال: ٣١.

الثاني عشر: الاستهزاء بالسنة النبوية والأحاديث والطعن فيها كمن طعن في حديث تغميس الذباب في الإناء .

ويدخل في السخرية بالسنة وضع الأحاديث والكذب على الرسول ﷺ .

قال ابن تيمية في الصارم: (أن تعمد الكذب عليه ﷺ استهزاء به واستخفاف).

الثالث عشر : من يسب الصحابة ويلمزهم ويبغضوهم كما تفعل الرافضة .

ومن الاستهزاء بهم القيام بتمثيلهم في التمثيل الهمجي الساخر بالصحابة وفي هذا من الجرم ما فيه .

الرابع عشر : الاستهزاء بأهل الدين والعلماء الربانيين والملتزمين بالشريعة والمستمسكين بدين الله .

قال ﷻ عنهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ المطففين: ٢٩ ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ التوبة: ٧٩ ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ الشعراء: ١١١ .

الخامس عشر: الاستهزاء بخلق الله وأفعاله، كقول بعض أهل الردة لعنهم الله : ما عرف الله يخلق ، ومن هذا الباب النهي عن سب الدهر والريح ، ويدخل في ذلك الاستهزاء بآيات الله الكونية المخلوقة ، كما لو قال الشمس أو المطر لا حكمة من خلقها ، والاستهزاء بها استهزاء بالفاعل لها وهو الباري ﷻ .

وكل هذه الأمور الاستهزاء بها كفر مخرج من الملة لأن مؤداها الاستهزاء بالله لأنه من عنده سبحانه .

المسألة الثانية والعشرون :أمثلة معاصرة من الاستهزاء :

وصوره في هذا الأمة في القديم والحديث :

١- ما نقله الذهبي عن عمرو بن عبيد المعتزلي حين أخبر بحديث فقال: لو سمعته من الرسول لرددته ومن الله لقلت هذا ليس بعدل منك .

٢- ما ذكره النووي عن أحدهم قوله ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسرها مستهزأ بحديث أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم .

٣- وذُكر لرجل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴾ الملك: ٣٠ ، قال: تأتي به الفؤوس والدراهم ، فجمد ماء عينه .

٤- قول الشاعر المعري :

يد بخمس مئين عسجد وديت * ما بالها قطعت في ربع دينار .

تناقض ما لنا إلا السكوت له * ونستجير بمولانا من العار

وقد اشتهر عنه الزندقة وقد قال القحطاني في نونيته عنه :

تعس العمي أبو العلاء فإنه قد كان مجموعا له العميان .

٥- رجل مزق المصحف ، وآخر أطفأ السجارة في المصحف .

وحين سألت اللجنة الدائمة عنهما قالت : (كلاهما بفعله ذلك كافر لاستهتاره بكتاب الله وإهانته له) .

٦- ما قاله لي أحد المعتزلة الزيدية في مناظرة معه في وضع الرب قدمه في النار كما عند البخاري فقال هذا المعتزلي لو أن للرب قدم ووضعها في النار لاحترقت .

٧- قول أحد المرتدين المستغربين (القصيبي) حين درس في الغرب وأخذ شهادته منهم : (ما رأينا النور والحضارة منذ أربعة عشر قرناً). ويقصد الخبيث أن الظلام من زمن الرسول إلى أن جاءت أمريكا .

٨- ما جاء في أحد الجرائد أن الله تعالى عن كفرهم : إلتقى بحكام العالم وجبريل يعرف بهم ويسلم عليهم وهو جالس فلما جاء بوش الأب رئيس أمريكا قال جبريل لله تعالى وتقدس قم يا رب فهذا بوش فسلم عليه .

٩- قول المرتد رشيد الخوري والمرتد نزار قباني :

هبوا لي مذهباً يجعل العرب ملة وسيروا بجثماني على دين برهم

سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنم .

١٠- قول طه حسين : إن ورود اسم إبراهيم وإسماعيل في القرآن والتوراة لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي .

١١- قول محمد عمارة والقرضاوي : اليهود والنصارى ليسو كفارا .

١٢- قول محمد السعدني :" الدين واللغة والتقاليد ثلاثة أمراض اجتماعية " جريدة الرياضة ١٥٣٢ .

١٣- قول كاتبة في جريدة الرياض ٤٨٨٧ :" إننا في هذه الحياة ليس لنا حقوق إننا أعمار يلهو بها القدر " .

١٤- ما قاله أبو رقيبة حاكم تونس : الصيام يعارض مصالح البلاد .

١٥- ما قاله السادات وهو يستهزئ بالحجاب ويصف لابسته بالعفريته .

١٦- استهزاء أبو رية بالأحاديث وطعنه في أبي هريرة ﷺ ومن ذلك سخريته بحديث الذباب إذا سقطت في الإناء وتغميسها .

١٧- قول أحمد الجار الله في جريدة السياسة : واحد لحيته مثل التيس أوقفني وقال لماذا تتحدث عن رجال الدين .

١٨- قول بعضهم عن أهل الدين واللحى والثياب القصيرة أصحاب المكانس والفلاين .

١٩- قول البياتي العراقي : "الله في مدينتي تبيعه اليهود وهو مشرد طريد " .

٢٠- ما أصدره أحد المجرمين في مسلسل الحور العين يهزأ فيه بالجهاد وما أعده الله للمؤمنين من الحور العين .

٢١- ما نشرته صحيفة الشهاب اللبنانية ٢٣/ ٣/ ٩٤ أن الرسول ﷺ كان إنسان بسيطاً يسافر عبر الصحراء ويستمع للخرافات ونقل تلك الخرافات للقرآن .

٢٢- ما فعله المرتد نجيب محفوظ لعنه الله من السخرية الكفرية بالله ورسله في كتاب أولاد حارتنا.

٢٣- ما فعله المرتد الزنديق سليمان رشدي في كتابه الآيات الشيطانية من السخرية بالرسول ﷺ والنيل منه .

٢٤- قول بعضهم ليضحك الناس إذا حج المسلم فليأخذ رضاعة لأنه سيرجع كيوم ولدته أمه .

٢٥- تسمية بعض الأفلام الساقطة بالآيات القرآنية .

٢٦- قولهم : العجائز يصلون عنا وتعبنا من الصلاة والصلاة ما عادت تنفع أو ضاق صدري منها .

٢٧- قول بعضهم : لو الرسول شفع عندي لفلان ما قبلت .

٢٨- قول : بسم الله عند شرب الخمر والزنا .

٢٩- قول : نهق الحمار لمن يؤذن أو القول لمن يقرأ القرآن النهيق أو النباح .

٣٠- قولهم: بئسما أخرجت السنة .

٣١- قولهم : هذه الزكاة غرامة .

٣٢- تسمية الآمرين بالمعروف الغوغاء أو الشغب أو جاء الفضوليون أو تسميتهم في عصرنا شركة صلوا أو أهل الديك أي الدين .

٣٣- قول بعضهم أعطني بر وأعطيك يوم القيامة شعيراً أو من حسناتي .

٣٤- قول أحد السجانين لمجاهد: أين ربك لنضعه في الحديد، وقول آخر خل الله في مكانه أو في الدرج .
٣٥- قولهم في دعاية ساخرة لمكيف تهوية : ما تشعر بالحر لو أنك في جهنم .
٣٦- قولهم: الله ما يعرف أن المنازل بتهدم من المطر مستنكراً ساخطاً ساخراً .
٣٧- قولهم : نحن في غنى من المطر والتحلية تكفينا .
٣٨- قول بعض الساخرين جهنم طيبة وقت البرد .
٣٩- قولهم الجنة ما نريدها إذا دخلها فلان أو كان فيها الشيء الفلاني .
٤٠- قولهم لا أريد أن يغرس لي في الجنة أو الزقوم فيه فوائد .
٤١- قولهم اللحية من القشور والحجاب عادة وليس عبادة .
٤٢- ما قامت به الثلة الخبيثة الخاسرة في طاش ما طاش من استخفافهم بالأمر بالمعروف والإمامة والأذان وغيرها من أمور الدين وشعائر الإسلام .

وفي كتاب الصارم والشفاء والإعلام بقواطع الإسلام وشرح ألفاظ الكفر لبدر الرشيد ورسالة الاستهزاء وغيرها أمثلة كثيرة للاستهزاء المكفر .

تنبيه نقل هذه الكفريات لا يجوز إلا لتبيين كفر أهلها لا للتندر والاستئناس، بل من ينقلها ليضحك الناس بها فيعتبر واقع في الردة ومن المجالسين للمستهزئين.

المسألة الثالثة والعشرون: الاستهزاء بأهل الدين والصالحين كالعلماء والمجاهدين والمحتسبين: يكون على حالتين : على نوعين :

الأول: إن كان الاستهزاء بمعنيين وكان لذواتهم وأشخاصهم، كمن يستهزئ بأوصافهم الخَلقية أو الخُلقية، فهذا محرمٌ لأن فيه احتقار لهم وازدراؤهم .

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾ الحجرات: ١١، فالسخرية من الكبائر، وإن كانت الآية تنهى عن السخرية بالناس عموماً فالصالحين أشد عند الله.

الثانية: أن يكون الاستهزاء لطائفة معينة كالعلماء أو المصلين أو المجاهدين الموحدين أو أهل الحسبة ونحو ذلك ويكون هذا ديدن في المستهزئ كلما رأى رجلا من أهل العلم أو الدين أو الملتحين سخر به ، فإن هذا كفر ناقل من الملة لأنه في الحقيقة استهزاء بالدين وأهله وسخرية لما يحملون من الدين والشريعة والجهاد والاحتساب والدعوة والعلم والصلاح والغيرة على محارم المسلمين، وليعلم هؤلاء أن الذين كفرهم الله كان قولهم : (ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً) .

قال الشيخ حمد بن عتيق:(قول القائل (فقيّه) أو(عويلم) أو (مطويبع) ونحو ذلك ، فإذا كان قصد القائل الهزل ، أو الاستهزاء بالفقه ، أو العلم ، أو الطاعة فهذا كفر أيضاً ، ينقل عن الملة ، فيستتاب فإن تاب وإلا قُتل مُرتداً) الدرر ١٠ / ٤٢٨ .

المسألة الرابعة والعشرون :

الاستهزاء بأهل الدين وآيات الله في حقيقته استهزاء بالله.

ومما يدل لذلك آية كفر المستهزئين وقوله لهم ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ التوبة: ٦٥ - ٦٦ ، مع أنهم إنما سخروا بالقراء ولم يسخروا بالله.

قال ابن تيمية في رده على البكري : (فإن الاستهزاء بهذه الأمور الله وآياته ورسوله متلازم فإن من استهزأ بآيات الله تعالى التي جاء بها الرسول ﷺ فهو مستهزئ برسالته حقيقة ومن استهزأ بآيات الله ورسوله فهو مستهزئ به).

وقال في الصارم: (الطعن في الأنبياء طعن في توحيد الله وأسمائه وصفاته وكلام ودينه وشرائعه).

المسألة الخامسة والعشرون: الاستهزاء بالسنن كفر :

وفي فتاوى اللجنة:(من استهزأ ببعض المستحبات كالسواك والقميص الذي لا يتجاوز نصف الساق والقبض في الصلاة ونحوه ونحوها .. فحكمه أنه يبين له مشروعية ذلك فإن أصر على الاستهزاء بالسنن الثابتة كفر بذلك لأنه بذلك يكون منتقصاً للرسول ﷺ ولشرعه والتنقص بذلك كفر أكبر).

السادسة والعشرون : الفرق بين الاستخفاف بآيات القرآن والاستشهاد به :

الاستشهاد بالقرآن جائز كقول من يقرأ في كتب الخلف ويترك كتب السلف ، ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ البقرة: ٦١ .

أما الاستخفاف بها فظاهر .

كما ذُكر عن أناس على طعام فقال أحدهم: (مالي لا أرى الخبز أم كان من الغائبين)فقال المضيف:(أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين).

وقال أحدهم في مجلس غداء تعالت الأصوات وأحدهم ينادي صاحب الطعام فلا يسمعه فأجابه صاحبه (إنهم في شغل فاكهون) .

وهذا محرم ويخشى على صاحبه من الكفر وأن تكون كلمته تهوي به في النار والعياذ بالله فليحذر المسلم من ذلك كل الحذر .

المسألة السابعة والعشرون : سب الصحابة ﷺ والسخرية بهم :

ولهذه المسالة حالتان :

الأولى : إن طعن في معظم الصحابة فهذا كافر بالاتفاق لأن الطعن فيهم طعن في صاحبهم وهو الرسول ﷺ الذي أختار صحبتهم، كما أنه طعن في الشريعة لكونهم هم الذين نقلوها كما وأنه طعن في الله عز وجل إذ لم يختر لرسوله صحبة طاهرة . ويدل لذلك أدلة سنأتي عليها .

الثانية : سب أحد الصحابة ﷺ ، وهذا له حالات :

١- من طعن في أبي بكر وعمر فإنه يكفر ولا يلتفت إلى من خالف في تكفيره .

قال الفريابي شيخ البخاري حين سئل عمن يشتم أبا بكر ﷺ قال : (كافر قيل فيصلى عليه قال لا. قيل كيف يصنع به وهو يقول لا إله إلا الله قال لا تمسكوه بأيديكم أدفعوه بالخشب حتى تواروه في حفرته) السنة للخلال والإبانة لابن بطة.

وقال سحنون : (إذا شتمهم فقال إنهم على ضلال وكفر قُتل) أصول السنة لأبي زمنين.

وفي الفتاوى البزازية الحنفية :(الرافضي إذا كان يسب الشيخين ويلعنهما فهو كافر) .

قال ابن بطة : (قال المروذي : سألت أبا عبدالله عمن شتم أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة ؟ فقال : ما أراه على الإسلام) الإبانة الصغرى ١٠٢ .

وقال الأوزاعي: (من شتم أبا بكر فقد ارتد عن دينه وأباح دمه) الإبانة ١٠٣ .

وقال بشر : (من شتم أصحاب الرسول ﷺ فهو كافر). الإبانة ١٠٣ .

وقال مالك : (الذي يشتم أصحاب الرسول ﷺ ليس له سهم أو قال نصيب في الإسلام) . الإبانة ١٠٣ .

ونقل ابن بطة في الإبانة عن بعض السلف قوله: (الرافضة أشهد إنهم لمشركون) . الإبانة ١١٠ .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال لعلي:(سيأتي قوم لهم نبز يقال لهم الرافضة ، أين لقيتهم فاقتلهم فإنهم مشركون) أخرجه الطبراني وابن أبي عاصم وابن بطة وغيرهم بإسناد ضعيف.

٢- من قذف أمهات المؤمنين وطعن فيهن فهو كافر بلا خلاف لأن الطعن فيهن طعن في عرض رسول الأمة وأذية له ﷺ وبالخصوص عائشة فإنه لا خلاف في كفر قاذفها ، لأنه آذى الرسول ﷺ وكذب الله تعالى.

٣- من طعن في واحد من الصحابة غير المشهود لهم بالجنة كما تطعن الزيدية في معاوية. فهذا محل خلاف بين أهل العلم على أقوال:

الأول: أن سبّ الواحد ليس بكفر، وإنما يوجب التعزير والتأديب والهجر.

الثاني: أن سب الواحد كفرٌ وزندقة ، بشرط أن يعلم أنه صحابي ، وذلك لأنه مكذبٌ للقرآن في عدالتهم ، ومكذبٌ برضا الله عنهم، وهذا رواية عن الإمام أحمد وأبي زرعة الرازي والفريابي .

قال الخطيب البغدادي في الكفاية عن أبي زرعة : " إذا رأيت الرجل يتنقص أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فأعلم أنه زنديق " .

الثالث: إن كان السب بلعنهم في ديانتهم وكفرهم فإنه يكفر، و إن سب خلق بعضهم كجبن أو بخل ونحوه فهذا لا يكفر .

قال ابن تيمية في الصارم :" وأما من سبهم سباً لا يقدم في عدالتهم ولا في دينهم مثل وصف بعضهم بالبخل أو الجبن أو قلة العلم أو عدم الزهد ونحو ذلك فهذا هو الذي يستحق التأديب والتعزير ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من أهل العلم).

وفي فتاوى السبكي : (من أبغض صحابي لصحبته كان كافراً قطعاً) .

أوجه كفر ساب الصحابة :

١- أن في السب تكذيب للقرآن الذي نص على فضلهم والترضي عنهم وتزكيتهم والثناء عليهم .

٢- أنه فيه تضليل الأمة المحمدية وأنها شر الأمم وأن سابقيها هم شرارها .

٣- أن في سبهم طعن في الله ﷻ إذ لم يختر لرسوله صحبة طاهرة .

٤- أن الطعن فيهم طعن في صاحبهم وهو الرسول ﷺ الذي أختار صحبتهم.

٥- أن في سبهم طعن في القرآن والسنة ، لأنها لم تنقل إلا عنهم .

٦- أن في سبهم طعن في الشريعة والدين كله لأنه لم يصل إلينا إلا عن طريقهم ، وقد حكى السمعاني الإجماع على كفر من سب الصحابة من الرافضة لأجل هذه العلة.

الأدلة على كفر ساب الصحابة منها :

١- قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ الفتح: ١٨ .

٢- وقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ الفتح: ٢٩. فلا يغاظ منهم إلا كافر لا حظ له في الإسلام .

٣- وقال النبي ﷺ : (إن الله اختار ليّ أصحاباً ، وجعل ليّ منهم أنصاراً، ووزراء وأصهاراً ، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله له صرفاً ولا عدلاً) رواه الحاكم وصححه.

٤- وقال ﷺ: (الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق) رواه البخاري .

٥- عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: (لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) متفق عليه.

٦- وأخرج الترمذي وأحمد : (الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا من بعدي من أحبهم فقد أحبني ومن أبغضهم فقد أبغضني ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه).

٧- وروي عنه ﷺ : (لعن الله من سب أصحابي) رواه اللالكائي والطبراني وابن عدي في الكامل والخلال في السنة وابن بطة .

٨- وقال ﷺ : (من أبغض واحدا منهم أدخله الله النار) (فلا صلاة له) أخرجه ابن بطة وابن عساكر، وفي سنده أحمد بن نصر وهو ضعيف.

٩- وعن علي رضي الله عنه قال قال لي النبي ﷺ (ياعلي أنت وشيعتك في الجنة، وإن قوما لهم نبزا يقال لهم الرافضة إن أدركتهم فاقتلهم فإنهم مشركون)، قال علي ينتحلون حبنا أهل البيت وليسوا كذلك وآية ذلك أنهم يشتمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما . أخرجه الطبراني في الأوسط وابن أبي عاصم عبدالله ابن أحمد والآجري وابن بطة واللالكائي وغيرهم بأسانيد ضعيفة .

١٠- أن في سبهم طعن في الإجماع وتكذيب له وقد نقل الإجماع على عدالتهم علماء لا يحصون . منهم : ابن عبد البر في الاستيعاب ابن كثير في تاريخه البغدادي في الكفاية النووي في شرح مسلم ابن الصلاح في المقدمة وغيرهم.

كلام أهل العلم في كفر ساب الصحابة :

قال الفريابي شيخ البخاري حين سئل عمن يشتم أبا بكر ﷺ قال : (كافر قيل فيصلى عليه قال لا. وسئل كيف يصنع به وهو يقول لا إله إلا الله قال لا تمسكوه بأيديكم أدفعوه بالخشب حتى تواروه في حفرته) السنة للخلال .

قال الإمام مالك عن الرافضة عليهم لعائن الله : (إنما هؤلاء قوم أرادوا القدح في النبي ﷺ فلم يمكنهم ذلك فقدحوا في أصحابه حتى يقال رجل سوء كان له أصحاب سوء ولو كان رجلا صالحا كان أصحابه صالحين) الصارم ١٠٨٨ .

قال الذهبي في الكبائر : " فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرج من الدين ومرق من ملة المسلمين " .

قال الخطيب البغدادي في الكفاية عن أبي زرعة : " إذا رأيت الرجل يتنقص أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فأعلم أنه زنديق، وذلك أن القرآن حق والرسول حق وما جاء به حق وما أدى إلينا ذلك كله إلا الصحابة فمن جرحهم فقد أراد إبطال الكتاب والسنة " .

قال ابن تيمية : (من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد الرسول ﷺ إلا نفرا قليلا لا يبلغون بضعة عشر نفسا أو أنهم فسقوا عامتهم فهذا لا ريب أيضا في كفره فإنه مكذب لما نصه القرآن من الرضى عنهم والثناء عليهم بل من يشك في كفر مثل هذا فإن كفره متعين) الصارم ١١١٠ .

وفي تفسير القرطبي وغيره" روى أبو عروة قال كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك هذه الآية ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ ، فقال مالك من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية وقال لاحظ له من الفيء ".

قال الألوسي في صب العذاب على من سب الأصحاب : " أجمع علماء ما وراء النهر على استباحة دماء الروافض واستحلال أموالهم وفروج نسائهم ".

قال صديق حسن في الدين الخالص :" والعجب من علماء الإسلام والسلاطين كيف تركوا الرافضة على هذا المنكر فإن هؤلاء المخذولين لما أرادوا

الشريعة ومخالفتها طعنوا في الحاملين لها الذين لا طريق لنا إليها إلا من طريقهم فيظهرون السب لخير الخلق ويضمرون العناد للشريعة" .

ومن المسائل النازلة في هذا الباب :

القيام بتمثيل الصحابة في المشاهد من أقبح الناس دينا وأقلهم حياء ومروءة، ثم يلمزون الصحابة بطرقهم الكفرية وأنهم أصحاب هوى وشهوة غزل.

الثامنة والعشرون: تفريق بعض العلماء بين الله وبين رسوله في قبول التوبة :

حيث يقبلون توبة ساب الرب دون الرسول ووجه ذلك عندهم :

أن سب الله حق محض لله يسقط بالتوبة كسائر أنواع الكفر التي في جميعها تنقص الرب تعالى وسب رسوله فيه حقان حق لله وللعبد .

أن النبي ﷺ تلحقه المعرة والأذى والضرر بالسب والخالق لا تلحقه معرة وضرر كما قال ﷻ : لن تبلغوا ضري .

أن النبي ﷺ إنما يسب من جهة الحسد والمخالفة لدينه وكره حكمه أما سب الله فلا يكون كذلك غالبا وإنما تدين كما تقول النصارى ثالث ثلاثة.

أن سب النبي ﷺ حق لآدمي مات ولا يعلم هل يعفو عن حقه أم لا بخلاف الرب فإنه قد علم أنه قد عفا عمن سبه إذا تاب .

المسألة التاسعة والعشرون : حكم المستهزي وواجبنا تجاهه:

المستهزئ كافر مطلقا ويجب علينا تكفير الساب والمستهزئ كما أمر الله رسوله بتكفيرهم وأن نقول لهم قد كفرتم وإسماعهم ذلك كما قال سبحانه : ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ التوبة: ٦٥ - ٦٦.

قال ابن تيمية في الإيمان :" فقد أمره أن يقول لهم قد كفرتم بعد إيمانكم " .

واعلم أن المستهزئ والساب يكفر مطلقا ولا يعذر ولا يشترط إقامة الحجة عليه قبل تكفيره، وقد ظن بعض الجهلة أن كفر السب والاستهزاء كبعض النواقض التي تحتاج لقيام حجة ، وهذا خطأ وضلال ومخالفة صريحة لحكم الله في الآية الواردة في المستهزئين بتكفيرهم مطلقا، وسبب قولهم الجهل بمذهب أهل السنة في التفريق بين ما يخفى حكمه وما لا يخفى وما يعذر فيه الجاهل وما لا يعذر وما يحتاج لقيام حجة وما لا يحتاج وما هو محل إجماع وما هو محل خلاف .

والصواب في كفر السب والاستهزاء وتكفير صاحبه أمور :
١- أن يثبت أن هذا القول والعمل سبّ أو استهزاء صريح يكفر به ، فلا يكون من الألفاظ المحتملة .
٢- أن يثبت تلبس المعين به بإقرار أو شهود أو بينة .
٣- أن لا يكون قائله مكره أو مخطئ أو فاقد لعقله بسكر وجنان .
فإذا ثبتت الشروط كفّر صاحب القول إجماعا ،و يقتل بلا استتابة .
عليه فلا ينظر في من وقع في السب والسخرية هل هو جاهل أن هذا السب الذي يعلم معناه وأنه سب يخرج من الملة أم لا ، وذلك أن الذين كفرهم الله حين استهزؤوا بقراء الصحابة لم يكونوا في أنفسهم يعلمون أن ما فعلوه كفر يخرجهم من الملة وتقدم كلام ابن تيمية .

المسألة الثلاثون : المستهزي يكفر هازلا أو جاداً :

لا يفرق في تكفير المستهزئ بين الهازل المازح اللاعب وبين الجاد المتعمد، وذلك بنص الآية كما لا يفرق بين المستحل وبين من يرى حرمة السب والاستهزاء، وإن كان الجاد والمستحل اشد كفراً إلا أنه لا يعني أن غيره لا يلحقه التكفير ووصف الردة ، وتقدم كلام أهل العلم.

قال ابن قدامه: (ومن سبّ الله تعالى كفر سواءً كان مازحاً أو جاداً ، وكذلك من استهزأ بالله تعالى أو بآياته أو برسله أو كتبه) .المغني١٠ / ١١٣.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:(وهذا يدل على أن الجد واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء).

وقال الإمام ابن تيمية: (وهذا نصٌ في أن الاستهزاء بالله وآياته وبرسوله كفر، فالسب المقصود بطريق الأولى، وقد دلت هذه الآية على أن كل من تنقص رسول الله صلى الله عليه وسلم جادّاً أو هازلاً فقد كفر) الصارم المسلول ٧٠.

المسألة الحادية والثلاثون : لا يشترط في تكفير المستهزئ والساب الاستحلال له أو تعمده ولا علمه بكون عمله كفرا وأن الاستهزاء كفر أكبر:

والاستهزاء لا يشترط معه الاستحلال حتى يكون كفراً، ولا يلزم أن يعلم المستهزئ بأن الاستهزاء من الكفر المخرج من الملة، وفي قصة النفر الذين استهزؤوا

بالنبي ﷺ وأصحابه ﷺ في غزوة تبوك شاهد على أن الله أثبت كفرهم ، مع أن الله أخبر عنهم أنهم قالوا ذلك مع جهلهم أن الاستهزاء كفر مخرج من الدين ، بل قالوه هزلاً ولعباً .

أما إن كانوا يعلمون أن الاستهزاء كفر مخرج من الملة فهذا أقبح وأشد عند الله، لما فيه من الاستخفاف بحكم الله تعالى وحدوده .

قال الإمام ابن تيمية : " وقول من يقول عن مثل هذه الآيات أنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر فلا يقال قد كفرتم بعد إيمانكم فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم وهم مع خواصهم ما زالوا هكذا " الفتاوى٧/ ٢٧٢ .

قال ابن تيمية : "لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم " . فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفرا بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به فإنهم لم يعتقدوا جوازه) الفتاوى٧/ ٢٧٢ .

وقال: (إن سب الله أو سب رسوله كفرٌ ظاهراً وباطناً ، وسواءٌ كان الساب يعتقد أن ذلك محرم أو كان مُستحلاً له). الصارم المسلول ٩٥٥ .

وقال: (أن اعتقاد حل السب كفرٌ ، سواءٌ اقترن به وجود السب، أو لم يقترن ، فإذن لا أثر للسب في التكفير وجوداً أو عدماً ، وإنما المؤثر هو الاعتقاد ، وهو خلاف ما أجمع عليه العلماء) . الصارم ٩٦٣ .

قال القاضي أبو يعلى:(من سب الله أو سب رسوله فإنه يكفر سواءً استحل سبه أو لم يستحله). الصارم المسلول : ٩٥٧ .

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب:(إذا نطق بكلمة الكفر ولم يعلم معناها صريح وواضح أنه يكون نطق بما لا يعرف معناه، وأما كونه لا يعرف أنها تكفره فيكفي فيه قوله: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ ، فهم يعتذرون للنبي ﷺ ظانين أنها لا تكفرهم ، والعجب ممن يحمّلها على هذا وهو يسمع قوله تعالى ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الأعراف: ٣٠ أيظن أن هولاء ليسوا كفاراً؟ لكن لا تستنكر الجهل الواضح لهذه المسائل لأجل غربتها) تاريخ نجد (٤٤٧).

مسألة لا ينبغي قبول عذر المستهزئ والساخر والساب إذا لم يكن مكرهاً أو مخطئاً ، ومن أدعى الجهل وأنه لا يقصد السخرية أو لا يبغض الدين وكلامه صريح لا يحتمل فإنه يجب أن يؤخذ باستهزائه ويحكم بردته .

المسألة الثانية والثلاثون : عدم قبول توبة المستهزئ بالله وبرسوله :

لا ينبغي قبول توبة المستهزئ والساخر والساب ولا عذره إذا لم يكن مكرهاً أو مخطئا ، فمن سب الله ورسوله أو سخر وطعن فيهم فإنه يقتل ولا يستتاب على الصحيح من مذهب أهل السنة ولم يخالف إلا الحنفية .

وقولنا لا تقبل توبته هذا في الدنيا أي أنه يجب علينا أن نقتله ولا نصلي عليه ونجري عليه أحكام الكافر المرتد، وأما في الآخرة فأمره إلى الله فقد يكون صادقاً في توبته فيقبلها الله منه ويغفر له .

والحكم في ساب الله ورسوله كالحكم في الزنديق والمنافق إذا قدر عليه قبل التوبة فإنه يتوجب قتله ولا يستتاب ولو أظهر التوبة فلا تقبل منه ولا يقبل عذره .

قال ابن تيمية في الصارم : (كذلك من يدعوه ضعف عقله أو دينه على الانتقاص للرسول ﷺ إذا علم أن التوبة تقبل منه، أتى بذلك متى شاء ثم تاب منه ، وقد حصل مقصوده إنتقاص الرسول بما قاله كما حصل أولئك بما فعلوه، بخلاف مريد الردة المجردة فإن مقصوده لا يحصل إلا بالمقام عليها وذلك لا يحصل له إذا قتل إذا لم يرجع فيكون ذلك رادعاً له، وهذا الوجه لا يخرج السب عن أن يكون ردة ولكنه حقيقة أنه نوع من الردة يغلظ بما فيه من انتهاك عرض الرسول ﷺ).

كما أن الاستهزاء بالرسول ﷺ متعلق بحق الرسول ﷺ ولا يعلم هل يعفو عن حقه أولا .

المسألة الثالثة والثلاثون : أوجه عدم قبول توبة المستهزئ :

١- أن الاستهزاء بالرسول ﷺ متعلق بحقه ولا يعلم هل يعفو عن حقه أولا .

٢- أن في قتله ردع له ولغيره من القيام بمثل هذا العمل المشين وتركه سبب للتمادي وانتشار هذا الكفر المخزي .

٣- أن فيه حق للمؤمنين وشفاء لصدورهم ولا يذهب ما في قلوبهم على الساب إلا بقتله.

قال ابن تيمية في الصارم : (كذلك من يدعوه ضعف عقله أو دينه على الانتقاص للرسول ﷺ إذا علم أن التوبة تقبل منه، أتى بذلك متى شاء ثم تاب منه ، وقد حصل مقصوده انتقاص الرسول بما قاله كما حصل أولئك بما فعلوه، بخلاف مريد الردة المجردة فإن مقصوده لا يحصل إلا بالمقام عليها وذلك لا يحصل له إذا قتل إذا لم يرجع فيكون ذلك رادعاً له، وهذا الوجه لا يخرج السب عن أن يكون ردة ولكنه حقيقة أنه نوع من الردة يغلظ بما فيه من انتهاك عرض الرسول ﷺ).

وقال ابن تيمية : (وأما إن أقر بالسب ثم تاب أو جاء تائبا فذهب المالكية إلى أنه يقتل لأنه حد ولا تسقط الحدود بالتوبة قبل القدرة ولا بعدها قال القاضي عياض : "ومسألة السب أقوى لا يتصور فيها الخلاف لأنه حق يتعلق بالنبي ﷺ ولأمته لا تسقطه التوبة" .. فعلى هذا لا يسقط القتل عنه وإن تاب قبل القدرة) .

وقال : (إذا قررنا أن المسلم إذا سب الرسول يقتل وإن تاب بما ذكرنا من النص والنظر والذمي كذلك) الصارم: ٨٥٠/ ٧٠٦ / ٧٠٨ .

وقال : (أن قتل الساب تعلق بالنبي ﷺ فلم يسقط بإسلام الساب) الصارم: ٨٥٦.

وقال في قصة ابن أبي سرح : (وهذا نص أن مثل هذا المرتد لا يجب قبول توبته بل يجوز قتله وإن جاء تائبا وإن تاب . وقد قررنا هذا وبينا الذي عصم دمه عفو الرسول ﷺ عنه لا مجرد إسلامه) الصارم : ٦٤١ .

المسألة الرابعة والثلاثون : حكم المستهزئ بالنبي ﷺ وسابه:

أولاً : الكافر الأصلي المحارب :

يجب قتله على الصحيح ولو أسلم، ولا يمن عليه ولا يؤسر بل يتعين قتله لتعلق مناط الكفر والقتل به وهو الكفر بالله والطعن في دينه ورسوله ، وأوجب البعض قتله حتى لو أسلم قبل القدرة عليه لتعلق حق النبي ﷺ بذلك .

قال ابن تيمية في الصارم : (وأما من طعن في الدين فإنه يتعين قتاله وهذه كانت سنة رسول الله ﷺ فإنه كان يهدر دماء من أذى الله ورسوله وطعن في الدين وإن أمسك عن غيره . واختلف أهل العلم فيما لو أسلم هل يقبل منه إسلامه أم لا وإذا قبل منه هل يقتل حدا أم لا خلاف بين أهل السنة).

وقال : (قال أبوعلي البناء من سب النبي ﷺ وجب قتله ولا تقبل توبته، وإن كان كافرا فأسلم فالصحيح من المذهب أنه يقتل أيضا ولا يستتاب ومذهب مالك كمذهبنا) الصارم ٥٥٨ .

وقال : (وإذا كان الساب محاربا لله ورسوله ساعيا في الأرض فسادا وجب أن يعاقب بإحدى العقوبات المذكورة في الآية إلا أن يتوب قبل القدرة عليه.. ولهذا كان الكافر الحربي إذا أسلم بعد الأخذ لم تسقط عنه العقوبة كما قال النبي ﷺ للعقيلي "لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح".. فسنة الرسول ﷺ دلت من غير وجه على قتل الساب من غير استتابة) الصارم ٦٣٨ .

ثانياً : الذمي والمعاهد والمستأمن المهادن :

ينتقض عهده ويقتل ويجب قتله مطلقا، وخالف بعض أهل السنة في قبول إسلامه ورفع القتل عنه إن أسلم قبل القدرة عليه ، والصحيح عدم قبولها وذلك لأن السب متعلق بحق الرسول ﷺ وليس لنا أن نعفوا عن ما هو من حقه.

قال ابن تيمية في الصارم :" فإذا طعن الذمي في الدين فهو إمام في الكفر فيجب قتاله لقوله تعالى : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ التوبة: ١٢ ولا يمين له لأنه عاهدنا على أن لا يظهر عيب الدين وخالف فثبت أن كل من طعن في ديننا بعد أن عاهدناه عهداً يقتضي أن لا يفعل ذلك فهو إمام في الكفر لا يمين له فيجب قتله بنص الآية) .

ثالثاً : المسلم إذا سب يصير كافرا مرتدا :

قال ابن تيمية : (إما إن كان مسلما فبالإجماع لأنه نوع من المرتد أو الزنديق وسواء كان رجل أو امرأة) الصارم ٤٦٧ .

إذا أظهر نفاقه واستهزأ وسخر وطعن فإنه يجب قتله ولا تقبل توبته في الدنيا وحكم الظاهر، ويدل على وجوب قتله أدلة ذكرناها في كتاب أحكام المنافق في المقدمة ومنها:

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ التوبة: ٧٣

وقوله تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ الأحزاب: ٦٠ - ٦٢ . فالإغراء والتقتيل لهم .

وذكرنا الجواب عن عدم قتل الرسول ﷺ بعض المنافقين :

١- أن ذلك لمصلحة وهي حتى لا يقال محمد ﷺ يقتل أصحابه .

٢- أن ذلك أول الهجرة ووقت ضعف الإسلام ثم نسخ الإعراض والصفح وقبول أذاهم إلى بالقتل والغلظة بعد نزول براءة وحصول الفتح.

٣- أن قتلهم الأصل فيه الجواز وقد أقر الرسول ﷺعمر حين قال : دعني أضرب عنق هذا المنافق .

٤- أنهم لم يظهروا كفرهم ولم يثبت عليهم بينة وكانوا يحلفون ما قالوا ويظهرون التوبة.

٥- أن الرسول ﷺ له أن يعفو عن المنافق ومن شتمه وسبه وليس ذلك لغيره.

وإني ما زلت أعجب من كثير من فقهاء زماننا ودعاته في موقفهم من استهزاء كفرة الدنمرك بالرسول ﷺ وأنهم لا بد أن يعتذروا لنا وإذا اعتذروا سامحوهم وعفوا عنهم ، عقدوا خيبهم الله باسم الأمة مؤتمرا يحوي نصرة الشيطان مدعين نصرة الرسول ﷺ والله أنهم خذلوه وحاربوا أمته وأفسدوا في الأرض أيما إفساد ، وحاربوا مقاطعة الدنمرك وجرموا الداعي إليها ، فصاروا بدل الأمر بجهادهم والإغلاظ عليهم يأمرون بملاطفتهم واللين والدعوة التي هم يفهمونها إلى الإسلام الذي يريده هؤلاء الدعاة ، واكتفوا بطلب على استحياء أن تعتذر لهم الدنمرك ليمتصوا غضب المسلمين. فما أشد هوانهم أهانهم الله .

الخامسة والثلاثون: مفاسد ترك إقامة حد الردة في المستهزئين بالدين:

أنه من أعظم أسباب انتشار هذا الناقض، ففي تركه سبب لجرأة ضعاف الإيمان والمنافقين والزنادقة، وليعلم العاقل أن هؤلاء تخفت أصواتهم إذا أخذوا وشردوا وقتلوا ، وقد ذكر أهل العلم أن الزنادقة زمن المهدي وابنه ندر ظهورهم بعد أن تتبعهم وقتلهم.

وحين انتشرت زمن الدولة العباسية الزندقة والسخرية من هؤلاء كالأصفهاني في الأغاني وأبو نواس والمقفع والمعري وصالح بن عبد القدوس وبشار بن برد، قام الخليفة المهدي بقتلهم حيث اشتهر بتتبع الزنادقة وأهل الاستخفاف بل وعين وزيراً للنظر فيهم وملاحقتهم وقتلهم كما ذكر ابن كثير فرحمه الله .

وما أحوج الأمة لتتبع أهل الزندقة والاستهزاء بالله وعلى أهل الحسبة تتبع هؤلاء المستخفين والاحتساب على الجرائد والأعلام الساخر والرفع بهم للمحاكم إن وجدت وليس ذلك من الغيبة والنميمة في شيء بل هو من الإسلام، كما فعل الصحابي عوف بن مالك لما سمع السخرية بقراء الصحابة ورفع أمرهم للنبي ﷺ .

وقد أصبحت المجلات والجرائد والقنوات مرتعا للشياطين الإنسية ترعى فيه الخنازير البشرية ومشربا كدرا يلغ فيه كلاب الصحافة من أهل النفاق والنجاسة، فبدل أن تكون هذه الصحف مجالاً للإصلاح والدعوة الدينية ونشر مبادئ الإسلام وهي تصدر من بلاد الحرمين، إذ بها على النقيض تماما، فكم غرت وضرت من الطغام الجهلة من ضعاف الدين وكم من العوام من ضعف في قلبه هيبة الدين وأهله بل وقام بالتمسخر بشرائع الإسلام .

وإن ممن غرته هذه المجالس أقوام ضعفت عزائمهم وعميت بصائرهم من أهل الدين والعلم فراحوا يتلمسون لهؤلاء الأعذار ويأتون بمبادئ الدين على استحياء ، حتى قامت أحد الجرائد التي كانت بالأمس ساخرة بأهل الحسبة بتصويرهم يوزعون الحلوى في مرتع للمنكرات والتبرج فأين الحمية وأربابها يا أهل الدين والله المستعان .

ولو أن حد الردة أقيم في واحد من هؤلاء المنافقين في زماننا لا نكف بقتله المئات من هؤلاء المجرمين وأخفوا نفاقهم.

السادسة والثلاثون : الحكم في الساب والمرتد :وحكم لو قتله آحاد الرعية:

تكفير المرتد والمنافق إذا أظهر كفره ومن ذلك المستهزئ بالدين والرسول ﷺ فإن هذا أمر واجب على كل مسلم ،لأن ذلك من التوحيد، فإذا رأى المسلم شخصاً يدعس المصحف أو يسب الله ورسوله من غير إكراه محقق فإنه يجب عليه تكفيره ولا يتم إسلامه إلا بالكفر بالطاغوت ومن الكفر بالطاغوت تكفير الكافر والبراءة منه، والأصلي والمرتد على سواء .

أما إقامة حد الردة عليه فتكون بعد استتابته وإقامة الحجة عليه إذا كان مما يحتاج إلى ذلك وهذا بخلاف السب ونحوه .

ولا يقيم الحد بالقتل إلا إمام المسلمين أو نائبه كالقاضي ونحوه ، ولكن هل يجوز لآحاد الرعية إقامة حد الردة عليه :

إن عطلها الحاكم جاز لهم ذلك بل يجب على من قدر على قتله.
وإن لم يعطلها فخلاف بين أهل العلم :
فمنهم من أجازها لأهل العلم مستدلا بفعل بعض الصحابة .
ومنهم من لم يجز لهم إقامتها ويعتبره من الافتئات على الإمام .
قال ابن تيمية : (الحدود لا يقيمها إلا الإمام أو نائبه وجوابه من وجوه :
أحدها : أن السيد له أن يقيم الحد على عبده بدليل قوله ﷺ :" أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم " رواه أبو داود وغيره وقوله :" إن زنت أمة أحدكم فليجلدها " رواه البخاري ومسلم، ولا أعلم خلافاً بين فقهاء الحديث أن له أن يقيم عليه الحد واختلفوا هل له لأن يقيم عليه قتلا وقطعاً كقتله لردته وقطعه للسرقة فيه عن الإمام أحمد روايتان إحداهما أنه يجوز وهو منصوص عن الشافعي والأخرى لا يجوز وهو قول مالك وقد صح عن ابن عمر أنه قطع يد عبد له سرق وصح عن حفصه أنها قتلت جارية لها اعترفت بالسحر وكان ذلك برأي ابن عمر رواه مالك فيكون الحديث حجة لمن يجوز للسيد أن يقيم الحد على عبده مطلقا والنبي ﷺ لم يطلب من سيد الأمة بينة على سبه بل صدقه كما قوله كانت تسبك وتشتمك ففي هذا الحديث حجة لهذا القول أيضاً .
الوجه الثاني: أن ذلك أكثر ما فيه أنه أفتأت على الإمام والإمام له أن يعفو عمن أقام حدا واجباً دونه .
الوجه الثالث: أن هذا وإن كان حداً فهو قتل حربي أيضاً فصار بمنزلة قتل حربي تحتم قتله وهذا يجوز قتله لكل أحد وعلى هذا يحمل قول ابن عمر في الراهب الذي قيل له إنه يسب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لو سمعته لقتلته .
الرابع : أن مثل هذا قد وقع على عهد رسول الله ﷺ مثل المنافق الذي قتله عمر بدون إذن النبي ﷺ ما لم يرضى بحكمه فنزل القرآن بإقراره ومثله بنت مروان التي قتلها ذلك الرجل حتى سماه النبي ﷺ ناصراً لله ورسوله) الصارم ٥١٩.
فالعجيب من أهل الإرجاء إنكارهم على أهل العلم تكفيرهم من أظهر السب والسخرية ولمز من يكفر بأنه خارجي تكفيري وأن التكفير من صلاحية الحاكم.
قاعدة :
التفريق بين حال عز الإسلام وقوة أهله فيجب الإغلاظ على الكفار وعدم العفو والصفح وقتل المنافقين، وفي حال الضعف والذلة عمل بالعفو والصفح .

قال ابن تيمية : (فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية العفو والصفح عمن يؤذي الله ورسوله وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية القتال أئمة الكفر) الصارم ٤١٤ .

المسألة السابعة والثلاثون : عقوبة الاستهزاء وسنة الله في المستهزئين:

أولا أن الله ﷻ يستهزئ بالمستهزئين بالله ورسوله في الدنيا والآخرة .

ثم أنه ينزل تعالى عقوبتهم في الدنيا وتعجل لهم ويكونوا عبرة ، وقد جعل الله الهوان على متنقص الله ﷻ ورسوله ﷺ وجعل شانئه الأبتر ومقطوع النسل .

أنه ينزل الله تعالى بالمستهزئ عقوبات دنيوية وأخروية من أمثال ذلك :

ماثبت في السنة من النصراني الذي أسلم ثم ارتد وقال ما يدري محمد ما كتبت له، فأماته الله فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض ثلاث مرات .رواه البخاري.

ما ذكره بعض المؤرخون من نصراني نال من النبي ﷺ فهجم كلبه المربى عليه فأعاد السب فقتله الكلب .

أن المجاهدين كانوا إذا حاربوا كفاراً واستعصى عليهم النصرة عليهم ثم سمعوا منهم سب للرسول ﷺ أنهم يستبشرون لكون النصر قرب وسبهم مؤذن بنهايتهم ويحصل ما ترقبوه غالباً .

قال ابن تيمية : (وكان المسلمون يحاصرون بلد الكفار وحصنهم وهو ممتنع حتى يقرب اليأس منه حتى إذا تعرض أهله لسب الرسول ﷺ تعجلوا فتحه وتيسر ولم يتأخر) الصارم ٢٣٣ .

ذكر النووي في بستان العارفين : (أن أبا داوود صاحب السنن مر برجل مسافر فقال له ولطلابه ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسرها مستهزئاً بحديث أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم قال فما زال في موضعه حتى جفت رجلاه وسقط ومات).

وذكر ابن كثير : (أن رجلا ببصرى لما ذكر له سنة السواك حلف ألا يستاك إلا في دبره فمكث تسعة أشهر يشكو ألم بطنه ودبره حتى وضع ولدا على صفة الجرذ ومات بعده وهو يقول قتلني وقطع أمعائي).البداية والنهاية ١٣/ ٢٦٣ .

وقفة : لا بد أن يعاقب الله المستهزئين لأن الله تعالى تكفل بكفهم ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ الحجر: ٩٥.

الثامنة والثلاثون : وجوب الإعراض عن المستهزئين وعدم الجلوس معهم :

جاء الأمر الصريح بالنهي عن مجالسة المستهزين وتحريم ذلك وأن من جالسهم عن رضا من غير إكراه فهو كافر مثلهم والعياذ بالله في أدلة منها :

١- قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٤٠ .

٢- وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الأنعام: ٦٨ .

٣- قال ﷻ: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ القلم: ١٠-١١.

٤- قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ النحل: ٢٨ .

فلم يعذر الله تعالى تارك الهجرة إذا رأى الكفر ولم يستطع إظهار دينه وحكم بكفره فكيف بمن يحضر مجالس الكفر والسخرية بالدين .

٤- كما دل على ذلك حديث ابن عمر ﷺ في فعل الرسول ﷺ مع المجالس للمستهزئين حين جاء معتذراً ووصف حاله بأنه لا يلتفت إليه، وليعلم أن من يجالس المستهزأ أو يحضر مجالس السخرية عن رضا من غير إكراه فإنه يعتبر كافراً.

والدليل : أن الآية النازلة في المستهزئين قالت ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم ﴾ التوبة: ٦٦، مع أن المتكلم واحد والباقين حضروا دون إنكار كما فعل مخشي.

٥- ومما يدل على هذا الأصل واستقراره ما عمله خالد بن الوليد ﷺ مع مجاعة الحنفي حين أسره مع نفر من قومه في حروب المرتدين في اليمامة، فقال له : يا خالد لقد علمت أني قدمت على رسول الله ﷺ في حياته فبايعته على الإسلام وأنا اليوم على ما كنت عليه أمس، فإن يك كاذباً يعني مسليمة الكذاب قد خرج فينا فإن الله يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ، قال خالد: يا مجاعة تركت اليوم ما كنت عليه أمس وكان رضاك بأمر هذا الكذاب وسكوتك عنه وأنت أعز أهل اليمامة وقد بلغك مسيري إقرار له ورضا بما جاء به، فهلا أبديت عذراً وتكلمت فيمن تكلم فقد تكلم ثمامة فرد وأنكر وتكلم اليشكري فإن قلت أخاف قومي فهلا عمدت إلي أو بعثت رسولاً .

المسألة التاسعة والثلاثون : حكم المجالس للمستهزئ بالله أو دينه :

لا يخلو من حالتين :

الأولى: أن ينكر ذلك بقوله ويبغضه، أو يقوم من المجلس منكراً بقلبه لعدم قدرته على الإنكار بلسانه، فهذا هو الواجب، وهو مأجور بقدر إنكاره.

الثانية: أن يرضى ذلك ولا ينكره، بل ربما يذهب بنفسه إلى تلك المجالس على علم بما سيجري من الاستهزاء بالله أو بدينه، فهذا لا ريب أنه كافرٌ، وهو من أعظم خصال المنافقين كما تقدم في الآيتين الصريحتين وغيرها .

المسألة الأربعون : مفاسد وعلل تحريم حضور مجالس الاستهزاء :

١- أن في المجالسة لهم فيها تشجيع لأهل الباطل وتأييد لهم حتى يحصل لهم الاعتزاز بطريقتهم والاستمرار في كفرهم .

٢- تكثير سواد أهل الشر والإجرام .

٣- تغرير ببعض الجاهلين العوام إذا رأوا الناس جلوساً في مجالس الكفر ولا ينكر، أو ينظرون لمشهد كفري دون إنكار بل قد يتبادلون الضحكات الساذجة البلهاء ، ولا يعلمون أنهم بهذه الصفة المستلزمة للرضا بهذا الاستهزاء يسخرون من الإسلام وبالتالي يخرجون منه بالكلية ، نسأل الله العافية .

٤- أن في ذلك نشر الفساد والكفر.

فبعد هذه الأدلة على تحريم مجالسة المستهزئين والخوض معهم، وبعد بيان المفاسد في حضور المجالس التي فيها الكفر بالله والمصالح من تجنبها، هل يشك من عنده مسكة من عقل أو بقية من دين في وجوب تجنب مجالس السخرية ، والإنكار الظاهر عليهم وبيان الحرمة فيها والخروج من المجلس إذا لم يستجب الساخرون.

وإن ما يحصل من مشاهدة في التلفاز أو الجوالات أو قراءة علنية في مقال كفري مع الاعجاب والضحك لمن هذا الباب .

كذلك نشر زبالات أفكارهم وسخافات عقولهم وذلك بتناقل طرائفهم الهزلية وأحاديثهم التهكمية الساخرة سواء كانت عن طريق الكتب أو الصحف والمجلات والجرائد أو التلفاز والدشوش أو رسائل الجوال أو مقاطع النت.

المسألة الحادية والأربعون : الصور التي تتوفر فيها صفة مجالسة المستهزئين:

١- من هذا الباب القراءة العلنية لمقال سافر ويتضاحك الناس بعده.

٢- رؤية جماعية لرسمة كفرية في جريدة أو صورة محرمة .

٣- رؤية المسلسلات الكفرية كالمشاهد الطائشة في مشاهد طاش التي أخذت من أسمها أوفر نصيب وغيرها كثير.

٤- ما يتناقله سذّاج العقول وسفهاء الأحلام من المقاطع والرسائل المكتوبة والمسموعة والمرئية عبر الجولات .

وكم نرى من طرفة يتجاذبها الأطراف وفي كل لفظه منها عظائم البهتان وأوجه الكفر والإلحاد .

٥- حضور مسرحياتهم وتمثيلياتهم عبر المسارح المنكرة دون إنكار .

٦- وإن من الصور لحضور هذه المجالس وهي نازله النظر إليهم في التلفاز .

٧- ومن مجالسة المستهزئين حضور البرلمانات التشريعية الطاغوتية الشركية .

٨- حضور ومشاهدة ما يسمى بالألعاب البهلوانية والسرك المشتمل على السحر والشعوذة والعربدة.

المسألة الثانية والأربعون: السب والاستهزاء كفر في الظاهر والباطن :

قال ابن تيمية: (الاستهزاء بالقلب والانتقاص ينافي الإيمان الذي في القلب منافاة الضد ضده وباللسان ينافي الإيمان الظاهر باللسان كذلك والغرض بهذا التنبيه أن السب الصادر عن القلب يوجب الكفر ظاهرا وباطنا هذا مذهب الفقهاء وأهل السنة خلافا للجهمية والمرجئة القائلين أن الإيمان هو المعرفة، والقول بلا عمل من أعمال القلب من أنه ينافيه في الظاهر وقد يجامعه في الباطن) الصارم ٧٠١ .

وقال فيه: (إن سب الله أو سب رسوله كفر ظاهراً وباطناً سواء كان الساب يعتقد أن ذلك محرم أو كان مستحلاً أو كان ذاهلاً عن اعتقاده هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل خلافا ما يقوله الجهمية والمرجئة).

ومما قاله بعض المرجئة أنه لا يكفر إلا قاصد الكفر والجاد فيه العالم به والمعاند.

وقدمنا قول المرجئة ومذهبهم في مقدمة النواقض .

مبحث : مذهب المرجئة في كفر الاستهزاء

المرجئة لا تكفر إلا بالتكذيب ، وأما السب والاستهزاء عندهم فليس بكفر إلا إذا كان معه استحلال وتكذيب وإلا لا يعتبر كفراً عندهم ، والساب لا يكون كافراً إلا إذا استحل بقلبه لأن مجرد النطق باللسان ليس بكفر في ذاته.

فالمرجئة تشترط الاستحلال للسب، لأنهم يجعلونه كبيرة من كبائر الذنوب .

وقالوا قد يكون من يسب الله ورسوله مؤمناً كامل الإيمان من أهل الجنة .

قال ابن تيمية الصارم: (وهذا موضع لابد من تحريره ويجب أن يعلم أن القول بأن كفر الساب في نفس الأمر إنما هو لاستحلاله السب، زلة منكرة وهفوة عظيمة وليس لها أصل ، وإنما هي من كلام المتكلمين، فلا يظن ظان أن في المسألة خلافاً يجعل المسألة من مسائل الخلاف والاجتهاد وإنما ذلك غلط لا يستطيع أحد أن يحكي عن واحد من الفقهاء وأئمة الفتوى هذا التفصيل) الصارم ٩٦٠.

ويرد على هذه الشبهة وقولهم الذي لم يقل به أحد من أهل السنة من أوجه:

١- أن الأدلة تخالف ذلك فهي تنص على كفر الساب والمستهزئ مطلقا .

فالقرآن نص على كفر المستهزئين مع كونهم اعتذروا وأقروا وبينوا أنهم لم يستحلوا ويبغضوا وإنما حملهم على الاستهزاء الخوض واللعب ومع ذلك قال لهم : (قد كفرتم بعد إيمانكم) ولم يقل كذبتم في قولكم إنما كنا نخوض ونلعب بل كنتم مستحلين مبغضين فلم يكذبهم في عذرهم كما كذبهم في سائر ما أظهروه من العذر الذي يوجب براءتهم من الكفر لو كانوا صادقين فيه .

٢- أن الاستحلال كفر ولو لم يسب .

٣- أنهم جعلوا سب الرسول والدين كسب المؤمنين وبقية المحرمات التي يكفر من استحلها ولا مزية للرسول ﷺ ولا وجه في تخصيص سبه ﷺ .

منشأ قولهم : أن الأصل في الكفر عندهم هو القلب فقط، فلا يكفرون بالقول ولا العمل ، ولذلك ردوا الكفر إلى القلب بالجحود أو الاستحلال فقط ، وهذا خلاف ما عليه أهل السنة أنهم يكفرون بالقول والعمل والاعتقاد .

والرد على هذه الشبهة من عدة أوجه مستخلصة من كلام ابن تيمية من الإيمان والصارم المسلول :

الأول: إن الإيمان وإن كان هو التصديق فالتصديق التام يستلزم الواجب من أعمال القلوب والجوارح ، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم. والتصديق بالقلب يمنع إرادة التكلم بالسب وما فيه كفر أو عمل كفر .

الثاني: إن التصديق يكون بالعمل كما يكون بالقلب ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ الصافات: ١٠٥.

الثالث: أنه يلزم من قولهم أن من تكلم بالتكذيب والجحد والكفر من غير إكراه عليه يجوز أن يكون مع ذلك في نفس الأمر مؤمنا، ومن جوز هذا فقد كفر.

الرابع: أن أهل السنة مجمعون على أن من لم يتكلم بالإيمان مع غير عذر كافر ولا ينفعه ما في قلبه من التصديق، بل وكفروا من قال أن التصديق يكفي لوحده.

الخامس: أن القول أن الإيمان لا يحتاج لقول اللسان مع فساده، إلا أنه لا يلزم منه أنه لا يبطله القول الذي ينافي الإيمان ،والقول بأنه لايبطله زيادة في الضلال.

وإليك كلام العلماء في تكفير الساب والمستهزئ وأن سبه ينافي الإيمان وردهم على المرجئة :

قال ابن تيمية عن المرجئة : (لم يجعلوا أعمال القلوب من الإيمان وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمنا كامل الإيمان بقلبه وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادي الله ورسوله ويعادي أولياته ويوالي أعداءه ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد ويكرم الكفار ويهين المؤمنين قالوا وهذه كلها معاص قالوا: وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالأقرار والشهود وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به وبخلاف ما شهد به عليه، فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة والإجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذب في الآخرة قالوا فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه) الإيمان ٧/ ١٨٨ .

وقال: (لما رأوا الأمة كفرت الساب قالوا إنما كفر لأن سبه دليل على أنه لم يعتقد أنه حرام واعتقاد حله تكذيب للرسول فكفر بذلك التكذيب لا بتلك الإهانة، وإنما الإهانة دليل على التكذيب فإذا فرض أنه ليس بمكذب كان في نفس الأمر مؤمنا وإن كان حكم الظاهر يجري عليه فهذا مأخذ الجهمية) الصارم ٩٦٥ .

وقال : (فالسب إهانة واستخفاف، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستخف، فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة فإنه لا يكون فيه انقياد أو استسلام فلا يكون فيه إيمان وهذا

بعينه كفر إبليس فكفر إبليس أنه سمع أمر الله له فلم يكذب رسولاً ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له واستكبر عن الطاعة فصار كافراً). الصارم ٩٦٧.

وقال: (التكلم بالكفر من غير إكراه كفر في نفس الأمر حتى المرجئة خلافا للجهمية) الأصفهانية ١٢٤.

وقال: (إن اعتقد أن الله لم يحرمه، أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند .. فإن العاصي المستكبر وإن كان مصدقاً بأن الله ربه فإن معاندته له ومحادته تنافي هذا التصديق .. ثم يمتنع عن التزام هذا التحريم ويعاند المحرم، فهذا أشد كفراً ممن قبله) الصارم ٩٧٠.

وقال ابن حزم : (وأما الأشعرية فقالوا : إن شتم من أظهر الإسلام لله تعالى ولرسوله ليس كفرا ، ثم خشوا مبادرة جميع أهل الإسلام لهم ، فقالوا : لكنه دليل على أن ما في قلبه كفرا) الفصل ٥/ ٧٥ .

وقال : (ونقول للجهمية والأشاعرة في قولهم جحد الله تعالى وشتمه إذا كان باللسان ليس كفرا لكنه دليل على أن في القلب كفرا ... فهي دعوى لأن الله تعالى قال: (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر) فنص تعالى على أن من الكلام ما هو كفر ... فنص تعالى على أن الاستهزاء بالله كفر مخرج ن الإيمان ولم يقل : إني علمت أن في قلوبكم كفرا بل جعلهم كفار بنفس الاستهزاء ومن قال غير هذا فقد قول الله ما لم يقل وكذب على الله) الفصل ٣/ ٢٥٩، ٢٤٤ .

وقال في آخر المحلى : (وأما سب الله تعالى ، فما على ظهر الأرض مسلم يخالف في أنه كفر مجرد إلا الجهمية والأشعرية وهما طائفتان لا يعتد بهما ، يصرحون بأن سب الله وإعلان الكفر ليس كفرا ، وقال بعضهم لكنه دليل على الكفر لا أنه كافر ، وهذا كفر مجرد لأنه خلاف إجماع الأمة) ١٢/ ٤٣٥.

مبحث : شبهات في ناقض الاستهزاء والبغض

الأولى : أن الاستهزاء لا يكون كفرا إلا مع التكذيب والاستحلال .

وقد قدمنا الرد على هذه الشبهة في الناقض الخامس (البغض) في تبيين مذهب المرجئة في ناقض البغض .

الثانية : أن البغض هو بمعنى التكذيب ولا يبغض إلا المكذب.

وقد قدمنا الرد على هذه الشبهة في الناقض الخامس .

الثالثة : أن المبغض للدين لا تظهر آثار بغضه .

وقد قدمنا الرد على هذه الشبهة في الناقض الخامس .

الرابعة : أنه لا يكفر إلا من يبغض كل الدين .

وقد قدمنا الرد على هذه الشبهة في الناقض الخامس .

الخامسة : أنه لا يكفر المبغض والمستهزئ إلا إذا تعمد الكفر وقصده .

وقد قدمنا الرد على هذه الشبهة في مقدمة النوقض.

السادسة: أنه لا يكفر المستهزئ والمبغض إلا بعد إقامة الحجة عليه .

وقد قدمنا الرد على هذه الشبهة في مواضع.

السابعة : أنهم يقولون (لا إله إلا الله) .

وقد قدمنا الرد على هذه الشبهة في مقدمة النواقض.

وهنا ثلاث شبهات في قتل ساب الرسول ﷺ والمستهزئ بشريعته .

فصارت عشر شبه.

الأولى : أن الرسول ﷺ لم يقتل منتقصيه كالذين نزلت فيهم آيات الاستهزاء:

وأيضا الله تعالى أمره بالصبر وترك قتلهم فقال: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران: ١٨٦ ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ الأحزاب: ٤٨.

والجواب عن هذه الشبهة واستدلالات أصحابها من عدة أوجه :

١- أن هذا ليس سبا صريحا .

٢- أنه كان وقت ضعف الإسلام .

٣- أنه نسخ بالقتل والغلظة على المنافقين وقتلهم وتشريدهم ، وقد ثبت أن النبي ﷺ قتل من سبه وتنقصه كما قدمنا.

قال ابن تيمية : (لما نزلت براءة أمر أن يبتدئ جميع الكفار بالقتال وثنيهم وكتابيهم سواء كفوا عنه أو لم يكفوا وأن ينبذ إليهم تلك العهود المطلقة ، وقيل له فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ التوبة: ٧٣ بعد أن قيل له: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ الأحزاب: ٤٨. قال زيد بن أسلم: نسخت هذه الآية ما كان قبلها .

فأما قبل براءة وقبل بدر فقد كان مأمورا بالصبر على أذاهم والعفو عنهم، وأما بعد بدر وقبل براءة فقد كان يقاتل من يؤذيه ويمسك عمن يسالمه كما فعل بابن الأشرف وغيره فبدر كانت أساس عز الدين، وفي تبوك أمروا بالإغلاظ للكفار والمنافقين فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من أذاهم في مجلس خاص ولا عام بل مات بغيظه لعلمه بأنه يقتل إذا تكلم) الصارم ٤١٠ .

٤- أن من سب إما أن ينكر فلا يثبت عليه السب ، أو أنه يظهر التوبة فيقبلها.

٥- أن الآيات في الصبر لا يمنع قتالهم وإقامة حد الله فيهم عند القدرة .

٦- ما ثبت في السنة في أنه ﷺ كان يؤمر بقتل من سبه وطعن في دينه .

٧- ما استقر عند الصحابة ﷺ من قولهم في مواضع لا تحصى فيمن تنقصه وأذاه وطعن في حكمه ودينه ألا نقتله مما يدل على أن هذا الأصل وتركه أمر خاص لا يعمم .

٨- أن ترك الرسول ﷺ قتل هؤلاء أمر خاص به ولكونه يتألف الناس ولكي لا يقال يقتل أصحابه كما أنه حق له فله أن يسقط حقه وكل ذلك زال بموته ﷺ .

قال ابن تيمية : (الجواب الثاني أن النبي ﷺ قد كان له أن يعفوا عمن سبه وليس للأمة أن تعفو عمن سبه ولا خلاف بين المسلمين في وجوب قتل من سبه من المسلمين) .

٩- أن ما يفعله هؤلاء المجادلين عن المرتدين الساخرين ليس من ترك أذاهم وإنما قائم على طاعتهم والسماح لهم بالسب والسخرية بدينه ﷺ .

الشبهة الثانية : أن أهل الذمة قد أقروا على ما هم عليه من الشرك والقول بالتثليث الذي هو أعظم من سب الرسول ﷺ ، فيكون إقرارهم على سبه أولى، كما أننا أقررناهم على دينهم وفيه كره الرسول واستحلال سبه .

الرد : أن من دينهم أيضا قتال المسلمين ومحاربتهم وهدم المساجد وإهانة المصاحف ومع ذلك فليس لهم أن يفعلوه ولو فعلوه لقوتلوا .

فأن اعتقادهم الشيء باب وإظهارهم له باب آخر فليس لهم أن يظهروا كفرهم والطعن في ديننا .

ويدل ذلك ما قال عمر ﷺ للذمي : (لم نعطك العهد لتظهر الطعن في ديننا لو عدت لضربت عنقك).

ثم إن ما قد يظهرونه من الكفر أمر خاص بهم وليس فيه أذية للمسلمين ، أما سب الرسول ﷺ والسخرية بأتباعه والطعن في ديننا فهو أعظم ما يؤذي المسلمين .

ثم إن كثيرا مما يعتقدونه لا يرونه في نفسه كفرا وطعنا في ديننا واستخفافا بشريعتنا ، بخلاف سب الرسول ﷺ فإنهم يعلمون أنه أعظم طعنا في ديننا .

الشبهة الثالثة : قولهم إن الساب والمستهزئ يعامل كبقية المرتدين فيستتاب :

أن هذا القياس مع وجود الفارق ففرق بين الردة المجردة والمغلظة والردة ليست جنس واحد، والتي يقارنها طعن في الدين وحربه والأذية .

ثم هو فاسد لمخالفة النص فالرسول ﷺ أمر بقتل سابه كما تقدم .

أن الله تعالى أمر بقتل الطاعن وأخبر أن بعض المرتدين لن تقبل توبتهم، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ آل عمران: ٩٠ ، وقوله : ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ التوبة: ١٢ .

وأما قوله: ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ التوبة: ٦٦ ففيها رد عليهم لأن المقصود بهم من جالس المستهزئ لا المستهزئ نفسه ، وأخبر أنه لا بد أن يعذب طائفة وهذا أكبر دليل على التفريق وان الساب والساخر لابد من عذابه وقتله .

ثم يقال أن قبول توبته إن قبلت فهي عند الله لا تسقط الحد لتعلق حق الله ﷻ وحق الرسول ﷺ وحق اتباعه المؤمنين ، كما يقال في القاذف توبته لا تسقط الحد وكذا القاتل فلا يلزم من قبول التوبة سقوط حد القتل .

فائدة : انظر شبهات المخالفين واعتراضاتهم والرد عليها في الصارم المسلول لابن تيمية ص: ٤٠٥ / ٤٨٠ / ٨٦٤ .

الناقض السابع

السحر

قال المصنف رحمه الله :

(السابع : السحر ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل: قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ البقرة: ١٠٢).

المسألة الأولى : تعريف السحر :

في اللغة :

هو كل ما خفي ولطف سببه ودق مأخذه .

ويطلق السحر على الصرف فمن صرف عن شيء قيل مسحور . ومن ذلك سمي آخر الليل سحراً لخفائه والبيان لكونه قد يصرف عن الحقيقة.

تعريفه اصطلاحاً :

عزائم ورقى وعقد يقوم بها الساحر لتؤثر عن طريق الشياطين في الأبدان والقلوب أو بطريق التخييل في العيون .

قال ابن قدامة في المغني : هو عُقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله .

وقيل السحر: كل ما كان من الشيطان فيه معونة .

والصواب أنه لا يمكن تعريف السحر بحد منضبط ولا تعرف حقيقته.

وإلى هذا ذهب الشنقيطي فقال: (السحر في الاصطلاح لا يمكن حدّه بحدّ جامع مانع، لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة فيه، ولا يتحقق قدرٌ مشترك بينها يكون جامعاً لها مانعاً لغيرها). أضواء البيان٤/ ٥٥٥.

ومن أسماء السحر : الجبت . التولة . العضة .

مسألة: ليس هذا الناقض خاص بالساحر، بل لكل ما يندرج تحته مما فيه ادعاء علم الغيب والاستعانة بالشيطان كالمنجم والكاهن والعراف والرمال وغيرهم .

مسألة : كفر ادعاء الغيب تقدم في الناقض الأول .

من أنواع السحر وصوره وبعض الأمور المقاربة للسحر في المعنى :

الكهانة والعرافة والتنجيم والشعوذة والخط على الرمل والضرب بالحصى وقراءة الكف والفنجان وغيرها وسيأتي الكلام عنها إن شاء الله .

مسألة : أمور تسمى سحراً لتشبها به مع كونها في الحقيقة ليست منه :

العيافة والتطير والنميمة والبيان ، وسميت سحرا لأمور : لخفائها ، ولوجود الإفساد فيها ، والتباس الحق بالباطل ، وصرف الناس فيها .

المسألة الثانية : حقيقة السحر :

يقوم السحر على الاستعانة بالشياطين بعد طاعتهم وعبادتهم والوقوع في الشرك والكفر من الساحر وتقديم القرابين لهم وفعل ما يطلبونه ليفعلوا له ما يريد

من الإضرار بالناس وأذيتهم والتفريق بينهم وسحر أعينهم بالتخييل إليهم بتحريك الساكن ونحو ذلك .

والمقصود الأكبر من عمل السحر ودعوة السحرة :

تعبيد الناس لغير الله وتطويعهم للشيطان وإخراجهم عن عبادة الله وحده وإيقاعهم في الشرك وعبادة غير الله تعالى والإيمان بالطاغوت .

وهم بذلك على الضد تماما من دعوة الرسل ومقصود الرسالة وهو عبادة الله وحده وترك الشرك والكفر بالطاغوت، لهذه العلة كان الساحر والكاهن من أعظم الطواغيت وكان السحر والكهانة من أفراد الطاغوت وأنواعه بل ورؤوسه فتأمل .

المسألة الثالثة : أدلة السحر وكفر فاعله :

١- قال تعالى ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٠٢.

اختلف العلماء في الآية وفهمها وفي حقيقة هاروت وماروت مصدر السحر.

أوجه كفر الساحر من الآية :

الأول: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾.

فأثبت سبحانه كفر الشياطين لتعليم الناس السحر وأن سليمان عليه السلام مبرأ من هذا الوصف الكفري وهو السحر الذي يترتب عليه كفر فاعله .

الثاني: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ البقرة: ١٠٢.

وهذا الشاهد من الآية نص في كفر من تعلم السحر وأن المتعلم للسحر يكفر بمجرد تعلمه ولو ادعى صاحب أنه لم يشرك ولن يشرك ويكفر .

الثالث: قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ .

ومن ليس له في الآخرة خلاق ولا نصيب ولاحظ لا يكون إلا خالداً في النار وليس ذلك لأحد غير الكافر والعياذ بالله .

٢- قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ طه: ٦٩ ﴿ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ يونس: ٧٧. ونفي الفلاح بالكلية لا يكون إلا لمن لا إيمان معه ولا دين وهو الكافر .

٣- قال تعالى: ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ يونس: ٨١ . فأخبر أن السحر من عمل المفسدين، وأنه تعالى سيبطله .

٤- وقال تعالى عن كفر اليهود: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ النساء: ٥١ .

قال عمر ﷺ: (الجبت السحر، والطاغوت الشيطان) رواه ابن أبي حاتم.

وقال جابر: (الطواغيت كهان كان ينْزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد).

٥- قال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ الفلق: ٤.

٦- قال: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ طه ٦٦ ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الأعراف ١١٦.

٧- وقال تعالى عن سحرة فرعون وإقرارهم أن السحر من الكفر وتوبتهم منه ومن جميع كفرهم : ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ طه: ٧٣.

والأدلة من السنة على كفر الساحر :

٨- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (من أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ). رواه الأربعة والحاكم . ولأبي يعلى عن ابن مسعود مثله موقوفا. وهذا الحكم في من يأتي السحرة والكهنة فكيف بالساحر نفسه.

٩- عن جندب بن كعب الغامدي ﷺ قال قال رسول الله ﷺ :(حدّ الساحر ضربةٌ بالسيف) رواه الترمذي وغيره بطرق عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب وقد ضعف البخاري إسماعيل كما في علل الترمذي . وروي موقفا عليه .

وروي: (ضربه بالسيف) بالهاء والتاء، والتاء أبلغ .

١٠- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك. ومن تعلق شيئا وكل إليه) رواه النسائي وغيره.

وفي لفظ (من عقد عقدة فيها رقية فقد سحر ومن سحر فقد كفر)

١١- عن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الرقى والتمائم والتِّوَلَة شرك) رواه أحمد وأبو داود. والتولة نوع من السحر.

وإذا كان من تعلق التميمة والرقية مشرك بنص هذا الحديث وغيره كقوله ﷺ : (من تعلق تميمة فقد كفر أو أشرك) فكيف بالذي يكتبها ويأمر الناس بتعليقها.

١٢- عن ابن عباس قال: قال ﷺ : (من اقتبس شعبة - علماً - من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد) . رواه أحمد وأبو داود، وإسناده صحيح.

١٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:(اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) متفق عليه.

١٤- ولما سأل معاوية بن الحكم السلمي النبي ﷺ عن أناس يأتون الكهان فقال: (فلا تأتهم). رواه مسلم .

١٥- وعن عائشة أن النبي ﷺ قال عن الكهان: (ليسوا بشيء) متفق عليه .

الإجماع على كفر الساحر :

أجمع الصحابة ﷺ على كفر الساحر وقتله : يدل له أمر عمر ﷺ بقتل كل ساحرٍ وساحرة ، ولم يخالفه أحد من الصحابة فصار إجماعا.

الرابعة : تفسير آية السحر وحقيقة هاروت وماروت وبيان مصدر السحر :

قال تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٠٢.

أخبر سبحانه عن اليهود لعنهم الله أنهم تركوا اتباع الرسول ﷺ ولم يؤمنوا به وكفروا بالقرآن ونبذوه واستبدلوا ذلك باتباع ما تتلوه الشياطين وتقرره وتدعوا إليه من الكفر والسحر، وهذا السحر تنسبه الشياطين إلى سليمان، وذلك أنه حين مات سليمان ﷺ وكان قد دفن كتب السحر تحت كرسيه، فلما مات أمرت الجن الناس باستخراجها وأخبروهم بمكانها وقيل بل كتبوها وزعموا أن سليمان كان ملكه قائماً على هذه الكتب التي تلتها الشياطين، فصدق كثير من اليهود هذه الفرية عليه، واتبعوا السحر ومنهم من كفر سليمان وأنكروا نبوته وافتروا عليه السحر فلما جاء القرآن ونزل على نبينا محمد ﷺ براءة سليمان من هذه التهمة وأنه لم يكن ساحراً ولا

كافراً، وإنما ذلك السحر من عمل الشياطين وهم الذين تلو السحر على بني إسرائيل وأن الذي كفر هم الشياطين بتعليم الناس السحر ، فيتعلم من يريد السحر على يد الشياطين وعلى ما أنزله الله على الملكين هاروت وماروت بأرض بابل، وهذان الملكان الموكلان بتعليم السحر لا يعلمان أحداً السحر حتى يقولان له إنما جعلنا الله فتنة للإنس فلا تكفر بتعلم السحر فإذا أبى إلا أن يتعلم ويكفر بذلك تعلم من هذين الملكين السحر الذي يفرق بين الزوجين وهذا التفريق الحاصل بالسحر والضرر لم يكن ليحصل لو لم يأذن الله فيه ويشاؤه قدراً فيتعلم الساحر ما يضره من علم السحر ولا ينفعه ذلك في دنياه، لأن السحر من العلوم الضارة المذمومة الممنوعة وهو مع ذلك في الآخرة كافر خاسر ليس له فيها نصيب أو حظ .

وقد ورد عن الملكين هاروت وماروت أخبار وإسرائيليات لا ينبغي أن تصدق وأصح ما جاء بها من الخبر ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده .

عن عبدالله بن عمر ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول (إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة أي رب اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون قالوا ربنا نحن أطوع لك من بني آدم قال الله تعالى للملائكة هلموا ملكين من الملائكة فننظر كيف يعملان قالوا ربنا هاروت وماروت قال: فأهبطا إلى الأرض، فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءاها فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك، فقالا: والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً ، ثم ذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي، فقالا: لا والله لا نقتله أبداً ، ثم ذهبت فرجعت بقدح خمر تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبي فلما أفاقا قالت المرأة والله ما تركتما شيئاً أبيتماه علي إلا قد فعلتماه حين سكرتما فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخر فاختارا عذاب الدنيا) رواه أحمد وسنده حسنه ابن حجر .

والحديث ضعيف وقد تكلم في روايات القصة النابلسي في برهان الثبوت .

مسألة : قوله تعالى :﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ :

الإذن الكوني القدري وليس الشرعي إذ الله ﷻ لا يشرع الكفر ولا يأذن به .

اختلف أهل العلم في تفسير الآية وفهمها وفي مصدر السحر :

قوله تعالى :﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ :

وقد حصل الخلاف في فهم الآية وتفسيرها : هل ما نافية أو موصولة وإذا كانت موصولة وهو الصحيح فهل الملكان من الملائكة أو ملوك البشر وقد قرأت بكسر اللام قولان لأهل العلم والصحيح الأول وعلى هذا الاختلاف حصل الاختلاف في مصدر السحر هل هو من وضع الجن والإنس ابتداء أو أنه علم من عند الله أنزله على الملكين وهما يعلمان الناس السحر فتنة وابتلاء .

وما هما هاروت وماروت ؟

قيل هما من الشياطين وقيل من ملوكهم أو من ملوك البشر من بني إسرائيل الذين كانوا يعلمون السحر وقيل هما داود وسليمان وقيل أنهما هما جبريل وميكائيل.

والصحيح أن هاروت وماروت ملكان من الملائكة كما نصت الآية.

وبابل بالعراق على الصحيح .

مسألة : مصدر السحر :

القول الأول : أن أصل السحر من عمل الشياطين وما تقرؤه على الإنس الذين هم السحرة وتعلمهم إياه ، وقالوا : الله منزه عن تعليم السحر والملائكة معصومة من الكفر، والسحر كفر بنص الآية ومعنى وما أنزل أي لم ينزل .

ويصير معنى الآية :أن السحرة اتبعوا تعاليم الشياطين وأوامرهم وليس السحر والكفر من عمل سليمان ولا نزلت الملائكة به عليه وإنما هذا عمل الشياطين ببابل هاروت وماروت من الجن . أو يكون المعنى عندهم أن السحر لم ينزل على هاروت وماروت الملكين وإنما هو من عمل الشيطان .

القول الثاني: وهو الصحيح والذي دلت الآية صراحة عليه والله أعلم:

أن السحر علم من العلوم التي أنزلها الله تعالى على خلقه وجعل مفاتيحها بيد ملكين من الملائكة وهما هاروت وماروت، وهي من العلوم التي حرمها على البشر ومنعهم من تعلمه، وجعل ذلك مقدوراً لهم مع منعه ابتلاءً لهم وامتحاناً وفتنة، فيكون كفراً في عمل البشر وتعلمهم وغير كفر في تعليم الملكين لانفكاك الجهة.

ويصير معنى الآية على هذا القول أن السحرة في بني إسرائيل اتبعوا في السحر تعاليم الشياطين وما تتلوه على السحرة وتدعي أنه من أحد الأشياء التي كان سليمان يملكها ، وأن السحر يحصل بتعليم الشياطين للإنس وبتعلمهم ما ينزل على الملكين هاروت وماروت وهذا الملكان هما الموكلان بتعليم السحر وأنزل معهما وقد جاء في المسند خبرهما كما تقدم .

المسألة الخامسة : النقولات من كلام العلماء في كفر الساحر :

قال الحسن : (يقتل السحّار ولا يستتابون) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه .

قال الإمام مالك في الموطأ : (الساحر الذي يعمل السحر يقتل) .

قال الإمام أحمد: ثبت قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ .

قال الإسماعيلي في اعتقاد أهل الحديث : (ويؤمنون أن في الدنيا سحرا وسحرة وأن السحر واستعماله كفر من فعله معتقدا له نفعا وضرا بغير إذن الله) .

قال اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد والأصفهاني في الحجة في بيان المحجة: (السحر له حقيقة قال تعالى:﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ ، وعن عمر وعثمان وجندب الغامدي وعائشة وحفصة ﷺ أنهم أمروا بقتل الساحر).

وقال النووي في شرحه لمسلم : (قال مالك الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب ولا تقبل توبته).

قال ابن قدامة : (قال أصحابنا يكفر الساحر بتعلمه وفعله سواء اعتقد تحريمه أو إباحته).

قال ابن القيم : (وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان وتقرب إليه .. والساحر وإن لم يسم هذا عبادة بل يسميه استخداماً فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه لا لاسمه ولفظه) بدائع الفوائد ٢/ ٢٣٥ .

وقال الذهبي في الكبائر :" الساحر لابد وأن يكفر وما للشيطان غرض في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك به ".

قال سليمان في تيسير العزيز الحميد: لما كان السحر من أنواع الشرك إذ لا يتأت السحر بدونه أدخله المصنف في كتاب التوحيد ليبين ذلك تحذيراً منه كما ذكر غيره في أنواع الشرك .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : الطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة، منهم : الذي يدعي علم الغيب من دون الله).

المسألة السادسة : تاريخ السحر :

السحر تعرفه جميع الأمم قبل الإسلام وبعده ، وقد جاء تحريمه في جميع الشرائع السماوية .

وتاريخ بدايته وظهوره في البشر يرجع والله أعلم إلى قوم نوح إذ هم أول من وقع في الشرك من بني آدم كما صح بذلك الخبر عن ابن عباس، والسحر من الشرك ولم يكن قبل قوم نوح شركاً بل كان الناس على التوحيد من آدم إلى قوم نوح.

وأخبر الله ﷻ أن جميع المشركين قالوا لرسلهم أنهم سحرة مجانين ومن ذلك نوح أول رسول وهو داخل في عموم الآية التي نصت على ذلك في قوله سبحانه ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ الذاريات: ٥٢ ، ونوح ﷺ داخل في عموم الآية كما أن الآية تدل على معرفة الأقوام السبعة للسحر .

وقد قص الله علينا تكذيب ثمود قوم صالح وإتهامهم لنبيهم صالح ﷺ صراحة بالسحر في قولهم له كما في سورة الشعراء ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ ، وكانت ثمود بعد عاد وعاد بعد قوم نوح وصالح ثالث رسول للناس بعد نوح ثم هود بنص القرآن فهذه الأقوام الثلاثة تعاقبت وكانت خلفاء لبعض في الزمن .

أما إنزال هاروت وماروت بتعليم السحر فالله أعلم بزمانه، إلا أن نزول هذين الملكين للأرض كان بعد معصية آدم وخروجه من الجنة وهبوطه إلى الأرض .

ومن الأمم التي كانت لديها السحر أهل بابل قوم إبراهيم ﷺ حيث كانوا من المنجمين السحرة عباد الكواكب ، وقد بقي السحر في العراق بعد هجرة إبراهيم قرون طويلة فقام به السومريون والسريانيون والكلدانيون والآشوريون .

كما أن السحر وجد عند شعوب الفرس والإغريق والفلاسفة والهند والصين وكانوا يدعون أنهم يستعينون به في الطب، ولدغ الأفاعي كما جمعوا بين السحر والكهانة التنجيم وعبادة الكواكب .

ومن أشهر الأمم في السحر وأعظمهم فيه الفراعنة الأقباط بمصر ولذلك كانت معجزة موسى عليه السلام من جنس أفعالهم السحرية ليبطل سحرهم ويعجزهم ولهذا آمن السحرة وعلموا أن ما عنده ليس بسحر وإنما معجزة إلهية وآية وبرهان رباني لا يقدر على مثله البشر ولا الجان .

كما وجد السحر في اليهود والنصارى خصوصاً بعد سليمان ﷺ بل نسبوه للسحر وأنه ساحر .

كما وجد السحر عند العرب قبل الإسلام وصار هو والعرافة والكهانة لها عندهم مدارس ويسألونهم ما أشكل عليهم ومن ذلك قصة أصحاب الأخدود وإخبار الكهنة من العرب ببعثة نبينا محمد ﷺ .

وبعد الإسلام بقي السحر في الفرس والروم واليهود والنصارى والفلاسفة وتعلمه منهم بعض الزنادقة، ومن أعظم الطوائف التي نشرت السحر الرافضة.

كما يوجد عند الأمم المعاصرة التي تدعي التحضر كأمريكا فهي لا تسلم من ألوان السحر والكهانة ، بل البيت الأبيض يعتمد على السحرة والكهنة والمنجمين في كثير من سياساته وقراراته كما لا يخفى ويقر به ساستهم .

هذا وقد كان الكفار يعلمون بخطر السحر وضرره وكانت كثير من الأمم تحارب السحر وتقتل الساحر كما في بعض شعوب أوروبا وغيرها .

المسألة السابعة : أقسام السحر :

الأول : السحر .

الثاني : التنجيم

الثالث : الكهانة .

الرابع : العرافة . ويدخل في السابق .

الخامس : الرمال والطرق : والخط على الرمل والضرب بالحصى.

هذه الأقسام الخمسة هي أصول السحر .

تنبيه : سيأتي الفرق بين السحر والكهانة والعرافة والتنجيم.

مسألة : أنواع السحر:

السحر منه حقيقي ومجازي وينقسم الحقيقي إلى مؤثر وتخييلي ومن التخييلي سحر الأعين بإظهار تحرك الساكنين وكلاهما فيه استعانة بالشياطين وهو كفر .

وقد يكون السحر عن طريق الطلاسم والنفث والعقد والتمتمة الكفرية وقد يكون بالأدوية والمواد والعقاقير وقد لا يكون لا بهذا ولا بهذا .

كما أن السحر يكون في الإنس بأذيتهم أو علاجهم أو التلاعب بمشاعرهم ونفسياتهم وهذا هو الأصل، وقد يكون بدون ذلك كله فيتعلم السحر ليستكشف الكنز أو ليطير ويظهر الدجل والخوارق أو يستمتع بالجن ويحققوا له رغباته المادية والجسدية من غير أن يؤذي الناس أو ليخبروه بما يغيب عنه وهذا القسم الثاني من السحر وهو نادر إذ الأول هو الأصل ومع ذلك فهو كفر كله والعياذ بالله .

تنبيه : كثر كلام أهل العلم في أنواع السحر ، وقد خلط بين صور السحر وأمثلته وبين أقسامه وأنواعه فأدخل في أنواعه أمثلة وصور للسحر والبعض أدخل طرائق السحر والبعض أدخل في السحر ما ليس فيه . ومما قيل في ذلك :

قيل يتنوع إلى سحر : العطف (التولة) ، والصرف ، الجنون ، التخييل ، الخمول ، الهواتف الأحلام ، الإمراض ، النزيف ، الربط .

أنواع السحر عند الرازي سحر مخاطبة الكواكب ، سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، سحر الإستعانة بالجن ، سحر التخيلات والأخذ بالعيون ، سحر التراكيب والنسب والمواد والعناصر وخواص الأدوية والعقاقير .

وعند الشنقيطي : الكيمياء والسيمياء والهيمياء والعزائم والطلاسم والموالد والموسيقى وعلم الكتف والرعديات . نقله في تفسير سورة طه من رشد الغافل.

والصحيح عندي أن السحر ينقسم إلى :

١- سحر النجوم عن طريق الكواكب ومخاطبتها وادعاء تأثيرها في الأرض ومعرفة الغيب بالنظر في مطالعها وأسرارها وأنها هي المدبرة لهذا العالم السفلي ومنها تصدر الخير والشر والسعادة والنحس وهذا سحر الكلدانيين وقوم إبراهيم وهذا يسمى التنجيم وهو كفر مستقل خارج عن السحر وليس منه وسيأتي الكلام عنه وقد يكون فيه استعانة بالشياطين واستخبارهم فيكون مثل الكهانة والعرافة وقد يكون بدونه وهو لا يكون معه أذية للبشر وإنما ادعاء للغيب وتأثير في حوادث الأرض وهذا الذي يفارق به السحر .

٢- سحر الاستعانة بالشياطين والجن في التأثير على الناس وادعاء معرفة الأمور أو علاجهم، وذلك بطريق العقد أو الرُّقى أو الطلاسم أو الأدوية أو غير ذلك مما هو عن طريق الاستعانة الشركية بالجن، وإذا قيل السحر قصد به هذا .

٣- سحر استخدام الأرض بالخط على الرمل والطير بالتطير والتشاؤم، ونحو ذلك وهذا كفر مستقل سيأتي الكلام عنه ، وصاحبه إما أن يكون مستعينا بالجن أو أنه متخرص كاذب ، وهذا يسمى بالرمل والعراف والمتطير .

٤- السحر المجازي وهذا ليس بسحر وإنما يقال له سحر مجازاً لتشبهه بالسحر وهو أنواع أشهرها نوعان :

الشعوذة وخفة اليد والتخييل والأخذ بالعيون والألعاب البهلوانية والخدعة البصرية واستخدام مواد كيميائية كالزئبق ودهون لا تحرقها النار ونحو ذلك ، فربما يرى المتحرك ساكنا والعكس، وهذا يعتمد على الخداع البصري وخفة اليد وتسمى الشعوذة .

سحر الأدوية والمواد والعقاقير والبخور والكيمياء التي تؤثر على بدن المسحور بإضعافه حتى يهلك ، وعلى عقله فربما أدى به إلى الجنون .

وهذان النوعان هما على قسمين ما كان فيه استعانة بالجن في تحضير وتأثيره وتخييل فهو سحر وكفر وما لم يكن كذلك فليس بسحر .

والكلام في القسم الأول وهو السحر الحقيقي الذي يتم باستخدام الجن وإدعاء القدرة والعلم وهو مناط الكفر .

المسألة الثامنة : صور السحر وبعض طرقه والمصطلحات متعلقة به:

الأول : الصرف والعطف :

الصرف: أن يُبعد المسحور عن شيء كان يحبه كزوجة أو ولدٍ أو دار أو غيرها.

العطف : أن يُحبب ويتقرب المسحور إلى شيء كان يبغضه كزوجة أو غيرهما .

الثاني : الرَمّال (الطرّق)

م (١) : يسمى الضرب بالحصى والخط على الرمل وفاعله يسمى الرمال والطرق وهو من يدّعي معرفة علم الغيب بالخط في الرمل .

وقد يكون الرمل من باب العبث دون ادعاء الغيب ومثله مثل التشاؤم والتطير فيكون شركاً أصغر .

م(٢) : قال ﷺ:(كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك) رواه مسلم.

الجواب عنه : أن موافقة خط النبي مما لا يعلمه أحد ، ثم إن خط النبي بوحي من الله وليس ذلك لأحد بعده بخلاف من يخط بعده فليس إلا تخرص .

وبهذا يبقى الحكم على أصله وهو التحريم وإن قارنه دعوى الغيب فيكفر فاعله ومصدقه ومقره .

م (٣) : يدخل الرمال (الطرق) في السحر .

قال النبي ﷺ : (العيافة والطيرة والطَّرْق من الجبت) رواه أبو داود .

والجبت هو السحر .

م (٤): مما يدخل في الطَّرق قراءة الكف .

الثالث : قراءة الكف والفنجان وعلم الأسارير:

وهو البحث عن أسرار الإنسان وطباعه وأمراضه ومستقبله عن طريق الخطوط الموجودة في الأكف والأقداح والجبهة والاستدلال بخطوط يد هذا الشخص على المغيبات التي ستحصل له .

الرابع : النظر في الجمل والحروف والأرقام وحساب الجمل أبجد والاستدلال بها على الغيب . ويسمى بعلم الحروف والرموز . يدخل في التنجيم.

ومن ذلك ما يسميه الرافضة والباطنية أسرار الحروف والتفسير الإشاري .

ومنه كتاب الجفر المزعوم والمزور على علي وجعفر الصادق .

ومن هذا الدجل ادعاء وقت نهاية العالم والساعة بحساب الجمل والنجم.

قال ابن عباس في ذلك : (إن قوما يحسبون أبا جد وينظرون في النجوم ولا أرى لمن فعل ذلك من خلاق) رواه عبدالرزاق في المصنف .

الخامس : الشعوذة : (بالواو والباء) :

ذكر زاده في مفتاح السعادة أنها سميت باسم الرجل الذي اخترعها .

والشعوذة ليست سحرا في الحقيقة وإنما هي من باب الخداع وخفة اليد وسرعة الحركة والاستعانة بالمواد الكيميائية والعناصر التي لها خصائص خافية على الناس، ويكثر هذا فيما يسمى بالألعاب البهلوانية وهي الكيمياء قديما فالكيمياء في القدم كانت تطلق على مثل ذلك ومثلها النيرنجات .

السادس : الدنبوش : هذا عمل من السحر يستخدمه أهل اللهو واللعب في ألعابهم ومسابقاتهم وفيها استعانة بالشياطين .

السابع : الطلسم :

هو عبارة عن كتابة ألفاظ أعجمية وعبارات غير مفهومة ورموز وأرقام ورسومات وجداول وهي في حقيقتها استغاثات شركية وكلمات كفرية ودعاء للشياطين بأسمائهم وتقديس لهم ، تكتب في أوراق أو جلود أو قماش وفيها طلب من الجن بتحقيق ما يريده الساحر والمسحور له .

وهي أحد وسائل السحرة التي يستخدمونها .

ومثلها العقد والنفث فيها وحقيقتها : أن يربط الساحر خيوطا وحبالا أو شيئا من لباس المسحور أو شعره ثم ينفث الساحر فيه بعد تعاويذ وقراءات وطلب ونداء للشياطين فتخرج نسمته الخبيثة .

ومثلها التمائم : جمع تميمة وهي شيء من الخرز أو الحجب أو الطلاسم يعلقها الشخص على نفسه أو ولده أو سيارته لرد العين أو السحر ونحوه .

الثامن : الاستحضار : يطلق لفظ الاستحضار على أمرين :

الأول : تحضير الجن وإحضارهم وذلك بطلب الساحر أو من يتعلم السحر ويقوم بالاستغاثات أو بدعائهم والاستغاثة الشركية الكفرية وعبادتهم فيحضر الشيطان مجلس الساحر ويخاطبه ويطلب منه ما يريد بعد أن يقدم الساحر له القربان والطاعة والشرك وقد يطلب الساحر من الشيطان حضوره بصورة شخص ميت ويدعي أنه أحياه أو استحضر روحه .

الثاني : إحضار أرواح الموتى ومخاطبتها وسؤالها، وهذا الأمر يدعيه طوائف : السحرة ، أصحاب مذهب الروحية الحديثة ، أرباب التناسخ .

التاسع : الأخذة : نوع من السحر هو الأخذ عن الأهل ويحبس فلا يستطيع الوصول لهم . وتطلق على أخذ العين إذا تخيلت الشيء على غير حقيقته .

العاشر : التنويم المغناطيسي :

هو من أحد الطرق الدجلية التي تمارس في زماننا ويقوم بها أناس يدعون ما يدعيه السحرة من القدرات وقد يكون فعلهم فيه استعانة بالشياطين .

وقد يكون من شخص يجيد دلك العصب وتدليكه حتى يتخدر ويضعف الإدراك والإحساس فيحصل النوم غالباً .

ومما يقارن التنويم محاولة مخاطبة النائم وسؤاله والحديث معه بعد نومه وغالبا ما يكون ذلك بطريق الشعوذة أو الاستعانة بالشياطين والسحر .

وقد يستخدم الساحر والمستعين بالجن التنويم المغناطيسي فيدعي أنه يحضر روح أحد الأموات فيسألها ويخاطبها وكل ذلك من الشياطين والدجل .

الحادي عشر : الألعاب البهلوانية والسيرك :

ومن أمثلتها رمي السكين على بطن شخص وطعنه وضرب رأس الغير بالسيف وإخراج النار من الفم وابتلاع الجمر والمشي من شاهق على حبل دقيق وغير ذلك، وهي تدور بين السحر الحقيقي والشعوذة وما كان مبنياً على التدرب وقوة الجسد فيأتي البهلواني وصاحب السيرك أمام الناس مظهراً مهارته وقدرته على ما لا يقدر عليه غيره في الغالب .

وما يقوم به هؤلاء إن كان سحرا حقيقيا فهم كفار وإن كان من غير سحر وإنما شعوذة فهم ليسوا كفارا إلا أنه يجب منعهم بل وتعزيرهم تعزيراً بالغاً لكف شرهم وردعاً لغيرهم وسداً للذريعة، وإن مما ينبغي للمحتسب على هؤلاء أن لا ينظر إلى ادعاء هؤلاء أن أفعالهم ليست إلا مجرد خداع وشعوذة وليست بسحر فإن هذا أمر أغلبه غير معلوم التفريق فيه عندنا فيغرر بالجهال.

وفي جواب اللجنة رقم ٢٠٥٢٠ برئاسة ابن باز عن حكم الألعاب البهلوانية:

(ما يفعله بعض السفهاء من تكسير الصخور على صدورهم والنوم على المسامير والآلات الحادة وثني الحديد بأعينهم وجر السيارات بشعورهم وأسنانهم

وأكل الأمواس والزجاج إلى غير ذلك من الأمور الخارجة عن العادة البشرية كل ذلك يعتبر من الدجل والشعوذة والسحر وهم من عمل سحرة فرعون .

كما قال ﷺ "فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم" وقال سبحانه "فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى" .

وبناء عليه لا يجوز فعل هذه الأعمال ولا تعلمها ولا نشرها ولا التشجيع عليها والواجب محاربتها والتبليغ عن فاعليها ومعاقبتهم بما يردعهم ويكف شرهم عن الناس فألعابهم تلك فيها من الدجل والشعوذة والتلاعب والاستخفاف بعقول الناس وفساد العقيدة وأكل الأموال بالباطل مالا يخفى) .

الثاني عشر : الروحية الحديثة وعقيدة تحضير الأرواح :

هذا مذهب حدث مؤخرا كانت أول نشأته في أمريكا عام ١٢٦٦م ثم تلقفه بعض العرب في مصر على يد فريد وجدي وطنطاوي جوهري وأحمد فهمي وعلي راضي وغيرهم في عام ١٣٥٧هـ .

يدعي أصحابه أنهم يستطيعون إحضار أرواح الموتى بوسائل يدعونها ويلبسون بها على الناس ومن ثم يسألونها ويخاطبونها ويأمرونها ويطلبون منها ما يريدون ويدعون أن فعلهم هذا ليس سحرا ولا فيه استعانة بالشياطين ولا حضورا لها، وكل هذا من الكذب فلا يمكن لشخص تحضير روح الميت والحقيقة أن الذي يخاطبهم الشياطين ويستدرجونهم ويضحكون على عقولهم البلهاء ومن ينخدع بأفكارهم البسيطة الساذجة .

تنبيه : هذا المذهب مذهب كفري وصاحبه مرتد عن الإسلام لأمور كثيرة والكفريات المتعلقة بالأرواح كثيرة منها :

الكفر بالغيب واليوم الآخر والبعث والنشور وتكذيب ما أخبر الله عنه من كون الروح لا يعلمها إلا الله وأن الميت إذا مات انقطعت حياته وصلته بالحياة والإحياء ، ولا يمكن أن تحضر الروح وتخاطب الأحياء وتوصيهم وليس ذلك إلا الشياطين تعبث في عقول هؤلاء وتستدرجهم وتتلبس بصورة الميت لإضلالهم.

وأن الروح عند الله إما معذبة أو منعمة وهؤلاء يزعمون أنهم قد يزيلون عنها عذابها في البرزخ أو تعذبها وفي ذلك إنكار لتصرف الرب وقدرته وتدبيره وتنعيمه وتعذيبه وادعاء للقدرة على ما لا يقدر عليه إلا الله .

ومن ذلك ادعاء تناسخ الأرواح .

وهذا المذهب الكفري يشبه عقيدة تناسخ الأرواح .

كذلك الاستعانة الشركية بالشياطين .

ومما ينبغي أن يعلمه المسلم أن هذه العقيدة مما يخرج بـه المسلم مـن الملـة إن اعتقد إمكانية ذلك . ومرجعها إلى عدم الإيمان بالغيب واليوم الآخر .

فالمؤمن بذلك والطالب له يكفر سواء كان ساحراً وهو الأصل أو كان مشركاً من عباد القبور والأموات ويكثر ذلك في الصوفية أو من أدعياء الروحية ، والـبعض يجعله كرامة وأنه من الأولياء، والحقيقة أن الشياطين تتلاعب به لتخرجه مـن الـدين بالوقوع في الشرك وعبادة القبور أو عبادة الشياطين .

وإن من العقائد المتعلقة بالروحية :

اعتقاد أن أصل الإنسان كان قرداً ، وهذه نظرية دارون وغيره من الكفرة ومن صدقهم من الملاحدة المنتسبين للإسلام.

كذلك من العقائد المتعلقة بها التشاؤم والتطـير والعيافـة ، واعتقـاد أن أرواح الأموات الشريرة تحل بالطيور وأن التشاؤم بها لما لها من القدرة على الإضرار أو علم الغيب ونحو ذلك وقد جاء الإسلام بإبطال هذه العقائد الكفرية الجاهلية .

مسألة : علاقة التطير والعيافة والتشاؤوم بالسحر :

ومما سبق هنا تعلم العلاقة بين هـذه الأمـور وبـين الـسحر الكفـري وجعـل الرسول ﷺ هذه الأمور الطيرة وغيرها من السحر في قولـه ﷺ (أن العيافـة والطـرق والطيرة من الجبت) رواه أبو داود، والجبت السحر وقيل الشيطان ولا تعارض.

فإن الطيرة راجعة للشيطان ، وتأخذ حكم السحر وحقيقته في اعتقـاد التـأثير والخلق في غير الله والخوف من غير الله وأن الغيب يعلم بمثل هذه الأمـور كـما فيهـا التعلق الشركي وقصد غير الله .

المسألة التاسعة : من أعمال السحرة وطرق السحرة في تحضير الجان:

١- ادعاء الطب والعلاج ونفع الناس .

٢- ادعاء علم الغيب وهدايتهم لما يريدون وينشدون .

٣- الطيران في الهواء والمشي على الماء وركوب المكنسة والسير بها في الهواء .

٤- إظهار تقطيع الرؤوس والطعن بالسكين والسيف .

٥- إظهار صورة المخفي والبعيد والغائب .

٦- السؤال عن اسم المريض وأمه وطلب شيء من شعره ولباسه وتبخيره .

٧- الدعوة للفواحش وممارستها وادعاء أن فيها العلاج للمريض.

٨- إخراج النار من الفم .

٩- ابتلاع الحديد والجمر والزجاج والسكين أو إخراجها من الفم والعين .

١٠- إخراج الزجاج والحديد من الجوف من الفم أو العين أو الأذن .

١١- ثني الحديد والملاعق وحمل ما لا يقدر عليه .

١٢- ضرب الساحر نفسه لإرضاء الجن وتذلله لهم وسجوده لهم، وإهانة المصحف والذبح لهم والتبخير وغير ذلك مما هو معروف عنهم .

١٣- قراءة الفنجان والكف والتنبؤ بالمستقبل أو الحوادث أو الأمراض والعلاج أو رؤية صورة من يريد في الفنجان ومخاطبته ولو كان ميتاً .

١٤- الرقص والزار لاستحضار الشياطين والأرواح أو لفك السحر .

١٥- تلبس الشياطين بالسحرة أو المسحورين .

١٦- ادعاء تحضير روح الميت ومنها التنويم المغناطيسي ومايسمى بالروحية.

المسألة العاشرة : أوجه كفر السحر :

السحر كفر من ثلاث جهات وعلل .

الأولى : أن في السحر استعانة شركية بالشياطين : ووجه ذلك أن السحر لا يمكنه تعلمه إلا بعد عبادة الشياطين ودعائهم والذبح لهم وإجابتهم إلى فعل الكفر.

فالساحر لا يصل إلى هذه المرتبة ودخول عالم السحرة إلا بعد أن يشرك بالله تعالى ويطيع الجن ويعبدهم من دون الله ولا يمكنه أن يتعلم السحر بدون ذلك ، وقد أثبت ذلك السحرة أنفسهم وأقر بهذا الكفر من أسلم منهم وتاب وأنكر وجود ساحر غير مشرك وعابد للجن .

قال ابن القيم : (وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان وتقرب إليه .. والساحر وإن لم يسم هذا عبادة بل يسميه استخدام فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه لا لاسمه ولفظه) بدائع الفوائد ٢/ ٢٣٥ .

وقال الذهبي في الكبائر :" الساحر لابد وأن يكفر وما للشيطان غرض في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك به ".

قال سليمان في تيسير العزيز الحميد: (لما كان السحر من أنواع الشرك إذ لا يتأت السحر بدونه أدخله المصنف في كتاب التوحيد ليبين ذلك تحذيراً منه كما ذكر غيره في أنواع الشرك).

فائدة : يوجد استعانة بالجن من دون شرك ولكن هذه لا تكون من الساحر البتة وهذه مختلف في جوازها على قولين لأهل العلم ذكرها ابن تيمية في الفتاوى .

الثانية : أن الساحر غالباً ما يدعي القدرة المطلقة على التأثير والنفع والضر.

الثالثة : أن الساحر غالباً ما يدعي علم الغيب وأنه يعلم ماذا يريد المريض وأنه مطلع على ما في القلوب وأنه يعلم ما يصير في المستقبل وأن ذلك كرامة من الله له أو أن الشياطين تخبره والشياطين تعلم الغيب بذاتها .

وهذه العلل الواحدة منها تخرج المتصف بها من ملة الإسلام فكيف إذا اجتمعت وغالباً ما تجتمع في الساحر .

وهناك أمور مكفرة لدى الساحر غير ما ذكر ومن ذلك :

١- ما يصاحب تعلم السحر من الكفر المغلظ بالتلفظ بالكفر أو سب الله ﷻ أو الرسول ﷺ وترك الصلاة وجحدها أو إهانة المصحف أو كتابة آيات من القرآن بالنجاسة كالبول ودم الحيض بل والتبول على المصحف أو رميه في الحمام أو دعسه والتنعل به ونحو ذلك مما يفعله أكثر السحرة بل ويأمرون به كثيرا ممن يأتيهم .

٢- ما يأمرون به من يأتيهم من الشرك كالذبح للجن والنذر لهم وترك الصلوات وفعل الفواحش واستحلالها .

٣- ما يفعله أكثر السحرة من عداء للإسلام والكفر بالله وموالاة الكافرين واتخاذ الصليب شعاراً ومظاهرة الكفار على المسلمين .

سيأتي حكم الاستعانة بالجن وحالاته .

المسألة الحادية عشرة : اجتماع النواقض في السحر : وعلاقته بها :

فالساحر واقع في الشرك ، ودعاء غير الله ، والحكم بغير ما أنزل الله ، وتفضيل هدي الشياطين والسحرة على هدي الرسل عامة والرسول ﷺ خاصة .

كذا يعتقد أن شريعة الرسول ودينه وحكمه لا يلزمه ، وأنه يسعه الخروج عن ذلك كله ، بل ويجحد شريعة محمد ويكفر بها .

كذا يوجد في الساحر ناقض البغض لله ولرسوله ولدينه وأوليائه .

كذا يوجد عند السحرة الاستهزاء بالله وبآياته ورسوله وأوليائه .

كذا عنده ناقض الإعراض عن الدين والتولي عنه بل وتكذيبه وجحود.

وعنده تولي الكفار ومظاهرتهم والمشركين وعدم تكفيرهم وتصحيح دينهم.

فالنواقض العشرة تكاد تكون مجتمعة في الساحر .

المسألة الثانية عشرة : وجه كون الساحر طاغوتا:

الساحر يعتبر طاغوتا لأمرين :

الأول : لأنه يعبد الناس لغير الله ويطوعهم للشيطان ويخرجهم عن عبادة الله وحده ويوقعهم في الشرك وعبادة غير الله تعالى والإيمان بالطاغوت ، وهذا المقصود الأكبر من عمل السحر ودعوة السحرة ، وهم بذلك على الضد تماما من دعوة الرسل ومقصود الرسالة وهو عبادة الله وحده وترك الشرك وعبادة من سواه والكفر بالطاغوت لهذه العلة كان الساحر والكاهن من أعظم الطواغيت وكان السحر والكهانة من أفراد الطاغوت وأحد أنواعه بل ورؤوسه.

الثاني: لكونه يدعي مشاركة الله ﷻ في أخص صفاته في قدرته المطلقة الكاملة على التأثير ، فيزعم أنه ينزل الضر فيمن يشاء ويرفعه عمن يشاء، كما أنه يدعي علم الغيب ، وهذه الصفتان (العلم والقدرة) من أخص خصوصيات الله تعالى.

و مع ذلك فكثير من الناس لجهلهم بالتوحيد وحق الله يعبدون السحرة .

وجه كون الساحر كافرا :

فلكونه لا يأتي إلا بالشرك والكفر يدل لذلك:

قوله تعالى : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ البقرة: ١٠٢ .

وجه كون الساحر مشركا:

فلأن السحر لا يقوم إلا على الاستعانة بالشياطين بعد طاعتهم وعبادتهم والوقوع في الشرك والكفر من الساحر وتقديم القرابين لهم وفعل ما يطلبونه .

ودليل كون السحر شركا حديث أبي هريرة مرفوعا :(من سحر فقد أشرك) رواه النسائي .

المسألة الثالثة عشرة : أوجه عبادة الناس للسحرة :

١- من جهة الاعتراف لهم بمقدرتهم على التأثير في الأشياء نفعا وضرا ، وعلمهم بالغيب ، وهذا شرك في الربوبية.

٢- من جهة الخوف والخشية والرجاء، حيث يخافونهم ويرجونهم في أن يفعلوا لهم ، أو أن يرفعوا عنهم الضر ، وهذا شرك في العبادة .

٣- من جهة طاعتهم في فعل الكفر والظلم والفواحش والفسق وترك الصلوات بل والكفر والشرك كالذبح للجن أو إهانة المصحف، وهذا شرك الطاعة.

لذا فالساحر طاغوت كافر مشرك،حده في الإسلام ضربة بالسيف.

المسألة الرابعة عشرة: محل ناقض السحر :

السحر من النواقض العملية التي يكفر فاعلها بمجرد العمل . وتعلم السحر كفر ولو لم يعمل به .

المسألة الخامسة عشرة : من يكفر بالسحر :

الراضي بالسحر ، الداعي إليه ، الناشر له ، من يسعى إلى إخراجهم ، السماح لهم بالظهور أمام الجمهور وفي التلفاز كل ذلك كفر مخرج من الملة .

المسألة السادسة عشرة : حكم تعلم السحر :

إذا تقرر أن السحر كفر وأن صاحبه لا يتعلمه إلا بعد أن يكفر ويعبد الشياطين ويكفر بالله فإن تعلم السحر والحالة هذه كفر لا خلاف فيه وتقدم في المسألة السابقة أوجه كفر الساحر .

وقد نص الله تعالى على كفر متعلم السحر في آية السحر .

١- قال تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ البقرة: ١٠٢.

فأثبت الله سبحانه كفر الشياطين لتعليم الناس السحر وأن سليمان عليه السلام مبرأ من هذا الوصف الكفري تعليم السحر الذي يترتب عليه كفر فاعله .

٢- وقال: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ البقرة: ١٠٢.

وهذا الشاهد من الآية نص في كفر تعلم السحر وأن المتعلم للسحر يكفر بمجرد تعلمه ولو ادعى صاحبه أنه لم يشرك ولن يشرك ولن يكفر .

٣- وقال: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ البقرة: ١٠٢ .

ومن ليس له في الآخرة خلاق ولا نصيب ولاحظ لا يكون إلا خالداً في النار وليس ذلك لأحد غير الكافر والعياذ بالله .

إضافة للأدلة التي قدمناها في كفر الساحر وأن حده ضربة بالسيف بل وكفر من يصدق الساحر فكيف بالسحر نفسه.

وقد ذهب بعض الشافعية من المنتسبين للعلم إلى جواز تعلم السحر وعلى رأسهم الرازي وألف كتابه السر المكتوم في مخاطبة النجوم مما حمل كثيرا من أهل العلم إلى تكفيره والبعض جزم بتوبته من هذا الشرك والكفر ورجوعه للإسلام .

قال الذهبي في ميزان الاعتدال عن الرازي : " له كتاب السر المكتوم في مخاطبة النجوم سحر صريح فلعله تاب من تأليفه إن شاء الله تعالى "

وقد استدل من قال بإباحة تعلم السحر بأدلة عقلية وهي :

الأول : أن العلم محمود مطلقاً ومن ذلك تعلم السحر .

الثاني : أن الحاجة داعية لتعلمه في فك السحر ورد أهل الشر من السحرة ومحاربة ساحر أهل الحرب ورد كيد السحرة وللتوفيق بين الزوجين ونحو ذلك .

الثالث : أن تعلم السحر يمكن حصوله من دون الوقوع في الشرك والكفر.

الرابع : أن السحر يقوم بتعليمه الملائكة (هاروت وماروت) وهذا يدل على جواز تعلمه .

الرد على الشبهات :

أن هذا كله من التوهم والتخبط والدعوى الكاذبة المصادمة لصريح الأدلة والمخالفة للحقيقة إذ لا يمكن أن يتعلم أحد السحر إلا بعد وقوعه في الكفر وطاعة الشياطين وعبادتهم والشرك بهم، ثم لو فرضنا وتصورنا إمكانية تعلم السحر من دون عبادة الشياطين وطاعتهم في فعل الكفر بالله، فإن هذا لا يخرج المتعلم له من دائرة الكفر، لأن الله ﷻ نص على كفر متعلم السحر مطلقاً وهذا أصل بذاته وعلة مستقلة قارنها حصول كفر آخر وتلبس المتعلم له بناقض آخر أم لا .

إذا ثبت ذلك بطلت هذه الحجج الفاسدة والشبة الواهية بأن العلم محمود وأن النشرة وفك السحر بالسحر وسيلة مباحة لتعلم السحر ونحو ذلك فإن الكفر لا يبرره وقوعه مثل هذه التفاهات .

وأما ما احتج به أصحاب هذا الرأي الشاذ من تعليم الملائكة فإنه استدلال باطل في مقابل نص صريح ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾.

ثم لا يمنع أن الله تعالى جعل تعليم السحر من الملائكة ابتلاء واختباراً للناس كما يسلط الكفار على بعض المسلمين ابتلاء لهم .

قال الإمام محمد بن جرير الطبري في تفسيره ١/ ٤٥٥ :" فإن التبس على ذي غباء ما قلنا فقال : وكيف يجوز لملائكة الله أن تعلم الناس التفريق بين المرء وزوجه أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله تبارك وتعالى إنزال ذلك على الملائكة قيل له إن الله عرف عباده ما أمرهم به وما نهاهم عنه فالسحر مما نهى عباده من بني آدم عنه فغير منكر أن يكون جل ثناؤه علمه الملكين الذين سماهم في تنزيله وجعلهما فتنة لعبادة ليختبرهم بهما فيمحص المؤمن بتركه التعلم منهما ويخزي الكافر بتعلمه السحر والكفر منهما ويكون الملكان في تعليمهما مطيعين ولا يضرهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منهما بعد نهيهما إياه عنه ".

وقد رد ابن كثير في تفسيره مزاعم الرازي في كون السحر علم من العلوم المستحب تعليمها .

وقد أخطأ من قال أن السحر الذي بالأدوية والتدخين لا يكفر صاحبه كابن قدامه حين قال في المغني : (الساحر الذي يركب المكنسة وتسير به في الهواء ونحوه يكفر ويقتل فأما الساحر بالأدوية والتدخين وسقي شيء فلا يكفر) .

مسألة : أخطأ الشافعي رحمه الله في قوله في الأم في الساحر صف لنا سحرك فإن أتى بكفر كفرناه إذ لا يوجد سحر إلا بالكفر وإلا فليس بسحر .

وهو رحمه الله لا يخالف في كفر الساحر الذي يقوم سحره على الكفر ، لكن خلافه من ناحية تصوره إمكانية تعلم السحر بدون الشرك، وهذا مخالف للحقيقة.

المسألة السابعة عشرة : حكم الساحر :

الساحر كافر مرتد بسحره ولا يعذر بجهله ولا بتأويله استباحة تعلم السحر سواء عمل بسحره أو أنه تعلمه ولم يعمل به .

ويجب قتله بنص أمر الرسول ﷺ فروى جندب بن كعب الغامدي الأزدي أن الرسول ﷺ قال :" حد الساحر ضربه بالسيف " رواه الترمذي .

كما يجب قتله بإجماع الصحابة : ويدل له أمر عمر ﷺ : بقتل كل ساحرٍ وساحرة . حيث كتب عمر ﷺ إلى ولاته في الأمصار: " أن اقتلوا كل ساحر وساحرة " رواه البخاري وأبو داود واللفظ له .

ولم ينكر حكمه أحد من الصحابة ولا خالفه أحد منهم فعد إجماعا .

قال ابن قدامه في المغني : (وهذا اشتهر فلم يُنكر، فكان إجماعاً)٨/ ١٥٣ .

وقد قتل جندب الغامدي ساحرا في مجلس الوليد بن عقبة دون استتابة كما رواه الحاكم في المستدرك وابن أبي شيبة في مصنفه والبيهقي والدارقطني وابن عساكر في تاريخه والبخاري في تاريخه وذكر خبره ابن عبدالبر.

وكذا قتلت حفصة جارية لها سحرتها دون استتابة . رواه مالك في الموطأ .

واختلف أهل العلم في استتابة الساحر إذا قدر عليه :

فالجمهور على أنه يقتل ولا يستتاب ولا تقبل منه توبته وقد عزاه إليهم ابن أبي العز والقرطبي وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وقول لأحمد وممن قال به من الصحابة عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبو موسى .

قال أبو بكر الجصاص الرازي في أحكام القرآن ١/ ٥٠ (عن أبي حنيفة أنه قال في الساحر يقتل إذا علم أنه ساحر ولا يستتاب ولا يقبل قوله إني أترك السحر وأتوب منه).

وقال القرافي في الفروق عن الطرطوشي :" قال مالك وأصحابه الساحر كافر يقتل ولا يستتاب كالزنديق " ٤/ ١٥٢ .

وقال ابن كثير في تفسير عن الوزير ابن هبيرة :" هل إذا تاب الساحر تقبل توبته فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنه لا تقبل وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى تقبل " .

قال الشافعي في الأم ١/ ٢٥٥ : (السحر اسم جامع لمعان كثيرة فيقال للساحر صف لنا السحر الذي تسحر به فإن كان ما يسحر به كلام كفر صريح استتيب منه، وإن كان ما يسحر به كلاما لا يكون كفرا وكان غير معروف ولم يضر به أحد نهي عنه فإن عاد وإلا عزر) .

وقال النووي في شرحه لمسلم : (عمل السحر أو تعلمه أو تعليمه حرام بالإجماع وإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفر وإلا فلا وقال مالك الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب ولا تقبل توبته).

قال القرطبي في التفسير : (قوله تعالى : (وما كفر سليمان، تبرئة من الله لسليمان، ولم يتقدم في الآية أن أحدا نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولكن لما كان السحر كفرا صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر، ثم قال : و لكن الشياطين كفروا فأثبت كفرهم بتعليم السحر.

وقال: فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرا يقتل ولا يُستتاب ولا تقبل توبته ، لأنه أمر يستسرُّ به كالزنديق، ولأن الله تعالى سمى السحر كفرا بقوله :و ما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، وهو قول أحمد بن حنبل، وأبي ثور، وإسحاق، والشافعي، وأبي حنيفة، ورُوي قتل الساحر عن عمر وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وأبي موسى، وقيس بن سعد، وعن سبعة من التابعين.

وروي عن الشافعي : لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره.

قال ابن العربي : وهذا باطل من وجهين :

أحدهما : أنه لم يعلم السحر، وحقيقته أنه كلام مؤلف يُعظم به غير الله تعالى، وتنسب إليه المقادير والكائنات.

الثاني : أن الله سبحانه قد صرح في كتابه بأنه كفر فقال :و ما كفر سليمان، بقول السحر، ولكن الشياطين كفروا به وبتعليمه. وهاروت وماروت يقولان : (إنما نحن فتنة فلا تكفر) وهذا تأكيد للبيان) الجامع لأحكام القران ٢/ ٢٣٤ .

و قد اعتبر الشيخ محمد بن عبد الوهاب من جملة نواقض الإيمان التي تخرج صاحبها من الملة : السحر، والعمل به. وقد تابعه على ذلك أبناؤه وأحفاده وغيرهم من علماء التوحيد في الجزيرة العربية.

ونقل الشيخ عن صاحب "الإقناع" قوله : ويحرم تعلم السحر وتعليمه وفعله، ويكفر بتعلمه وفعله، سواء اعتقد تحريمه أو إباحته، فتأمل هذا الكلام.

المسألة الثامنة عشرة: وجوب قتل الساحر من دون استتابة :

ثبت قتل الساحر عن ثلاثة من الصحابة دونما إنكار من بقية الصحابة ﷺ .

فثبت ذلك عن عمر ﷺ في قوله (اقتلوا كل ساحر وساحرة).

فقتل منهم من قتل، ولم ينكر أمره وسنته أحد.
وكذلك ثبت عن جندب الغامدي الأزدي ﷺ قتل الساحر في مجلس الوليد.
وكذلك ثبت عن حفصة أنها قتلت جارية سحرتها .
وفي فعلهم أحكام شرعية .
الأولى : أن الساحر يقتل وأنه لا يفرق بين كونه رجلاً أو امرأة .
الثاني : أنهم يقتلون من غير استتابة ومثله مثل الزنديق لعدم ثبوت صدقهم عندنا .
الثالث : أن قتل السحرة والزنادقة يجوز إقامته لآحاد الرعية دون الرجوع للإمام والحاكم إذا خشي من فواته وهذا ثابت عن الصحابة فقد قتلوا الساحر والزنديق الساب من غير الرجوع للإمام ولم يثبت استنكار الصحابة فعلهم بل صح عن ابن عمر وابن الزبير لما ذكر لهم عن ساحر وهو المختار الثقفي وهو يعمل السحر أمام الناس قالوا : أين جنادبة الأزد لا يعقرونه ذكره ابن حجر في الإصابة وابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة الصحابي جندب بن كعب قاتل الساحر.
والشاهد منه أن الساحر يقتل متى ظفر به وتيقن أنه ساحر ويبتدر قتله آحاد المسلمين إن خشي ترك قتله ولو قتل به فيعد شهيداً ولكان ذلك من مناقبه كما حصل ذلك للصحابي جندب وسجنه الوليد ثم أمر عثمان ﷺ بفكه وعدم التعرض له.
والصحابة عدوا فعل جندب الغامدي الأزدي منقبة له، فهذا ابن عمر يحرض على قتل الساحر المختار من آحاد الناس ويقول أين الأزد لا يقتلون، وعد ذلك الإنكار من جندب الأزدي وغيره من مناقبهم حيث عرفوا في الكوفة بقراء الأزد وإنكارهم على الولاة وأمر عثمان بالتودد لهم والتلطف وعدم أذيتهم .
وقد رد ابن تيمية في الصارم على من زعم أن في إقامة الحدود وخاصة قتل الساب والمستهزئ ومثله الساحر والزنديق لآحاد الرعية أنه محرم وافتئات على ولي الأمر ، وتقدم كلامه في الناقض المتعلق بالاستهزاء .
ثم إن العلة من قتل الساخرين بالدين والسحرة دون الرجوع للإمام لأمور :
أولها: أن هذه الأعمال من الردة المغلظة المستوجبة للقتل والذي لا تشفى صدور المؤمنين إلا بقتل هؤلاء ولا يجوز استتابتهم كما تقدم .
ثانياً : أن ثبوت هذه الأفعال على أصحابها قد لا يتمكن من إثباته فقد ينكر الساحر والساخر والساب فإذا قتله من رآه كان عمله مشروعاً ومثله من رأى رجلا

مع زوجته على الفاحشة يجوز للزوج قتله ولا يأثم بل قد يؤجر إلا أن حكم الشرع ظاهراً لابد من البينة وقد يقتل إذا لم يثبت دعواه ويدل لهذا الأصل قول سعد بن عبادة ﷺ في ذلك وإقرار الرسول ﷺ له .

ثالثاً: أن العادة جرت أن إقامة الحد على هؤلاء المرتدين تتقدمه العراقيل والتبريرات الإرجائية وقبول الأعذار الساقطة في حكم الشرع، ولذا استثنى كثير من أهل العلم هذه الحالة دون غيرها كما قرر ذلك ابن تيمية في السياسة الشرعية وغيره.

ونحن حين نقرر ذلك نقول لا شك أن الأولى أن يرفع بحال المستهزئين بالدين والسحرة والزنادقة بالحاكم ليقيم عليهم حد الردة إذا علم منه ذلك وما قلناه إنما هو من باب الجواز استدلالا بعمل الصحابة .

مسألة : بطلان اشتراط إقامة الحجة على الساحر قبل تكفيره وقتله :

ظن البعض أن السحر لا يكفر فاعله حتى تُقام عليه الحجة،لأنها من الأمور الخفية التي يُعذر الجهل بها.

واستند لكلام الشيخ محمد بن عبدالوهاب قال : (إن الذي لم تقم عليه الحجة هو الذي حديث عهد بالإسلام ، والذي نشأ ببادية ، أو يكون ذلك في مسألة خفية مثل الصرف والعطف فلا يُكفر حتى يُعرف) مجموعة المؤلفات ٣/ ١١ .

وهذا ليس بالصحيح والشيخ يرى قتل الساحر مطلقا دون استتابة، وإن كان يرى مسألة الصرف والعطف فرعية، لكن لا يوافق على ذلك، فهدي الصحابة والسلف كما قدمنا عنهم قتل الساحر مطلقا ولم يثبت أنهم استتابوه أو أقاموا الحجة عليه قبل تكفيره وقتله ، كما فعل جندب وإقرار ابن عمر له وكما فعلت حفصة مع من سحرتها وقول عمر اقتلوا كل ساحر وساحرة دون نكير .

مسألة : ترك الرسول ﷺ قتل ابن صياد وقتل لبيد ابن الأعصم أمر خاص بهم أو أنه كان قبل الأمر بقتل السحرة .

المسألة التاسعة عشرة : المرأة الساحرة تقتل كالرجل ولا تستتاب كما فعلت حفصة مع من سحرتها وقول عمر اقتلوا كل ساحر وساحرة .

المسألة العشرون : الذهاب للساحر وطلب السحر منه :

لا يعتبر مناط للكفر إلا مع وجود أحد أمرين :

الأول : تصديقه في ادعائه علم الغيب والقدرة الكاملة .

الثاني: لو فعل مكفراً كالذبح للجن وإهانة المصحف وسب الدين.

المسألة الحادية والعشرون : سحر الرسول ﷺ :

ثبت في صحيح البخاري ومسلم وغيرهـا أن الرسـول ﷺ سـحر وأن الـذي سحره لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق لعنه الله .

وهذا نص الحديث :

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : سـحر رسـول الله ﷺ رجـل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسـول الله ﷺ يخيـل إليـه أنـه كـان يفعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلـة وهـو عنـدي لكنّـه دعـا ودعا، ثم قال :" يا عائشة شعرتُ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه أتـاني رجـلان فقعـد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ، فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجـل فقـال مطبوب - أي مسحور - قال من طبه قال لبيد ابن الأعصم قـال في أي شيء قـال في مشط ومشاطه وجف طلع نخلة ذكر قال وأين هو قال في بئر أروان " .

فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال :" يا عائشة كـأن ماءهـا نقاعـة الحنـاء وكـأن رؤوس نخلهـا رؤوس الـشياطين قلـت يـا رسـول الله أفـلا استخرجته قال قد عافاني الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً فأمر بها فدفنت " .

وفي رواية فأنزل الله هاتين السورتين وهما إحدى عـشرة آيـة عـلى عـدد تلـك العقد وأمر أن يتعوذ بهما فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد النبي ﷺ خفة حتـى انحلت العقدة الأخيرة فكأنما أنشط من عقال . وفي أخرى فأتـاه جبريـل بـالمعوذتين فعوذه بهما فخرج إلى أصحابه صـحيحا . وفي أخـرى فأرسـل النبـي ﷺ عليـا إليهـا فنزحوا ماء البئر فاستخرجها فجاء به فأمر أن يحل العقد ويقرأ آية فجعل يقرأ ويحـل وكلما حل عقدة وجد لذلك خفة حتى قام كأنما أنشط من عقال .

وفي رواية قال الصحابة أفلا نأخذه فنقتله فقال أما أنا فقد شفاني الله وأكره أن أثير على الناس شرا وفي أخرى وما وراءه من عذاب الله أشد .

وجاء عند ابن سعد في الطبقات وأبو عبيـد في الغريـب والطـبراني في المعجـم الكبير أن النبي ﷺ احتجم حين سحر .

وثبت أن جبريل رقاه حين سحر ﷺ .

تنبيه : معنى قول عائشة هـلا أخرجتـه أي أظهرتـه للنـاس وأخرجتـه لـيروه وليس المقصود أخرجته من البئر . قاله ابن القيم في البدائع .

وحقيقة سحره :

أنه كان يخيل إليه أنه يأتي الشيء ولم يأته وأنه يأتي نساءه ولم يأتهم ثم إن الوحي جاءه وأخبره جبريل بموضع السحر في بئر أروان فاستخرجه وشفي ونزلت عليه المعوذتان .

وكان السحر لما رجع من الحديبية في آخر السادسة وأول السنة السابعة ولبث السحر ستة أشهر وقيل أربعون يوماً وكان استحكامه ثلاث ليال فأنزلت المعوذتان .

وقد استنكر الجصاص وغيره سحر الرسول ﷺ وردوا الحديث مع صحته وزعموا أنه يعارض العصمة وقوله ﷻ له: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ المائدة: ٦٧، والله كذب الكفار حين قالوا : ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ﴾ الفرقان: ٨.

وكلام هؤلاء شبهة عقلية كلامية في مقابل حديث صحيح لا شك فيه تلقته الأمة بالقبول .

ثم إن هذا السحر لم يكن يؤثر على تبليغه الدين أو يختلط عليه في الوحي أو فعل منكر أو أثر على عقله أو عبادته .

قال القاضي عياض في الشفاء : " فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقده " .

فهو مثل ما وقع لموسى ﷺ من السحر في تخيله بسبب سحر السحرة حركة العصي والحبال وأنها تسعى .

قال الشنقيطي : " اعلم أن ما وقع من تأثير سحر في الرسول ﷺ لا يستلزم نقصا ولامحالا شرعيا حتى ترد بذلك الروايات الصحيحة لأنه من نوع الأعراض البشرية كالأمراض المؤثرة ولم يؤثر فيما يتعلق بالتبليغ " .

وفي سحره مسائل ووقفات ذكرناها مختصره وليس هنا مكان بسطها إذ الكلام هنا فيما يتعلق بكون السحر ناقض للإسلام ومبطل للتوحيد.

المسألة الثانية والعشرون: السحر له حقيقة وتأثير :

السحر له حقيقة مؤثرة فقد يصل السحر بالمسحور إلى الموت والمرض والأذى والبغض والمحبة والتفرقة بين الزوجين.

فالساحر قد يأمر الشياطين بأذية الإنسان المسحور وقتله وتحريك الساكن والمشي على الماء والطيران في الهواء ورفع الجن للساحر أو المسحور .

وذهبت المعتزلة القدرية إلى إنكار السحر وأنه مجرد تخييل فقط ، ولا حقيقة له ، ولا تأثير له وليس هناك إلا سحر التخييل . وقال بقولهم بعض أهل العلم منهم الجصاص وابن حزم ورشيد رضا .

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ طه: ٦٦

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ الأعراف: ١١٦

﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٠٢.

وقد أخطؤوا فيما ذهبوا إليه إذ السحر ثبت تأثيره في الشرع والعقل .

ويرد عليهم بأدلة منها :

قوله تعالى ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٠٢.

فأثبت الله لهم الإضرار ولكن هذا الإضرار لا يكون إلا بإذن الله .

وقال تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ البقرة: ١٠٢.

وقوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ الفلق: ٤ .

فأمر الله رسوله أن يتعوذ من شر السحرة والساحرات، وما ذاك إلا لأن للسحر حقيقة مؤثرة وليست الاستعاذة لما يدخل على المسلم من عقيدة في أنهم ينفعون ويضرون،كما قالت المعتزلة . وقد نزلت السورة بعد أن سحر الرسول ﷺ .

ما ثبت من قوله ﷺ : حين انفك سحره وتعافى منه: (أما أنا فقد شفاني الله) رواه البخاري ، مما يدل على أنه ﷺ مرض وتأثر وكان يشعر بمثل وخز الإبر وأنكر بصره وقوته على الوطء وغير ذلك مما هو ثابت عنه .

وقال ﷺ : " من تصبح بسبع تمرات لم يضره سحر " فأثبت أن للسحر ضررا .

كذلك العقل والحس تثبت أفعال السحرة وطيرانهم وقتل الشياطين لبعض الإنس وهذا أمر لا يخفى .

كما يرد قولهم أن السحر ليس إلا التخييل على الأعين حتى يرى الناضرين الشيء بخلاف حقيقته : (أن هذا أيضا يعد تأثيرا وتغيرا في أحاسيس المسحورين فما الذي يحيل ويمنع من تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم ومالفرق بين التأثير والتغيير الواقع في الرؤية والتغيير في صفة أخرى من صفات النفس والبدن) قاله ابن القيم في بدائعه .

ومن زعم منهم أن سحر قوم موسى فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها مثل الزئبق فهذا باطل لأنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالا بل حركة حقيقية ولم يكن سحرا لأعين الناس وإنما صناعة من الصناعات، قاله ابن القيم .

قال ابن الجوزي : (السحر أنواع فمنه شعبذة كإيهام سحرة فرعون أن العصي حيات ومنه عقد ونفث ورقى وغير ذلك وربما أثر في الماء والهواء .. وقد نقص قوم من رتبة السحر فقالت المعتزلة ليس السحر إلا الشعبذة والدهشة ، ورفعه قوم فجعلوه زائدا على المعجزات وربما توهم جاهل أن الساحر يقلب الصور فيجعل المرأة طائرا) نزهة الأعين النواظر ٣٥٤ .

قال ابن القيم في البدائع : (وقد دل قوله ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ ﴾ وحديث عائشة على تأثير السحر وأن له حقيقة، وأنكر ذلك المعتزلة، وزعموا إنما ذلك تخييل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك).

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : (هذه الآية عمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل ولا حجة لهم بها لأنها في قصة سحرة فرعون ، وكان سحرهم كذلك،ولا يلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل)١٠/ ٢٣٥.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله في التيسير :(وقد زعم قوم من المعتزلة وغيرهم أن السحر تخييل لا حقيقة له ، وهذا ليس بصحيح على إطلاقه ، بل منه ما هو تخييل ، ومنه ما له حقيقة).

عليه فالسحر ينقسم إلى قسمين : منه ماله حقيقة وله تأثيرات على البدن والقلب ، ومنه ما هو تخييل .

مسألة : استدلالهم بحديث (لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا نوء ولا غول).

أولا هذه الأمور ليست من السحر ، ثم إن النفي ليس نفي وجودها وإنما النفي لاستقلالها في التأثير كما كانت تعتقد أهل الجاهلية .

مسألة : السحر يؤثر : على القلب بالحب والبغض ، وعلى البدن بالأمراض والقتل والربط ، وعلى العقل والدماغ بالتصور الخاطئ والتخييل والجنون .

الثالثة والعشرون : الرد على من زعم قدرة الساحر على قلب الأعيان بسحره .

زعم بعض المتكلمين من الأشاعرة وعلى رأسهم الباقلاني أن الساحر يقدر أن يقلب الأعيان بسحره فيجعل الشاة كلباً حقيقياً والماء تراب والعكس والجماد حيواناً والإنسان حماراً .

بل ونسبه الرازي لأهل السنة فقال في تفسيره :" أما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر على أن يطير في الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً بقدرة الله " .

وهذا القول باطل إذ لازمه أن الساحر يقدر على الخلق والربوبية .

قال ابن الجوزي : (رفع السحر قوم فجعلوه زائدا على المعجزات وربما توهم جاهل أن الساحر يقلب الصور فيجعل المرأة طائرا) نزهة الأعين النواظر ٣٥٤ .

المسألة الرابعة والعشرون : إنكار المعتزلة للسحر :

أنكرت المعتزلة حقيقة السحر ، وعلة إنكارهم له :

لأنهم ظنوا أنه لو كان ثمة حقيقة مؤثرة للسحر لاختلط السحر بالمعجزة التي يجريها الله على يد النبي وهذا ممتنع .

والرد عليهم من جهتين :

الأول الأدلة الشرعية والعقلية المثبتة للسحر .

الثاني : أن السحر والمعجزة والكرامة بينهما فرق من جهتين .

من جهة المتصف بها ، فالفرق بين النبي والولي والساحر مثل الفرق بين الليل والنهار والعقل والجنون .

ومن جهة ذاته وحقيقتها ، فالسحر لا يصل إلى درجة المعجزة ولا يكون خارقاً ومعجزة الإنس والجن والحيوان فالسحر يطيقه كثير من للإنس بسحر وبغيره ويطيقه الجان والحيوان وقد بينا ذلك في ردنا على الأشاعرة والمتكلمين .

المسألة الخامسة والعشرون : سحرة الجن :

كما أن من الإنس سحرة كذلك من الجن سحرة ويسمون ساحر الجن الغول والساحرة سعليّة وقد جاءت الآثار بذلك والمبادرة بالأذان عند رؤيتها.

مبحث : النشرة

م (١) : تعريف النشرة :

تطلق من حيث الأصل على فك السحر وحله .

م (٢) : أنواع النشرة : نوعان :

فك السحر برقية مباحة .

فك السحر بسحر مثله .

ويطلق البعض النشرة على علاج السحر وفكه بسحر مثله فقط.

م (٣) : حكم النشرة التي هي استخدام السحر لفك السحر :

محرمة بل وكفر لأنها سحر والسحر كفر ولم يستثن الله تعالى منه شيئاً .

الأدلة على تحريم فك السحر بسحر :

١- عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النُّشرة؟ فقال (هي من عمل الشيطان) رواه أحمد بسند جيد أبو داود.

٢- حديث:(اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقي ما لم يكن فيه شرك). مسلم. والنشرة سحر والسحر فيه شرك وهو من عمل الشيطان فكان تحريمها متعين.

٣- أن القول بإباحة سؤال السحرة وطلب علاجهم للسحر بالسحر فيه إقرار السحر وإبقاء للساحر وعدم قتله والرضا بفعله واللجوء إليه عند الحاجة، وفي هذا من أصناف الكفر ما لا يخفى .

٤- أن السحر لا خير فيه أبداً ولا تقع منه مطلقاً كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ البقرة: ١٠٢ ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ طه: ٦٩.

٥- أما ما يستدل به المخالف في إباحة النشرة :

* من سؤال عائشة رضي الله عنها للرسول ﷺ حين سحر . يا رسول الله هلا تنشرت ؟ فقال النبي ﷺ : (أما الله فقد شفاني) رواه الشيخان.

* وقول سعيد بن المسيب لما سأله رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر؟ قال : (لا بأس إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه ومن استطاع أن ينفع أخاه فليفعل) رواه البخاري .

* وقول الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر.

فإن معناه على علاج المسحور بالرقي المباحة وليس السحر كما توهمه البعض وقد بين مراد ابن المسيب ابن القيم وغيره .

وهل يعقل أن يبيح الرسول ﷺ الذهاب للسحرة وهو الذي أمر بقتلهم وأخبر بكفرهم ودل أمته على كل خير وهل في الذهاب للسحرة من خير وهم الذين لا صلاح في عملهم ألبته .

وهل يظن بابن السيب والحسن تجويز الذهاب للسحرة أو يليق به ذلك كما فهم البعض حين جهلوا مقصود السلف من النشرة ومعناها في لغة العرب وإطلاقات الشرع وكلام السلف .

قال ابن القيم في زاد المعاد: (النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان. وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة. فهذا جائز).

م (٤) : أقسام المتعالجين بالسحر وأحكامهم :

الأول:أن يتعالج وهو راضٍ بالسحر مصدقٌ للساحر، فهذا كفر أكبر لما تقدم.

الثاني : أن يتعالج وهو ليس براضٍ بالسحر ولا مصدقٌ للساحر، ولكن يأمره الساحر أن يذبح للجن ، فهذا يكفر لذبحه لغير الله .

الثالث : أن يتعالج ولا يرضى بالسحر ولا يصدق الساحر، ولا يفعل ما يأمره به الساحر من الشرك أو غيره ، ولكن يدفع مبلغاً فقط ليقوم الساحر بحل السحر عن طريق الاستعانة بالجن والشياطين ، فهذا اختلف فيه العلماء على أقوال :

الأول:أنه جائز، لأن الضرورات تبيح المحذورات ، وهو رأي بعض الحنابلة.

القول الثاني : أنه كفر مطلقا .

الثالث : أنه محرم سدا لذرائع الكفر، وهذا رأي جمهور العلماء وهو الصحيح .

م (٥) : علاج السحر :

١- استخراج السحر وإبطاله وحرقه أو إتلافه وقراءة المعوذتين عند فكه .

٢- الرقية من الكتاب والسنة على المسحور والنفث عليه وشرب الماء المقرئ عليه وخلطه بالسدر وتدهنه بالزيت المقري عليه .

٣- إخراج الجان من المصروع والمتلبس به بالقراءة والضرب ويجوز قتله إذا لم يمكن دفع ضرره إلا بالقتل وإلا فلا .

٤- الحجامة وقد بين ابن القيم أثرها في علاج السحر وإبطاله .

وليحذر المسلم من الطرق المحرمة وغيره المشروعة . كالذهاب للسحرة وإقامة الزار لإخراج الجان أو تلبية طلبات الجني الصارع .

م (٦): **الوقاية من السحر :**

١- التحصن بالأذكار الشرعية والتعوذات النبوية .

٢- المحافظة على الصلوات في الجماعة وعلى أذكار الصباح والمساء.

٣- الإكثار من ذكر الله وقراءة القرآن خصوصا آية الكرسي والمعوذتين والإخلاص وآخر آيتين من سورة البقرة .

٤- أكل سبع تمرات عجوة في الصباح لقول الرسول ﷺ : (من تصبح بسبع تمرات لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر) رواه البخاري

٥- التوحيد والاعتقاد الصحيح والتعلق بالله وحده والتوكل عليه وكثرة الدعاء والتوبة إليه .

م (٧) : **علاقة السحر بالمس والصرع :**

الصرع يكون عضويا راجحا لاضطراب أعصاب المخ وقد يكون الصرع سببه المس ودخول الجني في الإنس وتلبسه به. والصرع الذي سببه المس والجن منه ما سببه السحر ومنه غير ذلك فيدخل الجني في الإنس إما عشقاً له أو أذية أو انتقاماً.

وقد أنكر الجهال تلبس الجن بالإنس وأبطلنا قولهم في هذا الكتاب.

والدليل على المس قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ البقرة: ٢٧٥.

م (٨) : **علاقة السحر بالحسد :**

الحسد والعين تؤثر بذاتها وسببها النفس الآدمية الخبيثة.

وأعراض العين والحسد تقارب أعراض السحر في المبتلى بها أي المسحور .

ومن علاجها هي والصرع الرقية وإبطال السحر واغتسال العائن .

فصل في كفر الكهانة

م (١) : تعريفها : الكهانة هي إدعاء علم الغيب وما يحدث في المستقبل .

والكاهن هو من يدعي معرفة الغيب : سواء كان ممن يتلقى الأخبار من مسترقي السمع وهذا الغالب، أو من غيرهم ممن يخبره بما يقع في الأرض، أو يدعي ذلك بطريق الشعوذة كالخط في الأرض ومحوه أو عن طريق النظر في النجوم .

قال في الجامع : العرب تسمي كل من أذن بشيء قبل وقوعه كاهنا .

قال ابن حجر: والكهانة ـ بفتح الكاف ويجوز كسرها ـ ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب . الفتح (١٠/ ٢١٦).

م (٢) : ما يدخل في اسم الكاهن :

الكاهن يشمل العراف والمنجم والرمال والذي يضرب بالحصى. ومما يدخل في مسمى الكهانة ، قارئ الفنجان، والكف، والرمل، والذي يخبر عما في الضمير وعلم الأبراج والكواكب الذي تُصدَّر به الصحف والإعلام وغيرها، فكل ذلك من الكهانة الذي يعتبر ضربا من ادعاء الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

وإن كان يقصد بالكاهن عند الإطلاق من تأتيه الشياطين المسترقة للسمع من كلام الملائكة فيلقيه في أذن الكاهن .ويخبرونه ببعض المغيبات .

الكاهن: من يدعي المعرفة عن الكوائن في مستقبل الزمان ، ومعرفة الأسرار وعلم الغيب فيصيب بعضها ويخطئ في أكثرها ، وذلك عن طريق الجن وغيره .

والعرَّاف: هو الذي يدعي علم ما مضى ، كمعرفة السارق ومكان السرقة ، واسم من يأتيه ومكانه ، وذلك من خلال اتصاله بالجن . قاله البغوي في السنة.

م (٣): العلاقة بين الساحر والمنجم والكاهن والعراف والرمال والفرق بينهم:

يجتمع في هؤلاء صفتان :

ادعاء علم الغيب . والاستعانة بالشياطين بعد الشرك بهم وطاعتهم في الكفر.

جعل البعض هؤلاء كلهم يشملهم اسم السحر ويأخذون حكمه :

يدل لهذا حديث: (من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر).

وقال ابن عباس : المنجم كاهن والكاهن ساحر والساحر كافر .

قال ابن تيمية: (العراف: اسم الكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق) الفتاوى ٣٥/ ١٧٣ .

وقال البعض الكاهن يشمل العراف والمنجم والرمال .

والفرق بين هذه المسميات :

١- الكاهن من يدعي معرفة الأمور المستقبلية بالاستعانة بمسترقي السمع .

٢- العراف هو الذي يخبر عن المسروق والضائع والضالة وبمعنى أشمل يخبر عن الغيب الماضي أو الحاضر الخفي .

٣- المنجم: من يدعي علم الغيب بالنظر للنجوم والاستدلال بها عليه.

قاعدة : تناسب أرواح الكهنة مع الشياطين :

فالجميع يتصف بالنفس الخبيثة والشر والعدوان .

فائدة : موقف النبي ﷺ من ابن صياد الكاهن :

ابن صياد كان من الكهان زمن النبي ﷺ وترك النبي ﷺ قتله وقتل لبيد بن الأعصم وهذا الحكم كان خاصا به أو أنه كان قبل الأمر بقتل السحرة .

م (٤) : أنواع الكهانة:

١- أن يخبر عن المغيبات المستقبلية بطريق إخبار مسترقي السمع من الجن .

٢- أن يخبر الكاهن عما يطرأ في أقطار الأرض وعن المسروق والضالة مما تخبره به الجن ، ويسمى هذا العراف .

٣- أن يخبر عن الغيبيات بطريق النظر في النجوم والتنجيم ، وهذا المنجم.

٤- أن لا تأتي الكاهن الجن وإنما يخمن ويقيس ويستدل على بعض الأمور المستقبلية ببعض الأحوال المطردة وهذا يكفر إن ادعى علم الغيب .

قال ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٢١٦) قال الخطابي : (الكهنة قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ، فألفتهم الشياطين ؛ لما بينهم من التناسب في هذه الأمور ومساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه . وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية خصوصا في العرب ؛ لانقطاع النبوة فيهم).

م (٥) : مصادر الكاهن وطرق الكهانة :

أولاً : ما يتلقونه من الجن فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضا إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه ، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين ، وأرسلت عليهم الشهب فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِلَّامَنْ

خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴾ الصافات: ١٠ وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة كما جاء في أخبار شق وسطيح ونحوهما ، وأما في الإسلام فقد ندر ذلك .

ثانيها : ما يخبر الجني به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالبا ، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد، وهذا حال من يستعين بالجن فيما يقدر عليه الجن وسؤاله عن أشياء وقعت أو أشياء مخفية تحت الأرض ونحو ذلك.

ثالثها : ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس ، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه .

رابعها : ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك .

ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر وقد يعتضد بعضهم من ذلك بالزجر والطرق والنجوم وكل ذلك مذموم شرعا).

م (٦) :حكم الكاهن :

وهو الذي يتكهن علم الغيب، فيدعي معرفة علم الغيب وما سيكون، وهذا من أخص صفات الله ﷻ، حيث لا يعلم الغيب إلا هو سبحانه وتعالى. وأي مخلوق يدعي علم الغيب وما سيكون، فهو كاهن وطاغوت، ورأس في الطغيان. والمقر له بذلك يكون قد أقر له بخصائص الربوبية، واتخذه إلها من دون الله. وإذا كان الذي يذهب للكهان ويسألهم يعتبر كافرا فكيف بالكاهن نفسه إنه طاغوت كافر خبيث .

وقد بينا وجه كون الكاهن والساحر طاغوتا وحكم الذهاب لهم وسؤالهم في الكلام عن السحر .

فليحذر المسلم والحريص على دينه من الاقتراب من الكهنة والسحرة أو تجربتهم، ولو كان ذلك على وجه اللعب والمزاح، فإن دين الله يجب إكرامه وتعظيمه.

تنبيه : أوجه الكفر في المنجم والكاهن . تقدمت في باب الساحر.

م (٧) : أدلة الكهانة :

١- عن أبي هريرة ﷺ : (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ). رواه الأربعة والحاكم . وفي رواية من أتى ساحرا .

٢- رواه مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: (من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما).

٣- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ). رواه أبو داود وأحمد. نعوذ بالله من الكفر والخذلان .

٤- عن عمران بن حصين ﷺ مرفوعا: (ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له؛ ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) . رواه البزار. ونحوه عن ابن عباس عند الطبراني في الأوسط .

٥- عن عائشة أن النبي ﷺ قال عن الكهان : (ليسوا بشيء) متفق عليه .

٦- عن معاوية بن الحكم السلمي أنه سأل الرسول ﷺ عن الذهاب للكهان ، فقال له ﷺ : (فلا تأتهم). رواه مسلم .

٧- عن ابن عباس أن النبي ﷺ حين نزل شهاب قال (ماكنتم تقولون فيه)، قالوا موت عظيم . فأخبر أنه لا علاقة له وإنما هو لرمي مسترقي السمع،رواه مسلم.

٨- عن أبي هريرة ﷺ قال أن النبي ﷺ قال:(إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا للذي قال: (الحق وهو العلي الكبير) فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدرك، فيكذب معه مائة كذبه فيقال : أليس قال لنا يوم كذا وكذا كذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء) رواه البخاري.

م (٨): أقسام الكهان :

١- من يأتيه الشياطين ويخبرونه بما يريد بعد الشرك بهم .

٢- المخمن والمتخرص : وهذا يخمن ويخرص ويكثر من الادعاء الكاذب في الأمور المستقبلية وادعاء معرفته بالاستدلال بالمقدمات والقياسات.كقولهم سيموت هذا العام عظيم وهذا بدهي أنه سيموت في السنة عظيم فإذا مات قيل صدق فلان .

م (٩) : ادعاء علم الغيب المطلق:

علم الغيب وما سيكون، وهذا من أخص صفات الله ﷻ، حيث لا يعلم الغيب إلا هو سبحانه وتعالى.والأدلة على اختصاص الله ﷻ بالعلم وكفر من أشرك غير الله فيه كثيرة. منها:قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ النمل: ٦٥ ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٦ ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الأنعام: ٥٩ وقال عن نبينا محمد ﷺ ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ الأعراف: ١٨٨ ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ الأنعام: ٥٠ ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ يونس: ٢٠

والشرك في العلم الرباني يكون بأحد طريقين :

إما بإنكاره عن الله كما تقوله الفلاسفة وغلاة القدرية .

أو بنسبة علم الغيب لغير الله كما تزعم الرافضة والصوفية والسحرة والكهان.

وأي مخلوق يدعي خاصية علم الغيب وما سيكون، فهو كاهن وطاغوت، ورأس في الطغيان. والمقر له بذلك يكون قد أقر له بخصائص الإلهية، واتخذه إلها من دون الله. وإذا كان الذي يذهب للكهان ويسألهم يعتبر كافرا فكيف بالكاهن نفسه إنه طاغوت كافر، وهناك أمور ليست من الغيب وإن كان فيها غيب نسبي سنأتي بها.

م (١٠) : حكم الاستعانة بالجن وأقسامها : وسيأتي .

م (١١) : حقيقة استراق السمع :

صفة الاستراق أن الشياطين تركب بعضهم على بعض حتى يصلون للسماء الدنيا فيسمعون خبراً من ملائكة السماء الدنيا ثم يلقونها على وليهم من الأنس وهو الكاهن يخبر بها ويكذب معها مائة كذبة ليقال أنه يعلم الغيب . وتقدم الحديث.

م (١٢) : تسليط الشهب على مسترقي السمع :

يرسل على مسترقي السمع من الشياطين الكواكب والشهب المحرقة لهم فيموت من يموت ويحترق وربما يسلم منهم من يخطف الخبر فيلقي الكلمة والخبر للكاهن كما أخبر عنهم سبحانه بقوله: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ الحجر: ١٨ ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ الصافات: ٦ - ١٠ ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ الملك: ٥ ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣.

مسألة : كان أول إرسال الشهب على مسترقي السمع زمن بعثة النبي ﷺ فمنعوا من خبر السماء لكي لا يختلط الوحي بما يأتي به الكهان وهذا الذي جعل الجن يبحثون عن سبب منعهم من استراق السمع حتى لقوا الرسول ﷺ وآمنت طائفة منهم به، يدل لذلك: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ وفيهم أنزل الله سورة الجن وآيات من سورة الأحقاف ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾.

ثم بعد موت الرسول ﷺ رجع الجن لاستراق السمع وقليل منهم من يسلم.

فائدة : لماذا يقدم الجن على استراق السمع مع وجود الشهب وقلة من يسلم:
الجواب : أن الشهوة والغي والهوى يعمى صاحبه ألا ترى الكفار كثير منهم يعلم الحق ويعرض عنه ويعاديه ومثل ذلك من يأتي الزنا على كثرة ما يخالطه من العار والأمراض الفاتكة والرجم.
ثم مع ذلك هم يطمعون في السلامة وإضلال الناس .
م (١٣) مصطلحات في باب الكهانة :
١- كانت العرب تسمى الكاهنة الغائبة لكونها تأتي بالغيب أو لكونها تغيب .
٢- **الرئي والهاتف:** هو صوت يسمع ولا يرى وهو الجني الذي يأتي الكاهن.
٣- **حلاوة الكاهن** : الأجرة التي يأخذها الكاهن من الذي يتكهن له.
وهو مال سحت وقد نهى الرسول ﷺ عنه ، وقد تقيأ أبو بكر لما طعم من المال الذي من الكهانة من غلامه الذي تكهن في الجاهلية وقد رواها البخاري .
٤- **سجع الكهان:**الكهان يأتون بالأخبار بطريق السجع ليكون أدعى لقبوله.
٥- **الرنة** : كالجرس صوت الشيطان ، الأنة صوت الحسرة من الإنس .
والناموس ناقل خبر الخير والجاسوس الشر .
٦- **القرقرة** :هي صوت الجن حين يلقي الخبر على الكاهن كما ورد في الحديث عند البخاري (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة) وفي حديث عائشة (كما تقر القارورة) .
٧- استراق السمع . وهو مصدر الكاهن ، وتقدم .
م (١٤) : حكم الذهاب للسحرة والكهنة : له حالات وأقسام :
الأول : إن طلب منهم سحراً له فطلبوا منه أن يكفر ويشرك كأن يذبح ولا يسمي أو يسب الدين أو يهين آيات القرآن كأن يكتبها بالدم ونحو ذلك .
الثاني : من يأتيهم ليسألهم عن أمر غيبي مصدقا لهم، وهذا معنى يصدقهم أي يصدقهم في إدعاء الغيب ويعتقد أنهم يعلمون الغيب مع الله أو أن الله أعلمهم بالغيب ودلهم على أسبابه فهو كافر خارج من الإسلام لا شك فيه.
والدليل على ذلك ما رواه أحمد والحاكم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : (من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد).
ولأنه مكذبٌ بالقرآن: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ النمل: ٦٥.

الثالث : إن أتاهم وسألهم مع عدم تصديقهم في إدعاء الغيب ومعرفته كـذبهم وحقيقة حالهم، مثل من يأتيهم ليسألهم عما ضيعه أو من سحره مـع علمـه بكفـرهم وأن الغيب لله، فهذا فعل محرما دون الكفر، وعقابه أن صلاته لا تقبل أربعين ليلـة . والدليل حديث: (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) مسلم.

الثالث: من سألهم ليبين كذبهم أو يفضحهم ويبين تلبيـسهم وعجـزهم فهـذا مشروع وقد فعله النبي ﷺ لابن صياد حين سأله عن الدخان، والحديث متفق عليه.

فائدة : الحكمة من تحريم إتيان السحرة والكهنة وحضور مجالسهم ونواديهم:

لأن ذلك قد يكون مدعاة إلى تصديقهم والتأثر بهم وهذا كفر بذاته، لأن فيـه إثبات علم الغيب للمخلوق، وكذلك في الذهاب لهم ترويج لبـاطلهم ودعايـة لهـم ونشر للكفر وتغرير بالعوام والجهلة فيصدقوهم ويذهبوا لهم .

ومن أدلة الوعيد المتعلقة بإتيان السحرة والكهان وتصديقهم :

حديث أبي موسى ﷺ مرفوعا : (ثلاثة لا يدخلون الجنة مـدمن خمـر وقـاطع الرحم ومصدق بالسحر) رواه أحمد وابن حبان .

وحديث: (أخاف على أمتي ثلاث) وعد منها (التـصديق بـالنجوم) و(إيـمان بالنجوم) رواه أحمد عبد بن حميد وأبو يعلى وابن عساكر.

وحديث: (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ).

فائدة : صورة معاصرة للمسألة :

ويدخل في هذا الحكم والوعيد المتعلق بإتيان السحرة والكهـان وتـصديقهم، من يجري مقابلات تلفزيونية أو صحفية مع السحرة والكهنة والعرافين ، ومن ينظـر إليهم في الإعلام معجبا ومستحسنا وراضيا بخروجهم .

قاعدة : لا يعتبر الذهاب للساحر وطلب السحر منه كفرا إلا في أمرين:

تصديقه في ادعائه علم والقدرة. أو فعل مكفراً كالذبح للجن وسب الدين.

م (١٥) : عدم قدرة الشياطين والسحرة على إيصال أخبار المؤمنين للكفار :

فالنبي ﷺ في غار ثور لم يستطع إبليس إخبار المشركين بمكانـه وفي كـل زمـان المؤمنين الذين يطلبهم الكفار لم يقدروا عليهم مع ما عندهم من جن وسحر.

فصل في كفر التنجيم

م (١) : تعريف التنجيم :

التنجيم على وزن تفعيل، نسبة للنجم والكواكب .
وهو ادعاء معرفة الغيب بالنظر للنجوم .
أو هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية .

م (٢) : أقسام علم التنجيم :

الأول : علم الأسباب والتسيير : وهو الاستدلال على الجهات وأوقات الزرع بالنجوم وسيرها وخروجها وهذا جائز .

الثاني : علم التأثير والأحكام : وهو الاستدلال على أمور الغيب بالنظر في النجوم واعتقاد أن للنجوم أحكام وتأثر فيما يحدث في الأرض . وهذا كفر أكبر .

م (٣) : علم الحساب :

وهو استخراج وقت الكسوف ودخول الشهر والهلال والولادة ونحو ذلك بالنجوم وحسابها وهذا علم كرهه السلف ولا يعتمد عليه في الشرع .

قال الرسول ﷺ : نحن أمة أمية لا نقرأ ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا. (صوموا لرؤيته) أي الهلال ونهى عن الاعتماد على الحساب في مثل هذا .

م (٣) : تعلم علم الفلك :

كره قتادة وابن عيينة تعلم منازل القمر وأوقات النجوم وذلك سداً للذريعة والدخول في تعلم القسم المحرم منه وهو علم التأثير فيكفر متعلمه ، بينما رخص فيه بعض السلف ، والصحيح جوازه لقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ يونس: ٥.

ومنازل القمر: هي المنزلة المكان الذي ينزل فيه ويخرج منه ويسير فيه من السماء فشبه بالمنزل للقمر . والمنزلة تشمل نجم أو عدة نجوم وينزل القمر كل ليلة في حذاء أحد النجوم والتي تسمى منزلته وللقمر ثمان وعشرون منزلة في الشهر. وهي:

القلب والشولة وهي التي نسميها الربيع والمربعانيه، والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد السماك والفرع المقدم والفرع المؤخر والرش والشرطين والبطين والثريا وهي الوسم والدبران والهقعه والهنعه والذراع والنثره والطرفة والجبهة والزبده والصرفة والعواء والسماك والغفر والزباني والإكليل .

ومن متعلقات الأنواء ومنازل القمر ظروف الزمان:

وظروف الزمان : الوقت، الحين، الدهر، اليوم، السنة، الشهر، وغيرها.

السنة : وهي مدار الشمس في الأبراج وهي نوعان شمسية وقمرية هلالية.

والشهر : سمي شهرا من كونه يشهر ويعرف بالهلال أو البرج وهو نوعان.

والسنة أربعة فصول كل فصل يتكون من عدة بروج وتعرف بالنجوم.

والبروج : مجموعة من النجوم :وهي الجدي والدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس .

والنجوم تنقسم إلى سيارة وهي التسعة وثابتة كالثريا.

م (٤): أدلة التنجيم وتقدمت في باب السحر . والتنجيم يدخل في السحر:

لحديث أبي داود:(من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر) .

م (٥) : أقسام التنجيم الكفري:

١- منه ما يكون فيه استعانة بالشياطين فيكون من الكهانة، ويدّعي صاحبه أن ما عرفه راجع لنظره للنجوم واستدلاله بها .

٢- ومنه ما هو نظر مجرد للنجوم ومحاولة إثبات علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية والأمور المستقبلية وإثبات السعود والنحوس فيها .

فيقول: من ولد أو سافر أو حارب في نجم كذا سيحصل له كذا ومن يتزوج في برج كذا كالثور والأسد سيرزق بأولاد أو بنات أو يسعد في زواجه أو يتعس.

م (٦) : أوجه كفر المنجم والكفريات التي في التنجيم:

الأول : الاستعانة بالشياطين والشرك بهم وعبادتهم، وهذا شرك في الألوهية .

الثاني: اعتقاد أن للنجوم تأثيرا في حوادث الأرض وخلق وقدرة ونفع وضر.

فينسب السعود والنحوس لها وهذا شرك التأثير والتدبير والقدرة والخلق.

الثالث: ادعاء علم الغيب عن طريق النظر للنجوم وهذا شرك في الربوبية.

فيدعي معرفة الغيب عن طريقها وهذا شرك العلم وهذا شرك ربوبية .

الرابع:مخاطبة النجوم ودعاؤها والخوف منها وعبادتها، وذا شرك في الألوهية.

الخامس : جعل علاقة سببية ورابطة بين ما يحصل في الأرض من حوادث وربطها بطلوع الأنواء وغيابها وحركة الأفلاك ، من دون أن يعتقد فيها الخلق والتأثير ، وهذا شرك أصغر وما سبق من الأوجه الأربع فكله شرك أكبر.

م (٧) : أنواع الكفر في عقائد أصحاب النجوم :

١- شركهم في الألوهية بعبادتها والسجود لها وطلب الحوائج منها وخوفها.

٢- شركهم فيها في الربوبية: باعتقاد التأثير والتدبير والقدرة فيها من دون الله، فساووا النجوم بالرب في القدرة والتأثير والتصرف في الكون والخلق والتدبير فتكون النجوم مؤثرة بذاتها في المخلوقات ومدبرة، وذا شرك التأثير والخلق والقدرة.

٣- أن عندهم شرك العلم وذلك بادعاء القدرة على معرفة العلم الغيبي بعد النظر في النجوم وأن المستقبل يقرأ بعد النظر إليها والاستدلال بها، وكذا جعلهم للكواكب دلالات وعلامات على الحوادث وادعاء علم ما يستقبل من الحوادث بها.

٤- اعتقاد أن النجوم والأنواء لها سبب في بعض ما يحصل على الأرض كالمطر والبرد والهواء وأن الله جعلها أسباباً لحصول مثل هذا الاعتقاد من الشرك الأصغر وقد يصل بصاحبه للكفر الأكبر والعياذ بالله والسابقة من الكفر الأكبر.

م (٨) : شرك النجوم أخبث أنواع الشرك :

وذلك لاعتقاد الربوبية فيها من جهة، ومن وجه آخر أن طلب الشفاعة منها لا يكون بالدعاء وإنما بالتعلق والتأثر. وقد بين ذلك ابن تيمية وقارن بين شرك العرب وشرك الفلاسفة وذكرته في الناقض الأول الشرك.

وممن وقع فيه قوم إبراهيم والفلاسفة والإغريق، وعباد الشمس من قوم سبأ وبعض العرب ومن الكواكب التي عبدت القمر والدبران والثريا والمرزم.

فائدة: عبر عن التنجيم بالسحر في أحاديث منها: (مصدق بالسحر) بدل (التصديق بالنجوم) و (من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر).

م (٩) : كذب المنجمين في إدعاء أن إبراهيم كان منجماً :

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴾ الصافات: ٨٨.

و قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ الأنعام: ٧٦.

والحق أن قول الخليل ذلك كان من باب التنزل وإلزامهم وبيان أن النجوم ليس لها تأثير ولا يعلم الغيب منها ولا تستحق أن تعبد بل هي آفلة غائبة مخلوقة وكان قومه عباد للكواكب والنجوم ويعتقدون أن لها تأثيرا وخلقا وربوبية وأن الغيب يعرف بالنظر إليها.

وقد رد ابن القيم فرية أهل التنجيم هذه في كتاب مفتاح دار السعادة، وتتبع فيه شبهات من أباح التنجيم وأثنى عليه واستدل له بأدلة وأحاديث وأثار موضوعة، وذكر الأدلة العقلية والنقلية على فساد هذا العلم وكفر فاعله وكذبهم فيما يدعونه.

م (١٠) : فوائد خلق النجوم :

الأول: زينة للسماء وتدبر خلق الله.

الثاني: رجوم للشياطين. ودليل هاتين الحكمتين قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ الملك: ٥.

الثالث: علامات يهتدي بها الناس ويعرفون الجهات وأوقات الحرث.

ودليل هذه الحكمة قوله تعالى: ﴿ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ النحل: ١٦ .

ومن ادعى في النجوم فائدة غير ذلك فقد تعدى وكذب ، قاله قتادة.

ومن ذلك ما يدعيه أصحاب الهيئة وأرباب التنجيم من أن النجوم فيها دلائل وعلامات وإشارات وروابط للتنبؤ عن المستقبل وهو من الكذب الصريح .

م (١١) : الطوائف التي نشرت التنجيم في هذه الأمة :

انتشر التنجيم على يد الروافض والزنادقة والمنافقين وأهل الكتاب، وكانت الرافضة من أعظم من ينشر هذا الشرك ويدعوا إليه وصنفوا الكتب فيه وما كتابهم الجفر إلا واحد من ذلك وأغلب كتب السحر والتنجيم هي من وضعهم .

م (١٢) : انتشار التنجيم في عصرنا :

كثر في هذه الأزمنة التنجيم وعرض شرك أصحابه في المجلات والجرائد وذلك عن طريق ما يسمونه بالأبراج واعرف حظك وغيرها، وهذه الأمور فيها من الكفر البواح ما لا يخفى من نقض التوحيد والوقوع في شرك الربوبية باعتقاد وجود من يعلم الغيب وتصديق من يدعيه، وكذلك اعتقاد التأثير وأن الأبراج والنجوم مؤثرة ومدبرة أو أن لها علاقة في ذلك وهما شركان من أشد أنواع الشرك كفراً والعياذ بالله بل ومن نشرها ورضي بها وصنعها يكفر بذلك إذ الراضي بالكفر يكفر .

ومما وجد في زماننا من الكفر في هذا الباب والناقض : ما أنشأه هؤلاء من اتحاد المنجمين، وما وضعوه من معاهد لتعليمه، وخروج المنجمين والكهان والسحرة في التلفاز، وإخبارهم بالمستقبل ، ومواقع اعرف حظك وبرجك ماذا يقول ووضع ركن لها في الصحف والمجلات ، وما يحل في ذلك من الفساد وتصديق لهم من العوام والبله لا يخفى على مسلم .

م (١٣): حكم الإتيان للمنجم والكاهن :

ذكرناه سابقاً في الساحر والكاهن. وخلاصته أن من يأتي هؤلاء : فيصدقهم فهو كافر، ومعنى يصدقهم أي في إدعاء علم الغيب والقدرة .

أما من يأتيهم ليسألهم عن حاجته مع علمه بكفرهم وكذبهم وأن مبلغهم من العلم من الجن في أمر محسوس وهو مؤمن بالله وبتوحيده في علم الغيب والتأثير، فهذا لا يكفر ومع ذلك هو مرتكب كبيرة من الكبائر ولا تقبل صلاته أربعين يوماً .

م (١٤) : أمور لا تنافي الغيب :

١- الإخبار بأحوال الطقس والخسوف والكسوف . وتوقع المطر والريح لأن هذا مبني على أرصاد وأمور محسوسة وليست من الغيب في شيء .

٢- معرفة ما في الرحم بالأشعة وهذا أمر محسوس وليس من علم الغيب .

٣- معرفة أماكن الماء بأمور محسوسة ودلالات مشاهدة.

٤- القيافة وهو معرفة القرابة والنسب ومعرفة آثار المشي والجرة، ويسمى المري وهذا أيضاً ليس من السحر ولا علم الغيب وإنما هو علم وفراسة عند العرب يعلمونها بالدلالات والمشاهدات المحسوسة لهم .

ويسمي البعض مثل هذه الأمور بالغيب النسبي ، وليست من الغيب المطلق.

م (١٥) : تعلق الوثنين بالنجوم وتسميتهم لشهورهم :

وقد كانت أسماء الشهور بالسريانية وهي المعروفه بكانون ونيسان وآذار فلما جاء الرومان ووضعوا تاريخهم وغيروا أسماء الشهور وسموها بأسماء آلهتهم فسموا آذار بمارس وهو إله الحرب وكانون بيناير وهو إله الشمس وحزيران بيونيه إله القمر وكذا بقية الشهور و اغسطس باسم ملكهم القيصر أغسطس واضع هذه الأسماء. كما أن الأيام عندهم بأسماء الاله الشركية فصندي يوم الأحد هو إله الشمس المقدسة وبقية الأيام كذلك وهذا التاريخ هو المعمول به عند أكثر الشعوب الغربية.

م (١٦) : وجوب العمل بالأهلة والتاريخ الهجري :

يجب العمل بالأشهر القمرية لأن عليها مدار الأحكام الشرعية الحج وصيام رمضان وفي السنة الهجرية تذكير بعزة المسلمين، ويحرم العمل بالسنة الميلادية والأشهر الشمسية الإفرنجية لما في ذلك من تضييع لمبادئ الشريعة والتشبه بالكفار.

واليوم عند المسلمين يبدأ من غروب الشمس فالمساء قبل النهار وعند أهل الفلك يبدأ من طلوع الشمس فيكون قبل الليل وعند أهل التنجيم يبدأ من الزوال.

ويوجد لكل أمة الهند والقبط والفر س واليهود والآشوري والمقدوني وغيرهم. أسماء للشهور والأيام ، وكثير منها مساة بأسماء الآلهة كما تقدم .

وعند العرب للشهور والبروج معاني وقد غيرت العرب أسماء الشهور بعد أن قامت بالنسيء ومحاولة جعل الأشهر القمرية موافقة للأبراج والأشهر الشمسية .

فليتنبه أهل التوحيد لمداخل الشرك التي سدها الشرع في باب الأنواء والكواكب والقبور وغيرها وليسلكوا السبيل في حماية جناب التوحيد .

مبحث الاستسقاء بالأنواء

معناه وعلاقته بالتوحيد:

هو نسبة نزول المطر للأنواء والنجوم وطلبه منها .

والاستسقاء بالأنواء ونسبة المطر للنجوم فيه تعلق بغير الله واعتقاد النفع والتأثير فيها ، وهذا مما يقدح في التوحيد وهذه المسألة متعلقة بذرائع الشرك كما تقدم في الناقض الأول . كما تتعلق بأبواب السحر والتنجيم لوجود مناسبة بينها.

م (٧) أقسام وألوان وأوجه الاستسقاء بالنجوم :

١ - أن يزعم معرفة الغيب عن طريق النجوم ووقت نزول المطر بالأنواء وحركة النجوم ، وهذا شرك أكبر لما فيه من ادعاء العلم الغيبي .

٢ - أن يعتقد العبد أن النجم هو الذي أنزل المطر وأنه مدبر ومتصرف وله تأثير إما بذاته من دون الله أو بما جعله الله فيه من القدرة على التأثير .وهذا شرك أكبر في الربوبية لاعتقاد التأثير والخلق والقدرة والربوبية في غير الله .

٣- أن يعتقد أن النجم له علاقة سببية ورابطة ودلالة على نزول المطر فخروج نجم كذا في وقت كذا سبب لنزول المطر وهذا شرك أصغر .

٤ - نسبة المطر للنجم من باب الظرفية والوقت :

كأن يستدل بالنجم على نزول المطر دون نسبة المطر إليه كقولهم فصل الشتاء يكثر في المطر وطلوع الشولة المسماة بالربيع والمربعانيه عندنا دليل قرب شدة البرد.

وطلوع الثريا وهي التي نسميها الوسمية والوسم علامة ودليل على قرب المطر غالبا .دون تعليق الأمر به لا استقلالا ولا سببا وأنها يكون للظرفية .

٥ - دعاء النجوم ومخاطبة الكواكب وعبادتها . فيكون قصد المستسقي بالنوء طلب المطر من النجم والنوء أغثنا يا نوء كذا . وهذا شرك في الألوهية .

مبحث : حكم الاستعانة بالجن وأقسامها :

الأول : الاستعانة في الأمور المباحة، مثل السفر والعمل، وهذه مختلف فيها، والأقرب التحريم لما فيها من مفاسد، وسداً لذريعة الشرك .

الثاني : الاستعانة في الأمور المحرمة، مثل الاستعانة بهم في أذية الآخرين من قتل أو سرقة أو فاحشة وهي كبيرة من كبائر الذنوب .

الثالث : الاستعانة في الأمور الشركية، مثل دعائهم فيما لا يقدر عليه إلا الله كجلب الولد أو الرزق أو النصر، أو الاستعانة بهم في السحر والكهانة، وهذه شرك أكبر لأنها صرف لعبادة الدعاء لغير الله .

تنبيه : فتوى ابن تيمية رحمه الله في الاستعانة بالجن جرت كثير من المفاسد عند كثير من الرقاة في زماننا.

مسألة : إخبار الجن ببعض الأمور الخافية وتقديم العون والخدمة للأنس من غير طلب منهم ولا شرك بهم ليس بكفر ومختلف في جوازه .

مبحث : الصور المعاصرة لناقض السحر:

١- السرك والبهلوان .
٢- الأبراج في المجلات وأعرف حظك .
٣- خروج السحرة في التلفاز .
٤- الاتصال بالكهان في مقابلاتهم المشاهدة في التلفاز .

الناقض الثامن

مظاهرة الكفار وموالاتهم

قال المصنف رحمه الله :

(الثامن : مظاهرة المشركين ، ومعاونتهم على المسلمين ، والدليل :
قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ المائدة: ٥١).

الباب الأول : ناقض المظاهرة

المسألة الأولى : تعريف المظاهرة :

المظاهرة مشتقة من الفعل ظهر، وهو يدل على القوة والبروز، قاله ابن فارس.

والظهور ضد البطون ، والظهر في الإنسان يقابل البطن، وسمي بالظهر لقوته وبروزه بخلاف البطن .

والظاهر ضد الباطن، وهما من أسماء الله، وهناك فرق بين الظهور والتظاهر، فيوصف سبحانه بالأول دون الثاني ، لأنه لا يحتاج لمن يعينه ويظهره .

المظاهرة على وزن مفاعلة ، التي تفيد المشاركة من جانبين في الفعل والفاعل والمفعول.

وتطلق المظاهرة على ثلاثة معاني :

الأول: الإعانة والنصرة :

قال الجوهري: المظاهرة المعاونة والتظاهر التعاون. والظهير المعين.

وقال الأصمعي: الظهرة هم ظهر الرجل وأنصاره .

وقال الزبيدي: التناصر التعاون.

وقال الأزهري في التهذيب: (وفي حديث علي أنه بارز يوم بدر وظاهر أي ناصر وأعان) .

ومن هذا المعنى : قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ التحريم: ٤، أي إن تعاونتن عليه، فإن الملائكة والمؤمنين أنصار وأعوان للرسول ﷺ فله من ربه الولاية ومن الملائكة المظاهرة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ القصص: ٨٦ . قال ابن كثير في تفسيرها : (ظهيرا أي معيناً للكافرين ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم).

وقوله تعالى: ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء: ٨٨ ، أي معينا ونصيرا .

وقوله : ﴿ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ ﴾ الممتحنة: ٩، أي ناصروا وعاونوا أعدائكم.

وقوله ﷻ: ﴿ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ البقرة: ٨٥ ، قرأت بتخفيف (الظاء) وتشديدها ، أي تناصرون عدوهم عليهم وتعاونونهم.

قال الإمام الطبري في تفسيرها : (سميت المعاونة والمناصرة تظاهراً ومظاهرة لتقوية المتظاهرين بعضهم ظهر بعض فهو تفاعل من الظهر وهو مساندة بعضهم ظهره إلى ظهر بعض فكأن المعين والنصير أسند ظهره إلى ظهرك لتقويتك).

وهذا له حقيقة معنوية وحسية ألا ترى المقاتلين إذا حوصروا تدابروا وتلاقوا بالظهور ومثل ذلك الوحوش والدواب تتقابل وتتلاقى بظهورها .

الثاني : الغلبة والقهر والظفر بالشيء :

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴾ الصف: ١٤، أي غالبين قاهرين ظافرين عالين على عدوهم .

وقوله : ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ التوبة: ٣٣.

الثالث : البروز والخروج والعلو والقوة والقهر والبدو والإطلاع والبيان.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ التحريم: ٣ أي أطلعه، ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٦ أي يطلع ويبدي،﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ الكهف: ٩٧ ، أي يعلوه ويخرجوا ويبرزوا، ﴿ يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ غافر: ٢٦ أي يبدي،﴿ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ الزخرف: ٣٣، أي الدرج إذا علوه وصعدوا فيه وظهر البيت والجبل أعلاه وسطحه، وظَهَر فلان إذا برز وخرج.

وهذه المعاني الثلاثة : (المناصرة ، الغلبة ، العلو) متداخلة ومتقاربة .

فالقهر والنصر والتغلب فيها معنى العلو والبروز والقوة كما هو أصل معناها.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾ الصافات: ١١٦.

وقوله: ﴿ وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ ﴾ التوبة: ٤، هو بمعنى يناصروا ويعاونوا.

والمظاهرة يدخل فيها النصرة والإعانة والغلبة والقهر والظفر والقهر والقوة والبروز والبدو والعلو والإطلاع والتبين فهي بمعنى متقارب ومن معاني ظهر .

قال ابن عاشور في تفسيره : (الظهير المعين والمظاهرة المعاونة وهي مراتب أعلاها النصرة وأدناها المصانعة) .

الفرق بين المظاهرة والمناصرة والمعاونة :

١ – المناصرة أخص من المعاونة والمظاهرة ، لأن المناصرة تخص الإعانة على الأعداء في القتال ونحوه ، أما المعاونة والمظاهرة فتكون لذلك ولغيره كإعانة الأخرق والمحتاج وتصلح للعاقل وغيره أعنته على لبس ثوبه وظاهر الرسول بين درعين يوم أحد ، قاله العسكري في فروقه.

٢- الإعانة والنصرة من صفات الله تعالى دون المظاهرة فلا تطلق على الله فيقال الله يعين وينصر ولا يقال يظاهر .

٣- العبد ينصر الله بنصرة دينه ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ محمد:٧ ، ولا يقال يعين الله فليس له معين ولا ظهير .

المسألة الثانية : المراد بمظاهرة الكفار على المسلمين اصطلاحا :

إعانة الكفار ومناصرتهم على المسلمين بقتال أو مال أو غير ذلك.

فحقيقة المظاهرة تحصل بالوقوف مع الكفار ضد المسلمين وإعانتهم في قتالهم وفي غيره ومساعدتهم على أهل الإسلام وذلك إما بالقتال معهم في صفوفهم والانضمام إليهم أو بالذب عنهم باللسان أو إعانتهم بالسنان والسلاح أو بالمال أو بنقل الأخبار أو بالدعاية أو بتسهيل أمورهم في غزوهم ومساعدتهم في حربهم أو بدلالتهم على الطريق وتيسيرها لهم أو بفتح البلاد وأرض المسلمين لهم أو مساندتهم في رأيهم وتأييدهم أو المشورة عليهم بما فيه مضرة للمسلمين ومصلحة لهم أو كشف عورة المسلمين ونقاط الضعف وما يمكن أن يغلبوا فيه والأوجه والخطط التي تعين على هزيمة المسلمين والسعي لتمكينهم وتوطيد الكفر، وغير ذلك كثير مما لا ينقضي وصفه ولا تنتهي صوره، فلها صور كثيرة سنأتي عليها إن شاء الله وكلها كفر يناقض الإيمان من أصله وتبيح دم فاعله .

يقول الطبري عند تفسير آية ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ آل عمران: ٢٨: (لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهورا وأنصارا، توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء، يعني فقد برئ من الله، وبرئ الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر).

وللمظاهرة معنيان :

معنى خاص : وهو القتال مع الكفار ضد المسلمين وإعانتهم في حربهم الإسلام والمسلمين .

ومعنى عام : وهو كل ما فيه إظهار للكفار وتقويتهم على المسلمين، أو بروز للكفرة أو تمكينهم ، أو ما فيه تحصيل القهر والغلبة لهم ، أو السعي إلى كل ما فيه إظهار للكفر ونشره وإعلائه، أو في المقابل الإعانة على إهانة الإسلام والنيل منه ومحاربته والطعن فيه وصد الناس عنه، وهذه كلها من مظاهرة الكفار على المسلمين.

مسألة : المظاهرة والموالاة والمعاداة معلومة المعنى :

الموالاة والمعاداة والمظاهرة والنصرة والإعانة من الألفاظ التي يعرف معناها، ولا تحتاج لتعريف فكل عاقل يعلم أن فلاناً موالي له بأفعاله وفلانا الآخر معادي له.

المسألة الثالثة : علاقة المظاهرة بالولاء والبراء :

المظاهرة داخلة في عموم الولاء ، ومظاهرة الكفار داخلة في موالاتهم وتوليهم ومعاداة المسلمين ، فهي من صور الموالاة والمعاداة، بل هي أعظم صورهما وأشدها لكونها ناقضة للولاء والبراء معاً وعلى السواء. فالتولي والولاء أعم من المظاهرة .

فالمظاهرة حقيقتها : صرف الولاء لأهل البراء والمعاداة، وصرف البراء والمعاداة لأهل الولاء ، لأن المظاهر يوالي الكفار ويناصرهم ويعادي المؤمنين ويتبرأ منهم ، فهي مبطلة للكفر بالطاغوت وناقضة لعقيدة الولاء والبراء من أصله .

المسألة الرابعة : فصلٌ الأدلة على كفر المظاهرين :

أولا: الأدلة من الكتاب :

١- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المائدة: ٥١ .

وقوله ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ يعني كافر مثلهم بالتأكيد والاستلزام .

قال ابن حزم: (إنما هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار فقط وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين) المحلى ١٢/ ٣٣.

قال الآلوسي : (كافر مثلهم حقيقة) .

وقال الشنقيطي : (يفهم من ظواهر الآيات أن من تولى الكفار عمدا اختيارا رغبة فيهم أنه كافر مثلهم) الأضواء ١/ ٤١٣.

فدلت الآية أن الله تعالى حكم على من تولى الكفار فهو كافر ومعلوم بالضرورة أن أعظم صور موالاتهم مظاهرتهم على المسلمين .

ومن والاهم فلازمه رضا الموالي بكفرهم وحربه للدين ومظاهرتهم على أهله .

قال ابن تيمية عن حديث التشبه : يقتضي تحريم التشبه وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾) الاقتضاء ١/ ٣٧ .

شبهة :

لو كانت الموالاة كفر لما خوطبوا في النهي عنها في الآيات باسم الايمان :

والجواب : أن هذا لا يقوله عاقل فضلا عن عالم باللغة والشرع ، فهي من جنس يا أيها الذين امنوا لا تكفروا ولا ترتدوا، فهو نهي عما يخاف من حصوله ويحذر مما يحتمل وقوعه، كقوله يا مسلم احذر الكفر .

٢- قال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ آل عمران: ٢٨ .

وقد نهت الآية على تولى الكفار ونصت على أنه ليس مع من تولاهم من الدين والتوحيد شيء وبالتالي فهو كافر فدلت بطريق الأولى على كفر من ظاهرهم، والآية في الأعمال الظاهرة لا في المحبة بدليل وقوع استثناء المكره فيها ومن المعلوم أن الأعمال القلبية الباطنة لا يتحقق الإكراه فيها وقد نقلنا تحقيق ابن تيمية في غير ما موضع عن هذا الأصل في قوله تعالى إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان .

قال الطبري:(معنى ذلك لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهوراً وأنصاراً توالونهم على دينهم ، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم ، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، يعني فقد بريء من الله ، وبريء الله منه ، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر ، ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾: إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا لهم العداوة ، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ، ولا تعينوهم على مسلم بفعل " .

وقال البغوي : (ومن يفعل ذلك أي موالاة الكفار في نقل الأخبار إليهم وإظهارهم على عورة المسلمين فليس من دين الله في شيء ... وقد نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان دفاعا عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما أو يظهر الكفار على عورة المسلمين) معالم التنزيل ٢/ ٢٥.

قلت : وقد أجمع أهل العلم على أن الإكراه لا يبيح الاعتداء على المسلمين ولو اكره مسلم على قتل أخيه فقتله ، لوجب أن يقتل به ، فالإكراه حتى لو تصورنا وجوده فانه لا يغير حكم المظاهرة ، ثم تأمل كيف جعل الإمام الطبري رحمه الله ومثله الإمام البغوي وغيره الإكراه والتقية مهما بلغت لا تجيز إعانة الكفار على المسلمين بفعل ، لما في ذلك من المظاهرة لهم على دينهم ، وسبباً لظهور ملة الكفار ودينهم ، قصد المظاهر لهم ذلك أم لم يقصده !، بل جعل رحمه الله كُل مظاهر للكفار محباً لهم، ممّا يدل على أن المظاهرة عنده من الكفر الاعتقادي ، وليس مجرد العملي .

وقال الشيخ سليمان في الدلائل على هذه الآية : (وهو أن يكون الإنسان مقهورا معهم لا يقدر على عداوتهم فيظهر لهم المعاشرة والقلب مطمئن بالبغضاء والعداوة وانتظار زوال المانع فإذا زال رجع إلى العداوة والبغضاء، فكيف بمن اتخذهم أولياء من دون المؤمنين من غير عذر إلا استحباب الدنيا على الآخرة والخوف من المشركين فما جعل الله الخوف منهم عذرا بل قال تعالى ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥) .

وقال ابن سعدي : " وقوله: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ أي إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين فلكم في هذه الحال الرخصة في المسالمة والمهادنة لا في التولي الذي هو محبة القلب الذي تتبعه النصرة ".

وقال ابن القيم :" معلوم أن التقاة ليست بموالاة ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم والبراءة منهم ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال إلا إذا خافوا التقية وليست التقية موالاة لهم " البدائع ٣/ ٦٩ .

قال أبو العالية :(التقية باللسان وليس بالعمل) من تفسير الطبري .

٣- قال تعالى : ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ المائدة: ٨٠ – ٨١.

وقد دلت الآية على كفر من تولى الكفار ونفي الإيمان عنه بالكلية وحكمت بخلود من يتولى الكفار في النار ولا يكون ذلك إلا لمن انتفى عنه الإيمان من أصله، وإذا كان الله تعالى كفر المتولي فكيف بالمظاهر الذي يعد أعظم تولياً .

قال ابن تيمية : (فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ، فإنه أخبر في تلك الآية أن متوليهم لا يكون مؤمناً وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم، فالقرآن يصدق بعضه بعضاً) . الفتاوى ٧ / ١٧ .

وقال الشيخ سليمان : (ذكر تعالى أن موالاة الكفار موجبة لسخط الله والخلود في النار بمجردها وإن كان الإنسان خائفاً ، إلا المكره بشرطه ... فذكر تعالى أن موالاة الكفار منافية للإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه ، ثم أخبر أن سبب ذلك كون كثير منهم فاسقين ، ولم يفرق بين من خاف الدائرة ومن لم يخف ، وهكذا حال كثير من هؤلاء المرتدين قبل ردتهم كثير منهم فاسقون، فجر ذلك إلى موالاة الكفار والردة عن الإسلام ، نعوذ بالله من ذلك) الدرر ٨/ ١٢٨ .

٤- قال تعالى : ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٣٨ .

أن الله رتب الحكم بالنفاق على اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين، وجعل التولي من النفاق الأكبر وأخص صفات المنافقين فكان التولي بذلك عملا مكفرا كغيره وهو مثل قوله تعالى في اليهود ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون فتبديل حكم الله هو مناط مكفر لهم وليس هو الوحيد لكن العمل كفر بذاته لمن عمله .

تنبيه : مما قاله بعض أهل الجهالة عن هذه الآية وفي الآيات المتعلقة بالنفاق التي جعلت التولي من أعمال المنافقين وأوصافهم ،وهم كفار من غيرها فليست بالضرورة أن تكون كفرا ومحاولة ردهم الاستدلال بها وإبطال مدلولها في كفر متولي الكفار ومظاهرهم .

ولا أعلم كيف يقوله من ينتسب للعلم والفقه ولقد صدق القائل:

وكم من عائب قولا سليما وآفته في الفهم السقيم

ولو جرينا أصلهم لأبطلنا كثيرا من نصوص الشرع التي وردت ونزلت في الكفار الأصليين لأنهم كفار من غير هذه الأعمال الكفرية المنهي عنها والمستقبحة.

وهذه الشبهة مثل شبهة من زعم أن آيات شرك الحكم في سورة المائدة نزلت في اليهود فلا ينزل حكمها على المسلمين وهذه الشبهة من سماعها يتبين فسادها والرد عليها ولولا أنها قيلت لما صدق مسلم أن يتفوه بها عاقل منقاد للشرع .

قال ابن عطية :" نص تعالى في صفة المنافقين على أشدها ضررا على المؤمنين وهي موالاتهم الكفار واطراحهم المؤمنين ونبه على فساد ذلك ليدعه من عسى أن يقع في نوع منه من المؤمنين غفلة أو جهالة أو مسامحة ثم وقف تعالى على جهة التوبيخ على مقصدهم في ذلك هو طلب العزة والاستكثار بهم أي ليس الأمر كذلك بل العزة كلها لله يؤتيها من يشاء وقد وعد بها المؤمنين وجعل العاقبة للمتقين ".

وهذه الآية : ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾ .

من جنس قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ الحشر: ١١ ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ المائدة: ٨٠ ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ المائدة: ٥٢.

٥- قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ المائدة: ٥٢.

فجعل سبحانه تولي الكفار من أخص صفات النفاق الأكبر وأفعال المنافقين.

وقد بينت الآية أن المنافقين يتولون الكفار ويناصرونهم ويسارعون فيهم شحاً بدنياهم وإذا أنكر عليهم قالوا نخشى من بطش الكفار، فكذب الله زعمهم وبين كفرهم ونفاقهم وأن مخافة الكفار واتقاءهم لا تجوّز مظاهرتهم، وغاية ما رخص لنا هو إظهار المجاملة والمودة باللسان دون الفعل والإعانة وترك إظهار العداوة، ثم شرط هذه الرخصة أن يكون المسلم في سلطانهم وبين أيديهم، وهذه الآية تبطل استدلال المنافقين بالآية السابقة فتأمل.

قال الشيخ سليمان في الدلائل: (ولم يفرق تعالى بين الخائف وغيره بل أخبر تعالى أن الذين في قلوبهم مرض يفعلون ذلك خوفا من الدوائر وكذلك حال هؤلاء المرتدين خافوا من الدوائر فزال ما في قلوبهم من الإيمان بوعد الله الصادق بالنصر لأهل التوحيد فبادروا وسارعوا إلى الشرك خوفا من أن تصيبهم دائرة).

قلت وكذلك حال هؤلاء المرتدين الذين ناصروا القوات الأمريكية راعية الحملات الصليبية ففتحوا لهم المطارات والقواعد والحدود فبادروهم بعرض المعونة وسارعوا فيهم خوفا من الدوائر فزال إيمانهم ووقعوا في الردة.

وقال أيضا : " فان قالوا خفنا قيل لهم كذبتم وأيضا فما جعل الله الخوف عذرا في إتباع ما يسخطه واجتناب ما يرضيه وكثير من أهل الباطل إنما يتركون الحق خوفا من زوال دنياهم وإلا فهم يعرفون الحق ويعتقدونه ولم يكونوا بذلك مسلمين " .

وقال أيضا : (وإن عذر كثير من المرتدين في هذه الفتنة – يقصد حين اجتاحت القوات المصرية الجزيرة – هو نفس هذا العذر الذي ذكره الله عن الذين في قلوبهم مرض ولم يعذرهم به) .

وقال ابن كثير: "وقوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم ﴾ أي : شك وريب ونفاق ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أي: يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر، ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ أي : يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك).

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كشف الشبهات:" فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئنا بالإيمان وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه سواء فعله خوفا أو مداراة أو مشحة بوطنه أو أهله وماله أو فعله على وجه المزاح أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره".

٦- قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ الحشر: ١١.

قال سليمان في الدلائل: " فإذا كان من وعد المشركين في السر بالدخول معهم ونصرتهم والخروج معهم إن جلوا يعد نفاقاً وكفراً وإن كان كذباً، فكيف بمن أظهر لهم ذلك صادقاً وقدم عليهم ودخل في طاعتهم ودعا إليهم ونصرهم وانقاد لهم وصار من جملتهم وأعانهم بالمال والرأي ؟".

٧- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ التوبة: ١٠٧ .

حيث جعل من أسباب كفرهم ونفاقهم مظاهرتهم لمن حارب الله ورسوله .

٨- قال تعالى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ القصص: ٨٦ .

قال ابن كثير في تفسيره : (فلا تكونن ظهيرا أي معيناً للكافرين ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم).

٩- قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ النساء: ٩٧.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ يأتي بالسهم يُرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيُقتل فأنزل الله الآية) رواه البخاري.

وفي رواية عنه أخرجها ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم قال الصحابة في من قتل من هؤلاء : (قد كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت هذه الآية قال فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية وأنه لا عذر لهم فخرجوا فلحقهم المشركون ففتنوهم وقاتلوهم ..) .

قال أهل التفسير في هذه الآية نزلت في قوم أسلموا إلا أنهم تركوا الهجرة إلى المدينة وآثروا البقاء مع المشركين في مكة شحاً بالوطن والأهل والمال ، فأكرهوا يوم بدر على الخروج وألزموا بقتال المسلمين، فقتل بعضهم مع المشركين واعتذروا بالأعذار فأبى الله أن يقبل ذلك منهم، وأخبر سبحانه بكفرهم وأنهم ماتوا على الردة كفار والعياذ بالله، لقوله تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ النحل، وهذا الوعيد لا يُطلق إلا بحق الكفار، فكانت صريحة في كفر المظاهرين للكفار.

وكان ابن عباس يقول: كنت أنا وأمي من المستضعفين ممن عذر الله ﷻ .

وممن أثبت كفرهم من العلماء السدي والطبري والموزعي وابن كثير والبغوي.

قال السدي : (لما أسر العباس وعقيل قال النبي ﷺ للعباس : افد نفسك وابن أخيك، قال: يا رسول الله ألم نصل قبلتك ونشهد شهادتك، قال ايا عباس إنكم خاصمتم فخصمتم ثم تلا هذه الآية (ألم تكن أرض الله واسعة) فيوم نزلت هذه الآية كان من أسلم ولم يهاجر ، فهو كافر حتى يهاجر) أخرجه الطبري.

قال الإمام الموزعي في تفسيره : (نزلت في قوم تكلموا بالإسلام ثم خرجوا مع المشركين إلى بدر فقتلوا فأخبر الله بكفرهم) .

وقال الشيخ سليمان في رسالته عن السفر لبلاد الكفرة : قال السدي وغيره من المفسرين عن هذه الآية إنهم كانوا كفارا ولم يعذر الله منهم إلا المستضعفين .

وقال الشيخ سليمان في الدلائل: (ولا يشك عاقل أن الذين خرجوا عن المسلمين صاروا مع المشركين وفي فريقهم وجماعتهم هذا مع أن الآية ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ نزلت في أناس من أهل مكة أسلموا واحتبسوا عن الهجرة فلما خرج المشركون إلى بدر أكرهوهم على الخروج معهم فخرجوا خائفين فقتلهم المسلمون فلما علموا بقتلهم تأسفوا وقالوا قتلنا إخواننا فأنزل الله فيهم هذه الآية .

فكيف بأهل البلدان الذين كانوا على الإسلام فخلعوا ربقته من أعناقهم وأظهروا لأهل الشرك الموافقة على دينهم ودخلوا في طاعتهم وأووهم ونصروهم وخذلوا أهل التوحيد واتبعوا غير سبيلهم وخطؤوهم وظهر فيهم سبهم وشتمهم وعيبهم والاستهزاء بهم وتسفيه رأيهم في ثباتهم على التوحيد والصبر عليه وعلى الجهاد فيه وعاونوهم على أهل التوحيد طوعا لا كرها واختيار لا اضطراراً، فهؤلاء

أولى بالكفر والنار من الذين تركوا الهجرة شحا بالوطن وخوفا من الكفار وخرجوا في جيشهم مكرهين خائفين) .

كما أن قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ الحج: ١١ .

نزلت فيهم بعد ذلك أيضاً.

(فإن قيل: الإكراه يرفع المؤاخذة عن المكره، فعلام الإكراه هنا لم يرفع عنهم المؤاخذة، ولم يمنع عنهم حكم التكفير ؟

قيل لأنهم قبل أن يُكرهوا على الخروج لقتال المسلمين، كانوا يستطيعون الهجرة وما فعلوا لذلك، لم يُعذروا ولم يكونوا من المستضعفين المكرهين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . وبالتالي ما حصل لهم من إكراه على الخروج للقتال هم سببه) قاله سليمان في الدلائل .

والأصوب عندي أن يقال الإكراه ليس عذرا ألبته في المظاهرة ولا يرفع حكم التكفير والقتل عنهم .

١٠ – قال تعالى ﴿ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴾ النساء: ٨٨.

أي إن تولوا عن الهجرة إلى المسلمين، وأبوا إلا مظاهرة المشركين وموالاتهم، فخذوهم واقتلوهم . وإن أظهروا الإسلام، وتكلموا بشهادة التوحيد؛ فإن ما يظهرونه من موالاة ومظاهرة للمشركين يكذب زعمهم بأنهم مسلمون مؤمنون.

عن ابن عباس ﷺ قال : كان قوم بمكة قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يُظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس ، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الخبثاء فاقتلوهم، فإنهم يُظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله ، أتقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم وأموالهم ؟ فكانوا كذلك فئتين والرسول عندهم لا ينهى واحد من الفريقين عن شيء فنزلت: ﴿ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ ﴾ النساء: ٨٨ رواه الطبري في تفسيره .

فإن قيل: هؤلاء منافقون ، ولا خلاف في كفر المنافق؟

قيل : ولكن بم حُكم عليهم بالكفر في الحياة الدنيا، وحُلت دماؤهم وأموالهم لأجله ؟ أليس إلا لمظاهرتهم للمشركين على المسلمين بدليل أنهم لو تركوا مظاهرة المشركين على المسلمين، وهاجروا إلى المسلمين لتعين على المسلمين موالاتهم على أنهم مسلمون لمجرد ذلك، وإن كانوا في الباطن لا يزالون منافقين فدل أن مظاهرة المشركين على المسلمين كفر أكبر مستقل لذاته من وقع فيه وقع في الكفر البواح، وخرج من الملة ولا بد.

١١- قال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ الأعراف: ١٧٥.

قال ابن عباس رضي الله عنه : (لما نزل موسى عليه السلام على الجبارين ومن معه ، أتى بلعام بنو عمه وقومه ، فقالوا : إن موسى إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم ، فسلخه الله مما كان عليه ، فذلك قوله ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾) أخرجه الطبري.

فكانت عقوبته وتكفيره والعياذ بالله سببه مناصرة الكفار والدعاء لهم أن يرد موسى ومن معه فكان هذا انسلاخاً من آيات الله ، فكيف بمن قاتل معهم ؟

١٢- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة:٥٤ .

وهذه الآيات مع التي قبلها والتي بعدها كلها قد جاءت في سياق تولي اليهود والنصارى ، وتدل على ردة من تولى الكفار من وجوه :

قوله تعالى عن أولئك الذين تولوا الكفار : ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ المائدة: ٥٣ ، وحبوط العمل لا يكون إلا بالكفر .

قال ابن تيمية في الصارم : " ولا تحبط الأعمال بغير الكفر لأن من مات على الإيمان فإنه لابد من أن يدخل الجنة ويخرج من النار إن دخلها ، ولو حبط عمله كله لم يدخل الجنة قط ، ولأن الأعمال إنما يحبطها ما ينافيها ولا ينافي الأعمال مطلقاً إلا الكفر وهذا معروف من أصول أهل السنة" .

وقوله تعالى : ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ ، وما قبلها وما بعدها يدل على أن أصل الخطاب هو في تولي الكفار .

قال ابن تيمية: " فإنه ما ارتد عن الإسلام طائفة إلا أتى الله بقوم يحبهم يجاهدون عنه وهم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة ، يبين ذلك أنه ذكر هذا في سياق النهي عن موالاة الكفار ، فالمخاطبون بالنهي عن موالاة اليهود والنصارى هم المخاطبون بآية الردة ، ولما نهى عن موالاة الكفار وبين أن من تولاهم من المخاطبين فإنه منهم بين أن من تولاهم وارتد عن دين الإسلام لا يضر الإسلام شيئا، بل سيأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه فيتولون المؤمنين دون الكفار ويجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم ، فهؤلاء الذين لم يدخلوا في الإسلام وأولئك الذين خرجوا منه بعد الدخول فيه لا يضرون الإسلام شيئا بل يقيم الله من يؤمن بما جاء به رسوله وينصر دينه إلى قيام الساعة " الفتاوى ١٨/ ٣٠٠.

قال الشوكاني في تفسير الآية : (وهذا شروع في بيان أحكام المرتدين بعد بيان أن موالاة الكافرين من المسلم كفر وذلك نوع من أنواع الردة) .

قال الشيخ عبد اللطيف: (فتأمل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٥٧ .

فإنها تقتضي أن من اتخذهم أولياء فليس بمؤمن) .

١٣- قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ محمد: ٢٥ - ٢٦ .

قال الشيخ سليمان في الدلائل : (أخبر تعالى أن سبب ما جرى عليهم من الردة قولهم للكفار سنطيعكم في بعض الأمر، فإذا كان من وعد المشركين الكارهين لما أنزل الله طاعتهم في بعض الأمر وليس كله كافر ، وإن لم يفعل ما وعدهم به ، فكيف بمن وافق المشركين الكارهين لما أنزل الله وأظهر أنهم على الهدى وأن أهل التوحيد مخطئون في قتالهم وأن الصواب مسالمتهم والدخول في دينهم ؟).

قلت : هذا إذا أطاعهم أو وافقهم وأيدهم فكيف بمن ظاهرهم.

١٤- قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ النساء: ٥١.

وهذه حالة من مناطات كفر اليهود وصورة من صور إيمانهم بالطاغوت، حيث أظهروا للمشركين الموافقة والتأييد حين قالوا لهم دينكم خير من دين محمد وأثنوا على دينهم مع علمهم في الباطن عكس ذلك وكفر المشركين ولم ينفعهم فكيف إذا لو قاتلوا معهم وظاهروهم .

١٥- قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٤٠.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الأنعام: ٦٨.

قال الشيخ سليمان في الدلائل : (من جلس مع الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها فهو مثلهم ولم يفرق بين الخائف وغيره إلا المكره، هذا وهم في بلد واحد وفي أول الإسلام فكيف بمن كان في سعة وعزة وفي بلاده فدعا الكافرين بآيات الله المستهزئين بها إلى بلاده واتخذهم وأولياء وأصحابا وجلساء وسمع كفرهم واستهزاءهم وأقرهم وطرد أهل التوحيد وأبعدهم) .

١٦- قال تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ النحل: ١٠٦ - ١٠٧ .

قال الشيخ سليمان في الدلائل : (أخبر تعالى أن هؤلاء المرتدين الشارحين صدورهم بالكفر وإن كانوا يقولون ما فعلنا هذا إلا خوفا عليهم غضب وأن سبب كفرهم وعذابهم ليس الجهل بالتوحيد وإنما لأجل حضوض الدنيا واستحباب الدنيا على الآخرة) .

١٧- قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ البقرة: ٢١٧ .

قال الشيخ سليمان في الدلائل بتصرف : فإذا كان من وافقهم خوفا على النفس والمال والحرمة بعد أن قاتلوه ليدفع شرهم أنه مرتد ولا عذر له عرفت أن الذين

يأتون إليهم يسارعون في الموافقة لهم من غير خوف ولا قتال أنهم أولى بعدم العذر وأنهم كفار مرتدون ، فكيف بعد ذلك بمن يظاهرهم .

١٨- قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ الكهف: ٢٠ .

قال الشيخ سليمان في الدلائل : (فإذا كان هذا حال من وافقهم بعد أن غلبوه فكيف بمن وافقهم وراسلهم من بعيد وأجابهم إلى ما طلبوا من غير غلبة ولا إكراه ومع ذلك يحسبون أنهم مهتدون) .

١٩- عموم الآيات الناهية عن طاعة الكفار واتباعهم منها :

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ آل عمران : ١٠٠ / وقريبا منها آية: ١٤٩ من نفس السورة .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في الدلائل : (أخبر تعالى أن من أطاع الكفار فلا بد أن يردوه عن الإسلام فإنهم لا يقنعون ممن وافقهم بدون الكفر والشهادة بأنهم على حق وإظهار العداوة للمسلمين وأن من فعله صار من الخاسرين في الدنيا والآخرة، ولم يرخص في موافقتهم وطاعتهم خوفا منهم . فيا حسرة على العباد الذين عرفوا التوحيد ونشؤوا فيه ودانوا به زمانا كيف خرجوا عن ولاية رب العالمين وخير الناصرين إلى ولاية المشركين).

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ آل عمران: ١٦٢ .

قال الشيخ سليمان في الدلائل : (فلا يستوي عند الله من نصر توحيده ودعوته بالإخلاص وكان مع المؤمنين ومن نصر الشرك وكان مع المشركين. فإن قالوا خفنا قيل لهم كذبتم ، وأيضا فما جعل الله الخوف عذرا في اتباع ما يسخطه واجتناب ما يرضيه، وكثير من أهل الباطل إنما يتركون الحق خوفا من زوال دنياهم، وإلا فيعرفون الحق ويعتقدونه ولم يكونوا بذلك مسلمين) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ .

قال الشيخ سليمان في الدلائل : (فإذا كان من أطاع المشركين في تحليل الميتة مشركا من غير فرق بين الخائف وغيره إلا المكره، فكيف بمن أطاعهم في تحليل موالاتهم والكون معهم ونصرهم والشهادة أنهم على حق واستحلال دماء المسلمين والخروج عن جماعتهم إلى جماعة المشركين فهؤلاء أولى بالكفر والشرك) .

وقوله ﷻ: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة: ١٢٠.

فإذا كانت مجرد موافقتهم واتباع أهوائهم ظاهرا من غير عقيدة القلب لكن خوفا من شرهم تنافي ولاية الله وموقعة في الظلم والكفر ولو كان صادرا من النبي ﷺ فكيف إذاً بمن يظاهرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ هود: ١١٣.

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ الإسراء.

قال الشيخ سليمان في الدلائل : (إذا كان الركون للظلمة موجب للنار فكيف بمن اتخذهم أولياء وأعانهم بما قدر عليه وأحب زوال التوحيد وأهله واستيلاء أهل الشرك فإن هذا من أعظم الكفر) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ البقرة.

٢٠- آيات المظاهرة : قال تعالى :

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ القصص: ٨٦.

﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الممتحنة: ٩

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ٨٥

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ التوبة: ٤

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ الأحزاب: ٢٦

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ الحشر: ١١
﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ آل عمران: ١٦٧.

حيث حكم تعالى على المظاهر بنفس حكم الفاعل للكفر الأصلي وجعل المظاهرة على الكفر كفر بل وأشد وجعل جزاء المظاهر أشد العذاب .

وتأمل حكم الله في بني قريظة حين ظاهروا المشركين على القتال كان حكمهم في الدنيا أشد من غيرهم لشناعة كفرهم وفداحة فعلهم .

وقد قتل عمر ستة برجل لما تظاهروا على قتله وتمالؤا وتعاونوا والرسول ﷺ عد قريش ناقضين للعهد مستباحي الدم لما أعانوا حلفاءهم بني بكر بالسلاح على خزاعة حلفاء النبي ﷺ ، قاله ابن القيم في الزاد ، وكفر الصحابة من مال مع المرتدين في القتال وظاهرهم وكان معهم كما فعل خالد مع مجاعة .

٢١- الآيات الناهية عن الموالاة والتولي عموما وستأتي في موضعها إلا أننا نذكر بعضها هنا اختصارا فمنها :

قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾.

وهي تدل هذه على كفر من تولى الكافرين ومن ظاهرهم من باب الأولى .

قال الشيخ عبد اللطيف : (وما جاء في القرآن من النهي والتغليظ الشديد في موالاتهم وتوليهم ، دليل على أن أصل الأصول لا استقامة له ولا ثبات له إلا بمقاطعة أعداء الله وحربهم وجهادهم والبراءة منهم ، والتقرب إلى الله بمقتهم وعيبهم ، وقد قال تعالى لما عقد الموالاة بين المؤمنين وأخبر أن الكافرين بعضهم أولياء بعض قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ ، وهل الفتنة إلا الشرك ، والفساد الكبير هو انتشار عقد التوحيد والإسلام وقطع ما أحكمه القرآن من الأحكام والنظام) الدرر ٨/ ٣٢٤.

قال ابن كثير في تفسير آية : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ : (أي : إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين و إلا وقعت فتنة في الناس، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر) .

وقولـه تعـالى: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ الكهف: ١٠٢ .

فلا يمكن أن يقع من مؤمن تول للكفار، ولـو وقـع للـزم منه خـروج مـن اتخذهم أولياء من الإسلام بنص الآية .

والقول بإمكانية أن يجمع العبد بين الإيمان وبـين اتخاذ الكـافرين أوليـاء مـن لوازمه تكذيب القرآن، ورد هذا النص الصريح الذي يفيـد أن الكـافر لا يمكنـه أن يتخذ المؤمن ولياً ، ولو تمكن من ذلك فهو في حقيقته يتخذ ولياً كافراً مثله .

ومما يدل على هذا الأصل :

قولــه تعــالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ النساء: ١٤٤ .

وقولـه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران: ١١٨ .

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ المجادلة: ٢٢

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ ﴾ المتحنة: ١

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ التوبة .

قال ابن جرير الطبري : (لا توالوا الكفار فتوازروهم) فالموازرة من الموالاة .

والآيات نصت على أنه لا عذر لأحد في موافقة الكفار وتوليهم أو مظاهرتهم ولو كان أبوه أو ابنه أو حمله الخوف على المال والأولاد وبالتالي ففاعلها كافر .

٢٢- آيات الكفر بالطاغوت منها :

قولــه تعــالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء: ٧٦.

فبيّن أن الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت وأنهم أولياء الشيطان ، فمـن قاتل معهم فهو معهم في هذه الأوصاف ، والقتال يكون باليد واللسان والمال وغيره

مما يعان به . فالآية دلت أن من أعانهم في حربهم على المسلمين بأي نوعٍ من أنواع الإعانة فهو من أولياء الشيطان .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ البقرة: ٢٥٧ .

فبيّن تعالى في هذه الآية أن أنصار الذين كفروا هم (الطاغوت) ، فمن ناصرهم فهو كافر مثلهم.

وقوله ﷻ: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٥٦ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ النحل: ٣٦ ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ الزمر: ١٧ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ النساء: ٦٠.

أن الله ﷻ شرط الكفر بالطاغوت مع الإيمان به للدخول في الإسلام ، ومن ناصرهم فإنه لم يكفر بالطاغوت ، لأن الكفار يقاتلون في سبيل الطاغوت كما سبق في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء: ٧٦.

هذه بعض الأدلة الدالة على كفر من يظاهر المشاركين، أو يناصرهم ويدخل في موالاتهم على المسلمين.

ثانياً : الأدلة من السنة :

الأول : الحكم على أسرى بدر بالكفر وكان من بينهم من يكتم إيمانهُ كما في حديث العباس وسبب نزول آية ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ النساء: ٩٧:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان الذي أسر العباس بن عبد المطلب أبو اليسر كعب بن عمرو أحد بني سلمة فقال له رسول الله ﷺ كيف أسرته يا أبا اليسر، قال لقد أعانني عليه رجل ما رأيته بعد ولا قبل، هيئته كذا، هيئته كذا، قال فقال الرسول ﷺ : لقد أعانك عليه ملك كريم . وقال للعباس ياعباس افد نفسك وابن أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن جحدم – أحد بني الحارث بن فهر – قال فأبى، وقال : إني قد كنت مسلما قبل ذلك وإنما استكرهوني . قال : (**الله أعلم بشأنك، إن يك ما تدعي حقا فالله يجزيك بذلك وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك**) وكان رسول الله ﷺ قد أخذ منه عشرين أوقية ذهبا، فقال يارسول الله أحسبها لي من فداي، قال : لا ذاك شيء أعطاناه الله منك . قال : فإنه ليس لي مال ، قال فأين المال الذي وضعته بمكة حيث خرجت عند أم الفضل وليس معكم أحد غيركما فقلت إن أصبت في سفري هذا فللفضل كذا ولقثم كذا ولعبدالله كذا . قال فوالذي بعثك بالحق ما علم بهذا أحد من الناس غيري وغيرها وإني لأعلم أنك رسول الله .رواه أحمد .

وروى ابن إسحاق وغيره عن يزيد بن رومان عن عروة وعن الزهري عن جماعة سماهم قالوا : بعثت لنا قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العباس وكان خرج مكرهاً مع المشركين في بدر يا رسول الله قد كنت مسلماً. فقال رسول الله ﷺ : الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابني أخيك).

وفي رواية "وأما سريرتك فإلى الله " .

فمع أن العباس بن عبد المطلب قد خرج مع قريش في قتالهم مكرهاً إلا أن الرسول ﷺ حكم عليه بظاهره وألحقه بالمشركين، ولم يقبل منه إدّعاءه الإسلام ولم يحكم له به، بل أخبره أنه إن كان صادقا في إسلامه وأنه حقا مكرها فالله سيجزيه، فكيف يكون الحال فيمن ظاهر الكفار وناصرهم اختياراً منه؟

الثاني : حكم عمر ﷺ على حاطب بالكفر أمام النبي ﷺ ولم ينكر عليه وذلك حين كتب إلى قريش في غزوة الفتح يخبرهم بأمر الرسول ﷺ:

فعن علي ﷺ قال : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، قال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها (وفي رواية إمرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين) . فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب. (وفي بعض الروايات:فأنخناها فالتمسنا فلم نرى كتابا فقلنا ماكذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، أو لنعرينك فقالت أما تتقون الله أما أنتم مسلمون فلما رأت الجد أخرجته).

فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ .

فقال عمر : يارسول قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه .

فقال رسول الله ﷺ : ياحاطب ما هذا ؟. (وفي رواية فأرسل الرسول ﷺ إلى حاطب فقال ما حملك على ما صنعت) .

قال حاطب : يارسول الله لا تعجل عليّ، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت كفراً ولا ارتداداً ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام .

(وفي بعض الروايات قال حاطب: وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني / ولم أفعله ارتدادا عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام / والله ما ارتبت ولا شككت في ديني ولكن كان لي أهل ومال فأردت مصانعة قريش/ والله ما كفرت ولا ازددت للإسلام إلا حبا / والله ما بي أن لا أكون مؤمنا بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت/ والله إني لمؤمن بالله ورسوله / لناصح لله ولرسوله / أما إني لم أفعله غشا لرسول الله ﷺ ولا نفاقا قد علمت أن الله مظهر رسوله ومتمم له أمره / ما تغير الإيمان من قلبي / وعلمت أن ذلك لن يضرك).

فقال رسول الله ﷺ : لقد صدقكم .(وفي رواية ولا تقولوا له إلا خيرا).

قال عمر : يارسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق .

(وفي بعض الروايات : فعاد عمر فقال يارسول الله : قد خان الله ورسوله والمؤمنين دعني فلأضرب عنقه/ أمكني من حاطب فإنه قد كفر لأضرب عنقه / إنه قد نافق / إنه نكث وظاهر أعدائك عليك).

قال رسول الله ﷺ : إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. (وفي رواية فقد أوجبت لكم الجنة). فدمعت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم . وفي رواية زيادة (فهذا الذي جرأه) . رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وهذه القصة تدل على أن الأصل في مظاهرة الكفار ومناصرتهم هو الردة والخروج عن الإسلام من ثلاثة وجوه :

أولاً : حكم عمر ؓ على حاطب ؓ بالكفر : فقال عمر ؓ :

- يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق .
- وفي رواية أمكني من حاطب فإنه قد كفر لأضرب عنقه إنه قد نافق .
- وفي رواية قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه.
- وفي رواية بعد أن قال الرسول ﷺ : أوليس قد شهد بدراً ؟.

قال عمر : بلى ولكنه نكث وظاهر أعداءك عليك .

فهذا العبارات تدل على أن المتقرر عند عمر ؓ أن مظاهرة الكفار كفر وردة .

ثانياً : إقرار الرسول ﷺ لما فهمه عمر :

وترك الرسول ﷺ تكفيره ليس لكون حاطب لم يعمل عملا كفريا، وإنما لوجود مانع من موانع التكفير، وهو تلبسه بالتأويل في جزئية من جزئيات الموالاة، وحضور بدر وإطلاع الله رسوله على صدق حاطب فيكون ذلك خاص به .

ثالثاً : أن حاطباً ؓ قال : على اختلاف في الروايات:

- ما فعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام .
- أما إني لم أفعله غشا لرسول الله ﷺ ولا نفاقا .
- قد علمت أن الله مظهر رسوله ومتمم أمره/ وعلمت أن ذلك لن يضرك.
- والله ما كفرت ولا ازددت للإسلام إلا حبا .
- والله ما ارتبت ولا شككت في ديني / ما تغير الإيمان من قلبي .
- والله ما بي أن لا أكون مؤمنا بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت .
- والله إني لمؤمن بالله ورسوله / لناصح لله ولرسوله .

وهذا يدل على أنه قد تقرّر لديه أيضاً أن مظاهرة الكفار (كفر وردة ونفاق وغش وخيانة وشك وارتياب وتبديل وتغيير ونفيا للإيمان ورضا بالكفر) .

فإذا كان هذا في مثل صورة عمل حاطب ﷺ مع أنه قد خرج غازياً مع الرسول ﷺ بنفسه وماله مناصراً له ومظاهراً له على أعدائه المشركين ، ولم يظاهر الكفار ولم ينصرهم بنفس ولا مال ، ولكن احتمل عمله هذا فقيل فيه ما قيل ، فكيف بمن ظاهر الكفار فعلاً وظاهرهم وأعانهم على المسلمين ، لا شك أنه أولى بالأحكام المذكورة في هذا الحديث .

الثالث : عن ابن عباس ﷺ قال : كان قوم بمكة قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يُظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس ، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الخبثاء فاقتلوهم، فإنهم يُظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله ، أتقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم وأموالهم ؟ فكانوا كذلك فئتين والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شيء فنزلت: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ النساء: ٨٨ رواه الطبري في تفسيره وغيره .

الرابع : تكفير الله ﷻ من ظاهر قريش من المسلمين ، فعن ابن عباس ﷺ قال: (أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم يُرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيُقتل فأنزل الله الآية:﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ٩٧) . رواه البخاري.

وفي أوله عن محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود قال : قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه ، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته ، فنهاني عن ذلك أشد النهي ، وقال : أخبرني ابن عباس الحديث .

وفي رواية عنه أخرجها ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم قال الصحابة في من قتل من هؤلاء : (قد كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت هذه الآية قال فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية وأنه لا عذر لهم فخرجوا فلحقهم المشركون ففتنوهم وقاتلوهم ..) .

وكان ابن عباس يقول: كنت أنا وأمي من المستضعفين ، ممن عذر الله ﷻ .

أما غير المستضعفين مع كونهم مكرهين فحكم بكفرهم وثبتت ردتهم ولم يقبل عذرهم ، قاله الطبري والموزعي وابن كثير والبغوي وغيرهم كما قدمنا في الآية في أدلة الكتاب .

كل هذا يدل دلالة صريحة على أن مظاهرة الكفار كفر أكبر ويحكم على فاعلها بحكم الكفار ويقتل ولا يعذر .

الخامس : عن عمران بن حصين ﷺ قال : أسر أصحاب النبي ﷺ رجلا من بني عقيل، فأوثقوه فطرحوه في الحرة فمر به رسول الله ﷺ ونحن معه، فناداه يامحمد يامحمد فأتاه فقال ما شأنك ، قال فيم أخذت ، قال أخذت بجريرة حلفائك ثقيف، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي ﷺ ، فقال يامحمد يامحمد قال ما شأنك قال إني مسلم، قال لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح، قال وتركه ومضى، قال فناداه يامحمد يامحمد فرجع فقال ما شئنك فقال إني جائع فأشبعني، قال هذه حاجتك ، ففداه رسول الله ﷺ بالرجلين الذين أسرتها ثقيف) رواه مسلم .

فانظر كيف أن النبي ﷺ جعل الحلف مع الكفار سبباً للأسر والقتل وعدم قبول العذر وعدم الحكم بالإسلام، مع أنه لا يستلزم من الحلف المظاهرة أصلا، فكيف لو وقع الرجل في المظاهرة .

وقد اشتبه على البعض دلالة الحديث فقالوا لو قدر أنه أسلم قبل وقوعه في الأسر لعومل معاملة المسلمين ولم يضره التحالف مع الكفار .

والجواب أنه لو أسلم حقا لما تحالف مع أعدائه، ولو أنه أسلم حقا ثم حالف الكفار وظاهرهم لعد ذلك من الردة كما هو مقرر في النصوص .

السادس : عن سمرة بن جندب ﷺ أن النبي ﷺ قال (من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله) رواه أبو داود وغيره بسند ضعيف.

فجعل من اجتمع مع المشرك وشاركه مثله وإن لم يوافقه، فمن ظاهر المشركين وأعانهم ونصرهم على المسلمين أعظم من مجرد السكنى معهم ومخالطتهم .

السابع : عن جرير بن عبد الله ﷺ أن الرسول ﷺ بعث سرية إلى خثعم فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل فبلغ النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل وقال: (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين ظهراني المشركين) رواه أبو داود والترمذي.

فتأمل كيف كان حكم الرسول ﷺ عليهم فلم يعذرهم بل وتبرأ منهم بل ولم ينكر على من قتلهم، ثم ترى من أرباب الأهواء من يستدل بإنكار النبي ﷺ على

أسامة حين قتل الرجل الذي كان مشركا فقال كلمة التوحيد فلم يفرقوا بين مسلم وقع في ناقض وبين كافر أسلم لا يجوز قتله.

قال ابن حزم : (من لحق بدار الكفر والحرب مختارا محاربا لمن يليه من المسلمين، فهو بهذا الفعل مرتد له أحكام المرتد كلها ، لأن الرسول ﷺ لم يبرأ من مسلم) المحلى ١٣/ ١٣٨ .

الثامن : الأحاديث التي في تكفير المقيم مع المشركين ولا يفارقهم ، ومنها :

قال النبي ﷺ : (لا يقبل الله من مشرك بعدما يسلم عملا أو يفارق المشركين إلى المسلمين) رواه أحمد والنسائي .

قال النبي ﷺ: (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله)، رواه أبو داود، وفي رواية: (لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فليس منا).

وعن جرير ﷺ قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم ، وعلى فراق المشرك) رواه النسائي وغيره.

وقال النبي ﷺ : (إن شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وفارقوا المشركين وأقروا بالخمس في غنائمهم وسهم النبي وصَفيِّه أنهم آمنون بأمان الله ورسوله) رواه النسائي .

وهذه الأحاديث قررت حكم المقيم بين المشركين وأنه قد يصل إلى الكفر إذا لم يفارقهم وإذا كان هذا حكم بالتكفير والبراءة والمثلية للكفار وأنه ليس من المسلمين وهذا لمجرد الإقامة التي قد يقارنها الرغبة فيهم والموافقة والتأييد فما بالك بحكم المظاهر لهم والمقاتل في صفوفهم.

قال محمد بن عبد اللطيف "وقال ﷺ (من جامع المشرك أو سكن معه فإنه مثله) فلا يقال : إنه بمجرد المجامعة والمساكنة يكون كافراً ، بل المراد أن من عجز عن الخروج من بين ظهراني المشركين وأخرجوه معهم كرهاً فحكمه حكمهم في القتل وأخذ المال ، لا في الكفر ، وأما إن خرج معهم لقتال المسلمين طوعاً واختياراً ، أو أعانهم ببدنه وماله ، فلا شك أن حكمه حكمهم في الكفر". الدرر ٨ / ٤٥٦ .

التاسع : قال النبي ﷺ في غزو الترك (بنو قنطوراء) للبصرة وافتراق المسلمين حينها لثلاث فرق: (فيفترق أهلها ثلاث فرق ، فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية وهلكوا ، وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا ، وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلون وهم الشهداء) رواه أبو داود بسند صحيح .

ومعنى(يأخذون لأنفسهم وكفروا):أي يطلبون الأمان من الترك أو يقبلونه الترك كما قال شراح الحديث في عون المعبود وغيره.

وهذا الحديث فيه الدليل الصريح على كفر من حالف الكفار الصائلين على ديار المسلمين وأخذ الأمان منهم فأمّنهم وأمّنوه وأظهر تأييده لهم ووافقهم ، وهو مع ذلك لم يظاهرهم وإنما طلب منهم الأمان وكف عن قتالهم ومع ذلك ارتد بعمله هذا ، فكيف الحكم في من قاتل معهم وناصرهم على المسلمين وظاهرهم .

العاشر: قال ابن عباس ﷺ : (لما نزل موسى ﷺ على الجبارين ومن معه ، أتى بلعام بنو عمه وقومه ؛ فقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد موسى ومن معه . قال : إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي. فلم يزالوا به حتى دعا عليهم ، فسلخه الله مما كان عليه ، فذلك قوله ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾) أخرجه ابن جرير الطبري.

الحادي عشر: عن حذيفة ﷺ قال : ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر . فظنناه يريد هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾) رواه عبد بن حميد.

الثاني عشر: ما جاء في خبر خالد بن الوليد ﷺ مع مجاعة بن مرارة في كتب السيرة في حروب الردة ، فإن خالداً ﷺ أخذ جنده بعض بني حنيفة ومعهم (مجاعة)، فقال مجاعة لخالد : إني والله ما اتبعته – يقصد مسيلمة – وإني لمسلم . فقال له خالد: فهلا خرجت إليّ ، أو تكلمت بمثل ما تكلم به ثمامة بن أثال.

فقد استدل ببقائه بين ظهراني المرتدين على موافقته لهم وعامله على هذا .

وهذه القصة استدل بها الإمام محمد بن عبد الوهاب في مختصر السيرة على ردة الموالي والمظاهر ، والشيخ عبد الرحمن في تكفير من ظاهر القوات المصرية والتركية.

الثالث عشر: تكفير المنافقين الذين أرادوا مظاهرة بني النضير .

ونزلت فيهم الآية : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ الحشر: ١١.

الرابع عشر: قصة أحبار اليهود الذين أيدوا قريش وقالوا دينكم أهدى وأكمل من دين محمد فكان كفرهم أشد وعقوبتهم أبلغ .

ونزلت فيهم الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ النساء: ٥١.

الخامس عشر: قتل سلمه ابن الأكوع ﷺ للجاسوس المشرك.

السادس عشر: حال هرقل حين تمنى اتباع النبي ﷺ وأراد من قومه أن يسلموا ولما لم يطيعوه ظاهرهم على المسلمين، وشح الخبيث بملكه ودنياه كما أخبر عنه ﷺ. وحديثه في البخاري.

السابع عشر: خبر اليهودين الذين قالا للرسول ﷺ نشهد إنك رسول الله ولم يتبعاه خوفا من اليهود وظاهروا قومهم.

الثامن عشر: الفاسق الكافر الخزرجي الذي كان يقاتل مع قريش.

التاسع عشر: قتل وتكفير ابن الزبير المرأة التي لم تكفر زوجها ولم تتبرأ منه حين ادعى أنه يوحى إليه.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (قصة المختار بن أبي عبيد الثقفي وهو رجل من التابعين مصاهر لعبدالله بن عمر مظهر للصلاح، لكن في آخر أمره زعم أنه يوحى إليه فسير له عبدالله بن الزبير جيشا فهزموا جيشه وقتلوه وكانت تحته إمرأة أبوها أحد الصحابة فدعاها مصعب إلى تكفيره فأبت فكتب إلى أخيه عبدالله يستفتيه فيها فكتب إليه إن لم تبرأ منه فاقتلها فامتنعت فقتلها مصعب، فإذا كان الصحابة قتلوا المرأة التي هي من بنات الصحابة وذلك لما امتنعت من تكفير زوجها فكيف بمن لم يكفر البدو مع إقراره بحالهم فكيف بمن زعم أنهم من أهل الإسلام ومن كفرهم هو الكافر) مختصر السيرة ٣٤. قلت فكيف بمن زاد على ذلك بمظاهرتهم.

هذا الخبر وغيره كثير يدل دلالة قطعية على أن المستقر عند الصحابة من حكم الله ورسوله ﷺ وهديه في مغازيه وسيرتهم بعده في جهادهم في المظاهر أنه كافرٌ يجب قتله. وقد ورد عن الصحابة ما يدل على هذا الأصل منهم عمر وحاطب وابن عباس وحذيفة وخالد، كذلك فعل الصحابة وسيرتهم في حروب الردة مع قوم مسيلمة وسجاح وطليحة ومانعي الزكاة ونحوهم في قتالهم كلهم دون تفريق بينهم، مع احتمال كون بعضهم مخالفاً لهم في معتقدهم وإنما شاركهم حمية، ومع ذلك كانت سيرتهم فيهم واحدة، مما يدل على تقرّر هذا الأصل عندهم، وأن من ظاهر وناصر الكفّار فهو كافر مثلهم.

المسألة الخامسة: الإجماع على كفر المظاهر :

قام الإجماع على كفر المظاهر، وقد تناقله أهل العلم كابراً عن كابر، بل جعلوه من أعظم نواقض الإسلام بعد الشرك ، وهذا الأصل مقرر عند أهل السنة لا يخالف فيه احد ولم يأت أحد منهم بتفريقات أو تقسيمات هؤلاء المرجئة والمخالفين .

وممن نقل الإجماع على كفر المظاهر جماعة من أهل العلم وإليك كلامهم :

قال الإمام الطبري:" لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين ، وتدلونهم على عوراتهم فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء يعني بريء الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر ".

قال علامة الأندلس ابن حزم في المحلى : " ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ **كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين "١١/ ٣٥ .**

قال ابن تيمية:(كل من قفز إلى التتار من المسلمين فحكمه حكمهم وكان أحق منهم بالقتال ... لأن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي (٢٨/ ٥٣٤ .

قال الونشريسي ت٩١٤هـ في(أسنى المتاجر في من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر): (ولا تجد في تحريم هذه الإقامة وهذه الموالاة الكفرانية مخالفا من أهل القبلة.. ومن خالف أو رام الخلاف من المقيمين معهم والراكنين إليهم فجوز الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين) المعيار المعرب ٢/ ١٢٣.

مع أن كلامه رحمه الله في الركون للكفار وتجويز الإقامة فما بالك بالمظاهرة.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نواقض الإسلام : " مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ " .

وقال ممثلاً بالحاكم المسلم إذا ظلم رعيته فاستعانوا بالكفار ووافقوهم ظاهرا: (وتظاهروا معهم مع أنهم لم يدخلوا في دينهم ولم يتركوا الإسلام لكن تظاهروا ومرادهم دفع الظلم عنهم فلا يشك أحد أنهم مرتدون). الرسائل الشخصية ٢٨ .

وقال الشيخ سليمان في الدلائل : (فكيف إذا كان في دار منعه واستدعى بهم ودخل في طاعتهم، وأظهر الموافقة على دينهم الباطل، وأعانهم عليه بالنصرة والمال، ووالهم وقطع الموالاة بينه وبين المسلمين، وصار من جنود القباب والشرك وأهلها ، بعد ما كان من جنود التوحيد وأهله ، فإن هذا لا يشك مسلم أنه كافر).

قال الشيخ عبد اللطيف: "فكيف بمن أعانهم أو جرهم على بلاد أهل الإسلام .. فإن هذا ردة صريحة بالاتفاق " .

قال الشيخ عبد الله بن حميد: "والتولي النصرة لهم والمعاونة على المسلمين وعدم البراءة منهم ظاهراً ، فهذا ردة من فاعله ، يجب أن تجرى عليه أحكام المرتدين، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأئمة المقتدى بهم" .

قال الشيخ عبدالعزيز بن باز: "وقد اجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين وساعدهم عليهم بأي نوع من المساعدة فهو كافرٌ مثلهم". مجموع فتاوى ومقالات١/ ٢٧٤.

قال شيخ الأزهر خضر الحسين : (لا أظن عالما بقواعد الشريعة يخالف في كفر من يطلع الأجانب على عورات المسلمين ليغلبوهم ويستولوا على أوطانهم) لواء الإسلام ١/ ١١ .

المسألة السادسة : دلالة العقل على كفر فاعل المظاهرة :

كما أن العقل يدل على أن المظاهرة كفر وأن المُظَاهِر ومعين الكفار من أشد الناس كفراً ،

وتأمل لو قال رجلٌ للنبي ﷺ أنا احبك يا رسول الله ثم تجدهُ يقاتل في صفوف أعدائه لأجل دنياه ، فإن هذا كافر باتفاق كل الملل حتى اليهود والمشركين يعلمون عدم إسلامهِ وإتباعه لدينه بل ولا يشكون في كفره .

أيضاً ما الحكم لو غزا الصليبيون ومعهم الرافضة المجوس الكعبة شرفها الله وحماها لهدمها وقتل الحجيج ونبش قبر الرسول ﷺ ثم ظاهرهم بعض المسلمين من الحكام والأفراد في هدم الكعبة لأجل مصالحهم الدنيوية ، هل سيقول أحد من المسلمين أن هذه الموالاة التي لهدم شعائر الإسلام ليست كفرية لأنها موالاة دنيوية غير مكفرة ؟! .

وعليه فالأصل في تولي الكفار وموالاتهم الكفر ونقض الإيمان وأعظم درجات التولي مظاهرتهم على المسلمين ولا يخالف في ذلك عاقل .

المسألة السابعة: فصلٌ في أقوال أهل العلم في كفر من ظاهر الكفار:

١- قال الإمام أحمد وغيره لما سئل عن بابك الخرمي لما خرج وحارب المسلمين وهو بأرض المشركين سنة٢٠١ فحكم بردته : (خرج إلينا يحاربنا وهو مقيم بأرض الشرك، أي شيء حكمه ؟ إن كان هكذا فحكمه حكم الارتداد). نقله عن الإمام أحمد الميموني . الفروع ٦/ ١٦٣ .

٢- قال الإمام الطبري :" لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء يعني بذلك فقد بريء من الله وبريء الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر إلا أن تتقوا منهم تقاة، إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا إليهم الولاية بألسنتكم وتضمروا لهم العداوة ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل ".

٣- قال الإمام الداوودي (ت٤٠٢) : (ويقتل الجاسوس مسلما كان أو كافرا ولا يستحيا بحال لما يخاف من عودته ولئلا يتأسى به غيره إذا ترك، ولأنه إن كان مسلما فهذا ارتداد) . الأموال للداوودي ص: ٢٣٨، ترتيب المدارك ٧/ ١٠٢ .

٦- قال الإمام سحنون: (إذا كاتب المسلم أهل الحرب قتل ولم يُستتب، وماله لورثته).

٧- قال ابن القاسم في الجاسوس: (يُقتل ولا تُعرف لهذا توبة، هو كالزنديق). أورده عنه في المستخرجة.

٨- قال ابن القاسم عن التجسس للكفار : (ذلك زندقة لا توبة فيه أي لايستتاب ويقتل كالزنديق، وقال ابن وهب ردة ويستتاب) قلت هذا في المتجسس فكيف بالمظاهر والمقاتل في صفوفهم . التحرير والتنوير ٣/ ٢١٩.

٩- قال الموزعي في تيسير البيان : (قوم تكلموا بالإسلام ثم خرجوا مع المشركين إلى بدر فقتلوا فأخبر الله بكفرهم) . ١/ ٦٥١.

١٠- قال الإمام ابن تيمية في فتواه في التتار: " كل من قفز إلى التتار من المسلمين فحكمه حكمهم كان أحق منهم بالقتال من كثيرٍ من التتار فقد استقرت السُنة بأن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي " الفتاوى ٢٨/ ٥٣٤ .

وقال في السياسة الشريعة : (فأما إذا تحيزوا إلى مملكة طائفة خارجة عن شريعة الإسلام وأعانوهم على المسلمين قوتلوا كقتالهم) .

وقال أيضا :" وإذا كان السلف قد سموا مانعي الزكاة مرتدين مع كونهم يصومون ويصلون ولم يكونوا يقاتلون جماعة المسلمين، فكيف بمن صار مع أعداء الله ورسوله قاتلاً للمسلمين ؟" ٢٨/ ٥٣٠ .

وقال في حال الجيش الذي يغزو الكعبة: " فالله تعالى أهلك الجيش الذي أراد أن ينتهك حرماته مع قدرته على التمييز بينهم مع أنه يبعثهم على نياتهم، فكيف يجب على المؤمنين أن يميزوا بين المكره وغيره وهم لا يعلمون ذلك، بل لو ادعى مدع أنه خرج مكرهاً لم ينفعه ذلك بمجرد دعواه، كما روي أن العباس بن عبد المطلب قال للنبي ﷺ لما أسره المسلمون يوم بدر: يا رسول الله إني كنت مكرهاً، فقال:(أما ظاهرك فكان علينا ، وأما سريرتك فإلى الله)" ٢٨/ ٥٣٧ .

إلى أن قال:(والمقصود أنه إذا كان المكره على القتال في الفتنة ليس له أن يُقاتل، بل عليه إفساد سلاحه، وأن يصبر حتى يُقتل مظلوماً، فكيف بالمكره على قتال المسلمين مع الطائفة الخارجة عن شرائع الإسلام، كما نعي الزكاة والمرتدين ونحوهم، فلا ريب أن هذا يجب عليه إذا أكره على الحضور أن لا يُقاتل، وإن قتله المسلمون، كما لو أكرهه الكفار على حضور صفهم ليقاتل المسلمين، وكما لو أكره رجل رجلاً على قتل مسلم معصوم، فإنه لا يجوز له قتله باتفاق المسلمين، وإن أكرهه بالقتل، فإنه ليس حفظ نفسه بقتل ذلك المعصوم أولى من العكس) ٢٨/ ٥٣٩ .

وقال فيه:(ونحن علينا أن نقاتل العسكر جميعه إذ لا يتميز المكره من غيره).

قال ابن تيمية: (ونحن لا نعلم المكره، ولا نقدر على التمييز، فإذا قتلناهم بأمر الله كنا في ذلك مأجورين ومعذورين، وكانوا هم على نياتهم، فمن كان مكرهاً لا يستطيع الامتناع فإنه يُحشر على نيته يوم القيامة، فإذا قُتل لأجل الدين لم يكن ذلك بأعظم من قتل من قتل من عسكر المسلمين) الفتاوى ٢٨/ ٥٤٧ .

١١- قال ابن القيم :" وقطع الموالاة بين اليهود والنصارى وبين المؤمنين ، وأخبر أنه من تولاهم فإنه منهم ، في حكمه المبين ". أحكام أهل الذمة ١/ ٢٣٣ .

وقال فيه :" وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فإنه منهم ،ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم ، والولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً ، والولاية إعزاز

فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً ، والولاية صلة فلا تجامع معاداة الكافر أبداً" ١/ ٢٤٢.

١٢- قال ابن حزم في المحلى : (وصح أن قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ إنما هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار فقط وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين).

وقال فيه :" فهذا لا يكون إلا خبراً عن قوم أظهروا الميل إلى الكفار فكانوا منهم كفاراً " المحلى ١١ / ٢٠٤.

وقال أيضاً فيه:" فصح بهذا أن من لحق بدار الكفر والحرب مختاراً محارباً لمن يليه من المسلمين ، فهو بهذا الفعل مرتد له أحكام المرتد كلها : من وجوب القتل عليه ، متى قدر عليه ، ومن إباحة ماله ، وانفساخ نكاحه ، وغير ذلك ، لأن رسول الله ﷺ لم يبرأ من مسلم ... فإن كان هناك محارباً للمسلمين معيناً للكفار بخدمة أو كتابة فهو كافر " ١١ / ٣٥.

وقال فيه : (ولو كان كافرا مجاهرا غلب على دار من دور المسلمين وأقر المسلمين بها على حالهم إلا أنه هو المالك لها المنفرد بنفسه في ضبطها وهو معلن بدين غير الإسلام لكفر بالبقاء معه كل من عاونه وأقام معه وإن ادعى أنه مسلم) .

وقال : (ومن سكن من المسلمين بأرض الكفار..فإن كان محاربا للمسلمين معينا للكفار بخدمة أو كتابة فهو كافر) المحلى ١١/ ٢٠٠ .

قال ابن حزم من سكن بأرض القرامطة مختارا فكافر بلا شك لأنهم معلنون بالكفر وترك الإسلام) المحلى ١١/ ٢٠٠ . قلت فكيف بمن قاتل معهم .

١٣- وقال الماتريدي في تفسيره: (إذا نصروا الكفار على المسلمين وأعانوهم فقد كفروا) .

١٤- قال البغوي : (ومن يفعل ذلك أي موالاة الكفار في نقل الإخبار إليهم وإظهارهم على عورة المسلمين فليس من دين الله في شيء ... وقد نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان دفاعا عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما أو يظهر الكفار على عورة المسلمين) معالم التنزيل ٢/ ٢٥ .

١٥- قال مكي بن أبي طالب في تفسيره الهداية : (لأنه لا يواليهم إلا وهو بدينهم راض فهو منهم) . ٣/ ١٧٧٨.

١٦- قال الإمام البرزلي: (أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني رحمه الله استفتى علماء زمانه عام ٤٨٠ في استنصار ابن عباد الأندلسي حاكم أشبيلية بالكتابة إلى الإفرنج على أن يعينوه على المسلمين ، فأجابه جلهم بردته وكفره).
كتاب القضاء من نوازل الإمام البرزلي من الاستقصاء ٢ / ٧٥ .

١٧- ما حكم به الفقهاء حين استفتاهم الظاهر بيبرس عن صاحب الكرك الملك المغيث عمر بن العادل سنة ٦٦١ لما قام بمكاتبة هولاكو ملك التتار على أن يأخذ لهم مصر ، فأفتوا بعزله وقتله ، فعزله وقتله .
انظر: (البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٨) (الشذرات ٦/ ٣٠٥) .

١٨- وقال الشيخ أبو الحسن علي الأنصاري القرطبي (ت٦٥١) : (بأن من أشهر السلاح مع النصارى وأتى في عسكرهم فقد مرق من الدين وحكمه حكم النصارى في دمه وماله) . الفتاوى الفقهية في عهد السعديين جمع اليوبي ٢٣٠ .

١٩- قال القرطبي: (﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ ﴾ أي: يعضدهم على المسلمين ، ﴿ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾: بيّن تعالى أن حكمه حكمهم ، وهو يمنع إثبات الميراث للمسلم من المرتد) .

٢٠- قال الجصاص : (نهت الآية المؤمنين عن موالاة الكفار ونصرتهم والاستنصار بهم وتفويض أمورهم إليهم وإيجاب التبرؤ منهم وترك تعظيمهم وإكرامهم ، وسواء بين الآباء والإخوان في ذلك ... وإنما أمر المؤمنين بذلك ليتميزوا من المنافقين ، إذ كان المنافقون يتولون الكفار، ويظهرون إكرامهم وتعظيمهم إذا لقوهم ، ويظهرون لهم الولاية والحياطة ، فجعل الله تعالى ما أمر به المؤمن في هذه الآية علما يتميز به المؤمن من المنافق) أحكام القرآن ٣/ ١٣٠.

٢١- سئل فقيه المغرب أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي المالكي ، عن بعض القبائل الجزائرية التي كانت تمتنع من النفير للجهاد، وكانوا يخبرون الفرنسيين بأمور المسلمين ، وربما قاتلوا أهل الإسلام مع النصارى الفرنسيين ، فأجاب :
(ما وصف به القوم المذكورون يوجب قتالهم كالكفار الذين يتولونهم ، ومن يتول الكفار فهو منهم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ، وأما إن لم يميلوا إلى الكفار ، ولا تعصبوا بهم ، ولا كانوا يخبرونهم بأمور المسلمين ، ولا أظهروا شيئاً من

ذلك ، وإنما وجد منهم الامتناع من النفير فإنهم يقاتلون قتال الباغية". أجوبة التسولي على مسائل الأمير عبدالقادر الجزائري ٢١٠.

٢٢- ما أفتى به علماء المالكية في المغرب بكفر وردة محمد بن عبد الله السعدي حاكم مراكش عام ٩٨٤ لما استعان بملك البرتغال ضد عمه أبي مروان المعتصم بالله. انظر الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ٢/ ٧٠ .

٢٣- وسئل الشيخ عليش عن البقاء بين ظهراني الكفار إذا استولوا على ديار المسلمين وترك الهجرة ، فقال :" إن هذه الموالاة الشركية كانت مفقودة في صدر الإسلام وعزته ، ولم تحدث على ما قيل إلا بعد مضي مئين من السنين وبعد انقراض أئمة الإسلام المجتهدين فلذلك لم يتعرض لأحكامها الفقهية أحد منهم ، وإنما نبغت هذه الموالاة النصرانية في المائة الخامسة وبعدها من تاريخ الهجرة وقت استيلاء ملاعين النصارى دمرهم الله تعالى على جزيرة صقلية وبعض كور الأندلس .

سئل عنها بعض الفقهاء واستفهموه عن الأحكام الفقهية المتعلقة بمرتكبها فأجابوا بأن أحكامهم جارية مع أحكام من أسلم ولم يهاجر وألحقوا هؤلاء المسئول عنهم والمسكوت عن حكمهم بهم وسوي بين الطائفتين في الأحكام الفقهية المتعلقة بأموالهم وأولادهم ، ولم يروا فيها فرقا بين الفريقين وذلك لأنها في موالاة الأعداء ومساكنتهم ومداخلتهم وملابستهم وعدم مباينتهم وترك الهجرة الواجبة لهذه الأحكام المسكوت عنها في الصورة المسئول عن فرضها بمثابة واحدة فألحقوا رضي الله عنهم الأحكام المسكوت عنها في هؤلاء المسئول عنهم بالأحكام المتفقه فيها" فتح العلي المالك ١/ ٣٧٥ .

٢٤- وقال ابن عجيبة في تفسيره : (قال أبي الحسن الزروالى الصغير (ت٧١٩) : (أن بيع السلاح للعدو الكافر كفر) البحر المديد ٢/ ٢٦٢.

٢٥- وقال ابن خجو المالكي : (فإن تواطأ أهل قطر على بيع الجلود والخيل وآلات الحرب لعدو الدين فاعلم أنهم نبذوا الإسلام وراء ظهورهم) . الفتاوى الفقهية في عهد السعديين جمع اليوبي ٢١٨ .

٢٦- وقال الخازن في تفسيره : (ومن يتول اليهود والنصارى من دون المؤمنين فينصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم ، لأنه لا يتولى مولى إلا وهو راض به وبدينه وإذا رضيه ورضي دينه صار منهم) .

٢٧- وقال الحافظ ابن حجر :" ويستفاد من هذا مشروعية الهرب من الكفار ومن الظلمة لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس إلى التهلكة ، هذا إذا لم يُعِنْهم ولم يرض بأفعالهم، فان أعان أو رضي فهو منهم" الفتح ١٣ / ٦١.

٢٨- وقال أبوالعباس بن زكري (ت٨٩٩) عن قبائل مغربية امتزجت مع النصارى وربما قاتلوا معهم : (ما وصف به القوم المذكورون يوجب قتلهم كالكفار الذين تولوهم، ومن يتول الكفار فهو منهم) النوازل ١/ ٤١٩ .

٢٩- ما أجاب به أبو العباس الونشريسي (ت٩١٤) حين سئل عن قوم هاجروا من الأندلس بعد استيلاء النصارى عليها ثم ندموا وذموا دار الإسلام ومدحوا دار الكفر فكتب رسالة أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر قال فيها : (ولا تجد في تحريم هذه الإقامة وهذه الموالاة الكفرانية مخالفا من أهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز .. ومن خالف الآن في ذلك أو رام الخلاف من المقيمين معهم والراكنين إليهم فجوز هذه الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ..) المعيار المعرب ٢/ ١٢٣.

٣٠- وقال النسفي (ت٧١٠) في تفسيره (لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين ، وفيه دليل على أن الكفر كله ملة واحدة ،﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ من جملتهم وحكمه حكمهم) .

٣١- ما أجاب به العلامة عبد الله بن عبد الباري الأهدل في رسالته السيف البتار على من يوالي الكفار ويتخذهم من دون الله ورسوله ﷺ والمؤمنين أنصار حين سئل عن قوم في بلاد الإسلام من المسلمين يدعون أنهم من رعية النصارى ويرضون بذلك ويفرحون به ، فما تقولون في إيمانهم، ومن الجملة أنهم يتخذون لسفنهم بيارق تسمى الرايات مثل رايات النصارى، إعلاماً منهم بأنهم من رعيتهم .

فقال : " إن كانوا علماء بأحكام الإسلام ، ومع ذلك صدر عنهم ما ذكر فيستتابون، فإن رجعوا عن ذلك وتابوا إلى الله وإلا فهم مارقون، فإن اعتقدوا تعظيم الكفر ارتدوا ، وجرى عليهم أحكام المرتدين.

وظاهر الآيات والأحاديث عدم إيمان المذكورين قال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ ، فالناس قسمان : الذين آمنوا وليهم الله تعالى لا غيره، فليس لهم مولى دون الله ورسوله، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، فمن اتخذ الطاغوت ولياً من دون الله ، فقد خسر

خسراناً مبيناً، وارتكب خطباً جسيماً، فليس إلا ولي الله وولي الطاغوت، فلا شركة بوجه من الوجوه ألبتة ، وقد حكم الله ألا نتولى الكفار بوجه قط، فمن خالف لما يحكم، فأنى يكون له إيمانٌ ، وقد نفى الله إيمانه ، وأكد النهي بأبلغ الوجوه والإقسام على ذلك فاستفده".

٣٢- قال الشيخ جمال الدين القاسمي في تفسير آية: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾:" : أي من جملتهم ، وحكمه حكمهم ، وإن زعم أنه مخالف لهم في الدين" .

٣٣- قال الإمام الشوكاني في تفسير آية المائدة : (وهذا شروع في بيان أحكام المرتدين بعد بيان أن موالاة الكافرين من المسلم كفر وذلك نوع من أنواع الردة) .

٣٤- قال العلامة الحسن بن خالد الحازمي الذي قتلته العساكر المصرية بعسير عام ١٢٣٤ : (إنما عفا الله عن حاطب لسابقته ولكونه من أهل بدر وفيها دليل على قتل من فعل كفعله فإن عمر ﷺ قال لرسول الله ﷺ دعني أضرب عنق هذا المنافق ... فجعل العلة كونه من أهل بدر ولو لم يكن هذا سبباً شرعياً للقتل لأنه لا يحل قتله لنفي الله الإيمان عمن واد من حاد الله ورسوله). قوت القلوب١٧٤.

٣٥- قال الشيخ محمد الحفظي العسيري وهو يذكر أمورا كفرية :(ومنهم: من رضي بذلك وعزم عليه، ومن أعان بنفسه أو ماله أو لسانه، وقد ورد الوعيد الشديد فيمن أعان ولو بشطر كلمة في قتل مسلم فكيف الإعانة على حرب الإسلام والمسلمين ... وهذه الأمور كلها جرت بغير إكراه ولا تعيين ، وكل واحدة منها تخدش في وجه إيمان فاعلها ، وتفت في عضد إسلام عاملها ، وهي من المعاند ردة عن الإسلام) الدرر ٨ / ٢٥٧، نقل كلامه عبدالرحمن بن حسن.

٣٦- وقال الأمير سعود بن عبد العزيز:"والذي يدعي أنه لم يفعل من الشرك شيئاً، فهو لم ينكر ولم يفارق أهله، بل هو قائم بنصرتهم بماله ولسانه، فهو وإن لم يفعل ذلك فهو وهم سواء " الدرر ٩/ ٢٧٧.

٣٧- قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: " الأدلة على تكفير المسلم الصالح إذا أشرك بالله ، أو صار مع المشركين على الموحدين ولو لم يشرك أكثر من أن تحصر ، من كلام الله ، وكلام رسوله ، وكلام أهل العلم كلهم " الدرر ١٠ / ٨.

وقال أيضاً في نواقض الإسلام : (الناقض الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين ، والدليل قوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾).

وقال: (لو قدرنا فرضا أن السلطان المسلم في المغرب ظلم أهل المغرب ظلماً عظيماً في أموالهم وأنفسهم ورأوا أنه لا مخرج لهم بذلك إلا بالاستنجاد بالفرنج وعلموا يقينا أنهم لا يوافقونهم إلا أن يقولوا نحن معكم على دينكم ودنياكم وإنكم على حق والسلطان على باطل وتظاهروا معهم بذلك مع أنهم لم يدخلوا في دين الفرنج حقيقة ولم يتركوا دين الإسلام بالفعل لكن تظاهر بما ذكرنا ومرادهم في ذلك دفع الظلم عنهم فلا يشك أحد أنهم مرتدون). الرسائل الشخصية ٢٨ .

٣٨- وقال الشيخ سليمان بن عبد الله في الدلائل : " اعلم رحمك الله أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفاً منهم ومداراة لهم ومداهنة لدفع شرهم فإنه كافر مثلهم، وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين، هذا إذا لم يقع منه إلا ذلك، فكيف إذا كان في دار منعه واستدعى بهم ودخل في طاعتهم، وأظهر الموافقة على دينهم الباطل، وأعانهم عليه بالنصرة والمال، ووالهم وقطع الموالاة بينه وبين المسلمين، وصار من جنود القباب والشرك وأهلها ، بعد ما كان من جنود الإخلاص والتوحيد وأهله ، فإن هذا لا يشك مسلم أنه كافر من أشد الناس عداوة لله ولرسوله ﷺ ، ولا يستثنى من ذلك إلا المكره ، وهو الذي يستولى عليه المشركون فيقولون له اكفر أو افعل كذا وإلا فعلنا بك وقتلناك ، أو يأخذونه فيعذبونه حتى يوافقهم ، فيجوز له الموافقة باللسان مع طمأنينة القلب بالإيمان ، وقد أجمع العلماء على أن من تكلم بالكفر هازلا أنه يكفر فكيف بمن أظهر الكفر خوفًا وطمعاً في الدنيا، وأنا أذكر بعض الأدلة على ذلك بعون الله وتأييده ".

وذكر عشرين دليلاً أتينا بها في الأدلة وكلامه حولها . الدرر ٨ / ١٢١ .

وقال فيه أيضا: " ولم يفرق تعالى بين الخائف وغيره بل أخبر تعالى أن الذين في قلوبهم مرض يفعلون ذلك خوفا من الدوائر وكذلك حال هؤلاء المرتدين خافوا من الدوائر فزال ما في قلوبهم من الإيمان بوعد الله الصادق بالنصر لأهل التوحيد

فبادروا وسارعوا إلى الشرك خوفا من أن تصيبهم دائرة قال الله تعالى : (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) ".

وقال فيه: "وإن عذر كثير من المرتدين في هذه الفتنة – حين اجتاحت القوات المصرية الجزيرة – هو نفس هذا العذر الذي ذكره الله عن الذين في قلوبهم مرض ولم يعذرهم به .... فإن قالوا خفنا قيل لهم كذبتم وأيضا فما جعل الله الخوف عذرا في إتباع ما يسخطه واجتناب ما يرضيه وكثير من أهل الباطل إنما يتركون الحق خوفا من زوال دنياهم وإلا فهم يعرفون الحق ويعتقدونه ولم يكونوا بذلك مسلمين " .

وقال في رسالته أوثق عرى الإيمان : (الذي يتسبب بالدفع عن الكفار حميّة دنيوية إما بطرح نكال أو دفن نقائص المسلمين لهم، أو يشير بكف المسلمين عنهم من أعظم الموالين المحبين للكفار من المرتدين والمنافقين وغيرهم .. وإن كان المراد بكف المسلمين عنهم أن لا يتعرض المسلمون لهم بشيء لا بقتال، ولا نكال وإغلاظ ونحو ذلك، فهو من أعظم أعوانهم، وقد حصلت له موالاتهم مع بعد الديار ... إن كانت الموالاة مع مساكنتهم في ديارهم، والخروج معهم في قتالهم ونحو ذلك، فإنه يحكم على صاحبها بالكفر كما قال تعالى:﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾).

٣٩- وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في المورد العذب عن النواقض: " فمن أعظمها موالاة المشرك والركون إليه ونصرته وإعانته باليد أو اللسان أو المال ".

وقال أيضاً :"وقد فرض الله تعالى البراءة من الشرك والمشركين ، والكفر بهم وعداوتهم ، وبغضهم وجهادهم، فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم، فوالوهم وأعانوهم ، وظاهروهم واستنصروا بهم على المؤمنين ، وأبغضوهم وسبوهم من أجل ذلك ، وكل هذه الأمور : تناقض الإسلام ، كما دل عليه الكتاب والسنة في مواضع ، وذكره العلماء رحمهم الله في كتب التفسير والفقه وغيرها ، وعند هؤلاء وأمثالهم أنهم على الدين الذي كانوا عليه لم يفارقوه " (الدرر ٨ / ١٩٠) .

٤٠- وقال الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ: " فليتأمل من نصح نفسه هذه الآيات التي تنهى عن اتخاذ الكافرين أولياء وليبحث عما قاله المفسرون وأهل العلم في تأويلها، وينظر ما وقع من أكثر الناس اليوم ، فإنه يتبين إن وفق وسدد أنها تتناول من ترك جهادهم ، وسكت عن عيبهم ، وألقى إليهم السلم ، فكيف بمن أعانهم، أو جرهم على بلاد أهل الإسلام، أو أثنى عليهم، أو فضلهم بالعدل على أهل الإسلام،

واختار ديارهم ومساكنتهم وولايتهم، وأحب ظهورهم ؟ فإن هذا ردة صريحة بالاتفاق " الدرر ٨/ ٣٢٤ .

وقال أيضاً : "وتعزيرهم وتوقيرهم تحته أنواع:أعظمها رفع شأنهم ، ونصرتهم على أهل الإسلام ومبانيه ، وتصويب ما هم عليه ، فهذا وجنسه من المكفرات ، ودونه مراتب من التوقير بالأمور الجزئية ، كلياقة الدواة ونحوه " الدرر ٨ / ٣٦٠.

وقال أيضا : (وأكبر ذنب وأضله وأعظمه منافاة لأصل الإسلام نصرة أعداء الله ومعاونتهم والسعي فيما يظهر به دينهم وكذلك ترك جهادهم). الرسائل ٣/ ٥٧.

وقال: (من تكلم بالإسلام ولم يعتزل أهل الكفر بل صار معهم ، وقاتل أهل التوحيد لغرض من أغراضه ..) مصباح الظلام ١٥٠.

٤١- وقال الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف عن إعانة العساكر التركية:"ومن جرهم وأعانهم على المسلمين بأي إعانة فهي ردة صريحة" . الدرر١٠/ ٤٢٩.

ولما سئل عن الفرق بين الموالاة والتولي قال:(التولي : كفر يخرج من الملة ، وهو كالذب عنهم ، وإعانتهم بالمال والبدن والرأي ، والموالاة : كبيرة من كبائر الذنوب كبلّ الدواة ، أو بري القلم ، أو التبشبش لهم لو رفع الصوط لهم) الدرر ٨/ ٤٢٢ .

وقال أيضاً : " وكل من استكان لهم ودخل في طاعتهم ، وأظهر موالاتهم ، فقد حارب الله ورسوله ، وارتد عن دين الإسلام ، ووجب جهاده ومعاداته، ولا تنتصروا إلا بربكم ، واتركوا الانتصار بأهل الكفر جملة وتفصيلاً" الدرر٨/ ٢٢.

٤٢- ما أجاب به المشايخ عبد الله بن عبد اللطيف وإبراهيم بن عبد اللطيف وسليمان بن سحمان حين سألوا عن طلب حماية الكفار، أو نائبهم ، وأخذ علم منهم، لسلامة المال والسفينة، وأن هذا بمنزلة الخفير الذي هو الرفيق . فقالوا:(الجواب أن يقال: هذا قياس باطل، فإن أخذ الخفير لسلامة المال جائز إذا ألجأ الحال إليه، والخفير مسلم ظالم أو فاجر فاسق، وأما الدخول تحت حماية الكفار فهي ردة عن الإسلام، وأخذ العلم منهم لا يجوز إذا كانوا لم يدخلوا تحت حمايتهم وولايتهم ، وليس بمنزلة أخذ الخفير لحماية المال ، فإن هذا علم ، وعلامة على أنهم منقادون لأمرهم ، داخلون في حمايتهم ، وذلك موافقة لهم في الظاهر" الدرر ١٠/ ٤٣٥ .

٤٣- قال محمد بن عبد اللطيف:(قال ﷺ (من جامع المشرك أو سكن معه فإنه مثله) فلا يقال : إنه بمجرد المجامعة والمساكنة يكون كافراً، بل المراد أن من عجز عن الخروج من بين ظهراني المشركين وأخرجوه معهم كرهاً فحكمه حكمهم في القتل

وأخذ المال ، لا في الكفر ، وأما إن خرج معهم لقتال المسلمين طوعاً واختياراً ، أو أعانهم ببدنه وماله ، فلا شك أن حكمه حكمهم في الكفر). الدرر ٨ / ٤٥٦ .

٤٤- وقال الشيخ حمد بن عتيق:"دل القرآن والسنة على أن المسلم إذا حصلت منه موالاة أهل الشرك والانقياد لهم ارتد بذلك عن دينه". الدرر ٩/ ٢٦٣.

وقال أيضاً:" إن مظاهرة المشركين ودلالتهم على عورات المسلمين أو الذب عنهم بلسان أو رضي بما هم عليه كل هذه مكفرات ، فمن صدرت منه من غير الإكراه المذكور فهو مرتد وإن كان مع ذلك يبغض الكفار ويحب المسلمين ". الدفاع عن أهل السنة والاتباع ص ٣١ .

وقال الشيخ حمد بن عتيق أيضا: "وأمّا ما يعتقده كثير من الناس عذراً، فإنه من تزيين الشيطان وتسويله وذلك أن بعضهم إذا خوّفه أولياء الشيطان خوفاً لا حقيقة له ظنّ أنه يجوز له إظهار الموافقة للمشركين والانقياد لهم.".

٤٥- وقال الشيخ سليمان بن سحمان : " وأما الولاة المذكورون فإنهم قد حصل منهم موالاة وتول للكفار وموافقة ، ومظاهرة على المسلمين، فلا شك في ردتهم" الدرر ٨/ ٤٩١.

وقال: ومن يتول الكافرين فمثلهم ** ولا شك في تكفيره عند من عقل

٤٦- وقال بعض أئمة الدعوة : " الأمر الثالث مما يوجب الجهاد لمن اتصف به : مظاهرة المشركين وإعانتهم على المسلمين ، بيدٍ ، أو بلسانٍ ، أو بقلبٍ ، أو بمالٍ ، فهذا كفر مخرج عن الإسلام ، فمن أعان المشركين على المسلمين ، وأمد المشركين من ماله بما يستعينون به على حرب المسلمين اختياراً منه فقد كفر". الدرر ٩/ ٢٩٢.

٤٧- وقال بعضهم : (أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن، وهو ليس في سلطانهم، وإنما حمله على ذلك إما طمع في رئاسة أو مالٍ أو مشحةٍ بوطنٍ أو عيالٍ أو خوف مما يحدث في المال، فإنه في هذه الحال يكون مرتداً ولا تنفعه كراهته لهم في الباطن). وهذه من مظاهرة المشركين المكفرة . مجموعة التوحيد ص:٢٩٦ .

٤٨- وقال الشيخ محمد رشيد رضا في فتواه عن تكفير المتجنس بالجنسية الفرنسية : " بل هو بهذا التجنس راضٍ ببذل ماله ونفسه في قتال المسلمين إذا دعته دولته إلى ذلك ، وهي تدعوه عند الحاجة قطعاً . ففي المسألة أحكام كثيرة مجمع عليها ، معلومة من دين الإسلام بالضرورة ، يستحل المتجنس مخالفتها ، واستحلالها كفر بالإجماع " (المنار) ٣٣ / ٢٢٦ .

٤٩- وقال الشيخ أحمد شاكر في فتواه بتكفير من يعين ويظاهر الإنجليز على المسلمين :" أما التعاون مع الإنجليز ، بأي نوع من أنواع التعاون ، قلّ أو كثر ، فهو الردّة الجامحة ، والكفر الصّراح، لا يقبل فيه اعتذار، ولا ينفع معه تأول، ولا ينجي من حكمه عصبية حمقاء ، ولا سياسة خرقاء، ولا مجاملة هي النفاق ، سواء أكان ذلك من أفراد أو حكومات أو زعماء ، كلهم في الكفر والردة ".

إلى أن قال :" ألا فليعلم كل مسلم في أي بقعة من الأرض أنه إذ تعاون مع أعداء الإسلام من الإنجليز والفرنسيين وأحلافهم وأشباههم ، بأي نوع من أنواع التعاون ، أو سالمهم فلم يحاربهم بما استطاع ، فضلاً عن أن ينصرهم بالقول أو العمل على إخوانه في الدين ، إنه إذا ركب هذا المركب الدنيء حبط عمله فصلاته وصومه وحجه وصدقته باطلة، وزواجه باطل وزوجته إذا رضيت بالبقاء معه وهي تعرف فيه هذه الردة فإن حكمها وحكمه في الردة سواء ". كلمة حق ١٢٦.

قال احمد شاكر : (وما كنت يوما بالأحمق فأظن أن الحكومات في البلاد الإسلامية ستستجيب لحكم الإسلام فتقطع العلاقات السياسية مع الانجليز ... ولكن أريد أن أعرفهم بعواقب هذه الردة ...) كلمة حق ٨٧ .

٥٠- قال العلامة عبد القادر بن بدران الشامي ١٣٤٦هـ : (وقد أخبرتنا التجارب أن الكفار ما احتلوا بلدا من بلاد المسلمين إلا كان ذلك بمساعدة خونة أهلها حبا بالمال الزائل والمنصب الخاسر، فمن كان بهذه الصفة فالقرآن صرح بكفره بعد إسلامه وهذه عين الردة . قال تعالى ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ، وليس الكفر إلا عدم الإيمان .

ويندرج في هذه الولاية المكفرة من جعل نفسه جاسوسا لهم على المسلمين أو معينا لهم على نفوذ أمرهم ومن طلب من الكفار حمايتهم من غير ضرورة تلجئه إلى ذلك ومن استعان به الكفرة بالرد على القرآن وتشكيك المسلمين في دينهم ، ومثل هؤلاء لاخلاف في ردتهم) روضة الأرواح ص١١٧ .

٥١- قال الشيخ عبد العزيز المديهش ت ١٣٥١ في كتابه البراهين المعتبرة في هدم قواعد المبتدعة: (فالمقيم في صف المشركين للقتال من المسلمين أعذاره الباطلة غير مقبولة فإنه ارتداد عن الإسلام) .

٥٢- قال شيخ الأزهر خضر الحسين : (لا أظن عالما بقواعد الشريعة يخالف في كفر من يطلع الأجانب على عورات المسلمين ليغلبوهم ويستولوا على أوطانهم) لواء الإسلام ١/ ١١.

٥٣- وسئل بعض علماء مصر منهم محمد أبو زهرة عام ١٣٧٦ عن حكم من يعين دولة أجنبية ضد دولة مسلمة ، فأفتوا بأنه مرتد . لواء الإسلام العدد العاشر .

٥٤- قال الشيخ الشنقيطي بعد ذكر أدلة الموالاة :(يفهم من ظواهر الآيات أن من تولى الكفار عمدا واختيارا رغبة فيهم أنه كافر مثلهم) الأضواء ١/ ٤١٣.

٥٥- وفي جواب لجنة الفتوى في الأزهر عن مساعدة اليهود وإعانتهم في تحقيق مآربهم في فلسطين سنة ١٣٦٦:" فالرجل الذي يحسب نفسه من جماعة المسلمين إذا أعان أعداءهم في شيء من هذه الآثام المنكرة وساعد عليها مباشرة أو بواسطة لا يعد من أهل الإيمان ، ولا ينتظم في سلكهم ، بل هو بصنيعه حرب عليهم منخلع من دينهم ، وهو بفعله الآثم اشد عداوة من المتظاهرين بالعداوة للإسلام والمسلمين .. ولا يشك مسلم أيضاً أن من يفعل شيئاً من ذلك فليس من الله ولا رسوله ولا المسلمين في شيء ، والإسلام والمسلمون براء منه ، وهو بفعله قد دل على أن قلبه لم يمسه شيء من الإيمان، والذي يستبيح شيئاً من هذا بعد أن استبان له حكم الله فيه يكون مرتداً عن دين الإسلام ، فيفرق بينه وبين زوجه ، ويحرم عليها الاتصال به ، ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين ".

(فتاوى في وجوب الجهاد الديني المقدس ص ١٧ –٢٥) .

٥٦- وقال الشيخ عبد الله بن حميد :" فيجب ويتعين على كل مسلم ناصح لنفسه أن يعرف ما قرره العلماء رحمهم الله ، من الفرق بين التولي والموالاة: قالوا رحمهم الله : الموالاة مثل لين الكلام ، وإظهار شيء من البشاشة ، وما أشبه ذلك من الأمور اليسيرة ، مع إظهار البراءة منهم ومن دينهم ، وعلمهم بذلك منه ، فهذا مرتكب كبيرة من كبائر الذنوب ، وهو على خطر .

وأما التولي : فهو إكرامهم ، والثناء عليهم ، والنصرة لهم والمعاونة على المسلمين ، والمعاشرة ، وعدم البراءة منهم ظاهراً ، فهذا ردة من فاعله ، يجب أن تجرى عليه أحكام المرتدين ، كما دل الكتاب والسنة والإجماع " الدرر ١٥/ ٤٧٩.

٥٧- قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي : " وقوله: (إلا أن تتقوا منهم تقاة) أي إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين فلكم في هذه الحال الرخصة في المسالمة والمهادنة لا في التولي الذي هو محبة القلب الذي تتبعه النصرة ".

٥٨- وقال الشيخ عبد العزيز بن باز في حكم من أعان الاشتراكيين أو الشيوعيين ونحوهم : " وكل من ساعدهم على ضلالهم وحسّن ما يدعون إليه، وذمّ دعاة الإسلام ولمزهم فهو كافر ، ضال ، حكمه حكم الطائفة التي سار في ركابها وأيدها في طلبها . وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين ، وساعدهم بأي نوع من أنواع المساعدة ، فهو كافر مثلهم " الفتاوى ١/ ٢٧٤.

وقال : (الأول ردة عن الإسلام ، الرضا بالكفر وعدم إنكاره وعدم البراءة منه أو مساعدة الكفار على المسلمين ونصر الكفار على المسلمين هذه ردة ومظاهرة المشركين ردة عن الإسلام

الثاني صداقتهم أو محبتهم لأمر دنيوي وموالاتهم لذلك لا لمحبة دينهم ولا لنصرتهم على المسلمين فهذا منكر ومن وسائل الشرك) . سبل السلام ١٩٦ .

فتأمل كيف جعل صداقة الكفار ليست كفر إلا إذا كان معها محبة لدينهم أو مناصرة على المسلمين من غير محبة .

وقال : (محبة الكافرين لدينهم ونصرتهم لدينهم أو معاونتهم على المسلمين هذا من الكفر وردة) .

فجعل معاونتهم على المسلمين كفر مطلقا وليس مقيد بكونها للدين ، وأما مناصرتهم على غير المسلمين كمساعدتهم على دنياهم أو على كافرين فليست كفر .

وقال في فعل حاطب:(يستحق القتل لولا أنه شهد بدرا وتأول .. فإذا اندفع القتل في حق حاطب فغير حاطب لا يلحق به ولا يساويه) .

وقال فيه: (منع من تكفيره وقتله شبهة كونه من أهل بدر وكونه تأول ، وإلا لا شك أن التجسس تولّ للمشركين ردة يوجب القتل) سبل السلام ص٢١٨.

وقال : (التولي العام هذا أشرها التولي العام نصرهم على المسلمين ومظاهرتهم وإعانتهم على المسلمين فهذه ردة عن الإسلام) ٢٠٢ .

وقال : (أو ينصر الكفار على المسلمين ويعينهم على مسلم من المسلمين هذه أمور ظاهرٌ كفرها) .٢٠٤ .

٥٩- وقال الشيخ حمود بن عقلا الشعيبي : " أما مظاهرة الكفار على المسلمين ومعاونتهم عليهم فهي كفر ناقل عن ملة الإسلام عند كل من يعتد بقوله من علماء الأمة قديماً وحديثاً ، - ثم أورد نقولات من كلام أهل العلم - وبناء على هذا فإن من ظاهر دول الكفر على المسلمين وأعانهم عليهم كأمريكا وزميلاتها في الكفر يكون كافراً مرتداً عن الإسلام بأي شكل كانت مظاهرتهم وإعانتهم ، لأن هذه الحملة المسعورة التي ما فتئ يدعو إليها المجرم بوش ورئيس وزراء بريطانيا بلير والتي يزعمان فيها أنهما يحاربان الإرهاب هي حملة صليبية كسابقاتها من الحملات الصليبية ضد الإسلام والمسلمين فيما مضى من التاريخ ، وقد صرح المجرم بوش بملء فيه بذلك ، حيث قال سنشنها حربا صليبية ، وسواء أكان ثملا عندما قال ذلك أو كان واعيا فإن هذا هو ما يعتقده هو وأمثاله من أساطين الكفر ".

٦٠- وقال مفتي باكستان الشيخ نظام الدين شامزي: (لا يجوز لمسلم في أي بلد سواء كان موضفاً حكوميا أو غير ذلك أن يقدم أي مساعدة كانت للعدوان الأمريكي على أفغانستان، وأي مسلم يقدم المساعدة في هذا العدوان يعتبر مرتدا عن الدين) . وقد قتل رحمه الله بيد المرتدين بعد فتواه هذه .

فهؤلاء رحمك الله أكثر من ستين عالما وما يزيد عن مائة نقل عنهم وغيرهم كثير جدا كلهم قد أفتى بردة من يظاهر الكفار ويعينهم على أهل الإسلام ، ونقل كثير منهم الإجماع على هذا الأصل .

الثامنة: تاريخ المظاهرة في هذه الأمة وبعض الوقائع التي صارت فيها:

لم توجد مظاهرة الكفار في القرون المفضلة إلا حوادث قليلة سنأتي على ذكرها أما مظاهرة الكفار بهذه الطريقة كما هو الحال في زماننا فلم تعرف .

قال الشيخ عليش عن تاريخ تولي الكفار:" إن هذه الموالاة الشركية كانت مفقودة في صدر الإسلام وعزته ، ولم تحدث على ما قيل إلا بعد مضي مئين من السنين وبعد انقراض أئمة الإسلام المجتهدين فلذلك لم يتعرض لأحكامها الفقهية أحد منهم ، وإنما نبغت هذه الموالاة النصرانية في المائة الخامسة وبعدها من تاريخ الهجرة وقت استيلاء ملاعين النصارى دمرهم الله تعالى على جزيرة صقلية وبعض دور الأندلس) فتح العلي المالك ١/ ٣٧٥ .

ومن صور المظاهرة في تاريخ المسلمين :

١- مظاهرة بعض المنافقين لبني النضير زمن الرسول ﷺ.ونزلت فيهم:

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ الحشر: ١١.

٢- مظاهرة بعض من أسلم وبقي بمكة وخرج مع المشركين في بدر ، وكفرهم الله، ونزلت فيهم الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ النساء: ٩٧ .

والخبر رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه..

٣- ظاهرت بنو قريظة الأحزاب وأعانوهم على الرسول ﷺ فقتلهم .

٤- حصلت من بعض القبائل مظاهرة لمسيلمة والمرتدين فقاتلوهم الصحابة وحكموا بردتهم.

٥- حصلت مظاهرة من بابك الخرمي زمن الإمام أحمد وأفتى بردته.

٦- ناصرت بعض القبائل العربية مناصرة للقرامطة في الجزيرة .

ومن ذلك ما ذكره الدوسري في تاريخه (امتاع السامر) أن بطون من بني عامر بن صعصعة من بني هلال وبني سليم وهتيم وغيرهم حالفوا القرامطة وناصروهم، فكفرهم الناس وأجلوهم من الجزيرة فرحلوا إلى المغرب ومن بقي منهم لم يزوجوه وسارت هذه عادة في قبائل الجزيرة.

٧- قامت بعض قبائل البربر من الملثمين في المغرب بمناصرة الفاطميين فكفرهم العلماء وجاهدوهم وسموهم بالتوارك لأنهم تركوا الدين وكفروهم .

٨- ناصر بعض السلاطين والأمراء والعوام والقبائل في المغرب والاندلس الفرنج ثم الأسبان ثم الفرنسيين عدة مرات وفي كل مرة يفتي العلماء بردة المظاهرين ويكفرونهم ويأمرون بجهادهم .

٩- حصلت مظاهرة للتتار فكفر العلماء فاعلها .

١٠- مظاهرة العساكر المصرية والتركية حين حاربت الدعوة السلفية.

١١- ردة الحكام والرعايا الذين ظاهروا المستعمرين وحققوا مطالبهم في بلدان المسلمين وقاتل بعضهم في صفوفهم وأعانهم ودلهم على عورات المسلمين.

١٢- من ظاهر اليهود في احتلالهم لفلسطين .

١٣- من ظاهر الشيوعين في إفغانستان واليمن وبعض البلدان العربية .

١٤- في أيامنا دخل الكثير في ناقض المظاهرة من أوسع أبوابها .

وذلك في الدخول في حلف الولايات الأمريكية مع الرافضة ومرتدي العرب لحرب الدولة الإسلامية في العراق والشام واشتراك طيران الدول العربية فيه.

وقبلها مظاهرة القوات الأمريكية في حملتها الصليبية على المسلمين في حربها في العراق وأفغانستان ، فارتد بمظاهرتهم خلائق لا يحصيهم إلا الله، فلو رأيتهم وقد فتحت لهم المطارات وسمح لهم بدخول منافذ ديار الإسلام البرية والبحرية والجوية وبنيت لهم القواعد العسكرية، وصدرت فتاوى علماء الشرك بتأييدهم فقال العبيكان : إنهم ولاة أمر المسلمين في العراق ، وقال الرويبضة الفوزان أن أمريكا دولة عادلة والمجاهدين لهم مجرمون ، وأجاز القرضاوي للجنود الأمريكيين الذين ادعوا الدخول في الإسلام البقاء في جيوشهم والعمل معهم ، وأفتى من لا يحصى من الجهمية المرجئة بأن ما قام به هؤلاء المرتدون من المظاهرة والإعانة للكفار ليست ردة لأنهم ظاهروهم لأجل دنياهم وهم لا يكرهون الإسلام ولا يحبون الكفر .

أيضاً مظاهرة الجيوش المرتدة الأفغانية والعراقية في حربها للمجاهدين ، حتى أفتى من أظهر الله ردته بجواز العمل في الجيش العراقي الرافضي المحتل والشرطة العميلة والدخول في العملية الدمقراطية والسلمية والانتخابات وتشريع القوانين الكفرية، وأنشؤوا الصحوات المرتدة من عشائر السنة العراقية لحرب المجاهدين بدعوى الإرهاب ، وسجن المئات ممن أنكر هذه الردة من العلماء والمجاهدين وقتّل منهم وشرد ما لا يحصى على يد المنافقين والمرتدين وتظافرت جهود علماء الشرك والردة بتأييد هذا الكفر البواح ، فإلى الله وحده نشتكي ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المسألة التاسعة : خطورة المظاهرين ، وكون الكفار ما احتلوا بلدا من بلاد المسلمين إلا كان ذلك بمساعدة المظاهرين المرتدين :

قال الشيخ ابن بدران رحمه الله : (وقد أخبرتنا التجارب أن الكفار ما احتلوا بلدا من بلاد المسلمين إلا كان ذلك بمساعدة خونة أهلها حبا بالمال الزائل والمنصب الخاسر) روضة الأرواح ص١١٧.

وسأضرب لذلك بمثلين :

الأول: الحملات الصليبية على العراق وأفغانستان :

لما كان الأفغان يدا واحدة ضد الشيوعيين كسروا الاتحاد السوفيتي أكبر قوة عسكرية في زمانه ، فلم جاءت أمريكا وأوربا واليهود والنصارى بقرضاي في أفغانستان والصحوات أمثال المطلق والمالكي وأبو ريشة وعيفان والسبعاوي ومعهم أرباب القواعد العسكرية في بلاد المسلمين وغيرهم ، فدخلوا العراق وأفغانستان بعد الإعانة الصريحة والمظاهرة لهم من المرتدين، ولا تمكنت عساكر قرضاي المرتد إلا بالجنود الأفغان المرتدين، وما دخلت جيوش المالكي الرافضي والحكومة الصفوية الفارسية المجوسية العراق إلا بإعانة المرتدين من شيوخ العشائر السنية وما شكلوه من صحوات العراق وهم من أهل السنة فأذاقهم الله أشد النكال بأيدي العدو فقتلوا رجالهم وانتهكوا أعراضهم واستحلوا أموالهم ووطنوا الروافض في ديارهم ، فلما رجعوا للمجاهدين والموحدين وناصروهم هرب الروافض من ديارهم بدون قتال واستولى أهل التوحيد على الموصل والأنبار وغيرها .

وقفة تعجب :

مما لا يكاد ينقضي عجبه أن بوش الصليبي لما قال عن حملاته: (إنها حرب صليبية) بادر أولياؤه الذين نافقوا وقالوا له لأن قولتم لننصرنكم فقالوا للمغلوب على أمرهم من العوام والهوام والطوام : إن بوش لا يقصد ، وعذروه ودافعوا عنه.

بينما أهل الجهاد الذين حرسوا حمى الدين وحاموا عن المسلمات ودفعوا الكافر المحتل قالوا عنهم : يقتلون المسلمين ويكفرونهم وهم من الخوارج .

مع أن المجاهدين نفوا عن أنفسهم مذهب الخوارج قولا وثبت قتلهم للكافر ودفاعهم عن المسلم فعلا إلا أن المنافقين قالوا إن لهم نوايا خبيثة ، وأما بوش وأولياؤه الذين بدت البغضاء من أفواههم قالوا ليس لهم نوايا بل نواياهم طيبة ودولتهم عادلة فيا سبحان الله وما أعظم حلم الله.

المثال الثاني: حرب الدولة العثمانية والعساكر التركية والمصرية للجزيرة :
لما كانت قبائل الجزيرة يدا واحدة على المرتدين هزموا القوات المصرية والتركية المشركة ، وما استطاعوا دخول البلدان إلا بإعانة المظاهرين لهم المرتدين ووجود من أفتى لهم * .

---

* قال الشيخ عثمان بن بشر النجدي في تاريخه في سنة ١٢٢٩ : (وحصلت الموقعة بين الترك والجنود الحجازية والتهامية قرب حصن بخروش بزهران فاقتتلوا قتالا شديدا وانهزم الترك هزيمة شنيعة وغنم المسلمون منهم وقتل من الترك أكثر من ألف ولم يسلم إلا من هرب على الخيل). وقال: (لما سار فيصل بن سعود من نجد إلى الحجاز ونزل بلد تربة استنفر الرعايا من المسلمين الحجازية والتهامية فقدم طامي بن شعيب في عسير وألمع ومن دونهم من زهران ورؤساؤهم وغامد وغيرهم نحو عشرين ألفا فلما أقبلوا إلى تربة فخرج فيصل ومعه نحو عشرة آلاف فاجتمعت الجموع في غزايل ثم ارتحلوا إلى الترك وهم ببسل) .عنوان المجد ص: ١٨٢.

فلما بدأ اتصال القوات الأجنبية بأهل البلدان من المرتدين استولوا على البلاد التي وجدوا فيها من يظاهرهم، فما احتل الترك الدرعية وقتلت الموحدين إلا بعد إعانة المرتدين من أهل البوادي وغيرهم لهم ، وإلا لما استطاعوا دخولها.

وإلا لما تحالفت القبائل في الحجاز ولم يظهر فيهم من المرتدين الخونة غلبوا القوات المصرية والتركية.

وجاء في تاريخ القاضي محمد المنصوري الغامدي ت١٣١١ : (سنة ١٢٢٩ خرج محمد علي مقدم دولة الشام (مصر) ووصل بلاد عسير وولده إبراهيم على نجد وأخذ الدرعية وانعدم ملك ابن سعود وتم الأمر لمحمد علي وأعطاه السلطان ملك مصر وصار يمد الجنود لبلاد عسير ولم يقدر عليها) . تاريخ الشيخ المنصوري ص٣٩ .

ومما يؤكد ذلك ما اشتكى منه قادة الحملات التركية المصرية من حروب قبائل غامد وزهران لهم ، ففي رسالة قائد القوات المصرية أحمد يكن لمحمد علي باشا سنة ١٢٥٣هـ قال فيها : (إن قبيلة غامد وزهران مائلتان إلى جانب العدو والمسافة بينها وبين الطائف خمس أو ست مراحل، فلو أهملنا تأديبها مع ماهم عليه من الثورة والعصيان لطمع العدو وقوى بعضهم بعضا) . دار الوثائق القومية محفظة ٢٦١ . انظر موقف غامد وزهران من قوات محمد علي باشا لصالح بن عون ص١١ .

ولما كان هذا حال قبائل الحجاز ممن حارب المرتدين قاتلوهم ، وقتلت الدولة التركية بعض علماء غامد الذين أفتوا بردتهم وقتالها منهم . الشيخ : أحمد الحرفي الذي قتلته العساكر التركية سنة:١٢٦٣هـ .القاضي أحمد بن هبّاد الغامدي ١٢٩٠ .

قال الشيخ المنصوري في تاريخه : (سنة ١٢٤٩هـ وقع الاختلاف بين القبائل والأتراك ، وأحرق هزاع بن عون مدينة الباحة لأجل حربهم المغاربة وقد قتلوا منهم نحو ثلاثين وأخذوا الخيل نحو خمسين ، ولما وصل الشريف ردت الخيل ووقع الصلح بواسطة الشيخ عبد العزيز بن أحمد الغامدي). ص ٤٠ .

المسألة العاشرة : قيام أهل العلم والجهاد بما أوجبه الله عليهم من البيان :
جهاد المرتدين بالمجالدة بالسنان ، وجهاد أنصارهم المنافقين بالمجادلة باللسان والقرآن وبالفتاوى النازلة منهم في كفر المظاهرين وردهم على كل من يخالف .

إن من فضل الله على هذه الأمة المحمدية المرحومة أنه ما أن يحصل غزو من الكفار لبلاد المسلمين ويخرج من صفوف المسلمين من يناصر الكفار بالقتال معهم أو بما دون ذلك إلا وأهل الدين لهم بالمرصاد فالمجاهدون يذيقونهم أشد العذاب والتنكيل والعلماء بالتكفير والتحريض والفتوى بكفر أولئك المظاهرين ويقومون لله بحجتهم وينافحون عن دين الله لا يضرهم من خالفهم أو ناوأهم ، كما يفعلون ذلك عند حصول أي كفر ومنكر آخر كعبادة القبور والاستغاثة بالأموات أو الحكم بغير ما أنزل الله وتشريع القوانين ، ولا يلتفتون إلى خصومهم ومن يخذلهم من أنصار الكفر من المنتسبين للدين والمتلبسين بالعلم والمدعين الفتوى، فسرعان ما يذهب جفاؤهم ويتطاير زبدهم وتكسف شمسهم وتغرب حججهم المبهرجة المكذوبة ويسقط ذكرهم في مزابل التاريخ ويبقى أهل العلم الصادقون على مر العصور، خلد الله ثناءهم ورفع ذكرهم كرامة لهم على ما بذلوه لدينه .

فأين علماء السوء وفقهاء السلاطين من الجهمية الذين أفتوا للمأمون بقتل الإمام أحمد وأين العلماء الذين جوزوا دعاء الأموات زمن ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وأفتوا بتكفيرهم وحثوا على قتالهم ، وهل من أفتى في زماننا للمظاهرين المرتدين والمشرعين الحاكمين بغير ما أنزل الله وحرضوا على قتال الموحدين والمجاهدين من أولئك ببعيد ، وما هم إلا سلسلة خرز مزيف سيلحقهم الله بأسلافهم لا رحم الله منهم مغرز إبره ولا سلمهم الله ولا كرامة .

وإن من أولئك العلماء المجاهدين لؤلئك المظاهرين :

الصحابة في تكفيرهم من قاتل من المسلمين في صفوف مسيلمة .

الإمام أحمد وغيره وفتواهم بارتداد بابك الخرمي لما خرج وحارب المسلمين وهو بأرض المشركين كما في فروع ابن مفلح .

ولما استولت الدولة العبيدية الفاطمية على المغرب ثم مصر وقبلها القرامطة على البحرين أفتى العلماء بردة من ظاهرهم ومنهم ابن حزم وابن الجوزي وألف النصر على مصر وألف أبو شامة كتب فيها وأشار للعلماء الذين كفروهم في كتابه الروضتين.

علماء المغرب الأفذاذ من المالكية حينما أفتوا بردة المعتمد بن عباد حاكم أشبيلية بالأندلس لما استعان بالإفرنج ضد المسلمين كما في الاستقصا.

كذلك فتوى العلماء بعزل وقتل الملك المغيث عمر بن العادل صاحب الكرك لما قام بمكاتبة هولاكو والتتار على أن يأخذ لهم مصر كما في البداية والنهاية .

أيضا فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية بردة من أعان التتار وقفز معهم .

ولما استعان محمد بن عبد الله السعدي ملك مراكش بملك البرتغال ضد عمه أبي مروان المعتصم بالله في عام ٩٨٠، أفتى العلماء بارتداده كما في الاستقصا .

ولما هجمت الجيوش التركية والمصرية على الجزيرة للقضاء على دعوة التوحيد، وأعانهم بعض المنتسبين للإسلام ، أفتى علماء الجزيرة في نجد والحجاز وتهامة بردة من أعانهم ، وألف الشيخ سليمان رسالة الدلائل في إثبات كفر هؤلاء، وقتل بسبب كتابه هذا رحمه الله.

ولما تكرّر نفس الأمر، أفتى العلماء بكفر من أعان المشركين ، وألف الشيخ حمد بن عتيق كتابه سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك والأتراك.

ولما أعانت بعض قبائل الجزائر الفرنسيين ضد المسلمين ، أفتى فقيه المغرب أبو الحسن التسولي بكفرهم . كما في أجوبة التسولي على مسائل الأمير عبد القادر الجزائري ص ٢١٠ .

ولما دخل الانجليز الهند جاهدهم العلماء وأفتى علماء الحنفية وعلماء الحديث في الهند من آل الدهلوي وغيرهم بردة من ناصرهم .

ولما استولى اليهود على فلسطين ، وأعانهم بعض المسلمين عام ١٣٦٦، أفتت لجنة الفتوى بالأزهر بكفر من أعانهم .

ولما اعتدى الفرنسيون والبريطانيون على المسلمين في مصر وغيرها ، أفتى الشيخ أحمد شاكر بكفر من أعان هؤلاء بأي إعانة.

ولما كثر الشيوعيون والاشتراكيون في بلاد المسلمين ، وأعانهم بعض المنتسبين للإسلام ، أفتى الشيخ عبد العزيز بن باز وغيره بكفر من أعانهم .

ولما قامت الحرب الصليبية الأمريكية على افغانستان والعراق أفتى أهل العلم قاطبة في جميع بلا د المسلمين بردة من يعينهم أو يقاتل معهم أو يفتح بلاده لهم.

والحمد لله رب العالمين .

المسألة الحادية عشرة : مكانة الولاء والبراء ومنزلته وأهميته

لما كانت المظاهرة داخلة في باب الولاء والبراء وناقضة له من أصله ، ناسب ذكر مكانة الولاء والبراء من الدين.

وسيأتي تقرير أن الإسلام لا يصح إلا بالولاء والبراء ، وهو لا يقوم إلا بمعاداة الكفار وبيان خطورة موالاة الكفار فضلا عن مظاهرتهم في الباب الثاني.

المسألة الثانية عشرة : حكم المظاهرة وكون فاعلها كافرا مرتدا ومنافقا :

إن مظاهرة الكفار ضد المسلمين كفر أكبر بواح وردة مغلظة عظمى ونفاق صراح وخيانة لله تعالى، ولرسوله ﷺ وللمؤمنين . وقد قدمنا الأدلة على ذلك .

قال الشيخ عبد اللطيف : "وأكبر ذنب وأعظمه منافاة لأصل الإسلام نصرة أعداء الله ومعاونتهم، والسعي فيما يظهر به دينهم ".

المسألة الثالثة عشرة: أوجه الكفر في المظاهرة :

١- المظاهرة تناقض أصل التوحيد القائم على الولاء والبراء من الكفر وأهله.

٢- المظاهرة تقوم على الإيمان بالطاغوت والقتال في سبيله وعدم الكفر به .

٣- المظاهرة تقوم على تولي الكفار وعدم البراءة من الشرك ومعاداة الكفار.

٤- المظاهرة تنقض الولاء والبراء من أصله .

٥- أن فيها هدم للإسلام وحرب للدين .

٦- أن فيها إظهار للكفر وتمكين لأعداء الله في الأرض .

٧- يلزم منها بغض الدين وكره ما أنزل الله والرضا بالكفر .

المسالة الرابعة عشرة : المظاهرة من الكفر الأكبر:

المظاهرة كلها من الكفر الأكبر، ولا تكون من الكفر الأصغر ولا يوجد من صورها شيء من الكفر الأصغر إذ جنس إعانة الكفار على المسلمين كفر مطلق .

ولا يوجد مظاهرة صغرى ليست كفر إلا من ناحية اللزوم :

كإعانة الكفار على دنياهم وإفادتهم ومساعدتهم ، والعمل في أمر ينفعهم ويقويهم كالخبراء المسلمين الذين يعملون عندهم أو طبيب ومهندس ومبتكر وصانع في بلاد الكفار فيبيعون ذممهم وولائهم الواجب لأجل الدنيا والأموال

فيفيدهم ويسعى لتقويتهم في أنفسهم لا على المسلمين لكن في نهاية الأمر يتقووا بها على كفرهم وقد يستخدمونها في حربهم على المسلمين، فإنه يدخل في موالاة الكفار وتقويتهم وإظهارهم ولو لم يقصد ذلك فيخشى عليه الردة ، وكذا أيضا التسامح والمصانعة والنهي عن الدعاء عليهم. وكذا التشبه بالكفار. وعموم الموالاة الغير مكفرة فيها نوع إعانة لهم .

فكل هذه الصور تستلزم أن يكون فاعلها من مظاهري الكفار وإن كان ليس بمظاهر في الحقيقة . لأن كل موالاة تستلزم تقوية للكفار وتهوين المسلمين وهذه الصفة من معاني المظاهرة، أما المظاهرة الحقيقية وبمعناها الخاص والمقصودة هنا والتي هي إعانة الكفار على المسلمين فلا يوجد منها شيء أصغر أو مظاهرة صغرى وكلها من الكفر الأكبر وفاعلها كافر خارج عن الملة والعياذ بالله .

والمظاهرة من الكفر العملي الظاهر كما سيأتي به البيان.

قاعدة : المظاهرة منافية لأصل الولاء والبراء :

المظاهرة والمقاتلة مع الكفار ضد أهل الإسلام منافية لأصل الولاء للمؤمنين وأصل البراءة من المشركين، الموالاة فيها نوع مظاهرة وإعانة للكفار وتستلزمها .

وذلك للتلازم بين الظاهر والباطن، وأنه لا يمكن أن يكون العبد مؤمنًا بالله ورسوله ، محبًا لأهل الإيمان ولما هم عليه، مبغضًا لأهل الكفر وما هم عليه، ثم هو يتولى الكفار ويناصرهم على المؤمنين ليُحصِّل منهم منفعة دنيوية، مع علمه بما تستلزمه نصرته لهم من انتصار الكفر على الإسلام .

المسألة الخامسة عشرة : ضوابط المظاهرة :

حقيقة المظاهرة كل فعل اشتمل على حصول واحد من أمور أربعة :

الأول : القتال مع الكفار ضد المسلمين و كل ما فيه إعانة لهم في حربهم على الإسلام والمسلمين .

الثاني : كل فعل فيه إظهار للكفار وتمكينهم وتقويتهم على المسلمين وحصول القهر والغلبة لهم .

الثالث : أي عمل فيه إظهار للكفر أو بروز للكفر وإظهاره وعلوه وتزيينه.

الرابع : كل عمل فيه إهانة الإسلام والنيل منه ومحاربته والطعن فيه وصد الناس عنه والتشكيك فيه.

وهذه كلها من مظاهرة الكفار على الإسلام والمسلمين .

المسألة السادسة عشرة : صور ودلائل المظاهرة :

١- الوقوف مع الكفار ضد المسلمين والانضمام إليهم وإعانتهم في قتالهم ومساعدتهم على أهل الإسلام.

٢- السعي لإظهار الكفار وتمكينهم وتقويتهم على المسلمين.

٣- الدخول في جيوش الكفار والمرتدين والقتال معهم والمقاتلة في صفوفهم والعمل جنديا في جيشهم وعسكرهم .

٤- إمداد الكفار بالعدة والعتاد والآلات والسلاح .

٥- العمل في جيوش الكفرة وخدمة جيوشهم بإطعامهم وجلب الماء لهم ومداواتهم ، وإعانتهم في حربهم بالقوت والطعام والماء وما يحتاجونه .

٦- تدريبهم على الطرق القتالية والخطط الإستراتيجية والفنون الحربية وإمدادهم بالخبرات .

٧- تأييدهم وتشجيعهم ومساندتهم في رأيهم وموافقتهم في حربهم المسلمين وعداوتهم للإسلام .

٨- تسهيل أمورهم في غزوهم ومساعدتهم في حربهم على المسلمين.

٩- السعي لتمكينهم وتوطيدهم وتثبيتهم .

١٠- حصار المسلمين ومعاداتهم وحربهم وإغلاق الطريق عنهم.

١١- التجسس للكفار ونقل أسرار المسلمين لهم أو نقل الأخبار .

١٢- حرب المجاهدين وقتلهم واعتقالهم ومنعهم من الجهاد وصد المسلمين عن الجهاد ونصرة إخوانهم المستضعفين.

١٣- تسليم المسلمين الفارين بدينهم المتخفين الذين لا يجدون من يحميهم ولا بلد يأويهم لأعدائهم الكافرين ، والتعاون الاستخباراتي على تسليم المجاهدين بدعوى مكافحة للإرهاب .

١٤- منع المسلمين من جهاد الكفار المحاربين المحتلين لديار المسلمين وصد الناس عن الجهاد ونصرة المستضعفين وإغلاق الطريق عنهم وإيقاف التبرعات لهم .

١٥- فتح المطارات والقواعد الجوية والعسكرية لهم ، والأشنع أن يسمح لهم أن يبنوا قواعد عسكرية ، ومن شك في ردة فاعل ذلك فهو مرتد.

١٦- حماية الكفار والدفاع عنهم ورد المسلمين عنهم وإحباط قتالهم وإفشال الجهود في مقاومتهم والذب عنهم بكل وسيلة .

١٧- فتح بلاد الإسلام للكفار حتى يصلوا للمسلمين ودلالتهم على الطرق وتيسيرها لهم ، والسماح لهم بالمرور بالأجواء والتزود بالوقود لضرب المسلمين وحربهم ، ودخول جيوش الكفار بلاد الإسلام وتمكينهم من العبور منها ويتقووا فيها ويستريحوا بها ويحطوا بها رحلهم ويأخذوا مددهم منها .

١٨- المنع من تكفير الكفار وإظهار عداوتهم والبراءة منهم والدعاء عليهم .

١٩- دلالتهم على عورات المسلمين وإخبارهم بنقاط الضعف التي يدخلوا منه للنيل من المسلمين وكشف المواطن التي يمكن أن يغلبوا فيها والأوجه والخطط التي تعين على هزيمة المسلمين .

٢٠- إعانتهم على إهانة الإسلام والنيل منه والطعن فيه ومحاربته والصد عنه.

٢١- المشورة عليهم بما فيه مضرة وحرب المسلمين .

٢٢- دعمهم إعلاميا وتعظيم الكفار والتهويل من قوتهم وإشاعة الأراجيف والتخذيل في المسلمين وتوهين قوة المسلمين وتثبيطهم .

٢٣- الدعاية لهم ودعوة الناس لمناصرتهم ، والذب عنهم باللسان .

٢٤- جعل أرض المسلمين بين أيديهم ليستفيدوا منها كيف شاؤوا ووضع مقدراتها وخيراتها وكنوزها وثرواتها بأيديهم والسماح بهيمنتهم عليها .

٢٥- السماح لهم إعلاميا للدعوة لدينهم وبث كفرهم والتشكيك في الإسلام والطعن فيه وإثارة الشبهات حوله والغزو الفكري والسماح للمستشرقين ومؤسسات التنصير وتصريح القنوات التي تحمل حرب الإسلام والسخرية بالدين.

٢٦- السعي في نشر عقائدهم وكتبهم ودعواتهم وكل ما فيه توطيد الكفر أو إظهار له وبروز الشرك وإظهاره وعلوه .

٢٧- الإفتاء بجواز مظاهرتهم ، والنهي عن تكفر المرتد المظاهر .

٢٨- انتخابهم في الرئاسة والتصويت على دساتيرهم الشركية.

هذه كلها من مظاهرة الكفار على الإسلام والمسلمين . وغير ذلك كثير مما لا تنتهي صوره ، فللمظاهرة صور كلها كفر يناقض الإيمان من أصله وتبيح دم فاعله .

قال ابن بدران: (ويندرج في هذه الولاية المكفرة من جعل نفسه جاسوسا لهم على المسلمين أو معينا لهم على نفوذ أمرهم ومن طلب من الكفار حمايتهم من غير ضرورة تلجئه إلى ذلك ومن استعان به الكفرة بالرد على القرآن وتشكيك المسلمين في دينهم ، ومثل هؤلاء لاخلاف في ردتهم) روضة الأرواح ص١١٧ .

السابعة عشرة : صور من المظاهرة التي تكون بغير قتال للمسلمين :

١- إعانة الكفار على نشر دينهم وغزوهم الفكري .

٢- دعمهم إعلاميا وتعظيم الكفار والتهويل من قوتهم وإشاعة الأراجيف والتخذيل في المسلمين وتوهين قوة المسلمين وتثبيطهم .

٣- الدعاية لهم ودعوة الناس لمناصرتهم والذب عنهم باللسان .

٤- الإفتاء بجواز مظاهرتهم وعدم كفر المظاهر .

٥- جعل أرض المسلمين بين أيديهم ليستفيدوا منها كيف شاءوا ووضع مقدراتها وخيراتها وكنوزها وثرواتها بأيديهم والسماح بهيمنتهم عليها .

٦- السماح لهم أن يبثوا كفرهم في بلادنا ويشككوا في الدين ويطعنوا فيه ويثيروا الشبهات والتصريح للمستشرقين ومؤسسات التنصير والقنوات للقيام بالغزو الفكري وحرب الإسلام إعلاميا والسخرية بالدين .

٧- إعانتهم على إهانة الإسلام والنيل منه ومحاربته والطعن فيه وصد الناس عنه والسخرية بأهله ، والسماح لهم بالكتابة في جرائد المسلمين بالكفر البواح أو خروجهم في الإعلام أو كتابة ونشر مطاعنهم في الدين وسبهم لأهله وسخريتهم بالله ورسوله وأوليائه أو إهانة المصحف أو هدم مسجد ونحو ذلك.

ومن هذا الباب ردة الموظفين المسلمين العاملين في صحف كافرة تنشر الكفر والسخرية بالدين والنبي ﷺ وأي عامل في إعلام يظهر الاستهزاء بالدين وحرب أهله فهو كافر مرتد ، وإذا كان الله تعالى كفّر من يجالس المستهزئ من غير إكراه، فكيف من يعمل في مقر ينشر فيه كفر الاستهزاء .

٨- السعي في نشر عقائدهم وكتبهم ودعواتهم وكل ما فيه توطيد الكفر أو إظهار له وبروز الشرك وإظهاره وعلوه .

قال الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ : (وأكبر ذنب وأضله وأعظمه منافاة لأصل الإسلام نصرة أعداء الله ومعاونتهم والسعي فيما يظهر به دينهم وما هم عليه من التعطيل والشرك والموبقات العظام، وكذلك انشراح الصدر لهم وطاعتهم والثناء عليهم، ومدح من دخل تحت أمرهم وانتظم في سلكهم، وكذلك ترك جهادهم ومسالمتهم، وعقد الأخوة والطاعة لهم) مجموعة الرسائل ٣/ ٥٧ .

ومن ذلك بناء كنائسهم وطباعة كتبهم الداعية لكفرهم أو الكتب المحرفة كالإنجيل والتوراة التي بأيديهم .

قال ابن القيم : (والوقف على كنائسهم ومواضع كفرهم التي يقيمون فيها شعائر الكفر فلا يصح، فإن ذلك من أعظم الإعانة لهم على الكفر والمساعدة والتقوية عليه وذلك مناف لدين الله) أحكام أهل الذمة ١/ ٦٠٣ .

وقال القرافي : (لايعاد ما انهدم من الكنائس ومن ساعد على ذلك فهو راض بالكفر والرضا بالكفر كفر) نقلا من حاشية رد المحتار .

وقد فصلنا الكلام عن هذه المسألة في شرح ناقض البغض من نواقض الإسلام.

المسألة الثامنة عشرة: علاقة المظاهرة بالمناصرة والخذلان :

المظاهرة : إعانة الكفار على المسلمين .

فالمظاهرة خاصة بموقف المسلم مع الكفار .

والخذلان : يكون بترك مناصرة المسلمين وإعانتهم مع القدرة ، فيتخلى عنهم ويسلمهم لحيلهم ، وهذا كان على عهد رسول الله ﷺ من النفاق ولا يعذر صاحبه كما نزلت الآيات في سورة التوبة في الثلاثة الذين خلفوا.

والمظاهرة أشد من الخذلان وأنكى وأعظم جرماً بل لا مقارنة بين الحالين .

المسألة التاسعة عشرة : بعض صور الموالاة التي فيها نوع مظاهرة :

الأولى : المحالفة والاستعانة :

من الموالاة المكفرة والمشابهة للمظاهرة محالفة الكفار ضد طائفة من المسلمين والاستعانة بهم على قتلهم وإبادتهم إذا كان للكفار صولة ودولة وقوة ورأي واستقلال في الحرب .

قال الشيخ البرزلي: (استفتى يوسف بن تاشفين علماء زمانه عام ٤٨٠ في استنصار ابن عباد حاكم أشبيلية بالكتابة إلى الإفرنج على أن يعينوه على المسلمين ، فأجابه جلهم بردته وكفره). القضاء من نوازل البرزلي من الاستقصاء ٢ / ٧٥ .

كما أفتى به علماء المالكية في المغرب بكفر محمد بن عبد الله السعدي حاكم مراكش عام ٩٨٤ وردته ، وذلك لما استعان بملك البرتغال ضد عمه أبي مروان المعتصم بالله . انظر الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ٢/ ٧٠ .

قال الشيخ عبد اللطيف : (وأما مسألة الاستنصار بهم فمسألة خلافية ، والصحيح الذي عليه المحققون منع ذلك مطلقا وحجتهم حديث عائشة وعبد الرحمن بن حبيب ، والقائل بالجواز اشترط أن يكون فيه نصح للمسلمين ونفع لهم وهذا فيه هلاكهم ودمارهم وشرط أيضا أن لا يكون للمشركين صولة ودولة يخشى منها كذلك أن لا يكون لهم دخل في رأي ولا مشورة .

وكل هذا في قتال المشرك للمشرك مع أهل الإسلام أما استنصار المسلم بالمشرك على الباغي فلم يقل بهذا إلا من شذ) مجموعة الرسائل ٣/ ٦٧.

الثانية : الإعانة المطلقة للكفار وإفادتهم وتقويتهم:

قال ابن خجو المالكي : (فإن تواطأ أهل قطر على بيع الجلود والخيل وآلات الحرب لعدو الدين فاعلم أنهم نبذوا الإسلام وراء ظهورهم) . الفتاوى الفقهية في عهد السعديين جمع اليوبي ٢١٨ .

وقال ابن عجيبة في تفسيره : (قال أبي الحسن الزروالى الصغير (ت٧١٩) : (بيع السلاح للعدو الكافر كفر) البحر المديد ٢/ ٢٦٢.

وإذا كانت الإعانة المطلقة للكفار من الكفر فكيف إذا كانت على المسلمين.

الثالثة: المدافع عن الكفار :

من صور المظاهرة من يدافع عن الكفار أو يدعو المسلمين إلى الكف عن التعرض للكفار وعدم سبهم والتنكيل بهم حمية لهم من غير قصد دعوتهم للإسلام :

قال الشيخ سليمان في أوثق عرى الإيمان : (الذي يتسبب بالدفع عن الكفار حميّة دنيوية إما بطرح نكال أو دفن نقائص المسلمين لهم، أو يشير بكف المسلمين عنهم من أعظم الموالين المحبين للكفار من المرتدين والمنافقين وغيرهم .. وإن كان المراد بكف المسلمين عنهم أن لا يتعرض المسلمون لهم بشيء لا بقتال، ولا نكال وإغلاظ ونحو ذلك، فهو من أعظم أعوانهم، وقد حصلت له موالاتهم) .

الرابعة: موافقة الكفار :

مما يدخل في مظاهرة المشركين ويستلزمها إظهار الموافقة لهم من غير إكراه.

قال ابن عتيق : (أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن، وهو ليس في سلطانهم، وإنما حمله على ذلك إما طمع في رئاسة أو مال أو مشحة بوطن أو عيال أو خوف مما يحدث في المال فإنه في هذه الحالة يكون مرتداً ولا ينفعه كراهته لهم في الباطن) . سبيل النجاة والفكاك ص٦٢.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله في أول كتابه الدلائل : (اعلم أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفاً منهم ومداراة لهم ومداهنة لدفع شرهم فإنه كافر مثلهم، وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين ".

الخامسة : إعانة حزب كافر ليصل إلى الحكم :

من المظاهرة الكفرية السعي في دعم حزب كافر وانتخابه ومحاولة تمكينه من حكم المسلمين والسلطة ومن ذلك الأحزاب الشيوعية والليبرالية والإشتراكية والعلمانية والديمقراطية والقانونية والمشركة والصوفية والمتولية للكفار وكل حزب مرتد إعانته ومظاهرته والسعي في توليته مع ردته كفر وردة .

السادسة : التقريب بين الأديان والدعوة للحوار الذي بمعنى التقريب:

ومن الصور الداخلة في عموم المظاهرة الدعوة لوحدة الأديان وإقامة مؤتمرات وملتقيات من أجل تقرير وحدة الأديان والتقريب بينها وإزالة الخلاف العقدي، وإسقاط الفوارق بين تلك الديانات، وقد يطلقون على هذه الوحدة بالديانة الإبراهيمية العالمية.

والدعوة إلى وحدة الأديان كفر صريح، لما تتضمنه من تكذيب للنصوص الصحيحة الظاهرة ، وتتضمن دعوة وحدة الأديان تجويزا وتسويغا لاتباع غير دين الإسلام، وقد فصلنا الكلام فيها في شرح نواقض الإسلام في الناقض الثالث .

المسألة العشرون: علاقة التجسس بالمظاهرة:

من صور موالاة الكفار المنتشرة منذ قيام الإسلام العمالة والجاسوسية، فقد كانت موجودة منذ عهد الرسول ﷺ، ويكثر هذا في البلاد المحتلة كفلسطين والعراق وغيرها.

الفرق بين الجاسوس والعميل :

الجاسوس متخفي ينقل الأسرار للكفار وينقل أخبار المسلمين ويدخل فيه ما يسمى في عصرنا الاستخبارات، والتجسس يدخل في جنس المظاهرة الكفرية.

وأما العميل فهو أعم من الجاسوس فهو من يعمل لمصالح الأعداء فكأنه عاملا عندهم لتحقيق مصالحهم ورغباتهم وتنفيذ مطالباهم .

حكم العميل : كافر مرتد لأنه متول للكفار، سواء كان عمله لهم حبا في دينهم أو بغضاً في الإسلام أو لأجل مصالحه وشهواته .

حكم الجاسوس : يعد المتجسس لمصلحة الكفار مرتدا .

حالات التجسس :

١- أن يقصد الجاسوس وناقل الأسرار نصرة الكفار على المسلمين وهزيمتهم فيكون بهذا الفعل مرتداً كافراً سواء كان غرضه حبا في الكفر وأهله وبغض للمسلمين أو كان فعله لغرض دنيوي ومصالح ذاتية من مال أو منصب أو مجرد وظيفة أو غيره لا فرق فهو كافر مطلقاً، ولو لم يكن محباً للكفر أو راضياً عن دينهم.

٢- أن يكون الجاسوس بفعله مجتهداً متأولاً فلا يقصد المظاهرة ونصرة الكفار، معتقدا أن فعله لن يضر المسلمين ولا يؤثر على انتصارهم .

ومن هذه حالة فيعد قد فعل كفراً ويعتبر مرتداً ، لأن مجرد عمله يعد مناصرة ومظاهرة وتول للكفار ولو لم يقصد ذلك ولو كان كارهاً للكفر مبغضاً للكفار .

ولا ينظر إلى من قال: إنه ارتكب كبيرة من الكبائر وليس أمراً كفرياً ، وإن فعله في الموالاة الصغرى لا التولي والموالاة الكبرى واختلافهم في قتله .

على ما تقرر فالتجسس داخل في عموم المظاهرة وهو كفر وردة مطلقا ويقتل صاحبها على الصحيح .

وإليك كلام أهل العلم في ردة الجاسوس :

قال ابن القاسم في الجاسوس : (يُقتل ولا تُعرف لهذا توبة، هو كالزنديق).

قال سحنون: (إذا كاتب المسلم أهل الحرب قتل ولم يُستتب).من المستخرجة.

قال ابن القاسم عن التجسس للكفار : (ذلك زندقة لا توبة فيه أي لايستتاب ويقتل كالزنديق، وقال ابن وهب ردة ويستتاب). التحرير والتنوير ٣/ ٢١٩.

قال الداوودي (ت٤٠٢) : (ويقتل الجاسوس مسلما كان أو كافرا ولا يستحيا بحال لما يخاف من عودته ولئلا يتأسى به غيره إذا ترك، ولأنه إن كان مسلما فهذا ارتداد) . الأموال للداوودي ص: ٢٣٨، ترتيب المدارك ٧/ ١٠٢ .

قال الحازمي ١٢٣٤: (إنما عفا الله عن حاطب لسابقته ولكونه من أهل بدر وفيها دليل على قتل من فعل كفعله فإن عمر ﷺ قال لرسول الله ﷺ دعني أضرب عنق هذا المنافق ... فجعل العلة كونه من أهل بدر ولو لم يكن هذا سبباً شرعياً للقتل لأنه لا يحل قتله لنفي الله الإيمان عمن واد من حاد الله). قوت القلوب١٧٤.

قال ابن بدران: (ويندرج في هذه الولاية المكفرة من جعل نفسه جاسوسا لهم على المسلمين) روضة الأرواح ص١١٧ .

قال المازري : (والذي يظهر لي أن حديث حاطب لا يستقل بحجة ... فقطع على تصديق حاطب لتصديق النبي ﷺ له وغيره ممن يتجسس لا يقطع على سلامة باطنه ولا يتيقن صدقه فيما يعتذر به فصار ما وقع في هذا الحديث قصة مقصورة لا تجري فيما سواها) المعلم بفوائد مسلم ٢/ ٣٦٢ .

قال ابن باز في فعل حاطب: (يستحق القتل لولا أنه شهد بدرا وتأول .. فإذا اندفع القتل في حق حاطب فغير حاطب لا يلحق به ولا يساويه) .

وقال فيه : (منع من تكفيره وقتله شبهة كونه من أهل بدر وكونه تأول ، وإلا لا شك أن التجسس تولّ للمشركين وردة توجب القتل) سبل السلام ص٢١٨.

وسيأتي الكلام عن فعل حاطب عند الجواب عن شبهات المخالفين ، وكون فعله من الكفر بدليل طلب عمر قتله وأن حاطبا مخصوص خارج عن الحكم لصدق سريرته ولحضور بدر وغيره مما هو خاص بحاطب لا يشركه أحد والحكم خاص بالرسول ﷺ لإطلاع الله له على سريرة حاطب وحقيقة أمره، وأما نحن فليس لنا ذلك الحكم والعذر .

المسالة الحادية والعشرون : وسائل المظاهرة وآلاتها :

١- العمل بالبدن والقتال.
٢- المظاهرة بالكتابة والقلم .
٣- بالقول والأمور المعنوية كالدعاية والإعلام والتأييد والموافقة.
٤- بالمال ومنه السلاح والطريق .

قال الطبري في تفسيره : (ولم يظهروا عليكم أحدا من عدوكم فيعينوهم بأنفسهم وأبدانهم ولا بسلاح ولا خيل ولا رجال) .

المسألة الثانية والعشرون : أنواع المظاهرة : تتنوع المظاهرة إلى أنواع باعتبارات:

مظاهرة قتالية ومظاهرة بغير قتال.
مظاهرة في الحرب وفي السلم .
مظاهرة بالبدن وبالمال .
مظاهرة قولية وعملية .
مظاهرة ظاهرة وباطنة بالتجسس ونحوه .
مظاهرة طارئة ودائمة .
مظاهرة فردية وجماعية .
مظاهرة للدين والدنيا .
مظاهرة في نصرة الأبدان والدفع عنهم ومظاهرة لنصرة الأديان بنصرة دينهم.
مظاهرة للكفار الأصليين والمرتدين .

المسألة الثالثة والعشرون : تكفير مظاهر الكفار يعم المرتدين والأصلين :

من ظاهر الكفار يكفر سواء كان الذين ظاهرهم مرتدين أو كفاراً أصليين، ولا يعذر بتأويله وجهله بردتهم وهذا الأصل قرره العلماء وصنفوا فيه منهم:

الشيخ سليمان بن عبدالله ألف كتابه الدلائل لما غزت القوات المصرية للجزيرة عام ١٢٢٦ فكتب رسالته يبين فيه كفر من ناصر القوات المصرية وهي قوات وجيوش مرتدة ، ومثله الشيخ حمد بن عتيق كتب رسالته سبيل النجاة والفكاك من موالاة الأتراك وهي كذلك ألفت لما غزت العساكر التركية فكفر هو وغيره من ناصر الدولة التركية على الدعوة السلفية وهي مرتدة ، فليس التكفير للدولة التركية فحسب، بل كفر أهل العلم من يناصرها ويدخل تحت لوائها ضد أهل التوحيد .

قال أبو العباس الونشريسي (ت٩١٤) : (ولا تجد في تحريم هذه الإقامة وهذه الموالاة الكفرانية مخالفا من أهل القبلة.. ومن خالف الآن في ذلك أو رام الخلاف من المقيمين معهم والراكنين إليهم فجوز هذه الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ..) المعيار المعرب ٢/ ١٢٣ .

أما الكفار الأصليون فكتب أهل العلم وفتاواهم في كفر من يناصرهم أكثر من أن تحصر ذكرنا بعضها في النقولات من كلام أهل العلم .

تنبيه: الداخل في عساكر المرتدين أو يعينهم حال حربهم لأهل التوحيد ، فإن هذا يكفر مطلقاً لأجل مظاهرته ، ولا يعذر بجهل أو تأويل أو عدم علمه بكفر المرتدين ، ولو أنه فقط لم يكفر المرتدين جاهلا بحالهم فإن هذا نعذره ولا نكفره، أما من زاد على عدم التكفير الوقوع في مظاهرتهم فإن هذا لا يعذر بحال ويكفر مطلقا.

المسألة الرابعة والعشرون: مظاهرة الفسقة والظلمة والمبتدعة وإعانتهم :

يحرم إعانة الظالم على ظلمه والفاسق على فسقه والمبتدع على بدعته ، وقد نهى الله ﷻ ورسوله ﷺ عن ذلك وأمروا باعتزال الظلمة وهجرهم ونهينا عن مجرد الجلوس معهم وإلا انطبق فينا الحكم ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ النساء: ١٤٠ فكيف بإعانتهم.

وهو من التعاون على الإثم المنهي عنه كما في قوله سبحانه : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ المائدة: ٢ .

ومن هذا الباب جاء نهي السلف عن مجالسة أهل الأهواء والمحدثات والبدع والأمر بهجرهم وكذلك النهي عن الدخول على السلاطين إلا لمنكر أو ناصح .

قال النبي ﷺ : (أنه سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد علي الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه وهو وارد علي الحوض) رواه الترمذي .

كما أنه جاء فيهم النهي من النبي ﷺ عن العمل لهم فقال : (لا يكن أحدكم لهم شرطيا ولا جابيا ولا عريفا) أخرجه الطبراني .

وقال ﷺ : (من قتل تحت راية عمية يدعو لعصبية أو ينصر عصبية فقتلته جاهلية) رواه مسلم .

وعند الحاكم : (من أعان على خصومة بظلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع).

قال ابن العربي (قال سحنون :إنما يقاتل مع الإمام العادل سواء كان الأول أو الخارج عليه فإن لم يكونا عدلين فأمسك عنهما .. قال الإمام مالك : إذا خرج على الإمام خارج وجب الدفع عنه مثل عمر بن عبد العزيز فأما غيره فدعه ينتقم الله من ظالم بمثله) . أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٥ .

قال الشافعي : (لو أن قوما أظهروا رأي الخوارج ، وتجنبوا جماعة المسلمين وكفروهم لم تحل بذلك دماؤهم ولا قتالهم لأنهم على حرمة الإيمان حتى يصيروا إلى الحالة التي يجوز فيها قتالهم من خروجهم إلى قتال المسلمين) الأم ٤/ ٢٢٩.

قال الإمام أحمد للسجان أنت من الظلمة أنفسهم ، لا مجرد أعوان الظلمة .

قال ابن حجر : (أخرج الطبري عن علي في الخوارج قال: إن خالفوا إماما عدلا فقاتلوهم وإن خالفوا إماما جائرا فلا تقاتلوهم .

قلت وعلى ذلك يحمل ما وقع للحسين بن علي وأهل المدينة في الحرة وابن الزبير والقراء الذين خرجوا على الحجاج في قصة الأشعث) الفتح ٨/ ٣٤ - ٢ .

المسألة الخامسة والعشرون : المظاهرة للفرد والجماعة :

لا يختلف حكم المظاهرة ما إذا كانت صادرة من فرد أو جماعة ، وكذا إذا كانت صادرة ضد جماعة المسلمين أو طائفة منهم ، واختلف أهل العلم لو ظاهر الكفار على قتل مسلم بينهم هل يكفر بفعله أم لا ، والصحيح أنه يكفر ويستتاب.

المسألة السادسة والعشرون : المظاهرة الدائمة والطارئة :

المظاهرة الدائمة وصورتها: كالحلف والمعونة الدائمة المبنية على اتفاق ثابت وهذا من أعظم أبواب تولي الكفار ، كالتحالف في الأمم المتحدة لحرب الجهاد.

المظاهرة المؤقتة والطارئة كمناصرتهم على المسلمين وهي تحصل عند الحروب.

والمظاهرة كفر وردة ولو لم يعملها المسلم إلا مرة واحدة .

المسألة السابعة والعشرون: أقسام إعانة الكفار :

١- إعانة الكفار على المسلمين وهذا كفر مطلقاً لا تفصيل فيه كما تقدم .

٢- إعانة الكفار على كفرهم وكل ما فيه نشر لدينهم والدعوة إليه وهذا كفر .

٣- إعانة الكفار إعانة مطلقة حتى يتقووا ويتمكنوا وهذه كفر.

٤- إعانة الكفار على بعض أمور دنياهم وهذا محرم وليس من الكفر.

٥- إعانة الكافر غير المحارب من باب الإحسان له والبر به وهذا جائز .
٦- إعانة المسلم على ردته وتيسيرها له وهذا كفر أكبر .
٧- إعانة الكفار على كفار مثلهم وهي ليست بكفر.
٨- إعانة الظلمة والمبتدعة والفسقة والبغاة من المسلمين وهي محرمة .
٩- الاستعانة بالكفار على المسلمين وهي محرمة لكن ليست بكفر ما لم يكن تحالفا أو للكفار تأثير وقصد في الحرب ودولة وصوله ورأي.
١٠- التحالف مع الكفار لحرب طائفة من المسلمين وهذه ردة.
١١- إعانة كافر على مسلم معين وهذه ردة على الصحيح.
١٢- إعانة كافر على أخذ مظلمته من مسلم .

وهذه الإعانة جائزة وليست من المظاهرة، لكن شرط جوازها أن يكون طريق أخذ حق هذا الكافر حاكم المسلمين وقاضيهم بالشرع، كما قاضى اليهودي علي ﷺ عند قاضيه، وحينما تظلم لعمر بن عبد العزيز أهل بلد فتحت بلادهم قبل دعوتهم فأمر الخليفة من بها من المسلمين أن يخرجوا منها .

المسألة الثامنة والعشرون : درجات المظاهرة ومراتبها :

المظاهرة تتفاوت خطورتها وكفر فاعلها، فهي ليست على حد سواء فأشدها الحلف المستمر ثم القتال معهم ونصرتهم وكل ما كانت نكايتها في المسلمين أعظم كل ما كانت أشد كفرا .

قال ابن عاشور في تفسيره : (الظهير المعين والمظاهرة المعاونة، وهي مراتب أعلاها النصرة وأدناها المصانعة والتسامح لأن فيها إعانة) .

تنبيه : درجات تولي الكفار ومناصرتهم على المسلمين في المظاهرة :

الأول: التولي : وهو الحلف والمعونة الدائمة المبنية على اتفاق ثابت .

الثاني: المناصرة : وهي معونة خاصة مؤقتة غالباً تحصل عند الحروب .

المسألة التاسعة والعشرون : مفاسد وأضرار وعقوبات مظاهرة الكفار :

أولها : الردة عن الدين والخلود في النار.

ثانيها : الإفساد في الأرض وعدم الإصلاح .

ثالثاً : ظهور شعائر الكفر والشرك والاستخفاف بالمعاصي ، لأن الموالاة لقوم فيها نشر لدينهم وباطلهم وكفرهم وهذا من الإفساد العظيم الذي أخبرنا الله به.

رابعاً : الركون للعدو بالميل والمحبة والمودة .

خامساً : الرضا بحكم المشركين وأفعالهم .

والدخول تحت سلطانهم وحكمهم وقهرهم وغلبتهم .

سادساً : إذلال المسلمين ومحاربة أولياء الله الصالحين .

سابعاً : مفارقة جماعة المسلمين وتفريق كلمتهم .

ثامناً : نبذ العزة الإسلامية .

تاسعاً : عدم تمييز الكفار عن المسلمين والحق من الباطل .

عاشراً : عدم الحب والبغض في الله والتي هي أوثق عرى الإيمان .

الحادية عشر : ترك معاداة الكفار التي لا يصح الدين إلا بها . بل والقيام بموالاة أعداء الله .

الثانية عشر : ترك موالاة المؤمنين ومناصرتهم كما فرض الله تعالى.

الثالثة عشر : إعانة الكفار وتقويتهم وتكثير سوادهم وإقرارهم على كفرهم .

الخامسة عشر : ظهور الفتنة في الدين وحصول المنكرات والفواحش.

السادسة عشر : الدلالة على عورات المسلمين .

وغير ذلك من المفاسد التي لا تحصى التي ذكر الله لنا منها ما يزجرنا ويجعلنا نحذر هذا الفعل المشين الواقع فيه كثير من المفسدين من المنافقين والمرتدين الظالمين.

المسألة الثلاثون : آثار المظاهرة وما يترتب على المظاهر :

ما يترتب على المظاهرة هو ما يترتب على أي عمل كفري وردة منها:

الردة وذهاب الولاية فلا إرث ولا نكاح ولا صلاة ولا بيعة وغير ذلك.

سقوط بيعة الإمام إذا حصلت منه الموالاة للكفار، بنص القرآن وإجماع الأمة، قال تعالى :﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ النساء: ١٤١.

وقد أفتى أهل العلم في كل زمان بردة الحكام حين ظاهروا الكفار وأعانوهم وتولوهم ، وكلامهم لا يحصى وقد ذكرنا طرفا منه في النقولات .

كما أن المظاهرة تنقض العهد وتبيح دم المعاهد .

قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا ﴾ التوبة: ٤، ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴾ الأحزاب: ٢٦.

قال الإمام الشافعي في الأم: (أو أعان أهل الحرب بدلالة على المسلمين أو آوى عينا لهم فقد نقض عهده وأحل دمه وبرئت منه ذمة الله تعالى ورسوله. وهكذا فعل النبي ﷺ مع بني قريظة لما ظاهر بعضهم المشركين، وأعان على خزاعة وهم في عقد النبي ﷺ نفر من قريش فشهدوا قتالهم فغزا ﷺ قريشا عام الفتح).

زوجة المظاهر تكفر إن أقرته عليها، وقد قتل ابن الزبير المرأة لما لم تتبرأ من زوجها المختار وتكفره حين ارتد وقدمنا الدليل، والمرتدة المظاهرة تقتل كالرجل.

المسألة الحادية والثلاثون: أسباب ودواعي المظاهرة وتبريرات المظاهرين:

١- محبة الكفار أو كره المسلمين.

٢- ابتغاء العزة من الكفار والسعي لإرضائهم وطاعتهم ردة عن الدين ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ ﴾ النساء: ١٣٩.

٣- الخوف من الكفار ودعوى الإكراه وخوف الدوائر ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ ﴾ القصص: ٥٧ ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ ﴾ المائدة: ٥٢.

وهي ليست من التقية المشروعة والمستثناة من الموالاة ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ ﴾ لأمرين لأن الخوف غير التقية والإكراه ولأن المظاهرة لا تجوز بحال وإنما المصانعة والملاطفة وترك إظهار العداوة كما بينا سلفا.

كما أن الخوف غير الإكراه المعتبر.

٤- الاستضعاف: ﴿ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ النساء: ٩٧.

٥- الجهل والإعراض عن الدين.

٦- المصالح الدنيوية والحرص على الدنيا والخوف من ضياع المصالح والشح بالمال والوطن وخوف ذهاب الدنيا، ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾ التوبة.

وقال تعالى في من فضل الحياة الدنيا واستحبها، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ النحل: ١٠٧.

٧- القرابة والعصبية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

٨- ومن ذلك ما حصل من تأييد لدول الصليب في حربها للمسلمين، وتبرير حربهم أنها لأجل أخذ الأسلحة الكيماوية أو الاقتصاص من الظلمة أو قتال البعثيين أو غير ذلك من التبريرات الفاشلة والتي لا تزيد حكم المظاهرة إلا وضوحاً .

المسألة الثانية والثلاثون : طرق دفع المظاهرة وعلاجها :

تحذير الأمة منها وبيان ما تجره على الإسلام والمسلمين وأن يبين ردة من يفعلها وكفره وأنه لاعذر له ثم بعد ذلك إقامة حد الردة على فاعلها ومجاهدته ليرتدع غيره ويكف عنها أهل النفاق .

المسألة الثالثة والثلاثون: المظاهرة من الكفر العملي الظاهر :

المظاهرة من الكفر العملي الظاهر وليست من الكفر الاعتقادي .

فمناط الكفر فيها متعلق بعمل الجوارح القائم على مناصرة الكفار وإعانتهم على المسلمين وليس متعلقاً بالقلب من محبة للكفار وبغض للإسلام .

وتكون المظاهرة بالعمل والقول وهما كفر أكبر ، ولا يتصور مظاهرة باطنة بالاعتقاد دون العمل لأن هذا معناه أن يتمنى ظهور الكفار على المسلمين وهذا كفر النفاق وقد تظهر أثاره وتكلمنا عنه في ناقض البغض من نواقض الإسلام.

فالمظاهرة من النواقض العملية التي يكفر بها أهل السنة فاعلها.

المسألة الرابعة والثلاثون : استلزام المظاهرة للمحبة والبغض :

مظاهرة الكفار في الغالب لا تكون إلا مع مودة للكفار والرضا بالكفر وبغض الإسلام وعداء المسلمين .

ولذلك جعل بعض أهل العلم المظاهرة من الكفر الاعتقادي ومنهم الطبري.

قال ابن جرير: (فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض ، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمهم) .
وقال مكي بن أبي طالب في تفسيره: (لأنه لا يواليهم إلا وهو بدينهم راض).
قال الخازن في تفسيره : (لأنه لا يتولى مولى إلا وهو راض به وبدينه) .
وكونهم جعلوها من الكفر الاعتقادي مثل جعل بعض أهل العلم شرك التشريع وسن القوانين من الكفر الاعتقادي .

المسألة الخامسة والثلاثون : المظاهرة للكفار فيها إظهار للكفر ونصرة له :
ووجه ذلك أن من ناصر الكفار حتى مكنهم في الأرض فإنه ولابد سيعملون بكفرهم ويقومون بحربهم لله ولدينه، فيكون المظاهر بذلك قد تسبب بمظاهرته هذه لإحلال الكفر محل الإسلام شاء أم أبى، ومن هذا كان المظاهر كافراً ويجب قتله وذلك لسوء فعله وما يترتب عليه من ضرر بالإسلام. وتقدم كلام الطبري ومكي .

المسألة السادسة والثلاثون : لا فرق بين أن تكون المظاهرة للدنيا أو للدين :
مظاهرة الكفار كفر مطلقا سواء كان مقصود المظاهر للكفار الدنيا ومصلحته الخاصة ودنياه أو لأجل محبة الكفار والرضا بدينهم وبغض الإسلام .
إلا أن من ظاهر الكفار لأجل دينهم قد ارتكب ناقضين ناقض المظاهرة وهو عملي وناقض المحبة للكفر والبغض للدين وهو قلبي باطن .
وقال حمد بن عتيق عن مظاهرة المشركين :"فمن صدرت منه فهو مرتد وإن كان مع ذلك يبغض الكفار ويحب المسلمين ". الدفاع عن أهل السنة ص ٣١.

السابعة والثلاثون : معنى قول الطبري : (توالونهم على دينهم).
أن موالاة الكفار وإن كانت للدنيا فإن مؤداها تكون لدينهم ونهاية أمرها لا بد أن تقوي دينهم وتنصره مهما كانت هذه الموالاة فتنبه ، وليس مرادهم ما فهمه بعض البله من أن الموالاة المكفرة هي التي تكون لأجل دينهم فحسب وأما الموالاة التي لا يقصد صاحبها محبة دينهم أو نصرته فليست بكفر مطلقا .

كذلك هذا أسلوب معروف ولها أمثلة كثيرة في لغة العرب وهي التي ليس لها مفهوم مخالفة من التي ترد مورد الحكم والأثر، فليس المراد نفي الحكم عن غير الوصف ولا يدل الكلام على أن غير هذه الصفة ليست بكفر، فنزل الوصف منزل الغالب وليس لضبط الوصف .

ولو كانت الموالاة المكفرة مختصة بالمحبة وقصد نصرة الكفر لما صح الاستثناء منها ولما تصور التقية فيها ولذلك صرح الطبري بضابط التقية وهي لا تكون بفعل .

بل جعل موالاة الكفار لا تصدر إلا من راض بالكفر وهو يشبه قول من قال في الحكم بالقوانين أو تشريعها لا تصدر إلا من مستحل لها ومعتقد فضلها وخيريتها على حكم الله تعالى . وليس مراده هنا أن الموالاة لا تكون كفرا إلا إذا رضي بالكفر فإن هذا ترتيب للشيء على نفسه فيصير المعنى لا يكفر من تولى الكفر وهو راض به إلا من رضي به، وإنما المراد أن الموالاة كفر لأنها لا تصدر إلا من راض بالكفر .

المسألة الثامنة والثلاثون: التفريق بين ناقض البغض والمظاهر :

خلط كثير من المرجئة وعلماء السوء ومبتغي الشرك والفتنة، بين هذين الناقضين وسعوا في التلبيس على الناس وترقيق الدين زاعمين أن مظاهرة الكفار ليست كفرا بذاتها ولا تكون كفر إلا إذا قارنها ناقض البغض لدين الإسلام ومحبة لدين الكفار ، وأتوا بقول لم يسبقهم أحد إليه كل ذلك ليرفعوا حد الردة التي فعلها أولياؤهم ويغلقوا باب التكفير والحكم على المرتد والذي أمر الله تعالى به .

وأهل العلم يفرقون بين ناقض الكره للدين ومحبة الكفار ودينهم وبين المظاهرة ، فالأول كفر قلبي وهذا كفر عملي ، ولو كانا كفرا واحداً كما يزعم هؤلاء وأن المظاهرة ليست كفراً إلا مع الكره والحب، لما كان تفريق أهل العلم لهُ جدوى .

ومن أقوال العلماء في عدم اشتراط البغض والحب في تكفير المظاهرة :

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في أول كتاب الدلائل : " الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفاً منهم ومداراة لهم ومداهنة لدفع شرهم فإنه كافر مثلهم، وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين) .

وقال الشيخ حمد بن عتيق: " يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن وهو ليس في سلطانهم وإنما حمله على ذلك إما طمعاً في رئاسة أو مال أو مشحة بوطن أو

عيال أو خوف مما يحدث في المآل ، فإنه في هذه الحال يكون مرتداً ولا تنفعه كراهته لهم في الباطن " سبيل النجاة والفكاك ص ٨٩.

وقال:" مظاهرة المشركين ودلالتهم على عورات المسلمين أو الذب عنهم بلسان أو رضي بما هم عليه كل هذه مكفرات ، فمن صدرت منه من غير الإكراه المذكور فهو مرتد وإن كان مع ذلك يبغض الكفار ويحب المسلمين ". الدفاع ٣١ .

تنبيه: حصر صور الولاء والبراء المكفرة في محبة الكفر وبغض الإسلام

المرجئة الجهمية حملوا النصوص الشرعية الدالة على التكفير بتولي الكافرين ومظاهرتهم على هذه الصورة ، مع أنه لا يخفى على مسلم أنه لا يصح حمل النصوص الشرعية مع كثرتها وتنويعها على هذا المعنى البدهي من دين الإسلام.

فهل أورد ربنا ﷻ هذه النواهي والتحذيرات من موالاة الكافرين ليخبرنا أن محبة دين الكفار وبغض دين الإسلام كفر؟! إن حمل نصوص الولاء والبراء على هذا المعنى فقط ، فيه إبطال لمدلولها وتحريف لمضمونها ومعناها، وهذا الاعتقاد الخطير كفر بمجرده ولو لم يقع في موالاة الكفار وعداوة المؤمنين ، كما يقال في جاحد وجوب الصلاة كافر ولو صلى ومستحل الزنا كافر ولو تركه تدينا.

المسألة التاسعة والثلاثون: قصد الكفر ليس شرطا في التكفير بل يكون بدونه :

تزعم المرجئة أن فاعل الكفر لا يكفر إلا إذا قصد الكفر وتعمده.

قال الطبري في تفسير قوله :" يحسبون أنهم يحسنون صنعاً " وهذا من أدل الدلائل على خطأ من زعم أنه لا يكفر أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر " .

قال ابن تيمية في الصارم: " وبالجملة من قال أو فعل ما هو كُفْر كَفَر بذلك وإن لم يقصد أن يكون كافراً، إذ لا يقصد الكفر أحد إلا ما شاء الله " .

وقال فيه أيضا : " فإن قيل : فقد قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا ﴾، قيل وهذا موافق لأولها، فإنه من كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدراً، وإلا ناقض أول الآية آخرها، ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره وذلك يكون بلا إكراه، لم يستثن المكره فقط، بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره ، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعاً فقد شرح بها صدراً وهي كفر).

وقال:(أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ، بل كنا نخوض ونلعب).

وقال : (ومعلوم أنه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط لأن ذلك لا يكره الرجل عليه... وقال تعالى في حق المستهزئين: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ التوبة: ٦٦ ، فبين أنهم كفار بالقول مع أنهم لم يعتقدوا صحته).

وقال محمد بن عبد الوهاب في أنه لا يشترط في تكفير المرتد علمه بأن ما عمله ينقض الدين : (وأما كونه لا يعرف أنها تكفره فيكفي فيه قوله : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ ، فهم يعتذرون من النبي ﷺ ظانين أنها لا تكفرهم).

المسألة الأربعون: حكم من أكره على المظاهرة فظاهر :

أجمع أهل العلم على أن الإكراه لا يبيح الاعتداء على المسلمين ولو أكره مسلم على قتل أخيه فقتله ، لوجب أن يقتل به ، فالإكراه حتى لو تصورنا وجوده فإنه لا يغير حكم المظاهرة ، فيقتل مدعي الإكراه مع المظاهرين .

قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله:" وبريء الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر إلا أن تتقوا منهم تقاة، إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا إليهم الولاية بألسنتكم وتضمروا لهم العداوة ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل ".

وتأمل كلامه حين جعل الإكراه والتقية مهما بلغت فإنها لا تجيز إعانة الكفار على المسلمين ، لأن في المظاهرة إظهار لملة الكفار ودينهم ، قصد المظاهر أم لم يقصد.

بل إنه جعل كل مظاهر للكفار متوليا لهم فإنه راضيا بكفرهم محباً لهم، حين قال: (لا يتولى متول أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض) ، ممّا يدل على أن المظاهرة عنده من الكفر الاعتقادي وليس مجرد العملي .

وقد قدمنا كلام أهل العلم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ وأنها لا تبيح فعلا وسفك دما.

قال البغوي : (وقد نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان دفاعا عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما أو يظهر الكفار على عورة المسلمين) معالم التنزيل ٢/ ٢٥ .

قال محمد بن عبد اللطيف: ("من جامع المشرك أو سكن معه فإنه مثله". فلا يقال : إنه بمجرد المجامعة والمساكنة يكون كافراً ، بل المراد أن من عجز عن الخروج

من بين ظهراني المشركين وأخرجوه معهم كرهاً فحكمه حكمهم في القتل وأخذ المال، لا في الكفر ، وأما إن خرج معهم لقتال المسلمين طوعاً واختياراً ، أو أعانهم ببدنه وماله ، فلا شك أن حكمه حكمهم في الكفر) . الدرر ٨ / ٤٥٦ .

المسألة الحادية والأربعون : الفرق بين آية: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ آل عمران: ٢٨ ، **وآية : ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾** المائدة: ٥٢ **والجمع بينهما.**

١ـ أن ما أباحه الله ورخص فيه إنما هو إظهار التودد والمجاملة والمسالمة وترك إظهار المعاداة مع وجود إضمار العداوة، أما التولي والمناصرة ومظاهرتهم على المسلمين فإن هذا لم يرخص الله فيه مطلقا، فلا يجوز بأي حال، بل ويكفر فاعله حتى مع الاتقاء وادعاء الإكراه ، وهذا الذي رخص لنا فيه من جنس الترخيص في البر والصلة مع القريب الكافر المسالم .

٢ـ ثم أن ما رخص لنا فيه ليس على إطلاقه، فإن من شرطه أن يكون المسلم تحت قهرهم وسلطانهم وان يتحقق شرط الإكراه في حقه وعدم القدرة على مفارقتهم، أما مجرد الخشية والخوف على الدنيا والشح بالوطن والمال فيقوم المسلم بموالاتهم مع كونه خارجا عن سلطانهم وليس تحت قبضتهم وقهرهم، ثم يدعي بعد ذلك الإكراه الوهمي والخوف من معاداة الكفار وإقامة الجهاد عليهم، فإن مثل هذا لا عذر فيه ولا يعتبره أهل العلم مانعا من تكفير فاعله .

وقد قدمنا كلام أهل العلم عند قوله تعالى ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ .

الثانية والأربعون : الإكراه والتقية لا تصل إلى جواز المظاهرة :

ظن المرجفون أنصار المشركين في زماننا أن التقية والإكراه لا حدود لها فصاروا إلى مظاهرة المشركين على المسلمين ويعتذر لهم المرجئة بأنهم مكرهون .

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ آل عمران: ٢٨.

وقوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ النحل: ١٠٦.

وهذا الاستدلال منهم بالآيتين باطل من أوجه :

الأول : أنهم غير مكرهين في الحقيقة، وما يعملونه ليس من باب التقية في شيء ، وأين التقية هنا والتي قد ضبطها أهل العلم بترك إعلان العداوة وإظهار البغض والمصانعة والمجاملة والمداراة والملاطفة باللسان وهم يظهرون جميع صور الموالاة ومن أعظمها المظاهرة . ثم إن الله لم يأمرنا إلا بما نستطيع ووعدنا النصر.

والحقيقة أنهم يوالون الكفار حتى لا يجاهدوا بل حاربوا من يجاهد مع أن عندهم الإمكانية، فأين الإكراه والضعف .

الثاني : أنهم يوالون الكفار عن محبة أظهروا آثارها بأفعالهم، فالمكره والمتقي لا يظهر أكثر مما يحتاج إليه، وهؤلاء من رآهم عرف بعد التقية عنهم، ورأى المحبة الصريحة العلنية للكفار وأنها متجذرة في قلوبهم، وهل يتقي من هو في بلده وسلطانه، ومع ذلك يتذلل لهم ويقيم عندهم ويفرح بهم ويصادقهم ويهنئهم فهل هذه هي التقية والإكراه أم أنها عين النفاق والموالاة والمحبة للكفار ؟

الثالث : أنه مهما وصلت درجة الإكراه والتقية فلا تجوّز إلحاق الضرر بالمسلمين ولو أكره المسلم على قتال أخيه وإلا يقتل لما جاز له الإقدام على قتل المسلم ولو قتل كما قرره الفقهاء، مع أن هذا أهون من المظاهرة التي يقدمون عليها، ويقومون بمظاهرة أعداء الله على المسلمين فهذه كفر وردة .

الرابع: أن حقيقة ما تعلق بهم هو الخوف والذعر والهلع . وقد نهى الله عنه عباده بقوله تعالى :﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥، فمن خافهم فليس بمؤمن بنص الآية ، فإذا كان خوف الكفار محرما ، فمن باب أولى أن لا يكون عذرا ، بل جعل الله تعالى خوف الكفار وخشيتهم من أكبر علامات المنافقين كما في قوله :﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ .

الخامس : ثم إن الإكراه الذي يدعيه هؤلاء المرجئة هو حفاظهم على دنياهم والشح بالوطن والمال والأهل وهذه لم تكن يوماً عذراً مبيحاً لموالاة الكفار ولا حتى مانعاً من إلحاق الكفر والتكفير به فليعلم ذلك حق المعرفة .

وإليك كلام أهل العلم في تقرير هذا الأصل :

قال الطبري : (ومعنى ذلك لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهوراً وأنصاراً توالونهم على دينهم ، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم ، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، يعني فقد بريء من الله ، وبريء الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر، ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾:إلا أن

تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا العداوة ، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل).

قال أبو العالية : (التقية باللسان وليس بالعمل) من تفسير الطبري .

وقال البغوي:(إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان دفاعا عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما أو يظهر الكفار على عورة المسلمين) المعالم ٢/ ٢٥.

قال محمد بن عبدالوهاب: (فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئنا بالإيمان وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه سواء فعله خوفا أو مداراة أو مشحة بوطنه أو أهله وماله أو فعله على وجه المزاح أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره). كشف الشبهات .

قال ابن تيمية : (فإنه سبحانه استثنى المكره من الكفار ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره لأن الإكراه على ذلك ممتنع ، فعلم أن التكلم بالكفر كفر إلا في حال الإكراه). الفتاوى ٧/ ٥٥٧ .

وقال الشيخ سليمان في كتابه الدلائل : (ولم يفرق تعالى بين الخائف وغيره بل اخبر تعالى أن الذين في قلوبهم مرض يفعلون ذلك خوفا من الدوائر وكذلك حال هؤلاء المرتدين خافوا من الدوائر فزال ما في قلوبهم من الإيمان بوعد الله الصادق بالنصر لأهل التوحيد فبادروا وسارعوا إلى الشرك خوفا من أن تصيبهم دائرة) .

وقال فيه : (فإن قالوا خفنا قيل لهم كذبتم وأيضا فما جعل الله الخوف عذرا في اتباع ما يسخطه واجتناب ما يرضيه وكثير من أهل الباطل إنما يتركون الحق خوفا من زوال دنياهم وإلا فهم يعرفون الحق ويعتقدونه ولم يكونوا بذلك مسلمين) .

وقال فيه عن التقية : (وهو أن يكون الإنسان مقهورا معهم لا يقدر على عداوتهم فيظهر لهم المعاشرة والقلب مطمئن بالبغضاء والعداوة وانتظار زوال المانع فإذا زال رجع إلى العداوة والبغضاء، فكيف بمن اتخذهم أولياء من دون المؤمنين من غير عذر إلا استحباب الدنيا على الآخرة والخوف من المشركين فما جعل الله الخوف منهم عذرا بل قال تعالى ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾) .

قال حمد بن عتيق : (وأمّا ما يعتقده كثير من الناس عذراً، فإنه من تزيين الشيطان وتسويله وذلك أن بعضهم إذا خوّفه أولياء الشيطان خوفاً لا حقيقة له ظنّ أنه يجوز له إظهار الموافقة للمشركين والانقياد لهم.).

ويقول ابن عتيق : (فمن قال الكفر أو فعله أو رضي به مختاراً كفر وإن كان مع ذلك يبغض بقلبه وبهذا قال علماء السنة والحديث وذكروا ذلك في كتبهم فقالوا إن المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه إما نطقاً وإما فعلا وإما اعتقاداً وقرروا أن من قال الكفر كفر وإن لم يعتقده ولم يعمل به إذا لم يكن مكرهاً . وكذلك إذا فعل الكفر كفر، وإن لم يعتقده ولا نطق به وكذلك إذا شرح بالكفر صدره أي فتحه ووسعه وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به) .

وقال عبدالرحمن بن سعدي في آية التقية من الكفار: (أي إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين فلكم في هذه الحال الرخصة في المسالمة والمهادنة لا في التولي الذي هو محبة القلب الذي تتبعه النصرة).

المسألة الثالثة والأربعون : مذهب المرجئة في ناقض المظاهرة :

أصل القول المحدث في المظاهرة منشأه من المرجئة الذين لا يكفرون إلا بأعمال القلوب ويخرجون أعمال الجوارح من الإيمان والكفر، فلا كفر عندهم إلا الجحود والاستحلال أو الحب والبغض للدين وما سواها فهو معصية ، فكما قالوا: إن التشريع وشرك الطاعة لا يكفر فاعلها إلا بالاستحلال وأنها ليست كفرا في ذاتها،كذلك قالوا أن المظاهرة وإعانة الكفار على المسلمين لا يكفر فاعلها إلا إذا كانت للدين بأن يحب دين المشركين ويبغض دين المسلمين.

المسألة الرابعة والأربعون: الفرق بين قول أهل السنة والمرجئة في تلازم المظاهرة مع كفر الباطن:

تنبيه : جعل هذه الأعمال الكفريّة والشركيات العملية من الكفر الاعتقادي قد يلتبس على البعض فيظنه من مذهب المرجئة .

والفرق بين القولين أن المرجئة لا يكفرون بالعمل وإنما بالاعتقاد فهذا العمل ليس كفر عندهم إلا إذ قارنه كفر اعتقادي .

أما حقيقة قول هؤلاء فجعل هذا العمل كفرا اعتقاديا فهم يكفرون به ولا يقولون أنه ليس بكفر إلا إذا كان مع اعتقاد كما تقوله المرجئة .

وقد بينا هذه القاعدة في مسائل التكفير وضوابطه عند الكلام عن استلزام بعض الكفريات الظاهرة لكفر باطن بالقلب وكونها لا تصدر إلا من قلب كافر.

الخامسة والأربعون :الأقوال في المظاهرة :

الأول: مذهب المرجئة: قالوا أنها كفر لأنها دليل على كفر الباطن فيكفرون بها ، لكن مناط الكفر فيها ليس عمل الجوارح الظاهر وإنما لما يتعلق بها من كفر القلب.

الثاني: مذهب غلاة المرجئة الجهمية ومن وافقهم من علماء السوء وأشباههم: قالوا إنها ليست كفرا وإنما معصية ولا تكون كفرا إلا إذا قارنها بغض الإسلام أو استحلالها وحب الكفر، وهؤلاء كفار وقد أجمع السلف على تكفيرهم لقولهم هذا في الإيمان بخلاف المرجئة يبدعون ولا يكفرون .

تنبيه : من قال من أهل السنة بقول الجهمية هذا من أن المظاهرة معصية غير مكفرة فقوله كفر لكن لا نكفره إلا بعد إقامة الحجة عليه وزوال الشبهة.

الثالث: قول علماء السوء الذين جوزوا المظاهرة بغضا لأهل التوحيد وإرضاء للسلطان،وزعموا أن فيها مصلحة وعدل وحرب على الإرهاب والخوارج ، وهؤلاء كفار بلا شك ولا يجوز التوقف فيهم ولا يعذرون بتأويل أو جهل، وفعلهم هذا يعد من أغلظ درجات المظاهرة، فهم أشد كفرا من المقاتلين ، فمن أفتى للطيارين وجوز القصف وأيد قصف المسلمين والمشاركة في الحلف الكافر أعظم ردة من الطيارين.

الرابع : من يقول بكفر الناقض ولكن لا يكفر فاعله بدعوى وجود مانع من تأويل أو إكراه ، والكلام في هؤلاء فيه تفصيل بيناه في شرح الناقض الثالث.

السادسة والأربعون:حكم المجوزين للمظاهرة وأن فتاواهم تعد من المظاهرة:

أن القول بأن المظاهرة ليست بكفر إلا مع بغض الإسلام ومحبة الكفار أو كانت المظاهرة لأجل دينهم يعد كفرا وردة لكن لا نكفر قائله لوجود الشبهة .

أما من جوّاز مظاهرة الكفار والمرتدين والعمل في جيوشهم المظاهرة بغضا لأهل التوحيد والجهاد بحجة أنهم خوارج وأن في المظاهرة مصلحة وعدل وحرب على الإرهاب فقد وقع في الردة وارتكب أربعة نواقض من نواقض الإسلام وهي :

الأول : مظاهرة الكفار ، وفعلهم هذا يعد من أغلظ درجات المظاهرة، فهم أشد كفرا من المقاتلين.

الثاني : استباحة الكفر الذي هو المظاهرة ، وهو أعظم كفرا ممن استباح المحرم كالزنا والربا.

الثالث : الشك في كفر الكفار المرتدين تصحيح مذهبهم وردتهم.

الرابع : بغض أهل التوحيد وتسميتهم بالخوارج لقيامهم بالكفر بالطاغوت.
وقد جعل ابن تيمية في اختياراته من نواقض الإسلام : (من توهم أن أحدا من الصحابة أو التابعين قاتل مع الكفار أو أجاز ذلك) .

قال الونشريسي ت٩١٤هـ في:(أسنى المتاجر في من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر): (ولا تجد في تحريم هذه الإقامة وهذه الموالاة الكفرانية مخالفا من أهل القبلة.. ومن خالف أو رام الخلاف من المقيمين معهم والراكنين إليهم فجوز الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين) المعيار المعرب ٢/ ١٢٣.

مع أن كلامه في الركون للكفار وتجويز الإقامة معهم وهي دون المظاهرة ، فما بالك بالمخالف في المظاهرة التي هي أشد كفرا والإجماع في ردة فاعلها أظهر.

ألا فليعلم كل مسلم عايش هذا التحالف الذي ضم اليهود والصليبيين والروافض والمرتدين وعلم به أنه يكفر إن رضي به أو أيده أو جوزه أو حرض عليه.

السابعة والأربعون : بيان تلبيس المخالفين في ناقض المظاهرة وحالهم :

إن هذا الأمر المستقر عند المسلمين لا يروق لأهل الأهواء والبدع حيث وحاولوا خرق هذا الإجماع والنيل من الدين والتشكيك في المُسلّمات التي يحفظ بها الدين ، ثم الاستدلال على باطلهم بالشبهات فأتوا بالعجائب والمنكرات نعوذ بالله من الخذلان ، وذهبوا يجمعون الفتاوى المتهاوية والأقوال الشاذة والشبهات المضللة بل وألفوا في ذلك الرسائل المعوجة ليصدوا بها عن سبيل الله و يبغونها عوجا فضلوا وأضلوا ، وزعموا أن مظاهرة الكفار وإعانتهم على المسلمين لا يكفر صاحبها إلا إذا أحب الكفار ودينهم، وأبغض المسلمين ودينهم ، وكانت مظاهرتـهُ لأجل الدين وليست لأجل الدنيا ، وأصل هذا القول المحدث منشأه من المرجئة، وسنكشف شبهتهم ونرد باطلهم ونجيب عن دليلهم إن شاء الله تعالى .

فأخرجوا المظاهرة بذلك من كونها كفراً مخرجاً من الملة إلى كونها معصية غير مكفرة، وأن المكفر في الحقيقة هو محبة الكفار ودينهم أما مجرد إعانتهم على المسلمين فإنهُ ليس بكفر وفاعلهُ مؤمن لا يجوز قتلهُ فابتدعوا قولاً لم يقله أحد من السلف ولم يسبقهم إليه أحد ثم استدلوا ظلماً وزوراً بفعل حاطب ابن أبي بلتعة .

إن حال الطاعنين في الإجماع وضلال من زعم أنها مسألة خلافية وجعلها معصية واخرجها من النواقض العشرة ، يشبه فتوى علماء الشرك في تجويزهم

القبورية وإخراجهم دعاء الأموات من الشرك إلى مجرد كونه معصية وفتاوى علماء السلاطين في تجويزهم شرك التشريع وجعلهم الحكم بغير ما أنزل الله مجرد معصية وليست هذه النواقض الثلاث نواقضاً إلا إذا قارنها اعتقاد الكفر في القلب .

الثامنة والأربعون :حال المفتين للمظاهرين وواقعهم والمستفيد من فتاواهم:

المستفيد من هذا القول الخبيث المحدث هم أعداء المسلمين، ولذلك لا تعجب أن ترى فتاوى هؤلاء يوزعها وينشرها النصارى بين المسلمين ،ويا لله كم أُريقت الدماء ورُملت النساء وانتهكت الأعراض وقُتل الأطفال واستخف بالدين واغُتيل المجاهدون بأعمال هؤلاء المظاهرين وفتاوى هؤلاء المضللين بأن هذه الأعمال ليست من الكفر وأن فاعلها من العصاة المؤمنين وليس ما يحصل في أرض فلسطين والعراق عنا ببعيد ، ألا فليحذر هؤلاء من مغبة قولهم وخطورته على الدين وأذكرهم بالوقوف بين يدي الله وأن حقيقة قولهم تهوين من مظاهرة الكافرين بل والشك في تكفير المشركين ، فكم استهان كثير من الناس بقتال المجاهدين وانخرط في صفوف الصليبيين لما ظنوا أن المظاهر أعظم ما يقال في حقه أنه عاصٍ .

أما من وصل بهم الحال إلى أن يستحسنوا مظاهرة الكفار زاعما أنها حملة لحرب الظلم والإرهاب وإقامة العدل، وراحوا يستدلون لها بمثل صلح الحديبية وحلف الفضول، وجوزوا لمن أسلم من الكفار وهو يعمل في جيش الكفار البقاء فيه والعمل حال حرب المسلمين شريطة أن لا يكون مباشرا للقتال وإنما في خدمة الجيش وصيانة الأسلحة ونحو ذلك ، فلا شك في ردتهم ولا عذر لهم كما تقدم ، ألا فليعلم هؤلاء المساكين أنهم قد دخلوا بفتاواهم المجوزة للمظاهرة في الردة من أوسع أبوابها وصار كفرهم أشد من كفر المقاتل لشدة خطرهم ودعوتهم للمظاهرة وتلبيسهم وتلاعبهم بدين الله وهدمهم للإسلام ، فهم والله من أعظم رؤوس الطواغيت وإن الواجب على أهل العلم الصدع بتكفيرهم وتبيين حالهم للناس.

فصلٌ : الإجابة عن أدلة المخالفين وكشف شبهاتهم

هناك شبهات أخذ بها المستدلون على كون المظاهرة ليست كفراً وهي عند المحققين ليست في الاحتجاج بشيء ولا تنهض لأن تكون حججا يعمل بها ويلقى العبد بها ربه أو يدين الله بها ، لكن لما عميت القلوب عن النظر في المحكم واتباعه والعمل به قالوا بها ، فكان أصحابها ممن سماهم الله من الذين يتبعون ما تشابه منه .

وسنورد هنا ما ذكره المخالفون من الذين في قلوبهم مرض ومن اغتر بقولهم واستدلالاتهم من متبعيهم من أهل الجهالات ، وهي على قسمين شبهات أصلية وهي التي سنوردها هنا، وشبهات فرعية تبعية متعلقة بمحاولة اعتراضات على الأدلة والاستشكال عليها أو باستدلال بدليل لنا وأرادوا أخذ شاهد منه فبعدت عليهم الشقة، وهذا القسم من الشبه ذكرته في باب الأدلة على كفر المظاهرين .

وإليك ما ذكروه من شبه :

الأولى : استدلالهم بحديث حاطب :

وإليك الإجابة عما يدندنُ حولهُ هؤلاء من الاستدلال بقصة حاطب ﷺ وكونه ظاهر المشركين على الرسول ﷺ والمسلمين ولم يكفره النبي الأمين ﷺ .

والجواب عن ذلك من أكثر من عشرين وجهاً عامة وخاصة:

الوجه الأول : أن المظاهرة كفر وقد دل على هذا الأصل الكتاب والسنة والإجماع والعقل ، ولو فرض وجود دليل موهم أو مشكل أو أعجز على المسلم فهمه وتعارض في ظنه مع ما تقرر من الأصل السابق فإن الواجب عليهِ رده إلى المحكم لأن هذا يعتبر من قبيل المتشابه الذي يرد إلى المحكم ، والمحكم في النصوص كفر المظاهر والمعين للكفار مطلقاً سواءً كانت المظاهرة للدين أو للدنيا ولم تفرق النصوص بل جاءت بإلغاء الفارق وأن محبة الكفار ودينهم كفر ومناصرتهم دون محبة كفر آخر ، كما تقدم.

الثاني : أن الحس والفطرة والنظر فضلاً عن الشرع تدل على كفر المظاهر بلا شك وأن أهل ملته بريئون منه وهو برئ منهم، وهل يوجد في أي شرع أو أي عقل من يثبت وجود مدع للإيمان بالنبي ﷺ وأنه يحبه و يكره أعداءه ثم هو يقاتل في صفوف أعدائه ويتربص به الدوائر ليسلمه لعدوه وكل ذلك مع محبته للرسول ﷺ

وللدين الذي جاء به وإنها حمله على فعل ذلك مصالحه الدنيوية من مال ومنصب وغيره دون البغض للدين ولمن جاء به أو تمني زواله وزوال أهله وعلو أعدائه. إن هذا لا يتصور وجوده أصلا فضلا عن أن يحكم بإسلامه ولا يعتبر مثل هذا مؤمن إلا على دين المرجئة أتباع الجهم القائلين أن الإيمان مجرد تصديق القلب ومعرفته .

الثالث : أن من نواقض الإسلام المجمع عليها بغض الدين وأتباعه أو شيء مما جاء به الرسول ﷺ أو محبة الكفار ودينهم وهذا ناقض البغض والمحبة.ومن النواقض غير هذا مظاهرة الكفار ومعاونتهم ومناصرتهم على المسلمين وهذا كفرٌ بمجرده، ولو كان المظاهر لا يكفر إلا ببغض المسلمين ومحبة الكافرين وأن تكون مظاهرته لأجل دين الكفار،لما كان هناك فائدة من المجيء بهذا الناقض ولكتفى أئمة الإسلام بالناقض الأول وتركوا الثاني أو أدرجوه في الأول ولم يعدوه من النواقض أصلاً، ولما فرقوا بينهما بجعلهما ناقضين .

الرابع : أن هذا القول المبتدع وهو عدم التكفير بالمظاهرة والمناصرة إلا إذا قارنها محبة ما عليه الكفار من الدين وأن تكون مظاهرته لهم من أجل الدين، وأن يقصد الكفر لم يكن أصلاً إلا من المرجئة الذين لا يكفرون بأعمال الجوارح الظاهرة إلا إذا قارنها كفر القلب من التكذيب أو الاستحلال أو الحب والبغض وأنه لا يوجد كفر عمليٌ بمجرده، فالشرك والسجود للأوثان والتشريع والاستهزاء بالدين ومناصرة الكفار على المسلمين وغيرها من الأمور المجمع على كفر صاحبها لا يكفرون بمجرد فعلها إلا بعد النظر إلى اعتقاد القلب من الاستحلال والحب والكره ونحوه ، أما عند أهل السنة فيكفرون بمجرد فعلها .

الخامس : إذا كان ترك المناصرة للمسلمين مع القدرة وخذلانهم وترك الجهاد من النفاق وكان صاحبه في عهد الرسول ﷺ لا يعذر ويعد في المنافقين الذين يبطنون الكفر – وما الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك ومن بينهم هلال بن أمية والذي كان شيخاً كبيراً ومع ذلك عوقبوا ثم تاب الله عليهم لما تابوا وإلا لكانوا من المنافقين إلا دليلاً على ذلك – فيكف بمن لا يكتفي بالخذلان وترك المناصرة بل يقاتل في صفوف أعداء المسلمين هل يشك عاقل فضلاً عن مسلم عالم في كفر مثل هذا .

السادس : أن البراءة من الكفر وأهله وعداوتهم وعدم اتخاذهم أولياء فضلاً عن مناصرتهم من أصول التوحيد وأحد ركني شهادة ألا إله إلا الله الذي لا تتم إلا به ولا يعتبر المسلم مسلماً إلا بها فأين هذا الركن من دين هؤلاء المخالفين .

السابع : أنه بالنظر للواقع يتبين ذلك فكم للواقع فكم أريقت من الدماء وكم قُتل من المسلمين ومن الأطفال والنساء وكم يتّم ورمّل وكم من الأعراض انتهكت بأيدي هؤلاء الكفار ومن في صفوفهم من أوليائهم المظاهرين لهم ممن يدعي أنه من المسلمين وأهل القرآن ولا إله إلا الله؟ والقرآن يلعنه ولا إله إلا الله تلعنهُ ، ومن يحكم بعد ذلك بإسلام هؤلاء إلا من كان مثلهم في الجرم والظلم والطغيان .

الثامن : أن فعل حاطب ﷺ من باب كشف السر وليس من باب المظاهرة والمناصرة للكفار وحاشاه، فهو إنما كان فعله مجرد نقل سر رسول الله ﷺ وكشف خبر المسلمين إلى كفار مكة، لا أنه ناصر الكفار وأعانهم على الرسول ﷺ والمسلمين أو قاتل في صف المشركين كما فعل العباس، كما أنه لم يقصد الإضرار بالمسلمين، وهل يظن مثل ذلك بصحابة الرسول ﷺ؟ وهل يقاس أفعال المظاهرين وجواسيس الكفار في عصرنا والذين لا يريدون للإسلام عزا ولا نصرا ولا يرقبون في المسلمين إلاً ولا ذمة بفعله ﷺ؟، فبين الحالين فرق، فالأولى وهي المظاهرة كفر بالإجماع، ولم يخالف فيها إلا المرجئة أما أهل السنة فلم يخالف أحد منهم مطلقا، وأما الثانية وهي نقل خبر المسلمين أو ما يسمى بالتجسس فهي محل خلاف بين أهل العلم فذهب البعض كالشافعي وغيره إلى عدم كفر فاعلها إذا لم يقصد الإضرار بالمسلمين ونصرة المشركين وإعلاء دينهم وكلام الشافعي وابن تيمية في مثل هذا ، وهو من يدل على عورات المسلمين وينقل خبرهم للكفار دون أن يقاتل في صفوف الكفار و يناصرهم على المسلمين وبين الأمرين فرق ومع ذلك فالصحيح فيها أنها كفر أيضاً وهو ما حكم به عمر ﷺ كما سيأتي ، ومن قال إن حاطباً قد ظاهر المشركين فقد أعظم الفرية عليه.

التاسع : أن فعل حاطب ﷺ من الأمور المكفرة الظاهرة وليست من الخفية وهي وإن كانت من أعمال المنافقين إلا أنه متى ما أظهرها صاحبها سار بذلك مرتدا يعامل معاملة الكفار المرتدين ولم يعد منافقا بل مرتدا كافرا مهدور الدم، وهذا أمر مقرٌ ومعروف عند الصحابة ويدل لذلك قول حاطب ﷺ عن نفسه " والله ما فعلته ردةً عن ديني " مما يدل على أن حاطبا يعلم أن أصل فعله الذي هو التجسس فضلاً عن المظاهرة ردة عن الإسلام وكفر أكبر مخرج من الملة،كما يؤيد ذلك قول عمر ﷺ " دعني أضرب عنق هذا المنافق "وفي رواية " أمكني منه فإنهُ قد كفر" وفي رواية " قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه" . فكون فعل حاطب كفراً أمر لا

مرية فيه ، ولذلك لم ينكر الرسولﷺ قول عمر بل أقرهُ وإلا لـو كـان أخطـأ عمـر في الحكم الظاهر لأنكر الرسول ﷺ عليه كما أنكر على عتبان بن مالك لما قال مثل ذلـك في مالك بن الدخشم وكإنكاره على حنظلة لما قال نافق حنظلة، ثم إن عمر حكم على حاطب بعد أن سمع عذره بل وأعاد وكرر عمر مقولته مرتين مما يدل على تيقن عمر في أن هذا العمل كفر وردة ، فكيف بعـد هـذا كلـه يـأتي مـن يقـول إن عمـر أخطـأ وتعجل، وهل يعقل أن يجهل عمر الملهم وصاحب السنة المتبعـة بـأمرٍ مـن أصـول الدين متعلقاً بالكفر والإيمان ولا يميز بين ما هو كفر وماهو معصية إن هـذا في غايـة القدح فيهﷺ، هذا كله يدل على أن الخلاف ليس في فعل حاطب وكونـه فعـل كفـراً وإنما كان الخلاف في تكفير حاطب وقتله. ومعلومٌ أنه ليس كل فاعـل للكفـر يكفَّـر ويقتل بل لابد من قيام الحجة وتوافر الشروط وانتفاء الموانع والأعذار ، عليه فيقـال كان الحوار بين الرسول ﷺ وعمر في التكفير وقبـول العـذر وقيـام المـانع لا في كـون الفعل كفراً . فتأمله.

العاشر : أن فعل حاطب ﷺ حقيقته أنهُ نقل للخبر للكفار لإرهابهم فـأراد أن يفت عزائمهم بأنهم مهزومون لا محالة فإما أن يسلموا ويصالحوا ، وإما أن يفروا ولم يدل على عورات المسلمين ولا في كلامه حث لهم على ضر المـسلمين أو النكايـة بهـم فضلاً عن المناصرة يدل لذلك قوله ﷺ " أما بعد يا معشر قريش فـإن رسـول الله ﷺ قد جاءكم بجيشٍ كالليل يسير كالسيل فوالله لـو جـاءكم وحـده لنـصره الله وأنجـز وعده فانظروا لأنفسكم والسلام " فتح الباري ٧/ ٥٢١ . ومع هذا فأصل فعله مـن الكفر والتجسس الذي يعود في نهايته إلى جنس المظاهرة . ولكن حتى مع هذا يجب أن يعلم الفرق بين فعل حاطب وفعل مظـاهري زماننـا وحرصـهم عـلى النيـل مـن المسلمين والتربص بهم .

الحادي عشر: أن فعل حاطب ﷺ من باب الكفر المخرج من الملة والذي منـع تكفير حاطب أنه كان متأولاً،ومعلومٌ أن التأويل عذر ومانع من موانع التكفير، وأن القاعدة المقررة عند أهل السُنة التفريق بين فعل الكفر وتكفير صاحبه قال ابن حجر : " وعذر حاطب ما ذكره فإنهُ صنع ذلك متأولا أن لا ضرر فيه " الفتح ٨/ ٥٠.

فالفعل الذي فعلـه حاطـب هـو نقـل أخبـار المـسلمين ويـسمى بالتجـسس وحكمه كفر مـن حيـث الأصـل وهـو يـدخل في عمـوم المظـاهرة، لكـن حاطـب بالخصوص لم يكفر بهذا الفعل لا لأن العمل ليس بكفر ولكن لكـون فعـل حاطـب

فيه وجه مخالفة للمتجسس أضف إلى أنه معذور بالتأويل وإلى معرفة الرسول ﷺ بصدق باطنه ولشهوده بدر .

الثاني عشر : أن هذا الفعل لم يتكرر من حاطب ﷺ ، وليس من عادته ، ولا فعله أحد من الصحابة غيره ، مما يزيد في قبول عذره وتعلق المانع به.

الثالث عشر : أن فعل حاطب ﷺ كان في حال قوة المسلمين وضعف المشركين، مما يدل على يقين حاطب أن هذا العمل لا يضر بالمسلمين مطلقا ، وهذا بخلاف غيره .

الرابع عشر : أن مما يخص حاطب ﷺ وفعله كذلك يقينه بأن هذا العمل لن يضر بالرسول ﷺ ولا بالمسلمين وأنه لن ينتفع به الكفار، ويدل لذلك قول حاطب ﷺ : " قد علمت أن الله مظهر رسوله ومتم له أمرهُ " وعلمت أن ذلك لن يضرك كما في رواية أحمد وأبي يعلى . وكيف يُظَنُّ غير ذلك بأصحاب الرسول ﷺ .

الخامس عشر : أن عدم الحكم بكفر حاطب ﷺ أمرٌ خاصٌ به ، وذلك لحضوره بدر وصدق قلبه وصلاح سريرته مما ليس لغيره بعده .

قال الحازمي في قوت القلوب : (إنما عفا الله عن حاطب لسابقته ولكونه من أهل بدر وفيها دليل على قتل من فعل كفعله فإن عمر ﷺ قال لرسول الله ﷺ دعني أضرب عنق هذا المنافق فجعل العلة كونه من أهل بدر ولو لم يكن هذا سبباً شرعياً لقُتِل لأنه لا يحل قتله لنفي الله الإيمان عمن واد من حاد الله ورسوله).

السادس عشر : أن عدم الحكم بتكفير حاطب ﷺ أمر خاص بالرسول ﷺ الذي أطلعه الله سبحانه على سريرة حاطب وعلى حكمه في أهل بدر ، وليس لأحدٍ بعدهُ مثل هذا . فمن أين لنا أن نحكم بمثل هذا إذ ليس لنا إلا الحكم الظاهر وأما البواطن فنكلها إلى الله علام الغيوب، وليس كل من آذى المسلمين وأضر بهم وأعان الكفار عليهم ونقل الخبر إليهم يقبل عذره وأنه متأوِّلٌ أو غير عالم ، لأن في ذلك ضررٌ على المسلين فهذهِ أمورٌ لا ينبغي أن تقبل سداً للذريعة ، فالواجب أخذ فاعلها وقتلهُ .

قال المازري : (والذي يظهر لي أن حديث حاطب لا يستقل حجه ... فقطع على تصديق حاطب لتصديق النبي ﷺ له، وغيره ممن يتجسس لا يقطع على سلامة باطنه ولا يتيقن صدقه فيما يعتذر به، فصار ما وقع في هذا الحديث قصة مقصورة لا تجري فيما سواها) المعلم بفوائد مسلم ٢/ ٣٦٢.

السابع عشر : أن كثيراً من أهل العلم ممن قال: إن حاطباً ﷺ ما فعل كفراً وأن فعله مجرد معصية ، قالوا بوجوب قتل المتجسس والدال على عورات المسلمين ، لما في ذلك من الضرر عليهم فيكون قتلهُ عندهم تعزيراً لا ردة .

الثامن عشر : أن قول من فرق بين الدنيا والدين في المظاهرة منبعه من الإرجاء، فإن الأمر المكفر بذاته لا يفرق فيه بين قصد الدين والدنيا ولا ينظر إلى الاستحلال القلبي ، لأن ذلك لا يكون إلا في المعاصي، ولذلك كان كلام الشيخ عبد اللطيف وغيره في الجاسوس المسلم والذي يرون أن فعلهُ ليس بكفر وإنما مجرد معصية لا يكفر صاحبها إلا بالشرط السابق وليس كلامه في المظاهرة. وفرق بين المظاهرة وبين نقل خبر المسلمين للكفار إذا لم يعتقد فيه ضررٌ عليهم وهذا الذي يدخل في الجاسوس. أما المظاهرة والتشريع القانوني والاستهزاء وغيرها من المكفرات القطعية فلا يفرق بينها إلا المرجئة وقد تقدم.

التاسع عشر : أنهُ لا يوجد مظاهر للكفار إلا وهو يظاهر لمصلحته وإلا كان فاقداً لعقلهِ، فلا ينظر في من قال إن من ظاهر لمصلحته الدنيوية لا يعتبر كافراً. وهل كان فعل هرقل وعدم انقياده للدين و للرسول ﷺ إلا لمصلحته الدنيوية مع ما قاله في الرسول ﷺ وتصديقه له وتعظيمه وتمنيه أن يغسل الغبار عن قدميه إلا انه لم ينقد ويستسلم ومع ذلك هل حكم بإسلامه الرسول ﷺ أو اعتذر عنه ؟ أو أنه قال فيه شح بملكه الخبيث، ووالله لو أن هرقل حي في زماننا لحكم بإسلامه كثير من هؤلاء المفتونين أهل الإرجاء والضلال.

العشرون : أما قول من قال إنه لو كان فعل حاطب ﷺ كفراً لما قال الرسول ﷺ "خلوا سبيلهُ" ولا نفعهُ حضور بدر . فالجواب : أن فاعل الكفر لا يُخلى سبيلهُ وهذا الذي فعله الرسول ﷺ في أول الأمر، فإنه لم يخلِ سبيلهُ إلا بعد سماع عذره وقبوله ولذلك لا يخلى سبيل فاعل الكفر إلا بعد النظرِ في انتفاء الموانع وسماع العذر وتوفر الشروط والأسباب. ومعلومٌ أن من فعل مكفراً لا تحبط أعماله بمجرد فعله إلا بعد قيام الحجة أو يكون مما لا عذر فيه. أما الاعتذار لحاطب بحضور بدر فهذا من مزيد إقناع وتطييب خاطر عمر ﷺ لما لم يقتنع بعدم تكفير حاطب، حيث أنهُ معذور متأولٌ لا يقصد الإضرار بالمسلمين إضافةً إلى علم الله بصدقهِ وصلاح سريرتهِ واطلاع الرسول ﷺ بذلك، ثم هو مع ذلك من أهل بدر والله قد عصمهم

من الوقوع في الردة والكفر حتى ولو فعلوا مكفراً فإنهُ يكون بغير عمد فلا يكفرون به وقد وقع بعض الصحابة في كفريات وعذروا الجهل أو تأويل .

الحادي والعشرون : وأما القول بأنه لو فعل كفرا لأقام عليه الحد ولما سقط الحد فالجواب أن حاطب ما ارتد ولا كفر وإن كان فعل ما ظاهره والأصل فيه الكفر لكن القاعدة أنه ليس كل من فعل فعلا كفريا يكفر بل لابد من قيام الحجة وانتفاء الموانع . ثم إن من كفر وارتد حقيقة فإنه يستتاب فإن تاب سقط الحد عنه ولم يقتل.

الثاني والعشرون : أخيرا أن ما يستند إليه ويستدل به بعض المخالفين من كلام للإمام الشافعي وشيخ الإسلام والشيخ عبد اللطيف آل الشيخ فإنه لاحجة لهم فيه لأن كلام الأئمة في ناقل خبر المسلمين إلى الكفار مثل فعل حاطب وليس في من يظاهر الكفار ويقاتل في صفوفهم ضد المسلمين، فكيف يجوز لهؤلاء أن يستدلوا لمذهبهم الفاسد بكلام الأئمة، ثم ألا يخجلون حين يلبسون على الناس دينهم بالكذب على هؤلاء الأئمة وتحميل أقوالهم مالا يحتمل وإنزالهم منزلة المرجئة وخارقي الإجماع وإغفال كلامهم الصريح في المظاهرين والذي أتينا بطرف منه ، ثم مع هذا كله لو فرضنا أنهم خالفوا فخلافهم دائر حول الجاسوس وليس المظاهر، ومع ذلك فإن قولهم هذا اجتهاد منهم وهم ليسوا بمعصومين وقد أخطؤوا حيث خالفوا اتفاق الصحابة وحكم عمر وإقرار الرسول ﷺ له كما تقدم ، إضافةً إلى أن كلامهم في من فعله كفعل حاطب وهو مجرد كشف السر، لا في من حالهُ كحال الجواسيس في زماننا العاملين عند أعدائنا وتحت مصالحهم من النصارى واليهود الصهاينة ، هذا فضلا عن أن يكون كلامهم في المظاهرين - إذ هم لا يخالفون الإجماع- وتقدم في المسائل السابقة الفرق بين الحالتين المظاهرة والتجسس ، بل وحتى بين أنواع التجسس باعتبار حقيقة التجسس ونوعه هل هو من الكفر أو الفسق وهل هو مما يقبل التأويل أم لا؟ وعليه فلا حجة للمرجئة وبقية المخالفين الزاعمين عدم كفر المظاهر إذا ظاهر لمصلحه دنيويه بكلام هؤلاء الأئمة.

وقد قدمنا كلام أهل العلم في قصة حاطب في الكلام عن الجاسوس .

الشبهة الثانية : الاستدلال بآية : (إلا أن تتقوا منهم تقاة) :

حيث زعم البعض أن الإكراه والتقية يبيح المظاهرة وجعل الآية دليل على عدم كفر المظاهرين.

وقد قدمنا بيان معناها والرد على استدلالهم بها وما توهموه في دلالاتها . وأنه لا يوجد إكراه في الحقيقة والذي هو القتل وما في حكمه، وإنما الإكراه عندهم هو خوف على ذهاب المصالح والدنيا وهذا ليس بإكراه ثم إن الإكراه مهما بلغت درجته ولو وصل للقتل فإنه لا يجيز ألبته مظاهرة الكفار وإنما الذي رخص الله لنا فيه هو المصانعة باللسان وترك إظهار المعاداة .

الشبهة الثالثة : صلح الحديبية وما فيه من قصة أبي جندل وأبي بصير :

أولاً : أن القصة المتعلقة بأبي جندل وأبي بصير ليست من المظاهرة في شيء بل هي دليل على كفر المظاهر، فحقيقة فعل النبي ﷺ هو عدم القدرة على إيوائهم والامتناع من جعله مهاجر لهم والاعتذار من قبولهم، وليس فيها أدنى مظاهرة للكفار أو إعانة لهم على المسلمين .

ومثل فعله ﷺ لو أن شخصا دخل في الإسلام وأراد منك أن تمنع عنه شر قومه وتحميه من بطشهم وتؤويه في دارك، وأنت لا حول لك ولا قوة لجاز أن تترك حمايته، وذلك لأنك لا تستطيع مناصرته ولو كانت عندك القوة لوجب عليك ألا تخذله، لكن لو أنك تحولت من ترك مناصرته إلى إعانة أعدائه عليه والقضاء عليه والسعي لإسلامه ومحاولة القضاء عليه وتغليب أعدائه عليه لما كانت هذه ترك مناصرة وإنما هي مظاهرة ومعاداة صريحة .

ولهذا من تأمل فعله ﷺ وسيرته علم حقيقة موقفه من المستضعفين ثم ليعلم هؤلاء أنه لأجل أن يعتذروا للمرتدين وقعوا في النيل من النبي ﷺ واتهامه بأنه ظاهر الكفار وأعانهم على المسلمين مثل فعل مرتدي زماننا فلعنة الله على الكاذبين .

وأين المظاهرة في فعله ﷺ مع عدم إنكاره على أبي بصير في قتل الكافر بل ورضاه عنه وإقراره ﷺ له في تعرضه لقريش في سيف البحر والتلميح له بالتحريض على صنيعه، إنه ﷺ لم يأمر أصحابه بالقبض على أبي بصير ولم يرسله مخفورا مقيدا موثقا للكفار ، إنه لم يجهز سرية لقتال عصابة المسلمين المتعرضة لقريش .

قال ابن حجر شارحا قوله ﷺ : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد ورجال: (فيه إشارة إليه بالفرار لئلا يرده إلى المشركين ورمز إلى من بلغه ذلك من المسلمين أن يلحقوا به) الفتح ٥/ ٣٥٠ .

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن : " بأي كتاب أم بأي حجة أن الجهاد لا يجب إلا مع إمام متبع هذه من الفرية في الدين والأدلة على إبطال هذا القول أشهر من أن تذكر من ذلك عموم الأمر بالجهاد والترغيب في تركه وكل من قام بالجهاد فقد أطاع الله، ولا يكون الإمام إماما إلا بالجهاد لا أنه لا يكون جهاد إلا بإمام والحق عكس ما قلته يا رجل - الذي هو لا جهاد إلا بولي أمر -.. وتأمل قصة أبي بصير حين تعرض لعير قريش يأخذ ويقتل فاستقل بحربهم دون رسول الله ﷺ وقد كانت قريش معه في صلح فهل قال له الرسول ﷺ أخطأتم في قتال قريش لأنكم لستم مع إمام ... ومعلوم أن الدين لا يقوم إلا بالجهاد ولهذا أمر النبي بالجهاد مع كل بر وفاجر.." الدرر ٨/ ١٩٩.

ثانيا : ثم أن ما فعله ﷺ كان لمصلحة الدين وقيامه وليس لأجل مصالح شخصية وأهداف دنيوية، ومن هذا الباب شرع الجهاد والهجرة والكفر بالطاغوت وعداوة الكفار ألا ترى أنه يستحب أن يقاتل المسلم الكفار حتى يقتل ويرمي بنفسه في نحر العدو لأجل الدين، فهلاك النفس وذهاب الروح والمال والدنيا لأجل عزة الدين ونصرته مشروع وليس بممنوع .

ثالثاً : أن هذا الفعل خاص به ﷺ من جهتين أن في موافقته ﷺ لما في الصلح من بند ينص : (على أنه من أتاك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا) فيه حكمة بالغة وهي نشر الدين عن طريقهم في مكة ثانيا إنه أخبر ﷺ كما في الصحيح : (أنه سيجعل الله لهم فرجا ومخرجا) وهذا لا يعلم إلا بوحي وليس لأحد بعده الحكم بذلك .

قال ابن العربي في أحكام القرآن : (فأما عقده على أن يرد من أسلم إليهم لا يجوز لأحد بعد النبي ﷺ وإنما جوزه الله له لما علم في ذلك من الحكمة) .

وقال ابن حزم : (ولا يحل لمسلم أن يشترط هذا الشرط ولا أن يفي به إن شرطه، إذ ليس عنده من علم الغيب ما أوحى الله تعالى به إلى رسوله) الإحكام ٥/ ٢٦ .

الرابعة : أن مظاهرة الكفار وإعانتهم والدخول في التحالف وإعانتهم في حملة الحرب من باب دفع الظلم والإرهاب وإقامة العدل، وأنها من باب إعانة كافر على أخذ مظلمته من مسلم ، والاستدلال لذلك بحلف الفضول وغيره :

قلت لسنا في حاجة والله لأن نرد على مثل هذه البلاهات وأقوال السقط الساقطة ولولا أنها قيلت لما صدق عاقل بها، ولا داعي لأن نقول أن الفضول حلف لمنع الظلم وهو أمر حث الإسلام عليه وقد أمرنا بالعدل حتى مع الكافر وعدم ظلمه. وإعانة الكافر على أخذ مظلمته من المسلم . جائزة شرط أن يكون طريق أخذ حق هذا الكافر حاكم المسلمين وقاضيهم بالشرع ، وهي بذلك ليست من مظاهرة الكفار على قتال المسلمين، ثم أي ظلم فعله المسلمون مع الكفار وأي عدل يقوم به هؤلاء الكفرة .

لكن من كذب على الله لم يهمه أن يكذب على الناس، وإلا فأين حربهم الإجرامية التي أظهروا فيها رؤوس الكفر وأحلوا الكفر والمنكرات علناً والتي قتلوا فيها حتى الأطفال والعجائز والتي وقع القصف العشوائي فيها لبيوت المسلمين والتي انتهكوا فيها أعراض المسلمات بمناصرة الروافض أبناء المتعة .

وإن هذا ليذكرنا ماقاله هؤلاء الرويبضات الذين ليس هدفهم بلوغ الحق والعمل بالشرع وإنما التلاعب بالدين واتباع المتشابه وإثارة الشبه والتلبيس على الناس، فكانوا بالأمس إذا أُنكرت عليهم فتاواهم في تجويز المظاهرة في حرب العراق تعللوا بأنها دولة كافرة بعثية يجوز الإعانة عليها فهي إعانة كافر على كافر . لكن بعد زوال حكومة البعث وقتل رئيسها وعدم ثبوت وجود أسلحة الدمار الشامل وغيرها من الترهات إلا أنها لا تزال الحرب إلى اليوم مما لا يجعل لعاقل حصول أدنى شك في أنها حرب على الإسلام ومع ذلك فالمظاهرة لا تزال معها ولم يزل الفعل وقبله الحكم بزوال العلة ، ومع هذه الحجج كلها إلا أنه لا تزال الفتاوى هذه مكانها ومعمول بها مع بقاء القصف والقتل والتشريد ولا تزال نساء أهل السنة يقبعن في سجون الصليب والروافض كما لا يخفى وقبلها ما قالوا عن المظاهرة على الأفغان وأن طالبان دولة ظالمة بل ومشركة ، ولا نقول غير إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أعز دينك وانصر أولياءك المجاهدين واخذل الشرك والكفر والمنافقين والمرتدين .

الشبهة الخامسة : الاستدلال بقصة أبي لبابة الأنصاري مع بني قريظة .

أولا : أن قصة أبي لبابة بن المنذر ﷺ مع بني قريظة لما أشار بيده إلى حلقه عندما استشاروه في النزول على حكم سعد بن معاذ ﷺ ، لا تصح كما قاله الطبري .

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ التوبة: ١٠٢ أنها نزلت في أبي لبابة ونفر معه سبعة أو ثمانية أو تسعة تخلفوا عن غزوة تبوك ثم ندموا وتابوا وربطوا أنفسهم بالسواري فكان عملهم الصالح توبتهم، وعملهم السيئ تخلفهم عن الرسول ﷺ .

قال ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة أبي لبابة : (اختلف في الحال التي أوجبت فعل أبي لبابة بنفسه، وأحسن ما قيل في ذلك، ما رواه معمر عن الزهري قال: كان أبو لبابة ممن تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك فربط نفسه بسارية وقال : والله لا أحل نفسي منها ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى يتوب الله علي أو أموت ، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه فقال رسول الله ﷺ: (لو جاءني لاستغفرت له) ثم تاب الله عليه ، فقيل له : قد تاب الله عليك يا أبا لبابة فقال : والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني ، قال : فجاء رسول الله ﷺ فحله بيده . ثم قال أبو لبابة. يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن انخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى الرسول، قال : يجزئك يا أبا لبابة الثلث).

ثانيا : على فرض صحة القصة فإنه لم تكن إفشاءً لسر المسلمين وليس تجسساً عليهم،ولا نصرة لليهود علي المسلمين ، فبني قريظة قد خذلهم الله وتمكن منهم المسلمون وأحاطوا بهم،ولا يوجد في فعل أبي لبابة ﷺ ما دّل على موالاته لليهود، وإنما أخبرهم بأن النبي ﷺ سيقتلهم ، فأين المظاهرة فيها ، بل قد فعل معصية عظيمة وهي مخالفته لأمر الرسول ﷺ فقط .

الشبهة السادسة : الاستدلال بقصة فرات بن حيان :

عن فرات بن حيان أن رسول الله ﷺ أمر بقتله وكان عينا لأبي سفيان وكان حليفا لرجل من الأنصار فقال : إني مسلم فقال رجل من الأنصار يارسول الله إنه يقول إني مسلم، فقال الرسول ﷺ : إن منكم رجالا نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان . رواه أبو داود .

أن القصة ليست متعلقة بمحل النزاع إذ هي واردة في رجل كان كافرا فأسلم فحقن دمه والكلام هنا في المسلم إذا ظاهر الكفار صار مرتدا كافرا ويقتل ولا دليل في القصة على هذه المسألة .

الشبهة السابعة : الاستدلال بقصة سهيل ابن بيضاء :

عن أبي عبيدة عن أبيه عبدالله بن مسعود ﷺ قال : لما كان يوم بدر فجيء بالأسارى، قال رسول الله ﷺ ما تقولون في هؤلاء الأسارى، فذكر في الحديث قصة، فقال رسول الله ﷺ : لا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق، قال عبدالله بن مسعود فقلت يارسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام قال فسكت رسول الله ﷺ قال فما رأيت في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم قال : حتى قال رسول الله ﷺ : إلا سهيل بن بيضاء قال ونزل القرآن بقول عمر : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الأنفال: ٦٧ رواه أحمد والترمذي.

أولا : أن الحديث ضعيف لأنه منقطع فإن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه فلا حجة فيه ، فضلا عن أن يكون معارضا به النصوص القطعية والمسلمات .

ثانيا : ثم إن الحديث ليس فيه حجة للمخالفين ولا أدنى مستمسك في المظاهرة، إذ ليس فيها ما يثبت له الإسلام فضلا عن عدم التكفير، وإنما عدم القتل والإعفاء من الفدية، والإعفاء من قتل الكافر والمظاهر يجوز فعله للإمام إن رأى المصلحة في ذلك .

ثالثا : أنه يحتمل أنه كان مكرها أو أنه خرج إلا أنه لم يقاتل وإذا تطرق الاحتمال للنص بطل الاحتجاج به .

رابعا : أن سهيل إن صح خبره فحكمه حكم أسرى بدر الذين نزلت فيهم الآية بالحث على قتلهم والإنكار على النبي ﷺ في ترك قتلهم مع أن معهم المكرهين، بل إن من قُتل من المكرهين حكم الله بكفره كما في قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ النساء: ٩٧ ، ولم يعذرهم الله ولم يعذرهم رسوله ومنهم عمه العباس وأخذ الفدية منه وأجرى عليه أحكام الكفار ولم يحكم بإسلامه، وأخذه بالظاهر ولم يقبل عذره ولا أسقط الفدية عنه .

الشبهة الثامنة : الاستدلال بقوله : ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ الأنفال: ٧٢ :

أولاً : الحكم في الآية منسوخ ، كما بين ذلك ابن العربي والجصاص وغيرهم .

ثانياً : ثم إن الاستدلال ليس في موطن النزاع فالآية متعلقة بترك مناصرة المسلمين الذين تركوا الهجرة وبقوا في دار الكفر وتحاربوا مع قوم كفار بيننا وبينهم عهد وميثاق ولا علاقة له بمظاهرة الكفار فضلا عن أن تكون دالة على جواز مظاهرة الكفار على المسلمين ألبته .

الشبهة التاسعة : أن المظاهرة لا تكون كفرا إلا مع بغض الإسلام وكانت بقصد ظهور الكفر وحبا للكفار ، أما المظاهرة إذا كانت للدنيا فليست بكفر .

الشبهة العاشرة : أن المظاهرة لا تكون كفرا مع الخوف والإكراه .

وتقدم الرد على هاتين الشبهتين في المسائل .

الشبهة الحادية عشرة : قياس مظاهرة الكافر على المؤمن بمعاداة المؤمن :

وهذا قياس فاسد الاعتبار وجهل مركب مرده عدم فهم مناط التكفير في الموالاة ووجه كون المظاهرة ردة . وهو ما يترتب على المظاهرة من إظهار للكفر وإبراز شعائرة وتغليب أهله وهدم للإسلام وغير ذلك من الشناعات التي لاتوجد في معاداة المؤمن . ثم يقال إن محاربة طائفة المؤمنين ومعاداة جماعتهم فإنها كفر عند كل من عقل لأن فيه حرب لدينهم فلو قاتل مسلم مسلمين في بلد حتى حل بدلهم قوم كفره وصارت الدار دار كفر والغلبة لهم وزالت شعائر الإسلام من هذا البلد بسبب حربه لهم فإنه يكفر بقتالهم وعداوته لهم .

الشبهة الثانية عشرة :قياس المظاهرة على بيع السلاح :

أولاً : أن كفر المظاهرة لا تعارض بمثل هذه الأقيسة الفاسدة .

ثم إن بيع السلاح للكفار حال حرب المسلمين كفر إذا استخدم وأضر بهم .

ثم إن المظاهرة كفر استقلالا والبيع تبعا .

قال ابن عجيبة في تفسيره : (قال أبي الحسن الزروالى الصغير (ت٧١٩) : (أن بيع السلاح للعدو الكافر كفر) البحر المديد ٢/ ٢٦٢.

الباب الثاني : الولاء والبراء

الفصل الأول : تعريف الولاء والبراء وحقيقته

(١) تعريف الولاء في اللغة :
الولاء أصله من الفعل (وَلِـيَ) الدال على القرب ، قاله ابن فارس في معجمه.
(٢) اشتقاقات لفظ الولاء في اللغة :
الوليّ ، المولى ، الوالي ، الموالي ، الولاء ،الموالاة ، الولاية ، التولي.
والولاية بفتح الواو وكسرها ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الأنفال: ٧٢. قُرأت بالكسر والفتح ، وهما بمعنى النصرة، ومنه سميت البلدة الواحدة ولاية لأن أهلها متقاربين متناصرين وسمي حاكمها الوالي لأنه قريب منها يسعى في نصرتها.
والوليّ : اسم من أسماء الله ﷻ ، ومن معانيه الناصر والقريب ومتولي الأمور.
(٣) المعاني التي دل عليه لفظ الولاء في اللغة:
المحبة ، المودة ، الإرضاء ، الطاعة ، المتابعة ، النصرة ، المعونة ، المعاضدة، المقاربة ، المحالفة ، المصاحبة ، وكل هذه المعاني المأخوذة منه موجودة في المعنى الشرعي.
(٤) تعريف الولاء في الاصطلاح الشرعي:
ما يحصل بين الخلق من التحابب والتودد والتناصر والتعاضد والتعاون والتقارب والتحالف والتآخي والتراضي والطاعة والتناصح والمصاحبة والمصادقة والملازمة والمتابعة والمحاباة والملاطفة والإكرام ، وما يجب أن يكون بينهم من المحبة والنصرة في الدين ولأجل كلمة التوحيد .
فيجب على كل مسلم أن يوالي المؤمنين ويتخلى عن موالاة الكافرين، ومن أعظم المحرمات بعد الشرك تولي أعداء الله الكافرين به ومعاداة أولياءه المؤمنين به.
فالواجب على المسلمين أن يكونوا مع بعضهم مثل الجسد الواحد ، فيكونوا في الأخوة والتناصر كما أمرهم ربهم ونبيهم : (المسلم أخو المسلم)، و (المؤمن للمؤمن كالبنيان)، وأن لا ﴿يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٥) تعريف البراء في اللغة :

البراء ضد الولاء : فالولاء الذي هو القرب ضد العداء الذي هو البعد.

والبراء هو : التخلص والتنزه والمباعدة والمخالفة والمنازعة والتخلي.

ومن معاني البراء أيضاً : قطع الموالاة والمودة والنصرة.

(٦) تعريفه الشرعي : ما يجب فعله مع الكافر من البغض والعداوة.

(٧) وردت معاني الولاء والبراء في الأدلة الشرعية ، ومنها:

المحبة والمودة والولاء والتولي والموالاة والبغض والبراء والمعاداة والعداوة .

(٨) الموالاة والمعاداة معلومة المعنى ومردّها للعرف :

الشريعة بينت حقيقة الموالاة والمعاداة ، كما دلت عليها الحقيقة العرفية واللغوية مع الحقيقة الشرعية ، فهذه الألفاظ مردها للعرف ، حيث يعرف معناها ولا تحتاج لتعريف ، فكل عاقل يعلم أن فلاناً مواليٌ له بأفعاله وفلاناً الآخر معاديٌ له ، فلا يحتاج الأمر لقياس وتأمل ، فموالاة الكفار أو معاداتهم تعرف من العمل الظاهر بمجرد فعلها ، فلا يمكن أن يجهل عاقل حال الموالي من المعادي.

قال الألوسي : (كل ما عده العرف تعظيماً وحسبه المسلمون موالاة ، فهو منهي عنه ولو مع أهل الذمة، ولا أرى القيام لهم في المجالس إلا من الأمور المحظورة لأنه دلالة على التعظيم قوية) روح المعاني ٣/ ١٢٠ .

(٩) الفرق بين البغض والمعاداة والبراء.

المعاداة تختص بالجوارح من مجانبة ومفاصلة ومقاطعة ومفارقة وتبري .

والبغض يتعلق بالقلب من حيث الأصل .

والبراء هو مجموع الأمرين .

وعليه فالعداوة قدر زائد عن البغض ، ولا يكفي أحدهما عن الآخر.

قال ابن عتيق في سبيل النجاة : (الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم).

(١٠) الفرق بين الموالاة والتولي :

أولاً : من حيث الأصل في اللغة :

الولاء : هو المحبة والنصرة .

والتولي : هو اتخاذ ولي ومحب ونصير .

والموالاة : هي مفاعلة من الجانبين بالتحابب والتناصر والتوادد .

ثانياً : التفريق بين التولي والموالاة من حيث الحقيقة الشرعية:
حصل فيه الاختلاف على قولين .
الأول : التولي والموالاة بمعنىً واحد لا فرق فالتولي مرادفٌ للموالاة.
القول الثاني : أن التولي أخص من الموالاة، فالتولي موالاة وزيادة، فكل تولي موالاة وليست كل موالاة تولياً ، فكأن المتولي انصرف عن الإسلام وأهله ، واتخذ المشركين حلفاء وأنصارا . وغالبا ما يطلق على ما يتعلق بالجوارح .
والتولي يسميه البعض بالموالاة الكبرى وهو كفر مخرج من الملة مثل مظاهرة المشركين على المسلمين ، ودونها الموالاة الصغرى وهذه ليست مخرجة من الملة مثل القيام للكافر والتبسم في وجه الكافر أو التشبه به في بعض الأشياء.
وهذا القول مال إليه الشيخ عبداللطيف وابنه وابن سحمان وغيرهم.
عن إعانة العساكر التركية:"ومن جرهم وأعانهم على المسلمين بأي إعانة فهي ردة صريحة" . الدرر ١٠/ ٤٢٩.
قال الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف في الفرق بين الموالاة والتولي :" التولي : كفر يخرج من الملة ، وهو كالذب عنهم ، وإعانتهم بالمال والبدن والرأي ، والموالاة : كبيرة من كبائر الذنوب كبلّ الدواة ، أو بري القلم ، أو التبشبش لهم أو رفع الصوط لهم" الدرر ٨/ ٤٢٢ .

(١١) صيغ واشتقاقات الولاء:
١- الموالاة والمعاداة : من صيغ المفاعلة فلا تقوم إلا بجانبين وجهتين .
٢- التولي والتبرؤ: من التفعّل وهي صيغة دالة على الاتخاذ .
فالتولي اتخاذ الولي والنصير، والتبري اتخاذ عدو.
٣- الولاء ويقابله البراء والعداء ، بكسر العين وفتحها.
٤- الولاية وفي مقابلها العداوة والبراءة .
(١٢) فائدة : التعبير بالاتخاذ وانقسامه إلى واجب ومحرم :
فالاتخاذ المحرم المنهي عنه جاء في مثل آية آل عمران:﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾ ، وآية النساء:﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .
وفي المقابل أمرنا باتخاذ الشيطان عدواً واتخاذ حزبه الكفار بالله المؤمنين بالشيطان فأُمرنا بهذا الاتخاذ في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ فاطر:٦.

(١٣) تعدياته:

أولاً : يتعدى الولاء بنفسه فيكون متعدياً: المنافق والى الكافر وتولاه .

ثانياً : يتعدى بغيره من حروف الجر فيكون لازما ومنها :

١- يتعدى بـ (في): المؤمن والى في الله وعادى في الله .

٢- يتعدى بـ(اللام): المسلم يوالي لدينه، اليهود أشد الناس عداوة للمؤمنين.

٣- يتعدى بـ (من) : المنافق تولى من الكفار أشدهم لنا عداوة.

٤- يتعدى بـ (إلى) : ﴿ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ﴾ الكفار، إذا ذهب إليهم متوليا لهـم ، وبـراءة إلى الكفار من الله.

٥- يتعدى بـ (الباء) : تولى بكفره . ومنه آية:﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ ﴾.

٦- يتعدى بـ (عن) : ﴿ تَوَلَّىٰ عَن ﴾ الكفار ، أي أبعد عنهم وأعرض واسـتبدل بهم غيرهم.

(١٤) أنواع الولاء في اللغة والشرع :

١- ولاء النصرة : وهو أظهر معاني الولاء،﴿ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم ﴾ الشورى: ٤٦ .

٢- ولاء الطاعة والمتابعة والتبعية: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ الأعراف: ٣.

٣- ولاء المودة والمحبة : ﴿ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ ﴾ الممتحنة: ١.

٤- ولاء التحالف: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ ﴾ الأنفال: ٧٢.

٥- ولاء النسب والقرابة : ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ ﴾ النمل: ٤٩.

٦- ولاء العتق : وفي الحديث (إنما الولاء لمن أعتق).

٧- ولاء الإسلام : فمن أسلم على يد رجل يعتبر مولاه .

الفصل الثاني : الأدلة الدالة على وجوب الولاء والبراء وكفر تاركه

الولاء والبراء دل على أصله ووجوبه النقل والعقل:

(١٥) الأدلة من الكتاب على الولاء والبراء :

الأدلة على قسمين آيات عامة تأمر بموالاة المؤمنين وتنهى عن موالاة الكفار وأدلة خاصة في بعض صور الموالاة والعداء كالمودة والمحبة والطاعة والركون والمداهنة والمساكنة وعدم الهجرة واتخاذ البطانة والوليجة :

وقد جاءت الأدلة بعدة طرق منها :

١- الأمر بموالاة المؤمنين ونصرتهم .

٢- الأمر بمعاداة الكفار والشدة عليهم والإغلاظ معهم .

٣- النهي عن موالاة الكافرين .

٤- الإخبار بخسة الكفار وإجرامهم وعداوتهم لله ورسوله وحربهم لدينه وصدهم عن سبيله.

ومن الأدلة في ذلك :

١- قال تعالى :﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ المائدة.

دلت الآية على أن الإيمان ينتفي بالكلية ويزول من أصله إذا حصلت موالاة الكفار ، فلا يجتمع الإيمان مع موالاة الكفار مطلقاً

قال ابن تيمية :" فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء، ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه ، ومثله قوله تعالى﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ، فإنه أخبر في تلك الآيات أن متوليهم لا يكون مؤمنا ، وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم ، فالقرآن يصدق بعضه بعضاً" الفتاوى ٧/ ١٧.

وقال :" الإيمان بالله والنبي مستلزم لعدم ولايتهم فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم " الاقتضاء ١ / ٢٢١.

وعليه فالآية علقت حكم الردة والتخليد في النار بمجرد تولي الكفار ، مما يدل على أن موالاة الكفار كفر بذاته وبمجرد ما يفعله المسلم يعتبر خارجا عن الملة .

قال الشيخ حمد بن عتيق : (قد دل القرآن والسنة على أن المسلم إذا حصلت منه موالاة أهل الشرك والانقياد لهم ارتد بذلك عن دينه) الدرر ٩/ ٢٦٣.

وتأمل كيف ربط التولي بالرؤية البصرية والمشاهدة العينية مما يعني أن التولي يقوم بأعمال الجوارح الظاهرة وليس خاص بالقلب كما زعمت المرجئة ، ومثل هذه الآية آية : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ المائدة: ٥٢.

وانظر كيف وصفوا بالكثرة ، ومع ذلك لم يمنع كثرتهم لحوق العقوبة بهم وتكفيرهم وتخليدهم في النار .

٢- قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ النساء.

فتأمل كيف علقت الآية الموالاة بالنفاق المخلد لصاحبه في النار والعذاب الأليم ، وأن مقصود من يتولاهم طلب العزة من الكفار وليس حب الكفر وأهله، ومع ذلك جاء الحكم بالتكفير لمتولي الكفار،مما يدل على أن موالاة الكفار كفر بذاته.

٣- قال تعالى :﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ المجادلة: ٢٢.

فتأمل كيف نفى الله ﷻ الإيمان عمن يتولى الكفار، وتأمل في تعلق النهي عن المحبة والمودة بالوالد والولد وفي هذا رد على من جوز المحبة الطبيعية .

قال ابن تيمية : (الله يخبرنا بهذه الآية أنه لا يوجد مؤمن يواد من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم فمن واد كافراً فليس بمؤمن لأن مودة الله ومودة عدوه ضدان لا يجتمعان في قلب واحد) الإيمان ١٧.

٤- قال تعالى :﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ الممتحنة: ٤.

وسنذكر بعض الوقفات والفوائد المتعلقة بهذه الآية بعد سوق الآيات.

٥- قال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المائدة: ٥١.

فتأمل كيف حكم الله ﷻ على من تولى الكفار أنه منهم في الحكم الذي هو الكفر، فهو كافر مثلهم بصريح الآية.

قال ابن حزم: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ (إنما هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار فقط وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين) المحلى ١٢/ ٣٣.

وقال الشنقيطي : (يفهم من ظواهر الآيات أن من تولى الكفار عمدا اختيارا رغبة فيهم أنه كافر مثلهم) الأضواء ١/ ٤١٣.

قال الآلوسي في روح المعاني: (كافر مثلهم حقيقة) .

قال ابن تيمية في عن حديث التشبه : ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾) الاقتضاء ١/ ٣٧ .

ومن اللطائف في الآية أنها جاءت في سياق آيات شرك الحكم وأحكام الردة والنفاق ، حيث جاء بعدها التحذير من الردة وأن موجبها موالاة الكفار وأن المقابل للمرتدين الذين والوا الكفار هم أهل الجهاد الذين تبرؤوا من الكفار وعادوهم .

قال ابن تيمية: (فالمخاطبون بالنهي عن موالاة اليهود والنصارى هم المخاطبون بآية الردة ، ولما نهى عن موالاة الكفار وبين أن من تولاهم من المخاطبين فإنه منهم بين أن من تولاهم وارتد عن دين الإسلام لا يضر الإسلام) ١٨/ ٣٠٠.

٦- وقال: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ آل عمران: ٢٨.

فتأمل كيف نهى الله عباده عن اتخاذ الكفار أولياء وجعل جزاء فاعله الخروج من ولاية الله والدخول في الردة عياذا بالله منها.

٧- قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ النساء: ١٤٤.

٨- قال تعالى : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ المائدة: ٥٢.

والمفسرون متفقون على أنها نزلت بسبب قوم ممن كان يظهر الإسلام وفي قلبه مرض ، خافوا أن يغلب أهل الإسلام فوالوا الكفار للخوف الذي في قلوبهم لا لاعتقادهم أن محمداً كاذب واليهود والنصارى صادقون.

وسبب نزولها : أن عبادة بن الصامت ﷺ قال : يا رسول الله إن لي موالّي من اليهود وإني أبرأ إلى الله من ولاية يهود ، فقال عبدالله بن أبي بن سلول : لكني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية يهود فنزلت الآية .

٩- قال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ المائدة: ٥٤ .

فتأمل كيف رتب حكم الردة على من يتولى الكفار وجعل أعظم صفات القوم المؤمنين موالاة الله والذلة للمؤمنين ومعاداة الكفار والغلظة عليهم والشدة والعزة عليهم وجهادهم ولا يضرهم قدح أهل النفاق فيهم.

وقدمنا كلام ابن تيمية في أن المخاطبين بالنهي عن الموالاة هم المخاطبون بآية الردة ، وأن الله لما نهى عن موالاة الكفار بين أن من تولاهم فهو مرتد .

١٠- قال تعالى :﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء: ٧٦.

وهذه الآية حصرت الناس في حزبين وجندين ومعسكرين، الأول أولياء الله الذين يقاتلون في سبيل الله ولنشر دينه ، والثاني أعداء الله الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت ولنشر الكفر والردة والصد عن الإسلام، ولا يمكن أن يقاتل المسلم مع الكفار والمرتدين ويبقى على إسلامه ، كما يؤكد هذا المعنى الآيتين التاليتين .

١١-وقال:﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة٢٥٧.

وهذه الآية كسابقتها في تقسيم الناس إلى أولياء الله وأولياء الطاغوت والشيطان ، ويؤخذ منها أنه لا يمكن أن يوالي المسلم الكفار ثم يكون مسلماً .

١٢- قال تعالى :﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الأعراف: ٣٠.

١٣- وقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ الممتحنة: ١.

١٤- قال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ

تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ التوبة.

وهذه الآية قطعت المبررات والأسباب الثمانية لتولي الكفار وترك جهادهم.

١٥- قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ البقرة.

١٦- قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ هود: ١١٣. نهت الآية عن الركون للكفار، وهو نوع من الموالاة، ومن والى الكفار وركن إليهم فلا بد أن تمسه نار جهنم بالعذاب.

١٧- قال تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ التوبة: ٥.

١٨- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة: ١٢٣.

١٩- قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ التوبة: ١٤ - ١٦.

بينت الآية وجوب قتل الكفار والإغلاظ عليهم والشدة معهم وجهادهم والتنكيل بهم وتعذيبهم والترصد بهم وليس هذا من الظلم الذي يزعمه المنافقون، كما أن فيها الإخبار بحصول الابتلاء والمحن ليخرج الله عقيدة الولاء والبراء، وليتميز حزب الله الموحد المجاهد وحزب الطاغوت المشرك المرتد.

٢٠- قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ التوبة: ٢٩.

٢١- وقـال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ الفتح: ٢٩.

٢٢- قـال تعـالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَٰعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢١٧.

بينت الآية والآيات التي بعدها عداوة الكفار للمسلمين ، ونصت على أن من تولى الكفار ووافقهم بعد قتالهم له فهو مرتد فكيف بمن يظاهرهم ويسارع فيهم.

٢٣- قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة: ١٢٠.

دلت الآية على مبدأ الولاء والبراء من جهتين :

الأولى: وجود عداوة الكفار وعدم رضاهم عنا ، والثانية: النهي عن اتباع الكفار .

٢٤- قـال تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران: ١١٨ .

٢٥- قال تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٠.

٢٦- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ البقرة:١٤.

٢٧- قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ البقرة: ١٠٩.

٢٨- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ آل عمران.

٢٩- قال تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى

ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾ النساء.

٣٠- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ٩٧.

والآية نزلت في أسرى وقتلى بدر ممن كان قد أسلم لكنه لم يهاجر فوالى الكفار وخرج معهم للقتال مكرهاً فحكم الله تعالى بكفرهم.

٣١- قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ١١٥ .

٣٢- وقال ﷺ: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الأعراف: ١٩٦ .

٣٣- قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة: ١٠٧ .

٣٤- قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ النساء: ٧٥.

٣٥- قال تعالى: ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ النساء: ١١٩.

٣٦- قال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٤.

٣٧- قال تعالى: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ النساء: ٨٩.

٣٨- قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ المائدة.

٣٩- قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ الإسراء.

٤٠- قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ الكهف: ٢٠.

٤١- قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ الكهف: ١٦.

٤٢- وقال: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ مريم.

ولا شك أن اعتزال الكفار من المعاداة الواجبة.

٤٣- قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعراف: ٣.

٤٤- قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الأنفال: ٧٣.

ويؤخذ من الآية أن ترك معاداة الكفار يسبب الفتنة والفساد في الدين.

٤٥- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ الأنفال: ٧٢.

٤٦- قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ يونس.

٤٧- قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ الكهف: ١٠٢.

٤٨- قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الجاثية: ١٩.

٤٩- قال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٤.

٥٠- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ الأنعام: ١٥٩.

٥١- قال تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الأعراف: ١٩٦.

٥٢- قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ التوبة: ٦٧.

٥٣- قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ التوبة: ٧١.

٥٤- قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ التوبة: ١١٣ – ١١٤.

٥٥- قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الفرقان: ٢٧ – ٢٩.

٥٦- قال تعالى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾ القصص: ٨٦ .

قال ابن كثير في تفسيره: (فلا تكونن ظهيرا أي معيناً للكافرين ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم).

٥٧- قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ العنكبوت: ٤١ .

٥٨- قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ العنكبوت: ٢٥.

٥٩- قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ سبأ.

٦٠- قال تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ الشورى: ٩.

٦١- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ الشورى: ٦.

٦٢- وقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ الجاثية: ١٨ .

٦٣- قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ محمد: ٢٥ – ٢٦ .

فانظر كيف جعل سبب ردتهم وكفرهم أنه أطاعوا الكفار في بعض الأمر، فكيف من صرف لهم كل الطاعة وتولاهم التولي المطلق ومن حكم بقوانينهم وألزم بها المسلمين وتحاكم إليهم.

٦٤- قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ المجادلة.

٦٥- قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ المجادلة: ٢٠.

٦٦- وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ الحشر: ١١. فانظر كيف حكم الله تعالى بنفاقهم لأجل توليهم الكفار.

٦٧- قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الممتحنة.

٦٨- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ الممتحنة: ١٣.

٦٩- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ ﴾ الصف: ١٤.

٧٠- قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ الأنفال: ٦٠.

٧١- قال تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ الشعراء.

٧٢- قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فاطر: ٦.

٧٣- وقال: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ الزخرف: ٦٧.

٧٤- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ الأحقاف: ٦.

٧٥- وقال: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ المائدة ٨٢.

٧٦- قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٥.

٧٧- قال تعالى :﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ آل عمران: ١٢٠.

هذه الآيات وغيرها كثير كلها تدل على وجوب الولاء والبراء وكفر تاركه.

(١٦) نصت آية الممتحنة المبينة ملة إبراهيم على أصل الولاء والبراء ومعاداة الكفار وتكفير المرتدين من بضعة عشر وجها :

قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ .

وإليك بعض التأملات والوقفات مع هذه الآية العظيمة التي بين الله تعالى فيها لكل موحد متبع غير مبتدع حقيقة الملة الإبراهيمية التي أمرنا باتباعها .

أن هذه هي الملة الإبراهيمية التي هي ملّة خليله ومولاه والتي وصفها بالحسنى وسفه ربنا تعالى مخالفها .

أن في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ دلالة على الاجتماع على الحق ، وفيها دليل على الموالاة القائمة على الاتباع والتأسي والموافقة .

وفي قوله: ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ ﴾ دلالة على التناصر والتحالف والتوالي فيما بينهم .

وفي قوله: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ ﴾.

بيان لحقيقة (عقيدة البراء) في كلمة: ﴿ بُرَءَٰٓؤُاْ ﴾ ، وأنها تقوم على ثلاثة أصول :

الأول: البغض لهم، والثاني: إظهار العداوة لهم والجهاد والقتال، والثالث: تكفيرهم والكفر بهم . وبدأ بالأخير لتعلق النزاع والخلاف فيه.

فالبغض قليل من يخالف فيه من المرجئة والعداوة أكثر وتكفير المرتدين أكثر.

وتأمل قوله: ﴿ وَبَدَا ﴾، الذي يفيد البدوّ وهو غاية الظهور والوضوح ، كما يفيد الابتداء فلا يدخل أحد الإسلام إلا مع البدء بمعاداة الكفار وهذا لا يقبل التأخير.

وقوله: ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ تدل على المفاعلة من الطرفين وأنها حاصلة من الجانبين، وأنه لا بد من اجتماع الموالاة مع المعاداة.

ثم تأمل كيف جمع بين العداوة والبغضاء ﴿ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ ﴾، وتقديم العداوة التي مكانها الجوارح الظاهرة على البغضاء التي مكانها القلب، دليل على

وجوب اجتماع الظاهر والباطن ، فلابد من إظهار العداوة والبراءة منهم بدون لبس، ولا يكفي إضمار البغض لهم في القلب ونحن مسالمون لهم ظاهرا .

ثم تأمل تقديم البراءة من العابدين وشركهم قبل المعبودين في قوله ﴿ بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ، وما ذلك إلا للأهمية، فإن البراءة من العابد وشركه يقتضي البراءة من المعبودين دون العكس، والبراءة من المعبودين لا يستلزم البراءة من عابديهم وما يشركون، فلا تكفي عداوة الكفار دون الطواغيت المعبودة والمتبعة والأسياد المطاعة، كما لا تكفي هي أيضاً دون عداوة أهلها ومتبعيها، وكم من جاهل يظن أن البراء متعلق بالكفر دون فاعله وأن معاداة الكفار ليست مشروعة وإنما المشروع هو فقط بغض الكفر وتركه دون التعرض لأصحابه لأن الله سيتولاهم .

ثم تأمل قوله: ﴿ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ ﴾ ، مما يدل على استمرار العداوة وأبديتها وأننا لا نقطع عداوتنا للكفار وتكفيرهم إلا إذا آمنوا وأقاموا التوحيد ، وجاء بحرف (حتى) مع كلمة (أبدا) دلالة على الاستغراق التام لتأكيد هذه الغاية وهي بقاء الفعل (العداوة) ما بقي سببه (الكفر).

ثم تأمل قوله: ﴿ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ ، كيف أكد على التوحيد في كلمة وحده وأنه السبب الوحيد للتولي، وأنه لا يكفي مجرد الإيمان بالله دون توحيد ودون الموالاة والمعاداة فيه فتأمل واعلم ثم اعمل. فالموالاة سببها الإيمان بالله وتوحيده .

وأما استثناء الاستغفار لأبيه في قوله ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ ، فنحن غير مأمورين بالاقتداء به .

مع أن هذا مجرد دعا له بالمغفرة وكان قبل تبين حال والده ولما تبين له أنه كافر عدو لله وكل كافر فهو عدو لله تبرأ منه ولم يستثنه من العداوة والتكفير والبغضاء .

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ التوبة: ١١٤.

وفي هذا رد على من زعم تجويز المحبة الطبيعية للوالد والولد الكافرين .

وفي آخر الآية أكد على التوحيد معلقاً أمره بالله ورد كل شيء إلى الله تعالى.

وهذا في قوله: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

واعلم يا أيها الموحد أن هذه هي ملة إبراهيم التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ البقرة: ١٣٠، وهذه هي الأسوة الحسنة التي أمرنا الله ﷻ بالاقتداء بها.

(١٧) الأدلة من السنة على الولاء والبراء :

١- عن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ لأبي ذر : أي عرى الإيمان أوثق ؟ قال الله ورسوله أعلم . قال : (الموالاة في الله والمعادة في الله والحب في الله والبغض في الله) رواه الطبراني .

وسنورد هنا بعض روايات هذا الحديث وألفاظه وشواهده :

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أوثق عرى الإيمان، الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله) رواه الطبراني.

وفي لفظ (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله والموالاة في الله والمعاداة في الله) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال لي النبي ﷺ : (أحب في الله وأبغض في الله ووال في الله وعاد في الله فإنك لن تنال ولاية الله إلاّ بذلك ، ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذلك . وصارت موالاة الناس في أمر الدنيا وأن ذلك لا يجزئ عن أهله شيئا)رواه أبو نعيم.

قال ابن عباس: (من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا). رواه ابن جرير وابن المبارك في الزهد موقوفا .

وروى الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : كنّا جلوسا عند النبي ﷺ فقال : (أيّ عرى الإسلام أوثق ؟) قالوا : الصلاة . قال : (حسنة وما هي بها) قالوا : صيام رمضان ، قال : (حسن وما هو به) قالوا : الجهاد . قال : (حسن وما هو به) قال : (إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله) . ورواه أبو داود الطيالسي وابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان بنحوه .

عن ابن مسعود ﷺ قال : دخلت على النبي ﷺ فقال : (يابن مسعود ، أي عرى الإيمان أوثق ؟) قلت : الله ورسوله أعلم . قال : (أوثق عرى الإسلام الولاية في الله والحب في الله والبغض في الله) . رواه الطيالسي والطبراني في الصغير والحاكم.

عن عمرو بن الجموح ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول : (لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله فإذا أحب لله تبارك وتعالى وأبغض لله فقد استحق الولاية من الله) رواه أحمد والطبراني.

عن أبي أمامة الباهلي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان) رواه أبو داود.

عن معاذ بن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال : (من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل الإيمان) رواه أحمد والترمذي والحاكم قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي في تلخيصه .

عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وطعمه ، أن يكون الله عز وجل ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب في الله وأن يبغض في الله وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئا) . رواه النسائي والطيالسي وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما بغير هذا اللفظ .

٢- وقال ﷺ :" من تشبه بقوم فهو منهم " رواه أحمد وأبو داوود والحاكم .

٣- قال النبي ﷺ :" خالفوا المشركين " رواه البخاري .

٤- وقال ﷺ :" لا يقتل مسلم بكافر" رواه البخاري.

٥- وقال ﷺ :" المرء مع من أحب " رواه النسائي والترمذي.

٦- عن واثلة بن الأسقع ﷺ مرفوعا : (يؤتى بعبد محسن في نفسه لا يرى أن له ذنباً فيقول له : هل كنت توالي أوليائي؟ قال : كنت من الناس سلما ، قال : فهل كنت تعادي أعدائي ؟ قال : رب لم يكن بيني وبين أحد شيء ، فيقول الله ﷻ : لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعاد أعدائي) . أخرجه أبو نعيم في الحلية .

٧- عن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: (أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لفلان العابد : أما زهدك في الدنيا ، فقد تعجلت به الراحة ، وأما انقطاعك إلي ، فقد اكتسبت به العز فما عملت فيما لي عليك ، قال : وما لك علي ، قال هل واليت في وليا ، أو عاديت في عدوا) رواه أبو نعيم في الحلية .

٨- وقال ﷺ :" كل مسلم على مسلم حرام أخوان نصيران لا يقبل الله ﷺ من مشرك بعدما أسلم عملاً أو يفارق المشركين إلى المسلمين " صححه الألباني في السلسلة .

٩- وقال ﷺ :" إن أوليائي يوم القيامة المتقون وإن كان نسب أقرب من نسب فلا يأتي الناس بالأعمال وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم فتقولون يا محمد فأقول هكذا لها وأعرض في كلي عطفيه " رواه البخاري في الأدب المفرد .

١٠- عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال : (لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والدارمي وغيرهم.

١١- عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : (الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) . رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

١٢- قال النبي ﷺ : (لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي.

١٣- وروى أبو نعيم في الحلية عن علي ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تساووهم في المجلس وألجئوهم إلى أضيق الطرق فإن سبّوكم فاضربوهم وإن ضربوكم فاقتلوهم) . وفي رواية : (صغّروا بهم كما صغر الله بهم) .

١٤- عن بريدة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقولوا للمنافق سيدا فإنه إن يكن سيدا فقد أسخطتم ربكم) رواه أبو داود والنسائي .

وعند الحاكم:(إذا قال الرجل للمنافق يا سيد فقد أغضب ربه تبارك وتعالى).
وعند البيهقي في الشعب:(إذا قال الرجل للمنافق ياسيد فقد باء بغضب ربه) .

١٥- عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز لذلك العرش) رواه ابن أبي الدنيا وأبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان .

١٦- وعن جابر ﷺ قال : نهى رسول الله ﷺ أن يصافح المشركون أو يكنّوا ويرحب بهم . رواه أبو نعيم في الحلية .

١٧- وقال ﷺ :" من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام " رواه الطبراني وفيه ضعف .

١٨- وعن أبي موسى قال: قال ﷺ :" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " وشبك بين أصابعه . رواه البخاري .

١٩- وقال ﷺ :" المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه " رواه البخاري .

٢٠- قال النبي ﷺ : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " رواه البخاري .

٢١- عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال : (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا) رواه مسلم وفي لفظ ولا تدابروا ومعناها المعادة.

٢٢- (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد) رواه مسلم.

٢٣- (كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله ، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) رواه أبو داود وابن ماجه .

٢٤- وقال ﷺ :" والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا " رواه مسلم .

٢٥- عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا : (الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب على شيء من الجور أو تبغض على شيء من العدل ، وهل الدّين إلاّ الحب في الله والبغض في الله) . رواه الحاكم وأبو نعيم.

٢٦- وقال ﷺ :" لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن " متفق عليه .

٢٧- قال النبي ﷺ :" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين " رواه البخاري.

٢٨- عن سمرة بن جندب ﷺ عن النبي ﷺ قال : (لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فهو مثلهم) . ولفظ الحاكم (فليس منا) .

وعند أبي داود (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله) .

٢٩- عن جرير بن عبد الله ﷺ أن الرسول ﷺ بعث سرية إلى خثعم فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل فبلغ النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل وقال : (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين ظهراني المشركين) وفي لفظ (أظهر) قالوا يا رسول الله لم ؟ قال : (لا تراءى ناراهما) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما .وعند الطبراني وَالبيهقي: (من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة) .

٣٠- عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : (لا تستضيئوا بنار المشركين) رواه أحمد والنسائي .

ومعنى الحديث والحديث السابق لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم ولا تنزل من المشركين في موضع إذا أوقدت رأوا فيه نارك وإذا أوقدوا رأيت فيه نارهم .

٣١- عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ﷺ أن النبي ﷺ قال : (لا يقبل الله من مشرك بعدما يسلم عملا أو يفارق المشركين إلى المسلمين) رواه أحمد والنسائي .

٣٢- وفي أحد كتب النبي ﷺ : (من محمد النبي ﷺ لبني زهير بن أُقَيْش أنهم إن شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وفارقوا المشركين وأقروا بالخمس في غنائمهم وسهم النبي وصَفيِّه أنهم آمنون بأمان الله ورسوله) رواه النسائي .

٣٣- عن جرير ﷺ قال : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم وعلى فراق المشركين . رواه النسائي .

وفي رواية قال ﷺ : (أبايعك على أن تعبد الله وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة وتناصح المسلمين وتفارق المشركين) .

٣٤- عن أبي اليسر ﷺ قال : قال ﷺ : (أبايعك على أن تعبد الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتناصح المسلم وتفارق المشرك) رواه الحاكم في مستدركه .

٣٥- عن الزهري مرسلا أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال : (تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان وأنك لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب) رواه ابن جرير .

٣٦- قال النبي ﷺ في غزو الترك (بنو قنطوراء) للبصرة وافتراق المسلمين حينها لثلاث فرق : (فيفترق أهلها ثلاث فرق ، فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية وهلكوا ، وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا ، وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلون وهم الشهداء) رواه أبو داود بسند صحيح .

ومعنى(يأخذون لأنفسهم وكفروا):أي يطلبون الأمان أو يقبلون الأمان من الترك كما قال شراح الحديث في عون المعبود وغيره.

وهذا الحديث فيه الدليل الصريح على كفر من حالف الكفار الصائلين على ديار المسلمين وأخذ الأمان منهم فأمّنهم وأمّنوه وأظهر تأييده لهم ووافقهم وهو مع ذلك لم يظاهرهم وإنما طلب منهم الأمان وكف عن قتالهم ومع ذلك ارتد بعمله هذا فكيف الحكم في من قاتل معهم وناصرهم على المسلمين وظاهرهم .

٣٧- ما ثبت من دعائه ﷺ على الكفار : كقوله ﷺ في الصحيح: (لعنة الله على اليهود والنصارى) .

وثبت دعاؤه على قومه فقال ﷺ : اللهم أشدد وطئتك على مضر. ودعاؤه على ذكوان وعصية .وعلى نفر من قريش .

٣٨- قال ﷺ :" إن الله قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم

فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن " رواه أحمد .

٣٩- قال ﷺ:" إذا رأيتم الرجل يتعزى بعزاء الجاهلية، فأعضوه بهَنِ أبيه ولا تكنوا " أحمد .

٤٠- قال ﷺ:" من ادعى دعوى الجاهلية فإنه جثا جهنم - أي من جماعات جهنم - فقال رجل: يا رسول الله: وإن صلى وصام؟ فقال: وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله التي سماكم: المسلمين، المؤمنين، عباد الله ".

٤١- قال ﷺ:" ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية ". رواه النسائي

٤٢- وقال ﷺ (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

٤٣- وقال ﷺ :" لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلم " رواه مسلم وأحمد وقال :" أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ".

٤٤- قال ﷺ :" من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس" رواه الترمذي واللفظ لابن حبان.

٤٥- قال ﷺ:" من دعا بدعوى الجاهلية فإنه جثى جهنم - أي من جماعات جهنم - فقال رجل: يا رسول الله: وإن صلى وصام؟ فقال: وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله التي سماكم: المسلمين، المؤمنين، عباد الله " رواه احمد وأبو داود.

٤٦- وقال ﷺ :" من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب " رواه البخاري .

٤٧- قال ﷺ (إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعه الخير ، والرامي به ، ومنبله) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

٤٨- عن ابن مسعود ﷺ يرفعه : (تقربوا إلى الله ببغض أهل المعاصي ، والقوهم بوجوه مكفهرة والتمسوا رضا الله بسخطهم وتقربوا إلى الله بالبعد منهم) . رواه ابن شاهين وفي رفعه نظر والأشبه أنه من قول ابن مسعود ، ورُوي نحوه عن عيسى عليه السلام .

٤٩- قال الإمام أحمد في الزهد : حدثنا سيار حدثنا جعفر أبو غالب قال : بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسى بن مريم عليهما السلام : يا معشر الحواريين تحببوا إلى الله ﷻ ببغض أهل المعاصي وتقربوا إليه بالمقت لهم والتمسوا رضاه بسخطهم (وفي لفظ: وتقربوا إلى الله بالبعد عنهم واطلبوا رضا الله بسخطهم)

قالوا: يا نبي الله فمن نجالس . قال : جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه ومن تذكركم بالله رؤيته ويزهدكم في دنياكم عمله .

٥٠- عن جابر ﷺ عن النبي ﷺ: (أن الله تعالى أوحى إلى جبريل أن اخسف بقرية كذا وكذا قال : يارب إن فيهم فلانا العابد ، قال : به فابدأ ، إنه لم يتمعر وجهه فيّ يوما قط) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

٥١- وجاء في كتاب النبي ﷺ آخا بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه اليهود وعاهدهم .

٥٢- وفي السيرة لابن هشام : أن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو أثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض من دون الناس .

٥٣- عن عائذ بن عمرو :" أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها ، قال أبو بكر أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم " فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك . فأتاهم أبو بكر فقال يا إخوتاه أغضبتكم قالوا لا . يغفر الله لك يا أخي " رواه مسلم .

٥٤- أن الرسول ﷺ في صلح الحديبية نحر جملاً كان لأبي جهل ليغيظ به المشركين وكان هذا الجمل قد غنمه النبي ﷺ يوم بدر .

واستنبط ابن القيم في زاد المعاد من هذه القصة استحباب مغايظة أعداء الله .

٥٥- وقال النبي ﷺ لأبي عزة الجمحي لما ظفر به وقدر عليه وطلب من الرسول أن يمن عليه وكان قد عفا عنه قبلها :" لا تمسح عارضيك وتقول سخرت بمحمد مرتين " ثم قال " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين أضرب عنقه يا عاصم بن ثابت " فضرب عنقه أخرجه ابن سعد في طبقاته وغيره .

٥٦- قال ﷺ : من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه " رواه أبو داود .

فوثب محيصة بن مسعود على ابن سنينة وهو من تجار اليهود فقتله، وكان أخوه حويصة إذ ذاك لم يسلم وكان أسن من محيصة فلما قتله جعل حويصه يضربه ويقول أي عدو الله أقتلته ؟ أما والله لرب شحم في بطنك من ماله قال محيصة : والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك، قال فو الله إن كان لأول إسلام

حويصة قال آلله لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني قال : نعم والله لو أمرني بضرب عنقك لضربتها قال والله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب فأسلم حويصة " ، أورد القصة ابن هشام في سيرته .

٥٧- قال ﷺ لقريش عند البيت :" أتيتكم بالذبح " رواه أحمد.

فعن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط سفّه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا، قال: فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي، حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فلما أن مر بهم، غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، فمر بهم الثانية، فغمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فقال: "تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح" فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشداً، فوالله ما كنت جهولاً، قال: فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد، اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه! فبينما هم في ذلك، إذ طلع [عليهم] رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به، يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: نعم، أنا الذي أقول كذا، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه، قال: وقام أبو بكر الصديق ﷺ دونه يقول وهو يبكي: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟". ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً بلغت منه قط". رواه أحمد في المسند .

٥٨- قال حذيفة بن اليمان ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر وتلا (﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾) أخرجه عبد بن حميد.

٥٩- قول عمر ﷺ في اشتراطه على أهل الذمة " ولا نرغب في ديننا ولا ندعو إليه أحد " .

٦٠- كتب عمر ﷺ: ألاّ تكاتبوا أهل الذمة فتجري بينكم وبينهم المودة ولا تكنّوهم وأذلوهم ولا تظلموهم ، وفي الشروط التي التزم بها أهل الذمة وأمضاها عليهم عمر رضي الله عنه فمن بعده أنهم لا يكتنون بكنى المسلمين . رواه الأصبهاني.

٦١- أنكر عمر ﷺ على أبي موسى الأشعري ﷺ حين اتخذ كاتبا نصرانيا .

وقال ﷺ لمن أشار عليه اتخاذ كاتبا نصرانيا:(لا أقربهم بعد أن أبعدهم الله).

وكذا منع معاوية من اتخاذ كاتبا نصرانيا .

٦٢- ما ثبت عن عمر ﷺ حين كتب له عمرو بن العاص ﷺ لما فتح الإسكندرية من وجود مكتبة عظيمة يستشيره فيها فأمره بإحراقها .

٦٣- - قال ابن عباس رضي الله عنهما: (نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف ويخالفونهم في الدين) أخرجه الطبري في تفسيره ٣/ ٣٠٩ .

٦٤- قال الحسن البصري: ثلاثة لا غيبة لهم ، الإمام الخائن وصاحب الهوى الذي يدعو إلى هواه والفاسق المعلن فسقه . أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد.

٦٥- أن دية الكافر الذمي نصف دية المسلم .

وبعد هذه الأدلة التي تزيد عن مائة دليل من الكتاب والسنة تبين مكانة عقيدة الولاء والبراء لا ينبغي لمسلم يرجو الله واليوم الآخر أن يفرط ويضيع العمل بها.

(١٨) دلالة العقل على وجوب الولاء والبراء وركنيته في الدين :
دل العقل على أن موالاة عدو من تواليه في الحقيقة معاداة لمن تريد أن تواليه.
قال ابن القيم في نونيته: أتحب أعداء الحبيب وتدعى حبا له ما ذاك في الإمكان
قال ابن تيمية : (فمن واد كافراً فليس بمؤمن لأن مودة الله ومودة عدوه ضدان لا يجتمعان في قلب واحد) الإيمان ١٧ .
كما أن المحبة للشيء يلزم منها موالاته ومناصرته والدفاع عنه وطاعته وبغض الشيء يلزم معاداته ، وعداوة الشيء لازمها عدم وجود الحب وإنما البغض ، فالدين لا يمكن أن يقوم إلا بنصرة أهله له وقتالهم في سبيله وموالاتهم ومعاداتهم فيه ، ومن أحب الله ورسوله لزمه أن يواليهم ويطيعهم وينصرهم ويعادي أعدائهم. كما قيل:
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع
فالعقل دل على أن كل من دخل في حزب وانتمى لمبدأ فإنه يتبع ما يريده ذاك الحزب ، وأيضاً فإن من ادّعى محبة شيء سراً وباطناً فلابد من ظهور متابعة تلك المحبة بالموافقة والنصرة وعدم المخالفة ، فمن أحب شيئاً أطاعه ولم يخالفه وأظهر له كل أنواع المحبة من انقياد له وتبعية وموالاة ونصرة .
فمن ادّعى الدين وأحبه فلابد من تباع كل ما يريد دينه ويملي عليه ولابد من موالاته وإظهار موافقته فلو ادعى رجل محبته لآخر ثم أسلمه لأعدائه أو ساعدهم عليه، فإن هذا لا يعد محباً بل مبغضاً فضلاً عن أنه يسمى موالياً فيعتبر بفعله معاديا.
ولهذا فإن الله ﷻ أعظم ما أوجب بعد التوحيد الولاء والبراء والكفر بالطاغوت ومعاداة أعداء الله .

(١٩) أمثلة الموالاة والمعاداة :
من صور الموالاة في الله : مؤاخاة الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار .
ومن أعظم الأمثلة ما ضربه الأنصار ﷺ في موالاتهم إخوانهم المهاجرين وامتدحهم الله بقولهم: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ الحشر: ٩.
ومن صور المعاداة في الله : وهي كثير جداً في هدي الصحابة ومن بعدهم :
١ - أعظمها قصة الخليل مع والده وقومه حيث تبرأ منهم وأظهر لهم العداوة بسبب كفرهم ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ

﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُرْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ الممتحنة: ٤ ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ التوبة: ١١٤.

٢- قتل الرسول ﷺ لأبي عزة الجمحي مع ترجيه وطلبه العفو عنه وكذا أمره بقتل ابن خطل وغيره لما فتح مكة .

٣- موقف أبي بكر ﷺ مع أبيه لما سب الرسول ﷺ فصكه على وجهه، وقصته مع ابنه لما أراد قتله ، وكذا خبره مع المرتدين.

٤- ما قيل في قتل أبي عبيدة والده يوم بدر وأنزل الله آية المجادلة .

٥- قول عمر ﷺ في أسرى بدر حيث طلب أن يسلم كل قريب لقريبه فيقتله وما حصل من الوعيد لّما خولف رأيه كما في سورة الأنفال .

٦- قصة سعد بن أبي وقاص مع أمه لما امتنعت عن الطعام لما أسلم قال لها لما كادت تهلك والله ولو كان لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا .

٧- قتل محيصة بن مسعود ابن سنينة اليهودي حين أمر النبي ﷺ بقتل اليهود.

٨- قصة عبدالله مع أبيه عبد الله بن أبي بن سلول حيث استأذن الرسول ﷺ.

٩- قصة أم المؤمنين أم حبيبة مع والدها أبي سفيان حين كان مشركاً حيث رفعت عنه فراش النبي ﷺ.

١٠- قول مصعب بن عمير لما مر بأخيه أبي عزيز بن عمير وهو أسير في معركة بدر والأنصاري يضع القيد في يده، فقال له مصعب: شد يدك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب : أهذه وصايتك بأخيك، فقال مصعب : إنه أي الأنصاري أخي دونك .

١١- خبر عمر ﷺ مع أبي موسى الأشعري لما اتخذ له كاتبا نصرانيا .
وقصته مع عمير بن وهب.

١٢- قصة عبدالله بن حذافة السهمي مع قيصر .

١٣- قصة عثمان بن مظعون حيث خرج من جور الوليد وتكذيبه للبيد مع ما حصل له من أذى في ذلك .

١٤- قول علي بن أبي طالب للنبي ﷺ في والده أبي طالب توفي عمك الشيخ الضال وقال عنه لا أواري مشركا، رواه أبو داود.

١٥- ما أخذه العلماء على هشام بن عبدالرحمن الداخل إذنه لليهود والنصارى بإنشاء المدارس والمعابد لهم واستعمالهم في وظائف الدولة .

الفصل الثالث : كلام العلماء في الولاء والبراء

(٢٠) النقولات من كلام أئمة السلف وأهل العلم في الولاء والبراء ومعاداة الكفار وأن الإسلام لا يقبل إلا بالبراءة من المشركين وتكفيرهم:

١- قال الطبري في تفسيره:(فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم فإنه لا يتولى متول أحداً إلا وهو به وبدينه وماهو عليه راض وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه) ٦/ ٢٧٧ .

وقال: (لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهوراً وأنصاراً توالونهم على دينهم ، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم ، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، يعني فقد بريء من الله ، وبريء الله منه ، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر، إلا أن تتقوا منهم تقاة : إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ، ولا تعينوهم على مسلم بفعل).

وقال الطبري : (قد كانت لكم يا أمة محمد أسوة حسنة في فعل إبراهيم والذين معه في هذه الأمور من مباينة الكفار ومعاداتهم وترك موالاتهم إلا في قول إبراهيم {لأستغفرن لك} فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك لأن ذلك كان من إبراهيم عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه فتبرؤوا من عبادة ما سواه وأظهروا لهم العداوة والبغضاء).

٢- قال الحسن : (لا تغتر بقولك : المرء مع من أحب . إن من أحب قوماً اتبع آثارهم ولن تلحق الأبرار حتى تتبع آثارهم ، وتأخذ بهديهم وتقتدي بسنتهم وتمسي وتصبح وأنت على منهاجهم حريصا أن تكون منهم وتسلك سبيلهم وتأخذ طريقهم وإن كنت مقصراً في العمل فإن ملاك الأمر أن تكون على استقامة أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء الردية يحبون أنبياءهم وليسوا معهم لأنهم خالفوهم في القول والعمل وسلكوا غير طريقتهم فصار موردهم النار) .

٣- قال الإمام ابن بطة في الإبانة: (وتبغض في الله من عصاه ووالى أعداءه وإن كان قريبا منك). الإبانة الصغرى ١٧٨ .

٤- قال الإمام البربهاري : (وإذا فعل شيئاً من ذلك – النواقض – وجب عليك أن تخرجه من الإسلام) . شرح السنة ٧٣ .

٥- قال ابن عقيل: (إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان ، فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب المساجد، ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك، وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة، عاش ابن الراوندي والمعري عليهما لعائن الله ينظمون وينثرون كفرا ... وعاشوا سنين وعظمت قبورهم واشتريت تصانيفهم، وهذا يدل على برودة الدين في القلب ... فاللجا اللجا إلى حصن الدين والاعتصام بحبل الله المتين، والانحياز إلى أوليائه المؤمنين، والحذر الحذر من أعدائه المخالفين، فأفضل القرب إلى الله تعالى، مقت من حاد الله ورسوله وجهاده باليد واللسان والجنان بقدر الإمكان" الآداب الشرعية لابن مفلح ١/ ٢٦٨. الدرر السنية ٨/ ٢٩٩.

٦- قال ابن حزم في المحلى : (وصح أن قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ إنما هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار فقط وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين).

٧- قال البغوي في تفسيره: (ومن يفعل ذلك أي موالاة الكفار في نقل الأخبار إليهم وإظهارهم على عورة المسلمين فليس من دين الله في شيء ...

الله تعالى نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان دفعا عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما أو يظهر الكفار على عورة المسلمين.

والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل وسلامة النية قال تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)، ثم هذا رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم .

وأنكر قوم التقية اليوم، وقال معاذ بن جبل ومجاهد: كان في مبدأ الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام فليس ينبغي لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم، وقال يحيى البكاء: قلت لسعيد بن جبير في أيام الحجاج إن الحسن كان يقول لكم تقية باللسان والقلب مطمئن بالإيمان، فقال سعيد ليس في الإسلام تقية إنما التقية في أهل الحرب).

٨- قال أبو العباس الونشريسي (ت٩١٤) : (ولا تجد في تحريم هذه الإقامة وهذه الموالاة الكفرانية مخالفا من أهل القبلة.. ومن خالف الآن في ذلك أو رام الخلاف من المقيمين معهم والراكنين إليهم فجوز هذه الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ..) المعيار المعرب ٢/ ١٢٣.

٩- قال مكي بن أبي طالب في تفسيره الهداية : (لأنه لا يواليهم إلا وهو بدينهم راض فهو منهم) . ٣/ ١٧٧٨.

١٠- قال الأهدل في رسالته السيف البتار على من يوالي الكفار ويتخذهم من دون الله ورسوله ﷺ والمؤمنين أنصار حين سئل عن قوم في بلاد الإسلام من المسلمين يدعون أنهم من رعية النصارى ويرضون بذلك ويفرحون به ، فما تقولون في إيمانهم، ومن الجملة أنهم يتخذون لسفنهم بيارق تسمى الرايات مثل رايات النصارى، إعلاماً منهم بأنهم من رعيتهم .

فقال : " إن كانوا علماء بأحكام الإسلام ، ومع ذلك صدر عنهم ما ذكر فيستتابون، فإن رجعوا عن ذلك وتابوا إلى الله وإلا فهم مارقون، فإن اعتقدوا تعظيم الكفر ارتدوا ، وجرى عليهم أحكام المرتدين.

وظاهر الآيات والأحاديث عدم إيمان المذكورين قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾ ،فالناس قسمان : الذين آمنوا وليهم الله تعالى لا غيره، فليس لهم مولى دون الله ورسوله، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، فمن اتخذ الطاغوت ولياً من دون الله ، فقد خسر خسراناً مبيناً، وارتكب خطأً جسيماً، فليس إلا ولي الله وولي الطاغوت، فلا شركة بوجه من الوجوه ألبتة ، وقد حكم الله ألا نتولى الكفار بوجه قط، فمن خالف لما يحكم، فأنى يكون له إيمانٌ ، وقد نفى الله إيمانه ، وأكد النهي بأبلغ الوجوه والإقسام على ذلك فاستفده".

١١- قال ابن عطية في تفسيره: (نص تعالى في صفة المنافقين على أشدها ضررا على المؤمنين وهي موالاتهم الكفار واطراحهم المؤمنين ، ونبه على فساد ذلك ليدعه من عسى أن يقع في نوع منه من المؤمنين غفلة أو جهالة أو مسامحة، ثم وقف تعالى على جهة التوبيخ على مقصدهم في ذلك أهو طلب العزة والاستكثار بهم أي ليس الأمر كذلك بل العزة كلها لله يؤتيها من يشاء وقد وعد بها المؤمنين).

١٢- قال الجصاص : (نهت الآية المؤمنين عن موالاة الكفار ونصرتهم والاستنصار بهم وتفويض أمورهم إليهم وإيجاب التبرؤ منهم وترك تعظيمهم وإكرامهم ، وسوّى بين الآباء والإخوان في ذلك ... وإنما أمر المؤمنين بذلك ليتميزوا من المنافقين ، إذ كان المنافقون يتولون الكفار، ويظهرون إكرامهم وتعظيمهم إذا لقوهم ، ويظهرون لهم الولاية والحياطة، فجعل الله تعالى ما أمر به

المؤمن في هذه الآية علما يتميز به المؤمن من المنافق، وأخبر أن من لم يفعل ذلك فهو ظالم لنفسه مستحق للعقوبة من ربه) أحكام القرآن ٣/ ١٣٠ .

١٣- قال ابو السعود : (﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ فإن انحصار الموالاة فيما بينهم يستدعي كون من يواليهم منهم ضرورة أن الاتحاد في الدين الذي عليه يدور أمر الموالاة حيث لم يكن بكونهم ممن يواليهم من المؤمنين تعين أن يكون ذلك بكون من يواليهم منهم ، وفيه زجر شديد للمؤمنين عن إظهار صورة الموالاة لهم ... لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضلالة) .

١٤- قال القرطبي: (﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ ﴾ أي: يعضدهم على المسلمين ، ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾: بيّن تعالى أن حكمه حكمهم ، وهو يمنع إثبات الميراث للمسلم من المرتد) .

١٥- قال النسفي في تفسيره (لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين ، وفيه دليل على أن الكفر كله ملة واحدة ، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ من جملتهم وحكمه حكمهم) .

١٦- قال القرافي : (نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على موادات القلوب ولا تعظيم شعائر الكفر ، فمتى أدى إلى أحد هذين امتنع ، وصار من قبيل ما نهي عنه في الآية وغيرها، ويتضح ذلك بالمثل : إخلاء المجالس لهم عند قدومهم علينا ، والقيام لهم حينئذ ، ونداؤهم بالأسماء العظيمة الموجبة لرفع شأن المنادى بها، كذلك إذا تلاقينا معهم في الطريق وأخلينا لهم واسعها ورحبتها والسهل منها ، وتركنا أنفسنا في خسيسها وحزنها وضيقها، فإن هذا ممنوع لما فيه من تعظيم شعائر الكفر وتحقير شعائر الله تعالى وشعائر دينه واحتقار أهله، وكذلك لا يكون المسلم عندهم خادماً ولا أجيراً يؤمر عليه وينهى ، وأما ما أمر من برهم من غير مودة باطنية كالرفق بضعيفهم وإطعام جائعهم وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذيتهم في الجوار مع القدرة على إزالته، لطفاً معهم لا خوفاً وتعظيماً، والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة ونصيحتهم في جميع أمورهم، فجميع ما نفعله معهم من ذلك لا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم ، وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من بغضنا وتكذيب نبينا ﷺ ، وأنهم لو قدروا علينا لاستأصلوا شأفتنا واستولوا على دمائنا وأموالنا ، وأنهم من أشد العصاة لربنا ومالكنا ﷻ ، ثم نعاملهم بعد ذلك بما تقدم ذكره امتثالاً لأمر ربنا). الفروق ٣/ ١٤ .

١٧- قال الخازن في تفسيره : (ومن يتول اليهود والنصارى من دون المؤمنين فينصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم ، لأنه لا يتولى مولى إلا وهو راض به وبدينه وإذا رضيه ورضي دينه صار منهم) .

١٨- قال ابن كثير في تفسيره : (نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ، ثم توعد على ذلك، ومن يرتكب نهي الله في هذا فقد برئ من الله).

وقال ابن كثير في تفسيره : (فلا تكونن ظهيرا أي معيناً للكافرين ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم).

١٩- قال الشوكاني في تفسير آية المائدة : (وهذا شروع في بيان أحكام المرتدين بعد بيان أن موالاة الكافرين من المسلم كفر وذلك نوع من أنواع الردة) .

وقال الشوكاني في تفسيره : (المراد من النهي عن اتخاذهم أولياء أن يعاملوا معاملة الأولياء في المصادقة والمعاشرة والمناصرة ، ووجه تعليل النهي بهذه الجملة أنها تقتضي أن هذه الموالاة هي شأن هؤلاء الكفار لا شأنكم ، فلا تفعلوا ما هو من فعلهم فتكونوا مثلهم ومن جملتهم وفى عدادهم ... أن وقوعهم في الكفر هو بسبب عدم هدايته سبحانه لمن ظلم نفسه بما يوجب الكفر كمن يوالي الكافرين) .

٢٠- قال الآلوسي في تفسيره عن المتولي : (كافر مثلهم حقيقة) .

٢١- قال الشنقيطي : (يفهم من ظواهر الآيات أن من تولى الكفار عمدا اختيارا رغبة فيهم أنه كافر مثلهم) الأضواء ١/ ٤١٣.

٢٢- قال احمد شاكر : (وما كنت يوما بالاحمق فأظن أن الحكومات في البلاد الإسلامية ستستجيب لحكم الإسلام فتقطع العلاقات السياسية مع الانجليز ... ولكن أريد أن أعرفهم بعواقب هذه الردة ...) كلمة حق ٨٧ .

٢٣- قال ابن سعدي : (ففي قوله اشهدوا بأنا مسلمون إظهار للبراءة من الكفار وكفرهم وزجر عن الدخول في طاعتهم وإشعار بوجوب التميز عنهم والاعتزاز بالإسلام والاعتداد به قولاً وفعلاً).

وقال: (وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن موالاة الكافرين بالمحبة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين وتوعد على ذلك فقال: ﴿ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ أي فقد انقطع عن الله وليس له في دين الله نصيب لأن موالاة الكافرين لا

تجتمع مع الإيمان لأن الإيمان يأمر بموالاة الله وموالاة أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه).

٢٤- قال ابن تيمية في الاقتضاء عن حديث التشبه : (ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾) ١/ ٣٧ .

قال ابن تيمية : (الله يخبرنا بهذه الآية أنه لا يوجد مؤمن يواد من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم فمن واد كافراً فليس بمؤمن لأن مودة الله ومودة عدوه ضدان لا يجتمعان في قلب واحد) الإيمان ١٧ .

قال ابن تيمية: " فالمخاطبون بالنهي عن موالاة اليهود والنصارى هم المخاطبون بآية الردة ، ولما نهى عن موالاة الكفار وبين أن من تولاهم من المخاطبين فإنه منهم بين أن من تولاهم وارتد عن دين الإسلام لا يضر الإسلام " ١٨/ ٣٠٠.

ويقول في التحفة العراقية : (فاتباع سنة رسول الله ﷺ وإتباع شريعته باطناً وظاهراً هو موجب محبة الله كما أن الجهاد في سبيل الله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها) .

وقال: (عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة فيه سبحانه والمعاداة) ١٠/ ٥٩ .

قال ابن تيمية : (ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه ولا تتمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه وهذه حقيقة لا إله إلا الله وهي ملة إبراهيم عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين) ٢٨/ ٣٨ .

قال ابن تيمية:(أصل الموالاة هي المحبة واصل المعاداة البغض فإن التحاب يوجب التقارب والاتفاق والتباغض يوجب التباعد والاختلاف)المحبة ٣٨٧ .

قال ابن تيمية عن الجهمية : (وعندهم أيضاً أن الإنسان قد يكون مؤمناً كامل الإيمان بقلبه وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادي الله ورسوله ويعادي أولياء الله ويوالي أعداء الله).

وقال :" الإيمان بالله والنبي مستلزم لعدم ولايتهم فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم " الاقتضاء ١ / ٢٢١.

وقال :" فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء، ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه ، ومثله قوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم

﴿ مِنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ، فإنه أخبر في تلك الآيات أن متوليهم لا يكون مؤمنا ، وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم ، فالقرآن يصدق بعضه بعضاً" الفتاوى ٧/ ١٧ .

وقال ابن تيمية : (قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ الكافرون: ٦ اللام للاختصاص فأنتم مختصون بدينكم لا أشركم فيه وأنا مختص بديني لا تشركوني فيه ﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ يونس: ٤١ ، وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين ولا أهل الكتاب كما يظنه بعض الملحدين ، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين وجعلوها منسوخة بل فيها براءته من دينهم وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ). الجواب الصحيح ٢/ ٣٠ .

٢٥- قال العلامة ابن القيم في إغاثة اللهفان: (ما نجا من هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله) .

وقال ابن القيم في الجواب الكافي : (لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء إنه قال لقومه : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ٧٧ فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة فإنه لا ولاء إلا لله ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الزخرف ، أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة لا إله إلا الله وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة).

وقال: (تشمل هذه السورة النفي المحض فإنها سورة براءة من الشرك ومقصودها الأعظم البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة، وهذه مسألة شريفة من أهم المسائل وقد غلط خلائق وظنوا أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم أو أنها مخصوصة بمن يقر على دينه وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض ، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص بل هي محكمة بل ويستحيل دخول النسخ فيها فإن أحكام التوحيد التي انقضت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقرار على دينهم أبدا بل لم يزل الرسول ﷺ في أول الأمر أشد على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه

وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة وإن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدا فإنه دين باطل) البدائع ١/ ٣٨.

وقال: أتحب أعداء الحبيب وتدعى ** حبا له ما ذاك في الإمكان
وكذا تعادي جاهداً أحبابه ** أين المحبة يا أخا الشيطان
شرط المحبة أن توافق من ** تحب على محبته بلا نقصان

وقال ابن القيم : (معلوم أن التقاة ليست بموالاة ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم والبراءة منهم ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال إلا إذا خافوا وليست التقية مولاة لهم) البدائع ٣/ ٦٩ .

وقال: (من تولاهم فإنه منهم ،ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم ، والولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً ، والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً ، والولاية صلة فلا تجامع معاداة الكافر أبداً) أحكام أهل الذمة ١/ ٢٤٢.

وقال في زاد المعاد في هدي النبي ﷺ في الجهاد: (ودخل الناس في الدين وقريش لا تنكر ذلك حتى بادأهم بعيب دينهم وسب آلهتهم وأنها لا تضر ولا تنفع ، فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة) .

٢٦- كلام أئمة الدعوة :

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب: "فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، وأخبر أن من تولاهم من المؤمنين فهو منهم ، وهكذا حكم من تولى الكفار من المجوس وعباد الأوثان ، فهو منهم " . الدرر ٨/ ١٢٧.

وقال: " الرضا بالكفر كفر، وموالاة الكفار كفر" . الدرر ١٠ / ٣٨.

وقال:" وأنت يا من منّ الله عليك بالإسلام وعرفت أن ما من إله إلا الله، لا تظن أنك إذا قلت هذا هو الحق وأنا تارك ما سواه لكن لا أتعرض للمشركين ولا أقول فيهم شيئاً لا تظن أن ذلك يحصل لك به الدخول في الإسلام، بل لابد من بغضهم وبغض من يحبهم ومسبتهم ومعاداتهم كما قال أبوك إبراهيم :﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ ،ولو يقول رجل أنا أتبع النبي وهو على الحق لكن لا أتعرض للات ولا أتعرض أبا جهل وأمثاله ما عليّ منهم لم يصح إسلامه " الدرر ٢/ ١٠٩.

وقال :" ومعنى الكفر بالطاغوت أن تتبرأ من كل ما يعتقد فيه غير الله وتشهد عليه بالكفر والضلال وتبغضه ولو كان أباك أو أخاك " مجموعة الرسائل ٤/ ٣٣.

وقال: (كثير من الذين يدّعون الدين لا يعرفون لا إله إلا الله وإلا فما الذي حمل المسلمين على الصبر على ذلك والعذاب والأسر والضرب والهجرة للحبشة مع أنه ﷺ أرحم الناس لو يجد لهم رخصة لأرخص لهم) مجموعة التوحيد ١٩ .

وقال :" تمسّكوا بأصل دينكم، وأوّله وأسّه ورأسه، شهادة أن لا إله إلا الله، واعرفوا معناها وأحِبّوها، وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم، ولو كانوا بعيدين منكم نسباً واكفروا بالطواغيت وعادوهم وأبغضوهم، وأبغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفّرهم أو قال ما عليّ منهم أو قال ما كلفني الله بهم، فقد كذب هذا على الله وافترى إثماً مبيناً، فقد كلّف الله كل مسلم ببغض الكفار، وافترض عليه عداوتهم، وتكفيرهم والبراءة منهم، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم، فالله الله تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئاً" الدرر ٢/ ١١٩.

وقال: (إن الإنسان لا يستقيم له دين ولا إسلام ولو وحّد الله وترك الشرك، إلا بعداوة المشركين ، والتصريح لهم بالعداوة والبغض) الدرر ٨/ ١١٣ .

وقال: (بل لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء ـ أي الطواغيت المعبودون من دون الله ـ وتكفيرهم ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾). الدرر ١٠/ ٥٣ .

وقال في المخالفين في التوحيد: (من الناس من عبد الله وحده وعمل بالتوحيد ولم ينكر الشرك ولم يعاد أهله ومنهم من عاداهم ولم يكفرهم) الدرر ٢/ ٢٢.

وقال أيضاً :" أصل دين الإسلام وقاعدته أمران :

١- الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والتحريض على ذلك والموالاة فيه وتكفير من تركه .

٢- الإنذار عن الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له والتغليظ في ذلك والمعاداة فيه وتكفير من فعله فمعاداة الكافرين والبراءة منهم ومن كفرهم أصل من أصول الدين لا يصح إلا به ، وهي ملة إبراهيم ". الدرر ٢/ ٢٢ .

وقال الشيخ عبدالرحمن حسن:" فسجل تعالى على من تولى الكافرين بالمذمة وحلول السخط عليهم ، والخلود في العذاب ، وأكد ذلك بنوعي التوكيد ، ثم ذكر

أن هذا الذي وصفهم به ينافي الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه ، ولها نظائر ، كقوله: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾) الدرر ٨ / ١٧٣.

وقال أيضاً : (﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ المائدة: ٥١ وهذه الآية وأمثالها تعرف عظم هذا الذنب، وفي هذه وغيرها قبلها وبعدها ما يدل على أن هذا ردة عن الإسلام ، يظهر هذا لمن تدبر) . الدرر ٨ / ١٨٨.

وقال : (أجمع العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن المرء لا يكون مسلما إلا بالتجرد من الشرك الأكبر والبراءة منه وممن فعله وبغضهم ومعاداتهم بحسب الطاقة والقدرة وإخلاص الأعمال كلها لله) . الدرر ١١/ ٥٤٥ .

وقال :" فلا يتم لأهل التوحيد توحيدهم إلا باعتزال أهل الشرك وعداوتهم وتكفيرهم " الدرر١١/ ٤٣٤.

وقال:(وقد فرض الله تعالى البراءة من الشرك والمشركين، والكفر بهم وعداوتهم وبغضهم وجهادهم،﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾، فوالوهم وأعانوهم وظاهروهم واستنصروا بهم على المؤمنين، وأبغضوا المؤمنين وسبوهم من أجل ذلك، وكل هذه الأمور تناقض الإسلام، كما دل عليه الكتاب والسنة... وعند هؤلاء وأمثالهم – وأفراخهم من مرجئة عصرنا – على الدين الذي كانوا عليه لم يفارقوه) الدرر ٨/ ١٩٠.

وقال: (ذكر شيخنا محمد بن عبد الوهاب في مختصر السيرة : ذكر الواقدي أن خالد بن الوليد ﷺ لما قد اليمامة في قتال المرتدين أخذوا مجاعة بن مرارة فأمر به فأسره وأوثقه في حديد ... فقال مجّاعة ياخالد قد علمت أني قدمت على رسول الله ﷺ وبايعته على الإسلام وأنا اليوم على ما كنت عليه بالأمس فإن يك كذاب خرج فينا يعني مسيلمة لعنه الله فإن الله يقول {ولا تزر وازرة وزر أخرى} فقال خالد : يا مجاعة تركت اليوم ما كنت عليه أمس وكان رضاك بأمر هذا الكذاب وسكوتك عنه إقراراً له ورضا بما جاء به، فهل أبديت عذرا فتكلمت فيمن تكلم، فقد تكلم ثمامة فرد وأنكر وتكلم اليشكري، فإن قلت أخاف قومي فهلا عمدت إلي أو بعثت إلي رسولا ؟ فتأمل كيف جعل خالد سكوت مجاعة رضا بما جاء به مسيلمة وإقرارا فأين هذا ممن أظهر الرضا وظاهر وأعان وجد وشمر مع أولئك الذين أشركوا مع الله في عبادته وأفسدوا في أرضه) مجموعة الرسائل ٤/ ٢٩٢ .

وقال في آية الممتحنة: "فمن تدبر هذه الآيات عرف التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه وعرف حال المخالفين لما عليه الرسل وأتباعهم من الجهلة المغرورين الأخسرين قال شيخنا في سياق دعوة النبي ﷺ قريشاً إلى التوحيد وما جرى منهم عند ذكر آلهتهم بأنهم لا ينفعون ولا يضرون أنهم جعلوا ذلك شتماً، " فإذا عرفت هذا عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء كما قال تعالى:﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ المجادلة: ٢٢، فإذا فهمت هذا فهماً جيداً عرفت أن كثيراً ممن يدعي الدين لا يعرفه، وإلا فما الذي حمل المسلمين على الصبر على ذلك العذاب والأسر والهجرة إلى الحبشة مع أنه أرحم الناس ولو وجد لهم رخصة أرخص لهم، كيف وقد أنزل الله عليه:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ العنكبوت: ١٠، فإذا كانت هذه الآية فيمن وافق بلسانه فكيف بغير ذلك"؛ يعني من وافقهم بالقول والفعل بلا أذى فظاهرهم وأعانهم وذب عنهم وعن من وافقهم وأنكر على من خالفهم كما هو الواقع".

وقال: " فهذه حال أصحاب رسول الله وما لقوا من المشركين من شدة الأذى، فأين هذا من حال هؤلاء المفتونين الذين سارعوا إلى الباطل وأوضعوا فيه وأقبلوا وأدبروا وتوددوا وداهنوا وركنوا وعظموا ومدحوا فكانوا أشبه بما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ الأحزاب: ١٤،نسأل الله تعالى الثبات على الإسلام، ونعوذ به من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، ومن المعلوم أن الذين أسلموا وآمنوا بالنبي وبما جاء به لولا أنهم تبرؤوا من الشرك وأهله وبادروا المشركين بسب دينهم وعيب آلهتهم لما تصدوا لهم بأنواع الأذى..." الدرر ٨/ ١٢٤.

وقال أيضاً : " قال عالم الحجاز الإمام محمد الحفظي: فالحذر أيها العاقلون والتوبة أيها الغافلون فإن الفتنة حصلت في أصل الدين لا في فروعه، ولا في الدنيا، فيجب أن تكون العشيرة والأزواج والأموال والتجارة والمساكن وقاية للدين وفداءً عنه، ولا يُجعل الدين فداءً عنها ووقاية لها قال تعالى:﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ التوبة: ٢٤، فتفطن لها وتأملها فإن الله أوجب أن يكون الله

ورسوله والجهاد أحب من تلك الثمانية كلها، فضلاً عن واحدة منها أو شيء دونها مما هو أحقر، فليكن الدين عندك أغلى الأشياء وأعلاها..." الدرر ٨/ ٢٥٧.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله في أول كتابه الدلائل :" اعلم رحمك الله أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفاً منهم ومداراة لهم ومداهنة لدفع شرهم فإنه كافر مثلهم، وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين، هذا إذا لم يقع منه إلا ذلك، فكيف إذا كان في دار منعة واستعدى بهم ودخل في طاعتهم وأظهر الموافقة على دينهم الباطل وأعانهم عليه بالنصرة والمال ووالاهم وقطع الموالاة بينه وبين المسلمين وصار من جنود القباب والشرك وأهلها بعد ما كان من جنود الإخلاص والتوحيد وأهله فإن هذا لا يشك مسلم أنه كافر من أشد الناس عداوة لله ولرسوله، ولا يستثنى من ذلك إلا المكره وهو الذي يستولى عليه المشركون فيقولون له اكفر أو افعل كذا وإلا فعلنا بك وقتلناك أو يأخذونه فيعذبونه حتى يوافقهم، فيجوز له الموافقة باللسان مع طمأنينة القلب بالإيمان، وقد أجمع العلماء على أن من تكلم بالكفر هازلا أنه يكفر فكيف بمن أظهر الكفر خوفًا وطمعاً في الدنيا ".

وقال: (قوله (ووالى في الله) هذا بيان للازم المحبة في الله وهو الموالاة فيه إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب بل لابد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب وهي النصرة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين باطناً وظاهراً، وقوله (وعادى في الله) هذا بيان للازم البغض في الله وهو المعاداة فيه أي إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله والبراءة منهم والبعد عنهم باطناً وظاهراً، إفادة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمة) التيسير ٤٢٢.

وقال: (لأن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله أن لا يُعبد إلا الله وأن لا يعتقد النفع والضر إلا في الله ، وأن يُكفر بما يُعبد من دون الله ويتبرأ منها ومن عابِديها) التيسير ١٥٢.

وقال في الدلائل: (ذكر تعالى أن موالاة الكفار موجبة لسخط الله والخلود في النار بمجردها وإن كان الإنسان خائفاً ، إلا المكره بشرطه ... فذكر تعالى أن موالاة الكفار منافية للإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه ، ثم أخبر أن سبب ذلك كون كثير منهم فاسقين ، ولم يفرق بين من خاف الدائرة ولم يخف ، وهكذا حال كثير من هؤلاء

المرتدين قبل ردتهم كثير منهم فاسقون، فجر ذلك إلى موالاة الكفار والردة عن الإسلام ، نعوذ بالله من ذلك) الدرر ٨/ ١٢٨ .

ويقول الشيخ سليمان في رسالة أوثق عرى الإيمان: " فهل يتم الدين أو يقام علم الجهاد، أو علم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بالحب في الله والبغض في الله، والمعاداة في الله والموالاة في الله، ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة ، ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء ، لم يكن فرقانا بين الحق والباطل ، ولا بين المؤمنين والكفار، ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان".

وقال أيضاً: "فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، وأخبر أن من تولاهم من المؤمنين فهو منهم ، وهكذا حكم من تولى الكفار من المجوس وعباد الأوثان ، فهو منهم " . الدرر ٨/ ١٢٧ .

وقال أيضاً: " فأخبر تعالى أن من تولى أعداء الله وإن كانوا أقرباء وأصدقاء فقد ضل سواء السبيل ، أي : أخطأ الصراط المستقيم ، وخرج عنه إلى الضلال ، فأين هذا ممن يدعي أنه على الصراط المستقيم لم يخرج عنه ، فإن هذا تكذيب لله ، ومن كذب الله فهو كافر ، واستحلال لما حرم الله من ولاية الكفار ، ومن استحل محرماً فهو كافر " الدرر ٨/ ١٤١.

وقال الشيخ عبد الله وأخيه حسين ابني الإمام محمد بن عبد الوهاب : " فمن قال لا أعادي المشركين أو عاداهم ولم يكفّرهم أو قال لا أتعرض أهل لا إله إلا الله ولو فعلوا الكفر والشرك وعادوا دين الله أو ارتدوا و قال لا أتعرض للقباب فهذا لا يكون مسلماً والله سبحانه وتعالى أوجب معاداة المشركين ومنابذتهم وتكفيرهم "مجموعة الرسائل النجدية ١/ ٣٨ .

وقال بعض أئمة الدعوة : (مما يوجب الجهاد لمن اتصف به عدم تكفير عدم تكفير المشركين أو الشك في كفرهم فإن ذلك من نواقض الإسلام فمن اتصف به فقد كفر وحل دمه وماله ووجب قتاله حتى يكفر المشركين) .

وقالوا : (فمن لم يكفر المشركين من الدولة التركية وعباد القبور كأهل مكة وغيرهم ممن عبد الصالحين وعدل عن توحيد الله إلى الشرك وبدل سنة رسوله ﷺ بالبدع فهو كافر مثلهم، وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين فإن الذي لا يكفر المشركين مكذب بالقرآن فإنه قد كفر المشركين وأمر بتكفيرهم وعداوتهم وقتالهم . قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نواقض الإسلام الثالث من

لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم وقال شيخ الإسلام ابن تيمية من دعا علي بن أبي طالب فقد كفر ومن شك في كفره فقد كفر) الدرر ٩/ ٢٩١.

وقال الشيخ عبد الله بن محمد في الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة:" إن الإسلام لا يستقيم إلا بمعاداة المشركين فإن لم يعادهم فهو منهم وإن لم يفعله " .

وقال الشيخ عبداللطيف بن عبد الرحمن: "والمرء قد ينجو من الشرك ويحب التوحيد، ولكنه يأتيه الخلل من جهة عدم البراءة من أهل الشرك وترك موالاة أهل التوحيد ونصرتهم. فيكون متبعاً لهواه داخلاً من الشرك في شعب تهدم دينه وما بناه، تاركاً من التوحيد أصولاً وشعباً لا يستقيم معها إيمانه الذي ارتضاه فلا يحب ولا يبغض لله ولا يعادي ولا يوالي لجلال من أنشأه وسوّاه، وكل هذا يؤخذ من شهادة أن لا إله إلا الله" الدرر ٨/ ٦٨١..

وقال:" لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء وتكفيرهم ".

وقال أيضاً: "وأفضل القرب إلى الله مقت أعدائه المشركين وبغضهم وعداوتهم وجهادهم وبهذا ينجو العبد من توليهم " الدرر٨/ ٨٤٢ .

وقال أيضاً: " فمقت هؤلاء المشركين وعيبهم وذمهم وتكفيرهم وبغضهم وعداوتهم وجهادهم والبراءة منهم هو حقيقة الدين والوسيلة العظمى إلى رب العالمين ولا طيب لحياة المسلم وعيشة إلا بجهاد هؤلاء ومراغمتهم وتكفيرهم والتقرب إلى الله بذلك واحتسابه لديه " مجموعة الرسائل ٣/ ٢٢٤ .

وقال:"إن مسمى الموالاة يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات الدرر ٨/ ٤٣٢ .

وقال : " فعليكم بالجد والاجتهاد فيما يحفظ الله به عليكم الإيمان والتوحيد ، وينجيكم من الركون إلى أهل الكفر والإشراك والتنديد " . ٨ / ٢٨٨ .

وقال: (لا يتصور أن يعرف التوحيد ويعمل به ولا يعادي المشركين ومن لا يعاديهم لا يقال له عرف التوحيد وعمل به) الدرر ٨/ ٣٥٩.

وقال: " وترك ذلك على سبيل المداهنة والمعاشرة ونحو ذلك مما يفعله بعض الجاهلين أعظم ضرراً وأكبر إثماً من تركه لمجرد الجهالة فإن هذا الصنف رأوا أن نيل المعيشة لا يحصل إلا بذلك فخالفوا الرسل وأتباعهم وخرجوا عن سبيلهم ومنهاجهم، لأنهم يرون العقل إرضاء الناس على طبقاتهم ويسالمونهم ويستجلبون مودتهم ومحبتهم، وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إيثار للحظوظ النفسانية والدعة

ومسالمة الناس وترك المعاداة في الله وتحمل الأذى في ذاته وهذا في الحقيقة هو الهلكة في الآجلة، فما ذاق طعم الإيمان من لم يوال في الله ويعاد فيه، والعقل كل العقل ما أوصل إلى رضى الله ورسوله، وهذا إنما يحصل بمراغمة أعداء الله وإيثار مرضاته، والغضب إذا انتهكت محارمه. والغضب ينشأ من حياة القلب وغيرته وتعظيمه وإذا عدم الحياة والغيرة والتعظيم وعدم الغضب والاشمئزاز، وسوى بين الخبيث والطيب في معاملته وموالاته ومعاداته فأي خير يبقى في قلب هذا " الدرر ٨/ ٣٥.

وقال :" وما جاء في القرآن من النهي والتغليظ الشديد في موالاتهم وتوليهم، دليل على أن أصل الأصول لا استقامة له ولا ثبات له إلا بمقاطعة أعداء الله وحربهم وجهادهم والبراءة منهم، والتقرب إلى الله بمقتهم وعيبهم، وقد قال تعالى لما عقد الموالاة بين المؤمنين وأخبر أن الكافرين بعضهم أولياء بعض قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾، وهل الفتنة إلا الشرك، والفساد الكبير هو انتثار عقد التوحيد والإسلام وقطع ما أحكمه القرآن من الأحكام والنظام..فليتأمل من نصح نفسه وينظر ما وقع من أكثر الناس اليوم، فإنه يتبين أنها تتناول من ترك جهادهم، وسكت عن عيبهم، وألقى إليهم السلم، فكيف بمن أعانهم، أو جرهم على بلاد أهل الإسلام، أو أثنى عليهم أو فضلهم بالعدل على أهل الإسلام واختار ديارهم ومساكنتهم وولايتهم وأحب ظهورهم، فإن هذا ردة صريحة بالاتفاق " الدرر ٨ / ٣٢٤.

وقال عبد الله بن عبد اللطيف :" التولي كفر يخرج من الملة، وهو كالذب عنهم، وإعانتهم بالمال والبدن والرأي، والموالاة كبيرة من كبائر الذنوب كبلّ الدواة، أو بري القلم، أو التبشبش لهم أو رفع السوط لهم" الدرر ٨/ ٤٢٢

وقال أيضاً عن إعانة المشركين على المسلمين:"ومن جرهم وأعانهم على المسلمين بأي إعانة فهي ردة صريحة " الدرر١٠/ ٤٢٩.

وقال في التحذير من موالاة النصارى والأمر بجهادهم:(حتى آل الأمر بأكثر الخلق إلى عدم النفرة من أهل ملل الكفر ، وعدم جهادهم ، وانتقل الحال حتى دخلوا في طاعتهم ، واطمأنوا إليهم ، وطلبوا صلاح دنياهم بذهاب دينهم ، وتركوا أوامر القرآن ونواهيه ، وهم يدرسونه آناء الليل والنهار ، وهذا لا شك أنه من أعظم أنواع الردة ، والانحياز إلى ملة غير ملة الإسلام ، ودخول في ملة النصرانية كأنكم في أزمان الفترات ، أو أناس نشؤوا في محلة لم يبلغهم شيء من نور الرسالة ، أنسيتم

قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ والآيات القرآنية في تحريم موالاة الكفار والدخول في طاعتهم أكثر من أن تحصر) . الدرر ٨ / ١١.

وقال : (الإنسان إذا عبد ربه بطاعته ومحبته ومحبة ما يحبه ولم يبغض المشركين ويبغض أفعالهم ويعاديهم فهو لم يجتنب الطاغوت ومن لم يجتنب الطاغوت لم يدخل في الإسلام فهو كافر ولو كان من أعبد هذه الأمة يقوم الليل ويصوم النهار وتصبح عبادته كمن صلى ولم يغتسل من الجنابة أو كمن يصوم في شدة الحر وهو يفعل الفاحشة في نهار رمضان) الدرر السنية ١/ ٩٣ .

وقال: (وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين وتابعيهم وجميع المسلمين سلفاً وخلفاً أن المرء لا يكون مسلماً إلا بالتجرد من الشرك الأكبر والبراءة منه وممن فعله وبغضهم ومعاداتهم بحسب الطاقة والقدرة والإمكان) الدرر٩/ ١٩٩ .

وقال الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن: "ولا يكفي بغضهم بالقلب، بل لا بد من إظهار العداوة والبغضاء ... فانظر إلى هذا البيان الذي ليس بعده بيان، حيث قال بدا بيننا أي ظهر، هذا هو إظهار الدين فلا بد من التصريح بالعداوة وتكفيرهم جهاراً والمفارقة بالبدن، ومعنى العداوة أن تكون في عَدْوَة والضدّ في عَدْوَة أخرى كما أن أصل البراءة المقاطعة بالقلب واللسان والبدن، وقلب المؤمن لا يخلو من عداوة الكافر، وإنما النزاع في إظهار العداوة " الدرر ٨/ ١٤١.

وقال: " وقرن بين العداوة والبغضاء إشارة إلى المباعدة والمفارقة بالباطن والظاهر "سلوك الطريق الأحمد .

وقال الشيخ حمد بن عتيق في كتابه سبيل النجاة والفكاك عند قوله تعالى ﴿ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا ﴾ :" تأمل تقديم العداوة على البغضاء لأن الأولى أهم من الثانية فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم فلا يكون آتيا بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء ولابد أيضاً أن تكون العداوة والبغض باديتين ظاهرتين بيّنة ودائمة، وإن كانت البغضاء متعلقة بالقلب فإنها لا تنفع حتى تظهر آثارها وتبين علامتها ولا تكون كذلك حتى تعترف بالعداوة والمقاطعة فحينئذ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين أما إذا وجدت الموالاة والمواصلة فإن ذلك يدل على عدم البغضاء ".

وقال فيه:" فإن كثير من الناس قد ظن أنه إذا قدر على أن يتلفظ بالشهادتين وأن يصلي الصلوات ولا يرد عن المساجد فقد أظهر دينه وإن كان مع ذلك بين المشركين أو في أماكن المرتدين وقد غلطوا أقبح الغلط، فلا يكون مظهراً لدينه إلا من صرح من ساكنه من كل كافر ببراءته منه وأظهر له عداوته لهذا الشيء الذي صار به كافراً ولهذا قال المشركون للنبي ﷺ عاب ديننا وسفه أحلامنا وشتم ديننا ".

وقال: (قد دل القرآن والسنة على أن المسلم إذا حصلت منه موالاة أهل الشرك والانقياد لهم، ارتد بذلك عن دينه) الدرر ٩/ ٢٦٣.

وقال : (إن مظاهرة المشركين، ودلالتهم على عورات المسلمين، أو الذب عنهم باللسان، أو الرضا بما هم عليه، كل هذه مكفرات ، فمن صدرت منه فهو مرتد ، وإن كان مع ذلك يبغض الكفار ويحب المسلمين) الدفاع عن أهل السنة ٣١ .

وقال: (أن البلد إذا ظهر فيها الشرك وأعلنت فيه المحرمات وعطلت فيه معالم الدين أنها تكون بلاد الكفر تغنم أموال أهلها وتستباح دماؤهم وقد زاد أهل هذه البلد بإظهار المسبة لله ولدينه ووضعوا قوانين ينفذونها في الرعية مخالفة للكتاب والسنة وقد علمت أن هذه كافية وحدها في إخراج من أتى بها من الإسلام) الدرر ٩/ ٢٥٧ .

وقال: (فليتأمل العاقل وليبحث الناصح لنفسه عن السبب الحامل لقريش على إخراج رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة وهي أشرف البقاع، فإن المعلوم أنهم ما أخرجوهم إلا بعدما صرحوا لهم بعيب دينهم وضلال آبائهم، فأرادوا منه ﷺ الكف عن ذلك وتوعدوه وأصحابه بالإخراج، وشكا إليه أصحابه شدة أذى المشركين لهم، فأمرهم بالصبر والتأسي بمن كان قبلهم ممن أوذي، ولم يقل لهم اتركوا عيب دين المشركين وتسفيه أحلامهم، فاختار الخروج بأصحابه ومفارقة الأوطان مع أنها أشرف بقعة على وجه الأرض) ٨/ ١٩٩.

وقال : (فأمر الله رسوله أن يقول للكفار: دينكم الذي أنتم عليه أنا بريء منه وديني الذي أنا عليه أنتم براء منه، والمراد التصريح لهم بأنهم على الكفر، وإنه بريء منهم ومن دينهم، فعلى من كان متبعاً للنبي أن يقول ذلك، ولا يكون مظهراً لدينه إلا بذلك، ولهذا لما علم الصحابة بذلك، وآذاهم المشركون، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ولو وجد لهم رخصة في السكوت عن المشركين لما أمرهم بالهجرة إلى بلد الغربة) . سبيل النجاة والفكاك ٦٧.

وقال: " فأما معاداة الكفار والمشركين فاعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أوجب ذلك، وأكد إيجابه، وحرم موالاتهم وشدد فيها، حتى أنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد، وتحريم ضده"مجموعة التوحيد ٣٦٣.

وقال عن حالات موافقة الكفار: "الحالة الأولى: أن يوافقهم في الظاهر والباطن فهذا كافر خارج من الإسلام. سواء أكان مكرهاً أم غير مكره، فهو ممن قال الله فيه : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ النحل: ١٠٦

الحالة الثانية: أن يوافقهم ويميل إليهم في الباطن، مع مخالفتهم في الظاهر، فهذا كافر أيضاً، وهم المنافقون.

الثالثة: أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن وهو على وجهين:

أحدهما: أن يفعل ذلك لكونه في سلطانهم مع ضربهم وتقييدهم له وتهديده بالقتل، فإنه والحالة هذه يجوز له موافقتهم في الظاهر مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان كما جرى لعمّار قال تعالى: إلا من أُكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان .

الوجه الثاني: أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن، وهو ليس في سلطانهم، وإنما حمله على ذلك إما طمع في رئاسة أو مال أو مشحة بوطن أو عيال أو خوف مما يحدث في المال فإنه في هذه الحالة يكون مرتداً ولا ينفعه كراهته لهم في الباطن وهو ممن قال الله فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾. فأخبر أنه لم يحملهم على الكفر الجهل أو بغضه، ولا محبة الباطل، وإنما هو أن لهم حظاً من حظوظ الدنيا آثروه على الدين " . سبيل النجاة والفكاك ص٦٢.

قال الشيخ سليمان بن سحمان في الضياء الشارق عن عدم تولي الوهابية للكفار والنصارى وعما بديار أعدائهم المرتدين الذين وضعوا قناصل وسفارات الكفار في بلدانهم وعلقوا فيها أعلامهم مع ادعائهم الإسلام واتهامهم لأهل التوحيد بأنهم عملاء للكفار: (ليس في ديارنا لهم علماً ولا جعلنا في أوطاننا قناصل، ولم نلتزم في ملتنا قوانينهم ونقدمها على شرع الله ورسوله ونحن نبرأ إلى الله منهم ومنكم ... فانظر قاتلك الله يا عدو الله من قناصل أعداء الله ورسوله عنده ومن

أعلامهم منصوبة في دياره ومن اليهود والنصارى والرافضة في جملة عساكره حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين وتدري من سعى في الأرض بالفساد).

وقال : (فهذه هي ملة إبراهيم التي قال الله فيها: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ البقرة: ١٣٠، فعلى المسلم أن يعادي أعداء الله ويظهر عداوتهم ويتباعد عنهم كل التباعد وأن لا يواليهم ولا يعاشرهم ولا يخالطهم) .

ويقول : فمن لم يعاد المشركين ولم يوال ولم يبغض ولم يتجنب
فليس على منهاج سنة أحمد وليس على نهج قويم معرب

يقول سليمان بن سحمان:

فعاد الذي عادى لدين محمد ووال الذي والاه من كل مهتد
وأحبب لحب الله من كان مؤمناً وأبغض لبغض الله أهل التمرد
وما الدين إلا الحب والبغض والولا كذاك البرا من كل غاو ومعتد

وفي هذه النقول الرد على أقوام تلبسوا بالسلفية والدعوة الوهابية وهي منهم في براء وفي مقابلهم آخرون بالإخوانية الشيطانية، فأرادوا إسلاماً لا معاداة ولا تكفير فيه، وسعوا في توحيد لا كفر بالطاغوت فيه، فدعوا إلى دين لا حقيقة له ومذهب إرجائي لا فائدة فيه، ووالله ما عرفنا كلام السلف عن المرجئة وحقيقته إلا لما رأيناهم وسمعنا منهم مقالاتهم، وهم وأيم الله أشد على الدين ضرراً وفساداً من اليهود والنصارى، إذ مرغوا الدين واستباحوا الحمى وأزهقوا التوحيد وأماتوا الجهاد فيه، وهذا كله مع دعوى الوهابية والسلفية .

الفصل الرابع : حكم الولاء والبراء وتولي الكفار

(٢١) حكم الولاء والبراء وبيان وجوبه :

اعلم رحمك الله أن أوجب الواجبات بعد التوحيد الولاء والبراء فيه، ومما يجب على كل مسلم أن يعلمه ويعمل به أنه لا يقبل إسلام ولا يصح إيمان إلا بالموالاة والمعادة ، وهذا الأصل يعد من أجل العبادات وأفضل القربات التي ترضي الله تعالى وتركه من أعظم ما يسخطه، ولا يقبل الله من إنسان صرفاً ولا عدلاً إذا لم يأت به ، ولن يدخل أحد الجنة بدونه، ومن نقضه يعد ناقضاً لإسلامه.

لأجل ذلك كان التبيين لمبدأ الموالاة والمعاداة في القرآن والسنة لا يماثلها إلا الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك ، فقد أمرنا بموالاة الله وأوليائه ومعاداة أعدائه وحذرنا من المخالفة فيه .

وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين من أصول الدين التي لا يصلح بدونها، وضد ذلك عداوة المؤمنين وبغضهم وتولي الكافرين من الكفر البين الصريح .

قال ابن تيمية:(إذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاة أعداء الله، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله كان دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان). الإيمان ١٧ .

ومما يبين ما قلناه أن مولانا ﷺ نفى الإيمان بالكلية عمن يتخذ الكفار أولياء وجعله منافقا وبشره بالنار وأخبر ﷺ أن مخالفه ليس من الله في شيء ومن يرغب عنه ويعدل بربه فهو عدو لله يجب البراءة منه وأنه لا يجتمع محبة الله مع موالاة أعدائه.

ومن الآيات المحكمة الدالة على هذا الأصل : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ المائدة: ٨١ . ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ النساء: ١٣٨ . ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ آل عمران: ٢٨.

فالموالاة محرمة بين المسلمين والمشركين.

وهي واجبة بين المسلمين بعضهم مع بعض لقوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ التوبة: ٧١ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ الحجرات: ١٠ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ المائدة: ٥٦.

وقول النبي ﷺ:" المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه " رواه مسلم.

أي لا يجوز له أن يُسلمه إلى الظالمين، ولا يتخلى عن نصرته.

وإذا حصل ضد ذلك بموالاة الكافرين ومعاداة المؤمنين كانت الفتنة والفساد حاصلة معها: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الأنفال: ٧٣.

ومن والى الكفار فقد استلزم ذلك منه وجود كفرين :

الأول : المظاهرة وحرب الدين وأهله . الثاني الرضا بدينهم .

قال الإمام الطبري : (فإنه لا يتولى متول أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمهم).

ومن هذا يتبين حكم تولي الكفار وموالاتهم ومناصرتهم، وأنه كفر مخرج من الإسلام ومبطل للإيمان ومبشر بالخسران ومخلد في النيران بنص القرآن .

(٢٢) الأدلة على أن موالاة الكفار كفر أكبر :

كفّر الله ﷻ الذين يتولون الكفار ونفى الإيمان عنهم وأوعدهم بالخلود في النار ، في آيات كثيرة منها .

قال تعالى : ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ المائدة: ٨٠ .

وقال تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ آل عمران: ٢٨.

وقال: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ النساء: ١٣٨ .

وقال: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾المائدة٨١.

وقال: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾المجادلة ٢٢.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ المائدة: ٥١ .

(٢٣) أقوال العلماء في كفر موالي الكفار وردته :

قال الطبري في موالاة الكفار : (فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، يعني فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه ، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر).

قال ابن حزم: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (إنما هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار فقط وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين) المحلى ١٢/ ٣٣.

قال ابن تيمية: " فالمخاطبون بالنهي عن موالاة اليهود والنصارى هم المخاطبون بآية الردة ، ولما نهى عن موالاة الكفار وبين أن من تولاهم من المخاطبين فإنه منهم بين أن من تولاهم وارتد عن دين الإسلام لا يضر الإسلام " ١٨/ ٣٠٠.

وقال :" الإيمان بالله والنبي مستلزم لعدم ولايتهم فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم " الاقتضاء ١ / ٢٢١ .

وقال :" فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب " الفتاوى ٧/ ١٧ .

وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان: (ما نجا من هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله) .

قال الشوكاني في تفسير الآية : (وهذا شروع في بيان أحكام المرتدين بعد بيان أن موالاة الكافرين من المسلم كفر وذلك نوع من أنواع الردة) .

قال ابن بدران عن موالي الكفار : (فالقرآن صرح بكفره بعد إسلامه وهذه عين الردة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ، وليس الكفر إلا عدم الإيمان .) روضة الأرواح ص١١٧ .

وقال حمد بن عتيق:(قد دل القرآن والسنة على أن المسلم إذا حصلت منه موالاة أهل الشرك والانقياد لهم ، ارتد بذلك عن دينه) . الدرر ٩/ ٢٦٣ .

قال احمد شاكر : (وما كنت يوما بالاحمق فأظن أن الحكومات في البلاد الإسلامية ستستجيب لحكم الإسلام فتقطع العلاقات السياسية مع الانجليز ... ولكن أريد أن أعرفهم بعواقب هذه الردة ...) كلمة حق ٨٧ .

وقال الشنقيطي بعد ذكره الأدلة في التولي:"ويفهم من ظواهر هذه الآيات أن من تولى الكفار عمداً اختياراً رغبة فيهم أنه كافر مثلهم" أضواء البيان ١ / ٤١٣ .

وقال ابن سعدي في تفسيره: (لأن موالاة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان).

وقال محمد بن عبد الوهاب عن الكفار الطواغيت: (لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء). الدرر ١٠/ ٥٣ .

وقال: " أن الرضا بالكفر كفر، وموالاة الكفار كفر" . الدرر ١٠ / ٣٨.

وقال عبد الله بن محمد: " من قال لا أعادي المشركين ... لا يكون مسلماً والله أوجب معاداة المشركين ومنابذتهم وتكفيرهم " الرسائل النجدية ١/ ٣٨ .

وقال سليمان في الدلائل: (موالاة الكفار موجبة لسخط الله والخلود في النار بمجردها وإن كان خائفاً ... فجر ذلك إلى موالاة الكفار والردة) الدرر ٨/ ١٢٨ .

قال عبد اللطيف: (من اتخذهم أولياء فليس بمؤمن) .

(٢٤) أوجه كفر موالي الكفار :

لما كان الولاء والبراء من الأصول وأعظم الأركان وداخل في الإسلام والإيمان والتوحيد وكلمة الإخلاص ، فإذا انخرم انخرم معه الإيمان، وزال بزواله الإسلام وانتقضت معه شروط كلمة التوحيد وأركانها ، كما سيأتي بيانه في الفصل المبين لتعلق الولاء والبراء بالأمور الشرعية ، فإن من والى الكفار فقد وقع في الكفر من عشرة أوجه أو تزيد .

١- أن موالاة الكفار والتخلي عن معاداتهم ينقض أصل الكفر بالطاغوت الذي تقوم حقيقته على البراءة من المشركين وشركهم وتكفيرهم ومعاداتهم ، فمن والى في الله وعادى فيه فقد كفر بالطاغوت وآمن بالله وكان مستمسكاً بالعروة الوثقى ومتبعا لملة إبراهيم القائمة على معاداة أعداء الله والكفر بالطاغوت ، ومن لم يعاد الكفار ويتبرأ منهم فما كفر بالطاغوت .

قال الشيخ عبد اللطيف عن معاداة الكفار: (لا بد منه، لأنه يدخل في الكفر بالطاغوت ، وبينه وبين حب الله تلازم كلي لا ينفك عنه المؤمن) الدرر ٨/ ٣٥٩ .

٢- أن نقض الولاء والبراء فيه شرك في الألوهية والربوبية .

ووجه كونه شركا في الألوهية لأن فيه محبة وموالاة غير الله.

وشركا في الربوبية لأن فيه اعتقاد أن الولي الناصر غير الله .

٣- أن موالاة الكفار ومحبتهم موقعة في الشرك في العبادة والمحبة كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥ .

٤- أن موالاة الكفار ناقضة لأصل الإسلام القائم على الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله . فالولاء والبراء يعد أحد أركان الإسلام الثلاثة والتي لا يقوم الإسلام ولا يصح الدين إلا بالإتيان بها .

٥- أن موالاة الكفار ناقضة لحقيقة الإيمان .

لأن من الإيمان بالله محبة الله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائهم.

٦- أن محبة الله لا تجتمع مع موالاة أعدائه ، فمن والى أعداء الله فهو عدو لله وليس بمؤمن به مسلم له.

٧- أن موالاة أعداء الله منافية للانقياد لله ولرسوله وطاعتهم ، لأن من أعظم لوازم الانقياد موالاة من انقاد الشخص له ومعاداة أعدائه والبراءة منهم .

٨- أن موالاة الكفار ومعاداة المؤمنين لازمها بغض الإسلام ومحبة الكفر .

٩- أن في موالاة الكفار إظهار لشعائر الكفر والرضا بظهور الكفر.

١٠- موالاة الكفار ومعاداة المؤمنين موقعة في النفاق الأكبر المخرج من الملة.

لذلك فإن موالي الكفار واقع في الكفر والشرك والنفاق ناقض للتوحيد كافر بالله العظيم مشرك به مرتد عن دينه عدوا لله ورسوله .

فليحذر بعد هذا كله أهل الإسلام وليعلموا أهمية هذا الباب وليدرسوا ويعملوا به وإلا فقد خسروا الله ورسوله وباؤوا بسخط من الله ولعنة والعياذ بالله .

(٢٥) من والى الكفار فقد استلزم ذلك منه وجود كفرين :

الأول : بغض الإسلام وأهله وحربهم ومظاهرة الكفار عليهم ، وعدم الرضا بالله وبدينه ولا محبته ، فيكون من تولاهم قد ظاهرهم وحارب الدين وأهله.

قال الإمام الطبري: (من والاهم فقد أظهر لأهل الإيمان الحرب ومنهم البراءة وأبان قطع ولايتهم ... لأن من تولاهم فهو لله ولرسوله وللمؤمنين حرب).

وذلك لأن محبة الله ورسوله ودينه وأوليائه لا تجتمع مع موالاة أعدائه ، فمن والى أعداء الله فهو عدو لله وليس بمؤمن به مسلم له.

الثاني : الرضا بدينهم ومحبتهم ومحبة ظهور الكفر وشعائره والرضا بذلك.

قال ابن جرير الطبري: (فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض ، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمهم) .

وقال مكي بن أبي طالب في تفسيره الهداية : (لأنه لا يواليهم إلا وهو بدينهم راض فهو منهم).

وقال الخازن في تفسيره : (ومن يتول اليهود والنصارى من دون المؤمنين فهو من أهل دينهم، لأنه لا يتولى مولى إلا وهو راض به وبدينه وإذا رضيه صار منهم) .

(٢٦) موالاة الكفار مناقضة للتوحيد ونافية للإيمان من أصله ومزيلة للإسلام بالكلية ، ولا يجتمع موالاة الله مع موالاة أعدائه في قلب مطلقاً .

فمن والى أعداء الله فهو من أعداء الله ولا تجتمع موالاة الله وموالاة الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ .فمن والى الكفار يجب عليك أن تعاديه .

قال ابن بطة في الإبانة: (وتبغض في الله من عصاه ووالى أعدائه).

قال الطبري في تفسيره:(من تولاهم ونصرهم فهو من أهل دينهم وملتهم) .

قال ابن حزم في المحلى : (﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ إنما هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار فقط وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين).

(٢٧) موالاة عدو من تواليه في الحقيقة معادة لمن تريد أن تواليه.

فمن والى أعداء الله الكافرين به فقد عادى الله فخرج بذلك من الملة.

قال ابن القيم : أتحب أعداء الحبيب وتدعى ** حبا له ما ذاك في الإمكان
وكذا تعادي جاهداً أحبابه ** أين المحبة يا أخا الشيطان
شرط المحبة أن توافق من ** تحب على محبته بلا نقصان

قال ابن تيمية : (فمن وادّ كافراً فليس بمؤمن لأن مودة الله ومودة عدوه ضدان لا يجتمعان في قلب واحد) الإيمان ١٧ .

(٢٨) دلالة النفي والنهي في آيات الولاء والبراء :

ورد النهي عن موالاة الكفار بدلالة النهي كما أتى بدلالة النفي وهي أبلغ فموالاة المؤمنين للكفار منتفية ولو وجدت فهو دليل على عدم الإيمان .

قال ابن القيم في البدائع: (أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة).

(٢٩) درجات المخالفة في الولاء والبراء :

تكون موالاة الكفار على درجات :

منها ما هو شرك ومنها ما هو كفر ومنها ما هو معصية .

الناس في نقض الولاء :

كافر ومشرك ومنافق ومرتد وعاصي .

تنبيه : سيأتي الفرق بين الموالاة الكفرية والموالاة الشركية .

(٣٠) أوصاف القرآن لمن يوالي الكفار :

وصفت آيات الولاء والبراء متولي الكفار بعدة صفات منها :

الكفر الشرك النفاق الردة الظلم الفسق عداوة الله الهلاك الخسران عدم الإيمان انتفاء الإسلام.

(٣١) سمى الله من يتولى الكفار منافقاً في عدة آيات :

قال تعالى :﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾ النساء: ١٣٨ ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ المائدة: ٨٠ ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ المائدة: ٥٢ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا

مِنْهُمْ ﴾ المجادلة: ١٤ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ الحشر: ١١ .

قال ابن عطية في تفسيره: (نص تعالى في صفة المنافقين على أشدها ضررا على المؤمنين وهي موالاتهم الكفار واطراحهم المؤمنين).

(٣٢) هل موالاة الكفار تدخل في باب الكفر الظاهر والردة أو النفاق ؟ وكيف يعامل صاحبها ؟

موالاة الكفار على درجات وطرق منها ما هو كفر صريح في الظاهر ومنها ما هو من الكفر الخفي والمشتبه، وموالاة الكفار هي أعظم صفات المنافقين والموالاة الأصل أنها من أعمالهم، لكن متى أظهرها الشخص صار بها مرتداً كافراً مباح الدم .

قال الشيخ سليمان في أوثق عرى الإيمان مجيباً عن سؤال هل الموالاة نفاق أم كفر؟ : (إن كانت الموالاة مع مساكنتهم في ديارهم، والخروج معهم في قتالهم ونحو ذلك، فإنه يحكم على صاحبها بالكفر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾).

(٣٣) الأصل أن موالاة الكفار من الكفر الأكبر العملي الظاهر:

الموالاة قسمان :

الأول : موالاة كبرى مكفرة مخرجة عن الملة ، وهذا الأصل والأكثر .

الثاني : موالاة صغرى لا تخرج من الملة وهذه لها صور ، وهي لا تعارض كون الأصل في الموالاة الكفر.

فالأصل أن موالاة الكفار من الكفر الظاهر العملي الأكبر ، حيث أن مناط التكفير في باب الولاء والبراء متعلق بأعمال الجوارح .

ألا ترى أن الله تعالى بيّن لرسوله ﷺ موالاة المنافقين والمرتدين للكافرين بكون عملهم مشاهدا ظاهرا للعيان في قوله:﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ المائدة: ٨٠ . ومثل هذه الآية آية : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ المائدة: ٥٢.

فتأمل كيف ربط التولي بالرؤية البصرية والمشاهدة العينية مما يعني أن التولي يقوم بأعمال الجوارح الظاهرة وليس خاصاً بالقلب كما زعمت المرجئة.

فلو لم يكن كفر التولي للكفرة ظاهراً لما قال له: ﴿ تَرَىٰ ﴾ ، فتأمل ولا تتعام عن الحق، ولا تحجب رؤيتك بالإرجاء الخبيث، ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ، فإن المرجئة أخبث من يفتن عن ما أنزل الله ويبدل دينه.

(٣٤) جهل الناس بأصل الولاء والبراء بمبدأ معاداة الكفار:

من تتبع واقعه وأهل زمانه لم يخف عليه جهلهم بلا إله إلا الله واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة، وظهر له كذب من ادعى معرفة الناس بالتوحيد وأنه واضح قد فهمه ووعاه العوام، مع أنه كل يوم يزيد اليقين عندنا أن الناس بحاجة لترسيخ عقيدة التوحيد والولاء والبراء، وتوضيحها وتفسير آيات القرآن المبينة لها، وكشف الشبهات التي يثيرها أهل النفاق حول موالاة الكفار.

وكثير من الجهلة ظنوا وفهموا الإسلام على غير حقيقته، فظنوا أن الدين مجرد الصلاة وتشييد المساجد ونشر الكتب فحسب، وأنهم ليسوا مطالبين بالولاء والبراء والتكفير، وليعلم هؤلاء أنه لا يقوم الدين إلا بالولاء والبراء لا يصح إسلام أحد إلا بالولاء لله ولدينه ورسوله وأولياءه ولا يقبل الله هذا الولاء مع عدم البراء من أعداءه وعداوتهم فلابد من اجتماع الموالاة والمعاداة حتى يصبح الرجل مسلماً.

(٣٥) سورة الكافرون قررت البراءة من المشركين وليس إقرارهم على دينهم :

دلت سورة الكافرون في قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ، على حقيقة البراءة من الشرك ، وهذا من أصول الدين التي اتفقت عليها جميع الرسل وليس فيها الدلالة على إقرار المشركين على دينهم وشركهم ، كما أنها لم تنسخ بآيات السيف كما زعم بعض الجهال فهي لا تقبل النسخ أصلا ، والعجيب من يقول عن الكفار لهم دينهم ولنا ديننا فيظن الجاهل أن مقصود الآية أن لهم الحرية في الشرك وأن فيها إقراراً لهم على كفرهم وأنه لا إكراه في الدين ، فنقضوا المقصود من الآية وهو البراءة من الكفار ومن دينهم ، والحق أنه ليس فيها إقرارهم على دينهم ، ولو كانت للإقرار لما شرع الجهاد .

قال عن هذه الآية ابن القيم : (تشمل هذه السورة النفي المحض فإنها سورة براءة من الشرك ومقصودها الأعظم البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة.

وهذه مسألة شريفة من أهم المسائل، وقد غلط خلائق وظنوا:

١- أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أنها اقتضت التقرير لهم على دينهم .

٢- أو أنها مخصوصة بمن يقر على دينه وهم أهل الكتاب .

وكلا القولين غلط محض ، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة، بل ويستحيل دخول النسخ فيها، فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه، ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبدا ، بل لم يزل رسول ﷺ في أول الأمر أشد على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة ، وإن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدا فإنه دين باطل) البدائع ١/ ٣٨.

وقال ابن تيمية : (قوله تعالى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ اللام للاختصاص فأنتم مختصون بدينكم لا أشرككم فيه وأنا مختص بديني لا تشركوني فيه ﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين ولا أهل الكتاب كما يظنه بعض الملحدين ، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين وجعلوها منسوخة بل فيها براءته من دينهم وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ). الجواب الصحيح ٢/ ٣٠ .

(٣٦) تغيير الأسماء لا يغير حقيقة المسمى وحكمه :

كثير من أصحاب موالاة الكفار يسمي موالاته لأعداء الله إصلاحاً وأنه يصلح بلده وحتى تتبادل الخبرات والثقافات، أو يسميها بالعلاقات الدولية والقضايا السياسية والدبلماسية ، والحق أنها ضلالات كفرية ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ البقرة: ١١ ، فالمنافقون يدعون الإصلاح والحقيقة أنهم هم المفسدون فحصر الله الفساد والإفساد فيهم ، وقد كان فرعون يقول عن موسى: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ غافر: ٢٦ ، ويقول ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ غافر: ٢٩ .

وهناك فرق بين محبة الكفار ومناصرتهم وبين الاستفادة منهم وأخذ النافع المفيد مما لا يخالف الدين ، أما المنافقون فيوالون الكفار بل ويتفانون في الدفاع عنهم ويحاربون من يعادي أولياءهم من اليهود والنصارى ويسمون أفعالهم التي هي ولاء صريح للكفار بأسماء غير شرعية مصالح تارة وتارة يدعون الإكراه فيها. فنحن لا يهمنا حكمهم الباطل ورأيهم الفاسد ما دام أن الحق بين واضح والحمد لله.

(٣٧) شبهة : التفريق بين موالاة الكفار لأجل دينهم ودنياهم :

يظن بعض فقهاء الجهالة أن موالاة الكفار لأجل دنياهم لا لدينهم ليست بكفر مطلقاً وإنما مجرد معصية محرمة لا تخرج عن الملة .

والجواب عن هذه الشبهة الباطلة أن يقال الموالاة والمعاداة قسمان :
موالاة ظاهره بالمناصرة والمحالفة للمؤمنين والمعاداة والمحاربة للكافرين.
وموالاة باطنة بالبغض للكافرين والمحبة والمودة للمؤمنين.
ولا يتم الإيمان إلا إذا استكمل المرء ركني الولاء والبراء.
ومحبة الكفار وما هم عليه ومحبة الكفر هذا ناقض بحد ذاته وجدت معه المناصرة لهم وتوليهم أو لم توجد هذه الموالاة الظاهرة، وأغلب النصوص التي جاءت بالتحذير من موالاة الكفار وتكفير الموالي المقصود بها الموالاة الظاهرة لدنياهم والتي لأجل المصالح الدنيوية، أما محبتهم ومحبة دينهم فهي أمور باطنة لا يعلم فاعلها إلا الله.

(٣٨) موالاة الكفار لا يشترط معها البغض:

جعلت المرجئة موالاة الكفار ليست كفرا بذاتها ، فلا تكون كفراً إلا إذا أحب الموالي دين الكفار وأبغض الإسلام.
وأهل العلم يفرقون بين ناقض كره الدين ومحبة الكفر وبين الموالاة ، فالأول كفر قلبي وهذا كفر عملي ، ولو كانا كفرا واحداً كما يزعم هؤلاء، لما كان لتخصيص الآيات بتكفير الموالي معنى.
ومن أقوال العلماء في عدم اشتراط البغض والحب في تكفير موالي الكفار :
قال الشيخ سليمان بن عبد الله في أول كتاب الدلائل : " الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفاً منهم ومداراة لهم ومداهنة لدفع شرهم فإنه كافر مثلهم، وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين) .
وقال الشيخ حمد بن عتيق:" إن مظاهرة المشركين ودلالتهم على عورات المسلمين أو الذب عنهم بلسان أو رضي بما هم عليه كل هذه مكفرات ، فمن صدرت منه من غير الإكراه المذكور فهو مرتد وإن كان مع ذلك يبغض الكفار ويحب المسلمين ". الدفاع عن أهل السنة والاتباع ص ٣١ .
وقال أيضاً في (سبيل النجاة والفكاك) ص ٨٩ : " أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن وهو ليس في سلطانهم وإنما حمله على ذلك إما طمعاً في رئاسة أو مال أو مشحة بوطن أو عيال أو خوف مما يحدث في المآل ، فإنه في هذه الحال يكون مرتداً ولا تنفعه كراهته لهم في الباطن " .

(٣٩) قاعدة : إذا أطلق كفر الولاء كان المقصود به تولي الكفار بالعمل الظاهر رغبة في الدنيا وليس لأجل محبة الكافر والرغبة في كفرهم لأن هذا كفر مستقل ولو لم يكن معه موالاة .

(٤٠) بطلان حصر الصورة الناقضة لأصل الولاء والبراء في محبة الكفر وبغض الإسلام:

إرجاع صور العداوة للمؤمنين لأجل بغض دينهم، وإرجاع صور تولى الكفار وموالاتهم لأجل محبة دين الكفار ، وحمل دلالة النصوص الشرعية الدالة على التكفير بتولي الكافرين على هذه الصورة ، يعتبر هذ القول كفر بذاته لأنه إنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة ، لأنه لا يخفى على كل من عنده أدنى معرفة بالعلم أنه لا يستقيم حمل هذه النصوص الشرعية على هذا المعنى البدهي من دين الإسلام.

ولم كان كل ذلك التحذير وتكرير بيان المسألة وتكثير الأدلة وتنويعها؟ أهو لمجرد أن يخبرنا الله ﷻ أن محبة دين الكفار وبغض دين الإسلام كفر، وأن من أحب الكفر وأبغض الإسلام كافر؟!

إن حمل نصوص الولاء والبراء على هذا المعنى حصر لدلالتها وتفريغ لمضمونها وتحريف لمعناها ، بل إن هذا الاعتقاد وهذا الصنيع كفر لا يخالف فيه من عرف الإسلام، فهو كفر مستقل قائم بذاته سواء وقع المحذور من موالاة أو لا، كما يقال في جاحد وجوب الصلاة كافر ولو صلى ومستحل الزنا كافر ولوما زنا.

الفصل الخامس : مكانة الولاء والبراء ومنزلته وأهميته وفوائده

(٤١) مكانة الموالاة والمعاداة:

لا يقبل الدين ولا يصح الإيمان إلا بعد الإتيان بهذه العقيدة ، فالموالاة والمعاداة شرط في قبول الإسلام وفي صحة الإيمان، وهو أعظم لوازم الدين وأول مقتضيات كلمة التوحيد ، وقد دل على هذا الأصل أدلة منها : قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ المجادلة: ٢٢ .

وقوله: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ المائدة: ٨٠ - ٨١.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً " رواه الطبري.

وإليك كلام بعض أهل العلم في أن الإسلام لا يقبل إلا بالبراءة من المشركين ومعاداتهم وتكفيرهم:

يقول ابن تيمية : " فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء، ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه". الإيمان ١٤.

وقال في الاقتضاء : " الإيمان بالله وبالنبي ﷺ وما أنزل إليه يقتضي عدم ولاية الكفار فثبوت موالاتهم يوجب عدم الإيمان لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم ".

قال ابن القيم في النونية :

أتحب أعداء الحبيب وتدّعى ** حبا له ما ذاك في الإمكان
وكذا تعادي جاهداً أحبابه ** أين المحبة يا أخا الشيطان
شرط المحبة أن توافق من ** تحب على محبته بلا نقصان

وقال الشاعر : تحب عدوي ثم تزعم أنني صديقك إن الود عنك لعازب

وقال محمد بن عبدالوهاب :" ولا يصح للمؤمن دين إلا بموالاة أهل التوحيد ومعاداة أهل الضلال وبغضهم والبراءة منهم " . الدرر ٢/ ٩٥.

وقال:" إن الإنسان لا يستقيم له دين ولا إسلام ولو وحّد الله وترك الشرك ، إلا بعداوة المشركين ، والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء " الفتاوى ٨/ ١١٣ .

وقال: (وأنت يا من منَّ الله عليه بالإسلام، وعرف أن ما من إله إلا الله؛ لا تظن أنك إذا قلت: هذا هو الحق، وأنا تارك ما سواه، لكن لا أتعرض للمشركين، ولا أقول فيهم شيئاً، لا تظن: أن ذلك يحصل لك به الدخول في الإسلام، بل: لا بدَّ من بغضهم، وبغض من يحبهم، ومسبتهم، ومعاداتهم) . الدرر السنية ٢ / ١٠٩ .

وقال:" تمسّكوا بأصل دينكم، وأوّله وأُسّه ورأسه، شهادة أن لا إله إلا الله، واعرفوا معناها وأحِبّوها، وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم، ولو كانوا بعيدين منكم نسباً واكفروا بالطواغيت وعادوهم وأبغضوهم، وأبغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفّرهم أو قال ما عليّ منهم أو قال ما كلفني الله بهم، فقد كذب هذا على الله وافترى إثماً مبيناً، فقد كلّف الله كل مسلم ببغض الكفار، وافترض عليه عداوتهم، وتكفيرهم والبراءة منهم، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم، فالله الله تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئاً" الدرر ٢/ ١١٩ .

وقال الشيخ حمد بن عتيق في كتابه سبيل النجاة : (فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم فلا يكون آتيا بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء ولابد أيضاً أن تكون العداوة والبغض باديتين ظاهرتين بيّنة ودائمة، وإن كانت البغضاء متعلقة بالقلب فإنها لا تنفع حتى تظهر آثارها وتبين علامتها ".

وقال: (قد دل القرآن والسنة على أن المسلم إذا حصلت منه موالاة أهل الشرك والانقياد لهم ارتد بذلك عن دينه) الدرر ٩/ ٢٦٣.

وقال: " معاداة الكفار والمشركين فاعلم أن الله سبحانه قد أوجب ذلك، وأكد إيجابه، وحرم موالاتهم وشدد فيها، حتى أنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد "مجموعة التوحيد ٣٦٣.

ويقول الشيخ سليمان في رسالة أوثق عرى الإيمان: " فهل يتم الدين أو يقام علم الجهاد، أو علم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بالحب في الله والبغض في الله، والمعاداة في الله والموالاة في الله، ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة ، ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء ، لم يكن فرقانا بين الحق والباطل ، ولا بين المؤمنين والكفار، ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان".

ومن أهمية الولاء والبراء وعظم جرم موالاة أعداء الله من الكافرين أن الله أنزل سورة الممتحنة وهي أصل في هذا الباب قال القرطبي عنها في تفسيره : (السورة أصل في النهي عن موالاة الكفار) . إضافة لآيات كثيرة في سورة التوبة والنساء والمائدة وآل عمران والبقرة وغيرها .

وقد كان النبي ﷺ يبايع أصحابه على تحقيق هذا الأصل العظيم .

كما بايع النبي ﷺ: جرير البجلي رضي الله عنه بقوله: (أبايعك على أن تعبد الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتناصح المسلمين، وتفارق المشركين). رواه النسائي وأحمد.

وعليه فتكفير المشركين والمرتدين والتصريح بعداوتهم والطعن فيهم وفي المبتدعة من أجل العبادات ، وقد نص السلف على أنها لا تترك حتى حال الصيام والحج فليس تركها من الورع ، كما ظن بعض الجهال. انظر الإبانة الصغرى ١٠٤.

فاعلم أنك مسئول عن الموالاة والمعاداة وأنك ستحشر مع من توالي وتحب .

(٤٢) معاداة الكفار وعدم موالاتهم أحد أصول الإسلام التي لا يسمى العبد مسلما إذا لم يأت بها:

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (أصل دين الإسلام وقاعدته أمران:
الأول: الأمر بعبادة الله وحده والتحريض عليه والموالاة فيه وتكفير من تركه.
الثاني: الإنذار عن الشرك والمعاداة فيه وتكفير من فعله . الدرر ٢/ ٢٢ .

قال الشيخ عبد اللطيف:(لا تُصور أن أحداً يعرف التوحيد ويعمل به ولا يعادي المشركين ومن لم يعادهم لا يقال له عرف التوحيد وعمل به) الدرر ٨ / ٣٥٩.

وقال بعض أئمة الدعوة :(من قال لا أعادي المشركين أو عاداهم ولم يكفّرهم أو قال لا أتعرض أهل لا إله إلا الله ولو فعلوا الكفر وعادوا دين الله أو ارتدوا فهذا لا يكون مسلماً والله أوجب معاداة المشركين وتكفيرهم "مجموعة الرسائل ١/ ٣٨ .

(٤٣) لماذا نعادي الكفار :

١- لأن الله تعالى أمرنا به ، وما أمرنا ربنا به فيجب امتثاله .

٢- لأن الكفار حادوا الله وكفروا به وعصوا أمره وتكبروا على شرعه وطغوا وتجبروا، فاستحقوا بهذه الصفة أن نعاديهم ونبغضهم ونجاهدهم إرضاء لربنا .

٣- أن الكفار أعداء الله، ويجب على المسلم معاداة أعداء الله .

٤- أن الكفار أهل عداوة أصلية متأصلة على الدين والمؤمنين وحربهم للدين وهذا من دواعي وأسباب وجوب معاداتهم وجهادهم ويدل لهذا : ﴿ هَٰأَنتُمْ أُوْلَآءِ

﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ آل عمران١١٩ ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ البقرة٢١٧ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ البقرة١٢٠ ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ التوبة.

ولو وجد بعض الكفار الذين لا يعادوننا ، فإن وجوب معاداتنا لهم لا يجوز أن نتركها لوجود بقية العلل الأخرى الموجبة لمعاداة الكفار، وأعظمها كفرهم.

٥- أن البغض فطره، وقد فطر الناس على بغض كل مفسد ظالم، وأي ظلم وفساد أعظم من الكفر بالله والشرك به .

٦- أن الدين لا يقبل والتوحيد لا يصح ولا يقبل إلا بالولاء والبراء .

٧- أن معاداة الكفار هي السبيل لحفظ الدين وتمامه وكماله وبقاء هيبته، وترك ذلك من الفساد والفتنة التي أخبر الله عنها .

٨- أن الله تعالى هو المحبوب وحده ويجب أن يوحد في المحبة والموالاة فلا يحب إلا الله أو ما يحبه الله وما أمر به .

٩- أن التمايز والتباين بين المسلم والكافر ومخالفتهم مقصد شرعي كذلك أهانتهم وإصغارهم وعدم تعظيمهم.

(٤٤) الحكمة من النهي عن موالاة الكفار :

أن في هذا إعزاز للمسلمين وإذلال للكافرين وإقامة للتوحيد وكفر بالطواغيت وحفظ للدين وطاعة رب العالمين وغير ذلك مما سبق بيانه.

كما أن من الأمور المعلومة بالضرورة أن موالاة أي شيء أو لأجل شيء والدخول في حزبه يؤدي إلى محبته وبغض ما يخالفه كما يستلزم إعطاءه الانقياد والتبعية فيحب ما يريده الذي والاه ويبغض ما لا يريده، سواء والى لأجل عقيدة صحيحة أو باطلة .

فمن والى مثلاً لأجل قوم ووطن وقبيلة أو غيرها فسينقلب حبه وهواه تبعاً لذلك الذي والاه، وافق دينه أو خالفه فبمجرد ما يطلب ذاك الموالى أو يستلزم فعلا فعله الموالي . ولا يخفى أن هذا يخالف ما يريده الله تعالى ويتطلبه دينه .

وعلى هذا فلا يمكن لشخص أن يوالي أعداء الله ويبقى من أولياء الله، لأنه إما أن يوالي الدين ويناصره ويعادي الكفر وأصحابه ، فيصير انتماؤه وولاؤه لله باتباع أوامره ودينه ومخالفة أعدائه والبراءة من كل ما لا يريده الله .

وإما أن يترك موالاة أهل الحق إلى موالاة أهل الباطل ، فينتمي لحزب أعداء الله والشيطان فيعادي دين الله وأولياءه ويوالي ويناصر أعداء الله.

ومن أجل هذا صارت موالاة الكافرين ناقضة لـ (لا إله إلا الله) ومبطلة للإسلام والإيمان ولذلك نهى الله عنها وحذر منها بأبلغ بيان .

(٤٥) فوائد الولاء والبراء:

١- إرضاء الله ﷻ وكسب محبته ونيل رضوانه .

٢- دخول الجنة والنجاة من النار .

٣- تحقيق التوحيد .

٤- تقوية المؤمنين وشد أزرهم .

٥- تمكين دين الله في الأرض .

٦- حصول البركات، وإن مما يحصله المؤمن إذا اعتزل الكفار وعاداهم :ما أخبر به تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ مريم: ٤٩.

قال أهل العلم : إن اعتزال الكفار سبب لهذه النعم كلها .

(٤٦) معاداة الكفار وبغضهم من أجل العبادات التي يكفر تاركها :

قال ابن عقيل: (فأفضل القرب إلى الله تعالى، مقت من حاد الله ورسوله وجهاده باليد واللسان والجنان بقدر الإمكان" الآداب لابن مفلح ١/ ٢٦٨.

(٤٧) كيفية معرفة مكانة الدين من الناس تظهر من الولاء والبراء :

قال ابن عقيل: (إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان ، فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب المساجد، ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك، وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة " الآداب الشرعية لابن مفلح ١/ ٢٦٨. الدرر ٨/ ٢٩٩.

(٤٨) بدأت دعوة الرسول ﷺ بالكفر بالطاغوت ومعاداة الكفار :

قال ابن القيم: (بل لم يزل رسول ﷺ في أول الأمر أشد على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه) البدائع ١/ ٣٨.

قال ابن القيم في الزاد: (ودخل الناس في الدين وقريش لا تنكر ذلك حتى بادأهم بعيب دينهم وسب آلهتهم وأنها لا تضر ولا تنفع ، فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة) .

(٤٩) عقيدة الولاء والبراء من المحكم الذي لا يقبل النسخ :

قال ابن القيم: (فلا نسخ في السورة ولا تخصيص بل هي محكمة بل ويستحيل دخول النسخ فيها فإن أحكام التوحيد التي انقضت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه) البدائع ١/ ٣٨.

(٥٠) التمايز بين المسلم والكافر والتباين مقصد شرعي :

من أجل هذا الأصل شرعت المخالفة للكفار وعدم موافقتهم وتحريم التشبه بهم بل وتقصّد مخالفتهم .

ومن ذلك قوله ﷺ : (خالفوا المشركين) رواه البخاري.

ومن هذا الباب جاءت الشروط العُمَرية والتي اشترطها عمر ﷺ على أهل الذمة ، إذ تقوم على تمايزهم وعدم موافقتهم لنا وعدم السماح لهم بإظهار شعائرهم وإلزامهم بالتزام أحكام المسلمين الظاهرة ما داموا في ديار الإسلام .

(٥١) فائدة : خصائص موالاة الله ﷻ :

من خصائص تولي الله أنه ينصر من والاه ويقيه ، وأن ولاية الله لا يغني عنها ولاية غيره، وأن من لم يواله الله فليس له ولي ولا نصير ولا واق، ولا تحصل موالاة الله لعبده إذا والى العبد غير ربه ، فلا تظن أنك ستنال ولاية الله وأنت توالي أعداءه، فولاية الله لا تحصل إلا بمعاداة الكفار.

قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الجاثية: ١٩ ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ﴾ الشورى ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ الرعد: ٣٧ ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ النساء: ٤٥.

فائدة : اتخاذ الله من عباده أولياء وأمره لهم بمناصرتهم له، ليس من باب الحاجة والذل تعالى الله عن ذلك ، وقد نفى ذلك عن نفسه في قوله ﷻ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ الإسراء: ١١١.

(٥٢) معنى عبارة: ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾:

جاء التعبير بلفظة (دون) في الآيات ، ومنها :

﴿ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

١ – معنى ﴿ مِن دُونِ ﴾ : غير الله من أعدائه وبدل عنه وعن أوليائه المؤمنين به.

٢- كما أن فيها معنى الدونية، وإشارة لاستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، بترك ولا ية الله وولاية أوليائه إلى ولاية أعدائه.

(٥٣) فائدة: جاء التعبير ببعض الألفاظ التي تدل على معنى الموالاة:

منها الاتخاذ الإلقاء الإسرار المسارعة: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ الممتحنة: ١ ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ المائدة: ٥٢.

(٥٤) الجمع بين الولاء وبين غيرها من الصفات الأخرى:

جمع الله ﷻ بين فعل الولاء وبين أفعال أخرى كالعبادة والشفاعة والنصرة والموالاة والمظاهرة والحكم والطاعة والكفر والشرك والردة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ السجدة: ٤.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ البقرة: ١٠٧.

وقوله: ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت: ٣٤ ﴿وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ الرعد: ٣٧.

(٥٥) تعلق الحكم بغير ما أنزل الله بموالاة الكفار.

جعل الله طاعة الحكام والكفار من التولي في آيات كثيرة.

ومن تأمل بعض الآيات وجد أنها تعقب الكلام في شرك الحكم بالكلام عن الولاء والبراء، وذلك لأن ترك حكم الله أعظم مقاصد الكفار وغاياتهم، ومن يتولى الكفار تجده يطيعهم ويترك حكم الله ويحكم بقوانينهم الكفرية الوضعية، والواقع يشهد بذلك مع دلالات الآي.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ الرعد: ٣٧.

وقال تعال: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف: ٢٦.

وتأمل آيات الحكم في سورة المائدة كيف أعقبتها الآيات الناهية عن تولي الكفار ثم أعقبها بآيات النهي عن الردة عن الدين وخصوصا في الحكم والتولي.

(٥٦) الحب والبغض أمر فطري:

المحبة والبغض من الأمور الفطرية، ومعنى فطري أي أن الإنسان مجبول عليه ولابد للناس منه، وكل إنسان يحب ويبغض ويوالي ويعادي والناس مفطورون على المحبة وهي أصل كل فعل، فلابد لكل إنسان أن يحب ويكره وهي من الأمور التي قد تخضع للهوى، والسعيد من كان هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

الفصل السادس : علاقات الولاء والبراء بالأمور الشرعية

(٥٧) علاقة الولاء والبراء بالتوحيد والشرك .

(٥٨) علاقة الولاء والبراء بلا إله إلا الله .

وسنأتي بهاتين المسألتين في الفصل القادم ووجه العلاقة والمناسبة بينها.

(٥٩) علاقة الولاء والبراء بأنواع التوحيد.

الولاء والبراء يدخل في توحيد العبادة والألوهية لأنه عبادة .

ويدخل في توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لأن الولاء والبراء والمحبة والبغض والمعاداة من صفات الله وأفعال ربوبيته .

كما أن من يوالى فيه ويعادى يجعل له الأحقية في عقد الولاية له والمحبة فيه والأمر والحكم ، فيكون بذلك آخذ بعض صفات الربوبية ، كما يقال في الوطنية والحاكم والمشرع الذي حصل فيها إشراك في استحقاق الأمر والحكم والطاعة.

(٦٠) علاقة الولاء والبراء بالكفر بالطاغوت:

الكفر بالطاغوت تقوم حقيقته على البراءة من المشركين وشركهم وتكفيرهم ومعاداتهم ، فمن والى في الله وعادى فقد كفر بالطاغوت وآمن بالله وكان مستمسكاً بالعروة الوثقى ومتبعا لملة إبراهيم القائمة على معاداة أعداء الله.

ومن لم يكفر الكفار ويعاديهم ويتبرأ منهم فما كفر بالطاغوت .

قال عبد اللطيف آل الشيخ : (مسألة إظهار العداوة غير وجود العداوة ، فالأول يعذر به مع العجز والخوف لقوله (إلا أن تتقوا منهم تقاة) ، والثاني لا بد منه، لأنه يدخل في الكفر بالطاغوت ، وبينه وبين حب الله تلازم) الدرر ٨/ ٣٥٩ .

(٦١) تعلق الولاء والبراء بشروط لا إله إلا الله من جهتين :

الأولى : أن شروط لا إله إلا الله تشترط في الولاء والبراء، لأن الولاء فرد من أفراد العبادة الداخلة في التوحيد ونوع منه ، لهذا استلزمته الشروط السبعة كلها .

الثانية : أن الولاء يدل عليه شرط المحبة حيث أن المحبة أحد الشروط ومن لوازم المحبة تولي أولياء الله ومعاداة الكفار، كما أن من معاني الولاء المحبة.

وتقدم قول عبد اللطيف في تلازم معاداة الكفار ومحبة التوحيد : (وبينه وبين حب الله تلازم كلي لا ينفك عنه المؤمن) الدرر ٨/ ٣٥٩ .

(٦٢) علاقة الولاء والبراء بالإيمان بالله :

من الإيمان بالله محبة الله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائهم .

(٦٣) علاقة الولاء بالإسلام من جهتين :

أن تعريف الإسلام هو : الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله .

فالولاء والبراء يعد أحد أركان الإسلام الثلاثة والتي لا يقوم الإسلام ولا يصح الدين إلا بالإتيان بها .

كما أن الإسلام قائم على الانقياد ومن أعظم لوازم الانقياد موالاة من انقاد الشخص له ومعاداة أعدائه والبراءة منهم .

(٦٤) علاقته بتوحيد المتابعة شهادة أن محمدا رسول الله :

وذلك أن أعظم لوازم توحيد الرسول ﷺ بالمتابعة موالاته ومعاداة أعدائه .

بهذا يتبين أن الولاء والبراء متعلق بالشهادتين : حقيقتها، وشروطها، وأركانها، وبالتوحيد وأنواعه ، وبالإيمان ، والإسلام .

كما أن نقضه يدخل في الكفر والشرك والنفاق والردة والظلم والفسق.

(٦٥) علاقة الولاء والبراء بالجهاد ودخول كل منهما في الآخر :

الجهاد أنواع ومنها:

الولاء والبراء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

عن علي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : للجهاد أربعة شعب ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في المواطن وشنآن الفاسقين . أي بغضهم وعداوتهم . رواه أبو نعيم في الحلية وفي رفعه نظر والأشبه أنه من قول علي .

قال ابن تيمية: (عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة فيه سبحانه والمعاداة) ١٠/ ٥٩ .

وقال في التحفة العراقية : (فاتباع سنة الرسول وإتباع شريعته هو موجب محبة الله كما أن الجهاد في سبيل الله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها) .

(٦٦) الأبواب الداخلة في باب الولاء والبراء :

١- تكفير الكفار والمرتدين .

٢- الجهاد .

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنكار المنكرات .

٤- هجر المبتدعة والفسقة وعدم مجالستهم.

السابع: دلالات كلمة التوحيد على الولاء والبراء ودخوله في الشرك والتوحيد

(٦٧) دلالات (لا إله إلا الله) على الموالاة والمعاداة :

علاقة الولاء والبراء بـ(لا إله إلا الله) ودخوله فيها ودلالتها عليه :

تدل كلمة التوحيد لا إله إلا الله على عقيدة الولاء والبراء بالدلالات الثلاثة جميعها بالتطابق والتضمن والتلازم ، ويدخل هو فيها من جهات :

الأولى: دلالة المطابقة على الولاء :

وذلك بتفسير الألوهية بالمحبة ، ووجه دلالة المطابقة: أن من معاني الإله المحبوب ، والعبادة حقيقتها كمال المحبة مع كمال الذل فالمحبة من معاني التأله .

والولاء بمعنى المحبة والمحبة أصل الولاء، وعليه فالولاء من معاني الألوهية، والإله بمعنى المولى والموالى ، لذلك كانت الألوهية بمعنى الولاء تطابقاً.

فيصير معنى (لا إله إلا الله) : لا محبوب إلا الله، ولا ولي إلا الله، ولا موالى فيه إلا الله، والبراء والمعاداة لكل ما سوى الله ، ويدل لذلك تعبير الخليل عليه السلام بالولاء والبراء بدل لفظ كلمة التوحيد في قوله:﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وبهذا تصير لا إله إلا الله دالة على الولاء والبراء بالمطابقة، وهذا المعنى لطيف.

تنبيه : لا يعني قولنا : (لا إله إلا الله دلت على الولاء والبراء مطابقة) ، أنه يكفي ويغني عن بقية المعاني التطابقية لكلمة التوحيد، لأمرين :

أن الولاء والبراء مستلزم لبقية معاني كلمة التوحيد، فلا يكون المسلم مواليا لله حقا إلا إذا أتى بالتوحيد وبقية الفرائض وترك الشرك .

أن الأصل في معنى كلمة التوحيد (توحيد العبادة) والولاء والبراء منها، لكن قد يكون للكلمة الواحدة أكثر من دلالة فيطابق معناها معانٍ كثيرة من غير تعارض بينها ، بل قد يكون فيما بينها شيء من التضامن والتلازم، ومطابقة لمعنى الأصل .

الثانية : دلالة التضمن :

ووجه ذلك أن (لا إله إلا الله) معناها لا معبود بحق إلا الله ، ولا عبادة إلا لله، والألوهية كلمة مرادفة لمعنى العبادة ، والعبادة اسم جامع لكل ما أمر الله به وأحبه ورضيه من الأقوال والأعمال ، والولاء والبراء أمرنا الله به والله أحبه ورضيه فهو عبادة ، فالولاء والبراء داخل في الألوهية ، والألوهية تتضمنه.

الثالثة : دخوله في كلمة التوحيد بالالتزام والاقتضاء:

وذلك لأنه يلزم من عبادة الشيء موالاته ومعاداة أعداءه ومحبته تقتضي إظهار المولاة والمعاداة فيه، فظهرت بذلك دلالة التلازم بين العبادة والمحبة والولاء.

عليه فإن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) تدل على الولاء والبراء مطابقة ومضامنة وملازمة : فحصلت أنواع الدلالات على الولاء والبراء في كلمة التوحيد .

فصار للولاء والبراء مدلولات لزومية وضمنية وتطابقية.

فالولاء والبراء من لوازم (لا إله إلا الله) بل هو من حقيق معناها .

فالتطابق بتفسير الألوهية بالمحبة .

والتضامن بتفسير الإلوهية بالعبادة والولاء والبراء من العبادة .

والتلازم بكون عبادة الله ومحبته يلزم منها موالاته ومعاداة أعدائه عقلاً .

يقول ابن تيمية : (إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يوالي إلا لله ولا يعادي إلا لله وأن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله) الاحتجاج بالقدر ٦٢.

كما أن الولاء والبراء مرتبطان بأركان لا إله إلا الله وشروطها وأنواعها.

ومن هذا المعنى يعلم أن الولاء والبراء ركن في التوحيد لا يقوم إلا به فهو جزء منه وليس أمراً خارج عنه ، لهذا لا يمكن أن يتصور وجود مسلم لا يوالي ولا يعادي ولا يكفّر ، فإنه لا وجود في الخارج ولا حتى في الذهن لإسلام خال من الولاء والبراء والتكفير والكفر بالطاغوت .

وبهذا يتبين وجه بطلان دعوى جهال زماننا في زعمهم أنهم على التوحيد وأتوا بالتوحيد وهم لم يأتوا بالولاء والبراء ، فإن هذا إثبات لأمر منفي لا حقيقة له ولا وجود له ، كمن يزعم أنه مسلم وهو لم يسلم ومصلٍ وهو لايصلي وهكذا .

لأنه يستحيل عقلا وشرعا أنهم مسلمون وهم مناقضون لإسلامهم بموالاتهم أعداء الله .

قال الشيخ عبداللطيف: "والمرء قد ينجو من الشرك ويحب التوحيد، ولكنه يأتيه الخلل من جهة عدم البراءة من أهل الشرك وترك موالاة أهل التوحيد ونصرتهم. فيكون متبعاً لهواه داخلاً من الشرك في شعب تهدم دينه وما بناه، تاركاً من التوحيد أصولاً وشعباً لا يستقيم معها إيمانه الذي ارتضاه فلا يحب ولا يبغض لله

ولا يعادي ولا يوالي لجلال من أنشأه وسوّاه، وكل هذا يؤخذ من شهادة أن لا إله إلا الله" الدرر ٨/ ٦٨١.

(٦٨) دخول التوحيد والشرك في الولاء والبراء وعلاقته بهما :

١- أن الولاء والبراء عبادة تحتاج إلى أن يوحد الله بها .

٢- أن المحبة عبادة لا تصرف إلا لله ومحبة غير الله من أعدائه من الشرك.

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥.

٣- أن البراءة من الكفار ومن عباداتهم وكفرهم وعداوتهم وتكفيرهم وبغضهم من معاني الكفر بالطاغوت ولوازمه، والذي هو أحد ركني كلمة التوحيد.

٤- أن الولاء يدل عليه شرط المحبة التي هي أحد شروط (لا إله إلا الله)، ومن لوازم المحبة تولي أولياء الله ومعاداة الكفار.

٥- أن الولاء والبراء والمحبة والبغض من صفات الله التي يدخلها التوحيد .

فهو متعلق بتوحيد الربوبية والصفات كما أنه متعلق بتوحيد الألوهية.

وقد عبر عن الولاء والبراء في آيات كثيرة بأسلوب الحصر والقصر (النفي والإثبات) الدال على التوحيد، وذلك بقصر الولاء والبراء في الله وإفراده لله.

فيجب أن يوحد الله في الولاء والبراء فلا يصرف لغيره لأنه حق خالص لله وصرفه لغيره شرك، ومن صرفه لغير الله بتوليه لأعداء الله فهو مشرك.

قال السدي: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ (من فعل هذا - موالاة الكفار- فهو مشرك) أخرجه الطبري.

وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان: (ما نجا من هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله) .

وقال محمد بن عبد الوهاب في معادة الكفار :" تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئاً" الدرر ٢/ ١١٩.

وعلى هذا فالولاء كله لله فلا يوالى إلا الله وما والاه الله ولا يُعادى إلا ما عادى الله ولا يُحب إلا الله وما أحبه الله ولا يبغض إلا ما أبغضه الله .

وهنا لفتة لطيفة في الفرق بين دخول التوحيد في الولاء والبراء ودخول الولاء والبراء في التوحيد فبينهما عموم وخصوص، فالولاء والبراء يدخله التوحيد والشرك فهو بذاته توحيد فيصح أن يقال توحيد الولاء والبراء وشرك الولاء

والبراء، مثلما يقال توحيد الدعاء وشرك الدعاء، كما أنه يدخل هو الآخر في التوحيد، فهو جزء منه فصرف الولاء كله لله توحيد ولغيره شرك.

وقد قررت هذا الأصل الذي هو دخول الولاء والبراء في التوحيد والشرك، ودخول التوحيد والشرك في الولاء والبراء، وتعلق كل منهما بالآخر، آيات كثيرة.

تنبيه: مما سبق بيانه يظهر صحة مصطلح (الموالاة الشركية، شرك الولاء، أو الشرك في الولاء)، وسيأتي الفرق بين المولاة الشركية والموالاة الكفرية.

(٦٩) أدلة توحيد وشرك الولاء:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ المائدة: ٥٥.

قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة: ١٠٧.

قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٥٠.

ومعنى الآيات لا ولاء لكم أيها المؤمنين إلا لله وفي الله، وهو الولاء الحق وغيره ولاء باطل شركي كما أخبر تعالى بقوله: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ الكهف: ٤٤.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعراف: ٣.

وقال: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ٢٨.

قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ الشورى: ٩.

وهذه الآيات نفت ونهت عن تولي غير الله ومن وقع في موالاة الكفار فقد وقع في الشرك شرك الولاية كما قال السدي وغيره من السلف.

فائدة: النفي أبلغ في الدلالة من النهي، لأن النهي نفي وزيادة.

قال ﷻ: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ الكهف: ١٠٢.

وفي الآية أثنى الله على عباده الموحدين الذين وحدوا الله في الولاء لأنهم لا يتولون أعداءه الكفرة، ولن يطمع الكفار بشيء من موالاتهم.

(٧٠) الولاية قسمان: الشرعية بتوحيد الولاية، وضدها الولاية الشركية:

أخبر تعالى أن هناك ولايتين ولاية المؤمنين مع بعضهم وولاية الكفار مع بعضهم ولا يمكن أن يتولى أحد الفريقين الآخر إلا إذا صار منهم واتبع دين الآخر، وأن المؤمنين وحدوا الله في الولاء فولايتهم لله وعداوتهم لعدو الله، أما ولاية الكفار فلا تحصل إلا من كافر عدو لله وأن الكفار لا يتولون أحد ولا يتولاهم أحد إلا إذا كفر واتبعهم وكان على ملتهم.

قال تعالى : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ النساء: ٨٩ ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾ البقرة: ٢٥٧ ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة: ١٢٠ ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ٦٨ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الأنفال: ٧٣.

(٧١) الولاء والبراء قائم على ركني (لا إله إلا الله) النفي والإثبات، ومتضمن لمعنى التوحيد، (لا ولاء إلا لله) و (لا ولاء إلا بعداء) و (لا عداء إلا لأعداء الله).

كلمة التوحيد لا إله إلا الله قائمة على نفي وإثبات وقد عبر عنها أحياناً بالولاء والبراء فيقال: (لا ولاء ومحبة إلا لله ، ولا معاداة إلا لعدو الله) .

ويقال: (لا ولاء إلا ببراء) ، فلا يوالى الله وأولياؤه إلا بمعاداة أعدائه .

وقد عبر بهذه العقيدة الخليل عليه السلام.

قال الله تعالى حاكيا قول خليله إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ الزخرف: ٢٦ - ٢٧ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ٧٧ ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الممتحنة: ٤.

فقوله : ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ ﴾ ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾.

مرادف لركن النفي : ﴿ لَآ إِلَٰهَ ﴾.

وقوله : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ ﴿ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

مرادف لركن الإثبات : ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ .

فالآيات فسرت ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ بالولاء والبراء والموالاة والمعاداة والمحبة والبغض ، ومن معاني العداوة التكفير والهجر والمفارقة والمخالفة لكل ما يعبد من دون الله، فالنفي بمعنى البراء والمعاداة والإثبات بمعنى الولاء .

الفصل الثامن : أركان الولاء والبراء

(٧٢) أركان الموالاة والمعاداة :

الأول : الموالاة الباطنة القلبية : وهي المودة والمحبة .

الثاني: الموالاة الظاهرة العملية : وهي النصرة والمحالفة .

الثالث : المعاداة الباطنة القلبية : وهي البغض والكره .

الرابع : المعاداة الظاهرة العملية : وهي العداء في الظاهر وعمل الجوارح بالمنازعة والمباراة والمخالفة والمفارقة والمنابذة والعداوة والاعتداء والقتال.

فأركان الولاء والبراء أربعة :

(ركني الولاء وركني البراء) أو يقال : (ركني الباطن وركني الظاهر).

والمقصود بالباطنة : التي تحصل في الباطن وتكون في القلب .

والمقصود بالظاهرة : التي تكون بالجوارح بالقول والعمل باللسان واليد .

فللولاء ركنان:

١- المحبة وهو الركن القلبي الباطن .

٢- النصرة وهو الركن العملي الظاهر .

و البراء له ركنان :

١- البغضاء : وهو ركن القلب الباطن .

٢- العداوة وهي تكون ظاهرة بالجوارح.

فالبراء ينقسم إلى البغض المتعلق بالقلب والعداوة المتعلقة بالجوارح.

وقد جمعت الملة الإبراهيمية بينهما كما قال ﷻ عنها : ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ﴾ الممتحنة: ٤ .

فالولاء والبراء لهما ركنان : ركنٌ قلبيٌ باطنٌ وركنٌ عمليٌ ظاهر بادي.

فالركن الباطن في القلب : ولاء الحب ، وبراء البغض .

والركن الظاهر في اللسان والجوارح : ولاء النصرة ، وبراءة المعاداة الظاهرة .

فالمحبة وضدها البغض هما الركنان الباطنان ومحلهما في القلب وتظهر آثارهما ولوازمهما على اللسان والجوارح .

والنصرة وضدها المعاداة هما الركنان الظاهران الباديان من عمل الجوارح .

فالمحبة والنصرة والبغض والعداء أركانه ويتبعها أمور تدخل فيها.

وهذه هي أركان الولاء والبراء الباطن والظاهر ولا يتم الإسلام إلا بها.

ولا يكفي في الولاء والبراء وجود الباطن دون الظاهر ولا يتم أحدهما دون الآخر، ولا يمكن أن يقوم الولاء الظاهر بين المسلم والكافر ويبقى المسلم على دينه.

وزعمت المرجئة أن الركن الظاهر العملي ليس بلازم وأنه يتصور صلاح الباطن مع فساد الظاهر . وهذا القول الفاسد يرجع لأصلهم في الإيمان .

(٧٣) آلات الموالاة والمعاداة :

الولاء والبراء يكون باعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح.

ولا بد من اجتماعها فلا يكفي أحدها عن الآخر ولا يغني بعضها عن بعض ولا يعد المسلم مستكملا لعقيدة الولاء والبراء ومحققا للتوحيد إلا باجتماع الثلاث.

وهذه القاعدة مرجعها معتقد أهل السنة في الإيمان خلافا للمرجئة .

(٧٤) الموالاة والمعاداة من صيغ المفاعلة التي تقوم على جانبين:

الجانب الأول : الموالاة من جهة المعبود الخالق لعبده المؤمن :

١- بالحب

٢- والنصرة .

فالمحبة والنصرة من صفات الله ﷻ .

الجانب الثاني : الموالاة من جهة العبد لربه ومعبوده وخالقه :

١- بالحب

٢- والنصرة .

الدليل : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ محمد: ٧ ﴿ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ المائدة: ٥٤ .

الجانب الثالث : الموالاة بين العبد وبين المخلوقين .

ويقال مثل ذلك في المعاداة بين المخلوقين وبين خالقهم وبين أنفسهم.

فالمعاداة بين الرب وعباده الكفار، فيبغضهم ويعاديهم وهم كذلك عادوه.

(٧٥) محل الولاء والبراء ومكانه :

الأصل أن الحب والبغض في القلب، والمناصرة والمعاداة في الجوارح .

والحب والبغض تظهر آثارهما وتبدو لوازمها كما قال تعالى : ﴿ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ ﴾ آل عمران: ١١٨ ﴿ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ ﴾ الممتحنة: ٤ ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي ﴾ آل عمران:٣١ ﴿ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ المائدة: ٨١.

(٧٦) أصل الولاء وتوابعه وأصل البراء وتوابعه :

أصل الولاء المحبة والنصرة ويتبعها أمور تندرج تحتها .

فيدخل في الولاء: التحالف والطاعة والركون والتودد والموافقة والمساكنة.

كما أن أصل البراء البغض والمعاداة والتكفير ويتبعها هيئات وأفعال كثيرة .

ومما يدخل في البراء : الجهاد والهجرة والمفارقة والمخالفة والمفاصلة.

وأعمال الولاء والبراء بعضها أظهر وأعظم وأشد من بعض .

فمنها ما هو ركن في التوحيد يكفر تاركه ، ومنها ما هو واجب لكن لا يكفر تاركه ، ومنها ما فعله كفر ، ومنها ما فعله معصية دون الكفر .

(٧٧) أصل الموالاة الحب وأصل المعاداة البغض :

الموالاة مبنية على المحبة فالمحبة أصل لها وسبب حصولها كما أن المعاداة مبنية على البغض وأساس وجودها .

فالولاء المحبة والقرب، والبراء هو البغض والعداوة والبعد، وأصل الولاء والبراء من أعمال القلوب، لكن تظهر مقتضياتها على اللسان والجوارح، فالمحبة تثمر الموالاة والبغض يثمر المعاداة فهي أثر ولازم لتحصيلها وبينهما ترابط وتلازم .

قال ابن تيمية:" أصل الموالاة هي المحبة وأصل المعاداة البغض فإن التحاب يوجب التقارب والاتفاق والتباغض يوجب التباعد والاختلاف " المحبة ٣٨٧ .

قال عبد اللطيف: "وأصل الموالاة الحب، وأصل المعادة البغض، وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة، وكالجهاد والهجرة ، ونحو ذلك من الأعمال".الدرر٢/ ١٥٧ .

فلا يمكن لأحد أن يعادي أحداً إلا وقد أبغضه . ولا يمكن أن يواليه إلا وقد أحبه ومن ادعى أنه لا يحب من يواليه ولا يبغض من يعاديه فهو كاذب في دعواه إلا المكره الإكراه الصحيح المعتبر.

ولو تصورنا وجود من يتولى الكفار ويناصرهم ويعادي المسلمين ويحاربهم ويظاهر الكفار عليهم ، ومع ذلك يحب الإسلام وأهله ، ويبغض الكفر وأهله ، فإن هذا لا يعد مانعا من تكفيره وكون ما عمله كفرا أكبر مخرجاً من الإسلام فهو كفر عملي بمجرده لا يشترط معه كفر القلب.

وهذه القاعدة في المحبة مع الموالاة والبغض مع المعاداة مندرجة تحت قاعدة ترابط الباطن والظاهر، ومثلها في باب الإيمان، وترابط العمل الظاهر بالباطن

كترابط الانقياد مع الإقرار والمحبة والتصديق، والكفر والامتناع في الظاهر مع كفر الباطن من جحود وكره، وهذه القاعدة تخالفنا فيها المرجئة حيث لا يحكمون على العمل الظاهر بالكفر وتصوروا وجود من يأت بأنواع الكفر الصريح من غير أن يكون في الحقيقة كافراً لكونه في الباطن مؤمناً كما تخيلوا فلا يكفرونه.

الفصل التاسع : أقسام الولاء والبراء

(٧٨) ينقسم الولاء والبراء إلى أقسام بعدة اعتبارات :
حسب النوع والحكم والطرق وآلاته والوسائل والأساليب والاتجاهات:
١- ينقسم إلى ولاء وبراء وموالاة ومعاداة وحب وبغض .
٢- وينقسم إلى اعتقادي بالقلب وقولي باللسان وعملي بالجوارح .
٣- وينقسم إلى ولاء باطن وظاهر. وبراء باطن وبراء ظاهر.
٤- وينقسم إلى موالاة مشروعة وممنوعة بصرف الولاء لأهل البراء.
٥- وينقسم إلى أصل وكمال .
٦- وينقسم إلى ولاء وبراء بالعموم وولاء وبراء للمعين .
٧- وينقسم إلى موالاة جنس وموالاة أفراد (جنسية وفردية) .
٨- وينقسم إلى موالاة دائمة ومؤقتة طارئة .
٩- وينقسم إلى موالاة لها ضد وموالاة لا ضد لها .
١٠- وينقسم إلى موالاة للدين موالاة للدنيا .
١١- وينقسم إلى موالاة لعاقل وغير عاقل .
١٢- وينقسم إلى موالاة حي وميت وجماد .
١٣- وينقسم إلى موالاة فاعل وفعل ومفعول .
١٤- وينقسم إلى موالاة كبرى مكفرة وموالاة صغرى .
١٥- وينقسم إلى ولاء كامل تام ومتبعض ناقص .
١٦- وينقسم إلى مداراة ومداهنة .
١٧- وينقسم إلى موالاة الخالق مع المخلوق . وموالاة المخلوق مع المخلوق .
١٨- وينقسم إلى ولاء للدين وولاء لأهله .
١٩- وتنقسم الموالاة والمعاداة إلى أصلية وفرعية.
٢٠- وتنقسم إلى فعلية وتركية .
ومثال التركية : ترك معاداة الكفار وترك محبة المسلمين.
وإن كان الترك يرجع للفعل في النهاية .
٢١- وتنقسم إلى موالاة كفرية كبغض الدين ، وموالاة شركية كحب الأنداد.

(٧٩) أقسام الموالاة باعتبار الفعل والآلة :

١- الموالاة القلبية : كمحبتهم ومودتهم وتعظيم شعائرهم .

٢- الموالاة القولية: كتأييدهم بالقول أو الرأي والثناء عليهم ومدحهم .

٣- الموالاة العملية : كمناصرتهم وخدمتهم وبذل المال والنفس لهم.

(٨٠) تنقسم الموالاة باعتبار الحكم إلى قسمين :

موالاة كبرى مكفرة : كمحبة الكفار لدينهم، أو مناصرتهم على المسلمين .

موالاة صغرى غير مكفرة : كالإقامة عندهم مع عدم إظهار معاداتهم وكتصديرهم في المجالس وكالتشبه بهم في بعض الهيئات .

فالأولى تنافي أصل التوحيد وتنقضه .

والثانية تنافي كمال التوحيد مع بقاء أصله فلا تبطله.

(٨١) أقسام الموالاة الممنوعة :

١- موالاة قلبية باطنية كفرية : كمحبة الكفار عموما أو الفرح بظهورهم والمسرة بانتصارهم على المسلمين أو الرضا بدينهم أو اعتقاد أنهم على خير وفضل أو صحة دينهم أو كمال طريقتهم.

٢- موالاة قلبية باطنية صغرى : كمحبة قرابته الكفار المحبة الطبعية، وكغضب المرء لقومه، وكالانبساط والأنس والسرور والفرح بحديثهم الدنيوي .

٣- موالاة كفرية كبرى ظاهرة عملية: وهذا النوع لا يشترط أن يوجد معه المحبة والموالاة القلبية الباطنة فهي بمجرد ما يفعلها المسلم يحكم بردته وكفره .

ومن صور الكفر العملي في الولاء : مظاهرة المشركين على المسلمين .

٤- موالاة عملية ظاهرة صغرى لا تصل للكفر:

كالبشاشة وطلاقة الوجه لهم، وتصديرهم في المجالس والقيام لهم وبري القلم لهم والجلوس معهم وزيارتهم للمؤانسة ، من دون إقرارهم وتأييدهم على كفرهم.

(٨٢) أنواع الكفر في الولاء :

ينقسم الكفر في الولاء والبراء إلى أنواع بعدة اعتبارات :

١- أكبر وأصغر.

٢- اعتقادي وقولي وعملي .

٣- باطن وظاهر .

٤- فعلي كتولي الكفار ومظاهرتهم ، وتركي كترك بغضهم ومعاداتهم.

٥- كفري كبغض الدين وشركي كحب الكفار والطواغيت والأنداد.

(٨٣) الموالاة والمعاداة تكون مطلقة ومتبعضة :

الولاء المطلق لا يكون إلا للمؤمن ، والبراء المطلق لا يكون إلا للكافر .

والولاء والبراء المتبعض يكون للمسلم الفاسق العاصي ، فيوالى لأجل إيمانه ويبغض فيه الفسق فيتبرأ منه على قدر ظلمه وفسقه.

(٨٤) الموالاة الدائمة والطارئة :

الأصل أن الموالاة الدائمة لا تكون إلا للمؤمنين ، والمعاداة الدائمة تكون للكافرين ومن خالف في ذلك كفر .

والواقع في موالاة الكفار على قسمين :

١- أصحاب الموالاة الدائمة والمستمرة وهذه كفر وردة مطلقاً .

٢- أصحاب الموالاة الطارئة أو المؤقتة لمصلحة ونحوها .

والحكم في هؤلاء يكون على حسب ما قاموا به من ولاية .

فالموالاة الطارئة منها ما هو ردة ومنها المحرم ومنها ما هو مباح للضرورة.

مثال الموالاة الطارئة والتي تكون ردة : كأن يطرأ على مسلم مظاهرة المشركين على المسلمين خوفا على دنياه ونحوه وهذا كفر لا يعذر فيها فاعلها.

مثال الموالاة الطارئة المحرمة : كأن يسافر لتجارة فيظهر شيئاً من الموالاة لهم، كمدحهم وإكرامهم ، فيفعل ذلك لأجل مصلحة وفعله محرم ولكن ليس بكفر .

ومثال المباحة : الإقساط والبر للكافر المسالم ، والتخفي في صفوف الأعداء وإظهار موالاتهم لمصلحة جهادية ، وموالاتهم حال الإكراه والتقية.

وهذا النوع لا يسمى موالاة عند التحقيق وقد تكون نافعة وليست ضارة.

(٨٥) الموالاة الجنسية التامة الكاملة والموالاة النوعية الفردية العينية الناقصة :

تكون موالاة الكفار على حالتين :

الأولى : جنس الموالاة :

وهي صرف جميع صور الموالاة وطرقها وأنواعها للكفار ، فهو لا يتبرأ ولا يعادي بل يوالي ويناصر ويوافق ويركن ويرتاح لهم ويرضى بأفعالهم ويتخذهم بطانة ويفشي الأسرار لهم وكل عمل يصرف لولي محب يصرفه إليهم وهذا كافر مطلقا .

كما أن تارك الموالاة الجنسية كل صور الموالاة لكل المؤمنين فهو كافر.

الثانية : الموالاة النوعية الفردية :

وهي صرف بعض صور الموالاة للكفار دون بعض.

مثالها: كمن يعادي الكفار بلسانه لكن لا يجاهدهم أو يقلد الكفار أو يتشبه بهم أو يوافقهم في بعض أفعالهم أو لا يتبرأ منهم مع عداوته ومخالفته لهم أو يخالفهم ولكن يركن إليهم ويعتمد عليهم أو يتخذهم بطانة أو أصحابا وأصدقاءً ويرغب في الجلوس معهم والسفر إليهم والإقامة عندهم مع عدم موافقتهم ونحو ذلك .

فتراه يصرف هنا نوعاً من الموالاة ونوعاً من المعاداة ويجمع بينهما .

وحكم هذا أنه بحسب نوع الموالاة التي صرفها فقد تكون كفراً بمجردها وقد تكون معصية غير مكفرة، فإن كان الذي فعله من الموالاة المكفرة فإنه يكفر ويحكم بردته وإن كان من الصغرى فلا يكفر . وستأتي أقسام الموالاة وصورها .

(٨٦) موالاة عموم الكفار وخاصة لأفراد ومعينين:

تنقسم موالاة الكفار لأقسام وعلى درجات :

أشدهم : من يوالي عموم الكفار وجميعهم، فكل من يخالف المسلمين يواليه.

الثانية : من يوالي جنساً من الكفار كاليهود أو النصارى أو البوذيين.

الثالثة : من يوالي نوعاً من الكفار حسب البلد النسب والقبيلة، كمن يوالي يهود اليمن أو أقباط مصر أو صابئة العراق أو كفار بلد معين كالأمريكان أو الهنود.

والحالات السابقة كلها من الكفر الأكبر .

الرابعة : من يوالي كافراً معيناً قريباً أو صديقاً.

(٨٧) يصرف الولاء والبراء إلى المعين والعموم :

يحصل الولاء للمعين ، والمقصود بالمعين كافر معين .

ويحصل للعموم مثل عموم كفار بلده أو وطنه أو قبيلته .

فمن مقتضى (لا إله إلا الله) ولوازمها موالاة عموم المسلمين سواء اتفقوا في الروابط الأخرى كالنسب والوطن والقبيلة والقوم أو اختلفوا .

وأما موالاة الكفار فقسمان : موالاة معينين وهذه غير مكفرة ما لم تصل إلى بعض حالات التولي والموالاة الكبرى .

وموالاة بالعموم وهذه من صور الموالاة الكبرى المكفرة والتولي مثل محبة عموم اليهود أو النصارى أو البلد الفلاني وأهله كفاراً كأمريكا .

(٨٨) الولاء والبراء يكون للحي وغيره :

فكما أن الولاء والبراء يصرف للأحياء من البشر والملائكة والجن فكذلك يكون لغير الحي فيوالى الجماد كما أخبر النبي ﷺ عن محبته لمكة وطيبة وجبل أحد، وكذا يعادى الطاغوت حيا كان أو جماداً كصنم أو كنيسة أو قبر يعبد أو محكمة وضعية أو قانون أو تلفاز أو صورة تعظم أو قبيلة لها يتعصب أو غير هذه الأمور من وسائل وأمور الشرك ، وهذا معنى البراءة من الشرك وأهله .

(٨٩) البراءة تتعلق بالفعل والمفعول والفاعل :

الفعل : الذي هو الكفر والشرك يتبرأ منه ويبغضه ويبتعد عنه ويهجره.

الفاعل : وهو فاعل الكفر وأهل الدين الباطل والمشرك صاحب الشرك.

المفعول : وهو المعبود الباطل والطاغوت المطاع والمتبع .

مثال : كالصنم والقبر الذي يقصد للعبادة أو المحكمة الوضعية الشركية .

فإذا أردت معرفة كيفية البراة من الحكم بغير ما أنزل الله مثلاً :

فلا بد أن تتبرأ أولاً من الفعل الذي هو الشرك في الحكم والتحاكم ثم تتبرأ من أهل الشرك الذي هو الحاكم (الفاعل) وتبرأ من المحكمة (المفعول) مقر الحكم.

(٩٠) الولاء والبراء يكون للدين وأهله :

الولاء المشروع الواجب يكون للإسلام وأتباعه المسلمين.

والبراء الواجب يكون للكفر وأصحابه .فلا بد أن يعادي الكفار أهل الكفر.

ولا يكفي موالاة الدين دون أهله ولا معاداة الكفر دون أهله .

والبراءة من المشركين أولى من البراءة من الشرك . ولا تصح البراءة من الشرك والكفر إلا بالبراءة من أهله وأتباعه، حيث لا يكفي بغض الكفر دون أهله بل ولا بغض الكفار دون معاداتهم فالبراءة من الكفار بالقلب وبالعمل الظاهر والعداوة فرض على كل مسلم .

وقد ظن الكثير أن هذا ليس بلازم فمجرد ما يكره الكفر لا يلزمه أن يعادي المشركين خصوصاً إذا كانوا أقرباء، وهذا اعتقاد باطل فالكره وحده لا يدخل صاحبه في الإسلام إذا ما جاء معه عداوة الكفار.

قال حمد بن عتيق في سبيل النجاة: (قدّم البراءة من المشركين على البراءة من الأوثان المعبودة ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾، لأن الأول أهم من الثاني، فإنه إن تبرأ من الأوثان ولم يتبرأ ممن عبدها لا يكون آتياً بالواجب. وأما إذا تبرأ من المشركين فإن

هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم، وكذا قوله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فقدّم اعتزالهم على اعتزال ما يدعون. وقوله: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ فعليك بهذه النكتة فإنها تفتح لك باباً إلى عداوة أعداء الله. فكم من إنسان لا يقع منه الشرك ولكنه لا يعادي أهله فلا يكون مسلماً).

قال الشيخ عبداللطيف: "والمرء قد ينجو من الشرك ويحب التوحيد، ولكنه يأتيه الخلل من جهة عدم البراءة من أهل الشرك وترك موالاة أهل التوحيد ونصرتهم " الدرر ٨/ ٦٨١.

تنبيه : ما قلناه في الولاء المشروع ينسحب لضده وهو الولاء الممنوع .

فتولي الكفار كفر سواء كان لدينهم أو لهم أنفسهم دون قصد دينهم.

(٩١) الولاء قسمان للدين والدنيا :

أولاً : فالولاء والبراء للدين من مقتضى التوحيد .

وضده من الكفر كمن يوالى الكفار لأجل دينهم ومحبة ورغبة في ملتهم .

ثانياً: الولاء في الدنيا له طريقان :

الأول : موالاة لأجل الدنيا كالحب والمناصرة لأجل مصالح الدنيا، وهذا منه ما هو كفر أكبر : كمن يوالي الكفار ويناصرهم على المسلمين لأجل مصالحه الشخصية الدنيوية، وهذا كفرٌ مخرج من الإسلام وهي المقصودة إذا أطلق الولاء.

ومنها موالاة دنيوية صغرى وهي معصية لا تصل للكفر كمن يصاحبهم ويصادقهم ويداهنهم لأجل دنياهم ورغبة فيما بأيديهم .

الثاني : موالاة الدنيا نفسها بحبها وعبادتها . كما جاء في الحديث (إذا أعطي منها رضي وإن منع سخط) رواه البخاري، وهذا الحب للدنيا والعداوة من أجلها يتعلق بها مسائل من الحرمة والكراهة وقد يصل للكفر.

(٩٢) الموالاة منها ما له ضد ومنها ما ليس له ضد :

المسألة لها معنيان:

١- أن بعض صور الموالاة يوجد لها ضد كالمحبة ضدها البغض والمناصرة ضدها المعاداة وموافقتهم ضد مخالفتهم، وبعض الصور قد لا يوجد لها ضد .

٢- أن بعض صور موالاة الكفار فيها معاداة للمؤمنين .

ومثال الموالاة التي قد يقال ليس لها ضد التشبه بهم أو مصاحبتهم أو مصادقة بعض الكفار فلا يشترط أن يكون لها ضد أو فيها معاداة للمسلمين .

ولكن أكثر صور الموالاة يوجد معها معاداة ولو من باب اللزوم فالتشبه بالكفار يستلزم موافقتهم وترك مخالفتهم ومخالفة المسلمين ، والإقامة مع الكفار وموافقتهم يستلزم مخالفة المسلمين وعدم الإقامة معهم، وتصديرهم وتقديمهم فيه إبعاد للمسلمين وفيه أثر سلبي على المسلمين من ناحية إضعافهم وتهوين عزائمهم وتأييد الكفار ورفع معنوياتهم وتثبيتهم، وإذا كان المرجف والمخذل في القتال يجب إبعاده من الجيش فكيف بمن يوافق الكفار ويتشبه بهم .

والموالاة التي فيها معاداة صريحة للمسلمين أو تستلزم المعاداة أو إظهار المعاداة أشد كفراً من وجود موالاة مجردة عن وجود ضدها من المعاداة .

(٩٣) فائدة : هل يمكن أن يوجد من المرء موالاة للكفار مجردة عن معاداة المؤمنين أو لابد من وجود المعاداة مع كل صورة للموالاة ؟

والجواب على ما سبق بيانه أن الأصل أن كل موالاة للكفار فيها معاداة للمسلمين ولو بطريق الاقتضاء واللزوم.

الفصل العاشر : أهل الولاء والبراء المشروعَين والممنوعَين

(٩٤) الولاء والبراء المشروع والممنوع :

أولاً: الولاء المشروع : وهو موالاة الله ﷻ ورسوله ودينه وأهل دينه المؤمنين.

ثانياً: الولاء الممنوع : وهو موالاة أعداء الله ﷻ من الكفار .

ثالثا : البراءة المشروع: وهو معاداة أعداء الله المشركين .

رابعا : البراء الممنوع : هو البراءة من المؤمنين .

والمشروع ينقسم إلى أربع رجات: ركن في الدين لا يصلح إيمان المسلم إلا به، وواجب يأثم تاركه ولا يكفر، ومستحب يختلف الناس في تحقيق كماله، ومباح.

والممنوع : منه ما هو مكفر ناقض للإيمان ، ومنه ما هو محرم لا يكفر بفعله وهو ما يسمى بالموالاة الصغرى .

(٩٥) أقسام الناس في الموالاة:

القسم الأول : حزب الله : وهم أولياء الله .

الثاني : حزب الشيطان والطاغوت ، وهم أعداء الله ومن يتول أعداء الله .

والناس فريقان وحزبان لا ثالث لهما ، أولياء الله المؤمنون به ، وأعداء الله الكافرون به ، والذي يوالي أعداء الله من المسلمين يصير بموالاته هذه عدوا لله خارجا عن أوليائه مرتدا بذلك عن دينه .

فيدخل الشخص في أولياء الله بالتوحيد وبموالاة أهله .

ويدخل في أعداء الله وأولياء الشيطان بالشرك أو موالاة أهله .

قال الأهدل في رسالته السيف البتار على من يوالي الكفار : (فالناس قسمان : الذين آمنوا وليهم الله تعالى لا غيره، فليس لهم مولى دون الله ورسوله، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، فمن اتخذ الطاغوت ولياً من دون الله ، فقد خسر خسراناً مبيناً، فليس إلا ولي الله وولي الطاغوت، فلا شركة بوجه من الوجوه ألبتة ، وقد حكم الله ألا نتولى الكفار بوجه قط، فمن خالف لما يحكم، فأنى يكون له إيمانٌ ، وقد نفى الله إيمانه ، وأكد النهي بأبلغ الوجوه والإقسام على ذلك).

وجعل الله ﷻ شرط الدخول في ولاية الله موالاة الله ومعاداة أعدائه .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ المائدة: ٥٦

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ المجادلة: ٢٢

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ المجادلة: ١٩

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ فاطر: ٦

﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ النمل: ٤٥

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾ البقرة: ٢٥٧

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ النساء: ٧٦.

(٩٦) ضابط الموالاة والمعاداة المحرمة الممنوعة:

هي موالاة أهل المعاداة ومعاداة أهل الموالاة .

فالولاء لا يكون إلا لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ المائدة: ٥٥ .

(٩٧) كيفية تحقيق الولاء المشروع والبراء المشروع :

الولاء للمؤمنين يكون : بمحبتهم ، ونصرتهم ، وموالاتهم ، والنصح لهم ، والرفق والرحمة بهم، وغير ذلك من مقتضيات الولاية.

والبراءة من الكفار: ببغضهم، ومعاداتهم، ومخالفتهم، ومفارقتهم، وعدم طاعتهم، والركون إليهم، وموافقتهم، والتشبه بهم، ونحوها من مقتضيات العداوة .

(٩٨) أهل الولاء (الولاء المشروع) :

أهل الولاء الذين يجب على المسلم موالاتهم ومناصرتهم ومحبتهم :

١- ربنا المولى الحق ﷻ الذي استحق العبادة والولاية دونما سواه .

٢- الرسول ﷺ محبته ونصرته والدفاع عنه وتصديقه وطاعته واتباعه.

٣- الدين وكلمة التوحيد يحبها المسلم وينصرها ويوالي فيها ويعادي.

٤- القرآن بمحبته ونصرته والإيمان به تصديقاً وعملاً والكفر بكل ما خالفه.

٥- ملائكة الرحمن ، ومن أبغض أحد الملائكة فهو كافر عدو لله، ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٩٨ .

٦- أولياء الله المؤمنون أهل الدين والتوحيد بالمحبة والنصرة والذلة لهم .

(٩٩) تنبيه : الولاية التي للرسول ﷺ والمؤمنين هي من ولاية الله وتوليه .

(١٠٠) صفات أولياء الله وشروط الولاية .

لتحصيل ولاية الله يشترط توفر أمرين: الإيمان والتقوى .

وعلى قدر نقصها تقص الولاية: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ يونس: ٦٢ - ٦٣ .

(١٠١) أهل البراء المشروع والولاء الممنوع:

١- الكفار عموما من يهود ونصارى ومجوس وهندوس ورافضة وقبورية وغيرهم لا يجوز موالاتهم ومن خصص اليهود أو النصارى بولاء خاص أو طائفة كافرة بالولاء فهو كافر مرتد مكذب لله ورسوله كافر بلا إله إلا الله .

٢- أهل الكتاب اليهود والنصارى وخصصتهم ، لشدة عداوتهم ولكثرة المتشبهين بهم، وكثرة مناصريهم كما هو المشاهد في وقتنا بزعم أنهم يتفقون معنا أو بحجة أنهم أصحاب كتاب ودين سماوي .ولخطورة موالاتهم وكثرة الموالين لهم نهانا الله ﷻ عن موالاتهم بقوله :﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ المائدة: ٥١.

٣- المرتدون عن دين الله أفراداً أو جماعات .

٤- المنافقون والزنادقة كالعلمانيين والليبراليين والدمقراطيين والمستغربين والوطنيين ودعاة الإنسانية وغيرهم ، وهؤلاء قد يخفى على الناس حالهم فيوالونهم لذا وجب بيان حالهم والدعوة للبراءة منهم .

وكيفية البراءة منهم وردت في القرآن بجهادهم والغلظة عليهم وقتل من أظهر نفاقه وعلمت ردته وفضحهم وعدم قبول اعتذارهم وعدم الصلاة عليهم والإستغفار والإعراض عنهم إن كان الإسلام في حال ضعف وعدم موالاتهم.

٥- الحاكمون بغير ما أنزل الله والحكام المبدلون شرع الله وخصصتهم بالذكر لكثرة الشبهة حولهم وكثرة من يتولاهم لدفاع المنصب والشهوة والمال أو الخوف.

٦- المفسدون في الأرض ومن يصد عن سبيل الله ويحارب دينه .

٧- الدين الباطل.

٨- الطاغوت أياً كان بلداً أو قوماً أو قانوناً أو منظمة أو محكمة وضعية .

٩- أولياء الطاغوت وجنوده .

١٠- السحرة .

١١- الفسقة والظلمة والعصاة وهؤلاء يتبعض الولاء في حقهم.

١٢- إبليس لعنه الله والشياطين.

١٣- كل من يبغضه الله تعالى ممن ثبت فيهم النص. وقد ثبت أن الله يبغض الكفار والفاحش البذيء والألد الخصم والإمام الجائر.

١٤- كل من يحارب الجهاد ويصد عن سبيل الله .
الضابط في أهل الولاء غير المشروع :صرف الولاء لأعداء الله .
كما أن هنالك أهلاً للموالاة فهناك من ليس أهلاً للولاء بل هو من أهل البراءة والعداوة والولاء له غير مشروع .
(١٠٢) أعداء الله قسمان :أصليون ومتولون لأعداء الله مرتدون بموالاتهم.
فمن والى أعداء الله فهو من أعداء الله ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ . وتجب معاداة وتكفير أصحاب القسمين على حد سواء .
قال الطبري في تفسيره:(من تولاهم ونصرهم فهو من أهل دينهم وملتهم).
قال ابن بطة في الإبانة: (وتبغض في الله من عصاه ووالى أعداءه).
قال ابن حزم في المحلى في متولي الكفار: (كافر من جملة الكفار).
(١٠٣) الولاء والبراء مع العصاة الفسقة :
الولاء في حق الفاسق ناقص ليس بالكامل ، وأيضاً متبعض غير مطلق، فيأخذ بعض الولاء مع بعض العداء والبراء .
فنواليه موالاة ناقصة على قدر طاعته ونعاديه على قدر فسقه وجوره فالولاء في حقه ليس كاملاً بل ناقص ولا نصرف له ولاءنا كله ، فلا نواليه مطلقاً ولا نعاديه مطلقا بل نوالي فيه إيمانه وطاعته ونبغض فيه معصيته .
ومن صور البراءة منهم: ١- هجرهم ٢- تعزيرهم ٣- إقامة الحدود.
(١٠٤) موالاة المرتدين :
لا يختلف الحكم في كفر الموالي إن صرف ولاءه للكفار الأصليين أو المرتدين إن علم بردتهم فالحكم سواء ، فمن والى المرتدين فيعتبر مرتداً مثلهم، ولو لم يحكم الموالي بردتهم إذا علم بوقوع الكفر منهم أو كانت ردتهم ظاهرة، وقد ظن البعض أنه يجوز إظهار الموالاة للمرتدين ويعذر بعدم معاداتهم، وأن الذي أمر الله به هو معاداة الكفار الأصليين، وهذا من الجهل بحقيقة الدين ، ومن رأى كتاب الدلائل للشيخ سليمان وسبيل النجاة للشيخ حمد، يجدها أُلفت في بيان كفر من يوالي المرتدين .
(١٠٥) الولاء والبراء في الأشخاص : من البدع المنكرة التي ابتلي بها أكثر المتأخرين وقل من يسلم منها عقد الولاء والبراء في شخص معين يوالي فيه ويُعادي تعصبا له، تراه يعادي من يعاديه بل ومن يخالفه ولا يقلده ولا يتبعه ، وهذا من الغلو والتقليد الذي يدخل صاحبه في عبادة الأحبار واتخاذهم أربابا من دون الله.

الفصل الحادي عشر
مقتضيات وأسباب ودوافع ومبررات ونواقض الولاء والبراء

(١٠٦) نواقض عقيدة الولاء والبراء ومبطلاته :

١- حب الكفار وهذا كفر حتى لو وجد معه حب للمؤمنين .
٢- عدم بغض الكفار حتى ولو لم يحبهم .
٣- بغض المؤمنين .
٤- عدم محبة المسلمين حتى ولو لم يبغضهم .
٥- موالاة الكفار .
٦- ترك معاداة الكفار ولو لم يواليهم إن تصورنا ذلك .
٧- مناصرة الكفار عموما ومظاهرتهم على المسلمين خصوصا.
٨- معاداة المسلمين ومحاربتهم وفتنتهم وصدهم عن سبيل الله والجهاد.
٩- ترك موالاة المؤمنين مطلقاً وخذلانهم وترك مناصرتهم ولو لم يعاديهم .

فمن لم يوال المؤمنين بالكلية أو عاداهم فليس بمسلم ، أما من قصّر في موالاتهم ونصرتهم فخذلهم فهو على خطر وشعبة من النفاق ولكن لا يكفّر .

(١٠٧) ضابط النواقض : يعود إما لتخلف ركن أو وجود ناقض .

فنقض باب الولاء والبراء متعلق بالبغض والعداوة والحب والنصرة، إما بفعلها لمن لا يستحقها وإما بتركها عمن يستحقها وعدم فعلها معه ، ومن وقع في شيء من ذلك لا يعد محققا للولاء والبراء الواجب عليه.

(١٠٨) طرق معاداة الحق وأهله :

تكون بأحد طريقين :

إما بترك معاداة الباطل ، وإما بترك موالاة الحق ومناصرته .

(١٠٩) الدخول في أولياء الله وحزب الله يتطلب شرطين :

يشترط في دخول الإسلام وحزب الله وفي أهل لا إله إلا الله شرطان :

الأول : موالاة أولياء الله ومحبة أهل لا إله إلا الله ونصرتهم .

الثاني : معاداة أعدائها ومخالفيها وبغضهم .

وبتخلف أحد الشرطين يصير المرء من أعداء الله داخلاً في حزب الشيطان .

فموالاة الشيطان تتحقق بزوال الشرطين أو أحدهما :

١- بغض المؤمنين وعدم محبتهم، أو معاداة المؤمنين وعدم موالاتهم .
٢- محبة الكافرين وعدم بغضهم، أو مناصرة الكافرين وعدم موالاتهم .

(١١٠) أصناف حزب الشيطان وطرقهم:

١- من يبغض الله ورسوله والمؤمنين ولا يحبهم .
٢- من يـحب أعداء الله من الكافرين ولا يبغضهم .
٣- من يوالي الكفار ويترك معاداتهم .
٤- من يعادي المؤمنين ويترك موالاتهم ومناصرتهم .
٥- من يظاهر الكافرين ويناصرهم على المسلمين.

(١١١) درجات الولاء والبراء وكونه أصلاً وواجباً وكمالاً :

الأولى : درجة الأصل، وهذه من نقضها خرج من الملة .

مثال درجة الأصل :

١- في الولاء : محبة المؤمنين وتوليهم .

وهو من شروط كلمة التوحيد (محبتها ومحبة أهلها) .

٢- في البراء والمعاداة : بغض أعداء الله الكفار ومعاداتهم .

فمن ترك هذه الأصول فأبغض المؤمنين أو أحب الكفار عموم الكفار أو قـام بتولي الكافرين ومظاهرتهم خرج الإيمان من قلبه وكفر .

الثانية: درجة الكمال :

وهذه من نقصت عنده فإنه لا يخرج من الملة وإيمانه لا يزول وإنما ينقص .

ودرجة الكمال على مرتبتين : وجوب يأثم تاركه ومستحب لا يأثم تاركه .

مثال درجة الكمال في الولاء والبراء :

١- في الولاء : حبك لأخيك ما تحبه لنفسك فهذا من كمال الموالاة والإيمان .

قال النبي ﷺ : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيـه مـا يحـب لنفـسه " رواه البخاري، أي لا يؤمن الإيمان المطلق الكامل حتى تكتمل في قلبه الموالاة .

٢- مثال درجة الكمال في المعاداة والبراء :

تضييق الطريق على الكفار وعدم السلام عليهم وأن نبدأهم به .

ومما يقدح في الكمال حب الكافر لدنياه أو قرابته أو القيام له.

فمن ترك هذا الفعل، لم يأت بكمال المعاداة فينقص إيمانه ولكن لا يكفر .

(١١٢) مراتب الموالاة والمعاداة:

درجات الموالاة والمعاداة منها أصل وركن وواجب ومستحب وكفر ومعصية ومكروه ، وهذه الدرجات متعلقة بمولاة المؤمنين ومعاداة الكفار .

١- فمنها ما هو ركن يكفر تاركه .

٢- ومنها ما هو كفر وناقض يكفر فاعله .

٣- ومنها ما هو واجب يأثم تاركه لكن لا يكفر .

٤- ومنها ما هو محرم يأثم فاعله لكن لا يكفر .

٥- ومنها ما هو مستحب ينبغي الإتيان به ولا يأثم تاركه .

٦- ومنه ما هو مكروه ينبغي تركه والبعد عنه لكن لا يأثم فاعله.

قال الشيخ عبداللطيف:(مسمى الموالاة يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية ومنها ما هو دون ذلك) الدرر ٨/ ٤٣٢ .

(١١٣) حقوق الموالاة في الله وطرق الولاء :

المحبة والنصرة والإعانة . قضاء الحاجات للإخوان على قدر المستطاع . البشاشة وإدخال السرور عليهم . السكوت عن عيب إخوانه وذكر مثالبهم وتتبع عثراتهم وسقطاتهم . إحسان الظن بالإخوان وعدم سوء الظن بهم. الدفاع عن عرض المؤمن من قدح وذم المعتدين . عدم سبهم وشتمهم خصوصاً من أجل الدفاع عن الكافرين . العفو عن هفوة الأخ والكف عن عثراته . دوام المحبة والمودة وإظهار ذلك . الدعاء للمؤمنين بالخير والنصر . النصح للمسلمين . تمني الخير لهم. زيارة المريض واتباع الجنازة وإجابة دعوته . وغيرها من الحقوق الواجبة .

(١١٤) مقتضيات الولاء والبراء :

١- محبة أولياء الله وبغض أعداء الله من المشركين الكافرين .

٢- مناصرة أولياء الله وموافقتهم وإعانتهم في كل شيء .

٣- معاداة أعداء الله ومنابذتهم ومخالفتهم والبراء منهم وإظهار المعادة وعدم الركون إليهم وإتباعهم وموافقتهم ومشابهتهم .

٤- الهجرة من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وعدم الإقامة معهم .

٥- جهاد أعداء الدين، والجهاد من أعظم لوازم الولاء والبراء، فيجب مناصرة المسلمين والقتال معهم والدفع عنهم ونصرتهم وجهاد الكفار وقتالهم .

٦- عدم التشبه بأعداء الله ولو في المباحات .

٧- ترك كل ما يخل بالبراءة من الكفار .
٨- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله .
٩- تبديع المبتدع وهجره هو والفاسق .
١٠- الإقامة مع المؤمنين وعدم مجامعة الكفار ومساكنتهم ومعاشرتهم .

(١١٥) أسباب تحقيق الموالاة في الله :

١- الإيمان بالله وتدبر كتابه والنظر في الآيات المتعلقة بالولاء والبراء وقراءة كلام السلف فيها وليحذر أن يصغي لكلام الخلف من أهل الأرجاء والذلة فقد شوهوا الدين وحرفوا مراد الله وكذبوا عليه .
٢- تجنب الخلاف بين المسلمين لأنه يورث العداوة .
٣- صحبة أهل الخير والمعرفة بالله .
٤- سلامة الصدر من الغش والحقد والضغينة والحسد والخيانة للمسلمين.
٥- الفرح بحسن حال المسلمين .
٦- حفظ السر للأخ المسلم .
٧- المواساة للإخوان بالمال وإيثارهم.
٨- الاحتراز من سوء الظن بالمسلم .
٩- إرضاء المسلم أخيه والتودد له.
١٠- قضاء حاجاته .
١١- القيام بحقوقه ، وغير ذلك.

(١١٦) أسباب تحقيق المعاداة في الله :

١- استشعار عداوة الكفار لنا وعدم رضاهم عنا إلا إذا تركنا ديننا .
٢- معصية الكفار فيما أمروا وعدم طاعتهم .
٣- عدم الركون إلى الكفار والظالمين .
٤- ترك موالاة الكافرين والبشاشة لهم وإكرامهم .
٥- إرغام الكفار وعدم إكرامهم بل احتقارهم وإهانتهم وإصغارهم .
٦- عدم التشبه بهم وعدم موافقتهم بل تقصد مخالفتهم .
٧- ترك إتباع أهواء الكفار أو تحقيق رغباتهم ، (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) .
٨- عدم الإقامة مع الكفار في ديارهم أو مجامعتهم ومساكنتهم.

٩- ترك معاشرتهم ومجالستهم ومؤاكلتهم ومؤانستهم ومباطنتهم.

(١١٧) كيف يُربّى الناس على الولاء والبراء :

١- تعليم الناس معنى (لا إله إلا الله) وأنها قول وعمل وانقياد، وأنها متضمنة للبراءة من الكفار وعداوتهم والكفر بالطواغيت، وأن الشهادتين لا تقبل إلا بذلك وزرع ذلك في الناشئة والأبناء، فكما يعلمون الوضوء والصلاة يعلمون بغض الكفر وأهله وتجنبهم وإظهار معاداتهم والبراءة منهم، لا أن يمنعون من تعلم هذه المسائل.

٢- تعريف الناس بمعنى الإسلام والعبادة ، وأنها ليست مجرد الطهارة والصلاة بل يدخل فيها التعامل والاقتصاد والكفر بالطاغوت .

٣- محاربة كل ما فيه موالاة للكفار وسد الذرائع والوسائل المفضية لموالاة الكفار، والإنكار العلني لها وتحذير الأمة منها وممن يروجها .

٤- تكفير من يتولى الكافرين وتحذير المسلمين منه ومن موالاته والاحتساب على دعاة التقريب والموالاة مع الكفار والإنكار عليهم .

٥- تقوية الروابط الإيمانية بين المسلمين .

٦- إظهار عورات الكفرة وأنهم يسعون في إزالة دين الله وتبيين كفرهم بالله ومحادتهم له وبغضهم لرسوله ولدينه وحربهم للمسلمين .

٧- تحذير أهل الإسلام من موالاة الكفار وأنهم متى ما تركوا معاداة الكفار وتكفيرهم وبغضهم والكفر بالطاغوت صاروا بذلك مرتدين والعياذ بالله .

٨- كشف الشعارات الزائفة التي ينادي بها أعداء الله من المنافقين والكفار والتي الهدف منها إذابة وتمييع الولاء والبراء كالحرية والوسطية والتعددية وقبول الرأي الآخر وحقوق الإنسان والتعايش والتسامح والحوار والإنسانية والوطنية.

(١١٨) : وجوب تعليم الناشئة الولاء والبراء :

وينبغي غرس محبة المسلمين في قلوبهم وغرس كره الكفار وبغضهم وتعليمهم أصول ذلك وتبيينه لهم ، فيعلمونهم إياه كما يعلمون الصلاة والوضوء لاأن يترك تعليمه أو يحذف من الكتب.

قال محمد بن عبد الوهاب : (فرض معرفة شهادة أن لا إله إلا الله قبل فرض الصلاة، فيجب أن يبحث عن معنى ذلك أعظم من وجوب بحثه عن الصلاة ، وتحريم الشرك والإيمان بالطاغوت أعظم من تحريم نكاح الأمهات) الدرر٢/ ١٢١.

(١١٩) وجوب الإنكار على من يتولى الكفار وبيان خطورة عمله والتحذير منه وتكفيره والاحتساب عليه وبيان ذلك للناس ليحذروا منه ومن فعله .

(١٢٠) وجوب تجريد الولاء والبراء من حضوض النفس:

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ التوبة: ٢٤.

قال ابن عباس: (من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا). رواه ابن جرير وابن المبارك في الزهد موقوفا .

وقد صارت الموالاة والمعاداة والحب والبغض بين الناس لأسباب دنيوية كثيرة ، كالقرابة والقوم والوطن والمال والتجارة والوظيفة والمنصب والمصالح الدنيوية والخوف من ضياعها وخشية الدوائر والخوف من الكفار وطلب العزة.

وأعظمها منزلة ما كان الولاء والبراء فيه لله ولرسوله ودينه وأهل دينه كما في الحديث : (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله).

قال ابن تيمية : (من أحب إنساناً لكونه يعطيه فما أحب إلا العطاء ولو ادّعى أنه لله فهو كاذب) . الفتاوى ١٠/ ٦٠٩ .

وإن أي موالاة ومحبة ليست لله تتحول إلى عداوة، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ العنكبوت: ٢٥.

وقال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الزخرف: ٦٧ .

قال ابن تيمية : (والناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضاً وإن كانوا فعلوه بتراضيهم ، قال طاووس : ما اجتمع رجلان على غير ذات الله إلا تفرقا عن تقال وبغض . وقال الخليل: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ وهؤلاء لم يحصل لهم هذه العداوة بمجرد المعصية بل لأجل المشاركة والمعاونة على الضرر) . ١٥/ ١٢٨ .

(١٢١) مفاسد وأضرار وعقوبات موالاة الكفار :

أولها : الردة عن الدين والعقاب الأخروي والخلود في النار.

ثانيها : ظهور شعائر الكفر والشرك والاستخفاف بالمعاصي .

لأن الموالاة لقوم فيه نشر لباطلهم وهذا إفساد عظيم .

ثالثاً : الإفساد في الأرض وعدم الإصلاح .

رابعاً : الركون للعدو بالميل والمحبة والمودة .

خامساً : الرضا بحكم المشركين وأفعالهم وطاعتهم والحكم بغير ما أنزل الله.

سادساً : الدخول تحت قهر الكفار وغلبتهم .

سابعاً : نبذ العزة الإسلامية وعدم تمايز المسلمين عن الكفار .

ثامناً : مفارقة جماعة المسلمين وتفريق كلمتهم وإضعافهم.

تاسعاً : إذلال المسلمين والدلالة على عوراتهم ومحاربة أولياء الله.

عاشراً : عدم الحب والبغض في الله والتي هي أوثق عرى الإيمان .

الحادي عشر : ترك معاداة الكفار التي لا يصح الدين إلا بها .

الثاني عشر : ترك موالاة المؤمنين ومناصرتهم كما فرض الله تعالى.

الثالث عشر : إعانة الكفار وتقويتهم وتكثير سوادهم وإقرارهم على كفرهم .

الرابع عشر : حصول الفتنة في الدين وظهورها.

وغيرها من المفاسد التي لا تحصى التي نصت عليها الآية ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الأنفال: ٧٣ ، وذكرها الله لنا ليزجرنا ويجعلنا نحذر هذا الفعل المشين الواقع فيه كثير من المرتدين والمنافقين .

(١٢٢) عوامل ضعف الولاء والبراء وأسباب موالاة الكفار:

١- محبة الكفار وكره المسلمين .قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ الحشر: ١١ ﴿ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ آل عمران: ١١٩

٢- تقديم ولاء القرابة في النسب والدار والجنس والأهل والولد ، فيقول: كيف لا أوالي أقاربي بل وأعاديهم من أجل الدين ويجعل رابط القرابة وولايتها مقدمة على الولاية الدينية فبهذا يبطل الدين في قلبه ، لأن الدين يستلزم محبة أهل دينه وبغض عدو الدين ولو كان أقرب قريب ، وإن داعي الحمية القومية والوطنية

والقبلية من أعظم الصوارف التي ردت الكثير عن دين الله وبسببها امتنعوا عن معاداة المشركين ولم يستطيعوا مخالفة قومهم والبراءة منهم فآثروا الكفر على الإيمان.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ التوبة: ٢٤.

وقال: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ المجادلة: ٢٢.

فتأمل كيف نهى الله عباده عن تقديم هذه الرغبات (القرابة من الوالدين والأبناء والزوجات والعشيرة والمال والتجارة والوظيفة والمنصب والسكن والوطن والراحة) على الدين والجهاد والولاء والبراء.

٣- طلب المصالح الدنيوية والحرص عليها والخوف من ضياعها، واستحباب الحياة الدنيا وتقديمها على الآخرة، والميل إلى الشهوات من المال والمنصب، كما منع هرقل الدخول في الإسلام والبراءة من قومه خوفه على ملكه.

٤- طلب العزة من الكفار كما قال تعالى عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ النساء: ١٣٩.

٥- الخوف من الكفار والخشية من الدوائر، وهذه علة أهل النفاق في كل زمان كما أخبر ﷻ عنهم، فمن لم يكن مكرها وإنما خاف على مصالحه وأمواله وخشي من قتالهم كما هو حال أكثر الذين يوالون الكفار ويدعون الإكراه فإن هذا كفر وردة وليس عذرهم بمقبول كما نصت الآيات: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ المائدة: ٥٢.

٦- الدخول في الأحزاب والمذاهب والانتماءات والعصبيات والدعوات الجاهلية التي تفرق المسلمين وتفسد عقيدة الولاء والبراء وأخبثها الوطنية ومن فروعها وجود الحدود الإقليمية السياسية لبلاد المسلمين.

٧- الجهل بالدين، وكم هم أولئك الذين يدخلون في الإسلام وقومهم وأهل بلدهم على الكفر ومع ذلك لا يظهر مخالفتهم والبراءة منهم بل يوافقهم ويناصرهم ولو على المسلمين حمية لهم ويحبهم لقرابتهم منه جهلا منه أن فعله ذلك يعتبر كفراً يناقض الإسلام ومع هذا كله لا نعتبره معذوراً فلا يصح الانتماء لحزب الله والدخول في دينه إلا بموالاته ومعاداة أعدائه.

وإن من أسباب جهلهم أن كثيراً من الدعاة إلى الإسلام عندهم لا يعلمون حقيقة الإسلام ولا يؤمنون بعقيدة الولاء والبراء ويظنون أن المهم بغض الكفر وتركه وليس شرطا أن يعادي الكفار بل قد ينهون عنه وهذه العقيدة الإرجائية يعد صاحبها ممن تلبس بنواقض الإسلام ووقع في الردة .

٨- التأويل الفاسد فقد يوالي أعداء الله المرتدين وغيرهم ولا يعلم أنهم كفار كمن يوالي الحكام المشركين ويفتتن بهم ويقاتل معهم ضد المسلمين مدعياً التأويل وهذا التأويل ليس عذراً في ارتكاب النواقض لأنه يلزمه السؤال عن دينه الحق كما يسأل عن دنياه ولنعلم أنه ليس كل الكفار عالمين معاندين مكذبين بل كثير منهم من الجاهلين المتأولين .

٩- كثرة أهل السوء والضلال من علماء السوء والمرجئة الخبيثة الذين يهونون من موالاة الكفار ويخرجون معاداة الكفار من أصل التوحيد.

وإني لأعجب من أحد الدعاة المشهورين ممن يتبنى الدعوة إلى الإسلام، وأسلم على يديه الآلاف، وهو يقول عن نفسه لا ينبغي المصادمة مع الغير والاختلاف مع الآخرين، ويقول أيضاً عنه دكتور في قسم العقيدة في محاضرة له وهو يترجم لهذا الداعية بعد موته ويذكر مناقبه التي منها ماذكره ويؤكد كلامه السابق، (كان لا يؤمن بالصدام مع الغير والاختلاف مع الآخرين) ، ويقصد معاداة الكفار ومن شدة عدم إيمانه بالمصادمة أنه سمى الكافر بالغير والآخر ، فأي دين يدعو إليه هذا الداعية وأي عقيدة يدرّسها هذا الدكتور المترجم لهذا الداعية .

١٠- قلة الإيمان وضعف اليقين والإعراض عن الدين.

١١- ترك الجهاد الذي فيه العزة والتمكين وتحقيق الولاء والبراء .

١٢- مخالفة الجماعة وإتباع غير سبيل المؤمنين الموحدين المجاهدين .

١٣- مساكنة الكفار والإقامة في ديار الكفار وعدم الهجرة منها.

قال حمود التويجري في التحفة: (إذا علم تحريم موالاة أعداء الله تعالى وموادتهم ، فليعلم أيضا أن الأسباب الجالبة لموالاتهم وموادتهم كثيرة جدا ، ومن أقربها وسيلة مساكنتهم في الديار ، ولاسيما في ديارهم الخاصة بهم ، ومخالطتهم في الأعمال ومجالستهم في المجالس ومصاحبتهم وزيارتهم واستزارتهم وتولي أعمالهم وتوليتهم في أعمال المسلمين والتزيي بزيِّهم والتأدب بآدابهم وتعظيمهم بالقول أو بالفعل . وكثير من المسلمين واقعون في كثير من هذه الأفعال الذميمة) .

هذه أهم الأسباب والعوامل التي لأجلها والى كثير من المسلمين الكفار ويعتذرون بأعذار كاذبة ويبررون أفعالهم بمبررات واهية لا تسوغ الموالاة ، وهي لا تنفي حكم الردة على من تلبس بموالاة الكفار ولا يغير الحكم وجودها أو عدمها، فتنبه لضلال ما يقذفه ضلال الزمان ومرجئة العصر ممن مرغ عقيدة الولاء والبراء في التراب نزولاً عند شهوات أسياده الكفرة وأوليائهم والله المستعان .

(١٢٣) الآثار المترتبة على موالاة الكفار :

يترتب على الموالاة ما يترتب على أي عمل كفري: من الردة والتكفير واستباحة الدم والمال والبراءة والعداوة والقتال وذهاب الولاية وغير ذلك .

قال حمد بن عتيق:" قد دل القرآن والسنة على أن المسلم إذا حصلت منه موالاة أهل الشرك والانقياد لهم ارتد بذلك عن دينه " الدرر ٩/ ٢٦٣ .

ومن آثارها كفر زوجة المتولي إن لم تتبرأ من زوجها مع علمها بتوليه للكفار كما قتل ابن الزبير المرأة التي تولت زوجها ولم تكفره لما قتل بعد أن ادعى النبوة.

ومن آثارها سقوط بيعة الإمام إذا حصلت منه الموالاة للكفار.

قال الجلعود: (ومن العقوبات المترتبة على موالاة الكفار أنه إذا كان الموالي للكفار حاكماً فإن موالاته للكفار هذه إما أن تكون موالاة كفر وردة عن الإسلام وفي هذه الحالة تسقط البيعة للحاكم والحكومة بنص القرآن وإجماع الأمة، قال تعالى :﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ النساء: ١٤١) المولاة والمعاداة ٨٩٢ .

(١٢٤) أشكال عداوة الكفار وطرق البراءة منهم :

١- الجهاد وقتل كل طاغوت وهذا أعظم مقتضيات البراءة من الكفار ومعاداتهم وأهم معاني الكفر بالطاغوت وما شرع الجهاد إلا لهذا الأصل كما قال ربنا تعالى ﷻ : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ الأنفال: ٣٩، والفتنة الشرك والكفر .

وقال تعالى :﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٢٩ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ التوبة: ١٢٣ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا

﴾ النساء: ٧٦ ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ التوبة: ١٢،
وأئمة الكفر هم الطواغيت.

وليس في الجهاد وقتال الكفار ظلم لهم إذ أن قتال الكفار بعد دعوتهم للإسلام فإن عاندوا وصدوا عن سبيل الله وشوهوا الإسلام عند أتباعهم ولم يلتزموا دفع الجزية فإن قتالهم متعين علينا والله أمرنا بذلك .

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالقتال والتحريض عليه : ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ النساء: ٨٤.

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحج: ٤٠ ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ البقرة: ٢٥١

فانظر كيف أخبر الله تعالى فيما سبق من الآيات أن الجهاد فيه كف لشر الكافرين وإنهاء الطعن في الدين من أئمة الكفر وإيقاف صدهم عن الدين وحربهم لأهله وأن ترك دفع الباطل بالحق مسبب لتسلط الطواغيت وهدم التوحيد والأماكن التي يقام فيها من المساجد وغيرها وبهذا تفسد الأرض .

والله تعالى جعل ترك الجهاد من النفاق: ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ آل عمران: ١٦٧، وقال رسوله ﷺ : (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبه من النفاق) رواه مسلم.

كما توعد الله ﷻ تارك الجهاد بالنار: ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ التوبة: ٣٩.

٢ - معاداة الكفار وبغضهم والتبرؤ منهم وممن يعبدونهم من دون الله :

قال تعالى حاكيا قول الخليل ﷺ لأبيه وقومه في إظهاره العداوة لهم وتبرئه منهم، والذي أمرنا الله تعالى بالاقتداء به وأخذه أسوة لنا: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴾ الزخرف: ٢٦ ﴿ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ الأنبياء: ٦٧ ﴿ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ٧٧ ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ الممتحنة: ٤.

وقد نصت الآية على أصل الولاء والبراء ومعاداة الكفار من عدة أوجه :

ففي قوله :﴿ بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ ﴾.بيان لحقيقة البراء ، وأنه يقوم على ثلاثة أصول :

الأول: البغض لهم ، الثاني: إظهار العداوة لهم ، الثالث: تكفيرهم.

وفي قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ دلالة على الاجتماع على الحق والاتباع والتأسي والموافقة والتناصر والتحالف والموالاة فيما بينهم .

وتأمل قوله:﴿ وَبَدَا ﴾، الذي يفيد البدوّ وهو غاية الظهور والوضوح ، كما يفيد الابتداء فلا يدخل أحد الإسلام إلا مع البدء بمعاداة الكفار وهذا لا يقبل التأخير.

وقوله ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ تدل على المفاعلة من الطرفين وأنها حاصلة من الجانبين، فلا بد من اجتماع الموالاة مع المعاداة .

ثم تأمل كيف جمع بين العداوة والبغضاء ﴿ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ ﴾، وقدم العداوة المتعلقة بالجوارح على البغضاء المتعلقة بالقلب، دليل على وجوب اجتماع الظاهر والباطن ، فلابد من إظهار العداوة والبراءة منهم ، خلافا لما ظنه كثير من الجهال أن باب البراء خاص بالبغض دون العداوة.

ثم تأمل تقديم البراءة من العابدين وشركهم قبل المعبودين في قوله﴿ بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ، فلا تكفي عداوة الكفار دون الطواغيت المعبودة والمتبعة والأسياد المطاعة وهي لا تكفي أيضاً دون عداوة أهلها ومتبعيها ، وكم من جاهل يظن أن البراء متعلق بالكفر دون فاعله وأن معاداة الكفار ليست مشروعة وإنما المشروع هو فقط بغض الكفر وتركه دون التعرض لأصحابه لأن الله سيتولاهم .

ثم تأمل قوله:﴿ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ ﴾ ، مما يدل على استمرار العداوة وأبديتها وأننا لا نقطع عداوتنا للكفار وتكفيرهم إلا إذا آمنوا وأقاموا التوحيد ، وجاء بحرف (حتى) مع أبدا ليؤكد الاستغراق التام وبقاء الفعل (العداوة) ما بقي سببه (الكفر).

ثم تأمل قوله:﴿ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ ، كيف أكد على التوحيد في كلمة وحده وأنه السبب الوحيد للتولي ،وأنه لا يكفي مجرد الإيمان بالله دون توحيد ودون الموالاة والمعاداة فيه فتأمل واعلم ثم اعمل. فالموالاة سببها الإيمان بالله وتوحيده .

واعلم يا أيها الموحد أن هذه هي ملة إبراهيم التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ البقرة: ١٣٠، وهذه هي الأسوة الحسنة التي أمرك ربك تعالى بالاقتداء بها.

٣- الهجرة من دار الطواغيت والكفرة وعدم الإقامة عندهم ولا السفر إليهم، وهجرهم ومجانبتهم واعتزالهم ومفارقتهم وعدم مخالطتهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ النساء: ٩٧ ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٨٩ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ﴾ الأنفال: ٧٢.

٤- اعتزال الكفار واجتنابهم :

قال تعالى مبينا لهذا الأصل : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ مريم: ٤٨ ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ ، قال أهل العلم فما وهبه الله لإبراهيم من النبيين الصالحين كان ببركة اعتزاله للكفار .

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ الزمر: ١٧ ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ المدثر: ٥ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦.

ومما يخالف هذا الأصل وينقضه الركون إليهم وطاعتهم والإقامة عندهم وعدم الهجرة والسفر إليهم ومدحهم والذب عنهم والدفاع عنهم.

٥- الكفر بالطاغوت وتكفير الكفار والمرتدين والمشركين .

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فلا بد من مخاطبتهم بصفة الكفر.

٦- تكسير وهدم الطواغيت المعبودة والمتبوعة والمطاعة وإزالتها وقد كسر الرسول ﷺ الأصنام، ولم يستبق طاغوتاً لا حياً ولا جماداً، فأمر بهدم الأصنام والطواغيت وقتل طواغيت الكفر وأئمته وأمر بهدم القباب وطمس الصور وإنزالها وقطع التمائم ، وكل هذه الأمور من لوازم الكفر بالطاغوت وهي أيضا مما يتضمنه .

٧- الإغلاظ عليهم وقتالهم:

قال تعالى مبينا لهذا الأصل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ التوبة: ١٢٣ ومن صور هذه الغلظة قتل المشركين بنص الآيات.

وقال تعالى مادحا أولياءه : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح: ٢٩.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ المائدة: ٥٤، وتأمل كيف جعل أهل الردة وموالين الكفار في مقابل أهل الجهاد والعزة على الكفار .

فالغلظة والشدة على الكفار مقصد من مقاصد الشريعة وباب من الدين.

٨- إغاظة الكفار :

قال تعالى مادحاً أصحاب الرسول ﷺ في شدتهم على الكفار وإغاظتهم وأن تحصيل ذلك مطلب شرعي: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الفتح: ٢٩.

وجاء قوله: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ﴾ بعد: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ليؤكد معنى الشدة.

وقال تعالى: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ ﴾ الأحزاب: ٢٥ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ الشعراء: ٥٥ ﴿ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾ التوبة: ١٢٠.

والأصل وجود الغيظ والشدة بين أهل الكفر وأهل الإيمان، وهذا بخلاف حال أهل النفاق رحماء على الكفار أشداء على أهل الدين .

وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ التوبة: ٧٣، التحريم: ٩ ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ التوبة: ١٤-١٥.

ولا يزول الغيظ ولا يشف الصدر إلا بالقتال والجهاد.

قال ابن مسعود: جاهد الكفار والمنافقين، قال: بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وليلقه بوجه مكفهر عابس متغير من الغيظ والبغض.

٩- مخالفة الكفار وتقصده:

وهذا من مقاصد الشريعة قال ﷺ: (خالفوا المشركين) رواه البخاري.

ويضاد هذا المبدأ موافقتهم والتشبه بهم .

١٠- عصيانهم وعدم طاعتهم وعدم الاحتكام إليهم أو تحكيم قوانينهم .

١١- التحذير منهم ودعوة الناس إلى الكفر بها والإنكار عليهم.

١٢- إهانتهم وإصغارهم وعدم احترامهم أو توقيرهم أو تعظيمهم كما أمر الله ورسوله :

قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ التوبة: ٢٩ .

وقال النبي ﷺ : (لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي .

وروى أبو نعيم في الحلية عن علي ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا تساووهم في المجلس وألجئوهم إلى أضيق الطرق فإن سبّوكم فاضربوهم وإن ضربوكم فاقتلوهم) . وفي رواية : (صغّروا بهم كما صغّر الله بهم) .

١٣- عدم موالاتهم أو موادتهم، أو الركون إليهم، أو التحالف معهم :

قال تعالى مبينا ذلك : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ الكهف: ١٠٢﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ آل عمران: ١١٨ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ الْيَهُودَ وَالنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ المائدة: ٥١﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ الْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ النساء: ١٤٤ ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ ﴾ الممتحنة: ١ ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ هود: ١١٣.

(١٢٥) عداء الكفار للمسلمين:

صرّح الله سبحانه بعداوة الكفار للمسلمين ، وأخبر سبحانه أنهم سيبقون على العداوة وصد الناس عن الدين الحق والتلبيس عليهم ومقاتلة المسلمين حتى يردوهم عن دينهم وأنهم لن يرضوا عن أهل الإسلام أبدا إلى قيام الساعة وأن عداوتهم لا تنقطع، وأنهم لا يزالون يقاتلونهم حتى يردوهم عن دينهم ، وأنهم لا يرضون إلا بدخول المسلمين في ملتهم، وأن جهود المنافقين المسارعين فيهم الذين يتولونهم ويحبونهم لن تبوء بغير الفشل ومع هذا كله فلا يزال بعض الجهال يشكك في هذه الثوابت . وإليك بعض النصوص المبينة لذلك .

قال تعالى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ الممتحنة: ٢ ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ البقرة: ١٠٩ ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾ البقرة: ٢١٧ ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ البقرة: ١٢٠ ﴿ وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران: ١١٨ ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ النساء: ٨٩ ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ آل عمران: ١١٩ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٠٠ ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً

﴾ النساء: ١٠٢ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ النساء: ٥١ ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ البقرة: ١٣٥ ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾ البقرة: ١١١ ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ الأنفال: ٤٩.

وأما من الواقع : فإن المتتبع للتاريخ القديم والحديث يجد أن عداوة الكفار يهود ونصارى وغيرهم لم تنقطع عن المسلمين، منذ بعثة النبي ﷺ وهو يلاقي أصناف الأذى وألوان العداوة من الكفار ، وفي القرون الماضية شن النصارى حملات صليبية ، وبعد أن توقفت تلك الحملات تلتها حملات استعمارية، فاحتلوا غالب ديار المسلمين سنين طويلة وأفسدوا فيها، ومعها حملات التنصير للمسلمين ، فلم يكفوا عن عدائهم للمسلمين أبداً ، وخبثهم وإن كان قد يقل أحياناً لكنه لا ينعدم .

بل لا تنس ما يقومون به على الدوام من الحرب الإعلامية والغزو الفكري والسخرية بديننا ونبينا .

وفي هذه السنين لقي المسلمون من العداء على يد الكفار وأذنابهم من المرتدين مالا نشكوه إلا إلى الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

حيث يقوم اليهود بحرب المسلمين في فلسطين .

والشيوعيون والبوذيون والهندوس في آسيا وروسيا والهند.

كما تقوم الحملات الصليبية المسعورة تحت مظلة الأمم المتحدة ورئاسة إمريكا بحرب الإسلام فضربوا المسلمين في كل مكان وحاصروهم وقتلوا ما لا نحصيه.

قال الرئيس الأمريكي بوش عن حملته ضد الإرهاب صراحة في مؤتمر صحفي يوم الأحد ٢٨ / ٦ / ١٤٢٢: (هذه الحملة صليبية) .

كما أنه طعن في الشريعة الإسلامية التي قام بها طالبان : فتكلم على منعهم حلق اللحى، وفرضهم الحجاب، ومنعهم للموسيقى والغناء والرقص .

وصدق الله : ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران: ١١٨ ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ الممتحنة: ٢ ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُواْ ﴾ البقرة: ٢١٧ ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ البقرة: ١٢٠.

ونقلت عنه جريدة الخليج الإماراتية قوله عن حملته الصليبية وحربه للإسلام: (ولن نتوقف إلى أن يصبح كل عربي مسلم مجردا عن السلاح وحليق الوجه وغير متدين ومحبا للأمريكان ولا يغطي وجه امرأته ... وسنبدأ العمل في هذا المشروع) .

لكن الله بمنته دحر هذا الصليبي الخبيث بما ثبت به جنوده من المجاهدين في سبيله، فأبكوا عينه وقتلوا جنوده فولوا الأدبار هاربين وجعل العاقبة للمتقين.

وفي كتاب (المطالبات الإمريكية): وكونها تقوم على منع الجهاد ، عدم إظهار شعائر الدين والتمسك به ، إلغاء عقيدة الولاء والبراء ومعاداة الكفار وإيجاب تولي الكفار والغرب ، أن تكون لهم السيادة والأمر لهم وعلى المسلمين تنفيذ الأوامر والطاعة دون تذمر ، امتلاك ثروات المسلمين ، نشر الزنا والفواحش .

فهل يشك عاقل بعد هذا أن سبب هذا الذل ترك الجهاد ولا حل في غيره.

(١٢٦) سبب حرب الكفار للمسلمين وعداوتهم اتباعهم نبيهم ﷺ وقولهم ربنا الله وتمسكهم بالإسلام ، كما أخبر تعالى عنهم : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ ﴾ ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ ﴾ ، وليست اقتصادية وسياسية أو لأجل أخذ خيرات بلادهم والاستيلاء على أوطانهم أو البترول أو المعادن وغير ذلك مما يروج لها سفهاء العقول والإعلاميون والخبراء الجهال .

(١٢٧) يشترط في صحة الإيمان اجتماع الظاهر والباطن في الولاء:

كما أن الإيمان قول وعمل باطن وظاهر، وأن الإيمان لا يقبل من المرء بمجرد وجود أحدهما فلا يكون الإنسان مؤمنا ما لم يؤمن باطناً وظاهراً ولا يكون مؤمناً في الباطن دون الظاهر إلا عند المرجئة ، وكما أن التوحيد قول وعمل واعتقاد ظاهر وباطن ، فما ينقض الإيمان والتوحيد يكون بالاعتقاد والقول والعمل .

فكذلك الموالاة والمعاداة لا تصح إلا بالظاهر مع الباطن، ولا يعقل وجود موالاة باطنة دون ظهور علاماتها الظاهرة والعكس إلا في المكره ، فمن ادّعى أنه يوالي أولياء الله ويحبهم ولكن لا يناصرهم بل ربما يحاربهم ويناصر أعداءهم فهو من أعداء الله وليس من أوليائه ولو كان محبا للمؤمنين يكره الكافرين، ومثل ذلك من أظهر موالاة الكفار وموافقتهم ومداراتهم وادّعى بغضه لهم ، فإنه لا يقبل منه قوله، إذ لا بد من توافق الباطن مع الظاهر والمحبة والنصرة والبغض والعداوة.

(١٢٨) فائدة لطيفة في الجمع بين المحبة والموالاة والبغض والمعاداة :

جاء في حديث ابن عباس الجمع بين المحبة والموالاة والبغض والمعاداة: (أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله) الطبراني .

فتأمل كيف جمع المحبة مع الموالاة والبغض مع المعاداة ، ولم يكتف بذكر الحب والبغض بل جمع معها المولاة والمعاداة مما يدل على زيادة في المعنى بزيادة المبنى .

والمعنى أن المحبة والبغض ليست كافية في تحقيق الإيمان وعروته الوثقى ، بل لابد معها من الموالاة الظاهرة وهي النصرة مع المحبة والعداوة الظاهرة والبراءة الظاهرة والمنابذة والجهاد مع البغض.

فلا حجة بعد ذلك لمن يزعم أنه يكفي في الإيمان مجرد المحبة والبغض سواء وجدت الموالاة الظاهرة والنصرة أم انعدمت، ويقول الولاء والبراء الظاهر أمر مستحب وليس بركن وتركه مجرد معصية وليس بكفر كما هو مذهب المرجئة .

قال الشيخ سليمان:" قوله: (ووالى في الله) هذا بيان لـلازم المحبة في الله وهو الموالاة، فيه إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب ، بل لابد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب وهي النصرة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين باطناً وظاهراً، وقوله:(وعادى في الله) هذا بيان للازم البغض في الله وهو المعاداة فيه، أي إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله والبراءة منهم والبعد عنهم، إفادة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمة " التيسير ٤٢٢ .

عليه فكما أن الإيمان يشترط مع التصديق فيه وجود الانقياد والقبول والعمل فكذلك الولاء والبراء يشترط مع المحبة وجود النصرة ومع البغض وجود العداوة.

وكما أنه قد يصدق العبد الله ورسوله ثم ينقاد لغيرهما فلا يكون مؤمنا فكذلك قد يحب الله ورسوله ثم يناصر عدوهما فلا يكون وليهما فالمحبة والنصرة في باب الولاء مثل التصديق والانقياد في باب الإيمان فكل منهما له ركن باطن وركن عمل .

(١٢٩) تلازم الباطن والظاهر :

الولاء الظاهر يستلزم الولاء الباطن والمودة وهو دليل عليه ، والعكس فالولاء الباطن يستدعي الولاء الظاهر.

فموالاة الكفار الظاهرة لا تكون مع وجود المحبة الباطنة غالباً ، وإن لم تكن موجودة فإنها تستدعيها .

ومحبة الكفار وبغض المسلمين في الباطن تستدعي إظهار موالاة الكفار ومعاداة المسلمين في الظاهر ، كما قال تعالى في توضيح هذا المبدأ : ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران: ١١٨.

قال الشيخ سليمان في أوثق عرى الإيمان : (موالاة الكفار والدفع عنهم حمية دنيوية هل يمكن هذا إلا بداع من المحبة في قلبه، وإلا فلو كان يبغضهم في الله ويعاديهم لكان أقر لعينه ما يسخطهم ويغيظهم) .

(١٣٠) لوازم البغض للكفار :

كما أن للمحبة لوازم من إتباع للمحبوب وطاعته والرضا به والانقياد له والدفاع عنه ومناصرته ، فكذلك البغض له لوازم فيلزم منه المعاداة والمجاهدة والسب والبراءة والخصومة والتخلص والمجانبة، فمن أبغض شيئاً عاداه وجاهده وتبرأ منه وأظهر كرهه له ورده وإلا كان بغضه كذباً ومجرد دعوى، وهو ملزوم لغيره فالسب والعداوة لوازم يلزم منها وجود البغض وتدل على وجوده في القلب.

وعلى هذا فمن ادعى بغض الكفر والكفار وهو لا يتبرأ منهم ولا يعاديهم ولا يجانبهم ولا يجاهدهم ولا يكفرهم ولا يسبهم، بل يتولاهم ويناصرهم ويدافع عنهم ويجادل عنهم ويفرح بهم ويرضى عنهم ويبرر أعمالهم ويمدح تصرفاتهم ويحارب من يعاديهم ويذمه ويسيء إليه ويؤذيه بلسانه وأفعاله، فهو كافر كذاب محب للكفار والكفر وأهله مبغض للإسلام وأهله ولو ادعى أنه على خلاف ذلك فلا يقبل منه، ولا يتصور فيه ذلك إلا عند المرجئة الغلاة حيث تصوروا وجود من يحب النبي ﷺ ودينه وهو في صفوف أعدائه مقاتل له ويحارب أصحابه وأتباعه .

(١٣١) لا تجتمع موالاة الله وموالاة أعدائه ولا يصح الولاء إلا بالبراء :

قال ابن القيم : (ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم ، والولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً ، والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً ، والولاية صلة فلا تجامع معاداة الكافر أبداً) أحكام أهل الذمة ١ / ٢٤٢.

وقال ابن القيم في الجواب الكافي: (لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة).

(١٣٢) موالاة الكفار فيها إظهار للكفر ونصرة له :

موالاة الكفار وإن كانت للدنيا فمؤداها تكون لدينهم ونهاية أمرها تقوية دينهم ونصرته، ومن هذا الوجه قال الطبري : (توالونهم على دينهم).

(١٣٣) الفرق بين قول أهل السنة والمرجئة في تلازم الظاهر مع كفر الباطن:

جعل بعض الأعمال الكفريّة العملية من الكفر الاعتقادي وصاحبها كافر في الباطن ، قد يلتبس على البعض فيظنه من مذهب المرجئة ،والفرق بين القولين ظاهر. فالمرجئة لا يكفرون بالعمل وإنما بالاعتقاد فالعمل ليس كفراً إلا إذ قارنه كفر اعتقادي ، فموالاة الكفار عندهم ليست كفرا بذاتها ولا تكون كفرا إلا إذا كان صاحبها يحب الكفار ودينهم وإذا قالوا أنها كفر فلأنها دليل على رضا المتولي بالكفر.

أما حقيقة قول من جعل من أهل السنة هذا العمل كفرا اعتقاديا فليس مرادهم هنا أن الموالاة لا تكون كفرا إلا إذا رضي بالكفر فإن هذا ترتيب للشيء على نفسه فيصير المعنى لا يكفر من تولى الكفر وهو راض به إلا من رضي به ، وإنما المراد أن الموالاة كفر لأنها لا تصدر إلا من راض بالكفر ومحباً للكفار ، فهم يكفرون بالموالاة ولا يقولون أنها ليست بكفر إلا إذا كان معها اعتقاد كما تقوله المرجئة ، فيكفرون موالي الكفار لأنه في الأصل محبا لهم راضيا بكفرهم، لكن حتى لو لم يكن محبا للكفار وراضيا بالكفر فلا يمنع من التكفير.

وقد بينا هذه القاعدة في مسائل التكفير وضوابطه عند الكلام عن استلزام بعض الكفريات الظاهرة لكفر باطن بالقلب وكونها لا تصدر إلا من قلب كافر.

(١٣٤) الموالاة والمعادة من صفات الأفعال :

من فعل الموالاة وصف بها وقيل أنه موالٍ، ومن فعل المعاداة وصف بها وقيل عنه: معادٍ، فمن أظهر الموالاة وفعل صورة من صورها للكفار سمي موالياً للكفار.

(١٣٥) أحكام الموالاة يجرى فيها على الظاهر :

وهذا أصل من أصول عقيدة أهل السنة، فالمعمول به في الولاء والبراء هو حكم الظاهر، فمن والى الكفار بظاهره حكمنا بردته في الظاهر ولا ننظر إلى الباطن .

قال الشيخ حمد بن عتيق:" قد دل القرآن والسنة على أن المسلم إذا حصلت منه موالاة أهل الشرك والانقياد لهم ارتد بذلك عن دينه " . الدرر ٩/ ٢٦٣.

فالله ﷻ تعبّدنا في أحكام الدنيا بالظواهر ولم يكلفنا بالبواطن بل نحكم بالظاهر، وهو تعالى يتولى السرائر ويعلم الصادق من الكاذب، فيحاسب الناس على أعمالهم ويبعثهم على نياتهم كما في حديث عائشة المتفق عليه في الجيش الذي يُخسف به وفيه من ليس منهم ، فيهلكهم الله جميعاً في الدنيا ويبعثهم على نياتهم يوم القيامة .

وبهذا الأصل نقول : فكما أننا نكف سيوفنا عمّن أبطن النفاق وأبدى الإسلام وأظهر شعائره ووالى أهله ، فكذلك نُعملها في من أظهر موالاة الكفار وشايعهم وانحاز لهم ، نكفره ونقاتله وإن زعم أنه يبطن الإسلام.

ومما يدل على هذا الأصل : ما كان عليه النبي ﷺ في تعاملاته مع الناس، ومن ذلك ما فعله مع العباس لما خرج يوم بدر، فأسره المسلمون وعاملوه على ظاهره لا بما ادعاه من إبطان الإسلام وأنه كان مكرهاً في الخروج معهم ، وقد قال له النبي ﷺ عندما رآه يتعذّر بالإكراه ويدعي الإسلام: (الله أعلم بشأنك إن يك ما تدعي حقاً فالله يجزيك بذلك، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك..) رواه أحمد .

وقال عمر ﷺ: (إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله، وإن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا منكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمّنّاه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء ، الله يحاسب سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنْه ولم نُصدّقه وإن قال إن سريرته حسنة) رواه البخاري .

قال ابن رجب : (البغض في الله فهو من أوثق عرى الإيمان وليس داخلا في النهي ، ولو ظهر لرجل من أخيه شر فأبغضه عليه وكان الرجل معذورا فيه في نفس الأمر ، أثيب المبغض له وإن عُذر أخوه ، كما قال عمر ... وقال الربيع: لو رأيت رجلا يظهر خيرا ويسر شرا أحببته عليه آجرك الله على حبك الخير ولو رأيت رجلا يظهر شرا ويسر خيرا أبغضته عليه آجرك الله على بغضك الشر) العلوم ٢/ ٢٦٦.

وبهذا كله يُعلم أننا مكلفون في معاملاتنا وأحكامنا في الدنيا بالظاهر دون الباطن، ولو لم نحكم بالظاهر لأمسى الإسلام وأهله ألعوبة لأهل النفاق والردة.

(١٣٦) ليس كل من فعل بعض صور الموالاة يعد موالياً :

فمن أظهر موالاة الكفار تقية وإكراها أو لمصلحة كزيارة لدعوته أو مصلحة جهادية كالدخول في الكفار لنقل أسرارهم، فإنه لا يعد مواليا ولا يحكم بردته وإذا لم توجد هذه المبررات فيبقى الحكم على أصله وهذه المسألة مستثناة من القاعدة.

(١٣٧) حكم المعاداة وحكم إظهارها :

الأول : معاداة الكفار وبغضهم وتكفيرهم من أصل الإسلام ويكفر تاركه.

الثاني : إظهار البغض والمعاداة والتصريح به من الكمال الواجب .

فلابد من إظهار العداوة للكفار وإبدائها وإظهار الموالاة والمناصرة للمؤمنين ولا يعتبر العبد مسلما إذا لم يبغض الكفار ويعاديهم، ولا يتم إسلامه ويكتمل إلا بهذا الإظهار فترك أصل المعاداة كفر أما ترك إظهار المعادة فهو معصية دون الكفر.

قال عبد اللطيف آل الشيخ : (مسألة إظهار العداوة غير وجود العداوة ، فالأول يعذر به مع العجز والخوف لقوله (إلا أن تتقوا منهم تقاة)، والثاني لا بد منه، لأنه يدخل في الكفر بالطاغوت ، وبينه وبين حب الله تلازم كلي) الدرر ٨/ ٣٥٩ .

قال ابن سحمان : (لا يقول بأن من لم يظهر عداوة المشركين ويظهر بغضهم كافر إلا الخوارج الذين يكفرون بالذنوب ونحن لا نقول بهذا ولا نخرج بمجرد الإقامة بين أظهر الكفار وعدم إظهار العداوة من الإسلام) الجيوش الربانية ١٠٤ .

قال حمد بن عتيق:(من يقيم عند الكفار لأجل مال وولد وبلاد وهو لا يظهر دينه مع قدرته على الهجرة ولا يعينهم على المسلمين ولا يواليهم بقلبه ولا لسانه فهذا لا نكفره لأجل مجرد الجلوس ولكن نقول أنه عاصي) الدفاع عن أهل السنة ١٠ .

(١٣٨) القاعدة الفاصلة في باب الولاء والبراء :

محبة الله تستلزم محبة أوليائه وموالاتهم ومناصرتهم وعدم خذلانهم، كما تستلزم بغض أعدائه ومعاداتهم، فلا يجتمع حب الله مع حب اعدائه، ومن تجب موالاته تحرم معاداته والعكس، وترك معاداة الكفار يستلزم حصول ضده من موالاتهم ومحبتهم والعكس كذلك، وكل موالاة للكفار فيها معاداة للمسلمين، ولا يصح الإيمان والإسلام إلا باجتماع الموالاة والمعاداة واجتماع الظاهر والباطن في الولاء، ولا يجتمع موالاة المؤمنين باطناً بالمحبة مع وجود موالاة للكفار ومعاداة للمؤمنين ظاهرا، على أنه لا يشترط في الكفر وجود المحبة والبغض .

١/ لا يقبل الدين ولا يصح الإسلام إلا بالولاء والبراء .

٢/ لا يصح الولاء والبراء إلا بمعاداة الكفار.

٣/ لا يصح الإيمان والإسلام إلا باجتماع الموالاة والمعاداة .

إذ لا يتحقق الولاء إلا بالبراء فمتى وجد أحدهما انتفى الآخر ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة: ٥١ فلا يظن ظان أن الإسلام يثبت بمجرد موالاة أولياء الله دون معاداة أعدائه فلا يصح الإيمان ولا يقبل الإسلام بولاء دون براء ولا ببراء من الكفار مع عدم توفر الموالاة لأولياء الله .

قال ابن القيم : (لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء إنه قال لقومه : ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ الشعراء ، فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة فإنه لا ولاء إلا لله ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه) .

٤/ كل من تجب محبته فإنها تجب موالاته ومناصرته.

٥/ من وجبت موالاته ومحبته حرم علينا بغضه ومعاداته وحرم خذلانه.

٦/ من وجبت موالاته وجب بغض أعدائه ومعاداتهم وحرمت موالاتهم.

٧/ كل من وجب علينا بغضه فإنه تجب معاداته وحرم علينا محبته أو مناصرته ومظاهرته .

٨/ من يعتقد أن الموالاة والمعاداة خاصة بالدين دون أتباعه فيبغض الكفر ولا يعادي أهله ويحب الإسلام ولا يوالي أتباعه فهو كافر عدو لله.

٩/ كل ما يجب موالاته يحرم معاداته والعكس :

وهذه قاعدة مطردة لا يصح الإسلام إلا بتحققها فكل من وجبت موالاته حرم علينا معاداته وكل من وجبت معاداته حرمت مولاته .

١٠/ محبة الله تستلزم محبة أوليائه وموالاتهم ومناصرتهم وعدم خذلانهم، كما أنها تستلزم بغض أعدائه ومعاداتهم ، فهي شرط وأصل فيه . فحقوق أولياء الله وشروط الولاية : المحبة وهي الموالاة الباطنة والنصرة وهي المولاة الظاهرة .

١١/ لا يجتمع حب الله مع حب أعدائه :

لا يمكن أن يجتمع في قلب الشخص حب حقيقي لله مع حب ما يكرهه سبحانه من الكفر وأعدائه الكافرين كما قال سبحانه ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ المجادلة: ٢٢.ولو ادعى شخص هذا النوع من المحبة لكانت دعوى كاذبة ومحبة غير مقبوله حتى لو تصورنا حصولها .

١٢/ يشترط في صحة الإيمان وقبوله اجتماع الظاهر والباطن في الولاء .

١٣/ لا تجتمع موالاة المؤمنين باطناً بالمحبة مع موالاة الكفار ومعاداة للمؤمنين ظاهراً من غير إكراه :

لايتصور وجود موالاة المؤمنين باطناً بالمحبة مع وجود موالاة للكفار ومعاداة للمؤمنين ظاهرا من غير إكراه، فلا يمكن أن يدعي شخص محبة قوم ثم يخذلهم ولا يناصرهم ولا يواليهم بل يعاديهم ظاهراً ويوالي أعداءهم ويناصرهم عليهم .

ولو فرضنا إمكان ذلك وأن الشخص يحب المؤمنين ولا يواليهم ظاهراً وسلمنا بوجود من يبغض الكفار لكن يواليهم، وتصورنا وجود من يوالي الكفار وهو يبغضهم ولا يحبهم، فإنه والحالة هذه إن تصورناها فإنها تعتبر أيضاً كفراً عملياً ناقل عن الملة ولا تمنع حكم التكفير، لأن لنا الظاهر ونحكم به وليس لنا الباطن، ثم حتى لو قدر أنا علمنا ما في الباطن وأطلعنا عليه، فإن الموالاة الظاهرة والمناصرة للمسلمين وعدم المظاهرة عليهم شرط مستقل في بقاء الإسلام حتى ولو أيقنا وجود المحبة فإنها لا تكفي بل لابد من مناصرة وموافقة لهم كذلك لابد من وجود معاداة أعدائهم وهذا الركن العملي للتوحيد ومن أجله فرض الجهاد .

١٤/ لو تصورنا أن من يوالي الكفار لا يحبهم وإنما يبغضهم وسلمنا بوجود هذه الحالة وأنه فعل تلك المولاة مختاراً عالماً لأجل مصالحة الدنيوية فإنه والحالة هذه تعتبر أيضاً كفرا عملياً ناقل عن الملة ولا تمنع حكم التكفير . لأن مجرد فعل التولي العملي الظاهر وترك مطلق المعاداة كفر وردة وناقض من نواقض الإسلام بذاتها .

١٥/ لا يشترط في الكفر في باب التولي للكفار وجود المحبة والبغض .

فلا يشترط في تكفير من يوالي الكفار ويناصرهم محبة دينهم أو بغض المسلمين بل قد يواليهم لمصالحه ودنياه وشهواته ومنصبه وماله ومع هذا كله يعتبر صانع هذه الموالاة مرتداً كافراً إذ لابد من الدخول في (لا إله إلا الله) من اجتماع الولايتين الباطنة والظاهرة .

١٦/ ترك معاداة الكفار يستلزم حصول ضده من موالاتهم ومحبتهم :

والعكس كذلك :لا بد أن يعلم كل مسلم أن ترك معاداة الكفار يستلزم حصول ضده من موالاتهم ومحبتهم، فمن انعدمت في جوارحه معاداة أعداء الله فلابد له من حصول أمرين : حصول موالاتهم ثم وجود محبتهم وإنتفاء بغضهم وهذا من باب اللزوم وأمر معروف بالعادة .

١٧/ الأصل أن كل موالاة للكفار فيها معاداة للمسلمين ولو بطريق اللزوم.

هذه قاعدة الولاء التي لا يستقيم دين المسلم إلا بتحقيقها ومن جهلها فهو غير عالم بدينه . فهذه قواعد مطردة لا يصح الإسلام إلا بتحققها .

وكل ما سبق يعد من شروط اعتبار الولاء والبراء ومرد الولاية للإيمان ومرد العداوة وجود الكفر .

الفصل الثاني عشر : صور الموالاة وأمثلتها

(١٣٩) أمثلة وصور واقعية معاصرة ومنتشرة لموالاة الكفار :

المثال الأول : محبتهم ومودتهم والرضا عنهم:

قال تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ المجادلة: ٢٢.

وهذه الآية تقطع على المبتدعة الحجة وتبطل القول الإرجائي أن محبة الكفار مقتصر على المحبة لأجل دينهم إذ المذكور فيها الأب والابن ونفت موالاتهم إن كانوا كفاراً وأوجبت معاداتهم وعدم مولاتهم ومودتهم ومحبتهم ، مع كون محبتهم طبعية وليست دينية ومع ذلك نهي عنها.

الثاني : عدم تكفيرهم:

ومن هذا الباب تصحيح مذهبهم ومدح طريقتهم وتصويب دينهم أو الشك في كفرهم وأنهم من أهل النار ، والتحرج من تكفيرهم ومناداتهم بالأسماء الشرعية التي سماهم الله بها (المشركون الكافرون) والاستعاضة عنها بتسميتهم بأسماء بلادهم أو تسمية الكافر بالآخر والغير بدل التسمية الشرعية التي سماهم الله بها وأمرنا ربنا أن نسميهم بها بقوله ﷻ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ الكافرون: ١.

ومن هذا الباب الدعوة إلى التقريب بين الأديان والاعتراف بها.

ومن هذا الباب أيضا احترام شعائرهم وشعاراتهم ومن ذلك تعليق أعلامهم ويزيد الأمر خطورة إذا كانت أعلامهم فيها الصليب أو كانت شعاراً لعقيدة التثليث، كالخطوط الثلاثة في أعلام كثير من الدول الكافرة والمستعمرة.

وتقليدهم في مذاهبهم الكفرية والتحايل على الله بدعوى أسلمتها كما قالوا الديمقراطية الإسلامية والليبرالية الإسلامية والبنوك الإسلامية وأسلمة القوانين الوضعية وهكذا .

الثالث : السماح لهم بالدعوة لدينهم .

السعي لتحقيق أهدافهم وترويج غزوهم الفكري وتيسير مساعيهم في حرب الإسلام والسماح لهم بإظهار كفرهم بحجة التعبير عن الرأي وحرية الفكر وإبداء محاسنهم وأخلاقهم أو الدعوة لدينهم، وتركهم يدعون إلى دينهم، وذلك من خلال:

فتح الإعلام لهم ليفسدوا المسلمين ويظهروا ما عندهم، وتركهم ينشرون أفكارهم ويظهرون فسادهم في قنواتهم الإعلامية، وتمكينهم من فتح المدارس يعلمون فيها ما يريدون من كفرهم وفكرهم، ومن ذلك ما يسمى بالمدارس الأجنبية والسماح بفتحها وإنشائها لهم في بلاد الإسلام ، وكذلك نشر كتبهم ومجلاتهم وثقافاتهم، والسماح لهم ببناء معابدهم وكنائسهم وإظهار الرضا بها.

والإذن لهم بإظهار الكفر ودعمه ونشره والدعوة إليه وتسهيله وعدم منعهم والإنكار عليهم فضلاً عن دعوتهم للإسلام وبيان ما عندهم من الكفر.

وكل هذا من أعظم الغش والخيانة للإسلام والمسلمين ومحادة رب العالمين، ولو تأمل هؤلاء السفهاء في حال الكفار وهم لا يحابوننا ولا يجاملوننا إذا جاءوا فضلا عن أن يفعلوا في بلادهم أمراً نريده بينما هم يتدخلوا في أمرنا ونحن نستجيب هواناً وذلة فنلبس لباسهم وزيهم في بلدانهم ونتكلم بلغتهم وهم لا يتركون شيئاً من مظاهرهم وزيهم ولغتهم وملابسهم وزيهم البتة فأي ذل وهوان بعد هذا.

ومما يدخل في هذا الباب كل ما يشمل مسمى التغريب .

ومن أخبث صورها وأعظمها خيانة للمسلمين الابتعاث بإرسال أبناء المسلمين ليتلقوا فكر عدوهم ويفسدوا عقيدتهم وأخلاقهم فيرجعوا بلادهم وقد ملؤوا عقولهم شبهات على دينهم .

بل زاد أعداء الملة والمنافقين على ذلك أن أرسلوا بنات المسلمين مع رضا الديّوث من أهلهن ، فرجعوا متبرجات عاريات عن أخلاقهن وحيائهن وحشمتهن ودينهن ليربين جيلا يكون أداة بيد أعداء المسلمين .

الرابع : نصرتهم وإظهارهم ومظاهرتهم :

وهذه أشنع صور الموالاة وأغلظها ردة ونفاقا ، فأي نجاسة وخسة أعظم من مظاهرتهم ومناصرتهم ومعاونتهم بالمال والبدن والرأي على المسلمين ، أو التجسس والعمالة لهم والدلالة على المسلمين وكشف عورات المسلمين لهم ونقل أخبارهم

وأسرارهم إليهم، وتمكينهم من إهانة المسلمين والاعتداء عليهم وقتلهم ،وإهانة المسلمين لإرضائهم أو الشماتة بأهل الإسلام أمامهم.

ومن صور إظهارهم وتمكينهم : السعي في تقويتهم ونفعهم ومعاونتهم في أمورهم مطلقاً ونصرتهم وتأييدهم ودعمهم والدخول في سلطانهم وتسهيل أمورهم وتيسير مطالبهم والاستجابة لأوامرهم وتنفيذ مخططاتهم وإعطائهم الأموال ليتقووا بها وتمكينهم من استغلال أموال المسلمين وثرواتهم وإعطائهم شيئا من بلاد المسلمين وإدخالهم بلاد الإسلام والسماح لهم بالإقامة والتملك.

ومن الصور المتعلقة بهذا: محاولة تلميعهم وإظهار أنهم على شيء وإبداء ما لديهم من خير وما نبغوا فيه من ظواهر الدنيا وتغرير العوام والسذج بذلك حتى يعتقدوا أنهم أفضل من المسلمين .

ومن صور نصرتهم : النصح لهم ومناصحتهم وإفادتهم وتمني الخير لهم والصدق معهم ونصحهم والتصافي معهم والمشورة عليهم وتحسين العلاقات الدائمة معهم والشراء منهم من غير ضرورة إلا لنفعهم.

الخامس : الركون إليهم ومباطنتهم:

وقد نهانا ربنا المولى ﷻ عن الركون إليهم ، كما في قوله تعالى :﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ هود: ١١٣.

وقال تعالى:﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ الإسراء.

قال أهل اللغة: الركون السكون إلى الشيء والميل إليه والاعتماد عليه.

قال أهل العلم والتفسير: ومما يدخل في الركون إليهم : الميل لهم وإكرامهم والإحسان إليهم ومداهنتهم وطاعتهم وتوليتهم الأعمال والإنخراط في هواهم والإنقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم وموافقتهم.

قال الثوري :من لات لهم دواة أو برا لهم قلما، أو ناولهم قرطاسا دخل في هذا.

ومن صور الركون إليهم مباطنتهم واتخاذهم بطانة ووليجة:

وقد نهينا عن اتخاذهم بطانة ،كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران: ١١٨.

وبطانة الرجل: وليجته وصفيّه وخاصته وصاحب سره وداخلة أمره الذي يشاوره في أحواله ويستند إليه .

قال البغوي: أي أولياء وأصفياء من غير أهل ملّتكم وبطانة الرجل خاصته تشبيها ببطانة الثوب التي تلي بطنه لأنهم يستبطنون أمره ويطّلعون منه على مالا يطلع عليه غيرهم ، ثم بين العلّة في النهي عن مباطنتهم فقال جل ذكره { لا يألونكم خبالا } أي لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد .

وقال القرطبي: نهى الله المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكافرين واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولائج يفاوضونهم في الآراء ويسندون إليهم أمورهم .

وروى ابن أبي حاتم: قيل لعمر ﷺ : إنّ ها هنا غلاماً من أهل الحيرة حافظا كاتبا فلو اتخذته كاتبا ، فقال : قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين .

قال ابن كثير: ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب .

ومن مباطنتهم : اتخاذهم وليجة بدل المؤمنين ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ التوبة: ١٦.

قال أهل اللغة والتفسير : وليجة الرجل خاصته وبطانته وأولياؤه، فالوليج هو الذي يواليه ويفشي إليه أسراره ويعتمد عليه فيختص بدخيلة أمره دون الناس ، وهو ليس من جنسه وأهله ، لأن أصل الوليجة كل ما يتخذه الإنسان معتمدا عليه وليس من أهله ، من قولهم فلان وليجة في القوم إذا لحق بهم وليس منهم، فالوليجة كل شيء أدخلته في شيء ليس منه وهذا في اللغة ، ولا شك أن الكفار ليسوا منا فكيف نتخذهم بطانة وندخلهم في أمورنا ونطلعهم على أسرارنا.

ومن صور الركون إليهم واتخاذهم بطانة :

إكرامهم والإحسان إليهم ومجالستهم ومصاحبتهم ومعاشرتهم وزيارتهم والميل إليهم والانقطاع إليهم وتقديمهم وتقريبهم والاعتماد عليهم وطاعتهم والاستجابة لهم والانخراط في هواهم واستمالتهم والوثوق بهم والثقة فيهم واستشارتهم ومشاورتهم والنصح لهم والذب عنهم والدفاع عنهم وجعلهم حلفاء وجعل السفارات الدائمة عندهم ، واستئمانهم وعدم تخوينهم واستعمالهم في أمر من أمور المسلمين واستخدامهم والاستعانة بهم واتخاذهم أعوانا وتوليتهم الأعمال

وتنصيبهم وتأميرهم والاعتزاز بهم وابتغاء العزة منهم والدفاع عنهم والتماس الأعذار لهم والرضا بهم وبأعمالهم وموافقتهم وتقليدهم والتشبه بهم والانتساب إليهم والتزيي بزيهم والإقامة معهم والسفر إليهم وعدم الهجرة من بلادهم، وغير ذلك مما بينه أهل العلم ويعلم بالعقل والفطرة .

السادس : الإقامة في ديار الكفار ومجالستهم :

الإقامة بين ظهرانيهم، وعدم الهجرة من بلادهم، والسفر إليهم بدون حاجة.

ومنها مصادقتهم ومصاحبتهم ومؤاخاتهم ومخالطتهم ومعاشرتهم ، وحضور مجالسهم وزيارتهم للأنس بهم والدخول عليهم ومجامعتهم والالتصاق بهم، وتفضيل العيش معهم والسكنى بينهم وقد تبرأ الرسول ﷺ ممن يفعل ذلك .

ومن الأدلة الصريحة في تحريم الإقامة :

عن سمرة بن جندب ﷺ عن النبي ﷺ قال : (لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فهو مثلهم) . ولفظ الحاكم (فليس منا) .

وعند أبي داود (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله) .

وعن جرير بن عبد الله ﷺ أن الرسول ﷺ بعث سرية إلى خثعم فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل فبلغ النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل وقال : (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين ظهراني المشركين) وفي لفظ (أظهر) قالوا يا رسول الله : لِم ؟ قال : (لا تراءى ناراهما) رواه أبو داود والترمذي .

وعند الطبراني والبيهقي: (من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة) .

قال الإمام أحمد : لا تنزل من المشركين في موضع إذا أوقدت رأوا فيه نارك وإذا أوقدوا رأيت فيه نارهم ولكن تباعد عنهم اهـ .

قال النبي ﷺ: (لا تستضيئوا بنار المشركين) رواه أحمد والنسائي عن أنس.

قال ابن كثير في تفسيره : معناه لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم . واختار هذا القول ابن القيم.

وقال ابن الأثير : معناه لا تستشيروهم وجعل الضوء مثلاً للرأي عند الحيرة .

وقال الحسن: قوله ولا تستضيئوا بنار المشركين فإنه يقول لا تستشيروهم في شيء من أموركم ، وتصديق ذلك في كتاب الله ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾، قال ابن كثير : وهذا التفسير فيه نظر .

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (لا يقبل الله من مشرك بعدما يسلم عملا أو يفارق المشركين إلى المسلمين) رواه أحمد والنسائي .

وعن يزيد بن الشخّير قال : بينا أنا مع مطرف بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أدم ، قال : كتب لي هذه رسول الله ﷺ ، فهل أحد منكم يقرأ ؟ قال : قلت أنا أقرأ ، فإذا فيها : (من محمد النبي ﷺ لبني زهير بن أُقَيْش أنهم إن شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وفارقوا المشركين وأقروا بالخمس في غنائمهم وسهم النبي وصَفيِّه أنهم آمنون بأمان الله ورسوله) رواه النسائي .

وعن جرير ﷺ قال : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم وعلى فراق المشركين . رواه النسائي .

وفي رواية له قال جرير : أتيت النبي ﷺ وهو يبايع ، فقلت : يا رسول الله ابسط يدك حتى أبايعك واشترط علي فأنت أعلم ، قال : (أبايعك على أن تعبد الله وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة وتناصح المسلمين وتفارق المشركين) .

ونحوه عن أبي اليسر كعب بن عمرو ﷺ عند الحاكم.

أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال : (تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان وأنك لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب).

رواه ابن جرير عن الزهري مرسلا.

وفي هذه الأحاديث أمر صريح للمسلمين بالهجرة ، ووعيد شديد لمن جامع المشركين وساكنهم اختيارا، لأن ذلك من أعظم الأسباب الجالبة لموالاتهم وموادتهم، فليحذر المسلمون المقيمون بين الوثنين والمرتدين والنصارى والمجوس وغيرهم من أعداء الله تعالى أن يلحقهم هذا الوعيد الشديد ، فليتأمل المسلمون الساكنون مع أعداء الله تعالى هذه الأحاديث وليعطوها حقّها من العمل.

قال ابن رشد : "فإذا وجب بالكتاب والسنة وإجماع الأمة على من أسلم ببلد الحرب أن يهاجر، ويلحق بدار المسلمين ولا يثوي بين المشركين، ويقيم بين أظهرهم لئلا تجري عليه أحكامهم، فكيف يباح لأحد الدخول إلى بلادهم حيث تجري علينا أحكامهم في تجارة أو غيرها، وقد كره مالك رحمه الله تعالى أن يسكن أحد ببلد يسب فيه السلف فكيف ببلد يكفر فيه بالرحمن ، وتعبد فيه الأوثان". المقدمات ٢/ ٦١٢.

وقال ابن حزم : (من لحق بدار الكفر والحرب مختارا محاربا لمن يليه من المسلمين، فهو بهذا الفعل مرتد له أحكام المرتد، لأن الرسول ﷺ لم يبرأ من مسلم .

وأما من فر إلى أرض الحرب لظلم خافه ، ولم يحارب المسلمين، ولا أعانهم عليه، ولم يجد في المسلمين من يجيره فهذا لا شيء عليه لأنه مضطر مكره) المحلى ١٣/ ١٣٨ .

وقال ابن كثير في تفسيره: (كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنا من إقامة الدين ، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع).

وقال عبد اللطيف آل الشيخ: (الإقامة ببلد يعلو فيها الشرك والكفر، ويظهر الرفض، ودين الإفرنج لا تصدر عن قلب باشره الإسلام وقلب رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا، وفي قصة إسلام جرير بن عبد الله أنه قال يا رسول الله بايعني واشترط، فقال الرسول ﷺ: "تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وأن تفارق المشركين" أخرجه النسائي،وفيه إلحاق مفارقة المشركين بأركان الإسلام ودعائمه العظام) الدرر ٧/ ١٢١ .

حكم الإقامة والهجرة:

إذا كانت الإقامة ببلاد الكفر رغبة واختيارا لصحبتهم فيرضى ما هم عليه ويمدحهم أو يعينهم على المسلمين فهذه ردة .

أما إذا ترك الهجرة وفضل الإقامة عندهم لأجل دنياه ولم يوافقهم أو يعينهم وأبغضهم ولكن لم يظهر معاداتهم فهو عاص .

وأما إن أقام عندهم وهو مظهر لعداوتهم فمحل خلاف :

فذهب كثير من العلماء إلى جواز الإقامة بين أظهر الكفار وعدم وجوب الهجرة إذا كان يظهر دينه فيتبرأ منهم وأنهم على الباطل وأمن الفتنة .

والصحيح عندي والله أعلم أن الأصل تحريم الإقامة في بلاد الكفار بنص الأحاديث والآيات الموجبة للهجرة والمحرمة للإقامة عندهم، ولا يوجد صارف لها أو مخصص بعدم القدرة على إظهار الدين.

أحوال الإقامة عند الكفار :

الأول : الإقامة عندهم عن رغبة واختيار ا لصحبتهم فيرضى ماهم عليه أو يمدحهم أو يعاونهم على المسلمين فهذا كافر .

الثاني : أن يقيم عندهم لأجل مال أو ولد وهو لا يظهر دينه مع قدرته على الهجرة ولا يعينهم على المسلمين ولا يوافقهم فهذا عاص ولا نكفره لأجل الإقامة.

الثالث : المقيم عندهم مستضعفا لا يقدر على الهجرة وهذا قد عذره الله ﷻ.

الرابع : أن يكون مظهرا لدينه فيتبرأ منهم ويعاديهم ، ومن هذه حاله فذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا حرج عليه في الإقامة بين أظهرهم بما أنه قائم بإظهار الدين الذي لا تجب معه الهجرة ، وهذا ما عليه أكثر أئمة الدعوة ، منهم الشيخ حمد بن عتيق في رسالته الدفاع عن أهل السنة ص١٠.

والحق أن الإقامة محرمة والهجرة واجبة على الأصل الذي قررته النصوص.

قال عبد اللطيف:(الإقامة ببلد يعلو فيها الشرك ، لا تصدر عن قلب باشره الإسلام،وفي حديث جرير إلحاق مفارقة المشركين بأركان الإسلام).

تنبيه : يختلف حكم السفر لبلاد الكفار عن الإقامة فالسفر جائز بشروطه إذا كان لحاجة وأمن الفتنة واستطاع إظهار دينه أما الإقامة فلا تجوز مطلقا بنص الحديث وقد تبرأ النبي ﷺ من فاعله ، وثبت سفر أبي بكر لديار المشركين للتجارة من غير إقامة وإقرار النبي ﷺ لذلك كما عند أحمد.

ومن هذا الباب : التجنس بجنسياتهم اختيارا .

ومن أقام ببلاد الكفر رغبة واختيارا لصحبتهم فيرضى ما هم عليه من الدين أو يمدحهم أو يرضيهم بعيب المسلمين أو يعينهم على المسلمين فهذا كافر عدو لله .

وإذا كان عقد التجنس مشتمل على ناقض كمظاهرتهم والاعتراف بقوانينهم الشركية فهي ردة .

ولما سأل الشيخ رشيد رضا عن حكم التجنس بجنسية دولة كافرة والتزام قوانينها وقبول أحكامها المخالفة للإسلام ومنها القتال في صفوفها .

قال: (إذا كان الحال كما ذكر السؤال فلا خلاف بين المسلمين في أن قبول الجنسية ردة صريحة) مجلة المنار ٢٥/ ٢٢.

والدليل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ آل عمران: ٢٨ ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ المائدة: ٨١ .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ٩٧.

وقال تعالى : ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ النساء: ٨٩.

السابع : طاعتهم وإتباع أهوائهم ومتابعتهم .
من أطاع الكفار فيما يأمرون به وأظهر الموافقة لهم فهو كافر وخارج عن الملة .
قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٠٠ .
وجاء النهي عن طاعتهم مطلقا، فحذف المعمول فيه المتعلق بالطاعة ، ليفيد العموم .
قال الشيخ سليمان في الدلائل : (أخبر تعالى أن المؤمنين إن أطاعوا الكفار فلا بد أن يردوهم على أعقابهم عن الإسلام، فإنهم لا يقنعون منهم بدون الكفر، وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك صاروا من الخاسرين في الدنيا والآخرة، ولم يرخص في موافقتهم وطاعتهم خوفا منهم).
وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ الشعراء: ١٥١ .
وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ محمد . فجعل طاعة الكفار في بعض أوامرهم سببا لردة من أطاعهم
قال الشيخ سليمان في الدلائل عنها : (أخبر تعالى أن سبب ما جرى عليهم من الردة قولهم للذين كرهوا ما نزل الله، سنطيعكم في بعض الأمر، فإذا كان من وعد المشركين الكارهين لما نزل الله بطاعتهم في بعض الأمر كافرا وإن لم يفعل ما وعدهم، فكيف بمن وافق المشركين وأظهر أنهم على هدى) قلت فكيف بمن حكم قوانينهم.
وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ . فصرح تعالى بأنهم مشركون في طاعة أولئك الكفار،حينما وافقوهم في تحليل أو تحريم .
وإن من أعظم صور طاعة الكفار الشركية وأخبث حالات الطاعة الكفرية طاعتهم فيما يشرعونه من قوانين وضعية تحلل ما حرم الله وتناقض شريعته، مما يقوم به الحكام المرتدون المتولون لليهود والنصارى المطيعون لهم.

الثامن: موافقة الكفار في الظاهر :

من وافقهم وهو ليس في سلطانهم وإنما حمله على ذلك حرصه على الدنيا وليس الإكراه حكمنا بكفره ولو كان يوجد عنده بغضهم ومخالفتهم في الباطن .

والموافقة هي إظهار التأييد للكفار أو أنهم على حق ، أما مناصرتهم والتمكين لهم وتسهيل أمورهم فهذا قدر زائد عن الموافقة ،وهو أعظم من الموافقة ردة وأشد كفرا.

وهنا حالتان :

الأولى : من يوافق الكفار ويداهنهم .

الثانية : من يظاهرهم وينصرهم ، وهي أشنع من الأولى وأغلظ ردة .

ويدل على كفر الأول أدلة :

١- قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢١٧.

قال الشيخ سليمان في الدلائل: (أخبر تعالى أن الكفار لا يزالون يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا ، ولم يرخص في موافقتهم خوفا على النفس والمال والحرمة، بل أخبر عمن وافقهم بعد أن قاتلوه ليدفع شرهم أنه مرتد ، فكيف بمن وافقهم من غير قتال) .

٢- قوله بعد آية الإكراه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ النحل: ١٠٧.

٣- كما يدل له حديث : (وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا). عند أبي داود.

فكفروا لما أخذوا الأمان من الكفار المحاربين وأظهروا التأييد والموافقة لهم.

قال النبي ﷺ في غزو الترك (بنو قنطوراء) للبصرة وافتراق المسلمين حينها لثلاث فرق : (فيفترق أهلها ثلاث فرق ، فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية وهلكوا ، وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا ، وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلون وهم الشهداء) رواه أبو داود بسند صحيح .

ومعنى(يأخذون لأنفسهم وكفروا):أي يطلبون الأمان أو يقبلون الأمان من الترك ، كما قال شراح الحديث في عون المعبود وغيره.

وهذا الحديث فيه الدليل الصريح على كفر من حالف الكفار الصائلين على ديار المسلمين وأخذ الأمان منهم فأمّنهم وأمّنوه وأظهر تأييده لهم ووافقهم وهو مع ذلك لم يظاهرهم وإنما طلب منهم الأمان وكف عن قتالهم ومع ذلك ارتد بعمله هذا فكيف الحكم في من قاتل معهم وناصرهم على المسلمين وظاهرهم .

يقول الشيخ سليمان في مقدمة الدلائل : (اعلم رحمك الله أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفاً منهم، ومداراة لهم، ومداهنة لدفع شرهم، فإنه كافر مثلهم وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين..).

حالات موافقة الكفار :

قال الشيخ حمد بن عتيق: (الحالة الأولى: أن يوافقهم في الظاهر والباطن فهذا كافر خارج من الإسلام. سواء أكان مكرهاً أم غير مكره، فهو ممن قال الله فيه: (ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) .

الحالة الثانية: أن يوافقهم ويميل إليهم في الباطن، مع مخالفتهم في الظاهر، فهذاً كافر أيضاً، وهم المنافقون.

الثالثة:أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن، وهو على وجهين:

أحدهما: أن يفعل ذلك لكونه في سلطانهم مع ضربهم وتقييدهم له وتهديده بالقتل، فإنه والحالة هذه يجوز له موافقتهم في الظاهر مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان كما جرى لعمّار قال تعالى: إلا من أُكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان .

الوجه الثاني: أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن، وهو ليس في سلطانهم، وإنما حمله على ذلك إما طمع في رئاسة أو مال أو مشحة بوطن أو عيال أو خوف مما يحدث في المال فإنه في هذه الحالة يكون مرتداً ولا ينفعه كراهته لهم في الباطن وهو ممن قال الله فيهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ النحل: ١٠٧. فأخبر أنه لم يحملهم على الكفر الجهل أو بغضه، ولا محبة الباطل، وإنما هو أن لهم حظاً من حظوظ الدنيا آثروه على الدين.) . سبيل النجاة والفكاك ص٦٢.

يقول ابن تيمية عن حديث: " وهذا الحديث(من تشبه بقوم فهو منهم) أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم، كما في قوله: "﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ المائدة: ٥١. فقد يحمل هذا على التشبه المطلق، فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك". اقتضاء ١/ ٢٣٧ .

التاسع : الدعوة للحزبيات والقوميات والوطنيات :

وإذابة الروابط الدينية الإسلامية مع المسلمين واستبدالها بالروابط الجاهلية وإحياء العصبيات والنعرات والشعارات والتحزبات.

ومن ذلك : غضب المرء عصبية لقومه وهم كفار ويدافع عنهم ويبرر أعمالهم، كما هو الحال بكثير من الأمريكيين والأوربيين والهنود والروس الذين أسلموا ولا زالوا يوالون بلدانهم التي اشتهرت بحرب المسلمين وعداوتهم وقد رأينا من يتعصب لبلده بل ولا يستنكر حربه للمسلمين ، ومثل هذا لا يقبل إسلامه وهذه حاله بل يبقى على كفره ويصير مرتدا إن حدثت له هذه الولاية بعد صحة إسلامه.

حقيقة الوطنية والقومية والدعوة للولاء فيها :

من الأمور الشركية والأديان الوضعية التحاكم والتوالي والتباري في الوطن والقوم ، فالوطنية عند عبيدها لها أحكام وقوانين وأنظمة يوالي فيها المواطن والقومي والحزبي ويعادي فيها غيره مطلقاً وتقسيم الحقوق والواجبات على أساس الإنتماء إلى القوم أو الوطن دون النظر إلى الإنتماء للعقيدة والدين .

وهذا النوع من الموالاة يدخل في قسم الموالاة الكبرى المكفرة التي تخرج صاحبها من الملة ، ويوجد هذا العمل الكفري ظاهراً في شعارات الوطنيين والقوميين حيث والوا وعادوا في الوطن سواء كان المواطن مؤمنا أو كافراً.

وقد جاء في فتاوى اللجنة الدائمة : (أن من لم يفرق بين اليهود والنصارى وسائر الكفرة وبين المسلمين إلا بالوطن، وجعل أحكامهم واحدة فهو كافر).

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" إن الله قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن " أخرجه أحمد، وغيره .

وقال ﷺ:" إذا رأيتم الرجل يتعزى بعزاء الجاهلية، فأعضوه بهَنِ أبيه ولا تكنوا" أخرجه أحمد والترمذي.

قال ابن الأثير في النهاية: التعزي الانتماء والانتساب إلى القوم مفاخرة.

فأعضوه بهن أبيه: أي قولوا عض أير أبيك وذكره .

وقال ﷺ:" من دعا بدعوى الجاهلية فإنه جثى جهنم ـ أي من جماعات جهنم ـ فقال رجل: يا رسول الله: وإن صلى وصام؟ فقال: وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله التي سماكم: المسلمين، المؤمنين، عباد الله " رواه احمد وأبو داود.

وقال ﷺ:" ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية " سنن النسائي .

وكل دعوى غير دعوى الإسلام فهي دعوى جاهلية ، وكل آصرة ورابطة تقوم على غير العقيدة والدين فهي جاهلية نتنة يجب نبذها .

وقال ﷺ:: (إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي ، وليس كذلك ، إن أوليائي منكم المتقون مَن كانوا وحيث كانوا) رواه البزار والطبراني وابن أبي عاصم.

وقال ﷺ : " كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى " رواه أحمد.

المثال العاشر : الدعوة إلى العولمة والتعايش السلمي والإخاء والوسطية وملتقى الأديان والمجتمع الدولي والتسامح والعالمية والسلام والسلم والحوار بين الأديان ولقاء الحضارات والحوار الوطني والتعددية وقبول الآخر وتقبل الرأي الآخر، والدعوة للوطنية والقومية والديمقراطية والليبرالية والدعوة للحرية وغيرها من الدعوات المنافية للولاء والبراء ، وكلها من الكفر في الولاء والبراء وهي معاصرة وليدة هذا العصر، وهذا يدل على تجدد صور الموالاة للكفار وهي من أعظم ما يذيب عقيدة الولاء والبراء ويبطلها.

وإن هذه العبارات والمعاني والألفاظ المزهقة للحق دائماً نسمعها ونرى الناعقين بها المنادين بها ليلاً ونهاراً في السر والعلن وفي الإعلام المقروء والمسموع والمشاهد ، واعلم أن كل ما ذكرناه من هذه العبارات وما في معناها أعظم ما يذيب الولاء والبراء ويضيعه وينقض التوحيد والموالاة فيه .

وتأمل كيف زعم أهل الصليب النصارى واليهود في هيئاتهم وقراراتهم بمكرهم وخداعهم أنهم يريدون نشر السلام والحرية والتعددية والإخاء وأن الأديان لا عداء بينها وأن من يعادي لدينه راع للإرهاب يجب أن ينبذ ويحارب . مع حربهم الضروس على المسلمين ، لتعلم أنهم بدعوتهم هذه لا يريدون غير أن يهدموا الإسلام ويسقطوا كيان التوحيد والملة الإبراهيمية التي قامت على الولاء والبراء وكفراً بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران: ٨٥.

وهذا منهم ليس بعجيب ولا مستغربا إنما العجب في من صدق دعواهم وكذب كتاب ربه ، فصار كالكلب لأسياده مناديا بها ينادي به اليهود والنصارى ويتفانى في خدمتهم وتحقيق مطامعهم فيزعم أن المجاهدين أهل إرهاب وأن الناس إخوة مسلمهم وكافرهم والفرق في طرق العبادة، فرموا التوحيد والجهاد وأهله بقوس واحده . وكم نسمع من قمة وقرار واجتماع وهيئة في تقرير ذلك والدعوة إليه في الجمع بين الأديان وحماية حقوق الإنسان الكافر وحرب المسلم المجاهد وإسلامه للعدو الكافر ، والعجيب فوق هذا كله تأييد أصحاب الفتاوى لهم متخذين من موالاة الكافرين ومعاداة الموحدين قاعدة لهم .

الحادي عشر : عدم عداوتهم :

الدعوة لنبذ العنف والمصادمة والمخالفة والخلاف والصدام، والدعوة للسلام والتعايش ، وعدم تربية المسلمين وتعليم الأبناء والطلاب معاداة الكفار لإرضائهم.

وترك إظهار العداوة لهم ، وعدم قصد مخالفتهم ، وترك قتالهم وإيقاف الجهاد ضدهم مطلقاً ، وعدم إلزام الكفار في بلاد الإسلام بأحكام الإسلام الظاهرة وإخفاء شعائر دينهم وعدم إظهارها، وإلغاء الفوارق بين المسلم والكافر وادعاء المساواة بينهما مطلقاً .

ومن هذا الباب من يدعو إلى كف المسلمين عن التعرض للكفار وعدم سبهم وتنقصهم والتنكيل بهم حمية لهم من غير قصد دعوتهم للإسلام وهذا من صور موالاة الكفار.

قال الشيخ سليمان آل الشيخ في رسالته أوثق عرى الإيمان : (الذي يتسبب بالدفع عن الكفار حميّة دنيوية إما بطرح نكال أو دفن نقائص المسلمين لهم، أو يشير بكف المسلمين عنهم من أعظم الموالين المحبين للكفار من المرتدين والمنافقين وغيرهم .. وإن كان المراد بكف المسلمين عنهم أن لا يتعرض المسلمون لهم بشيء لا بقتال، ولا نكال وإغلاظ ونحو ذلك، فهو من أعظم أعوانهم، وقد حصلت له موالاتهم مع بعد الديار، وتباعد الأقطار) .

ومن هذا الباب ما دعا إليه بعض الجهال من أنه لا يشرع الدعاء على اليهود والنصارى ولا يجوز لعنهم بالعموم وهذا القول من صور موالاة الكفار وعدم معاداتهم، ونحن نقول ما قاله لنا رسولنا ﷺ : (لعنة الله على اليهود والنصارى).

كذلك من هذا الباب من يزعم أن الأصل مع الكفار السلم وعصمة الدم وليس الحرب والقتل ، ويكذب زعمهم قول النبي ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) متفق عليه.

الثاني عشر : مدحهم والثناء عليهم وتعظيمهم والفرح بهم .

وتعظيمهم واحترامهم والإعجاب بهم والرضا بهم وتبجيلهم وتوقيرهم وإكرامهم والقيام لهم والإعراض عن المسلمين والإقبال عليهم والمبالغة في استقبالهم وابتداؤهم بالسلام والمبالغة في الترحيب بهم وتصديرهم في المجالس والتذلل لهم وخدمتهم ودعاؤهم بالكنية والألقاب التي فيها تعظيم ومدحهم والثناء عليهم الإعجاب بهم ملاطفتهم والتودد لهم، والفرح برؤيتهم والمسرة بوجودهم والانبساط لهم وانشراح الصدر لهم البشاشة وطلاقة الوجه لهم والسرور بمجالستهم والأنس بهم ، وعدم إصغارهم وإهانتهم كما أمر الله تعالى.

ومن الأدلة المحرمة لمدح الكفار وتعظيمهم والموجبة علينا إهانتهم:

قال النبي ﷺ : (لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي.

وروى أبو نعيم في الحلية عن علي ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تساووهم في المجلس وألجئوهم إلى أضيق الطرق فإن سبّوكم فاضربوهم وإن ضربوكم فاقتلوهم) . وفي رواية : (صغّروا بهم كما صغر الله بهم) .

عن بريدة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقولوا للمنافق سيدا فإنه إن يكن سيدا فقد أسخطتم ربكم) رواه أبو داود والنسائي .

وعند الحاكم:(إذا قال الرجل للمنافق يا سيد فقد أغضب ربه تبارك وتعالى).

وعند البيهقي في الشعب:(إذا قال الرجل للمنافق ياسيد فقد باء بغضب ربه) .

عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز لذلك العرش) رواه ابن أبي الدنيا وأبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان .

وعن جابر ﷺ قال : نهى رسول الله ﷺ أن يصافح المشركون أو يكنّوا ويرحب بهم . رواه أبو نعيم في الحلية .

وقال ﷺ :" من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام " رواه الطبراني وفيه ضعف .

والمادح للكفار على قسمين :

١- إن مدح فيهم أمراً دنيويا كأن يقال فلان شجاع وكأن يقال حاتم كريم وعنتر شجاع أو هذا الكافر لا يخلف مواعيده ونحو ذلك فهذا أمر لا يعتبر محرما فضلا عن أن يكون شركاً ما لم يصل إلى محبة الكافر وتعظيمه واحترامه وتبجيله فهنا تصبح موالاة محرمة.

٢- إن مدحهم في دينهم وشركهم كأن يقول أفضل طريقة في التجارة هي الطريقة الرأسمالية أو الاشتراكية أو اللبرالية أو الدمقراطية أو الطريقة الفلانية والإسلام ما وسع الجانب الفلاني أو الاقتصاد في هذا الزمان لا يجري عليه أحكام الشريعة لأنه لم يكن مثله في زمن الرسول ﷺ، فهذا المدح كفر ويخرج من الملة لأنه صحح طريقة المشركين بمدحه هذا .

الثالث عشر : التشبه بهم وتقليدهم.

وسيأتي مبحث التشبه بهم.

الرابع عشر: مداهنتهم ومجاملتهم ومداراتهم لمصلحة الدنيا على حساب الدين.

(١٤٠) صور موالاة الكفار :

١- محبتهم ومودتهم .
٢- الرضا بهم أو بكفرهم .
٣- تصحيح مذهبهم ومدح طريقتهم وتصويب دينهم .
٤- عدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم وأنهم من أهل النار .
٥- مظاهرتهم ومناصرتهم ومعاونتهم بالمال والبدن والرأي .
٦- الشماتة بأهل الإسلام أمامهم .
٧- كشف عورات المسلمين لهم ونقل أخبارهم وأسرارهم إليهم .
٨- التجسس والعمالة لهم والدلالة على المسلمين .
٩- الإعراض عن المسلمين والإقبال عليهم
١٠- السماح لهم بالدعوة لدينهم .
١١- فتح الإعلام لهم ليفسدوا المسلمين ويظهروا ما عندهم .
١٢- السماح لهم ببناء الكنائس وإظهارهم لدينهم .
١٣- فتح المدارس وإنشاؤها لهم يعلمون فيها ما يريدون من كفرهم .
١٤- قتل المسلم بالكافر وإهانة المسلم لإرضائهم .
١٥- تمكينهم من إهانة المسلم والاعتداء عليه .
١٦- ترك قتالهم وإيقاف الجهاد ضدهم مطلقاً .
١٧- عدم إظهار العداوة لهم .
١٨- عدم قصد مخالفتهم .
١٩- موافقتهم في الباطن أو الظاهر .
٢٠- إذابة الروابط الدينية الإسلامية مع المسلمين واستبدالها بالروابط الجاهلية وإحياء العصبيات والنعرات والشعارات والتحزبات.
٢١- إلغاء الفوارق بين المسلم والكافر وادّعاء المساواة بينهما مطلقاً .
٢٢- نشر كتبهم ومجلاتهم وثقافاتهم والسماح لهم بنشر أفكارهم وفسادهم .
٢٣- احترام شعائرهم وشعاراتهم ومن ذلك تعليق أعلامهم.
٢٤- دخول كنائسهم وإظهار الرضا والإعجاب بها .
٢٥- تحقيق أهدافهم وغزوهم الفكري وتيسير مساعيهم في حرب الإسلام .
٢٦- عدم تربية المسلمين وتعليم الأبناء والطلاب على معاداة الكفار.

٢٧-عدم إلزامهم بأحكام الإسلام الظاهرة وإخفاء شعائر دينهم.
٢٨- تقليدهم في مذاهبهم الكفرية والتحايل على الله بدعوى أسلمتها .
٢٩- تلميعهم وإبداء محاسنهم ومحاولة إظهار أنهم على شيء وعندهم خير.
٣٠- السماح لهم بإظهار كفرهم بحجة التعبير عن الرأي وحرية الفكر .
٣١- إتخاذهم بطانة ومباطنتهم.
٣٢- اتخاذهم وليجة من دون المؤمنين .
٣٣- استعمالهم في أمر من أمور المسلمين واستخدامهم كتابا وعمالا وخدما.
٣٤- استئمانهم وعدم تخوينهم، وقد خونهم الله .
٣٥- جعل السفارات الدائمة عندهم واتخاذهم سفراء.
٣٦- الإعتماد عليهم من غير ضرورة.
٣٧- الرضا بهم .
٣٨- الوثوق بهم والثقة فيهم .
٣٩- الميل إليهم .
٤٠- استمالتهم .
٤١- محالفتهم وجعلهم حلفاء .
٤٢- الدفاع عنهم والذب عنهم والتماس الأعذار لهم .
٤٣- اتخاذهم أعوانا والاستعانة بهم في كل شيء .
٤٤- توليتهم وتنصيبهم وتأميرهم .
٤٥- الاستجابة لدعوتهم والتشرف بهم.
٤٦- معاونتهم في أمورهم ولو بشيء يسير كالتقريب لهم والمناولة .
٤٧- الاعتزاز بهم وابتغاء العزة منهم .
٤٨- تحسين العلاقات الودية الدائمة معهم .
٤٩- المشورة عليهم .
٥٠- تأييدهم ودعمهم إعلاميا .
٥١- استشارتهم ومشاورتهم
٥٢- تنفيذ مخططاتهم
٥٣- تسهيل أمورهم وتيسير وتنفيذ مطالبهم .
٥٤- السعي في تقويتهم ونفعهم .

٥٥- نصرتهم ومعاونتهم .
٥٦- اعطاؤهم الأموال ليتقووا بها .
٥٧- مناصحتهم والصدق في النصح لهم ، في غير الدعوة للإسلام.
٥٨- تمكينهم من استغلال أموال المسلمين وثرواتهم .
٥٩- إعطاؤهم شيئاً من بلاد المسلمين .
٦٠- إدخالهم بلاد الإسلام والسماح لهم بالإقامة والتملك .
٦١- عدم إخراجهم من جزيرة العرب .
٦٢- مداهنتهم ومجاملتهم ومداراتهم لمصلحة الدنيا على حساب الدين .
٦٣- التحرج من تكفيرهم ومناداتهم بالأسماء التي سماهم الله بها كالمشركين والكافرين وتسميتهم بأسماء بلدانهم أو بالصديق والآخر والغير والأخوة الإنسانية.
٦٤- الصدق معهم ونصحهم والتصافي معهم .
٦٥- تهنئتهم بأعيادهم وهذا من شهادة الزور الواردة في الآية .
٦٦- رفع شعاراتهم .
٦٧- الدخول في سلطانهم .
٦٨- تفضيل الكافرات على المسلمات في الزواج.
٦٩- الشراء منهم من غير ضرورة إلا لنفعهم .
٧٠- مشاركتهم اقتصادياً من غير ضرورة.
٧١- طاعتهم .
٧٢- الركون إليهم .
٧٣- التشبه بهم .
٧٤- إتباع أهوائهم ومتابعتهم .
٧٥- التأريخ بتاريخهم الميلادي .
٧٦- التسمي بأسمائهم .
٧٧- التحدث بلغتهم من غير ضرورة وقد جاء النهى عنه لأنه يورث النفاق.
٧٨- مخالطتهم ومعاشرتهم .
٧٩- السفر إليهم من غير ضرورة .
٨٠- عدم الهجرة من بلاد الكفار لبلاد المسلمين .
٨١- التجنس بجنسياتهم .

٨٢- الإقامة بين ظهرانيهم .
٨٣- العيش معهم والسكنى بينهم في ديارهم وقد تبرأ الرسول ﷺ من ذلك .
٨٤- مصادقتهم ومصافاتهم.
٨٥- مصاحبتهم .
٨٦- مؤاخاتهم واتخاذهم إخوانا.
٨٧- الإلتصاق بهم .
٨٨- حضور مجالسهم ومجامعهم .
٨٩- مدحهم والثناء عليهم .
٩٠- تبجيلهم وتعظيمهم .
٩١- احترامهم وتوقيرهم .
٩٢- الفرح برؤيتهم .
٩٣- المسرة بوجودهم .
٩٤- الانبساط لهم وانشراح الصدر لهم.
٩٥- البشاشة وطلاقة الوجه لهم .
٩٦- إكرامهم والمبالغة في استقبالهم.
٩٧- تقريبهم .
٩٨- الجلوس معهم وزيارتهم للأنس بهم والدخول عليهم ومصاحبتهم .
٩٩- تقديمهم.
١٠٠- تصديرهم في المجالس .
١٠١- التذلل لهم .
١٠٢- خدمتهم .
١٠٣- القيام لهم .
١٠٤- ابتداؤهم بالسلام والمبالغة في الترحيب بهم .
١٠٥- دعاؤهم بالكنية والألقاب التي فيها تعظيم كسيد .
١٠٦- ملاطفتهم والتودد لهم .
١٠٧- ذكرهم وتسميتهم بما في تعظيم لهم .
١٠٨- الإعجاب بهم .
١٠٩- السماح لهم بإظهار الفساد والإذن لهم بنشر شعاراتهم وأفكارهم.

(١٤١) ضوابط الموالاة الكبرى المكفرة :

١- توليهم ، التولي العام المطلق للكفار .

٢- محبة الكفار لما هم عليه من الكفر ، أو محبة جميع الكفار أو جنس منهم .

٣- مظاهرة الكفار ومناصرتهم على المسلمين ، والعمالة لهم والتجسس على المسلمين والدلالة عليهم وكشف عوراتهم وسرهم والفرح بظهورهم على المسلمين.

٤- كل ما فيه نيل من الإسلام وحرب له وصد عنه، وهذا يدخل في ناقض بغض الدين.

٥- عداوة المؤمنين وحربهم وبغضهم والشماتة بأهل الإسلام أمامهم .

٦- السعي لإظهار الكفار وتمكينهم في الأرض وتسليطهم وإعانتهم .

وكل ما فيه تمكين للكفار أو تنفيذ مخططاتهم وتحقيق أهدافهم وترويج غزوهم الفكري وتسيير مساعيهم في حرب الإسلام أو السماح لهم بالدعوة لدينهم .

٧- صرف جنس الموالاة لهم . من طاعتهم وتعظيمهم والركون إليهم وملازمتهم ومصاحبتهم ومصادقتهم وموافقتهم والتشبه بهم والإقامة عندهم رغبة واختياراً لصحبتهم فيرضى ما هم عليه ويرضيهم بعيب المسلمين واتخاذهم بطانة وأصحابا ومدحهم والثناء عليهم وتبجيلهم والإعجاب بطريقتهم والنصح لهم وإكرامهم وإدناؤهم والفرح بهم وتفضيلهم على المسلمين وتقديمهم في كل شيء والإعراض عن المسلمين والإقبال عليهم، ومن فعل هذه الصور مجتمعة كان كافرا والعياذ بالله وهذا الضابط داخلا في الأول.

٨- عدم بغض الكفار وترك معاداتهم مطلقاً.

٩- عدم تكفيرهم أو تفضيل شيء من هديهم أو تصحيح مذهبهم .

١٠- التشبه بهم في فعل شيء من شعائرهم الدينية كلبس الصليب ونحوه .

١١- إلغاء الفوارق بين المسلم والكافر وإدعاء المساواة بينهما مطلقاً ، وتقرير وحدة الأديان والتقريب بينها، وإزالة الخلاف العقدي، وإسقاط الفوارق الأساسية بين الكفر والإيمان.

١٢- موافقة الكفار من غير إكراه والتشبه المطلق بهم .

قال الشيخ ابن بدران : (ويندرج في هذه الولاية المكفرة من جعل نفسه جاسوسا لهم على المسلمين أو معينا لهم على نفوذ أمرهم ومن طلب من الكفار

حمايتهم من غير ضرورة تلجئه إلى ذلك ومن استعان به الكفرة بالرد على القرآن وتشكيك المسلمين في دينهم ، ومثل هؤلاء لاخلاف في ردتهم) الروضة ص١١٧ .

وقال الشيخ عبد اللطيف : (وأكبر ذنب وأضله وأعظمه منافاة لأصل الإسلام نصرة أعداء الله ومعاونتهم والسعي فيما يظهر به دينهم وما هم عليه من التعطيل والشرك والموبقات العظام، وكذلك انشراح الصدر لهم وطاعتهم والثناء عليهم، ومدح من دخل تحت أمرهم وانتظم في سلكهم، وكذلك ترك جهادهم ومسالمتهم، وعقد الأخوة والطاعة لهم). مجموعة الرسائل ٣/ ٥٧ .

وقد أوضحت هذه الضوابط و بينت أدلتها وأقوال أهل العلم في ثنايا الكتاب

(١٤٢) نصت الأدلة الشرعية على بعض صور الموالاة :

كالمودة والمحبة والطاعة وإرضائهم ومداهنتهم والمسارعة إليهم ومدحهم والميل والركون إليهم واتخاذهم بطانة ووليجة والإقامة معهم وعدم المفارقة.

مباحث متعلقة بالولاء والبراء

مبحث المظاهرة . تقدم الكلام عنها في الباب الأول .

مبحث : المداراة والمداهنة وعلاقتها بالولاء والبراء :

(١٤٣) تعريفها :

معنى المداهنة : ترك ما يجب لله من الولاء والبراء والغيرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتغافل عن ذلك لغرض دنيوي وهوى .

فالمداهنة هي المعاشرة والاستئناس والمسالمة والمصانعة والملاطفة مع وجود المنكر والقدرة على الإنكار وقد نهي عنها نبينا ﷺ والدليل: ﴿ وَدُّوا۟ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴾.

والمداراة : هي درء الشر والمفسدة بالقول اللين وترك الغلظة وإظهار المعاداة والإنكار إذا خيف حصول منكر اشد منه أو الإعراض عن صاحب الشر إذا خيف شره وبطشه .

(١٤٤) حكمها :

حكم المداهنة : محرمة ومن كبائر الذنوب لأنها تميت الحق وتظهر المنكرات وتلغي الولاء والبراء ، وقد تفضي إلى الكفر وتكون ردة.

حكم المداراة : تجوز بشرطين :

الأول : إذا لم يترتب عليها قدح في أصل من أصول الإسلام أو تعطيل أحد فرائضه أو كان أمراً عاماً .

الثاني : إذا لم تؤدي إلى إضرار بالغير فلا تجوز حينئذ .

فإذا ترتب على المداراة ضرر بالغير أو قدح في الأصول العظام أو كتم للحق وكان في أمر عام كانت داخلة في المداراة المحرمة والمداهنة والموالاة.

فالمداراة قسمان : مباحة ، ومحرمة تدخل في المداهنة إذا تخلفت شروطها.

(١٤٥) الفرق بين المداهنة والمداراة :

المداهنة : ترك ما يجب من إظهار معاداة الكفار وإنكار المنكرات لأجل المصالح الدنيوية .

المداراة : ترك ما يجب من إظهار معاداة الكافر والإنكار لأجل خوف مفسدة أعظم من إظهار المعاداة أو لأجل مصلحة شرعية .

ومن الفروق بينها أيضا ما ذكره القرطبي والقاضي عياض وابن حجر :

(المداراة : بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين وهي مباحة ،

والمداهنة : بذل الدين لصلاح الدنيا) . فتح الباري ١٠/ ٤٥٤.

وقال نحوه عبد اللطيف آل الشيخ في الدرر(٨/ ٧٢) .

(١٤٦) تنبيه : إذا ترتب على المداراة مظاهرة للكفار ونحوها كانت كفراً، كما أن المدارة مع الكافر المحارب للمسلمين وإظهار الموافقة له ردة كالمداهنة والعياذ بالله، خلافا لما يظنه بعض الجهال من جواز المداراة مطلقا .

(١٤٧) علاقة المداهنة والمداراة بالولاء :

المداهنة والمداراة المحذورة من الموالاة غير المشروعة المحرمة، لكونها متعلقة بعدم إظهار المعاداة للكفار والفسقة والبراء منهم .

مبحث : التشبه بالكفار

وتحت باب التشبه مسائل وقواعد :

(١٤٨) تعريف التشبه :

هو المماثلة والمحاكاة والتقليد والموافقة.

وشرعا : هو مشابهة الكفار فيما هو من خصائصهم .

(١٤٩) ضابط التشبه :

فعل ما يعرف بالعادة أنه من أفعال الكفار ومن زيهم وخصائصهم وصفاتهم.

(١٥٠) لو أسلم كفار على زيهم وصار عادة للمسلمين فإنهم يقرون ما لم تكن تحمل شعاراً للكفر .

(١٥١) حكم التشبه :

التشبه منه ما هو كفر ناقل عن الملة ومنه ما هو دون ذلك .

(١٥٢) التشبه بالكفار له ثلاث حالات :

١- التشبه بهم في ما هو من خصائص دينهم وشعائرهم .

٢- التشبه بهم تشبها تاما في الظاهر في كل شيء.

٣- التشبه بهم في بعض الأحوال في الأمور الدنيوية.

وحكم التشبه أنه كفر في الحالتين الأوليتين :

الأولى : إذا كان التشبه في ما هو من خصائص دينهم وشعائرهم كأن يلبس لباس القساوسة أو لبس زنانير اليهود أو شوكة عباد الشيطان أو علق الصليب ولبس لباساً فيه الصليب فإن هذا ردة وكفر وشرك لأن هذا التقليد يستلزم تصحيح ما هم عليه من كفر وشرك.

الثانية : إذا كانت المشابهة تامة في الظاهر في كل شيء.

وقد قرر أهل العلم أن موافقة الكافر في الظاهر والزي الخارجي والأفعال بحيث من رأى المتشبه لا يفرق بينه وبين الكفار أن هذا من الكفر .

يقول ابن تيمية عن حديث (من تشبه بقوم فهو منهم): " وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم، كما في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة: ٥١. فقد يحمل هذا على التشبه المطلق، فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك، وقد يحمل على أنه منهم، في القدر

المشترك الذي شابههم فيه، فإن كان كفرا، أو معصية أو شعارا لهم، كان حكمه كذلك. ". الاقتضاء ١/ ٢٣٧ .

قال القاضي حسين من الشافعية :(لو تقلنس المسلم بقلنسوة المجوسي أو تزنر بزنار النصراني صار كافراً لأن الظاهر أنه لا يفعل ذلك إلا عن عقيدة الكفر) من كتاب حسن التنبه لما ورد في التشبه .

أما لو قلد المسلم كافراً في أمر دنيوي كأن يقلده في لبس معين فإنه يعد مرتكبا أمراً محرماً .

(١٥٣) أدلة النهي عن التشبه :

١- قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ آل عمران: ١٥٦ .

٢- قال تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الفاتحة: ٧.

٣- قال تعالى : ﴿ فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ يونس: ٨٩.

٤- قال تعالى : ﴿ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ الأعراف: ١٤٢.

٥- قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ الجاثية: ١٨.

٦- قال تعالى : ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة: ١٢٠ .

٧- قال تعالى : ﴿ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ التوبة: ٦٩

٨- قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ الحديد: ١٦ .

٩- قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ آل عمران: ١٠٥ .

١٠- قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ الفرقان: ٧٢.

قال بعض السلف حضور أعياد الكفار .

١١- قال تعالى : ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ المائدة: ٤٨ ، وفي الآية بعدها: ﴿ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾.

١٢- قال ﷻ: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ الشورى: ١٥.

وفي هذه الآيات رد على من زعم أن التشبه بالكفار لم ينهى عنه في القرآن.

ومن السنة :

١- قال النبي ﷺ : (خالفوا المشركين) رواه البخاري .

٢- نهى النبي ﷺ عن التشبه بالكفار فقال: (من تشبه بقوم فهو منهم). رواه أبو داود وأحمد بسند جيد .

(١٥٤) علة النهي عن التشبه بالكفار:

التشبه بالغير يورث التبعية له والدخول تحت حزبه وطاعته ومحبته .

(١٥٥) الـحِكَم في النهي عن التشبه بالكفار :

١- الوقوع في التبعية لهم ، واتباع غير سبيل الله .

٢- أن المشابهة تدعو للموالاة والميل إليهم وتفضي للمحبة المودة.

٣- أن المشابهة تورث التعظيم والمهابة للكفار وإذلال المسلم وإهانته.

٤- أنها تناقض احتقارهم وإهانتهم وإصغارهم كما أمر الله ﷻ .

٥- أن المخالفة في الظاهر تعين على معاداة الكفار ومجانبتهم وعدم موالاتهم .

٦- أن مخالفتهم وعدم التشبه بهم من صور البراءة منهم .

٧- أن أعمال الكفار وما يختصون به لا تسلم من النقص والضرر .

٨- فساد مذهب الكفار إذا الصلاح في ما أمر الله به والشر في مخالفته .

٩- أن في التشبه عدم التمييز والتفريق بين أولياء الله وحزبه وبين حزب الشيطان، والتمايز بين المسلم والكافر أمر مقصود في الشريعة .

(١٥٦) علاقة التشبه بالموالاة :

موافقة الكفار ومشابهتهم في عمل واحد يدخل صاحبه في جنس الموالاة ويحكم عليه أنه متشبه ويصدق عليه اسم المتشبه .

ولا يشترط في ذلك أن يوافقهم في جميع الأعمال ويتشبه بهم في كل شيء .

فالمشابهة داخلة في عموم الموالاة من جهتين :

١- أن التشبه والمشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسباً بين المتشابهين يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال والاختلاط ويزول التمايز ، ومن ثم الموالاة والتعظيم.

٢- أن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة ومفارقة وانقطاعا وبراءة.

(١٥٧) علاقة الباطن بالظاهر في التشبه :

أولاً : التشبه في الظاهر يورث المحبة والموافقة في الباطن والميل إليهم.

ثانياً : المحبة والتعظيم في الباطن تؤدي للتشبيه والتقليد لمن أحبه.

فالمشاركة للكفار في الهدي الظاهر تؤول إلى مشاركة ومشابهة في الأخلاق ، وموالاة في الباطن، وفي المقابل فإن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة عن الكفر وأسبابه، وتحقق عداوة وبراءة من الكفار .

كما أن المخالفة في الظاهر تعين على مقاطعة الكافرين ومجانبتهم ومعاداتهم وعدم موالاتهم .

قال ابن القيم في أحكام أهل الذمة : (ليحصل كمال التمييز وعدم المشابهة في الزي الظاهر ليكون ذلك أبعد من المشابهة في الزي الباطن فإن المشابهة في أحدهما تدعو إلى المشابهة في الآخر بحسبها).

(١٥٨) بطلان قول إن المحرم في التشبه إذا قصد المتشبه التشبه بهم :

وهذا باطل فالنهي عن التشبه جاء عاما ولم يخصص بوجود قصد التشبه، ثم إن علل تحريم التشبه موجودة فيمن نوى المشابهة وفيمن لم ينوها والمفاسد موجودة في الحالين .

قال ابن تيمية:" ما نهى عنه من مشابهتهم يعم ما إذا قصدت مشابهتهم أو لم تقصد ، فإن عامة هذه الأعمال لم يكن المسلمون يقصدون المشابهة فيها، وفيها ما لا يتصور قصد المشابهة كبياض الشعر). اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٧٣.

(١٥٩) الفرق بين مخالفة الكفار والنهي عن مشابهتهم :

الأمر بالمخالفة أعم من الأمر بترك المشابهة .

ووجه ذلك: أن الأمر بالمخالفة يقتضي البعد عن موافقة الكافر في أمورهم حتى لو وافق فعلهم فعلنا، وأما الأمر بترك التشبه بهم فهو يقتضي النهي عن إرادة ذلك وتقصده .

(١٦٠) قاعدة : جنس المخالفة للكافرين أمر مقصود للشارع.

قال ﷺ : (خالفوا المشركين) . ويضاد هذا المبدأ موافقتهم والتشبه بهم .

(١٦١) الأمور التي فيها تشبه بالكفار .

١- مشابهتهم في العقائد ودينهم وعباداتهم وطقوسهم .

٢- مشابهتهم في أعيادهم ، أو مشاركتهم فيها أو تهنئتهم بها وهذا من شهادة الزور الواردة في الآية .

٣- مشابهتهم في عاداتهم وأخلاقهم وسلوكهم .

٤- ومشابهتهم في خصائص حياتهم كالملبس والمأكل والمشرب والمشابهة في هذه الأمور من الكبائر العظام المفضية لمفاسد عظيمة .

٥- رفع شعاراتهم .

٦- التأريخ بتاريخهم الميلادي والتسمي بأسمائهم.

٧- التحدث بلغتهم من غير ضرورة وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: (من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم العجمية فإنه يورث النفاق) الحاكم .

وورد مثله عن عمر ﷺ .

(١٦٢) التشبه بهم فيما يوجب الكفر والخروج عن الملة كلبس الصليب والزنار وتعظيم شعائرهم.

قال القاضي عياض : (وكذلك نكفر بكل فعل أجمع المسلمون على أنه لا يصدر إلا من كافر وإن كان صاحبه مصرحا بالإسلام مع فعله ذلك كالسعي إلى الكنائس مع أهلها بزيهم من شد الزنار وفحص الرؤوس فقد أجمع المسلمون أن هذا الفعل لا يوجد إلا من كافر)الشفاء ٢/ ١٠٧٢ .

وقال ابن تيمية : (ومن زار الكنائس واعتقد أن زيارتها قربة فقد كفر فإن كان مسلما فهو مرتدا) مختصر الفتاوى المصرية ٥١٤.

وقال الخرشي في شرح مختصر خليل : (وكذلك يكون مرتدا إذا شد الزنار ..ومثله فعل شيء مما يختص بزي الكفار) .

وفي فتاوى اللجنة: (إذا بين له حكم لبس الصليب وأنه شعار النصارى ودليل على أن لابسه راض بانتسابه إليهم وأصر على ذلك حكم بكفره) ٢/ ٧٨.

(١٦٣) ورد النهي عن التشبه لعدة أجناس منها :

الأعاجم والفسقة العصاة والحيوانات والنساء والغرب الروم وأهل الكتاب وأهل الجاهلية والأعراب والشيطان .

وعلة النهي ما يترتب من التشبه بهم من وجود المنقصة وإضعاف الدين والاعتزاز به ، ولابن تيمية كلام في هذا الباب في كتابه الاقتضاء.

(١٦٤) مبحث : تحريم مشاركة الكفار في أعيادهم :

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ الفرقان: ٧٢.

فمدح الله ﷻ عباده الذين يمتنعون عن شهود أعياد المشركين فهذا يقتضي الندب إلى ترك شهودها ، وتسمية الله تعالى لها زورا تقتضي تحريم فعلها .

عن أنس ﷺ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: (ما هذان اليومان؟) قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ : (إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر) رواه أبو داود وغيره .

فلم يقر الرسول ﷺ اليومين الجاهليين ولا تركهم يلعبون فيهما على عادتهم وقال: إن الله قد أبدلكم بهما يومين خيرا منهما ، والإبدال عن الشيء يقتضي الإقلاع عن المبدل منه والنهي عنه .

وعن ثابت بن الضحاك ﷺ قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً ببُوَانَة فأتى النبي ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلاً ببُوَانَة، فقال النبي ﷺ : (هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد)، قالوا: لا، قال: (فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟) قالوا: لا فقال النبي ﷺ (أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم).رواه أبو داود .

ودلّ هذا الحديث على أن الذبح بمكان عيدهم معصية لله و(لا وفاء لنذر في معصية الله).

وهذا النهي متعلق بالذبح بالبقعة التي يقيمون فيها عيدهم ، فكيف بمشاركتهم في نفس عيدهم.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يصوم يوم السبت والأحد أكثر ما يصوم من الأيام، ويقول إنهما يوما عيد للمشركين فأنا أحب أن أخالفهم . رواه النسائي . وهذا نص في مشروعية مخالفتهم في عيدهم .

وقال عمر ﷺ : (لا تدخلوا على المشركين في كنائسهم يوم عيدهم فإن السخطة تنزل عليهم) رواه البيهقي.

وقال : اجتنبوا أعداء الله في عيدهم .

وفي شروط عمر على أهل الذمة : أنهم لا يظهرون أعيادهم في دار الإسلام . فكيف بمشاركتهم وتهنئتهم .

وهذا يوجب العلم اليقيني بأن النبي ﷺ كان يمنع أمته عن أعياد الكفار، ويسعى في إزالتها بكل وسيلة ، وهكذا فعل الصحابة من بعده ، وذلك لأن مشابهة الكفار في أي فعل من أفعالهم لا تجوز، ومن باب أولى موافقتهم في أعيادهم.

(١٦٥) مما هو أعظم حرمة من مشاركة الكفار في أعيادها تشريع أعياد شركية مضاهية للأعياد الإسلامية وإحداث أعياد بدعية مشابهة للكفار كالأعياد الوطنية .
وضابط العيد ما كان محددا بيوم معين ويحصل فيه اجتماع وأعمال معينة خاصة كالتهنئة والإكرام أو جعله يوم راحة . ولا يختلف حكم التحريم بعد ذلك سواء سمي عيدا أو يوم كذا أو الاحتفال باليوم الفلاني فهذا لا يغير كونه عيدا محرما .
وقد بين ذلك ابن تيمية في اقتضاء الصراط .

مبحث الهجرة

(١٦٦) تعريفها :

لغة الترك . وهي الخروج من البلد الذي هو فيه .

الهجرة شرعا : الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام .

(١٦٧) ضابط بلاد الإسلام والكفر .

اختلف أهل العلم في ضبطها :

فقيل : مردها للحاكم فدار الإسلام من يحكمها مسلم ودار الكفر من يحكمها كافر أصلي أو مرتد .

وقيل : مردها لسكانها : فمن كان أهلها على الإسلام فديار إسلام وإلا فديار كفر.

وقيل: مردها لظهور الشعائر .

وقيل مردها لما تحكم به فإذا كانت محكومة بشريعة الإسلام فديار إسلام وإذا حكمت بغير ما أنزل الله فكفر حتى ولو حكمت بقانون واحد يخالف شريعة الإسلام فديار كفر .

قال ابن القيم : دار الإسلام هي التي نزلها المسلمون وجرت عليها أحكام الإسلام .

(١٦٨) أقسامها :

١- هجرة أوطان : بالانتقال من بلد إلى بلد .

٢- هجرة أبدان : بترك العصيان والكفران، كما أمر النبي ﷺ بذلك أصحابه.

(١٦٩) أنواعها :

١- هجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام .

٢- هجرة من بلد الخوف على الدين إلى بلد الأمن كما هي الهجرة للحبشة .

وكالهجرة لبلاد الكفر إذا كان حكمها وقانونها يسمح بإظهار الدين الإسلامي .

٣- هجرة من بلاد الفسق والمعاصي إلى بلد الطاعة والصلاح .

(١٧٠) أدلتها :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ٩٧ .

قال تعالى : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ النساء: ٨٩.

قال تعالى : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ العنكبوت: ٥٦.

وقال النبي ﷺ : (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله) رواه أبو داود.

وقال ﷺ : (أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين) رواه أبو داود .

وقال ﷺ : (لا يقبل الله من مشرك أشرك بعدما أسلم عملاً حتى يفارق المشركين إلى المسلمين) رواه أحمد.

وقال ﷺ : (لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم في مساكنهم ومن جامعهم فليس منا) أخرجه الحاكم.

(١٧١) حكم الهجرة والإقامة:

إذا كانت الإقامة ببلاد الكفر رغبة واختيارا لصحبتهم فيرضى ما هم عليه ويمدحهم أو يعينهم على المسلمين فهذه ردة .

أما إذا ترك الهجرة وفضل الإقامة عندهم لأجل دنياه ولم يوافقهم أو يعينهم وأبغضهم ولكن لم يظهر معاداتهم فهو عاص .

وأما إن أقام عندهم وهو مظهر لعداوتهم فمحل خلاف :

فذهب كثير من العلماء إلى جواز الإقامة بين أظهر الكفار وعدم وجوب الهجرة إذا كان يظهر دينه فيتبرأ منهم وأنهم على الباطل وأمن الفتنة .

والصحيح عندي والله أعلم أن الأصل تحريم الإقامة في بلاد الكفار بنص الأحاديث والآيات والهجرة واجبة عند القدرة حتى مع القدرة على إظهار الدين.

(١٧٢) أحكام الهجرة :

١- من تجب عليه الهجرة : وهو القادر عليها مع عدم القدرة على إظهار دينه.

٢- تستحب : إذا كان قادرا على إظهار دينه . وتسقط عن العاجز .

(١٧٣) شروط جواز السفر لبلاد الكفار:

١- أن يتمكن من إظهار دينه .

٢- أن يمتلك ديناً وعلماً يمنعانه من الشهوات والشبهات .

٣- أن يكون سفره وإقامته للضرورة .

(١٧٣) أحوال الإقامة عند الكفار :

تقدم عند الكلام عن الإقامة ببلاد الكفار .

(١٧٤) متى شرعت :

شرعت الهجرة للحبشة في السنة الخامسة للبعثة وبعد ثلاث عشرة سنة من البعثة شرعت الهجرة للمدينة.

(١٧٥) الهجرة باقية إلى قيام الساعة :

قال ﷺ : (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) رواه أبو داود والنسائي وأحمد .

أما الحديث المتفق عليه : (لا هجرة بعد الفتح) فهو خاص في الهجرة من مكة إلى المدينة فهذه انتهت بعد فتح مكة.

(١٧٦) حقيقة إظهار الدين الواجب ، تقدم بيانه .

تنبيه: قدمنا الأحاديث الناهية عن الإقامة مع المشركين وكلام العلماء في ذلك.

تنبيه : من كمال الولاء والبراء التبديع والتفسيق لمستحقها :

فلا تتوقف أيها الموحد في تبديع المبتدع ولا تتوقف في تفسيق الفاسق المجاهر كما لا تتوقف في تكفير المشرك، واعلم أن هذا من كمال الولاء والبراء لله تعالى .

(١٧٧) مبحث : الـهَجْـر :

جاءت السنة بهجر أهل المعاصي وعدم السلام عليهم ولا الرد عليهم إن سلموا وعدم حضور ولائمهم خصوصاً إن احتوت المعاصي حتى يتوبوا .

ومن ذلك : هجر النبي ﷺ كعب بن مالك وصاحبيه خمسين يوما، وهجر زينب بنت جحش رضي الله عنها قريبا من شهرين لما قالت : أنا أعطي تلك اليهودية تعني صفية ، وهجر الذي بنى فوق الحاجة حتى هدم بناءه وسواه بالأرض، وهجر رجلا رآه متخلقا بزعفران حتى غسله وأزال عنه أثره، وهجر رجلا رأى عليه جبة من حرير حتى طرحها، وهجر رجلا رأى في يده خاتما من ذهب حتى طرحه، أما الذي جاءت الأحاديث بالنهي عنه فيما زاد على الثلاث هو التهاجر الدنيوي .

قال ابن حجر في فتحه:ذهب الجمهور إلى أنه لا يسلم على الفاسق ولا المبتدع.

وقال المهلب : ترك السلام على أهل المعاصي سنة ماضية وبه قال كثير من أهل العلم في أهل البدع وألحق بعض الحنفية بأهل المعاصي .

قال ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى المصرية : من أظهر المنكر وجب الإنكار عليه وأن يهجر ويذم على ذلك فهذا معنى قولهم من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له بخلاف من كان مستترا بذنبه مستخفيا فإن هذا يستر عليه لكن ينصح سرا ويهجره من عرف حاله حتى يتوب ويذكر أمره على وجه النصيحة).

وكلام السلف ومن بعدهم من أهل العلم في هجر أهل البدع ومن يميل إليهم كثير جدا ، ومع هذا فقد أبى أهل العقل المعيشي إلا أن يخالفوا ما كان عليه سلف الأمة وأئمتها فتراهم يبالغون في توقير أهل البدع وتعظيمهم ويحرصون على مؤاخاتهم مصاحبتهم ودعوتهم إلى منازلهم والدخول عليهم في بيوتهم ومواكلتهم ومشاربتهم والأنس بهم والإنبساط معهم وتوليتهم في الأعمال من تعليم وغيره لا فرق عندهم بينهم وبين أهل السنة نعوذ بالله من الخذلان وعمى البصيرة .

وقد صار تقريب أهل البدع وتوليتهم في وظائف التعليم والوثوق بهم في ذلك سببا في إفساد عقائد كثير من المتعلمين وأخلاقهم فتراهم لا يبالون بترك المأمورات ولا بارتكاب المنهيات.

وقد روى الطبراني وأبو نعيم وغيرهما بأسانيد فيها مقال عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه مرفوعا : (من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام) . وذكر ابن الجوزي عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا مثله .

مبحث : أحكام معاملة الكافر

(١٧٨) معاملة الكفار لها ثلاث حالات :

الحالة الأولى : معاملة مكفّرة مخرجة من الملة :

وقد اصطلح بعض أهل العلم على تسمية هذه الحالة بـ (التولي) ، فكل ما دل الدليل على أنه كفر وردة فهو من هذه الحالة ، وذلك نحو : محبة دين الكفار والفرح بانتصارهم ومظاهرتهم على المسلمين .

الحالة الثانية : معاملة محرمة غير مكفّرة :

وهي كل ما دل الدليل على تحريمها ولا تصل إلى الكفر، ودل العرف على اعتبارها موالاة كتصديرهم في المجالس وابتدائهم بالسلام ، وغير ذلك.

الحالة الثالثة : معاملة جائزة : وهي غير داخلة في الموالاة، وهي ما دلت الأدلة على جوازها مثل البيع منهم، والبر والإقساط لغير المحاربين، وصلة الرحم الأقارب والصدقة على فقيرهم، ونحو ذلك .

فتنبه للفرق بين هذه الحالات الثلاث، وقد حاول المتعالمون وأرباب الشبه والقلوب الزائغة المريضة في عصرنا إباحة الحالتين الأولى والثانية استدلالاً لها بالحالة الثالثة على طريقة التلبيس على الناس .

(١٧٩) الجواب عن شبهة : قول الرسول ﷺ في رسالته إلى هرقل (عظيم الروم) ، ليس من التعظيم والموالاة لأمرين :

الأول : أنه ﷺ لقبه بلقبه عند قومه ، مثل قولك : (فلان) رئيس كذا ، فليس فيه تعظيم له، بل وصف فقط، ثم إنه قال (عظيم الروم) فنسبه إلى قومه ولم يطلق (عظمته) ، ولم يقل : (هرقل العظيم) .

الثاني : أنه لم يزد على ذلك اللقب ألفاظاً تدل على تعظيمه له والتي يزيدها المعظمون للملوك مثل السيد أو صاحب الجلالة والفخامة ونحو ذلك .

(١٨٠) أمور مباحة مع الكفار :

١- البيع والشراء ما لم يكن في ما يستعان به أهل الحرب على المسلمين . والتعامل مع الكفار والاستفادة منهم فيما نحتاجه من صناعات مباحة ونحوه .

٢- السفر لبلاد الكفار من أجل التجارة أو علاج أو حاجة ضرورية إذا أظهر المسلم دينه وبراءته منهم وتكفيرهم وعدم موالاتهم. وقد سافر لها أبو بكر وغيره .

فشرط الجواز: أن يكون هناك ضرورة وحاجة ملحة وأن يظهر المسافر دينه .

٣- الصدقة على فقراءهم وإطعامهم .

٤- عيادة الكافر إذا كان الغرض دعوته للإسلام أو تعزية أو تهنئته بزواج وغيره إذا كان يقصد الدعوة .

٥- حضور جنازة قريبه الكافر وتعزيته بشرط ألا يدعوا له ولا يصلي عليه.

٦- الاستعانة بهم في أمر يجيدونه كصناعة ونحوه ما لم يوجد مسلم .

٧- الاستعانة بكافر أجير على حرب الكفار وهذه محل خلاف، مع كون حالة المعين أجيراً مأموراً تابعاً لا آمراً متبوعاً كما لا يجوز أن يستعان به على مسلم مطلقاً.

٨- الدخول في حمايتهم عند الضرورة إذا لم يوجد غيرهم ويكثر هذا في البلدان التي يحارب فيها الإسلام والصلاة . ودليله الصحابة حين هاجروا للحبشة ضرورة وفراراً بدينهم قبل إسلام النجاشي.

٩- صلة الرحم والأقارب الكفار .

١٠- الإقساط لغير المحاربين، وبرهم من غير مودة باطنية كالرفق بضعيفهم وإطعام جائعهم وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً معهم لا خوفاً وتعظيماً، والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة ونصيحتهم في جميع أمورهم فجميع ما نفعله معهم من ذلك لا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم .

١١- الصلح المؤقت معهم ، والوفاء بعهدهم .

١٢- مداراتهم حال الإكراه بضوابط.

١٣- دعوتهم للإسلام وتعريفهم بمحاسنه وهذا واجب لهم علينا .

(١٨١) ما أباحه الله في معاملة الكفار لا تستلزم المحبة والموالاة أو تجوزها :

يجوز الإحسان للوالدين إذا كانوا كفارا والصدقة على الفقراء الكفار وزيارة الجار وعيادة المريض الكافر وملاطفته بغرض دعوته مع وجود أصل العداوة في حق هؤلاء، وهذا فارق بين البابين فتتصدق على الكافر الفقير الغير المحارب وأنت لا تحبه ولا تناصره على المسلمين بل تبغضه وتعاديه فهذا أمر ليس من الموالاة المحرمة، وعليه فإنه لا دليل فيه على ما يشتهيه المخذولون عن دينهم المتأولون المبررون لأعداء الدين من المرتدين، وكل ما أتوا به من هذه الآية وغيرها من التعليلات

والشبه والدواعي ليجوزوا بها موالاة الكفار ساقطة لا تبيح أمراً نص القرآن على تحريمه وأوضحه أكثر من غيره حتى لا يكون مع المبطلين لحدود ما أنزل الله حجة.

(١٨٢) التفريق بين الموالاة وبين البر والإقساط :

والأصل فيها قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ الممتحنة: ٨ .

وهذه الآية نزلت في أسماء رضي الله عنها لما سألت النبي ﷺ عن بر أمها المشركة المسالمة غير المحاربة وينبغي أن ن فرق بين الموالاة المحرمة وبين الأمور المباحة مع الكافر .

فنفي التحريم إلى الإباحة يدل على أن الأصل التحريم في موالاة الكفار وأما الإحسان للمسالم الكافر فهذا لا يعد من باب موالاة الكفار المحرمة ومع ذلك فهو للإباحة والجواز فلو لم يحسن الإنسان فلا شيء عليه والإحسان له شروط :

١- أن يكون قريباً كما هو سبب النزول في أسماء مع أمها أو يكون البر في غير القريب ويكون محتاجا ذليلا أو يكون المقصود دعوته للدين.

٢- أن لا يكون محارب .

٣- أن لا يقارن البر مودته ومحبته نصرته .

فائدة : لم يقل (تولوهم) وإنما قال (تبروهم) وفرق بين الأمرين، وقد تقدم كلام ابن القيم في أن هذه ليست موالاة .

فائدة : تأمل حين قال سبحانه ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ ،ولم يقل أن تولوهم بل جاء التولي في النهي عنه مما يدل على أن موالاة الكفار محرمة مطلقاً أما الإقساط والإحسان فتجوز للكافر المسالم أما المولاة والتولي فلا تجوز لا مع المحارب ولا المسالم .

قال القرافي : (نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على موادات القلوب ولا تعظيم شعائر الكفر ، فمتى أدى إلى أحد هذين امتنع ، وصار من قبل ما نهي عنه في الآية وغيرها، ويتضح ذلك بالمثل : إخلاء المجالس لهم عند قدومهم علينا ، والقيام لهم حينئذ ، ونداؤهم بالأسماء العظيمة الموجبة لرفع شأن المنادى بها، كذلك إذا تلاقينا معهم في الطريق وأخلينا لهم واسعها ورحبتها والسهل منها ، وتركنا أنفسنا في خسيسها وحزنها وضيقها، فإن هذا ممنوع لما فيه من تعظيم شعائر الكفر وتحقير شعائر الله تعالى وشعائر دينه واحتقار أهله، وكذلك لا يكون المسلم عندهم خادماً

ولا أجيراً يؤمر عليه وينهى .. وأما ما أمر من برهم من غير مودة باطنية كالرفق بضعيفهم وإطعام جائعهم وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً معهم لا خوفاً وتعظيماً، والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة ونصيحتهم في جميع أمورهم فجميع ما نفعله معهم من ذلك لا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم ، وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من بغضنا وتكذيب نبينا ﷺ ، وأنهم لو قدروا علينا لاستأصلوا شأفتنا واستولوا على دمائنا وأموالنا ، وأنهم من أشد العصاة لربنا ومالكنا ﷻ ، ثم نعاملهم بعد ذلك بما تقدم ذكره امتثالاً لأمر ربنا). الفروق ٣/ ١٤ .

(١٨٣) الإحسان للكافر المسالم وبره من باب الرخصة :

إن مما هو مقعد عند أهل السنة أن الأصل معاداة الكافر وبغضه مطلقاً وهذا هو الأصل والعزيمة وهو الغلظة على الكفار والشدة عليهم، وأما بر الكافر والإحسان إليه إذا توفرت فيه شروط جواز ذلك فإن هذا من باب الرخصة المستثناة من الأصل وليس العزيمة، إذ العزيمة الغلظة على الكافر ولم يستثن إلا مصاحبة الوالدين بالمعروف والإحسان للمسالم لتألفه ودعوته للإسلام إذ ليست موالاة للكافر وليست مقصودة لذاتها فضلاً عن أن تكون عزيمة وأصل بذاتها .

ومن هذه القاعدة المبنية على قاعدة الباب أن الدين قائم على الموالاة للمؤمنين والمعاداة للكافرين نعلم ضلال هؤلاء المنغمسين في الدنيا والفسق والابتداع الزاعمين أن الإسلام دين سلام مع الكفار وألفة ورحمة وذلة فنزعوا عنه لباس العزة والغلظة على الكفار، وقد ذكرنا في مواضع أدلة ذلك وصور من غلظة النبي ﷺ والصحابة ﷺ مع الكفار، وأن ما خالف ذلك فهي في أمور مخصوصة وحالات مستثناة من القاعدة .

(١٨٤) المحبة الطبعية لا تكون لكافر مطلقا ولو كان والدا:

جوّز البعض محبة الوالد والزوجة والولد إذا كانوا كفاراً وسموا ذلك بالمحبة الطبعية وأن الموالاة المنهي عنها ليست إلا محبة الكفر وحسب.

وبهذا طعنوا في عقيدة الولاء والبراء من حيث لا يشعرون.

والحق أن الوالدين والأبناء والزوجة كل هؤلاء إن كفروا صاروا أعداء ولا تجوز محبتهم مطلقا ولا موالاتهم وإنما المرخص فيه معهم الإحسان إليهم وبرهم وتمني هدايتهم ومحبة الخير لهم والإشفاق عليهم ورحمتهم . وليس في هذا أي محبة لذواتهم ولا لما هم عليه من الدين، كما أنه لا يتأتى التبعض في الموالاة والمحبة لهم التي قررها أهل السنة في حق فساق أهل الملة من عصاة المسلمين الموحدين .

فالكافر لا تجوز موادته ومحبته مطلقاً ولو كان من أقرب الناس لأنه محاد لله ويدل لذلك قوله تعالى ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ المجادلة: ٢٢ فالآية نص على نفي الإيمان عمن يواد ويحب الأب والابن الكافر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ التوبة: ٢٣.

قال ابن حجر :" البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه " فتح الباري ٥/ ٢٧٦.

وقال محمد بن عبد الوهاب: (ومعنى الكفر بالطاغوت أن تبرأ من كل ما يعتقد فيه غير الله ، من جني أو انسي أو شجر أو حجر أو غير ذلك ، وتشهد عليه بالكفر والضلال وتبغضه ولو كان أباك وأخاك) مجموعة الرسائل ٤ / ٣٣ .

وقال سليمان في أوثق عرى الإيمان : (الله لاينهى المؤمنين عن بر من لم يقاتل من المساكين والنساء، وأما موالاتهم ومحبتهم وإكرامهم فلم يرخص الله في ذلك) .

قال ابن باز : (المحبة الطبيعية للأب ونحوه من الموالاة لا تجوز وليست من التولي أما محبة دينهم فكفر) سبل السلام شرح نواقض الإسلام .

(١٨٥) معاداة الكافر لا تستلزم عدم العدل معه والوفاء بعهده كما لا تجوز ظلمة والغدر به وخيانته:

فهذا كله لا يجوز ولم يأت جوازه والترخيص فيه في جميع الشرائع وترده العقول السوية ولكن ليس من الغدر والخيانة والظلم جهاد الكفار وقتلهم وإلزامهم دفع الجزية إذا أصروا على الكفر بعد الدعوة وهم صاغرون وإضطرارهم لأضيق الطريق واهانتهم كما قررنا ذلك في موضعه فإن هذا هو شرع الله الذي أمر به وليس في قتل المشركين ظلم كما تقدم .

الفصل الثالث عشر : حالات الناس مع الولاء والبراء

(١٨٦) أحوال أعداء الله وأولياء الشيطان المخالفين في الولاء والبراء:

١- من عبدالله ووحّده وترك الشرك ولكنه لم ينكر الشرك ولم يعاد أهله ، فهذا لا يعتبر مسلماً لعدم كفره بالطاغوت ولا يصير المسلم مسلماً إلا بذلك .

٢- من عادى المشركين ولم يكفرهم ، وهذا لم يأت بما دلت عليه كلمة التوحيد وتقتضيه من نفي الشرك وتكفير فاعله .

٣- من لم يحب التوحيد ولم يبغضه .

٤- من لم يبغض الشرك ولم يحبه .

٥- من ترك الشرك وعرف التوحيد ولكنه لم يعمل به فلم يبغض المشركين ولم يكفرهم .

٦- من عرف التوحيد وأحبه وعرف الشرك وتركه ، ولكنه مع ذلك يكره من دخل في جماعة التوحيد ويحب من بقي مناصراً للكفار وهذا أيضاً من الكفر.

٧- من عرف التوحيد وأنه الحق ولكنه لم يلتفت إليه ولم يتعلمه ولا دخل فيه، ولا انضم إلى جماعة المسلمين وبقي مع الشرك وأهله ووافقهم .

١٠- من تساوى لديه الإسلام والكفر في الحب والبغض أو من يحبهما من وجه ويبغضهما من وجه آخر وهذا لم يتحقق فيه معنى الإسلام القائم على الاستسلام والانقياد .

وقد ذكر هذه الأقسام الإمام محمد بن عبدالوهاب وغيره في الدرر ١/ ٦٦ .

(١٨٧) أصناف الناس في الولاء والبراء :

الصنف الأول : من أحب المؤمنين وناصرهم وحالفهم وظاهرهم وأعانهم ووافقهم وأيدهم ظاهراً وباطناً، وأبغض الكفار وعاداهم ونابذهم وجاهدهم وكفّرهم وتبرأ منهم وأظهر مخالفته وعداوته لهم ظاهراً وباطناً، فهذا الصنف وحده هو حزب الله وأولياء الرحمن الذين هم أهل لا إله إلا الله.

الثاني : من أبغض المؤمنين وعاداهم وظاهر عليهم وخالفهم وحاربهم وتبرأ منهم باطناً وظاهراً، ومقابل ذلك أحب المشركين وأحب دينهم وناصرهم واعتز بهم وأيدهم ووافقهم ورضي أفعالهم، وهؤلاء من حزب الشيطان وأعظم أوليائه.

الثالث : من أبغض المؤمنين وأظهر خلاف ذلك فناصرهم ووالاهم ظاهراً مع مخالفته لهم باطناً وأحب الكافرين وأبدا محاربتهم ومعاداتهم وهذا حال المنافقين .

الرابع : من أبغض المؤمنين ولكن لا يعاديهم ظاهراً، ومجرد بغض المؤمنين كفر لأنه ناقض لشرط المحبة لكلمة التوحيد ومحبة أهلها.

الخامس : من أحب المؤمنين وخالف ذلك بظاهره فعاداهم وناصر أعداءهم عليهم، وهذا كافر ولا عبرة بمحبته القلبية للمؤمنين إن تحققت وتصورنا وجودها .

السادس : من أحب المؤمنين بقلبه ولكنه لا يناصرهم، فهو لم يظهر موالاته للمؤمنين بل خذلهم وإن كان لم يعادهم واكتفى بمجرد المحبة وأبغض الكفار ولم يناصرهم ، وهذا مرتكب كبيرة وليس بكافر.

السابع : من أبغض الكفار لكنه لا يظهر معاداتهم ولا مخالفته لهم بل يخفيها بدون إكراه ، وظن أنه غير ملزم بإظهار عداوة الكفار والبراءة منهم وهذا فاسق.

وينطبق في هذا الصنف والذي قبله قوله ﷺ في من ترك جهاد الكفار المحاربين ولم يناصر المؤمنين (فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية وهلكوا) رواه أبو داود .

الثامن : من أبغض الكفار ولكن يواليهم ويظهر الموافقة لهم وهذا كافر .

التاسع: من أحب الكفار ، وهذا كافر مطلقاً سواء والاهم أو عادهم ، وسواء أحب المؤمنين أو أبغضهم وسواء والاهم أو عاداهم.

فهذه الأصناف غير الأول كل أصحابها من حزب الشيطان وأصحابها دائرون بين النفاق والردة والفسق .

قال النبي ﷺ ذاكراً أصناف الناس مع الولاء والبراء والجهاد في حديثه عن غزو الترك للبصرة وافتراق المسلمين حينها لثلاث فرق : (فيفترق أهلها ثلاث فرق ، فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية وهلكوا ، وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا ، وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلون وهم الشهداء) رواه أبو داود .

(يأخذون لأنفسهم):أي يطلبون الأمان ويقبلونه ويظهرون الموافقة والتأييد، هذا حكمهم الكفر ، فكيف بمن قاتل معهم وناصرهم على المسلمين وظاهرهم .

وهذه المخالفات من هؤلاء راجعة لأركان الولاء والبراء الأربعة :

محبة المؤمنين ، بغض الكفار ، موالاة المؤمنين ، معاداة الكفار .

فإما أن تتحقق هذه الأركان الأربعة أو تزول جميعها أو واحد منها أو أكثر .

والإخلال بركن من الأركان ينقسم إلى مناقضة من أصله وإلى إخلال في كماله ، وقد اغتر كثير من الجهال في هذا الباب فإذا رأوا من يوالي الكفار ظاهراً وناصرهم مع دعواه بغضه للكفار ومحبة للمؤمنين جعلوه مسلماً وأنكروا على من يكفره .

(١٨٨) العقائد والمذاهب والفرق المخالفة في الولاء والبراء :

١- الخوارج حيث صرفوا معاداتهم للعصاة فكفروهم وعادوهم ولم يوالوهم مطلقاً والحق أن الولاء والبراء في العصاة متبعض كما تقدم .

وأيضاً الخوارج في هذا العصر ممن يكفر الشعوب والبلدان المسلمة ويجعل الأصل في المسلمين اليوم الكفر نعوذ بالله من ذلك .

ومن الخوارج في عصرنا من يعادي أهل التوحيد والمجاهدين ويجعلهم من الخوارج ويكفرهم وهؤلاء وقعوا في الردة بلا شك لحربهم التوحيد وبغضهم له.

٢- الرافضة يعادون الصحابة ﷺ ويكفرونهم ولم يجدوا من يعادون إلا خير الأمة ليخلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم ببغضهم.

٣- الأشاعرة : قالوا بالموافاة ومعناه أن العبرة بالخاتمة وما يتوفى عليه العبد، فمن عاش على الكفر لكن أسلم وتوفي على الإسلام فإنهم يعتبرونه من أولياء الله وأن الله كان يحبه حتى حال كفره لأن الحب لا يتبعض كصفة في الله وسبب قولهم مذهبهم الفاسد في الصفات فحب الله وبغضه المتعلق بالأشخاص لا يتغير .

٤- المنافقون والمرتدون: يوالون الكفار ظاهراً أو باطناً سراً ، وهؤلاء أشد أمر عليهم الولاء والبراء وأصعب ما يلاقون معاداة الكفار ويرونه من التخلف.

٥- القوميون والوطنيون والحزبيون يوالون ويعادون في أحزابهم ويتولون من كان من قومهم وجنسهم وجماعتهم فقط ويبغضون من سواهم .

٦- المرجئة لا يكون الولاء للكفار كفراً إلا مع الولاء الباطن والحب للكفر .

٧- المنكرون لعقيدة الولاء والبراء. ومنهم :

١- علماء السوء ممن يفتي بجواز موالاة الكفار أو بعض صورها المحرمة ويجعلها من جنس التعامل المباح فهو أشد كفراً ممن وقع في موالاة الكفار، لأن متولي الكفار كفره عملي وهذا كفر اعتقادي .

٢- دعاة الوسطية .

٣- دعاة التعايش السلمي .

٤- دعاة الحوار الوطني.

٥- دعاة الحزبية والقومية الوطنية.
٦- دعاة الحوار بين الأديان .

(١٨٩) مذهب المرجئة في ناقض التولي :

والإيمان الصحيح عند هؤلاء المرجئة الجهمية هو مجرد ادّعاء الإسلام مع بغض الكفار ومحبة المؤمنين، والكفر في الولاء والبراء عند هؤلاء فقط في أن يبوح المسلم بكرهه لدين المسلمين وحبه لدين الكفار وقد يعذرونه مع ذلك لاحتمال أن يكون جاهلاً أو متأولاً، أما غير هذه الحالة فليست بكفر.

إن أصل القول المحدث في تولي الكفار منشأه من المرجئة الذين لا يكفرون إلا بأعمال القلوب ويخرجون أعمال الجوارح من الإيمان والكفر، فلا كفر عندهم إلا الجحود والاستحلال أو الحب والبغض للدين وما سواها فهو معصية ، فكما قالوا: إن التشريع وشرك الطاعة لا يكفر فاعلها إلا بالاستحلال وأنها ليست كفرا في ذاتها،كذلك قالوا أن المظاهرة وإعانة الكفار على المسلمين لا يكفر فاعلها إلا إذا كانت للدين بأن يحب دين المشركين ويبغض دين المسلمين.

(١٩٠) كفر منكر عقيدة الولاء والبراء :

من أنكر عقيدة الولاء والبراء أو طعن فيها أو استهزأ بها أو بالداعي إليها أو أبغضها أو حاربها ودعا إلى إزالتها وحذر من تعلمها والعمل بها فقد كفر الكفر البواح وخرج من ملة الإسلام وأباح للمسلمين دمه وماله وذلك لأنه كذّب الله وبما أمر به بل وجحد أعظم ما أمر الله به وهو التوحيد والموالاة والمعاداة فيه وأبغض ما جاء به الرسول ﷺ وجاهد من أجله ، وإذا كان من أخل بهذه العقيدة فوالى الكفار يكفر فكيف بمن أنكر هذه العقيدة إنه ليعتبر حقا من أئمة الكفر الواجب قتالهم .

قال أبو العباس الونشريسي (ت٩١٤) : (ولا تجد في تحريم هذه الإقامة وهذه الموالاة الكفرانية مخالفا من أهل القبلة.. ومن خالف الآن في ذلك أو رام الخلاف من المقيمين معهم والراكنين إليهم فجوز هذه الإقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ..) المعيار المعرب ٢/ ١٢٣ .

وقال محمد بن عبد الوهاب: (وأبغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفّرهم أو قال ما عليّ منهم أو قال ما كلفني الله بهم، فقد كذب هذا على الله وافترى إثماً مبيناً، فقد كلّف الله كل مسلم ببغض الكفار، وافترض عليه عداوتهم، وتكفيرهم والبراءة منهم، ولو كانوا آباءهم " الدرر ٢/ ١١٩ .

وقال بعض أئمة الدعوة :(من قال لا أعادي المشركين أو عاداهم ولم يكفّرهم أو قال لا أتعرض أهل لا إله إلا الله ولو فعلوا الكفر وعادوا دين الله أو ارتدوا فهذا لا يكون مسلماً والله أوجب معاداة المشركين وتكفيرهم "مجموعة الرسائل ١/ ٣٨ .

(١٩١) طرق الطواغيت وأساليبهم في حرب الولاء والبراء :

لطواغيت كل عصر أساليب في حرب دين الله والصد عنه ، ووجود هؤلاء الطواغيت سنة من سنن الله منذ أن خلق الله الخليقة ونشأ الصراع بين الحق والباطل، وكانت المصادمة بين أتباعها ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ محمد: ٣ ، فكان أول الطواغيت إبليس ثم جاء أولياؤه بعده من بني آدم إلى يومنا فكان من سنة الله أن يجعل ﴿ لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الفرقان: ٣١، حتى كان آخرهم نبينا محمد ﷺ الذي لقي من أصناف الطواغيت ما لم يلقه غيره ،وكان منهم من يريد إلغاء عقيدة الولاء والبراء كما قال الله عنهم : ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ القلم: ٩، إلا أن مما لا يخفى على من سبر أحوال الأمم ودرس التاريخ أنه لم يحصل حرب للدين ومكر لأهله مثلما حصل في زماننا ، فاسأل التاريخ وأهله ممن قبلك هل سمعوا بما يسمى بشعار الحرية والتعددية والدمقراطية والليبرالية والتعايش والوسطية والوطنية والحوار، وغيرها من دعوات وأساليب جاء بها طواغيت زماننا لهدم عقيدة الولاء والبراء ولتمييع التوحيد والكفر بالطاغوت وقتل الملة الإبراهيمة في المسلمين.

وإليك شيئاً مما رأيناه من أساليبهم في عصرنا مما لم يكن معروفا عند من سبقنا:

١- إحداثهم الشعارات والانتماءات المميتة لعقيدة الولاء والبراء فتزيلها وتزهقها أو تزاحمها، واستبداله بغيره من الشعارات والانتماءات والدعوات الجاهلية كالدعوة للوطنية والقومية والقبلية والمذهبية والأندية الرياضية وغيرها .

فالقومية والوطنية مثلاً تقوم على مبدأ الموالاة والمعاداة في الوطن والجنس، فيوالى المواطن ومن هو من قومه سواء كان مؤمنا أو كافرا .

وانظر إلى الأندية الرياضية وما يسمى بالمباريات بينها التي طالما أورثت الموالاة والمعاداة بين أتباعها ، فهل المقصود منها إلا إلهاء الناس عن دينهم وتفريقهم بهذه الشعارات فبدل أن تكون المبارة بين المسلمين والكفار في ساحات الوغى بالأسنة كما أمر الله، إذ بنا نراها مباراة تطارد كرة عند أقدامهم تجمع المسلم مع الكافر في ملعب واحد ، إنها حقا سخافة ولهو ولعب كما أسموه .

بل إن ما أسموها بمباريات كأس العالم لا نراها تأتي إلا مع عرك الكفار للمسلمين وقصفهم وسحقهم وقتلهم بالآلاف ، فأولئك أعدوا لحرب المسلمين وطواغيتنا بأوامرهم أعدوا لكأس العالم ، أفلا يفيق أهل الإسلام من رقدتهم وينفضوا غبار الذل والهوان عن رؤوسهم ويحذروا هذه الوسائل الطاغوتية.

وبهذه يتبين أن هذه الدعوات للانتماءات لهذه الشعارات الجاهلية المعاصرة المزاحمة لعقيدة التوحيد والولاء للدين تهدم عقيدة الولاء والبراء والكفر بالطاغوت.

٢- الدعوة إلى التآخي في الكفر تحت عدة شعارات :

منها التسامح والانفتاح والعولمة والمجتمع الدولي والعالمية والسلام والسلم والتعايش السلمي والوئام والإخاء .

ومنها الإنسانية وحقوق الإنسان ويقصد بذلك ترك تكفير الكافر وقتاله.

ومنها الدعوة إلى الحوار بين الحضارات والحوار الوطني وقبول الرأي الآخر، ومعناها قبول دين الكفر.

ومنها الدعوة للحرية أي الحرية الدينية والكفر وحرية الرأي.

ومثلها اللبرالية والدمقراطية والتعددية وقبول الآخر والوسطية .

وغير ذلك من الدعوات والشعارات الكافرة بالله المنددة بالتوحيد والداعية للشرك الأكبر التي لا يخفى أن المقصود الأكبر منها إلغاء مبدأ التوحيد والولاء والبراء والكفر بالطاغوت، وأن لا تستنكر بعد هذه الشعارات حين تسمع بعبارة أخي المقيم وأخي المواطن كفارا أو مسلمين وعبارة الأخوة الإنسانية .

٣- الدعوة إلى ملتقى الأديان وتوحيد أو التقريب بينها أو الحوار بينها، والمقصود من حوار الأديان تصحيح دين اليهود والنصارى وعدم تكفيرهم ومعاداتهم، والالتقاء والاجتماع والموافقة والمسالمة وترك الاختلاف والبعد عن الأمور المخالفة ، وكل ذلك مناف لعقيدة الولاء والبراء من أصلها ، وقاعدة هذه الدعوة : (المداهنة لإخفاء المخالفة واستبدال المنافرة بالموافقة) ويقولون : (نجتمع فيما نتفق عليه ونترك ما نختلف فيه ويعذر بعضنا بعضا) ، ونسي هؤلاء الطواغيت أن أعظم ما يخالفونا فيه التوحيد إنكار نبوة نبينا محمد ﷺ وتكذيبه والطعن فيه.

٤- الدعوة للوسطية :

وقصد أصحاب الوسطية إنكار عقيدة الولاء والبراء وباب الجهاد وتكفير المرتد، وتقوم حقيقة هذه الدعوة على موالاة الكفار ومظاهرتهم وموافقتهم واللين معهم والرحمة بهم وترك جهادهم والغلظة عليهم وإبعاد تكفير المشركين والمرتدين.

وقفة في مناقضة دعاة الوسطية للشرع والعقل :

أما مناقضتهم للشرع: حيث كفروا بأوامر الله القاضية بالغلظة مع الكفار والمنافقين وقتلهم والشدة معهم كقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ التوبة: ٧٣.

وأما مناقضتهم للعقل: فمع كون الكفار لازالوا يقاتلوننا ويسخرون بديننا ويسبون نبينا ويقتلون الأطفال ويغتصبون النساء، وهؤلاء يزدادون رأفة وليناً بيد الصليبيين، وزعموا أن من الحكمة مقابلتهم باللين وإظهار محاسن الإسلام ، حتى قالوا طريقة حرب الدنمرك إبداء محاسن الإسلام .

بينما تراهم قلبوا وجه المجن مع أهل التوحيد المجاهدين فحاربوهم وأغلظوا عليهم ولم يعملوا فيهم بقاعدتهم (اللين والوسطية) ولا هم عملوا بما أوجبه الله تعالى بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الحجر: ٨٨.

وخذ مثالا لذلك ما دعا له هذا الفوزان المتعالم الخبيث الزاعم عدل أمريكا وظلم المسلمين المجاهدين لهم.

فانظر كيف نقضوا الدين ولم يكونوا من أهل هذه الآية ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ الفتح: ٢٩. لتعلم ما المقصود بوسطيتهم وأنها عين المداهنة والموالاة للكفار والعداوة للمؤمنين .

كما أن من التناقض في وسطيتهم أن حرموا تكفير المرتدين وصححوا ردتهم ومدحوا شركهم ، ثم أوجبوا تكفير الموحدين وذموا جهادهم ، فانظر كيف هم خوارج أنجاس على الموحدين مرجئة أرجاس مع المرتدين والمشركين.

٥- ومن الوسائل التي يستخدمها الطواغيت لهدم الولاء والبراء الإعلام والمجلات والصحف والاستعمار والغزو الفكري .

٦- ومن الوسائل التي يستخدمها الأعداء لهدم الولاء والبراء التعليم وفتح المدارس الأجنبية والابتعاث وإحضار الكفار والفساق لتدريس المسلمين.

فيقتلون الولاء والبراء والكفر بالطاغوت في المسلمين عن طريق مدارسهم وإعلامهم ، فبدلاً من أن يهلكوا الأجيال حسياً كما فعل فرعون، يقتلون فيهم عقيدة التوحيد ويربوهم على موالاة الكفار والمرتدين والرضا بقوانينهم وكفرهم .

٧- إرسال أبناء المسلمين للكفار وابتعاثهم ليتلقوا الكفر ولتذوب شخصيتهم الإسلامية وتهدم عقيدتهم وليرجعوا منحطين ليس لهم من الإسلام إلا اسمه وليكونوا أداة في أيدي الكفار حربا على أهل الإسلام .

٨- تأسيس البرلمانات والمجالس التشريعية باسم الشعب والأمة وأشباهها ليجمعوا فيها بين أدعياء الإسلام والمشركين ،حتى يميعوا قضية التوحيد وينشروا شرك التشريع ، فلا تعود المسألة مسألة براءة منهم أو كفر بقوانينهم ودساتيرهم.

٩- تجنيد العلماء لصالح أعدائهم وشغلهم بالفرعيات أو بما يشتركون معهم في عدائهم كالشيوعيين والرافضة وترك المرتدين والسكوت عن بيان نواقض الإسلام وتولي الكفار وتشريع القوانين وغيرها ، وقد وصل بهم الحال إلى أن يلغوا عداوتهم للطاغوت القريب ويصادقوه ويصبحوا جنوداً تحته وأعواناً له.

قال أبو فارس القيرواني: (ولست أعني بالعلماء المشتغلين في زماننا بعلوم الجدال والمماراة ولا المعتنين بدرس مسائل الأقضية والشهادات فيتقربون بذلك في جمع الحطام والتقرب من الحكام ونيل الرئاسة عند العوام) المعيار المعرب ١١/ ٢٩.

وقال ابن الجوزي : (ومن تلبيس إبليس على الفقهاء، مخالطة الأمراء والسلاطين ومداهنتهم وترك الإنكار عليهم مع القدرة على ذلك وفي الجملة، فالدخول على السلاطين خطر عظيم لأن النية قد تحسن في أول الدخول ثم تتغير بإكرامهم وإنعامهم أو بالطمع فيهم، ولا يتماسك عن مداهنتهم وترك الإنكار عليهم، وقد كان سفيان الثوري يقول: "ما أخاف من إهانتهم لي، إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم). تلبيس إبليس ص١٢١.

١٠- إظهار الطواغيت الحرص على الدين والدعوة بعيدا عن العمل بالولاء والبراء والكفر بالطاغوت.

ختاما يا أيها الموحد لمولاه اعلم أن مولاك ﷻ حذرك من إتباع الطواغيت والسقوط في كفرهم وتميع الدين وإلغاء عقيدة الولاء والبراء والكفر بالطاغوت بسبب الطمع بما في أيديهم من الدنيا أو الجهل بأساليبهم التي ذكرنا لك أمثلة منها: قال ﷻ: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ القلم: ٨-٩﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ

﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ الفرقان: ٥٢ ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ ﴾ المائدة: ٤٨ – ٤٩ ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ الشورى: ١٥ ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ الجاثية: ١٨ ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة: ١٢٠ ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ الكهف: ٢٨.

وغيرها من الآيات التي تبين حقيقة هذه العقيدة وتفاني الطواغيت في صد الناس عنها ، وهي كافية لفقهاء زماننا ودعاة التوحيد في عصرنا لو أرادوا العمل بها.

الخاتمة : وفيها تبيين لحال دعاة زماننا وعلمائه وفقهائه :

إن مما ابتلى الله به أهل الإيمان في كل زمان أهل الضلال ودعاة الباطل الذين ليس لهم هم إلا تلبيس الحق بالباطل وصد الناس عن دين ربهم حتي يتميز المجاهد الصابر الطيب والمنافق والمرتد الخبيث الذي يتخذ أعداء الله بطانة ووليجة كما أخبر تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ التوبة: ١٦ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ محمد: ٣١ ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ الفرقان: ٢٠.

وإن من هؤلاء المبطلين الضلال علماء السوء والمرجئة الخبيثة الذين يهونون من موالاة الكفار ويخرجون معاداة الكفار من أصل التوحيد ، حتى جعلوا معاداة الكفار وعدم رد السلام عليهم وإصغارهم وتضييق الطريق عليهم وعدم القيام لهم من قلة الأدب وسوء الخلق ومن المنكرات التي لا يقرها الدين وسماحته، وإن أثقل ما يطرق أسماع هؤلاء المنافقين الكلام عن الولاء والبراء .

قال الشيخ حمود التويجري رحمه الله في تحفة الإخوان: (ولا سيما في زماننا هذا الذي قد اشتدت فيه غربة الدين وانعكست فيه الحقائق عند الأكثرين حتى عاد المعروف عندهم منكرا والمنكر معروفا ، ومن ذلك موالاة الكفار والمنافقين وموادتهم ومصاحبتهم ومجالستهم والأنس بهم والانبساط معهم ، كل ذلك قد صار من قبيل المعروف عند أكثر الناس بل عند كثير ممن ينتسب إلى العلم والدين .

وأما الحب والبغض في الله والموالاة والمعاداة في الله وهجر أهل المعاصي لله والإكفهرار في وجوههم فكل ذلك قد صار عند كثير من الناس من قبيل المنكرات .

حتى أن كثيرا من المنتسبين إلى العلم قد صاروا يدندنون حول إنكار هذه الأعمال الفاضلة المحبوبة إلى الله تعالى ويعدونها من مساوئ الأخلاق ، ويعيبون على من يعمل بها ويذمونهم ويعدونهم أهل تعنت وشذوذ وتشديد وغلو في الدين، وقد سمعت هذا من بعض الخطباء والقصاص الثرثارين، ويحثون على حسن السلوك مع الناس كلهم واستجلاب مودتهم، وجعلوا هذه الأفعال الذميمة - موالاة الكفار- من حسن الخلق ومن مقتضيات العقل) .

هذا وإن أكثر علماء زماننا قد جهلوا دعوة الرسل فظنوا أن معاداة الكفار وقتالهم فتنة ، والحكمة في تركها ولم يعلم دعاة العلم السلفي أن الفتنة الحقيقية هي

في موالاة الكفار وعدم معاداتهم كما أخبر الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الأنفال: ٧٣.

بل إن موالاة الكفار وترك معاداتهم وقتلهم من الشرك والكفر الذي هو أعظم الفتن وأشد من القتل كما أخبرنا بذلك ربنا بقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢١٧ ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ البقرة: ١٩١.

وقد ظنوا كما ظن أسلافهم أن الصلاة والحج والصدقات وبناء المساجد وخدمة الحجيج تغني عن عقيدة الكفر بالطاغوت ومعاداة الكفار وجهادهم أو أنها تساميه وقد كذب الله ﷻ دعواهم هذه بقوله: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ١٩.

وقالوا كما قال أسلافهم الأولون: إن معاداة الكفار والقيام بالتوحيد على حقيقته والكفر بالطاغوت مسبب لعداوة الكفار وحرب العامة والخاصة لنا حتى نتخطف من أرضنا: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ القصص: ٥٧، وظنوا أن ذلك عذر مبيح للتخلي عن هذه الأصول، وتناسوا أن هذا هو السبب الذي منع كثيرا من المشركين من اتباع الرسول ﷺ كما أخبر الله تعالى عنهم.

فظنوا أن خوف الكفار مجوّز للمسارعة في إرضائهم وتحقيق مساعيهم وتنفيذ مطالبهم فوقعوا فيما وقع فيه أوائلهم من المرتدين كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ المائدة: ٥٢.

فذهبوا يطلبون العزة من الكفار فوقعوا فيما وقع فيه أوائلهم من المنافقين كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٣٨ - ١٣٩.

فتأمل هذا الباب جيدا وأحذر أن يصل بك الحال إلى ما وصل إليه أكثر علماء زمانك فتهلك ولن تضر عندها إلا نفسك.

وقفة مع دعاة إنكار عقيدة الولاء والبراء:

لا عجب أن يعادينا الكفار لأن هذا هو الأصل ، بل ولا عجب أن يوجد من المسلمين من يتولى الكفار ويظاهرهم ويركن لهم ويتخذهم بطانة من دون المؤمنين ويدافع عنهم ويتودد لهم ويحبهم ، والله ﷻ قد أخبرنا بوجود هؤلاء المرتدين والمنافقين وضررهم.

إنما المستغرب حقاً أن ترى من يحمل العلم ويدّعي التوحيد والدين والتمسك بالسنة والسلفية لا أقول يتولون الكفار فحسب إنما يدعون لموالاتهم ويحضون عليها بل يعادون من ينهى عن تولي الكفار وينكرون عقيدة الموالاة والمعاداة ويصنفون الكتب الداعية لعقيدتهم الكفرية هذه، وكم خرج علينا هذه الأيام من كتب لعلماء الضلالة والهوى الذين يهدمون فيها ما قعده أئمة أهل السنة في هذا الباب، بل ويصرحون أن ما عليه أهل التوحيد في هذه الأبواب ليس إلا من طرق الخوراج .

قال الشيخ عبد اللطيف:(فليتأمل من نصح نفسه الآيات التي تنهى عن اتخاذ الكافرين أولياء وليبحث عما قاله المفسرون وأهل العلم في تأويلها، وينظر ما وقع من أكثر الناس اليوم ، فإنه يتبين إن وفق وسدد أنها تتناول من ترك جهادهم ، وسكت عن عيبهم ، وألقى إليهم السلم ، فكيف بمن أعانهم، أو جرهم على بلاد أهل الإسلام، أو أثنى عليهم، أو فضلهم بالعدل على أهل الإسلام، واختار ديارهم ومساكنتهم وولايتهم،وأحب ظهورهم، فهذا ردة صريحة بالاتفاق) الدرر٨/ ٣٢٤.

حقيقة الفتاوى والكتب الهادمة للولاء والبراء:

لا أعلم حين يكتب هؤلاء وأمثالهم مثل هذا الكلام ويقررون ما يخالف عقيدة أهل السنة هل هذا كله جهل فيهم ؟! يتركون كتب السلف ويعتمدون على عقولهم الضعيفة أما كان الأولى بهم طلب العلم على أهله قبل التصدر ووضع كلام يدل على جهل مركب وصاروا من الرؤوس الجاهلة التي ضلت وأضلت ، أو أن الأمر أشد من ذلك والعياذ بالله وهو دسيسة وخائنة خافية في نفوسهم وغليلة وغش في قلوبهم، ومسارعة إلى الكفر وأهله .

وإن هؤلاء السفهاء الراغبين عن ملة إبراهيم لّما لم تحملهم الرجولة وكرامة التوحيد التي يتحلى بها أهل التوحيد والجهاد وشعروا بالهوان والمسكنة والذلة للطاغوت والعجز عن إقامة دين الله وإظهار التوحيد والبراءة الصريحة من الكافرين والمشركين لجؤوا إلى تغيير هذا الأصل واستبداله بغيره فجعلوا ضابط الموالاة

والمعاداة ما يعقلونه ويقومون به ، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك فأنكروا تكفير الكفار وتحرجوا من تسميتهم بالكافر إلى الغير والآخر وبعضهم صحح دين اليهود والنصارى، وطالبوا بالتعايش وحوار الحضارات والحوارات الوطنية وأقاموا الندوات لهذه الدعوات التي يقصد من ورائها جمع أكفر الناس من الشيوعيين والرافضة والمنافقين والقبورية والعلمانية مع المؤمنين ، إلا أن أهل التوحيد لم تنطلي عليهم هذه الألاعيب التي سخر الطواغيت فيها الجهود لإذابة التوحيد وصرف الناس عن الدعوة إليه وجعلت البراءة من المرتدين والمشركين والمنافقين وتكفيرهم هو مذهب الخوارج وأهل الضلال ، وهذا غير ضار بالصادقين ولا مثبط لهم ولهم قدوة فيمن سبقهم فتأمل قدح الطغاة الأوائل في كل إمام دعا للتوحيد والسنة وأنه خارجي تكفيري متعطش لدماء المسلمين كالصديق وابن حنبل وابن تيمية وابن عبد الوهاب وقدوتنا قبل ذلك رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، ثم إن هذا تحقيق وتصديق لخبر الرسول ﷺ عن الطائفة المنصورة المجاهدة التي لا تزال تقاتل ولا يضرها من خالفها وحاربها من المرتدين والمنافقين وعلماء السوء الذين منعهم حرصهم على الدنيا ومصالحهم عن الصدع بالحق، وزعم فقهاء هذا الزمان أنه ليس زمانا هذا بزمن جهاد، مصداقا لما أخبر به نبينا ﷺ عنهم ، ولقد سمعنا هؤلاء وهم يقولون عن جهاد الصليبيين في العراق وفلسطين وغيرها ليس بجهاد وإنما عبث وفتن فيالله ما أقبحها من عقول عن الهداية غوت وعن شريعة الله تولت .

وكل ذلك من هؤلاء المنافقين ليس إلا لصد الناس عن التوحيد والولاء البراء فيه والجهاد الذي أمر الله به ، ولقد كثر في هذه الأيام صخبهم وعلا نباحهم، فلبسوا على الناس دينهم وصدوهم عن سبيل الله، ألا فليتق الله هؤلاء وليرجعوا لربهم وليتوبوا من غيهم قبل أن يحال بينهم وبين ما يشتهون وقبل أن يتمكن أهل التوحيد من رقابهم: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢ ﴾ الأحزاب.

وليعلم هؤلاء الملحدون في آيات الله أنهم وإن خفي حالهم على كثير من الناس فليسوا بخافين عنه ﷻ كما أخبر: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ فصلت: ٤٠.

وإن الأولى بأهل الحق متى ما علموا بأحد من هؤلاء أن يبينوا للناس ضلاله حتى لا يلتبس الحق بالباطل.

فصل : شبهات المخالفين في الولاء والبراء

هذا كشف لشبه المرتدين من المجيزين لموالاة الكافرين ونقض لدعاوى أهل الإرجاء في عدم تكفير من تولى الكفار والجواب عن الآيات والأحاديث التي اتخذها المبطلون حجة.

الأولى : أن موالاة الكفار لا تكون كفرا إلا إذا كانت لأجل دينهم وأما توليهم طلبا للمصلحة الدنيوية واستحبابا في الحياة الدنيا فليست بكفر.

والجواب عن هذه الشبهة الباطلة أن يقال الموالاة والمعاداة قسمان :

موالاة ظاهره بالمناصرة والمحالفة للمؤمنين والمعاداة والمحاربة للكافرين.

وموالاة باطنه بالبغض للكافرين والمحبة والمودة للمؤمنين.

ولا يتم الإيمان إلا إذا استكمل المرء ركني الولاء والبراء.

ومحبة الكفار وما هم عليه ومحبة الكفر هذا ناقض بحد ذاته وجدت معه المناصرة لهم وتوليهم أو لم توجد هذه الموالاة الظاهرة، وأغلب النصوص التي جاءت بالتحذير من موالاة الكفار وتكفير الموالي المقصود بها الموالاة الظاهرة لدنياهم والتي لأجل المصالح الدنيوية، أما محبتهم ومحبة دينهم فهي أمور باطنة لا يعلم فاعلها إلا الله.

قال تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ النحل١٠٦.

فانظر كيف جعل سبب كفرهم هو طلب المصلحة الدنيوية واستحباب الحياة ولم يعذر من وقع في الناقض غير المكره.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في الدلائل : " الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم خوفاً منهم ومداراة لهم ومداهنة لدفع شرهم فإنه كافر مثلهم، وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين) .

وقال الشيخ حمد بن عتيق:" إن مظاهرة المشركين ودلالتهم على عورات المسلمين أو الذب عنهم بلسان أو رضي بما هم عليه كل هذه مكفرات ، فمن صدرت منه من غير الإكراه المذكور فهو مرتد وإن كان مع ذلك يبغض الكفار ويحب المسلمين ". الدفاع عن أهل السنة والاتباع ص ٣١ .

وقال أيضاً في (سبيل النجاة والفكاك) ص ٨٩ : " أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن وهو ليس في سلطانهم وإنما حمله على ذلك إما طمعاً في رئاسة أو مال أو مشحة بوطن أو عيال أو خوف مما يحدث في المآل ، فإنه في هذه الحال يكون مرتداً ولا تنفعه كراهته لهم في الباطن " .

وتقدم في المسائل أن إرجاع صور تولى الكفار وموالاتهم لأجل محبة دين الكفار قول كفري سواء وقع المحذور من موالاة أو لا، لأنه إنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة ، كما يقال في جاحد وجوب الصلاة كافر ولو صلى ومستحل الزنا كافر ولوما زنا.

وأما معنى قول الطبري : " توالونهم على دينهم ".

فمعناه أن موالاة الكفار وإن كانت للدنيا فإن مؤداها تكون لدينهم ونهاية أمرها لا بد أن تقوي دينهم وتنصره مهما كانت هذه الموالاة فتنبه ، وليس مرادهم ما فهمه بعض البله من أن الموالاة المكفرة هي التي تكون لأجل دينهم فحسب وأما الموالاة التي لا يقصد صاحبها محبة دينهم أو نصرته فليست بكفر مطلقا.

كذلك هذا أسلوب معروف وهي التي ليس لها مفهوم مخالفة من التي ترد مورد الحكم والأثر ، ولها أمثلة كثيرة .فليس المراد نفي الحكم عن غير الوصف ولا يدل الكلام على أن غير هذه الصفة ليست بكفر . فنزل الوصف منزل الغالب وليس لضبط الوصف .

ولو كانت الموالاة المكفرة مختصة بالمحبة وقصد الكفر لما صح الاستثناء منها ولما تصور التقية فيها ولذلك الطبري نفسه صرح بضابط التقية وهي لا تكون بفعل.

بل جعل موالاة الكفار لا تصدر إلا من راض بالكفر وهو يشبه قول من قال في الحكم بالقوانين أو تشريعها لا تصدر إلا من مستحل لها ومعتقد فضلها وخيريتها على حكم الله تعالى . وليس مراده هنا أن الموالاة لا تكون كفرا إلا إذا رضي بالكفر فإن هذا ترتيب للشيء على نفسه فيصير المعنى لا يكفر من تولى الكفر وهو راض به إلا من رضي به . وإنما المراد أن الموالاة كفر لأنها لا تصدر إلا من راض بالكفر .

الثانية : الاستدلال بقوله تعالى ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ آل عمران: ٢٨ .

وإعذار متولي الكفار بالجهل والخوف من الكفار والتأويل ودعوى الإكراه :

وقد بسطنا الجواب عن هذه الشبهة في باب المظاهرة ، والحق أن الله لم يعذر الخائف ومن يخشى الكفار فيسارع فيهم ولا المتأول ولا الجاهل ولم يعذر إلا المكره المتقي والذي تحق فيه شروط الإكراه المعتبر ولم يبيح لهم سوى التكلم دون الفعل .

قال تعالى : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ المائدة: ٥٢ ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ المائدة: ٣ ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ التوبة: ١٣ ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥ .

وقال الشيخ سليمان في الدلائل: (ذكر تعالى أن موالاة الكفار موجبة لسخط الله والخلود في النار بمجردها وإن كان الإنسان خائفاً ، إلا المكره بشرطه ... فذكر تعالى أن موالاة الكفار منافية للإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه ، ثم أخبر أن سبب ذلك كون كثير منهم فاسقين ، ولم يفرق بين من خاف الدائرة ولم يخف ، وهكذا حال كثير من هؤلاء المرتدين قبل ردتهم كثير منهم فاسقون، فجر ذلك إلى موالاة الكفار والردة عن الإسلام ، نعوذ بالله من ذلك) الدرر ٨/ ١٢٨ .

قال الشيخ حمد بن عتيق: (وأمّا ما يعتقده كثير من الناس عذراً، فإنه من تزيين الشيطان وتسويله وذلك أن بعضهم إذا خوّفه أولياء الشيطان خوفاً لا حقيقة له ظنّ أنه يجوز له إظهار الموافقة للمشركين والانقياد لهم).

الثالثة : أن الإسلام دين سلام وسلم لا عدوانية فيه ولا معاداة :

وهذا باطل وتكذيب بالقرآن والسنة وهدي الرسل ﷺ وملة إبراهيم والأدلة التي أوردناها والنقولات من كلام أهل العلم التي سقناها تبين ذلك .

الرابعة : وجود المعاهدات بين النبي ﷺ والكفار.

وهذا حجة على المخالف لا له ، فإن الحلف المؤقت بمدة والعهد دليل على أن الأصل هو المعاداة والقتال ، والعهد فيه ترك القتال بين الطرفين وليس الولاء بينهما وهو جائز بشروط وله فوائد ، وأما هؤلاء فيريدون أن يستدلوا لردتهم ويجوزوها ويقعدوا لها بأدلة هي عليهم ، فأين العهد والحلف الدائم الذي فعله النبي ﷺ أكثر

من عشرة سنين ويتعاقبه جيل بعد جيل، ويقوم على الاعتراف بالكفار والتعاون المشترك معهم ومصادقتهم وموالاتهم مطلقاً .

وأما عقد الذمة فقبل أن يستدلوا به لينظروا في الشروط العمرية ، وقبلها الأمر بإصغارهم حتى في الجزية، ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ التوبة: ٢٩.

فليتأملوها ويروا ما قاله السلف فيها وسيرون أنه حجة عليهم تدمغ باطلهم.

الخامسة : زيارات النبي ﷺ لبعض الكفار والهدايا بينهم :

ليست مقصودة بذاتها فالنبي ﷺ فعلها تألفاً ودعوة، أو لمصلحة قتال.

السادسة : تسامح النبي ﷺ مع الكفار يوم فتح مكة :

النبي ﷺ عفا عن الكفار تألفا لهم لا ذلاً، وقد أمر بقتل أناس منهم ، وأمر بإخراج المشركين من مكة ومن جزيرة العرب.

السابعة : أن المحبة الطبيعية جائزة :

ويرد بقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ المجادلة: ٢٢ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ التوبة: ٢٣.

وهذه الآيات تقطع على المبتدعة الحجة وتبطل القول الإرجائي أن محبة الكفر في الكفار لأجل دينهم إذ المذكور فيها الأب والابن ونفت مولاتهم إن كانوا كفاراً وأوجبت معاداتهم وعدم مولاتهم .

وأما استثناء الاستغفار لأبيه في قوله ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾، فهذا على أنه مجرد دعاء بالمغفرة كان قبل تبين حال والده وأنه عدو لله ، والدليل: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ التوبة: ١١٤، ولم نؤمر بالتأسي بإبراهيم في هذا الدعاء. وكل كافر فهو عدو لله.

وفي هذا رد على من زعم تجويز المحبة الطبيعية للوالد والولد الكافرين .

قال ابن حجر: (البر لا يستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه) الفتح ٥/ ٢٧٦.

وقال سليمان في أوثق عرى الإيمان : (الله لاينهى المؤمنين عن بر من لم يقاتل من المساكين والنساء، وأما موالاتهم ومحبتهم وإكرامهم فلم يرخص الله في ذلك) .

قال ابن باز :(المحبة الطبيعية للأب ونحوه من الموالاة لا تجوز) سبل السلام.

وأما آية: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ القصص، فالمقصود أحببت هدايته لا أحببته.

وأما قوله ﷻ: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ الروم: ٢١، فليس فيها تجويز المحبة للزوجة الكافرة ، وإنما هي في بيان آية تدل على قدرة الله لا شرعه .

الثامنة: زعمهم عدم كفر محب الكفار بدليل: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

والجواب أن الآية في محبة المؤمنين للمنافقين الذين لا يعلمون بنفاقهم ولم يظهر لهم كفرهم فيحبونهم لما يظهرون من الإيمان قال ابن كثير عند هذه الآية : (أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرونه لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم لا باطنا ولا ظاهرا) .

عليه فليس في الآية أدنى متمسك على عدم كفر من يحب الكفار ويودهم بل صرح الله بكفر محبهم ومن يوادهم كما في قوله : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ المجادلة: ٢٢.

التاسعة : قول الرسول ﷺ في رسالته إلى هرقل (عظيم الروم) .

والجواب أن هذا ليس من التعظيم والموالاة لأمرين :

الأول : أنه ﷺ لقبه بلقبه عند قومه ، مثل قولك : (فلان) رئيس كذا ، فليس فيه تعظيم له، بل وصف فقط، ثم إنه قال (عظيم الروم) فنسبه إلى قومه ولم يطلق (عظمته) ، ولم يقل : (هرقل العظيم) .

الثاني : أنه لم يزد على ذلك اللقب ألفاظاً تدل على تعظيمه له والتي يزيدها المعظمون للملوك مثل السيد أو صاحب الجلالة والفخامة ونحو ذلك .

العاشرة : الاستدلال بقصة حاطب. وقصة أبي لبابة مع بني قريظة.

وقد رددنا على هذه الشبه في باب المظاهرة .

الحادية عشرة : أن معاداة الكافر خاصة بالكافر الأصلي دون المرتد.

وتقدم الجواب عن هذه المسألة .

الثانية عشرة : أن معاداة الكافر خاصة بالمحارب دون المسالم والمعاهد :

والاستدلال لذلك بقوله تعالى في سورة الممتحنة : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ الممتحنة: ٨ .

وتقدم جوابنا وبياننا لهذه المسألة في المسائل في مبحث أحكام معاملة الكفار.

وقلنا : أن الأصل التحريم في موالاة الكفار وأما الإحسان للمسالم الكافر فهذا لا يعد من باب موالاة الكفار المحرمة فلم يقل (تولوهم) وإنما قال (تبروهم) وفرق بين الأمرين، ومع ذلك فهو للإباحة والإحسان له شروط :

١ - أن يكون قريباً كما هو سبب النزول في أسماء مع أمها أو يكون البر في غير القريب ويكون محتاجا ذليلا أو يكون المقصود دعوته للدين.

٢- أن لا يكون محارب .
٣- أن لا يقارن البر مودته ومحبته ونصرته وإظهار كفره.
ومما هو مقعد أن الأصل معاداة الكافر وبغضه والغلظة معه والشدة عليه مطلقاً وهذا هو الأصل والعزيمة، وأما بر الكافر والإحسان إليه إذا توفرت فيه شروط جواز ذلك فإن هذا من باب الرخصة المستثناة من الأصل ، ومن هذه القاعدة تعلم ضلال هؤلاء المنغمسين في الدنيا والفسق والابتداع الزاعمين أن الإسلام دين سلام ورحمة وذلة مع الكفار فنزعوا عنه لباس العزة .
قال القرافي في الفروق: (نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على موادات القلوب ولاتعظيم شعائر الكفر، فمتى أدى إلى أحد هذين امتنع وصار مما نهي عنه).
الثالثة عشرة : الاستدلال بآية : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ البقرة: ٢٥٦ ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ يونس: ٩٩ ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الكهف: ٢٩ .
أولاً : أن هذه الآيات منسوخة بآيات القتال كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ التوبة: ٥ ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ الفتح: ١٦.
ثانياً : أن هذه الآيات خاصة بأهل الكتاب مع دفع الجزية .
ثالثاً : أن الآيات في سياق التهديد والإنكار والبراءة لا الإقرار .
وللشنقيطي في دفع الإيهام كلام جيد في الآيات السابقة.
الرابعة عشرة : زعمهم أنه جاء الإقرار والاعتراف بدين الكفار في آية : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ الكافرون: ٦ .
وقد قدمنا الرد على من ظن أن سورة الكافرون اقتضت تقرير الكفار على دينهم ودعوى أنها منسوخة بآية السيف .
وذكرنا أن معاداة الكفار وإظهار البراءة منهم من أصول الدين التي اتفقت عليها جميع الرسل وأن المقصود منها البراءة من الكفار وليس معنى لكم دينكم إقرارهم على كفرهم كما أنها لا تقبل النسخ أصلا .
قال ابن تيمية : (وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين ولا أهل الكتاب كما يظنه بعض الملحدين ، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين وجعلوها منسوخة بل فيها براءته من دينهم وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ). الجواب الصحيح ٢/ ٣٠ .
وقدمنا كلام ابن القيم وابن تيمية في ذلك في مسائل الولاء.

الخامسة عشرة : زعم المرجفون من دعاة المصلحة الدعوية أن تحقيق الولاء والبراء قد يؤدي إلى نفور الكفار عن الإسلام. والجواب :

١- أن قواعد الدين ومبادئ الإسلام التي أمرنا الله تعالى بها يجب فعلها مطلقاً ولا تترك إلا عند العجز المتحتم ، ولا ينظر لخلاف ذلك لأنه سبحانه هو العالم بمصالحنا حيث أمرنا وليست عقول هؤلاء العقلانيين .

وهو الذي شرع بغض الكفار ومعاداتهم والبراءة منهم واعتزالهم والنفور منهم ومخالفتهم ، ولم نعادهم إلا لكونهم حادوا الله وعادوه وكفروا به وبدينه .

٢- أن المصلحة الحقيقة في الالتزام بهذه العقيدة والشعيرة بل وفيها من أسباب ظهور الدين وعزته ودخول الناس فيه ما ليس في تركها .

ولهذا الأصل أمثلة كثيرة منها قصة محيصة حين قتل ابن سنينه اليهودي وكانت سبب في إسلام أخيه حويصة حين قال لو أمرني الرسول ﷺ بقتلك لفعلت.

كذلك اليهود ذلت وخنعت وهابت المسلمين وعظمتهم منذ أن قتل كعب ابن الأشرف وكان مشركي مكة يكفون عن أشياء مؤذية للمسلمين خشية هجاء حسان بن ثابت ولم يكن منهم من يستقبل كعب بن الأشرف لما ذهب لمكة كان كلما نزل عند أهل بيت هجاهم حسان فيخرجونه حتى لم يبق بيت بمكة يؤيه.

قال ابن تيمية :" وإذلال المسلمين لأهل الكتاب وأخذ الجزية منهم فهذا قد يكون داعياً له أن ينظر في اعتقاده ، هل هو حق أو باطل حتى يتبين له الحق " المجموع ١٨/ ٢٩٣.

٣- أن معاداة الكفار تجب بسبب ما يحملونه من معاداة الله ومعاندته.

السادسة عشرة:أن موالاة الكفار أمر لابد منه سياسة ومداراة لكي لايتسلطوا علينا ولنسلم من كيدهم وبطشهم التودد لهم يحقق خيرات ومصالح متعددة.

والجواب :

١- أن هذه الشبهة دائمة التجدد بألوان مختلفة وصور متنوعة وكثيراً ما يلبسها أصحابها بثوب النصح والشفقة وليست بجديدة وقد ذكرها الله لنا عن هؤلاء المنافقين فإذا طلب منهم أن يدعوا موالاة الكفار لأن فيها ﴿ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الأنفال: ٧٣، بل ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ البقرة: ١١ ، فالله ﷻ أخبر أن في موالاة الكفار فساد بل وفساد كبير زعموا أنهم يريدون الإصلاح ، فلم يأتوا بجديد فهم على خطا أسلافهم.

كما أخبر تعالى عنهم أيضاً بقوله ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ المائدة: ٥٢ والمرض هنا هو النفاق والريب والشك والكفر كما قاله السلف والمسارعة فيهم أي المبادرة إلى موالاتهم .

٢- أن الأمر على النقيض من ذلك فإن موالاة أعداء الله تعالى سبب الذل والصغار وأنواع الشرور كما أن معاداتهم ومجانبتهم سبب الغلبة والتمكين والتأييد وحصول الخير .

قال ابن تيمية " والمعتبر بسيرة نور الدين زنكي وصلاح الدين كيف مكنهم الله وأيدهم وفتح لهم البلاد وأذل لهم الأعداء لما قاموا من ذلك بما قاموا به وليعتبر بسيرة من والى النصارى كيف أذله الله تعالى وكبته " المجموع ٢٨/ ٦٤٣

وقال في النبوات : (فمن فر من حكم الله ورسوله أو ارتد عن الإسلام وأبغض شرائعه خوفاً من محذور في عقله أو عمله أو دينه أو دنياه كان ما يصيبه من الشر أضعاف ما ظنه شراً في أتباع الرسول).

السابعة عشرة: النبي ﷺ كان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء:

والجواب : أن محبة الرسول ﷺ لموافقة أهل الكتاب خاص به لأنه يعلم ماعندهم من حق وخير أو باطل وشر وقد نهى أمته عن موافقتهم وأمرهم بمخالفتهم، ويجب علينا أن نعمل بأمره ونهيه .

ثم إن ذلك قد نسخ بالأمر الصريح بمخالفتهم والنهي عن التشبه بهم وموافقتهم، وإخباره ﷺ أنه سيقع في هذه الأمة من سيتبع سنن أهل الكتاب منكرا ذلك ومنفرا عنه .

الثامنة عشرة : أن الموالين للكفار يقولون لا إله إلا الله :

ويرد على هذه الشبهة من وجهين :

أحدهما: أن (لا إله إلا الله) لا تنفع قائلها حتى يعتقد معناها، ويعمل بمقتضاها، ومن أعظم معانيها ومقتضياتها الولاء والبراء ومعاداة الكفار .

الثاني : أن أهل السنة اجمعوا على تكفير من وقع في فعل يناقض الإسلام وعدم انتفاعه بكلمة التوحيد .

التاسعة عشرة : أن موالاة الكفار من الكفر العملي :

١- أن السلف يقصدون بالعملي ما تعلق بالعمل ومنه كفر أكبر ومنه أصغر.

قال ابن القيم في الصلاة: (أما كفر العمل فينقسم إلى ما يضاد الإيمان وإلى ما لا يضاده، فالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبي وسبه يضاد الإيمان).

٢- أن ظاهر القرآن يفيد خروج الموالي للكفار من الملّة ومنها :

قوله تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ آل عمران: ٢٨.

قال الطبري في تفسيرها : (يعني فقد برىء من الله ، وبرىء الله منه ، بارتداده عن دينه ، ودخوله في الكفر) .

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ المائدة: ٥١ .

قال القرطبي في التفسير: أي من يعاضدهم ويناصرهم على المسلمين ، فحكمه حكمهم في الكفر والجزاء، وهذا الحكم باق إلى يوم القيامة، وهو قطع الموالاة بين المسلمين والكافرين) .

٣- أن أصل الحنيفية ملّة إبراهيم عليه السلام التي أمرنا بإتباعها ينقضها موالاة الكافرين ، إذ أنها قائمة على ركنين ، وهما عبادة الله وحده ، والبراءة من المشركين وآلهتهم ، فمن والى المشركين فقد خرج عن دين الأنبياء والمرسلين .

العشرون :اشتراط قصد الكفر في التولي:

تزعم المرجئة أن فاعل الكفر في موالاة الكفار وغيرها من النواقض لا يكفر إلا إذا قصد الكفر وتعمده ، وهذا باطل وفيه تعطيل العمل بالنصوص.

قال ابن تيمية في الصارم : (وبالجملة من قال أو فعل ما هو كُفْر كَفَر بذلك وإن لم يقصد أن يكون كافراً، إذ لا يقصد الكفر أحد إلا ما شاء الله) .

وقال فيه أيضا : (فإن قيل : فقد قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾، قيل وهذا موافق لأولها، فإنه من كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدراً، وإلا ناقض أول الآية آخرها، ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره وذلك يكون بلا إكراه، لم يستثن المكره فقط، بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره ، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعاً فقد شرح بها صدراً وهي كفر).

وقال:(أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل كنا نخوض ونلعب، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام ولو كان الإيمان في قلبه منعه من أن يتكلم بهذا الكلام).

وقال : (ومعلوم أنه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط لأن ذلك لا يكره الرجل عليه... وقال تعالى في حق المستهزئين: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ التوبة: ٦٦ ، فبين أنهم كفار بالقول مع أنهم لم يعتقدوا صحته).

وقال محمد بن عبد الوهاب في أنه لا يشترط في تكفير المرتد علمه بأن ما عمله ينقض الدين : (وأما كونه لا يعرف أنها تكفره فيكفي فيه قوله : ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ ، فهم يعتذرون من النبي ﷺ ظانين أنها لا تكفرهم).

الحادية والعشرون : قولهم إن المحرم في التشبه إذا قصد المتشبه التشبه بهم :

وهذا باطل فالنهي عن التشبه جاء عاما ولم يخصص بوجود قصد التشبه، ثم إن علل تحريم التشبه موجودة في الحالين فيمن نوى المشابهة وفيمن لم ينوها .

قال ابن تيمية:" ما نهى عنه من مشابهتهم يعم ما إذا قصدت مشابهتهم أو لم تقصد ، فإن عامة هذه الأعمال لم يكن المسلمون يقصدون المشابهة فيها، وفيها ما لا يتصور قصد المشابهة كبياض الشعر). اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٧٣ .

الثانية والعشرون : الجمع بين تحريم القتال في سبيل الوطن، ووجوب الدفاع عن ديار المسلمين وكذا مشروعية القتل دون المال والعرض.

لا تعارض لأن هناك فرق بين حب الأوطان والحنين إليها وهو مشروع، وبين أن يعقد الولاء والبراء على أساس الانتماء للأوطان ، فمكة كانت أحب البقاع إلى الرسول ﷺ، ولكن الله أحب ، ولما حصل الاختيار بين الإقامة في الوطن وبين الهجرة إلى الله آثر مرضاة الله تعالى والهجرة إليه، واقتدى به الصحابة والمؤمنون بعدهم .

كما أن هناك فرق بين أن يقاتل دفاعا عن شيء في سبيل الله وإعلاء كلمته، وأن يقاتل دفاعا عن شيء في سبيل هذا الشيء وحمية له من دون أن يرد الأمر إلى الله ، فالأول هو الذي شرعه الله ، وأما الثاني فهو باطل وشرك لأنه يتضمن صرف الأعمال لغير الله، بحيث يكون الوطن غاية تصرف في سبيله الأعمال ،فيعيش عبد الوطن له ويموت له ويوجب له ويحرم له فيقول عابده واجب وطني وشهيد الوطن وخدمة الوطن وهذا لا يشرع لما يتضمن من إشراك الأوطان مع الله تعالى في الإرادة وصرف العمل ، فتصير بذلك الوطنية دين يقوم على عبادة الوطن.

الناقض التاسع

اعتقاد سعة الخروج عن الشريعة

قال المصنف رحمه الله :

(العاشر :الإعراض عن دين الله ، لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل :قوله تعالى:
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ السجدة: ٢٢).

تمهيد : هذا الناقض له علاقة بأربعة أبواب من أبواب الدين :

الأول : توحيد المتابعة الواجب للرسول ﷺ ، الذي اقتضته (شهادة أن محمدا رسول الله) ، وركن الإيمان بالنبوات والأنبياء والرسالات ، فهذا الناقض يبطلها.

الثاني : حقيقة الإسلام الذي أوجب الله علينا امتثاله والعمل بـه وخـصنا بـه وجعل اتباعه واجب على كل الثقلين، وبيان شريعته التي لا يسعنا الخروج عنها .

الثالث : الانقياد للدين وعدم الامتناع والإعراض والتولي عنه ، وسيأتي بيانـه في الناقض القادم العاشر ناقض الإعراض .

الرابع : الاستحلال وشرك الحكم والطاعة ، وتقدمت مسائله والكلام عنه في الناقض الرابع ناقض الهدي والحكم وشيء منه في ناقض البغض .

وسنأتي في شرحنا لهذا الناقض ببيان الباب الأول والباب الثـاني ، بعـد تجليـة هذا الناقض وحقيقته وأدلة كفر فاعله وأوجه الكفر فيه والطوائف الواقعة فيه .

أما الباب الثالث والرابع فقد ذكرتهما في موضعها من هذا الشرح .

المسألة الأولى المراد بهذا الناقض :
من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع نبينا محمد ﷺ وأنه يسعه الخروج عن شريعته دين الإسلام كما وسع الخضر عليه السلام الخروج عن شريعة موسى عليه السلام.
فائدة:معنى يسعه الخروج ودليله:
السعة ضد الضيق والتحجير ، فيقال الأمر فيه سعة وواجب موسع ومضيق.
ويدل له حديث: (ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني) رواه أحمد والنسائي.
ومعنى الخروج العمل بغيره وعدم الانقياد له .
فلا ملة غير ملة الإسلام ولا شريعة غير دين محمد ﷺ ولا يقبل الله غير ذلك.
تنبيه:لا فرق بين كون المعتقد لهذا الناقض أن يرى هذه الصفة لنفسه أو لغيره.
تنبيه : لا فرق بين من اعتقد وتيقن أو ظن أو شك في الوقوع في الكفر.
مسألة : اشتمال الناقض على قسمين :
الأول : من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ .
الثاني : من اعتقد أو ظن أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة الإسلام .
وأنه لا يلزمه الانقياد للدين والرسول ﷺ .

المسألة الثانية : أدلة هذا الناقض :
يدل على هذا كفر المتلبس بهذا الناقض أدلة كثيرة مختلفة الدلالة عليه منها :
أولاً : الأدلة الموجبة لطاعة الرسول ﷺ والملزمة بإتباعه .
ثانياً: الأدلة الدالة على كفر من تولى عن طاعته وأعرض، وإذا كان الله ﷻ قد كفر المعرض عن العمل بشريعته والمتولي عن طاعته ، فكيف بمن أدعى ما هو أكبر من مجرد التولي، وهو أنه لا يلزمه إتباعه أصلا وانه خارج عن شريعته ويسعه ذلك .
ثالثاً :الأدلة الدالة على أن الدين المعتبر هو الإسلام فلا يقبل الله من أحد غيره، وأنه قد رضيه وأكمله . وأن حقيقته لا تقوم إلا على الانقياد لله ومتابعة رسوله والامتثال لأمره وطاعته والانقياد له .
رابعاً : الأدلة الدالة على كون الرسول ﷺ مرسل إلى جميع الثقلين الأنس والجن وأنه لا نبي بعده فهو خاتم النبيين وأن الوحي والتشريع انقطع بموته .
خامساً: الأدلة الدالة على أن الله ﷻ لم يخلق الخلق إلا لعبادته وطاعة رسله.

وإليك شيئا من الأدلة التفصيلية :

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ الأعراف: ١٥٨.

قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ سبأ: ٢٨.

قال سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الفرقان: ١.

قال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الأحزاب: ٤٠.

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ١١٥.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الحشر: ٧.

قال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ٦٣.

قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الأحزاب: ٢١.

قال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١.

وقال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٣٦.

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٦٤ .

وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣٢.

وقال: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا ﴾ النساء: ١٤.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ الأنفال: ١٣.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ ﴾ المجادلة: ٥.

قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١.

قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣.

قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران: ٣١ .

قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩ .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران: ٨٥.

ومن السنة :

١- قال النبي ﷺ : (والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني من هذه الأمة ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا دخل النار) . رواه مسلم .

٢- وقال ﷺ: (لا نبي بعدي) رواه البخاري .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الأحزاب: ٤٠.

٣- وقال ﷺ في مرض موته : (أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له) رواه البخاري .

٤- وقال ﷺ : (من رغب عن سنتي فليس مني) رواه البخاري .

٥- وقال ﷺ : (وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون) رواه البخاري .

٦- وقال ﷺ لعمر حين أتاه بورقة من التوراة : (لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، والذي نفسي بيديه لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني). رواه أحمد والنسائي.

٧- وقال ﷺ : (كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) رواه البخاري.

٨- قال ﷺ : (صلوا كما رأيتموني أصلي) رواه البخاري.

وقال : (خذوا عني مناسككم) وقال : (ومن توضأ نحو وضوئي هذا) .

وكل هذا دليل على المتابعة في السنة والهدي القولي والعملي .

٩- قال الرسول ﷺ : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ) رواه مسلم .

١٠- وعن عائشة أن أسامة كلم النبي ﷺ في امرأة مخزومية سرقت فقال ﷺ : (إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف والذي نفسي بيده لو أن فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدها) رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية عندهم : (إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد).

١١- ما أخبر الله ﷻ من الميثاق على الأنبياء بإتباع رسولنا ﷺ بأن يؤمنوا به ويتبعوه إن هم أدركوه قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ آل عمران: ٨١.

قال علي بن أبي طالب ﷺ : (ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به وينصرنه).

١٢- أن عيسى بن مريم ﷺ إذا نزل من السماء آخر الزمان لا يعمل إلا بشريعة محمد ﷺ ويكون متبعاً له ولشريعته لا يخرج عنها، ويعمل بما أخبر به الرسول ﷺ من وضع الجزية فلا يقبلها وهذا من أمر الرسول فالعمل بالجزية يكون في هذه الأمة حتى ينزل عيسى فينسخ ويزول ولا يعمل به لأن أهل الذمة اليهود والنصارى بعد نزول عيسى لا يصير لهم بقية حجة، فيلزمهم الإيمان بمحمد ﷺ بأمر عيسى، وإما أن يعرضوا ويأبوا فيكفروا ويقتلوا كبقية الكفار ولا تقبل منهم جزية.

فوضع الجزية من شريعة محمد ﷺ بالنقل والعقل وليس خروجاً عن شريعته .

الإجماع :

وقد حكى العلماء الإجماع على كفر من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة النبي ﷺ .

قال ابن تيمية: (وطاعة الرسول فيما أمرنا به هو الأصل الذي على كل مسلم أن يتعمده ، وهو سبب السعادة ، كما أن ترك ذلك سبب الشقاوة ، وطاعته في أمره أولى بنا من موافقته فيه باتفاق المسلمين) الفتاوى ٢٢/ ٣٢١ .

المسألة الثالثة : أقوال أهل العلم :

قال ابن تيمية :" فمن لم يؤمن بأن هذا رسول الله إلى جميع العالمين وأنه يجب على جميع الخلق متابعته وأن الحلال ما أحله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه فهو كافر مثل هؤلاء المنافقين ونحوهم ممن يجوّز الخروج عن شريعته ودينه وطاعته " .

وقال :" ومن اعتقد أن لله رجالاً خواصاً لا يحتاجون إلى متابعة محمد ﷺ بل استغنوا عنه كما استغنى الخضر عن موسى عليهما السلام فمن اعتقد أن هؤلاء أولياء الله فهو كافر مرتد عن الإسلام باتفاق أئمة الإسلام ولو كان في نفسه زاهداً عالما " المجموع ١٠/ ٤٣٤ .

وقال :" ومن فضل أحداً من المشايخ على النبي ﷺ أو اعتقد أن أحد يستغني عن طاعة رسوله ﷺ استتب فإن تاب وإلا ضربت عنقه وكذلك من اعتقد أن أحدا من أولياء الله يكون مع محمد ﷺ كما كان الخضر مع موسى فإنه يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه" المجموع ٣/ ٤٢٢ .

وقال: (السنة إذا ثبتت فإن المسلمين كلهم متفقون على وجوب اتباعها) الفتاوى ١٩/ ٨٥ .

وقال: (وطاعة الرسول فيما أمرنا به هو الأصل الذي على كل مسلم أن يتعمده ، وهو سبب السعادة ، كما أن ترك ذلك سبب الشقاوة ، وطاعته في أمره أولى بنا من موافقته فيه باتفاق المسلمين) الفتاوى ٢٢/ ٣٢١ .

قال القاضي عياض في الشفاء :" أجمع المسلمون على تكفير قول بعض الصوفية إن العبادة وطول المجاهدة إذا صفت نفوسهم أفضت بهم إلى إسقاطها وإباحة كل شيء لهم " .

وفي الإقناع للحجاوي وشرحه :" من اعتقد أن لأحد طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ أو لا يجب عليه اتباعه أو أن له أو لغيره خروجا عن إتباعه أو قال أنا محتاج إليه في علم الظاهر دون الباطن أو الشريعة دون الحقيقة أو قال إن من العلماء من يسعه الخروج عن شريعته كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى كفر في هذا كله " .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان : (ومن ظن أنه يستغني عما جاء الرسول ﷺ بما في قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفراً).

وقال في مدارج السالكين : (فلا يكون العبد متحققاً بـ إيّاك نعبد إلاّ بأصلين عظيمين ، أحدهما : متابعة الرسول ﷺ ، والثاني : الإخلاص للمعبود) .

وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية : (فالواجب كمال التسليم للرسول ، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما نوحد المرسِل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل ، فهما توحيدان ، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسِل ، وتوحيد متابعة الرسول ﷺ) .

المسألة الرابعة : محل هذا الناقض :

هذا الناقض من النواقض الاعتقادية في القلب التي يُكفَّر معتقدها ، وهو اعتقاد عدم وجوب متابعة النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا من حيث الأصل إلا أنه تظهر آثاره على الجوارح .

وقد يوجد لها صور عملية كالحصانة الدبلوماسية التي تعتبر صورة عملية لهذا الناقض وتدخل فيه كما سيأتي .

عليه فلا يصح القول بأن هذا الناقض لا يتعلق بعمل الجوارح .

مسألة : من كان حاملا لهذا المعتقد الخبيث الذي هو أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ أو أنه يسعه الخروج عن شريعته .

فإنه كافر حتى ولو خالفه بعمله واتبع النبي ظاهرا ولم يخرج عن شريعته .

فهو مثل من جحد وجوب الصلاة والزكاة وصلى وزكى أو مستحل للخمر ولا يشربه فهو كافر لا شك .

وتقدم بيان ذلك في ناقض البغض وقول المصنف (من أبغض شيئا من الدين كفر حتى ولو عمل به) .

مسألة : الفرق بين معتقد سعة الخروج عن الشريعة والخارج عنها بعمله:

أن المعتقد قد لا يكون تاركا للعمل الظاهر بها لكن يعتقد جواز الخروج عنها.

والثاني يرى وجوب العمل بالشريعة لكنه خارج عنها بعمله بأن يكون معرضا عن العمل بالشريعة ولا يحكم بها ، لكنه لا يعتقد جواز الخروج عن الشريعة ويرى وجوب اتباع النبي ﷺ وهو مع ذلك كافر عندنا مؤمن عند المرجئة.

المسألة الخامسة : أوجه الكفر في هذا الناقض :

١- أن فيه تكذيب لله تعالى ولرسوله ﷺ حيث أخبر الله ورسوله أن محمدا خاتم الأنبياء، وأنه مرسل إلى جميع الثقلين الإنس والجن، وأنه لا نبي بعده فهو خاتم النبيين وأن الوحي والتشريع انقطع بموته ، وأن طاعته واتباعه فرض يكفر تاركه .

٢- أن فيه مناقضة لركن الإيمان بالله ، الذي يقوم على عبادته والعمل بدينه وأمره وطاعة رسوله.

٣- أن مرتكب هذا الناقض قد أبطل شهادته بأن محمداً رسول الله وكفر بالرسالة واللإيمان بالرسل. لأن هذه الشهادة تستلزم الانقياد للرسول ﷺ وإتباعه

وطاعته والعمل بأوامره، بل ولا تقوم هذه الشهادة إلا بهذه الأفعال والأوصاف فهذه الشهادة تقتضيها، وتارك المتابعة كافر بشهادة أن محمداً رسول الله والكافر بها كافر بالله وليس بمسلم ، كما أن الرسول لم يبعث إلا لأجل أن يطاع.

٤- أنه مناقض لمبدأ الإسلام من أصله، لأن الإسلام يقوم على الانقياد للشرع واتباعه والخضوع والاستسلام له ، وهذا الناقض قائم على ترك ذلك ومصادمته وإبطاله بالكلية ، فأي دين يبقى بعد ذلك لصاحبه .

٥- أنه جاحد بدين الله وشرعه ومعترض على كون الإسلام أكتمل وأنه تعالى لا يقبل غيره .

٦- أن فيه تفضيل لغير هدي الرسول ﷺ على هديه وحكمه .

٧- أن فيه إعراض عن التحاكم إلى ما أنزل الله وما شرعه على لسان رسوله .

٨- أن فيه تحليل للحرام وتحريم للحلال واستحلال للكفر.

٩- أن فيه امتناع عن الشريعة وإعراض عنها وهذا كفر عملي .

وإذا كان الله ﷻ قد كفر المعرض عن العمل بشريعته والمتولي عن طاعته فكيف بمن ادعى ما هو أكبر من مجرد التولي، وهو أنه لا يلزمه اتباعه أصلا وأنه خارج عن شريعته ويسعه ذلك ويجوز له.

١٠- أن فيه شك في كفر الكافرين والمرتدين بل وتصحيح لمذهبهم .

وعليه فمن اعتقد جواز الخروج عن الشريعة وظن أنه يسعه ذلك أو ترك العمل بها من غير استحلال فيعد تاركا متابعة الرسول ﷺ وخارجا عن شريعته فهو غير مسلم لأنه لم يستسلم ولم ينقد، كما أنه لم يخضع ولم يذل لله فهو غير عابد له، كما أنه غير موحد ولا أتى بالشهادتين، لأن التوحيد ألا يعبد إلا الله ومن لم يعبد الله لا يعتبر موحدا بل هو كافر تارك للتوحيد وقد سماه الله كافرا مستكبرا .

المسألة السادسة : الشرط الذي فقده صاحب هذا الناقض :

هذا الناقض افتقد فاعله شرط القبول والانقياد من شروط (لإله إلا الله) .

فهو لم ينقد لله ولرسوله ولم يقبل دينه.

المسألة السابعة : علاقة هذا الناقض ببقية النواقض :

هذا الناقض له ارتباط بالنواقض الأخرى ومتداخل مع بعضها :

فله علاقة بالناقض الرابع ناقض الحكم والهدي والتشريع والاستحلال .
وله علاقة بالناقض الثالث عدم تكفير المشركين الخارجين عن الإسلام.
وله علاقة بالناقض العاشر وهو الإعراض عن الشريعة وعدم العمل بالدين.
والفرق بين الناقضين :
أن الأصل في هذا الناقض أنه ناقض اعتقادي .
والأصل في ناقض الإعراض أنه ناقض عملي .

المسألة الثامنة: الأمور الداخلة في الخروج عن الشريعة :

أولا : مما يدخل في الخروج عن شريعة محمد ﷺ مخالفة القرآن وعدم العمل به:

لأن من الانقياد الواجب الانقياد لأحكام القرآن وأوامره والتحاكم إليه وهو في الحقيقة انقياد لله تعالى، لأن القرآن كلام الله وأمره ودينه، كما أن الانقياد للرسول ﷺ يكون بإتباع سنته وأمره، وهو في الأخير انقياد لله .

قال ابن حزم في الإحكام : (لما كان القرآن هو عهد الله إلينا والذي ألزمنا الإقرار به والعمل بما فيه وجب الانقياد لما فيه) .

ومن الأدلة الدالة على وجوب الانقياد للقرآن واتباعه والعمل به وكفر من تولى عنه ونبذه وامتنع عن امتثاله .

١ - قول الله تعالى: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الأنعام: ١٠٦، فجعل اتباع القرآن الذي هو الانقياد والامتثال من لوازم كلمة التوحيد وشروطها .

٢ - وقال: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ الأعراف: ٣.
فأمر سبحانه بالانقياد لكتابه وأن يوحد الله بهذا الانقياد، ونهى عن الشرك فيه بالانقياد لغير الله وطاعة المخلوقين في معصية الله .

٣- وقال: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ ﴾ يونس: ١٠٩ والأمر للرسول أمر لأمته .

٤ - وقال: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ الزمر: ٥٥ .

٥- وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة١٠١.

والنبذ هو بمعنى الترك والامتناع والإعراض والإباء والخروج عن العمل به ، وقد ذمهم الله وكفّرهم بذلك .

ثانيا: السنة :

ترك سنة الرسول ﷺ والاكتفاء بالقرآن كما عليه مذهب القرآنيون داخل في الخروج عن الشريعة .

مسألة : اتباع القرآن يستلزم اتباع السنة واتباع السنة لا يتم إلا بفهم السلف وهذا صلب منهج أهل السنة والجماعة .

ثالثا: الإجماع :

مما يدخل في الخروج عن شريعة الرسول ﷺ مخالفة الإجماع المعتبر الصحيح المستقر الثابت وأقوال الصحابة .

فيجب اتباع هدي الصحابة وسلوك طريق السلف .

المسألة التاسعة : مزايا شريعة محمد ﷺ :

١- أنها ناسخة لجميع الشرائع .

٢- أنها تلزم الثقلين اتباعها والعمل بها وامتثالها والانقياد لها .

ولذلك اليهود والنصارى لا يقبل منهم ما يتدينون به غير الدخول في الإسلام وهم كفار من الخالدين في النار إذا لم يتبعوا محمد ﷺ ومن شك في كفرهم فهو كافر ومن صحح دينهم كما هو حال بعض الجهال فهو أشد كفراً وذلك بنص القرآن والسنة .

والأشد من هؤلاء كفراً الصوفية الزنادقة الذين يوسعون لزنادقتهم الخروج عن الشريعة .

ومثلهم القانونيون الذين يعرضون عن الشريعة .

وانقسمت أمة محمد ﷺ إلى قسمين :

١- أمة الإجابة :وهي التي استجابت للرسول ﷺ وأطاعته وآمنت به وهم المسلمون .

٢- أمة الدعوة : وهي التي لم تقبل ولم تستجيب للدعوة وهؤلاء هم الكفار بطوائفهم .

وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث الإسلام .

المسألة العاشرة : الطوائف الواقعة في الناقض :

١- غلاة الصوفية . وهم يزعمون أن العبادة تبلغ بهم إلى درجة تزول فيها عنهم العبادات ، وتباح لهم المحظورات ، وهم المراد في كلام المصنف.

قال ابن حزم في الفصل : (ادعت طائفة من الصوفية أن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وأن من بلغ الغاية من الولاية سقطت عنه الشرائع وحلت له المحرمات).

قال ابن تيمية : (ومن هؤلاء من يستحل بعض الفواحش .. من يظن أن الاستمساك بالشريعة أمراً ونهياً إنما يجب عليه ما لم يحصل له من المعرفة والحال ، فإذا حصل له لم يجب عليه حينئذٍ الاستمساك بالشريعة النبوية ، بل له حينئذٍ أن يمشي مع الحقيقة الكونية القدرية، أو يفعل بمقتضى ذوقه ووجده وكشفه ورأيه من غير اعتصام بالكتاب والسنة وكثير من هؤلاء يحتج بقصة موسى والخضر) الفتاوى ١١/ ٤١٨ .

٢- الباطنية والفلاسفة : الذين يرون أن للشريعة ظاهر وهو ما عليه الناس والعامة ، وباطن وهو ما هم عليه من الاستحلال لكل ما حرم الله .

قال ابن تيمية : (إن الباطنية شرٌ من المنافقين ، لأن المنافقين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، ومع هذا لا يدعون أن الباطن الذي أبطنوا هو الإيمان ، أما الباطنية فهم يدعون أن الباطن هو حقيقة الإيمان ، فهم يجمعون بين إبطان الكفر ، وبين دعواهم أن ذلك الباطن هو الإيمان ، فلا يظهرون للمستجيب لهم أن الإيمان بالباطن الذي يقولون به ، وينادون عليه ، أن ذلك يعتبر طعناً في الرسول ،وتكذيباً له ، بل إنهم يجعلون ذلك من كمال الرسول ، وتمام حاله) الظاهر والباطن ٢٤٨ .

والفرق بين الطائفتين:

أن الصوفية يقولون إن العبد يصل إلى درجة الكشف واليقين والصفاء فيسقط عنه التكاليف.

أما الباطنية فيفسرون التكاليف والفرائض والعبادات بتأويلات باطنية تخالف مقصودها وظاهرها وحقيقتها.

وسنأتي على أقوالهم وحجتهم وكلام أهل العلم فيهم .

٣- القاديانية والبهائية والبابية ، وقعت في هذا الناقض حيث ترى هذه الطوائف الكافرة أن مؤسسيها أنبياء لهم شرائع نسخت شريعة محمد ﷺ.

٤- العلمانيون : القائلون أن الشريعة غير صالحة في الحكم بها في مسائل الاقتصاد والمعاملات والسياسة .

وهؤلاء أشبه ما يكون حال كفرهم بحال كفار مدين الذين قالوا لشعيب : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ﴾ هود: ٨٧.

٥- كذلك يوجد هذا الناقض عند الأشراف والأمراء الذين جاء الحديث فيهم بأنهم (إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد)، وقد وصل الحال بهؤلاء أن يضعوا لمهلكهم هذا قانونا متبعا، فابتدعوا ما أسموه بالحصانة الدبلوماسية والتي لا تقيم الحدود على من يتمتع بهذه الصفة من الرؤساء والكبراء .

٦- اللبراليون والدعاة إلى الحرية المطلقة فأتوا بالكفر وخرجوا عن الشريعة باسم الحرية والتعبير عن الرأي في الصحافة والإعلام وغيره ، فسبحان الله حين يترك من يقول الكفر أن يقول ما يشاء ويفعل ما يريد من الإلحاد والردة حتى أنه لا يقام عليه حد الردة بدعوى الحرية في الرأي بينما لا يعطى الحرية في دينهم المسلمون.

٧- العصرانيون القائلون أن تفسير العلماء والسلف للشريعة لا يلائم زماننا وأن النصوص لابد من أعادة صياغتها وأن الشريعة لا بد أن تفسر بتفسير عصري يواكب مصالح العصر.

٨- المشرعون والقانونيون الحاكمون بغير ما أنزل الله ، ومنهم من يقول الحكم بالشريعة ليس بواجب علينا وإنما الواجب عبادة الله في الضمائر والقلوب والتنسك أما السياسات والمعاملات فليست تعبدية .

٩- المبتدعة حين أتوا بمحدثات استدركوا بها على الدين وخرجوا من اتباع السنة والعمل بها .

١٠- المتكلمون والمناطقة والعقلانيون حين قدموا الكلام والعقل على السنة والأحاديث والأخبار وأخرجوا العقائد فلم يقبلوها من الرسول ﷺ.

١١- القرآنيون : الذين يرون أنه لا يلزمهم اتباع السنة وقد أخبر عنهم الرسول ﷺ بقوله : (لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه) رواه أبو داود والترمذي والحاكم .

وفي رواية عند أبي داود: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه).

وفي رواية عند الترمذي: (ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله).

وفي رواية : (يقول حسبنا ما وجدنا في كتاب الله) .

يقول عبدالله جكرالوي زعيم فرقة القرآنيين : (إنا لم نؤمر إلا باتباع ما أنزله الله بالوحي ولو فرضنا جدلا صحة نسبة بعض الأحاديث بطريق قطعي إلى النبي ﷺ فإنها لا تكون واجبة الاتباع) . القرآنيون لبخش ٢١٤ .

وقال التستري : (إن الأصل الوحي الإلهي فحسب وهل أمرنا بالبحث عن هذا الوحي في التوراة والإنجيل أو البخاري ومسلم والترمذي أو غيرهم) .

وقد كذب هؤلاء المنافقون بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ الحاقة: ٤٤ - ٤٥ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ النجم: ٣ - ٤

وبقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل: ٤٤. وهل هذا التبيين إلا السنة المطهرة فمن أين لنا في القرآن أن الظهر أربع ركعات والفجر اثنتين وأن كل ركعة فيها ركوع وسجود وغيره، إن إنكار السنة في حقيقته إنكار للدين كله من الصلاة وما دونها وهذا القول ردة صريحة والعياذ بالله .

وكذبوا بقول الرسول ﷺ : (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه)

١٢- دعاة الحوار بين الأديان والتقريب بينها . وكذا من يزعم أن اليهود والنصارى على دين صحيح ولا يلزمهم اتباع النبي ﷺ ويسعهم الخروج عن دينه، ويكفر بقوله ﷺ:" والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني من هذه الأمة ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا دخل النار " رواه مسلم .

وقد فصلنا الكلام عنهم في شرح الناقض الثالث .

المسألة الحادية عشرة : أعظم من وقع في هذا الناقض : غلاة الصوفية :

وذلك بقولهم من بلغت رتبته إلى درجة الولاية وبلغ اليقين وأنكشفت له الحقائق سقطت عنه التكاليف والشرائع والأمر والنهي وأبيحت له المحرمات ولم يطالب بالواجبات ويستدلون على كفرهم هذا بقوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ الحجر: ٩٩.

وحرفوا الآية فاليقين في الآية الموت ، وعندهم اليقين درجة الكشف .

وقال ابن تيمية :(وأما استدلالهم بقوله تعالى:﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ ويقولون معناها أعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة فإذا حصل ذلك سقطت العبادة وهذه الآية عليهم لا لهم قال الحسن البصري : إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت لأن اليقين هنا هو الموت) المجموع ١١/ ٤٠٥ .

وتذرعوا لإسقاط التكاليف بتقسيمهم الدين والعلم إلى ظاهر للعامة وباطن للخاصة وعلم الشريعة للعوام وعلم الحقيقة للخواص والأولياء.

ومن معاني الحقيقة عندهم الأخذ عن الله مباشرة بلا واسطة وعلى الكشف والذوق والعلم اللدني وأي هدم للدين فوق هذا، وأي تقليل للشريعة وانتقاص لها وصرف للناس عنها وعن طلب علمها بعد هذا، والأولياء في عقيدتهم الكافرة لا يلزمهم إذا بلغوا أعلى الرتب إتباع الرسول والعمل بالشريعة فلهم طريقة خاصة بهم ويستدلون لذلك بقصة الخضر مع موسى وقول موسى للخضر ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ الكهف: ٦٦ فطلب منه علم الحقيقة والخضر ولي ووسعه الخروج عن شريعة موسى :

ولا شك أن قائل مثل ذلك زنديق كافر مبطل للشريعة والنبوة معاً.

بل من شك في كفر هؤلاء فهو كافر مثلهم .

وإليك كلام أهل العلم في كفر هذه الطائفة الكافرة الخبيثة :

قال القرطبي المالكي عن شيخه أبي العباس : (ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريق تستلزم هدم هذه الأحكام الشرعية فقالوا هذه الإحكام إنما يحكم بها الأغبياء والعامة وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب) الجامع ١١/ ٤٠ كما نقله عنه ابن حجر في الفتح .

وقال البقاعي الشافعي : (ولا حجة لهم في قصة الخضر مع موسى وأين هي من دعاويهم وهي مصادمة للقواطع ومن صادمها انقطعت عنقه ولو بلغ في الزهد والعبادة الغاية فهي وجوه خاشعة تصلى ناراً حامية لو وقعت منهم الخوارق فإنها شيطانية) تكفير ابن عربي ٢١ .

وقال ابن أبي العز الحنفي : (وأما من يتعلق بقصة الخضر عليه السلام في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني الذي يدعيه من حرم التوفيق فهو ملحد زنديق ، فإن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثا إلى الخضر ولم يكن الخضر مأمورا من الله بمتابعته ولهذا قال له أنت موسى بني إسرائيل قال نعم ، ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، ولو كان موسى وعيسى عليهم السلام حيين لكانا من أتباعه وإذا نزل عيسى إلى الأرض إنما يحكم بشريعة محمد ﷺ - وقال ﷺ لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي- فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى أو جوز ذلك لأحد من الأمة فليجدد إسلامه وليشهد شهادة الحق فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية فضلا أن يكون من أولياء الله وإنما هو من أولياء الشيطان) شرح الطحاوية ٥٧٧ .

وقال ابن حزم : (ادعت طائفة من الصوفية أن في أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسُل ، وقالوا : من بلغ الغاية من الولاية سقطت عنه الشرائع كُلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك ، وحلت له المحرمات كلها من الزنا والخمر وغير ذلك، واستباحوا بهذا نساء غيرهم) الفصل ٤ / ٢٢٦ .

وقال ابن تيمية : (وطائفة يظنون أن الخواص من الأولياء يستغنون عن متابعة محمد ﷺ كما استغنى الخضر عن متابعة موسى ، وجهل هؤلاء أن موسى لم يكن مبعوثا للخضر ومحمد ﷺ رسول إلى كل أحد ظاهرا وباطنا، ثم مع أن قضية الخضر لم تخالف شريعة موسى بل وافقتها ولكن الأسباب المبيحة للفعل لم يكن موسى يعلمها فلما علمها تبين أن الأفعال توافق شريعته ولا تخالفه - وليس فيها ما عند هؤلاء من إباحة المحرمات وترك الواجبات-) الفتاوى ١١/ ٤٢٦،٦٠٧ .

وقال في العبودية : (من ظن أن الخضر أو غيره سقط عنه الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك كان قوله هذا شرا من أقوال الكافرين بالله ورسوله) .

وقال في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: (فلفظ الشرع والشريعة إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحدٍ من أولياء الله، ولا لغيرهم أن يخرج عنه، ومن ظن أن لأحدٍ من أولياء الله طريقاً إلى الله غير متابعة محمد ﷺ باطناً وظاهراً فلم

يتابعه باطناً وظاهراً فهو كافر، ومن احتج في ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غالطاً من وجهين :

أحدهما : أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا كان على الخضر اتباعه، فإن موسى كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل، وأما محمد ﷺ فرسالته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس، ولو أدركه من هو أفضل من الخضر كإبراهيم وموسى وعيسى، وجب عليهم اتباعه ، فكيف بالخضر سواءً كان نبياً أو ولياً ، ولهذا قال الخضر لموسى : (أنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه) وليس لأحدٍ من الثقلين بلغتهم رسالة محمد ﷺ أن يقول مثل هذا .

الثاني : أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى عليه السلام ، وموسى لم يكن علم الأسباب التي تُبيح ذلك ، فلما بينها له وافقه على ذلك).

وقال: (ومن هؤلاء من يستحل بعض الفواحش ، كاستحلال مؤاخاة النساء الأجانب ،والخلو بهن، زعماً منه أنه يحصل لهن البركة بما يفعله معهن، وإن كان محرماً في الشريعة ، وكذلك يستحل ذلك من المُردان ، ويزعم أن التمتع بالنظر إليهم ، ومباشرتهم ، هو طريق لبعض السالكين حتى يترقى من محبة المخلوق إلى محبة الخالق ، ويأمرون بمقدمات الفاحشة الكبرى ، وقد يستحلونها) الفتاوى ١١/ ٤٠٥ .

وقال كذلك : (ومن هؤلاء من يظن أن الاستمساك بالشريعة أمراً ونهياً إنما يجب عليه ما لم يحصل له من المعرفة أو الحال ، فإذا حصل له ، لم يجب عليه حينئذٍ الاستمساك بالشريعة النبوية ، بل له حينئذٍ أن يمشي مع الحقيقة الكونية القدرية ، أو يفعل بمقتضى ذوقه ووجده وكشفه ورأيه ، من غير اعتصام بالكتاب والسنة ، وهؤلاء منهم من يعاقب بسلب حاله حتى يصير منقوصاً عاجزاً محروماً ، ومنهم من يعاقب بسلب الطاعة حتى يصير فاسقاً ، ومنهم من يعاقب بسلب الإيمان حتى يصير مرتداً منافقاً أو كافراً معلناً ، وهؤلاء كثيرون جداً ، وكثير من هؤلاء يحتج بقصة موسى والخضر) الفتاوى ١١/ ٤١٨ .

وقال:(حتى انتهى الأمر بالقرامطة الباطنيين إلى إبطال الشرائع المعلومة كلها ، كما قال رؤساؤهم: قد أسقطنا عنكم العبادات فلا صوم ولا صلاة ..) ٥/ ٥٥٢ .

وقال في رسالة الظاهر والباطن : (إن الباطنية شرٌ من المنافقين ، لأن المنافقين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، ومع هذا لا يدعون أن الباطن الذي أبطنوا هو الإيمان ، أما الباطنية فهم يدعون أن الباطن هو حقيقة الإيمان ، فهم يجمعون بين

إبطان الكفر ، وبين دعواهم أن ذلك الباطن هو الإيمان ، فلا يظهـرون للمستجيب لهم أن الإيمان بالباطن الذي يقولون بـه ، وينـادون عليـه ، أن ذلـك يعتـبر طعنـاً في الرسول ،وتكذيباً له ، بل إنهم يجعلون ذلك من كمال الرسول ، وتمام حاله)٢٤٨ .

وإليك شيء من كلامهم وزندقتهم لعائن الله عليهم إلى يوم الدين :

في حلية الأولياء: (عجبت لمن عرف الله كيف يعبده .. اطلع الله عـلى قلـوب أوليائه فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة) .

قال عبد الوهاب الشعراني: (ومنهم سيّدي الشريف المجذوب ، وكـان رضي الله عنه يأكل في نهار رمضان، ويقول: أنا معتـوق، أعتقنـي ربي) طبقـات الـصوفية ٢/ ١٥٠ .

وقال كذلك في طبقاته : (سيّدي بركات الخياط مدحتـه للـشيخ جمـال الـدين الصائغ مفتي الجامع الأزهر وجماعة ، فقالوا : امضوا بنا نزوره ، وكـان يـوم جمعـة ، فسلّم المؤذن على المنارة ، فقالوا : نصلي الجمعة ،فقـال : مـالي عـادة بـذلك،فأنكروا عليه،فقال : نُصلي اليوم لأجلكم) .

قال الداعي الطيبي الإسماعيلي : (أن الحلال هو الواجب إظهـاره وإعلانـه ، والحرام هو الواجب ستره وكتمانه ، فالصلاة : هي صلة الداعي إلى دار السلام بصلة الأبوة في الأديان إلى الإمـام ، والزكـاة : إيـصال الحكمـة إلى المستحق ، والـصوم : الإمساك عن كـشف الحقـائق لغـير أهلهـا ، والحـج : القـصد إلى صـحبة الأئمـة ، والإحرام : الخروج من مذهب الأضداد ، وأما الزنا :فهو اتصال المستجيب من غـير شاهد ، والربا : الرغبـة في الإكثـار ، وطلـب الحطـام ، وإفـشاء الأسرار ، والمـسكر الحرام : ما يصرف العقل عن التوجه إلى طلب معرفة الإمـام) . (الدسـتور ودعـوة المؤمنين للحضور ٧٠) .

وقال الداعي مصطفى غالب الإسماعيلي : قال سنان (إن الإنسان متى عـرف الصورة الدينية فقد عرف حكم الكتاب،ورفع عنه الحساب ، وسقط عنه التكـاليف وسائر الأسباب) شيخ الجبل الثالث ١٤١ .

نقل الديلمي رحمه الله في بيان مذهب الباطنيـة نقـلاً عـن (تأويـل الـشريعة) للمعز الباطني : تأويلهم قوله ﷺ (لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل) قال لعنه الله : (لا جماع إلا بذكر وهو الولي وخصيتين وهما شاهدا عدل)٥٤ .

المسألة الثانية عشرة : احتجاج الصوفية بالخضر وخروجه عن شريعة موسى وبيان فساد استدلالهم :

الجواب عن استدلال الصوفية هذا من عدة أوجه :

١- أن الخضر ﷺ كان نبياً يوحى إليه وقياس الولي عليه قياس مع الفارق إذ الولي لا يوحى إليه . وكيف يكون أعلم من النبي وعنده من علم الله ما ليس عند رسول الله موسى ﷺ ولا يكون نبيا .

٢- أن الخضر ﷺ لم يكن مأموراً بإتباع موسى ﷺ ولا كان موسى مأموراً بدعوة غير بني إسرائيل لشريعته إلا التوحيد .

٣- أن موسى ﷺ كان رسولاً لفرعون بالدعوة له بالتوحيد ونبياً لبني إسرائيل في الشريعة ولم يكن دعوته للناس كافة أما محمد ﷺ فهو رسول إلى الناس كافة بنص القرآن والسنة كما قال ﷺ : (كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) رواه البخاري.

٤- أن الذي فعله الخضر ﷺ ليس محرماً بل بوحي من الله وسبب أظهره الله لنا في كتابة فليس محرماً بل هو موافق لشريعة موسى وشريعتنا لا كما تزعم الصوفية وأن المحرمات أبيحت لهم لعنهم الله .

٥- أن محمد ﷺ رسول للناس كافة ولا يخرج عن إتباعه وشرعه إلا كافر زنديق وهو آخر الرسل والأنبياء وانقطع الوحي بموته ومن خالف هذا المعتقد فقد كفر .

وعلى هذا فزعم الصوفية واستدلالهم على أن من الأولياء من له الخروج عن من شريعة محمد ﷺ بقصة الخضر وخروجه عن شريعة موسى وهو من الأولياء الذين شاهدوا الحقيقة الكونية والإرادة الربانية . باطل لا شك .

قال ابن تيمية : (وأما احتجاجهم بقصة موسى والخضر فيحتجون بها على وجهين :

أحدها: أن الخضر كان مشاهداً الإرادة الربانية والمشيئة الإلهية العامة وهي الحقيقة الكونية فلذلك سقط عنه الملام فيما خالف فيه الأمر والنهي الشرعي .

الثاني : أن من هؤلاء من يظن أن من الأولياء من يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية) الفتاوى ١١/ ٤٢٠.

مسألة : التعريف بالخضر :

أولا : موارد ذكره : والأحاديث الواردة فيه :

ذكر الخضر في قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ الكهف: ٦٥ - ٦٦ .

قال ابن عباس حدثنا أبي ابن كعب قال: قال ﷺ : (أن موسى عليه السلام لقي الخضر وهو مسجّى بثوبه عند الصخرة، فسلم عليه موسى، فكشف الثوب عن وجهه وقال الخضر: هل بأرضي من سلام - وفي رواية: وأنّى بأرضك السلام - من أنت؟ فقال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل، قال: نعم، قال: ما شأنك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشدا، قال : أما يكفيك أن التوراة بيدك وأن الوحي يأتيك يا موسى، إني لي علما لا ينبغي لك أن تعلمه وإن لك علما لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال: ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر، وفي رواية (قال هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً قال إنك لن تستطيع معي صبراً ، يا موسى إني على علم من علم الله علمينه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمك لا أعلمه) رواه البخاري ومسلم

وقال الرسول ﷺ لما فارقه ولم يصبر مع الخضر : (وددنا أن موسى صبر حتى يقص علينا من أمرهما) .

وسبب حصول هذه القصة بين النبيين موسى والخضر: أنه لما سأل بعض بني إسرائيل موسى قال أي الناس أعلم فقال موسى أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك " وفي رواية " بلى عبدنا خضر " فكان من شأنهما الذي قص الله في كتابه الحديث .

والشاهد أن الخضر على علم من علم الله ولم يكن من قوم موسى بدليل قوله: (موسى نبي إسرائيل) ، وهذا دليل على أن موسى رسول لبني إسرائيل لا لغيرهم فلا يلزم غيرهم اتباعه وإن كان يلزمهم التوحيد، وقد دعا فرعون إلى التوحيد وأن يرسل معه بني إسرائيل ولم يدعه إلى اتباع شريعته إلا التوحيد وهو دين جميع الرسل.

ثانيا : الخضر اختلف في نسبه فقيل من ذرية سام ، وقيل من ذرية إبراهيم، وقيل من إسحاق من الروم، وأقوال أخرى لا دليل عليها ، المهم أنه ليس من بني إسرائيل بنص كلامه .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح : (والخضر قد أُختلف في اسمه ، وفي اسم أبيه، وفي نسبه ، وفي نبوته ، وفي تعميره) .

والعلماء مختلفون فيه على أربع أقوال :

الأول : أنه نبي، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ الكهف: ٨٢ .

وهذا هو قول جمهور أهل السنة.

الثاني : أنه رسول، واستدلوا بحديث قصة موسى مع الخضر وفيه : (هو اعلم منك) رواه البخاري ، واختاره ابن حجر في الفتح (٢١٩/ ١) .

الثالث : أنه ولي ، وقالوا: إن عمل الخضر إلهام من الله على ولايته ، واستدلوا بما روى عنه ﷺ: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) رواه الترمذي بسند ضعيف .

وهذا قول الصوفية . ووافقهم القرطبي وابن الصلاح وابن حجر .

ومما يزيد الصوفية شناعة زعمهم أن الخضر من أبناء أدم وأنه لا زال حيا.

الرابع : أنه مَلَك ، ذكره النووي في شرح مسلم وابن حجر في الزهر النضر والشنقيطي في أضواء البيان ولم ينسبوه لأحد .

ثالثا : الخضر الصحيح أنه نبي من الأنبياء يوحي إليه : وإليك الأدلة :

١- قوله تعالى ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ الكهف: ٨٢.

٢- من أين للخضر أن يقتل غلاما لو لم يكن بوحي وهل يوحى لغير الأنبياء . فلم يفعل إلا ما أمر به وهذا ما نص عليه في قوله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ الكهف: ٨٢.

٣- كيف يكون الخضر أعلم من النبي وعنده من علم الله ما ليس عند رسول الله موسى ولا يكون نبيا . وكيف يكون النبي تابعا لغير نبي .

٤- قوله تعالى عنه: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ الكهف: ٦٥ والرحمة والعلم الذين أوتيهما الخضر هما الوحي .

٥- كيف للخضر لو لم يكن نبيا أن يطلب مفارقة موسى بقوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ الكهف: ٧٨ ويصاحب الخارجين عن الشريعة وكيف له أن يترك جهاد الكفار وحضور الجماعات إلى الذهاب للقفار والفلوات، فهذا طعن لايخفى .

رابعا : الخضر مات وليس حياً كما زعمت الصوفية :

ومما يدل لذلك :

١- قولــه تعــالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٤، فلفظة (لبشر) نكرة جاءت في سياق النفي فهي عامة لكل البشر .

٢- قوله ﷺ يوم بدر: (اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض) رواه مسلم .

فلو كان الخضر موجوداً وحياً لكان ممن يعبد الله في الأرض يوم بدر ولما صح هذا الدعاء لوجود من يعبد الله غير أصحاب الرسول ﷺ فلزم موته .

٣- قوله ﷺ لأصحابه يوم الحديبية : (أنتم خير أهل الأرض) رواه البخاري.

فلو كان الخضر حياً لكان خيراً منهم ، وإلا لزم تفضيل غير الأنبياء عليهم .

٤- قوله ﷺ عن موسى عليه السلام : (رحم الله موسى لوددنا لـو كـان صـبر حتـى يقص علينا من خبرهما) رواه البخاري .

فلو كان الخضر حياً لما حسن هذا التمني ، ولأحضره ﷺ واستمع منه .

٥- قوله ﷺ في آخر حياته : (أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد) متفق عليه .

فلم يبق بعد مائة سنة من تلك الليلة من البشر أحد عليها . ولـو كـان الخضر حياً لدخل في مضمون هذا الحديث .

٦- أنه لو كان الخضر حيا للزمه مبايعة الرسـول ﷺ واتباعـه ونـصرته بـنص الآية في بيان ميثاق النبيين في قولـه تعـالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ آل عمران: ٨١.

وقوله ﷺ : (لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي) رواه النسائي . فكيـف بالخضر !!، ولم يثبت أنه جاء للنبي ﷺ مُبايعاً ولا مناصراً .

قال علي وابن عباس : (ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثـاق لـئن بعث الله محمدا وهو حي ليؤمنن به وينصرنه) .

ولما لم يثبت مجيؤه دل على عدم وجوده .

قال ابن كثير: (فالخضر إن كان نبيا أو وليا فقد دخل في هذا الميثاق فلـو كـان حيا زمن الرسول ﷺ لكان بين يديه يؤمن به وينصره) البداية ١/ ٣٣٤ .

٧- أن الخضر لو كان حيا منذ خلقه إلى آخر الدهر لجاء به الخبر الصحيح كـما جاء عن الدجال ويأجوج ومأجوج والأنبياء .

أما ما استدل به من قال أن الخضر لازال حيا ولم يمت:

بقوله ﷺ في الدجال: (لعله أن يدركه بعض من رآني أو سمع كلامي) رواه ابن حبان .

وقول علي ابن أبي طالب ﷺ : (لما توفي النبي ﷺ وسُجي بثوب ، هتف هاتف ... فكانوا يرون أنه الخضر) ذكره ابن عبد البر في التمهيد .

فهي وغيرها مما ورد في حياته أحاديث مكذوبة :

قال ابن القيم في المنار المنيف : (والأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته كلها كذب ولا يصح في حياته حديث واحد) .

وقال ابن الجوزي في الموضوعات عن أحاديث الخضر هذه الأحاديث باطلة .

قال ابن كثير : (هذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جدا لا تقوم بمثلها حجة في الدين) البداية ١/ ٣٣٤ .

وقال في تفسيره : (وجاء ذكره في بعض الأحاديث ولا يصح شيء من ذلك).

وقال ابن حجر عن أبي الخطاب بن دحية : (ولا يثبت اجتماع الخضر مع أحد الأنبياء إلا موسى كما قص الله تعالى من خبرهما وجميع ما ورد في حياته لا يصح منها شيء باتفاق أهل النقل) الزهر النضر في حال الخضر ٣٢ .

عليه فالعقيدة في الخضر أنه نبي من الأنبياء زمن موسى وأنه ليس مجرد ولي، وأنه لم يكن على شريعة موسى ولا هو متبع له، وموسى أفضل منه، وأنه قد مات .

المسألة الثالثة عشرة : الصور المعاصرة لهذا الناقض :

أولا : الحكم بغير ما أنزل الله وتشريع القوانين الوضعية وتعطيل العمل بالشريعة والخروج عنها.

ثانياً : أرباب الحصانة الدبلماسية .

ثالثاً: قام بهذا الناقض العلمانيون والليبراليون والحداثيون والعصرانيون والقانونيون وغيرهم من الزنادقة المعاصرون : الذين يزعمون أنه لا يلزمهم اتباع شريعة محمد ﷺ وأن شريعته لم تعد يصلح الحكم بها في هذا الزمان و ينبغي تجنيب السياسة والاقتصاد عنها كما ينبغي ترك إلزام الناس بها فهم أحرار .

رابعاً : غلاة الصوفية القائلون بسقوط التكاليف عن الأولياء.

خامساً : النصارى القائلون محمد ﷺ رسول للعرب فقط.

المسألة الرابعة عشرة : الحصانة الدبلماسية .

تقوم الحصانة الدبلوماسية على إضفاء الحماية ومنح شريحة معينة وهي الطبقة العليا والمتصف بها هم الدبلوماسيين كالملك والحاكم والوزير والقاضي والسفير والصحفي وغيرهم أحكاماً خاصة .

فلا تحاكم هذه الطبقة ولا تحضر مجلس الحاكم الشرعي ولا يحق لخصومهم محاكمتهم ولا للقاضي الحكم عليهم ولا تجري عليهم أحكام العوام .

فلا تقام عليهم العقوبات على جرائمهم ولا الحدود، ولا يخضعون للعقوبة والمساءلة ، فلو قتل لا يقتل ولو سرق أو زنا أو شرب الخمر يترك فلا يقام عليه الحد ولا يسجن . وقد كانت هذه الصفة عند الأشراف والأمراء الذين جاء فيهم الحديث الصحيح: (إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد)، وقد وقع اليهود في تغيير حد رجم الزاني إلى الجلد بسبب كثرة الزنا في أشرافهم .

وقد وصل الحال بهؤلاء أن يضعوا لمهلكهم هذا قانونا متبعا، فابتدعوا ما أسموه بالحصانة الدبلماسية وجعلوا لهم أحكام خاصة بهم حتى وضع بعضهم قانونا لمحاكمة الوزراء وفعلوا ما فعلته اليهود والله المستعان.

ويدل على هذه الردة بعينها :

قول الرسول ﷺ حين شفع أسامة بن زيد في المرأة المخزومية لما سرقت وعزم النبي ﷺ على قطع يدها : (إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد) رواه البخاري .

كذلك تكفير الله تعالى لليهود حين قاموا بتغيير حد رجم الزاني إلى الجلد واصطلاحهم على ذلك ليستوي حكم الوضيع والشريف وقد بينا ذلك مفصلا في الناقض الرابع ناقض الحكم فراجعه هناك .

والحصانة الدبلماسية كفر من جهتين :

أنها خروج عن الشريعة وامتناع عنها وتنافي الانقياد لله رب العالمين .

أن فيها تشريع لدين لم يأذن به الله واستحلال لما حرم الله ، وذلك بجعل هذا الكفر قانونا ملزما وديننا وشرعا متبعا .

والحصانة لا تدخل في حديث : (أقيلوا ذوي العثرات) ،لأن قوانين الحصانة لا تجري أحكام الله على هؤلاء، وتقوم على ترك حدود الله على المجرمين وعدم امتثال شرع الله، والحديث في العفو عن أهل الفضل والتغاضي عن الأخطاء النادرة.

فصل : توحيد المتابعة (شهادة أن محمداً رسول الله)

المسألة الأولى : أسماء شهادة أن محمداً رسول الله :

١- تسمى شهادة أن محمداً رسول الله بتوحيد المتابعة أي متابعة الرسول ﷺ .

وقد ورد اسم المتابعة في مواضع من كتاب الله ﷻ منها : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ﴾ الأعراف: ١٥٧ ﴿ أَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ النحل: ١٢٣ ﴿ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ طه: ٩٠ ﴿ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ البقرة: ١٤٣ ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ يس: ٢٠ ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران: ٣١ ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ﴾ الزخرف: ٦١ .

٢- توحيد الرسول .

٣- توحيد المرسَل .

وهو يدخل في عموم توحيد الله تعالى لأنه هو الذي أرسله فنوحد رسوله .

فائدة : ورود مصطلح توحيد المتابعة في الشرع :

مصطلح المتابعة ورد في مواضع من كتاب الله ﷻ ، وأن المتابعة المشروعة تكون للرسول وللكتاب الذي جاء به وللدين الذي بعث به .

وجاء الأمر بتوحيد المتابعة للرسول ﷺ في كتاب الله وسنة رسوله :

فقال تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ ﴾ الأعراف: ١٥٨ ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾ آل عمران: ٥٣ ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال: ٦٤ ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ يوسف: ١٠٨ . وروي عنه ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لِـما جئتُ به) أخرجه الطبراني.

المسألة الثانية : حقيقة المتابعة والانقياد للرسول ﷺ وكيفيته :

المتابعة هي : أن يمتثل العبد أمر النبي ﷺ وأن يفعل العمل على الوجه الذي فعله ﷺ وعلى وفق أمره .

وتتحقق المتابعة بالإذعان لأمره والالتزام بطاعته، وعدم التولي عنه، واتباع كل ما جاء به، والعمل بسنته وهديه من دون زيادة ولا نقص، مع الرضا والتسليم في كل ذلك، وأن لا نعبد الله إلا بما شرع .

وعصيان الرسول ﷺ امتناعا عن طاعته واتباعه والتولي عنه هو كفر بالله .

ويسمى العلماء مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله : بتوحيد المرسل أو توحيد المتابعة للرسول ﷺ .

ومقتضى شهادة أن محمداً رسول الله تقوم على أربع قواعد:

طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، وألا يعبد الله إلا بما شرع .

وشهادة أن محمداً رسول الله من مقتضياتها :

تحكيم الرسول ﷺ والرضا بحكمه ولا يتم الإيمان بالرسول ﷺ إلا بذلك .

والرسول ﷺ يوحد في الحكم كما يوحد في الأمر والاتباع فمن توحيد المتابعة أن يطاع الرسول ﷺ في أمره ولا يقدم أحد عليه، ومن قال أنا لا أطيع الرسول ﷺ بل أطيع غيره، وأتبع وأقلد غير طريقته، أو اعتقد أنه يسع الخروج عن شريعته كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى ، فقد كفر بأن محمداً رسول الله وبتوحيد المتابعة وبالتالي يعد كافرا بالله العظيم .

فتوحيد المتابعة : يشمل طاعة الرسول ﷺ ، واتباع أمره ، وتصديقه ، والأخذ بحكمه ، وكلها راجعة إلى متابعته ﷺ .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي ﴾ آل عمران: ٣١ .

واتباع الرسول ﷺ يكون في حكمه وأمره ونهيه وعدم التولي عن طاعته قال تعالى :﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣٢.

وقال ﷻ في الحكم خاصة ومقتضى توحيد المتابعة:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ .

الثالثة:علاقة الأخذ بهدي النبي ﷺ ومتابعته بالإيمان بنبوته والشهادة برسالته :

مما ينبغي أن يعلم أن الأخذ بهدي النبي ﷺ والمتابعة له داخلة في الإيمان بنبوة الرسول ﷺ وأنه مما يدخل في شهادة أن محمداً رسول الله وتوحيد المتابعة والانقياد والتسليم له ، وأن من ترك هدي الرسول ﷺ آخذاً بهدي غيره أو فضل هدي غيره على هديه ﷺ فقد نقض توحيد المتابعة وتوحيد الرسول ونقض شهادته وأبطلها فمن مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله ، متابعته وطاعته والانقياد له .

المسألة الرابعة : معنى شهادة أن محمداً رسول الله:

معناها : الإيمان الصادق الجازم بأن محمداً ﷺ رسول من رب العالمين ووجوب طاعته وإتباعه وتصديقه ومحبته والرضا به وامتثال أمره وحكمه وعدم تقديم أحد عليه ولا تفضيل هدي غيره عليه، وأنه ﷺ آخر الرسل.

الخامسة: حكم متابعة النبي ﷺ وبيان وجوبها وعدم صحة الإسلام بدونها :

المتابعة للنبي ﷺ والانقياد لأمره واجتناب نهيه هو فرض الدين ومقتضى الإسلام والإيمان بنبوته ومدلول الشهادة له بالرسالة (شهادة أن محمداً رسول الله) ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الحشر: ٧.

والمتابعة للرسول واجبة بالكتاب والسنة والإجماع .

تنبيه : أفعال النبي ﷺ الطبعية الجبلّية :

لا يدخل في توحيد المتابعة للرسول ﷺ متابعته في أفعاله الجبلّية الطبعية العادية كمحبته لأكل الدباء مثلا .

فالمتابعة خاصة بأقواله وأفعاله التشريعية .

مسألة : مكانة شهادة أن محمداً رسول الله :

لا تصح لا إله إلا الله إلا بشهادة أن محمداً رسول الله، ولذلك كانت الشهادتين (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) ركناً واحداً من أركان الإسلام وليست ركنين .

مسألة : محبة الله ورسوله شرطها الإتيان بتوحيد المتابعة .

والدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران: ٣١.

المسألة السادسة : الأدلة على وجوب متابعة الرسول ﷺ وطاعته :

ورد الأمر بطاعته واتباعه في أكثر من ثلاثين موضعا من كتاب الله كما قال الإمام أحمد .وقد ذكرتها متوسعاً في أدلة الناقض التاسع الخروج عن الشريعة .

وقد جاءت الدلالة عليها بأكثر من طريقة فمنها :

١- الأدلة الموجبة لطاعة الرسول ﷺ والملزمة باتباعه .

٢- الأدلة الدالة على كفر من تولى عنه وأعرض .

وإذا كان الله ﷻ قد كفر المعرض عن العمل بشريعته والمتولي عن طاعته، فكيف بمن ادعى ما هو أكبر من مجرد التولي وهو :

أنه لا يلزمه اتّباعه أصلاً وأنه خارج عن شريعته وأن ذلك يسَعَه ويجوز له.

كما يزعمه أرباب الدمقراطية والقوانين الوضعية والطرق الصوفية وغيرهم.

٣- الأدلة الدالة على أن الدين المعتبر هو الإسلام فلا يقبل الله من أحد غيره، وأنه قد رضيه وأكمله . وأن حقيقته تقوم على الانقياد لله ومتابعة رسوله والامتثال لأمره وطاعته والانقياد له .

٤- الأدلة الدالة على كون الرسول ﷺ مرسل إلى جميع الثقلين الإنس والجن وأنه لا نبي بعده فهو خاتم النبيين وأن الوحي والتشريع انقطع بموته .

وإليك شيئا من الأدلة التفصيلية :

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ الأعراف: ١٥٨.

قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ سبأ: ٢٨.

قال سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الفرقان: ١.

قال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ الأحزاب: ٤٠.

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ١١٥.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الحشر: ٧.

قال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ٦٣.

قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الأحزاب: ٢١.

قال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١.

وقال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٣٦.

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٦٤ .

وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣٢.

قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ النساء: ١٤.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ الأنفال: ١٣.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ ﴾ المجادلة: ٥.

قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١.

قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران: ٣١ .

قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩ .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران: ٨٥.

قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣.

ومن السنة :

١- قال النبي ﷺ : (والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني من هذه الأمة ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا دخل النار) . رواه مسلم .

٢- وقال ﷺ: (لا نبي بعدي) رواه البخاري .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الأحزاب: ٤٠.

٣- وقال ﷺ في مرض موته : (أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له) . رواه البخاري .

٤- وقال ﷺ : (من رغب عن سنتي فليس مني) رواه البخاري .

٥- وقال ﷺ : (وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون). رواه البخاري .

٦- وقال ﷺ لعمر حين أتاه بورقة من التوراة : (لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، والذي نفسي بيديه لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني). رواه أحمد والنسائي.

٧- وقال ﷺ : (كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) رواه البخاري.

٨- قال ﷺ : (صلوا كما رأيتموني أصلي) رواه البخاري.

وقال : (خذوا عني مناسككم) وقال : (ومن توضأ نحو وضوئي هذا) .

وكل هذا دليل على المتابعة في السنة والهدي القولي والعملي .

٩- قال الرسول ﷺ : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ) رواه مسلم .

١٠- وعن عائشة أن أسامة كلم النبي ﷺ في امرأة مخزومية سرقت فقال ﷺ : (إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف والذي نفسي بيده لو أن فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدها) رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية عندهم : (إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد).

١١- ما أخبر الله ﷻ من الميثاق على الأنبياء بإتباع رسولنا ﷺ بأن يؤمنوا به ويتبعوه إن هم أدركوه قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ آل عمران: ٨١.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به وينصرنه).

١٢- أن عيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل من السماء آخر الزمان لا يعمل إلا بشريعة محمد ﷺ ويكون متبعاً له ولشريعته لا يخرج عنها، ويعمل بما أخبر به الرسول ﷺ من وضع الجزية فلا يقبلها وهذا من أمر الرسول فالعمل بالجزية يكون في هذه الأمة حتى ينزل عيسى فينسخ ويزول ولا يعمل به لأن أهل الذمة اليهود والنصارى بعد نزول عيسى لايصير لهم بقية حجة، فيلزمهم الإيمان بمحمد ﷺ بأمر عيسى، وإما أن يعرضوا ويأبوا فيقتلوا كبقية الكفار ولا تقبل منهم جزية.

فوضع الجزية من شريعة محمد ﷺ بالنقل والعقل وليس خروجاً عن شريعته .

الإجماع :

قال ابن تيمية: (وطاعة الرسول فيما أمرنا به هو الأصل الذي على كل مسلم أن يتعمده ، وهو سبب السعادة ، كما أن ترك ذلك سبب الشقاوة ، وطاعته في أمره أولى بنا من موافقته فيه باتفاق المسلمين) الفتاوى ٢٢/ ٣٢١ .

وقال أيضا: (وهذه السنة إذا ثبتت فإن المسلمين كلهم متفقون على وجوب اتباعها) الفتاوى ١٩/ ٨٥.

مسألة: من أمثلة المتابعة وانقياد الصحابة رضي الله عنهم للرسول ﷺ :

تركهم الخمر وقولهم انتهينا بمجرد سماع الأمر بتحريمه، والحجاب بمجرد نزول آيات الحجاب، واستقبالهم الكعبة وهم في صلاتهم لبيت المقدس ولم يتأخروا حتى يخرجوا من الصلاة، وإذعان أبي بكر رضي الله عنه لقوله تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ﴾ فعفا وأنفق على مسطح، وجلوس ابن مسعود رضي الله عنه عند باب المسجد لما سمع النبي ﷺ يقول: اجلسوا .

المسألة السابعة: ما أرسل من رسول إلا لأجل أن يطاع ويعمل بشريعته ويتّبع:

والدليل على هذا الأصل أدلة كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٦٤ ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الحشر: ٧ ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ النور: ٥٤ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٣٦ ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء: ٥٩ ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ النور: ٤٧ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران: ٣١ .

ومما يستفاد من الآيات نفي الإيمان عمن لم يعمل ويطع وينقد ويأتِ بالمتابعة الحقيقية وأن فاقد ذلك كافر وليس بمسلم ولا مؤمن.

المسألة الثامنة : كلام أهل العلم في توحيد المتابعة للرسول ﷺ والانقياد له:

قال ابن تيمية رحمه الله: (فمحمدٌ ﷺ أرسل إلى كل أحد، من الإنس والجن، كتابيهم وغير كتابيهم، في كل ما تعلق بدينه من الأمور الباطنة والظاهرة، في عقائده وحقائقه، وطرائقه وشرائعه، فلا عقيدة إلا عقيدته، ولا حقيقة إلا حقيقته، ولا طريقة إلا طريقته، ولا شريعة إلا شريعته، ولا يصل أحد من الخلق إلى الله وإلى رضوانه وجنته وكرامته وولايته إلا بمتابعته باطناً وظاهراً في الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة في أقوال القلب وعقائده، وأحوال القلب وحقائقه وأقوال اللسان وأعمال الجوارح) الفتاوى ١٠/ ٤٣٠.

قال ابن القيم في عدة الصابرين: (وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهراً وباطناً).

وقال في مفتاح دار السعادة: (لابد فيه من عمل القلب وهو حب الله ورسوله، وانقياده لدينه والتزام طاعته ومتابعة رسوله).

وقال: (فلا يكون العبد متحققاً بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلاّ بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول ﷺ، والثاني: الإخلاص للمعبود). المدارج ١/ ٨٣ .

فجعل تجريد المتابعة للنبي ﷺ هي أحد الشروط في قبول العمل عند الله ﷻ، وهي حقيقة شهادة أن محمداً رسول الله .

قال ابن أبي العز: (لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين وينقاد إليهما ولا يعترض عليها... فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما وحد المرسِل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة). شرح الطحاوية ص٢٠٠ .

وقال ابن تيمية في الصارم : (إذ غايته في تصديق الرسول أن يكون بمنزلة من سمع الرسالة من الله كإبليس، وهذا مما يبين لك أن الاستهزاء بالله ورسوله ينافي الانقياد له، لأنه قد بلغ عن الله أنه أمر بطاعته، فصار الانقياد له من تصديقه في خبره فمن لم ينقد له فهو إما مكذب له أو ممتنع عن الانقياد لربه وكلاهما كفر صريح) .

المسألة التاسعة : تفاوت الناس في المتابعة :

المتابعة منها ما هو ركن ومنه المستحب ومنه ما تركه كفر ومنها ما تركه محرم.

قاعدة : على قدر متابعة المسلم للرسول ﷺ وامتثاله لأمره وتمسكه بهديه وسنته على قدر قربه منه ﷺ يوم القيامة .

المسألة العاشرة : خطأ من ظن جواز ترك السنة مطلقا :

ظن البعض أن تارك السنة بالكلية لا يعاقب بإطلاق معتمدا تعريف الفقهاء للسنة أن تاركها لا يعاقب، والصحيح أن الله توعد مخالف أمره وسنة رسوله مطلقاً ولو لم تصل للوجوب قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ٦٣.

ونص العلماء على أن من يعتاد ترك السنة يعاقب بناءً على الأحاديث الموجبة لمتابعة الرسول والتمسك بالسنة، وقد نقل اللكنوي في تحفة الأخيار كلام أهل العلم في ذلك . وكلام الفقهاء في آحاد المستحب لا ترك السنة بالكلية .

المسألة الحادية عشرة : كمال هديه ﷺ وشريعته:

إن كمال شريعة الرسول ﷺ وحسن هديه وأفضليته وخيريته وحسن سيرته وفضل طريقته مما لا يشك فيه عاقل بل هو مما أجمع عليه البشر قاطبة . وإذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام أتوا بأكمل الطرق والشرائع وأن أفضل الطرق والمناهج ما أتت به الأنبياء لكونها من عند اللطيف الخبير سبحانه، لذا وجب اتباعها

والعمل بشرائعها والرضا بها ، فإذا كان هذا فيها فكيف بشريعة أفضل الخلق وخاتم الرسل الذي أخبر وهو الصادق أن خير الهدي هديه وأكمل الشرائع شريعته .

والأدلة الدالة على هذا الأصل أكثر من أن تحصى منها :

قوله ﷻ : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ المائدة: ٣. فجعل الشرع والدين وإرسال الرسول وتبليغنا هديه نعمة تامة كاملة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ آل عمران: ٨٥. ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ١١٠ ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا ﴾ النساء: ١٢٥ ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا ﴾ المائدة: ٥٠ ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ فصلت: ٣٣.

ما جاء في خطبته ﷺ يقول : (وأن خير الهدي هدي محمد ﷺ) رواه مسلم.

وقول الرسول ﷺ لعمر ﷺ عندما رآه حاملاً ورقة من التوراة: (لو كان موسى ابن عمران حيا ما وسعه إلا أن يتبعني) رواه أحمد والنسائي .

وهذا فيه دليل على كمال هديه ﷺ . فإذا كان موسى عليه السلام الذي كلمه الله ﷻ لا يسعه إلا العمل بشريعة الرسول ﷺ واعتقاد كمال شرعه فكيف بغيره ؟

وعيسى عليه السلام لا يحكم إلا بشرع محمد ﷺ عندما ينزل في آخر الزمان .

وهذا كله فيه دليل على كمال هديه وأفضليته .

ومن فضل هدي غير الرسول ﷺ فهو كافر بدليل قوله تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ النساء: ٥١.

وأدلة كمال هديه ﷺ وكون أكمل الهدي هديه وأن إرساله وهديه نعمة كاملة ولا يستغنى عنها أكثر من أن تحصى .

بل إن كمال هدي الرسول ﷺ وحسنه وأفضليته وخيريته مما أجمع عليه البشر قاطبة حتى المشركون قد علموا كمال خلقه ﷺ وحسن سيرته وفضل طريقته ، ولذلك قال أبو طالب : ولقد علمت بأن دين محمد * من خير أديان البرية دينا

وكانت قريش وهي على الكفر تسمي الرسول ﷺ الصادق الأمين وكل هذا يدل على كمال هديه .

فكيف بأقوام بعده يعتقدون أن طرق الصوفية خير من طريقة الرسول ﷺ وهدي الشيوخ خير من هدي الرسول ﷺ وأنه لا يجب اتباع طريقة الرسول ﷺ الذي رسمه للأمة بينما طريق الشيخ يكفر المريد إن خالفه ، وأن الطرق التي ابتدعها المبتدعة في العبادة أو الدعوة أو الجهاد خير من طريقته .

وكيف للمستغربين والمتفرنجين في زماننا من المعجبين بالكفار يفضلون طريقة أوليائهم من الغرب وأنظمته ومبادئه أو الأحكام التي يطبقها الغرب الكافر أو الدمقراطية ويرونها أكمل وأفضل من أحكام الرسول ﷺ وشريعته، أو من يقول: طريق الرسول ﷺ لا يصلح في هذا العصر، أو من يتأول ويقول : طريق الرسول ﷺ هذا هو الطريق الذي نحن عليه وهو يخالف طريق الرسول ﷺ في الحقيقة.

وهنا فائدة لطيفة :

وهي أن تفضيل هدية ﷺ مما اتفق عليه الناس، حتى الكفار والمشركون.

ولذلك العلمانيون الذين يفضلون هدي الغرب على هدي الرسول ﷺ أشد كفراً من قريش ، لأن كفار قريش قد اعترفت بأنه هو الصادق الأمين وفضلت حكمه في مواضع كثيرة وعلمت رجاحة عقله وكمال هديه وحسن أخلاقه ﷺ .

الثانية عشرة : علاقة المتابعة (شهادة أن محمداً رسول الله) بالإسلام والإيمان :

شهادة أن محمداً رسول الله داخلة في الركن الأول من أركان الإسلام وكذلك الركن الرابع من أركان الإيمان : الإيمان برسل الله .

والفرق بينهما أن المتعلق بالإسلام هو الإتباع والمتابعة للرسول ﷺ وتصديقه وطاعته وهذا متعلق بالعمل الظاهر والإسلام والانقياد والاستسلام.

أما المتعلق بالإيمان فهو التصديق بالرسل ومحبتهم وهذا متعلق بالباطن والقلب ، وما يستلزم ذلك من طاعتهم والعمل بشريعتهم وهذا هو الإيمان العملي.

فمبحث الاتباع للرسول ﷺ يبحث في التوحيد المتعلق بأركان الإسلام .

أما مباحث النبوات ومسائلها فتبحث في أبواب الإيمان والعقائد .

المسألة الثالثة عشرة: دخول الدين كله في توحيد المتابعة :

إن مما يدخل في توحيد المتابعة :

الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبقضائه وقدره .

توحيد الله في ألوهيته وفي ربوبيته وأسمائه وصفاته .

الاعتقاد الصحيح الجازم اللازم بالغيب كما جاء عنه ﷺ .

جميع أحكام الشريعة من الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغيرها .

وبمعنى أوسع فإن المتابعة للنبي ﷺ تعني الإسلام كله فدلالتها واحدة.

المسألة الرابعة عشر : أقسام المتابعة ولمن تكون:

جاء الأمر بتوحيد المتابعة في مواضع من كتاب الله ﷻ . وأن المتابعة المشروعة تكون لكل ما جاء عن الله ﷻ من رسوله وكتابه ودينه ، وجاء النهي عن ضدها وهي المتابعة الشركية التي تكون لغير ما جاء عن الله . وإليك بيان شيء من ذلك :

القسم الأول : المتابعة المشروعة : لكل ما جاء عن الله ﷻ :

أولاً: المتابعة للرسول ﷺ :﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ ﴾ الأعراف: ١٥٨ ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾ آل عمران: ٥٣ ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال: ٦٤ ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ يوسف: ١٠٨ .

ثانياً: المتابعة للقرآن والوحي : ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ الأنعام: ١٥٥ ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ يونس: ١٠٩.

ثالثاً: المتابعة للدين والشريعة: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ النساء: ١٢٥ ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ١٦٢ ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ طه: ١٢٣.

القسم الثاني : المتابعة الممنوعة :

المتابعة الممنوعة التي تكون لغير ما جاء عن الله: ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ ﴾ الحج: ٣ ﴿ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ القصص: ٥٠ ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ البقرة: ١٢٠ ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

المسألة الخامسة عشرة : وجه دخول شهادة أن محمداً رسول الله في التوحيد :

لأنها قائمة على توحيد الرسول ﷺ وإفراده بعدم إثبات رسول بعده ولا متبوع غيره إذ معناها لا أتبع ولا أطيع إلا الرسول وهذا هو حقيقة التوحيد .

والأدلة الدالة على إفراده بالاتباع كثيرة جداً ومن ذلك :

قول النبي ﷺ : (لو كان موسى حياً ما وسعه إلا إتباعي) .

والميثاق الذي أُخذ على الأنبياء بنصرته واتّباعه إذا هم أدركوه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ الحشر: ٧.

وقولــه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٣٦ .

وقوله : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥.

قال ابن أبي العز الحنفي : (فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما نوحد المرسِل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما : توحيد المرسِل ، وتوحيد متابعة الرسول ﷺ) فجعل رحمه الله المتابعة نوعاً من أنواع التوحيد ، شرح الطحاوية ٢٠٠.

المسألة السادسة عشرة : التوحيد والشرك في المتابعة:

المتابعة يتعلق بها التوحيد والشرك يحصل فيها. ومن الأدلة على ذلك :

﴿ اتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعراف: ٣

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ يونس: ٦٦

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ الأنعام: ١٥٣

﴿ اتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٠٦

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ لقمان: ٢١

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ اتَّبَعُوا۟ الْبَٰطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ اتَّبَعُوا۟ الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ محمد: ٣.

المسألة السابعة عشرة : الانقياد للرسول ﷺ هو في حقيقته انقياد لله تعالى :

وذلك لأن الرسول ﷺ مبلّغ عمن أرسله وهو الله ﷻ، فأمر الرسول وشرعه وحكمه هو في الحقيقة أمر لمن أرسله وحكّمه وشرّع له، وإذا كان كذلك فالانقياد للرسول انقياد لمرسله وطاعة له كما قال ﷻ: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ النساء: ٨٠.

قال ابن القيم في المدارج : (الرضا بنبيه ورسوله يتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه) .

المسألة الثامنة عشرة : مقتضى (شهادة أن محمداً رسول الله):

١ – تصديقه فيما أخبر.

٢– طاعته فيما أمر.

٣– اجتناب ما نهى عنه وزجر .

٤– ألا يعبد الله إلا بما شرع .

قلت ومن طاعته ﷺ الإيمان به ، ومحبته ، والقيام بحقوقه ، وأن لا يبتدع في الدين والشرع ، وأن يعتقد أنه آخر الرسل ، وأنه لا تقدم طاعة أحد على طاعته، ومعرفة سيرته وهديه ودينه ، وأن لا نغلو فيه ولا نرفعه فوق منزلته ﷺ .

تنبيه : تقدم معنى شهادة أن محمداً رسول الله وحقيقتها.

المسألة التاسعة عشرة : لوازم وحقوق شهادة (أن محمداً رسول الله) :

١- الحكم بما أنزل الله والتحاكم إلى شريعته وتحكيم هديه وسنته في كل شيء.
٢- موالاة أحبابه المؤمنين به ، ومعاداة الكافرين به والمعرضين عن سنته .
٣- اتباعه والاقتداء به، وعدم الابتداع فلا نعبد الله إلا بما شرعه لنا رسوله .
٤- الجهاد في سبيل الله وقتال الكافرين به المتنقصين له ولهديه وقتل سابه .
٥- محبته ﷺ وتقديم محبته على محبة النفس والولد والمال .
٦- الرضا بكل ماشرع مع التسليم والقبول والانقياد وعدم تقديم شيء عليه.
٧- عدم الوقوع في الغلو فيه أو الشرك به .
٨- كثرة الصلاة والسلام عليه ﷺ .

المسألة العشرون: حقوق الرسول ﷺ:

١- الإيمان به ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ التغابن: ٨.
٢- طاعته : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ المائدة: ٩٢ .
٣- محبته : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ التوبة: ٢٤ .
وقال ﷺ : (وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) متفق عليه.
٤- توقيره وتعزيره : ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ الفتح: ٩.
٥- وجوب قتال من لم يؤمن به قال ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) متفق عليه.
٦- وجوب نصرته : ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ الحشر: ٨ ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ التوبة: ٤٠.
٧- إتباعه سنته والاقتداء به: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران: ٣١.
٨- امتثال أمره واجتناب نهيه : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ الحشر: ٧.

٩- تحكيمه في كل شيء والتسليم والرضا بحكمه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

١٠- معرفة سيرته وهديه.

١١- قتل سابه ومنتقصه .

المسألة الحادية والعشرون : الحكمة من إرسال الرسل :

١- تبليغ الناس بمراد الله ﷻ.

٢- دعوتهم لعبادة الله وحده وتوحيده في القصد والعمل والكفر بالطاغوت.

٣- إنذار الناس من المحرمات وما يغضب الله .

٤- الانقياد لله ﷻ وتطويعهم له .

٥- دعوة الناس لكل خير وصلاح .

٦- إقامة الحجة وقطع العذر .

٧- سياسة الأمة.

٨- دعوة الأتباع للعمل للدين والصبر عند ملاقاة الأعداء وتحمل الأذى والتكذيب وأن الصراع بين الحق والباطل والصد عن سبيل الله سنة في الخلف وهي تستوجب جهاد المعاند ونصرة الدين: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الأنعام: ٣٤.

الثانية والعشرون: حاجة الناس للرسل أشد من حاجتهم للطعام والنفس :

لأنهم الطريق الوحيد الموصل لمطلوب الله ومراده وسبب القرب من الله والسعادة في الدارين .

الثالثة والعشرون: دين الأنبياء واحد وهو الإسلام والتوحيد وشرائعهم شتى:

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء: ٢٥.

وقال ﷺ: (الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد) رواه البخاري.

المسألة الرابعة والعشرون: نواقض شهادة (أن محمداً رسول الله) :

١- عدم الإيمان به ﷺ ، وتكذيبه وجحود رسالته ونبوته، أو الريب والشك في ذلك .

٢- عدم اعتقاد أنه خاتم الأنبياء والرسل ، أو عدم تيقن أنه رسول للثقلين الإنس والجن وكون الجميع ملزم باتباعه .
٣- تفضيل هدي غيره على هديه .
٤- من ظن أنه يسعه الخروج عن شريعته وسنته أو يوجد من يسعه ذلك .
٥- التولي عن طاعته والإعراض عن متابعته وعن سنته وترك الانقياد له .
٦- الطعن فيه وسبه ولمزه أو القدح في شيء من سنته وأفعاله وهديه وحكمه.
٧- بغضه أو بغض أصحابه أو شيء مما جاء به .
٨- الاستهزاء به أو انتقاصه أو لمزه أو النيل من عرضه أو قذف والديه وأزواجه .
٩- تكذيب أخباره .
١٠- اعتقاد وجود من هو أفضل منه كما تقوله الفلاسفة والصوفية الغلاة، وزعمهم أن النبوة مكتسبة .
١١- عدم التحاكم لأمره وحكمه وشريعته. أو عدم التسليم لحكمه وأمره وشرعه ، وأعظم من ذلك كله تشريع القوانين المخالفة لما جاء به الرسول ﷺ.
١٢- تعمد مخالفته ومعاندته والابتداع في دينه وعدم الاقتداء به .
١٣- عبادته والاستغاثة به وطلب الشفاعة منه وغيره ذلك من الشرك الذي حصل فيه بسبب الغلو فيه ﷺ ورفعه لمقام الألوهية.
١٤- الشرك في توحيد متابعته وذلك بتقديم طاعة غيره على طاعته .
١٥- موالاة أعدائه من الكافرين به .
١٦- منع الناس من اتباع سنته وصد الناس عن هديه .

الخامسة والعشرون: علاقة المتابعة (شهادة أن محمداً رسول الله) بالنواقض :

توحيد المتابعة له علاقة بالناقض الأول الشرك ونقض التوحيد .
وله علاقة بالناقض الرابع ناقض الحكم والهدي . والحكم بغير ما أنزل الله.
وله علاقة بناقض البغض وناقض الاستهزاء .
وله علاقة بالناقض التاسع من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ وأنه يسعه الخروج عن شريعته.
وهذا الناقض قائم على نقض توحيد المتابعة من أصله .
وله علاقة بالناقض العاشر الإعراض وسيأتي .

المسألة السادسة والعشرون : دخول شروط كلمة التوحيد فيها :

كما أن الشروط السبعة تشترط لصحة كلمة التوحيد كذلك هي تعتبر شروطا لصحة شهادة أن محمداً رسول الله، إذ لا بد من العلم واليقين بها والصدق والإخلاص فيها وقبولها والانقياد لها .

المسألة السابعة والعشرون: أركان شهادة أن محمداً رسول الله :

لها ركنان : الإيمان بالرسالة والعبودية :

الركن الأول : الإيمان برسالته (أن محمدا رسول الله):

ويقتضي الإيمان بهذا الركن : طاعة الرسول ﷺ والاقتداء به واتباعه وملازمته والانقياد لشرعه والإذعان لأمره والاستسلام لحكمه والتسليم لهديه وتصديق أخباره وتوقيره ومحبته ، وعدم التقديم بين يديه ، والدعوة لدينه وتبليغ سنته والدفاع عنه وقتل متنقصيه، واعتقاد أنه أفضل الخلق وأحبهم إلى الله وأنه خاتم الرسل وإمام المتقين وأنه معصوم.

أدلة هذا الركن : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الأحزاب: ٤٠ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ سبا: ٢٨ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الأعراف: ١٥٨ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٦٤ ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الحشر: ٧.

وممن نقض هذا الركن المعجبين بالمناهج الغربية الكافرة والمتبعين لها .

الركن الثاني : الإيمان بأن محمداً عبدالله :

ويقتضي هذا الركن ألا نغلو في الرسول ﷺ ولا نطريه ولا نرفعه عن منزلته التي وصفه الله بها فلا يوصف بصفات الربوبية ولا يعطى حق العبادة ولا ينزّل منزلة الإله المعبود .

وقد وقع الكثير من هذه الأمة في نقض هذا الركن وهدمه فعبدوا الرسول ﷺ من دون الله ودعوه واستغاثوا به بعد موته . واستنصروه على الأعداء ورفعه بعض غلاتهم إلى أن جعلوا الرسول ﷺ يعلم الغيب ويملك الخلق ويتصرف في الكون ويدبر الأمر وبيده خزائن السموات والأرض واتخذوا قبره عيداً ووقعوا في مخالفة أمره وهديه وانتهكوا نهيه حين قال ﷺ : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبدالله ورسوله) رواه البخاري . وقوله تعالى عنه : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ الكهف: ١١٠ ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ

أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ الأعراف: ١٨٨،
ويمثل هؤلاء المخالفين الصوفية القبورية المشركة .

المسألة الثامنة والعشرون: البدع فيها معارضة لتوحيد المتابعة:
مما يعارض متابعة الرسول ﷺ والانقياد له الابتداع في الدين، والتقليد المذهبي مع الإعراض عن النصوص وغيره والأخذ بالرأي والعقل وترك النص .

المسألة التاسعة والعشرون : مصطلح التولي والإعراض :
التولي عن الرسول والإعراض والعصيان والتقديم بين يديه ومعاندته، كلها ضد ما أمر الله به تجاه رسوله من الاستجابة والأخذ والطاعة والقبول والاتباع .

المسألة الثلاثون : المتابعة الباطنة والظاهرة :
تنقسم المتابعة للرسول ﷺ إلى قسمين:
الأول : المتابعة الظاهرة ، وهذه متعلقة بالجوارح .
الثاني : المتابعة الباطنة ، وهذه متعلقة بالقلب.
ومتابعة الباطن تستلزم متابعة الظاهر خلافا للمرجئة.
وتحصل المتابعة ظاهرا مع انعدامها باطناً في أهل النفاق الأكبر .
وتقدم كلام ابن تيمية في ذلك .

المسألة الحادية والثلاثون: أقسام توحيد المتابعة وآلاتها :
تتكون المتابعة من ثلاثة أقسام حسب آلتها :
١- المتابعة العملية : وهي التي تكون عملا بالجوارح .
ومن أدلتها : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾
﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ .
٢- المتابعة القولية : وهي التي تكون قولاً باللسان .
ومن أدلتها : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور:٥١.
٣- المتابعة القلبية الاعتقادية : وهي التي تشملها عقيدة القلب .
ومن أدلتها :
﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾.

مبحث: الإيمان بالنبوة والرسل والأنبياء

المسألة الأولى : تعريف النبي والرسول :

في اللغة : النبي مشتق:

١- من النبأ وهو الخبر .

٢- من النبوة وهي الرفعة والعلو .

٣- من النبي وهو الطريق .

والنبي فيه هذه الثلاث الصفات فهو مخبر عن الله ، كما أن منزلته عالية ورفيعة ، وهو طريق ووسيلة إلى الله في البلاغ.

والرسول : من الرسل وهو البعث والانبعاث ومن الرسل وهو التتابع .

تعريف النبي والرسول في الشرع .

هو الذي يبعثه الله إلى الناس ويوحي إليه ويأمره بالبلاغ والدعوة .

المسألة الثانية: الفرق بين الرسول والنبي :

١- أن النبي خاص بالبشر أما الرسول فهو يطلق ويتعلق بالبشر والملائكة إذ منهم ملائكة بنص القرآن .

٢- الفرق بين النبي والرسول البشري .

قيل هما اسمان لمعنى واحد .

وقيل بينهما فرق وهذا الصحيح . والدليل على وجود فرق بينهما قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ الحج: ٥٢ .

وحديث أبي ذرفي عدد الأنبياء والرسل.

ومما قيل في التفريق بينهما : أن الرسول يبعث بشرع جديد، أو يأمر بالتبليغ، أو يرسل، أو ينزل له كتاب . وهذا بخلاف النبي فيأتي بشرع من قبله ولا يختص بشرع يخصه ولا ينزل له كتاب وقد لا يؤمر بالتبليغ فهو بمثابة العالم في هذه الأمة.

وهذه الفروق كلها ضعيفة ويدخلها النقض والاعتراض ، فقد ينزل للنبي كتاب كزبور داود ولم يذكر الله أن هود وصالح أعطوا كتباً مع أنهم رسل .

وقد يكون الرسول على شرع من قبله كما كان عيسى على شريعة موسى إلا في القليل .

أما القول بأن النبي قد لا يؤمر بالبلاغ ولا يكون مرسلا ومبلغا فهذا القول باطل ، فالنبي مرسل ومبلغ ومنذر وإلا ما الحكمة من كونه نبي وما يدل على أن النبي مرسلا : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾.

والصحيح أن الرسول هو من يرسل لقوم مشركين وكفار .

والنبي هو من يبعث لقوم موافقين للنبي في التوحيد مسلمين مثل أنبياء بني إسرائيل .

وهذا الذي حققه شيخ الإسلام في كتابه النبوات .

المسألة الثالثة: العقيدة في الرسل :

يجب على كل مسلم أن يحب الرسل وأنهم أفضل الخلق وأحبهم إلى الله، ويعتقد أنهم بلغوا الرسالة وأدو الأمانة وجاهدوا في الله حق الجهاد وأوذوا في سبيل الله فصبروا .

المسألة الرابعة: خصائص الرسول ﷺ:

١- أنه أفضل الخلق وسيد ولد آدم وإمام الأنبياء .

٢- أن الله بعثه بالحنيفية السمحة ونسخ الله بشرعه كل الشرائع .

٣- أن الله أنزل إليه أفضل الكتب وتعهد بحفظه .

٤- أنه خاتم الأنبياء لا نبي بعده .

٥- أن الله رفع ذكره فقرن اسمه باسمه وجعل الثواب الجزيل لمن صلى عليه .

٦- أنه صاحب الشفاعة يوم القيامة وله المقام المحمود والوسيلة .

٧- أن الجنة لا تفتح إلا بعد شفاعته .

٨- أبيحت له الغنائم ونصر بالرعب وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً .

٩- أنه بعث للأنس والجن والعرب والعجم ، وأخطأ من زعم أنه مرسل إلى الملائكة لكونهم جبلوا على الطاعة ورسلهم منهم .

١٠- أن له الحوض والكوثر .

١١- أن الله اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولا يصح أنه رأى الله .

١٢- أن الميثاق أخذ على الأنبياء بالإيمان به ونصرته واتباعه إن أدركوه .

١٣- أن الله بتر شانئوه فجعل شانئه ومعاديه أبتر مقطوع ، وكفاه المستهزئين وأعداءه ونصره عليهم .

١٤- أن أمته أفضل الأمم وأكثر أهل الجنة .

١٥- أنه العاقب والحاشر وأحمد ومحمد .
١٦- أن يبلّغ السلام من أمته بعد موته.
١٧- أن الأرض لا تأكل جسده .
١٨- أنه شاهداً على أمته يوم القيامة .
١٩- أن من رآه في المنام فقد رآه حقاً .
٢٠- أن الكاذب عليه متوعد بالنار .
٢١- علو أخلاقه ورحمته بأمته .

كما أن له الكثير من المعجزات كإنشقاق القمر له وتكثير الطعام ونبع الماء من بين أصابعه .

وله كثير من الخصائص التي يعسر حصرها وهي على أقسام :

منها التي تخصه عن الأنبياء .

ومنها الخصائص التي تخصه عن أمته كالجمع بين تسع زوجات وطيب عرقه والتبرك بآثاره وإسلام قرينه وأنه لا ينام قلبه ويرى من خلفه .

مسألة : انقسام الناس في النبي ﷺ إلى طرفين ووسط :

فهناك من غلا فيه ووقع في الشرك فيه واتخذه إلها مع الله، فزعم أنه أول الخلق وأنه خلق من نور، وأنه يعلم الغيب ويتصرف في الخلق ويغفر الذنوب، وأنه حي في قبره كحياته الدنيوية . ومنهم من استحب زيارة قبره ﷺ مع كل دخول للمسجد مع أنه نهى عن اتخاذ قبره عيداً وخالف لمنهج الصحابة والتابعين .

وهناك من جفا فيه وفي خصائصه وحقوقه فأنكروا ختم الرسالة به ، ومنهم من جوز تحكيم غير شرعه ، ومنهم من فضل الأولياء عليه، ومنهم من ابتدع عبادات فضلوها على هديه وعبادته .

المسألة الخامسة: حقوق الرسول ﷺ خاصة والأنبياء عامة :

١- الإيمان به: قال ﷻ: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَا ﴾ التغابن: ٨.
٢- طاعته : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ المائدة: ٩٢ .
٣- محبته : ﴿ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ التوبة: ٢٤
وقال ﷺ : (وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما).
٤- توقيره وتعزيره : ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ الفتح: ٩.

٥- وجوب قتال من لم يؤمن به قال ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله).

٦- وجوب نصرته: ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ الحشر: ٨ ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ التوبة: ٤٠.

٧- إتباعه سنة والاقتداء به: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران: ٣١.

٨- امتثال أمره واجتناب نهيه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الحشر: ٧.

٩- تحكيمه في كل شيء والتسليم والرضا بحكمه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾.

١٠- معرفة سيرته وهديه.

١١- قتل سابه ومنتقصه.

المسألة السادسة: الحكمة من إرسال الرسل:

١- تبليغ الناس بمراد الله ﷻ.

٢- دعوتهم لعبادة الله وحده وتوحيده في القصد والعمل والكفر بالطاغوت.

٣- إنذار الناس من المحرمات وما يغضب الله.

٤- تبشير من آمن بالله بالجنة.

٥- دعوة الناس لكل خير وصلاح.

٦- إقامة الحجة وقطع العذر.

٧- سياسة الأمة.

٨- دعوة الأتباع للعمل للدين والصبر عند ملاقاة الأعداء وتحمل الأذى والتكذيب وأن الصراع بين الحق والباطل والصد عن سبيل الله سنة في الخلف وهي تستوجب جهاد المعاند ونصرة الدين: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الأنعام: ٣٤.

المسألة السابعة: حاجة الناس للرسل أشد من حاجتهم للطعام والنفس:

لأنهم الطريق الوحيد الموصل لمطلوب الله ومراده وسبب القرب من الله والسعادة في الدارين.

المسألة الثامنة: دين الأنبياء واحد وهو الإسلام والتوحيد وشرائعهم شتى:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ الأنبياء: ٢٥.

وقال ﷺ: (الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد) رواه البخاري.

المسألة التاسعة: لا يعذب الله أحد إلا بعد بعثة الرسل وبعد بلوغ الحجة الرسالية يدل لذلك قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء: ١٥.

المسألة العاشرة: الإيمان بالرسل مفصل ومجمل:

الإيمان المفصل متعلق بالرسول ﷺ كذلك من عرف من الأنبياء.

الإيمان المجمل ويتعلق بالإيمان بالرسل إجمالاً والإيمان بما لم يعرف من سيرهم وخواصهم.

الحادية عشرة: لا تنافي بين نزول عيسى آخر الزمان وختم الرسالة بمحمد ﷺ.

والجواب:

١- أن عيسى عليه السلام قبل الرسول ﷺ وليس بعده وهو حي وقد رفعه الله إليه وينزل آخر الزمان لا أنه يبعث من جديد.

٢- ثم إنه يعمل بشريعة محمد ﷺ وبالقرآن ولا يعمل بالإنجيل ولا بشريعته فيكون بذلك تابعاً لمحمد ﷺ.

المسألة الثانية عشرة: المخالفات في باب النبوة والنواقض المتعلقة بها:

١- إنكارها وهم أعداء الرسل والشيوعيين.

٢- إنكار عالمية رسالة محمد ﷺ وهذا عند بعض اليهود والنصارى وأن نبوته خاصة العرب.

٣- أن الرسالة فيض واكتساب وقوة فعل وسعة خيال وهؤلاء الفلاسفة.

٤- أنه يجوز الخروج عن شريعتهم وهذا قول الصوفية والمبتدعة والمشرّعون والمحللون المحرمون وأصحاب القوانين الوضعية.

٥- الغلو فيهم بعبادتهم من دون الله وإعطائهم صفات الألوهية والربوبية كما هو مذهب الصوفية.

٦- أن النبوة لم تختم بل باقية كما يقوله القاديانية والإسماعيلية والبهائية.

٧- النبوة لابد لها من حجج ولا تعرف إلا بالمعجزات وهذا قول الأشاعرة.

٨- من يقدم العقل على الشرع والأحاديث كما يفعل ذلك المتكلمون وأصحاب الرأي.

المسألة الثالثة عشرة: النبوة صفة ثبوتية إضافية :

النبوة صفة قائمة بالنبي مثل الكرم والجمال وغير ذلك من الصفات الثبوتية، وليست النبوة مجرد صفة اعتبارية تطلق على النبي بمجرد الوحي له كما تقوله الأشاعرة وقد نص على ذلك ابن تيمية في النبوات . وبينا المسألة في ردنا على الأشاعرة .

المسألة الرابعة عشرة: النبوة اجتباء واصطفاء وليست مكتسبة .

النبوة فضل من الله يؤتيها الله من يشاء من عباده فيرسل أفضل خلقه وأحبهم إليه وأطوعهم له وأعرفهم به ، قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ الأنعام: ١٢٤ وقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ ص: ٤٧.

وليس لهم في النبوة كسب وعمل كما تزعمه الفلاسفه بقولهم الكفري أن النبوة مكتسبة وقد ينالها الإنسان بالحكمة والخيال والعمل .

والدليل قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الحج: ٧٥ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ آل عمران: ١٧٩ ، والاجتباء أرفع من الأصطفاء .

المسألة الخامسة عشرة : شروط النبوة :

يشترط في النبي الصدق والأمانة والنسب والخلق والذكورة والإنسية والقروية فلا يرسل البدوي والمرأة والجن ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ يوسف: ١٠٩.

ولا يشترط أن يكذبه قومه .

كما يشترط أن يكون معصوماً من الكبائر والكذب والإقرار على الصغائر والخطأ وليس الرسل كاملون بل مخلوقين ناقصين يعتريهم النوم والمرض والسهو والتعب وبقية الصفات البشرية.

المسألة السادسة عشرة : عصمة الرسل :

العصمة في اللغة :وردت بمعنى المنع والحفظ والحبل وكل ما أمسك الشيء .

وشرعاً هي : لطف من الله تحمل النبي على فعل الخير وترك الشر مع وجود الاختيار .

الجوانب التي عصمت فيها الرسل .

١ – العصمة هي : المنعة والحفظ من حصول الزلل في التبليغ والدعوة وبيان الدين والشرع .

والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ النجم: ٤.

وقوله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ الحاقة: ٤٤.

وقوله : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ الإسراء: ٧٤.

٢- العصمة من الكفر والشرك :

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الزمر: ٦٥ ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ الزخرف: ٤٥.

٣- الضلال والغواية والفساد :

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم: ٤.

٤- الكذب والخيانة : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام: ٣٣ وقال ﷺ : (إني لا أقول إلا حقاً) رواه أحمد.

٥- كبائر الذنوب بعد البعثة .

أما الخطأ والسهو والصغائر والغلط في الاجتهاد فيحصل منهم لكن لا يقرون عليه وقد لام الله ﷻ نبيه في مواضع منها .

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ عبس: ١ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال: ٦٧ - ٦٨ ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ التوبة: ٨٠ ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ المنافقون: ٦ ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ التوبة: ٨٤ ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ التوبة: ٤٣.

وقوله ﷺ : (أنتم أعلم بأمور دينكم) .

وكذلك لومه ﷻ ليونس وعقابه له بالحوت .

المسألة السابعة عشرة: الطعن في الرسول طعناً في مرسله وهو الرب ﷻ :

لأن الطعن في الرسول طعن في مرسله كما أن في ذلك قدح في ربوبية الله تعالى وصفاته وكماله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ الأنعام: ٩١.

المسألة الثامنة عشرة: التكذيب بواحد من الرسل تكذيب بهم كلهم .

والدليل قوله تعالى : (﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ ﴾ الشعراء: ١٢٣

فعاد لم يرسل لهم غير هود ولكن لما كذبوه ، استلزم تكذيب إخوانه من الرسل ، وفي هذا إبطال لزعم اليهود والنصارى الذين يزعمون الإيمان برسلهم وتكذيب محمد ﷺ .

المسألة التاسعة عشرة : ختم النبوة بمحمد ﷺ : والدليل :

قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الأحزاب: ٤٠.

قال ﷺ : (وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون). رواه البخاري .

وقال ﷺ : (لا نبي بعدي) رواه البخاري.

ومن خالف ذلك ولم يتيقن أن الوحي والنبوة ختمت به فهو كافر مرتد .

المسألة العشرون : عدد الأنبياء :

جاء في حديث أبي ذر عند أحمد وغيره بسند ضعيف :

أن أول نبي آدم،وهو نبي مكلم، وأن عدد الأنبياء ١٢٤ ألف والرسل ٣١٥.

تنبيه : **مسألة** : طرق معرفة الرسل ، والفرق بينه وبين الساحر ، ضابط المعجزة وطريق دلالتها ، عدم زوال النبوة بالموت.

ومخالفة الأشاعرة في ذلك. وقد بينتها في كتاب الأشاعرة .

فصل : الإســــلام شريعة الله ﷻ ورسوله ﷺ

المسألة الأولى : تعريف الإسلام في اللغة :

الإسلام : مشتق من الفعل سَلِم يسلم إسلاماً وتسليماً واستسلاماً ومسالمة.

وفعل سلِم في اللغة يدور على معنيين :

١- برء ونجا ووقى وخلص :

ومن هذا المعنى اسم الله ﷻ السلام ، فهو المبرأ السالم الخالص من العيوب والنقائص، والمسلّم لغيره المخلص والواقي والمنجي، وسميت الجنة دار السلام لسلامتها وخلوصها من الآفات،وسلمك الله وقاك ونجاك .

٢- انقاد وأذعن وأطاع والتزم وامتثل وأخذ :

ومن هذا الإسلام وهو الانقياد والطاعة لله ، وامتثال أمره والتزامه، والإذعان له وإظهار الخضوع والقبول وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي ﷺ ، وهذا الذي يحقن الدم فإن كان معه تصديق ومحبة وإقرار بالقلب سمي إيماناً .

وقوله ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة: ١٣١ : أي : انقدت واستسلمت.

وهذا المعنى الإذعان والانقياد يعود في النهاية للمعنى الأول فإن الإسلام الذي هو الانقياد، سُمي بذلك لبراءته من الامتناع ولأنه يسلم ويخلص من الإباء والترك والاستكبار . ذكر ذلك الأزهري وغيره من أئمة اللغة .

مسألة : الإسلام يستعمل على وجهين :

١- متعدٍ: ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ آل عمران: ٢٠ وحديث: (أسلمت نفسي إليك).

٢- لازم : كقوله : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة: ١٣١ .

وقوله : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ آل عمران: ٨٣ .

وأسلم إذا تعدى فمعناه الإخلاص وإذا كان لازما فبمعنى الانقياد، ومعنى الإسلام لازماً يعود ويرجع إلى معناه المتعدي . الفتاوى لابن تيمية ٧/ ٦٣٥ .

مسألة: معاني الإسلام :

الإسلام: له معنيان في الشرع تدور على اشتقاق أصل الكلمة اللغوي:

الأول : الانقياد والاستسلام لأمر الله .

الثاني : إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وعنوانه قول (لا إله إلا الله) .
وهذا الإخلاص بالتوحيد داخل في الانقياد والاستسلام .

مسألة : أقسام الإسلام :

الأول : الإسلام الكوني القدري الربوبي : طوعاً وكرهاً وهذا لا ثواب فيه يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾ آل عمران: ٨٣ ، أي خضع وانقاد .

الثاني : الإسلام الشرعي الديني الأمري الألوهي: وهو اتباع الأمر والانقياد للشرع الذي أمر الله عباده به ، وهذا الإسلام الذي يثاب العبد عليه ويحمد عليه ولأجله قامت السموات والأرض ، وينقسم إلى إسلام عام ، وإسلام خاص وهو شرع نبينا محمد ﷺ ، وقد قرر هذا المعنى شيخ الإسلام في كتاب الإيمان .

المسألة الثانية : المراد بالإسلام في الشرع :

التعريف الشرعي للإسلام يحمل نفس المعنى اللغوي القائم على الانقياد.
قال الأزهري في تهذيب اللغة: (يقال فلان مسلم فيها قولان :
أحدهما : هو المستسلم لأمر الله . والثاني : هو المخلص لله العبادة) .
وقال الرازي في تفسيره : الإسلام في أصل اللغة يأتي لثلاثة معانٍ:

١- الانقياد والمتابعة ٢- السلم والسلامة والبراءة ٣- الإخلاص في العبادة .

وأفضل من عرف الإسلام وأتى بحقيقته وأوضحه وفسره وبين مبادئه وأصوله وقواعده وأركانه، بتعريف جامع مانع الإمام محمد بن عبد الوهاب بقوله :

هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله .

فجمع بتعريفه الحقيقة الشرعية للإسلام وأصوله، ووافق تعريفه معانيه في اللغة التي ذكرها اللغويون من : الإخلاص والانقياد والسلامة والبراءة .

شرح تعريف الإسلام :

أولا: الاستسلام لله بالتوحيد :

ومعناه : الإذعان والانكسار والذل والخضوع لله بتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته .

والاستسلام لله بتوحيده في ربوبيته: بأن يعتقد ويقر ويؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه ، وأنه القادر على كل شيء والعالم بكل شيء مما يثمر تعظيمه .

والاستسلام لله بتوحيده في أسمائه وصفاته: باعتقاد الكمال المطلق المقدس له وحده من جميع الوجوه، وتنزيهه عن كل نقص وعيب، وإثبات كل ما أثبته الله لنفسه من دون تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، ولا تكييف .

والاستسلام لله بتوحيد ألوهيته : يتحقق بالذل لله والخضوع له وطاعته والانقياد له بعبادته وحده لا شريك له والكفر بكل ما يعبد سواه والبراءة منه، والقيام بحقه والالتزام بدينه وامتثال شرعه وحكمه وأمره وعدم مخالفة ذلك.

فائدة: لا يقبل استسلام لله ولا إسلام وانقياد بلا توحيد، فلو استسلم العبد لله ولغيره لكان مشركاً ولا يعتبر مسلماً، فالمسلم الحق هو من لا يعبد إلا الله ولا يعظم إلا الله، فكما أنه ليس له رب سوى الله فكذلك لا معبود له ولا إله غير الله .

فائدة : قيام الاستسلام لله بالتوحيد على القول والعمل :

يكون بالقول والاعتقاد والعمل ولا يكفي أحدها، ولا يسمى المسلم مسلماً بما في قلبه من التوحيد، بل لابد من قوله التوحيد بلسانه وعمله التوحيد بجوارحه ظاهراً، حتى يتحقق منه وصف الإسلام المقتضي للاستسلام الذي هو الآخر عمل وقول، فمن لم يقم به الركن العملي فليس بمستسلم، ومن ثم ليس بمسلم والإسلام هو أمر عملي ظاهر كما سيأتي وليس في الباطن .

فائدة : لا يكون التوحيد بدون استسلام :

كما أن الاستسلام بلا توحيد لا يقبل وصاحبه يعتبر مشركاً غير مسلم، كذلك التوحيد بلا استسلام لا يقبل ويعتبر صاحبه كافرا مستكبرا. وتقدم في الانقياد كلام ابن تيمية .

ووجه إدخال الاستسلام على التوحيد، ليتبين الجانب التعبدي الانقيادي القائم على العمل الظاهر وليس مجرد الباطن ، وهذا من سعة فقه الإمام صاحب التعريف .

فائدة: الاستسلام القدري القهري لا يدخل في العبادة وليس هو المقصود بالإسلام الشرعي كما سيأتي .

ثانيا: الانقياد له بالطاعة : هذا يعتبر الركن الثاني للإسلام :

ومعناه : فعل الواجبات والأوامر وترك المحرمات والنواهي.

وبعبارة أخرى عبادة الله وطاعته التي هي فعل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال والتروك الظاهرة والباطنة .

والانقياد هو الخضوع والذل والامتثال وليس مجرد القبول والإقرار فهذا لا يكفي .

والانقياد يقوم على ركنين : ركن قلبي باطني ، وركن عملي ظاهر .

وهذا الركن العملي هو الفيصل بين أهل السنة والمرجئة، وهي مسألة الأعمال ودخولها في الإيمان وكفر تاركها بالكلية ، فالإسلام والدين بلا انقياد يجعله دينا أجوف لا فائدة منه ولا هيبة له ولا معنى فيه ولا ثمرة به لأن القول بدون عمل يصدقه ويحققه هو كعدمه .

فائدة : لا تقبل الطاعة بدون انقياد :

فالانقياد والطاعة قرينان لا ينفك أحدهما عن الآخر، بل ويفسر كل منهما الآخر، فطاعة الله بدون انقياد يورث البدع وعدم المتابعة لرسوله وامتثال شرعه وأمره وفعل ما أمر، كما أن الانقياد لله بدون طاعة يورث الكبر والإباء والاستكبار عن عبادته والإعراض عن دينه، والعكس كذلك .

فائدة : دخول أركان الإسلام في الانقياد بالطاعة :

أركان الإسلام ومبانيه القائمة على الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فبمجموعها يحصل الانقياد بالطاعة الذي هو الإسلام، وبالشهادتين اللتين هما التوحيد يحصل صحة الإسلام وركنه الأول وهو الاستسلام لله بالتوحيد .

فائدة : دخول توحيد المتابعة في الانقياد بالطاعة :

توحيد المتابعة القائم على شهادة (أن محمداً رسول الله) : لأن عبادة الله لا تقبل إلا إذا كانت موافقة لما جاء به رسوله، وقدمنا الكلام عن الانقياد للرسول ﷺ .

ثالثا: البراءة من الشرك وأهله :

وسيأتي الكلام عن هذه المسألة في فصل مستقل .

مسألة : الألفاظ المرادفة للفظ الإسلام :

الطاعة - الاستسلام - العبادة - الانقياد - الإذعان - الامتثال - الالتزام - الشريعة - الدين .

فكل هذه العبارات يجتمع فيها معنى الانقياد والتسليم والاستسلام والإذعان، فهي ألفاظ لمعنى واحد وتتقارب كثيرا في الدلالة .

المسألة الثالثة: أدلة الإسلام من القرآن والسنة :

ورد الإسلام في آيات كثيرة من كتاب الله منها قوله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ الزخرف: ٦٩ ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ لقمان: ٢٢ ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ آل عمران: ٨٣ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ النساء: ١٢٥ ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٤ ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ غافر: ٦٦ ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ الحجرات: ١٧ ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾ الزمر: ٥٤ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩ ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران: ٨٥ ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ الأنعام: ١٢٥ ﴿ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ التوبة: ٧٤ ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ الزمر: ٢٢ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فصلت: ٣٣ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ آل عمران: ٦٧ ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٨٠ ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ الفتح: ١٦ ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ الحج: ٧٨.

وهذه الآية من أعظم الآيات التي بينت الإسلام وفسرته وذكرت شيئاً من خصائصه وأن الله تعالى اجتبانا واصطفانا به .

ثانيا الأدلة من السنة المفسّرة للإسلام :

١ - حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان) رواه البخاري ومسلم .

وقد وردت روايات له بدل لفظ الشهادة وهي :

(إيمان بالله ورسوله) (أن يوحد الله) (أن يعبد الله) .

٢- عن عمرو بن عَبَسَه السلمي ﷺ قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال ما الإسلام؟ قال: (أن تسلم قلبك لله ﷻ وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك) . قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: (الإيمان) قال: وما الإيمان؟ قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت) . رواه أحمد.

٣- حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً وفيه : (فتجيء الأعمال يوم القيامة .. ثم يجيء الإسلام فيقول يا رب أنت السلام وأنا الإسلام . فيقول الله تعالى : (إنك على خير ، بك اليوم آخذ وبك أعطي). رواه أحمد.

٤- قال ﷺ:(بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء) مسلم.

٥- قال ﷺ : (الإسلام علانية والإيمان في القلب) رواه أحمد.

٦- قال ﷺ : (الإسلام ذلول لا يركبه إلا ذلول) رواه أحمد والهروي .

المسألة الرابعة : أقوال السلف وأهل العلم في حقيقة الإسلام :

قال الطبري في تفسيره : (الإسلام هو : **إخلاص العبادة والتوحيد لله وخضوع القلب والجوارح له**).

وقال أيضا : (الطاعة له وإقرار الألسن والقلوب له بالعبودية والذلة وانقيادها له بالطاعة فيما أمر ونهى وتذللها له بذلك من غير استكبار عليه ولا انحراف عنه دون إشراك غيره من خلقه في العبودية والألوهية).

وفي تفسير الألوسي روح المعاني قال على بن أبي طالب ﷺ : (الإسلام هو التسليم، والتسليم اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل، وأن المؤمن من يعرف إيمانه في عمله والكافر يعرف بإنكاره).

وقال قتادة : (الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء به رسوله من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياؤه لا يقبل غيره ولا يجزي إلا به). أخرجه الطبري .

وقال أبو العالية : (الإسلام الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وسائر الفرائض لهذا تبع). أخرجه الطبري .

وقال البغوي : (أسلمت وجهي: انقدت لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي وخص الوجه لأنه أكرم الجوارح للإنسان فإذا خضع خضعت الجوارح).
وقال ابن قتيبة : (الإسلام هو الدخول في السلم أي الانقياد والمتابعة).
وقال المروزي : (هو خضوع لله بالطاعة) .
وقال القرطبي : (الإسلام في الشرع الانقياد بالأفعال الظاهرة الشرعية) .
قال ابن رجب: (الإسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده لله).
قال ابن تيمية: (**الإسلام يجمع معنيين** :
أحدهما : الانقياد والاستسلام فلا يكون مستكبرا .
والثاني : إخلاص ذلك وإفراده فلا يكون مشركا) . ٧/ ٦٣٥. والصارم .
وقال في قاعدة التوسل : (**ودين الله الذي هو الإسلام مبني على أصلين** :
الأول : أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيء .
الثاني: أن يعبد الله بما شرعه على لسان رسوله ﷺ .
وهذان هما حقيقة قولنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.
فالإله هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة وتعظيما ومحبة وخوفا ورجاء وإجلالا وإكراما ، والله ﷻ له الحق لا يشاركه فيه غيره) .
وقال ابن تيمية في التدمرية: (**فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده** :
فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً .
ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته .
والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر . والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده ، فهذا دين الإسلام الذي لايقبل الله غيره). الفتاوى ٣/ ٩١ .
وقال في التدمرية: (أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة) .
وقال : (إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه) ١٠/ ٤٩.
وقال : (وحقيقة الفرق أن الإسلام دين، والدين مصدر دان يدين إذا خضع وذل، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دونما سواه، فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما، فالإسلام في الأصل من باب العمل عمل القلب والجوارح) الفتاوى ٧/ ٢٦٣.

كما أن الإيمان بمحمد ﷺ لا يتم ولا يصح إلا بركنين تصديقه والانقياد له بالتزام شريعته .

وقال ابن القيم : (والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسوله واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم وإن لم يكن كافراً معانداً فهو كافر جاهل) طريق الهجرتين ٤٤٩ .

وقال ابن كثير ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ : (أمَر الله المؤمنين أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره وقال ابن عباس أدخلوا في الطاعة).

وقال محمد بن عبد الوهاب في الدرر ٢/ ٢٢: (أصل الإسلام وقاعدته أمران:

الأول: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والموالاة فيه وتكفير من تركه .

الثاني: الإنذار عن الشرك في عبادة الله والمعاداة فيه وتكفير من فعله).

وقال : (أن التوحيد يكون على القلب بالاعتقاد وبالحب والبغض ويكون على اللسان بالنطق وترك النطق بالكفر ويكون على الجوارح بفعل أركان الإسلام وترك الأفعال التي تكفّر فإذا اختل واحدٌ من هذه الثلاث كفر وارتد) .

وقال عبدالرحمن بن حسن : (الإسلام حقيقته أن يسلم العبد بقلبه وجوارحه لله تعالى و ينقاد له بالتوحيد والطاعة كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ وإحسان العمل لابد فيه من الإخلاص ومتابعة ما شرعه الله ورسوله) .

وقال : (أصل الإسلام وأساسه أن ينقاد العبد لله تعالى بالقلب والأركان مذعناً له بالتوحيد) .

المسألة الخامسة: إطلاقات الإسلام إلى عام وخاص :

الأول : الإسلام العام :

وهو الدين الذي جاء به الأنبياء جميعاً، ويشترك فيه الجميع وهو التوحيد وعبادة الله وحده والكفر بالطاغوت وقول لا إله إلا الله وعموم الانقياد لشرع الله تعالى والامتثال لأوامره والالتزام بدينه، قال تعالى عن الأنبياء : ﴿ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ ﴾. وفي وصية يعقوب لبنيه بالإسلام والتوحيد: ﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٣ .

وقال ﷻ عن نوح في سورة يونس ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.
وإبراهيم : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾
وموسى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ يونس: ٨٤.
وقال عن الحواريين أصحاب عيسى : ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٥٢ .
وقال عن بلقيس وسليمان ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ النمل: ٤٤.

الثاني : الإسلام الخاص :

وهو الذي جاء به نبينا محمد ﷺ وبعث به، واختص به من الدين والشريعة والمنهاج من الفرائض والواجبات والمنهيات .

يدل له قوله تعالى :﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران ٨٥ .
وقال سبحانه : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣.

مسألة: الإسلام العام هو دين جميع الرسل والأنبياء وهو التوحيد وقول لا إله إلا الله والاختلاف إنما هو في الشرائع :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء: ٢٥ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ الحج: ٣٤ ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ ﴾ الشورى: ١٣.

وأورد الله ﷻ القسمين التوحيد والشريعة في آية:﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ﴾ الحج: ٣٤ .

ويدل لهذا الأصل قوله ﷺ : (الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد) رواه البخاري . فالتوحيد واحد والشرائع شتى .

المسألة السادسة: أنواع الإسلام : حقيقي وحكمي :

الإسلام الحقيقي :

هو القائم بالمسلم المؤمن والذي يوافق باطنه ظاهره، ويدخل به صاحبه الجنة، وهو ضد الكفر ويعتبر مسلماً حقاً وحكماً ويترتب عليه أحكام الآخرة.

الإسلام الحكمي الاسمي:

وهو الذي نحكم على صاحبه وفاعله بالإسلام الظاهر دون الباطن، والذي تجري به أحكام الدنيا من النكاح والميراث والجنائز الذبائح وعصمة الدم وغيرها.

وهذا يثبت بالإقرار بالشهادتين أو إظهار شعائر الإسلام .

فمعنى حكمي : أي أن صاحبه قد أتى بما يحكم بإسلامه ونجري عليه أحكام الإسلام في الدنيا فهو الحكم على الظاهر .، ولو لم يكن في الحقيقة مسلماً عند الله بل يكون مرتداً كافراً أو مشركاً أو منافقا، كما كان الحال مع المنافقين زمن النبي ﷺ.

ولا يعني حكمنا عليه بالإسلام أننا لا نكفره متى فعل مكفراً وظهر منه كفراً.

قال الثوري وابن المبارك : (الناس عندنا مؤمنون في المواريث والأحكام ولا ندري كيف هم عند الله) الإبانة الصغرى ص: ١٢٢

وقال البربهاري : (وإذا لم يفعل شيئاً - من النواقض - فهو مؤمن مسلم بالاسم لا بالحقيقة).شرح السنة ٧٣ .

ويدل لهذا الأصل قوله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) متفق عليه.

وقوله تعالى :﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ التوبة: ٥.

فجملة : ﴿ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ (وحسابهم على الله) :

تدلان على الإسلام الحكمي، وأن الحقيقي هو ما يحاسب عليه الله بالجنة ويقبله، وإذا لم يقبله فإنه يبقى حكمنا على صاحبه بالإسلام لقوله التوحيد ويعصم دمه في الدنيا وأما في الآخرة فمصيره النار لكفره ونفاقه باطنا، كما يدل لهذا الأصل خبر الذي أسلم فقتله أسامة بن زيد .

وقوله : (إلا بحقها) : يدل على أن من فعل كفراً وأظهره أو علمنا به فإن قوله لكلمة التوحيد لا تعصم دمه، وكذا لو زنا وهومحصن أو قتل فإنه يقتل ويهدر دمه .

المسألة السابعة : لا يقبل الإسلام إلا بإيمان يصححه :

وهذه قاعدة مقررة لا يكون إسلام إلا بإيمان ولا يكون إيمان إلا بإسلام.

فلابد للإسلام حتى يكون عند الله مقبولاً من إيمان يصححه، وهو أصل الإيمان وليس الإيمان الكامل، كما أنه لابد للإيمان حتى يقبل من إسلام يصححه وليس الإسلام المطلق الكامل، وتقدم بيان ذلك.

ويدل لهذا الأصل الموجب لاجتماع الإيمان والإسلام قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ الزخرف: ٦٩ .

وحديث جبريل عند مسلم : ما الإسلام؟ وما الإيمان؟

وفي آخره : هذا جبريل جاء: يعلمكم أمور دينكم . مما يدل على أنه لا بد من اجتماع الإسلام مع الإيمان ولا يكفي أحدهما عن الآخر .

المسألة الثامنة: مراتب الإسلام :

الأولى : الظاهر من القول والعمل وهو المباني الخمسة .

الثانية : أن يكون ذلك الظاهر مطابقاً للباطن وهذا الإسلام الحقيقي .

قال ابن تيمية في الإيمان والصارم: (الإسلام يجمع معنيين :

الأول: الانقياد والاستسلام .والثاني: إخلاص ذلك وإفراده .وله معنيان :

الأول: الدين المشترك وهو عبادة الله لا شريك له الذي بعث به جميع الأنبياء.

والثاني: ما اختص به محمد ﷺ من الدين والشريعة والمنهاج .وله مرتبتان :

إحداهما : الظاهر من الأقوال والعمل ، وهو المباني الخمسة .

والثانية : أن يكون ذلك الظاهر مطابقاً للباطن) .

المسألة التاسعة: كفر من زعم صحة دين اليهود والنصارى وأنهم مسلمون :

من الكفر البواح المجمع عليه اعتقاد صحة أي دين غير دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ المبني على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة والزكاة والحج والصوم . وقد بينت هذه المسألة في شرح الناقض الثالث.

يدل لهذا الأصل قوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران:٨٥

وقوله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ﴾ النساء:١١٥. وقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ النساء: ٦٥: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ الحشر: ٧. وآيات كثيرة في هذا الباب .

وقوله ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار) رواه مسلم. وحكم عيسى ؊ آخر الزمان بشريعة محمد ﷺ .

وقوله ﷺ : (لو أن موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني) رواه الترمذي.

وقد أجمع العلماء على كفر من ظن أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى .

إلا أن هذا الأصل العظيم وجد من يسعى لهدمه من المتسمين بالمفكرين وأدعياء السلام والحوار والتعايش ولقاء الحضارات والتقريب بين الأديان، وأن اليهود والنصارى من زمن الرسول ﷺ إلى يومنا مسلمين بنص القرآن وليسوا كفاراً وأنهم ناجون من النار وأن اليهودية والنصرانية أديان سماوية مُتبعة يجوز اتباعها والبقاء عليها . وعقدوا لكفرهم هذا وردتهم المؤتمرات واللقاءات لتأصّيل هذا الكفر البواح والردة الصراح والعياذ بالله منهم ومنها .

المسألة العاشرة : خصائص الإسلام ومزاياه:

١- أنه دين عالمي للعرب والعجم والإنس والجن .
٢- أن الله تعهد بحفظه ونصرة أتباعه واصطفى أصحابه.
٣- أنه ناسخ لجميع الأديان .
٤- أنه دين يسر وسماحة، وموافق للفطرة، ويلائم جميع الأحوال والأزمان.
٥- أنه لا يقوم إلا بالجهاد والكفر بالطاغوت وعداوة الكفار وولاء المؤمنين.
٦- أنه حنيف عن الشرك .
٧- أنه لا يصح إلا بالعمل والانقياد .
٨- أن الله شهد بأنه هو الدين الذي عنده ، وأن الله رضيه وأتمه وأكمله .
٩- أن الله الذي سمانا مسلمين وليس غيره .
١٠- أن الدخول اجتباء من الله وفضل ومنة .
١١- أن أهل الإسلام أهل الشهادة على كل الأمم .

وهذه السمات والفضائل وغيرها ذكرها ربنا في آية الحج ، قال تعالى: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ وفي غيرها من كتابه .

قاعدة : الدخول في الإسلام فضل من الله واجتباء .

إن من القواعد المقررة أن الدخول في الإسلام أو الولادة عليه أمر متعلق بكرم الله للعبد وفضل واجتباء منه واصطفاء أن جعلنا مسلمين من أمة محمد ﷺ ومن خير أمة وأتباع أفضل رسول ومتدينين بأكمل دين وشريعة ويدل لهذا الأصل قوله تعالى في آية : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ الآية الحج: ٧٨ فله الحمد وحده .

المسألة الحادية عشرة : علاقة الإسلام بالمسميات الشرعية :

١- علاقة الإسلام بالعبادة : العبادة أعم من الإسلام، فالإسلام هو بمعنى الانقياد والالتزام والتسليم،وهو بذلك يدخل في عموم العبادة. وقريب منه الطاعة .

قال ابن كثير في تفسيره: (وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور ، وذلك هو حقيقة دين الإسلام ، لأن معنى الإسلام الاستسلام لله تعالى المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع) .

٢- علاقة الإسلام بالدين .

الدين: من دان بكذا إذا التزم به وانقاد له فهو يحمل نفس معنى الإسلام، إلا أن الدين ينقسم إلى دين حق وهو الإسلام ودين باطل وهو كل دين غير الإسلام سواء كان ديناً باطلاً من أصله أو كان ديناً صحيحاً أصله ثم حُرّف وبعد ذلك نسخ كدين النصارى واليهود .

ومما يدل على أن الدين قسمان قوله تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾ آل عمران: ٨٥ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ الكافرون: ٦ ولا يقال لكم إسلامكم ولي إسلامي، إذ الإسلام مصطلح خاص بدين الله ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩.

٣- علاقة الإسلام بالشريعة :

الشريعة بمعناها الخاص وعند الإطلاق اسم لكل ما جاء عن الله ورسوله من الأخبار والأحكام في الأمر والنهي والعقائد وما يتعلق بأحكام الدين عموماً.

إلا أن إطلاق الشريعة على الأوامر والأحكام العملية أكثر.

والشريعة من عند الله ﷻ فهي أمره وفعله، فيوصف الله ﷻ أنه شرع للناس.

ولكل رسولٍ شريعة وشريعة نبينا ﷺ هي الإسلام ، والرسل ليست شرائعهم الإسلام الخاص بمحمد ﷺ، لكنهم دعوا للتوحيد الذي يوافق الإسلام العام.

ويقال في الشريعة مثلما يقال في الدين : حيث توجد شرائع باطلة كما قال عنها سبحانه ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١.

٤- علاقة الإسلام بالتوحيد :

التوحيد جزء من الإسلام والإسلام أعم منه فهو يتضمن التوحيد والانقياد بالطاعة بفعل الفرائض من الصلاة وما تحتها وترك المحرمات .

وإن كانت الطاعات والقربات والفرائض فعلها من لوازم التوحيد وليست من مدلولاته التطابقية ولا التضمنية وإنما اللزومية، فهو خارج عن مدار التوحيد وماهيته إلا أنه لازم له .

المسألة الثانية عشرة : علاقة الإسلام بالإيمان وحالات ذكر الإسلام :

ذهب بعض أهل السنة إلى أن الإسلام والإيمان شيء واحد ، والصحيح أنهما يختلفان .

كما اختلفوا في أيهما الأفضل والأكمل . والصحيح أن الإيمان أفضل .

يدل له أنه لما سُئل النبي ﷺ أي الإسلام أفضل؟ قال: (الإيمان) رواه أحمد.

ثم اختلفوا في التفريق بين الإسلام والإيمان على أقوال أصحها :

أن الإسلام هو الأعمال الظاهرة والانقياد والكلمة والشهادتان .

والإيمان هو ما في القلب من التصديق والإقرار والمحبة .

ومما يدل على ذلك حديث: (الإسلام علانية والإيمان في القلب) رواه أحمد وما يفهم من حديث جبريل.

مسألة : الإسلام والإيمان إذا اجتمعا في اللفظ افترقا في المعنى ، وإذا افترقا في اللفظ اجتمعا في المعنى وفسر كل واحد منهما بالآخر .

ومن الأدلة على وجود التفريق بين الإسلام والإيمان :

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ الزخرف: ٦٩ ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَـٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ الحجرات: ١٤ ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٍ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ الذاريات: ٣٦ ﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَـٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ ﴾ الأحزاب: ٣٥ .

وقول الرسول ﷺ :حين قيل له فلان مؤمن قال : (أو مسلم).

وقوله ﷺ : (الإسلام علانية والإيمان في القلب) رواه أحمد في المسند.

وحديث جبريل في التفريق بين الإسلام والإيمان وغير ذلك .

مسألة : حالات ذكر الإسلام :

يذكر الإسلام عاماً مطلقاً ويذكر مقيداً مع الإيمان فيكون له معنىً خاصاً وهو أعمال الجوارح والانقياد .

فإذا أطلق فهو دين الله الذي اختاره لعباده وارتضاه لهم وتناول جميع الطاعات فرضها ونفلها الظاهرة والباطنة وفعل جميع ما يحب الله وترك جميع ما يكرهه الله وينهي عنه وأما إذا قيد فبحسب ما قيد به .

المسألة الثالثة عشرة : مراتب الدين :

الإسلام والإيمان والإحسان .

أعلاها الإحسان له ركنان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.
ثم الإيمان:وأركانه ستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والقدر .
ثم الإسلام : وله خمسة أركان .
وقد وضح هذا الأمر حديث جبريل وقوله ﷻ: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فاطر: ٣٢.
وسميت مراتب : لكونها ليست في منزلة واحدة بل بعضها أفضل من بعض .

المسألة الرابعة عشر : أركان الإسلام :

للإسلام خمسة أركان هي الواردة في حديث جبريل ويسميها أهل العلم مباني الإسلام ويزيد عليها بعض أهل العلم ركناً سادساً وهو الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وإليك أركان الإسلام :
الأول : التوحيد : الشهادتان :(شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله).
الثاني : إقام الصلاة .
الثالث : إيتاء الزكاة .
الرابع : صوم رمضان .
الخامس : الحج .
وتارك التوحيد كافر وكذا الصلاة ، وأما الزكاة والحج والصوم فيكفر الممتنع عنها أما تاركها تهاوناً والمقصر فيها فكفره محل خلاف. وسيأتي مزيد بيان للمسألة.

فائدة : سر حصر بناء الإسلام على الخمس :

قيل لأن هذه الأركان الخمسة أظهر شرائع الإسلام وأعظمها ، وبالقيام بها يتم استسلام العبد وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده .
قال ابن تيمية : (والتحقيق أن النبي ﷺ ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً ، والذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان فيجب على كل من كان قادراً عليه ليعبد الله بها مخلصاً له الدين وهي هذه الخمس، وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب المصالح فلا يعم وجوبها جميع الناس بل إما أن تكون فرضاً على الكفاية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأما أن تجب بسبب حق للآدميين يختص به من وجب له عليه كبر الوالدين وصلته الأرحام وحقوق المسلمين والزوجين والجار والفقراء ونصرة المظلوم وإذا أبرؤوا منها سقطت) .

المسألة الخامسة عشر : لا يصح الإسلام إلا بالكفر بالطاغوت :

لا يصح الإسلام ولا يقبل ولا يعتبر إلا إذا قام فيه الكفر بالطاغوت المتضمن البراءة من أديان المشركين والكافرين ومعاداة أتباعها وتكفيرهم وبغض كل كفر وشرك والبراءة منه .

وهذه هي ملة إبراهيم التي أمرنا الله تعالى بإتباعها وهي الكلمة الباقية إلى يوم الدين وتقدم تقرير هذا الأصل في مواضع .

وقد قرن الله تعالى بين ملة إبراهيم مع الإسلام وترك الشرك في مواضع .

كما فسر العروة الوثقى بالإسلام في سورة لقمان وفي موضع سورة البقرة بالكفر بالطاغوت مما يدل على أن الإسلام لا يقبل بدون الكفر بالطاغوت .

فائدة : جعل الله ﷻ الإسلام هو العروة الوثقى :

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ لقمان: ٢٢، وفي الآية الأخرى في سورة البقرة أخبر أن المستمسك بالعروة الوثقى هو من كفر بالطاغوت وآمن بالله ، وهذا من أعظم ما يفسر حقيقة الإسلام ويبيّن معناه، وأنه بمعنى الإيمان والتوحيد والكفر بالطاغوت .

المسألة السادسة عشرة : قيام الإسلام والرضا به على الانقياد والعمل :

الانقياد ركن في الإسلام والإيمان وشرط في تحقيق التوحيد .

والانقياد يعني العمل الظاهر وليس مجرد الانقياد القلبي كما تزعمه المرجئة فالإسلام قائم على العمل يزول بشرطه، بل إن من القواعد المقررة أن من لم ينقد للشريعة ويذعن بالطاعة للرسول ﷺ فإنه لم يتحقق فيه الرضا بالإسلام والذي هو شرط للقبول عند الله وفي الحديث : (رضيت بالله رباً وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً) ، فلا يتحقق الإسلام فضلاً عن الرضا به إلا بالقبول والانقياد له .

والرضا يتم بالقبول والانقياد والمحبة والفرح ، فبمجموع هذه الأوصاف يكون الرضا، وإلا فهو منتفٍ ولو ادعاه صاحبه . كما أن الإسلام يشمل فعل الواجبات والقربات وامتثال الأوامر وترك المحرمات والمنهيات، وهذا هو الانقياد .

ومن قال من أهل العلم : الإسلام الكلمة فالمراد الذي يدخل العبد به في الإسلام هو الكلمة وهو قول الشهادتين، لا أن الإسلام الواجب هو الكلمة وحدها ولا أن العبد لا يؤاخذ بعدها بتركه الأعمال ومباني الإسلام .

قال ابن تيمية : (الإسلام دين والدين مصدر دان يدين إذا خضع وذل، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فأصله في القلب

هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما فالإسلام في الأصل من باب العمل عمل القلب والجوارح) .

والإيمان بمحمد ﷺ لا يصح إلا بركنين: تصديقه والانقياد له بالتزام شريعته.

المسألة السابعة عشرة : الإسلام يتبعض ويستثنى منه ويزيد وينقص :

الإسلام منه الكامل ومنه الواجب والمجزئ ومنه الناقص مع صحته فهو مثل الإيمان يزيد وينقص ويتبعض .

يصح الاستثناء منه إذا لم يقصد الشهادتين وأصل الإسلام أما كماله من فعل الواجبات وترك المحرمات فيقع الاستثناء فيه .

المسألة الثامنة عشرة : مسمى اليهودية والنصرانية :

هذه من المسميات المبتدعة في دينها ، فإن الله تعالى لم يرض لهم غير الإسلام :

عن سلمان ﷺ: قلت: يارسول الله ما تقول في دين النصارى؟ فقال رسول الله ﷺ: (لا خير فيهم ولا في دينهم). رواه الحاكم وقال الذهبي في السير جيد الإسناد .

قال أنس ﷺ: (رغبت اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم ، وابتدعوا اليهودية والنصرانية وليست من الله ،وتركوا ملة إبراهيم:الإسلام) أخرجه الطبري .

مبحث : الدين والملة والشريعة

تعريف الدين :

الدين يطلق على الإلزام والالتزام وعلى الطاعة والانقياد والخضوع وعلى ما يتدين به العبد من حق أو باطل وعلى القهر والاستعلاء والغلبة وعلى الجزاء والمكافأة والحساب وعلى العادة والشأن والسيرة والطريقة .

فيقال دِنته ودِنت له أي أطعته (تدين لهم بها العرب) أي تطيعهم وتخضع لهم.

و(الكيِّس من دان نفسه) قال أبو عبيد: أي أذلها واستعبدها، وقيل حاسبها .

ويقال دِنته: جزيته، ويوم الدين يوم الجزاء.ومنه:كما تدين تُدان.

وتقول:ما زال ذلك ديني وديدَني أي عادتي. ويقال: دِنتُه أي سُسْتُه وملَكْته.

والدين: ما يتدين به الرجل ويلتزمه ويخضع له وينقاد له .

والدين لله هو طاعته والتعبد له والذل له .

قال ابن تيمية : (الإسلام دين، والدين مصدر دان يدين إذا خضع وذل، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده).

مسألة : يتعدى الدين بنفسه وبالباء واللام :

فيقال: دانه إذا حكمه وقهره وملكه وغلبه .

ودان بكذا إذا التزم طريقة وعادة ومذهباً . ودان له أي خضع له وأطاعه .

مسألة : الدين قريب من معنى العبادة والإسلام والطاعة والانقياد والملة.

وبينها فروق يسيرة بينتها في موضعها .

والدَّيان : من أسماء الله ومعناه الحكَم القاضي والحسيب المجازي ، والقهار.

مسألة: الدين يضاف إلى الله وإلى العبد :

قال ابن تيمية رحمه الله : (الدين مصدر والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول، يقال دان فلان فلانا إذا عبده وأطاعه، كما يقال دانه إذا أذله، فالعبد يدين لله أي يعبده ويطيعه، فإذا أضيف الدين إلى العبد فلأنه العابد المطيع، وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع).الفتاوى ١٥/ ١٥٨.

دليل إضافة الدين للعبد:﴿ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ ﴾ النساء١٤٦ ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ النور: ٢٥ ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ﴾ النور: ٥٥ ﴿ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ النساء: ١٧١.

ودليل إضافة الدين لله: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ آل عمران: ٨٣ .

مسألة: المراد بالدين في كثير من الآيات هو الحكم والتشريع :

إن أخص ما يدخل في مسمى الدين ومعناه : الحكم والقضاء والتشريع والعرف، وكذلك الطاعة والاتباع والانقياد والخضوع والذل لسلطة عليا قاهرة.

وعليه : فإن من يدخل في طاعة الله تعالى، وينقاد إلى حكمه وشرعه، ويتبع ما أنزل على نبيه ﷺ فهو داخل في دين الله الإسلام، وهو عابد له سبحانه وتعالى.

ومن يعرض عن طاعة الله تعالى وعن حكمه وشرعه، ويطيع غيره ويحتكم إلى حكم غيره وشرع غيره ولو في جزئية من جزئيات حياته فهو داخل في دينه، وعابد له من دون الله، ولو زعم بلسانه أن دينه الإسلام وأنه من المسلمين.

وعليه فهذه القوانين الوضعية السائدة والحاكمة في أمصار المسلمين، هي دين وإن لم يسمها أهلها بذلك، ومن دخل فيها أو تابع الطغاة عليها، أو رضي بها فهو في غير دين الله وهو في دين الطاغوت وإن زعم الإسلام وتسمى بأسماء المسلمين. ثم إن كل منهاج أو نظام أو دستور أو قانون لا يقوم على أساس الإسلام والطاعة لله ﷻ، والمتابعة لرسوله ﷺ ، فهو دين باطل وطاغوت يتعين البراءة منه والكفر به.

تنبيه : لكي يدرك المرء في أي ملة هو وعلى أي دين، أهو في دين الله وطاعته وشرعته أم في دين غيره ، فلا بد له من أن يتعلم أوامر الله فيمتثلها ونواهيه فيجتنبها.

مسألة : التدين ضرورة فطرية :

ما من امرئ في الوجود إلا وله دين يدين به ومعبود يعبده، حتى ذاك الملحد الذي يكفر بوجود الله تعالى وبالأديان السماوية وغيره، له دين يدين به وينهجه في حياته، وله آلهته الخاصة به التي تشرع له فيتبعها ويعبدها من دون الله، ففر بزعم التحرر من عقدة الأديان من الدين الحق إلى الدين الباطل، ومن العبودية الحقة التي توافق الفطرة البشرية إلى العبودية الباطلة الدخيلة.

مسألة : علاقة العبادة بالدين :

الدين أصله من الانقياد والذل وما يتدين به المرء ويلتزم به ، فهو قريب من معنى الإسلام ويدخل في عموم العبادة كما قاله ابن تيمية في العبودية.

وقد يكون الدين على غير وجه التعبد فيقال مثلاً الدمقراطية دين الغرب فهو بمعنى المنهج والطريقة وليس من باب التعبد .

مسألة : الدين منه الحق وهو دين الإسلام ومنه الباطل كدين المشركين :

ويدل لهذا الأصل أن الدين قسمان قوله ﷻ: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ الكافرون: ٦،

ولا يقال لكم إسلامكم ولي إسلامي، أما الإسلام فمصطلح خاص بدين الله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾ آل عمران: ٨٥ ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ آل عمران: ١٩أي الدين المقبول.

مسألة : دخول التوحيد والشرك في الدين :

أخبرنا الله ﷻ أن الدين له وحده وأمرنا بتوحيد الدين لله وأن نجعله خالصا له فلا ندين لغيره ولا نمتثل ونلتزم بأي دين غير دين الإسلام :

قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ الزمر: ٣ ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ النحل: ٥٢ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ البينة: ٥ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ الصف: ٩ ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ الزمر: ١١ ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ الزمر: ١٤ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الروم: ٣٠ ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٢ ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ آل عمران: ١٩ ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ التوبة: ٣٦ ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ التوبة: ٢٩ ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ الأعراف: ٥٤ .

وأمر ﷻ بالقتال حتى يكون الدين لله وحده ولا يكون فيه شرك : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ الأنفال: ٣٩ ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ البقرة: ١٩٣ والفتنة هنا الشرك .

وأنكر ﷻ على من جعل لله شريكا يشرع ويسن الدين ومن أطاع غيره وجعل له رباً يسن له الأحكام ويحلل ويحرم ويشرّع له الدين في قوله ﷻ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١ ﴿ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ الأنعام: ١٣٧ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ النساء: ٦٠.

قال ابن تيمية : (والدين هو الطاعة، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله، وجب القتال حتى يكون كله لله) . الفتاوى ٢٨/ ٥٤٤.

قال الإمام الطبري: (يكون الدين لله: حتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره) .

وذكر سبحانه الأديان الكفرية الشركية في مثل قوله :

﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم ﴾ آل عمران: ٢٤ ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ غافر: ٢٦.

وأخبر عن حرب الكفار لدينه وتركهم له: ﴿ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ الأنعام ٧٠ ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٧ ﴿ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ التوبة: ١٢ ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ الأنفال: ٤٩ ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ ﴾ الممتحنة: ٩ ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣.

فائدة: قد تكون الملة كفرية شركية: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ يوسف: ٣٧ ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ص: ٧ ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾.

مبحث: دين الله هو ملة إبراهيم وهو الإسلام

أثنى الله ﷻ على إبراهيم، وأمرنا باتباع ملته، وجعل السفاهة في تركها، وأخبرنا أنها تقوم على التوحيد والإيمان بالله وحده والكفر بالطاغوت والجهاد:

فقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ البقرة: ١٣٠ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل ١٢٣ ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ الحج: ٧٨.

مسألة: أهمية ملة إبراهيم ﷺ وأنها على الفور وليست على التراخي:

اعلم أن ملة إبراهيم التي هي إخلاص العبادة لله والكفر بالطاغوت أول ما يجب على المسلم معرفته والعمل به، ولا تنظر إلى ما يزعمه بعض المتسبين للعلم من أن ملة إبراهيم آخر مرحلة في الدعوة فلا يُبدأ بالكفر بالطاغوت وأنه يعارض الدعوة بالحكمة والحسنى، فدعوا لتوحيد الكلمة دون كلمة التوحيد، واعتذروا بمصلحة الدعوة وخوف الفتنة، ونسو أن أعظم فتنة الشرك وكتم التوحيد والتلبيس في الدين، ولكي يتبين لك الحق وضلال هؤلاء تدبر هديه ﷺ من أول ما بُعث بقوله في المدثر ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ حيث كان مظهرا الكفر بالطاغوت مع لينه وخُلقه ولا تعارض بينهما، فهو القائل زمن الاستضعاف لعمرو بن عبسه: **(أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان)** رواه مسلم، فانظر كيف أنه لم يقل أرسلت بالتسامح والإخاء، أو بصلة الأرحام فقط، مما يدل على أنه ﷺ لم يترك يوما واحدا عيب الشرك وأهله.

قال ابن القيم في الزاد في جهاده: (دخل الناس في الدين وقريش لا تنكر، حتى بادأهم بعيب دينهم وسب آلهتهم، فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة).

مبحث : الشريعة

الشريعة هي الطريقة والأمر والدين والحكم والمنهج.
والشريعة والدين والإسلام بمعنىً واحد .
مسألة : مقاصد الشريعة :
جاءت الشريعة بخمسة مقاصد وأمر الإسلام بحفظها وهي :
حفظ الدين ، والنفس ، والعقل ، والعرض والنسل ، والمال .
ومن مقاصدها الولاء والبراء ومخالفة الكفار وهي داخلة في حفظ الدين .
قال ابن تيمية : (وإذا كانت مخالفة الكفار سبباً لظهور الدين ، فإنما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله على الدين كله، فتكون مخالفتهم من أعظم مقاصد الشريعة) الاقتضاء ١٩٣ .

مسألة الشريعة قسمان :
الشريعة الإسلامية وهي ما كان مصدرها من الله وهي دين الإسلام كما في قوله:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ .
الشرائع الكفرية الشركية وهي ما كان من غير الله وقد ذكرها الله ﷻ بقوله:
﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١

مسألة : دين الإسلام يطلق على التوحيد والشريعة :
الإسلام بمعنى التوحيد وهو دين كل الرسل .
ودليله :﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾.
وقد يسمى الإسلام بمعناه العام الذي هو التوحيد شريعة كما في قوله :﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ الشورى: ١٣.
وبمعنى الشريعة الخاصة ، فلكل أمة جاءها رسول شريعة تخصهم .
ودليلها : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ المائدة: ٤٨ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ الجاثية: ١٨.
وورد القسمان في الآية ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ الحج: ٣٤ .

مبحث : الالتزام بالدين

المسألة الأولى تعريف الالتزام :

الالتزام من لزم الشيء إذ صاحبه وداوم عليه. وهو بمعنى الامتثال والانقياد.

وعرفه بعض أهل العلم بأنه : إيجاب الإنسان أمراً على نفسه إما باختياره وإرادته أو بإلزام الشرع إياه فيلتزمه امتثالاً وطاعة لأمر الشرع .

وقد عرّف بعض علماء الأصول التكليف بأنه : التزام مقتضى خطاب الشرع .

قال الشاطبي في الموافقات : (ومن شرط تعلق الخطاب إمكان فهمه لأنه إلزام يقتضي إلتزاماً) .

وقد عرف علماء الأصول المحرم بأنه: ترك المنهي عنه امتثالاً أو ترك ما يعاقب على فعله امتثالاً، والواجب ما يثاب فاعله امتثالا .

فالامتثال هو الالتزام وهو قصد الفعل والتقرب لله به وبطاعته والانقياد له .

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات : (الإلزام ضربان : إلزام بالتسخير من الله تعالى أو من إنسان وإلزام بالحكم والأمر).

فالالتزام هو وصف عملي ظاهر ، زائد عن الإقرار ، وهو بمعنى الانقياد .

المسألة الثانية : حكم الالتزام ومكانته وحكم تاركه :

الالتزام شرط في اعتبار الإسلام وصحة التوحيد . وتارك الالتزام كافر .

فالتزام الشريعة وأوامر الله وفرائضه وامتثالها، هو الذي قام عليه الدين وهو مدار العبادة وهو أصل الإسلام الذي يعود للاستسلام والانقياد والالتزام .

قاعدة: ضد الالتزام الامتناع ، وهو كفر وسيأتي الكلام عنه في آخر الكتاب.

المسألة الثالثة : درجات الالتزام :

يقال في الالتزام كما يقال في درجات الانقياد . أصل الالتزام تاركه كافر أما من عنده الأصل وقصر في كمال الالتزام فهو غير كافر لترك الكمال .

المسألة الرابعة: الأدلة الدالة على وجوب الالتزام:

ورد الإلزام والالتزام في نصوص الشرع في مثل قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ الفتح: ٢٦.

وقوله : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ هود: ٢٨ .

وقوله : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ الإسراء: ١٣.

وقال ﷺ : (من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة) رواه الترمذي .
وقال ﷺ : (تلزم المسلمين وإمامهم) رواه البخاري .

المسألة الخامسة: كلام أهل العلم في حقيقة الالتزام ومكانته:

قال ابن رشد في البيان والتحصيل : (حتى يقولوا لا إله إلا الله أي حتى يسلموا فيقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله **ويلتزموا** سائر قواعد الإسلام) .

قال ابن يوسف المواق الغرناطي : (إن نطق الكافر بالشهادتين ووقف على شرائع الإسلام وحدوده ثم **التزمها** قُبِل إسلامه وإن أبى من **التزامها** لم يقبل منه إسلامه) منقول عنه من مواهب الجليل شرح مختصر خليل.

قال الخرشي : (ولا يتقرر الإسلام إلا بالنطق بالشهادتين مع **التزام** أحكامها).

قال ابن سعدي عند تفسير آية ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾:(من ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر ومن تركه مع **التزامه** فله حكم أمثاله من العاصين).

قال المعلمي:(جانب **الالتزام** هو المغلب في شهادة لا إله إلا الله)من رفع الاشتباه.

وقال الشنقيطي في تفسيره عند آية ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ : (فمن كان امتناعه عن الحكم بما أنزل الله لقصد معارضته ورده، والامتناع عن التزامه ، فهو كافر ظالم فاسق وكلها بمعنى المخرج من الملة) .

قال ابن القيم: (ولم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الإسلام، هذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السنة أن الإيمان لا يكفي فيه قول اللسان بمجرده ولا معرفة القلب مع ذلك بل لابد فيه من **عمل القلب وهو حب الله ورسوله وانقياده لدينه والتزام طاعته ومتابعة رسوله وهذا بخلاف من زعم: أن الإيمان هو مجرد معرفة القلب وإقراره**). مفتاح دار السعادة ١/ ٩٤.

وقال في عدة الصابرين: (من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنا حتى يأتي ... **وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهراً وباطناً**).

وقال أيضا في الصلاة : (إذا حكم بغير ما أنزل الله أو فعل ما سماه الله ورسوله كفراً، وهو ملتزم للإسلام وشرائعه فقد قام به كفر وإسلام) .

قال ابن حجر في فتح الباري : " فإن من لازم الإيمان بالله ورسوله التصديق بكل ما ثبت عنهما والتزام ذلك فيحصل ذلك لمن صدق بالشهادتين".

وقال:" إن إقرار الكافر بالنبوة لا يدخله في الإسلام حتى يلتزم أحكام الإسلام " .

وقال:" فإن شهد بالرسالة **والتزم** أحكام الإسلام حكم بإسلامه".

قال ابن القيم في المفتاح عن الإيمان والإسلام:" لابد فيه من عمل القلب وهو حب الله ورسوله وانقياده لدينه **والتزام** طاعته ومتابعة رسوله ".

وقال في زاد المعاد: " **والتزام** طاعته ودينه ظاهراً وباطناً ".

وقال : " الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه **والتزام** بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات، إذ لو كان الشرع تابعا للهوى والشهوة لكان في الطبع ما يغني عنه وكانت شهوة كل أحد وهواه شرع له ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ". البدائع ٤/ ١٢٢.

قال ابن تيمية في الإيمان:" فعلم أن مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن **للالتزام** والانقياد ".

وقال : (لا يكون مؤمنا إلا إذا التزم بالعمل مع الإقرار وإلا فلو أقر ولم يلتزم بالعمل لم يكن مؤمناً) الفتاوى ٧/ ٣٨٩ .

وقال: (لفظ الإقرار يتضمن الالتزام ثم إنه يكون على وجهين الإخبار في مقابل التصديق، وإنشاء الالتزام في مقابل **الامتناع عن الطاعة والانقياد** كما استعمل الإقرار في نفس معنى **التزام الطاعة والانقياد**) . الفتاوى ٧/ ٥٣٠ .

وقال : (فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن ، وأما من كان ملتزماً لحكم الله ورسوله باطنا وظاهرا لكن عصى واتبع هواه فهو بمنزلة أمثاله من العصاة ... ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر). منهاج السنة ٥/ ١٣١.

الناقض العاشر

الإعراض عن الدين وكفر التولي والإباء والامتناع

قال المصنف رحمه الله :

(العاشر :الإعراض عن دين الله ، لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل :قوله تعالى:
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ السجدة: ٢٢).

المبحث الأول : كفر الإعراض والتولي

المسألة الأولى : تعريف الإعراض وحقيقته :

الإعراض عن الشيء الصدود عنه والتولي عنه وعدم الإقبال إليه .

وقال بعض أهل العلم أصله من العرض بالضم، وهو الجانب والظهر، لأن المعرض عن الشيء يوليه بجانب عنقه صاداً عنه وكذا يعطيه ظهره ودبره. والتولي يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار ولايلزم منه الإدبار .

فمعنى الإعراض :

عدم الانقياد والامتثال والإذعان، وذلك بترك العمل، والصدود عن الشريعة والفرائض، والتولي عن الطاعة وعدم الاستماع لأوامر الله وعدم المبالاة بها وعدم القبول لها وترك حكم الله والتحاكم إليه .

قال ابن كثير في تفسيره :" كذب بقلبه وتولى بفعله ".

وقال ابن تيمية في الإيمان:" والمتولي هو العاصي الممتنع عن الطاعة ".

وقال:" التولي في الطاعة والتكذيب في الإخبار " .

وقال المروزي :" التولي ترك الفرائض ".

وقال ابن القيم في المدارج:"كفر الإعراض أن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول لايصدقه ولايكذبه ولايواليه ولايعاديه ولايصغ إلى ما جاء به ألبتة".

وقال محمد بن عبد الوهاب :"الناقض العاشر الإعراض عن الدين لا يتعلمه ولايعمل به" .

وقال ابن سعدي في تفسيره :" كذّب الأخبار وتولى عن الانقياد " .

المسألة الثانية : أسماء الإعراض ومرادفاته:

التولي ، الصد ، الترك ، المخالفة ، الامتناع .

الفرق بين التولي والإعراض :

قال الماوردي في تفسيره :" يتولى عن الداعي ويعرض عما دعا إليه ".

وقال السيوطي في قطف الأزهار :" والإعراض والتولية قيل هما بمعنى واحد. وقيل التولية بالجسم والإعراض بالقلب. وقيل التولية الرجوع عوداً على بدء والإعراض الأخذ في عرض الطريق، فالمتولي أقرب أمراً من المعرض عليهما ".

المسألة الثالثة : أدلة كفر الإعراض :

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ النور: ٤٧ - ٥٤. وهذه الآيات نص في كفر الإعراض وكفر المتولي عن العمل، وأن ترك العمل والطاعة والواقع في ذلك كافر وما هو بمؤمن، وأن الإعراض متعلق بالحكم بالشريعة وما أنزله سبحانه، وأن مجرد الإعراض والتولي عن الطاعة نفاق أكبر صريح وكفر ناقل عن الملة .

قال ابن تيمية في الصارم:" فبين سبحانه أن من تولى عن طاعة الرسول ﷺ وأعرض عن حكمه فهو من المنافقين وليس بمؤمن، وأن المؤمن هو الذي يقول سمعنا وأطعنا، فإذا كان النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره مع أنه ترك محض فكيف بالنقض والسب ".

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾ الأحقاف: ٣.

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ الأنفال: ٢٣.

وقال تعالى : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٤.

وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٢.

وقال: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ الأنبياء: ١.

وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ الأنبياء: ٤٢.

وقال﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾المؤمنون٧١

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ آل عمران: ٢٣.

وقال تعالى : ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ص: ٦٨.

وقال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ الحجر: ٨١.

وقال:﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ الشعراء: ٥.

وقال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ المدثر: ٤٩.

وقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ طه: ١٢٤.
وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ السجدة: ٢٢.
وقال: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ البقرة: ٢٤٦.
وقال: ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ آل عمران: ٢٠.
وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾.
وقال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤.
وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ ﴾ النساء: ٨٩.
وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ المائدة: ٤٩.
وقال: ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يس: ١٠.
وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾.
وقال: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ طه: ٤٨.
وقال تعالى: ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ المعارج: ١٧.
وقال تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ القيامة: ٣١ - ٣٢.
وقال تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ العلق: ١٣.
وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ المدثر: ٢٣.
وقال تعالى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ طه: ١٢٦.
وقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾.
وقال: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ الزخرف: ٣٦.
وقال: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٠١.
وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١.

ومن السنة:

١- قول الرسول ﷺ في ثلاثة نفر دخلوا المسجد والرسول يحدث وكان منهم من أعرض وخرج فقال الرسول ﷺ فيه: " والثالث أعرض فأعرض الله عنه " رواه البخاري.

٢- قول المشركين لأبي طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فقال: هو على ملة عبدالمطلب فأبى التوحيد وأعرض عنه .

٣- قال عبد ياليل للنبي ﷺ :" والله لا أقول لك كلمة، إن كنت صادقاً فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك، وإن كنت كاذباً فأنت أحقر من أن أكلمك " .

وذكر ابن هشام في السيرة نحوه :" والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك" .

وقد جعل ابن القيم : قول (عبد ياليل) وما فعله من قبيل كفر الإعراض .

٤- قول الرسول ﷺ :" والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار" رواه مسلم .

المسألة الرابعة : كلام أهل العلم في كفر الإعراض :

قال المروزي :" التولي ترك الفرائض ".

قال ابن كثير عند قوله تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ :" فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول " .

قال أيضاً :" كذب بقلبه وتولى بفعله ".

قال القاسم بن سلام:" فلو أنهم ممتنعون من الزكاة عند الإقرار وأعطوه ذلك بالألسنة كان ذلك مزيلا لما قبله وناقضا للإقرار ... والمصدق لهذا جهاد أبي بكر بالصحابة على منع العرب الزكاة كجهاد الرسول ﷺ أهل الشرك سواء لافرق بينهما في سفك الدماء وسبي الذرية، فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين بها" الإيمان ١٧ .

قال ابن تيمية: " فصار الانقياد من تصديقه في خبره، فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكذبٌ له أو ممتنع عن الانقياد لربه، وكلاهما كفر صريح". الصارم ص ٩٦٩.

وقال ابن تيمية في الإيمان الأوسط :" فعلم أن التولي ليس هو التكذيب بل هو التولي عن الطاعة فإن الناس عليهم أن يصدقوا الرسول فيما أخبر ويطيعوه فيما أمر وضد التصديق التكذيب وضد الطاعة التولي ".

وقال في الصارم المسلول :" فبين سبحانه أن من تولى عن طاعة الرسول ﷺ وأعرض عن حكمه فهو من المنافقين وليس بمؤمن وأن المؤمن هو الذي يقول سمعنا وأطعنا، فإذا كان النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد **الإعراض** عن حكم الرسول ﷺ وإرادة التحاكم إلى غيره مع أنه ترك محض وقد يكون سببه قوة الشهوة فكيف بالنقض والسب ".

وقال في التسعينية :" والكفر أعم من التكذيب فكل من كذّب الرسول كافر وليس كل كافر مكذباً بل من يعلم صدقه ويقر به وهو مع ذلك يبغضه أو يعاديه كافر أو من **أعرض** فلم يعتقد لا صدقه ولا كذبه كافر وليس بمكذب ".

وقال :" وحقيقة هذا القول هو الجهل البسيط والكفر البسيط الذي مضمونه **الإعراض** عن الإقرار بالله ومعرفته وحبه وذكره وعبادته ".الصفدية ١/ ٩٧ . الدرء ٧/ ٢٨٥.

وقال في الإيمان :" التولي في الطاعة والتكذيب في الإخبار " ٧/ ٥٩، ١٤٢ .

وقال فيه :" فنفى الإيمان عمن **تولى عن العمل** وإن كان قد أتى بالقبول ".

وقال في الدرء:" كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر سواء اعتقد كذبه أو استكبر عن الإيمان به أو **أعرض** عنه اتباعاً لما يهواه أو ارتاب فيما جاء به " .

وقال :" وأصل ضلال هؤلاء **الإعراض** عما جاء به الرسول ﷺ من الكتاب والحكمة وابتغاء الهدي في خلاف ذلك فمن كان هذا أصله فهو بعد بلاغ الرسالة كافر لا ريب فيه " المجموع ١٢/ ٤٩٧.

وقال:"من أعرض عنه وإن لم يكذب به فإنه يكون يوم القيامة في العذاب المهين". مجموع الفتاوى ٢٠/ ١٠٧.

وقال ابن القيم في المدارج والمفتاح وغيره :

" وأما **كفر الإعراض** فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول لا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة " .

وقال في طريق الهجرتين :" إن العذاب يستحق بسببين:

أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها .

الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها .

فالأول **كفر إعراض** والثاني كفر عناد، وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل" .

وقال في مختصر الصواعق :" فجعل الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ والالتفات إلى غيره هو حقيقة النفاق، كما أن حقيقة الإيمان هو تحكيمه وارتفاع الحرج عن الصدور بحكمه والتسليم لما حكم به رضا واختياراً ومحبة هذا حقيقة الإيمان وذلك الإعراض حقيقة النفاق " .

وقال في الفوائد :" إن المدعو إلى الإيمان إذا قال لا أصدق ولا أكذب ولا أحب ولا أبغض ولا أعبده ولا أعبد غيره كان **كافراً بمجرد الترك والإعراض** ".

وقال ابن حزم في الإحكام :" أهل زماننا يقولون نحن المؤمنون بالله وبالرسول ونحن طائعون لهما ثم يتولى طائفة منهم بعد هذا الإقرار فيخالفون ما وردهم عن الله ورسوله، أولئك بنص حكم الله تعالى ليسوا مؤمنين " .

وقال الإمام محمد بن عبدالوهاب :" الناقض العاشر : **الإعراض عن الدين** لا يتعلمه ولا يعمل به والدليل قوله تعالى:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ " .

قال ابن سعدي في تفسيرقوله تعالى:﴿ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ " كذّب الأخبار **وتولى عن الانقياد** " .

وقال أيضا :" أخبر الله أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضاً عن الحق وصروفاً عن دعوة الرسل فقال ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ وأما الذين آمنوا فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم وتلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالانقياد والتعظيم " .

وقال عبد اللطيف آل الشيخ :" إذا عدم الأصل الذي يدخل به في الإسلام وأعرض عن هذا بالكلية فهذا كفر إعراض " .

وقد ذكر أبو السعود والبيضاوي والنسفي وغيرهم من المفسرين " أن التولي عن الطاعة كفر " .

وفي تفسير القرطبي للتولي: "قال الفراء : لم يكن كذب برد ظاهر ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيباً ".

وفيه تفسيره أيضاً:" قال قتادة كذّب بكتاب الله وتولّى عن طاعة الله ".

المسألة الخامسة : الإعراض والتولي الأصل أنه من الكفر العملي :

الإعراض حقيقته تقوم على ترك جنس العمل والتولي عن طاعة الله وعدم امتثال أوامره وشرعه وفرائضه .

قال ابن تيمية في الصارم :" ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول ﷺ وإرادة التحاكم إلى غيره مع أنه ترك محض ".

وفي الإيمان الأوسط :" والمتولي هو العاصي الممتنع عن الطاعة ".

والترك متعلق بالجوارح فيدخل في جملة الأفعال وكما أن ترك الشرك والكفر والمحرمات عبادة عملية، فكذلك ترك الإيمان والطاعة والانقياد كفر عملي .

قال ابن كثير:" كذب بقلبه وتولى بفعله ".

ولا يعني هذا أن الإعراض لا يكون بالقلب ولا يتعلق به، بل قد يكون اعتقاديا إذ هو لازم له مرتبط به، فإن المعرض عن الطاعة لم يعرض بجوارحه إلا بعد أن هان في قلبه عظمة الله وذهب الإذعان القلبي والقبول أو ضعف وهذه مسألة التلازم بين الظاهر والباطن .

قاعدة : قد يكون المعرض قابلا بقلبه وعنده أصل القبول لكنه لا ينقاد ولا يعمل ويكون كافرا .

قال ابن تيمية في الإيمان :" فنفى الإيمان عمن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقبول " .

المسألة السادسة : هل يوجد إعراض في الجوارح من دون القلب والعكس:

هذه المسألة مبنية على مسألة تلازم الظاهر والباطن والتي يخالف المرجئة فيها، إذ ينكرون التلازم والترابط وقد قرر ابن تيمية المسألة في كتاب الإيمان، وذكرنا كلام أهل العلم في هذا الباب في مواضع .

والمقصود أنه لا يوجد إيمان في القلب مع إعراض وتولي وامتناع عن الطاعة في الجوارح، أما وجود إقبال وانقياد في الجوارح والظاهر مع وجود إعراض ورد وإنكار في القلب فهذا يتصور في المنافق .

المسألة السابعة : أركان الإعراض وأقسامه من حيث آلاته:

الأول: الإعراض القلبي الاعتقادي وله نوعان :

إعراض قولي : بعدم التصديق ولا التكذيب وعدم الاستماع للحق .
وإعراض عملي : بعدم قبول الحق ومحبته ولا الإقرار به ولا الاستسلام له ولا أيضاً رده وإنكاره وبغضه.
الثاني : الإعراض العملي المتعلق بالظاهر وعمل الجوارح:
ويكون بالتولي عن الطاعة وترك العمل وعدم الانقياد .
فالإعراض العلمي القلبي يقابل شرط القبول والعملي يقابل شرط الانقياد .

المسألة الثامنة : الإعراض من أنواع الكفر :
كما أن الكفر يكون بالتكذيب والجحود، يكون كذلك بالترك والتولي وبالإعراض،وكما يكون بالفعل والعمل يكون كذلك بمجرد الترك والرفض.
وحقيقة دين الله تعالى وخطابه قسمان:
الأول : خبر ، متعلق بالعلم، وهو يحتاج لتصديق . وضده التكذيب .
الثاني : طلب ، متعلق بالعمل، يحتاج لطاعة والتزام وانقياد وضده التولي .
والكفر يكون بنقض أحد هذين الأصلين بالتكذيب والتولي .
ومدار الكفر ومرده ومرجعه لبابين :
الأول : التكذيب والجحود ، المتعلق بالقلب والتصديق.
الثاني : الامتناع والإعراض والإباء ، المتعلق بالعمل والجوارح .
ومن الأدلة على ذلك : قوله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ .
قال ابن تيمية في الدرء:(كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر سواء اعتقد كذبه أو استكبر عن الإيمان به أو أعرض عنه اتباعاً لما يهواه أو ارتاب فيما جاء به) .
وقال فيه: (الكفر يكون بتكذيب الرسول أو الامتناع عن متابعته) ١/ ٢٤٢.
قال ابن القيم: (الكفر وإن اختلفت شعبه فيجمعه خصلتان : تكذيب الرسول في خبره ، وعدم الانقياد لأمره). أحكام أهل الذمة.

المسألة التاسعة : الفرق بين الإعراض وبين التكذيب والجحود والرد :
الإعراض هو مجرد التولي والترك، فلا يكذب ولا يصدق ولا يقر ولا يجحد ولا يقبل ولا يرد ، والـمُعرض قد يكون قابلا لكن لا يعمل ولا ينقاد كما تقدم.
التكذيب والجحد يكون بالتكذيب وعدم التصديق وبالجحود وعدم الإقرار .

فإذا قارن الإعراض رد وتكذيب وجحود، فإنه لا يصير كفره كفر إعراض، وإنما يسمى بالصفة التي اتصف بها من جحود وتكذيب ورد ونحوه.

وقد فرق الله سبحانه بين كفر الإعراض والتولي والتكذيب في مثل قوله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ القيامة:٣٢ من جهتين :

١- أنه عطف التولي على التكذيب.

٢- جعل التولي في مقابل فعل الصلاة كما جعل التكذيب في مقابل التصديق.

مما يدل على أن التولي عدم العمل وترك الطاعة وليس هو التكذيب والجحد.

قال ابن تيمية في الإيمان :" فعلم أن التولي ليس هو التكذيب بل هو التولي عن الطاعة، فإن الناس عليهم أن يصدقوا الرسول فيما أخبر ويطيعوه فيما أمر، وضد التصديق التكذيب وضد الطاعة التولي ".

وقال في التسعينية :" والكفر أعم من التكذيب فكل من كذّب الرسول كافر وليس كل كافر مكذباً ، بل من يعلم صدقه ويقر به لكن يبغضه أو يعاديه كافر أو من أعرض فلم يعتقد لا صدقه ولا كذبه كافر وليس بمكذب ".

والتكذيب والتصديق ضدان وليسا نقيضان ، فيرتفعان في حق المعرض.

المسألة العاشرة : حكم إعراض المكذب أو تكذيب المعرض :

لو كذب المعرض أو أعرض المكذب المعاند عن الرسول ﷺ والشرع، فإن كفره لا يعتبر كفر إعراض وإنما هو كفر تكذيب وهو أشد من كفر الإعراض .

لأن المعرض لا يصدق ولا يكذب، لا يقبل ولا يرد، لا يحب ولا يبغض.

فمتى جحد أو كذب أو أبغض فإنه لا يعتبر معرضاً، وإنما جاحد مكذب مبغض .

فالمكذب إذا أعرض أو المعرض إذا كذب فإن الإعراض يصير سببا لكفره وصفة له، ويصير حقيقة الكفر هي التكذيب وصفته الإعراض .

المسألة الحادية عشرة : تفاوت درجات الكفر :

لما كان الكفر على درجات كانت النار دركات فمن أشد الكفار كفرا من يصد عن عبادة الله وعن دينه، ، ثم المعاندون المستكبرون، ثم المعرضون، ثم الجهال .

قال ابن القيم في طريق الهجرتين:" طبقة رؤساء الكفر وأئمته ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الإيمان والدخول في دينه رغبة ورهبة فهؤلاء عذابهم

مضاعف عذاب الكفر وعذاب صد الناس قال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ النحل: ٨٨ وهؤلاء مقابل دعاة الهدى في السعداء، ولا ريب أن الكفر يتفاوت فكفر أغلظ من كفر كما أن الإيمان يتفاوت، وغلظ الكفر من ثلاثة أوجه المعطلة والدهرية والكفر عناداً والسعي في إطفاء نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل إليه قدرتهم، فهؤلاء أشد الكفار عذاباً بحسب تغلظ كفرهم وهل يستوي في النار عذاب أبي طالب وأبي لهب وأبي جهل "بتصرف.

المسألة الثانية عشرة : الفرق بين الإعراض والاعتراض :

الاعتراض إعراض وزيادة.

لأنه يقارنه معارضة ومناقضة ومصادمة للنصوص.

وقريب منه التفريق بين المنع والامتناع وتقدم .

المسألة الثالثة عشرة : هل يعذر المُعرض الجاهل :

الجهل على قسمين :

الأول: جهل ناتج عن عدم وجود العلم وعدم إمكانيته، كما يحصل لأهل البوادي الذين لم يجدوا من يعلمهم، وهذا القسم لا يدخل في كفر الإعراض ولا يسمى صاحبه معرضا، وهذا القسم إن كان صاحبه من أهل الإسلام ولم يقع في الشرك فهذا يعذر ولا يكفر، وإن كان واقعا في الشرك فيكفر صاحبه وتجرى عليه بعض أحكام الكفر كالتي تتعلق بالنكاح والتوارث والصلاة عليه، أما القتل واستباحة الدم والمال فلا،كذلك العذاب يوم القيامة فلا يكون قبل الحجة الرسالية.

الثاني: جهل سببه التفريط في التعلم و الإعراض وعدم طلب الحق .

وهذا غير معذور على الإطلاق .

قال ابن القيم في طريق الهجرتين : " فإن قيل فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الزخرف: ٣٧ قيل لا عذر لهذا وأمثاله من الضلّال الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ ولو ظن أنه مهتد فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى فإذا ضل فإنما أُتي من تفريطه وإعراضه، وهذا

بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها فذاك له حكم آخر والوعيد في القرآن يتناول الأول وأما الثاني فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه ".

وتقدم كلامه في أن العذاب يستحق بسبب الإعراض أو التكذيب .

المسألة الرابعة عشرة : أسباب الإعراض :

١- الجهل وعدم العلم وبلوغ الحجة .

٢- الإهمال والتفريط واللامبالاة وعدم وجود الاهتمام والحرص.

٣- الرغبة عن الدين والزهد فيه .

٤- الانشغال بالدنيا من المال والملك ونحوه .

٥- الشك في الحق والتباس الأمر .

٦- الكبر والحسد والعناد والإباء .

٧- النفاق أو بغض الدين وعدم محبة الحق .

وهذا والسابق هما كفران مستقلان وليسا من كفر الإعراض .

٨- التقليد .

المسألة الخامسة عشرة : أنواع صفات الإعراض :

١- إعراض معه إباء وامتناع ورفض وإصرار وهذا كفر مستقل يسمى كفر الإباء والامتناع والعناد، وهذا من يعلم ولا يعمل ويمتنع ويرفض .

٢- إعراض قائم على الترك المجرد للطاعة والعمل، بسبب التفريط وعدم مبالاة وعدم الإصغاء والاستماع للحق . وذكرنا الفرق بينهما .

قال ابن تيمية في الدرء:(كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر سواء اعتقد كذبه أو استكبر عن الإيمان به أو أعرض عنه اتباعاً لما يهواه أو ارتاب فيما جاء به).

وقال:" فنفى الإيمان عمن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقبول ".

المسألة السادسة عشرة : الفرق بين الامتناع والإعراض والتولي :

أنّ الامتناع هو الإصرار على ترك الانقياد ورفض الامتثال للشريعة والالتزام بالدين، وهذا بخلاف الإعراض فهو ترك مجرد للعمل من غير امتناع.

فيجتمع الإعراض والامتناع في أن كلاً منهما ترك للعمل وفيه عدم الانقياد .

إلا أن الامتناع يقارنه إصرار على ترك العمل ورفض له فيأبى الالتزام.

الفرق بين الإعراض والتولي :

تقدم الكلام في ذلك، والتحقيق أنها بمعنى واحد وقد يكون في المعرض زيادة عدم مبالاة واهتمام .

المسألة السابعة عشرة : الفرق بين الإعراض والشك :

قال ابن تيمية :" وليس كل كافر مكذبا بل قد يكون مرتاباً إن كان ناظراً فيه أو معرضاً عنه بعد أن لم يكن ناظرا فيه " المجموع ٢/ ٧٩ .

المسألة الثامنة عشرة : الإعراض سبب للكفر ووصف له وكفر في نفسه :

الإعراض يعتبر نوعا من أنواع الكفر وصفة له وسببا له، فهو يأتي في مقابل الشك والعناد والتكذيب ، فالكفر له أسباب منها الإعراض ومنها العناد ومنها الشك ومنها التكذيب، وهي في نفس الأمر تعتبر أسباباً وصفات للكفر مثل الإعراض والنفاق والشك .

فكما أن الإعراض هو كفر بذاته وناقض للدين ولو لم يقارنه شيء فهو كفر محض في نفسه فمن ترك العمل والطاعة وعبادة الله فهو كافر كفر إعراض وتولى، مثله مثل الشرك بالله أو الاستهزاء بالدين أو بغضه أو تولي الكفار .

وهذا الأصل تخالفنا فيه المرجئة حيث يزعمون أن مجرد الإعراض ليس كفراً في ذاته، إنما الكفر فيما يقارنه من الشرك وعدم الإيمان أو التكذيب، أما الإعراض والتولي عن الطاعة وترك العمل وعدم الانقياد فهذا عندهم ليس كفراً مستقلاً .

المسألة التاسعة عشرة : الإعراض والتولي من أعمال النفاق :

والدليل على هذا الأصل قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١ .

وقال:﴿ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ التوبة: ٧٧ .

فالآية الأولى جعلت الإعراض سببه النفاق .والثانية النفاق سببه الإعراض.

قال ابن تيمية:" من تولى عن طاعة الرسول ﷺ وأعرض عن حكمه فهو من المنافقين وليس بمؤمن، فإذا كان النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره مع أنه ترك محض.. " الصارم المسلول٢٨٣ .

المسألة العشرون : أنواع المعرضين :

الإعراض الأصلي : الذي يصدر من الكافر الأصلي الذي لم يسلم ويسمى كفر هذا كفر الإعراض ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ الأحقاف: ٣.

إعراض المرتد: الذي يصدر من المسلم فإذا فعله كان بذلك الفعل مرتدا، كما قال سبحانه :﴿ وَتَوَلَّوا وَهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ التوبة: ٧٧ .

فلا يعمل بالدين إما جهلاً منه مثل أهل البوادي أو يعرض عن العمل ويمتنع كسلا وتهاوناً وكل هذا يعتبر ردة مخرجة من الإسلام .

وعلى ذلك فالإعراض على قسمين : إعراض أصلي وإعراض ردة .

الحادية والعشرون : من أسلم وأعرض عن الدين ولم ينقد له فإنه يعتبر كافراً أصلياً وليس مرتداً على الصحيح ، والمسألة حققناها في باب الانقياد .

المسألة الثانية والعشرون : الإعراض عن الدين كفر مخرج من الملة :

وهذه المسألة يخالف فيها المرجئة ومحل بيانها في باب الإيمان وكونه قولا وعملا، وأن الكفر كذلك وأن تارك العمل كافر وليس بمؤمن ولا مسلم.

والإعراض كفر بذاته وبمجرد حصوله يصير المتصف به كافراً مرتداً أو منافقاً، وهو من قبيل التروك .

قال ابن تيمية: (فبين سبحانه أن من تولى عن طاعة الرسول وأعرض عن حكمه فهو من المنافقين، وليس بمؤمن وأن المؤمن هو الذي يقول سمعنا وأطعنا، فإذا كان النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره مع أنه ترك محض فكيف بالنقض والسب) الصارم المسلول٢٨٣.

المسألة الثالثة والعشرون : انقسام الإعراض إلى تام وجزئي :

والمقصود في مبحثنا هذا الإعراض التام عن الدين والتولي عن الطاعة .

أما الإعراض عن عمل معين فهذا فيه تفصيل :

إن تركه عن امتناع وإباء فهذا كفر بيّن ، وتقدم تقرير هذا النوع.
أما إن ترك عملا معينا تهاوناً وكسلا لا امتناعاً ولا إعراضاً كذلك إعراض بعض المقلّدين عن الدليل إذا بلغه وأخذه بالمذهب أو رأي شيخه فهذه معصية ولا يكفّر بها إلا الخوارج وصاحبه عندنا مؤمن ناقص الإيمان.
قال عبد اللطيف آل الشيخ : (إذا كان أصل الإيمان موجوداً والتفريط والترك إنما هو فيما دون ذلك من الواجبات والمستحبات وأما إذا عدم الأصل الذي يدخل به في الإسلام وأعرض عن هذا بالكلية فهذا كفر إعراض) .

المسألة الرابعة والعشرون : أنواع المُعرَض عنه ومتعلقه :
١- الإعراض عن الإيمان بالله والدخول في الإسلام .
٢- الإعراض والتولي عن الانقياد العملي والطاعة والامتثال والعمل والالتزام بالشريعة وفعل الأوامر والفرائض .
٣- الإعراض عن الحكم بما أنزل الله والتحاكم إلى الشريعة .
٤- التولي عن الرسول ﷺ وحكمه والإيمان به وأمره .
وجميع هذه الأمور يكفر من أعرض عنها .
قال ابن تيمية :" الإعراض عن الإقرار بالله ومعرفته وحبه وذكره وعبادته ودعائه". الصفدية ١/ ٩٧ .

المسألة الخامسة والعشرون : أوجه الاستدلالات على كفر المعرض :
١- أنه تعالى نفى الإيمان عنهم من أصله كما في قوله تعالى :﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ النور: ٤٧ – ٤٨.
قال ابن تيمية في الإيمان :" فنفى الإيمان عمن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقول "." ففي القرآن والسنة من نفي الإيمان عمن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة ".
قال ابن كثير عند تفسيره الآية :" وأياً كان فهو كفر محض " .
٢- أن الله سبحانه جعل الإعراض والتولي عن طاعته كفرا كما في قوله: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣٢ .
قال ابن كثير:" فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر " .

٣- أن الله أثبت للمعرض حكم النفاق وأن الإعراض من صفات المنافقين كما في قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١.

قال ابن تيمية في الصارم: " فبين سبحانه أن من تولى عن طاعة الرسول وأعرض عن حكمه فهو من المنافقين وليس بمؤمن فالمؤمن هو الذي يقول سمعنا وأطعنا، فالنفاق يثبت والإيمان يزول بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره ".

قال تعالى: ﴿ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ التوبة: ٧٦ - ٧٧.

المسألة السادسة والعشرون: أوجه كون الإعراض كفراً وناقضاً للإسلام:

المعرض لم ينقد للدين، والانقياد هو الشرط الأعظم لـلا إله إلا الله، وهو الركن الأساسي الذي قام عليه الإسلام والتسليم والاستسلام.

فمن لم يعمل بالدين هو في الحقيقة لم يسلم ولم ينقد، ومن لم يتعلم الدين ولا أحبه ولا أخلص فيه ولا قبله هو في الحقيقة لا يعتبر منقادا للشريعة.

فكل كافر غير منقاد، وليس كل فاقد للانقياد يشترط أن يقوم به ناقض آخر، فقد يكون الممتنع عن الشريعة والمعرض عن الدين والمتولي عن الطاعة محباً للدين صادقاً مخلصاً لا يشرك ولا يوالي الكفار ويكفر بالطاغوت وقابل للإسلام ولكن لا يعمل ولا ينقاد فلا يكون مسلماً.

المقصود أن عدم الانقياد كفر مستقل حتى ولو توفر في المعرض والممتنع فاقدي الانقياد جميع شروط لا إله إلا الله، وتركوا جميع نواقض الإسلام، لأن مجرد ترك العمل كفر مستقل.

ثم يقال أيضاً إن الإيمان يتضمن طاعةً وانقياداً وقبولاً وتسليماً واستجابةً وخضوعاً وذلاً لله ولدينه. والإعراض يضاد ذلك كله وينافيه وينقضه فلا يصير مع صاحبه إيمان من الأصل.

فالمعرض ممتنع ومتول وصاد وتارك، فالإعراض موصوف بالترك والامتناع والتولي، وهذا كفر وناقض للإيمان، لأن الإيمان قول وعمل إذا زال العمل زال معه الإيمان وهذا الأصل قرره السلف وعلماء أهل السنة في كل زمان ومكان.

فكفر المعرض والممتنع عن الانقياد حصل من جهات :

الأول : من جهة الإيمان :

فتارك العمل لا إيمان معه ولا تصديق مقبول له. لأن الإيمان متكون من أركان القول والعمل، ومن فقد ركناً فقد الإيمان كله، لأن الأصل يزول بزوال ركنه .

الثاني: من جهة الإسلام والتوحيد والعبادة .

إذ أن الإسلام قائم على الاستسلام والانقياد، والعبادة قائمة على الذل والخضوع والتوحيد قائم على عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه .

وتارك العمل لم يستسلم ولم ينقد فهو غير مسلم، كما أنه لم يخضع ولم يذل لله فهو غير عابد له، كما أنه غير موحد ولا أتى بالشهادتين، لأن التوحيد ألا يعبد إلا الله ومن لم يعبد الله لا يعتبر موحداً بل هو كافر تارك للتوحيد وقد سماه الله كافراً مستكبراً في قوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠ .

فكفرهم لكونهم هدموا أحد ركني التوحيد .

الثالث: من جهة شهادة أن محمداً رسول الله :

هذه الشهادة تستلزم الانقياد للرسول ﷺ واتباعه وطاعته والعمل بأوامره، بل ولا تقوم هذه الشهادة إلا بهذه الأفعال والأوصاف فهي مقتضى هذه الشهادة، فتارك العمل كافر بشهادة أن محمداً رسول الله والكافر بها كافر ليس بمسلم .

إذا تقرر ذلك تبين أن المعرض والممتنع وتارك العمل كفار وليسوا بمؤمنين ولا من أهل القبلة ولا مسلمين، بل كفرهم كفر أكبر يخرج من الملة .

المسألة السابعة والعشرون : الشرط الذي افتقده المعرض :

الأصل أن المعرض افتقد شرط الانقياد لكلمة التوحيد . إلا أن من المعرضين من فقد شرط القبول والمحبة والعلم والإخلاص والصدق واليقين.

والأول من كان إعراضه عملي ، والثاني الذي يكون إعراضه اعتقادي.

لأن ضابط الإعراض هو ما كان متعلقا بالدين لا يعمل به ولا يتعلمه .

وضبطه ابن القيم بأن يعرض بقلبه وسمعه فلا يصدق ولا يكذب ولا يوالي ولا يعادي ولا يرد ولا يقبل .

الثامنة والعشرون : الممتنع والمعرض فقدوا الانقياد وتركوا جنس العمل :
يجتمع في المعرض والممتنع : فقد الانقياد .
وفاقد الانقياد مناط كفره متعلق بترك جنس العمل أو الامتناع.
وفاقد الانقياد لم يأت بأركان لا إله إلا الله .
إذ أن أركانها : عبادة الله وحده والبراءة من الشرك والكفر بالطاغوت.
فقد يكون العبد لا يشرك ويكفر بالطاغوت ولكن لا يعبد الله، فيكون كافراً كفر امتناع واستكبار وإعراض .
كذلك فاقد الانقياد كافر بشهادة أن محمداً رسول الله لأنها قائمة على طاعة الرسول ﷺ وإتباعه .

المسألة التاسعة والعشرون : الممتنع والمعرض مستكبران عن عبادة الله :
سمى الله تعالى تارك العبادة المعرض عنها، مستكبراً وتوعده بالنار حين قال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠.
ووجه تسمية تارك العبادة مستكبراً : لأنه ينافي الذل والتواضع والعبودية التي من أجلها خلق الخلق، والعبادة تقوم على الذل، والذل ضد الكبر، فمن لم يعبد الله لا يعتبر أنه ذل لله ولا خضع له، ومن لم يذل ويخضع لله فإنه يعتبر في الحقيقة مستكبراً .

المسألة الثلاثون: بم يزول الإعراض ويتحقق عدمه :
يزول وينعدم الإعراض بالانقياد للشريعة والإذعان لها وفعل أوامر الله وفرائضه،ولو كان مع ذلك مقصر فيها إلا أن عنده أصل الانقياد والإذعان والعمل.

المسألة الحادية والثلاثون: عواقب الإعراض وصفات المعرض :
قال ابن القيم في الصواعق :" وصف الله المعرضين عن الوحي بالجهل والضلال والحيرة والشك والعمى والريب، وأن منشأ ضلالهم الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ ومعارضته بما يناقضه ".
وقال الشنقيطي في الأضواء في عواقب الإعراض :" فمن نتائجه السيئة أن صاحبه أعظم الناس ظلماً - جعل الأكنة على القلوب حتى لا تفقه الحق - وعدم

الاهتداء أبدا – انتقام الله من المعرض عن التذكرة – كونه كالحمار – الإنذار بصاعقة – تقييض القرناء من الشياطين – أنه في ضنك من الحياة – يحشر أعمى ..." .

المسألة الثانية والثلاثون: أقسام الـمُعرِضين:

الأول : العالم يعلم أنه معرض ولا يرغب في الانقياد والطاعة وهذا كفره من باب الإباء والامتناع .

الثاني : الجاهل المفرط الذي لا يعلم أنه معرض وهذا هو المقصود هنا .

وتقدم الكلام عن أقسام الجهل.

المسألة الثالثة والثلاثون: ترك التعلم والتفقه من الإعراض :

من الإعراض عن الدين ترك طلب العلم الذي يتعلق بأمور التوحيد والعبادة وما لا يعذر الجاهل فيه ولا يسع المسلم جهله، والمقصود الأعظم من العلم العمل به والعمل بالعلم والانقياد بالطاعة، وهذا طريق المنعم عليهم غير المغضوب عليهم اليهود الذي يعلمون ولا يعملون، ولا الضالين العاملين من غير علم ولا هدى .

المسألة الرابعة والثلاثون: مشركو زماننا وقعوا في كفر الإعراض :

عوام عباد القبور وكذا الحاكمون بغير ما أنزل الله والمتولون للكفار لا يعذرون في كفرهم، لأن الحجة قامت عليهم فمنهم من أصر وعاند ومنهم من أعرض عن تعلم الدين والتوحيد، فهم لا يصغون لمن يعلّم وينصح بل قد يعادونه وينبذونه ويصدون الناس عنه ويؤذونه، فهم بين العناد والتفريط .

هذا إذا قلنا إن المشرك يعذر بجهله، وإلا فإن الشرك لا يعذر أصحابه من ناحية التكفير وأحكام الدنيا .

المسألة الخامسة والثلاثون: هل يسمى العاجز عن معرفة الحق معرضاً ؟:

الصحيح أنه لا يسمى معرضا وكفره كفر جهل لا كفر إعراض.

السادسة والثلاثون : الطوائف الواقعة في كفر الإعراض :

١- اللبيراليون .
٢- الشيوعيون .
٣- العلمانيون .
٤- القانونيون الذين أعرضوا عن الشريعة .
٥- الحاكمون بغير ما أنزل الله ممن نحى الشريعة وامتنع عن العمل بها .
٦- المتحاكم إلى الطاغوت والمحاكم القانونية الوضعية من غير إكراه
٧- الذين يتولّون الكفار ويظاهرونهم على المسلمين .
٨- المرجئة الذين دعوا إلى ترك تعلم التوحيد وتكفير المخالفين له .
٩- المنكرون لكفر الإعراض العملي وهم المرجئة .
١٠- المتكلمون والعقلانيون الذين يقدمون العقل على النقل.

المسألة السابعة والثلاثون: وجه إعراض اللبرالية ومناقضتهم للانقياد:

اللبرالية تكذب عقيدة الانقياد وتحارب مبدأه وتقع في كفر الإعراض:

فاللبراليون أشد الطوائف مصادمة للانقياد ومحاربة له، فهي تنكره من أصله، ومبدؤهم يقوم على الحرية وفك رباط الانقياد للدين، فلا يتأمر عليهم بزعمهم أحد حتى خالقهم فالناس أحرار غير مقيدين ولا يجب أن ينقادوا لأحد .

ومثلهم الشيوعيون: فهم من المعرضين المكذبين لمبدأ الانقياد لأنهم لا يدينون بدين ولا ينقادون للشريعة ولا يؤمنون بالله .

ومثلهم العلمانيون : لكونهم لا يعملون بالشريعة في أمور حياتهم .

المبحث الثاني : كفر الامتناع والاستكبار والإباء

المسألة الأولى : تعريفه :

الامتناع هو الرفض وعدم القبول والتأبي وعدم الانقياد .

قال الراغب :" كفر الكبر هو التعاظم والترافع عن الحق ، والكبرياء: الترفع عن الانقياد وذلك لا يستحقه غير الله فقال:﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الجاثية: ٣٧ . وقال ﷺ :" يقول الله ﷻ:" الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار" رواه مسلم .

قال ابن فارس : أبى: الهمزة والباء والياء تدل على الامتناع، والإباء أن تعرض على الرجل الشيء فيأبى قبوله ".

وقال الراغب في المفردات :" الإباء شدة الامتناع فكل إباء امتناع وليس كل امتناع إباء ".

وقال :" الكبر والاستكبار تتقارب، فالكبر الحالة التي يختص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، وأعظم التكبر ما كان على الله بالامتناع عن قبول الحق والإذعان له بالعبادة ".

وقال النسفي :" الاستكبار عن الإذعان للحق، وهو أقبح استكبار ودليل على دناءة صاحبه وفرط ظلمه ".

وقال الغزالي :" الكبر إن ظهر على الجوارح تكبر وفي نفسه كبر ".

وقد يكون الامتناع معه كبر وإباء وعدم قبول، وقد يكون مجرداً من ذلك وهو كفر ترك العمل والانقياد والإعراض والتولي فمجرد ترك العمل كفر وعدم الانقياد كفر قارنه كبر وعدم قبول وإباء وعدم خضوع وذل أم لا ؟

والأصل أن الممتنع مصدق ومقر بالشريعة بل وقابل بها بقلبه ولسانه، ولكن كفره من جهة توليه عن الطاعة والفرائض وترك العمل وعدم انقياده بجوارحه .

المسألة الثانية : ما يضاد الانقياد :

الترك والامتناع والإباء والإعراض والاستكبار والرفض والاستنكاف والتولي،وكلها بمعنى متقارب محصّلها ترك العمل والطاعة وعدم الالتزام بالشريعة.

المسألة الثالثة: أسماؤه: الاستكبار والإباء والاستنكاف والامتناع .
بعض أهل العلم يسمي كفر الامتناع بالجحود العملي والاستحلال العملي .
لكونه متعلقا بأعمال الجوارح، ولأنه مستلزم للجحود والتكذيب القلبي.
وبعض العلماء يسمي هذا النوع من الكفر بكفر العناد .
والصحيح أن كفر العناد يشمل كفرين :١- الإباء والاستكبار ٢- الجحود .

المسألة الرابعة: الفرق بين الامتناع والمنع :
الفرق بينهما كالفرق بين المعصية والكفر . فالمانع عنده أصل الالتزام ومبدأ الانقياد ، فالامتناع منع وزيادة ، إذ يقارنه الإباء والإصرار والعناد والتولي والإعراض والاعتراض بعضها أو كلها .

مسألة: تكفير المانع والمتهاون في الفرائض محل خلاف بين أهل السنة أما الممتنع والمصر على عدم الفعل فهو من جنس كفر الإباء ولا يخالف فيه إلا المرجئة.

المسألة الخامسة: أدلة كفر الاستكبار والإباء والامتناع :
١- قال تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة:٣٤. وقال:﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ص: ٧٤.
٢- وقال:﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾النساء١٧٢.
٣- وقال:﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ ﴾ النساء: ١٧٣ .
٤- وقال:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر ٦٠.
٥- قال تعالى :﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فصلت:٦-٧ .
٦- وقال تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١.
٧- وقال تعالى:﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾.
٨- قال سبحانه:﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ لقمان: ٧.

٩- وقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ الأعراف: ٣٦.

١٠- وقال تعالى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ نوح: ٧.

١١- وقال: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾.

١٢- وقال: ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يس: ١٠.

١٣- وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ المرسلات: ٤٨.

١٤- وقال تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ القيامة: ٣١.

١٥- وقال: ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ الغاشية: ٢٣.

١٦- وقال: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ فصلت: ٢٦.

١٧- وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ الصافات: ٣٥.

١٨- وقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ الفرقان: ٥٠.

١٩- وقال: ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ النور: ٤٧.

٢٠- وقال تعالى: ﴿ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ التوبة: ٨.

٢١- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ المعارج: ٢١.

٢٢- وقال تعالى: ﴿ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ الأحقاف: ١٠.

٢٣- وقال: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾.

٢٤- وقال: ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ الشورى: ١٣.

٢٥- وقال تعالى: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ التوبة: ٥.

٢٦- وقال: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾.

٢٧- وقال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ التوبة: ٢٩.

٢٨- وقال تعالى: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ البقرة: ٩٣.

٢٩- وقال: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ الأنفال: ٢٣.

٣٠- وقال تعالى: ﴿ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ النجم: ٦١ أي مستكبرون.

ثانياً: الأدلة على كفر الممتنع من السنة:

١- قتال أبي بكر ﷺ لمانعي الزكاة المرتدين . وستأتي القصة بطولها.

فعن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب (وفي رواية: ارتدت العرب ، ارتد عامة العرب). قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : **(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله)**. فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق. متفق عليه.

ولم يقبل أبو بكر منهم حتى أقروا أنهم ارتدوا بعد إسلامهم بإجماع الصحابة.

٢- قتل الرسول ﷺ لمن نكح امرأة أبيه لامتناعه عن الشريعة. فعن البراء ﷺ قال : " مر بي عمي الحارث بن عمرو ومعه لواء قد عقده له رسول الله ﷺ قال فسألته قال بعثني الرسول أن أضرب عنق رجل تزوج امرأة أبيه"رواه أحمد والثلاثة.

٣- قال ﷺ :(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) رواه مسلم.

٤- قول الحبرين للنبي ﷺ لما سألاه عن مسائل وأجابهما: نشهد إنك نبي، فقال ﷺ: (فما منعكما من اتباعي)، قالا نخاف أن تقتلنا اليهود . ولم يدخلهم بذلك في الإسلام لامتناعهم عن الانقياد للدين . رواه أحمد والنسائي والترمذي. وتقدم.

٥- ومن أدلة كفر الممتنع وقتله قول النبي ﷺ في من امتنع عن ترك الخمر: (فإن لم يتركوه فاقتلوه) رواه أحمد .

ثالثا:أقوال الصحابة ﷺ في تكفير الممتنعين ومذهبهم في قتالهم:

عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب) . وعند النسائي من حديث أنس : (ارتدت العرب) وعند ابن خزيمة : (ارتد عامة العرب) .

قالت عائشة:(لما قبض الرسول ﷺ : ارتدت العرب قاطبة واشرأب النفاق).

قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه.

قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق. متفق عليه.

قال لهم أبو بكرﷺ : (حتى تشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار) .

رواه البخاري مختصرا وغيره مطولا .فلم يقبل أبو بكر من مانعي الزكاة الزكاة ويعطهم الأمان حتى أقروا له بردتهم وأنهم كفروا بعد إسلامهم . ولم ينقل خلاف أحد من الصحابة إلا خلاف عمر في الدية فدل على إجماعهم على كفرهم .

وروي أن عمر قال لأبي بكر: (إن العرب قد ارتدت على أعقابها كفارا كما علمت ، وأنت تريد أن تنفذ جيش أسامة، فلو حبسته لقويت به على من ارتد من هؤلاء العرب) الردة للواقدي ص:٨٤ .

قال خالد بن الوليد ﷺ لمالك بن نويرة التميمي حين قال:(أتقتلني وأنا مسلم أصلي القبلة). قال له خالد : (لو كنت مسلما لما منعت الزكاة ، ولا أمرت قومك بمنعها ، والله لما قمت من مقامك حتى أقتلك، فقال مالك أتقتلني بهذه يعني امرأته، فقال خالد بل لله أقتلك برجوعك عن دين الإسلام، وجفلك إبل الصدقة وأمرك لقومك بحبس ما يجب عليهم من زكاة أموالهم) . الردة للواقدي ص:١٦٢ .

وأن خالدا لما قدم اليمامة في قتال المرتدين أخذ مجاعة.. فقال مجّاعة قد علمت أني قدمت على رسول الله ﷺ وبايعته على الإسلام وأنا اليوم على ما كنت عليه بالأمس .. فقال خالد : يا مجاعة تركت اليوم ما كنت عليه أمس وكان رضاك بأمر هذا الكذاب وسكوتك عنه إقرار له. مجموعة الرسائل ٤/ ٢٩٢ ، والردة للواقدي.

فانظر كيف أن ترك الزكاة امتناعا ردة عن الإسلام متقرر عند الصحابة .

قال عمر ﷺ: (لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار، فلينظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين) .

قال:(لوأن الناس تركوا الحج لقاتلتهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة).

أخرجه سعيد بن منصور بسند صحيح والخلال في أحكام أهل الملل.

قال ابن مسعود:(ما تارك الزكاة بمسلم) رواه عبدالله في السنة والخلال .

قال ابن عباس: (من كفر: أي زعم أنه ليس بفرض عليه) . (ليس علي حج) .

قلت : هذا هو حقيقة كفر الامتناع . فالامتناع صورته وحقيقته: كالعازم على عدم الحج والمصر على تركه وأن لا يحج أو قال ليس علي حج وليس بفرض علي، والعازم على ترك الزكاة والصوم، وهناك فرق بين من هذه حاله وبين من هو عازم على الفعل لكن لم يسارع فلا يرى أنه واجب على الفور فيكون مسوفا ومتهاونا وتهاون في الصيام وأداء الزكاة ، وسيأتي كلام الإمام أحمد وتكفيره لمن امتنع عن الزكاة والصوم بقوله: (الزكاة من الله ولا أزكي، والصوم فرض ولا أصوم).

المسألة السادسة : أقوال أهل العلم في كفر الامتناع والاستكبار والإباء :

قال الطبري :" وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وحكمه وإلى الرسول ليحكم بيننا رأيت المنافقين يصدون عنك يعني بذلك **يمتنعون** من المصير إليك لتحكم بينهم ويمنعون من المصير إليك غيرهم ".

قال البخاري : باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسب من الردة .

قال أبو عبيد بن سلام : (فلو أنهم ممتنعون من الزكاة عند الإقرار وأعطوه ذلك بالألسنة وأقاموا الصلاة غير أنهم ممتنعون من الزكاة كان ذلك مزيلا لما قبله وناقضا للإقرار والصلاة،كما كان إباء الصلاة قبل ذلك ناقضا لما تقدم من الإقرار.

والمصدق لهذا جهاد أبي بكر الصديق بالمهاجرين والأنصار على منع العرب الزكاة كجهاد رسول الله ﷺ أهل الشرك سواء لا فرق بينها في سفك الدماء وسبي الذرية واغتنام المال ، **فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين لها.**) الإيمان ١٧ .

قال الإمام أحمد: (من قال الزكاة علي **ولا أزكي**: يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه. ومن قال: الزكاة من الله تعالى **ولا أؤديها** . يستتاب فإن تاب وإلا قتل . ومن ترك الزكاة ليس بمسلم ، وقد قاتل أبو بكر أهل الردة على ترك الزكاة) .

وسئل الإمام أحمد: (من قال: أعلم أن الصوم فرض ولا أصوم ؟ فأملى علي: يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه) أحكام أهل الملل للخلال ص ٤٨٢ ، ٤٨٨ .

قال الخلال: (أخبرني الميموني قال: قلت يا أبا عبد الله: من منع الزكاة يقاتل؟ قال قد قاتلهم أبو بكر ﷺ . قلت : فيورث ويصلى عليه ؟ قال : إذا منعوا الزكاة كما منعوا أبا بكر وقاتلوا عليها لم يورثوا ولم يصل عليهم . فإذا كان الرجل يمنع الزكاة يعني من بخل أو تهاون لم يقاتل أو يحارب على المنع يورث ويصلى عليه حتى يكون يدفع عنها بالخروج والقتال كما فعل أولئك بأبي بكر فيكون حينئذ يحاربون على منعها ولا يورث ولا يصلى). أحكام أهل الملل للخلال ٤٨٨.

وتأمل في كلامه ففيه إشارة إلى أن المنع للزكاة إذا كان على نفس الصفة والحيثية التي حصلت من هؤلاء زمن أبي بكر وهي الإباء والامتناع كانت كفرا .

قال المروزي في تعظيم قدر الصلاة عن إبليس:" وهل كان كفره إلا بترك سجدة واحدة أمر بها فأباها " .

قال الطبري:(فكان فعله ونكاح امرأة أبيه من أدل الدليل على تكذيبه الرسول ﷺ فيما أتاه به عن الله تعالى وجحوده آية محكمة في تنزيله.. لذلك أمر الرسول ﷺ بقتله وضرب عنقه،لأن ذلك كان سنته في المرتد عن الإسلام) تهذيب الآثار ٢/ ٤٨.

وقال الفراء: "لم يكن كذب برد ظاهر ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيباً ". من تفسير القرطبي للتولي.

أنظر كيف جعل أهل العلم العمل الظاهر دليلا على التكذيب والجحود والاستحلال والبغض وأن هناك ما يسمى عند العلماء بالتكذيب العملي والجحود العملي والاستحلال العملي والبغض العملي، فالتكذيب قد يظهر في عمل ظاهر.

قال ابن عتيق: (البلد إذا ظهر فيها الشرك وأعلنت فيه المحرمات وعطلت فيه معالم الدين أنها تكون بلاد كفر تغنم أموال أهلها وتستباح دماؤهم) الدرر ٩/ ٢٥٧.

قال إسحاق بن راهوية: (أجمع العلماء على أن من دفع شيئا أنزله الله وهو مع ذلك مقرٌّ بما أنزل الله أنه كافر) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٢٢٦ .والدفع هو الامتناع.

قال البربهاري: (ولا يخرج أحد من أهل القبلة حتى يرد آية من كتاب الله أو يرد شيئاً من آثار الرسول ﷺ أو يذبح لغير الله أو يصلي لغير الله). شرح السنة ٧٣.

قال الجصاص في أحكام القرآن: (وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم، وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم) ٣/ ١٨١.

قال ابن خويز منداد: (ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالا لكانوا مرتدين والحكم فيهم كالحكم في أهل الردة) تفسير القرطبي ٣/ ٣٦٤.

قال ابن حجر:" قتل من امتنع من التزام الأحكام الواجبة والعمل بها ".

وقال ابن العربي في أحكام القرآن:" فقد اتفقت الأمة على أن من يفعل المعاصي يحارب كما لو اتفق أهل بلد على العمل بالربا وعلى ترك الجمعة والجماعة ".

(إن اتفق أهل بلد على ترك الأذان وامتنعوا وجب قتالهم).المغني لابن قدامة.

وقال ابن قدامة في المغني:" لا يجحدها إلا معاند للإسلام يمتنع من التزام الأحكام غير قابل لكتاب الله وسنة رسوله ".

قال ابن بطال في شرح البخاري :" ولو أن أهل الأوثان وحّد بعضهم وشهد أن لا إله إلا الله وحكم له بحكم الإسلام في منع نفسه وماله، ثم عرضت عليه شرائع الإسلام بعد ذلك فامتنع من الإقرار برسول الله كان لا شك بالله كافرا".

وقال ابن تيمية في الإيمان الأوسط:" والمتولي هو العاصي الممتنع عن الطاعة".

وقال ابن تيمية :" كل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين ببعض شرائعه كما قاتل أبو بكر والصحابة مانعي الزكاة وعلى ذلك اتفق الفقهاء " الفتاوى ٢٨ / ١٣٠.

وقال :" إن العبد إذا فعل الذنب مع اعتقاد أن الله حرمه عليه ، واعتقاد انقياده لله فيما حرمه وأوجبه فهذا ليس بكافر، فأما إن اعتقد أن الله لم يحرمه ، أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند، ولهذا قالوا من عصى الله مستكبراً كإبليس كفر بالاتفاق، ومن عصى مشتهياً لم يكفر عند أهل السنة والجماعة وإنما يكفره الخوارج، فإن العاصي المستكبر وإن كان مصدقاً بأن الله ربه فإن معاندته له ومحادته تنافي هذا التصديق وبيان هذا أن من فعل المحارم مستحلاً فهو كافر بالاتفاق فإنه ما آمن بالقرآن من استحل محارمه، وكذلك لو استحلها من غير فعل، والاستحلال اعتقاد أن الله لم يحرمها، وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرمها وهو يكون لخلل في الإيمان بالربوبية ولخلل في الإيمان بالرسالة ويكون جحداً محضاً غير مبني على مقدمة، وتارة يعلم أن الله حرمها ويعلم أن الرسول إنما حرم ما حرم الله ثم يمتنع عن التزام هذا التحريم ويعاند المحرم، فهذا أشد كفراً ممن قبله، وقد يكون هذا مع علمه أن من لم يلتزم هذا التحريم عاقبه الله وعذبه، ثم إن هذا الامتناع والإباء إما لخلل في اعتقاد حكمة الآمر وقدرته فيعود هذا إلى عدم التصديق بصفة من صفاته، وقد يكون مع العلم بجميع ما يصدق به تمرداً وإتباعاً لغرض النفس، وحقيقته كفر هذا لأنه يعترف لله ورسوله بكل ما أخبر به ويصدق بكل ما يصدق به المؤمنون لكنه يكره ذلك ويبغضه ويسخطه لعدم موافقته لمراده ومشتهاه، ويقول أنا لا اقر بذلك ولا ألتزمه وأبغض هذا الحق وأنفر عنه ، فهذا نوع غير النوع الأول وتكفير هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام والقرآن مملوء من تكفير مثل هذا النوع " الصارم المسلول ٥٢١.

قال أيضا فيه :" كفر إبليس أنه سمع أمر الله له فلم يكذب رسولاً ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له واستكبر عن الطاعة فصار كافراً ".

هذا وقد بين السلف الأمر وأوضحوه وفرقوا بين المسألتين وجعلوا تارك جنس العمل والمعرض والممتنع عن الدين الذي لم ينقد ولم يلتزم الالتزام الظاهر كافراً خارجاً عن الملة ولم يجعلوه بمنزلة فاعل المحرمات والكبائر والمقصر في الواجبات مع أدائها في الأصل .

وقال:"من أطلق من الفقهاء أنه لا يكفر إلا من يجحد وجوبها فيكون الجحد عنده متناول للتكذيب بالإيمان ومتناول للامتناع عن الإقرار والالتزام". ٢٠/ ٩٨.

قال ابن تيمية في الإيمان الأوسط :" وكفر إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن أصله من جهة عدم التصديق فإن إبليس لم يخبره أحد بخبر بل أمره الله بالسجود فأبى واستكبر وكان من الكافرين فكفره بالإباء والاستكبار وما يتبع ذلك لا لأجل تكذيب " .

قال ابن تيمية : (كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر. سواء اعتقد كذبه، أو استكبر عن الإيمان به، أو أعرض عنه اتباعا لما يهواه، أو ارتاب فيما جاء به، فكل مكذب بما جاء فهو كافر) الدرء ١/ ٥٦ .

قال ابن تيمية في الإيمان:" فعلم أن مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد ".

قال ابن تيمية : (لابد أن يكون الإيمان تصديقا مع موافقة وموالاة وانقياد ولا يكفي مجرد التصديق ، فيكون الإسلام جزء مسمى الإيمان ، كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق جزء مسمى الكفر، فيجب أن يكون كل مؤمن مسلما منقادا للأمر وهذا هو العمل) الفتاوى ٧/ ٢٩٢.

قال ابن تيمية في الصارم ص ٩٦٩: " فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكذبٌ له أو ممتنع عن الانقياد لربه، وكلاهما كفر صريح".

وقال : (لا يكون مؤمنا إلا إذا التزم بالعمل مع الإقرار وإلا فلو أقر ولم يلتزم بالعمل لم يكن مؤمناً) الفتاوى ٧/ ٣٨٩ .

وقال: (لفظ الإقرار يتضمن الالتزام ثم إنه يكون على وجهين الإخبار في مقابل التصديق، وإنشاء الالتزام في مقابل **الامتناع عن الطاعة والانقياد** كما استعمل الإقرار في نفس معنى **التزام الطاعة والانقياد**) . الفتاوى ٧/ ٥٣٠ .

وقال: (من لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن ، وأما من كان ملتزماً لحكم الله ورسوله باطنا وظاهرا لكن عصى واتبع هواه فهو بمنزلة أمثاله من العصاة ، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر). المنهاج ٥/ ١٣١ .

وقال ابن تيمية : " وقد اتفق الصحابة والأئمة بعدهم على قتال مانعي الزكاة وإن كانوا يصلون الخمس ويصومون رمضان وهؤلاء لم يكن لهم شبهة سائغة فلهذا كانوا مرتدين وهم يقاتلون على منعها وإن أقروا بالوجوب ". الفتاوى ٢٨/ ٥٤٨ .

وقال:"الصحابة لم يقولوا هل أنت مقر بوجوبها أو جاحد " الدرر ٨/ ١٣١ .

قال ابن القيم في المدارج :" وأما كفر الإباء والاستكبار فنحو كفر إبليس فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، وهذا كفر من عرف صدق الرسول وأنه جاء بالحق من عند الله ولم ينقد له إباء واستكباراً وهو الغالب على كفر أعداء الرسل " .

قال ابن القيم:" الإيمان لابد فيه من عمل القلب وهو حب الله ورسوله وانقياده لدينه والتزام طاعته ومتابعة رسوله ". مفتاح دار السعادة ١/ ٩٤.

وقال في عدة الصابرين: (من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنا حتى يأتي ... وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهراً وباطناً).

(ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام أمر وراء ذلك، وأنه ليس هو المعرفة فقط ولا المعرفة والإقرار فقط بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطنا). زاد المعاد ٣/ ٥٥٨.

قال ابن سعدي عند تفسير آية ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾:(من ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر ومن تركه مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين).

وقال الشنقيطي في تفسيره عند آية ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ : (فمن كان امتناعه عن الحكم بما أنزل الله لقصد معارضته ورده، والامتناع عن التزامه ، فهو كافر ظالم فاسق وكلها بمعنى المخرج من الملة) .

كما سيأتي كلام أهل العلم في كفر تارك العمل والانقياد في باب الانقياد .

طعن السلف في المرجئة لعدم تكفيرهم تارك العمل والممتنع عن الانقياد :

قال الحميدي:" أخبرت أن قوماً يقولون إن من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموت هو مؤمن ما لم يكن جاحداً إذا كان يقر بالفروض، فقلت هذا الكفر بالله الصراح " السنة للخلال.

قال الإمام أحمد:" من قال هذا - الكلام السابق الذي ذكره الحميدي - فقد كفر بالله ورد على الله أمره وعلى الرسول ما جاء به ". السنة للخلال .

فإذا كان السلف قد كفّروا من لم يكفر تارك العمل إذا كان مقرا به، فكيف لا يكفّرون من تقوم به هذه الصفة وهي ترك العمل فتأمل.

وقال سفيان بن عيينة :" والمرجئة أوجبوا الجنة لمن شهد أن لا إله إلا الله مصراً بقلبه على ترك الفرائض، وسموا ترك الفرائض ذنباً بمنزلة ركوب المحارم ، وليس بسواء لأن ركوب المحارم من غير استحلال معصيته وترك الفرائض متعمداً من غير جهل ولا عذر كفر، وبيان ذلك في أمر آدم وإبليس وعلماء اليهود ... وتركهم على معرفة من غير جحود فهو كفر " أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة .

قال ابن رجب :" روي عن عطاء ونافع مولى ابن عمر أنهما سُئلا عمن قال الصلاة فريضة ولا أصلي؟ فقالا هو كافر، وكذا قال الإمام أحمد"فتح الباري١/ ٢١.

وأخرج أثر عطاء عبد الله بن أحمد في السنة والخلال واللالكائي .

قال إسحاق بن راهويه : " غلت المرجئة حتى صار من قولهم إن قوماً يقولون من ترك الصلوات المكتوبات وصوم رمضان والزكاة والحج وعامة الفرائض من غير جحود لها أنا لا نكفّره ". نقله ابن رجب في الفتح .

قال الشافعي :" وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم يقولون الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاث إلا بالآخر" رواه اللالكائي .

قال أبو ثور:" من قال أقر ولا أعمل لم نطلق عليه اسم الإيمان " .

قال التستري :" الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر ". رواه ابن بطه .

وقال المروزي في قدر الصلاة :" والإيمان أصله التصديق والإقرار ينتظر به حقائق الأداء لما أقر والتحقيق لما صدق، ومثل ذلك كمثل رجلين عليهما حق لرجل: فسأل أحدهما حقه فقال ليس لك عندي حق فأنكر وجحد .

وسأل الآخر حقه فقال نعم لك علي كذا، فليس إقراره بالذي يصل إليه بذلك حقه دون أن يوفيه وهو منتظر أن يحقق ما قال ويصدق إقراره بالوفاء. ولو اقر ثم لم يؤد حقه كان كمن جحده في المعنى، إذ استويا في الترك للأداء".

وقال ابن بطة:" فمن زعم أنه يقر بالفرائض ولا يؤديها ويعملها، وبتحريم الفواحش والمنكرات ولا ينزجر عنها ولا يتركها، وأنه مع ذلك مؤمن، فقد كذب بالكتاب وبما جاء به رسوله ومثله كمثل المنافقين، على أن المنافقين أحسن حالاً من المرجئة لأن المنافقين جحدوا العمل وعملوه، والمرجئة أقروا بالعمل بقولهم وجحدوه بترك العمل به. فمن جحد شيئاً وأقر به بلسانه وعمله ببدنه أحسن حالاً ممن أقر بلسانه وأبى أن يعمله ببدنه فالمرجئة جاحدون لما هم به مقرون ومكذبون لما هم به مصدقون فهم أسوأ حالاً من المنافقين ". فانظر كيف جعل كفر الإعراض والامتناع والإباء أشد من كفر النفاق والجحود والتكذيب وأعظم جرماً .

قال ابن تيمية في الإيمان :" لو أن قوماً قالوا للنبي ﷺ نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك ونقر بالشهادتين إلا أنا لا نطيعك في شيء مما أمرت به ونهيت عنه فلا نصلي ولا نصوم ولا نحج ولا نصدق الحديث ولا نؤدي الأمانة ولا نفي بالعهد ولا نصل الرحم ولا نفعل شيئا من الخير الذي أمرت به ونشرب الخمر وننكح ذوات المحارم بالزنا الظاهر ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وأمتك ونأخذ أموالهم بل نقتلك أيضاً ونقاتلك مع أعدائك، هل كان النبي ﷺ يقول لهم أنتم مؤمنون كاملو الإيمان وأنتم من أهل شفاعتي يوم القيامة ويرجى لكم أن لا يدخل أحد منكم النار، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم : أنتم أكفر الناس بما جئت به ويضرب رقابهم إذا لم يتوبوا من ذلك ". الفتاوى ٧/ ٢٨٧ .

وذكرنا كلام ابن تيمية عن خطأ الفقهاء وفروعهم المأخوذة من المرجئة .

وقال فيه :" وقد تبين أن الدين قول وعمل وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله بقلبه ولسانه ولم يؤد واجبا ظاهراً" . ٧/ ٦٢١ .

وقال :" فمن قال : إنه يصدق الرسول ويحبه ويعظمه بقلبه ولم يتكلم قط بالإسلام ولا فعل شيئاً من واجباته بلا خوف فهذا لا يكون مؤمناً في الباطن وإنما هو كافر" . الفتاوى ١٤/ ١٢٠ .

وقال الشوكاني في إرشاد السائل " من كان تاركاً لأركان الإسلام وجميع فرائضه ورافضا لما يجب عليه من ذلك من الأقوال والأفعال ولم يكن لديه إلا مجرد التكلم بالشهادتين، فلا شك ولا ريب أن هذا كافر شديد الكفر حلال الدم والمال".

المسألة السابعة : حقيقة كفر الامتناع والاستكبار والإباء :
هو ترك الانقياد للشريعة وعدم الالتزام بالدين وعدم امتثال الفرائض .
وهذا كفره حصل بضد ذلك ، ويكون بأحد أمرين :
١- بترك العمل أو جنس العمل لا آحاده وأفراده، ويدخل هذا في الإعراض.
٢- بالامتناع عن الشريعة وعدم الالتزام الظاهر لها والإصرار على الترك.
فضابط كفر الامتناع والاستكبار والإباء راجع لعدم الانقياد والالتزام.
فكفر هؤلاء لعدم الانقياد الذي هو الامتناع والإباء .
وهذا مذهب أهل السنة وسط بين الخوارج الذين يكفّرون بفعل المعاصي وترك آحاد الواجبات، والمرجئة الذين لا يكفّرون إلا بالجحود للأعمال والاستحلال للمحرمات، أما مجرد الترك والامتناع والإعراض عن العمل بالكلية وترك جنس الأعمال فلا يكفّرون به، بل ويجعلون من يكفّر به من الخوارج، وهذا محل اختلاف وفيه حصل انشقاق الأمة وخرجت الخوارج والمرجئة في كل زمان .
وقال المروزي في تعظيم قدر الصلاة عن إبليس :" وهل كان كفره إلا بترك سجدة واحدة أمر بها فأباها " .
قال ابن تيمية في الإيمان الأوسط :" وكفر إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن أصله من جهة عدم التصديق فإن إبليس لم يخبره أحد بخبر بل أمره الله بالسجود فأبى واستكبر وكان من الكافرين فكفره بالإباء والاستكبار وما يتبع ذلك لا لأجل تكذيب " .
وقال:"الصحابة لم يقولوا هل أنت مقر بوجوبها أو جاحد " الدرر ٨/ ١٣١ .
قال ابن تيمية : " وقد اتفق الصحابة والأئمة بعدهم على قتال مانعي الزكاة وإن كانوا يصلون الخمس ويصومون رمضان وهؤلاء لم يكن لهم شبهة سائغة فلهذا كانوا مرتدين وهم يقاتلون على منعها وإن أقروا بالوجوب ". الفتاوى ٢٨/ ٥٤٨ .
قال أبوعبيد: " فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين لها "الإيمان ص١٧.
قال ابن تيمية: " فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكذبٌ له أو ممتنع عن الانقياد لربه، وكلاهما كفر صريح". الصارم المسلول ص:٩٦٩.
فائدة: اصطلاح الامتناع كاصطلاح الموالاة والتولي وكفر الإعراض والإباء .
تنبيه : قول أنس: (والله لا تكسر رباعيتها) وقول سعد: (لأضربنه بالسيف) ليس من باب الامتناع والاعتراض على الشرع وإنما هو استشكال واستفصال .

المسألة الثامنة: طرق معرفة كفر الامتناع : يعرف الامتناع بقرائن :
كالقتال أو الاستباحة العملية أو رد أمر الله ورسوله مباشرة أو الطعن واللمز أو الصد عن سبيل الله ودينه وشرعه أو العناد أو الإصرار على ترك الفرائض والعزم تعمدا على عدم الفعل ، وأخطأ من قصره على القتال أو قصره على الاستحلال .
تنبيه:ليس كفر الامتناع خاص بالقتال كما فهم البعض وأخطأ من قصره عليه:
والدليل أن الصحابة كفروا مانعي الزكاة قبل قتالهم ودعوتهم، كما في الصحيحين : لمّا مات النبي ﷺ وارتدت العرب قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل...
وبهذا يتبين خطأ من قال الصحابة لم يكفروا إلا بعد القتال .
كما أن كفر الامتناع يمكن وقوعه من الفرد وبدون قتال كما في قصة الناكح امرأة أبيه. وكما كفّر الإمام أحمد من قال: (لاأزكي، ولاأصوم) . أحكام الملل: ٤٨٨ .
قاعدة : التلازم بين التكفير والقتال :
الأصل أن التكفير ملازم للقتل والقتال ، والأصل مع الكفار القتال لا السلم بدلالة حديث:(أمرت أن أقاتل الناس) . لكن قد يكون الحكم لأحدهما : فيجب التكفير دون القتال في حق المرتد الذي لم تبلغه الحجة والكافر المعاهد فيستثنون من القتل .كما يجب القتال والقتل دون التكفير كما في حق البغاة ومهدرات دم المسلم.

المسألة التاسعة : علاقة الامتناع بالاستكبار والإباء والإعراض :
كفر الامتناع قد يكون معه استكبار وإباء، وقد يكون مجرداً عن ذلك، بأن يكون امتناعاً وإعراضاً وتولياً عن الطاعة والعمل من دون كبر وحسد، وإنما يترك العمل بالكلية تهاوناً وكسلا وتفريطاً، وقد لا يظن أن هذا يخرجه من الملة، فكل هذا لا يخرج عن كونه كفرا، والأول أشد كفراً وهو الذي يقارنه الاستكبار والعناد .

المسألة العاشرة: الفرق بين كفر الامتناع وكفر الإعراض . سيأتي الكلام عنه .

المسألة الحادية عشرة : ترك العمل على قسمين :
١ – أن يتركه عن عنادٍ وكبر وعدم قبول ورضا ، وهذا كفر الإباء والاستكبار.
وهذا من يجمع بين ترك العمل بالجوارح مع عقيدة القلب وعزمه على الترك.

٢- أن يكون تركه مجرداً عن هذه الصفة، وإنما يتولى عن طاعة الرسول ﷺ ويعرض كسلاً وتهاوناً أو لعدم الرغبة والهمّة، وهذا الامتناع والتولي كفر عند أهل السنة معصية عند المرجئة، وتسمى المسألة بترك جنس العمل أو الامتناع عن الشريعة وهو داخل في عموم كفر الإباء والاستكبار .

قال الراغب: (الإباء شدة الامتناع فكل إباء امتناع وليس كل امتناع إباء).

المسألة الثانية عشرة : أقسام الامتناع والإباء من حيث آلاته :

يكون الإباء بالجوارح ويكون بالقلب كما في قوله تعالى : ﴿ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ التوبة٨.

والعزم والتعمد والإصرار والامتناع الأصل أنه في القلب.

المسألة الثالثة عشرة: الامتناع عن الانقياد والاستكبار يدخل في باب الشرك :

قال تعالى :﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ ﴾ فصلت:٦-٧ .

وقال ﷺ : (بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة) .

قال ابن تيمية:(المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل فيكون مشركا) ٧/ ٦٢٩

المسألة الرابعة عشرة:علاقة كفر الامتناع بكفر الرد وكفر العناد وأنواع الكفر :

كفر الامتناع مستقل وليس داخلاً في الرد المقابل للقبول، وإن كان فيه نوع رد، فإن كل كفر لا يخلو من وجه رد .

قال ابن القيم في الطريق والمفتاح: (أن العذاب يستحق بسببين :

أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها .

والثاني: كفر العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها .

فالأول كفر إعراض والثاني كفر عناد . وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجته).

وقال السمعاني في تفسيره :(كفر العناد هو أن يعرف الله تعالى بقلبه ويعترف بلسانه، ولكن لا يتدين به ولا يتخذه دينه ككفر أبي طالب).

وعرف كفر العناد الأزهري في تهذيب اللغة بقوله :

هو أن يعرف بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل الإيمان ككفر أبي طالب .

المسألة الخامسة عشرة : الامتناع الجزئي والكلي سواء :
الامتناع عن بعض الشريعة كالامتناع عنها كلها ، فمن امتنع عن شيء من الدين ودفعه ورده فرضاً كان أو محرماً صار بامتناعه كافرا.
ودليل ذلك ومثاله: امتناع إبليس من سجدة، وناكح امرأة أبيه ارتد لامتناعه عن محرم واحد، والممتنعين عن الزكاة زمن الصديق كانوا يصلون ويصومون .
فالامتناع كفر مطلقا وليس على درجات كترك الانقياد كما تقدم .
قال إسحاق بن راهوية : (أجمع العلماء على أن من دفع شيئا أنزله الله وهو مع ذلك مقرٌّ بما أنزل الله أنه كافر) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٢٢٦ .
قال البربهاري : (ولا يخرج أحد من أهل القبلة حتى يرد آية من كتاب الله أو يرد شيئاً من آثار الرسول ﷺ أو يذبح لغير الله أو يصلي لغير الله). شرح السنة ٧٣ .
قال ابن بطة : (فلو أن رجلا آمن بجميع ما جاءت به الرسل إلا شيئا واحدا كان برد ذلك الشيء كافرا عند جميع العلماء) الإبانة الصغرى ١٤١ ، ١٣٦ .
قال الجصاص في أحكام القرآن: (وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم، وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم) ٣/ ١٨١ .
وقال المروزي في تعظيم قدر الصلاة عن إبليس :" وهل كان كفره إلا بترك سجدة واحدة أمر بها فأباها " .
المسألة السادسة عشرة: قد يكون المعرض قابلا بقلبه وعنده أصل القبول لكنه لا ينقاد ولا يعمل ويكون كافرا ، وهذا يدخل في الرد العملي وليس القلبي.
قال ابن تيمية في الإيمان:فنفى الإيمان عمن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقبول.
المسألة السابعة عشرة: أصناف الممتنعين :
الممتنع عن الشريعة المرتد . الممتنع الكافر الأصلي .
فالامتناع قسمان : امتناع ردة وامتناع أصلي .
المسألة الثامنة عشرة: كفر الامتناع والإباء أكثر كفر العالمين :
فكفر إبليس امتناع وذلك بتركه السجود وكفر هرقل بالامتناع عن الانقياد، وكفر المرتدين زمن الصحابة كانت ردتهم بالامتناع عن الزكاة وعدم الانقياد بها وليس بجحودها ، وقدمنا كلام أبو عبيد القاسم بن سلام وابن تيمية.

المسألة التاسعة عشرة : الكفر الذي خالفت في المرجئة :

تنكر المرجئة كفر الإعراض وكفر الامتناع والتولي والإباء العملي .

كما تنكر كفر الجهل . ولا تعترف إلا بما كان عن عناد مع تكذيب .

قال ابن القيم:" المبتدعة الذين حكموا بنجاة الكفرة وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار - المقلدين والجهلة - وإن كانوا جهالاً مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، كا يحكى عن بعض أهل البدع أنه لا يحكم لهؤلاء بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا لم يقل به أحد من أئمة المسلمين لا الصحابة ولا التابعون ولا من بعدهم " طريق الهجرتين ٤٤٨ .

العشرون: موقف الخوارج والمرجئة من كفر الامتناع وتارك العمل والانقياد :

نبتت نوابت في عصرنا ذهبوا إلى ما ذهبت إليه الأوائل من الخوارج والمرجئة بل وزادوا في الغلو، ولم يفرقوا بين الانقياد والالتزام الذي يكفر به تاركه ومن فعل المعاصي وترك آحاد الأعمال، ولم يفهموا كلام السلف وأهل السنة في الباب ولم يميزوا بين الامتناع والجحود ويتضح هذا الأمر بمثال : لو أن لرجل ديناً على ثلاثة:

الأول منهم : أنكره وجحده وقال ما أخذت منك مالاً .

والثاني : قال نعم اقترضت منك وأقر بذلك ولكن امتنع عن السداد وقال للدائن لن أسددك ولن ألتزم لك بحقك وافعل ما تشاء .

والثالث : أقر بالدين والتزم به ووعده بالسداد وأذعن له بحقه وامتثل ولكن أخره وما طل به وتهاون في أداء حقه .

فالأول هو الجاحد والثاني هو الممتنع والثالث هو المماطل المتهاون .

ومثل ذلك في الشريعة وواجباتها بين الجاحد والممتنع والمتهاون فيها:

فالأول : كُفره محل إجماع ، وقد قدمنا إجماع السلف على ذلك .

والثاني : لا تكفّره المرجئة بل ولا يعترفون بوجود هذا القسم ويدرجونه في الأول، لأن الالتزام عندهم والانقياد لا يكون إلا بالقلب وهذا محله وتفسيره ومعناه عندهم، والامتناع والترك كذلك بالقلب وليس بالجوارح، ولا يميزون بين الامتناع والجحود ولا بين الانقياد والالتزام وبين الإقرار والقبول والتصديق، وخالفوا بذلك أهل السنة الذين يعدون هذا ركناً في الإيمان والإسلام وتاركه كافر.

والثالث : تكفّره الخوارج وتجعله مثل الثاني، ولا تميز بين ركوب المحارم وترك الفرائض، ولا بين ترك جنس العمل وترك آحاد الأعمال والتهاون فيها،

فكفروا مطلقاً وخالفوا أهل السنة وجعلوا القسم الثاني والثالث نوعاً واحداً، ومن فعل كبيرة أو تهاون في واجب مع التزامه ببقية الشريعة وانقياده للدين وفعله الواجبات وعدم استحلاله المحرمات جعلوه مثل الممتنع عن الشريعة المعرض عن الدين غير الملتزم به الرافض له التارك للعمل .

قال المروزي في قدر الصلاة : (والإيمان أصله التصديق والإقرار ينتظر به حقائق الأداء لما أقر والتحقيق لما صدق، ومثل ذلك كمثل رجلين عليهما حق لرجل:

فسأل أحدهما حقه فقال ليس لك عندي حق فأنكر وجحد .

وسأل الآخر حقه فقال نعم لك علي كذا، فليس إقراره بالذي يصل إليه بذلك حقه دون أن يوفيه وهو منتظر أن يحقق ما قال ويصدق إقراره بالوفاء. ولو اقر ثم لم يؤد حقه كان كمن جحده في المعنى، إذ استويا في الترك للأداء).

وقال ابن تيمية: (ومورد النزاع هو فيمن أقر بوجوبها - الصلاة - والتزم فعلها ولم يفعلها وأما من لم يقر بوجوبها فهو كافر باتفاقهم وليس الأمر كما يفهم من إطلاق بعض الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم : أنه إن جحد وجوبها كفر وإن لم يجحد وجوبها فهو مورد النزاع، بل هناك ثلاثة أقسام :

أحدها : إن جحد وجوبها فهو كافر بالاتفاق .

والثاني : أن لا يجحد وجوبها لكنه ممتنع من التزام فعلها كبراً أو حسداً أو بغضاً لله ورسوله، فيقول أعلم أن الله أوجبها على المسلمين والرسول صادق في تبليغ القرآن، ولكن ممتنع عن التزام الفعل استكباراً أو حسداً للرسول أو عصبية لدينه أو بغضاً لما جاء به الرسول فهذا أيضاً كافر بالاتفاق، فإن إبليس لما ترك السجود المأمور به لم يكن جاحداً للإيجاب فإن الله تعالى باشره بالخطاب وإنما أبى واستكبر وكان من الكافرين، وكذلك أبو طالب كان مصدقاً للرسول ﷺ فيما بلغه لكنه ترك اتباعه حمية لدينه وخوفا من عار الانقياد واستكباراً عن أن تعلو إسته رأسه، فهذا ينبغي أن يتفطن له، ومن أطلق من الفقهاء أنه لا يكفر إلا من يجحد وجوبها فيكون الجحد عنده متناولا للتكذيب بالإيجاب ومتناولا للامتناع عن الإقرار والالتزام، كما قال تعالى :﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام: ٣٣ وقال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ النمل: ١٤ وإلا فمتى لم يقر ويلتزم فعلها قتل وكفر بالاتفاق .

والثالث: أن يكون مقراً ملتزماً لكن تركها كسلا وتهاوناً واشتغالاً بأغراض له عنها فهذا مورد النزاع كمن عليه دين وهو مقر بوجوبه ملتزم لأدائه لكن يماطل بخلا أو تهاوناً.

وهنا قسم رابع : وهو أن يتركها ولا يقر بوجوبها ولا يجحد وجوبها لكنه مقر بالإسلام من حيث الجملة فهل هذا من موارد النزاع أو من موارد الإجماع ولعل كلام كثير من السلف متناول لهذا وهو المعرض عنها لا مقراً ولا منكراً، وإنما هو متكلم بالإسلام فهذا فيه نظر، فإن قلنا يكفر بالاتفاق فيكون اعتقاد وجوب هذه الواجبات على التعيين من الإيمان لا يكفي فيها الاعتقاد العام كما في الخبريات من أحوال الجنة والنار، والفرق بينهما أن الأفعال المأمور بها المطلوب فيها الفعل لا يكفي فيها الاعتقاد العام بل لابد من اعتقاد خاص، بخلاف الأمور الخبرية فإن الإيمان المجمل بما جاء به الرسول ﷺ من صفات الرب وأمر المعاد يكفي فيه ما لم ينقض الجملة بالتفصيل، ولهذا اكتفوا في هذه العقائد بالمجمل وكرهوا فيها التفصيل المفضي إلى القتال والفتنة بخلاف الشرائع المأمور بها فإنه لا يكتفي فيها بالمجمل بل لابد من تفصيلها علماً وعملاً، وأما القاتل والزاني والمحارب فهؤلاء إنما يقتلون لعداوتهم على الخلق لما في ذلك من الفساد ومن تاب قبل القدرة عليه سقط عنه حد الله ولا يكفر أحد منهم، وأيضاً فالمرتد يقتل لكفره بعد إيمانه وإن لم يكن محارباً، فثبت أن الكفر والقتل لترك المأمور به أعظم منه لفعل المنهي عنه) الفتاوى٢٠/٩٧.

فانظر لهذا البيان الجيد والتقرير لمذهب أهل السنة في كفر الممتنع عن الانقياد.

فائدة: يسمي العلماء كفر الامتناع التكذيب والجحود والاستحلال العملي .

قال الطبري:(فكان فعله ونكاح امرأة أبيه من أدل الدليل على تكذيبه الرسول ﷺ فيما أتاه به عن الله تعالى وجحوده آية محكمة في تنزيله) تهذيب الآثار ٢/ ٤٨.

قال الفراء:(لم يكن كذب برد ظاهر لكن قصر عما أمر به فجعل تكذيباً).

قال ابن تيمية:(الجحد متناول للتكذيب وللإمتناع عن الالتزام) ٢٠/ ٩٨ .

وقال في الدرء: (سواء اعتقد كذبه، أو استكبر، أو أعرض، فكل مكذب) .

وقال : (إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو حرمه لكن امتنع وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند ...فإن معاندته له تنافي هذا التصديق) الصارم ٥٢١ .

*** تنبيه : كثير من المسائل المتعلقة بكفر الامتناع تقدمت عند الكلام عن كفر الإعراض ، كما أنه سيأتي بعضها عند الكلام عن الانقياد.**

مبحث : وجوب تكفير الممتنع عن الشريعة وقتال الطائفة الممتنعة

أهل العلم أوجبوا قتال من امتنع عن شعيرة واحدة أو فرض واحد وحكموا بكفره وأوجبوا قتاله حتى يلتزم بها ويكون الدين كله لله .

والأصل في ذلك فعل أبي بكر في قتال الممتنعين عن الزكاة وتكفيرهم وتسميتهم بأهل الردة .

قال ابن تيمية :" كل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين ببعض شرائعه كما قاتل أبو بكر والصحابة مانعي الزكاة وعلى ذلك اتفق الفقهاء " الفتاوى ٢٨ / ١٣٠ .

وقد استدل أهل العلم على قتال الممتنع وتكفيره : بمثل قوله تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ الأنفال: ٣٩ .

﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ التوبة: ٢٩ .

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ التوبة: ٥.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٧٩.

دلت هذه الآية على كفر الممتنع وتارك الانقياد وعلى وجوب قتاله حتى ينقاد.

وهذه الآية نزلت في أهل الطائف لما دخلوا في الإسلام والتزموا الصلاة لكن امتنعوا من ترك الربا فبين الله أنهم محاربون له وسيقاتلون إن لم ينتهوا عن الربا .

عمل الصحابة بقوله ﷺ :" أمرت أن أقاتل الناس " في قتالهم المرتدين .

فائدة : حديث (أمرت أن أقاتل الناس) . يدل على: وجوب الانقياد من سبعة أوجه ذكرناها في أدلة الانقياد وعلى تكفير الممتنع عن الانقياد وعلى وجوب قتاله.

قال البخاري : باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسب من الردة .

عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب . قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله) .

فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه.

فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق. متفق عليه.

وعند النسائي من حديث أنس : (ارتدت العرب) .

وعند ابن خزيمة : (ارتد عامة العرب) .

ولما قدم وفد بزاخة من أسد وغطفان إلى أبي بكر يسألونه الصلح ودفع الزكاة إليه . خيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية أو السلم المخزية ، فقالوا الحرب المجلية عرفناها فما المخزية . قال لهم أبو بكر ﷺ : (تؤخذ منكم الحلقة والكراع وتتركون أقواما يتبعون أذناب الإبل حتى يُري الله خليفة نبيه والمؤمنين أمراً يعذرونكم به ، وأن نغنم ما أصبنا منكم وتردون علينا ما أصبتم منا ، وحتى تشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، وتدون قتلانا ولا ندي قتلاكم) .

رواه البخاري مختصرا وغيره مطولا .

فلم يقبل أبو بكر منهم الزكاة ويعطيهم الأمان حتى أقروا له بذلك وأنهم كفروا بعد إسلامهم ، ولم ينقل خلاف أحد من الصحابة إلا خلاف عمر في الدية فدل على إجماعهم على كفرهم .

وروي أن عمر قال لأبي بكر: (إن العرب قد ارتدت على أعقابها كفارا كما علمت ، وأنت تريد أن تنفذ جيش أسامة، فلو حبسته لقويت به على من ارتد من هؤلاء العرب) الردة للواقدي ص:٨٤ .

وقالت عائشة : (لما قبض رسول الله ﷺ : ارتدت العرب قاطبة واشرأب النفاق) .

قال خالد بن الوليد ﷺ لمالك بن نويرة التميمي حين قال:(أتقتلني وأنا مسلم أصلي القبلة). قال له خالد : (لو كنت مسلما لما منعت الزكاة ، ولا أمرت قومك بمنعها ، والله لما قمت من مقامك حتى أقتلك ، فقال مالك أتقتلني بهذه يعني امرأته ، فقال خالد بل لله أقتلك برجوعك عن دين الإسلام وجفلك إبل الصدقة وأمرك لقومك بحبس ما يجب عليهم من الزكاة أموالهم) . الردة للواقدي ص:١٦٢ .

فانظر كيف أن ترك الزكاة امتناعا ردة عن الإسلام متقرر عند الصحابة .

قال عبدالرحمن بن حسن : (ذكر الواقدي أن خالد بن الوليد ﷺ لما قد اليمامة في قتال المرتدين أخذوا مجاعة بن مرارة فأمر به فأسره وأوثقه في حديد ... فقال مجّاعة ياخالد قد علمت أني قدمت على رسول الله ﷺ وبايعته على الإسلام وأنا اليوم

على ما كنت عليه بالأمس فإن يك كذاب خرج فينا يعني مسيلمة لعنه الله فإن الله يقول {ولا تزر وازرة وزر أخرى} فقال خالد : يا مجاعة تركت اليوم ما كنت عليه أمس وكان رضاك بأمر هذا الكذاب وسكوتك عنه إقرار له ورضا بما جاء به، فهل أبديت عذرا فتكلمت فيمن تكلم، فقد تكلم ثمامة فرد وأنكر وتكلم اليشكري، فإن قلت أخاف قومي فهلا عمدت إلي أو بعثت إلي رسولا ؟ فتأمل كيف جعل خالد سكوت مجاعة رضا بما جاء به مسيلمة وإقرارا) مجموعة الرسائل ٤/ ٢٩٢ .

قال أبو عبيد بن سلام : (فلو أنهم ممتنعون من الزكاة عند الإقرار وأعطوه ذلك بالألسنة وأقاموا الصلاة غير أنهم ممتنعون من الزكاة كان ذلك مزيلا لما قبله وناقضا للإقرار والصلاة، كما كان إباء الصلاة قبل ذلك ناقضا لما تقدم من الإقرار.

والمصدق لهذا جهاد أبي بكر الصديق بالمهاجرين والأنصار على منع العرب الزكاة كجهاد رسول الله ﷺ أهل الشرك سواء لا فرق بينها في سفك الدماء وسبي الذرية واغتنام المال، فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين لها.) الإيمان ١٧ .

كلام الإمام أحمد في الممتنعين عن الزكاة :

قال الخلال: (أخبرني الميموني قال: قلت يا أبا عبد الله: من منع الزكاة يقاتل ؟ قال قد قاتلهم أبو بكر ﷺ . قلت : فيورث ويصلى عليه ؟ قال : إذا منعوا الزكاة كما منعوا أبا بكر وقاتلوا عليها لم يورثوا ولم يصل عليهم ، فإذا كان الرجل يمنع الزكاة يعني من بخل أو تهاون لم يقاتل أو يحارب على المنع يورث ويصلى عليه حتى يكون يدفع عنها بالخروج والقتال كما فعل أولئك بأبي بكر فيكون حينئذ يحاربون على منعها ولا يورث ولا يصلى). أحكام أهل الملل للخلال ٤٨٨.

وتأمل في كلامه ففيه إشارة إلى أن المنع للزكاة إذا كان على نفس الصفة والحيثية التي حصلت من هؤلاء زمن أبي بكر وهي الإباء والامتناع كانت كفرا .

وسئل الإمام أحمد : (رجل قال الزكاة علي ولا أزكي . قال يقال له مرتين أو ثلاث زك ، فإن لم يزك يستتاب ثلاثة أيام فإن تاب وإلا ضربت عنقه .

وفي من يقول : الزكاة من الله تعالى ولا أؤديها . قال يستتاب فإن تاب وإلا قتل .) . أحكام أهل الملل للخلال ص ٤٨٨ .

قال أحمد : (من ترك الزكاة ليس بمسلم ، وقد قاتل أبو بكر أهل الردة على ترك الزكاة) . أحكام أهل الملل للخلال ص ٤٨٨ .

وسئل الإمام أحمد : (من قال : أعلم أن الصوم فرض ولا أصوم ؟ فأملى علي : يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه) أحكام أهل الملل للخلال ص ٤٨٢ .

قال ابن عباس: من كفر: أي زعم أن الحج ليس بفرض عليه . وليس علي حج . أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وهذا هو كفر الامتناع.

قال المروزي في تعظيم قدر الصلاة عن إبليس:" وهل كان كفره إلا بترك سجدة واحدة أمر بها فأباها " .

قال ابن تيمية في الإيمان الأوسط :" وكفر إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن أصله من جهة عدم التصديق فإن إبليس لم يخبره أحد بخبر بل أمره الله بالسجود فأبى واستكبر وكان من الكافرين فكفره بالإباء والاستكبار وما يتبع ذلك لا لأجل تكذيب " .

وقال:"الصحابة لم يقولوا هل أنت مقر بوجوبها أو جاحد " الدرر ٨/ ١٣١ .

وقال ابن تيمية : " وقد اتفق الصحابة والأئمة بعدهم على قتال مانعي الزكاة وإن كانوا يصلون الخمس ويصومون رمضان وهؤلاء لم يكن لهم شبهة سائغة فلهذا كانوا مرتدين وهم يقاتلون على منعها وإن أقروا بالوجوب ". الفتاوى ٢٨/ ٥٤٨ .

قال إسحاق بن راهوية : (أجمع العلماء على أن من دفع شيئا أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٢٢٦ .

قال البربهاري : (ولا يخرج أحد من أهل القبلة حتى يرد آية من كتاب الله أو يرد شيئاً من آثار الرسول ﷺ أو يذبح لغير الله أو يصلي لغير الله). شرح السنة ٧٣ .

قال الجصاص في أحكام القرآن: (وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم، وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم) ٣/ ١٨١ .

قال ابن تيمية في الصارم ص ٩٦٩: " فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكذبٌ له أو ممتنع عن الانقياد لربه، وكلاهما كفر صريح".

قال ابن خويز منداد: (ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالا لكانوا مرتدين والحكم فيهم كالحكم في أهل الردة) تفسير القرطبي ٣/ ٣٦٤.

قال ابن حجر:" قتل من امتنع من التزام الأحكام الواجبة والعمل بها ".

وقال ابن العربي في أحكام القرآن :" فقد اتفقت الأمة على أن من يفعل المعاصي يحارب كما لو اتفق أهل بلد على العمل بالربا وعلى ترك الجمعة والجماعة " .

(إن اتفق أهل بلد على ترك الأذان وامتنعوا وجب قتالهم).المغني لابن قدامة.

ومن الأدلة على كفر الممتنع عن الشريعة ووجوب قتاله الناكح امرأة أبيه :

فعن البراء بن عازب ﷺ قال : " مر بي عمي الحارث بن عمرو ومعه لواء قد عقده له رسول الله ﷺ قال فسألته قال بعثني الرسول أن أضرب عنق رجل تزوج امرأة أبيه " رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

وهذا الحديث نص في وجوب تكفير الممتنع عن الشريعة وتارك الانقياد وقتال الممتنع عن الشريعة ولو كان فردا ولم يكن تحت طائفة مقاتلة ممتنعة.

قال الطبري:(فكان فعله ونكاح امرأة أبيه من أدل الدليل على تكذيبه الرسول ﷺ فيما أتاه به عن الله تعالى وجحوده آية محكمة في تنزيله.. لذلك أمر الرسول ﷺ بقتله وضرب عنقه، لأن ذلك كان سنته في المرتد عن الإسلام)تهذيب الآثار ٢/ ٤٨ .

قلت تأمل الحديث مع ما قرره ابن جرير وكيف جعل العمل الظاهر من الرجل دليل على التكذيب والجحود والاستحلال والبغض وأن هناك ما يسمى عند العلماء بالتكذيب العملي والجحود العملي والاستحلال العملي والبغض العملي.

وقال الفراء : "لم يكن كذب برد ظاهر ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيباً ". من تفسير القرطبي للتولي. فالتكذيب قد يظهر في عمل ظاهر .

قال ابن تيمية : (كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر. سواء اعتقد كذبه، أو استكبر عن الإيمان به، أو أعرض عنه اتباعا لما يهواه، أو ارتاب فيما جاء به، فكل مكذب بما جاء فهو كافر) الدرء ١/ ٥٦ .

وقال :(من أطلق من الفقهاء أنه لا يكفر إلا من يجحد وجوبها فيكون الجحد عنده متناول للتكذيب بالإيمان ومتناول للإمتناع عن الإقرار والالتزام) ٢٠/ ٩٨ .

وقال : (إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند ...فإن معاندته له ومحاداته تنافي هذا التصديق ...) الصارم ٥٢١ .

قلت: قارن بين فعل الرجل في نكاحه امرأة أبيه وتكفير النبي ﷺ له، وما قاله الطبري فيه ، وبين ما يحصل من مشرعي القوانين الشركية التي جوزت الربا والزنا.

قال ابن عتيق : (البلد إذا ظهر فيها الشرك وأعلنت فيه المحرمات وعطلت فيه معالم الدين أنها تكون بلاد كفر تغنم أموال أهلها وتستباح دماؤهم) الدرر ٩/ ٢٥٧.

ومن الأدلة على كفر الممتنع عن الشريعة:

قصة الحبرين : وقولهما للنبي ﷺ لما سألاه عن مسائل وأجابهما: نشهد إنك نبي، فقال ﷺ: (فما منعكما من إتباعي)، قالا نخاف أن تقتلنا اليهود . ولم يدخلهم بذلك في الإسلام لامتناعهم عن الانقياد للدين . رواه أحمد والنسائي والترمذي.

ومثلهم شهادة أبي طالب بصدقه وخيرية دينه ولم تدخله شهادته في الإسلام.

وكذلك شهادة هرقل له بالرسالة وتمنيه أن يغسل التراب عن قدميه ومع ذلك قال فيه ﷺ شح بملكه الخبيث ، ولم يجعل ذلك منه إسلاما لامتناعه عن الانقياد.

(ومن تأمل شهادة كثير من المشركين له ﷺ بالرسالة فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أنه أمر وراء ذلك، وأنه ليس هو المعرفة والإقرار فقط بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطنا). زاد المعاد ٣/ ٥٥٨.

تنبيه:قدمنا كلام العلماء في كفر الممتنع وتارك العمل وطعن السلف في المرجئة لعدم تكفيرهم تارك العمل والممتنع عن الانقياد ، في باب الانقياد وفي كفر الامتناع .

ومن الأدلة على كفر الممتنع :

تكفير من امتنع عن تحريم الربا ونزول الآية فيهم .

ومن الأدلة على كفر الممتنع :حديث : (إذا شرب الخمر في الرابعة فاقتلوه) .

وقد قيل إنه على ظاهره ، وقال الترمذي لا يعمل به ، وقال ابن حبان : إنه إذا استحل وأبى قبول التحريم وامتنع .

وكذلك ما جاء عن ابن عمر قال : (من شرب الخمر فلم ينش لم تقبل له صلاة ما دام في جوفه أو عروقه منها شيء ، وإن مات مات كافرا) النسائي .

وقول عثمان : (اجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع والإيمان أبدا) النسائي .

وكلامهم فيما إذا قارنها استهانة بأمر الله وامتناع مثل إن عاد في الرابعة فاقتلوه.

تنبيه : هل حصل خلاف في كفر الممتنع وهل يعتبر المخالف فيه من المرجئة؟
كفر الامتناع لم يحصل فيه خلاف بين الصحابة والسلف وأهل السنة وقدمنا كلام ابن القيم في مذهبهم ومخالفة المرجئة لهم ، ومن تأثر بهم من المتأخرين.
توجيه كلام الشافعي: قال:(أهل الردة بعد رسول الله ﷺ ضربان : منهم قوم كفروا بعد الإسلام ، ومنهم قوم تمسكوا بالإسلام ومنعوا الصدقات. فإن قال قائل : ما دل عل ذلك والعامة تقول أهل الردة ؟ قال الشافعي فهو لسان عربي ، فالردة الارتداد عما كان كانوا عليه بالكفر ، والارتداد بمنع الحق ، ومن رجع عن شيء جاز أن يقول ارتد عن كذا ... وقولها معرفة منهما بأن ممن قاتلوا هو على التمسك بالإيمان ولولا ذلك ما شك عمر في قتالهم ولقال أبو بكر قد تركوا لا إله إلا الله فصاروا مشركين) . الأم ٤/ ٣٠٤ . وذهب لقول الشافعي بعض متأخري الفقهاء.
أولاً: الإمام الشافعي رحمه الله يقرر أن الإيمان قول وعمل وأن تارك العمل كافر ليس بمسلم كما نقلنا عنه . ولا يخالف أن الامتناع والاستكبار والإباء من أنواع الكفر الأكبر وصور الردة ، لكن خلافه في حقيقة فعل مانعي الزكاة وأنه بخل وتهاون وليس امتناعا وإباءً وأيضا خلافه فيما فهمه من عمل الصحابة وحكمهم .
ومع ذلك فكلامه خطأ بيّن ومخالف لفهم الصحابة وهو مثل مخالفته لهم في تكفير تارك الصلاة مع إجماعهم على كفر تارك الصلاة ولعله لم يبلغه إجماعهم.
وقد نقلنا كلام الإمام أحمد وغيره في أن الصحابة كفروا وحكموا بالردة على كل من منع الزكاة أو قاتل معهم .
وأكثر من ذلك تصريح الصحابة بلفظ الردة والتكفير لمن منع الزكاة.

مبحث : حكم تارك مباني الإسلام الأربع وأركان الإسلام

تارك التوحيد كافر إجماعا،وأما المباني الأربع ففيه تفصيل كما سنورده .

وترك الصلاة والزكاة من الشرك، وسُمّي تاركها مشركا .كما في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ وحديث:(بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة).

قال ابن تيمية: (وأما الفرائض الأربع: إذا جحد وجوب شيء منها بعد بلوغ الحجة فهو كافر ... وأما مع الإقرار بالوجوب إذا ترك شيئاً من هذه الأركان الأربعة ففي التكفير أقوال للعلماء :

أحدها:أنه يكفر بترك واحد من الأربعة حتى الحج ، وإن كان في جواز تأخيره نزاع،فمتى عزم على تركه بالكلية كفر،وهذا قول طائفة من السلف كسعيد بن جبير.

الثاني : أنه لا يكفر بترك شيء من ذلك وهذا المشهور عن كثير من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي (قلت: وهو قول المرجئة ومن تأثر بهم).

الثالث : لا يكفر إلا بترك الصلاة ، وهو قول كثير من السلف .

الرابع : يكفر بتركها وترك الزكاة فقط ، (كما دل عليه ظاهر القرآن في براءة، وحديث ابن عمر وغيره ولأنهما منتظمتان لحق الحق وحق الخلق كانتظام الشهادتين للربوبية والرسالة ، ولا بد لهما من غير جنسهما بخلاف الصيام والحج) .

الخامس : يكفر بتركها وترك الزكاة إذا قاتل الإمام عليها).

الإيمان الأوسط ٥٥٢ ونحوه في الإيمان ص٣٠٢ و٢٠/ ٩٦ .

قال ابن رجب: (ذهبت طائفة من السلف إلى كفر من ترك شيئا منها).

من جامع العلوم والحكم .

والصحيح: أن تارك الصلاة كافر مطلقا وقد أجمع الصحابة على كفر تاركها*.

---

* **ومما يدل على كفر تارك الصلاة تهاونا الأحاديث الصحيحة وإجماع الصحابة الذي نقله السلف:**

قال ﷺ: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) رواه الترمذي والنسائي وأحمد.

وحديث : (بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة) رواه مسلم. وترك الصلاة من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله.

وقال عبد الله بن شقيق: (لم يكن أصحاب النبي ﷺ يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة) . الترمذي .

وقال أيوب السختياني التابعي: (ترك الصلاة كفر لا يختلف فيه) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة.

قال حرب الكرماني في عقيدته: (القول بتكفير تارك الصلاة يوافق ما أجمع عليه أهل السنة من أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل).

وقال عمر ﷺ: (لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة) رواه مالك. فلا عبرة بعد هذا بمن خالف من العلماء فقد أخطأ.

أما الزكاة والصيام والحج فتاركها على حالين :

الأول : من امتنع عنها مع إقراره بوجوبها فيكفر إجماعا.

١- الحج والصيام: من عزم على أن لايحج ولايصوم امتناعا فهو كافر إجماعاً.

قال ابن عباس: (من كفر: أي زعم أنه ليس بفرض عليه) . (ليس علي حج) .

أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم. وهذا هو حقيقة كفر الامتناع . فالامتناع صورته وحقيقته: كالعازم على عدم الحج والمصر على ترك الحج وأن لا يحج أو قال ليس علي حج وليس بفرض علي ، وهناك فرق بين من هذه حاله وبين من هو عازم عليه لكن من دون مسارعة فلا يرى أنه واجب على الفور فيكون مسوفا ومتهاونا.

وسيأتي قول عمر في قتال تارك الحج الممتنع عنه .

وسئل الإمام أحمد: (من قال: أعلم أن الصوم فرض ولا أصوم ؟ فأملى علي: يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه) أحكام أهل الملل للخلال ص ٤٨٢ .

٢- وأما الزكاة فقد أجمع الصحابة على تكفير الممتنع عنها .

قال ابن مسعود:(ما تارك الزكاة بمسلم) رواه عبدالله في السنة والخلال .

قال الإمام أحمد: (من قال الزكاة علي ولا أزكي: يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه. ومن قال: الزكاة من الله تعالى ولا أؤديها . يستتاب فإن تاب وإلا قتل . ومن ترك الزكاة ليس بمسلم ، وقد قاتل أبو بكر أهل الردة على ترك الزكاة) .

وقال: (إذا منعوا الزكاة كما منعوا أبا بكر وقاتلوا عليها لم يورثوا ولم يصل عليهم . فإذا كان الرجل يمنع الزكاة يعني من بخل أو تهاون لم يقاتل أو يحارب على المنع يورث). أحكام أهل الملل للخلال ٤٨٨ .

وتأمل في كلامه حيث بيّن أن منع الزكاة يعد كفراً إذا كان على نفس الصفة التي حصلت من المرتدين وهي الإباء والامتناع، وليست القتال كما توهم البعض.

الثاني: المتهاون في الزكاة والصوم والحج من غير امتناع فمحل خلاف :

فالأكثر على عدم تكفير المتهاون في تركها، ويدل على عدم كفر تارك الزكاة مارواه مسلم: (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها ... وفي آخره ثم ينظر في سبيله إما الجنة وإما النار) .. ويحتمل أنه وارد في المقصر فيها دون تاركها بالكلية.

وكفّر طوائف من السلف تاركها مطلقا ولو كان تهاوننا وكسلا من غير امتناع أو عناد . منهم سعيد بن جبير والحسن .

ومما يدل على كفر تارك الفرائض ما روي عنه ﷺ : (من فعل هؤلاء ثم جاء رمضان فترك صيامه متعمدا لم يقبل الله منه الإيمان ولا الصلاة ولا الزكاة إلا بالصيام ، فمن فعل هؤلاء الأربع ثم تيسر له الحج فلم يحج لم يقبل منه الإيمان ولا الصلاة ولا الزكاة ولا الصيام إلا بالحج ، ولن يقبل الله شيئاً من الفرائض بعضها دون بعض) . أخرجه ابن بطة .

ويستدل من يكفر تارك الزكاة بآية التوبة: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ ،وآية فصلت﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ .

وحديث: (أمرت أن أقاتل الناس ... ويؤتوا الزكاة).

ويستدل على كفر تارك الحج بآية: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران: ٩٧.

وما روي عن النبي ﷺ أنه قال:(من أدرك حجة الإسلام ، فلم يحج، ولم يمنعه حاجة ظاهرة ولا إمام جائر ظالم ، ولا سجنٌ حابس حتى يموت على ذلك ، فليمت على أي حال شاء يهوديا أو نصرانيا) رواه الدارمي وغيره عن أبي أمامة وأبي هريرة.

وعن علي قال: قال ﷺ : (من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا ، وذلك بأن الله يقول (ولله على الناس... ومن كفر) .رواه الترمذي وغيره .

قال عمر ﷺ: (لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار، فلينظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين) .

قال:(لوأن الناس تركوا الحج لقاتلتهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة).

أخرجه سعيد بن منصور بسند صحيح والخلال في أحكام أهل الملل.

وأخرج عن ابن عمر قال : من ترك الحج لا يصلى عليه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر : من مات وهو موسر ولم يحج ، جاء يوم القيامة وبين عينيه مكتوب كافر .

قال الحسن وغيره: من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر . تفسير القرطبي .

مبحث : كفر الجهل

المسألة الأولى: كفر الجهل:

الجهل ضد العلم والمعرفة .

والجهل من أقوال القلب .

وكفر الجهل يأتي في مقابل كفر الجحود والعناد .

وكفر الجهل قد يكون بسبب الإعراض فيدخل في كفر الإعراض ،

وقد يكون بسبب عدم معرفة الحق ووجود الحجة فيكون كفرا مستقلا .

وله علاقة بالتكذيب.

وقال ابن القيم في طريق الهجرتين : (العذاب يستحق بسببين:

أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها .

الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها .

فالأول كفر إعراض والثاني كفر عناد .

وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل) .

المسألة الثانية : حقيقة كفر الجهل :

وهو من يقع في الكفر والشرك الأكبر عن جهل فلا يعلم بدين الله وما يريده، فلم تبلغه الدعوة أو بلغته مشوهه، كذا من قامت عليه الحجة فلم يقتنع بها أو لم يفهمها فأصر على كفره وعاند متأولا جاهلا ويحسب أنه على شيء وأن الحق ما كان عليه وأنه الذي يريده الله، فإن هذا لا يزيل عنه اسم الكفر ولا يمنع من تكفيره .

المسألة الثالثة :حالات الكفر والتكذيب :

الأول : كفر جهل وتأول ، فيكون الكافر والمكذب جاهلاً بصدق المخبر لا يعلم فيكون تكذيبه جهلاً ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ يونس: ٣٩، وهذا كفر الجهل.

الثاني : كفر عناد وتعمد ، وهو الذي يكذب عمدا وعنادا بلسانه ظاهراً مع تيقنه بالحق باطناً، وهذا كفر الجحود وهو غالباً ما يكون عناداً ، وسيأتي الكلام عنه .

المسألة الرابعة: تسمية كفر التكذيب كفر الجهل .

لأن المكذب جاهل كما أن الجاهل يكذب ما يجهله .

قال ابن تيمية في التسعينية : (يدخل في كفر التكذيب كفر الجهل إذ الجاهل مكذب) .

المسألة الخامسة :كفر الجهل على قسمين :

كفر جهل لعدم بلوغ الحجة .

وكفر جهل عن عدم فهم للحجة مع بلوغها .

وأكثر أهل العلم يجعل هذا القسم من كفر العناد وليس من كفر الجهل . مع الاتفاق على كون صاحبه كافرا اختلفوا في وصفه هل هو جاهل أو معاند جاحد .

المسألة السادسة: أنواع الجهل وأضرابه :

خلو النفس من العلم . اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه .

فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء كان اعتقاده فيه صحيحاً أو فاسداً. ذكره الراغب في المفردات .

السابعة: أسباب الجهل :

١- العجز عن إدراك الحق والوصول للعلم .

٢- التفريط وعدم الاهتمام والمبالاة والحرص .

٣- الإعراض .

٤- العناد والكبر والتكذيب .

المسألة الثامنة : أدلته :

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الزخرف: ٣٧ .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ الكهف: ١٠٤ .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ التوبة: ٩٣ .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ الملك: ١٠ .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الروم: ٢٩ .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ البقرة: ١١٨ .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ المجادلة: ١٨

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ يونس: ٣٩ .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ﴾ الأنعام: ٥٤ .

المسألة التاسعة: أقسام الجهال :

١- الكافر الأصلي الجاهل بالإسلام .

٢- الجاهل بالتوحيد المرتد والواقع في الشرك جهلا

٣- الجاهل بفروع الدين كالجاهل بحكم الصلاة وتحريم الخمر .

العاشرة : من جهل التوحيد ووقع في الشرك جهلا فهو كافر ليس بمسلم :

الجاهل بالتوحيد لا يعتبر مؤمنا به ولا مقرا أو آتياً بـه ، إذ الجاهـل بالـشيء لا يسمى مقراً به وشاهداً عليه، وعلى هذا فمن يجهل معنى لا إله إلا الله وهو يقولها ولا يعلم أنها تُبطِل الشرك فإنه لا يعتبر مسلماً بل كافراً مشركاً .

وهذا إذا كان الجهل بتفريط منه، أما إذا كان جهله من غـير تفـريط ولا يقـدر على دفعه فإنه يعتبر مشركاً على الصحيح، ويجري عليه أحكـام الكفـر في الـدنيا مـن حيث الاسم والنكاح والميراث والصلاة عليه، أما قتاله وقتله وعذابه يوم القيامة فإن هذا لابد فيه من قيام الحجة . قال سبحانه :﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ الإسراء: ١٥

١- قال ابن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ) : (فأما الذي لا يجوز الجهل بـه مـن دين الله فتوحيد الله تعالى ذكره والعلم بأسمائه وصفاته وعدله) التبصير ص١١٢ .

٢- قال ابن منده (ت:٣٩٥هـ) : (ذكر الـدليل عـلى أن المجتهـد المخطـئ في معرفة الله ﷻ ووحدانيته كالمعاند) التوحيد ٢٦١ .

٣- قال ابن القيم في طريق الهجرتين : (والإسلام توحيد الله وعبادته وحـده لا شريك له والإيمان بما جاء به رسوله ﷺ واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبـد بهـذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرا معاندا فهو كافر جاهل) .

المسألة الحادية عشرة : إنكار المرجئة لكفر الجهل:

من الكفر المجمع عليه كفر الجهل ، والمرجئة تنكر كفر الجهل كـما تنكـر كفـر الامتناع والتولي والإباء وكفر الإعراض .

واقتصروا على كفر التكذيب والعناد والكفر القلبي ولا تعترف بغيره .

قال ابن القيم: (المبتدعة الذين حكموا بنجاة الكفرة وقد اتفقت الأمة عـلى أن هـذه الطبقـة كفـار - المقلـدين والجهلـة - وإن كـانوا جهـالاً مقلـدين لرؤسـائهم وأئمتهم، كما يحكى عن بعض أهل البدع أنه لا يحكم لهؤلاء بالنار وجعلهـم بمنزلـة من لم تبلغه الدعوة، وهذا لم يقل به أحد من أئمة المسلمين) طريق الهجرتين ٤٤٨ .

قال محمد بن إبراهيم: (لو كان فهم الحجة شرطا لما كان الكفر إلا قسما واحدا وهو كفر الجحود بل الكفر أنواع من الجهل وغيره) شرح كشف الشبهات ١٠١ .

الباب الثاني : حقيقة الانقياد ومكانته وحكمه

المبحث الأول : تعريف الانقياد

المسألة الأولى : تعريف الانقياد لغة :

قال الجوهري : هو الخضوع تقول قدته فانقاد لي إذا أعطاك مقادته .

والقيادة تكون للقائد من الأمام، ضد السياقة التي تكون للسائق من الخلف، ومنه قولهم الديك لا ينساق ولا ينقاد.

والانقياد لله ورسوله أن تجعلهم أمامك وتتبع كل ما يأمرونك به، وأنت خلفهم مذعن مستسلم ملتزم خاضع .

المسألة الثانية: مرادفات الانقياد :

الإذعان / الامتثال / الالتزام / الطاعة / الإسلام / الاستسلام / التسليم / الإتباع / الانصياع / الذل / الخضوع / الخشوع / الإخبات / الاستكانة / التضرع / العمل / الاطمئنان / التواضع / الاستخذاء / الخنوع / التقوى / الدين والتدين / الأخذ بالشيء / الاستجابة / العنا ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾/ الدخور ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾.

الدين قال ابن تيمية:(الدين يتضمن معنى الخضوع والذل،يقال دنته فدان أي ذللته فذل، ويدين لله يطيعه ويخضع له)* .

المسألة الثالثة: تعريف الانقياد في الشرع والمراد به وحقيقته :

الانقياد هو: الإذعان والاستسلام ظاهراً وباطناً لله تعالى، والالتزام بدينه وشرعه، والقيام بطاعته، وامتثال أمره وشريعته،والعمل بكتابه، وامتثال أوامره وترك نواهيه وتعظيمها، وعبادته وحده، وعدم الامتناع عن ذلك، ولا التولي عن طاعته ولا ترك فرائضه ولا مخالفة أمره، ولاتعقب شيء من حكمه.

---

* الفتاوى ١٠/ ١٥٣.

وهذه الألفاظ ترادف الانقياد ، وهي مذكورة في المخصص والألفاظ المترادفة للكرماني والمختلفة لابن مالك .

وجميعها يدور حول معنا واحد وأصل جامع، هو فعل المأمور مع الخضوع والذل والرضا .

وضدها: التولي والإعراض والعصيان والامتناع والترك والإباء والاستكبار والرفض .

والانقياد للشريعة التقيد والعمل بها بفعل الواجبات وترك المحرمات والإلتزام بالدين، والإتيان بجنس العمل بالقلب والجوارح، والحكم بها والتحاكم إليها، وعدم الامتناع والتولي والإعراض عن الطاعة والعمل .

كذلك الاستسلام لرسوله ﷺ وإتباع ماجاء به والعمل بسنته والرضا بحكمه وطاعة أمره، ومن تولى عن الرسول وأعرض عن طاعته فهو لم ينقد .

كذلك الانقياد لـ(لا إله إلا الله) والعمل بمقتضاها، ومقتضاها عبادة الله وحده وترك الشرك وفعل الفرائض والإتيان بأركان الإسلام والإيمان. لا ينتفع قائل: (لا إله إلا الله) إلا بهذا الانقياد، فإذا عدم انعدمت حقيقتها وزال الانتفاع بها.

تنبيه : الانقياد للشريعة والدين وللرسول هو انقيادٌ لله تعالى .

مسألة: الانقياد للشريعة يراد به أمران:

١- العمل بها . ٢- الحكم والتحاكم بها.

فائدة: قلنا الانقياد للشريعة لكون أوامرها كالقيود للعبد من ربه تقيده.

فائدة:الانقياد بالشريعة والانقياد للشريعة بمعنىً واحد، فتعلقه بالباء واللام.

فائدة : الشريعة والإسلام والدين بمعنىً واحد كما سيأتي .

المبحث الثاني : أدلة الانقياد وكونه ركناً في الدين وشرطاً لصحة التوحيد وقبول الإسلام والانتفاع بقول لا إله إلا الله

أولا : الأدلة من كتاب الله تعالى :

١ - قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الجاثية: ١٨.

وهذه الآية أصل في الباب حيث جاء الأمر بالانقياد للشريعة واتباعها وعدم اتباع غيرها من الأهواء وغيرها .

٢- وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ النساء: ١٢٥.

وقال:﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ ﴾ آل عمران: ٨٣ .

وهاتان الآيتان دلت على الانقياد من أربعة أوجه :

الأول: أن الدين هو الذي يتدين به العبد ويلزمه ويتقيد بحدوده وينقاد ويذعن له.

الثاني:قوله:﴿ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ ﴾ حيث فسر الدين الذي يريده بالإسلام، والإسلام هو الإخلاص لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة .

كما أنكر في الآية الأخرى على من لا يريد الانقياد للدين ويبتغي غيره.

الثالث: قوله:﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾:

والإحسان لا يكون إلا بإتباع الرسول والانقياد لأمره.

الرابع:قوله:﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾:

وملته كانت قائمة على الانقياد والإخلاص والولاء والبراء والكفر بالطاغوت، فمن افتقد أحد هذه الأركان والشروط الملّية الإبراهيمية فقد بطل دينه ولم يكن محسناً ولم تنفعه لا إله إلا الله . ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة: ١٣١.

والحنيف من ترك الشرك وكفر بالطاغوت عن علم و قصد .

٢- قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ هود: ١١٢:﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ فصلت: ٦ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ فصلت: ٣٠ والأحقاف: ١٣﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ الجن: ١٦.

أي انقادوا لله وامتثلوا أمره واستمسكوا بالدين والشريعة والتزموا الطاعة، والاستقامة على الأمر أحد معاني الانقياد .

٣- قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ الزمر: ٥٤ وقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ يونس: ٧٢ وقوله سبحانه :﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ لقمان: ٢٢ .

قال أهل التفسير اسلم ويسلم ومسلم بمعنى انقاد وينقاد ومنقاد، ومن انقاد فقد استمسك بكلمة التوحيد التي هي العروة الوثقى، ودلت الآية الأخيرة على أن من لم يسلم ولم ينقد فليس بمستمسك بكلمة التوحيد، ومن لم يستمسك بها فهو كافر ليس بمسلم ولا مؤمن .

٤- قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ الحجر٩٢.

قال أنس وابن عمر: " ليسألون عن العمل بلا إله إلا الله " أخرجه الطبري.

وقال الألوسي في الروح وغيره من أهل العلم عن الآية :" والمعنى على ما في البحر: يسألون عن الوفاء بلا إله إلا الله والتصديق لقولها بالأعمال".

٥- وقال:﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾الفتح:٢٦.

أخبر تعالى أنه امتن على المؤمنين بلا إله إلا الله والانقياد لها وملازمتها، وجعلهم أهلها والأحق بها من المشركين الذين امتنعوا من قولها والعمل بها .

وقال البعض: وإلزامهم إياها بالحكم والأمر بها والانقياد لها.

٦- قال تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ التوبة: ٢٩ .

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ الأنفال: ٣٩.

وقال تعالى :﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ التوبة: ٥ .

فانظر كيف أمرنا الله ﷻ بقتال تارك الانقياد حتى يحصل منه الالتزام بالدين .

٧- وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٣٦.

٨- وقال:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ .

٩- وقال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ النور: ٥١.

وقوله (إنما) للحصر أي لا يوجد للمؤمنين غير هذه الصفة، وهذه الصفة تقوم على سماع الأوامر وطاعتها وامتثالها، وهذان هما الانقياد. ومن سمع وامتنع عن الطاعة فهذه زندقة. والسماع المحمود هو استماع الإجابة والامتثال وهذه صفة أهل الإيمان.

١٠- وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ النساء: ٥٩.

١١- وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ البقرة ٢٠٨.

١٢- وقال تعالى: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ الحج: ٣٤.

والإسلام والسلم والإخبات هي معاني الانقياد.

١٣- وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣.

١٤- قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ آل عمران: ٣١.

١٥- قال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ الحشر: ٧.

١٦- وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ النور: ٥٤.

١٧- وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ البقرة: ٢٥٦. أي انقاد وعمل بلا إله إلا الله.

١٨- وقال: ﴿ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ النحل ٢. أطيعوا وانقادوا.

١٩- وقال: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الأنعام: ١٠٦.

فجعل الاتباع والانقياد من لوازم التوحيد وشروطه.

٢٠- وقال: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ الأنعام: ١١٤.

٢١- وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ الحجرات ١.

٢٢- وقال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ الحج: ٥٤ فتخبت أي تقبل وتنقاد.

٢٣- وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ الزمر: ١٧.

وهذه الآية دليل على شرط القبول والانقياد معاً فإن الإنابة والاستماع من معاني الانقياد والقبول والإتباع .

٢٤- وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾ طه: ١١٢ . ﴿ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ طه: ٧٥.

٢٥- وقال : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ النساء: ١٠٥ .

٢٦- وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ الزخرف: ٦٩

فتأمل كيف جمع في الآية بين الإيمان والإسلام فلا يصح أحدهما إلا بالآخر، فالانقياد الظاهر والباطن والتصديق الظاهر والباطن والألوهية والربوبية تصدق بعضها بعضا.

٢٧- وقال : ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ النحل: ٥٢.

٢٨- وقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ .

٢٩- وقال : ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ التوبة: ١٢٧.

٣٠- وقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴾ المرسلات: ٤٨.

٣١- وقال سبحانه : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ ﴾ لقمان: ٢٣

٣٢- قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ التغابن: ١٢ .

٣٣- قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ الذاريات:٥٦.

٣٤- وقال: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ .

٣٥- قال تعالى: ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فصلت:٦-٧ .

ومن الأدلة عليه الأدلة الآمرة بالعبادة والطاعة والذل والخضوع التي خلقنا الله من أجلها فهي داخلة في عموم الانقياد .فالأدلة العامة التي تأمرنا بعبادة الله وطاعته وامتثال أمره والاستسلام له وتقواه وعدم التولي عنه.

وهناك أدلة سنذكرها في الانقياد للقرآن والرسول ﷺ .

ومن أدلة وجوب الانقياد : الأدلة الدالة على كفر الإعراض والتولي والامتناع عن الانقياد وسنأتي بها إن شاء الله تعالى في محلها.

ثانيا : الأدلة من السنة على الانقياد:

١- قال ﷺ : (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا ومن يأبى يا رسول الله قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري.

٢- وقال ﷺ :(لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة) رواه البخاري .

فتأمل كيف جعل النبي ﷺ ترك الانقياد للدين مهدرا للدم ناقض للشهادة.

٣- وقال ﷺ : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له أطاع بها قلبه وذل بها لسانه وشهد أن محمداً رسول الله حرمه الله على النار) رواه الطبراني في الأوسط .

٤- عن بشير بن الخصاصة ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه، فاشترط علي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله وأن أقيم الصلاة وأن أوتي الزكاة وأن أحج حجة الإسلام وأن أصوم رمضان وأن أجاهد في سبيل الله. فقلت يا رسول الله أما اثنتين فو الله لا أطيقهما الجهاد والصدقة فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها وقال :" لا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذا؟ " قلت: يا رسول الله أنا أبايعك فبايعته عليهن كلهن " رواه احمد .

والحديث يدل على أن لا إله إلا الله لا تدخل صاحبها الجنة إلا بالانقياد والذي منه العمل بالجهاد والصدقة.

قال ابن رجب: " ففي هذا الحديث أن الجهاد والصدقة شرط في دخول الجنة مع حصول التوحيد والصلاة والصيام والحج " .

٥- قال ﷺ :(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - وفي رواية: ويؤمنوا بي وبما جئت به - ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) رواه الجماعة.

الدلالة من منطوق الحديث ومفهومه على الانقياد، وأن قول لا إله إلا الله لا تنفع إلا بعد المجيء به جاءت من عدة أوجه:

الأول: قوله ﷺ : " فإذا " : والشاهد في إذا والتي هي أحد أدوات الشرط الدالة عليه، مما يدل على أن هناك شروطا لهذه الكلمة العظيمة كلمة التوحيد.

الثاني: قوله ﷺ :"حتى يشهدوا " : والشهادة تستلزم وتقتضي العمل والإلزام والالتزام ، وهي بهذا الاعتبار تقوم على القول والعمل، والأمر لا يطلق عليه أنه

شهادة ولا يسمى بها إلا إذا كان مقترنا بلوازم وشروط، وإلا لم يصح إطلاق الشهادة عليه، ألا ترى أن الله تعالى كذّب المنافقين في ادعائهم الشهادة بالرسالة لمحمد ﷺ مع علمهم أنه رسول حقا، وذلك حين لم يقوموا بشروط الشهادة ولوازمها من الانقياد والمحبة وبقية اللوازم والشروط، فتأمل هديت للحق .

الثالث: قوله ﷺ :" فعلوا " : الفعل هنا هو الانقياد المطلوب القائم على العمل، وهو الذي يتحقق به قبول الإسلام ودخول الجنة وعصمة الدم، إذ في قوله فعلوا: جعل التوحيد قول وعمل وأن الانتفاع بكلمة التوحيد مقترن بشروط عملية لهذه الكلمة، وأن التوحيد ليس مجرد قول وإنما العبرة باجتماع القول والعمل، وأنه مشروط بالفعل ولا يقال أنهم فعلوا ذلك إلا مع إتيانهم بالأركان والشروط التي نص عليها في هذا الحديث وغيره.

الرابع: قوله ﷺ :" ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة " : ووجه الدلالة في أنه رتب الجزاء والذي منه عصمة الدم والمال في الدنيا والنجاة من النار والفوز بالجنة في الآخرة على أمور زائدة على النطق بالتوحيد، وهي أوصاف كثيرة وأفعال مختلفة، هي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهذه الأفعال وغيرها بمجملها هي الإسلام والانقياد .

الخامس: قوله ﷺ :" إلا بحقها " :

هذا اللفظ يدل على أن كلمة التوحيد ليست مجرد قول بل لها حقوق تقوم عليها ولا تصح إلا بها، وهذه الحقوق هي الشروط، لأن الحق والشرط ينعدم الحكم بانعدامه ويتوقف عليه، فمقتضاها وأركانها وشروطها هي حقوقها، وأعظمها الانقياد.

ورواية :" بحق الإسلام " : فيها مزيد دلالة على الانقياد، لأن أعظم حقوق الإسلام هو ما تضمنه معنىً ولفظاً لغة وشرعا وهو الاستسلام والانقياد والطاعة .

السادس: قوله ﷺ :" أمرت أن أقاتل الناس حتى" :

فانظر كيف أُمر الرسول ﷺ بقتال الناس الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمرتدين من المسلمين، حتى يأتوا بشروط لا إلا الله وحقها، وأعظم ما نص الحديث عليه أعمال في جملتها تمثل الانقياد. كما دل على أن الأصل في التعامل مع المخالف الكافر أصلي أو مرتد القتال والتكفير والحرب، وليس السلم وأن كل ذلك واقف على شروط لا إله إلا الله عملاً وتركاً وبالتالي عصمة للدم وهدراً .

السابع: قوله ﷺ :" ويؤمنوا بي وبما جئت به " :وجه الدلالة : ظاهرة في اعتبار الإيمان بكل ما جاء به ﷺ، من الدين، والإيمان قول وعمل ولا تعتبر كلمة التوحيد بدون ذلك. وأيضا مما جاء به الأمر باتباعه وطاعته والانقياد لشرعه وأمره.

٦- قال البخاري : باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسب من الردة .

عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب . قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله) . فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق. متفق عليه.وعند النسائي من حديث أنس : (ارتدت العرب) وعند ابن خزيمة : (ارتد عامة العرب) .

ولما قدم وفد بزاخة إلى أبي بكر يسألونه الصلح ودفع الزكاة إليه . خيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية أو السلم المخزية ، فقالوا الحرب المجلية عرفناها فما المخزية . قال لهم أبو بكرﷺ : (تؤخذ منكم الحلقة والكراع وتتركون أقواما يتبعون أذناب الإبل حتى يُري الله خليفة نبيه والمؤمنين أمراً يعذرونكم به ، وأن نغنم ما أصبنا منكم وتردون علينا ما أصبتم منا ، وحتى تشهدوا أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، وتدون قتلانا ولا ندي قتلاكم) . رواه البخاري مختصرا وغيره مطولا.

فلم يقبل أبو بكر زكاتهم ولم يؤمنهم حتى أقروا أنهم ارتدوا بعد إسلامهم .

ولم يُنقل خلاف أحد من الصحابة فدل على إجماعهم على كفرهم وردتهم.

٧- وقالﷺ :(العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر). رواه احمد والترمذي،فإذا كان تارك الصلاة يعد كافرا فكيف بمن ترك العمل بالدين كله.

٨- وقال ﷺ : (لا تزال لا إله إلا الله تنفع من قالها وترد عنهم العذاب والنقمة ما لم يستخفوا بحقها، قالوا يا رسول الله وما الاستخفاف بحقها؟ قال: أن يظهر العمل بمعاصي الله فلا ينكر ولا يغير) . رواه الحاكم .

٩- قال الرسول ﷺ :(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) رواه ابن أبي عاصم وغيره وفي سنده ضعف .

١٠- (يا ابن آدم خلقت كل شيء من أجلك وخلقتك من أجلي) أي لتعبدني وتطيعني وتنقاد لأمري وتلتزم بديني. قال ابن تيمية إنه من الإسرائيليات .

١١- قول الحبرين للنبي ﷺ لما سألاه عن مسائل وأجابهما: نشهد إنك نبي، فقال ﷺ: (فما منعكما من اتباعي)، قالا نخاف أن تقتلنا اليهود . ولم يدخلهم بذلك في الإسلام لامتناعهم عن الانقياد للدين . رواه أحمد والنسائي والترمذي.

١٢- ومن أدلة ركنية الانقياد وكفر تاركه : شهادة أبي طالب له بأنه صادق وأن دينه من خير أديان البرية ولم تدخله هذه الشهادة في الإسلام،

١٣- شهادة هرقل له بالرسالة وتمنيه أن يغسل التراب عن قدميه ومع ذلك قال فيه ﷺ شح بملكه الخبيث ، ولم يجعل ذلك منه إسلاما لامتناعه عن الانقياد.

(ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام أمر وراء ذلك، وأنه ليس هو المعرفة فقط ولا المعرفة والإقرار فقط بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطنا). زاد المعاد ٣/ ٥٥٨.

١٤- عن البراء بن عازب ﷺ قال : " مر بي عمي الحارث بن عمرو ومعه لواء قد عقده له رسول الله ﷺ قال فسألته قال بعثني الرسول أن أضرب عنق رجل تزوج امرأة أبيه " رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

وهذا الحديث أصل في تكفير وقتل تارك الانقياد والممتنع عن الشريعة .

قال الطبري : (فكان فعله ونكاح امرأة أبيه من أدل الدليل على تكذيبه الرسول ﷺ فيما أتاه به عن الله وجحوده آية محكمة في تنزيله.. لذلك أمر الرسول ﷺ بقتله وضرب عنقه، لأن ذلك كان سنته في المرتد عن الإسلام) تهذيب الآثار٢/ ٤٨.

قال الفراء : "لم يكن كذب برد ظاهر ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيباً ". من تفسير القرطبي للتولي.

قلت تأمل الحديث مع ما قرره ابن جرير وكيف جعل العمل الظاهر من الرجل دليل على التكذيب والجحود والاستحلال والبغض وأن هناك ما يسمى عند العلماء بالتكذيب العملي والجحود العملي والاستحلال العملي والبغض العملي، فالتكذيب قد يظهر في عمل ظاهر .

قال ابن تيمية : (كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر. سواء اعتقد كذبه، أو استكبر عن الإيمان به، أو أعرض عنه اتباعا لما يهواه، أو ارتاب فيما جاء به، فكل مكذب بما جاء فهو كافر) الدرء ١/ ٥٦.

وقال : (إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند ...فإن معاندته له ومحاداته تنافي هذا التصديق ...) الصارم ٥٢١ .

وقال :(من أطلق من الفقهاء أنه لا يكفر إلا من يجحد وجوبها فيكون الجحد عنده متناول للتكذيب بالإيمان ومتناول للإمتناع عن الإقرار والالتزام) ٢٠/ ٩٨ .

قلت: قارن بين فعل الرجل في نكاحه امرأة أبيه وتكفير النبي ﷺ له، وما قاله الطبري فيه ، وبين ما يحصل من مشرعي القوانين الشركية التي جوزت الربا والزنا.

قال الشيخ حمد بن عتيق : (أن البلد إذا ظهر فيها الشرك وأعلنت فيه المحرمات وعطلت فيه معالم الدين أنها تكون بلاد كفر تغنم أموال أهلها وتستباح دماؤهم وقد زاد أهل هذه البلد بإظهار المسبة لله ولدينه ووضعوا قوانين ينفذونها في الرعية مخالفة للكتاب والسنة وقد علمت أن هذه كافية وحدها في إخراج من أتى بها من الإسلام) الدرر السنية ٩/ ٢٥٧ .

ومن أدلة الانقياد وكفر تاركه ما سنأتي به من الأدلة في باب كفر الامتناع وكفر تارك الفرائض ومنها : قول عمر وابن مسعود وغيرهم.

قال ابن مسعود:(ما تارك الزكاة بمسلم) رواه عبدالله في السنة والخلال .

١٥- قال ﷺ :(إنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد) أخرجه اللالكائي. وهو جزء من حديث العرباض عند أبي داود ، والحفاظ ينكرون هذه الزيادة.

١٦- توجيه حديث معاذ (فإن هم أجابوك لذلك) :

لا يدخلون في الإسلام إلا بالالتزام بشرائع الدين التوحيد والصلاة والزكاة، ولو رفضوا شيئا منها لم يكونوا مسلمين .

١٧- توجيه حديث إسقاط النبي ﷺ الزكاة عن ثقيف . وسيأتي.

ثالثا : الإجماع على ركنية الانقياد وعدم قبول الدين والإسلام بدونه :

حيث أجمع الصحابة ومن بعدهم على كون الأعمال التي تمثل الانقياد شرطا لصحة الإيمان وأن تارك العمل بالكلية كافر وليس بمسلم ، وأن الإيمان قول وعمل واعتقاد وأن من فقد أحد هذه الثلاثة فهو كافر غير مسلم ، وسنأتي على كلامهم.

وهل قتال الصحابة لمانعي الزكاة والحكم عليهم بالردة إلا لأجل تركهم الانقياد وامتناعهم عن الالتزام بباب من الشريعة فكيف لو تركوه كله .

رابعا : دلالة العقل والفطرة على الانقياد ووجه اشتراطه لقبول الإسلام:

الانقياد للشريعة وعدم الامتناع عنها أصل الدين فلأجله خلق الله الخلائق أجمعين فأتت طوعا أو كرها، وأنزلت الكتب وشرعت الأديان، وله خلق الثقلان، وبه أرسلت الرسل، وهو حقيقة الإسلام وروح الإيمان ولب الدين كله . فالرسل لم تبعث إلا لتطاع ويعمل وينقاد بالشريعة ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٦٤، فهل خلقنا الله إلا لنعبده ونطيع رسوله؟ وهل الانقياد إلا عبادة الله وطاعة رسله والعمل بشريعته والالتزام بدينه والذل له؟

فإذا انتفت هذه الحكمة فما فائدة إرسال الرسل وإنزال الكتب والأمر بالعبادة والطاعة والمتابعة؟ إن من فقد الانقياد لم يصح أن يسمى مسلما، لأن الإسلام هو الاستسلام والانقياد، وإنما يسمى ممتنعا مستكبرا متوليا معرضا معاندا، وقد حكم الله تعالى بكفر من كانت هذه صفته كما سيأتي عند كلامنا عن كفر الامتناع والتولي والإباء والاستكبار. ثم إن الشهادة قائمة على العمل والالتزام بما شهد به الشاهد وإلا لما صح إطلاق اسم الشاهد عليه ، وهل امتنعت أعداء الرسل من الانقياد وأنِفَت منه إلا لعلمهم أن الدين لا يصح إلا بكل ذلك ؟! وإلا لو كان الدين مجرد كلام ونطق مجردا عن العمل وعاري عن مطابقة العمل للقول لما توقفوا من النطق بالشهادتين ، ومن تأمل طلب الرسول ﷺ لهم بقول كلمة واحدة ووعدهم بالعز والنصر بعدها فأرادوا معرفتها ليسارعوا في قولها، فلما علموا أنها الشهادتين وهم العالمون بمعناها وما تقتضيه وتستلزمه من أعمال كثيرة وأنها ليست مجرد كلمة تقال بلا فعل، امتنعوا وأعرضوا وأبوا؟ ثم أيضا لماذا أمر الرسول ﷺ صحابته بالصبر والجهاد وقبله الهجرة للحبشة لو كان ترك العمل والانقياد ليس بكفر؟ .

فهل بعد كل هذه الحجج حجة، وهل يصح أن يقال بما ذهبت إليه المرجئة من صحة الدين وقبوله بدون عمل ولا انقياد وإذعان .

المبحث الثالث
أقوال أهل العلم في الانقياد وكفر تارك العمل

قال ابن تيمية في الصارم المسلول :" فأما إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند فهذا أشد كفراً ممن قبله " .الصارم المسلول ص ٩٧١.

قال ابن تيمية: " فصار الانقياد من تصديقه في خبره، فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكذبٌ له أو ممتنع عن الانقياد لربه، وكلاهما كفر صريح". الصارم ص ٩٦٩.

قال أبوعبيد بن سلام:"فلو أنهم ممتنعون من الزكاة عند الإقرار وأعطوه ذلك بالألسنة كان ذلك مزيلا لما قبله وناقضا للإقرار ... والمصدق لهذا جهاد أبي بكر بالصحابة على منع العرب الزكاة كجهاد الرسول ﷺ أهل الشرك سواء لافرق بينهما في سفك الدماء وسبي الذرية، فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين بها ". الإيمان ١٧.

قال ابن عقيل في الواضح :" الطاعة والانقياد والاتباع نظائر فهي الاستجابة بسهولة ".

قال ابن رشد في البيان والتحصيل " حتى يقولوا لا إله إلا الله أي حتى يسلموا فيقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويلتزموا سائر قواعد الإسلام " .

قال ابن عبد البر في الكافي :" وإنما يدخل في الإسلام الراغب الطائع غير المكره " .

وفي مواهب الجليل قال محمد بن يوسف المواق الغرناطي :" إنْ نطق الكافر بالشهادتين ووقف على شرائع الإسلام وحدوده ثم التزمها قُبِل إسلامه وإن أبى من التزامها لم يقبل منه إسلامه ".

وقال الخرشي:"لا يتقرر الإسلام إلا بالنطق بالشهادتين مع التزام أحكامها ".

قال الشنقيطي في كوثر المعاني:"الامتثال والانتهاء مدرجين تحت الشهادتين".

قال ابن بطال في شرح البخاري :" ولو أن أهل الأوثان وحّد بعضهم وشهد أن لا إله إلا الله ، وحكم له بحكم الإسلام في منع نفسه وماله ، ثم عرضت عليه شرائع الإسلام بعد ذلك ، فامتنع من الإقرار برسول الله ، كان لا شك بالله كافراً ".

قال الطبري في تفسير ﴿ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ ﴾:" فإنه يعني التذلل لطاعته والإذعان لأمره، وأصل الإسلام الاستسلام لأنه من أسلمت لأمره وهو الخضوع

لأمره، وإنما سمي المسلم مسلماً بخضوع جوارحه لطاعة ربه، وكما قال زيد بن عمرو بن نفيل : وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن، يعني بذلك استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته المزن وانقادت، وخص إسلام الوجه لأن أكرم أعضاء بني آدم وجوارحه وجهه وهو أعظمها عليه حرمة وحقاً، فإذا خضع لشيء وجهه فغيره من أجزاء جسده أحرى أن يكون أخضع له ".

وقال الطبري في تفسيره : (الإسلام هو الانقياد بالتذلل والخشوع والفعل منه أسلم بمعنى دخل في السلم وهو الانقياد بالخضوع وترك الممانعة) ٣/ ٢٧٣ .

وقال الواحدي :" أسلم وجهه انقاد لأمره وبذل له وجهه في السجود ".

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز :" وأسلم معناه استسلم وخضع ودان" .

وقال الرازي عن الإسلام :" إنه لا يكون إلا بالانقياد والخضوع وإذلال النفس في طاعته وتجنب معصيته، ومعنى لله أي خالصاً لا يشوبه شرك ".

وقال الشنقيطي في أضواء البيان عند قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ :" أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدّسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور ثم ينقاد لما حكم به ظاهراً وباطناً ويسلمه تسليماً كلّيا من غير ممانعة ولا مرافعة ولا منازعة، وبين في آية أخرى أن قول المؤمنين محصور في هذا التسليم الكلي والانقياد التام ظاهراً وباطناً لما حكم به ﷺ وهي قوله تعالى ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ".

وقال عند آية ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾: (فمن كان امتناعه الحكم بما أنزل الله لقصد معارضته ورده، والامتناع عن التزامه ، فهو كافر ظالم فاسق وكلها بمعنى المخرج من الملة) .

وقال القاسمي وغيره من أهل التفسير في قوله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾: " لا يجدوا في أنفسهم حرج: الانقياد الباطن. ويسلموا تسليما: الانقياد الظاهر ".

وقال البيضاوي في تفسيره :" وينقادوا لك انقيادا بظاهرهم وباطنهم" .

وقال القرطبي وأبو السعود :" ينقادوا لأمرك ويذعنوا " .

قال الألوسي في روح المعاني:"ينقادوا لأمرك ويذعنوا له بظاهرهم وباطنهم".

وقال الرازي :" ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت " المراد به الانقياد في الباطن وقوله ويسلموا تسليما المراد منه الانقياد في الظاهر ".

وقال حافظ الحكمي :" **ومحال أن ينتفي انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب** " معارج القبول ٢/ ٥٩٤ .

قال ابن تيمية في الصارم :" الإسلام يجمع معنيين :

أحدهما الاستسلام **والانقياد** فلا يكون مستكبرا .

والثاني الإخلاص فلا يكون مشركا " . ٧/ ٦٣٥ . والصارم .

وقال فيه :" **وهذا الانقياد والاستسلام هو نوع من الإرادة والعمل**، ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين التصديق والانقياد، فمن ترك الانقياد كان مستكبرا فصار من الكافرين وإن كان مصدقاً " الصارم ٩٦٧ .

قال ابن القيم في إعلام الموقعين :" فإذا كان رفع الصوت فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم، فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياستهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه، أليس هذا أولى أن يكون محبطاً لأعمالهم ". ١/ ٥١ .

وقال ابن سعدي في تفسيره لقوله (فلاوربك) :" أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى يختفي الحرج ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى يسلموا الحكمه تسليماً بانشراح صدر وطمأنينة نفس **وانقياد بالظاهر والباطن** ، فالتحكيم في مقام الإسلام وانتفاء الحرج في مقام الإيمان والتسليم في مقام الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب وكملها فقد استكمل مراتب الدين كلها، **ومن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر ومن تركه مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين** ".

وهذا الالتزام الذي يذكره أهل العلم يأتي في مقابل كفر الامتناع والتولي والإباء والعناد وهو من قبيل العمل، وهو غير الجحود القلبي كما توهمت المرجئة وسيأتي مزيد بيان للمسألة إن شاء الله .

وقال ابن القيم في عدة الصابرين :" وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنا حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة فيحب الله ورسوله ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه ويستسلم بقلبه لله وحده **وينقاد** لمتابعة رسوله وطاعته **والتزام شريعته ظاهراً وباطناً** ".

وقال ابن كثير عند قوله تعالى ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾: " أي اخلص له العمل **وانقاد** لأمره واتبع شرعه " .

وقال السمعاني في تفسيره :" وقوله ومن يسلم من التسليم ومن **الانقياد** فقد استمسك بالعروة الوثقى لا إله إلا الله " كما فسرها ابن عباس .

ونقل ابن جرير في تفسير ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ كلام الصحابة والتابعين . ومن تلك الأقوال أن الاستقامة على لا إله إلا الله :

هي العمل بها وطاعته وعدم الشرك، وأداء الفرائض **والالتزام والانقياد** .

وقال عمر : استقاموا والله بطاعته ولم يروغوا .

وقال ابن أبي العز:" ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب **إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت**، ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة قال ﷺ : إن في الجسد مضغة " . شرح الطحاوية ص ٤٧٨ .

قال ابن حجر في فتح الباري :" فإن من لازم الإيمان بالله ورسوله التصديق بكل ما ثبت عنهما **والتزام** ذلك فيحصل ذلك لمن صدق بالشهادتين".

وقال البقاعي في نظم الدرر مبينا متى ينفع التوحيد :" وإنما يكون نافعاً إذا كان مع **الإذعان والعمل** بما تقتضيه ".

وقال ابن نصر المروزي :" الإيمان أن تؤمن بالله وتوحّده وتصدق بالقلب واللسان وتخضع له ولأمره بإعطاء العزم على أداء ما أمر مجانباً للاستنكاف والاستكبار والمعاندة ".

وقال ملا على قاري في مرقاة المفاتيح :" المقصود من الرضا **الانقياد** الباطن والظاهر".

وقال القاري فيه :" الصبر على البلاء **انقياد** للقضاء ".

وقال أيضا :" **الانقياد** الباطن المستلزم **للانقياد** الظاهر ".

وفي التيسير شرح الجامع (يغار الله للمسلم) :" أي يغار أن **ينقاد** لسواه" .

وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال :" يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله ". من مدارج السالكين .

وقال ابن حجر في الفتح في باب من **أبى قبول الفرائض** في كتاب استتابه المرتد في شرح حديث أمرت أن أقاتل الناس :" وفيه منع قتل من قال لا إله إلا الله ولم يزد عليها، وهو كذلك ولكن هل يصير بمجرد ذلك مسلماً ؟ الراجح لا ، بل يجب

الكف عن قتله حتى يختبر، فإن شهد بالرسالة والتزم أحكام الإسلام حكم بإسلامه، وإلى ذلك الإشارة بالاستثناء بقوله إلا بحق الإسلام ".

وفي كلامه مسألتان:

الأولى: في الحكم بالإسلام بمجرد النطق بالشهادتين وقبل الالتزام ، والمسألة خلافية وستأتي .

والثانية: في كفر من لم يلتزم بالإسلام بعد اختباره وهذا إجماعاً .

قال ابن تيمية في التسعينية :" لابد أن يقترن بالعلم في الباطن مقتضاه من العمل الذي هو المحبة والتعظيم **والانقياد** ونحو ذلك، كما أنه لابد أن يقترن بالخبر الظاهر مقتضاه من **الاستسلام والانقياد** لأصل الطاعة " . ٢/ ٦٧٣ .

وقال في الإيمان :" فنفى الإيمان عمن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقول " الفتاوى ٧/ ١٤٢.

قال المعلمي في رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله :" الصحابة كانوا يفهمون إتحاد معنى شهادة أن لا إله إلا الله التي يثبت بها الإسلام . ومعنى **التزام** عبادة الله تعالى وعدم الشرك به وهو المطلوب وأيضاً فالاعتراف والتصديق إنما هي بمثابة **الوسيلة للالتزام**، والتسليم والرضا مستلزم للالتزام بل لو قيل أن جانب **الالتزام هو المغلّب في شهادة لا إله إلا الله** لما كان بعيداً ".

وقال ابن القيم في أحكام أهل الذمة :" والكفر وإن اختلفت شعبه فيجمعه خصلتان تكذيب الرسول في خبره وعدم **الانقياد** لأمره ".

وقال في زاد المعاد عن وفد نصارى نجران:" وفيها أن إقرار الكاهن الكتابي لرسول الله ﷺ بأنه نبي لم يدخله في الإسلام ما لم **يلتزم طاعته ومتابعته**، فإذا تمسك بدينه بعد هذا الإقرار لا يكون ردة منه، ونظير هذا قول الحبرين له وقد سألاه عن ثلاث مسائل فلما أجابهما قالا نشهد إنك نبي، قال : فما منعكما من إتباعي، قالا نخاف أن تقتلنا اليهود - والحديث رواه أحمد والنسائي والترمذي - ولم يلزمهما بذلك الإسلام ونظير ذلك شهادة عمه أبي طالب له بأنه صادق وأن دينه من خير أديان البرية ولم تدخله هذه الشهادة في الإسلام، ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام أمر وراء ذلك، وأنه ليس هو

المعرفة فقط ولا المعرفة والإقرار فقط بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطنا" زاد المعاد ٣/ ٥٥٨.

وقال:" ولم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الإسلام، هذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السنة أن الإيمان لا يكفي فيه قول اللسان بمجرده ولا معرفة القلب مع ذلك بل لابد فيه من عمل القلب وهو حب الله ورسوله وانقياده لدينه والتزام طاعته ومتابعة رسوله وهذا بخلاف من زعم : أن الإيمان هو مجرد معرفة القلب وإقراره ". مفتاح دار السعادة ١/ ٩٤ .

وقال ابن تيمية عن الحبرين :" فعلم أن مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد مع تضمن ذلك الإخبار عما في أنفسهم. فالمنافقون قالوا مخبرين كاذبين فكانوا كفاراً في الباطن، وهؤلاء قالوا غير ملتزمين ولا منقادين فكانوا كفاراً في الظاهر والباطن " ٧/ ٥٦١ .

وقال فيه :" لفظ الإقرار يتضمن الالتزام ثم إنه يكون على وجهين الإخبار في مقابل التصديق وإنشاء الالتزام، في مقابل الامتناع عن الطاعة والانقياد كما استعمل الإقرار في نفس معنى التزام الطاعة والانقياد ". الفتاوى ٧/ ٥٣٠ بتصرف.

وقال ابن حجر في الفتح :" إن إقرار الكافر بالنبوة لا يدخله في الإسلام حتى يلتزم أحكام الإسلام " .

ومن هذا إعذار الرسول ﷺ لعمرو بن عَبَسَة السلمي ﷺ حين قال إني متبعك فقال له:" إنك لا تستطيع ذلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني " .

فإن معناه إني متبعك على إظهار الإسلام هنا وإقامتي معك فقال لا تستطيع لضعف المسلمين ولكن قد حصل أجرك فابق على إسلامك .

وقال ابن القيم:" فإن الإيمان ليس مجرد التصديق كما تقدم بيانه، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد " . الصلاة ص ٣٥ .

وقال:"ليس التصديق مجرد اعتقاد صدق المخبر دون الانقياد له" الصلاة ٢٨.

وقال ابن أبي العز:" والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال أنا أعلم أنك صادق ولكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك لكان كفره أعظم... فالإيمان يكون تصديقاً وموافقه وموالاة وانقياداً ". شرح الطحاوية ٤٧٢ .

وقال أيضا :" فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ **والانقياد** لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، فيوحده بالتحكيم والتسليم **والانقياد والإذعان** كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل ". شرح الطحاوية ٢٢٨ .

وقال :" لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين **وينقاد إليهما** ولا يعترض عليها ولا يعارضها، روى البخاري عن الزهري قال من الله الرسالة وعلى رسوله البلاغ وعلينا التسليم ". شرح الطحاوية ٢٣١ .

وقال ابن تيمية في الإيمان :" والكفر هو عدم الإيمان سواء كان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض ". ٧/ ٦٣٩ .

وقال محمد بن عبدالوهاب :" لا خلاف بين الأمة أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب الذي هو العلم واللسان الذي هو القول والعمل الذي هو تنفيذ الأوامر والنواهي، فإن أخل بشيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً، فإن أقر بالتوحيد ولم يعمل فهو كافر معاند " .

قال السعدي في تفسير﴿ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ :كذّب الأخبار **وتولّى عن الانقياد** .

قال ابن تيمية : " وقد اتفق الصحابة والأئمة بعدهم على قتال مانعي الزكاة وإن كانوا يصلون الخمس ويصومون رمضان وهؤلاء لم يكن لهم شبهة سائغة فلهذا كانوا مرتدين وهم يقاتلون على منعها وإن أقروا بالوجوب ". الفتاوى ٢٨/ ٥٤٨ .

قال ابن تيمية كما نقل عنه الشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : (والصحابة لم يقولوا هل أنت مقر بوجوبها أو جاحد لها هذا لم يعهد من الصحابة بحال بل قال الصديق لعمر والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه فجعل المبيح للقتال مجرد المنع لاجحد وجوبها، وقد روي أن طوائف منهم كانوا يقرون بالوجوب لكن بخلوا بها، ومع ذلك فسيرة الخلفاء فيهم سيرة واحدة وهي قتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم والشهادة على قتلاهم بالنار وسموهم جميعا أهل ردة، وكان من أعظم فضائل الصديق عندهم أن ثبته الله على قتالهم، ولم يتوقف كما توقف غيره حتى ناظرهم فرجعوا إلى قوله، أما قتال المقرين بنبوة مسيلمة فهؤلاء لم يقع بينهم نزاع في قتالهم، وهذه حجة من قال إن قاتلوا الإمام عليها كفروا) الدرر السنية ٨/ ١٣١ .

قال أبو عبيد: (فلو أنهم ممتنعون من الزكاة عند الإقرار وأعطوه ذلك بالألسنة وأقاموا الصلاة غيرأنهم ممتنعون من الزكاة كان ذلك مزيلا لما قبله وناقضا

للإقرار. والمصدق لهذا جهاد أبي بكر الصديق رحمة الله عليه بالمهاجرين والأنصار على منع العرب الزكاة كجهاد رسول الله ﷺ أهل الشرك سواء لا فرق بينها في سفك الدماء وسبي الذرية، فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين لها.) الإيمان ١٧ .

يقول الشاطبي : (ومن هنا جعلت الأعمال الظاهرة في الشرع دليلا على ما في الباطن فإن كان الظاهر منخرما حكم على الباطن بذلك وهو أصل عام في الفقه وسائر أحكام العاديات والتجريبيات والأدلة على صحته كثيرة جداً وكفى بذلك عمدة أنه الحاكم بإيمان المؤمن وكفر الكافر) الموافقات١/ ٢٣٣.

فصل
النقولات عن السلف وكلام العلماء في كفر تارك العمل

العمل الظاهر من العبادات والفرائض ومباني الإسلام تعتبر جزءاً من التوحيد والإيمان وركناً فيه يزول بزواله فتارك جنس العمل كافر خارج من الإسلام والإيمان خلافاً للمرجئة.

أما زوال الإيمان فلأن الإيمان مركّب من قول وعمل فإذا زال العمل فقد زال الإيمان، وأما زوال الإسلام فلأنه قائم على الاستسلام بالطاعة والانقياد بالعمل فإذا زال العمل زال الإسلام ولم يبق مع تارك العمل لا إيمان ولا إسلام .

فهذا العمل الذي هو ركن الإيمان هو حقيقة الإسلام كذلك، وهو شرط من شروط التوحيد ولا إله إلا الله وهو الانقياد، والانقياد هو الإذعان العملي بالجوارح، والامتثال الظاهر المترتب على الانقياد والقبول الباطن، وقد بين السلف ما قرره الشارع وجاء موضحاً في الكتاب والسنة وفهم الصحابة أن تارك العمل لا يعتبر مسلماً ولا مؤمناً بل من حكم بإسلام ذلك فهم يكفرونه.

– روي عن علي بن أبي طالب وابن مسعود ﷺ:" **لا ينفع قول إلا بعمل ولا عمل إلا بقول ولا قول وعمل إلا بنية ولا نية إلا بموافقة سنة** ". أخرجه ابن بطه .

– قال الحميدي: " وأخبرت أن قوماً يقولون إن من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج **ولم يفعل من ذلك شيئاً** حتى يموت أو يصلي مسندا ظهره مستدبرا القبلة حتى يموت، هو مؤمن ما لم يكن جاحداً إذا كان يقر بالفروض، فقلت هذا

الكفر بالله الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفعل المسلمين قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾". نقله عنه الخلال في سننه .

– قال الإمام أحمد: " من قال هذا – الكلام السابق الذي ذكر للحميدي – فقد كفر بالله ورد على الله أمره وعلى الرسول ما جاء به ". أخرجه الخلال في السنة .

فإذا كان بعض السلف كفّروا من لم يكفر تارك العمل، وكفروا من يقول إن تارك العمل مسلم ولا يكفر بذلك إذا كان مقرا بها، فكيف لا يكفّرون من تقوم به هذه الصفة وهي ترك العمل فتأمل.

– وقال الإمام سفيان بن عيينة :" والمرجئة أوجبوا الجنة لمن شهد أن لا إله إلا الله مصراً بقلبه على ترك الفرائض، وسموا ترك الفرائض ذنباً بمنزلة ركوب المحارم ، وليس بسواء لأن ركوب المحارم من غير استحلال معصيته وترك الفرائض متعمداً من غير جهل ولا عذر كفرا، وبيان ذلك في أمر آدم وإبليس وعلماء اليهود ... وتركهم على معرفة من غير جحود فهو كفر " أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة.

ومثّل تارك الواجب بفعل إبليس واليهود، وأن كفر تارك العمل ولو مع إقراره بوجوبه ومعرفته وعدم جحوده أمر مجمع عليه بين أهل السنة، ولم يخالف فيه إلا المرجئة، فتأمل كلام مرجئة عصرنا ممن زعم أن تكفير تارك العمل محل خلاف بين أهل السنة لا يبدع المخالف فيه وليس خلافا بين مرجئ مبتدع وسني متبع .

– قال ابن رجب :" روي عن عطاء ونافع مولى ابن عمر أنهما سُئلا عمن قال الصلاة فريضة ولا أصلي؟ فقالا هو كافر، وكذا قال الإمام أحمد " . فتح الباري ١/ ٢١. وأخرج أثر عطاء عبد الله بن الإمام أحمد في السنة والخلال واللالكائي .

– وقال الإمام أحمد: (من قال الزكاة من الله ولا أؤديها، والزكاة علي ولا أزكي، والصوم فرض ولا أصوم : يستتاب فإن تاب وإلا قتل) . أحكام الملل:٤٨٨.

– بل جعل إسحاق بن راهويه هذا قول غلاة المرجئة فقال: " غلت المرجئة حتى صار من قولهم إن قوماً يقولون من ترك الصلوات المكتوبات وصوم رمضان والزكاة والحج وعامة الفرائض من غير جحود لها أنا لا نكفّره يرجأ أمره إلى الله بعد، إذ هو مقر فهؤلاء الذين لا شك فيهم" يعني المرجئة نقله عنه ابن رجب في الفتح.

– ونقل عن المدني:" إن من قال ذلك يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه ".

وبمثل هذا قال التستري ووكيع ابن الجراح والترمذي والآجرى وابن بطه ومكحول وغيرهم من أئمة السلف .

– وقال الأوزاعي " لا يستقيم الإيمان إلا بالقول ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل " .

– قال الشافعي :" وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاث إلا بالآخر" رواه اللالكائي ونقله ابن تيمية عنه في الإيمان.

– وقال ابن عيينه :" لا يكون قولا إلا بعمل " .

وبمثل ذلك قال الحسن البصري وسفيان الثوري والزهري والمروزي .

– قال أبو ثور:" من قال أقر ولا أعمل لم نطلق عليه اسم الإيمان " . نقله ابن تيمية عنه في الإيمان.

– قال الإمام التستري :" الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر ". رواه ابن بطه وذكره ابن تيمية في الإيمان .

– وقال المروزي في تعظيم قدر الصلاة :" والإيمان أصله التصديق والإقرار ينتظر به حقائق الأداء لما أقر والتحقيق لما صدق، ومثل ذلك كمثل رجلين عليهما حق لرجل:

فسأل أحدهما حقه فقال ليس لك عندي حق فأنكر وجحد .

وسأل الآخر حقه فقال نعم لك علي كذا، فليس إقراره بالذي يصل إليه بذلك حقه دون أن يوفيه وهو منتظر أن يحقق ما قال ويصدق إقراره بالوفاء. ولو اقر ثم لم يؤد حقه كان كمن جحده في المعنى، إذا استويا في الترك للأداء".

– وقال الإمام الملطي في التنبيه والرد على المرجئة :" باب ذكر المرجئة . منهم من يقول: من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وحرم ما حرم الله وأحل ما أحل الله دخل الجنة إذا مات وإن زنى أو سرق وقتل وترك الصلاة والزكاة والصيام إذا كان مقراً بها يسوف بالتوبة لم يضره وقوعه في الكبائر وترك الفرائض وإن فعل ذلك استحلالاً كان كافراً بالله مشركاً ".

فتأمل كيف جعل عدم التكفير بترك العمل والانقياد من أصول مذهب المرجئة.

– وقال الآجري في الشريعة :" فالأعمال بالجوارح تصديقاً للإيمان بالقلب واللسان، فمن لم يصدق الإيمان بجوارحه مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصيام

والحج والجهاد وأشباه هذه ورضي من نفسه بالمعرفة والقول لم يكن مؤمناً ولم تنفعه المعرفة والقول وكان تركه العمل تكذيباً منه لإيمانه وكان العمل بما ذكرنا تصديقاً منه لإيمانه ".

ثم ذكر أن ضد ذلك هو مذهب المرجئة الذين تلاعب بهم الشيطان وحذر من مقولتهم التي هي الإرجاء الخبيث فقال :"من قال غير هذا فهو مرجئ خبيث ".

– وقال ابن بطة في الإبانة :" الإيمان قول وعمل، وأن من صدق بالقول وترك العمل كان مكذباً وخارجاً من الإيمان، وأن الله لا يقبل قولا إلا بعمل ولا عملا إلا بقول ".

– وقال :" وكل من تكلم بالإيمان وأظهر الإقرار بالتوحيد وأقر أنه مؤمن بجميع الفرائض غير أنه لا يضره تركها ولا يكون خارجاً من إيمانه إذا هو ترك العمل بها في وقتها... ومن أقر بذلك وقال بلسانه ثم تركه تهاوناً ومجونا أو معتقداً لرأي المرجئة ومتبعاً لمذهبهم فهو تارك الإيمان ليس في قلبه منه قليل ولا كثير وهو في جملة المنافقين ".

– وقال أيضاً فيه :" فمن زعم أنه يقر بالفرائض ولا يؤديها ويعملها، وبتحريم الفواحش والمنكرات ولا ينزجر عنها ولا يتركها، وأنه مع ذلك مؤمن، فقد كذب بالكتاب وبما جاء به رسوله ومثله كمثل المنافقين الذين قالوا : ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ فأكذبهم الله ورد عليهم قولهم وسماهم منافقين، على أن المنافقين أحسن حالاً من المرجئة لأن المنافقين جحدوا العمل وعملوه، والمرجئة أقروا بالعمل بقولهم وجحدوه بترك العمل به. فمن جحد شيئاً وأقر به بلسانه وعمله ببدنه أحسن حالاً ممن أقر بلسانه وأبى أن يعمله ببدنه فالمرجئة جاحدون لما هم به مقرون ومكذبون لما هم به مصدقون فهم أسوأ حالاً من المنافقين ".

فانظر كيف جعل رحمه الله كفر الإعراض والامتناع والإباء أشد من كفر النفاق والجحود والتكذيب وأعظم جرماً .

– قال أبو طالب المكي في قوت القلوب ونقله عنه ابن تيمية في الإيمان: " فمثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى في المعنى والحكم فشهادة الرسول غير شهادة التوحيد فهما شيئان في الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى ، فهما كشيء واحد لا إيمان لمن لا إسلام له ولا إسلام لمن لا إيمان له إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصحح إسلامه ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه من

حيث اشتراط الله سبحانه وتعالى للأعمال الصالحة الإيمان واشترط للإيمان الأعمال الصالحة فقال في تحقيق ذلك ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾ . وقال في تحقيق الإيمان بالعمل ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ ومن كان ظاهره أعمال الإسلام لا يرجع إلى الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقاً ينقل عن الملة ومن كان عقده الإيمان بالغيب لا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفرا لا يثبت معه توحيد".

وقال أيضاً :" وقد اشترط الله تعالى للإيمان العمل الصالح ونفى النفع بالإيمان إلا بوجود العمل، كما شرط للإيمان الإسلام فكما لو عمل عبد بالصالحات كلها لم تنفعه إلا بالإيمان كذلك لو آمن لم ينفعه إلا بالأعمال " .

وقد ذكر الإجماع على هذا الأصل جمع من السلف وأن العمل ركن لا يقبل الإسلام ولا الإيمان والتوحيد إلا به، وأن ترك جنس العمل كفر، وقد اختلفت عباراتهم وكلها تدور على أصل واحد، فمن أقوالهم غير ما سبق : لا يصلح قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول إلا بعمل ، ولا ينفع الإيمان إلا بعمل، ولا يُجزئ الإيمان إلا بالعمل ، ولا يقبل الإيمان إلا بالعمل ، ولا إيمان إلا بعمل، وغيرها .

ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام وابن بطه والآجري واللالكائي وابن منده وغيرهم هذه الإجماعات عن أكثر من مائة وثلاثين إماماً من مختلف أقطار بلاد المسلمين في الحجاز واليمن والشام والعراق وخراسان والمشرق ومصر .

منهم : عطاء ومجاهد وعمرو بن دينار ونافع والزهري وربيعة ومالك وطاووس وعبدالرزاق ووهب بن منبه ومكحول والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وميمون بن مهران والأسود النخعي وسعيد بن جبير وربيع بن خثيم وعامر الشعبي وإبراهيم النخعي والأعمش وسفيان الثوري وسفيان بن عيينه والفضيل بن عياض وشريك وابن أبي ليلى ووكيع بن الجراح ومحمد بن سيرين وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وأبو عوانه ويحيى القطان والضحاك وابن المبارك والبخاري وغيرهم كثير جداً .

وأما كلام شيخ الإسلام والإمام ابن القيم وغيرهم من أئمة أهل السنة فأكثر من أن يحصر فمنه :

- قال ابن تيمية في الإيمان :" لو أن قوماً قالوا للنبي ﷺ نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك ونقر بالشهادتين إلا أنا لا نطيعك في شيء مما أمرت به ونهيت

عنه فلا نصلي ولا نصوم ولا نحج ولا نصدق الحديث ولا نؤدي الأمانة ولا نفي بالعهد ولا نصل الرحم ولا نفعل شيئا من الخير الذي أمرت به ونشرب الخمر وننكح ذوات المحارم بالزنا الظاهر ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وأمتك ونأخذ أموالهم بل نقتلك أيضاً ونقاتلك مع أعدائك، هل كان النبي ﷺ يقول لهم أنتم مؤمنون كاملو الإيمان وأنتم من أهل شفاعتي يوم القيامة ويرجى لكم أن لا يدخل أحد منكم النار، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم : أنتم أكفر الناس بما جئت به ويضرب رقابهم إذا لم يتوبوا من ذلك ". الفتاوى ٧/ ٢٨٧ .

وتكلم ابن تيمية عن **خطأ الفقهاء** وبعض فروعهم الفاسدة المأخوذة من المرجئة والتي لم تعرف عن السلف ولا اختلفوا فيها بل قولهم واحد، وهؤلاء جعلوا خلاف المرجئة خلاف فقهاء . الفتاوى ٢٢/ ٤٧ . ونحوه ٧/ ٢١٩ .

– وقال في الإيمان الأوسط :" فمن عرف ارتباط الظاهر بالباطن زالت عنه الشبهة في هذا الباب ، وعلم أن من قال من الفقهاء إنه إذا أقر بالوجوب وامتنع عن الفعل لا يقتل أو يقتل مع إسلامه ، فإنه دخلت عليه الشبهة التي دخلت على المرجئة والجهمية والتي دخلت على من جعل الإرادة الجازمة مع القدرة التامة لا يكون بها شيء من الفعل، ولهذا كان المتنعون من قتل هذا من الفقهاء بنوه على قولهم في مسألة الإيمان وأن الأعمال ليست من الإيمان وقد تقدم أن **جنس الأعمال** من لوازم إيمان القلب وأن إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع سواء جعل الظاهر من لوازم الإيمان أو جزء من الإيمان كما تقدم بيانه ".٧/ ٦١٦ ، ومثله٢٢٩.

– وقال أيضا في الإيمان :" **لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح** ".

– وقال :" فالسلف يقولون ترك الواجب دليل على انتفاء الإيمان الواجب من القلب، لكن قد يكون ذلك بزوال عمل القلب الذي هو حب الله ورسوله وخشية الله، ونحو ذلك لا يستلزم ألا يكون في القلب من التصديق شيء، وعند هؤلاء – الأشاعرة المرجئة – كل من نفى الشرع إيمانه دل على أنه ليس في قلبه شيء من التصديق أصلاً ". الفتاوى ٧/ ١٤٨ .

– وقال ابن القيم في الصلاة ٢٨ :" من أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية ".

– وقال فيه ص ٢٩ :" فالتصديق إنما يتم بأمرين: أحدهما اعتقاد الصدق والثاني محبة القلب وانقياده، ولهذا قال لإبراهيم (قد صدّقت الرؤيا) وإبراهيم كان معتقدا لصدق رؤياه من حين رآها وإنما جعله مصدقاً لها بعد أن فعل ما أمر به، وكذلك قوله والفرج يصدق ذلك أو يكذبه فجعل التصديق عمل الفرج ما يتمنى القلب والتكذيب تركه لذلك وهذا صريح في أن التصديق لا يصح إلا بالعمل ".

– وقال فيه :" وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب **فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح**، ولاسيما إذا كان ملزوما لعدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح إذ لو أطاع القلب وانقاد **لأطاعت الجوارح وانقادت**، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان فإن الإيمان ليس مجرد التصديق وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد .. ". الصلاة ص ٣٥.

– قال ابن تيمية في الإيمان الأوسط عن المرجئة " **أخطؤوا أيضاً لامتناع قيام الإيمان بالقلب من غير حركة بدن** " . الفتاوى ٧/ ٥٥٦ .

– وقال:" فيمتنع أن يكون الرجل **لا يفعل شيئاً مما أمر به** من الصلاة والزكاة والصيام والحج ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات مثل الصلاة بلا وضوء وإلى غير القبلة ونكاح الأمهات وهو مع ذلك مؤمن في الباطن بل لا يفعل ذلك **إلا لعدم الإيمان الذي في قلبه** ". الفتاوى ٧/ ٢١٨ .

– وقال :" ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمناً إيماناً ثابتاً في قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ولا يصوم رمضان ولا يؤدي لله زكاة ولا يحج إلى بيته فهذا ممتنع ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة لا مع إيمان صحيح ". الفتاوى ٧/ ٦١١ .

– وقال :" وإن الإيمان الباطن يستلزم الإقرار الظاهر بل وغيره، وأن وجود الإيمان الباطن تصديقاً وحباً وانقياداً بدون الإقرار الظاهر ممتنع ".

– وقال :" فدل بذلك على أنه لا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر، ولا إسلام ظاهر علانية إلا بإيمان سر وأن الإيمان والعمل قرينان لا ينفع أحدهما بدون صاحبه ". الفتاوى ٧/ ٣٣٥ .

– وقال :" الأمة مجتمعة أن العبد لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب من حديث جبريل من وصف الإيمان ولم يعمل بما ذكره من وصف الإسلام أنه لا

يسمى مؤمناً، وأنه إن عمل بجميع ما وصف به الإسلام ثم لم يعتقد ما وصفه من الإيمان أنه لا يكون مسلما ".

وقال: " إن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب وإن إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع سواء جعل الظاهر من لوازم الإيمان أو جزء من الإيمان " . المجموع الفتاوى ٧/ ٦١٦ .

- وقال في شرح العمدة كتاب الصلاة : " **فإذا خلا العبد عن العمل بالكلية لم يكن مؤمناً** " . ص: ٨٦.

- وقال في الإيمان : " إن هذه الأعمال لازمة لإيمان القلب فإذا انتفت لم يبق في القلب إيمان ".

- وقال فيه : " وقد تبين أن الدين قول وعمل وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله بقلبه ولسانه ولم يؤد واجبا ظاهراً، فلا يكون الرجل مؤمنا مع عدم شيء من الواجبات .. ومن قال بحصول الإيمان الواجب بدون فعل تلك الواجبات فهذه بدعة الإرجاء التي اعظم السلف الكلام في أهلها " . ٧/ ٦٢١ .

وقال : " فمن قال : إنه يصدق الرسول ويحبه ويعظمه بقلبه ولم يتكلم قط بالإسلام ولا فعل شيئاً من واجباته بلا خوف فهذا لا يكون مؤمناً في الباطن وإنما هو كافر، وزعم جهم ومن وافقه أنه يكون مؤمناً في الباطن وأن مجرد معرفة القلب وتصديقه يكون إيماناً يوجب الثواب يوم القيامة بلا قول ولا عمل ظاهر وهذا باطل شرعاً وعقلاً وقد كفّر السلف كوكيع وأحمد من يقول بهذا القول " . الفتاوى ١٤/ ١٢٠ .

- قال محمد بن عبدالوهاب : " دين الله يكون بالقلب بالاعتقاد وبالحب وبالبغض ويكون على اللسان بالنطق وترك النطق بالكفر ويكون على الجوارح بفعل أركان الإسلام وترك الأفعال التي تكفّر فإذا أختل واحد من الثلاث كفر وارتد ". الدرر ١٠/ ٨٧ .

- وقال الشوكاني في إرشاد السائل " من كان تاركاً لأركان الإسلام وجميع فرائضه ورافضا لما يجب عليه من ذلك من الأقوال والأفعال ولم يكن لديه إلا مجرد التكلم بالشهادتين، فلا شك ولا ريب أن هذا كافر شديد الكفر حلال الدم والمال".

المبحث الرابع
حقيقة الانقياد وأركانه وأنواعه وحكمه ومكانته ومنزلته

المسألة الأولى : متعلقات الانقياد ومن يجب أن يكون له:

١/ الانقياد لله ﷻ ولعظمته ولتوحيده﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ الحج: ٣٤.

٢/ الانقياد لـ(لا إله إلا الله) . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

٣/ الانقياد للدين والشريعة والأوامر .﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ النساء: ١٤٦ .

٤/ الانقياد للرسول ﷺ. ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ الحشر: ٧.

٥/ الانقياد للقرآن . ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الأعراف: ٣.

والانقياد لهذه الأمور مؤداه وحاصله انقياد للرب ﷻ ، فالانقياد لرسوله ﷺ هو في الحقيقة انقياد لمن أرسله وبعثه، كما أن الانقياد للشريعة هو انقياد لمن شرّعها وسنها وأمر بها وهو الله، والانقياد للقرآن هو انقياد لمن أنزله .

وما سوى ذلك فلا يجوز الانقياد له.

المسألة الثانية : أركانه :

١- فعل الانقياد .

٢- المنقاد : وهو فاعل الانقياد وهو العبد .

٣- المنقاد له : وهو الرب وشريعته ودينه وكتابه ورسوله .

٤- المنقاد به : وهو شريعة الله ودينه وأمره وشرعه.

المسألة الثالثة : صفات من يستحق الانقياد له :

لابد أن يكون المنقاد له كاملا في ذاته وصفاته عظيما في جلاله وجماله، ولا يوجد ذلك في غير الرب ﷻ ، فهو العالم وحده بما يصلح لخلقه وما يحتاجونه القادر على نفعهم الرحيم بهم القيوم على مصالحهم الغني عنهم، وكل من سواه مفتقر إليه .

المسألة الرابعة : أقسام الانقياد :

١- الانقياد القدري الكوني الربوبي المتعلق بالربوبية :

وذلك أن كل الخلق خاضعون لله منقادون لعظمته مقهورون لربوبيته، وهذا هو الإسلام القدري والعبودية القدرية الربوبية .

ودليله: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فصلت ١١.

٢- الانقياد الشرعي الأمري الديني الألوهي التعبدي : وهذا المتعلق بالثواب والعقاب وهذا الذي يختص به المؤمنون الذين أطاعوا الله وانقادوا حين أمروا : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة: ١٣١.

المسألة الخامسة: مقاصد الانقياد. ولماذا أمر الله به وألزمنا به ؟

أولاً : تحقيق العبودية والذل والخضوع لله وحده التي خلقنا لها، وذلك أن الانقياد من العبادة التي أمرنا الله ﷻ بها قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات:٥٦. أي يوحدوني وينقادوا لي ويطيعونني .

ثانيا : الحكم بالشريعة وهو من أعظم مقاصد العبودية والانقياد بها، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ الزمر:٢.
وقال : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ يوسف٤٠.

بل جعل الله الانقياد بغير ما شرع الله مخالفاً للعبادة وعبادة لغير الله عز وجل قال تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ الزمر: ٦٤.

ثانياً : إقامة الدين في الأرض يقول تعالى دليلاً على ذلك ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ الصف: ٩.

ثالثاً : فيه صلاح الدنيا والآخرة وإقامة الضروريات الخمس والحاجيات والتحسينيات للعباد وما يصلح لهم، ففيه رحمة بالناس لأنه جاء من العالم بما يصلح لنا وما نحتاج إليه . وترك الانقياد من أعظم الإفساد ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة: ١١ وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٢٧.

رابعاً : الاستخلاف في الأرض والتمكين والأمن والاستقرار والنصر والفتح لهم والعز والشرف والبركة .

خامساً : أن فيه إظهار المنافقين وإخراج من في قلوبهم مرض وتمييز الخبيث من الطيب قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦١، وقد جعل الله الحكم لإظهار الذين في قلوبهم مرض وتمحيصاً للمؤمنين ورفعة لهم بوجود المنافقين وجهادهم .

المسألة السادسة : مكانة الانقياد ومنزلته وحكمه :

أن الانقياد قامت عليه السماوات والأرض ، ولأجله خلق الله الخلق، ولا يكون العبد مسلماً إلا بالإتيان به، وكل مخالفة من الخلق من الشرك والكفر وسائر المعاصي سببها ضعف الانقياد أو ذهابه.

المسألة السابعة : ترابط الانقياد والإسلام والعبادة والطاعة :

عند النظر في الغاية التي خلق لأجلها الخلق نجدها تدور في فلك العبودية القائمة على الذل والخضوع .

فالصلاة شرعت من أجل الخضوع لله وروحها في الخشوع والطمأنينة .

والخشوع والطمأنينة هي الأخرى معناها الذل والإخبات والخضوع .

والتوبة والإنابة والإوابة ترجع لمعنى الرجوع لله والخضوع له والذل له والإقبال إليه والانكسار بين يديه .

والتواضع والزهد متضمنان لحقيقة الذل لله والخضوع له .

والصلاة والصوم والحج والزكاة شرعت لتحقيق التقوى القائمة على الخوف من الله والذل له وتعظيمه والتقرب إليه ومحبته .

والخوف والرجاء والمحبة والتوكل مدارها على التذلل لله والخضوع له .

والدين من التدين وهوالالتزام، من دان بكذا إذا التزم به وانقاد وأطاع.

والألوهية هي العبودية القائمة على الذل والخضوع والانقياد .

والطاعة معناها الإذعان والانقياد للأمر وامتثاله .

والإسلام معناه الاستسلام والانقياد .

فالأمر كله حلقة متصلة متكاملة قائمة على شيء واحد هو الانقياد، فرحى الدين وأساسه مداره على الانقياد الذي مؤداه الخضوع والذل لله وحده وتعظيمه .

وهذه الحقيقة تمثل حقيقة المخلوق وحقيقة علاقته بخالقه .

المخلوق يتصف بالذل والعبودية والطاعة والانقياد وبما خلق له من الخضوع.

والخالق المتصف بما يليق به من العظمة والكبر والعزة والكمال والربوبية .

المسألة الثامنة : تعظيم الرب والتذلل له من أعظم حقائق الانقياد :

التعظيم لله ولشرعه وتوقير رسوله ﷺ من مستلزمات الانقياد وأبرز مضموناته وهو من توحيد الله .

قال تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ نوح: ١٣ .

قال ابن عباس: عظمة وقال مالكم لا تعظمون الله حق عظمته .

وقال قتادة: عاقبة . وقال ابن زيد: الوقار الطاعة .

وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الزمر: ٦٧

وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ الأنعام٩١.

وقال : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ الحج: ٣٠.

وقال: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢.

والحرمات تشمل الحرم والحج والأمر والنهي وترك المناهي وكل ما يغضبه.

فيجب توحيد الله بتعظيمه وحده سبحانه وتوقير أمره وشرعه ورسوله وعدم منازعته في عظمته وكبره.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين:" التعظيم أثر من آثار المحبة، وهي وجود تعظيم في القلب يمنع الانقياد لغير محبوبه، فإن المحبة إذا كانت صادقة أوجبت للمحب تعظيماً لمحبوبه يمنعه من انقياده إلى غيره، وليس مجرد التعظيم هو المانع له بل التعظيم المقارن للحب هو الذي يمنع" .

المسألة التاسعة : علاقة الانقياد بشروط وأركان (لا إله إلا الله) :

أولاً : علاقة الانقياد بشروط (لا إله إلا الله) :

الانقياد أحد شروط كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ، فلهذه الكلمة سبعة شروط هي : العلم اليقين الصدق الإخلاص المحبة القبول والانقياد .

ثانياً : دخول أركان (لا إله إلا الله) في الانقياد والعكس كذلك :

الانقياد داخل في أركان (لا إله إلا الله) نفي الألوهية والعبادة عن كل ماسوى الله وإثبات الألوهية والعبادة لله وحده وهو بمعنى الانقياد .

المسألة العاشرة : مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله قائم على الانقياد :

مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله الذي هو قولها باللسان والعمل بمقتضاها والالتزام بها دلت عليه من عبادة الله وحده وطاعته والإذعان لأمره، والكفر بعبادة كل ما سواه وترك كل العبادات المبتدعة وعدم صرف شيء من العبادات لغير الله والبراءة من المشركين والكفار ومعبوداتهم وكفرهم، هو بعينه الانقياد لشرعه والتسليم لرسوله والالتزام بدينه.

قال محمد بن عبد الوهاب : " يا أخواني تمسكوا بأصل دينكم وأسه ورأسه شهادة أن لا إله إلا الله واعرفوا معناها وأحبوها وأحبوا أهلها واجعلوهم إخوانكم واكفروا بالطواغيت وعادوهم وابغضوا من أحبهم " الدرر ٢/ ١١٩.

تنبيه : لا تنفع لا إله إلا الله إلا العالم بمعناها العامل بمقتضاها :

قال سليمان في التيسير: (النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع . فتباً لمن كان أبو جهل وغيره أعلم منه بلا إله إلاَّ الله) .

المسألة الحادية عشرة : كلمة التوحيد قول واعتقاد وعمل :

لما كانت لا إله إلا الله من التوحيد والتوحيد من الإيمان، والإيمان قول وعمل، كانت لا إله إلا الله تقوم على ثلاثة أركان .

الأول : قولها باللسان والنطق بها ، وهذا الذي يدخل به المرء في الإسلام ويعصم به الدم والمال للحديث :(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله). ولا يعذر أحد عن التكلم بها إلا الأخرس، والأعجمي يلقّن بها ويفهّم معناها .

الثاني : اعتقاد معناها بالقلب بتصديقها ومحبتها وقبولها واليقين بها .

ومن اختل فيه هذا الشرط فهو المنافق الذي يقولها بلسانه ويكفر بها بقلبه، بأي نوع من أنواع الكفر المتعلق بالقلب من التكذيب أو الشك أو البغض ونحوه .

الثالث : العمل بها والالتزام بمقتضاها وأركانها وعدم ارتكاب فعل يخل بها أو ينقضها بل عليه أن ينقاد لها ويخلص فيها .

هذا وقد استشكلت المرجئة كونها قول وعمل مستدلة بحديث : " من قال لا إله إلا الله دخل الجنة" رواه الطبراني بسند ضعيف وسيأتي جوابنا عليهم.

المسألة الثانية عشرة : نفي الإيمان بالكلية عمن لم ينقد :

ويدل لهذا الأصل أدلة عظيمة منها قوله تعالى ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وآيات أخرى ذكرناها في المسألة السابقة .

المسألة الثالثة عشرة : ما أرسلت الرسل إلا بالانقياد ولأجل تحقيقه :

والدليل على هذا الأصل :

قوله:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ النساء:٦٤.

وقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الحشر: ٧.

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ النور: ٥٤.

وقال ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٣٦.

قال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ النور: ٥١. وقال سبحانه ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ النور: ٤٧.

وقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء ٥٩.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران: ٣١.

ومما يستفاد من الآيات نفي الإيمان عمن لم يعمل ويطع وينقد وفاقد الانقياد كافر وليس بمسلم ولا مؤمن.

المسألة الرابعة عشرة : واجبنا تجاه الانقياد لله ﷻ:

١- توحيد الله فيه .

٢- الإيمان به وتصديقه .

٣- قبوله ومحبته.

٤-الرضا بحكم الله ﷻ .

٥- العمل به والانقياد والالتزام والإذعان والتسليم فيه .

المسألة الخامسة عشرة: قيام الدين والإسلام على أمرين :

١- التصديق والقبول . ٢- الانقياد .

والتصديق متعلق بالخبر والانقياد متعلق بالأمر وتقدم كلام ابن تيمية .

والكفر يكون بتخلف أحد هذين الوصفين .

قال ابن القيم في أحكام أهل الذمة :" والكفر وإن اختلفت شعبه فيجمعه خصلتان تكذيب الرسول في خبره وعدم الانقياد لأمره ".

المسألة السادسة عشرة : تعلق الانقياد بالأمر والطاعة :

قال ابن تيمية في الصارم :" وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام ".

المسألة السابعة عشرة: بم يحصل الانقياد وكيفية تحقيقه :

يتم الانقياد بالامتثال بفعل الأوامر والفرائض، والالتزام بالشريعة والإذعان لحكمها وتعظيم الدين وطاعة الرسول ﷺ، مع الرضا والتسليم بذلك كله، وترك ما حرم الله من النواهي وعلى رأسها نواقض الإسلام التي يكفر فاعلها .

المسألة الثامنة عشرة : ضابط فاقد الانقياد :

الضابط في الانقياد : هو من جاء صاحبه بالعمل وفعل الأوامر.

وضابط فاقد الانقياد: يكون بترك جنس العمل أو بالامتناع عن شيء من الدين إباءً وإعراضاً.

قال شيخ الإسلام :" إن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب وإن إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع سواء جعل الظاهر من لوازم الإيمان أو جزءاً من الإيمان " . الفتاوى ٧/ ٦١٦ .

المسألة التاسعة عشرة: دخول العمل في الانقياد :

جميع الأعمال التعبدية التي شرعها الله ورسوله وأمر بها سواءً العبادات القلبية أو العبادات العملية داخلة كلها في الانقياد، فالخوف من علامات الانقياد والصبر والتوكل والرجاء من علامات الانقياد وأعماله، وكذا الركوع والسجود والقيام لله والصلاة والصوم والحج والزكاة من علامات الانقياد، وجميعها من أفعاله وأفراده .

قال ابن القيم في عدة الصابرين :" وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهراً وباطناً ".

وقال الألوسي والواحدي والقرطبي وغيرهم من أهل التفسير:" وينقادوا لأمرك ويذعنوا له بظاهرهم وباطنهم " .

قال ابن تيمية في الصارم :" وهذا الانقياد والاستسلام هو نوع من الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين التصديق والانقياد، فمن ترك الانقياد كان مستكبرا فصار من الكافرين وإن كان مصدقاً " .

المسألة العشرون : علاقة الانقياد بالرضا والمحبة :

الرضا والمحبة من لوازم الانقياد، ومن معاني الانقياد الرضا، فالذي لم يرض بالدين والشريعة لا يعتبر منقادا، ولو عمل وأظهر الانقياد والتوحيد فيصير من أهل النفاق وليس من أهل الانقياد والاستسلام الحقيقي، فالانقياد يدخل فيه الرضا.

والعكس صحيح فمحبة الشيء والرضا به يستلزم الانقياد له وإلا كان رضاه به دعوى كاذبة، لأن الرضا صفة تضم المحبة للشيء وقبوله والانقياد له، وما دام أن الانقياد لم يوجد فالرضا غير صحيح وليس بموجود في الحقيقة.

وفي الحديث :" ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام دينا " ومعلوم أن رضا المؤمن بهذه الأركان لا يصح ولا يتم إلا بالعمل والانقياد، فالرضا بالله متوقف على توحيده وعبادته، والرضا بالرسول ﷺ متوقف على متابعته وطاعته ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران: ٣١ ، والرضا بالدين متوقف على العمل به وامتثاله والتزامه . فإذا انعدم الانقياد وحل محله العصيان والامتناع والشرك كان الرضا والمحبة دعوى كاذبة .

تنبيه : تلازم الباطن والظاهر خلافاً للمرجئة:

التلاعب بالشريعة وفك رباط الانقياد قد يكون فيه دليل واضح على بغض ما جاء به الله ورسوله من الدين وعلامة ظاهرة على الزندقة .

المسألة الحادية والعشرون : هل يوجد انقياد بدون رغبة ورضا ومحبة :

الانقياد الشرعي قائم على محبة ما انقاد فيه والرغبة في ما انقاد له والرضا عنه والفرح به والذل له وكل هذا في الباطن .

وتتخلف هذه الحقيقة في حالتين :

الأولى : الانقياد القدري المتعلق بالربوبية .

الثانية : الانقياد النفاقي : فانقياد المنافقين الكارهين للإسلام يكون بدون انقياد باطن وبدون رضا ومحبة ورغبة كما تقدم، فلا ينفعهم في الآخرة انقيادهم الظاهر الذي تظاهروا به ولا يدخلهم الجنة ولا يرضى الله به عنهم وإن كان ينفعهم في الدنيا من ناحية عصمة دمائهم وأموالهم .

وهذا الانقياد يسمى الانقياد الحكمي في مقابل الانقياد الحقيقي، مثل الإسلام الحقيقي والحكمي، لأنه يأخذ أحكام الإسلام في الظاهر .

قال ابن تيمية في الإيمان :" فالمنافقون قالوا مخبرين كاذبين فكانوا كفاراً في الباطن وهؤلاء – أحبار اليهود– قالوا غير ملتزمين ولا منقادين فكانوا كفاراً في الظاهر والباطن ".

المسألة الثانية والعشرون : آلات وأركان الانقياد :

الانقياد القلبي الباطن : وهو خضوع القلب وإقراره وعزيمته وخشوعه وإخباته والتزامه وذله وانكساره ورضاه ويقينه وصدقه وإخلاصه.

قال ابن تيمية: " فالكفر هو عدم الإيمان سواءً كان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض ، فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر ". ٧/ ٦٣٩ .

الانقياد الظاهر: باللسان والجوارح :

ويكون بالإذعان والامتثال والطاعة والاتباع والالتزام بالشريعة، وذلك كله بفعل الأوامر والفرائض وترك الشرك والمحرمات والنواهي .

قال ابن القيم في زاد المعاد عن الإسلام :" المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ظاهراً وباطناً ".

وقال في الصلاة :"لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت".

وقال ابن تيمية في شرح العمدة :" الطاعة والانقياد إنما يتم بالفعل لا بالقول فقط فمن لم يفعل شيئاً فما دان لله ديناً ومن لا دين له فهو كافر ".

المسألة الثالثة والعشرون: استلزام انقياد الباطن انقياد الظاهر :

وعدم وجود الإسلام والتوحيد إذا فُقد أحدهما:

لا يعتبر الانقياد إلا إذا تحقق وجود الركنين فإن وجد الانقياد الظاهر دون الباطن فصاحبه منافق وإن كان في الظاهر مسلماً ومعصوم الدم .

وإن وجد الانقياد الباطن دون الظاهر فهذا لا يتصور وجوده إلا عند المرجئة لكونهم ينفون التلازم والترابط بين الظاهر والباطن وعمل القلب وعمل الجوارح.

ولو تصورنا وجوده فإنه لا يقبل هذا الانقياد الباطن ولا يدخل به في الإسلام ولا يعصم الدم ما لم يجتمع مع انقياده الباطن الانقياد الظاهر والالتزام بالشرع والعمل بمقتضى الشهادتين والعمل بالتوحيد وأداء الفرائض، وهذا العمل المتعلق بالجوارح ركن في الإيمان يكفر الإنسان بتركه بالكلية، وهذه مسألة ترك جنس العمل وتكفير السلف به خلافاً للمرجئة .

وتقدم قول ابن القيم:" لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت".

وقال حافظ الحكمي :" ومحال أن ينتفي انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب ".

قال ابن تيمية:" حقيقة الدين هو الطاعة والانقياد وذلك إنما يتم بالفعل لا بالقول فقط فمن لم يفعل شيئاً فما دان لله ومن لا دين له فهو كافر" شرح العمدة الصلاة.

وتقدم كلام ابن كثير والعيني والبيضاوي والرازي وابن سعدي .

قال البغوي عن الخطابي :"المسلم قد يكون مؤمنا وقد لا يكون والمؤمن مسلم في جميع الأحوال، لأن أصل الإسلام الاستسلام والانقياد، وأصل الإيمان التصديق، وقد يكون المرء مستسلماً في الظاهر غير منقاد في الباطن ولا يكون صادق الباطن غير منقاد في الظاهر، إذ كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ". شرح السنة ١/ ١٠ .

المسألة الرابعة والعشرون : درجات الانقياد وانقسامه إلى أصل وكمال:

الانقياد الأصل : يكفر تاركه وهو الانقياد للتوحيد وأصل الدين والإيمان والإتيان بجنس العمل وهو أصل الإسلام.

الانقياد الكامل والتام: وهذا يتفاوت فيه أهل الإيمان ويزيد وينقص ولا يكفر من أخل فيه وإن كان قد يأثم ، وهو على درجات منه الواجب الذي يأثم من تركه مع بقاء الإسلام، والمستحب الذي لا يأثم من أخل به أو تركه كفعل كل السنن.

والناس يتفاوتون فيه من حيث كمال مقتضيات الانقياد ولوازمه من الرضا والمحبة والمسارعة والانصياع للدين ، أما في نفسه فإن الانقياد واجب لله فيجب الانقياد بكل شيء جاء عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ .

المسألة الخامسة والعشرون : من كمال الانقياد فعل السنن وعدم تركها .

ظن بعض الجهال أن تارك السنة بالكلية لا يعاقب بإطلاق، والصحيح أن الله ﷻ توعد مخالف سنة رسوله وأمره مطلقاً ولو لم تصل للوجوب ، قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ النور: ٦٣. وسنأتي بكلام أهل العلم في هذه المسألة .

المسألة السادسة والعشرون : درجات القوادح في الانقياد :

قوادح الانقياد على درجتين :

الأولى : قوادح تزيل الإيمان بالكلية:

كترك التوحيد وجنس العمل أو فعل ناقض من نواقض الإسلام.

الثانية : قوادح تنقص كمال الإيمان ولا تنقضه من أصله :

كترك بعض الواجبات، أو فعل المحرمات التي دون الكفر والشرك .

والقوادح المنقصه له :

إما أن يكون صاحبها قصر في الواجب منه وأنقص منه.

أو أنه يأتي بما يقدح فيه من الأفعال التي تستلزم معارضة كمال الانقياد .

السابعة والعشرون : الامتناع كفر مطلقا وليس على درجات كترك الانقياد:

من امتنع عن شيء من الدين ودفعه ورده كان كافرا مطلقا .ومثاله امتناع إبليس من سجدة واحدة ، وناكح امرأة أبيه ، والممتنعين عن الزكاة زمن الصديق .

قال إسحاق بن راهوية : (أجمع العلماء على أن من دفع شيئا أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٢٢٦ .

وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة إن شاء الله في مبحث كفر الامتناع .

الثامنة والعشرون : هل من أسلم ثم لم ينقد يعتبر مرتداً أو كافراً أصلياً :

القول الأول : إنه يعتبر كافراً كفراً أصلياً، لكونه لم يدخل في الإسلام الصحيح الحق، لأن مجرد التكلم بالشهادتين والنطق بهما دون الالتزام بالعمل بمقتضاهما والانقياد لها وللشريعة لا يدخل صاحبه في الإسلام. وهذا هو الصحيح.

ومما يدل على هذا القول : حديث: (أمرت أن أقاتل الناس) وقد جعل الحكم بالإسلام باقتران بالتوحيد والانقياد بالصلاة والزكاة .

وقوله ﷺ لعلي: (ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم) متفق عليه.

قال سليمان: (إن امتنعوا عن شيء من ذلك فالقتال باقٍ إجماعاً، فدل على أن النطق بكلمتي الشهادة دليل العصمة لا أنه عصمة أو عصمة بشرط العمل) التيسير٨٨.

القول الثاني : أنه يعتبر مرتداً فإن لم يتب يستتاب وإلا يقتل .

ذكر القولين ابن عبدالبر وابن حجر والشوكاني والخطابي وتقدم، وقال وابن الصلاح في الصيانة: (لا نقول ما قاله بعض أصحابنا أن من قال لا إله إلا الله يحكم بإسلامه ثم يجبر على سائر قبول الأحكام، فإن حاصله إلى أنه يجبر على إتمام الإسلام ويجعل حكمه حكم المرتد إن لم يفعل من غير أن يصير بذلك مسلماً في نفس الأمر ".

التاسعة والعشرون: الجواب عن إسقاط النبي ﷺ الزكاة عن مسلمي ثقيف:

أولاً : أن هذا أمر خاص بالرسول ﷺ وليس لأحد غيره فهو المشرع عن الله، فالصحابة قاتلوا مانعي الزكاة وكفروهم. ثم إنه قد علم أنهم سيلتزمون بها وينقادون فأجابهم تطييبا لخاطرهم وتأليفاً لهم، ولم يكن هذا لغيرهم،بل لما أراد بشير بن الخصاصة أن لا يلتزم بالزكاة والجهاد، امتنع الرسول ﷺ عن مبايعته.

ثانياً : أن في الحديث نص على أنهم سيؤدون الزكاة كما قال ﷺ : (سيتصدقون) ، حيث أطلع الله تعالى رسوله على حقيقة أمرهم.

المبحث الخامس
لوازم الانقياد وموانعه ونواقضه وعلاقاته وخصائصه

المسألة الأولى: العلاقة بين الانقياد والقبول والفرق بينهما:

القبول والانقياد يتناول كل منهما الآخر عند الافتراق والإطلاق، بينما إذا اجتمعا في اللفظ افترقا في المدلول وصار لكلٍ منهما معنىً يخصه، فيختص القبول بالباطن وما يتعلق بالقلب وقول اللسان والانقياد بالظاهر وعمل الجوارح، فهي من الألفاظ التي إذا اجتمعت في اللفظ افترقت في المعنى، وإذا افترقت لفظا اجتمعت معنى وتناول كل منهما صاحبه ودل على نفس ما دل عليه الآخر.

قال ابن تيمية في الصارم عن المرجئة :" وظن من ظن أنه رأى التصديق والقبول أصل لجميع الإيمان وغفل عن أن الأصل الآخر لابد منه وهو الانقياد وإلا فقد يصدق الرسول ظاهراً وباطناً ثم يمتنع من الانقياد للأمر ".

وقال في الإيمان عن الإقرار :" يتناول الالتزام والتصديق ولابد منهما وقد يراد بالإقرار مجرد التصديق بدون التزام الطاعة " .

المسألة الثانية : الفرق بين الانقياد والقبول :

١- أن الانقياد أعم من القبول، فكل انقياد شرعي يشتمل على القبول ويتضمنه، وليس كل قبول يشتمل على الانقياد، فقد يقبل الإنسان الأمر ولا ينقاد له، لكن إذا أنقاد له فيعني أنه قد قبله، والمقصود الانقياد الشرعي فلا يدخل فيه انقياد المنافق في الظاهر دون قبول في الباطن .

٢- الانقياد متعلق بالأعمال الظاهرة والقبول متعلق باللسان والقلب.

٣- أن القبول يسبق الانقياد ويتقدم عليه دائما، والانقياد يتأخر عنه ويكون ثمرة له، فالإنسان أولا يقبل ثم بعد ذلك ينقاد لما قبله .

٤- القبول الحق الصادق يستلزم الانقياد، والانقياد يشمل ويتضمن القبول، فكل منقاد قابل وليس كل قابل منقاداً.

٥- أن الله عز وجل يوصف بالقبول ولا يوصف بالانقياد .

المسألة الثالثة : الفرق بين الترك والرد :

أن الرد يكون غالباً بالقلب ومثله الجحود والتكذيب والإنكار، وهذا الذي يقابل القبول، أما الترك فالأصل أنه يكون بالجوارح، ومثله الإعراض والتولي والإباء، وهذه كلها هي التي تقابل الانقياد .

المسألة الرابعة : علاقة الانقياد بشروط كلمة التوحيد:

الانقياد يستلزم تحقيق جميع الشروط من المحبة والقبول والإخلاص والصدق واليقين والعلم، فانتفاء أي شرط يلزم منه القدح في الانقياد وانتفاؤه، كما أن الشروط الأخرى تستلزم الانقياد .

فالشروط تدخل في هذا الشرط من باب اللزوم والاستلزام بل ويتضمنها.

والكلام هنا عن الانقياد الشرعي الحقيقي المستلزم للانقياد الباطن، أما الانقياد الحكمي الذي يفعله المنافقون الذي ليس هو المقصود في شروط لا إله إلا الله فهذا لا يستلزم الشروط، لا يستلزم الصدق واليقين والإخلاص والمحبة والقبول، فهذا الانقياد ينجي من هدر الدم والتكفير ولا ينجي من عذاب الآخرة .

المسألة الخامسة: خصائص الانقياد:

١- أنه الجانب العملي الظاهر في الشروط المتعلقة بكلمة التوحيد بينما بقية الشروط الأصل فيها أنها قلبية ويوجد منها ما يتعلق بالعمل .

٢- أنه بمعنى الإسلام ومرادف له .

٣- أن تاركه كافر بالكلية، بل إن تارك بعض فروعه كافر كالصلاة والتزام الحكم بالشريعة .

المسألة السادسة : موانع الانقياد :

١- مانع الجهل وضعف معرفته بالعمل والشرع .

٢- عدم الأهلية فقد تكون المعرفة تامة، لكن يكون مشروطاً بزكاة المحل وقبوله للتزكية، فإذا كان القلب ليس فيه هذه الصفة كان بمثابة الأرض الصلدة التي لا تنتفع بالماء فالقلب القاسي الغليظ الجافي لا يعمل فيه العامل قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ يونس: ٩٦ وقال ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ يونس: ١٠١ وقال ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ الأنعام: ١١١ .

٣- قيام مانع كالحسد أو الكبر، وهذا مانع إبليس من الانقياد للأمر وهو داء الأولين والآخرين وبه تخلف الإيمان عن اليهود وأبي جهل وسائر المشركين مع علمهم بصدق الرسول ﷺ .

٤- مانع الرياسة والملك وإن لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق، لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته فيضن بملكه ورياسته كحال هرقل وملوك الكفار الذين علموا نبوة محمد ﷺ وصدقه وأقروا بها باطناً وأحبوا الدخول في دينه لكن خافوا على ملكهم وهذا داء أرباب الملك والرياسة وقل من نجا منه إلا من عصم الله وهو داء فرعون وقومه ولهذا قالوا : ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ المؤمنون: ٤٧ فأنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا وينقادوا .

٥- مانع الشهوة والمال، وهذا منع كثيرا من أهل الكتاب من الإيمان خوفاً من بطلان مأكلهم وأموالهم التي يأخذونها ظلماً ، وكانت قريش تصد الرجل عن الإيمان بحسب شهوته فيدخلون عليه منها كما صدوا الأعشى عن الإسلام بأن محمداً يحرم الزنا ويحرم الخمر، ومنهم من امتنع عن الإسلام خوفاً من أن يحرم من الإرث .

٦- محبة الأهل والعشيرة، يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه .

٧- محبة الوطن والدار ولو لم يكن له بها عشيرة فيرى الانقياد والإتباع للرسول ﷺ خروجا عن وطنه إلى دار الغربة .

٨- أن يتخيل أن في الإسلام ومتابعة الرسول ﷺ والانقياد له إزراء وطعنا منه على آبائه وأجداده وذماً لهم، وهذا الذي منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام فإنهم استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال وتسفيه الأحلام وتضليل العقول وأن يختاروا خلاف ما اختار، ولهذا قال الكفار لأبي طالب :" أترغب عن ملة عبدالمطلب. وهو القائل :

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا

٩- متابعة من يعاديه من الناس للرسول ﷺ وسبقه إلى الدخول في دينه وتخصصه وقربه منه،وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار لما سبقوهم للدين والانقياد امتنعوا مع أنهم كانوا عازمين قبل ذلك على الإذعان للرسول ﷺ .

١٠- مانع الألفة والعادة والمنشأ والتقليد، فإن العادة قد تقوى فتغلب حكم الطبيعة الأصلي، وكم من قوم ألفوا عادة فما أحبوا مخالفتها ولا ترك آثار الآباء، وهذا

السبب وإن كان أضعف الأسباب معنىً إلا أنه أغلبها على الأمم وأرباب المذاهب والأديان والمقالات .

ذكر هذه الموانع ابن القيم في مفتاح دار السعادة .

المسألة السابعة: هل العلم يلزم الانقياد والإسلام أم لا ؟:

هذه المسألة حققها ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة وهي مسألة قدرية وهي الاهتداء والهداية، ولها علاقة بفهم الحجة وقيام الحجة .

وبين أن المقتضى نوعان: فالهدى المقتضي وحده لا يوجب الاهتداء والهدى التام يوجب الاهتداء.

فالأول: هداية البيان والدلالة والتعليم ولهذا يقال هُدي فيما اهتدى.

والثاني: هداية التوفيق وخلق الإرادة، فهذا الهدى الذي يستلزم الاهتداء ولا يتخلف عن موجبه فمتى وجد السبب وانتفت الموانع لزم وجود حكمه .

ثم ذكر مسألة وهي: هل قيام المانع وعدم الشرط يضعف المقتضى ويسلبه اقتضائه أم تضعف هذه الموانع العلم حتى لا يصير مؤثرا ، والتحقيق أن الموانع تحجبه وتعميه وربما قلبت حقيقته من القلب، والقرآن دل عليه.

المسألة الثامنة: لوازم الانقياد :

١- الحكم بالشريعة والتسليم لأحكامها والرضا بها وعدم التحاكم لغيرها، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥. فالانقياد يتضمن الحكم بالشريعة .

٢- الولاء والبراء ومحبة الله ورسوله وتقديم أمرهما ومحبتهما. ومعاداة أعداء الشريعة. وهذا يدخل في الانقياد من باب اللزوم والتضمن معا. ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ المائدة: ٨١.

٣- الجهاد في سبيل الله . ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ التوبة: ١٦.

٤- الكفر بالطاغوت وتكفير المشركين والبراءة منهم . ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ البقرة: ٢٥٦.

وتكفير الكفار من الكفر بالطاغوت وهو ركن في التوحيد ويكفر تاركه.

أما وجه كفر الشاك في تكفير الكفار: فلتكذيب الله ولعدم الكفر بالطاغوت.

٥- رد كل شيء عند التنازع للشرع. ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الشورى: ١٠ ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ النساء: ٥٩.

٦- إظهار الدين والانقياد. ومن لم يستطع إظهار الانقياد والدين وجبت عليه الهجرة، وإن تركها مع تمكنه منها فهو آثم عاصٍ.

المسألة التاسعة: وجوب الهجرة عند العجز عن إظهار الانقياد والدين .

المسألة العاشرة: الكفر والنواقض الراجعة لفقدان شرط الانقياد :

١- كفر الإعراض .

٢- كفر الإباء والاستكبار والامتناع والعناد.

ومن النواقض التي مناط الكفر فيها ومدارها على ترك الانقياد:

١- ترك الصلاة والفرائض .

٢- ترك الحكم بالشريعة والإعراض عن التحاكم إليها والعمل بها والتزامها.

٣- من ظنّ أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ .

٤- الاستهزاء بالدين وأهله. وذلك يناقض التعظيم الذي يقوم على الانقياد.

قال ابن تيمية في الصارم :" فالسب إهانة واستخفاف، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستخف، فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة فإنه لا يكون فيه انقياد أو استسلام ".

المسألة الحادية عشرة: الشرك أعظم ما ينقض الانقياد :

ووجه ذلك أن حقيقته جعل ند لله واتخاذ شريك معه ينقاد له ويذعن له ويلتزم مراده، ويعرض عن توحيد الله تعالى ويتولى عن عبوديته .

المسألة الثانية عشرة : تحكيم القوانين يعارض الانقياد :

من أعظم مقتضيات الانقياد الالتزام بالدين والحكم بالشريعة والتحاكم إليها وتحكيمها والعمل بها وكل ذلك داخلٌ في الانقياد، والانقياد عند الإطلاق يشمل العمل بالشريعة والحكم بها . وإن ترك تحكيمها والعمل بالقوانين والتشريعات المضاهية لشرع الله أعظم ما يناقض الانقياد من أصله ويقلعه من جذوره.

ومما ينبغي أن يعلمه كل مسلم ولا يعذر في جهله أحد أن ترْك الحكم بالشريعة ردة عن الإسلام بمجرد ترك تحكيمها وأن في ذلك معاندة للدين وخروج عنه وتكبر على الانقياد لله وتمرد عليه.

قال محمد بن إبراهيم في مقدمة رسالته تحكيم القوانين :" إن من الكفر الواضح المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة شريعة رب العالمين ".

قال ابن عتيق: "وضعوا قوانين ينفذونها في الرعية مخالفة لكتاب الله وسنة نبيه وقد علمت أن هذه كافية وحدها في إخراج من أتى بها من الإسلام" الدرر ٩/ ٢٥٦ .

المسألة الثالثة عشرة: دخول ترك النواقض في الانقياد :

قدمنا أن حقيقة الانقياد قائم على أمرين :

الأول: الالتزام بالدين ومقتضى الشهادتين .

الثاني: عدم القيام بناقض ينقض الإسلام .

وما أحسن ما قاله سليمان بن سحمان في أشعة الأنوار:

وخامسها فالانقياد وضده ... هو الترك للمأمور أو فعل مفسد
فتنقاد حقا بالحقوق جميعها ... وتعمل بالمفروض حتما وتقتدي
وتترك ما قد حرم الله طائعا ... ومستسلما لله بالقلب ترشد
فمن لم يكن لله بالقلب مسلما ... ولم يك طوعا بالجوارح ينقد
فليس على نهج الشريعة سالكا ... وإن خال رشدا ما أتى من تعبد

عليه ففعل أي ناقض من نواقض الإسلام المكفرة تنقض الانقياد من أصله .

المسألة الرابعة عشرة : نواقض الانقياد :

١- الإعراض عن العبادة والتولي عن الطاعة وترك العمل بالكلية .

٢- فعل ناقض من نواقض الإسلام، ومنها البغض والاستهزاء.

٣- الشرك بالله، ومنه الانقياد لغير الله من المخلوق .

٤- تحكيم القوانين والحكم بغير ما أنزل الله والإعراض عن العمل بالشريعة.

٥- موالاة الكفار والمرتدين ومناصرتهم أو عدم معاداتهم وجهادهم والإقامة معهم من دون إظهار الدين وتكفيرهم، وترك موالاة المؤمنين .

٦- البدع . مما يعارض الانقياد للشريعة الابتداع في الدين .

٧- التقليد المذهبي مع الإعراض عن النصوص وغيره والأخذ بالرأي والعقل وترك النص .

واعلم رحمك الله أن سبب ظهور المنكرات والفواحش واستحلالها وتنوع ألوان الشرور عدم الانقياد لله أو ضعفه .

وإن من دواعي ضعف الانقياد أو زواله بالكلية الشهوات والشبهات .
والشهوات يتزعمها المجاهرون بالفسق وعباد الدنيا والمال .
والشبهات يتزعمها المرجئة وفرق المبتدعة وعلماء السوء.
واحذر من ولوج هذين البابين واعلم أن الشهوات تُدفع بالصبر ، والشبهات تُدفع باليقين ، وما جعل الله إمامة الدين إلاّ بهذين الأمرين كما قال تعالى :
﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.

المسألة الخامسة عشرة : لا يصح الانقياد إلا بالعلم بما ينقاد به :
فلا انقياد لجاهل وأعظم ما ينقاد به العبد توحيد الله والكفر بالطاغوت، ولا يقبل من مسلم نطقه بالشهادتين دون معرفته بمعناها والتزامه بمقتضاها وانقياده بها وتبرئه من الإشراك ومعاداة أهله وتكفيرهم .
ومن جهل التوحيد ووقع في الشرك جهلا وتأولاً فهو كافر وليس بمسلم :
١- قال ابن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ) : (فأما الذي لا يجوز الجهل به من دين الله فتوحيد الله تعالى ذكره والعلم بأسمائه وصفاته وعدله) التبصير ص١١٢ .
٢- قال ابن منده (ت:٣٩٥هـ) : (ذكر الدليل على أن المجتهد المخطئ في معرفة الله ﷻ ووحدانيته كالمعاند) التوحيد ٢٦١ .
٣- قال ابن القيم في طريق الهجرتين : (والإسلام توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له والإيمان بما جاء به رسوله ﷺ واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرا معاندا فهو كافر جاهل) .
فالجاهل بالتوحيد والمقارف للشرك جهلا أولاً أنه غير معذور ثانيا أنه ليس من أهل الانقياد وبالتالي ليس بمسلم ولا مؤمن .

مبحث: الانقياد والإسلام والتوحيد لا تقوم إلا بالجهاد

الجهاد شريعة من شرائع الإسلام التي أُمرنا بها ولا يقوم الدين إلا بـه، وعلى من يقوم به أن يعتني بأمر التوحيد وتصحيح العقائد وتجديد الدين وطلب العلم .

وهو من أعظم مقتضيات الكفر بالطاغوت . وقد دل على فرضيته أدلة كثيرة منها: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ الأنفال: ٣٩﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ النساء: ٨٩﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ النساء: ٧٦.

قال عبدالرحمن بن حسن: **(بأي حجة أن الجهاد لا يجب إلا مع إمام ... كل من قام بالجهاد فقد أطاع الله، ولا يكون الإمام إماما إلا بالجهاد والعكس... وفي قصة أبي بصير فهل قال له النبي ﷺ أخطأتم في قتال قريش لأنكم لستم مع إمام...والدين لا يقوم إلا بالجهاد ولهذا أمر النبي بالجهاد مع كل بر وفاجر)** الدرر ٨/ ١٩٩- ٢٠١ .

قال الشيخ عبد اللطيف : (وأما إهمال الجهاد وعدم تكفير المرتدين فهـذا إنـما يسلكه من لم يؤمن بالله ورسوله) . مصباح الظلام ص٢٩ .

وقال ابن تيمية : (وأما قتال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل ، فـلا يـشترط له شرط) الفتاوى المصرية ٥٣٨ .

(وسئل أحمد رجل يريد الغزو ولم يحج فنزل على قوم فثبطوه عن الغزو وقالوا إنك لم تحج وتريد أن تغزو ، قال يغزو ولا عليه فإن أعانه الله حج) المصرية ٥٣٨ .

قال ابن حزم في رسالة التلخيص : (لولا المجاهدون لهلك الدين ولكنـا ذمـة لأهل الكفر) .

ومن تركه مع قدرته عليه ولم يحدث نفسه به مات على شعبة من النفاق .كما في الحديث: (من لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق) رواه مسلم.

ومن أهميته جعله ﷺ ذروة سنام الإسلام كما عند أحمد والترمذي، وعده كثير من أهل العلم الركن السادس للإسلام . وأخبر الرسول ﷺ أن الذل مرتبط بتركه .

فقال ﷺ : (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتـركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) رواه أبو داود .

والأخذ بأذناب البقر كناية عن الانشغال بالدنيا والوظائف والمال والاقتصاد.

والجهاد أربعة أنواع : جهاد الشيطان والنفس والكفار والمبتدعة والفسقة.

وقد مر تشريع الجهاد بمراحل،ولم ينسخ بل آية السيف: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ التوبة: ٥ نسخت بعض الأحكام.

واعلم أن الدين ما قام إلا بالجهاد وما نصر ﷺ إلا بالجهاد ولله در القائل :

دعا المصطفى دهرا بمكة لم يجب وقد لان منه جانب وخطاب
ولما دعا والسيف صلتا بكفه له أسلموا واستسلموا وأنابوا

وما قامت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب وانتشرت إلا بالجهاد ، وقد عورض في التكفير والجهاد، وهي أعظم ما يحارب ويعادى عليه أهل التوحيد اليوم.

بل إن أي دعوة لا يناصرها السيف فمصيرها النهاية العاجلة، فما استعاد الكفار في أوربا حقوقهم إلا بعد الثورة الفرنسية التي مات فيها خلق كثير .

وإننا لنعجب من ترك الجهاد من أهل الحق وخورهم مع علمهم بما هم عليه من حق وأن العاقبة للمتقين وأن الآخرة خير من الأولى .

ومن تأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ الحجرات: ١٥ .

عرف صدق المجاهدين ويقينهم بالله وأنهم أحق من يرفع التوحيد، وليس المتقاعسون المرجفون والمخذلون لهم من أهل النفاق الذين قالوا : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ﴾ آل عمران: ١٦٧ ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ الأنفال: ٤٩ ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾ آل عمران: ١٦٨ ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ الأحزاب: ١٣ . والذين قال الله فيهم : ﴿ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ المائدة: ٥٢ ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ النساء: ١٣٩ ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ التوبة: ٤٦ .

ويكفرون بقوله : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٤١ ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ التوبة: ٣٩ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٤٥ ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ ﴾ الأحزاب: ١٣.

فانظر كيف ذم الله ﷻ الذين يستأذنون في ترك الجهاد ومدح من ينفر له مطلقا وتوعد تاركه وهؤلاء عكسوا الآية تماما .

حال الناس مع الجهاد:

ومع ما سبق تقريره بالنصوص في منزلة الجهاد إلا أن محاربة الجهاد والتثبيط عن إعداد العدة في إرهاب المشركين كما فرض الله علينا بقوله: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا

ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ قد صارت سمة ظاهرة في أهل النفاق، مصداقاً لما أخبر به ﷺ ودلالة على نبوته .

فقال النبي ﷺ : (لا يزال الجهاد حلوا أخضر ما قطر قطر السماء ، وسيأتي على الناس زمان يقول فيه قراء منهم ليس هذا بزمان جهاد ، فمن أدرك ذلك الزمان فنعم زمان الجهاد ، قالوا يا رسول الله، أو أحدٌ يقول ذلك ؟ قال : نعم ، من عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين).أخرجه أبو زمنين في أصول السنة، والداني وابن عساكر.

والحديث وإن كان سنده ضعيفاً إلا أن الواقع يصدقه ويشهد له بالصحة .

كما يشهد له ما جاء عن قتال الطائفة المنصورة وأنه لا يضرها من خذلها .

وكذا ما جاء عند الطبراني بسند صحيح : (يأتي على الناس زمان يعدون الجهاد ضرراً) . ومنها أن الجهاد ماضٍ إلى قيام الساعة عند أبي داود وأبي يعلى .

كل هذا يدل على استمرار الجهاد وأنه ماضٍ إلى قيام الساعة ، وأنه سيوجد من سيحاربه ويخذل عنه ممن يتتسب للدين والعلم والفقه والذين هم القراء.

فتنوعت لذلك الأساليب في الصد عن الجهاد حتى بلغ الأمر ببعضهم أن يسمي أهله بالجهاديين من باب لمزهم ، وهذه منقبة وليست مثلبة .

وعموما فالجهاد لا يريده أهل النفاق:﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾ النساء: ٧٧.

فاختر لنفسك إحدى الطريقين الجهاد في دين الله أو تركه والصد عنه بالقتال في سبيل الطاغوت.

ومن المعلوم أنه قد اختلفت الطوائف في موقفهم منه:

فمنهم من قصره على المظاهرات كالإخوان.

ومنهم من جعله في الخروج في جماعتهم البلهاء وهم التبليغ .

وطائفة جعلته خاصا بما كان في سبيل الأوطان .

وطائفة اشترطت الأذن فيه مطلقاً ولم تفرق بين جهاد الدفع وجهاد الطلب.

ومنهم من قال : إن الذين يقومون بالجهاد مبتدعة خوارج .

مع أن الجهاد لو سلمنا بقولهم فهو ماضٍ ويجب القيام به حتى لو كان تحت راية مبتدع مسلم إذا لم توجد غيرها لدفع صول الكفار وحماية محارم المسلمين .

وقد أوجب ابن تيمية الجهاد في هذه الحال : (إذا تعذر الجهاد إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب) الفتاوى ٢٨/ ٢١٢.

وطائفة منهم أنكرته بالكلية وقالت ليس هذا زمن جهاد .

مكذبة بحديث الصادق المصدوق ﷺ : (والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل) رواه أبو داود وسعيد بن منصور وأبو يعلى وغيرهم ، وفي أوله جعل الجهاد من أصول الإيمان والإسلام .

نكتة بديعة في الطائفة المنصورة :

قال النبي ﷺ: (لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ، قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك) . رواه مسلم.

وفي روايات أخرى : (لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة حتى يأتي أمر الله) (لا يضرهم من خذلهم) (ظاهرين على من ناوأهم وهم كالإناء بين الأكلة) (لا تبرح عصابة من أمتي ظاهرين على الحق لا يبالون من خالفهم) (لا يبرح هذا الدين قائماً تقاتل عليه عصابة) (ظاهرين على الدين) .

والجهاد تعاديه أغلب الطوائف الممتنعة عن الانقياد، وهو أبرز صفات الطائفة المنصورة . فليثبت أهل الحق ولتكن هذه الأخبار سلوة لهم ولا يهمهم كثرة المخالفين الهالكين . وليعلموا إن الله سبحانه وتعالى قد قدّر وقضى باختلاف الناس والتدافع بين أهل الحق وأهل الباطل إلى قيام الساعة .

بعض الآثار الواردة في غربة أهل الدين :

قال ﷺ :(بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء) رواه أحمد.

وجاء وصف الغرباء بأنهم : (الذين يتمسكون بكتاب الله حين يترك) ، (الذين يصلحون عند فساد الناس)، (النزاع من القبائل) لقلتهم وغربة ما هم عليه.

وقال ﷺ:(يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر) رواه الترمذي.

وروي عنه ﷺ أنه قال: (ويح لهذه الأمة ماذا يلقى فيها من أطاع الله ، كيف يكذبونه ويضربونه) فقال عمر يا رسول الله الناس يومئذ على الإسلام ؟ قال نعم يا عمر. قال عمر ولم يبغضون من أمرهم بطاعة الله . فقال : (يا عمر، ترك القوم الطريق فركبوا الدواب ولبسوا لين الثياب وخدمهم أبناء فارس، وتزين الرجل منهم بزينة النساء، زيهم زي الملوك الجبابرة يتسمنون كالنساء، فإذا تكلم أولياء الله وأمروهم بطاعة الله، قيل له أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة، مكذب بالكتاب تحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وتأولوا كتاب الله على غير تأويله واستذلوا به أولياء الله) أخرجه ابن وضاح في البدع .

وأخرج ابن وضاح عن الفضيل : (في آخر الزمان يمشي المؤمن بالتقية ، وبئس القوم يمشى فيهم بالتقية) .

ورحم الله ابن المبارك إذ يقول : (إن الموت اليوم كرامة لكل مسلم لقي الله على السنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فإلى الله نشكو وحشتنا وذهاب الإخوان وقلة الأعوان وظهور البدع ، وإلى الله نشكو عظيم ما حل بهذه الأمة من ذهاب العلماء وأهل السنة وظهور البدع) ابن وضاح .

وأخرج ابن وضاح في البدع عن جماعة من الصحابة والسلف قولهم :

(ما أعرف شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة) .

(لو أن أحدا خلا بمصحفه في وادٍ ثم أتى الناس لما عرف شيئا مما كان عليه).

فكيف لو رأوا ما نحن فيه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

مبحث: الطوائف المخالفة في الانقياد والواقعة في فك رباطه

وهذا داء أهل العظمة من يأنفون الانقياد للشريعة والمثول للدين وإتباع الرسول الكريم ،وهم طوائف كثيرة سنذكها هنا ، وأول من حمل خسة هذا الكفر إبليس حين استكبر وأبا امتثال أمر الله .

قال ابن تيمية في العبودية : (فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله ، وكلما أزداد العبد تحقيق العبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه أو أن الخروج أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم) .

الطائفة الأولى : الكفار جميعاً تركوا الانقياد لله ﷻ بالكلية .

الثانية : المنافقون والمرتدون : ولهؤلاء يقال أبشروا بما يسوؤكم ومهما سعيتم في حرب الدين فإن دين الله منصور والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وقد يكثر أهل النفاق والردة في بعض الأزمنة.

أخرج ابن بطة عن حذيفة ﷺ قال: (لو اهلك الله المنافقين لاستوحشتم في الطرق ولما وجدتم من تتبايعون معه وما انتصفتم من عدوكم) ، وقال الحسن نحوه.
وله: (يأتي على الناس زمان لو رميت بسهم يوم الجمعة لم يصب إلا كافرا أو منافقا).

وقال أبو هريرة ﷺ : (والذي نفسي بيده إن الناس ليخرجون اليوم من دين الله أفواجا ، كما دخلوا فيه أفواجا) أخرجه ابن وضاح والحاكم وغيرهم .

وقال يحي بن معين: (ما زلت أعيد الجمعة منذ أن أظهر القول بخلق القرآن) أخرجه عنه عبدالله بن أحمد في السنة . ومثله عن أبي عبيد القاسم بن سلام .

قال البربهاري : (واحذر أهل زمانك خاصة ، وانظر من تجالس وممن تسمع ومن تصحب فإن الخلق كأنهم في ردة إلا من عصمه الله منهم .. وكفروا من حيث لا يعلمون من وجوه شتى) شرح السنة ص: ١١٦.

يقول ابن تيمية في حال الأكثرين عند نزول الفتن وظهور الكفار وحصول النفاق والردة منهم: (عامة الناس معهم إيمان مجمل لا يصلون إلى اليقين ولا الجهاد ولو شككوا لشكوا ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا وليسوا كفارا ولا منافقين ، وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة .. وأكثرهم إذا ابتلوا بالمحن التي يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم وينافق أكثرهم ومنهم من يظهر الردة إذا

كان العدو ظاهرا، وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة،وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة) . الفتاوى الإيمان ٢٨١ بتصرف .

الثالثة : الحكام والأمراء: الحاكمون بغير ما أنزل الله ممن نحى الشريعة وامتنع عن العمل بها، ويأمرون بمعصية الله. ويصدون العامة عن الانقياد لله ، ومعهم القانونيون الذين أعرضوا عن الشريعة والمتحاكمون إلى الطاغوت.

أخرج البيهقي:إذا صلح سلطانكم صلح زمانكم، وفي البخاري نحوه عن أبي بكر.

وقال الحسن : لا يزال الدين متيناً مالم تقع الأهواء في السلطان هم الذين يدينون الناس فإذا وقع فيهم فمن يدينهم .

قال القاضي عياض : (حجة الجمهور أن قيامهم على الحجاج ليس لمجرد الفسق بل لما غير من الشرع وأظهر الكفر) المنهاج شرح مسلم في حديث إلا أن تروا كفرا.

قال يحي بن أبي كثير : (ثلاثة لا غيبة فيهم : أمام جائر وصاحب بدعة وفاسق) . ذم الكلام ٣٤٩ .

قال الإمام مالك : (إذا خرج على الإمام العدل خارج وجب الدفع عنه مثل عمر بن عبد العزيز ، فأما غيره فدعه ينتقم الله من ظالم بمثله ، وإذا بويع للإمام فقام عليه إخوانه قوتلوا إذا كان الأول عدلا فأما هؤلاء فلا بيعة لهم إذا كان بويع لهم على الخوف) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢١ .

الرابعة: المقلدون : من المتعصبين والأتباع الضالين.

فمنهم من أوجب طاعة الحاكم مطلقاً فيما يدعوا إليه حتى في الفجور والردة.

قال الشعبي:إذا أطاع الناس سلطانهم فيما يبتدع لهم أُخرج من قلوبهم الإيمان.

قال الحسن: سيأتي أمراء يدعون الناس إلى مخالفة السنة فتطيعهم الرعية خوفا على ذهاب دنياهم فعندها سلبهم الله الإيمان وأورثهم الفقر ونزع منهم الصبر.

وقال يونس : إذا خالف السلطان السنة وقالت الرعية قد أمرنا بطاعته أسكن الله قلوبهم الشك وأورثهم التطاعن . وقد أخرج هذه الآثار ابن بطة في الإبانة .

ومنهم من أوجب تقليد العالم واتباعه مطلقاً ويسمون ذلك فقهاً وتمذهباً ، ويأخذون منه جميع أقواله ولا يردون ما خالف الدليل منها . وقد ذم ابن القيم في إعلام الموقعين التقليد وشبه المقلد بالبهيمة التي تساق إما لحتفها أو لعلفها.

ومثل هؤلاء المتكلمون والعقلانيون الذين يقدمون العقل على النقل .

ومثل هؤلاء من يبرر معصيته بفتاوى الشيوخ*.

فائدة : شكوى العلماء من المقلدين المتعالمين : أمثال البخاري في تكفير الجهمية، وابن تيمية مع مبتدعة زمانه ، وابن عبد الوهاب مع علماء زمانه.

وقفة العلم بالتوحيد يؤخذ اكتسابا بالدليل فلا تقليد فيه لأحد والرجوع للحق سمة أهل الانقياد وإليك كلام بعض أئمة أهل السنة في أخذهم بالحق بدليله:

قال الإمام أحمد: (كنت لا أكفر الجهمية حتى قرأت آيات من القران). طبقات الحنابلة ٢/ ٥٥٣ .

قال الإمام ابن تيمية عن نفسه : (وأنا وغيري كنا على مذهب الآباء نقول في الأصلين بقول أهل البدع، فلما تبين لنا ما جاء به الرسول دار الأمر بين أن نتبع ما أنزل الله أو نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) الفتاوى ٦/ ٢٥٦ .

فكان مقلداً لمشايخ زمانه في ترك الأخذ بالدليل والسنة .

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب عن نفسه: (لقد طلبت العلم وأنا ذلك الوقت لا أعرف معنى لا إله إلا الله ولا أعرف دين الإسلام قبل هذا الخير الذي من الله به . فمن زعم من علماء العارض أنه عرف معنى لا إله إلا الله أو معنى الإسلام قبل هذا الوقت فقد كذب) الدرر ١٠/ ٥١.

---

* لكن ليعلم المقلد لأهل الأهواء من الذين ما كفتهم معصية الله عن استحلالها أن الله ﷻ سائلك عن دينك واتباعك لرسوله وانقيادك لشرعه ، فلن ينفعك ذلك اليوم تقليد هؤلاء واتباع ما هم عليه من الضلال ، فتيقن بأن الله سبحانه سيسألك لا محالة ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾. فستعلم حينئذ ماكنت فيه من الحق أو ضده من الانقياد لله وحده الذي جاءك عن رسوله والأوامر التي جاءت بها شريعته أو الانقياد لغيره وستعمى عليك الأنباء حينئذ وستذهب الحجج الباطلة.

فما عساك أن تقول إن قال لك الله ﷻ: أمرك رسولي بالصلاة ولم تصل؟ أمرك رسولي بالحكم بشريعتي ولم تحكم بها ولا تحاكمت لها بل تركتها وأعرضت عنها؟ . أمرك رسولي بالجهاد بمالك ونفسك وأنت لم تفعل؟ أمرك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم تفعل؟ أمرك بموالاة أوليائي ومعاداة أعدائي ولم تفعل ؟ أمرك بالكفر بالطاغوت ولم تفعل؟ أمرك بترك الربا والزنا والنظر للنساء ولم تفعل؟ ولو قال ﷺ لك: أمرك رسولي بطمس الصور ونهاك عن التصوير وأخبرك بلعنتي للمصور وأنت لم تجبه ولم تأتمر بل صورت ما لا تحصيه من الصور ولم تنته ﴿ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ؟ فما حجتك وما جوابك عن ذلك وأنت موقوف بين يديه وهو يخاطبك بلا ترجمان ولا واسطة ؟ ألا فأعد لكل فعل تفعله وقولاً تقوله حجة بين يدي ربك ! وأعدّ للسؤال جواباً وللجواب صواباً .

الخامسة: فساق أهل الملة : من المجاهرين بالفسق والكبائر والمستهينين بها والمستخفين بمعاصي الله ﷻ ففرطوا في الانقياد للشريعة والالتزام بالدين .

وقد قال ﷺ :" لا تزال لا إله إلا الله تنفع من قالها وترد عنهم العذاب والنقمة ما لم يستخفوا بحقها، قالوا يا رسول الله وما الاستخفاف بحقها؟ قال: أن يظهر العمل بمعاصي الله فلا ينكر ولا يغير ". رواه الحاكم .

وهناك أقوام ضعفت عزائمهم وعميت بصائرهم من أهل الدين والعلم راحوا يتلمسون لهؤلاء الأعذار ويأتون بمبادئ الدين على استحياء .

ومن تأمل حديث (يا معاشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن) وفقِهَه رأى دلائل النبوة ظاهرة فيه.

ولهؤلاء وأولئك نقول : إن فعلكم ليس مجرد معصية بل هو مجاهرة وتواصٍ بالباطل وتعاون على الإثم وترويج ودعوة للإفساد في الأرض وفك رباط الانقياد .

قال الشيخ حمد بن عتيق : (إن البلد إذا ظهر فيها الشرك وأعلنت فيه المحرمات وعطلت فيه معالم الدين أنها تكون بلاد كفر) الدرر ٩/ ٢٥٧ .

السادسة : المرجئة :

أخرجوا العمل من الإيمان وجعلوا اشتراطه من الكمال الذي لا يكفر تاركه .

ولشناعة ما أفسدوا من الانقياد والالتزام بالدين حتى جعلوه كالثوب السابري كما قال السلف ، أفردتهم بفصل مستقل يحكي أقوالهم وبعض شناعاتهم ورد شبهاتهم.

السابعة : الخوارج : الذين غلوا وجعلوا ترك كمال الانقياد وفعل المعاصي من الكفر مثل ترك العمل بالكلية وأصل الانقياد وفعل النواقض المكفرة .

وهم اليوم ثلاث طوائف :

١- من يكفر بالكبائر وترك أي عمل .

٢- من يخرج على المسلمين ويكفرهم غلواً وجهلاً ، ويكفر باللوازم ويكفر بالتسلسل وبما يسوغ الاختلاف فيه . وأتوا ببدع لم يسبقوا إليها .

٣- من يكفر أهل التوحيد لِما معهم من التوحيد .وقد شكا ابن القيم منهم :

من لِيَ بمثل خوارج قد كفّروا ... بالذنب تأويلاً بلا إحسان

وخصومنا قد كفرونا بالذي ... هو غاية التوحيد والإيمان

الثامنة: الصوفية : وهؤلاء دخلوا في نقض الانقياد من جميع أبوابه .

أولاً : عندهم الشرك في عبادة غير الله بدعاء الأموات والاعتقاد في الأولياء والحكم والتشريع فحللوا واستحلوا المحرمات واسقطوا الواجبات والتكاليف.

ثانياً : عندهم شرك في الهدي فشرع الصوفية شرائع باطلة ليست من دين الله أسموها طرقاً بدعية ليس فيه الاقتداء بالرسول ﷺ ولا الأخذ بهديه ، بل ويعتقد كثير منهم أن طريقته أو طريقة شيخه أو الطريقة الفلانية أفضل من طريقة الرسول .

ثالثا : عندهم شرك الانقياد والطاعة فأتباع المتصوفة يطيعون أولياءهم في تشريعاتهم ويصدقونهم في مزاعمهم ويتحاكمون إليهم ويتبعوهم .

والصوفية أكبر الفرق المشركة ولا أعلم في هذا الزمان صوفيا إلا وهو مشرك.

التاسعة : الديمقراطية : حيث جعلوا التشريع والحكم لغير الله فجعلوه للعامة والشعب أو المجلس الممثل للشعب كمجلس الأمة والنواب والبرلمانات والمجالس التشريعية، وزعموا أن الشعب يحكم الشعب ولا يحكمهم شرع الله وجعلوا الشعب هم أرباب أنفسهم لا سلطة لأحد عليهم فما أحلوه فهو حلال وما حرموه فهو حرام فالخمر إن حرموه فتحريمهم له بأمرهم لابأمر الله وبشرعهم لابشرع الله،وإن أباحوا شيئا فإنما يبيحونه بشرعهم لا بشرع الله . وهذه دعوة صريحة لرفض الانقياد .

والديمقراطية التي عمت بلاد المسلمين وانتشر في الأرض دعاتها هي من أخبث الدعوات بل أخبث من العلمانية لأن العلمانية واضحة الراية أما الديمقراطية فهي دعوة للحرية وإلى المصالح وغير ذلك وينساق تحتها كثير من الجهلة وربما بعض المتسمين بالدعاة والإصلاحيين الذين هم في حقيقة الأمر من الطغاة المفسدين.

العاشرة: الوطنيون . والقوميون .

التزموا بالانقياد للوطن، وحكموا بالوطنية واتخذوها دينا يتبع، فوالوا فيها وعادوا وسالموا وقاتلوا وعاشوا لها وماتوا.

قال الشيخ عبد الرحمن الدوسري في خاتمة كشف الشبهات: (فظهرت الوثنية الجديدة وعبادة المادة والشهوات وتقديس الأشخاص ، بحجة الجنسية والوطنية، حتى تكونت في المحيط الإسلامي والعربي خاصة ردة جديدة بما انتحلوه من مبادئ وطنية ومذاهب مادية مزخرفة بألقاب ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، وجلبوا موالاة أعداء الله بحجة الجنس والوطن ، وتعطيل الشريعة بحجة التطوير الفاسد وعبادة كل طاغوت في سبيل ذلك ... ولا يزال خريجو المدارس الاستعمارية يركزون

هذه المفاهيم في الأمة الإسلامية ، والمدارس هي أول ما فرض الاستعمار علينا ثقافته بواسطتها ... فعلى المسلمين أن يقاوموا هذا الشرك الجديد والوثنية الجديدة).

الثانية عشرة: العلمانية : (فصل الدين عن الدولة) . وهؤلاء قصروا الانقياد لله على العبادة الذاتية في المساجد أما خارجها فلا دخل لله في ذلك تعالى الله، ولا يجب الانقياد للشريعة،وأن العبادة خاصة بالصلاة والتنسك في الشخص وليس لها ارتباط بالحكم، فالاقتصاد والسياسة يحكمها أهلها.وقالوا كما قال أسلافهم:﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ﴾ هود: ٨٧.

الثالثة عشرة: اللبرالية : الذين يريدون الحرية المطلقة للعباد لا يحكمهم شرع ولا دين فالإنسان يفعل ما يريد فكفروا بأوامر الله وأحكامه، فلا يذعنون لحكم الشريعة بل يفكون رباط العبودية والانقياد والناس أحرار فيما يفعلون .

وزعموا أن أحكام الشريعة غير ملزمة فكل له دينه .

وزعموا أن مبدأ إنكار المنكرات تدخل في الخصوصيات ومصادم للحريات.

والرسول ﷺ يقول:(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده .) رواه مسلم.

الرابعة عشرة : دعاة الإنسانية : الذين يتولون الكفار ويظاهرونهم على المسلمين بدعوى الإنسانية وحقوق الإنسان أو خوف الفتنة أو المواثيق أو المصالح المشتركة أو دعوتهم للدين وتحسينه لهم وإظهار سماحته أو غير ذلك .

قال احمد شاكر : (وما كنت يوما بالأحمق فأظن أن الحكومات في البلاد الإسلامية ستستجيب لحكم الإسلام فتقطع العلاقات السياسية مع الانجليز ... ولكن أريد أن أعرفهم بعواقب هذه الردة ...) كلمة حق ٨٧ .

ومنهم : دعاة التقريب بين الأديان ، ومن ينادي بإلغاء أحكام الشريعة المتعلقة بالكفار التي أمرنا بها ﷺ وساووا المؤمن بالكافر، وإزالوا الخلاف العقدي، وتعايبوا من أحكام الشريعة المتعلقة بذلك، وكل ذلك ينادون به باسم الدعوة للحرية الدينية والتعبير عن الرأي واللبرالية وقبول المخالف والوسطية والتعايش والسلام والعولمة ولقاء الحضارات وحوار الثقافات. ومتى كان الكفر بالله ثقافة والشرك به حضارة؟.

الخامسة عشرة : جماعة الإخوان :

الذين لا يريدون الانقياد للشريعة والدعوة للتوحيد وإنما يريدون جمع الكلمة تحت شعار جماعتهم الخبيثة وحزبهم الشيطاني على حساب كلمة التوحيد والانقياد لله ﷻ والعمل بشريعته والولاء والبراء في الدين. ويقولون ليس هذا وقت بيان

التوحيد لابد من جمع الكلمة حتى مع الرافضة دون النظر للتوحيد،وليس هذا وقت المطالبة بالشريعة ولا بد أن يحكم بها تدرجا ولو بعد مائة سنة المهم أننا نصل نحن الإسلاميين للحكم . أقول ثم ماذا ! وهل الحكم مقصود بذاته أو لإقامة الدين.

وأوردت هذا عنهم حتى يتبين لأهل الشريعة حقيقة شعاراتهم الزائفة ودعاواهم الكاذبة في مظاهراتهم الفاشلة وليُعلم أن إلههم هو طاغوت المصلحة .

ولتعلم ما عند رؤوس هذه الطائفة من الشرك الأكبر تعال وانظر إلى قادتها:

فهذه حماس توالي الروافض وتدخل تحتها وترفع شعار الوطنية الفلسطينية وتطمس الهوية الإسلامية وتصرح بعدم الحكم بالشريعة .ولم نتهمها بما لم تقله . فهذا أحمد يوسف أحد قادتهم يقول في كتابه (الإخوان المسلمون والثورة الإيرانية في فكر الإمامين البنا والخميني) : (الشيعة عز هذا الزمان ، وما العيب أن تكون شيعياً) .

ومشعل قائدهم يصرح في لقاء معه بأن حكومته لن تحكم بالشريعة .

ومرسي الآخر يقول: (قطع يد السارق هذه ما هي الشريعة)، وأنكر الفرق بين النصرانية والإسلام . قال إسحاق بن راهوية:(أجمع العلماء أن على من دفع شيئا أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٢٢٦.

وحركة النهضة وزعيمها الغنوشي يدعو إلى الحرية السياسية والأخوة الوطنية ونبذ التفريق العقدي والولاء والبراء في الدين . كما في كتابه الحريات في الإسلام .

وفي فتاوى اللجنة الدائمة: (إن من لم يفرق بين اليهود والنصارى وسائر الكفرة وبين المسلمين إلا بالوطن، وجعل أحكامهم واحدة فهو كافر)١/ ١٤٥.

واليوم يأتي الجيش الحر والخبيث عدنان العرعور ليقعوا في نفس الأمر، دعوة لقتال قومي ليس لرفع (لا إله إلا الله) وولاء وطني وتصريح بعدم الحكم بالشريعة، فما الفائدة من قتال لا يكون للتوحيد، أبعد كل هذه الدماء يذهب طاغوت رافضي ويأتي طاغوت آخر معطل للشريعة ؟ ألا فليتنبه لهذا المكر أهل الإسلام والانقياد.

ومع هؤلاء السرورية : الذين يظهرون السلفية ويدّعون التوحيد والغيرة على الدين والدعوة إلى الله، وهم أخبث الفرق المحاربة للدين والمعادية أهل التوحيد.

وأبرز مايميزهم: حرب الجهاد القائم على التوحيد والكفر بالطاغوت، والطعن في الجهاد وإسقاط رموزه، والسكوت عن شرك الإخوان.

وقد برز هؤلاء وظهر خبثهم ونفاقهم وتلونهم حين جاء التصويت على دستور الإخوان الشركي في مصر، فطاروا به وعادوا من أنكره، وتناسوا كلامهم في شرك الحكم ،وكان على رأسهم الضال المضل ناصر العمر وجماعته وما أكثرهم !!

السادسة عشرة : الخلوف : وقد أظهرت هذه الفرقة أربع بدع :

بدعة في الإمامة والولاية، وبدعة في باب الجهاد ، وبدعة الإرجاء في الإيمان.

وقد أحياء دعاة السلفية مذهب الجهمية الغلاة في هذا الزمان.

وقد تركوا الانقياد لله والولاء والبراء فيه فانقادوا لغيره ووالوا في رموزهم وعادوا وهذه بدعة الولاية التي بدع السلف أهلها كما اتخذوا أحبارهم أربابا.

وتسموا بالسلفية والصحيح وجوبا أن يسموا بالخلوف .

وقد ظهر فساد مذهبهم وتناقضهم وكذبهم في حادثة دماج حين دخلها الرافضة الحوثيون فسلموا بلاد أهل السنة للرافضة وخرجوا منها أذلة وهم صاغرون وهذه عقوبة كل مبتدع مفترٍ، وكل من يتعمد ترك الجهاد أن يذله الله .

قال أيوب السختياني وأبو قلابة في قوله تعالى : (سينالهم غضب من ربهم وذلة): (هذا جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله) أخرجه اللالكائي.

السابعة عشرة: العصرانيون:

وهؤلاء أبطلوا مدلولات أحكام الله وزعموا أن الدين يتجدد وأن الفتوى تتغير بتغير الأحوال والأزمان حسب المصلحة التي توافق أهواءهم البهيمية، وطالبوا بإعادة فهم النصوص وتفسيرها بما يوافق هذه الأزمنة والعصور، فيقول بعضهم: الزنا والربا محرمة ولكن المصلحة جوزتها.

وأنكروا حد الردة وجعله بعضهم باسم الخيانة العظمى للدولة والقانون.

فهمهم دائماً تلبيس الحق بالباطل وتفسير الدين بغير حقيقته عن طريق تحريفه والتشويش على مبادئ الإسلام وعرضه بصورة مشوهة . والتشكيك في الثوابت العقدية والمسلمات وقواعد الدين .

وأتوا بما أسموه إعادة فهم النص وتجديد الخطاب الديني ونحو ذلك :

ويتزعم دعاة التجديد والتيسير طائفتان :

المستغربون من اللبراليين والعلمانيين والحداثيين .

ومن يتسمى بالإسلاميين، وتلاعب هؤلاء بالدين وحللوا كثيرا من المحرمات بدعوى ترغيب الناس في الدين والوسطية، والتيسير عليهم، ونقل صورة حسنة للدين عند الغرب، وغير ذلك مما سببه الزندقة واتباع الهوى .

ورأينا هذا كثيراً في السنين الأخيرة ويظهر جلياً مع الذين ابتلوا بالإعجاب بالغرب.

يقول القرضاوي عن أهل العلم: (يريدون أن يحرموا على الناس كل شيء فأقرب شيء على ألسنتهم وأقلامهم كلمة حرام .. فعمل المرأة حرام والغناء حرام .. والحياة كلها حرام في حرام) الفتوى بين الانضباط والتسيب ص١٢٨ .

بينما الحرام عنده تكفير اليهود والنصارى فجعلهم إخواناً له .

يقول أحمد كمال المجد : (من الناس من يرى أن الإسلام هو وحده مصدر القيم وأساس الارتباط بالأمة، وأن صرف المسلمين عن هذا الولاء إلى ولاءات عرقية يعد تفتيتا لوحدة المسلمين) . حوار لا مواجهة ٢٤٢ .

يقول أركون : (إن القول أن هناك حقيقة إسلامية على مدار التاريخ وحتى اليوم، ليس إلا وهماً أسطورياً لا علاقة له بالحقيقة والواقع) الفكر الإسلامي ٢٤٦.

وقال : (الإسلام لا يكتمل أبدا) نقد العقل الديني ١٧٤ .

والأولى أن يستتاب هؤلاء صيانة للدين وحماية للمسلمين، لا أن يمجدوا ويرفع الرأس بهم ويجعلوا عند العامة أئمة هدى ودعاة إصلاح .

الثامنة عشرة : علماء السوء الغاشون المتلاعبون بالدين ولصوص النصوص:

وهؤلاء هم الذين يحرمون ما أحل الله ويحللون ما حرّم ويشرّعون ويبدّلون دين الله فيطاعون ويتّبعون. فيغشون الناس في دينهم ويتلاعبون بالفتاوى ويسرقون النصوص وهؤلاء لي وقفة معهم لأن خطرهم على الدين عظيم وإفسادهم فيه خطير،ولم يترك هؤلاء المفسدون باباً من أبواب الشريعة إلا نخروا فيه كالسوس.

فياويحهم مالهم لا يرجون ﴿ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ ! ولمثلهم يقال: أفلا ﴿ يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾؟ويا خيبتهم ما ﴿ لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴾ ؟

هذا وقد استباحوا كثيراً من المحرمات بدعوى الوسطية والمصلحة والضرورة والرخصة والتيسير وتحسين صورة المسلمين عند الغرب، ولأجل المال والاقتصاد جاؤوا بالحيل والتلفيق والتكييف الفقهي .

فمنهم من لم يوجب الصلاة في المساجد ، ويسر آخرون الحج بزعمهم حتى صدق في أحد ضلّالهم أن يقال له حج في بيتك ولا حرج. وجوزوا الاختلاط ،

والخلوة بالمرأة ، وخروجها بلا محرم وخروج صوتها وصورتها في الملأ ، وبعضهم اختلط بالنساء وجالسهن، وأحلوا الأسهم والفوائد الربوية، واجتمعوا على تجويز التصوير بالكمرات والجوالات بل وأنكروا على من ينكره، وجعلوا الصوفية القبورية والأشاعرة مذهباً إسلامياً معتبراً، وسعوا للتقريب مع الرافضة ومدحوهم، وأجازوا المظاهرات لإقامة الدمقراطية، ودعوا للتصويت على الدستور، وجوزوا العمل عند اليهود بفلسطين وفي جيوش الاحتلال، وحللوا السحر، والعيد الوطني.

وغير ذلك كثير وكثير بل لا ينقضي ولا تنقضي عجائبه ، ويعسر جمعه وتتبعه .

حتى أنه ومن كثرة تلاعبهم قال أحد رؤوسهم ساخراً في مقالة له بعنوان تعالوا إلى كلمة سواء عولمة الفتوى وخصخصة الرأي: (وسرعان ما أصبح حرام الأمس جائز اليوم ، والضحية دائماً هي الأمة التي تحسن الظن بالمتدينين وتتنزل عند رأيهم ، بينما الحقيقة أن الوحي منقطع والدين مكتمل والأصل في الأشياء الإباحة).

وخلط هذا الخبيث الجاهل بين علماء الشريعة الربانيين وبين علماء السوء المضلين وأمثاله من الرؤوس الجهال المتعالمين.

فحصل منهم اتباع سنن اليهود والنصارى قبلهم .

ولكن نقول لهؤلاء تذكروا قوله ﷻ :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ البقرة: ٧٩ ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ الجاثية: ٧- ٩ ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ الكهف: ٥٦ .

وسيأتي عليكم يومٌ يذكركم الله بكذبكم عليه ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

واعلموا أن ذلك كله محصىً عليكم وإن نسيتموه في يوم ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾! وتيقنوا أن كذبكم هذا على الله ستجدون عقوبته لا محالة كما أخبر تعالى ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ .

نسأل الله السلامة مما وقعوا فيه ونعوذ بالله من الأمن من مكره.

وإني لا أزال أقول لكثير من المغترين بهؤلاء إن هذا ليس من الخلاف الفقهي والاختلاف الوارد بين أهل العلم ولكن هذا هو عين الزندقة *، فجعلوا من خلاف الفقهاء طريقاً للتلاعب بالشريعة فصدق فيهم القول أنهم مخانيث اللبرالية والعصرانية والعلمانية. علاوة على أنهم أفتوا بالمنسوخات حتى نقضوا المجمع عليه في بعض فتاواهم بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث أفتوا بإباحة بعض ما ينقض الإسلام ويبطل التوحيد .

ألا فليحذر كل الحذر أولئك المتسابقون على الفتيا، وليعلموا أنه بسببهم حصل كثير من التلاعب بالدين والتحايل عليه والاستهانة بمخالفة أمر الله والاستخفاف بشرعه . فإنه بعد أن كان الفاسق يعصي الله وهو خائف من الله مستح من نظر الخلق إليه مستتر بالذنب صار بسبب كثير من المفتين يجاهر بفسقه .

ورحم الله الطرطوشي لّما قال:(كان الناس يستسر أحدهم بالمعصية إن واقعها، ثم يتوب ثم كثر الجهل وقل العلم،حتى صار أحدهم يأتي المعصية جهارا).

فاليوم بسبب هؤلاء الرؤوس الجهال صار العاصي يظهر فسقه ويجاهر بمعصيته بل ويستحلها ويتحايل على شرع الله .

---

* قد يفهم بعض الجهال أن هذا تكفير بالمعاصي، ودفع هذه الشبهة من أوجه :

الأول أنه يفرق بين ترك العمل المجرد فهذه معصية وبين الامتناع عن العمل بالشريعة ولو في جزئية منها وهذا من جنس كفر إبليس حين أمر بالسجود فامتنع وأبى الالتزام بالأمر خلافاً للمرجئة الذين يجعلون كفره من باب الجحود والتكذيب وليس الاستكبار والإباء.

الثاني : أن فتاواهم تعد من باب التشريع وجحود الواجبات واستحلال المحرمات .

الثالث : أن لبعضهم فتاوى كفرية ارتدوا بها مشتملة على نواقض الإسلام . كمن استحل الربا، ومن جوز مظاهرة الكفار، ومن جوز الدمقراطية والقوانين، ومن حرم تكفير اليهود والنصارى وسماهم بإخواننا،وغير ذلك.

وليس كلهم ينالهم هذا الحكم لكن يشملهم التلاعب بالشريعة والفسق واتباع الهوى .

ثم إن أهل العلم نصوا على جواز قتل الداعي للبدعة المظهر لها دفعاً لشره وصيانة للدين ولو لم يرتد.

ولما كثر أمثال هؤلاء من الزنادقة والمبتدعة والمتلاعبين بالحلال والحرام والمفسدين للدين الصادين عن سبيل رب العالمين في أزمنة مضت ، كان بعض الخلفاء يعينون وزارة للتتبع الزنادقة وقتلهم .

والمصيبة أن لعب هؤلاء بالدين ينطلق من بيوت الله، فشيّدوا المساجد بالجدران وهدموها بالكفران ، وقد وصل الأمر بهم أن يتخذوا المسجد مناراً لحرب دين الله وتبديله والصد عن سبيله والكذب عليه وإطفاء نوره والتلبيس على الناس وحرب الموحدين ، وليتأمل هؤلاء وأتباعهم الجهال هذه الآية: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ التوبة: ١٩ وأنها تحكي حالهم، وليعلم هؤلاء أنهم متوعدون بأشد العقوبة كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ البقرة: ١١٤. ولقد ظنوا أن المقصود بالمنع من ذكر الله أن لا تقام فيها المحاضرات، بينما المقصود بالمنع أن لايكفر فيها بالطاغوت وينصر التوحيد وهذا أعظم خرابها.

كما يميز علماء السوء موافقة الحكام المرتدين :

قال الشيخ عبد اللطيف في خطر علماء السوء الموالين للمرتدين والمدافعين عنهم : (هل حدث الشرك في الأرض إلا برأي أمثال هؤلاء المخالفين الذي يظهرون للناس في زي العلماء وملابس الصلحاء وهم من أبعد خلق الله عما جاءت به الرسل ، بل هم جند محضرون للقباب ، فقد عقدوا الهدنة والمؤاخاة بينهم وأوهموهم أنهم إذا أتوا بلفظ الشهادتين واستقبلوا القبلة لا يضرهم مع ذلك شرك ولا تعطيل وأنهم مسلمون وهم خير أمة أخرجت للناس) الرسائل ٢/ ٥١٠.

قال ابن الجوزي : (ومن تلبيس إبليس على الفقهاء، مخالطة الأمراء والسلاطين ومداهنتهم وترك الإنكار عليهم مع القدرة على ذلك وفي الجملة، فالدخول على السلاطين خطر عظيم لأن النية قد تحسن في أول الدخول ثم تتغير بإكرامهم وإنعامهم أو بالطمع فيهم، ولا يتماسك عن مداهنتهم وترك الإنكار عليهم، وقد كان سفيان الثوري يقول: "ما أخاف من إهانتهم لي، إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم) . تلبيس إبليس ص١٢١.

قال ابن تيمية مكفرا العالم إذا ترك علمه ووافق الحاكم بغير ما أنزل الله : (ومتى ترك العالم ما علمه من كتاب الله وسنة رسوله واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله كان مرتدا كافرا) الفتاوى ٣٥/ ٣٧٢.

قلت : إذا كان هذا ردة فكيف بمن اتبع حاكمه الذي يحكم بالقوانين الوضعية والمتولي للكفار فوافقه وأظهر التأييد له ولم ينكر عليه وحرضه على قتال أهل التوحيد المخالفين للحاكم. إنه أعظم ردة وأغلظ كفرا ، فمن وافق الحاكم في

موالاة الكفار والمرتدين والمظاهرة على المجاهدين فهو مرتد ، ومن اعتزله ولم يوافقه ولكن لم ينكر عليه فعاصي غير كافر ، نعوذ بالله من الضلال .

تنبيه : اعلم أن تنقص أعيان المضللين وعلماء الأهواء والمبتدعة وكشف سترهم ليس من الغيبة كما ظن الجهلة ، بل هو من التبيين الواجب صيانة للدين وقد فند علماء الأمة هذه الشبهة وردوا باطلها وإليك طرفاً من بيانهم :

لما قال أبو تراب النخشبي للإمام أحمد وهو يجرح الرجال لا تغتب العلماء فقال الإمام: (ويحك هذه نصيحة وليست غيبة). طبقات الحنابلة ٢/ ١٨٣.

ولما قيل لابن المبارك لما تكلم في المعلى بن هلال يا أبا عبد الرحمن تغتاب . فقال : (اسكت إذا لم نبين كيف نعرف الحق من الباطل). آداب ابن مفلح ٢/ ١٤٢.

وقال ابن عيينة وغيره في بعض المعينين من العلماء : (عرفوا الناس بدعته).

ولما قيل لبعضهم وهو يتكلم في علماء السوء والمجروحين . أما تخاف أن تكون هذه غيبة . فقال : (يا أحمق أنا خير لهؤلاء من أمهاتهم وآبائهم، أنا أنهى الناس أن يعملوا بما أحدثوا فتتبعهم أوزارهم، ومن أطراهم كان أضر عليهم).

وأقوالهم مدونه في كتب معرفة الرجال والجرح والضعفاء والمتروكين والعلل.

وانظر كلام ابن رجب في شرحه للعلل ورده على من أنكر الكلام في الرجال .

وقال ابن بطة في الإبانة الصغرى : (ولهذه المقالات والمذاهب أئمة ضلال ومتقدمون في الكفر يعيبون أهل الحق ... وأنا أذكر طرفا من أسمائهم لأن لهم كتبا قد انتشرت ومقالات قد ظهرت لا يعرفها الغر من الناس ولا النشء من الأحداث وقد يظن الغمر من الناس أن الواضع لذلك الكتاب عالم من العلماء إذا رأى كتابه بدأ بالحمد لله والثناء عليه والصلاة على رسوله) . ثم ساق جملة من الأعيان .

وتأمل فالإمام أحمد وابن المبارك والثوري وابن عيينة والأوزاعي وغيرهم لم يطعنوا في قطاع طريق ومجرمين وسراق مال ، وإنما في علماء وعباد وفقهاء ومحدثين ، والناس يظنون أنهم من أهل الفضل والصلاح ، لكن لما كانوا في الحقيقة على خلاف ذلك ويسعون لصد الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجا ويفسدون في الأرض برد الحق والطعن في الدين نفاقاً منهم أو تأويلاً وجهلاً أوجبوا تحذير الناس منهم ، وكانوا قطاعاً للطريق الموصل إلى الله وسراقاً للدين فهم أخطر من سراق المال والمحاربين لأن إفساد الدين أعظم صور الإفساد في الأرض، كما قال علماء التفسير عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ الأعراف: ٥٦.

هذا وظن بعض جهال زماننا أن باب الجرح قد طوي وانتهى بانتهاء زمن التوثيق والرواية . وهذا جهل منهم فجرح رواة الأحاديث المقصود به صيانة الدين ، كما أن الرد على المبتدعة وأصحاب الفتاوى الشاذة والمتلاعبين بالدين هو الآخر من صيانة الدين بل ومن أعظم الجهاد وحفظ الدين وهو المقصود في أمره ﷺ ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ الفرقان: ٥٢ .

قال ابن تيمية : (فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين ، حتى قيل لأحمد بن حنبل الرجل يصوم ويصلي أو يتكلم في أهل البدع فقال "إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين هذا أفضل" . فبيّن أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم وهو من جنس الجهاد في سبيل الله، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب) الفتاوى ٢٨/ ٢٣١ .

وها أنا ذا أسوق لك جملة من الأخبار ومن كلام السلف في علماء السوء وبيان حالهم ليستيقن قلبك وتثبت على الحق ولا تغتر بكثرة الهالكين:

قال ﷺ : (أكثر منافقي أمتي قراؤها) . أخرجه أحمد وابن المبارك في الزهد والبخاري في أفعال العباد وابن وضاح في البدع وغيرهم.

قال ﷺ : (أتاني جبريل، فقال: إن أمتك مفتتنة بعد قليل من الدهر غير كثير . قلت: فتنة كفر أم فتنة ضلالة ؟ قال : كل سيكون . قلت من أين يأتيهم ذلك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون) . وزاد : (من قبل قرائهم وأمرائهم) أخرجه ابن وضاح .

قال ابن وضاح في البدع : (إنما هلكت بنو إسرائيل على يدي قرائهم وفقهائهم، وستهلك هذه الأمة على يد قرائهم وفقهائهم) .

وعنده قال أبو حازم : (أدركت القراء وهم القراء ، وليس هم اليوم بالقراء ولكنهم الخراء) وليسوا علماء بل عملاء ولا هم بالشيوخ بل الخيوش .

وأخرج أيضا عن علي ﷺ : أن الفقه آخر الزمان يتحول في الأراذل ، وأنها تظهر الليونه والنعومه والتشبه بالنساء في أخيارهم.

وجاء عن أبي ذر: (كان المتلئ شحماً براق الثياب وهي المروءة فيكم اليوم). حتى صار بعض دعاة زماننا يتصبغ ويسرح ويتزين كالمرأة قبل ظهوره للناس، وإذا أُنكر عليهم قالوا زينة الله والمروءة والله يحب الجمال، فأين الرجولة والدين والحياء .

وإنه في زمن الفتن يزداد هؤلاء ويتبين حالهم من حال الصادقين ويتميز الخبيث من الطيب، ويصدق فيهم الحديث، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا .

وجاء عن سعيد بن جبير: في الفتنة يتبين لك من يعبد الله ممن يعبد الطاغوت.

وليحذر مريد السلامة من مجالسة هؤلاء والأخذ عنهم والسماع لهم أو السماح لأصواتهم الفاسدة أن تدخل بيته وأهله واقتدوا بسلفكم في الغلظة عليهم :

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : (من أتى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام) أخرجه ابن وضاح وغيره.

وقال ابن مسعود ﷺ : (من أحب أن يكرم دينه فليعتزل مخالطة السلطان ، ومجالسة أصحاب الأهواء ، فإن مجالستهم ألصق من الجرب) أخرجه ابن وضاح.

وقال إبراهيم : (لا تجالسوا أصحاب الأهواء ولا تكلموهم فإني أخاف أن ترتد قلوبكم) أخرجه ابن وضاح .

ومن أراد معرفة وجوب الغلظة على المبتدعة فلينظر في كتب السلف ومنهجهم في التعامل مع المبتدعة وغلظتهم عليهم . وفي أزمنة الغربة هذه أوصي بقراءة كتاب ابن وضاح عن هؤلاء ففيه ما يسلي.

وإني لأحذر كل مسلم من البشاشة واللين مع المفسدين في الدين، وأشد من ذلك مدحهم وإطرائهم والجلوس معهم وليعلم من كان حريصا على دينه كحرص الشحيح على ماله، أن الله ﷻ لا يقبل منه عملا إلا بعد موالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، فاصنع ما شئت فإنك محاسب عليه وأحبب من شئت فإنك محشور معه.

وإذا حذرنا الله ﷻ من الرأفة بالفساق وقال: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فكيف بالمبتدعة والمتلاعبين بأوامر الله الساخرين من دينه، فليس للرأفة والتودد مع المخالفين لدين الله مكان في دين الله.

تنبيه : كفر وشرك الانقياد وحكم الانقياد للمخلوق .

وقد فصلنا القول فيه عند شرحنا للناقض الرابع .

تنبيه: الكفر المقابل للانقياد نوعان:

كفر الامتناع والإباء وكفر الإعراض. وتقدم الكلام عنها .

تنبيه : مذهب المرجئة في كفر تارك العمل والانقياد وكفر الإعراض الامتناع. بيناه في مقدمة النواقض .

* الخاتمة :

وبعد فهذا شرح نواقض الإسلام عافانا الله وإياكم منها جمعت لكم مسائلها ونقضت الشبهات الدائرة حولها ، ووضحت النوازل المعاصرة فيها ، ولم أترك شاردة ولا واردة في المكفرات إلا بإذن الله بينتها ، فعليكم لزاما القيام بما أوجب الله عليكم من التوحيد والكفر بالطاغوت والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة والتواصي بالحق والصبر كما أمركم الله .

وفي أولها وآخرها أسأل الله المغفرة والإخلاص وحسن العمل والقبول .

والله تعالى اعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

كتبه أبو علي المرضي

غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

الفهرس

الفهرس التفصيلي

مقدمة النواقض

الكتاب الأول الأسماء والأحكام

الكتاب الثاني : حقيقة الإسلام

الكتاب الثالث حقيقة الإيمان ونقض عقائد المرجئة المعاصرة والخوارج الجدد

الكتاب الرابع : التعريف بالنواقض

الكتاب الخامس : حقيقة الكفر

الكتاب السادس : حقيقة النفاق وأحكام المنافق

الكتاب السابع : حقيقة الردة وحكم المرتد

الكتاب الثامن : التكفير

الكتاب التاسع : كشف الشبهات

الكتاب العاشر : الملل والنحل والمذاهب والفرق

الناقض الأول تعريف الشرك وحقيقته ومعناه

الناقض الثاني : شرك الدعاء

الحادية والعشرون: المشركون الذين طلبوا الشفاعة من الأموات اتكلوا عجزا ٧٠٨

الناقض الثالث : ترك التكفير

الناقض الرابع : الحكم

الناقض الخامس : البغض

الناقض السادس : الاستهزاء

الناقض السابع : السحر

الناقض الثامن : مظاهرة الكفار وموالاتهم

الناقض التاسع : معتقد سعة الخروج عن الشريعة

الناقض العاشر : الإعراض